ع ١٢
٢٢٢٦٦ م

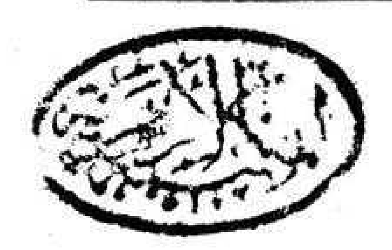
مدير التحرير والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٥٩١٤
٩٠٥٥٠٦

الجزء الأول • السنة الخمسون • محرم • صفر • ربيع الأول ١٣٩٨
يناير • فبراير • مارس ١٩٧٨



بسم الله الرحمن الرحيم

موقف الإسلام من الفلسفة

لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

— ١ —

نحب بتوفيق الله تعالى أن نتحدث عن موقف الاسلام من الفلسفة . . . . وليس كل دراسة عقلية تسمى فلسفة : فان الرياضيات من المباحث العقلية اليقينية ولا تعد فى العصر الحاضر من مباحث الفلسفة.

ونحن حينما نتحدث هنا عن الفلسفة فانما نعنى : البحث العقلى البحث فى ما وراء الطبيعة وفى الأخلاق. ونعنى بما وراء الطبيعة : الالهيات أو ما يسمى فى عرف المتكلمين : العقائد ، ونعنى بالأخلاق : معناها

الشامل الذى يتضمن التشريع الذى يحرم المنكر ويردع الذين يفعلونه، وقد يخالفنا هذا الباحث أو ذاك فى هذا الذى نعنيه بالفلسفة ، ولكننا أحببنا أن نتفق والقارىء على اصطلاح محدد ، وفى اطار هذا الاصطلاح يسير بنا البحث .

يقول الاستاذ « اندريه كرس » فى كتابه : « المشكلة الاخلاقية والفلسفية » ما يلى :

ان الفلسفة بمعناها الخاص قد دارت — ولا تزال تدور — حول طائفتين اساسيتين من المسائل :

١ — المسائل النظرية :

ما الكائن ؟

ما أصله ؟

ما المصير الذى ينتظره هو وما تفرع منه ؟

أفى طوق العقل الانسانى أن يضع حلولا لهذه المسائل ، أم أن ذلك فى حكم المستحيل ؟

كل هاتيك المسائل تعتبر مسائل ميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة) .

٢ — المسائل العملية :

كيف يجب أن يكون مسلكنا فى الحياة ؟

كيف نربى الناشئين تربية حسنة ؟

ماذا يجب لقيادة الدولة حتى تسير على النهج المستقيم ؟

كل هاتيك المسائل عليها تتوقف الاخلاق او تستمد هى من الاخلاق

❋ وهذا الذى ذكره الأستاذ اندريه كرسن هو رأينا الذى نسير على ضوئه فى موضوعنا هذا .

❋ ❋ ❋

❋ ان كل من يتصفح تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام يجد مجموعة من كبار المفكرين بحثوا ، فى تعمق ، الموضوعات الفلسفية هذه ، وأنتجوا فيها انتاجا يتفاوت كما وكيفا بحسب شخصياتهم .

وبدأت هذه المجموعة بفيلسوف العرب : « أبو يعقوب الكندى » .

❋ وقد نال ابو يعقوب الكندى تقديرا كبيرا ، ونال شهرة ذائعة فى الشرق والغرب ، وفيه يقول الفيلسوف الايطالى المتوفى سنة ١٥٧٦ م

« انه واحد من اثنى عشر مفكرا هم أنفذ المفكرين وأرجحهم نقدا وتفكيرا ، وعنه يقول القفطى : فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها » .

* ونال جميع فلاسفة الاسلام مثل ما نال الكندى من شهرة ومن تقدير ، بيد ان شهرتهم وتقديرهم لم يمنعا ان يكون لهم خصوم هم من المكانة بالمنزلة الرفيعة بل ان خصومهم اكثر من انصارهم .

* وعلى رأس خصومهم المحدثون ، وعلى رأس المحدثين : الامام احمد بن حنبل ، ومن خصومهم المتعمقين : الامام ابن تيمية .

* على ان الخصم الذى كان لكتابته شهرة لا حد لها ، وتأثير عظيم هو : حجة الاسلام ، الامام الغزالى ، صاحب كتاب : « تهافت الفلاسفة » . وكلمة « تهافت » تعنى السقوط والانهيار .

* وسنتحدث فيما بعد عن رأى الامام الغزالى :

* ولكننا تتساءل الآن : لماذا كان المحدثون وكثير غيرهم خصوما للفلاسفة ؟ وما هى حكمتهم فى ذلك؟

* ان موقفهم من الوضوح بمكان ، وذلك ان موضوع الفلسفة هو نفسه موضوع الدين .

* ان الدين : الهيات وأخلاق تستند الى الوحى والوحى معصوم ، والفلسفة الهيات وأخلاق تستند الى العقل والعقل يخطىء ويصيب ، وهو حينما يخطىء لايعلم يقينا أنه أخطأ ، وحينما يصيب لا يعلم يقينا انه أصاب .

* ويقولون ، او لسان حالهم يقول :

« لقد ضمن الله لنا العصمة فى الوحى ، ولم يضمن لنا العصمة فى الآراء العقلية »

* وحينما أخذ المتفلسفون يترجمون كتب اليونان وغيرهم قال معارضو الفلسفة :

« اذا كان ما عند اليونان فى العقائد حقا فعندنا ما هو احق منه وهو عقائد الاسلام لأنها بالأسلوب

الالهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ونحن اذا فى غنى عن عقائدهم واذا كان ما عندهم باطلا فنحن فى غنى عن الباطل ، وكذلك كان موقفهم من الأخلاق بمعناها العام ان كانت أخلاق اليونان فاضلة فعندنا ما هو أفضل منها ولم تتم مكارم الاخلاق الا فى العهد الاسلامى (انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

وان كانت أخلاق اليونان فاسدة فنحن نعوذ بالله من كل فساد .

* وعارضوا الترجمة فى الجانب الالهى وعارضوها فى الجانب الأخلاقى ... ولكنهم لم يعارضوها وانما شجعوا عليها فى جانب العلوم المادية : مثل الطبيعة ، والكيمياء ، والفلك ... وعارضوا التفلسف بكل ما أوتوا من قوة .

* ولكن التيار الفلسفى استمر فى المجتمع الاسلامى ، واذا كان قد تهافت فى المشرق بتأثير حجة الاسلام فانه قد ازدهر فى المغرب على لسان ابن ماجة وابن طفيل وابن رشد .

* أما تبرير الفلاسفة لموقفهم فى مواجهة معارضة خصومهم فانه يلخصه ما كتبه ابن طفيل فى رسالته « حى بن يقظان » وما كتب ابن طفيل رسالته هذه او قصته الا ليبرر موقف الفلاسفة ويشد من أزرهم بالنسبة لما يعترض عليهم به من مخالفة الفلسفة للدين .

وتحرى ابن طفيل فى ما كتب أربعة أهداف :

١ ــ هل يصل الانسان بعقله الى اثبات وجود الله تعالى والى رسم طريق للسلوك يرضى عنه الله سبحانه ؟

٢ ــ هل يصل الانسان روحيا الى القرب من الله تعالى والى المعرفة عن طريق مباشر ، أو بتعبير آخر : هل الطريق الصوفى طريق موصل ؟ وان كان ابن طفيل لم يستعمل كلمة تصوف .

٣ ــ هل يلتقى الطريق العقلى والطريق الروحى فى انسجام لا اختلاف فيه ؟

هل يلتقى ذلك كله بمبادىء الوحى أو بالطريق الدينى فى تناغم ووحدة وائتلاف ؟

ومن أجل الاجابة على هذه الأسئلة كتب ابن طفيل قصة ، قصة خيالية عقلية لطيفة .

انها قصة طفل نشأ فى جزيرة منذ طفولته الأولى، وأخذ ابن طفيل يتدرج معه فى تطوره الجسمى الى ان اكتمل جسميا ، وأخذ يتدرج معه فى تطوره العقلى من فكرة الى فكرة ومن مبدأ الى مبدأ حتى وصل الفتى الى اثبات وجود الله بطريق العقل المحض .

والحق ان ابن طفيل كان بارعا فى تسلسله بالافكار والمبادىء الى أن انتهى الى غايته وهى أن الانسان يستطيع بعقله أن يثبت وجود الله وبدأ فتانا يفكر فرأى ان كل موجود يمكن الاتصال به على وضع يليق به فأخذ يفكر فى كيفية الاتصال .

ونحب أن ندع ابن طفيل نفسه يتكلم :

انه يرى أن هناك رتبة من المعرفة ينتهى اليها بطريق العلم النظرى والبحث الفكرى وهذه الرتبة : تعتبر طورا من أطوار « حى بن يقظان » فانه بعد أن شب وترعرع وبلغ دور التمييز ، وانتهى الى مرحلة التعقل والاستدلال ، والبرهان : أدرك بطريق النظر ، حقيقة الجسم . وأنه متناه ، وأدرك أبدية العالم وحصلت عنده فكرة نظرية عما وراء الطبيعة ، واستقام له الحق ، بطريق البحث والنظر .

فلما انتهى من هذه المرحلة ، بدأ فى المرحلة الثانية مرحلة الوصول الى الحكمة بطريق الرياضة ،

وكان مما يقوم به من الارتياض :

انه كان يلازم الفكرة فى الموجود الواجب الوجود . ثم يقطع علائق المحسوسات ، ويغمض عينيه ويسد أذنيه ، ويضرب جهده ، عن تتبع الخيال ، ويروم ، بمبلغ طاقته ، أن لا يفكر فى شىء سواه ولا يشرك به أحدا .

ويستبين على ذلك : بالاستدارة على نفسه ، وبالاستحثاث فيها فكان اذا اشتد فى الاستدارة . غابت عنه جميع المحسوسات ، وضعف الخيال وسائر القوى التى تحتاج الى الآلات

الجسمانية ، وقوى فعل ذاته ، التى هى بريئة من الجسم .

فكانت فى بعض الأوقات ، فكرته قد تخلص عن الثوب ، ويشاهد بها الموجود الواجب الوجود .

ثم تكر عليه القوى الجسمانية ، فتفسد عليه حاله ، وترده الى أسفل السافلين فيعود من ذى قبل .

فان لحقه ضـعف يقطع به عن غرضه ، تناول بعض الأغذية بحسب شرائط معينة ثم انتقل الى شأنه .

ثم رأى أن الحـركة من أخص صفات الأجسام ، وكان يريد طرح أوصاف الجسمية عن ذاته ، فأخـذ يقتصر على السـكون فى مغارته مطرقا ، غاضا بصره معرضا عن جميع المحسوسات ، والقوى الجسمانية ، مجتمع الهم والفكرة فى الموجـود الواجب الوجود وحده دون شركة.

فمتى سنح لخياله سانح سواه ، طرده من خياله جهده وواقعه ، وراض نفسه على ذلك ، وذهب فيه مـدة طويلة ، بحيث تمر عليه عدة أيـام لايتغذى فيها ولا يتحرك .

وفى خلال مدة مجاهدته هذه : ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الأشياء الا ذاته ، فانها كانت لاتغيب عنـه فى وقت اسـتغراقه بمشاهدة الموجود الأول الحـق ، الواجب الوجـود ، فكان يسوؤه ذلك ، ويعلم أنه شوب فى المشاهدة المحضة وشركة فى الملاحظة .

وما زال يطلب الفناء عن نفسه ، والاخلاص فى مشاهدة الحق ، حتى تأتى لـه ذلك ، وغابت عن ذكـره وفكره السموات والأرض وما بينهما ، وجميع الصور الروحانية والقـوى الجسـمانية ، وجميـع القـوى المفارقة للمواد ، والتى هى الذوات العارفة بالموجود الحق وغابت ذاته فى جمـلة تلك الذوات ، وتلاشى الكل واضمحل ، وصار هباء منثورا ، ولم يبق الا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود ، وهو يقول بقـوله الذى ليس معنى زائدا على ذاته :

« لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهـار » ففهم كلامه ، وسـمع

نداءه ، ولم يمنعه عن فهمه ، كونه لايعرف الكلام ولا يتكلم .

واستغرق فى حالته هذه ، وشاهد ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ا هـ .

وكان كل ما وصل اليه ابن طفيل، عن طريق الرياضة ، منسجما تماما — فيما يزعم — وما وصل اليه عن طريق العقل .

وابن طفيل فى هذا يسير على نمط سار فيه ابن سينا من قبله ، وهذا التوافق بينهما بالغ الأهمية : انهما من كبار المفكرين ويكاديكون متطابقا تماما فى أن العقل الانسانى يصل الى الله بالدليل والبرهان ، وفى أن القلب الانسانى يصل الى الله بالرياضة الروحية : العبادة : صلاة وصياما وذكرا ....

لقد أثبت ابن سينا وجود الله بالعقل ، ودليله المرتكز على :

« الامكان والوجوب »

معروف مشهور

أما جانب الرياضة الروحية فيقول عنها فى كتابه الذى كان يعتز به كثيرا ، والذى ألفه فى أواخر حياته وهو كتاب الاشارات .

« ثم اذا بلغت به الارادة والرياضة حدا مًا ، عنت له خلسات من اطلاع نور الحق، لذيذة كأنها بروق تومض اليه ، ثم تخمد عنه .

ثم أنه تكثر عليه هذه الفواشى اذا أمعن فى الارتياض ، فكلما لمح شيئا عاج عنه الى جناب القدس ، فيذكر من أمره ، فيغشاه غاش ، فيكاد يرى الحق فى كل شيء . ثم أنه لتبلغ به الرياضة مبلغا ينقلب له وقته سكينة فيصير المخطوف مألوفا والوميض شهابا بينا ، وتحصل له معرفة مستقرة كأنها صحبة مستمرة ...

الى ماوصفه — على حد تعبير ابن طفيل — من تدريج المراتب وانتهائها الى النيل بأن يصير سره مرآة مجلوة يحاذى بها شطر الحق.

وحينئذ تدر عليه اللذات العلى ، ويفرح بنفسه لما يرى بها من أثر الحق ويكون له فى هذه المرتبة نظر

الى الحق ، ونظر الى نفسه ، وهـو بعد : متردد ثم أنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جنـاب القدس فقط ، وان لحـظ نفسه فمن حيث هى لاحظة وهناك يحق الوصول »

ونعود الى ابن طفيـل

أنه بعد أن وصل الى الله بطريق العقل وبطريق الرياضة الروحيـة ، تأمل فى ثمرة الطريقين فوجـد أن نتيجتيهما واحدة ، وانهما لايختلفان الا فى درجة الوضـوح وأبان عن ذلك ، وبذلك يكون قد وصل الى الاجابة عن السؤال الثالث .

وأتاحت المصادفة للشيخ ــ حى ابن يقظان ــ أن يلتقى برجل يدين بدين منزل صحيح وتفاهم معه فى كل ما وصل اليه عقله ، وما وصل اليه قلبه فوجد التطابق التام، ووصل ابن طفيل برسالته اللطيفة الحجـم الى كل ما كان يرجو أن يصل فيـه الى جواب صحيح يرضى العقل ويرضى الدين ... وكانت آمـال وأمانى فلاسفة الاسلام الوصـول ــ عن طريق المحاولات العقلية المستمرة ــ الى التوفيق بين الدين والفلسفة .

* والفلسفة فى الاســلام اذن تحاول جاهدة أن تعلن فى نوع من الدعاية المزخرفة انها تتفق مع الدين فيما أتى به الدين ، وانها لا تختلف عنه فى مبادئها .

* وعند كل فيلسوف فى الاسلام وعند كل مؤرخ للفلسفة الاسلامية فقرات وفصول بعنوان « التوفيق بين الدين والفلسفة » سواء أكان هذا العنوان ظاهرا أم مستورا أنجحت الفلسفة فى هذا أم أخفقت ؟

* ومن أجل الاجابة على هـذا السؤال نحب أن نتحدث أولا عن الجو الذى نشأت فيه الفلسفة .

* انها نشأت عند قدماء اليونان قبـل الميلاد .

* وكانت اليونان فيمـا قبـل الميلاد بقرون تدين بدين وثنى ، كانوا يؤمنون بمجموعة من الآلهـة قابلة للزيادة عن طريق الزواج والتناسل . وهى آلهـة تحب وتبغض وتتنازع وتتشاجر ، ويحـاول بعضـها أن يعتدى على الأعراض وعلى السلطان ، وهى فى نزاع مستـمر . ثـم هى

تحـابى من البشر من يقـدم لهـا القرابين والأضاحى وتخـذل من لم يفعـل ذلك ، وكانت فى مسـتواها الأخلاقى العـام بعيـدة عن الكمال والفضيلة ، وكان الالف والتكرار والتعود يجعل هذا الوضع للآلهـة وضـعا عاديا لا يثـير نقـدا ولا استنكارا .

* بيد أنه نشأ فى القرن الخامس والرابع والثالث قبل الميلاد فى بلاد اليونان مجموعة كثيرة من المفكرين النابهين ، بل ومن العباقرة ، وفكروا وتأمـلوا ونقـدوا واسـتنكروا وانفصـلوا عن الدين يعلنون ذلك فى صخب أو فى هدوء ، وفى كثير من الأحيـان يسرون ذلك ويخفونه فى نفوسهم ، ولكنهم على أى وضع كانوا ، ألفوا مذاهب آمنـوا بهـا واعتقدوها مذاهب بشرية لم تؤسس على وحى ولم ينزلها الله على لسان أنبيائه ورسـله .

* ألغـوا مذاهب تتصل بالله سبحانه وبالآخرة وبالسلوك الانسانى الذى يجب ان يلتزمه الانسان .

* انهـا مذاهب مؤسسة على العقل : عنه تصدر ، ومنه تنبـع ، وعليه تقوم ، ان العقل ينشئها ويسير معها خطوة فخطوة حتى يصل بها — فى تدرج — الى غايتها ، انها مذاهب عقلية ؛ انها مذاهب بشرية . انهـا فى المستوى البشرى .

* واذا كانت أسطورية الدين اليـونانى هى التى دفعت هـؤلاء المفكرين على ما أقدموا عليـه فان الأمر لم يكن كذلك فيما قبل .

* كان الوضع فيما قبل التفرقة بين مجالين من مجالى المعرفة :

١ — مجال المعرفة الحسية ، وهو مجال آلات المعـرفة فيه الحواس وموضوعه المـادة ، والعقل يجول فيه مستنبطا ومستنتجا ، فيؤلف فيه ويركب ويعيـد تأليفـه وتركيبه ، ويستخرج قوانينه وقواعده ، فتكون الحضـارة ويكون العـلم بمفهومه الغربى الحديث أو بمفهومه الكونى المـادى : طبيعة وكيمياء وفلك .

٢ — مجـال المعـرفة الروحية والأخلاقية وهو مجال ليست الحواس مصـدره وليس العقـل منشئه أو مبتدعه ، وانما مـرده الى الوحى ينزله الله على ألسنة من يصطفيهم لحمل الرسالة من خلقه ، انه مـن

اختصاص الله تعالى يبينه على ألسنة رسله .

* وسار الأمر على هذه الكيفية الى العهد اليونانى القديم : فخلص الانسان فى مجال الحس — وهو اختصاصه — وخاض فى مجال الروح بعقله ، وليس للعقل فى مجال الغيب الا محاولة الفهم : اذ الانشاء والابتداع فى هذا المجال ليس للانسان ، وليس من اختصاصه .

* وجاءت المسيحية فردت الأمر الى حالته الطبيعية : عالم الحس للانسان ان يفكر فيه ويستنبط وعالم الروح يتفهمه الانسان عن طريق الوحى .

* ولكن التيار الفلسفى اليونانى — وقد أصبح سنة مألوفة — غزا الجو المسيحى وأخذ مكانته المرموقة بين المفكرين الغربيين فنشأ فيهم الفلاسفة ونشأت فى أجوائهم الفلسفة .

* وأخذ فلاسفة الغرب يحاولون التوفيق بين المسيحية والفلسفة وكان أبرزهم فى هذا المجال الفيلسوف « توما الاكوينى » .

* واذا قرأت « ديكارت » تجده كأنه كان يمشى على الشوك وهو يتفلسف محاولا — ما استطاع الى ذلك سبيلا — مداراة القساوسة وعلماء الدين ، والجو العام الفلسفى اذ يعلن ، فى مجاملة بالغة ، أنه يؤيد الدين ولا ينحرف عنه وأنه يقدم انتاجه ويعرضه على علماء الدين متقبلا ملاحظاتهم التى يوليها عنايته الفائقة . كان هذا موقف ديكارت وغيره ...

* وجاء الاسلام : يهدى للتى هى أقوم ، وليخرج الناس من الظلمات الى النور ، وليقود الانسانية نحو مرضاة الله تعالى ، ووضع الأمور فى نصابها مبينا بأسلوب لا لبس فيه أن : العقيدة ، والأخلاق ، ونظام المجتمع ، والتشريع ، من أمر الله تعالى . وقد شاءت رحمته سبحانه أن يرسم للانسانية طريقها المعصوم فى كل ذلك فأرسل الرحمة المهداة ، خاتم النبيين — محمدا صلى الله عليه وسلم :

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا » .

* ولكن الفلسفة اليونانية دخلت على استحياء فى عهد المنصور ، وقوى جناحها فى عهد المأمون ، وأصبح فى الأمة الاسلامية فلاسفة، وسنبين فى استفاضة ــ ان شاء الله ــ ذلك فيما بعد .

د . عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

المؤمن يلوم نفسه

عن انس بن مالك انه قال لمانزلت هذه الآية : «ياأيها الذين آمنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى الى آخر الآية » جلس ثابت بن قيس فى بيته وقال انا من أهل النار واحتبس عن النبى صلى الله عليه وسلم فسأل النبى صلى الله عليه وسلم سعد بن معاذ فقال يا أبا عمر وما شأن ثابت اشتكى قال سعد أنه لجارى وما علمت له بشكوى قال فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ثابت نزلت هذه الآية ولقد علمتم انى من ارفعكم صوتا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانا من أهل النار فذكر ذلك سعد للنبى صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو من أهل الجنة .

رواه مسلم

الحكمة فى تعدد الزوجات
والطلاق فى الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى محمد الحديدي الطير

قال الله تعالى :

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » (الآية ٣ من سورة النساء)

« الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » (الآية ٢٢٩ من سورة البقرة)

البيان

لم يكن زواج العربى أو غيره قبل الاسلام ، مُقيَّداً بعدد معين من النساء ، بل كان يتزوج منهن العدد الذى تتيحه له قدرته ، وكان هذا أمرا عاديا لا يثير عجبا ، ولا يستتبع تَثْرِيباً ، لا من علية القوم ولا من سفلتهم .

ولما أنزل الله تعالى « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » للحيلولة دون المآثم والمظالم التى كانت تستتبعها تلك الحرية فى تعداد الزوجات — لما أنزلها الله — أمر النبىُّ صلى الله عليه وسلم مَنْ كان عنده أكثر من أربع نساء ، أن يمسك منهن أربعا يختارهن كما يشاء ، ويفارق سواهن ليتزوجن من يقوم بأمرهن .

وكان من هؤلاء رجل اسمه غيلان ، أسلم وهو زوج لعشر نساء ، فقال له النبى صلى الله عايه وسلم « أمْسك أربعا وفارق سائرهن » ومنهم قيسُ بن الحارث الأسدى ، أسلم وعنده ثمان نسوة ، فقال له صلى الله عليه وسلم « اختر منهن أربعا وخَلِّ سائرهن » أى

وفارق باقيهن ، ولهذا التشريع حكم عديدة نبينها فيما يلى :

١ ـ أن الرجل لا يستطيع أن يعول أكثر من أربع نساء ونسلهن غالبا ، فحتى لا يتردى النساء فى مزالق الفاقة ولا يتشرد الأولاد ، لم يشرع الله الزواج بأكثر من هذا العدد .

٢ ـ ان اباحة التعدد الى أربع كانت له آثار عظيمة فى زيادة المسلمين وكثرتهم أمام أعدائهم على امتداد العصور ، فخافوهم وفُتّ فى أعضادهم ، فانطلق الاسلام يشق طريقه فى المشارق والمغارب لايخشى مخالفيه الذين يتربصون به الدوائر ولا يستطيعون منازلة رجاله .

٣ ـ ان الرجل لا يستطيع ـ غالبا ـ أن يُعِفّ أكثر من أربع ، فحماية للزوجات من الجنوح الى الرذيلة وشطَط الهوى والجوع الجنسى ، أوجب الله عليه أن لا يتجاوز هذا العدد .

٤ ـ ان الزوجين قد يكونان متحابين ، ولكن الزوجة لا تنجب أولادا ، وكلاهما يريد البقاء مع الآخر ، فحِفاظا على دوام عشرتهما ، وطلباً لانجاب الأولاد أبيح للزوج أن يجمع معها فى عصمته غيرها بحيث لا يزيد على هذا القدر .

٥ ـ ان الزوجة قد يكون لها أولاد ، ولكنها سيئة العشرة مع زوجها ، فلكيلا يطلقها فيتعرض أولادها للمتاعب الكثيرة ، أبيح له أن يتزوج سواها وهى فى عصمته ، ليستريح من سوء عشرتها معه ، ولتبقى مع أولادها لرعاية شئونهم .

٦ ـ ان الحرب يخوض غمارها الرجال ، فيموت منهم كثيرون ، وتتأيم بعدهم نساؤهم ، وتتيتم بناتهم ، ويفقدن من يعولهن ، كما أن عدد النساء فى معظم البلاد أكثر من عدد الرجال ، فيتعرضن بسبب ذلك لأخطار العرض ، وأخطار الفاقة ، فلهذا عالج الاسلام كثرتهن وأخطارها باجازة التعدد على النحو الذى جاء فى الآية الكريمة .

٧ ـ ان الزام الزوج بزوجة واحدة مهما كانت صفاتها وأحوالها يؤدى الى انتشار البغاء السرى

والعلنى ، واتخاذ الخليلات ، وانجاب أولاد غير شرعيين ، لا ينتسبون الى والد شرعى ، وتلك ظاهرة يشهد بها الواقع ، فان الأمم التى تدين بالزوجة الواحدة ، تنتشر فيها الدعارة بشتى ألوانها المخزية ، وبعض الخاطئات يحملن سفاحا ، ثم يلدن فى دور الولادة العامة ، ومنهن من يلدن فى عيادات طبية خاصة ، ومنهن من يجهضن أنفسهن بشتى الوسائل ، وكثيرات منهن يمارسن رذيلة السفاح ولا يحملن : امّا لأنهن عاقرات ، أو لأنهن يستعملن وسائل مانعة من الحمل •

ولقد ازدادت نسبة الانحراف فى هذا العصر ، وولادة الأولاد غير الشرعيين ، وقد أحصى بعض المعاهد المعنية بالاحصاء فى احدى الدول التى توجب شريعتها الزوجة الواحدة — أحصى الأولاد الشرعيين وغيرهم سنة ١٩٦٨ م فوجد نسبة أولاد السفاح الى الأولاد الشرعيين واحدا الى ستة ، وهذا الاحصاء لا يمثل نسبة السفاح على وجه الحقيقة، فانه يعتمد على اللائى ولدن فى المستشفيات العامة من الفتيات اللائى لم يسبق لهن الزواج ، أو سبق لهن الزواج ، وتوفى أزواجهن ، والمطلقات مدنيا أو بسبب ثبوت جريمة الزنا عليهن •

وقد أغفل من حسابه اللائى ولدن بالعيادات الخاصة، والنساء المتزوجات اللائى يلوثن فراش الزوجية بالسفاح وغير المتزوجات اللائى يستعملن العقاقير المانعة للحمل ، ويمارسن هذه الرزيلة ، وما أكثر السفاح الذى لم يستعقب أولادا بسبب استعمال هذا العقار فلو استطاعت الجهة التى قامت بهذا الاحصاء ، أن تتعرف هذه الحالات وما أكثرها — لظهرت نسبة هذه الرزيلة بشكل مروع خطير •

ولا غرابة فى ذلك ، فان قصر الزوج على الزوجة واحدة لا يملك أمر التخلص منها بالطلاق ، أو الزواج بأخرى وهى فى عصمته ، من أهم الأسباب المستتبعة لتلك الجريمة وأثارها ، فقد تكون المرأة غير جميلة فلا ترضى زوجها ، أو جميلة ولكنها شاذة الطبع مشاكسة أو متساهلة

فى عرضها وهو لا يستطيع اثبات انحرافها حتى يطلقها ، أو غير ذلك من الأسباب ؛فيضطر الزوج الى طلب المتعة فى سواها بطريق غير شرعى ، فيتخذ من الخليلات ما شاء له هواه وقد شاعت الفاحشة فى دول بأكملها من أجل ذلك ، وأطلقوا عليها عنوان الحب تخفيفا لاسم الجريمة؛ولا تجد أبا أو أما يمنعان ابنتهما عن ممارسة حريتها الجنسية ؛ لأنهما يمارسانها بنفس القدر الذى تمارسه ابنتهما أو أكثر •

فأى الأمرين أجدى على الخلق وأنفع للمجتمع ؟•• أن يباح للرجل تعدد الزوجات بطريق شرعى يستتبع أولادا شرعيين ، أم أن يقتصر على زوجة واحدة لا يتعداها ولا يستطيع طلاقها ان وجد بها ما يمنع من دوام العشرة الراضية الوديعة معها ويتخذ من الخليلات ما شاء وقد يتجاوز أربعا ، ثم ينسل منهن أولاد غير شرعيين ، لا شك عند المنصف فى أن الأول هو الأجدى على الأخلاق ، والأنفع للمجتمع ، اننا نسمع دعوات صريحة من نواح عديدة فى أوروبا وأمريكا تدعو الى تعدد الزوجات وفق ما كان الأمر يجرى عليه قبل أن تتدخل الكنيسة لمنع تعدد الزوجات ، فقد كان التعدد موجودا فى الوسط المسيحى بين الملوك والرعايا ، ثم تدخلت الكنيسة فمنعته من غير نص تستند اليه••ويلاحظ أن التوراة هى العهد القديم عندهم ، وهى لا تحرم التعدد بل تجيزه ، فمن أين جاءوا بحظره وتحريمه ؟ ••

متى يباح تعدد الزوجات فى الاسلام:

ان شريعة الاسلام لم تطلق اباحة التعدد للرجال ، بل قيدتها بأن لا يخافوا الجور عليهن فى حقوقهن المشروعة ، من اعفافهن ورزقهن وكسوتهن واسكانهن ، فان خافوا الجور وعدم العدل وجب الاقتصار على زوجة واحدة ، وحرم التزوج بأكثر منها ، قال تعالى « فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة » ثم قال « ذلك أدنى أن لا تعدلوا » أى ذلك الاقتصار على الزوجة الواحدة ، أقرب من أن تجوروا عليهن ، أى أنه يبعدكم عن الجور فى حقهن •

وانما حرم التعـدد حينئـذ لأن الجور حرام ، فما يؤدى اليه يكون حراما .

وقد أصبح الجور فى زماننا هذا متوقعا بل حاصلا بطريقة عامة لكل من يتزوج أكثر من واحدة،لارتفاع تكاليف المعيشـة وتعدد أنواعها ، وحاجة أولاد الزوجات المتعـددات الى التربية الحسنة ، وثقل تكاليف هذه التربيةكما هومشاهد وملموس، وهذا لا يجعل الأزواج قادرين على العدل بين زوجاتهم المتعددات ، ولا بين أولادهن ، ويبعث على الهرب من القسم العادل بينهن ، والانحياز الى بعضهن ، ليتجنبوا مطالب سائر الزوجات وأولادهن ، وما أقسى هذا فى شريعة الاسلام الحريصـة على العدل والانصاف .

أضف الى هذا انحدار مستوى الأخلاق بين الرجال والنساء فى هذا العصر ، فحب المـرأة حظ نفسـها وايثارها مصـلحتها على حق غيرها يدعوها الى حمل زوجها على هجر ضراتها وظلمهن بمختلف الوسائل ، واستجابة الأزواج لنداء الجور من أثيرة زوجاتهم على أنفسهم أمر واقع لا شك فيه ، فاذا كان سلفنا الصالح اسـتطاع أن يعـدل بين زوجـاته العـديدات فان ذلك لقوة الوازع الدينى والخلقى عنده وعند زوجاته، أما فى هذا العصر فان العدل بينهم متعذر لضعف الوازع الدينى .

ولو أن رجلا فى زماننا له أخلاق أولئك الصـالحين وجمع بين أكثر من واحدة الى أربع وهو يعتقد أنه سـيعدل بينهن فان ذلك جائز حتما بنص الآية الشريفة .

ولكن هذا اللون من الرجال يندر وجوده الآن ، فلو جمـع أحد لا تتوفر فى نفسه دواعى العدل ، فمع حرمة الجمع يصح الزواج .

والأجدر بالناس فى هذا العصر تفادى هذه الحرمة بالاقتصـار على الزوجة الواحدة ، ما لم يجد الزوج من الدواعى الملحة ما يقتضى التعدد، فان كان الأمر كذلك فليفعل ، وعليه أن يلزم نفسه العدل والمسـاواة فى الحقوق العينية ، وبشاشة الوجه ولين الكلام قدر الامكان،وأما ميل القلب

فليجتهد فى العدل فيه بقدر الطاقة البشرية ، وما لم يقدر عليه فمعفو عنه ، وينبغى أن يقول ما كان يقوله النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك » يعنى بذلك محبة القلب وميله ، فان ذلك الى الله تعالى الذى يحول القلوب كيف يشاء .

وقد يكون من أسباب الميل وزيادة الحب ، أمور غالبة فى بعض النساء لا تتوافر فى ضراتهن كطيب القلب ولين الجانب ، وبشاشة الوجه وسماحة النفس ، وحسن التأويل لتصرفات الزوج ، وغير ذلك من الفضائل التى تقهر الزوج على الميل القلبى نحو صاحبتها ، ولكن على الزوج — مع هذا — أن يعالج قلبه ويحاول العدل بينهن فى الحب قدر الطاقة البشرية ، كما عدل بينهن فى العينيات ، ولله تعالى يغفر ما يتجاوز طاقته .

وقل أن نجد اليوم فى البيئات الواعية من يقدم على هذا الامتحان الرهيب الا مضطرا ، فموارده صعبة وعلومه غير هضمية ، فكم فيه من متاهات ، وكم له من دروب مخيفة، وكم له من آثار عنيفة على الأولاد وعلى المجتمع،وكم له من مشكلات فى دور القضاء .

ما غيَّر أهل الوعى ؟ ! . فانهم لا يبالون بالتعدد ، ولا يهتمون بمسئولياته ، ولا يحسبون لآثاره حسابا ، وغالبا ما يكون الباعث لهم عليه الاستكثار من الأولاد للاستفادة من كسبهم كما هو الحال فى بلاد الريف ؛ ولعل فيما ذكرناه عبرة وتبصرة لأولى الألباب، فان الله تعالى لا يشرع حكما الا لما يترتب عليه من المصالح والمنافع .فلا ينبغى للمسلم أن يحول تشريع ربه الى غير هدفه . ونستطيع أن نقول استنباطا من واقع الحياة المصرية ان أمر التعدد فى بلادنا غير مخيف لأنه فى سبيله الى الاضمحلال ، لما يحدثه فى زماننا هذا من متاعب مالية وقضائية ، ومشكلات اجتماعية — كما مر بيانه — فليس الأمر بحاجة الى جهد والتشريع للحد من تعدد الزوجات .

قضية من الطرائف

من أطرف القضايا التى عرضت على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قضية تدل على امكان صبر المرأة عن زوجها ثلاث ليال ، أخذا من آية اباحة التعدد فى الزوجات. وخلاصتها أن امرأة جاءته فقالت : ياأمير المؤمنين . زوجى يصوم النهار ويقوم الليل ، فقال لها : نعم الزوج زوجك ، فجعلت تكرر عليه القول ويكرر عليها الجواب ، فقال كعب الأسدى يا أمير المؤمنين : هذه الزوجة تشكو زوجها فى مباعدته اياها عن فراشه ، فقال له عمر : كما فهمت كلامها فاقض بينهما ، فأحضر زوجها وقال له : ان امرأتك هذه تشكوك ، فقال : أفى طعام أم فى شراب ؟ قال : لا ، قالت المرأة :

يا أيها القاضى الحكيم رشده
ألهى خليلى عن فراشى مسجده
زهّده فى مضجعى تعبّده
فاقض القضا كعب ولا تردده
نهاره وليله ما يرقده
فلست فى أمر النساء أحمده

فقال زوجها :

زهدنى فى فرشها وفى الحجل(١)
أنى امرؤ أذهلنى ما قد نزل
فى سورة النحل وفى السبع الطول
وفى كتاب الله تخويف جلل(٢)

فقال كعب :

ان لها حقا عليك يارجل
نصيبها فى أربع لمن عقل
فاعطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال : ان الله عز وجل قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فلك ثلاثة أيام بلياليها تعبد فيها ربك فقال عمر : والله ما أدرى من أى أمريك أعجب ، أمن فهمك أمرهما ، أم من حكمك بينهما ، اذهب فقد وليتك قضاء البصرة .

---

(١) الحجل جمع حجله وهى بيت يزين بالثياب والستور للعروس.
(٢) السبع الطول ـ اى الطوال وهى السور السبع الطويلة فى أول القرآن ، والتخويف الذى جاء فيها وفى سورة النحل ، المراد منه ما جاء فيها من آيات الوعيد على ترك الطاعات وغشيان المعاصى .

الطلاق وحكمته

أنزل الله تعالى فى الطلاق عدة آيات لتشريع أحكامه المختلفة ، منها قوله تعالى « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان » .

وفى هذه الآية شرع الله الطلاق ثلاث مرات ، اثنتان منهما تحل المراجعة بعد كلتيهما وقبل انقضاء عدتها منهما ، والثالثة هى التى عبر الله عنها بقوله جل ثناؤه «أوتسريح باحسان» أخرج أبو داود وجماعة عن أبى رزين الأسدى ، أن رجلا قال : يا رسول الله انى أسمع الله تعالى يقول.. « الطلاق مرتان فأين الثالثة » ؟ فقال « التسريح باحسان هو الثالثة »

وقد كان الطلاق والمراجعة قبل نزول هذه الآية بدون قيد ولا عدد استتباعا للعهد الجاهلى ، أخرج الامام مالك والشافعى والترمزى وغيرهم عن عروة قال : (كان الرجل اذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضى عدتها ، كان ذلك له وان طلقها ألف مرة ، فعمد رجل الى امرأته فطلقها ، حتى اذا ما شارفت انقضاء عدتها ، ارتجعها ثم طلقها ، ثم قال : والله لا أوويك الىَّ ولا تخلين أبدا ، فأنزل الله تعالى الآية .

بهذا التحديد لعدد المرات فى الطلاق ، قضى على استغلال الزوج الماجن لاباحة الطلاق بلا قيد ولا شرط فى الاضرار بالزوجة وتعذيبها بتكرارالطلاق والمراجعة كما يشاء ، فلا هو يتركها حتى تنقضى عدتها فتتزوج غيره ، ولا هو يمسكها بالمعروف .

وحكمة مشروعية الطلاق أن الزوجين قد يظهر لهما بعد الزواج أنهما غير مؤتلفين فى الطباع والأخلاق ، وان دوام العشرة الطيبة بينهما متعذر ، أو قد يطرأ على عشرتهما الطيبة من الأسباب المالية أو الخلقية أو غيرها ما يعكر صفوها ويجعل حلوها مرا ، ونعيمها شقاء ، ويتعذر علاج الجراح التى سببتها تلك الأحداث ، أو أن تكون الزوجة عاقرا والزوج ليس كذلك ويريد الانجاب ولا يستطيع أن يجمع بين امرأتين ، فلهذا كله شرع الله الطلاق حتى تستقيم لكليهما الحياة ان أصرا أو أحدهما على الفراق والانفصال، أو يعود الى المسىء منهما رشده

فيؤنبه ضميره على ما اقترف ، ويعده الى رجعة يسود فيها المعروف ، وتزول فيها دواعى الخصومة والانفعال .

ولهذا شرع الله عدة للمطلقة كافية لمراجعة النفس وتهذيبها بعد درس الطلاق القاسى على كليهما ، وشرع الرجعة فى أثنائها ، وجعل الطلاق الذى تحل بعده الرجعة مرتين أثناء العدة تكرارا للتأديب ان عادت المساءة مرة أخرى ، وشرع المراجعة مرتين رحمة بالزوجين ، ورغبة فى دوام الترابط بينهما .

فان تجددت المساءة بعدهما ولم يمكن رأب الصدع وجبر الكسر ، وطلقها الزوج للمرة الثالثة ، فلا يحل لهما أن يتراجعا ولا أن يعقد عليهما لا فى العدة ولا بعدها،تأديبا للمسىء منهما ، ولتعذرحسن العشرة بينهما . فان تزوجت غيره بعد انقضاء عدة الطلاق الثالث ، ثم طلقها الزوج الثانى ، جاز للأول أن يتزوجها بعد أن يطلقها الثانى وتنقضى عدتها منه عملا بقوله تعالى « فان طلقها فلا فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » ويعود اليه الحق فى عدد الطلاق بالنسبة اليها كما لو كانت زوجةجديدة.وانما ساغت له العودة اليها شرعا بعد تعذر العشرة بينهما من قبل لأن فيما حدث من أدب الطلاق الثلاث وحرمان كلا الزوجين من الآخر ، وتزوج المرأة بزوج آخر ثم تطليقه لها ـ لأن فى كل ذلك ـ ما يكفى لتهذيب المسىء ورده الى الصواب والحكمة فى المعاملة .

لماذا كان الطلاق من حق الزوج

جعل الله تعالى حكم الطلاق من حق الزوْج لحكم عديدة ، (منها) أن الزوج هو الذى أعطى الصداق فلا يليق ولا يجمل أن ينزع منه حق الطلاق ويعطى للزوجة التى لم تدفع له شيئا تخاف ضياعه ، حتى لا تستعمله سلاحا ضده عند غضبها منه ، فتضيع عليه ما بذله فى سبيلها ، وقد يكون مالا كثيرا أنفق فيه الجهد حتى دبره ، فضلا عن أنها بهذا الطلاق تحمله على أن يدبر غيره ليتزوج سواها ، وقد يعجز عن ذلك فيتضاعف ضرره ، أضف الى ذلك أنها اذا طلقته استفادت نفقة العدة وأجرة حضانة أطفالها منه ، وخسر الزوج كل شىء ، فيكون وضع هذا السلاح فى يدها شديد الخطورة عليه وعلى أولاده ، فلذا

جعل من حق الزوج دون الزوجة (ومنها) أن اعطاء حق الطلاق للزوج ، يجعله يتأنى فى استعماله حذرا من الأضرار المترتبة عليه فى ماله وفى أولاده،ولهذا نرى الأزواج يتحملون مرارة العيش ، ويصبرون على المتاعب الزوجية ، فلا يسارعون الى تطليق زوجاتهم ، أملا فى صلاح أحوالهن معهم ، وحرصا على مصلحة أولادهم ، وحذرا من ضياع ما انفقوه فى زواجهم بهن ، وما سوف ينفقونه عليهن فى العدة وأجرة الحضانة للأطفال ، وما يتكبدونه من الأموال فى القضاء عند الاختلاف، فضلا عن احتياجهم أو اضطرارهم الى العودة الى تجربة الزواج من جديد وخوفهم من الخلاف بين الزوجة الجديدة والأولاد وتحملهم فى سبيل هذا الزواج الجديد أموالا قد لا يستطيعونها ، وقد يفشلون فى هذا الزواج ، فلهذا كله جعل حق الطلاق للأزواج دون الزوجات ، فهم أكثر منهن حرصا على دوام العشرة وازالة أسباب الخلاف ، ليتجنبوا تبعات الطلاق السيئة عنهم .

لماذا لم يجب الطلاق أمام القضاء

لم يوجب الشرع الحكيم أن يكون الطلاق أمام القاضى ، لأنه سوف يسأل المطلق عن دواعيه ، وقد يكون منها ما لا يليق اعلانه أمامه ، وعلى مسمع المتقاضين ، كالزنا والسرقة ، فان فى اعلان ذلك تشهيرا بالزوجة وفضيحة لها ولأسرتها وأولادها ، وقد يترتب على ابدائه أن يقتل الزوجة أهلها ثأرا لكرامتهم وشرفهم ممن لوثته ، ويقتلوا من اعتدى عليها وفسق بها ، وهيهات أن يتزوجها غيره بعد أن استعلن أمرها أمام القضاء ، فلهذا جعل الطلاق حقا للزوج يمارسه دون تشهير واعلان.

ويعتبر تشريع الطلاق فى ذاته وفى عدده ، وعدم وجوبه أمام القضاء ، وأن أسبابه ليست قاصرة على الزنا وحق الرجعة بعده مرتين . ويعتبر الطلاق ـ بهذه الصيغة ـ من محاسن الشريعة الاسلامية الغراء ، ولهذا نرى المطلقة من رجل يتزوجها آخر دون تحرج من أنها طليقة لأن معظم أسباب الطلاق فى ديننا ترجع الى الشقاق ، ورب امرأة تكون غير موفقة فى عشرتها مع زوج ، فان فارقته وتزوجت سواه يحالفها التوفيق والسعادة .

مصطفى محمد الحديدى الطير

فى ذكرى إحراق المسجد الأقصى

للعلامة المودودى

— ٢ —

من الوطن القومى الى الدولة القومية:

رفعت حكومة بريطانيا قضية فلسطين الى جمعية الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٧ • كأنها ترمى من ذلك الى أن الخدمة التى كانت ألقتها عصبة الأمم على عاتقها أدتها على ما يرام فلتتقدم الآن جمعية الأمم المتحدة : خليفة عصبة الأمم الراحلة ، بالقضية والتوصل بها الى الهدف المنشود ، فلندرس الآن موقف جمعية الأمم المتحدة التى حملت لواء نشر العدل والسلام فى الدنيا من قضية فلسطين و « اجراءاتها العادلة » حيالها •

قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود فى نوفمبر ١٩٤٧ م • فكيف صدر هذا القرار ؟ كان عدد الأصوات الى جانب التقسيم ٣٣ صوتا وعدد الأصوات ضد التقسيم ١٣ صوتا • وامتنعت عشر دول من التصويت • وهذا هو أقل نسبة الأصوات لاستصدار أى قرار فى الجمعية العامة • والى ما قبل بضعة أيام من صدور هذا القرار لم يكن من الممكن الحصول على هذا القدر من الأصوات•ولكن فى النهاية ركزت أمريكا ضغطها الشديد على كل من هايتى والفلبين وليبريا لانجاح قرار التقسيم ، والذى نجده مسجلا اليوم فى مضابط الكونجرس الأمريكى:أن أمريكا انتزعت هذه الأصوات الثلاثة باستخدام وسائل الارغام والاجبار كما أن جيمس فورستال كتب فى مذكراته : « قد بلغت الاجراءات فى تكريس الضغط على الأمم الأخرى وارغامها على التصويت الى جانب التقسيم درجة الفضيحة الصريحة •

وبعد اسـتخدام هذه الوسـائل البغيضة لاصـدار قرار التقسيم قد أعطى ٥٥٪ من مساحة فلسطين الى ٣٣٪ من سكانها اليهود الدخلاء ، و ٤٥٪ من مساحتها الى ٦٧٪ من سكانها العرب الأصـليين ، والحال أن اليهـود ما كانوا يملكون من فلسطين أيام صدور القرار الا نسبة ٦٪ منها فقط . هـذا هو العـدل الذى التزمت به جمعية الأمم المتحدة بيد أن اليهود لم يرضوا حتى بهذه القسمة الضيزى فلجأوا عقب صدور القرار الى وسائل القتل والارهاب وتشريد العرب من ديارهم وأموالهم والسـيطرة على أكثر ما يمكن من المساحة .

وان المجـازر التى ارتكبهـا الصهاينة فى هذه المرحلة يشير اليها المؤرخ البريطانى توينبى فى كتابه : دراسات فى التاريخ قائلا : ان هذه المجازر لم تكن فى فظاعتها وهمجيتها أقل مما ارتكبه النازيون . وقد ذكر توينبى مذبحة دير ياسـين بصـفة خاصة حدثت فى ٩ أبريل ١٩٤٨ م . هجم اليهـود على قرية دير ياسين العربية الكائنة فى قطاع العرب الذين كانوا عزلا عن كل سلاح . فجمع اليهود سكانها صـفا واحداء رجالا ونساءا وشيوخا وأطفالا . ثم رشوهم بالنار وأمعنوا فى تعذيبهم أثناء عملية القتل والذبح فبقروا بطون الحبالى وأخرجوا الأطفال وذبحوهم وقطعوا أوصال الضحايا وشوهوا أجسامهم حتى يصعب التعرف اليها ثم جمعوا الجثث وجردوها من الألبسة وألقوا بها فى بئر القرية . وسيَّروا النساء بعـد تجـريدهن من الألبسـة فى الشـوارع عـاريات . وأعلنـوا بمكبرات الصوت فى مختلف الأنحاء بأننا نحن اليهود فعلنـا بأهل دير ياسين كذا وكذا والذى يحب الأمان فليخرج من داره .

وعلى كل من به مسحة من العقل أن يتفكر هل يمكن أن تصدر هذه الأعمـال من شعب فيـه ذرة من الانسانية والنبل .

وفى ١٤ مايو ١٩٤٨ م حينما كانت الجمعية العامة قد استأنفت بحثها فى موضوع القضية الفلسطينية أعلنت الوكالة اليهودية فى فلسطين اقـامة دولة اسرائيل فى الساعة العاشرة من

الليل . وبادرت أمريكا وروسيا الى الاعتراف بها قبل غيرهما . مع أن الجمعية العامة لم تخول اليهود بعد اقامة دولتهم . وفى الوقت الذى أعلن فيه قيام دولة اسرائيل كان ستمائة ألف نفر من العرب الفلسطينيين مشردين منفيين من أملاكهم . كما كانت اسرائيل احتلت أكثر من نصف مدينة أورشليم (القدس) ضد اقتراح الأمم المتحدة.

وبعد اعلان دولة الصهاينة تدخلت الدول العربية المجاورة لانقاذ السكان العرب المنكوبين من العدوان الصهيونى ، ودخلت الجيوش العربية فلسطين . غير أن اليهود كانوا قد بلغوا من القوة والمنعة حيث لم تتمكن سائر الدول العربية المجاورة من قمعهم وقطع دابرهم . بل لما أصدرت الأمم المتحدة قرار الهدنة فى نوفمبر ١٩٤٨م كانت القوات الاسرائيلية استطاعت بسط احتلالها على أكثر من ٧٧٪ من مساحة فلسطين . والسؤال الذى يطرح نفسه فى هذا الصدد من الذى وفر لليهود هذا القدر الهائل من القوة الحربية حتى ما تمكنت القوات الموحدة من خمس دول مجابهتها ؟

الجواب : أن الرأسمالية والاشتراكية كلتاهما كانت تزود اسرائيل بهذه القوة . بل معظم الأسلحة الحربية التى أستخدمتها اسرائيل فى تلك الآونة كانت أسلحة تشيكوسلوفاكية البلد الاشتراكى الذى يعانى اليوم الاضطهاد الروسى . والمناقشات التى جرت فى قاعة الأمم المتحدة حول قضية فلسطين مضابطها تبرهن على أن حاملى لواء النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكى كانوا يتسابقون فى مساعدة اليهود ومناوأة العرب وكان من المتعذر القول على وجه التحديد أيهما أكبر مؤيد لليهود .

المرحلة الثالثة من المخطط الصهيونى:

وبدأت المرحلة الثالثة من المخطط الصهيونى التى طالت ١٩ عاما وبلغت مرماها فى ٥ حزيران ١٩٦٧ م باستيلاء الصهاينة على القدس والبقية المتبقية من فلسطين (الضفة الغربية) وشبه جزيرة سيناء بكاملها ومرتفعات الجولان الكائنة فى حدود سورية . كانت المساحة المحتلة فى

نوفمبر ١٩٤٨ م سبعة آلاف وتسعمائة وثلاثة وتسعين ميلا مربعا .

وأضيفت فى ٥ حزيران ١٩٦٧ م اليها تلك المساحة الجديدة التى تشتمل على سبعة وعشرين ألف ميل مربع . ووقع حوالى المليون ونصف المليون من العرب تحت استعباد الصهاينة . والسر فى نجاح اسرائيل فى تنفيذ مخططها المشؤوم فى هذه المرحلة يعود الى كون أمريكا أكبر مساند لها وقيام بريطانيا وفرنسا والدول الغربية الأخرى بخدمة تأييدها فى نطاقها . أما روسيا والكتلة الشرقية فانها كانت الى ما قبل عام ١٩٥٥ م صديقة اسرائيل علنا ، ولما خابت آمال العرب فى الحصول على السلاح من أمريكا والدول الغربية للدفاع عنهم مالوا مكرهين الى الكتلة الاشتراكية التى سارعت الى تزويدهم بالسلاح رامية من ورائه الى كسب الفرصة لبث الاشتراكية فى دائرة نفوذها .ولكن هذا التحول لم يوصل البلادالعربية الى ما كانت تهدف اليه من كسب القوة والتكافؤ لمجابهة اسرائيل ، بل الذى حصل هو أن روسياوجدت الفرصة المتاحة لبث بذور الاشتراكية امتدادا من مصر وسوريا الى اليمن ومن العراق الى الجزائر . وأثر ذلك رفع الصراع بين الرجعية والتقدمية رأسه ، وتفاقم أمره حتى أصبحت هذه البلدان تتصارع بعضها مع بعض بدلا من أن تتخلص من اسرائيل .

والمعونة المالية التى قدمتها أمريكا لاسرائيل فى هذه المرحلة التى طالت ١٩ عاما قدرها ألف وستمائة مليون دولار . كما أن ألمانيا دفعت التعويضات الهائلة لاسرائيل ومجموعها اثنان وثمانمائة مليون دولار كما أن اليهود فى العالم اغدقوا عليها بالتبرعات التى بلغ مجموعها أكثر من ألفى مليون دولار فقوت بها اقتصادها .

ومن الناحية العسكرية فقد جعلوها مدججة بالسلاح الحربى من رأسها الى أخمصها تكهن معه الخبراء الأمريكان قبل نشوب حرب حزيران بأيام بأن اسرائيل تستطيع أن تضرب جميع الدول المجاورة

فى خمسة أو ستة أيام . ومن الناحية السياسية فقد دعمتها أمريكا وحليفاتها فى كل مناسبة من المناسبات ونظرا للمساعدات الأمريكية لاسرائيل ماقدرت الأمم المتحدةعلى ردع اسرائيل من اعتداءاتها المتكررة ومن الغريب فى الأمر أن اسرائيل فى الفترة مابين عامى ١٩٧٤م و١٩٧٥م . قد مزقت ٢٨ قرارا صادرا من الأمم المتحدة كما استصدرت الأمم المتحدة من سبتمبر ١٩٤٨ م الى نوفمبر ١٩٦٦م سبع قرارات نددت فيها بعدوان اسرائيل . غير أنها لم تعر أسماعها الى كل ذلك . ولتقدروا مدى جسارتها وعنادها كفاكم أن تعرفوا أنه لما تقرر انعقاد جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة بعد حرب حزيران ١٩٦٧م صرح رئيس وزراء اسرائيل آنذاك ليفى أشكول: « لن ننسحب من المناطق المفتوحة أبدا ولو صوت مائة وواحدوعشرون عضوا من بين مائة واثنين وعشرين عضوا فى الأمم المتحدة ضدنا ولم يبق فى تأييدنا الا صوت اسرائيل نفسها ويرجع غرورها وعنادها وضربها الرأى العالمى عرض الحائط الى أن أمريكا وحليفاتها تعضدها بمعنى الكلمة وأصبحت الأمم المتحدة نفسها عاجزة أمامها .

ولكى تعرفوا مدى اهتمام أمريكا باسرائيل عليكم أن تجيلوا نظركم فى الموقف الذى وقفته أمريكا فى حرب ٥ حزيران . فقد قال رئيس أركان الحرب الأمريكى الجنرال ويلراكد للرئيس جونسون بأن اسرائيل اذا أخذت زمام المبادرة بشن الهجوم الجوى على البلاد العربية فلا جرم أنها ستنكس العرب فى خلال ثلاثة أو أربعة ايام . غير أن جونسون لم يقتنع بهذا التأكيد وطلب من رئيس المخابرات الأمريكية هيلمز (Helms) رأيه فى هذاالباب وافق بدوره على صحة تقدير ويلر فخف جونسون واتصل بروسيا . وبعد أن نال الاقتناع من روسيا أيضا بأنها لن تتدخل فعلا لمساعدة العرب ، « أوحى » الى اسرائيل بأن هذه هى الفرصة الذهبية للهجوم على البلاد العربية . ومضافا الى ذلك فان الأسطول السادس كانت سفنه تبحر قرب سواحل مصر

واسرائيل تترقب فرصة الخدمة التى تلزمها •

ومن ظواهر ممالأة بريطانيا لاسرائيل أنه كانت لبريطانيا الباخرتان الحربيتان حاملتا الطائرات احداهما واقفة فى مالطة والأخرى فى عدن مستعدتين لدخول المعركة بعد الانذار بدقيقة واحدة فقط • وقد نشرت جريدة صنداى تيمس البريطانية بعد الحرب بأيام كتابا أسمته : « حرب ٥ حزيران المقدسة » وجعلت عنوان البابالذى يتناول قصة الاحتلال الاسرائيلى على القدس : « العودة بعد ٨٩٦ عاما •» ومن الظاهر الجلى أن كانت القدس الى ما قبل ٨٩٦ عاما محتلة من قبل الصليبيين لا من قبل اليهود• ويبد ومن ذلك بوضوح أن التعاون الانكليزى اليهودى تخالطه العواطف الصليبية • وأن الانكليز نظروا الى هذه الحرب نظرتهم الى الحروب الصليبية بل اعتبروها حلقة من حلقاتها •

وأما ما يتعلق بصداقة روسيا مع العرب فان روسيا قد أكدتلصديقها عبد الناصر ليلة فجر الهجوم على القواعد المصرية بأن لاهجوم من اسرائيل • ويشبه هذا التأكيد بالتأكيد الذىأعطته أمريكا لباكستان فى سبتمبر ١٩٦٥ م بأن الهند لن تخرق أبدا الحدود المعترف بها دوليا • والتعليق الذى أصدره أحد الدبلوماسيين اليوغوسلافيين على موقف روسيا هذا من العرب لمن الدروس القاسية يقول الدبلوماسى: اذا أرادت قوة كبيرة أن تتخلى عنكم تسقطكم من الطائرة بدون المظلات•

هذه هى الأسباب التى ضمنت لليهود نجاح حلقتهم الثالثة من التخطيط طويل الأمد وقد احتلوا بموجبها القدس والضفة الغربية وسيناء بكاملها •

الحلقة الرابعة من التخطيط الصهيونى :

والذى يواجهه اليوم العالم الاسلامى هو الحلقة الرابعة والأخيرة من التخطيط اليهودى • الحلقةالتى يتململ الصهاينة لتحقيقها من ألفى سنة • ويتابعون نشاطهم الفعلى لابرازها منذ ٩٠ عاما •

ومن أجزاء هذه الحلقـة جزءان هما من الأهميـة بمكان • الأول : هدم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وبناء الهيكل السليمانى على موقعه• وأن بناء الهيـكل لايتم الا بهـدم هذين الأثرين الاسلاميين • والثانى الاسـتيلاء على الأرض كلهـا التى يعتبرها اليهود (أرض الميعاد) ونود أن يكون المسلمون على معرفةجيدة بهذين الجزأين من المخطط •

أما الجزء الأول فان اسرائيل كانت أحرزت القوة للاقـدام على ابرازه حينما هجمت على القدس واحتلتـه فى حزيران ١٩٦٧ م• غير أنها بقيت بين الاقدام والاحجـام لسـببين : أولهما تخوفها وتخـوف حليفتهـا أمريكا من حدوث رد الفعل العنيف فى العالم الاسلامى على هذا الاجراء وثانيهما اختلاف اليهود فيما بينهـم من الوجهـة الدينيـة على هـذه الأسطورة • اذ هناك طائفة يهوديه تعتقد بأن الهيكل لايقـوم باعادة بنـائه الا المسيح فعلينا أن ننتظره حتى يظهر ويبنى الهيكل مرة ثانية • ويقول بهذا الرأى اليهود المحافظون الرجعيون • كما أن الطائفة الثانية التى تعـد من الطوائف التقـدمية المتنـورة والتى تملك فعـلا زمام السلطة فى اسرائيل ترى أن اليهـود باسـتيلائهم على القـدس وحائط المبـكى دخـلوا عصر المسـيح (Messiahic Era)وهذا ما أعلنه كبير الحاخامين فى الجيش الاسرائيـلى يوم وقف أمام حائط المبكى بعـد احتلال القدس وبيده التوراة فكان مما قال دخلنا اليوم عصر المسـيح للملة اليهودية ونظرا لهذين السببين فان اسرائيل بدل أن تفاجىء العالم بهدم المسجد الأقصى دبرت احراقه كخطوة تمهيدية لتتبين بذلك مـدى رد فعل العالم الاسلامى فى جانب، وفى الجانب الآخـر تجهـز الشعب اليهودى تدريجيا لمجابهة اجرائهـا النهائى •

والجزء الثانى من هذا المخطـط الاستيلاء على أرض الميعاد • وما هى حدود « أرض الميعاد » ؟ نجد هذه الحـدود مكتـوبة على باب الكنيست الاسرائيلى بكلمات تالية: « حدودك يا اسرائيل ، من الفرات الى النيل » •

واسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم التى سجلت مطامعها فى أراضى الشعوب الأخرى على برلمانها بكل وقاحة . وأى بلد غيرها ما تجاسر على اعلان مطامعه العدوانية بهذه الصورة المكشوفة .

والتفصيل الذى ذكرته الحركة الصهيونية فى العالم فى خريطتها لمملكة اسرائيل بموجبه فرض سيطرتها على البلدان التالية : مصر حتى دلتا النيل الأردن بكامله ؛ سورية بكاملها ، لبنان بكاملها ، الجزء الكبير من العراق ، الجزء الجنوبى من تركيا ؛ وكذلك أعالى الحجاز حتى المدينة المنورة .

ولو استمرت البلاد العربية فيما هى فيه من الضعف والتفكك اليوم، ولم ينفع رد فعل العالم الاسلامى على جريمة احراق المسجد الأقصى ، ولا سمح الله ، فلا مناص أن نواجه اليوم الذى يتخذ فيه أعداء الاسلام اجراء حاسما لتنفيذ مطامعهم الخطيرة اللعينة .

ما هو السبيل :

ويتضح مما سبق الأمور التالية :

١ ـ السر فى نجاح اليهود فى تنفيذ مخططاتهم البغيضة حتى اليوم يكمن فى أن القوى الكبيرة فى العالم تساندهم وتشد أزرهم . ولا نلمح أى اثر لتغير موقف هذه القوى فى المستقبل . وخاصة مادامت أمريكا تؤيدهم فلا يستطيع أحد أن يردعهم عن ارتكاب جريمة ما اشنعها .

٢ ـ تعليق الآمال على الكتلة الاشتراكية فى هذا الباب غلطة كبيرة .. هذه الكتلة لن تعرض نفسها للخطر بمنع اسرائيل من العدوان. وأكثر ما يمكن لنا من الاستفادة من هذه الكتلة هو الحصول على السلاح منها . وذلك الأمر أيضا مقرون بشرط أن نضع فى أعناقنا أغلال الاشتراكية وننفى الاسلام من موطننا .

٣ ـ لاتتعدى الأمم المتحده دور اقرار الاقتراحات أبدا .. اذ هى لا تملك من القوة والمنعة ما تصد به اسرائيل من خطوة اجرامية تريدها.

٤ ـ القوة العربية لا تعادل القوة الاسرائيلية . هذا ما برهنت عليه تجارب اثنتين وعشرين سنة مضت.

ولم يبق لنا أمام هذه الحقائق التاريخية لا لانقاذ المسجد الأقصى فقط بل للدفاع عن المدينة المنورة من مد المطامع الصهيونية القادمة أيضا الا أمر واحد .. هو : تكتيل قوة العالم الاسلامى بأسره بصورة دائمة لمجابهة الخطر اليهودى والدفاع عن المقدسات الاسلامية ومن الخطأ الذى ارتكبه بعض القادة العرب حتى اليوم قصر قضية فلسطين على الدول العربية مع أن المسلمين فى العالم ظلوا يعلنون أن هذه القضية قضية اسلامية تخص جميع المسلمين فى العالم . ومما نشكر الله عليه أن جريمة احراق المسجد الأقصى فتحت عيون هؤلاء القادة وعادوا يتفهمون أن هذه المؤامرة الدولية التى دبرتها الحركة الصهيونية العالمية وتساهم فى تنفيذها القوى العالمية بكل حماس واندفاع ليست أمرا هينا تكفى لمجابهته البلاد العربية وحدها واذا كان عدد اليهود فى العالم ستة عشر مليونا فان المسلمين عددهم سبعمائة مليون وزيادة . وتمتد رقعة حكوماتهم وهى ثلاثون أو اثنتان وثلاثون حكومة ، من اندونيسيا شرقا الى مراكش وغربى افريقية غربا ... واذا التقى رؤساء وملوك هذه الحكومات ودرسوا هذه القضية بجد واهتمام واخلاص وصدق واستعد المسلمون فى أرجاء العالم أن يضحوا بأنفسهم وأموالهم لا يتعذر علينا حل هذه القضية باذن الله .

الحل الوحيد لقضية فلسطين :

ويجب أن نكون على بينة من أن القضية لا تقتصر على الدفاع عن عن المسجد الأقصى فقط فما دام القدس تدنسه أقدام اليهود لايمكن صون المسجد الأقصى منهم والقدس نفسه لا يصان من الاجراءات اليهودية التعسفية لو بقوا يحتلون فلسطين .

ولذلك فان القضية قضية تحرير فلسطين من السيطرة المغتصبة لليهود والحل المعقول السليم لها هو قصر حق العيش فى فلسطين على اليهود الذين كانوا يعيشون فيها قبل وعد بلفور أما اليهود الذين جلبوا

من الخارج بعد عام ١٩١٧ م فعليهم أن يخرجوا منها انهم جعلوا وطن شعب يعيش فيه منذ مئات من السنين وطنهم القومى بوسائل الحديد والنار ثم حولوه الى « الدولة القومية » ثم شرعوا فى تنفيذ سلسة غير متناهية من المطامع التوسعية العدوانية لبسط الاحتلال على الأراضى المجاورة • بل كتبوا على برلمانهم علنا أسماء البندان التى يريدون أن يجعلوها عرضة لعدوانهم وان وجود دولة عدوانية كهذه جريمة بنفسها وخطر على السلام العالمى • ويعرض العالم الاسلامى للخطر أكثر من غيره لكون مقدساته الاسلامية هدفا لمطامعهم الاجرامية اذن لا نستطيع أن تتحمل كيان هذه الدولة الغاشمة • ويجب أن يطرد المغتصبون المجرمون الذين دخلوها من الخارج وجعلوها وطنا قوميا لهم أولا ثم دولتهم القومية •

ليس من حل معقول وسليم ماعدا هذا الحل • أما أمريكا التى تندفع وراء تأييد المغتصبين بعد أن وضعت ضميرها رهنا فى أيديهم ، وانتهكت حرمة كل مبدأ من مبادىء الأخلاق فقد آن الأوان لأن ينذرها جميع المسلمين فى العالم بصراحة بأن موقفها هذا اذا استمر فى شناعته فانها لن تجد على وجه الأرض نفرا من المسلمين يضمر فى صدره أدنى ذرة من النية الحسنة تجاهها •

ابو الأعلى المودودى

حرب فلسطين في الحديث الشريف

لفضيلة الأستاذ عبد الله كنون

من أعـلام نبوته صلى الله عليه اخباره بمغيبات وقعت كما أخبر بها ان فى حيـاته أو بعـد وفـاته ، وهى مما يدخل فى حيز المعجزة التى تدل على صدق الرسالة ، لأنهـا بمثابة تزكية الله لرسوله . والمعجزة هى الأمر الخارق للعـادة المقرون بالتحدى مع عدم المعارضة ، وتكون مادية ومعنويةوأمرا مترددا بينهما . واذا كانت معجزات الرسل السابقين عليهم السلام فى أكثرها مادية فان معجـزة نبينا العظمى انمـا كانت معنوية أى عقلية علمية وهى القرآن وذلك لكونه خاتم الرسل ، فناسب أن تكون معجزته باقية على مـر الزمان ليؤمن بها من يأتى بعده من الأمم والأجيال ، ولذلك جـاء فى الحديث الصـحيح : « ما من نبى الا أوتى ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة .

وليس معنى هـذا أنه صلى الله عليه وسلم ليس له معجزات مادية من جنس المعجزات المحسوسة التى كانت للأنبياء قبله ، وانما المقصود التنويه بمعجزات القرآن الخالدة لأنه اختص بها من بين سائر المرسلين للحـكمة المشار اليها ، فالقصر فى الحديث اضافى وليس حقيقيا . ويخطىء بعض الكتاب المعـاصرين حين يسـكتون عن معجزاتـه غير القرآن، ويوهمون قراءهم بأن معجزته الوحيدة أو الثابتة هى القرآن فقط تملقا للعقلية العصرية التى تميل الى نفى الأعاجيب وانكار الخوارق ، والأمر ما دام متعلقا بالعقيدة الدينية والاحتجاج لها بما روى متواترا عن جميع الأنبياء والرسل ، فـلا معنى لاستثناء خاتمهم منه وغض الطرف

عن معجزاته المشابهة ، ولاسيما ومنها ما روى لنا بطريق التواتر ، ففى البخارى طلب المشركون من النبى صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر » أى ما جاء به القرآن وهو قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ومنها ما روى بالطرق الصحيحة كحنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه وتسبيح الحصى فى كفه ، وغير ذلك حتى لقد عقد بعض العلماء مقارنة بين معجزاته ومعجزات النبيين قبله ، وفضل بعضها على بعض معجزاتهم كنبع الماء من بين أصابعه وتفجير موسى عليه السلام للحجر باثنتى عشرة عينا ، فان انفجار الأحجار بالماء معهود ولا كذلك انفجار الأصابع بالماء •

ونحن هنا يهمنا من معجزاته (صلى الله عليه وسلم) ما كان من قبيل الاخبار بالغيب : وهو الذى نعده مترددا بين المادى والمعنوى ، وقد روى لنا الكثير منه بالتواتر والطرق الصحيحة ، فمن المتواتر اخباره (صلى الله عليه وسلم) بغلبة الروم للفرس بعد هزيمتهم لهم وفرح المشركين بذلك لأنهم وثنيون مثلهم واظهارهم الشماته بالمسلمين لأنهم أقرب للروم من الفرس بحكم كون الروم من أهل الكتاب ، وقد حدد ذلك على سبيل الجزم والقطع ببضع سنين فكان الأمر كما قال وهو ما تشير اليه الآية الكريمة :

« الم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » •

ولرب قائل يقول بأن أمرا مثل هذا مما يدرك بالحذق والذكاء ومشارفة أحوال الأمم والاطلاع على مجريات السياسة العامة ، ونحن نقول ان المجازفة بالاخبار عن مثل هذا الأمر مع تحديد زمن وقوعه بهذه الطريقة الحاسمة ، لا تكون الا بوحى وتوقيف من عالم الغيب سبحانه وتعالى ، والا فهذا قمة من قمم الفكر الحديث ورائد الشيوعية العالمية كارل ماركس قد تنبأ بأن الثورة العمالية ستكون فى الدول المصنعة كألمانيا وبريطانيا ، فاذا بها تقوم فى الدولة الأكثر تخلفا والأقل تصنيعا ، أفكان ينقصه علم بأحوال الأمم والسياسة العامة فى عهده ! ؟•

ان علماءنا قسموا الخارق للعادة الى

أقسام، ومنه ما يقع على يد الفاسق، قالوا فان كان وفــق مراده فهــو استدراج أخبر عنه القرآن الكريم فى هذه الآية : « سنستدرجهم من حيث لايعلمون وأملى لهم، ان كيدى متين » وان جرى على خلاف مراده فهــو اهانة . وذلك كما حكى عن مسيلمة الكذاب حين أخبر بمعجزات النبى (صلى الله عليه وسلم) فقيل له أنه مســح بكفه على عين أعمى فصار بصيرا . فقال أنا أفعل مثل ذلك ومسح على عين أعور فذهبت عينه الصحيحة ، وقيل له ان محمدا تفل فى بئر مالحة قليلة الماء ففاضت بالمــاء العــذب فتفــل هو فى بئر شحيحة فنضبت وجفت . وما أشبه أن يكون خــبر ماركس من هــذا القبيل !.

ومما روى فى الصحيح من خــبر الغيب قوله (صلى الله عليه وسلم) فى الحسن أن ابنى هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين . وقد تحقق هــذا الخبر بتنازل ســيدنا الحسن (رضى الله عنه) لمعاوية بعــد وفاة سيدنا على (رضى الله عنه) وحقنه بذلك لدماء المسلمين واطفائه لنــار الحرب التى كانت مشــتعلة بين الطرفين وكانت هذه المنقبة العظيمة للسبط النبوى الكريم ، مما وطد سيادته ، ورفع قدره فوق الولاية ، وجعله قبــلة أنظــار المسلمين روحيا وانسانيا ، فبزهده فى الحكم ارتفع الى مقــام القطبانية الدينية ، وباشاعته للسلام تيمن النــاس بنقيبته وعــدّوا كل ما جاءهم من خير بعد ذلك انمــا هو ببركته . أليس هذا مصــداق كلام النبــوة وتطبيــق حديثها الصحيح ؟ .

ومن هذا الباب، ولكن على النطاق العام ، حديث ثوبان عن أبى داود وأحمد عن النبى (صلى الله عليــه وسلم) ، أنه قال : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كــل أفق تداعى الأكلة على القصعة ، قيــل : أمن قلة بنا يا رسول الله ؟ قال : لا ، أنتم كثير ولكن غثاء كغثاء السيل ، يقــذف فى قلوبكم الوهن وينزع الرعب من قلوب عدوكم، لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت . » وقد تحقق هــذا الخبر مرارا ، وأكثر ما كان

ذلك فى الحروب الصليبية التى تمالأت فيها أمم الصليب من كل شعب على المسلمين .. وهو اليوم أكثر تحققا، ولا منجاة لنا الا بعكس القضية وتغيير ما بأنفسنا ، فان عزفنا عن الدنيا ، ولا سيما دنيا الذل والهوان التى نعيشها ، واسترخصنا أرواحنا فى سبيل العزة والكرامة فذلك هو سبيل نجاحنا وفلاحنا .

ومنه حديث حذيفة، وهو برواية البخارى قال : كان الناس يسألون النبى (صلى الله عليه وسلم) عن الخير وكنت أسأله عن الشر ، مخافة أن يدركنى . فقلت يا رسول الله : انا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير — يعنى الاسلام — فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم ويعنى (صلى الله عليه وسلم) ما وقع بين الصحابة من الخلاف — قلت فهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال نعم وفيه دخن . قلت وما دخنه ؟ قال : أناس يهدون بغير هديى ، تعرف منهم وتنكر — ويعنى بذلك (صلى الله عليه وسلم) ظهور المذاهب والفرق الضالة . قلت فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم اليها قذفوه فيها . قلت صفهم لنا يارسول الله قال هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . وهذه اشارة الى المبادىء والأفكار المادية المستوردة ، فانها شر محض ، وشر ما فيها تبنى أناس منا لها ودعوتهم اليها . قال حذيفة : قلت فما تأمرنى يا رسول الله ان أدركنى ذلك ؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وامامهم ، وهذا من الكلام البليغ المعجز الذى لم ندرك قيمته الا فى أيامنا هذه . حين أصبح فى المسلمين طوائف وأحزاب كل له ميل ولون ، فأمر الرسول عليه السلام بملازمة الجماعة التى لا انتماء لها الا الى الاسلام ولا تعرف الا به، كالماء الذى تكون به الطهارة ، فانه ما يصدق عليه اسم ماء بلا قيد ، لا ماء زهر ولا ماء كولونيا ولا غيرهما ، كذلك لم يقل النبى (صلى الله عليه وسلم) جماعة المسلمين ورئيسهم أو زعيمهم أو ما الى ذلك . بل قال امامهم ، فالرئيس ان لم يكن اماما للمسلمين أى متقيدا بشرع الاسلام وملتزما

شعائره ، فليس هو المراد ، وفى هذا التعبير فائدة أخرى : وهى الاشارة الى البلاد التى لها رئيس غير مسلم أو يكون الحكم فيها لغير المسلمين، فالمقصود حينئذ هو امام الصلاة ، لأن الصلاة هى فرق ما بين المسلم والكافر . فنرى أنه (صلى الله عليه وسلم) فى هذا الحديث ينظر الى الغيب من ستر رقيق ، ويصف حال المسلمين فى هذه الأيام وصفا كاشفا للدقيق والجليل ، ويعطى فى الوقت نفسه النصائح النافعة ، والارشادات الناجحة .

والأحاديث فى منحى الاعلام بالغيب عن مستقبل الاسلام والمسلمين، كثيرة يطول تتبعها ، فلننظر فيما يرتبط منها بهذا الحدث الأخير ، وهو حرب فلسطين المحتلة من طرف اليهود بمعاونة الصليبيين الجدد ، ولنبدأ منها بما دلالته عامة ، ولكنه يؤول اليها فى الأخير ، ثم نأتى بما هو صريح فيها من غير تأويل ، وان كان لا ينفصل عن الأول ، بل هو نتيجة له مترتبة عليه .

فالأول هو قوله (صلى الله عليه وسلم) : (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك، أخرجه البخارى ومسلم وأصحاب السنن والامام أحمد وابن حيان والطبرانى وغيرهم ، وبلغ عدد الصحابة الذين رووه عن النبى (صلى الله عليه وسلم) أكثر من خمسة عشر صحابيا منهم ثوبان والمغيرة ومعاوية وأبو هريرة وقرة ابن اياس وجابر بن عبد الله وجابر بن سمرة وعمران بن حصين وعقبة بن عامر وسعد بن أبى وقاص وأبو أمامة وسلمة بن نفيل وسواهم ، فهو حديث متفق عليه متواتر ، ناهيك ان مسلما رواه عن سبعة من الصحابة بأحد عشر طريقا . أما البخارى فقد رواه فى ثلاثة مواضع من صحيحه عن اثنين من الصحابة . وقد بين فى أحد هذه المواضع المراد بالطائفة المذكورة فقال (هم أهل العلم) وقال ابن المدينى « هم أصحاب الحديث » كذلك قال الامام أحمد : « ان لم يكونوا أهل الحديث فلا أدرى من هم » .

وقال بعض شراح الحديث: (هم الفقهاء) أخـذا من رواية معـاوية للحديث التى جاء فيها « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وانما أنا قاسم والله يعطى ولا تزال طـائفة من أمتى ظاهرين (الحديث) ، فجمع بين أول الحديث وآخره وحمل هذه الطائفة على الفقهاء (١).

ولـكننا اذا نظـرنا فى روايات الحديث وألفاظه المختلفة عند مسلم فقط ، وقد قلنا أنه رواه من طريق سبعة من الصحابة ، فاننا نجـد فى بعضها : « لن يبرح هذا الدين قائما (يقاتل عليه) عصـابة من المسلمين حتى تقوم الساعة» وفى رواية أخرى: « لا تزال طائفة من أمتى (يقاتلون على الحـق) ظاهـرين الى يـوم القيـامة » وفى ثالثـة : (لا تزال عصابة من أمتى (يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم) لا يضرهم من خالفهم حتى تأتى السـاعة » فالأمر اذن أمر معركة وجهاد ، والقصـة قصة قتال وغلبة للعدو ، لا أمر علم وفقه وحديث

وتأتى رواية النسـائى للحـديث فترفع كل لبس لأنهـا صريحة فى الحرب والنضـال من أجـل الحق والدين ونصها عن سلمة بن نفيـل قال : كنت جالسا عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال رجل يا رسول الله : أزال الناس الخيل ، ووضعوا السلاح وقالوا : لا جهاد قد وضعت الحرب أوزارها ، يعنى تماما كما يقول القعدة اليوم ودعاة التخاذل ، فأقبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بوجهـه وقال : كذبوا ، الآن الآن جاء القتال ، ولا يزال طائفـة من أمتى يقاتلون على الحـق ويزيغ الله لهم قلوب أقوام (هكذا بالتنكير يعنى يساندونهم) ويرزقهم منهم ، حتى تقوم السـاعة وحتى يأتى وعد الله » .

---

(١) فى راى النووى انه يجوز أن تكون هذه الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومحدث وقائم بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين فى بلد واحـد بل يجوز اجتماعهم وتفرقهم فى الاقطار .

ولا أعلق على هذه الرواية بأكثر مما قلت فانها أوضح من أن تحتاج الى تعليق . ولكنى أسارع فأذكر ما جاء فى بعض روايات الحديث من بيان لمكان تواجد هذه الطائفة وفى بعضها الآخر من تعيين لها بالنص الذى لا يحتمل التشكيك .

فعن المكان جاء فى البخارى تعليقا عن معاذ (رضى الله عنه) : « وهم بالشام » وجاء عند أحمد من حديث أبى أمامة « أنهم ببيت المقدس » ونحوه للطبرانى ، وله فى الأوسط من حديث أبى هريرة (يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها ، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله) .

وعن تعيينها بالنص جاء فى صحيح مسلم موصولا مرفوعا من طريق سعد بن أبى وقاص : لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق» الحديث. واختلف العلماء فى أهل الغرب هؤلاء من المراد بهم» فقال على بن المدينى: (المراد بالغرب الدلو الكبيرة وهم العرب ، لأنهم أصحابها لا يسقى بها غيرهم » ونظن أن البلاغة النبوية لا تضيق بها العبارة حتى تكنى عن العرب بأهل الغرب ، وجاء فى حديث مماثل فى المعنى : (اذا ذل العرب ذل الاسلام) .. فلو كان (صلى الله عليه وسلم) يريد العرب مطلقا لعبّر بهم كما عبّر فى هذا الحديث .

وقيل المراد بالغرب الحدة والشدة، فغرب كل شى حده ومنه غرب السيف أى حده ، ولا شك أن أهل الشدة والشجاعة يكونون ظاهرين وغالبين ، ولكن لا يلزم أن يكونوا على الحق بل كثير ما كان أهل القوة ظالمين غاشمين .. وقد قيل : الظلم تحت جناح كل أحد ، القوة تظهره والعجز يخفيه ، فحمل الحديث على هذا المحمل بعيد أيضا .

والصواب حمله على الجهة والناحية كما قال بذلك آخرون ، قالوا : والمراد بها حينئذ الشام لأنها تقع غربى الحجاز .. لكن وقع فى رواية عبد بن حميد وبقى بن مخلد للحديث « لا يزال أهل المغرب) بالميم ، وفى رواية للدار قطنى : (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق (فى المغرب) حتى تقوم

الساعة » • وبحث فيــه ابن حجر باحتمال أن يكون راويه رواه بالمعنى فأبدل الغرب بالمغرب وهو تمحــل ظاهر •

على كل حال ترجح أن المراد بأهل الغرب فى حديث مسلم ، أهل هذه الناحية ، والشام داخل فيها ، ولاشك من حيث كونه غربا من الحجاز ومن حيث تعيينــه فى بعض الروايات ، ولكن رواية أهل المغــرب لا يجوز ردها ما دام الجمــع بين الروايات ممكنا •

وانطلاقا من حديث على كرم الله وجهه وقد قيل له : « هل خصكم آل البيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بشىء •• ؟ فقال : لا ، الا ما فى هــذه الصحيفة أو فهم" أو تيــه رجل مســلم •• ونقول : يظهر والله أعلم أن المراد بالحديث المنطقة التى تبتدىء بالشام وتنتهى مميزة معينة محدودة موصوفة•هى المنطقة التى تبتدىء بالشــام وتنتهى بالمغرب ولم تذكر فيها مصر ، لأنها داخلة بحــكم وقوعها بين الحدين المذكورين • وتخصيص هــذه المنطقة بعينها من بين بلاد الاسلام لوقوعها مقابل منطقة غرب البحــر المذكور ، ونحن جميعا نعــلم من بتلك المنطقة وتمالأهم على حربنا ، فمنها انطلقت الجيوش الصليبية ، والحملات الاستعمارية ، وما تزال غائلتهــم لا تؤمن ، وفى الــوقت الحاضر ، نعلم أن أمن المتوســط أصبح مشكلة دولية ، ومن أجلها تسربت الأســـاطيل من الشرق والغرب اليه ، بدعوى حفظ التوازن وما الى ذلك ، فالحديث الشريف يثير انتباهنا الى وجوب الاستعداد والتــأهب للحرب التى تكون تارة بدعوى حماية الأماكن المقدسة وتارة بدعوى حماية الدول القائمة فى المنطقة وتارة وتارة مما لا أحتاج الى ذكره من عوامل اقتصــادية وسياسية ، فوجود الطائفة المذكورة فى الحديث فى هذه المنطقة أمر ضرورى وواقع مصــداقا للحديث ، واذا قلنــا بأن الحديث ربما كان معناه الطلب وان جاء بلفظ الخبر ، وهذا أســلوب بلاغى معهود ، فدلالته حينئــذ : الأمر والطلب بأن تكون فى هــذه

المنطقة العربية المسلمة طائفة هـذه صفتها ، وذلك على سبيل الدوام والاستمرار الى قيام الساعة ، مع الاخبار بوعد الله لها وتعهده بنصرتها وبأن تكون ظاهرة على من ناوأها وهى بشارة عظيمة للمجاهدين فى هذه المنطقة ما دام قصدهم نصرة الحق والقيام بأمر الله وحماية العقيدة والدين .

ولسنا نقول هـذا الكلام بدون دليل ، فلنا من السنة سند نستظهر به ونعتمد عليه فيما ذهبنا اليه من هـذا الرأى ، وذلك هو حديثه (صلى الله عليه وسلم) الذى حدد فيه مواقيت الحج ، فجعل لأهل اليمن يلملم ولأهل نجد قرنا وذات عرق للعراق وذا الحليفة لأهل المدينة ولأهل الشام الجحفة .

ولم يعين لمصر ولا للمغرب ميقاتا ، فجعلت الأمة باجماع ميقات الشام ميقاتا لأهل مصر والمغرب حملا لهذه البلاد على أنها منطقة واحدة وقطر واحد . واذا كان هذا فى الحج وهو يجب مرة فى العمر ـ وعلى التراخى لا على الفور ، فهـو فى الجهاد الواجب دائما والمتعين بمجىء العدو أولى وأخرى .

ويا لله من حديث الصادق المصدوق ، ما أبلغه !! وما أحكمه !! وما أدلة على أنه وحى يوحى من لدن العليم الخبير !! فقبل أن تقع الحوادث الراهنة ـ هل كان لنا أن نفسره بهذا التفسير المطابق للواقع ، حتى كأنه خبر عما يجرى أو أمر بما يجب فعله فى هـذا المقام على حسب ما قررناه من جواز حمله على الطلب ؟ .

واذا كنا فى فهم المراد بهـذا الحديث على وجه الحقيقة والواقع ، قد لجأنا الى الشرح والتأويل فان الحديث الثانى الذى نورده الآن ، صريح فى الموضـوع ، لا خفاء به ولا يحتمل أى تفسير غير ما يؤخذ من ألفاظه الواضحة والدالة بدلالة المطابقة على المراد منه ، وهو قوله (صلى الله عليه وسلم) فيما أخرجه البخارى ومسلم والترمذى عن ابن

عمر : « تقاتلون اليهود ، فتسلطون عليهم حتى يختبىء أحدهم وراء الحجر ، فيقول الحجر: يا عبد الله ، هذا يهودى ورائى فاقتله » وفى رواية أخرى لمسلم عن أبى هريرة: «لاتقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهود من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله » .

فى الرواية الثانية لهذا الحديث ، يتجه المؤشر ليلتقى مع الحديث السابق فى قدر من الزمن غير محدد، ولكنه مشترك بينهما بكل تأكيد ، وذلك حين يقول الرسول فى الحديث السابق : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق .. حتى تقوم الساعة ، ويقول فى هذا الحديث : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود .. » .

والمهم أنه يخرج الحروب التى قامت بين المسلمين وبين اليهود فى حياته (صلى الله عليه وسلم) . واذا خرجت هذه الحروب ، فانه لا يبقى فى التاريخ أى حرب قاتل المسلمون فيها اليهود ، الا حرب فلسطين هذه القائمة الآن .

واذا كانت العبرة الأولى فى الحديث، هى الاخبار عن قيام حرب ضروس بين المسلمين واليهود ، فى حين أن أمرا مثل هذا لم يكن يخطر بالبال أيام عز المسلمين وامتداد دولتهم من المشرق الى المغرب وذل اليهود وتشتتهم فى أنحاء الأرض ، فان الأعمال بالخواتم ، وقد تضمن الحديث الى جانب هذا الخبر بشارة عظمى وهى انتصار المسلمين على اليهود فى هذه الحرب ، مهما كانت الظروف والأحوال انتصارا حاسما لا يبقى منهم ولا يذر ، وهذا أمر آت ولا ريب ، كما أتى ما أخبر به الحديث السابق ، وتحقق بجميع تفاصيله ، من قيام طائفة من أمته (صلى الله عليه وسلم) بالقتال على الحق وعلى أمر الله ودينه لا يضرها من خالفها أو خذلها ، وها هى الآن مرابطة ما بين الشام والمغرب وعلى

أبواب دمشق وما حولهـا وأبواب بيت المقدس وما حوله ، وقد كتب لها من الظهور والغلبة وقهر عدوها العنيد ، ما هو مشـاهد ومعلوم ، فكذلك الشطر الثـانى من الحديث الأخير سيتحقق لا محالة ونقاتل — نحن المسلمين — اليهود فى فلسطين المحتلة ونطهر أرضها المقدسـة من رجسهم ودنسهم بحول الله وقوته، تصديقا لخبر رسوله (صـلى الله عليـه وسـلم) الذى لا ينطق عن الهوى ، وايمانا بوعده عز وجـل لعبـاده المؤمنين بالنصر والتمكين والفتح المبين . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهـم وليمكنن لهم دينهـم الذى ارتضى لهم ، وليبـدلنهم من بعـد خوفهم أمنا » .

وفائدة الخبـر — بل الأخبـار كلها — أن ذلك لا يكون الا بالقتال والاسـتعداد له وتحفز المسلمين — فى هـذه المنطقـة من الأرض بالخصـوص — على الدوام والاستمرار لمنازلة عدوهم المتربص بهم الدوائر ، وقـد كان فيما قبل انما هو الصليبى المتعصـب المتعنت الذى لا يفتأ متطلعا للسـيطرة على الأرض التى ولد فوقها المسيح وقام منها ، فانضم اليه اليوم عدو جديد لم يكن فى الحسبان وان أخبرنا به الرسـول من قبل وهو الصهيونى العنصرى المقيت الذى يريد أن يقيم فيها له دولة . ويبنى هيكل سليمان — بزعمه — على أنقاض المسـجد الأقصى ..

فليستيقظ المسلمون من سباتهم وليأخـذوا حذرهم ، وليكونوا فى مسـتوى أحـداث الزمن دائما ، وليجعلوا من قوله تعالى « وأعدوا لهم » شعارا خالدا .

عبد الله كنون

الفتنة نائمة :

لولا الإسلام لما بقى دين سماوى

للأستاذ أحمد حسين

هذا بحث ودراسة يحسن بكل من يتصدى للوعظ والارشاد آن يعيها جيدا ، وخاصة اذا ماكان من رجال هذين الدينين ، ولما كانت مجلة الأزهر منارة للعالمين ، فقد رأيت أن ألفت النظر على صفحاتها لهذه الحقيقة المؤكدة تاريخيا ، تاركا لرجال الاختصاص أن يزيدوها شرحا وتفصيلا ، ليعلم من لم يكن يعلم أن كل تهجم على الاسلام ممن يؤمنون باليهودية أوالنصرانية ، فان هذا الهجوم يعود على أديانهم بالشر والوبال ، فلولا فضل الاسلام على هاتين الديانتين لانقرضتا وزالتا من الوجود باعتبارهما ديانتين سماويتين ، واعتبرتا من الأديان الوثنية .

وأنا أقرر ذلك لا باعتبارى مسلما يتعصب لدينه ، ولكن باعتبارى مجرد مفكر درس الأديان المقارنة وتاريخ الانسانية ، ووضع المؤلفات فى كلا الفرعين ، ولكى أقدم الدليل على ذلك ، فسوف أخرج القرآن الكريم من البحث فى الشق الأول منه ، لأستعرض ما يقال فى كتب كل منهما ، وسنرى كيف أن الحال كان سينتهى بهما الى ما انتهى اليه أى دين آخر ، لولا أن جاء الاسلام أو بالأحرى نزل القرآن الكريم .

اليهودية كما هى فى كتاب اليهود :

ان الكتاب الذى يسميه المسيحيون بالعهد القديم ، ويسميه اليهود « بالتوراة » والتوراة لا يمكن الا أن تكون منه براء ، هذا الكتاب يجعلنا من أول صفحة فيه حتى آخر صفحة ، نؤمن اننا بازاء دين وثنى مائة فى المائة ، من هذا النوع الذى ساد البشرية فى فترة من الفترات عندما كان لكل قبيلة آلهها الخاص وشعائرها وطقوسها الوثنية

والمغرقة فى الوثنية ، فالله فى هذا الكتاب هو « رب الجنود » الذى يعيش وسط شعبه اسرائيل، ويسير أمامهم وهم يتبعونه ، وهو الههم الخاص بهم ، ولا يعترف بأحد غيرهم ، ويدعو شعبه لأن يعتبروا بقية البشر عبيدا وخداما لهم يقتلون منهم من يشاءون ويبقون على من يشاءون ؛ وقد عقد الاله معهم صفقة وأبرم عقدا مع جدهم الأول ابراهيم ، وهى أن يعبدوا الله ويكونوا شعبا له وفى مقابل ذلك فسوف يعطيهم الأرض من النيل الى الفرات ، ويمضى هذا العهد القديم ، وليس فيه الا جرائم الكفر بالله وبالأخلاق وبالسلوك تنسب الى قادتهم وزعمائهم سواء كانوا أنبياء أو ملوكا ، ابتداء من ابراهيم نفسه وبقية أفراد أسرته ، ولن نزعجك بالتفاصيل والا لاحتجنا أن ننقل لك العهد القديم كله بألوف صفحاته ، حسبك أن تعلم على سبيل المثال أن ابنتى « لوط » سقيتا أباهما خمرا حتى يغيب عن وعيه ويضاجعهما ليكون لهما من أبيهما نسل ، وليس ذلك الا مثالا واحدا من ألوف الأمثلة ، فهارون شقيق موسى هو الذى صنع من الذهب عجلا وطلب من اليهود أن يسجدوا له باعتباره الههم .

وداود عندما كان ملكا وقع فى غرام امرأة متزوجة لأحد قادة جيوشه فبعث به الى الحرب وأوصى بأن يقتل فى الحرب ليغنم هو زوجته ، وسليمان ابنه أقام الأوثان وعبدها مرضاة لزوجاته الوثنيات ، وكان عدد زوجاته ٣٠٠ وعدد سراريه (أى جواريه) ٧٠٠ أى انه كان يعيش مع ألف امرأة .

وانتهى هذا الدنس والرجس والكفريات الى المسيح عيسى ابن مريم ، وكان من غير المعقول أن يصدقوا بولادته المعجزة ، فهم قوم ماديون وثنيون ؛ فقالوا عن مريم ما قالوا ، وانتهوا بالمسيح حسب رواية كتاب النصارى الى الصلب وقتلوه بعد أن عذبوه .

الى اين كان يمكن ان ينتهى كل ذلك:

ويكون السؤال الى أين كان يمكن أن ينتهى كل ذلك ؟ لسنا فى

حاجة للاستنتاج أو التخيل ، فقد أغنتنا حقائق التاريخ وهى أن البشر وبدون استثناء اعتبروا اليهود أعداء البشر ، وعملوا على القضاء عليهم وتشريدهم .. بل وابادتهم ، وقد حدث هذا فى التاريخ مرتين ، أولاهما على يد نبوخذ نصر (بختنصر) قبل الميلاد بعدة قرون، وثانيتهما على يد أحد قياصرة الرومان .

ولم يكن للمسيحية دخل فيما حاق باليهود فعلينا أن نتصور ما الذى يحل باليهود فى ظل الدول المسيحية ، لقد سمح لليهود الذين يظلون بعد المذابح التى تجرى عليهم أن يعيشوا فى مناطق خاصة بهم باعتبارهم وباء وجراثيم .

وماذا عن النصرانية ؟

وغنى عن البيان أن صفحة النصرانية باعتبارها مبادىء وأفكار هى صفحة مشرقة فقد كانت حياة المسيح دعوة متصلة للحب والتآخى وكل القيم الروحية والانسانية ، ولكن المسيحية على يد الكنيسة الرومانية ، سرعان ما تقمصت المبادىء الوثنية الرومانية (وهذه حقيقة تفوت على الكثيرين وهى ان الكنيسة المصرية قد برئت من هذه الخطايا ، وكان هذا هو السر فى اضطهادها) .

وأول هذه المبادىء الوثنية انهم أحلوا مريم العذراء محل ايزيس (الالاهة الفرعونية) فكادوا يعبدونها باعتبارها أم الاله ، ولا تزال تماثيلها فى كل كنيسة كاثوليكية شاهدا على ذلك ثم راحت المجامع الكنسية تتدخل فى صياغة العقيدة المسيحية ، ولست أناقش هذه العقيدة فهذا شأن المسيحيين .

ولكن الأمر المحقق تاريخا ، انه كلما حاولت أوروبا النهوض الى ما تسميه عهد التنوير والعلم ،كانت تبدأ أول ما تبدأ بمحاولة اقتلاع العقيدة المسيحية ، حدث هذا فى القرن الثامن عشر خلال الثورة الفرنسية ، حتى نادى روبسبير زعيم الثورة بدين العقل ، ونصبه العامة فى احتفال شعبى كاهنا أعظم لدين العقل .

وتكرر ذلك مرة ثانية فى نهضة أوروبا فى القرن التاسع عشر حيث نادى المنادى ووجد من يستمع له فى كل أرجاء أوروبا ان الدين هو « أفيون الشعوب » وغنى عن البيان ان الدين الذى يعرفونه هو اليهودية والنصرانية ، ولما آلت السلطة الى اتباع هذه الدعوة المتنورة التقدمية فى روسيا نزلت الضربة على الدين ورجاله وأصبح الالحاد والكفر بالله والدين هو شرط أساسى لكل مواطن متعلم مستنير فعندما تقرر أن اليهودية والنصرانية كانتا حتما الى زوال ، فنحن تستند الى أحداث وقعت بالفعل وهى محل اتفاق ، فما الذى أبقى على هاتين الديانتين ، لا شىء غير القرآن والاسلام واليك التفصيل .

وجاء الاسلام وما ادراك ما الاسلام :

وكان القرآن الكريم ، والقرآن الكريم فقط هو الذى حمى هاتين الديانتين من أن تزولا وطهرهما من الرجس والشوائب والانحرافات التى ألمت بهما ، وقرر ان جوهرهما من جوهر الاسلام ، وأطلق على معتنقى هاتين الديانتين « أهل الكتاب » ودعا الى تعايش المسلمين معهم بأن أباح للمسلم أن يتزوج كتابية ، وللمسلمين أن يأكلوا من طعام الكتابيين ، واعتبر من يرغب منهم أن يحتفظ بدينه وأن يعيش فى سلام مع المسلمين « ذمى » له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ويشدد الرسول صلوات الله عليه فى حمايتهم وتوفير العدل لهم فيقول: « من آذى لى ذميا صرت له خصما يوم القيامة » .

القرآن واليهود :

وقد كان القرآن هو الذى أكد وجود سيدنا ابراهيم عليه السلام وأكد رسالته وانه مبعوث الله للبشر بدين التوحيد الصافى ، وكشف عن كونه جد العرب المستعربة عن طريق اسماعيل وانه هو بانى الكعبة ، والداعى الى شريعة الحج التى هى أحد أركان الاسلام بل جعل جوهر الاسلام هو عين ما دعا اليه سيدنا ابراهيم وهى « الحنيفية السمحة » وسجل القرآن الكريم دور سيدنا موسى وكيف بعثه الله رسولا نبيا ، وأنزل عليه التوراة ،

الى الحد الذى جعل اليهود يحاجون رسول الله والمسلمين من بعده بسؤال واحد ، هل التوراة من عند الله أم لا ؟ والرد على هذا السؤال «نعم هى من عند الله» فيكون قولهم: « فهل من المعقول أن يغير الله كلامه » وعندنا ان هذا هو السبب الذى نزلت للرد عليه آية النسخ « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها » فجوهر التوراة هو جوهر الاسلام وهو الايمان بالله واحد منزه عن الشريك والولد واننا ميتون فمبعوثون فمحاسبون اما الى جنة أو نار .

والمهم فى كل ذلك ان القرآن شهد لليهودية بأنها تستند الى دين سماوى .

القرآن والمسيحية :

أما بالنسبة للمسيحية فقد حسم الله قضيتها الأساسية الى الأبد ، والتى لولا القرآن الكريم لظلت فرية اليهود تلاحقها وخاصة فى المجتمعات والعصور المادية التى تؤمن بما يسمونه « العقلانية » وهذه القضية الأساسية هى قضية ميلاد السيد المسيح المعجز عن غير أب وقال القرآن الكريم ، ان خلق عيسى عن غير أب لن يكون أكثر اعجازا من خلق آدم من غير أب ولا أم .

المسلمون فتحو الدنيا فى ظل هذه المبادىء :

وفى ظل الشهادة لليهودية والنصرانية بأنهما دياتتان سماويتان هزم المسلمون القوتين المتحكمتين فى العالم ، ولما كانت أحد القوتين « وثنية » وهى قوة الفرس الذين كانوا يعبدون « النار » فقد أزالوها من الوجود ولم يرضوا من الفرس بغير الاسلام دينا ، أما بالنسبة للقوة الثانية قوة النصرانية فقد تركوها قائمة وأعطى المسلمون النصارى فى كل بلد دخلوه عهد الأمان ليس فقط على أرواحهم وأموالهم بل على كنائسهم ومعتقداتهم .

وحيث كان اليهود يعاملون فى أوروبا على ما قدمنا ، فقد عاشوا فى الدولة الاسلامية ، لا أقول فى أمان بل وفى ازدهار .

العصر الحديث :

فلا يتصورن متصور أن المستقبل للمسيحية أو اليهودية ، فلو سادت الآراء المسماة «بالتقدمية والتحررية» لأبيدت الدياتنان ، وليس الا في ظل عالم اسلامي قوى يرفع لواء الشريعة الاسلامية ، ما يمكن تصور امكان وجود الدياتتين اليهودية والنصرانية حيث لا يشهد لهما الا الاسلام ولله في خلقه شئون .

احمـد حسين

بيـان من ادارة المجـلة

تعلن ادارة المجلة عن عميق أسفها لهذا التأخير الذى لم يكن في مقدورها تلافيه أو تجنبه .

لقد تدخلت عوامل كثيرة في هذا التـأخير الذى ادى الى احتجاب المجلة فترة طويلة واعتبار العـدد الخـاص الذى صدر بمناسبة انعقاد المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الاسلامية ختام السنة الماضية ١٣٩٧ هـ ، كما أدى الى اعادة ترتيب اعداد السنة الحالية بحيث يشتمل هذا العـدد على ثلاثة اعداد من السنة الجديدة وهى اعداد اشهر محـرم وصفر وربيع الأول حتى نتمكن من تخطى هذه الفجوة التى فرضتها علينا ظروف قاسية ، ولمـا كانت المجلة تحتجب عادة في شهرى جمادى الأولى وجمادى الاخرة من كل سنة فقد تقرر صدور المجلة في هذه الفترة تعويضا لمـا فاتها في الأشهر السـابقة .

الدفاع عن الفصحى

للواء الركن : محمود شيت خطاب

عقد فى مدينة (بازل) السويسرية عام ١٨٩٧ المؤتمر الصهيونى الأول برئاسة هيرتزل ، فخرج بمقررات خطيرة جدا ، منها خلق دولة العدو الصهيونى فى الأرض المقدسة : فلسطين .

وبعد انقضاء هذا المؤتمر ، صرح هيرتزل قائلا : « ولدت دولة اسرائيل ، خلال خمس سنوات .. ربما .. وخلال خمسين سنة .. حتما .. » .

وكان من جملة مقررات المؤتمر الصهيونى الأول ، احياء التوراه لغة وعقيدة ، ليكون للصهيونية ودولتها ما يميز الوطن القومى : لغة يتفاهم بها اليهود هى العبرية ، وعقيدة تجمع شتاتهم هى اليهودية وأرض هى فلسطين .

ولكى يحققوا أهدافهم فى احياء التوراة لغة وعقيدة ، جابهوا صعوبات هائلة ، لأن العبرية لغة ميتة مهجورة من مئات السنين ، لا تتواجد الا ضمن نطاق بعض المعابد اليهودية لاقامة الطقوس الدينية ، أما المعابد الأخرى فتؤدى تلك الطقوس فيها باللغات المحلية ، لهجر اليهود للعبرية وخاصة فى أوروبا وأمريكا .

وكما هجر اليهود لغتهم العبرية ، هجروا دينهم اليهودى ، فاقتصر التدين على الطاعنين فى العمر ، واندمجت الأكثرية فى أوروبا وأمريكا بالمجتمع ، فأصبحوا يهودا جغرافيين بالاسم فقط ، دون التطبيق العملى ، وأصبح الدين شعارا لا عملا .

وبدأت عقول الصهاينة بعد مؤتمرهم الأول ، تبذل قصارى جهدها ، لتحقيق قرار (الاحياء) كما يطلقون عليه ، فأنشأوا المدارس

والمعاهد والجامعات لتعليم العبرية وتدريس الدين ، واشترطوا على المهاجرين الجدد الى فلسطين شرطين: التكلم بالعبرية أولا ، والتمسك باليهودية ثانيا ، لقاء حوافز مادية ومعنوية مغرية ، يتلقاها المهاجرون الجدد مكافأة لهم على تعلم اللغة والتمسك بالدين .

أما فى الأرض المقدسة ، فقد فرضت الوكالة الصهيونية تعلم العبرية ، وجعلت منها بمعاونة الاستعمار الانكليزى لغة رسمية بالنسبة ليهود فلسطين القدامى والجدد ، وحرمت استعمال لغة أخرى فى المكاتب الرسمية وفى المعاملات والمصارف وفى المعابد .

وكما بذلت الصهيونية العالمية مبالغ ضخمة لخلع السلطان عبد الحميد ، لأنه رفض رفضا قاطعا ما عرضه عليه هيرتزل سنة ١٩٠٣ حول تخصيص قطعة من الأرض الفلسطينية لليهود مقابل ملايين الجنيهات الذهبية ، بذلت الصهيونية مبالغ ضخمة لاحياء التوراة لغة وعقيدة من جهة ، واماتة القرآن لغة وعقيدة وتشريعا من جهة أخرى، لأن العرب أصحاب فلسطين الأصليين لا يمكن أن يغلبوا من قلة أبدا ، ماداموا متمسكين بالذكر الحكيم.

وقد اكتشفت أن حركة (احياء) التوراة لغة وعقيدة حديثا ، بدأت فى نفس الوقت بالضبط الذى بدأت فيه الأصوات الناشزة المريبة بحركة اماتة القرآن الكريم لغة وعقيدة وتشريعا !

بدأت الدعوة الى العامية،وحجتهم أن كل قطر عربى له لهجته العامية الخاصة به ، فللعراق ولمصر ولسورية وللبنان مثلا لهجة خاصة بكل قطر من هذه الأقطار شائعة على ألسنة سكانه ، ولكل قطر من أقطار المشرق العربى والمغرب العربى ، لهجة خاصة بسكانه ، فلماذا يعانى العرب من الازدواجية فى اللغة ، وهذه الازدواجية تعرقل تعلم التلاميذ !

ولا أعرف دعوة أسخف ولا أكذب من هذه الدعوة .

دعوة كاذبة سخيفة ، لأن الفصحى هى التى تجمع شمل العرب شرقا وغربا ، فاذا تكلمنا العامية فقد مزقنا الشمل وجعلناه بددا •

وكاذبة سخيفة ، لأن الفصحى هى لغة القرآن الكريم ، وهى همزة الوصل بين العرب والمسلمين بكل مكان ، فلمصلحة من تقطع هذه الصلة القوية الرصينة •

لقد سمعنا كثيرا من المسلمين ، قدموا من روسيا والهند وأوروبا وأمريكا واستراليا وافريقية يتكلمون العربية الفصحى بطلاقة ، فيتفاهمون بها مع العرب وفيما بينهم بسهولة ويسر فبماذا كانوا يتفاهمون لو تحول العرب عن الفصحى الى العامية ؟ !

ولكن !

وهل العربية وحدها تعانى من العامية ، ان كل لغات العالم فيها عامية ، فلماذا نطالب العرب وحدهم بالتخلى عن الفصحى من أجل العامية؟

ان الذين يدعون أن العرب وحدهم لهم لهجات عامية كاذبون بادعائهم ، اذ لا أعرف لغة فى العالم كله الا وفيها لغة فصحى ولغة عامية •

وفى مصر مثلا لهجات عامية كثيرة ، بل فى كل مدينة من مدنها لهجات عامية كثيرة ، وما يقال عن مصر يقال عن سائر الأقطار العربية ، فأى لهجة عامية نلزم بها أبناء المدينة الواحدة فى القطر العربى الواحد ؟ !

لقد زرت المغرب فى رمضان المنصرم وأنا من العراق ، ولولا الفصحى لما استطعت أن أتفاهم مع الأشقاء هناك ولما استطاعوا •

ومن حق أعداء العرب والمسلمين أن يدعوا الى العامية ، حتى تصبح الفصحى غريبة بين أبنائها ، ومن ثم يصبح القرآن غريبا •

فما عذر أبناء العرب والمسلمين ، الذين يشايعون أعداءهم فى هذا المجال ؟ !

أيمكن أن يكون هؤلاء جهلاء ؟ أيمكن أن يكونوا مغررا بهم ؟

انهم مثقفون ثقافة عالية كما يزعمون أو كما يزعم من وراءهم من الأيدى الخفية التى تشيد بهم صباح

مساء ، وتنعتهم بنعوت العلماء ، وتمنحهم أعلى الدرجات العلمية ، وتغدق عليهم المناصب الرفيعة والمال الحرام .

ومن نعوتهم : قادة الفكر،وهكذا يكون القادة والا فلا .

والمذهل حقا ، أن هؤلاء جميعا ، لم يدخلوا مسجدا للصلاة فى كل حياتهم ، ولم يؤدوا هذه الفريضة فى يوم من الأيام .

ولست أنسى يوم مات أحدهم ، فحمله أهله الى أحد المساجدللصلاة عليه ، ولكن أحد الحاضرين الذين عرفوا الميت فى حياته واطلعوا على طويته قال بأعلى صوته : «لا أصلى عليه أبدا ، لأنه لم يكن يؤمن بالصلاة ، ولم يدخل مسجدا وهو حى» .

وغادر المصلون المسجد ، وبقى فيه غير المصلين ، حيث حملوا الميت الى مثواه الأخير دون صلاة .

وأخفقت الدعوة الى العامية ، واسودت وجوه دعاتها ، ولا عبرة بألقابهم العلمية والصحائف التى سودت بالثناء عليهم وبالمناصب الرفيعة التى تسنموها وبالمال الحرام الذى اقتنوه ، فقد ذهبت الألقاب والمناصب وتفرق المال بين الورثة ، وانكشفت الصحائف للناس ، ولم يبق لهم غير الخزى والعار .

وسيفضحهم الله ويكشف حقيقتهم اليوم أو غدا ، ويومئذ يجد الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون !

وظهرت مع الدعوة الى تبنى اللهجات العامية ، دعوة مريبة أخرى لا تقل خطرا عن الدعوة الأولى ، هى كتابة الفصحى بالحروف اللاتينية !

وحجة دعاة الحروف اللاتينية أنها حروف عالمية ، والكتابة بها أسهل من الكتابة بالحروف العربية ، وقد استبدل كمال أتاتورك فى تركيا الحروف اللاتينية بالحروف العربية فنجحت تجربته .. الخ ..

أما الحروف اللاتينية التى يدعون أنها عالمية ، فالحروف العربية عالمية

أيضا ، لأن العرب يستعملونها ويستعملها معهم مئـات الملايين من اخوانهم المسلمين فى كثير من الدول الاسلامية ، ويكفى أن تكون عالمية لأن القرآن الكريم مكتوب بها •

أما الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية بحجة أن الكتابة بها أسهل من الكتابة بالحروف العربية ، فهذا غير صحيح أبدا ، فهنـاك حروف عربيـة غير موجـودة فى الحروف اللاتينية ، والكتابة بالحروف العربية أسرع من الكتابة بالحروف اللاتينية، فاذا كتبنا كلمة (الأزهر) بالحروف العربية واللاتينية ، كان الوقت الذى نقضيه بكتابتها بحروف لاتينية أكثر من ضعف الوقت الذى نقضيه عند كتابتها بالحروف العربية ، والتجربة خير برهان عملى على ذلك •

وتجربة كمال أتاتورك لم تنجـح مطلقا ، ويكفى أن تجـربته قضت قضاءا مبرما على التراث التركى ، فأصـبحت مصادره تبـاع بالوزن للبقالين ، ولا أحد من الجيل التركى الحاضر يستطيع قراءتها والاستفادة منهـا ، وهكذا جنى أتاتورك على الأتراك بحرمانهم من تراثهم الفكرى والحضارى الأصيل •

كما أن الحروف العربية لها جمالها الخاص بها ، حتى ليمكن اعتبـار الخط العربى نوعا رفيعا من النقوش الجميلة •

وبين مخلفـات بابـوات روما ، ثوب لأحدهم ، مكتوب عليه آيـة الكرسى بالحـروف العربية ، وكان البابا الذى يرتديه يظن أن ثوبه مطرز بنوع رفيع من أنواع التطريز ، دون أن يعرف أنها آيةالكرسى من القرآن الكريم بالحروف العربية !

وكان المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى قد سأل عبد العزيز فهمى عن أسباب دعوته لكتابة العربيـة بالحروف اللاتينية ، فقال عبد العزيز فهمى : نريد أن (نعمم) العربية • فأجابه المرحـوم البشرى فورا : « تريـد أن (تبرنطهـا) لا أن (تعممها) » •

نعم ، انه كان يريـد أن يجعـل العربية ذنبا للاتينية ، ويقضى قضاءا

مبرما على التراث العربى الاسلامى، والأهم من كل ذلك ، وهو الهدف الذى تريده الصهيونية ويريده أعداء العرب والمسلمين ، أن يجعلوا القرآن مهجورا ، فلا يستطيع أحد أن يقرأه كما أنزله الله ، ومن ثم يدخل عليه التحريف والتبديل .

وهيهات ...

وصدق الله العظيم : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (١) .

وأخفقت الدعوة الى الحروف اللاتينية ، كما اخفقت الدعوة الى العامية ، والفضل فى كل ذلك يعود الى القرآن الكريم .

واسودت وجوه دعاة الحروف اللاتينية ، ولا عبرة بالقطارات التى أطلق اسم قسم منهم عليها ، وبالشوارع فى القاهرة التى بأسماء قسم منهم ، فسيأتى الوقت الذى تخلع فيه أسماؤهم من القطارات والشوارع ، يوم يعرف أصحاب السلطان حقيقة أمر أولئك النفر المخربين والأسباب الخفية التى دفعتهم الى الجهر بدعوتهم .

ولكن دعاة العامية ودعاة الحروف اللاتينية لم ييأسوا من تطبيق مخططاتهم المريبة الهدامة فى يوم من الأيام ، لأن الأيدى الخفية التى وراءهم تستحثهم على الدأب فى مجال تطبيق خططهم لجعل هذا القرآن مهجورا ، فلا يسعهم الا تنفيذ ما يريده أسيادهم لقاء ما يتلقونه من سند مادى ومعنوى ودعم .

والواقع هو أن محاولة الطعن فى لغة القرآن الكريم قديمة قدم نزول القرآن ، فقد بدأت بيهود يثرب ثم امتدت الى عبد الله بن سبأ اليهودى الذى عاصر الامام عليا ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وتبناها الشعوبيون بعد الفتح الاسلامى العظيم ، وكانت موضع حقد الصليبيين أيام الحروب الصليبية . وبعد ذلك عمل من أجلها المستشرقون فى أواخر القرن

---

(١) الآية الكريمة التاسعة من سورة الحجر .

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لأهداف استعمارية ، فكتب (ولهلم سبيتا) سنة ١٨٨٠ كتابه : (قواعد العربية العامية فى مصر) باللغة الألمانية متنبئا فى هذا الكتاب بموت الفصحى كما ماتت اللاتينية من قبل • وفى سنة ١٨٨١ انبرت مجلة (المقتطف) تدعو الى كتابة العلوم بالعامية ، زاعمة أن الفصحى لغة النخبة وليست لسان الشعب •

وزج الاستعمار القديم كل قوته لتطويق الفصحى ، ففى سنة ١٨٩٩ جعل التعليم فى المدارس العصرية بمصر وبعض أقطار المشرق بالانكليزية وفى أقطار المغرب العربى بالفرنسية، ولم يكتف الفرنسيون بالمدارس بل فرنسوا الشارع والمكتبة والمكتب والكتب •

ويمضى المخطط الى غايته ، فيدعو مهندس الرى الانكليزى فى مصر (ويلكوكس) الى احلال العامية محل الفصحى ، فيتساءل : « لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الى الآن ؟ » ، ويجيب: «ان الفصحى هى السبب الكامن من وراء هذا التخلف ، لأنها لغة ترف ذهنى ، وليست لغة ابداع علمى ، ولأنها لغة عزلت الجماهير الهائلة من محاولات الفعل والخلق » ، ثم يزعم أن الحل الذى لا بديل عنه ، هو طرح الفصحى،والتمسك بالعامية» •

وفى سنة ١٩٠١ نشر القاضى الانكليزى (ولمور) كتابه : (العربية المحكية فى مصر) لضرب الفصحى والترويج للعامية •

وفى سنة ١٩٢٥ عاد (ويلكوكس) الى الميدان من جديد ، فترجم (الانجيل) الى العامية ، ونشر رسالة بالانجليزية يزعم فيها أن مصر وشمالى افريقية وسورية ومالطة تتكلم البونية لا العربية ، وألف بالعامية كتابه : (الأكل والايمان) الذى صدرت منه ثلاث طبعات الى سنة ١٩٢٩

وتصاعدت محاولات اضعاف الفصحى تمهيدا للقضاء عليها بظهور كتاب بالعربية يطعنونها من الخلف بخناجر مسمومة ، ففى الربع الثانى

من القرن الثانى تبنى الكاتب المصرى (سلامة موسى) مهاجمة الفصحى بطريقة أشد من طرق المستشرقين الأجانب ، فزعم أن الفصحى لا تخدم التفكير العلمى والفلسفى وليست قادرة على ايجاد مجتمع علمى ولا على التفكير السديد ،وهى لغة الانفعالات والعواطف والماضى والمبالغة والكراهية والمترادفات والاطناب والتعقيد ، وزعم : « أن اتخاذ الخط اللاتينى يحمل الأمة الى الأمام مئات السنين ويكسبها عقلية المتمدنين ويجعل دراسة العلوم سهلة وهو خطوة نحو الاتحاد البشرى » .

وضرب (أميل شميل) على نفس الوتر ، فزعم أن العربية الفصحى وصلت الى مرحلة العجز الكامل عن مواكبة التطور الحضارى ، ولذلك فلابد من هجرها الى لغة أجنبية أكثر قربا من التطور الحضارى ، وأن العربية ماضية فى طريقها الى الموت كما ماتت من قبلها لغات كانت لها نفس الخصائص والمكونات ، كاليونانية والسريانية والكلدانية والقبطية ، وأن بعث لغة ماتت لا جدوى فيه ، وأن اللغات الأوربية فيها تراث على مستوى صوابى أروع من التراث العربى فلا خوف من التخلى عن تراثنا اذا تخلينا عن العربية،وأن الكساد المادى والمعنوى جميعا منوط بأولئك الذين يجهدون أنفسهم فى دراسة اللغة العربية ، وأن الانفتاح والامتلاء جميعا منوطان بأولئك الذين يعملون فى مجال اللغات الأوربية الحية .

هكذا بكل بساطة،يريد (شميل) هذا ، شطب العربية من الوجود ، واتخاذ اللغات الأوربية لغة للعرب، دون خوف على التراث ، وعلى رأسه القرآن الكريم ، لأن فى اللغات الأجنبية تراثا أرقى من التراث العربى الاسلامى وأكثر جدوى منه .

ولكن ، لماذا يدعى (شميل) بأن العربية ماتت ولا يدعى نفس الادعاء بالنسبة للغة العبرية ! ومن قال : ان اليونانية والسريانية والكلدانية والقبطية قد ماتت ؟

ان اليونان والأقباط قادرون على تكذيب هذا الادعاء ، كما أستطيع أن أكذبه جازما بصفتى من أهل العراق ، بالنسبة للغتين السريانية والكلدانية ، وحسبى أن أذكر أن هناك (مجمعا) فى بغداد للغة السريانية ، وأن هذا المجمع أصدر عدة كتب بهذه اللغة وعقد مؤتمرا عالميا قبل عامين احتفالا بذكرى أحد علماء السريانيين الغابرين .

وظهر عبد العزيز فهمى الذى دعا : الى العدول الكامل عن الحرف العربى الى الحرف اللاتينى ، توخيا للسهولة المزعومة ، وتمشيا مع الفكر الحديث ، واستغناءا عن عبثية الضبط بالشكل الى صوابية الضبط بالحروف .

وانتهز (سلامة موسى) هذه الفرصة السانحة ، فرصة دعوة عبد العزيز فهمى ، فشن حملة ضارية على الحرف العربى ، مؤكدا أن أفدح عناصر الجذب الوراثى فى تاريخ المنطقة العربية هو رفض ارتفاق لغة حضارية حية والاستمساك بأحافير لغة الصحراء والناقة والحجاب والدم والجنون ، الى آخر هذه النعوت التى رددها بدون خوف ولا حياء .

وكانت خطورة آراء (سلامة موسى) تأتى من أنه كاتب عربى ، ولكن عبد العزيز فهمى كان أكثر خطرا ، لأنه مفكر عربى مسلم ، وهو يدرك بدون شك خطورة مثل هذه الدعوات على القرآن الكريم وعلى التراث العربى الاسلامى ، وعلى كل مقومات العرب والمسلمين .

وأخيرا ، جاء مؤتمر بيروت الذى عقد فى شهر جزيران (يونية) سنة ١٩٧٣ ، فدعا الى الاقتصار على الجملة الاسمية ، وقبول المفردات العامية فى اللغة المكتوبة ، والاكتفاء فى جمع المذكر السالم بصيغة الياء والنون ، وتوحيد صيغة الأسماء الخمسة فيقال : (أبو) فى الرفع والنصب والجر ، وجميع الكلمات والتراكيب العامية .

وظهر من يدعو الى تسكين أواخر الكلمات هروبا من صعوبات الضبط وتملصا من قوانين الحركة فى اللغة .

وظهر من يدعو الى تيسير قواعد العربية ، والى تيسير الكتابة بالحروف العربية ، والى تيسير علوم اللغة .

وأشهد أن الذين درسوا اللغة وعلومها بالأسلوب القديم الذى كان يتخذه الأزهر الشريف فى أروقته ، ويتخذه الشيوخ الأجلاء فى الزيتونة والقرويين والجوامع والمساجد فى أرجاء العالم الاسلامى ، اعتمادا على كتب اللغة وعلومها القديمة ، أتقنوا ما تعلموه اتقانا متميزا لا مثيل له ، فتخرج فى تلك المدارس والمعاهد والجامعات علماء أفذاذ فى اللغة وعلومها لا يشق لهم غبار علما وغيرة على العربية واعتزازا بها وحرصا على تعلمها وتعليمها .

أما الذين درسوا اللغة وعلومها بالأسلوب الحديث ، الذى طبقته المدارس والمعاهد والجامعات الحديثة، اعتمادا على كتب اللغة وعلومها الميسرة ، كالنحو الواضح والبلاغة الواضحة (مثلا) وغيرهما من الكتب الميسرة ، فلم يتقنوا ما تعلموه ، وليست لديهم غيرة على العربية وعلومها ولا حرص على تعلمها وتعليمها كما كان الذين تعلموا بالأسلوب القديم .

وقد شهدت مناقشات رسائل (الدكتوراه) فى الجامعة والأزهر الشريف خاصة باللغة وعلومها ، فسمعت أخطاء لغوية شنيعة نحوا وصرفا وقراءة !

وكان خط الذين درسوا بالأسلوب القديم كأنه اللؤلؤ المنضود حسنا وجمالا ، فأصبح خط الذين درسوا بالأسلوب الحديث كأنه آثار ذبابة غطست فى محبرة وتحركت فوق قرطاس أبيض قبحا وضعفا .

وهناك مصاحف لا تعد ولا تحصى، وكتب قديمة من التراث العربى الاسلامى لا حصر لها ، فى المتاحف والمكتبات العامة والخاصة ، مكتوبة بخط عربى جميل ، تثبت ما كان عليه السلف الصالح من اهتمام بالخط العربى الأصيل .

وقد أخرجت بعض المطابع مصاحف عديدة بالتصوير نقلا عن خطها اليدوى الجميل ، فكانت آية

فى الجمال والدقة والاتقان ، وكمثال على ذلك المصحف الذى أخرجته أوقاف العراق للناس ، فبهر المسلمين بجمال خطه وأدهش خبراء الخط المسلمين وغير المسلمين .

وفى المتحف البريطانى مصحف خطته امرأة أندلسية قبل قرون ، يستحيل على أى خطاط عربى اليوم أن يأتى بمثله ، وقد اعتذرت كاتبة هذا المصحف فى الصفحة الأخيرة منه فقالت : « كتبت المصحف وأنا أهز مهد طفلى الرضيع ، فجاء الخط كما لا أشتهى » !

ان المعلم والأستاذ يؤثران فى التلميذ والطالب بالمثال الشخصى وقد كان معلم العربية وأستاذها ، يؤمنان بأن الفصحى لغة القرآن الكريم ولغة الاسلام ، وأن اتقانها عبادة من أجل العبادات ، لذلك فتعلمها موضع اعتزاز وفخر ، وهى ليست صعبة ولا عويصة،وقد أتقنها كثير من العجم اتقانا رائعا بسهولة ويسر ، فكيف يصعب اتقانها على العرب وهى لغتهم وهم أبناؤها ؟ !

وأصبح المعلم والأستاذ أسوة سيئة للتلميذ والطالب ، لأنهما يعتقدان بأنها لغة الصحراء والكهوف والتخلف نتيجة للمناهج الاستعمارية التى طبقت عليهما فى التعليم ، فاستقر فى خلدهما أن الفصحى لغة صعبة عويصة ، واتقانها من المستحيلات التى لا تتحقق الا لذوى العزم ، وأن حسن الخط لا أهمية له ولا قيمة ، فهو وسيلة للقراءة فحسب ، وليس غاية من أعظم الغايات .

لقد كان المعلم والأستاذ اللذان تعلمنا عليهما الفصحى خريجى مناهج دولة مستقلة ، فتغذينا على يديهما بالاعتزاز والفخر بالفصحى وكل ما يمت اليها بسبب .

وتعلم أولادنا على معلم وأستاذ خريجى مناهج دولة مستعمرة ، فتغذوا على يديهما ازدراء الفصحى وكرهها وكل ما يتصل بها من علوم وفنون .

وحتى الذين لم يتقنوا الفصحى من جيلنا يرونها شيئا مقدسا وأساسا

لكل علم وأدب وفن ، وحتى الذين أتقنوها من الجيل الذى جاء بعدنا ، يرونها شيئا هامشيا لا صلة لها بالعلم والأدب والفن .

وقد استفتت مجلة عربية صفوة علماء العربية : هل تصلح العربية لغة للعلم ؟ فأجاب أكثرهم : أنها لا تصلح للعلم فى الدراسات الجامعية !!

وكان جوابى الحاسم : انها تصلح ، والضعف ليس فى العربية ولكن فى العرب .

والتقيت بأحد الذين يعتبرهم الناس من صفوة علماء العربية من الذين أجابوا : انها لا تصلح ! فسألته : هل قرأت كتاب المخصص لابن سيد ؟؟

وصدمت صدمة عنيفة ، لأنه قال : لم أقرأ هذا الكتاب ، ولم اسمع به !!

وكنت أظن أن هذا الكتاب اللغوى أشهر من أن يعرف،ولكننى كنت بواد ، وأمثال هذا الذى من (الصفوة) بواد آخر .

وقد درست المصطلحات العسكرية فى هذا الكتاب ، ونشرت قسما من هذه الدراسة فى مجلة : (الأزهر)، قبل سنوات ، فظهر لى أن المصطلحات العسكرية المتيسرة فيه، تغطى كل ما نحتاج اليه من مصطلحات عسكرية حديثة ثم يبقى منها احتياط للمستقبل .

وكان للمصطلحات العسكرية فى (المخصص) شأن أى شأن فى مجال توحيد المصطلحات العسكرية للجيوش العربية ،والمعجم العسكرى الموحد الذى صدر قبل خمس سنوات شاهد على ذلك .

وما يقال عن المصطلحات العسكرية فى (المخصص) ، يقال عن مصطلحات العلوم والفنون الأخرى وألفاظ الحضارة ، ولكن أين من ينقب فى هذا الكتاب وفى أمثاله من الكتب الأخرى من العلماء ، ليقتبس ألفاظه العلمية والحضارية فى مجال وضع المصطلحات العلمية والحضارية

ان المصيبة بالنسبة للصفوة من العلميين العرب ، هي أن أكثرهم تلقوا العلم في جامعات أجنبية بلغة غير عربية دون أن تكون لهم أسس قويمة في العربية وعلومها ، أو تلقوا العلم في جامعات عربية بلغة غير عربية على أساتذة مستغربين ؛ وهؤلاء مصادرهم أجنبية ، ويكادون يجهلون كل الجهل مصادر العربية وعلومها والمرء عدو ماجهل ، فمن الطبيعي جدا أن يعارضوا تدريس العلوم بالعربية في الجامعات العربية ، وأن يؤمنوا بأن العربية لا تصلح لغة للعلم ، لسبب بسيط هو جهلهم العربية وطاقاتها المذهلة المتيسرة في مصادر اللغة ومعجماتها خاصة ، وقدرة العربية الفذة على النهوض بألفاظ العلوم والفنون والحضارة وتاريخ العربية — لمن يعرفه — خير شاهد ودليل .

وكل عربي وكل مسلم ،يستطيع أن يفهم أهداف أعداء العرب والمسلمين في انتقاص العربية والتشنيع عليها .

أما أن يطعن عربي أو مسلم العربية من الخلف ، فهذا ما لا يستطيع عربي ومسلم أن يفهمه .

لقد سأل أحد النواب الأنكليز اللورد جراي عن تعليم اللغة العربية بمصر ، فأجابه : « لا تصلح اللغة العربية اليوم لتعليم العلوم لأنها تفتقر الى الاصطلاحات العلمية والفنية » .

وأصدر (دانلوب) وهو ابن قسيس متعصب لدينه ، وكان مستشارا لنظارة المعارف منشورا بتعليم جميع العلوم في المدارس باللغة الانكليزية ما عدا مختارات من اللغة العربية والدين الاسلامي في نطاق محدود .

وما فعله (دانلوب) في مصر فعله أمثاله في البلاد العربية التي ابتليت بالاستعمار الانجليزي والفرنسي والايطالي .

والدعوة الى العامية ، والى كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، لم تقتصر على مصر وحدها ، بل شملت البلاد العربية كلها ، والقاسم المشترك الظاهر بين جميع الدعاة الى العامية والحروف اللاتينية من العرب المسلين هو عدم التزامهم بتعاليم الاسلام أولا ، وانتمائهم الى

جمعيات مريبة كالماسونية ثانيا ، وارتباطهم الوثيق بالاستعمار الفكرى ثالثا .

ذلك ما ظهر فى هؤلاء الدعاة ،وما خفى كان أعظم !

ولا لوم على دعاة العامية والحروف اللاتينية من الاجانب ومن العرب غير المسلمين ، لأنهم يصاولون لغة القرآن من أجل هدفهم فى هجر القرآن ، ولكن اللوم كله يقع على الدعاة العرب المسلمين ، اذ لا أجد لهم عذرا مقبولا ولا حجة مقنعة .

هل من المصادفة أن تتفق محاولة توقيت احياء التوارة لغة وعقيدة بمحاولة توقيت اماتة القرآن لغة وعقيدة وتشريعا ؟

أيمكن أن يصدق أحد ، بأن اللغة العربية تعجز عن حمل رسالة العلم والحضارة ؟

لقد استوعبت العربية جميع الحضارات السابقة ، فأصبحت لغة الحضارة والعلم فى العالم ، وكانت الجسر الذى عبرت فوقه الحضارات والعلوم الى أوروبا ، كما يقرر ذلك المنصفون من العلماء الأجانب .

وقد تتلمذ (جيربر Gerber) على علماء العرب فى أشبيلية وقرطبة زهاء ثلاث سنين ، درس فيها الهندسة والفلك والميكانيكا ، فلما عاد الى أوروبا بهر الانظار بعلمه . وتدرج فى مناصب الكنيسة حتى ارتقى كرسى البابوية باسم سلفستر الثانى ، وقد حملت براعته العلمية الكثيرين على اتهامه بالسحر ، وينسب اليه فضل ادخال الارقام العربية الى فرنسا ، وكذلك الساعة الدقاقة .

وكان أمراء أوروبا كلما احتاجوا الى جراح أو مهندس أو مغن أو خياط ، وجهوا طلبهم الى قرطبة ، فذاع صيت هذه العاصمة الاسلامية ، ووصفتها راهبة سكسونية بأنها جوهرة العالم .

وقد غزت العربية لغات العالم كلها ، وكان العلم والحضارة من

وسائلها فى هذا الغزو ، وقد صدرت معجمات فى جميع اللغات العالمية وغير العالمية تسجل المفردات العربية فى تلك اللغات ، وآخر ما صدر من تلك المجمعات معجم : المفردات العربية فى اللغة الروسية.

فهل يمكن أن تشيع العربية فى جميع اللغات بدون استثناء عبثا ؟

ان اصهاينة يدرسون العلوم الحديثة فى جامعاتهم باللغة العبرية بعد احيائها •

فهل من المعقول والمنطق أن تنهض العبرية بالدراسات العلمية كافة ، وتعجز العربية عن النهوض بتلك الدراسات !

ولست أخاف على العربية من أعدائها ، ولكننى أخاف عليها من أبنائها •

ان العربية لغة (حية) فهى لا تحتاج الى احياء ، وهى لغة (عالمية) لأنها لغة خمسين ومئة ألف ألف من العرب ولغة ألف ألف ألف مسلم •

واذا كانت (العبرية)قد أصبحت لغة العلم ، يتباهى بها الصهاينة ويعتزون ، فمن العار على عربى أو مسلم أن يدعى بأن العربية لا تصلح لغة للعلم الا اذا كان ذلك العربى أو المسلم جاهلا أو عميلا أو امعة أو معتنقا مذهبا مريبا يعمل لمصلحة أعداء العرب والمسلمين لا لمصلحة العرب والمسلمين •

ومرة ثانية ، ان الضعف ليس فى العربية ، ولكن الضعف فى العرب والمسلمين •

مخالطة الناس افضل

ذكروا عندوهب بن منبه عزلة بنى اسرائيل وشتاتهم فقال وهب رحمه الله : « من خالط الناس فورع وصبر على اذاهم هم كان أفضل عندى » .

لغتنا العربية

ماذا يراد بها؟

لفضيلة الدكتور على العمارى

٣

قد يهول العاقل ، الحريص على مجد أمته ، الحفيظ على تراثها ، الحدب على دينها ولغتها •

قد يهوله مايقرؤه وما يسمعه فى الحين بعد الحين من تطاول على ما ورثناه من علم وأدب،وما يلمسه من الاستهانة بما بذل فيهأسلافنا كل مرتخص وغال •

فان أفرادا من قومنا ، ومن بنى جلدتنا ، دينهم ديننا ، ولغتهم لغتنا، ومجدنا مجدهم ، ودينهم الاسلام ، ولغتهم العربية ، يرفعون أصواتا واضحة حينا ، مضطربة أحيانا ، بأن تتخلى عن تراثنا ، أو عن بعضه ، فاللغة العربية الفصحى عندهم لغة تراث ، وليست لغة عصر ، وعلوم البلاغة العربية تاريخ أكثر منها رؤية مستقبلية ، زاعمين انها كتبت لعصر غير عصرنا ، ولأجيال غير جيلنا ، وفى أحوال لا تشبهها أحوالنا •

وان افرادا آخرين يفعلون ولا يقولون ، يهدمون بما يصنعون أفخر امجادنا ،موقنين أنهمسيكونون القدوة والأسوة فيما يتخذون من مناهج فى الاستهانة باللغة العربية الفصحى ، والابتعاد عنها •

ولقد رصدت الأسباب التىدفعت بهؤلاء الى ما يقولون وما يصنعون فبان لى منها أمور :

فمنهم — بل أكثرهم — ينادى بذلك جهلا بتراثنا ، وقصورا عن فهمه ، ومنهم من يتظرف بالزراية على القديم ،يرىأنه يكون ذامكانة عند الناس حين يتظاهر بأنه رجل عصرى • ومنهم الساخطونالناقمون على القديم كراهية للأسلام ، وبغضا للعرب والعربية •

ومنهم المقلدون لفريق من هؤلاء ، يهرفون بما لا يعرفون ، يرون أن القول بما يقوله فلان وفلان من ذوى الصيت البعيد والصوت الجهير لحوق بهم ، ومشاركة فى مضمارهم .

وقليل منهم خلصت نواياهم ، وسلمت صدورهم ، ولكن التبست عليهم الأمور ، واشتبهت فى طريقهم المعالم ، فظنوا أن من الخير للأمة أن تجدد لغتها كما تجدد ثيابها ، وأن تبتكر فى شريعتها ما يرضى عنه الضائقون بالشريعة الاسلامية .

وأحب أن أؤكد أنى ، وكل الذين يطلقون عليهم محافظين ، لا ندافع عن القديم لأنه قديم ، ولا تتنكر لبعض الجديد لأنه جديد .

فانه وان كان ما هدتنا اليه الدراسة أن القديم فى جملته خير وأنفع ، وأعمق وأوعى من الجديد فى جملته نؤثر الجيد النافع من أى انسان صدر وفى أى مكان أو زمان قيل .

وفى مجالنا هذا أؤكد أن الذين نادوا بالتخلى عن تراثنا لم يكتبوا شيئا يمكن الانتفاع به ، والاعتماد عليه .

ولنأخذ علوم البلاغة مثلا .

لقد قرأنا ، ومازلنا نقرأ أن علوم البلاغة القديمة لا جدوى من دراستها ، ولا غناء فيها ، وأنه ينبغى التخلى عنها ، واحلال بلاغة عصرية محلها ، وقد ألفت فى هذه الدعوة كتب ، ونشرت أبحاث تعيب على علماء البلاغة المتقدمين مناهجهم فى تدوين البلاغة ، ومع كل هذا الهرج والمرج والصراخ الطويل العريض لم نقرأ لواحد منهم كتابا يحدد لنا فيه ملامح بلاغة عصرية نعتمد عليها فى الافادة والتدريس ، ولم نر واحدا منهم وضع ــ ولو فصلا واحدا ــ يغنينا عن فصل شبيه به من فصول البلاغة القديمة . اللهم الا اذا كان كتاب (البلاغة العصرية) لسلامة موسى هو الأمل المنشود ، والمنقذ الموعود ، والجدير بأن نحله محل أسرار البلاغة ، ودلائل الاعجاز ، وسر الفصاحة والمثل السائر ،

والصناعتين ، والايضاح والعمدة ، وأشباه هذه الكتب .

فان هجس فى خاطر واحد منهم مثل هذا الضلال ، فياخيبة الأمل ، ويا ضلال المسعى ، ويا سفاهة الرأى .

فاذا أشرنا الى ما صنع بالنحو العربى كانت حجتنا أقوى ، ودليلنا أنصع ، لقد عاب بعض الباحثين على النحاة ، ولا يزال أفراد الجيل الناشىء يعيبون عليهم ، فهل وضعت فى عصرنا كتب أو كتاب واحد يغنى عن كتب المتقدمين ؟

لقد قلت فى مقال سابق ، ان كل المحاولات التى بذلت فيما سمى باحياء النحو أو تحرير النحو ماتت فى مهدها ، لم تنفع أحدا ، ولم يقتنع بها معهد واحد من المعاهد التى تدرس لأبنائها النحو العربى .

وقل مثل ذلك فى كل العلوم التى قتلها المتقدمون بحثا ودرسا .

والمدعون بأنهم أنصار الجديد لا يرضيهم الا أن يؤمن الناس بجديدهم ، وأن يسجدوا له مقدسين لجلاله ، معترفين بكماله ، سواء منهم التام والخديج ، والسمين والغث ، ان كان فيه تام وسمين .

ونحن مهما سايرنا هؤلاء ، وأحسنا الاصغاء الى ما يهرفون به فلن يكون ذلك نكرانا للحق والنفع والخير ، ولن نستطيع أبدا أن نقول للعائر الأرمد : أنت زرقاء اليمامة ، والا كنا مثله عورا أو عمشا أو عميا

والعلم والأدب والرأى لا يصلح منها شىء اذا كان المتصدون له لا يعالجونه الا رغبة فى الجدل ، أو تكثرا من العلم ، أو تظاهرا بالتجديد .

وأسوأ ما نلقاه من دعاة التجديد أنهم يناضلون عن عجزهم ، أو من عجز الآخرين ، فكل ما لا يحسنونه قديم بال ينبغى القاؤه فى البحر ، ومن العبث أن نحاول الارتفاع بمستوى العاجزين ، بل علينا — فيما يزعمون — أن نضع القواعد والضوابط التى تجعل عجزهم مشروعا بقانون .

ومما لا شك فيه أن ما يصدر عن الأمم فى أيامها الأولى أجمل وأروع

مما يصدر عنها حين تختلط عليها الأمور ، ويسود أبناءها الضعف والجهل .

ومما لا شك فيه ـ أيضا ـ أنه لا يوجد عاقل يتنكر للجيد من الجديد أو يخف من وزنه ، ويحط من قدره ، فالذى يعجب بالقديم لا يعجب به عصبية أو حقدا على الجديد ، وانما يعجب به لأنه جيد ، فهو ـ اذن ـ يعرف لكل جيد قدره ، وينزله منزلته اللائقة به .

والذى يدفع كل شك فى ذلك أننا قرأنا كثيرا صدر من علماء عصرنا وأدبائه فى قضية القديم والجديد ، فوجدنا من يسمونهم محافظين ، أو متعصبين للقديم ، وجدناهم يشيدون بفضل الجيد من الجديد ، ووجدنا دعاة التجديد يغضون من شأن القديم كأنهم يرون أن جديدهم لا يقف شامخا عاليا الا على أنقاض القديم ، وقل منهم المنصفون .

ففى الأبحاث النحوية ـ مثلا ـ وجدنا أكثر من يتصدون للتجديد يبدأون بالازراء على النحويين القدامى ويلقون عليهم التهم جزافا فى حين نرى المحافظين على تراثنا يباركون صنيع كل من يأتى بجديد نافع فى قضايا النحو ، أو فى طرق تدريسه .

* * *

وقد كنت على نية المضى فى التنبيه الى ما تضمنته كتب - (من أسرار اللغة) و (لغتنا المعاصرة) و (النحو المعقول) من تجن على النحاة ، ومن مجانبة الصواب فيما ذكرت هذه الكتب وزعمته أخطاء .

ولكن لفت نظرى مقال ورد فى احدى المجلات الشهرية يعيد فيه كاتبه قضية (فصحى التراث) و (فصحى العصر) .

وقد كنت عرضت لهذه القضية فى أول مقال من هذه المقالات التى أكتبها فى مجلة الأزهر ، كما عرضت لها فى مقال نشر بمجلة الاذاعة ، وظننت أن ما أوردته من حجج على ابطال هذا التفريق كفيل بأن يعيده الى الصواب ، ويقنعه بأنه من الخطأ والخطر أن نبرز لغة أخرى نجعلها

مقابلة للغتنا العربية ، وأن ندعو الى أن تكون اللغة (المستهدفة) فى التعليم والتأليف والاذاعة .

فيبدو أن الكاتب لم يقرأ ما كتبت أو قرأ ولم يقتنع ، أو قرأ واقتنع ولكن غلبه حب الجدل على ايثار الحق ، والرجوع الى الصواب .

لفت نظرى هذا المقال فرأيت أن أعيد الحديث موجزا عن هذه القضية .

وأول ما تعجب له من أمر هؤلاء الذين يتصدون للقضايا الكبرى أن أقلامهم لا تتورع عن اتهام الذين يريدون أن يحافظوا على العربية كما كان ينطق بها العرب ، والتى نزل بها القرآن الكريم ، وصيغت بها احاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكتبت بها ملايين الكتب .

لا تتورع أقلامهم عن اتهامهم بالجمود ، وقذفهم بأشنع الأوصاف ، فهم ــ كما ورد فى المقال ــ أصحاب (نظرة متشنجة ، تدعى لنفسها الغيرة والحفاظ والتشدد فى الحق بينما هى تطعن التطور اللغوى فى صميمه) وأصحاب (نظرة متعصبة متزمتة) وهم (يعوقون بفكرهم المتخلف ، وعجزهم عن التجدد والتطور كل جهد مثمر يبذله المخلصون) وهم (مازالوا يصرون على أن تكون مسيرة هذه اللغة مغايرة لمعنى التقدم ، بل مضادة له أيضا حين تمضى قافلتها ، ورأسها الى الوراء بحثا عن المثل الأعلى فى صفحات تراث قديم ، وتكرارا لحصاد سابق فى اللغة والفكر) (١) .

أكل هؤلاء العلماء ، وجلهم من كبار رجال التعليم فى الأزهر ، وفى وزارة التربية والتعليم . أكل هؤلاء أصحاب فكر متخلف ، وعصبية وجمود ، وليس صاحب فكر تقدمى الا كاتب المقال ، وحفنة من أمثاله لا تعد على الأصابع ؟

(١) مجلة الهلال عدد يوليه سنة ١٩٧٧ ، مقال : (لغتنا الجميلة والمشكلات المعاصرة) .

أهذا جزاء رجال قضوا أعمارهم فى تعليم اللغة العربيــة والحفــاظ عليها ؟ • وممن يجىءهذا الاتهام؟• من أحد تلاميذهم الذى لقن العربية من أفواههــم ، ومضى فى الطريــق مهتديا بأضوائهم •

وقد كان الكاتب فى مقال سبق تكرم على القراء بأن لهم لغتين : (فصــحى التراث) و (فصــحى العصر) •

وفى هذا المقال ـ نقلا عن أحد الباحثين ـ رفع العدد فجعله خمسا، فهناك ـ كما نقل ـ فصحى التراث، وفصحى العصر ، وعامية المثقفين ، وعامية المتنورين ، وعامية الأميين •

ولو أقســم انسان أنه لا يعرف فرقا بين هــذه المستويات الثــلاث الأخيرة لبر فى قسمه •

وهأنذا أنقل له عبارات أرجــو أن يرشدنى من أى مستوى هى ؟

بدأ الكاتب كلامه بقوله : (مش قوى كده) ، وقد جاء فيه : (والحياة عندما أصبح الموت نفسه أهم منها بكثير،نحتفل به ، ونقيم له الشوادر، ويلعلع صوت المقــرىء ، وتوزع القهوة ، والمــاء المثلج) • كما جاء فيه (تعالوا بنا نبدأ من أول وجديد) وقوله : (احنا مالنــا مزنقينها على نفسنا كده ليه،ما تبجبحوها شوية، ده كده الموت أرحم من الحياة) • وقوله:(من يريد أن يهلس فليهلس)•

وسيحار الكاتب ولا شك فى تعيين مستوى هذه العامية،وغالبا ما يقول انها لغة السوقة ، وربما قال انهــا عامية المثقفين أو المتنورين ، ولكن هل يدرى أنها لكاتب مشــهور فى مقال نشرته صحيفة وقور ، كانت فى بعض عهــودها ميــدانا للأدب الرفيع •

ولا أدرى لم تحمــل صــحيفة الأهرام القاهرية وزر محاربة اللغة الفصحى بما تنشره لبعض الكتاب الذين قد يقتدى بهم الناشئة ، من مذكرات أو كلمات تصطنع العــامية الهابطة ؟ •

ان أصغر كاتب من هؤلاء لا يعجزه — فيما أظن — أن يكتب مقاله كله بلغة عربية صحيحة ، ان لم أقل فصيحة ، فلم الارتكاس الى درك العامية وهى كما نعرف ليست لغة أدب .

وأى كسب أدبى يعود على هذه الصحيفة الوقور من افساحها المجال أمام العامية ، وتكون بذلك قدوة سيئة لمن يعالجون كتابة المقال الأدبى ؟

أما يكفى ما نسمعه فى الاذاعة والتلفزيون مما يؤذى آذاننا ، ويحزن قلوبنا ؟

اننا لنأسف لهذا العداء الصريح للغتنا العربية الصريحة ، ولئن كان يقبل على الرغم منا من غير المثقفين ثقافة عربية أن يتحدثوا بالعامية الدارجة فانه لا يقبل ممن يعالجون موضوعات ثقافية دينية أو لغوية ، وقد شدوا شيئا من العربية، لا يقبل منهم أن يصطنعوا العامية فى أحاديثهم .

واذا لم يكن فى قدرة هؤلاء أن يتحدثوا بعربية صحيحة فعليهم أن يتركوا هذه المجالات حتى يقدروا ، وعليهم أن يستضيئوا بقول الشاعر القديم :

اذا لم تستطع شيئا فدعه
وجاوزه الى ما تستطيع

ولكن نرى أن كثيرين ممن يكتبون أو يذيعون لا يحسنون الا الادعاء والتبجح ، ونراهم يدخلون فى ميادين لم يعدوا أنفسهم لها الاعداد الكافى فهم كما قيل (كساع الى الهيجا بغير سلاح) .

ومن هنا ضيعت اللغة العربية على ألسنتهم ، وفى أقلامهم .

ثم أعود الى فصحى العصر ، وفصحى التراث .

لقد قلت فيما سبق أن اللغة العربية فى أى عصر من العصور لم تكن ذات مستوى واحد . وانما كانت لها مستويات حتى فى العصر الجاهلى ، فقد وجدنا البون بعيدا — مثلا — بين معلقة لبيد بن ربيعة، ومعلقة الحارث بن حلزة ، من حيث غرابة الألفاظ والفها ، ومن حيث

جزالة الكلمات ورقتها ، ومن حيث غموض التراكيب ووضوحها . والأمثلة كثيرة لا تكاد تحصى .

وقد قلت فى بعض المواقف ، ان من الشعر الجاهلى شعرا لو قرأه من شدا شيئا من العربية لفهمه ، ولا يكاد يحتاج الى البحث فى المعاجم عن كلمة من كلماته ، وضربت مثلا بقول النابغة الذبيانى وهو من كبار شعراء الجاهلية :

المرء يأمل أن يعيش
وطول عيش قد يضره

تفنى بشاشته ويبقى
بعد حلو العيش مره

وتسوءه الأيام حتى
ما يرى شيئا يسره

كم شامت بى ان هلكت
وقائل لله دره

ومثل هذا الشعر فى العصر الجاهلى كثير ، وانما قلت ذلك لأن محدثى — وكنا فى جماعة المثقفين — زعم أن الشعر الجاهلى كله غامض ، وأن علينا أن نقى تلاميذ المدارس من دراسته .

ولأن صاحب المستويات ادعى أن من أخطائنا فى التعليم أن نبدأ الطالب بلغة التراث كما يسميها ، فأردت أن أثبت لهم أن فى لغتنا العربية ، وفى تراثنا مستوى سهلا كل السهولة ، واضحا كل الوضوح ، وأننا — لو أخلصنا — نستطيع أن نصطنع هذا المستوى فى التعليم ، وعند مخاطبة العامة وأشباههم ، ولا حاجة بنا الى أن نفرد لغة نسميها (فصحى العصر) فنباعد بين الناشئة وبين لغتنا العربية الصحيحة الفصيحة .

ولا تصرفنا الدعوة الى أن نستعمل لغة عربية ميسرة فى التعليم أو فى مخاطبة العامة ، عن الدعوة — وبنية صادقة — الى أن يرتفع الكتاب والمؤلفون الى لغة البلغاء من أمثال الجاحظ والتوحيدى والمتنبى والشريف الرضى .

ثم : من قال ان اللغة الفصحى تعوق الشاعر أو الكاتب أو المتحدث عن الانطلاق)

انما يعوق بعض هؤلاء عن الانطلاق جهله بالعربية ، وضآلة ثروته من مفرداتها وتراكيبها .

ان كثيرا ممن يتصدون للشعر والكتابة والحديث لا يحفظون من اللغة الا النزر اليسير ، ولو أنهم عنوا بالقراءة والحفظ من شعر الشعراء ، ورسائل البلغاء ، ووصايا الحكماء لاستطاعوا أن يؤدوا ما يجول بخواطرهم فى يسر وسهولة، ودون مشقة أو معاناة .

لقد عاب مرة أمامى أحد المتشاعرين الشعر العربى ، ورماه بالجمود والتحجر فطلبت منه أن ينشد ثلاثة أبيات متتابعة من أى قصيدة عربية قديمة فعجز ، فقلت له : كيف تحكم على شىء أنت أجهل الناس به ؟

ثم :

هل يريد الكاتب من المجامع اللغوية ، ومن المهيمنين على العربية أن يصدروا قانونا يجعل الجهل بلغة التراث — كما يسميها — تقدما وحضارة ؟ !

وعليهم — كما يطلب ويلح — أن يضعوا القواعد للغة أخرى يسمونها (فصحى العصر) لتصبح اللغة المستهدفة فى التعليم والتأليف والكتابة .

اننا نسأل سؤالا واحدا : هل تسير هذه الفصحى العصرية فى مفرداتها وتراكيبها على أصول العربية أو تحيد عنها ؟

فان كان الجواب أنها تسير على نهج العربية فهى عربية ، ولا داعى لوضع اسم جديد لها مما يشعر بأنها لغة أخرى غير العربية التى نعهدها ، وان كان الجواب أنها تحيد حينا أو أحيانا عن منهج العربية فهى — حينئذ — مرفوضة ممقوتة من كل حريص على لغته ، خائف عليها من الضياع .

ان الكاتب يريد أن نقترب من العامية ، بل نجعلها مدخلا لتعليم الطفل العربية ، والحريصون على العربية يرون وجوب الارتفاع عن العامية وتبغيضها الى المتعلمين حتى ينشأوا على حب العربية الصحيحة.

وقد قال مرة أحد كبار رجال التربية : يجب أن نقول للتلميذ فى

أول عهده بالمدرسة : هذا شباك ، ولا تقول له : هذه نافذة • فقلت له : هب انك تريد أن تعرفه معنى هذه الصورة بالانجليزية الست تشير له الى النافذة ، وتقول له : يطلق على هذه فى لغة الانجليز كذا • فلتقل له: والعرب يسمونها نافذة ، وتكرر أمامه الكلمة كلما جاءت لها مناسبة نيحفظها ، وهكذا حتى يعرف قدرا كبيرا من ألفاظ اللغة مما يتناسب مع مداركه •

ان حديث المستويات يصلح أن يكون بحثا نظريا لا تترتب عليه أى نتائج فيما يتصل بتعليم العربية، وهو ــ بعد ــ حديث لا يثبت عند الفحص والتحليل والا فما الفوارق والفواصل بين عامية المثقفين وعامية المتنورين ؟

قد يذكر الباحث فروقا ولكنها فى النهاية تتضاءل حين نرى أن ما يجرى على ألسنة المثقفين كثيرا ما يجرى على ألسنة المتنورين ، بل على ألسنة الأميين •

فى رأيى أن مثل هذه الأبحاث انما هى تفتيت للغة ، وتكثير لا طائل تحته •

واذا كنا نرفض ــ وباصرار ــ أن يقال : ان اللغة التى يجب أن تسود فى التعليم وفى التأليف هى فصحى العصر فاننا نرفض كذلك ، وبكل عنف أن نجعل للعامية سواء كانت عامية المثقفين أو المتنورين مكانا فيما يكتب الناس أو يؤلفون، أو يتحدثون الى الجماهير •

لا بد أن نحارب العامية فى الكتابة وفى الصحافة وفى الاذاعة ، ونكتب بلغة عربية فصيحة ، ونتحدث الى المستمعين بلغة عربية صحيحة ميسرة، ثم نحاول أن نرتفع بمستوى هؤلاء المستمعين فندخل فى أحاديثنا الأساليب العالية الرفيعة ، وبذلك نحافظ على لغتنا ، ونرتفع بعقول قومنا وأذواقهم •

ولسنا نحارب التطور ولا التقدم، وانما نحارب الكسل والجهل ، والدعاوى الضارة، واصطناع العامية فى الكتابة ، لا سيما فى المجلات

الثقــافية ، والصحف اليومية التى لا ينكر تأثيرها على القراء •

انها لظــاهرة مروعة أن تفتــح صحيفة كبيرة فنجد فيهــا كل يوم كلمة أو كلمات لا تتورع عن ايراد كلمات عامية تظرفا أو جهــلا بمرادفاتها العربية •

أو نستمع الى احدى الاذاعات العربية فى قطر شقيق فنفاجأ بأحــد القائلين يفسر القرآن باللغة العامية، المسرفة فى عاميتها ، ولقد أضحكنى وأبكانى هذا القائل حين ســمعته يعبر عن بعض الاستفهامات الواردة فى القرآن الكريم بعامية عجيبة •

أضــحكنى لأن الأسلوب الذى استعمله يهبــط بالتعبير الى أدنى الدركات ، وأبكانى لأنه أساء الى المعنى القرآنى حين أبرزه فى هــذا المعنى العامى الساذج •

وانهــا لنكسة خطيرة أن يدعونا بعض من يظهرون الحرص على لغتنا الجميلة ، يدعونا الى أن نعزل لغتنا العربية الفصحى عن مجالات التعبير العصرى ، وأن نستكين الى جهــل الجاهلين ، وتخبطات المتخبطين الذى يجعلون جهلهــم مبررا لهجرهم الفصحى ، وادعائهم أنهــا لا تفى بالمعانى العصرية مع أن لغة العربى الذى كان يأكل الشيح والقيصوم تستطيع أن تؤدى أدق المعــانى ، وأعمق الأغراض •

د • على محمد حسن العمارى

التطور والتقدم العلمى
من أسباب القوة

للواء محمد جمال الدين محفوظ

من الحقائق المعروفة أن محتويات « القوة » وأسبابها تتطور على مر العصور ، فلقد كانت قوة الأمم فى الماضى تقاس بقوة جيوشها ، لكن الأمر لم يعد كذلك فى عصرنا الذى نعيش فيه ، حيث أصبحت قوة أية دولة تقاس بمتانة اقتصادها ووحدة شعبها ومدى تقدمها العلمى (والتكنولوجى) وغيرها من العوامل المادية والمعنوية الى جانب قوتها العسكرية .

وتتسابق الأمم فى عصرنا نحو التفوق فى مجالات التطور والتقدم العلمى ، بعد أن أصبح من الضرورات الحيوية لأمن الأمة ألا تتوقف أهداف العلم والمعرفة والبحث العلمى عند حد حل المشكلات أو استخلاص النظريات والقوانين ، بل يجب أن تمتد الى تحقيق غاية عليا هى التجديد والتطور .

وأصبح من سمات العصر أن جميع مرافق الدولة وقواتها المسلحة تحتوى على أجهزة متخصصة للبحوث والتطوير لا تضن عليها الدولة بالمال ولا بالعلماء والمتخصصين ، لايمانها بالارتباط الوثيق والمباشر بين التقدم وبين أمنها وسلامتها ووجودها ومستقبلها .

والأمة العربية والاسلامية أحوج ما تكون فى هذا العصر الى الأخذ بكل أسباب التطور والتقدم ، والى أن تلقى بكل ثقلها فى هذا المجال الحيوى وهى تسعى نحو نهضتها الحضارية الشاملة .

● فالتكليف القرآنى للأمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » تكليف قائم ومستمر الى أن تقوم الساعة ، وهذا يقتضى

ـ منطقيا ـ أن تتطور « القوة » فى شكلها ونوعها وتركيبها لتناسب روح العصر الذى يحتويها • وان لم تفعل الأمة ذلك تخلفت عن مقتضيات عصرها ، وفقدت القوة التى أمرها ربها باعدادها قيمتها وفاعليتها ، ومن ثم تتعرض للخطر والهلاك •

● والتطوير يمكن الأمة الاسلامية من أن تكون لها أسرارها الصناعية والحربية وغيرها ، مما يمنحها ميزة التفوق على أعدائها •

● كما أن التطوير يحقق للأمة الاكتفاء الذاتى فى مجالات بناء القوة ، فتكون المصادر المختلفة لانتاج القوة فى أرضها ومن ابتكار أبنائها ونبوغهم ، وبذلك تتحرر الأمة من التبعية لغيرها ، تلك التبعية التى تنطوى على مخاطر كثيرة ، وتضعها فى مهب تقلبات المصالح والأهواء ، وموازين القوى •

● والحق أن القرآن لم ينبه عقول المسلمين وقلوبهم الى شىء بعد التوحيد مثلما نبههم الى سنة التطور فى الكائنات جميعها ، وفى الأكوان قاطبة ، فى الانسان الفرد وفى المجتمعات •• وقد دعاهم الى كشف آثار هذه السنة والانتفاع بها وحذرهم من تجاهلها أو الوقوف فى وجهها ، وليس ذلك سوى النتيجة الطبيعية لكون الدين دعوة لتغيير الانسان ، وتغيير عاداته الفاسدة ، ومعتقداته السيئة ، وأوهامه وتصوراته الجامدة المعوقة لحركته نحو الكمال •

لذلك كانت لعنات الله تعالى تترى على الذين يأبون التطور والتغيير بحجة أنهم يتمسكون بما ورثوه عن الآباء ، وهو ما يفهم من قوله جل شأنه :

« انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون »(الزخرف ٢٣)
ـ « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (البقرة ١٧٠)

● ووصف الله سبحانه وتعالى المقلدين بأنهم يرددون ما تلقوه كالببغاوات أو العجماوات فقال جل شأنه :

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (البقرة ١٧١) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يكن أحدكم امعة ، يقول : ان أحسن الناس أحسنت ، وان أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم انأحسن الناس أنتحسنوا ، وان أساءوا أن تتجنبوا اساءتهم » .

● ولا بد هنا من التنويه بأن منهج الاسلام فىالعلم والبحث يؤكد صلتهما بالأخلاق وتلك احدى الخصائص الرفيعة والنبيلة لهذا المنهج الذى لا يرضى للعلم أنيكون علما ضالا مفسدا تسخره الشهوات ويقود الىالخراب والدمار ، وصدق الله اذ يقول : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » .

● ولقد قدم لنا الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا يحتذى فىمجال التطور والتقدم وملاحقة العصر ، فقد كان جيش الاسلام الأول فى معركة بدر ـ أول مواجهة عسكرية مع العدو ـ جيشا صغيرا لا يزيد عن ثلاثمائة وخمسة من المقاتلين ومعهم سبعون بعيرا وفرسان اثنتان فقط ، وكانت أسلحته يسيرة جدا ، ثم تطور هذا الجيش ليلحق بمقتضيات عصره بتخطيط رائع محكم يتجلى فيما يلى :

١ ـ كانت الاستراتيجية العسكرية لكل من فارس وبيزنطة وهما أعظم قوتين عالميتين فى ذلك الوقت، تقوم على أساس أن عنصر الفرسان يشكل « القوة الرئيسية الضاربة » فى جيوشهما ، فحرص النبى صلى الله عليه وسلم على ملاحقة هذا المستوى المعاصر الذى تتفوق فيه الجيوش الأجنبية المحيطة بالدولة الاسلامية ، وليس أدل على ذلك من اجراء مقارنة بسيطة بين قوة الفرسان فى جيش الاسلام فى أول معركة وآخر معركة فى عهد النبوة :

ـ ففى غزوة بدر كانت نسبة الفرسان الى قوة الجيش لا تكاد تذكر ، اذ كانت أقل من واحد

بالمائة (فرسان مع ٣٠٥ من المقاتلين) .

ـ أما فى غزوة تبوك فقد كانت قوة المسلمين ٣٠٫٠٠٠ مقاتل منها ١٠٫٠٠٠ فارس أى أن النسبةقفزت الى الثلث (٣٣ بالمائة) وقد حدث هذا التطور فى أقل من سبع سنوات، وهذا التطور يفسر سر اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم الشديد بتدريب المسلمين على ركوب الخيل والحرب بها ومن ذلك قوله :

« الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة ، الأجر والغنيمة » ـ « عاتبوا الخيل فانها تعتب » (١) .

كما رغب عليه الصلاة والسلام فى اقتناء الخيل والعناية بها ، فجعل للفارس عند توزيع الغنائم سهمين وجعل للراجل سهما واحدا ، وذلك لكى يستعين الفارس بالسهم الزائد على اعاشة فرسه واعدادها للحرب ، وكان من أثر ذلك أن كان بعض الفرسان الأشداء يخرج للقتال بفرسين يحارب عليهما ويأخذ أسهمهما كما فعل الزبير بن العوام فى غزوة حنين وفى حروب الشام المختلفة .

٢ ـ وكانت مهارة الفرس فى الرماية مهارة فائقة،ويقول الطبرى فى ذلك :

« بلغ من مهارة الفرس فى الرماية أن أحدهم كانت ترفع له الكرة فيرميها ويشكها بالنشاب (أى السهم) » . وقد أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أن الفرس يتفوقون على العرب فى هذا المجال كما يستفاد من قوله عن الفرس :

« هم أقوى منكم رمية » ، ومن ثم كان اهتمامه الفائق بتدريب المسلمين على الرمى بصورة توحى برغبته الشديدة فى رفع مستوى كفاءتهم فيه الى أعلى المستويات فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام .

---

(١) عاتبوا الخيل : اى ادبوها وروضوها للحرب والركوب فانها تتأدب وتقبل العتاب (النهاية فى غريب الحديث والأثر) .

ـ « ألا ان القــوة الرمى » وكررها ثلاثا .

« ان الله ليدخل الجنة بالسـهم الواحد ثلاثة نفر ، صانعه المحتسب فى عمله الخير ، والرامى به والممد به، فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب الى من أن تركبوا » .

ـ « كل ما يلهو به المرء المسلم باطل ، الا رميـه بقوسه ، وتأديب فرسه ، وملاعبة أهله » .

« وخرج صلى الله عليـه وسلم مع نفر من أسلم ينتضلون بالسوق (أى يتسابقون فى الرمى) فقال : ارموا بنى اسماعيل ، فان أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع بنى فلان ، فأمسك أحـد الفريقين ، فقـال : مالكم لا ترمون ؟ فقـالوا : كيف نرمى وأنت معهم ؟ فقال : ارموا وأنا معكم جميعا .

وقـال أنس : ما ذكرت القوس عند النبى عليه السـلام الا قال : « ما سبقها سلاح الى خير قط » .

ومن أعظم ما يـدل على اهتمام الرسول بالتدريب على الرمى أنـه مر بموضع كان الصـحابة يتدربون فيه على الرمى ، فنزع نعليه وقال : روض من رياض الجنة .. يقصد أن العمل الذى يعمل فى هذا الموضع (وهو التدريب على الرمى) يوجب روضة من رياض الجنة ، وكان عليه الصلاة والسلام يشجع المسلمين على اقتناء الرمح والقوس بالاشادة بهما فى قوله لمـا رأى القوس : « بهذا وبرماح القنـا تفتحون البـلاد » ، وقوله « جعـل رزقى تحت ظـل رمحى » .

وقد بلـغ من تقـدير المسلمين للتدريب أن بعضهم كان يتدرب حتى فى يوم العيـد ، ثم ان الرسـول صلوات الله وسلامه عليه يؤكـد على ضرورة «الاستمرار» فى التدريب ويحـذر من الانقطـاع عنـه حتى لا يضعف مستوى الكفاءة فى الرمى فيقول :

« من ترك الرمى بعد ما علمـه فانما هى نعمة جحدها » ويقـول

أيضا : « من علم الرمى ثم تركه فليس منا ، أو فقد عصى » .

٣ - كذلك عنى النبى عليه الصلاة والسلام بملاحقة التطور فى أسلحة القتال ، فكان حريصا على تزويد الجيش بالأسلحة المعاصرة والتى لم يألفها من قبل ، وعلى تدريب المسلمين عليها ثم استخدامها فى القتال .

فقد أرسل عليه الصلاة والسلام بعثة من اثنين من المسلمين هما عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة الى جرش ليتعلما صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات وكلها من أسلحة القتال التى لم يألفها المسلمون من قبل .

وقد استخدم الرسول المنجنيق والدبابات فى حصار الطائف ، كما روى أنه نصب المنجنيق فى حصار خيبر للتهديد ولكنه لم يرم به فعلا فقد روى ابن خلدون (أن الرسول هم بنصب المنجنيق على خيبر فلما أيقنوا بالهلكة سألوه الصلح) .

● ولقد سار المسلمون على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التطوير والتقدم فلم يكتفوا بملاحقة عصرهم بل انهم تناولوا الأسلحة بالتحسين والتهذيب حتى أدهشوا فى ذلك الفرس والروم حين كثر استخدامهم لهذه الأسلحة فى قتالهم وفى حصار المدن المحصنة ذات الأسوار العالية فى حروب العراق والشام وفتح مصر وغيرها .

وقد اعترف بذلك الامبراطور البيزنطى (ليو) مع ما عرف عنه من تعصب ضد العرب والمسلمين ، فقد نقل عنه فون كريمر (فى كتابه الشرق تحت حكم الخلفاء) قوله : « ان الجندى العربى ما كان يفترق عن الجندى البيزنطى فى المؤن والسلاح فالأسلحة هى نفس الأسلحة القوس والسهم والسيف والبلطة والخوذة وقاية للرأس ، والدرع وقاية للبدن والحديد يلبس فى الأذرع والسيقان » .

● ولعل أبرز ما يذكر فى هذا المجال هو اتقان المسلمين - وهم أبناء الرمال - لركوب البحر وحرب الأساطيل ، وامتلاكهم لناصية هذا

الجانب الهام من الحرب علما وصناعة وتطبيقا ، حتى لقد هزمت الأساطيل الاسلامية أسطول بيزنطة فى المعركة البحرية ، وأصبحت البحرية الاسلامية قوة يحسب حسابها .

يقول ابن خلدون « كان الروم مهرة فى ركوب البحر والحرب فى أساطيله ، ولم يكن العرب أول الأمر مهرة فى ركوبه ، فلما استقر الملك لهم وشمخ سلطانهم صارت أمم العجم تحت أيديهم وتقرب كل ذى صنعة اليهم بمبلغ جودة صناعته ، فاستخدموا فى حاجتهم البحرية كثيرا من هؤلاء وأنشأوا السفن وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح وأسسوا دارا لصناعة الآلات البحرية بتونس ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الله ابن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا » .

ويقول ابن خلدون أيضا : « ان المسلمين تغلبوا على لجة بحر الروم (يعنى البحر الأبيض المتوسط) وان أساطيلهم سارت فيه جائية وذاهبة من صقلية الى تونس . والرومان والصقالبة والفرنجة جميعا تهرب أساطيلهم أمام البحرية العربية ولا تحاول الدنو من أساطيل المسلمين التى ضربت عليهم كضراء الأسد على فريسته » .

اللواء محمد جمال الدين محفوظ

انفع الناس واضرهم

انفع الناس لك رجل مكنك من نفسه حتى تزرع فيه خيرا أو تصنع اليه معروفا فانه نعم العون لك على منفعتك وكما لك فانتفاعك به فى الحقيقة مثل انتفاعه بك أو أكثر ، واضر الناس عليك من مكن نفسه منك حتى تعصى الله فيه فانه عون لك على مضرتك ونقصك .

ابن القيم ــ الفوائد

الشيخ أمير خسرو الدهلوى وشعره العربى

للدكتور ظهور أحمد أظهر

ان تاريخ المسلمين الثقافى والأدبى والعلمى فى شبه القارة غنى جدا اذ هو ملىء بالأمجاد والآثار الخالدة كما أنه ملىء بالعباقرة الأفذاذ من العلماء والفنانين والشعراء ، ومن بين هؤلاء العباقرة الأفذاذ كان الشيخ أمير خسرو بن الشيخ سيف الدين محمود البخارى ثم الدهلوى ، ان الشعب المسلم فى هذه المنطقة ليزهو ويفتخر بما قام به العلماء من أمثال الشيخ أمير خسرو الدهلوى فى خدمة اللغة العربية وعلومها وفنونها وآدابها واننا لا نبالغ اذا قلنا ان الشيخ أمير خسرو قد كان أعجوبة من عجائب الوجود وآية من آيات الله فى خلقه فقد كان هو ، الى جانب المكانة المرموقة بين متصوفى شبه القارة وعلمائها ، الموسيقار المبدع العملاق لم يبلغ شأوه أحد من القدماء والمحدثين فى هذا الفن ، وقد أبدع أصوات الغناء وألحان الموسيقى التى لا تزال متداولة شعبية حتى اليوم والتى عول عليها الأجيال القادمة من الفنانين كما أنه أبدع أوتارا وأدوات موسيقية قد عرفت باسمه وخلدت ذكراه . وكذلك فانه قد كان شاعرا موهوبا ملهما يقول الشعر بالعربيةوالفارسية والتركية والسنسيكريتية والهندية وغيرها من اللغات المحلية حتى أنه عرف بشاعر اللغات السبع (هفت زبان شاعر) وعدد أبيات شعره باللغات المختلفة يزيد على مئات من الألوف !

مولده ونشأته :

وقد ولد هذا الشاعر الموهوب والفنان العبقرى فى قرية اسمها « بتيالى » من قرى الهند فى ناحية من نواحى دلهى ، ونشأ فى أسرة كريمة محافظة كانت قد هاجرت الى الهند من بلاد ماوراء النهرين فاستوطنت الهند وأقامت بها

وعاشت تحت رعاية سلاطين دلهى وأمرائها عيشة الأغنياء والمترفين وذلك فى عهد السلطان محمد بن غياث الدين الملك المسلم الذى عرف بعنايته بالعلم وأهله والانفاق من خزائنه على العلماء والفنانين وتقديره لهم ؛ وقد بدأ الشيخ أمير خسرو الدهلوى يتدرج فى مهد الثراء والفضل فقرأ القرآن على المنهج المتداول فى أبناء زمانه من المسلمين ثم تعلم اللغات المحلية والفارسية والعربية وتخرج فى العلوم الدينية المتداولة على علماء مدينة دلهى وفضلائها ، ففاق أقرانه حتى أصبح نادرة زمانه وعلما من أعلام التاريخ الاسلامى .

ومنذ طفولته كان يميل الشيخ الى الشعر والموسيقى والتصوف ، فبعد فراغه من التعليم العادى المتداول وتخرجه انقطع الى الشعر والموسيقى وبلغ فيهما غاية لا غاية بعدها ، وأضاف اليهما قيثارة جديدة ، وأتى بالعجائب من ابداع الصنائع والبدائع وايجاد الألحان والأصوات الموسيقية الجميلة ، حتى احتل مكانة كبرى فى هذين الفنين ، واعترف بفضله أهل زمانه والأجيال القادمة ، وقد ابتدع الشيخ ، كما قلنا ، بعض الأدوات الموسيقية جميلة الوقع وخلابة التأثير وهى تعرف باسمه الى الآن يتداولها الفنانون فى بلادنا بكل اعجاب وتقدير .

تصوف الشيخ وزهده :

ومن الطبيعى أن يميل الشاعر الفنان العالم المتدين الى الزهد والتصوف ، وعليه فنراه ينقطع الى عبادة الله والزهد فى الدنيا ، وأراد أن ينسلك فى سلسلة من سلاسل المتصوفين والزهاد فتوجه الى شيخ المشائخ وسيد الأولياء نظام الدين محمد بن أحمد البدايونى الدهلوى الذى يعتبر من كبار المتصوفين والزهاد فى شه القارة ، فالتحق أمير خسرو بحلقة الشيخ البدايونى واكتسب منه فيوضا روحية ، وتقدم فى درجات التصوف حتى أصبح من أخص أتباعه ومريديه ، وكان الشيخ البدايونى يحبه حبا شديدا ويفيض عليه من قلبه أنوار الحضرة السرمدية . ومما لا شك فيه أن انقطاع الشيخ أمير خسرو الى سلسلة التصوف والرجوع الى الله والزهد فى الدنيا كان قد أضاف أبعادا جديدة الى شعره من لطافة المعانى ورقتها

وسلاسة الألفاظ ودقتها ورونق الأسلوب وجماله .

مكانته الاجتماعية :

وقد كان الشيخ أمير خسرو — رحمه الله — من المحظوظين السعداء الآمنين فقد كان ملوك عهده وأمراء عصره يقربونه من حضرتهم ويفيضون عليه من صلاتهم وجوائزهم وعطاياهم . كما أنه كان قد حظى بسمعة طيبة وعزة ومكانة فى نفوس عامة الشعب . وقد لقى كل تقدير وتكريم من الحكام والمواطنين : ويقال ان سلطان دلهى الملك محمد بن غياث الدين أراد أن يستدعى الشيخ السعدى شاعر اللغة الفارسية الشهير فاعتذر اليه ، واقترح عليه أن يختار الشيخ أمير خسرو الذى كان فى عنفوان شبابه فى ذلك الوقت وقال له : « انى لأرى فيه كفاءة وبراعة ويبدو عليه علامات واضحة تدل على عظمته ومكانته فى المستقبل » .

وفاته :

وقد توفى الشيخ أمير خسرو ابن سيف الدين الدهلوى فى الثامن عشر من شوال المكرم سنة خمس وعشرين وسبعمائة وقد بلغ الرابعة والسبعين من عمره ، رحمه الله .

آراء أهل العلم فى شخصيته :

ويقول ضياء الدين البرنى المؤرخ المعاصر للشيخ أمير خسرو : « ان الشيخ أمير خسرو قد كان ملك ملوك الشعراء وأمير أمرائهم ولم يبلغ أحد علو كعبه فى كثرة المؤلفات وجودتها ولم يوجد له نظير فى اختراع المعانى الدقيقة وابداع الرموز الغريبة ! » ؛ وكان الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى يلقب الشيخ أمير خسرو بسلطان الشعراء وبرهان الفضلاء ووحيد النوع البشرى : وذكره فى كتابه المعروف بأخبار الأخيار فقال : « انه كان عالما فريدا وخطيبا مصقعا وقد توفر له من ابداع المعانى وابتكار الألفاظ فى ميدان الشعر والنثر ما لم يتوفر لأحد من القدماء والمحدثين ؛ ويقول عنه عمدة المتأخرين الشيخ الشريف مولانا عبد الحى اللكنوى والد الشيخ العلامة أبى الحسن على الندوى : « ان الشيخ الامام الفاضل أمير خسرو بن سيف الدين محمود البخارى الدهلوى أشهر الشعراء

فى الهند ولم يكن له نظير فى العلم والمعرفة والشعر والموسيقى وفنون أخر ، قبله ولا بعده ! » •

مؤلفاته :

وقد أكثر الشيخ أمير خسرو من تأليف الكتب ونظم الشعر حتى أنه ترك تراثا غاليا غنيا جدا ومن بينها : اعجاز خسروى (وهو مجلد ضخم يشمل النثر العربى والفارسى ويتخلله الشعر باللغتين العربية والفارسية) ومحينات الكلام فى الصنائع والبدائع) وأفضل الفوائد وخمسة دواوين من الشعر الفارسى وهى : تحفة الصغر (الشعر الذى قاله فى الطفولة) ووسط الحياة (شعر الشباب) وغرة الكمال (وهو يشمل الشعر الفارسى الذى قاله عند الشباب الناضج) ونهاية الكمال (شعر الكهولة) والبقية النقية (وهو الشعر الذى قاله فى الشيخوخة) ؛ وله خمسة دواوين أخرى باللغة الفارسية من الطراز المثنوى عارض بها الدواوين الخمسة للشاعر الفارسى الشهير « نظامى كنجوى » وهى : مطلع الأنوار وشيرين خسرو وليلى مجنون وآئينه سكندرى (وهشت بهشت) أى الجنات السبع وهذا الديوان الأخير وحده يشمل ثمانية عشر ألف بيت من الشعر وأكمله فى مدة سنتين فقط ! ، ومن مؤلفاته قران السعدين وتاج الفتوح وخزائن الفتوح ونه سبهر وديول رانى خضر خان وتغلق نامه •

شعره :

ومن أغرب ما اكتشفناه فى خلال دراستنا المتتابعة لكتب التراجم وسير الرجال التى عنيت بتراجم علماء العربية وشعرائها فى شبه القارة خاصة هى لا تكاد تذكر الشيخ أمير خسرو الدهلوى كشاعر اللغة العربية وكاتبها ، وحتى الشاعر المفلق والأديب المؤرخ حسان الهند غلام على آزاد البلكرامى قد أهمل الشيخ أمير خسرو ولم يذكره فيما ذكر من شعراء الهند وأدبائها فى كتابه « سبحة المرجان فى آثار هندوستان » ومع ذلك فاننا نرى هؤلاء المؤلفين الذى اعتنوا بتراجم شعراء الهند وعلمائها قد ترجموا لأشخاص لم يساهموا فى الأدب العربى الا بشرح كتاب أو التعليق عليه أو قالوا بيتا أو بيتين من الشعر

فقط ، أما الشـيخ أمير خسرو فان أبياته التى قالها باللغة العربية لا يقل عددها عن ست مئة بيت من الشعر الى جانب النماذج الرائعة من النثر العربى الفنى :

على كل فان الشيخ أمير خسرو قد كان شاعرا عربيا مجيدا كما أنه كان كاتبا عربيا بارعا ، وله شـعر جميل رصين وعليه طابع خاص يجمع بين الفصـاحة العربيـة واللطـافة الفارسية ؛ ومعظم شعره العربى نجده فى ديوانه « غرة الكمال » وبعضه فى كتابه الخالد « أعجاز خسروى » متفرقا كاللآلىء المتناثرة فى قيعـان البحار كما أنه يوجد بعض شـعره العربى فى مؤلفاته الأخرى فى الشعر والنثر . وأما نثره الفنى العـربى فكذلك قد جاء معظمه فى « اعجاز خسروى » ونخص بالذكر من بين ذلك رسالته النادرة الرائعة فى معانى الحروف الأبجدية العربية .

وكما ذكرنا أنه ـ رحمة الله ـ كان يقول الشعر بشتى اللغـات ، ولسنا الآن بصـدد دراسة شـعره الفارسى فهو بحر لا ساحل له وهو غنى بالأصـداف النقية والجـواهر المتلألئة التى لا حصر لها ، ولكنـه لا بأس اذا درسنا منه بيتا أو بيتين على سبيل المثال فمنه هذا الدوبيت أو الرباعى :

ايوان مراد بس بلندرست
آنجا بهوس رسيدنتوان

أين شربت عاشقى است
بى خون جكرچشيد نتوان

ان قصر الأهـداف لرفيع جـدا ولا يمكن لأحد أن يصله أو يحقق أهدافه بالأمانى الكاذبة والأهـواء الباطلة :

فهو كأس العشق التى لا يمكن مسها الا بالكد والكدح والتضحية والجهاد !

ورغم أن شعره العربى شعر رائق شيق الا أنه كان متواضـعا جـدا فنراه يعترف بعدم كفاءته ومعرفته بالعربية :

ترك هندوستانيم من ، هندوى كويم چو آب
شكر مصرى ندارم كز عرب كويم سخن

انني من الأتراك الهنديين وأقول شعرا رصينا بالهندية أما باللغة العربية فلست أملك السكر المصرى (أى فصاحة المصريين وحلاوة كلامهم) حتى أقول الشعر بها !

ورغم هذا كله فانه قد كان يواظب على دراسة الشعر العربى كما صرح به فى كتابه « اعجاز خسروى » ومقدمة ديوانه « غرة الكمال » ، فانه يقول : قد درست دواوين الشعراء العرب من أمثال كعب بن زهير وابن الوردى وحسان ابن ثابت الأنصارى والمتنبى وأبى تمام والبحترى وغيرهم ، وقد خرجت من مطالعة هذه الدواوين بثقة وعزم أن أخلط المسك العربى بالصندل العجمى على طريقة لا يمكن التمييز أو التفريق بينهما وليجمع شعرى بين الفصاحة العربية واللطافة الفارسية !

وهذه الأمثلة الثلاثة من شعره تجمع بين الأسلوب العربى والأسلوب الفارسى فقوالبها عربية ومعانيها عربية :

ذو الزور تذكره بطيب شمائل
كالكذب تكتبه بمسك ضائع

انشاء رب من عجائب صنعه
الورد تسكت والروائح تنطق

كمسك ليس يخفى فى ثياب
وريح الورد فى حجب كثيرة

ومن قصيدته الميمية فى ديوانه غرة الكمال :

ذاب الفؤاد وسال من عينى الدم
وحكى المدامع كل ما أنا أكتم

أفنيت عمرى وحانت منيتى
خان الزمان وللمنية أسقم

واذا أبحت لدى الورى كرب النوى
تبكى الأحبة والأعادى ترحم

يا عاذل العشاق دعنى باكيا
ان السكون على المحب محرم

من بات مثلى فهو يدرى حالتى
طول الليالى كيف بات متيم

يا صاح لا تطعن علينا فالهوى
هذا من الرحمن حكم محكم

لا تشربن مدام ود خرائد
قد ذقته أن الصبابة علقم

ما جاء صحبى راحلو من بيننا
جاء البهار وقد تبسم جوجم

وقد كان الشيخ أمير خسرو مولعا بالصنائع اللفظية والبدائع المعنوية

وقد ابتكر عدة أنواع فمنها صنعة سماها « ترجمة اللفظ » وهى أن يأتى الشاعر بلفظة فى شعره من اللغة العربية ثم يأتى بعدها بلفظة أخرى من اللغة نفسها الا أن القارىء قد يتوهم أن اللفظة الثانية كلمة فارسية قد جاءت كترجمة اللفظة الأولى :

اذا دعا بعطـاياك انجما نــادى
غدا النجوم كما فى مسرة شادى

ومحل الاستشهاد المطلوب هنـا فى الكلمتين الأخيرتين من المصرعين كليهما فمثلا كلمـة « انجما » هى جمع نجم بالعربية ولكن بالفارسية كلمة « انجمن » معنـاها المجلس أو النادى ، وكلمة نادى (على صيغة المـاضى هنا) اذا قرئت بكسر الدال تصـبح ترجمـة لكلمة « انجمن » الفارسـية ، وهـكذا فى كلمتـى « مسرة » و « شادى » فشـادى بالفارسية معناها : المسرة وبالعربية اسم الفاعل من الشدو ص ٩ •

ومن الصناعات الشعرية البديعية التى ابتـكرها الشيخ أمير خسرو الدهلوى صنعة سماها «ذوالرؤتين» أو ذو الوجهين وهى أن ينظم الشاعر بيتا من الشعر يمكن قراءته باللغتين العربية والفارسية فى نفس الوقت والمعنى يختلف فى كلا الوجهين ومثال ذلك ما قاله الشيخ :

رشيدى نديدى مرادى نجـائى
رمانى بيـأسى تبارى نسائى

فهو فى هذا البيت يخاطب صديقا له قائلا بأنه هو مقصــوده وقبلته وبذكائه الباهر يمكن أن يخلصه من نسوته اللاتى تبارين وقد ييأس من خيرهن :

وهذا البيت نفسه يمكن أن تقرأه باللغة الفارسية وذلك بتغيير بعض النقط فقط :

رسيدى بديدى مرا ، دى بجائى
زمانى بباشى بيارى بشـائى

والمعنى : أنك جئت بالأمس ورأيتنى فى مكان خاص وكان يجب أن تبقى عندى لمدة فانك تسـتحق الود والصداقة :

د • ظهور احمد اظهر

المرأة فى الإسلام

لفضيلة الدكتور رءوف شلبى

— ٢ —

(ب) الواجبات على الزوجة نحو زوجها

على حافتى طريق الورود الذى تتهادى فيه الحياة الزوجية يغرس الاسلام لافتات الحقوق على المرأة تجاه زوجها من أجل حياة عشها الأمين وعرشها الوردى فيلزمها بما يلى :

● **احترام مشاعره :**

ففى الحديث الشريف : لا يحل لا مرأة تؤمن بالله أن تأذن فى بيت زوجها وهو كاره ولا تخرج وهو كاره ولا تطيع فيه أحدا ، ولا تعتزل فراشه ، ولا تضربه فان كان أظلم فلتأته حتى ترضيه « الحاكم » •

ففى الحديث حث على الوفاء الجميل واحترام للعشرة وتأكيد للميثاق الغليظ •

ومن الاحترام لمشاعره الا تنعت له صاحبتها ففى الحديث الشريف :

لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر اليها •

(رواه احمد والبخارى والترمذى)

● **التزين له وحده :**

الزوجية معاشرة بالمعروف ومقتضى هذا المعروف أن تكون مفاتن المرأة لزوجها وحده •

انها ان استبقت محاسنها لزوجها فقط فقد ادخرت لها وله عمرا طويلا فى مباهج السعادة الزوجية •

أما اذا بذلت مفاتنها للمجتمع فقد فتنت قلب الرجل مطلقا وصارت النسب فى تفاوت المحاسن مشتهى لكل من يهوى وانتقلت اللذة من

عشها الوردى الحلال الى قارعة الطريق كأنها حبات تفاح عطبت وعف عنها الذوق الكريم فصارت نهبا لكل جائم من أبابيل الذباب .

ومن هنا ترسم اللوحة الفنية لزينة المرأة فى الجو الاسلامى على نحو ما يبين الحديث الشريف :

اذا تعطرت المرأة لغير زوجها فانما هو نار وشنار .

(الطبرانى)

والمرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى زانية (أحمد) .

وما غض البصر للمؤمنين والمؤمنات فى سورة النور الا منعا لتطاول البصر عن محاولة كشف المستور من الزينات وليس من معناه أن يكون القفل عن المكشوف منها اذ القرآن لا يبيح حراما وينهى عن التطلع اليه ليبقى عرفا مسنونا .

● **الوفاء وعدم التطاول عليه :**

وصدق المعاشرة يستلزم حسن الأخلاق ومن محاسن الأخلاق الاعتراف بالجميل ، وقد أرسى الاسلام الحنيف هذه القواعد فى حياة الأسرة ، فقرر الحديث الشريف :

« لا يحل لامرأة أن تهجر فراش زوجها » .

« اذا باتت المرأة هاجرة زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح » .

« اذا دعا الرجل امرأته الى فراشه فلم تأته لعنتها الملائكة حتى تصبح » .

(البخارى وأحمد)

ومن الملاحظ فى هذه الأحاديث أن الأحكام فقها غير منتهية بجزاء مادى كما فى السرقة والزنا بل الأحكام فيها متروكة لفطرة التدين والخوف من الله .. ومعنى هذا أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو صاحب حق فى التشريع لم يضع عقابا ماديا لمن تخالف هذه الأحكام، فان الأسرة لا تقوم أحكام تنظيمها على أساس من العقاب المادى بقدر ما تقوم على أساس من الخلق ورعاية محارم الله جل شأنه .

ولهذا فان أى تشريع وضعى يحاول أن يضيف قيودا جديدة على أنظمة الاسلام فى تشريع للأسرة فهو

عبث وتدخل لا مبــرر له وافساد للجمال الذى شرعه الله تعالى :

● **الحفاظ على مــاله :**

التصرف فى بيت الزوجية متروك لمستوى العلاقة والثقة بين الزوجين، وقد وضعت السنة المطهرة موازين هذا التصرف انه لا ضرر ولا ضرار، ولا اسراف ولا مفسدة .

يقول النبى صلى الله عليه وسلم:
اذا أنفقت المرأة من طعام بيتهــا غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما كسب ، وللخازن مثل ذلك لا ينقص بعضــهم أجــر بعض شيئا .

من مشــكلات الأسرة

● **الخلافات الزوجية :**
● **الطلاق :**
● **تعــدد الزوجات :**
● **منهــج التغلب على الخــلافات الزوجية :**

القاعدةالعامة فى الاسرةالاسلامية والتى يمكن لكل زوجة أن تجعلها نبراسا شخصيا لها : حــديث النبى صلى الله عليه وسلم :

خير النساء امرأة اذا نظرت اليها سرتك واذا أمرتها أطاعتك واذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك .

(الطبرانى)

ولكن هناك شذوذ عن القــواعد العامة لأن الحياة بصفة عامة لا تخلو من الكدر ، والحياة الزوجية مثــل الحياة العامة والتشريع الاســلامى تشريع يلمس الواقــع ويضــع له الموازين بالقسط والعدل .

ومن النشاز الشاذ عن القــاعدة الأسرية نشوز الحيــاة الزوجيــة وهو نشوز قد يكون من الرجــل أو قــد يكون من المرأة أو منهما معا .

وقد وضع الاسلام لمعالجة هــذا النشوز منهاجا .

(ا) فان كانت المرأة هى الناشز كان على الرجل معالجة هذا النشوز:

بالموعظة الحسنة أو

بالهجر فى المضجع أو

بالضرب لا على الوجــه ولا مع تقبيح بلفظ خارج .

وهذا النهج الثلاثى صالح لثلاث مستويات من نماذج النساء .

فهناك نموذج يكفيه الكلمة الطيبة اذا سمعتها الزوجة من زوجها فكأنما هدهد على العواطف ومسح بيد الحنان على أساها وغسل بمعسول كلامه وسوسة الشيطان .

وهناك نموذج لا تعى أذنها الكلمة الطيبة ولا يعبأ بالهجر فلم يبق الا تنبيه الأعصاب بضرب غير مبرح لا يقع على الوجه ولا يصاحب بتقبيح .

وهناك نموذج لا تعى أذنها الكلمة الخطة الأولى والثانية وجب على الرجل أن ينهى قطيعة زوجته بالاتصال وهذا الاتصال هو ارهاص بألم عبر عنه القرآن بالضرب لأنه الوسيلة الطبيعية وحددته السنة بأنه ألم لا يحدث كسرا ، ولا يبقى فى السمع صدى لفظ جارح فهو نوع من المغازلة فى صورة الضرب لأن الموقف موقف خصام .

وهذا النهج الثلاثى الخطوات يصلح لذلك بالتدريج فى معالجة الزوجة الواحدة :

أولا يعظها .

ثانيا يهجرها .

ثالثا يضربها .

ولا ملامة من المرأة على الاسلام اذ أذن للزوج أن يضرب لأن الاسلام قدم لها الموعظة والهجر كحلين بل كعاصمين من فشل الحياة الزوجية .

وأباح الضرب لا من أجل أذاها بل للحفاظ على مقدسات الأسرة وحمايتها من الضياع .

فصورة الضرب هنا هى آخر علاج يقدمه الاسلام للاعلان عن اهتمام الاسلام ببقاء الأسرة سليمة دون تفكك والاهتمام بها عند التفكك حتى لا تصير الى الضياع .

فاذا لامت المرأة أحدا فلابد وأن تلوم نفسها لأنها عند النشوز لم تصغ للموعظة الحسنة ، ولم ترتدع بعد الهجر ، فماذا يبقى لصيانة الأسرة : الضرب فهو تنبيه أعصابها قبل أن يفيض الكيل ويتسع الخرق على الراقع .

(ب) وان كان النشوز من الرجل أو منهما معا :

فان الاسلام لا يترك أسرار الأسرة نهبا للقيل والقال فى المؤسسات الاجتماعية بل ضيق الشروط وقلل فى أعداد الحكمة فقال الله تعالى :

« وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما حكيما » .

(٣٥ النساء)

فمن المعروف أن بين الزوجين أسرارا والاسلام لا يسمح بافشائها ولا بالاطلاع عليها لأجنبى عن الأسرة ولذا قرر :

١ ـ ارسال حكم من أهل الزوجة .

٢ ـ ارسال حكم من أهل الزوج .

(ب) واشترط فيهما ارادة الاصلاح بين الزوجين لا التعصب للتغلب والنصرة لواحد على الآخر .

اذن ليس كل واحد من أهل الزوجة ولا من أهل الزوج يصلح لهذه الحكومة بل هناك شرط أساسى وهو أن يكون معروفا بميله للصلح فى الخصومات .

فهل يسمح الاسلام بعد هذا أن تتعدى مسألة العلم الى لجان أو منظمات أو محاكم بعيده عن الأسرة .. ؟

انه بالقطع لا يسمح أبدا .

واذن فكل تقنين يخالف هذا فهو مرفوض من قبل الله ورسوله وجماعة المسلمين .

الطلاق أبغض الحلال

الحياة الأسرية سكن :

انها سكن للروح وللفكر وللمشاعر كما هى سكن للجسد والغرائز .

والسكن هو نعمة اللـه الكبرى على الانسان وقد وصف اللـه الحياة الأسرية بأنها سكن وبأنها لباس .

وتبقى قيمة السكن وقيمة اللباس ما بقى أثرها محمودا مؤنسا .

أما اذا عجزت عن اعطاء الروح والفكر والمشاعر مباهج الحياة الأسرية ولم يمكن التغلب على

أسباب هذا التضرر فماذا يكون الحل .. ؟

هل يبقى الزوج وزوجته حبيسين فى سجن داخل بيت يسمى بيت الزوجية ؟

أو يتصرف كل واحد على انطلاق تام فى الاباحة لهواه ؟

أو يتفرقا فيغنى الله كلا منهما من سعته .. ؟

أخذ الاسلام بالحل الثالث :

لم يقبل الأسلام أن يبقى الزوجان فى سجن دائم .

ولم يقبل الأسلام أن يترك الهوى يعبث بقيم النفوس بل شرع الطلاق بعد المحاولات التى بذلت سالفا ولم تنجح .

يقول الله تعالى :

« وان يتفرقا يغنى الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما » .
(١٣٠ ــ النساء)

فهو حل يحترم الطبع البشرى لأن الله جل شأنه خلق الناس ولم يشأ لهم أن يتعاشروا على الهون والضيق .

والاسلام اذ يشرع الطلاق انما يلجأ الى الحلال البغيض الذى لا مفر منه تجنبا للاسرة عن الأذى .

وفى الحديث الشريف :

«أبغض الحلال الى الله الطلاق».
(أبو داود ، وابن ماجه)

وكان الطلاق حلالا لأنه حماية للأعراض والأنساب من السقوط اذا عاشت الأسرة فى ظل عقم من الحب والمودة ، وسجن الزوجان على كره وهون فانزلقا الى هاوية الشهوة ، فكان الطلاق حلال لأنه يعطى فرصة يتنفس بها كلا الزوجين ، فربما بعد الطلاق يجد كل منهما من يسعده ويؤنسه .

وكان أبغض لأنه فراغ بعد أن أخذ الله من كلا الزوجين ميثاقا عظيما .

ولهذا فلم يسمح الاسلام أن يكون الطلاق والرجعة ألعوبة تتبع الهوى والرغبة فأعفى من مسئولية

ذلك النساء ولم يجعله فى يد الرجل هكذا دون شروط وأدب بل جعل الطلاق بمقدمات للصلح ، وحدده فى ظروف بيولوجية خاصة بالزوجة وزمن مخصوص ، وعلق عليه آثارا تحمى حق المرأة فى الحياة وفى الشرف والعرض .

فالزم الرجل بالنفقة والسكنى .

وألزمه بالمهر المتبقى .

وألزمه بمتعة جبرا للضرر الأدبى الذى قد يلحقها بسبب الطلاق وألزمه برعاية الولد الرضيع .

وجعل العدة على المرأة حفاظا على شرفها واستيثاقا بخلوها من صلة نسبية بزوجها الأول أو فترة قد يتراجعان فيها .

وقد جعل الاسلام هذه الشرائع كلها فى اطار المعروف ولا تنسوا الفضل بينكم ، والعفو من الذى بيده عقدة النكاح والتآمر بالرضى والمودة .

ولم يلجأ الاسلام فى تشريعات الأحكام المترتبة على الطلاق الى عنف أو قسوة مما يفيد أن أمر الأسرة كله ينبغى أن يقوم على :

« فامساك بمعروف أو تسريح بأحسان » .

فاذا ما تخلخلت الأمور فى العصر الحديث فانما هو لفساد المسلمين فى بعدهم عن الدين وعن روح الاسلام ومنهجه .. فهل يصلح المسلمون بشرع وضعى أو بعودة كاملة الى دين الله ؟

ليس فى المسيحية شرع للطلاق :

ذلك شرعنا شرع الأمة التى قالت لربها سمعنا وأطعنا أما الذين قالوا لله : « سمعنا وعصينا » فقد خلقوا لأنفسهم قانونا ليس من عند الله ولا من عند رسوله عليه السلام، فان ما يدعى بأن المسيحية ليس فيها طلاق ليس صحيحا بالاطلاق ، فقد ذكر فى الانجيل على فرض التسليم بأنه لصاحبه الذى ألفه محاورة بين الفريسيين وهم طائفة من اليهود مع سيدنا عيسى عليه السلام ، حول ما جاء عن موسى من شريعة الطلاق وما رأى فى ذلك ، وهى

محاورة مبتورة لا تصلح أن تكون حكما بأن عيسى حرم الطلاق أو انه يقول ما ينسخ ما جاء به موسى كما لا تنهض نصا يصلح للاجتهاد فيه لاستنباط حكم منه .

فمن يدعى أن المسيحية تحرم الطلاق هو عمل القساوسة وقد سجل الله عليهم فى القرآن الكريم هذا .

يقول الله تعالى :
« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » (التوبة

وذلك بما شرعوه لهم من دون الله .

على أن الحياة المعاصرة للمسيحيين اليوم جعلتهم يقتربون فى حياتهم الأسرية الى النظام الاسلامى فقد أباحت الكنيسة فى ايطاليا الطلاق كما أباحته من قبل كنيسة ألمانيا البروتستانتية . فماذا تريد الحركة النسائية العربية المعاصرة من تقييد حكم الطلاق فى الاسلام ؟ .. وهو عمل لم يرد به نص ولم يرد حوله شىء من عمل الصحابة ، ولا قال به أحد الفقهاء السابقين ، وقد عاشت الأمة الاسلامية ردحا طويلا من الزمن مع دول جارات مثل فارس والروم وأوروبا وحكومات الاسلام المتعاقبة فى الدولة العباسية والأندلس لم تغير من حكم الله شيئا فى الطلاق .

فماذا تريد الحركة النسائية العربية المعاصرة من تقييد الطلاق وقد حرم الله ذلك ؟ أفغير دين يريدون ؟

« ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » .
(النحل)

تعدد الزوجات

من الخطأ الشائع والخطأ المقصود أن يقال أن الاسلام صانع تعدد الزوجات .

ومن الخطأ المقصود ما يثيره أعداء الاسلام بربط قضية تعدد الزوجات بالنظام الاسلامى .

والحق أن تعدد الزوجات كان ظاهرة عالمية قبل الاسلام ، بل انه فى العصر الحديث مسألة تمارس عن

طريق الخليلات والعشيقات اللائى يسمح بهن — كنظام اجتماعى — قانون الدول الحديثة ، ولكنهم لا يطلقون عليه تعدد الزوجات مع أنه أفحش فى قيم الأخلاق وأضر بالمجتمع من اباحة تعدد الزوجات :

ولقد أباحت الشرائع السماوية قبل الاسلام تعدد الزوجات .

فقد تزوج سيدنا ابراهيم ساره وهاجر .

وأباح تلمود اليهود تعدد الزوجات على اطلاقه دون قيد .

وليس فى الانجيل على تعدد نسخه وكاتبيه ما يفيد منع التعدد .

— بل انملك ايرلنده فيارمات كان له زوجتان .

— وكان لشارلمان زوجتان وعدد كثير من المحظيات .

— وكان فيليب ملك هيسى وفردريك ويليام الثانى ملك بروسيا يمارسان تعدد الزوجات تحت بركات القساوسة اللوثريون .

— وفى مونستر عام ١٥٣١ دعا القساوسة الى تعدد الزوجات .

— بل أن مفكرى أوربا جوستاف لوبون ، وتوماس يذهبان الى اباحة التعدد عندما انفرط عقد البغاء وعللوا رأيهم فى اباحة ذلك بقولهم :

« ان اباحة التعدد تجعل كل امرأة ربة بيت وتجعلها أما لأولاد شرعيين، ويعفيها من التردى فى هاوية الانحرافات وأعشاش العشاق وظلام المستقبل .. ! » .

وهناك فرق مسيحية فى المجتمع المسيحى المعاصر تدافع عن تعدد الزوجات . ومن هذه الفرق .

(ا) فرقة المورمون

بالولايات المتحدة الأمريكية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر وكانت ترى أن تعدد الزوجات نظام الهى فى الديانة المسيحية .

(ب) فرقة أنا بافستى الألمانية التى ظهرت فى القرن السادس عشر وكانت تدافع عن تعدد الزوجات كنظام بديل عن نظام العشيقات .

اذن فتعدد الزوجات ليس قضية اسلامية تنسب الى الاسلام، بل الذى

ينسب الى الاسلام انه حدد التعدد ونظمه وجعله علاجا لمشكلات اجتماعية .

ولقد نقل الاسلام التعدد من اطلاقه الى تعدد محدود بأربع .

وتقل الاسلام التعدد من اطلاقه الى تعدد مع اقامة العدل وأدناه : فلا تذروها كالمعلقة .

وتبرز قصة تحديد التعدد فى سورة النساء حفاظا على شئون البنية ففى الحديث الشريف :

كان عروة بن الزبير قد سأل عائشة رضى الله تعالى عنها عن قول الله تعالى : وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع .. « قالت : يا ابن أختى هى اليتيمة تكون فى حجر وليها تشاركه فى ماله فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن الا أن يقسطوا لهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن من الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن .. الحديث .

فأصل حد التعدد بأربع هو الدفاع عن حق نوع من النساء ضعيفات .. فلما نزلت الآية والمجتمع صاخب بأنماط من التعدد تفوق الأربع بين النبى صلى الله عليه وسلم : ان كل مسلم تحته أكثر من أربع وجب عليه أن يقلل من التعدد والا يبلغ بالعدد الذى تحته أكثر من الأربع ففى الالوسى : ان غيلان أسلم وتحته عشر نسوة فقال صلى الله عليه وسلم امسك أربعا وفارق سائرهن .

فالحديث الشريف هو الذى حصر أعلى التعدد فى أربع بعد أن كان التعدد فوضى .

واذن فالاسلام لم ينشىء مسألة تعدد الزوجات بل الاسلام حد منها ووضع لها الضوابط والأهداف .

حكم الاباحة يبقى اباحة :

والله سبحانه وتعالى جعل التعدد المحدود بأربع مباحا بشرط العدل ولا يصح بعد تشريع الله أن يضاف شرط لهذا الشرط أبدا .

لأن التعدد قائم لحل مشكلات قد تكون فردية وقد تكون عامة .

فالدولة التى تحارب ويظهر لديها فى بعض الأحايين أعداد كثيرة من الأرامل ماذا تفعل بهن ؟

ان منح الدولة لهن بالمعاش لا يكفى حاجاتها كأنثى واذا تزوجت انقطع المعاش ، وحياتها فى جوار رجل حلال أشهى لنفسها من التخفى فى ستائر الليل البهيم .

فهل اذا أرادت أن تتزوج يتحتم عليها أن تأخذ اذنا من الزوجة الأولى ، أو أن يكون ذلك أمام القاضى ؟ والمسألة الزوجية أسرار تمس الذوق والمشاعر قبل العقل والمنطق .

وهنا يأتى حكم الاباحة ليريح جماعات الأرامل من فضائح الضرات فى المحاكم .

وقد يقال انها نصف سعادة أو أنه نصف رجل مع كل زوجة .

ونجيب نعم ، ولكنه أحلى وأشهى من رجال كثير مع سيدة واحدة .

ونجيب نعم ، ولكنه أحلى من اتخاذ عشيق واحد .

ونجيب نعم ولكنه أحلى من الرهبنة لمن استطاعت الى ذلك سبيلا .

والأفراد أذواق وقدرات وهناك الأغنياء الذين لا تكفيهم واحدة وعندهم القدرة على كفالة الحقوق فأى الأمور أفضل زوجات لثرى أو عشيقات له .. ؟ !

والعقم له دور خطير فأى الأحوال أفضل : زوجة عقيم تبقى مع زوجها على ضرة قد ينجب منها أو يطلقها ؟ أو يبقى عقيما الى الأبد ؟

رابعا : الطور الرابع

الجنة تحت اقدام الأمهات :

ولا يترك الاسلام المرأة بعد أن أدت رسالتها تحت رحمة التقاليد والعادات بل جعل الوفاء بجميلها دينا ، وجاور هذا الحق فى القدسية الايمان بالله يقول الله تعالى :

« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا

كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا (٢٣ — ٢٥ الاسراء) .

لقد طلب الاسلام من الأبنياء تجاه الوالدين أن يخضعوا لهما فى خشوع رحيم ، وابرز ذلك فى صورة «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» تتهادى آثار عطف الوالد على والديه كما تتهادى أجنحة الطير من عل فى خفة خفيفة لا يضار معها هابط ولا مهبوط عليه .

وجعل الاسلام هذا الحق للأم مطلقا حتى ولو كانت مشركة ، ففى مسلم عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت :

قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد قريش اذ عاهدهم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله : قدمت على أمى وهى راغبة أفأصل أمى ؟ قال : نعم صلى أمك .

والله تعالى يقول فى القرآن الكريم :

(ووصينا الانسان بوالديه حملته **أمه وهنا على وهن وفصاله** فى عامين أن أشكر لى ولوالديك الى المصير .

وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى ثم الى مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون) .
(١٤ ، ١٥ لقمان)

وبعد :

أفغير الاسلام هناك قانون أو دين يقدر على هذه المعطيات للمرأة ؟

انها قبل أن تجىء الى الكون وضعت فى جناب سلطان الله العلى العظيم :

وهى طفلة جعلها الله عونا لأبيها فهى مصدر بركة .

وهى فتاة أعطاها حرية الرأى فى اختيار زوجها فرضاها أصل وهى زوجة على كرامتها ومشاعرها ونسبها وأموالها وقيل لها أدخلى الجنة من أى الأبواب شئت .

وهى أم قيل لها الجنة تحت أقدام الأمهات فماذا تريد المرأة المعاصرة فى بلادنا الاسلامية ؟

لعلها صريحة : أتريد الاسلام أم غيره ؟

أما أنها تريد أن تضع فى الاسلام الأفاعيل باسم التطور والتقدم فهذا مرفوض من جانب الاسلام فقد أعلنها القرآن منذ أربعة عشر قرنا .

« وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » .

(سورة الأنعام)

د . رءوف شلبى

النصح للمسلمين

أمر جرير بن عبد الله رضى الله عنه مولاه أن يشترى له فرسا، فاشترى له فرسا بثلثمائة درهم، وجاء بهوبصاحبه لينقده الثمن ، فقال جرير لصاحب الفرس : فرسك خير من ثلثمائة درهم أتبيعه بأربعمائة درهم ؟ ، قال ذلك اليك يا عبد الله ، فقال : فرسك خير من ذلك أتبيعه بخمسمائة درهم ؟ ثم لم يزل يزيده مائه فمائه وصاحبه يرضى وجرير يقول فرسك خير الى أن بلغ ثمانمائة درهم فاشتراه بها ، فقيل له فى ذلك ، فقال انى بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم .

عظمة الرسول

كما يراها الكاتب الأمريكي واشنجطون أرفنج

التحرير

لقد تناول « واشنجطون أرفنج » حياة النبى فى مختلف مظاهرها ودرس عبقريته فى شتى صورها .

وكان طبيعيا أن يتحدث عن مدى تعلق هذا النبى برسالته واخلاصه لدعوته . وفى هذا الصدد كتب يقول :

« تعتمد حياة هذا النبى على الاخلاص ، ولم يكن هناك ما يدفعه الى خوض هذه المصاعب والعقبات التى صادفته عند اعلان دعوته ، لو لم يكن الايمان الخالص لرب العالمين يملأ فراغ عقله وقلبه . لقد كان قبل دعوته أمينا محبوبا منتميا الى أشرف قبائل العرب ، وكانت زوجته خديجة على ثراء عريض ، فاجتمع لديه قبل دعوته كرم المحتد والنسب ووفرة المال وطيب السمعة ، ومع ذلك أعلن دعوته بالرغم عما كان يحطيها من متاعب واضطهادات ، وهو لا يرجو من ورائها الا اعلاء كلمة ربه .

ومن مظاهر عظمة الرسول التى أشار اليها « واشنجطون أرفنج » تسامحه مع خصومه ومعارضيه بعد فتح مكة ، وفى هذا الصدد كتب يقول :

« لقد وقف أبو سفيان — الذى لم يترك فرصة واحدة تمر لايذاء النبى وأتباعه الا انتهزها — أمام النبى بعد فتح مكة فعفا عنه ، فما كان من أبى سفيان الا أن عاد الى قومه مناديا قائلا :

يا معشر قريش من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن .. ومن دخل داره فهو آمن .

أما عكرمة بن أبى جهل الذى ورث العداوة عن أبيه ففر عند

دخول النبى مكة . تاركا زوجته الصغيرة الجميلة تتقدم الى النبى وتركع عند قدميه طالبة العفو عن زوجها ، فتقدم نحوها النبى وأخذ بيدها ، معلنا عفوه عن زوجها ، فأسرعت هذه الزوجة الشابة الى الشاطىء لتخبر زوجها بهذا العفو قبل أن يرحل من البلاد . ولما علم عكرمة بتسامح النبى وعفوه عاد هو وزوجته معلنا اسلامه . وعندما وقفت نساء قريش أمام النبى بعد فتح مكة رأى بينهن هندا زوجة أبى سفيان ، تلك الزوجة التى لاكت قلب حمزة بعد قتله وقرضته بأسنانها . وظل النبى صلى الله عليه وسلم شاخصا اليها فترة طويلة ، فشعرت بالندم والخجل ، وأسرعت نحوه راكعة تحت أقدامه طالبة الصفح والغفران قائلة :

أنا زوجة أبى سفيان أطلب الصفح والغفران . فعفا عنها النبى بالرغم مما أبدته من قسوة وعنف، وصفح النبى أيضا عمن صفع ابنته وهى فى طريقها من مكة الى المدينة صفعة كانت سببا فى القضاء عليها .

فهل وجدنا فى تاريخ العالم كله تسامحا كالذى رأيناه من هذا الرسول الكريم .

لقد كان هذا التسامح سلاحا فعالا من أسلحة المسلمين ، فقد أثرت سماحة النبى وتسامحه فى نفوس العرب فلانت قلوبهم ورقت نفوسهم، فأقبلوا نحوه فى نفوس آمنة وقلوب واعية ..

وتناول « واشنجطون أرفنج » بعد ذلك بعوثه السياسية ورسله الى القياصرة والملوك فكتب يقول :

« أراد النبى أن ينشر دينه فى نطاق واسع ففكر فى الوسائل السياسية والدبلوماسية فأرسل رسله الى القياصرة والملوك والأمراء ، داعيا اياهم الى احتضان دينه ونشره ، ولذلك لم يلجأ الى السيف الا بعد أن استنفذ الوسائل السلمية الأخرى .

لقد أرسل رسله الى كسرى ملك الفرس ، والى قيصر ملك الروم والى المقوقس حاكم مصر كما أرسلها الى الى النجاشى ملك الحبشة .

وعندما ذهب رسوله الى كسرى قدم اليه رسالة نبيه ، فأعطاها كسرى لأحد رجاله الذى بدأ يقرأ ويقول :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله .. ورسول الله .. الى كسرى ملك الفرس .

فصاح كسرى غاضبا :

ماذا يقول ؟ !

هل هناك من يجرؤ على أن يكتب اسمه قبل اسم كسرى ؟ !

وأمسك بالخطاب فى غضب وحقد ومزقه قبل أن يعرف محتوياته .

« لم يكتـف كسرى بذلك بل أصدر أوامره الى حاكم اليمن بأن يلقى القبض على نبى الاســلام، فأرسل هذا الحاكم رجلين الى المدينة لهذا الغرض فلما وصلا الى المدينة أبلغا النبى رسالة ملكهم .

فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم :

هل لكما ملك ؟

فبدت الحيرة على وجوههم .

ولمـا عادا الى دارهما عرفا أن كسرى قضى نحبه مقتولا بيد ولده فى نفس اللحظة التى كانا يحادثان فيها النبى . أما رســول النبى الى قيصر الروم فكان أوفر حظا ، اذ قابله قيصر مقابلة حسنة ، وحمله عنـد عودته بالهدايا وان كان لم يرد على الرسالة ردا حاسما .

وفى مصر استقبل المقوقس مبعوث النبى أحسن استقبال وأكرم وفادته وحمله ايضا بالهدايا عند عودته وكان من بين هذه الهدايا بغلة لركـوب النبى وجاريتان ، فوقع النبى فى حيرة من أمر قبول الجاريتين كمحظيتين ، فتزوج أحداهما وهى مارية القبطية وتزوج أحد أتباعه الجارية الأخرى، وكان لذلك أثر حسن عند أقبـاط مصر . أما النجاشى ملك الحبشة فقد قبل الاسلام بمجرد آن تلقى دعوة النبى .

هذه الرسل والبعوث تدل دلالة واضحة على أن النبى لم يلجأ الى القتال الا بعـد أن استنفد جميـع الأساليب السياسية والدبلوماسية . وفى هـذا حكمـة وروية ومحبـة للسلام ..

وبحث « (واشنجطون أرفنج) » انتصاراته الحربية وتوسعه السياسى وأثرها فى تغير نفسيته وخلقه فكتب فى هذا الصدد يقول :

« ثم يوقظ انتصاراته الحربيـــة والسياسية فيه الزهو والفخار ، ولم تثر فى نفسه الأنانيـــة والرغبـــات الشخصية الجامحة ، بل بقى النبى بالرغم من هذا كله زاهدا متواضعا كما كان فى بداية حياته .

لقد كانت الثروة والجاه بين يديه ورهن اشارته ولكن لم ينفقها الا من أجل الدين واعلاء كلمة الله .

لم يكن فى بيت النبى عند موته دينار ولا درهم ، ولا عبد ولا جارية، لقد وضع الله كنوز الأرض كلها بين يديه ولكنه كان زاهدا فيها كلها» .

ولكى يصور «واشنجطون أرفنج» موقف الرسول عند موت ابنه كتب يقول :

وقد بدأ خضوعه لارادة الله فى وضوح تام عندما كان واقفا بجانب ابنه ابراهيم وهو على فراش الموت .. وكان عزاؤه الوحيد أنه سيلقى ابنه فى الفردوس .

وعندما تبعه الى قبره كان يدعو الى دينه ووحـــدانية ربـــه ورسالة نبوته .

وحتى فى ساعات موته كان يردد صلاته ويتحدث عن دعوته .

وكانت الكلمات الأخيرة التى اضطربت على شفتيه رغبته فى أن يدخل ملكوت اللـــه مع الأنبيـــاء السابقين .

من الدراسات المقارنة فى الأديان

فكرة الألوهية والنبوة ما بين أهل الكتاب والإسلام

للمستشار محمد عزت الطهطاوى

فكرة الألوهية عند الاسرائيلين :

ويسمون أيضا باليهود بعث الله اليهم نبيه موسى عليه السلام فاستنقذهم من فرعون وعذابه اذ كان يستحى نساءهم ويذبح أبناءهم وبعد أن نجاهم الله من فرعون وملائه أمرهم بمتابعة الكتاب الذى أنزله على موسى عليه السلام خصوصا ما تعلق بالعقيدة وقد كانت عقيدة التوحيد فى بداية أمرهم .

وفى هذه العقيدة كانت تتصف الذات الالهية بالوحدة والكمال ويدل على ذلك ما ورد فى سفر التثنية قوله (اسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد .. فتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ») .

(انظر الاصحاح ١٦ من سفر التثنية عدد ٤ ، عدد ٥ — العهد القديم من الكتاب المقدس) .

الا أن أسفار العهد القديم والتلمود وهى المراجع الحالية التى تستقى منها فكرة الالوهية عند اليهود ذكرت أن ذلك الاله فى صورة (يهوا) اله شعب اسرائيل فقط وهى صورة بعيدة عن الوحدانية يشترك معه آلهة كثيرون تعبدها الأمم التى جاورت اليهود فى أوطان نشأتهم وأوطان هجرتهم وكان تصورهم لهذا الاله فى صورة مجسمة ووصفوه بكثير من صفات النقص والضعف والكذب والغفلة والجهل كما ورد فى سفر التكوين وهذا نصه (فحزن الرب لأنه عمل الانسان فى الأرض وتأسف فى قلبه) وقوله (فنزل الرب لينظر المدينة والبرج) انظر الاصحاح ٦ عدد ٦ من سفر التكوين وكذلك الاصحاح ١١ عدد ٥ من السفر المذكور من العهد القديم من الكتاب المقدس .

ولقد كان اعتقاد اليهود أن الههم (يهوا) هذا لا يريد من شعب اسرائيل أن يلتفت الى الآلهة الأخرى لأنه يريد أن يستأثر بشعب اسرائيل لنفسه بين سائر الشعوب وأن يستأثر شعب اسرائيل به لأنفسهم بين سائر الآلهة — وكان النبى أرميا يقول لهم بلسان الرب الههم أن آباءكم قد تركونى وذهبوا وراء آلهة أخرى — وعبدوها وسجدوا لها واياى تركوا وشريعتى لم يحفظوا .

(ماذا وجد فى آباؤكم من جور حتى ابتعدوا عنى وساروا وراء الباطل وصاروا باطلا — ولم يقولوا أين هو الرب الذى أصعدنا من أرض مصر ..) .

(تقول لهم كما أنكم تركتمونى وعبدتم آلهة غريبة فى أرضكم هكذا تعبدون الغرباء فى أرض ليست لكم) .

انظر سفر أرميا الاصحاح الثانى عدد ٥ وكذلك الاصحاح الخامس عدد ١٩ من السفر المذكور من العهد القديم من الكتاب المقدس .

ويستخلص مما تقدم أن اليهود لم يكونوا ينكرون وجود الآلهة الكثيرين غير الههم (يهوا) الذى يعبدونه تارة — ويتركونه تارة أخرى انما يحسبون الكفر به ضربا من خيانة الرعية لملكها — واذا تركوا (يهوا) حينا من الزمن ثم آثروا الرجعة الى عبادته فانما يرجعون اليه لاعتقادهم بالتجربة المزعومة أنه أقدر على التمكن منهم والتنكيل بهم — وان الآلهة الأخرى عجزت عن حمايتهم من سخطه وانتقامه .

والمتتبع لتاريخ اليهود منذ نشأتهم حتى عصر الميلاد المسيحى يتبين أنهم ضيقوا أفق العبادة لهذا الاله (يهوا) حسب الآتى :

١ — فمنذ الابتداء كان شعبه المختار عاما شاملا لأبناء ابراهيم عليه السلام .

٢ — ثم أصبح بعد بضعة قرون محصورا على أبناء يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم عليهم السلام .

٣ — ثم صار قاصرا على قوم موسى عليه السلام فقط .

٤ ـ ثم اقتصر بعد ذلك على أبناء داود وعلى من يدينون لعرشه بالولاء ومن ذريته يعتقدون أنه كان ينبغى أن يظهر المسيح المخلص لهم فى آخر الزمان من الذلة والضعف وينهض بهم نهضة قوية كما فعل بهم داود عليه السلام من قبل •

وجمد اليهود على هذا المفهوم حتى ظل فى عقيدتهم أن (يهوا) اله عبرى يستأثر به الذين يدينون بالولاء لعرش داود وذريته من بعده الذين هم من نسل ابراهيم بالجسد فعقيدتهم هى عقيدة شعب مختار بين الشعوب فى اله مختار بين الآلهة •

واذا فليس فى هذه العقيدة ايمان بالتوحيد ولا هى مما يتسع لديانة الانسانية عامة •

فكرة الالوهية عند النصارى :

وهم الذين يقولون أنهم أتباع المسيح عيسى عليه السلام ولقد تطورت هذه الفكرة الى مراحل ثلاث •

المرحلة الأولى :

ابتدأ المسيح عليه السلام دعوته فى البداية مختصا بها بنى اسرائيل دون سواهم من العالمين كما هو مصرح بذلك فى الأناجيل المتداولة بينهم أنه لم يرسل الا الى خراف بنى اسرائيل الضالة ـ لكنه مع ذلك كان يبشر بدعوة التوحيد للاله الواحد وأنه مجرد رسول بشر كما ورد فى الأناجيل على لسانه (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) ـ أنظر الاصحاح ١٧ عدد ٣ من أنجيل يوحنا وقوله (فأجابه يسوع أن أول كل الوصايا هى اسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد) أنظر الاصحاح ١٢ عدد ٢٩ من انجيل مرقص •

المرحلة الثانية :

لما مضى عصر المسيح عليه السلام جاء بعده عصر بولس والذى لم ير المسيح ولم يتتلمذ عليه بل كان عدوا له ولأتباعه وبعد ذهاب المسيح عن العالم انضم الى تلاميذه

وحواريه وزعم أنه رسـول مثلهم ثم اختلف معهم وانفرد بتعاليم خاصة اذ أضاف الى عقيدة الألوهية التى كانت لدى العبرانيين من ذرية ابراهيم تفسيرا آخر بأن البنـوة لابراهيم عليه السلام لا تتوقف على بنـوة الجسد بل أنها بنوة روحية تشـمل الغرباء عن اليهود ممن يعتقـدون باعتقاد بولس لذلك كانت عقيـدة النصرانية وقتئذ فى الألوهية فكرة متطورة عن العقيدة اليهـودية فى الألوهيـة فبعد أن كانت العقيـدة الالهية عند اليهود هى الايمان بالاله لأبناء ابراهيم فى الجسد صارت عند النصارى الايمان بالاله لأبناء ابراهيم فى الروح (فانه ليس بالناموس كان الوعـد لابراهيـم أو لنسـله أن يكون وارثا للعالم بل ببر الايمان) هذا ما ورد برسالة بولس الى أهل رومية بالاصحاح الرابع عدد ١٣

المرحلة الثالثة :

لمـا اتصلت النصرانيـة بالأمـم الأجنبية بعد ذلك وفى مقدمتها الأمة المصرية شاعت فيهـا عقيـدة الهية جديدة هى عقيدة الثالوث المجتمع من الآب والابن والروح القـدس وتتلخص فى اعتقادهم بأن المسـيح المخلص هو ابن الله وان الله أرسله ليقتل فداء لأبناء آدم وحواء وكفارة عن الخطيئة التى وقعا فيها أثر أكلهما من شجرة المعرفة فى الجنة بعـد أن نهاهما ربهما عن الاقتراب منها .

وان الله وان كان واحدا الا أنه من أقانيم ثلاثـة هى الأب والابن والروح القدس ــ وأن المسيح هو الابن من هذه الأقانيم وهـو ذو طبيعة الهية واحدة فى مذهب فريـق من النصـارى وذو طبيعتين الهيـة وانسانية فى مذهب فريق آخر .

فكرة الالوهية فى الاسلام :

المتتبع للعقيدة الاسلامية فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يجد أن هذه العقيدة هى عقيدة التوحيد الخالص المجرد لله سبحانه وتعالى ــ وأن موقف الاسلام فى هذه العقيدة كان موقف المصحح للعقائد الكتابية السابقة ــ ولم يكن موقف النـاقل المستعير (كما يزعم بذلك المبشرون والمستشرقون) .

لذلك كانت دعوته الى الله دعوة الى اله منزه عن لوثة الشرك منزهعن جهالة العصبية وسلالة النسب منزه عن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية الى الأديان الكتابية .

فالاله الذى يؤمن به المسلمون هو اله واحد أحد منزه عن كل نقص متصف بكل صفات العزة والكمال واليك بعضا منها :

١ ـ فالله الذى تعبده أمة الاسلام اله واحد لم يكن له شركاء قال تعالى (أم لهم اله غير الله سبحان الله عما يشركون) سورة الطور ٤٣

٢ ـ وما هو برب قبيلة ولاسلالة يؤثرها على سواها كسلالة ابراهيم ويعقوب وداود ولكنه هو رب العالمين ـ قال تعالى :

(الحمد لله رب العالمين) سورة الفاتحة ٢

٣ ـ خلق الله الناس جميعا ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى فلا فضل بينهم لعربى على عجمى أو قرشى على حبشى قال تعالى :

(يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ـ ان أكرمكم عند الله أتقاكم) سورة الحجرات ١٣

٤ ـ وهو واحد أحد ما كان له أن يلد أو يولد قال تعالى (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد .) سورة الاخلاص ١ ، ٢ ، ٣

٥ ـ ولم يكن له شبيه قال تعالى:

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) سورة الشورى ١١

٦ ـ لا يأخذ انسانا بذنب انسان قال تعالى :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) سورة الاسراء ١٥

٧ ـ ولا يحاسب أمة خلقت بذنب أمة سلفت قال تعالى :

(تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) سورة البقرة ١٣٤

٨ ـ ولا يدين العالم كله بغير نذير قال تعالى :

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) سورة الاسراء ١٥

٩ ـ والاسلام دين الرحمة فافتتح كل سورة من كتابه الكريم بقوله تعالى :

(بسم الله الرحمن الرحيم) سورة الفاتحة ١

١٠ ـ كما ان الاسلام أيضا دين العدل قال تعالى :

(وما أنا بظلام للعبيد) سورة ق ٢٩

١١ ـ والاله فى الاسلام عليم بكل شىء قال تعالى :

(وسع ربنا كل شىء علما) سورة الأعراف ٨٩

(وهو بكل خلق عليم) سورة يس ٧٩

١٢ ـ وحمل الانسان بوصفه خليفة الله فى الأرض أمانة التكليف فان أقامها ارتفع مكانا فوق مكان الملائكة ـ وان أهملها هبط الى أسفل سافلين بل الى زمرة الشياطين قال تعالى :

(انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان) سورة الأحزاب ٧٢

١٣ ـ ويتصل بأمانة التكليف قابلية الانسان للعلم قال تعالى :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق) سورة العلق ١

(اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) سورة العلق ٣،٤،٥

١٤ ـ ولا يعرف الاسلام الخطيئة الموروثة فخطيئة آدم لا تدينه أبدا ما دام قد رجع الى ربه ولا تدين أبناءه من بعده ـ ونجاته كانت رهينة بتوبته الى الله قال تعالى (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) سورة طه ١٢١ ، ١٢٢ (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم) سورة البقرة ٣٧

أما عن الشر والشيطان فقد كان اعتقاد اليهود فى الشيطان أنه روح من أرواح كثيرة (تستطيع القيام

بالعمل كما يفعل معبودهم والههم (يهوا) .

(ا) ففى الاصحاح الثالث عشر من سفر زكريا عدد ٢ قوله (وأزيل الأنبياء أيضا والروح القدس من الأرض) .

(ب) وقوله (وأرسل الرب روحا رديا بين أبيمالك وأهل شكيم) انظر سفر القضاة اصحاح ٩ عدد ٢٣ بالعهد القديم .

(جـ) وقوله (والآن هوذا قد جعل الرب روح كذب فى أفواه أنبيائك هؤلاء) انظر سفر أخبار الأيام الثانى اصحاح ١٨ عدد ٢٢ بالعهد القديم .

(د) كما جاء فى سفر أخبار الأيام الأول بالعهد القديم أن الشيطان هو الذى وسوس لدا ود وأمره باحصاء بنى اسرائيل ومعهم بنو يهوذا وذلك فى الاصحاح ٢١ عدد ١ وما بعده فى قوله (ووقف الشيطان ضد اسرائيل وأغوى داود ليحصى اسرائيل) .

ولما ظهرت النصرانية شاع فى اعتقادها أن للشيطان عملا جسيما يوشك أن يضارع عمل الاله حتى أنه سمى فى كتبهم باسم رئيس هذا العالم الذى يضل العالم أو الأسد الزائر وقد كانت له مملكة الدنيا ولله ملكوت السموات ـ وانه لولاه لما وقعت الخطيئة التى سقط الجنس البشرى فيها ولا وجبت الكفارة بالفداء . فقد ورد فى الاصحاح الخامس من رسالة بطرس الأولى عدد ٨ قوله (اصحوا واسهروا لأن ابليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمسا من يبتلعه) كما ورد فى الاصحاح الثانى عشر عدد ٧ من رؤيا يوحنا اللاهوتى قوله (والشيطان الذى يضل العالم كله طرح الى الأرض وطرحت معه ملائكته) أما الاسلام فقد اعتبر الشيطان قوة الشر لا مراء ولكنها قوة لا سلطان لها على ضمير الانسان ما لم يستسلم لها بهواه قال تعالى فى كتابه العزيز حاكيا عن الشيطان (وقال الشيطان لما قضى الأمر ان اللـه وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من

سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى ــ فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) سورة ابراهيم ٢٢

(ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) سورة الحجر ٤٢

فكرة النبوة عند اليهود والنصارى:

كانت النبوات فى القديم تقوم حجتها الكبرى على الغرائب والأعاجيب والخوارق والمعجزات ــ وكان اليهود يسمون النبى بالرائى أو الناظر أو رجل الله ولم يطلقوا عليه اسم النبى الا بعد مجاورتهم للعرب ــ ومعرفتهم بأربعة من أنبيائهم هم ملكاى صادق الذى كان معاصرا لابراهيم الخليل ــ وأيوب ــ وبلعام ــ وشعيب معلم موسى عليهم السلام •

وقد ذكر الأستاذ هولشر والأستاذ شميدت وهما من علماء الغرب أن كلمة نبى دخلت فى اللغة العبرية بعد وفود بنى اسرائيل الى فلسطين ــ وكان بنو اسرائيل يخلطون بين مطالب السحر والتنجيم ومطالب الهداية ــ ويجعلون الاطلاع على المغيبات امتحانا لصدق النبى فى دعواه •

ففى سفر صموئيل انهم كانوا يقصدونه ليدلهم على مكان الماشية الضائعة وينقدنه أجره على ردها والنصوص الآتية تؤكد ذلك وهى فى الاصحاح التاسع من سفر صموئيل الأول •

١ ــ (وكان رجل من بنيامين اسمه قيس بن أبيبل •• وكان له ابن اسمه شاول••فضلت أتن قيس أبى شاول فقال قيس لشاول ابنه: خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش على الأتن •• ولما دخلا أرض صوف قال شاول لغلامه الذى معه تعالى نرجع لئلا يترك أبى الأتن ويهتم بنا ــ فقال له هو ذا رجل الله فى هذه المدينة والرجل مكرم ــ كل ما يقوله يصير لنذهب الآن الى هناك لعله يخبرنا عن طريقنا التى نسلك فيها فقال شاول للغلام هوذا نذهب فماذا نقدم للرجل ــ لأن الخبز قد نفد من أوعيتنا وليس من هدية تقدمها لرجل الله ــ ماذا معنا ــ فعاد الغلام وأجاب شاول

وقال هوذا يوجد بيدى ربع شاقل فضه فاعطه لرجل الله فيخبرنا عن طريقنـا سابقا فى اسرائيل هـكذا كان يقول الرجل عند ذهابه ليسأل الله « هلم نذهب الى الرائى » لأن النبى اليوم كان يدعى سابقا الرائى .. والرب كشف اذن صموئيل قبـل مجىء شاول بيوم .. فاجاب صموئيل شاول وقال أنا الرائى .. واما الاتن الضالة لك منذ ثلاثة أيام فلا تضع قلبك عليها لأنها قد وجدت ..) .

(انظر سـفر صـموئيل الأول الاصحاح التاسع من عـدد ١ الى عدد ٣٠) .

كان يؤخـذ من النبوءات التى نسبوها الى النبى يعقوب جد بنى اسرائيل انهم كانوا يعولون عليـه فى صـناعة التنجيم ـ كمـا أن النبوءات المقـرونة بأسـماء أبنـاء يعقوب قد تشير الى حيـوانات أو الى أبراج السماء وما ينسب اليها من طوالع ـ ومثـال ذلك ما ورد فى الاصحاح التاسع والأربعين من سفر التكوين منسوبا الى يعقوب عليه السلام فى قوله (ودعا يعقوب بنيـه وقـال اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم فى آخر الأيام ـ اجتمعوا واسمعوا يابنى يعقوب واصـغوا الى اسرائيل أبيكم) .

١ ـ راوبين أنت بكرى قـوتى ... فائرا كالمـاء لا تتفضل ...

٢ ـ شمعون ولاوى اخـوان آلات ظـلم سيوفهما فى مجلسهما لا تدخل نفسى .

٣ ـ بمجمعهما لا تتحد كرامتى .... ملعون غضبهما فانه شـديد وسخطهما فانه قاس .

٤ ـ يهوذا ... جرو أسـد من فريسة صـعدت يا ابنى ـ جثـا وربض كأسد وكلبوة من ينهضه .

٥ ـ زبلون عند سـاحل البحر يسكن ...

٦ ـ يساكر حمار جسيم رابض بين الحظائر ...

٧ ـ دان يدين شعبه ... يكون دان حية على الطريق أفعوانا على السبيل يلسع عقبى الفرس .

٨ ـ جاد يزحمه جيش ولكنه يزحم مؤخره .

٩ ـ أشير ـ خبزه سمين وهو يعطى لذات ملوك .

١٠ ـ نفتالى ـ أيله مسببه يعطى أقوالا حسنه .

١١ ـ يوسف غصن شجرة مثمرة على عين أغصان قد ارتفعت فوق حائط .

١٢ ـ بنيامين ـ ذئب يفترس فى الصباح يأكل غنيمة وعند المساء يقسم نهبا .

وكانت النبوة صناعة وراثية عند اليهود يتلقاها الأبناء عن الآباء كما جاء فى سفر الملوك الثانى فى الاصحاح السادس (وقال بنو الأنبياء لاليشع هو ذا الموضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك ضيق علينا فلنذهب الى الأردن) وكان يجب على النبى فى عرف اليهود أن يكون مستعدا بكراماته ومعجزاته كلما أرادها أو طلبت منه خصوصا استطلاع الخبايا كما قدمنا أو انذار من نقمة (يهوا) الذى تعودوا أن يعاقبهم بالمصائب الجسيمة كلما انحرفوا عن شريعته وأشركوا بعبادته ربا آخر من آلهة الشعوب الأخرى ومثال ذلك ما ورد بالاصحاح الخامس عشر من انجيل متى عدد ٢١ عن المسيح عليه السلام قوله (ثم خرج يسوع من هناك وانصرف الى نواحى صور وصيدا واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة ارحمنى ياسيد يا ابن داود ابنتى مجنونة جدا ... حينئذ أجاب يسوع وقال لها يا امرأة عظيم ايمانك ليكن لك كما تريدين فشفيت ابنتها من تلك الساعة) .

فكرة النبوة فى الاسلام :

أما النبوة فى الاسلام فقد برئت من شوائب السحر والكهانة والتنجيم والمغيبات وخوارق العادات لذلك لم تكن منقولة من نبوة اليهود ولا هى محرفة عنها أو نسخة منها لأن النبوة فى الاسلام تقوم حجتها الكبرى على هداية العقل والضمير لا على عمل الغرائب والأعاجيب وكانت لا تدعو الى رب

سلالة أو رب قبيلة بل كانت نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تدعو الى عبادة الله رب العـالمين رب العربى والأعجمى رب الأبيض والأسود ورب كل قبيلة .

قال تعالى (قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا) سـورة الأعراف ١٥٨

وأن النبى فى الاسـلام لايعـلم الغيب ولا يملك خزائن الأرض ولا يدفع السوء عن نفسه فضلا عن قومه ولا يعلم أن الخوارق والمعجـزات تنفع أحدا لا ينتفع بعقله ولا يتفكر فيما يسمع من نبى أو رسول .

قال تعالى (قل ان الأمر كله لله) سورة آل عمران ١٥٤

وقال تعالى (قل لا أقول لـكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) سورة الأنعام ٥٠

المستشـار
محمد عـزت اسماعيل
الطهطاوى

شـذرات متفـرقة

* ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه .

* الذنوب جراحات ورب جرح وقع فى مقتل .

* قيل لبعض العباد الى كم تتعب نفسك فقـال راحتها اريد .

* المعاصى سد فى باب الكسب وان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

نقد نظرية التطور الحيوى عند داروين وأتباعه

للدكتور يحيى هاشم

المقال الأول

يتوجه هذا النقد الى ناحيتين : ناحية عامة يشترك فيها ما يشاع عن هذه النظرية مع النظريات الأخرى التى تحاول أن تتخذ من العلم التجريبى سندا لرفض المعرفة الالهية أو الميتافيزيقية وذلك حيث تقوم على « الاعتقاد » بأن المادة أصل الأشياء .

والرد على ذلك بوجه عام يرجع الى المباحث الخاصة بالعلاقة بين الدين والعلم ، وبيان انحراف المذاهب المادية عن العلم الصحيح فيما تذهب اليه من انكار الغيبيات METAPHYSIC أو المطلقات ABSOLUTE أو انكار الارادة الالهية .

ويتوجه النقد الى نظرية التطور من الناحية الخاصة بها فى النقاط الخمسة التالية :

أولا : وقوعها فى جملة من الأخطاء والتجاوزات العلمية شاع أمرها فى الأوساط العلمية التجريبية المعاصرة .

ثانيا : قيامها على عدد من الافتراضات غير الملزمة .

ثالثا : قيامها على القول بالصدفة فى أهم مراحل التطور ، وهو قول لا يستسيغه العلم أو الدين على السواء .

رابعا : استناد أدلتها الى فكرتى التشابه والترتيب بين الأطوار ، وهو لا يصلح أساسا للقول بضرورة وجود علاقة ذاتية بين هذه الأطوار .

خامسا : أنه مع التسليم بصحة الافتراضات التى قامت عليها النظرية فهى لا تقتضى الغاء الارادة الالهية ومن ثم ينبغى أن يبقى فيها مكان

خاص لنظرية الخلق الخاص بالنسبة لبعض الأنواع (الانسان) . وهذا ما تحتمه وجهة النظر الاسلامية التى لا تترك مجالا للتوفيق بينها وبين هذه النظرية فيما يتعلق بخلق آدم مهما تكن محاولات هذا التوفيق .

وسنتكلم عن كل نقطة من هذه النقاط بشىء من التفصيل فيما يلى:

ولا :نقد المذهب فى الاوساط العلمية :

١ ــ علت الصيحة من جوانب العالم الجديد ــ أمريكا ــ منذ سنين بأن نظرية داروين فى أصل الأنواع لا تتفق والمشاهدات الحديثة التى قامت بها فئة من العلماء الطبيعيين ، وعلى رأسهم العلامة باتسون ، حيث صرح فى الاجتماع الذى عقدته جماعة تقدم العلم فى أمريكا بمدينة تورنتو عام ١٩٢١ بقوله : « ان جزءا جوهريا من نظرية النشوء العضوى ــ ذلك الجزء الذى يبحث فى أصل الأنواع وطبيعتها ــ لايزال فى حيز الآراء المستعصية على العلم . وأتنا اليوم لا نشعر ذلك الشعور الذى كنا نشعر به من قبل، والذى كان يوحى الينا بأن منهج التغاير ــ الذى لابد من أن يكون مستمر التأثير دائب الفعل فى عصرنا هذا مطاوعة لنظرية النشوء ــ هو بدء عمل عضوى خطير لايحتاج لسوى مر الزمان وكر الأعوام لكى يبلغ كماله ومنتهاه » .

ولقد بلغت حملة دكتور باتسون على نظرية النشوء غاية ما يمكن أن تبلغ حملة عملية من التأثير .... فان دعوة ذلك الباحث قد امتدت الى نواح من أوربا ، وكانت على أشدها فى الولايات المتحدة وكندا، حتى أن ولاية « كانساس » قد أصدرت قانونا يحرم على جامعاتها تدريس مذهب النشوء (١) .

٢ ــ وترتبط نظرية النشوء بنظريات علم الجيولوجيا ، وتتوقف

---

(١) انظر ملقى السبيل لاسماعيل مظهر ص٣١٥ ، بينما يتصدى المؤلف لشرح نظرية داروين والدفاع عنها دفاعا عاما . والذى يعنينا هنا هو أن نوضح أن النظرية ليست موضع التسليم من الاوساط العلمية نفسها ، بما فى ذلك المعاصرة .

صحتها على ما يتقرر فى علم الجيولوجيا من نظريات أو حقائق ، لصلة ذلك بالحفريات التى تتخذها النظرية دليلا على ما تذهب اليه .
ومن المقرر أن هذه النظرية تعتمد اعتمادا أساسيا على بطلان مذهب النكبات فى الجيولوجيا .

وينحصر القول فى مذهب النكبات بأن الأرض كان يتتابها فى عصورها الأولى نكبات جيولوجية تمضى بكل ما على سطحها من حيوان ونبات، ثم تأخذ الحياة العضوية فى الظهور على سطح الأرض حالا بعد حال ، حتى تنتابها نكبة أخرى تمضى بما يكون قد نشأ فيها من الأحياء ، وهكذا دواليك على مر العصور ..

يقول الأستاذ اسماعيل مظهر « لاجرم أن هذا المذهب الذى انتشر وذاع فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كان أكبر حائل يقوم دون انتشار مذهب النشوء والارتقاء » .

وذلك لأنه يقضى قضاء تاما على دلالة الحفريات التى تعتمد عليها نظرية النشوء ..

وكان يؤيد مذاهب النكبات كثير من فحول العلماء منهم «سيدويك» و « بوكلاند » و « كونيسير » و « هيوبيل » و « هنسلو » و « كوفييه » .

وفى أوائل القرن التاسع عشر ظهر كل من سكروب ، وليل ، اللذين أخذا يهدمان مذهب النكبات .

واذا كان كثير من العلماء يستبعدون مذهب النكبات فانهم يفعلون ذلك باعتبار أنه يتحدث عن أخبار أو فروض أو احتمالات لاسبيل له الى أن يؤكدها بالبحوث التجريبية .

وفى نظرى أن من يبطلون هذا المذهب يرتكبون نفس ما ارتكبه من الانسياق وراء فروض لاسبيل الى تأكيدها عن طريق البحوث التجريبية .

ويتبين ذلك من الأساس النظرى الذى يقوم عليه ابطال مذهب النكبات . فهو يقوم على القاعدة التالية التى وصفها سكروب فى كتابه الذى نشره عام ١٨٢٢ م

« هنالك ظاهرات طبيعية عديدة تؤثر فى الوقت الحاضر فى سطح الكرة الأرضية فتحدث تغايرات متعددة فى تكوين أوصافها الظاهرة شبيهة كل الشبه بما كان ينتاب الأرض فى عصروها الأولى » (١) .

ويتبين من كلام سكروب أن علم الجيولوجيا يجب أن يقتصر على دراسة « الظاهرات الطبيعية العديدة التى تؤثر فى الوقت الحاضر فى سطح الكرة الأرضية » وأنه يفترض أن هذه التغايرات « شبيهة كل الشبه بما كان ينتاب الأرض فى عصورها الأولى » .

ومن الواضح أن هذا الأساس يقوم على مجرد التشابه المفترض ، وهو لا يشفى غليلا ، ولا يكفى لاستخلاص النتائج التى تذهب اليها نظرية النشوء والارتقاء ، بل انه يقوم على افتراضات لا فرق بينها وبين الأخبار التى ذهب اليها مذهب النكبات فى ميزان النقد العلمى التجربى الصحيح .

ويعلق كونانت على مذهب تشارلى ليبل «مذهب اطراد القوى» فيقول :«أنه غالى فى موقفه من انكار التغيرات العنيفة المحتملة مغالاة صرفت عنه الجيولوجيين من بعده » كتب أحد رجال هذا العلم منذ قريب يقول « ان مذهب اطراد القوى ليس صحيحا كله فى كل وقت » . ثم يقول كونانت « ونحن اذا قرأنا اليوم فى كتاب فى الجيولوجيا : أن الصخور تصنع اليوم بنفس الطريقة التى صنعت بها منذ مئات الألوف من السنين وآمنا بكل ما فى هذه الجملة من معنى لم نأمن ضلالا (٢) .

ويقول كونانت بعد أن يسوق تقدير الجيولوجيين المحدثين لعمر الأرض بأنه حوالى بليونين من الأعوام : « أن أكثر من عالم فيزيائى شك فى صحة فرض أن المادة كانت تتطبع فى تلك الأعمار البعيدة كما هى تنطبع اليوم ، وتساءل : ما أثر هذا المعنى الجديد ــ معنى الزمن

---

(١) انظر ملقى السبيل من ص ٢٠٠ الى ٢٠٦

(٢) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم ص ٣٨٩

يقاس بآلاف الملايين من السنين فيما نحن فيه اليوم من أمور ؟

أن الفيزيائى وجد أخيرا أن الضرورة تضطره الى تغيير آرائه عن كل من الفراغ والزمن ، اذا واجهته فى بحوثه سرعات عالية بالغة العلو ومسافات صغيرة بالغة الصغر لم يكن له بها عهد . والذى جاز هناك يجوز هنا ـ أى فى الجيولوجيا ـ ، واذن يصح أن نقول أن صورتنا الحاضرة عن الزمن لايصح نقلها فى الشئون الكونية الى ملايين السنين ومشروعاتنا التصورية فى العلم عندما يدخلها هذا العامل الجديد ـ عامل هذا الزمن البعيد ـ قد تتعرض لمعارضات ومناقضات كلما حاولت أن تحتوى الجديد من حقائق العلم .

ثم يقول بالنسبة لمذهب اطراد القوى :

هذه الأرض أحداث عنيفة فى أحقاب سابقة بعيدة ، كان فيها بناء الجبال وأشباه الجبال ، عملت فيها قوى هائلة أعنف كثيرا مما تعودنا منها على ظهر الأرض .. (١) وهذا يعنى عدم اطراح مذهب النكبات اطراحا تاما .

واذا كان بعض الباحثين يتشكك فى دلالة الحفريات الآن بعد أن حدثت أخيرا التفجيرات الذرية وامتلأ الجو بالاشعاعات وكثر تشغيل الأفران الذرية (أو مايسمى بالمفاعلات النووية) مما نتج عنه أحزمة منيعة حول الأرض لم يسبرغور أثرها حتى الآن ..(٢) .

فان لنا أن نتوقف كثيرا أمام دلالة هذه الحفريات حتى قبل حدوث التفجيرات النووية المعاصرة، لاحتمال قريب يفرضه التصور

« أما اليوم فكل النظريات العلمى لحدوث أحداث كونية أو الجيولوجية متفقة على أنه كانت على أرضية شبيهة بهذه التفجيرات أو

---

(١) مواقف حاسمة ص ٣٩٦ ، ٣٩٧

(٢) الدكتور محمود أحمد الشربينى فى بحث له بعنوان « الانسان بين العلم والبيئة » بمجلة عالم الفكر. العدد الرابع من المجلد السابع ص ٩١٣ ـ ٩١٥

أعظم منها فى تاريخ الأرض الطويل تحول بيننا وبين أى استنتاج صحيح من الحفريات ..

ويعلـق كونـانت على دلالات الاشعاع فى علم الجيولوجيا فيقول « فى السنوات الختامية من القـرن المـاضى اكتشفت ظاهرة النشـاط الاشعاعى ، ونشأ منذ الخمسين من السنوات المـاضية علم جديد نافع شديد النفع للجيولوجيين ، فقـد وجد أنه به يمكن تحـديد تاريخ طبقات الصخور المختلفة ..

ولكن كونانت يكشفه لنا عن أن دلالات الاشعاع فى هذا المجـــال مبنية على افتراضات ، هى :

أولا : افتراض أن سرعة التغير الحادث فى النشاط الاشعاعى كانت ثابتة على الأحقاب الكثيرةالماضية» .

ثانيا : « افتراض أن المعدنيات التى حللناها بقيت ثابتـة التركيب طوال تلك الأجيال ، ويؤكد كونانت ما نذهب اليه فيقول : « ومع هـذا فهى افتراضات (١) .

المقال الثانى

ثالثـا : وتفتقد نظـرية النشوء والارتقاء أساسها التجـريبى عنـد ما تعجـز عن تقـديم مشـاهداتها « للحلقات المتوسطة » .

يقول أصحاب هذا النقد أن فقدان الصـور الوسـطى التى تربط بين الأنواع ، وعـدم ظهور جزئيـات التحول الحقيقى فى شعب النظـام العضوى فى الحفريات التى عثر عليها حتى الآن دليل على أن المذهب غير صـحيح ، أو على الأقـل على أن المذهب أبتر غير كامل فى كثير من وجوهه العملية والاستنتاجية .

ويلخص الأستاذ مظهر دفاع زعماء النشوء ضد الاعتراض فيقول :

« ان الباحث اذا تعمق فى الدرس وجد أن الجيـولوجيين والحفريين وعلماء التاريخ الطبيعى والحياة قد اتفقت مباحثهم على الايمان بوجود حلقات تربط بين كثير من الأنواع الحية ، وحلقـات تربط بين أنواع

(١) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم ص ٣٩٤ ، ٣٩٥

حيـة وأنواع منقرضة منـذ أزمان موغلة فى القدم .. » .

ثم يقول «فاذا وعينا أن النواميس الطبيعية واحدة لم تتغير ـ ولن تتغير على مدى الأزمان ـ ثبت لدينا أن ما يصدق على قليل من الأنواع قد يصدق على غيرها قياسا (١) .

وهكذا يتضح أن هذا الدفـاع يبين أن النظرية لا ترتكز على أسس تجريبية وانما تقوم على الايمان ـ مطلق الايمان ـ بوجود حلقـات لم تعرف بعد ، ويقوم كذلك على الاعتقاد بأن ما يصدق على قليـل من الأنواع قد يصدق على غيرهـا قياسا .

وهذا أيضا يقـوم على مطلـق الايمان ، كما يقوم على أساس أن النواميس الطبيعية حتمية لا تتغير على مدى الأزمان .

وما يقـوله اسـماعيل مظهر عن القوانين الطبيعية يخالف به ما تقرر فى الأوساط العلمية من احتمالية هذه القوانين ، وخضوعها للتغير ، شأنها فى ذلك شأن الظواهر سواء بسواء .

ثم ينحو الأستاذ اسماعيل مظهر فى دفاعه ضد النقد المذكور نحـوا آخر اذ يقول : (ان الذين يؤمنون بصحة هذا الاعتراض لم يستطيعوا أن يأتوا ببرهان واحد على أن صور الأحياء المنقرضة برمتها قـد يمكن حفظها سالمة فى باطن الصخور)وهذا وضع مقلوب ، لأن الناقد مانع ، فليس مطلوبا منه أن يأتى بدليل ، وانما الدليل مطلوب من أصـحاب نظرية التطور ، فهم الذين يقال لهم أين دليلكم على أن صور الأحياء المنقرضـة برمتهـا لا يمكن حفظها سالمة فى باطن الصخور ، فاذا عجزوا عن ذلك وذهبـوا الى القـول بأن (الكثير من صور الأحياء الأولى ـ أو بالأحرى الحلقات ـ قد تلاشت بتأثير الأعاصير الطبيعية) فان هذا لا يعنى شيئا الا أن أصحاب النظرية ـ نظرية التطور ـ قد فقدوا مصادر الأدلة التى يمكن أن يلجأوا اليها .

---

(١) ملقى السبيل ص ٢٥٥

ان داروين نفسه يقول «ان الشطر الأعظم من مجموعتنا الحفرية وصور الحياة المتحجرة غير كامل ، بل هو جزء صغير بالنسبة لما هو مختف فى باطن الأرض » • ويقول « ان الملاحظات الجيولوجية التى تؤيـد مذهب النشـوء على حـال من الاضطراب والنقص قل أن تسـبق الى حدس الباحثين » •

ويقول الدكتور بخنر ــ أحـد العلمـاء الفلاسـفة الذين آمنـوا بداروين على نحـو مادى صريح : اذا تذكرنا أن ثلثى الأرض أو ثلاثة أخماسها تحجبها البحار ، وأن قسما كبيرا من الثلث الباقى تغطية الجبال الشاهقة علمنا أنه تمنعنا عن الأبحاث العلمية موانع طبيعية (١) » •

فهل يصلح هذا اعتذارا يجعلنـا تتقبل النظرية وقـد فقدت مصـدر أدلتها ؟؟

ان النظرية الداروينية فى هـذا الموضع الأساسى تقوم على مجـرد الايمان •• يقول الأستاذ اسماعيل مظهر ــ وهو بصدد الدفـاع عن داروين ــ : (لقـد أثبت داروين بالدليـل والمشاهدة أن الحلقـات الوسطى كانت موجودة خلال زمن ما من الأزمان ، وأظهـر كيف أن بقـاءها فى الطبيعة متعـذر ، وأن العثور عليها أشد تعذرا) (٢) •

ومن الواضح أن القول بما يتعذر بقـاؤه فى الطبيعـة ، وبما يكون العثور عليه فيها أشد تعذرا ، ليس قائما بحال من الأحوال على «الدليل والمشاهدة » وانما يقوم على مجرد الايمان بالغيب •

ان داروين نفسه يعترف بخطورة النقد الموجه الى هذا الموضع من النظرية : انه يقول : (الحقيقة أن علم الجيـولوجيا لا يحبـونا بتلك السلسلة المنظـومة من الصـور العضوية ، والراجح أن يكون هذا الاعتراض أنكى ما يقوم فى وجـه التطور) (٣)

---

(١) ملقى السبيل ص ٢٥٦ ، ٢٥٧
(٢) ملقى السبيل ص ٢٥٧
(٣) ملقى السبيل ص٢٥٨

أيمكن بعد أن ظهر تهافت هـذه النظرية فى ادعائها القيام على الأدلة التجريبيـة والمشاهدة الطبيعية أن يعترض أصحابها على نظرية الخلق المستقل بأن القول بالخلق المستقل لم يقم عليه دليل تجريبى أو مشاهدة طبيعية ؟ (١)

وهـل كان الاسـتناد الى الأدلة التجريبية الا دعوى أصحاب التطور ؟ • أليس أصحاب نظـرية الخلق المستقل بعيدين تماما عن هذا الادعاء) فكيف يحاسبون عليه ؟ بينما الذين يدعونه صفر اليدين منه ؟؟

وبالرغم من أنه من المقرر أن نظرية التطـور لم تسـتند الى أدلة علم الحفريات الا بعد أن تصدى العلماء مثـل سكروب وليـل لنقد مذهب النكبات الا أنه من العجيب أننـا نجد أصحاب هذه النظرية يلجأون الى الاعتذار بالنـكبات عنـدما يواجهون بفقدان الحلقات المتوسطة•

يقول اسماعيل مظهر : (وخليق بنا أن لا نغفـل عن أن الاضـطرابات الأرضية والزلازل وطغيـان المـاء والأعاصير الطبيعية التى كانت تنتاب الأرض حينا بعـد حين ، وتحـول الأرض من يابس الى بحـر ، ومن بحـر الى يابسة ، كانت من أبلـغ تلك المؤثرات التى ذهبت ببقايا تلك العصـور ، فالعصـور التى غمرها البحر وقذف بها فى طياته لا يمكن معرفتها ، والبقاع التى صارت أرضا بعد أن كانت بحرا لا يوجد فيهـا صور جديرة باعتبار الباحثين ، اللهم الا بعض أصداف وبقايا الأسـماك شائعة فى كثير من بقاع الأرض وهذا محض اعلان ــ غير مقصـود ــ لافتقاد الأدلة التى تحتـاج اليهـا النظرية فى باب الحفريات (٢) •

(٤) واذا كان النقد يوجـه الى هذه النظرية لفقدان الحلقـات المتوسطة ، فانه وجه اليها أيضـا لوجود « الصور الثابتة » •

---

(١) ملقى السبيل ص ٢٦١
(٢) ملقى السبيل ص ٢٨١

لقد دلت مباحث الحفريات على أن كثيرا من المراتب الحيوانية قد ظلت غير متغايرة خلال أزمان مديدة من الأعصر الجيولوجية فأطلق عليها الباحثون اصطلاحا اسم « الصور الثابتة » .

وهذه الصور الثابتة بعضها « يستنفد قدرته على انتاج التنوعات والأنواع والأجناس حتى تضمحل وتأخذ طريقها الى الانقراض » .

« وكثير من الصور الثابتة قد احتفظت بكيانها الى عصرنا الحاضر، مقصورة فى البقاء على بقاع معينة .. قد حازت أكبر الكفاءات التى أهلتها للبقاء فى تلك البقاع » (١) .

ومن الواضح أن وجود هذه الصور الثابتة لا يتمشى بأية حال مع قوانين نظرية التطور ، اذ ليس فى هذه القوانين ما يجعلها تكف عن احداث التغيرات فى بعض الصور ، ويتركها مع ذلك قادرة على البقاء « عصرا برمته من العصور الجيولوجية » بينما « لا نلبث أن نرى فى أول العصر الذى يليه أنواعا برمتها أو أجناسا قد انقرضت من الوجود » .

وهذا ما دفع الأستاذ اسماعيل مظهر — بالرغم من ايمانه المطلق بنظرية داروين — الى القول :

(الحقيقة أن نشوء العضويات وتطورها كان ذا قفزات فجائية الى التغاير أو الثبات على صفة من الصفات .. خضوعا لسنن نجهل أكثرها الجهل كله ..) (٢) .

ومع ذلك فان الأستاذ اسماعيل مظهر يقول فى نقده لنظرية الخلق المستقل معتمدا على ما يثبته علم الحفريات :

(لو فرضنا مثلا أن الأنواع قد ظهرت طفرة أو خلقت ووضعت على سطح الأرض بين فترات زمان محدود مستقلة فى الخلق والنوعية لوجدت آثار الحيوانات العليا كذوات الثدى

---

(١) ملقى السبيل ص ٢٤١ ، ٢٤٢

(٢) ملقى السبيل ص ٢٨١

مثلا فى طبقات العصر الجيولوجى الثانى ، أو الحيونات الفقارية فى طبقات العصر الجيولوجى الأول •

أما وقد دل البحث على أن كل طبقة من طبقات الأرض تختص بأنواع وصور مخالفة لما تختص به سابقتها أولاحقتها (١) كان ذلك دليلا على تدرج الوجود ، وعرفنا من جهة أخرى السبب فى أن كل طبقة من الطبقات تختص فى كل زمان بظهور أنواع معينة من النباتات والحيوانات تنسب اليها) (٢) •

وكلام الأستاذ اسماعيل مظهر ينطوى على مغالطتين :

أولاهما : قوله بأن نظرية الخلق المستقل تحتم القول بظهور الأنواع « بين فترات زمان محدود » ، وقد ارتكب هذه المغالطة لكى يجعل هذه النظرية تصطدم مع ما تدل عليه الحفريات — ان صحت — من أن الظهور كان على أزمان شديدة التطاول ••

ومن الواضح أن نظرية الخلق المستقل تصدق على كلا الحالين : أى سواء قلنا بالأزمنة القصيرة أم الطويلة •

ثانيتهما : قوله بأن نظرية التطور تقتصر على ما تدل عليه الحفريات وهو « التدرج فى الوجود » ، وقد ارتكب هذه المغالطة لكى يجعل من علم الحفريات حليفا لنظرية التطور، ومن الواضح أن نظرية التطور تقول بأكثر من ذلك ، انها تقول بأن الأنواع ظهر بعضها من بعض،وهذا هو — وحده — موضع الخلاف ، وهو مالا سبيل للحفريات الى أن تدل عليه •

---

(١) يفترض البحث الجيولوجى المتصل بالحفريات أن الاسماك واللافقاريات ظهرت فى العصر الجيولوجى الاول ، والزواحف فى الثانى ، والثدييات فى الثالث ، والقردة والانسان الاول فى الرابع . انظر ملقى السبيل ص ٢٥٠

(٢) ملقى السبيل ص ٢٥٣ ، ٢٥٤

٥ ـ وأثبت البحث العلمى الحديث خطأ نظرية التطور فى جوانب أخرى .. ونجد ذلك عندما يسمى بالداروينية الجديدة ، أو التركيبية الحديثة .

وقد استعمل اسم « الداروينية الجديدة » لأول مرة لآراء العالم الألمانى فايزمان، الذى نشر أبحاثه فى هذا الموضوع من عام ١٨٦٨ الى ١٨٧٦ م .

ثم اقترح بعض العلماء عدم استعمال هذه التسمية لتجنب الارتباك . فاستبدل بها اسم النظرية « التركيبية الحديثة » . وهى ليست من عمل عالم واحد ، كما أنها لم تنشأ فى صورة كاملة ، وانما تطورت ببطء خلال الأربعين عاما الأخيرة ومازالت حتى الآن تنمو فى اطراد .

ومن النتائج الهامة التى توصلت اليها الداروينية الحديثة :

١ ـ أن التطور لا يحدث بنفس السرعة فى الأنواع المختلفة من الكائنات الحية .

فالسلاحف ـ مثلا ـ ظلت بدون تغيير يذكر لمدة تقدر بحوالى ١٧٥ مليون سنة بينما نشأت ثم انقرضت عدة أنواع من الجنس البشرى فى أقل من نصف مليون سنة .

(ب) أن التطور يحدث فى بعض الأزمنة بسرعة أكبر من حدوثه فى أزمنة أخرى ، وذلك بالنسبة للنوع الواحد .

وتعليقنا على هاتين النقطتين أن نقول :

أنه لما كان ذلك لا يتفق مع حتمية قوانين التطور ، وأنه لما كان العلم لا يقدم تفسيره لذلك فأن الرجوع الى مبدأ الارادة الالهية يصبح هو التفسير الوحيد .

(جـ) أن التطور لا يكون دائما الى كائنات أكثر تعقيدا ـ وهى القاعدة الأساسية فى كل نظريات التطور ـ اذ توجد بعض الأمثلة لتطور ارتدادى .. فمثلا ، قد انحدرت معظم الطفيليات مثل الاسكارس والبلهارسيا من أسلاف كانت تعيش معيشة حرة ،

وأعضاؤها أكثر تعقيدا . وتعليقنا على ذلك أن فكرة التقدم والانتقال من البسيط الى المركب هى أساس لكل نظرية تحاول التملص من الاعتراف بوجود العناية الالهية ، وبانهدام هذه الفكرة ـ علميا ـ ينهار أساس النظرية .

(د) تذهب نظريات التطور الحديثة وعلى رأسها نظرية داروين الى أن الانسان تطور من مخلوق بدائى له سمات أقرب الى سمات القردة العليا .

وأن أقدم أصل للانسان ككائن منتصب القامة يرجع الى نحو مليون سنة فقط حيث يلتقى فى هذه الفترة بأصله المشار اليه .

لكن هناك اكتشافا أعلنه أخيرا الدكتور ريتشارد ليكى ـ مدير المتحف الوطنى فى كينيا فى نوفمبر ١٩٧٢ أمام الجمعية الجغرافية الوطنية . عن بقايا جمجمة بشرية يرجع تاريخها الى مليونين ونصف مليون سنة ، وعن عظام ساق ترجع الى تلك الحقبة ذاتها .

وهذا يدل على أن الكائن البشرى المنتصب القامة الذى يسير على ساقين اثنين كان معاصرا للسلالة الشبيهة بالقردة وليس منحدرا عنها .

يقول الدكتور أحمد أبو زيد (المهم من كل هذه الكشوف وغيرها هو أن علماء الانثروبولوجيا الفيزيقية يعيدون الآن تقديراتهم السابقة حول نشأة الانسان وظهوره ويردونها الى أحقاب أقدم بكثير مما كانوا يذهبون اليه فى الماضى . والمهم أيضا هو أن فكرة وجود نوع ما من علاقة القرابة بين الانسان والقردة العليا لا تزال تثير الجدل فى الأوساط العلمية على الرغم من ميل معظم العلماء الى قبولها) .

ثم يقول « هناك من العلماء من يرفض فكرة وجود أى صلة ولو بعيدة بين الانسان والقردة العليا ، ولقد عبر ذلك الموقف المتشكك ـ أو حتى الموقف الرافض ـ عن نفسه فى الاجتماع السنوى الأخير الذى عقدته الرابطة الأمريكية للأنثربولوجيا عام ١٩٧٦ فى واشنطن حيث دارت مناقشات طويلة وصاخبة

حول الفرع الجديد من العلوم الاجتماعية المسمى « البيولوجيا الاجتماعية » (١)

ويقول الدكتور كونانت عن داروين :

« ان تخيله للنشوء كيف حدث ويحدث قد تغير اليوم تغيرا يحمل المرء على أن يقول ان نظرية قديمة قد ذهبت وحل محلها شيء جديد .

ثم ان مسألة الحياة على هذه الأرض « كيف نشأت » مسألة لاتزال الى اليوم غامضة كغموضها عند داروين وفى أيامه (٢) .

ثانيا : وهكذا يتبين لنا أن نظرية النشوء والارتقاء لا تقوم على أساس من المشاهدة التجريبية وانما على أساس من الافتراضات الاعتقادية البحتة .

---

(١) انظر مقالة مجلة عالم الفكر عدد ابريل ، ومايو ، يونيه سنة ١٩٧٧ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤

(٢) مواقف حاسمة ص ٧٦

الخوانك والتكايا والرباطات

فى القاهرة الإسلامية

للأستاذ محمد كمال السيد

— ٥ —

غاز طبيعى فوق الصوة :

ذكرنا فى المقال السابق جامع وخانكاه منجك اليوسفى بشارع باب الوداع وهو امتداد سكة المحجر . وقلنا أن المقريزى ذكره ضمن الجوامع وقال أنه تحت قلعة الجبل خارج باب الوزير ويعرف موضعه بالثغرة .

كما ذكرنا المارستان المؤيدى وأن المقريزى قال أنه فوق الصوة تحت طبلخاناه قلعة الجبل . والصوة ما غلظ وارتفع من الأرض .

ويهمنا أن نذكر الخبر الآتى الذى ساقه الجبرتى فى تاريخه فى أواخر أخبار سنة ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) وان كان بعيدا عن الموضوع ولكنه يستحق الذكر لما قد يكون له من أهمية فى الوقت الحاضر . قال الجبرتى :

(وفيها من الحوادث الغريبة أنه ظهر بالتل الكائن خارج رأس الصوة المعروفة الآن بالحطابة قبالة الباب المعروف بباب الوزير فى وهدة بين التلول نار كامنة بداخل الأتربة . واشتهر أمرها وشاع ذكرها . وزاد ظهورها فى أواخر هذه السنة . فيظهر من خلال التراب ثقب . ويخرج منها الدخان بروائح مختلفة كرائحة الخرق البالية وغير ذلك وكثر ترداد الناس للاطلاع عليها أفواجا نساءا ورجالا وأطفالا فيمشون عليها وحولها . ويجدون حرارتها تحت أرجلهم . فيحفرون قليلا فتظهر النار مثل نار الدمس . فيقربون منها الخرق والحلفاء ونحو ذلك فتدق النار فيها وتورى . ويصعد منها الدخان . وان غوصوا فيها خشبية أو قصبة احترقت . ولما

شاع ذلك وأخبر بها كتخدابك نزل اليها (١) بجمع من أكابره وأتبـاعه وغيرهم • وشاهد ذلك • فأمر والى الشرطة بصب المـاء عليها واهـالة الأتربـة من أعالى التل فوقهـا • وأحضروا السقائين وصبوا عليهـا بالقـرب ماءا كثيرا وأهالوا عليهـا الأتربة • وبعد يومين صارت الناس المتجمعة والأطفال يحفرون تحت ذلك المـاء المصبوب قليـلا فتظهر النار ويظهر دخانها • فيقربون منها الخرق والحلفـاء والبدكات فتورى وتدخن • واستمر الناس يغـدون ويروحون للفرجة عليها نحو شهرين• وشاهدت ذلك من جملتهـم • ثم بطل ذلك) اهـ •

ويفهـم من وصف الجبرتى أن هذا الموقع خارج باب الوزير بالقرب من قبر طراباى الشريفى الذى ذكرناه فى المقال السابق •

سوق السلاح :

ذكـرنا فى المقـالين السابقين أن شارع الدرب الأحمر يمتـد باسم شارع التبانة حتى الزاوية المعروفة باسم زاوية عارف باشا • ثم يتفرع الى فرعين متجهين الى جهة القلعة • الفرع الشرقى منهما باسـم شارع باب الوزير ثم شارع المحجر ثم سكة المحجر • أما الفرع الغربى فاسـمه شارع سوق السلاح ويصـل الى الميدان الذى به جامعا السلطان حسن والرفاعى (راجع الخريطة الملحقـة بالمقال الثالث) •

واسم سوق السلاح هـذا اسم لسوق جدت بعد عهد المقريزى • فقد ذكر المقريزى سوق السـلاح فى جهة بين القصرين من القـاهرة الفاطمية • فلما انتقل مقر الحـكم الى القلعة فى عهد الأيوبيين • وعمرت المنطقة بين القاهرة والقلعة بالمساكن•

---

(١) كتخدا معناها الوكيل وقد حرفتها العامة الى كيخيا • وكتخدا بك وكيل الباشا الوالى • وهى وظيفة قريبة من وظيفة رئيس الوزارة • وكان الباشا الوالى محمد على وكتخدابك كان محمد بك لاظ أوغلى المنسوب له التمثال بالميدان المعروف باسمه بجهة المالية والدواوين • وقول الجبرتى (نزل اليها يعنى من القلعة التى كانت مقرا للحكم •

بعد أن كانت مقابر للأموات . نشأت هناك سوق لصناعة وتجارة الأسلحة . وقد ذكرها الجبرتى فى تاريخه مرارا بهذا الاسم . وكانت مسرحا فى كثير من الأحيان للمصادمات التى كانت بين المماليك البكوات فى عهد الحكم العثمانى. والاسم باق للآن .

سويقة العزى :

وكانت منطقة سوق السلاح المذكورة تعرف فى عهد المقريزى بسويقة العزى . نسبة الى الأمير عز الدين أيبك العزى الذى كان نقيبا للجيوش فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون . واستشهد فى فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١م) .

وظل الاسم باقيا للآن .

وفى وصف على مبارك لشارع سويقة العزى نرى أن هذا الاسم فى وقته كان يطلق على شارع النبوية الحالى من عند جامع أصلم وعلى الجزء الأول من شارع سوق السلاح الحالى حتى حارة حلوات عند جامع الجائى اليوسفى .

وقد أوقع الفرنسيون فى خرائطهم للقاهرة (١٧٩٨ ــ ١٨٠١ م)شارع سوق السلاح بنفس وضعه الحالى تماما . وانما سموا جزءا منه فى أوله باسم درب التبانة والباقى باسم شارع سوق السلاح .

وشارع سوق السلاح ومنطقته غنيان بالآثار الاسلامية فى عهد السلاطين المماليك والعثمانيين . ويطول بنا الأمر لو تعرضنا لهذه الآثار ولكن نذكر منها أكثرها أهمية مما له علاقة بموضوع المقال جامع مدرسة الجائى اليوسفى أو جامع السايس .

ذكره المقريزى فى المدارس . وقال : هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل كان موضعها وما حولها مقبرة ويعرف الآن خطها بسويقة العزى . أنشأها الأمير الكبير سيف الدين الجائى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٦ م) وجعل بها درسا للفقهاء الشافعية ودرسا للفقهاء الحنفية وخزانة كتب وأقام بها منبرا يخطب عليه يوم الجمعة . وهى من المدارس المعتبرة الجليلة . اهـ .

والجامع على يسار المتجه بشارع سوق السلاح الى القلعة على رأس حارة حلوات وتدخل اليه من طرقة ملتوية تؤدى الى صحن سماوى يحيط به أربعة ايوانات وبصدر الداخل ايوان القبلة ويبدو وأنه سقط سقف هذا الايوان فرمم بعروق عادية من الخشب . وبالجامع قبر منشئه بأعلاه قبة . والمئذنة مملوكية رشيقة. ولا عمد بالجامع . وبدائره أبواب تؤدى الى غرف بالدورين الأعليين لخدمة الجامع .

والجائى اليوسفى كان من أمراء مصر فى عهد الأشرف شعبان بن الأمير حسين بن الناصر محمد بن قلاوون الذى عينه أتابك العساكر . وتزوج الجائى من خوند بركة أم السلطان الأشرف صاحبة جامع أم السلطان بالتبانة الذى سبق ذكره فى المقال الثالث . فعظم قدره واشتهر ذكره وتحكم فى شؤون الدولة تحكما زائدا . فلما توفيت خوند بركة فى ٢٨ ذى القعدة سنة ٧٧٤ هـ اختلف مع ابنها فى ميراثها فخرج بمماليكه يريد محاربة السلطان . وخرج له السلطان بعساكره . وتحاربا خارج القاهرة . فانكسر الجائى وهرب والعسكر وراءه حتى ضاقت به الطرق فألقى بنفسه فى النيل بالقرب من قليوب فمات غريقا فى ٩ المحرم سنة ٧٧٥ . ونجا الجواد . فأخرجوا جثته . ودفن فى جامعه هذا .

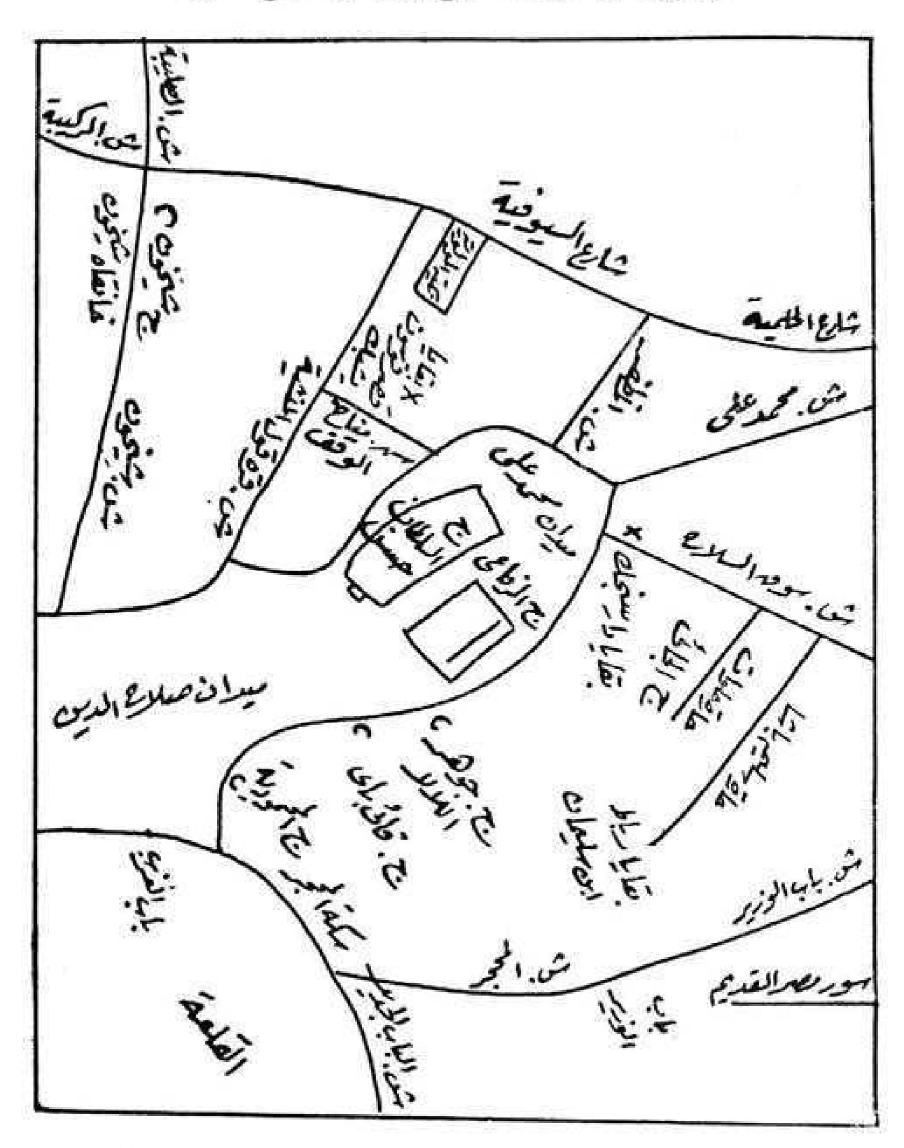
وكان ظالما قاسيا جبارا . وقد ذكرنا فى المقال المذكور أنه من المصادفات ما قاله أحد الشعراء :

فى ثامن العشرين من ذى قعدة
كانت صبيحة موت أم الأشرف
فالله يرحمها ويعظم أجره
ويكون فى عاشوراء موت اليوسفى

ويعرف الجامع المذكور أيضا باسم جامع السايس . لأن الأمير علاء الدين على بن أحمد الطيبرسى الشهير بالسايس تولى نظارة هذه المدرسة والجامع بعد وفاة الجائى اليوسفى .

وذكر على باشا مبارك أنه برأس الحارة (يعنى حارة حلوات) عمود يضرب الى الزرقة طوله متران تقريبا

رسم كروكى
عن جزء من سوق السلاح وميدان صلاح الدين



وهو من توابع جامع السايس وفوقه مكتب عامر بالأطفال . وقال أنه فى عهد محمد على راجت اشاعة بأن من يدهن هذا العمود بماء الليمون ويلحسه بلسانه ويكرر اللحس حتى يخرج دم أسود من لسانه فاذا استعمل ذلك ثلاث مرات شفى من داء اليرقان وغيره من الأمراض الباطنية . فأقبل الناس على ذلك . واستمروا حتى عهد عباس حلمى الأول . فمنعوا عنه الناس . وغطوا العمود بطبقة من الجبس . ثم تحايل بعض خدمة الجامع فكشفوا جزءا من أسفله وعملوا عليه دولابا على قدر القامة له باب لا يفتح الا بدراهم . وقال على مبارك أن هذا ظل جاريا حتى عهده فى أواخر القرن الماضى .

وبعد وفاة الجائى اليوسفى تولى أتابكية العساكر ايدمر نائب طرابلس الذى توفى بعد مدة يسيرة فخلفه منجك اليوسفى صاحب الجامع خارج باب الوزير وسبق ذكره والذى توفى سنة ٧٧٦ هـ .

دار منجك اليوسفى :

وكانت دار منجك عند نهاية شارع سوق السلاح من جهة الميدان . وقد اندثرت ولم يبق منها الا بضعة عقود على الشارع .

رباط ابن سليمان :

ذكره المقريزى وقال أنه خارج باب زويلة بحارة الهلالية وأنه عرف بأحمد بن سليمان الرفاعى شيخ الفقراء الأحمدية الرفاعية بديار مصر . وكان عبدا صالحا له قبول عظيم من أمراء الدولة وغيرهم . وينتمى اليه كثيرون من الفقراء الصوفية . وروى الحديث عن سبط السلفى ، وحدث وكانت وفاته ليلة الاثنين ٦ ذى الحجة ٦٩١ هـ بهذا الرواق (نوفمبر سنة ١٢٩١م)

وأخطأ المرحوم على باشا مبارك أن ذكر أن هذا الرباط بدرب الأغوات بالسروجية . وقال أن مكانه الزاوية الصغيرة المعروفة بزاوية الشيخ القيسونى وآخر يقال له الشيخ عبد الله .

والزاوية التى ذكرها على مبارك موجودة للآن . ودرب الأغوات

متفرع من شارع المغربلين أحد أجزاء امتداد شـارع المعز لدين الله على يمين الخارج من باب زويلة .

وقد ذكرنا فى مقال سابق فى سلسلة مقالات (صفحات من تاريخ القاهرة ١٠ عدد المحرم سنة ١٣٩٦) الحارات التى استجدت خارج باب زويلة على جانبى امتداد الشارع الأعظم . وقلنا أنه على يسار الخارج من باب زويلة نشأت حارة البانسـية . ثم جنوبا منها حارة المصـامدة . ثم جنوبا فى المصامدة حارة الهلالية، أما على يمين الخارج من باب زويلة فقد استجدت حارة السودان أو المنصـورية ثم حارة المنتجبية . ثم حارة حلب التى ضاع جزء منها عنـد فتح شـارع محمد على (القلعة حاليا) .

فدرب الأغوات المذكور اما أنـه من حقوق حارة المنتجبية أو حـارة حلب . وليس من حارة الهلالية . والدليل على ذلك أن على مبـارك نفسه عندما تكلم عن درب الأغوات (الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ٣٨) قال أن هذه الحارة هى التى عبر عنها المقريزى بحارة المنتجبية . كما أنه عند الكلام فى حارة الدالى حسين (جـ ٢ ص ٣٥) ــ وهى متفرعة من امتداد الشارع الاعظم على يسـار الخارج من باب زويلة وتقابل تقريبا درب الأغوات ــ قال أنه يعتقد أن حارة الدالى حسين هى حارة الهلالية التى ذكرها المقريزى .

ويظهر أن حارة الهـلالية كانت ممتدة الى قرب موقع الرباط المذكور الموجود بقاياه فى نهاية حارة سليم باشـا المتفرعة من شـارع سـوق السلاح .

وقد ذكر على مبارك موقع هذا الرباط (جـ ٢ ص ١٠٥) أن بآخره حارة سليم باشـا زاوية الرفاعيين ويقال لها الزاوية البيضاء شعائرها معطـلة لتخربها وبداخلهـا ضريح الشـيخ أحمد الحريرى ونظـارتها للسيد محمد ياسين شيخ الطريقـة الرفاعية .

وذكر المرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب بقايا هـذا الرباط فى كتابه

(جامع السلطان حسن وما حوله) وقال أنه أثر نفيس مستتر وقال أن القبة على بساطة مظهرها من الخارج ولكن رائيها من الداخل ينبهر بزخارفها وألوانها ونوادر الصناعة فيها وتنوع الخط ما بين نسخ وكوفى .. الخ

وبكل أسف قد سقط أخيرا منزل بجوار الرباط فهدم كثيرا من بقاياه وتصدعت القبة ويحتاج المكان لأسعاف عاجل قبل أن يتلاشى نهائيا .

تكية السليمانية :

وقبل أن تنتقل من هذه الجهة نذكر تكية السليمانية .. لتشابه الاسم مع صاحب الرباط السابق ذكره — وهى فى شارع السروجية أحد أجزاء امتداد الشارع الأعظم . قبل تقاطعه مع شارع محمد على عند الحلمية بقليل . على يسار المتجه الى جهة الحلمية والصليبية . فقال عنها على مبارك (جـ ٦ ص ٥٦) أنه عمرها الأمير سليمان باشا سنة ٩٢٠ هـ . وكان أصلها مدرسة باسم مدرسة سليمان باشا ثم صارت تكية وبها خلاوى للدراويش القادرية (أتباع السيد عبد القادر الجيلى أو الجيلانى) .

ونلاحظ على هذا التاريخ أن رتبة الباشا لم تعرف فى مصر الا بعد دخول العثمانيين سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧ م) . وكانت تطلق على الوالى العثمانى . وأن أول الولاة العثمانيين بهذا الاسم كان سليمان باشا الخصى تولى من سنة ٩٣١ — سنة ٩٤١ هـ . ثم من سنة ٩٤٣ — سنة ٩٤٥ هـ .

ميدان صلاح الدين — محمد على :

قد تعاقبت الاسماء التاريخية على هذا الموقع . فعرف أولا بالرميلة حيث أنشأ أحمد بن طولون (٢٥٤— ٢٦٩ هـ) قصره العظيم بالقرب من جامعه الملحقين بمدينة القطائع . ثم عرف بسوق الخيل . ثم عرف بالمنشية وقره ميدان حيث كان هناك السجن المشهور بهذا الاسم . وعرف جزء منه بميدان محمد على حيث ينتهى شارعا محمد على وسوق السلاح . ثم عرف أخيرا بميدان

صلاح الدين الذى بدىء فى انشاء القلعة فى عهده • ونحن تتكلم هنا عن هذا الجزء من الميدان الذى كان يسمى ميدان محمد على •

ويحتوى ميدان محمد على على مجموعة من تحف العمارة الاسلامية فبوسطه جامعا السلطان حسن والرفاعى • وبدائره جامع جوهر اللالا وجامع ومدرسة قانى باى الرماح وبقايا قصر منجك اليوسفى السابق ذكره • وبالقرب منه بقايا قصر قوصون صاحب الخانكاه التى ذكرناها فى المقال السابق • والذى آل الى يشبك بن مهدى الدوادار ثم من بعده الى اقبردى الدوادار الذى صرفت العامة اسمه الى بردق حيث أطلقوا اسم حوش بردق على مجاورات موقع القصر • وسنتناول كلا مما ذكر بكلمة موجزة • ولو أنها ليست من الخوانك ولكن بعضها جمع بين الجامع والمدرسة • وفى أوقافها ماقد يربطها بالخوانك برابط الصدقة الجارية • فالخوانك صدقتها جارية على المنقطعين للعبادة والمدارس فى مقرراتها صدقة جارية على المنقطعين للعلم والدراسة •

جامع ومدرسة السلطان حسن :

قال عنه المؤرخون أنه أكبر معبد فى الاسلام • ووصفه المقريزى بقوله : فلا يعرف فى بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحاكى هذا الجامع • وقبته لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها • وقال : وفى هذا الجامع عجائب من البنيان منها أن ذرع ايوانه الكبير خمسة وستون ذراعا فى مثلها • ويقال أنه أكبر من ايوان كسرى الذى بالمدائن بخمسة أذرع ومنها المنبر الرخام الذى لا نظير له• ومنها البوابة العظيمة • ومنها المدارس الأربع التى بدور قاعة الجامع وغير ذلك • وقال : واستمر العمل فيه ثلاث سنوات بدون انقطاع مصروفها كل يوم عشرون ألف درهم وقال : وبلغه أن السلطان حسن قال لولا أن يقال أن ملك مصر عجز عن اتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ماصرف عليه •

وذكر لنا المرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب طائفة من أقوال بعض المؤرخين . فنقل عن ايبرس : (ان كل ما تراه فى هذا الجامع مركب فى مكانه تركيبا هائلا منسجما . فاذا أمعنت النظر فى زخارف ايوان القبلة وقبة القبر جزءا جزءا أحسست احساس الرضا . فهناك ثروة فنية وأشكال رشيقة بارعة) .

ونقل عن جومار فى كتاب وصف مصر (أنه من أجمل مبانى القاهرة والاسلام ويستحق أن يكون فى المرتبة الأولى من مراتب العمارة العربية بفضل قبته العالية وارتفاع مئذنتيه وعظم اتساعه وفخامته وكثرة زخارفه التى تكسو الأرضية والجدران فى أوضاع بسيطة خاصة بهذه العمارة . كما أن محاشى الخشب والبرونز التى تكسو الأبواب الخشبية والنحاسية محفورة حفرا فنيا) .

ونقل عن المصور لينوار : ان جامع السلطان حسن يشرف على القاهرة كلها . وأسلوب بنائه من أرقى الأساليب المعمارية . ومساحته عظيمة ولذا يعد أجمل جامع فى الشرق كله بلا نزاع .

ونقل عن الورتيلانى الرحالة المغربى الذى زار مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى (١٨ م) : (انه مسجد لا ثانى له فى مصر ولا فى غيرها من البلاد فى فخامة البناء ونباهته وارتفاعه واحكامه واتساع حناياه وسعة أبوابه كأنه جبال منحوتة تصفق الرياح فى أيام الشتاء بأبوابه كما تفعل فى شواهق الجبال) . اهـ

والسلطان حسن منشىء هذا الجامع هو الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، تولى السلطنة وكان ترتيبه السابع من اخوته الذين تولوا الحكم بعد أبيهم الناصر محمد بن قلاوون . وكانت سلطنته الأولى من سنة ٧٤٨ ـ سنة ٧٥٢هـ وخلع . وتولى بعده أخوه الصالح صلاح الدين صالح . الذى خلع سنة ٧٥٥ هـ وأعيد السلطان حسن حيث استمر فى الحكم حتى قتل سنة ٧٦٢ كما هو الارجح . فلم يعرف كيف ومتى قتل . ولم يظهر لجثته

أثر بعد أن كان مقررا أن تدفن فى الجامع المذكـور • وكان هـذا فى الاسرار التى احتفـظ بكتمانهـا التاريخ •

وكان محل الجامع المذكور قصر هائل أنشأه الناصر محمد بن قلاوون ليلبغا اليحيارى أحد أمراء دولتـه والمقربين اليه • فهدمه الناصر حسن وأنشـأ مكانه جامعـه ومدرسـته للمذاهب الأربعة •

وبدأ العمل فيه سـنة ٧٥٧ هـ • ويفهم من تقدير المقريزى أن الاعمال الاساسية قد تمت سـنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) وافتتح الجامع والمدرسة فى حياة الناصر حسن • وبعد وفاته أتم الطـواشى بشير الجمـدار (١) الأعمال التكميلية لغاية سنة ٧٦٤هـ •

وكان فى تصميم الجامع انشـاء أربع مآذن • أنشىء منها ثلاث • ثم سقطت احداها التى فوق الباب فى ٦ ربيع الآخر سنة ٧٦٢ فهلك تحتها نحو الثلثمائة نفس من الايتام الذين كانوا رتبوا بمكتب السبيل هناك • فتشاءم السلطان ومنـع تجديدها • وألغى المئـذنة الرابعـة • ولهجت الالسن بأن هـذا نذير شؤم على السلطان • وفعلا صادف أنه قتـل بعد ٣٢ يوما من سقوط هذه المئذنة •

ولا نريد أن ندخل فى تفاصـيل البراعة الهنـدسية فى عمارته • أو الذوق الرفيع فى زخارفه الفنية من نقوش وكتـابة ونجارة وقيشـانى ورخام ونحاس مشـغول ومحاريب وغير ذلك • فهـذا يطـول شرحه ويخرجنا من موضـوع المقـال • ولن يغنى الوصف عن مشاهدة هذه التحفة الفنية المجيـدة من العمارة الاسلامية • وقد أسهب فى وصـفه المرحوم حسن عبد الوهاب فى كتابه المذكور كما ذكره المرحوم على مبارك تفصيلا فى خططه • ونكتفى أن نذكر أن مسـاحة الجـامع والمدرسـة ٧٩٠٦ م٢ • أى أقل قليلا من فدانين وارتفاع قبته ٤٨ مترا • وارتفـاع مئذنته القبلية ٨١٫٦٠ متر عن صحن

---

(١) الجمدار هو من يتولى مباشرة ملابس السلطان •

الجامع . أما البحرية ــ التى تقابل جامع الرفاعى ــ فقد سقطت سنة ١٠٧٠ هـ (سنة ١٦٦٠ هـ) . وجددها الوالى العثمانى ابراهيم باشا كتخدا سنة ١٠٨٢ هـ (تولى الولاية من شعبان سنة ١٠٨٠ ــ صفر سنة ١٠٨٤ هـ) .

وفى وقت الاضطرابات والفتن فى دولتى السلاطين المماليك . استعمل الجامع لارتفاعه مقابلا للقلعة فكان يرمى من سطحه عليها ، فأزيل الدرج وسد الباب الذى كان يؤدى الى السطح ، واشترى المؤيد شيخ (٨١٥ ــ ٨٢٤ هـ) هذا الباب والتنور النحاس الذى كان معلقا هناك بخمسمائة دينار ونقلهما الى مسجده على يسار الداخل من باب زويلة سنة ٨١٩ هـ ثم فى سنة ٨٢٥ أعيد الأذان فى المئذنتين كما كان . وأعيد بناء الدرج والبسطة. وركب باب آخر بدلا من الباب الذى أخذه المؤيد شيخ .

وقد تولت لجنة حفظ الآثار العربية فى مطلع القرن الحاضر العناية بهذا الأثر النفيس فرممت جدرانه وجددت بهاء النقوش والنجارة والرخام حتى عاد للجامع رونقه .

ونحن نعالج هذا الأثر الاسلامى الجليل . لا من الناحية المعمارية الهندسية الفنية . ولكن من الناحية الانسانية . ففى أوقافه التى أوقفها منشئه والتى تزيد عن ١٥٠٠٠ فدان من أجود الاراضى . لمسات من الخير والصدقة الجارية وتشجيع العلوم . فننقل للقارىء بالارقام بعض مصارف هذه الاوقاف على الجامع والمدرسة . وهى تكفى لرسم صورة من تفكير ذلك العصر ومن سخاء الواقف قياسا على أسعار وقته ومن تفصيل الخدمة فى الجامع والمدرسة وهو صورة أيضا من تقويم الوظائف المختلفة . فنرى مثلا الفرق الكبير بين شيوخ العلم وبين الاطباء . وغير ذلك .

فجعل فى كل مذهب من المذاهب الأربعة شيخا ومائة طالب على أربع فرق . كل فرقة ٢٥ طالبا وبها ثلاثة معيدين . وقرر المصارف الآتية :

٣٠٠ درهم شهريا لكل شيخ من شيوخ المدارس الاربع .

١٠٠ درهم شهريا لكل معيد (٤٨ معيدا) .

٤٢٥٠ درهم شهريا لطلبة كل مذهب (١٠٠ طالب) ويزاد ٢٠درهم شهريا لأحدهم تقيب عليهم و ١٠ دراهم شهريا لأحدهم ليدعو للواقف بعد القراءة .

٣٠٠ درهم شهريا لمدرس تفسير القرآن .

٣٠٠ درهم شهريا لثلاثين طالبا مع المدرس المذكور ويزاد ١٠ دراهم لأحدهم لاثبات الحضور والغياب . ولآخر مثلها ليكون داعيا .

٣٠٠ درهم شهريا لمدرس الحديث الشريف .

٣٠٠ درهم شهريا لثلاثين طالبا معه ويزاد ١٠ دراهم لأحدهم لاثبات الحضور والغياب . ولآخر مثلها ليكون داعيا .

٣٠٠ درهم شهريا لشيخ متصدر عالم بالفتوى يجلس بالايوان القبلى أربعة أيام فى الاسبوع .

٤٠ درهم شهريا لمقرىء يحضر مع الشيخ المذكور .

٤٠ درهم شهريا لمادح يمدح رسول الله (ص) بالمسجد بعد الفراغ من التلاوة ثم يدعو للسلطان

١٥٠ درهم شهريا لشيخ حافظ بالقراءات السبع يجلس كل يوم بالايوان القبلى بعد صلاة الصبح.

١٥٠ درهم شهريا لشيخ حافظ لتلقين القرآن بالايوان القبلى .

١٠٠ درهم شهريا لامام بالايوان الكبير .

٦٠ درهم شهريا لأربعة أئمة بالمدارس الأربع . ويزاد ٤٠ درهما لكل منهم فى شهر رمضان .

١٠٠ درهم شهريا لاثنين ميقاتيين عالمين بالمواقيت . ويزاد لكل منهم ١٦ درهما فى رمضان .

١٠٠٠ درهم شهريا لـ ٣٢ مؤذنا حسنى الأسواط . ويزاد لكل منهم ١٠ دراهم فى شهر رمضان .

١٠٥٠ درهم شهريا لـ ٣٠ قارئا بالقبة نهارا .

١٣٥٠ درهم شهريا لـ ٣٠ قارئا بالقبة ليلا .

٨٠ درهم شهريا لنقيبين لاثبات حضور القراء ليلا ونهارا ٠

١٠٠ درهم شهريا لقارئين يقرآن القرآن بالايوان القبلى ٠

٣٠ درهم شهريا لحامل المصحف يضعه على الكرسى بعد صلاةالصبح وقبل صلاة الجمعة ٠ ثم يعيده الى موضعه ٠

١٠٠ درهم شهريا لخـازن كتب الوقف ٠

١٥٠٠ درهم شهريا لعشرة خدمة لحفظ القبـة وصيانتها من أهـل الفساد ٠

٢٠٠ درهم شهريا لاثنين لخدمة المزملة (مايبرد فيه المـاء) وحفظ أوانيها وملء الكيزان وسقى من يرد اليها ٠

٣٦٠ درهم شهريا لتسعة فراشين اثنين للقبة وثلاثة للجامع وواحـد لكل مدرسة ٠ ويعملون يوما بعـد يوم ٠

٣٦٠ درهم شهريا لتسعة فراشين يتناوبون العمل مع من ذكروا ٠

١٠٠ درهم شهريا لرئيسين على الفراشين المذكورين ٠

٢٤٠ درهم شهريا لسـتة بوابين لحفظ الأبواب وفتحها وغلقها ٠

٣٠٠ درهم شهريا لمائة يتيم نفقـة وكسوة فى مكتبين كل مكتب مائـة يتيم ٠

٦٠ درهم شهريا لمؤدب لكل من مكتبى الأيتام ٠

٤٠ درهم شهريا لعريف لكل من مكتبى الأيتام ٠

٥٠ درهم لكل يتيم حفظ القرآن ٠ ويصرف مثلها للمؤدب ٠٠ ومن أتم حفظ القرآن من الأيتام يستبدل بغيره ٠

١٢٠ درهم شهريا لطبيبين مسلمين يحضران يوميا لعلاج أرباب الوظائف والطلبة أحدهما طبيب أبدان والآخر عارف بصناعة الكحل (طبيب عيون) ٠

٤٠ درهم شهريا لجراح يحضر مع الطبيبين المذكورين ٠

١٠٠٠ درهم شهريا لناظر الوقف .

٤٠٠ درهم شهريا لمتولى استيفاء حساب الوقف .

٣٠٠ درهم شهريا لشاهدين يضبطان ما يرد من ريع الوقف .

١٥٠ درهم شهريا لكاتب حسابات الوقف .

٢٠٠ درهم شهريا لمباشر تحصيل أموال الوقف .

١٠٠ درهم شهريا لأمين يتولى حفظ وصرف المرتبات فى آخر كل شهر .

١٠٠ درهم شهريا لصراف مسلم دين .

٤٠ درهم شهريا لسطوحى يتولى حفظ الأسطحة .

٤٠٠ درهم شهريا لعشرة يتولون كنس المراحيض والطرقات والرش أمام الجامع .

وقرر أن يصرف بحسب الحاجة على سقاية المزملة والسبيل والمكتب وما يحتاج اليه أرباب الوظائف ونقل الماء العذب والأسفنج وغيره .

وقرر كمية وافرة من الشمع الأبيض المشغول على القطن المفتول لمحراب القبلة ومحراب الايوان القبلى الكبير للوقود فى صلاة الصبح والعشاء والتروايح فى شهر رمضان . وقرر بحسب الحاجة مايلزم لحفظ وتجديد أثاث الجامع من حصر وبسط وقناديل وسلاسل وأسطال ومكانس وزيت الوقود ولوازم ليلة نصف شعبان وختم رمضان .

وفى كل ليلة جمعة يصرف خمسة قناطير من لحم الضأن وعشرون قنطارا من الخبز غير الأرز والعسل والحبوب وحب الرمان والدهن والحطب وأجرة من يتولى طبخ ذلك ويصرف النصف لأرباب الوظائف بالمسجد والنصف يوزع على الفقراء والمساكين .

ويشترى فى أول كل سنة مايكفى من زيت الزيتون أو ما يقوم مقامه .

ويوزع فى شهر رمضان ٢٣ قنطارا من السكر على أرباب الوظائف بحسب درجات مقرراتهم المذكورة .

وفى عاشوراء يصرف ٤٠ قنطارا من الخبز و١٠ قناطير من لحم الضأن

وأردبين من الحبوب التى تعمل فى عاشوراء و ٤ قناطير من العسل و ٢٠ قنطارا من السيرج وقيمة الأبازير والحطب وأجرة الطبخ . ويصرف نصفها على أرباب الوظائف والنصف على الفقراء والمساكين .

وفى كل يوم من رمضان يصرف ١٠ قناطير من اللحم و ٤٠ قنطارا من الخبز غير الأرز والعسل والحبوب ولوازم المطبخ وأجرة الطبخ . ويوزع ذلك مناصفة بين موظفى المسجد وبين الفقراء والمساكين .

وفى عيد الأضحى يصرف ثمن رأسين من الأبل وعشرين رأسا من البقر وعشر رؤوس من الضأن تذبح وتفرق مناصفة كما ذكر .

وكل سنة يصرف ثمن ألف قميص وألف طاقية وألف مداس تفرق مناصفة أيضا .

واذا فضل شىء من ريع الوقف بعد المصارف المذكورة يحفظ تحت يد الناظر حتى يتكون مائة ألف درهم تظل رصيدا دائما لمصاريف الجامع . فاذا زاد الريع عن ذلك تشترى بالزائد أرض تضم لأوقاف الجامع . على أنه اذا كان الجامع غير محتاج لهذا الوقف الجديد فيصرف ريعه فى وجوه البر من خلاص المسجونين . ووفاء دين المدينين . وفك أسرى المأسورين . واعانة فى تأدية فريضة الحج . وتجهيز فقراء أموات المسلمين . ومداواة المرضى . واطعام الطعام .

جامع الرفاعى :

ويقابل جامع السلطان حسن جامع الرفاعى . وهو لا يضاهى جامع السلطان حسن ضخامة وان كان يساويه ارتفاعا تقريبا . ولكن به أناقة وفن وربما كان لمجاورته للجامع الأكبر ما أوحى لمهندسه أن يبذل قصارى جهده حتى لايكون قزما بجوار هذا الطود الشامخ .

وهو مجرد جامع للعبادة ويمتاز أن به مدفن لبعض أفراد الأسرة المالكة السابقة .

وكان من ضمن مكان الجامع زاوية للرفاعيين أتباع الطريقة الرفاعية وتعرف بالزاوية البيضاء . وذكر هذا على باشا مبارك تابعه المرحوم حسن عبد الوهاب . ولكن نلاحظ أن على مبارك ذكر هذا أيضا على موقع رباط أحمد بن سليمان السابق ذكره . ونعتقد أنه اختلط عليه الأمر لنسبة الرباط الى أحمد بن سليمان الرفاعى . وأن زاوية الرفاعى هى محل هذا الجامع . ومدفون بها الشيخ على أبو شباك والشيخ يحيى الأنصارى وطائفة من أتباع الطريقة الرفاعية . والشيخ على أبو شباك من نسل السيد أحمد الرفاعى الكبير المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ومدفون بقرية أم عبيد من قرى العراق والذى يعتبر أحد الأقطاب الأربعة عند عامة الصوفية كما ذكرنا فى المقال الأول من هذه السلسلة .

وكان مكان زاوية الرفاعى هذه مسجد فاطمى ذكره المقريزى باسم مسجد الذخيرة . أنشأه ذخيرة الملك متولى الحسبة فى القاهرة سنة ٥١٦ هـ وعرفته العامة باسم مسجد (لا بالله) لأنه كان يقبض على الناس فى الطريق فيستحلفونه (لا بالله) أن يتركهم فيرفض ويسخرهم فى العمل بالمسجد بدون أجر . وكتب بعض الناس على مسجد الذخيرة هذين البيتين المشهورين :

بنى مسجدا لله من غير حله
وكان بحمد الله غير موفق

كمطعمة الأيتام من كد فرجها
لك الويل لا تزنى ولا تتصدق

وقال المقريزى : وابتلى الله ذخيرة الملك هذا بالأمراض الخارجة عن المعتاد . وذكر عنه فى حالتى غسله وحلوله بقبره ما يعيذ الله كل مسلم . وتجنب الناس تشييعه والصلاة عليه .

وأمرت خوشيار هانم والدة الخديوى اسماعيل سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) بانشاء مسجد فى هذا المكان على أن يلحق بالمسجد مدافن لها ولأسرتها وقبتان للشيخين على أبى شباك ويحى الأنصارى من ضمن من كانوا مدفونين بزاوية الرفاعى المذكورة .

فاشتريت الأرض المجاورة للزاوية حتى بلغت مساحة المسجد ٦٥٠٠م٠م تقريبا • وبدىء العمل فيه ثم أوقف سـنة ١٨٨٠ م • لكثرة النفقـات وحـالة مصر وقتـذاك • وتوفيت خوشيار هانم سنة ١٨٨٥ • فاستمر العمل موقوفا حتى أوائل القـرن الحاضر • فأعيد العمل وانتفع بمـا كان مخـزونا من أدواته • وافتتح للصلاة فى غرة المحرم سنة ١٣٣٠ هـ (٢٢ ديسمبر سـنة ١٩١١) وكان يوم جمعة •

وظـل اسـم الرفاعى علما على المسجد •

ولا نطيل فى وصف المسـجد • وانما نقول اجمالا أنه آية من روائع الفن الاسلامى الحديث • سـواء فى ارتفاع قبابه وسقوفه أو الدعامات الهائلة من الحجر يحيط بكل دعامة أربعة عمـد من الرخـام ووزراته الرخامية الملونة والمشغولة بتقاسيم هندسية وأثاثه وسجاجيده ونجارته ونقوشـه وغير ذلك من البدائـع الفنية •

وفى مواجهة الداخل من البـاب المقابل لجامع السلطان حسن تجـد ضريح الشيخ على أبى شباك وفوقه قبة شاهقة الارتفاع تساوى ارتفاع المسـجد ويحيط بالضريح دائر من الخشب الثمين المشـغول • وفوقه ثريا من الكريستال الفـاخر • أما ضريح الشيخ يحيى الأنصارى فبعد قليل من يمين الداخل •

وعلى يسـار الداخل حاجز من الخشب المشغول يفصل جـزءا عن باقى الجامع • وبهذا الجزء ضريح الملك السـابق أحمد فـؤاد الأول وابنـه فاروق فى ضريح واحـد • وضريح فريال هانم والدة أحمـد فؤاد • وعلى الضريحين تركيبتـان من الرخام بأدق صنعة •

أما باقى المقـابر فهى فى الناحية الأخرى من الجامع ولها باب خارجى مسـتقل فضـلا عن أبواب تصلها بالجامع • ومدفون بها الخـديوى اسـماعيل ووالدته خوشيار هانم منشئة الجامع • والسلطان حسـين كامل وزوجتـه السـلطانة ملك •

والأميران ابراهيم حلمى وعلى جمال الدين من أبناء اسماعيل • والأميرتان توحيدة وزينب من بنات اسماعيل • وثلاث من زوجات اسماعيل • وعلى كل قبر تركية من الرخام يبدو فيها الفن الجميل والذوق الرفيع •

ولاحظت وجود صليب فى نقوش التركيبة الوسطى من أضرحة زوجات اسماعيل • لأنها كانت ايطالية • ويبدو أأنها لم تعتنق الاسلام ! ؟ •

والمسجد بنقوشه وزخارفه وأبهته جدير بالمشاهدة •

جامع ومدرسة قانى باى امير اخور الرماح :

ذكره على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية باسم قايتباى بالتاء • وذكره المرحوم حسن عبد الوهاب باسم قاينباى بتقديم الياء عن النون• وذكره ابن اياس فى بدائع الزهور باسم قانى باى • وهكذا الاسم منقوش بالجامع •

وقانى باى كان من مماليك الأشرف قايتباى• (٨٧٢ – ٩٠١ هـ)• وأعتقه• فتدرج فى الوظائف حتى وصل الى رتبة أمير أخور كبير سنة ٩٠٣ هـ • وقد ذكرنا فى مقال سابق أن هذه الوظيفة كانت من الوظائف الكبرى يتولى صاحبها الأشراف على الاسطبلات السلطانية بما فيها من خيل وبغال وجمال وغيرها •

وظل فى وظيفته حتى توفى سنة ٩٢١ هـ • أى قبل دخول العثمانيين بسنة • فلعله آخر الجوامع والمدارس التى أنشئت فى عهد السلاطين المماليك • ودفن بجامعه هذا •

وكان ظالما جبارا يأكل الحقوق ويجور على الناس • وكان مشهورا بالشجاعة والفروسية ولعب الرمح • ولذلك كان يلقب بالرماح • ومن قسوته أن السلطان أرسله مرة الى جهة الشرقية بسبب فساد العربان هناك فكان اذا ظفر بأحدهم يسلخه من رأسه الى قدميه • وقال عنه ابن اياس : وقد أراح الله منه • وقال فيه كعادته بيتين من الشعر :

جهنم منذ قالت
لقانى باى خذ حذارك

قد زاد نيران وجدى
من كثرتى لاتتظارك

وقال على مبارك (حـ ٢ ص١٠٤) أنه كان بهذا الجامع حجر عتبا لأحد الشبابيك عليه كتابة هيروغليفية وطوله ٢ × ٤٠ر × ٣٠ر متر سنتى سنتى وأخذه الفرنسيون أثناء وجودهم بمصر •

وهو من المساجد المعلقة يرتفع عن أرض الميدان بعدة أمتار تصعد اليها بمرتقى ثم بعدد من الدرجات وتدخل الى الجامع من طرقة ملتوية تصل بك الى صحن سماوى • وعلى اليمين ايوان القبلة • وعلى اليسار ايوان آخر • ومئذنة الجامع من ذوات الرؤوس المزدوجة وهو الطراز الذى انتشر فى أواخر عهد السلاطين المماليك •

ولقانى باى مسجد آخر غير هذا بحى الناصرية •

وتسكن المسجد حاليا احدى العائلات نتيجة لازمة المساكن •

جامع جوهر اللالا :

وبالقرب منه جامع جوهر اللالا (راجع الخريطة) وذكره على مبارك حـ ٢ ص ١٠٤ وجـ ٤ ص ٧٦ وقال أن وقفيته تاريخها سنة ٨٣٣ هـ • وأن جوهر اللالا توفى سنة ٨٤٢هـ• وكان بجوار الجامع حمام قد زال •

واللالا وظيفة الطواشى الذى كان يباشر تربية أولاد السلطان • فكان السلطان يرعاه بعطفه • واذا تولى أحد الأولاد السلطنة حفظ له حق التربية وقدمه فى المناصب •

وكان جوهر هذا مربيا لأولاد الأشرف برسباى (٨٢٥ـ٨٤١ هـ)• واختبل عقل برسباى فى آخر حكمه وتولى بعد ابنه العزيز يوسف وخلع بعد ثلاثة شهور سنة ٨٤٢ هـ •

وهو كجامع قانى باى تصعد اليه بمرتقى ثم عدة درجات وتدخل اليه من طرقة ملتوية تؤدى الى صحن مسقوف وعلى يمين الداخل ايوان القبلة وعلى اليسار ايوان آخر • وأرضية الصحن منخفضة عن أرضية الأيوانين بدرجة • وبالجامع وزرة من الرخام الملون بأشكال هندسية بديعة • وبه دكة المبلغ • وهو جامع صغير وبدائره عدة غرف

ربما كانت خلاوى للصوفية وبه قبر منشئه . وقبته بسيطة . ومئذنته فى حالة سيئة .

جامع المحمودية :

وهو بالقرب من جامع قانى باى ويقابل باب الغرب أهم أبواب القلعة .

ذكره على مبارك (جـ ٢ ص ١٠٤) اجمالا مكتفيا باسم منشئة محمود باشا . وقال به قبره . وذكره المرحوم حسن عبد الوهاب ص ٣٦ أن منشئه محمود باشا كان واليا على مصر (٩٧٣ ــ ٩٧٥ هـ) وكان ظالما مما أدى الى اغتياله ودفن فى مسجده هذا .

والمسجد أيضا مرتفع عن أرض الميدان تصعد اليه بست عشرة درجة وبوسط الجامع طرقة تفصل ايوان القبلة على اليمين عن الايوان الآخر على اليسار . والطرقة منخفضة عن الايوانين بدرجة . وبأعلاه عدة نوافذ مشغولة بالزجاج الملون بها آيات قرآنية . ومنبره بسيط . وقبته بسيطة تقل كثيرا عن قبة قانى باى بما حوت من نقوش وحليات فى الداخل والخارج . وقد لفت ذلك المرحوم حسن عبد الوهاب واستنتج منه انحطاط الفن منذ دخول العثمانيين مع أن بين القبتين ما يقرب من الخمسين سنة فقط .

بقايا قصر قوصون ــ يشبك ــ اقبرد :

وكان قانى باى الرماح قد تزوج سنة ٩٠٣ هـ بنت الدوادار يشبك ابن مهدى المتوفى سنة ٨٨٦ هـ .وقد ذكرنا فى مقال سابق عن حى القبة (المقال رقم ١٢ من سلسلة صفحات من تاريخ القاهرة ــ ربيع الأول سنة١٣٩٦ هـ) أن اسم القبةمنسوب للقبة التى أنشأها يشبك بن مهدى هناك . كما أن اسم شارع الدوادار هناك مسمى لذكراه .

وكان يشبك بن مهدى قد سكن قصر قوصون صاحب الخانكاه الذى سبق ذكره فى المقال السابق وقلنا أن هذا القصر نهبه الناس عند القبض على قوصون سنة ٧٤٢ هـ .

وآل القصر المذكـور الى يشـبك فجدده ونقش اسمه ورنكه(سقاره) على جانبى مدخله .

وبقايا هذا القصر تقابل تقريبـا خلف جامع السلطان حسن (راجع الخريطة) .

وبعـد يشبك بن مهدى سكن القصر المذكور أقبردى بن على . وكان قريبه وحل محله فى وظيفته. وأعطاه السلطان قايتباى هذه الدار وجميع ما فيهـا من أوانى وأثاث وخيول وسـلاح . وتمرد أقبردى وعصى وهرب الى الشـام يريـد الاستيلاء عليه . فلم يستطع . وظل فى عصيانه يحارب الجيـوش التى ترسل اليه . وتوفى سـنة ٩٠٤ فى سلطنة الظاهر قانصوه بن قانصوه.

وقد حرفت العامة اسم أقبردى الى بردق . وكانت الجهة هنـاك تعرف باسم حوش بردق . كما أن مصـلحة المسـاحة ذكرت بخرائطها مكان القصر المذكور وقالت عنـه بقايا سراى الأمير بشتك . وصحته يشبك كما مر ذكره .

محمد كمال السيد محمد

يقول من لاخلاق له « در مع الدهر حيث دار » واذا لم يسالمك الزمان فسالمه، وانا أقول اذا لم يسالمك الزمان فصارعه وحاربه حتى يفيىء الى أمر الله »

محمد اقبال

أخطاء شائعة

للأستاذ عباس أبو السعود

٢٥١ – ويقولون: انصاع الولد لرأى أبيه ، وانصاع الخادم لأمر سيده ، وهذا خطأ ، والفصيح أن يقال : انقاد الولد لرأى أبيه ، أو خضع لرأيه ، أو أطاع رأيه أو وافقه على رأيه ونحو ذلك ، أما الانصياع فلا علاقة له بهذه المعانى ، وانما معناه التفريق ، تقول : الكمى يصوع أقرانه فينصاعون ، أى يحمل عليهم فيفرق جمعهم ، وصاع الراعى الغنم يصوعها صوعا أى فرقها فانصاعت وتفرقت ، قال أوس بن حجر .

يصوع عنوقها أحوى (١) زنيم (٢)
له ظأب (٣) كما صخب الغريم

ويقال : انصاع القوم اذا تفرقوا وذهبوا سراعا ، وانصاع فلان اذا انفتل راجعا ، ومر مسرعا ، وفى حديث الأعرابى « فانصاع مدبرا » أى ذهب سريعا ، قال رؤبة :

(فانصاع يكسوها الغبار الأصيعا) أى المتفرق

وقال العجاج :

فانصاع مذعوراوما تصدفا (٤)
كالبرق يجتاز أميلا (٥) أعرفا

والتصوع التفرق .

تقول :

تصوع الجند اذا تفرقوا

قال ذو الرمة

عسفت اعتسافا (٦) دونها كل مجهل (٧)
تظل بها الآجال حتى تصوع

---

(١) الاحوى : الشاب الاسود . (٢) الزنيم : الدعى .
(٣) الظاب : الجلبة . (٤) تصدف : أعرض .
(٥) الاميل : جبل من الرمل مرتفع .
(٦) الاعتساف : الميل والعدول .
(٧) المجهل : الارض لايهتدى فيها .

٢٥٢ ـ ويقولون : صعد الولد على السطح ، وصعد الخطيب على المنبر، فيعدون الفعل خطأ بعلى والفصيح أن يتعدى اما بنفسه واما بالى ، فيقال : صعد الولد السطح أو الى السطح . وصعد الخطيب المنبر أو الى المنبر ، ومما تعدى بالى قوله تعالى « اليه يصعد الكلم الطيب » وقد يتعدى بفى كما فى قولك : صعدت فى السلم أو فى الدرج صعودا .

وأما صعد المضعف فانه يتعدى بفى ، وبعلى ، فيقال : صعد الصياد فى الجبل أو على الجبل تصعيدا اذا رقيه وعلاه ، قال تعالى « ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء » .

وأما أصعد المزيد بالهمز فلا يتعدى الا بفى ، تقول : أصعد الفلاح فى الأرض اذا مضى وسار ، وأصعد فى الوادى اذا انحدر ، وقد يكون لازما كما فى قوله تعالى « اذ تصعدون ولا تلوون على أحد » .

والتصعد والتصاعد يتعدى فعل كل منهما بنفسه ، تقول : تصعدنى العمل وتصاعدنى اذا شق عليك وصعب ، الصعيد التراب الطاهر ، ومنه قوله تعالى « فتيمموا صعيدا طيبا » وكذلك هو وجه الأرض لقوله تعالى :

« ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا » وهو أيضا الطريق جمعه صعد وصعدات بضمتين فى كل منهما ، وفى الحديث « اياكم والجلوس بالصعدات » .

والصعود بالفتح هو العقبة الكئود والمشقة فى الأمر ، ومنه قوله سبحانه « كلا انه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا » أى سأغشيه عقبة شاقة المصعد .

والصعد بالتحريك العذاب الشديد ومنه قوله تعالى « ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا .

٢٥٣ ـ ومما فشا على الألسنة من الأخطاء قول كثير من الخاصة : هذا الولد عالة على أبيه ، لأنهم أخبروا فى

هذا التعبير بالجمع عن المفرد، والفصيح أن يقال : هو عبء على أبيه ، أو عائل على أبيه ، والأولاد عالة على أبيهم ، وذلك مأخوذ من قول العرب : عاله الشيء اذا ثقل عليه وغلبه والأولاد ثقل على أبيهم لأنهم فقراء وبحاجة الى عونه •

تقول : عال الولد يعيل من باب سار عيلا وعيلة اذا افتقر ، فهو عائل ، والعيلة الفقر ومنها قوله تعالى « وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء » والعائل الفقير ومنه قوله سبحانه « ووجدك عائلا فأغنى » والجمع عالة كقائل وقالة ، وبائع وباعة ، وعيل بضم العين وتشديد الياء مفتوحة كصائم وصيم •

وتقول : عالني الشيء عيلا ومعيلا اذا أعوزك وأحوجك •

وللعيل معنى آخر ، تقول : عال فلان فى مشيه اذا تمايل واختال وتبختر كتعيل ، وامرأة عيالة أى مختالة •

كل هذا من عال اليائى ، أما عال الواوى فتقول منه ، عال أبى هذا الصبى يعوله عولا من باب قال اذا كفله ومانه ، وعلت ابنى اذا أنفقت عليه ، قال :

غذوتك مولودا وعلتك يافعا
تعل بما أحنو عليك وتنهل

وقولهم : هذا يتيم عائل ليس له عائل معناه هذا يتيم فقير ليس له من يمونه ويعوله فعائل الأول من العيل اليائى ، وعائل الثانى من العول الواوى •

من الواوى يقال أيضا : عال الحاكم فى حكمه اذا جار وظلم ، ومنه قوله تعالى « ذلك أدنى ألا تعولوا » أى أقرب من ألا تميلوا ولا تجوروا ، وقولك : أعوذ بالله من ميل الظالم وعول الحاكم •

وكذلك يقال : عال الميزان يعول اذا نقص وجار ، وعال فلان فى الميزان ، قال الشاعر :

انا تبعنا رسول الله واطرحوا
قول الرسول وعالوا فى الموازين

٢٥٤ ــ ويطلقون على بعض أبنائهم اسم عبد العاطى ، زاعمين أن العاطى من أسماء الله الحسنى وليس الأمر كذلك ، والصواب أن يكون الاسم عبد المعطى ، لأن المعطى اسم فاعل من أعطى .

أما العاطى فهو الظبى ، تقول : عطا الظبى يعطو عطوا اذا تطاول الى الشجر ليتناول من ثمره فهو عاط وعطو وزان عدو ، فالعطو التناول ورفع الرأس واليدين ، قال الشاعر يصف ظبية :

تحك بقرنيها برير(١) أراكة
وتعطو بظلفيها اذا الغصن طالها

ولهذا قالوا : هذا الشىء طويل لا تعطوه الأيدى ، أى لا تتناوله ، قال امرؤ القيس :

تعطو برخص غير شثن (٢) كأنه
أساريع(٣)ظبى أومساويك(٤)اسحل

أما أبو المعاطى فهو اسم صحيح، لأن المعاطى جمع لمعطاء بمعنى كثير العطاء ، صفة للرجل والمرأة .

٢٥٥ ــ ويرد على ألسنتهم وأسنة أقلامهم كلمة (التطاحن) فيقولون: تطاحن الجيشان ، يعنون تقاتلهم وطحن بعضهم بعضا، والحق أن التفاعل من الطحن لم يرد عن العرب،فيجب أن تنكره حتى يأتى الينا من يثبته بالبرهان ، والذى ورد بكتب اللغة هو الفعل الثلاثى ومصدره .

قال الزمخشرى : ومن المجاز طحنتهم المنون ، وكتيبة طحون ، وقال ابن منظور : والطحون اسم للحرب ، وقيل هى الكتيبة من كتائب الخيل اذا كانت ذات شوكة وكثرة .

وقال الجوهرى : هى الكتيبة تطحن ما لقيت أى تهلكه ، والطحن بالكسر الدقيق ومنه المثل « أسمع

(١) البرير : الاول من ثمرة الاراك .
(٢) الشثن : الخشن .
(٣) الاساريع : جمع أسروع بالضم وهو عصبة تستبطن الرجل واليد .
(٤) الاسحل : شجر يستاك به .

جعجعة ولا أرى طحنا ، والطواحن الأضراس » .

ولك أن تتوسع فى المجاز فتقول: طحنه بمعنى هزمه فى جدل،أو غلبه فى ملاحاة (١) ، أو كادله حتى صرعه فى أى ميدان من ميادين الحياة .

٢٥٦ ـ ويقولون لما يضرب به النجاد القطن ليرق وينتفش: القوس ، والأفصح أن يقال له المندف ، والمندفة ، والكربال بكسرهن، تقول: قطن مندوف ، ونديف ومندف بتشديد الدال ، وقيل المندف وزان منبر هو الخشبة التى يطرق بها الوتر ليرق القطن ، ووتر المندف يسمى المشوار بكسر الميم ، والهبرية وزان شرذمة ما طار من زغب القطن أو الريش .

وانما قلنا الأفصح لأننا نميل دائما الى التخصيص ، اذ للقوس ألوان عدة،ولابد أن تضاف الى ما يخصصها فيقال :

قوس ندف ، وهى التى تعنينا ها هنا ، وقوس جلاهق بضم الجيم وهو البندق الذى يرمى به ، وأصله بالفارسية (جله) وزان صرر ، وقوس نبل ، وهى العربية المعروفة،وقوس النشاب بضم النون وتشديد الشين، وهى الفارسية ، وقوس الحسبان بضم الحاء ، وهى السهام الصغار ، والحسبانة واحدتها .

وفى المثل « رموهم عن قوس واحدة » ويضرب فى الاتفاق .

٢٥٧ ـ ويقولون : أجنح الولد الطائر يعنون أنه أصاب جناحه ، والصواب ـ كما فى أمهات اللغة ـ أن يقال :

جنحه بالفعل الثلاثى ، لأن القاعدة فيما تقصد اصابته أن يكون فعله ثلاثيا ، تقول رأسته اذا أصبت رأسه ، وبطنته اذا أصبت بطنه ، وأفخته اذا أصبت يافوخه ، ودمغته اذا أصبت دماغه،وكبدته اذا أصبت كبده ، ورأيته اذا أصبت رئته ،

(١) الملاحاة : اللوم والمشاتمة .

وكليته اذا أصبت كليته ، ويديتـه اذا أصبت يده . وفخذته اذا أصبت فخذه ، وصدرته اذا أصبت صدره، وفرصته اذا أصبت فريصته،ومعدته اذا أصبت معدته،وكتفته اذا أصبت كتفه ونسيته اذا أصبت نساه (٢) ، ومثنته اذا أصبت مثانته وهكذا .

ومن اشتكى عضوا من أعضائه يقال فيه : فعل بالبناء للمجهـول فهو مفعول . تقول : صـدر فلان اذا اشتكى صدره فهو مصـدور ، وكبد اذا اشتكى كبده فهو مكبود، ومعد اذا اشتكى معدته فهو ممعود وهكذا .

٢٥٨ ــ ويقولون : فلان عيان يقصدون أنه مريض ، وهذا خطأ ، لأن العيـان هو من لم يهتد لوجه مراده أو عجز عنه ولم يطق احكامه، تقـول : عى الخطيب فى المنطق ، وعى فلان عن حجته اذا حصر ولم يتمكن من البيـان ، فهو عى على فعل ، وعيان كحر فهو حران .

وتقول أيضا : عيى بالأمر يعيـا عيا بالكسر كرضى فهـو عيى على فعيل .

ويقال : أعيـا المـاشى اذا كل فهو معى ، وأعيـاه الأمر اذا عجز عنه ولم يضبطه .

وأعيـانى السـفر اذا أتعبنى فأعييت ، يستعمل لازما ومتعديا ، ويقال : داء عيـاء اذا كان صعبـا لا دواء له ، كأنه أعيا الأطباء،وفحل عياء اذا كان لا يلقح .

والصواب أن يقال:هو مريض ، وهى مريضـة ، وهم وهن مراض بالكسر ، ومرضى ومراضى بفتحهما، ويقال : فى قلبه مرض أى نفـاق ، وشمس مريضة أى ضعيفة الضـوء وأرض مريضة أى ضعيفة الحـال أو كثيرة الفتن ، قالت ليلى الأخيلية.

اذا بلغ الحجاج أرضا مريضة
تتبع أقصى دائهـا فشـفاها

أو يقال : هو عليل أو معتل ، أومعل وهى عليلة أو معتلة ، أو معلة وكذا يقـال : هـو معلول من تداخـل

---

(١) النسا : عرق من الورك الى الكعب وتثنيته نسوان ونسيان .

اللغتين ، والأصل أعله الله فعل بالبناء للمجهول فهو معلول ، وهى معلولة .

٢٥٩ ـ ويقولون : جبة خلقة بمعنى بالية ، قياسا على قولهم فى المذكر قميص خلق ، والصواب أن يقال جبة خلق ، وملاءة خلق بغير هاء ، لأن العرب ساوت فيه بين وصف المذكر والمؤنث ، وذكر بعض العلماء العلة فى ذلك فقال : كان الأصل : أعطنى خلق جبتك ، فلما أفرد من الاضافة أبقى على ما كان عليه .

ويقال : ملحفة خليق بضم ففتح، صغروه بلا هاء ، لأن الهاء لا تلحق تصغير الصفات كما قالوا : نصيف فى امرأة نصف بالتحريك ، وهى المرأة بين الحدثة والمسنة ، وهن أنصاف ونصف بضمتين وبضمة ، وهو نصف محركة من أنصاف ونصفين .

ويقال : خلق الثوب من أبواب نصر وكرم وسمع خلوقة بالضم ، وخلقا بالتحريك اذا بلى فهو خلق ، وجاءوا فى أخلاق الثياب وخلقانها بضم الخاء .

ويقال : جبتان خلقان بفتحتين ، وأنشد ثعلب شاهدا عليه لأبى العالية .

كأنهما والآل (١) يجرى عليهما

من البعد عينا برقع خلقان

٢٦٠ ـ ويقولون : فلان حدث السن بالتحريك ، يعنون أنه شاب فتى ، والفصيح أن يقال : هو حديث السن . والمعنى أن سنه جديدة قريبة ، ومنه قول العرب : فلان حديث عهد بالاسلام أى قريب عهد به ، فاذا حذفت كلمة السن قلت هو حدث ، وهم أحداث ، أما قولهم : رجل حدث وزان عجز وحدث وزان كتف فمعناه أنه حسن الحديث ، قال الجوهرى : ورجل حدث وحدث بضم الدال وكسرها أى حسن الحديث ، ورجل حديث وزان سكيت أى كثير الحديث ،

---

(١) الآل : السراب أو خاص بما يكون فى أول النهار .

ففرق بين الأولين بأن معناهما الحسن الحديث ، والأخير معناه الكثيره •

٢٦١ — ويقولون : استأجرنا فى هذا البيت شقة بفتح الشين ، وهذا فاسد ، لأن هذه الكلمة بهذا الضبط عامية ، والصواب أن يقال : استأجرنا شقة أو شقا بكسر الشين فيهما ، وقد قال رجال اللغة : قعدوا فى شق الدار أى فى ناحية منها •

وفى اللسان : الشق والشقة نصف الشىء ، يقال : أخذت شق الشاة وشقة الشاة والعرب تقول : خذ هذا الشق لشقة الشاة ، وفى الحديث « اتقوا النار ولو بشق تمرة » أى بنصفها، يريد ألا تستقلوا من الصدقة شيئا •

والشقة بالكسر شظية من لوح، وهى من العصا والثوب ما شق مستطيلا ونصف الشىء اذا شق ومن معانى الشق بالكسر •

١ — المشقة والجهد والعناء، ومنه قوله تعالى « وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس» •

٢ — الشقيق ، قال ابن سيدة : شق الرجل وشقيقه أخوه لأمه وأبيه، يقال هو أخى وشق نفسى •

والشقة بالضم لها معنيان : أحدهما الطريق والسفر الطويل ، ومن هذا قوله سبحانه « لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة » •

والآخر القطعة من الثوب ، تقول: أعطنى شقة من الثوب وشققا •

٢٦٢ — ويقولون : غز الولد زميله بابرة ، يعنون أنه طعنه ونخسه بها ، وهذا خطأ ، لأن للغز معنى لا صلة له بمعناهم هذا ، تقول غز الولد بزميله غززا ، واغتز به اذا اختصه بالرد من بين أصحابه ، وغز الرجل الابل والصبى اذا علق عليهما العهون من العين ، والغز بالضم جنس من الترك الواحد غزى كروم وروحى ، وأغزت الشجرة اذا كثر شوكها واشتد ، وأغزت البقرة اذا عسر حملها ، وتغاززنا الشىء تنازعناه ، والغزاز وزان رمان البررة بالقرابات والأولاد والجيران ولكى

يؤدي المعنى المبتغى يحسن استعمال أحد التعبيرات التالية :

١ ـ غرز الولد زميله بابرة يغرزه غرزا من باب ضرب ، واسم المكان مغرز بكسر الراء ، والجمع مغارز ، ومن المجاز أن تقول لصديقك : أطلب الخير فى مغارسه ومغارزه ، وابغ الكرم فى معادنه ومراكزه .

٢ ـ نخس الولد زميله بدبوس من بابى نصر وقطع نخسا أى طعنه به ، والفاعل نخاس مبالغة ، ومنه قيل لدلال الدواب نخاس .

٣ ـ غمز الولد زميله بيده يغمزه غمزا من باب ضرب ، أى نخسه ، وغمزه بالعين والحاجب أى أشار اليه بهما ، وفى التنزيل « واذا مروا بهم يتغامزون » وتقول : أغمزنى الحر اذا فتر فاجترأت عليه وسرت فيه ، وأغمز الرجل فى فلان اذا عابه وصغره ومنه قول الكميت :

ومن يطع النساء يلاق منها
اذا أغمزن فيه الأقورينا

أى من يطع النساء يلاق منهن الدواهى التى لا طاقه له بها اذا عبنه وصغرنه فى عيون الناس .

ويقولون : هذه الفتاة ناشئة فى بلاد الانجليز لأنها تجيد اللغة الانجليزية ، والصواب أن يقال : هى ناشىء بغير هاء ، لأن كلمة ناشىء من الألفاظ التى يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث تقول : نشأ الولد ينشأ من بابى قطع وخضع نشءا ، ونشوءا اذا حيى وشب وجاوز حد الصغر فهو ناشىء ، والجارية ناشىء أيضا ، قال أبو قدامة الطائى :

قد أجلس المجلس لم يحرج
من ناشىء ذات شوى (١) خدلج (٢)

وقال عبد الواسع بن أسامة الخزامى من بنى خزامة :

منازل من عوجاء اذهى ناشىء
مؤزرة تصطاد من لا يصيدها

والجمع لهما نشء كصاحب وصحب ، ووافد ووفد ، تقول : هم

---

(١) الشوى : قحف الرأس .

(٢) الخدلج : الممتلىء ، تقول : أمرأة خدلجة أى ممتلئة الساقين والذراعين .

نشء سوء قال بشر بن أبى خازم :

سبته ولم تخش الذى فعلت به
منعمــة من نشء أسـلم معصر

ويجمع أيضا على نشأ بالتحريك كما فى قول نصيب :

ولولا أن يقــال صبا نصيب
لقلت بنفسى النشــأ الصــغار

ويقال : جارية ناشىء من جــوار نواشىء ، والاسم من النشء النشأة، ومنه قوله تعالى « ثم اللــه ينشىء النشأة الآخرة » .

أما ناشئة الليل فهى أول ساعاته، وقيل هى ما ينشأ فيه من الطاعات، وقيل هى مصدر على فاعلة كالعافية والباقية فى قــوله سبحانه « فهــل ترى لهم من باقية » أى من بقــاء.

ومن الألفاظ التى يسـتوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث خلــق بالتحريك ، بمعنى بال تقول : ثوب خلــق ، وملاءة خلــق ، وعروس تقــول : رجل عروس من رجــال عرس ، وفتــاة عروس من فتيــات عرائس .

وعاقر ، تقول لمن لا يولد له : رجل عاقر ، وامرأة عاقر ، وأيم وزان كيس تقول لمن لا زوج له : رجل أيم، وامرأة أيم وعانس ، تقول لمن حبس عن التزويج : رجل عانس ، وامرأة عانس . وبكر تقول : هذا بكر أبويه لأول ولد يولد لهما ، وهذه بكر أبويها اذا كانت أول من ولد لهما ، وهذه نار بكر اذا لم تقتبس من نار، وهذه ضربة بكر اذا كانت أول ضربة قاتلة وهذه حاجة بكر اذا كانت أول حاجة رفعت ، قال ذو الرمة .

وقوف لدى الأبواب طلاب حاجة
عوانا من الحاجات أو حاجة بكرا

وقن ، تقول : عبد قن لمن ملك هو وأبواه ، وأمة قن ، وعبيد واماء قن ، وقيل : عبيد واماء أقنة ، قال جرير :

ان سـليطا فى الخســار انــه
أولاد قــوم خلقــوا أقنــة

ويقولون لمن يفضل نفسه ويؤثرها على غيره (أنانى) وهذه كلمة عامية، والصواب أن يوصف هذا الانسان بأنه أثر وزان ضجر ، والاسم الأثرة

بفتحات ، تقول : استأثر فلان بكذا اذا استبد به وخص به نفسه ، وفى الحديث « سترون بعدى أثرة ، أى يستأثر أمراء الجور بعدى بالفيء ، وضد الأثرة الايثار ، وهو أن يؤثر الانسان غيره على نفسه ، تقول : آثرت فلانا بمد الهمزة ايثارا اذا قدمته على نفسك وأكرمته ، ومنه قوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وقوله « بل تؤثرون الحياة الدنيا » .

أما قولهم (أنانى) فيزعمون خطأ أنه منسوب الى قول من يؤثر نفسه ويفضلها : أنا أنا وهذا نسب فاسد ، لأن الضمير لا ينسب اليه ، على أنه لو جاز النسب اليه جدلا لقيل : (أنوى أنوى) اذ أن ألف المقصور يجب أن تقلب واوا فى النسب اذا كانت ثالثة كما تقول قنوى فى النسب الى قنا ، وقهوى فى النسب الى قها .

٢٦٣ ــ ويقولون فى نسب الانسان الى حرمى مكه والمدينة : فلان حرمى بفتحتين والصواب أن يقال : رجل حرمى ، وامرأة حرمية بكسر الحاء وسكون الراء فيهما على غير قياس ، هكذا ورد عن العرب ، نعم يقال : ثوب حرمى ، ومنازل حرمية بالفتح على القياس أى أن هناك فرقا بين الانسان وغيره فى النسب الى الحرم ، فان كان المنسوب انسانا كان النسب بكسر الحاء ، وان كان غيره كان بفتحها ، قال الأعشى :

لا تأوين لحرمى مررت به
يوما وان ألقى الحرمى فى النار

وقال أبو ذؤيب :

لهن نشيج (١) بالنشيل كأنها
ضرائر حرمى تفاحش (٢) غارها (٣)

وقال النابغة :

من صوت حرمية قالت وقد ظعنوا
هل فى مخفيكم (٤) من يشترى أدما (٥)

---

(١) النشيج : الغصص بالبكاء وتردده فى الصدر .
(٢) تفاحش : زاد فى القبح .
(٣) الغار : الغيرة .
(٤) المخف : وزان المعز تقول : اخف فلان اذا صار خفيف الحال .
(٥) الادم : اسم جمع الطعام المأدوم .

ويخطئون حين يجمعون الشعار بالكسر ويفتح على شعارات جمع مؤنث سالما ، وقد فشا هذا الجمع على ألسنة الخاصة وفى وسائل الاذاعة ، والصواب أن يجمع جمع قلة على أشعرة كبناء وأبنية ، وجمع كثرة على شعر ككتاب وكتب ، وللشعار معان عدة : فهو العلامة فى الحرب ، وكذلك هو ما يلى شعر الجسد من الثياب وفى المثل « هم الشعار دون الدثار » يصفهم بالمودة والقرب . وفى حديث عائشة « أنه كان لا ينام فى شعرنا » وفى حديث آخر « أنه كان لا يصلى فى شعرنا ولا فى لحفنا » وفى حديث الأنصارى « أنتم الشعار والناس الدثار » أى أنتم الخاصة والبطانة ، والشعار بالفتح الشجر الملتف ، تقول أرض ذات شعار .

٢٦٤ ــ ومن أخطائهم فى تسمية بعض البقول .

١ ــ قولهم لهذه البقول (خضار) والفصيح أن يقال لها : خضر وزان صرر وغرف ، كأنه جمع خضرة ، أو يقال لها خضراء ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم « ليس فى الخضراوات صدقة » هى جمع خضراء وقياسها خضر ، كما يقال حمر وصفر ، لكنه غلب فيها جانب الاسمية فجمعت جمع الأسماء ، كصحراء وصحراوات ، وعلى هذا فالجمع قياسى ، لأن فعلاء هنا ليست مؤنثة أفعل فى الصفات حتى تجمع على فعل ، واذا فقدت الوصفية تعينت الاسمية ، وقد سمت العرب الخضر خضراء ومنه « تجنبوا من الخضراء ماله رائحة كريهة » يعنى الثوم والبصل والكراث .

٢ ــ قولهم : حمص بضمتين ثانيتهما مشددة ، يعنون ذلك الحب الذى يزيد فى المنى والشهوة ويقوى البدن ، بشرط ألا يؤكل قبل الطعام ولا بعده ، بل فى وسطه ، والصواب أن يقال له حمص بكسر الحاء وفتح الميم مشددة . أو حمص بكسرتين ثانيتهما مشددة ، ويرى الرأى الأول ثعلب اذ يقول : والاختيار فتح الميم كقنب ، ويرى الرأى الثانى المبرد ويقول لم يأت عليه من الأسماء الا حلز وهو القصير ، وجلق وهو اسم لموضع بناحية الشام .

٣ ـ قولهم لأرومة معروفة (فجل) بكسر الفاء ، والصواب فجل بضمة وبضمتين الواحدة بهاء وهو جيد لوجع المفاصل ، واليرقان ، ولوجع الكبد والاستسقاء ، ونهش الأفاعي والعقارب ، وان وضع قشره أو ماؤه على عقرب ماتت، وتناوله بعد الطعام يهضم وأقوى ما فيه بزره ثم قشره ثم ورقه ثم لحمه ، وحب الفجل دواء آخر ، ومنه يتخذ دهن الفجل، قال ابن دريد : وأحسب اشتقاقه من فجل فجلا من باب تعب اذا غلظ واسترخى .

٤ ـ قولهم لبقلة حريفة توم ، والفصيح أن يقال ثوم بالثاء المضمومة، وهو بستاني وبري ويخرف بثوم الحية ، وكلاهما مخرج للدود ، مدر جدا ، وهذا أفضل ما فيه، كما أنه جيد للنسيان والربو والسعال المزمن ، والطحال وعرق النسا والنقرس ، ولسع الهوام والكلب الكلب ، باهي جذاب ، ومشويه نافع لوجع الأسنان المتآكلة ، حافظ صحة المبرودين والمشايخ والثومة واحدته ، والثومة وزان عنبة شجرة عظيمة بلا ثمر أطيب رائحة من الآس تتخذ منها المساويك.

أما التوم بالتاء فمعناه الدر أو اللؤلؤ ، واحدته تومة ، تقول : صبي ذو تومتين أي ذو درتين وهو متوم أي مقرط بدرتين ، وقيل : التومة حبة من فضة شبه الدرة ، قال المسيب بن علي :

عاتية صرف معتقة
يسعى بها ذو تومة لبق

وقال أبو النجم :

يا رجل قد كنت زمانا محرما
ما كنت تعطين الفقير درهما

وتفرقين للشيخ والمتوما
وتمنعين السنبل المحزما

ويقال للصدفة أم تومة علم لها ، ولذلك لم يصرف كابن دأية للغراب، ومن المجاز قول ذي الرمة :

وحتى أتى يوم يكاد من اللظى
به التوم في أفحوصه يتصبح

أي يتشقق أراد البيض فسماه توما على الاستعارة .

٥ ـ وقولهم لنبت معروف يطهى ويؤكل (خبيزة) بضم الخاء وكسر الباء مشددة ، وهذا خطأ والصواب

أن يقال له : خباز بضم الخاء وتشديد الباء مفتوحة وزان تفاح وقفاز وخبازة وزان تفاحة ، وفى لغة بألف التأنيث المقصورة فيقال : خبازى بتشديد الباء ، ويخفف فيقال خبازى كخزامى ، وفى لغة أخرى خبيز بضم الخاء وتشديد الباء مفتوحة مع سكون الياء •

٦ ــ وقولهم لبقل معروف كثيرا ما يتناوله الناس مع طعامهم خص بفتح الخاء وتشديد الصاد والصواب أن يقال له خس بالسين بدلا من الصاد •

أما الخص فهو التفضيل ، تقول : خصه بالشيء خصا بالفتح ، وخصوصا وخصوصية بضمهما ويفتح الأخير ، وخصيصى ويمد اذا فضله •

وأما الخص بالضم فهو البيت من القصب ، جمعه خصاص بالكسر ، وخصوص بالضم •

٧ ــ وقولهم لبقلة معروفة (شبت) بفتحتين ، والصواب شبت بكسرتين وزان سجل ، قاله الفارابى وابن الجواليقى •

وقال الصغانى : الشبت عرب الى سبت بالسين المهملة ، قال وانما قيل انه مثقل لأن باب المثقل كثير ، وباب المخفف نادر نحو ابل •

٨ ــ وقولهم لأغلظ أنواع الكرنب: أرنبيط بالهمزة ، وقرنبيط بالقاف ، وكلاهما خطأ والصواب : قنبيط بضم القاف وتشديد النون مفتوحة ، قال بعض الأئمة وأظنه نبطيا •

كما أنهم يقصرون الكرنب على أنه مضموم الكاف والراء ، والصواب أن فتحهما لغة أخرى للسلق بكسر السين أو نوع منه أحلى وأغض من القنبيط ، والبرى منه مر ، ودرهمان من سحيق عروقه المجففة فى شراب ترياق مجرب من نهشة الأفعى •

٩ ــ وقولهم لنبات معروف كثير الشبه بالخباز : سبانخ والفصيح أن يقال له اسفاناخ بكسر الهمزة •

١٠ ــ وقولهم لنوع من الأبازير: كسبرة بضم الكاف وسكون السين وفتح الباء والصواب كزبرة بضمتين بينهما سكون •

١١ ــ وقولهم لبقلة معروفة (جرجير) بفتح الجيم الأولى وكسر الثانية ،

والفصيح جرجير بكسرهما وزان ازميل ، ويقال لها أيضا جرجر وزان سمسم .

١٢ — وقولهم لحب مضلع محزز يتسلى بأكله (ترمس) بكسر التاء والميم،والصواب ترمس بضمهما وزان بلبل ، وهو أيضا السرداب ، تقول: حفر الفلاح ترمسه تحت الأرض ، ومنه قالوا ترمس فلان اذا تغيب عن حرب أو شغب .

٢٦٥ — نشر فى صحيفة الأهرام بخط عريض قول أحد محرريها .

لشهادات (استثمار) البنك الأهلى المصرى ربح (وفير) فزود منها مشترياتك ، واحتفظ بشهاداتك (يزداد) أمنك ورفاهيتك .

وهذه العبارة على وجازتها تضمنت أربعة أوهام .

الأول : كلمة استثمار ، اذ لم يرد عن العرب ادخالها السين والتاء على الفعل ثمر .

فلم تقل : استثمر الرجل ماله استثمارا ، كما لم تقل : استساغ فلان هذا الكلام ، وانما قالت : ثمر ماله تثميرا بالفعل المضعف ، وأساغ فلان الشراب بالفعل المزيد بالهمز .

والثانى : كلمة (بنك لأنها (أعجمية) .

والعرب تقول فى هذا المعنى مصرف وزان منزل ، اسم مكان من قولك : صرف فلان الدراهم بالدنانير ، والذهب بالدراهم صرفا، ومنه الصراف ، والصيرف، والصير فى وهو من الصيارفة ، والهاء فى هذا للنسبة ، ويقال بين الدرهمين صرف أى فضل لجودة فضة أحدهما .

والثالث : كلمة (وفير) يعنون بها الكثرة ، وهذه عامية ، والفصيح أن يقال : ربح وافر ، من وفر الربح وفرا اذا كثر ، أو موفور اسم مفعول من وفرت الربح اذا أكثرته فهو موفور ، أو موفر من وفرت الربح توفيرا فهو موفر اسم مفعول من المضعف .

والرابع : كلمة يزداد المرفوعة ، ويحسن فى هذا الفعل أن يجزم فى جواب الأمر كما فى قول الشاعر :

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استبعد الانسان احسان

وكما فى قـول ذى الاصبع العدوانى :

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعـوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يسودوك .

٢٦٦ ـ ويقولون : تشكلت اللجنة من ثلاثة رجال ، وتشكلت الوزارة من عشرين وزيرا ، وهذان التعبيران يشوبهما الفساد ، والصـواب أن يؤدى هـذا المعنى بقولنـا تألفت اللجنة ، أو ائتلفت ، أو تكونت من كذا ، واللجنة بالفتح جماعة يجتمعون فى الأمر ويرضونه ، وكذا الوزارة أما التشكل فلا صلة له بالمعنى الذى ارتضوا له عبارتيهم ، اذ تقـول : تشكل المريض اذا تماثل للشـفاء من علته وقارب البرء ، وشكلت المرأة اذا تدللت ، والشكل بكسر الشين وفتحها غنج المرأة ودلهـا ودلالها ، يقال : تشكلت وتدللت ، وتشكل العنب اذا أينع أو اسود وأخذ فى النضج ، وتشكل فلان اذا تصور ، وشكله غيره تشكيلا اذا صوره ، وشكلت المرأة شعرها اذا ضـفرته خصلتين من مقـدم رأسها عن يمين وشمال .

٢٦٧ ـ قرأت فى صحيفة الأهرام عنوانا مؤلفـا من ثلاث كلمات كلها خطـأ هو تصـليح بوابير الجـاز فالتصليح مصدر لم يرد عن العرب ، لأنهم لم يسـتعملوا الفعـل الرباعى المضعف ، وانما استعملوا الثلاثى ، والرباعى الموازن لفاعل ، والرباعى المهموز .

تقول من الأول : صلح العمـل صلوحا من باب قعد فهو عمل صالح ومنه قوله تعالى « من عمـل صالحا فلنفسه » وتقول أيضا صلح الرجل صلاحا وهو ضد الفساد ، وقد قالوا: كيف لا يكون من أهل الصلاح من هو من أهل صلاح ، وهو اسم مكة شرفها الله تعالى ، قال حرب بن أمية لأبى مطر الحضرمى يوم الفجار :

أبا مطر هلم الى صلاح
فتكفيك العداوة من قريش
وتأمن وسطهم وتعيش فيهم
أبا مطر هديت لخير عيش

والصلح بالضم الاسم ومعناه السلم والتوفيق ، يذكر ويؤنث ، ومنه قوله جل شأنه « والصلح خير » وقد يأتى اسم جمع معناه المصالحون كما فى قولك : هم لنا صلح وتقول من الثانى صالحه مصالحة وصلاحا بكسر الصاد .

أما الثالث فهو المطلوب الذى به يؤدى المعنى المبتغى ، تقول أصلح الله الأمير وأصلح فى ذريته وماله ، ومنه قوله تعالى «وأصلح لى فى ذريتى» والمصدر اصلاح ومنه قوله سبحانه «ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما» واسم الفاعل مصلح ومنه قوله «والله يعلم المفسد من المصلح» .

وأما (البوابير) فهى كلمة عامية عربيتها مواقد جمع موقد ، وهو موضع الوقود بضم الواو ، كما أن المجلس موضع الجلوس .

وأما الجاز فكلمة عامية أيضا ، والفصيح أن يستبدل بها كلمة نفط بكسر النون وفتحها والكسر أجود أو يستبدل بها كلمة وقود بفتح الواو بمعنى الحطب على تشبيه النفط بالحطب ، لأن كلا منهما سبب فى الاتقاد والاشتعال .

مما عرضنا آنفا استبان أنه كان يجدر بمحرر الأهرام أن يكتب العنوان على النحو التالى :

اصلاح مواقد النفط ، أو اصلاح مواقد الوقود .

٢٦٨ — ويقولون : الاتفاق الذى تم للصلح بين الدولتين مبنى على خمسة بنود ، البند الأول كذا ، والبند الثانى كذا وهكذا ، وهذا التعبير خطأ .

والصواب أن يقال : مبنى على خمسة أمور ، أحدهما كذا ، وثانيها كذا وهكذا أما البنود فجمع بند وهو العلم الكبير ، تقول : أقبل العدو مع الجنود والبنود وهى أعلام الروم تحت كل بند عشرة آلاف .

وكذلك هو الحياة والداهية ، تقول : فلان كثير البنود أى كثير الحيل والدواهى .

٢٦٩ — ويقولون بين بلدنا وبلدكم عشرون محطة ، وهذا فاسد ، والصواب أن يقال محطا بغير هاء ،

اسم مكان بزنة مفعل من حط يحط ، ومعناه المنزل تقول حطوا الأحمال عن ظهور الجمال من باب نصر حطا اذاأنزلوها من علو الى سفل وحططت من الثمن كذا اذا أسقطت،والحطيطة ما يحـط من الثمـن فعيلة بمعنى مفعولة وجمع المحط محاط بتشديد الطاء فى المفرد والجمع ، لأن الأصل محطط ومحاطط ، ومثل ذلك محل ومحال ، ومقر ومقار والاسم الحطة بكسر الحـاء ، ومنهـا قوله تعالى « وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم » أى قولوا حط عنا أوزارنا

ومن المجـاز قـولك حط الله أوزارهم،وحط فلان فى عرض عدوه اذا انـدفع فى شـتمه ، وأكل من حلوائهم فانحط فى أهوائهم .

ويقال انحط السـعر اذا نقص ، والأسـعار حاطة ومنحطـة ، وأتانا صاحب البيت بطعام فحططنا فيه أى أكثرنا منه ، وأحططنا فيه أى أقللنا منه .

أما المحطةوالمحط بكسر الميمفيهما فكل منها اسم آلة يصقل بها الجلد وينقش ، تقول جـارية محطـوطة المتنين كأنما حـطا بالمحط ، وهـو ما يحط به الأديم أى يدلك ويصقل، قال النابغة .

محطوطة المتنين غير مفاضة(١)
ريا الروادف (٢) بضة (٣) المتجرد

٢٧٠ ــ ويقولون لنوع معروف من الفاكهة (مانجو أو مانجة)وكلا هذين اللفظين عامى والصواب أن يقال له : أنبج وزان أحمد ، وتكسر باؤه ، ثمر شجر هندى معرب أنب وزان أنت ، يكـون على خلقـة الخوخ ولبابه كلبابه يربب بالعسل.

ونباج الكلب بضم النون،ونبيجه بفتحها نباحه ، تقول : هـذا كلب

---

(١) المراة المفاضة : من كانت ضخمة البطن مسترخية اللحم غير مجدولة .

(٢) الروادف : طرائق الشـحم الواحدة رادفة ويريـد بقـوله ريا الروادف انها كثيرة اللحم كبيرة العجز .

(٣) البضـة : رخصـة الجسد رقيقة الجلد ممتلئة ، ومعنى بضة المتجرد انها بضة عند التعرى .

نباج بتشديد الباء ونباجى بالضم أى كثير النباح .

ومنبج وزان مجلس اسم موضع ينسب اليه على غير قياس فيقال : كساء منبجانى وانبجانى بفتح بائهما ...

ويقال للرجل الذى يعطى بلسانه ما لا يفعله منبج بكسر الميم وزان منبر وهو نفاخ نباج ليس معه الا الكلام ، وعند فلان الأنبجات أى الأشياء التى تربب بالعسل كالاهليلج والأترج وهى من الأنبج .

٢٧١ ــ ويقولون : وَلّع الخادم المصباح ونحوه توليعا ، وهذا التعبير مشوب بالخطأ ، لأن التوليع معناه استطالة البلق بالتحريك،وهو سواد وبياض يكونان فى الفرس ونحوه ، تقول فرس مولع وثور مولع وفى لونه توليع ، ويقال : رجل مولع اذا كان به لمع أى بقع من برص تقول:ولع الله وجه فلان أى أبرصه ، قال رؤبة :

كأن فى الجلد توليع البهق

والبَهَق بفتحتين بياض رقيق يكون بظاهر البشرة ، وقولهم : فى جلده توليع البهق مأخوذ من قولهم للشديد البياض أمهق وأبهق ، والأمهق هو الأبيض لا يخالطه حمرة ويقال من الفعل الثلاثى : ولع فلان من باب وضع ولعا وولعانا اذا استخف وكذب والوالع الكذاب ، جمعه ولعة ككاتب وكتبه ، وولع والع مبالغة ، أى كذب عظيم ويقال لمن يولع بما لا يعنيه ولعة وزان همزة .

ولتأدية المعنى الذى يبتغونه يجب أن يقال : أشعل الخادم المصباح فاشتعل ، ومنه قيل على سبيل المجاز: اشتعل فلان غضبا اذا امتلأ غيظا ، وقوله تعالى « واشتعل الرأس شيبا » فيه استعارة بديعة ، اذ شبه انتشار الشيب باشتعال النار فى سرعة الالتهاب ، قال لبيد :

ان ترى رأسى أمسى واضحا
سلط الشيب عليه فاشتعل

أو يقال : أوقد الخادم المصباح فاتقد وتوقد ، ومن هذا قوله تعالى :

« كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » أى كلما دبروا مكيدة يلتمسون بها الانتصار أبطلها الله .

٢٧٢ ـ ويقولون لمتاع من أمتعة البيت يجلس عليه ويتكأ (كنبة) بفتحـات ، ويجمعـونه على كنب بالتحريك ، وهذا فاسد ، لأن الكنبة كلمة عامية ، والكنب ليس جمعا لها، وانما هو مصـدر معنـاه غلظ يعلو الرجل واليد ، أو هو خاص باليد اذا غلظت من العمل القاسى •

تقول : كنبت اليد تكنب من باب فرح كنبا اذا غلظت •

والفصيح أن يقال لهٰذا المتاع : أريكة وزان سفينة ، والجمع أريك وأرائك تقـول هم متكئـون على الأرائك مع بيض كالترائك ، ورأيت على الأريكة تركيـة كالتريكة وهى بيضـة النعامة ، وشاهدت نسـاء كالسبائك والترائك لبنات العرائك متكئات على الأرائك •

وفى التنـزيل قوله تعـالى «هم وأزواجهم فى ظـلال على الأرائك متكئون » وقوله « متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسـا ولا زمهريرا » •

٢٧٣ ـ ويقـولون : بيت فلان دافىء ، وجلسنا نتحدث فى احدى غرفه الدافئة ، وكان يقوم بما نحتاج اليه رجل دافىء فى ليلة دافئة ، وهـذه التعبيرات كلها لا نصـيب لهـا من الصحة ، لأن اسم الفاعل من الفعل دفىء لم يأت على وزن فاعل •

والفصيح أن يقال : دفىء البيت يدفأ من باب تعب فهو دفىء،والحجرة دفئـة كتعب وتعبة ويقـال : دفىء الرجل من البرد دفئا ودفاءة بفتحهما فهو دفئان والمرأة دفأى ، كغضبان وغضبى ، وذلك اذا لبس كل منهما من الثياب ما يدفئه •

قال الشارح ما نصه : الدفئـان وأنثاه خاص بالانسـان ، والدفىء ككريم خاص بغيره من زمان أومكان، ودفىء ككتف مشترك بينهما •

وعلى هذا تقول : الرجل دفئان ودفىء ، والمرأة دفأى ودفئة،والبيت دفىء ، ودفىء والليل دفىء ودفىء•

أما الدفء بالكسر ويحرك فهو نقيض حدة البرد كالدفاءة بفتـح الدال ، وكذلك هـو نتـاج الابل

وألبانها وما ينتفع به منها ، قال تعالى « ولكم فيها دفء » وهو ما يستدفأ به من الوبر والصوف والشعر ، لأنه يتخذ منها الأكسية والأخبية ، وفى الحديث « لنا من دفئهم ما سلموا بالميثاق » .

ويقال : ما على فلان دفء أى ثوب يدفئه ، ودفؤ يومنا فهو دفىء، ودفؤت ليلتنا فهى دفيئة .

ومن المجاز قولهم : ابل مدفئة ، ومدفّئة بتشديد الفاء ، أى كثيرة ، لأن بعضها يدفىء بعضا ومن تخللها أدفأته ، وقيل تبنى البيوت بأوبارها قال الشماخ .

وكيف يضيع صاحب مدفئات .
على أتباجهن (١) من الصقيع (٢) .

وروى بفتح الفاء أى يدفئها شحومها وأوبارها .

وتقول : أدفأت فلانا ودفأته اذا أجزلت له العطاء ومنحته دفءا كثيرا ، قال :

فدفء ابن مروان ودفء ابن أمه
يعيش به شرق البلاد وغربها

٢٧٤ — ويقولون : لقينا فلانا صدفة بضم الصاد ، وهذه الكلمة لا وجود لها فى العربية ، وانما هى عامية ، والفصيح أن يقال : لقيناه مصادفة ، وذلك مأخوذ من قولنا : صادفناه مصادفة اذا وجدناه وقابلناه

يقال : تصادفا اذا تقابلا ، ومنه صدفا المحارة لتقابلهما ، وقوله تعالى «حتى اذا ساوى بين الصدفين» أى رأسى الجبلين المتقابلين .

وتقول : صدف فلان عن الفحشاء من بابى ضرب وجلس صدفا وصدوفا اذا أعرض عنها ومن هذا قوله سبحانه « سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب » وقولك : هذه امرأة صدوف مدح لأن المعنى أنها تعرض وتصد عن الريبة : أما قولك : رجل صدوف فهو ذم اذ معناه أنه أبخر ، فكلما تحدث صدف بوجهه لئلا يشم محدثه رائحة بخره وهو نتن الفم .

عباس ابو السعود

(١) الأتباج : جمع ثبج بالتحريك وهو ما بين الكاهل الى الظهر .
(٢) الصقيع : الجليد المحرق للنبات .

رسالة الأدب الصوفى

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى

تلتقى موضوعات الأدب الصوفى مع ما قرره الناقد العربى البصير قدامة بن جعفر فى كتابه نقد النثر بقوله « وأما الحسن من الكلام فهو كل ما كان فى معالى الأمور وفى محاسنها ، وأحسنه الدعاء الى الله تعالى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين » ثم يتلوه كل ما كان من مكارم الأخلاق ؛ فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وكل ما كان من دعاء الى بر وتعطف واصلاح وتآلف وخير يجتلب وشر يجتنب ، فهو من أحسن الكلام وجميله .. والقبيح من الكلام ما كان فى سفساف الأمور وأراذلها كالنميمة والغيبة والسعاية والكذب واذاعة السر والمكر ، وقد قال صلوات الله وسلامه عليه : «ان الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها .. » .

ينطبق على الصوفية قوله تعالى: « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله » فهم يدعون اليه ، ودعوتهم اليه — سبحانه — دعوة خالصة مخلصة ، لم يغرهم جاه ، ولم يرهبهم سلطان ، ولم يقصر بهم عن دعوتهم طول أمل أو يقعدهم عنها غلبة خمول أو ضعف كسل ، بل نذروا أنفسهم لله الذى غلب حبه على قلوبهم فاستعذبوا فى الدعوة اليه كل عذاب ، واستهانوا بكل صعب ، واستلذوا كل تعب ، وتغلبوا على كل مشقة .

وكان كلامهم فى ذلك كلام المحب المخلص الذى يؤمن بكل كلمة تخرج من لسانه فتجد طريقها الى الأسماع

والقلوب وتترك صداها قويا مؤثرا فى الأرواح والنفوس ، وكانوا فى دعوتهم الى الأخلاق قدوة طيبة وأسوة حسنة ، فلذلك كان لقولهم قيمته وأثره ، ليس كلاما يشبه كلام كثير من الوعاظ التقليديين الذين يحاولون تنميق الكلام بغية التأثير ثم يلتمسون صداه مع أدراج الرياح فلا يجدون شيئا . سئل أحدهم : مالك تعظ فيبكى الناس وواعظ المدينة يعظ فلا يبكى من كلامه أحد ؟ فقال : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة .

روعة الفن الأدبى فى سمو معناه :

يقول الجرجانى : « ان من كمال الجمال البلاغى أن تكون مادته الخير والفضيلة » وقد حقق الصوفية بأدبهم هذا الهدف فوقفوا نتاجهم الأدبى على الخير والفضيلة ، وبذلك جعلوا للأدب رسالة سامية وغاية كريمة . وهذا هو ما يلتقى مع آراء النقاد المنصفين قدمائهم ومحدثيهم .

أما القدامى فقد رأينا قول قدامة والجرجانى ، ونستشهد للمحدثين برأى عيسى الناعورى الذى ذكره فى كتابه أدب المهجر حين قال : « وهل الأدب الصحيح سوى رسالة سامية تنير سبل الحياة ؟ وتُعرّف الناس كيف يهتدون الى منابع السعادة والمعرفة فيها ؟ وكيف ينهلون من ذلك النبع الأزلى الأبدى الذى لا يحده الزمان ولا المكان لأنه أصل الزمان والمكان وأصل الحياة والوجود بكل ما فيها من شمول وأبدية ؟ وهل الأديب الحق سوى رسول يحمل بيده مشعل الحب والحرية ويبث بكل ما فى ضميره من شوق وشغف وما فى نفسه من نشاط واخلاص عن مصدر السعادة والمعرفة فى الحياة ليهدى اليهما نفوس البشر الحائرة فيزيل عن وجه الحياة قشور الكآبة والجفاف ويكلله بنور الغبطة والانتعاش ؟ » .

وهذا الكلام الذى يقرره الناعورى ينطبق على الأدب الصوفى ؛ فرسالته نشر المحبة بين الناس والدعوة الى الأخلاق والتحلى بالفضائل والهداية أولا وأخيرا الى الله ، وتلك رسالة من أسمى الرسالات فى الوجود ، بل هى أسماها على الاطلاق ، فهى

الرسالة التى قصر الأنبياء والمرسلون دعوتهم عليها ، ووقف الهداة والمصلحون أنفسهم على آدائها وارساء قواعدها .

وفى الأدب الصوفى — كما يقول المرحوم طه عبد الباقى سرور فى كتابه أعلام التصوف — « نماذج للفضيلة والخير تهتف بها لحونه وتنطق بها كلماته ، وهو الأدب العاطفى الحار فى مناجاته وابتهالاته وسبحاته ، هو أدب فنى أصيل ابتدع وحده أدب الحب الالهى بل أدب الحب الكونى ، الحب لكل شىء فى الوجود — حب الجمال المطلق السارى فى كل ذرة أبدعها المبدع الأعظم ، ثم هو أدب موضوعى يستهدف رسالة فى علم النفس والأخلاق والتربية لا يستطيع أن يحلق حول قممها سواه » .

وحقا ذلك فان كل كلمة خطها الصوفية — كما تقول مقدمة كتاب التعرف على مذهب أهل التصوف — كانت خالدة كالقلب الصوفى ؛ لأنها ارتبطت بالله واستهدفت رضاه واقتبست من هداه وأشرقت بحبه وأضاءت بنوره ، ومادة التصوف سواء أكانت أخلاقا أم معرفة أم سلوكا أم تعبيرا عن مشاهدة أم تصويرا لمناجاة أم تذوقا لتجليات أم تحليقا حول اشراقات فهى مادة موصولة بالله قائمة به وله فانية فيه سبحانه .

مهمة الأدب الصوفى :

ويمثل الأدب الصوفى فى مختلف عصوره النزعة الروحية التى وقفت تجاه الرغبات المادية لتهذب من ضراوتها وتقوم من وحشيتها ، فهو كعصا المؤدب التى تلوح للمتمردين على قواعد الخلق ومبادىء السلوك الانسانى ، وتضرب على أيديهم ليحولوا مجراهم من الاندفاع الاباحى التجرى الى الطريق السوى الخالص ، انه رسالة الاحتجاج على ذلك العبث الماجن الذى أباحته نظرية الفن للفن ، ودعت اليه المدنيات الزائفة فى جميع أطوارها ، وروجت له المبادىء الهدامة التى أرادت أن تنال من القيم والمثل العليا ، وأوحت به المادية العنيفة من تحلل وفساد .

لقد أعلنت هذه الرسالة أن الاستهانة بالخلق والتحرر من الدين ليس الا تمردا على الانسانية نفسها وعلى جميع ما تمتلكه من مثل كريمة ومبادىء قويمة ، ولا يمكن للانسان أن يستغنى فى انطلاقه الى مستقبله المشرق عن زاد روحى يمينه على أمره وعن قائد الهى يأخذ بزمامه الى غايته • كما لا يمكنه أن يكتفى بما أفاده من علم وتجارب قامت على المادة والعقل أكثر مما قامت على الروح ، والعلم ان لم يكن له من الأخلاق ما يهذبه انقلب وحشا ضاريا وأصبح خطرا على كل منتفع به •

وليست قيمة الأدب الصوفى قاصرة على موضوعاته التى تفهم مما تقدم ، ولكنها تتناول تعبيراته وعاطفته وصوره وأخيلته ، فهو فى كل ذلك يعد من أرقى الفنون الأدبية على الاطلاق ، وهو مع ذلك لم يحظ بعد بعناية الأدباء ونقاد الأدب ومؤرخيه العناية الكافية • يقول الدكتور زكى مبارك فى كتابه التصوف الاسلامى وأثره فى الأدب والأخلاق : « كان للصوفية أدب هو أعلى وأشرف من أدب البحترى والمتنبى وأبى العلاء » ويقول الدكتور أحمد أمين عن الأدب الصوفى : « انه أدب غنى فى شعره ، غنى فى فلسفته ، شعره من أغنى ضروب الشعر وأرقاها ، وهو سلس واضح وان غمض أحيانا ، وفلسفته من أعمق أنواع الفلسفة الالهية وأرقاها ومعانيه فى نهاية السمو ، خياله رائع يسبح بك فى عالم كله جمال وعواطف صادقة » •

وفى كل ذلك شفاء للصدور وأمن للقلوب وصيانة للعقول وتصديق لهذه الكلمة : « اذا سيطرت المادة فى زمننا هذا على كل شىء فقد آن أن تمضى موسيقى الأدب الروحى الى مكان العلة من هذه القلوب فتذهب بقسوتها وجفوتها وترد لها مناعتها الروحية » •

موضوع الأدب الصوفى :

مما تقدم ندرك موضوع الأدب الصوفى فقد حفل بكثير من الموضوعات وطاف حول كثير من المعانى ، فنثر ونظم فى الأخلاق وأدب النفس ووسائل تهذيبها وألوان

معاملتها ومجاهدتها ، وصاغ كثيرا من مواجيده وألحانه فى التضرع والمناجاة ، وأنشأ الكثير فى المحبة الالهية وأسرارها وآدابها وأحوالها ، وفى مدح النبى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، كما حوى الأدب الصوفى كثيرا من الرسائل والوصايا والمواعظ والحكم التى تحث على التزام الطريق السوى واجتناب طريق الغواية والضلال .

وحال الأديب الصوفى دائما بين مجاهدة وذوق لثمار هذه المجاهدة . وفى تعبيره يدور فى هذين الفلكين .

فالمجاهدة وما يصحبها من آداب وسلوك ومعاملة ومقامات كانت مصدر الهام لما قيل من دعوة الى الخلق والتمسك بالفضيلة والتحقق بالمقامات المختلفة من صبر وتوبة وتوكل وزهد وغيرها ، ويطلق على هذا اللون من الأدب اسم أدب التصوف العملى .

وتثمر هذه المجاهدة غالبا ثمارا يانعة من المعرفة كما تثمر أحوالا مختلفة من القبض والبسط والحب وما يتصل به من وجد وشوق وأنس وغير ذلك ، وتلك مادة سخية لما يطلق عليه أدب التصوف النظرى .

التقاء موضوعات الأدب الصوفى مع معانى القرآن الحديث :

ومن شعر الزهد الذى فتح الطريق لشعر الصوفية الزاهدين وغيرهم من الشعراء قول عروة بن أذينة :

لقد علمت وما الاسراف من خلقى
أن الذى هو رزقى سوف يأتينى

كم من فقير غنى النفس تعرفه
ومن غنى فقير النفس مسكين

وأكثر أبو العتاهية من شعر الزهد وله فيه أفانين كثيرة واختلط فى شأنه النقاد ، ولكن قول الامام الشافعى رضى الله عنه يمثل شعر زهاد الصوفية تمام التمثيل . ومن ذلك :

ومن يذق الدنيا فانى طعمتها
وسيق الى عذبها وعذابها

فلم أرها الا غرورا وباطلا
كما لاح فى ظهر الفلاة سرابها

وما هى الا جيفة مستحيلة
عليها كلاب همهن اجتذابها

فان تجتنبها عشت سلما لأهلها
وان تجتذبها ناهشتك كلابها

فطوبى لنفس أوطأت قعر بيتها
مغلقة الابواب مرخى حجابها

وقد نظر الشافعى فى هذه الأبيات الى تصوير القرآن الكريم لحال الدنيا فى قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » والى تصوير الحديث الشريف للدنيا فى قوله « الدنيا جيفة وطلابها كلاب » .

وهكذا الشأن فى الأدب الصوفى الذى ينحو هذا المنحى نراه لا يبعد عن أدب القرآن والحديث ، بل ينسج على منوالهما فى الدعوة الى الفضائل والحث على الأخلاق ، وأمثلة ذلك كثيرة لا أطيل بذكرها .

حتى فى شعر التصوف النظرى الذى يتحدث عن ثمار المجاهدة وآثارها وعما يشاهده الصوفى من مشاهدات وعما يضمره من حب شديد لله ولرسوله الكريم انما يتحدث عن ذلك فى ضوء ما أدركه من أمثال قوله تعالى « والله بكل شىء محيط » ومن قوله تعالى « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » وقوله عليه الصلاة والسلام « ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يقذف به فى النار ، وأن يكون الله ورسوله أحب اليه ممن سواهما » .

ومن شعر الصوفية فى هذا المعنى قول أستاذنا العارف بالله الشيخ محمد على منصور الأقدمى رحمه الله :

وأينما وليت لم أر غيره
محيطا ، ولا يدركه عبد هواه

وقول القائل الذى استشهد به ابن عجيبة فى ايقاظ الهمم :

لقد ظهرت فلا تخفى على أحد
الا على أكمه لا يبصر القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا
وكيف يعرف من بالعزة استترا

وفى تعبيرهم عن الحب الالهى يؤثرون أسلوب الرمز ضنا بما يعرفون من أسرار الجلال حتى

لا تتعرض للابتذال ، ومن أمثلة ذلك ما يقوله ابن الفارض :

جرى حبها مجرى دمى فى مفاصلى
فأصبح لى عن كل شغل بها شغل

فنافس ببذل النفس فيها أخا الهوى
فان قبلتها منك ياحبذا البذل

فمن لم يجد فى حب نعم بنفسه
ولو جاد بالدنيا اليه انتهى البخل

ولولا مراعاة الصيانة غيره
ولو كثروا أهل الصبابة أو قلوا

لقلت لعشاق الملاحة أقبلوا
اليها على رأيى وعن غيرها ولوا

وقد احتل مديح المصطفى صلى الله عليه وسلم فى أشعار الصوفية مركزا مرموقا ، وصاغوا فيه دررا غوالى ، اقتداء بأدب القرءان الكريم الذى امتدحه بقوله « وانك لعلى خلق عظيم » وسيرا على قدم من تقدمهم من شعراء الرسول صلى الله عليه وسلم من أمثال حسان بن ثابت الذى يقول :

وأحسن منك لم ترقط عينى
وأفضل منك لم تلد النساء

خلقت مبرءا من كل عيب
كأنك قد خلقت كما تشاء

وكعب بن زهير الذى يقول :

ان الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

ومن بعدهما البوصيرى الذى تسنم شعر المديح ببردته الذهبية ، وهمزته الوضاءة التى منها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك فى علاك وقد
حال سنا منك دونهم وسناء

انما مثلوا صفاتك للناس
كما مثل النجوم الماء

وقد سار الشعراء على نمط هؤلاء سواء كانوا صوفيين أم غير صوفيين .

فنون الأدب الصوفى :

والأدب الصوفى ليس قاصرا على الشعر ، ولكنه فى النثر له مقام مشهود . والشعر بأغراضه التى أشرت اليها آنفا وأوردت بعض أمثلة لها من الأخلاقيات والحب الالهى والمدائح النبوية ، يتصل

بها ما صاغوه فى مدح شيوخهم ، ويضاف اليها ما صاغوه من نظم لعلوم التصوف وضبط قواعده ومصطلحاته بأسلوب سهل أخاذ .

أما النثر الصوفى فيتنوع الى رسائل ووصايا وأحزاب وأدعية وصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم وقصص وحكم وغير ذلك مما يغص به النثر الصوفى من ألوان أدبية رائعة .

كما أننا نجد بجوار ذلك كتبه المتعددة التى قعدت قواعد التصوف، وبينت أصوله وأحواله ومقاماته ، وضبطت أحكامه وأركانه مما يعد ثروة علمية وذخيرة أدبية .

وقد لا يتسع المجال لعرض نماذج لكل فنون النثر الصوفى ولكنى أكتفى ببعض ذلك للتذكير وفى الذكرى نفع للمؤمنين .

فمن نماذج الرسائل ما كتبه ذو النون المصرى ردا على أحد اخوانه ــ وقد اعتل فكتب الى ذى النون يرجوه أن يدعو له ــ :

« سألتنى أن أدعو الله لك أن يزيل عنك النعم ، واعلم يا أخى أن العلة مجازاة يأنس بها أهل الصفاء والهمم والضياء، ومن لم يعد البلاء نعمة فليس من الحكماء ، ومن لم يأمن الشفيق على نفسه فقد أمن أهل التهم على أمره ، فليكن معك يا أخى حياء يمنعك من الشكوى ، والسلام » .

والرسالة على ايجازها نموذج رفيع للفن الأدبى الصوفى وما فيه من معان مثالية تدل على ايثار الله بالحب، والاستئناس بالبلاء والفرح بالضراء ، والاستحياء من الشكوى .

ومن نماذج وصاياهم ما أوصى به أبو سعيد الخراز بعض أصحابه فقال له : « احفظ وصيتى أيها المريد . وارغب فى ثواب الله تعالى، وهو أن ترجع الى نفسك الخبيثة فتهذبها بالطاعة وتميتها بالمخالفة وتذبحها بالاياس فيما سوى الله ، وتقتلها بالحياء من الله عز وجل ،

ويكون الله حسبك ، وتسارع الى جميع الخيرات وتعمل فى جميع المقامات وقلبك وجل ألا يقبل منك» .

ومن ذلك قول عبد الله بن المبارك لرجل قال له أوصنى : « اترك فضول النظر توفق للخشوع، واترك فضول الكلام توفق للحكمة ، واترك فضول الطعام توفق للعبادة ، واترك عيوب الناس توفق لمعرفة عيوبك ، واترك الخوض فى ذات الله تسلم من الشك والنفاق » .

وهى وصايا جامعة فى أسلوب رائع ومنطق جميل عنيت بالأسباب والمسببات دون تعقيد والتواء .

أما الأحزاب والأدعية والأوراد وصيغ المناجاة والصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم ، فهى كثيرة لا تحصى ، وان دلت فانها تدل على مدى ما وصل اليه هؤلاء من صفاء فى الروح وصدق فى التوجه واخلاص فى الطلب ، الى جانب ما رزقوه من موهبة أدبية وبلاغة ومقدرة على صوغ أدق المعانى فى أجمل العبارات .

اقرأ هذا الدعاء « هربت اليك بنفسى يا ملجأ الهاربين بأثقال الذنوب أحملها على ظهرى ، لا أحد شفيعا اليك الا معرفتى أنك أكرم من قصد اليه المضطرون ، وأمّل فيما لديه الراغبون ، يامن فتق العقول بمعرفته ، وأطلق الألسنة بحمده ، وجعل ما امتن به من ذلك على خلقه كفاء لتأدية حقه ، لا تجعل للهوى على عقلى سبيلا ، ولا للباطل على عملى دليلا »

واقرأ للشاذلى رضى الله عنه : « اللهم انك تعلم أنى بالجهالة معروف وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شىء من جهالتى بعلمك فسع ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك ... اللهم انا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لانعلم بما لانعلم ... »

فهل ترى معنى أعمق من هــذا افتتان :
وأسلوبا أرق من هذا ؟

ثــم اقرأ هــذه الضراعة التــى أجعلها مســك الختام لهذه الحلقة والتى أرجو الله أن يوفقنى ليربطها بحلقــة أخــرى تتحدث عن القصة الصوفية والحكمة الصوفية ــ اقرأ هذه الضراعة التى تشهد بما أوتيه هؤلاء الأدباء من قوة بيان وحسن

« اللهم انى أســتغفرك من كل ذنب قــوى عليه بدنى بعافيتك ، وتالته يدى بفضل نعمتك،وانبسطت اليه بسعة رزقك ، واحتجبت فيه عن الناس بسترك ، واتكلت فيه على أناتك وحلمك ، وعولت فيه على كريم عفوك »

عبد الحفيظ فرغلي على القرني

مناجاة

يـعـوب : اين ترى تقــام جهنم
للظالمــين ــ غداً ــ وللفجــار ؟
لم يبق عفوك فى الســموات العلى
والأرض ، شــبرا خاليــا من نار
فمر الوجود يشف عنك لكى أرى
غضب الحليـم ورحمة الجبــار

يعقوب بن داود وزير المهدى

للأستاذ السيد حسن قرون

كان النصف الأول من القرن الثانى الهجرى فريدا فى مفاهيمه العقائدية، ومذاهبه الفقهية والفكرية، وحركاته الثورية والسياسية ، اجتمع له من النوابغ فى كل علم وفن كواكب مضيئة ونجوم زاهرة كان لهم الأثر الكبير فى صوغ المجتمع الاسلامى والعربى فى صورة حضارية أخاذة ، وكان الحوار فى كل شيء سمة العصر ، ولا يسل السيف من غمده الا اذا اتصل الحوار بالخلافة ، فعندها تخرس الألسنة وتصرخ الأسنة ، كان الحوار فى كل مجتمع وصقع ، فى المسجد وفى الأسواق وغيرها .

كل يتحدث ، كل يخطب ويجادل ويتحرك ، ويكتب أيضا ، وكم طال الحوار حول مرتكب الكبيرة ، وبه قامت مذاهب متنوعة: مرتكب الكبيرة أكافر أم فاسق أم هو المنزلة بين المنزلتين ؟ وسارت فى الناس كلمات المعتزلة وأهل العدل وأهل السنة ، والمشبهة ، والقدرية والجبرية ، ويطيلون الكلام حول عمل الانسان والجزاء عليه أو بتعبيرهم أمخير أم مسير ؟ وكانت طبقة أولى البصائر على مستوى كبير من المعرفة ، لا تركن الى علمها ، ولا تحبس نفسها فى مساجدها، ولكنها تدخل فى الجدل الدينى والسياسى ، وتنصر فريقا على فريق .

فى هذا الجو الثريد الجديد على المجتمع الاسلامى نشأ (يعقوب بن داود بن طهمان) من موالى بنى سليم وفى خراسان حيث يعمل والده موظفا عند الوالى (نصر بن سيار) وشاهد الصراع السياسى والمذهبى بين الهاشميين والامويين والهجمات الضارية التى يشنها الخوارج فى كل موسم من مواسم الحج ، وعرف جدال العلماء فى الكوفة والبصرة ، فكان ابن عصره علما وأدبا وسياسة وقد

اتيح له أن يكون مثقفا ثقافة واسعة تؤهله لحمل أمانة العمل فى الدولة الناهضة ، وظهر رجل فى عصره شد الانتباه اليه ، كان بارعا رائعا فى كل أموره ، ذلك الرجل هو (زيد بن على زين العابدين) حفيد الشهيد (الحسين بن على) رضى الله عنهما ، كان يحاور فى كل شيء ، ويجادل كل شخصية لها مكانتها فى المجتمع ، حاور الخليفة هشام بن عبد الملك ورماه بالجور ، ورماه هشام بخلوه من مؤهلات الخلافة ، لأنه ابن أمة ، حاور والى العراق ، وجادل بنى عمومته من أبناء (الحسن بن على) وجادل أخاه ، لانه عاب عليه مجالسة المعتزلة .

وأعجب من كل ما ذكرنا جداله اتباعه وهو فى حاجة اليهم ، فقد أرادوه على التبرؤ من الشيخين أبى بكر وعمر فأثنى عليهما فرفضوه واتجهوا الى ابن أخيه فسموا «الرافضة» .وكان خروجه على هشام ووالى العراق لدفع الظلم ورد الحق الى أصحابه ثم استشهاده وصلبه مأساة قومية هزت المجتمع الاسلامى هزا عنيفا ، فبقيت تعاليمه تتوغل فى كل مكان ثم صارت مذهبا يتخذه الأتباع للتعبد ، وفر ابنه (يحيى) الى خراسان فقتل فى (الجوزجان) بعد أن أوصى الى (محمد بن عبدالله) من ولد (الحسن بن على) فقتل وعهد الى أخيه (ابراهيم) فقام بالبصرة وشايعه أولو البصائر من أصحاب الفقه والكلام واستولى على فارس والأهواز ، فأرسل اليه الخليفة المنصور العباس جيوشه فهزمت ثم قتل[1] ابراهيم وهو منتصر .

وما شأن يعقوب بن داود فى ذلك؟ يقول التاريخ : كان داود بن طهمان وهو أبو يعقوب واخوته كتابا لنصر بن سيار ، وقد كتب داود قبله لبعض ولاة خراسان ، فلما كانت أيام (يحيى بن زيد) العلوى كان يدس اليه والى أصحابه بما يسمع من نصر ويحذرهم ، فلما خرج أبو مسلم يطلب بدم يحيى بن زيد ويقتل قتلته والمعينين عليه من

---

(١) سنة ١٤٥ هـ

أصحاب نصر أتاه داود بن طهمان مطمئنا لموقفه منه ، فأمنه أبو مسلم ولم يعرض له فى نفسه ، وأخذ أمواله التى استفادها من عمله مع نصر ، وترك منازله وضياعه التى كانت له ميراثا بمدينة (مرو) .

فمامات داود حتى كان أبناؤه أهل علم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ، ونظروا فاذا ليست لهم عند بنى العباس منزلة فلم يطمعوا فى خدمتهم لحال أبيهم من العمل لنصر بن سيار ، فلما رأوا ذلك أظهروا « الزيدية » ودنوا من العلويين ، وطمعوا أن تكون لهم دولة فيعيشوا منها ، فكان يعقوب بن داود يجوب البلاد منفردا بنفسه حينا ومع ابراهيم بن عبد الله أحيانا فى طلب البيعة لمحمد بن عبد الله .

فلما ظهر محمد وابراهيم ابنا عبد الله وأعلنوا خلافة علوية كتب (على ابن داود) لابراهيم بن عبد الله والى البصرة ، وكان يعقوب يصحب ابراهيم فى كل مكان يؤمه ، وكان معه حين قتل فى المعركة ، تبخرت آماله ، وخاف المنصور على نفسه ، فلجأ الى الفرار ، لكن المنصور لم يتركه فقبض عليه ووضعه فى السجن مع من بقى من أبناء عبد الله العلوى ، واسحق بن الفضل الهاشمى فعاش فى السجن فى صحبة الحسن بن ابراهيم واسحق بن الفضل ، وانعقدت بينه وبين اسحق صداقة متينة ، وكانا يتحدثان فى كل ما تزخر به الحياة من شئون الدين والدنيا ، وكان اسحق يرى أن الخلافة قد تجوز فى صالحى بنى هاشم جميعا ، ومن كلامه أن الامامة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصلح الا فى بنى هاشم ، وهى فى هذا الزمن لا تصلح الا فيهم ، وكان يكثر فى قوله « للأكبر من بنى عبد المطلب » وكان يعقوب يجاريه فى مسلكه ، واسحق هذا من ولد (الحارث بن عبد المطلب) .

ومات المنصور ١٥٨ هـ وتولى المهدى بعده ، فرأى أن يطلق سراح المسجونين الا من كان قبله تباعة من دم أو قتل ، ومن كان معروفا بالسعى فى

الأرض بالفساد ، أو من كان لأحد قبله مظلمة أو حق فأطلقوا ، فكان ممن أطلق يعقوب بن داوود ، وبقى الحسن بن ابراهيم العلوى فى السجن ، لأنه ابن الثائر ابراهيم ابن عبد الله،ولكن أتباعه من الشيعة احتالوا له فحفروا سردابا نفذ الى سجنه فهرب الحسن منه .

خرج يعقوب من السجن فوجد دنيا غير الدنيا التى عهدها ، ليس فيها مروان ولا بنو أمية ، وليس بها الأمير ابراهيم ولا مجلسه العامر فى البصرة ، ولا المنصور فقد صار من سكان القبور ، ولم ير أحدا من أولى البصائر فقد تفرقوا أيدى سبا، ونظر حوله فلم يجد عملا ولا وظيفة ولا قريبا ولا حبيبا ، فأوى الى المساجد يعمرها ، ولم تكن بغداد عنده الا مسجدا ، والخليفة المهدى مستطار الفؤاد ، مرتاع النفس لهرب الحسن بن ابراهيم يجد فى طلبه ، ويبث العيون فى أثره فلا يبلغ مما يبغى شيئا ، الخليفة المهدى فى قلق وأرق من خصمه ويعقوب فى هم من مآله . وكانت المفاجأة .وافاه رسول المهدى يدعوه للمثول بين يديه ، فارتاع والتاع ، وود لو أن بينه وبين الخليفة أمدا بعيدا ، فنهض ولم يتكلم فكل كلمة محسوبة عليه ، وكل حركة يؤاخذ عليها لقد أفرج عنه ولما يسترح بعد . أو شاية بلغت الخليفة ؟ ليكن ما يكون ، ولم يدر فى خلده ما جرى فى مجلس الخليفة ، ان الخليفة عناه أمر الحسن فعرض على جلسائه ما يشغله فقال : لو وجدت رجلا من الزيدية له معرفة (بآل الحسن) وعيسى بن زيد لكفانى المتاعب . قال جلساؤه . يا أمير المؤمنين ، لايصلح لهذا الأمر الا يعقوب بن داود فكان الأمر باحضاره .

دخل يعقوب بن داود وملبسه يدل على تقشفه ، فكلمه وفاتحه فوجده رجلا كاملا ، وصار من حاشية الخليفة . خرج من المجلس فعاوده الأمل وعاوده طموحه،وذكر فيما يريده المهدى منه . وما يريده هو فأفتى لنفسه فتوى عمل على تنفيذها ، كل ما يريده الخليفة (الحسن بن ابراهيم) أو بمعنى

أوفق يريد الراحة من ثورات بنى عمه ، وماذا عليه لو جمع بين المتنازعين ، وأزال البغض من النفوس ؟ ان الرعية كما عرفها تتوق الى رتق الفتق بين بنى هاشم ، فلو فعل هذا لأرضى الطرفين بل أرضى الناس جميعا . لقد كان دعاة بنى العباس يدعون للرضا من آل محمد ، وأبو مسلم الخراسانى كان يقتل قتلة يحيى بن زيد العلوى ، وشاعرهم حرض (عبد الله بن على) على قتل وجوه بنى أمية بقوله

واذكروا مصرع الحسين وزيد
وقتيلا بجانب المهراس

فقد اثاره بذكر مصرع الحسين بن على وابنه زيد ، وبحمزة بن عبد المطلب شهيد أحد وهو ما يعنيه الشاعر بالقتيل الذى قتل بجانب المهراس ، فالزيدية كانت سمة هاشم كلها ، علويها وعباسيها فلا مانع من عودة المياه الى مجاريها . وتصبح الخلافة خلافة الهاشميين جميعا ، وصديقه اسحق بن الفضل يرى ذلك ، بل يرى أن تكون الخلافة فى الأكبر من بنى عبد المطلب ، فلنرأب الصدع أولا ثم يجىء الاتفاق ثانيا . هذا ما أفهمه من موقفه ، فليس صحيحا أنه سعى بالحسن حتى قبض عليه ليرتفع شأنه عند المهدى ؛ لأن ما فعله حين ولى الوزارة يناقض هذا تماما ، فهو حين أراد أن يجمع الحسن بالمهدى اشترط على المهدى أن يعطيه أمانا ويصله ويحسن اليه » وكان ذلك على رءوس الأشهاد .

ورأى يعقوب أن يفيد المهدى بخبرته واخلاصه فقال له ذات يوم: يا أمير المؤمنين ، لقد بسطت عدلك لرعيتك ، وأنصفتهم وعممتهم بخيرك وفضلك ، فعظم رجاؤهم فيك ، وانفسحت آمالهم ، وقد بقيت أشياء لو ذكرتها لك لم تدع النظر فيها بمثل ما فعلت فى غيرها ، وأشياء مع ذلك خلف بابك يعمل بها لا تعلمها ، فان جعلت لى السبيل الى الدخول عليك وأذنت لى فى رفعها اليك فعلت . فأعطاه المهدى ذلك ، وأمر خادم المنصور الأسود (سليما) أن يكون فى اذن يعقوب كلما أراد الدخول عليه .

صار يعقوب يتردد على الخليفة ، ولا ينكر ذلك الوزير (أبو عبيد الله معـــاوية بن يســـار) من موالى الأشعريين ولا القــاضى (محمد بن عبد الله بن علاثة الكلابى) وهمـــا أقرب النـــاس الى قلب المهـــدى وموضع نجواه ، فكان يعقوب يرفع النصائح فى الأمور الحسنة من أمر الثغور ، وبناء الحصون ، وتقــوية الغـــزاة وتزويج العزاب ، وفكاك الأسرى والمحبوسين ، والقضاء على الغارمين ، والصدقة على المتعففين ، فحظى بذلك واتخذه أخا فى الله ، وأخرج بذلك توقيعا ، وأثبت ذلك فى الديوان،ووصله بمائة ألف درهم، فانتعشـــت حاله ، وارتـــاح باله ، واتســـعت آماله ، وضعفت مكانة الوزير والقاضى فقال على بن خليل:

عجبا لتصريف الأمو
ر مسرة وكراهية

والدهر يلعب بالرجا
ل له دوائر جارية

رثت بيعقوب بن دا
ود حبال معـــاوية

وغدت على ابن علاثة ا‍ل
قاضى بوائق عافيه(١)

قل للوزير أبى عبيد الله
هل لك باقيـــة ؟

يعقوب ينظر فى الأمو
ر وأنت تنظر ناحية

أد خلته فعـــلا عليـــك
كذاك شؤم الناصية

ولم يطل أمر الوزير فى منصبه ليتلقى الهجاء صريحا أو تعريضـــا فقد صدر الأمر بتعيين يعقوب بن داود بن طهمان مولى بنى ســـليم وزيرا . وصرح الخليفة عند تعيينه « أن وصف لى يعقوب بن داود فى منامى فقيل لى اتخذه وزيرا » ولا حاجة بى الى النظر فى حلم المهدى فالرجل أعجب به و « فاتحه فوجده رجلا كاملا » فوجب الانتفاع به ، فبه هدأت ثائرة العلويين كما ظن ، وفى يده (الحسن بن ابراهيم) وهنا

---

(١) القاضى عافية بن يزيد الأزدى .

فوض اليه أمر الخلافة فصار الخليفة يملك ولا يحكم كما نقول اليوم . كان ذلك سنة ١٦١ هـ .

ومن أول يوم نفذ ما رسمه فى مخيلته فأرسل الى «الزيدية» فأتى بهم من كل أوب وولاهم نفيس الأعمال فى الشرق ، والغرب ،وجعل على المدن الكبرى من يثق به من أولى البصائر كالكوفة والبصرة ودمشق ومرو ، وكان فى نيته أن تكون مصر من نصيب زميله فى السجن اسحق بن الفضل الهاشمى لكن تعيينه وزيرا أثار طوائف وجماعات لها وزنها فى الدولة ، أثار بنى الحسن والعلويين عموما وأغضب الوزير والقاضى ولهما أتباع وأشياع ، وأغضب أبناء الدعوة من الخراسانيين ، لأنه فى نظرهم ابن رجل خدم نصر بن سيار والى الأمويين فى خراسان ، وأغضب خدم القصر لأنه غريب عنهم .

ويمثل ثورة بنى الحسن بشار بن برد ، لأنه ويعقوب كانا فى صحبة ابراهيم بن عبد الله ،وبشار مدح ابراهيم بقصيدة فضلها النقاد على شعر الفرزدق وجرير ، وفيها ذم المنصور وحين قتل ابراهيم غير مطلعها وحذف ما يخص ابراهيم ، ولا بأس من ايراد بعضها لتعلم مدى حب بشار واعجابه بالأمير ابراهيم والد الحسن غريم المهدى . قال :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم
ولا سالم عما قليل بسالم
تجردت للاسلام تعفو سبيله
وتعرى مطاه لليوث الضراغم
فمازلت حتى استنصر الدين أهله
عليك فعادوا بالسيوف الصوارم
فرم وزرا ينجيك يا بن سلامة (١)
فلست بناج من مضيم وضائم
لحا الله قوما رأسوك عليهم
وما زلت مرءوسا خبيث المطاعم
أقول لبسام (٢) عليه جلالة
غدا أريحيا عاشقا للمكارم
من «الفاطميين» الدعاة الى الهدى
جهارا ،ومن يهديك مثل ابن فاطم؟
سرج لعين المستضىء وتارة
يكون ظلاما للعدو المزاحم
اذا بلغ الرأى المشورة فاستعن
برأى نصيح أو نصيحة حازم

---

(١) أم المنصور وهى أمة .
(٢) ابراهيم

بشار يرى المنصور مضيعا للاسلام ويعرى ظهره لليوث الضراغم ، ويرى ابراهيم هو الهادى والسراج وعاشق المكارم ثم هومن « الفاطميين » ولا أعرف أحداسبق بشارا الى هذه النسبة (فاطمى) التى صارت فيما بعد علما على دولة بأسرها . فبشار حزين وغاضب وثائر على يعقوب لأنه تنكر للمبادىء ، وخان العهد ، وعمل مع قتلة ابراهيم ولو كان أحد يعفىمن لسان بشار لأعفى يعقوب لأنه من الموالى وبشار شعوبى متعصب للموالى ، ولكن يعقوب رضى أن يكون وزيرا للعباسيين بعد صحبة ابراهيم وهذا سر هجائه . قال :

بنى أمية هبوا طال نومكم
ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فاطلبوا
خليفة الله بين الدف والعود

ويخيل الى أننكبةابراهيمأذهلت بشارا فجعلته يخرج عن طوره ، فيعلن تورثه على المسلمين ويكفرهم جميعا بعد وفاة رسول الله صلىالله عليه وسلم ، بل يتمادى فى الخبل فيفضل ابليس على آدم ، فاذا ولى الوزارة يعقوب للمهدى بعدالقبض على (الحسن بن ابراهيم) فتلك الطامة الكبرى ، ولا تسكن ثائرته حتى يرى يعقوب طريدا منمنصبه أو قتيلا بيد من يخدمه .

وعلى رغم ثورة بشار وحسد الحساد ونقمة الناقمين من أبناء الدعوة العباسية وخدم القصر فقد كان يعقوب رجل الساعة فى مجتمعه ضبط الأمور ضبط الحازم الخبير، وسهر حين نام غيره ، متفقدا أحوال الامبراطورية ، له دين وعقل ، وعلم وحلم ، ولقد استطاع التخلص من بشار بقتله ولكنه عجز أن ينال منالا من خدم المهدى وأبناء الدعوة من خراسان لدالتهم على بنى العباس .

ومع أنه نفذ ما كان ينصح به المهدى من بناء الجسور والقلاع ، وتأمين السبل ، واشاعة الأمن فى ربوع الدولة وتقوية الغزاة ، وارساء قواعد العدل وبسط المساواة بين الناس الى كثير مما

يوجب تكريمه والثناء عليه الا أن أعداءه ومنافسيه جعلوا الحسن قبيحا ، والجد فى الأمور تقصيرا . كانت الدعاية تعمل عملها فى العامة والخاصة ترميه بالوصولية ولو على حساب الشرف والدين ، وتآمر عليه من عرفوه قبل الوزارة ومن عرفوه وهو متقلدها ، وكان الوشاة ينتهزون فرصة غيابه عن الخليفة فيقولون ما يقولون،وكانوا ينتظرون نكبته من حين الى حين.يقول بعض خدم القصر : كنا ننتظر نكبته صباحا فاذا دخل على الخليفة سرعان ما تشيع البهجه فى وجهه وينسى ما نواه ، فاذا أمره نافذ ، ومكانته فى ازدياد.

والتهم التى وجهت اليه كثيرة كان يخرج منها بريئا نقيا ، اتهم باستغلال النفوذ ، وصل الى المهدى أنه بنى متنزها انفق عليه خمسين ألف ألف من بيت مال المسلمين فوجه الخليفة اليه التهمة وآذاه بيده فنفاها وحلف قائلا والله ما سمعته أذناى،ولا كتبه الكرام الكاتبون ، ثم تبين أن بانى المتنزه أحد أمراء بيت الخلافة . وكيف يفعل ذلك وهو الذى عاب على المهدى اسرافه ، فقال له : « ويلك لولا السرف لم يعرف المكثرون من المقلين » .

وحكاية العلوى الذى أمر باعتقاله فى داره ثم هربه أو أراد أن يهربه فحيل بينه وبين ما يريد أقرب الى الشائعات منها الى الوقائع ، لأن هناك شائعة أخرى تصادم تلك الشائعة وهو سعيه ليكون الحسن بن ابراهيم العلوى فى قبضة المهدى والشائعتان تخدمان المهدى ، لأن الأولى تحمله على القضاء على يعقوب أو اقصائه من منصبه،والأخيرة تجعل الزيدية والعلويين يناصبونه العداء ، والعلوى الذى زعمت الشائعة أنه هربه لم يذكر الرواة اسمه،ولو كان الأمر حقا لعينوه بالاسم واللقب .

والتهمة التى يستسيغها العقل ويأباها الواقع هى تدبير يعقوب لقلب نظام الخلافة من أجل صداقته لاسحق بن الفضل الهاشمى . فقد قالوا انه كان يريد أن يعين يوما للانقلاب ، وجميع الولاه من صنعه. وفرق كبير بين أن يتحدث اثنان فى

السجن فى شأن من الشئون وبين تنفيذ تلك الأحلام ، فالأرض ثابتة تحت أقدام العباسيين واذا كان « النفس(١) الزكية » وهو المبايع من السفاح والمنصور لم يستطع أن يتغلب على المنصور فبعيد أن يبلغ ذلك أى هاشمى آخر ، ومع بنى العباس القواد والجنود والأموال ، انما ما تحدث فيه يعقوب واسحق ضرب من الأمانى فى أن تكون الخلافة شورى بين بنى عبد المطلب وفى الأكبر منهم حتى لا يتولاها الصبية الجهلاء بالوراثة وحتى لا يقعوا تحت امرة الخدم والمتسلطين كما حدث فيما بعد ،وقد وجد أعداء يعقوب فرصتهم حين رأوا أن الولايات فى يد الزيدية أنصار الوزير،وأن الدسائس تنفع هنا . ويروى (على بن محمد النوفلى) من ولد (الحارث بن عبد المطلب) أن بعض خدم المهدى ذكر له : أنه كان قائما على رأس المهدى يوما يذب عنه اذ دخل يعقوب فجثا بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين، قد عرفنا اضطراب مصر ، وأمرتنى أن ألتمس لها رجلا يجمع أمرها ،فلم أزل أرتاد حتى أصبت لها رجلا يصلح لذلك . قال : ومن هو ؟ قال ابن عمك اسحق بن الفضل . فرأى يعقوب فى وجهه التغير ، فنهض وخرج ، واتبعه المهدى نظره ثم قال قتلنى الله ان لم أقتلك . ثم رفع رأسه الى وقال : اكتم على،ويلك!. قال الخادم : ولم يزل مواليه يحرضون عليه ويوحشون منه حتى عزم على ازالة النعمة عنه ، وقد كان.

قال النوفلى : أمر المهدى بعزل أصحاب يعقوب من الولايات فى الشرق والغرب ، وأن يؤخذ أهل بيته وأن يحبسوا ، ففعل ذلك بهم . هل كان يعقوب يرى مصيره من ستررتيق ؟ انه كثيرا ما طلب من المهدى اعفاءه من العمل ، مدعيا أنه ينفزع فى نومه مخافة أن يقصر فى شأن المسلمين واعطاء الجند ، ويقول له ، ليس دنياك عوضا عن آخرتى فيقول المهدى : اللهم غفرا ، اللهم

---

(١) محمد بن عبد الله العلوى .

أصلح قلبه ، والماجنون حين يسمعون يقولون :

فدع عنك يعقوب بن داود جانبا
وأقبل على صهباء طيبة النشر

وقد أعفى قسرا وأدخل السجن منكوبا سنة ١٦٧ هـ . ولم يكتف المهدى بسجنه،فكان يعاوده بالعذاب من حين الى حين .

ويبدو من منطق الحوادث أن يعقوب بن داود كانت له منزلة فى المجتمع الاسلامى،وأن الخليفة كان يخاف عليه أن يموت قتيلا ، وهذه الحادثة التى نذكرها تدل على ذلك، أمر الخليفة « على بن عيسى بن ماهان » أن يضربه مائة سوط وحين نفذ الأمر عيسى لم يضربه ضربا مبرحا فلما خرج من عنده قال له الخليفة : « ما صنعت بالرجل ؟ » قال : « صنعت به ما أمرت » .قال: « فما حاله » ؟ قال : « مات » ففزع الخليفة وقال : « ويلك فضحتنى والله عند الناس ، هذا رجل صالح يقول الناس قتل يعقوب بن داود ، فلما رأى جزعه قال : « هو حى يا أمير المؤمنين لم يمت

ولكن الخليفة كانت الهواجس تؤرقة من موقف يعقوب من اسحق بن الفضل ففى ليلة أحضر الخليفة اسحق بن الفضل ويعقوب من السجن وواجه يعقوب بالتهمة وهى العمل على نقل الخلافة الى اسحق فقال يعقوب : « ما علمت بهذا قط ؟ » وغضب الخليفة وقال له : « أتكذبنى وترد على » وأمر بضربه بالسياط فضرب اثنى عشر سوطا ثم تبين أن الساعى الى هذا غيره فاعتذر اليه ثم أخذ يستجوب اسحق فنفى اسحق سعيه الى الخلافة وطمعه فيها وقال له فيما قال : « ان ذلك ليس من شأنى وكيف أقول هذا ياأمير المؤمنين وقد مات جدى فى الجاهلية (الحارث بن عبد المطلب)، وأبوك الباقى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووارثة (يعنى العباس بن عبد المطلب) » ومع أن القضية واضحة وأن الرجلين بريئان مما نسب اليهما فان الخليفة أصر على أن يبقى يعقوب فى سجنه يقاسى الظلام والأسقام حتى أتاه الفرج على يد الرشيد الذى كان يعجب به ويميل اليه من صغره .

ولنترك يعقوب يحدثنا عن نهاية سجنه قال : « أمر المهـدى بحبسى فحبست فى « المطبق » واتخذ لى فيه بئر فدليت فيها ، فكنت كذلك أطول مـدة لا أعرف عـدد الأيام وأصبت ببصرى وطال شعرى حتى استرسل كهيئة شعر البهـائم فانى لكذلك اذ دعى بى فمضى بى الى حيث لا أعلم أين هو ؟ فلم أعد أن قيـل لى سـلم على أمير المؤمنين فسلمت .فقال : « أى أمير المؤمنين أنا ؟ » قلت : « المهدى » قـال : « رحـم الله المهـدى » قلـت : « فالهـادى » قـال : « رحم الله الهادى » قلت : « فالرشيد »قال : «نعم» قلت : « ما أشكفى وقوف أمير المؤمنين على خبرى وعلتى وما تناهت اليه حالى » قال : « أجل كل ذلك عندى . فسل حاجتك » قلت: « المقام فى مكة » قال : « تفعل ذلك فهل غير هذا ؟» قلت : « ما بقى فى مستمتع بشىء ولا بلاغ » قـال : « راشدا » فخرجت وكان وجهى الى مكة » قال ابنه : « ولم يـزل بمكة فلم تطل حياته بها حتى مات. كان ذلك سنة ١٧٠ هجرية وبذلك انتهت حياة رجل عظيم يعرف أمانة الحكم ويحملها بنـزاهة وحـزم أضاعته الدسائس والأحقاد ففقدت به الدولة الاسلامية وزيرا مصلحا يحسن رعاية ما قلده تمام الاحسان.

السيد حسن قرون

بـــاب الفتـــوى

اعداد وتقديم : الأستاذ/ عبد الحميد شــاهين

(س) هل يمنـع وجود اللزقـة الأمريكانى على الجسد بمكان به ألم من رفع الجنابة اذا أراد الغسل منها ؟

(جـ) مذهب الحنفية يوجب على الجنب غسل كل جزء من أجزاء البدن فان ضره الغسـل بالمـاء مطلقـا ولو ساخنا مسح الجزء الذى يضره الغسل ، فان ضره مسـحه أيضـا مسح على الجبيرة أو الخرقـة ، ومثلهما اللزقة ، فان ضره المسـح على ذلك أيضا سقط عنه هــذا الواجب ..

وبهذا يعلم حكم هذه الحادثة . فانه ان ضره غسل موضع اللزقـة أو ضره أيضا مسحه أو ضره حلها، ليغسل ما تحتها أو يمسحه ، مسح على اللزقة ، فان ضره المسح عليهـا لم يجب عليه شىء بالنسبة الى هذا الموضع . ويكفى فى معرفة الضرر التجربة أو اخبار الطبيب الموثوق به .

(س) لى بنت مريضة مرضا عصبيا لم أجد لها علاجا وقيل انها مريضـة بسبب مس من الجن ، فهل لى أن أعالجها بالطرق الروحانية ؟

(جـ) نفيد بأن مس الجن حاصل بنص القـرآن الكريم : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » .

والعلاج منه بالرقيـا والفـوائد الروحانية لا مانع منه متى كان ذلك على يد رجـل صالح موثوق به . مجرب بعيد عن الدجل والشعوذة ، وجرى بأدعية مفهومة أو منقولة عمن يوثق به ..

(س) يتحرج بعض النـاس من التبليغ ضد التجار الجشعين لبيعهم المواد بأسعار غالية تزيد على الأسعار

المقررة ، أو ضد من يختزنون أقوات الناس وما يلزمهم .. لاعتقادهم أن هـذا التبليغ ليس واجبـا عليهم شرعا .. فما رأى الدين الحنيف ؟

(جـ) اذا قررت الحكومة أسعارا لما يحتاجه الناس فى معيشتهم من طعام ولباس وغيرهما دفعا لظلم أصحابها ومنعا للضرر العام عن الناس وجب شرعا البيع بهذه الأسعار وكان البيع بأزيد منها ظلما محرما شرعا ..

واذا نهت عن اختزان ما يحتاجه الناس كان الاختزان أيضـا محرما شرعا ، ومنكرا يجب ازالته . ويجب على كل من يعلم أن من التجار من يبيع بأسعار زائدة عن الأسعار المقررة أو يختزن ما يحتاجه الناس أن يبلغ الحكومة لتعمل على ازالة هذا المنكر فانها لا تستطيع ازالته الا اذا علمت به ..

ووجب شرعا على من يعلـم أن يبلغها ويعلمها بذلك ، وبذلك يسعى فى ازالة الظلم ، وهو من أعظم وجوه البر وقد قال تعالى: « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على تحريم الاحتكار وهو: احتباس الشىء انتظارا لغلائه فقد روى مسلم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال: « لا يحتكر الا خاطىء (الخاطىء المذنب العاصى) .. وروى أحمد بن حنبل رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقا على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة ــ أى بمكان عظيم من النار ، وروى ابن ماجة عن عمر أنه قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجزام والافلاس » الى غير ذلك من الأحاديث .

والخلاصة أنه يجب على من يعلم أن من التجار من يبيع بأسعار مرتفعة عن الأسعار المقـررة أو يختـزن أقوات المسلمين وما يلزمهم فى معاشهم فاذا كان واحدا وجب عليه وحـده التبليغ فان لم يبلغ كان آثما ، واذا كان من يعلم أكثر من واحد وجب على كل منهم أن يبلغ فاذا قام به

بعضهم لم يأثم أحد منهم لحصول المقصود بتبليغ بعضهم ، واذا تركوا التبليغ كلهم كانوا جميعا آثمين كما هو حكم الواجب الكفائى والله أعلم .

(س) توصل الطب الى دواء حديث يعطى للمرأة عند عملية الولادة فيخفف عنها آلام الوضع ، فهل يمنع الشرع استخدام هذا الدواء ؟

(ج) اذا استطاع الطبيب تخفيف آلام الولادة عن طريق دواء يحقق ذلك ، فذلك مباح لأنه عمل انسانى وقد قال تعالى : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » وقال : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وقال صلى الله عليه وسلم « ان الدين يسر » .

فاذا استعملت المرأة هذا الدواء لهذا الغرض فلا مانع منه اذ لم يصحبه ما هو ممنوع شرعا . كأن يكون الدواء نجسا أو من مادة ممنوع استعمالها شرعا .

(س) هل يوجد فى الشرع ما يحرم عقد القران فى شهر المحرم أم أن ذلك عرف جرى عليه الناس ؟

(ج) لا يوجد فى الشرع ما يحرم عقد القرآن فى شهر المحرم . وما تعورف عليه عند بعض الناس فعرف فاسد لا أصل له .

(س) فى بعض الأحيان لا أجد ملبسا طويلا عند الصلاة ، مما يضطرنى الى لبس القصير ، وهو تحت الركبة بكثير ، فهل تصح الصلاة فى هذا الثوب ؟

ان الصلاة فى الثياب القصيرة تحت الركبة للمرأة أو مع كشف الرأس والذراعين صحيحة عند المالكية غير أنها تكون مكروهة اذا استطاعت ستر هذه الأطراف[1] .

---

(١) من سجلات لجنة الفتوى بالأزهر بتصرف .

الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد العلامة

الدكتور محمد إقبال

- محمد إقبال أمير شعراء الإسلام — الدكتور عبد الودود شلبي
- إقبال في مصر — الدكتور محمد السعيد جمال الدين
- في ذكرى إقبال — الدكتور عبد الجليل شلبي
- إقبال — الدكتور يحيى الخشاب
- محمد إقبال — كلمة سفير باكستان

محمد إقبال : أمير شعراء الإسلام

للدكتور عبد الودود شلبى
مدير ورئيس تحرير مجلة الأزهر

لا أنكر أننى أحبه ..

وقد بدأت معرفتى به حين كنت طالبا صغيرا فى الأزهر ..

وتوثقت معرفتى بـه حين قرأت ما كتبه عنه علامة الهند أبو الحسن الندوى ..

وتأكد حبى له وأنا أبكى فى زيارة ضريحه المسجى بالجلال والعظمة بجوار بادشاهى مسجد فى لاهور..

ان احتفالنا بالذكرى المئوية لمولده اليوم .. يعنى الاحتفال بمولد البعث للأمة الاسلامية ..

ويعنى الاحتفال بـ « الحق » الذى استرده المسلمون فى شبه القارة الهندية الباكستانية ..

ويعنى الاحتفال بالقيم الانسانية الرفيعة والمثل العليا ..

وفى مصر كان أول احتفال بهذه المناسبة فى جامعة الأزهر ..

ومن الأزهر الشريف جئت أحمل قلبى الى شاعر الاسلام والمسلمين الأكبر ..

لقد قالوا عنه : شاعر، وفيلسوف، ومتصوف ..

ولكن .. من من الشعراء والفلاسفة والمتصوفة كان مثل :

« اقبال » فى شعره ، وفلسفته ، وتصوفه ..

هوميروس .. أو .. دانتى جيته أم شكسبير ؟ طاغور أم شوقى والمتنبى ؟

لقد كانوا شعراء حقا .. ولكن الذى بقى من شعر هؤلاء لا يزيد على مجموعة من الدواوين؟ أو بعض المسرحيات والقصص ، أو بعض الاغانى والأناشيد تلقى فى المناسبات

العابرة ، ثم ينتهى الانشاد والغناء بستار كثيف على الشاعر والشعر، ويتحول ما كتب أو قيل الى صدى بعيد فى أذن التاريخ والدهر ..

وقد حاول « طه حسين » أن يعقد مقارنة بين « اقبال » وأبى العلاء كشاعرين تميزا فى رأيه بلون من التفكير لا يتوفر عند غيرهما من الشعراء والفلاسفة والمتصوفة فقال :

شاعران يتقاربان كأشد ما يكون التقارب ، ثم يتباعدان كأشد ما التباعد : كلاهما شاعر أولا ، وكلاهما فيلسوف ، أخضع الفلسفة للشعر ، وأخضع الشعر للفلسفة ، وكلاهما تصوف حتى بلغ الغاية من التصوف ، وكلاهما بعد ذلك خرج على التصوف التقليدى المعروف واتخذ لنفسه سبيلا خاصا فى التصوف لا يشاركه فيه أحد ولكنهما بعد ذلك يختلفان ويفترقان أشد ما يكون الافتراق ..

فاحدهما ــ وهو أبو العلاء كان فى أيامه ينظر الى الهند ويطيل النظر اليها ، والأخذ عنها ، والتأثر بها حتى التزم فى حياته حياة المتنسكين من البراهمة ..

والآخر ــ وهو اقبال ــ كان ينظر الى العرب ويشيد بهم ويثنى عليهم ، ويتخذهم المثل الأعلى للانسانية الجديرة بالوجود والحياة والبقاء ..

كلاهما آمن بشخصيته ، ودعا الناس الى أن يؤمنوا بأنفسهم ولكن أحدهما ــ وهو أبو العلاء ــ آمن بشخصيته ايمانا انتهى به الى اليأس، وانتهى به الى اعتزال الناس .. والآخر ــ وهو اقبال ــ آمن بنفسه، والتمس مثله عند العرب ولم يلتمسه قريبا منه فى الهند ثم لم يعتزل ، وانما كره العزلة ، ولم يلغ غرائزه ــ كما فعل ابو العلاء ــ وانما دبر وسيطر عليها وحكم عقله فيها ..

هذه المقارنة بين ــ « اقبال » وبين « أبى العلاء » ــ تظهر تفوق (اقبال) فى شاعريته كشاعر ، وفى ايمانه كمسلم ، وفى عبقريته كمفكر وفى انسانيته كرائد من رواد الاصلاح والتقدم ..

وقـد قالوا عن « اقبـال » انه فيلسوف ..

ولكـن أية فلسـفة هـذه التى يريدون انتسابه اليها ؟

وماذا بقى من هذه الفلسفة التى جن المتفلسفون بآرائها وأقوالها ؟

خيالات وأوهام .. وشطحـات عقول تسقط وتتهـاوى أمام أول تجربة لهذه الآراء والأقوال انهـا شيء أشـبه بالسراب فى صـحارى المعرفة والعقل ، وستظل سرابا لانها لم تثبت أمام الواقـع المتغير فى كل عصر وأمام الصراع المتجدد فى كل وقت .

ماذا بقى لـ (سقراط «وأفلاطون» « وأرسطو ») ؟ قديما ؟

وماذا تحقق لـ « نيتشه » « و » هيجل « وكانت » ؟ حديثا

لقد كان « سقراط » أبا الفلسفة كما قالوا : ولكن « افلاطون » هدم مذهبه وبنى مذهبه على انقاضه ، ثم جاء « أرسطو » وهدم مذهب « أفلاطـون » وبنى مذهبـه على انقاض مذهب اسـتاذه .. وهكذا دواليك كلما جـاءت أمه لعنـت أختها وبنت أراءها على أنقاض من سبقها ..

وفى ذلك يقول اقبال :

ان الفلسفة التى لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة أو محتضره » .

وقد انتهت به دراسته للفلسفة الى القول بأنها « صدفة خالية من اللؤلؤ » وقد كتـب بذلك ــ الى صديق له من « الهاشميين » أثرت فيه الفلسفة تأثيرا عميقـا ــ يقول له :

أنا رجل ــ كما تعرف ــ انتهى فى أصلى الى « سومنات » وكان أبى من عبـاد « اللات ومنات وأن أسرتى عريقة فى أبرهميـة . وأنت تجرى فى عروقك دماء الهاشميين ، وتنتسب الى سيد الاولين والآخرين، وقد امتزجت الفلسفة بلحمى ودمى، وجرت منى مجـرى الروح ، وأنا وأن كنت لا أحسن شـيئا ــ فلا شك أنى نزلت فى أعمـاق هـذه الفلسـفة ، وتغلغلت فى أحشائها ، وبعد ذلك أقول :

ان الحكمة الفلسفية ليسـت الا حجابا للحقيقة،وأنها لا تزيد صاحبها

الا بعدا عن فهم الحياة ، وأن بحوثها وتدقيقاتها تقضى على روح العمل.

هذا « هيجل » الذى تبالغ فى تقديره .. أن صدفته خاليه من اللؤلؤة .. وأن نظامه ليس الا وهما من الأوهام .. لقد انطفأت شعلة القلب فى حياتك أيها السيد ، وفقدت شخصيتك .. ان البشرية تريد أن تعلم كيف تتقن حياتها وكيف تخلد شخصيتها ولكن الفلسفة لا تساعدهم فى ذلك .

ان الدين هو الذى ينظم الحياة .. ولا يؤخذ ذلك الا من « (ابراهيم) » و محمد عليهما الصلاة والسلام . فالزم أيها السيد تعاليم جدك « محمد » عليه الصلاة والسلام ..

* * *

فاذا كان هذا هو رأى « اقبال » فى الفلسفة فهل كان « اقبال » واحدا من هؤلاء الفلاسفة ؟

واذا لم يكن « اقبال » شبيها بهؤلاء فى المنهج والفكرة ..

فماذا يكون « هو » ان لم يكن رأس الفلسفة والحكمة ؟

لقد كان « اقبال » شاعرا ينظم شعره من فيض الوحى ..

وكان فكره تفسيرا للحقيقة الالهية فى الحياة والكون . .

* * *

وقالوا عن « اقبال » انه متصوف ..

فهل كان « اقبال » متصوفا ؟!

لقد تناول المرحوم « عباس العقاد » هذا الجانب من حياة « اقبال » فى سياق حديثه عن العظمة ومقاييسها العادلة ..

وهى عظمة ليست بالدنيوية المادية ..

وليست بالأخروية المعرضة عن هذه الدنيا ..

ذلك : لأن العظمة الدنيوية المادية ــ أغرقت الغرب فى الجحود والقنوط ودفعته الى النزاع والعدوان بين الأمم وبين الطوائف وبين الطبقات والآحاد ..

واذا تكشفت النفس الغربية عن شىء فانما تتكشف عن حيرة لا تفقه

معنى الحياة .. لأنها كمـا يقول دكتـور « كـاريل » فى كتـابه (الانسان ذلك المجهول) حضارة تولدت من خلال الكشوف العلمية، ومن خلال شهوات الناس .. تفعل هذا الشيوعية ، كما تفعل الرأسمالية .. ان هذه وتلك تعيشان على الشره والجشع وخداع الانسانية ..

فالشيوعية ــ تقضى على الدين .. والرأسمالية ــ تقضى على الروح ، وكلاهما موت للانسـان الذى استخلفه الله على هذه الأرض ..

كذلك ، فان العظمة الأخرويـة التى تعرض عن الدنيـا قد هبطت بالشرق الى الحضيض الأسـفل ، وجرت عليـه نكبات الاسـتعمار والاستغلال ..

ولقد كان « اقبال » مثالا للعظمة الجامعـة بين الحسنيين .. صوفى على الطريقة الوسطى ..

أو زعيم من زعماء العمـل بين العدوتين من الدنيا والآخرة ..

وحين انقسمت الصوفية قسمين كان « اقبال » الى جانب أفضـل القسمين ، وأصلحهما للعمل، واذكاء النخوة ، وشـحذ الهمة ، وايقـاظ الضمير ..

انها عظمة صوفى يعمل ..

وعظمة عـامل يتصـوف ..

واذا وجب للعظماء حقهـم فى كل زمن ، اذا كان هذا الحق أوجب ما يكون على الشرق فى هذا الزمن ، واذا نظرنا حولنا نبحث عن مثـال لهذه العظمة وهذه الشـخصية .. فذلك المثال هو « اقبال » وذكرى « اقبال » ..

* * *

ومن حق « اقبال » ان يذكره فى مثل هذا اليوم كل مسلم ، بل كل مفكر فى الوجود ، فلـم يكـن « اقبال » .. ابـن الباكسـتان وحدها ، ولا شاعر الشرق وحده ، بل كان كما يقول الأديب المصرى ــ أحمد حسـن الزيات ــ بضعة من طبيعة الهند المؤمنة نفخ فيها الاسلام من روحه فصفت صفـاء الفطرة ، وخلصت خلوص الحـق وسـطعت سطوع الهدى ..

فهم « اقبال » الاسلام على حقيقته التى أنزلها الله وعلى طريقته التى سنها الرسول ، وعلى سياسته التى نفذها الصحابة ، فهمه على أنه سعادة الحياتين بالايمان الخالص ، وعمارة الدارين بالعمل الصالح ، وقوة المشرقين بالوحدة الشاملة ، فدعا فى « أسرار خودى » الى تقوية الذات فى الفرد بالحب والتقوى وفى « صليل الجرس » الى يقظة الوعى بالثورة والجهاد ، وفى « رسالة المشرق » الى توثيق الأخوة الاسلامية فى الشرق بالوحدة والتعاون، ثم كان هذا الرجل المختار الذى نبت جسمه فى رياض الهند ، وانبثق روحه من ضياء مكة ، وتألف غناؤه من ألحان شيراز ..

كان لسانا لدين الله فى دنيا العجم ، يفسر القرآن بالحكمة ، ويصور الايمان بالشعر ، ويدعو الى حضارة شرقية قوامها الله والروح ، وينفر من حضارة غربية عمادها الانسان والمادة ، ثم يشيد بماضى الاسلام الذى حرر الرؤوس وطهر النفوس وأصلح الأرض ، ويندب حاضر المسلمين الذى مزق التراث المحمدى المهمل بين أقوام سخرهم الشيطان لافساد الكون . فسخروا العلم لاستغلال الطبيعة ، وسخروا الطبيعة لاستغلال الناس ، وهم الذين عناهم فى بعض شعره حيث قال :

« (خلقت يارب من النار ابليس واحدا ، وخلقت من الطين ألف ابليس ...) »

فاذا كان « حسان » شاعر الرسول . فقد كان « اقبال » شاعر الرسالة ..

واذا كان ل « حسان » من نازعه شرف الدفاع عن « محمد » فليس ل « اقبال » من نازعه شرف الدفاع عن (الرسول) ، واذا كان فى الشعراء الصوفيين من عطر مجالس الذكر بفضائل الاسلام ، فليس فيهم من بلغ مبلغ « اقبال » فى فقه

الشريعة وعلم الحقيقة ، والتـأمل الفلسفى فى كتاب الله والنظر العلمى فى كلام الرسول ، والجمع بين قديم الشـرق وجديد الغـرب ، فى قوة تمييز ، وسلامة فهم ، وصحة حكم ..

* * *

فاذا كان للعـرب فى عصـرهم الحاضر شاعر يلقب بأمير الشـعراء هو (أحمد شوقى) فقد كان أمير شعراء الاسلام فى عصرنا الحاضر ــ من غير منـازع ــ هــو العــلامة الدكتور (محمد اقبال) .

رحمه الله رحمة واسعة ..

وجــزاه عن الاســلام والمسلمين خير الجزاء ..

د . عبد الودود شلبى

حين جمعت متاعى راحلا عن هذا العالم . قال الجميع . اننا نعـرفه جيدا .

لكن أحدا لم يعرف شيئا عن هذا المســافر من أين جـاء ؟ وماذا قال ؟ ومع من تكلم ؟

محمـد اقبال

إقبال فى مصر

للدكتور محمد السعيد جمال الدين
الأستاذ المساعد للغة الفارسية وآدابها
بجامعة عين شمس

منذ أن زار اقبال مصر فى طريقه الى لندن سنة ١٩٣١ م وهويكاد يكون شخصية معروفة فى الديار المصرية ، التى كانت قد تأججت فيها نيران الحركة الوطنية ، واستعرت فيها حركة البحث عن الذات ، وهى الحركة التى حاولت أن تجد لمصر ــ بمنأى عن الاستعمار ــ مقومات ذاتية تصلها بماضيها العريق وتجد فيها متنفسا لتلك الرغبة العارمة فى الأخذ بأسباب الرقى ، وهى الرغبة التى تتملك وجدان هذا الشعب الأصيل .

فى ذلك الوقت جاء اقبال الى مصر ، ولم يكن معروفا الا من جانب بعض الدارسين المصريين فى بلاد الغرب (١) ، وألقى محاضرة فى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة . يقول واحد ممن حضروا هذه المحاضرة وهو الاستاذ / فتحى رضوان ــ الذى عمل فيما بعد وزيرا للثقافة فى مصر ، وكان أحد الذين تأثروا بفكر اقبال وفلسفته ــ يصف فتحى رضوان مشاعره عند لقائه باقبال قائلا : « كان اقبال فى هذا اليوم صورة غامضة أخذت بمجامع فؤادى واستولت على لبى وقد سمعته فى المساء فى جمعية الشبان المسلمين يتحدث عن مجمل فلسفته ويتخذ من الاسراء وسورة الاسراء سبيلا الى شرح هذه الفلسفة » (٢) . ولقد حضر

---

(١) انظر عبد الوهاب عزام ، محمد اقبال، حياته وشعره وفلسفته، طبع مصر سنه ١٩٥٤ ، ص٤

(٢) محمد اقبال طبع مصر ١٩٦٥ ، ص ٣١ ــ ٣٢

هـذه المحـاضرة أيضـا المرحوم الأستاذ عبد الوهاب عزام ، الذى يعد صاحب الفضل الأول فى تعريف اقبال الى الناطقين بالعربية والذى أخذ على عاتقه منـذ التقى باقبال فى جمعية الشبان المسلمين أن ينشر دعوته بين العرب ، ويترجم أشعاره الفارسية والأردية ، ويعرّف بفكره ويقدم له ، وبذل عزام منذ ذلـك الوقت مجهودا سـخيا فنشر أول الأمر عددا من المقالات عن فكر اقبال مشفوعة بترجمـة منثورة لأشعاره فى مجلة « الرسـالة » التى كانت تعد فى ذلك الوقت كبرى المجلات الأدبية والتى كانت توجـه التيار الأدبى لا فى مصر وحدها ولكن فى العالم العربى كله ولقد تركت هذه المقالات لدى قرائها ــ ومن بينهم عدد ممن كتب بالعربية عن اقبـال من المعاصرين له كفضيلة الامـام الشـيخ عبد الحليم محمود (١) ــ شيخ الازهر ــ تركت هذه المقالات انطباعات نورانية قدسية عن اقبال ، وصـادفت فى النفـوس قبـولا واستجابة وحماسا شديدا لأفكاره ودعوته ، وواصل الاستاذ عزام ــ رحمه الله ــ جهوده التى لا تعرف الكلال لتعريف العرب باقبال فأخذ يلقى المحاضرات ، ويعقد الندوات للتعـريف به وبشـعره وفكره فى أرجاء القطر المصرى حتى انتقل اقبال الى جوار ربه فى أبريل سنة ١٩٣٨ ، فكان لعـزام أيضا جهـد وافر فى حفلات تأبين العلامة بعـد وفاته ، وهى الحفـلات التى ألقيت فيهـا الكلمات أيضا لشرح فلسفة اقبال وبيان أفكاره . والحـق أن هـذا المجهود الوافر الذى بذله أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام وهذه المقـالات التى نشرهـا فى مجلتى الرسالة والثقافة وهذه المحاضرات التى ألقاها بالقـاهرة والاسكندرية للتعريف بشاعرنا الكبير . كل ذلك كان أكثـر تأثيرا وأشـد فائدة فى التعريف باقبال من الدواوين التى نقلها بعد ذلك الى العربية وحرص

(١) راجع كلمته التى القيت فى احتفال جامعة الأزهر بالذكرى المئوية لمولد اقبال فى ١٩٧٧/١١/١ م .

على أن يترجمها ـ بلغة الشعر ـ وفى رأينا أن أستاذنا الدكتور عزام قد قام بدورين فى هذا الصدد ، دور الوسيط الأدبى الذى عرف أمته العربية باقبال ، وكان داعية له فيهم ، فكان عزام فى ذلك اشبه ما يكون بالأديب الفرنسى الشهير فولتير عرف الفرنسيين بشكسبير (١) .. ولقد نجح عزام نجاحا بالغا فى القيام بهذا الدور ، أما الدور الثانى فقد كان دور المترجم ، وهو الدور الذى لم يصب فيه عزام نفس القدر من النجاح الذى أتيح له وهو يقوم بدور الوسيط . لقد حرص عزام وهو يترجم دواوين اقبال: بيام مشرق ضرب كليم ـ أسرار خودى ـ رموز بن خودى ، حرص عزام على ترجمة الشعر بالشعر ، وهو امر نجح فيه من الناحية الفنية الى حد بعيد ، ولكن هذه الأشعار المترجمة تكاد لا تؤثر فى نفس قارئها تأثير الشعر الرقيق ، ولا تعطى صورة واضحة لأفكار اقبال ورسالته ، ويغلب فيها رونق اللفظ على عمق المعنى بحيث تغيب المعانى التى أرادها اقبال فى غياهب الألفاظ المنمقة والمصاريع الشعرية المركزة . وشعر اقبال فى الفارسية والأردية على السواء شعر يركز المعنى الواسع فى عبارات موجزه هى أشبه بالكلمات القصار التى يسهل حفظها وتداولها على الألسن، فاذا ما ترجمنا هذا الشعر الى شعر عربى ، والشعر العربى كما تعرفون ـ يفضل الايجاز على الاطناب والاسهاب ، فأننا نزيد من تركيز الشعر ، ونغلفه بشىء من الغموض، يذهب بتأثير الشعر وروعته .

ونحن لا نريد بهذا أن ننقص من شأن المترجم ، الذى عرف بعلو الهمة وجودة القريحة والاخلاص والمثابرة ؛ وانما نريد أن نقول أن ترجمات عزام الشعرية لم تفصح عما يكنه شعر اقبال من أسرار ولم تبن عن قيمته الحقيقية التى تتفق من الشهرة التى أتيحت لاقبال ، وهى الشهرة التى كان عزام نفسه هو

---

(١) انظر : محمد غنيمى هلال : الأدب المقارن ط . مصر ١٩٦٢ ص ١٣٠ ـ ١٣١

الذى قام بالدور الرئيسى فى تحقيقها . ولعل هذا هو مادفع الأديب العربى الكبير الأستاذ على الطنطاوى أن يوجه نداء الى العلامة الأستاذ أبى الحسن الندوى فى مجلة « المسلمون » التى تصدر فى دمشق ، قائلا له « .. هل لك أن تختار من شعر اقبال ما يجعلنا نتذوق طعم أدبه ونلم بطريقته ، وتتجلى أسباب عظمته فان كل ما قرأنا من كلامه مترجما الى العربية لم يعرفنا به ، ولم يدلنا عليه .. فهل تضيف يا أخى يا أبا الحسن الى مآثرك هذه المأثرة ، فتفتح للعرب كوة على هذه الروضة المحجبة أو تحمل اليهم زهرات منه فتحسن بذلك الى العرب وباكستان والى الأدب والاسلام (١) .

وجاء أبو الحسن الندوى فنظر فى دواوين اقبال وأشعاره التى ترجمها الدكتور عبد الوهاب عزام ونشر بدمشق كتاب « روائع اقبال سنة ١٩٦٠ » ولاحظ فى مقدمة الكتاب أن حرص عزام على ترجمة شعر اقبال الى شعر عربى هو الذى أدى الى هذا الغموض الذى أحاط بافكار الشاعر بعد ترجمتها الى العربية شعرا (٢) والحقيقة أن كتاب « روائع اقبال » للأستاذ أبى الحسن الندوى ــ كان على ضآلة حجمه ــ اضافة جديدة للمكتبة العربية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، فقد استطاع كاتبه فى براعة وبصيرة أن يختار من دواوين اقبال مقتطفات توضح طريقته وأفكاره الى حد كبير وأن يقدمها فى نثر سهل ميسور دل على تمكنه من اللغتين العربية والفارسية وامتلاكه لناصيتهما . غير أن هذا الكتاب رغم أهميته لم يكن متداولا فى مصر على نطاق واسع ، لأنه طبع فى دمشق ، ولذلك حرم منه أغلب المثقفين المصريين ، وربما لم يسمع بعضهم بصدوره ، وظلت نسخه نادرة تتلقفها الأيدى .

---

(١) المسلمون العدد الثالث المجلد السادس

(٢) انظر أبو الحسن الندوى روائع اقبال طبع دمشق ١٩٦٠ ص ٩ ــ ١٠

ولقد جاء كتاب « روائع اقبال » تتويجا للجهود التى بذلها العلماء فى شبه القارة الهندوباكستانية من أجل المساهمة فى تعريف العرب باقبال ، وقد بدأت هذه الجهود عندما أحس هؤلاء العلماء بالغيظ لأن طاغور أشهر فى الأقطار العربية من اقبال •

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوى فى مقدمته لكتاب « روائع اقبال » وكان يغيظنا أن طاغور أشهر فى الأقطار العربية من اقبال ، واعجاب اخواننا العرب والأدباء فى مصر وسورية لشعره أكثر ، وكنا نعد ذلك تقصيرا منا فى تعريف شعر أقبال ، وكلما رأينا تنويها بشعر طاغور واطراء له فى مجلة عربية — وما أكثر ما كنا نرى ذلك فى المجلات العربية — قوى عزمنا على ترجمة شعر اقبال ، ورأيناه أمانة فى أعناقنا » [1] • وقد أسفرت جهود هؤلاء العلماء فى شبه القارة الهندوباكستانية عن صدور مقال للأستاذ مسعود الندوى بعد وفاة اقبال فى سنة ١٩٣٨ بمجلة « الفتح » التى كانت تصدر بالقاهرة • وعن عدة محاضرات ألقاها الأستاذ أبو الحسن الندوى فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة فى سنة ١٩٥١ ، وقد ضمن الأستاذ أبو الحسن هذه المحاضرات كتابه « روائع اقبال » ، كما أسفرت هذه الجهود عن كتابين آخرين صدرا بالعربية فى مصر أولهما كتاب « فلسفة اقبال » الذى ألفه كل من الاستاذ محمد حسن الأعظمى وفضيلة الشيخ الصاوى شعلان ، ونشر بالقاهرة سنة ١٩٥٠ ، وثانيهما كتاب « نظرات جديدة فى شعر اقبال » لمؤلفه الدكتور محمد اسماعيل الندوى ، وقد نشر الكتاب فى سنة ١٩٦٩ •

ولئن كان المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام قد جانبه التوفيق — الى حد ما — فى ترجمة الشعر بالشعر ، فقد استطاع فضيلة الشيخ الصاوى شعلان بما حباه الله من شاعرية متدفقة وروح اسلامية

---

(١) روائع اقبال : ص ٥ — ٦

حقه ، أن يفصح عن المعانى التى أرادها اقبال كأنه ألهمها هو فى شعر يهتز له الوجدان . ولعل أوضح مثل على ما أقول ترجمته لقصيدتى ، «شكوى» و « جواب شكوى» و « أنشودة المسلم » ، وترجمته لديوان «بس جه بايد كرد أى أقوام شرق » وهى الترجمة التى صدرت هذا العام (عام ١٩٧٧) بالقاهرة .

وللشيخ الصاوى شعلان طريقة خاصة فى الترجمة يجمع فيها بين الحسنيين ، بين الشعر والنثر ، فهو يترجم شعر اقبال نثرا أول الأمر ، ثم ينقله شعرا بعد ذلك ، فيكون امام القارىء ترجمتان احداهما نثرية والأخرى شعرية ، يقرأ القارىء الترجمة النثرية الواضحة أولا فيتمثل المعانى التى أرادها اقبال بتمامها ، ثم يقرأ الترجمة الشعرية بعد ذلك فيرى هذه المعانى قد لبست ثوب الشعر الجميل .

وهذه الطريقة من أفضل الطرق وأشدها تأثيرا فى نفس القارىء .

وقد نشر الأستاذ الصاوى شعلان سيلا متدفقا من المقالات التى تتضمن أشعارا مترجمة بنفس الطريقة فى مجلة « منبر الاسلام » وهى مجلة شهرية يصدرها المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة.

* * *

فى سنة ١٩٥٤ أصدر الدكتور عزام كتابا بعنوان « محمد اقبال : حياته وفلسفته وشعره » ويشتمل الكتاب على ترجمة منثورة لأجزاء من منظومتى « أسرار خودى » و « رموز بى خودى » وفى سنة ١٩٥٥ صدرت الترجمة العربية لكتاب اقبال « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » ونظر الأدباء والمثقفون فى مصر الى هذين الكتابين نظرة اكبار واجلال ، وعدوهما مجمعا تجمعت فيه أفكار اقبال وفلسفته كلها ، فوضعوا الكتابين أمامهم ، واستندوا اليهما فى اصدار احكامهم عن فكر اقبال وفلسفته ، وقنعوا بالرجوع اليهما باعتبارهما جامعين شاملين فى هذا الصدد . وهذا يعد — فى رأينا — خطأ كبيرا ، ومن هذا الباب جاءت

أغلب الانتقادات التى وجهها العلماء المصريون الى اقبال .

ذلك لأن نظرية الذاتية هى الجانب الوحيد الذى عرضه عزام فى كتابه المذكور من فلسفة اقبال ، فبدت هذه النظرية وكأنها كل ما لاقبال من فلسفة ، فى حين أن هذه الفلسفة تنطوى على جوانب كثيرة ومتعددة غير الذاتية ، وما نظرية الذاتية الا أساس طوّره تطويرا شاملا بعد ذلك وأقام عليه نظاما فلسفيا شامخا ، كذلك يبين اقبال بنفسه أن ما عرضه من آراء وأفكار فى كتاب « تجديد الفكر الدينى » انما عرضه بأسلوب عقلى محض قد لايخلو من تعقيد ، فقال :

من يطبع عصر خود كفتم دوحرف
كرده ام بحرين را اندر دو ظرف

حرف بيجابيج وحرف نيش دار
تاكنم عقل ودل ردان شكار

حرف ته دارى باندار فرنك
ناله مستانة از تار جنك (١)

لقد كانت منظومة «جاويد نامة» التى لم تكن قد ترجمت بعد الى العربية هى المنظومة التى شرح اقبال فيها بأسلوب شعرى وجدانى كثيرا من آرائه التى وردت فى « تجديد التفكير الدينى فى الاسلام » ، بل نلاحظ أيضا أنه عدل عن بعض هذه الأراء وصححها فى « جاويد نامه » وهى الآراء التى أخذها عليه بعض العلماء المصريين من أمثال الشيخ عبد العزيز المراغى (٢) ، والدكتور محمد البهى (٣) ، والدكتور عبد الحليم محمود (٤) .

فلقد كان اقبال يتمتع بشجاعة أدبية نادرة ، وكان لا يتحرج من العدول عن فكره ، ولا يتردد فى تصحيح رأى مادامت التجربة قد أثبتت خطأه . من ذلك مثلا أنه

---

(١) محمد اقبال : جاويد نامه ، لاهور ١٩٣٢ ، ص ٢٣٧
(٢) فى تعليقاته على اجتهاد اقبال فى تفسير بعض آيات القرآن الكريم
(٣) فى كتابة الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .
(٤) فى كتابة الاسلام والعقل .

أشاد بتركيا الحديثة ونهضتها فى كتاب « تجديد التفكير الدينى » ولكنه ما لبث بعد سنتين تقريبا أن عدل عن هذا الرأى بعد أن تكشفت له حقيقة الحركة الكمالية ونزوعها الى تقليد الغرب فى نبذ الدين ، فشن عليها هجوما شديدا ونقدها نقدا لاذعا فى « جاويد نامة » على لسان السياسى التركى الكبير «سعيد حليم باشا» ولكن الدكتور محمد البهى مدير جامعة الأزهر السابق أفاض ــ دون ان يقرأ « جاويد نامه » ــ فى نقد اقبال على حسن ظنه بالحركة الكمالية (١).

وفضلا عن أن فكر اقبال يتسم بالتطور والتجدد والمرونة ، فأن من سماته أيضا أنه يوضح نفسه بنفسه ، ففكرته الخاصة بتطور الأنسانية التى بدت غامضة فى « تجديد التفكير الدينى » والتى انتقدها الدكتور عبد الحليم محمود(١) ، قد وضحت أبعادها تماما فى « جاويد نامه » من خلال عرض اقبال لتطور العقيدة الانسانية فى فلك القمر ، ومن خلال فكرته الشاملة عن الحياة والموت والخلود التى عرضها على لسان السلطان الشهيد « تيبو » .

وهكذا نلاحظ أن الدراسات العربية لفكر اقبال كانت قد توقفت عند مرحلة مبكرة نسبيا من مراحل تطور فلسفته وآرائه (٣) ، ولم يجل هذا الغموض أويعالج هذا القصور الا الدراسات الأكاديمية المتخصصة فى الجامعات المصرية التى تمت بعد ذلك .

ولقد دأبت الهيئات الدينية والعلمية والثقافية فى مصر على الاحتفال فى كل عام بذكرى وفاة اقبال ، فالأزهر والجامعات المصرية والمحافل الدينية والثقافية والسفارة الباكستانية بالقاهرة لايتركون هذه المناسبة تمر دون وقفة تأمل واعجاب

---

(١) انظر محمد البهى : الفكر الاسلامى .. ص ٤٤٢ وما بعدها

(٢) فى كتابة الاسلام والعقل ص ١٥٢ وما بعدها .

(٣) نشر اقبال « جاويد نامه » فى سنة ١٩٣٢ بعد نشر ديوانى الأسرار والرموز بنحو ١٥ عاما

هذا الشاعر الفيلسوف الذى لا ينضب معينه والذى لا يفتأ شعره يتفتق كل حين عن كل جديد وعجيب .

ولقد كان اهتمام الجامعات المصرية بالاحتفال بذكرى اقبال (١) حافزا دفع بعض الدارسين على التخصص فى الدراسات الاقبالية . ولقد بدأت جامعة عين شمس بالقاهرة فى هذا المضمار عندما سجلت فيها فى سنة ١٩٦٧ رسالة للحصول على درجة الدكتوراه فى الآداب فى موضوع « جاويد نامه » دراسة تحليلية نقدية ، وكان صاحب هذه الرسالة هو هذا العبد الفقير الذى نشر كتابا عن نفس الموضوع فى سنة ١٩٧٤ . وفى جامعة القاهرة حصل زميلى وصديقى الدكتور سمير عبد الحميد على درجة الماجستير (Master of Arts) فى موضوع « أرمغان حجاز » لاقبال . وتقدمت الدراسات الاقبالية فى المحافل الأكاديمية المصرية خطوة أخرى ، تنزع الى عقد المقارنة بين اقبال وغيره من المفكرين والشعراء الاسلاميين ، فقد منحت جامعة عين شمس سنة ١٩٧٦ درجة الماجستير فى موضوع « المعراج فى الآداب الاسلامية » وهى دراسة اتخذت من « جاويد نامه » لاقبال نموذجا للموضوع . كما سجلت أخيرا بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة رسالة بقسم الدراسات الفلسفية بعنوان « محمد اقبال والفكر الاسلامى » .

* * *

وهكذا — أيها السادة — تستمر فى مصر الدراسات والأبحاث والترجمات لأفكار اقبال دون توقف ،

(١) ونخص بالذكر ذلك الاحتفال الكبير الذى أقامته جامعة القاهرة فى سنة ١٩٥٦ بذكرى وفاته ، وقد القى صفوة من كبار الشخصيات المصرية كلمات عن اقبال منهم الدكتور طه حسين ، والاستاذ عباس العقاد ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والأستاذ احمد حسن الزيات وقد نشرت سفارة الباكستان بالقاهرة فى السنة نفسها كتابا تضمن كلماتهم فى هذا الاحتفال .

وتتصـاعد درجة درجة فى سـبيل التوصل الى استيعاب أفكار اقبال وادراكها ، وأنتم تعرفون أن مصر هى مركز الدائرة من الاشـعاع الثقافى والحضارى فىالعالم العربى، فمنها تتوالى التأثيرات وتنتقل الى مختلف أرجاء هذا العالم العربى ، ومن هنـا كان حب العرب قاطبـة لاقبال ــ كحب المصريين له سواء بسواء .

* * *

ولكن ، قد يحق لنـا أن نسائل أنفسنا ، لمـاذا وجدت دعوة اقبال هذا الصـدى الواسـع فى مصر ؟ ولمـاذا لقيت كل هذه الاسـتجابة والحماس لدى المصريين ؟ . وقـد نستطيع أن نجيب علىهذا التساؤل بأن هناك أسبابا عديدة نذكر منها :

أولا : ان مصر وجدت فى دعوة الذاتية (المعروفة لدى اقبال باسم « خـودى ») طلبتها ورغبتها فى تحقيق ذاتها ، كانت مصر عنـدما بدأت تتعرف على أفكار اقبال تجد فى البحث عنمقومات ذاتية لنفسها. وكانت حركة البحث عن المقومات الذاتية المصرية فى مجملها موصولة الأسباب بالاسلام لكنها كانت تنزع الى التجـديد ، والى طرح الأفكار الجامدة ، والاندماج فى حياة واقعية تمتـد مـثـلـهَـا من الدين الحنيف ، ولذلك وجـدت نظرية اقبال عن الذاتية وعن الرجل المؤمن « أو » « مرد مؤمن » ترحيبا واسـتجابة كبيرة فى مصر ، واتخـذت أبعـادا ظهـرت فى الحركات الاصـلاحية المصرية التى جعلت الدين أساسـا لكل اصـلاح وتطـور ، كحركة الاخوانالمسلمين، فلقد تأثرالاخوان المسلمون ــ أفرادا وجماعة ــ بفكر اقبال عامة ، حدثنى أحد الأصدقاء أن بعض الاخوان كانوا يسـمون أبناءهم بمحمد اقبال ، تيمنا بهـذا الاسم وتبركا باسم اقبال ، مع أن اطلاق اسم اقبال علىالأولاد لميكن شائعا فى مصر . ولقد رأى الاخوان المسلمون فى شعر اقبال نموذجا حيا للشعر الاسـلامى الذى يعبر تعبيرا حقيقيا عن دأب المسـلم الحق وعن انفعالاته وعن سره ونجواه ، ورأوا أن شعر اقبال ــ بصورته هذه ــ شـعر لم يتيسر من قبل فى الأدب

العربى ذاته(١) • ولم يقتصر تأثير نظرية الذاتية على مصر وحدها بل ربما امتد هـذا التأثير الى المغرب العربى وكان فعالا فى تكوين نظرية « الأصالة » التى بدت كدعوة سياسية فى كل من تونس والجزائر والمغرب •

كما أثرت نظرية الذاتية أيضا فى تأسيس نظرية فلسفية جديدة فى مصر هى نظرية « الجوانية » التى أعلنها الدكتور عثمان أمين أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة ، وهى نظرية تعد فى مجملها امتدادا لنظرية الذاتية عند اقبال •

والشيء الذى جعل لفكرة الذاتية عند اقبال قيمة كبيرة فى مصر هو انها لم تكن فكرة نظرية فحسب ، بل تمخضت عن واقع عملى رائع يتمثل فى دولة باكستان الاسلامية ، التى لفتت أنظار المصريين وبهرتهم باعتبارها نموذجا قويا لدولة حديثة تقوم على أسس اسلامية • وبينت أن ما كان يزعم الزاعمون بأنه صعب التحقيق أصبح أمرا ممكنا عمليا وواقعيا لا مراء فيه •

ثانيا : ان دعوة اقبال كانت دعوة فريدة من نوعها، مضادة لكل الأفكار البراقة التى كان الناس يتحمسون لها فى مصر باسم التجديد والنهضة• فلقد تحمس المصريون تحمسا شديدا لفكرة الوطنية ، وأعجبوا فى أول الأمر بالحركة الكمالية ، وظلوا ردحا من الزمن ينظرون الى كمال أتاتورك باعتباره بطلا اسلاميا ومحررا وطنيا وظلوا يعلقون صوره فى منازلهم وينظرون اليه فى اجلال واكبار (٢) •

وربما لم تكن فكرة العلمانية فى الحكم أو فصل الدين عن الدولة ــ وهى الفكرة التى طبقها كمال أتاتورك بعد أن استتب له الأمر فى تركيا ، ربما لم تكن هذه الفكرة واردة فى أذهان المصريين ، الذين لا يتصور معظمهم ــ حتى وقتنا هـذا ــ أن تقوم دولة بغير دين ، وحيث يوجد الأزهر تلك القلعة المنيعة التى حافظت

---

(١) انظر محمد قطب منهج الفن الاسلامى ص ٧ ــ ١١ ، ص ٣٦٥

(٢) أنظر حديث الرئيس محمد أنور السادات فى التليفزيون بمناسبة الاحتفال بثورة التصحيح جريدة الأهرام ١٦ مايو سنة ١٩٧٧

على الدين وعلى نفوذه لدى الحكام ولدى الشـعب طوال ألف سـنة ولذلك حظيت الحركة الوطنيـة فى مصر بمسـاندة الأزهر ، ولم يكن شبح العلمانية يتراءى أمام المصريين فى حركتهم الوطنيـة ، لأن الحركة الوطنية كانت مرتبطة عندهم بالدين وبطرد المسـتعمرين الأجانب من البـلاد ، ولم تكن هـذه الحركة تنطوى عندهم على مفهـوم الأثرة القومية أومفهوم التعصب المقوت • ولعل هـذا هو السر فى تمسـك المصريين ردحا من الزمن باحترامهم لكمال أتاتورك • ولكن دعوة اقبال الى نبذ الوطنية الضيقة والى نبـذ العلمانية ، وادانته للحركة الكمالية قد لفتت أنظار المصريين الى مضـار الحماس الشديد للوطنية •

ثالثا : جاءت دعوة اقبال الى مصر لتساعد فى وقف تيار الحركة الثقافية التى قالت بأن مصر تنتمى فى ثقافتها وحضارتها الى الثقافة الاغريقية والى الحضارة اليونانية ، وانها أقرب الى أوربا ولا شأن لها بآسيا وافريقيا • وكانت هـذه الحركة الثقافية قـد ازدهـرت فى مصر بتـأثير دعاوى الاستشراق الأوربى التى أثرت فى عقلية عدد من الدارسين المصريين فى أوربا ؛ فعادوا الى وطنهم يبشرون بهذه الدعاوى بأساليب مستحدثة ، مما جعل حركتهم تنتشر وتتوسـع بفضل تشجيع المستعمرين الانجليز ، وبسبـب فقدان علماء المسـلمين للوسـائل الفعالة للرد على هـذه الدعاوى •

ولا نقول ان دعوة اقبـال كانت ذات أثر مباشر فى هذا الأمر وانما جاءت دعوة اقبـال مسـاندة قوية للاتجاه الاسلامى ، فلقد سـاهمت هذه الدعوة فى تصحيح مسار الثقافة فى مصر ، وبدت دعوة اقبال فى هذا المجال أشبه ما تكون بدعوة السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده دعوة اصلاحية بالدرجة الأولى • يقول الأديب المصرى الكبير المرحوم الأسـتاذ أحمد حسـن الزيات[١]

(١) محمد اقبال : لصفوة من كبار الكتاب ، مصر ١٩٥٦ ، ص ٦٥

« وما علمنا من آراء اقبال فى الاسلام والمسلمين يحله محل الزعيم المصلح» ولقد تمكن الاتجاه الثقافى الاسلامى من أن يسترد مكانته من جديد ، ورجع بعض أقطاب الحركة اليونانية عن دعاواهم بل وأشادوا بفكر اقبال وأصالته الاسلامية ، وكان منهم المرحوم الدكتور طه حسين الذى اشترك بعد ذلك فى سنة ١٩٥٦ فى الاحتفال بذكرى اقبال وألقى كلمة قال فيها ان اقبالا « رفع مجد الآداب الاسلامية الى الذروة ، وفرض هذا المجد الأدبى الاسلامى على الزمان » (١) .

رابعا : كانت الأوساط الأدبية والفنية فى مصر تفتقر الى نظرية قائمة بذاتها فى النقد الأدبى والفنى، نظرية تستمد مثلها من الاسلام وتعاليمه ، ومن روح الشرق ، وجاءت أشعار اقبال وآراؤه لتسد هذه الثغرة ، ولتؤسس نظرية فى الفن تربط الفن بالقوة كما يرتبط الجلال بالجمال ، كما يقول اقبال .

والواقع أن كل من كتبوا عن معايير الأدب الاسلامى وعن مقاييس الفن الاسلامى ومناهجه قد أفادوا من نظرية اقبال فى الفن ، ومن بين من حاولوا أخيرا وضع أسس لمنهج اسلامى فى الفن الأستاذ محمد قطب الذى ألف كتابا بعنوان « منهج الفن الاسلامى » خصص فيه فصلا للحديث عن اقبال ومذهبه فى الشعر . وفى المجال الأدبى نشرت بعض المقالات للمقارنة بين اقبال وبعض الشعراء العرب المعاصرين مثال ذلك المقارنة التى عقدها الأستاذ فتحى رضوان فى عدة مقالات بمجلة الشعر بين أمير الشعراء أحمد شوقى ومحمد اقبال ، ومن شأن هذه المقارنات أن تفيد فى استخلاص موازين جديدة للنقد الأدبى تخدم الاتجاه الذى دعا اليه اقبال وحث عليه . ولا شك أن أشعار اقبال وطريقته قد تركت آثارا ملموسة فى عدد من الكتاب الذين يلتزمون الاتجاه الاسلامى فى مصر . ونذكر هنا على سبيل المثال الصحفى

---

(١) ايضا ، ص ١٧
«محمد اقبال» : لصفوة من كتاب الكتاب مصر ١٩٥٦

والأديب الكبير الأستاذ أحمد بهجت الذى نشر طوال شهر رمضان الماضى فى جريدة « الأهرام » المصرية سلسلة أدبية عن رحلة تخيل أنه قام فذهب بزيارة للجنة وزيارة للنار ، وقد بدا بوضوح أن الأستاذ أحمد بهجت متأثر باقبال وبمنظومته « جاويد نامة » ، وهى المنظومة التى كان الأستاذ بهجت قد كتب عنها مقالا مستفيضا فى الأهرام أيضا فى سنة ١٩٧٥ بعد نشر الترجمة العربية للمنظومة .

وبعد ، قد كانت هذه الأسباب وغيرها ، هى التى جعلت اقبالا ودعوته يلقيان هذا الترحيب الواسع وهذه الاستجابة القوية فى مصر ، وبالتالى فى العالم العربى بأسره ، رحم الله اقبالا وجزاه عن أمته الاسلامية خير الجزاء .

محمد السعيد جمال الدين

« المسلم الضعيف يعتذر دائما بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوى فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد » اذا أحسن المؤمن تربية شخصيته وعرف قيمة نفسه لم يقع فى العالم الا ما يرضاه ويحبه » .

محمد اقبال

فى ذكرى إقبال

للدكتور عبد الجليل شلبى

كلما ذكرت الشاعر الفيلسوف محمد اقبال ذكرت الأستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام ، فهو الذى أسدى الى العربية وقرائها تلكم المنة الكبيرة بتعريفهم بهذا الشاعر الاسلامى ، وبما له من نزعات اسلامية أصيلة ، فقد كتب الدكتور عزام عن اقبال عددا من المقالات ، وترجم كثيرا من شعره وشرح كثيرا من انطباعاته عنه . وكانت هذه الأفكار تنشر فى مجلة الرسالة يوم أن كانت كبرى المجلات الأدبية وأوسعها انتشارا ، وكانت هى المجلة الوحيدة التى توجه التيار الأدبى فى الشرق الأوسط كله ، وكانت تقرأ فى كل مدرسة وناد وبين كل جماعة أدبية ، فأتاح الحديث عن اقبال فيها فرصة التعريف به على أوسع نطاق .

كنت أقرأ هذا الشعر المترجم فتهتز له نفسى ، وأشعر بما فيه من عمق التفكير ورهافة الحس ، وصدق العاطفة ، وكان الجانب الروحى فى هذا الشعر مما يثير فى نفوس قرائه جميعا شعورا بسمو صاحبه النفسى ، وأدبه الانسانى ، وأشواقه الفياضة نحو واجب الوجود سبحانه وتعالى .

وأود فى هذه الكلمة الموجزة أن أذكر طرفا من حياة اقبال وشيئا عابرا عن شعره ، لأضع أمام الجيل الجديد الذى لم يدرك عهد الرسالة صورة — أى صورة — عن هذا الشاعر الكبير .

اسرته :

ينحدر محمد اقبال من أسرة برهمية كانت تقيم فى كشمير . وقد اعتنق أحد أجداده الأعلين الاسلام فى أواخر القرن السادس عشر

الميـلادى أو ربما أوائل القـرن السابع عشر ، كان اسلامه على شيخ معروف بورعه وعلمـه وكان يدعى الشيخ شاه همدانى . وظل أولاده بعد ذلك مسلمين لا بالوراثة فقط ، بل أيضا عن طريق الدراسة والتفقه فى الدين . وقد هاجر الى سيالكوت من هـذه الأسرة أربعة اخوة كان أحدهم يسمى محمد رفيق هو جد محمد اقبال المباشر، ونجد بين هؤلاء الاخوة الأربعة رجلا يدعى الشيخ محمد رمضان يمتاز بالعلم والصوفية ويخرج باللغة الفارسـية عديدا من الكتب والمقـالات . أما والد أقبال فكان يسمى باسـم محمد نور ، ولم يكن على حظ وافر من الثقافة ولكنه كان متصـوفا ويحب قراءة القـرآن ، وكان يقـول لابنـه : اذا قرأت القـرآن فاقرأه كأنه أنزل عليك ، وقد نشـأ ابنه على الأدب الاسلامى وحبه فى العبادة ، وحكى اقبال أنه انتهر مرة سائلا وضربه ، ورآه والده فاغتم وأخـذ يبـكى بدموع ثرة وبعـد أن اسـترضى المسكين أخذ يلقى على ابنـه عظة طويلة بالغة الروعة والتأثير وكلهـا تنم عن اخلاص ومراقبة لله وخوف من عقاب الآخرة ، وقد وصف اقبال هذا الحادث فى عبارات شعرية مؤثرة جاء فيها .

سيقف هذا المسكين فى المحشر

وبين الناس جميعا صارخا باكيا

سوف يحاسبنى الله على هـذه الاساءة لأننى والدك المسـئول عن سلوكك وأخلاقك .

سيقول لى رب العـالمين : انى رزقتك شابا صحيح البنية والعقـل ولكنك لم تؤدبه بأدب الاسـلام ، بل لم تجعله انسانا وقـد خلقته أنا انسانا .

تمثل يابنى موقفى وذلتى وخجلى أمام الله تعالى وأمام النبى الكريم .

تفكر قليـلا واذكر اننـا معشر المسـلمين أمة هى خير أمة أخرجت للناس .

انظـر يا بنى شـيبى وقلقى واضطرابى .. لا تفضحنى أمام رب العالمين .

انك واحـد من الأكمام الكثيرة التى تنتمى الى غصـن المصـطفى الأمين .

احرص على أن تكون وردة من نسيم ربيعه .

خذ من ربيع النبي النضر المزهر نصيبا ، واظفر من أخلاقه بكل ما تستطيع .

* * *

وهذه العاطفة الفائضة الفاخرة تصور منهج أبيه ومدى اخلاصه لله وللدين الذى ارتضاه .

ولم تكن أمه أقل من أبيه ورعا ، بل كانت أعمق عاطفة وأشد مراقبة لله . كان والده يعمل فى دائرة اشتهر أن رئيسها يقبل الرشوة من الناس ، ولكن راتب محمد رفيق — والد اقبال — لم يكن من يد هذا الرئيس ، فاقتضى ورع أمه وتنزهها الا تأكل من راتب زوجها ، واعتبرته من الشبهات التى تحتمل أن تكون حلالا أو حراما .

اقبال اذن ينحدر من سلالات كلها تتشبع بعواطف الدين سواء قبل اسلامها أو بعده ، وأبواه يمتازان بالعبادة والورع والتقوى ، فلا عجب أن يكون اقبال ذا عاطفة اسلامية ونزعة صوفية ورجل عبادة وقرآن .

وكان يتحدث عن أجداده البراهمة ، ويذكر من نعم الله عليه أن هداه وهدى أسرته كلها للاسلام .

هاجر جد اقبال والذين معه من اخوته الى سيالكوت ، وسيالكوت كانت مركزا من مراكز الدراسة الاسلامية واليها ينتمى الشيخ عبد الحكيم السيالكوتى ، وفى هذه المدينة ولد اقبال وتلقى تعليمه الابتدائى والثانوى — ولم يكن بها تعليم عال ، فانتقل الى لاهور ليدخل احدى كلياتها .

كانت الأقدار تهيىء لاقبال كل شىء يوجهه الى الاسلام ويحببه فيه ، كما كانت تهيىء له أسباب التربية السليمة والتعليم السليم والسلوك القويم .

بدأ تعليمه فى مكتب فى سيالكوت ، وكانت المكاتب تعلم القراءة والكتابة وتحفظ القرآن الكريم ، وكان أبوه يتعهده اذ ذاك ولا يدعه للمدرسة وحدها ، ثم أدخل مدرسة انجليزية كان بها عالم اسلامى مشهور يدعى مير حسن ، كان الناس يتحدثون عن ورعه وتقواه وسعة علمه

كما يتحدثون عن ذكائه وأدبه وظرفه وكان مير حسن شاب القلب والروح والعمل ، على أنه كان قد اكتهل وضعف جسمه ونحل ، وقد أعجب بذكاء اقبال وأدبه ولما شب قليلا كان يقول الشعر فأعجب أستاذه أكثر ، ولكنه يستعمل اللغةالبنجابية فوجهه أستاذه مير الى أن يستعمل اللغة الأوردية . وكان مير من الأشراف الذين ينتمون الى آل البيت، وكان هذا الشعور مما نمى فى نفسه صفات النبل وحب الأخلاق النبيلة العليا ، وقد انعكس الكثيرمنها على تلميذه اقبال .

وفى لاهور كان أستاذه المحبب اليه هو السير توماس آرنولد — صاحب كتاب الدعوة الى الاسلام — وآرنولد كان ممن يقدرون الاسلام وينصفونه ، وفى كتابه الذى ذكرت دفاع عن الاسلام ومعارضته للذين يقولون انه انتشر بالقوة أو بحد السيف ، وفى غير موضع من هذا الكتاب شاد بسماحة الاسلام وحسن معاملته للذميين .

هذا العالم الانجليزى بدوره أحب اقبالا وأحب ذكاءه وأدبه وقدر شعره وخصه بكثير من العناية وحسن التوجيه .

أحب اقبال هذين الأستاذين حبه أهله وذويه، وظل وفيا لهما ما عاشا .

حصل من هذه الكلية على شهادتها الجامعية الأولى فى الآداب B.A — ثم على درجة الماجستير فى الآداب أيضا M.A ثم عمل مدرسا للفلسفة والتاريخ فى الكلية الشرقية فى لاهور ، ثم انتقل الى الكلية الحكومية التى كان يعمل بها لتدريس الفلسفة واللغة الانجليزية، وفى كلتا المدرستين نال اقبال اعجاب تلاميذه كما نال اعجاب أساتذته من قبل ، وفى هذه الفترة ظهرت آثاره الأدبية فى مجتمعه وفى الهند كلها ، أكثر من قول الشعر الجيد ، ونشر شعره فى الصحف فلفت الناس اليه، وكانت لاهور اذ ذاك تموج بتيارات الفكر وتعبق بأريج الأدب وكانت ذات محافل ومواقف خطابيه وشعرية، وكان اقبال صوت خطابتها وتغريد شعرها ، وروح مجامعها .

ودفع به طموحه الى الاستزادة من العلم ، فسافر الى انجلترا ليكمل دراسته ، فبدأ مهموما بالمعرفة لا يشبع ، دؤوبا على الدرس لا يمل ، حتى أعجب به الأوربيون كما أعجب به الشرقيون من قبل .

ذهب أولا الى كمبردج فدرس الفلسفة وحصل من الكلية على درجة فيها ، لكنه سافر توا الى ألمانيا فتعلم اللغة الألمانية بسرعة ساعده عليها معرفته بالانجليزية ، ودخل جامعة ميونيخ ، وكتب رسالة فلسفية قدمها للجامعة وأهداها الى سير توماس آرنولد . كانت الرسالة عن التطور والنمو الميتافيزيقي فى بلاد فارس ، وبهذه الرسالة عرف قدر اقبال العلمى ، وقدرته على كثرة القراءة وسعة الاطلاع . وكانت هذه الرسالة خليقة أن توجهه الى الانقطاع لدرس الفلسفة ، لكنه شاعر ، والشعراء كطيور الحدائق وفراشات الأزهار يحلو لهم التنقل من زهرة الى أخرى لذلك انتقل اقبال مرة ثانية الى انجلترا ، وفى هذه المرة ذهب الى جامعة لندن ليدرس القانون وعلوم السياسة ولينال اجازة المحاماة وكانت هذه آخر دراسته الرسمية واتصاله بالجامعات .

نال اقبال من أوربا علما كثيرا ، ودرس فنونا من المعارف ، ورأى ما فى عواصم أوربا من مظاهر الحضارة وألوان الحرية ورقى الحياة ولكنه لم يقف من هذا كله موقف المأخوذ المشدود ، ولم يجرفه هذا التيار العاتى العنيف لقد كان له من قوة الذكاء وقوة الأعصاب وقوة التفكير ما جعله يقف موقف الناقد لا موقف المقلد الساذج . أعجبه العلم وراقه ، ولا ريب أنه رأى فى كل من ألمانيا وانجلترا ما لم ير فى بلاده ، من طرق البحث ، وضخامة المكاتب ووفرة المراجع ، وتهيئة البيئة للدارسين ، ولكنه لم يعجبه ما لدى الأوربيين من تبرج وانحلال ، فأنكر على الأوربيين كل مظهر لا يقره الاسلام وعاب عليهم انقيادهم للغريزة وامتهانهم للمرأة ، واستهانتهم بالأعراض .

قابل كثيرين من الأساتذة الكبار وناقشهم فى مسائل كثيرة من الفلسفة

وغير الفلسـفة من العـلوم ، ولم يتحرج أو يضـعف بل جـاهرهم بالنقد المر الازدراء الصريح • ومع كل ما عاب وأزرى لم يغضبوا منه بل أحبوه وأجلوه •

تحدث كثيرا عن الاسلام ـــ حاضر عنه فى الأندية ونشر عنه فى الصحف وناظر فيه الأساتذة والطلاب ، أما حضارة الغرب فأنكر منهـا خلوها من المعانى الانسانية ، انها تجـارة وتبادل منفعة ، ومثل هذه الأخلاق ليست الا بهرجـا زائفـا ، وهى كالشجرة التى لا جذور لها • ومن شعره فى هذا الموضوع :

« يا سـاكنى بلاد الغرب
ما أنتـم الا فى ضــلال

ليست أرض الله حانوتا لتبـادل المنافع وكسب الأموال •

ما تتوهمونه ذهبا خالصا انما هو زيف لا قيمة له ولا بقاء •

كيف يستقر عش يبنى على غصن دقيق ، انه لا يلبث أن تعصف به الرياح وتذهب به الأنواء ، سوف تذبح حضارتكم نفسـها بخنجرها ، كما تنقض غزلها البلهاء » •

وعاد اقبال بعد هذا الطواف الى وطنه ـــ لم تكن الفترة التى غابهـا طويلة فى قيـاس الزمن ، ولكنهـا واسـعة جـدا فى مقاييس الأفكار والعلـوم • كانت هذه الفترة ثلاثة أعوام ، درس خلالها فى ثلاث كليات وظفر بشهادات وحاضر وكتب وألف وذلك ما لا يعمله غـيره فى عدد من السنين • ولهـذا عاد مزودا بزاد للجامعات فيه فضل التوجيه وله هو فضل التفكير والتحصيل والفلسفة والابتكار •

ولم يعد الى سيالكوت ، وانما عاد الى لاهور •

واشتغل بالمحاماة ثم بالتدريس ثم بالمحاماة وخلال ذلك كله كان متجها الى الشعر والسياسة والاصلاح، ولم يكن يعجبه أن يستكثر من القضايا، ولكن كان حسبه أن يجد ما يكفى نفقاته ثم يتفـرغ لرسالته الكبرى وهى الاصلاح والدعوة الى الاسلام، وكان يدعى الى الكليـات والمجتمعـات

العلمية فى بلاد الهند المترامية فنجده يوما فى مدارس وآخر فى عليكرة وثالثا فى دلهى،وقد جمعت محاضراته فى كتب بعد ذلك ، ومنها فلسفة اقبال التعليمية Iqbal's Educational phelesophyواعادة الفكر الدينى فى الاسلام Reconstruction of "Religious In Islam"

ودعى الى المحاضرات فى جامعة أفغانستان ، ومن هناك سـافر الى غزنه وزار قبر محمـود الغزنوى ، وزار بعض البلاد الأخرى ، وحينئذ أصبح له اسمه وشهرته •

أما أعماله السياسية فكان لابد أن تكون •

كانت الهند تحت امرة الانجليـز وكان كل شخص يطالب بجلائهم عن بلاده ،فليس بدعا أو عجيبا أنيكون اقبال بين المنادين ـ وقد رأس مجامع سياسية وسند حزب الرابطة الاسلامية ودعا الى اصلاح التعليم فى بلاده ، وكان عضوا فى الجمعية التشريعية ، واشترك فى مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن لاصلاح الدستور الهندى ، وكان له من الأعضـاء أثر واضح ، وأجيب لبعض ما دعا اليه •

وقدره حاكم البنجاب الانجليزى فدعاه الى قصر الحكومة ليخلع عليه لقبا أو يمنحه وساما فأبى ، ولكن بعض رفاقه ألحوا عليه ، وقد عرض عليه الحـاكم بعض ألقاب الشرف دون لقب سير فرفض ، ثم قبل لقب سير على شرط أن يمنح أستاذه مير حسن لقب شمس العلماء ، ولم يكن لمير من الأعمال ما يؤهله لهذا اللقب، ولا كان ذا شهرة فى العلوم ، ولكنه أعطى هذا اللقب ارضاء لاقبال •

وشغلت اقبالا رسالته عن نفسه ، فكمـا عزف عن المـال عزف عن الزواج فلم يتزوج الا فى سن متأخرة فعندما مات عن نحو ست وسـتين سنة ، كان ابنه دون الخامسة عشر من عمره •

وقد أدركت اقبالا الأمراض،وكان يطب له طبيب مكفوف البصر وكاد يعرف باسم الشاعر البصير ، ولكن مرضا أصاب قلبه فلم يفلح الطب فى علاجه ، فمات فى شهر أبريل سـنة ١٩٣٨ م •

كلمة عن شعره :

أوجز ما يقال فى شعر اقبال أنه صورة صادقة لحياته ووصف نابض

لمشاعره،واذا كانت شخصية كل واحد منا تبنى وتتكون فى سنواته الباكرة الأولى ، فقد كانت شخصية اقبال مكونة من الورع ومراقبة الله تعالى، وكان شعره أينما قلبته يتسم بسمات اسلامية وروح صوفى • وأبرز ما فى هذا المنهج أنه لا يخاف الموت ولا يتزعزع للأحداث،ولا يكترث لذهاب الدنيا ولا يفرح لاقبالها كان يرى أن الأحداث طرق وسمات خطها القلم الحكيم ، وانها شىء لابد واقع فلا يخفف الجزع من وقعها ولا تزيد مظاهر البهجة من قيمتها قليلا ولا كثيرا وكان يرى أنه من العبادة أن يعمل الشخص للآخرين • ولكنه يرى أن الناس كالأطفال يفرحون بما لا بقاء له ولا نفع فيه ، وكما يقدم الرجل لابنه دمية يلعب بها ثم يحطمها يرى أن عليه أن يقدم للناس ما يبهجهم ويسرهم ، وان كانت مسرة موقوتة وبهجة الى حين •

وبهذا الشعور كان اقبال يرى أنه يفهم من الحياة ما لا يفهم غيره ، ويدرك من أسرارها ما عميت عنه عيون الآخرين ، وكان يردد هذه المعانى فى كل موضوعات شعره ، ويرى أن الشىء الخليق بالاهتمام هو الاسلام والعمل لاصلاح حال المسلمين •

وأنت اذا حللت هذه المشاعر وجدتها مزيجا من الاسلام والصوفية جميعا وهى أفكار فيلسوف درس الفلسفة نظريات ومارسها فكرا ، وقاس الحياة وشئون الناس على ما درسه وما فكر فيه فبدت الحياة أمامه صغيرة ، ولذلك لا يبكى عليها، ورأى أن خير ما فيها هو العمل للآخرة ، وأن خير ما يهتدى به الانسان فى طريقه وما يعرف به الجيد من الردىء هو الاسلام ، وكان يذكر أصله البرهمى ويرى أن من نعم الله الكبرى عليه أن هداه للاسلام •

وقد ترك اقبال تسعة دواوين ينظمها جميعا سلك واحد هو تقدير الانسان وابراز أنه المخلوق الذى كرمه الله وسخر له ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا وهذه النظرة هى التى جعلت اقبالا شاعرا عالميا وليس خاصا بباكستان ، لأن دفاعه عن بلاده وعن قومه يتسم دائما بهذا الشعور الانسانى •

جعل الله له لسان صدق فى الآخرين

إقبال

للدكتور يحيى الخشاب

نشأ اقبال كسائر المسلمين المثقفين فى الهند نشأة دينية . ففى المدارس الابتدائية ثم الثانوية تلقى من علوم الدين ما حببه فى الاسلام وأهله . وعكف على دراسة الشريعة والتاريخ الاسلامى واقتنع تماما أن مسلمى الهند لا ينهضون ولا يرد اليهم اعتبارهم الا فى ظل دولة اسلامية موحدة . دولة اسلامية قوية تستطيع أن تدافع عن المسلمين فى كل مكان. ومسلمو الهند أشد ما يكونون حاجة الى هذه الحماية الاسلامية من الدولة الاسلامية لأنهم أقلية بالنسبة لغيرهم من أهل الهند .

وسافر اقبال الى أوربا ، فى مطلع هذا القرن الرابع عشر الهجرى ، وعكف فى انجلترا وألمانيا على دراسة الفلسفة والتاريخ ، ويوم استطاع التفاهم مع فلاسفة الغرب ومفكريه لقيهم وناظرهم وعنى بالرد فى أحاديثه وكتبه عليهم، فهو لم يكن كغيره ممن يذهبون للغرب للحصول على شهادة. انما هو نسيج وحده ، ذهب الى الغرب ليتعلم وليناظر وليدافع عن رأيه الذى بناه على حقيقة ناصعة وهى أن الاسلام قادر على توجيه البشرية الى الخير .

وعاد اقبال الى وطنه . والهند بلد عظيم لقى فيه الاسلام مجالا ممهدا لينتشر وتعلو فيه كلمة الله ، ففيه قامت دولة المغول الاسلامية التى رفعت من شأن الحضارة الاسلامية مما تشهد به آثارها حتى اليوم . ولكن بعض حكام المسلمين فى الهند، وقلة من علمائها ، دأبوا منذ البداية على القول بتشجيع فكرة خاطئة هى امكان توحيد الأديان فى دين واحد. واقبال كفيلسوف وشاعر له سعة

الفكر ودقة الحس ، شعر بأن واجبه أن يبدد ما شاب الاسلام فى الهند من أفكار دخيلة مفسدة منافية لأصوله هادمة لروحه • انه عرف أن القرامطة منذ البداية ، لجأوا الى الهند ، وعلم أن من البابية والبهائية من لجأوا اليها ، وأن أفكار « أكبر » ونظريته المضللة فيما أسماه «بالدين الالهى» لها أثر ، وان المصلح الذى أقام الجامعة وتحدث عن التعليم وجمع من حوله المثقفين من المسلمين قد أخذ يدعو الى آراء ما جاء بها أحد من المسلمين من قبل ، ثم لمس بنفسه تشجيع الانجليز للقاديانى ومحاولة هذا لأن يستخدم الاسلام لخدمة الانجليز ، وعرف أن سذاجة الهنود،مسلمين وغير مسلمين جعلت فكرة الدين مطية لكل طموح فى سلطان أو طالب لمنفعة • ومن هنا بدأ رسالته فى بث الوعى بين المسلمين •

لم يدع اقبال أنه رئيس أو زعيم ولكنه يقرر أنه لم يكن «امعة» لأحد• انما هو رجل صحا ويريد أن يوقظ النائمين • هو مفكر وشاعر ومسلم يعرف الاسلام ويدرك حقيقته • وهو يرى ويسمع أن الانجليز وجدوا فى المسلمين أشجع الجند وأقدر المحاربين • وبدأ اقبال يتحدث عن شخصية المسلم • وأن هذا المسلم لو عنى بذاته يصل الى تحقيق ما تصبوا اليه نفسه وماينبغى أن تكون عليه أمته • وأخذ على عاتقه أن يفهم المسلمين فى الهند حقائق الاسلام • واتجه الى الذين استناموا بأن تبعوا المتصوفة المتشائمين الذين ساروا وراء « التصوف العجمى » الذى ينيم الأمة لأنه يقتل فى المسلم روح العمل • حارب فكرة الجبر ودعا المسلم الى أن من جد وجد •

بسلسلة القضاء ربطت رجلا
وفى سعة العوالم ضقت حالا

فقم ان كنت فى ريب وأقدم
تجد للرجل فى الدنيا مجالا

ويقول :

دع الشطآن لا تركن اليها
ضعيف عندها جرس الحياة

عليك البحر صارع فيه موجا
حياة الخلد فى نصب تواتى

وفى شعر عذب له تحدث عن حوار بين غزالين :

غزالا بث شكواه غزالا
فقال سأقصد البلد الحراما
أرى الصياد حولى كل حين
فلا أسطيع فى أرض مقاما
أبدل خيفة الصياد أمنا
وأنفى الغم عن قلبى المعنّى

* * *

أجاب رفيقه أن يا خليلى
حياتك فابغ فى الخطر الجليل
ونفسك فاشحذن فى كل آن
وعش أمضى من السيف اليمانى
ففى الأخطار للهمم اختبار
لأرواح وأجساد عيار

* * *

وكما ألمّ اقبال بأحوال المسلمين فى الهند ، أدرك ما يجرى فى العالم الاسلامى خارجها . والخلافة التى هى رمز للمسلمين وجامع لهم تتهددها الأخطار . وخليفة المسلمين فى الآستانة تنوشه سهام من أهله ، وفلاسفة المسلمين وشعراؤهم يشفقون على الاسلام والمسلمين من التفكك اذا ما اعترى الخلافة الهوان . محمد عاكف ، شاعر الاسلام وغيره من الكتاب الترك والمسلمين يدعون الى الوحدة الاسلامية ، حول الخليفة ، ويجادلون عن العربية ، لغة القرآن، ضد العامية ، ويستمدون أدبهم من العهد الاسلامى الأزهر ، عهد الراشدين ضد التقليد الأعمى للأدب الغربى ... يرى اقبال كل هذا فيدلى بدلوه فى هذه الدعوة اللازمة ويتجه فى أشعاره الى المسلمين . يريد أن يعود المسلمون الى عهدهم الرشيد فيتخذوا مثلهم العليا منه . من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم الذى هو المثل الأعلى للبشرية كلها . من سيرة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى الذين عملوا للاسلام والمسلمين ولم يعملوا لأنفسهم قط .

يريد أن يعود المسلمون الى الشريعة وأن يدعوا هذه القوانين الوضعية التى استشرى الفساد فى ظلها فلا أمن ولا أمانة ولا رضا ولا قناعة . وقال ان المسلمين تبعوا الغرب اتباعا عن غير تبصر لما فى

دينهم من القيم التى تنفعهم فى دنياهم وفى آخرتهم ، وانهم لذلك أصبحوا نهبا لكل أفاق يرى أن يتجه بهم يمنة حينا ويسرة أحيانا . وذات الرجل فى الاستمساك بدينه وقوة الأمة فى العمل بمبادىء الدين . ويوم استمسكت أمة المسلمين بالشريعة بلغت الأوج ، ويوم أتاحت لأفكار الغرب أن تمخر فيها ضعفت وتحللت وصارت الى ما هى عليه اليوم من الهوان .

وقفتان تاريخيتان لاقبال فى شعره : الأولى يوم وقف فى القدس والثانية يوم زار مسجد قرطبة .

يوم زار مسجد قرطبة سرح به الخيال الى المسلمين الذين فتحوا الأندلس وأقاموا فيها دولة للاسلام ، وبنوا هذا المسجد الذى يعد آية فى جمال الفن الاسلامى ، وتخيل المئذنة وليس لها مؤذن يدعو الناس للصلاة ، والمنبر وقد خلا من خطيبه ، والساحة وقد خلت من المصلين . وبكى اقبال وهو يحكى المجد الذى قضى ، وبكى وهو يصف الأثر الباقى على السنين ، الشاهد على ما كان للمسلمين من قوة وعظمة وبأس .

والوقفة الثانية وقفة القدس ! مهبط الوحى ، ساحة الأمن والهدوء والرضا والتأمل . بلد المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وتذكر الاسراء والمعراج ، وتذكر موقف عمر رضى الله عنه ــ ساعة الفتح .

وتمضى الأيام يا اقبال فاذا المسجد الأقصى ومكان الاسراء والمعراج وقبة الصخرة فى حوزة اسرائيل . ولو عشت يا اقبال حتى ترى حال القدس اليوم لحملت مصباحك لترى من يعيشون فى الظلام طريقهم الى النور ولقلت يا اقبال للمسلمين : هذا بلدكم وفيه مسجدكم . على الترك والايرانيين والمصريين والأفغان والعرب وسائر المسلمين أن يعيدوه الى حوزة الاسلام . انهم يتحدثون يا اقبال عن دول المواجهة ولا يتحدثون عن الدول الاسلامية وواجبها . لم يقرأوا التاريخ يا اقبال ولو قرأوه عرفوا

أن أرض القدس رُويت بدماء المسلمين جميعا . تمنى الفيصل العظيم أن يصلى فى المسجد الأقصى قبل أن يموت وكانت أمنية ملك مسلم يتمنى المسلمون أن تلقى أمنيته أذنا صاغية وقلبا متفتحا من جميع ملوك المسلمين ورؤسائهم : انها أمنية للجهاد فهل لها اليوم من يعلنها يا اقبال ؟ .

أما بعد فان من يذكر اقبالا يذكر صنوه ومريده عزام . عزام الذى عرفنا باقبال والذى دعا دعوته يوم نادى « بالأخوة الاسلامية » .

يرحمهما الله ويلهم المسلمين أن ينظروا فى أمر دينهم وأن يعيدوا للأمة الاسلامية وحدتها ومجدها .

د . يحى الخشاب

« ياوارث التوحيد الاسلامى ، لقد فقدت الكلام الجذاب الساحر ، والعمل المسخر القاهر ، لقد كنت يوما من الأيام اذا نظرت الى أحد ارتعد فرقا منك وطار قلبه شعاعا ، وقد اصبحت اليوم كسائر الناس لاتحمل روحا ولا تجذب نفوسا » .

« اقبال »

محمد إقبال

لسعادة الدكتور سميع الله مجاهد
سفير باكستان في القاهرة

بدأت الاحتفالات التى أقيمت بمصر بمناسبة الذكرى المئوية لمولد شاعر باكستان وفيلسوفها محمد اقبال باجتماع كبير عقد بقاعة الشيخ محمد عبده بجامعة الأزهر .

وفيه ألقى السيد الدكتور سميع الله مجاهد قريش سفير باكستان بالقاهرة كلمة ننشرها فيما يلى :

أيها السادة الأجلاء :

لا يسعنى الا أن أزجى الشكر للأساتذة الأجلاء الذين اشتركوا معنا اليوم فى هذا الحفل الذى أقيم لتكريم وذكرى الفيلسوف الحكيم العظيم وشاعر باكستان الوطنى محمد اقبال . كما أشكر أيضا فضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر وأشكر مدير جامعة الأزهر ورجال الجامعة جميعهم وذلك لسماحهم باقامة هذا الحفل فى هذه القاعة .

والواقع أن ليس هناك ما يضفى على اقبال من تكريم أكثر من اقامة هذا الحفل فى رحاب الأزهر الذى يتطلع اليه العالم بوصفه أقدم وأعرق معهد للعلوم الاسلامية طوال عشرة قرون والذى يأتى اليه المسلمون من بعيد عابرين البحار والصحارى والسهول والجبال لينهلوا من معينه العلوم الاسلامية الحقة . واذا قدر لتعاليم اقبال وفلسفته أن تتركز فى مكان واحد من أمكنة العلم فهذا المكان هو الأزهر ، وذلك لأنه هنا بالأزهر تختفى وتندمج كل اختلافات الجنس واللون والانتماء الى العشيرة أو القبيلة لتمجيد الاسلام وهنا تستطيع الألوف المؤلفة من

العلماء والطلبة المسلمين أن يحققوا مبتغاهم ليس الآن فقط ولكن على مر السنين ، وكأن روح اقبال قد وجدت راحتها فى هذا الجو الرائع، وقد ناشد اقبال الأمة « من شواطىء النيل الى جبال كشغر » بأن يقفوا صفا واحدا وأن يتناسوا كل الفوارق • وقد حذر من « أن من سيقف وحيدا مزهوا بدمه ولونه فأنه يلقى الضياع » •

وتتميز القاهرة بأن بها العديد من كبار المثقفين الذين يعرفون اقبال ، وقد كتبوا كثيرا من المؤلفات عن أعماله وترجموا شعره •

وفى هذا المكان الجليل وبين هذه الصفوة من العلماء أجد نفسى عاجزا عن التعبير عما يجول فى نفسى كما أحبوأرضى • وكنت أود أن أعرض لأى جانب من جوانب اقبال وفى أى موضوع من الموضوعات الممتازة ولكنى آسف لأنى لا أستطيع أن أعرض ما يجول فى نفسى باللغة العربية بما يتناسب وهذه المناسبة الكبيرة • ولكنى سأقصر حديثى على كلمات بسيطة عن اقبال •

وفلسفة اقبال لها جوانب عديدة وحياته ثرية تعكس شجاعته فى اعلان الحق الأمر الذى يجعل من غير الانصاف أن يعالج الانسان حتى ناحية واحدة من نواحى فكره فى جلسة واحدة •

ما هى العوامل التى خلقت عبقريته وصاغت أفكاره ؟ هذا سؤال هام نطرحه اذا أردنا دراسة شخصيته التى تركت بصماتها على التاريخ • وأود أن أذكر بايجاز هذه العوامل •

ولد اقبال وتربى فى وقت كان مسلمو شبه القارة يمرون فيه بمرحلة من اليأس والقنوط • ولد بسيالكوت وهى مدينة تشارف البنجاب وكشمير عام ١٨٧٧ • وقبل أن يولد اقبال بعشرين سنة كان المسلمون قد قاموا عام ١٨٥٧ بنضال عنيف ضد القوى البريطانية الزاحفة ولكنه لم يقدر له النجاح

وفشل المسلمون فى محاولتهم طرد البريطانيين وسقطوا فريسة لاضطهاد وحشى على أيدى السادة المستعمرين. وقد أمكن لهؤلاء انتزاع الحكم الذى حكم به المسلمون شبه القارة مدة ألف سنة الأمر الذى تركهم عزلا ضعفاء. وقد عدهم السادة المستعمرون منافسين لهم عليهم أن يسحقوهم، وهنا بدأت عمليات منظمة لابادتهم فى كل المجالات، لا من الناحية السياسية وحسب بل حتى من الناحية الاقتصادية أيضا. وبذلك أمكن القضاء على المسلمين. وقد عادى المسلمون البريطانيين وامتنعوا عن التعاون معهم، وقد كرهوا أيضا فرض لغة أجنبية عليهم ونموا فى صدورهم عداوة حتى لطريقة حياتهم ولوسائل التعليم الغربية. وكان المسلمون أول من ثار وناهض القوى الاستعمارية بشبه القارة. ومن هنا نبعت جذور العوامل التى خلقت فى نفس اقبال شعوره ازاء القيم الغربية. والواقع أنه مهما مر الزمن فان اقبال يبدو دائما معارضا وناقدا للنظام الغربى.

وفى تلك الأيام كان من الطبيعى أن يبدأ الطفل المسلم تعليمه فى المساجد أو المدارس أو المكاتب التى كان يشرف عليها رجال الدين. وقد حصل اقبال على تعليمه فى مراحله الأولى بهذا الأسلوب، وكان معلمه الأول مولانا مير حسن الذى ترك أثره على فكر اقبال طوال عمره.

وفى ١٨٩٥ انتقل اقبال للاهور ليلتحق بجامعتها، وهناك تتلمذ على معلم كبير آخر هو سير توماس أرنولد. وفى حين أثر مير حسن على اقبال من الناحية الاسلامية أعد سير توماس أرنولد الشاب الى تقبل آداب الغرب وأفكاره. ولما بلغ اقبال الرابعة والعشرين من عمره ذهب الى أوربا لاكمال دراساته وخلال السنوات الثلاث التى قضاها هناك، التى عاد بعدها الى بلاده بدرجة الدكتوراه من جامعة ميونخ،

كان كثير التردد على مكتبات كمبردج ولندن وبرلين . وعين أستاذا للغة العربية بجامعة لندن لمدة ستة شهور . ولما عاد للاهور عرض عليه كرسى الفلسفة والأدب الانجليزى . ولكنه سرعان ما هجر حياة التدريس ليمارس المحاماة بعد أن حصل على درجة فى القانون من لندن .

ومع أن اقبال قام بدراسة عميقة للأفكار والنظم الغربية الا أنه لم يبتعد عن ثقافته الأصلية بل انه راح يقدرها كل التقدير .

ولما عاد الى وطنه كان أكثر معارضة للغرب وخلال هذه الفترة اهتم اقبال بما يمكن أن يفعل للارتفاع بمستوى المسلمين . وكان الشاعر الاسلامى العظيم الطاف حسين حالى قد نظم (المسدسات الاسلامية) وفيها يرثى لحال المسلمين وحالة القنوط التى يعيشون فيها وتخلفهم وظروفهم السيئة . وكان حالى يناشدهم العمل لاعادة بناء أنفسهم لاستعادة أمجادهم السالفة . وقد بدأ مستقبل المسلمين السياسى يومذاك قاتما للغاية ، الأمر الذى أثار فى نفس اقبال الرغبة فى التعبير عن الأحوال السياسية السائدة بالشعر ، وذلك لأنه كان شاعرا منذ مطلع حياته . وكأى شاعر آخر بدأ اقبال حياته الشعرية حسب التقاليد المرعية من قول الغزل والقصائد الصغيرة وما شابهها . وقد عملت الأيام التى قضاها بأوربا على ايقاظ الملايين من بنى البشر من سباتهم . وقد تركزت أشعاره على مسائل ثلاث : لماذا يختلف المسلمون ولماذا يقعون فريسة لغيرهم ؟ كيف يتسنى لهم اعادة تكوين أنفسهم ولماذا يظل الشرق فى هذه الحالة من السكون والجمود ؟ ولماذا قضى على شرف آسيا العريق ؟

ولا يسع المرء الا أن يجد فى اقبال الاهتمام البالغ بحالة المسلمين والشرق أيضا . قلبه قلب مسلم وتوعيته توعية اسلامية ، وكان قلبه

يخفق مع كل انسان مضطهد مظلوم مغـلوب على أمره . ولذلك كان اقبال شاعر الاسلام وشاعر الشرق أيضـا .

ولمـا عاد اقبـال من أوربا كتب قصـيدتيه الرائعتين (شـكوى) و (جواب شكوى) . وعلى الرغم من أن هاتين القصيدتين تعدان من روائع الشعر الأوردى اللتين أثارتا النفوس واحتلتا مكانتيهما الطيبة فى مجال الشعر فانهما يعدان أيضا نقطة تحول فى تطوير القومية الاسلامية. وهاتان القصيدتان كانتا ولا تزالان على لسان كل مسـلم ، وكانتا قد ألهبتا وأيقظتـا الوعى الاسـلامى السياسى بشبه القارة .

وفى قصيدته (شـكوى) يسأل أحـد المسـلمين الله عن سر محنته ويشكو اليه أنه برغم قيـامه بنشر الرسالة هنا وهناك وبرغم أن ضحى بالكثير من أجل ذلك من قارة الى قارة ، فان الشخص الذى لا يؤمن بهذه الرسالة هو الذى يحكم العالم ويسيطر عليه .

وفى (جواب شكوى) يرد الله على الشـاكى مذكرا اياه بتبـديد المسلمين لقواهم ويقارن بينهم وبين أسلافهم . والواقع أنه لم يحـدث أن اهتزت نفوس الملايين من المسلمين كما اهتزت بسبب هاتين القصيدتين. فقد انتشرتا من بيت الى بيت وأيقظتا المسلمين جميعهم من السبات الذى كانوا مستغرقين فيه .

وقـد حلل اقبال أسباب جمود المسلمين وأهل الشرق . وانتقـد الغـرب بشـدة واصـفا نظامهم الاجتماعى بأنه نظـام غير انسانى ، يتحركون فيه كمـا تتحرك الآلة ، نظـام قاس صلب خـال من القيم الأخلاقية . وقد انتقد بشدة ماركس ووجه اليه هـذا السؤال . « ماذا هناك فى كتبك أنت يا فيلسـوف الخبز .. هـذه الكتب لا تتضمن الا رسوما هابطة ورسوما مستديرة» كان اقبال يقول للغرب ان أى نظام لا يقوم على المثـل الانسانية نظام يدمر نفسه بنفسه ، وبذلك أبـدى عدم انتمائه لا للنظـام الرأسمالى ولا للنظام المـاركسى ، ولكنه ركز

أفكاره وآراءه على النظام الأخلاقى الذى يجب أن يكون .

وكان مهتما أشد الاهتمام بمحنة الفلاحين والعمال ويطالب بايجاد نظام عادل منصف يقوم على المثل العليا الانسانية وليس على نظم لا تعترف بالله . ولم يكن اقبال يؤمن بأى نظام سياسى لا يعترف بالله . وكان يقول انه اذا افتقدت السياسة القيم الأخلاقية فانها تصبح طلقسا من طقوس جنكيز خان . وكان هذا هو نفس ما تضمنه الفكر السياسى الاسلامى لأن السياسة والأخلاق كانتا متلازمتين ، وقد صدق هذا مع ما قاله أحد الفلاسفة الأقدمين من أن الدولة والدين شقيقان توأمان .

ان أوربا تحتضر . والروح تموت عطشا فى سرابها الخادع . فيها حضارة نعم ؟ ولكنها حضارة تحتضر وان لم تمت حتف أنفها فلسوف تنتحر غدا وتذهب .

محمد اقبال

المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين

غرة ذى القعدة ١٣٩٧ حتى ٣٠ ذى القعدة ١٣٩٧هـ

١٤ من أكتوبر ١٩٧٧ حتى ١١ من نوفمبر ١٩٧٧م

١ - كلمة الرئيس المؤمن محمد أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية

فى أعضاء وفود المؤتمر .

حفل افتتاح المؤتمر

١ - كلمة نائب رئيس الجمهورية السيد/ محمد حسنى مبارك

٢ - كلمة صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر ورئيس المؤتمر

٣ - كلمة صاحب الفضيلة الدكتور عبد الجليل شلبى
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

٤ - كلمة صاحب السماحة السيد محمد عبد الرحمن بكر وزير العدل
بدولة الإمارات العربية - نيابة عن أعضاء المؤتمر

٥ - وصف تفصيلى لوقائع المؤتمر، وقراراته وتوصياته

بقلم وإعداد : زاهر عزب الزغبى

كلمة

الرئيس المؤمن

السيد محمد أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية

إلى أعضاء المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين

حينما استقبلهم فى استراحته بالقناطر الخيرية

ظهر الأربعاء ٦ من ذى القعدة ١٣٩٧هـ

٩ من أكتوبر ١٩٧٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمـد الله أننـا نلتقى اليـوم لنتحدث فى أمور عالمنا الاسلامى كله مع هذه الصفوة الممتازة من علمـاء المسلمين ، ومـا أجدركم أن تضعوا فعلا الطريـق الى الايمان ، فلعـل أخبث سلاح اسـتخدمه الاستعمار ضدنا فى الفترة الماضية كان هـذا السلاح هو ضرب الايمان ..حاولوا أن يضربوا الايمان فى نفوسنا جميعا

ومن خـلال ضـرب الايمـان يستطيعون أن يتسللوا لكى يطبقوا سياستهم المعروفة : فرق تسد .

اليوم لا حجة لنا لقد تولينا جميعا أمورنا بأنفسـنا ، ولا بد لنا من أن نختط الطريق السلـيم لاعادة بنـاء مجتمعاتنا .

لابد أنكم جميعا تعلمون ما ينتاب الشـباب المسـلم فى عالم اليوم وما يتقاذفه من تيـارات خبيثة ليس لها أى ركيزة ، وليس لها أى جـذور فى مجتمعاتنا .. يزينون الكلام على أن قمة العلم وقمة المعرفة هى فى أن يتنكر الانسان لايمانه .

ما أحراكم أن تجدوا الطريق الى هذا .. واذا كان لى أن أضع أمامكم بندا من بنود جدول الاعمال الذى تأخذون أنفسكم به..فاننى أجدنى مطالبـا من شـعبنا ومن جمهـور المسلمين فى كل أنحـاء الأرض .. مطالبا بأن أضـع أمامكم فى جدول أعمالكم كلمة هى الايمان ..

شعارنا العلم والايمان

تعلمون أننى قبل أن تمر سنة من ولايتى أعلنت شـعار الدولة وهو العلـم والايمان .. العـلم لاننـا لا نسـتطيع أن نتخلف عما يعيشـه عالم اليوم من علـم والا كان ذلك أيذانـا بالقضـاء علينا جميعا كما قضى من قبـل على أمم كالهنـود الحمر . فلا سبيل لنا أن ننكص أبدا أو نتأخر عن متابعة العلم فى أحدث ما يصل اليه فى عالم اليوم .. لقـد كان هذا أيضا من أساليب الاستعمار الخبيثة أن نتخلف عن العلـم وان نظل شعوبا متخلفة لكى يفعل بنـا ما يشاء .

ولـكن وكمـا قلت لـكم وقـد أصـبحنا نملك أمـورنا

بأنفسنا فلا حجة لنا .. ويجب أن تقضى على تلك الفجوة .. فجوة تخلفنا عما يعيشه العصر اليوم من علم وتكنولوجيا ولكن العلم وحده أصم .. وسمعنا ونسمع عن تفجير الذرة .. التفجير الهيدروجينى وآلات الدمار .. كل هذا من ثمار العلم .. واجبنا ألا تتخلف لانه كما قلت ستلعننا أجيالنا المقبلة اذا تخلفنا ولم تترك لهم زادا يعيشون به فى عالم اليوم يتميز بالعلم والذى يتطور فيه العلم كل يوم تطورا كبيرا .

العلم وحده كما قلت خطر ومدمر .. ولكن بالعلم والايمان يستقيم الأمر، ويصبح العلم بدلا من أن يكون اداة تدمير وخراب يكون أداة محبة وبناء .. وأداة رخاء مشترك يعيشه العالم كله .. اذا كان لى أن أضع أمامكم فى جدول أعمالكم كما قلت .. فاننى أريد أن أضع كلمة الايمان فى هذا الشأن ..

دعاوى تزعم انها عقائد

أريدكم أن تستنبطوا كيف نربى الطفل منذ طفولته الى شبابه الى رجولته الى شيخوخته .. كيف نربيه على الايمان .. قد يكون هذا بالنسبة لى أمرا أساسيا بوصف أننى مسئول فى هذا البلد الذى عرفتموه وعرفتم كفاح شعبه وعرفتم ايمان شعبه أنا مسئول أن أوصل الأمانة .. مسئول أن أؤدى الرسالة وما وجدت عدوا فى أداء هذه الرسالة أو تسليم هذه الأمانة الى الاجيال المقبلة .. لم أجد عدوا الا فى تلك الدعاوى التى تتسرب اليوم الى نفوس النشء .. الى نفوس شعبنا عن طريق المذاهب الاجتماعية التى وصل البعض بها الى أن يصفها بأنها عقيدة .. ماذا كانت النتائج لهذا الضياع الذى يعيشه طفلنا وشبابنا المسلم .. كانت النتيجة زيادة فى الحيرة .. زيادة فى التيه، اختلاط كل الأمور بحيث أصبح كل فتى وكل فتاة فى عالمنا الاسلامى يتجاذبه أو تتجاذبها تلك التيارات الجديدة، ولأننا لم نضع المنهج المبسط منذ الطفولة لهؤلاء سمعنا عن الانحرافات وما قرأتموه مثلا عندنا عما حدث أخيرا هنا ممن أسموا أنفسهم بجماعة التكفير والهجرة .

انصاف المتعلمين

يقولـون أن اخطـر الناس هم أنصاف المتعلمين .. لا هو بالجاهل ولا هو بالمتعلم الذى يلم بأطـراف كل ما يتحدث عنه أو يتعرض له ، وانما هو نصف متعلم يأخـذ آية من القـرآن ثم يفسرها كما يشـاء وكما يحلو له أو كما تسـيطر عليه نزواته سواء كانت نزوات فرديـة أو نزوات انفعالية أو نزوات أساسها التيه الذى يعيشه فى هذا العالم .

فى هذا الخضم الذى يحيط بنا .. الذى أصبحت المادة تسيطر على كل شىء فيه .. الايمان .. مطلوب منا أن نبسّط الايمان للطفل منـذ أن يولـد فى المنزل .. فى المدرسة .. فى العمـل فى السـلوك .. فى كل شىء .

لن أنسى أبـدا .. اننى حينما بـدأت أدرك أو حينما تفتحت عيناى .. كنت فى القرية .. وفى القرية مدرستنا هى الكتـاب وفى الكتاب بدأت أحفظ القرآن .. ثم ذهبت الى المدرسة .. مدرسة التعليم العـام .. وكان تدريس الدين فى ذلك الوقت .. كان هذا فى العشرينات .. يعتمد أول مايعتمد على قصص له روعة وعذوبة مثل قصص القرآن بل لم يعلمونا .. أو يضعوا امامنا آيات بذاتهـا لكى نحفظها .. كما يحدث اليوم .. وانما كان الحديث حديثا من قصص القرآن وبعد أكثر من خمسين سنة وأنا أتحدث اليكم اليوم .. لا أزال اذكر يوم أن كان يدرس لنا أسـتاذ الدين كيف أن محمد صلى الله عليه وسلم .. وهو يرعى جـاءت الملائكة لتشق صدره .. ولكى تنتزع منه الشيطان ..

يومها تعلمت

لا أزال أذكر هذا اليوم .. أو هذه الحقبة بالذات وأنا طفـل صـغير .. ليس للمعجزة فى ذاتها .. وقد يتعرض لها البعض .. بانها غيبيات أو كما يقولون اليوم اولئك الذين يتحذلقون .. ويدعون ان العـلم لا دخل للايمان فيه على الاطلاق .. أبدا .. لقد أذكت هـذه القصة فى نفس عوامل الخيال .. ومن يومهـا تعلمت .. أن فى داخل كل منا الى الى جانب ما أراده الله سبحانه وتعالى فى خلقنا .. أن فينا شيئا من روح

الله .. الى جانب هذا يوجد ايضا شيطان .

علينا أن نغلّب روح الخير والحق وروح الله على هذا الشيطان الذى يكمن فى صدورنا . بهذه البساطة تعلمت الايمان ..

من الطفولة الى الشيخوخة

كما قلت لكم .. بعد أن غادرت الكتاب لم يحفظونا آيات نكررها كالببغاوات .. وانما تلقفونا بحديث قصص القرآن .فلما كبرت وقرأت فى مختلف الفروع قرأت حكمة تقول ان الله سبحانه وتعالى خلق الملائكة من عقل بلا شهوة وخلق الشياطين من شهوة بلا عقل .. وخلق ابن آدم من كليهما .. فمن غلب عقله على نزواته وعلى شيطانه وعلى شهوته كان أفضل من الملائكة .. ومن غلب شهوته على عقله كان أسوأ من الشياطين .

فى مختلف مراحل حياتى كما حكيت لكم .. وهذ ما أريد أن تجدوا له سبيلا فى عملكم اليوم .. علنا أن نضع علامات متتالية منذ الطفولة إلى الشيخوخة ..

ومطلوب منا أن تتعلم العلم من المهد الى اللحد .. كيف نضع هذا الأسلوب الذى يتدرج بطفل بأن يذكى روح الخيال فيه .. وهو يسمع لقصص القرآن وهو يسمع عن الملائكة ، وهو يسمع عن عن الشياطين وعن سلوكهم..كيف تتدرج بهذا الايمان .. ونغرسه فى النفوس منذ الطفولة الىالشيخوخة.

أعتقد أن هذا يساوى كثيرا .. وأعتقد أنه شىء أساسى فى هذا العصر الذى نعيش فيه .. وكما قلت لكم يتقاذف شبابنا فيه تيارات ملحدة .. وتيارات مادية وتيارات تبتعد به عن أصالة الايمان ... وجذور الايمان .

خطيب الجمعة

بعد ذلك لما قرأت القرآن وحفظته .. أقرأ أن الله سبحانه وتعالى يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم . « واذا سألك عبادى عنى فانىقريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » .. لا حجاب بين الانسان وربه أبدا .

فى القرية كنت أصلى الجمعة دائما قبل أن آتى الى القاهرة وانضم الى المدارس هنا .. وكان فقيهنا حين

يعتلى المنبر يحذر ويتوعد لأقل خطأ .. ولا أخفيكم اننى جئت الى القاهرة .. والى التعليم العام .. وأنا مشدود الأعصاب مما سمعته من خطيب خطبة الجمعة حينما يتحدث عن الآثام والذنوب.ويحكى « فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » .. وكأن الله سبحانه وتعالى ليس الامنتقما جبارا لايعرف الرحمة أو لا يعرف الشفقة .

بعد قراءة القرآن يقول الله سبحانه وتعالى لأجل أن يصل الينا هذا الحديث .. « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان » . يقول أيضا « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك » هذا هو التحريم القاطع : لا شرك بالله .. « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » .

القرآن وحياتى بالسجن

لأننى حفظت القرآن عرفت هذا .. ولكن كيف سيعرف شبابنا هذا الأمر .. ونحن نصور لهم أن أبسط خطيئة هى فى النار .. وأن الله يغضب على عبده الذى يخطىء غضبا لا سبيل الى رده .. فى الوقت الذى يحدثنا الله سبحانه وتعالى كما تحدثت اليكم فى أكثر من موضع بأنه الرحمن الرحيم الغفار .. وبأنه أكثر من ذلك حينما عشت فى السجن ..

حينما عشت فى السجن وبين الجدران الأربعة للزنزانة..لم يكن يؤنسنى أو لم يحل بينى وبين أن أنهار كاملا بعد أن كنت أعيش خارج السجن حياة كاملة وأنا أكافح من أجل وطنى ثم أجد نفسى فجأة بين جدران أربعة بلا شىء على الاطلاق .. كان الايمان .

فى الزنزانة رقم٥٤ فى طرة ميدان .. أو سجن مصر العمومى تعلمت شيئا من ذلك الانفتاح الذى تلقيته وأنا طفل .. وذلك فى الخيال الذى عشته بأن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم .. قادر على كل شىء يغفر الذنوب جميعا .. لا حائل بينى وبينه .. تعلمت ذلك .. تعلمت أن الانسان قد يصادف فى حياته ونحن فعلا نصادف فى حياتنا معارك

كثيرة من أجل الحياة ومن أجل البقاء فى هذا العالم المادى الذى نعيش فيه .

يريد لنا الخير

ويحدث أن يخون الصديق .. أو أن يتنكر حتى الابن..ولكن فى الزنزانة رقم ٥٤ .. تعلمت أن هناك صديقا لا يخون أبدا .. صديق قادر على كل شىء .. صديق اذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون .. من قصص القرآن .. كان مع موسى عندما خرج مع بنى اسرائيل من مصر هنا .. وكما تعلمون فى القرآن .. لما خاف القوم ..

قالوا انا لمدركون..قال لهم موسى كلا ان معى ربى سيهدين..فانفلق له البحر حينما أوحى الله له أن يضرب البحر بعصاه .. قادر على كل شىء .. وصديق لا يحسد .. ذو قلب يجمع كل هذه الخليقة .. يريد لنا الحياة شريفة قوية .. يريد لنا الخير ..

يومها عرفت أن صداقة الله سبحانه وتعالى هى أعظم كنز يستطيع انسان فى هذه الحياة أن يصل اليه .. فاذا ما وصل اليه هانت أمامه كل الصعاب .. وارتفعت نفسه الى أقصى الآفاق ..

وهكذا عشت الشهور الستة الأخيرة فى الزنزانة رقم ٥٤ .. وكتبت عنها منذ أكثر من عشرين سنة اننى ما عشت ولن أعيش أحلى من تلك الشهور الستة دعونا نعلم أبناءنا الايمان فى كل مراحل حياتهم ..لكى يعلموا أن الله سبحانه وتعالى صديق .. أعظم صديق ..

يريد لنا الخير لا فاصل ولا حائل بيننا وبينه .. اذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون ..

العلم وحدة .. مدمر

أردت أن أحكى لكم هذا .. ولعلنى حاولت أن أستعرض جزءا من حياتى منذ أن بدأت فى القرية الى أن انتهيت بها فى الزنزانة فى سجن قرامدان .. وبعد ذلك وأنا مسئول عن شعب مصر وكنت أزور بريطانيا .. فى العام قبل الماضى سألنى صحفى بريطانى.. ماذا تعنى بكلمة .. أو بشعار العلم والايمان .. فحكيت له عما حكيت لكم من

انا لن نسـتطيع أن تتخلف والا لعنتنا أجيالنا المقبلة وخاصـة اننا نملك أمرنا فى يدنـا •• لم يعـد هناك مستعمر •• ولم يعـد هناك حاكم يطوع أى شىء لنفسـه أو لذاته •• انمـا على كل حاكم أن يستجيب لمـا يراه الشـعب ولمـا اصطلحت عليه أمته من عقيدة •• ومن سلوك •• قلت له أن العـلم وحده مدمر ولكن بالعلم والايمان •• يكون العـلم أداة الايمان •• وأداة معرفة •• وأداة رشـد •• وضربت له مثـلا •• قلت له حينما كنت بصـدد اتخاذ قرار المعـركة •• كان الذى يقرأ صـحف الأمة العربيـة كلها خـلال تلك الأيام السوداء •• أيام النكسة •• يحس بما كان يعانيه شعبنا العربى نتيجة مايكتبه أولئك الذين يحللون وأولئك الذين يعتبرون أنفسهم من أصحاب المعرفة والثقـافة • وهم كما قلت لكم من أنصـاف المثقفين •• وهم أخطرنا •• تفشـت دعاوى الهزيمة والانهزامية الى أقصى الحدود ـ ليس فى العـالم فقط ـ بسـبب الانتصار الخرافى الذى حصـلت عليـه اسرائيل بدون جهـد على الاطلاق ••

ليس فقط فى العالم وقـد كان العالم يؤمن أن العرب جثـة هامدة لا حراك فيها لخمسين سـنة مقبلة بل أخطـر شىء أن انتقلت هـذه الدعاوى الانهزاميـة الى داخـل الأمة العربيـة وبدأ كتابنا وأدعياء الثقافة فيهـا يحللون ويكتبون عن استحالة أى عمل ضد اسرائيل •

العلم وروح الايمان

قلت للصحفى الانجليـزى •• لعلى وقتها خـلال عام ٧٣ لو اننى لجأت الى العـلم وحـده وأقصى ما توصل اليه العـلم هو العقـل الالكترونى •• لعلى اذا لجأت اليه ووضعت فيه كل العوامل والمسببات والمعلومات وقوى الطرفين ومايدور فى العالم ويدور داخل الأمة العربية ثم طلبت من العقل الالكترونى كما يحدث اليوم فى العالم كله •• هم يضعون جميع مشاكلهم ببياناتها فى هذا العقل وينتظرون منه الاجابة •• قلت له لعلى اذا كنت قـد جمعت

كل تلك المعلومات ووضعتها فى العقل الالكترونى وانتظرت الاجابة .. وقلت له .. ماذا تظن أن الاجابة كانت ستكون .. قال .. بالتأكيد .. لا .. لا معركة .. هو صحفى انجليزى .. بالتأكيد الاجابة لامعركة لأننا نحن فى العالم كله نؤمن بأن العرب جثة هامدة وأنه لا حراك فيهم ولن يكون لهم أى وزن لا سياسى ولا عسكرى للخمسين سنة المقبلة.

قلت له لقد أجبت على سؤالك .. لم أضع حساباتى فى العقل الالكترونى .. المادى البحت .. وانما هناك جانب لا يمكن للعقول الالكترونية مهما أبدعت .. ومهما كان اختراعها .. ومهما كانت دقتها .. هناك شىء لا يبين فى هذا العقل .. الايمان .. روح الله الكامنة فى كل منا .. وكيف أنه عندما يغلبها على روح الشر والشيطان يكون أفضل من الملائكة ..

من الطفولة الى الشيخوخة

أردت بهذا أن أتحدث اليكم عن أمر يزعجنى حقيقة وهو كيف نستطيع أن نعلم الايمان لشبابنا ولفتياتنا .. منذ الطفولة الى الشيخوخة .. نريد أن نضع لهم برامج وأساليب مما يأخذ به العصر اليوم .. لكى نعلمهم الايمان ولكى يزدهر خيال الطفل فيصل فى يوم من الأيام الى أن يحس بالرباط القوى الذى يربطه بالخلاق العليم .. وأن يصادقه .. وعندما يصادق الانسان الله سبحانه وتعالى .. فسيصادق الناس .. وسيصادق الأشياء وسيحس أنه لم يخلق فى هذه الدنيا عبثا .. وانما هو جزء من خلق كامل .. أبدعه الخلاق العليم ووضع له من النواميس .. والقوانين بحيث من اتبعها فاز ونجا .. ومن خالفها .. خاب وانهزم .. ادعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقكم فيما أنتم بصدده .. وأن يوفقكم فى أن تضعوا لنا أسلوبا يوفر علينا ما نعيشه من معاناة من أجل أجيالنا المقبلة .. ويزيح من طريقهم ذلك التيه .. الذى يعيشون فيه فتستقيم نفوسهم .. وتتوطد ضمائرهم .. ويتخذون الله سبحانه وتعالى الصديق الذى يريد لنا الحياة قوية شريفة .. وفقكم الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة

السيد / محمد حسني مبارك

نائب رئيس الجمهورية

في حفل افتتاح

المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين ..

أيها السادة العلماء أعضاء المؤتمر : أحييكم وأرحب بكم، وأنقل اليكم تحيات السيد الرئيس محمد أنور السادات، واعزازه لمجمعكم الموقر، ورجاءه لكم بالتوفيق فيما اجتمعتم من أجله، وتحية من أبناء مصر الى الأمة الاسلامية جميعا ممثلة فيكم، تحية أخاء وولاء .

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

أيها السادة العلماء :

ان مجمع البحوث الاسلامية ـ بوصفه أعلى هيئة علمية بالأزهر ـ يحمل واجبا كبيرا تجاه العالم الاسلامي كله، وتجاه المشكلات التي تواجه المسلمين اليوم، وهي مشكلات تتجدد وتتلاحق، تبعا لظروف عصرنا ولأوضاع مجتمعاتنا .

ان من واجب هذا المجمع في هيئته الدائمة، وفي مؤتمراته المتكررة، أن يتابع الأحداث التي تهم المسلمين، وأن يدرس المشكلات التي تشغلهم، وأن يقوم فيهم بالرأي والفتوى، والتذكير والدعوة، ففي كل يوم حدث جديد، ولكل حدث حكمته وواجباته .

لقد نصرنا الله فى العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ « وما النصر الا من عند الله • ان الله عزيز حكيم » •

دخلنا هذه المعركة معتمدين عليه سبحانه ـ آملين فى نصره، مستنيرين بهدى الاسلام وبنور القرآن • ووقف أبناؤنا فى مواجهة أخبث عدو وفى موقف من أرهب المواقف وأضراها، فضحوا بأرواحهم ودمائهم مؤمنين بقوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » • فأمدهم الله بعونه ، وأيدهم بنصره •

أيها الأخوة :

ان أجزاء من قلب العالم الاسلامى ما تزال مغتصبة ، تحتلها قوى الشر الصهيونية ، وان المسجد الأقصى الشريف ما يزال فى أيدى أعدائنا ، وان اخواننا أبناء فلسطين لم يستردوا حقوقهم الشرعية بعد ، وهذا الموقف يحتم استمرار الجهاد حتى نستنقذ وطننا ومقدساتنا ، وحقوق اخوتنا •

هذا واجبنا جميعا لا يثتنى منه أحد ، واننا لا نمل أن نذكر المسلمين ونذكر العالم كل يوم بعدالة قضيتنا •

ان قضايا الأمم لا تتقادم • وان حقوقها لا تضيع ولو طال عليها الزمن • وانه لينبغى لمؤتمركم أن يكون له دور ايجابى تجاه هذا الواجب •

أيها الاخوة :

اننا نواجه اليوم تيارات فكرية وأخلاقية عنيفة مدمرة ، ونواجه مشكلات اقتصادية واجتماعية عديدة فنحن فى حاجة الى جهود العلماء والباحثين ، والى رأى أولى الرأى والى علم أولى العلم والى عمل علمى مخلص نواجه به هذه المشكلات •

ان فى مبادىء الاسلام علاجا لكل ما يعرض لنا فانه يدل الى الخير ، ويجمع على الرشد ، ويهدى الى الصراط المستقيم : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين • يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام

ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى الصراط المستقيم » .

ان مبادىء الاسلام فى الأخلاق أوفى المبادىء وأكثرها تفصيلا وتحديدا . فلنعالج بها ما قد يتسرب الى مجتمعاتنا من فكر غريب ونزعات منحرفة ، واننا لنجد فى آية واحدة من كتاب الله تعالى صلاحا لما قد نشكو منه من أمرنا ، يقول الله تعالى :

« ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ولو أن كل مؤمن كان قواما بالقسط ، ملتزما للحق ، شهيدا على نفسه وأهله لله ، فى كل ما يأتى وما يذر ، لصلح شأن الجماعات ، واستقرت به أمورها .

نحن اليوم فى أشد الحاجة الى أن تنمى نوازع الخير فى أبنائنا ، ونغرس فى نفوسهم كريم الأخلاق ، وهذا أساس لبناء للأمم ، وقاعدتها الأولى لكل عمل عظيم .

واجبكم أيها العلماء هنا واضح فانكم تضعون الخطة ، وترشدون الى الوسيلة الصالحة لتربية الأبناء على المبادىء الكريمة ، وحمايتهم من النزعات الفاسدة .

أيها السادة أعضاء المؤتمر ..

لقد أصبحت مصالح العالم اليوم متشابكة ، والعلاقات القائمة بين أجزائه معقدة وحياة العوالم الاسلامية ليست بمعزل عن تيار الحياة العام . ولكن كتاب الله الذى وسع كل شىء لن يضيق بحل هذه المشكلات . وانه ينبغى أن تتبع دائما قوله تعالى :

« فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول » وقوله سبحانه : « ولو ردوه الى الرسول وأولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

وأنتم الذين تستنبطون الأحكام وتبينونها للناس .

هذا دوركم أيها العلماء تجاه عصرنا المتغير فى شئون الاقتصاد والاجتماع .

أيها السادة أعضاء المؤتمر :

نحن نعلم أهمية الرسالة التى تحملونها ، ونشارككم شرف القيام بها ، واسمحوا لى أن أقول لكم :

« اننا بالعلم والايمان يمكن أن نتغلب على أقوى الصعوبات » .

ونحن والعالم الاسلامى كله فى انتظار ما يسفر عنه مؤتمركم ،

وختاما : أكرر لكم ترحيب الشعب المصرى والسيد الرئيس محمد أنور السادات بكم — وأتمنى لكم اقامة طيبة وتوفيقا وسدادا ..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الايمان . حياة . وقوة . واى شعب ومجتمع يعيش بعيدا عن الايمان يفقد امانه . وتتحول حياة الافراد فيه الى نوع من القرصنة والخداع والتوحش .

توماس ارنولد

كلمة

صاحب الفضيلة الإمام الأكبر
الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر
ورئيس المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين فى حفل افتتاحه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين •

« ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » •

السيد نائب رئيس الجمهورية

أيها الاخوة المؤمنون

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وأهلا بكم ومرحبا فى رحاب الأزهر : معهدكم العتيق ، وبيتكم العريق •

لقد استجبتم لدعوة الأزهر وحضرتم الى القاهرة من جميع أنحاء العالم لنؤكد معا وحدة الفكر الاسلامى ووقوف المسلمين فى وحدة متماسكة ضد كل انحراف عن التوجيهات الربانية • والأزهر اليوم اذ يفتح ذراعيه مرحبا بكم فى بيت الأسرة العريق فانما يؤكد بذلك حرصه على استمراره فى أداء رسالته الخالصة لدين الله ، ويجدد العزم على مواصلة السير فى طريقه التاريخى •

لقد مكث الأزهر ألف عام ـ ولا يزال ـ يقوم بنشر رسالة الاسلام، ايمانا منه بأنها جوهر الوجود الاجتماعى للمسلمين ، والنبع المتجدد لرقيهم •

أيها الاخوة أعضاء المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الاسلامية :

اننا نجتمع اليوم للبحث فى موضوع « الاسلام وقضاياه المعاصرة » وهذه القضايا المعاصرة مطروحة أمامكم اليوم فى مجموعة من البحوث النفيسة تتمثل فى ثلاث شعب :

الشعبة الاولى :

عن دور اللغة العربية فى الحفاظ على الجو الاسلامى .

الشعبة الثانية :

تتمثل فى ضرورة مواجهة الغزو الفكرى .

الشعبة الثالثة :

عن ضرورة الاعتصام بالاسلام . شريعة وسلوكا .

أيها الاخوة المؤمنون :

لقد مكث الأزهر ألف عام — ولا يزال — يقوم على المحافظة على اللغة العربية ، ولقد وقف فى وجه كل النزاعات التى أرادت بها شرا .

انه وقف فى وجه الدعوة الى العامية ، والدعوة الى العامية ضعف وسخف،فقد يوجد فى القطر الواحد عدة لغات ولهجات عامية ، ثم انها ستقطعنا عن تراثنا الماضى والحاضر، وستقطعنا عن التفاهم مع بقية اخواننا العرب ، وما كانت العامية فى يوم من الأيام لغة حضارة .

ووقف الأزهر فى وجه الدعوة الى الكتابة بالحروف اللاتينية وانى لأعلن هنا فى غير لبس أو غموض أن كل دولة اسلامية اتخذت الحروف اللاتينية لكتابتها انما فعلت ما يغضب الله ورسوله،وما يمقته الله ورسوله، والذين يبوءون باثم ذلك هم المنفذون والراضون بالتنفيذ .

ولقد وقف الأزهر فى وجه تيارات الغزو الفكرى الآتى من الشرق أو من الغرب . وأعنف صور هذا الغزو اليوم تتمثل فى المذهب الماركسى ، وبخاصة بعد أن أخذ أتباعه يروجون له فى العالم الاسلامى تحت أثواب كاذبة خادعة .

لقد قال ماركس كلمته المشهورة الحاسمة فى بيان موقف المذهب الماركسى من الدين : قال « ان الدين أفيون الشعوب » ولقد تلقف لينين هذه الكلمة لكارل ماركس ،

وأعلن أن هـذه الكلمة هى حجر الزاوية فى الفلسفة المـاركسية فيما يتعلق بالدين .

انه يقول حرفيا :

« قال ماركس : ان الدين هـو أفيون الفقراء ، وهـذا هـو حجر الزاويـة فى الفلسـفة المـاركسية جميعها من ناحيـة الدين ، وتعـد الماركسيةالديانات جميعهاوالكنائس وكل أنواع المنظمـات الدينية آلة لرد الفعـل البرجـوازى الذى يستهدف الاستغلال بتخدير الطبقة العاملة » .

وفى المقـدمة التى كتبت لكتاب لينين ما يلى نصا :

« الالحـاد جـزء طبيعى من المـاركسية لا ينفصل عنها » .

ويقول « لوناشارسكى » الذى كـان يومـا مـا وزيرا للتعليم فى حـكومة الشيوعيين « نحن نكره المسيحية والمسيحيين ، وحتى أحسن المسيحيين خلقا نعده أشد أعدائنا ، وهم يبشرون بحب الجيران والعطف والرحمة ، وهـذا يخالف مبادئنا ، والحب المسيحى عقبة فى سبيل تقدم الثورة ... » .

وفى البرنامج الذى وضع للمؤتمر الـدولى الشـيوعى السادس الذى عقد فى عام ١٩٢٨ : (ان الحـرب ضدالدين ـ وهو أفيون الشعوب ـ تشغل مكانا هاما بين أعمال الثورة الثقافيـة ، ويلزم أن تستمر هـذه الحرب باصرار وبطريقة منظمة) .

انه من الواضح وضوحا شديدا أن الشيوعية فى العقيدة معارضـة للاسلام وهى فى الأخلاق معارضـة للاسلام . وهى فى الاقتصاد معارضة للاسلام . فهى اذن ملحدة ، لايشك الشيوعيون فى ذلك ، ولا يشك فيه غيرهم .

وأخذت معاول الهدم الشيوعية تنال من الدين فى كل مكان تسود فيه الشيوعية ، وهى لا تنـال من الدين بأسلوب فيه هوادة ورأفة ، وانما تنال من الدين ومن رجـال الدين بأسلوب عنيف قاس . انهـا مجازر تقام ، ودماء تسفح ، وسجون تمـلأ ، وتفنن فى التعـذيب ، أما الخراب فانه ثمرة كل ذلك .

وكارل ماركس يهودى .

أيها الاخوة المؤمنون : ان قراءة كتـاب « بروتوكولات حكمـاء

صهيون » مفيد كل الافادة لمعرفة المخطط الخبيث الذى يقوم بتنفيذه اليهود :

انهم يروجون لكل فكرة منحرفة ، ولكل رأى ضال ، ويحاولون عن طريق الصحافة والكتب والاذاعة الترويج لكل منحل ، واذاعة كل فاسد • لقد تعاهدوا فى مواثيقهم على نشر آراء طائفة معينة من الذين عقدوا العزم على افساد العالم بآرائهم ، وكان من هؤلاء ماركس •

ويقول اليهود فى مواثيقهم :

نحن الذين رتبنا نجاح كارل ماركس •

لقد رتبوا نجاحه لأنه يفسد على الناس النظام الطبيعى والربانى ، انه يفسد عليهم نظامهم فى العقائد وفى الأخلاق وفى الاقتصاد • ووقف الأزهر فى وجه كل ذلك،وقف كالطود الراسخ يدافع عن الذاتية الاسلامية، ويحاول فى صمود لايلين أن ينفى عن الذاتية الاسلامية الدخيل والغزو الفكرى ، وما لانت قناته يوما ما •

أيها الاخوة المؤمنون :

وان الشيوعية لتلتقى مع الاستعمار الغربى ومع الصهيونية فى مقاومة اعتصام المسلمين بالاسلام •

وهذه هى القضية الثالثة من قضايا الاسلام المعاصرة التى تطرح فى هذا المؤتمر •

ماذا حدث أيها السادة فى غيبة التوجيه الاسلامى عن حياتنا المعاصرة ؟ •

١ ــ حدث هذا الرجس الذى نراه فى الاستهتار بالقيم الدينية استهتارا بلغ من شأنه أن أصبح الالحاد فى دين الله من الأمور التى تمر فلا تسترعى انتباها •

٢ ــ وفى غيبة التوجيه الاسلامى كان هذا الطوفان من الاستهتار بالقيم الأخلاقية الذى يسود فى كثير من زوايا المجتمعات الاسلامية •

٣ ــ وفى غيبة التوجيه الاسلامى كان هذا الفساد الذى يسود المعاملات ، من الربا والرشوة ،

والاختلاسات ، وغير ذلك من المفاسد التى انتشرت شرقا وغربا .

أيها الاخوة المؤمنون :

ان هناك تحالفا صهيونيا استعماريا شيوعيا ضد الاسلام . وآثاره كما هى واضحة فى مقاومة التشريع الاسلامى : فاننا نجدها فى كل مكان يئن فيه شعب مسلم جريح .

نجدها فى القدس ، وفى فلسطين ، وفى الأرض العربية المحتلة . نجدها فى الشعب المسلم الجريح فى الفلبين .

نجدها فى الشعب المسلم الجريح فى أريتريا .

نجدها فى التآمر الخفى لتدمير المجتمعات الاسلامية فى أنحاء مختلفة من العالم . وان علينا أن نواجه ذلك كله . علينا أن نواجه الاعتداء على الأرض المقدسة ونعلن صيحتنا المدوية من أجل استنقاذ المسجد الأقصى من اسار العدوان الصهيونى .

كما أن علينا أن نواجه الاعتداء على العقائد ، ونستخلص ضمائر المسلمين من براثن الغزو الفكرى .

أيها الاخوة :

ان للأمة الاسلامية رسالة هى رسالة الله الى العالم ، وهى آخر الرسالات ، طابعها الرحمة لكل عوالم الله فى الأرض وفى السماء ، ومنهجها الرقى بالمجتمع المنهج الذى أعلنه الله تعالى فى كتابه العزيز .. المنهج الذى يجب علينا نشره بكل الوسائل وبشتى الطرق ، وأن نأخذ به فى أقطارنا هو العلم ، وتزكية النفس .

« يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » .

والقرآن يشرح هذا المنهج فى جملته وفى تفصيله ، انه يحث فى استفاضة على العلم ، ويتحدث عن مكانة العلماء وعن مكانة العلم وعن ثمار العلم . ولن تنهض أمة بغير علم ، ويتحدث القرآن الكريم فى استفاضة عن تزكية النفس ، وعن كل ما يتصل بتزكية النفس وسائل وغايات وثمارا .. ولن تنهض أمة بغير تزكية النفس .

ولن تنهض أمتنا الاسلامية الا اذا التزمت المنهج القرآنى مطبقة له

فى جانبه العلمى : فنشرت العلم فى عموم وشمول ، وأخذت بتزكية النفس فى قوة متبعة مبادىء الاسلام فى ذلك . وهذا المنهج هو الذى اتبعه أسلافنا فكانوا سادة وكانوا أعزة بالله تعالى .

أيها الاخوة العلماء :

أن واجبا مقدسا فى العصر الحديث ينادينا لنحيى من جديد مسيرة سلفنا الصالح وذلك بالاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وحراسة تراث الاسلام وتعاليمه من كل خطر يتهدد الأمة الاسلامية فى الفكر والعادات والنظم والسلوك . وان أخص مهمة نقوم بها اليوم فى دفع عجلة التقدم الاسلامى أن نسعى ــ بالتكاتف والمؤازرة والتعاون ــ للعمل على تطبيق الشريعة الاسلامية من أجل سعادة الانسان فى حياته الدنيا ، والآخرة . فاذا ما طبقت الشريعة الاسلامية انتفت الشيوعيه وآمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم . واذا أخذنا بالمنهج الاسلامى (يعلمهم ويزكيهم) العلم وتزكية النفس فاننا نكون قد ضمنا النهضة الاسلامية فى صورة صحيحة لانها الصورة التى رسمها كتاب الله وطبقها رسوله صلى الله عليه وسلم .

ان علينا أن نبدأ كما بدأ أسلافنا، والله فى عون المجاهدين . « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز . والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله مع المحسنين » .

أيها الاخوة المؤمنون :

فى ختام هذه الكلمة نحب أن نقول : ان الأزهر للعالم الاسلامى كله لا يختص به قطر دون قطر وقد وجد ــ بحق ــ فى مصر خير موئل، وفى رئيسها المؤمن محمد أنور السادات خير نصير .

انه يقول عن الأزهر : « لولا الأزهر ما انتشر الاسلام شرقا وغربا » ولقد كان الرئيس المؤمن فى كل ظروفه وأوقاته خير نصير للأزهر من أجل أن يؤدى رسالته كاملة غير منقوصه .

وفى رحاب الأزهر العريق نقول لعلماء المسلمين من جميع أنحاء العالم « اهلابكم ومرحبا » .

كلمـــة

صاحب الفضيلة الدكتور عبد الجليل شلبى

الأمين العام لمجمع البحــوث الاســلامية
فى حفــل افتتــاح المؤتمر الثامن لعلمــاء المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهــذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا •

والصلاة والسلام على أكرم خلق الله وخاتم رسله سيدنا محمد النبى الأمى الذى أرســله الله شــاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا •

نسأل الله تعــالى أن يجعلنا من المهتدين بهديه ، والمستنيرين بسنته، والعــاملين على نشر دعوته ، وأن يهبنا التوفيق فيمــا ندعو اليه من الخير والفلاح •

اخوتنا الأعزة :

مرحبــا بكــم فى بلدكم وبــين اخــوتكم المسلمين فى هــذا القطر العريق ، ومرحبــا بكم فى رحاب الأزهــر جامعــكم وجامعتــكم ، مدرســة كل مسلم يهفو قلبه الى الارتواء من روحانيــة الاســلام ، ويتطلع عقله الى التغذى من ثقافته الواسعة وفكره العميق •

لقد كانت مصر أول بلد فى هذه القــارة الأفريقية يُبْنى فيه مسجد وتقوم مدرسة اسلامية ، ومنذ أنشأ عمرو بن العاص مسجده كان منارة تبعث بأضواء الثقافة الاسلامية الى كل ماوراءها من الأقطار •• وطوال ثلاثة قرون كان وحده منهل الظامئين لمختلف الثقافات دينية وغير دينية ، ثم آل تراثه الى الجامع الأزهر فحمل لواء الحركة الثقافية الواسعة منــذ أكثر من ألف عام ، ويكفيه ــ الى جــانب ما له من جــلال الغرض وقداسة الرسالة ــ أنه ظــل طوال هذه الأحقاب يتضوع بنور الاسلام وتتجاوب بين جدرانه أصداء الدرس والعبادة جميعا •

ومجمع البحوث الاسلامية يضطلع بجانب من جوانب النشاط العلمى فى هذا المعهد العتيد .

والمؤتمرات الاسلامية التي يعقدها المجمع ويعتبرها جزءا من رسالته ، انما هى مرآة تنعكس عليها مظاهر نشاطه ، وقراراتها وتوصياتها تنتقل مع مندوبيها ومع مبعوثى الأزهر العديدين ، وتنال تقدير المسلمين واهتمامهم فى كل مكان تنتقل اليه ، وهى فى مصر موضع عناية كبيرة من الهيئات العلمية ودوائر البحث الفقهى ، وقد نُفِّذ منها ما سمحت به الظروف المحيطة بنا وبالعالم الاسلامى كله ، وسائرها بسبيل التنفيذ ان شاء الله تعالى .

ومما يُكسب قرارات مؤتمراتنا وتوصياتها أهميتها أنها لم تصدر الا بعد تمحيص ودقة ، وشهودها من ذوى الرأى الاسلامى من مختلف الأقطار قد يجعل لها صفة الاجماع الشرعى ، وآراء المجمع التى يصدرها فى غير المؤتمرات لها أيضا هذه الصفة لأن أعضاء المجمع هم الصفوة البارزة من علماء الأقطار الاسلامية .

وقد خصص المجمع لجنة خاصة لمتابعة المشكلات الفقهية ، وهى تحاول حل هذه المشكلات فى كثير من المرونة ورحابة الأفق ، ولكنها دائما فى اطار الشريعة الاسلامية وتعاليم السنة والقرآن .

وازاء ما اتجهت اليه الدول الاسلامية بأن تجعل قوانينها كلها مشتقة من الشريعة الاسلامية ، وأن تتخذها المصدر الأساسى فى كل تشريعاتها ، لجأ العديد من هذه الدول الى مجمعنا هذا ليصوغ ابواب الفقه الاسلامى فى مواد قانونية .

وقد خصص المجمع لجانا لهذا التقنين على المذاهب الأربعة المشهورة كل مذهب على حدة ، وبدأت بالأبواب ذات الأهمية ، ولكنها ستأتى على سائر ابواب الفقه ان شاء الله ، وقد طبعت كميات هائلة من هذا التقنين ولكن الطلبات المتلاحقة من هيئات القانون المختلفة فى مصر وخارج مصر أستنفدت كل هذه الكميات ونحن مضطرون الى اعادة طبعها مرارا .. وتدل هذه الطلبات المتزايدة أنها ذات أهمية

كبيرة ، وأن العالم الاسلامى كان متعطشا الى هذا التقنين ، والشريعة الاسلامية بحمد الله ذات شمول وسعة ، وموادها تفى بمطالب الحياة المتطورة ، وليس العمل بها متوقفا على هذا التقنين ، ولكنه عمل توضيحى يقصد منه تسهيل الرجوع الى هذه الأحكام •

والى جانب هذا النشاط الفقهى وسنادا له وايضا تيسيرا لاشاعة الثقافة الاسلامية أخرج المجمع تفسيرا للقرآن الكريم فى لغة مبسطة ، وبعيدا عن الخلافات المذهبية ، ودل الاقبال الشديد على هذا التفسير أنه سد فراغا كبيرا فى حياة الناس ،

وقد أخرجت اللجنة الموكول اليها هذا العمل اربعة عشر جزءا منه ، والله وحده يتولى جزاءها على ماتعانى من جهد مضن فى تمحيص الاراء واختيار الأنسب والأسهل من المذاهب والعبارات •

وقد اختار المجمع منذ بضع سنوات كتاب الجامع الكبير للامام السيوطى ليبعثه فى ثوب عصرى جديد ، يصحح ألفاظه ويخرج أحاديثه ويبين درجاتها ، ويشرح غوامضها ، وكأن السيوطى ــ رحمه الله ــ قد أراد بهذا الكتاب أن يجمع كل الاحاديث النبوية ، فتضخم الكتاب ونما ، ولكننا مصرون على اخراجه كله ، ومن الله وحده العون وعليه قصد السبيل •

وفى سبيل نشر الدعوة والثقافة الاسلامية يضطلع المجمع بأعباء وأعمال كثيرة متنوعة •

فلنا الآن مبعوثون فى أنحاء العالم كله ، يقومون بالأمانة والارشاد والتدريس • وبعض المعاهد العليا والجامعات فى البلاد العربية تعتمد على أبناء الازهر وحدهم • وفى كثير من الأقطار يتحمل المجمع نفقات مبعوثيه ، ولا يكلف البلاد التى يعملون بها شيئا ، وهذا يحمله أعباء مادية كبيرة ، ولكنها تهون فى سبيل نشر الاسلام واللغة العربية ، وفى سبيل تأكيد الأخوة والتعاون مع هذه الأقطار •

وفى السنوات الأخيرة فتحت مساجد ومركزا سلامية جديدة فى

البلاد الأوروبية وفى أمريكا وشرق آسيا وجنوبها ، وفى استراليا،وكان ذلك نتيجة لتقارب أطراف العالم ونزوح أقليات من المسلمين الى هذه البلاد ، فنشأت جاليات اسلامية بين قوم لم يكونوا يعرفون عن الاسلام الا اسمه ، أو ماقرأوا عنه مما كتبه أعداؤه المستشرقون .

وقد اتجهت هذه المراكز الى مجمع البحوث تطلب أئمة ومعلمين ، ولابد أن يكون هؤلاء ملمين بلغات البلاد التى يذهبون اليها ، والمجمع الآن بصدد ارسال بعثة قوامها مائة على الاقل من خريجى كليات الازهر لدرس اللغات الاوروبية الشائعة حتى يمكن أن يقوموا بما تتطلبه هذه المراكز الجديدة . ففى ألمانيا الغربية وبلجيكا وهولانده وفرنسا وانجلترا وبعض دول البلقان واليونان وايطاليا وأسبانيا . وغيرها بنيت مساجد جديدة . وفتحت مساجد كانت مغلقة أواتخذت متاحف أثرية . وعبء ذلك كله ملقى على عاتق مجمع البحوث ، وكل ذلك يتطلب جهودا مادية كبيرة الى جانب الاعداد العلمى والثقافى ، فهذه المراكز والمساجد لاتطلب أئمة فقط ، بل تطلب الكتب والمراجع العربية حيث لا وجود للغة العربية فى هذه البلاد .

واننا نأمل من وجود مبعوثينا فى هذه البلاد وشرحهم حقائق الاسلام بالكلام والكتابة أن ينجحوا فى وضع صورة حقيقية للاسلام يبرز سماحته وعدله ومابه من جوانب انسانية لاتوجد فى غيره من الأديان ، وقد يزيل توضيح هذه الحقائق ما بين الاسلام والأوروبيين ومن جفوة منشؤها الجهل بحقائق الاسلام ، كما أننا نأمل أن يقوم المبعوثون الوافدون على الأزهر ليتعلموا فيه بمثل هذه الرسالة حين ينقلبون الى بلادهم مزودين بثقافة الاسلام وأخلاق الاسلام .

ومع امتداد الاسلام وظهور لمعات منه فى هذه البلاد النائية تقوم ضده تيارات الحادية عنيفة ، وأخرى صهيونية خبيثة ماكرة ،

تهدف الى تشويه سمعة الاسلام ووقف تياره ، وقد انضم هذا النشاط الحديث الى ما كان يكتبه المستشرقون من قبل . ولم يقف مجمع البحوث موقفا سلبيا ازاء هذا الهجوم ، بل نشط لمقاومته وتفنيد مفترياته ، فأصدر النشرات والكتب والرسائل للرد على الشيوعيين وتصحيح أقوال المستشرقين وكبح الأقلام المسمومة عن الاسترسال فى مفترياتها .

ولعل هذا الجانب الذى أوضحته من نشاط مجتمعنا يبين تلقائيا أن المجمع والأزهر كله ليس جامعة مصرية وحسب ، وانما هو هيئة اسلامية عامة ، لكل دولة اسلامية وجماعة وفرد منه نصيب .

ونحن فى بهجة هذا اللقاء وسرورنا برؤية اخوتنا فى الدين وشركائنا فى الجهاد نذكر بالأسى المرير والحزن البالغ ما يدبر للمسجد الأقصى من كيد ، وما يراد به من سوء ، وقضية فلسطين لا تخص الفلسطينيين ولا تخص العرب وحدهم وانما هى قضية الاسلام والمسلمين ، فكل منا يحمل ازاءها مسئوليته ، ونحن لا نيأس من روح الله ، ولكننا نستدعى نصره بنصرنا دينه « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) » .

ومصر والحمد لله تعيش فى عهد ايمان وعلم يقودها رئيس مسلم يتخذ من القرآن حجة ومن الله هاديا ونصيرا .. وما نعلمه فيه من حب الاسلام ورغبته فى العمل على نشره هو ما شجعنا على طلب المزيد من مبعوثى الأزهر ، فعملهم ليس الا نوعا من الجهاد الفكرى ، واستعدادا لنشر الاسلام ، وأن الله تعالى قد منح هذا الرئيس المؤمن نصره بسبب ايمانه العميق به وحسن اعتماده عليه ، وقد اتسمت معركة العبور بسمات اسلامية أعادت الى ذاكرتنا معارك الاسلام الأولى .

ونسأل الله له المزيد من التوفيق وتوالى النصر حتى يحقق فيه آمال العرب والمسلمين .

كلمــة
الشيخ محمد عبــد الرحمن بكر
وزير العدل بدولة الامارات العربية في حفل افتتــاح المؤتمر الثامن لعلماء المسـلمين

الحمد لله الذى هدانا لهــذا وما كنا لنهتدى لولا أن هــدانا الله ، وأصلى وأسلم على محمد رســول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه واقتفى أثره وسار على سنته الى يوم الدين .

السيد نائب رئيس الجمهورية .. فضيلة الامام الأكبر .. أصــحاب السماحة والفضيلة .. أيها الاخوة:

ان خير ما أحييــكم به تحيــة الاســلام فتحية الاسلام السلام ، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد .. بالنيابة عن أعضاء الوفود وبالأصــالة عن نفسى يطيب لى أن أتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان لفخامة الرئيس محمد أنور السادات ولصاحب الفضيلة الامام الأكبر على اتاحتهم لنا فرصة هذا اللقاء الأخوى الكريم .

أيها الاخوة : انه لشرف عظيم أن أقف بين أيديكم هذا الموقف ... ولو ترك الخيار لى ، لتنحيت سعيدا عن مكانى هذا ، للأساتذة والشيوخ والعلماء ، الذين أدين لهم بالفضل، ويعترف الجميع لهم بالمكانة ورفعة القدر .

ولكن الأيثــار هنا ، ليس معناه التفضيل .. انه نوع من الأمانة ، التى ينوء بحملها الكثيرون ، وأظن أنهم توسموا فى الشباب شيئا من القوة ، ولكن القوة الحقيقية هنا ، وفى هذا المؤتمر ، هى أولا وأخيرا قوة الايمان ، وقوة العلم ، وقــوة الفكر وقوة الحكمة، غير أنى أتجاوز فى كلمتى هذه تلك الاعتبارات الى معنى الطاعة والوفاء للآباء والأساتذة فانزل على رأيهم واختيارهم .

ونحن هنـا فى مصر .. عنـدما نجتمـع فى مثل هـذا المؤتمر انما نجتمع أولا فى رحاب البلـد الذى ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه كنانة الله .. وان أجناده هم خير أجناد الأرض ، وأن مصر وشعبها فى رباط الى يوم القيامة ، دفاعا عن الاسـلام ... رسالة الله الأخيرة الى البشر .

وحين نذكر مصر .. يجىء الأزهر الشريف ويقف شامخا .. ومشعا .. ومشرقا فى أعين المسلمين فى كل شعب وفوق كل أرض .. انه المعهد الذى يحمل رسالة الاسلام ، وقد حملها زهاء عشرة قرون .. تعرض خلالها لمحن وأهوال .. ولكنه خرج منها ظافرا منتصرا .. لأنه رمز الاسلام، وقلعة القرآن الذى تعهد الله بحفظه الى نهاية الحياة .. انا نحن نزلنـا الذكر وانا له لحافظون .

فما بقى القرآن سيبقى الأزهر .. وسيخرج من كل محنـة ظـافرا ، ما حفظ كلمة اللـه ، وأدى رسالته كما ينبغى أن تكون .

فالأزهر اذن .. هو قلعة الاسلام الحصينة ، والمصنع الضخم للرجال، وأعداء الاسلام يدركون هذه الحقيقة ويعملون دائما على طمسها وهدمها، ولن ننسى ما قاله أحد المستعمرين العتاة ، حيث قال : لن يهزم المسلمون ما بقى فيهم ثلاثة أشـياء ، الكعبة والمصحف .. والأزهر .

وهذا الاجتماع انما هو صورة لهذه الحقيقة الاسلامية الخالدة .. ، التوحيد الذى هو جوهر الاسلام .. وحقيقة الوحـدة التى هى شـعار الاسلام .. وحقيقة التعـاون على التقـوى والبر ، الذى هـو دعوة الاسلام .

اننى اذ أتكلم باسم الوفود المدعوة الى هـذا المؤتمر ، فانما أعبـر فى الحقيقة عما يأتى :

أولا : عن معنى هذا اللقاء الذى يصـدر أساسا عن حقيقة الايمان الذى بدونه تصبح حيـاة المسلمين ضياعا وعبثا .

ثانيا : أن أذكر وأذكر أن هـذا الأزهر بالنسبة للشعوب الاسلامية

بمثابة القلب الذى اذا صلح صلح الجسد كله واذا اعتراه وهن أو ضعف، انسحب أثر ذلك على الحياة كلها..

لذلك فان من واجبنا المقدس ، أن نذود عن هذا الأزهر بكل ما نملك وبكل ما نستطيع ، لأن الأزهر هو الروح الجامعة لشتات المسلمين ... الأزهر جامعة .. والأزهر ثقافة .. والأزهر فكرا .

ولا تستقيم حياة بدون روح أو فكر أو ثقافة .

ثالثا : أننا نذكر لمصر حكومة وشعبا دورها الأصيل لحماية الاسلام، وفى الحفاظ عليه ، وفى الدعوة اليه فقد كان ذلك قدرها كما كان ذلك قدرها منذ مئات السنين ، ومنذ أشرقت فوق ربوعها شمس الاسلام ودين الله الى الناس كافة .

وقد كان هذا دور مصر بالأمس، وهو دورها اليوم ، وستظل باذن الله قائمة بهذه الرسالة وهذا الدور الى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يا أصحاب السماحة والفضيلة :

ان أربعة عشر قرنا من تاريخ الاسلام، تهتف بنا فى رحاب هذا المؤتمر ، وان عشرة قرون من تاريخ الأزهر تحضر هذا اللقاء الذى هو لقاء الأمل لشعوب الاسلام فى كل أرض، ولقاء العمل للهاتفين للدعوة الى الاصلاح والحق ، ولقاء المحبة للبشرية التى فشلت كل أنظمتها وشرائعها فى تحقيق المحبة والأمن ، ولقاء الجهاد فى البلد الذى يحمل لواء الجهاد فى هذا العصر ، ولقاء الشكر والامتنان لمصر والأزهر ولكل عالم وانسان فى الأزهر ومصر .

وفى الختام لا يسعنى الا أن أكرر الشكر ، وأتمنى لهذا المؤتمر كل توفيق ونجاح والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين
وصف تفصيلي

بقلم وإعداد: زاهر الزغبي

منــذ عشرة قرون ونيف ، كان الأزهر – ولما يزل – منارة تشع على العالم الاسلامى كله نور الله فيضىء الفكر بوميض العلم ، ويشرح الصدور بروحانية الايمان .

وعلى مر السنين صـار الأزهر للاسلام حصنا منيعا لا يقهر ، وقلعة قوية لا تقتحم .. حتى فى الأزمنة السوداء .. حيث تراخى المسلمون فى اعتصـامهم بحبل الله ، وتهاونوا فى التمسك بشريعته ، واسـتكانوا لمغريات الشهوة والأنانية، واستناموا لدعـاية الشعـوبية والانعـزالية ، فتحللت امبراطوريتهم الى شـظايا ودويـلات ، وهـان أمـرهم على الطامعين فيهم .. فأتى اليهم غزاة من برابرة الشرق – المغول الذين خربوا الديار ، وحرقوا الزروع ، ونهبوا الثمـار وقتلوا الرجـال والنسـاء والأطفال .. وتركوا كل مكان قاعا صفصفا .

وبهذا ضـاع المسـلمون ودالت دولتهم .. ولكن الاسـلام ظل فى الأزهر محفوظا بعنـاية الله .. لا جمرة رمضاء ران عليها رماد الهوان والضياع ، بل شعلة ملتهبة وقودها عناد الايمان ، ولهيبها العزم المصمم على رفع راية الاسلام أو الاستشهاد دونه .

وخرجت من رحاب الأزهر – من قاهرة المعز لدين الله .. عاصمة مصر – جحافل المؤمنين تصد الغزاة فتقهرهم وتسقط دولة الكفر ، وتعـود أمة المسلمين من جديد قوية .. عزيزة بعز المسلمين وبتأييد من الله .

وهكـذا كانت ارادة الله بـأن يحفظ الاسـلام بالأزهر ، والأزهر ومصر وحدة واحدة وكل لا يتجزأ ..

ومن ثم كان الأزهر ـ وان شئت قلت كانت مصر ـ كعبة القصاد من شتى أنحاء العالم الاسلامى ، ليتثقفوا بالعلم ، ويتفقهوا فى الدين ، ويتحدثوا بلغة الوحى ، أو يلجأوا طلبا للسلامة والحماية والأمن اذا حاقت بهم فى بلادهم أخطار تهددهم ، أو هوان يلحق بهم ..

وظل الأزهر كالعهد به ، حين أعاد التاريخ نفسه ، وجاء برابرة آخرون أتوا من الغرب .. فغزوا أمة الاسلام ، واقتسموها فيما بينهم .. مستعمرات يستنزفون خيراتها ، ويسخّرون انسانها ، ويحاولون طمس معالمه بردته وتحويله الى دينهم ، وانطاقة بلغاتهم ..

وأجيالنا المعاصرة تشهد كيف ناضل الأزهر حتى نالت مصر استقلالها ، وكيف ناضلت مصر حتى استعادت لبقية الدول الاسلامية ـ بل وغير الاسلامية ـ استقلالها وعزتها .. فمصر والأزهر للاسلام حتما .. ولكن خيرهما مع ذلك يعم الانسانية برمتها .

وخلال هذا العمر الطويل .. استطاع الأزهر أن يساير موكب الزمن ، ويواكب ركب التاريخ ، ويتلاءم ويتكيف مع مقتضيات كل عصر ، ويتطور مع كل تطور .. لأنه كان على الدوام الوعاء الحافظ لشريعة الله وشريعة الله لا تتعطل فاعليتها فى أى زمان أو مكان .. بل هى دائمة الصلاحية لكل مكان وكل آن .

ولما تراكمت تحديات العصر وتفاقمت مشكلاته ، وتعقدت معاملاته ، وتباينت وتضادت فيه النظم السياسية والاجتماعية لدول العالم .. وراجت فيه مذاهب وعقائد كفرية والحادية وانحلالية .. تتوالى ضارية موجة تتبعها أخرى ، واستشرى الفساد أو كاد ، وضاعت القيم أو اضمحلت ، واهتز الايمان ووهن فى قلوب الكثير من البشر ، كان على الأزهر أن يقف فى مجابهة كل هذا وينازله .. حتى تزول كلمة الكفر وتسود كلمة الايمان ، وأن يعرض على مقاييس الشريعة

وضوابطها كل مستحدث من النظم ، وكل جديد فى التعامل •• فان وافقها فهو حق مجاز ، وان ضادها فهو باطل مردود ، وان لم يكن على نهجها تماما عدله حتى يطابق •• فيكون مقبولا من الله والناس •

والأزهر فى هذا يقف الآن وسط المعركة جهادا فى سبيل الله •• ومجمع البحوث الاسلامية — وهو أحد مؤسسات الأزهر ، وأعضاؤه يكونون نخبة العلماء وخلاصة الفقهاء وأئمة العربية فى مصر والعالم الاسلامى — قد بدأ هذه المعركة منذ انشائه فى العقد الماضى •• حيث ألف اللجان ، وقدم البحوث ، وقنن للشريعة ، ودعا لسبعة مؤتمرات عالمية حضرها العديد من علماء العالم الاسلامى للتداول والتشاور فيما يهم المسلمين من قضايا العصر ، فأنجزوا الكثير من الأحكام البانة فى الكثير من القضايا المتداولة •

وكان أن نشطت — تبعا لذلك — منظمات اسلامية فى دول اسلامية أخرى — تأسست على غراره وتأسست بخطته ، فدعت الى مؤتمرات مماثلة ، فساعدها مجمع البحوث الاسلامية وساهم فى نشاطاتها وجهد على انجاح مؤتمراتها ، ونسق خطة العمل فيما بينه وكل منها ••

ثم كان المؤتمر الثامن لعلماء المسلمين حيث رتب له مجمع البحوث الاسلامية ، ودعا اليه نخبة العلماء والمصلحين والأئمة والمهتمين بقضايا الفكر من شتى أرجاء العالم الاسلامى ليتدارسوا مع الأركان من أعضائه الدائمين قضايا الساعة التى تهم المسلمين كافة ، ليقوموا حصاد المؤتمرات السابقة من توصيات وقرارات •• فيتعرفوا على ما تم تحقيقه منها •• وما ظل معطلا ينظرون فى سبل تذليل العقبات دون انجازه ••

وقد كان انعقاد المؤتمر على مرحلتين : الأولى وتشمل الأعضاء الدائمين لمجمع البحوث الاسلامية

وأعضاء الوفود المدعوة ،وقد بدأت بحفل الافتتاح يوم السبت ٢من ذى القعدة ١٣٩٧ الموافق ١٥ من أكتوبر ١٩٧٧ وانتهت يوم الخميس ٧ من ذى القعدة ١٣٩٧ هـ الموافق ٢٠ من أكتوبر ١٩٧٧ م حيث اصدر المؤتمر التوصيات والقرارات التى أقرها فى جلسات ومناقشات هذه الفترة •

ثم استمر الأعضاء الدائمون فى المجمع فى تقديم بحوثهم ومناقشاتها حتى نهاية ذى القعدة عام ١٣٩٧ هـ الموافق ١١ من نوفمبر ١٩٧٧ م

وفيما يلى بيان بأسماء أصحاب الفضيلة والسماحة الأعضاء الدائمين بمجمع البحوث الاسلامية والعلماء الذين وجهت اليهم الدعوة للاشتراك فى هذا المؤتمر •

بيـــان

باسماء السادة الاعضاء الدائمين بجمع البحوث الاسلامية

١ ــ فضيلة الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود جمهورية مصر العربية •

٢ ــ السيد الأستاذ الدكتور ابراهيم اللبان ــ جمهورية مصر العربية •

٣ ــ فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد حسن الباقورى ــ جمهورية مصر العربية •

٤ ــ فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد عبد العال هريدى ــ جمهورية مصر العربية •

٥ ــ فضيلة الأستاذ الدكتور بدوى عبد اللطيف ــ جمهورية مصر العربية •

٦ ــ فضيلة الأستاذ الشيخ حسنين مخلوف ــ جمهورية مصر العربية •

٧ ــ فضيلة الأستاذ الدكتور سليمان حزين ــ جمهورية مصر العربية •

٨ ــ فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الجليل شلبى ــ جمهورية مصر العربية •

٩ ـ فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى ـ جمهورية مصر العربية .

١٠ ـ السيد الأستاذ المستشار عبد الحليم الجندى ـ جمهورية مصر العربية .

١١ ـ فضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز عيسى ـ جمهورية مصر العربية .

١٢ ـ فضيلة الأستاذ الشيخ على الخفيف ـ جمهورية مصر العربية .

١٣ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر ـ جمهورية مصر العربية .

١٤ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور محمد البهى ـ جمهورية مصر العربية .

١٥ ـ فضيلة الأستاذ الشيخ محمد خاطر محمد الشيخ جمهورية مصر العربية .

١٦ ـ السيد الأستاذ محمد خلف اللهأحمد ـ جمهورية مصر العربية .

١٧ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ـ جمهورية مصر العربية .

١٨ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى ـ جمهورية مصر العربية .

١٩ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور محمد حسن فايد ـ جمهورية مصر العربية .

٢٠ ـ فضيلة الأستاذ الدكتور محمد محمد الفحام ـ جمهورية مصر العربية .

٢١ ـ السيد الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام ـ جمهورية مصر العربية .

٢٢ ـ سماحة السيد الأستاذ على عبد الرحمن الأمين ـ السودان .

٢٣ ـ السيد اللواء الركن محمود شيت خطاب ـ العراق .

٢٤ ـ السيد الأستاذ الدكتور اسحق موسى الحسينى ـ فلسطين .

٢٥ ـ السيد الأستاذ الدكتور عبد الجليل حسن محمد ـ ماليزيا .

بيـــان

بأسماء أصحاب السماحة المدعوين من غير الأعضاء الدائمين بمجمع البحوث الاسلامية

سماحة السيد/ محمد عبد الرحمن البكر – دولة الامارات العربية .

سماحة السيد/ عبد الله المحمودى دولة الامارات العربية .

سماحة السيد/ سعيد عبد الله حارب – دولة الامارات العربية .

سماحة السيد/ صقر عبد الله المدى – دولة الامارات العربية .

سماحة السيد/ محمد سيف النصر – دولة الامارات العربية .

سماحة السيد يوسف الحجى – الكويت .

سماحة السيد فيصل مسعود – الكويت .

سماحة السيد/ أحمد بسيونى – الكويت .

سماحة السيد/ عبد الستار السيد – سوريا .

سماحة السيد/ محمد ضرار الأصبحى – سوريا .

سماحة السيد/ خير الدين السيد – سوريا .

سماحة السيد/ عبد الحميد السايح – الأردن .

سماحة السيد/ راشد راجح الشريف – السعودية .

سماحة السيد/ عبد الله بن حسن ابن قاعود – السعودية .

سماحة السيد/ محمد المنتصر الكتانى – السعودية .

سماحة السيد/ كاكا عمر – الهند

سماحة السيد/ أسعد مدنى – الهند .

سماحة السيد/ القاضى بشير أحمد – الهند .

سماحة السيد/ فيض الرحمن بشير – الهند .

سماحة السيد/ ادريس قدرى – توجو .

سماحة السيد/آدم عبد الله ــ نيجيريا •

سماحة السيد/الامام موسى الصدر ــ لبنان •

سماحة السيد/حسين الموسوى ــ ــ لبنان •

سماحة السيد/أحمد اسماعيل ــ لبنان •

سماحة السيد/عباس بدر الدين ــ لبنان •

سماحة السيد/زهير عسيران ــ لبنان •

سماحة السيد/عثمان عبد القادر صافى ــ لبنان •

سماحة السيد/حسن القوتلى ــ لبنان •

سماحة السيد/عمر تدمرى ــ لبنان •

سماحة السيد/رشدى ايتام ــ اليونان •

سماحة السيد/رفعت مصطفى ــ قبرص •

سماحة السيد/اسماعيل بلتش ــ النمسا •

سماحة السيد /أبو بكر سراج الدين ــ انجلترا •

سماحة السيد/ضياء الدين بابا خانوف ــ روسيا •

سماحة السيد/الله باروف عزام روسيا •

سماحة السيد/أحمد حماه اللهـ مالى •

سماحة السيد/عمر عبد الله ــ جزر القمر •

سماحة السيد/محمد على ــ تنزانيا •

سماحة السيد/حبيب عبد الرحمن شاذلى ــ بنجلاديش •

سماحة السيد/محمد عويس أحمد ــ سيرالانكا •

سماحة السيد/حسن عبد الله فارح ــ الصومال •

سماحة السيد/أحمد حامى ــ الجزائر •

سماحة السيد/كامل السيد محمد الباقر - السودان .

سماحة الشيخ محمد جازولى - السودان .

مولانا مفتى محمود - باكستان

دكتور همكا - اندونيسيا .

سماحة السيد/رشدى همكا - اندونيسيا .

سماحة السيد/حسن بصرى - اندونيسيا .

سماحة السيد/أحمد زاهر بشير اندونيسيا .

سماحة السيد/محمد على هردن ماليزيا .

سماحة السيد/هاشم صادق المجددى - أفغانستان .

سماحة السيد/محمود محمد صبحى - ليبيا .

سماحة السيد/على مفتاح أبو قرين - ليبيا .

سماحة السيد/يوسف القرضاوى قطر .

سماحة السيد/الحاج جبريل سيسى - سيراليون .

سماحة السيد/عبد الكريم سيتو اليابان .

سماحة السيد/دكتور سيد مهدى خراسانى - ايران .

* * *

وقد شهد غرة ذى القعدة ١٣٩٧ هـ الموافق ١٤ من اكتوبر ١٩٧٧ م اكتمال وصول أعضاء الوفود المدعوة .. وقد بدأت على الفور فى هذا اليوم مراسم العمل بالتجمع لصلاة الجمعة فى الجامع الأزهر ، حيث خطب للجمعة وأم صلاتها فضيلة الدكتور عبد الجليل شلبى الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية ، وقد أدى الصلاة كل أعضاء المجمع وعلى رأسهم صاحب الفضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر ورئيس المجمع ، وجميع أعضاء الوفود المدعوة ، وعدد كبير من أصحاب الفضيلة علماء الأزهر ، وأساتذة وعمداء الكليات بجامعته ، وجمع من كبار رجال الدولة .

وفى خطبة الجمعة هذه ذكر فضيلة الدكتور عبد الجليل شلبى الأزهر بما هو أهل له ، وذكر بأن المسجد الأقصى ، وهو أول قبلة – صلى تجاهها الرسول الأمين سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ومنتهى اسرائه ، وفيه صلى آما جميع الأنبياء والمرسلين ، ومنه عرج الى الملكوت الأعلى وشاهد نور رب العالمين .. هذا المسجد يعانى الآن الهوان من شرذمة الصهاينة المارقين، وطالب العالم الاسلامى – ممثلا فى صفوة علمائه – أن يهبوا لانقاذه وتحريره من قبضة هؤلاء الأشرار الآثمين .

وفى صباح السبت التالى رفرفت أعلام الدول الاسلامية الممثلة فى المؤتمر على ضفاف النيل الكريم الخير .. حيث قاعة اللجنة المركزية التى شهدت جلسات المؤتمر ، وجرت فيها كل مناقشات الفترة الأولى التى حضرها الضيوف القادمون من كل القارات : أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا .

وفى تمام الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم بدأ حفل الافتتاح حيث حضره السيد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ممثلا للرئيس المؤمن محمد أنور السادات كما حضر هذا الحفل السيد / ممدوح سالم رئيس مجلس الوزراء وعدد من نوابه الوزراء وكبار رجال الدولة .

توسط السيد حسنى مبارك – نائب رئيس الجمهورية – المنصة الرئيسية ، وعن يمينه جلس صاحب الفضيلة الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ورئيس المؤتمر ثم سماحة السيد/ محمد عبد الرحمن بكر وزير العدل بدولة الامارات العربية ممثلا لأعضاء المؤتمر .

وعن يسار السيد نائب رئيس الجمهورية جلس صاحب الفضيلة الشيخ محمد المتولى شعراوى وزير الأوقاف وشئون الأزهر ثم صاحب الفضيلة الدكتور عبد الجليل

شلبى أمين عام مجمع البحوث الاسلامية الذى بدأ حفل الافتتاح بكلمته ثم تبعه صاحب الفضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر ورئيس المؤتمر ثم سماحة السيد / محمد عبد الرحمن بكر وزير العدل بدولة الامارات العربية فألقى كلمة أعضاء الوفود .. وجميع هذه الكلمات قد نشرت بنصها فى صدر هذا السياق .

ثم سارت أعمال المؤتمر بعد ذلك على الخط المقرر لها .. احدى عشرة جلسة فى ستة أيام من العمل المكثف الجاد استغرقت خمسا وثلاثين ساعة .. ناقش المؤتمر خلالها سبعةوعشرين بحثا .. كما خصصت ثلاثجلسات للمناقشة الحرة فى غير الأبحاث المدرجة فى جدول الأعمال ..

وفى هذه الجلسات الحرة أجمع الأعضاء على أن الوحدة الاسلامية ــ على أى صورة ممكنة ــ لا بد وأن تتحقق بين الدول والشعوب الاسلامية .. كما أجمعوا على ضرورة نجدة ومساندة الأقليات المسلمة التى تتعرض للاضطهاد والابادة : فىأريتريا والفلبين ولبنان على سبيل المثال لا الحصر ..

وقد ارتأوا أن الجهاد واجب على كل مسلم لتحرير الوطن السليب : فلسطين ، وانقاذ المسجد الأقصى والشعب العربى المسلم فى تلك الأراضى المقدسة من ربقة الاستعمار الصهيونى الغاشم .

ثم كان ختام الفترة الأولى فى يوم الخميس السابع من ذى القعدة ١٣٩٧ هـ الموافق للعشرين من اكتوبر ١٩٧٧ م حيث لبى الأعضاء دعوة الرئيس محمد أنور السادات فاستقبلهم ، ورحب بهم باستراحة القناطر الخيرية ، وألقى فيهم كلمته المنشورة فى صدر هذا السياق .

وفى الجلسة المسائية لهذا اليوم أعلن المؤتمر توصياته وقراراته ونصها كما يلى :

قرارات وتوصيات

الفترة الأولى للمؤتمر الثامن للعلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

فى رحاب الأزهر الشريف ، وعلى أرض القاهرة العريقة ، اجتمع المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الاسلامية ، بعون الله وتوفيقه مستجيبا لدعوة فضيلة الامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود ،شيخ الازهر ، ورئيس المؤتمر ، ووفد اليه علماء المسلمين من أربع وخمسين دولة من جميع أنحاء العالم ، ليسهموا فى عرض مشكلات العالم الاسلامى ، وليتدارسوا حلها ،على ضوء ما جاء فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وعلى مدى الأيام الستة لفترة المؤتمر الأولى ، التى بدأت فى صباح يوم السبت ، الثانى من ذى القعدة عام ١٣٩٧ هـ الموافق الخامس عشر من أكتوبر عام ١٩٧٧ ، أكد المؤتمر عزمه الراسخ على تقوية وعى المسلمين بما يجب عليهم من صيانة لمقدسات الاسلام ، وعمل على درء الأذى عن أتباعه،وكشف للمخططات التى تستهدف تضليل المسلمين عن حقائق دينهم ..

وأنه فى ختام الفترة الأولى لهذا المؤتمر الذى تم فيه التلاقى بين علماء المسلمين متواصين بالحق ، داعين الى الوحدة ، متعاونين على البر والتقوى ..

يسجل المؤتمر عظيم شكره وتقديره للسيد الرئيس محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية لرعايته للمؤتمر فى جميع مراحله : تفكيرا فى الدعوة اليه ، وتحقيقا لاجتماعه ، وحدبا على نجاحه ، وتفضلا بانتداب السيد محمد حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية ليفتتح المؤتمر باسمه ، ثم تفضله باستقبال اعضاء المؤتمر واحتفائه بهم ..

ويعلن المؤتمر ابتهاجه بان يواكب انعقاده احتفالات مصر والأمة العربية بعيد النصر لحرب العاشر من رمضان ، واقتحام الجيش المصرى الباسل حصن الصهيونية الذى كان رمز الاعتداء ، ويرى فى هذا النصر انجازا مباركا فى سبيل نشر السلام القائم على الحق والعدل ، يستحق أن تقدم من أجله التهنئة للسيد الرئيس محمد أنور السادات ، وللذين عاونوه وآزروه وللأمة المصرية ، والعربية ، والاسلامية .

كما يقدر المؤتمر للامام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر ورئيس المؤتمر جهوده الموفقة فى نجاح هذا المؤتمر ، واضطلاعه بحمل رسالة الأزهر ، فى خدمة الاسلام والمسلمين ، واعلاء كلمة الدين فى نشر العدل ، والخير ، والرحمة والتسامح ، والعلم والايمان ، فى كل قطر وكل بيئة .

وقد أسفرت الدراسات والبحوث التى قام بها المؤتمر فى فترته الأولى عن التوصيات الآتية :

« فلسطين » والاحتلال الاسرائيلى :

يؤكد المؤتمر ما سبق أن أعلنه من توصيات وقرارات فى دوراته السابقة بخصوص تحرير الأرض العربية التى اغتصبتها اسرائيل فى فلسطين ، وسوريا ، والأردن ، ولبنان ، ومصر ، ويؤكد دعوته للجهاد من أجل تحريرها ، ويقرر ضرورة عودة الفلسطينيين الى ديارهم واقامة دولتهم بارادتهم الحرة المستقلة .

ويعلن المؤتمر أن لأهل فلسطين الذين أخرجوا منها الحق كل الحق فى أن يعودوا اليها ، وأن يقيموا مع سائر الفلسطينيين دولتهم المستقلة التى يريدونها ، على أرض وطنهم فلسطين بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية التى تعبر عن ارادتهم الحرة .

كما يعلن المؤتمر أن اعادة القدس الى السيادة العربية الاسلامية كما كانت قبل العدوان شرط أساسى فى أى بحث يتناول هذه القضية .

لبنان :

يعلن المؤتمر عميق حزنه وأسفه للأحداث المؤلمة التى نزلت بلبنان ، ويدعو جميع المعنيين الى العمل على

انتشاله من محنته واحترام وحدته ، والالتزام بما يبقى عليه سيادته ، وكرامته •

المسلمون فى انحاء العالم :

ويوصى المؤتمر أن يؤلف المجمع لجنة دائمة تعنى بشئون المسلمين الذين يعانون صعوبات تجاه دينهم فى دولهم ، وأن يمنح هذه اللجنة الامكانات التى تيسر عملها ، وتحقق أهدافها ، ويعلن المؤتمر اهتمامه بأحوال المسلمين وسلامهم فى كل من قبرص وأريتريا والفلبين وتايلاند والصومال وغيرها من البلاد التى يعانى فيها المسلمون اضطهادا ، كما يوصى بمساندتهم ويمد يد المساعدة لهم •

الشريعة الاسلامية :

يقرر المؤتمر وجوب العمل الجاد من أجل تطبيق أحكام الشريعة الاسلامية ، فى جميع البلادالاسلامية فى المعاملات ، والعقوبات ، وفى جميع فروع هذه الشريعة •

ان المؤتمر يرى أنه قد حان الوقت الذى ينبغى أن يتحرر فيه المسلمون من ربقة التشريعات الوضعية التى لا تلائم ما جاءت به شريعة الاسلام •

ويؤكد المؤتمر أن التغاضى عن تنفيذ الشريعة الاسلامية هو السبب الأساسى فيما تفشى بين الناس من فساد فى العقيدة ، والأخلاق ، والمعاملات ، ويعلن انه لا سبيل الى انقاذ المجتمعات الاسلامية من هذه المفاسد الا بالاعتصام بالشريعة الاسلامية ، ووضعها موضع التنفيذ ، بكل أجزائها •

ويرشد المؤتمر الى أن الشريعة الاسلامية تتصف بالسعة والشمول ، وتقوم على احتواء كل ما يجد من مشكلات فى حياة الناس ، وتضع لها أوفق الحلول ، بما يناسب طبيعة البشر ، وأهدافهم فى حياتهم الدنيا ، والأخرى ، ولهذا يطلب المؤتمر أن يراعى المسئولون عن وضع القوانين أن تكون مبنية على أسس الشريعة الاسلامية ، وأن يراجعوا قوانينهم القائمة حاليا لتحقيق هذه الغاية •

ويؤكد المؤتمر انحراف كل دعوة الى اغفال النصوص الشرعية الواردة فى الكتاب والسنة ، أو تفسيرها وفقا

للأهـواء الشخصية أو الجماعية ، ويرى فى ذلك نزعة معادية للاسلام .

ويوصى بنشر المؤلفات المبسطة التى تشيع مفاهيم الشريعة على أوسع نطاق ، والتعريف بمزاياها .

ويحث الفقهاء على مصاولة أعداء الشريعة فى الداخل والخارج والرد على تخرصاتهم وعدم السكوت على كل ما يمس الشريعة الغراء من قريب أو بعيد .

الغزو الفكرى :

يدعو المؤتمـر كل ذى شأن فى سياسة الأمة الاسلامية أن يعمل على وقاية الأمـة الاسلامية من الغـزو الفـكرى الذى يستهدف تقـويض عقـائد المسلمين ودفعهم الى دائرة الالحاد ، واضطراب القيم، وانحراف السلوك .

ويؤكد المؤتمر أن مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تقتضى أن تتآزر جميع الأجهزة المختصة فى المجتمعات الاسلامية لتوضـيح أن الاسلام نظام متكامل للحياة ، غنى بنفسه ، برىء من النزعات الدخيلة الوافدة من الغرب أو من الشرق .

ويؤيد المؤتمر الجهود التى تكشف عن التناقض الاسلامى القـائم بين الاسلام والمـاركسية ويرى أنها من أخطر المذاهب المعادية للدين ، ويقرر المؤتمر استحالة التوفيق بين الاسلام باعتباره وحيا من اللـه سـبحانه وتعالى ، وبين المـاركسية ، بما تقوم عليه من انكار لوجود الله ، ولسائر الغيبيات، وبما ترتكز عليه من تفسير مادى لأصـل الكون ، ولحـركة التاريخ .

ويؤكد المؤتمـر أن المـاركسية تنتهى فى التطبيق الى تحطيم الفرد والمجتمـع عقيدة وأخـلاقا ويهيب المؤتمر بكل مسلم ، وكـل جماعة أو حكومة تدين بالاسلام أن تعمل على وقاية أبنائها من أخطار هـذا المذهب ، وأن تعمل على سد الطرق والمنافذ التى يسلكها ، ما ظهر منها وما استقر، وأن تعمل على استبعادهم، ومحـاربة أفكارهم ، فى أجهـزة الاعلام والتربية فى المدارس والمعاهد والجامعات .

ويدعو المؤتمر الى أن يكون عرض المذاهب المادية فى الدراسات المتخصصة مصحوبا ببيان وجهة النظر الاسلامية التى توضح ثغرات هذه المذاهب وترد عليها .

كما يطالب المؤتمر جميع الحكومات الاسلامية بالعمل على وقف نشاط المبشرين حماية للمسلمين من الزيغ والضلال .

اللغة العربية :

أولا ــ يطلب المؤتمر : أن تعمل كل دولة اسلامية غير عربية على ادخال اللغة العربية فى مناهج تعليمها ، وابراز أهميتها فى ميدان الثقافة العامة ، والثقافة الاسلامية خاصة ، وعلى انشاء كلية فى احدى جامعاتها للتخصص فى فرع الثقافة الاسلامية العربية ، وعلى تخصيص أقسام لهذه الدراسات فى بعض جامعاتها وعلى تقرير منح وجوائز لمن يحفظون القرآن كله أو بعضه ، ولمن يتفوقون فى اللغة العربية ، قراءة وكتابة ، وحديثا ، ولمن يؤلفون بالعربية من أبناء هذه البلاد فى فروع الدراسات الاسلامية ، بمختلف أنواعها .

ثانيا : يقرر المؤتمر : وجوب الوقوف فى وجه اللغة العامية والدعوة الى استعمالها ، فهى لا تصلح أن تكون رابطة بين أبناء الشعوب العربية ، وهى ليست ذات ثقافة أو فكر يدرس ، واستعمالها امتهان للغة العربية ، وقضاء عليها ، وبذا يتعسر على النشء فهم لغة القرآن ، والتراث الاسلامى .

ثالثا : يقرر المؤتمر : الوقوف بكل وسيلة فى وجه الذين يدعون الأمة الاسلامية الى استعمال الحروف اللاتينية ، فان كل دولة اسلامية تتخذ الحروف اللاتينية تباعد بين المسلمين ولغة دينهم ، وتضعف صلتهم بكتاب الله ، المنزل بلسان عربى مبين ، وتقطع صلتهم بالتراث الاسلامى .

الدعوة والدعاة :

يوصى المؤتمر بتنسيق نشاط الدعوة بين البلاد الاسلامية والتعاون فيما بينها على توضيح مفاهيم الاسلام خالية من الزيف والتحريف ، منعا للأفكار الدخيلة ، والمذاهب الالحادية .

الاعلام :

يطالب المؤتمر الحكومات الاسلامية والعربية بدعوة الاعلام — من صحافة واذاعة صوتية ، ومرئية ، وكتب ، ونشرات — الى التزام القيم الاسلامية والأخلاقية رعاية لتربية الناشئة ، وحفاظا على المثل والأخلاق التى تقوم عليها المجتمعات ، وصيانة للروابط الأسرية التى تتأثر بكل ما تنشره وتعرضه أجهزة الاعلام وهى تلاحق الفرد والمجتمع فى كل مكان .

ان المؤتمر يهيب بأولى الأمر الى أن التجارة الرابحة للأمم انما هى فى صيانة الأعراض والأخلاق وحماية الآداب العامة .

ويطالب المؤتمر أجهزة الاعلام فى البلاد العربية بالعناية باللغة العربية الفصحى وتجنب استعمال اللغة العامية حفاظا على لغتنا وتراثنا الاسلامى .

ويؤيد المؤتمر الامام الأكبر شيخ الأزهر ورئيس مجمع البحوث الاسلامية فى بيانه المؤسس على قرار المجمع بأنه لا يقر انتاج فيلم « محمد رسول الله » بهذا الاسم أو باسم «الرسالة» أو أى فيلم آخر يتناول بالتمثيل صاحب الرسالة أو أحد أصحابه الكرام .

ولا يجوز السماح بعرضه صيانة لشخصية الرسول الكريم وأصحابه الأجلاء من التعرض لما لا يليق بمنزلتهم المصونة .

ويطالب المؤتمر بمراقبة الأفلام السينمائية والتمثيليات قبل عرضها ، ومنع ما يتعارض فيها مع تعاليم الدين الحنيف ، ويطالب باختيار رؤساء تحرير الصحف والمجلات على مستوى المسئولية ، وأن تمنع المجلات والكتب المستهترة بالقيم الدينية والخلقية .

الأخلاق والتربية :

ان المؤتمر يدعو الحكومات والهيئات الى الالتزام بالأخلاق الاسلامية ومقاومة التبرج، والخروج على تقاليد الاسلام ، وتحريم جميع أنواع المسكرات ، ويرى أنه من العار على أى دولة اسلامية أن تبيح أى شىء من هذه المشروبات فى حفلاتها .

التعليم الدينى :

يوصى المؤتمر بتعميم التعليم الدينى وتعميق التربية الاسلامية بالمدارس فى البلاد التى لم تدخله فى مناهجها ، وأن تكون مناهجه ميسرة واضحة لعقول الناشئة ، ليكون هديا لهم فى سلوكهم ومعاملاتهم •

ويحيى المؤتمر الكليات والمعاهد والمدارس التى خصصت أماكن لاقامة الصلاة ، ويدعو سائر دور العلم لانتهاج هذا السبيل •

الطفولة :

يوصى المؤتمر أن يدرك الآباء والامهات وجميع القائمين على تربية الناشئة الاسلامية • ان من أهم رسالاتهم فى الحياة أن ينشئوا الجيل الصاعد على أسس الايمان بالله ، والثقة فى حكمته ، وحكمه ، ليكون ذلك الايمان هو سياج الأمن والأمان لكل فرد فى خطواته ، منذ طفولته حتى شيخوخته •

الشباب :

ويوصى المؤتمر بتوجيه عناية أكبر بالشباب • من أجل تنشئتهم وجدانيا وعقليا على العلم والايمان • ويرى المؤتمر أن الشباب هو عدة الأمة وسلاحها فى السلم والحرب ، وأن بناء الأمة انما يقوم على بناء الشباب على أسس صحيحة ، روحيا ، وماديا ، وأن المنهج الاسلامى يقدم أفضل السبل والوسائل لتحقيق هذه الغاية •

القرآن الكريم :

يوصى المؤتمر بتشكيل لجنة من أعضاء المجمع ، يمثلون البلاد الاسلامية لمتابعة ترجمة معانى القرآن الكريم التى تصدر باللغات الأجنبية والاوروبية والشرقية وتقديم تقرير عنها للمجمع ، لبيان اتجاهاتها لكى يوضح للمسلمين مالا يعتمد عليه منها وما هو أقرب منها الى معانى القرآن •

كما يؤكد المؤتمر توصياته السابقة بشأن تقوية اذاعة القرآن الكريم فى جمهورية مصر العربية حتى ينتشر ارسالها فى كل المناطق الاسلامية ، ويؤيد فضيلة الامام الأكبر شيخ الأزهر فى جهوده من أجل دعم هذه الاذاعة حتى تتمكن من خدمة الدعوة الاسلامية على الوجه الأمثل •

القرن الهجرى :

يوصى المؤتمر الجماعات الاسلامية، حكومات وهيئات بالتخطيط من الآن لاستقبال القرن الخامس عشر الهجرى، باقامة مؤتمرات واجتماعات عامة تعرض فيها تعاليم الاسلام فى بيئتها المحلية وفى غيرها ، كما تخص بدء ذلك القرن الجديد بموسم للعناية بحفظ القرآن الكريم وفهمه على مستوى الأمة الاسلامية.

البيئة :

نظرا للتغييرات المتلاحقة السريعة التى تمر بالعالم الاسلامى ، والتى تؤدى الى تغيرات كثيرة فى بيئاتنا .

فان المؤتمر يحث أولى الأمر فى العالم الاسلامى على التروى فى كل ما يؤدى الى تغيير البيئة ، ومراعاة المحافظة على القيم الاسلامية الأصيلة المرتبطة بها وبخاصة فى الأماكن المقدسة .

العناية بتنفيذ قرارات وتوصيات المؤتمر :

يطلب المؤتمر من السلطات والهيئات الاسلامية العمل على تنفيذ توصياته وقراراته التى صدرت فى مؤتمراته جميعا تحقيقا لأمر الله تعالى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

كما يطلب من المجمع أن يعمل على متابعة توصيات هذا المؤتمر والمؤتمرات السابقة عن طريق لجنة خاصة تشكل لهذا الغرض .

ويطلب المؤتمر من المجمع أن يضع النظام الكفيل بالاستعانة بأعضاء المؤتمر من خارج جمهورية مصر العربية فى تنفيذ مقرراته ومتابعتها.

قرارات وتوصيات

المؤتمر الثامن ـ للفترة الثانية

بحمد الله وتوفيقه أتم المؤتمر الثامن لمجمع البحوث الاسلامية الفترة الثانية من انعقاده ، والتى بدأت من يوم ١٣ من ذى القعدة وانتهت يوم ٢٧ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧هـ الموافق٨/١١/١٩٧٧م وبعد دراسة الموضوعات التى عرضت عليه انتهى الى اصدار القرارات والتوصيات التالية :

١ ـ يوصى المؤتمر أن يقوم الأزهر ، ومجمع البحوث الاسلامية بصفة خاصة بوضع دستور اسلامى ليكون تحت طلب أية دولة تريد أن تأخذ بالشريعة الاسلامية منهاجا لحياتها ، ويرى أن يؤخذ فى الاعتبار عند وضع هذا الدستور أن يعتمد على المبادىء المتفق عليها بين المذاهب الاسلامية ، كلما أمكن ذلك •

وأن يدعو المجمع لاجتماع طارىء للمؤتمر لدراسة ما يكون المجمع قد أعده لمشروع هذا الدستور •

ويرى المؤتمر كذلك أن القواعد الفقهية الشرعية تكفى حاجة الشعوب الاسلامية وتغلق الباب لديها فى وجه القوانين الوضعية ـ ومن هنا فان المؤتمر يؤكد دعوته الى عرض هذه القواعد فى صورة مناسبة لظروف العصر الحاضر •

٢ ـ ويعلن المؤتمر أن الحكم بالشريعة الاسلامية يضمن لغير المسلمين حقوقهم الانسانية ، ويكفل لأهل الأديان الكتابية حرية العقيدة والعبادة •

٣ ـ يقرر المؤتمر أن منهج المسلم فى الحياة هو منهج الاتباع للكتاب والسنة ، وهذا المنهج يكفل للمسلمين أفرادا وجماعات مقاومة الغزو الفكرى فى العقائد والأخلاق والتشريع •

يوصى المؤتمر بأن تعمم التربية الاسلامية فى جميع مراحل التعليم

بما فى ذلك المرحلة الجامعية وعلى مستوى يتناسب مع كل مرحلة من هذه المراحل .

ويوصى المؤتمر ألا يقتصر فى التربية الاسلامية على الدراسات النظرية وأنه ينبغى أن يعنى بالجانب العملى منها .

ويوصى أن يهتم المربون بما يمس واقع الحياة العملية فيما يقدمونه للطلاب من دراسات دينية ، وأن يبتعدوا عن الخلافات المذهبية واللفظية .

ويوصى بأن تقوم المناهج التربوية على مواجهة مشكلات البيئة المعاصرة لكل مجتمع ، ويطلب المؤتمر الى الأزهر أن يتوسع فى انشاء المعاهد الأزهرية بمراحلها المختلفة ، تيسيرا للتربية الاسلامية لكل راغب بالقرية أو المدينة ، وتلبية لاحتياجات العالم الاسلامى المتزايدة الى العلماء والدعاة .

ويوصى الدول الاسلامية بعقد الاتفاقات والمعاهدات الثقافية بينها على وجه يدعم التربية الاسلامية .

٤ ــ كما يوصى المؤتمر بانشاء جهاز من المتخصصين لمتابعة أهم ما كتبه المستشرقون عن الاسلام للرد على مطاعنهم ، وترجمة هذه الردود ونشرها بمختلف اللغات .

ويوصى بأن تكون هذه الدراسات موضع عناية فى الجامعات ، وموضوعات للبحث فى الدراسات العليا (الماجستير ــ الدكتوراه) .

كما يرى المؤتمر أن يكون الرد على دعاوى المستشرقين موضوعيا دون أن يتجه الى منهج الدفاع أو الهجوم .

٥ ــ ويدعو المؤتمر الى سد النقص فى مجال التأليف فى الدراسات الاجتماعية والنفسية وأن تبنى هذه الدراسات على أسس اسلامية .

ويرى المؤتمر انه فى مجال الاستشهاد بالقرآن الكريم لبعض الآراء العلمية الحديثة ينبغى أن يكون ذلك فى صورة موضوعية بريئة من التعسف فى تفسير الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وأن يتجه التأليف فى هذه الموضوعات

الى شبابنا فى الجامعات بصفة خاصة، وأن يكون بعض هذه المؤلفات بلغات أجنبية يفهمها المسلمون وغير المسلمين ممن لا يعرفون اللغة العربية .

٦ — يرى المؤتمر انه فى مجال الدعوة الاسلامية ينبغى المبادرة الى وضع خطة أساسية محكمة ذات شقين :

الشق الأول منها : يهدف الى بناء الاسلام فى نفوس أبنائه عن طريق التربية والتعليم والاعلام بأسلوب مناسب لظروف العصر الحاضر .

ويهدف الشق الثانى الى : حماية الاسلام من أعدائه فى البلاد المهددة بخطر الغزو الفكرى أو المادى .

ويعلن المؤتمر عن شعوره بالخطر الذى يهدد المجتمعات الاسلامية — نتيجة للنشاط التبشيرى والشيوعى الخطير المجاور لهذه البلاد .

ويقرر أن دور الاسلام فى مواجهة هذا الخطر دور أساسى وانه الأمل فى قدرة هذه المجتمعات على الصمود .

ويتقدم المؤتمر بنداء الى الدول الاسلامية أن تمد يد العون للمجتمعات الاسلامية فى كفاحها ضد الشيوعية والتبشير .

ويطلب الى المجمع أن يقوم بالدعوة لانشاء صندوق للدعوة الاسلامية تشارك فيه الدول الاسلامية كل بما تستطيع لنشر الاسلام وتقويته فى المجتمعات الاسلامية المهددة بالغزو الشيوعى والتبشيرى .

ويوصى المؤتمر بدعم المؤسسات الدولية الاسلامية التى ترعى مصالح المسلمين فى البلاد المختلفة ويدعو الأزهر الى أن يكون له تمثيل فى هذه المؤسسات .

الفهـرس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

محمد حمدى السعيد

رقم الايداع بدار الكتب ١٦٧ / ١٩٧٧

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٢٨٦٣ س ١٩٧٧ - ١٠٠٠٢

عـ ٢٢٦

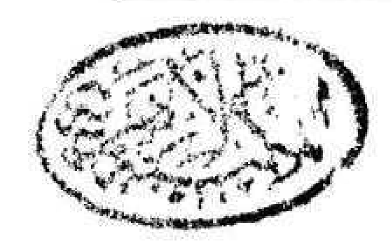
مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

مدير التحرير والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٩١٤
٩٠٥٥٠٦

الجزء الثانى – السنة الخمسون – ربيع الآخر ١٣٩٨ هـ / أبريل ١٩٧٨ م





موقف الإسلام من الفلسفة

فضيلة الإمام الأكبر
الدكتور عبد الحلييم محمود شيخ الأزهر

– ٢ –

والآن نتساءل : ما هى السمات العامة للفلسفة ؟

– وأنه لا يتأتى أن نحدّد فى صورة مقنعة موقف الاسلام من الفلسفة قبل تحديد سماتها العامة ، فما هى هذه السمات ؟

• وأول سمة من هذه السمات – وهى أهمها ، وتعتبر كالمنبع الذى عنه تفيض السمات الأخرى – هى أن الفلسفة لا مقياس لها للتفرقة بين الحق والضلال ، بين الصواب والخطأ .
فإذا اختلف فيلسوفان فى أمر من أمور الفلسفة فإنهما لا يجدان مقياساً يرجعان إليه للحسم بينهما فى موضوع الخلاف .

ـ أما فى العلم فإن المقياس هو «التجربة» . . فإذا اختلف عالمان فى أمر كونى رجعا إلى التجربة ، وهى تعلن فى صراحة مشاهدة خطأ هذا وصواب ذاك .

ـ ما هو – فى عالم الفلسفة – الذى يجرى مجرى التجربة فى مجال العلم ؟

ـ لا شىء . .

ـ ما الذى يحسم الخلاف فى عالم الفلسفة ؟

ـ لا شىء . . .

ـ ـ ـ

ما هو المرجع من أجل الاتفاق فى عالم الفلسفة ؟

لا مرجع .

ولقد شعر الفلاسفة بذلك : فقام اثنان من كبار عباقرة الفلسفة بمحاولة لإيجاد هذا المقياس ، وهما أرسطو فى الماضى وديكارت فى العصور الحديثة .

ولقد أخفق كل منهما إخفاقاً تاماً كاملا .

ونبدأ الحديث عن أرسطو – ولا ننسى أننا فى عالم الإلهيات :

مجال الفلسفة الرئيسى :

لقد فكر أرسطو وقدر ، ثم فَكَّرَ وقَدَّرَ ، وخرج على العالم بما يسمى «المنطق الأرسطى» أو «المنطق الصورى» ، وأخذ هذا المنطق فى عالم الفكر الفلسفى مجالاً من الشهرة والعناية لا حدَّ له . وأخذ فى الجو الإسلامى شهرة ذائعة الصيت .

وتبناه جميع فلاسفة الإسلام إبتداء من الْكِنْدى فى المشرق إلى ابن رشد فى المغرب .

ولكن كثيراً من المسلمين ذوى الأصالة فى الفكر الإسلامى أبانوا فى وضوح أن المنطق الأرسطى منهار ، وأنه متهافت ، وأن الخلل فى جوهره وأركانه . وأنه خلل لا يصلح .

وكان من هؤلاء ابن تيمية الذى كتب كثيراً فى نقد المنطق ونقضه . لقد كتب فى ذلك كتباً ، وكتب فى ذلك فقرات منثورة هنا وهناك فى خلال كتبه الكثيرة وفتاواه المستفيضة .

وممن كتب فى نقد المنطق ونقضه : ابن حزم

والمحدثون جميعا لا يجد المنطق عندهم ترحابا ولا قبولا .

وقد كتبنا نحن ننبه على أن المنطق لا يحسم خلافاً ولا يفصل حقاً عن باطل ، ومما كتبناه فى المنهج الحديث والمنهج الأرسطى ما يلى :

إن المقاييس هي :

(١) الاستقراء .

(ب) القياس .

أما الاستقراء – وهو أساس المفهومات العامة والقضايا الكلية – فإنه :

١ – مبنى كله على الحس : إنه استقراء محسَّات ، إنه تتبع جزئيات لا تخرج عن نطاق الواقع ، أما المساتير فهو برىء منها كل البراءة ، لأنها لا تدخل فى دائرة اختصاصه : فهو عاجز عن أن يخترق الحجب ليصل إلى ما وراء الطبيعة .

٢ – ثم إن الاستقراء : تام ، وناقص . والتام – كما يعترف المناطقة – لا غناء فيه ولا فائدة .

أما الناقص – وهو المهم فى نظرهم فإنه – فى رأيهم أيضاً – ظنى ، وهو – لذلك – عرضة للتغيير فى كل آونة .

«كل معدن يتمدد بالحرارة» تلك قضية من قضايا الاستقراء : إنها قضية عامة شاملة ولكن المعادن لم تتكشَّف – بعد – بأكملها ،

ومن الجائز أن يكتشف فى الغد معدن لا يتمدد بالحرارة ، إنها إذن قضية مؤقتة ظنية تتبرأ من اليقين الفلسفى .

«والعلم كما يقول أحد المفكرين – لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله – وإنما حقائقه كلها إضافية موقوتة لها قيمتها ، حتى يتكشف البحث عما يزيل هذه القيمة أو يغيرها»

وهكذا قضايا الإستقراء . . . إنها :

١ – خاصة بالطبيعة ، ولا شأن لها بما وراءها .

٢ – ظنية لا تعرف اليقين .

أما القياس :

١ – فإنه مبنى على الاستقراء ، إذ هو منطوٍ دائماً على كليَّة ، كليَّة استقرائية ، ومادامت قضايا الاستقراء ظنية – كما رأينا – وميدانها المحسات ، فنتائج القياس ظنية كذلك ، وميدانها المحسات .

٢ – إن المناطقة لا يشترطون فى مقدمات القياس ، أن تكون مسلَّمة صادقة فى نفسها ، وإنما يشترطون أن يسلِّم بها المتجادلون فحسب ، وقد تكون – كما يقول صاحب

البصائر النصيرية : منكرة كاذبة فى نفسها ، وفى هذه الحالة يكون القياس صحيحاً ونتيجته باطلة . وإذا كان الأمر كذلك فما فائدة القياس ؟ ما قيمته إذا كان لا يُعَوَّل فيه إلا على أن تكون المقدِّمات مستوفية لشروط الإنتاج بحيث تستلزم النتيجة وإن لم تطابق النتيجة الواقع ؟ ما قيمته إذا كان يحفل بصدق النتيجة أو كذبها ؟

إنك إذا قلت : الكثير من العلم يؤدى إلى الاستقلال الفردى ، وكل ما يؤدى إلى الاستقلال الفردى مضر بالمجتمع ، فالكثير من العلم مضر بالمجتمع ، كان هذا قياساً صحيحاً فى نظر المناطقة .

وإذا قلت : الكثير من العلم ، يؤدى إلى التماسك الاجتماعى ، وكل ما يؤدى إلى التماسك الاجتماعى مفيد للمجتمع ، فالكثير من العلم مفيد للمجتمع كان هذا أيضاً قياساً صحيحاً عند المناطقة ، ومع ذلك فالنتيجتان متعارضتان .

٣– ومع كل هذا فالقياس استدلال دورى فاسد ، ذلك أن العلم بالنتيجة فى نحو قولنا :

«محمد إنسان ، وكل إنسان ناطق ، فمحمد ناطق ، متوقف على العلم بالكبرى ، والعلم بالكبرى متوقف على العلم بالنتيجة ، لأنك لا تستطيع أن تحكم بالناطقية على جميع أفراد النوع الإنسانى إلا إذا تأكدت من ثبوت الناطقية لمحمد ، ولو كنت فى شك من ذلك لما أستطعت تعميم الحكم على جميع أفراد الإنسان ، وإذن تكون الكبرى متوقفة على الكبرى ، وعلى ذلك يكون القياس :

إستدلالاً دورياً فاسداً ، فلا يعول عليه .

٤– وأخيراً ، فالمفروض . أن نتيجة القياس : جديدة كل الجدة ، إنها استنتاج مجهول هو النتيجة من معلوم ، هو المقدمات .

ولكن النتيجة متضمنة فى المقدمات . إنها ليست مجهولة ، والقياس إذن لا يؤدى إلى معرفة جديدة ، أو إلى استنتاج مجهول من معلوم ، إنه – إذا أردت الدقة – استنتاج معلوم من معلوم ! !

تلك هى موازين العقل ، وهى موازين لا غناء فيها ولا جدوى منها فيما يتعلق بالإلهيات . فالعقل إذن قاصر فيما يتعلق بالأخلاق ، وهو قاصر على الخصوص فيما يتعلق بالإلهيات .

ومن هنا كانت الحكمة فى نزول الأديان .

ومن هنا كان السبب فى اقتصارها على الأخلاق والإلهيات .

وإذا كانت قد تحدثت فى التشريع ، فإنَّ التشريع داخل فى نطاق الأخلاق .

أخفق إذن منطق أرسطو ، واستمر الاختلاف بين الفلاسفة كما كان من قبل ، واستمر الخلاف حتى بين المناطقة الأرسطيين : الكبار منهم والمغمورون ، بل حدث الاختلاف بين تلاميذ أرسطو نفسه ، وهم أتباع مدرسة واحدة هى المدرسة الأرسطية .

ومرت العصور ، وتوالت القرون ، وجاء ديكارت ، وبدأ ديكارت يتفلسف على استحياء وعلى حذر بالغ ، فما كان جوُّ زعماء المسيحية فى الغرب إذ ذاك يوحى بالاطمئنان . أو السكينة ، لقد كان جواً رهيباً يأخذ على الظِّنة وينكل على الشُّبهة ، لا يتحرى عدالة ولا يستشعر رحمة .

وأخذ ديكارت يتحسس طريقه فى حيطة بالغة : مُدَارِياً ، مجاملاً ، مادحاً ، متواضعاً . . وذات يوم أعلن أنه عثر على المنهج المعصوم .

وأنه على أساس من هذا المنهج ستعود الإنسانية إلى الحق . .

ورأى أن هذا المنهج صالح للكشف عن الحق فى الكون وفى ما وراء الكون ، فى الطبيعة وفى ما وراء الطبيعة .

وكان من سخرية القدر أن التجربة أظهرت خطأه فى أثناء حياته .

وأن الخلاف استمر حول آرائه فى الإلهيات ، وآراء معاصريه ، وآراء من قبله ، كما كان الأمر من قبل أن يولد منهجه ، وأخفق منهج ديكارت كما أخفق من قبل منهج أرسطو . .

وبقيت الحقيقة التى لاشك فيها ، وهى أن الفلسفة لا مقياس لها .

هذه هى السمة الأولى . .

السمة الثانية :

مادامت الفلسفة لا مقياس لها فهى إذن ظنية ، إنها ظنية وإن عجنت بمنطق أرسطو الذى أخفق . وهى ظنية وإن خبزت بمنهج ديكارت الذى لم ينفع فى قليل ولا فى كثير ، إنها ظنية لأنه لا يتأتى أن تفرق فيها – ولا مقياس – بين الحق والضلال ، وستستمر هكذا إلى الأبد .

السمة الثالثة :

مادام لا سبيل إلى اليقين فى موضوعات الفلسفة فإن من البدهى أن « اختلاف الآراء فيها دائم » .

وهذا هو الواقع حينما يتصفَّح الإنسان الفكر الفلسفى عبر القرون . .

إن الاختلاف والجدل دائم مستمر منذ أن نشأ الفكر الفلسفى . . إنهم يختلفون حتى فى المدرسة الواحدة .

وانظر مثلاً إلى مدرسة سقراط فستجد تلاميذه يقرّون بأستاذيته فى إحترام بالغ ، وفى تبجيل يشبه التقديس ، فإذا جئت إلى آرائهم فى الإلهيات ، أو فى الأخلاق ، فستجد الإختلاف والإفتراق . .

الإختلاف والإفتراق بينهم وبين أستاذهم ، والاختلاف والإفتراق بين بعضهم وبعض . .

بل إن الأمر يصل بالشخص الواحد إلى أن يختلف مع نفسه ، بحسب تطور حياته أو اختلاف بيئته أو اختلاف ما يقرأ من مصادر ثقافته .

وكل هذا واضح عبر العصور .

ومن غرائب الأمور أن الفلاسفة يعلمون ذلك علماً يقينيًّا ، ويعلمون أن كل فيلسوف أتى من قبلهم هدم آراء سابقيه جميعاً : إنه لم يعترف بوصول أحدهم للحق ، إنه يخطِّئهم جميعاً ولو لم يكن الأمر كذلك لأخذ بآرائهم ، وأكتفى بما حبَّروه ، أو بما أنشأه أحدهم من قبل .

ولكنه مع علمه بأن الفلسفة دائماً إلى نقد ونقض فإنه لا يأبه بهذه المعرفة ويقيم مذهبه على أنقاض مذاهب سابقيه ، فيأتى من بعده ويهدمه ويقيم مذهباً مآله السقوط . . وهكذا دواليك .

السمة الرابعة :

ومادام الاختلاف مستمراً فإن المسائل التى هى موضوع الفلسفة تستمر هى هى . .

«إن مسائل الفلسفة لم تتغير على مر الدهور» .

ما هى مسائل الفلسفة ؟ . .

إنها :

الله سبحانه وصفاته ، وصلته بالعالم خلقاً وتصريفاً ، وصلته بالإنسان قرباً وتوجيهاً . .

والبعث وكيفيته .

والخلق الكريم الذى يمثل الفضيلة والكمال . .

والخلق السيئ الذى يمثل الشر والفساد . .

والنبوة والصلة بالله عن طريق الوحى : إثباتاً وإنكاراً . .

ثم : هل المعرفة ممكنة ؟ وفى كل هذه الموضوعات الكبرى وغيرها مما يتصل بها : اختلف الفلاسفة ومازالوا . . واستمرت هذه المسائل على مدى سبعة وعشرين قرناً تقريباً مثار بحث وجدل إلى الآن . . . لم يصل الفلاسفة فى واحدة منها إلى اليقين ، ولم توضع واحدة منها موضع الاتفاق .

السمة الخامسة :

إن الاختلاف فى مسائل الفلسفة ليس اختلافاً فى الإيجاب فحسب . . وذلك أنه قد يجوز أن يكون لمسألة مّا عدة حلول كلها إيجابية .

وليس اختلافاً فى السلب فحسب ، وذلك أنه قد يجوز أن يكون لمسألة واحدة عدة حلول كلها سلبية . .

كلا ، إن الخلاف عام فى الإيجاب وفى السلب ، وإنه ليصل إلى الإنكار المطلق وإلى الإثبات المطلق فى كل مسألة ، وإنه ليصل بك أحياناً إلى طرق مسدودة ،

أتحب أن تعرف شيئاً من ذلك ؟

إن الأستاذ «البيرريفو» يقول فى كتابه : الفلسفة اليونانية :

« أما عن العقل فإن سلسلة الآراء الرواقية المتتالية نفسها أثبتت بسهولة أنه ليس له قدرة مطلقة جازمة .

١- فهل فى إمكاننا أن نعرف عن حبات من القمح متى تكف عن تكوين التوأم ؟

٢- وإلى أى حد نثق فى اعتراف الكذاب الذى يعترف بأنه كذاب ؟

٣- وعندما نقرر أن دليلاً منطقيًا هو من الصحة إلى الحد المقنع . . ألا يتعين علينا أن نقيم دليلاً آخر على صحة حكمنا بأنه صحيح ، ثم على الحكم الأخير ، وهكذا إلى مالا نهاية ؟

٤- وكيف يمكن التمييز بين الفكرة الجلية الواضحة وسواها ؟

٥- على أن الصور التى نراها فى الأحلام تفرض علينا بنفس القوة المقنعة التى لصور اليقظة . فالوحش الذى يطاردنا فى الأحلام ليس أقل ترويعاً لنا من وحوش الغابة ؟

٦- ثم ، إذا نظرنا إلى المجانين . . ألا نجد لديهم أيضاً إدراكاً واعياً جليًّا ؟

٧- وعندما نجد أنفسنا ، بالصدفة ، أمام شيئين متشابهين تماماً كورقتى شجرة ، أو بيضتين ، أو توأمين ، فأى وسيلة مصطنعة تمكننا من تمييز أحدهما عن الآخر ؟ . .

٨- وحتى فى العلوم الرياضية هل يمكن أن نجد بين قضاياها ماهو جلىّ بحيث يضطر الشعور إلى التسليم بصحته » « ا هـ »

ومع ذلك فإنه إذا كان ذلك يحتمل فى الحياة العقلية البحتة ، فإنه لا يحتمل فى الحياة التى تتصل بالسلوك العملى . . السلوك الملح الذى تحتاج الحياة العملية إلى الفصل فيه سريعاً ، فما موقفنا من هذا النوع وما موقف الفلسفة منه ؟ . .

إنها تكتفى فى الحياة العملية بالترجيح ، يقول كاريناد :-

« ومع ذلك فلابد لكى نحيا حياة عملية ، من وجود معادل يساوى ما هو قاطع وجازم » ، ثم يقول « كاريناد » : « إننا نستطيع أن نجد ذلك المعادل فى « الرجحانية » ، إن ادراكنا على وجه الترجيح يمكن أن يسمح لنا بالحكم على الأشياء فى الأمور العملية ، بطريقة وضعية » ، وتصل بك الفلسفة أحياناً إلى معقولات يكذبها الواقع ، أو إلى واقع يكذبه المنطق العقلى مع أنه واقع مشاهد . .

أتحب أن تتسلى بشىء من ذلك ؟

إن الأستاذ « البيريفو » يقول :

« إن التغيرَّ يحدث فى المكان أو فى الزمان . . وإذا تصورنا المكان قابلاً للتجزئة إلى مالا نهاية فإن المتحرك لن يبلغ أبداً غاية سيره مادام يلزمه ، للوصول إليها ، أن يقطع أولاً نصف المسافة ، ثم نصف النصف ، وهكذا دواليك إلى مالا نهاية .

ولن يبلغ أبداً « آشيل » ذو القدمين السريعتين السلحفاة إذا كانت تسبقه ولو بمسافة ضئيلة ، ذلك إنه بينما يجتاز نصف هذه المسافة ، تسبقه هى أيضاً بمسافة يجب عليه بدوره أن يقطع نصفها ، بينما تتقدم هى من جديد » .

وهناك حجة أخرى تنكر إمكان تكوين الكل من أجزاء ، فإن كومة من القمح تحدث عندما ترش على الأرض صوتاً يسمع على بعد ، ومع ذلك فنحن لا نسمع الصوت الذى

تحدثه حبة قمح واحدة وهى تسقط » «ا هـ»

وإذا كان الأستاذ «البيرريفو» موجزاً مركّزاً لا يذكر المسائل فى سهولة ويسر فإن صاحب قصة الفلسفة بسطها فى شىء من الوضوح فيقول متحدثاً عن زينون بما يلى :

الدليل على بطلان الكثرة : -

إن كانت الكثرة حقيقة واقعة - ونعنى بالكثرة ان الكون ليس شيئاً واحداً بل وحدات كثيرة متراكمة - كان الكون لا متناهياً فى الكبر ، ولا متناهياً فى الصغر . لأنه مؤلف من وحدات كما فرضت أولاً ، ولابد أن تبلغ تلك الوحدات من الصغر حدَّ اللانهاية بحيث لا يكون لها حجم ، لانه إن كان للوحدة حجم سقطت عنها صفة الوحدة واصبحت قابلة للانقسام إلى وحدات أصغر منها ، فإذا سلمنا بأن كل وحدة على انفراد لا حجم لها لزم أن يكون الكون الذى يتكون منها لا حجم له كذلك ، لأنّه حاصل جمعها .

وكذلك يكون الكون لا متناهياً فى الكبر ، لأن له جرماً لاشك فيه وكل جرم قابل للانقسام إلى جزيئات لا نهاية لعددها ، ومهما بلغت تلك الجزيئات من الصغر ، فهى إذا ضربت فى عدد لا نهائى كان الناتج عظيماً يمتد إلى مالا نهاية .

وإذن ففرض الكثرة يؤدى إلى نتيجتين متناقضتين لا يسلّم بهما معاً منطق سليم ، فلم يعد أمامك من سبيل إلاَّ أن تنكر إنكاراً باتًّا الكثرة ، وأن تسلم بأن الكون كله شىء واحد لا يقبل التجزئة وأن هذه الأجزاء التى تراها متفرقة : باطلة ليس لها وجود .

الدليل على بطلان الحركة :

(ا) إذا أردت أن تقطع مسافة مّا ، فستقطع نصفها الأول ويبقى أمامك نصفها الثانى ، ثم ستقطع نصف هذا النصف ويبقى نصفه الآخر ، وهكذا ستظل تقطع نصفاً ويبقى نصف إلى مالا نهاية . وإذن فلن تصل إلى غايتك المقصودة إلى الأبد .

(ب) تسابق رجل وسلحفاة ، فهب أن السلحفاة تقدمت عشرة أمتار قبل أن يبدأ الرجل ، نظراً لبطء سيرها وكانت سرعة الرجل عشرة أمثال سرعة السلحفاة ، فلما بدأ الرجل وقطع عشرة الأمتار التى تفصله عن السلحفاة ، وجد أنها قد تقدمت متراً (أى عشر المسافة التى قطعها هو) ، فلما قطع هذا المتر كانت السلحفاة تقدمت عشر المتر ، فإذا قطع هذا العشر ، تكون قد تقدمت جزءاً من مائة جزء من المتر ، وهكذا يظلان إلى مالا نهاية ، فلو ظل المتسابقان إلى آخر الدهر فلن يلحق الرجل السلحفاة .

(جـ) إذا إنطلق سهم فى الهواء ، فلابد أن يكون فى أية لحظة زمنية ثابتاً فى مكان

معين ، لأنه لا يجوز أن يكون فى اللحظة الواحدة فى مكانين مختلفين ، ولكن إذا كان السهم فى كل جزء زمنى ساكناً فى مكان بعينه ، لزم أن يكون فى مجموع الفترة الزمنية ساكناً كذلك ، لأن استمرار السكون ينتج سكوناً ولا يولد حركة .

من هذه الأمثلة الثلاث يتضح أن الحركة مستحيلة الحدوث وإن خيِّل لنا أنها حقيقة واقعة ، لأنك – كما ترى – إن فرضت حدوث الحركة تورطت فى سلسلة من المتناقضات لا تستقيم مع العقل والمنطق .

وإن الفكر الفلسفى ليصل بك أحياناً إلى إنكار السماء والأرض ، وما بين السماء والأرض ، ويقول لك ليس فى الوجود – يقيناً – غيرك أنت وحدك .

وإن السمة الأخيرة فهى سمة تؤدى إليها – لا مناص – السمات السابقة .

وإذا كانت السمات السابقة يسلم كل منها إلى الآخر ، فإنها جميعاً تتكاتف لتؤدى إلى هذه السمة الأخيرة .

هذه السمة الأخيرة هى أن :

« الفلسفة لا رأى لها » .

وقد تكون هذه السمة مفاجأة لبعض الناس . كيف يتأتَّى أن تكون هذه الفلسفة التى ملأت الدنيا صياحاً ، منذ أن نشأت ، ولم تكف – منذ أن نشأت للآن – عن الصياح لا رأى لها ؟ .

والأمر أيسر من أن يحتاج إلى استفاضة :

أما أولاً فلأن : « الفلسفة لا رأى لها » نتيجة واضحة لكل ما قدمنا .

وأما ثانياً : فخذ أى مسألة من مسائل الفلسفة فستجد فيها الآراء التى تنكر ، والآراء التى تثبت . إنك ترى الرفض والقبول فى كل أمر .

والرفض فلسفة ، والقبول فلسفة ،

وقد يكون الرأى توقفاً عن الرفض والقبول وهو فلسفة ، وقد يكون شكاً فى الرفض ، وشكاً فى القبول فى آن واحد ، وهو أيضاً فلسفة .

والشك إما أن يكون شكاً فى قيمة الآراء التى تعرض : نفياً أو إثباتاً .

وإما أن يكون شكاً فى قيمة وسيلة المعرفة نفسها ، وهى الحواس والعقل .

وكل ذلك فلسفة فى كل مسألة .

وإذا تساءلت – وأنت على علم بالجو الفلسفى : جو المتاهات والوهم – ما الرأى الفلسفى فى هذه المسألة أو تلك فستجد كل ما قدمناه ماثلاً أمامك يثبت لك بما لا مرية فيه أنه : «لا رأى للفلسفة» .

وقبل أن نخلص إلى الخاتمة نذكر أمراً فى منهج الفكر الفلسفى فيه عظة وفيه عبرة :

إن محاورة «فيدون» لأفلاطون لها أهميتها لأكثر من وجه .. منها أنها :

١ – محاورَة يدور البحث فيها حول خلود النفس .

٢ – وهى محاورة لا تتعارض فيها أهداف المناقشين ، وإنما تتحد وتتفق .. ويحب المناقشون أن يصلو فيها إلى نتيجة محببة إلى نفوسهم وهى أن : «النفس خالدة» .

٣ – إن الذين يدور بينهم الحوار فلاسفة من الذين لهم وزنهم واعتبارهم ، وأحدهم يسمونه «أبا الفلسفة» ويسمونه «أبا الفلاسفة» .

٤ – المتحاورون ليسوا من مدرسة واحدة وإنما هم من مدرستين مختلفتين : هما مدرسة سقراط ، ومدرسة فيثاغورس ، وهما وإن كانتا متقاربتين فإنه ما من شك فى أن جو سقراط العقلى يختلف عن جو فيثاغورس الروحى .

ولهذا الاختلاف فإن اتفاقهما على غاية واحدة : «إثبات خلود الروح» ومحاولتهما الاستدلال عليها له أهميته الخاصة .

٥ – بيد أن الأمر الأساسى المهم الذى من أجله نتحدث فى هذا الموضوع هو اتفاق المدرستين على أن «الوحى» فيما يتعلق بما بعد الطبيعة هو السفينة الأمينة الآمنة المتينة ، وأن العقل فى مجال الإلهيات ، إن هو إلاَّ عبارة عن لوح من الخشب إذا قابلته أو إذا وازنته بالوحى : إن الوحى سفينة والعقل لوح من خشب .

لقد كان الحوار يدور بين سقراط واثنين من الفيثاغوريين هما : «سيماس» و«قابس» وهما من كبار فلاسفة المدرسة الفيثاغورية .

وأخذ الجميع يجهدون ذهنهم فى البرهنة على خلود النفس ، ويقيمون أدلة .. وتنقسم بعض أدلتهم إلى فروع ثم :

«ويسكت سقراط ، ويسكت الجميع ، وبعد هنيهة يقول سيماس :

إن العلم بحقيقة مثل هذه الأمور ممتنع أو عسير جداً فى هذه الحياة ، ولكن من الجبن اليأس من البحث قبل الوصول إلى آخر مدى العقل ، فيجب :

إماً الاستيثاق من الحق .

وإمّا- إن امتنع ذلك- استكشاف الدليل الأقوى والتذرع به فى اجتياز الحياة.

كما يخاطر المرء بقطع البحر على لوح خشب، مادام لاسبيل لنا إلى مركب أمتن وآمن.. أعنى إلى وحى إلهى[1].

وبعد ذلك يعودون إلى البحث من جديد حتى:

يقتنع قابس، ويعلن سماس أنه مقتنع أيضاً، إلا أن شعوره المزدوج بعظم المسألة وبالضعف البشرى يضطره إلى بعض التحفظ بإزاء هذه الأدلة على وجاهتها.

فيسلّم له سقراط بحقه فى هذا التحفظ، ويزيد قائلاً:

بل إن المقدمات أنفسها مفتقرة إلى بحث أوكد».

إن هناك بحر الإلهيات، وهناك البحر المادى.

وكما أن للبحر المادى آلة عبور هى السفينة، فإن لبحر الآلهيات آلة عبور هى «الوحى».

فإذا استعمل الإنسان العقل فى عبور بحر الالهيات، فإنه يكون كإنسان يستعمل لوحاً من خشب فى عبور البحر المادى.

ولكن المضطر- حيث لا وحى- يستمسك بلوح الخشب- كما يقول سماس- «مادام لا سبيل إلى مركب أمتن وآمن، أعنى إلى وحى إلهى».

إن هذه الخاتمة تجربة شخصية.

ولعل القارئ الكريم يسمح بأن أتحدث عن الجو الذى عشته فى بواكير حياتى الفلسفية.

لقد كان ذلك لأول عهدى بجامعة باريس حينما ذهبت إلى فرنسا للدراسة: أحب أن أصف الجو الذى عشته، وكيف تصرفت- بتوفيق الله- أثناءه.

ودخلت الجامعة، وبدأت الدراسة فى علم الاجتماع وعلم النفس، ومادة الأخلاق، وتاريخ الأديان.

وكانت هذه المواد يتزعم دراستها وتدريسها الأساتذة اليهود، أو الذين تتلمذوا على الأساتذة اليهود.

وكانت هذه المواد كلها تسير فى تيار محدَّد.. هو: أنها «علوم مجتمع» أى أنها لا تتقيد بوحى السماء، ولا تتقيد بالدين على أنه وضع إلهى، فهى تدرس موضوعاتها على أنها ظواهر اجتماعية، وظواهر إنسانية.

---

(١) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية.

وبدأنا فى الدراسة نسمع مختلف الآراء فى نشأة الدين ومختلف الآراء فى تفسير النبوة ، وينتهى الأمر برأى الأستاذ فى الموضوع .

وليس فى هذه الآراء – على اختلافها وتعددها – ما يتجه إلى أن الدين وحى من السماء ، أو أن النبى موصول الأسباب بالسماء ، وإذا انتظرنا من الأستاذ أن يصحح الوضع ، فيدلى فى النهاية برأيه مثبتاً الألوهية والنبوة هادماً للآراء الأخرى واصفاً لها : بأنها ضلال :

إذا انتظرنا ذلك منه فإننا نكون واهمين ، فإنّه واحد من هؤلاء العشرات من الأساتذة فى هذه المواد وما شابهها المنغمسين فى تيار المادية . . لقد فسرت الجامعات الأوربية العلم على أنه القواعد التى تقوم على التخيل والملاحظة ، والتزمت أن تفسر وأن تشرح علم الاجتماع وعلم النفس وجميع الظواهر فى الآفاق ، وفى الأنفس ، على هذا الأساس ، والتزمت ذلك أيضاً فى تاريخ الأديان.

هذه العلوم بالذات وفروعها تتكاتف لتقود الإنسان متعاونة متساندة إلى الإلحاد.

إن للدين – فيما يزعمون – نشأة إنسانية اجتماعية ، وإن للخلق – فيما يرون – نشأة إنسانية اجتماعية ، وقد تواضع الناس على سلوك معين سموه : «فضيلة» وعلى سلوك آخر سموه «رذيلة» فدراسة الدين والأخلاق إذن تتجه إلى النشأة والمظاهر وعوامل التطور وظواهر التطور . . وليس للسماء فى الدراسة من نصيب ، اللهم إلا الوصف لظاهرة نشأت فى المجتمع !

وكل الظواهر والمظاهر فى هذه الدراسات اعتبارية نسبية متغيرة متبدلة لا تثبت على حال ، ولا تستقر على وضع ، لأنها فى كل يوم تتبدل حالاً بحال . . .

وهذه الأفكار تتكرر فى هذه المواد : تسمعها فى علم الاجتماع ، وتسمعها فى علم النفس ، وتسمعها فى دراسة مادة الأخلاق ، وتسمعها فى دراسة تاريخ الأديان ، وتسمعها فى دراسة العلوم المتفرعة من كل ذلك .

والشاب الذى انتقل من الأقسام الثانوية إلى الجامعة يتأثر بأستاذه ،فإذا كان الأساتذة متكاتفين على هدم القيم الثابتة ، والمثل العليا التى يقررها الدين ، وتقررها الأخلاق ، إذا كان الأمر كذلك فإن الطالب الذى يعيش فى أجواء تتعاون كلها على هدم عقائده ومثله وقيمه ينتهى به الأمر فى الأغلب الأعم من الحالات – بأن تنهار هذه القيم فى شعوره .

ومن هنا كانت الظاهرة التى تجدها فى طلبة الجامعات فى أوربا من الاستخفاف بكثير

من العقائد ، وبكثير من القيم وينتهى الطالب بالإلحاد ، أو على أقل تقدير بالإيمان الكامن الذى لا فاعلية له ، ولا تأثير فى سلوك الإنسان .

وكنت – من غير ما شكٍّ – أَضِيقُ بكل ما يجرى فى هذه الدراسات ولكن الله سبحانه وتعالى ألهمنى التفكير فى قيمة وآراء الأساتذة أنفسهم فى هذه المواد .

وبدأت أفصل بين عالَمين من المعرفة : عالَم الماديات كالطب والطبيعة والكيمياء ، وهى أمور تحكمها التجربة ولا تتعارض مع الدين ، ولا اختلاف فيها وعالم التفكير المجرد فى الدين والأخلاق والمجتمع .

وأخذت أدرس فى أناة هذا الجانب الأخير من الزاوية التاريخية ، فوجدت أنه منذ أن بدأ التفكير ، بدأ فى اللحظة الأولى الاختلاف فيه ، وبدأ كل زعيم من زعمائه ينتقد الآخرين فى عَصْره ، وكل مفكرى عَصْر ينتقدون المفكرين فى العصر السابق عليه .. وهكذا الأمر .

وما من شك فى أن هؤلاء الأساتذة الذين يدرسون لنا ينتقد بعضهم بعضاً فى آرائهم ، ويخطِّئ بعضهم بعضاً ، كما ينتقدون السابقين عليهم ويخطئونهم ، وسيصنع من بعدهم صنيعهم فيوجهون إليهم النقد ويخطئونهم . وهكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد أخذ « دوركايم » اليهودى يعمل بمعاول هدامة فى كل القيم والمفاهيم الدينية والأخلاقية ، وأخذ تلميذه الأكبر اليهودى « ليفى بروهل » ينهج منهجه ويسير على طريقه فى علم الاجتماع وفى علم الأخلاق . وكتاب « ليفى بروهل » : « الأخلاق وعلم العادات » – مثل واضح لهذا النوع من هدم القيم ، ومحاولة التطاول على كل المثل .

فكرت إذن فى إختلاف الآراء ، أو فى هدم بعضها البعض فى مواجهة كل ما يقوله الأساتذة ، وكنت أقول فى نفسى – فى مواجهة كل أستاذ – سيهدمك المعاصرون لك ، وسيهدمك الذين يأتون من بعدك .

ولكنى فى مواجهة كل هذه الآراء الإلحادية – كنت أتشبث بيقين لا شك فيه .

كنت أقول فى نفسى : إذا كانت الأخلاق نسبية ، فهل سيأتى الزمن الذى نعتقد فيه : أن الصدق رذيلة أو أن الشهامة شر ، أو أن الشجاعة سوء ، أو أن العفة جريمة . . . أو أن كذا ، أو كذا . . . ثم أعود إلى نفسى فأقول : كلا . . .

وأتساءل من جديد فى مجال العقائد : هل سيأتى اليوم الذى لا نقول فيه بوحدانية الله ؟ أو لا نقول فيه بإرادته وعلمه ؟

وأعود إلى نفسى وأقول : كلاً . . .

كنت أحاول دائماً أن أردِّد أن هؤلاء القوم يسيرون فى طرق لا تنتهى إلى غاية . . ما هدفهم من ذلك ؟

وما كنت أجد الإجابة عن هذا السؤال آنئذٍ ، لكنى عرفت فيما بعد أن هذا هو المنهج اليهودى الذى رسموه بعد تفكير طويل ، والتزموا القيام به بكل الوسائل ، أو بكل الطرق ، وهو منهج التشكيك فى القيم والمثل والعقائد والأخلاق .

يستخدمون هذا المنهج فى المجالات المختلفة لإفساد المجتمعات وتحللها أخلاقياً ودينياً ، ويضيفون إليه العمل على إثارة العمال على أصحاب رؤس الأموال ، وعلى إيجاد الضغائن والفتنة بين مختلف فئات الشعوب ، والثمرة التى يعملون دائبين على الوصول إليها : أن يكون المجتمع شاكاً مليئاً بالفتن ، وذلك سبيلهم إلى السيطرة .

إن اليهود يهدفون من وراء كل ذلك إلى السيطرة على العالم ، إنهم يحطمون القيم والمثل حتى لا يكون فى المجتمعات قوة من عقائد أو قوة من خلق ، ومن أجل ذلك تكاتفوا على أن تكون لهم الكلمة الأولى فى الجامعات فى علم الاجتماع وفى علم النفس ، وفى مادة الأخلاق ، وفى تاريخ الأديان ، ولم يكن من السهل علىَّ أثناء هذه الدراسة الاستمساك الواثق بالقيم والمثل التى نشأت عليها ، لولا عون من الله سبحانه ، وتوفيق منه ، ولولا لطف الله لصرت كواحد من هؤلاء الألوف الذين يدرسون فى الجامعات الأوربية ثم يخرجون منها ، وقد تحطمت فى نفوسهم المثل الدينية الكريمة .

وانتهيت من هذه الدراسة ، ثم كانت المرحلة التالية هى مرحلة « الدكتوراه » .

وبعد تجارب هنا وهناك فى مجالات مختلفة من الموضوعات ، وبعد تردد بين هذا الموضوع أو ذاك – هدانى الله ، وله الحمد والمنة – إلى موضوع التصوف الإسلامى ، ولم يكن ذلك مصادفة ، وإنما هى هداية وتوفيق من الله سبحانه وتعالى ، وهى عناية أعجز عن شكر الله سبحانه وتعالى عليها ، وانغمست فى العنصر الآساسى فى موضوع الرسالة ، وهو دراسة الحارث بن أسد المحاسبى .

انغمست فى جو مجموعة من المخطوطات لهذا العالم الكبير ، والصوفى المستنير ، ورأيت أنه قد مرت به – هو الآخر – صروف من الضيق لاختلاف الآراء وتفرقها ، وللحيرة فى أيها الأحق وأيها الأصوب ؟ . ثم هداه الله سبحانه إلى الطريق الأقوم .

ووجدت فى جو الحارث بن أسد المحاسبى الهدوء النفسى ، أو الطمأنينة الروحية ،

ولكنه هدوء اليقين ، وطمأنينة الثقة بما يعلم .

فقد ألقى بنفسه فى معترك المشاكل التى يثيرها المبتدعون ، والمنحرفون ، وأخذ يصارع مناقشاً ومجادلاً ، وهادياً ، ومرشداً ، متخذاً الأساس الأصيل ، والمصدر الأول : القرآن والسنة ، متخذاً ذلك مقياساً وحاكماً متحكماً فى كل ما يقال أو يفعل .

وانتهيت من دراسة « الدكتوراه » وأنا أشعر شعوراً واضحاً بمنهج المسلم فى الحياة ، وهو منهج : « الاتباع » .

إن ابن مسعود رضى الله عنه يقول كلمة موجزة عن هذا المنهج هى إعجاز من الإعجاز ، إنه يقول :

« اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » .

وهى كلمة حق وصدق ثرية بالمعانى الطويلة العريضة يبرهن آخرها على أولها ، والنهى فى وسطها يبرهن عليه أيضاً آخرها : أى اتبعوا فقد كفيتم ، والكافى هو الله سبحانه وتعالى الذى أوحى المبادئ والأصول والقواعد ، وطبق رسول الله ﷺ كل ذلك وبيّنه ، ، فكان تطبيقه مقياساً وبياناً ومرجعاً يرجع إليه المختلفون .

« ولا تبتدعوا فقد كفيتم » : إن الذى يبتدع هو من لا كفاية له ، ولكن الله سبحانه وتعالى بعد أن أكمل الدين ، وأتم النعمة ، فليس هناك من مجال ، ولا من حاجة إلى الابتداع .

لقد كفانا الله ورسوله ﷺ كل ما أهمنا من أمر الدين .

وبعد أن قرّ هذا المنهج فى شعورى واستيقنته نفسى أخذت أدعو إليه : كاتباً ومحاضراً ومدرساً ، ثم أخرجت فيه كتاباً خاصاً هو كتاب : « التوحيد الخالص ، أو الإسلام والعقل » .

وما فرحت بظهور كتاب من كتبى مثل فرحى يوم ظهر هذا الكتاب ، لأنه هو خلاصة تجربتى فى حياتى الفكرية .

وكل ما كتبته عن التصوف ، وعن الشخصيات الصوفية ، فإنما يسير فى فلك هذا المنهج ، منهج الاتباع ،

وهذا المنهج يفترض :

١ – مقاومة الغزو الفكرى :

والغزو الفكرى له مجالات مختلفة : هناك الغزو الفكرى فى العقائد يتمثل فى كل هذا

التراث الضخم الذى نقل إلى اللغة العربية فيما يتعلق بما وراء الطبيعة ، وهو تراث مختلف متعارض ، بل ومتناقض ، وهو نتاج بشرى بكل ما يتسم به النتاج البشرى من خطأ وضلال .

٢- والغزو الفكرى فى نظام المجتمع : الذى حاول أن يفرض علينا نظام المجتمعات الأوربية ،

وإذا نحن سرنا فى تياره ، فإننا نصبح ولاشخصية لنا ولا ذاتية ، ونصبح وقد فقدنا رسالتنا التى كلفنا بتبليغها للناس ونشرها وهى رسالة الإسلام التى من أجلها كانت الأمة الإسلامية ، وبدونها تصبح الأمة الإسلامية ولا مبرر لها .

٣- والغزو الفكرى فى مجال التشريع :

وهذا الغزو الفكرى فى مجال التشريع توجد أسسه وأصوله بصورة مشروعة فى مختلف الأقطار العربية ممثلة فى كليات الحقوق التى تنفق عليها الدولة وتعتمد شهاداتها .

وكليات الحقوق هذه دراستها غزو فكرى ، واستعمار فكرى ودراستها : أثر من آثار الاستعمار التى لم تزل بعد أن زال الاستعمار .

وإذا كانت الأمم الواعية تحاول جاهدة أن تتخلص من وصمة الاستعمار بما فيها من شرور ورجس وآثام ، فإن الكثير من الدول العربية لم تحاول أن تتخلص من وصمة الاستعمار الصارخة الواضحة الممثلة فى هذه الكليات .

إن هذه الكليات تخصص عشرين ساعة فى الاسبوع للقوانين الأوروبية أى للفكر الأوربى فى التشريع ، وتفرض على الطالب أن يذاكره ويستوعبه ويحفظه ، ويتمثله ، وينجح فيه فى الامتحان .

أى أنها تفرض على الطالب أن يستعمر فكره الأوربيون فى مجال التشريع ، وأن يلغى ذاتيته الإسلامية فى هذا المجال ، وأن يكون تابعاً للأوربيين فى هذا المجال ، مقلداً لهم تجره عجلتهم ، مستسلماً لغزوهم ، وبينما تخصص هذه الكليات عشرين ساعة أسبوعياً للفكر الأوربى فى التشريع ، إذا بها تخصص ساعتين فقط للتشريع الإسلامى .

ولو أن هذه الكليات فى فرنسا أو فى إنجلترا لما فعلت أكثر من ذلك . . . ومنهج الاتباع : إذن يقتضينا أن ننظر فى جد فى أمر هذه الكليات من أجل أن تمثل الوطنية والإسلامية والعروبة .

وبعد : فإن منهج الاتباع هو الخلاصة الجوهرية لتجاربى الخاصة بالطريق الذى ينبغى

أن يسلكه المسلم فى حياته وإذا سار فيه المسلم فرداً ، أو سار فيه المجتمع مجتمعاً ، فإن الله - سبحانه وتعالى - يكتب له الهدوء والطمأنينة والسعادة ، لأنه يكون فى جو ربانى ملئ برعاية الله سبحانه وتعالى وعنايته .

« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » . . .

مناجاة

رَبِّ قَابِلْنِى بِنُورِ اسْمِكَ . . مُقَابَلَةً تَمْلأُ وُجُودِى ظَاهِراً وَبَاطِناً ، حَتَّى تَمْحُوَ مِنِّى خُطُوطَ الأَشْكَالِ كُلَّهَا . . فَيَبْدُو لِى فِى وُجُودِى وَمِنْ وُجُودِى سِرّ مَاكَتَبَهُ قَلَمُ تَقْدِيرِك مِنْ كُلِّ مُسْتَوْدَعٍ فِى مُسْتَقَرٍّ ، وَمُسْتَقَرٍّ فِى مُسْتَوْدَعٍ ، فَلاَ يَخْفَى عَلَىَّ مَا غَابَ عَنِّى ، فَأَنْظُرنِى بِكَ ، وَأَنْظُرَ مَنْ سِوَاىَ بِنُورِ اسْمِكَ ، فَأَرَى الْكَمَالَ الْمُطْلَق فِى الْمَلِكِ الْمُطْلَقِ ، يَا مُودِعَ الأَنوار قُلُوبَ عِبَادِهِ الأَبْرَار . . يَا سَرِيعُ يَا قَرِيب . . .

نظرة مؤمن واع
إلى المدنيات المعاصرة الزائفة

للعلامة : أبي الحسن الندوي

قصة يرويها المؤرخون العرب ، نمر بها مراً سريعاً عابراً ، تستحق منا لفتة كريمة عميقة ، وبها أفتتح حديثي هذا ، ولها اتصال وثيق بالموضوع ، وهي تدل على موضوعية نظرة المؤمن الواعي إلى المدنيات المعاصرة الزائفة ، لعلكم أيضاً مررتم بهذه القصة فيما قرأتم من كتب تاريخ الفتوح الإسلامية ، في العصر الأول ، ولست أدري هل استوقفتكم هذه القصة كما استوقفتني ، وهل استلهمتم منها تلك المعاني الواسعة العميقة والنتائج الكبيرة الخطيرة التي استلهمتها ، وقد تلفت قصة أو حديث قارئاً من عامة القراء ولا يلفت ذلك الحديث قراءً آخرين ، وإن كانوا يفوقون القارىء الأول في كثير من الفضائل العلمية والنبوغ وبعد النظر والعمق .

قصة رواها المؤرخون العرب ، على عادتهم في بساطة واختصار ، ومن غير تعليق واستنتاج ، يقولون : إن «رستم» [1] - قائد قواد الفرس - طلب من سيدنا سعد بن أبي وقاص قائد جيوش المسلمين في فارس أن يرسل إليه رجلاً يستوضحه عن أغراض هذا الغزو الذي لم يكن للفرس به عهد ، ولم يكن للعرب به شأن ، إنما عرف العرب بالانطواء على نفوسهم في باديتهم قروناً طويلة ، فكانت هذه مفاجأة لم يكن الفرس يتوقَّعونها . والعرب قد عرفوا بالقناعة والتقشف في الحياة ، والانعزال عن العالم الخارجي في عامة الأحوال ، وعدم الطموح إلى فتح إمبراطوريات جاورتهم ، فلما خرج العرب لأول مرة في التاريخ الطويل يغزون فارس والروم ، استلفت ذلك نظر المتأملين ، ونظر الذين واجهوا هذا الغزو وجهاً لوجه ، فأرسل سعد ربعي بن عامر [2] ، وكان «رستم» قد بالغ في التزيين ، بل

(١) كان قائد الجيوش في إيران ووزير الحربية فيها وكان من أبطال الفرس المعدودين الذين يضرب بهم المثل في الشجاعة والشدة ، وهو الذي سعى في تنصيب الملك يزدجرد الثالث سنة ٦٣٢م وقاد مهمة دفع العرب المسلمين حين قدومهم لفتح فارس وقتل سنة ٦٣٥ م (المحرم ١٤ هـ) في يوم القادسية ، وكان من البيوتات السبعة التي تم شرفها ، وكانت قيمة قلنسوته مائة ألف وهي علامة من تم شرفه في ذلك العهد (ملخصاً من كتب التاريخ) .

(٢) كان من الصحابة كما صرح به الحافظ ابن حجر في كتابه الإصابة في تمييز الصحابة وكان من أشراف العرب ، ولَّاه الأحنف على «طخارستان» راجع «الإصابة في تمييز الصحابة» جـ ١ ، ص ٥٠٣ .

التهويل ، قد زين مجلسه بالنمارق المذهبة والزرابى الحريرية ، وأظهر اليواقيت واللآلئ الثمينة والزينة العظيمة وعليه تاج وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب [1] .

جاء ربعى بن عامر لا يكترث بشىء ، ولا يحتفل بهذه الزينة العظيمة ، التى لم يعهدها ، فجلس بجنب «رستم» كأنه جالس بجوار رجل من زملائه .

فقال «رستم» ما جاء بكم ؟

فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه» [2] .

أيها الإخوة : إنى لا أريد أن أتناول هذه الأجزاء الثلاثة التى جاءت فى هذه الكلمة البسيطة البليغة كلها شرحاً وإيضاحاً ، ولكننى أتناول شيئاً واحداً ، وهو قول ذلك المؤمن الواعى يخاطب «رستم» وهو فى غاية أبهته ، وفى زهوه ، وعلى قمة مجده ، يقول له : «من ضيق الدنيا إلى سعتها» إننى لا أستغرب قوله : «لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله» ولا من قوله : «من جور الأديان إلى عدل الإسلام» فقد كان كل ذلك حقيقة بديهية للمسلمين الذين غرس رسول الله ﷺ عقيدة التوحيد فى نفوسهم ، وحبب الله إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ينظرون إلى جميع أنواع الشرك والوثنية وعبادة الإنسان للإنسان بعين الازدراء والاحتقار ، وكانوا يعافونها ، وكانت أذواقهم تمجها وتأباها ، وكان ربعى بن عامر يعرف أن ملوك فارس وأمراءها قد استعبدوا الناس ، وكانوا يعاملونهم معاملة الآلهة للعباد ، لا معاملة السادة للعبيد ، وكان الناس يكفرون [3] لهم ويسجدون ، ويرون أنهم فوق البشر ، يجرى فى عروقهم دم إلهى مقدس [4] وكانوا يؤمنون بأن الإسلام هو الشريعة العادلة ، وأن غيره من الأديان قد أصبحت جائرة تستعبد الإنسان للإنسان وتسخره للأحبار والرهبان ، وتقيده بأغلال وقيود وأحكام ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد قرأوا قوله تعالى : «الذين يتبعون الرسول النبى الأمى

---

(١) راجع «البداية والنهاية» لابن كثير جـ٧ ص ٣٩ ، طبع بيروت ١٩٦٦ م .

(٢) «البداية والنهاية» لابن كثير جـ٧ ، ص ٣٩ طبع بيروت ١٩٦٦ م .

(٣) كفر الرجل للرجل : خضع بأن يضع يده على صدره ، ويطأطئ رأسه ، ويتطامن تعظيماً له .

(٤) راجع للتفصيل كتاب «إيران فى عهد الساسانيين» لآرثر كرستون سين .

الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » (١) وقرأوا قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » (٢). وقد آمنوا بذلك وشاهدوا آثارها فى الأمم والديانات التى عرفوها . كنصارى الروم ، ومجوس فارس ، ويهود المدينة .

ولو قال ربعى بن عامر « لنخرج من شاء من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة » لم أستغرب ذلك ، لأنه آمن بالآخرة التى لا آخر لها ، وبالجنة التى لا حد لها ولا نهاية . وقد قرأ فى الكتاب الذى قرأه وآمن به وعاش فيه « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين » (٣)

ويقول رسول الله ﷺ فى غزوة بدر : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض (٤) » وقال : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها » (٥) .

ولكننى أستغرب قوله : « من ضيق الدنيا إلى سعتها » هنا أتساءل : ما هو الضيق الذى كان فيه الفرس ، وما هى السَّعة التى كان فيها العرب ؟ حتى ساغ لربعى بن عامر رضى الله عنه ، أن يقول : إنا معشر العرب المسلمين نريد أن نخرجكم أيها الفرس الأشقياء المنكوبون . من ضيق الدنيا إلى سعتها . هل كان ما كان فيه العرب يستحق أن يسمى السعة ؟ وهل كان ما كان فيه الفرس يستحق أن يسمى الضيق ؟ ونسأل التاريخ عن ذلك ، وهو شاهد عدل ، وتاريخ العرب وتاريخ الروم والفرس مسجل مدون ، لا يتطرق إليه الشك ، قد جاء برواية الرواة العادلين الموثوق بهم ، وتضافرت الروايات والشهادات على ذلك ، فإذا كان العرب يعيشون فى بحبوحة من العيش ، لم يكن ذلك مجهولاً أغفله التاريخ ، وإذا كان الفرس يعيشون فى ضيق لم يكن ذلك خافياً .

وقد قرر التاريخ وأجمع المؤرخون على أن الفرس والروم كانوا يعيشون فى رغد من العيش ، ويتقلبون فى أعطاف النعيم ، قد اتسعت لهم الدنيا ، ولانت لهم الحياة ، أما العرب فبالعكس كانوا يعيشون – حتى بعد الإسلام – فى شظف ، وكان العهد عهد خلافة

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٤ .

(٣) آل عمران الآية ١٣٣ .

(٤) رواه مسلم .

(٥) حديث متفق عليه رواه أبو هريرة رضى الله عنه .

عمر ، وكان الناس على الفطرة – العربية الإسلامية – وكانت المدنية لم تتعقد ولم تتوسع بعد ، وكان عمر – وهو خليفة المسلمين – يعيش حياة متقشفة زاهدة ، ويأخذ الناس بالتقشف والتخشن فى الحياة ، وكانت هذه الحياة التى يحياها العرب فى الجزيرة حياة بداوة وتخلف فى نظر الفرس والروم ، وكانوا يأسفون على حالهم ، ويرون أنهم فى جهد من العيش وضيق من الدنيا .

فهنا نتساءل : ما هو الضيق الذى كان فيه الفرس ، حتى رثى له ذلك المسلم العربى ؟ وما كانت السعة التى فيها العرب ، حتى افتخر بها ذلك الصحابى ؟ هل هو ضرب من ضروب المبالغات الشعرية ؟ إن العرب لم يتعودوا ذلك ، إن الإسلام لم يبح لأىٍّ واحد من أفراد الأمة المسلمة أن يتبجح [1] ، ويبالغ هذه المبالغة الشعرية إنهم كانوا بعيدين كل البعد عن المبالغات والقول الجزاف ، كانوا أصحاب جد وصدق ، أصحاب صراحة وشجاعة ، فما هو الضيق ؟ إنه كان إذا دخل هذا المجلس بل إذا دخل فى حدود المملكة الفارسية العظيمة ، كان جديراً كل الجدارة بأن يسيل لعابه ، ويتحلّب فمه على هذه الزخارف التى كان يتمتع بها الفرس ، وعلى هذه الأنواع من الأطعمة والأشربة ، إنه لابد قد شاهد الكثير من نفائس الأشياء وغوالى الطُّرف ، ومظاهر الحضارة والأناقة والترف ، إنه واجه هذه المدنية الزاهية الزاهرة ، التى بلغت قمتها ومجدها ، فقد وسعها الفرس بذكائهم واختراعهم وبتجاربهم الطويلة الأمد ، وبمغانمهم الكثيرة وفتوحهم الواسعة ، وكانت فيها مدن بقصورها الفاخرة ، ومبانيها العظيمة ، وحدائقها الغناء ، ومتنزهاتها الساحرة ، وأسواقها الزاخرة ، وطرقها ووارداتها العظيمة ، فمن أى نوع كان هؤلاء العرب الذين تمردوا وقسوا على هذه المظاهر الفتانة ، المظاهر التى يجن بها الإنسان جنوناً ! ؟

إنه لا ينقضى عجبى من قوله : « إن الله ابتعثنا – أيها الفرس – لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها » لماذا ؟ لأنه كان ينظر إلى هؤلاء الملوك والأمراء ، كما ينظر العاقل إلى دُمًى قد كسيت ملابس فاخرة جميلة ، إلى تماثيل قد أُحكمت صناعتها ، وتأنق صانعوها فى تصوير قسماتها ، وملامحها ولكنها على كل حال تماثيل من حجر أو جبس ، لا حياة فيها ولا حراك بها ، كان ربعى بن عامر – وهو أحد أفراد الجيش الإسلامى – ينظر إلى « رستم » كطائر مدلل فى قفص من ذهب ، وكان كسرى يزدجرد – الذى لم يره بعد كذلك كعندليب وكطاووس ، أو كأىّ أجمل طائر ، لكنه على كل حال ، طائر محبوس ، هذا

(١) يتبجح : يفتخر ويتعظم ويتباهى .

الطائر يوضع فى قفص ، والقفص من ذهب ، أسلاكه كلها من ذهب ، والإناء الذى يأكل ويشرب فيه الطائر ، من ذهب كذلك ، ولكن هل يحسد هذا الطائر أى إنسان عرف قيمة الحياة ، وعرف قيمة الحرية والشعور ، وعرف قيمة العقل وعرف قيمة العلم ؟ هل يحسد هذا الإنسان الذى أكرمه الله بالإنسانية ، يحسد هذا الطائر المدلل لأنه فى قفص من ذهب ، وهو فى بيت من مدر أو وبر ، بل نخطو خطوة أخرى هل نحسد كلباً مدللاً كلباً يربيه صاحبه الأوربى ، ويغذيه بأطايب الطعام ولذيذ الفاكهة ويسقيه اللبن ، ويقلده قلادة ذهبية ، وينيمه على فراش وثير ناعم ؟

إن نظرة ربعى بن عامر لم تكن تختلف عن نظرتنا إلى طائر مدلل فى قفص ذهبى أو إلى كلب مدلل عند سيد أوربى ، وذلك كله لأنه كان كبير الاعتزاز بالعقيدة التى آمن بها ، وبالدعوة التى حملها ، وبالشخصية التى ملكها ، وبالرسالة التى اضطلع بها ، وبالقرآن الذى درسه وشغف به وأحبه ، إنه كان معتزاً بالمعانى وبالقيم وبالحقائق التى هى أسمى من تلك الزخارف والمظاهر ، فلم تبهره هذه المدنية ، ولم تسحره مفاتنها إنه كان يعرف أن « رستم » ولو كان قائد قواد الفرس ، يعبد النار .

ثم إنه يعبد نفسه كما أنه يعبد سيده ، ويعبد عاداته .

وليست القضية قضية « رستم » أو قضية قائد من القواد ، أو أمير من أمراء الفرس ، بل هذا هو الشأن مع سيدهم جميعاً ، مع الإمبراطور يزدجرد ، إنه كان – يعرف أنه عبد لعاداته ، أو عبد لعبيده ، لا يستطيع أن يتحرك إلا بهم ، ولا يستطيع أن يصول ويجول إلا على أكتافهم : إنه ليس إنساناً حرًّا ، بأى معنى من معانى الكلمة ، بل هو إنسان استعبدته الشهوات ، واستعبدته العادات ، واستعبدته الأعراف ، واستعبدته المظاهر ، واستعبدته النفس الأمارة بالسوء ، واستعبدته اللذات الجسدية الخسيسة – والمطالب الحيوانية الحقيرة .

أنتم تعرفون أن الإمبراطور يزدجرد » هو ثانى الامبراطورين العظيمين اللذين توزعا العالم المتمدن المعمور : كسرى الفرس ، وقيصر الروم ، وقد انتهت بى دراستى الحديثة للتاريخ المعاصر للفتح الإسلامى ، إلى أن إمبراطورية الفرس كانت تفوق الإمبراطورية البازنطينية كانت أوسع منها ، وكانت ولايات من الهند تحت حكم الفرس ، منها ولايات موغلة فى الهند ، ولكن هذا الإمبراطور العظيم ، قد روى عنه التاريخ أنه لما هرب من عاصمته « المدائن » ناجياً بنفسه ، وكان فى حالة اللجوء والفرار ، حمل معه ألف طاه (طباخ) هل تصدقون : ألف طباخ وألف مغن ، وألف قيم للصقور والنمور ؛ ثم كان يقول : ياويل

نفسى إننى لم آخذ معى إلا هذا العدد القليل من الأعوان ومن الخدم والحشم ، وكان يقول : أنا أستحق الرحمة والرثاء ! ! فهل يعد هذا الرجل رجلاً حرا سعيداً ، صاحب شخصية ، وصاحب إرادة ؟ ثم إنه لما لجأ إلى عجوز فقيرة وقدمت له الطعام وهى ترثى له ، وقد توسمت فيه الملك والشرف ، قال : لا أستطيع أن أستسيغ هذا الطعام حتى يُغَنَّى لى [١] .

إلى هذه النقطة وصلت عبوديتهم ، ووصل رقبهم ، ووصل خضوعهم للعادات القاهرة ، إنه لم يكن يستطيع أن يتناول طعاماً وهو فى حاجة إلى الطعام : حتى يغنى له المغنون ، أما من غير أغنية ، فهو غير قادر على أن يتناول الطعام ! !

ونذكر أن « الهرمزان » – ملك الأهواز. وأحد كبار أمراء الفرس – لما أسر وجاء إلى سيدنا عمر رضى الله عنه فى المدينة ، كان – رضى الله عنه – نائماً فى المسجد متوسداً برنسه ، فاستيقظ بالجلبة ، ودار الحوار بينه وبين عمر – رضى الله عنه – وشعر « الهرمزان » بالعطش فطلب الماء ، فأتى به فى قدح غليظ ، فقال : لومِتُّ عطشاً لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا ، فأتى به فى إناء يرضاه ، فشرب [٢]

ونبه أمير المؤمنين أصحابه على ذلك ، وحثهم على الحمد لله تبارك وتعالى والشكر على نعمة الإسلام ، الإسلام الذى حررهم من هذه العبوديات ، ومن هذه الأصنام التى يَنْحَتُها الإنسان بنفسه ، ثم يفرضها على نفسه ، ويقول إبراهيم عليه السلام : – « أتعبدون ما تنحتون » وهذه عادات وأعراف إنما نضعها نحن وننفق عليها ، إنه لا يعتبر الإنسان شريفاً إلا إذا سكن فى كذا من البيوت ، ولبس كذا من اللباس ، وظهر فى المظهر الفلانى ، وكان له من الأثاث والرياش كذا وكذا ، وإن الفرس فى العصر الذى نتحدث عنه ، كانوا يعيرون الرجل الكبير الذى لا تبلغ قيمة قلنسوته مائة ألف ، ومن بلغ نصف الشرف ، كانت قيمة قلنسوته خمسين ألفاً . وكانت مِنْطقة كبرائهم تُقَوَّم بخمسين ألفاً [٣]

وهذه الأعراف والمثل كلها من مخترعات الناس التى « ما أنزل الله بها من سلطان » أليست هذه المدنية الأوربية مجموعة من الأعراف المصطنعة ، والقيود المزورة ، والمصطلحات الموضوعة ، والالتزامات التى التزمها الأوربيون ومن قلدهم .. ماهو

---

(١) راجع للتفاصيل « إيران فى عهد الساسانيين » لارتهر كرستن سين ، وكتاب المؤلف « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الفصل الثانى من الباب الأول .

(٢) تاريخ الطبرى ٤ / ٢١٧ ، وفتوح البلدان / ٣٧٤ .

(٣) راجع تاريخ الطبرى ٤ / ٦ – ١١ – ١٣٤ .

مصدرها ؟ ومن أين جاءت هذه الالتزامات التى التزمناها ؟ وقد خضعنا لتأثير هذه الحضارة وابتعدنا عن الطبيعة والتقشف الذى عُرِف به العرب ، وحث عليه المربون للأمة الإسلامية ، كعمر بن الخطاب رضى الله عنه (١)

وكان ربعى بن عامر بنظره البعيد ، وبإيمانه القوى وعلمه العميق ، وإن كان قصير النظر فى عين كثير من الذين يدعون العلم والمدنية ، ينظر الى هذه الالتزامات التى التزمها الفرس كقيود وأغلال ، وأطواق وأصفاد ، وهو لا يعرف منها الا قليلا ولكن الذى عرفه كان كثيرا ، وكان كافيا للشهادة ، وبذلك استطاع أن يقول : « الله ابتعثنا لنخرجكم من ضيق الدنيا الى سعتها » أيها الفرس لا تغرنكم انفسكم ، ولا تخدعنكم هذه البهرجة ، لا تخدعنكم هذه المظاهر الجوفاء ، انتم تعيشون فى قفص ، والقفص قفص وإن كان من ذهب ، والقفص قفص ، وإن كان من زجاج ، القفص قفص وإن كان واسعا سعة المدينة ولكنه قفص .. ما هو السجن ؟ لماذا يسمى سجنا ؟ ألا يكون واسعا ، ألا تكون فيه الغرف ، الغرف التى قد لا يوجد مثلها فى بيوت كثير من أوساط الناس ، لكنه سجن على كل حال ، وليس منا من يريد أن يعيش فى السجن ، مهما توفرت فيه أسباب الراحة والرفاهية ، ومهما اتسع وانفسح ، وكانت فيه حدائق وبرك ، ومتاحف ومتنزهات ! !

إن هذا العربى المسلم الواعى الذى كان بعيدا عن كل ظل من ظلال ما نسميه اليوم : (مركب النقص) ومن كل شبح من أشباح الانهزامية وفقدان الثقة ، لو عاش الى هذا العصر .. لنظر الى المدنية الغربية ، والمدنية الباذخة التى يعيشها العرب ، والمسلمون فى كثير من بلادهم ، لنظر إليها بنفس النظرة التى نظر بها الى المدنية الايرانية ، والمدنية الرومانية ، ولرثى لأهلها كما رثى للفرس والروم ، وتمنى أن يخرجهم من ضيق الدنيا الى سعتها ، كما تمنى ذلك للفرس والروم .

كان هذا العربى يتنعم بالحرية التى عرّفه بها الإسلام ، فنقله من دنيا ضيقة محدودة خانقة – دنيا المعدة والمادة ، ودنيا الشهوات والأغراض ، ودنيا العبودية والاستعباد ، دنيا الحياة الفانية الزائلة المكدرة بالهموم والأمراض ، والأحزان والآلام ، الى دنيا واسعة غير محدودة ، الى دنيا اليقين والإيمان ، الى دنيا القلب والروح ، والإيثار والمواساة ، والعدل

---

(١) فقد كتب إلى بعض عماله العرب وهم فى بلاد العجم : « إياكم والتنعم وزى العجم وعليكم بالشمس ، فإنها حمام العرب ، وتمعددوا (يعنى تشبهوا بعيش معد بن عدنان ، وكان ذا غلظ وتقشف) واخشوشنوا (أى تخشنوا فى المطعم والملبس) . . . إلخ ، رواه البغوى عن عثمان النهدى .

والمساواة ، والعطف والرحمة ، والطيب والصفاء ، والخلود والبقاء . . دنيا لا كدر فيها ولا فساد ، ولا خوف فيها ولا حزن ، إنه كان يتمتع بهذا النعيم الذى حُرِمه الفرس والرومان فى وقت واحد ، فكان ينظر الى مدنية الفرس والروم وحياتهم كقفص ضيق يختنق فيه الإنسان الحر الكريم ، المؤمن الواعى ، كما تختنق السمكة اذا أخرجت من الماء ووضعت على فراش وثير ناعم أو فى علبة ذهبية مزخرفة .

هذه نظرة أعرابى مسلم ، فكيف نظرتنا نحن أيها الأخوان المثقفون ، أيها المعلمون الكبار ، يا أساتذة الجامعات ، يا موجهى التربية والتعليم ، يا حملة الأقلام ، ياسائحُون فى أوربا ، كيف نظرنا الى المدنية المعاصرة الزائفة ، هل هناك نسبة بين نظرة ذلك الأعرابى الذى لا ثقافة له ، والذى لم يعرف العالم مثلما عرفنا ، ولم يدرس التاريخ مثلما درسنا ، ولم يعرف تجارب الأمم مثلما عرفنا ، ولم يقرأ الفلسفات ولم يتعمق فيها كما تعمقنا ؟؟ هذه نظرة رجل من العرب ملأه رسول الله ﷺ ، وملأه ثقة واعتزازا ، وإيمانا وشجاعة ، واحتقارا للدنيا ومعرفة للحقيقة ، كان يستطيع أن يقول لأكبر قائد فى العالم المعاصر « رستم » الذى كان اسمه يخلع القلوب ، وكان بعد كسرى ، وفوق كل قائد وأمير فى فارس ، كان يستطيع أن يقول له وبصوت ملؤه التحكم والتهكم : أنا أرثى لك يا رستم ، أنت فى الشقاء ، أنت فى ضيق من الدنيا ، ونحن العرب المسلمين الذين أبدانهم نصف عارية ، والذين أجفان سيوفهم بالية وثيابهم مرقعة ، ونعالهم مخصوفة . . نحن نعيش فى الجنة وأنت تعيش فى جهنم ! !

مالذى حمله على هذا القول ، القول الجرئ القوى ، الكلمة المدوية المجلجلة ؟ إنما هو ايمانه وثقته بشخصيته ، وبفضل رسالته والتعاليم التى أكرمه الله بها . . فكم منا أيها الأخوان . قولوا لى بصراحة : كم منا فى جامعاتنا ، وفى مكاتبنا وفى مكتباتنا ، وكم منا فى أدبنا ، وفى شعرنا ، وصحافتنا ، من يستطيع أن يخاطب أوربا أو أمريكيا ، يعيش على فتات مائدتنا : نحن الذين يغذونهم . . فلولا هذا النفط الذى يفيض من جزيرتكم ، لما كان لأمريكا ، ولما كان لأوربا هذه الصولة . . الأوربى الذى أفلس فى ايمانه ، وفى خلقه ، وفى شخصيته ، وهو الآن مصاب بالجذام الخلق ، وبذلك دخلت حضارته فى دور التفسخ والتعفن ، وهو لا يعرف لها علاجا ، ولا يملك لها زماما . . تاجر مرتزق مستأثر مستغل ، تنكر للمسيحية قبل مدة طويلة ، فانقطع آخر خيط كان يربطه بالسماء وبالنبوات والأخلاق ، بل بالعكس ننظر اليه نظرة تمجيد وإجلال ، نظرة تقديس وتأليه ، ونحتقر

نفوسنا وحضارتنا ومثلنا ودينا ، أمام حضارته ومثله ، ونذوب أمامه كما يذوب الندى أمام الشمس ، والشمع أمام وهج النار ، ذاك العربى المسلم الذى عرف قيمته وقيمة رسالته ، يقول لرستم « إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من ضيق الدنيا الى سعتها » والله : إن هذه الكلمة لو وضعت على الجبال لزالت ، ولو وضعت على البحر لتبخر . فكيف بالقلوب ، كيف بالنفوس ، كيف بالضمائر ؟ هذه النظرة التى كان ينظر بها المؤمن الواعى فى عصر الدعوة الإسلامية الأول ، الى المدنيات المعاصرة الزائفة ، وهذه النظرة التى يجب أن ينظر بها المؤمن الواعى اليوم الى المدنية المعاصرة الزائفة .. هذا الذى أريد أن أقوله اليوم وأتركه أمانة لكم فى هذه المدينة الجميلة الزاهية ، العاصمة التى قفزت من الصحراء كزهرة جميلة ، فوصلت الى هذه القمة من المدنية ، أريد أن أقوله هنا ، وأرسله الى أقصى ما أستطيع أن أرسله اليه .

يجب أن ينظر العرب ، يجب أن ينظر المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، بهذه النظرة الواعية ، بهذه النظرة المؤمنة المملوءة بالاعتزاز ، الى المدنية الزائفة المعاصرة التى تحيط بنا ، لسنا متطفلين ، لسنا أدعياء[1] لسنا من الذين لفظتهم الأرض ، ما لنا نسب ، مالنا أصالة ، مالنا تراث ، مالنا حضارة ، مالنا تاريخ ، مالنا أجداد ، ولا أمجاد ؛ لا ، لا .

أيها السادة ، إننا أغنياء ، إننا معلمون للعالم ، إننا موجهون للأمم .. لكن ما هو الواقع المرير الأليم ؟ الواقع أننا مسيرون لا مخيرون ، أننا موجهون – بفتح الجيم – لا موجهون – بكسر الجيم – أننا تلاميذ لا أساتذة ، أننا متطفلون ، لسنا أصحاب موائد وأصحاب كرم ، لسنا أصحاب شخصية !؟

وجزى الله المؤرخين العرب المسلمين الذين حفظوا هذه الكلمة الخالدة التى تلقى الأضواء على شخصية العرب الأولين الذين أكرمهم الله تعالى بالرسالة الخالدة ، والتى كانوا معتزين بها كل الاعتزاز ، مكتفين بها كل الاكتفاء ، وكانوا يعتبرونها أفضل من كل شئ ، وكانوا يرون أن الشئ الذى لا ينبع من هذا المصدر ، ولا يرجع الى هذا الأصل أنه شئ ، لاقرار له ، وأنه شئ لاقيمة له !؟

هكذا يجب أن يكون موقفنا إزاء المدنيات ، إزاء التحديات الجديدة التى تتحدانا بها هذه المدنية ، وهذه الفلسفات المعاصرة ، ليكن موقفنا موقف عملاق معتدّ بكرامته معتزّ بشخصيته ورسالته ، مستخدم لعقله ومواهبه ، حرّ فى رفضه وقبوله ، مقتبس منها ما ينفعه

(١) أدعياء : جمع دعى وهو المتهم فى نسبه ، والذى يدعى غير أبيه أو غير قومه .

ولا يضره ، ويطابق أهدافه ومُثله ولا ينافيها ، ويضفى عليه قوة جديدة ، ولا يوهن هيكله وينخره ، لا موقف قزم فقد الثقة وخسر الإيمان ، وتضاءل وانضوى أمام كل شبح من أشباح القوة والسلطان ، وأحب الحياة وأشفق من الموت ، وبعُد عن ميدان المغامرة والطموح والأصالة والابتكار ، والامامة والقيادة ، فهو ينظر الى المدنية المعاصرة الزائفة كما ينظر طفل صغير واقف فى سفح جبل الى قُلَّتِه ، يتمنى لو ارتقى إليها !؟

* * *

واختم حديثى هذا بمقطوعة شعرية لشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال ، خاطب فيها الشباب المسلم المثقف ، الذى سحرته المدنية الغربية ، فجهل شخصيته ، وجهل أبعادها وأعماقها ، ومضمراتها ومكنوناتها ، فعشق المادة ، وعاش فى خوف من الموت .. يقول :

« عجبا لك أيها المسلم . تجلت لك الآفاق ، وغابت عنك نفسك ، الى متى تظل غافلا جاهلا ، وتجلس ضائعا عاطلا ، إنك نور قديم ، فأنر به الليل البهيم ، فى كمك اليد البيضاء ، فاعمل بها عمل الكليم[1].

تخط حدود الآفاق الضيقة ، فأنت السابق لها والفائق عليها ، فقد كنت ولم تكن ، وستكون ولا تكون .

هل تخاف الموت أيها الإنسان الحى الخالد ؟ لقد كان جديرا بالموت أن يخافك ، فأنت تكمن له وترصد به ، اعلم يقينا أن الكريم إذا وهب شيئا لا يسلبه ولا يسترده .. وليس حتف ابن آدم فى فراق الروح ، إنما حتفه فى ضعف الإيمان والحرمان من اليقين »[2].

المُلْكُ لا يُساوى جرعة ماء ! !

قال الرَّشِيدُ لابْنِ السَّمَّاكِ : عِظْنِى . . – وَأُتِىَ لَهُ بِمَاءٍ لِيَشْرَبَهُ – . . فَقَال السَّماكُ الزَّاهِدُ : لَوحُبِسَتْ عَنْكَ هَذِه الشَّرْبَةُ أَكُنْتَ تَفْدِيهَا بِمُلْكِكَ ؟ قال الرَّشِيدُ : نَعَمْ . . قال : فَمَا خَيْرٌ فى مُلْكٍ لا يُسَاوِى جَرْعَةَ ماء ! ! ؟ . .

(١) يعنى بها موسى الكليم .

(٢) «روائع إقبال» ص ٩٨ بتعديل يسير .

الإسلام والمدنيّة الحديثة

العلامة أبو الأعلى المودودى

إن المدنية الحديثة التى يقوم فى ظلها نظام الحياة الحالى بمختلف فروعه العقائدية والأخلاقية والاقتصادية والسياسية والثقافية ترتكز على دعائم ثلاث ، هى المبادئ الرئيسية الآتية :

العلمانية أو اللادينية

القومية

الديمقراطية

ولنبحث كل واحد منها على حدة ، ولنبدأ بأولها :

العلمانية :

يمكن إيجاز معنى العلمانية فى عبارة واحدة هى : عزل الدين عن الحياة الاجتماعية للأفراد ، وهذا يعنى أن العلمانية ترى أن العقيدة الدينية والهدى السماوى وما يتبع ذلك من اتباع الدين وطاعة الله ، والوقوف عند حدود شرعه لا يجب الالتزام بها إلاّ فى حياة الأفراد الشخصية ، أما ما عدا ذلك من شئون العالم فى حياة الناس فإنه يجب أن يعالج على أساس المادية البحتة ، وفق رغبات البشر ووجهات نظرهم وميولهم دون مراعاة الحياة وقد نشأت العلمانية نتيجة لرد الفعل الذى أصيب به الغربيون كراهيةً لِلاَّهوت [1] «Devenity»

الذى افتعله الكهنة فى الديانة المسيحية ، حيث وقف هؤلاء حجر عثرة أمام الفكر الواعى الذى يهيم بحثا وراء الحقيقة ، وحاربوا كل عقل متحرر مستنير ، فصنعوا لأنفسهم

(١) اللاهوت : تعبير اصطلاحى فى الفلسفة المسيحية عند القائلين بالاتحاد وعلى رأسهم النسطورية . ويراد به الجزء الإلهى الذى حل فى المسيح الإنسان الذى يعبر عنه الناسوت فيقولون : أنه اللاهوت حل فى الناسوت ، والأستاذ يريد باللاهوت هنا فكرة السلطة الإلهية التى ادعاها رجال الكنيسة لأنفسهم ، بسطا لنفوذهم - وتحقيقاً لمطامعهم وأهوائهم - بمحاربة كل فكر متحرر ، واتهامه بالزندقة والإلحاد .

بهذا الموقف أغلال مهانتهم . ولم يلبث الأمر طويلا حتى تحول العداء لفكرة اللاَّهوت الى نظرية مستقلة وأصبحت هذه النظرية حجر الأساس فى قاعدة المدنية الغربية .

قد نسمع كثيرا من يقول : الدين صلة بين العبد وربه . وهذه الجملة القصيرة هى العقيدة التى تدين بها المدنية الحديثة ، وهى تعنى أنه إذا كان الإنسان يؤمن بوجود إلـٰه يستحق العبادة وحده دون سواه . فله أن يعتقد ذلك على أن تكون عبادته فى نطاق حياته الفردية . وليس لهذا الإلـٰه ولأديانه السماوية سلطة على شئون العالم تتحكم فى مقدراته .

وعلى هذه العقيدة أرست المدنية الحديثة قواعدها ، وأقامت أنظمة حياتها بكافة العلاقات الإنسانية فى صلة الإنسان بأخيه ، متحررة من السلطة الإلـٰهية والتشريعية فى ميادين الحياة كلها : الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، والقانونية ، والسياسية ، وشئون الحكم والإدارة والعلاقات الدولية ، فكل شأن من شئون الحياة البشرية التى لا حصر لها إنما يعتمد على معارف الإنسانية المكتسبة ، ويكون وفق رغباته الخاصة ، ولا ينبغى السؤال بعد ذلك عما إذا كان الله قد شرع للإنسانية فى هذا السبيل شيئا من المبادئ ، والأسس أم لا ؟ بل أصبح مثل هذا السؤال رجعية وتخلفا .

وليت الأمر اقتصر على التحرر من سلطة الله والدين فى الحياة الاجتماعية لتسلم الحياة الفردية التعبدية ، فإن فكرة التحرر من شريعة الله فى الشؤون الاجتماعية قد حولت حياة المجتمع ولا تزال تحولها الى حياة علمانية محضة . لأن هذه الثمرة التى يجنيها المجتمع العلمانى من التعليم اللادينى ، فمن الضرورى فى مثل هذا المجتمع أن يصبح الأفراد الذين يؤمنون بوجود إلـه يستحق العبادة : قلة نادرة . لاسيما الذين يتولون قيادة المدنية الحديثة ، بل ان هؤلاء – بصفة خاصة – قد استهانوا بالدين فى حياتهم الشخصية وتمزقت صلتهم الفردية بالله إرباً إرباً ، وانفصموا من عُراها انفصاما كاملا .

القومية :

كان لتعسف البابوات والقياصرة فى أوربا فعل سيئ نشأت عنه القومية ، حيث هب رجال الإقطاع من أمراء وملوك للخلاص من تحكم الكنيسة وقياصرة الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، أى السلطة الروحية والسلطة الزمنية ، فإن هاتين السلطتين قد فرضتا الحكم التعسفى لأمد طويل ، وتلاعبتا بمقدرات البلاد حتى تدهورت وأصبحت فى حالة يرثى لها ، ووضع لا تحسد عليه .

ولذا كان هدف الحركة القومية فى منشئها أن تعطى للقوميات المختلفة حرية ممارسة حق سيادتها فى أرضها بكافة الحقوق السياسية والتجارية والاقتصادية وغيرها ، حتّى تكون أداة فى أيدى السلطات الروحية والزمنية الموجودة فى العالم .

ومن هذه البداية السهلة البريئة فى ظاهرها تطورت فكرة القومية من رحلة الى أخرى الى أن صارت فى موضع القداسة ، وخرجت عن أن تكون وسيلة للتخلص من تحكم الكنيسة وقياصرة الامبراطورية ، وأصبحت هدفا وغاية ، بل غدت معبودة من دون الله الذى استبعدته العلمانية الغربية من قبل عن شؤون الحياة[1] .

وابتدعت القومية مناهج وقيما جديدة ، وجعلت مقياسها الوحيد الذى تزن به الأمور هو مصلحة الأمة ورغباتها . فأصبحت الفضيلة فى نظر المناهج القومية وأعرافها هى ما يحقق مصالح الأمة ويساير رغباتها ولو كانت لحمتها الكذب والتزوير والخيانة ، وسَداها الظلم والعدوان أو أى جريمة أخرى مما يعد فى الدين والأخلاق ذنبا لا يغتفر . وعلى النقيض من ذلك أصبح الشر هو ما يمس مصالح الأمة ويُسيئ إليها ولو كان فى حقيقته من أسس واجبات الحق والعدل والصدق وسائر ما يعتبر لدى الدين والإنسانية فضائل خلقية . كما أصبحت بطولة الأفراد تقاس بما يقدمه أحدهم من تضحية لمصالح الأمة أيا كان نوع هذه التضحية ، بالنفس أو المال أو الوقت ، بل وبالفضائل الخلقية والمعانى الإنسانية والكرامة الشخصية كذلك . إذ أنه على هؤلاء الأفراد أن يكرسوا جهودهم متساندين فى سبيل تحقيق آمال الأمة وأمانيها لأن غايتهم الجماعية القصوى تنحصر فى جمع أكبر عدد ممكن من الأفراد الذين يلتقون فى صف واحد مُنَسَّقٍ ، وتتضافر جهودهم لرفع راية أُمتهم خفاقة مستعلية على رايات الأُمم الأُخرى .

وصار من المصطلحات المألوفة فى قاموس القومية :

الويل للمغلوب ، والغاية تبرر الوسيلة ، ولا مكان للضعيف تحت الشمس ، وقَتْلُ شعب آمن قضية فيها نظر ، واكذب حتى يصدق الناس . والاستعمار والوصاية والحماية والانتداب ، بل أصبحت هذه المصطلحات مبادئ سامية فى نظر القومية ، تتردد على الألسنة من حين لآخر طالما كانت فى خدمة المآرب القومية وتأمين رغباتها ومطالبها .

(١) وبهذا تتضح الصلة بين العلمانية والقومية فكلاهما قرين للآخر فى عوامل نشأته .

الديموقراطية . . أو الشعب مصدر السلطات :

نشأت فكرة الديموقراطية أول الأمر فى عهد الإقطاع بأوربا فى محاولة للتمرد على تسلط الإقطاعين لإنقاذ جماهير الشعوب من مخالبهم . واذا كانت الديمقراطية تعنى أنه ليس لفرد أو أُسرة او طبقة أىّ حق فى فرض إرادتها على الملايين من الناس واستخدامهم لإشباع المطامع الخاصة والأنانية الشخصية ، فلا شك أنها بهذا المعنى كانت صحيحة لا تعارض الحق غير أن الديمقراطية بجانب هذه الصورة السلبية تتضمن صورة إيجابية أخرى ، وهى : إشعار كل شعب فى كل بلد بأنه سيد نفسه وحاكمها .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لظلت الديمقراطية فى غاية من الصحة كذلك . ولكنها انحرفت وتحولت فيما بعد عن مفهومها الصحيح ، وأصبحت تعنى إطلاق العنان لتصرفات كل أمة لتحقق رغباتها كيف تشاء ؟ هذه الرغبات التى تمثل فى الواقع رأى الأكثرية ، لا رأى أفراد الأمة جميعا (١) وليس هناك من ضابط يضبط هذه الرغبات (٢)

فقوانين البلاد ومبادئها وانظمتها فى الاخلاق أو المدنية أو الاجتماع أو السياسة اخذ صفة الحق وتصير صحيحة مادامت تؤيد رغبات اكثرية الأمة ، وتأخذ صفة الباطل وتصير خطأً مادامت تجافى هذه الرغبات التى تتبع اهواء النفوس وتميل معها . ولهذه الاكثرية أن تسن من القوانين ما تشاء وتلغى ما تشاء ، وعلى الحكومة التى تمثلها ان تركز جميع امكانياتها لتحقيق الامانى القومية .

وخلاصة القول : فكل ما ساير أهواء الأكثرية ومالأها ، كان خيرا وحقا وعدلا ولو كان فى الواقع شرا وباطلا وظلما ، وكل ما جانب تلك الأهواء وجافاها كان محض شر ولو كان فيه الخير العميم .

ومن الطبيعى أنه فى ظل هذه الديمقراطية تتلاعب الأكثرية بالقوانين والأنظمة فتغير فيها وتبدل وفق الرغبات والأهواء لا وفق قواعد الحق الثابتة التى لا تخضع لتبديل أو تغيير المبادئ الثلاثة فى الميزان .

تلك المبادئ الثلاثة التى ذكرناها آنفا ، والتى ترتكز عليها دعائم الدولة القومية

---

(١) لأن الحكم يكون للأكثرية ، وتعتبر القرارات فى المجالس النيابية قانونية إذا أقرها أكثر الأعضاء ، ولا يشترط أن يكون القرار إجماعياً .

(٢) لأنه لا مقياس لها فى الخير والشر سوى رغبات الناس أنفسهم .

الديمقراطية العلمانية .

هى روح الحياة المعاصرة التى يعتبرونها أرق صورة وأمثل طريقة لأى نظام حضارى ، أو تنظيم اجتماعى .

ونحن نرى أن المبادئ الثلاثة خاطئة فاسدة . بل نعتقد من قرارة أنفسنا عن بصيرة وهدى واقتناع ، أنها منبع الشرور والمصائب والمآسى التى تعانى الإنسانية من جرّائها اليوم ما تعانيه ، وقد أخذنا على عاتقنا أن نحاربها ونحطمها ، حتى نجتثها من جذورها بكل ما لدينا من إمكانيات ووسائل .

أما كيف ننتقد هذه المبادئ ؟ وما منهجنا فى نقدنا ؟ فهذا يحتاج إلى بحث مستفيض ، ومناقشة مسهبة ، لا يتسع المقام للخوض فيها ، الا أننى سأحاول فى كلمات موجزة أن أفهمكم ذلك ، لتكونوا على بصيرة من أهمية معركتنا . تمكنكم من تقدير مدى خطورتها وضرورة القيام بها للوقوف فى وجه تيار هذه المبادئ .

نقد العلمانية :

أما العلمانية – وهى حجر الأساس لنظام الحياة العصرى – فإن فكرتها التى تقْصر العلاقة بين الإلـه والإنسان على حياة الفرد الخاصة وتستبعد هذه العلاقة من الحياة الاجتماعية فكرة فارغة غير ذات موضوع حتى تكون مجالا للتعقل والتفكير ، إذ أنه من الوضوح بمكان أن العلاقة بين الإنسان والإلـه لا تتعدى أحد أمرين بحال من الأحوال :

أحدهما : أن يكون الله هو خالق الإنسان وخالق الكون الذى يعيش فيه . وموجدهما وسيدهما ، وحاكمهما .

وثانيهما : أن لا يكون الله كذلك :

فإذا فرضنا التقدير الثانى ولم يكن الله هو الخالق السيد الحاكم فلا داعى على هذا التقدير أن تقوم أىّ علاقة خاصة معه ، لأنه من الخطل والحمق أن نعبد كائنا ليست له بنا علاقة ، ولا يستطيع أن يفعل لأجلنا شيئا .

أما إذا كان الله هو الخالق السيد الحاكم للإنسان وللكون الذى يعيش فيه ، فليس من المعقول أن تقتصر أحكامه وتشريعاته على حياة الفرد الخاصة وتنتهى سلطته عندما تبدأ علاقة الفرد مع غيره فى الحياة الاجتماعية .

ولو ادَّعى إنسان أن الله هو الذى قصر سلطته وعلاقته بخلقه على حياة الفرد الخاصة فهذا الادعاء لا دليل عليه ، أما إذا كان الإنسان نفسه هو الذى ابتكر هذا الاستقلال فى حياته الخاصة وفرضه ، وأبعد السلطة الإلـهية عن حياته الاجتماعية فى الشؤون كلها ، فإنه بذلك يكون قد أعلن عصيانه وتمرده على خالقه وسيده وحاكمه .

وليس هناك أسخف لدى العقول من أن يدعى كل إنسان بمفرده أنه عبد الله وخادم له ومتّبع لدينه ، حتى إذا ما اجتمع مع غيره من الأفراد وكَوَّنوا مجتمعا وشكلوا دولة ، تنكروا لعبوديتهم لله واستبعدوا دينه من حياتهم ، إذ ليس من المعقول أن يذعن كل جزء من أجزاء المجموع على حدة ، العبودية لله ، فإذا تكونت من الأجزاء كلها وحدة مجتمعة اصبحت خارجة عن هذه العبودية ، ولا يقول بهذا إلا من أصيب بالجنون .

واذا لم تكن هناك حاجة الى الله وهديه فى حياتنا العائلية ، ولا فى شؤون بلدتنا ولا فى حقل المدرسة والكلية ، ولا فى السوق والمتجر ، ولا فى البرلمان (مجلس الشورى) ومقر الحكم ، ولا فى المحكمة ، ولا فى الإدارة الحكومية ، ولا فى المعسكر الحربى ، ولا فى مراكز الشرطة ، ولا فى ميدان القتال ، ولا فى مؤتمر الصلح – إذاً لم يكن هناك حاجة الى الله وهديه فى هذا كله وفى نظائره من شؤون الحياة فأىّ معنى من معانى العبودية يبقى للإلـه المعبود ؟ وأىّ عقل يستسيغ آداء طقوس تعبدية لإلـه ابعد سلطانه عن الحياة كلها بتلك الصورة فلا يأخذ بيدنا فى أىّ ناحية من النواحى . وقد عُطّل عن خصائص ألوهيته ؟

هذاً من الناحية العقلية ، أما من الناحية العملية فإن هذه الفكرة تجر الانسان إلى عواقب وخيمة ، ونتائج رهيبة ، لأن واقع الحياة يشهد بأنه لا تكاد علاقة الإنسان بالله تنقطع فى ناحية من نواحى الحياة حتى تتوثق علاقة الشيطان معه فى هذه الناحية .

ثم إن ما يدعونه من الحياة الفردية الخاصة ليس إلا مجرد وهم ، فالإنسان كائن اجتماعى ، وحياته فى كافة مراحلها حياة اجتماعية ، إنه يظهر إلى الوجود نتيجة لعلاقة اجتماعية بين الأبوين ، ويفتح عينيه فيجد نفسه بين أفراد أسرته ، وحين يشب ويترعرع بمجتمعه ، تتوثق علاقته بأبناء بلدته ومواطنيه وأمته ، وتتوثق بما يسود هذه الأمة من نظام ثقافى واجتماعى واقتصادى وسياسى وهذه العلاقات المتعددة المتشعبة التى تربطه بالآخرين وتربط الآخرين به لا تحقق رفاهة الفرد ومجتمعه ، ولا تحقق للبشرية كلها نجاحها وتقدمها وازدهارها ، الا إذا كانت على أُسس صحيحة صالحة ، والله وحده هو الذى يعطى الإنسان أسساً عادلة نزيهة ثابتة توثق هذه العلاقات وتؤكدها وتثبت دعائمها ، وماذا

يبقى للإنسان من تعاليم اذا حرم نفسه من مصادر الهداية الثابتة ، والتوجيه السديد الخالد ، والعدالة السماوية ؟ سوى الهوى والشهوة والعلم الناقص والخبرة القاصرة ؟ ومادام الانسان بطبيعة خلقته لم يكن – ولن يكون – كائنا كاملا فإن أحكامه وتشريعاته لن تكون أبداً كاملة لا يعتورها النقص .

لهذا فإن المجتمع الإلحادى اللاديني الذى يحتل فيه الإنسان مركز المشرع الموجه ، نرى مبادئه توضع لتلغى من حين لآخر وفق رغبات الشعب المتغيرة ، وأهوائه الجامحة .

وفى استطاعتنا – من هذه الثغرة الكبيرة – أن نرى كيف تسربت مظالم الاستبداد ، وآثام الإلحاد ، وفقدان اليقين والثقة ، الى كل ناحية من نواحي العلائق الإنسانية ؟ .

وكيف صبغت أنانية الفرد والطبقة والجنس كل أعمال البشر وظللتها بظلها القاتم الرهيب .

ولو أننا تتبعنا العلاقات القائمة بين شخصين ، أو جماعتين ، أو شعبين ، فإننا لن نجد صورة من صورها قد خلت من شرور الأنانية وأوضارها ، إذ أن كل شخص ، أو طبقة أو جماعة ، أو شعب أو دولة – كلٌّ فى نِطَاق تصرفاته ومدى سلطته – وضع مبادئ بأثرة بالغة تلائم رغباته ، وتبارك أهواءه ، دون أن يبالى بما عسى ان يكون لها من الآثار فى غيره من الأشخاص ، أو الطبقات ، أو الجماعات ، أو الشعوب ، أو الدول ، والشيء الوحيد الذى يلقون له بالاً عندما يتخذون لأنفسهم ما يتخذون من قرارات هو (العصا) رمز القوة والعنف – وحيث وجدت (العصا) تهز رأسها فى يد شخص أو طبقة أو شعب أو دولة يبدأ الآخرون يتقلص ظلهم ، وتتراجع أيديهم وأرجلهم عن المكان الذى امتدت إليه ظلما وزوراً إلى المكان الذى ينبغى أن تكون فيه وتقتصر عليه ، ومن الواضح أن (العصا) لن يكون لها شيء من الرُّشد أو الشعور بالعدل والإنصاف ، وانما هى قوة عمياء ، وهكذا فإن التوازن لا يقوم فى الدنيا أبداً على أساسها ، والذى تكون (عصاه) أكثر متانة وقوة من (عصا) غيره ، هو الذى يحتل مكانة الآخرين ، ويذهب بسلطانهم ، ويفرض سيْطرته عليهم ، وهلم جرًّا .

هذا ، لأن الذى يتبنى العلمانية ويتخذها نظام حياته ينحدر بنفسه الى الهاوية ويصير عبداً لرغباته وأهوائه ، متحررا من كل قيد ، سواء كان فرداً ، أو جماعة ، أو أمة أو مجموعة أمم [1].

---

(١) العلمانية فى ظاهرها مصدر صناعى من العلم ، وربما تبادر إلى الذهن أن المقصود بها قيام الدولة على أسس=

= علمية ، إلا أن مفهومها الحقيقى هو ما ذكره الأستاذ المودودى ، وكان من شعارها إقصاء الدين عن شئون الحياة الاجتماعية : دع ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر – والدين لله والوطن للجميع ، والمستغربون فى ديار الإسلام ينحون هذا المنحى – والحق الذى لا مراء فيه .

(ا) أن الإسلام لا يعرف الكهنوت ، ولا يقف حجر عثرة فى وجه العقل البشرى المستنير ، وإنما ينميه ويوجهه ويرفع مكانته ، وقد لفت القرآن الكريم أنظار الناس إلى الكون وما فيه ، وحث على تدبره والإفادة منه ، وجعل ذلك سبيل الاستدلال الفطرى على توحيد الله تعالى .

(ب) وأن الإيمان بالله يقتضى تحكيم شريعته فى الحياة كلها ، لا فى حياة الإنسان الخاصة وحدها ، وإلا كان كفراً صريحاً .

(جـ) وأنه ليس هناك شئ لله وآخر للناس ولو كانوا قياصرة ، لأن الكون كله لله والإسلام يجعل الحياة كلها متجهة نحو خالقها فى اتباع هديه وابتغاء مرضاته أى أن الحياة الاجتماعية كالحياة الفردية تقوم على الهدى الإلهى فى كافة أنظمتها لتسير على النهج الأقوم متجهة نحو الحياة الأفضل ، وهذا هو ما نعنيه عندما نقول : الإسلام دين ودولة ، فمتى يعى الناس الحق ، وينيبون إلى الله بالإذعان لشريعته ؟ !

الكتب

أَعَزُّ مَكَانٍ فى الدُّنَى سَرْجُ سَابِحٍ(١)
وَخَيْرُ جَلِيسٍ فى الزَّمَانَ كتَابُ

« المتنبى »

(١) السوابح : الخيل لسبحها بيديها فى سيرها .

من ضيق الوطنية المحلية إلى سعة الإسلام العالمية

الأستاذ أحمد حسين

حب الوطن غريزة كامنة فى النفس ، والبعض يتصور أن هذا الحب من قبيل الشعر أو التمسك بالشعارات ، حيث إن هذه المحبة هي جزء من كيان الإنسان ، إنها شيء جِبِلّي فطرى ، وكما يتكون الإنسان ماديا فى طفولته من أمه التى تغذيه من ذات نفسها ، فإن الإنسان يتكون بعد ذلك من البيئة المباشرة المحيطة به ابتداء من هوائها ومائها ، حتى كافة أنواع الأغذية والملبوسات ، التى تهيئوها البيئة ، فصلة الإنسان بمسقط رأسه هى من قبيل صلة النبات بتربته .

فحب الوطن أحد مكوِّنات أى إنسان ، ومن يخلو قلبه من هذا الحب والإعزاز فهو إنسان شاذّ لا يؤمن جانبه ، ومن هنا قيل : « إن حب الوطن من الايمان . . »

ومما يروى عن سيدنا رسول الله ﷺ ، أنه وجه الحديث عند هجرته مخاطبا مكة قائلا « اللهم إنك تعلم أن مكة هى أحب بقاع الأرض إلىّ ، ولولا أن قومكِ أخرجونى لما خرجت » ثم دعا الله قائلا : « اللهم حبب إلينا يثرب كحبنا لمكة »[1].

وروى ان المهاجرين ، مرض أكثرهم بحمى المدينة أول وصولهم إليها .

والخلاصة ان حب الوطن ليس من قبيل الشعر أو المناداة بالشعارات ، وإنما هو كما قدمنا بعض مكونات الإنسان .

ويبقى بعد ذلك أن هذا الوطن يكبر ويتسع وينمو بنمو الإنسان ، فوطن الإنسان الأول وهو فى أول مراحل الطفولة ، هو أمه ، فهو يقضى فترة من حياته داخل رحمها الذى يشبه أن يكون جَنَّة بالنسبة له ، ويبكى الطفل ويصرخ ويتألم وهو يغادر هذا الوطن المحدود إلى ما هو أكثر رحابة ، وينمو الطفل وتنمو دنياه ، أو بالأحرى وطنه معه – ويصبح البيت ثم الحارة ومدرسة القرية فالقرية بأكملها وطن الصبى ، وهكذا يكبر وطن الإنسان .

(١) أو كما قال ، فقد جئنا بالمعنى .

وينمو بقدر نمّو الإنسان وحظه من العلم والمعرفة وطول العمر ، ومدى ارتباطه ببعض البقاع والأمكنة .

حبي لمصر :

سُقت هذه المقدمة بين يدى ما سوف أقوله من تعلق اليوم بالعالم الإسلامى شرقه وغربه ، واعتزازى ، بل وفرحى بكل بادرة خير أسمع عنها لأى مسلم فى أى ركن من أركان العالم الإسلامى ، بعد أن أصبح هذا العالم الكبير هو وطنى بكل ما تحمله كلمة الوطن من معنى بالنسبة للمواطن .

ولقد كان حبى لمصر مضرب المثل ، والتندُّر فى بعض الأحيان كأن يقال « مجنون مصر » فقد كانت صيحاتى « المجد لمصر ، مصر فوق الجميع » .

واليوم أصبح كل فكرى وخواطرى مع الإسلام والعالم الإسلامى ، تاركا لغيرى وخاصة من الشباب أن يحبُّوا مصر ويَتَدلَّهوا فى حبها ما شاءوا ، حيث أصبح ما أحبه فى مصر هو بمقدار ما وعى شعبها الإسلام ، وما عمله الأزهر فى المحافظة على علوم الإسلام ، وما فعلته جيوش مصر من إنقاذ للعالم الإسلامى من الصليبيين والتتار ، وما فعلته وسوف تفعله عن قريب فى دفع غارة الصهيونية والماركسية على الإسلام .

أى إن حبى لمصر أصبح مرتبطا بدورها فى الإسلام .

نموٌّ طبيعى :

وقد يرى البعض فى ذلك بعض التحول والتغير ، ولكنه فى الحقيقة لا يعدو أن يكون تطورا طبيعيا تفسره المقدمة التى سقتها ، فحيث ذوى جسدى ، ولم أعد سوى فكر فقد أصبحت أتعلق بالفكر . . . ولما كان فكر مصر إسلاميا ، فلم أعد أتجاوب إلا مع الإسلام ، ولم تعد اهتماماتى بالشئون المحلية الضيقة ، فهذه أصبح لها رجالها وشبابها يعالجون قضاياها ومشاكلها ، وليس بقدرتى ، أن أعالج أو أسهم فى علاج العالم الإسلامى عن غير طريق الفكر أبسطه على صفحات ، مجلة الأزهر ، ليصل الى ارجاء العالم الاسلامى . .

حتمية الاسلام بالنسبة للعالم :

ولقد سمعنا فيما سمعنا عن حتمية « الحل الاشتراكى » وهو قول سرعان ما كشفت الأيام

عن زيفه . لا أقول فى بلادنا ، فهى بلاد إسلامية والحمد لله ، ولكن زيف هذا القول ثبت فى بلاد يتزعمها أحد زعماء الماركسيين ، وأعنى به المارشال «تيتو» فى يوجوسلافيا ، فقد حدثنى الثقة الأمين ، وكان قد زار ولاية البوسنة والهرسك لحضور الاحتفال بافتتاح أول كلية إسلامية فى أوروبا كلها ، حدثنى عن شباب المسلمين فى يوجوسلافيا وكيف يشتعلون حماسة ، ويتأججون بنور الإسلام ، ويرون فى كليتهم ، الفصل الأول فى كتاب جامعة يوجوسلافيا الإسلامية ، أى بعد نصف قرن من انتصار الماركسية يخبو ضوؤها فى أحد معاقلها ويزدهر الإسلام لا الماركسية ، ولست أُريد أن أُسهب طويلا فى سرد البيانات والأمثلة التى أجهزت على حكاية حتمية الحل الاشتراكى ، وحسبى أن أذكر أن الاتحاد السوفييتى نفسه راعه تناقص الانتاج باستمرار ولم يجرؤ بطبيعة الحال أن ينادى بالعودة إلى النظام الرأسمالى ، فاكتفى بأن فتح بابه لرؤوس الأموال الأجنبية ، وبدأ هو فى اتباع أساليب الانتاج الرأسمالى من حيث إطلاق الحوافز وغريزة التملك ، وهكذا انتهت خرافة الماركسية بعد ثلثى قرن من التطبيق .

الاسلام فى مواجهة الإلحاد :

وفى إيمانى أن موجة الإلحاد لن تزول من الكون ، فقد كانت على مرّ التاريخ وستبقى وقد حدثنا القرآن الكريم عن الدهريين ، «وما يهلكنا إلا الدهر» ولكن الشىء المحقق أن هذه الموجة من الإلحاد والإيمان بالمادة فى طريقها إلى الانحسار ، بعد أن بلغت ذروتها ، ولم تلق الإنسانية منها سوى التعاسة ومزيد من التعاسة ، وليس سوى الإسلام مَن يعيد البشر إلى التوازن بين الروح والمادة ، وهذا التوازن هو إكسير الحياة ، وهو الحل الطبيعى لمواجهة مشاكلها ومصاعبها ، فقد نعمت أُوروبا وأمريكا بالحياة والتقدم والحضارة ، عندما اعتنقت تعاليم الإسلام (من حيث لا تدرى) ونحن نشهد اليوم بدء انحسار ذلك كله عنها ، بعد أن بعدت عن تعاليم الإسلام التى تقوم على الجانبين الروحى والمادى معا ، وأوغلوا فى المادية والإلحاد .

ولماذا الاسلام :

وقد يبدو كلامى غريبا بعض الشىء ، وأنا أتحدث عن أُوروبا وأمريكا ونجاحها بعد أن اعتنقا تعاليم الإسلام ، حيث المشهور والمعلوم والمتفق عليه : أن أُوروبا وأمريكا تدينان

بالمسيحية ، والحقيقة انهما يدعيان ذلك لمجرد المكابرة والكبرياء فى مواجهة العالم الإسلامى ، والحقيقة التى لا مراء فيها أنّه ليس لكل من يدعى المسيحية اليوم سوى الاسم ، أما السلوك والتعامل والأخلاق والتشريع والنظم (واعنى الخير والحسن من كل ذلك) فهو فى حقيقته من صميم التعاليم الإسلامية – وإن ادَّعى القوم خلاف ذلك – ويكفى أن تعلم أن المسيحية براء من كل ما تراه ، وماكان من حضارة وتقدم ، وقبل أن أزيدك شرحا فأُريد أن أُسرع لأجعلك تطمئن : أننى لا أُلقى الكلام على عواهنه ، ولست أُسرف فى إصدار أحكامى ، فضلا عن أن أتكلم بغير علم .

عصور الظلام :

فالأوربيون يطلقون على العصر الذى سادت فيه المسيحية أُوروبا ، وبلغ سلطان الكنيسة الى ذروته ، وكان كل إنسان ابتداء من الراعى حتى الامبراطور محكوما بالمسيحية ، هذا هو الوقت الذى يسميه « الأوربيون المسيحيون » – وليس نحن – بـ« عصور الظلام » وقد تتصور أن التعبير بـ « العصور المظلمة » هو مجرد كلمة بيانية لا تعنى شيئا ، كلا يا صديقى ، لقد كانت ظلاماً بمعنى أنها كانت عصور جهالة وقذارة وعفن ، ولن أُسهب فى ذلك ، والأطال بنا المدى[1] . وحسبى أن أذكر واقعة واحدة ترمز لذلك كله ، فقد أرسل هارون الرشيد ، لشارلمان سيد أُوروبا كلها ، ساعة تعمل بقوة الماء ، وذلك على سبيل الهدية ، فاعتبر كلُّ مَن يحيط بشارلمان هذه « الساعة » شيئا من صنع الجن والعفاريت ، ولكى تكمل القصة فقد بقى أن تعرف أن شارلمان هذا لم يكن يعرف أن يكتب اسمه ، فكان يوقع مراسيمه وأوامره وخطاباته بأن يرسم علامة الصليب ، ولا عجب فى ذلك فقد كان هذا شأن الرقىّ المسيحى ، لأن الديانة المسيحية كما سوف أُحدثك عنها فى مقال قادم ، لا يمكن أن تنتج إلا هذا ، وحسبك أن تعلم أن شعار الكنيسة فى ذلك الوقت كان هو « اطفئ سراج عقلك واعتقد » واطفأ المسيحيون سراج عقولهم ، فأُغلقت المدارس وتوقف التعليم وساد الظلام .

وجاء الاسلام :

يُعلى من شأن العقل ، ويدعو إلى العلم والفكر ويطهر العقيدة ، عقيدة التوحيد ، بما يجعلها قوة محركة تدفع الإنسان إلى العمل والإنتاج والتعمير ، وكل مظاهر الرقىّ والتحضر

---

(١) إقرأ للمؤلف كتاب « تاريخ الإنسانية » أوكتاب « الأمة الإنسانية »

الإنسانى وسرى ذلك كله إلى أوروبا ، فقد كان المسلمون هم الذين سحقوا قوة الفرس والروم فى سنوات معدودات فأثبتوا بذلك أنهم الناس ، وإن دينهم هو الحق ، ولو لم يعترف الإسلام بالمسيحية لزالت كما زالت ديانة فارس الوثنية ، ولكن القرآن أقر المسيحية واليهودية وأن جوهرهما هو جوهر الإسلام ، ولكن الكهنة (أى الكنيسة) هى التى شوهت جوهر الدينين ، وحرفت كتبهما ، بل جاءت بكتب غير الكتب ، وبعد أن اطمأن المسيحيون واليهود إلى أن القرآن يعترف بهم ، أسرعوا يصلحون من أحوالهم ، ويطهروا معتقداتهم ، فإذا كان الإسلام ينادى بوحدانية الله المطلقة فليكن هذا قول المسيحيين ، وليؤولوا حديثهم عن الآلهة الثلاثة ، أنها صفات وأسماء لله ، ولكن الأساس هو «وحدانية الله» فعندما نسمع أىّ مسيحى يقول لك بالفم المليان «الله الواحد» فاعلم أن ذلك هو أثر الإسلام .

وإذا كان الإسلام يحارب الأصنام والتماثيل والنُّصُب ، فليفعل المسيحيون ذلك ، فكانت حركة «اللاأيقونات» فى بيزنطية وهى تحطيم التماثيل فى الكنائس ، وكان الإصلاح الدينى فى أوروبا ، على دعامتين من دعائم الإسلام ، وهما : لا وساطة بين العبد والرب ، ولا أصنام فى الكنيسة .

مبادئ السلوك والنجاح فى الحياة :

واقتبس المسيحيون كل تعاليم الإسلام فى السلوك ومقومات النجاح فى معركة الحياة ، فالقوم الذين يقدسون القذارة ، نقلوا من المسلمين النظافة ، والقوم الذين أطفأوا سراج عقولهم ليكونوا مسيحيين طيبين أناروا هذه العقول ، والقوم الذين كفُّوا عن كل عمل فى انتظار «يوم الدينونَة» الذى أنبأهم «بولس أبو المسيحية الأوربية» أنه على الأبواب ، رموا بهذا القول وراء ظهورهم وراحوا يعملون كما يعمل المسلمون .

والقوم الذين لَخَّصوا كل عقيدتهم فى الإيمان بأن المسيح قد خلَّصهم وفداهم بنفسه ، فلا عليهم من فعل أىّ شىء .. طرح المسيحيون هذا المعتقد وتحلوا بأخلاق القرآن من استقامة وفضيلة وأمانة .

وعلى هذه الأسس التى هى دعوة الإسلام ، وليست هى دعوة اليهودية والنصرانية اللتين كانتا قد انتهيا إلى أن يكونا دينين وثنيين ، مائة فى المائة نهضت أوروبا وكان منها هذا الذى كان باعتناق التعاليم والمبادئ الإسلامية .

واليوم لا علاج سوى الاسلام :

واليوم إذ يعود الأوربيون والأمريكان بالتدريج الى أصولهم فترى شبابهم يعود ليقدس القذارة وتتدهور العلاقات الجنسية الى ما دون الحيوانية ، فليس سوى الإسلام والمسلمين مرة أخرى ليقودوا البشر.

إن الإسلام يقدم لبنى الإنسان فى العصر الحديث متطلباتهم فى العالمية التى تتسع لبنى البشر كافة على اختلاف أجناسهم ، والعالم يتطلع لشجب التمييز العنصرى ، والعالم يتطلع لإعادة التوازن بين الروح والمادة ، وكل ذلك متحقق فى الإسلام.

« يا أيها الناس إنا جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وليس مطلوبا من المسلمين ليعودوا ليقودوا العالم ويكونوا صناع حضارته : إلا أن يعودوا لتعاليم دينهم التى ساد كل مَنْ تمسك بها واعتنقها ، وذلَ كلٌ من هجرها وانحرف عنها .

وهى : النظافة ، والاستقامة ، والجد ، والعمل ، والعلم ، والفضيلة .

هذا هو ما يريده العالم اليوم ، وما يحققه الإسلام ، ومن هنا تعلق قلبى به ، ولذلك فسأكون ما بقى من حياتى لأجل الإسلام والمسلمين ، وهذا هو النمو الطبيعى من « ضيق الوطنية المحلية ، إلى رحابة الإسلام العالمية » . .

أحمد حسين

الله

سُئِل عَلىٌّ بن أبى طالب « بِمَا عَرَفْتَ رَبَّكَ ؟ » ، فَأَجَاب : « عَرَفْتُهُ بِمَا عَرَّفَنِى به نَفْسُه ، لاَ يُدْرَكُ بالْحَواس ، وَلاَ يُقَاسُ بالنَّاسِ ، وَلا يُشْبَهُ بالنَّاس ، قَرِيبٌ فى بُعْدِه ، بَعِيدٌ فى قُرْبِه ، فَوْقَ كُلِّ شَىْء ، ولا يُقَالُ تَحْتَهُ شَىْء ، وَأَمَامَ كُلِّ شَىْء ، وَلاَ يُقَال أَمَامَه شَىْء ، وَهُوَ فى كُلِّ شَىْءٍ لاَ كَشَىْءٍ فى شَىْء ، فَسُبْحَانَ مَنْ هُوَ هَكَذا ، وَلاَ يَزَالُ هَكَذَا ، وَلاَ يكون هَكَذَا أَحَدٌ سِوَاه ، مَشْهُورٌ بالآيَات ، مَنْعوتٌ بالصِّفَات ، عَدْلٌ لاَ يَجُور وَلاَ يَحِيف ، تَرَاهُ القُلُوب بِحَقَائِقِ الايمَانِ والأَنْوَارْ ، وَتَسْتَدِلُّ عَلَيهِ بِوَاضِحَاتِ الآثَار » . .

دراسات قرآنية

الزواج طمأنينة ومودة ورحمة

فضيلة الشيخ
مصطفى محمد الحديدى الطير

قال الله تعالى :

« ومن آياته أنْ خلق لكم مِن أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إنَّ فى ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون »

سورة الروم ٣٠ الآية ٢١ .

البيـان

يمضى الرجل يومه جاهداً من أجل طعامه وطعام ذويه وخدمة مجتمعه ، ثم يعود إلى منزله كليلاً مُرْهَقاً محطَّم الأعصاب وقد ولَّى النهار أوكاد .

فلما لم يجد فى بيته من أسباب الراحة ما يسترد به أنفاسه الحرَّة ، ويعيد إليه نشاطه الطليق ، فإنه يرجع إلى عمله فى اليوم التالى وهو يشعر بثقل الحياة على كتفيه ، ويُحسُّ بالمتاعب فى أعماقه ، ويجد نفسه غير منبعثة إلى الجد ، ورجليه لا تطاوعانه فى مسيره ، ويديه لا تعملان فى استجابة ونشاط .

ومن آيات الله الدالة على باهر قدرته وحكمته ، وعظيم فضله ورحمته ، أن خلق لنا من أنفسنا زوجات لتطمئن إليهنَّ النفوس ، وتستريح إلى مودتهن القلوب ، وَليكُنَّ منابع الرحمة للأزواج المكدودين ، فيُبدِّلْنهم من تعبهم راحة ، ومن كسلهم نشاطاً ، فيخرجون إلى أعمالهم والابتسامة تعلو شفاههم ، والرغبة فى الجد والعمل تملأ صدورهم ، وتفيض على تفكيرهم وأعضائهم حركة ونشاطاً .

فعلى كل زوجة أن تدرك أن بديع السموات والأرض خلقها لتحقيق هذه الأغراض الشريفة ، فتعمل على أن تكون هى الواحة الخضراء التى يتفيأ زوجها ظلها إذا عاد من عمله يتصبب عرقاً ، وأن تكون النسيم العليل الذى يمر به برفق فينعش فؤاده ، فإن راحة

زوجها راحة لها ، وهناءه هناؤها ، فإن كانت على عكس ذلك حطَّمته وحطَّمت نفسها وأولادها .

ولكى تكون الحياة الزوجية وافية بما خلقت لأجله ، رتبت الشريعة الإسلامية لكل من الزوجين حقوقاً على الآخر ، فإن أداها على وجهها المشروع أعطت ثمرتها من الهناء والسعادة ما يديم الابتسامة على الثغور ، والغبطة فى القلوب ، وإن قصَّر فيها انعكست الآثار على قدر ما حدث من التقصير ، وفيما يلى حقوق كلا الزوجين على الآخر :

حقوق الزوج على زوجته

من حق الزوج على زوجته أن تكون حفيظة على ماله – إن كان لديها منه شىء – فلا تنفق منه شيئاً ولا تعطيه لأحد إلا بأذنه ولو كان على وجه الصدقة ، ما لم يكن طعاماً رطباً يخشى فساده إن بقى ، فلها أن لا تنتظر إذنه فيه ، فإن الأزواج عادة لا يمانعون فى التصدق بمثله ، كما أنه لا فائدة فى إبقائه حتى يحضر الزوج فتستأذنه ، لأنه عرضة للفساد ولها أن تتصدق ببعض ماله إن علمت يقيناً أنه يرضى بما فعلت ، وإن لم يأذن فيه بعينه ، وعليها أن تبلغه بما تصدقت به ، فربما بدا له أن يرشدها إلى أمر لم تتنبه له ، أو أن يضع لها خطة جديدة تتفق مع ما طرأ على موارده المالية من نقص .

ومن حقه عليها أن تحفظ سره فلا تبديه لقريب أو بعيد ، وأن تحفظ عرضه فى نفسها وفى بناته وأخواته ، فلا تخونه فى شىء من ذلك ، وأن تبتعد عمَّا من شأنه أن يؤدى إلى الخيانة أو يثير الشبهات ، فلا تأذن لصديقة أو لأى رجل بدخول داره فى غيبته ، فإن ذلك مصدر شر كبير ، وعليها أن لا تجالس الرجال الأجانب وحدها أو مع زوجها ، فى ذلك إزالة لحاجز الحياء الذى يمنع المرأة عما لا يليق ، وكثيراً ما يكون ذلك وسيلة لمودة غير مشروعة ، ومجلبة لخراب البيوت ، وعليها أن لا تخرج من البيت بغير إذنه ، فإن أذن لها فخرجت ففى غير زينة ، وفى ثياب محتشمة ، والأفضل أن يكون خروجها بصحبة زوجها ، فإن ذلك يدعو إلى الطمأنينة بين الزوجين ، ويبعد أصحاب الفضول ، ولْتَعْلم الزوجة أن بقاءها بمنزلها يرضى ربها ، بل صلاتها فيه خير من صلاتها فى المسجد ، قال ﷺ « أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها إذا كانت فى عُقْرِ بيتها – أى وسطه – وإنَّ صلاتها فى صحن دارها أفضل من صلاتها فى المسجد » إلى آخر الحديث ، ومن حقه عليها أن لا تختلط بجاراتها – وبخاصة فى هذا الزمان الذى فسدت فيه المعايير الخلقية – وعليها أن

لا تتصل بهن إلاَّ فى حدود الضرورة أوما يشبهها ، ولتحذر من إخبارهن بأسرار زوجها ، حتى لا تستخدم تلك الأسرار فى الإضرار بها أو بزوجها ، فإن كيد النساء عظيم ، فلتفوت على أصحاب الغرض أطماعهم لتعيش مع زوجها فى سلام .

وعليها أن تبتعد عن كل من ينفرها من عشرته ، ولا تسمح لنفسها بالاستماع إلى من ينتقص خلقه أو ماله أو شهادته أو وظيفته أو حسبه أو نسبه أو جماله ، ولترض بما قسم الله لها فى شأن زوجها ، ولتعلم أن أهم ما يطلب فى الزوج عفة اليد واللسان ، والاستقامة على منهج الحق ، والحب لزوجته والقيام بشئون بيته على قدر استطاعته ، فإذا توفر فيه ذلك ، فقد توفرت لها أسباب السعادة والهناء ، وما سوى ذلك فسراب خادع ، وظِل زائل .

العسر الطارئ ليس بعيب

الحياة لا تمضى على نسق واحد ، فقد يطرأ على الزوج عسر بعد يسر ، فلا يدفعها هذا إلى كراهة زوجها وتحويل حياته إلى جحيم ، وينبغى أن تساعده فى محنته بالصبر وبعث الأمل فى نفسه ، وإرشاده إلى ما قد يكون خفى عليه من أبواب الاسترزاق ، ومساعدته فى محنته إن كانت تقدر عليها ، بشرط أن تكون المساعدة من منبع شريف ، فإذا تحقق ذلك أمكن أن يتحول عسر الزوج إلى يسر ، قال تعالى «فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً» .

وبالجملة : فالحب والرضا بين الزوجين هما صمام الأمان ، والعاصم من ريب الزمان ، والفقر لا يعيب الرجال ، فكم يبدل الله من حال إلى حال ، روى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما أنها قالت : تزوجنى الزبير ومالَهُ فى الأرض من مال ولا مملوك ، ولا شيء غير فرسه وناضِحه [1] فكنت أعلف فرسه ، وأكفيه مؤونته وأسوسه ، وأدُقُّ النوى لِنَاضِحه[2] وأعلفه ، وأستقى الماء ، وأَخْرِزُ غَرْبَهُ[3] وأعجن ، وكنت أنقل النوى على رأسى من ثلثى فرسخ ، حتى أرسل لى أبو بكر جارية ، فكفتنى سياسة الفرس فكأنما أعتقنى .

فها هى ذى أسماء ذات النطاقين ، زوّجها والدها أبو بكر الصديق للزبير بن العوام ، فى حين أن أبا بكر كان خير الرجال حسباً ونسباً وسابقية فى الإسلام ومن أعظمهم مالاً ،

(١) الناضح الجمل أو الناقة .

(٢) أى تدق النوى لناضحه .

(٣) أى أخيط دلوه الكبيرة التى يسقى بها النخل .

وأن الزبير كان وقت تزوجه بها فقيراً ، فاحتملت فقره وساعدته فى شئونه ، وصبرت حتى جاء اليسر بعد العسر.

وقد كان للزبير بعد ذلك شأن عظيم فى الفتوحات الإسلامية ، وكان أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان من أولاده من أسماء : عبد الله بن الزبير الذى بويع خليفة على المسلمين بالمدينة ، وقاتله جيش يزيد بن معاوية ، وقتل شهيداً — رحمه الله — ولا يعيب الزوج أنه غير جميل ، فالجمال الحقيقى هو جمال الخلق ورقة الشمائل وسعة الأفق ، والبِشْرُ وطلاقة الوجه ونقاء القلب ، فلا ينبغى أن تفخر عليه الزوجة بجمالها أو تزدريه لدمامة خلقته ، قال الأصمعى : دخلت البادية فإذا أمرأة من أحسن الناس وجهاً ، متزوجة رجلاً من أقبحهم وجهاً ، فقالت لها : أترضين أن تكونى زوجة مثله ، فقلت : يا هذا لقد أسأت فى قولك . لعله أحسَنَ فيما بينه وبين الله فَجَعَلَنى ثوابه ، أو لعلى أسأتُ فيما بينى وبين خالقى فجعله عقوبتى ، أفلا أرضى بما رضى الله لى ؟ قال الأصمعى : فأسكتتنى المرأة.

ولا ينبغى أن تفخر عليه بحسبها أو مالها أو شهادتها أو وظيفتها ، أو أن تعيره بفقر أسرته ، فمثل ذلك يوغر الصدر ، ويقضى على الألفة ، ويفتح أبواب الشقاق ، ويعرض الأسرة لهزات شديدة ، ويفسد أخلاق الأولاد ، ولا يستتبع أية فائدة ، ولا تفلح امرأة تتبع هذا النمط فى عشرتها الزوجية ، فإن كانت تريد بذلك أن يطلقها زوجها لتتزوج سواه ، فهل ضمنت السعادة عند سواه حتى تهدم بيتها بيدها ، وهل فكرت فى أولادها إن هى تركت أباهم إلى غيره ، وهل أمنت عقاب الله فى الدنيا بالحرمان من السعادة الزوجية عند غيره ، وفى الآخرة بعذاب النار ، جزاء هذا البطر الأعمى.

ألا رحم الله امرأة راضية قانعة ، وأورثها السعادة فى الدنيا والأخرة :

زينة المرأة لزوجها

من آداب الزوجة أن تظهر لزوجها فى زينة وبهجة وانشراح ، حتى يشعر باهتمامها به ، وانعطافها نحوه ، فلا تنصرف نفسه عنها.

ولا يمنعها دينها وصلاحها عن التزين لزوجها ، قال تعالى «ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن» وقال الأصمعى : رأيت فى البادية أمرأة عليها قميص أحمر وهى مختضبة ، وبيدها مِسْبَحَةُ ، فقلت ما أبعد هذا من ذاك ، فقالت :

ولله منّي جانب لا أضيعه وللّهو مني والبطالة جانب

قال الأصمعي : فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تتزين له فعلى الزوجة أن يكون همها إصلاح شأنها ، وتنظيف نفسها وبيتها وأولادها ، لتدخل السرور على زوجها ، ولتحذر من أن تكون زينتها للشارع وأعين الفضوليين من السابلة ، فى حين أنها تهمل أمر نفسها أمام زوجها فى بيتها ، فإنها بذلك تتسبب فى لعن الملائكة لها ، وعودتها إلى منزلها بآثام لا تعلم قدرها ، ومن يدرى لعلها بما تفعله من التزين للغرباء تكون سبباً فى ترديها من رفعة الشرف إلى ضعة الانحراف ، ومن عمار البيت إلى خرابه ، «وما ربك بظلام للعبيد» .

من آدابها

ينبغى للزوجة أن تقدم حق زوجها على حق أقاربها ، وأن يعف لسانها عن سب أولادها وغيرهم ، وأن لا تراجع زوجها فيما لا يضيرها السكوت عليه ، ما لم تكن المراجعة لصالح الزوج والأولاد والأسرة ، فلها أن تراجع بأدب وحكمة وإقناع ومن آدابها أن تلازم الصلاح والانقباض إذا غاب زوجها ، فإذا عاد رجع إليها انبساطها ومرحها .

وينبغى أن لا تطالبه بأكثر من حاجتها ، ومن حق الله عليها فى شأنه أن تنبهه إلى الامتناع عن الكسب الحرام ، وتخوفه من عاقبته ، كما كان يفعل نساء السلف الصالح وبناتهم ، ويحرم عليها أن تنكر إحسانه وتتنكر لمعروفه وتتجنى على حقوقه ، قال ﷺ «أريت النار فإذا أكثر أهلها النساء : يَكْفُرْنَ : قيل : أيكفرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ، ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط» .

وصية امرأة عظيمة لابنتها

لما تزوج الحارث بنُ عمر ملكُ كندة ، ابنةَ عوف بن محلّم الشيبانى ، أوصتها أمها عند فراقها لبيت أبيها إلى بيت زوجها ، وصية نافعة لكل فتاة ما استطاعت أن تعمل بما يناسبها منها وفيما يلى نصُّها – قالت الأم لابنتها :

عليك بالصُّحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينيه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا طيب ريح ، والكحل أحسن الكحل ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء

عنه عند منامه ، فإن حرارة الجوع مَلْهبة ، وتنغيصَ النوم مَبْغَضَة ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال جميل التدبير ، ولا تفشى له سرًّا ، ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أوْغرت صدره ، ثم اتّقى مع ذلك الفرَحَ إن كان تَرِحاً ، والاكتئابَ إن كان فَرِحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له إعظاماً ، يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما تكونين له مرافقة ، واعلمى أنك لا تَصِلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت ، واللهُ يَخِيرُ لك . . . اهـ .

وقد عملت ابنتها بوصيتها ، فعمرت وأنجبت منه الملوك السبعة الذين حكموا اليمن بعده .

حقوق الزوجة على زوجها

كما ذكرنا حقوق الزوج على زوجته ، نذكر فيما يلى حقوق الزوجة على زوجها ، حتى لا يظن الأزواج أن كل الحقوق لهم ، وليس عليهم لزوجاتهم مثلها ، وقد قرر الإسلام ذلك ، قال الله تعالى « ولهنَّ مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجالِ عليهنَّ درجة » وكيف لا يكون الأمر كذلك وكلا الزوجين شريك الآخر فى مزرعة الحياة ، فعلى كل من الشريكين مثل ماله نحو الشريك الآخر .

وأول حقوق الزوجة على زوجها أن يتزوجها بصداق عاجل أو آجل ، أو بعضه عاجل والآخر آجل ، قال تعالى « وآتوا النساء صَدُقَاتِهِنّ نِحْلَةً » فإذا زُفَّتْ إليه عاشرها بالمعروف ، لأن الزواج شُرِع ليدوم ، ولا يدوم إلا مع العشرة الهنيئة ، وبما أن الزوجة تركت أسرتها التى هى جزء منها ، وانتقلت إليه وهو منها غريب ، فالواجب يقتضيه أن يُسَلِّيها عن هذه الفرقة بِعِشْرةٍ هنيئة لينة ، حتى تزول الوحشة بينه وبينها وتستبدل بها أُلفة ، وقد أوصى الله بحسن عشرتهن بقوله « وعاشروهن بالمعروف » ولا ينبغى أن يديم مؤاخذتها على الهفوات ، فَمَنْ مِنَ الناس لا يخطىء ؟ ولا بأس أن يعظها بالمعروف من غير تأنيب ولا تعنيف ، ويجعل ذلك الوعظ فى أسلوب الإرشاد إلى الخير ، والرغبة فى الوصول دائماً إلى درجة أحسن ، فإن الكمال الإنسانى لا يتناهى ، وقد أوصى النبى ﷺ بهن فقال « استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضِلَعٍ ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوجَ ، فاستوصوا بالنساء خيراً » .

ومن حسن العشرة مداعبة الزوجة والمزاح معها ، ففي ذلك تطييب لقلبها ، وقد كان النبى ﷺ يمزح مع نسائه ويعاملهن كزوج ، وينزل تكرماً لمستوى عقولهن ، روى أنه ﷺ كان يسابق عائشة فى العَدْوِ ، فسبقته يوماً ، ثم سبقها وقال لها : هذه بتلك ، وفى الخبر أنه ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه ، أقول : وكان ذلك منه ﷺ مراعاة لبشريتهن ، والجانب البشرى منه ﷺ ، فالنبوة لا تتعارض مع حقوق البشرية .

وكان عمر مع خشونته يقول : ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى ، فإذا التَمسوا ما عنده وُجِدَ رجلاً ، أى فإذا طلبوا ما عنده وقت الجد كان رجلاً كامل الرجولة .

لا تبالغ فى الدعابة والمزاح

ينبغى أن لا يبالغ الزوج فى الدعابة ولين الخلق مع الزوجة ، حتى لا تسقط هيبته ، فتجترئ عليه وتفسد أخلاقها . فالاعتدال فى ذلك هو اللائق بأخلاق الزوج المؤمن ، فإذا رأى ما يخالف الشرع أو الأدب ، أظهر الجد وامتعض حتى تثوب إلى رشدها ، ولا تندفع فى سوء الأدب ومخالفة الشرع ، قال ﷺ «تَعِسَ عبد الزوجة» وهو الذى تسيره زوجته على هواها ، فلا يليق أن يمكّن رجل لزوجته من نفسه ، فيعكس الوضع الذى شرعه الله «الرجال قوامون على النساء» .

قال الحسن : ما أصبح رجل يطيع أمرأته فيما تهوى إلا كبّه الله فى النار ، ومع أن عمر رضى الله عنه كان يرى التبسط مع المرأة ، كما تقدم ، لكنه كان يقول : شاوروا النساء وخالفوهن – وذلك إذا كانت المخالفة أنفع من الموافقة ، أو كانت مساوية لها فى الفائدة ، ولكنها لإثبات استقلاله وعدم تبعيته للمرأة دائماً ، فمرة يوافق وأخرى يخالف – إن اقتضى الأمر ذلك – فادرس طباع زوجتك وعاملها بما يصلحها وفق حالها ، وكن فى ذلك مثل الطبيب ، يعطى الدواء وفق الداء ، فاستعمل اللين والسياسة ، ثم الخشونة فى علاج شر المرأة ، فإن بَدا منها الهدوء والدعة والمسالمة ، فُعدْ إلى اللين والرحمة ، ولا تعكس فتكون كالذى يَضَعُ السيف فى موضع الندى ، أو الندى فى موضع السيف .

الاعتدال فى الغيرة

عليك أيها الزوج بالإعتدال فى الغيرة على زوجتك ، فلا تستعملها فى غير موضعها ، قال ﷺ «إن من الغيرة غيرةً يبغضها الله عز وجل ، وهى غيرة الرجل على أهله من غير

ريبة » لأن ذلك من سوء الظن الذى نهينا عنه ، قال تعالى « إن بعض الظن إثم » وقال ﷺ « لا تكثر الغيرة على أهلك فَتُرْمَى بالسوء من أجلك » .

وأما الغيرة فى موضعها فمحمودة ، ففى الحديث الشريف « إن من الغيرة ما يحبه الله ، ومنها ما يبغضه الله » ثم قال : « فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة ، والغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة » . . . إلخ ، وقال ﷺ « إن الله يغار والمؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى الرجل ما حرم عليه » أقول وفى حكمة أن تأتى المرأة ما حرم عليها .

فإذا رأيت من زوجتك ما يخشى شره فنبهها إليه وامنعها من الاسترسال فيه ، فالوقاية تمنع من الداء ، ولا تبالغ فى إساءة الظن بها وتتبع عوراتها حتى لا تفسدها ، وأحسن علاج لمنع الغيرة أن لا تكثر من نزولها إلى الأسواق ، قال الحسن : أَتَدَعُونَ نساءكم يزاحمن العلوج – أى الرجال – فى الأسواق ؟ قَبَّحَ الله من لا يغار .

فإن خرجَتْ فبإذنه ، والأفضل أن يكون زوجها معها كما تقدم ، وأن تكون فى ثياب تنم عن الاحتشام ، وكما أن الزوج مكلف بأن لا يغار على زوجته إلا فى مواطن الغيرة حتى لا يفسدها ، فكذلك الزوجة مأمورة أن لا تغار عليه إلا فى مثل ذلك حتى لا تفسده .

عودة إلى حقوق الزوجة

ومن حقوق الزوجة على الزوج أن ينفق عليها باعتدال ، بحيث لا يكون فيها تَقْتِير ولا إسراف قال تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » وقد حَضَّ النبى ﷺ على نفقة الأهل فقال « خيركم خيركم لأهله » وقال فى حديث عَدَّدَ فيه النفقات التى يثاب عليها « أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك » وكان الإمام علىٌّ رضى الله عنه متزوجاً أربع نساء بعد فاطمة رضى الله عنها ، فكان يشترى لكل واحدة منهن فى كل أربعة أيام بدرهم لَحْماً – مع أنه كان من أهل التقشف والزهد – وكان الدرهم فى حينه يشترى به لحم كثير .

وكان ابن سيرين يستحب أن يعمل الرجل لأهله كل جمعة (فالوذجا) وهو طعام يتخذ من الدقيق والماء والعسل والسمن ، وقد اقتبس فى عصرنا اسم (البالوظة) من (الفالوذج) لطعام يشبهه ، ويصنع من النشا والسكر والسمن والماء وأحياناً يستغنى عن السمن والماء باللبن ، وما كان يطلق عليه الفالوذج فيما مضى ، يسمى اليوم عَصِيدَةً ، فهى طعام يتخذ

من الدقيق والعسل أو السكر والسمن والماء . ولا يليق بالزوج أن يستأثر بمأكول طيب عن أهله ، سواء اكان ذلك فى البيت أم خارجه .

وينبغى أن لا يصف لأهله طعاماً ممتازاً رآه أو أكله ولا يريد إطعامهم منه ، وعليه أن يشرك معه فى تناول الطعام زوجه وأولاده ولا ينفرد عنهم ، فإن الانفراد عنهم خُلُقٌ مُسْتَهْجَنٌ فى الإسلام .

وعلى الزوج أن يعرِّف زوجته من الأحكام الشرعية ما تجهله ، إن كان على بينة منه ، فإن تشكك فى معلوماته فليسأل العالم ويبلغها بعد علمه ، وعليها أن تعمل بما يبلغها من الأحكام لترضى ربها وزوجها ، وتكون من أصحاب المنازل الرفيعة فى الجنة .

وعلى الزوج أن يستعمل السياسة الشرعية عند نشوز الزوجة وعدم طاعتها له ، بأن يعظها ويحذرها من عقاب الله ، فإن لم يفلح ذلك فى ردها إلى الجادة ، هجرها فى المضجع إلى ثلاث ليال ، وله أن يهجرها فى أمر الدين إلى شهر – كما فعل رسول الله ﷺ مع زوجاته لتأديبهن ، ثم عاد إليهن بعد أن رجعن عما اقتضى غَضَبَهُ عليهن فإن لم يفلح الهجر أصلح بينهما حَكَمٌ أو اثنان يمثل كل واحد منهما طرفاً ، وقد بعث عمر رضى الله عنه حكماً ليصلح بين زوجين ، فعاد يقول : لم أستطع ، فضربه عمرُ بِدِرَّتِهِ وقال : إن الله تعالى يقول – أى عن الحكمين – « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » فعاد الرجل وتلطَّف بهما وأحسن النيَّة فأصلح بينهما .

وإذا كان النشوز من أحدهما أو كليهما فليجتهد كل منهما فى حل الخلاف وإعادة الوفاق بينهما رعاية لكيان الأسرة ، وحماية للأولاد من آثار الانفصال بين الزوجين ، وهى فى عصرنا هذا مُدَمِّرة وعنيفة ، فهى دائرة بين التشرد وضياع المستقبل وفساد الأخلاق ، ومن لا يعيش لأولاده فالموت خير له من الحياة .

وليجتهد كلا الزوجين أثناء الخلاف فى منع لسانه عن الآخر وكثرة اللفظ فى شأن الشقاق حتى لا تتسع الشقة بينهما .

وبعد فإن الزواج قصد به الشارع الحكيم أن تسود المودة والطمأنينة والرحمة بين الزوجين كما قال سبحانه « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فليحرص كلا الزوجين على تحقيق أهداف الشريعة الغراء من الزواج ليعيش المجتمع الإسلامى مثاليًّا بَيْنَ العالمين ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

مصطفى محمد الحديدى الطير

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

نقد نظرية التطور الحيوى عند داروين وأتباعه- بقية

الدكتور يحيى هاشم

أولاً : انتهينا فى المقال السابق من بيان نقد النظرية فى الأوساط العلمية التجريبية .

ثانياً : ونبدأ فى هذا المقال بتوضيح أن النظرية إنما تقوم على افتراضات غير ملزمة .

يقول الاستاذ عباس العقاد :

اذا رجعنا إلى مكان مذهب التطور من العلم لم نجد من يحسبه علما قاطعا من أصوله وفروعه .

وأكبر أنصاره لا يدعى له أكثر من أنه صحيح فى بعض ملاحظاته ومقارناته .

ويجوز بعد ذلك أن يكون التطور قد حصل فى جهات عديدة لا فى جهة واحدة وأن لا يكون ملازما للارتقاء ، وإن كانت شواهد الارتقاء أكثر من ظواهر النكسات .

ويقول الاستاذ وحيد خان :

أن محاميّ نظرية الارتقاء لم يتمكنوا حتى الآن من تمكيننا من مشاهدة أو تجربة أى أساس تقوم عليه مزاعمهم .

فعلى سبيل المثال : ليس بوسعهم أن يثبتوا لك بالرؤية المباشرة فى معمل مَّا كيف توجد الحياة من مادة لا حياة فيها . .

وهكذا لم يخضع أى تغيير من نوع إلى آخر لتجربةٍ أومشاهدةٍ من أى إنسان . . فلم يحدث أن أجريت تجارب فى إحدى حدائق الحيوانات فخرجت الزراف من بطون الشياه . ولقد عبر السيد أرثر كيث عن رأيه فى نظرية الارتقاء بأنها « العقيدة الأساسية فى المذهب العلمى » . ولم يقل بأنها حقيقة علمية ، وكذلك عرَّفت موسوعة علمية نظرية الارتقاء « بأنها نظرية قائمة على تفسير بدون براهين . .)

أما أوبارين فقد قامت نظريته على افتراض ظهور « الحياة » لمجرد تطور التجمعات البروتينية إلى البروتوبلازم .

والتدليل على صحة هذا الفرض - على أساس المنهج العلمى - يكون بتحقيقه علميا .

فهل فعل أوبارين ذلك ؟

لقد بدأ أوبارين واثقا من إجراء هذه التجارب المعملية ، فى أهم نقاط هذه النظرية الخاص بظهور الحياة ، فهو يقول فى ختام كتابه الذى بسط فيه نظريته « إن النجاح الذى حققته علوم الجيولوجيا السوفيتية حديثاً تؤيد « الوعد » بأن مسألة خلق كائنات حية بسيطة بطرق صناعية ليس ممكناً فحسب بل سيُحَقَّق عمًّا قريب . . » .

ولكنه تراجع عن ذلك :

يقول فى بداية بحثه الذى ألقاه فى المؤتمر الدولى للبحار فى نيويورك فى عام ١٩٥٩ : (إن جميع المحاولات التى أجريت لتوليد الحياة من المواد غير العضوية سواء تحت ظروف طبيعية أو فى المعمل قد باءت بالفشل .)

ثم يبدو يائسا معتذرا عن فشله فيقول أيضا فى نفس العام : «إن الظروف الطبيعية والكيميائية التى سادت على الأرض فى معمل الطبيعة العظيم - قبل ظهور الحياة - والتى تمت فيها التفاعلات المعقدة التى أدت إلى ظهور تلك الحياة تختلف تماما عن الظروف السائدة الآن . ومن ثمَّ فمن غير المحتمل - ان لم يكن من المستحيل - إن تتم نفس هذه العمليات فى المعمل ، وان تمَّت فإلى حد معين فقط . »

ويقول كونانت عن النظريات التى تبحث فى أصل الحياة « إن الباحث فى هذا الأمر لن يجد إلا آراء . . . لا يمكن - الا بشىء من الكرم - أن نسميها فروضا مثمرة نافعة . . »

ويقول « إن الآراء التى تخرج تحاول تفسير أصل الحياة كثيرة كل عشرة منها بقرش وأنا لا أستطيع أن أسميها بأكثر من خواطر . . »

ويقول « أنه فيما يختص بمسائل مثل أصل الجرانيت والبترول والحياة فسوف ننظر إلى ما كنا نقوله فيها فى عام ١٩٥٠ عند حلول عام ٢٠٠٠ ونعجب من أنفسنا كيف قلناه وكيف أسغناه »[١]

ويقول الأستاذ إسماعيل مظهر وهو بصدد نقد نظرية التولد الذاتى :

إن أنصار التولد الذاتى لا يزالون فى حيرة من القول به . . . فانهم لم يثبتوه بتجربة ، بل يفرضونه فرضا ، ولم يقيموا عليه دليلا علميا ثابتا وفى معتقدى أن التولد الذاتى إن صح وقوعه بالتجربة لأوقع الماديين فى إشكال آخر أنكى من القول بالخلق الأول . لأنهم حتى مع

(١) مواقف حاسمة ص ٤٠٦ : ٤٠٧ ، ص ٤٠٩ .

ذلك لا يستطيعون أن يعرفوا سر الحياة وتولدها » .

وينقل عن العلامة الفردروسيل وولاس قوله فى عام ١٩٢٣ (أن نواة الخلية الحية ليست شيئا كماويا عويص التركيب وفى الإمكان إعادة تركيبها ثانيا إذا حللت . ولكنها حينئذ لا تكون نواة حية . انهم – أى الماديون – يتجاهلون ذلك كله . يتجاهلون القوة المدبرة الخفية التى تستطيع الخلية الحية بفضل تأثيرها الدور فى سلسلة من التحولات يستحيل إيضاحها بأية طريقة كماوية أو ميكانيكية » (١)

وما يقوله الاستاذ إسماعيل مظهر عن نظرية التولد الذاتى للحياة ينطبق تمام الانطباق على نظرية النشوء الذاتى للأنواع أو نظرية النشوء والارتقاء عند داروين .

واذن فكما يقول الأستاذ وحيد خان : « أنه اذا كان لأصحاب نظرية التطور أن يعتمدوها بالرغم من هذه الفرضيات التى لم تخضع للبحث التجريبى بناء على أخذهم بمبدأ أن العلم لا ينحصر فى الوقائع التى يمكننا تجربتها مباشرة ، وانما يعتبر أن أية قرينة منطقية تستند إلى تجارب ومشاهدات غير مباشرة يمكنها أيضا أن تصبح حقيقة علمية بنفس درجة الحقائق العلمية التى نتمكن من مشاهدتها مباشرة ، وعلى هذا الأساس لا غير تم اعتراف العلم بالالكترون على أنه حقيقة علمية بالرغم من أنه لا يخضع للمشاهدة ، نظرا لتناهى وجوده فى الصغر بحيث لا يمكن لمنظار ما مشاهدته ولا يمكن لميزان ما وزنه ، كما تم اعترافه بظواهر مماثلة أخرى على أنها حقائق علمية . . .

اذا كان الأمر كذلك فإن الحقائق الدينية يمكن أن تدخل فى ساحة العلم على نفس هذا المنوال .

يقول البروفسير مانديز فى شرحه لأسباب قبول نظرية الارتقاء :

أولا : هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة .

ثانيا : فى هذه النظرية تفسير لكثير من الوقائع التى لا يمكن فهمها الا عن طريقها .

ثالثا : لم تظهر بعد نظرية تناسب وتوافق الحقائق بهذه الدقة . . .

ويعلق الأستاذ وحيد خان على ذلك فيقول : (فإذا كانت هذه الأدلة كافية لجعل نظرية الارتقاء حقيقة مقبولة فى ضوء مقاييس الاستدلال العلمية فإن هذه الأدلة نفسها موجودة كذلك فى جانب الدين بصورة أشد وأكمل . وفى هذه الحالة يعجز العقل الحديث

---

(١) ملتى السبيل ص ٥٧ : ٥٨ .

عن تبرير رفضه للدين – باعتبار أنه غير قابل ولو لمجرد البحث العلمى . . مع تكافؤ الأدلة بين نظرية الارتقاء والدين كليهما .)

ثالثا: من ناحية الصدفة :

فى المنهج العلمى يفترض العالم مبدأ الحتمية ، ويستبعد المصادفة والاتفاق ، لأنه ينظر إلى الظواهر على أنها ضرورية وليست ممكنة ، والا فقد العلم شرعيته أصلا .

ومع ذلك فقد تورطت مذاهب التطور فى الصدفة لتنسج بها نظريتها فى أهم محاورها :

أولا : فى الحركة الأولى التى حدثت للمادة فى حالتها الأولية الراكدة .

ثانيا : فى ظهور الحياة فى البروتوبلازم .

ثالثا : فى ظهور الإنسان بتكوينه المشتمل على العقل وعلى الجهاز البدنى شديد التعقيد .

يقول الدكتور يوسف عز الدين عيسى :

لا يمكن أن نتصور بأى حال من الأحوال أن جهازا دقيقا معقدا أشد التعقيد متناسقا كالمخ قد تكوّن من تلقاء نفسه نتيجة للصدفة العمياء . .

ولو نظرنا إلى طرق التنفس مثلا فى الحيوانات المختلفة على اختلاف درجاتها ابتداء من الأميبا – ذلك الحيوان البسيط المكون من خلية واحدة – إلى أن نصل إلى الإنسان أرق الحيوانات لوجدنا أن عمليات التنفس هذه تتم بطرق وأجهزة مختلفة ولكنها جميعا تنتهى إلى نفس النتيجة وهى أكسدة المواد الغذائية وانطلاق الطاقة التى يستخدمها الحيوان فى أوجه نشاطه المختلفة .

وعندما نقول إن الطيور لكى يخف وزنها كونت فى عظامها أكياسا هوائية فهذا قول يدعو إلى الضحك . اذ أن الطائر ليست لديه القدرة على تغيير تركيبه ولا يمكن أن يقوم بأحداث هذا التغيير الواعى سوى القدرة الإلهية . .)

وهذا فى حد ذاته كاف لكى يجعل من مذهب التطور الذى قدمه داروين وأتباعه وأوبارين وأتباعه – وابتعدوا به عن افتراض وجود قوة مدبرة عليا – مذهبا «اعتقاديا» لا أساس له من العلم الصحيح .

رابعا : قاعدة التشابه والترتيب :

إن أدلة التطور الحيوى المستمدة كلها من علم التشريح المقارن ، وعلم الأجنة وعلم

التقسيم وعلم الحفريات ، ترجع كلها إلى قاعدتين : التشابه ، والترتيب ، وهما لا يؤديان بالضرورة إلى الاعتراف بوجود علاقة ذاتية بين الأطوار ، بل على العكس من ذلك يؤيدان موقف الدين فى تفسيره لكل منهما بوجود إرادة إلهية عليا .

ومن العجيب أن يسوق الأستاذ إسماعيل مظهر اعتراضه على القائلين بالخلق المستقل على النحو التالى :

ماذا يقول مؤيدو هذا القول فى تشابه الأنواع الحية وتقارب صورها من صور الحفريات التى يعثر عليها فى ذات البقعة التى تقطنها ؟

وليظهر زعماء الخلق المستقل السبب فى مشابهة الأنواع الحية فى استراليا للأنواع المنقرضة . . .) [1]

بالله ، لقد أدهش السيد فى اعتراضه وأعجز ! !

ويكفى فى الرد عليه فى هذا ما يقوله الدكتور يوسف عز الدين عيسى :

(ان تشابه الحيوانات فى الإطار الأساسى لتكوينها يدل على وجود أسلوب واحد للخلق يبدعه خالق واحد .

فعين القطة مثلا لا تختلف فى تكوينها عن عين البقرة أو الأرنب أو الإنسان وكذلك الجهاز الهضمى والعصبى والغدد الصماء وغيرها من الأعضاء فى شتى أنواع الحيوان تدل على وجود أسلوب واحد للخلق . تماما كما يقرأ الإنسان بعض صفحات من كتاب أحد مشاهير الكتاب فيستدل عليه من أسلوبه .)

وفى قاعدة الترتيب :

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر : (إن تدرج وجود الحيوانات والنباتات التى نعثر على بقاياها مستحجرة فى باطن الأرض ليدل واضح الدلالة على أنها لم تخلق طفرة خلال عصر محدود من العصور ، وانما نشأت متسلسلة بعضها من بعض متعاقبة فى الوجود الزمانى) (ملقى السبيل ص ٢١٦)

ونحن نقول بأن غاية ما تدل عليه هذه الحفريات « أن الأنواع نشأت متعاقبة فى الوجود الزمانى » أمَّا أنها نشأت « بعضها من بعض » وهذا هو جوهر مذهب النشوء والارتقاء فليس فى هذه الحفريات ما يدل عليه .

---

(١) ملقى السبيل ص ٢٦١ .

وان الأمر هنا أشبه بمن يقول إن الترتب الزمانى المتدرج الدقيق فى اللقطات الفوتوغرافية التى تسجل قصة سينمائية «مثلا» يدل على أنها «نشأت متسلسلة بعضها من بعض» فى حين أنه من الظاهر أن ذلك ليس دالاً على شيء أكثر من التعاقب الزمانى

يقول الاستاذ وحيد خان : (إن نظرية الارتقاء لا تثبت شيئا أكثر من أن الأنواع المختلفة لم توجد فى وقت واحد ، بل وجدت أنواع مختلفة فى مراحل مختلفة وأن هناك ترتيبا زمنيا فى الأنواع الحية ، أى أن الأنواع البسيطة للحياة وجدت قبل الأنواع الحية المعقدة . والأمر الذى لا يزال غير ثابت بكل قطعية هو : هل الأنواع الحية المعقدة هى حقيقةً صور راقية للأنواع البسيطة التى وجدت فى الزمن السحيق ثم تطورت تلقائيا إلى صورها الحالية نتيجة للعمل المادى الطويل أم أنها ليست كذلك ؟

إن المشاهدة تؤكد الجزء الأول . .

أما الجزء الثانى من نظرية الارتقاء فلا يزال افتراضا محضا اختلقه العلماء الذين آمنوا بتلك النظرية ، وهذا الجزء الافتراضى من نظرية الارتقاء لا يمكن مشاهدته تحت أى ظرف من الظروف ، كما أنه غير قابل للخضوع للتجارب بأى شكل من الأشكال ، هذا بينما يتوقف جواز الاستدلال بنظرية الارتقاء على ثبوت هذا الجزء الثانى منها فقط) .

خامسا :(١) إنه مع التسليم بصحة الافتراضات التى تقوم عليها نظرية التطور من حيث وجود تشابه وترتيب بين الأنواع فإن ذلك لا يقتضى الغاء الإرادة الالهية .

إن الذين ينكرون الخالق بناء على نظرية التطور يتصورون أن الخالق ليس فى إمكانه أن يوجد مخلوقاته بترتيب ونظام يُنَفَّذُ فى زمن طويل .

وهذا التصور خاطىء سواء ثبتت نظرية التطور أو لم تثبت .

إنه مع التسليم الجدلى بأن نظرية التطور تقوم على قوانين حتمية فإن ذلك لا يلغى «الارادة الإلهية» إلا عند أولئك الذين يتصورون الألوهية تصوراً بشرياً .

وعلى سبيل المثال لهؤلاء نقرأ النص التالى[١] :

من بين مجموعة النقوش الكاتدرائية التى تعبر عن كثير من حقائق اللاهوت فى العصور الوسطى نقش يمتاز عن مذهب لاهوتى فى أصل الكون ظل موضع الاحترام والإجلال أزمانا طوالا . .

---

(١) أنظر «بين الدين والعلم» لأندرو ديكسون وايت ، ترجمة إسماعيل مظهر طبعة ١٩٢٩ ص ١٧١ .

الواحد القهار فى صورة بشرية جالس بوداعة ولين يصنع الشمس والقمر والنجوم ويعلقها فى القبة الصلبة التى تحمل من فوقها السموات العلا ، وتظلل الأرض السفلى .

أما علائم التفكير الظاهرة فى تقطب جبينه فتنم على أنه أجهد نفسه إمعانا فى التدبر والاستبصار ، كما يدل انتفاخ عضلات ذراعيه على أنه قد اضطر إلى أن يكد وينصب . ومن الطبيعى أن يكون المثالون والمصورون خلال القرون الوسطى وفى بدء العصور الحديثة قد عمدوا إلى تمثيله على مقتضى ما تصوره كُتّاب ذلك العصر اذ كانوا يقولون بأنه استراح فى اليوم السابع) ومن هذا حق للعلماء التجريبيين فى أوربا أن يقعوا فى وهم التناقض بين النظام وبين الألوهية . .

ومنشأ ذلك أن صورة الألوهية عندهم مستمدة من الأساطير الإغريقية . أو من إله أرسطو ، أو من الأديان الشرقية القديمة .

وهى كلها لا تعطى تصورا يوفق بين الألوهية والنظام أو بين الألوهية والقانون . . أما تصور الألوهية فى الإسلام فهو لا يتعارض مع تصور القانون والنظام .

بل إن الإسلام هو الذى يضع ضمان الاستمرار للقانون الطبيعى ، وذلك فى قوله تعالى « ولن تجد لسنة الله تبديلا » الا أن هذا الاستمرار مستمد من الإرادة الالهية ومتوقف عليها : « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » (٨٢ سورة يس)

فهنا يبدو الانسجام واضحا بين إرادة الله واطراد القانون ، ويظل هناك موضع للخوارق التى يظهرها الله بين الحين والآخر ، تذكيرا للإنسان بمصدر الوجود ومصدر القوانين وهو الله سبحانه وتعالى . .

ان النزعة الالحادية فى نظرية التطور إذ تنكر على الدين قوله بوجود إله عالم مدبر للكون ، منظم له ، معتن به . . . تقول أيضا بالتطور المنتظم المتقدم نحو غاية عليا ، وتسند هذا التطور إلى المادة التى بدأت وجودها وهى فى أحط صورة من صور الوجود التى يمكن للعقل أن يتصورها .

ولا شك أن هذا تناقض صارخ . .

إنه من المؤكد أن فكرة التطور التقدمى التى يتبناها العلم الحديث (والالحاد الحديث) لا تستقيم إلا إذا أخذنا بفكرة وجود إله عالم مدبر للكون .

يقول الأستاذ يوسف كرم « وقد نسلم بالتطور ، ثم نرانا مضطرين إلى الإقرار بموجد للمادة ، موجِّهٍ لها ، لقصور المادة عن تنظيم نفسها . »

إن فكرة التطور التقدمي – بعد تهذيبها وتجريدها من التناقض الذى يوقعها فيه الإلحاد – تضيف إلى رصيد الإيمان بالله ، ولا تأخذ منه ، وذلك حيث ترسم للمادة طريقاً منظماً صاعداً من الأدنى إلى الأعلى ، تستهدف فيه الوصول إلى الغاية ، فمن لم تستلزم وجود المدبر المنظم ، وهو أمر لا يكون للمادة التى يقول بها الملحدون ، وإنما يكون لذات الله .

إن هذه النظرية تفرض أولاً : التقدم . والتقدم لابد أن يكون له غاية مرسومه والنظرية لا تقدم هذه الغاية ، والدين هو الذى يقدمها .

ومن ناحية أخرى فإن التقدم الذى تفترضه هذه النظرية يعنى النقص فى المتقدم والناقص محتاج إلى غيره فى تقدمه ، والدين هو الذى يقدم لنا الله الغنى الذى يتجه إليه كل محتاج . . .

يقول الأستاذ الدكتور يوسف عز الدين عيسى :

(إن الخطأ الرئيسى الذى وقع فيه جميع هؤلاء العلماء هو أنهم تجاهلوا وجود خالق مبدع جبار هو الذى خلق هذا الكون وأبدعه . فقد تكون الحيوانات انحدرت من حيوانات سبقتها وتطورت وارتقت ، ولكن ما هى القوة التى تقف وراء ذلك كله وتحركه فى دقة مذهلة وقدرة جبارة نحو هدف معين فيه ارتقاء وكمال ؟

أنه بلا شك خالق هذا الكون الذى تعجز عقولنا عن إدراك مبلغ قدرته وعظمته مهما تخيلناها . . .

فتطور الكائنات لا يفسر بمثل هذه الافتراضات وهذه التكهنات ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون صُدَفاً عشواء تتخبط فى الظلام .

ولقد اقترب العلماء الآن كثيراً من التسليم بوجود خالق للكون سواء شعروا بذلك أو لم يشعروا .

. . فالقول الذى يصر عليه جراهام كانون [١] ، بأن فى كل كائن حى قوة تدفعه للسير والتطور نحو هدف معين يعنى بلا جدال وجود قوة إلهية وراء هذه العملية . . .)

وإذا كانت فكرة التطور التقدمى تتناقض عندما يغتصبها الملحدون الماديون فينكرون بها وجود الله ، فإنها تتهافت وتتلاشى عندما يقفون بها من ناحية المبدأ عند طور ظهور الإنسان ، ومن ناحية النهاية ، عند انزلاقه إلى العدم ، بعد هذه الحياة الدنيا وبيان ذلك :

(١) أحد العلماء المحدثين الذين لهم بحوث متخصصة فى نظرية التطور .

أن التطورية التقدمية الحقيقية تقتضى نظرة دائمة الانفتاح إلى المستقبل ، وكلما كانت هذه النظرة أكثر امتداداً وشمولاً ونمواً ، كانت أحق بوصف التقدمية .

ومن هنا يمكننا أن نقول أن (دين الإسلام) هو المجال الذى تستقيم فيه هذه النظرة ولا تتناقض ولا تتهافت . وأنه أحق بوصف التقدمية من غيره ، لأنه يجتاز بنظرته إلى المستقبل حاجز الحياة الدنيا ، ويجعل حياة الإنسان ممتدة إلى مستقبل بعيد (فى الآخرة) يحصل فيه على الخلود والكمال بشروط يمارسها فى حياته الدنيا ، تجعل هذه الحياة بدورها أقرب إلى الكمال . . .

فدعوى التقدمية ، ألصق بالدين ، وأجدر به وأشد تنكراً للإلحاد فى أى مظهر من مظاهره ، وهى عند الملحدين تتناقض مع فرضية مسبقة ، تدعى زوراً وبهتاناً وبغير سند من العلم أو العقل – أن المادة هى الأصل .

يقول الأستاذ وحيد خان : (لا يزال الإنسان منذ آلاف السنين يؤمن بأن خالقه وخالق الشجر هو القادر المطلق ، مع أنه ظل طوال هذه القرون الطويلة يشاهد الطفل يصبح رجلاً كاملاً بعد أربعين سنة من ولادته ، والشجر العملاق يكتمل عوده بعد قرن أو نصف قرن من الزمان ولكن هذه المشاهدة لم تزلزل من إيمان الإنسان بأن الله هو القادر المطلق ، فعقله لم يوجب أبداً – أن كون الله «الخالق القادر المطلق» يستلزم ظهور الإنسان والشجر فى أشكالها الكاملة مرة واحدة .

وهكذا فإن كشوف المستقبل حتى لو أثبتت أن مظاهر الحياة إنما ظهرت إلى الوجود نتيجة لخضوعها لعمل تطورى طويل الأمد فإن ذلك الإثبات – الذى لم يتوافر حتى الآن – لن يبطل قضية الدين ، ولن يستلزم إعادة النظر فيها ، ذلك لأنَّ هذا الإثبات المفترض إنما يتعلق بأسلوب الله فى الخلق ، ولا يفسر لنا ماهية الخالق) لقد جاء فى الموسوعة الكاثوليكية فى مادة الخلق أن حقائق العلم وحقائق الوحى فى هذا الموضوع لا تتناقضان . .

وقال اللاهوتيون أصحاب كتاب العلم وما فوق الطبيعة : بأن العلل الثانوية التى تبدو فى أعماق الطبيعة لا تبطل العلة الأولى التى تنتهى إليها جميع العلل وتقف عندها جميع المقاصد والغايات .[1]

ويقول الأستاذ يوسف كرم : «وقد نسلم بالتطور ثم نرانا مضطرين إلى اعتبار الإنسان نوعاً قائماً بذاته بسبب ما يختص به من علم وفن وصناعة وخلق ودين ، وهى مظاهر للعقل

(١) أنظر عقائد المفكرين فى القرن العشرين للأستاذ عباس العقاد ص ٥٨ .

لا نظير لها ولا أصل فى سائر الحيوان . . » .

(٢) وما دام أن هذه النظرية كما بينا لا تلغى بالضرورة الإرادة الإلهية فإنه ينبغى أن يبقى فيها مكان خاص لنظرية الخلق الخاص – بالنسبة لبعض الأنواع على الأقل – إذا وردت بذلك الأخبار الصحيحة .

ولا شك أن الأخبار الصحيحة قد جاء بها القرآن الكريم فيما يتعلق بخلق آدم عليه السلام ، وما ورد فى القرآن الكريم بهذا الخصوص لا يترك احتمالاً لإدخال آدم عليه السلام فى السلسلة التى نسجتها افتراضات نظرية التطور .

وذلك للأسباب الآتية : –

أولاً : إن ما ذكره القرآن الكريم عن ملابسات خلق آدم يحتم القول بظهوره مستقلاً وليس على مراحل من التدرج غير الملحوظ فى مدارج الأنواع المختلفة .

وهذا ما يقتضيه دعوة الله تعالى ملائكته للسجود لآدم إثر خلقه إياه يقول تعالى :

« وإذ قال ربك للملائكة أنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . . » (٢٨ – ٣١ سورة الحجر)

والنصوص القرآنية الواردة فى نفس هذا المعنى كثيرة أنظر الآيات ١١ ، ٣٤ من سورة البقرة .

والآيات ٦٠ وما بعدها من سورة الأسراء ، والآيات ٤٩ وما بعدها من سورة الكهف والآيات ١١٥ من سورة طه على سبيل المثال .

ثانياً : إن ما ذكره القرآن عن آدم يقتضى ظهوره وهو فى أعلى مراحل النضج البشرى لا كونه فى أدنى هذه المراحل كما تقضى بذلك نظرية التطور ، وذلك ما يدل عليه قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون .

وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . » (٣٠ – ٣٣ سورة البقرة) .

ثالثاً : إن ما ذكره القرآن عن خلق آدم يقتضى ظهوره لا على نحو يتفق مع السنن

العادية – كما تقضى بذلك نظرية التطور إن صحت – وإنما على نحو خارق لهذه السنن وهذا ما يدل عليه قوله تعالى :

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . . » . (٥٩ – ٦٠ سورة آل عمران) .

وبما أن سيدنا عيسى عليه السلام قد خلق من غير أب بطريقة خارقة للعادة ، وأن الآية تقرر أن خلق آدم مثله ، فإن النتيجة الحتمية لذلك أن خلق آدم تم بطريقة خارقة للسنن العادية .

والله الموفق للصواب .

د . يحيى هاشم

وَحْدَانِيَّةُ الخالق

مِمَّا رُوِىَ عَنِ الإمَام جَعْفَر الصَّادِق أَنَّهُ رَأى جَدَّهُ رَسُولَ الله ﷺ فى مَنَامِه فَسَأَلَهُ عَنْ حَقِيقَة التَّوْحِيد . . فَقَال لَهُ رَسُولُ الله ﷺ :

كُلُّ ما خَطَرَ بِبَالِكَ فَهُوَ هَالِكٌ وَاللهُ بِخِلَاف ذلِك :

الإسلام فى التجربة التاريخيّة

الأستاذ زاهر عزب الزغبى

أربعة عشر قرنا ونيف من التاريخ الحافل الملئ عمر التجربة الاسلامية عبر الزمن ، وليس ثمة أحد يستطيع أن ينكر أن التعاليم الاسلامية قد نجحت وحدها فى تأسيس مجتمع إسلامى بحت ، وأنها استطاعت أن تكتل العناصر الإنسانية المتنافرة المتمردة فى صحراء العرب . تلك العناصر التى لم تتفق فى وقت مّا من تاريخها الطويل على رأى أو تجتمع على عقيدة ، ولكن الاسلام نجح فى أن يُكوِّن منها مجتمعا متماسكاً تربطه أواصر الإخاء والمساواة التى لا يشوبها تفاضل من جاه أو جنس أو ثروة .

وقبيل وفاة النبى محمد (ﷺ) كان الإسلام قد تكامل كدين ، وبدا بوضوح أن هذا الدين ليس مجرد عقيدة لا تضم سوى طقوس تعبدية وإنما يشتمل أيضا على أسس قوية ونهج عملى لقيام مجتمع واضح المعالم : له سماته الخاصة ونظم حكمه الخاصة وقوانينه الخاصة . .

وبقيادة تستلهم الحكمة والقوة من وحى الله ، وبإيمان هادٍ موجِّه استطاع هذا المجتمع الوليد فى أوائل عمر تجربته أن يوسِّع مداه فيقفز بسهولة ويسر على حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية ويضم حوض الأردن . . وفى نفس الوقت ينتزع من إمبراطورية فارس كل بلاد ما بين النهرين . . ثم لم تمض عشر سنوات بعد وفاة النبى محمد (ﷺ) حتى كانت كل منطقة الهلال الخصيب وآسيا الصغرى والأراضى المصرية تابعة لأمير المؤمنين . . وقامت فى كل أرجاء هذه المنطقة المساجد ، وترنمت فى أجوائها حناجر المؤذنين بـ « الله أكبر . . الله أكبر . »

ولم يكن هذا النجاح الباهر الا مقدِّمة لما هو أعظم ولما هو أروع . . ففى أقل من نصف قرن كانت كلمة الله وراية الإسلام قد ارتفعتا عاليتين على مآذن المساجد فى شمال أفريقيا حتى مراكش على ساحل الأطلسى . . ثم تعبران البحر الأبيض المتوسط الى أسبانيا وسهول فرنسا . . أما فى آسيا فتتوسع المنطقة الإسلامية شمالا حتى تُهدد أسوار القسطنطينية ، وشرقا

يتوغل المسلمون حتى مشارف الصين ، وجنوبا يتجاوزون حوض الأندوس الى الولايات الجنوبية فى شبه القارة الهندية . .

وقد برهن هذا النجاح الذى حققه الإسلام – فى سعته وسرعة انتشاره – على أصالة هذا الدين كما عزّز الثقة فيه . .

ولكن الذى كان أكثر دلالة على نجاح الإسلام وقوته أنه قد قابل مدنيّات العالم الخارجى بمبادئه الفكرية فانتزع الإعجاب والاحترام ، وبعقيدته الدينية ونظمه الاجتماعية فانتصر بلا مقاومة على المسيحية فى الدولة الرومانية ، وعلى الزرادشتية فى فارس ، كما تغلب بسهولة على الهندوكية وفلسفتها فى البلاد الهندية ، وعلى البوذية أيضا فى كل مواطنها . . أما اليهودية فإنها كانت آنذاك قد انسحبت من ميدان التنافس الفكرى إلى دائرة ضيقة داخل إطار من التعصب القومى الإسرائيلى ممثلا بأفراد أو جماعات صغيرة متناثرة هنا وهناك فى أماكن متفرقة على سطح الكرة الأرضية . .

ولما كانت الدعوة إلى الإسلام تقوم أساسا على مبدأ «لا إكراه فى الدين» فإنه من التعسف أن ينسب انتشار الإسلام إلى عامل مّا غير ذى صلة بعامل الإقناع . . وصحة القضية وصلاحية القواعد التنظيمية فى الإسلام قد سهلا إلى حد كبير مهمة المجاهدين المسلمين . . وكان التطبيق العملى للقواعد والقوانين والمبادئ الإسلامية على سكان المناطق المفتوحة يُشكِّل العامل الأهم فى إحراز انتصارات تالية . . فالرعايا الذين كانوا يرزحون تحت أثقال من جبروت رجال الكهنوت والنبلاء قد أقالهم المسلمون من أوزار الرومان الإقطاعيين . . وحينئذ تحقق لهم – فى ظل الاسلام – الأمن المطلق والكرامة الحقة والحرية المضمونة ، وكذلك كان الحال مع الفرس وغيرهم من البشر فى كافة الأصقاع التى وصل إليها الإسلام . . وهذا التطبيق الصحيح للقواعد الإسلامية كان خير داعية للإسلام . . فقد استروح فيه الناس إرادة الله فى صون الإنسانية والحفاظ على كرامتها فسارعوا إلى اعتناقه أفواجا . .

والإسلام ليس فقط كغيره مما سبقه من أديان ، بل هو دين أعمق وأوسع وأشمل . . نعم . . لقد سبق أن أطلع الله الإنسان مرارا على كنه رسالته . . ولكن الإنسانية فى كل مرة لم تكن قد نضجت إلى المستوى الذى يؤهلها لأن تفهم رسالة الله بتمامها . . وكان الله – وهو الحكيم الرءوف الخبير بعباده – يقدِّر لكل شئ قدره ، فيكشف للإنسان عن قدر من نوره لا تعشى منه عيناه ، ولكنه قدر ينير له الطريق إلى الأمام ، ويزيد من قدرته على تفهُّم كمٍّ

أكبر من الحقيقة فيما بعد . .

أما فى هذه المرة فكانت الإنسانية قد بلغت الرشد . . واستعد ابن آدم أن يتقبل رسالة الله بحذافيرها ، فجاءته كاملة ونهائية . . وتضمن الإسلام كلمة الله تامة وشامله ، وكشف الخالق عن وجوده السرمدى وعظمته غير المحدودة . . فعرفه الإنسان – ولأول مرة – معرفة حقَّة على نحو لا يخطئ بعد ذلك أبدا . . وبحيث لا يعود إلى تصوُّره على ما يتنافى مع كماله المطلق . . كلاًّ ، ولن يسمح الله للإنسان بعد ذلك أن يعبده لأنه كما يتصوره اليهود إله قاس فظ وجبار غضوب . . صوت عذاب وليس نداء رحمة . . أو كما يتصوره النصارى أبا لنبيهم عجز عن حماية ابنه وعن تدبير وسيلة لرفعة إليه سوى أن يسلِّمه إلى شرذمة من اليهود المشاغبين فيقتلوه ويصلبوه . . ثم بعد ذلك – كما يزعمون – يضم هذا الابن إليه فى عرشه صنوا له أو عدلا وضريبا . .

ولأول مرة أيضا أعطى الله للإنسان صورة كاملة ونهائية عن الكيفية المثلى التى ينبغى أن يكون عليها سلوكه فى الأرض . . فجاءت رسالة الله فى الإسلام تامة وشاملة : فهى من ناحية مفتوحه على عظمة الله التى لا تحد، وهى من ناحية أخرى مرتبطة باحتياجات وضرورات الانسانية المتشعبة . .

ولهذا كان الإسلام دينا متميزا عما عداه . . دينا لا يمكن تحديده وإن كان من الممكن أن يرسم بخصائصه ومميزاته . .

وإذا قلنا إن أبسط تعريف للاسلام أنه مجموع ما جاء فى وحى الله إلى رسوله محمد ﷺ فإنه من الخطأ بل من الخطر أن نعتبر بعضا من هذا المجموع أونحاول أن نجزِّئه ، فالإيمان والعمل فى الاسلام وجهان لقطعة واحدة من العملة . . والثواب والعقاب فى الآخرة لا يستغنى عنهما الإسلام بما شرعه من حدود وعقوبات دنيوية ، كما أن الأخلاق ليست فضلة بعد الشريعة . .

إذن فالإسلام فى حقيقته ليس الا إيماناً خاصا حيًّا متجددا مع كل صباح ، بل مع كل هنة من لحظات الزمن فى قلب كل فرد مسلم . .

ومن المسلَّم به أن الإسلام : إنما هو دين الله لم يبدأ ببعثة محمد ، وإنما مع بدء الخليقة على الأقل . .

والله عندما خلق العالم أمر بأن تجرى قوى الطبيعة حسب نظام ارتآه . . والطبيعة مجبرة على طاعة أحكام الله وسنته الخالدة . . وهى من خلال انصياعها لأحكام الله تقوم فى

الوقت نفسه بإيضاح الصورة الممتازة التى أرادها الله لمسيرتها ، كما تكشف عن وجوده وقدرته وسلطانه على ملكوته ، وكذلك عن جلاله وعظمته . .

وقد جعل الله لـلإنسان كذلك نظاما مثاليا يجب عليه أن يسلك وفقه . فالله من عليائه قد بيَّن للناس الكيفية التى يجب عليهم أن يتصرفوا طبقا لها جماعات وفرادى . . ولكن الانسان هنا يختلف عن بقية المخلوقات بأنه خلق واعيا وحرا . . فهو وحده الذى أُعْطِىَ حق اختيار الفعل أو الإقلاع عنه ، سواء ا(كان ذلك مجرد كسب - كما قال أهل السنة - أم آداءً حقيقيا للفعل كما يقول المعتزلة . . وكانت هذه الحرية مسئولية خطيرة وهامة . . ومن الأصح أن نقول بأن الانسان وحده هو الذى اضطلع بها ، لأنه وحده الذى هو أهل لها : « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان . . . » (سورة الأحزاب : ٧٢)

وعلى هذا فالإنسان لا يستطيع أن يجنِّب مجتمعه الفوضى والانحلال إلا إذا عاش حياته مستقيما وفق شريعة الله . . ولكن أيضا له الحرية فى اختيار النهج الأعوج وتدمير النظام الاجتماعى كلِّه . .

وهذا الإنسان كان - ولمّا يزل ، وسيظل إلى الأبد - ذروة الخليقة وخليفة الله . . ومنذ بدء خليقته بيَن الله له القانون الخلقى ووضَّح له كيف يعيش ويتصرف . . فلقد كان آدم نفسه نبيا علَّمه الله ما يجب أن يفعل . . ولكن التاريخ قد سجل على الإنسان إخفاقه فى السير على هذا النهج . . كما أن أبناء آدم سرعان ما أهملوا الرسالة أو نسوها أو أضاعوها أو زيّفوها . . وكثيرا ما جاءت فترات كان فيها الإنسان يتخبط فى الظلام لا يعرف ما هو الأصوب . . حينئذ تحلُّ عليه رحمة الله فينزّل عليه الرسالة مرة ثانية . .وهكذا يكون رسول جديد يكشف لـلإنسانية عن ماهية المطالب والحقائق الخالدة . . ولكن القصة البشرية تعيد نفسها . . فمرة أخرى يهمل الإنسان الوحى أو ينساه أو يشوِّهه . . ثم يكون رسول آخر . . وهكذا دواليك . . وكثير مَّاهم هؤلاء الرسل . . غير أن الشئ الجوهرى هو أن مضمون الرسالة - رغم تعدد الرسل - كان دائما ينبع من معين واحد وعلى أسس واحدة . .

لقد كانت دعوة ابراهيم هى التبشير بوجود الله ووحدانيته وسلطانه . . ومن ذلك الحين لم تنطفئ جذوة التوحيد التى دعا إليها . . أما الوثنية فقد ازدراها ابراهيم وكذلك يزدريها على الأقل قسم من البشر . .

أما فيما يتعلق بموسى فإن أتباعه قد آمنوا برسالته ولكنهم مع ذلك لم يخلصوا كل الإخلاص فى تقبّلهم لها . . فإنهم حين وضعوها موضع العمل سمحوا – أو تسببوا – بافساد النسخ التى كانت تحفظ نص الرسالة المكتوب . . فأصبحت توراتهم غير صحيحة . . أضف الى ذلك أنهم ارتكبوا خطأً كبيراً إذ أخذوا يعتقدون أنهم شعب الله المختار وضنُّوا بكلمة الله ، بدلاً من أن يفطنوا الى أن الله الذى سوَّى الخليقة وبرأ الكون إنما هو رب الجنس البشرى كله .

وشاء الله أن يصلح هذا الخطأ الشنيع ، فبعث فى الوقت المناسب رسولاً آخر هو المسيح . . « وبجملة أسباب أدرك أتباعه الطبيعة العالميّة للدين ، ولكنهم ما لبثوا أن أخذوا يؤلِّهونه وينسبون اليه وإلى أمه تبها رهيبة . . وهؤلاء الأتباع الذين ينسبون أنفسهم إلى المسيح قد ركَّزوا اهتمامهم عليه إهمالا منهم جريئا لله الذى حطوا بذلك من سموه ومن علاه . . كما أنهم من ناحية أخرى قد أحاطوا أنفسهم بالاحترام الشخصى ، ولكنهم أهملوا النظام الخلقى الكامل ، وسمحوا للعدالة الاجتماعية أن تنزلق تاركين إدارة هذه الأمور الدنيوية لقوى علمانية ليس للمقاييس الأبدية سلطان عليها ، وهكذا فقد تركوا التاريخ يسير على هواه ، دون أن يدركوا أن الله لا يقبل أن تنتهك عدالته . .

وهكذا أخفق الإنسان مرة أخرى وأظهر ضلاله وتخبُّطه فى رفضه المتواصل وفى تشويهه للحقيقة القوية والرشاد الأسمى الذى واصل الله تقديمه له .

وهكذا يتراءى تاريخ البشرية الى هذه النقطة . . « قصة غير مشجعة » . . ولكن ثمة تقدم دون ريب ، فبعد سلسلة الإهمالات لأوامر الله جاء دور إدراك عظمة الله بالمبدأ .

وهنا يتساءل المرء : ترى هل سيعجز الناس أبدا عن استيعاب الرسالة الخالدة ؟ . . وهل سيعجزون عن العمل بها جديًّا . . وعن العيش كما أمر الله أن يعيشوا فى اتحاد خالد مع عدالة الله نفسه . . ذلك الاتحاد الذى لم تكن عملية الخلق الا مقدمة له . والذى سيبقى حتى بعد أن يقضى أمر هذا العالم الفانى ؟ . . وهل سينجح الناس فى تحويل التاريخ الى سجل خال من مرارة الفشل وتكرار الإخفاق . . إلى سجل مليْ بالرشاد المقدس ؟ ؟ .

وفى وسطٍ من ضباب الشك تتجلى رحمة الله عظيمة ، فيبادر سبحانه الى إنقاذ الموقف بإشارة من عنده ويمنح هديه السماوى للإنسان .

لقد أنزل رسالة متضمنة حقيقته وعدالته . . واختار رسولاً هو خير من يؤدى هذه الرسالة ويفسرها . . يشرح حقيقة ذات الله ويبين تفاصيل الحكمة فى عدالته . . ويعيش

حياته وفق هذه الرسالة بإحكام مستقيم . . ويسير خلفه طائفة يتحمسون للمحافظة على الرسالة بصدق ، ويحملونها منتصرة قاهرة الى أطراف الأرض ، ويعملون بكل ما تضمنته من أحكام عملية . .

وفى هذه المرة توضع الضمانات حتى لا يكون هناك تشويه أو إهمال . فالرسول فى هذه المرة يتشدد فى تمييز الوحى الإلهى الخالص ويضمِّنه كتابا فريدا هو القرآن . . حيث تتلألأ الرسالة بتمامها فى لغة من الوضوح الصافى والجمال الرائع الأخَّاذ .

انها لآخر دعوة حاسمة . . ومن ثَمَّ فأتباع هذا الرسول يحافظون على تلك الأمانه محافظة الإنسان على كيانه نفسه ، لأنهم قد لمسوا فى آيات هذا القرآن عيوب التجربة الدينية التى خاضها قبلهم أقوام البشر الذين أضاعوا هداية الله بإهمالهم فى صيانة وحيه . . فهم بالتالى لا يتهاونون فى حراستها من أن تضيع حيث أودعوها قلوبهم ، ولم يتهاونوا قط فى مراجعة أنفسهم حيالها ، تماما كما يفعل رب المال الحريص فى مراجعة رصيده . . لأن هذا الرصيد هو قوام حياته كلها . . ولم يكن الوحى هذه المرة مجرد نص جامد للحقيقة السامية ، وإنما تضمن شيئا مهما عظيما بنَّاءً . . هو الحقيقة مضافا اليها نتيجتها . . وتطبيق هذه الحقيقة قد أوجد مجتمعا متطوّرا . مجتمعا تمسك جيدا بالوصايا التى أوحيت اليه ، وكرَّس نفسه لأن يعيش بموجب هذه الوصايا . . وبذلك أخذ على عاتقه أن يعيد بناء الحياة البشرية على الأرض . . وهذا المجتمع ليس بالمقصور على نفسه . . إنه على العكس من ذلك يرحب بالخلق كلهم ترحيبا حارا . . بل أنه يلح فى دعوة الغير للاشتراك فيه ، وأبواب الانضمام اليه للمساهمة فى هذا العمل الأجل الأسمى مفتوحة على مصراعيها . . وهو مجتمع ليس بالمغامر لأنه يسير بتأييد إلّهى . وقد وعد الله جازما بأنه سوف يكون مع هذا المجتمع لإرشاده وتأييده . . هذا بالإضافة إلى أن الشرائع التى سلمت اليه والتى سيسير وفقها إنما هى شرائع سماوية خالدة صحيحه مناسبة ، فاذا ما عمل بها فإنه يكون قد عاش حياته منتظما مع كيان العالم .

وبهذه الطريقة جاء الإسلام الذى صمّم بنجاح بناء شامخا لمجتمع يسير وفق مرسوم الله . . والخطوط الأولى فى تصميم هذا البناء توضح حقيقة الإلّه ذاته . . وهذه الحقيقة الإلّهية تتغلغل فى كل جزء من أجزاء البناء وتتضح فى كل لبنة بل فى كل ذرة فيه ، لأن هذا المجتمع فى الحقيقة ليس الا جزءا ضئيلا من كون هائل أوجده وخلقه هذا الإلّه . ومن ثمّ كان مجرد التوصل الى معرفة هذا الإلّه وصدق رسالته مفتاحا يدخل به الإنسان الى

رحاب هذا المجتمع . . وكان أيضا مجرد الإقرار دليلا كافيا على نجاح الإنسان فى التوصل إلى هذه المعرفة ، وهذه السهولة فى الانتماء إلى هذا المجتمع واكتساب عضويته ليست إلاَّ مثالا لكل وجه من وجوه طبيعة هذا الدين . . هذه الطبيعة ذات النهج التطبيقى العملى . . ومن شأن كل نهج عملى أن يراعى فيه تفاوت القدرة فى كل عنصر من عناصر المساهمة فيه . وأى مجهود –مهما كان ضئيلا – يبذل شركة فى العملية التطبيقية يعتبر مساهمة فعلية . . ومن أجل هذا كانت شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله بمثابة بطاقة صحيحة تجعل من حاملها مسلما وعضوا لا يفضله عضو آخر فى المجتمع الإسلامى بأسره . . لأن الإسلام – كمجتمع – قد روعى فيه أساسا أن يتسع للعنصر الإنسانى كله . . يتسع للعالم أجمع .

ولسنا الآن بصدد الإطناب فى تعداد مزايا هذا الدين وإيضاح ما فيه من كمال يجد فيه المرء كفاية تشبع العقل والوجدان من حيث هو عقيدة ، وتحقق له الصلاح فى أمور الحياة من حيث هو عدالة وتشريع . . كما أننا لسنا الآن بحاجة الى التعريف بالقمَّة التى ارتقى إليها الإسلام فى عقيدته بالصورة التى شرح بها ذات الإله ، ولا بالطريق المثلى التى طَبَّق بها عدالة الله ، ولكن يكفينا هنا أن نعيد الإشارة إلى الفترة الزمنية التى عاشها الإسلام فى تاريخ الإنسان . . أربعة عشر قرنا من الزمان كانت فيها التعاليم الإسلامية هى الدافع الأقوى فى (ديناميكية) التطور الحضارى الإنسانى مادامت هذه التعاليم محل اعتبار من الإنسان . . كما ظلت العقيدة الإسلامية من حيث التعريف بذات الله وصفات العظمة والجلال والكمال فيه تريح روح الإنسان وتملأ شعوره بالإيمان الواثق المطمئن .

وإذا كان الانسان قد ظل طوال تاريخه فى هذا الوجود قلقا شقيا يبحث عن راحة الضمير فى الإيمان ، وعن أمان النفس فى العدل والحرية ، فإن الإسلام قد أتاح للإنسان حلاً لمشاكله . . وأتاح له على نطاق واسع كل ما كان ينشده ويبحث عنه . . أعطاه ثلاثة أمور جوهرية : أولها تفسير روحى لحقيقة العالم ، وثانيها تحرير روحى لذات الفرد ، وثالثها نظام من المبادئ العالمية توجِّه تطور المجتمع الانسانى على صعيد روحى ومادى معا .

واذا كان الإسلام قد تكامل فى حياة النبى كدين يشتمل على عنصرين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر : حقيقة إلهية وعدالة إلهية . . فإن المجتمع الاسلامى الأول الذى قام على أساس هذا الدين لم يكن أبدا فى حاجة إلى شئ آخر خارجى عنه لكى يبسط سلطانه بقوة الدين وحدها على معظم الرقعة المأهوله من العالم فى أقل من نصف قرن من الزمان . . وتبدو هذه الحقيقة الرائعة دليلا قويا على أن الإسلام قد حقق حاجة الإنسانية . وأعطاها

الجواب المقنع للتساؤل المحيرِّ الخالد الذى ظل على الدوام يقلقها ويشقيها . . إذا أخذنا فى اعتبارنا أن الاسلام عندما زحف من بيئته الأولى – شبه الجزيرة العربية – وتوسع كطوفان جارف الى العالم الخارجى لم يكن هذا الاكتساح المذهل فى أرض خلاء . . وإنَّما كان فى منطقة شاسعة احتلتها ورسَّخت أقدامها فيها من قبله ديانات وفلسفات ومدنيات وحضارات لها قيمتها ولها قوتها . . ولكنها لم تستطع أن تصمد أمامه وإلى الأبد . . فحضارة فارس وفلسفة الأغريق ومدنية الرومان والمسيحية واليهودية قد ولَّت كلها أمامه وانهزمت . . ولم يحصل لأى منها بعد ذلك خلال ثلاثة عشر قرنا ونيِّف أن استطاعت أى منها أن تسترد موقعا قد كسبه الاسلام من قبل . .

وإذا كانت المسيحية قد عادت بسبب أحد الأخطاء التاريخية إلى أسبانيا فليس فى ذلك ما ينقض مجمل الحقيقة ، فإن المسلمين فى أسبانيا قد هجروا المنطقة أمام غزو الأفرنج ، والذى لم يستطع منهم الهرب قتل ولم يرتدّ عن دينه ، وشبيه بذلك تماما قيام إسرائيل فى الرقعة المغتصبة من الأرض المقدسة. إذ ليس معنى هذا أن اليهودية قد عادت فى آخر الزمان واستردت من الإسلام موقعا ، بل إن الذى تمكن منه البغى اليهودى قد قتل ، ومن فر بحياته ودينه بقى على الحدود شريدا لاجئا . وإذا كانت هناك أقلية ضئيلة لم يسعفها الحظ بالقتل أو الفرار فإنها بقيت تحت النير اليهودى أسيرة مستذلة . . ولكن المسلم منهم سيظل متمسكا بدينه قويا بصبره حتى تلحقه عناية الله بالتحرير أو بالموت . .

أما نجاح الاسلام فقد كان شاملا ومثيرا معا . فالفتح الإسلامى لم يكن يعنى بامتلاك الأرض . . وإنما كان يهمه أن يكتسب الإنسان . وحتى فى هذا لم يكن يريده مرغما أو رقيقا مهدَّدا ، وإنما كان يريده عقلا مقتنعا ونفسا مؤمنه . وكان المسلمون الفاتحون يبقون أهل البلاد المفتوحة على ذمتهم وفى دينهم ، ولا يمنعون أحدا منهم من آداء شعائر دينه الذى كان عليه قبل الفتح . . بل يضمنون له الحرية الكاملة فى العقيدة والعبادة ، ولا يتعرضون لكنيسة أو بيعة .

لقد ظلت دائما عملية التبشير بالدين الاسلامى والدعوة له منذ بدأها النبى ﷺ تسير تحت شعار « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . . وتحت هذا الشعار أيضا اكتسب الاسلام فى فتوحاته الأرض والإنسان معا ، وسارت موجه الاكتساح الإسلامية بشكل متناسق . . تزيد من مساحة الأرض تحت السيادة الإسلامية ، وفى نفس الوقت وبنفس النسبة تزيد من عدد أعضاء المجتمع الاسلامى وتكسب للاسلام أنصارا جددا .

وفى كل ذلك لم يكن هذا النجاح قوميًّا ولا عنصريًّا وإنما كان نجاح الإسلام الخلَّاق المسئول . . فهؤلاء الذين فتحوا القدس والشام ووادى النيل وشمال أفريقيا وأسبانيا من ناحية ، وأرض الرافدين وأواسط آسيا وشطرا من الهند من ناحية أخرى لم يبرهنوا على أنهم محاربون شجعان أكفاء بقدر ما برهنوا على أنهم مؤمنون مخلصون لدين أصيل بنَّاء . . وبفضل هذا الدين أوجدوا للعالم حضارة جديدة وأسسوا مجتمعا جديدا قام على أساس من دين قويم جعل الحياة كلاً تتألف منه تلك الحضارة .. والمجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية لم ينبنيا على الجهود العربية وحدها – وربما كان ايمجهود العربى فى عملية البناء هذه ضئيلا لا يذكر– وإنما أسهمت فيها بالقسط الأوفر عناصر هلينية وعناصر من ثقافات الشرق الأدنى القديم الساميَّة وأخرى من ايران الساسانيَّة وأخرى من الهند ، وكذلك أسهمت فيه عناصر من مصر وبدو الصحراء الكبرى والبربر والأندلس . وقد صُهر كل ذلك فى بوتقة واحدة وخرج سبيكة إسلامية جديدة متميزة عن أصولها القديمة تميُّزا كليًّا ، وكان الإسلام هو الوقود الذى أتم هذه العملية كما كان الضمان الوحيد لصيانة هذا الشئ الجديد المدهش والمحافظة عليه . كما أعطى الشكل الإسلامى لكل ناحية من نواحى الحياة مهما كان الشئ الذى تنطوى عليه . وقد كان هذا الطابع الإسلامى هو الذى أعطى المجتمع الجديد صلابته وحيويته . . ويقول ولفريد كانتويل سميث (Wilfred Cantwell Smith)

فى الفصل الأول من كتابه « الاسلام فى التاريخ الحديث »

(Islam In Modern History)

« إن مركز هذه القوة الموحِّدة لم يكن الا الدستور الدينى الذى نظَّم ضمن تياره القوى المحكم كل شئ من شعائر الصلاة الى حقوق الملكية ، وأن ذلك الدستور قد منح التماسك والقوة للمجتمع الإسلامى وزوده أيضا بديناميكية التطور وقوة الاستمرار » .

والآن وإذا كنت قد آثرت فى البداية الاكتفاء بوقائع التاريخ لأثبت أن الإسلام قد حقق ضرورته ، فإن التجربة الإسلامية قد برهنت على أن هذا الدين لم يلبِّ الحاجة البشرية فحسب بل أنه فتح أمام الإنسان أيضا الآفاق التى لا حدود لها . . ورسم له الطريق واضحا لكى يستغل كل ما وهبه له الله من عقل وحواس وإمكانيات فى اقتحام هذه الآفاق . . والقرآن كثيرا ما يحث المسلمين لأن ينتفعوا بما أنعم الله به عليهم . وأباح لهم الطيبات ، وأمرهم بالسعى وعدم القعود ، ورسم خطط هذا السعى . . حركة دائمة الى الأمام . . تجدد نحو الرقى . . وتقدم فى تيار التطور . . فلا وقوف ولا انتكاس . . وهذا

المسلك السليم الذى وضَّحه القرآن لم يكن يعتبر أنَّ بذل الجهود فى سبيل التبشير بالدعوة الإسلامية ، واكتساب الأعضاء الجدد للمجتمع الاسلامى جهاد فى سبيل الله فحسب . . بل إنه ضاعف لذلك الثواب . . فالدين الإسلامى دين البشرية جمعاء ومجتمعه أتاح الانتماء اليه لكل إنسان . . ودعوته عملية ديناميكية دائمة الحركة ، من طبيعتها ألاَّ تتوقف فى أية ناحية ، بل تسير فى كل اتجاه حتى تغطِّى سطح الكرة الأرضية بمجتمع إسلامى بحت . . وهذه الغاية ليست بالبعيدة أو عسيرة التحقيق ، لو أن كل فرد أو جماعة من المسلمين تشبَّعوا بالمبادئ الإسلامية ، وعملوا بمقتضى تعاليم هذا الدين وبذلوا الجهود الكافية للدعوة له . . واستعدوا لهذه الدعوة ووفروا لنجاحها الإمكانيات . . وهكذا كان شأن المسلمين الأول . ولهذا انتشر الدين . . وبفضل هذه الجهود الأولى ارتفع المد الاسلامى وطفح الى الغاية التى كانت أقصى ما تستطيع أن تصل اليها تلك الدفعة الأولى . . وما أبعدها من غاية وأوسع به من مدى ! ! . . والنظرة المتفحصة تدرك ولا شك أن تلك الدفعة التوسعية فى تاريخ الإسلام لم تتعد مدة خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الخليفة الثانى ، أما عهد أبى بكر الصديق الخليفة الأول فلم تكن سوى فترة استكمال لمهمة النبى عليه الصلاة والسلام : إرساء لقواعد الدين وتثبيتها فى نفوس الأتباع الأول . . وتربيتهم على هذه القواعد الروحية الجديدة ، وجمع شملهم حولها ليتكون منهم – وهم العناصر الانفرادية المتنافرة – مجتمع إسلامى صغير واضح المعالم فى نظمه وصور تكوينه . . بحيث يكون هذا المجتمع الصغير نواة صالحة لمجتمع إسلامى أكبر وأوسع وأشمل .

وقد أبدى كثير من المؤرخين دهشتهم من أن سعة الأقطار التى بسط الإسلام عليها سيادته كانت أعظم وأكبر من القوة التى جندت للفتوح الاسلامية ولا تتناسب مع الأمد القصير الذى تم فيه النصر . . وقد حقَّ لهؤلاء المؤرخين أن يدهشوا ، فقد نظروا إلى المجاهدين المسلمين كجنود ، وكقوة حربية ، وفاتهم أن هؤلاء المجاهدين كانوا دعاة يدعون لدين الله ، ويسيرون على هدى من الله ، ويعملون وفق تعاليمه ويلتزمون مبادئه ويطبقونها . . وبذلك لم تكن القوة الحربية تمثل فى حقيقة الأمر إلا قدرا غير كبير من العوامل التى أسهمت فى نشر هذا الدين ووسعت أطرافه ، وكان أقوى هذه العوامل وأشدها تأثيرا وحسما هو الدين نفسه : فقد لبى حاجة الانسان الروحية والمادية ، ووازن بين نفسه وحسه ، ولاءم بين شخصه ومجتمعه ، وضمن له الأمن والكرامة ، والعدالة . . فلا فرق بين إنسان وإنسان ، ولا فضل لفرد على فرد . . . وبقدر محافظة الانسان على دينه وجهوده فى السعى فى أمور

دنياه تكون قيمته ومنزلته أمام الله والناس .

ومن أجل ما فى هذا الدين القويم من قوة فقد تمكن من أن لا يهدى فقط سكان المناطق المفتوحة بل إنه تمكن أيضا من أن يهدى الغزاة . . فى غضون خمسين عاما من بدء اجتياح المغول للرقعة الإسلامية وتدميرهم لكل تراث إسلامى تحول هؤلاء الغزاة من برابرة كفرة إلى مسلمين موحدين ، فتحضَّروا واضطلعوا هم أنفسهم بدور البطل فى القضية الإسلامية . . وكذلك بفضل ما لهذا الدين من قوة فإن هؤلاء الغزاة الكفرة قد تعهدوا - بعد أن هذبهم الاسلام - بعقيدة وقوة وألمعية أن يعملوا على تجديد حيوية هذا الدين الذى سبق لهم أن أسقطوه ، وأن يدفعوه ثانية الى الأمام .

والآن فلنختتم هذا العرض التاريخى الموجز الذى من خلاله أوضحنا كيف أن الإسلام وقد جاء لضرورة عالمية ملحة قد حقق هذه الضرورة . . فقد تكفل بهداية الانسانية جمعاء ، وأرضى ضمير الإنسان وروحه ، ولبى مطلبه فى العقيدة والإيمان ، ورسم الطريق لبناء مجتمع عالمى يقوم على أسس من العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية ، وعالج ما كانت قد تردت فيه الإنسانية قبله من أخطاء ، وقضى على ما كان يخالطها من شرور . . وليس من المهم الآن أن نوضح بالأدلة لم كان الإسلام كذلك ، أما الآن فيكفينا أن أوضحنا نجاح الإسلام فى مهمته عبر تجارب التاريخ . وقد رأينا كيف تغلبت العقيدة الإسلامية ، وكيف أن التعاليم والمبادئ الإسلامية مكنت المسلمين الأوائل - لأول مرة وبلا سابق تجربة - من أن ينجحوا فى تحمل عبء الحكم ومسئولياته ، كما أنهم نجحوا فى تحمل ما هو أكثر من ذلك الا وهو عبء الخلق الحضارى فى أوسع معنى ، ورأينا أيضا كيف اضطلعوا بهذه المسئولية فى تفوق وامتياز . . . وهذا يجعلنا نحن مسلمى العصر الحاضر نتطلع الى المستقبل بثقة واطمئنان . . فنحن على الأقل أكبر من أسلافنا قوة وأكثر عددا ، فإذا استكملنا ما تفوقوا علينا به وهو الاستمساك بالدين ، أمكننا أن نستأنف دورهم فى قيادة العالم وهدايته وتخليصه مما يرزح فيه الآن من شرور أخطاء الإنسان ومطامعه .

لقد رأينا أن الله علَّم البشر كيف يعيشون ، ورأينا أن الذين قبلوا تعاليم الله وراحوا يعيشون بموجبها تنعَّموا ببركات الله . . . وهؤلاء يجب علينا أن نترسم خطاهم وأن نواصل العمل فى توضيح كلمة الله التى نطق بها من خلال الاسلام . . تلك الكلمة التى تمسك بها اسلافنا فربحوا . . والنجاح الباهر الذى أصابه مسعاهم برهن على صحة القضية كلها . لقد أكد التاريخ صحة الإيمان .

زاهر عزب الزغبى

التكنولوجيا وسيلة إلى الإيمان

الدكتور حسن محمد الشرقاوى

ان النجاح الحقيقى للانسان فى هذه الحياة لايكمن فى حقيقة الأمر فى الحصول على أكبر لذة أومنفعة أومصلحة ذاتية[1] ، وتجنب أكبر ألم ممكن كما يتوهم كثير من المتفلسفين والمتبطلين وأنصاف المتعلمين .

إن هذا التصور القاصر للغاية من الحياة ، يجعل الإنسان فى كهولة مظلمة ، مريضا فى صراعات قاتلة ، خائفا من كل شىء ، شاكا فى كل شىء ، الأمر الذى ينتهى إلى فقدان اللذة المزعومة ، والمنفعة المطلوبة ، وبذلك لايحقق ما استهدفه من لذات ، ويرجع بخفى حنين ليحيا حياة اليأس والضياع والقنوط .

لقد قامت فلسفات عديدة ومازالت تقوم إلى الآن فى الشرق الغرب مذاهب ونظريات توظف رأسمالها فى الدفاع عن النزعات الالحادية والنعرات اللاأخلاقية بغرض الزج بالناس فى شراك المادية الظالمة وعبادة التماثيل الحسية الجامدة والسجود لتكنولوجيا باعتبارها المعبود الأوحد . .

ويندفع المستجيبون لهذه المزاعم إلى طريق مسدود بعد تخديرهم بأفيونها الفتاك واستحواذهم بأساليبها العارية وإثارتهم بنعرات الجنس المحمومة وإقامة قصور لهم من الوهم على أكوام الرمال . .

ويتجه إنسان هذا العصر المخمور حتى الثمالة إلى حتفه الأبدى دون أن يدرى ، وإذا ماأفاق برهة من سكره ، ووعى ماحوله ، سارعت الدعايات الكاذبة ووسائل الإعلام المغرضة فأطبقت كسكين الجزار على رقبته تمنعه من التعبير عن رأيه حتى يسلم لها القياد فى أمره مكرها لابطلا . .

أن كثيرا من تلك الفلسفات المعاصرة تقتل فى النفس الأمن والأمل وتذهب بالانسان إلى صحراء الضياع ليتناسى الهدف من خلقه ، ويتغافل عن خالقه ، ويترك هناك وحيدا فى

---

(١) لمزيد من الاطلاع فى هذا الموضوع يرجع إلى المذاهب التجريبية والعلمية والنفعية .

أرض قفراء ، لازرع فيها ولاماء ، ليبحث عن الكنز المفقود ، والحقيقة الكبرى التى ليس لها وجود .

ويمضى إنسان هذا القرن المسكين وقد أدمى شوك الصحراء القاحلة قدميه ، وملكه الجوع والعطش واعتصره الألم ، وفاض به الحنين ، ولامعين له ولارفيق فى هذه الرحلة القاسية فى عالم الدنيا الزائلة . .

لقد ظلم إنسان هذا القرن عندما فرض عليه أن يمسك بدمية يتلهى بها ، لاتأكل ولاتشرب ولاتضر ولاتنفع أسموها « التكنولوجيا » فصارت بعد أن سحب عقله ، وفقد السبيل إلى ربه محسوبته الوحيدة وأمله الباق ، وأغنيته المفضلة ، وإذا بالناس يجدون لذاتهم فى التضاحك والسخرية والاستهزاء بعضهم بالبعض ، وكأننا نعيش فى سيرك كبير لايعرف من منا الذى يضحك من الآخر . .

لقد تحول الانسان فى عصرنا هذا إلى قزم صغير وتابع حقير فى لعبة التكنولوجيا الحديثة ، فهى أبدا تبهره بجمالها ، وتثيره بفتنتها وتكشف له عن ساقيها ، فيذوب فى سلطانها ويتقوقع فى فلكها ، ورغم أنه الذى استجلبها فهى التى تسيّره ، وهو الذى صنعها ويصنعها بيده إلا أنها هى التى تقهره فيسجد لها عابدا ، يدفعها أمامه كأنها قبلته ويجرى خلفها كالطفل الساذج الذى لاحول له ولاقوة إلاالعبث واللعب واللهو ويظن أنه يحسن بذلك صنعا . .

ومازلنا إلى اليوم نتهم الجاهلين الأولين الذين عبدوا العجل والتماثيل بأنهم كانوا قوم بداوة وتخلف ، وما أدركنا إلى الآن أننا ننتكص مثلهم إلى هذه الردة ، ونمضى القهقرى فى جاهلية القرن العشرين ، ولكن بأسلوب جديد . .

إننا الآن وقد فتنّا بالحديث والمستحدث ، والجديد والمستجد ، نعبد طاغوت الهوى ، ونسجد لآلهة الشهوات ، ونركع مستعبدين لمثيرات الجنس ليحرك فينا غريزة الحيوان ويلهبنا بأسواط القلق ، والخوف والعذاب ، ونحن نحسب أن ذلك كله جنة الله فى أرضه وهى النار التى أعدت للكافرين . .

لقد ضاع كل شىء مع عبادة التكنولوجيا الحديثة فلامحبة ولاوئام ، ولاطاعة ولا إخلاص ، فالقوى يأكل الضعيف ، والكبير يسحل الصغير ، والكل لهى يتصارعون على أطباق الطعام الذى لايسمن ولايشفى من جوع . .

إننا ننسى أنها الدنيا ، تلك الرحلة القصيرة التى ماتلبث أن تنتهى وننسى أونتناسى أننا

سنلقى بعدها فى ساحات الموت ، وفى سراديب النسيان ، يغطينا الطين والحجارة وهناك حيث تنخر الديدان أجسادنا ، ويتسرب السوس إلى عظامنا ثم تتحلل أجسادنا ولايبقى شىء سوى رحمة الله وفضل الله .

ماذا تستطيع التكنولوجيا أن تفعل فى رحلة الموت ، تلك الدمية المسحورة ، أتبعث ذلك الجسد المتحلل فى الأرض الميتة حيا من جديد ؟ . . أتساعد صديقها الذى أفنى حياته فى حبها ؟ . . أتخلصه من هذه الهوة السحيقة التى تردى فيها ، أم تبحث عن صيد جديد ؟ . .

لقد أخلص إنسان القرن العشرين فى عبادة الآلة الجامدة الصماء ولم يؤمن بالإله الواحد . . وأطاع شيطانه فهوى على أم رأسه ذليلا متحسرا ، بعد أن فجع فيما ظن أنهم الأولياء والشفعاء ، وتقاذفته ريح عاتية ففقد كل شىء وكأنه لم يكن شيئا مذكورا . .

ربما يعلم بالأكذوبة التى يعايشها ، ولكن بعد فوات الأوان بعد أن يتردى فى الخسران والضياع ، وبعد أن يتأكد له أنه أمضى حياته لعباً وعبثاً ، ولم يتبع الحق الواجب الاتباع . .

ألا يجدر أن يتعظ الظالمون فلايتورطوا فيما وقع فيه السابقون ، اذ أن لحظة الموت آتية لاريب فيها ، وكلنا ذائق من كأسه ، فلماذا العناد ، ويوم الميعاد قريب ولماذا التغافل ولن يوقف قضاء الله علم ولاأسباب ولاظواهر ؟ . .

ألايجدر بنا أن نعقل الحقيقة الكبرى ، وأن نعرف أن الموت ليس ظنا ولاوهما وإنما هو عين اليقين ، وأننا مهما تهربنا منه فهو آت لاريب فيه . .

لماذا التسابق إذن من أجل شهوات فانية ، ولذات ضائعة ، وأمانى غرورة ؟ . .

لماذا لايكون تسابقنا من أجل مغفرة من الله ، وجهادنا فى سبيله من أجل أن نحظى ببعض من فيض رحمته ؟ . .

لماذا لايكون تنافسنا لننال فضل نعمته ، وسعينا من أجل تحقيق أمره وشريعته ؟

أيها الغافلون فى بحر الظلمات . . إن ساعة الموت لاتعادلها الدنيا ومافيها من زخارف ومتاع ربانى ، إنها تأتى بلامقدمات ولاترتيبات ، إنها أمر قاطع يقينى ، فلماذا لانعد له العدة ليفتح الله لنا أبواب منه ويغمرنا بوافر عطاياه ويكون الرسول ﷺ شفيعا لنا من العذاب المقيم . .

لقد طال العهد بالجاهلين ففسقوا من أمر ربهم ، وحسبوا أن الدنيا قد دانت لهم ، وأنهم بغرورهم قادرون عليها ، وأنهم يحسنون بذلك صنعا ، ولايدرون أنها القاضية وحقت

كلمة ربك عدلا وصدقا ، وأنهم ملاقونه عن قريب حيث لاينفع الإنسان مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم . .

لن ينفعهم مااستحدثوه من آلات ، وما استجلبوه من أدوات ، وماأقاموه من عمارات وبنايات ، وماصنعوه من عقول الكترونية جامدة وماركبوه من سفن الفضاء السابحة ، لن ينفعهم كل ذلك ماداموا فى شططهم يعمهون ، وفى غيهم يكابرون ، وفى ظلمهم يفاخرون ، وفى طلبهم اللذات والشهوات لايشبعون .

إن التقدم العلمى ، والرقى الحضارى ، واستكشاف غامض الطبيعة التى خلقها الله ، كان يجب أن يزيد المؤمن إيمانا ، إذ هى وسائل تبين للعالم فى وضوح حجج الله الدامغة وحكمته تعالى البالغة ، فكل مايتوصل اليه العلماء من أسرار خفية هى شهادة لله أنه خلق فأبدع ، وأنه أمر فعدل ، وأنه حكم فأوفى ، وأنه قدر فهدى . .

إن على العلماء أن يراجعوا أنفسهم ويشكروا الله على ماهداهم إليه وأن ينسبوا مايتوصلوا إليه من علم إلى فاطر السموات والأرض ومابينهما العليم الخبير ، الخالق على الحقيقة فلايغتروا بعقولهم ولايكابروا فيما يسره الله لهم من الأدوات والقدرة على الملاحظة والتجريب .

إذا أراد انسان القرن العشرين أن يهتدى إلى العلم الحق ، وينعم بالأمن والسكينة فليتوجه بكليته فى تواضع بلاريبة ولاتشكك إلى فاطر السموات والأرض ومابينهما ، ليأخذ بيده فى الحلكة الدامسة ، وأن يقيم وجهه للدين القّيم الذى شرعه الله للناس جميعا ، وجعله فطرتهم التى فطروا عليها ، عند ذلك سيعلم الصادقون أن طريق الله هو الأسلم والأغنى والأخلد ، وأن زخارف الدنيا دمى لاتشفى ولاتغنى من جوع . وأن الإيمان بيت الله الأقيم الذى إذا دخله الإنسان كان آمنا فلاخوف ولايأس ولاقنوط . .

وهو بذلك يكون قد حقق الرسالة التى من أجلها أوجده الله على الأرض ، وفى يوم اللقاء العظيم يعرف يقينا أن لاظل إلا ظله . .

فليكن الإنسان مايكون ، مهندسا أومفكرا أوفنانا أوماشاء الله أن يكون ، ولكن يجب أن يكون قلبه متوجها دوما إلى وجه الله الكريم حتى يمكن أن يحظى بالسعادة الكبرى واللذة التى تبقى ولاتفنى ويتحقق له ماوعده الله من جنات ونعيم . .

دكتور حسن محمد الشرقاوى

كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

مبادئ فى القيادة من هدى النبى

اللواء محمد جمال الدين محفوظ

القيادة ضرورة اجتماعية :

يقرر الرسول ﷺ أن القيادة ضرورة لصالح الجماعة ، فمع وجود عدد من الأفراد فى عمل مشترك تنشأ الحاجة إلى من ينظم العلاقات فيما بينهم ويوجه طاقاتهم نحو تحقيق الهدف المرجو من ذلك العمل ، وذلك هو دور القائد . قال عليه الصلاة والسلام : «إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمّروا أحدهم» وفى هذا توجيه إلى ضرورة وجود قائد للجماعة حتى ولو كانت صغيرة جداً .

الطاعة حق للقائد على مرؤوسيه :

وترتيباً على أن صالح الجماعة يقتضى وجود قائد لها ، فإنه لابد أن يطيع أفرادها أوامر قائدهم ، فذلك لصالح الجماعة أيضاً . ولقد كرم الإسلام القائد خير تكريم ووضعه فى أسمى منزلة وجعل حقه فى الطاعة ثابتاً مقرراً فى أكثر من آية فى القرآن الكريم :

- «يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» .
- «وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون» .
- «من يطع الرسول فقد أطاع الله» .
- «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» .
- «ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين» .

ويقول النبى ﷺ فى حق القائد فى الطاعة :

- «إسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبد حبشى» .
- «إنما الطاعة فى المعروف» .
- «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» .

– «من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى» .

الكفاءة والحب أهم معايير الاختيار :

قال عليه الصلاة والسلام : «أيُّما رجل استعمل رجلاً على عشرة أنفس ، علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل ، فقد غش الله وغش رسوله وغش جماعة المسلمين ، وأيُّما رجل أمَّ قوماً وهم له كارهون ، لم تجز صلاته أذنيه» (لم تجز أى لم تتعد) .

يضم هذا الحديث الشريف الشرطين الرئيسيين للقائد وهما الكفاءة والحب :

● الكفاءة ، فى القسم الأول من الحديث وهى أساس التفضيل عند الاختيار إلى درجة أن الانحراف عنها يعد غشا لله وللرسول ولجماعة المسلمين .

● الحب ، فى القسم الثانى من الحديث حيث تبلغ أهميته كشرط فى اختيار القائد إلى حد سقوط الصلاة عن الإمام الذى يكرهه الناس . كذلك قال عليه الصلاة والسلام : «خيار أئمتكم الذين تحبونهم ، وتصلُّون عليهم ويصلون عليكم (أى تدعون لهم ويدعون لكم) . وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم» .

الرجل المناسب فى المكان المناسب :

يقول عليه الصلاة والسلام : «كلٌّ ميَّسر لما خلق له» .

ويقول أيضاً : «إنى لأؤمِّر الرجل على القوم فيهم من هو خير منه ، لأنه أيقظ عيناً وأبصر بالحرب» .

وينطوى هذا المبدأ الذى يقرره الرسول على المعانى التالية :–

● ضرورة المواءمة بين قدرات الفرد واستعداداته ، وبين متطلبات العمل الذى سوف يسند إليه ، فإن قيام الفرد بالعمل الذى تناسبه استعداداته وقدراته ، يمكن من استغلال طاقاته أفضل استغلال مما يرفع من مستوى الآداء ومن مستوى الكفاية فى تحقيق الأهداف والنتائج المرجوة .

● ضمان «الصحة النفسية» للفرد الذى يوضع فى المكان المناسب لقدراته ، لأن التوافق بين الفرد والعمل ، يوفر للفرد المناخ والفرصة لتحقيق ذاته فى ميدان العمل ، ولتكيِّفه وتوافقه مع البيئة التى تحيط به ، ولسلوكه بالطريقة التى تتفق مع فكرته عن نفسه ،

وشعوره بالسعادة والرضا عن نفسه وعن عمله وعن الآخرين . وكلها أمور ينادى بها علماء النفس والصحة النفسية ويعدونها من أهم أسباب النجاح فى إنجاز الأعمال .

صور من هدى الرسول :

● ولقد طبق الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه مبدأ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب وكان حريصاً عليه ، فسجل عصر النبوة قدرته الفائقة ، وخبرته الواسعة ، وبصيرته النافذة فى معرفة النفوس والأخلاق والمواهب والقدرات ، ومعرفة ما يلائمها من المهام والأعمال وكذلك معرفة الوقت المناسب .

وقد عبَّر الأستاذ العقاد عن عبقرية النبى فى هذا المجال فقال[1] :

فمن علامات العظمة التى تحيى موات الأمم أن تختص بقدرتين لا تعهدان فى غيرها ، أولاهما أن تبتعث كوامن الحياة ودوافع العمل فى الأمة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها ، والأخرى أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس فتعرف بالبديهة الصائبة والوحى الصادق فيم تكون عظمة العظيم ، ولأى المواقف يصلح ، وبأى الأعمال يضطلع ، ومتى يحين أوان ندبته (أى دعوته للعمل) ومتى ينبغى التريث (الانتظار والتمهل) فى أمره إلى حين . .

وقال عن اختيار أبى بكر للخلافة : إن محمداً عليه السلام قد عرف من هم رجاله وما هو الموقف الذى هم مقبلون عليه بعد وفاته ، فعرف الموضع الذى يضع فيه كلا منهم ، والعمل الذى يتولاه خير ولاية فى ذلك الموضع . فلقد كان عليه السلام يعرف فى أبى بكر الرفق والدعة واللين ، ويعرف فى عمر الشدة والقوة والصرامة ، فاختيار أبى بكر للخلافة بعده ، كان وضعاً له فى المكان الذى يناسبه ، لأن الإسلام كان فى حاجة إلى الرفق والدعة والتآلف من أبى بكر ، كما كان فى حاجة إلى الشدة والصرامة والقوة من عمر ، وقد ضمن النبى كل ذلك باستخلاف أبى بكرٍ ، لأن شدة عمر ستكون مع أبى بكر معبأة حاضرة إذا احتاج إليها .

● وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ألا تستعملنى ؟ (أى تولينى عملاً عامًّا) قال فضرب بيده على منكبى ، ثم قال : يا أبا ذر ، إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذ بحقها ، وأدى الذى عليه فيها » .

(١) عبقرية عمر – عباس محمود العقاد .

● وفى مجال الحرب كان عليه السلام يعرف كيف يختار القائد المناسب لما يحتاج إليه الموقف الحربى ، فقد بعث عمرو بن العاص على سرِّية فيها أبو بكر وعمر ، فلما وصلوا إلى مكان الحرب نهاهم أن يوقدوا ناراً ، فغضب عمر فنهاه أبو بكر وأفهمه أن الرسول لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب فهدأ عنه ، واقتنع بوجهة نظره . وفى غزوة أحد أمسك الرسول بسيف وقال : «من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه رجال يريدون أخذ السيف ، لكن الرسول أمسكه عنهم حتى قام أبو دجانة فأعطاه له . ولقد أثبتت حوادث المعركة حسن اختيار الرسول القائد لأبى دجانة ، فقد سأل رسول الله قائلاً : وما حقه يا رسول الله ؟ ، قال الرسول : أن تضرب به العدو حتى ينحنى . ولقد قاتل أبو دجانة بهذا السيف قتالاً شديداً ، فلما دارت الدائرة على المسلمين قام بعمل يدل على الشجاعة والفدائية ، إذ حنى ظهره على الرسول وجعل من ظهره ترساً تحميه وكان النبل يقع فيه .

التجرد من الهوى عند الاختيار :

● عن يزيد بن سفيان قال : قال لى أبو بكر الصديق حين بعثنى إلى الشام : يا يزيد ، إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله ﷺ : «من ولى من أمر المسلمين شيئاً ، فأمَّر عليهم أحداً محاباة ، فعليه لعنة الله ، لا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم» (صرفاً ولا عدلاً : أى لا يقبل الله منه فرضاً ولا نفلاً) .

● ومن أروع صور التجرد عن الهوى وعدم المحاباة حرص النبى ﷺ أن يواجه آل بيته قبل غيرهم مكاره الحرب ، وأن يقاسموا المسلمين فى شدائدها ومصاعبها ، وبخاصة حين نادى المشركون : يا محمد أخرج لنا الأكفاء من قومنا ، فقال الرسول : «يا بنى هاشم قوموا قاتلوا بحقكم الذى بعث الله به نبيكم إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله» فقام حمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف .

● كذلك عين الرسول الكريم ﷺ بلالاً رضى الله عنه والياً على المدينة ، وفيها من فيها من الأنصار والمهاجرين ، وولَّى أسامة بن زيد — وهو أحد الموالى — قيادة جيش كان فيه أبو بكر وعمر وغيرهما من كبار الصحابة ، وبعث عبادة بن الصامت سفيراً للمسلمين إلى المقوقس ، وكان عبادة أسود اللون حتى طلب المقوقس إبعاده عنه ، إلا أن أعضاء وفد المسلمين قالوا له : إننا لا نستطيع ذلك لأنه رئيسنا وأفضلنا عقلاً ، وأسددنا رأياً ! !

● وهكذا يقرر الرسول ﷺ أن الاختيار أمانة ، والأمانة عصب الأمة فى جميع شئونها ، فالله تعالى يأمرنا فيقول : «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» وأمانة الاختيار تعنى استقامة الضمير ونقاء النفس وشجاعة الرأى وخلوص القلب من الجبن والرياء والنفاق على أساس من العلم والمعرفة ، وتعنى تنزُّه الإنسان عن اختيار غير الأكفاء لمنفعة أو لهوى . يقول الله تعالى :

– «يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى» .

– «وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا» .

وعن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : «أوصانى خليلى ﷺ بخصال من الخير : أوصانى ألا أخاف فى الله لومة لائم ، وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مُرًّا» .

● ثم إن شأن الذى لا يختار بأمانة ، وبهدف المصلحة العامة ، وشأن من يستشار ولا يقول رأيه بصدق وإخلاص واختار من لا يصلح ، شأن من يشهد شهادة الزور ، والشهادة الكاذبة من مظالم اللسان التى يضيع بها الحق ، وتختفى معالم العدل ، والله تعالى يحذر من قول الزور ويقرنه بعبادة الأوثان فيقول : «فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور» .

ويقول النبى ﷺ :

«من شهد على مسلم شهادة ليس لها بأهل ، فليتبوأ مقعده من النار» .

● وشأن من يتجنب إبداء الرأى فى اختيار الأصلح ، شأن من يكتم الشهادة ، والله تعالى يحذر من كتمان الشهادة فيقول : «ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه» .

من صفات الحاكم

لا يُقَوِّمُ أَمْرَ النَّاسِ إلاَّ حَصِيفَ العُقْدَةِ ، بَعِيدُ الْغِرَّةِ ، لاَ يَطَّلِعُ مِنْهُ النَّاسُ عَلَى عَوْرَةٍ ، وَلاَ يَحْنَق فى الحقِّ عَلَى جِرَّة ، وَلاَ تَأْخُذُهُ فى اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ . .

عمر بن الخطاب

وقفة على مشهد .... !

الأستاذ : السيد حسن قرون

لا أدعى أنى لا أعرفه ، ولا تربطنى به صلة ، أولا يمت إلىّ بسبب ، فأنا أعرفه حق المعرفة ، وكثيراً ما تراءى لى فى اليقظة أو المنام ، وإنى لأذكره فى كل مقام ذكر فيه الشهداء ، أو الذين قتلوا دون ذنب جنوه ، وحين أتلو من القرآن قصة ابنى آدم تطل على صورته ، ويحضرنى مصرعه حتى كأنه مات بالأمس أو صرع اليوم ، ورأيتنى بقصد أو دون قصد أتتبع ما كتب عنه قديماً أو حديثاً ، وما كتب عنه لا يشبع دارساً أو مؤرخاً أو قاصًّا ، ولكن الذين تعرضوا لتاريخنا الإسلامى يذكرونه كأنه علامة على الخطأ ، أو إشارة إلى الخطر ، أو دعوة إلى النظر والاعتبار ، إلى أن جاء العصر الحديث فقرأت للدكتور طه حسين أسطراً عنه فى كتابه «مرآة الإسلام» ، فدفعنى شعورى دفعاً إلى أن أكتب عنه علَّ الكتابة تخفف ما أشعر به نحوه من إشفاق ورثاء وبكاء ، أو تعيننى على التهوين من شناعة مصرعه ، أو التأسى بما أتى به الزمان بعده من مصارع قوم نُحبُّهم ونجلهم ونرجو لهم المغفرة والرضوان ، وإن كنت فى شك مما أقول فاقرأ معى تلك السطور التى سطرها محمد بن سعد فى طبقاته عنه : «قالوا : وأفرج الناس يوم الجمل عن ثلاثة عشر ألف قتيل ، فسار على من ليلته فى القتلى معه النيران فمر بمحمد بن طلحة بن عبيد الله قتيلاً ، فرد رأسه إلى الحسن بن على ، فقال : يا حسن ، السجَّاد ورب الكعبة قتيل كما ترى . ثم قال : أبوه صرعه هذا الصرع ، ولولا أبوه وبرُّه به ما خرج ذلك المخرج لورعه وفضله . فقال الحسن : ما كان أغناك عن هذا ! فقال على : يالى ولك يا حسن ، وقد كان قال له قبل ذلك : يا حسن ، ودَّ أبوك أنه قد كان مات قبل هذا بعشرين سنة» .

هذا الحوار القصير بين أمير المؤمنين على كرم الله وجهه وابنه الحسن يكشف لنا عن جلل المصيبة فى السجَّاد (محمد بن طلحة) وشدة وقعها على النفوس ؛ لأنه رجل زاهد فى الرئاسة والمال ، حبِّب إليه المسجد من صغره ، فنشأ نشأة دينية قويمة ، ثم تعرَّض لأمرٍ ما كان له أن يتعرض له لولا الحوادث العنيفة التى أخرجته من حياته بين القبر والمنبر من

مسجد رسول الله ﷺ إلى ميدان القتال بأرباض البصرة سنة ست وثلاثين من الهجرة .

كان أبوه (طلحة بن عبيد الله) من بنى تيم أسرة أبى بكر الصديق ، من العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض كما أخبرنا عمر بن الخطاب فى آخر عهده بالدنيا ، وكان طلحة من أثرياء الصحابة إن لم يكن أكثرهم مالاً ، ولكن محمداً ابنه عاف المال والجاه والرفاهية منذ عقل ، فشب على التقوى ، والعزوف عن زخارف الدنيا ، وتقشف وتبتل ، فكان المسجد دنياه وعزه وراحته ونعيمه ، ولا عجب فى ذلك فقد نشأ فى بيت أبوين مهاجرين أبليا فى الإسلام والدفاع عنه بلاء حسناً ، فأبوه لا ينكر أحد بذله فى غزوة أحد ، حتى قال الرسول الكريم عنه «أوجب طلحة» ، وأمه (حمنة بنت جحش) أخت زينب زوج رسول الله ، كانت تحت (مصعب بن عمير) رضى الله عنه فلما استشهد فى«أُحُد»تطلع إليها طلحة لمنزلتها الدينية وقرابتها من رسول الله فهى ابنة عمته (أميمة بنت عبد المطلب) فتزوجها ، ثم ولدت له محمداً هذا فخرجت به إلى رسول الله . فقالت له : سَمِّه يارسول الله ، فقال : اسمه محمد وكنيته أبو سليمان ، فكان من أبناء الصحابة الذين شرفوا برؤية رسول الله لهم حين مولدهم مثل الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وغيرهم ، فتفتحت عيونهم على دنيا جديدة تشرق بآيات الله وسنة رسوله ، وجهاد المؤمنين فى نشر الرسالة ، وبشائر النصر التى تجىء إلى المدينة من حين إلى حين فتملؤها بهجة وعزة وإيماناً . وكم استمع محمد من أبيه وأمه عن حياة الرسول وجهاده فى سبيل الله ، وموقفهما من الدعوة الإسلامية ، فكان ما يسمعه يزيده إيماناً وإقبالاً على حفظ القرآن الكريم وتلاوته ، والتأمل فى معانيه ، والامتثال لأوامره ونواهيه ، فيزداد عشقاً للمسجد والتهجد وإطالة السجود حتى دعى بالسجاد ، وهو لقب غلب عليه وعرف به ، وقد أراد عمر بن الخطاب تغيير كل من كان اسمه محمداً ؛ لأنه نظر[1] إلى ابن أخيه وكان اسمه محمداً ، ورجل يقول له فعل الله بك وفعل وجعل يسبه ، فقال عمر عند ذلك : يابن زيد ، ادن منى ، ألا أرى محمدا يُسبُّ بك ! ؟ والله لا تدعى محمداً مادمت حيا . فسماه عبد الرحمن ، ثم أرسل إلى بنى طلحة وهم يومئذ سبعة أكبرهم محمد ، فأراد أن يغير اسمه . فقال محمد بن طلحة : يا أمير المؤمنين ، أنشدك الله فوالله إن من سمانى محمدا لمحمد فقال عمر : قوموا فلا سبيل إلى من سماه محمد ﷺ . »

ومن تمام القول أن طلحة كان يسمى أبناءه بأسماء الأنبياء حتى قال الزبير العوام ، إن

(١) الطبقات = ترجمة محمد بن طلحة .

طلحة يسمى أبناءه بأسماء الأنبياء ولا نبى بعد محمد ، أما أنا فأسمى أبنائى بأسماء الشهداء لعلهم ينالون الشهادة . ولما توفيت أم المؤمنين زينب بنت جحش أمر عمر محمد بن طلحة أن ينزل فى قبر خالته فأدى ما أمر به .

وعاش السجَّاد – لسجوده وإخلاصه لعبادته – مرغوباً فيه محبوباً ، ومنظورا إليه مقدوراً من كل الناس حتى وقعت الفتنة وقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، فرأى أباه متجهاً شطر مكة ، فتبعه ، وهناك وجد أناساً كثيرين يتحدثون عن قتلة عثمان ، وإذا به يجد نفسه مع الجموع الثائرة السائرة نحو البصرة مع أم المؤمنين السيدة عائشة وأبيه طلحة والزبير ومروان بن الحكم ، وفى البصرة كانت المفاجأة هو فى جيش أم المؤمنين ، وجيش يعاديها هو جيش أمير المؤمنين ، وتتفاقم الأمور بين عينيه حتى فى أداء الصلاة فحين حضرت الصلاة اندفع طلحة والزبير كل منهما يريد أن يؤم المسلمين حتى كادت الصلاة تفوت ، ثم اصطلحا على أن يصلى عبد الله بن الزبير صلاة ، ومحمد بن طلحة صلاة ، فذهب ابن الزبير يتقدم فأخَّره محمد بن طلحة وذهب محمد ليتقدم فأخره عبد الله بن الزبير ، فاقترعا فقرعه محمد بن طلحة فصلى بالناس فقرأ : «سأل سائل بعذاب واقع» .

ثم تراءى الجمعان ، واقتتل الجيشان ، فلما تغلب جيش على ، وعقر الجمل ، وقتل كل من أخذ بخطامه تقدم محمد بن طلحة فأخذ بخطام الجمل وعائشة عليه فقال لها : ما ترين يا أُمَّه ؟ قالت : أرى أن تكون خير بنى آدم – تعنى أنه يكف عن القتال – فلم يزل كافًّا ، فأقبل عليه فارس ، فحمل عليه بالرمح . فقال له محمد : «أذكِّرك حَم» فلم ينفعه التذكير ، بل طعنه بالرمح فقتله وأنشد ،

وأشعث قَوَّامٍ بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
فتكت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللفم
يذكرنى (حاميم) والرمح شارع فهلا تلا حاميم قبل التقدم
على غير شىء غير أن ليس تابعاً عليًّا ، ومن لا يتبع الحق يندم

فالفارس القاتل مسلم يقتل مسلماً أشعث قواماً بآيات ربه ، لا يؤذى أحداً ، ولا يضمر كيداً لأحد ، قد كفَّ عن القتال ، واعتصم بالأخوة الإسلامية ، فذكَّره بالقرآن وبسوره ، ولكن ذلك الفارس الذى ضرِىَ بالدماء ، وصار وحشاً ضارياً همه فى القتل ، لا تعطِّفه أخوة ولا صلات روحية ، ولو ذكَّره بحاميم ،

ولم كل ذلك ؟ لأن السجَّاد ليس تابعاً لعلى ، ألا يتخذ الحوار بالرأى سبيلاً إلى تفهُّم

مقصده ، والتعرف على رأيه ؟ إنه يمسك بخطام جمل عليه أم المؤمنين ، وكان ينبغى أن يتذكر أنه يقاتل رجلاً لا يقاتل ، ويخاصم مسلماً غير مخاصم ، ويقينى أن تلك الأبيات تشف عن ندم صاحبها وإن بدا فى صورة المباهى المفتخر ، أو الذى أدى عملاً يشكر عليه . ثم صار السجاد مخاصماً له عند خالق السموات والأرض ، والجنة والنار ، وبيده الملك وهو على كل شىء قدير ، وسيكون له سلطان على قاتله ، وله الحجة البالغة عند التقاضى .

وقد وقفت طويلاً عند قوله « يذكرنى حاميم » ولم اختار محمد حاميم دون سور القرآن ؟ ونظرت فى كل سورة بدأت بكلمة (حمٓ) لعلى أهتدى إلى السر فى اختياره ، والقرآن الكريم فى كل سوره يدعو إلى العظة والعبرة والقدوة الحسنة ، ثم تبين لى أن (الحواميم) فيها كثير من الآيات التى تشير إلى المؤمنين وتوادهم وتراحمهم والنعيم المقيم الذى ينتظرهم . ففى سورة (غافر) تهديد فرعون بقتل موسى ومعاذ موسى بربه ، ثم موقف المؤمن . قال تعالى : « وقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله »

وفى سورة (فصلت) يقول تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم . ومن أحسن قولا ممّن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين . ولا تستوى الحسنة ولا السيئه ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

وفى سورة (الشورى) : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » وفى سورة (الزخرف) : الأخلاَّء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنو بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » .

وفى سورة (الدخان) : « إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين » وفى سورة (الجاثية) : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين » وفى سورة (الأحقاف) : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها

جزاء بما كانوا يعملون » ، فهل أراد (السجاد) بقوله لمقاتله أوقاتله «أذكرك حمۤ» كل هذه الآيات أو أراد سورة بعينها ؟ أرجح أنه قصد إليها جميعها ، فحم اسم يطلق على كل السور التى تجمعها هذا الجمع (حواميم) لأن فيها عطف المؤمن على المؤمنين ، وحديث الاستقامة والشورى والنعيم الذى يكمل بجلوسهم على الأرائك متقابلين جزاء بما كانوا يعملون . ولكن القلوب القاسية لا تلين ، والغاشية حين ترين على النفوس تحجب العقول عن الطريق المستقيم ، ويكفى لبيان جسامة المرأى أن الحسن يقول لأبيه . ومن أبوه ؟ إنه على بن أبى طالب : ما كان أغناك عن هذا ! ويقول الأب الكريم : ياحسن ود أبوك أنه قد كان مات قبل هذا بعشرين سنة . رحم الله محمد ابن طلحة فقد قتل وهو كاف عن القتال وسنه فى الثلاثين أو تزيد قليلاً .

السيد حسن قرون

إذا غابت الحكمة والتعقُّل . .
ساد الجهل واستشرت الفتنة

لاَ يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لاَسَراةَ[1] لَهُمْ
وَلاَ سَرَاةَ إذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا

تُهْدَى الأُمُورُ بأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلُحَتْ
فَإنْ تَوَلَّتْ فَبِالأَشْرَارِ تَنْقَادُ

إذَا تَوَلَّى سَرَاةُ النَّاسِ أَمْرَهُمُ
نَمَا - عَلَى ذَاكَ - أَمْرُ ٱلْقَوْمِ ، وازْدَادُوا

الأَفوهَ الأَوْدِىَ

(١) سراةُ كلِّ شَيْءٍ أعلاه .

إختلاف الرأى بين الشطط والاعتدال

دكتور محمد رجب البيومى
الأستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

تتقدم الإنسانية فى مدارج الرقى بتقدّم العصور، حيث كنا نرى فى تاريخ النقاش العلمى من ضروب التهجم والافتيات، ووسائل القدح والتنقّص، ما ينفر منه أكثر المتجادلين اليوم فى حلبات النقاش، إذ أن الإنصاف خلق حميد يجب أن يحرص عليه ذو العلم ممّن يتصدَّرون للمقارنات النظرية، كما أن محاولة التنقص والازدراء لمن يذهبون مذهباً مخالفاً لا تدل على سعة الأفق، وامتداد المحيط، بل تضائل كثيراً من مكانة ذويها، وإن كانوا أهل صواب فيما يقرّرون، لأن الصواب لا يكتمل على وجهه الصحيح دون رعاية للأدب فى الحديث.

وقد مضى وقت كان التعصب الفقهى فيه على أشده، بحيث لا يطيق نفر من المتشددّين أن يسلموا بوجهة نظرة سديدة فى مذهب مخالف، ولم يكن الخطب فى ذلك عاما شاملاً بل كان يخصّ جماعة متشددة، ضاقت بسعة الصدر وتحجَّرت فى زواياها الضيّقة، على حين وُجدت شخصياتٌ مستنيرة، ناقشت الرأى باعتدال واعترفت بالصواب لمن أتى به دون نظر إلى اتجاهه المذهبى، وهذا هو المظنون فى قوم يحملون راية العلم ويدعون إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادلون بالتى هى أحسن، وسنضرب المثل لكلا الفريقيْن، ليرى القارئ الكريم كيف يحتفظ التاريخ بالكلمة الأخيرة، فيقولها خالصة صادقة لترجح بالمعتدل وتشيل بالمتسّرع العجول.

كان الإمام الشافعى رحمه الله حجة فى علم العربية كما هو حجة فى التشريع، وقد رحل إلى البادية فشافه الأعراب، وجمع اللّغة، وروى أشعار الهذليين حتى رويت عنه، وعزيت إليه، وكان الأسلوب الفقهى فى كتابى الأم والرسالة روعة عاقلة رصينة، وأقول ذلك لأن بيانه الفقهى ذو تركيز دقيق، يعجب عشاق المعانى المحددّة، والأدلة السافرة والإمام شاعر أديب وكان فى قدرته أن يستفيض فى تأليفه الفقهى بما يمتع الوجدان، ولكنّه

علم أن لغة القانون غير لغة الأدب ، وأن النبوغ فى التأليف التشريعى يعتمد على المركز ، والحجة المحددة ، فجاء أسلوبه ذا روعة عاقلة رصينة ، إذ هى روعة عقل ، وليست روعة وجدان ، وطبيعى أن يجعل آيات القرآن حجته الأولى ، وأن يشرح ما يستشهد به من تلك الآيات ، وقد وُجد من ناقشه فى بعض ما اتجه إليه جانحاً إلى غير وجهته ، وذلك طبيعى غير مستغرب ، ولكن المستغرب حقاً أن يوجد من كبار العلماء من يحاول أن يترك القول إلى القائل ، وإذا جاز أن نرى ذلك لدى الأغرار من الناشئة فكيف نراه لدى أئمة أعلام ، وهم بلاشك يعرفون موهبة الإمام الفقهية ! وقد آن أن نستشهد بالمثال .

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة النساء (وإن خفتم ألاّ تقسطوا فى اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألاّ تعولوا) .

وقد ذهب غير الشافعى إلى أن معنى (ألا تعولوا) هو (ألا تجوروا) من قولهم عال الميزان عولاً إذا مال ، وعال القاضى فى حكمه إذا جار ، وقد روى أن أعرابياً حكم عليه قاض بما لا يحبّ ، فصاح فى وجهه : أتعول علىّ ! أى أتجور علىّ كأنه يستنكر حكمه ، ويرميه بالجور .

أمّا الشافعى فقد ذهب إلى أن معنى ألا تعولوا هو أى لا يكثر عيالكم لأن الزوجة الواحدة لا يكثر أولادها كثرة من يتزوج بثانية وثالثة ورابعة !

ولكلّ فقيه أن يأخذ بما يترجح لديه من التفسير ، فليس لأحد أن يلتزم بتفسير الشافعى إذا رجح لديه سواه ، ولكن الذى ليس له أن يتطاول على شخصه بما يجب أن يحترز عنه . وممن تطاولوا على الشافعى أبوبكر بن العربى ، والشريف الرضى ، وممّن وافقوه من غير رجال مذهبه الزمخشرى الحنفى ، والقرطبى المالكى ، وسنشير إلى نبذ من أقوالهم جميعاً ، ليرى الدارس كيف يضائل التهجم من شخص صاحبه ، وكيف يرتفع الإنصاف بذويه إلى أفق نبيل .

١ - أما أبوبكر العربى فقد قال فى تفسيره « بيان أحكام القرآن » المسألة العاشرة قوله تعالى (ذلك أدنى ألا تعولوا) اختلف الناس على ثلاثة أقوال فى تأويله ، الأول ، ألا يكثر عيالكم ، قاله الشافعى ، الثانى ، ألا تضلُّوا ، قاله مجاهد ، والثالث ، ألا تميلو ، قاله ابن عباس والناس .

ثم قال ابن العربى : أعجب أصحاب الشافعى بكلامه هذا ، قالوا : هو حجّة لمنزلته

فى اللّغة، وشهرته فى العربيّة، والاعتراف له بالفصاحة.. حتى لقد قال الجوينى هو أفصح من نطق بالضاد مع غوضه على المعانى ومعرفته بالأصول، واعتقدوا أن معنى الآية (فانكحوا واحدة إن خفتم أن تكثر عيالكم)

وتابَع يقول: (وكل ما قيل عن الشافعي أو وصف به فهو كله جزء من مالك، ونُغْبَة من بحره، ومالك أوعى سمعاً وأفصح لساناً، وأبرع بياناً، وأبدع وصفا، ويدل على ذلك مقابلة قول بقول، فى كل مسألة وفصل).

ثم قال (والفعل – عال، فى كثرة العيال – رباعى لا مدخل له فى الآية، فقد ذهبت الفصاحة، ولم تنفع الضاد، المنطوق بها على الاختصاص).

هذا ما قاله ابن العربى، وقد تعرّض إلى الموازنة بين إمامين عظيمين ليرفع أحدهما، ويخفض الآخر، وما كان له أن يتجه إلى ذلك فما منهما إلاّ له مقامه المعلوم، وقد اعترف مالك بذكاء الشافعى حين قرأ عليه الموطأ، كما قال الشافعى (إذا ذكر العلماء فمالك النجم) فما دخول ابن العربى بين التلميذ وأستاذه وقد أعجب مالك بتلميذه وتنبأ له بالإمامة، وحُسِبَ من حسناته، حتى إذا بلغ مرتبته دافع عن كثير من أحكامه، وإذا ذهبت الفصاحة من مثل الشافعى أفتبقى لابن العربىّ؟!

٢ – على أن أبا بكر لم يستقص ما قال اللغويون فى معنى كلمة (عال) وكان عليه كمفسّر يتعرض لتخطئة الأئمة الكبار أن يحرص على هذا الاستقصاء ليقف على أرض صلبة لا تهزها الزعازع، وقد جاء من بعده الفقيه المالكى (القرطبى) ليقوم بهذا الاستقصاء فى تفسيره الشهير، فيظهر تعجّل ابن العربى فيما أسرع به من تخطئة الشافعى.

قال القرطبى (وقد قال الشافعى (ألا تعولوا) ألا تكثر عيالكم، قال الثعلبى، وما قال هذا أحد غيره، وإنما يقال (أعال يُعيل) إذا كثر عياله.

يريد أنه من الفعل الرباعى لا الثلاثى، وزعم ابن العربى أنه على سبعة معان لا ثامن لها، يقال: عال بمعنى مال، وزاد، وجار، وافتقر وأثقل وقام بمؤونة العيال، وغلب، وأعال الرجل كثر عياله أما عَالَ كثر عياله فلا يصح.

ورد القرطبى على ذلك فقال: أما قول الثعلبى [عن الشافعى] ما قاله غيره، فقد أسنده الدارقطنى إلى زيد بن أسلم، وهو أيضاً قول جابر بن زيد، فهذان إمامان من علماء المسلمين وأئمتهم قد سبقا الشافعى إليه.

وأما ما ذكره ابن العربى من الحصر وعدم الصحة فلا يصح، فهناك عال الأمر: اشتد

وتفاقم ، حكاه الجوهرى وقال الهروى فى غريبه «وقال أبو بكر [يريد ابن دريد] يقال عال الرجل فى الأرض يعيل فيها إذا ضرب فيها ، وقال الأحمر : يقال عالنى الشىء يعيلنى إذا أعجز .

وأمّا عال بمعنى كثر عياله فقد ذكره الكسائى وأبوعمرو الدودى وابن الأعرابى . .»

ومعنى ذلك أن لكلمة عال معانى أخرى فوق ما حدده ابن العربى ، وأن من هذه المعانى ما قاله الشافعى وقد حكاه زيد بن أسلم وجابر بن زيد والكسائى وأبوعمرو وابن الأعرابى !

وهذا التصحيح من القرطبى يدل على إنصاف وأدب : أما الإنصاف فقد اتجه به إلى الشافعى ، وأما الأدب فقد التزم به مع ابن العربى إذ اكتفى بتصويب خطئه دون جموح ، وهذا ديدن الأصلاء من الباحثين .

٣ – فإذا تركنا ابن العربى إلى الشريف الرضى فى كتابه (التأويل فى متشابه التنزيل) فإنا نجده يترك للسانه المجال ليتسع فى انتقاص الشافعى ، وقد تجرأ فقال عن الإمام رضى الله عنه (وكفى بأقواله بُعداً عن علم اللّغة وغربة عن وطن العربية) وهى جملة خاطئة مخطئة ، لأن الشريف الرضى إذا كان يفخر بعربيته لأنه هاشمى ، فالشافعى أعرق منه فى الهاشمية . فهو من بنى المطلب بن هاشم بن عبدمناف ، فكيف يكون بعيداً عن وطن العربيّة ؟ ! ! ثم إن الشريف من رجال القرن الرابع الهجرى ، والشافعى من رجال القرن الثانى فأيهما أقرب إلى التماس الفصحى من أعراب البادية قبل أن تختلط الألسنة ؟ ! ! وإذا كان المؤرخون قد سجلوا للشافعى إلمامه بلغة الأعراب وانتجاعه إياهم حتى روى الأصمعى وأمثاله عنه ، فهل قرأ الشريف من علم اللغة إلاّ ما حصّله الشافعى مشافهة ، ويسّره لحاضرٍ لم يَبْدُ لتقييد العلم؟ ! !وإذا خالفه فى معنى(ذلك أدنى ألا تعولوا) وفرضنا– من باب التسليم الجدلى فقط – صحة ما ذهب إليه الشريف ، أفيكون تفسيره للآية على غير مابرام كافياً لبسط القلم بعبارات تؤذى الناقد ولا تصيب المنقود .

٤ – لقد كان الإمام الزمخشرى أهدى بصيرة ، وأقوم سبيلاً من الشريف وأمثاله حين قال فى تفسير الآية الكريمة (ذلك أدنى ألا تعولوا من قولهم عال الميزان عولاً إذا مال ، وعال الحاكم فى حكمه إذا جار ، والذى يحكى عن الشافعى رحمه الله ، أنه فسّر ألا تعولوا أى لا يكثر عيالكم ، وكلام مثله من أعلام العِلم ، وأئمة الشرع ، ورءوس المجتهدين ، حقيق بالحمل على الصحة والسداد ، وألا يُظَنَّ به تحريف تُعيلوا إلى تعولوا . وكفى بكتابنا

المترجم بـ (شافى العى من كلام الشافعى) كافياً بأنه كان أعلى كعباً ، وأطول باعاً فى كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا ، ولكن للعلماء طرقاً وأساليب ، فسلك فى تفسير هذه الكلمة طريق الكنايات ، وقرأ طاووس : ألاّ تُعيلوا ، من أعال الرجل إذا كثر عياله ، (وهذه القراءة تعضد قول الشافعى) .

أرأيت إلى أدب الزمخشرى وإنصافه ، لقد بدأ بذكر المعنى الذى يرتضيه ، ثم ثنّى بما ذكره الشافعىّ منوّها بمكانته ومستبعدا أكبر الاستبعاد أن يخطئ مثله الفرق بين الفعل الرباعى والفعل الثلاثى ، وملتمساً له التأييد فى قراءة قرأ بها طاووس ! أليس هذا سبيل المنصفين الأثبات ! والزمخشرى حنفى المذهب ، ولكنّ العلم رحم موصولة بين العلماء !

إنّ مما دفع إلى التهجم المذهبى لدى السابقين هو ما اشتهر من المناظرات الفقهية العلنية فى الأماكن العامة بعد انتشار المدارس النظامية فى القرنين الخامس والسادس الهجريين ، فقد كان لكل مذهب رأسه الكبير الذى يؤلف فى فقهه ، ويدرّس لتلاميذه ، ويقوم بالمناظرة عند الاختلاف ، وفى معمعان الجدل العلنى يتولّد التعصب وينتقل إلى الكتب ، وكان على الغلاة من المتناظرين أن يعرفوا أنهم طلاّب حق وأنهم ورثة السابقين من أمثال مالك والشافعى وأبى حنيفة وابن حنبل رضى الله عنهم ، فقد كانوا جميعاً يختلفون مع نظرائهم فى الفتوى دون لجاج ، وقد حفظ لنا التاريخ مناظرة فقهية هامة بين الليث بن سعد ، ومالك بن أنس دارت على بعض المسائل ذات الاختلاف ، وقد أوضح كلّ من المتناظرين رأيه فى حيدة وإخلاص ، ولئن جاز الشغب العلمى - على أنه لا يجوز - فى قضايا الفلسفة وما يمت إليها من فروع فلن يجوز فى علوم دينية ترجع أصولها إلى كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله الكريم ، وإجماع الصفوة من المجتهدين .

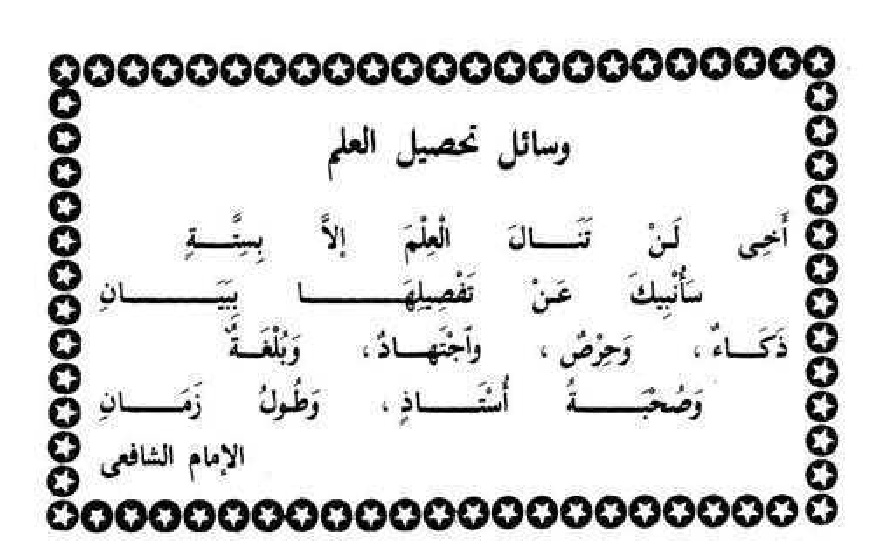
ولابد أن يحدُث الاختلاف بين العلماء فى تطبيق القواعد . وفهم النصوص ، حتى ليفتى الفقيه بالحِلّ فى مسألة مّا ، ويفتى زميله بالحرمة فيها ، وعلى العلماء أن يتداولوا الأدلة المتعارضة فى هدوء عاقل ، وأن يبتعدوا بمواطن الخلاف عن صحافة العامة ، إذ ليس كلّ قارئ بقادر على أن يَتتبّع وجهات النظر ، ولكنه ينظر فيجد اختلافاً يتركه فى مكان الحيرة والقلق ، وها نحن اليوم نرى لغطاً متعارضاً حول مسائل التأمين والاستثمار ، ونرى الصحافة تفسح مجال النشر لكل كاتب فتتعدّد الآراء عن خطأ لا صواب ، ولبعض الأدعياء غرور يظنّون به أنهم على شىء ، ومتى نشرت لهم الصحف غير المتخصصة رأياً مبتسراً ظنّوا أن النشر دليل الصحّة ، وتابعوا الفتوى دون أصالة ، وللفتوى الصحيحة رجالها المتخصصون

فى مجمع البحوث ، وفى لجنة الفتوى وفى كليات الشريعة ، وفى دار الإفتاء . فيالله كيف لا نأتى الشئ من بابه فَنُصيخ إلى كلّ داع دون اعتبار .

وإذا كان اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية ، فكيف يجرؤ بعض خطباء المنابر على الصراخ المزعج ، والعداء الأهوج ، إذا قرأ حكماً لا يرتضيه ، فيدفع بالعامة إلى بلية لا يطيقونها ، ولماذا لا يكتب إلى ذوى الاختصاص أو يرسل إلى الجريدة التى نشرت الرأى مخالِفاً فى أدب وموضوعية ، وسيتكلم المتخصصون لا محالة ، فتنجلى الرغوة عن الصريح ، ويذهب الزبد جفاء ، ويبقى فى الأرض ما ينفع الناس .

هذا بعض ما نرجوه فى هذا المجال ، وليس بالعسير بعد على من يستمعون القول فيتبعون أحسنه ،

د . محمد رجب البيومى



(١) البلغة : ما يتبلغ به من العيش .

قضايا لغوية

نظرات حول الترادف اللغوى

دكتور توفيق محمد شاهين

• اللغة مقوِّم رئيسى من مقومات وجود الأمة واستمرارها ، وأى خطر يهددها هو خطر يتهدد شخصية الأمة فى وجودها واستمرارها ، وفى توجيه اختياراتها ومسارها فى شتى المجالات الحياتية .

ومن ثم فلابد من دراسات عميقة وجادة فى حياة اللغة وكينونتها ، والدفاع عنها ، لحماية الذات الفكرية للشعوب ، وانطلاقاً من هذا الجانب ، لأن اللغة موجهة فكر ، وأداة حضارة ، وصانعة بلاغ .

• ولهذا فاللغة ، هدف للاستعمار الثقافى ، وأساسه الغزو اللغوى ، وينفذ من مسارب منها :

(ا) إهمال الأبناء للغتهم : لجهلهم ، أو لأنهم تربوا فى حجر المستعمر فكانوا فى عونه ، وهم نوابه وأدواته ، حين يغيب شخصه ، وبخاصة بعد أن يتصدروا التوجيه فى بلادهم ، بعد نيلهم درجاته العلمية بتوجيه معين يريده ، فيحطوا من شأن لغتهم ، ويقللوا من قيمتها ويوهنوا من عراها فتنقض واحدة بعد الأخرى ، حتى تتلاشى أو تكاد . .

(ب) وبالسعى الدائب والدفع القوى من الغاصب ، لنشر لغته ، والتمكين لها وغرسها وتثبيتها وتعهدها .

(جـ) أو لأن اللغة لا تحمل فى طياتها وكوامنها عوامل النمو والحركيَّة ، والنزوع نحو الحياة والبقاء العزيز . .

وحمى الله العربية من (جـ) ولكن اعتراها ما ذكر فى (ا ، ب) وتحيفتها لذلك الحتوف والنوب السود ، ردحاً من الزمن . . ولولا كفالة من القادر بحفظ كتابه العزيز ولغته ، ولولا يقظة الأزهر من قديم لكان الحال والمآل غير الحال والمآل للغة العربية حين غفا أهلها زمناً . .

* * *

– وحين جاء القرآن الكريم بلسان عربى مبين . . خلدت العربية وتحدَّت فغلبت فى كل ألوان الصراعات التى شنت عليها ، لأنها تحمل فى طياتها عوامل نصرها ، وأسباب قوتها ونموها .

يقول «رينان» فى كتابه : (تاريخ اللغات السامية) : –

«من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر ، وصعب حل سر انتشاره : . . (اللغة العربية) : فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادئ ذى بدء . ثم ظهرت فجأة لغة كاملة سلسة كل السلاسة ، غنية إلى أبعد حد ، ليست لها طفولة ولا شيخوخة . . ظهرت لأول أمرها مستحكمة . . . » بل كادت أن تصبح لغة دولية ، كما ذكر العلامة ، محمد كرد على ، فى كتابه : (الإسلام والحضارة العربية) . وسحر رنينها الأسبان فاعتنقوها ، وتناولوها شعراً ونثراً تناول النابغين من أهلها وأبناء جلدتها الأصلاء .

ورحم الله شاعر النيل حيث يقول : –

وسعْت كتاب الله لفظاً وغاية   وما ضقت عن آى به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة   وتنسيق آيـات لمخترعـات

ه وقضايانا اللغوية – فى العربية – مازال الغموض يكتنف الكثير منها ، والصعوبات التى تواجه الباحث لاتزال بعض منافذها منغلقة ، وعسيرة المعالجة والكشف . . وذلك يدعو الحانق والحاقد والجاهل والمتحامل إلى تجسيم الشائعات ورمى لغتنا بما هى منه براء ، تنفيساً عن حنق قاتل ، وحقدكامن ، وجهل متبع ، وتحامل معيب .

وحتى نسدى جميلاً للغتنا – وهى صاحبة الجميل – التى هى جوهر أصالتنا . . وحتى لا يفقد شبابنا الطامح إيمانه بلغته . . لابد أن تهفوا الهمم إلى أبحاث عميقة للعناية بها ، وشموع تنير وإضافات جليلة بناءة ، يتضح بها وجه الحق ، وتنكشف الطريق ، ويرد الكيد ، ويظهر الجمال والجلال والكمال .

* * *

وقد اضطربت آراء علمائنا اللغويين قديماً وحديثاً فى شأن قضية «الترادف اللغوى» ، أو المشترك المعنوى فى العربية ، واتسع مسار الخلف بينهم ين مثبت وناف ومتردد .

ولذا بات حسم الخلاف واجباً فى قضية طال أمدها ، صيانة للغة ، ورأفة بأجيال حاضرة وآتية .

ه فإذا كان «الترادف» من عوامل نمو العربية وحركيتها . . فبأى قياس نفحصه ؟ وما

موقف علم اللغة الحديث منه :

أيبارك « اختصاصية » الكلمة ، أم يقر لها « اشتراكيتها » فى معنى بعينه مع تعدد اللفظ ؟ وهل يستطيع المحافظة على جوهر اللغة وسمة البلاغة ؟ والمحافظة على التوازن بين جسد اللغة الممثل فى « لفظها » وبين (روحها) الممثل فى معناها ؟ وهل الترادف خاص بلغتنا ؟ أم هو قدر مشترك بين لغات عديدة ؟

أسئلة كثيرة ، وخواطر شتى ، تدور بالأذهان ، وتلوح فى أفق الباحث تتحدى وتستحث ، وتتطلب إجابات شافية ، وحبذا لوكانت وافية . .

* * *

ونحب أن نذكر بادئ ذى بدء :

أن العرب تتصرف فى لغتها ، ولا تعرف لها قيوداً اصطلاحية ، وما من عربى إلا وهو فى حكم العرب كلهم ، باعتبار الفطرة اللغوية التى يرجع إليها أصل الوضع . فهى مفردات وضعها أفراد ، وقد يرى كل واحد منهم أشياء ويصفها على نحو ما يجد فى نفسه من أثرها وصفاتها المختلفة ، فلا جرم أن تختلف الألفاظ الموضوعة لها بحسب ذلك .

كما أن الكلمة الواحدة فى لغتنا تعطى من المعانى والدلالات بقدر ما يتاح لها من الاستعمالات ، لأن كثرة الاستعمالات لابد أن تخلق كلمات جديدة تلبى بها مطالب الحياة والأحياء .

وإن علماء اللغة « لم يدوِّنوا منها إلا كفاية الحاجة القليلة ، أو المتناظرين . . أما تدوينها على أنها أصل من أصول الدلالة التاريخية فى اللغة ، فلم يتنبه له أحد إلا القليل النادر . والسبب أن تدوينها كان لخدمة القرآن والسنة ولغتهما قرشية حضرية مهذبة ، وذلك يقلل الاختلاف ، لأن الحضرية ثابتة فكأنها فى حكم المروية »(١)

ومن ثم فقد أصبحنا بحاجة ملحة إلى معجم لغوى تاريخى ، على نحو ما نادى به الأستاذ يحيى حق ، من أننا « فى أشد الحاجة إلى المعجم اللغوى التاريخى حتى يتتبع منشأ الكلمة وتطورها واستعمالاتها المجازية على مر العصور ، ويساعدنا – اليوم – على استحداث المجازات الجديدة ، داخل نطاق اللغة الصحيحة » (٢) . ولأنه لإثبات أن فى لغتنا ترادفاً ، فلابد من استقراء تاريخ اللغة (٣) وبذا يسهل حل مشكل الترادف ، ويبين وجه الحق فيه .

* * *

و « الترادف » : هو توالى الألفاظ المفردة الدالة على معنى واحد ، باعتبار واحد ،

كالإنسان والبشر [٤].

أو الألفاظ التى اختلفت صيغها وتواردت على معنى واحد ، كالقمح والبر والحنطة ، وفى والباء [٥].

ويراه الجرجانى بمعنى « التقابل فى كل الخصائص » [٦] والتوحيدى يشير « بالنظائر » إلى المترادفات .

ويعد المبرد من كلام العرب : « .. اختلاف اللفظين والمعنى واحد » مثل : ظننت وحسبت ، وذراع وساعد . وأنف ومرسن »[٧]

ويقول الإمام الشافعى : « وتسمى - العرب - الشيء الواحد بالأسماء الكثيرة ، وتسمى بالاسم الواحد المعانى الكثيرة » وإن ذلك من سنن العرب . [٨]

وعد بعض المتأخرين أسماء الله تعالى من أقسام الترادف وسماه « المتكافئة » وكذا أسماء النبى ﷺ .

ويقول الشيخ عز الدين : إن من جعلها مترادفة نظر إلى اتحاد دلالتها على الذات ، ومن منع نظر إلى اختصاص بعضها بمزيد معنى ، فهى تشبه المترادفة فى الذات ، والمتباينة فى الصفات . [٩]

فالترادف دلالة عدة ألفاظ على معنى واحد ، كالبُر ، والقمح ، والحنطة . فالبر يستعمله أهل العراق ، وعند أهل مصر يطلقون عليه القمح ، وعند أهل مكة : الحنطة .

° ° °

وشرط علماء اللغة فى الترادف : أن يكون من لغة واحدة ، لا لغات متعددة ، كما قرر الأصفهانى [١٠] ، وإن يتفق اللفظان تماماً فى المعنى على الأقل فى ذهن الكثرة ، مع اتحاد العصر [١١] .

فلا ترادف بين الشيء وصفته ، ولا بين الحقيقة والمجاز ، ولا بين الألفاظ المتباينة بالتفاضل أو التواصل ، كالسواد والبياض ، والسيف والصارم[١٢] ولا بين الحد والمحدود ، لأن الأول يفيد الفصل ، والثانى يفيد الماهية إجمالاً . ولا بين الحد والرسم ؟ لدلالة الأول على الذاتيات والثانى على العرضيات .

يقول د . أنيس : إذا دلت نصوص اللغة على أن تلك الفروق طفيفة لا يصح أن تعد من المترادفات ، لأن شرط الترادف الحقيقى : هو الاتحاد التام فى المعنى[١٣] ، كما شرط غيره من

المحدثين ضرورة الاتحاد فى البيئة اللغوية ، والانتساب للهجات بينها ترابط قوى– ومع الاتحاد فى العصر (١٤) ولكننا نثير هنا سؤالا :

إن اللفظ كثيراً ما يستعمل فى غير ما وضع له ، لحال شبيهة بحال وضعه ومعناه ، وقد لا يلمح بسهولة أصل اللفظ المنقول فيما نقل إليه لكثرة استعماله فيه ، وقد ينسى الوضع الأصلى ، حتى اختلف فيه العلماء حينئذ : هل هو وضع ثان ؟ أم هو باق على إعجاز ؟ ولذا أثر عن بعضهم : «النقل فى اللغة كالنسخ فى الشريعة» .

أفلا يجدر بعلماء اللغة قديماً وحديثاً– والحالة هذه– أن يخففوا من صرامة الشروط ، وتراكم وتصلب التحرزات والقيود ؟ ؟

لن نتناسى الفروق ، ولن نهمل الوضع ، ولكن لا نبالغ فى القيود ، وفيها مغمز ، ومنها مخرج .

* * *

وقد يؤنس المقام أن نعرض نماذج للترادف وللنموذج وزنه فى الاستشهاد والدليل . مع ملاحظة أن «الأقدمين عدوا الجزيرة العربية وحدة لغوية واحدة . وحسناً فعلوا ، للحركة الدائبة والهجرة الدائمة ، والاجتماعات المتكررة» . (١٥)

وحين نشط علماء اللغة لجمعها خوف الضياع والاختلاط ، وفدت أم الهيثم إلى العراق– وكانت أعرابية فصيحة ، تؤخذ عنها اللغة– فالتفوا حولها ، وسألها أبو عبيدة ليؤنسها : مم كانت علتك ؟ فقالت : كنت وحمى للدكة ، فشهدت مأدبة ، فأكلت جبجبة من صفيف هلعه : فاعترتنى زلخة» . فقيل لها : يا أم الهيثم ، أى شئ تقولين؟ فقالت : أو للناس كلامان ؟ والله ما كلمتكم إلا العربى الفصيح . فاستفهم حتى اللغويون عن ألفاظها الغريبة عن أذهانهم . ومعنى . وحمى : متوحمة . والدكة : الدسم . والجبجة أو الجبجبة : المصران . والهلعة : العنز (١٦).

والمستعرض للقرآن الكريم ، والأدب الجاهلى – يجد المترادف مبثوثاً فيهما بكثرة ، يقول تعالى :

«تالله لقد آثرك الله علينا» ، «وأنى فضلتكم على العلمين» «وأقسموا بالله» ، «يحلفون بالله» ، «أشكو بثى وحزنى إلى الله» .

ومسائل ابن الأزرق ، وإجابات ابن العباس عليها مشهورة ، ذكرها ابن الأنبارى فى كتابه : «المواقف» ، والطبرانى فى «معجمه الكبير» ، وفيها تفسير هذاه المواد : الوسيلة ،

والشرعة ، والمنهج ، ويباس ، والفوم ، ومراغماً . على الترتيب : الحاجة ، والدين ، والطريقة ، ويعلم (فى لغة بنى مالك) ، والحنطة ، ومنفسحاً (بلغة هذيل) . واستشهد على أن الحوب هو الإثم فى لغة الحبشة ، بقول الشاعر :

فانى وما كلفتمونى من امركم ليعلم من أمسى أعق وأحوبا

– ويروى المطرز الزاهد ، عن ثعلب عن ابن الأعرابى ؛ أنه سأل أعرابياً فصيحاً – ما رأى أفصح منه منذ ثلاثين سنة – عن «الخجال» بمعنى «السم» فقال : القشب ، قلت : فما القشب؟ قال : الزعاف . قلت : وما الزعاف ؟ قال : الزئفان . قلت : فما الزئفان؟ قال : الزيفان . قلت : فما الزيفان؟ قال : الديفان . قلت : فما الديفان ؟ قال : الأرون . قلت : فما الأرون؟ قال : الجوزل . قلت فما الجوزل ؟ قال : الحرسم . قلت : فما الحرسم ؟ قال : السم . قلت : فما السم ؟ قال : السم»(١٧)

وقد كان ابن الأعرابى مهذباً ، وصبوراً . وليس كأعرابى أبى زيد ، والذى حدث عنه ابن دريد فى «الجمهرة» أن أبا زيد ، قال : قلت لأعرابى : ما المحبنطئ ؟ قال المتكأكئ : قلت : فما المتكأكىء ؟ قال : المتآزف . قلت فما المتآزف ؟ قال : أنت أحمق»(١٨) .

ويقول النبى – ﷺ – لأبى هريرة : ناولنى السكين ، حين وقعت منه ، فتلفت أبو هريرة يمنة ويسرة ، وقال : آلمدية تريد يارسول الله ؟ أو تسمى سكيناً عندكم ؟» وإن كان بعضهم يرد القصة ، لأن أبا هريرة لم يسلم إلا فى السنة الثامنة الهجرية(١٩) .

وقال ابن جنى بالسَّند : إن ابن الأعرابى أنشد للمرقش الأكبر :

وموضع زبن لا أريد مبيته . .

فقال له شيخ من أصحابه : أنشدتنا ، وموضع ضيق : فقال : سبحان الله : تصحبنا منذ كذا وكذا ، ولا تعلم أن الزبن والضيق واحد . وقد قال الله تعالى : «قل : ادعو الله أو ادعو الرحمن ، أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى» .

. . . ويقول ابن جنى : «إذا جاز أن يكون فى أصول هذه اللغة المقررة على اختلاف اللفظين والمعنى واحد ، كان جميع ما نحن فيه جائزاً سائغاً ، ومأنوساً به متقبلاً» (٢٠)

كما ذكر ابن جنى – أيضاً – : إن من الحرفين ما يستعمل أحدهما مكان الآخر ،

كقوله تعالى : « الرفث إلى نسائكم » ، بمعنى بنسائكم ، أو مع . لكن الرفث هنا بمعنى الإفضاء فصح استعمال إلى . . ويعلق بقوله : (وفيه أيضاً موضع يشهد على من أنكر أن يكون فى اللغة لفظان بمعنى واحد ، حتى تكلَّف لذلك أن يوجد فرقاً بين قعد وجلس ، وبين ذراع وساعد) . . . فابن جنى يؤكد وجود المترادف ما وجد سبيلاً إلى ذلك .

ويؤكد أيضاً بقول رؤبة بن العجاج : (بال بأسماء البلى) . . فجعل للبلى – وهو معنى واحد – أسماء.[٢١] والعرب تكرر إذا اختلف اللفظان كنأى وبعد ، وأقوى وأقفر[٢٢] .

وقال الضبى : المجد : الأصل . وقال يعقوب : المحتد ، والمحفد ، والنحت ، والإرث . . . كل ذلك بمعنى الأصل »[٢٣] .

وذكر قرطب أن « الجونة » من أسماء الشمس ، واستشهد بقول الخطيم الضبابى ، كما قال ابن برى – أو قول الأجلخ بن قاسط الضبابى ، كما فى الصغانى – يصف حماراً وحشياً :

يبادر الآثار أن تؤوبا وحاجب الجونة أن تغيبا

قال : ومن أسماء (الشمس) : ذكاء ، واستشهد بقول ثعلبة بن صعير المازنى يصف ظليماً ونعامة :

فتذاكرا ثقلاً رثيداً بعدما ألقت ذكاء يمينها فى كافر[٢٤]

وقال عدى بن زيد :

وقددت الأديم لراهشيه وألفى قولها كذباً وميناً[٢٥]

وقال الحطيئة :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد

والكذب هو المين ، والنأى هو البعد ، فقد نسقه عليه لما خالف لفظه »[٢٦]

وقد ولع المتأخرون بالمترادف ، كما شغل المتقدمين ، فجاء فى تذكرة الحفاظ :

(كالحسن) والجمال قل : نضارة وسامـــة وضَّاءة ونضره
صباحـة ملاحـة رشاقة ورونق وزهرة وزينـــه
(كالأصل) والعنصر قل جرثومة والنحر والضئضئْ والأرومه
ومحتـــد ونبعـــة ومنبت عرق نجا مغرس أبوه[٢٧]

هذا غيض من فيض، لأمثلة حفلت بها أمهات الكتب الأدبية واللغوية، من الترادف اللغوى. ولاشك فى أن المتأمل لها يأنس بوجوده فى لغتنا العربية، وهى ليست فى ذلك بدعاً بين اللغات التى تحوى ترادفات، على نحو ما ذكر الواعون من الدارسين.. والحديث موصول.

د. توفيق شاهين

المراجع

١ - تاريخ آداب العرب للرافعى ١٢٤/١.

٢ - مجلة المجلة ع ١٣٨ مايو سنة ١٩٦٣م.

٣ - مجلة (الفكر) التونسية ع ٤ س ٢١ يناير ١٩٧٦م.

٤ - المزهر للسيوطى ٤٠٢/١.

٥ - علم أصول الفقه للمرحوم الشيخ محمد عبد الله أبو النجا ٣٢.

٦ - الأسرار للجرجانى ص ١٥.

٧ - كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ص ٢.

٨ - الرسالة للإمام الشافعى ٣٢.

٩ - المزهر للسيوطى ٤٠٥/١.

١٠ - الخصائص لابن جنى ٢٦٢/١، والمزهر ٤٠٥/١.

١١ - اللهجات العربية د. إبراهيم نجا ٩٨. وفى اللهجات د. أنيس ١٦٦.

١٢ - المزهر ٣٦٨/١.

١٣ - المصدر السابق ٤٠٢/١.

١٤ - دلالة الألفاظ د. أنيس ٢١٣. واللهجات العربية د. نجا ص ١١٦.

١٥ - اللهجات العربية د. إبراهيم نجا ٩٨.

١٦ - الإتقان للسيوطى ١٢٠/١.

١٧ - المداخل فى اللغة للزاهد ٧٣.

١٨ - المزهر ٤٠٢/١.

١٩ - اللهجات د. أنيس ١٦٤.

٢٠ - الخصائص ٤٦٧/٢ - ٤٦٨.

٢١ - المصدر السابق ٣١٠/٢.

٢٢ - شرح المعلقات للتبريزى ٣٢١.

٢٣ - المفضليات للضبى، بشرح ابن الأنبارى ٥٩٥.

٢٤ - الأزمنة لقطرب (مجلة المجمع العلمى بدمشق ٣٧/١ للسنة الثانية).

٢٥ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٤٣، وذيل ديوان عدى بن زيد ١٨٣.

٢٦ - شرح الجاهليات لابن الأنبارى ٢٩٨.

٢٧ - تذكرة الحفاظ فى بعض المترادف من الألفاظ للحضرمى ٣.

الشاغبون على السنة دعاة باطل لا دعاة حق ومن شذّ شذّ في النار

بقلم فضيلة الأستاذ : محمد نجيب المطيعي

كتب كاتبان كأنهما من شدة التحامهما والتصاقهما وتناسق نغمهما ، وانتظام إيقاعهما وتراقصهما المتوافق على صفحات جريدة واحدة فى يد مدرب صناع قد استطاع أن يوردهما من الشرب (بكسر الشين) مورداً واحداً ، وقد تكدر هذا الشرب بمعانى البطلان وثوران القاع من ضآلة المورد وكدورته ، فلما استعملا هذا الكدر مداداً كتبا به ما كتبا جاء نتن الرائحة ، تفوح رائحة الكريهة فى معاطس المؤمنين الأحرار فيرتابون ، وحق لهم أن يرتابوا ، فمن كتب هذه المقالات إما عالم فيكون سىء النية سقيم الطوية صاحب هوى وبدعة مضلة ، وإما جاهل جرىء يقتحم قدس رحاب السنة بغير احتراس أو مبالاة ، ونعوذ به تبارك وتعالى من كآبة المنظر وسوء المنقلب .

كتب أحدهما يرد علىَّ فيقول : إنه يجوز لكل مسلم أن يَرُدَّ الحديث الصحيح كما فعلت عائشة وعمر رضى الله عنهما إذ رد كل منهما حديثاً بلغه من ثقات ، ويدفع بذلك قولى بأن كل من يكذِّب حديثاً صحيحاً يسلك فى عقد الكذابين .

وأقول أن من يكذب حديثاً صحيحاً تلقته الأمة بالقبول كابراً عن كابر بحفَّاظها وعلمائها وفقهائها وقضاتها وأئمتها لمجرد الوهم أو المكابرة فإنا نسلكه فى عقد الكذابين ولا كرامة له ، والخبر الذى رواه ذلك الكاتب عن عائشة رواه مبتسراً ومحرفاً ، إذ لو صدق فى الإلمام بنصه الكامل لامتنع عن الاحتجاج به لأنه سينقلب عليه ، وسيكون برهاناً يصفع صفحته التى كتبها بقلمه .

قصة عائشة التى يزعمون فيها أنها ردت الحديث الصحيح تأولا

زعموا أن عائشة رضى الله عنها بلغها أن عمر وابنه يحدثان عن النبى ﷺ « أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه فقالت لابن عمر : نولك ما توليت وحسبك القرآن فإنه يقول : « ولا تزروازرة وزر أخرى » .

والصحيح الذى أخرجه أصحاب السنن وبعض ذلك فى الصحيحين فكأن أصل الرواية فى الكتب الستة عن ابن أبى مليكة قال : «لما هلكت أم أبان حضرت مع أناس فجلست بين عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس فبكين النساء فقال ابن عمر : ألا تنهى هؤلاء عن البكاء فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أن الميت ليعذب ببعض بكاء أهله عليه ، فقال ابن عباس : قد كان ابن عمر يقول بعض ذلك . خرجت مع عمر حتى إذا كنا بالبيداء رأى ركباً تحت ظل شجرة فقال : أنظر من الركب ؟ فذهبت فإذا صهيب وأهله ، فرجعت إليه فقلت يا أمير المؤمنين هذا صهيب وأهله ؟ فقال : عليَّ بصهيب ، فلما دخلنا المدينة أصيب عمر فجلس صهيب يبكى عنده يقول : وا أخيَّاه ، فقال عمر : يا صهيب لاتبك فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الميت ليعذب ببعض بكاء أهله عليه . قال : فذكرت ذلك لعائشة فقالت : أما والله ما تحدثون هذا الحديث عن كاذبين مكذبين ولكن السمع يخطىء وإن لكم فى القرآن لما يشفيكم (ولا تزروازرة وزر أخرى ٣٥ : ١٨) ولكن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه) .

وفى البخارى ومسلم وموطأ مالك والترمذى والنسائى عن عمرة بنت عبد الرحمن قالت : سمعت عائشة رضى الله عنها وذكر لها أن عبد الله بن عمر يقول (إن الميت ليعذب ببكاء الحى عليه) تقول «يغفر الله لابى عبد الرحمن أما أنه لم يكذب ولكن نسى أو أخطأ ، إنما مر رسول الله ﷺ على يهودية يُبكى عليها فقال : إنه ليبكى عليها وإنها لتعذب فى قبرها» وقد انعقد الإجماع لأحاديث أخرى أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه إذ البكاء من سنته وذلك ما ورد من قوله تعالى وليس من قول عائشة ولم يرد ذلك عنها (نوله ما تولى) ومن لم نعلم أن عائشه كانت تصحح واقعة سماعها لحديث رسول الله ﷺ للأدلة الآتية :

(١) أنها ذكرت الصيغة النبوية واللفظ الشريف .

(٢) أنها ذكرت المناسبة التى حدَّث فيها النبى ﷺ بهذا الحديث .

(٣) أنها لم تكذب الراويين الجليلين ولم تنف صدق تحديثهما عن النبى ﷺ .

(٤) عزت اختلاف روايتها عن روايتهما إلى عدم عصمة السمع من الخطأ .

(٥) لم يكن استدلالها بالآية رفضاً للحديث وإيثاراً للآية لرد الحديث وإنما كان ذكرها للآية لتتطابق روايتها مع منطوق الآية ، وإنما كان هذا النهج للجمع بين الحديث

والآية وهى قاعدة عند المحدثين أن القرآن إذا تعارض ظاهره مع رواية صحيحة وأمكن الجمع بينهما فإنه لا يصار إلى رد الخبر الصحيح بحـال وجاء من مزاعم هؤلاء الداعين إلى توْهين السنة والغض منها . وإعلان راية القرآن ، وكفى أن السنة لا تعدو أن تكون تطبيقاً عملياً للقرآن . ولا أدرى من أين أتوا بهذا التعريف الذى لا يوافقة منهج علمى — لأن هؤلاء الأبناء يلوكون كثيراً هذه النغمة التى يلجأ إليها (الْعَيِىُّ فى تَهْتَهَتِهِ) كما يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده (1) فهم يزعمون دائماً عن أى حق لا يوافق هواهم مهما قامت عليه البراهين أنه لا يوافق منهجهم العلمى ويثرثرون كثيراً بهذا الشعار ليزحزحوا حزب الله المعتصمين بحبل السنة المطهرة ،وينهنهوهم (2) عن الحق الذى هم عليه .

ولنناقش هذا التعريف العلمى العلمانى :

إن معنى أن تكون السنة مجرد تطبيق عملى للقرآن أن يرد فى القرآن النص على مواقيت الصلاة تفصيلاً وعدد الركعات تحديداً ، وأُرُوُش الجنايات ومقادير الديات وأحكام الشركات والبيعات وعقود القرض والقراض ، ثم يأتى النبى ﷺ فيطبق ما فى القرآن لأنه كما جاء (تفصيلاً لكل شىء) فيرى أن المغرب ثلاث ركعات فيمتثل النبى ﷺ ويصلى كذلك ، ويأتى الصبح فى القرآن ركعتين فيصليهما النبى ﷺ تطبيقاً عملياً لما هو مفصل ومبين فى القرآن ! ! وهذا الكلام لم يقله واحد من أمة محمد ﷺ على الإطلاق ابتداء من أهل السنة إلى العترة إلى الخوارج إلى غيرهم من كل مذهب معتبراً وغير معتبر ، والصواب أن يقال أن السنة تفصيل لما هو مجمل وتفسير لما هو مبهم ، وانشاء أحكام وأصول ليست مذكورة فى القرآن ولكن القرآن تضمن الأمر بهذا على طريق التبع والضمن حين أمر باتباع النبى ﷺ وحين أمر النبى ﷺ أن يبين للناس ما نزل إليهم ، وبين الله تعالى فى الكتاب أنه جل شأنه أوحى إلى نبيه الكتاب والحكمة ، وأنه يعلم أمتة الكتاب والحكمة والله يقول (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ويمكننى بعد ذلك أن أقول وأنا مطمئن : أنى صليت المغرب ثلاث ركعات لأن ذلك فى القرآن إذ أمرنى الله أن أتبع النبى ﷺ وهو قد فعل ذلك وثبت ذلك فى سنته ، ويمكن أن أقول : أن علم الكيمياء والطبيعيَّات وصناعة الصواريخ فى القرآن ، لأن الله تبارك وتعالى قال (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) ، فإذا سئلت : كيف أصنع الصواريخ

---

(1) رسالة التعصب من مجلة العروة الوثقى التى كان يصدرها هو وجمال الدين الأفغانى فى باريس .

(2) نَهْنَهَهُ عن الشىء : أى زجره لِيَكُفَّ عنه — المحرر .

وكيف أعلم دقائق الطبيعيّات والكيمياء أذكر قوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ، وبهذا يكون القرآن قد اشتمل على كل شيء ، ثم أن القرآن وجهنا إلى الأخذ بالسنة من حيث كونها أحد الوحيين مكملة للقرآن ، ولا يتوهّمَنَّ متوهم أن بالقرآن نقصاً إلا إذا لم يكن فيه النص على المتبع الذى تستق منه هذه الأحكام ، أما وقد دلك على الوسيلة ، وأرشدك إلى الطريق فلم يغادر بذلك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ، وقد أستشهد أحد هؤلاء الأبناء بكلام علامة الشام القاسمي فى تفسيره ليسوغ لنفسه خرم السنه ورفضها بتمحل المعاذير والتأويلات المتنحلة إذ يقول القاسمي : (إن منكر الحديث الصحيح الآحاد متأولاً لمعارضتة للقرآن لا يكفر ولا يفسق) نقول : نعم لا يكفر ولا يفسق ولكن نخطئه لأن الحديث الصحيح يجب العمل به فإذا عارض القرآن فعندنا طرق (أحدهما) الجمع بينهما بقدر الإمكان وبذل الوسع فى الجمع خير من بذله فى التماس أدلة الشغب على الحديث لرده ورفضة والإطاحة به (ثانيهما) ألا يكونا على أختلاف قولين وإنما يكونان على اختلاف حالين فيكون لكل نص حال نزل الحكم للعمل به فيها ، فما جاء به الوحي قرآنا له حال ينهض حكماً فيها ، وما جاء به الوحى سنة له حال كذلك ، وهذه قاعدة معروفة عند من تمرس بالاجتهاد والاستنباط أو تتبع أعمال المجتهدين .

فالاستشهاد بعدم تكفير الرادّ للآحاد أو تفسيقة لتسويغ الرد ورفع الرأس بذلك وجمع الناس لذلك ودعوتهم له لا يعدو أن يكون كاستشهاد من يقول : أن من ينصب الفاعل ومن يرفع المفعول ومن يجزم المجرور لا يكون كافراً ولا فاسقاً . فهل معنى هذا أنه لا يكون مخطئاً ولا يكون كما قلنا فى هذا المقال كاذباً فى إخلاله بالقاعدة .

قال الإمام العلامة ابن حزم الظاهرى فى الجزء الأول من كتابه « الإحكام فى أصول الأحكام » بتحقيق المرحوم أحمد شاكر : الباب الحادى عشر (قال على : لما بينا أن القرآن هو الأصل المرجوع إليه فى الشرائع نظرنا فيه فوجدنا فيه إيجاب طاعة ما أمرنا به رسول الله ﷺ ووجدناه عز وجل يقول فيه واصفاً لرسوله ﷺ (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) فصح لنا بذلك أن الوحى ينقسم من الله عز وجل إلى رسوله على قسمين : (أحدهما) وهو متلو مؤلف تأليفاً معجز النظام وهو القرآن (والثانى) وحى مروى منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلو لكنه مقروء وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ وهو المبين عن الله عز وجل مراده منا ، قال تعالى (لتبين للناس ما نزل إليهم) ووجدناه تعالى قد أوجب طاعة هذا القسم الثانى كما أوجب طاعة القسم الأول الذى هو

القرآن ، ولا فرق . فقال تعالى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فكانت الأخبار التى ذكرنا أحد الأصول الثلاثة التى ألزمنا طاعتها فى الآية الجامعة لجميع الشرائع أولها عن آخرها وهو قوله تعالى (أطيعوا الله) فهذا أصل وهو القرآن ثم قال تعالى (وأطيعوا الرسول) فهذا ثان وهو الخبر عن رسول الله ﷺ ، ثم قال تعالى (وأولى الأمر منكم) فهذا ثالث وهو الإجماع المنقول إلى رسول الله ﷺ حكمه وصح لنا بنص القرآن أن الأخبار هى أحد الأصلين المرجوع إليهما عند التنازع ثم قال بعد كلام طويل جيد :

وقال (إنما أنذركم بالوحى) فأخبر تعالى كما قدمنا أن كلام نبيه كله وحى والوحى بلا خلاف ذكر والذكر محفوظ بنص القرآن أ هـ .

وللإمام ابن حزم وجميع أئمه المسلمين ما عدا بعض أصحاب الرأى – وليسوا جميعاً – القول بأن السنة تخصص من القرآن عامَّه ، وتقيد مطلقه ولو كان الخبر آحاداً ولو كان غريباً [1] صحيح الأسناد .

أما الابن الآخر فيقال أنه طبيب وكان آخر العظائم التى قذف بها فى وجوه المسلمين كلمة جريئة ينكر فيها حديثاً يقر بصحته – وهنا مكمن الفجور الفكرى – ويصر على رده بدعوى أنه مدسوس من الإسرائيليات وكأن إسرائيل لمَّا يكفها أنها كانت تدعى طول الذراع للنيل من أعماقنا أرضاً حتى جاء من يبشر بطول هذه الذراع بطريقة ملتوية حتى وصلت إلى أصح كتاب تحت أديم السماء بعد القرآن ذلك هو صحيح البخارى ، وأظن أننا قد بترنا بقوة الله وعونه فى العاشر من رمضان هذه الذراع ، ولكنها بقيت عند بعض أصحاب الأقلام التى انسلخت من الركائز الصحيحة للمنهج العلمى فى شرائع الله ، فتمثلت فى عقولهم شبحاً عابثاً بكل شىء ، وقد بنى دعواه على :

أولاً : لأنه من قول صحابى (لاطلع ولا نزل) .

ثانياً : أنه يخالف – أعنى الحديث – مقاله وما ساقه من مقدمات ليصل بها فى تعسف ظاهر وإقحام لا مسوغ له إلا أن هذا الحديث يخالف منطق حضرة النطاسى .

ثالثاً : أنه يساعده على نشوء الجماعات السرية التى تقاوم الكفر البوَّاح والباطل الصرَّاخ (هكذا يريد الكاتب) ولنذكر الحديث كما ورد فى الصحاح والسنن والمسانيد وتلقته الأمة بالقبول إلى يوم الدين : (عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى المنشط والمكره وعلى أثرة علينا وألا ننازع الأمر

---

(١) وللغرابة مفهوم عند أصحاب هذا الشأن من المحدثين سنوضحه إن شاء الله فى بحوثنا .

أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) .

ونريد أن نقول : أن البيعة من الصحابة للنبى ﷺ ثابتة بنص القرآن فى غير موضع لا ينكرها مسلم فتح كتاب الله تعالى . فمن أنكر البيعة فهو زنديق ينكر ما نزل به الكتاب العزيز صريحاً لا شبهة فيه وإن كان الاعتراض على عدم السمع والطاعة فى الكفر البواح الذى قام عليه برهان لا يختلف فيه اثنان وهو واضح وضوح الشمس كالأمر بترك الصلاة أو الأمر بارتكاب الزنا أو الأمر بعبادة غير الله ، هل يترك الرسول ﷺ الأمة حائرة دون أن يوضح لها ما ينبغى عمله عندما تتاح هذه الفتنة العمياء لا قدر الله ، أليس فى القرآن ما يدل على هذا المعنى حتى بالنسبة لأقرب الأقربين كالأبوين مثلاً (وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتّبع سبيل من أناب إلى) فلتحذف هذه الآية أيضاً من الكتاب خوفاً من أن تستغل على منطق النطاسى فتشجع على تكوين الجماعات السرية ، ولقد كان فى رده للحديث كالدب الذى أراد أن يجلى (الذباب عن وجه صاحبه فانقض عليه ، وهو برده للحديث كأنما يصرح بالمفهوم والمنطوق أن النظام ينطبق عليه ما فى الحديث وكذب ، فإن الحاكم لا يشك فى إسلامه أحد والنظام أساسه إسلامى لأنه يقوم على قاعدة عريضة من الشعب المؤمن بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، مجتمع فيه الأزهر لا يمكن أن يكون فيه كفر بواح .

بقى قول النطاسى أن الحديث قول صحابى . نعم هو خبر يخبر به الصحابى عن أمر فعله رسول الله ﷺ فهو حديث مرفوع وفيه حديث قولى وهو قوله ﷺ (إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان) ولعل الشبهة جاءت النطاسى من عدم إلمامه بآفاق اللغة العربية ومناهج التعبير فيها فقول عبادة (وعلى أثرة علينا . إلا أن تروا الحديث) يسمى عند علماء اللغة (التفاتا) وهو فى القرآن منه فى مواضع كثيرة ، ويسمى أيضاً خطاب التكوين قال تعالى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً) فالقائلون : ربنا أبصرنا هم المجرمون المعبر عنهم بضمير الغائب ثم عبر بلسانهم بلغة الالتفات وهو الصرف والتحدث بضمير الغائب إلى التحدث بضمير المتكلم . وانظر إلى قوله تعالى (فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) وهذا من الخطاب لشخص ثم العدول إلى غيره ، فإن الله تبارك وتعالى يقول (فإن لم يستجيبوا لكم ثم يوجه الخطاب إلى الكفار فيقول :

فاعلموا أنما أنزل بعلم الله – إلخ ، وكقوله تعالى (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله .) ونقول لهؤلاء مرة أخرى تعلموا لغة القرآن لتفهموا الإسلام والله الهادى إلى سواء السبيل .

محمد نجيب المطيعى
صاحب تكملة المجموع شرح المهذب للشيرازى

الْعِلْم

اَلعِلْمْ شَئٌ بَعِيدُ الْمَرَام ، لاَيُصَادُ بالسِّهَام ، ولا يُقْسَمُ بالأَزْلاَم ، وَلاَ يُكْتَبُ لِلئَام ، وَلاَ يُرَى فى الْمَنَام ، وَلاَ يُضْبَطُ باللِّجام ، وَلاَ يُورَثُ عَنِ الآبَاءِ والأعْمَام .

وَزَرْعٌ لاَ يَزْكُو إلاَّ مَتَى صَادَفَ مِنَ الْحَزْمِ ثَرىً طَيِّباً ، وَمِنَ التَّوفِيقِ مَطَراً صَيِّباً ، وَمِنَ الطَّبْعِ جَوًّا صافياً ، وَمِنَ الْجُهْدِ رُوحاً دَائِماً ، ومن الصَّبْرِ سِقْياً نَافِعاً .

وَغَرَضٌ لا يُصَابُ إلاَّ بِافْتِرَاشِ الْمَدَرِ ، وإِسْتِنَادِ الْحَجَرِ ، وردِّ الضَّجَرِ ، وركُوبِ الْخَطَرِ ، وَإِدْمَانَ السَّهَرِ ، واصْطِحَاب السَّفَر ، وكَثْرَةِ النَّظَر ، وإعمال الْفِكَر . .

بديع الزمان الهمذانى

الخلق الجنسى فى الإسلام

مختصر محاضرة ألقاها الدكتور خليل سمعان فى اجتماع الندوة العربية (فى جامعة ولاية نيويورك فى نغمطن)

«لا خُلُق فى الإسلام Il n'y a pas de morale en Islâm. » هذا ما يدّعيه المستشرق الفرنسى بوسكه G.-H. Bousquet فى كتاب له نشره فى عام ١٩٦٦ فى دار G.-P. Maisonneuve et Larose فى باريس : —

وبوسكه هذا ، فى كتابه المذكور أعلاه ، يصرح ، بدون خجل ، أنه فى قوله بانعدام وجود خلق فى الإسلام ، إنما يقلد سابقيه ، الهولندى سنوك هرخرونيه والدانمركى تور أندريا ، الأول فى قوله بأن الدين الإسلامى خَلِىٌّ مما يسمى فى الغرب بالقانون ، والثانى فى تصريحه بأن الدين الحنيف خَلِىٌّ من النظام الدينى للعبادة بالمعنى اللاهوتى الغربى .

والمطلع ، المتحرر من العنصرية ، والموضوعى ، ليس بحاجة لمن يمحص مناقشاً أقوال السادة هؤلاء . إن آراءً كهذه لا يمكن أن يكون الدافع لها حب الاطلاع ، أو أن تكون نتيجة بحث موضوعى رزين . فالواقع أن الإسلام تعرض ويتعرض لتهجمات تزمتية وعنصرية كثيرة ، هدفها تشويه صورة الدين الحنيف ، وإظهاره بمظهر الدين البدائى الذى يتجاوب وحاجات شعب بدائى لا قدرة له على التفكير الفلسفى الدينى العميق . ولكم تمنيت لو كان باستطاعتى القول بأن عملية تشويه سمعة الإسلام هى عملية فاشلة ، يقوم بها أشخاص صغار العقول متزمتون ، لا أثر لعملهم العنصرى هذا فى مجتمعهم المثقف . فالواقع أن هذا العمل العنصرى أضرّ ويضر بسمعة الإسلام والمسلمين ، وأساء ويسىء فهم تعاليم الدين الحنيف ، وزاد ويزيد تجريحاً فى سمعة الإسلام شعوباً ودولاً ودبلوماسية .

وليس هدفنا اليوم تمحيص جميع أقوال السيد بوسكه فى الخُلُقِ الإسلامى ، وفى موقف الشريعة الإسلامية من العلاقات الزوجية وسواها فى أحكام النكاح . وجُلُّ ما يسمح لنا

(1) L'éthique Sexuelle de l'Islam.

وقت هذه الكلمة هو دحض رأى هذا الرجل ، بمجرد الإشارة إلى تعاليم الإسلام الرئيسية ، المحتواه فى سجل هذا الدين السماوى ودستوره « القرآن الكريم » وتعلمون بأن هنالك مراجع أخرى لمن يرغب فى التوسع وزيادة الاطلاع ، هى فى أصول الفقه حديثاً وقياساً وإجماعاً وما دوّنه السلف من فتاوٍ فى هذا الموضوع الكثير التعقيد .

والمدهش حقاً أن يقوم بعملية التشويه هذه أشخاص مثقفون ، درسوا ويدرسون حضارة العرب والإسلام ، يكتبون وينشرون المقالات والأبحاث عن تاريخ وآداب العرب والمسلمين ، ويدرّسون فى معاهد الغرب لغات العرب والأمم المسلمة . . . هذه الحقيقة ترغمنا على القول أن عملاً كهذا لا يمكن أن يمت للعلم بصلة ولا يجوز أن يُسمحَ لقائله بتدريس تاريخ العرب والمسلمين فى معاهد وجامعات ، شرقية كانت أم غربية . إن أعمال التشويه هذه يجب أن يشار إليها باسمها الحقيقى : الدعاية العنصرية .

ولنعد إلى موضوعنا الرئيسى : لا وجود لكلمة « جنس » بمعنى Sex فى القرآن وكتب اللغة القديمة . فالكلمة تعنى « النوع » وهى قريبة فى معناها من الكلمة الأغريقية Genus المستعملة فى جميع اللغات الهند أوروبية . واسم « الجنس » فى كتب اللغة لا يدل فى شىء على العمل الجنسى (أو التناسلى أو عمل الحب أو الجماع أو الباه ، إلخ) وما نجد فى القرآن معبَّراً عنه بكلمة « النكاح » هو اتحاد الرجل والمرأة جسدياً فى أحوال معينة أهمها وأكرمها عند الله الزواج . والقرآن الكريم يذكر أحوال علاقات الرجل بالمرأة مفصَّلاً وبدون غموض البتة . ففى النساء عامة ، هنالك الآيات ٢ (٢٢٨ و ٢٨٢) و ٣ (١٩٥) و ٤ (١ – ٣٥ ، ١٢٤) و ١٣ (٢٣) و ٣٠ (٢١) و ٣٦ (٥٥ ، ٥٦) و ٤٠ (٤٠) و ٤٢ (١١) و ٤٣ (١٨١ ، ٧٠) و ٤٦ (١٥) و ٤٨ (٦) و ٤٩ (١١) و ٥٧ (١٨) وفى المؤمنات الآيات ٩ (٧١ ، ٧٢) و ١٦ (٩٧) و ٢٤ (٣١) و ٢٣ (٣٥ ، ٥٨ ، ٧٣) و ٤٧ (١٩) و ٤٨ (٥) و ٥٧ (١٢) و ٦٠ (١٠ و ١٢) و ٧١ (٢٨) و ٨٥ (١٠) . وفى أسيرات الحروب والإماء الآيات ٢ (٢٢١) و ٤ (٣ ، ٢٤ ، ٢٥) و ٢٣ (٦) و ٢٤ (٣٣) و ٣٣ (٥٠ ، ٥٥) و ٧٠ (٣٠) . وفى الزواج والطلاق والزنى ، الآيات ٢ (١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٢١ – ٢٤١) و ٣ (١٤) و ٤ (١ – ٣٥ ، ٤٣ ، ١٢٧ – ١٣٠) و ٥ (٥) و ١٦ (٧٢) و ٢٣ (٥ – ٧) و ٢٤ (٢ – ٩ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣١ – ٣٣ ، ٦٠) و ٣٣ (٦٢٤ ، ٢٨ – ٣٣ ، ٣٧ ، ٤٩ – ٥٣ ، ٥٩)

و٥٨ (١ – ٤) و٦٠ (١٠ – ١٢) و٦٤ (١٤) و٦٥ (١ – ٧) و٦٦ (١ – ٥ ، ١٠ – ١٢) و٧٠ (٣٠ – ٣١) .

وهاكم ما انتقيناه من نصوص صريحة تفى بحاجتنا وتوصل إلى الهدف الذى صرحنا به فى مطلع هذه الكلمة ألا وهو دحض القول بأن الإسلام خَلِيٌّ من الخُلُق : السورة رقم ٢ البقرة .

الآية ٢٢١ – ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن . . . ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا . . . فاعتزلوا النساء فى المحيض . . .

الآية ٢٣٢ – فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن (بعد طلاقهن منكم) .

السورة ٤ النساء .

الآية ٣ – فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة .

الآية ٢٢ – ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء .

٢٣ – حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين .

الآية ٢٥ – ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن .

الآية ١٢٧ – (يفتيكم الله فى) يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهنَّ ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن (عليكم القيام بالقسط) .

السورة ٢٤ .

الآية ٣ – الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك .

الآية ٤ – الذين يرمون المحصنات ولم يأتوا بأربعة شهداء – ٨٠ جلدة .

الآية ٣٢ – وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم .

الآية ٣٣ – وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله .

الآية ٦٠ – والقواعد من النساء الذين لا يرجون نكاحاً فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة .

السورة ٢٨ القصص .

الآية ٢٧ – قال أنى أريد أن أنكحك أحدى إبنتى هاتين (لموسى) .

السورة ٣٣ الأحزاب .

الآية ٤٩ – إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً .

السورة ٦٠ الممتحنة .

الآية ١٠ – ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن .

سيداتى وسادتى :

أكتفى بهذا القدر من التعاليم الخلقية التى يحتوى عليها القرآن الكريم ، منبع الخلق الإسلامى ، فتدركون ما فى كلام المستشرق بوسكه وأمثاله من الظلم والحَيْفِ ، وبهذا أكون قد قمت بدحض تصريحه الخاطىء القائل بأن الإسلام خلى من التعاليم الخلقية فى كل ما يتعلق بالعلاقات الجنسية ، حلالها وحرامها . وأملى أن أكون قد وُفِّقت إلى إظهار نبل تعاليم الكتاب ووصاياه فى موضوع كلمتنا هذه المتعلقة بعلاقة الرجل بالمرأة وبمعاملته إياها ، وما على الإثنين من واجبات وما لها من حقوق ، وذلك على ضوء تعاليم الإسلام الخلقية . فما ذكرناه مما فى الكتاب من تعاليم ووصايا تثبت بأن الإسلام .

١ – يُحِلُّ العلاقات الجنسية ويحدد من حقوقها وواجباتها فى حالات الزواج وسواها .

٢ – يوصى بعدم اعتبار الوضع العائلى الاجتماعى أو المالى كدافع للزواج أو عدمه .

٣ – يمنع زواج مسلم من مشركة ومشرك من مسلمة ، وبديهى ما فى هذا المنع من حكمة وتخلق .

٤ – يوصى بعدم التعرض للمتزوجين فى حريتهم الجنسية .

٥ – يوصى المسلم الذى لا قدرة له على الزواج من مؤمنة بنكاح من يملكه من الإماء .

٦ – وأنه واجب على المسلم الذى لن يعدل فى زواجه من أكثر من واحدة بالاكتفاء بذلك .

٧ – بأن للوالد الحق في العمل على تزويج ابنته من رجل عاقل صالح .
٨ – أن على الامرأة التي لا قدرة لها على الزواج أن لا تتبرج ولا تتزين لذلك .
٩ – أن الزاني لا يعاقر سوى الزانية والعكس بالعكس .
١٠ – أن للمسلم الزواج من مشركة أسلمت وللمسلمة الزواج من مشرك أسلم .
أو يمكن بعد هذا أن يقال بأن الإسلام خَليٌّ من الخُلُق ؟
شكراً .

الحقد والحسد

ألاَ قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِي حَاسِداً
أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الأَدَبْ ؟
أَسَأْتَ عَلَى اللهِ فِي حُكْمِهِ
إِذْ أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبْ

شاعر عربي

للهِ دَرُّ الْحَسَدِ وَمَا أَعْدَلَه ، يَقْتُلُ الْحَاسِدَ قبل أن يَقْتُلَ الْمَحْسُود . .

علي بن أبي طالب

من تراثنا الحديث

متى نكون أمة صالحة

للعلامة المرحوم
محب الدين الخطيب

نكون أمة صالحة يوم نلتفت ذات اليمين فنرى لبلادنا جحافل من الجيوش المنظمة مجهزة بأحدث الأسلحة وأسرعها ، مصنوعة بأيدينا وفى مصانعنا وتحت سماواتنا .

ونلتفت إلى سواحلنا فنرى لنا فى مياهها أساطيل حربية وتجارية تملأ قلوب الأمم إيماناً بصلاحنا ، واستسلاماً لهيبتنا .

ونلتفت إلى جماركنا فنراها منهمكة بالتصدير ، لا بالاستيراد . .

ونلتفت إلى جامعاتنا فنراها تعمل على تكوين علماء عاملين فى جميع ضروب المعرفة : من تحقيق لتاريخنا ، تتجلى لنا به نفوس السلف كما هى طاهرة نقية ، عاملة ناصبة ، دائبة على الخير ، مقيمة للحق ، ناهضة بالمثل العليا . مكونة للإنسانية الخيِّرة المتواضعة المتعاونة ، وتتجلى لنا به عوامل الشر التى طرأت على ذلك الماضى الطيب فعبثت بسننه الفطرية ، واكتفت من حقائقها بقشورها وألفاظها ، وحولتها عن اتجاهاتها إلى غير ما كانت ترمى إليه .

ومن تنظيم وتنقيح لمبادئنا التشريعية ، وأحكامنا القضائية والفقهية ، يتبين منه للناس أن أمم الأرض مجتمعة من بدء الخلق إلى أن تقوم الساعة ، لم تتوخ فى أحكامها ما توخاه الإسلام وشريعته وفقهاؤه من تحرى الحق والعدل والخير ، غير متأثرين بأهواء أحد من الناس .

ومن استنباط واستخراج لأسرار الله فى الكون ، وقوى الخليقة الكامنة فى عناصرها ، — وتحويلها إلى خير الإنسانية وسعادة الخلائق .

ونلتفت إلى ما أنعم الله به علينا من تربة وأنهار وينابيع ومناجم ونقود ومتاع فنشكره عليها بحسن استعمالها واستغلالها واستنتاجها حتى لا ندع قطرة من ماء ولا شبراً من أرض ولا ذا قيمة من ركاز أو معدن ، إلا حولناه — بالتدريج ، وبلا فتور — إلى قوة نافعة للناس مؤيدة للخير ، ذابة عن الحق .

نفعل ذلك كله بأخلاق فاضلة ، ونفوس عفيفة ، وجهود دائبة نشيطة ، وقلوب وعقول متجهة إلى الله متوخية مرضاته ، عاملة لطاعته .

يومئذ نكون أمة صالحة ، ويومئذ نكافأ من الله على هذا الصلاح بأن يؤهلنا لنكون خلفاء على الأرض .

ولكن متى يكون هذا ، ومن ذا الذى يفعله ، وكيف يفعله ؟ ! ! . .

اليابانيون – قبل غلطتهم الأخيرة – حاولوا بعضه فى ستين أو سبعين سنة ، وكان العامل فى وجوده روح عامة سرت فيهم ، وإرادة ملأت نفوسهم ، واندفاع فردى وجماعى إلى العلم والعمل التمسوا فيه طرقها ، يختار كل واحد ما ترتاح إليه نفسه ، ويوافق مشربه وما تطيقه مواهبه ، ويلتئم مع ظروفه . وكان الواحد منهم إذا ارتاحت نفسه إلى باب من أبواب العلم ، أو ضرب من ضروب العمل ، ورآه فوق طاقته وأوسع من نطاق ظروفه ، بحث له عن أعوان من أشباهه ونظرائه فتعاونوا مجتمعين ، على ما ينوءون به منفردين . فكان تعاونهم عليه بإخلاص وإنصاف وصدق فى السر والعلانية . ومن هنا نشأت المصانع الضخمة ، والشركات البحرية التى ملأت آفاق المحيط سفيناً ، وبهذا وجدت صحفهم اليومية الكبرى التى تدار بآلات من صناعة بلادهم أقاموا لها أضخم المبانى . وببركة هذا التعاون وجدت شركات النشر التى أخرجت للناس دوائر المعارف المتقنه ، والمعاجم الكبرى ، وسلاسل المصنفات العجيبة فى شتى العلوم وصنوف المعرفة .

ومما زادهم توفيقاً ونجاحاً فى هذه النهضة الجدية إخلاص العمال والعاملات وقناعتهما ، فبينما كانت أوربا وأمريكا تتخبطان فى أنانيات أصحاب الأعمال والعمال وتناحرهما ، كانت اليابان فى راحة من هذا الفساد بإقبال العمال على أعمالهم مخلصين للمصنع كأنهم أصحابه ، بل أكثر مما يفعل أصحابه لو كانت أيديهم فى مكان أيدى العمال ، فاتسعت بذلك الصناعات ولم تبق تحت سماء اليابان يد واحدة بلا عمل من نساء أو رجال ، فهى بلاد لم تعرف التسول ولم تعرف التعطل ، وكانت أوربا وأمريكا تحسدانها على هذا التعاون بين العمال وأصحاب الأعمال ، وعلى قلة تكاليف الصناعات ، حتى أغرقت اليابان الدنيا كلها بصناعاتها ؟

وغزت بها بلاد أوربا وأمريكا بالرغم من الحواجز الجمركية القاسية الجائرة التى أقيمت فى وجهها ، بل كانت اليابان تعمد إلى صميم ما انفردت به أمة من أمم أوربا ، فتقلده ، وتصنعه بربع تكاليفه وتبيعه فى البلاد التى كانت تصنعه . فكانت هذه المباراة الصناعية

حرباً قبل الحرب وقتالاً بلا سلاح . وكاد اليابانيون أن يُدخلوا إلى مصر وغيرها قبل الحرب الأخيرة سيارة صغيرة بمقعدين أو ثلاثة يستطيع المرء منا أن يشتريها بعشرين أو ثلاثين جنيهاً فيستغنى بها صغار الموظفين بل العمال عن ركوب الترام ، لولا أن اليد الاستعمارية حملت الجمارك على صد هذه الحملة الاقتصادية بأسلحة تشريعية حالت بين مصنع السيارات اليابانى ومستهلكى مصنوعاته فى الخارج .

ولو أن اليابانيين اقتبسوا من الإسلام طريقته الحكيمة فى الاتصال بالأمم كما اقتبسوا من أوربا وأمريكا طريقتهما القويمة فى الصناعات وعلومها ، وبنوا على ذلك تعاونهم مع الصين وأندونيسيا وبورما والفلبين وسائر المشرق ، لاتقَّوا بذلك الكارثة التى وقعوا بها أخيراً فأرجعتهم إلى الوراء ستين أو سبعين سنة . ولكنهم – برحمة من الله لأمم المشرق – تعلقوا بمبادئ الاستعمار الأوربى ، فاصطدموا به الصدمة التى أتاحت لأندونيسيا هذه النهضة المباركة التى ستؤتى أكلها بعون الله طيباً نافعاً بعد خمسين أو ستين سنة بما لا يكاد قارئ هذه السطور أن يصدقه لو أردت أن أصف ما أرجو وقوعه .

أيها العرب ، أيها المسلمون ، إن الأمم لن تعيش بعد اليوم إلا مرتفعة الرأس بالسيادة أو منكسة الرأس بالعبودية .

وللسيادة أخلاق لابد من حملها . .

وللسيادة طرق لابد من سلوكها . .

وللسيادة مبادئ لابد من التخلق بها . .

وللسيادة علوم لابد من الحصول عليها . .

وللسيادة عمل دائر دائب مستمر يتحطم الكسالى والمهملون تحت عجلاته وبين دَواليبه .

أول عناصر السيادة للعربى والمسلم أن يعرف حقيقة العروبة وسجاياها التى أهلتها لحمل رسالة الإسلام الأولى على خير الوجوه وأنجحها ، وأن يعرف رسالة الإسلام ومهمته فى الأرض كما كان يفهمها أهله الأولون .

إن سجايا العروبة أخلاق هذبها الإسلام وقام على أركانها فكانت له السيادة ، وكانت للإنسانية به المثل العليا مشاهدة فى تصرفات أهله ومعاملاتهم ، بعد أن كانت خيالاً وهمياً وأملاً ميئوساً من تحقيقه . أما رسالة الإسلام ومهمته فهى تكوين الأمة (الصالحة) ، وتعميم صلاحها فى الأمم ، حتى يعم الإنسانية كلها .

أصاب سلفنا الأول مراد الإسلام من (الصلاح) و (الفقه) فاتصفوا بهما مدة الخلفاء

الراشدين ، وفى زمن التابعين لهم بإحسان ، وكانوا بذلك خلفاء الله على الأرض . على معظم الأرض التى كانت معروفة يومئذ ، فى آسيا ، وأفريقية ، وأوربا ثم أخطأ الذين بعدهم فهم (الصلاح) و (الفقه) بمعناهما الإسلامى ، فحصروهما فى أشياء ، وأبعدوهما عن أشياء فانقطعت السلسلة ، وانفرط العقد ، وخرجوا عن طريقة الإسلام فى تكوين (الأمة الصالحة) .

الأمة الصالحة هى التى تتكون من أفراد صالحين . وصلاح الأفراد يشمل أمور الدنيا وأمور الآخرة ، لأن الإسلام جاء للسعادتين فيهما معاً . والدنيا فى الإسلام مزرعة الآخرة ، والأمة التى تهمل إصلاح دنياها توشك أن تكون أكثر إهمالاً لما يصلح أخراها .

و (الفقه) أحكام إسلامية استنبطناها من الهداية المحمدية بصريح النص أو بالقياس عليه أو بالإجماع على أنه يوافقه أو أنه غير معارض له ، وأعجب ما أعجب له أن يتقيد المسلم بالحكم الشرعى المستنبط من النص فيما يتعلق بالحيض والنفاس ونواقض الوضوء ، ولا يبالى بالنص المحمدى الصريح فيما يتعلق بالأخلاق الفردية والبيتية ، والتوجيهات الاجتماعية ، والأمور التى تتصل بكيان الأمة والدولة . وأعجب من ذلك كله أن ننعت بالصلاح الرجل الذى يتقيد بأحكام الشريعة فى الوضوء والتيمم ومناسك الحج ، ويخالف أكثر سنن الإسلام وهدايته فيما يتعلق بالأخلاق الاجتماعية وروابط الأمة واتجاهات الدولة ، فإذا فرط فى هذه الأمور الأخرى ، وداجى ، وقطع ما أمر الله به أن يوصل ، وكتم ما أخذ الله على العلماء أن يجهروا به ، كان ذلك فى نظرهم هيناً ، وهو عند الله عظيم .

إن الأمة الإسلامية الصالحة هى التى يتعاون جميع أفرادها – كل واحد من الجانب الذى هو فيه – على استكمال جميع أسباب القوة والسعادة والخير باتخاذ أسبابه ، والوقوف على دخائل العلوم المؤدية إليه ، والعمل لتحقيقه بأمانة وإخلاص وقناعة وإتقان ، وأن يوفق كل فرد فى الأمة بين مصلحته الشخصية والمصلحة العامة التى تتمثل بها قوة الأمة وكرامتها وسيادتها .

أنا من خمسين سنة إلى الآن أتتبع نصوص الإسلام ، وأطيل النظر فى عقائده ، وقواعده وسننه ، وفى فهم الصحابة والتابعين لها ، ثم فى الألاعيب التى اخترعها الزنادقة والدجالون والجهلة لتحويلها عن أهدافها .

وقد تكوّن فى قلبى اليقين بأنه ليس فى عقائد الإسلام عقيدة ، ولا فى عباداته عبادة ولا فى مبادئه وسننه مبدأ أو سنة ، ولا فى نصوصه وتوجيهاته نص أو توجيه ، إلا وله أثر عملى

فى تكوين (الفرد الصالح) و(البيت الصالح) و(الأمة الصالحة) وما أخَّر الإسلام المسلمين ، ولكن المسلمين عطَّلوا دينهم وشوَّهوا جماله ، فلم يسيئوا إليه لأن الله تولى حفظه لمن يريد أن ينتفع به ، وإنما أساؤا إلى أنفسهم ، وإلى جماعاتهم وأوطانهم ، وإلى ذراريهم (والجزاء من جنس العمل) .

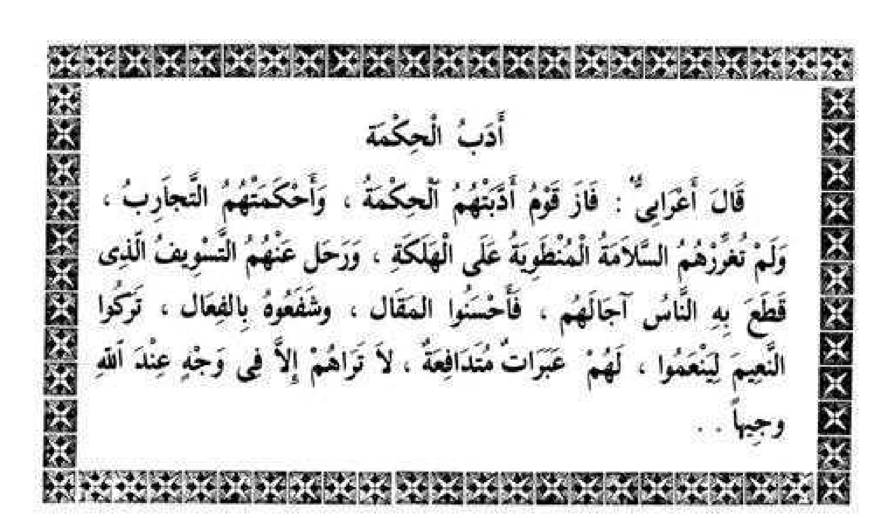
الإيمان الإسلامى يتعلق بما هو حق من أمر الغيب كما يتناول ما هو خير من حياة الشهود ، ولذلك تشعب إيماننا إلى بضع وسبعين شعبة : منها الحياء ، ومنها السعى الحلال والكدح المنتج ، ومنها الصدق ، ومنها التعاون على الخير ، ومنها الاعتدال ومنها مقاومة البغى ، ومنها الأمانة ، ومنها العزة بالحق ، ومنها التواضع فيما لا ينافى الكرامة ، ومنها النصح للجميع ، ومنها الاقتصاد فى كل ما لا تمس إليه الحاجة الضرورية – حتى الماء الذى يتوضأ به المتعبد وهو على النيل يجب عليه أن لا يسرف فيه ، خوفاً على النفس الإسلامية أن تتعود السرف والتبذير – كل ذلك وما أشبهه (مما تكون به الأمة الصالحة) معدود فى الإسلام من شعب الإيمان به ، بل إن أدنى ما فى الإيمان الإسلامى وأقل ما نحصيه من مزاياه ، أن المؤمن ينبغى له أن يميط الأذى عن طريق الناس إنما النفس الإسلامية بأدب الإحسان فى كل شىء ، عملاً بقول رسول الله ﷺ فى حديث شداد بن أوس «إن الله كتب الإحسان على كل شىء» ثم ضرب ﷺ المثل للإحسان حتى عند قتل من وجب قتله ، وعند ذبح الحيوان الذى استباحت الإنسانية ذبحه فقال «فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته» . رواه الإمام أحمد بسند صحيح . وهكذا المعانى التى أشرت آنفاً إلى أنها من شعب الإيمان الإسلامى قد ورد فى كل منها النص ودل عليه الهدى وأصبح ذلك كله من مدلول الإيمان عند المسلمين .

فالأمة الإسلامية التى تتأدب بهذا الأدب ، وتلتمس علم أسرار الكون ومكنونات الخليقة لتعمل بها وتعتمد عليها فى تكوين قوتها وتوسيع صناعاتها ، لا تحتاج لأكثر من خمسين سنة حتى تكون (أمة صالحة) ، ويومئذ يستخلفها الله على الأرض كما استخلف سلفها الأول عندما سار فى نفس الطريق . أما إذا عاندت هذا التوجيه الإسلامى – ولو بالمكر والرياء – وأرادت حبس الإسلام فى الجامع ، ولم تأذن له بدخول القلب ، والعقل ، والمنزل والمتجر ، والمصنع ، والمحكمة ، وديوان الحكم ، ونظام الدولة ، فإنها لا تسئ بذلك إلى الإسلام ، وإنما تسئ إلى نفسها .

ولعلك تسألنى : ومن الذى يفعل ذلك ، ومن هو المسئول عنه ؟ ولعلك بسؤالك هذا

تريد أن ترمى الخشبة عن كتفك قائلا : إنها من واجب ولاة أمر المسلمين.

وأنا أجيبك على سؤالك بأن المسئول عن تحقيق هذه الأمنية كل من آمن بها من الأفراد والجماعات ، ولو لم يكن فى المسلمين غيرى وغيرك لوجب علينا أن نبدأ به من أنفسنا ، وندعو إليه كل من يصغى إلى دعوتنا ، وأن نحتال على أهل القابلية من الأصفياء الأذكياء من أبنائنا وبناتنا ، فنبث هذا الإيمان الإسلامى فى قلوبهم . ومتى كثر هؤلاء وصاروا شيئاً يذكر ، اكرمهم الله حينئذ بالولاة الصالحين (وكما تكونوا يولى عليكم) . أما أن تكون أنت راعياً غير صالح على نفسك ، وعلى نقودك ، وعلى العمل الذى تعيش منه ، وعلى زوجك ، وأولادك الذين فى أمانتك ، وعلى ما علّمك الله من فقه وحكمة ومعرفة ، وعلى ما هداك إليه على لسان أكمل رسله من فضائل وحقائق وتوجيهات ، ثم تريد أن تكون أمتك صالحة وأنت غير صالح ، فهذا مخالف لسنن الله فى خلقه . ولعلك إذا وليت كرسى الحكم تكون شراً من الذى تشكوه . فلنكن أنا وأنت صالحين بالمعنى الإسلامى للصلاح . ولنتعاون على تعميم هذا المعنى والدعوة إليه إلى أن تكون الأمة كلها من أهله ، فيكافئنا الله بالدولة الصالحة ، ويجعلنا خلفاءه على الأرض . .



أَدَبُ الْحِكْمَة

قَالَ أَعْرَابِيٌّ : فَازَ قَوْمٌ أَدَّبَتْهُمُ الْحِكْمَةُ ، وَأَحْكَمَتْهُمُ التَّجارِبُ ، وَلَمْ تَغرُرْهُمُ السَّلَامَةُ الْمُنْطَوِيَةُ عَلَى الْهَلَكَةِ ، وَرَحَل عَنْهُمُ التَّسْوِيفُ الَّذِى قَطَعَ بِهِ النَّاسُ آجالَهُم ، فَأَحْسَنُوا المَقَال ، وشَفَعُوهُ بِالفِعَال ، تَرَكُوا النَّعِيمَ لِيَنْعَمُوا ، لَهُمْ عَبَرَاتٌ مُتَدَافِعَةٌ ، لاَ تَرَاهُمْ إِلاَّ فِى وَجْهٍ عِنْدَ اَللهِ وجِيهاً . .

من قضاة الإسلام

كعب بن سور الأزدى

دكتور فؤاد عبد المنعم

تطلّب الخليفة العادل الحازم : عمر بن الخطاب فيمن يقيم أمر الله بالفصل بين الناس ثلاث خصال : لا يصانع ، ولا يضارع (أى يشبه فعله الرياء) ، ولا يتبع المطامع . وقد أستبان بالتجربة لعمر رضى الله عنه توافر هذه المواصفات فى كعب فولاه قضاء البصرة ، وكانت أحكام كعب من دليل صحتها لا يُختلف فيها أو عليها . فكانت الشهادة التقديرية من عمر لكعب قوله : «نعم القاضى أنت» .

معالم حياته :

• كعب بن سور بن بكر بن الأزدى ، من قبيلة من أهل اليمن ، لم تشر المصادر والمراجع التى بين أيدينا إلى تاريخ ولادته وإن أجمعت أن وفاته كانت فى موقعة الجمل سنة ٣٦ هـ .

• كان كعب مسيحياً فى الجاهلية ، واعتنق الإسلام عن وعى وإدراك – واقتناع ، فكان من القلة الخيِّرة المؤمنة من أهل الكتاب الموصوفة من الله بقوله : «ليسوا سواء : من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين ، وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ، والله عليم بالمتقين» آل عمران : الآيات (١١٣–١١٥) فقد آمن كعب إيماناً صادقاً عميقاً ، وكاملاً وشاملاً وانضم إلى الصف المسلم وقام بحراسة دين الإسلام .

• لم تثبت رؤيته للرسول ﷺ ، ولم يرو عنه أى حديث ، وإن عاصر كبار الصحابة ، وفَقِه آيات الأحكام والحديث . ويعد كعب من كبار التابعين .

• مكث فى القضاء اثنى عشر عاماً فقد استقضاه عمر قاضياً على البصرة فى سنة ١٨ هـ ، ولم يزل كعب قاضياً لعمر حتى استشهد عمر رضى الله عنه فى عام ٢٣ هـ ، وفى

عام ٢٩ هـ ولّى عثمان بن عفان عبد الله بن عامر على البصرة ، فأعاد ابن عامر كعباً على القضاء فلم يزل حتى استشهد .

كيف ولى عمر كعباً لقضاء البصرة ؟

يحدثنا الشعبي : أن كعب بن سور كان جالساً فجاءت امرأة ، فقالت : يا أمير المؤمنين : ما رأيت رجلاً قط أفضل من زوجي إنه ليبيت ليله قائماً ، ويظل نهاره صائماً في اليوم الحار ما يفطر ، فاستغفر لها وأثنى عليها . وقال : مثلك أثنى الخير . . . وقال : واستحيت المرأة فقامت راجعة . فقال كعب : يا أمير المؤمنين ، هَلاَّ أَعَنْتَ المرأة على زوجها أن جاءتك تستعديك ؟ قال : أو ذاك أرادت ؟ قال : نعم . . . فَرُدَّت ، فقال : لا بأس بالحق أن تقوليه ، إن هذا زعم أنك جئت تشتكين زوجك ، أنه يجتنب فراشك . قالت : أجل إني امرأة شابة ، وإني أتتبع ما يتبع النساء ، فأرسل إلى زوجها فجاءه . فقال لكعب : أقض بينهما ، فإنك فهمت من أمرهما ما لم أفهمه . فقال كعب : أمير المؤمنين أحق أن يقضى بينهما ، فقال : عزمت عليك لتقضين بينهما قال : فإني أرى كأنها امرأة عليها ثلاث نسوة هي رابعتهن فأقضى له بثلاثة أيام ولياليهن ، يتعبَّد فيهن ، ولها يوم وليلة (ليس له فيها إلا أداء الفريضة) فقال عمر : والله ما رأيك الأول بأعجب من الآخر ، إذهب فأنت قاض على أهل البصرة .

وفي رواية أخرى طريفة عن المدائني تتفق معها في المعنى وتنفرد بأنها تصور حجج الخصوم وأدلتهم بصياغة شعرية . . فالمرأة التي أتت عمر بن الخطاب تثني على زوجها فقال له كعب بن سور : إنها تشكوه . فقال عمر : اقض بينهما . فتكلمت المرأة فقالت :

يا أيها القاضي الحكيم رشده ألهى خليلي عن فراشي مسجده
زهَّده في مضجعي تعبُّده نهاره وليله ما يرقده
ولست في أمر النساء أحمده فأقض القضاء يا كعب لا تردده

فقال الزوج :

إني امرءاً أذهلني ما قد نزل في سورة النور وفي السبع الطول
زهدني في فرشها ما في الحجل وفي كتاب الله تخويف جلل
فحثها في ذا على حسن البعـــل

فقال كعب :

إن أحق القاضيين من عقل ثم قضى بالحق جهداً وفصل
إن لها حقاً عليك يا بعل نصيبها من أربع لمن عدل
فـــأعطهـــا ذاك ودع عنك العلـــل

كعب يراجع عمر فى قضائه فى عين ماء :

ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى : أن صاحب عين أتى عمر ، وعنده كعب ابن سور ، فقال : يا أمير المؤمنين إن لى عيناً فاجعل لى خراج ما تسق . فقال : هو لك . فقال كعب : يا أمير المؤمنين ليس ذاك له . قال : ولم ؟ قال : لأنه لا يفيض ماؤه عن أرضه فيسق أرض الناس ، ولو حبس ماءه فى أرضه لغرقت ، فلم ينتفع بمائه ، ولا بأرضه ، فمره فليحبس ماءه عن أرض الناس إن كان صادقاً . فقال له عمر : أتستطيع أن تحبس ماءك ؟ قال : لا . قال عمر هذه لكعب مع الأولى . ذلك لأن موقف كعب تطبيقاً لقاعدة إسلامية كلية «الخراج بالضمان» ، ومعنى الخراج ما يخرج من الغلة والنتاج والمنفعة ومعنى الضمان ما يصرف من النفقات أو يتحمل من الأضرار .

تَقَيَّأ كعب الهدية لأنها سُحْتٌ ورشوة :

حدث المدائنى قال : قالت بنت كعب بن سور : أَلْطَفَنا بعض الحى بلُطف (الهدية) فدخل أبى فرآه فأدنيناه إليه ، فأكل ثم قال : من أين هذا لكم ؟ قلنا له : أهداه ، لنا فلان فتقيأه . لأن الهدية إذا دخلت بيت القاضى دفعت إلى الطمع منه والشبهة فيه ، فقد كانت تعاليم عمر بن الخطاب إلى عماله – من جراء تجربته – أن الهدايا هى الرشا . فقد روى لنا الشعبى أن رجلاً كان يهدى إلى عمر بن الخطاب كل عام رجل جزور (صغير الناقة) خاصم إليه يوماً ، فقال : يا أمير المؤمنين : أقض بيننا قضاء فصلاً كما يفصل الرِّجل عن سائر الجزور ، فشعر عمر بثقل هذا القول وأثره على نفس القاضى الذى قد يحيد به عن وجه الحق فى الدعوى ، وقد قضى على الرجل لأن الحق لم يكن معه ، وكتب إلى عماله : ألا إن الهدايا هى الرشا فلا تقبلن من أحد هدية ، إنه تطبيق حى من كعب لتعاليم ولى الأمر العام .

من قضاياه واجتهاده :

● اختصم إلى كعب رجلان ، باع أحدهما صاحبه ورقاً على أن يقطع برضاه ، فجعل يأتيه بالأديم (آلة القطع) فيقول له : اقطع لى من وسطه ورقة ودع باقيه ، فقال كعب : إما أن تقطعه كله أولا تفسده عليه ، وإلا فخذ دراهمك . وذلك من كعب تطبيقاً للمبدأ « لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام » ، ولا يزال هذا أساس نظرية التعسف فى استعمال الحق فى الفقة الإسلامى » .

● أشترى رجل من رجل أرضاً ، فوجدها صخرة ، فأختصما إلى كعب بن سور فقال كعب : أرأيت لو وجدتها ذهباً . أكنت تردها ؟ قال : لا . قال فهى لك . لقد أستند كعب بن سور إلى معيار الشخص العادى فى تقدير العيب المألوف ، وطبق قاعدة : « الغرم بالغنم » ، يعنى أن من ينال نفع شىء يتحمل ضرره .

● حدَّث الرواة : أن امرأتين رقدتا ، ومع كل واحدة ولدها ، فانقلبت إحداهما على أحد الصبيين فقتلته ، وأصبحتا وكل واحدة منها تدعى الباقى ، فاختلفا إلى كعب بن سور فبعث إلى القافة فأوطوا (القافة : من يقتفى الأثر ، أوطوا : اتفقوا) فألحق الشبه بإحدى المرأتين ، فقال كعب : إنى لست بسليمان بن داود ، ولم أجد شيئاً أفضل من أربعة من المسلمين شهوداً . إن اجتهاد كعب فى المسألة المعروضة عليه . وكل من طرفيها مدع ومدعى عليه فى آن واحد ، والتجاءه إلى خبرة رجال الأثر والإلصاق بالشبه مقرونة بتعددهم وعدالتهم لهودليل ظنى مفضى فى الغالب إلى اليقين ، وما التحليل الدموى للطفل والمنسوب اليها فى العصر الحديث من الوقوف على الفضائل الدموية إلا إلحاقاً للشبه وبناء على الظن القريب من اليقين أيضاً . .

موقف كعب بن سور من الخارجين على الخليفتين عثمان وعلى :

بعث الخليفة عثمان بن عفان إلى كعب بن سور وذوى الشوكة والولاة فى الأمصار أن ينصروه ويحثوا الرعية على طاعته ، بعد ظهور الفتنة والتفاف أهل الشغب بداره مطالبينه بأن يخلع نفسه من الخلافة بمقولة أن عماله من أقاربه دون الكفاءة والأمانة المسندة إليهم ويستبدون بالأمر من دونه . وإن كان الواقع أن وراء هذه القوى أيد خفية معادية للإسلام دخلته بقصد الإفساد والقضاء على دولته ورجاله ، وكانت تبث سمومها ورسائلها المزورة إلى

الأمصار على لسان كبار الصحابة تدعوهم فيها إلى الخروج على عثمان ، وفى مقدمة هؤلاء اليهودى عبد الله بن سبأ ، وكان الغرض أن يتكاثر الخارجون على عثمان وتزداد المطالبة بخلعه .

وقد قام كعب بحق ولى الأمر وحث أهل البصرة على نصرة الخليفة عثمان وطاعته . . ومضى كعب إلى عثمان بناء على طلب الأخير وأكد له أن البصرة عامة والأزد خاصة فى طاعته ونصرته وذلك فى سنة ٣٥ هـ ، ولكن الأحداث تصاعدت بعد ذلك وتمكن بعض رجال الشعب من اقتحام دار عثمان وقتله والمصحف فى يده . وأصبحت البلاد وقد استشهد رئيسها والثوار وأهل الشغب كادوا أن يملكوا الزمام فى حاجة إلى الإمام الذى يدرك أن – الحكم مسئولية وتضحية ، وقد اتفق الجميع فى الظاهر بما فيهم الثوار على بيعة على بن أبى طالب وإن كان طلحة والزبير قد بايعاه كارهين لأنهما طلبا منه أن يُنَصِّبهما فى ولايات معينة ، وأن يبدأ بالقصاص من قتلة عثمان ، ولم تكن الظروف لتسمح بذلك . لذلك فقد مضى طلحة والزبير إلى أم المؤمنين عائشة التى كان لها موقفاً خاصاً من ولاية الإمام على بن أبى طالب ، ومضوا جميعاً إلى البصرة مطالبين بثأر عثمان أوخلع الإمام على ، وقد بعث طلحة والزبير إلى كعب بن سور برسالة بقصد استقطابه نصها : « أما بعد ، فإنك قاضى عمر بن الخطاب ، وشيخ أهل البصرة ، وسيد أهل اليمن ، وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى فاغضب له من القتل والسلام « فأجابهما » : أما بعد فإنا غضبنا لعثمان بالأيدى والغير باللسان ، فجاء أمر الغير فيه بالسيف ، فإن يكن عثمان قتل ظالماً فما لكما وله ، وإن يكن قتل مظلوماً فغيركما أولى به ، وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل » .

وقد كان موقف كعب فى البداية الاعتزال عن الحرب ويحث الناس على ذلك فى المساجد ويقول : ويلكم أطيعونى ، اقطعوا هذه النطفة (الماء القليل) وكونوا من ورائها ، وخلوا بين الغاوين ، فوالله لا يظهر طائفة منهم إلا احتاجوا إليكم ، فتصدى له صبرة بن شيمان سيد الأزد وقال له : اسكت إنما أنت نصرانى صاحب ناقوس وصليب وعصا . . فرجع كعب إلى منزله فى دار عمرو ابن عوف فأمر بزاده ليخرج من البصرة ، فبلغ عائشة الخبر وقيل لها إن اتبعك كعب بن سور خرجت الأزد كلها معك ، فجاءت إليه على بعيرها ولم تزل تقنعه بأن غايتها الإصلاح دون قتال حتى خرج معها وراية الأزد معه ، ولما نشب القتال بين فريقها وفريق على كان كعب ممسكاً بزمام جملها « عسكر » فكلفته عائشة بقولها :

خل يا كعب عن البعير وتقدم بكتاب الله عز وجل فادعهم إليه ودفعت إليه مصحفاً ، فمضى يحث القوم على العمل بكتاب الله بيد أن سهماً غرب فأصابه فكان أول مقتول بين يدى عائشة وأهل الكوفة . .

وقيل أنه أصيب مع كعب ثلاثة أخوة أو أربعة ، فجاءت أمهم ، فوجدتهم فى القتلى فقالت :

أيا عين جودى بدمع سرب   على فتية من خيار العرب
فما ضرهم غير جبن النفوس   أى أميرى قريش غلب

ونختم مقالتنا بكلمة للأمام على بن أبى طالب وقد مر على أثر المعركة فى القتلى فوجد كعباً بن سور وهو قتيل ، فقام عليه (صلى عليه) وقال : والله ما علمت أن كنت إلا صلبا فى الحق ، قاضياً بالعدل . . وأثنى عليه على ما ذكره بن وكيع فى أخبار القضاة . .

فضل العلم

يُعَدُّ رَفِيعَ الْقَوْمِ من كَانَ عَالِماً
وإِن لَّمْ يَكُنْ فى قَوْمِهِ بِحَسِيبِ
وَإِنْ حَلَّ أَرْضاً عَاشَ فيها بِعِلْمِهِ
وَمَا عَالِمٌ فى بَلْدَةٍ بِغَرِيبِ

شاعر عربى

نبى الإسلام كما يراه الجنرال ر. ف بودلى

عُرِف محمد بالأمانة والجد ، فلما تخطى الخامسة والعشرين حتى كان من أكبر تجار القوافل وأنشطهم فى غرب بلاد العرب ، فعهد اليه كثيرون غير عمه بأمر تجارتهم . وقد اختلف محمد عن زملائه من التجار ، فبعد انقضاء يومه يقضى وقته فى السوق ، أو فى دار صديق ، حيث يجتمع رجال الفنون ورواة القصص والشعراء . ولطالما أنصت هناك الى الفلاسفة ورجال الاديان يتحادثون فى أمور دينهم وعقائدهم . وتعاقبت رحلاته فألم خلالها بتاريخ تلك البقاع من آسيا وتقاليدها ، وتهيأ له ما تهيأ لأمثاله ممن يقضون أعمارهم فى الرحلات من الحكمة الدنيوية . وإن الدارس لقصة محمد لتبهره حكمته الساطعة ، وليرى محمدا شيئا مميزا لا يمت لعصره بسبب ، وانه ليعجب احيانا من اعتدال أحكامه التى تعالج الامور العامة ، كانت أفكاره سابقة لأفكار معاصريه .

لقد كان محمد ﷺ على نقيض من سبقه من الأنبياء ، فإنه لم يكتف بالمسائل الإلَهية ، بل تكشَّفت له الدنيا ومشاكلها ، فلم يغفل الناحية العلمية الدنيوية في دينه ، فوفَّقَ بين دنيا الناس ودينهم ، وبذلك تفادى أخطاء من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خلاص الناس عن طريق غير عملى . لقد شبه الحياة بقافلة مسافرة يرعاها الله ، وأن الجنة نهاية المطاف .

وظلت اخلاقه ثابتة لا تتبدل ، أيا كان العمل الذى يعمله ، سواء أكان يرعى غنمه فى سكون البادية ، أو يبيع عطوره أو أنماطه فى دمشق ، ولم تتبدل أمانته ، ولم يتغير صدقه ، بل بقيت فضائله ثابتة على الأيام ، حتى لقب «بالامين» ، ولم تفتنه النساء قط ، ولم تفتنه الشهوات أيضا ، وبقيت غرائزه الجنسية مهذبة ، وكان حاضر البديهة ، عذب الحديث ، ميالا الى معاشرة الناس ، معتنيا دائما بملابسه وهندامه ، فكان يلبس للخيام لبسا وللطريق لبسا ، ويعتنى بلباسه غاية العناية اذا ما كان فى الدار ، وكان يهتم بعمامته ، وكانت ملابسه نظيفة أبدا ، وكان يفضل البياض وإن كان قد لبس الألوان الزاهية فى أيامه الأخيرة . .

وما كان محمد ثرثارا ، وان كان صادق الترحاب بمن يقبل عليه . وكان على سليقته — العربية لا يتكلم إلا إذا كان هناك ما يصلح للحديث ، وقد أعلن أن من الإيمان الإعراض عن اللغو.

وكان متوسط الحال ، وقد قال بعضهم فيه يوما : « انه أخفر من عذراء فى خدرها » ، . . ولم يثبت فى تاريخه حتى اليوم أنه أتى أمرا خارقا ، وأن الحادث التالى الذى يذكر على سبيل التدليل على فطنته ، ليبرهن على أنه كان يتفوق على أقرانه برجاحة عقله ، فقد أثرت الأمطار فى الكعبة فتصدعت جدرانها ، وأصبح شد بنيانها أمرا ضروريا ، وأقبلت قريش على هذا العمل بعد إحجام.

ولما آن وضع الحجر المقدس فى مكانه زاد الخصام ، واشتد الامر ، واستفحل الخطب ، وكادت تندلع نار الحرب ، قال احدهم : اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل باب الصفا . فلما رأوا محمدا أول من دخل هللوا غبطة ووضعوا الأمر بين يديه . ففكر قليلا ثم خلع عباءته ونشرها ، وأخذ الحجر الأسود ووضعه فيها ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطارف هذا الثوب . فحملوه جميعا الى ما يحاذى موضع الحجر من البناء ، ثم تناوله ووضعه فى موضعه قبل أن ينشب خلاف آخر.

أما زهد النبي وأتباعه فقد صوره المؤلف بفقرته التالية :

(ولقد أوضح محمد منذ اللحظة الاولى أن الاسلام يقوم على البساطة ، ولقد اعتنق أصحابه تلك المبادئ حتى بعد موته . فما يروى أن خالدا قائد جيوش المسلمين فى الشام أيام خلافة عمر اجتمع بقائد الجيش الرومانى تحت خيمة كبيرة ، وكان الرومان يرتدون الكسى المزخرفة البراقة ، ويحملون سيوفا مرصعة بالجواهر المتلألئة . أما خالد وأصحابه فكانوا يرتدون رداء الأعراب المقاتلين ، دروعا بسيطة ، وسيوفهم إلى جانبهم لا بريق فيها ولا زخرف . وألقى المسلمون التحية لدى دخولهم وجلسوا أرضا . فسألهم القائد الرومانى : لم لا يجلسون على المقاعد . فأمعن خالد فيه النظر ثم قال :

« لقد خلقت من الارض ، منها نتبت واليها نعود ، الله خالق الارض ، وما يخلقه الله أثمن من طنافسكم الحريرية » . .

وفى اليوم التالى هزم خالد وبدوه الزهاد جيش الرومان هزيمة لم يعرف لها مثيل من قبل ، واستولوا على القدس .

حتى النبى عندما حقق انتصاره الاكبر ، ودخل مكة وحطم أصنام الكعبة ، وأتم فيها

أهم جزء من رسالته بتطهير بيت الله من الأوثان ، نام على قطعة من الحصير ، كما كان ينام وهو أجير يقود القوافل للقرشيين ولخديجة بنت خويلد .

فلله درهم . . أولئك الزهاد . . الذين لم يقيسوا الدنيا بما فيها من غرور . . . وإنما عالجوها المعالجة التى تؤدى الى الخير ، والذين ساووا أنفسهم بأصغر صغير من أتباعهم ، لم تخدعهم المناصب ، ولم تغرهم أبهة السلطان ، وفى المدينة وضعت صيغة الآذان لدعوة الناس إلى الصلاة ، وكانت فكرة موفقة صائبة ، وإن صوت المؤذن لينبعث كل يوم خمس مرات مناديا « الله أكبر . . الله أكبر . . أشهد ان لا إله إلا الله . . وأشهد أن محمدا رسول الله . . فاذا بالرنين الحلو ينساب من فوق مآذن المساجد فى أنحاء العالم ، وإنه لرنين يهز قلوب الناس ومشاعرهم أيًا كانت عقيدتهم » .

الرسول كسياسى ودبلوماسى

ومن الحوادث التى تناولها هذا المؤلف بالبحث والتحليل صلح الحديبية عام ٦٢٨ الذى وصفه بأنه نصر سياسى دبلوماسى لنبى الاسلام جدير بالاعجاب والتسجيل . . . وفى هذا الصدد كتب بودلى يقول :

(وجد النبى بعد خروجه من مكة أن الامل فى الاتفاق مع القرشيين ضعيف ، وأضعف منه أنه يأخذ مكة بقوة السلاح . لهذا سعى لتوطيد سلم بين مكة ومحمد بطريقة لا تجرح المسلمين .

وقد واتت محمدا فكرة بديعة هى أن يأخذ رجاله غير مسلحين ، ويشترك فى الحج السنوى الى الكعبة وسيأمنون الغدر بهم لانهم سيكونون فى الأشهر الحرم .

وفى فبراير سنة ٦٣٨ اجتمع خارج المدينة ألف وخمسمائة من حجاج المسلمين فى ثياب الإحرام البيض ، وتحركوا الى مكة حتى بلغوا مشارفها وضربوا خيامهم ، وتربَّص محمد ليرى كيف يتصرف القرشيون .

ولم يكن هؤلاء ينوون الإذعان بسهولة لهذه الجرأة فبعثوا إلى النبى يفاوضونه فى أن يرجع هذا العام ويعود فى العام التالى فيحج الى الكعبة . وانتهت المفاوضات بين الطرفين بعقد هذه المعاهدة فى مارس سنة ٦٢٨ .

وبمقتضى هذه المعاهدة بين محمد بن عبد الله وسهيل بن عمر ، يتفق الطرفان على أن

يعود محمد ورجاله فورا الى المدينة ، ويؤذن لهم بالرجوع فى العام التالى للحج ، وستخصص لهم ثلاثة أيام يؤدون فيها فرائضهم حول الكعبة وفى هذه الفترة يخلى القرشيون مكة ، ويعسكرون خارج أسوارها ، وسيكون على الحجيج من أتباع محمد أن يكونوا غير مسلحين إلا بالسيوف المغمدة التى يؤذن للراجلين بحملها للدفاع عن النفس . وتدوم هذه المعاهدة عشرة أعوام . تجرى فيها قوافل الطرفين فى أرض مكة والمدينة بسلام . ويعاد الى مكة كل المكيين الذين يَلْجَأون الى المدينة بقصد الاسلام دون موافقة عائلاتهم على ذلك .

ولا شك أن هذه المعاهدة كانت أعظم نصر دبلوماسى حققة محمد ، ففيها اعتراف به كزعيم لجماعة كبيرة من العرب يحسب لها حساب . ولها قوة وحقوق . وإمضاء معاهدة معه بهذا الوصف . بعد طول الطراد والنزال نصر مؤزر . . وأى نصر ! . .

وكان محمد يتطلع الى أبعد من ذلك ، كان يرى أن المعاهدة مقدمة لها ما بعدها . فإن مجرد استطاعته وضع قدمه فى مكة ، كفيل بأن يبقيه فيها أبد الآبدين . .

الحج عام ٦٢٩ م

فى العام التالى قصد النبى على رأس الحجاج إلى مكة . فلما أصبحوا على مرمى النظر خرج المكيون من منازلهم ، وتركوا المدينة وعسكروا خارجها ، ودخلها المسلمون . فلما نحوا الكعبة ، انبعثت من حناجرهم التكبيرات ، «لبيك اللهم لبيك» . . . .

وبعد أن أدوا مناسك الحج ، باتوا ليلتهم حول الكعبة ، فلما أصبحوا أمر النبى بلالا أن يؤذن . فأذن قائلا «الله أكبر . . الله أكبر» . .

لقد كان لهذا الآذان وقع لا يبارى . . لقد سمعه أهل مكة جليا . ورأوا آلهتهم جامدة كالصخر ، لم تثر ولم تغضب لانتهاك حرمتها ، ولم ترسل الصواعق مدرارا على رؤوس أولئك الكفرة ، ولم تفجر ينابيع الارض ، أو تشقق جوفها تحت اقدامهم .

رأى القرشيون ذلك وتأثروا به ، فكان أن قصد خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وعثمان ابن طلحة إلى النبى بعد ثلاثة أشهر فى المدينة وأعلنوا اليه إسلامهم .

ولم يقتصر الأمر على أهل مكة ، بل لقد قصدته القبائل من كل أنحاء الجزيرة تعلن اسلامها ، فما انتهى عام ٦٢٩ حتى رأى محمد أن الوقت قد حان لتصفية الموقف مع أبى سفيان .

وعندما اعتدت قبيلة من حلفاء قريش على أخرى من حلفاء محمد كان ذلك حجة قوية لهذا النبى ، للرد على نقض المعاهدة ، ودخول مكة بقوة حراب المسلمين .

أحاط النبى وقواده أمر الحملة بالكتمان التام ، فأغلقت كل الطرق الموصلة الى مكة ، ومنعت قبائل البدو من التحرك فى الصحراء ، وبذلك لم يعلم العدو شيئا عنها حتى أصبحت على أبواب مكة ،

تحرك الجيش فى أول يناير سنة ٦٣٠ وبلغ عشرة آلاف مقاتل كاملى العدة والسلاح ، وولى الزبير قيادة المقدمة ، يعاونه مائتان من الخيالة ، والرسول على رأس قلب الجيش ، وتولى عمر تنسيق تقدم هذا الجيش الجرار . فقاده ، خلال مسالك غير مطروقة ، ولم يأذن بدق الطبول أو التكبير .

والتقى الجيش فى الطريق بالعباس عم النبى وهو فى طريقه الى المدينة ليعلن إسلامه ، وبذا كان آخر المهاجرين .

وأخيرا حط الجيش رحاله إلى جوار مكة ، وأذن عمر باشعال النيران فاشتعلت منها ألوف . ورآها أهل مكة فتولاهم الذعر والفزع ، وأوفدوا أبا سفيان لتقصٍّ حقيقة الامر . فالتقى به العباس الى جوار معسكر الجيش فنصحه بالمبادرة الى التسليم ، قبل أن يدمر محمد مكة .

وفى الصباح أعلن أبو سفيان بين يدى النبى إسلامه وأنه سيسلم مكة ففرح النبى . . . ها هى مكة تُسَلِّمُ اليه دون أن تراق الدماء ودون أن يقتل الأخوة وأبناء «العمومة» .

وطلب محمد من أبى سفيان أن يأمر الناس بالبقاء فى منازلهم ، فمن فعل فهو آمن . . » .

وعاد أبو سفيان فأعلن ذلك للناس فدخلوا دورهم ولزموها . واستعرض محمد جيشه ، وسلم بيرق المسلمين لعلى . واحتاط من أى خيانة بأن طوق المدينة أولا ، ثم دخلها من جهاتها الاربع فى وقت واحد فدخلها خالد على رأس الخيالة من الجنوب ، وقاد الزبير جماعات البدو على جمالهم من الشمال ، ومن الغرب تقدم أهل المدينة بقيادة سعد بن عباده . أما من الناحية الشرقية فتركت للمحاربين القدماء برياسة أبى عبيدة ، ثم دخل النبى وقواده تحيط به فرقة رماة الرماح المدرعين ، بقيادة أسد الصحراء العربية على بن أبى طالب . . وتم كل ذلك بنظام بديع . . دون أى مقاومة ، فيما خلا حادثة واحدة . وقعت بين طابور خالد وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل . وانتهت فى دقائق بقمع التمرد . .

وبدل محمد ثيابه الحربية . وطوّف بالكعبة . ثم دعا أعوانه الذين صحبوه من البداية فأخذوا فى تحطيم أصنام الكعبة . وهم يرددون (جاء الحق وزهق الباطل . . . ان الباطل كان زهوقا» . .



الحرب

قال ﷺ :

«لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَاسْأَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاثْبُتُوا ، وَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الجنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيوف . .» .

مقترحات لإذاعة "القرآن الكريم"

دكتور عبد الودود شلبي

هذا التخبط الذى يعيش فيه الشباب ، والفراغ الدينى الذى يسيطر عليه ، وهذه البلبلة الشائعة فى اسلوب التفكير ، واسلوب العمل ، واسلوب الدعوة الى الله ، والحفاظ على قيمنا الرفيعة ومثلنا العليا . . . .

هذه الامور وغيرها مما تحفل به الساحة الاسلامية ويتردد صداها فى ارجاء عالمنا الاسلامى والعربى . وينعكس « سلبا وإيجابا » على الواقع الملئ بالتناقضات الصارخة ، والسلبيات الشائعة . فما علاج ذلك كله ؟ وما الحل الامثل لتلافى هذه العيوب ، والوقاية من هذه الامراض ، وارشاد الشباب وغيره من طوائف الامة الى سبيل الحق والرشاد ؟

ان تقصيرنا فى هذا المجال واضح ، ودورنا فى هذا الميدان لايزال محدودا ، وهمتنا فى مواجهة هذه الظواهر لاتزال واهنة ، وتصورنا للعلاج لا يتجاوز وظيفة « دعى الطب » فى القرى النائية .

° ° °

منذ قرابة عشرين عاما وقع خلاف بين القيادة السياسية فى « مصر » والقيادة الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ، وكانت الحرب سجالا بين الفريقين ، على امواج الأثير ، وفى صفحات الجرائد ، وعلى السنة الساسة ورجال الفكر ، وخرجت المظاهرات فى هذا الوقت تهتف بسقوط الشيوعية ولعنة الاتحاد السوفييتى عدو الاسلام والعروبة .

وقد اتصل وزير الاعلام فى هذا الوقت « الدكتور عبد القادر حاتم » بوزير الأوقاف « السيد/أحمد عبد الله طعيمة » للاتفاق على اختيار بعض العلماء لإلقاء أحاديث عن مفاسد الشيوعية ، وخطرها على الدين والعروبة ، واتصل وزير الاوقاف بمدير المساجد فى هذه الفترة الأستاذ الشيخ محمد الغزالى ، وكان من نتيجة هذه الاتصالات تشكيل لجنة للاضطلاع بهذه المهمة ، واقتراح ما تراه وافيا لتحقيق هذه الغاية . ثم تطورت الامور بعد ذلك الى تقديم اقتراح بانشاء اذاعة خاصة تسمى اذاعة « صوت الاسلام » ووقع الاختيار

على فضيلة الشيخ محمد الغزالى لوضع البرامج المفصلة لهذه الاذاعة . وبخاصة بعد الحصول على وثيقة صادرة عن مجلس الكنائس لانشاء محطة تبشيرية لمنطقة الشرق الادنى والمنطقة العربية ، واشتركت مع فضيلة الشيخ الغزالى فى التخطيط لهذه البرامج التى تم اعدادها فى يوم وليلة .

وقد كتب فضيلة الشيخ الغزالى الى الدكتور حاتم يشرح فكرة هذه الاذاعة ، والاسباب الداعية الى انشائها بسرعة :

إن ما لمسته فى قلبكم من ايمان كريم ، وما عرفته امتنا العربية عنكم من نشاط مثمر وجهد دائب يجعلنى اتقدم لكم بهذه المعلومات والمقترحات آملا أن تلقى منكم ما تستحقه من عناية وهى تتصل بالوقوف امام دسائس الاستعمار وكشف الازياء التى أخذت تظهر فيها محاولة النيل من العرب ورسالتهم فى هذه الأيام .

سيدى : يقوم اتحاد الكنائس للشرق الادنى فى الوقت الحاضر ببناء اذاعة فى الحبشة تحت اسم اذاعة صوت الانجيل لتقوم ببث البرامج الدينية والاستعمارية باللغة العربية واللغات الافريقية .

ولهذه الاذاعة قصة تبدأ عندما وعد كميل شمعون الاتحاد الكنائسى بالسماح له باقامة هذه الاذاعة فى لبنان . ولكن احداث عام ١٩٥٨ فى لبنان قضت على المشروع ، وبالتالى استدعت اعادة النظر فى الموضوع وبناء عليه عدل المشروع الى الشكل التالى :

١ – إقامة محطة فى أديس أبابا قوتها ١٥٠ كيلوات موجهة الى الشرق الاوسط وافريقيا وهذه المحطة ستكون جاهزة فى نهاية عام ١٩٦٢ ، وستتكلف أربعة ملايين [1] دولار .

٢ – اقامة استديوهات لتسجيل البرامج العربية فى كل من : بيروت ، القاهرة ، عمان ، والكويت لتغذية الاذاعة وقد بدأ فعلا اعداد وتحضير هذه الاستديوهات .

وقد عقد الاتحاد الكنائسى للشرق الادنى اجتماعا استمر من ٢٦ فبراير لغاية ٢ مارس فى القاهرة بحث خلاله الترتيبات اللازمة لنجاح المشروع ، وقد قرر فى اجتماعه المذكور التستر بالمؤسسات الثقافية والدينية لتأمين البرامج اللازمة للمحطة .

وقد ظهر أثر هذا العمل باتخاذ استديو كلية بيروت الامريكية للبنات مركزا لتحضير

(١) لقد قامت عدة إذاعات تبشيرية فى العالم العربى وفى أفريقيا منها إذاعة فى لبنان ، وأخرى فى «أديس أبابا» وثالثة فى منروفيا ، ورابعة فى مونت كارلو .

هذه البرامج . وخطر هذه الاذاعة جسيم لأن الاتحاد الكنائسى للشرق الادنى مرتبط ارتباطا وثيقا باليهودية العالمية والصهيونية ، وهو الذى يجمع فى كنائسه فى امريكا المبالغ الطائلة سنويا تبرعا لاسرائيل .

وعليه يجب أن تقاوم هذه الاذاعة التى تمثل تكتلا تبشيريا استعماريا صهيونيا بطريقين :

١ - اقفال الاستديوهات التى ستقام فى البلاد العربية مع شن حملة دعاية ضد الفنانين والمذيعين الذين قد يتعاونون مع هذه الاذاعة .

٢ - ادخال تعديلات على برامج الاذاعة العربية وخصوصا اذاعة صوت العرب حتى تستطيع ان تواجه بطريقة لبقة هذا التعصب الدينى الأعمى .

هذا ويسرنى ان اضع بين ايديكم صورة من برنامج «اذاعة صوت الاسلام» الذى سبق ان اقترحنا مواده على السيد الاستاذ احمد طعيمة وزير الاوقاف السابق فربما أمكن الانتفاع به فى هذا المجال ، ولعل اذاعة صوت العرب يمكنها ان تتوسع فى دائرة الثقافة الدينية على ضوء ما جاء به .

ذلك وآمل ان تتقبلوا تحياتى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

مدير المساجد

اذاعة صوت الاسلام

غايتها :

١ - ربط المسلمين بدينهم ومثله العليا ، وتزويدهم بأغذية روحية وثقافية تجعل حياتهم العملية مطابقة لمبادئ الاسلام .

٢ - عرض الاسلام على الامم كافة عرضا يتسم بالشرح والاعتماد على ذكر الحقائق المعروفة من الكتاب والسنة .

٣ - توكيد رغبة الاسلام فى مسالمة اتباع الاديان الأخرى ، وكفالة حق الحياة وحرية العقل والضمير لسائر الأمم والاجناس .

وسائلها :

١ – القرآن الكريم . تلاوته . تفسيره . مقاصده . اغراضه . علومه . صلته بالكتب السابقة وانواع هدايته .

٢ – السنة النبوية . وما فيها من فضائل أحكام ومقارنتها باهداف القرآن وواقع الحياة .

٣ – شرح العقائد الاسلامية شرحا مبسطا يقترن بآثارها فى حياة الرسول وصحابته وبيان أصول الوحدة الدينية التى تجمع بين الانبياء فى صعيد واحد . وهى الوحدة التى يعتمد عليها الاسلام فى تفسيره لعناصر الايمان .

٤ – التنبيه الدائم لاهداف الاسلام الانسانية فى المجتمع والنفس . ودعم كل هدف بالنصوص التى تقررها من الكتاب والسنة .

٥ – شرح العبادات العملية من صلوات وزكوات شرحا يستهدف التقريب بين المذاهب الفقهية الاسلامية الشائعة . ويعين على جعل هذه العبادات رياضية نفسية عميقة الأثر .

٦ – الاهتمام بالجانب الروحى ، واحياء التراث الخلقى العالى الذى تركه أئمة التصوف ، مع شرح الاساليب الرقيقة التى تتصل بعواطف الحب الالهى وذلك باستعراض التراث الصوفى بعد تقويته من الدخيل والشوائب .

٧ – التذكير بأمجاد المسلمين المدنية والثقافية والعسكرية . ونشر تراجم جلية للقادة والأئمة والساسة والدعاة . واعطاء الأولوية فى ذلك للسيرة النبوية وتاريخ الخلفاء .

٨ – تاريخ انتشار الدعوة الاسلامية بين الشعوب الاسلامية . وكيف استقبلت تلك الشعوب الاسلام ومن بينهم أشهر الدعاة الى هذا الدين كل فى وطنه .

٩ – لفت انظار المسلمين الى البدع التى اقترنت بالاسلام ولم تكن قبل ذلك شيئا لا فى اصوله ولا فى فروعه .

١٠ – التعريف ببلاد العالم الإسلامى تعريفاً مقتبساً من واقع جماعاته وأوطانه المتفرقة فى أنحاء العالم .

١١ – الكشف عن مآسى الاستعمار فى العالم الاسلامى . وبيان الأسباب التى أدت الى سقوط كثير منها فى براثنه . والدعوة الى استخلاص ما بقى منها تحت قبضته ونفوذه .

١٢ - فضح المطامع الصهيونية . وكشف القناع عن أغراضها التوسعية . وبيان ما فى (تلمودها) من العودة الى القتل والهمجية .

١٣ - الاهتمام بتعليم اللغة العربية وتخصيص بعض البرامج لتعليمها لأبناء الدول الاسلامية والانتفاع بذلك بطريق راديو (لندن) وصوت أمريكا فى تعليم اللغة الانجليزية .

التفصيل العملى للبرامج

١ - لماذا نحن مسلمون ؟

برنامج تعرض فيه مبادئ الاسلام عرضا مبسطا . . مع ملاحظة هذين الاعتبارين الهامين .

الأول : ايقاظ مشاعر الايمان فى قلب المسلم حتى يرسخ ايمانه .

الثانى : بيان ما فى الاسلام من فضائل يتميز بها على غيره من الاديان والعقائد .

٢ - حقائق وأباطيل :

رد على خصوم الاسلام من المبشرين والمستشرقين والمستعمرين . ويكون ذلك بما يأتى :

أولا : فضح أساليبهم .

ثانيا : بيان ما يريدون بأكاذيبهم .

ثالثا : رأى الاسلام فى أباطيلهم .

٣ - الأمة الواحدة :

يتولى هذا البرنامج تضييق شقة الخلاف وتقريب وجهات النظر بين الطوائف والجماعات الاسلامية ويتحقق ذلك بما يأتى :

(١) الاعتماد على الكتاب والسنة فيما يتصل بالتشريع والفقه بين أهل السنة .

(ب) التقريب بين الشيعة وأهل السنة .

٤ - بطولات اسلامية :

برنامج قصصى أو تمثيلى يعرض لاحدى الشخصيات الاسلامية التى قامت بعمل عظيم فى تاريخ الاسلام مع ابراز ما فى هذه الشخصية من خصائص الفدائية والبطولة .

٥ - ليس من الاسلام :

برنامج يدعو إلى التصدى لكل فكر خارج على جوهر الاسلام ويحارب البدع والخرافات الشائعة فى أرجاء العالم الاسلامى .

٦ - ظلام من الغرب :

دعوة الى نبذ التقاليد الضارة والعادات السيئة الدخيلة على المجتمع الاسلامى فى التشريع والاخلاق والعادات والتقاليد .

٧ - الفتاوى .

برنامج يرد على أسئلة المستمعين فى أنحاء العالم الإسلامى .

٨ - البرنامج الدينى لإذاعة القاهرة .

القرآن الكريم . الأحاديث الدينية . الآذان . صلاة الجمعة والأعياد .

٩ - مبادئ . . . ورجال .

يتناول هذا البرنامج حياة رجل من زعماء الإصلاح الإسلامى .

أولا : عرض تاريخه .

ثانياً : بيان أفكاره ، ومناهجه .

١٠ - الوطن الإسلامى .

تعريف ببلاد الإسلام من الناحية :

الجغرافية ، السياسية ، الاقتصادية ، الاستراتيجية .

١١ - رسائل من العالم الإسلامى .

يتولى هذا البرنامج الرد على اسئلة المستمعين التى يثيرونها حول قضايا العالم الإسلامى ومشكلاته .

١٢ - قضايا العالم الإسلامى .

فلسطين ، كشمير ، الأقليات الإسلامية التى تعانى من الضغط والاضطهاد . . كل هذه قضايا لابد من اهتمام المسلمين بها ، وتعريفهم بأسبابها ثم تعاونهم بعد ذلك على حلها كل فى وطنه حسب إمكانياته وظروف بلاده .

١٣ - الأنباء .

نشرة إخبارية خاصة بأخبار العالم الإسلامى .

وتحرر هذه النشرة من إخصائيين يدركون ما فى العالم الإسلامى من جهات مختلفة وآراء

سياسية متعارضة .

١٤ - حى على الفلاح :

برنامج حضارى اصلاحى يقوم على ما يأتى :

١ - عرض ما فى الاسلام من رقى وطهارة .

٢ - اقتباس النافع من أساليب الغرب فى المدنية والحضارة

١٥ - لا سادة ولا عبيد :

برنامج يدعو الى محاربة العنصرية والتفرقة بين سكان العالم .

لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى وطاعة الله .

١٦ - مخربون لا بناءون !

برنامج يعرض للمذاهب الهدامة المنتشرة فى عالمنا المعاصر . (الشيوعية - الماسونية - البهائية القاديانية . .الخ .

١٧ - حقيقة الصهيونية :

مطامعها . جرائمها . اسرارها . اسفارها وتلمودها .

لماذا نحاربها ونقاومها . . . ؟

١٨ - برنامج موسيقى غنائى يقدم اشهر الاغانى والالحان الدينية والوطنية والعاطفية المهذبة من جميع اقطار العالم الاسلامى .

هذه هى الملامح العامة للبرامج المقترحة لهذه الاذاعة ، وهى - كما نرى - جديرة بالاهتمام والدراسة ، وفى اذاعة «القرآن الكريم» بصفة خاصة . .

وفى رأينا - لكى تأخذ هذه البرامج طريقها إلى التطبيق العملى فى هذه الاذاعة - ان تدعم اذاعة «القرآن الكريم» بالخبرات الاذاعية الناجحة ، وبالاجهزة الفنية القوية ، وان يتدخل «الفن الاذاعى» فى اخراج برامجها بطريقة تجذب إليها المستمعين من كل طائفة . . .

لقد زوحمت اذاعة «القرآن الكريم» باذاعة تبشيرية لصيقة وهى إذاعةٌ إرسالها من «مونت كارلو» امارة الفجور والقمار العالمية ، وقد تعمدت هذه الاذاعة ان تبث ارسالها بجوار - اذاعتنا القرآنية - لتصيد المستمعين الذين يبحثون عن اذاعة القرآن الكريم فى كل أمسية . .

لقد سبقت البرامج الموجهة (الى غرب افريقيا) كل اذاعاتنا فى هذه الناحية .

فالتخطيط فى هذه الاذاعة يسير وفقا لخطة موضوعية ، ويتناول قضايا الفكر والعقيدة بلغة مبسطة ، وقد قدمت هذه البرامج الكثير فى هذا الميدان منذ سنوات طويلة ، واستكتبت لهذه الغاية خيرة المفكرين فى مصر الخالدة . . .

انى اقدم هذه المقترحات ايمانا بدور الاعلام فى شرح قضايانا العقدية والحضارية وحبا لاذاعة « القرآن الكريم » التى نأمل ان تكون خير اذاعة ، وان يصل صوتها المقدس الى آذان المسلمين وغير المسلمين فى انحاء الدنيا .

د / عبد الودود شلبى

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين[1]

تأليف العلامة : أبى الحسن الندوى

عرض وتلخيص : الأستاذ : عبد الحفيظ فرغلى القرنى

فى أعقاب مؤتمر علماء المسلمين الثامن الذى نظمه مجمع البحوث الإسلامية فى القاهرة . أقدم للقارىء الكريم هذا الكتاب الكريم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » الذى أعتقد أنه لم تغب فصوله وماخط فيها من سطور ذهبية عن أعين هؤلاء العلماء الأجلاء ، الذين جمعتهم من أقطار العالم الإسلامى الغيرة على دينهم والرغبة فى الحفاظ عليه واستعادة تاريخه المشرق وتعاليمه السمحة المباركة ، وقد ظهر ذلك واضحا فيما أصدره المؤتمر فى جلسته الختامية من قرارات وتوصيات ، نضرع إلى الله أن تتحول إلى تطبيق عملى ومنهج واقعى فى حياة المسلمين وقادتهم .

وهذا الكتاب الذى أشرف بتقديمه نفذت طبعته العاشرة باللغة العربية بعد أيام قلائل من صدورها هذا العام ، كما نفذت طبعته الثالثة باللغة الإنجليزية ، وطبعته الثانية باللغة الفارسية ، وطبعته السادسة باللغة الأوردية وقد تخاطفت نشره دور النشر المختلفة التى لم يستأذن بعضها مؤلفه فى ذلك ، وتناولته بعضها بالتحريف والتغيير والتقديم والتأخير ، وليس لذلك تعليل سوى أهمية هذا الكتاب الذى جاء – كما يقول مؤلفه فى مقدمة طبعته الرابعة – فى أوانه ، وصادف رغبة غامضة واتجاها مبهما فى النفوس ، وبأنه يتجاوب مع شعور كثير من المفكرين والمثقفين فى العالم العربى ، ويلتقى مع أفكارهم ودراساتهم . .

ومؤلف هذا الكتاب القيم غنى عن التعريف فهو من أكبر المفكرين الإسلاميين ، ومن أقدر أساتذة الجيل العصرى الذين يعتز بهم الإسلام ويفخر بانتسابهم إليه ، وله مؤلفاته العديدة ومقالاته الواسعة التى يعرض فيها قضايا الإسلام ويناقش مشكلات المسلمين فى دقة بالغة وموضوعية نادرة وتحليل بارع وفكر سديد وحرص كريم على أن يتبوأ المسلمون مكانتهم اللائقة بهم ، ويعودوا إلى سابق مجدهم الذى يستحقونه بجدهم وحرصهم على تنفيذ تعاليم دينهم .

(١) صدرت الطبعة الأخيرة عن دار الأنصار – القاهرة .

والكتاب الذى بين أيدينا صورة صادقة لفكر هذا العلامة الإسلامى العظيم ، الغيور على دينه المتفهم له المتعمق فيه وفى غيره من وجوه الثقافات الأخرى على اختلاف منابعها واتجاهاتها . مما جعله أقدر على المقارنة والاستقصاء والعرض والاستخلاص والتمثيل والاستشهاد ، يعينه على ذلك عقيدة صافية وفكر مرتب وقلم مطوع وأسلوب سهل ممتنع .

وقد قدم له أساتذة أجلاء ، لاينبغى لهذا القلم الذى فى يدى أن يرتفع إلى مستواهم ، فإن كتب شيئا فهو جهد متواضع – وليس إضافة جديدة – فى التنويه بهذا الكتاب العظيم ، الذى جعل الدكتور محمد يوسف موسى قراءته فرضا على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام . والذى وصفه الأستاذ العظيم المرحوم سيد قطب بأنه من خير ماقرأ فى هذا الاتجاه فى القديم والحديث ، سواء لمايبعثه فى نفس قارئه من أحاسيس العزة من غير كبر وروح الثقة فى غير اغترار وشعور الأطمئنان فى غير تواكل ، وبما يلقيه على كاهل المسلمين من تبعة إنسانية ، هى تبعة الوصاية على هذه البشرية فى مشارق الأرض ومغاربها وتبعة القيادة فى هذه الأرض للقطعان الضالة وهدايتها إلى الدين القيم والطريق السوى . .

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟

يقدم الكتاب نفسه بهذا السؤال . ملقيا الضوء على سر هذا التساؤل وسبب هذه الخسارة التى حاقت بالعالم بتأخر الإسلام ، ويصف ذلك بأنه مأساة إنسانية عامة لم يشهد التاريخ أتعس ولاأعم منها ، فلوعرف العالم حقيقة هذه الكارثة وانكشف عنه غطاء العصبية لاتخذ هذا اليوم النحس الذى وقعت فيه يوم رثاء ، ولتبادلت شعوبه التعازى ، وإنما هذا الحادث وقع تدريجيا دون أن يحسب العالم له الحساب الصحيح ؛ وذلك أن المسلمين فى دولتهم لم يكونوا كغيرهم من الأمم التى تحطمت بعد أن بغت وظلمت فاستحقت من الله ذلك ، ولكن المسلمين كانوا عافية الجسم الإنسانى ، هم حملة رسالة الأنبياء ، وهم روح المجتمع البشرى فكان انهيارهم انهيار دعامة قام عليها نظام الدين والدنيا معا . .

وبهذه المقدمة يرسم الكتاب خطوات بحثه ، ثم يمضى ليصف لنا كيف أنقذ الإسلام الإنسانية من الاحتضار :

العصر الجاهلى : جاء الإسلام فى ظروف اقتضت مجيئه ، فقد نسى الإنسان خالقه فنسى نفسه ومصيره ، وفقد رشده وقوة التمييز بين الخير والشر ، لقد انسحب رجال الدين من الحياة ، ولاذوا بالأديرة والخلوات فرارا من الفتن ، أورغبة فى الهدوء أو فرارا من

تكاليف الحياة أواخفاقا فى كفاح الدين والسياسة . . لقد أصبحت الديانات فرصة للعابثين حتى فقدت روحها وشكلها . .

لقد جاء للمسيحية فى القرن السادس الميلادى من طمس معالمها ,طعَّمها بخرافات الوثنية ، وقضى على البقية الباقية منها « قسطنطين » فأصبحت مزيجا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومانية والأفلاطونية المصرية والرهبانية ، وتلاشت فى جانب ذلك تعاليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة فى اليمِّ ، وحيل فى ظل المسيحية الجديدة بين العقل والعلم وثارت محاولات شغلت فكر الأمة وانتهت إلى حروب واغتيالات وانتهاب وتعذيب . . واشتد هذا الصراع بين نصارى الشام والدولة الرومانية وهؤلاء يطلق عليهم « الملكانيين » وبين نصارى مصر الذين يطلق عليه « المنوفيسيين » حتى صار الصراع كأنه حرب عوان بين دينين مختلفين ، ولم يتمكن هرقل المنتصر على الفرس توحيد هذه الدول المتصارعة . . وتحولت رسالته الى اضطهاد تقشعر منه الجلود . فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون إغراقا ، وتوقد المشاعل وتسلط على الأشقياء حتى يسيل الدهن منهم . . وهذا الإرهاب الفكرى الفظيع يظاهره انحلال اجتماعى وقلق اقتصادى أدى إلى أن ذابت الفضيلة وانهارت الأخلاق وبيع العدل وراجت الرشوة والخيانة .

ومصر بلد النيل السعيد أصبحت أشقى بلاد الله بالنصرانية وبالدولة الرومية لما كان يدور فيها من مناظرات عقيمة فى طبيعة المسيح وفلسفة ماوراء الطبيعة . ولما كانت تلقاه من اضطهاد الروم واستبدادهم حتى قال الدكتور غوستاف فى ذلك : « لقد أكرهت مصر على أنتحال النصرانية ولكنها هبطت بذلك الى حضيض الانحطاط الذى لم ينتشلها منه سوى الفتح العربى » . . لقد أتخذها الروم شاة حلوبا ، ولم تكن الحبشة خيرا من مصر ، كان التوحيد فيها ضربا راقيا من الوثنية خلعت عليها لباسا من علم ومصطلحات نصرانية . وكانت الأمم الأوربية المتوغلة فى الشمال والغرب تتسكع فى ظلام الجهل المطبق والأمية والحروب . ولم تظهر بعد على مسرحها الأندلس العربية لتؤدى رسالتها المشرقة فى العلم والمدنية . . هذا بالنسبة للمسيحية ، فماذا بالنسبة لليهودية ؟

لم يكن اليهود عاملا من عوامل الحضارة ، فقد قضى عليهم من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم ، وقد أورثتهم عقدة الاضطهاد والجشع وشهوة المال والربا نفسية غريبة تفردوا بها بين الأمم وتوارثوها عبر العصور ، وانطبعوا بطابع خلق خاص ، فهم يخنعون عند الضعف ويبطشون ويسيئون السيرة عند الغلبة ، وهم ختالون منافقون فى عامة الأحوال كما

أنهم يتسمون بالقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل والصدّ عن سبيل الله ، كما وصفهم القرآن الكريم . . .

وقد اشتدت العداوة بينهم وبين المسيحية لسوء سيرتهم ، وسامهم المسيحيون الخسف والهوان فى عهد الامبراطور « فوكاس » فانتقموا منهم بأن ساعدوا كسرى ضد نصارى الشام ومصر حتى خرب الكنائس وقتل وسبى عدداً لايحصى ، حتى جاء هرقل فهزم الفرس فخضع له اليهود وخدعوه فأمنهم ، ولكن أحبار المسيحيين زينوا له البطش بهم فأبادهم . .

هذا ماكان عليه أمر اليهود والنصارى فى العصر الذى صحب ظهور الاسلام . فماذا كان من شأن الأمم الأخرى ؟

أما إيران : فقد أضطربت أحوالها الإجتماعية وأنتشر الفساد وساء نظام الأسرة فيها حتى تزوج « يزدجرد » ابنته ثم قتلها وتزوج « بهرام » أخته ، وكان الفارسيون يعتبرون هذا الزواج تقربا إلى الله ، ثم ظهر « مانى » كرد فعل عنيف للنزعة الشهوية السائدة فدعا إلى تحريم الزواج تعجيلا بفناء العالم الفاسد فقتله بهرام . ولكن دعوته لم تنقطع بموته وعاشت فترة حتى قهرتها قوى الطبيعة التى ظهرت فى دعوة « مزوك » الإباحية التى قضت على مابقى من كرامة الأسرة الفارسية ، والتى جعلت المال والمرأة نهبا موزعا يشترك فيه الناس جميعا ، ونتج عن ذلك أن الرجل لايعرف ابنه ولاالابن أباه ، وزاد على ذلك تقديسهم الملوك وتأليههم ، وقد ترتب على ذلك تفاوت خطير فى الطبقات لاحظه المغيرة بن شعبة واعتبره نذيرا بضياع ملك الأكاسرة وكان رده على رستم حين استكثر أصحابه أن يجلس بجواره على السرير ردا مفحما ، فقد قال لرستم : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولاأرى قوما أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء ، لايستعبد بعضنا بعضا ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم – وكانوا قد أنزلوه من فوق السرير – أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لايستقيم فيكم فلانصنعه ، ولم آتكم ولكنكم دعوتمونى ، اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون وأن مُلْكا لايقوم على هذه السيرة ولاعلى هذه العقول . على أن الذى زاد الأمر سوءا عبادة الفرس النار ، وقد وضع أساس هذه البدعة « زرادشت » الذى قال لهم : إن نور الله يَسْطَعُ فى كل مايشرق ويلتهب فى الكون ، فجاء مَن بعده فغالى فى تقديس النار حتى اتخذوها إلها يعبد .

والصين : لم تكن خيرا من الفرس فقد تقسمتها أديان ثلاثة أهَمُّها البوذية التى كانت فى أول أمرها بسيطة ثم جرفتها البرهمية فى تيارها وحولتها إلى وثنية تحمل معها الأصنام أينما

سارت وتسرب إلى مناهج العبادة فيها السحر والأوهام وأصبح الإله والإيمان به موضع خلاف وشك . .

وكذلك كان الحال فى أمم آسيا الوسطى ، فقد كانت ديانتهم بين بوذية فاسدة ووثنية همجية لاتملك ثروة علمية ولانظاما سياسيا راقيا .

أما الهند فقد كان أحط تاريخ لها هو فى هذه الفترة التى بدأت بمستهل القرن السادس الميلادى حيث فاقت جيرانها فى التدهور الخلقى والاجتماعى، بل امتازت عنها فى ظواهر ثلاث : كثرة المعبودات والآلهة كثرة فاحشة حتى أصبح عدد الآلهة يقدر بـ ٣٣٠ مليونا ، وكثرة الشهوات الجنسية الجامحة إلى درجة أن آلة التناسل أصبحت أحد الآلهة التى تعبد وأن دور العبادة تحولت إلى مواخير للدعارة ، والتفاوت الطبقى المجحف إلى درجة أن إحدى طبقات المجتمع أصبحت نجسة منبوذة ، وأن المرأة وصلت الى حد من المهانة لايمكن تصوره .

والعرب وان كانوا قد امتازوا بين الأمم والشعوب بأخلاق ومواهب فقد ابتلوا فى العصر الأخير بانحطاط دينى شديد ووثنية سخيفة وأدواء خلقية واجتماعية جعلت منهم أمة منحطة الأخلاق وتعددت آلهتهم التى كانوا يعبدونها إلى جانب الآلهة التى كانوا ينحتونها بأيديهم فبعضهم يعبد الجن وبعضهم يعبد الملائكة وبعضهم يعبد النجوم وبعضهم يعبد الأشجار ، وهكذا ولم يفد انتشار النصرانية واليهودية العرب شيئا ، فقد كان اليهود والنصارى بما انحدروا إليه فى دينهم صورة سيئة من الفساد والانحلال .

ولم يتصور العرب كيف يمكن للرسول أن يكون بشرا وكيف يمكن للميت أن يعود إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والنشور . كانت الخمر شائعة فأفسدت عقولهم ، وكانت الربا تجارة رابحة والميسر أمراً يثير الفخر ، والنكاح متعدد الصور ومن صوره الزنا ، وكانت البنت توأد ، والعصبية القبلية والدموية شديدة جامحة ، والحرب تشتعل لأتفه الأسباب .

وخلاصة القول أنه لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على العدل والرحمة ، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء .

كانت هناك ومضات ولكنها خافتة واهنة ظهرت فى صورة أفراد قلائل يتعطشون الى المعرفة ويتوقون الى الهداية ويتكبدون فى طريق ذلك ضروبا من المشقة والعذاب والمخاطر . ومن أمثال هؤلاء سلمان الفارسى الذى تحكى قصته المكافحة المنتصرة كتب السيرة المختلفة .

تلك صورة لأحوال الدنيا الدينية والاجتماعية عرضها المؤلف فى الفصل الأول من الباب الأول من الكتاب . لماذا كانت عليه نُظُمُها السياسية والاجتماعية ؟

لقد فصل ذلك فى الفصل الثانى تفصيلا وافيا ، وأوضح أن الحكم كان ملكيا مطلقا جائرا مستبدا . يقوم على تقديس البيوتات الخاصة فى فارس ، وكان الصينيون يسمون ملكهم الامبراطور أى ابن السماء ، وقد يقوم على تقديس الشعوب والأوطان كما كان ذلك فى المملكة الرومية التى تقدس نفسها وشعبها ،وربما كان ذلك سببا فى انقراضها وفنائها ، فالغرور يقتل صاحبه أويعجل بنهايته على الأقل ، وقد ظهر فساد الحكم الرومانى فى مصر والشام واضحا حيث استغل هاتين الدولتين استغلالا سيئا .

كما كانت السياسة المالية جائرة غير مستقرة نابعة من أخلاق الجباة العاملين وأهوائهم لايتحرزون من الخيانة والاغتصاب وظلم الناس ، ومايجبى من المال لاينفق منه على الدولة إلا القليل والكثير يذهب الى خزائن الملوك ، كان الغنى لأفراد معدودين والفقر لمعظم الأهلين . وكذلك كان الأمر بالنسبة للمناصب فأصبح المجتمع يرزح تحت نظام طبقى جائر .

لقد أستحوذ الترف على بعض الناس وغرقوا فيه إلى أذقانهم ، فكان ملوك فارس والروم وأمراء الدولتين سادرين فى غفلتهم لاهم لهم إلا اللذة ، كان لكسرى اثنا عشر ألف امرأة وخمسون الف جواد وشىء لايحصى من أدوات الترف والقصور ، وكذلك كان الشأن فى بلاط الروم . ولاشك أن ذلك كان على حساب الشعب المقهور . ولقد شقى الجمهور كثيرا بعد أن أصبح أهل البلاد فى الدولتين طبقتين متميزتين إحداهما طبقة الملوك ومن يتصل بهم أويعمل لهم ، وطبقة الفلاحين وأصحاب المهن وهؤلاء يرزحون تحت أثقال الحياة والضرائب والإتاوات حتى هجر الفلاحون أرضهم وترك الجنود معسكراتهم هربا من سوء المعاملة وقسوة الحياة « لقد ضاعت رسالة الأنبياء والأخلاق الفاضلة والمبادىء السامية فى العالم المتمدن بين غنىٍّ مطغ وفقر منس ، فالغنىُّ فى شغل عن الدين بنعيمه وترفه والفلاح أو العامل مشغول بهمومه واحزانه ، وهكذا كانت رحى الحياة تدور حول الناس فى قوة لايرمقون فيها إلى الدين والآخرة رأسا ، ولايتفرغون لمايتصل بالروح والقلب والمعانى السامية ساعة » .

الخلاص : وكان الخلاص من هذا الشقاء الشامل لأنحاء الأرض بالإسلام وبنبيه الكريم محمد ﷺ . . نظر النبى إلى هذا العالم الذى وصفه الكاتب بعين الأنبياء ، رأى الأمم قطعانا ليس لها راع والمواهب البشرية ضائعة أوزائفة ، ورأى أفراد البشر كخامات لم تحظ

بصانع حاذق . . رأى كل ناحية فى هذه الحياة الفاسدة تسترعى اهتمام المصلح . لقد نشأ فى مجتمع هو الصورة المصغرة للعالم ، كل شىء فيه فى غير محله ، أصبح الذئب راعيا والجائر قاضيا . .

لوكان مصلحا عاديا : ولوكان النبى ﷺ رجلا من عامة المصلحين لتوفَّر على إصلاح ناحية من نواحيها وظل طول عمره يعالج عيبا من عيوب المجتمع ، ذلك أن نفسية الإنسان معقدة التركيب رقيقة النسج وإن زاغت لايؤثر فيها إصلاح ، وكل داء من أدواءِ المجتمع يتطلب إصلاحه حياة كاملة ويستغرق عمر إنسان بطوله ، وقد يستغرق أعمار طائفة من المصلحين ولايزول . .

نظر النبى ﷺ إلى المجتمع بنظرة الأنبياء فعرف داءه ووضع له دواءه ونجح . ومن أمثلة نجاحه :

علاج الخمر : فإذا ذهب أحد يطارد الخمر فى بلاد نشأت على حياة الترف واللذة أعياه أمرها وذهبت جهوده عبثا ، لأن شرب الخمر ليس إلانتيجة نفسية تعشق اللذة حتى فى السم ، فلاتهجره بمجرد الدعاية والنشر والخطب وسن القوانين ، إنها لاتهجره إلابتغيير نفسى عميق . وهذا هو منهج الانبياء . لقد نجح النبى بمفرده فيما لم تنجح فيه أمريكا بقوتها وغناها ومقدرتها . .

ماذا حدث فى أمريكا بالنسبة للخمر ؟ لقد حاولت منع الخمر وطاردتها فى بلادها بجميع الوسائل حتى قدر ماأنفقته فى ذلك مايزيد على ستين مليون دولار ، وماكتبته ونشرته يشتمل على عشرة ملايين صفحة ، وماتحملته فى سبيل تنفيذ قانون التحريم فى مدة أربع عشرة سنة لايقل عن خمسين ومائتى مليون جنيه ، وقد أعدم ثلثمائة نفس ، وسجن عدد يقرب من نصف مليون شخص ، وبلغت الغرامات ستة عشر مليون جنيه ، وصودر من الأملاك ماتزيد قيمته على أربعمائة مليون جنيه . ولكن ذلك لم يزد الأمة الأمريكية إلا غراما بالخمر واغراقا فيها حتى اضطرت الحكومة فى سنة ١٩٣٣ م إلى سحب القانون الخاص بتحريم الخمر والعودة إلى إباحتها :

عالمية الرسالة : لماذا كانت الجزيرة العربية مركزا لهذه الرسالة ؟

كان مجال العمل فى بلاد العرب فسيحا لو أن الرسول ﷺ رجل إقليمى ، ولو أنه سار سيرة القادة السياسيين والزعماء الوطنيين ، وكان يمكنه أن يجعل من الأمة العربية لواء تنضم

اليه قريش والقبائل العربية ، ولكنه لم يبعث ليكون ملكا أوزعيما إقليميا أو وطنيا ولم يرسله الله لينسخ باطلا بباطل أوليخرج الناس من سلطان فارس والروم إلى سلطان عدنان وقحطان .

لقد أرسله الله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

كان خطابه للنفس البشرية أيًّا كان موقعها ، وكانت أمته العربية لانحطاطها وبؤسها أحق أن يبدأ به مهمته الإصلاحية وجهاده العظيم ، وكانت أم القرى والجزيرة العربية لموقعها الجغرافى واستقلالها السياسى خير مركز لرسالته ، وكانت الأمة العربية بخصائصها النفسية ومزاياها الأدبية خير محل لدعوته وخير داعية لرسالته .

وقد أتى النبى ﷺ الإصلاح من بابه ، ووضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه ، ذلك المفتاح هو الإيمان ، ولذلك نجحت دعوته ، وكل من جاء للإصلاح من غير هذا الطريق فشلت دعوته . والمثل فى ذلك واضح فى فشل دعوة « غاندى » التى كانت تحفل بكثير من المبادىء والمثل ، ولكنها أغفلت هذا المفتاح السحرى العجيب . مفتاح الإيمان .

ويجيب الأستاذ الكبير فى الفصل الثانى من الباب الثانى الذى يدور حول رحلة المسلم من الجاهلية إلى الإسلام عن هذا السؤال :

لماذا اعترض الجاهليون على دعوة الإصلاح ؟

لقد فهموا أن هذه الدعوة سهم مسدد إلى كبد الجاهلية فقامت قيامتها لتدافع عن تراثها الدفاع الأخير ، وأنطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد . . لقد أصبح كل ركن من أركان الجاهلية مهددا فهب ثائرا على هذا الرجل ومن آمن معه ، ووقعت حوادث الاضطهاد والعنف . . ولكن النبى ﷺ وفق فى دعوته وثبت عليها ولم يلن أمام جبروت الطغاة ، وصابر معه المسلمون الذين آمنوا به عن عقيدة لايسحقهم طيش الشباب ولايستهويهم مطمع من مطامع الدنيا ، إنما همهم الآخرة وبغيتهم الجنة ، سمعوا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمَنَّا ، ولم يزدهم العذاب فى ذلك إلا إيمانا . .

هذه هى التربية الدينية :

لقد غذى الرسول ﷺ أرواحهم بالقرآن وربى نفوسهم بالإيمان فكانوا يزدادون كل يوم

سمو روح ونقاء قلب ولطافة خلق ، لقد استطاع أن يقهر طبيعتهم الحربية ويكبح حميتهم العربية ويقول لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة ، فينقادون لأمره ويكفون أيديهم ، وتحملوا فى مكة الأذى دون أن يرفع أحد منهم سيفا مع كثرة الدواعى إلى ذلك وقوتها ، حتى إذا بلغ السيل الزبى أذن الله لرسوله ولأصحابه بالهجرة ، وأذن لهم حينذاك بالدفاع عن أنفسهم ، وتشهد المدينة أروع لقاء بين الأخوة المسلمين المهاجرين والأنصار ، وتتوحد صفوف الأنصار وقد كانت بالأمس سيوفهم تقطر دما من حروب الأوس والخزرج ، وتتم الأخوة بينهم وبين المهاجرين ، فكانت أخوة تزرى بأخوة الأشقاء ، وتبذ كل ماروى التاريخ من خلة الأخلاء .

وهذه الجماعة الإسلامية هى التى وقت العالم ، وهى التى حفظته من الانحلال الذى كان يهدده ، وعصمت الإنسانية من الفتن والأخطار التى أحدقت بها ، لذلك قال الله تعالى لما حض على الأخوة والألفة « إلاتفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

لقد انحلت العقدة الكبرى وهى الشرك والكفر فانحلت العقد كلها ، جاهدهم الرسول جهاده الأول فلم يحتج إلى جهاد مستأنف لكل أمر ونهى ، وانتصر الإسلام على الجاهلية فى المعركة الأولى فكان النصر حليفه فى كل معركة . . لقد دخل هؤلاء المسلمون فى السلم كافة ، وأصبحوا لايجدون حرجا فيما قضى عليهم الرسول ، ولم يكن لهم الخيرة من بعد ماأمر ونهى . . خرج منهم حظ الشيطان وحظ النفس ، وأنصفوا من أنفسهم ، فأصبحوا عصمة للبشرية ووقاية للعالم وخير داعية إلى دين الله . .

لقد كان هذا أغرب انقلاب فى تاريخ العالم ، كان غريبا فى كل شىء ، فى سرعته وفى عمقه وفى سعته وفى شموله وفى وضوحه وفى قربه ويسره . ذلك لأنه اعتمد على الإيمان ، والإيمان الصحيح له تأثير قوى فى الأخلاق والميول .

وكيف ذلك ؟ كانت الديانة قبل ذلك سطحية تافهة ، يسجد فيها الإنسان لما خُلق له ، ويؤمن بإلهه على أنه إله أتم صنعه وانزوى وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم صفة الربوبية فأخذوا بأيديهم أزمة الأمر ، وخلا ايمانهم من الخشوع والحب .

وبنت فلسفة اليونان إيمانها بالله على أسس من السلب لا الإثبات ، أثبتت للإله الخلق الأول فقط ونفت عنه الاختيار والعلم والإرادة ، وبذلك حرمت القلب من حب هذا الخالق والخضوع لسيطرته وقدرته . .

لقد انتقل العرب الذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الى المعرفة القوية الواضحة ، وعرفوا صفات الخالق القوى الرازق الباعث المحيى المميت . .

وعلمهم هذا الإيمان وخز الضمير ومراقبة النفس ومحاسبتها ، فكانوا يعترفون بذنوبهم ويتطهرون منها ، وبهذا أصبح الإيمان حارسا لأمانة الإنسان وعفافه وكرامته ، وهو الذى أقام أعناقهم فلم يخضعوها لغير الله ، وجعلهم يستهينون بزخرف الحياة ومظاهرها الجوفاء ، وملأقلوبهم شجاعة واستهانة بالحياة ..

لقد نقلهم الإيمان من الأنانية إلى العبودية ، كما كان الصحابة موفقين سعداء حين عولوا فى معرفتهم بالله على رسول الله ، ولم يكونوا كسابقيهم الذين ضيعوا ماأتاهم من رسلهم ، ولذلك سعد هؤلاء الصحابة بالثرة ووفروا ذكاءهم وقوتهم وأوقاتهم فصرفوها فيما يغنيهم من الدين والدنيا ، وتمسكوا بالعروة الوثقى وأخذوا فى الدين- بلب اللباب .

حب رسول الله ﷺ :

لقد رسم هذا الحب صورة المجتمع الإسلامى ، حين انقاد المسلمون لرسولهم وأحبوه من أعماقهم فنفذوا توجيهاته ومبادئه ، وصاروا أعوانا على الحق أمرهم شورى بينهم ، لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق ولوكان أميرا . . واقتلعوا جذور الجاهلية وحسموا مادتها وتحمل كل إنسان مسئوليته بثقة وأمانة ومقدرة . . لاعجب فقد عمر الحب قلوبهم وحرس الإيمان خطواتهم فى طريقهم إلى الله . .

لقد حول الرسول خامات الجاهلية إلى عجائب الإنسانية ، هذا مايعرضه الفصل الرابع من الباب الثانى ، لقد انطبق عليهم قول الله « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ » ومن عجائب الإنسانية : عمر بن الخطاب الذى كان يرعى الإبل لأبيه الخطاب فإذا به يفاجئ العالم بعبقريته وعصاميته ، وابن الوليد الذى يصبح سيفا من سيوف الله لايقوم له شىء من أمر الجاهلية إلاحصده ، وأبو عبيدة الذى يتولى قيادة المسلمين العظمى ويطرد هرقل من ربوع الشام ، وعمرو بن العاص فاتح مصر ، وسعد بن أبى وقاص الذى تقلد مفاتيح المدائن وفتح العراق وإيران . . . وغيرهم كثير . .

لقد صنع النبى ﷺ من هؤلاء كتلة لم يشاهد التاريخ البشرى أحسن منها اتزانا كأنها حلقة مفرغة لايدرى أين طرفاها ، هم كالمطر لايعرف أوله خير أم آخره .

« لقد وضع محمد ﷺ مفتاح النبوة على قفل الطبيعة البشرية ، فانفتح على مافيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب ، وأصاب الجاهلية فى مقتلها وصميمها وأرغم العالم العنيد بحول الله على أن ينحو نحوا جديدا ويفتتح عهدا سعيدا . ذلك هو العهد الإسلامى الذى لايزال غرة فى جبين التاريخ » .

ولابد للكاتب أن يخصص بابا لهذا العصر الإسلامى ، يتحدث فيه عن عهد القيادة الإسلامية وخصائص هؤلاء القواد . ويوضح فيه أن الأمة الإسلامية تميز أفرادها بخصائص كفلت لهم النجاح فى مهمتهم والتفوق فى رسالتهم ومكنت لهم فى نفوس الناس أجمعين . من ذلك : أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية لم تتعرض للتغيير والتبديل .

٢ – لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية للنفس .

٣ – لم يكونوا خدمة جنس ورسل شعب أو وطن يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده ولكنهم قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا الى عبادة الله وحده .

٤ – أنهم نظروا الى تربية القوى الإنسانية جميعا ، فالإنسان جسم وروح وقلب وعقل وعواطف وجوارح لايسعد ولايفلح ولايرق حتى تنمو هذه القوى كلها نموا مناسبا لائقا بها .

لقد عرفوا الإجابة على هذا السؤال الذى حير الأمم : كيف توجد المدنية الصالحة ؟ عرفوا أنها توجد إذا ساد وسط دينى خلقى عقلى جسدى يمكن للإنسان فيه بسهولة أن يبلغ كماله الإنسانى .

كما عرفوا الوسيلة إلى إيجادها ، إنها توجد إذا كانت قيادة الحياة وادارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة معا ويكونون أمثلة كاملة فى الحياة الدينية والخلقية وأصحاب عقول سليمة راجحة وعلوم صحيحة نافعة . . فإذا فقدت ذلك فقد تزدهر المدنية فى المادة ولكنها تجدب فى الروح وقد يكون العكس ولذلك لابد من التوازن فى القيادة .

يمتاز أصحاب النبى ﷺ بأنهم جمعوا بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة ، كانت تتمثل فيهم الإنسانية ، بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها المتفرقة فى قادة العالم حتى خلقوا المدنية الفاضلة . .

إن هذا الرعيل من أتباع محمد ﷺ ، كان خليقا بأن يسعد النوع الإنسانى فى ظله ، وكان ظهور المدنية الإسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الإسلامية بشكلها ونظامها فى القرن الأول للهجرة فصلا جديدا فى تاريخ الأديان والأخلاق . وظاهرة جديدة فى عالم السياسة والاجتماع انقلب به تيار المدنية واتجهت به الدنيا اتجاها جديدا .

ماذا ظنت الجاهلية بالإسلام ؟

عهدها به دعوة دينية روحية فإذا به نجاة وسعادة وروح ومادة وحياة وقوة ومدنية فاضلة قوية البنيان محكمة الأساس تعمل للدنيا والآخرة معا ، فأصبح الناس لايجدون عائقا عن الإسلام ولايواجهون صعوبة وعنتا فى قبوله ، ويدخل فيه الرجل فلايخسر شيئا ولكنه يجد برد اليقين وعزة الإيمان .

وكان تأثير هذا الانقلاب عظيما ، فقد كان الطريق إلى الله شاقا عسيرا محفوفا بالمخاطر ، فأصبح فى ظل الإسلام سهلا ميسورا ، بل حدث انقلاب فى طبائع الناس ومعتقداتهم ، فقد أصبحوا يتأثرون بالإسلام من حيث يشعرون ولايشعرون ، وأصبحت مبادؤه تتسرب إلى أعماق نفوسهم ، فهم يخجلون من الشرك والمعصية بعد أن كانوا يباهون بهما ، وسرى ذلك إلى غير العرب كما يقول الأستاذ أحمد أمين « ظهرت بين النصارى حركة تدعو الى عدم الاعتراف أمام القسس تأثرا بالإسلام . كما ظهرت حركة تدعو الى عدم تعظيم التماثيل ورفض تقديس الصور »

وهذا يدل على تأثير الإسلام فى الأديان الأخرى : كما ظهر تأثير الإسلام فى النصرانية أيضا فى رفض بعض النصارى عقيدة التثليث وشرحها بما يقرب من الوحدانية . وحتى تأثر « لوثر » فى حركته الإصلاحية بالإسلام ، كما تأثرت الأديان الأخرى بِهِ فى الاتجاه إلى التوحيد ونزعات الاحترام للمرأة والدعوة إلى المساواة . وظهر الاتجاه إلى عبادة الله عند الهنادك حتى قال من قال من أهل الهند : إن الإسلام قد حمل إلى الهند مشعلا من نور ، ولايستطيع دين من الأديان ومدنية من المدنيات تعيش فى العالم المتمدن المعمور تدعى أنها لم تتأثر بالإسلام والمسلمين فى قليل أوكثير . .

لقد فعل الإسلام الكثير حتى فى عهود تأخره مازال فيه مشعل النور . . ولكن متى بدأ الانحطاط فى الحياة الإسلامية ؟ قال أحد الأدباء « شيئان لايحدد لها وقت بدقة: النوم فى حياة الفرد ، والانحطاط فى حياة الأمة ، فلايشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليا » ولكن التدلى فى حياة الأمة الإسلامية أوضح من غيره ، فقد ظهر بالخط الفاصل بين الخلافة الراشدة والملوكية العربية أوملوكية المسلمين .

ذلك لأن زمام القيادة الإسلامية فى عهد الخلافة الراشدة كان بين رجال كل منهم يعتبر

معجزة جليلة للنبى ﷺ ، والزعامة فى الإسلام لها مقدمات تجمعها كلمتان هما : الجهاد والاجتهاد . أما الجهاد فهو بذل الوسع لنيل أكبر مطلوب ، وأكبر مطلوب للمسلم هو طاعة الله ورضوانه والخضوع لحكمه ، ومن مقتضيات هذا الجهاد الذى يجب أن يكون ماضيا إلى يوم القيامة ، أن يكون الإنسان عارفا بالإسلام الذى يجاهد لأجله ، وبالكفر الذى يجاهده ، والاجتهاد يقضى بأنْ يكون الذى يرأس المسلمين قادراً على القضاء الصحيح فى النوازل والحوادث التى تعرض للمسلمين ، وأن تكون عنده معرفة كاملة لروح الإسلام وفهم أسرار الشريعة ولديه من الذكاء والنشاط ما يمكنه من حل المشاكل وما يستخدم به الكون المسخر له . .

ولذلك كان من المؤسف أن يتولى منصب قيادة المسلمين رجال لم يعدوا له عُدَّة ولم يأخذوا له أهبة . فظهر بذلك ثلمات فى الإسلام لم تردم حتى الآن . ووقع الفصل بين الدين والسياسة عمليا . وأصبح كثير من الحكام بحكم منصبهم قدوة للناس وهم غير أهل للقدوة فساء تمثيلهم للإسلام « وبدأ الإسلام بالانحطاط لأن البشرية بدأت تشك فى صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة » هذا بالإضافة الى قلة الاحتفال بالعلوم العملية المفيدة من جانب العلماء . بل اهتموا بعلوم ماوراء الطبيعة والفلسفة الإلهية التى أغناهم عنها دينهم . وماوصلو إليه من علوم تجريبية لايتناسب مع فتوحاتهم العظيمة ، وما خلفوه من تراث فى ذلك استفادت به أوربا ، يتضاءل أمام المكتبة الأوربية التى أنتجتها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. وزاد الأمر سوءا ما اخترعته الأوهام من خرافات وأساطير، الإسلام منها براء .

إشراقات مضيئة فى الظلام ، وقد ظهر حسن بلاء العالم الإسلامى فى القرن السادس الهجرى حين ظهر قادة وقفوا فى وجه الصليبيين الذين كانوا أكبر خطر على الإسلام بعد الردة . من أمثال عماد الدين زنكى ونور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبى ، وقد أثبت هؤلاء أن الإسلام لم ينته دوره ولم يفقد الحيوية والإنتاج ، وان كان الإسلام قد افتقد امثال هؤلاء القواد فى المحنة التى أصابته على يد الصليبيين الجدد فى القرن التاسع عشر .

ولكن على الرغم من الانحطاط الذى بدأ يصيب العالم الإسلامى إلا أن خليته مازالت تعسل ، فيظهر أفراد من الملوك والقائمين يتمثلون الصحابة والسلف الصالح ، والمسلمون على الرغم من انحرافهم عن سيرتهم الأولى هم أقرب الى طريق الأنبياء من الأمم الجاهلية المعاصرة لهم . . ولم تتجاسر عليهم الدول حتى مزق التتار حكومة خوارزم شاه .

فدور القيادة العثمانية :

لقد تجدد رجاء الإسلام بظهور العثمانين على مسرح الأحداث وفتحهم القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية المنيعة فى منتصف القرن التاسع الهجرى بقيادة محمد الثانى ابن مراد وهو ابن أربع وعشرين سنة . . وتفرد الشعب التركى المسلم تحت حكم العثمانين بمزايا متعددة منها الحماس والطموح ، وتحليه بروح الجهاد ، والسلامة من الأدواء الاجتماعية والخلقية ، ومنها القوة الحربية واستيلاؤهم على أحسن مركز للقيادة العالمية ، حتى قال نابليون : لوكانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها .

فلو وفق الله هؤلاء لأن يتقدموا فى ميدان العلم ليسبقوا الأمم النصرانية لقادوا العالم إلى الحق والهدى قبل أن تملك أوروبا زمام العالم لتقوده الى النار والدمار . ولكن شاء الحظ العاثر أن تتدلى تركيا إلى أسفل ويصيبها داء الأمم العقيم . .

يقظة أوروبا : شهد القرنان السادس عشر والسابع عشر الميلاديان نهضة اوربية شاملة ، فقد استيقظت أوربا من سباتها وأخذت تعدو إلى غايتها لم تضيع ساعة من نهار أوليل فى الوقت الذى ضيع المسلمون أحقابا وأجيالا . وبذلك سبق الأوربيون وتأخر المسلمون الذين كانت تتزعمهم تركيا فى ذلك الوقت ، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الدولة العثمانية – تسجيلا للواقع – حصنا منيعا للإسلام ، فقد أخفقت كل محاولات المسيحية واليهودية فى العبث بالمقدسات الإسلامية ولم تنجح هذه المحاولات إلا بعد أن نجح هؤلاء الأعداء فى إثارة الفرقة بين العرب والأتراك ، وفى فصل الأقطار العربية عن الامبراطورية العثمانية ، عند ذلك قامت اسرائيل التى استشرت واستأسدت وكانت نهاية الامبراطورية العثمانية أكبر انتصار للصليبية الأوربية واليهودية العالمية .

بين حضارة الاسلام والحضارة الغربية الحديثة :

والخسارة التى حاقت بالعالم من انزواء حضارة الاسلام يحدثنا الكاتب فى الفصل الأول من الباب الرابع الذى جعل عنوانه « العصر الأوربى » عن طبيعة الحضارة الغربية وتاريخها ، ويوضح أن للحضارة الغربية جذورا من حضارة الإغريق والرومانيين ، وتحمل الحضارة اليونانية شعار المادية ، التى ورثتها الرومانية وخلطتها بديانتها النصرانية التى اعتنقتها ، وزادت على ذلك فابتدعت الرهبانية التى تحولت إلى شر على الإنسانية والمدنية ، وتبع ذلك

جناية رجال الدين على الكتب الدينية واضطهاد الكنيسة للعلم والعلماء حتى أحرقت العالم الطبيعي ، « بروتون » لأنه قال بتعدد العوالم ، والعالم «غليليو» لأنه اعتقد بدوران الأرض حول الشمس . وانتهى الأمر بثورة المتنورين على رجال الكنيسة ، وتحول العلم تحولا ماديا صرفا وقطع كل علاقة له بالدين . وهكذا أصبحت ديانة أوربا المادية لاالنصرانية ، وفى ذلك دليل واضح على حضارة الإسلام العظيمة التى تحترم العلم والعلماء .

حتى إن كان هناك اتجاه روحى فى الغرب فإنما مرده إلى المادة أيضا ، فالتضحية للسمعة والرياء وحسن الأحدوثة لالوجه الله وتزكية النفس كما هو الأمر فى الإسلام .

لقد بلغ النظر المادى فى أوربا إلى درجة الاستغراق فيه كما هو ظاهر فى بدعة الشيوعية التى ابتدعها كارل ماركس ، وتغلغل هذا الفكر المادى بنظرية دارون إلى عتمة الاعتقاد بأن هذا الكون سائر بغير عناية إلهية وأنه لاعلة فيه سوى السنن الطبيعية ، ولايخفى مافى الاتجاه المادى من فساد للعالم وخراب للأمم وضياع للمبادىء والأخلاق ، يرتكب الساسة عمدا مايرتكبون من آثام متصورين فى وهم أن ذلك فيه مصلحة لبلادهم . .

لقد لعبت الأهواء بالأمم الأوربية ، وانكسرت الكنيسة اللاتينية ولم تزد ثورة لوثر الإصلاحية فى الكنيسة إلا إثارة روح القومية والوطنية فحسب ، حتى قال أحد المعلمين الألمان : لأى شئ يدرس أولادنا تاريخ أمة أجنبية ؟ ولماذا يقص على أولادنا قصص ابراهيم واسحاق ؟ ينبغى أن يكون إلهنا أيضا ألمانيًّا . بل لقد نشأت فى ألمانيا طائفة تتبرأ من سيدنا المسيح عليه السلام لأنه من بنى اسرائيل والذين لايزالون يدينون له بالحب والتعظيم يجتهدون أن يثبتوا أنه كان من سلالة آرية . لقد ظهرت موجة عنيفة من التعصب للأوطان . وشملت كافة الأقطار .

وبكل أسف سرت هذه العدوى إلى الأقطار الإسلامية . عدوى التعصب للوطن أوالقومية متجاهلة روح الدعوة الإسلامية التى آخت بين المسلمين . وساعد على انتشارها أعداء الدين الإسلامى الذين يهمهم تفرق أبناء الإسلام .

ماذا كان من نتائج انحلال النظام الدينى وانتعاش النَّعَرة القومية فى أوربا ؟ لقد أصبحت أوربا كلها معسكرا واحدا ضد الشرق كله ، ثم أصبحت الشعوب والدول عوالم مستقلة . كل دولة منها تجعل من نفسها إلها تدين له . وهذا الدين الجديد يشتمل على شيئين أحدهما ايجابى وهو الاعتقاد بأن الأمة فوق كل شيء ، وأن الله – إذا كانت هذه الأمة تعترف به – لم يخلق أفضل منها ولاأنجب منها ،والثانى سلبى يتمثل فى بث الكراهية والخوف

فى نفوس الشعب. الكراهية لأى شيء والخوف من أى شيء من عدو حتى ولوكان من اختراع السياسيين ، وهكذا يلعب الوهم بأقدار الشعوب ، التى تندفع بأوهامها الى حروب غاشمة ظالمة . لقد وجه الإسلام أبناءه إلى العدو الحقيقى الذى يجب أن يحاربه الناس : إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وبذلك كانت الحروب الإسلامية ميمونة مباركة . ولايوجد حرب أقل إراقة للدماء منها ولاأعود منها على الإنسانية بالخير !

إحصائية منصفة : والدليل على ذلك أن عدد المقتولين من الفريقين فى جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التى ابتدأت من السنة الثانية للهجرة ودامت الى السنة التاسعة لايزيد على ١٠١٨ نفسا منهم ٢٥٩ مُسْلِماً و٧٥٩ كافرا أما المصابون فى حرب ١٩١٤ فيبلغ عددهم ٢١ مليون نسمة . القتلى منهم ٧ مليون والجرحى ٢١ مليون والمصابون فى حرب ١٩٣٩ يبلغ عددهم ٥٠ مليونا وقد كلف قتل رجل واحد فى الحرب الأولى عشرة ألاف جنيه ، أما مجموع نفقاتها فيبلغ سبعة وثلاثين ألف مليون جنيه ، وتبلغ تكاليف حرب الساعة الواحدة فى الحرب العالمية الثانية مليونا من الجنيهات .

فما أبعد الفرق بين روح الإسلام السمح وهذه الوحشية الضارية ، أجل ، ماأبعد الفرق بين حكم الهداية وحكم الجباية ، قامت حكومة الإسلام على منهج النبوة لتصلح أخلاق المحكومين ، أما الحكومات غير الإسلامية فلا شأن لها بالأخلاق بل هدفها جباية الأموال واستغلال الشعوب ، وربما شجعت على الانحلال والفجور . .

أوربا إلى الانتحار : مافى ذلك شك على الرغم مما وصلت اليه من اكتشاف واختراع لأنها لم تحقق الغاية المثلى من ذلك ، فالغاية من الاختراع هو التغلب على متاعب الحياة والانتفاع بقوى الطبيعة المودعة فى هذا الكون ، واستخدامها لمقاصد صحيحة من غير علو فى الأرض ولافساد . وكان موقف الإسلام من ذلك واضحا حيث دعا إلى العلم للانتفاع والهداية وشكر الله واعلاء حكمته . ولكن الإنسان باختياره يحول المصنوعات الى خير أوشر . وقد حول الأوربيون مصنوعاتهم الى الشرّ ، بل كثيرا ماحولوا الاشياء الخيرة فى نفسها الى شر . وماذلك الا لخبث السريرة وسوء النية . لقد فقد الأوربيون الدين ففقدوا العاصم ، لقد فقدوا التعادل بين القوة والاخلاق والتوازن بين العلم والدين فلم تزل القوة والعلم فى ارتفاع والدين والأخلاق فى انحطاط . . وهذا هو الذى أدى إلى أن تسير أوربا فى طريق الانتحار ، والحاصل أن البذرة الخبيثة التى ألقيت فى تربة أوربا فى نهضتنا الثانية لم تأت عليها قرون حتى نبتت منها دوحة خبيثة ، ثمارها حلوة ولكنها سامة ، أزهارها جميلة

ولكنها شائكة ، فروعها مخضرة ولكنها تنفث غازا ساما لايرى ولكنه يسمم البشر . ولاصلاح لأوروبا إلاباجتثاث هذه الشجرة من أصلها .

ما الرزايا الإنسانية والمعنوية التى أصابت العالم فى عهد الاستعمار الأوربى ؟

يجيب المؤلف على هذا السؤال فى الفصل الرابع من الباب الرابع بمايأتى : رُزِئَتْ الإنسانية بعودة النظام الجاهلى الذى قوضه الإسلام بدعوته ، وكان رزء المسلمين مضاعفا ظهر فى مظاهر متعددة : منها بطلان الحاسة الدينية التى ترتب عليها جحد الغيب والمكابرة فيما هو وراء الطبيعة ، والمعاندة فى المعانى الدينية التى ترقق القلوب وتهز النفوس ، ومنها زوال العاطفة الدينية التى ترتب عليها خمود جذوة الدين فى القلوب وانصراف الرغبات عن الدين والروحانية الى المعاش والمادة . . وسريان الشك وسوء الظن وضعف الثقة بالله وتفشى العقوق وأصبحت الدنيا سوقا ليس فيه إلا البيع والشراء . ومنها طغيان المادية والمعدة ، فقد تضخمت معدة الحرص فى الانسان حتى أصبحت لايشبعها شىء وتولد فى الناس غليل لايشفى ونهم يلتهم الحلال والحرام ، بعد أن اعتقد الناس أنه ليس الا الحياة الدنيا ، وراج لذلك الأدب العصرى الذى لايتحدث إلاعن المادة وأصحابها . ومنها تدهور الأخلاق والمجتمع إلى درجة أصبحت فيها النَّفْعِيَّة مقياسا لكل شىء ، وتغيرت الذمم حتى بيعت أقلام المسلمين لغير المسلمين . وأصبح بعض المأجورين يدعون للعدو ويتحمسون فى الدفاع على موجات الأثير وفى صفحات الصحف والمجلات . .

لقد أصبح – نتيجة لذلك – الذهن الغربى والمنطق العصرى عاجزين عن الاهتداء الى منفعة غير محسوسة لاتجلب لذة واغتباطا ، فأصبح العقل الأوربى مدافعا عن المادية لايحكم على الأخلاق إلا بمقدار جلبها للمنافع – فأين مثاليات الشرق وإشراقات الدين ودعوة الإسلام الى التعاون فى الخير والتعاضد فى المعروف والدعوة الى البر؟

ويَمْضى الكاتب فى بيان العلل التى أصابت البشرية فى الصميم حتى يصل الى ضرورة الحل الإسلامى والعلاج المحمدى القرآنى : إنه لاعلاج لهذه الجاهلية الجديدة التى شملت العالم والتى حملت لواءها أوربا التى طوحت وراءها ظهريا كل تعاليم المسيح عليه السلام ، والتى أصبحت لاتؤمن إلا باللذة . والنفعية ، ولاتدين إلابالوطنية المعتدية والقومية الغاشمة وشغلت بالآلات واستهانت بالغايات ونسيت مقاصد الحياة ، وداست فى طريقها كل القيم

والمثل وأهلكت الحرث والنسل ، وبانسحاب المسلمين من ميدان الحياة أخذت أوربا بناصية الأمم فقادتها إلى الهاوية ، بل أصبح المسلمون لايملكون من أمرهم شيئا وكلما تقدمت أوربا فى القوة والسرعة ازداد الأمر سوءا حيث النار والدمار والانتحار . .

وسيأتى اليوم على الشعوب والدول الآسيوية والشرقية لتسير إلى هذه الغاية نفسها مادامت لاتنكر على الأوربيين مسلكهم ولاتنقم عليهم أخلاقهم وسيرتهم . وقد بدأ هذا الوباء يظهر فعلا بين الدول التى أستقلت حديثا عن سيطرة المستعمر . .

لابد إذن أن تتحول القيادة من اليد الآثمة الخرقاء التى أساءت الاستعمال إلى اليد البريئة الحاذقة . . من الدول المادية إلى العالم الإسلامى الذى يقوده سيدنا محمد ﷺ برسالته الخالدة ودينه الحكيم . .

إن حقا على العالم الإسلامى أن يمنِّى نفسه بهذه المهمة الجليلة التى نيطت به ، فمن الغريب الواقع أن يرضى المسلمون بالتبعية ، وأن يكونوا ساقة عسكر الجاهلية بدلا من أن يكونوا قادة الجيش الإسلامى ، من المؤلم أن تسرى فيهم الأخلاق الجاهلية ومبادىء الفلسفة المادية ، كأنهم لايؤمنون بالآخرة ولايوقنون بالبعث والحساب والجزاء . .

والمسلمون الآن على علاتهم موئل الإنسانية وأمة المستقبل لأنهم الأمة الوحيدة التى تعد خصيم الأمم الغربية ، ومنافستها فى قيادة الامم ، وقد صور الشاعر الإسلامى محمد إقبال خطر هذه الأمة على الغرب فى « برلمان ابليس » .

العالم الآن فى حاجة إلى رسالة الإسلام لتنقذه من الظلمات إلى النور وتأخذ بيده إلى طريق السلام والأمان .

وكيف يؤدى المسلمون هذه الرسالة : يؤدونها بالاستعداد الروحى والقوة المعنوية وبالإيمان القوى وبالشوق الى الله . لابد من إشعال العاطفة الدينية فى النفوس بمختلف الوسائل التقليدية والحديثة ، والقرآن الكريم وسيرة الرسول العظيم قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا فى العالم الإسلامى نار الحماسة الدينية والإيمان .

لقد فرط المسلمون فى حقوقهم وأسلموا الزمام حتى فى تخصصاتهم إلى غيرهم – فى اللغة العربية وآدابها وعلوم الدين والتفسير والحديث والفقه – من المستشرقين الذين أصبحوا مرشدين وموجهين فى البحث والتحقيق وعدد كبير منهم متعصبون ضد الإسلام ويجب ألاينسى المسلمون أن هؤلاء هم أصحاب الدعوة الى فصل الدين عن السياسة ، وأن الدين قضية شخصية لاشأن له بالمجتمع والدعوة الى تغيير مفهوم الدين وأحكام الشريعة الإسلامية

على أساس الحضارة الغربية .

لقد عجز كتاب الشرق ومفكروه عن مواجهة الحضارة الغربية وجها لوجه ، ونقد أسسها وقيمها نقدا حرا جريئا مبتكرا مستقلا . وبكل أسف بلغ الحد أن بعضهم رأى أن الحضارة الغربية هي آخر ماوصل إليه العقل البشرى ولابد من مجاراتها واتخاذها أساسا للشرق – فلابد من قيام عمالقة ينتقدون الحضارة الغربية ، ولابد من تنظيم العلم الجديد فى العالم الإسلامى بما يوافق روح الدين ورسالته ولغته ، ولابد من الاستقلال فى التعليم عن الغرب ، ولابد إلى جانب ذلك من أن تكون الزعامة العلمية للعالم الإسلامى ، ولابد من الاستعداد الروحى والصناعى والحربى حتى يتقدم الشرق من جديد .

زعامة العالم العربى :

يعقد الكاتب الكبير فى نهاية كتابه القيم أملا كبيرا على العالم العربى فى زعامته للمسلمين واضطلاعه برسالة الاصلاح والخلاص ، فالعالم العربى له أهميته الكبرى فى خريطة العالم السياسية ، فهوإلى جانب ثروته ومناخه وخصوبته وعروبته ومقدساته ينظر إليه المسلم نظره غير التى ينظرها غير المسلم ، فالمسلم ينظر إليه على أنه مهد الإسلام ومشرق نوره ومبعث نبيه ﷺ الذى هو روح العالم الإسلامى كله ومنقذه ومخلصه من شقائه وحيرته وضلاله ، فإن هذا التاريخ المجيد وهذه الحضارة الزاهية وهذا الأدب الزاخر وهذه الدول العربية ليست إلاحسنة من حسنات محمد ﷺ .

فعلى العالم العربى تبعات يتحملها بالإيمان الذى ينبغى أن يكون قوته ، وهو سلاحه اليوم كما كان سلاحه بالأمس ، إنه لايستطيع ان يحارب عدوه الغنى القوى بقلب يحب الحياة ويكره الموت ، وبجسم يميل الى الدَّعة والراحة وبعقل يخامره الشك ، بل يحاربه باليقين والعقيدة والثقة والإيمان القوى الذى لايتزعزع .

وبالتضحية فانها القنطرة الى سعادة البشرية ، وقد ضحى المسلمون قديما فاسعدوا العالم برسالة الإسلام ، وعلى المسلمين الآن أن يقوموا بهذا الدور الخطير فيضحوا . إن العالم لايصل الى السعادة إلا على قنطرة من جهاد ومتاعب يقدمها الشباب المسلم ، إن الأرض فى حاجة إلى سماد وسمادها التضحية بالمطامع والشهوات .

وبالفروسية التى يجب أن تعود إلى الشباب الذى يجب أن يتربى على البساطة والخشونة وتحمل المشاق والصبر على المكاره ونكران الذات .

يجب على الحكومات الإسلامية أن تضرب على يد الصحافة الماجنة والأدب الخليع والملحد وعلى أولياء أمور المسلمين أن يحاربوا التبذير والترف وحياة اللذة . وعلى العالم الإسلامى أن يتخلص من الأثرة فإنه لامحل فى الإسلام للأثرة . وأنه لامستقبل فى العالم إلا للإسلام وإن طالَ أجل الأثرات .

ولابد من ايجاد الوعى فى الأمة الإسلامية حتى تعرف صديقها من عدوها ، كما لابد لها من الاستقلال فى كل شىء فى تفكيرها وتجارتها وماليتها وصناعتها وسلاحها .

إن العالم الإسلامى له رجاء فى العالم العربى أن يتقلد زعامة العالم الإسلامى ويزاحم أوربا بعد الاستعداد الكامل لذلك . .

لقد أوضح الكاتب المنهج الذى يستعيد المسلمون به مكانتهم فى الأمم ، ويؤدون رسالتهم التى وضعها على عواتقهم دينهم الكريم السمح الذى اختاره الله علاجا للبشرية من أدوائها فى مشارق الأرض ومغاربها . .

لقد حدث تطور عظيم برسالة محمد ﷺ أشارت إليه سورة الإسراء بإعلان النبى ﷺ نبياً للقبلتين واماما للمشرقين والمغربين ووارثا للأنبياء قبله واماما للأجيال بعده .

لقد أكرم الله العرب قديما بقيادة العالم حين أخلصوا للدعوة الإسلامية فأحبهم الناس فى العالم وقلدوهم فى كل شىء . .

وبقيت هذه القيادة مدة طويلة لايفكر أحد فى الثورة عليها ، لأن صلتهم بها صلة المتدين بالدين ، صلة المؤمن بالمؤمن .

والطريق الآن إلى هذه القيادة ممهدة ميسورة للعرب ، وهى الطريق التى جربوها فى عهدهم الأول ، هى « طريق الإخلاص للدعوة الإسلامية واحتضانها وتبنيها والتفانى فى سبيلها ، وتفضيل منهج الحياة الإسلامى على جميع مناهج الحياة »

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل . .

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

مسئولية القادة

فضيلة الشيخ
أبو الوفا المراغى

حدثنا محمد بن عبد الملك عن أبى الشوارب حدثنا ابو عوانه . حدثنا عبد الملك بن عمير عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : من سن سنة حسنة فعمل بها كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها لا ينقص من اجورهم شيئا ، ومن سن سنة سيئة فعمل بها كان عليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا ، أخرجه ابن ماجه .

كثر خلاف علماء الحديث وشراحه فى معنى هذا الحديث واتسع مجال الجدل بينهم فيه وهو من جوامع كلمه ﷺ ، وفيه من العمومات ما يبرر هذا الاختلاف ، فالعمومات هى الألفاظ الصالحة لأرادة معان كثيرة والذى يعيّن المراد منها بعينه هى القرائن والسياقات الكلامية المحيطة بها . والسنة الواردة فى الحديث فى قوله : من سن سنة حسنة فله أجرها ليس مرادا بها معناها اللغوى – وهو المنهج والطريقة مذمومة كانت أم محمودة ، وإنما المراد بها المعنى الشرعى حيث جاءت فى السياق الدينى الشرعى ، فقد جاءت على لسان الشارع الذى أرسل لهداية الناس بالشرع ، وليس من مهمته بيان اللغة واستعمالات الألفاظ وحول هذا المعنى الشرعى كان اختلاف العلماء ، هل المراد بالسنة الطريقة فى الدين والعبادة ، أو المراد الطريقة فى العبادة وفى غيرها ، أعنى الطريقة فى الدين والدنيا وفى أسلوب الحياة والمعاش وغير ذلك ، واذا كان المراد بالسنة الطريق فى العبادة ، فهل هى الطريق المقطوعة الصلة بأصول الدين وقواعده أو هى الطريق المتصلة بها . ولا شك بين العلماء فى اشتراط كونها مرتبطة بقواعد الدين وأصوله لتكون حسنة ، وحينئذ قد يطلق عليها بعض الناس اسم البدعة الحسنة باعتبار ان هذه الطريقة ابتدعت ولم تكن على صورتها هذه فى عهد رسول الله ، وكثير من العلماء يرفض اعتبار أى طريقة فى العبادة لم تكن على عهد رسول الله مهما كان حُسْنها ، ويرى أنّ تلك الطريقة زيادة فى الدين تنافى قوله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم .

ويتشابك الكلام بين العلماء فى السنة الحسنة والسنة السيئة الواردتين فى الحديث ، وبين البدعة ، وهل هناك فرق بينهما أو يجمعان أحيانا ويفترقان أحيانا والكلام فى ذلك مبسوط فى مواضعه من كتب الحديث وكتب الأصول .

وإذ قد عرفنا ان فريقا من العلماء يرفض تفسير السنة الواردة فى الحديث والتى يؤجر من استنها عليها ويؤجر مثل أجور من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيئا لمنافاتها ظاهر الآية كما ذكرنا ، وعرفنا أيضا أن رسول الله ﷺ بعث هاديا ومرشدا للناس فى أمور دينهم ودنياهم بالتعاليم التى جاء بها والتى تحقق لهم السعادة فى عاجلهم وآجلهم أمكننا أن نرجح أن المراد بالسنة فى الحديث ، الطريقة والمنهج فى حياتهم الدنيوية التى تجلب لهم الخير وتدفع عنهم الأذى والضرر مما لم تكن فى حياة الرسول ، وطرق الخير ومناهجه التى لم تكن فى عهد الرسول لا حصر لها ، فالجمعيات الخيرية التى تؤدى للناس مختلف الخدمات ، وصناديق الإقراض الشرعى ، والجمعيات التعاونية ، وجمعيات الإسعاف ، وجمعيات تأهيل المعوقين ، ومنح الجوائز العلمية والتشجيعية ، فهذه مناهج فى الخير يستحق منشئوها والمفكرون فيها أن يُكافئهم الله ويؤجرهم عليها ويكافئْ من يفكر فى أمثالها ويعمل على منوالها .

والمناهج التى سنها العلماء واكتشفوها لا حصر لها فى جميع الميادين ، فقد سنوا واكتشفوا فى ميدان الطب من العلل والأمراض .والعلاجات ووسائل الوقاية والتشخيص والتحليل وكشفوا أسرار النفس ووظائف الأعضاء ما يبهر ويذهل ، واكتشفوا فى ميدان الزراعة من وسائل الاستكثار وطرق مكافحة الآفات وتهجين النباتات وغير ذلك مما يلم به أهل الفن ما يثير الدهش والاعجاب وأغرب ما سنه العلماء واكتشفوه ما وقع فى المجال الحربى ، وحسبنا فى ذلك أن نذكر القنابل النووية والصواريخ والرادارات الاستكشافية والطائرات التى تسبق الصوت مدى وسرعة .

إن حضارتنا الراهنة مزيج من السفن والطرق والاكتشافات ، وفى أكثرها الخير والسعادة للناس ، فهل هناك مانع أن تكون من السنن الحسنة التى وعد الله عليها بأجرها ومثل أجر من عمل بها ، ويكون ذلك الأجر حافزا وتشجيعا عليها ، واغراء للناس ان يجدوا ليبحثوا ويستكشفوا من الطرق ما ينهض بالبشر وما يحقق لهم السعادة والرفاهية .

سيقول قائلون : وكيف يثاب من سن الطرق والمناهج الجديدة فى الحياة بما ذكر فى الحديث ، وأكثرهم ليس لهم إيمان صحيح ومنهم من لا يبالى بالحساب ، ولا يعترف بفكرة الثواب والعقاب .

وهؤلاء نقول : ان الله يرزق هؤلاء ويمدهم بالصحة ويمنحهم الأذهان الصافية والأفكار النافذة ، فلا مانع ان يثيبهم بما يشاء وكيف يشاء ، وقد أشار العلماء عند الكلام على الأرزاق إلى حل هذا الإشكال .

وفى مقابلة ما ذكر الحديث من الجزاء على من سن سنة حسنة ذكر الجزاء لمن سن سنة سيئة وإن عليه وزرها أى جزاء ذنبها وذنب من عمل بها وهذه مقابلة طبيعية فللمحسن جزاء إحسانه بقدر ما قدم من الخير للناس وافاده ، وللمسئ جزاء إساءته بقدر ما أساء إلى الناس وأزعجهم ونغص عليهم حياتهم ، من عمل صَالِحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد .

إن الحديث قاعدة دينية واجتماعية من القواعد التى يعتز بها الدين الإسلامى والفكر الإسلامى حيث لا تتدافع فى صدقها العقول فى جميع العصور والأحوال ، ألا وأننا سنجد فى بعض القارئين ممن يفكرون بالتفكير المادى ويتكلمون بالمنطق المادى ويحبون العاجلة من ينفض رأسه ويهز كتفه لهذا التفسير إذ جعلنا الأجر والثواب على ما يسن من السنن الحسنة والمناهج الجديدة فى الحياة حوافز وتشجيعات آلهية ويرى ان الحوافز والتشجيعات هى النقود والمكافآت العاجلة التى تعقب الأعمال وتكون ثمرات سريعة لها ، وأما الحوافز الآلهية التى تذكرونها ، فأمدها بعيد ونحن فى حاجة إلى الإسعاف السريع ويذكرون من الأمثال ما لاينا سب قدسية الأديان ، وهؤلاء مرضى جديرون بالرثاء لأنهم فقراء فى أيمانهم وفى عقولهم محتاجون إلى مكافحة المادية وتهذيبها فى نفوسهم ليفيقوا من غفلاتهم ويعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها وكما يحبون أن يدخروا لمستقبلهم الدنيوى فيجب أن يدخروا لمستقبلهم الأخروى ، وما أقرب اليوم الذى يقف فيه المرء مهما كان مقامه على عتبة الآخرة ويتفقد ما تزود به فلا يجد شيئا ، وعلى الرغم منى أن أقف فى كلمتى هذه واعظا لهؤلاء فقد كثر الوعظ وكثر الترهيب ولكن قلَّت الاستجابة واستعصى الانقياد .

إن هذه الجوائز الآلهية التى وعد الله بها فى الحديث هى الجوائز التى تليق بذى الجلال الجواد الواسع الغنى ، فكم هم الذين يعملون بالسنن الحسنة ؟ وكم ثوابهم الذى يستحق مثله من سن لهم تلك السنن ؟ وأين الجوائز البشرية المحدودة المقدار من الجوائز الآلهية التى لا تحد ولا تعد ، وشتان بين واهب لا تنفد خزائنه وواهب ليس فى خزائنه إلا ما يمنحه سيده ومولاه ، فلنربط دنيانا بآخرتنا ولنعش فى الدنيا للآخره ولنجتهد فى سن ما ينفعنا وينفع الناس لنفوز بما وعد الله المحسنين العاملين .

كن من خير الفريقين :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من كانت الآخرة همه ، جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم تأته من الدنيا إلا ما قدر له .

وزاد فى رواية فلا يمسى إلا فقيرا ولا يصبح إلا فقيرا وما أقبل عبد إلى الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع . أخرجه الترمذى . ليعلم الناس :جميعا المسلمون وغير المسلمين أن الرسالة الإسلامية أو الدين الإسلامى لم يتضمن لا تصريحا ولا إشارة أو دعوة إلى التكاسل والقعود عن العمل وانتظار الرزق من السماء ، فالسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ولو تضمن ذلك لكان مناقضا للفطرة ، ولم تأت الاديان لتناقض الفطر ، وإنما جاءت لترشدها وتوجهها وجهة الخير وتكفّها إن جمحت أو اشتطت ، وفطرة الإنسان وطبيعته محرك قوى دافع إلى العمل فالإنسان خلق ليأكل ويشرب ويسكن ويكتسى ويتعلم وكل ذلك فى حاجة إلى وسائل من العمل والمال والجد ليتحقق ويتوفر ، وإنى لأعجب لإلحاح الكتاب والوعاظ فى الدعوة إلى العمل ، كما أعجب لاتهام بعض الحمق للإسلام بأنه دين التواكل والكسل ، إن هؤلاء الملحين فى الدعوة إلى العمل يغفلون عن أن العمل يكاد يكون جزءا من فطرة الإنسان تزكيه الضرورة ويضعفه الاستغناء ، وما جاء فى الإسلام من الدعوة إلى العمل إنما جاء لتنبيه الفطرة حتى لا يخبو أوارها ، وأكثر ما جاء فى الإسلام للحث على العمل إنما جاء فى الحث على العمل للآخرة مثل قوله تعالى : «اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله» . وقوله تعالى : «من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها» . وما جاء فيه مما يختص بالعمل للدنيا فإنما جاء لطلب الاقتصاد منه والترفق فى طلبه وعدم الانسياق مع الفطرة فى التهالك عليه والاستغراق فيه استغراقا يلهيه عن واجباته نحو ربه ونحو الناس : يا أيها الناس اتقوا الله واجملوا فى الطلب فإن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها فى الدنيا .

إن الدعوة إلى العمل للدنيا دعوة تكاد تكون لا محل لها لأنه من طبيعة الإنسان وكيف يطلب إليه أن يعمل ما تقتضى طبيعته أن يعمله وهل يطلب منه أن يأكل أو يشرب أو ينام أو يتنفس ؟ كل إنسان عامل بطبيعته لدنياه فإن وجد فى القديم أو الحديث من آثر الزهد وارتضى العزلة وانصرف عن العمل فذلك اجتهاد منه وفلسفة خاصة به ولنتركه وما رآه وله

أو عليه ما انتواه ، وإن هؤلاء لقلة لا تنتقض بهن سنن الفطرة ولا تختل بهم موازين الوجود ولا يعادل بهم الانبياء والصديقون ومصلحو الأمم الذين أفنوا أعمارهم فى العمل لرسالاتهم وغاياتهم .

لقد قلنا : لم يلح الاسلام على العمل للدنيا لإن إلحاح الفطرة أقوى وأبلغ من إلحاح الدين وإنما ألح الإسلام فى الدعوة إلى العمل للآخرة وحذر أشد التحذير أن يستغرق عمل الدنيا وقت الإنسان وجهده فينسى عمل الآخرة وله فى ذلك الأساليب التى تلين الحديد وتذيب الجلاميد ترغيبا وتخويفا من مثل قوله تعالى : «مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم .

ولعل من أقوى النصوص الإسلامية فى هذا المقام ماورد فى حديثنا الذى صدَّرنا به كلمتنا هذه ، والفكرة العامة فى هذا الحديث دعوة المسلمين إلى العمل للدنيا فى تلطف وتروٌ ، دون إغراق وإرهاق حتى لا يؤدى الانهماك البالغ إلى التفريط فى الواجبات الدينية والعمل للآخرة وتلك الفكرة تلتقى أو تتطابق مع قوله تعالى : «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين» .

فالعمل للآخرة ينبغى أن يكون المقصود الأول للمسلم حتى فيما يزاول من عمل الدنيا وأن يكون العمل لمتاع الدنيا هو المقصود الثانى ، وما أحوج العالم اليوم إلى الاسترشاد بهذه ، الفكرة وجعلها ميزانا فى سلوكه ، فقد تهالك الناس على العمل تهالكا أعمى أبصارهم وبصائرهم عن كل القيم الروحية ، فهم يعملون ويعملون ويكسبون ويكسبون لا عن ضرورة وحاجة وأنما يدخرون ويجمعون خوف الفقر ، كأنهم يضمنون بما يجمعون مستقبلهم ومستقبل ابنائهم وأحفادهم ويغفلون عما تخبئه الغيوب والأقدار ، ولا يبالون فيما يكسبون بدين أو خلق أو عرف صالح أو تقليد محمود ، وقبل أن نحاول تفصيل فكرة الحديث ينبغى أن نشير لى ما جاء فيه من صور بيانية رائعة ، فقد يعين ذلك على بيان يُعَمِّقُ ما قصده الرسول من توجيهات فى هذا الصدد ، فمن ذلك قوله «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ماقُدر له» ، قال الإمام الرضى فى كتابه المجازات النبوية : من كانت نيته الآخرة جعل الله سبحانه غناه فى قلبه وأتته الدنيا

وهى راغمة» . هذه استعارة والمراد أتته الدنيا من حيث لا يطلبها ودرت عليه منافعها من حيث لا يحتسب ، وقال : «من كانت الدنيا همه جعل الله فقرا بين عينيه» ، وهذا الكلام مجاز ، والمراد به أن من جعل الدنيا همه وقرَّ عليها باله وأعرض عن الآخرة بوجهه ، وأقبل على تثمير الأموال عاقبه الله على ذلك بأن يزيده فقر نفس فلا تسد مفاقره كثرة ما جمع وعظم ما أثل وثمر ، فكأنه يرى الفقر بين عينيه فهو أبدا خائف من الوقوع فيه ، فلا يزال آكلا لا يشبع ، فمعه حرص الفقراء وله مال الأغنياء ، وقوله عليه السلام «جعل فقرا بين عينيه» مبالغة فى وصفه بتصور الفقر فكأنه قريب منه وغير غائب عنه ، ولم يشر الرضى إلى ما فى قوله ﷺ جمع الله شمله وفى قوله فرّق أمره من تعبير كنائى بلاغى ، فجمع الشمل كناية عن استجماع باله وانتظام حاله وتصريف شئونه فى اتِّزان وروِيَّة ، وتفريق الأمر والشمل ضد ذلك .

وإذا ساغ لنا أن نضيف إلى بيان الرضى للعناصر الهامة للحديث شيئا ، فإنا نقول : إن الحديث لم يرد بما ذكر الإخبار عن طائفتين من الناس بأن إحداهما كانت نيتها فيما تعمله الآخرة فجمع الله شملها والثانية كانت نيتها الدنيا ففرق الله شملها ، وإنما أراد الحديث الترغيب فى سلوك الطائفة الأولى والزجر والتخويف من سلوك الطائفة الأخرى ، فهو خبر فى معنى الإرشاد والنهى كالأسلوب المتبع فى أكثر أحاديث الوعظ والتذكير ، فالمقصود بالحديث تنبيه المسلم إلى الاقتصاد فى العمل للدنيا فلا يرخى زمام نفسه فتغرق فى العدو فى هذا السبيل ، فانه من فعل ذلك انطلقت به إلى غير حد ، ويعينه على ذلك أن يستذكر الآخرة فيما ينتوى أن يعمله بمعنى أن يذكر أن عمل الدنيا هو وسيلة وعون على العمل للآخرة ، فيأكل ويشرب ويلبس ويسكن بمقدار ما يحفظ جسمه وعقله وذهنه ليستطيع القيام بعمل الآخرة ، فإنه إن نوى ذلك وعزم عليه اطمأنت نفسه وشعر بالغنى فى قلبه وانتظم حاله وقرَّ باله وعاش راضيا سعيدا لا يأسى على فائت لأنه يعلم أن ما قدر له فسوف يأتيه والقانع الراضى يرى القليل من فضل الله كثيرا فيقبل عليه فى كل حال بالشكر والحمد ، أما من جعل الدنيا همه فلا يفكر إلا فيها ولا يعمل إلا لها ويتمثل له الفقر فى كل لحظة فهو بائس مشتت الفكر والخاطر فى الاحتياط من الفقر يعمل ولا يفتر ويجمع ولا يشبع

وقد وعد الله من يذكره فى عمله ويراقبه فى تصرفه أن يجزيه بأمور ، وعده أن يجعل غناه فى قلبه فيعيش قانعا راضيا بما قدر له . فلا يأسف على ما فاته ، ووعده أن يجمع شمله . أى يجمع خاطره وفكره فلا يتشوش ولا يضطرب فى تصرفه يعدو هنا وهناك حرصا

على تحقيق ما يطمع فيه . ووعده أن يكون معه فى سعيه بالتوفيق والعون والتسديد وبحقق رجاءه باسرع مما يتوقع ووعده ان يرضى عنه المؤمنين فيألفوه ويتوددوا إليه وينقادوا له فيما يحبه ويحبه الله وتلك نعمة لا يقدرها إلا من حرم منها . ووعد العاملين للدنيا والمشتغلين بها عن الله بفقر النفس وتفريق الشمل وبغض الناس وذلك هو الشقاء المقيم .

غنى النفس ما عمرت غنىً   وفقر النفس ما عمرت شقاء

وبعد فانى استعيذ بما استعاذ به سيدنا رسول الله فأقول : أللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها .

مساجد الله – لله

عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده : ان رسول الله ﷺ . نهى عن الشراء والبيع فى المساجد . وان ينشد فيه ضالة . وان ينشد فيه شعرا ونهى عن الحلق قبل الصلاة يوم الجمعة . اخرجه الترمذى والنسائى وعن بريدة رضى الله عنه : ان رجلا نشد ى المسجد فقال . من دعا الى الجمل الاحمر فقال رسول الله ﷺ : لا وجدت انما بنيت المساجد لما بنيت له . اخرجه مسلم .

قال عز من قائل : « وان المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا » . وقال سبحانه : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين » . وقال جل ثناؤه : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار » . وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أحب البلاد إلى الله مساجدها ، وابغض البلاد الى الله أسواقها . وممن وعدهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله ، – رجل تعلق قلبه بالمساجد .

إن المساجد بقاع مباركة اختارها الله وشرفها بالإضافة اليه وجعلها رحابا لمناجاته وتسبيحه وذكره ومقامات لسؤاله والتضرع إليه والأنس فى الخلوة به ، فيها تطمئن القلوب وتنشرح الصدور . وتنفرج الهموم ، وتزول الكروب ، هى بيوت الله والمعتصم بها والملتجئ اليها طامع فى كرمه ، وهيهات أن يخيب له رجاء ويحرم من عطاء فهو واسع الكرم جزيل العطاء ، واذا كان للبيوت حرمات وكرامات يجب أن تصان وتحترم ، فبيوت الله أحق

البيوت بالصون والاحترام والإجلال ، فالله أغير من كل غيور ، ولمنزلة المساجد عند الله ولجلال رسالتها حرص الاسلام على تقديسها وتوفير المهابة لها حتى يحس القاصد إليها أنه قاصد بقعة مباركة من بقاع الأرض ذات جو روحي خاص تتخلى فيه النفس عن هموم الدنيا وشواغل الحياة للتفرغ لما قصدت إليه من العبادة والمناجاة.

ولقد حرص الإسلام بوصاياه وتعاليمه أن يوفر للمسجد جوه الديني الخالص ليجتمع للمصلي باله وخاطره وسمعه وبصره ، فيقيم صلاته كاملة الأركان مستوفية ما ينبغي لها من خشوع واطمئنان ، والأحاديث في ذلك كثيرة تضمنت الأوامر بما ينبغي لها من الاحترام والنواهي عما يمس منها جانب الرعاية والتقدير ، وفي هذا الحديث جملة من النواهي في هذا الشأن وأول تلك النواهي ، النهي عن البيع والشراء والحديث فيهما في المساجد ، لأن المساجد ليست أسواقا للبيع وليست مجالا للحديث فيه ، والبيع والشراء والحديث فيهما يشوّش على المصلين وربما يلفت أذهانهم إلى التفكير في أشياء لم تكن لهم على بال فينال من الاطمئنان في صلاتهم كما أن في البيع والشراء تضييقا على المصلين وتقذيرا للمساجد بنفايات السلع وبقاياها ، ولا يليق ذلك ببيوت الناس فضلا عن بيوت الله ، ومن الأمور التي نهى عنها النبي ﷺ أن ينشد الإنسان ضالة فيها – والضالة هي الأشياء التي فقدها صاحبها لنسيان أو زحام سواء كانت عينا أم نقدا أو طيرا أو بهيمة ، أو نحو ذلك مما يمتلك وله قيمة ويتأثر صاحبه بفقده ، ونشْدها طلبها في مظان وجودها ، ونشدها في المسجد شغل له بما لا ينبغي أن يشغل به ، وقد غضب النبي غضبا شديدا حين سمع بعض الناس ينشد ضالته في المسجد . قال داعيا عليه : لا وجدتها انكارا عليه وزجرا له ولغيره . وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك ، ومما جاء النهي عنه في الحديث ؛ إنشاد الشعر في المسجد وقد رأى بعض العلماء انشاد الشعر في المسجد ايا كان موضوعه وغرضه عملا بعموم النهي في الحديث ورأى آخرون : أن النهي في الحديث خاص بالنهي عن الشعر الذي يعالج الموضوعات التي تنافي المروءة ولا تليق بأماكن العبادة كالهجاء والغزل المكشوف الفاحش ونحو ذلك من الأغراض ، أما الأشعار التي تعالج الموضوعات الجادة التي تحض على مكارم الأخلاق وتدعو إلى الجهاد والدفاع عن الأوطان فلا بأس بانشادها فيه كما كان يفعل الصحابي الجليل حسان بن ثابت رضي الله عنه في دفاعه عن المسلمين بشعره لأول العهد الاسلامي ، فقد كان ينشد ورسول الله يشجعه

ويقول : اهجهم - يعني المشركين - وروح القدس معك .

وفي الحديث ، النهي عن التجمع والجلوس حلقات يوم الجمعة حتى لا يضيقوا على المصلين لأن المسلمين يحرصون على شهود الجمعة فربما تزدحم بهم المساجد ، ولا يخلو التجمع عادة من الانزلاق بالحديث فيما لا يعني ولا يفيد ، والإسلام يحرص في هذه المناسبات أن يكون المناخ فيها نقيا من الانحرافات لتكون لحظاتها خالصة لله مما لا يرضاه .

هذا ما ورد في الحديث من الأمور التي يجب أن تصان منها المساجد ، ورد في أحاديث أخرى النهي عن أمور غير هذه لمثل هذا الغرض فقد جاء في بعض الأحاديث النهي عن ادخال الصبيان الصغار في المساجد احتياطا من الأقذار التي لا يتحرزون عنها فقد جاء في حديث : جنبوا مساجدكم صبيانكم . وما كرهه العلماء السؤال والاستجداء في المساجد كما كرهوا أن تقام فيها الحدود والتعازير خشية تلويثها بالأقذار والدماء التي يحتمل وقوعها في هذه المناسبات وللعلماء مؤلفات خاصة في أحكام المساجد تدور كلها حول تهيئتها لأداء رسالتها الدينية وتوفير ما يجب لها من الوقار والصيانة والنظافة حتى تمتلئ قلوب روادها بالمهابة وتستجمع نفوسهم لمناجاة من يريدون مناجاته .

وفي ضوء ما ذكرنا من الأحاديث وأقوال العلماء يمكن تقييم الدعوة إلى تطوير رسالة المساجد وتوسيعها بتلك الدعوة التي لا شك في حسن نوايا القائمين بها والداعين اليها ، فما يدعون اليه - وقد تحقق بعضه مع الأسف - أن تلحق بها المستوصفات ولساحات الرياضية والمكتبات وبعض المدارس ، بل تطرف بعضهم فدعا إلى أن تكون أماكن للقضاء والحكم والفصل في الخصومات ، ولا شك أن هذه دعوة جافاها الصواب . وغفل القائمون بها عن رسالة المسجد ، ولو تحقق ما يدعون اليه انقلبت المساجد بما يلحق بها أسواقا تتخطف الأبواق والأجراس وأصوات الجماهير المتجمعة حولها أذهان المصلين وقلوبهم وتفسد عليهم مناجاتهم وصلواتهم ، ولعلنا نعاني بعض ذلك الآن في المساجد التي أخذت بهذا التطور ، إنا اذ ندعو بما دعا اليه النبي ﷺ - وهو أن تكون المساجد لما بنيت له يعني خالصة للعبادة مجردة من كل ما ينال من هيبتها . لا نغفل عما ورد في الآثار من أن الرسول قد حكم فيها وكان يعلم منها الصحابة وأنه كان يدعو فيها إلى الجهاد ونحو ذلك . ولكنا نقول إن ذلك كان ضرورة مؤقتة لعدم توافر الأمكنة لهذه الشئون في أول العهد الإسلامي بدليل أن المساجد بعد ذلك لم تكن مقار دائمة لهذه الشئون ، وإلحاق المدارس ببعض المساجد بمصر كان ابتداعا مملوكيا لم يتحر القائمون به آراء من سلف من العلماء .

إن الحديث فى هذ الموضوع مجال لاختلاف وجهات النظر ، وكل ما أرجوه أن يعاد النظر فى فكرة تطوير المساجد وتوسيع وظائفها وتقدير ما يترتب على ذلك مما لا يناسب جلال المساجد وسمو رسالتها ونجعلها كما قال رسول الله : «إنما المساجد لما بنيت له» والله الهادى إلى سواء السبيل .

أبو الوفا المراغى

رُوِيَ عَنْ سَيِّدِنا أَبِي بكْرٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : «سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلْ لِلْخَلْقِ طَرِيقاً إِلَى مَعْرِفَتِهِ إلاَّ بالْعَجْزِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ . .»

وَيَقُولُ أَحَدُ الصُّوفِيَّةِ : «سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الإِقْرَارَ بِالْعَجْزِ عَنْ إدْرَاكِ مَعْرِفَتِهِ إيماناً ، كَمَا جَعَلَ إقْرَارَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ بالْعَجْزِ عَنْ إدْرَاكِ شُكْرِهِ شُكْراً . .»

مدخل إلى الشخصية الإسلامية

للأستاذ طه محمد كسبه

« الشخصية » . . وماذا تعنى ؟

اختلف الكتاب والفلاسفة فى تعريف الشخصية ، مثلما اختلفوا فى كثير من الأمور والقضايا ، ومن ثم فإننا فى بحثنا لم نعثر على تعريف واحد جامع لهذه الكلمة ، بل إننا لم نجد دراسة وافية شاملة حول الشخصية ، تحدد ماهيتها وأبعادها ومكوناتها وأنماطها ، وغير ذلك من جوانب الشخصية العديدة ، ولذا فإننا – نلمح مع ذلك – تعدد هذه التعريفات ، وتنوع الأفكار والآراء التى تناولتها .

فهناك من التعريفات التى تركز اهتمامها على السلوك الخارجى للإنسان وبما يقوم به فى إطاره الخارجى الواضح للعيان ، وبما يحدثه من تأثير فى الآخرين ممن يحيطون به ، كما أن هناك من التعريفات التى تولى اهتماما كبيرا بالتكوين الداخلى والظواهر الداخلية للشخصية والتى تتمثل فى مدركات الفرد واتجاهاته وقيمه ودوافعه وغير ذلك من السمات الداخلية التى قد لا تظهر فى سلوك مباشر ظاهر للفرد أمام العيان .

وعليه فإن الشخصية قد تعنى مجموعة الصفات والمزايا الذاتية والصفات العقلية والخلقية والجسدية والإرادية التى يتوج بها الإنسان نفسه وتميزه عن غيره من بنى الإنسان وهى فى – مجملها – تشير دائما إلى نشاط الإنسان كله أو إلى وجهات من التكامل ، تميز الفرد عن قرينه ، كما أنها قد تعنى التنظيم الفريد للأفكار والمعتقدات والاتجاهات والقيم والعادات التى نظمها الفرد فى شكل أدوار ومراكز يستغلها فى تفاعله مع الغير ومع نفسه .

وبما أن مجال بحثنا هنا فى شخصية المجتمع ، فإنا نقول إن هذه التعريفات تنطبق على أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية ، فشخصية أى مجتمع إنما هى مجموع الصفات العقلية والخلقية والإرادية والجسمية ، أى أنها مجموع الصفات والمميزات الذاتية التى يتوج بها المجتمع نفسه ، وتميزه عن غيره من المجتمعات البشرية الأخرى .

والشخصية كما نرى ، لها أصل اجتماعى وعمق تاريخى وبعد زمنى ، والشخصية لها ارتباط بمكان ، كما أن فيها يكمن معنى الحياة وقيمة الإنسان والمجتمع ، والشخصية بعد هذا كله إنما هى ثمرة الحضارة تتمثل فيها شخصية المجموع وشخصية الفرد ، ومن هنا كانت أزمة الشخصية اليوم- أىّ شخصية - هى أزمة الحضارة العصرية التى يريد أن يقيمها إنسان القرن العشرين وأن يحياها .

كما وأن الشخصية فى النهاية ، معيار الحرية للفرد ومعيار الكرامة للمجموع ، وبغير هذه الشخصية فلا كرامة لمجموع ولا حرية لفرد فى أى مجتمع ، على أن شخصية أى فرد وشخصية أى مجتمع ليست صفة جامدة إلا فى الجسم الميت أما فى الجسم الحى أو الجسم القابل للحياة فهى صفة متحركة متطورة تبعا لما تتلقاه من غذاء ومن تأثير الأحداث والتجارب والخبرة والمعارف وغير ذلك ، فالشخصية متجددة طالما هى متحركة ونشطة وهذا بالضبط بعض ما كانت تتسم به الشخصية الإسلامية إلى عهد قريب .

« الشخصية الإسلامية » . . وكيف تكون ؟

لقد «عالج الإسلام أعمال الإنسان الصادرة عن حاجاته العضوية وغرائزه بالأحكام الشرعية المنبثقة عن هذه العقيدة نفسها معالجة صادقة تنظم الغرائز ولا تكبتها ، وتنسقها ولا تطلقها ، وعلى هذا نجد أن الإسلام يكوِّن الشخصية الإسلامية بالعقيدة الإسلامية ، فبها تكون عقليته وبها نفسها تتكون نفسيته ، إن جعل الإسلام مقياساً لجميع الأفكار عملياً وواقعياً يجعل عند الإنسان عقلية إسلامية ونفسية إسلامية ، وهُما اللتان تجعلان ميولهما كلها على أساس الإسلام فيكون الإنسان حينئذ بهذه العقلية وهذه النفسية شخصية إسلامية بغض النظر عن كونه عالماً أو جاهلاً ، لأن كل من يفكر على أساس الإسلام ويجعل هواه تبعاً للإسلام يكون شخصية إسلامية .

« والإسلام جاء ليطبق عمليا وهو واقعى أى يعالج واقعا لا يصعب تطبيقه ، وفى متناول كل إنسان مهما بلغ تفكيره من الضعف ومهما بلغت غرائزه وحاجاته العضوية من القوة ، فإنه يمكن له أن يطبق الإسلام على نفسه بسهولة ويسر ، المسلم عندما يطبق الإسلام على نفسه يصبح شخصية إسلامية ، ويصبح مؤهلا للجندية والقيادة فى آن واحد ، جامعا بين الرحمة والشدة ، والزهد والنعيم ، يفهم الحياة فهما صحيحا فيستولى على الحياة الدنيا بحقها ، وينال الآخرة بالسعى لها ، ولذا لا تغلب عَلَيْهِ صفة من صفات عباد

الدنيا ولا يأخذه الهوس الدينى ولا التقشف الهندى ، وفى الوقت الذى يكون سريًا يكون متواضعا ويجمع بين الامارة والفقه ، وبين التجارة والسياسة ، وأسمى صفة من صفاته « انه عبد الله تعالى خالقه وبارئه »(١).

هكذا هى الشخصية الإسلامية ، لا تعدو أن تكون إلا عبدا من عباد الله تأتمر بأمره ، وتنتهى عما ينهى عنه ، وهى لذلك فى حاجة دائما الى التربية وإلى التنمية ، وعليه فإنا نجد أن الشخصية الإسلامية – الحقيقية – شخصية قوية ، وهذه الشخصية بالذات كانت دائما محور رسالة الإسلام «وبالنسبة للإسلام بالذات الذى يهمنا معرفة موقفه من تربية وتنمية الشخصية القوية ، فإننا لا نعتقد أن هناك أى دين آخر أو فلسفة أو نزعة من النزعات الدينية والتربوية والسياسية التى سادت العالم قديما أو تسوده فى الوقت الحاضر قد اهتمت بتنمية الشخصية الإنسانية نموا شاملا متكاملا ، وهيأت لهذا النمو كافة الظروف والعوامل المساعدة عليه ، وأزالت من طريقه كل الحواجز والعقبات مثل ما اهتم وفعل الإسلام الذى جاء يربى الإنسان ويهديه إلى التى هى أقوم ، ويرفع من شأن كرامته وعقله وحريته وحقه فى العدل والمساواة والأمن والاطمئنان ، ويجعل صلاح الفرد شرطا وخطوة نحو صلاح المجتمع وصلاح الباطن شرطا لصلاح الظاهر ، والإيمان شرطا لصلاح العمل والعمل الصالح شرطا لتمام الايمان ويوفق بين مطالب المادة ومطالب الروح ويستجيب للحاجات الإنسانية الضرورية ، ويدعو الى الإيمان بالله والثقة به والأمل فيه والتوكل عليه والرضا بقضائه وقدره والى الصبر والحلم والشجاعة والقوة وقوة العزيمة وضبط النفس وكتم الغيظ والهدوء والرزانة والمرونة والشفقة والرحمة والمروءة والشهامة وعلو الهمة والقناعة والبشاشة والحشمة والوقار ، وينفر من الكفر والنفاق والوهن واليأس والتواكل والتكلف وخشونة الطبع والتكبر والتجبر والغرور والضجر والضعف والاستهتار والاستسلام للأهواء والتنطع والجمود والأنانية والطمع ، ذلك أن الدين الاسلامى بتأكيده ودعوته إلى هذه المبادئ والفضائل وتنفيره من أضدادها قد يسر السَّبِيلَ أمام بناء شخصية قوية ناجحة » وبناء مجتمع قوى ناجح(٢).

وهكذا هو المجتمع – الذى يعنينا فى هذا المقام بالدرجة الأولى – يصبح مجتمعا إسلاميا ، أو تصبح له شخصية إسلامية بقدر ما يطبق الإسلام على نفسه ، ويتمشى مع

---

(١) الثقافة والثقافة الإسلامية ص ١٤ الأستاذ/سميح عاطف الزين

(٢) من بحث للدكتور عمر التومى الشيبانى بمجلة الثقافة العربية عدد يناير ٧٧ ص ٥٨ .

طبيعته ، فحين يصبح أبناء هذا المجتمع عِباداً لله فهم مسلمون وشخصيتهم إسلامية العقيدة والسلوك وبقدر ما يصبح هذا المجتمع إسلاميا ذو شخصية إسلامية بقدر ما يعمل بشريعة الله وبتعاليم دينه الحنيف .

مكونات هذه الشخصية :

ونحن إذا ما تفرسنا فى ملامح هذه الشخصية ، وإذا ما واصلنا البحث فى مكوناتها ومقومات تركيبها نجد أنها تتميز بالعديد من الخصائص التى تميزها عن غيرها من التراكيب العقائدية والسلوكية والاجتماعية ، بمعنى أنها تنفرد بخصائص معينة قد لا تتوافر- بعينها- لغيرها من الشخصيات ، وعليه فيمكن القول بأن الشخصية الإسلامية تتميز بأنها :

إسلامية الإيمان :

أى أنها تؤمن إيمانا كاملا بمكونات العقيدة فى الإسلام لا تحيد عنه ولا تنحرف ، لا تشط ولا تفرط ، فهى ملتزمة التزاما كاملا بأشراط هذا الإيمان الذى نص عليه القرآن الكريم وحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولقد جاء فى الأثر الكريم حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيما رواه مسلم من حديث جبريل أن رسول الله ﷺ لما سئل عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » .

وكلمة الإيمان يفهم منها معنى الأمن ، وهو شعور قلبى بالطمأنينة والثقة والسكينة وارتياح بأن ما يعتقده حق وصدق ، « والإيمان بالله من هذا القبيل إذ هو التصديق بوجوده الذى لم يُسْبق بعدم ولا ينتهى بعدم ، وبكل ما يليق به من صفات الكمال والجمال والجلال وبكل ما أنزله من كتب ومن أرسله من رسل ، عن دليل قوى يطمئن إليه القلب والعقل ويرتاح له الشعور والضمير وينعقد عليه العزم والتفكير ، ومن ثم نرى إن مجرد التصديق بالعقل لا يكفى فى تحقيق معنى الإيمان وإنما يتحقق معنى الإيمان حين تحتل العقيدة مكانها من قرارة النفس والضمير ويصحبها الاطمئنان إليها والحرص عليها والعمل بمقتضاها والسير على هداها »(١).

والإيمان الذى نعنيه ليس قولا ولا شهادة ينطق بها اللسان وحده ، ولا آيات من . .

(١) الدين عند الله ص ٧٤ الأستاذ/عبد الرحيم فودة

القرآن الكريم تكفى فى مقام الاستشهاد بالارتباط بالإسلام كما أنه ليس نصائح يوردها الناصح لغيره من الناس ، ولا معرفة بالدين تلقن لمن لا يعرفها ، ولا وظيفة خاصة يتعيش منها محترف ، ولكنه إيمان سلوك وتصرف ، كما أنه إيمان عقيدة وعبادة وتصوف .

وعليه فإن مكونات العقيدة هذه والذى يشتمل عليها الإيمان فى الإسلام تتكون من ستة عناصر هى :

- الإيمان بالله (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون) .

- وملائكته (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) .

- وكتبه (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنو بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) .

- ورسله (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير) .

- واليوم الآخر (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) .

- والقدر خيره وشره (يا غلام : إنى أعلمك كلمات . احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1] .

- إسلامية السلوك : (العبادات) :

وفى هذا تلتزم الشخصية الإسلامية ببيان هذا السلوك الذى حدده القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، بحيث يصبح هذا البيان دستور حياة يلتزم به التزاما يتمشى مع واقع الحياة

---

(١) رواه الترمذى عن أبى عباس عبد الله بن عباس رضى الله عنهما .

الاسلامية المنشودة وفلسفتها وغايتها ومنهجها القويم . ولكى « تظل النفس البشرية على المستوى المرضى من الاتزان والاعتدال مع ذاتها ومع غيرها فرض الإسلام الوانا من العبادات (السلوك الاسلامى) بها تبقى العقيدة حية ويبقى الاتزان النفسى متجددا فى كيان الإنسان فلا تلتوى السبل ولا تتوزع نفسه على مختلف المسالك بل ينبعث سلوكه فى شتى جوانب التعامل وفق المنهج المرضى الذى شرعه الله فى كتابه وسنة نبيه ، فالعبادات للمسلم مذكرٌ ومنبهٌ ، تظهر فى أعماقه الاحساس إذا غفا ، وتنبه منه الشعور إذا فتر ، وتنمى فى الوجدان تطلعه إلى الخير والمزيد منه وتتسامى به وتحرره من عبودية الشهوات والأهواء » (١).

– فالصلاة : اتصال دائم بالله يعصم المسلم من التردى فى مهاوى الفحشاء ويمنعه من استجلاب سخطه تعالى باقتراف المنكر (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) .

– والزكاة : ليست مجرد حل من الحلول التى فرضها الاسلام لمشكلة الفقر والتخفيف من داء الشح ومرض الأثرة وعبادة المال (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) .

– والصوم : تربية للارادة على المقاومة والصمود وأرهاف للحس والمشاعر ، وفيه تدريب على ضبط النفس ، كما أنها تدفع النفس فى مغالبة الشهوة والانتصار عليها (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

– وحج البيت : حيث يتم ذلك اللقاء الدورى الجامع بين الحجيج القادمين من مشارق الارض ومغاربها على النقاء والطهر والأخوة المبرأة ، ففيها اجتماع وتعارف كما أن الحج فريضة تلتقى فيها الدنيا بالآخرة للعبرة والعظة (وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهن من بهيمة الأنعام) .

– إسلامية الثقافة :

هذه الثقافة التى نعنى بها مجموعة القيم والتقاليد الاجتماعية التى يتلقَّنها الفرد منذ مولده إلى حين وفاته ، كما أنها المحيط الذى يعكس حضارة إسلامية تضم ثمرات الفكر من علم وفن وقانون وأخلاق ، هذه الثقافة التى هى فى مفهومها السليم شىء يجاوز المهارة والبراعة

(١) الإسلام وبناء المجتمع الفاضل ص ٨٩ الأستاذ الدكتور/يوسف عبد الهادى الشال .

فى أى منحى من مناحى العلوم النظرية أو العلمية ، هذه الثقافة التى يمكن التعبير عنها بأنها تلك الحصيلة الطبيعية للقراءة الواعية والدراسة المستمرة لأفكار الآخرين ومشاعرهم ونظرياتهم وتجاربهم ، أى أنها أعمق من مجرد التعليم والتلقين .

هذه االثقافة وهذا العلم الذى كان الكلمة الأولى التى نزلت من القرآن الكريم حين صدع الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لأمر ربه (اقرأ) تلك الكلمة التى منحت له عليه الصلاة والسلام مقاليد كل الأمور والتى كانت بداية وحى استمر ثلاثة وعشرين عاما متصلة ، والتى كانت البداية الحقيقية للثقافة الإسلامية التى تستمد أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من فعل أو قول وتقرير ، وأمر أو نهى وتوجيه أو إرشاد ، ومن التراث الإسلامى الذى خلفه المسلمون حتى الآن .

تلك الثقافة الإسلامية القرآنية المصدر ، السنية التوجيه ، التاريخية النسب ، الإسلامية الملامح والقسمات ، هذه الثقافة الإسلامية التى تتميز بأنها ثقافة إنسانية عالمية تنظر إلى الناس بمقياس واحد ، كما أنها ثقافة متدينة يمثل الدين قوامها وأساسها بالإضافة إلى أنها ثقافة إيجابية بناءة تدفع المرء والمجتمع إلى الأمام وإلى احراز التقدم والرقى فى شتى مناحى الحياة[1].

— إسلامية الخلق :

ذلك أن أول شىء يلاحظه الباحث فى الإسلام من تناسق وتكامل وشمول هو أن الإسلام عقيدة قبل أن يكون نظاما ، وأنه أخلاق قبل أن يكون تشريعا وقانونا ، ولقد ألزم الإسلام أفراد مجتمعه أن يكونوا على مستوى من حسن التعامل يكفل للعلاقات إيجابية الحياة ، « وميزة الإسلام فى هذا أنه لا يجعل من الفضائل والآداب سلعا فى سوق التجارة تعرض على مقياس الربح والخسارة ، وعليه فإن الإسلام حين يأمر بالصدق مع الناس يأمر به خلقا واجب الإلتزام أولا وبالذات يعبر عن إيمان المؤمن » . والإسلام فى كل هذا يجعل نصب عينيه بناء شخصية إسلامية قوية راسخة ، ذلك أن المجتمع لا يقدر النبوغ الذهنى إلاّ مقترنا بالأخلاق ، ولا يعترف لصاحب هذا النبوغ بقوة الشخصية إلاّ متى اكتمل فيه سلطان الأخلاق ، لا بد لكل منها من خاصة ممتازة أو ملكة نادرة أو موهوبة بارزة يجب أن نستوثق منها ونحللها ونلاحظها ونلاحظ اغراضها ، علينا أن نبرزها ونصقلها ونهئ لها

(١) رأينا تلخيص فكرة مقالنا السابق المنشور بالمجلة فى عدد ربيع أول توضيحاً للفكرة ومنعاً للتكرار .

الظروف الصالحة لنموها(١).

ولعل من نافلة القول أن الإسلام قد جاء ليكمل الرسالة الخلقية للأديان السابقة عليه ، وذلك بمتابعة وتقوية القيم الخلقية واستكمالها بدقائق السلوك الحسن والذوق العام ، فبعد أن جاءت المسيحية وتابعت وصايا موسى العشر خطَا الإسلام خطوات أبعد فى توكيدها ، وباضافة كثير من التفاصيل والتشريعات ، فحين حرم الإسلام قتل الإنسان لاخيه الإنسان دعم ذلك بقواعد أكثر إنسانية ونبلا حين قال (من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا(٢) ، كما أكد الإسلام تحريم الزنى والسرقة والربا وشهادة الزور ، وأضاف إلى قائمة التحريم بعض الآثام الأخرى مثل الخمر والميسر ، كما استنكر الفتنة استنكارا قويا(٣) وحرم الإسلام الرشوة والفساد(٤) وكما حرم الفضول والريبة والتشهير والغيبة والنميمة(٥) ونهى عن التجسس(٦) ودعا إلى التحقق والتثبت مما يقال(٧) وأوجب على المسلمين الإعراض عن اللغو وفضول الهذر(٨) ونهاهم عن الخيلاء والزهو(٩) ونهاهم كذلك عن التفاخر والتزام الأدب فى مجالس الرسول عليه الصلاة والسلام(١٠) كما نهى عن قهر اليتيم ونهر السائل أيًا كان(١١) كما دعى المسلمين إلى أن يلتزموا الصِّدق والحق(١٢) وأن يردوا الأمانات إلى أصحابها(١٣) كما أمرهم بالعدل(١٤) وحثهم على الحياء والتواضع(١٥) ودعاهم إلى الطهر والعفة(١٦) وإلى احترام الوالدين وطاعتهم(١٧) وإلى الإحسان من بذل للخيرات وإعطاء للصدقات(١٨).

---

(١) المثل الأعلى للشباب المسلم ص ١٠٢ الأستاذ/أنور الجندى .

(٢) سورة المائدة آية ٣٢ .

• نظراً لكثرة الآيات التى استشهدنا بها ولضيق المساحة فضلت أن أشير إليها مستأذناً القارئ فى أن يرجع إليها فى المصحف أنى شاء .

(٣) البقرة آية ١٩٣ .

(٤) البقرة آية ١٨٨ .

(٥) الإسراء آية ٣٦ .

(٦) الحجرات آية ١٢ .

(٧) الحجرات آية ٦ .

(٨) المؤمنون آية ٣ .

(٩) النساء آية ٣٦ .

(١٠) الحجرات آية ٢ – ٥ .

(١١) الضحى آية ٩ .

(١٢) البقرة آية ٤٠ .

(١٣) النساء آية ٥٨ .

(١٤) النساء آية ١٣٥ .

(١٥) المؤمنون آية ١ – ٣ .

(١٦) النور آية ٣١ – ٣٣ .

(١٧) الأحقاف آية ١٥ .

(١٨) التوبة آية ٦٠ .

ومن الجدير بالقول أن من مكونات الشخصية الاسلامية ، بالاضافة الى ما سبق تلك المعانى والقيم والافكار التى يمكن أن يعطيها المفهوم الاسلامى للاقتصاد والحكم والاجتماع والتشريع ، بمعنى ان الاقتصاد الاسلامى الذى يقوم على ان المال مال الله وان الناس مستخلفون فيه شرط ان يتداولوه فيما بينهم دون كنز او اخفاء ، وتكون الشورى اساس للحكم حيث تكون السيادة للشرع والسلطة للأمة ، وان يعمل الحاكم بكتاب الله متبنيا الاحكام الشرعية التى نص عليها دستور الاسلام الخالد ، كما ان من مكونات الشخصية الاسلامية ان تعمل بالنظام الاجتماعى الذى ارساه الاسلام ذلك النظام الذى يبحث فى علاقة المرأة بالرجل ، وما ينشأ بينهما من صلات وعلاقات وكذا فى مجال التشريع حين يكون تقنين الشريعة الاسلامية امرا حتميا حتى يعيش المجتمع الاسلامى فى امن وسلام ، ورخاء ورفاهية .

وعليه فانا نستطيع القول بان الشخصية الاسلامية هى تلك الشخصية التى تحددت ملامحها وسماتها باتباع ما جاء بالقرآن الكريم به من تعاليم وارشادات وتوجيهات بحيث اذا تميزت هذه الشخصية باسلامية الايمان والسلوك والثقافة والخلق ، وباسلامية النظرة والتصرف- الاقتصادية والاجتماعية وباسلامية الحكم والتشريع ، فيلزم ان ننسبها الى الاسلام .

على ان اهم معالم هذه الشخصية الاسلامية وابرزها تتركز فى النقاط التالية :

١ - الطموح : بمعنى ان الشخصية الإسلامية سواء أكانت فردا ام مجتمعا- شخصية حركية تسعى الى التقدم والرقى رغم أنف دعاة الأفكار الغربية ، ذلك أن الاسلام يقف ضد اعداء الله والانسان ، ومن هنا فان هذه الشخصية مادامت متمسكة بكتاب الله وسنة نبيه ، ساعية الى تملك أسباب القوة والنجاح ، آخذة بأسباب العلم والثقافة والفكر التى أوضحها القرآن ، فهى شخصية طموحة تسعى الى أن تحيا فى رخاء مادى ومعنوى ، جسدى وروحى على التوازى .

٢ - التكامل : بمعنى ان هذه الشخصية الاسلامية- الفرد والمجتمع - تحيا حياة متكاملة بحيث تتجاوز فيها الروح والمادة ، العقل والقلب والارادة ، والوجدان ، والفكر والعاطفة ، فطالما ان الاسلام هو جماع هذا كله ، فان الشخصية الاسلامية المؤمنة به تكون كذلك بحيث لا يطغى جانب على جانب .

٣- الاخاء : فالمسلمون إخوة متحابون ، يعيشون فى مجتمع يحض على التعاون وعلى

المحبة بحيث يكون المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، وبحيث يكون من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة ، وحيث يصبح المسلمون المؤمنون فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

٤- فعل الخيرات : وهذا المعلم تؤكده تلك الآية الكريمة التى أبرزت سمات هذا . . المجتمع القرآنى العظيم حيث أشارت الى أن العرب والأسلام والمنتسبين اليها هم خير أمة أخرجت للناس ، وذلك لكونهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولأنهم فوق ذلك مؤمنون بالله ، فدستور هذه الشخصية الاسلامية – الفرد والمجتمع – هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بما يكفل فعل الخيرات النابع من الايمان القوى بالله وبما يعنيه هذا الايمان[1] .

وأخيرا لا أملك إلا أن أدعو كل المخلصين لدينهم ووطنهم أن يحافظوا على هذه الشخصية الاسلامية ، وأن يعملوا على أن تظل لهذه الشخصية مقوماتها ، وأن يوفروا لها أسباب القوة والمنعة ، حتى تكون الشخصية الاسلامية حية متجددة ، وأن تتمكن من مواجهة كل التحديات التى يصنعها أعداء الاسلام والمسلمين ، داعيا الله العلى القدير ان يوفقنا جميعا الى ما فيه خير ديننا وأمتنا . آمين .

طه محمد كسبه

أفٌ للجبناء

إنَّ لله خَلْقاً قُلُوبُهُم كَقُلُوب الطيْرِ ، كُلَّمَا خَفَقَتِ الرِّيحُ خَفَقَتْ مَعَهَا ، فَأُفٌ للجبناء ، أفٌ لِلْجُبَنَاء .

عائشة أم المؤمنين

(١) إشارة إلى الآية (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) .

مع العارفين

ميمون ابن أبى شهاب

قال ميمون : أردت الجمعة زمن الحجاج ، فتهيأت للذهاب ، ثم قلت : أذهب وأصلى خلف هذا (الحجاج) ؟ فقلت مرة أذهب ، وقلت مرة لا أذهب ، فأجمعت رأيى على الذهاب فنادانى مناد من جانب البيت : « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله » . . فذهبت . وجلست مرة أكتب كتابا ، فعرض لى شئ إن انا كتبته فى كتابى زين كتابى وكنت قد كذبت ، وإن انا تركته كان فى كتابى بعض القبح وكنت قد صدقت ، فقلت مرة أكتبه ، وقلت مرة لا أكتبه ، فأجمعت رأيى على تركه ، فنادانى مناد فى جانب البيت : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » . . فتركته .

هذا كل ما ذكره الأصبهانى من كلام أبى نصر ميمون بن أبى شهاب ، الفقيه المحدث الشهيد وفيه يتكشف جانب من نفسه الطيبة ، هو الجانب المبارك الذى يتميز به السالكون لهذا الطريق المشرق الى الله ، فهم دائما حتى فى دقائق اعمالهم ، يسيرون بهذا الشعاع الهادى من قلوبهم الحية العامرة ، ويستوحون المنطقة القدسية الرائقة فى نفوسهم الكبيرة : إنهم ينشدون السكينة والرضا فى كل عمل ، وفى كل حركة ، ويتقدم هذا (النشدان) فى حياتهم الروحية حتى يكون الرائد الذى يسبق حدود الفقه ويطبعها بطابعه ، وليس معنى ذلك أن يهمل أحدهم هذه الحدود أو أن يستغنى عن عملها وعن الرجوع اليها ، لا ، فأبو نصر مثلا فقيه محدث ، ولكن معنى ذلك أن فقه الفقيه منهم لم يكن حملا لاثقال من العلم يجعلها فى رأسه مبوبة مفصلة ثم يمد يده فى كل مسأله ليبحث عن حكمها . . بل كان أمرا أكبر من ذلك ، كان فقها عن الله . . يلتقى فيه الحلال المشروع بالشعور برضاء الله ، والحرام الممنوع بالشعور بغضب الله ، والمشتبه بينهما بالورع الصادق الذى نصح به رسول الله ، وحين يكون الفقه هكذا فقها عن الله : يصبح مركزه الاصيل فى قلب الفقيه الحى وفى مشاعره الأمينة المرهفة ، وتصبح (اشارة المرور) لسالك هذا الدرب المضئ هى

الاشارة التى قررها لسان النبوة (استفت قلبك وان افتاك الناس وافتوك وافتوك) . .

أنه مقام جليل يستوى لأصحابه بقدر استواء نفوسهم ورسوخ ما بينهم وبين الله . . ونجهد أنفسنا لبلوغه على قدر ما نطيق ، معتمدين فى كل مراحل طريقنا اليه على شريعة الله الواضحة فى السراجين الخالدين : كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

واذا استبان ذلك وأنست النفس اليه ، فلا بأس أن يكون مراد أبى نصر من قوله : (فنادانى مناد من جانب البيت) أنه تلق الهاتف من نفسه المؤمنه الموصولة ببيت الله الحرام . . أليس هذا البيت هو المركز الذى اختاره الله من كل جوانب الأرض ليتجه اليه العابدون ركعا سجدا ؟ أوليس عنده يطوف الطائفون ولا يحل لهم طواف عند سواه ؟ أو ليس هو البيت الذى خصه الله – فى القرآن بالنسبة اليه :

« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » ؟ أو من عجب إذاً أن ينسب أبو نصر هاتف ايمانه بالله الى جهة البيت الحرام الذى يتجه اليه ويتمثله كلما وجه لله وقال : « الله أكبر » .

° ° °

وقد أسند ميمون عن على بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، ومعاذ ، والمقداد . وابن ذر ، وابن عباس ، وعمار ، والمغيرة بن شعبة ، وسمرة بن جندب ، وعائشة، رضى الله عنهم أجمعين ، ومما رواه عن معاذ : (بعثنى رسول الله ﷺ الى اليمن فلم يزل يوصينى حتى آخر ما أوصانى قال : عليك بحسن الخلق فان أحسن الناس خلقا أحسنهم دينا) . .

° ° °

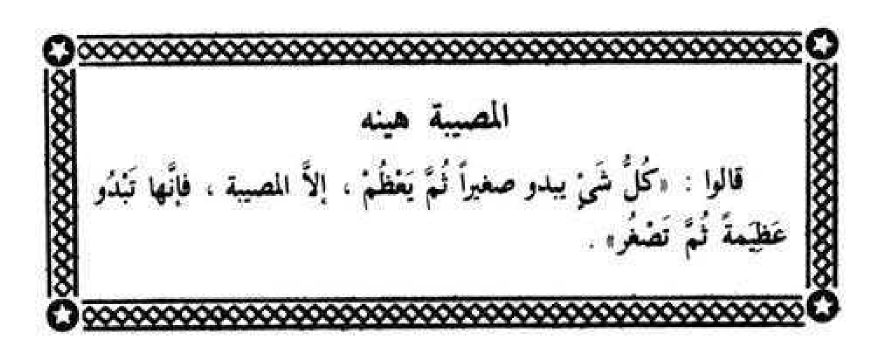
ومما رواه كذلك عن معاذ : (خرجت مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فرأيت منه خلوة فاغتنمتها ، فأوضعت بعيرى نحوه حتى سايرته فقلت يا رسول الله علمنى عملا يدخلنى الجنة . قال : (قد سألت عظيما وإنه ليسيرٌ على من يسره الله تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان) ثم سار وسرت ، فقال : (وان شئت أنبأتك بأبواب الخير : الصوم جنة ، والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام الرجل فى جوف الليل) ثم قرأ (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) ثم سار وسرت ، ثم قال : (ألا أنبئك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه : الجهاد فى سبيل الله) ثم سار وسرت فقال : (إن شئت أنبأتك بما هو أملك على الناس من ذلك كله) فكانت منه سكتة ، وكانت منى

التفاتة ، فرأيت راكبا يوضع نحوه ، فخشيت أن يأتيه فيشغله عنى ، فأومأ الى لسانه وفيه ، قلت : يا رسول الله : وإنا لنؤاخذ بما نتكلم ؟ قال : (ثكلتك امك يا ابن جبل . . ما تقول الا لك أو عليك . . وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم الا حصائد السنتهم ؟ . .)

ومما رواه عن المقداد ، قال : (جاء رجل يثنى على عامل لعثمان عند المقداد ، فحثا المقداد فى وجهه التراب وقال : (ان رسول الله ﷺ قال : (إذا رأيتم المداحين فاحثو فى وجوههم التراب) . ومما رواه عن عمار بن ياسر قال: (قال رسول الله ﷺ من ضرب مملوكه ظالما أقيد منه يوم القيامة) .

ومما رواه عن عائشة : (انها كانت فى سفر ، فأمرت لناس من قريش بغذاء فمر رجل غنى ذو هيئة فقالت : ادعوه فنزل فأكل ومضى . . وجاء سائل فأمرت له بكسرة ؟ فقالوا لها أمرتينا أن ندعو هذا الغنى وأمرت لهذا السائل بكسرة ؟ فقالت : إن هذا الغنى لم يحمل بنا الا ما صنعنا به ، وان هذا السائل سأل فأمرت له بما أرضاه وان رسول الله ﷺ أمرنا أن ننزل الناس منازلهم) .

رضى الله عن أبى نصر وأرضاه



المصيبة هينه

قالوا : «كُلُّ شَيْءٍ يبدو صغيراً ثُمَّ يَعْظُمُ ، إلاَّ المصيبة ، فإنَّها تَبْدُو عَظِيمَةً ثُمَّ تَصْغُر» .

أخطاء شائعة

الأستاذ عباس أبو السعود

٢٧٥ – ويعتقدون خطأ أن الدابة خاصة بالمؤنث غير العاقل ، وأنه لا يجوز أن تطلق على المذكر ولا على العاقل .

والحق أنها اسم لما دب على الأرض من الحيوان عاقلا كان او غير عاقل ، ومذكراً كان أو مؤنثا ، قال تعالى « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يشمى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع » ولما كان ذلك لمن يعقل ولما لا يعقل «قيل فمنهم» ، ولو كان لما لا يعقل فقط لقيل فمنها أو فمنهن .

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه قوله سبحانه « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » أى من الإنس والجن ، وقوله « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . فذِكر كلمة الناس والفعل كسبوا متصلا بواو الجماعة فى الآية الأولى ، وذكر الذين وواو الجماعة فى الآية الثانية كل أولئك يشير إلى أن الدابة يجوز إطلاقها على المذكر العاقل ، ولما قال الخوارج لقطرىّ : أخرج إلينا يا دابة فأمرهم بالاستغفار ، تلوا هذه الآيات حجة عليه ، ونظير ذلك من المحمول على المعنى قولهم للخروف هذا شاة ، قال الخليل ومثله قول الله جل شأنه : هذا رحمة من ربى .

٢٧٦ – ويقولون : لهذا الرجل شَنَب طويل ، يعنون الشعر الذى يسيل على فمه ، وهذا خطأ لأن للشنب مَعْنىً لا صلة له بمعناهم هذا ، فهو ماء ورِقَّة وعذوبة فى الأسنان تقول : ثغر أشنب وفيه شَنَب أى رقة وصفاء وبرد ، وكذلك هو حدة الأنياب تراها كالمنشار .

ويقال : شنِب يومنا من باب فرح إذا بُرد فهو شانب وشَنِب ، والمشانب هى الأفواه الطيبة .

والفصيح أن يقال : لهذا الرجل شاربٌ طويل ، جمعه شوارب ، والشوارب أيضا عروق فى الحلقوم ، ولذا يقال لمنكَر الصوت : صَخِب الشوارب تشبيها له بالحمار – قال أبو ذؤيب .

صَخِب الشوارب لا يزال كأنه عبد لآل أبى ربيعة مُسبَعُ[1]

٢٧٧ – وينكرون أن يقال . فاطمة أدت الامتحان وكانت من الفائزين ، ويصرون على أنه ينبغى أن يقال : وكانت من الفائزات .

وها هم أولاء قد نسوا أن التذكير هنا للتغليب ، وللإشعار بأن مهارة هذه الفتاة لم تكن أقل من مهارة الفتيان الكاملين .

ويؤيد صحة ما رأينا قوله جل شأنه فى محكم كتابه «وصدَّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين» وقوله «يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين» .

٢٧٨ – ويقولون : حضر الفضلاء ، وهذا خطأ لأن كلمة فضيل لم ترد فى العربية حتى تجمع على فضلاء ، والصواب أن يقال : حضر الأفاضل جمع أفضل ، كما يجمع أقرب على أقارب ، وأمثل على أماثل ، وأمثلُ القوم أدناهم الى الخير ، وفى التنزيل «إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما» ، وأماثل القوم خيارهم وكما يجمع أرذل على أراذل ، والأراذل الأخساء ، قال تعالى «وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا» ، وكما جمع أكبر على أكابر فى قوله تعالى «وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها» .

ولك أن تجمع الأفضل جمع مذكر سالما فتقول حضر الأفضلون ، كما جمع أقرب هذا الجمع فى قوله تعالى «للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون» ، وكما جمع الأرذل فى قوله «قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون» وكما جمع الأخسر فى قوله سبحانه «لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون» وقوله «وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين» .

٢٧٩ – ويقولون : كان غداؤنا اليوم عددا من الكوارع ، وهذا فاسد ، والصواب أن يقال : كان غداؤنا اليوم عددا من الأكْرُع أو من الأكارع ، الواحد كُراع وزان غراب ، يذكر ويؤنث ، وهى ما دون الكعب من الدواب ، وما دون الركبة من الأناسى ، قال :

يا نفسُ لن تُراعى إذا قطعت كُراعى إن معى ذراعى .

وقال آخر :

فظلت تكوس[2] على أكرع ثلاثٍ وكان لها رابع

وفى المثل «أُعْطِىَ – العبد كراعا فطلب ذراعا» لأن الذراع فى اليد وهو أفضل من الكراع فى الرجل ، ولذا يقال للسِّفلة من الناس أكارع تشبيها بأكارع الدواب لأنها أسافل .

(١) المُسبَع : من فى العبودية إلى سبعة آباء .

(٢) تكوس : تمشى على ثلاث قوائم .

وللكُراع فوق ذلك معنيان : أحدهما طرف الشيء ، تقول : امش فى كُراع الطريق أى فى طرفه ومن ذلك قولك : تكرّع فلان إذا توضأ للصلاة لأنه أمرَّ الماء على أكارعه أى أطرافه ، وعن النخعى قوله : كانوا يكرهون الطلب فى أكارع الأرض أى فى أطرافها ، ومن ذلك أيضا قولهم : نزا الجُندُب بكراعيه أى وثب برجليه قال :

ونفى الجندب الحصى بكراعـ ـيه وأوفى عوده الحرباء

والآخر : أنه اسم خاص بالخيل ، تقول : احبسْ الكراع فى سبيل الله أى الخيل ، أما الكوارع فكلمة عربية سليمة بيد أن لها معنى لا صلة له بالأكارع ، هو أنه جمع كارعة وهى النخلة التى تشرب بعروقها تقول : نخل كوارِع وكارعات إذا شربت بعروقها لقربها من الماء ، قال النابغة :

وتسقى إذا ما شئت غير مصَرَّد(١) بصهباء(٢) فى حافاتها المسك كارعُ

٢٨٠ – وينكرون أن تجمع كلمة الخَضْراء بمعنى الخُضَر على خضراوات جمع مؤنث سالما ، ويصرون على أنها لا تجمع إلا جمع تكسير على خُضْر مستأنسين بقوله تعالى « ويلبسون ثيابا خضرا » والحق أنها لا تجمع إلا على خضراوات .

وبيان ذلك أن ما يجمع على فُعْل لابد أن يكون صفة على أفعل ومؤنثة فعلاء . وخضراء هنا ليست مؤنثة أفعل فى الصفات ، وانما هى اسم للخُضَر والبقول . وفى الحديث « تجنبوا من خضرائكم ذوات الريح » يعنى الثوم والبصل والكراث ونحوها ومتى فُقدت الوصفية تعينت الأسمية بالغلبة ، ولهذا قال النبى ﷺ « ليس فى الخضراوات صدقة » يعنى الفاكهة الرطبة والبقول .

وانما يجمع هذا الجمع ما كان اسما لا صفة ، والعرب سمت هذه البقول بالخضراء ولا تريد لونها ، قال ابن سيده : جمعت الخضراء جمع الاسماء كورقاء وورقاوات ومما يؤيد ما ذهبنا اليه من أن الخضراء قد تكون اسما أن العرب سمت السماء بالخضراء وفى الحديث « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء(٣) أصدق لهجة من أبى ذر » وأن العرب قالت : ما تحت الخضراء أصدق حديثا من محمد ﷺ ، وما تحت الخضراء أكرم من حاتم طيئ .

٢٨١ – وهم يخطئون حين يقولون: طهونا اليوم لحما ثم نضجه بعد غَلْوة واحدة ، لأن

---

(١) غير مصرد : أى لم يكن السقى قليلاً .
(٢) الصهباء : الخمر .
(٣) الغبراء : الأرض .

الغلوة اسم مرة من فعل واوى بابه عدا ، تقول : غلا يغلو غلوا بدليل جمعها على غلوات كشهوة وشهوات ومعناها رمية سهم أبعد ما يقدر عليه الرامى ، ويقال : هى ثلثمائة ذراع إلى أربعمائة ، تقول غلا الصياد بسهمه إذا رمى به أقصى الغاية .

ولتأدية المعنى الذى يبتغونه ينبغى أن يقال : ثم نضجه بعد غَلْية واحدة اسم مرة من فعل يائى بابه رمى .

يقال : غلت القدر تغلى غلْيا وغليانا ، قال الفراء : إذا كان الفعل فى معنى الذهاب والمجئ مضطربا فلا تهابن فى مصدره الفعَلان ، كما فى قولك : خفق القلب خفقانا ، وفاض الماء فيضانا ، وجال السائح جولانا وفى لغة : غليت القدر تغلَى من باب تعب ، وهذا ضعيف ، قال :

ولا أقول : لقدر القوم قد غليت ولا أقول لباب الدار مغلوق

ومجيئها من باب رمى هى اللغة الفصحى ، وبها جاء الكتاب الحكيم فى قوله « كالمهل[1] يغلى فى البطون كغلى الحميم[2] » .

٢٨٢ – وقد فشا على ألسنتهم قولهم : فلان متبجِّح ، وفيه بجاحة ، يعنون أنه سيئ الأدب قليل الحياء ، بعيد من كرم الخلق ، وهذا التعبير فاسد ، لأن البَجَح بالتحريك معناه الفرح والتعظيم ، تقول : بجح فلان يبجح من باب طرب إذا فرح فهو بجح كطرب ، وباجحٌ ، وبجّاح للمبالغة ، قال الجوهرى : بجح بالشئ وتبجح به إذا فرح به فهو متبجح ، وأبجحه الأمر فرّحه ، وفى حديث أم زرع « وبجحنى فبجحت أى فرحنى ففرحت » وقيل إن المعنى عظمنى فعظمت نفسى عندى ويقال : فلان باجح من قوم بجَّح أى هو عظيم من قوم عظماء ، قال رؤبة :

عليك سَيبُ الخلفاء البجّح

أى عطاء الخلفاء العظماء ، وتقول : تبجّح فلان بعلمه أو بماله إذا فخر به فهو متبجح والنساء يتباجحن فيما بينهن إذا تباهين وفخرن ، وعدت كل منهن مفاخرها وحُظوتها قال اللحيانى : يقال : فلان يتبجح ويتمَجح أى يباهى ويفخر بشئ ما ، قال الراعى :

وما الفقرُ فى أرض العشيرة ساقنا إليك ولكنا بقرباك نبجحُ

أى لم يسقنا إليك إلا رغبتنا الملحة فى السرور بالقرب منك والمباهاة بجليل فضلك

---

(١) المهل : القيح وصديد الميت .

(٢) الحميم : الماء الحار .

وعظم خلالك ، وتقول : بجحت الشئ أبجحه إذا عظمتَه .

٢٨٣ – ويقولون : كتبنا هذه القصيدة فى لوحة ، وأثبتنا أسماء الفائزين فى لوحات ، والفصيح أن يقال : فى لوح كما فى قوله تعالى « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » واللوح كل صحيفة عريضة خشباً كانت أو عظماً ، جمعه ألواح كقوله سبحانه « وحملناه على ذات ألواح » .

واللوح لا يؤنث بالهاء لأنه اسم ذات ، وأسماء الذوات لا تدخلها الهاء إلا ما شذ منها ، كسبُع وسبعة ، وأسد وأسدة ، ورجل ورجلة ، وذئب وذئبة فلا يقال فى حصان حصانة ، ولا فى بعير بعيرة ، ولا فى جمل جملة ،

٢٨٤ – ويقولون : شاركه تجارته ، وشاركه عمله ، وهذا خطأ صُراح لأنهم جعلوا الفعل متعديا إلى مفعولين ، وهو لا يتعدى بنفسه إلا إلى مفعول به واحد ، أما الثانى فلا يتعدى إليه إلا بفى ، سواء أكان ثلاثيا أم مزيدا .

تقول : شرِكه فى الميراث من باب علم ، وله فيه شِرك وشَرِكة ، وشاركه فى التجارة ، واشتركا فيها ، وأشركه معه فى التجارة ، فكان عليهم أن يقولوا شاركه فى تجارته ، ومما يؤيد هذا الرأى قوله تعالى « وشاركهم فى الأموال والأولاد » وقوله « وأشركْه فى أمرى »

٢٨٥ – وهم يزعمون أن كلمة مصران مفردة كعنوان ، وهذا زعم باطل ، والحق أنها جمع مَصير كرغيف ورُغفان ، وكثيب وكُثبان ، والمصير وزان أمير هو المِعَى ، ويجمع على مُصران ، ثم يجمع المصران على مصارين جمعا للجمع .

٢٨٦ – ويقولون : صنع فلان عُزومة قيمة دعانا إليها بالأمس ، وهذا خطأ لأن كلمة عزومة عامية ، والفصيح أن يقال : صنع مأدبة بضم الدال وفتحها ، وهى طعام يصنع لدعوة ، تقول : أدبه يأدِبه إذا دعاه إلى طعامه كآدبه إيدابا ، وأدب يأدب أدَبا محركة إذا عمل مأدبة فهو آدب ، أو يقال : أولم وليمة ، جمعها ولائم ، ولها أنواع عدة

١ – فهى العُرس بالضم إذا كانت وليمة الإملاك والزواج ، تقول : أعرس فلان بأهله إذا بنى عليها ، وكذا إذا غشيها ، وجمع العُرس أعراس .

٢ – وهى الخُرس بالضم إذا صنعها الرجل عندما يولد له ، والخُرسة طعام النفساء والخَروس وزان صبور البكر فى أول حملها ، وهى التى تعمل لها الخرسة ، تقول خرّس الرجل على امرأته تخريسا إذا أطعم فى ولادتها ، وتخرّست هى إذا اتخذته لنفسها ، ومنه المثل « تخرسى يا نفس لا مخرسة لك » قالته امرأة ولدت ولم يكن لها من يُعنى بها ، ويضرب فى اعتناء الإنسان بنفسه .

٣ – وهي الإعذار والعذيرة إذا صنعها الرجل عند ختان أحد أبنائه ، تقول : كنا فى إعذار فلان وفى عذيرته ، وهو طعام الختان ، وأعذر الرجل للقوم أى عمل لهم هذا الطعام .

٤ – وهي الوكير والوكيرة إذا صنعها الرجل عند الفراغ من وكره أى بناء بيته أو شرائه قال :

كل الطعام تشتهى عميرة الخُرس والإعذار والوكيرة

٥ – وهي النقيعة وزان سفينة إذا صنعت للقادم من سفره ، وقولهم الناس نقيعة الموت مأخوذ من النقيعة التى هى ذبيحة العائد من السفر ، وفى المثل « إنه لشرّابُ بأنقع » يضرب فى المجرب ، شبهه بالطائر الذى يرد مناقع الفلوات ، ولا يرد المياه المعروفة خيفة القنّاص .

٦ – وهي الهضيمة إذا صنعها الرجل عند موت أحد أقاربه ، جمعها هضائم والدعوة العامة تسمى الجَفَلَى ، والخاصة تسمى النَقَرى كلتاهما بفتحتين ، قال طرفة :

نحن فى المشتاة ندعو الجَفَلَى لا ترىَ الآدابَ فينا ينتقرْ

أى لا ترى الداعى منا يدعو بعضا دون بعض ، بل يعمم بدعوته فى زمان القلة وذلك غاية فى الكرم .

٢٨٧ – وينكرون كلمة العِياط بمعنى الصُّراخ ويصرون على أنها عامية ، والصواب أنها عربية سليمة تقول : عيّط الولد تعييطاً إذا مد صوته بالصريخ ، والإسم العياط بكسر العين وللعياط معنى آخر ، تقول عاطت المرأة تعوط عياطاً كصامت تصوم صياماً إذا لم تحمل عدة سنين من غير عُقْر فهى عائط ، والجمع عُوط وزان سود ، وعِيط وزان ميل وعُيّط وزان ركع أما العَيَط بالتحريك فهو طول العنق ، فالذكر أعيط ، والأنثى عيطاء .

ومن المجاز قولك : عز أعيط أى عال رفيع ، وقصر أعيط أى مُنيف ، قال أمية :

نحن ثقيف عزنا منيعُ أعيطُ صعبُ المرتقى رفيعُ

٢٨٨ – ويقولون : نشعت الأرض ، ونشعت القِربة ، ونشع السقف ، يعنون أن الماء أنبعث من هذه الأشياء قليلاً قليلاً وكل هذه التعبيرات مشوبة بالخطإ ، لأن النشع لا صلة له بالماء وإنما له معان عدة منها .

١ – انتزاع الشئ فى عنف ، تقول : نشع الولد الكتاب من يد أخته إذا انتزعه من يدها فى شدة وعنف .

٢ – التلقين : تقول : نشع الأستاذ تلميذه الكلام المفيد إذا لقّنه إياه .

٣ – الولوع بالشئ والشغف به ، نقول : نُشِع فلان بأكل اللحم بالبناء للمجهول فهو منشوع ، أى محب له مقبل عليه .

ومن المجاز قولك : نَشَعَ فلان كذا ، ونَشَع بكذا بتعدية الفعل إلى المفعول الثانى بنفسه ، أو بالباء ، فمن الأول قول مُرّانِ بن مُنقذ :

إليكم يالئام الناس إنى نُشِعت العز فى أنفى نشوعاً

ومن الثانى قول عَبْدة بن الطبيب :

لا تأمنوا قوماً يشب صبيُّهم بين القوابل بالعداوة يُنشع

وقول مُغلِّس الربعى :

خليليّ إنْ أصعدتما أو مررتما على أهل جَفْنَاءَ الغضا فاذكرانيا
وقولا أثيبى يا علىَّ متيَّما أخا الموت منشوعاً بذكراك عانياً

والصواب أن يؤدى المعنى الذى يريدونه بأن يقال : رشحت الأرض ، ورشحت القربة بالماء ، ورشح السقف بالماء ، وكل إناء يرشح بما فيه .

ومن المجاز قولك : أصابنى فلان بنعمة من عطائه ، ورشحة من سمائه أو يقال : نزّت الأرض نزّا بالفتح ، ونُزوزا بالضم ، أى تحلب منها النزّ ، وهو ما يتحلب من الأرض من الماء .

٢٨٩ – وينكرون استعمال كلمة فنّان للشخص المولع بالفن ، والمشغوف بأن يأتى فيه بالعجائب ، وله فيه أفانين ، معتمدين على أن معاجم اللغة لم تعرضها بهذا المعنى ، وإنما ذكرت له كلمة مِفَن وزان مِسن ومِجن فقالت رجل مفن ، وامرأة مفنة ، كما أوردت أن الفنان هو الحمار الوحشى له فنون من العدو .

والحق أن كلمة فنّان تؤدى المعنى الذى تؤديه كلمة مفن ، لأن الفنان له أساليب كثيرة فى فنه ، كالحمار الوحشى له طرق فى جريه ، كما أن لفظ فنان أسهل نطقاً وأكثر شيوعاً .

وقد أقر مجمع اللغة العربية أن يصاغ فعّال للدلالة على الاحتراف أو ملازمة الشئ ، وفنان محترف للفن وملازم له .

٢٩٠ – ويقولون : اجتمع الجند فى منطقة القتال ، وأقيم فلان مديراً للمَنْطِقة التعليمية فيخطئون فى كلمة منطقة خطأين : أحدهما أنهمْ يفتحون ميمها ، والصواب أن تكون مكسورة . والآخر أنها لا تؤدى المعنى الذى يريدونه فى هذين التعبيرين ، وذلك لأن المِنطقة بكسر الميم لم تضعها العرب إلا لتدل على ما يُنتطق به ، تقول : انتطق الولد

بالمنطقة إذا شد وسطه بمنطقة ، ونطَّقه أبوه تنطيقاً إذا ألبسه المنطقة .

فى القاموس : المِنطقة كمكنسة ما ينتطق به ، والمِنطق كمنبر ، والنِّطاق ككتاب شُقَّة تلبسها المرأة وتشد بها وسطها ، وانتطق الرجل شد وسطه بمنطقة كتنطق .

وفى اللسان : والمِنطق ، والمِنطقة ، والنِطاق بكسرهن كل ما شد الإنسان به وسطه وقيل : والمنطقة معروفة اسم لها خاصة ، تقول منه . نطَّقت الرجل تنطيقاً فتنطق أى شدها فى وسطه ، ومنه قولهم : جبل أشم مُنطَّق ، لأن السحاب لا يبلغ أعلاه ، وإنما يكون كالنطاق له .

تقول : انتطق فلان بالنطاق والمنطقة ، وتنَّطق وتمنطق ، الأخيرة عن اللحيانى والنِّطاق والمِنطق بالكسر فيهما شبه إزار فيه تِكَّة تنتطق به المرأة ، وهوَ أن تلبس ثوبها ثم تشد وسطها بشئ وترفع وسط ثوبها وترسله إلى الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها .

وفى المحكم : النطاق شقة أو ثوب تلبسه المرأة ، ثم تشد وسطها بحبل ثم ترسل الأعلى على الأسفل إلى الرُّكبة ، جمعه نُطُق بضمتين ككتب ، وجمع المنطق مناطق والمنطق والنطاق واحد ، كما تقول : مِئزر وإزار ، وملحف ولحاف .

تقول : انتطقت المرأة وتنطقت إذا شدت نطاقها على وسطها ، وأنشد ابن الأعرابى :

تفتالُ فى عُرض النقبة[١] المُذالةُ[٢] ولم تنطَّقهــا غِلالــةٌ[٣]

وذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما ، وسميت بذلك لأنها شقت نطاقها ليلة خروج النبى ﷺ ومعه أبوها إلى الغار ، وقيل : كان لها نطاقان تلبس أحدهما وتحمل فى الآخر الزاد للرسول وأبيها حين كانا فى الغار مما عرضنا من أقوال رجال اللغة استبان أن كلمة المنطقة لا تستعمل إلا مكسورة الميم ، وفيما ذكرنا ، وأنه ينبغى أن يقال : اجتمع الجند فى ميدان القتال ، وأقيم فلان مديراً للتعليم .

٢٩١ – وهم يخطئون حين يقولون للعنب الصغار الذى لا عجم[٤] له (عنب بناتى) .

والفصيح أن يقال له كِشْمِش بالكسر وزان مِشْمِش ، وهو نوع ألين من العنب المعروف وأقل قبضاً وأسهل خروجاً .

---

(١) النقبة بالضم : ثوب كالإزار تجعل له حجرة مصيغة .

(٢) المذالة : الأمة لأنها تهان وهى تتبختر .

(٣) الغلالة بالكسر : شعار يلبس تحت الثوب .

(٤) العجم بفتحتين : النوى من التمر والعنب والنبق ونحو ذلك واحدته بهاء .

٢٩٢ – ويقولون : تعهد فلان إلى أخيه بتقديم العون ، وهذا خطأ لأن الباء لا تستعمل مع هذا الفعل ، والصواب أن يؤدى المعنى الذى يريدونه بالفعل الثلاثى فيقال : عهد إليه بكذا يعهد عهداً من باب فهم إذا قدمه إليه ، ومن هذا قوله عز شأنه « ألم أعهد إليكم يا بنى آدام ألاَّ تعبدوا الشيطان » أى بألا تعبدوه ، وقوله « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين » أى بأن طهرا .

وعهد إليه عهداً إذا أوصاه ، ومنه العهد الذى يكتب للولاة ، والعهد الأمان والوصية تقول . بين فلان وصديقه عهد أى موثق ، وفى التنزيل « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً » والعهد أيضاً المعرفة والعلم تقول لمحدثك : الأمر كما عهدت أى كما عرفت ، وفلان قريب العهد بكذا أى قريب العلم به ، وكذلك هو اللقاء تقول : عهدته بمكان كذا إذا لقيته فيه ، وعهدى به قريب أى لقائى به قريب .

أما التعهد فهو التردد إلى الشئ وتفقده ، وفعله مُتعد إلى المفعول به دائماً ، تقول تعهدت أمورَ أبى وأملاكَه وتعهدت اليتامى ، إذا ترددتَ إلى كلٍّ ذلك وأصلحتَه .

والمعاهدة المحَالَفة التى يجب الوفاء بها ، ومنها قوله تعالى « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » . وقوله « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » .

والعهَيد هو المعاهد ، تقول : هذا عهيدك أى معاهدك ، قال نصر بن سيار :

وَلَلتِرك أوفى من نزار بعهدها   فلا يأمنن الغدر يوما عهيدها

والعُهدة بالضم التبِعة ، تقول : عهدة هذا العمل على فلان أى ما وقع من تبعة فإصلاحه عليه ، وعليك فى هذا عهدة لا يُتفصَّى منها أى تبعة .

٢٩٣ – ويقولون : تضامن الشركاءُ تضامناً ، وبين الدول العربية الآن تضامن طيب عجيب ، وكلا التعبيرين خطأ ، والصواب أن يقال : تعاون الشركاء كما فى قوله تعالى « وتعاونوا على البر والتقوى » أو يقال : تناصروا وبينهم نُصرة بالضم وهى حسن المعونة ، أو تآخوا وبينهم مؤاخاة وإخاء وشد الله بينهم أَوَاخى الإخاء ، أو يقال : بينهم مساعدة ومؤازرة وتضافر ومظاهرة ومن هذا قوله جل شأنه « وظاهَروا على إخراجكم » وقوله « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب » .

أما التضامن فَلم يرد عن العرب وإنما قالت : ضَمِن فلان الشئ وبه ضماناً وضمناً بفتحها فهو ضامن وضمين إذا كفله ، وضمنته الشئ تضميناً فتضمنه عنى أى غرمته فالتزمه ومن المجاز قولك : ضمن الوعاء الشئ وتضمنه إذا اشتمل عليه وكان فى ضمنه ، وضُمِّن

كتاب أخي إليّ أخباراً سارة ، وضُمِّن شعر شوقي معاني رائعة تأخذ بمجامع القلوب .

وللك أن تقول : لقد تحققَ الآن بين العرب أو بين فلان وفلان ضَمانة بالفتح أي حب وارتباط .

٢٩٤ – ويقولون : نحن لا نكذب قطُّ ، ولا نقول قطُّ إلا حقاً ، وهذا فاسد ، لأن قط بضم الطاء مشددة ظرف مختص بالزمن الماضي ، تقول : ما رأيته قطّ أي فيما مضى من الزمان أو فيما انقطع من عمري ، ولا يجوز دخوله على المستقبل ، فلا يقال : ما أفارقه قط .

وقط مخفف الطاء لغة فيه مع فتح القاف وضمها ، هذا إذا كانت بمعنى الدهر ، وأما إذا كانت بمعنى حسْب وهو الاكتفاء فهي مفتوحة ساكنة الطاء ، تقول رأيته مرة واحدة فقط وتكون اسم فعل بمعنى يكفي ، فتزاد عليها نون الوقاية ويقال : قطني كذا فإن قَلَّلت بقط فاجزمها ، وقل : ما عندك إلا هذا قطْ .

وتختص بالنفي ماضياً ، وفي مواضع من البخاري جاءت بعد المثبت منها في الكسوف قال أطول صلاة صليتها قط ، وفي سنن أبي داود ، توضَّأ ثلاثاً قط وأثبته ابن مالك في الشواهد لغة ، قال : وهي مما خفي على كثير من النحاة ومن « مَعَاني » القط القطع ، والقصير الجَعْدِ من الشعر ، تقول : رجل قط الشعر وقَطَطه(١) محركة ، جمعه قَطّون ، وقَطَطُون ، وأقطاط ، وقِطاط بالكسر .

والمِقطَّة كمِذبَّة عُظَيم يقُطُّ الكاتب عليه أقلامه .

ومن معانيه أيضاً الغلاء وارتفاع السعر ، تقول : قَطَّ السعر يقط ، وقُط بالبناء للمجهول قَطًا وقطوطاً بالضم فهو قاط ، وقطٌّ ومقطوط إذا غلا ، والقاطط السعر الغالي .

قال أبو وجزة :

أشكو إلى الله العزيز الجبارْ ثم إليك بُعدَ المُستْارْ
وحاجة الحيَّ وقطَّ الأسعارْ

أما القِط بالكسر فله معنين أحدهما السِنّور الذكر ، جمعه قِطاط ، وقِططة بكسرهما والآخر النصيب ، جمعه قُطوط ، تقول : لي قِط من ذلك أي نصيب ، وأخذ فلان قِطه من أحرز قِسطه ، ومن هذا قوله تعالى « وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب » ولتأدية المعنى الذي يبتغونه ينبغي أن يقال : نحن لا نكذب أبداً ، أو أبد الدهر ، أو أبد الأبدية ،

---

(١) ومن المعاني المجازية للقَطَط المحرك شدة البخل ، تقول : فلان جَعْد قطَطٌ أي بالغ الشح قال :

سمح اليدين بما في رحل صاحبه جعد اليدين بما في رحلة قَطَطْ

أو أبد الأبَد بالتحريك ، أو أبد الأبيد ، أو أبد الآبدين أو أبد الآباد أو يقال : نحن لا نكذب عوض مثلثة الضاد ، وهي ظرف مبنى لاستغراق المستقبل فقط ويعرب إذا أضيف كما فى قولك : لا أخون أحداً عوَضَ العائضين ، أى دهرَ الداهرين وسمى بذلك لأنه كلما مضى منه جزء عوضه جزء آخر .

٢٩٥ – ويقولون لقدر خاص من الأرض معروف : فدّان بتشديد الدال وزان حَمّام ، وهذا خطأ محض لأن الفدان له معنيان لا صلة لكل منهما بما يبتغون : فهو آلة الحرث ، وكذلك هو الثوران يُحرث عليهما فى قِران ، جمعه فدادين ، ومثله تماما فيما ذكرنا من المعانى الفَدَان بتخفيف الدال وزان سحاب ، جمعه أفدنة ، وفُدُن بضمتين .

والفدّادون بتشديد الدال أصحاب الإبل الكثيرة ، وهم مع ذلك جُفَاةُ أهلُ كبر وخُيَلاء ، وفى الحديث « إن الجفاء والقسوة فى الفدّادين » قال أبو عمرو : الفدادين مخففة واحدها فدّان بالتشديد وهى البقر التى يحرث عليها .

ويطلق على أصحاب الفدادين الفدّادون كما يطلق على أصحاب الجمال الجمالون . وأصحاب الحمير الحمّارون ، وقد قالوا : من صحب الفدادين والفدّادين فلا دنيا له ولا دين ، وذلك لصياحهم فى حروثهم ومواشيهم ، وفى الحديث « هلك الفدّادون إلا من أعطى فى نجدتها ورسلها » يريد إلا من أخرج زكاتها فى شدتها ورخائها .

والفَدَن محركة القصر المشيّد ، جمعه أفدان ، وقد قالوا : لولا الفدّان لم تُبن الأفدان ، وجاءوا بجمال كأنها أفدان أى قصور ، والتَّفدين تسمينُ الإبل وتطويل البناء ، تقول . جَملٌ مفدّن إذا فدّنه الراعى تفدينا أى سَمَّنَهُ وصيّره كالفَدَن ، قال القُطامى

فلما أن جرى سِمنُ عليها كما طينت بالفَدَن السَّياعا

وهذا من باب القلب ، أى كما طينت بالسَّياع الفَدن ، والسياع بالفتح الطين بالتبن يطين به .

٢٩٦ – ويقولون : الصوم محتّم علينا بتشديد التّاء ، يعنون أنه يجب عليهم أداؤه ، وهذا خطأ لأن الفعل الرباعى لم يرد عن العرب ، والفصيح أن يؤدى المعنى المبتغى .

١ – إما باسم مفعول من الثلاثى فيقال : الصوم محتوم من قولهم حَتَم الله الصوم يحتمه من باب ضرب حتما ، أى أوجبه .

٢ – وإما بمطاوع الثلاثى فيقال : انحتم الصوم وتحتّم أى وجب وجوبا لا يمكن إسقاطه .

وللتحتم عدة معان : فهو التمنى كما فى قولك : تحتمتُ لأخى بالخير إذا تمنيتَه له ، وهو التصيير كما فى قولك : تحتم فلان الشئ إذا صيره وجعله حتما ، وهو أكل الحُتامة بضم الحاء وهى ما يبقى على المائدة من الطعام .

٣ – وإما بمصدر الثلاثى فيقال : الصوم حتم مقضى وحكم مرضى ، ومن هذا قوله تعالى « وإن منكم إلا واردُها كان على ربِّك حتما مقضيا » .

والحتم الخالص اللاصق كما فى قولك : فلان أخٌ حتم أى لاصق النسب ، وأنت لى بمنزلة الولد الحتْم وهو ولد الصلب ، قال الهُذَلى .

فوالله لا أنساك ما عشتُ ليلةً صفِيّى من الإخوان والولد الحتم

أى الولد الحق الذى لا يشك فى صحة نسبه ، وفى المثل « رب أخ لك لم تلده أمك »

٢٩٧ – ويقولون : شرابٌ مثلّج ، ومياه مثلّجة بتشديد اللام فيهما ، وهذا خطأ لأن المضعف من ثلج لم يرد فى اللغة ، والصواب أن يؤدى المعنى المراد إما باسم مفعول من الثلاثى فيقال : شراب مثلوج ومياه مثلوجه من قولهم ثلجتنا السماء تثلجنا من باب نصر إذا ألقت عليهم الثلج ومنه يقال : ثلجت الأرض بالبناء للمجهول إذ أصابها الثلج فهى مثلوجه .

وإما باسم مفعول من المزيد بالهمز فيقال : شراب مُثلَج ومياه مثلَجة بضم الميم وفتح اللام خفيفة فيهما . ومن الثلاثى يقال للبليد : مثلوج الفؤاد ، لأن الذكى إنما يوصف بالتوقد والاشتعال ، قال كعب بن لؤى .

لئن كنت مثلوجَ الفؤاد لقد بدا لجمع لؤى منك ذلةُ ذى غَمضِ

ويقال : ثَلجت نفس فلان بالنجاح تثلج ثلوجا من باب دخل ، وتثلَج ثَلَجا من باب تعب إذا اطمأنت وسرت وبردت .

ويقال من الرباعى المهموز : أثلج يومنا إذا اشتدت برودته ، وأثلج ماء البئر إذا انقطع وأثلجت صدرى بخبَرك إذا فرحت وانشرح صدرى قال :

فقرت بهم عينى وأفنيت جمعهم وأثلجتُ لما أن قتلتهمُ صدرى

ومن الثلاثى والمزيد بالهمز يقال : أثلجت عن المريض الحمى وثلجت إذا أقلعت وتركته .

٢٩٨ – ويقولون : هذا الرئيس سُلطة عظيمة على مرءوسيه ، يعنون قدرته وقهره وشدته

يأمرهم فيأتمرون ، وينهاهم فينتهون ، وهذا التعبير يشوبه الخطأ ، لأن كلمة السلطة عامية لم يعرفها العرب .

والفصيح أن يقال : له عليهم سَلاطة بالفتح أو سُلوطة بالضم ، أو يقال له عليهم سلطان أى تسلط ، كما فى قوله تعالى « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليِّه سلطانا » أى تسلطا بالمؤاخذة والقصاص ، ومن معانى السلطان الحجة والبرهان ، ومن هذا قوله سبحانه « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين » أى وحجة بالغة الوضوح والسلطان بهذا المعنى لا يجمع ، لأن مجراه مجرى المصدر .

أما السلطان بمعنى الوالى فجمعه سَلاطين كبرهان وبراهين ، وقد يطلق السلاطن على الجمع كما فى قول الشاعر .

عرفت والعقل من العرفان أن الغنى قد سُد بالحيطان
إن لم يغتنى سيد السلطان

أى سيد السلاطين وهو الخليفة ، والسلطان بمعنى الوالى يذكر ويؤنث ، والتذكير عند الحذاق أغلب ويؤنث فيقال : قضت به السلطان أى السلطانهقال ابن الأنبارى ، وقال أبو زيد سمعت من أثق بفصاحته يقول : أتتنا سلطان جائرة .

والسليط هو الزيت ، وكذلك هو الرجل الفصيح حديد اللسان ، أما السليطة فهى المرأة الصخَّابة طويلة اللسان ، والسِلطة بكسر السين هى السهم الدقيق الطويل ، جمعه سِلَط ، وسِلاط بكسرهما .

٢٩٩ – ويطلقون على بعض أبنائهم اسم عبد الجيِّد ، وهذا خطأ ، لأن كلمة جيِّد ليست من أسماء الله الحسنى ، وإنما معناها ضد الردئ ، جمعها جِياد ، وجمع الجميع جيادات ، أنشد ابن الأعرابى :

كم كان عند بنى العوَّام من حسبٍ ومن سيوف جيادات وأرماح

وتجمع أيضا على جيائد جمعا غير قياسى .

تقول : جاد المتاعُ يجود جُودة بالضم ، وجَودة بالفتح إذا صار جيدا ، وأَجادَ فلان إذا أتى بالجيد فهو مُجيد ومجواد ، وهم مجاويد .

ويقال للكريم السخى : رجل جواد من قوم أجواد ، وأجاويد ، وجُوَداء بزنة فقهاء ، وجُود بضم الجيم ، وللسخية أيضا امرأة جواد كما فى قول أبى شهاب الهذلى :

صَناعٌ بإشفاها حَصانٌ بشكرها جواد بقوت البطن والعِرْق زاخرُ

ويقال فى الجمع ، نسوة جُود بالضم كالمذكر قال :

وفيهن فضل قد عرفنا مكانه فهن به جُودٌ وأنتم به بُخْلُ

وقال الأخطل : (وهن بالبذل لا بخلٌ ولا جودُ)

وتقول : إستجاد الفقر فلانا إذا طلب جودَه فأجاده درهما أى أعطاه إياه وأجادت المرأة إذا ولدت ولدا جوادا ، وأجاد الرجل بالولد إذا ولده جوادا ومن المجاز قولك لصديقك : إنى لأجَادُ إلى لقائك أى أشتاق إليه وقد اختلف العلماء فى أصل كلمة جيِّد ، فقال البصريون أصلها جَيْوِد بسكون الياء وكسر الواو ، وقال غيرهم : أصلها جَويد وزان كريم ، وعلى كلا الرأيين استثقلت الكسرة على الواو فحذفت ، فالتقى ساكنان فقلبت الواو ياء وادغمت فى الياء الأصلية ومن معانى الجود الجوع ، كما فى قول أبى خراش :

تكاد يداه تُسلمان رداءه من الجود لما استقبلته الشمائل

٣٠٠ – ويقولون لمن يفضل نفسه ويؤثرها على غيره من الناس (أنانى) وهذه كلمة عامية والصواب أن يقال له أثِر بفتح فكسر كفرح ، والاسم الأثرة بفتحات ، تقول : استأثر فلان بكذا إذا استبد به وخص به نفسه ، وفى الحديث « سترون بعدى أثرةً » أى سيستأثر امراء الجور بعدى بالفئ .

وضد الأثرة الايثار ، وهو أن يفضل الإنسان غيره على نفسه تقول : آثرت غيرى بمد الهمزة إيثارا إذا قدمته على نفسك وأكرمته ، ومنه قوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وقوله « بل تؤثرون الحياة الدنيا » أى تفضلونها .

أما قولهم (أنانى) فيزعمون خطأ أنه منسوب إلى قول من يقدم نفسه ويفضلها : أنا أنا وهذا نسب فاسد ، لأن الضمير لا ينسب إليه ، على أنه لو نسب إليه لقيل (أنوى أنوى) إذ أن ألف المقصور يجب أن تقلب واوا فى النسب إذا كانت ثالثة كما يقال قَهوى فى النسب إلى قَها .

٣٠١ – ويقولون : زَيَّت الطاهى الطعام تزيتا ، يعنون أنه وضع عليه الزيت فهو طعام مُزيَّت بتشديد الياء وزان معظَّم .

والفصيح أن يقال : زات الطاهى الطعامَ ، وزتُّ أنا الطعام أزيته زَيْتا من باب باع إذا جعلت فيه الزيت فهو طعام مَزيت ومزيوت ، كمبيع ومبيوع ، قال أبو ذؤيب الهذلى :

أتتكم بعير لم تكن هَجرِية ولا حنطة الشام المزيت حميُرها

وتقول : زِتُّ القوم إذا جعلت أدمهم الزيت ، وزتُّ الصبى إذا دهنته بالزيت أما

التزييت فمعناه التزويد والتقديم ، تقول : زيّت البدال حُرفاءه إذا زودهم الزيت وقدمه إليهم ، وهم يتزيتون بزنه يستعينون أى يستوهبون الزيت أو يطلبونه

٣٠٢ – ويقولون : تنبأ الفلكي بنزول المطر ، أو بخسوف القمر ، يعنون أنه ادعى علم الغيب ، وهذا التعبير فاسد ، لأن التنبؤ معناه ادعاء النبوة ، ومنه المتنبى أحمد بن الحسين الشاعر المعروف وسمى بهذا الاسم لأنه خرج إلى بنى كلب وادعى أنه حَسَنىّ ثم ادعى أنه نبى ، فشهد عليه بالشّام وحُبس زمنا ثم استتيب فتاب وأطلق .

والنبى هو المخبر عن الله تعالى وترك همزه هو المختار ، ولقد نادى أعرابى الرسول ﷺ بقوله : يا نبئ الله ، فأنكره عليه وقال له « لا تنبر باسمى » أى لا تهمز « فإنما أنا نبى الله » وفى التنزيل « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » جمعه أنبياء ، كما فى قوله تعالى « قل فلم تقتلون أنبياء الله » ونبيون كما فى قوله

« يحكم بها النبيون الذين أسلموا » والاسم النبوة كما فى قوله « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » وعلى هذا فالنبى فعيل بمعنى فاعل .

وقيل : إن النبى مأخوذ من النباوة وهى ما ارتفع من الأرض ، أى أنه شرف على سائر الخلق ، فأصله غير مهموز ، وعلى هذا الرأى فهو فعيل بمعنى مفعول .

والفصيح الذى ورد عن العرب أن يؤدى المعنى المبتغى بقولنا : تكهن الفلكى بكذا لأنهم قالوا : كهن له كهانة أى قضى له بالغيب فهو كاهن ، ومنه قوله جل شأنه « فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » جمعه كُهّان وكهنة ككفار وكفرة والكِهانة بالكسر صناعة الكاهن ، وعن ابن عباس رضى الله عنه « لا تتبع النجوم فإنها تؤدى إلى الكهانة » .

٣٠٣ – ويقولون : فلان شاطر يعنون أنه نشيط متسم بالعبقرية ، وهذا خطأ ، إذ تقول : شطَرَ فلان بصره شطُورا إذا نظر اليك والى آخر ، وشطرت الدار بعدت ، ومنزل شطير بعيد ، ورجل شطير منفرد ، قال :

لا تتركنّى فيهمُ شطيرا إنى إذن أهلكَ أو أطيرا

ومن ذلك يقال : شطر فلان على أهله من باب قتل إذا ترك موافقتهم خبثا فهو شاطر وهم شطار والشطارة اسم منه ، ويقال : شطر أيضا من باب ظرف شطارة .

مما تقدم استبان أن الشاطر هو الخليع ومن أعيا أهله خبثا ولؤما ، وأنه موضع للتحقير لا لحسن التقدير .

٣٠٤ – ويقولون : هذا اللص كثير النَصب ، وافر السُراقة[١] بضم السين ، يعنون الخداع والختْل ، ولكن العرب وضعت كلمة النصب بفتح النون لتؤدى معانى عدة لا صلة لكل منها بالمعنى الذى أرادوه فى عبارتهم .

١ – فهو إعراب الكلمة بالفتح ، تقول : نصبت الفعل أو الاسم بأحد نواصبه فهو منصوب .

٢ – وهو ما نصب فعبد من دون الله كالنصُب بالضم والنُصُب بضمتين ، والجمع أنصاب ومن ذلك قوله تعالى « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس » .

٣ – وهو الغِناء المتسم بأنه أرق من الحُداء ، تقول : نصب محمد عبد الوهاب نَصْبا إذا غنى غناء رقيقا ، وفى الحديث « لو نَصب لنا نصبَ العرب ؟ ونصب العرب ضرب من مغانيها أرق من الحداء .

٤ – وهو التعب ، تقول : نصِب العامل نَصبا بفتح الصاد ونصْبا بسكونها إذا أعيا وأتعبة العمل ، ومنه قولهم : همٌّ ناصب أى ذو نَصَب ، وسمع قولهم : نصبه الهمُّ نصبا إذا أعياه ، قال النابغة :

كِلِينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطئ الكواكبِ

٥ – وهو إقامة الشئ ، تقول : نصبتُ العَلَم فانتصب ، ونصبت فلانا لأمر كذا فانتصب له ، ونُصب فلان لعمارة البلد إذا أقيم لها ، ومنه قوله جل شأنه « أفلا ينظرون الى الأبل كيف خُلِقَت والى السماء كَيف رُفعت والى الجبال كيف نصبت » .

٦ – وهو المعاداة ، تقول : نصبت لفلان نصبا إذا عاديته ، ومن هذا قول جرير :

وإذا بنو أسد على تحزبوا[٢] نصبتْ بنو أسد لمن رامانى[٣]

ومنه الناصبية والنواصب وأهل النَّصْب الذين يدينون ببغضة على كرَّم الله وجهه .

٧ – وهو الأمام ، تقول : وضعت هذا الأمر نَصب عينى بالفتح أى أمامها ، وهو بالضم أفصح وقيل : إن هذا فى الأصل مصدر استعمل بمعنى المفعول أى منصوبا مرئيا رؤية ظاهرة بحيث لا ينسى ولا يُغفل عنه .

٨ – وهو المشورة ، تقول : نصبت لفلان رأيا إذا أشرت عليه برأى لا يعدل عنه .

---

(١) السُراقة بضم السين : هى ماتال اللص من السرقة .

(٢) تحزبوا : صاروا ضدى أحزاباً وتألبوا على قتالى .

(٣) رمانى : ناضلنى وعادانى .

٩ – والنصب بالفتح وبضمتين ، وبالضم وزان فُعُل هو الداء والبلاء والشر ، ومنه قوله تعالى « إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنُصْب وعذاب » .

١٠ – والنصب بالفتح أيضا هو العلم المنصوب كالنَصَب بالتحريك والغاية ، وفى القوافى أن تسلم القافية من الفساد .

روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أراد استعمال وال على الموصل ، فاستشار أصحابه فأشاروا بتولية رجل صالح سمَّوْه . . فطلبه . . وجاءه فوجد عمراً يصلى وأولاده الصبيان يعابثونه ويمتطونه وهو ساجد . . فيطيل السجود حتى لا يفزعهم .

فلما فرغ عمر رضى الله عنه من الصلاة . . استنكر الرجل أن يكون هذا حال أمير المؤمنين . . فسأله عمر : كيف أنت مع أهلك ؟ . قال : إذا دخلت بيتى صمت كل من فيه . . فلا تسمع إلا همساً . .

ومضت فترة أحس فيها الرجل أن عمراً قد انصرف عنه وأهمله فقال : طلبتنى ؟ . . فأجاب عمر : لأمر لم أجده فيك . . من لا يرحم أهله لا يرحم المسلمين .

باب الفتوى

الأستاذ عبد الحميد شاهين

وردت رسالة إلى المجلة من السيد الأستاذ عبد الله عبد الحليم سابق ، الموجه بوزارة التربية بالقاهرة تتضمن أسئلة حول بعض الأحكام التى تتعلق بالأسرة المسلمة والعلاقة الزوجية . . .

وقد تفضل فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله عبد الخالق المشد عضو لجنة الفتوى بالأزهر بالأجابة عليها مشكوراً . ونظراً لأهميتها ننشرها فيما يلى ليعم النفع .

جـ ١ :

ما جاء فى كتاب الإقناع : من أن دواء المرض وأجرة الطبيب لا يجب على الزوج لزوجته : إنما هو اجتهاد من متأخرى فقهاء مذهب الشافعية . وجاء مثل هذا الحكم على ألسنة متأخرى فقهاء المذاهب الأخرى دون استناد أحد منهم على نص من كتاب أوسنة ، أما الأئمة الأربعة : فليس لهم حكم فى هذه المسألة ، وإن كان لهم حكم يناقض هذا الحكم فيا هو شبيه بهذه المسألة ، فقد حكموا : بأن تكفين الزوجة وتجهيزها من النفقة ، والنفقة واجبة عليه حال حياته فتجب فى ماله حتى بعد وفاته لوماتت قبل توزيع تركته .

فذهب أبو يوسف من الحنفية والشافعي ورواية عن أبى حنيفة ومالك إلى أن تجهيزها واجب على زوجها ولوكانت موسرة . وهو المفتى به وعليه جرى القانون ، وذلك لبقاء آثار الزوجية بينهما بعد الوفاة كالوراثة ، ولذا جاز للزوج أن يغسل زوجته بعد وفاتها لذلك غسل على رضى الله عنه فاطمة الزهراء .

وفى رواية عن أبى حنيفة ومالك : ليس على الزوج تجهيزها إذا كانت موسرة . فإذا اعتبر الأئمة رضوان الله عليهم تكفين الزوجة وتجهيزها من النفقة مع انقطاع النكاح بالموت لبقاء بعض آثاره .

ألا يعتبرون ثمن الدواء وأجرة الطبيب من النفقة مع بقاء النكاح بجميع آثاره من حب وود ، ورحمة وسكن وقياسها برعاية بنيها وأطفالها ، منه وقد يكون مرضها نتيجة إرهاق

ومعاناة من كثرة عملها .

وإذا أوجب لها الأئمة على الزوج خادماً يساعدها فى أداء عملها بل خادمين إذا كانت ممن تخدم باعتبار أن الخدمة نوع من النفقة أفلا يقاس عليها ثمن الدواء وأجرة الطبيب ويندرجان تحت عموم الأدلة فى قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » وقول النبى ﷺ – لهند زوج أبى سفيان « خذى من ماله ما يكفيك وأولادك بالمعروف » وقوله « استوصوا بالنساء خيراً » وقوله « خيركم خيركم لأهله » .

وقد جاء الإسلام بقاعدة « لا ضرر ولا ضرار » وهو بهذه القاعدة المنصوصة يمنع الأذى عن أى كان لأن الله لا يحب المعتدين وشريكة حياة الزوج أولى الناس برفع الضرر عنها فلا يجوز للزوج أن يؤذى زوجته بإمساكها مريضة فقيرة دون علاج ولا دواء . وهى التى جعلها الله سكناً له وأنساً وراحة وأمناً ، وأمر بإحسان عشرتها فى قوله تعالى : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضِراراً لتعتدوا . ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه »

جـ ٢ :

قال فى الهداية جـ ٢ – ص ٣٢

وعلى الزوج أن يسكنها فى دار مفردة ليس فيها أحد من أهله إلا أن تختار ذلك لأن الله أوجب السكن مقروناً بالنفقة فى قوله تعالى : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وُجْدِكمْ » . وإذا أوجب الله لها حقاً ليس له أن يشرك غيرها فيه لتضررها به لعدم أمنها على نفسها ومتاعها ونقصان استمتاعها ، إلا أن تختار انتقاص حقها فإذا امتنعت عن السكن مع أهله لا تعد ناشزاً

جـ ٣ :

لا يجوز للزوج أن يمنع زوجته من زيارة والديها . ولا يمنعها من الدخول عليها فى كل جمعة ، وغيرهما من المحارم كل سنة ، لأن المنع المطلق فيه قطيعة للرحم ، وحمل للزوجة على مخالفته ، وقد أمر الله بالمعاشرة بالمعروف وليس هذا منها .

ويباح للمرأة الخروج لقضاء حوائجها بإذن من زوجها .

جـ ٤ :

الزوجة الموظفة : يجوز لها إيداع ما تدخره من راتبها أو من غير راتبها من أموال فى مصرف بحساب جار باسمها دون فائدة ، ولا تجبر على إيداعه بحساب زوجها ، ونفقتها شرعاً

على الزوج نظير احتباسها وقيامها بشئونه الزوجية ، فإذا خرجت للوظيفه بإذنه فقد انتقصت من احتباسها الواجب شرعاً الذى استحقت له النفقة .

لهذا وجب على الموظفة أن تشارك فى نفقة نفسها نظير انتقاص حقه فى الاحتباس فإن لم تفعل فهى عاصية لأكلها نفقة كاملة بغير حق ، ولا تعد ناشراً .

جـ ٥ :

كتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد : « انظروا من طالت غيبته أن يبعثوا نفقة أو يرجعوا ، أو يفارقوا ، فإن فارق فإن عليه نفقة ما فارق من يوم غاب » .

وما نعلم مخالفاً لعمر لأن النفقة بإزاء الزوجية ما لم يثبت نشوزها لأنهن محبوسات عليهم وعليه فنفقة الزوجة وبنتها الصغيرة ، ونفقات الولادة وما تخلف عنها مما احتاجته الزوجة والوليدة من علاج ودواء يكون على الزوج الغائب فى ماله شرعاً وإن كانت إقامة الزوجة فى بيت أهلها فى أثناء سفره .

الشئون الفنية	والله ولى التوفيق
مكتب الإمام الأكبر	عضو لجنة الفتوى بالأزهر
(عبد الفتاح بركة)	(عبد الله عبد الخالق المشد)

س : ما حكم الشرع فى نقل الدم للمسلم المريض المحتاج له من شخص غير مسلم ؟

ج - تفيد لجنة الفتوى بالأزهر : بأن الله تعالى قال فى كتابه الكريم : « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » .

وقال سبحانه فى آية أخرى : . . فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » وفى آية أخرى : « وقد فصّل لكم ما حُرِّم عليكم إلا ما اضطررتم إليه » . . .

وهذه الآيات الكريمة تفيد : أنه إذا توقف شفاء المريض أو الجريح وإنقاذ حياته على نقل الدم إليه من آخر - بألا يوجد من المباح ما يقوم مقامه فى شفائه وإنقاذ حياته - جاز نقل الدم إليه بلا شبهة ولو من غير مسلم ، وكذلك إذا توقفت سلامة عضو وقيام هذا العضو بما خلقه الله له على ذلك جاز نقل الدم إليه . .

أما إذا لم يتوقف أصل الشفاء على ذلك ولكن يتوقف عليه تعجيل الشفاء فنصوص الشافعية تفيد أنه يجوز نقل الدم لتعجيل الشفاء فقد جاء فى الباب الثامن عشر من كتاب

الكراهية من الفتاوى الهندية ما نصه «يجوز للعليل شرب الدم والبول وأكل الميتة للتداوى إذا أخبره طبيب مسلم أن شفاءه فيه ولم يجد من المباح ما يقوم مقامه ، وإن قال الطبيب بتعجيل شفائه . فيه وجهان» ١ . هـ

ولكن أيجوز الاعتماد فى ذلك على طبيب غير مسلم ؟

ظاهر مذهب الحنفية والشافعية والحنابلة أنهم يقيدون الطبيب الذى يعول على خبره فى مثل ذلك يكون مسلماً . والمالكية يرون الاعتماد على غيرالمسلم حينئذ إذا لم يوجد طبيب مسلم . وبعض العلماء لا يرون وجوب كونه مسلماً حتى فى حالة وجود الطبيب المسلم . . وهذا ما تختاره لجنة الفتوى وتفتى به ؛ لأن المدار على ما يوجب غلبة الظن ، وهذا يتوافر كثيراً فى غير المسلم بالتجربة كما يتوافر فى المسلم .

فقد جاء فى الجزء الثالث من كتاب بدائع الفوائد لشيخ الإسلام ابن القيم الحنبلى ما نصه «فى استئجار النبى ﷺ – عبد الله بن أريقط هادياً فى وقت الهجرة وهو كافر ، دليل على جواز الرجوع إلى الكافر فى الطب والكحل والأدوية والكتابة والحساب والعيوب ونحوها – ما لم يكن ولاية تتضمن عدالة . ولا يلزم من مجرد كونه كافراً ألا يوثق به فى شىء أصلاً – فإنه لا شىء أخطر من الدلالة فى الطريق ولاسيما فى مثل طريق الهجرة .

وقال ابن مفلح الحنبلى فى كتاب الآداب الشرعية من الجزء الثانى نقلاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية ما نصه «إذا كان اليهودى أو النصرانى خبيرا بالطب ثقة عند الإنسان جاز له أن يستطب ، كما جاز له أن يودعه المال وأن يعامله كما قال تعالى : «من أهل الكتاب مَن إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينارٍ لا يؤده إليك» الآية وبهذا علم الجواب عن السؤال وهو جواز نقل الدم من مسلم أوغير مسلم على حسب ما فصلنا والله تعالى أعلم .

عبد الحميد السيد شاهين

كتاب الشهر

****

منهج العلماء
في ضبط إدراك الحكم الشرعي

دكتور: رءوف شلبي

منهج العلماء
فى ضبط إدراك الحكم الشرعى

(١) التشريع وسياستهُ فى الإسلام

أولاً : فى ظل النبوة الإسلامية :

كان المجتمع العربى قبل الرسالة المحمدية مجموعة من القبائل التى يسيطر عليها حكم العرف القبلى المسنون من العادات والتقاليد الموروثة ، فلم تكن عندهم فكرة التقنين ، لسهولة الاتصال اليومى ، وتقارب أفراد المجتمع فى الدم ، والعصبية .

والقوانين تظهر دائماً عندما يتركب المجتمع تركيباً معقداً يصعب معه احترام العادات والتقاليد الموروثة كنظام يملى إرادته ، ويحدد سلوك الناس داخل منطقة التعاشر اليومى .

فلما جاءت رسالة الإسلام الإنسانية ارتفعت بالجنس البشرى من دائرة الحكم الخاضع للتقاليد التى تحدد دائرة المجتمع بالصغر والذاتية ، والقومية العنصرية ، إلى دائرة الحكم الإلهى العام لجميع الناس ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم بما مارسوه فى بدء الدعوة من تدريب على عالمية الحكم الإسلامى ، وارتفاعهم بدينهم فوق العصبية ، والعنصرية إلى عالمية الإنسانية بالإسلام الحنيف قد أدركوا أن الفكر التقنينى العادل لمجتمع الإسلام مرجعه الأساسى : الله ، ورسوله ، فاستقبلت صدورهم المشرقة بنور الإيمان كل حكم يحل حلالاً أو يحرم حراماً بعقيدة ثابتة أنه هو ذلك المستوى الفاضل لحياة الإنسان فمن أصدق من الله حديثاً ؟ فالقرآن يترى به الوحى آنافآنا ، والأحداث تتولد مع نمو المجتمع ، والرسول ﷺ يشرع بما يوحى إليه ، وبما يفسره ويبينه بالسنة لجانب من الذى أوحى إليه « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » .

ومع هذا فقد أخذت عملية التشريع منهجاً فريداً يدرب النفوس على استقبال الحكم ، فبعد أن ثبتت العقيدة درج الله وقسط فى الأحكام .

ومع التدريج والتقسيط هيأ الله النفوس لتقبل الحكم الشرعى : فأخذت الأحكام تتوزع مع وجود الحاجة خطوة بعد خطوة ، وكلما أشرفت أنوار الإيمان فى الصدور حج الناس إلى رسول الله ﷺ يسألونه :

– يسألونك عن اليتامى ؟

قل : إصلاح لهم خير .

– يسألونك عن الخمر والميسر ؟

قل : فيهما أثم كبير ومنافع للناس .

– يسألونك عن المحيض ؟

قل : هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن .

– يسألونك ماذا ينفقون ؟

قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين .

– يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟

قل : قتال فيه كبير .

– يسألونك عن الأهلة ؟

قل : هو مواقيت للناس .

فالمجتمع يسأل ، والوحى يترى ، والرسول ﷺ يجيب ، وينبوع إجابته وحى الله ، « ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » .

وعلى قدر طاقة العباد منح الله الناس الدين والشريعة بالتقسيط والتأنى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» . (النساء)

« يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » . (النساء)

« لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . (البقرة)

فقد استمرت الدعوة فى عصر وجودها المكى زهاء ثلاثة عشر عاماً تحرر القلوب والعقول من الشرك الحجرى ذلكم الذى يحقر كرامة الإنسان ، ويبعده عن الكيان البشرى وتخرجهم إلى الحق والعدل والنور بشهادة التوحيد ، فلما تجمع للدين طائفة موحدة وقيادة

أمينة بعد أحد عشر عاماً فى مكة فرض الله الصلاة كوصلة تشرف الإنسان فى اتصاله بربه وتكون ركيزة الأسس للعلاقات الاجتماعية لتستمر الرقابة الاجتماعية التى هى مصدر حماية القوانين متصلة بالله الحق حتى يكتمل للبشر أساس حريتهم فالكل لله عبد والكل ينبغى أن يراقب الديان الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، وذلك وحده هو عصب العدل والخدمة الاجتماعية التى تبذل حسبة لله وابتغاء مرضاته :

« إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » . (الإنسان)

ثم انتقلت الدعوة إلى المدينة بعد جهاد ثبت قواعد الحرية والعدل « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، ليتهيأ المجتمع الذى رغب بنفسه فى قبول الإسلام كنظام للدولة ، وبايع على هذا مرتين للمسئولية التاريخية فكان التشريع القانونى الذى درجه الله وقسطه :

فرض الجهاد فى السنوات الأولى من الهجرة : حماية للدعوة ، والمجتمع ، ورداً للمعتدين :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير » .

فرض الله الزكاة وفرض أحكاماً عدة ثم فرض الله الحج فى الأعوام الأخيرة للرسالة :

« ولله على الناس حج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً » . (آل عمران)

وهى أحكام لا تتنافى مع سلوك موروث فى المجتمع ، ومع هذا فقد خفف الله عن الأوائل حتى تتهيأ نفوسهم بعد رسوخ العقيدة لتقبل شريعة الله بالهنيهة بعد الهنيهة ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

أما الأحكام التى لها صفة الجبرية لأنها تغيرّ سلوكاً موروثاً فقد أخذت هذه الأحكام منهجاً خاصاً فى عملية التدرج والتهيئة فالأساس العام الأكبر « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » .

فالخمر : كانت عادة عالمية درج عليها جل المجتمع العربى كبقية المجتمعات العالمية التى اتخذتها شراباً مألوفاً ، فلما جاء الإسلام لم يهدف باديء ذى بدء لكشط تلك العادة التى تلغى عقل الإنسان الذى يعد فى العرف المنطقى الميزان الفاصل بين الإنسانية فى البشر ، والحيوانية فى البهيم ، فإنه مع فحش آثار الخمر من وجهة نظر المنطق السوى لكرامة الإنسان كان من العسير على الأمزجة أن تتقبل دفعة واحدة تحريم الخمر ، رغم أن فى التحريم تبجيلاً ، وتكريماً لمنزلة الإنسان ، ولكن الله رأف بالعباد فدرج فى التدريج ؟ :

١ — فعندما سئل عنها النبى ﷺ نزل الوحى يتلو :

« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » . (البقرة)
فقال الناس : قال الله فيهما إثم ولم يقل حرام ؟ واستمروا .
٢ – فلما خلط الناس صلاتهم بشرابهم ، قال عمر : اللهم أرنا بياناً فى الخمر ؟ فأنزل الله تعالى :
« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » . (النساء)
فامتنع بعضهم عنها بتاتاً ، وتناولها بعضهم فى غير أوقات النهى الموضحة فى الآية .
فتهيأت بذلك نفسية المجتمع كله للحكم الأخير .
٣ – فأنزل الله تعالى – فى أواخر حياة التشريع بالمدينة –
« إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . (المائدة)

فانتهى المجتمع كله انتهاء تحميه تلقائية الرقابة الدينية التى مردها « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، وتزكيه النفس الراضية ، ويسعد به العقل الذى تبجل ، وتنشرح به الصدور التى استقر فيها الإيمان بالإرادة .

ومثل هذا من الأحكام التشريعية التى تغير تقاليد المجتمع القديمة : الزواج من زوجة الابن الدعى ، فقد شب المجتمع على تقاليد أسرية لا تتفق مع مقررات الإسلام .

فالتبنى قد ألغاه الإسلام :

« أدعوهُمْ لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » . (الأحزاب) .

فأبطل بذلك علاقة البنوة ، واستبدلها بعلاقة الإخوة الدينية التى هى كرم فى نظر العقيدة والحق ، والأقوى فى سياج التشريع إذ الأخوة الدينية أساس التضامن الإنسانى فى داخل التعاشر الاجتماعى :

« المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » .
« المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً » .

غير أن آثار ذلك الإلغاء يحتاج إلى تهيئة خاصة ، فاختار الله لهذه التهيئة أرق أسرة فى المجتمع الإسلامى تملك ضبط حدة إنفعالات التجربة التى تجابه نظاماً موروثاً منذ الآباء صار له حكم العادة الجبرية اللازمة فكان زواج زيد بن حارثة مولى سيدنا رسول الله ﷺ من ابنة عمة النبى ﷺ زينب بنت جحش :

(ا) رفض أخوها عبد الله أولاً خطبة النبى ﷺ زينب لمولاه زيد حسب التقاليد الأسرية المتوارثة فنزل قوله تعالى :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . (الأحزاب)

فقال عبد الله : سمعنا وأطعنا يا رسول الله .

(ب) وتزوج زيد من زينب ، وأخذت العلاقات الزوجية مستواها الطبيعى من الود تارة والخلافات أخرى ، حتى شاء الله واحتدم النزاع ، وطلقت زينب .

(ج) فأمر الله نبيه ﷺ أن يتزوجها إعلاناً بتشريع جديد يلغى أفك التقاليد القديمة . (لم يكن فى الأمر شىء أكثر من ذلك ومن زاد فقد ابهت)

يقول الله تعالى :

« فلما قضى زيد منها وطراً زَوَّجْنَاكَهَا لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم وكان أمر الله مفعولاً » .

وهكذا كانت حكمة الله جل شأنه اختيار الأسرة الأولى فى المجتمع الإسلامى لتتحمل مسئولية تغيير العادات التى دأب عليها المجتمع أحقاباً قديمة من الزمن لأنها وحدها التى تملك القدرة على ضبط انفعالات التجربة القاسية . . وتزيدها أوامر الله شرفاً فترضخ لحكم الله بلا تفلسف ، إذ غيرها من الأسرات لا يقدر أن يواجه أحداث تجربة مهمتها تغيير عادة لازمت العقول ، وخالطت السلوك حتى صارت واحدة من فقه اللزوم الاجتماعى منذ مئات السنين وصارت ديناً وخلقاً وقانوناً .

ومع تلك الرحمة الإلهية فى التشريع كان الصحابة رضوان الله عليهم حريصين على تلقى العلم من رسول الله ﷺ ، وكان يكفى المحتاج منهم لحكم من الأحكام أن يسمع القرآن من النبى ﷺ فيفقه حاجته من التلاوة فالقرآن عربى ولسان الرجل عربى ، والذكاء العربى عربياً خالصاً على الفطرة ، كما كانوا رضوان الله عليهم يستفسرون فى كل ما يعن لهم ، ويتبعون الرسول فى كل ما يرونه منه من فعل ، يروى القاضى عياض فى شرحه للشفاء عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ يصلى بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره فلما رأى القوم ذلك ألقوا نعالهم فلما قضى صلاته قال : ما حملكم على إلقاء نعالكم ؟ قالوا : رأيناك ألقيت نعليك ، فقال : إن جبريل أخبرنى أن فيها قذراً » .

وبهذا الاتباع المحمود كان للمسلمين فى رسول الله أسوة حسنة فانتفعوا بالإسلام ومكنوا لدين الله فى دولة تحمى العدل وتحمى كرامة الإنسان من موات الجاهلية الأولى ؟

ثانياً – فى ظل الصحابة :

تحمل الصحابة من بعد النبى ﷺ مواريث الدولة الإسلامية . . فاتسعت رقعة الدولة ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، فكان على عاتقهم – وهم أمناء – أن يوضحوا للرعية أحكام الله ، وهم لذلك رأوا أن الحيطة فى الحكم الشرعى تستلزم التثبت من نسبة رواية الحديث إلى النبى ﷺ فأخذت هذه الحيطة أسلوباً خاصاً حسب رأى وبصيرة الإمام رئيس الدولة :

١ – فسيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه يراها مع الشاهد الآخر كما جاء فى حديث توريث الجدة : ما كان يعلم أبو بكر رضى الله أن لها شيئاً ثم استفتى الناس فروى المغيرة أنه سمع النبى ﷺ يعطيها السدس فطلب أبو بكر معه شاهداً فشهد معه محمد بن مسلمة ، فقويت نسبة الرواية إلى رسول الله ﷺ فأنفذه أبو بكر رضى الله عنه .

٢ – ومثل ذلك الصنيع من التثبت بالشاهد عمل سيدنا عمر رضى الله عنه سلم عليه أبو موسى ثلاثا فلم يجبه فرجع فسأله عمر : لم رجعت ؟ فروى أبو موسى حديثاً عن النبى ﷺ « إذا سلم أحدكم ثلاثا فلم يجب فليرجع » فطلب منه عمر بينة وإلا نكل به فذهب أبو موسى إلى أصحابه ممتقع اللون وسألهم الشاهد فأرسلوا معه من يشهد له بصحة الرواية .

٣ – وكان للإمام على رضى الله عنه منهج خاص فقد كان يكتفى بالقسم يحفظ تاريخ السنة عنه كرم الله وجهه « وكان إذا حدثنى غيره – يعنى غير النبى ﷺ استحلفته » .

مع هذا الجو من الرياسة الإسلامية الأمينة الواثقة فى شخصية رئيسها كان الناس يستقون الأحكام من الصحابة رضوان الله عليهم وهم جميعاً عدول أعدل ما تكون العدالة ، وأمناء أدق ما تكون الأمانة بأيهم اقتدى الناس اهتدوا وفازوا .

ومن ألمع ما يحمله التاريخ ويورثه للعلماء الذين احتسبوا أنفسهم للدعوة أن الفتوى فى ظل الصحابة أخذت ثوباً فكرياً فريداً بالتعاون ، والعودة الى الأدق فى الحكم والاختلاف فى الرأى لا يفسد وحدة الأمة فقد روى أن رجلاً قتلته أمرأة أبيه وخليل لها فرفع الأمر إلى عمر ، وهو رئيس الدولة ، فتردد ، هل يقتل الكثير بالواحد ؟ فعرض القضية على فقيه الدولة ومفتيها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكرم الله وجهه وقال له : أرأيت لو كان

نفراً اشتركوا فى سرقة جزور فأخذ هذا عضواً وهذا عضواً أكنت قاطعهم ؟ قال عمر : نعم ، قال على : فكذلك ، فعمل عمر برأيه فاقتص من الكثير للواحد .

وإذا كانت هذه الفترة من التفكير تمتاز :

١ - بالحيطة فى الحكم الشرعى .

٢ - وبالحيطة فى دليله .

٣ - وبالتعاون فى الفتوى .

٤ - فهى كذلك تمتاز بمراجعة الفتوى والعدول عنها إذا بان أن الحق فى غير جانبها .

فقد رفعت إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه مسألة فى الميراث تسمى (المسألة المشتركة) .

وهى التى مات فيها امرأة وتركت : زوجاً ، وأماً ، وإخوة لأم ، وإخوة أشقاء قسم عمر الميراث حسب الفروض المحكمة : للزوج النصف ، وللأم السدس ، وللإخوة للأم الثلث ، وعلى ذلك فلم يبق للإخوة الأشقاء شىء من الميراث ، فقالوا لرئيس الدولة عمر : هب أن آبانا كان حجراً فى اليم ، ألسنا أبناء أم واحدة ؟ فعدل عمر عن فتواه وأشركهم فى الميراث .

وكان عمر دائماً يقول : لولا على لهلك عمر » وبهذا يرث العلماء فى العصر الحديث هذه المواريث عساهم يقدموا لدين الله شيئاً من الواجب المقدس .

ثالثاً : بعد الفتح الإسلامى :

ومع اتساع الفتوحات الإسلامية فى شمال أفريقيا ، وشرق آسيا وغيرهما انتشر العلماء من الصحابة فى الأمصار والبلاد التى حقق لها الإسلام آمالها فى الحق والعدل والكرامة فالتف الناس حولهم ينهلون من فيوضات علمهم وأبحر فقههم ويسألون فيفتون فيعملون بما انتفعوا به من الهدى فيحيون حياة الكرامة التى أرادها لهم الإسلام الحنيف .

- فكان فى (المدينة المنورة) أبو هريرة ، وأبو سعيد الخدرى ، عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت .
- وكان فى (مكة) عبد الله بن عباس .
- وكان فى (الكوفة) عبد الله بن مسعود .
- وكان فى (البصرة) أنس بن مالك .
- وكان فى (مصر) عبد الله بن عمرو بن العاص صاحب الصادقة .

– وكان فى (الشام) معاذ بن جبل [بعد انتهاء مدته فى اليمن] .

رضى الله عنهم جميعاً .

فحملوا للناس السنة ، وعلموا الناس فقه الإسلام كما تحملوه هم من رسول الله ﷺ وافتوا بما أطمأنت إليه النفس ووثقت فيه الذمة وأرضى الله ورسوله ونصح للأمة فكانت دولة الإسلام التى خلفها محمد ﷺ ما تزال فى ثوبها الموحد وثقافتها الرفيعة التى ترطب كبد الحرية ، وتقوى أزر الصديق وتوفر العدل للبشر جميعاً كما أمر الله وأرشد نبيه ، ووصى به القرآن والسنة والخلفاء الراشدون من بعد .

وكان لهؤلاء الأساتذة والشيوخ الكبار تلاميذ وأبناء حملوا عنهم العلم والفتوى والفقه والفهم ، فانتقلت على أيديهم رسالة الدين يعلمون ، ويهذبون البشر فلما اختلط الفكر الإسلامى الصافى بالفكر البشرى القديم ذى الحضارة العتيقة واختلطت الأنساب والدماء ظهرت ثقافة جديدة خليط من ثقافة الكهوف التى احتفظت بها النفسيات اللاشعورية من أبناء القوميات العريقة فتميعت :

١ – عروبة الخاطر واللفظ السليق وامتزجت الفكرة الإسلامية بخليط من الثقافات الأولى التى دخل أهلوها فى دين الله أفواجاً ، ومع حلاوة الإيمان استبقوا طلاء ثقافتهم الأولى فلم يستطيعوا الخلاص منها فقد استقرت فى الدم استقرار المواريث الأخلاقية والصفات .

٢ – كما خفت الرقابة الدينية ، ووهت العزائم ، وصار للدنيا طلاب ألهتهم حياتهم عن العمل والفقة ، وساعد على هذا اللهو ، ضعف القدرة المعرفية ، وبلادة الذوق والتذوق للقرآن ، والسنة . بالإضافة إلى خليط العبث السياسى الذى منيت به الأمة وتميزت به أحقاب من الزمن ليست بالقليلة فى عمر البناء فأخذت العبادة المحل الثانى فى النفوس ، وصار الإسلام ملكاً عضوداً يحتاج ملكه إلى المؤازرة ، والتعضيد فصارت الإمامة للدنيا وجعل الدين تابعاً فنسى الناس رسالة الحق وابتعدوا عن الدين روحاً وسلوكاً وهنا ألحت الظروف : الفكرية والسياسية ، والاجتماعية ، على وجود العبقرية العابدة الطاهرة الأمينة الزاهدة الجريئة ، لتدرك للناس الحكم الشرعى من أصوله الرئيسية : القرآن ، والسنة الصحيحة ، بعد أن عالج الناس سوء الحياة فلجوا فى أخطارها وولغوا فى طهر المياه بما اخترعوه بهتاناً فأفسدوا حقائق العلم التى يرتوى بها فكان ذلك مبدأ فجر جديد صادق لاتجاهات الفقة الإسلامى بذل فيها الأمناء الصادقون النصيحة لله ولرسوله وللأئمة المسلمين

وعامتهم أقصى الجهد لتقديم الحكم الشرعى :

- ثابت الدليل .
- مؤسساً على الحجة .

ليأخذ الناس أحكام الشريعة من مدارك الفقهاء الذين وظفوا أنفسهم فى سبيل الله لا من أجل دنيا أوجاه أو رزق بل ابتغاء مرضاة الله وخدمة للدين الحنيف وتأدية للواجب ورعاية للمجتمع الإسلامى الذى يجب له النصح والتوجيه على سنة الله ورسوله .

وفى خلال عملية إدراك الحكم الشرعى من مصادره الأصلية أخذت الوسائل عدة أنواع : تعددت وتنوعت عند العلماء الكبار بناء على ظروف العصر ومقتضيات الفكر فى المنطقة :

● فالإمام أبو حنيفة رضى الله عنه فى العراق يسند دليل النقل برأى العقل لأن البلد الذى هو فيه بلد حضارة مارسوا الأدب والنقاش والتفكير والذين تمرنوا على هذا الأسلوب يعوزهم فى إدراك الحكم وتقبله إدراك العلة العقلية ليتسق مع الوجدان اقتناع العقل .

● والإمام مالك رضى الله عنه فى المدينة المنورة يحترم عمل أهل المدنية كواحد من وسائل استنباط الحكم الفقهى لأنهم المخالطون العارفون الأقربون من سنة النبى ﷺ .

● والإمامان الشافعى وابن حنبل رضوان الله عليهما فى الحجاز بلد الحديث ومواطن الدعوة يشدون أيديهم على السنة لأن المجتمع مجتمع مولد الرسالة فتح عينيه القانونية والثقافية على نور النبوة لا غير ومن قبل كانت أمة أمية .

والكل ملتزم فى عملية الاجتهاد والاستنباط بأصول التشريع : القرآن والسنة والإضافات فى الوسائل التى بها يدرك الحكم إنما اقتضتها ظروف البلد دفاعاً عن الدين لا حباً فى هوى ، ولا أساساً للاختلاف بين الناس ، ولا مشاحة فى هذا الاختيار ولا يمكن لأحد أن يطعن فالأئمة فى مركز من الطهر لم يبلغه واحد من علماء العصر الحديث : هم أرادوها لله ، ونحن نريدها للدنيا . وهم أحاطوا بالأصول ونحن مازلنا نحبوا فى روضتهم وبعد لم نبلغ الدرجة الصغرى .

وفى خلال العمليات الأدراكية الاستنباطية للحكم الشرعى ظهرت قواعد ضبط إدراك الحكم الشرعى الفقهى التى جعلت منهجاً للعلماء فى عملية الاجتهاد والتى اشتهرت فى العلم بين الناس بأنها علم (أصول الفقة) .

وإذن :

فأسس التشريع الإسلامى : القرآن ، والسنة الإسلامية الصحيحة وطريقة الاجتهاد : هى : عملية إدراك الحكم الشرعى القائمة على شروط خاصة فى المجتهد .

وآلات الاجتهاد : هى : الإجماع ، والقياس بالاتفاق غالباً ، وبزيادات تخضع لظروف بلد الإمام : مثل : عمل أهل المدينة ، والاستحسان والمصالح المرسلة . . . إلخ .

وعلى هذا النمط عرف الفكر الإنسانى :

منهج العلماء فى ضبط إدراك الحكم الشرعى حتى شهد الخصوم لعلماء الإسلام بالسند المتصل ، وبفضلهم فى تحمل الأمانة العلمية .

(ب) حول تدوين منهج العلماء فى إدراك الحكم الشرعى

أولاً : المبـــدأ

الأحكام الفقهية :

هى نتائج البحوث المكتسبة من الأدلة التى فصلت هذه الأحكام ، والبحث للوصول إلى هذه الأحكام له أصول : هى مصادر استندت الأحكام إليها وهذه المصادر هى :

القرآن ، والسنة ، لا غير

وعملية البحث لاكتساب هذه الأحكام الفقهية من مصادرها الأصلية هى الطاقات الفكرية الأمينة التى بذلت خدمة لدين الله للتعرف على هذه الأحكام رعاية لسلوك المجتمع على شريعة الله ، وآلات البحث الكاشفة عن هذه الأحكام التى تستخدم فى عملية البحث : إما أن تكون الإجماع ، أو القياس ، أو أنواع أخرى من آلات الاستدلال التى أقرها العلماء أو وثق فيها الإمام المجتهد .

والأحكام الفقهية بهذا المعنى متأخرة فى مولدها عن عصر النبوة والصحابة .

إذ فى الصدر الأول لم يكن المسلم فى حاجة للحصول على حكم شرعى أكثر من الرجوع إلى النبى ﷺ ، أو أن يسمع القرآن ، فيفهم المراد ، أو يبلغه الحديث فيكفيه العلم بالسند ليدرك مبلغ صلة الحديث بالنبى ﷺ لقرب الزمان ، ووضوح الأحوال ، وشدة الرقابة الدينية فى النفوس .

وقد سمح رسول الله ﷺ للمبعوثين من قبله إلى المسلمين فى البلاد البعيدة أن يفتوا

بما أطمأنت إليه نفوسهم على نحو ما هو مشهور فى حديث سيدنا معاذ بن جبل رضى الله عنه ، حين ذكر للنبى ﷺ أنه سيقضى بين الناس بما فى القرآن فإن لم يجد فبما فى سنة رسول الله ﷺ فإن لم يجد فسيجتهد ولا يقصر ، فإن إدراك المعانى من ألفاظها ، واستنباط الحكم من أدلته ، ومراعاة الروح الإسلامية فى بناء الدولة وإقامة العدل ، جبلة فى نفوس الصدر الأول اشرقت بها الصدور إشراقة الحلاوة بالعقيدة فكانوا على نور وهدى من الله ، ومن يهدى الله فهو المهتد .

ثانياً : المولد

فلما انقرض السلف ، وانقلبت العلوم صناعة ، واختلطت الملكات ، وضعف الفكر ووهيت القريحة وصار العلم مستوردا بمشاغل الدنيا وأقبل الناس على الحياة يلهون ، واحدثت فتن كالليل المظلم ، ولدت اضطرابات فى المرويات ، وأدخلت الهوى المتبع على الحق الأبلج حتى تشككت الأحوال ، فاضطر الناس إلى قواعد تعصم إدراك الحكم الشرعى من مظنة الخطأ فعمد إلى ذلك الفقهاء فمزجوا الحكم بقاعدته فنشأ عن ذلك أسلوب فقهى ممزوج بجم من قواعد الاستنباط ، يضبط كل أمام بهذه القواعد إدراك الحكم الشرعى على قدر بصيرته وغاية جهده :

- فكتب الإمام أبو يوسف ، وصاحبه الإمام محمد بن الحسن الشيبانى جملة من تلك القواعد .
- وأشار إلى قدر منها فى موطأ الإمام مالك بن أنس .

فكانت تلك الكتابات المبدئية المختلطة بالفقه مرحلة المولد لعلم أصول الفقه الإسلامى من غير أن يكون له الاسم الرسمى المشهور به حالياً ، أو له كتاب خاص بقضاياه وحده .

ثالثاً : النـمو

فلما كان الإمام الثبت محمد بن أدريس الشافعى رضى الله عنه تطور به المولد إلى علم مستقل كامل أملته ظروف الحياة فى ذلك العصر الذى هاجم فيه الملاحدة كتب السنة ، وأسرف المتشرفون بالكلام فى موضوعات تفاضل بين تقديم القياس على خبر الواحد . . . إلخ .

فانبرى لهم الإمام الشافعى كمنافح عن مصادر التشريع الإسلامى ومدافع عن حياض

السنة ، وينابيع الثقافة الإسلامية ، ووسائل إدراك الحكم الشرعى فإن الشريعة الإسلامية شريعة الحياة مدى الأجيال البشرية ، والأزمان كلها ، وجوهر عالميتها ، واستمرارها هو : القرآن والسنة ، وغلاف هذا الجوهر هو : ضوابط إدراك الحكم الشرعى التى تضمن للتشريع الإسلامى السلامة من اتباع الزيغ ، وشطط الأهواء فى عملية الاجتهاد . فيتبع الناس باسم الحق أهواء الضلالة والذين يضلون . . . فيتدرب المجتمع على جحود الشمس وهى فى كبد السماء .

فجمع الله بجهود الشافعى مدخرات الأولين من العلماء ، وصنف فيه المراجع العلمية الأمينة وسماه « أصول الفقة الإسلامى » فكان بدء ازدهار التصنيف والكتابة فى هذا العلم الذى يمنع الله به ضلالة الفكر عن الصراط المستقيم ، لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ؟

وأول ما وصل إلى الفكر الإسلامى من مادة علم أصول الفقة هو ما دونه الإمام الشافعى ومن قبل كانت المادة مجموعة من القواعد منشورة فى ثنايا قضايا أحكام الفقه على أنها أدلة إدراكها ليلمح منها المسلم أصل الحكم الشرعى فجزاه الله وجزى معه السابقين من أئمتنا خير الجزاء على ما قدموه من علم يحرس الله به مستقبل شريعته وينفع به من يشاء من عباده السالكين إليه طريق المحجة البيضاء .

رابعاً : من ثمار النمو

ثم انفتح باب التدوين والكتابة فى علم الأصول حتى كانت له ثمار جمة الأنواع والتصانيف كان فى مقدمتها :

١ – رسالة الإمام الشافعى التى تكلم فيها عن القرآن ، وعن السنة ومنزلتها من القرآن وتكلم عن الناسخ والمنسوخ ، وعن علل الحديث والإجماع ، والقياس ، وخبر الواحد . .

٢ – ومن بعده تتابع المنافحون عن الشريعة : فكتب الإمام أحمد بن حنبل فى موضوعات أصول الفقة ثلاثة كتب : كتاب طاعة الرسول ﷺ وكتاب الناسخ والمنسوخ وكتاب العلل .

٣ – ثم انهمر سيل الفكر : فكتب علماء الأحناف وأطنبوا فى الكتابة والتحقيق بمنهج خاص لهم .

وكتب معهم علماء علم الكلام وعمدوا إلى تحقيق المسائل الأصولية بمنهج خاص لهم فورث الفكر الإسلامى منهجين :

المنهجان :

(ا) أما الفقهاء :

فقد تناولوا قضايا أصول الفقه بالشرح والتحليل المبنى على الاستشهاد من قضايا الفقه كتطبيق عملى للقاعدة مع فرعها المنبثق منها ، فهم يذكرون القواعد الأصولية أولاً ثم يأتون بأصل الدليل من مصدره الأمين : القرآن والسنة ، ثم يفسرون كيفية إدراك واستخراج واستنباط الحكم الفقهى من دليله الأصلى بناء على قاعدته الأصولية .

(ب) أما المتكلمون :

فقد ارتفعوا بقضايا الأصول عن موطن التطبيق ، فبحثوا قضاياه مجردة عن الفروع الفقهية مكتفين بالاستدلالات العقلية ، والبرهنة الفكرية .

٤ – ومن مواريث الثمار ، وكنتائج لطريقى المنهجين سلك العلماء فيما بعد طريقة التألف :

(ا) فعلى طريقة الفقهاء كتب جمع من علماء الأحناف منهم :

- أبو بكر الرازى المتوفى سنة ٣٠٧ هـ
- أبو زيد البدسى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ
- شمس الأئمة السرخسى المتوفى ٤٣٨ هـ
- فخر الإسلام البزدوى المتوفى سنة ٤٨٢ هـ

(ب) وعلى طريقة المتكلمين كتب جمهرة من علماء الشافعية ، منهم :

- أبو الحسن البصرى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ (كتاب المعتمد)
- أبو المعالى الجوينى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ (كتاب البرهان)
- أبو حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ (كتاب المستصفى)

خامساً : مرحلة الجمود والتعقيد

لم يكن علم أصول الفقه مادة علمية هدفها ذاتها ؟ نعم الفقه مادته من حيث هو علم الأحكام السلوكية التى تبين للناس الطريق السوى إلى الله ولكن أصول الفقه ليس بهذه المثابة ، بل هو قواعد وآلات تسعف المجتهد فى إدراك الحكم الشرعى من مصدريه الأساسين : القرآن والسنة .

إنه فى أدق مداركه : منهج الإمام المجتهد ، وهو وحده الذى يملك أن يقرر القواعد الأصولية التى يحاجج بها ، يزيد أو ينقص منها ، ذلك لأنه هو وحده المسئول أمام الله عن نتائج بحثه التى يترتب عليها عبادة الناس لله رب العالمين ، فمن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

ومعنى هذا : أن الخلف غير المجتهدين إنما حظهم من أصول الفقه والنظر فى قواعد الاجتهاد ووسائله هو التعلم . وإدراك الدقة العلمية التى ضبط بها العلماء الأول عملية الاستنباط ليحصل من التابعين لهم التبجيل وفاء لما بذلوه لوجه الله من جهد هو عليهم ضريبة ، ولهم من الله منحة ، دون أن يزيد الاتباع فيه شيئاً بالتقرير أو بالحاشية ، إذ رأى غير الإمام فى قواعد الأصول ليس بذى معنى وليس بذى غاية .

وإذا تجاوزنا نحن الاتباع حد هذا الحق إلى الزيادة أو الاختزال ، أو الاختصار فقد عقدنا الأمور ، وصعبنا السهل ، وأظلمنا النير دون ما فائدة أو حسنة ، وذلك هو ما منيت به دراسات أصول الفقه التى هى فى جوهرها « منهج المجتهد فى استنباط الحكم الشرعى » ولكن الخلف من بعد الرعيل المجاهد تدخلوا بالرأى : تقريراً ، وتحشية وتخطئة ، وتصويباً . . . إلخ فأطالوا فى شرح المختصرات . واختصروا شروح المطولات وجمعوا الكتب فى مختصر ، واختصروا المختصر فى مختصر آخر حتى خفيت المعانى بين أحجار العبارات التى عجت بها — فى غير تسلسل وأنسياب — كتب الأقدمين —

وكان ذلك نتيجة للمرض الفكرى الذى أصيب به الشرق الإسلامى بعد الانتكاسات السياسية ، والاجتماعية ، التى اعيت الفكر ، وأذبلت العزيمة ، وأضعفت الإرادة ، وثبطت الهمة .

فكان من محاصيلها مجموعة من المختصرات ، والمجموعات لما سبق من التصانيف والتآليف ومن بين ذلك :

١ — اختصر النسفى م ٧٩٠ هـ كتاب فخر الإسلام البزدوى م ٤٨٢ هـ

٢ — واختصر صدر الشريعة م ٧٤٧ هـ كتاب البزدوى ، وكتاب ابن الحاجب فى كتاب واحد سماه « التنقيح ، ثم شرحه هو بكتاب سماه « التوضيح »

٣ — واختصر الرازى م ٦٠٦ هـ ثلاثة كتب فى كتاب واحد :

الكتب الثلاثة هى :

البرهان لإمام الحرمين « الجوينى » .

المعتمد لأبى الحسن البصرى .

المستصفى للإمام الغزالى .

وسمى هذا المختصر من هذه الكتب الثلاثة « المحصول » .

ثم جاء من بعد ذلك محمد بن الحسن الأرموى م ٦٥٦ هـ فاختصر المحصول فى كتاب سماه « الحاصل » .

ثم جاء من بعده القاضى عبد الله البيضاوى م ٦٥٨ هـ فاختصر الحاصل فى كتاب سماه « المنهاج » .

فانظر كيف تختصر ثلاثة كتب فى كتاب واحد ، ثم يختصر الكتاب الواحد هذا فى كتاب آخر ، ثم يختصر هذا الأخير فى كتاب آخر ؟

كيف يفى مختصر المختصر من المختصر الأول بمراد واحد من الكتب الثلاث بله كلها أجمع ؟

يعنى : كيف يفى المنهاج الذى اختصره القاضى البيضاوى من الحاصل الذى اختصره الأرموى ، الذى هو مختصر من المحصول الذى هو مختصر من الكتب الثلاثة الكبرى :

المعتمد ، البرهان ، المستصفى ؟

وعلى نفس الطريقة يلخص سيف الدين الآمدى م ٦٤١ هـ الكتب الثلاثة السالفة فى كتاب سماه « الأحكام فى أصول الأحكام » .

ثم يأتى ابن الحاجب المالكى م ٦٤٥ هـ ويختصر كتاب الآمدى فى كتاب سماه منتهى الوصول ، ثم اختصره هو بنفسه مرة ثانية فى كتاب سماه « مختصر المنتهى » .

وتختم الحلقة بمختصر تاج الدين السبكى م ٧٧١ هـ الذى سماه « جمع الجوامع المشهور بالتعقيد والصعوبة وخفاء المعنى فى بطون أمهات الكتب التى جمع منها وهى : كما يقول هو- تزيد على السبعين كتاباً » .

وبهذه المرحلة يتجمد البحث فى علم أصول الفقه الإسلامى اللهم إلا رسائل جديدة فى بعض قضاياه ألفت على نمط الإحصائيات التاريخه أو على نمط التفلسف والتبحر فى بعض قضاياه .

وآخر أبحاث موضوعية معاصرة قدمها فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ الفاضل بن عاشور

إلى مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف فى المؤتمر الأول لعلماء المجمع فى عام ١٩٦٤ م وكذلك أبحاث قدمها لفيف من كبار العلماء منهم فضيلة الأستاذ الشيخ محمد نور الحسن الوكيل السابق لمشيخة الجامع الأزهر وفضيلة الشيخ الوزير السابق محمد فرج السنهورى .

على بدء نعود :

وإن وظيفتنا هنا هى أن نعود بعلم الأصول إلى غايته حتى نقف على أسس البحث الفقهى عند السابقين من أئمتنا فنشرحها كما حققها الأئمة على أنها قواعد منهج تضبط علمية استنباط الحكم الشرعى دون ما زيادة منا أو تعمق «حشوجى» أو اتباع لمن زاد واطنب .

أما من وهبه الله طهراً فى القلب ، وإخلاصاً فى النية ، وعلماً واسعاً بالقرآن والسنة وصح منه العزم ، ورغب فى الله ورسوله وجهاد فى سبيلها فليتبوأ مقاليد هذه الخطوة وليضف للقواعد ما أطمأنت إليه نفسه حتى ينافح عن الدين بالسلطان والخبرة والعلم والحكمة فإن النبى ﷺ قد تفاءل لهذه الأمة أن يحيا فيها طائفة تجدد الدين للناس وتحمى الشريعة من البلاء النفسى يقول ﷺ « يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

وهو فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

أن الأمر دين يصان وواجب يؤدى فمن استأنس واستبرأ لعرضه ودينه فليخضها على بركة الله فمن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر ، ولكل درجة .

دكتور

رءوف شلبى

فهرس العدد

الصفحة

الصفحة

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

حفظ
عد ٢٢٦

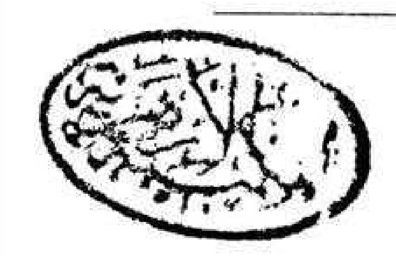
مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

مدير التحرير والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢ ، ٩٠٥٩١٤ ، ٩٠٥٥٠٦

الجزء الثالث - السنة الخمسون - رجب ١٣٩٨ هـ - يونيو ١٩٧٨ م



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والغرب

فضيلة الإمام الأكبر
الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فإنّ الإسلام واضح جلى ، وتعاليمه سهلة ميسورة ، تنسجم مع العقل والمنطق ، وإذا كان الأمر كذلك ، فما الذى يمنع الغربيِّين من الدخول فى الإسلام زرافات ووحدانا ؟ . .

وما السر فى عدم أخذ الأوربيين بهذا الدين ، وعدم اعتناقهم له فى سرعة سريعة ، وفى كثرة هائلة ؟ . .

الواقع أن العوامل التى تمنع الأوربيين من اعتناق الإسلام كثيرة قوية ، ومن المؤسف أن بعض هذه العوامل يرجع إلى المسلمين أنفسهم ، ولنتحدث أولا عن

العوامل الخارجية عن الإسلام والمسلمين .

١ – وأول هذه العوامل هى الكنيسة :

لقد أتقنت الكنيسة فن النظام ، فلا ارتجال فيها ، كل شىء فيها معد مرتب منسق ، قد بحث عن رويّة وأُعِدَّ إعدادا تاما . .

وكان ممّا أعدّته مشروعان كبيران أحدهما : للتبشير . والثانى : لصد الهجوم عن الديانة المسيحية .

أما فيما يتعلق بالتبشير ، فإنه من الأوليات عندها ، أن يعرف المبعوث لغة المرسل إليهم ، ويدرس عاداتهم ، وتقاليدهم ، ودياناتهم ، ومواطن الضعف فيهم ، والوسائل التى تجذبهم ، وأن يعلم فضلا عن ذلك ، بعض مبادئ الطب ، ويعلم قبل ذلك وبعده كيفية الهجوم على الديانة المتوطنة . وكيفية الدعوة لديانته ، أما المشروع الآخر وهو الذى يعنينا – على الخصوص – هنا ، فهو على الخصوص يتركز فى دراسة مستمرة متجددة فى أحدث الوسائل لتشويه ديانات الآخرين فى ذلك .

وما نشر من أضاليل عن الإسلام لايُحصر ولايُعدّ ، إنها أضاليل تنشر متتابعة متكررة ، تتردد فى صور مختلفة ، وينتهى بها التكرار والترديد إلى إيمان من تنشر عليهم بها ، وتبلغ بهم الصفاقة إلى أن يعكسوا الحقائق عكسا تاما ، فالدين الإسلامى مثلا ، وهو دين التوحيد الخالص ، ودين التنزيه التام ، يشيعون عنه أنّه دين عبادة الأوثان . .

ويكررون ذلك فى مختلف الأمكنة والأزمنة ، وينتهى المسيحيون بالاعتقاد بأن هذا الدين إنما هو : عبادة الأوثان .

وهكذا تسير الدعاية تضليلا وتشويها وعكسا للحقائق .

ومن أهم الوسائل أيضا لتحصين المسيحية مايسمّونه نظام الحرمان من الدين المسيحى ، وهو نظام بمقتضاه يسهل على الكنيسة أن تحرِّم قراءة أى كتاب ترى فيه خطرا على المسيحية ، سواء كان هذا الكتاب هجوما عنيفا على المسيحية ، أودعاية بارعة للإسلام ، أوحتى نمطا ممتازا من الدعاية القوية لسعة الأفق وتحرير الفكر .

وقد استعملت الكنيسة هذا الحق فى شأن كثير من الكتب الممتازة ، واستعملت هذا الحق أيضا فى شأن كثير من الكاتبين ، وكان موقفها من كل كاتب لايمكنها أن تستولى عليه – بوسيلة الرغبة أو بوسيلة الرهبة – أن تُحرِّم قراءة كتبه ، وأن تَحرِمَه هو من رحمة السماء .

عند الكنيسة إذن : الرغبة والرهبة . عندها المال ، وعندها الحرمان .

٢ – على أنّ الأسباب التى ترجع إلى

المسلمين ، لاتقل خطرا عن الكنيسة !

إن أية دعوة مهما كانت من السموّ لايمكن أن تجتذب إليها الأنصار إلا إذا كان لها دعاية . . وقد أخذت الدعاية فى العصر الحديث مكانا يجعلها فى الدرجة الأولى من الأهمية .

ويعرف ذلك المسلمون ، يعرفه تجارهم ورجال الأحزاب منهم ، ويعرفه كل مثقف ، ولكنهم لايعملون به فيما يتعلق بنشر الإسلام .

أين دعاتنا فى الشرق أوالغرب . أين مبعوثونا . أين الدعاة منا ؟

لاشيء من ذلك مطلقا ، ومن المعروف أن مبعوثى الحكومة ومبعوثى الأزهر إلى الأقطار الخارجية : إنما بعثوا لتعليم الحساب والخط والإملاء واللغة العربية فى مدارس إسلامية ابتدائية أو إعدادية أو ثانوية ، ليس لنا فى الخارج قط مبعوثون ، وإذا كان الدين الإسلامى ينتشر فإنما ينتشر بقوته الذاتية ، رغم الهجوم عليه ، ورغم العقبات التى تعترض طريقه .

ولنقارن ذلك كله بالإرساليات التبشيرية ، ومن أمامها ومن خلفها : المستشفيات والملاجئ ، والمدارس والمعاهد ، والمال يُغْدق ، والوظائف تُهَيَّأ ، ولنتصور كفتى ميزان إحداهما لاشيء فيها وتلك هى كفة المسلمين بالنسبة للإسلام ، والأخرى فيها كلٌّ شيء ، وتلك هى كفة المسيحيين بالنسبة للمسيحية .

وسبب ثان تحدث عنه جمال الدين الأفغانى ، وكان يرى أنه أقوى الأسباب ، ذلك هو حالة المسلمين .

وكثيرا ماقال جمال الدين : إن الغربيين يستمدون فكرتهم عن الإسلام من مجرد رؤيتهم للمسلمين ، فإنهم يرون المسلمين متخاذلين ضعفاء أذلاء مستكينين ، فرّقت بينهم الأهواء والشهوات وقعدت بهم الصغائر ، وانصرفوا عن عظائم الأمور ، وأصبحوا مستعبدين مستذلين ، ولو كان الإسلام دينا قويا لما كان المسلمون هكذا . .

ينظر الغربيون إلى المسلمين فى العصر الحاضر ، وينسون شيئين :

ينسون أن المسلمين فى العصر الحاضر غير مستمسكين بالإسلام ، وتكاد الصلة التى بينهم وبينه تكون مجرد صلة اسمية ، وينسون عظمة المسلمين وقوتهم أيام كانوا مستمسكين بالإسلام ، وأيام أن كانت الدنيا لهم .

ولعل المسلمين يعودون إلى دينهم صافيا نقيا ، ويستمسكون به فيكونون مرآة حقيقية يتمثل فيها الإسلام قويا ساميا .

وآداب الإسلام حقيقة كفيلة بأن تجعل من المسلم رجلا قويا مهذبا كريم النفس ، ولكن المسلمين ابتعدوا كل البعد عن

الإسلام .

ولنتخذ مثلا بسيطا ، مسألة النظافة . .

لقد دعا الإسلام إلى النظافة دعوة لم يَدْعُها دين من الأديان ، ولم يدعها مذهب من المذاهب قديما أو حديثا ، ولكن إذا نظرنا إلى الأقاليم ، الإسلامية أو إلى الأحياء الإسلامية ، وقارنَّاها بالأقاليم أو الأحياء الأخرى ، نجد الفرق واضحا ، سواء كنا فى مصر ، أم فى تونس ، أم فى مراكش ، أم فى غير ذلك من البلدان .

ونأخذ مسألة أهم من ذلك ، مسألة اتحاد الأمم الإسلامية .

فقد دعا إليها الإسلام فى صور لاحصر لها ، وبأساليب لاحدّ لتنوعها ، مهدِّدا متوعِّدا تارة ، مرغِّبا محببا تارة أخرى ، متحدثا عن الثمرات المادية والدنيوية للاتحاد ، ومع ذلك فقد كان كل ذلك صرخة فى واد ، وكأن المسلمين عن الاتحاد صم بكم عمى فهم لايعقلون .

وخذ آداب الإسلام واحدا فواحدا ، وانظر إلى حال المسلمين .

هل نجد توافقا وانسجاما بين المسلمين والإسلام .

يقول جمال الدين :

« إذا أردنا أن ندعو للإسلام ، فليكن أول مانبدأ به أن نبرهن للغربيين أننا لسنا مسلمين » وسبب ثالث لعدم انتشار الإسلام آت من المسلمين أنفسهم . .

منذ سنوات جاء أحد الأمريكان يمكث فى مصر فترة من الزمن يتعلم فيها الإسلام ، واتصل بالهيئات التى تمثل الإسلام ، فبلغت الحيرة منتهاها حينما أرادت هذه الهيئات اختيار كتاب يتعلم من خلاله الإسلام .

ومن الطبيعى أن يتجه الذهن إلى كتب علم الكلام ، فهى كتب الدفاع عن العقيدة . . ولكن إذا نظرنا فى كتب علم الكلام نجد أنها جدال لاينتهى بين الذين يبحثون فيه ، بالزيغ . وابتغاء الفتنة ، والجدال فيها يبدأ ويعاد ولاينتهى .

ثم هى تصور – على الخصوص – المستوى الثقافى للعصور الوسطى ، ولاتمت بصلة إلى الأبحاث الحديثة . ومن الطبيعى أن تكون كذلك لأنها أُلِّفت فى العصور الماضية ، وماأُلف منها حديثا ، أُلف على نمطها اتباعاً للآباء والأجداد ، وبغضا للخروج عن المألوف .

وإذا لم نأخذ الدين من كتب علم الكلام فهل نأخذه من كتب التفسير؟ .

لقد انتهى تفسير القرآن إلى أن أصبح مسرحا يتبارى فيه النحويون واللغويون وبلاغيُّو العصور المتأخرة ، وغشت هذه النواحى على الهداية لما أنزل الكتاب من أجله أى الهداية للأقوام .

وإذا كانت كتب الكلام قد استفاضت فى الحديث عن القدر ، مع نهى رسول الله ﷺ نهيا صريحا عن الحديث فيه ، وإذا كانت قد استفاضت فى الحديث عن صلة الذات الإلٓهية بالصفات ، إذ إنه محاولة لاكتناه الذات الإلٓهية التى نهينا عن التفكير فيها ، وأمرنا بالتفكير فى آثارها ، وإذا كانت كتب الكلام قد تعرّضت لذلك دون جدوى ولاثمرة ، فإن كتب التفسير أيضا قد تعرضت لهذه المشاكل نفسها دون جدوى ولاثمرة .

ومما لاشك فيه أن اكتناه سر الألوهية من حيث الذات ، أومن حيث القدر ، من المتشابه الذى نهينا عن الخوض فيه . .

ولكن اكتناه سر الألوهية من الأمور التى تتطلع إليها نفوس طائفة من الناس أرادوا بعقلهم المحدَّد تعين مالا يُحَدّ ، وطمعوا فى أن يُحِدُّوا بعلمهم الجزئى مالايحيطون به علما .

ونشاهد الاتجاه فى عهد الرسول نفسه ، وكان موقف الرسول منه حاسما ، والأحاديث كثيرة مستفيضة فى النهى عن الخوض فى الذات أو فى القدر ، ومما يروى فى ذلك :

« الأمر المتكرر المتنوع بالتفكير فى الخلق دون ذات الخالق حتى لانهلك »

عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال :

« خرج رسول الله ﷺ ، ونحن نتنازع فى القَدَر فغضب ، حتى احمر وجهه ، ثم قال : أبهذا أُمِرْتم أم بهذا أُرْسِلْت إليكم . . إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر . . عزمت عليكم ألاتنازعوا . . »

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده قال :

« خرج رسول الله ﷺ ، ذات يوم وهم يتراجعون فى القدر ، فخرج مغضبا ، حتى وقف عليهم فقال : ياقوم ، بهذا ضلت الأمم قبلكم : باختلافهم عن أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضا ، ماعرفتم منه فاعملوا به وماتشابه فآمنوا به . .

وبعض الأحاديث تذكر : « فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله ، ثم انتهرنا . . أوفغضب حتى لكأنما فُقِىء فى وجهه حَبّ الرمّان » .

وكان من الممكن لو استقامت عقول الناس ، ونزعت من قلوبهم الأهواء والشهوات أن يكتفى بنهى القرآن ، وبنهى الرسول ﷺ ، ولكن الذين فى قلوبهم زيغ موجودون فى العالم فى كل آونة وحين ، وفى كل بيئة ومكان .

فقد أطلّت الفتنة فى عهد عمر بن

الخطاب ، رضى الله عنه ، ممثلة فى صبيغ الذى كان يتكلم فى القدر ، فأخذ عمر يضربه بعراجين النخل على رأسه حتى تاب ، فتركه بعد أن أدمى رأسه وقال حسبك ياأمير المؤمنين ، قد ذهب الذى كنت أجده فى رأسى : يريد بذلك أنه قد تاب ،وأن نزغاته قد بددتها عراجين النخل ، وذهبت مع الدم الذى سال من رأسه . .

وسأله سائل عن آيتين متشابهتين ، فعلاه بالدرّة . .

يقول الإمام ابن قتيبة فى شرح مختلف الحديث :

« . . وقد تدبّرت مقالة أهل الكلام ، فوجدتهم يقولون على الله مالايعلمون ، ويفتنون الناس بما يأتون ، ويبصرون الناس ، بالقذى فى عيون الناس وعيونهم تطرف على الأجذاع ، ويتهمون غيرهم فى النقل ولايتهمون آراءهم بالتأويل ، ومعانى الكتاب والحديث ، وما أودعاه من لطائف الحكمة ، وغرائب اللغة لايدرك بالطفرة والتولّد ، والعرض ، والجوهر ، والكيفية ، والأينية . . ولو ردّوا المشاكل منها إلى أهل العلم لوضح لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع من ذلك طلب الرئاسة . .

إنَّ عَرْضَنا الدين الإسلامى على هذا النمط من العرض ، جعل كتبنا لايتيسر فهمها للأجانب عنا ، ولو لم يكن فى الإسلام تلك القوة الذاتية التى تستولى على القلوب وتغمر الأفئدة لضاق بهذه الكتب المسلمون أنفسهم . . الإسلام إذن بحاجة إلى عرضه عرضاً سهلاً مُيَسَّرا قوياً ، وبأساليب متنوعة وصور مختلفة حتى نتلافى هذا التقصير .

ومع كلّ هذا . . هل مَنَعَت هذه العوامل من انتشار الإسلام وذيوعه ؟

هذا وبالله التوفيق ،

د .عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

فضلُ البعثة المحمّدية[١]

العلامة أبو الحسن الندوى

إعلان فريد فى تاريخ الرسالات والديانات :

قال الله تعالى مخاطباً لنبيه محمد - ﷺ - : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[٢] » هذا إعلان فريد من نوعه ، جاء فى كتاب خالد قدّر الله سبحانه وتعالى له أن يتلى فى كل مكان وزمان ، ويبلغ عدد قرائه ملايين الملايين ، وقال عنه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[٣] » .

إن سعة هذا الإعلان وإطاره الكبير ، ومساحته بحساب الزمان والمكان ، تجعلان هذا الإعلان خارقاً للعادة ، لا يمكن أن يمرّ به الإنسان الواعى مرًّا عابراً سريعاً ، فإن مساحته الزمنية تحوى جميع الأجيال ، والأدوار التاريخية التى تتلو البعثة المحمدية ، ومساحته المكانية تسع العالم كله ، فإن الله سبحانه وتعالى لم يقل إننا أرسلناك رحمة لجزيرة العرب ، أو للشرق أو للغرب أو لقارة مثل آسيا مثلاً ، بل إنه قال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

الحق أن سعة هذا الإعلان وشموله ، وعظمته وسموه ، واستمراره وخلوده ، كل ذلك يقتضى أن يقف عنده مؤرخو العالم وفلاسفته ونوابغه وأذكياؤه حيارى مشدوهين ، بل يقف أمامه الفكر الإنسانى كله حائراً مشدوهاً ، وينقطع إليه كليًّا - رُدْحَةً من الزمن - يبحث فى مدى صدق هذا الإعلان ، أو صحة هذا الواقع ، لأننا لم نجد فى تاريخ الأديان والنِّحَل ، وفى تاريخ الحضارات والفلسفات ، وتاريخ الحركات الإصلاحية والمحاولات الثورية ، بل فى تاريخ العالم

(١) تعريب : محمد الحسنى رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامى » .

(٢) سورة الأنبياء : ١٠٧ .

(٣) سورة الحجر : ٩ .

كله ، وفى المكتبة الإنسانية بأسرها مثل هذا الإعلان المحيط بالكون كله ، والأجيال البشرية كلها ، والأدوار التاريخية بأجمعها حول أى شخصية من شخصيات العالم ، حتى إن خلاصة تعاليم الأنبياء السابقين ، ونبذة من أحوالهم وسيرتهم التى وصلت إلينا هى أيضاً مجردة عن مثل هذا الإعلان .

أما اليهودية – وهى ديانة قديمة مشهورة – فإنها تنظر إلى الله كـ « ربِّ بنى إسرائيل » ، وإله بنى إسرائيل فى الغالب . . إن صحف العهد القديم ، والكتب المقدسة الدينية عند اليهود تخلو عن ذكر الله (كربِّ العالمين ورب الكون بتاتاً) ، ولذلك فالبحث فى سيرة نبى من أنبيائهم مثل موسى وهارون . أو داود وسليمان ، عن مثل هذا الإعلان ، عبث وإضاعة وقت ، فإن هذه الديانة لم تكن – فى أى مرحلة من مراحلها – رسالة رحمة ومساواة للجيل الإنسانى كلِّه من غير تمييز عنصرى ، ولم تشجع فيها الدعوة إلى هذه الديانة خارج شعب إسرائيل أبداً [١] أمَّا المسيحية التى عُرِفَتْ بتسامحها وحماسها للدعوة وعطفها على الإنسانية ، فإن نبيَّها المسيح عليه السلام – صرح بأنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بنى إسرائيل الضالة [٢] . وحين لُفِتَ نظرهُ إلى بعض المرضى الذين لم تكن لهم صلة رحم ونسب ببنى إسرائيل اعتذر وقال « إنى لست ذلك الرجل الذى يعطى خبز الأولاد للكلاب [٣] » .

أما الديانات الشرقية والأسيوية الأخرى ، وخاصة الهندوكية فإنها لا تختلف كثيراً عن النموذج السابق ، بل إنها تسبق الديانات السابقة أحياناً فى تقديس النسب والسلالة وتوزيع الناس فى طبقات توزيعاً ظالماً جائراً . لا يعرف اللين والمرونة والمساواة ، ومن أُولَى حقوق الإنسان ، وأبسط مبادئ الإنسانية ، لا يجوز لهم تحصيل العلم ، والتعليم والتدريس ، والتطلع إلى الهضبة الروحية ، فقد خص دراسة « ويدا Vida » وتقديم القرابين والنذر لآلهتهم وأوثانهم بالبراهمة فحسب [٤] » وكان النظر فى كتب « ويدا » ودراستها مقصوراً على فئة كاشترى والويش [٥] وقد صرح « منوشاشتر » أن المنبوذين لم يخلقهم الله إلا

---

(١) انظر للتوسع والتفصيل فى هذ الموضوع كتاب المهتدية الأمريكية الفاضلة مريم جميلة :

(٢) إنجيل متى ، الإصحاح ١٥ – فقرة ٢٤ ، الإصحاح ١٠ – فقرة ٦ – ٧ .

(٣) متى الإصحاح ١٥ – فقرة ٢٦ .

(٤) منوشاشتر : الباب الأول – ٨٨ .

(٥) الباب الأول – ٨٩ – ٩٠ .

لغرض واحد ، وهو خدمة الطبقات الثلاث التى مضى ذكرها [١] . . إن أهل الهند القدامى لم يكونوا يعرفون وراء جبال «هملايا» دنيا ولا صلة لهم بالعالم الخارجى ، وبالشعوب الأخرى ، ولا رغبة لهم فى الإطلال عليها . . لذلك فإن البحث عن مثل هذا الإعلان عن نبيٍّ أو وليٍّ أو مصلح فيهم عبث وإضاعة جهد ووقت ، الحقيقة أن البحث عن نبى يكون رحمة للعالمين فى ديانة لا تحمل عقيدة «رب العالمين» غير معقول وغير منطق .

قيمة الرحمة التى اقترنت بالبعثة المحمدية كمًّا وكيفاً :

إنَّ لتقدير شيء ووضعه فى محله المناسب ومكانه اللائق مقياسين بصورة عامة : الأول : مقداره وحجمه الذى يعبر عنه فى المصطلح الحديث بالكمِّ (Quantity) والثانى جوهره ووصفه الذى يقال له الكيفية (Quality) . . وهذا الإعلان الذى نادى به القرآن يشمل هذين النوعين ، ويجمع بين الناحيتين . . فإن بعثته – ﷺ – وشخصه العظيم وتعاليمه السامية الخالدة أفاضت على الإنسانية بمسحة جديدة من الحياة والنشاط ، وكانت السبب المباشر فى شفائها من أسقامها وعلاتها وفى حل معضلاتها ، ونهاية آلامها وأحزانها وهطول أمطار الرحمة والبركة ، واليمن والسعادة ، والخير والفلاح على أرضها المجدبة القاحلة وكانت هذه المعطيات المحمدية الغالية منقطعة النظير بحساب السعة والوفرة ، والحجم والكمية (Quantity) وبحساب النفع والإفادة والجوهر والكيفية (Quality) أيضاً .

« الرحمة » لفظ شاع استعماله فى حياتنا اليومية ، وهو يطلق على كل شيء ينال به الإنسان نفعاً وراحة . . أما أنواع الرحمة وأقسامها ، درجاتها ومدارجها فلا حصر لها ، يقدم أحدنا الماء البارد إلى أخيه العطشان ، ويَدُلّ المسافر والغريب على الطريق ، ويحرك له المروحة فى يوم صائف ، شديد الحر ، والأم تحنو على طفلها ، الأب يربى ولده ويعلمه ويزوده بحاجيات الحياة ، والمدرس يعلم تلاميذه ، ويمنحهم ما عنده من نعمة العلم . . وهكذا إطعام الجائع المسكين ، وإكرام الضيف ، وكساء العريان . . كل ذلك من مظاهر الرحمة العامة وألوانها المختلفة الزاهية ، وهى تستحق منا كل تقدير ، واعتراف وشكر .

---
(١) الباب الأول – ٩١ .

ولكن أكبر مظهر من مظاهر الرحمة ، وأروع صورة من صورها الجميلة أن ينقذ أحدنا أخاه من مخالب الموت . . هناك طفل صغير برىء نراه فى حالة الاحتضار كاد يلفظ نفسه الأخير ، والأم تقف إلى جواره تبكى ، قد أظلمت الدنيا فى ناظريها ، وانقطع أملها فى فلذة كبدها ومأوى حنانها وحبها ، والأب يسعى هنا وهناك هائماً على وجهه ، فلا يجد راقياً وأنيساً . . هنالك يأتى طبيب حاذق ، كما ينزل الملكُ من السماء ويقول مهلاً . . لا داعى للقلق ولا موجب لليأس ، ولا يلقى فى فم الطفل قطرات قليلة من الدواء حتى يفتح عينيه وينشط . . . تصور ماذا يقال لهذا الطبيب ، ألا يقال له إنه ملك الرحمة أرسله الله لإنقاذ هذا الطفل ، وإعادة الحياة إليه ، هنالك تتلاشى كل هذه الأنواع من الرحمة التى قدمناها أولاً ، وتذوب أمام هذا المظهر الرائع الأخّاذ من الرحمة ، إنها ليست مِنَّةً على الطفل فقط ، بل على أسرته كلِّها .

نرى أعمى يمشى متوكئاً على عصاه ، قد شارف هوة عميقة أو بئراً ، قد تكون خطوته التالية خطوة الموت ، فيهرول إليه عبد من عباد الله ويأخذ بيده ويمنعه من الوقوع فى هذه الهوَّة . . أفلا نسميه ملك الرحمة ؟ .

هذا شاب يافع ، قرة عين أبويه ، وكفيل عائلته الفقيرة قد أشرف على الغرق فى نهر فائض ويحاول أن يطفو على الماء ، ولكن بدون جدوى ، فيقفز إليه رجل مجازفاً بحياته ، ويأخذ به إلى ساحل النجاة ، فيحمله رب الأسرة أو إخوة هذا الشاب ، على أعناقهم ويضمونه إلى صدورهم ، بحرارة وحب ، ولا ينسون فضله على أسرتهم الصغيرة مدى الدهر ؟ ترى هل تساوى مظاهر الرحمة الأولى ، هذه الرحمة العظيمة الغالية ؟ .

البعثة المحمدية أنقذت الجيل البشرى من الشقاء والهلاك :

ولكن آخر مظهر من مظاهر الرحمة وقمتها وذورة سنامها ، هى أن ينقذ رجل الإنسانية كلها من الهلاك ، وهناك فرق عظيم بين هلاك وهلاك ، وبين خطر وخطر ، ذلك هلاك محدود سطحى وخطر عابر قد يزول ، وهذا هلاك أبدى . وخطر مستمر لا يزول . . لذلك فإن رحمة الأنبياء بالنوع البشرى لا تقاس أبداً على هذه الرحمات ، رغم أهميتها وعظمتها .

إن أمامنا بحراً هائجاً مائجاً من الحياة لم يلتقم الأفراد والآحاد فحسب ، بل إنه ابتلع الأمم والبلاد ، وهضم الحضارات والمدنيات ، ترتفع أمواجه العاتية الهائلة ،

كأفواه التماسيح الفاغرة ، وتنقض على الجماعات البشرية كالأسد الضارى ، والمشكلة أنّه كيف نعبر هذا البحر الهادر الزاخر الذى لا يعرف الرحمة ، وكيف ننزل بسفينة الإنسانية على بر الأمان ، ولا يكون صاحب الفضل الأكبر فى هذا المجال ، ولا يعتبر أكبر منقذ للإنسانية وصاحب المنَّة عليها ، والإحسان إليها إلا من يجدِّف هذه السفينة ، التى تلعب بها العواصف الهوجاء ، والأمواج الهائلة كالجبال ، والتى غُصَّت بركابها ، وغاب الملاح والربان ثم يوصلها بسلامة إلى ساحل النجاة .

إن النوع البشرى شاكر لهؤلاء الذين منحوه هدية العلم ، ويشكر هؤلاء الذين جمعوا له هذه الأكداس من المعلومات . ويشكر الذين هيأوا له كل هذه التسهيلات وزودوه بوسائل الراحة والرخاء ، زللوا صعاب الحياة ، واقتحموا عقباتها وشعابها ، إنه لا يبخس حق أحد من هؤلاء ، ولا ينكر فضلهم عليه ، ولكن قضيته الكبرى ، ومشكلته الأولى هى أنه كيف ينقذ نفسه من أعدائه الذين وقفوا له بالمرصاد ، وأحاطوا به من كل جانب ، وكيف يصل بسفينته إلى بر السلامة والأمان .

فما هى أمواج هذا البحر ، وما هى تماسيحه الضارية الشرسة ؟

إنها الجهل عن خالق هذا الكون ورب العالمين ، وعن صفاته العليا ، وأسمائه الحسنى والوقوع فى حبائل الشرك والوثنية ، وعبادة الأصنام ، والاسترسال مع الخرافات والأوهام . . إنها بلادة حس الإنسانية ، وذهولها عن نفسها ، وغفلتها عن خالقها وبارئها .

إنَّها عبادة المادة والمعدة ، وتعدِّى الحدود ، وانتهاك الحرمات ، وسَوْرة النفس الأمَّارة بالسوء ، والتهرب من أداء الواجبات والحقوق ، والإصرار على المنافع والحظوظ . .

إن أكبر خطر على الإنسانية أن يحدث فى بنائها خلل ، وتحيد لبنتها الأساسية عن مكانها الصحيح ، فينسى الإنسان قيمته ومداركه ، وغاية حياته ، ويظن نفسه ذئباً مفترساً أو أفعى أو ثعباناً ، فحين يذهل الإنسان عن هذه الحقائق الكبرى يتحول بحر هذه الحياة إلى نار متأججة ، ولهب مرتفعة ، هنالك يزدرد الإنسان أخاه ، ويفترسه ، ولا يحتاج إلى الثعابين ، والعقارب ، والذئاب ، والفهود . فقد ينقلب الإنسان أكبر ذئب فى هذه الغابة الإنسانية . تخجل أمامه ذئاب ، ويتحول شيطاناً مارداً ، تستحى منه الشياطين ، هنالك يحترق الإنسان ، ويشوى فى ناره التى أشعلها بنفسه ، ولا يحتاج إلى أن

يستوردها من الخارج .

فى هذه الفترة الرهيبة المظلمة تهب نفحة من نفحات الرحمة الإلهية ، وتنعش رفات الإنسانية الخامدة الهامدة ، وتزودها بملاحين يجدفون سفينتها بنجاح ومهارة .

مهمة النُّبُوَّة ودورها فى الإنقاذ والإسعاد وطبيعة عمل الأنبياء :

وأضرب – لتوضيح مهمة النبوة ، وطبيعة عمل الأنبياء مثلاً سوف نفهم به مهمة النبوة وموقفها من غير دلائل فلسفية دقيقة .

يُحْكَى أن فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينة للنزهة فى البحر ، أو للوصول إلى البر . وكان فى النفس نشاط وفى الوقت سعة ، وكان الملاح المجدِّف الأمى خير موضوع للدعابة والتنادر ، وخير وسيلة للتلهى ، وترويح النفس ، فخاطبه تلميذ ذكى جرىء وقال : يا عمّ ماذا درست من العلوم ؟ قال الملاح : لا شىء يا عزيزى – قال : أما درست العلوم الطبيعية يا عمى ؟ قال ، كلا وما سمعت بها .

وتكلم أحد التلاميذ ، فقال : ولكنك لا بد درست علم الإقليدس والجبر والمقابلة – قال : وهذا أغرب ، وتصدقون أنى أول مرة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة .

وتكلم ثالث (شاطر) فقال : ولكنى متأكد من أنك درست الجغرافية والتاريخ ؟ فقال : هل هما إسمان لبلدين ، أو عَلَمان لشخصين ؟

وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة ، وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا : ما سنُّك يا عم ؟ قال أنا فى الأربعين من سنى – قالوا : لقد ضيَّعت نصف عمرك يا عمَّنا . . وسكت الملاح الأمىّ على غصص ومضض ، وبقى ينتظر دوره والزمان دوَّار .

وهاج البحر وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب ، والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب فى السفينة – وكانت أول تجربتهم فى البحر – وأشرفت السفينة على الغرق .

وجاء دور الملاح الأمى ، فقال فى هدوء ووقار : ما هى العلوم التى درستموها يا شباب ؟ وبدأ الشباب يتلون قائمة طويلة للعلوم والآداب التى درسوها فى الكلية ، ويتوسعون فيها فى الجامعة ، من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الجاهل الحكيم . . ولما انتهوا من عدّ العلوم المرعبة اسماؤها ، قال فى وقار تمزجه نشوة الانتصار : لقد درستم يا أبنائى هذه العلوم الكثيرة فهل درستم علم السباحة ؟ وهل تعرفون إذا

انقلبت هذه السفينة – لا قدّر الله – كيف تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام؟ قالوا: لا والله يا عم، هو العلم الوحيد الذى فاتنا دراسته والإلمام به.

هنالك ضحك الملاح، وقال إذا كنت ضيعت نصف عمرى، فقد أتلفتم عمركم كله، لأن هذه العلوم لا تغنى عنكم فى هذا الطوفان، إنما كان ينجدكم علم وحيد هو علم السباحة الذى تجهلونه[1].

هذه مهمة النبوّة ودورها فى إنقاذ البشرية المشرفة على الغرق، وهذه طبيعة عمل الأنبياء والرسل، وامتيازه عن سائر أصناف التعليم والتربية، والترويح والتسلية، يمنحون الجيل البشرى (علم النجاة) ويعلمونه فن السباحة، وتجديف سفينة الحياة.

إن التاريخ الإنسانى يدل دلالة واضحة على أنه لما غرقت سفينة الحياة لفساد أخلاق الناس وسوء أعمالهم، غرقت بكل ما فيها من مجموعة بشرية، ورصيد حضارى، ومحصول فكرى وإنتاج علمى وفلسفى.. وبكل ما فيها من روائع الشعر والأدب والبيان.. وإن هذه السفينة لم تغرق أبداً من أجل الانحطاط الأدبى، وقلة المدارس والجامعات، وفقدان التعليم المالى، أو من قلة المال وانخفاض مستوى المعيشة.. إنها غرقت لأن الإنسان أعد نفسه للانتحار، إنه صار معولاً هدَّاماً لذلك البناء الذى فيه متاعه وأهله، إن التاريخ يدلنا على أن الفكر الإنسانى أصيب فى كثير من الأحيان بنوبات عصبية دفعته إلى التدمير، والإبادة بدلاً من التعمير والبناء، فقد رأينا مستغربين مأخوذين بالحيرة والدهشة، ورأينا بأم أعيننا – ونحن لا نكاد نصدق هذا الواقع لهول المنظر وبشاعة الوضع – أن الإنسان قام بهدم أساسه بكل قوة وحماس، ذلك الأساس الذى قام عليه صرحه الحضارى، والفكر العظيم..وظل مشتغلاً بهذه العملية المجنونة بكل شوق ورغبة كأنها عملية بناءة ومأثرة إنسانية رائعة وخدمة ممتازة، وصار يلح على الوقوع فى خندق الموت، وقد تملكته السآمة من الحياة، واستبد به الشوق إلى الهلاك كأن الحياة عذاب وجحيم، والهلاك جنة ونعيم.

تصوير العصر الجاهلى وتهيُّؤه للإنهيار والانتحار:

ذلك الوضع الذى ساد على العالم فى القرن السادس المسيحى. فإننا نجد هناك استعدادات عامة للانتحار الاجتماعى العام، لم يكن النوع البشرى فى ذلك الزمان راضياً بالانتحار فحسب، بل كان

(١) القصة مقتبسة من كتاب المؤلف: (النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن).

يتساقط عليه ، ويتهالك فيه ، كأنه نذر به وحلف ، فيريد أن يفي بنذره ولا يحنث في قسمه ، ولقد صوَّر القرآن العظيم هذا المنظر وهذا الوضع تصويراً دقيقاً لا يصوره أي رسَّام أو أديب ، أو روائي أو مؤرخ .

« واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها [1] » .

رحم الله المؤرخين ، ورواة السيرة فإنهم لم يصوروا الجاهلية حين سردوا لنا وقائع البعثة المحمدية — تصويراً صحيحاً دقيقاً ، وهم معذورون ومأجورون ، مثابون ومشكورون ، فإنَّ ذخيرة الأدب واللغة لا تسعفهم كل الإسعاف . . والحقيقة أن هذا الوضع في قمة من الهول والفظاعة ، وفي منتهى الدقة والتعقيد ، لا يمكن وصفه بريشة قلم ، أو التعبير عنه بأي قدرة ، بيانية ، وصلاحية لغوية .

هل كان العصر الجاهلي — الذي بعث فيه محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم — قضية انحطاط اجتماعي أو خلقي ، هل كان قضية وثنية مجردة ، أو قضية خمر وقمار ، وعبث واستهتار ، أو ظلم واستبداد ، أو قضية قوانين اقتصادية جائرة وتعسف الحكام الغاشمين ، هل كان قضية وأد البنات ؟؟

كلا . . إنه كان قضية وأد الإنسانية كلها .

لقد انتهى هذا الدور ، وانقرض هذا الجيل ، وغاب هذا التصوير البشع عن أعين الناس فكيف نعيده ونُمثله ، ونجعله حسيًّا شاخصاً تراه الأبصار ، وتلمسه البنان ؟ . وجُلُّ ما نستطيع أن نقول : إنه عصر جاهلي لا يفهمه حق الفهم إلا من عاش فيه واكتوى بناره . . ولو كان لمصور يحاول التصوير يمكن أن يمثِّل البشرية في صورة إنسان في غاية الجمال والصحة والأناقة وحسن الهندام ، الإنسان الذي هو نموذج بديع فريد لصنع الله الذي أتقن كل شيء والذي هو محسود الملائكة ، وغاية الخلق ، الذي كلله الله بتاج خلافته ، فصار زينة الوجود ، ولب لباب الحقيقة والعرفان ، وبه تحولت هذه الأرض الخراب اليباب إلى روضة غناء ، وحديقة فيحاء ، ثم يصور هذا الإنسان أنه يريد أن يقفز إلى خندق عظيم هائل ترتفع منه ألسنة اللهيب ، وقد تحفَّز واستجمع قواه ، وجمع ثيابه ، ورفع رجله في الفضاء فعلاً وكاد يقع فيه ، وما هي إلاَّ دقائق وثوان حتى يغيب في هذا الظلام المرعب ، ظلام الموت ! ! . . فلعل هذا التصوير يصور بعض الجانب من العصر الجاهلي عند بعثة النبي ﷺ . . وقد أشار القرآن إلى هذه

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .

الحقيقة فقال فى إيجاز وفى إعجاز : (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) وذلك ما شرحه لسان النبوة بمثال رائع بليغ ، فقال عليه الصلاة والسلام :

(مثلى كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه ، فيقتحمنها ، فأنا أحجزكم عن النار ، وأنتم تقفزون فيها ، وقال فى آخرها فذلك مثلى ومثلكم أنا أحجزكم عن النار هلم عن النار . هلم عن النار ، فتغلبونى وتقحمون فيها [1]) .

لقد كانت القضية الكبرى فى هذه القصة كلها ، أن تصل سفينة الإنسانية بسلامة الله وفى حفظه ورعايته إلى شاطئ النجاة ، لأنه حين يستوى الإنسان ويعتدل طبعه ، وتتحلى الحياة بالاقتصاد والاتزان ، وتنفعه فإذا كل هذه المشروعات البنائية والإنمائية ، أو الأدبية والعلمية التى أوتى مواهبها كثير من أصدقاء الإنسانية وأنصارها ، ومن هنالك ، فإن الإنسانية كلها مدينة للأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – لأنهم أنقذوها من تلك الأخطار المحدقة التى سلطت على رأسها كالسيف المصلت ، ولا يتحرر من منّهم وفضلهم مشروع علمى ، وتخطيط اجتماعى ، ولا مدرسة فكرية أو فلسفية ، كما أن العالم المعاصر مدين لهم فى هذا البقاء والاستمرار ، وجدارة الحياة ، لأن الإنسان اعترف أحياناً كثيرة – بلسان حاله ، إن لم يقل بلسان مقاله – أنه فقد حق البقاء فى هذه الأرض ، وأنه لا يحمل الآن أى رحمة وبركة وفيض وإفادة ، ودعوة ورسالة للإنسانية ! ! . . إنه رفع الدعوى فى المحكمة الإلهية ضد نفسه ، وشهد عليه ، لقد كانت ملفاته مهيأة للحكم العادل الأخير ، وقد نصب الإنسان نفسه لأكبر عقوبة تتصور ، بل لعقوبة الإعدام ، ولا عجب فى ذلك ، فحينما تتعدى المدنية حدودها الطبيعية وتخرج من طورها ، وتنسى القيم الخلقية كليًّا أو تكفر بها صراحة وعلناً ، ويتغافل الإنسان عن كل غاية نبيلة ، ومقصد شريف وعن كل واقع وحقيقة غير الحقائق المادية ، وتحقيق مآربه الجسدية ، وإرواء ظمئه الحيوانى ، وحينما يحل محل القلب الإنسانى قلب الذئب والنمر والفهد . . وتتكون فى جسمه معدة خيالية أو صناعية ونفس أمارة بالسوء ، لا يقر لها

---

(١) متفق عليه ، برواية أبى هريرة رضى الله عنه :

الحديث كما هو وارد هنا ليس بلفظه . . فالمؤلف قد ترجمه إلى الإنجليزية ثم أعاده المترجم بمعناه إلى العربية . . «المحرر» .

قرار ، ولا يضبطها وازع أو رادع ، وحينما تصيب الإنسانية نوبة شديدة من الجنون ، يبعث الله لها جماعة من الجراحين ، أوعصابة من السفاحين ، وتأتى لأورامها المنتفخة سكاكين من ظهر الغيب تقضى عليها وتقطع دابرها وتستأصل شأفتها .

إن فساد المدنية وهوسها وجنونها أشد من جنون الملكية والحكم الشخصى وأوسع منه شراً لأنه حين يجن جنون شخص ضعيف نحيل واحد يقض مضاجع أهل الحارة كلها ، وينغص عشهم الهادى . . فَتَصَوَّر ماذا يحدث فى العالم إذا جن جنون النوع البشرى أجمع ، ونخر هيكل المدنية وتعفن ، وفسدت طبيعة الإنسانية ؟ هل له من رقية أو علاج ؟

إلا أنه لم تفسد المدنية فحسب فى العصر الجاهلى ، بل تفسخت جثتها ، وتعفنت ونشأت فيها ديدان قذرة ، وأصبح الإنسان يقتنص الإنسان ويصطاده ، ويتلذذ بسكراته وشدائده عند الموت ، ويتمتع بحالة الاحتضار ، كما يتمتع أحياناً بمنظر البساتين والأشجار والورود والأزهار ويطرب ويهتز لاضطرابه وتقلبه على الحجر ، ويفرح بأنين المصاب والمريض والمنكوب وصراخه وعويله ، كما يفرح بالشراب الهنىء ، والطعام الشهى أو بالمنظر السار الجميل .

سرِّح طرفك فى تاريخ روما التى تغنت أوروبا – ولا تزال – بفتوحها وبطولاتها وأمجادها وتشريعها وحضارتها ، تجد نموذجاً حيًّا للقسوة البشرية التى بلغت قمتها فى هذا العصر يقول (لبكى) فى كتابه (تاريخ أخلاق أوروبا) يصور جانباً من همجية الإنسان وضراوته ووحشيته النادرة ، يقول :

(إن أكثر المناظر سحراً على نفوس أهل روما ، وأعظم تسلية ومتعة لهم كان حين يسقط الجريح فى مبارزة أحد الأبطال من بنى جنسه ، أو مصارعة سبع ضار يتشحط فى دمه ، هنالك كان يفلت الزمام ، ويغلب الناس على أمرهم ، ويفقدون رشدهم ، فيتهالك الحشد الحاشد وفيه النساء والأطفال ، والشيوخ العجز – على الدنو من هذا المنظر الرهيب ، والإنسان البائس الشقى ، وهو من بنى جلدتهم وأبناء بلادهم ليمتعوا نفوسهم بمشاهدة احتضاره ولبرنّ فى آذانهم رنين أنينه فقد كان أجمل من كل غناء وموسيقى ، وسجع الطيور ، وكان رجال الشرطة الذين كان من واجبهم المحافظة على النظام ، يقفون مشدوهين مكتوفى الأيدى أمام هذه الموجة العارمة من المتعة الظالمة الآثمة ، لا يملكون من أمرهم شيئاً [1]) .

(١) راجع (تاريخ أخلاق أوربا) للمؤلف الإنجليزى لبكى ج١ ص ٢٣٠ .

فى مـرآة المستشرقين

الدكتور عبد الجليل شلبى

١ - ذكرت فى غير حديث أن كتابة الغربيين عن الإسلام كانت فى بداية أمرها لونا من ألوان الدعاية الحربية ، وأن العداء المستحكم بين الشرق والغرب منذ اقتطع المسلمون أطراف الدولة الرومانية وغزوا البحر المتوسط ظل يقوى ويشتد بين الطرفين . . ثم كانت الحرب الصليبية مما ألقى على نيرانه وقودا جديدا ، وكان الغرب يدرك كل الإدراك أن الإسلام وحده وهو الذى منح الشرق قوة الصمود أمام هجماته ، كما أنه كان الباعث الأول على الغزوات المتلاحقة التى اقتضت من الدولة الرومانية أثمن كنوزها . . ولهذا كان هَمُّ ساستهم وكتابهم على السواء أن يشوِّهوا هذا الدين وأن يحطوا من شأنه . .

وفى عصر الاستعمار بُذِلَت جهود جبارة عنيفة لإخماد الروح الإسلامى فى نفوس المسلمين . . وعمل الحكام فى المستعمرات وأشباه المستعمرات على تحويله إلى طقوس جوفاء وأعمال آلية فارغة ، ففصلوا الدين عن السياسة ، وعزلوا رجال الدين أو فقهاء الإسلام عن تيارات الحياة . .

وبدافع من ذلك كله قام عديد من المستشرقين بتشويه جمال الإسلام وتغيير حقائقه كما قاموا بهجوم على نبىِّ الإسلام ، وتحريف تاريخ الدعوة الإسلامية ، وتاريخ الإسلام بوجه عام .

ونجحت هذه الحركة فى لفت نظر الشعوب الأوربية عن الإسلام ونفورها منه ، ولا يزال صدى هذه الدعوة فى آذان الأجيال الحاضرة مما بقى من آثار هؤلاء الكتاب .

وكان لهذه الحركة جانب آخر هو نشاط المبشرين بالدِّين المسيحى ، فقد طاب لهم أن يبنوا دعوتهم بأنقاض الإسلام ، واستساغوا أن يؤدوا رسالة المسيح بالأكاذيب والمفتريات ، فدعوا إلى الأخلاق بسوء الأخلاق ، وإلى التسامح

الذى جاءت به رسالة المسيح بأشنع أنواع التعصب وأسوأ الأكاذيب ، ووجدت دعوة هؤلاء مجالا بين الشرقين السُّذَّج من أبناء إفريقية وآسيا ، ووجد المستعمرون من جانب والصهيونيون من جانبٍ آخر فى دعوة المبشرين سلاحا فعالا تستفيد منه مطامعهم ، فسخوا عليهم بالمعونات المادية والحماية السياسية والتأييد والإجلال .

٢ – لم تهدأ هذه التيارات أو تخف حدتها إلاَّ بعد الحرب العالمية الثانية . . خفَّت من جانب المستعمرين ونشطت أكثر من جانب الصهيونية ، ذلك لأنَّ ظل الاستعمار تقلص عن كثير أو عن أكثر البلاد الشرقية ، لكن مطامع الصهيونية استيقظت فى ذلك الوقت . . وكان على الاستعمار أن يؤيدها ، إذ رأى فى قيام الدولة الصهيونية – فى قلب الشرق – خنجرا داميا يشل حركته ، ويقطع نشاطه ، ولذا تعاونت الكتلتان الشرقية والغربية فى بناء دولة إسرائيل ، ثم وجد من مستشرقى اليهود من طاب لهم أن يطلبوا الضرب على « أوتار الصليبيين » وكما عاون اليهود المبشرين بدعوة المسيح (وهم أعداء المسيح) عاون المسيحيون اليهود (وهم أعداء اليهود) .

لكن تغلْغُل الغرب فى الشرق أثناء سنوات الحرب وكثرة نزوح الشرقيين إلى الغرب بعدها أدى إلى تقارب أكثر ، ودعا إلى تعارف أوسع ، ووجد من كتاب الغرب من عناه البحث عن الحقيقة بقدر ما تسوغ له طاقته ، وما تهيئه له معلوماته ودراسته عن الشرق والإسلام .

هؤلاء الكتاب ليسوا كَثْرَةً بل هم قلة نادرة فى كل قطر أوربى .

ولمَّا يستطيعوا للآن أن يتخلصوا من قيود الماضى أو يبحثوا بحثا حرًّا ينقاد للعقل وحده ولا تستطيع كتابتهم – وهذا طبيعى – أن تصمد لتيارات المبشرين وادعاءات المغرضين .

وقصارى ما انتهت إليه هذه الحركة أنْ آمن كتابها بنهضة الإسلام وسماحة الإسلام ولكنهم ينكرون رسالة محمد ونبوته ، ولقد كان فيما أحدثه الإسلام من تغيُّر فى حياة العَرَب وما نالهم منه من نهضة وتغيُّر فى أوضاع حياتهم ، ما يقنع بصحة الرسالة المحمدية ، لكن هكذا ظل اتجاه المستشرقين على ما هم عليه .

وأكثر ما يبرز فى كتابة هؤلاء هو الحديث عن سماحة الإسلام ، وأن فتوحات المسلمين كانت خيراً وبركة على البلاد التى فتحوها ، وأن قادة العرب لم يكونوا يكْرِهُون أحداً على قبول الإسلام .

وهذه كلها تعارض منهج المبشرين وكُتَّاب الأجيال السابقة .

٣ – وهناك أمر لم يستطع أحد أن يعارضه وإن استطاع الإغضاء عنه « ألا وهو تيار الحضارة الإسلامية . . وما كان له من أثر فى نهضة أوربا الحديثة ، فما لا ريب فيه أن الفرق كان واسعا جدًّا بين ما أنشأه الإسلام من حركة فكرية راقية وبين ما كانت عليه الدول الأوربية من جهل وتأخر ، وما تعيش فيه من همجية وانحطاط .

ولم يتناول الكُتَّاب العرب فيما سجلوا من أحداث التاريخ حال البلاد الأوربية ولم يأت منها فى حديثهم إلا ما كان أمراً عارضا ، من ذلك الرسائل المتبادلة بين الملوك أو بين القواد ، أو ما سجله الرحالة المسلمون من ملاحظات . وهذه العوارض لا تكفى للموازنة بين الحالة الاجتماعية هنا وهناك ، وإهمالها يؤدى إلى نقص كبير فى تقدير الإسلام وما أحدثه من تغيير بالغ فى حياة العرب ، فالإسلام ظهر فى قوم غاية فى التأخر والهمجية ، وكانوا أيضا غاية فى الضعف والهوان ، ومع ذلك استطاع فى فترة وجيزة أن يسمو بهم إلى درجة بدت حياة الأوربيين بجانبها ساذجة وضعيفة .

وأَبْرَزُ المستشرقين الذين عُنوا بهذا الجانب فى كتاباتهم الإسلامية « ألفريد بتلر » « وآرثر أرنولد » . . أما الكتابات التى جاءت فى مطولات المؤرخين أمثال جيبون فليست هينة فى هذا الجانب – جانب الموازنة بين حكومات الإسلام وحكومات الغرب – ولكنها تأتى عرضا ، ويحتاج قارئها إلى شىء من الأناة والجهد حتى يستخرجها .

٤ – وكلا الكاتبين الأولين عُنى باستعراض التيارات الفكرية والسياسية فى الدولة البيزنطية قبيل الفتح الإسلامى للشام ومصر وغزو المسلمين للبحر الأبيض ، ولكن بتلر كان معنيا بالجانب السياسى ، وحديثه فى جملته توضيح للأسباب السياسية والاجتماعية التى هيأت انتصار المسلمين وانكسار الرومان ، وحديثه محدود الجوانب « لأن بحثه يدور أساسا على فتح العرب إقليم مصر ، أما آرثر فحديثه أوسع لأنه يتابع حركة الدعوة الإسلامية فى بقاع شتى .

وبخصوص انتشارها فى ممتلكات الرومان لم يقف عند قطر معين وقد عرض فى بحوثه صوراً مظلمة قاتمة لحياة الأوربيين وشرح كثيرا من مواقف اضطهاد المسيحيين للمسيحيين ، ومُثُلاً من ظلم الحكام وإكراههم الناس على قبول مذهب معين ، بينما كان الإسلام يوجه حكامه إلى العدل والمساواة والدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبهذا تبدو صورتان متقابلتان تُبْرِزُ كل منهما خصائص الأخرى وطبيعة منهجها ، فالظلم الأوربى يبدى

عدالة الإسلام ، كما يبدى جَمَالَ الإسلام وبهاؤه مما تتصف به حياة الأوربيين من قبح ومجافاة لكرامة الإنسان .

٥ – ولعل أحق هؤلاء الكتاب بتقدير المسلمين والالتفات إلى كتابته هو أودين هول Idwin Hall وقد كتب عن حياة المسلمين فى الأندلس أو على الأصح عن « حياة الأندلس تحت حكم المسلمين » ، فعُنى بإبراز الحياة الفكرية والثقافية بين المسلمين بجانب تخلف الأوربيين وبعدهم كل البعد عن هذا الأفق السامى الذى أنشأه الإسلام .

وجاء فى هذا العرض أن المسلمين أنشأوا فى أوربا مكتبات كبيرة ضخمة . . حين لم تكن تعرف أوربا شيئا من هذا النظام ، وهذا طبيعى لأن المسلمين أنشأوا جامعات وألفوا كتبا واستعملوا مراجع عديدة ، بينما كان الأوروبيون يغطون فى نوم الأمية وليلها الطويل . وحين أيقظتهم هذه الحركة الإسلامية ودفعتهم إلى السهر فى ركابها ظلوا حتى فجر النهضة الحديثة متخلفين عن ركب الفكر الإسلامى .

ومن الأدلة التى ساقها لتوضيح هذا الحكم أن مكتبة الحَكَم بن عبد الرحمن فى قرطبة كانت تحوى أربعمائة ألف كتاب ، ولم تكن وحدها المكتبة العامة فى قرطبة بل كان هناك نحو سبعين داراً أخرى للكتب وكلها مكتبات عامة Liberaries بينما كانت هناك مكتبات التجارة فى الكتب والأوراق Book Shops ثم دور الوراقة التى يعمل بها النساخون . . . ، وبعد ذلك بأربعة قرون جهد الإمبراطور الفرنسى شارل الحكيم فى إنشاء مكتبة ، فاستطاع أن يجمع بها نحو تسعمائة كتاب فقط . بينما كانت مكتبة الحكم تحوى كتبا فى شتى أنواع الفكر وتياراته ومختلف العلوم .

كانت مكتبة شارل الصغيرة تحوى ستمائة كتاب فى الديانات . . أو على الأصح فى الديانة المسيحية ، وثلثمائة كتاب فقط فى المواد الأخرى ، وكان هذا قصارى جهده ، وقد خلع عليه لقب الحكيم لتضلعه فى العلوم والمعارف ؟ ؟

وقد عُنى كلاًّ من عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم أن ينشئوا حركة ترجمة ، وأن ينفقا بسخاء على المترجمين ، كما استقدموا كبار العلماء من الشرق إلى الأندلس ، وأرسلا بعوثا من أبناء الأندلس إلى العواصم الشرقية ، واشتريا الكتب الضخمة من مؤلفيها ، ثم تلاهما المنصور العامرى فلم يأل جهدا فى اقتفاء أثرهما فى هذا السبيل ، فإذا ذكر نشاط شارل الحكيم بجانب هذا النشاط كان البون واسعا ؟ ؟

٦ – ومع أن هذه الحركة العلمية التى

أنشأها المسلمون هى التى أيقظت الأوربيين ووجهتهم توجيها فكريا فإنهم لم يقدروا الإسلام قدره ، بل رأت فيه عدوًّا يُخشى خطره ويستحق أن يضغط ويخمد.

وقد حدث فى القرن السابع عشر أن استولى الإسبانيون على سفينة لأمير مراكش كان بها كتب كثيرة وأمتعة ، فأغضى الأمير عن الأمتعة وطلب الكتب ، فقرر الأندلسيون أن يعطوه كتب المعارف العامة ، وأن يستبقوا لديهم كتب الدين الإسلامى ، لأنها مما يوقظ همم المسلمين ويبعث حميّتهم إلى تعزيز قواتهم ، ولكن المسألة لم تكن من السهل أن يفصل فيها هيئة واحدة ، فوضع هذا القرار أمام وزراء الدولة ، فقرّ رأيهم على إحراق الكتب جميعها . ودلّوا بذلك على أنهم لم يتقدموا أنملة واحدة عن عصر (بيتر المحترم) الذى أفتى فى القرن الخامس عشر بأنّ كتب المسلمين كلها نجس . وأمر بإحراقها .

ولكن أحد الأمراء لم يرضه هذا الرأى فعارض فكرة إحراق الكتب ، فاتفقوا على إيداعها مكانا حصينا . وأن لا يسمح لأحد بالاطلاع عليها ، ولا ترد لصاحبها .

وهذا حقا توضيح جيد للفارق بين عقليتين مختلفتين فى هذا الوقت .

فالمسلمون منذ القرن السابع الميلادى – الثانى الهجرى – عملوا على نقل الكتب وترجمتها ، وهمهم أن يعرفوا أفكار السابقين وفلسفاتهم ، فكانت تيارات عديدة من الفكر الشرقى والغربى القديم تصب فى بغداد ، ثم تصفى كلها ويستخرج منها لون جديد ، أما هؤلاء فكانوا بعد خمسة عشر قرنا متخلفين عن ركب المسلمين .

٧ – هؤلاء جماعة من المستشرقين أستطيع أن أُلحِق بهم – تساريس وادى – صاحبة كتاب « العقل السليم » الذى تحدثت عنه فى كتاب « صور استشراقية » أنصفوا الإسلام بعض الإنصاف ، وأنصفوه دين حضارة وعلم ، ودين مساواة وعدل ، ودين إنهاض للأمم ودافع لها إلى التقدم والرقى ، ودين حكم صالح تسعد فى ظله الرعايا مسلمين وغير مسلمين . . . إلخ .

وبعد كل هذا ليس بين هؤلاء من ينصف محمدا – ﷺ – ويعترف بالنبوة وهؤلاء أغضوا – أو لم يكن من بحثهم أن يتحدثوا – عن صلة محمد بالكتابيين ، لهذا خلت كتابتهم من التحريف والتحامل الذى حفلت به كتب الآخرين . .

د . عبد الجليل شلبى

الإسلام والمدنية الحديثة

العلامة أبو الأعلى المودودي

نقد القومية

أما المبدأ الثاني : القومية : فإن أريد بها الجنسيـــة (Nationality) فهي أمر فطري لا نعارضــه ، وكذا إن أريد بها انتصار الفرد لشعبه شريطة أن لا يستهدف تحطيم الشعوب الأخرى ، وإن أريد بها حب الفرد لشعبه فنحن لا نعارضها كذلك . إذا كان هذا الحب لا يعني معنى العصبية القومية العمياء التي تجعل الفرد يحتقر الشعوب الأخرى وينحاز إلى شعبه في الحق والباطل على السواء .

وإن أريد بها مبدأ الاستقلال القومي فهو هدف سليم كذلك ، فمن حق كل شعب أن يقوم بأمره ويتولى بنفسه تدبير شئون بلاده[1]

أما الذي نعترض عليه ونعتبره شيئا ممقوتا نحاربه بكل قوة ، فهو القومية (Raciality) التي تضع ذاتها ومصالحها ورغباتها الخاصة فوق جميع الناس ومصالحهم ورغباتهم ، والحق عندها هو ما كان محققا لمطالبها واتجاهاتها ورفعة شأنها ولو كان ذلك بظلم الآخرين وإذلال نفوسهم .

إنه إذا كان في المجتمع شخص يتبع هواه ويعبد نفسه ويؤثرها على غيره ولا يبالي بأيّ تصرف مهما كان سيئًا مادام في سبيل مصلحته الفردية ، وإذا كان في المدينة أسرة تخدم مصالحها متغاضية عن مصالح

---

(١) أن الطير ليحن إلى وكره ، وإن الأسد ليذود عن عرينه ، وحنين الإنسان إلى بلده وأهله وعشيرته ، وحمايته للذمار مما ركّزه الله في فطرته ، ولكن هذه الدوافع الفطريه في الإسلام يجب أن تكون مرهونة باتباع الحق ، والإنتصار له ، وقد هاجر رسول الله ﷺ بدينه من مكة مسقط رأسه ومهد صباه ، وكان فيما قاله فيها : (والله إني لأعلم أنك أحب البلاد إلى الله ، وأحب البلاد إليّ ، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت) .

غيرها وتعمل لتحقيقها بكل وسيلة سواء كانت مشروعة أم غير مشروعة ، أو كان فى البلاد طبقة تناهت فى الأنانية وحب الذات واندفعت وراء أغراضها ، ضاربة بمصالح الآخرين عرض الحائط (كطبقة المهريين مثلا) – إنه إذا كان هناك شيء من ذلك فلا يساورنا شك فى أن نعتبره لعنة ما بعدها لعنة ، فلماذا نعتبر على الصعيد الإنسانى الشعب الذى يتخذ مصالحه القومية إلّها يُعْبد ، ويقرر فيما يقرر من مبادئ لعبادته وطاعته « الحق هو الذى يلائم المصالح القومية والباطل هو الذى لا يلائمها » ؟ – لماذا لا نعتبر على الصعيد الإنسانى هذا الشعب لعنة بالنسبة للجماعات الإنسانية ؟

إن ضمير الإنسان يقطع بأن معانى الأثرة والأنانية على النطاق الإنسانى لعنة من اللعنات بكل تأكيد ، كما أن معانى الأثرة والأنانية على النطاق الفردى أو القبلى أو العائلى لعنة كذلك . ألا وإنكم ترون بأمَ أعينكم المدنية الحديثة وقد ورَّطت أمم الدنيا فى هذه اللعنة . الأنانية القومية المستعلية الباغية ، وهى المسئولة عن تحويل العالم إلى ميادين للصراع القومى العنيف ، وبفضل هذا شهد العالم فى نصف قرن حربين عالميتين أُزْهِقَت فيهما ملايين الأرواح ، وهو الآن على وشك أن يشهد اندلاع حرب ثالثة يورى شررها وراء مظاهر الاستعداد العسكرى الذى يقوم على قدم وساق ، مع أنَ جروح الحربين السابقين لم تندمل بعد .

نقد الديمقراطية :

أما المبدأ الثالث : الديمقراطية ، أو تأليه الإنسان . فبانضمامه إلى المبدأين السابقين ، تكتمل الصورة التى تضم فى إطارها محنة هذا العالم ومتاعبه .

لقد قلت آنفا : إن مفهوم الديمقراطية فى المدنية الحديثة هو « حاكمية الجماهير » ، أى أن يكون أفراد قطر من الأقطار أحراراً فيما يتعلق بتحقيق مصالحهم الجماعية ، وأن يكون قانون هذا القطر تابعا لأهوائهم ، وعلى هذا الأساس فإن الأفراد لا يتبعون القانون ، ولا يكون الغرض من تكوين الحكومة الاستعانة بأجهزتها الإدارية وإمكانياتها المادية فى تحقيق المصالح الجماعية ، على عكس ما يجب أن يكون .

وإذا تأملنا المبادئ الثلاثة الآن فإننا نجد : أن العِلْمَانية قد حرَّرت الناس من عبادة الله وطاعته وخشيته ، ومن الضوابط الخلقية الثابتة ، وألقت حبْلهم على غاربهم ، وجعلتهم عبيدا لأنفسهم غير مسؤولين أمام أحد ، ثم تأتى القومية لتقدِّم لهم جرعات كبيرة من خمر الأنانية والكبرياء ، والاستعلاء واحتقار الآخرين .

وتأتى أخيراً الديمقراطية وتُجلِس هذا الإنسان بعد أن أُطْلِقَ له العنان وصار أسير أهواء النفس وأخيذ نشوة الأنانية – على عرش التأليه فَتَخَوَّلُ له جميع سلطات التشريع والتقنين ، وتسخِّر له الجهاز الحكومى بكافة إمكانيَّاته فى الحصول على كل شىء يطلبه .

ولنتساءل إذن بعد هذا : هل تختلف حالة شعب متحرّر من كل ضابط يتمتع بسلطات الحاكمية المطلقة ويزاولها بدون قيد أو شرط عن حالة فرد شرس جامح فاجر ؟ وفى أى شىء تختلف ؟ أليس من الصحيح أن كل عمل يزاوله هذا الفرد الشرس فى نطاقه المحدود يزاوله ذلك الشعب المتحرّر فى نطاقه الواسع ؟ وإذا كان العالم مؤلّفاً من شعوب كهذا الشعب تنهل من نفس المورد وتقدس الأقانيم الثلاثة[1] فكيف يتأتى أن يسود هذا العالم الأمن والهدوء والسلام ؟ وأن ينجو من أن يكون ميدان صراع ونضال وحروب ، ولا يتحول إلى حلبة سباق تصطرع فيها ذئاب الشر ؟ ؟ .

هذه هى الوجوه التى تجعلنا نرى كل نظام يقوم على المبادئ الثلاثة المذكورة نظاما فاسدا باطلا ، ومن أجل هذا فإننا نعارض النظام العلمانى القومى الديمقراطى سواء أقامه غربيون أم شرقيون ، مسلمون أم غير مسلمين ، وحيثما حلت هذه البليَّة وأينما نزلت فإننا نحاول إشعار عباد الله بخطرها الداهم وندعوهم لمحاربتها .

المبادئ الثلاثة :

وحين نعارضُ هذا النظام لا نكتفى بمعارضته بل نقدِّم تجاه مبادئه الثلاثة،مبادئ ثلاثة أخرى نعتقد بصلاحيتها وسدادها ، ونضعها تحت أنظار المنصفين ، ونحتكم إلى ضمائرهم يمحِّصوها ، وينظروا فيما إذا كانت سعادتهم ورفاهيتهم وسعادة العالم كله ورفاهيته تقوم على قبول هذه المبادئ النزيهة الحقة التى نقدِّمها ، أم تقوم على تلك المبادئ الخبيثة الفاسدة التى ذكرناها آنفا .

(١) الأقانيم : جمع أقنوم ، وهى كلمة يونانية بمعنى الأصل أو المبدأ ، وكان فلاسفة الإغريق يرجعون وجود العالم إلى أصول ثلاثة ، وقد أثرت هذه الفلسفة الإغريقية فى تفلسف المسيحية بعقيدة التثليث ، إذ أولوا نصوص العقيدة على نمط الفلسفة الإغريقية فى الأقانيم الثلاثة ، والألفاظ الدالة عليها فى المصدر النصى للمسيحية هى : الله ، كلمة الله ، الروح القُدس . فالله فى مقابل أقنوم الوجود ، وكلمة الله فى مقابل أقنوم العلم ، والروح القدس فى مقابل أقنوم الحياة ، وهى ترجع فى نظر النساطرة إلى شىء واحد ، هو الوجود ، فالوجود هو الجوهر ، وهو الذات الواحدة والعلم والحياة صفتان أو اعتباران له ، والمدنية الحديثة كذلك تعتبر هذه المبادئ الثلاثة أصولاً لها وأنصف الأستاذ المودودى فى التعبير عنها بالأقانيم .

١ – إننا نقدِّم مبدأ التسليم لله وطاعته بديلا عن العلمانية .

٢ – ونقدم مبدأ الإنسانية العالمية بديلا عن القومية المحدودة الضيقة .

٣ – ونقدم مبدأ سيادة الله وخلافة المؤمنين بديلا عن مبدأ سيادة الشعب أو حاكمية الجماهير .

ولنستعرض فيما يلى هذه المبادئ الثلاثة واحداً واحداً .

مبدأ التسليم :

إننا فى ظل هذا المبدأ نؤمن ونعتقد بأن الله هو خالقنا وسيدنا وحاكمنا ، وخالق العالم وسيده وحاكمه ، فينبغى أن نقيم حياتنا وفق أوامره وتشريعاته ، إذ لا غنى لنا عنها ، لا فى نطاق حياتنا الفردية ، ولا فى كل مظاهر حياتنا الاجتماعية بكافة صورها ، ونعنى بذلك : أن تكون كل ناحية من حياتنا الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وأن تكون مؤسساتنا الثقافية والاقتصادية ، وأن تكون مؤسساتنا التعليمية والتربوية ، وأن تكون أوضاعنا القانونية ومحاكمنا وأجهزة حكومتنا وأن تكون سياستنا فى نشوب الحرب أو تقرير الصلح أو العلاقات الدولية وفق المبادئ والحدود التى شرعها الله للناس ، فيجب علينا أن لا نمارس حرياتنا إلا فى نطاق الأسس والضوابط المشروعة التى بينها الله لنا ، ولا ينبغى أن نبدلها أو نبطلها بل علينا أن تكون أنظمتنا وفق منطوقها وبوحى من جوهرها وروحها .

مبدأ العالمية :

وهذا المبدأ يعنى أن نظام الحياة القائم على مبدأ التسليم لإرادة الخالق والخضوع له لا ينبغى أن يكون فى داخله تمييز بين أفراد أمته بالجنس أو الأرض أو اللون أو اللغة ولا أن تبرز فى ظله أدواء الأنانية والكبرياء والاستعلاء والعصبيات القومية العمياء ، تلك التى تبرز فى ظل القومية المقيتة .

وهذا النظام يجب أن يكون فكريًّا عقائديا[١] قائما على مبادئ ثابتة معينة وقيم صحيحة لا على مبادئ قومية ، وأن تفتح أبواب هذا النظام لكل من يتقبل هذه

---

(١) قد يظن بعض الناس أن الدولة الفكرية العقائدية من سمات العصر الحديث ، ولم يعرف التاريخ دولة فكرية تقوم حدودها على العقيدة كدولة الإسلام ، التى تجعل العقيدة الإسلامية وطن المسلم وجنسيته ، كما أشار الأستاذ المودودى ، وهى التى تمايز اصطلاحها بدار السلام ودار الحرب ، فدار الإسلام هى وطن العقيدة ، ودار الحرب هى وطن من خالفها وحاربها ، وروى أنه قيل لسلمان رضى الله عنه وهو يُقَسِّم غنائم الفرس : أتفعل هذا بملك آبائك وأجدادك؟ فقال : أنا لست من أبناء الفرس ، وإنما أنا ابن الإسلام .

المبادئ ويعتنقها ويكون مستعدا وقادرا على المشاركة فى تنفيذها على قدم المساواة المطلقة فى الحقوق دون تمييز ، وألاَّ نحصر المواطنة (Citizenship) فى ظل هذا النظام بحوافز جغرافية أو طبيعية بل تشمل كل شخص يؤمن بأسسها العقائدية .

والأفراد الذين لا يرضون عن هذه المبادئ ولا يستعدون لقبولها لسببٍ مَا لا ينبغى إبادتهم أو الضغط عليهم بوجه من الوجوه[1] بل يحتفظ هذا النظام بكيانهم تحت مبـــدأ الصيانة (Security) ويعطى لهم الحرية فى ممارسة حقوقهم المقررة ، وتُهَيَّأُ لهم الفرصة المواتية ليكونوا أعضاء موجِّهين يشاركون سائر المواطنين فى الحقوق على قدم المساواة بمحض رغبتهم وإرادتهم الحرة وقناعتهم بصحة المبادئ التى يقوم عليها هذا النظام .

إن هذا النظام الذى لا يحد بأرض أو جنس أو لغة أو لون ، القائم على مبدأ الإنسانية العالمية[2] لا ينافى القومية بمعنى حنين الإنسان إلى قومه وإن قصرها على حدودها القطرية ، كما لا ينافى القومية القائمة على حب الوطن والعمل فى سبيل إسعاده ورقيه دون مساس بمصالح الآخرين : مشاعرهم وحقوقهم ، ويؤمن بالاستقلال القومى الذى لا يرغم الإنسان على الاحتجاز فى مناطق ضيقة من أقطار الأرض يصعب اجتيازها والخروج منها إلى الأفق الإنسانى العام ، وينكر سيطرة شعب على شعب بدافع من الأنانية والاستعلاء والأثرة ، فمن مطالب مبدأ الإنسانية العالمية أن يتولى كل شعب أمره بنفسه بكل حرية واستقلال ولا يخضع لشعب آخر ، بيد أن جميع الشعوب المتفقة على المبادئ الأساسية للحـــضارة البشرية يجب أن تتـــكاتف وتتســـاند على العمل فى إسعاد البشرية ورفاهيتها ، وأن يسودها التعاون لا التنافس (Emulation) وأن تستأصل منها النعرات العنصرية والعصبيات الجنسية ، وأن يتم بينها تبادل مقومات الحياة ومعطيات الحضارة والمدنية فى جوٍّ من الحرية والتكريم .

إن كل فرد من الأفراد يعيش فى مثل هذا النظام الفكرى المهذب يكون مواطنا عالمى الفكرة إنسانى النزعة . يعتبر كل قطر أو مكان يعتنق فكرته موطنا له ومسكنا حتى يمكنه أن يعلن بكل تأكيد ما عبر عنه الشاعر الإسلامى الدكتور محمد إقبال :

« كل البلاد موطنى لأنها بلاد ربى »

والمواطن فى ظل هذا النظام يتمتع

(١) هذا الكلام لا ينطبق إلا على أهل الذمة خاصة إلى انتهاء عهدهم أو ما أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، ولعل هذا هو مقصود الأستاذ المودودى .

(٢) (Cosmopolitan)

بحقوق وحريات لا تتوفر للمواطن فى ظل القوميات القائمة على وضع حدود وعراقيل عبر أراضيها ، وتنظر إلى الغريب نظرتها إلى لص أو مشبوه تراقب حركاته وسكناته ، ويعيش فى جوٍّ بوليسى رهيب يتعرض فيه للتفتيش والاستجواب ، وتفرض القيود على قلمه ولسانه وخطواته ، ويحرم من الحريات والحقوق الأساسية . فكيف يقال بعد هذا إن القوميات تصلح للحياة فى ظلها ! ؟

وإزاء ذلك فإننا نريد نظاماً عالميا ائتلافيا يقوم على وحدة المبادئ ، ويسير فيه المواطنون على نهج المواطنة المشتركة (Cosmopolitan) ينتقل كل واحد من بلد إلى بلد بدون قيد أو شرط ، وعلى هذا فنحن نتمنى أن يعود علينا عهد كعهد ابن بطوطة الذى سافر فيه من شاطئ المحيط الأطلسى إلى شاطئ البحر الهادى ولم يعتبر فى أى قطر مرّ به أجنبيا (Foreigner) بل واتته الفرص حيثما حل لأن يصبح قاضيا أو وزيرا أو سفيرا ، ولم يراقب فى حركاته وسكناته ، ولم يسأله أحد عن هويته أو جنسيته أو مهنته أو وطنه .

مبدأ سيادة الإله :

وخذوا الآن المبدأ الثالث : نحن نؤمن بنيابة الشعب أو استخلافه فى ظل سيادة الله بديلا عن حاكمية الجماهير ، لأننا نعارض سيادة فرد أو أفراد أو طبقة سيادةً مطلقة تستأثر بالسلطة أكثر من معارضة المتحمسين للديمقراطية الغربية ، ونؤكد المساواة فى الحقوق وتكافؤ الفرص أكثر من تأكيد أنصارها . ونحارب كل نظام يكبت الحريات فلا يبيح حرية التعبير أو التجمع أو العمل . أو يضع العراقيل فى سبيل بعض الأفراد لاختلافهم فى الجنس أو الطبقة أو أصل الولادة بينما يعطى الآخرين حقوقا وامتيازات خاصة .

فإذا كانت الديمقراطية الغربية تعتبر هذه الأمور جوهرها (Essence) وروحها فإنه لا خلاف بينها وبين ديمقراطيتنا الإسلامية التى عرفها المسلمون خلال تاريخهم ؛ بل أعطوا تفسيرات عملية لها ونماذج صالحة منذ قرون مضت قبل أن تولد الديمقراطية الغربية .

وإنما تختلف ديمقراطيتنا الإسلامية العريقة عن الديمقراطية الغربية الناشئة ، فى أن الأخيرة تتبنى مبدأ سيادة الجماهير المطلقة من كل قيد سوى ما تضعه الجماهير لأنفسها ونحن نعتبر هذا المبدأ باطلا فى حقيقته ، يجر إلى العواقب الوخيمة الهدامة ؛ لأن الذى عليه واقع الأمر فى هذا الكون هو أن حق السيادة (Sovereignty) لله وحده الذى خلق البشر ، ويسّر لهم أمور حياتهم

ومعاشهم ، ناصية الخلائق بيده ، وشؤون العوالم كلها فى قبضته وأى ادعاء بالسلطة والسيادة ضمن نطاق سيادة الله وسيطرته فهو ادعاء باطل سخيف غير ذى موضوع ، وما ينجم عنه من آثار سيئة يقع على المدَّعين أنفسهم الذين تجاوزوا مكانهم الحقيقى ووضْعهم الصحيح ، سواء كان هذا الادعاء من شخص أو طبقة ، أو كان مما يسمونه بالجماهير.

ولا يصح إزاء هذه الحقيقة الناصعة إلا أن نؤمن بحاكمية الله تعالى ، ونقيم نظام حكمنا على فكرة الاستخلاف أو النيابة . وهى نيابة ديمقراطية فى جوهرها وروحها . يتم فيها انتخاب الخليفة أو الرئيس أو الأمير وفق رأى الجماهير وبإرادتهم الحرة كما يتم فيها انتخاب أهل الحل والعقد والشورى كذلك ، وهم الذين لهم الحق المطلق فى نقد تصرفات الحكام ومحاسبتهم .

وينبغى أن يتوفر الشعور بأن الأرض لله تعالى ، وهو مالكها الحقيقى دون الناس وإنما نحن البشر خلفاء الله فى أرضه[1] نعمل بأمره ، وننفذ ما شرعه للناس ،

---

(١) ذكر الأستاذ المودودى فى هذا الفصل العبارات الآتية :

استخلاف الشعب . نحن البشر خلفاء الله فى أرضه ، انتخاب الخليفة أو الرئيس أو الأمير وفق رأى الجماهير وبإرادتهم الحرة ، وإزاء هذا فإننا نضع أمام القارئ الأمور التالية :

١ – الخلافة : مصدر خلف ، يقال : خلفه خلافة ، أى كان خليفته وبقى بعده ، والخلافة فى الاصطلاح : هى رياسة عامة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن النبى ﷺ ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : « الخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية والراجعة إليها . إن أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة . فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا » .

وبهذا يتبين أن الخليفة يجمع بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية على خلاف ما كان فى الغرب فى العصور الوسطى . حيث فرقوا بين السلطة الزمنية – وهى للحاكم السياسى – والسلطة الروحية – وهى للبابا – الذى يعتبر « قسيساً أعظم » يستطيع أن يغفر خطايا المذنبين وهو المرجع الأعلى فى الأمور الدينية .

٢ – واختلف العلماء فى تسمية الإمام بـ « خليفة الله » ، فأجازه بعضهم مستدلاً بقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) ومنع ذلك الجمهور ، وقالوا : يستخلف من يغيب أو يموت ، والله لا يغيب ولا يموت ، وقد قيل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، يا خليفة الله فقال : لست بخليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله ﷺ ، ومعنى قوله (خلائف الأرض) تخلفون من قبلكم فيها .

٣ – يذكر العلماء أن الإمامة تنعقد بأحد أمرين :

(ا) اختيار أهل الحلّ والعقد ، والشروط المعتبرة فيها ثلاثة :

١ – العدالة . ٢ – العلم الذى يُتَوَصَّل به إلى معرفة من يستحق الإمامة . ٣ – أن يكون من أهل الرأى=

وسوف يحاسبنا عن كل عمل نقوم به . خيرا كان أو شرا .

هذا وإن المبادئ الخلقية والأحكام القانونية والحدود المفروضة التى شرعها الله لنا ثابتة دائمة لا تقبل التغيير أو التبديل ، ومبدأ نيابة الشعب واستخلافه لا يبيح لمجالس الشورى أو البرلمانات أن تسن نظاما أو تصدر حكما فيما ورد فيه نص صريح واضح فى شريعة الله ، وإنما يوجب عليها أن تستمد جميع قوانينها وأنظمتها من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وأن تقف عند النص الوارد فى ذلك .

أما مالم يرد فيه نص شرعى – وهو المجال الأوسع فلأهل الحل والعقد أن يجتهدوا فى سن الأنظمة التى تحقق مصلحة الأمة بالمشورة المتبادلة ، إلا أنها يجب أن تكون منسجمة مع الإطار العام لأسس الشريعة الإلهية وتوجيهاتها ، وأن تكون متفقة فى نصها وروحها مع القواعد الشرعية الثابتة التى وصّى الله بها .

ولهذا كان من الضرورى أن تستند إدارة هذه الأنظمة سياسية كانت أو ثقافية أو اقتصادية إلى أناس يخشون الله فى كل أمورهم ويطيعونه ويسعون فى سبيل مرضاته فى السر والعلن ، تشهد حياتهم العملية بإيمانهم اليقينى وقناعتهم التامة وشعورهم الكامل بقيامهم لرب العالمين ، ومسؤوليتهم أمامه « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . ويعكس سلوكهم الشخصى والاجتماعى صورة تؤكد ارتباطهم الربانى بشرع الله ، وتقيد اجتهادهم بحدود مبادئه ، وليسوا كالخيل الجامحة التى تجاوز كل حمى محظور وتتعدى حدوده .

هذه المبادئ الثلاثة التى أجملت فيها القول تهدف إلى إقامة خلافة إنسانية خاضعة لله تحلّ محل السيادة القومية العلمانية الديمقراطية التى تقوم عليها مدنية الغرب وقد وضعنا العمل لإقامة هذه الخلافة نصب أعيننا ، وتستطيعون الآن أن تعرفوا بدون عناء ما فى هذين النظامين من اختلاف واضح وبون شاسع ، وتقرروا : أى النظامين أصلح وأفضل لحل مشكلات الجنس البشرى والأخذ بيده إلى شاطئ السعادة والرخاء وبر الأمان ؟ وأى النظامين أحق بأن تقوموا لتحقيقه وتبذلوا كل غال ورخيص فى رفع لوائه .

= والتدبير المؤدين إلى اختيار من هو للإمامة أصلح .

(ب) عهد الإمام من قبل ، فقد عهد أبو بكر إلى عمر رضى الله عنهما وعهد عمر إلى أهل الشورى والسنة .

كلمة للمسلمين :

وإنى أقول للمسلمين بصراحة إن الديمقراطية القومية العلمانية تعارض ما تعتنقونه من دين وعقيدة ، وإذا استسلمتم لها فكأنكم تركتم كتاب الله وراء ظهوركم ، وإذا ساهمتم فى إقامتها أو إبقائها فستكونون بذلك قد خنتم رسولكم الذى أرسله الله إليكم . وإذا قمتم لرفع لوائها فكأنكم رفعتم لواء العصيان لله ربكم .

إن الإسلام الذى تؤمنون به . وتُسَمُّونَ أنفسكم « مسلمين » على أساسه يختلف عن هذا النظام الممقوت اختلافا بَيِّناً . ويقاوم روحه ويحارب مبادئه الأساسية بل يحارب كل جزء من أجزائه ، ولا انسجام بينهما فى أمرٍ مهما كان تافها ، لأنهما على طرفى نقيض .

فحيث يوجد هذا النظام فإننا لا نعتبر الإسلام موجودا ، وحيث وجود الإسلام فلا مكان لهذا النظام .

وإذا كنتم توقنون بالإسلام الذى نزل به القرآن وبعث به محمد ﷺ فإنه يجب عليكم مقاومة الديمقراطية القومية العلمانية . والمبادرة إلى إقامة الخلافة الإلهية القائمة على عبادة الله أينما كنتم ، وحيثما حللتم ، لا سيما فى القطر الذى بيدكم سيادته ، أما إذا أصبحتم أنتم القائمين بهذا النظام الذى يكفر بالله ورسله فليس لنا إلا أن نبكى ونتأوه على إسلامكم المشبوه ، وادعائكم الكاذب له بملء الفم ! ؟

وأقول وأنا بصدد شرح نظام الحياة الإسلامى – مخاطبا إخوانى المسلمين : إن بعض المنتسبين إلى الدين يوهمون الناس فى هذا السبيل – ولعلهم أنفسهم مخدوعين – فيقول لهم : إن السيادة أو الحكومة إنما هى جائزة من الله ، يمنحها من يصلّى ويصوم ويعمل عملا صالحا ، أما السعى فى الحصول عليها وجعلها هدفا وغاية فأمر دنيوى دنىء يخالف الإسلام كل المخالفة ، وهذا القول لا يصدر إلا عن الذين لم يفهموا حقيقة الإسلام ، بل أقول بصراحة – معتذرا إليهم – إنهم لا يعتزمون فهم حقيقة دينهم لأن هذا يعنى تعكير صفو حياتهم ورغد عيشهم الذى يتمتعون به أو يطمعون فيه فى ظل سيادة النظام العلمانى الحاضر . فهم لا ينظرون إلى القضية إلا من ناحية القيام بما أوجبه الله عليهم – فإنها تغيب عن أذهانهم .

ولا شك أن قيام الخلافة الإلهية فى الدنيا نعمة من نعم الله تعالى ينعم بها على عباده ، بيد أن السعى لإقامتها كذلك واجب دينى محتوم ، حتى يحلّ النظام الصحيح الحق محل سيادة الشيطان ، هذا النظام الذى يزدهر فيه المعروف ، ويذبل المنكر .

كلمة لغير المسلمين :

أمّا غير المسلمين[1] فأنصح لهم نصح الأمين : أن لا يضعوا على قلوبهم أقفال العداء والعصبية التى احتلت الأذهان والعقول بسبب ما جرى فى التاريخ بالماضى وما يجرى اليوم من صراع عنيف بينهم وبين المسلمين .

إن المبادئ والمعتقدات ليست ميراثا خاصا لأمة من الأمم وحكرا عليها ، ولا تحمل طابع قومية بعينها من القوميات ، وإذا ما أثبتت فكرة أو عقيدة صلاحها فهى للناس جميعا دون تمييز ، وإذا ما تبين خطؤها فهى خاطئة بالنسبة للناس جميعا كذلك ، بغض النظر عن الشخص الذى قدمها ، أو اللغة التى عبر عنها .

وأقول على سبيل المثال : إنه لا ينشأ أبدا فى قواعد الصحة ومبادئ الطب والاقتصاد والصناعة والزراعة والعلوم وما إلى ذلك من الفنون والنظم عما إذا كانت تنتمى إلى شعب (فلان) أو بلد (علاّن) أم لا ؟ ، أو من أى بلد تأتى ؟ فمن استمسك بالعصبية القومية أو الوطنية فى قبول هذه القواعد والمبادئ أو رفضها فإنه لا يضر إلا نفسه ، وهذا المنطق نفسه ينطبق على مبادئ الأخلاق والمدنية والاجتماع والحضارة والاقتصاد والسياسة ، فذلك كله من المبادئ التى لا يملكها شعب دون شعب أو جنس دون جنس . ولا يجوز الحكم بقبولها أو رفضها إلا بمقياس ما تحمله فى ذاتها من حَسَنٍ أو قبيح . .

وإنكم إذا اخترتم من قواعد الحياة أحسنها فلا تسدون بذلك جميلا على أحد سواكم ، وإذا استمسكتم بقواعد منحرفة فلا تجنون إلا على أنفسكم .

ومن المشاهد المعلوم أنكم لا تتعصبون فيما يتعلق بالمبادئ الأخرى التى تروج اليوم فى دنيا الناس ، وهذه الديمقراطية القومية العلمانية لم تأتكم إلا من شعب إنكليزى حكم بلادكم وأذل عنقكم بكل وسائل العنف والإرهاب طيلة مائتى سنة فلماذا لم تبدوا أية عصبية بشأن الديمقراطية العلمانية ؟ ولم تقولوا : إنها بنت أفكار شعب اضطهدنا وداس حرياتنا ؟ وهاكم نظم الاشتراكية والشيوعية التى يندفع وراءها قوم منكم بسرعة مخيفة ، وهى إنما تنبعث من عقلية يهودية : عقلية ماركس ، واحتضنتها روسيا ، فهل لكم أدنى قرابة بهؤلاء القوم ؟ وإذا لم يكن لكم قرابة بهم فلماذا لم تعتبروها

(١) ألقى الأستاذ المودودى هذا الخطاب قبل تقسيم البلاد ، حينما كان المسلمون وغير المسلمين يعيشون جنباً إلى جنب ، وكانت الاضطرابات الطائفية على أوجها بسبب السياسة الخاطئة التى تبناها بعض قادة الحركات الاستقلالية آنذاك (المترجم) .

أجنبية ؟ وإذا كنتم نسيتم كل عصبية فى هذه المبادئ وأحببتم أن تنظروا إليها نظرة المحايد الباحث عن الحق فلا مبرر لأن يأخذ الشعب إلى قلوبكم سبيله فيما تقدم لكم من أسس وقواعد ، لا لشيء إلا لأننا ننتمي إلى شعب تشتكون منه فى بعض تصرفاته فى التاريخ القديم ، أو نشب اليوم صراع بينكم وبينه .

ولا ريب أن العالم سيظل فى محنة يعانى منها الويلات والمآسى ويتردى فى مهاوى الرذيلة وظلماتها حتى يقضى الله له أن يستنير بنور هديه ، ويعتنق مبادئ الحق التى تصون الحقوق الإنسانية ، وعندئذ تصفو سماؤه ويزول منها القلق والاضطراب ، وتسطع عليه أنوار الراحة والهناءة والسلام .

المروءة

هِيَ اجْتِنَابُ الرِّيَبِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبُلُ مُرِيبٌ ، وَإِصْلَاحُ الْمَالِ ، فَلَا مُرُوءَةَ لِمُحْتَاجٍ ، وَالْقِيَامُ بِحَوَائِجِ الْأَهْلِ ، فَلَا مُرُوءَةَ لِمَنْ يَحْتَاجُ قَوْمُهُ إِلَى غَيْرِهِ . .

عمرو بن العاص

الشورى أصل من أصول الحكم

الأستاذ / أحمد حسين

في هذا الوقت الذى ينهض فيه المسلمون من كبوتهم ، وينشطون فى شتى الميادين تحت نظر الدنيا وسمعها فقد حان الوقت الذى يتقدم فيه المسلمون لحضارة الإنسانية بالعطاء ، ولطالما نبهت إلى أن ما أسموه بالحضارة الأوربية ما هو إلا امتداد لما اقتبسوه من الحضارة الإسلامية ، وطالما مثلت لذلك بما نادت به الثورة الفرنسية التى تعتبر انطلاقة أوربا فى العصر الحديث ، من « حرية وإخاء ومساواة » فليس ذلك إلاّ أساس التعاليم التى جاء بها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا .

يقول القرآن الكريم « إنّما المؤمنون إخوة » والقرآن كله قائم على حرية الإنسان مما لخصه سيدنا عمر بن الخطاب فى عبارته المشهورة « متى إستعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا » .

أما عن المساواة ، فلم تعرف الدنيا مساواة – ولن تعرف – كتلك التى طبّقها الإسلام بالفعل وروى عن رسول الله ﷺ قوله « المسلمون سواسية كأسنان المشط » والخلاصة أن الحضارة الأوربية عندما ازدهرت فقد كان ذلك بمبادئ وقيم إسلامية . واليوم والحضارة الغربية تتردى وتتدهور فليس ذلك إلاّ لانحرافها عن هذه المبادئ . ومهمة المسلمين أن يعودوا لقرآنهم وسنة نبيهم بحثا عما ينفعهم وينفع البشر معهم .

الحكم ونظام الشورى :

وليس شك فى أن سعادة المجتمع أو شقاوءه تقوم أول ما تقوم على نظام الحكم . ونظام الحكم فى الإسلام يقوم على دعامتين الأولى : الشريعة ، والثانية : الشورى .

وليس حديثنا اليوم عن الشريعة فلهذا مناسبة أخرى ، ولكن حديثى اليوم هو عن الدعامة الثانية من دعائم الحكم الإسلامى

وهو الشورى .

ولا يَتَصورنَّ متصور أننى سوف أفصِّل قواعد الشورى وأحكامها ، ومن هم أهل الشورى ، وكيف تتم عملية الشورى ، وما هي الحدود التي يجب أن يلتزمها الحاكم فى موضوع الشورى ؟ ! . . كل هذه أمور فى حاجة لاجتماع علماء المسلمين من مشارق الدنيا ومغاربها لتقنينها . . أى استنباطها من القرآن والسنة ، واعدادها فى مواد وقوانين . وانما سوف يقتصر مقالى هذا على تأصيل المبدأ وعرض ما جاء بصدده فى كتاب الله وسنة نبيه ، تاركا التفصيل والتفريع واستخلاص الأحكام للمتخصصين ولمن هم أقدر منى .

الشورى فى القرآن :

الشورى فى اللغة من « شرت الدابة » أى علمت خبرها وأحوالها ، ولكنها فى الاصطلاح تعنى مشاورة أهل الشورى ، أى استطلاع رأيهم . . واللفظ لم يرد فى القرآن إلا فى ثلاثة مواضع بإيجاز شديد ، ومع ذلك فهى كافية بل قاطعة فى فرض الشورى ليس فقط على الحكام ، بل على كل مؤمن فيما يعرض له من قضايا . . وإليك هذه المواضع الثلاثة :

– « وأمرهم شورى بينهم » (سورة الشورى الآية ٣٨)

– « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » (سورة آل عمران الآية ١٥٩)

– « فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما » (سورة البقرة الآية ٢٣٣)

وأمرهم شورى بينهم :

فأما عن الآية الأولى « وأمرهم شورى بينهم » فهى فى سورة الشورى ، وهى سورة مكية . . أى أنها نزلت فى مكة قبل الهجرة ، والمسلمون مستضعفون فى الأرض أبعد ما يكون عن أن تكون لهم دولة ، وقد وردت الآية فى معرض وصف المؤمنين بأن « أمرهم شورى بينهم » فدل ذلك على أن التشاور صفة من صفات المؤمنين . . قال رسول الله ﷺ :

« لا ندم من استشار » . . ذلك أن المؤمن عندما يستطلع رأى من هم أهل للشورى من ذوى قرباه ، أو من أهل الخبرة ، أو من أهل الثقة ، فهو يستفيد بحصيلة كل هؤلاء من التجارب والعلم . . وفى هذا من الفائدة ما فيه . . ولما كان الله سبحانه يريد للمؤمنين القوة والعزة والنجاح والفلاح فقد وضع أيديهم على أحد أسرار بلوغ هذه الغاية ، وهى التشاور ، فجعلها صفة أصيلة من صفات المؤمنين .

وشاورهم فى الأمر :

على أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعمق وجوب الاستشارة فى نفوس المؤمنين فاختار لذلك أقوى صيغة يمكن أن تطوف بالذهن ، وقوة الصيغة لا تنبع من كونها وردت فى صيغة الأمر الصادر لرسول الله ، بقدر ما تنبع من الظرف والمناسبة التى نزل بسببها هذا الأمر ، فحيث يتصور البشر أنّ الموقف يملى على رسول الله أن ينصرف عن الشورى ويزهد فيها .. إذا بهذه الآية الكريمة تأمرة أمرا بهذه المشاورة ، فقد نزل هذا الأمر الإلهى لسيدنا محمد ﷺ فى أثر ما أصاب المسلمين فى غزوة أُحُد ، وقد كان المسلمون قد فقدوا النظر الذى أتاحه الله لهم بسبب عصيان البعض لأوامر سيدنا محمد ، بل إن الخروج (ابتداءً) لمقابلة المشركين خارج المدينة كان على خلاف رأى سيدنا محمد ﷺ .. وهكذا تضافر عديد من العناصر لصرف سيدنا محمد عن الشورى والنزول على مقتضياتها .. وهذه العناصر هى :

أولا : إذا كان يمكن أن يوجد فى الدنيا مذ خلقها الله إنسان واحد من حقه أن يستقل برأيه فهذا الإنسان هو سيدنا محمد .. فلم تعرف الإنسانية له مثيلا فى كماله وعظمته وقد قرر القرآن عنه أنه « لا ينطق عن الهوى ٥٣ : ٣ » .

ثانيا : عندما جاء المدينة الخبر بأن مشركى قريش فى طريقهم إليها .. كان من رأى رسول الله الانتظار فى المدينة ، ولكن الأغلبية أشارت بالخروج لملاقاة العدو ، فنزل رسول الله ﷺ عند رأيهم الذى يخالف رأيه .. وكان هذا الذى كان ..

ثالثا : كان التطور الذى حدث فى غزوة « أُحُد » بحيث حولها من نصر إلى هزيمة هو النتيجة المباشرة لعصيان أوامر الرسول كما قدمنا ، ومع ذلك فإن الوحى ينزل عليه آمرا إياه بأن يعفو عنهم وأن يستغفر لهم .. ثم يزيد على ذلك فيأمره بالتشاور معهم ، فدلّ ذلك على أن الشورى لازمة ، لازمة لا سبيل للتحلل منها تحت أى ظرف من الظروف ، وإذا كان الأمر يصدر لسيد الخلق وهو من هو ، فكم بالأحرى يكون الحال بالنسبة لمن هم دونه .

عن تراض منهما وتشاور :

لا يفرق الإسلام بين مسلم ومسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ومن هنا لم يفرض الإسلام الشورى على الحاكم فحسب ، وإنما جعلها صفة من صفات المؤمن ، وهو هنا يذكرنا بإحدى صور التشاور فليس لأحد الأبوين أن يستقل برأيه فى موضوع « فطام الطفل » فى بعض

الأحوال ، فلا مناص أن يتمَ ذلك من خلال « التشاور » .

الشورى فى السُّنَّة النبوية :

وكانت السنة النبوية هى الشارحة والمبيِّنة لما أجمل القرآن . واستشارة النبى صلوات الله عليه وسلامه فى الحروب مشهورة . . فاستشار فى غزوة بدر ، وفى أحد ، ولكن غير المشهور أن رسول الله ﷺ قد استشار حتى فى خصوصياته ، والتاريخ يحدثنا عن أصل الخلاف بين السيدة عائشة وسيدنا على بن أبى طالب يرجع إلى رأى أبداه سيدنا علىّ فى حادث الإفك ، عندما استشاره رسول الله .

الشورى بعد وفاة رسول الله :

والسُّنَّة النبوية كما تكون قولية فهى أيضا فعلية ، أى تقوم على فعل الرسول وعمله ، والعمل كما يكون بالإيجاب فإنه يكون بالسلب . كأن يسكت رسول الله ﷺ عن عمل يقع أمامه . فيعتبر هذا السكوت بمناسبة إجازه ، ومن الواضح بل من المحقق أنه بمجرد مرض رسول الله مرضه الأخير ، لم يدع رسول الله شكاً فى أن يخلفه أبو بكر . فراح يومئ إلى ذلك بإيماءات متعددة كأن يأمر صحابته أن يسدوا جميعا أبوابهم المفتوحة على المسجد فيما عدا « خوخة أبى بكر » وهو الاسم الذى كان يطلق على هذه الأبواب . فقد استثناها رسول الله من هذا القرار .

يصلى وراءه :

على أن الأمر الذى لم يكن يحتمل أى شك فى رغبة سيدنا محمد ﷺ فى أن يخلفه سيدنا أبو بكر كان عندما أمر أن يصلى أبو بكر بالناس فتصورت السيدة عائشة أنه يطلب واحداً من صاحبيه « أبى بكر وعمر » ، فطلبت من عمر أن يصلِّى بالناس ، فلما سمع رسول الله صوت عمر غضب غضبا شديداً وأصر على طلبه أن يكون أبو بكر هو الذى يصلى بالناس ، وعندما شرع أبو بكر فى الصلاة دخل رسول الله المسجد ، فتصور أبو بكر أنه أصبح من الواجب عليه أن يتنحى . . ولكن رسول الله أشار إليه أن يواصل الصلاة . . وصلى رسول الله خلفه . . ونحسب أنَّ ليس وراء ذلك إشارة إلى مكانة سيدنا أبى بكر عند رسول الله . . ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ لم يشأ أن يأمر أصحابه بأن يكون الخليفة من بعده هو أبو بكر . . وهو لو قال لأطاعوه ما تخلف منهم رجل واحد . . ولكن هكذا شاءت إرادة الله . . والتزم بها سيدنا محمد أن يكون الأمر (شورى بينهم) .

ثلاث صور :

وعلى ذلك فقد توافرت لنا ثلاث صور من الشورى لاختيار الحاكم فى عهد الخلفاء الراشدين . . أما الصورة الأولى فما جرى يوم السقيفة حيث بايع زعماء المهاجرين والأنصار سيدنا أبا بكر . . فكان ذلك بمثابة ترشيح وافقت عليه عامة المسلمين .

أما الصورة الثانية فصورة ما فعله أبو بكر حيث راح يتشاور مع أئمة الصحابة فيمن يخلفه . . فاستقر الرأى على أن يخلفه عمر . . . أما الصورة الثالثة فعندما فوض عمر بن الخطاب لبضع نفر من زعماء الصحابة أن يختاروا الخليفة منهم . . وغنى عن البيان أن هذه الإجراءات كانت تتم على مسمع صحابة رسول الله ، فكانوا يقرونها . . وكان ولى الأمر بمجرد أن يلى الأمر يشاور فى كل أموره ، ولا عجب فى ذلك فهم تلامذة رسول الله . . وعندهم القرآن قبل ذلك وفوق ذلك – يأمرهم بالشورى .

تجربة السعودية فى الشورى :

وعندى أنه للسعودية اليوم دور رائد وتجربة حية فى قضية الشورى . . وإن أنس لست أنسى كيف يطلق على مؤسس هذه الدولة ، وأعنى به عبد العزيز آل سعود ، كان يطلق عليه اسم الشيخ . . وفى ذلك إشارة إلى أن مجلسه كان يضم أهل الشورى من الشيوخ . . ثم كان للملكة مجلس للشورى . . وكل هذه أمور ينبغى على علماء المسلمين أن يجتمعوا ليستعرضوها ويدرسوها فيما يدرسون ، والأمر المحقق أن الشريعة الإسلامية قد قررت المبدأ الأساسى وهو « الشورى » تاركة التفاصيل لجماعة المسلمين ، ولا مانع من الاستفادة بتجارب الأمم إذا ما كانت تحقق المصلحة ، وقد قيل كل ما يحقق مصلحة (عند غياب النص بطبيعة الحال) فهو من الشرع ، شريطة أن يظل داخل الإطار الإسلامى .

نسأل الله التوفيق والسداد .

أحمد حسين .

حول تقسيط

الضريبة المعاشية بالفوائد

فضيلة الشيخ على البولاقى

(سأل) بعض عمال اليومية بالسكة الحديدية - إحدى المجلات الإسلامية السؤال الآتى :

« لعمال اليومية بالحكومة مشكلة وهى أن من يرغب فى احتساب المدة التى لم يخصم منها قيمة المعاش فعليه سداد القيمة فورا أو بالتقسيط على مدد مختلفة خمس سنوات فأكثر ، فمثلا المبلغ المطلوب مائة جنيه فورا ، وبالتقسيط مائة وثلاثون جنيها ويزيد المبلغ على هذا إذا طال الأجل . فما حكم هذه الزيادة نرجو البيان ، مع العلم بأن بعض العلماء أفتى بأن هذه الزيادة ليست من الربا » ا . هـ

(فأجابت المجلة) بما يأتى :

« يجب على من يرغب فى المعاش أن يدفع هذه المائة فورا ونقدا ولو أدى ذلك إلى أن يقترضها قرضا حسنا ، فإن لم يجد من يقرضه القرض الحسن فليكتف بما تبقى له من قيمة المعاش ، وليس بلازم أن يحرص على المعاش كاملا من طريق محفوف بالمخاطر ، والله تعالى هو الرزّاق ذو القوة المتين - ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب . . . ، « ويجعل له من أمره يسرا » أما من أفتى من العلماء بأن هذه الزيادة ليست ربا فإنى لم أقف لهم على دليل من كتاب أو سنة أو إجماع ، وعليهم بالدليل إن كان لديهم دليل ، « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » ا . هـ

أقول :

إن الحكم على معاملة من المعاملات بالحل أو الحرمة أو الشبهة متوقف على بيان صفتها التى تدخل بها فى باب الحلال أو الحرام أو الشبهة ، وكما لا يجوز الحكم بالحل بلا دليل كذلك لا يجوز الحكم بالحرمة بلا دليل ، قال تعالى « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » النحل : الآية ١١٦ .

وقد بحثت هذه المسألة بحثا دقيقا تبين لى منه أن تقسيط الضريبة المعاشية مع زيادة نسبة سنوية – لا ينطبق عليه باب من أبواب الربا التى ذكرها الفقهاء والمفسرون والمحدثون وإن كان الاقتصاديون الذين وضعوا هذه الزيادة اقتبسوها من الحساب الربوى الذى درسوه فيما يسمى بحساب الربح المئوى .

وإذا كان السيد مفتى المجلة التى أشرنا إليها قد طالب من يفتى بعدم الربا بدليل على فتواه من الكتاب أو السنة أو الإجماع فإنى أذكر له دليلا يرجع إلى الكتاب والسنة والأجماع وهو (الاستقراء) وذلك بأن نتتبع أنواع الربا الواردة فى كتاب الله تعالى وفى سنة رسول الله ﷺ ثم نقرن تقسيط الضريبة المعاشية بكل نوع من هذه الأنواع فنجده لا ينطبق عليه فنعلم أنه لا ربا فيه ، واليك البيان .

الربا الوارد فى كتاب الله تعالى نوعان : أحدهما ربا الدين وثانيهما ربا القرض ، والربا الوارد فى سنة رسول الله ﷺ ثلاثة أنواع : » أحدها ربا الفضل وهو بيع النقود بنقود من جنسها مع عدم العلم بالتماثل ، وكذا بيع مطعوم الآدمى بجنسه مع عدم العلم بالتماثل ، وثانيها – ربا اليد وهو بيع النقود بنقود ولو من غير جنسها مع عدم قبض العوضين أو أحدهما فى المجلس وكذا بيع مطعوم بمطعوم الآدمى ولو من غير جنسه مع عدم قبض العوضين أو أحدهما فى المجلس . وثالثها – ربا النساء ، وهو بيع النقود بالنقود ولو من غير جنسها مع التصريح بتأجيل القبض وكذا بيع مطعوم الآدمى بمطعوم الآدمى مع التصريح بتأجيل القبض للعوضين أو أحدهما ولو لمدة يسيرة ، والفرق بين النوعين الثانى والثالث هو أنّ النوع الثانى يتأخر فيه القبض على المجلس من غير نصٍّ على التأجيل والنوع الثالث ينص فيه على التأجيل . هذه هى أنواع الربا الخمسة ولا سادس لها فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسول الله ﷺ وإليك أمثلتها :

١ – (ربا الدين)

هذا النوع من الربا يسمى ربا الجاهلية أو ربا النسيئة ، وله أمثلة : (منها) أن يكون لإنسان على آخر دين يجب الوفاء به فى موعد ، فإذا جاء الموعد اتفق الدائن والمدين على تأجيل الدين على أن يدفع المدين شيئا زائدا ، فهذا الزائد هو ربا النسيئة سواء أكان من جنس الدين أم من غير جنسه ، وسواء أكان الدين دين بيع أو إجارة أو قرض أو غير ذلك ، وسواء أكان الدين نقودا أم قمحا أم تمرا أم غير ذلك ، وسواء أكان التأجيل إلى أجل مسمى كشهر أو سنة أم إلى أجل غير مسمى كأن يقول

المدين أجِّل الموعد على أن أعطيك كل شهر عشرة قروش ما دام الدين فى ذمتى ثم أوفيه كاملا (ومنها) أن يتعاقد اثنان على المعاملة بالدين كبيع ثياب بثمن مؤجل أوكشراء ثمر مؤجل بثمن حال ويتفقا من حين العقد على أنه إن لم يوف الدين فى موعده يزاد عليه كذا أو يزاد عليه كل شهر كذا إلى الوفاء ، (وهذان المثالان) يجمعان أمثلة كثيرة تفصيلية كما لا يخفى ، والربا فى جميع هذه الأمثلة فى مقابلة التأجيل كأنه أجرة للمنفعة كأجرة سكنى الدار ، غير أن منفعة سكنى الدار لها قيمة شرعية ومنفعة التأجيل للدين اسقطها الشارع فلم يجعل لها قيمة وحرم تقديمها ، ولا يضيرنا أن نجهل الحكمة فى هذا التحريم بل نقول كما قال الله تعالى « وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومَنْ عادَ فأولئكَ أصحاب النَّارِ هم فيها خَالِدون » البقرة – الآية ٢٧٥ . على أن الباحثين ذكروا حكمة التحريم فى بعض صور ذلك الربا وإذا حرم فيها حُرِّم فى غيرها سدًّا للذريعة وإغلاقا لباب الفساد كما فى تحريم قليل الخمر .

٢ – (ربا القرض)

هذا النوع من الربا هو الذى أشاعه اليهود وتعاملوا به مع أنفسهم ومع الأجانب ولم يبالوا بالنهى عنه ، قال تعالى « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِم طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبيلِ الله كَثيراً . وأَخْذِهِمُ الرِّبا وقَدْ نُهُوا عَنْهُ وأَكْلِهِمْ أموالَ النَّاسِ بِالباطِلِ وأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً » ١٦٠ – ١٦١ – النساء ، وفى سفر حزقيال الإصحاح الثامن عشر من فقرة ٦ إلى فقرة ١٠ « والإنسان الذى كان بارا وفعل حقا وعدلا لم يأكل على الجبال – ولم يرفع عينيه إلى أصنام بيت إسرائيل ولم ينجِّس امرأة قريبة ، ولم يقرب امرأة طامثا ، ولم يظلم إنسانا بل رَدَّ للمديون رهنه ، ولم يغتصب اغتصابا ، بل بذل خبزه للجوعان ، وكسا العريان ثوبا ، ولم يعط بالربا ، ولم يأخذ مرابحة ، وكف يده عن الجور ، وأجرى العدل الحق بين الإنسان والإنسان ، وسلك فى فرائضى ، وحفظ أحكامى ، ليعمل بالحق فهو بار » وفى سفر اللاويين إصحاح ٢٥ فقرة ٣٦ « فضتك لا تعط بالربا ، وطعامك لا تعط بالمرابحة ، أنا الرب إلهك » وفى سفر نحميا إصحاح ٥ فقرة ١٧ « هال النبى نحميا تفشى الربا بين الشعب اليهودى ، فجمعهم وطفق يوبخهم ثم أمرهم أن يردوا فى اليوم عينه كل ما أخذوه من الربا ، وختم كلامه مع الشعب اليهودى بتهديد إلهى خطير حيث نفض حجره قدامهم وقال : هكذا ينفض

الله بيت المرابى ، ثم قال أخيرا لنترك هذا الربا « وفى المزامير » المؤمن لا يعطى بربا »[1] وفى سفر التثنية بالإصحاح الثالث والعشرين « لا تقرض أخاك الإسرائيلى بربا ، ربا فضة أو ربا طعام ، أو ربا شىء مما يقرض بربا . للأجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك »[2] وهذا النص الأخير فيه تقييد تحريم الربا بالإسرائيلى دون الأجنبى وهذا من تحريفهم فقد حكى الله عز وجل عنهم أنهم يستحلون أكل أموال الأميين أى غير الإسرائيليين – افتراء على الله ، قال تعالى (وَمِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ منْ إنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إلا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِى الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ، وَيَقُولُونَ عَلَى الله الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمون » الآية ٧٥ – آل عمران

وقد شاع هذا الربا بين الناس بإشاعة اليهود له وتنظيم كل المعاملات الاقتصادية على أساسه وجعلوا ذلك فنا يدرسه الدارسون ويتقنونه ويتخرجون فيه ويؤسسون من أجله المصارف الصغيرة والكبيرة واقتدى بهم فى ذلك المسيحيون والمسلمون حتى عم أرجاء المعمورة وذلك مصداق ما رواه أبو داود وابن ماجه عن الحسن البصرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ليأتين على الناس زمان لا يبقى منهم أحد الا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره » والحسن لم يسمع من أبى هريرة ولكنه لا يروى عنه ولا عن غيره إلا ما كان صحيحا فلهذا كانت مراسيله مقبولة ، ومنها هذا الحديث الذى يكاد يكون من المعجزات فإن جميع الأموال التى فى أيدى الناس اليوم إنما أخذوها من المصارف التى تتعامل بالربا فالآخذون جميعا أصابهم غبار الربا وإن لم يقصدوا التعامل به .

ولهذا النوع من الربا أمثلة (منها) أن يقرض إنسان إنسانا ذهبا أو فضة أو تمرا أو خبزا أو بقرة أو غير ذلك – على أن يرد إليه زيادة عما اقترض سواء أكانت الزيادة من جنس ما اقترض أم لا ، كأن يقول له أقرضتك مائة جنيه على أن تردها بعد سنة مائة وعشرين ، أو أقرضتك هذه المائة على أن تعطينى فى رأس كل شهر جنيها مادام الدين فى ذمتك فإن أديته بعد ذلك أديته كاملا ، (ومنها) أن يقرضه إلى أجل معلوم ويشرط عليه أنه إذا لم يوف الموعد فعليه أن يدفعه بعد ذلك مع زيادة قدرها تسعة فى

---

(١) انظر كتاب الربا بين الاقتصاد والدين للأستاذ عز العرب فؤاد .

(٢) من مقال فضيلة الشيخ محمد أبى زهرة رحمه الله فى مجلة (المسلمون) .

المائة مثلا عن كل سنة من سنوات التأخير . ومعنى هذا أن يحسب ما يزاد عن السنة ويقسم اثنى عشر قسما ليعلم ما يؤخذ عن كل شهر أو يقسم ثلاث مائة وستين قسما ليعلم ما يؤخذ عن كل يوم من أيام التأخير.

وهذا ، المثالان يجمعان أمثلة كثيرة عند التفصيل كما لا يخفى .

(وها هنا تنبيه مهم) وهو أن ربا القرض اليهودى وربا الدين الجاهلى يجتمعان فى نوع واحد وهو الربا فى مقابلة تأجيل الدين ، فالجاهلى حينما يؤجل الدين بزيادة تكون الزيادة كأنها أجرة للإمهال أو للصبر أو للضرر الذى حاق بالدائن حيث لم يأخذ الدين فى موعده ، واليهودى حينما يقرض بشرط رد زائد فإن هذا الزائد فى مقابلة تأجيل الدين الشرعى فإن مقتضى القرض شرعا هو رد المثل ، فيكون المثل وحده دينا شرعيا ويكون الزائد زائدا على هذا الدين الشرعى فى مقابل التأجيل أو الضرر الذى حاق بالمقرض بخروج هذا المال عن يده مدة من الزمان ، فالنوعان كلاهما زيادة فى مقابلة تأجيل الدين غير أن الدين ، فى الحالة الأولى كان ثابتا ثم اتفقا على تأجيله والزيادة عليه والدين فى الحالة الثانية لم يكن ثابتا من قبل بل ثبت هو والزيادة فى وقت واحد حيث كانت العبارة هكذا : أقرضتك هذه المائة بمائة وعشرة أو أقرضتك هذه المائة على أن تردها مائة وعشرة فالشرع يفصل بين المائة والعشرة لأنه لا يبيح الزيادة على المثل فى القرض فتكون الزيادة ربا لزيادتها عن المشروع الجائز ، وبهذا تفارق البيع بالثمن المؤجل فإن صاحب الأرض مثلا لو كان يبيعها بألف جنيه حالة وبألف وثلثمائة مقسطة على مائة شهر فذهب أحد الراغبين فى الشراء وقال له بعنيها بالثمن المقسط فهذا الثمن يصير كله دينا ولا تكون الثلثمائة ربا لأن البائع ليس مكلفا شرعا بأن يبيع بمثل الثمن الحال بخلاف المقرض فإنه مكلف شرعا أن يقرض بالمثل فيكون الزائد زائدا على الدين الشرعى .

٣ – (ربا الفضل)

لهذا النوع من الربا أمثلة كثيرة (منها) بيع الذهب بالذهب مع الجهل بالمماثلة كأن يضع سوارا ذهبيا على كفه اليمنى ويضع سوارا مثله على كفه اليسرى ويقول إنهما متساويان فهذا لا يكفى بل لابد من الوزن إلا ما علم تساويه يقينا كجنيهين ذهبيين معلومى الوزن ومتساويين فى العيار (ومنها) بيع ذهب بذهب مع العلم بالتفاصيل كبيع سوار جديد بسوار قديم يزيد عنه فى الوزن (ومنها) بيع جنيه ذهبى عليه صورة جورج بجنيه ذهبى عليه صورة فيكتوريا مع عشرين قرشا ، فهذه العشرون ربا لأن الجنيهين

متساويان فى الوزن والعيار (ومنها) بيع مصوغ جديد وزنه أربعة وعشرون جراما وعياره ثمانية عشر بمصوغ قديم وزنه أربعة وعشرون جراما وعياره واحد وعشرون ، وكلاهما من الذهب فهذا ربا لأن الذهب الخالص فى المصوغ الأول هو ثمانية عشر جراما فقط والذهب الخالص فى المصوغ الثانى هو واحد وعشرون جراما فهو يزيد عنه ثلاثة جرامات وإن كان وزنهما الكلى متساويا فإن قال الصائغ أو غيره كيف أبيع الجديد بالقديم متساويا معه وكيف أبيع الصحيح بالمكسر أو المصوغ بالسبيكة مع التساوى ؟ فهذا غبن قلت له إن لم ترض بالغبن فبع ذهبك بنقود غير ذهبية ثم اشتر الذهب الآخر بنقود غير ذهبية وبهذا تحترز عن الغبن وعن الربا . وبهذا يعلم حكم ما يحدث فى الصاغة من أن امرأة تعرض على الصائغ مصوغا قديما فيطالبها بأن تدفع معه مائة قرش مثلا ويعطيها مصوغا جديدا بوزن المصوغ القديم وعياره ويقول إن القروش هى أجرة الصنعة ، فهذا ربا والواجب عليه أن يقول لها أشترى منك هذا السوار بكذا من النقود غير الذهبية ثم يبيعها السوار الآخر بنقود تزيد مائة قرش فيحذر من الربا ويأخذ أجرة صنعته (ومنها) بيع الفضة بالفضة مع الجهل فى التماثل بالوزن أو مع العلم بالتفاضل فيه على ما سبق فى أمثلة الذهب

(ومنها) بيع القمح بالقمح ، أو التمر بالتمر ، أو الشعير بالشعير ، أو الملح بالملح مع الجهل بالتماثل فى الكيل أو العلم بالتفاضل فيه ، فإن قال التاجر كيف أبيع التمر الجيد بالتمر الردىء المساوى له فى الوزن ؟ ألا يكون هذا غبنا ؟ قلنا له إن رسول الله ﷺ قد أرشد البائعين للتمر إلى ما به يزول الغبن والربا وذلك بأن يبيعوا تمرهم الجيد بدارهم ويشتروا التمر الردىء بدارهم أقل منها فيحصل لهم مقصودهم من غير ربا ومن غير غبن ، وكذا يقال فى القمح الجيد والقمح الردىء والملح الصحيح والملح المطحون ونحو ذلك من كل ما لا تسمح نفس التجار فيه بالمساواة بين العوضين كيلا ووزنا ، ولعل الحكمة فى تحريم بيع الطعام بجنسه ومتفاضلا تضييق هذا التبادل منعا للاحتكار كما يقول بعض الباحثين .

(وها هنا تنبيه مهم) وهو أن أحاديث الربا لم تنص إلا على الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح ، واختلف الفقهاء هل يقاس على هذه الستة غيرها ؟ فالظاهرية منعوا القياس ، والحنفية قاسوا على الذهب والفضة كل الموزونات كالحديد والنحاس وقاسوا على الأطعمة الأربعة كل المكيلات ولو لم تكن طعاما ، والمالكية لم يقيسوا على الذهب والفضة غيرهما وقاسوا

على الأطعمة الأربعة بقية الأطعمة القابلة للادخار كالذرة والأرز والحمص والعدس والفول والزبيب ، والشافعية لم يقيسوا على الذهب والفضة وقاسوا على الأطعمة الأربعة كل طعام للآدميين للتغذى كالذرة أو التفكه كالتفاح أو التداوى كالمصطكى والصبر والمر ، والحنابلة بعضهم ذهب مذهب الحنفية وبعهضم ذهب مذهب الشافعية (ويجب فى زماننا هذا) أن تقاس النقود الورقية على الذهب والفضة فالنقود الورقية المعتمدة فى بلد تكون جنسا واحدا كالأوراق النقدية المصرية فإذا بيعت ورقة ذات عشرة جنيهات بعشرة أوراق من ذات الجنيه فلا تفاضل وإن بيعت بأكثركان فيها ربا الفضل ، وهكذا يقال فى نقود الأردن والعراق والكويت والسعودية وليبيا فلا يجوز التفاضل فى القيمة بين نقود البلد الواحد وإنما يجوزالتفاضل بين نقود بلدين فالدينار الكويتى لو بيع بجنيهين مصريين أو جنيهين وربع أوجنيهين ونصف لم يكن فيهاربا الفضل وهكذا يقال فى سائر النقود الورقية لأنها تعتبر أثمانا كالذهب والفضة ، فلا يجوز لنا أن نجمد على ما تلقيناه عن الأئمة من أن الذهب والفضة لا يقاس عليهما غيرهما عند الشافعية والمالكية ويقاس عليهما الموزونات فقط عند الحنفية والحنابلة فلا يكون فى النقود الورقية ربا الفضل ولا اليد ولا النساء فالتحقيق هو قياسها على الذهب والفضة فى الربا كما تقاس عليها فى وجوب الزكاة إذا بلغت نصابا كما قررنا ذلك فى مقال سابق .

ولعل الحكمة فى منع بيع النقود بالنقود من جنسها إلا مع الحلول والتقابض والتماثل وبنقود من غير جنسها إلا مع الحلول والتقابض - هى التضييق فى بيع النقود بالنقود وهو المسمى بالصرف لأن من يجعلون تجارتهم خاصة بالنقود يوسوس لهم شياطين الإنس والجن أن يقرضوا الناس بالربا ، وشيوع القرض بالربا يؤدى إلى أضرار فردية واجتماعية لا تخفى .

٤ - (ربا اليد)

لهذا النوع من الربا أمثلة (منها) بيع النقود بنقود من جنسها أو من غير جنسها مع تأخير قبض العوضين أو أحدهما عن المجلس سواء أكان التأخير منصوصا عليه فى العقد أم حصل مصادفة .

وهذا المثال يجمع أمثلة كثيرة (منها) بيع الذهب بالذهب أو الذهب بالفضة أو الفضة بالفضة مع تأخير القبض كما لو أعطى إنسان فضة للصائغ ثمنا لسوار ذهبى ثم قام قبل أن يتسلم السوار ليقضى بعض حاجاته أو قام الصائغ لبعض شأنه قبل القبض فهذا ربا يجب الاحتراز عنه فإما أن يتقابضا العوضين قبل التفرق وإما أن يفسخا

عقد البيع لئلا يقعا فى الربا (ومنها) بيع مطعوم الآدمى بمطعوم الآدمى ولو من غير جنسه مع تأخير القبض للعوضين أو أحدهما عن المجلس كما لو باع قمحا بتمر وكان نموذج القمح موجودا دون باقيه فبعد انعقاد البيع ذهب لإحضاره فهذا لا يجوز فيجب فسخ البيع قبل قيامه فإذا قام وأحضر القمح وعاد تبايعا من جديد وقبض كل واحد منهما حقه قبل التفرق .

(فإن قيل) هذا تضييق على الناس وليس من شأن الشرع التضييق (قلنا) إن التضييق مقصود لكى ينصرف الناس عن مبادلة المطعوم بالمطعوم لأن شيوع هذه المبادلة يؤدى إلى الاحتكار ، ولا يخفى ما فيه من الأضرار فلينصرف الناس عن هذا التبادل ، وليبيعوا الطعام وليشتروه بالنقود .

٥ – (ربا النَّساء)

هذا النوع من الربا أمثلة (منها) بيع النقود بنقود ولو من غير جنسها وبيع المطعوم بالمطعوم ولو من غير جنسه مع التصريح فى العقد بتأجيل العوضين أو أحدهما ولو مدَّة يسيرة كأن يقول البائع بعتك هذا الجنيه بجنيه تأتينى به غدًا أو بمائة قرش تأتينى بها غدا وكأن يشترى إنسان سوارا من الصائغ بنقود فضية يأتيه بها بعد ساعة (وهذه الأنواع الثلاثة) قد تجتمع وقد يجتمع منها اثنان وقد ينفرد منها واحد (مثال اجتماع الثلاثة) أن يبيع تمرا جيدا بضعفه من التمر الردىء على أن يسلمه التمر الجيد بعد ساعة ثم يتفرقا قبل قبضه فيتحقق فى هذه المعاملة ربا الفضل لأن الردىء ضعف الجيد فى الكيل وربا اليد لأن المشترى فارق المجلس قبل القبض وربا النساء للتصريح بالتأجيل (ومثال اجتماع اثنين) أن يبيع القمح بشعير ويصرح بتأجيل تسليم القمح ساعة ثم يتفرقا قبل القبض ، فيتحقق ربا اليد للتفرق قبل القبض وربا النساء للتصريح بالتأجيل ولا يتحقق ربا الفضل لأن الطعامين ليسا من جنس واحد ، وكذلك بيع القمح بقمح لا يساويه فى الكيل مع تأخير قبض واحد منهما عن المجلس من غير نص على التأجيل فهذا يتحقق فيه ربا الفضل وربا اليد دون ربا النساء لعدم النص على التأجيل وكذلك بيع القمح بالقمح المساوى له فى الكيل مع النص على تأجيل التسليم ساعة ثم التفرق فى المجلس قبل انتهاء الساعة فهذا يتحقق فيه ربا اليد والنساء دون ربا الفضل ، وكذلك بيع القمح بقمح لا يساويه مع التصريح بتأجيل القبض ساعة ثم يحضر القمح قبل التفرق فيقبضه المشترى فيتحقق ربا الفضل لعدم التساوى فى الكيل وربا النساء للنص على التأجيل ولا يتحقق فيه ربا اليد لأنهما لم

يتفرقا قبل القبض – ولا يخفى على القارئ الكريم بقية الأمثلة .

(وها هنا تنبيه مهم) وهو أن ربا النَّساء غير ربا النسيئة لأن ربا النساء هو بيع النقود بالنقود أو المطعومات بالمطعومات مع النص على تأجيل قبض العوضين أو أحدهما وربا النسيئة هو الزيادة على الدين فى مقابلة تأجيله وهو ربا الجاهلية أو اشتراط رد زيادة على مثل المال المقترض وهو ربا القرض الذى تعامل به اليهود .

التطبيق :

بعد أن أوضحنا الأنواع الخمسة للربا وبيَّنَّا أن النوعين الأولين فى الديون والأنواع الثلاثة الأخيرة فى البيوع نستطيع أن نقارن بينها وبين تقسيط الضريبة المعاشية التى سأل عنها عمال اليومية فنقول :

(الأصل فى نظام المعاش) أن تقتطع الحكومة من المرتب الشهرى للعامل نسبة مخصومة حتى إذا بلغ سن الإحالة على التقاعد تقاضى مع تقاعده معاشا شهريا ثم تتقاضى زوجته بعد وفاته وأولاده القصر وأبواه الفقيران بعض المعاش ، وكلما كانت المدة التى اقتطعت الحكومة منها الضريبة المعاشية طويلة كان المعاش الذى يصرف بعد الإحالة على التقاعد كبيرا كما أنه يكون صغيرا إذا كانت المدة قصيرة ولهذا يحرص العامل على أداء الضريبة المعاشية عن المدة الماضية ليحصل على معاش أكبر ، وفى هذه الحالة تحسب الحكومة المبلغ الذى كان واجب الاقتطاع عن المدة السابقة ثم تطالب العامل بدفعه نقدا بلا زيادة أو يدفعه على التقسيط مع زيادة مقدارها كذا فى المائة ، ولما كانت هذه الحسبة تشبه الحسبة الربوية ظن بعض الباحثين أنها من الربا وليست هى من الربا فى قليل أوكثير فإن تقسيط المعاش لا ينطبق عليه ما عرَّفناه من ربا الفضل واليد والنساء والقرض فالحكومة لم تعقد مع العامل عقد بيع بالمفاضلة أو التأخير أو الأجل ولم تعقد معه عقد قرض بالفائدة ، فلم يبق بعد ذلك سوى ربا الدين ، فلننظر هل تقسيط الضريبة المعاشية ينطبق عليه هذا النوع من الربا أو لا ينطبق ؟ فلنقل : هل الضريبة المحسوبة عن المدة الماضية للعامل صارت دينا عليه بمجرد الطلب ؟ فيكون تقسيطها مع الزيادة من الربا ؟

والجواب : الواقع أنها لم تصر دينا عليه فإنه لما طالب بدخوله فى نظام المعاش قيل له أن مجموع الضريبة عن المدة الماضية هو مائة جنيه مثلا وإذا قسط على ستين شهرا صار مائة وثلاثين مثلا ، ولا شك أن هذا القول من الحكومة لم يلزمه بالمائة ولا بالمائة والثلاثين وإنما هو عرض للاختيار ، فإذا اختار المائة صارت دينا

عليه . وإذا لم يخترها بل اختار المائة والثلاثين ابتداء فالثلاثون لا تكون ربا . لأنها ليست زائدة على دين ثابت فى ذمة العامل وليست زائدة على دين سيثبت فى ذمته ، وإنما هى مع المائة تصير دينا واحدا بعد الاختيار (فإن قيل) إن الحاسبين الحكوميين قد اعتبروا أن العامل كان يجب عليه دفع المائة ، فالمائة فى عرفهم دين يجب دفعه فورا ، فمن لم يدفعه فورا قسط عليه بالفائدة المئوية فالفائدة وهى الثلاثون مثلا زائدة على الدين فى مقابلة تقسيطه ، وذلك هو ربا الجاهلية بعينه .

(قلنا) إن اعتبار الحكوميين أن المائة دين إنما هو اعتبار «حسابى» تخيلى فهو دين فى الألفاظ والأوراق تخيلوه ليبنوا عليه الفائدة ، والخيال غير الحقيقة .

(فإن قيل) لم لا يقاس الدين الخيالى الاعتبارى الفرضى على الدين الحقيقى فتكون الزيادة عليه من أجل التقسيط ربا ؟

(قلنا) لو كان الدين الخيالى التقديرى الفرضى ربا لامتنع البيع بالتقسيط بثمن أعلى من الثمن الفورى ، فإن التاجر يفرض أن الأرض أو السيارة أو المنزل أو الثلاجة تساوى مبلغا معينا يدفع فورا ثم يحسب للتقسيط حسبة كالحسبة الربوية فيقول إن المائة الفورية تزاد ثمانية مثلا عند التقسيط على أربعة وعشرين شهرا وتزاد ستة عشر عند التقسيط على ثمانية وأربعين شهرا ، وهلم جرا ، فإذا جاءه من يريد الشراء أعلمه أن الثمن الفورى كذا وأن الثمن المقسط أكثر منه وأنه بالخيار بين أن يشترى بأحدهما ، فإذا اختار الشراء بالثمن المقسط لم تكن الزيادة ربا لأنها ليست زائدة على دين فى ذمة المشترى وإنما هى جزء من الثمن وإن كانت زائدة على دين خيالى فرضى تقديرى. فإن التاجر إنما حسب الزيادة فى ألفاظه وفى أوراقه حسبة ربوية كما قلنا وقد أجمع العلماء على أنه يجوز البيع بالأجل والتقسيط بثمن أعلى من الثمن الفورى وأنه ليس ملزما شرعا أن يقف بالزيادة عند حد إلا أن ينهاه ولى الأمر عن الزيادة الفاحشة لأن لولى الأمر التسعير فى الفوريات والمقسط والمؤجلات تبعا للمصلحة العامة فإنه مسئول عن حاضر الرعية ومستقبلها .

وخلاصة هذا الجواب أن مجموع الضريبة المعاشية التى يحسبها الحاسبون على العامل عن المدة التى لم يطالب فيها بالدفع – إنما هو دين خيالى قدروه وفرضوه ليحسبوا ما يزاد عليه إذا قسط على ستين شهرا أو أقل أو أكثر ، فهو مثل الدين الخيالى الذى يفرضه التاجر ليحسب الزيادة عليه عند تقسيطه فكلاهما دين خيالى غير واقعى فالزيادة عليه ليست ربا وإن سميت

فائدة وحسبت بالحساب المئوى الزمنى

(فإن قيل) ان الضريبة المعاشية ليست مقابلة لسلعة فليست مثل الثمن المقسط ؟ قلنا : كلاهما دين خيالى تقديرى غير حقيق ولا تأثير لسبب الدين . وهذا واضح جدا .

(وها هنا تنبيه مهم) وهو أن التاجر لو قال لمريد الشراء أنا أبيع بكذا حالا وبكذا مقسطا فهذا ليس عقدا وإنما هو بيان للثمن الذى يرضى به ، فإذا قال له مريد الشراء اشتريته بالثمن الحال فقال التاجر قبلت ثم وجد المشترى أن التقسيط أيسر له فقال للتاجر قسط الثمن واضمم إليه الزيادة فهذا ربا الجاهلية لأن الثمن الأصلى صار دينا عليه بمجرد القبول وبهذا يعلم أن ما يفعله بائعو الأراضى وغيرها من قولهم (باع الطرف الأول أرضا مقدارها كذا وسعر المتر المربع كذا يدفع منه الربع مقدما ويقسط الباقى على مائة وعشرين شهرا بفائدة سنوية مقدارها كذا فى المائة — تقليد للكفار الذين لا يبالون بالربا — فالمشترى الذى يقبل البيع بهذه الصيغة يقع فى الربا لأنه قبل الثمن الأصلى ثم الزيادة للتقسيط فصار الثمن الأصلى هو الدين والفائدة ربا ، ولو حسب البائع الثمن الفورى ثم أخرج ربعه وزاد الفائدة على ثلاثة أرباعه وجمع الجميع فى أوراقه فكتب فى الصيغة « باع الطرف الأول للطرف الثانى أرضا مقدارها كذا من الأمتار بثمن مقداره كذا على أن يدفع الطرف الثانى من الثمن مبلغاً فورا ويقسط الباقى على مائة وعشرين شهرا فيكون مقدار القسط كذا ، فإنه يحصل على مقصوده بغير ربا ، وليس هذا الصنع من الحيل الربوية الممقوتة وإنما هو إرشاد إلى السبب المشروع الحلال الذى يغنى عن السبب الفاسد الحرام .

(فإن قيل) إن الضريبة المعاشية التى تقتطع من المرتب الشهرى للعاملين تسمى معاشا وهى تقابل المعاش الذى يأخذه المحالون على التقاعد للعجز أو المرض أو الشيخوخة فهى نقود مقابلة لنقود غير معلومة التماثل ومؤخرة التقابض فشأنها هو شأن بيع الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة مع الجهل بالتماثل ومع تأخير القبض عن المجلس ومع العلم بالأجل كأنه منصوص لأن المعاش المقتطع يكون قبل الإحالة على التقاعد والمعاش المأخوذ فى مقابلته إنما يكون بعد التقاعد فهو ربا جامع بين ربا الفضل وربا اليد وربا النساء فكيف تزعمون أن تقسيطه ليس ربا ؟

(قلنا) لو كانت هذه المقابلة بين المعاش المقتطع والمعاش المأخوذ مقابلة بيع أو مقابلة قرض لكان أصل نظام المعاش فاسدا من حيث الربا والغرر ولكن السيد مفتى المجلة التى أشرنا إليها قد أفتى بأن يدفع

العامل المائة المطلوبة فورا ولا يقسطها مع زيادة الثلاثين ، وهذا الإفتاء صريح فى إباحة أصل نظام المعاش مع ما فيه من مقابلة نقود بنقود مؤجلة عنها مع عدم العلم بالتماثل .

(والواقع) أن المقابلة بينهما ليست مقابلة مثمن وثمن ولا مقابلة قرض ووفاء بالمعنى الاصطلاحى بل بالمعنى المجازى كما فى قوله تعالى « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » التوبة — الآية ١١١ وقوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم) » الحديد الآية ١١ فالجهاد بالنفس والمال مقابل للجنة مقابلة الإحسان بالجزاء الأوفى فشبه الإحسان بالمثمن وشبهت الجنة بالثمن وكذلك شبه العمل الصالح بالقرض الحسن وشبه جزاؤه المضاعف بالوفاء للدين مع التضعيف . ولو كانت المقابلة فى الآية الأولى مقابلة مثمن بثمن حقيقيين لكان فيها ربا النَّساء ، ولو كانت المقابلة فى الآية الثانية بين قرض حقيقى ووفائه المضاعف لكان قرضا بالربا المضاعف وهو أشد أنواع الربا تحريما .

(فإن قيل) إذا لم تكن المقابلة بين المعاش والمعاش مقابلة بين مثمن وثمن ولا بين قرض ووفاء فماذا تكون ؟

(قلنا) إنها مقابلة إعانة بإعانة . فإن ولى الأمر راع ومسئول عن رعيته حاضرها ومستقبلها فمن شأنه أن يقوم بمصالحها ، ويدبر المال لذلك فيفرض ضرائب مختلفة الأنواع والأسباب ويلتزم بأمور ينفق فيها أموالا لأعمال ولأشخاص حسب المصلحة ومن هنا نرى أن ناسا يطالبون بأموال وآخرين تصرف عليهم أموال وقد يطالب إنسان بدفع مال فى وقت ثم يعطى مالا فى وقت آخر أو يؤخذ منه مال وتؤدى إليه منفعة ، ولا يراعى فى المال المأخوذ والمدفوع أن يكونا متماثلين ولا متقابضين وإنما يراعى أن يكون المأخوذ والمدفوع مؤديين للمصلحة ، ومن ذلك إلزام الموظفين الدائمين بمعاش يقتطع من مرتباتهم الشهرية ليوضع فى صندوق المعاشات ويضم إليه مثله أو ضعفه من أموال الدولة المأخوذة من موارد أخرى وينفق من المجموع على من أحيلوا إلى التقاعد للعجز أو المرض أو الشيخوخة فيتقاضوا معاشات شهرية مدى الحياة ثم أزواجهم وأبناؤهم القاصرون وبناتهم اللاتى لم يتزوجن وآباؤهم وأمهاتهم بشروط مخصوصة دون باقى الورثة . ولا يشك عاقل فى أن المأخوذ والمقتطع ليسا عوضين فى بيع ولا قرض وإنما هما إعانتان متقابلتان داخلتان تحت قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) المائدة الآية ٢

(ومما يوضح ذلك) قصة الأشعريين

وقصص أمراء الأجناد المروية فى صحيح البخارى وغيره .

روى البخارى فى صحيحه عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ « إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية فهم منى وأنا منهم » وروى البخارى فى صحيحه أيضا عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما أنه قال « بعث رسول الله ﷺ بعثا قبل الساحل . فأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه وهم ثلثمائة وأنا فيهم فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزاد فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش فجمع ذلك كله ، فكان مِزْوَدَىْ تمر ، فكان يقوتنا كل يوم قليلا قليلا حتى فنى ، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة ، فقلت وما تغنى التمرة ، فقال لقد وجدنا فقدها حين فنيت » الحديث .

هذان الحديثان وأمثالها تدل دلالة واضحة على أن ما يجمع بقصد التعاون ويوزع بقصد التعاون لا يشترط فيه التماثل بين مايؤخذ من الواحد وما يدفع إليه ، فالأشعرى فى الحديث الأول والجندى فى الحديث الثانى قد يكون ما يعطاه أكثر أو أقل مما أخذ منه لو كانت المقابلة بيعا أو قرضا لكانت المعاملة ربا لمقابلة طعام بطعام مع عدم التماثل لكنها لم تكن كذلك لأنها مقابلة معونة بمعونة ، فصاحب الطعام القليل وصاحب الطعام الكثير كل منهما يقصد أن يكون طعامه مشتركا بينه وبين الجميع ، فإذا جمع الطعام كله كان مشتركا بينهم فإذا وزع أخذ كل واحد حقه بقطع النظر عما أخذ منه ، وهذه اشتراكية إسلامية مبنية على التواد والتراحم والتعاطف والأخوة الصادقة .

فكذلك نظام المعاش أخذا وإعطاء فكل موظف يقصد أن يكون ما يقتطع منه مشتركا بين المتقاعدين ، وكل متقاعد يعلم أن ما يعطاه مأخوذ من ضرائب الموظفين مع ما يضم إليها من الخزانة فالموظف معين والمتقاعد معان ثم إذا تقاعد الموظف صار معانا من الموظفين الجدد ، وهكذا دواليك .

(فإن قيل) إذا لم تكن فوائد تقسيط المعاش لعمال اليومية ربا أفلا تكون شبهة ربا لأنها فوائد تأجيل لمال مطلوب ، والشبهة ينبغى اتقاؤها كما هو معلوم .

(قلنا) بعد إلقاء الضوء على هذه المعاملة وبيان أن الفوائد فيها ليست فى مقابلة تأجيل دين ثابت ولا دين منشأ تبين أنها قريبة الشبه جدا بفوائد تقسيط الثمن فكما أن الثمن الأصلى وفوائد التقسيط يصيران معا بعد اختيار التقسيط دينا واحدا

لا تفصيل فيه فكذلك المطلوب الأصلى من العمال وفوائد تقسيطه يصيران بعد اختيار التقسيط دينا واحدا لا تفصيل فيه ، والأول حلال بالإجماع ، فالثانى مثله ، وإذا اشتبه الأمر على العمال وعلى من لا يعلمون فقد أوجب الله عليهم أن يسألوا أهل الذكر كما قال تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » النحل الآية ٤٣ والأنبياء الآية ٧ فإذا سألوا فأجيبوا بالحق الذى يدمغ الباطل فيزهقه فلا شبهة ينبغى اتقاؤها .

(وها هنا سؤال يطرح نفسه) وهو أن بعض الموظفين الذين يقتطع من مرتباتهم الشهرية معاش قد يقومون بإجازة بدون مرتب عدة أشهر ثم يعودون للعمل فيطلب منهم دفع مجموع المعاش عن شهور الإجازة فإذا لم يدفعوه حالا قسط على الشهور الباقية إلى بلوغهم سن التقاعد بفوائد سنوية مقدارها أربعة ونصف فى المائة فما حكم هذه الفوائد ؟ (والجواب) إن الموظف إذا اختار التقسيط بالفوائد كان متعاملا بالربا لأنه بعقد الوظيفة يصير آخر كل شهر دائنا بمرتب الشهر ومدينا بالمعاش فإذا تقاضى صافى المرتب فلا دين له ولا عليه فإذا طلب الإجازة بدون مرتب فبانقضاء كل شهر يصير مدينا بالمعاش وليس دائنا بالمرتب فإذا عاد إلى العمل صار مدينا بمعاش شهور الإجازة فإذا اختار التقسيط بالفوائد كانت هذه الفوائد ربا لأنها فى مقابلة تأجيل الدين فعليه أن يختار الدفع فورا أو يمتنع عن الدفع وفى هذه الحالة يقسط المبلغ بالفوائد جبرا ومعلوم أنه لا ربا مع الجبر لأن الربا عقد من الجانبين والجبر تصرف من جانب واحد

وإذا قلنا إن هذا الجبر ليس ربا وإن تقسيط المعاش عن المدة التى سأل عنها عمال اليومية ليس فيه ربا أيضا فليس معنى ذلك تبرئة نظام المعاش من الثغرات فإن القائمين بوضع هذه القوانين ليسوا معصومين فنقترح أن تعدل بحذف النصوص التى بمقتضاها تطلب الحكومة من المدينين المتأخرين فوائد سنوية ويقيننا أن هذا هو الذى سيكون فى المستقبل القريب إن شاء الله .

على البولاقى

دراسة قرآنية

التحريم بالرضاعة ومتى يكون

فضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير

قال تعالى فى سورة النساء :
« حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » الآية ٢٣

وقال فى سورة البقرة : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » من الآية ٢٣٣

البيان

دلت الآية الأولى على أن الرضاعة من أسباب تحريم الزواج ، فتجعل المرضعة فى حكم الأم من النسب للرضيع ، وبناتها فى حكم الأخوات من النسب له ، فيحرم على الرضيع إذا كبر أن يتزوج مرضعته أو إحدى بناتها[1] ، سواء رضعت معه أم لا ، لأنهن جميعا أخواته برضاعه من أمهن ، سواء كن قبله أو معه أو بعده فى الرضاع ، وإن كان الرضيع أنثى حرم على أبناء مرضعته جميعا من النسب أو الرضاع أن يتزوجوا بها لأنها أختهم من الرضاع ، وكما نصت الآية على ذلك نصت عليه السنة ، قال ﷺ « إن الرضاعة تحرِّمُ ما تحرم الولادة » أخرجه الإمام مالك فى الموطأ عن عائشة ، وكذا البخارى ومسلم ، واللفظ لمالك

زمن التحريم بالرضاع

يقول الله تعالى فى سورة البقرة « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين

(١) نسباً أو رضاعاً

لمن أراد أن يتم الرضاعة» وهذا النص الكريم يدل على أن الرضاعة لا تحرم إلا إذا كانت فى السنتين التاليتين للولادة ، فقد دلت على أن الرضاعة تتم بمضى حولين منها ، وليس بعد التمام شيء ، وبهذا أخذ كثير من علماء الصحابة ومن جاء بعدهم .

قال القرطبى فى المسألة الخامسة من تعليقه على هذه الآية : انتزع مالك رحمه الله ومن تبعه وجماعة من العلماء أن الرضاعة المحرمة الجارية مجرى النسب ، إنما هى ماكان فى الحولين ، لأنه بانقضاء الحولين تمت الرضاعة ، ولا رضاعة بعد الحولين معتبرة — هذا قوله فى مُوَطَّئِه — ثم قال : وهو قول عمر وابن عباس وابن مسعود وغيرهم . وذكر على سبيل المثال الشافعى وأحمد وأبا يوسف ومحمدا ، إلخ — ثم قال : وروى عن مالك أنه يعطى حكم الحولين الزيادة اليسيرة عليهما ، واختلفت الروايات فى ضبطها ، فبعضهم ضبطها بأيام وآخرون بشهر ، وحكى عنه الوليد بن مسلم أن ماكان من رضاع بعد الحولين بشهر أو شهرين أو ثلاثة ، فهو فى حكم الرضاع فى الحولين ، وماكان بعد ذلك فهو عَبَث — إلى غير ذلك من الروايات عنه ، قال القرطبى : والصحيح الأول[1] لقوله تعالى «والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» وهذا يدل على أنه لا حكم للرضاع بعد الحولين ، وأيد ذلك بما أخرجه الدارقطنى عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ «لا رضاع إلا ماكان فى الحولين» .

ثم نقل القرطبى فى تفسير آية المحرمات فى النساء أن أبا حنيفة كان يرى أن الرضاع بعد الحولين يحرم فى خلال ستة أشهر تالية لهما ، دون مازاد على ذلك ، ولم نر له سندا من السُّنَّة على تلك الزيادة ، ولعله جعلها مُحرِّمة بحجة أن القريب من الشيء يعطى حكمه

ثم ذكر عن زُفَر أن الطفل مادام يرتضع من الثدى ولم يفطم فإن إرضاعه يحرم وإن أتى عليه ثلاث سنين .

ونقل ابن تيمية فى كتابه (زاد المعاد) فى بحث الرضاع الذى جاء فى أواخر كتابه — نقل عن طائفة من الفقهاء — أن الرضاع يحرم قبل الفَطْم ولم يقدروا ذلك بزمن ، وقال : صحَّ ذلك عن أم سلمة وابن عباس والزهرى والحسن والأوزاعى .

وذكر أن الأوزاعى قال : إن فطم وله عام واحد ، واستمر فطامه ، ثم رضع فى الحولين ، لم يحرم هذا الرضاع شيئا ، فإن

(١) أى والصحيح من قَوْلَىْ مالك الأول وهو أن الرضاعة المحرمة ماكانت فى الحولين — كما نص عليه فى موطئه ، دون مازاد عليهما .

تمادى رضاعه ولم يفطم ، فما كان فى الحولين يحرم ، وما كان بعدهما لا يحرم : وهذا الرأى أحرى بالقبول ونقل ابن تيمية أيضا عن الحسن بن صالح وابن ذؤيب وجماعة من أهل الكوفة : أن مدة الرضاع المحرم ثلاث سنين ، فما زاد عليها لم يحرم ، إلى غير ذلك من الأقوال .

ولعل أصحاب مثل هذه الأقوال يرون أن التحديد بحولين كاملين فى الآية الكريمة يراد به قطع النزاع بين المطلقة وزوجها الذى طلقها بشأن مدة الرضاع التى تستحق عليها الأجرة ، فإن آية (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين» جاءت متممة لأحكام المطلقات ، فهى لا تمنع من نقص مدة الرضاع أو زيادتها عندما يريد الوالدان ذلك ، ولا تمنع من استمرار التحريم بالرضاع بعد الحولين مادام الرضاع متصلا ، عملا بعموم قوله تعالى «وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة» فإن حكم التحريم بالرضاع فيها مطلق ولم يقيد بزمن ،

هل إرضاع الكبير يحرم

من الفقهاء من قال إن إرضاع الكبير يحرم كإرضاع الصغير ، لعموم قوله تعالى «وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة» ولحديث سهلة بنت سُهَيْل ، فقد روى مالك عن ابن شهاب أنه سئل عن رضاعة الكبير فقال : أخبرنى عروة بن الزبير أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة – وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وكان قد شهد بدرا ، وكان تبنى سالما الذى يقال له سالم مولى أبى حذيفة ، كما تبنى رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، وأنكح أبو حذيفة سالما وهو يرى أنه ابنه – أنكحه بنت أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وهى يومئذ من المهاجرات الأول ، وهى من أفضل أيامى قريش ، فلما أنزل الله تعالى فى كتابه ، فى زيد بن حارثة ما أنزل ، فقال «ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم» رُدَّ كل واحد من أولئك إلى أبيه ، فإن لم يعلم أبوه رُدَّ إلى مولاه ، فجاءت سهلة بنت سُهَيْل – وهى امرأة أبى حذيفة ، وهى من بنى عامر بن لؤى – إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله كُنَّا نرى سالما ولدا ، وكان يدخل على وأنا فضل[1] وليس لنا إلا بيت واحد ، فماذا ترى فى شأنه ، فقال لها رسول الله ﷺ : أرضعيه خمس رضعات فيحرم بِلَبَنِهَا» وكانت تراه ابنا من الرضاعة ، فأخذت بذلك أم المؤمنين عائشة) ثم قال : (وأبى

(١) أى مكشوفة الرأس والصدر ، وقيل على ثوب واحد لا إِزَارَ تَحْتَه

سائر أزواج النبى ﷺ أن يدخل عليهن بتلك الرضاعة أحد من الناس ، وقلن : لا والله ما نرى الذى أمر به رسول الله ﷺ سهلة بنت سهيل إلا رخصة مِنْ رسول الله ﷺ فى رضاعة سالم وحده ، والله لا يدخل علينا بهذه الرضاعة أحد فعلى هذا كان أزواج النبى ﷺ فى رضاعة الكبير) .

فأنت ترى أن رسول الله ﷺ قد رخص لسهلة أن ترضع سالما لكى يصبح ابناً لها من الرضاع ، وقد كان وقت هذه الرخصة فى دَوْرِ الرجولة ، قال ابن القيم فى فصل الرضاع من كتابه زاد المعاد : قد صح عن النبى ﷺ صِحَّةً لا يَمْترى فيها أحدٌ أنه أمر سهلة بنت سهيل أن ترضع سالما مولى أبى حذيفة – وكان كبيراً ذا لحية[1] – وقال أرضعيه تحرمى عليه : إلخ

رأينا فى قصة سالم

نحن نرى أن سماح النبى ﷺ لسهلة أن ترضع سالما ليحرم عليها ، إنَّما عالج به مشكلة لن تتكرر ، فهو علاج مؤقت لمشكلة مؤقتة ، وبيان ذلك أن التَّبَنِّى كان معروفا ومُتَّبعاً فى الجاهلية وصدر الإسلام ، ومن صوره أن الرجل يُعْتِقُ عبده ويَتَبَنَّاهُ ، فيثبت له بهذا التبنى حقوق الأبناء ، فَتَبْدُو عَلَيْه أمُّه بالتبنى ، كما تَبْدُو الأمُّ على ولدها ، فكان يرى منها عنقها وذراعها ونحو ذلك مما لا تظهره للغريب ، ولا تمنع عنه الولد ، كما أنه يرث من تبناه كما يرثه ابنه من النسب ، إلى غير ذلك من حقوق الابن النسيب التى يعامل بها الابن الدَّعِىُّ وكان أبو حذيفة وزوجته سهلة قد تَبَنَّيا سالماً بعد عِتْقِه ، وكانت سهلة بِحُكْمِ هذا التبنى لا تتحفظ معه كما لا تتحفظ الأم مع ابنها ، فكانت بعض أجزاء من جسمها كالعنق والذراع والساق تظهر له ، كما جاء فى حديثها «كان يدخُلُ علىَّ وأنا فُضُلٌ» أى مكشوفة الرأس والصدر والذراع ، فلما نسخ الله عادة التبنى بقوله «وما جعل أدعياءكم أبناءكم» وقوله «ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم» أصبح هؤلاء الأدعياء غرباء ، فبعد أن كان سالم يدعى سالم بن أبى حذيفة ، قطع عن نسبته إليه وأصبح أخا له فى الإسلام ومولى[2] له ، وأصبح غريبا فى منزل أبى حذيفة ، فيجب الاحتجاب عنه ، بعد هذه الفترة الطويلة التى مَرَّت عليه فى البنوة وهو صبى ثم فتى

(١) نعم كان ذا لحية لأن هذه سنة الإسلام ، ولكنه كان شابًّا وقد تربى فى بيتها على أنه ولَدُها ، وسنبين لك ما نراه فى هذه القصة .

(٢) أى عتيقاً له .

وشاب صاحب لحية ، ولكن كيف يمكن الاحتجاب عنه بعد هذا كله ، وبعد أن أصبح ركنا من أركان الأسرة ، ومُعيناً فى شئونها ، فلهذا توجهت سهلة إلى رسول الله ﷺ ليحل هذه المشكلة التى داهمتهم وأمثالهم ، فأفتاها بأن ترضع سالما خمس رضعات يصبح بعدها ابناً لها من الرضاع فتحرم عليه كأمه من النسب ، ويباح لها بذلك أن تظهر عليه كما تظهر على ابنها من النسب : وليس بلازم أن يكون الرضاع من الثدى مباشرة ، بل لا ينبغى أن يحدث ذلك مُباشَرةً مع كبير ، وإنما تحلب اللبن من ثديها فى إناء ، ويتناوله صاحب المشكلة من الإناء كل مرة من الخمس ، وبهذا يكون قد ارتضع منها خمس رضعات ، لأنها مصدر اللبن ، وهذا هو المقصود من الارتضاع منها . وهذه الفتوى وإن كانت أمرا مُوَجَّهاً إلى سهلة ، فإنها أمر إرشادى لها ولمثيلاتها ممن لهن مثل حالتها ، فإنه لا وجه لخصوصية سالم وسهلة بهذا الحكم ، فإن عدالته تعالى لا تتسم بالخصوصية ، فتشمل المشكلة التى حصل الخطاب بشأنها وما شاكلها من المشكلات الناشئة عن نسخ التبنى .

ولا ينبغى أن يتوسع فى هذا الحكم ، فإنه لا يصح أن يطبق الآن بعد نسخ التبنى على أى حالة سواه ، فلو أرضعت امرأة بلبنها رجلا كبيرا خمس رضعات ، فإن هذا الرضاع لا يحرمه عليها ، ولا يبيح له النظر إليها ولا مجالستها فى خلوة ولا السفر معها .

وكذلك كان ينبغى أن لا يطبق على أية حالة بعد انتهاء مشكلة التبنى ، فإن الضرورة تقدر بقدرها ، ويزول حكمها بزوالها ، والأصل فى الرضاعة أن تكون للصغار لتكوينهم حتى يقدروا على تناول غير اللبن ، فيزول حكمها حينئذ ، وبهذا أخذ جمهور العلماء ، ومنهم ابن مسعود ، قال القرطبى : قدم رجل بامرأته من المدينة ، فوضعت وتورَّم ثديها ، فجعل يمصه ويمجه ، فدخل فى بطنه جرعة منه ، فسأل أبا موسى الأشعرى فقال : بانت منك[1] ، وأتيا ابن مسعود فأخبراه . ما فعلا فأقبل ابن مسعود بالأعرابى إلى أبى موسى الأشعرى وقال : أَرضيعاً تَرى هذا الأشمط[2] ؟ إنما يُحَرِّمُ من الرضاع ما يُنْبِتُ اللحم والعظم ، فقال الأشعرى : لا تسألونى عن شىء وهذا الحَبْرُ بين

(١) أى انفصلت منك وفسخ نكاحك لها . لأنك صرت ولدها بالرضاع — هكذا فهم الأشعرى قبل أن يراجعه ابن مسعود ويجعله يعدل عن فهمه .

(٢) الأشمط هو الذى اختلط بياض الشعر بسواده فى رأسه .

أظهركم : اهـ

وكان أبو موسى يقول بتحريم الرضاع للكبير والصغير، فلما سمع ذلك من ابن مسعود، رجع عن رأيه وقصر التحريم على زمن الرضاع المعهود

مذهب عائشة فى إرضاع الكبير

قد علمت من حديث سالم وسهلة الذى رواه الإمام مالك فى موطئه، أن السيدة عائشة كانت ترى أن رضاع الكبير يحرم كرضاع الصغير، وأن سائر زوجات الرسول كان رأيهن، أن تحريم سالم على سهلة وبنوته لها بإرضاعها إياه خمس رضعات وهو كبير إنما هو خصوصية لها، فلا يطبق على أى حالة سوى حالتها، ولعل زوجاته ﷺ كان غرضهن من اختصاص التحريم بقصة سالم، أنه يختص بها وبما ماثلها من حالات التبنى التى نسخها الله، إشفاقا على الناس من المتاعب التى سببها نَسْخُ التبنى، فقد أصبح به المتبنَّى غريبا يجب الاحتجاب عنه، بعد أن كان ابناً يرى من أمه أطراف جسدها التى يراها الابن من النسب، فهو يختص بهذه الحالات ولا يطبق فى سواها من أحوال الكبار.

وقد بدت هذه الرواية التى رواها الإمام مالك فى موطئه بالنسبة للسيدة عائشة - بَدَتْ - واضحة الغرابة، إذا قورنت برواية أخرى له تفيد أنها كانت تصنع ذلك مع الرضعاء الصغار، فقد روى فى موطئه عن نافع أن سالم بن عبد الله بن عمر أخبره (أن عائشة أم المؤمنين، أرسلت به وهو يرضع إلى أختها.

أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق، فقالت : أرضعيه عشر رضعات حتى يدخل عَلَيَّ. قال سالم : فأرضعتنى أم كلثوم ثلاث رضعات، ثم مَرِضَتْ فلم ترضعنى غير ثلاث رضعات، فلم أكن أدخل على عائشة من أجل أن أم كلثوم لم تتم لى عشر رضعات).

فأنت ترى من هذا النص الذى رواه مالك، أنها كانت شديدة الحرص على تنفيذ شريعة الحجاب، وأنها لحرصها على دوام الصلة بين آل أبى بكر وآل عمر، كانت تبعث بالرضيع من آل عمر إلى أختها أم كلثوم لترضعه، حتى إذا كبر أمكن أن يدخل عليها لأنها خالته من الرضاع، وأنها كانت تتشدد فى عدد الرضعات المحرمة فترى أنه لا يحرم سوى عشر رضعات، ولهذا لم يتمكن سالم بن عبد الله بن عمر فى كبره من الدخول عليها، لأنه لم يستكمل فى طفولته سوى ثلاث رضعات من أختها

أسماء ، لأنها مرضت فلم تستطع أن ترضعه عشر رضعات كما أمرتها عائشة ، فلو كان رضاع الكبير يحرم عندها فى غير موضوع مَنْ نُسخ تَبَنِّيهم ، فلماذا لم تفعل ذلك مع سالم فى كبره ، بعد أن فاته الرضاع فى صغره ، فتجعله يرضع من إحدى قريباتها ، ليكون بهذا الرضاع محرماً لها ، فيصح دخوله عليها ، ثم إنك ترى نافعاً شديد الدقة فى روايته لقصة رضاع سالم بن عبد الله بن عمر من أختها أسماء ، إذ يقول « أرسلت به وهو يرضع » ليشير بذلك إلى أنها كانت تفعل ذلك فى سن الرضاعة ، لا بعدها ، ولهذا قال سالم فى آخر الحديث (فلم أكن أدخل على عائشة من أجل أن أم كلثوم لم تتم لى عشر رضعات) أى لم تتمها لى وأنا صغير فى سِنِّ الرضاعة ، كما هو الشأن شرعا وكما أمرت به عائشة .

ومن الشواهد على عنايتها بأمر الحجاب ، ودقتها فى عدم الأخذ بأحكام الرضاعة إلا عند الاطمئنان إليها ، ما رواه الإمام مالك فى الموطأ عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها أخبرته ، (أن أفلح أخا أبى القعيس جاء يستأذن عليها — وهو عمها من الرضاعة — بعد أن نزل الحجاب — قالت — فأبيت أن آذن له علىَّ ، فلما جاء رسول الله ﷺ أَخْبَرْتُهُ بالذى صنعتُ ، فأمرنى أن آذن له علىَّ) وأخرجه البخارى فى كتاب النكاح ، ومثله مسلم .

فلهذا أستبعد ما جاء فى الخبر ، من أنها ذهبت إلى أن إرضاع الكبير يحرمه على من أرضعته ، ويجعلها فى حكم أمه ، ويجعل بناتها وبنيها فى حكم إخوته ، وأنها كانت تأمر أختها أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق أو بنات أخيها أن يرضعن من أحبت أن يدخل عليها من الرجال — كما جاء فى حديث سالم وسهلة الذى أخرجه مالك وغيره ، وأنها تفردت بهذا الرأى بين أمهات المؤمنين زوجات النبى ﷺ ، فإنهن رأين أنها رخصة اختص بها سالم بسبب نسخ عادة التبنى كما شرحناه .

إننا نستبعد هذا الخبر عن أم المؤمنين عائشة ، فإنه يفتح باب الفتنة ، ونخشى أن يكون من اختراع المنافقين الذين افتروا عليها قصة الإفك التى حكاها الله تعالى فى سورة النور ، أو من افتراء غلاة الشيعة ، وأن هؤلاء أو أولئك دسوه على رواة السنة ، والذى يطمئن له الفؤاد هو نحو ماجاء بحديث سالم بن عبد الله بن عمر ، أى أنها كانت تصنع ذلك فى بعض الأطفال الرضعاء المحيطين ببيت النبوة ، الذين سوف يدخلون عليها فى كبرهم ، فكانت تحتاط لذلك ، فَتُعِدُّهم بهذا الرضاع فى صغرهم ، لكى يكون دخولهم عليها فى

كبرهم مشروعا ومباحا ، لكونها خالتهم أو عمتهم بهذا الرضاع ، ولا شك أن أمرها مع سالم بن عبد الله بن عمر يؤكد حرصها على الحجاب ، فإنه لمّا لم يكتمل له عشر رضعات فى صغره لم يدخل عليها فى كبره

آراء العلماء فى الرضعات المحرمة

اختلفت العلماء فى عدد الرضعات التى تحرم الرضيع – أى تجعله كالولد من النسب فى حرمة النكاح – فمنهم من يحرمه برضعة واحدة محققة ، فإنها أقل ما يطلق عليه اسم الرضاع الذى جعله الله سببا للتحريم فى قوله « وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » وفى ذلك يقول الليث بن سعد : الرضاع قليله وكثيره يحرم فى المهد ، كما يفطر الصائم بالقليل والكثير

ومن العلماء من اشترط ثلاث رضعات للتحريم بالرضاع ، لقوله ﷺ « لا تحرم المصة ولا المصتان » أخرجه مسلم . قال القرطبى : وهو يفسر قوله تعالى « وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم » أى أرضعنكم ثلاث رضعات فأكثر : ا . هـ وقد جاءت الرضعات الثلاث فى رواية لحفصة .

ومنهم من اشترط خمس رضعات لحديث سهلة الذى مرّ ذكره ، فقد جاء فيه « أرضعيه خمسا يحرم عليك » وقد جاءت الرضعات الخمس فى رواية أخرى لحفصة ، وبه أخذ الإمام الشافعى ، وهو الذى عليه الفتوى الآن ، ولعله أدنى ما يتناسب مع قوله ﷺ « لا يحرم من الرضاع إلا ما أنبت اللحم وأنشز العظم » أخرجه أبو داود عن ابن مسعود برفعه ، وكذلك ما أخرجه الترمذى من حديث أم سلمة أنه ﷺ قال « لا يحرم من الرضاعة إلا ما فتق الأمعاء فى الثدى ، وكان قبل الفطام » .

ومنهم من قال : لا يحرم إلا عشر رضعات ، وبه أخذت عائشة رضى الله عنها ، وقد مر بيانه فى قصة سالم بن عبد الله بن عمر ، وقيل غير ذلك ، وأقواها دليلا ما ذهب إليه الشافعى ، وهو أن التحريم لا يثبت إلا بخمس رضعات معلومات فأكثر – والله أعلم –

الحكمة فى التحريم بالرضاع

جعل الله الرضاع لُحمَة كلُحمَة النسب . بحيث يحرم فى النكاح ما يحرمه ، لأن الرضيع يعيش على اللبن الذى يخرج من ثدى مرضعته كما يعيش ولدها عليه ، ولأن اللبن خلاصة من دمها ، وقد تعاونت أجهزة جسدها على تحويله إلى لبن خالص من بين فرث ودم ، فقد اشترك فى ذلك قلبها وأعصابها وغددها وخلاياها ، فإذا

تغذى به الطفل فإنما يتغذى بخلاصة من دمها وجسدها ، فصار بذلك كأنه جزء من جسدها . فلهذا أعطى حكم ولدها فى حرمة النكاح .

الجهات التى تنتقل إليها الحرمة بالرضاع

قلنا إن الحرمة تثبت برضاع الطفل فى أثناء الحولين التاليين لولادته خمس رضعات معلومات يقينا ، وإن هذا العدد هو الذى عليه الفتوى لقوة دليله ، ولما فيه من منع الحرج على الناس فيما هو أقل منه أو كان مشكوكا فى كونه خمسا ، فإذا أرضعت المرأة طفلا خمس رضعات معلومات يقينا ، صارت أمًّا له من الرضاعة ، فيكون لها بذلك حكم الأم من النسب فى حرمة نكاحه لها بعد كبره ، وصارت بناتها أخواته من الرضاعة ، فيكون لهن حكم الأخوات من النسب فى حرمة التزوج بهن ، وكما يحرم على الرضيع أن يتزوج بنات المرضعة نسبا . يحرم عليه أن يتزوج بناتها رضاعة فهن جميعا أخواته من الرضاعة ، فيستوى فى حكم التحريم من رضعت منهن معه أو قبله أو بعده .

وإذا كان الرضيع أنثى حرم على جميع أبناء المرضعة نسبا أو رضاعا أن يتزوجوا بها ، سواء من رضع منهم معها أو قبلها أو بعدها ، لأنها أختهم من الرضاعة ، فحكمها فى ذلك حكم الأخت من النسب ، وفى ذلك يقول النبى ﷺ « يحرم من الرضاع ما يُحرم من النسب » وينتقل التحريم من المرضعة إلى أصولها وحواشيها وفروعها ، فأبوها جده لأمه من الرضاع وأمها جدته كذلك ، وأختها خالته ، وأخوها خاله ، وبنت ابنها تعتبر بنت أخيه ، وبنت بنتها تعتبر بنت أخته — إلى غير ذلك من الصور التى تثبت حرمة الزواج بين الرضيع وبين أقاربها من الأصول والفصول والحواشى — ذكراً كان الرضيع أو أنثى .

وزوج المرضعة الذى جاء لبنها بسبب حملها منه .يكون والدا للرضيع ، وأصوله أجداده وجداته ، وأولاده ولو من غير المرضعة إخوته وأخواته ، وإخوة صاحب اللبن وأخواته أعمام الرضيع وعماته وهكذا .

أخرج الإمام مالك فى موطئه عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت « جاء عمى من الرضاعة يستأذن علىّ ، فأبيت أن آذن له علىّ حتى أسأل رسول الله ﷺ عن ذلك ، فجاء رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فقال « إنه عمك فأْذَنى له — قالت — فقلت : يا رسول الله إنما أرضعتنى المرأة ولم يرضعنى الرجل ، فقال : إنه عَمُّك

فَلْيَلجْ عليك» أى إنه عمك من الرضاع فليدخل عليك وقد أخرج هذا الحديث البخارى فى كتاب النكاح ، ومسلم فى كتاب الرضاع .

أما إخوة الرضيع من النسب ، فلا حرمة بينهم وبين مرضعته ، فلأىّ واحد منهم أن يتزوجها أو إحدى بناتها ، ولأخوات الرضيع من النسب أن يتزوجن صاحب اللبن أو أبناءه أو أبناء مرضعته ، لعدم وجود رضاع لهؤلاء أو أولئك ، وفى موسوعات التفسير وكتب الفقه فروع كثيرة ، وقد أسهب ابن القيم - رحمه الله - فى حديثه عن أحكام الرضاع فى أواخر كتابه زاد المعاد ، فراجعه إن شئت ، وحسب الكافَّةِ ما ذكرناه ، والله تعالى أعلم .

مصطفى محمد الحديدى الطير

الْبَخِيلُ شَقِىٌّ بِمَالِهِ

لَمْ أَرَ أَشْقَى بِمَالِهِ مِنَ الْبَخِيلِ . لِأَنَّهُ فى الدُّنْيَا يَهْتَمُّ بِجَمْعِهِ ، وَفِى الآخِرَةِ يُحاسَبُ عَلَى مَنْعِه ، غَيْرُ آمِنٍ فى الدُّنْيا مِنْ هَمِّهِ ، وَلاَ نَاجٍ فى الآخِرَةِ مِنْ إِثْمِه ، عَيْشُهُ فِى الدُّنْيَا عَيْشُ الْفُقَرَاء ، وَحِسابُهُ فِى الآخِرَةِ حِسَابُ الأَغْنِيَاء . .

الحسن البصرى

من أخلاق الإسلام

فضيلة الشيخ أبو الوفا المراغى

عن مالك بن أنس رضى الله عنه بلغه أن عيسى بن مريم يقول : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية . أخرجه الموطأ .

لعل مما يصح وصف اللسان به أنه ملك أو شيطان ، ملك إذا صلح واستقام لأنه ينطق بالحكمة والموعظة فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويترجم عن العلوم ودقائق المعارف ومكنونات الضمائر ويؤديها إلى الناس فيفهموها ويفيدوا منها وتستنير بها أذهانهم وعقولهم فتسمو إلى سماء العز والكرامة ، وشيطان إن فسد وانحرف يسعى بين الناس بالفساد ويكون رسول الحقد والكراهية إذ يغرى بعضهم ببعض ويؤلب بعضهم على بعض وميدانه فى ذلك فسيح يجرح وقل أن يأسو .

وما أروع ما قال الغزالى فى الموازنة بين اللسان وغيره من الجوارح ، إذ يقول اللسان رحب الميدان ليس له مرد ، ولا لمجاله منتهى وحد ، له فى الخير مجال رحب ، وله فى الشر ذيل سحب ، فمن اطلق عَذَبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار ، ولا يُكَبُّ الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع .

وإذا كان الإسلام نظاماً كاملاً لحياة الإنسان تناول سلوكه فى جميع مراحله بالتنظيم والتهذيب والتوجيه وكان اللسان أهم أدوات السلوك الإنسانى كان من الطبيعى أن يتناوله بالتخطيط ويرسم له ميدان العمل المباح ، ولخطر اللسان وضمان عدم الخطأ فى الكلام فضل الإسلام كما فضلت الأديان الصمت ومدحه وحث عليه فقال ﷺ : من صمت نجا . وقال :

الصمت حكم وقليل فاعله . ولكن إذ كان لابد من الكلام كان من رحمة الإسلام وحزمه أن يضع حدوداً لماله ضرورة من الكلام فى المخاصمات فى الحقوق والمجادلات فى العلوم وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ثم حظر الكلام فى مواطن كثيرة لسوء آثاره وتفاقم أخطاره ، وان أبغض الرذائل إلى الفطر جميعاً وإلى الأديان عامة كثرة الكلام واللغو فيه ، ولم يكثر العلماء والحكماء ورجال الأخلاق الحديث فى نقيصة خلقية مثلما أكثروا الكلام فيها ، ولقد انكرت الأديان كثرة الكلام لخطرها على صاحبها فى دينه ودنياه ، أما فى الدين فلأن فيما ينطق به ما ينال الناس ويؤذيهم وهو مؤاخذ به ومحاسب عليه قال تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، وأما فى الدنيا فإنه يستجر عليه الإحن والحفائظ دون غرض صحيح وفائدة مرجوة ، إن للسان مزالق كثيرة من الخطأ والكذب والنميمة والغيبة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات ، ولا يأمن الإنسان إذا تكلم أن يقع فى أحد هذه المزالق وكلها ذنوب ترين على القلوب فتقسيها وتطبع عليها فتنسيها الله وتبعدها عنه وخير من الكلام فيما لا يعنى وشغل اللسان بفضول القول شغله بذكر الله ، ففى شغل اللسان بذكر الله سلامة من العثرات واكتساب لرضا الله بذكره والثناء عليه وفى ذكر الله اطمئنان القلب واجتماع البال كما قال سبحانه : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . ولقد كرر الله فى عشرات الآيات الأمر بذكره وتسبيحه فقال : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً » . وقال سبحانه : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » وقال سبحانه : « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيًّا وحين تظهرون » .

إن الاقتصاد فى الكلام وتوفير وقته لمهات الأمور خلق حضارى رفيع فالشعوب المتحضرة تكره الثرثرة وتعدها بضاعة المتبطلين الفارغين إلا أن ذلك الخلق الحضارى كان ولا يزال خلقاً دينيا تظاهرت الأديان والعقول على امتداحه واستحسانه ، كما تضافرت على ذم المستكثرين من الكلام كما روى فى الحديث عن عيسى بن مريم عليه السلام ، وكما روى فى حديث آخر عن نبينا عليه الصلاة والسلام فقد روى عنه فى حديث له : ألا أخبركم بأبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثرثارون

المتفيهقون .

ذلك مجمل الكلام فيما تضمنه الشق الأول من القول فى فضيلة الاقتصاد فى الكلام وفى شقه الثانى تنويه بفضيلة خلقية خطيرة فى آثارها إن تحققت وخطيرة فى آثارها إن أهملت ، تلك الفضيلة هى التى أشار إليها الحديث بقوله : لا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية ، وآثار هذه الفضيلة إن تحققت أن تصلح شئون الناس جميعاً وتقل فيهم الجرائم ويسودهم الصفاء والود فلو نظر كل إنسان إلى ذنوبه وتفكر فى شرورها وعواقبها وحاول كفاحها فأقلع عنها وتطهر منها سلم له دينه ودنياه وكان قدوة لغيره وإذا تم ذلك بباعث الخشية من الله كانت عبوديته عبودية خالصة له وهى أقصى مراتب القرب منه ، وإذا تجرد من هذه الفضيلة واستسلم لهواه وشيطانه وشغل نفسه بعيوب الناس وذنوبهم استبدل الأدنى بالذى هو خير وانساق من هذه النقيصة إلى نقائص أخرى كلها آثام وشرور ، سينساق إلى سوء الظن بالناس فى كثير مما يعملون وإذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه كما يقولون ، وسيفسر أفعال الناس بأسوأ التفاسير ويستبعد ما عسى أن يكون لهم من معاذير وينسى فى غمرة الجهل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » ، وستسوقه نقيصة الاشتغال بذنوب الناس إلى تتبع عوراتهم والتفتيش عن سوءاتهم ليرضى شهوة التطلع الخبيثة فيقع فى خطيئة التجسس التى نهى الله عنها فى الآية الكريمة بقوله « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً » ، وسيجره سوء الظن والتجسس إلى التشهير بإخوانه المسلمين وإذاعة السوء عنهم ولكل ذلك عواقبه فى علاقاته بإخوانه واستجلاب غضبهم وكراهيتهم .

ولو وقف كل منا من نفسه موقف المحاسبة والمعاتبة وتدبر حقيقة النفس الإنسانية وأنها على استعداد للخير والشر وأنها إلى الشر أميل لدافع الهوى والشيطان والرغبة فى اللذة العاجلة كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : « وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم » . لو تدبر كل منا ذلك وعلم أنه بحكم فطرته له حظه من الطاعة وحظه من العصيان ولا يسلم من الخطيئة إلا من رحمه الله واصطفاه لأغضى عن عيوب الناس وأسبل عليهم جلاليب الستر وتأدب بأدب الرسول حيث يقول من ستر أخاه المسلم فى الدنيا فلم يفضحه ستره الله يوم القيامة . قد يقول قائل

إن هذا الحديث يغلق باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو الأمر المهم فى الدين والذى تواترت النصوص القرآنية والنبوية على الاهتمام به وإحيائه فى جميع الأزمان بين المسلمين فالحديث يوجب ظاهره أن ينظر الإنسان إلى ذنوبه وعيوبه فيشتغل بإصلاحها ولا ينظر إلى ذنوب غيره ويشغل نفسه بها وذلك تعارض والذى نراه فى تأويل هذا الظاهر ليدفع التعارض وتلتقى النصوص الواردة فى الأمر بالمعروف مع الحديث أن معناه ولا ينظر إلا ذنوب غيره أى لا يفتش على ما خفى منها لينكره على صاحبه ويكتفى بإنكار ما ظهر منها بالأسلوب الذى رسمه الإسلام فى الإنكار بأن يكون بالرفق واللين دون تعنيف أو استطالة وترفع أو تشهير وأن يخفى إنكاره قدر الإمكان وأن يغلب على ظنه أنه على استعداد لقبول النصح دون لجاجة أو مكابرة فإن غلب على ظنه الرفض والمكابرة أو وقوع الأذى فليس عليه أن يتصدى لهذا الشأن ، وهذا ما فسر به العلماء قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » . قال صاحب المنار بعد ما أفاض فى تفسير هذه الآية « والتحقيق أن من علم أو ظن ظنًّا قويًّا أنه ينال الأذى إذا أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر يسقط عنه الفرض ويكون الأمر والنهى حينئذ فضيلة لا فريضة هذا إذا رجّح أن المنكر يزول بإنكاره فإذا رجح أنه يؤذى ولا يترتب على نصحه فائدة فحينئذ يكره له أو يحرم إذ كان من الإلقاء باليد إلى التهلكة » .

ويصلح أن يكون هذا التفسير وجهاً آخر لتأويل الحديث بمعنى أن الإنسان عليه أن ينظر فى ذنوبه ويترك الناس وذنوبهم ولا ينكر عليهم إذا يئس من استجابتهم لوعظ وإنكار لأنه عمل دون جدوى ، وملخص دفع التعارض أن يقال إن النص الوارد بالأمر بالمعروف إنما ورد فى حالة الظن بفائدته والنصّ الوارد فى ترك الأمر بالمعروف إنما ورد فى حالة اليأس من ذلك .

إن الخطيئة مرض النفس وهو كمرض الجسم فمن ألم منها بشىء فهو مريض مبتلى خليق بالرثاء والشفقة ومن سلم منها فقد صح وتعافى وعلى المسلم أن يقدر ذلك ويدعو لمرضى النفوس بالشفاء ويحمد الله على العافية .

وبعد فقد تضمن الحديث فضيلتين من أصول الفضائل الإنسانية التى اتفقت عليها الأديان وردتا عن عيسى عليه السلام ، وأقرهما الإسلام وما أكثر الفضائل التى اتفقت عليها الأديان وإنها لتلتقى جميعاً فى تطهير نفوس الناس لتوفير السعادة والصفاء بينهم .

اعتبار الإسلام الفروق بين الناس

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : كم نعفو عن الخادم فصمت ، ثم أعاد الكلام فصمت . فلما كان الثالثة قال : اعفوا عنه فى كل يوم سبعين مرة . أخرجه أبو داود .

وعن أبى رافع بن مكيث رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : حسن الملكة نماء وسوء الخلق شؤم . أخرجه أبو داود .

سبحان الله لقد وزع الحظوظ على الناس من العقل والعلم والمال والجاه وغيرها من النعم فأعطى وحرم ليبتلى كلا من المحظوظين والمحرومين وليجزى من يرضى ومن يسخط بما يستحق من الثواب والعقاب على الرضا والسخط ، ومن آثار ذلك التوزيع أن يستخدم بعض الناس بعضاً ويستسخر بعضهم بعضاً فتتيسر شئون الحياة وتنتظم أمورها ولتستقر أحوالها ، قال تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجاتٍ ليتخذ بعضهم بعضاً سخريًّا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

إن الفوارق بين الناس فى نعم الدنيا سنة من سنن الوجود وطبيعة الخلقة والتكوين ، ومحاولة التسوية بينهم بأى وسيلة أو بأى مذهب من المذاهب البشرية معارضة لتلك السنن لا تنتهى إلا بالفشل مهما أحيطت بسلاح القانون أو سلاح الإرهاب ، وكيف يمكن لمجتمع أن يعيش ويستقر فى ظل نظام يسوى فيه تسوية كاملة بين رئيس الدولة وجامع القمامة أو سائس الخيل أو راعى الغنم أو بالغ الذروة فى العلم والشادى فيه مهما زينت الدعايات وزخرفت فى القول لتلك المذاهب . فواقع ما يجرى من شئون الحياة وواقع التطبيق لتلك المذاهب كفيل بالكشف عن باطلها وبيان زيفها .

إن الإسلام وهو دين الفطرة والواقع قرر التسوية بين الناس فى أصل الخلقة والتكوين وخصائص الإنسانية وتكاليف الدين والمثوبة على العمل بتلك التكاليف ، وفرق بينهم فى الرزق والعلم والجاه والكفاية لحمل الأعباء والقدرة على خدمة الجماعات بتحقيق المنافع ، وفيما يتصل بالتسوية فى أصل الخلق يقول تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » . وفيما يتصل بالتسوية فى التكاليف بأحكام الدين يقول تعالى : « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » . ويقول تعالى : « يأيها الرسل كلو من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم » .

وفيا يتصل بالمثوبة على العمل بأحكام الدين يقول تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . ويقول تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره » . وينبغي أن نلاحظ أن الصيغ الواردة فى هذه الآيات هى من صيغ العموم التى تشمل جميع الناس ولا تفرق بين أحد منهم ، وفيا يتصل بأمر الرزق والعلم والتصدر لقيادة الناس وسياستهم وتدبير شئونهم وأمور معاشهم عامة يقول سبحانه : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » ، ويقول سبحانه : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريًا » ، ويقول جل شأنه : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ولقد اصطفى الله بعض خلقه لحمل رسالاته ولم يجعلهم جميعاً أنبياء ورسلاً وامتنّ على بعض الأمم بأن جعل فيهم أنبياء وملوكاً وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين،فإطلاق قضية التسوية ، بين الخلق فى جميع الشئون قضية ينقصها التحرير والتوضيح حتى لا ينخدع بها بعض العوام فيتخذها أداة للهدم والتخريب بعد أن يلبسوها ثياب الدين .

وفى الناس بحكم الفطرة والدين رئيس ومرءوس وسيد ومسود ولكل منها – كى تنتظم شئون الحياة فى المجتمعات – حدود وقيود عنى الإسلام ببيانها ، فبين حدود السادة والرؤساء فيا احتملوا من مسئوليات وما أعطوا من سلطات وبين حدود الخدم والمسودين فيا احتملوا كذلك ، وقد تكفلت كتب التفسير والحديث والفقه بشرح كل ذلك وتفصيله والذى يعنينا هنا بيان حدود السيد وعلاقته بخادمه وكيف أولاها الإسلام عنايته ولقد جاء الإسلام والاستخدام شائع فى العالم وبخاصة استخدام الرقيق ، وكانت نظرة السادة إلى الرقيق نظرة خاطئة ومعاملتهم إياهم معاملة سيئة قاسية . فكانوا ينظرون إليهم نظرتهم إلى البهائم والمتاع يبيعونهم ويبتاعونهم ويسومونهم سوء العذاب بل يقتلونهم إن شاءوا فحاول الإسلام أن يغير تلك النظرة ويعيد إليهم اعتبارهم كأناس فأخذ يوصى بهم وبحسن معاملتهم ، وأكثر النبى من الأحاديث فى الرفق بهم والعفو عنهم وفى الحديثين اللذين صدرنا بهما كلمتنا نموذج من تلك الوصايا . ففى أحدهما أمر بالعفو عن الخادم وإن تكرر خطؤه وتوالت عثرته ، فقد يصلح الإغضاء والتسامح من أمر الخادم ما لا يصلحه الضرب ، وفى الثانى إرشاد إلى أن حسن الملكة أى التملك وهى

معاملة الرقيق بالملاينة والتلطف سبيل إلى البركة والزيادة فى الرزق فبحسن المعاملة ينشط الرقيق والخادم ، فى الخدمة وتتوافر أمانته وحرصه على ما اؤتمن عليه ووكل إليه التصرف فيه من مال سيده أو مخدومه فينمو ويزداد ولن يحصل ذلك إن أساء معاملته واشتط فى عقابه وتأديبه وكم من خادم أمتلك قلب سيده واكتسب ثقته وعطفه دون أقرب الأقرباء إلى السيد والمخدوم ومن شواهد التاريخ على ذلك أننا نجد كثيراً من هؤلاء السادة قد وقفوا عقاراتهم وأموالهم على معاتيقهم وخدمهم مكافأة لهم على حسن خدمتهم وأمانتهم وحرموا من ذلك أهلهم وأقاربهم ، وإذا كانت قواعد الإسلام وجوب الرفق بالناس عامة فإنه قد خص طبقة الرقيق والخدم بمزيد من الرفق لأنها طبقة مستضعفة يجب أن ينصرها ويأخذ بيدها ويحترم إنسانيتها التى يحاول بعض الجهلة والطغاة إهدارها .

وقد كثرت أحاديث الرسول فى ذلك بأساليب رائعة من الترهيب والترغيب ، ويمكن إجمال معانيها دون التطويل بذكر نصوصها فى أن الإسلام نظر إلى الخادم نظرة إنسانية سامية هى نظرة الأخوة الرقيقة الحانية لا نظرة الملكية المستبدة المتغطرسة ، وعلى هذا الأساس أمر الإسلام السيد أن يطعم خادمه مما يطعم وأن يلبسه مما يلبس ويرفق به فى العمل فلا يحمله منه إلا ما يطيق ، فإن كلفه بما يشق عليه فقد أوجب عليه أن يعينه وأمر باللطف فى ندائه ودعوته حتى لا يجرحه فى إنسانيته ولا يصادمه فى شعوره ، فلا يقول له يا عبدى يا أمتى ولكن يقول له : يا فتاى يا فتاتى ، لأنه إنسان ذو إحساس وشعور إلا أن ظروفه القاسية وحاجته الملحة هى التى ألجأته إلى هذه المنزلة ، ومن المروءة أن نقدر له إنسانيته ونخفف قساوة الحال عليه .

كما نهى الإسلام عن تعذيب الخادم وضربه ولطمه وعد ذلك جريمة تستوجب العقاب ، لأن ذلك يحمله على الكذب والسرقة والخداع وينزع من نفسه الحياء والاحترام ويورثه سوء الظن بمخدومه كما يورثه التفريط فيما تحت يده مما يملكه سيده أو مخدومه نكاية به بل ربما يبعثه إلى أن يكون عيناً عليه لعدوه لإيقاع الأذى به .

إن فى وصايا الإسلام وإرشاداته فى معاملة الرقيق والخدم نوعاً من وسائل الإصلاح الاجتماعى لطبقة من الأمة لها دور فى حياتها عامة ، فبإصلاح الخادم بالرفق وغرس المحبة والاطمئنان فى نفسه تستقر الأسرة ويتفرغ فيها كل ذى شأن لشأنه فى أمان واطمئنان .

فى رحاب الأخلاق النبوية :

عن أنس بن مالك رحمه الله قال : إن أناساً قالوا : يا رسول الله ويا خيرنا وابن خيرنا ويا سيدنا وابن سيدنا فقال رسول الله ﷺ : السيد الله ، قالوا : أنت أفضلنا فضلاً ، وأعظمنا طولاً فقال : يأيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، إنى لا أريد أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنيها الله تبارك وتعالى : أنا محمد بن عبد الله ورسوله ، أخرجه رزين .

لك الله يا رسول الله ما ألطف توجيهك وأعذب لفظك وأحلى نطقك وأرق بيانك وأرق أسلوبك ، إنه لذوب الشهد والسلسل العذب فى هاجرة الحر حسُنْتَ خَلْقاً وخُلُقاً وعلوت نسباً وحسباً فكنت أهلاً للاصطفاء والرسالة ، أدبك ربك ولم يؤدبك مؤدب وعصمك الله ولم يعصمك عاصم سواه ، وأديت رسالتك العظمى فكنت بين إخوانك الرسل إماماً وكنت فى التاريخ مناراً لم تُذكر موهبة لعظيم إلا كنت الراجح فيها ولم يذكر خلق عظيم إلا كنت المثل الكامل فيه فماذا يقول المجادلون فى عظمتك وتساميك وقدرك وتعاليك

فاق النبيين فى خَلق وفى خُلق
ثم اصطفاه رسولاً بارئ النسم

لم يكن ينقصه ﷺ خلق من الأخلاق الفاضلة وحاشاه ذلك ولم يكن فى خلق أكمل منه فى خلق آخر بل كان المثل الكامل فى كل خلق وكان سلوكه تطبيقاً كاملاً لتلك الأخلاق ولو شئت أن تضرب من سيرته الطاهرة عشرات الأمثال لوسعك المجال وانفسح المقال وكان خلقه فى العلانية مرآة لخلقه فى السر لا يحرص على خلق فى العلن ثم يفرط فيه فى السر فذلك نفاق سلم منه بطبعه وبرسالته ، ولئن كان فى رسالته شرائع وأحكام إلا أن الجانب الأخلاقى أخذ منها حظًّا كبيراً وربما رجح الجانب الأخلاقى الجانب التشريعى فى كثرة نصوصه ولم يكن ذلك استهانة بالجانب التشريعى فيما نعتقد وإنما كان ذلك تقديراً للجانب الأخلاقى ولأثره فى حياة الناس واستقرار أمورهم ، ولو حسنت أخلاق الناس لقلت حاجتهم إلى الشرائع والقوانين وكلما فسدت أخلاق الناس اشتدت حاجتهم إلى الأحكام وإلى الحراس والشرط ، وما أصدق قول القائل : لو أنصف الناس استراح القاضى ، إن من الأخلاق ما هو خاص بصاحبه كالثوب الأنيق الرقيق يبدو صاحبه فيه جميلاً أنيقاً مستلطفاً يتطلع الناس إلى النظر إليه لعلهم يقبسون من جماله فيحاكوه أو ينسجوا على منواله ومن الأخلاق ما يتعدى صاحبه إلى غيره فيعم النفع به وتعظم الفائدة منه

كالنسمة الرقيقة يأخذ كل إنسان حظه منها فتنتعش قلوبهم وتصح أبدانهم وأذهانهم ، ولخطر هذه الفضائل الأخلاقية المتعدية حض الإسلام على تحقيقها وترسيخها فى المجتمع الإسلامى ، وكأنه بما ساقه من نصوص الترغيب فى التمسك بها والترهيب من التفريط فيها يدفع الناس إليها دفعاً ويدعُّهم إليها دعًّا ، وتكاد هذه الأخلاق لا تحصى ومن أمثلتها الصبر والعفو والنصيحة والبذل والشجاعة وقضاء حاجات الناس والشفاعة فى الخير ، ومن تتبع النصوص الإسلامية قرآناً وسنة تجمع له من ذلك أسفار ، وإن كان العلماء رضى الله عنهم قد حاولوا ذلك فقد فاتهم الكثير ، ولو قارنا ما جاء فى الإسلام خاصا بذلك بما جاء فى الأديان التى غلب عليها الطابع الخلقى والوعظى لرجح الإسلام غيره فيها .

ومن تلك الأخلاق المتعدية التى خصها النبى بعنايته ونوه بفضلها قولاً وعملاً التواضع أو فضيلة التواضع ، والتواضع حقيق بهذه العناية ، ويستطيع المتحدث أو الكاتب أن يقول فى آثاره الإيجابية والسلبية ما شاء ، يستطيع أن يقول إنه شيمة العقلاء ويستطيع أن يقول إنه رسول الود والمحبة والتعاطف بين المسلمين ويستطيع أن يقول إنه مادة التلاحم بين الأفراد والجماعات ، يستطيع أن يقول إنه مغناطيس التجاذب بين الناس حيث يغرى بعضهم ببعض فيتآلفون ويتلاحمون ، وبالجملة فالتواضع مفتاح الخير وسبيل الرضا ، ورضا الناس غاية غالية الثمن فمن ظفر بها فقد ظفر بسعادة الدنيا والآخرة وهذه هى الآثار الإيجابية للتواضع أما آثاره السلبية التى تستتبع الحرمان منه فهى القطيعة والحقد والبغض وكف اليد عن التعاون واستجلاب الشر والأذى جزاء نفوره وتعاظمه فيفقد الولى والنصير ويعيش غريباً حتى بين أهله وأقرب الناس إليه ، إن التواضع مفتاح الخير ، والتكبر مفتاح الأذى والشر وينبغى أن نشير هنا إلى أن إلزام النفس بالتواضع يحتاج إلى مجاهدة ورياضة لحمل النفس عليه ، فحب التظاهر والتعاظم والتسلط غريزة من أقوى الغرائز وألصقها بالنفس ، ومما يغرى بها أن يجتمع للمرء أسباب التسلط والقهر ، كما تجتمع للملوك والأمراء والرؤساء وقديماً ركب فرعون شيطان الغرور فاستعلى على قومه كما حكى القرآن الكريم « ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين » قال الإمام الغزالى : وقد فوض

الله تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد وتشميره واستحثه على تهذيبها بتخويفه وتحذيره .

وانطلاقاً من هذا المفهوم لطبيعة الإنسان حرص النبي ﷺ على توضيح الأسلوب الذي يمكن أن يروض به الإنسان نفسه على خلق التواضع حرص على توضيحه بقوله وفعله ، أما بقوله فما أكثر ما جاء عنه في الحض عليه وبيان فضله وإذا أمر بشيء أو نهى عنه أو عما يجر إليه بدأ بنفسه ، ومما جاء في ذلك قوله ﷺ : تواضعوا وجالسوا المساكين تكونوا من كبراء الله وتخرجوا من الكبر وجاء في أحاديث أخرى عنه لا تخيروني على موسى ولا تفضلوا بين أنبياء الله وجاء : ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى ومن أقواله ما جاء في حديثنا هذا فقد أبى على أصحابه أن يخاطبوه بيا سيدنا وابن سيدنا أو أفضلنا وابن أفضلنا وأرشدهم إلى أن ينادوه بما ناداه به الله : محمد بن عبد الله ورسوله .

ما أحلى هذا النداء وأعذبه في القلوب والأسماع إنه لنداء التكريم والإجلال من ذي العظمة والجلال .

وأما توضيحه بمجاهدة أسباب الكبر ومحاولة اكتساب التواضع بالفعل فقد كان في سلوكه بين أهله في بيته وسلوكه بين أصحابه وفي حياته عامة فإنه كان يأبى أن يتقدم أصحابه إذا مشى ويطلب إلى من تأخر عنه من أصحابه إجلالاً لمقامه أن يتقدم ليكون بمحاذاته لا خلفه ، وإذا اشترى شيئاً من السوق حمله بنفسه ويأبى أن يحمله عنه غيره ، وفي بيته كان يقوم ببعض ما يتيسر من مصالحه فكان يكنس البيت ويخيط الثوب ويصلح النعل ولا يثقل على أهله في شيء من طعامه فيأكل مما حضر من الطعام ولا يرد شيئاً منه ويرى في كل شيء فضلاً من الله ونعمة لا يتشهى غائباً ولا يتطلع إلى حاضر .

إن الحديث عن تواضعه ﷺ قولاً وعملاً حديث عذب طويل يكشف عن صفاء قلبه وكرم نفسه ومقدار فضله فكيف الحديث إذا رتعنا في رياض أخلاقه وإنها لرياض نضرة مونقة الأزاهير شذية النسمات لو يستمتع كل منا بنفحات منها ونظرات إليها لطابت نفسه وانشرح صدره واعتدل مزاجه واستقام سلوكه وصفت نظرته إلى الحياة وتبددت عتماتها وتجلى له ما فيها من أنعم الله وفواضله وامتدت أسباب الوصول بين المنعم المفضل وبينه وعرف له قدره وحقه ووفى له بذلك الحق شكراً وتسبيحاً وتقديساً وتنزيهاً وتمجيداً وتعبداً وإخباتا ، والله بعباده لطيف خبير رؤوف رحيم .

وبعد .. فإن الحديث في التواضع مردد معاد وقد يكون في الإعادة إفادة ،

وأقل فوائدها الذكرى وما أجلها حيث أحلها الله من المنزلة ما أحلها إذ يقول « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » ،

والسلام عليكم يا سيدى يا رسول الله يا صفوة المرسلين وقدوة المتواضعين . . .

أبو الوفا المراغى

من وصايا الخليفة للقائد

قَالَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ حِينَ وجَّهَهُ قَائِداً لِقِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ :

« سِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ ، فَإِذَا دَخَلْتَ أَرْضَ الْعَدُوِّ فَكُنْ بَعِيداً عَنِ الْحَمْلَةِ ، فإِنِّى لا آمَنُ عَلَيْكَ الْجَوْلَة ، وَاسْتَظْهِرْ بِالزَّادِ ، وَسِرْ بالأدِلَّاءِ . ولاَ تُقَاتِلْ بِمَجْرُوحٍ فَإِنَّ بَعْضَهُ لَيْسَ مِنْهُ ، واحْتَرِسْ مِنَ الْبَيَاتِ ، فَإِنَّ فِى الْعَرَبِ غِرَّةً ، وأَقْلِلْ مِنَ الْكَلاَمِ فَإِنَّمَا لَكَ مَا وُعِىَ عَنْكَ » .

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

مناقشة دعوى استقلال الفلسفة عن الدين

الدكتور يحيى هاشم

تتصدى هذه المقالة لدعوى استقلال العلم عن الدين فى ضوء مفهومين للعلم :

المفهوم القديم الذى يعنى المعرفة الإنسانية التى تشمل الفلسفة والمعارف الكونية والطبيعية وكل ما يدخل فى دائرة المعرفة الإنسانية .

هذا المفهوم ظل سائداً فى الحضارات القديمة حتى عصر النهضة الأوربية .

والمفهوم الحديث : الذى يعنى العلم باعتباره خاصا بالبحوث والنظريات والنتائج التى تقوم على المنهج التجريبى . وما عدا ذلك فليس من العلم ، وإنما هو من الفلسفة أو من الدين . .

ربما كان من المتبادر إلى الذهن ، أن العلم بمفهومه القديم الشامل للمعرفة الإنسانية بكل أنواعها لم يكن مستقلا عن الدين . وما علينا إلاَّ أن نلاحظ أن العلم فى العصور القديمة كان شاملاً لجميع أنواع المعرفة بما فيها الدين ، والسحر ، والفلسفة وما إليها ، فالكلام فى هذه النقطة نافلة من القول لا جدوى من ورائها . .

ولكننا نرد على ذلك فنقول :

مع أن العلم بالمفهوم القديم كان شاملاً لجميع أنواع المعرفة إلا أن الفلسفة العقلية كانت هناك ، وقد كانت قائمة فى طور رقيها على البحث العقلى الحر المستقل عن الدين أو تدعى ذلك ، وكانت تنشر تأثيرها فى جميع أنواع المعرفة السائدة . . أيضاً . .

هذا من ناحية . .

ومن ناحية أخرى فنحن نريد بالكلام عن استقلال العلم عن الدين ، لا استقلاله من ناحية الموضوع أو المعلومات . . . ولكننا نريد أن نتكلم فى جذر القضية :

أى استقلاله من ناحية المنهج . .

وبعبارة أوضح وأدق : نريد أن نجيب على السؤال الآتى :

عندما وضع العلم منهجه بمفهومه القديم أو بمفهومه الحديث : هل كان مستغنياً عن الدين ؟

هذا هو السؤال ؟

وقبل أن نجيب عليه يلزمنا أن نوضح المقصود بالدين فى مجال هذا البحث .

نحن لا نريد أن ندخل هنا فى مشكلة تقديم تعريف للدين يكون جامعاً مانعاً . .

فلكل تعريف فى هذا المجال مآخذه . .

ويكفى أن نذكر أن ما نريده بالدين فى مجال هذه المقالة . وبحسب طبيعة الموضوع الذى نتصدى له بالبحث . . . المعنى العام الذى لا يختص بالدين الصحيح ، وإنما يشمل أى نظام من المعتقدات التى تتوفر لها الخصائص التالية كلها أو بعضها . .

أولاً : أن تقوم على إيمان أولى . .

ثانياً : أن تقوم على التسليم بوجود غيبى غير خاضع للإدراك الحسى المباشر أو غير المباشر .

ثالثاً : الإيمان بأصل للكون يتصف بالقدم والخلود وترجع إليه الأشياء فى طبيعتها وقوانين وجودها .

رابعاً : انتظار الحياة المؤجلة التى يستكمل فيها ما نقص من هذه الحياة الحاضرة .

ولنبدأ إذن فى محاولة الإجابة على السؤال الذى قدمناه ، فيما يختص بالعلم بمفهومه القديم ، هل كان محقاً فى دعواه الاستغناء عن الدين والتحرر من المعتقدات الأولية السابقة على البحث العقلى ؟

إنه فى نظر الفلسفة القديمة نجد أن التعلم لا يمكن أن يتم إلا إذا كان هناك علم سابق ، وهذا العلم السابق لا يمكن أن يتسلسل إلى غير نهاية ، بل لابد أن يقف الإنسان عند أشياء ضرورية يقينية بعدها تبدأ البرهنة .

وتقوم حينئذ مشكلة هى :

من أين لنا الوصول إلى هذه المعرفة الضرورية اليقينية الأولية . . . ؟ اضطر أفلاطون ليحل هذه المشكلة إلى القول بالتذكر ، فهو يرى : أن هذه المعارف الضرورية لا يجدها الإنسان فى نفسه إلا لأنه قد حصلها من قبل فى حياة سابقة حيتها النفس فى عالم المثل . . . [1]

أما أرسطو فكان يرى أن مصدر هذه الأوليات هو العقل ، وهى دائماً صادقة .

وتقوم هذه الأوليات جميعاً على مبدأ عدم التناقض « وأرسطو يقول عن هذا المبدأ إنه لا يمكن لأى عاقل أن يشك فيه بجد ، كما أنه لا يمكن مطلقاً البرهنة عليه ، لأنه أولى . . . [2] » .

وهنا ينشأ سؤال :

ما هو هذا العقل الذى هو مصدر هذه الأوليات ؟

(١) أرسطو للدكتور عبد الرحمن بدوى ص ٦٢ طبعة ١٩٦٤ النهضة المصرية .

(٢) المصدر السابق ص ٧٨ .

يقول أرسطو فى الجزء الثانى من كتابه عن النفس :

أما فيما يمس العقل فليس هناك شىء بديهى بشأنه . .

والعقل عند أرسطو :

عقلان :

العقل الهيولانى وهو ذلك الجزء من النفس الذى من شأنه أن يكون محلا أو مستودعاً يقبل معانى الأشياء .

العقل الفعّال : هو الذى ينتزع المعانى فعلاً ، ويلقى الضوء على الصور الخيالية لتخرج منها الصور العقلية من القوة إلى الفعل ، وقد وصف أرسطو هذا العقل بصفات تسمو عن عالم الإنسان وعن العالم الطبيعى .

يقول الدكتور محمود قاسم فى كتابه فى النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام :

(ترك أرسطو مشكلة العقل غامضة) .

وقد حاول شراحه تفسير هذا الغموض . .

وعلى رأس هؤلاء إسكندر الأفروديسى الذى ذهب إلى أن العقل الفعال عند أرسطو «ليس جزءاً من أجزاء النفس أو وظيفة من وظائفها ، بل هو الإله الذى يتمثل فى نفوس البشر ويقوم مقامهم فى إدراك معانى الأشياء» . وإسكندر الأفروديسى هذا هو الذى يقول عنه أبو نصر الفارابى من حكماء المسلمين : «لن يكون المرء فيلسوفاً إلا إذا كان على رأى الإسكندر»[1] .

فإذا انتقلنا إلى فلاسفة المسلمين وجدناهم يذهبون إلى أن العلم يحصل عن طريق الفيض من العقل الفعّال .

ذلك أن الإنسان بممارسته النظر والبحث يعد ذهنه لهذا الفيض ، والنتيجة وهى العلم تفيض عليه وجوباً .

يقول الفارابى :

«الروح الإنسانية تتمكن من العلم بقوة لها تسمى «العقل النظرى» وهذه الروح كالمرآة .

وهذا العقل النظرى كصقالها .

وهذه المعقولات ترتسم فيها من الفيض الإلهى ، كما ترتسم الأشباح فى المرايا العقلية» .

وهنا نتساءل ، أو يجب أن نتساءل . .

ما مصدر الثقة بهذا العقل ؟

إن العقل نفسه ولا أحد سواه يضع أمامنا أن يكون هو نفسه ضالاً مضلاً ؟

فما هو الضامن لسلامة العقل ، وقدرته

---

(١) انظر فى النفس والعقل عند فلاسفة الإغريق والإسلام للدكتور محمود قاسم ص ١٩٧ – ١٩٨ – ٢٠٢ .

على معرفة الحقيقة ؟

هنا تضع الفلسفات القديمة هذا الضمان كما رأينا من ناحية ما تقرره من نظرية فى الوجود ، تتضمن انتماء جوهر العقل إلى الكائنات العليا ، وأن ما يفيض عليه من علوم إنما يأتيه من المبادئ العليا المقدسة التى تتسلسل فى وجودها من الله إلى العقل الفعّال .

ومن هنا تظن الفلسفة القديمة أنها وضعت الأساس العقلى للثقة فى العقل . .

لكن الحقيقة أنها مخدوعة - منهجيًا - فى هذا الأمر .

لأن هذه الثقة - من الناحية المنهجية - مترتبة على نظرية الوجود التى أشرنا إليها .

وهذه الثقة بدورها إنما هى نتيجة نظر عقلى ، وهذا النظر العقلى هو نفسه الذى نتساءل عن مصدر ثقتنا به ؟

وإذن فطبيعة الأمور تقضى بأن توضع هذه الثقة أولاً - أى قبل الوصول إلى نظرية الوجود - وإلا فإن كل ما يصل إليه العقل - نتيجة النظر - يكون مبنيًا على أساس عقلى بحت ، ويظل العقل بكل ما حققه من نظر وبكل ما وصل إليه من نتائج ، قائماً على هوة سحيقة لا قرار لها معلقة بالجواب على هذا السؤال : ما مصدر ثقتنا بهذا العقل وبنظره ، ونظرياته . . . ؟

لا إجابة على هذا السؤال فى الفلسفة القديمة إلا إذا نقلنا نظرية الوجود من كونها نتيجة للنظر إلى كونها مقدمة له ، وإذن تصبح نظرية الوجود إيماناً أو ديناً ، فإذا انتقلنا إلى المتكلمين نرى الآتى :

ذهب المتكلمون من المعتزلة إلى : أن معرفة الله تعالى لا تكون بالدليل النقلى وإنما تكون بالدليل العقلى المستقل .

والمراد بالدليل العقلى المستقل الذى يقوم فيه العقل بالاستدلال ، بجهد ذاتى ، يتبع فيه الطرق المنطقية وينتقل فيه من العلوم الضرورية إلى العلوم النظرية ، دون أن يستند إلى شىء من حجية النصوص الدينية ، أى السمع .

وهم يبينون لنا الميادين التى يجب أن يخوضها العقل مستقلاً ، وهى : معرفة الله بتوحيده ، وعدله وذلك بأن ينظر فى :

الحوادث ليعرف أنها محدَثة . .

وأنه لابد لها من محدِث .

وأن هذا المحدث يصح أن يفعل ، ليعلم كونه قادراً

وأن فعله محكم . ليعلم كونه عالماً

وأنه ليس بجسم ولا عرض

وأنه غنى غير مفتقر لغيره

وأنه لا يرى بالأبصار

وأنه واحد

وأنه عالم بقبح القبيح

وأنه عدل حكيم .

وأنه قادر على إرسال الرسل .

وإظهار المعجزة على أيديهم ، ليدل بها على صدقهم .

وأنه متكلم ، ليوحى إليهم بالرسالة .

– أما بقية المباحث :

كالوعد والوعيد .

والأسماء والأحكام .

وبقية الأمور السمعية التى تتعلق بأخبار البعث ، واليوم الآخر ، والجنة والنار . فتشترك فيها الدلالتان :

العقلية

والسمعية

ولا تستقل السمعية فيها

وأئمة الأشاعرة – وبخاصة المتأخرين منهم الذين يمثلون عصر نضج علم الكلام – يذهبون إلى أن العقل يستقل بمعرفة المسائل الآتية :

حدوث العالم

ووجوب المحدِث

وقدرته

وإرادته

وكونه حيًا

متكلماً

صادقاً

مرسلاً للرسل

مظهراً للمعجزة على أيديهم ، ليدل على صدقهم .

– وأما بقية المسائل ، فإنه مع أنَّ العلم بها يتوقف على السمع ، فإن للعقل فيها دوراً حاسماً ، لأنها لا تصح إلا إذا كانت مما يجوّز العقل وقوعه .

– إن العبارة التى تلخص موقف علم الكلام عند الأشاعرة من استعمال الدليل العقلى أو النقلى هى ما قاله الإيجى صاحب كتاب المواقف :

« ودلائله – أى علم الكلام – يقينية يحكم بها صريح العقل . .

وقد تأيدت بالنقل . . »

فبصريح العقل يتم الحكم .

وبالنقل يحصل التأييد

مجرد التأييد .

وليس أصرح من ذلك ادعاء باستقلال العقل واستغنائه بنفسه فى معرفة الله تعالى . . فهل تم فعلاً للمتكلمين ما أرادوه من استقلال العقل بالمعرفة فى وضع أسس الاعتقادية ؟ . . لننظر :

إن المعرفة العقلية المستقلة على أى شيء تقوم ؟

– إنها تقوم على العلوم النظرية .

والعلوم النظرية تقوم بدورها على العلوم الضرورية .

والمقصود بالعلوم الضرورية : البدهيات . وما يلحق بها مما لا يحتاج فى إثباته إلى دليل .

– وما مصدر هذه البدهيات ؟

يقول المتكلمون إن الله هو الخالق للعلوم الضرورية . .

كما قالوا فى مواضع أُخرى : إنه الخالق للعلوم النظرية . .

قال بذلك الأشاعرة . .

– وما مصدر هذه البدهيات ؟

يقول المتكلمون : إن الله هو الخالق للعلوم الضرورية . .

كما قالوا فى مواضع أخرى : إنه الخالق للعلوم النظرية .

قال بذلك الأشاعرة .

وقال بذلك المعتزلة أيضاً على الرغم من أنهم يقولون فى سائر الأفعال الأخرى : إن العبد خالق أفعال نفسه .

يقول القاضى عبد الجبار من كبار علماء المعتزلة .

« لا تبطل العلوم الضرورية ، لأنها من فعل الله تعالى » .

ويقول عضد الدين الإيجى وهو من كبار علماء الأشاعرة « إن العلم غير واقع بالنظر أو بقدرتنا ، بل بخلق الله تعالى ، وهو مذهب أهل الحق من الأشاعرة »

وإذن فمتى أردنا جواباً من المتكلمين عن سبب ثقتنا فى العقل وفيما يقدمه لنا من بدهيات ؟

فسوف يكون الجواب :

– لأنها من خلق الله تعالى . .

ويترتب على ذلك بالضرورة أن تكون معرفتنا بالله متقدمة على أى إجراء يقوم به العقل نحو معرفة الله . وإلا كان كل ما يترتب على هذه البحوث معلقاً على هذا . . السؤال : لماذا نثق ؟

فإذا قدمنا معرفتنا بالله على قيام العقل بنشاطه وبحوثه كان معنى هذا أن الإيمان غير المعلل هو الأساس .

وإذن فقد وجب عليهم أن يتنازلوا عن ادعاء قيام الإيمان بالله على أساس عقلى بحت . وثبت أن الإيمان بالله يجب أن يسبق جميع الخطوات .

إن المثال الذى قدمه الإمام الغزالى لأهمية العقل مؤيداً به مذهب المتكلمين حيث قال :

« مثال العقل . . البصر السليم ، ومثال القرآن . . الشمس المنتشرة الضياء . . »

أقول : إن هذا المثال لا ينطبق على الذين يحتمون السير فى طريق طويل « قبل إثبات النبوة » بالعقل وحده .

فى هذا الطريق الطويل يحتم الأشاعرة والمعتزلة على السواء الاستدلال بالعقل وحده . .

فأين نور الشمس إذن فى هذه المرحلة ؟ ؟

إن المثال الذى ضربه الإمام الغزالى

صحيح ، وهو يقتضى أن يكون الشرع هو الذى ينير الطريق من البداية إلى النهاية .

بل يقتضى أكثر من ذلك .

يقتضى أن يكون الشرع هو الذى ينير الطريق وحده ، والعقل لا دور له إلا النظر . . النظر فى ما يقدمه الشرع من ضياء .

ويقتضى قبل ذلك أن يكون لنا إيمان بالله قبل أن يكون لنا إيمان بالعقل ، لأنه لا ثقة لنا بهذا العقل – أى بهذا البصر – ولا ضمان لنا من أن لا يكون مضلاً لنا . . إلا إذا استقينا هذا الضمان ، وهذه الثقة من مصدر غيره . . عن الإيمان بالله .

أى يتقدم هذا الإيمان على أى نشاط عقلى .

لكن على أى أساس يقوم هذا الإيمان ؟

هذا هو السؤال الكبير . .

الذى نؤجل الإجابة عليه إلى القسم الأخير من هذا المقال . .

د . يحيى هاشم

حِجَابٌ مِنْ نُورٍ

رَبِّ اغْمِسْنِى فى بَحْرٍ مِنْ نُورِ هَيْبَتِكَ ، حَتَّى أَخْرُجَ مِنْهُ وَفِى وَجْهِى شُعَاعَاتُ هَيْبَةٍ : تَخْطَفُ أَبْصَارَ الْحَاسِدِينَ مِنَ الْجِنِّ والإِنْسِ ، فَتُعْمِيهِمْ عَنْ رَمْىِ سِهَامِ الْحَسَدِ فِى قِرْطَاسِ نِعْمَتِى ، وَاحْجُبْنِى عَنْهُمْ بِحِجَابِ النُّورِ الَّذِى بَاطِنُهُ النُّور ، وَظَاهِرُهُ النَّارُ .

أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ النُّورِ أَنْ تَحْجُبَنِى فِى نُورِ اسْمِكَ بِنُورِ اسْمِكَ : حِجَاباً يَمْنَعُنِى مِنْ كُلِّ نَقْصٍ يُمَازِجُ مِنِّى جَوْهَرًا أَوْ عَرَضاً ، إِنَّكَ نُورُ الْكُلِّ ، وَمُنَوِّرُ الْكُلِّ بِنُورِكَ . .

الإمام البونى

بلاغة الأسلوب النبوى

فضيلة الشيخ منشاوى عبود

تمهيد :

بينت فى المقال السابق أن « مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام إبلاغ شريعة الله تعالى إلى الناس بقول سديد ، وكلام بليغ ، وحجة مستنيرة ، وبيان مشرق ، كما قال عز وجل فى تحديد تلك المهمة : « فهل على الرسل إلا البلاغ المبين »[١]

وأوضحت : أن بلاغة القول إذا كانت أمرا لازما تقتضيه رسالة كل رسول للقيام بأعباء دعوته - فهى بالنسبة لرسولنا الأكرم - أشد لزوما ، وأكثر حاجة ، وأجل أثرا إذ قد بعث - صلوات الله وسلامه عليه - فى أمة عربية تعتز بفصاحة اللسان ، وتتبارى فى بلاغة القول وتمجّد البيان ، وتسمو بأهل الإجادة والبراعة فيه إلى أسمى مراتب التقدير والإكبار .

فاقتضت الحكمة الإلهية أن تكون معجزته - ﷺ - من جنس ما يشغل فراغ القوم ، ويأخذ بألبابهم فأنزل عليه القرآن الكريم حافلا بأعلى صورة لجزالة المعنى واحكام النظم ، وروعة البيان ، فخرّ أئمة البلاغة صاغرين أمام عظمته ، وأذعنوا لإعجازه .

واقتضت الحكمة الإلهية أيضا أن يكون الرسول الذى أنزل عليه القرآن المعجز فى رتبة من البيان تلى رتبة الكتاب الكريم ليتمكن من إبلاغه والاقتناع به فى صورة محكمة رائعة .

لذا أتم الله تعالى على رسولنا الأعظم نعمة البيان فكان المثل الأعلى فى الفصاحة وبلاغة الكلام ، وما من شأن من الشئون تحدث فيه - ﷺ - إلا كان أبين غرضا وأصدق لهجة ، وأبلغ قولا ، وأروع أداء ، وقد مثلت لنموذجين من صنوف بلاغة الأسلوب النبوى - وأحاول فى هذا المقال أن أمثل لبعض النماذج الأخرى لبلاغة هذا الأسلوب فأقول :

(١) سورة النحل آية رقم ٣٥ .

يمتدح علماء البلاغة الكلام القليل الدال على المعانى الكثيرة فيقولون: «البلاغة الإيجاز» وعندما نستعرض الأحاديث النبوية نجده - عليه الصلاة والسلام - السابق المجلّى فى هذا الميدان - فقد أتاه الله تعالى جوامع الكلم، ومنحه القدرة على الكلام الوجيز الحامل لكثير من المعانى الرفيعة القيمة.

فمن أمثلة ذلك قوله - صلوات الله وسلامه عليه - فى فضل الحياء وبيان حميد عاقبته:

(الحياء لا يأتى إلا بخير)[1]

وقوله فى الحض على اختيار الصديق، وتحرى الصاحب

(الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل)[2]

وقوله فى ذم السؤال من غير حاجة، وتقبيح هذا السلوك الشائن:

(من سأل الناس تكثُّرا فإنما يسأل جمرا، فليستقل، أو يستكثر)[3]

وقوله فى الإشادة بصلة الأرحام للقاطعين، ومقابلة هجرهم، ومنعهم بالتقرب منهم، والإحسان إليهم: (ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها)[4] أى ليس الواصل الذى يعتد بصلته يكافئ صاحبه بمثل فعله، ويعطيه نظير ما أعطاه ولكن الواصل حقا هو الذى إذا قطعه أرحامه، ومنعوه وصلهم وأعطاهم

وقوله فى التنويه بنعمتين عظيمتين، والتوجيه إلى المسارعة للنفع بهما فى كسب صالح الأعمال والتزوّد من الطيبات (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)[5]

وبدل أن نستطرد بذكر كثير من الأمثلة نجتزىء بعرض ما قاله - صلوات الله وسلامه عليه - تحدثا بنعمة ربه، واعتزازا بجزيل عطائه: (أُعطيت جوامع الكلم، واختصر لى الكلام اختصارا)[6]

يذكر البيانيون التشبيه على أنه طريق من طرق الأداء لجلاء المشبه، وإيضاح المعنى المراد، وإكسابه رفعة وسموا.

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود والترمذى.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخارى.

(٥) رواه البخارى، والمراد بالفراغ هدوء البال وعدم شغله بما يعكر صفو الحياة.

(٦) رواه أبو يعلى فى مسنده عن ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ورواه أيضاً البيهقى فى الشعب والدارقطنى عن ابن عباس - رضى الله عنهما.

واذا نظرنا إلى تشبيهات رسول الله - ﷺ - وجدناها وردت فى أروع صورة، وأزهى حلة، وأقوم عبارة، تحدد الهدف، وتجلى القصد، وتجتذب انتباه السامع وتثير إعجابه. فمن ذلك قوله - ﷺ - فى رفع شأن الذاكر لربه والتقبيح لحال الغافل عن الذكر «مثل الذى يذكر ربه، والذى لا يذكره مثل الحى والميت»[(١)] ووجه الشبه بين الذاكر والحىّ الاعتداد بكل منهما، وثبوت أهلية العون والنصرة فيهما.

ووجه الشبه بين تارك الذكر والميت عدم الاعتداد بكل منهما وتعطيل القلب والجوارح عندهما - وقوله فى بيان الأهمية لمعاونة المؤمن لأخيه، ومؤازرته (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وشبك ﷺ أصابعه)[(٢)] ووجه الشبه بين المؤمن المعاون لأخيه والبنيان التماسك والقوة، وحاجة كل منهما فى جميع شئونه إلى الآخر. ولتأكيد وجه الشبه شبك - عليه الصلاة والسلام - بين أصابعه.

وقوله فى الإشادة بالمؤمن من حيث أكله من طيبات الرزق وما ينشأ عن ذلك فى كسبه لصالح الأعمال (مثل المؤمن مثل النحلة. لا تأكل إلا طيبا ولا تضع إلا طيبا)[(٣)]

ووجه الشبه بين المؤمن والنحلة طيب الأكل وعظم النفع والأثر، وقوله فى العناية بأمر الصلاة المفروضة وتصوير أثرها العظيم فى محو الخطايا والتطهير من الذنوب والآثام: (مثل الصلوات الخمس. كمثل نهر جار عذب على باب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات. فما يبقى ذلك من الدنس؟)[(٤)] وواضح أن وجه الشبه بين الصلوات الخمس والنهر، كون كل منهما أداة للتطهير بيسر وسهولة.

وقوله فى تقرير أن سلامة الأمة تكون بمقاومة المنحرفين من أبنائها والأخذ على يد العابثين بأمنها ووحدتها.

(مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها كمثل قوم اَسْتَهَمُوا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على مَنْ فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا من نصيبنا خرقاً، ولم نؤذ مَنْ فوقنا.. فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه البخارى.

(٣) رواه ابن حبان فى الصحيح، ورواه الطبراني فى المعجم الكبير عن أبى رزيم رضى الله عنه.

(٤) رواه الإمام أحمد فى مسنده، ومسلم فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه.

على أيديهم نجوا ونجونا جميعا)[1] ومعنى حـدود الله أحكـام شريعتـه . والمراد من القيام عليها التزامها بالعمل بها كما أن المراد من الوقوع فيها مخالفتها وترك العمل بها ومعنى استهموا على سفينة : اقترعوا على قسمتها وأخذ كل فريق سهما بالقرعة . وفى الحديث ثلاثة تشبيهات :

الأول : تشبيه القائمين على حدود الله الذين يحلون الحلال ويحرمون الحرام ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بمن يركبون أعلى السفينة بجامع العلوّ فى كل .

الثانى : تشبيه الواقعين فى حدود الله التاركين الأمر بالمعروف وفعله المقترفين للمنكر بمن يركبون أسفل السفينة بجامع الانخفاض فى كل .

الثالث : تشبيه ضمنى وهو تشبيه أحكام الشريعة السمحة بالسفينة ، فكما أن السفينة متى أحسن ركابها تصريفها ، وسددوا قيادتها وصلت بهم إلى بر السلامة ، ونالوا ما يبتغون ، كذلك الشريعة القيمة إذا التزمها أهلها ، واستمسكوا بهديها خاضوا معترك الحياة وهم فى أمن من الخطر ، ومنجاة من الزلل ، وبلغوا ما تطمح إليه نفوسهم من عز الدنيا وسعادة الآخرة . ولا يصح أن تكون هذه التشبيهات من قبيل التشبيه المتعدد ، لأن ذلك إنما يستقيم حيث يمكن استقلال كل تشبيه بمعنى صحيح مقصود على حدته وإنما المراد أن يكون المسلمون كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضا ، وألا يفروا من العصاة بل يدعوهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة فالتشبيه فى الحديث ، من قبيل التشبيه المركب ، وهو تشبيه حال المسلمين القائم منهم على الحدود والواقع فيها ، والساكت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحال قوم شركاء فى سفينة تنازعوها ، فاستهموا على قسمتها فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فأراد من أسفلها خرقها تيسيرا للحصول على الماء ولم يجدوا بأسا من ذلك على اعتبار أنهم يتصرفون فى خالص نصيبهم ، فإن منعهم من هم فى أعلى السفينة من هذا التصرف الخطر نجا الجميع ، وإن تركوهم وما أرادوا هلك الجميع – والجامع هو الهيئة المنتزعة من اجتماع نافع وضار فى محل واحد .

فهل رأيت أروع من هذا التصوير فى إيضاح أن صيانة الأمة وأمنها لا يحصلان إلا بأخذ الراشدين فيها على أيدى العابثين والمفسدين ؟ .

منشاوى عثمان عبود .

(١) رواه البخارى والترمذى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه .

بناء الاقتصاد فى الإسلام

الله أكبر
فى المعركة الاقتصادية

فضيلة الشيخ زيدان أبو المكارم

لقد أكرم الله أمتنا بالعاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ والحمد لله ، وانتقلنا من الشعور الأليم بمرارة الهزيمة إلى الثقة بالنفس ، والأمل فى المستقبل .

ومادمنا قد استطعنا أن نحرز هذا القدر من النصر فى الميدان العسكرى ، فإن فى قدرتنا أن نكسب مثله فى سائر الميادين : فى الاقتصاد ، والحرية ، والصحة ، والتعليم ، والثقافة ، والصناعة ، والزراعة . . . إلخ .

ولكن حكمة الشعب وإيمانه ووعيه بالتجربة تجعله يُنادى :

« لا تنسوا – بعد الاعتراف بفضل العلم والتخطيط والتدريب والسلاح ، وشجاعة الرجال فى المعركة »

« لا تنسوا قبل ذلك وبعده وفى كل وقت فضل « الله أكبر » معبرة عن إيمان ويقين ، وآخذة من كل قوة أقصى طاقتها وأكثر من طاقتها بعون الله ، فيصبح الرجل الواحد اثنين بل بعشرة من الرجال ، وتصبح البندقية مدفعا ، والطائرة الواحدة سِرْباً ، والبارجة أسطولا ! !

كيف ؟ لأننا بذلنا أقصى طاقتنا ، ثم وصلنا قلوبنا – ونحن نفعل ذلك – بِمَنْ لا نهاية لقدرته ، ولا غالب يغلبه : الله عز وجل .

لا يجوز أن ننسى هذه التجربة العسكرية فى ظلال الإيمان ، ومدد رمضان ونحن نواجه أية معركة أخرى .

وعلينا أن نعرف كيف يكون الإيمان سلاحاً يشترك فى حَلّ جميع الأزمات ، ونعلو به فوق الماديات وأطماعها الخائبة ، كما ارتفعت أرواح المجاهدين والشهداء ، فقهرت شهواتها ونقائصها ، وقهرت أعداءها ، وحقّقت النصر ! !

والآن : كيف يتمُّ ذلك فى ميدان الاقتصاد ؟

لابُدّ من تحديد غاية شريفة ، لا يختلف عليها أحد .

ولابُدّ من الإيمان بها ، وبِسُمُوّها وعدالتها ، إيمان يقينى لا شك فيه .

ولأبدَ مع وضوح الغاية من توضيح الطرق السليمة للوصول إليها عند جميع الناس .

ولأبدَ من التعبئة الشاملة لها فى ظلال : الإيمان ، والحرية ، والاقتناع ، والحب ، والإخلاص ، والجدية ، والخلق المستقيم ، والحماس الدائم .

تلك عناصر ضرورية من أجل البداية ، ومن أجل الاستمرار ، فالمعركة الاقتصادية لا تنتهى ، بينما المعركة العسكرية لها بداية ، ولها نهاية .

ما غايتنا من خوض المعركة الاقتصادية لحل الأزمة ؟

– تسديد الديون ، الارتفاع بمستوى التنمية ؟

– التصنيع ، زيادة الإنتاج ، القضاء على البطالة ؟

– الرفاهية ، تلبية الطلبات والرغبات ؟

– بناء الاشتراكية ؟

على قدر قراءاتى المحدودة[1] ، لم أستطع أن أعرف هدفاً مُتفَقاً عليه ! !

ولكنى لاحظت أن نصيب (الإنسان المصرى المؤمن) تائه ، أو ضائع ؟ !

فإذا عَدلنا الميزان ، ورجعنا إلى (الإنسان المصرى المؤمن) وجدناهُ يتعلق بعقيدته ، وبكتابه المقدَس ، يطلب منه الحَلّ وتحديد الهدف ، ويقول واثقاً :

إذا وجَهنا وُجُوهنا وقلوبنا نحوكتاب الله وسنة رسوله ، فسوف نكتشف الغاية ونُميِّز بينها وبين الوسائل ، وسوف نكسب المعركة بقوة اللهَ الذى وضع الإيمان فى قلوبنا .

– من واجبى ألا أطيل عليك ، ولكنى أُريد أن أكون واضحاً وأنا أضع الأمانة بين يدى رجل عرف بإخلاص النصيحة لأُمته وحُكَامها :

لقد وليتُ العناية بالاقتصاد فى الإسلام منذ أكثر من عشرين سنة فى ظلال القرآن والسنة .

وما نشرتُه من رسائل ومقالات لا زلتُ أرجو أن يلْتفتَ إليها بالنقد والدراسة أساتذة الفقه الإسلامى ، وأساتذة علم الاقتصاد .

وفى إيجاز شديد أُقدِّم بعض الإيضاحات الضَرورية .

أوّلاً : فى مجال غاية الإسلام من الاقتصاد :

– الهدف : إقامة «العدل الاقتصادى»

وهذه الغاية هى مسئولية خالدة ، كلَف الله بها الإنسان قبل الإسلام وبعده :

(لقد أرسلنا رُسُلنا بالبيِّنات ، وأنزلْنا

(١) وآخرها مقال د . القيسونى فى الأهرام ٢٢ رمضان ١٣٩٧ هـ الموافق ١٩٧٧/٩/٥ م تحت عنوان : مشكلة مصر الاقتصادية .

معهم الكتابَ والميزانَ، ليقوم الناس بالقِسْطِ) «٥٧ : ٢٥»

والقِسْطُ : هو العدل.

– واذا كانت الرأسمالية تُلخص مذهبها فى قولها : من كُلٍّ حسب مواهبه وقدراته، إلى كُلٍّ بقدر عمله.

– كما تُلخِّص الشيوعية ومشتقاتها مذهبها فى قولها : من كُلٍّ بقدر طاقته، إلى كُلٍّ بحسب حاجته.

– فإن الإسلام، يبرأ من مظالم المذهبين، وهى مظالم حتمية تنشأ من اعترافهما التامّ بضرورة وجود (فائض القيمة) وهذا هو منبع الظلم.

والرأسمالية ترى أن (فائض القيمة) حق الفرد الرأسمالى.

والشيوعية ترى أن (فائض القيمة) حق الجماعة، تستولى عليه الدولة، لتنفق منه على مصالح الجماعة.

وأما (العدل الاقتصادى) فى الإسلام فإنه يقول :

(أوفوا الكيل، ولا تكونوا من المخسرين، وَزِنُوا بالقِسْطَاسِ المستقيم، ولا تبخسوا النّاس أشاءهم، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) «٢٦ : ١٨١ – ١٨٣»

– يجب أن يأخذ كل إنسان حقّه كاملاً، وحينئذ لا يبقى (فائض القيمة) على الإطلاق.

ولكل إنسان يعيش على أرض الوطن التى وهبها الله لجميع سُكّانه على السواء، حقّان :

الأول : حَقُّه فى الانتفاع بنصيبه العادل فى ثمرة الجزء الذى يخصه من تقسيم خيرات الوطن، بَرِّهِ وبَحْرِهِ، وباطن أرضه على أبناء الوطن بالعدل والتساوى.

الثانى : أجر عمله بالعدل، بغير بخس ولا ظلم.

كل إنسان لابُدّ أن ينال حَقّهُ الأول، والحكومة هى القادرة بالوسائل العلمية على تعيينه، شرعاً، وعَقْلاً، وسُلطانا.

أما الحقّ الثانى، فإن الذى يناله هو كُلّ قادر على العمل، ولا يستطيع أن يناله : العاجز والمريض، فَتُكَمِّلُ الزكاة المفروضة حاجاته.

– وأساس الكسب فى (العدل الاقتصادى) هو «العمل».

– القيمة العادلة : حلال، تجب حمايته، وتشجيع طالبيه فى جميع الميادين.

– فائض القيمة : رِباً، حرام، يَجِب ردُّه إلى أصحاب الحق فيه، من المنتجين أو المستهلكين.

– بخس القيمة : حرام، يجب منع من يفعله، وتأديبه، واسترداد ما ينتج عن بخسه من ثروات، ولذلك عقوبات وتعزيرات شرعية.

– والمعادلة فى (العدل الاقتصادى) تقول :

عمل + عدل اقتصادى = سعادة حقيقية + تَقَدُّم حقيقىّ

عمل – عدل اقتصادى = شقاء حقيقى + تَقَدُّم مُزَيَّف

ثانياً : فى مجال وسائل الإسلام ، لتحقيق (العدل الاقتصادى) :

نرى الإسلام يعتمد على دعائم منها :

– التربية الإيمانية والاقتصادية ، التى تحيى الضمير ، وتوقظ الشعور برقابة الله عز وجل ، وترهف الإحساس بحساب النفس على كسبها فى الدنيا قبل أن تحاسب عليه فى الآخرة ، وهى تربية تَتِمُّ دائماً ، وفى جميع المستويات : فى البيت ، والمدرسة ، والجامعة ، والمسجد ، والسوق ، والحقل ، والمصنع . . إلخ ، وعن طريق جميع وسائل الإعلام .

– وضوح الرؤية ، من خلال وُضوح الغاية لدى أجهزة الحكم . حتى تتجه القوانين إلى تحقيق (العدل) بالأساليب المناسبة الواضحة :

فالزكاة ، ثم الضرائب ، والجمارك ، والرسوم . . . إلخ .

وسائل جباية ، لإحسان التوزيع ، أو التماس العدل فى إعادة التوزيع .

– استخدام كافة الوسائل العلمية لتقدير قيمة كل سلعة وكل خدمة حتى لا يعتدى أحد على (القيمة العادلة) ويقع فى جريمة الحصول على (فائض القيمة) وهو رِباً .

ومن هنا ترتبط الثروة ارتباطا شرعيا وعمليا ، بالعمل ، عن طريق (القيمة العادلة) ، فمن حقق عملا أكثر نال ثروة أكثر ، وثواباً من الله على كسب الحلال .

لقد كان رسول الله ﷺ يطوف بالأسواق وينهى عن الغش ، وَيَكْشِفُهُ ويُرسل مَن يراقب الأسواق ويضرب مرتكبى العدوان الاقتصادى .

لأبدَ إذاً من :

١ – توضيح (القيمة العادلة) لكل سلعة ولكل خدمة ، وإعلان ذلك إعلاناً واضحاً لجميع الناس .

٢ – استنباط العقوبات الشرعية التى تحمى (القيمة العادلة) من أىّ عُدْوَانٍ يقع عليها ، وأولها استرداد (فائض القيمة) ، ثم تُوَقَّع العقوبات المناسبة ، وتبدأ من الكلمة الزاجرة ، إلى الضرب ، والمصادرة الجزئية ، وأخيراً «القتل» .

٣ – التربية الاقتصادية على جميع المستويات ، ومحورها :

– احترام العمل الشريف .

– حب العدل وتقديسه .

- حب الكسب الحلال ، واحترام أصحابه ، وتكريمهم وإعلاء منزلتهم

- كراهية الكسب الحرام ، والترفع النفسى عن حيازته أو قبوله ، أو احترامه ، وإسقاط قيمة من يُصِرُّ على ارتكابه .

٤ - الرقابة الحكومية والشعبية ، ليسود الحلال ، ويأخذ مكانته فى المجتمع ، ويخزى الحرام ويموت مذموماً مخذولاً من جميع الناس ، بقانون الشريعة وبتقاليد المجتمع .

هذا إيجاز شديد فى مجال المبادئ والوسائل .

والآن نضع أمامنا بعض التساؤلات التى أحب أن أعرف رأى الناس فيها ، ومنها :

١ - هل أنت مُوافق على إلغاء الدّعم للسلع التموينية مع زيادة الأجر؟ ،

٢ - هل ترى أن يكون الإلغاءُ كُلّياً أو جزئيا ؟

٣ - كيف يصل الدّعم - إذا بقى ، أو اقتصر على بعض السلع - إلى مَن يَسْتحِقُّهُ من المواطنين .

٤ - هل أنت راضٍ عن مستوى الأداء فى الوحدات الإنتاجية ، ووحدات الخدمات ؟

٥ - ما هى مقترحاتك لرفع مستوى الأداء ؟

٦ - الإنفاق الحكومى مازال - برغم كل المحاولات التى تُبْذَل - ينطوى على فاقد كبير ، ماذا ترى لعلاج ذلك ؟

٧ - هل ترى أن يبيع القطاع العام السلع التموينية ؟ أم يقتصر دَوْرُه على الاستراتيجية القومية ، كالحديد والصلب ، والبنوك ، وشركات التأمين والصناعات الثقيلة ؟

٨ - كيف يمكن تحقيق العدالة بين المواطنين فيما يتحملونه من أعباء ضرائبية ؟ .

٩ - هل يستطيع القطاع الخاص أن يُسهم فى خطة التنمية ؟ وكيف ؟

١٠ - مَنْ هو مَحْدُود الدّخل ؟

- أكتفى الآن بهذه النقاط العشر ، داعياً المولى القدير أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه خير مصر العزيزة . .

الإجابة عن الأسئلة

١ - الأسئلة عن « الدّعْم » : (وهى الأسئلة الثلاثة الأولى) .

- لقد قدّم وزير التخطيط تحليلا بيّن فيه عيوب سياسة (دَعْم السلع التموينية) .

والعيبان الرئيسيان هُمَا : الانحراف الذى يتمثل فى أن مَنْ لا يستحقون الدّعم يستغلون سلع الدّعم لنهب مغانم تصل من الألوف إلى الملايين .

ثُمّ العيب الثانى ، وهو الإسراف فى

الاستهلاك ، الذى يندفع إليه المستحقون للدّعم وغيرهم .

وَكِلا الأمرين يجعل أعباء الحكومة تتضخّم تضخماً مَرَضِياً لا يتوقّف ! !

– ما الحل ؟

يجب أن نلتمس حَلاً يجعل معونة الدولة تصل إلى مستحقيها دون وساطة ، والمستحق إذا وصل إليه حَقّهُ كاملاً ، كانت ثمرة الحكمة فى استعماله عائدة إليه ، وحينئذٍ يأخذ حاجته ، ولا يسرف ولا يُبَذِّر فى الاستهلاك ، ولا يتمكن المستغلون من الاستغلال عن طريق الدّعْم .

– وفى هذا المجال يبرز المبدأ الأساسى فى العدل ، ليقول كلمة : يجب أن ينال كلُّ عامل أو موظف حَقَّهُ كاملاً عن عمله ، فإن كثيراً مِنْ هؤلاء يَحِسُّون أنهم مَبْخُوسُونَ فى أجورهم ومرتباتهم ، وحينئذٍ سوف لا تحتاج الحكومة إلى الدّعم . والفلاح يَحِسّ أنه مغبون من وسطاء السوء ، حيث يبخسون أسعار منتجاته شراءً ، فإذا باعوها نهبوا وحدهم فارق السعر الهائل المتزايد .

– العدل : مَبْدَأٌ يجب أن يسود .

العدل : حَلٌ أفضل لكل المشكلات .

– ولأبُدّ من النظرة العادلة الدائمة ، لإقامة التوازن بين القيم فى ميادين العمل ، وبين الأجور فى ميادين السِّلع والخدمَات من الجهة المُقَابِلة .

– وسنعرض فى المجموعة الثالثة – مع ذلك –لبعض الحُلول المرحلية الواقعية .

٢ – الأسئلة عن الحكومة وأدائها وإنفاقها :

(وهى الأسئلة الثلاثة التالية للمجموعة الأُولى) .

– نسمع عن بعض المصالح الحكومية وإدارتها أنها تؤدِّى واجباتها أداءً نُمُوذَجياً ، ونسمع عن أُخرى أنها قليلة الأداء ، أو سَيِّئة الأداء ، وفى تصوُّرنا أن القسم الثانى أكثر من القسم الأول ، وهذا وذاك له أسبابه الجوهرية المعقولة :

– منها : عدم وُضوح الأهداف لدى العاملين فى تلك الجهات بدرجة كافية تثير حماسهم ، وتحرك مواهبهم لتحقيق الأداء الأمثل .

– ومنها : الإحساس – والإحساس والشعور أمران جوهريّان بكل مقياس – بعدم وجود العدل فى الجزاء ، من حيث المرتبات ، ومن حيث الثواب والعقاب عند المتابعة والتقدير .

ومنها : فقدان دور الإيمان بالله ، والحلال والحرام ، بدرجات متفاوتة فى ميادين العمل الوطنى ، وعدم وضوح الصلة بين الإيمان والنّجاح الدينوىّ فى جميع الأعمال .

– ما الحلّ ؟

من التشخيص الموجز أعلاه يمكن معرفة الأمور التى يجب اتّخاذها ، وعلى رأسها :

– وجوب توضيح الهدف الذى يُثير حماس الإيمان .

– وكذلك إعطاء (العدل الاقتصادى) حقّه من الإيمان والتنفيذ والجدِّيّة .

٣ – أسئلة القطاعين العام والخاص . وتحقيق العدالة :

(وهى الأسئلة الأربعة الأخيرة) .

– لماذا أُنشئ القطاع العام؟ وماذا يجب أن يفعل ؟

ليس من الأوصاف الذاتية لكل حكومة أن تكون مُنْتِجَة سيَّاراتٍ أو بضائع أو تاجرة قماش أو دجاج ! ؟

فإنه يُمكن أن تكون هناك حكومة ناجحة ، ولا تفعل شيئا من ذلك . اشتراكُ الحكومة فى الإنتاج والتِّجارة له أسباب تجعله ضروريًّا فى بعض الأحيان والمراحل .

– من هذه الأسباب انحراف القطاع الخاصّ ، حين يظلم العمال والموظفين ويَبْخَس أجورهم ، وحين يحتكر ، فَيَضُرّ بالمستهلكين ، وحين يهرب من الضرائب ، ويرشو ، ويغش ، فَيَضُرّ الاقتصاد الوطنى كلّه ، وقد يُعرِّض الوطن كلّه للاحتلال الأجنبى ، حين تطغى مَصَالِحَهُ الخاصّة على كل القيم الدينية والوطنية والقوميّة .

– ومن هذه الأسباب أن يعجز القطاع الخاصّ عن القيام بإنتاج كبير يحتاج استثماره إلى زمن طويل ، كما هو الشأن فى الصناعات الثقيلة ونحوها مما لابُدَّ منه للشعوب المتقدمة .

لشىء من هذا وذاك نشأ القطاع العامّ .

والمعيار الذى يُقاس به دور (القطاع العام) هو : حيث يفشل القطاع الخاصّ أو يَعْجَز أو ينحرف ، يجب أن تتدخّل الحكومة بسلطة (القطاع العام) لتؤدى الدور القانونى للشرطىّ الأمين الذى يُمسك بالمُعْتدى ، ويعطى كل ذى حَقّ حَقّهُ بعد ما تبيّن ، ثم يَمْضِى إلى عمله الأساسى فى الرقابة القانونية ، ونَشْر الأمن .

– وفى هذا المجال ، يلوح لى أن مِنَ الأفضل الآن أن يصبح القطاع العامّ (موزع جملة أمين) بدل (تاجر الجملة) ، يُسَلِّم السّلع التموينية إلى (الجمعيات التعاونية) التى تُنشأ الآن على مستوى المصالح والأحياء ، ولها مُسَاهِمُوها ، على أن نُعْنَى عناية فائقة بتوجيه وترشيد الناس . ليحسنوا التعاون على إدارة هذه الجمعيات بالنسبة لجميع المشتركين ، الذين ينبغى أن يكونوا جميع أرباب الأُسَر فى أنحاء الجمهورية .

– وفى مجال الضَّرائب ، وتحقيق العدالة بين المواطنين فيما يتحمّلونه من أعبَاء .

– نبدأ بالحديث عن (محدود الدَّخْل) مَنْ هُوَ ؟

لو أنعمنا النظرة الاقتصادية والضريبية والقانونية ، لرأينا :

بإنصاف – أن (محدود الدَّخْل) هوكل من يُحَدِّد دَخْلَهُ نظام قانونى أو طبيعى يَحْكُمُه الواقع .

– ينطبق ذلك على العدد الأكبر من العاملين داخل الوطن ، ويدخل فيه رئيس الجمهورية ، والوزراء ، وجميع الموظفين فى الحكومة والقطاع العامّ والخاصّ . والفلاحون ذوو الملكيات الصغيرة – فالقانون الوظيفى والطبيعىّ بأنواعه يحكم دخولهم جميعاً ، ويحددها ، ويربطها .

– ويخرج من هذه القوانين : التجار . والمهنيُّون ، وذوو الأعمال الطفيلية . وهؤلاء لا يَحْكُم دخولهم أحد ، ولا يربط مكاسبهم سوى إرادتهم وذِمّتِهِم ، ومنهم من يكسب من حلال ، ومنهم من لا يبالى حلالاً ولا حراماً ، فهو يلتهم كلّ مَا يقع تحت يده ، ويصل فى وقتٍ وجيز إلى الألوف وألوف الألوف ، من الاحتكار ، وفروق الأسعار ، واستغلال الضرورات الغذائية والصحية والأمْنِيّة . . . إلخ .

ولقد أصبح هذا الفريق القليل من ذوى الدُّخُول غير المحدودة يمثل خطراً كبيراً . ! ؟

– يذكر وزير التخطيط[1] أن هذا الفريق امْتَلَكَ مِنْ فروق الأسعار فى ثلاث سنوات ٨٠٠ ثمانمائة مليون جنيه ، بدون إنتاج حقيقى (أى من «فائض القيمة» بالاصطلاح الاقتصادى ، أو من «الرِّبَا» بالاصطلاح الشرعى فى ، الحلال والحرام) .

ما الحَلّ ؟

– هل يجوز أن نعتمد على فلسفة الضرائب ؟

العدل : يقول : لا ، إن الضرائب إنما تكون عن الثروة التى يعترف القانون بشرعيتها وشرفها .

– فهل يحمى القانون الكسب الحرام ؟ .

لابد إذاً من إقامة العدل : نُحِلّ الحلال ونَحْميه ، ونَحْمى أصحابه ونُحَرِّم الحرام ، ونعيده إلى أصحابه المظلومين . . ؟ ؟

عندئذٍ سوف لا نُحمِّل فلسفة الضرائب مالا تستطيع أن تَحْمِلَهُ تَحْت غوايات (فائض القيمة) المُقامِر المُغَامِر ،

---

(١) الاهرام ٩/٩/١٩٧٧ م .

والرّاشي ، والمُرابي المُخرِّب ؟ ؟

– كيف تستعيد «الحكومة» (فروق الأسعار) ، التى بلغت نحو ألف مليون جنيه – فى الدّاخل – لتردها إلى أصحابها الذين أُخذت منهم ظُلْماً ؟

طريق الإقناع الشرعيّ ، والقانونيّ ، والعلميّ – فى ظلال الْمَحبّة والحريّة والإخلاص لله والوطن – هو عندى أفضل الطرق .

– وفى يد «الأزهر» فتاواه الشرعية النزيهة ، وخطبه ومواعظه ومؤلفاته

– وفى يد الحكومة وسائل التغيير الدّاخِلِيّ ، والإقناع المشروع ، عن طريق أجهزة الإعلام والصّحافة والقانون .

وفى يد الشعب نقاباته وجمعياته المتنوِّعة : الاقتصادية ، والاجتماعية والسياسية ؟ ؟

وأخيراً :

فإننى أتصوّر – بالنسبة إلى «مشكلتنا الاقتصادية» أننا تجاه (معركة) ، لماذا ؟

– الأزمات العالمية فى الاقتصاد ، قد التهمت من اقتصادنا فى التضخم العالميّ من ١٩٧٣ – ١٩٧٦ فقط :

١ – ٢٨٠٠ ألفان وثمانمائة مليون من الجنيهات (فروق أسعار) .

٢ – وفى الداخل التهمت (فروق الأسعار) ٨٠٠ ثمانمائة مليون جنيه من الاستهلاك الشعبيّ ، كما التهمت ١٥١ مائة وواحداً وخمسين مليون جنيه من الاستهلاك الحكومى ؟ ؟

– ما الهدف من خوض هذه المعركة ؟

تصحيح المسار الاقتصادى ، وذلك يَقْتَضِى أمرين :

١ – إيقاف نزيف «الرِّبا» الذى يسميه الاقتصاديون «التَضَخُّم» . وذلك بحسب مظهره الخارجيّ .

٢ – وضع الأسس الراسخة التى تَمْنَع عودته إلى الظهور مَرّة أُخرى فى مُستقبل قريب أو بعيد ؟ ؟

– إن هذا الذى يسمونه «التَضَخُّم العالميّ» قد أَلْحَق الأذى بجميع الدول النامية فى العالم الثالث ، وأحست جميعها بوَطْأته الثقيلة عَدَا دُوَل البترول – ولقد احتشدوا لعلاجه ، وهذا أمرٌ لازم وواجب ، ولا يزال دائراً ، والدول الصناعية الكبرى تُحَاوِر وتُراوِغ ! ! والدول النّامية تُطالب وتلحّ للخروج من الأَزمة . ومهما وصف من حُلول مِثْل : زيادة المعونات ، وتسهيل الاقتراض ، وإطالة فترات السَّماح فى سداد الدّيون إلى آخر هذه المقترحات . . فإن ذلك لو أُخذ به كله أو بعضه ، لَنْ يكون حَلاً جذريًا ، وسَوف يسمح بعودة الأزمة مرة أُخرى ومَرات

بأشكال أشد ثقلاً ، وأكثر وَطْأة على الشعوب النامية .

وإنما الحلّ الجذرى يكمن فى الاتفاق على وجوب (تحديد الأسعار العالمية) بطريقة علمية عادلة ، ثم تثبيتها .

– بعد هذا التحديد العادل ، سيكون التّنافس شريفا ، لخير البشريّة جَمْعَاء .

– أما الخضوع لصنم (العرض والطلب) فى تحديد الأسعار ، فسوف يجعل الكلمة الأولى والأخيرة دائماً لأولئك القادرين على الاحتكار والتحكم فى الأسواق بالظلم والبغى .

– والمثل واضح فى (أسعار البترول) التى انتقلت الكلمة فيها إلى منتجى البترول ، بعد حرب رمضان (٦ أكتوبر ١٩٧٣) .

وسياسة مصر فى مجموعة الدول النامية يَجِبُ أن تتّجه إلى تأييد (التسعير العلمىّ العادل) على المستوى العالمى ، حتى تَتّقى الوقوع فى خسارة ٢٨٠٠ مليون جنيه مرة أُخرى ، أو أكثر؟ ؟

هذا فى الخارج على مشقته واضح .

– فماذا عن الداخل ؟ وقد خسرنا ٨٠٠ مليون جنيه فى الاستهلاك الشعبى و ١٥١ مليون جنيه فى الاستهلاك الحكومى ، والمجموع نحو ألف مليون جنيه ؟ .

– يلزمنا أن نواجه هذا الخلل مواجهة حاسمة ، نحاسب فيها أنفسنا ، لنهزم عوامل الشّر والاستغلال والشقاء فى داخلها ، فلا شك أن النفوس إذا طَهُرَت من الأطماع ، والعقول إذا نَوّرتها الهدايةُ الإلٰهية ، والعلاقات الاجتماعية إذا آنسها الإخلاص والمحبة ، كُلّ ذلك كَفِيلٌ بأن يَعْلَق الجميع بالحلال من الرزق . ويحدث تيارا كاسحا للبراءة مما حرم الله من : الربا ، والسحت ، والرشوة ، والغش ، إلى آخر هذه المُوبقات المهلكات .

ولنبتدئ حياة مباركة طيبة فى ظلال الكسب الحلال ، ونخطط اقتصادية قائمة على شرف الغايات ، وطهارة الوسائل ، والزمن جزء من العلاج .

وينبغى أن يؤلف :

« المجلس الأعلى لإقامة العدل الاقتصادى » .

حيث يبدأ (معركة تصحيح المَسَار الاقتصادى) على النحو التالى :

١ – القائد : الحكومة .

٢ – غرفة العمليات لمساعدة الحكومة بالمشورة والرأى ، لإصدار القرارات فى أوقاتها المناسبة لتقبُّل الرأى العام ، وتَضُمّ :

(أ) الاقتصاديين الفنيين .

(ب) الفقهاء الإسلاميين من الأزهر والجامعات .

٣ – القادة المساعدون :

من علماء المساجد والوُعّاظ ، وقادة وسائل الإعلام فى الصحافة والإذاعة والتأليف الأدبى والفنى ، وضباط الداخلية ومُفَتِّشُو التموين . . . إلخ .

٤ – الجنود : جميع أفراد الشعب بدون استثناء ؟ ؟

٥ – من شعارات المعركة :

« العدل الاقتصادى حَقّ لجميع الناس »

« سيادة الكسب الحلال ، وتطهير الكسب من كلّ أمر حرام ، بذلك تَتِمّ سعادة الوطن » .

٦ – الحلال بَيِّنٌ ، والحرام بَيِّنٌ .

ويجب أن تصدر البيانات الشرعية والعلمية والقانونية التى تبيِّن بياناً حاسماً حدود كل من : الحرام ، والحلال ؟ ؟

٧ – المعلومات المؤثرة على القيم :

لابُدّ أن تكون تحت أنظار كل من له اتصال بالتقدير ، وإصدار القرارات فى التسعير والتقييم .

٨ – يجب أن يكون الاعتماد الأكبر فى الإصلاح على (التغيير الداخلى) فى النفوس عن طريق وسائل الإقناع والإعلام ، فى المساجد والمدارس والصحافة والإذاعة والجمعيات العلمية والاجتماعية والسياسية

٩ – القدوة الحسنة فى هذا المجال من أقوى وسائل التغيير :

كم يكون الطريق مُمَهّداً ، حينما يندفع عدد من الذين يحوزون (فوائض القيم) الهائلة . ليتجردوا من آثار جَهَنّم . ويُطَهِّروا أنفسهم وأولادهم من آثار المال الحرام ، ليعيشوا طاهرين مُتَطَهِّرين .

١٠ – النصوص القرآنية : هى القائد المقبول فى كل خطوة تخطوها الحكومة فى المراحل المتتالية لتحقيق العدل الاقتصادى .

– وفى ختام هذا الموجز نذكر قول شعيب عليه السلام رسول الاقتصاد الإلهى :

(وَسِعَ رَبُّنا كل شىء علما ، على الله توكلنا . .

(ربنا افتَح بيننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين) « ٧ : ٨٩ » .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . . .

زيدان أبو المكارم حسن

الوقائع والأحداث في شعر حسان بن ثابت

الأستاذ / السيد حسن قرون

اجتمع لحسان بن ثابت مالم يجتمع لأحد من شعراء الرسول ﷺ ، فهو أول من سمع البشرى بمولده من أهل المدينة ، فقد روى عنه أنه قال : إنى لغلام يفع ابن سبع سنين أو ثمان إذا يهودى يصرخ ذات ليلة : يا معشر يهود ، فلما اجتمعوا قالوا : ويلك ! مالك ؟ قال : طلع نجم أحمد الذى ولد به فى هذه الليلة . قال محمد بن إسحاق : فسألت سعيد بن عبد الرحمن بن حسان فقلت : ابن كم كان حسان بن ثابت حين قدم رسول الله ﷺ المدينة ؟ فقال : ابن ستين . وقدمها رسول الله وهو ابن ثلاث وخمسين سنة ، فسمع حسان ما سمع وهو ابن سبع سنين . وأسلم حسان مثل قومه من بنى الخزرج ، ثم إنه يجتمع مع رسول الله من جهة النسب فى عدى بن النجار ؛ لأن سلمى أم عبد المطلب من بنى عدى بن النجار ، فهو يمت له بصلة القرابة ، فإذا أضفت إلى هذا موهبته الشعرية ونباهة شأنه بين العرب وجدْته جديراً بحب رسول الله وتقديمه .

ويمتاز على غيره من شعراء عصره بمكانة عالية جعلته يمدح ملوك الحيرة وملوك الشام ولا يحدث له ما حدث للنابغة الذّبيانى مما يدعوه إلى الاعتذار ، وهو حين يمدح الغساسنة بالشام يمدح أبناء عمومته ؛ فنسب الخزرج والأوس ينتهى إلى الأزد كما ينتهى إليه نسب الغساسنة ، وصلاتهم له لم تنقطع حتى بعد أن أسلم وتنصروا . حكى عن نفسه قال : أتيت (جبلة بن الأيهم الغسانى) فأذن لى فجلست بين يديه ، وعن يمينه رجل له ضفيرتان ، وعن يساره رجل لا أعرفه ، فقال : أتعرف هذين ؟ فقلت : أما هذا فأعرفه وهو النابغة وأما هذا فلا أعرفه ، فقال : فهو (علقمة بن عبدة) فإن شئت استنشدتهما وسمعت منهما ، ثم إن شئت أن تنشد بعدهما أنشدت ، وإن شئت أن تسكت سكت . قلت فذاك ، فأنشد النابغة :

كليني لِهَمٍّ يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطئ الكواكب

فذهب نصفى . ثم قال لعلقمة أنشد ، فأنشد :

طحا بك قلب فى الحسان طروب
بُعَيْدَ الشباب عصرَ حان مشيب

فذهب نصفى الآخر . فقال لى : أنت أعلم الآن – وخيره – قال حسان : فتشددت ، وقلت : لا ، بل أنشد . قال : هات . فأنشدته :

أبناء جفنة حول قبر أبيهمُ
قبر ابن مارية الجواد المفضل
يسقون من ورد البريص[(١)] عليهم
بردى يصفَّق[(٢)] بالرحيق[(٣)] السلسل
يغشون حتى ما تهرُّ كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة أحسابهم
شم الأنوف من الطراز الأول

فقال له (جبلة) : أدنه ، أدنه ، لعمرى ما أنت بدونهما ، وأمر له بثلثمائة دينار وعشرة أقمصة لكل منها جيب واحد . وقال : هذا لك عندى فى كل عام .

ويهمنى من تلك النادرة أمران : أما أولهما فحديثه عن الشاعرين وتخييره فى الإنشاد رعاية لمقامه وتجنباً لسقوطه أمام أكبر شاعرين ، فالنابغة محكَّم الشعراء فى سوق عكاظ ، وبكلمة منه يعلو الشاعر أو ينزل ، والثانى عارض امرأ القيس أمير الشعراء فى قصيدة واحتكما إلى زوج امرئ القيس فكان حكمها لعلقمة لا لزوجها ، ولكن شاعريته أبت عليه أن يكون دونهما . أما آخرهما فهو القرار الذى جعله يتقاضى من الغساسنة ثلثمائة دينار كل عام ، وبقيت حتى بعد انتشار الإسلام وحسان من أنصاره .

وعلى هذا فحسان فحل من فحول الشعراء ، وقد قيل : إنه أشعر أهل المدر ، وكان يفضل – كما يقول الرواة – على الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار فى الجاهلية ، وشاعر رسول الله (ﷺ) النبوة ، وشاعر الْيَمَنِ كلها فى الإسلام ، لأن حسان كما قلت من بنى (قيلة) وقيلة من (الأزد) والأزد من اليمن .

أسلم بنو قيلة : الأوس والخزرج ، وهاجر إليهم رسول الله ، واحتاجت الدعوة إلى لسان يعبر عنها ، وينافح دونها ، وبدا ذلك جليا بعد موقعة (بدر) فانطلقت ألسنة شعراء قريش تتناول أعراض المسلمين ، وأظهر شعراء قريش ومن تابعهم : عبد الله بن الزبعرى السهمى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ،

---

(١) نهر يتشعب من بردى نهر دمشق .
(٢) يمزج .
(٣) الخمر .

وضرار بن الخطاب الفهرى ، وعمرو بن العاص السهمى ، وفزع الصحابة إلى على بن أبى طالب ليرد عليهم ، فلم يقبل الرسول ؛ لأن عليًّا «ليس عنده ذاك» ثم قال للأنصار : ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان : أنا لها ، وأخذ بطرف لسانه وقال : والله ما يسرنى به مِقْوَلٌ بين بصرى وصنعاء . فقال : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : إنى أسُلُّك منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين . فقال النبى : اللهم أيده بروح القدس .

ومن هذا اليوم شمَّر حسان عن ساعده ، ووظف شعره فى الدفاع عن الرسول وصحابته ودعوته ، فكان شعره صدى للحوادث والوقائع ، فكان شعراء قريش يرهبونه أكثر مما يرهبون الشاعرين : كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكانا من شعراء الرسول ، وهجاء حسان يتسم بالواقعية ، والبعد عن الفحش ، إنما يلجأ إلى ما يحبون ستره فيفضحه ، ويستعين بأبى بكر رضى عنه ليطلعه على أنساب قريش ليوجع من يتعرض لهجو الرسول ويفتخر بقومه وما قاموا به من الإيواء وبذل النفس والنفيس دفاعاً عن الإسلام ، فقد رمتهم الجزيرة العربية بكل داهية دهياء ، فحين ينتصر المسلمون يصف شجاعة أولى البأس وأثرهم فى جذب النصر ويهزأ بالمغلوبين من الكفار ، وحين تحدث هزيمة لا ينكص على عقبيه فعنده ما يقوله ، يعيرهم بالكفر ، ويوضح لهم مثواهم من النار ، انظر إليه يعاتب من تلومه ويهزأ (بالحارث بن هشام) أخى (أبى جهل) : لهربه :

إن كنت كاذبة الذى حَدَّثْتِنى
فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم
ونجا برأس طِمِرَّةٍ ولجام
وبنو أبيه ورهطه فى معرك
نصر الإله به ذوى الإسلام

ويعتذر الحارث عن هربه بشعر ، ولكن حسان لا يتركه لعذره ؛ بل يقول له :

ياحار قد عولت غير معول
عند الهياج وساعة الأحساب
إذ تمتطى سُرُحَ اليدين نجيبةً
مَرْطَى الجراء طويلة الأقراب
والقوم خلفك قد تركت قتالهم
ترجو النجاة وليس حين ذهاب

ويفخر قائلاً :

ألا ليت شعرى هل أتى أهل مكة
إبارتنا الكفار فى ساعة العسر
قتلنا سراة القوم عند مجالنا
فلم يرجعوا إلا بقاصمة الظهر

قتلنا أباجهل وعتبة قبله
وشيبة يكبو لليدين وللنحر

كثير ذلك الشعر الذى قاله فى غزوة بدر جعل شعراء قريش يرجعون بهزيمتين، هزيمة المعركة، وهزيمة الشعر.

وجاءت غزوة أحد، ولقيت قريش فيها حظًّا، وقتل حمزة، ومصعب بن عمير وأناس من الأنصار رضى الله عنهم ووجد شعراء قريش فرصتهم فوجهوا الكلام لشعراء الرسول وافتخروا فحمى حسان ولم يترك لهم مجال النصر، بل أوصده دونهم ببراعة تستحق الإعجاب، فإن ذكروا النصر ذكرهم هزيمة بدر، وإن شمتوا بمقتل حمزة بين لهم منزلته من الجنة ورضا الله عنه وعدد لهم أشرافهم الذين قتلوا وألقوا فى القليب ثم هم من أصحاب النار وشتان بين من يؤيدهم جبريل بأمر الله ومن ينعق فى قفاهم الشيطان، ويبكى حمزة والشهداء:

ياحمزَ، لا والله لا
أنساك ما صُرَّ اللقائح[1]
لمناخ أيتام وأضيا
ف، وأرملة تلامح[2]
ولما ينوب الدهر فى
حرب لحرب وهى لاقح[3]
ذكرتنى أسد الرسو
ل وذاك مِدْرَهُنا المنافح
لهفى لشبان رزئناهم
كأنهم المصابح
شم، بطارقة، غطا
رفة، خضارمة[4]. مسامح
المشترون الحمد بالأموال
إن الحمد رابح

وتتوالى الأيام والجهاد مستمر، والانتصار يتتابع، وتعلو راية الإسلام خفاقة، وإذا وقع الغدر من قبيلة على دعاة المسلمين أطلق لسانه فى الغادرين. وجعلهم مضغة الأفواه، فحين غدرت هذيل (بخبيب بن عدى) وأصحابه وهم ستة أرسلهم الرسول لتفقيه (عَضَل والقارة) كطلب هاتين القبيلتين جعل منها سبة الدهر لتلك القبائل، والوفاء بالعهد وإجارة النزيل وإكرام الضيف من عزائم الأمور عند العرب فكيف غدرت تلك القبائل؟ يقول حسان:

إن سرَّك الغدر صِرْفاً لا مزاج له
فأت (الرجيع)[5] فسل عن دار لحيان[6]
قوم تواصوا بأكل الجار بينهمُ
فالكلب والقرد والإنسان مثلان
لو ينطق التيس قام يخطبهم

---

(١) النوق لهالبن.
(٢) تنظر سريعاً.
(٣) زائد شرها.
(٤) من يكثرون العطاء.
(٥) ماء لهذيل.
(٦) حى من هذيل.

وكان ذا شرف فيهم وذا شان

وهو أسلوب ساخر بلحيان التى تعرف الغدر خالصاً ، وتتواصى بأكل الجار ، ولا تعرف حقوق الإنسان ، والبيت الثالث فيه كل السخرية ، وحدث غدر مثله فى (بئر معونة) فشنَّ حسان الغارة على بنى عامر الذين لم يفوا بوعدهم ولم يحموا من نزلوا عندهم من الصحابة بطلبهم ، وكان عامر بن الطفيل هو الغادر فاستعان ببنى سليم ، هنا يقول حسان يحرض (بنى براء) على عامر بن الطفيل :

بنى أم البنين ألم يرعكم

وأنتم من ذوائب أهل نجد

تهكم (عامر) (بأبى براء[1])

ليخفره وما خطأ كعمد

وتستمر الدعوة الإسلامية ، والتضحيات تساوقها الانتصارات ، وحسان يرصدها ويسجلها يوماً بيوم ، صور زحف الأحزاب وهزيمتهم ، وصور الغزوات واحدة بعد أخرى حتى كانت غزوة مكة ، أو فتح مكة ، فجال كل مجال وصال أبلغ مصال ، تحدث عن غدر قريش بالهدنة ، وسيوفهم التى استعان بها بنو بكر على بنى كعب من خزاعة ، وحرض على القتال :

عَنَانى ولم أشهد ببطحاء مكة

رجالَ بنى كعب تُحَزُّ رقابها

بأيدى رجال لم يسلوا سيوفهم

وقتلى كثيراً لم تجن ثيابها

ويعنى بالرجال الذين لم يسلوا سيوفهم قريشاً فقد عاد نوابها ولم يحاربوا ، ولم يجن ثيابها يريد لم يستروا بالدمن .

وهيأ الرسول جند الرحمن وزحف إلى مكة فى عشرة آلاف مقاتل ، فيهم المهاجرون والأنصار ، وينطلق صوت حسان :

عدمنا خيلنا إن لم تروها

تثير النقع موعدها كداء[2]

ينازعن الأسنة مصغيات

على أكتافها الأسل الظماء

تظل جيادنا متمطرات

يلطمهن بالخمر النساء

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا

وكان (الفتح) وانكشف الغطاء

وإلا فاصبروا لجلاد يوم

يعين الله فيه من يشاء

وجبريل رسول الله فينا

وروح القدس ليس له كفاء

وجاء النصر وتم الفتح ودخل الناس فى دين الله افواجا . ويذكر حسان حينئذ خصمه ابن الزبعرى وقد هرب إلى نجران

---

(١) هو الذى طلب الدعاة ويلقب بملاعب الأسنة .

(٢) موضع بمكة .

خوفاً من عقاب رسول الله ، فيرميه ببيت واحد أرعبه وهده ، هو .

لا تَعْدَمَنْ رجلاً أحلك بغضُه
نجرانَ فى عيش أَحَذَّ لئيم

بلغ ابن الزبعرى هذا البيت فضاقت عليه الأرض بما رحبت ، فلم يجد بدًا من ترك العيش الضيق اللئيم فى نجران وأتى إلى الرحمة المهداة محمد بن عبد الله رسول الله طالباً الصفح والمغفرة ، فما إن مثل بين يديه حتى أنشد :

يا خير من حملت على أوصالها
عيرانه سُرُح اليدين غشوم
إنى لمعتذر إليك من الذى
أسديتُ إذ أنا فى الضلال أهيم
فاغفر فدى لك والداى كلاهما
زللى ، فإنك راحم مرحوم

ونال العفو ، ونجا من « عيش أحذ لئيم » فالإسلام يجبّ ما قبله ، وصار أخاً فى الإسلام لحسان .

وكان فتح مكة مَسْحاً لأحزان حسان التى عاناها من استشهاد أمراء المسلمين فى مؤتة : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة الذين بكاهم بشعر يقطر أسى وألماً .

ويأتى عام الوفود فيكون حسان لسان صدق فى الذود عن الحياض ، والاعتلاء بفنه على كل شاعر وافد ، غلب شاعر تميم واعترف الوفد بذلك فى قصيدته :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم
قد بينوا سنناً للناس تتبع

وعاش فى كنف حبيبه ونبيه فى مكانة عالية وعز لا يرام ، وبينما هو كذلك وقد آن له أن يستريح إذا برسول الله يمرض ويخير فيختار الرفيق الأعلى ، وينظر حسان فيرى المنبر قد خلا من خطيبه ، فيبكى بكاء مرًا ، ويرثيه رثاء يبين عن إيمان عميق ، وحب مكين ، وشعور صادق ، لقد تلقى بشرى مولده ، وتلقى نعيه ففجر كل ذلك عاطفة شاعر جياش الشعور ، عارم الخيال ، صادق الوفاء ، أريحى الوداد :

بطيبة رسم للرسول ومعهد
منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تنمحى الآيات من دار حرمة
بها (منبر الهادى) الذى كان يصعد
وواضح آثار ، وباق معالم
وربع له فيه مصلى ومسجد

ويسير على هذا باكياً منتحباً مبيناً آلاء الرسول وما أدى من رسالة ، ويذكر القبر وبكاء الصحابة :

لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة
عشية علوه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم
وقد وهنت منهم ظهور وأعضد

يبكون من تبكى السموات يومه
ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد
وهل عدلت يوماً رزية هالك
رزية يوم مات فيه محمد ؟
لقد تقطع منهم منزل الوحى ونوره الهادى ، والقدوة الحسنة ، إمام يهدى فينال السعادة تابعه ، يعفو عن الزلات ، ويحمل عنهم مالا يستطيعون حمله ، فعنده تيسير ما تعسر ، وتوسيع ما تحجر :

فبيناهم فى نعمة الله بينهم
دليل به نهج (الطريقة) يُقصد
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
فبكِّى رسول الله ياعين عبرة
ولا عرفتك الدهرَ دمعك يجمد

وتراه هنا يمتح عن روح إسلامية أصيلة ، ففى حياة الرسول ترى مدحاً أشبه بمدح الملوك إلا بعض تأثره بالقرآن الكريم والحديث الشريف ولكنه هنا فى روحانية غالبة ، وربانية رابية ، وقد لمح الدكتور زكى مبارك لمحة ذكية حين جعل الطرق الصوفية فى تسميتها راجعة إلى (الطريقة) التى جاءت فى تلك الأبيات ، وما أصدقه حين يقول :

وما فقد الماضون مثل محمد
ولا مثله حتى القيامة يفقد

ويصفه بالكرم والوفاء ، وحسن المنبت وعلو النسب ، وتربية الله إياه ، وأنه :

تناهت وصاة المسلمين بكفه
فلا العلم محبوس ولا الرأى يفند

ختمها برجاء يتمناه كل مؤمن صادق الإيمان قال :

مع المصطفى أرجو بذاك جواره
وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

قصيدة رائدة ، ويقينى أن النقاد لم يقتربوا منها إلا لأنهم يفرون من الحديث عن وفاة سيد الخلق ﷺ ، وإلا فهى جديرة بالتحليل وبيان ما فيها من جمال وجلال .

هل سلمت حياة حسان من المؤاخذة إبان تلك الحقبة التى عاشها فى كنف رسول الله على أنه شاعر الرسول ؟

يَقْتَضِينا هذا السؤال أن نذكر موقفاً لحسان عُدّ فيه مذنباً ، ولا أدرى كيف وقع فى هذا الذنب ؟

حدث فى غزوة بنى المصطلق أمران فى غاية من الخطورة والحساسية يتصلان بالمجتمع الإسلامى المكون من المهاجرين والأنصار ، الأمر الأول وقع بين المحاربين ، فقد تشاحن بعض المهاجرين مع بعض الأنصار على الماء فتفوه رأس النفاق (عبد الله بن أبى بن سلول) بكلمة نابية سجلها القرآن الكريم وهى : «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»

يقصد رد المهاجرين إلى مواطنهم فى مكة وما حولها مما دعا الرسول إلى التعجيل بالعودة من حيث أتى ، وبلغ حسان الخبر . فشايع (ابن أبى) وقال شعراً : منه :

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا
وابن الفريعة أمسى بيضة البلد
قد ثكلت أمه من كنت صاحبه
أو كان منتشباً فى برثن الأسد

وطبعاً هذا يؤلم الرسول ، لأنه سمى المهاجرين «جلابيب» وهى لفظة كانت تطلقها قريش عليهم زراية بهم وحطًّا من منزلتهم . ويعنى بابن الفريعة نفسه ، لأن الفريعة أمه : وهى من بنى ساعدة .

الأمر الثانى اشتراكه فى حادث الإفك ، وحادث الإفك موجزه : أن النبى كان إذا خرج إلى غزاة أقرع بين زوجاته ، فكان من نصيب السيدة عائشة خروجها فى تلك الغزاة ، وكان من عادتهم أن يضعوا زوج الرسول فى هودج تكون فيه وهى على البعير أوعلى الأرض ، وكذلك صنعوا بالسيدة عائشة ، وحدث فى أثناء الرجوع أن أمر الرسول باستراحة الجيش ، وحين أذن مؤذن الرحيل كانت السيدة عائشة تبحث عن عقد سقط منها حين خرجت من الهودج لقضاء الحاجة ، ورجعت فوجدت الجيش قد رحل ، فتلففت فى ملابسها منتظرة أن يفطنوا لها فيعود أحدهم إليها . وبينما هى كذلك جاء (ساقة الجيش) الصحابى (صفوان بن المعطل السلمى) كانت مهمته جمع ما تركه الجيش سهواً ، فلما رآها - وكان يعرفها قبل الحجاب - قال : ظعينة رسول الله ؟ ولما لم تجبه أناخ بعيره وابتعد عنها وطلب إليها الركوب ، فركبت وسار بها حتى دخل المدينة ، وهنا تقول أهل الإفك وعلى رأسهم ابن أبى ودخل فى الشائعات حسان مع (مسطح بن أثاثة) و(جمنةبنت جحش) أخت زينب زوج الرسول ، وبرأ الله السيدة عائشة بقرآن يتلى فى المحاريب ، وأقام الرسول الحد على من اشتركوا فى هذا الأمر ومنهم حسان . وغضب صفوان من شعر حسان ، فضرب حسان بالسيف ، ولكن الله سلم ، وكادت تكون فتنة بين المهاجرين والخزرج لولا تدخل عبد الله بن رواحة الذى ذهب بهما إلى الرسول ليقضى بينهما وهنا عاتب الرسول حسان على ما قاله فى شأن المهاجرين قائلاً له : «تشوهت على قومى أن هداهم الله للإسلام» واعتذر حسان ثم أرضاه الرسول على تنازله عن حقه قبل صفوان فأعطاه عقاراً (وسيرين القبطية) أخت (مارية) جارية الرسول . وهنا فاض قلب حسان بالشعر . فقال يصف السيدة عائشة بالطهر والنبل ، وتنصل مما قال :

حصان رزان ما تُزَنُّ بريبة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
عقيلة حي من لؤى بن غالب
كرام المساعى مجدهم غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمَها [١]
وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنت قد قلتَ الذى قد زعمتم
فلا رفعت سوطى إلىَّ أناملى

وهكذا انقشعت تلك السحابة ، وعاد الرضا للشاعر ، وبقى وده للرسول وآله – وكفى المرء نبلاً أن تعد معايبه –

عاش حسان طويلاً بعد الرسول ، وعاشر خلفاءه بالحسنى ، شاهد خلافة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم وتوفى سنة ٥٤ هـ فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ، ولم يعكر صفو حياته فى تلك المدة الطويلة سوى حدثين أولهما يسير محمله وآخرهما ثقيل حمله ، كان الأول فى عهد عمر رضى الله عنه ، وذلك –كما يقول صاحب الأغانى– إن عمر بن الخطاب نهى الناس أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركى قريش وقال : فى ذاك شتم للحى والميت وتجديد الضغائن وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء به من الإسلام . فقدم عبد الله بن الزبعرى السهمى وضرار بن الخطاب الفهرى فنزلا على أحمد بن جحش بالمدينة وقالا : نحب أن ترسل إلى حسان بن ثابت حتى يأتيك فننشده وينشدنا ما قلناه وما قاله ، فأرسل إليه فجاء ، فقال : يا أبا الوليد هذان أخواك : ابن الزبعرى وضرار ، وقد أحبا أن يسمعاك وتسمعهما ما قالا لك وقلت لهما .

فقال حسان : أفتبدأان أم أبدأ ؟ قالا : نبدأ نحن . قال : أنشدا ، فأنشداه حتى فار كالمرجل غضباً ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة دون أن يسمعا شيئاً منه ، فما كان منه إلا أنه ذهب إلى الخليفة عمر فقص عليه قصتهما وقصته . فقال عمر وهو العادل : لن يذهبا عنك ، وأرسل من يردهما ولو بلغا مكة . فلما كانا بالروحاء رجع ضرار إلى صاحبه وقال : يابن الزبعرى ، أنا أعرف عمر وذبه عن الإسلام وأهله ، وأعرف حسان وقلة صبره على ما فعلنا به . وبين له أن عمر لابد أن يرسل فى طلبهما ، والأفضل أن نبقى هنا إلى أن يأتينا الخبر . فأقاما بالروحاء فما كان إلا كمر طائر حتى وافاهما رسول عمر ، فرجعا إليه . فدعا لهما بحسان وعمر فى جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لحسان : أنشدهما ما قلت لهما ، فأنشدهما حتى فرغ مما قال لهما . فقال عمر : أفرغت ؟ قال : نعم .

قال : أنشداك فى الخلاء وأنشدتهما فى

(١) طبيعتها

الملأ . وبذلك هدأ ورضى . ويروى صاحب الأغانى أن عمر قال لمن حضره من الأنصار : إنى نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعا للتضاغن عنكم ، وبث القبيح فيما بينكم ، فأما إذ أبوا فاكتبوه واحفظوه ، فدونوا ذلك عنهم . والعهدة على الراوى .

أما الأمر الآخر فموقفه من مقتل عثمان رضى الله عنه ، فقد حزن وأنكر ولم يهش لخلافة على بن أبى طالب وبلغ عليًّا أن حسان والنعمان بن بشير وكعب بن مالك يقدمون بنى أمية ويقولون : الشام خير من المدينة ، فاستدعاهم فدخلوا عليه . فقال له كعب : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن عثمان أقتل ظالماً فنقول بقولك أم قتل مظلوماً فنقول بقولنا أم نكلك إلى الشبهة ؟ فالعجب من يقيننا وشكك ، وقد زعمت العرب أن عندك علم ما اختلفنا فيه فهاته نعرفه وأنشده شعراً باكياً على عثمان : فقال لهم على رضى الله عنه : لكم عندى ثلاثة أشياء : استأثر عثمان فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع ، وعند الله ما تختلفون فيه يوم القيامة . فقالوا : لا ترضى بذلك العرب ولا تعذرنا فيه . فقال على : أتردون على بين ظهرانى المسلمين بلا نية صادقة ولا حجة واضحة . اخرجوا عنى ولا تجاورونى فى بلد أنا فيه أبداً . فخرجوا من بيوتهم فساروا حتى أتوا معاوية بالشام فقال لهم : لكم الولاية والكفاية ، فأعطى حسان ألف دينار ، وكعب بن مالك ألف دينار ، وولى النعمان بن بشير حمص ، ثم نقله إلى الكوفة بعدُ ، وهذا الخبر يدلك على تغيير رأى حسان فى على أيام رسول الله فقد كان عنده إحدى دعائم العز للإسلام ، جبلاً تضؤل دونه الحجارة المجتمعة ، وسيداً كريماً من البهاليل . انظر إليه تجده يقول فى رثاء جعفر بن أبى طالب :

وكنا نرى فى جعفر من محمد
وفاء وأمراً حازماً حين يأمر
فما زال فى الإسلام من آل هاشم
دعائم عز لا يزلن ومفخر
هم جبل الإسلام والناس حولهم
رضام إلى طود يروق ويقهر
بهاليل منهم جعفر وابن أمه
(على) ومنهم أحمد المتخير

فكيف صار بنو أمية أفضل منه ؟ وكيف صارت الشام أفضل من المدينة ؟ أيكون حسان قد جعل من الأخوة التى بين أوس أخيه وعثمان قرابة قريبة ، فهو يتعصب لها ، ويغضب فى سبيلها ؟ إذ آخى النبى إثر الهجرة بين أوس بن ثابت وعثمان ، وقد يكون لمصرع عثمان وإحراق داره ، ودفنه ليلاً أثر كبير فى نفسه ؟ وقد تكون الحوادث أعجلته عن التروى ، والنظر إلى الأحداث

بفكر ثاقب ، لا بعاطفة شاعر ، إنها الفتنة ! لم يسكت حسان بل قال شعراً فيه بكاء وتحريض منه :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به
يقطّع الليل تسبيحاً وقرآنا(١)
لتسمعنَّ قريباً فى ديارهمُ
الله أكبر ياثارات عثمانا

وقد فصل فى الأمر أسلافنا فقالوا فى مثل معاوية اجتهد وأخطأ وله أجر واحد ، وفى على وأصحابه : اجتهد وأصاب وله أجران . وكان عروة بن الزبير إذا ذكر مقتل عثمان يقول : كان على أتقى لله من أن يعين فى مقتل عثمان ، وكان عثمان أتقى لله من أن يعين فى مقتل على . ورحم الله الجميع ، فقد كانوا مصابيح الظلام .

وقد وضعت أمامك نصوصاً من شعره على اختلاف عهوده ، منها ما هو جاهلى . ومنها ما هو إسلامى فى عهد الرسول وعهد خلفائه ، وإنك لتراها من معدن واحد ، وإن اختلف المدلول ، فى الجاهلية اتجاه يخالفه الاتجاه الإسلامى ، فأكثر ما يقال فى مدح ملك أو عظيم فى الجاهلية أنه كريم أو شجاع ، أو عظيم النسب ، وأين هذا من حديث التقوى وتوحيد الله والجهاد فى سبيله والثواب المدخر للمؤمنين الصادقين الذين الله فى ظعنهم وإقامتهم ، فى حربهم وسلمهم ، وأين الغسانية من محمد ﷺ وأصحابه ، وصار للوفاء معنى غير ما كان عليه قبل ، فهو وفاء يصاحبه خشية المعرة فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ؟ على أن النقاد فى العصر العباسى رأوا أن شعر حسان فى الجاهلية أقوى منه فى الإسلام وعللوا ذلك بأن الشعر لا يقوى إلا فى باب الشر الذى يحظره الإسلام ، وفاتهم أن الإسلام إن حظر الباطل والسفه فقد ترك الباب مفتوحاً لكثير من فنون القول ، فليست الحياة وقفاً على الخمر والعربدة والاستهتار بالنساء والفخر بالآباء ، فهناك المثل العليا ، والمبادئ السامية وحديث البطولة والوقائع الحربية وفتوح البلدان ونشر الإسلام والاستشهاد فى سبيل الله والأريحية ساعة العسرة ، وتفنيد مقال الخصوم الكاذب : وبيان حقيقة الإسلام وعدالته ويسر أحكامه ، وقد وجد حسان من كل ذلك مجال القول نسيماً ، فصال وجال وأتى بالعجب العجاب ، وما جاءت به قريحته مما وصل إلينا لا يقاس به ما قاله فى جاهليته ، ولقد اعتز حسان بثلاث قصائد : أولاها فى الجاهلية مدح بها الغساسنة ، وقد ذكرت بعضها عند حديثى عن لقائه الشاعرين : النابغة وعلقمة فى

(١) قراءة .

يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وينيبون إلى مجلس جبلة بن الأيهم الغسانى ، ونال عليها الجوائز السنية . أما الأخريان ، فواحدة فى الرد على ابن الزبعرى ، وواحدة فى فتح مكة ، والقصيدة التى رد فيها على ابن الزبعرى وذكر فيها عدة حملة لواء قريش فى غزوة أحد أعجب بها ناظمها ، فقد ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية أن حسان نظمها ليلاً فدعا قومه فقال لهم : خشيت أن يدركنى أجلى قبل أن أصبح فلا ترووها عنى . ومعنى هذا أنه كان حريصاً عليها وعلى روايتها ، وقد نهج فيها منهج القصيدة العربية ذات الأغراض المتنوعة ، ولكن حالته النفسية ربطت بين معانيها فكأنها فى غرض واحد ، بدأها بالتشبيب فقال :

منع النوم بالعشاء الهمومُ
وخيال إذا تغور النجومُ
من حبيب أضاف[1] قلبك منه
سقم فهو داخل مكتوم
يا لقومى هل يقتل المرءَ مثلى
واهنُ البطش والعظام سئوم
لو يدب الحولى من ولد الذ
ر عليها لأندبتها[2] الكلوم

وفخر فقال :

إن خالى خطيب جابية[3] الجو[4]
لان عند النعمان حين يقوم
وأبى وواقدٌ أطلقا لى
يوم راحا وكبلهم مخطوم[5]
وَسَطَتْ نسبتى الذوائب منهم
كل دار بها أب لى عظيم
وأبى فى (سميحة)[6] القائل الفا
صل يوم التقت عليه الخصوم

وهجا شاعر قريش فقال :

تلك أفعالنا وفعل الزبعرى
خامل فى صديقه مذموم
لا تسبَّنى فلست بِسبِّى
أن سى من الرجال الكريم

وقال عن عدة أصحاب اللواء :

وَلِىَ البأس منكم إذ رحلتم
أسرة من بنى قصى صميم
تسعة تحمل اللواء وطارت
فى رعاع من القنا مخزوم
وأقاموا حتى أبيحوا جميعاً
فى مقام ، وكلهم مذموم

ومن الحكمة قوله فيها :

رب حلم أضاعه عدمُ الما
ل وجهل غَطَّى عليه النعيمُ

وهى قصيدة فيها منهج القصيدة العربية

(١) زار .
(٢) أثرت فيها .
(٣) الحوض .
(٤) موضع بسورية حوله نزاع الآن .
(٥) مكسور .
(٦) بئر .

الموروثة من التشبيب والفخر والهجاء ووصف المعركة والحكمة ومعانيها واضحة ، ولم يستخدم فيها الخيال المهوم ، ولكن روعتها فى صدقها ، وعفته عن القذف فى الهجاء ، فكفاه أن ابن الزبعرى خامل ليس له من المكارم نصيب ، ثم هو ليس كفؤا له ، فيبادله السباب «إن سبى من الرجال الكريم» وخصمه ليس هناك . ولم يصف حملة اللواء من بنى عبد الدار بالجبن ، بل قال عنهم إنهم أقاموا حتى أبيحوا جميعاً ، وذمهم لأنهم لم يهتدوا والنور أمامهم ، إنما وصف قريشاً بالهرب فلم يكونوا بجانب حملة اللواء . قال :

وقريش تفر منا لواذًا
أن يقيموا وخف منها الحلوم
لم تطق حملَه العواتقُ منهم
إنما يحمل اللواءَ النجومُ

والشطر الأخير فى نهاية الجمال فيه مدح وإنصاف لحملة اللواء وسخر واستهزاء بقريش فى صورة فنية رائعة تصلح أن تكون حكمة . أما قصيدته فى فتح مكة فقد سبق التنويه بها ، وفيها منهج القصيدة العربية من غزل وبكاء الديار وحديث عن الخمر والحياة الناعمة ثم وصف الجيش الزاحف ، ورد على أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وتراه يقتبس من آيات الذكر الحكيم مما يدل على تشربه للروح الإسلامى . مثل حديثه عن رسول الله وعدوه :

أتهجوه ولست له بكفء
فشركما لخيركما الجزاء ؟

ينظر إلى قوله تعالى « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين» . ومثل وصفه للسيدة عائشة بأنها :

حصان رزان لا تُزَنّ بريبة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فإنه يقتبس بمهارة قد تخفى عن غير المتأمل فكلمة «غَرْثى» أى خميصة البطن من لحوم الناس من قوله تعالى : «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه» وكلمة «الغوافل» يريد العفيفات الغافلة قلوبهن عن الشر كما قال سبحانه : «إن الذين يرمون المحصنات الغافلات ..» الآية ، وكثير مما قال يشبه هذا ويجىء فى موضعه مطمئنا .

وينفرد حسان عن بقية الشعراء ببراعته فى الحط من الغدر وفاعليه ، وقد ذكرت لك أبياتاً فى غدر هذيل ، وإليك أبياتاً فى غدر الحارث بن عوف المرى ، وقد وقع فيما وقع فيه (عضل والقارة) من طلب الداعية إلى الإسلام ، فقد طلب الحارث إلى الرسول ذلك فأرسل معه أحد الصحابة فغدروا به ، وجاء إلى الرسول معتذراً فتلقاه حسان بقوله :

يا (حار) من يغدر بذمة جاره
منكم فإن محمداً لم يغدر
وأمانةُ المرىِّ حيث لقيته
مثل الزجاجة صدعها لم يجبر
إن تغدروا فالغدر منكم شيمة
والغدر ينبت فى أصول السخبر

فقال الحارث : أنا عائذ بك يا محمد من شره ، اكففه عنى على أن أؤدى لك دية الخفارة فأداها وكانت سبعين ناقة عشراء .

ذلك أن حسان كان من الوفاء بمكان يشار إليه بالبنان ، كان وفيا لدينه ولنبيه ولأصحابه ولقومه ولأبنائه ولصباه .

حكى المبرد فى الكامل قال : حدثنى غير واحد من أصحابنا عن أبى زيد سعيد بن أوس الأنصارى بسنده قال : كانت وليمة فى أخوالنا وهم حى يقال لهم بنو نبيط من الأنصار ، فحضر الناس وجاء حسان بن ثابت وقد ذهب بصره ومعه ابنه عبد الرحمن يقوده ، فلما وضع الطعام وجىء بالثريد ، قال حسان لابنه : يا بنى أطعام يد أم طعام يدين ؟ فقال : بل طعام يد ، فأكل ، ثم جئ بالشواء فقال : أطعام يد أم طعام يدين ؟ فقال : طعام يدين ؟ فأمسك وفى المجلس قينتان تغنيان بشعر حسان :

انظر خليلى بباب جِلِّقَ هل
تؤنس دون البلقاء من أحد ؟

وحسان يبكى يذكر ماكان فيه من صحة البصر والشباب وعبد الرحمن يومئ إليهما أن زيدا ، قال أبو زيد : فلأعجبنى ما أعجبه من أن تبكيا أباه ، ومعنى العبارة يقول : ما الذى أعجبه من أن تبكى أباه حتى تركنى أعجب مثله ؟

وعبد الرحمن ليس قاسياً على أبيه فى ذلك الموقف فهو شاعر كأبيه ويعلم أن البكاء يخفف الأشجان ويعين على الأحزان ، وما بكى حسان إلا لأنه وجد نفسه فى حال ليست كالحال التى كان فيها شابا قادراً على الاضطراب فى الأرض ، وقد ذكره الشعر بأيام جلق والبلقاء والغساسنة فاهتاج ، وما كان له إلا أن يريق الدمع ليهدأ ويستريح ، إنه الوفاء للشباب والصبا والحياة الفارهة . ووفاؤه هو الذى دفعه إلى البكاء الدائم على رسول الله بعد وفاته يقول :

بأبى وأمى من شهدت وفاته
فى يوم الاثنين النبى المهتدى
فظللت بعد وفاته متبلداً
متلدداً ، يا ليتنى لم أولد
أأقيم بعدك بالمدينة بينهم
يا ليتنى صُبِّحْتُ سمَّ الأسود ؟
والله أسمع ما بقيت بهالك
إلا بكيت على النبى محمد

رحمه الله ، فقد كان شاعراً جاهد بلسانه ووفى بجنانه ، ووصل بإيمانه ، وأعلى كلمة الحق ببيانه . وكفاه قوله الذى لم يقله أحد غيره :

ما إن مدحت محمداً بمقالتى
لكن مدحت مقالتى بمحمد

حكى عروة بن الزبير قال : كنت جالساً عند عائشة (خالته) فَمُرَّ بجنازة حسان بن ثابت فنلت منه ، فقالت : مهلاً . فقلت : أليس الذى يقول فيك ويقول ؟ قالت : «فكيف بقوله :

فإن أبى ووالده وعرضى
لعرض محمد منكم وقاء

إنى لأرجو أن يدخله الله الجنة بقوله هذا» كان ذلك سنة ٥٤ هـ ، والناس يذكرون أنه عاش ستين سنة فى الجاهلية وستين سنة فى الإسلام ، وهو قول تقريبى والحقيقة أنه عاش ستين فى الجاهلية وأربعاً وخمسين فى الإسلام فيكون قد عاش ١١٤ سنة .

السيد حسن قرون

الزُّهْدُ

ذُكِرَ ٱلزُّهْدُ عِنْدَ ٱلفضيلِ فَقَال :
هُوَ حَرْفان فى كِتابِ اللهِ تَعَالى :
«لِكَيْلا تَأسَوْا على مَافَاتَكُمْ ، وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتاكُمْ» .

القرآنُ والأحرف السَبعة

الدكتور رؤوف شلبي

على عادتنا دائماً فى مناقشة الموضوعات المتعلقة بالقرآن والوحى والنبوة وكل ما يتصل بالخبر المعصوم فإننا نعتصم دائماً بالذاتية الإسلامية التى تبدو فى قبول العقل للنصوص الإسلامية مع تدبر دون تفيهق أو تشدق أو تفلسف أو مراء أو جدل .

وقضية : نزول القرآن على سبعة أحرف إذا بحثناها من الناحية الأكاديمية مع الاعتصام بالذاتية الإسلامية نجد لها عدة جوانب نطرحها فى أسئلة ست :

السؤال الأول :

هل نزول القرآن على سبعة أحرف نظرية تناقش فكريًا ؟

أو هل هى أحداث وقعت بالفعل ؟

السؤال الثانى :

هل وقوع هذه الأحداث يساعد على تحديد المراد من (سبعة أحرف) ؟

السؤال الثالث :

كيف يستعمل الحرف فى الاصطلاح العربى . . . وهل يمكن استعماله اللغوى من أن يساعدنا فى تحديد المراد من معنى (سبعة أحرف) ؟

السؤال الرابع :

ارتباط الأحرف السبعة .

برأفة النبى ﷺ بأمته وعالمية الدعوة الإسلامية ،

السؤال الخامس :

ماهى حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف ؟

السؤال السادس :

آراء العلماء التقليديين فى الحروف السبعة ونخص منهم :

١ - الرازى

٢ - ابن قتيبة

٣ – والقاضى الطيب
٤ – ابن الجوزى .

هل هى أحداث أو نظرية :

قبل أن نخوض غمار الحديث فإننى أحب أن أنبهكم إلى عدة مسائل :

المسألة الأولى :

أن الأحرف السبعة ليست نظرية ثقافية يمكن عرضها على بساط البحث والمناقشة الأكاديمية الجدلية التى يلعب الذكاء والعقل الحصيف فيها دوره ويفعل أفاعيله . .

وإنما هى أحداث واقعية سنبرهن عليها بالأحاديث الصحيحة إن شاء الله .

المسألة الثانية :

ليس المراد من نزول القرآن على سبعة أحرف أن كل كلمة فيه تقرأ على سبعة أحرف قال أبوعبيد ليس المراد أن كل كلمة تقرأ على سبع لغات بل اللغات السبع متفرقة فيه »[١] .

المسألة الثالثة :

ليس المراد من الأحرف السبعة القراءات . .

قال أبو شامة : ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هى التى أريدت فى الحديث وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة ، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل »[٢] .

المسألة الرابعة :

نزل القرآن أولاً بلغة قريش ثم يسر الله تعالى على الناس أن يقرءوا ما تيسر منه .

نقل أبو شامة عن بعض شيوخه أنه قال : أنزل القرآن أولاً بلسان قريش ، ومن جاورهم من العرب الفصحاء ، ثم أبيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم التى جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب »[٣] .

وإذن فلا مجال للرأى فيما يتعلق بالأحرف السبعة اللهم إلا فى ضوء الهدى النبوى الكريم .

المسألة الخامسة :

لا تناقض بين هذا وبين (ورتل القرآن ترتيلاً ٧٣ : ٤) . .

الأحرف السبعة أحداث واقعية :

١ – روى الإمام البخارى بسنده عن

---

(١) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠٢ .
(٢) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠٦ .
(٣) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠٢ .

ابن شهاب [الزهرى] قال :

حدثنى عروة بن الزبير أن المِسْوَر بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن عبد القارى حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول :

سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله ﷺ : فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره فى الصلاة ، فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فقلت ، كذبت فإن رسول الله ﷺ ، قد أقرأنيها على غير ما قرأت . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت : إنى سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . . فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت ثم قال : اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التى أقرأنى ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه[١] .

إن هشام بن حكيم أسلم هو وأبوه يوم الفتح وعمر من الذين أعز الله بهم الإسلام فلما سمع قراءة هشام شك فى صحتها فقاده من تلابيبه إلى رسول الله ﷺ . فحسن قراءتهما معاً .

٢ – وفى تفسير الطبرى : عن أبى طلحة عن أبيه عن جده قال :

قرأ رجل عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فغير عليه فقال :

لقد قرأت على رسول الله ﷺ فلم يغير على .

قال : فاختصما عند النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ألم تقرئنى آية كذا وكذا ؟ قال : بلى ، قال : فوقع فى صدر عمر شىء فعرف النبى ﷺ ذلك فى وجهه قال : فضرب صدره وقال : أبعد شيطانا قالها ثلاثا . . . ثم قال : ياعمر : إن هذا القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة »[٢] .

٣ – ويروى ابن حجر فى فتح البارى ما أخرجه عن أبى قيس مولى عمرو بن العاص : أن رجلاً قرأ آية من القرآن فقال له عمرو : إنما هى كذا وكذا فذكرا ذلك للنبى ﷺ فقال : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فأى ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا فيه » إسناده حسن[٣] .

٤ – ووقع مثل هذا الاحتكاك بين

---

(١) فتح البارى جـ ١٠ ص ٣٩٩/٤٠١ راجع تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٣ .

(٢) الطبرى جـ ١ ص ١٣ .

(٣) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠١ .

عبد الله بن مسعود وأُبيّ بن كعب فى قراءة سورة النحل . فاحتكما إلى النبى ﷺ فقال لهما : كلاكما محسن ، قال أبى فقلت ما كلانا أحسن ولا أجمل ؟ قال فضرب فى صدرى وقال : يا أبى : أرسل إلىّ : أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف .

٥ – وأبى بن كعب يسمع رجالاً يقرءون فى الصلاة قراءة ينكرها عليهم فلما انتهت الصلاة دخلوا على رسول الله ﷺ فحسن قراءتها فى مسلم ، من طريق عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبى بن كعب قال : كنت فى المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه فأمرهما فقرءافحسن النبى ﷺ شأنهما قال : فسقط فى نفسى ولا إذ كنت فى الجاهلية فضرب فى صدرى ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله فرقاً فقال : يا أبى أرسل إلىّ أن أقرأ القرآن على حرف فرددت إليه أن هون على أمتى فرد إلى الثانية : اقرأه على حرفين فرددت إليه أن هون على أمتى فرد إلى الثالثة : اقرأه على سبعة أحرف . . الحديث[1] .

ملخص هذه الأحاديث :

١ – أن خلافاً وقع بين عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم فى قراءة سورة الفرقان .

٢ – أن أبىّ بن كعب اختلف مع عبد الله بن مسعود فى قراءة سورة النحل .

٣ – أن أبى بن كعب سمع رجالاً يقرءون القرآن على غير الحرف الذى يقرأ هو عليه .

٤ – أن عمر بن الخطاب صحح قراءة رجل فأخبره أنه قرأ ذلك على النبى ﷺ ولم يغير عليه .

٥ – أن عمرو بن العاص كذلك اختلف مع رجل فى قراءة آية .

وكل هذا الاختلاف ليس فيه تغيير للمعانى وكل هذه الأحرف التى قرأ بها رضوان الله عليهم بلهجاتهم أو بلغاتهم أو بأحرف قراءتهم قد أجازها النبى ﷺ وحسنها جميعاً وقال لهم :

«أنزل القرآن على سبعة أحرف فأى ذلك قرأتم أصبتم»

«ثم نهاهم عن الاختلاف فقال :

فلا تماروا فيه» . . .

ومعنى هذا أن مبحث نزول القرآن على سبعة أحرف ليس بحثاً نظريًا خاضعاً لمقاييس الذكاء والعبقرية فى البحث

(١) مسلم جـ ١ ص ٥٦٢ راجع فتح البارى جـ ١٠ ص ٣٩٨ .

والدراسة وإنما هو أحداث وقعت وعلى المسلم أن يتبصرها فى جوّ : « أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » أو فى جو الذاتية الإسلامية حتى يسلم البحث من تهوّك المتفلسفين الذين قيل فيهم ثلاث مرات :

« هلك المتنطعون » .

ثانيـاً :

هل يمكن تحديد الأحرف السبعة من خلال الأحداث التى وقعت ؟

وإذا تتبعنا الأحاديث التى تصور وقوع تعدد فى القراءات واللهجات والتى كان الصحابة يتلقونها عن رسول الله ﷺ وجدنا عدة أنواع من الأحاديث :

النوع الأول : أحاديث تدل على الاختلاف فى القراءة .

النوع الثانى : أحاديث تدل على الاختلاف فى اللغة .

النوع الثالث : أحاديث تدل على الاختلاف فى أوجه المعانى .

النوع الرابع : أحاديث ناهية عن المراء والاختلاف فى القرآن الكريم .

النوع الخامس : أحاديث ميسرة ومرغبة فى قراءة القرآن الكريم .

° ° °

نموذج النوع الأول :

أحاديث تدل على الاختلاف فى القراءة

يروى الإمام الطبرى فى تفسيره :

١ – أن أبا جهم الأنصارى أخبره : أن رجلين اختلفا فى آية من القرآن فقال هذا : تلقيتها من رسول الله ﷺ ، وقال الآخر : تلقيتها من رسول الله ﷺ فسألا رسول الله ﷺ عنها فقال رسول الله ﷺ : «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فلا تماروا فى القرآن ، فإن المراء فيه كفر».(١)

٢ – فيما مضى من قصة اختلاف عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم انطلق عمر يقود هشام حتى وصلا إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ اقرأ يا عمر فقرأ القراءة التى اقرأها إياه رسول الله ﷺ فقال له كذلك أنزلت ، ثم قال : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه .

٣ – أقرأ النبى ﷺ رجلاً من المسلمين : «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ٤٤ : ٤٣ ، ٤٤» ، فلم يستطع أن ينطق

(١) تفسير الطبرى جـ١ ص ١٩ .

بكلمة الأثيم فأقرأه «طعام الفاجر» هذه الأحاديث والوقائع نماذج للخلاف فى القراءة فهل المراد من سبعة أحرف : الخلاف فى القراءة ؟

أو هل الخلاف فى القراءة واحد من سبعة أحرف ؟

نموذج النوع الثانى :

أحاديث تدل على الاختلاف فى اللغة

أورد ابن حجر فى فتح البارى : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من هوازن – قال : والعجز : سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية وثقيف .

٢ – وأخرج أبو عبيد مرة وجها آخر عن ابن عباس قال : نزل القرآن بلغة الكعبين : كعب قريش . وكعب خزاعة قيل : وكيف ذاك ؟ قال لأن الدار واحدة[1] . .

قال فى تفسير الطبرى : حدثنى أبو العالية قال : قرأ على رسول الله ﷺ من كل خمس رجل فاختلفوا فى اللغة فرض قراءتهم كلهم فكان بنو تميم أعرب القوم[2] .

٣ – روى الأزهرى عن ابن عباس أنه سئل عن قوله ﷺ نزل القرآن على سبعة أحرف فقال :

ما هى إلا للغات . .

فهل تدل هذه الأحاديث على أن المراد من الحروف السبعة اللغات ؟

أو هل تدل على أن اللغات واحد من الحروف السبعة ؟

نموذج النوع الثالث :

أحاديث تدل عل الاختلاف فى وجوه المعانى

١ – فى تفسير الطبرى : روى عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : كان الكتاب الأول نزل من باب واحد وعلى حرف واحد ، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف : زجر ، وأمر ، وحلال ، وحرام ومحكم ومتشابه ، وأمثال . فأحلوا حلاله وحرموا حرامه «وافعلوا ما أمرتم ، وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله ، وأعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كل من عند ربنا »[3] .

(١) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠٢ .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٩ ، ٢٩ .

(٣) تفسير الطبرى جـ ١ ص ٣٠ .

٢ – ويروى أيضاً : عن أبى قلابة قال : بلغنى أن النبى ﷺ قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف : أمر ، وزجر ، وترغيب ، وترهيب وجدل ، وقصص ، ومثل » .[١]

ويعلق ابن حجر على هذه الرواية وأمثالها بقوله :

ومما يوضح أن قوله زاجر وآمر . . إلخ ليس تفسيراً للأحرف السبعة ما وقع فى مسلم من طريق يونس عن ابن شهاب عقب حديث ابن عباس الأول . . قال ابن شهاب : بلغنى أن تلك الأحرف السبعة إنما هى فى الأمر الذى يكون واحداً لا يختلف فى حلال ولا حرام[٢].

ونص الحديث فى مسلم :

عن ابن شهاب حدثنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة :

أن ابن عباس حدثه : أن رسول الله ﷺ قال : أقرأنى جبريل عليه السلام على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده فيزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف » ا.هـ .

قال ابن شهاب : بلغنى أن تلك السبعة الأحرف إنما هى فى الأمر الذى يكون واحداً لا يختلف فى حلال ولا حرام[٣] .

فهل هذه الأحاديث تجعل الاختلاف فى الوجوه تفسيراً للحروف السبعة ؟ أو تجعلها واحدة من الحروف السبعة ؟

قبل أن نجيب نود أن نتأدب أولا بآداب السنة النبوية فيما يتعلق بنماذج النقطة الرابعة والخامسة . .

[البحث موصول]

دكتور رءوف شلبى

---

(١) الطبرى جـ ١ ص ٣٠ فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠٤ .

(٢) فتح البارى جـ ١٠ ص ٤٠٥ .

(٣) مسلم جـ ١ ص ٥٦١ .

تفسير الطبرى جـ ١ ص ١٤ .

نظام الحُكم فى الإسْلام

الأستاذ / زاهر عزب الزغبى

أرَاد الله للحاكم أن يكون كفئا صالحا ، عادلا غير ظالم ولا طاغية ولا مستبدا ، وأن يعمل لصالح الناس لا لمصلحته الشخصيَّة .. فكانت وسيلة الوصول إلى الحكم – فى الإسلام – إرادة الأمة وحدها . .

والأمة فى اعتبار الإسلام هى سائر أفراد المسلمين الذين يعيشون فى أرض منيعة عزيزة غير خاضعة لغير السيادة الإسلامية .

وهؤلاء الأفراد المسلمون جميعا لهم حق اختيار واحد منهم ليحكمهم . . وهم يستطيعون – دون ريب – أن يتعرَّفوا على الأنسب والأصلح والأجدر ، فَيُسْلِمُون له زمام الأمر فيهم ، ويدينون له بالطاعة . .

وفى اختيار الحاكم قرر الإسلام مبدأ الشورى . . والشورى – كما يقررها الإسلام – ليست مجرد اقتراع أو تصويت كما هو معتاد فى الأنظمة الديمقراطية الحديثة . بل هى أشمل من هذا وأعمق . . فهى تشاور وتداول الرأى بين جماعة المسلمين ، ومن شأن هذا التشاور أن ينتهى إلى اتفاق فى الرأى وإجماع عليه . . فلا يبقى هناك مُمَارٍ فيه أو مخالفٌ له أو راغب عنه أو غير راض به ، وهذا دون شك أوفق وأجدى من الانتخابات الديمقراطية التى تجعل رأى الأغلبية ملزما للكل ، وقد يكون إحراز الأغلبية بعدد ضئيل من الأصوات . . مما يجعل جزءا كبيرا من الأمة – يقارب نصفها – محكوما بغير إرادته . .

والنظم الانتخابية تضيِّق حدود الاختيار وتحصره فى نطاق من رشَّحوا أنفسهم أو رشحتهم هيئة مسئولة . . وكثيراً مَّاهم هؤلاء الناخبون الذين يذهبون إلى صناديق الاقتراع وهم على ثقة من أن كافَّة المرشحين الذين سيصوِّتون لواحد منهم غير أكفاء وغير صالحين ، ولا يتمتعون بالصلاحيَّات المطلوبة .

أما الشورى فإنها مُدَارسةٌ يرشِّح خلالها من شاء أيًا مِمَّن يشاء ، ويعرِّف غيره من المتشاورين بمرشحه ، ويبين أفضاله وما

يتمتع به من كفاءات وصلاحيات . . ثم تتبلور العملية فى النهاية إلى اتفاق فى الرأى واجماع من المتشاورين على شخصية محددة تحوز رضا الجميع واختيارهم . .

وبهذا فإن نظام الشورى يضمن للرياسة أن يتولاها خير الرجال وأقربهم إلى قلوب الأمة ، وأحبهم لدى أفرادها ، وأشدهم اكتسابا للثقة ، وأكثرهم احتراما . .

وقد توفى النبى ﷺ واختلف المسلمون على من يتولى الرياسة بعده . وقام عمر بن الخطاب فرشَّح أبا بكر ، وخطب فى الناس مبيِّناً مزاياه مشيداً بأفضاله ، وكان أبو بكر معروفا من الجميع . . فسرعان ما استقر الرأى على اختياره رئيسا وخليفة وحاكما يدين له الكل بالطاعة والإذعان . . فى حين أن أبا بكر لم يكن طامعا فى هذه الخلافة ، ولم يسع إليها أو يطلبها .

والخلافة فى الإسلام تكليف وواجب . . فهى مسئولية ، وهى عمل من أجل الجميع ولصالح الأمة . . وليست وسيلة للتمتع بأُبّهة السلطة وجاه الرياسة . . ولهذا كان من غير الممكن أن يتخلَّى عنها من اختير لها إذا لم يكن هناك من يستطيع أن يسوس الدولة ، وينهض بأعباء تنظيم أمورها سواه . . وليس من حقه أيضا أن يتنحى عن المسئوليات التى وضعتها الأمة على عاتقه إذا لم يجتمع رأى الأمة من جديد على شخص غيره ، أو إذا تعذر ذلك لسبب من الأسباب . . .

والشورى الإسلامية – حين ضمنت للرياسة أن يتولاها خير رجل – تَحُول دون أن يتحوَّل الرئيس إلى طاغية . . . لأنها تقوم على حق الجماهير – لا فى انتخاب الحاكم فحسب – بل وفى محاسبته أيضا . . . لأن المجتمع الإسلامى لم يتكون جزافا ، وإنما تكون والتف حول ميثاق الله . . وجميع أفراد هذا المجتمع – سواء فى ذلك الحاكم والرعايا – ملزمون باتباع هذا الميثاق الممثل بشريعة الله وأحكام دينه . .

وقد أخذ الله من الناس ميثاقهم بأن ينصرهم ، وبأن يضمن لهم الصلاح فى دنياهم وأخراهم ماداموا على كتاب الله وسنة رسوله . .

وهذا الميثاق يحدد خطة السير ونهج العمل لكل من الحاكم والرعايا . . وهو يضبط أمور الأمة ويحدد أهدافها . . وإذا كان الهدف الأساسى هو إسعاد الكل وصلاح حال الجميع فإن هذا يوضِّح مهمة الحاكم ، وقد بيَّن له الميثاق كيف يعمل وكيف يتصرف وكيف يسير . . كما تتضح به أيضا مهمة كل فرد فى الأمة ، وتتبيَّن به كيفية العمل والسلوك الشخصى لكل مسلم . .

والعلاقة هنا بين الحاكم والرعايا عبارة عن مسئولية متبادلة . . فعلى الحاكم أن يُنظِّم ويُصْلِح ويعدِّل ويسوس وفق ميثاق الله . . وعلى المحكوم أن يطيع وأن يكيِّف حياته وسلوكه وفق هذا الميثاق . . فإن تمرَّد أو انحرف كان من مسئولية الحاكم أن ينفِّذ فيه حَدَّ الله وعدالته . . وإن تهاون الحاكم فى أىٍّ من مسئولياته كان على الرعايا أن يحاسبوه ، وأن لا يسمحوا بالتمادى فى الخطأ على أى وجه من الوجوه .

وعلى هذا يمكن اعتبار الحاكم فى الإسلام « وكيلا ذا سيادة »

وبمقتضى هذه الوكالة فإن الحاكم يقع تحت عبء من الالتزام . . وأبرز جانب من هذا العبء هو مسئولية الحاكم أمام سائر المسلمين . . وهى مسئولية قد تؤدى إلى العزل بسبب عمل لا يتفق مع مضمون الوكالة . ومضمون الوكالة هذا لا يخرج عن كونه المسعى الحسن والإخلاص فى العمل بما جاء فى ميثاق الله . . ومسئولية الحاكم أمام سائر المسلمين لم تَتَوجَّب حقاً عليه لهم لأنهم هم الذين اختاروه وولَّوه . . . بل وجبت عليه لأنه فى الأصل واحدٌ منهم ، وقد التزم منذ البداية بالميثاق والعمل بمقتضاه . . وليس فى تنصيبهم له إلا تحديداً لمسئولياته وواجباته حيالهم . . لأنه حينئذ قد اختص دونهم بصفة الحاكم . . .

وللحاكم فى الميثاق مسئوليات خاصة عليه وحده أن ينهض بأعبائها . .

وكما قامت الشورى بمهمة اختيار الحاكم فإنها تقوم أيضا بدورها فى محاسبته وتوجيهه . . ومن واجب الحاكم أن لا يستبد برأيه وأن لا يتخذ قرارا بناء على اجتهاده الخاص ولو فى الأمور الخطيرة على الأقل . . بل عليه أن يتشاور مع الرعايا فى مثل هذه الأمور . . وعلى الأخص فى المسائل التى لم تقل فيها الشريعة رأيها بنص قاطع . . والواجب على كل ذى رأى من المسلمين أن لا يبخل به حتى ولو لم يطلب منه الإدلاء بشىء منه . . .

والإسلام يحتِّم على المسلمين أن يظلوا على يقظة دائمة لمجرى الأمور فى مجتمعهم ، وكيفية جريانها ، وألاَّ يسمحوا بأن يُقادوا كالأنعام عُمْياً بغير وعى . . فإذا لم تكن أمور الحكم تسير وفق ما ينبغى وجب عليهم أن يجابهوا الحاكم بأخطائه ، وأن يوضِّحُوا له الطريق الصواب . . وفى كل هذا يتحتم أن يكون العمل — لا بالجهود الفردية وحدها — بل يجب أن يكون عملا جماعيا ، وأن توحِّده وتنظِّمه الشورى إلا فى الهنات اليسيرة التى لا تستدعى سوى النصيحة . . وهذه يكفى فيها أن تتم على نطاق فردى . . وقد ترك الإسلام للجماعة تحديد التزامات الحاكم واختصاصاته التى يمكن أن يتصرف

برأيه منفردا فى نطاقها ، والمسائل التى يتعين عليه فيها الرجوع إلى الأمة قبل أن يصدر بشأنها قراراً نهائياً .

والخلفاء الراشدون أنفسهم كانوا يبدأون مهمتهم بأن ينبهوا الناس إلى ضرورة النصيحة وتقويم الخطأ . . وكانوا يقتدون بالنبى ﷺ فى استشارته من يرجو عنده الصواب والرأى السديد . . وكانت الأمور آنذاك تتم دائما فى نطاق من الشورى الصحيحة والمدارسة الحقة . .

والإسلام إذْ أوجب الشورى لم يحدِّد لها صورة معينة . . بل ترك المسألة للمسلمين يقررون فيها ما تقتضيه ظروفهم التى تختلف باختلاف الأزمان والأمكنة . .

ومن الجائز – طبقا لهذا – أن تتم الشورى على الشكل البرلمانى فى النظم الديموقراطية الحديثة ، سواء أكان ذلك البرلمان من مجلس واحد أو من مجالس متعددة . . ومن الممكن أيضا أن تتم على نطاق اتحاد يمثل القاعدة الشعبية كلها . . أو على نطاق اتحادات يمثل كل منها قطاعا خاصا من المجتمع . . أو على مستوى عدد من المجالس الاستشارية ذات المسئوليات والخبرات الكافية .

ولكن المهم أن تجرى الشورى فى جو تتوفر فيه الحريات والخبرات التى يمكن أن تسفر عن رأى صحيح حر غير مغرض أو متحيز أو منتزع بالإكراه والعنت . .

وقد جاءت الشورى الصحيحة فى الإسلام على أشكال متعددة . . فالنبى عليه السلام كان يتشاور مع من يحضر مجالسه من الصحابة رضوان الله عليهم ، وكانت مجالسه هذه ندوات عامّة يحضرها كل من استطاع من المسلمين . . وكان سكان يثرب (المدينة المنورة) يحافظون على ارتيادها فى سائر أوقاتها . .

واختيار أبى بكر للخلافة كان نتيجة لانعقاد الشورى فى محفل عام تحت سقيفة مفتوحة تَجَمَّعَ تحتها من أتيح له الحضور من الأنصار والمهاجرين ، فتمت على صورة مؤتمر شعبى عام . .

أمَّا اختيار عمر للخلافة فجاء على صورة إجماع عام بالموافقة على رأى أبى بكر حين عهد بها إليه . . ولو كان فى الأمة الإسلامية آنذاك فرد واحد لا يوافق على تولى عمرُ الخلافة لما عَدِمَ الوسيلة للتعبير عن رأيه بوسيلة أو بأخرى . .

وعثمان بن عفان ، وعلىٌّ بن أبى طالب ، فقد جاء اختيارهما نتيجة لانعقاد الرأى فى مجلس شكَّله عمر بن الخطاب من عدد كاف من كبار أجلاء الصحابة الذين اشتهروا بالحصافة والعدالة فى الرأى والشجاعة على الجهر به . . وقد جعل عمر ابنَه عبدَ الله عضوا فى هذا المجلس لِمَا يعرفه

فيه من سداد الرأى والمقدرة على إبدائه بشجاعة ، ولكن عمر حرم ابنه من حق انتخابه للمنصب ، حتى ينفى عن نفسه أيَّة شبهة فى أن يكون له فى تكوين مثل هذا المجلس أى مطمع شخصىّ ، أو فى أنه يعمل على أن يصل ابنه إلى مقاليد السلطة .

وقد امتاز الإسلام بأنه دين استطاع أن يوحِّد بين الناس من جميع الأجناس والأمم ، وأن يوجِّههم جميعا وجهة واحدة ، بل وأن يَحْمِلَهم على نهج واحد وغاية واحدة . . وما استطاع الدين الإسلامى أن يفعل ذلك إلاَّ لأنَّه عقيدة ونظام . .

وإذا كان الإسلام فى حقيقته عقيدة ونظاما ، فإنَّ مقتضى طبيعته أن يكون حُكْماً . . وإذا كان قيام النظام الإسلامى يقتضى قيام حُكْم إسلامى فمعنى ذلك أن الحكم الإسلامى من مقتضيات الإسلام أو قل إنه طبيعة الإسلام .

والإسلام ليس دينا فحسب ، وإنما هو دين ودولة ، لأنه قد أنشأ أمة ، ووحَّدها وكتَّلها وأظلها برايته ومنعها وأعزَّها ، وجعلها أمة ذات سيادة . .

والدولة الإسلامية كانت كيانا قائما معترفا به منذ البداية . . وقد زاول النبى ﷺ حقوقا لا تكون إلاَّ لحاكم دولة ذات سيادة ، فقد عقد المعاهدات وجيَّش الجيوش ، ووجَّه البعثات الدبلوماسية إلى ملوك الدول الأخرى ، بل خطط حدود دولته وحافظ عليها من أن تنتهك أو يُعْتَدى عليها . . وقد كانت غزوة تبوك تحرُّكاً عسكريا مهمته أن يحمى حدود الدولة الإسلامية من الحشود الرومانية التى تجمعت لغزو الأراضى الإسلامية والاعتداء على سيادتها . .

وقد أبنَّا كيف كان لهذه الدولة حاكم ، كما أوضحنا طريقة الإسلام فى اختيار هذا الحاكم . .

فالإسلام عقيدة ودين
والإسلام شعب وأمة
والإسلام وطن ودولة
والإسلام أيضا نظام وحكم . .

ومن المسلم به أن أكثر ما جاء به الإسلام لا يدخل تنفيذه فى اختصاص الأفراد . . وإنما هو من اختصاص الحكومات . . وهذا وحده يقطع بأن الحكم من طبيعة الإسلام ومقتضياته . . فالإسلام قد حرَّم الكثير من الأفعال واعتبر إتيانها جريمة يعاقب عليها ، وفرض لهذه الجرائم عقوبات ، ومن هذه الجرائم القتل العمد وعقوبته القصاص ، والسرقة وعقوبتها قطع اليد ، والقذف وعقوبته الجلد . .

ومما لا شك فيه أن الإسلام لم يأت

بهذه التشريعات عبثا . . وإنما قصد بها أن تُنفَّذ وأن تقام . . وإذا كان هذا هو قصد الإسلام فمن الواضح أنه يوجب على المسلمين أن يقيموا حكومة تسهر على إقامة هذه التشريعات وتلتزم بتنفيذها . .

والإسلام حين أوجب على المسلمين أن يؤمِّروا عليهم رئيسا أو خليفة . . فقد أناط بهذا الرئيس كل مسئوليات الحكم وواجباته . . وألزم هذا الرئيس بأن يحقِّق المساواة بين المسلمين ، وأن يقيم العدالة فيهم ، وأن يحمى حدود الله ، فيعاقب على كل جريمة منعها الله ، وأن يلزم كل فرد من المسلمين بأداء كل واجب فرضه الله . .

وإذا كان هذا هو مسئولية الرئيس فمن واجبه أن يقيم جهازا كاملا للحكم يستطيع به أن ينهض بكل هذه التبعات . . ولم ينكر أحد من المسلمين على الخلفاء حقهم فى تعيين الولاة (حكام المقاطعات) والقضاة والشرطة والجباة ، والكتبة والجند وقوادهم ، وكل ما تقتضيه ضرورة الحكم من وظائف وموظفين بما فى ذلك الوزراء . .

ولقد كان للإسلام دائما جهاز قوى للحكم . . ويريد الإسلام أيضا لهذا الجهاز أن يكون دائما حكومة مثاليَّة . . والحكومة المثالية - كما يريدها الإسلام - هى التى تقيم أمور الدنيا بأمر الدين . . فتأخذ مواطنيها بما أمر الله ، وتمنعهم عما نهى الله . .

وإذا كان الإسلام قد أوجب على الحكومة الإسلامية أن تقيم فى الأمة الإسلامية أمر الله فإنه ينكر أن يقوم بوظيفة الحكم غير مسلم . .

ومن أهم واجبات الحاكم أن يعرف طبيعة عمله ، وتفاصيل مهمته ، فوجب عليه أن يكون على إدراك كاف بأحكام الدين . .

وفى غير الرئيس الأعلى يكفى للمسئول الحكومى الذى يشغل منصبا له مهمة محدَّدة أن يكون فقط على علم بأحكام الدين فى مجال وظيفته واختصاصها .

وإذا كانت الحكومات تقوم على طاعة المحكومين فقد أوجب الإسلام أن يطيع المسلمون أولى الأمر فيهم والقائمين على شئونهم من الحكام . . لكن الإسلام أيضا قد أوجب على المحكومين أن يتحلَّلوا من هذه الطاعة إذا ما خرج الحاكمون على طاعة الله . . فى ذلك يقول الرسول ﷺ :

« لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

وبذلك فقد ربط الإسلام طاعة المحكومين للحاكمين بطاعة الحاكمين لأمر الله . .

فالحكومة الإسلامية يجب أن تقوم على أمر الله . . وليس لها بأى حال أن تنحرف عنه ، وإلا فقدت حقها فى الطاعة وبالتالى حقها فى الحكم . .

والحكومة الإسلامية من حيث إنها حكومة يختار رئيسها الأعلى بواسطة المواطنين وبطريق الشورى تماثل الجمهوريات الديمقراطية من بين نظم الحكم المعاصرة مع الفارق البسيط فى أمرين اثنين :

أما الأول : فهو أنَّ الرئيس فى الدولة الإسلامية يختار مدى الحياة ، ولا يسقط أو يعزل مادام قائما بالعمل على تنفيذ أحكام الدين . . ومما هو جدير بالتنبيه هنا أن هذه المسألة قد روعى فيها المصلحة العامة واستقرار أمور الحكم وسياسة الدولة . . ولكن إذا اقتضى الأمر غير ذلك فليس هناك ما يمنع أبدا من أن يكون اختيار الخليفة لأجل موقوت أو لمدة محدَّدة . كما هو معمول به الآن فى كثير من نظم الحكم المعاصرة .

والفارق الثانى يتعلق بالدستور ، فالدستور فى الجمهوريات الديمقراطية الحديثة يكون من عمل الناس . . أما الدستور فى الحكومة الإسلامية فهو تنزيل من الله لا يقبل فى قواعده المنصوص عليها تغييرا أو تبديلا . . وذلك بعكس الدساتير الحديثة التى تغير فيها الشعوب والحكومات حسب ما تقتضيه المصلحة وظروف الحياة وأحوالها المتغيرة . . وكثيرا ما تلعب الأهواء والأغراض الخاصة دورها فى العبث بهذه القوانين والدساتير باسم الديمقراطية فتسوء حال المجتمعات والشعوب . .

وعلى هذا فتبرز ثلاث صفات رئيسية للحكومة الإسلامية : أولاها أنها حكومة دستورها القرآن ، وثانيتها أنها حكومة شورى ، وثالثتها أنها حكومة خلافة أو إمامة . .

وبهذا تكون الحكومة الإسلامية فريدة فى نوعها ، وليست على نسق أى من الأنظمة الحكومية المعاصرة . .

فهى بعيدة كل البعد عن أن تكون حكومة ديكتاتورية لأن الحاكم فيها مختار بالشورى وتقيمه الأمة التى لها حق محاسبة هذا الحاكم على سائر تصرفاته ، ومن واجبات الأمة أن تخرج على طاعته إذا خرج عن دستور الله وشريعته اللذين يجب عليه أن يلتزمها وأن لا يستبد برأيه أو يخالفها . .

وهى وإن كانت تشبه كثيرا – بمقتضى نظام الشورى فيها – الأنظمة النيابية . . إلا أن نظام الشورى يخالف كثيرا النظام النيابى سواء فى شكله أو فى أغراضه . . فالنظام النيابى من اختصاصه التشريع . . أما الشورى فإنها تلتزم بشريعة الله وليس من مهمتها أن تغير أو تبدل فى أصول هذه الشريعة المنصوص عليها فى القرآن وسنة الرسول . . والالتزام بشريعة الله يحصر المهمة فى التطبيق .

وليست حكومة ثيوقراطية .. لأن الحكومات الثيوقراطية تقوم على مبدأ السيادة الكهنوتية التى تستمد سلطانها من الله .. وهى بهذا تفرض نفسها على الرعايا .. أما الحكومة الإسلامية فإنها تستمد سلطتها من الشعب .. والتزامها لأحكام الدين لايؤثر فى حق الشعب فى اختيارها واقامتها واسقاطها .. وهى فوق ذلك تباشر سلطات مدنية بحتة لأن الله قد شرع للناس – ضمن ما شرع – نظمهم المدنية ..

وهى تشبه النظام الديمقراطى ولكنها ليست منه .. فهى وان كانت توجب اختيار الحكام بواسطة الشعب وتوجب قيام العدل والمساواة المطلقة وتوجب إطلاق الحريات بسائر أنواعها .. إلا أنها تختلف عن النظام الديمقراطى فى أن الشريعة الاسلامية تقيد كلا من الحاكمين والمحكومين بقيود هى مجمل أحكام الدين وتشريعاته ، وفى أن الإسلام لم يترك مقاييس العدالة والمساواة وغير ذلك من الفضائل الإنسانية فى يد البشر يرسمون حدودها فيوسعونها تارة ويضيقون فيها تارة أخرى طبقا لأهوائهم .. وإنما رسم الإسلام حدود الفضائل الإنسانية ، ووضع مقاييسها وأوجب أن يخضع البشر لهذه المقاييس الإلهية ، وبذلك حمى الإسلام الحياة العامة من الفساد ومن تلاعب الأهواء .. وبذلك أيضا خلا النظام الإسلامى من العيوب التى تؤخذ على النظم الديمقراطية .

وهى تشبه النظام الجمهورى من حيث طريقة اختيار الرئيس الأعلى للجمهورية .. ولكنها تختلف عنه من حيث إنها تسمح بانتخاب الرئيس مدى الحياة .. وتختلف عنه أيضا بما سبق بيانه فى أوجه الخلاف بين الحكومة الإسلامية والنظم الديمقراطية والنيابية ..

وقد جاء الإسلام بنظام حكمه الخاص لأنه قد حوى جميع المزايا التى فى كل نظام من أنظمة الحكم المعروفة وتحاشى جميع ما فيها من مساوئ وعيوب ..

ولا تتضح مثالية نظام الحكم الإسلامى ولا قوته ولا إيجابيته ولا فعاليته الممتازة إلا إذا أدركنا أنه يقوم على دستور سليم وشريعة صالحة .. وصلاح النظام الإسلامى إنما تحقق لأنه انبنى على مبادئ قيمة أكدت التجربة حكمة الله فيها ، وأثبتت أنها خالية من العيوب تماما ..

وإذا استعرضنا كافة المبادئ والمثل التى يتبناها دعاة الإصلاح الاجتماعى والسياسى فى كل عصر نجدها بعضا مما قرره الإسلام بصورة أوسع وأدق .

فالعدالة والحرية والمساواة وسائر الحقوق الإنسانية ليست فى الإسلام مجرد شعارات

وإنما هى كلها واقع حقيق طَبَّقة الإسلام ونفَّذه على جميع الأفراد بلا تمييز ولا تفرقة ، ولم يُحِدّ منها أو يقيدها إلا بقدر ما يستفيد منه المجموع . . وفى هذا أيضا مصلحة تعود على الفرد نفسه . .

ومن قبيل التجنى أن يوجه أى نقد لنظام الحكم فى الإسلام . . لأنه خير النظم وأكثرها انطباقا على الطبيعة ، فهو يأتى إلى الحكم بأرشد الناس ، وهو قد وضع كافة الضمانات التى تجعل عملية الحكم لصالح الرعايا لا لمصلحة الحاكمين . .

والحاكم فى الإسلام يخدم ولا يتحكَّم ، ويسهر على المصلحة دون أن يستبد أو يستفيد . . فراتبه قدر الكفاية من بيت المال من غير إسراف أو ترف . وقد ضرب عمر بن الخطاب للخلفاء المثل فى الاكتفاء بالقدر الضرورى لنفقة الخليفة وأهله حين اشتهت زَوْجُه الحلوى فطلبتها منه ، واعتذر لها الخليفة بضيق ذات يده . . وفوجئ الخليفة بعد أيام بزوجته تعطيه قدرا من المال ليشترى لها طِلْبَتَها . فسألها عن مصدر هذا المال ، وأخبرته بأنها اقتصدته على مدار هذه الأيام . . كل يوم كذا حتى اكتمل لها هذا المبلغ . . وكان عدة دراهم . . فأخذه منها عمر ورده إلى بيت المال ورفض أن يشترى الحلوى لأنها إسراف لا مبرر له ، وزاد على ذلك بأن أنقص من راتبه بمقدار ما استطاعت زوجته أن توفره ، فقد وضح له أنه فائض عن الحاجة وزيادة عن القدر الضرورى لنفقة أسرته . .

والإسلام يحرِّم على الحاكم أن يستغل نفوذه أو سلطته للإثراء أو تحقيق أية منفعة شخصية ، حتى ولو كان ذلك فى صورة العمل المشروع . . ولهذا حاسب الخليفة عمر بن الخطاب أحد الولاة على ما جمعه من ثروة خلال مدة ولايته . . فقال له الوالى : « لقد تاجرتُ فربحت » فاستنكر عليه ذلك عمر قائلا :

« وهل أرسلناك للتجارة ؟ ! » . . وبهذا كان الإسلام أول من قرر مبدأ « من أين لك هذا » فى محاسبة الحكام وموظفى الدولة . .

والإسلام يحرِّم على الحاكم أخذ الرشوة كما يحرم عليه قبول الهدية ممن لم يبح العرف له أن يتبادل معهم الهدايا . . أو إذا كان فى الإهداء أية شبهة للرشوة ولو كانت من أقرب الناس إليه . .

والإسلام يحرم على الحاكم أن يمالئ معتديا أو ينصر ظالما مهما كانت قوة هذا الظالم وذلك المعتدى أو منزلتهما عنده . .

والإسلام يحرم على الحاكم أن يهمل أية شكوى لأى مظلوم أو يتهاون فى أى حق . . وفى سبيل ذلك يتعين على الحاكم أن يرتب

ديوانا خاصا للنظر فى كل شكوى وكل مظلمة بحيث تتيسر وسائل الشكوى والتظلم لكل مسلم . .

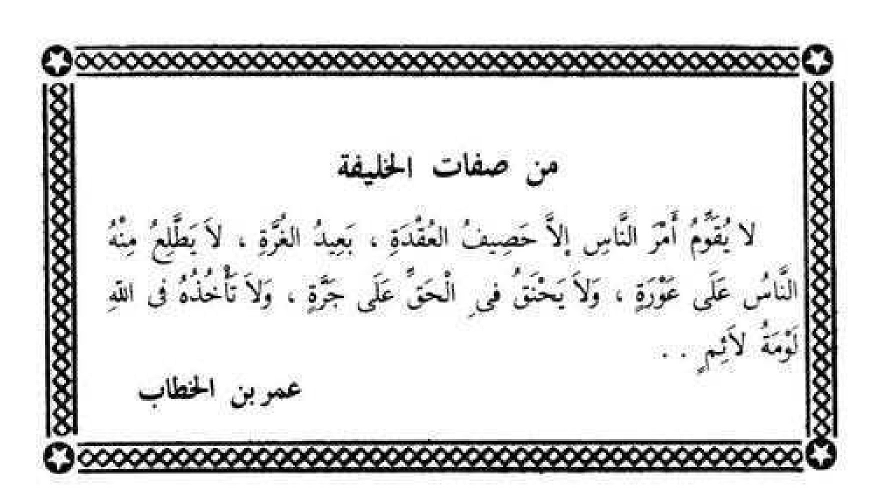
والإسلام يحرم على الحاكم التعرض لأى حق من حقوق المسلم إلا بحق . .

والإسلام يحرم على الحاكم التهاون فى أية مصلحة خاصة أو عامة للمسلمين . . فالشئون الخاصة بالتكافل الاجتماعى – ومسئولية الدولة فيها – يجب على الحاكم أن ينهض بها كاملة غير منقوصة . . وكذلك المرافق العامة كالطرق ومسالك الرى وأجهزة الأمن كالشرطة وما إلى ذلك يجب على الحاكم أن يضمن لها الصلاحية والكفاية لتتحقق المصلحة فيها بصورة كاملة . .

والإسلام يحرِّم على الحاكم أن لا يغفل عن القوة الدفاعية للدولة . . حتى لا تبقى الدولة ولو للحظة واحدة عاجزة عن رد أى اعتداء خارجى .

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »

زاهر عزب الزغبى



من صفات الخليفة

لا يُقَوِّمُ أَمْرَ النَّاسِ إِلاَّ حَصِيفُ الْعُقْدَةِ ، بَعِيدُ الْغِرَّةِ ، لاَ يَطَّلِعُ مِنْهُ النَّاسُ عَلَى عَوْرَةٍ ، وَلاَ يَحْنَقُ فِي الْحَقِّ عَلَى جِرَّةٍ ، وَلاَ تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لاَئِمٍ . .

عمر بن الخطاب

حقيقة الإيمان

الأستاذ / موسى محمد علي

يقول الله تعالى :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً ٤ : ٦٥ » .

ثبت بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع الأمة أن الله تعالى قد فرض على العباد طاعته وطاعة رسوله ﷺ ، ولم يوجب على هذه الأمة طاعة أحد بعينه فى كل ما أمر به ونهى عنه إلا رسوله ﷺ : « قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ٣ : ٣١ » .

حتى كان صدّيق الأمة وأفضلها بعد نبيها ﷺ ، ورضى الله عنه يقول : « أطيعونى ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم » .

واتفقوا كلهم على أنه ليس أحد معصوماً فى كل ما أمر به ونهى عنه إلاّ رسول الله ﷺ ، ولهذا قال غير واحد من الأئمة : « كل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ » . .

وهؤلاء الأئمة الأربعة قد نهوا الناس عن تقليدهم فى كل ما يقولونه ، وذلك هو الواجب .

وقال الإمام الأعظم أبو حنيفة رضى الله عنه :

هذا رأيى ، وهذا أحسن ما رأيت . فمن جاء برأى خير منه قبلناه .

ولهذا : فلما اجتمع أفضل أصحابه « أبو يوسف » بإمام دار الهجرة « مالك بن أنس رضى الله عنه » ، وسأله عن مسألة الصاع ، وصدقة الخضراوات ، ومسألة الأحباس ، فأخبره مالك رضى الله عنه بما دلت عليه السنة فى ذلك فقال :

رجعت لقولك يا أبا عبد الله ، ولو رأى صاحبى ما رأيت لرجع كما رجعت .

والله سبحانه وتعالى علق سعادة الدارين بمتابعته ﷺ ، وجعل شقاوة الدارين فى مخالفته ، فلأتباعه صلوات الله وسلامه عليه : الهدى والأمن والفلاح والعزة والكفاية والنصرة والولاية والتأييد وطيب العيش فى الدنيا والآخرة . . ولمخالفيه

ﷺ : الذلة والصغار ، والخوف والضلال والخذلان والشقاء فى الدنيا والآخرة .

وقد أقسم سيدنا رسول الله ﷺ ، بأن لا يؤمن أحد حتى يكون هو أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص :

« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .

وأقسم الله سبحانه بأنه لا يؤمن من لم يرض بحكمه ﷺ فى كل ما تنازع فيه هو وغيره . . وإنما المؤمن هو من قبل حكومة الرسول ﷺ ولا يجد فى نفسه حرجاً مما حكم به ، ثم يسلم له تسليماً ، وينقاد له انقياداً .

يقول سبحانه : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ٣٣ : ٣٦ » .

فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره تعالى وأمر رسوله ﷺ ، فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره ﷺ ، بل إذا أمر فأمره حتم ، وإنما الخيرة فى قول غيره ، إذا خفى أمره . وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته .

بهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع ، لا واجب الاتباع ، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه ، بل غايته أنه يسوغ له اتباعه . ولو ترك الأخذ بقول غيره . لم يكن عاصياً لله ورسوله .

فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه ، ويحرم عليهم مخالفته ، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله :

فلا حكم لأحد معه ، ولا قول لأحد معه ، كما لا تشريع لأحد معه وكل أحد سواه : فإنما يجب اتباعه على قوله ، إذا أمر بما أمر به ، ونهى عما نهى عنه ، فكان مبلغاً محضاً ومخبرا لا منشئا ومؤسساً .

فمن أنشأ أقوالاً وأسس قواعد ، بحسب فهمه وتأويله ، لم يجب على الأمة اتباعها ولا التحاكم إليها ، حتى تعرض على ما جاء به ، فإن طابقته ووافقته ، وشهد لها بالصحة ، قبلت ، وإن خالفته وجب ردها واطراحها ، وإن لم يتبين فيها أحد الأمرين جعلت موقوفة ، وكان أحسن أحوالها : أن يجوز الحكم والإفتاء بها ، وأما أنه يجب ويتعين فلا .

وظاهر الآية يدل على أنه لا يجوز تخصيص النص بالقياس ، لأنه يدل على

أنه يجب متابعة قوله وحكمه على الإطلاق ، وأنه لا يجوز العدول عنه إلى غيره . ومثل هذه المبالغة المذكورة فى هذه الآية قلما يوجد فى شىء من التكاليف ، وذلك يوجب تقديم عموم القرآن الكريم والخبر الصحيح على حكم القياس . .

وقوله (ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت) مشعر بذلك ، لأنه متى خطر بباله قياس يفضى إلى نقيض مدلول النص ، فهناك يحصل الحرج فى النفس ، فبين تعالى أنه لا يكمل إيمانه إلا بعد أن لا يلتفت إلى ذلك الحرج ، ويسلم النص تسليماً كليا ، وهذا الكلام قوى حسن لمن أنصف .

وقوله تعالى « فلا وربك لا يؤمنون »

قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط : أولها قوله تعالى : « حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ، وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول ﷺ لا يكون مؤمناً ، وأن من يتمسك بهذه الآية فى بيان أنه لاسبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بإرشاد النبى المعصوم ، لأن قوله : « لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم » ، تصريح بأنه لا يحصل لهم الإيمان إلا بأن يستعينوا بحكم النبى عليه الصلاة والسلام فى كل ما اختلفوا فيه ،

فلزم بحكم هذه الآية أنه لا يحصل الإيمان إلا بحكمه وإرشاده وهدايته ، ذلك أن عقول أكثر الخلق ناقصة وغير وافية بإدراك هذه الحقائق ، وعقل النبى المعصوم كامل مشرق ، فإذا اتصل إشراق نوره بعقول الأمة قويت عقولهم وانقلبت من النقص إلى الكمال ، ومن الضعف إلى القوة ، فقدروا عند ذلك على معرفة هذه الأسرار الإلهية ، والذى يؤكد ذلك أن الذين كانوا فى زمان الرسول ﷺ كانوا جازمين متيقنين كاملى الإيمان والمعرفة ، والذين بعدوا عنه اضطربوا واختلفوا ، وما حدث هذا الاضطراب وهذا الاختلاف إلا بعد زمان الصحابة والتابعين .

وقوله : « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت »

قال الزجاج : « لا تضيق صدورهم من أقضيتك » .

والراضى بحكم الرسول ﷺ ، قد يكون راضياً به فى الظاهر دون القلب ، فبين سبحانه فى هذه الآية ، أنه لابد من حصول الرضا به فى القلب ، وأن ميل القلب ونفرته شىء خارج عن وسع البشر ، فليس المراد من الآية ذلك ، بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين فى القلب بأن الذى يحكم به الرسول ﷺ هو الحق والصدق .

وقوله : « ويسلموا تسليماً » .

فمن عرف بقلبه كون ذلك الحكم حقاً وصدقاً قد يتمرد عن قبوله على سبيل العناد أو يتوقف فى ذلك القبول ، فبين تعالى ، أنه كما لابد فى الإيمان من حصول ذلك اليقين فى القلب فلابد أيضاً من التسليم معه فى الظاهر.

فقوله : « ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت »

المراد به الانقياد فى الباطن.

« ويسلموا تسليماً » المراد منه : الانقياد فى الظاهر.

عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال :

لو أن قوماً عبدوا الله تعالى ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصاموا رمضان ، وحجوا البيت ثم قالوا لشىء صنعه رسول الله ﷺ ألا صنع خلاف ما صنع ، أو وجدوا فى أنفسهم حرجاً فكانوا مشركين ، ثم تلا هذه الآية :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ٤ : ٦٥ ».

وفى هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها دلالة على أن الإيمان الحقيقى ، لا يحصل إلا لمن حكّم الله تعالى ، وحكّم رسوله ﷺ على نفسه ، قولاً ، وفعلاً ، وأخذاً ، وتركاً ، وحبًّا وبغضاً ، ويشمل ذلك حكم التكليف وحكم التصريف ، والتسليم والانقياد واجب على كل مؤمن فى كليهما.

فأحكام التكليف : الأوامر والنواهى ، المتعلقة باكتساب العباد.

وأحكام التصريف : هو ما أورده عليك ، من قهر المراد.

فتبين من هذا أنه لا يحصل لك حقيقة الإيمان إلا بأمرين :

بالامتثال لأمره : والاستسلام لقهره.

ثم إنه سبحانه وتعالى ، لم يكتف بنفى الإيمان ، عمن لم يحكم ، أو حكم ووجد الحرج فى نفسه على ما قضى ، حتى أقسم على ذلك بالربوبية الخاصة ، برسوله ﷺ ، رأفة وعناية ، وتخصيصاً ورعاية.

لأنه لم يقل : « فلاوالرب » وإنما قال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ٤ : ٦٥ ».

ففى ذلك : تأكيد بالقسم ، وتأكيد فى المقسم عليه ، علماً منه سبحانه بما النفوس منطوية عليه من حب الغلبة ، ووجود النصرة ، سواء كان الحق عليها ، أولها ، وفى ذلك إظهار لعنايته برسوله ﷺ ، إذ جعل حكمه حكمه ، وقضاءه قضاءه ، فأوجب على العباد الاستسلام لحكمه ، والانقياد لأمره ، ولم يقبل منهم الإيمان بالاهيته ، حتى يذعنوا لأحكام رسوله ،

ﷺ : لأنه كما وصفه ربه :

« وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ٥٣ : ٣ ، ٤ » .

فحكمه : حكم الله ، وقضاؤه قضاء الله ، كما قال :

« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ٤٨ : ١٠ » . وأكد ذلك بقوله : « يد الله فوق أيديهم » . وفى الآية إشارة أخرى لعظم قدره ، وتفخيم أمره ، ﷺ ، وهى قوله تعالى :

« فلا وربك »

فأضاف نفسه تعالى إليه ، كما قال فى الآية الأخرى :

« كهيعص ، ذكر رحمة ربك عبده زكريا ١٩ : ١ ، ٢ » .

وأضاف الحق سبحانه ، اسمه إلى محمد ﷺ : وأضاف زكريا إليه ليعلم العباد ، فرق ما بين المنزلتين ، وتفاوت ما بين الرتبتين .

ثم إنه تعالى : لم يكتف بالتحكيم الظاهر ، فيكونوا به مؤمنين ، بل اشترط فقدان الحرج – وهو الضيق – من نفوسهم ، فى أحكامه ، ﷺ ، سواء كان الحكم بما يوافق أهواءهم أو يخالفها .

وإنما تضيق النفوس ، لفقدان الأنوار ، ووجود الأغيار ، فعنه يكون الحرج : وهو الضيق ، والمؤمنين ليسوا كذلك .

إذ نور الإيمان ملأ قلوبهم ، فاتسعت وانشرحت ، فكانت واسعة بنور الواسع العليم ، ممدودة بوجود فضله العظيم ، مهيأة لو أرادت أحكامه ، مفوضة إليه فى نقضه وإبرامه .

يقول ابن تيمية :

« إنما جيء بصيغة التحكيم مع أنه ﷺ حاكم بأمر الله إيذاناً بأن اللائق بهم أن يجعلوه عليه الصلاة والسلام حكماً فيما بينهم ويرضوا بحكمه وإن قطع النظر عن كونه حاكماً على الإطلاق » .

ولعل حكم هذه الآية باق إلى يوم القيامة ، وليس مخصوصاً بالذين كانوا فى عصر النبى ﷺ ، فإن قضاء شريعته عليه الصلاة والسلام قضاؤه .

وبعد : فإن الالتجاء إلى الله تعالى ، والتسليم المطلق لما قضى رسوله ﷺ ، وإيثار تحكيمه صلوات الله وسلامه عليه فيما أشكل من أمور ديننا ودنيانا ، هو الإيمان الصادق الذى يذوق معه العبد حلاوة الإيمان ، ويغمر قلبه برد الرضا وسلامة التسليم .

روى مسلم فى صحيحه ، والترمذى فى سننه عن العباس بن عبد المطلب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ذاق طعم الإيمان ، من رضى الله ربًا ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً » .

يقول صاحب التحرير ، رحمه الله تعالى :

«معنى رضيت بالشيء قنعت به . واكتفيت به ، ولم أطلب معه غيره . فحينئذ يكون معنى الحديث :

لم يطلب غير الله تعالى ، ولم يسع فى غير طريق الإسلام ، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ .

ولا شك فى أن من كانت هذه صفته ، فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه ، وذاق طعمه »اهـ

وقال القاضى عياض رحمه الله : معنى الحديث :

«صح إيمانه ، واطمأنت به نفسه ، وخامر باطنه ، لأن رضاه بالمذكورات ، دليل على ثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ، ومخالطة الإيمان بشاشة قلبه »اهـ .

وفى هذا الحديث الشريف دليل على أن من لم يكن كذلك ، لا يجد حلاوة الإيمان ، ولا يدرك مذاقه ، وإنما يكون إيمانه صورة لا روح فيها ، وظاهراً لا باطن له ، ومرتسماً لا حقيقة تحته .

وفيه إشارة إلى أن القلوب السليمة من أمراض الغفلة والهوى ، تنعم بملذات المعانى ، كما تنعم النفوس بملذات الأطعمة .

وإنما ذاق طعم الإيمان ، من رضى بالله ربًا ، لأنه لما رضى بالله ربًا : استسلم له ، وانقاد لحكمه ، وألقى قياده إليه خارجاً عن تدبيره واختياره ، إلى حسن تدبير الله واختياره ، فوجد لذاذة العيش وراحة التفويض .

ولما رضى الله رباً ، كان له الرضا من الله ، كما قال الله تعالى :

«رضى الله عنهم ورضوا عنه ٩٨ : ٨» .

وإذا كان له الرضا من الله ، أوجده الله حلاوة ذلك ، ليعلم ما منّ به عليه ، وليعلم إحسان الله إليه ،

ولا يكون الرضا بالله إلا مع الفهم ، ولا يكون الفهم إلا مع النور ، ولا يكون النور إلا مع الدنو ، ولا يكون الدنو ، إلا مع العناية ،

فلما سبقت لهذا العبد العناية ، خرجت له العطايا من خزائن المنن ، فلما واصلته أمداد الله وأنواره ، عوفى قلبه من الأمراض والأسقام ، فكان سليم الإدراك ، فأدرك لذاذة الإيمان ، وحلاوته لصحة إدراكه ، ولسلامة ذوقه ،

ولو سقم قلبه بالغفلة عن الله — والعياذ بالله تعالى — لم يدرك ذلك لأن المحموم ، ربما وجد طعم السكر مرًّا ، وليس هو فى نفس الأمر كذلك .

فإذا مازالت أسقام القلوب ، أدركت الأشياء على ما هى عليه ، فتدرك حلاوة الإيمان ولذاذة الطاعة ، ومرارة القطيعة والمخالفة .

فيوجب إدراكها لحلاوة الإيمان ، اغتباطها به ، وشهود المنة من الله عليها فيه ، وتطلب الأسباب الحافظة للإيمان ، والجالبة له .

ويوجب إدراك لذاذة الطاعة ، المداومة عليها ، وشهود المنة من الله فيها .

ويوجب إدراكها لمرارة الكفران والمخالفة ، الترك لها ، والنفور عنها ، وعدم الميل إليها ، فيحمل على الترك للذنب ، وعدم التطلع إليه ، وليس كل متطلع تاركاً ، ولا كل تارك غير متطلع .

وإنما كان كذلك : لأن نور البصيرة دال على أن المخالفة لله ، والغفلة عنه ، سم للقلوب مهلك .

فنفرة قلوب المؤمنين عن مخالفة الله تعالى ، كنفرتك عن الطعام المسموم .

وقوله ﷺ : « وبالإسلام دينا » .

لأنه إذا رضى بالإسلام ديناً ، فقد رضى بما رضى به المولى واختاره ، لقوله تعالى :

« ورضيت لكم الإسلام ديناً ٥ : ٣ »

ولقوله تعالى :

« إن الدين عند الله الإسلام ٣ : ١٩ »

ولقوله تعالى :

« ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ، فلن يقبل منه ٣ : ٨٥ » .

ولقوله تعالى :

« إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ٢ : ١٣٢ » .

وإذا رضى بالإسلام ديناً ، فمن لازم ذلك :

امتثال الأوامر ، والانكفاف عند وجود الزواجر ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والغيرة إذا رأى ملحداً يجادل ، أن يدخل فيه ما ليس منه ، فيدفعه ببرهانه ، ويقمعه بتبيانه .

وقوله ﷺ ، « وبمحمد رسولاً » .

فلازم من رضى بمحمد رسولاً أن يكون له وليًا ، وأن يتأدب بآدابه ، وأن يتخلق بأخلاقه ، زاهدا فى الدنيا ، وخروجاً عنها ، وصفحاً عن الجناية ، وعفواً عمن أساء إليه ، إلى غير ذلك من تحقق المتابعة . قولاً ، وفعلاً ، وأخذاً ، وتركاً ، وحبًّا ، وبغضاً ، وظاهرا وباطناً .

فمن رضى بالله ، استسلم له ، ومن رضى بالإسلام : عمل له ، ومن رضى بمحمد ﷺ : تابعه ، ولا تتكون واحدة منها إلا بكلها ،

إذ محال أن يرضى بالله ربًّا ، ولا يرضى بالإسلام ديناً ، أو يرضى بالإسلام ديناً ، ولا يرضى بمحمد نبيًّا ، وتلازم ذلك ، بين لا خفاء فيه . . .

هذا وبالله التوفيق

موسى محمد على

الأزهر جامعًا وجامعة

الأستاذ / محمد كمال السيد

١

روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال: (فضلت الصلاة فى المسجد الحرام على غيره بمائة ألف صلاة. وفى مسجدى بألف صلاة. وفى مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة).

هذه المساجد الثلاثة هى أقدم المساجد وأكثرها تقديساً عند المسلمين ويليها مباشرة فى الشهرة والمكانة الجامع الأزهر.

ولا ترجع مكانة الأزهر إلى قدمه فقد أنشئت قبله جوامع عديدة فى العواصم الإسلامية وكان يستتبع الفتوحات الإسلامية إنشاء المدن وإنشاء جامع فى كل مدينة تنشأ أو تفتح فقد أنشئ جامع البصرة سنة ١٤ هـ وجامع الكوفة سنة ١٦ هـ. وجامع عمرو بالفسطاط سنة ٢٠ هـ. وجامع العسكر شمال الفسطاط سنة ١٣٣ هـ عندما قضى العباسيون على الأمويين. وجامع أحمد بن طولون بالقطائع فى الشمال الشرقى فى العسكر سنة ٢٦٦ هـ كما أنشىء جامع الزيتونة فى تونس سنة ١١٤ هـ وجامع القرويين فى فاس (بالمملكة المغربية) سنة ٢٤٥ هـ وهكذا . . . مع ملاحظة أن بلاد المغرب فتحت فى القرن الأول الهجرى. فلم يكن إنشاء جامع القرويين بسبب الفتح فاسمه نسبة إلى مهاجرين من القيروان من تونس كانوا يقطنون الحى الذى أنشىء فيه الجامع سنة ٢٤٥ هـ. أى قبل الأزهر بأكثر من مائة عام وسنعود لذكر هذا الجامع ثانية بإذن الله.

ولكن ترجع مكانة الأزهر إلى الدور الذى اضطلع به الأزهر أكثر من ألف سنة فى التاريخ الإسلامى من الحفاظ على العلوم الدينية والثقافة الإسلامية واللغة العربية لغة القرآن وأنه كان مقصد الطلاب والدارسين فى كل البلاد الإسلامية يحجون إليه ليتزودوا من شيوخه العلم والمعرفة.

والأزهر يعتبر أقدم الجامعات القائمة للآن لا فى البلاد الإسلامية فحسب ولكن

فى جميع أنحاء العالم. فالأزهر أُنشىء فى منتصف القرن الرابع الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حين أن الجامعات فى أوربا وأمريكا لم تنشأ إلا بعد هذا التاريخ. ونذكر على سبيل المثال أن جامعة باريس أُنشئت فى القرن الثانى عشر الميلادى وجامعة أوكسفورد بإنجلترا فى القرن الثالث عشر وجامعة لوفان فى بلجيكا، وأوبسالا فى إسبانيا أُنشئتا فى القرن الخامس عشر وفى القرن السادس عشر أنشئت جامعة أشبيلية فى إسبانيا وجامعة المكسيك وجامعة بوجوتا فى كلومبيا وجامعة القديس مرقس فى ليما عاصمة بيرو. وفى القرن السابع عشر أُنشئت جامعة قرطبة الوطنية فى الأرجنتين، وهكذا..

وينافس جامع القرويين السابق ذكره الجامع الأزهر فى التاريخ الجامعى إذ يعتبره البعض أقدم الجامعات. حيث استمرت الدراسة فيه منذ إنشائه سنة ٢٤٥ هـ إلى الآن بدون انقطاع تقريباً. وفى سنة ١٩٣١هـ صدر مرسوم من السلطان محمد الثالث بتقسيم التعليم فيه إلى ثلاث مراحل: ابتدائية، وثانوية، وعالية. ويتألف التعليم العالى من اختصاص دينى واختصاص أدبى. ثم أضيف للجامع معهد للفتيات يؤهل للعالمية وبعد استقلال المغرب سنة ١٩٥٦م تقرر اعتبار جامع القرويين جامعة مكونة من ثلاث كليات: الآداب، والشريعة، والعلوم. وكان بالجامع مكتبة تحوى كثيراً من المخطوطات النادرة تبدد أغلبها مع الزمن.

ونقول إنه ولو أن جامع القرويين أقدم عهداً من الأزهر. لكن الأزهر ينفرد أنه أول جامعة تولت الدولة الإنفاق على مدرسيها وتعهدتهم بالرعاية منذ عهد العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمى ووزيرهما يعقوب بن كلس (توفى سنة ٣٨٠هـ) فضلاً عن تنوع العلوم التى كانت تدرس فى الأزهر فلم يقتصر التدريس فيه على العلوم النظرية من دينية وأدبية. بل كانت تدرس فيه أيضاً العلوم العملية مثل الطب والرياضة والفلك وغيرها. كما أن موقع مصر المتوسط ومكانتها فى العالم الإسلامى جعلا الأزهر محط الرجال وكعبة القصاد.

والأزهر كما هو معروف أُنشئ مع إنشاء القاهرة المعزية الفاطمية. وبدئ فى بنائه بعدها ببضعة شهور، واستغرق بناؤه ما يزيد قليلاً على العامين. وافتتحه القائد جوهر الصقلى بصلاة الجمعة فيه فى ٧ رمضان سنة ٣٦١هـ (٩٧٢/٦/٢١م) فالمعز لدين الله الفاطمى لم يقدم من المغرب ويدخل القاهرة إلا بعد سنة كاملة من هذا التاريخ.

وكما ذكرنا أن إنشاء المدن كان يستتبع

عادة إنشاء مسجد جامع للمدينة الجديدة فكان اسم الجامع الأزهر جامع القاهرة .

وقيل عن اسم القاهرة إن جوهراً أسمى المدينة أولا بالمنصورية وعندما قدم المعز لدين الله لمصر سنة ٣٦٢ هـ أسماها القاهرة . وقيل إن جوهراً أسماها القاهرة تبعاً لنجم المريخ ، وهو عند الفلكيين القدماء قاهر الفلك ، وأن المريخ كان بالأفق عندما ألقى العمال الأساس . وأن التسمية جاءت مصادفة ، فقد وضع الفلكيون حبالاً حول الأساس بها أجراس ، وأخذوا يرصدون الفلك ليختاروا لحظة مرور نجم حسن الطالع فيأمروا بالبدء فى البناء ، فوقف طير على الحبال فدقت الأجراس فألقى العمال ما فى أيديهم فى الأساس ووجد المريخ قاهر الفلك فى الأفق فأسموها القاهرة .

والقول الثانى أكثر شيوعاً بين المؤرخين .

وأود أن أذكر أن دائرة المعارف الإسلامية ذكرت فى (الترجمة العربية جـ ٣ ص ١٨٣) أن جوهراً كان معروفاً باسم إلياس الصقلى ، ولكنها فى مادة إلياس (جـ ٤ ص ٣٨١) لم تذكر هذا ، وذكرت أن إلياس النبى عند المسلمين هو إيليا المذكور فى التوراة ، ونسبت للمسلمين بعض الخرافات المتعلقة به وبالخضر عليهما السلام ، ورد على أقوال الدائرة الأستاذ محمد عرفة فى تعليقه على المادة .

نعود فنقول : إنه سواء أكانت تسمية القاهرة من القائد جوهر أو من الخليفة المعز لدين الله ، فقد عرف الجامع الأزهر فى صدر الدولة الفاطمية باسم جامع القاهرة .

فلما تعددت المساجد التى أنشأها الفاطميون داخل القاهرة الفاطمية اختير له اسم الجامع الأزهر .

فقد أنشأ العزيز بن المعز الجامع الأنور عند باب النصر وأتمه ابنه الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٣ هـ فنسب إليه وعرف بجامع الحاكم ، وأنشأ الآمر بأحكام الله سنة ٥١٩ هـ الجامع الأقمر (بجهة بين القصرين) وأنشأ الظافر بأمر الله بن الحافظ لدين الله سنة ٥٤٣ هـ الجامع الأفخر (بجهة العقادين) وهو المعروف بجامع الفاكهيين ، والأخيران بشارع المعز لدين الله .

وقد ذكر القلقشندى فى صبح الأعشى (جـ ٣ ص ٣٦٥ و ص ٥١١) أن الجامع الأنور وهو جامع المقس بباب البحر ، وهذا مخالف لغيره من المؤرخين (خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٧٧) وحسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢ ص ١٤٠) وجامع المقس من إنشاء الحاكم بأمر الله أيضاً ، وهو الذى عرف أخيراً بجامع أولاد عنان بشارع الجمهورية بالقرب من ميدان رمسيس وقد هدم هذا الجامع فى السنوات الأخيرة لإنشاء مسجد مكانه باسم مسجد الفتح ، وكان موقع هذا

الجامع يطل على النيل ، قبل أن يتحول غرباً إلى مجراه الحالى ، وهناك كانت الميناء النهرية للقاهرة ، وقيل : إن المقس أصلها من المكس أى الجمارك ، وقيل : إنها من المَقْسِم حيث قُسمت هناك غنائم الحرب عند الفتح الإسلامى وربما كان فى هذا تعليل اختيار اسم الفتح للجامع الجديد ، والمعروف أن الحاكم بأمر الله هو الذى أتم الجامع الأنور فنسب إليه ولكن فى خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٧٧) أن العزيز بالله صلى الجمعة فيه سنة ٣٨١ هـ (والعزيز توفى سنة ٣٨٦هـ) وأن الحاكم أمر بإتمامه سنة ٣٩٣ هـ فيبدو أن العزيز بالله صلى الجمعة فيه قبل إتمامه ، وعرف الجامع الأنور بجامع الحاكم ، كما عرف أيضاً بجامع الخطبة بسبب سنذكره فيما بعد بإذن الله .

ولا يعرف على وجه التحقيق وقت اختيار اسم الأزهر للجامع الأزهر ولكن الأرجح أنه فى وقت متقدم من حكم الفاطميين بدليل اختيار أسماء المساجد التى أنشئت بعده بداخل القاهرة الفاطمية : الأنور والأقمر والأفخر ، لتسير على نمط لفظه .

كما أن اختيار اسم الأزهر يرجع إلى لقب السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام ، ووالدة الإمامين الحسن والحسين وإلى الإمام الحسين ينتسب الفاطميون ، فجدهم إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق ، والأخير هو الإمام السادس عند الشيعة الإمامية والإسماعيلية .

فأول الأئمة عند الشيعة على بن أبى طالب ، ثم ابنه الحسن بن على ثم الحسين بن على ثم ابنه على زين العابدين بن الحسين ، ثم ابنه محمد الباقر بن على زين العابدين ثم ابنه جعفر الصادق بن محمد الباقر .

وبعد جعفر الصادق تفترق الطائفتان ، فالإمامية يرون أن الإمامة بعده لابنه موسى الكاظم ، والإسماعيلية يرون أنها لمحمد المكتوم بن إسماعيل بن جعفر الصادق لأن إسماعيل كان أكبر من أخيه موسى الكاظم ولكنه توفى فى حياة والده .

واستطراداً نقول : إنه ينسب إلى على زين العابدين المشهد الموجود بالقاهرة ، بجهة المذبح ، والحقيقة أنه توفى سنة ٩٥ هـ ودفن بالبقيع (بالجانب الشرقى من المدينة المنورة) وأن مشهد القاهرة أقيم على رأس ابنه زيد الشهيد الذى ثار على الأمويين وقتل سنة ١٢١ هـ وأرسل رأسه إلى القاهرة وطيف به فيها .

وكان الأزهر محل تقدير الخلفاء الفاطميين فقد كان الخليفة يصلى الجمعة الثانية من شهر رمضان فى الجامع الأزهر والثالثة فى الجامع الأنور المعروف بجامع

الحاكم والرابعة فى جامع عمرو بالفسطاط ، أما الجمعة الأولى فكانت راحة ، وقال المقريزى : (فينال الناس من هذه الجمع الثلاث رسوم وهبات وصدقات) .

وظل تقليد صلاة ولى الأمر الجمعة الأخيرة من رمضان فى جامع عمرو معمولاً به فى مصر حتى ثورة سنة ١٩٥٢ م .

وذكر المقريزى نقلاً عن ابن الطوير فى الكلام على الجامع الأنور أن الجمعة الأولى راحة والثانية فى الجامع الأنور والثالثة فى الجامع الأزهر والرابعة فى جامع عمرو ، ولكنه عاد فقال نقلاً عن ابن المأمون : (ووصل من الطراز الكسوة الشريفة المختصة بغرة رمضان وجمعتيه بدلة كبيرة مذهبة ويرسم الجامع الأزهر للجمعة الأولى من الشهر بدلة موكبية حرير مكملة منديلها أبيض ، ويرسم الجامع الأنور للجمعة الثانية بدلة منديلها وطيلسانها شعرى .. إلخ) (خطط المقريزى جـ ١ ص ٤٩٥ ، وجـ ٢ ص ٢٨١ ، وص ٢٨٢) .

وقال أيضاً (الخطط جـ١ ص ٤٩٥) : وكان الخليفة يركب كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس فى جامع القاهرة الذى يعرف بالجامع الأزهر مرة ، وفى جامع الخطبة المعروف بالجامع الحاكمى مرة وفى جامع عمرو بن العاص بمصر أخرى) .

وكان موكب الخليفة لصلاة الجمعة فيه عظمة وجلال فيخرج من القصر راكباً وبين يديه الآلاف من الغلمان بين راكبين وراجلين ، وتدق الطبول ، وتنفخ الأبواق وحوله قراء الحضرة وإخوته وأولاده وكبار رجال الدولة . وتُهَيَّأ له بالجامع مقصورة يجلس فيها حتى يؤذن للصلاة . وقد فرشت المقصورة وأمام المحراب بفرش خاص ويعلق ستران على جانبى المحراب ، كتب على الأيمن منهما بخط واضح الفاتحة وسورة الجمعة وعلى الستر الأيسر الفاتحة وسورة المنافقون .

ويصعد قاضى القضاة المنبر ، وبيده مبخرة بها أطيب البخور من نَدٍّ وعود فيبخر الذِّرْوَة التى عليها الغشاء كالقبة ، فإذا أذن للصلاة يدخل قاضى القضاة على الخليفة ويقول : السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته الصلاة يرحمك الله فيخرج الخليفة ويصعد المنبر فيجلس عليه والوزير بباب المنبر ووجهه إلى الخليفة فيشير إليه بالصعود فيصعد إليه ويقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يعود بظهره وهو مستقبل الخليفة فيزرر عليه باب المنبر ، وإن لم يكن الوزير صاحب سيف فيزرر عليه قاضى القضاة ويقف ضابطاً للباب .

وبعد الخطبة ينزل إلى المحراب فيصلى

بالناس قارئاً فى الركعة الأولى من الستر الأيمن الفاتحة وسورة الجمعة ، وفى الركعة الثانية فى الستر الأيسر الفاتحة وسورة المنافقون

وسبب التزرير عليه فى المنبر أن الخليفة كان يقرأ الخطبة من مكتوب كذلك تعليق السترين على جانبى المحراب حتى لا يرتج عليه ، وكان الحاكم بأمر الله ينيب عنه فى الخطبة لأنه كان يرتج عليه .

وكما كان الأزهر محل تقدير الفاطميين فقد كان أيضاً محل عنايتهم إذ أرادوا أن يكون منطلقاً للمذهب الشيعى فأشار أبو الفرج يعقوب بن كِلِّس — وزير المعز ثم وزير ابنه العزيز — على العزيز أن يرتب رواتب لجماعة من الفقهاء يعملون فيه حلقات للتدريس ، فرتب خمسة وثلاثين فقيهاً — وبنى لهم داراً بجانب الجامع وكانوا يحلِّقون — أى يجلس كل منهم فى حلقة — فى الجامع بعد صلاة الجمعة حتى صلاة العصر ، وكانت تطلق لهم — فضلاً عن المرتبات — الخِلَع والصِّلات فى المواسم والأعياد من دار الخلافة ومن دار الوزارة وهذا ما جعل الأزهر أقدم جامعة فى العالم باقية للآن تتولى الدولة الإنفاق على مدرسيها كما سبق ذكره .

وكان يعقوب بن كلس المذكور يهوديًّا أصله من بغداد وقدم مصر فى زمن كافور الأخشيدى ووجد الدين مانعاً من تحقيق طموحه فأسلم ولعله أخلص فيما بعد فى إسلامه بدليل مؤلفاته وتاريخ حياته ونزح من مصر إلى الغرب حيث التحق بخدمة المعز لدين الله وعاد معه إلى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ وولاه المعز الخراج وجميع وجوه الأموال من أعشار وجوالى وأحباس وكذلك الحِسْبَة والسواحل واستمر فى عمله أيضاً فى عهد العزيز بن المعز وعلا شأنه ومقامه حتى لقب بالوزير الأجل وهو أول وزير للفاطميين .

والأعشار جمع عشر والجوالى هى الجزية التى كانت تجبى من أهل الذمة بواقع كل نفس منهم ، والأحباس هى الأوقاف .

ونصب فى داره الدواوين وجعل فيها خِزَانَةً للكتب ورتب فيها الأطباء والكتاب وجمع فيها العلماء والأدباء والفقهاء والشعراء وأرباب العلوم ورتب مجالس أسبوعية يتناظرون فيها وألف كتباً فى الفقه والقراءات وكتباً فى آداب الرسول وآخر فى علم الأبدان وكتاباً فى الفقه مما سمعه المعز والعزيز ويسميه الشيعة مصنف الوزير ويعتبره بعضهم أنه يلى القرآن والحديث فى الأهمية ، وكان يلقى بعض الدروس من كتبه فى الجامع الأزهر .

وتوفى يعقوب بن كلس سنة ٣٨٠ هـ وقد ذكرنا ترجمة حياته فى مقال سابق (المقال التاسع من سلسلة صفحات من تاريخ القاهرة بمجلة الأزهر فى ذى الحجة

سنة ١٣٩٥ هـ ديسمبر ١٩٧٥ م) كما ذكرنا أن داره أصبحت داراً للوزارة حتى قدم أمير الجيوش بدر الجمالى (توفى سنة ٤٨٦ هـ) وتولى الوزارة للمستنصر بالله الفاطمى ، فلم يسكن دار ابن كلس وسكن دارا أخرى بحارة برجوان بالخرنفش ، ثم بنى ابنه الأفضل داراً جديدة للوزارة شرقى القصر الشرقى الفاطمى الكبير (فى موقع جزء منها الآن جامع بيبرس ، الجاشناكير بالجمالية) .

أما دار ابن كلّس فقد جعلت داراً ينسج فيها الحرير والديباج برسم الخلفاء الفاطميين فعرفت بدار الديباج وعرف الخُط كله بخُط الديباج بعد أن كان يعرف بخُط الوزيرية وكان موقع دار الديباج بالنسبة لمفهومنا الحاضر جنوبى شارع الأزهر وشرقى شارع الخليج . (بورسعيد حاليا) ثم عرف الحى هناك بسويقة الصاحب لما سكنه الصاحب بن شكر وزير العادل الأيوبى . وقد ذكرنا ترجمة الصاحب بن شكر فى المقال المذكور ، كما ذكرنا خطأ البلدية فى تسمية شارع هناك باسم شارع السلطان الصاحب فالصاحب بن شكر كان وزيراً فقط .

ولو أن الفاطميين قصدوا أن يجعلوا من الأزهر منطلقاً للدعاية لمذهبهم الشيعى ولكن حرية الفكر العلمى تأبى القيود ، كما أن سعة الأفق عند الفاطميين كانت ترفض التعصب أو الترمت ، فقد استوزروا يهوداً أو نصارى ، وكانوا يشاركون رسميا فى الاحتفال ببعض الأعياد الدينية المسيحية ، وعينوا أحياناً فى مركز القضاء من غير المذهب الشيعى ، فكذلك كان يُدَرّس فى الأزهر فضلاً عن التفسير والحديث واللغة فقه المذاهب الأربعة ، وليست هى المذاهب الأربعة التى نعرفها الآن ولكنها كانت المذهب الشافعى والمذهب المالكى ومذهب الشيعة الإمامية ومذهب الشيعة الإسماعيلية .

وابتدع الفاطميون بما عرف عنهم من ترف وحب التَنَعُّم . أعياداً جديدة منها ليالى الوقود الأربع . وهى مستهل رجب ونصفه ، ومستهل شعبان ونصفه ومنها الموالد الستة .

وهى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومولد الإمام على بن أبى طالب ومولد السيدة فاطمة الزهراء ومولد الإمام الحسن ومولد الإمام الحسين ومولد الإمام الخليفة القائم بالحكم .

وفى ليالى الوقود كانت تنار الجوامع الست الكبرى وهى الأزهر والأنور والأقمر وجامع ابن طولون وجامع عمرو وجامع القرافة ، فضلاً عن باقى المساجد والمشاهد التى بها الأعضاء الشريفة أى مشاهد آل البيت النبوى الكريم .

وكذلك فى أيام الموالد الستة .

وكان بجوار الأزهر بالجهة القبلية (بشارع محمد عبده سابقاً والتبليطة حاليا) مِنْظَرة تشرف على الجامع الأزهر يجلس فيها الخليفة لمشاهدة ليالى الوقود .

ولم يكن عند الشيعة خلاف فى أوائل الشهور فقد كانت العرب تعرف أن السنة القمرية ٣٥٤ يوماً وخمس يوم وسدس يوم ، أى ١١/٣٠ ٣٥٤ يوماً ، أى ٤٨ ق ، ٨ س ، ٣٥٤ى . وهذا يطابق الحساب الفلكى الصحيح ، أى أن ستة شهور من السنة تامة من ثلاثين يوماً وستة شهور ناقصة من ٢٩ يوماً ، فاعتبروا الشهور الفردية تامة والشهور الزوجية ناقصة ويضاف يوم إلى ذى الحجة– وهو من الشهور الزوجية الناقصة – كلما تقارب كسر اليوم من يوم صحيح ، ويتكون من كسر اليوم أحد عشر يوما كل ثلاثين سنة ، فكانوا يضيفون يوماً كل سنتين أو ثلاث بترتيب وضعوه كالتالى : ٣– ٥– ٧ – ١٠ – ١٣ – ١٦ – ١٨ – ٢١ – ٢٤ – ٢٦ – ٢٩) ويسمون السنة التى يضاف إليها اليوم كبيسة من ٣٥٥ يوماً فإذا قسمت السنة الهجرية على ٣٠ وكان باقى القسمة أحد هذه الأعداد كانت سنة كبيسة من ٣٥٥ يوماً ، وإلا فهى سنة بسيطة من ٣٥٤ يوماً .

فيكون رمضان دائماً عندهم ثلاثين يوماً لأنه الشهر التاسع فى السنة فهو فردى وإذا لم تصادف رؤية الهلال فى أول رمضان فقد تأولوا فى تفسير الحديث الشريف (صوموا لرؤيته) أن معناه صوموا اليوم الذى يرى الهلال فى عشيته .

وعلى هذا فلم يكن هناك أيضاً خلاف فى أول رجب ، لأن جمادى الآخرة من الشهور الزوجية فهو دائماً تسعة وعشرون يوماً وكذلك لا خلاف فى أول شعبان لأن رجب من الشهور الفردية فهو دائماً ثلاثون يوماً .

ولم يكن الوقود قاصراً على الأربعة أيام المذكورة ولكن كان يوقد أيضاً فى ليالى الجمْع من شهرى رجب وشعبان فضلاً عن طول شهر رمضان .

فقد ذكر المقريزى نقلاً عن المُسَبِّحى فى حوادث شهر رجب ٣٨٠ هـ فى عهد العزيز بالله بن المعز (الخطط جـ ١ ص ٤٦٥) قال : (وفيه خرج الناس فى لياليه على رسمهم فى ليالى الجُمع وليلة النصف إلى جامع القاهرة يعنى الجامع الأزهر وزيد فيه فى الوقيد على حافات الجامع وحول صحنه التنانير والشمع والقناديل على الرسم فى كل سنة والأطعمة والحلوى والبخور فى مجامر الذهب والفضة ، وطيف بها وحضر القاضى محمد بن النعمان فى ليلة النصف المقصورة ومعه شهوده ووجوه البلد وقدمت إليه سلال

الحلوى والطعام وجلس بين يديه القراء والمنشدون وغيرهم وأقام إلى منتصف الليل بعد أن قدم إلى من معه أطعمة من عنده وبخرهم) اهـ .

والْمُسَبِّحِى الذى نقل عنه المقريزى هو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرانى ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ وتوفى سنة ٤٢٠ هـ وتولى عدة مناصب كبرى منها الوزارة للحاكم بأمر الله وكتابه (أخبار مصر) ذكر ابن خِلِّكان أنه بلغ ١٣٠٠٠ ورقة وهو مفقود علمت بعض فقراته من الإشارة إليه من غيره من المؤرخين (مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية للأستاذ محمد عبد الله عنان ص ٣٦) .

أما القاضى محمد بن النعمان المذكور فهو ابن أبى حنيفة النعمان وهو غير أبى حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفى - وكان أبو حنيفة هذا قاضياً للمعز قدم معه من المغرب ولكن لم يوله القضاء ، وأقر أبا طاهر محمدا البغدادى الذى كان قاضياً بها منذ كافور الإخشيدى ولما استعفى أبو طاهر قبل موته بقليل عين العزيز للقضاء عليًا ابن النعمان سنة ٣٦٦ هـ ثم أخاه محمد بن النعمان المذكور ٣٧٤ وتوفى ٣٨٩هـ (حسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢ ص ٩٢) .

وقال المقريزى أيضاً نقلاً عن المُسَبِّحى فى شعبان من نفس السنة : (وكان الناس فى كل جمعة وليلة النصف مثل ما كانوا عليه فى رجب وأزيد - وفى ليلة النصف من شعبان كان للناس جمع عظيم بجامع القاهرة من الفقهاء والقراء والمنشدين وحضر القاضى محمد بن النعمان فى جميع شهوده ووجوه البلد - ووقدت التنانير والمصابيح على سطح الجامع ودور صحنه ووضع الشمع على المقصورة وفى مجالس العلماء - وحمل إليهم العزيز الأطعمة والحلوى والبخور فكان جمعاً عظيماً) اهـ .

ونرى من قول الْمُسَبِّحى فى الفقرتين السابقتين عن رجب وشعبان سنة ٣٨٠ هـ وهو معاصر لهذا التاريخ : أن اسم الأزهر لم يكن وُضِعَ للجامع فهو يُعَبِّر عنه فى الفقرتين بجامع القاهرة .

وكان للمقيمين بالأزهر رواتب من الخبز والحلوى تصرف لهم ليالى الجمع وليالى الوقود فى الشهور الثلاثة - رجب وشعبان ورمضان - فأبطل الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٢ هـ هذه الرواتب - كما أبطل ليالى الوقود .

وسنرى فى المقال التالى بإذن الله كيف أعيدت .

محمد كمال السيد

نظرات حول الترادف اللغوى

الدكتور / توفيق محمد شاهين

٢

ووجود الترادف فى العربية يرجع إما إلى الاختلاط الكثير بسبب الهجرة الدائبة والدائمة للعرب ، جرياً وراء الكلأ والرعى ، حين تمحل الأرض أو تبخل السماء ، أو حين يجتمعون فى الأسواق ، فيستعمل بعضهم ألفاظ بعض ، فتنتشر هذه الألفاظ وتشيع على الألسنة .

وقد يكون سبيله المجاز الذى اشتهر ، حتى أصبح فى درجة الحقائق .

والعرب تتصرف فى لغتها ، ولا تعرف لها قيوداً اصطلاحية ، وما من عربى إلا وهو فى حكم العرب كلهم باعتبار الفطرة اللغوية التى يرجع إليها أصل الوضع ، إذ هى مفردات وضعها أفراد ، وقد يرى بعضهم أشياء ويصفها على نحو ما يجد فى نفسه من أثرها وصفاتها المختلفة ، والقريبة أو البعيدة ، ويذهب غيره منحى آخر – فمن تمورهم – مثلاً – البرنى والصرفانى والعرب تعالجه بالماء أو السمن وله فى كل حالة لفظ يدل عليه ، وتسميه قبيلة بما لا تسميه به الأخرى . والعرب كلها حجة فى لغتها ، فلا مناص بعدئذ من اختلاف الألفاظ الموضوعة للمعنى الواحد أحيانا بحسب ذلك .

ونادراً ما يكون الترادف من واضع واحد – كما ذكر السيوطى ، بحسب الملحظ فى الأثر أو الصفات عند التسمية والوضع .

(والأقدمون عدوا الجزيرة العربية وحدة لغوية واحدة – وحسناً فعلوا – للهجرة والاجتماعات المتكررة ، وبخاصة حين يتفق اللفظان تماماً فى المعنى على الأقل فى ذهن الكثرة واتحاد العصر ، شريطة ألا يكون ذلك نتيجة لتطور صوتى[٢٨] » .

ويقول الشيخ عبد الله العلايلى :

« يتخذ بعض من دارسى العربية اليوم الترادف علامة على قلق اللغة ، وبعض آخر يتخذه أثراً من الاختلاف القبلى أو ما يشبه الرواسب المتبقية من جراء امتدادات

طويلة . والحقيقة وإن كان فى المذهب الأخير شيء من الحق والصدق ، ليس هو كل الحق » .

ويرى الشيخ العلايلى القول الأول منكراً من القول وزوراً ، لا ريب فى ذلك ولا شك . ولقد يكون صحيحاً لو لم يكن من مواد الاشتقاق بخصائصها المعنوية التى تعين ملحظ الاشتقاق فى المترادف دليل قصده ، فأين منه القلق المزعوم ؟[٢٩]

فالشيخ العلايلى وإن نفى القلق ، لكنه لا يقبل أن يكون الترادف من اختلاف القبائل على علاته ، للمبالغة فى كثرة الترادف أحياناً إلى حد المئات والألوف للمعنى الواحد ، ونحن معه فى ذلك .

ويروى الأصمعى – كما فى عيون الأخبار ٢ /١٧٨ – « إذا تظرف العربى كثر كلامه ، وإذا تظرف الفارسى كثر سكوته » . وقد تأتى كثرة الكلام بالترادف .

* * *

وكان ادعاء هذه الكثرة الكاثرة مدعاة للتوسع عند بعض الباحثين فى الترادف ، فعد من ألوانه :

مترادفات وضع ، لاختلاف القبائل ، كالإنسان والبشر ، والأسد والليث . اشتقاق ، كالمعطس والمبسم للأنف والفم . . أوحروف دون ترتيب (القلب المكانى) ، مثل ، جذب وجبذ ، وشرائع وشعائر ، أو تصحيف ، مثل لدع ولذع . ومزح ومرح . . أو مجاز كالأسل للرماح . أوكناية كسبط الأنامل ، وطويل النجاد ، للكرم .

أو تناسب ، مثل : نهق ونعق ، أو اتباع ، مثل : حسن بسن أو حذف مثل : عم صباحاً ، من أنعم . . .[٣٠]

* * *

ومن استقراء تاريخ الشواهد ينبئنا بأن علماء القرن الثانى الهجرى – أو كثيراً منهم على الأقل – قد سلموا بوجود الترادف اللغوى . . ولكن القرن الذى يليه : « شهد تلمس العلماء للفروق الدقيقة بين الألفاظ المترادفة ، وعلى رأسهم ثعلب – واشتد الجدل فى أمر الترادف فى القرن الرابع الهجرى ، وظهر من ينكره ، ومن يؤيده صراحة »[٣١] .

ومحصل هذين المسريين أن وجد فريق يؤكد وجود الترادف فى الفصحى ، بل وبكثرة كاثرة ، وعدوا ذلك مبعث افتخار واعتزاز باللغة والتراث .

كما وجد فريق آخر من العلماء يثير الشك ، ويبعث الحيرة ، ليصل إلى إنكار الترادف ورده .

ونتيجة لهذا الخلف نشأت فرقة متوسطة بين الإفراط فى الاعتراف ، والغلو فى الإلغاء ، وخير الأمور الوسط .

وإذا كان القرن الرابع شهد ذروة الجدل والخلاف بين العلماء اللغويين حول المترادف ، بين مثبت ومنكر ، إلا أننا نلاحظ أن الأكثرية منهم على إثباته ووجوده فى العربية :

« وممن أيد وجوده : المبرد ، كما أسلفنا[٣٢] . والإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، وهو عربى له بصر بالعربية . والمطرز الزاهد فى (المداخل) وابن الأنبارى فى (الوقف) ، وفى شرح القصائد الجاهليات ، والطبرانى فى (المعجم الكبير) ، وابن دريد فى (الجمهرة) ، وعلى عبد الرحمن بن هذيل الأندلسى فى (حلية الفرسان وشعار الشجعان) ، وابن النحاس فى (شرح المعلقات) ، والقالى فى (أماليه) ، وقطرب فى (الأزمنة والأمكنة) : وابن سيده فى (المخصص) . والضبى فى (المفضليات) ، ومجد الدين الفيروزابادى فى الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف ، وابن خالويه فى : أسماء الأسد . وأسماء الحية . . وفى أمالى القالى والزجاجى . والاشتقاق لابن دريد . . وغيرهم من علماء اللغة والأدب .

كما أيد وجوده : « الرازى . والسبكى ، وابن السكيت ، والهمذانى . وقدامة بن جعفر مؤلف (جواهر الألفاظ) ، وأبو الحسن الرمانى (ت ٣٨٤) جامع كتاب (الألفاظ المترادفة) .

كما ذكر ذلك الأستاذ مصطفى أبوهلال فى مقاله القيم عن الترادف بمجلة « الفكر » التونسية ٤ع٢١ - ١٩٧٦ م .

وجمع ابن منظور خمسمائة اسم للأسد ، ومائة للثعبان . . .

ويروى من هِجِّيراه البحث والغوص والتدقيق (ابن جنى) - رحمه الله - : أن « اختلاف اللفظين واتفاق المعنيين كثير فى كتب العلماء وقد تناهبته أقوالهم ، وأحاطت بحقيقته أقوالهم »[٣٣] .

ويؤكد ابن جنى أنه لا فرق فى التعبير بأحد الألفاظ المترادفة ، وكأنما المقصود باللفظ الذى عبر به هو هو ، لا يتخلف يقول :

« وهذا ونحوه - عندنا - هو الذى أدى إلينا أشعارهم وحكاياتهم بألفاظ مختلفة على معان متفقة ، وكأنه إذا أورد المعنى المقصود بغير لفظه المعهود كأنه لم يأت إلا به ، ولا عدل عنه إلى غيره ، إذ الغرض فيهما واحد ، وكل واحد منهما لصاحبه مرافد .

وكان أبو على (الفارسى أستاذ ابن جنى - رحمه الله - إذا عبر عن معنى بلفظ فلم يفهمه القارئ عليه ، وأعاد ذلك المعنى عينه بلفظ غيره ففهمه ، يقول : هذا إذا رأى ابنه فى قميص أحمر عرفه ، فإن رآه فى

قميص كحلى لم يعرفه . . .

وقرأ أبو سوار أو أبو سرار المازنى – وهو أعرابى فصيح من رواة اللغة – : « فحاسوا خلال الديار » بالحاء المهملة ، فقيل له : إنما هو « جاسوا » فقال : حاسوا وجاسوا واحد . وعلق ابن جنى فى المحتسب ٣٣٦/٢ : هذا يؤنس بأن القوم كانوا يعتبرون المعانى ويخلدون إليها ، فإذا حصلوها وحصنوها سامحوا أنفسهم فى العبارات عنها . .

ويحكى ابن جنى أن قوماً ترافعوا إلى الشعبى فى رجل بخص عين رجل فشرقت بالدم ، فأنشدهم بيت الراعى :

لها أمرها حتى إذا ما تبوأت

بأخفافها مأوى تبوأ مضجعا

ولم يزدهم على ذلك ، فانصرفوا « راضين » بالفتوى ، وهم عارفون بغرضه فيها . والمراد ينتظر بها إلى أن يستقر أمرها ، ثم يحكم فى أمرها بما توجبه الحال[٣٤] مما يدل على أن أمر الترادف كان معروفاً لدى القاصى والدانى ، وأنه لم يمنع الدقة فى حكم جنائى . . وبالتالى فهو لا يمنع من نهضة علمية حديثة .

وكثير من علماء فقه اللغة اليوم يؤيدون وجود الترادف ، شريطة الاعتدال وعدم المبالغة فى وجوده .

وهناك فئة تلقى القول على عواهنه ، فتزعم أن جامعى اللغات وضعت مفردات من عندا نفسها ، تزيداً فى كلام العرب ، لحاجات فى نفس يعقوب . . وهذه فرية ننزه عنها رجالاً مخلصين ، أفنوا العمر كدًّا ودأباً فى إخلاص لله ، ولغة القرآن والسنة .

ومن ذلك ما يحاوله البعض من التشكيك فيما روى عن أم الهيثم البصرية العجوز من بنى منقر ، حين قالت لرواة اللغة كلاماً ما فهموه ، لأنه لم يبلغهم أو طال به العهد ، فأقسمت لهم أنها ما كلمتهم إلا بالعربى الفصيح (أمالى القالى ٦٩/٣) ، ويقول المشككون : إن ابن دريد ذكر النص فى الجمهرة ١١/١ ، منسوباً لأبى حاتم ، ومسنداً لأعرابية أخرى . ونقول : ورد النص ، فلا يضر اختلاف الرواة . وإلا شككنا فى كل ما ورد عن الأعلام . ورونه الثقات ، وحفظته أمهات الكتب .

وممن أنكر الترادف :

أبو على الفارسى وقد اعترض على ابن خالويه ، حين قال فى مجلس سيف الدولة : إنه يحفظ للسيف خمسين اسماً ، فقال الفارسى : أما أنا فلا أحفظ له إلا اسماً واحداً ، هو السيف ، وأرجع الباقى إلى الصفات ، وتهكم على ابن خالويه بأنه لا يفرق بين الاسم والصفة[٣٥] .

كما أنكر ثعلب[٣٦] وابن فارس فى

(الصاحبى) وابن الأثير فى (المثل السائر) وأبو هلال العسكرى فى (الفروق اللغوية) ، والأب هنرى كولا منس اليسوعى فى (فرائد اللغة فى الفروق) . والأستاذ حفنى ناصف فى (مميزات لغة العرب) ، والدكتورة بنت الشاطئ فى مؤلفها : (كتاب العربية الأكبر) .

ومحصل كلامهم : أنه لا يوجد لفظان مترادفان ، إلا وبينهما فرق فى المعنى ، كما فى أسماء السيف ؛ فبعض أسمائه من عمله : كالحسام ، والباتر ، وبعضها ينسب لبلده : كالمهند واليمانى ، وبعضها من لونه كالأبيض . . . أما موضوع الآلة : فهو السيف فقط لا غير .

* * *

ويلخص القول فى أمر الترادف أديبنا – البليغ – مصطفى صادق الرافعى فى أربعة آراء :

(ا) الإنكار المطلق من بعض العلماء ، مثل ثعلب وابن فارس ، لأن وجوده ينفى الحكمة عن هذه اللغة الحكيمة . . واعتبروا أن المترادفات إنما هى أسماء تزيد معنى الصفة .

(ب) أو الإنكار المطلق أيضاً – كالرأى السابق – ولكن على أساس أن المترادفات صفات محضة ، كما يرى الفارسى .

(جـ) أو إثبات الترادف ، لكنه مخصوص بإقامة لفظ مقام آخر ، لمعان متقاربة يجمعها معنى واحد ، كما يقال : أصلح الفاسد ، ولم الشعث . . أما إطلاق الأسماء على المعنى الواحد فيسمونه المتوارد : الخمر والعقار ، والليث والأسد « وهذا المذهب من تقسيم بعض علماء الأصول » .

(د) إثبات الترادف مطلقاً : بدون قيد ولا اعتبار ولا تقسيم ، وعليه أكثر اللغويين والنحاة »[٣٧] .

فالأمر يدور بين الإثبات والإنكار أولاً ، لكن على اعتبارين لكل منهما .

* * *

ذلك رأى الفريقين . . ولنا أن نذكر بأن من حق العرب أن تقول ما تشاء لأنها لغتها ، وهى صانعتها ، ولها فى صناعتها حرية تواكب حرية العربى الواسعة فى حياته بجوانبها العديدة .

كما أن اللهجات العربية كلها فصيحة صحيحة على اختلافها ، والآخذ بإحداها مصيب غير مخطئ كما قرر ابن جنى ، بل وجوزوا للعربى أن ينتقل إلى لغة غيره إذا رأى ذلك : إذ جوز ابن جنى للعربى أن ينتقل لسانه ، ويصبح حجة إذا انتقل لسانه إلى فصيح .

ولا يظن ظان أنه مع هذه الحرية كان الأمر فوضى ، فقد عرفت العرب الدقة

الفائقة فى التعبير اللغوى :

يقول الأصمعى : سأل رجل من أهل الحضر رجلاً من أهل البادية : هل عندكم ما يرعى ؟ فقال البدوى – وهو يهزأ به – : نعم ، عندنا : « مقمل ومدب ، وباقل ، وحانط ، وثامر ، ووارث » . وإنما عنى بذلك كله (الرمث) لأن الرمث أول ما يتفطر بالنبت يقال له : أقمل . فإذا زاد على التفطر شيئاً ، قيل : قد أدبى ، وهو الباقل . ثم الحانط وهو المدرك من كل شىء ، والثامر : الذى أخرج ثمره »[٣٨] .

ومن مظاهر حريتهم فى لغتهم : ذكر الواحد ، والمراد به الجمع ، والعكس : قال تعالى :

(هؤلاء ضيفى) ويقول سبحانه : (ثم يخرجكم طفلاً) .

واعتبر ابن جنى من شجاعة العربية : الحمل على المعنى : لأن العرب ذكرت المؤنث وعكسه ، وتصورت المعنى الواحد فى الجماعة وعكسه ، كقول الشاعر :

إن امرأ غره منكن واحدة
بعدى وبعدك فى الدنيا لمغرور

وقال تعالى : « يلتقطه بعض السيارة »[٣٩] وتأول السهيلى حديث الرسول « أقبلت راكباً على حمار أتان » ، ونظر له بحية ذكر ، وبطة ذكر ، وهو شاة وهذا بقرة »[٤٠] .

بل أنثوا لفظة « رجل » و « ثور » :

ذكر المبرد لبعضهم .

كل جار ظل مغتبطاً
غير جيرانى جبله
خرقوا جيب أمهـم
لم يبالوا حرمة الرجله

وقال الأخطل :

جزى الله فيها الأعورين ملامة
وعبدة ثغر الثورة المتضاجم

(ثغر الثورة : فرجها ، والمتضاجم : الواسع)[٤١] .

وصغر أعرابى الحبارى على حبرور ، ولم يجمع ابن الشجرى الحرنجم (لأنه ما فرقه شىء حتى يجمعه) ، وحقر بعضهم الدمكمك (القوى من كل شىء) على : شخيت (الضعيف من كل شىء)[٤٢] وغير ذلك كثير . مما دعا ابن الأعرابى أن يقول : (هى العرب تقول ماتشاء)[٤٣] .

إذا كانت تلك هى حرية العرب فى قولها ، أفيكثر عليها ، أو نحجر عليها أن تقول الألفاظ المترادفة ؟! .

يقول أبو عثمان المازنى – كما فى أمالى القالى ٢/٧٨ – سمعت أبا سرار الغنوى يقرأ قوله تعالى : « وإذ قتلتم نسمة فادّارأتم فيها » ، فقلت له : إنما هو « نفساً » فقال النسمة والنفس واحد .

ذاك طرف من وجهات النظر بين

النافين والمثبتين قديماً وحديثاً . . فما هو الرأى المستخلص والمرتضى ؟

[الحديث موصول]

المراجع

٢٨ – اللهجات د . أنيس ١٦٥ .
٢٩ – المقدمة للشيخ العلايلى ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
٣٠ – مجلة المجمع اللغوى بالقاهرة ٩ / ١٢٤ لسنة ١٩٥٧ من بحث للأستاذ خليل سكاكينى .
٣١ – اللهجات د . أنيس ١٦٣ .
٣٢ – كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ٢ .
٣٣ – الخصائص ٢ / ٩٤ .
٣٤ – الخصائص ٢ /٤٦٧ – ٤٦٨ .
٣٥ – المزهر ١ / ٤٠٥ ، واللهجات العربية د . إبراهيم نجا ٩٧ .
٣٦ – مجالس ثعلب ١ /٢٩٣ .
٣٧ – تاريخ آداب العرب للرافعى ٢٠٤ .
٣٨ – الخصائص ٢ /٤٣٦ .
٣٩ – أمالى السهيلى ٦٢ .
٤٠ – الكامل للمبرد ١ / ٢١٠ .
٤١ – الخصائص ٢ /٤٢٦ .
٤٢ – المفضليات بشرح ابن الأنبارى ٢١١ .
٤٣ – بصائر ذوى التمييز ، للفيروزابادى

القضاء المستعجل

حول زواج المسيحى بأكثر من واحدة

حيثيات حكم أصدره المستشار عبد العزيز هندى

محكمة الأمور المستعجلة
الجزئية بالقاهرة
فى ٤ فبراير سنة ١٩٥٨

المبادئ القانونية :

١ - يتعين عند اختلاف الملة أو اختلاف الطائفة بين المصريين غير المسلمين تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية فى مسائل الأحوال الشخصية إعمالا لصراحة نص المادة السادسة من القانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥ .

٢ - إلا أنه لما كانت القاعدة الجوهرية الواردة فى الشريعة الإسلامية وهى (أننا أمرنا بترك الذميين ومايدينون) فإنه يتعين وسماحة الإسلام تطبيق الشريعة المسيحية على العلاقات الصحيحة التى نشأت بين طرفين غير مسلمين فى ظل قانونهما الخاص لأن الأصل فى هذه العلاقة هو الصحة .

٣ - ولو أن شريعة الأقباط الأرثوذكس تقضى فى المادة ٢٤ من قانون أحوالهم الشخصية ببطلان الزواج بأكثر من واحدة إلا أنه إعمالا لنص المادة ٤٢ من ذات القانون والتى تقضى بأنه ولوحكم ببطلان مثل هذا الزواج إلا أنه يترتب عليه مع ذلك آثاره القانونية بالنسبة للزوج حسن النية ويكفى فى هذه الحالة أن يكون أحد الزوجين حسن النية ليتعين الاعتداد بآثار هذا الزواج بالنسبة للأولاد الناشئين عنه لأن حسن النية لايمكن تجزئته بالنسبة للأولاد خاصة .

٤ - لم يرد فى الإنجيل نص مانع قاطع يحرم تعدد الزوجات وإنما أصبح ذلك تقليداً مسحيًّا بعد أن نص على ذلك فى مؤتمر نيقيا .

٥ - من الخطأ المشهور القول بأن الإسلام وحده هو الذى عرف تعدد الزوجات فإن نظام تعدد الزوجات كان معروفا فى البيئة المصرية منذ عهد الفراعنة ثم لم تحرمه الشريعة اليهودية حتى مؤتمر فيمر كما لم يرد فى الإنجيل نص صريح مانع قاطع

يحظره حتى مؤتمر نيقيا .

٦ – نظام الزواج هو نظام اجتماعى بالنسبة للآثار المترتبة عليه ويتعين لذلك التفرقة بين مايمس العقيدة بالنسبة له ومايمس المجتمع ، فندع مالقيصر لقيصر ومالله لله . وبالتبعية يكون الزواج باعتباره أحد أسرار الكنيسة السبعة خاضعاً لهذه الكنيسة التى يتبعها الفرد فى نطاق ولايتها الروحية عليه فقط ، أما ماجاوز ذلك من أمور الزوجية وآثارها فإن على الشارع أن يتولى هو تنظيمها بما يسنه من قوانين . كما وأنه لن يخرج المسلمين عن دينهم أن يحظر الشارع تعدد الزوجات وتنظيم إثبات الزواج وآثاره بما يسنه من قوانين إذا اقتضى الأمر ذلك وعلى الشارع أن يستكمل الخطوة التى بدأها بتوحيد جهات التقاضى بتوحيد قانون الأحوال الشخصية .

٧ – حسب المحكمة أن تستبين أن عقد زواج والد المدعى – وهو قبطى أرثوذكسى – بالمدعى عليها الأخيرة – وهى من طائفة الروم الأرثوذكس – وكان سنها وقتئذ سبعة عشر عاماً وذلك بحضور شهود وقعوا عليه ممايظاهر القول بحسن نية الزوجة – ومن المستخرج الرسمى عن شهادة ميلاد المدعى ونسبته فيها . إلى والده ومن شهادة تعميد المدعى وأنه لم يحكم بعد بإبطال عقد الزواج ، للقول بأن للمدعى مصلحة ظاهرة تتطلب اتخاذ إجراء موقوت حفظا لحقوقه .

المحكمة :

« حيث إن المدعى أقام دعواه ابتغاء الحكم بإقامة حارس على الأعيان المبينة بصحيفة الدعوى لإدارتها والمحافظة على نصيب المدعى فيها حتى يفصل فى دعوى الموضوع . قولا منه بأن المرحوم صالح شكرى شكر الله توفى بتاريخ ٢١ يناير سنة ١٩٤٨ عن ورثة هم المدعى عليهم فضلا عن المدعى الذى كان قاصراً وقتئذ وبلغ رشده فى سنة ١٩٥٥ – وعن تركة هى المبينة بصحيفة الدعوى وبمحضر جرد التركة المقدم ضمن حافظة المدعى – وأضاف المدعى أنه لجأ إلى القضاء الموضوعى لإثبات وراثته للمورث المذكور كما أقام دعواه الماثلة تحوطا للمحافظة على حقه فى تركة هذا المورث . وقدم بين يدى هذه الدعوى مستندات التى تضمنتها حوافظه .

« وحيث إن المدعى عليهم الأربعة الأول طلبوا رفض الدعوى فى مرافعاتهم ومذكرتهم (٩ دوسيه) ويخلص دفاعهم الذى أفصحوا عنه فى هذا الصدد أن مورثهم المرحوم صالح شكرى شكر الله كان قبطيا أرثوذكسيا وتوفى فى ٢١ يناير سنة ١٩٤٨ عن زوجته المدعى عليها الأولى وعن أولاده منها وهم المدعى عليهم من الثانى إلى

الرابعة وانحصر إرثه فيهم وحدهم بمقتضى إعلام ثبوت وفاة ووراثة صادر من مجلس / ملى مصر بتاريخ ١٩٤٨/١/٣٠ . وأنهم فرغوا منذ ذلك الحين من قسمة تركة مورثهم فيما بينهم دون منازع - وأن القول من المدعى ببنوته لمورثهم المذكور أوبقيام الزوجية بينه وبين والدة المدعى وهى المدعى عليها الأخيرة أمر لايسوغ مطلقاً - إذ أن الجمع بين زوجتين محرم وباطل فى الشريعة القبطية الأرثوذكسية التى كان يتبعها المورث المذكور - وأنه لما كانت المدعى عليها الأولى هى الزوجة الأولى والوحيدة التى يقوم على زوجيتها صحيح العقد المقدم من المدعى عليهم المعارضين وإعلام الوراثة سالف الذكر واعتراف المدعى - فإن مزاعم المدعى تكون - فيما يراه المدعى عليهم المعارضون - منهارة الأساس متعينة الرفض . فضلا عن أن ماتقدم به المدعى من مستندات ، لاينهض لحمل دعواه .

« وحيث إن المحكمة ترى أن تتخذ قرارها الموقوت فى الدعوى - بعد استظهار سائر أوراقها وسجال الطرفين فيها على هدى الملاحظات التالية - وذلك دون مساس بأصل الحق الذى يبقى دائما سليما للمناضلة فيه أمام محكمة الموضوع :

أولا : أن البادى من الاطلاع على الترجمة طبق الأصل عن اليونانية المؤرخة ١٧ يناير سنة ١٩٥٨ لمحضر المعمودية الصادر من ديوان الوكيل البطريركى بالقاهرة لبطريركية الروم الأرثوذكس والمقدم من المدعى بحافظته (١٣ دوسيه) أن القس ديمتريوس راعى الكنيسة قد أتم بتاريخ ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٦ تنصير ابن صالح شكرى شكر الله من أبناء طائفة الأقباط الأرثوذكس من أهالى القاهرة وصناعته مزارع وأمه مارى جورج ساربس من أبناء طائفة الأرثوذكس المولود بالقاهرة يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٤ وأعطى لهذا المولود المتعمد اسم جورج بمعرفة عرابته - وأن على هذه الشهادة توقيعات راعى الكنيسة والعرابة والوالدين - كما وأن البادى من الاطلاع على الشهادة الصادرة كذلك من نفس الديوان البطريركى المذكور والمؤرخة ٢٢ / ١١ / ١٩٥٧ أن جورج المذكور هو من أبناء طائفة الروم الأرثوذكس ومعروف أيضاً باسم وحيد صالح شكرى شكر الله - ولما كان ذلك وكان المدعى عليهم المعارضون لم يجحدوا أنهم كالمرحوم والدهم من طائفة الأقباط الأرثوذكس - فقد أضحى لزاما - إزاء اختلاف الفريقين المتنازعين فى الطائفة - وتطبيقاً للقانون رقم ٤٦٢ سنة ١٩٥٥ الخاص بتوحيد القضاء - أن تستهدى المحكمة - فى نطاق ولايتها الموقوتة - بأحكام الشريعة الإسلامية فى هذا الصدد ، تطبيقاً

هذا القانون من جهة واستناداً إلى نص المادة ٨٧٥ مدنى من جهة أخرى .

ثانياً : ذلك أن اتحاد الطرفين فى الملة لايغنى عن وجوب اتخاذها فى الطائفة كما ذهب إليه البعض (انظر محاضرات السيد المستشار حلمى بطرس لكلية الحقوق ص ٣٩ - ٤٦) ذلك لأن هذا الرأى فضلا عن أنه يهدر صريح النص الذى أوردته المادة السادسة من القانون ٤٦٢ سنة ١٩٥٥ التى تقضى بأنه « بالنسبة للمنازعات المتعلقة بالأحوال الشخصية للمصريين غير المسلمين والمتحدى الطائفة والملة الذين لهم جهات قضائية ملية منظمة وقت صدور هذا القانون فتصدر الأحكام فى نطاق النظام العام طبقا لشريعتهم ، فهى بهذه المثابة تستوجب اتخاذ الطائفة والملة معا لو جرى تطبيق الشريعة الخاصة - وقد كان هذا هو الرأى السائد حتى قبل توحيد جهات القضاء (انظر أحمد صفوت ص ٢٣ ، ٢٤) .

فضلا عن أن القول بغير ذلك يجافى حكمة قانون توحيد جهات قضايا الأحوال الشخصية - فقد صدر هذا القانون ليحد من تعدد التشريعات الداخلية التى تحكم مسألة واحدة لمواطنين يجمعهم وطن واحد (انظر محاضرات الدكتور أحمد سلامة لطلبة كلية الحقوق سنة ٩٥٧ - ٩٥٨ ص ٦٤ ومابعدها) .

ثالثا : ولكن ماهو رأى الشريعة الإسلامية فى هذا المقام ، وهل ينتهى إلى غير ماينتهى إليه تطبيق شريعة الزوج وهو قبطى أرثوذكسى ؟ إن عبارة الشريعة الإسلامية تعنى اصطلاحا ماشرعه الله لعباده من الأحكام التى جاء بها محمد ﷺ سواء ماتعلق منها بأعمال الناس ويسمى بالفقه أوماتعلق بمعتقداتهم وهو التوحيد (راجع فى هذا المعنى أحكام الأحوال الشخصية فى الفقه الإسلامى للدكتور محمد يوسف موسى ص ٩ ومابعدها) .

أما القسم الثانى فلا شأن لهذه الدعوى به - وأما القسم الأول الخاص بالمعاملات فى الشريعة الإسلامية ، فإن الأمر مستقر فيه حتى الآن وبعد إلغاء المحاكم الشرعية - لأرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة حسبما نصت على ذلك المادة ٢٨٠ من لائحة ترتيب المحاكم الشرعية ، وقد احتفظ القانون ٤٦٢ سنة ١٩٥٥ لها بقوتها الإلزامية . وقد تضمن فقه أبى حنيفة قواعد يختص بها المسلمون كما تضمن أخرى يختص بها أهل الكتاب ولامحل لتطبيق مايختص بالمسلمين على سواهم ، كما ذهبت إلى ذلك بعض الأحكام . فقد ألغت محكمة استئناف القاهرة بحكمها الصادر بتاريخ ٦ مارس سنة ١٩٥٧ فى الدعوى رقم ١٦٦ سنة ٧٣ ق حكما ذهب هذا المذهب وأيدته بحكم تال

صدر منها بتاريخ ١٣ مارس سنة ١٩٥٧ – ورأت أن الإمام أبا حنيفة يقر غير المسلمين على جميع الأنكحة وإن كانت فاسدة بين المسلمين متى كانت صحيحة وجائزة فى ذمتهم – ويرى ترتيباً على ذلك ألايتدخل القاضى من تلقاء نفسه ليفرق بين الزوجين ولايتدخل لمجرد مرافعة أحد الزوجين دون الآخر.

وإذا كان الصاحبان محمد وأبو يوسف يريان خلاف ذلك . فإن رأى الإمام يجب أن يرجح . والواقع أن جوهر رأى أبى حنيفة هو أنه يقر غير المسلمين على أنكحتهم متى كانت صحيحة فى شرائعهم حتى لو كان مثلها فاسداً عند المسلمين ويمنع على القاضى المسلم أن يتعرض لمثل هذا الزواج سواء من تلقاء نفسه أو بناء على مرافعة أحد الزوجين فهو يقول : أصل النكاح كان صحيحاً – فرفع أحدهما إلى القاضى ومطالبته بحكم الإسلام لايكون حجة على الآخر فى إبطال الاستحقاق الثابت له باعتقاده بل اعتقاده يكون معارضاً لاعتقاد الآخر . فبقى حكم الصحة على ماكان عليه (انظر كتاب المبسوط جـ ٥ ص ٤٠) وذلك تأسيساً على قاعدة جوهرية فى الشريعة الإسلامية هى « أننا أمرنا بترك الذميين ومايدينون » . وترى المحكمة أن هذا الرأى يتفق مع سماحة الإسلام ومن ثم ترى التعويل عليه فى هذا المقام وعدم الاعتداد بما ذهب إليه بعض الفقهاء الآخرين من رأى مخالف (انظر كتاب أحكام القرآن للجصاص جـ ٢ ص ٤٣٤) وقارن بما ذهب إليه الكاسانى الحنفى فى كتابه « بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع جـ ٢ ص ٣١٠ – ٣١٤ موافقا لماذهبت إليه المحكمة » .

رابعاً : وحيث إنه وقد انتهت المحكمة إلى ماسلف من وجوب تطبيق الشريعة المسيحية على العلاقة التى كانت قائمة بين والد المدعى والمدعى عليها الأخيرة وعلى آثارها – وترى المحكمة استهداء بماذهب إليه الشارع فى المادة ١٣ من القانون المدنى فى سريان القانون الذى ينتمى إليه الزوج وقت انعقاد الزواج على الآثار التى يرتبها عقد الزواج بما فى ذلك من أثر بالنسبة إلى المال ، أن تطبق فى الدعوى الماثلة شريعة طائفة الزوج ، فماذا تقول هذه الشريعة فى هذا الصدد .

خامسا : تقضى المادة ٢٤ من قانون الأحوال الشخصية للأقباط الأرثوذكس الذى أقره المجمع المقدس والمجلس الملى العام وطبعته دار رمسيس للصحافة والطباعة والنشر – بأنه لايجوز لأحد الزوجين أن يتخذ زوجاً ثانياً مادام الزواج قائما – كما تقضى المادة ٤٠ من هذا القانون بأنه يعتبر باطلا كل عقد يقع مخالفاً لهذه المادة ولو

رضى به الزوجان – ولكن يجب التحرز من قياس هذا البطلان على مثيله فى القانون العام – فقد قررت المادة ٤٢ من نفس القانون وهى ٤٤ فى طبعة أخرى صراحة بأن مثل هذا الزواج الباطل ولو حكم فعلا ببطلانه إلاأنه يترتب عليه مع ذلك آثاره القانونية بالنسبة للزوجين وورثتهما إذا ثبت أن كليهما حسن النية – أى كان يجهل وقت الزواج سبب البطلان الذى يشوب العقد أما إذا لم يتوفر حسن النية إلا من جانب أحد الزوجين دون الآخر فالزواج لايترتب عليه آثاره إلا بالنسبة لهذا الزوج والأولاد المرزوقين له من ذلك الزوج .

والواقع أن حكم هذه المادة ليس مبتدعاً ، بل إن الغالب الأعم من الشرائع قد طبقته بصورة أوبأخرى وحاول الفقه بدوره أن يجد الوسيلة الفنية التى تبرره فقال بنظرية الزواج الظنى Marriage Potaif وقد احتضنها القانون الكنسى كى يوازن بها تشدده فى شروط الزواج ، إذ كلما كان ثمة تشدد فى هذه الشروط كلما كثرت أحوال البطلان . ثم استقرت هذه الفكرة فى التشريعات الوضعية ووجدت أيضاً فى الشريعة الإسلامية فى الزواج بشبهة – وكل ذلك إنما يهدف إلى رعاية حق الصغير الذى كان ثمرة لمثل هذا الزواج الباطل دون جريرة منه أوذنب جناه .

وحسن النية التى تتطلبه المادة ٤٢ من القانون سالف الذكر قد ناقشه الفقه الفرنسى طويلا ، وانتهى فيه إلى أن حسن النية هنا كحسن النية فى غير هذا المجال – أمر مفترض – وعلى من يدعى عكس المفترض يقع عبء إثبات دعواه – والمادة ٤٢ سالفة الذكر تتفق فى هذا الصدد مع حكم المادة ٢٠١ مدنى فرنسى – ويستتبع أن المخالطة الجنسية التى حدثت قبل الحكم ببطلان الزواج تعتبر علاقة شرعية – حقا أن المادة ٤٢ تتكلم عن الزوج حسن النية – لكن يجب أن يراعى أن صفة المشروعية لاتتجزأ ، ومتى ثبتت بالنسبة لأحد طرفى العلاقة فيجب حتما أن يمتد أثرها إلى الأولاد المشتركين ثمرة هذه العلاقة ، فهم يعتبرون شرعيين نظراً لعدم إمكان تجزئة هذه الصفة ، إذ إنه من غير المقبول أن يعتبر الأولاد شرعيين بالنسبة لوالدهم حسن النية مثلا وطبيعيين بالنسبة للأم سيئة النية على هذا الأساس . وبهذه الصفة يرثون فى تركة أى من والديهم بعكس ماذهب إليه بعض الشراح .

وقد ذهب القضاء الفرنسى إلى أنه بالرغم من عدم مشروعية العلاقة التى قامت فإن على المرأة أن تعتد وأنه يجب أن يظل نسب هؤلاء الأولاد بأبيهم وأمهم ثابتاً وفقاً لما جاء بشهادة ميلادهم . واتجه الفقه فى

مصر إلى الأخذ بهذا الرأى .

(راجع محاضرات الدكتور سلامة سالفة الذكر) .

سادسا : نصت المادة ٩١ من قانون الأحوال الشخصية للأقباط الأرثوذكس وهى المادة ٩٦ فى طبعة أخرى مماثلة – على أنه تثبت البنوة الشرعية بشهادة مستخرجة من دفتر قيد المواليد فإذا لم توجدشهادة فيكفى لإثباتها حيازة الصفة ، وهى تنتج من اجتماع وقائع تكفى للدلالة على وجود رابطة البنوة بين شخص وآخر ومن هذه الوقائع أن الشخص كان يحمل دائماً اسم الوالد الذى يدعى بنوته له – وأن هذا الوالد كان يعامله كابن له – وكان يقوم على هذا الاعتبار بتربيته وحضانته ونفقته – وأنه كان معروفاً كأب له فى الهيئة الاجتماعية وكان معترفاً به من العائلة كأب له – فإذا لم توجد شهادة ولاحيازة فليكن إثبات البنوة بشهادة الشهود المؤيدة بقرائن الأحوال .

سابعاً وأخيراً : فإن المحكمة ترى أن تلفت النظر فى هذا المقام إلى أن القانون رقم ٤٦٢ سنة ١٩٥٥ وإن خطا خطوة موفقة نحو توحيد جهات اختصاص المحاكم فى قضايا الأحوال الشخصية إلا أن ذلك يجب أن يستتبع وبطريق التلازم – تنظيم التشريع الخاص بها . فيكون لها قانون موحد لاتتفرق فيه السبل أوتضل الآراء ، على أن يراعى فيه التحرز من الخلط بين العقائد والمعاملات – فأما الأولى فهى قائمة بين الشخص وربه ، وأما الثانية فهى قائمة بين الفرد والمجتمع الذى يعيش فيه بما يضمه من أشخاص وأموال ، وبذلك ندع مالقيصر لقيصر وماالله لله . فيكون الزواج مثلا – بوصفه أحد أسرار الكنيسة السبعة خاضعا لهذه الكنيسة التى يتبعها الفرد فى نطاق ولايتها الروحية عليه فقط – فتباركه أو تقرر طرد من يخالف تعاليمها أوشلحه دون تدخل من المجتمع فى عقيدة الفرد أوتأثيمه .

أما ماجاوز ذلك من أمور الزوجية وإثباتها وماتستتبعه من آثار قانونية ومالية واجتماعية – فإن على الشارع أن يتولى هو تنظيمها بما يسنه من قوانين تقتضيها حاجة المجتمع ومطالبه – فلو رأى المجتمع أن من صالحه قصر الزواج بين أفراده – مسلمين وغير مسلمين – على زوجة واحدة فقط فلاتثريب عليه ولن يخرج ذلك المسلمين من دينهم أو يمس عقيدتهم فى شىء . فإن التزام ذلك لم يجعل المسلمين فى البلاد التى تحظر التعدد – سواء كانت إسلامية كتونس ، أوغير إسلامية ، لم يجعلهم غير مسلمين أويتعرض لعقيدتهم الإسلامية فى شىء . وكذلك الحال إذا رأى المجتمع أن يرتب عند حصول تعدد الزوجات آثار هذا التعدد على نحو أوآخر – صراحة بدلا من التوصل

إليها من الباب الخلفى وراء شتى النظريات – ولعل من الخطأ المشهور القول بأن الإسلام وحده هو الذى يبيح تعدد الزوجات ، فإن المتتبع لتاريخ التطور الدينى يلاحظ فى يسر وسهولة أن نظام تعدد الزوجات ليس غريباً على البيئة المصرية ، فقد كان سائدا فى الدول الفرعونية عند الملوك وذوى اليسار ، ولعل تمثال رمسيس الثانى القائم بميدانه بالقاهرة ومانقش عليه من أسماء زوجاته العديدات وألقابهن خير دليل على ذلك – ثم كان هو النظام السائد بعدئذ فى الديانة اليهودية ولم يحرم هذه العادة إلا المجمع « وورمز الربانى » الشهير الذى عقد فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى وإن كانت بعض طوائفهم لاتزال تمارسه حتى اليوم أسوة بأنبياء بنى إسرائيل ولم يرد فى الإنجيل نص صريح مانع قاطع يحظر هذا التعدد . والنصوص التى يستند إليها القائلون بغير ذلك لاتستقيم دون الاعتساف فى تأويلها وتفسيرها ، ذلك بأن السيد المسيح لم يهدم الناموس الذى جاء به موسى عليهما السلام ، بل إن تعدد الزوجات ظل قائما فى المجتمع المسيحى حتى قرر مجمع « نيقية » تحريمه . وتلاه المجمع « الترينيوتى » وأورده كتاب « المجموع الصفوى » للشيخ الصفى ابن العسال العالم المسيحى المشهور – ولو لم يكن قائما حتى ذلك الحين لما كانت بهم حاجة إلى النص على تحريمه – وذلك تمشيا مع الآراء التى سادت الفلسفة المسيحية وقتئذ والتى ترى أن من يقول بأن الزواج خير من عدم الزواج يحرم .

ولما كان ذلك وكان الزواج هو نظام اجتماعى فى آثاره – فإنه يجب أن يكون رهناً بما يراه المجتمع فى هذا الشأن مع عدم المساس بعقيدة أحد بإلزامه باتباع نظام التعدد دون نظام التوحيد .

وإنما على المجتمع أن ينظم حدوده وضوابطه وآثاره على كل حال ، فقد يرى المجتمع نظراً لارتفاع مستوى المعيشة أولمقتضيات اجتماعية أوخلقية يراها – أن يلزم أفراده باتباع نظام الزواج الفردى – أويكون العكس فيعم الرخاء أوتقوم ضرورات حربية من وجود عدو يتربص بالبلاد الدوائر ، ويزيد هذا العدو من تعداده بوسائل مشروعة وغير مشروعة تقتضى مقابلتها بما يدرأ خطرها – فعلت ذلك كل من فرنسا وألمانيا بعد أن ذهبت حروبها المتصلة بخيرة شبابها فاضطرتا إلى توريث الابن غير الشرعى تشجيعا لزيادة النسل عن أية سبيل ، أوقد تقع – لاقدر الله – حروب ذرية أوهيدروجينية تفنى الحرث والنسل فيتطلب الأمر عندئذ زيادة التكاثر لملء الفراغ الذى تحدثه أمثال هذه الكوارث بأسرع مستطاع .

ولما كان ذلك كذلك ، وكان تنظيم الزواج وآثاره من شأن المجتمع على النحو الذى سلف تفصيله ، ورغبة فى أن يتولى قانون محدد تنظيم الأسرة المصرية كوحدة اجتماعية متجانسة فى وطن موحد – فإن المحكمة تهيب بالمشرع أن يستكمل مابدأه فى هذا السبيل واستكمال مايعتور القانون رقم ٤٦٢ سنة ١٩٥٥ من نص فى هذا الصدد ، بالعمل على توحيد القانون بعد أن وحد المحاكم التى تطبقه .

« وحيث إنه بإنزال حكم ماسلف فى البند السابق جميعه على وقائع الدعوى الماثلة لتستبين المحكمة على هديه ماإذا كان للمدعى حقًا ظاهراً فى تركة من يدعى نسبه إليه ، فإن حسب المحكمة أن تستبين من زواج المرحوم صالح شكرى شكر الله ، بالمدعى عليها الأخيرة والدة المدعى ، والذى تم على يد كاهن فى كنيسة الروم الأرثوذكس هو القس استفانوس خورى بتاريخ ١٩٢٩/٦/١ وكان سن الزوجة وقتئذ سبعة عشر سنة فقط ، وذلك بحضور شهود وقعوا عليه ممايظاهر القول بحسن نية الزوجة – ولو لم يثبت ذلك فى دفاتر الكنيسة كما قرر المدعى عليهم المعارضون استناداً إلى الشهادة السلبية المقدمة منهم – ومن المستخرج الرسمى عن شهادة ميلاد المدعى ونسبته فيها إلى والده مورث المدعى عليهم الأربعة الأول – ولوكان ذلك بتبليغ من القابلة التى تمت الولادة على يديها كما جرى عليه العمل فى أمثال هذه المناسبات ومن شهادة تعميد المدعى وتسميته باسمه الحالى على النحو الذى سلف بيانه – حسب المحكمة ذلك – وأنه لم يحكم بعد بإبطال عقد الزواج الذى يستند إليه المدعى ، للقول بأن للمدعى مصلحة ظاهرة تتطلب اتخاذ إجراء موقوت حفظاً لحقوقه المحتملة وفقاً للمادة الرابعة من قانون المرافعات وأن النزاع الذى يقيمه المدعى فى هذا الصدد له من سمات الجد مايستنهض المحكمة لإضفاء حمايتها الموقوتة عليه – على النحو المقرر فى المادتين ٧٢٩ . ٧٣٠ من القانون المدنى ، درءاً لما يتهدد حقوقه المحتملة من خطر عليها إذا استمرت أعيان التركة تحت يد تنازعه الحق فيها .

« وحيث إنه وإن صح ماسلف ، فإنه وقد تقدم كل من شكر الله كامل شكر الله وحنا كامل شكر الله ، طالبين قبولهما خصما فى الدعوى أستنادا إلى القول بأن الأطيان المطلوب فرض الحراسة عليها من بين أعيان تركة المرحوم صالح شكرى شكر الله تدخل ضمن أطيان وقف أخرى قدرها ١٢٠ فداناً ، كان طالبا التدخل ناظرين عليها فأصبحا حارسين قانونيين بعد حل الأوقاف على غير الخيرات ، وقدما بين يدى دعواهما

حكما صادراً من المحكمة الشرعية العليا بتاريخ أول مايو سنة ١٩٥١ يفيد إقامتها وثالث معها هو المدعى عليه شكرى صالح شكر الله نظاراً على أعيان وقف المرحوم صالح شكر الله ولم يمار أحد من طرفى الدعوى فى مدعياتها بشىء وقد طلبا إقامتها حارسين قضائيين على هذه الأطيان إذا رأت المحكمة فرض الحراسة القضائية عليها ، وترى المحكمة قبولها من ثم خصما فى الدعوى .

« وحيث إنه لما كان ذلك ، وكان البادى من الاطلاع على حكم المحكمة الشرعية العليا سالف الذكر ، أن المتدخلين فى الدعوى والمدعى عليه المذكور ، قد أقيموا نظاراً منضمين غير منفردين على أعيان وقف مورث الطرفين ، ولم يجحد ذلك أحد منهما - بل سارع المدعى إلى ترشيحها للحراسة كما سبق أن وافق من قبل على حراسة المدعى عليه المذكور ، الأمر الذى يحدو بالمحكمة أن تخلص من كل ماسلف إلى استبدال الحراسة القضائية بالحراسة القانونية المفروضة على هذه الأطيان موضوع التداعى فى هذه الدعوى والمبينة بالصحيفة ، وتقيم كلا من المتدخلين فى الدعوى والمدعى عليه شكرى صالح شكر الله حراساً قضائيين ، منضمين غير منفردين وبدون أجر عليها وعلى باقى أعيان تركة المرحوم صالح شكرى شكر الله ، المبينة بصحيفة الدعوى وذلك لإدارتها وتحصيل ريعها وتقسيم صافى هذا الربح بين المدعى والمدعى عليهم الأربعة الأول بحسب الشريعة الإسلامية للذكر منهم مثل حظ الأنثيين ، وتسليم المدعى عليهم المذكورين نصيبهم فيه وإيداع نصيب المدعى خزينة المحكمة ريثما ينتهى الخلف بين الطرفين إلى رضاء أوقضاء بحكم حاسم للخصومة القائمة بينهما بشأن الميراث وذلك بعد أداء الضرائب القانونية ومصروفات الإدارة الضرورية ، وتقديم كشف مفصل بأوجه الحساب مدعم بالمستندات ، كل ستة أشهر وإيداعه قلم كتاب المحكمة . وذلك مع إضافة المصروفات إلى عاتق الحراسة باعتبارها إجراء كافلا لحقوق الطرفين كليهما - وبغير حاجة للنص على النفاذ فهو حتمى (م ٤٦٦ / ١ مرافعات) » .

القضية رقم ٩٧٧٨ سنة ١٩٥٧ رئاسة السيد الأستاذ عبد العزيز هندى القاضى .

حَول التفاهم الإسلامى المسيحى

رسالتان متبادلتان : بين صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر والدكتور ميجيل دى إيبالثا سكرتير عام جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية بمدريد – أسبانيا

السيد المحترم صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد

فيسر جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية فى مدريد ان تتوجه إلى فضيلتكم لتشرف بإخباركم بما استقر عليه الراى من انعقاد مؤتمر قرطبة العالمى الإسلامى المسيحى الثالث خلال عام ١٩٧٩ . إن شاء الله وقد رات إدارة الجمعية اختيار موضوع «محمد وعيسى ملهمان للقيم الاجتماعية المعاصرة» ليكون محور اللقاء الإسلامى المسيحى المقبل والمقصود ان يشرح المسلمون كيف يعبر النبى ﷺ عن هذه القيم المعاصرة بالنسبة لمسلمى اليوم سواء برسالته وعقيدته ودعوته . او بشخصيته وسلوكه ونفسيته المثالية ، بينا يشرح المسيحيون كيف يعبر عيسى عليه السلام عن القيم الاجتماعية نفسها عند مسيحيى اليوم . . ورغبتنا ان يدرس هذا الموضوع مجموعة ممن يعيشون فى مجتمع متكافل يفيض بالمودة والوفاق . وإن اختلفت عقائد مواطنيه وتنوعت اديانهم .

وسوف يتولى عملية تنظيم وإعداد المؤتمر من الجانب المسيحى الكليات المتخصصة فى علوم اللاهوت نذكر منها بصفة خاصة كلية اللاهوت بمدريد . والجامعة البابوية فى روما . . ويعد الموضوع – بمشيئة الله – من الجانب الإسلامى الجامعات المتخصصة فى بعض البلدان الإسلامية . ومؤسسات إسلامية وشخصيات مسلمة ، يستوى فى ذلك من يعيشون داخل إسبانيا ومن يقيمون خارجها .

ونعتقد انه من الممكن دراسة رؤوس

الموضوعات التالية فى نطاق الموضوع العام للملتقى وهى : الحرية والعدالة والمساواة فى مختلف مظاهرها وجوانبها المتعددة فى هذا الدين أو ذاك . ولا يعنى هذا بطبيعة الحال . ان هذه هى الكلمة النهائية على العكس ، نحن نتوجه إليكم منذ الان وفى لحظة نشاة الفكرة املين ان تروا الموضوع بما تقترحونه وان تتفضلوا بإضافة ما ترونه مفيدا ونافعا ، ولسنا نشك فى إنكم ستزودوننا بسديد الراى وصائبه - بإذن الله . فأنتم ادرى بهذا الحقل منا ، ولكم فى هذا الميدان خبرة قد لا تتوافر للكثيرين بحكم احتكاكم بالمجتمعات ، وجهودكم فى القارات المختلفة . وقد سبق أن شرفتمونا حين تفضلم بإيفاد وفد مثل بلادكم فى مؤتمر قرطبة الإسلامى المسيحى الاول الذى عقد فى عام ١٩٧٤م .

وما نبغيه فى هذا المرحلة - مرحلة الإعداد والدراسة - هو النصيحة وتبادل الراى ، والاستفادة بالمشورة دون إلزام او التزام بحضور المؤتمر . وسوف نتصل بكم فى مرحلة اخرى إن شاء الله من اجل توجيه الدعوة لحضور جلسات الملتقى نفسه إذا رغبتم فى ذلك .

وفى انتظار كريم ردكم نرجو أن تتقبلوا خالص تحياتنا وأطيب أمنياتنا بالصحة والسعادة .

وسلام الله عليكم وتحياته ورحمته وبركاته ، ، ،

سكرتير عام جمعية الصداقة الإسلامية المسيحية

(إمضاء)

دكتور . ميجيل دى إيبالثا

مدريد ابريل ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد المحترم د . ميجيل دى إيبالثا

تحية طيبة وبعد

فقد وصلنى خطابكم المؤرخ : ابريل ١٩٧٨ م

وإنى اشكر لكم هذه الرغبة فى التفاهم بين المسلمين والمسيحيين وآراء الفكر المعاصر بالحلول التى أوحاها الله تعالى إلى محمد وعيسى صلى الله عليهما وسلم . وذلك فيما يتعلق بالمشاكل المعاصرة .

وقد وصلتنى أخبار المؤتمرين السابقين .

واحب أن أنبه . فى مودة ، ومن أجل تفاهم عميق إلى بعض الامور :

١ - إن الاسلام - منذ أن بدأ - خالف الجوّ العالمى : اليهودى والوثنى . . . فى أمر عيسى عليه السلام . لقد أعلن الإسلام مباشرة تقديره واحترامه لعيسى وأمه . اما عيسى عليه السلام فهو وجيه فى الدنيا والاخرة . وأما أمه فهى صديقة .

ووجود عيسى عليه السلام جزء من إيمان المسلم . وبراءة امه وطهرها جزء من إيمان المسلم . ولم يقف الإسلام من عيسى عليه السلام ومن امه موقف اليهود الذين ما زالوا على موقفهم إلى الان من عيسى وامه . لقد افتروا - ومازالو - على عيسى وعلى أمه ورموهما ببهتان شنيع . . اما الإسلام فإنه مجدهما ومازال مستمرا فى تمجيده لهما .

فماذا لقى المسلمون من المسيحيين فى مقابل ذلك ؟

٢ - إنه لابد من الاعراف بالدين الإسلامى وبرسوله حتى ينال المسلمون فى أوربا ما يناله اليهود من الاعتراف باعيادهم وبشعائرهم . . وأنه لا يتأتى التفاهم بين أتباع رسول يحترمه المسلمون هو عيسى عليه السلام واتباع رسول لا يعرف به المسيحيون وهو محمد ﷺ .

٣ - إن المسلمين والمسيحيين يعملون على مقاومة الانحراف والانحلال والمادية والإلحاد وكان يجب ان يسيرا فى خط متعاون متساند ضد التيارات المنحرفة . . ولكن - للاسف - يسير المسيحيون فى طريق تنصير المسلمين بقوة : فهم يعملون ليل نهار على ان ينصروا المسلمين فى كل مكان فى العالم ، وكل الدول الغربية وامريكا ترسل إرساليات لتنصير المسلمين باسلوب مكشوف واضح او باسلوب خفى مستور ، ويضيق المسلمون بذلك ضيقا شديدا . ورغم ذلك فإن ملايين الجنيهات تنفق فى سعة للتنصير بكل الطرق .

ومما هو ملاحظ ان الدول الإسلامية ليس لها إرساليات تبشيرية . . وقد ارسل المسيح عليه السلام لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة . ومع ذلك فإن المسيحيين تركوا خراف بنى إسرائيل الضالة واخذوا يعملون على تنصير المسلمين . . تساعدهم الثروة . وتساعدهم وسائل الحضارة الحديثة .

ولو حصروا نشاطهم على تنصير الوثنيين لما اثار ذلك ضيق المسلمين الشديد . وكراهيتهم للاسلوب ولموضوع التنصير نفسه .

٤ - والمسلمون أقليات فى بعض الاقطار المسيحية مثل الفلبين . وهذه الاقليات المسلمة ينكل بها باسم المسيحية : تؤخذ ارضها وييتم اطفالها وتترمل نساؤها . ولا تجد إلا ارتياحا فى نفوس الاغلبية المسيحية . . ونحب أن ينتهى التنكيل بالمسلمين فى الاقطار التى بها الأغلبية المسيحية : نحن نحب ان ينتهى ذلك : إنسانية ونحب أن ينتهى ذلك ديناً .

٥ - وفى المؤتمرات التى تعقد فى إسبانيا وغيرها هنالك اسلوبان للحديث :

(١) التزام العقل . وهنا يتحلل

المسلمون من مبادئ دينهم فيتناولون المسيح عليه السلام وأمه بالأسلوب العقلى فيكون موقفهم منهما موقف اليهود : يقولون على مريم وعلى ابنها ما يضيق به المسيحيون ضيقا شديدا . ويقولون على المسيحية نفسها ما يضيق به المسيحيون ضيقا شديدا .

ولكن المسلمين فى هذه المؤتمرات يتبعون مبادئ دينهم فيحترمون المسيح عليه السلام وأمَّه . . أما المسيحيون فإن البعض منهم لا يبالى ، فيتحدث عن رسول الإسلام بما يضيق به المسلمون : فلا تكون هذه المؤتمرات وسائل تفاهم ، وإنما تكون وسائل تنافر ، وذلك كما حدث فى المؤتمرين السابقين من بعض المسيحيين .

(ب) التزام ما تمليه روح التفاهم : فلا يساء إلى المسلمين فى مقدساتهم .

٥ – ونحن من جانبنا قد قدَّمنا أسس التفاهم واضحة سافرة : احترام المسيح عليه السلام ، احترام أمه عليها السلام . . .

فماذا قدم المسيحيون ؟ لا شيء ! ! .

بل على العكس من ذلك لقد هاجموا ومازالو يهاجمون رسول الإسلام ومبادئ الإسلام . فهل يمكن مع ذلك التفاهم ؟

٦ – وأحب أن أقول إن الإسلام هو العامل الأكبر فى تثبيت المسيحية حين اعترف بوجود المسيح عليه السلام وحين برَّأ أمه . ومع ذلك فقد قوبل بجحود لا مثيل له ومازال يقابل بهذا الجحود من المسيحيين على أكبر خدمة أديت للمسيح عليه السلام .

وبعد : فإنى أحب صادقاً أن نتعاون فى صدٍّ كل انحراف . . وأحب أن أقول إنه لولا تقديرى لكم لماكتبت لكم هذا . وإننى يسرنى أن أقرأ لكم .

وسأتحدث إليكم عن رأيى فى موضوع المؤتمر فى المستقبل إن شاء الله .

ولكم تحيتى وتقديرى . . .

«د . عبد الحليم محمود»
شيخ الأزهر

الفتاوى

إعداد الأستاذ / عبد الحميد شاهين

(س ١) ما معنى كلمة « القدر » التى ورد ذكرها كثيرا فى القرآن الكريم ؟

(جـ ١) القدر الذى جاء فى القرآن الكريم مضافا إلى الله مثل قوله : « إنَّا كلَّ شيءٍ خلقناه بقدر » [1] وقوله : « وما ننزله إلا بقدر معلوم » [2] وقوله : « والذى قدر فهدى » [3] وغير ذلك . . يرجع معناه إلى أن الله خلق هذا الكون على سنن مضبوطة ومقادير معينة . ولم يكن صادرا عن طريق الصدفة التى لا تعتمد على نواميس يجرى عليها ، ويسير على مقتضاها ، ويؤدى بها مهمته . ولا توجد فى القرآن كلمة « قدر » بالمعنى الذى يفهمه كثير من الناس ، والذى يرجع إلى أن الإنسان مجبور فى أفعاله بحيث يكون مقهورا عليها . .

والقدر بالنسبة للإنسان معناه : أنه خلقه بإرادة وحرية واختيار فيما كلفه به من أعمال الخير والبعد عن أعمال الشرّ . وكل نصوص القرآن تدل على ذلك دلالة واضحة ، واختيار الإنسان أساس لتكليفه ومحاسبته ، ومحال أن يكون الإنسان مجبورا على فعله ثم يكلف ، ويثاب أو يعاقب على مالا يستطيع صرف نفسه عنه . وعلمُ الله بما سيكون من الإنسان باختياره وإرادته يحقق معنى الاختيار وينفى القهر والجبر . وصفة العلم صفة كشف وليست صفة تأثير . .

(س ٢) ما حكم الشرع فى تقبيل أيدى العلماء والوالدين ؟

(جـ ٢) التقبيل من العادات القديمة التى عرفها الناس وانتشرت بينهم . . ومنه القبيح المستهجن . . ومنه الحسن المقبول ، وقد اختلط على الناس . بحكم التقاليد المختلفة والأهواء النفسية – قبيحه بحسنه – ومستهجنه بمقبوله ، وصرنا نرى منه ما يمقته الشرع والدين . . وما تنكره المروءة

(١) الآية ٤٩ من سورة القمر .

(٢) الآية ٢١ من سورة الحجر .

(٣) الآية ٣ من سورة الأعلى .

والشرف ، وما قد يصل بصاحبه إلى عتبة الكفر والخروج من الإيمان . . ونرى منه مالا بأس به فى نظر الشرع وتقدير الشرف . . .

والواجب فى هذا الشأن النظر فيما ينبغى أن يكون فيفعل ، ومالا ينبغى أن يكون فيترك ، والأصل ، الذى يجب أن نجعله أساسا – هو تقدير الباعث عليه ، فإن التقبيل قد يكون بقصد الخضوع وإعلان العظمة ، وقد يكون بقصد إشباع الغريزة تحت ستار التحية والتعظيم ، وقد يكون تلبية لعازفة الشفقة والرحمة ، وقد يكون اعترافا بفضل . . وهكذا تتنوع بواعثه . .

فإن كان الباعث يمقته الشرع – أخذ التقبيل حكمه وكان ممقوتا ، وذلك كتقبيل الأرض أمام الملوك والعظماء وأدعياء التصوف . . وقد صرح العلماء بحرمته ، وقالوا : إن فاعله والراضى به آثمان ، لأنه يشبه العبادة ومن مظاهر الوثنية .

ومنه تقبيل الأجنبيات ، سيدات أم فتيات ، فى الخدود أو الأيدى ! ! فهو محرم ممقوت ، وفاعله والراضى به آثمان .

وإن كان الباعث لا يمقته الشرع أخذ حكمه . . وذلك كالتجلة والاحترام لتقىّ ورع ، أو عالم عامل ، أو حاكم عادل . تستقيم بعدله الأحوال ، ويقيم حدود الله . .

والوالدان مقدمان على الناس جميعا فى استحسان تقبيل أيديهما . . « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » [١]

(س ٣) :

(ا) يقطع بعض الزراع الفول الأخضر والذرة الخضراء قبل نضجها فهل تجب فيها زكاة ؟

(ب) وهى فى الطماطم التى تبـاع فى الأسواق زكاة ؟

(جـ) وهل فى الموالح والفاكهة زكاة ؟

(د) مع الإحاطة بأن من الناس من يزرع هذه الأشياء ويبيعها لحسابه . . ومنهم من يزرع ويبيع لتاجر الجملة .

(جـ٣) نفيد عن الأول بأن ما يبيعه الزارع من الفول الأخضر والذرة الخضراء تجب الزكاة فى ثمنه بنسبة نصف العشر إن كان سقيه بالآلة ، وما يأكله الزارع أو يهديه فيجب نصف عشر قيمته إن كان سقيه بالآلة كذلك .

وعن الثانى بأن الطماطم لا زكاة فيها عند جمهور الفقهاء ، وتزكى عند أبى حنيفة ويخرج الزكاة من ثمنها على ما تقدم فى السؤال الأول .

وعن الثالث بأن الموالح والفواكه تأخذ حكم الطماطم فتزكى عند أبى حنيفة

---

(١) الآية ٢٤ من سورة الإسراء .

ولا زكاة فيها عند جمهور الفقهاء .

هذا بالنسبة للزراع ، أما التجار فإن عليهم زكاة التجارة فى كل ما يتجرون فيه يقوِّمون تجارتهم آخر العام ويخرجون من قيمتها ربع العشر حيث بلغت نصابا والله أعلم .

(س ٤) هل يجوز للحائض قراءة القرآن من غير مسّ للمصحف ؟

(جـ ٤) نفيد بأن يجوز شرعا للحائض أن تقرأ القرآن من غير مس للمصحف ما دام الحيض نازلا . فإن انقطع الدم يحرم عليها القراءة حتى تغتسل ، وهذا هو مذهب الإمام مالك رضى الله عنه .

(س ٥) هل يجوز أن يخطب رجل الجمعة ثم يصلى مأموما ويؤم الناس إمام غيره ؟

(جـ ٥) نعم يجوز أن يخطب خطيب ، ويصلى بالناس غيره . وكل من الخطبة والصلاة صحيحة فى هذه الحالة والله أعلم .

(س ٦) هل يجوز نقل جزء من جسم ميت إلى حى ؟

(ج) يتأذى الميت مما يتأذى منه الحى ، فأخذ جزء منه يؤذيه ، وقد يتأذى أهله كذلك . وعدم انتفاع الحى بعضو من أعضائه وتعطل نفعه ضرر يفوق ضرر الميت إذا قورن به ، لأنه إذا ترك جزء الميت للميت فإنه يبلى ولا ينتفع به أحد . وإذا نقل إلى غيره من الأحياء فإنه سيؤدى وظيفته وينتفع به الحى ، وقد يتعدى نفعه لغيره من الأحياء كذلك فيعود نفعا عامًّا .

ولا يقف دون هذا ضرر الميت بأخذ جزئه منه ، فإن الضرر الأخف يحتمل لدفع الضرر الأعظم ، ولا شك أن ضرر الحى أكثر ، فالنقل إليه أولى أن يسلك سبيله ويتبع ، على أن الإنسان اجتماعى لم يخلق لنفسه ، وإنما خلق له وللمجتمع ، فإذا أمكن أن تبقى منفعة بعض أجزائه ولو لغيره بعد وفاته فلا مانع منه ، ولا يقف الدين فى سبيل ذلك بشرط ألا يكون فى ذلك مُثلة بالميت ، وأن يستأذن أهله فى ذلك حتى لا يترتب على ذلك مفسدة . .

(س ٧) هل يجوز حرمان الابن العاق من الميراث ؟

(جـ ٧) قسوة الولد على أبويه أو أحدهما أو على أحد أفراد أسرته أمر لا يجوز بحال من الأحوال ولا يرضاه الله من الولد . . وهو بذلك مسىء إلى نفسه وإلى دينه ، ومحل سخط من الله فى الدنيا والآخرة . .

ومع ذلك فحرمانه من التركة مخالفة لتشريع الله ، ولم يجعل الله عقوبة العبد بقطع رزقه . . أو ضياع استحقاقه فى التركة ، لأنه سوف لا يستحقها إلا بعد وفاة المورث له . سواء كان الأم أو

الأب .

ومن الجائز أن يكون حين استحقاق نصيبه فى الميراث مهذب النفس طيب الأخلاق حسن السلوك ، فلا مسوغ لعقوبته بالحرمان ، ونظرا لوجود إخوة صغار يستحقون التربية فإنه يجوز للأب أو الأم أن يخص الأولاد الصغار بشىء من الملك دون هذا الولد الكبير الذى انتهت تربيته واستغنى عن والديه . . وذلك عن طريق الوصية فى حدود ثلث المال ، تمييزا لهم عن أخيهم العاق عملا بقانون الوصية الذى أجاز الوصية للوارث دون توقف على رضا بقية الورثة . . والله أعلم .

عبد الحميد السيد شاهين

« وفد ندوة العلماء بالهند »

يزور مصر الآن وفد ندوة العلماء بالهند بدعوة من الإمام الأكبر شيخ الأزهر . للاطلاع والدراسة على نظام العمل فى الأزهر الشريف ومؤسساته .

ويتكون الوفد من الأستاذين : سعيد الأعظمى الندوى مدير مجلة البعث الإسلامى التى تصدر باللغة العربية فى الهند ، والأستاذ واضح رشيد الندوى أستاذ اللغة العربية وآدابها بندوة العلماء .

وسيغادر الوفد مصر فى منتصف شهر يونيو القادم إلى المملكة العربية السعودية للمهمة نفسها .

× الإجابة عن السؤالين الأول والثانى من كتاب الفتاوى للأستاذ الإمام الشيخ محمود شلتوت . والإجابة عن بقية الأسئلة من سجلات الفتوى بالأزهر .

كتاب الشهر ..

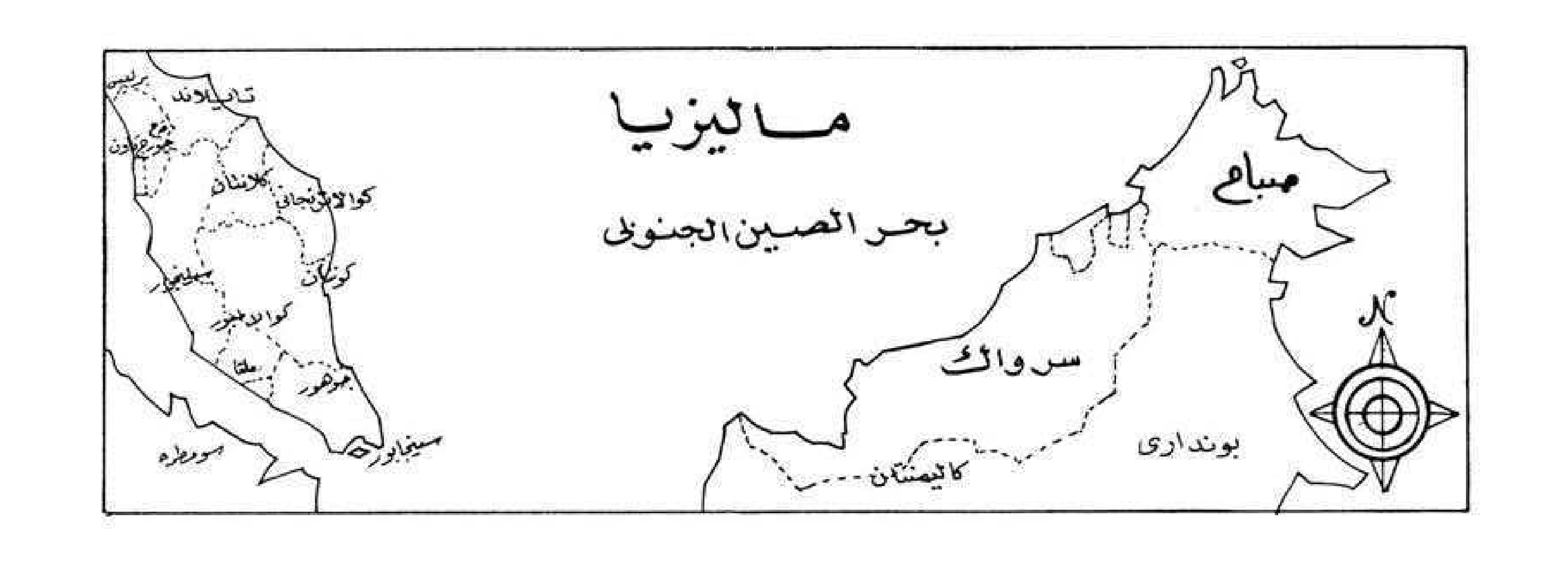
****

ماليزيا ..

MALAYSIA

الناس والخطر .

الدكتور عبد الودود شلبي



ماليزيا
بحر الصين الجنوبي
صباح
سرواك
كاليمنتان
بونداري
تايلاند
كلانتان
كوانتان
ملقا
جوهور
سنغافورة
سومطرة
N

فى عام ألف وثلثمائة وستين بعد الهجرة . . دلفت – ولأول مرة – إلى ساحة الجامع الأزهر الشريف بعد تسجيل اسمى كطالب فى معهد القاهرة . وتذكرت حين تجوالى بين أروقته دعوة أمّى التى طالما تمنت لولدها أن يكون من علماء هذه الجامعة المباركة . وأن يمسك عمودا من تلك الأعمدة التى ترمز إلى مقام صاحبه الكبير فى العلم والفتوى . .

لقد صحبنى والدى فى هذه الزيارة ، وقدمنى فخورا إلى أحد شيوخه الذين تربطه بهم صلة . . وما زلت أذكر حتى هذا اليوم صورة الشيخ « أبو القاسم إبراهيم » . . فقد كان من علماء الأزهر المنتسبين إلى الجمعية الشرعية ، وكانت بينه وبين خالى الشيخ « سيد » زمالة فى هذه الجمعية ، وتعاون صادق فى الدعوة إلى العمل بالكتاب والسنة المحمدية . . !

ماذا أرى فى هذه الساحة ؟ خليط من الأساتذة والطلبة . . ومزيج من الأجناس والشعوب المختلفة . ماأروعك أيها الأزهر العظيم . . لقد جمعت فى ساحتك كل الدنيا . . وزويت لك الأرض حتى صارت تحت مآذنك العليا . .

وتقدم إلى طالب من أصحاب هذه الوجوه الغريبة . ثم طلب منى رعاية كتبه ريثما يعود من دورة المياه القريبة .

كان هذا الطالب من « الملايو » فقد قرأت اسمه على صفحة كتاب من تلك الكتب . . وعرفت بلده من الغلاف الموشّى بماء الذهب . . ومنذ ذلك اليوم . . وهذه الكلمة لم تغب عنى . . الملايو . . وأين تكون ؟ . . وفى أى القارات تقع ؟ . . وماذا يركب المسافر إليها من وسائل النقل ؟ . . الغليون . . ؟ ولكن ماهو الغليون ؟ . . اننى لاأعرف عن هذه الكلمة أكثر مماكانت تحدثنى به جدتى فى ليالى السمر . . أم « الرفاص » الباخرة النيلية الصغيرة التى كانت وسيلتنا المحببة فى السفر . . أم الجمال – هكذا كنا نسمع من

الحجاج الذين يسافرون إلى أرض الحرم . . لم يكن ركوب الطائرة قد شاع كما هو الحال فى أيامنا هذه . . بل كنا نحسب من يركب الطائرة كافرا يستحق اللعنة . . وَعَدُوًّا من أعداء الشريعة والمِلة . . !

وفى حى « الجودرية » . . كانت إقامتنا بمنزل من تلك المنازل التى تعود سكناها « المجاورون » أى الطلبة . . لم يكن يشاركنا فى هذا البيت غير صاحبته العجوز « أم أحمد » . . وذات يوم سمعنا دبيبا وحركة فى الشقة المجاورة . . وجاءت العجوز لتخبرنا عن الساكن الجديد وتقول : إنه من « جاوة » . . جاوة ! . . وما « جاوة » هذه أيضا ؟ ! . . إن كل مانعرفه عن هذا البلد أنها تشتهر بنوع من البخور يسمى « الجاوى » . . وحتى هذه التسمية هل هى نسبة إلى « جاوة » أم هى شيء من اختراع الدجالين والسحرة . . ؟ ولم تمض غير أيام قليلة حتى توثقت بيننا وبين هذا الأخ العلاقة . وتكرر الحديث عن بلاده فى كل زيارة . . وعلمت منه لأول مرة – أن الشرق الذى ننتسب إليه ينقسم فى كتب الجغرافيا إلى قسمين : شرق أوسط تقع فيه مصرنا العزيزة . . وشرق أقصى تقع فيه الملايو ، وجاوة ، وسومطرا . .

◻ ◻ ◻

لقد مضى أكثر من ثلث قرن على « القصة . . ألا ماأسرع مرور الأيام فى هذا الزمن . . هل نقص النهار والليل ؟ أم مُحِقَت البركة فى كل شيء ؟ أم مات فى الناس الشعور والوعى ؟ ولكنها سنَّة الحياة . . بل هى طبيعة البشر حين تختل فى القلوب موازين الخير فينقلب كل شيء إلى النقيض والعكس . وينعكس أثر ذلك على القلب والنفس ، وكم أشعر بهذه الحسرة حين أُرْجِع بصرى فى رحاب الأزهر . الأزهر الجامع والأزهر الجامعة ، والأزهر التراث ، والأزهر أمل المسلمين فى كل بقعة من بقاع الأرض .

نعود إلى الملايو . . أو إلى ماليزيا بعد أن عرفت بهذا الاسم إثر قيام الاتحاد الذى يضم ثلاث عشرة ولاية هى : جوهور (Johore) وقدح (Kedah) وكلانتون (Kelantan) وملقا (Malka) ونجرى سمبيلان (Negrismbilan) وبارليس (Parlis) وصباح (Sabah) وسرواك (Sarwak) وسلانجور (Selangor) وترنجانو (Trenggano) وكوالا لامبور (Kuala Lumpur) العاصمة . وكانت سنغافورة (Singapore) عضوا فى هذا الاتحاد . ثم انفصلت عنه خوفا على (بوذيتها) من الإسلام الدين الرسمى للاتحاد .

ولم يكن انفصال سنغافورة هو بداية

المشكلات فى هذا الاتحاد .. بل إن إندونيسيا المسلمة شعباً . الشيوعية حكومة (فى عهد سوكارنو) . ناصبت هذا الاتحاد العداء منذ قيامه ، وأعلنت عليه حربا سياسية ضارية حساب أعدائه .

ولايعرف بانضبط متى وصل الإسلام إلى الملايو . ولكن من المعروف أن علاقة شبه جزيرة الملايو كانت قوية مع الهند .. وخاصة مع سواحلها الغربية التى انتشر فيها الإسلام فى وقت مبكر .. نتيجة التجارة وانتقال المراكب المستمر بينها وبين أطراف شبه الجزيرة العربية التى انطلق منها الإسلام ، وكذلك كانت روابطها متينة مع جزيرة سومطرة المواجهة لها من جهة الغرب ، والتى وصلها الإسلام أيضا لأن أطرافها الشمالية أقرب إلى الغرب حيث كانت تمخر السفن الإسلامية ، وتتحكم فى طرق المحيط الهندى البحرية وفى موانئه وقواعده ومراكزه وبحاره ، وينتقل التجار المسلمون والدعاة على سواحله يحملون مع بضائعهم بضاعة جديدة هى العقيدة .

وقد وصل الإسلام إلى جزيرة سومطرة فى القرن الثالث عشر الميلادى ، فعندما زار الرحالة الإيطالى « ماركوبولو » المنطقة عام ١٢٩٢ م وجد التجار المسلمين فى ميناء « برلاك » على الساحل الشمالى للجزيرة ذات الصلة الوثيقة بالملايو .. ومن سومطرة انتقل الإسلام إلى الملايو ، وتقول إحدى الروايات أنّ « مالاقا » الواقعة على الطرف الغربى من بلاد الملايو قد دخلت فى الإسلام قبل هذه الفترة ، فتروى أن سفينة عربية قادمة من « جدة » ، يقودها سيدى عبد العزيز ، قد رست فى ميناء مالاقا عام ١٢٧٦ ، واستطاع ركابها أن يحولوا ملك مالاقا إلى الإسلام ، وأطلقوا عليه اسم السلطان محمد شاه ، وتبعه شعبه فى اعتناق الدين الجديد . وبذا قامت أول مملكة إسلامية تعمل على نشر الإسلام فيما جاورها من البلاد ، وفى غضون نصف قرن أصبحت مالاقا مركزا يشع منه الإسلام على المناطق المجاورة . فأسلمت باهانغ وجنوب الملايو .

وتذكر بعض الروايات أنه فى القرن الثالث عشر قامت مملكة « تماسبك » فى سنغافورة ، وفى أوائل القرن الرابع عشر قامت فى « جاوة » إمبراطورية « ماجاپاهيت » الهندية القوية التى استطاعت القضاء على مملكة تماسبك .. وكان الإسلام قد وطد دعائمه فى أجزاء من شبه جزيرة الملايو . وقد استطاع ملك تماسبك أن يغادر سنغافورة مركز حكمه السابق ، وأن ينتقل إلى مالاقا مع ١٥٠٠ شخص من أفراد العائلة المالكة . وأن يؤسس هناك حكومة . وقد اعتنق الإسلام بتأثير من

أعتنقه من سكان المنطقة ، وأطلق على نفسه اسم إسكندر شاه وكان ذلك فى بداية القرن الخامس عشر حوالى عام ١٤١٤ م .

ويقال إن الإسلام قد انتقل من باساى فى شمال سومطرة إلى مالاقا بعد أن أسلم حاكمها ليتزوج أميرة مسلمة من باساى وذلك لأن المسلمة لايصح أن تتزوج غير مسلم ، وكان ذلك حوالى عام ١٤٠٠ م ، ثم اعتنق شعب مالاقا الإسلام بعد إسلام حاكمه .

وقد كان ميناء سرى فيجايا فى شبه جزيرة الملايو أكبر مرفأ تصل إليه السفن الإسلامية . . وخاصة بعد القرن العاشر الميلادى عندما أُغلِق ميناء «كانتون» الصينى فى وجه التجار الأجانب نتيجة لاضطرابات مملكة تانك الصينية ، وفى ذلك الوقت أصبحت سرى فيجايا أبعد نقطة تصل إليها السفن الإسلامية آنذاك .

ورغم ماحدث فى العالم الإسلامى من أحداث جسيمة مثل تدمير بغداد على يد هولاكو عام ١٢٥٨ م ، وسقوط الخلافة الإسلامية إلاّ أن المسلمين قد بقوا سادة التجارة فى المحيط الهندى .

ومن المحتمل أن يكون تجار جنوب الهند هم الذين كان لهم الأثر الواضح فى إسلام الملايو . . إذ أنّ المسلمين هناك يؤدون عباداتهم على المذهب الشافعى وهو المذهب المنتشر فى جنوب الهند . . بينما أثر التجار الكوجراتيين فى الهند كان أقل ، حيث يتعبدون على مذهب الإمام أبى حنيفة الذى لم ينتشر فى الملايو ، كما أن الصوفية قد انتشرت هناك عن طريق جنوب الهند وليس من شبه جزيرة العرب ، وقد يكون تجار غرب الهند وجنوبها قد لعبوا دورهم معا فى الدعوة ، وهذا لاينفى أثر الدعاة العرب الذين ما انفكوا يفدون إلى البلاد بعد أن توقفت الفتوحات الكبرى ، وانصرف المسلمون إثر ذلك إلى نشر الدعوة عن طريق التجارة والتنقل لهذه الغاية .

ويقـــول الســـير توماس أرنولد (Sir Thomas Arnold) فى رواية لطيفة نقلها عن أخبار «قويدة» – إحدى ولايات شبه جزيرة الملايو– وكيفية دخول الإسلام إلى هذه المنطقة :

قدم عالم عربى يدعى الشيخ عبد الله إلى «قويدة» وزار الراجة "Raja" . وسأله عن ديانة البلاد ، فأجابه الراجة :

إننا جميعا نعبد الأصنام . . فقال الشيخ : إذن أما سمعتم جلالتكم قط شيئا عن الإسلام والقرآن الذى أنزله الله على محمد ، ونسخ به كل الديانات الأخرى ؟ فقال الراجة : إذن أرجو منك – إن كان حقا ماتقول – أن تعلمنا هذا الدين الجديد وتهدينا بنوره .

فتهلّل الشيخ عبد الله تهلل الحماسة المقدّسة لسؤال الراجة إياه هذا السؤال . واحتضنه ثم فقّهه فى الدين . . ولما اقتنع الراجة بتعاليم الشيخ أرسل فى طلب آنية الأرواح[1] التى طالما عكف عليها ، وأفرغ مافيها على الأرض بيديه ، ثم أمر بعد ذلك أن تحضر كل الأصنام التى فى قصره . فجمعت بين يديه أكوام من أصنام الذهب والفضة والطين والخشب . . فكسرها الشيخ عبد الله قطعا بسيفه وبفأسه ، وأحرقت الأجزاء فى النار . . ثم طلب الشيخ إلى الراجة أن يجمع كل نساء القلعة والقصر ، فلما قدمن جميعا فى حضرة الراجة والشيخ ، تعلمن عقائد الإسلام ، وكان الشيخ مهذبا لطيف المعشر كما كان جذابا رقيقا فى لغته ، حتى إنه جذب إليه قلوب ساكنى القصر ، ولم يلبث الراجة أن أرسل فى طلب وزرائه الأربعة المُسنِّين ، ولما دخلوا البهو استولى عليهم الدهش حين رأوا شيخا يجلس إلى جوار الراجة . فأبان لهم الراجة المهمة التى جاء من أجلها الشيخ ، وعندئذ أظهر الزعماء الأربعة استعدادهم للاقتداء بجلالته . . وقالوا : إننا نأمل أن يعلِّمنا الشيخ عبد الله كذلك ، ولما سمع الشيخ هذه الكلمات احتضنهم وقال لهم : إنه يأمل – لكى يبرهنوا – على إخلاصهم أن يستدعوا شعبهم بأسره إلى بهو الاستقبال ، ويحضروا معهم كل الأصنام التى تعودوا أن يعبدوها . . وأجيب الشيخ إلى طلبه ، وأحضرت فى الوقت المحدّد كل الأصنام . . وهناك حُطِّمت وحرقت وأصبحت رمادا تذروه الرياح ، ولم يأسف واحد منهم على ماأصاب آلهتهم الزائفة . . وكانوا جميعا فرحين بدخولهم فى حظيرة الإسلام . ثم سأل الشيخ عبد الله الوزراء الأربعة ما اسم أميركم ؟ قالوا اسمه « برا أونج مها وانجسا » فقال الشيخ دعونا نستبدل اسمه باسم آخر ، وبعد تبادل الرأى طلب الراجة أن يحول اسمه إلى السلطان « مزلف الشاه » .

وقد وصلت أخبار تحول سكان « قويدة » إلى الإسلام إلى « أنجيه » فأرسل إليهم سلطان هذه البلاد ومعه رجل يدعى الشيخ نور الدين – كان قد قدم من مكة – بعض الكتب ورسالة تقول : « من سلطان انجيه ونور الدين إلى أخينا سلطان « قويدة » والشيخ عبد الله اليمنى الذى يقيم الآن فى « قويدة » أرسلنا إليكم كتابين من كتب الدين حتى تتأكد دعائم العقيدة

---

(١) آنية الأرواح عبارة عن قارورة منبعجة على هيئة جرَّة صغيرة من البلور أو الفخار ، يقتنيها أتباع الديانتين الهندوكية والبوذية لحفظ بعض من الرماد المتخلف من حرق أجداث أسلافهم بعد وفاتهم ، وفى اعتقادهم أن أرواح هؤلاء الأسلاف تبقى مع هذا التراب . .

الإسلامية ، ويتعلم الناس واجباتهم وشعائر دينهم تعلما كاملا :

وقد أرسل الراجه والشيخ عبد الله رسالة يردان فيها على هذه الرسالة ويشكرانها على ماأنعما به عليهما . . ومن ثَمَّ ضاعف الشيخ عبد الله جهوده ، وبنى زوايا فى كل القرى على اختلافها . . بالإضافة إلى مافيها من المساجد ليكون الانتفاع عاما . . ثم علم الناس كل أحكام الدين وشعائره . . وكان الراجه وزوجته ملازمين للشيخ يتعلمان قراءة القرآن . . وبحث هذان الزوجان عن امرأة من نسل الراجات لتكون زوجة للشيخ ، ولكن لم يرغب أحد فى أن يهب ابنته زوجة للشيخ لأن هذا الرجل المقدّس كان يوشك أن يعود إلى بغداد .

ويعلق سير توماس أرنولد على هذه القصة قائلا :

إنه وان كان ليس لدينا أخبار مفصلة أخرى فى تاريخ تحوّل أهالى شبه جزيرة الملايو إلى الإسلام لكننا نجد فى أماكن كثيرة أضرحة دعاة العرب الذين كانوا أول من دعوا بينهم إلى هذه العقيدة . . وقد أدت معاشرتهم الطويلة للعرب ومسلمى ساحل الهند الشرق إلى جعلهم محافظين شديدى التمسك بفروض دينهم ، واشتهروا بين الناس بأنهم خير من يقتدى بهم من مسلمى الأرخبيل ، كما أنهم شديدو التمسك بالمحافظة على صوم رمضان وتأدية فريضة الحج إلى مكة . .

° ° °

هذه الصورة الوضيئة لأهل الملايو . وتدينهم العميق – يلمسها كل مسلم يلتقى بهؤلاء الإخوة . فى لندن وفى حى بادنجتون (Paddington) تعرفت على بعض هؤلاء الإخوة من الدارسين فى جامعات بريطانيا وكانوا – كما يقول – أرنولد – محافظين على عقيدتهم . وفى المسجد الحرام كان يلفت نظرى الكثير من الحاجات القارئات فى المصحف وهن يرتلن آياته البينات فى خشوع وتقوى ولن أنسى الحاجة « فريدة » القارئة الشهيرة فى عموم ماليزيا وهى ترتل القرآن فى الحفل التذكارى الذى أقامه مركز الدراسات الإسلامية العالية فى فيلم بورى . . وفى كل عام تقام مسابقة دولية لأحسن القارئين والحافظين لكتاب الله فى العاصمة كوالالمبور ويتم الاحتفال بهذه المسابقة فى شهر رمضان . . وبرعاية الملك والملكة . . إن فى ماليزيا أحسن القراء لكتاب الله بعد مصر وأحسن هؤلاء القراء من الملاويين موجودون فى « كوتابارو (Kota Bharu) عاصمة ولاية كلنتن (Kelantan) .

° ° °

لقد قرأت الكثير عن الملايو . .

وإندونيسيا . . فى كلية أصول الدين عام ١٩٥٠ م تعرفت على الأخ « محمد محيى الدين موسى) زميل الدراسة فى هذه الكلية . . رأيته ذات يوم يحمل كتابا اسمه « مرديكا » . . أى الحرية كان موضوع هذا الكتاب عن حركة التحرير فى إندونيسيا . . وعن جهاد المسلمين فى سبيل الاستقلال والحرية واعتقدت من ذلك اليوم أن الأخ محمد محيى الدين إندونيسى استعرت منه الكتاب الذى ألهب مشاعرى الإسلامية تجاه إخواننا فى هذه المنطقة النائية بالشرق الأقصى ومنذ ذلك الحين وخيالى يحلق ويطوف حول هذه الآفاق الغالية من الوطن الإسلامى .

إندونيسيا وماليزيا – لقد تبين لى أن هذه التفرقة فى الاسم خرافة . فإندونيسيا هى ماليزيا إيمانا وعاطفة – وكلانتون وسومطرا شقيقتان فى الروح والعقيدة ، والشعبان على جانبى الارخبيل اسمان لحقيقة واحدة هى الإسلام والأخوة .

فى مطـــــار كوالالمبور (Kual Lumpur) وصلنا متأخرين عن موعدنا إحدى عشرة ساعة كنا متجهين إلى كوتابارو للاشتراك فى الاحتفال بالذكرى العاشرة لتأسيس مركز الدراسات الإسلامية العالية فى فيلم بورى (Milam Puri) لم نجد فى انتظارنا أحدا . . لقد يئس المستقبلون من وصولنا بعد هذا التأخير . جلست على مقعد من شدة الإرهاق . . ليلتان بدون نوم . فأقبل على رجل ليسلم بحرارة ويحتضننى بقوة ثم يهتف وقد تملكته الدهشة : عبد الودود . . محمد محيى . . لقد كان هذا الرجل هو أخى فى الكلية . إنه الطالب الذى استعرت منه كتاب الحرية لم يكن إندونيسيا كان ماليزيا . . ولم يكن هذه المرة طالبا بل مديرا للتعليم الدينى فى الوزارة المركزية .

وقد مضى أكثر من ربع قرن على تخرجنا فى الكلية . . تغيرت الملامح وماجت الحياة بشتى الصور والأحداث . وتباعد فيما بيننا المكان والزمان ولكن شيئا واحدا بقى ولم يتغير . . الإيمان والحب . . والإسلام والقلب . . وإيمان الحب . . وإسلام القلب هما الرباط الوثيق بين المسلمين فى كل شعب . .

وها نحن فى طريقنا إلى فيلم بورى (Milampuri) فقد تلقينا الدعوة من الوزير داتو حاج بن محمد عسرى والأخ محمد على هارون للاشتراك فى الاحتفال بالذكرى العاشرة لتأسيس مركز الدراسات الإسلامية العالية . . وقد مثل الأزهر فى هذا الاحتفال الأساتذة الدكتور : عبد الجليل شلبى الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية ، وفضيلة الدكتور محمود شوكت

العدوى عميد كلية الشريعة والقانون والدكتور عبد الواحد بصيلة عميد كلية الطب . وعبد الودود شلبى مدير ورئيس تحرير مجلة الأزهر .

لقد تأسس هذا المركز فى الرابع من جمادى الآخرة ١٣٨٦ هـ على قطعة من الأرض تقدر بحوالى خمسة عشر فدانا . وبتأييد من السلطان يحيى بن المرحوم السلطان إبراهيم سلطان ولاية كلانتون (Kelantan) الذى قدم قصره هدية إلى هــذا المــركز فى فيــلم بورى (Ketnton) فبدأ المركز عمله بإعلان افتتاح كلية الشريعة والقانون فى تلك السنة نفسها لتكون نواة صالحة للجامعة الإسلامية المقترحة وكان عدد طلبتها ٣٤ طالبا وطالبة فقط . وفى نفس الوقت افتتح معهد الدعوة والإمامة كقسم توجيهى لهذه الكلية الفريدة .

وفى ١٠ من أكتوبر ١٩٦٨ أصدر مجلس الحكومة الحالية (كلنتن) بموافقة جلالة الملك رقم ١٩٦٨/٩ بشأن الاعتراف بهذا المركز رسميا لدى الحكومة .

وفى سنة ١٩٧١ أعلن المركز افتتاح قسم التربية لخريجيه الذى كان هدفه تزويد الطلبة بالمواد التربوية الإسلامية والحديثة . وقد نجحت كلية الشريعة والقانون فى أن تقيم جسرا من التعاون بينها وبين جامعة ملايا بكوالالمبور فقبلت كلية التربية بالجامعة المذكورة خمسة من خريجى كلية الشريعة والقانون للحصول على الدبلوم فى التربية وقد أبدى هؤلاء الطلاب تفوقا ملحوظا فى دراستهم بهذه الجامعة .

وفى عام ١٣٩٤ هـ خطا المركز خطوة أخرى بافتتاح كلية جديدة هى كلية أصول الدين والاجتماع التى كان من أهدافها إعداد العلماء القادرين على حمل لواء الدعوة الإسلامية وتزويدهم بأحدث العلوم العصرية وقد اعترفت جامعة الأزهر بالشهادات الممنوحة من كليتى الشريعة وأصول الدين وقدمت المنح الكثيرة لهذا المركز حتى يستكمل الطلاب دراستهم العليا فى كليات الأزهر ومعاهده المختلفة .

وقد وضع مؤسسو هذا المركز نصب أعينهم هذه الأهداف الرئيسية منذ قيامه وتأسيسه :

– إحياء الدراسات الإسلامية العالية .

– تكوين جيل واع يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

– القيام على حفظ الثقافة الإسلامية والتراث العلمى للأمة الإسلامية .

– العمل على إيجاد الاتصالات بين الجامعات الأخرى فى الميادين العلمية داخل ماليزيا وخارجها .

– اتاحة الفرصة للطلبة الخريجين من

المدارس الثانوية الإسلامية والعربية لمواصلة دراستهم فى المستوى الجامعي .

– إعداد المدرسين المؤهلين لتدريس المواد الدينية واللغة العربية فى المدارس الثانوية وإعداد الموظفين الإداريين الملمين بالإسلام والملتزمين بشريعته .

– إتاحة الفرصة لخريجي المركز لمواصلة دراستهم العليا فى مستوى الماجستير والدكتوراه فى الجامعات والمؤسسات الإسلامية وغيرها فى داخل ماليزيا وخارجها .

المجلس الأعلى للمركز :

تتولى إدارة المركز هيئة يطلق عليها اسم « المجلس الأعلى لمركز الدراسات الإسلامية العالمية » وأعضاء هذه الهيئة يعينون من قبل جلالة سلطان الولاية لمدة ثلاث سنوات ولهذا المجلس كافة الصلاحيات فى جميع النواحي .

المجلس العلمي :

وفى المجال العلمي فإن المجلس الأعلى قد عين أعضاء هذا المجلس لمدة سنتين وفوض إليهم كل الأمور المتصلة بهذا المجال .

مجلس الكلية :

يعين المجلس العلمي أعضاء مجلس الكلية فمجلس كلية الشريعة والقانون يرأسه الأستاذ هاشم حاج يحى بصفته عميد الكلية ويساعده الأستاذ عبد الوهاب ومجلس كلية أصول الدين والاجتماع يرأسه الأستاذ محمد ابن جيء ووء بصفته عميد الكلية ويقوم بمساعدته الأستاذ أحمد حاج داود .

المواد التى تدرس فى المركز :

١ – كلية الشريعة والقانون :

تدرس فيها المواد الآتية : الفقه الإسلامى ، الفقه المقارن ، الأحوال الشخصية ، أصول الفقه ، المعاملات الحديثة ، قانون ولوائح المحاكم الشرعية تفسير آيات الأحكام ، أحاديث الاحكام ، مصطلح الحديث ، التاريخ الإسلامى ومدخل الفقه الإسلامى ، النظام الدستورى ، القانون المدنى الجنائى ، القانون التجارى ، القانون الدولى العام ، القانون الإدارى ، الاقتصاد ، اللغة العربية ، اللغة الوطنية وآدابها ، واللغة الإنجليزية .

ومدة الدراسة بالكلية للحصول على الإجازة العالية فى الشريعة والقانون هى أربع سنوات .

٢ – كلية أصول الدين والاجتماع :

تدرس فيها المواد الآتية : التفسير . علوم القرآن ، أصول التفسير ، ومناهج الحديث ، مصطلح الحديث ، رجال المفسرين .

الأثر ، العقائد ، تاريخ الدعوة والدعاة ، الفقه ومدخله ، مقارنة الأديان ، أنتروفولوجيا العلوم السياسية . الاقتصاد ، علم الاجتماع ، النظام الدستورى ، علم النفس . المعتقدات الدينية والنزعات الباطنية ، الفلسفة ، التاريخ الإسلامى ، دراسة الأخلاق من الكتاب والسنة ، التصوف ، دراسة العلاقات بين القوميات المختلفة ، طرق البحث . اللغة العربية ، اللغة الوطنية وأدبها ،

ومدة الدراسة فيها للحصول على الشهادة العالية فى أصول الدين والاجتماع أربع سنوات .

٣ – القسم التوجيهى :

المواد التى تدرس فيه اللغة العربية (من نحو وصرف وبلاغة ونصوص أدبية مقال ، مطالعة ، الفقه الإسلامى ، أصول الفقه ، التفسير ، الحديث ، التوحيد ، المنطق ، الاقتصاد ، اللغة الوطنية وأدبها . اللغة الإنجليزية ، وحفظ سور من القرآن .

ومدة الدراسة فيها للحصول على الشهادة التوجيهية سنة واحدة .

لقد عادت بى الذاكرة إلى الوراء وأنا أتجول فى أرجاء هذا المركز . تمثلت لى صورة الأزهر العريق – القديم – فى هذة المنطقة الغالبة من العالم الاسلامى ، وسبح خيالى بعيدا – بعيدا . . إلى تلك الأيام التى عشناها فى معهد القاهرة الدينى ، كل شىء هنا يذكرك بالله علما . . وعملا . . الطلبة والطالبات فى سباق كبير للتحصيل والبحث ، إن الأزهر أمامى هنا فى مركز الدراسات العالية . . الأزهر الحقيقى الذى تركته بعيدا فى مدينة القاهرة . .

لكن من هم الرجال الذين يقفون وراء هذا العمل الكبير المخلص ؟ وماسر هذا النشاط السائد فى كل موقع ؟ ومالسبب فى هذا النجاح الفائق بهذا المركز؟ إنهم باقة من خيرة الناس فى ولاية كلانتون . . مثلا . .

داتو محمد عسرى الوزير السابق ورئيس الحزب الإسلامى ، ومحمد على هرون مدير المركز ويحيى عثمان نائب المدير وساعده الأيمن .

إن داتو محمد عسرى رجل يجذبك إليه ببساطته وبشاشة وجهه تشعر من أول وهلة أنه أخوك – وصديقك .

ومحمد على هرون – الهادئ ، الوديع الباسم – خريج الأزهر يلفت نظرك إليه أدبه الجم . . وزيه الأزهرى الناصع المهندم . . أما يحيى عثمان . فشعلة من النشاط والحركة يجذبك إليه ، بمجرد سماعك صوته . . لقد أطلق عليه وفد الأزهر اسم « العفريت » لخفة ظله وتوقد ذكائه وعاطفته .

ثلاثة نماذج لحقيقة واحدة . . حقيقة

الإخلاص الذى هو سر النجاح والنجاة . . وحقيقة الداعية المتجرد لأقدس رسالة فى هذه الحياة . .

وقد آثر الأخوة فى فيلم بورى أن نقيم فى فندق يبعد بضعة كيلومترات على شاطئ بحر الصين الجنوبى . . وهذه المنطقة من الشاطئ تسمى بـ (شاطئ الغرام) . . والفندق نفسه يحمل اسم هذه المنطقة
Beach of Passionate Love Hotel
إنه أشبه بفيلات صغيرة (Chalets) تفصل فيما بينها أشجار النرجيل ، ونخيل الزيت وكان منظرا رائعا تسلق القرود لجمع ثمار « جوز الهند » من شجرته العالية السامقة وبحركة فنية رشيقة .

فى هذا الفندق تعودت ملكة بريطانيا الإقامة كلما زارت هذه المنطقة وقد استرجعت فى مقامى هنا ذكريات الحرب العالمية الثانية ، هذه الصورة العذرية للغابات المتوحشة ، وماتحفل به من أسرار عجيبة ، ومايحيط بها من أحراش كثيفة كانت مثيرة لخيالى وقراءاتى البعيدة .

وفى الطريق من فيلم بورى إلى كوتابارو . . إلى شاطئ الغرام على بحر الصين الجنوبى رأيت هذه الطبيعة بجنونها وهدوئها . . بأمطارها وأنوائها . . أشجار زيت النخيل ، وأشجار المطاط ، وأشجار جوز الهند ، وحقول الأرز وأمواج بحر الصين وهى تترامى هادرة على الشاطئ الوديع حاملة إلى هذا البلد المسلم بقايا « الثورة الثقافية » وحطام النجم الأحمر – والخوف الذى يغلف قلوب الناس بغلالة من القلق والترقب ؟ !

إن هذه المنطقة من الساحل أشبه بلسان يمتد إلى داخل البحر ، ومن وجهة النظر الاستراتيجية . فإن هذا المكان هو أصلح موقع للنزول والغزو– ولاأدرى لماذا خطر ببالى قصة الجنرال « ياماشيتا » اليابانى فى هذا الوقت . كنت قد قرأت فى صحيفة « المصرى » التى توقفت منذ حوالى ربع قرن . . أن هذا القائد اليابانى زحف على سنغافورة بجيش يحمل جنوده أغصان الأشجار الضخمة . . واستمر اليابانيون فى الزحف حتى دخلوا المدينة وفوجئ الناس بهذه الأغصان تتحول إلى جنود وإلى تلك الأشجار وهى تطلق عليهم البارود وعندما حاول القائد البريطانى المقاومة كان كل شىء قد انتهى . . والقائد « ياماشيتا » يقف تحت علم بلاد الشمس المشرقة منتصرا . . !

أعود إلى شاطئ الغرام مرة ثانية . . لقد خلوت إلى نفسى متسائلا : أليس من الجائز أن يكون غزو اليابانيين قد بدأ لماليزيا من هذه المنطقة وأجاب الإخوة الماليزيون : نعم من هنا بدأ الغزو– ونزل الجنود اليابانيون إلى البر ومنذ ذلك الوقت كنت أحس وقع

أقدام الجنرال «ياماشينا» وهى تغوص فى الوحل . . وأشعر برائحة البارود الملتهب فى جوف الرمل ! .

قد يكون ذلك خيال شاعر قديم ذى إحساس مرهف فى جوف الليل ، ولكنه الواقع الذى أحسه كلما سافرت إلى بلد مسلم ، والمرارة التى تفيض بها النفس خوفا من المستقبل «إن المشاكل التى تواجهها ماليزيا الآن خطيرة نتيجة الأوضاع المهددة فى الأقطار المجاورة لاسيما تايلند وفيتنام ولاوس وكمبوديا وأن دور الإسلام فى ظل تلك الأوضاع مهم جدا ، لأنه الأمل الوحيد فى الحياة والقدرة على الصمود ومقاومة الهجوم الوحشى للشيوعية المحيط بماليزيا . ومن ثم فإن الإسلام هو حصن الدفاع المنيع ضد الفساد الغربى والشيوعية ، وفى ظل تلك الظروف يصبح من واجب الدول الإسلامية الغنية فى العالم أن تتقدم بأقصى سرعة لإنقاذ الدول الإسلامية المكافحة فى شرق آسيا ، وعلى الأخص ماليزيا وإندونيسيا .

إن ماليزيا تحتل موقعا استراتيجيا مهماً ومن ثم أصبحت مركز الاهتمام وهدف الحركة الشيوعية الأسيوية ، كما أنها هدف لتيارات الأفكار الغربية الفاسدة وماليزيا تتكون من ١٤ ولاية وعدد سكانها يبلغ ١٢ مليون نسمة ٥٣ فى المائة فقط مسلمون ومن المتوقع أن تنخفض نسبة المسلمين فى المستقبل إذا استمر الحال على ماهو عليه وهذا يعنى أن الصينيين سوف ينتزعون السلطة السياسية فى البلاد ، وهذا يشكل تهديدات خطيرة مختلفة بالنسبة لماليزيا والإسلام ، ومن الحقائق المسلمة أن الشيوعية فى ماليزيا ذات صلة وثيقة مباشرة - بالصينيين فإذا أصبحت مقاليد الحكم بأيدى الصينيين فهذا معناه قيام دولة شيوعية .

إن الصينيين والهنود فى ماليزيا جاليتان مهاجرتان من الصين والهند وقد منحت هاتان الجاليتان الجنسية الماليزية فى خلال محاولات التوفيق السياسى وتسهيلات النظام الديمقراطى وتتمتع هاتان الجاليتان الآن بمثل الامتيازات التى يتمتع بها أبناء البلاد الحقيقيون من المسلمين وقد أثار الصينيون بصفة خاصة مشاكل خطيرة بسبب ولائهم المزدوج والانحياز لقوميتهم وتعاطفهم مع القضية الشيوعية ورغبتهم القوية فى مساعدة الحركة الشيوعية وظهر هذا بكل وضوح خلال فترة الطوارىء فى ماليزيا سنة ١٩٤٩ إلى ١٩٦٠ وتعتمد الحركة الشيوعية فى ماليزيا أساسا على الصينيين من حيث الطاقة البشرية ، وأما الهنود فجعلوا من أنفسهم عناصر مشاغبة من خلال احتكارهم وسيطرتهم على اتحادات العمال .

والمواطنون الذين يكنون الولاء الحقيقى للدولة هم أبناء البلاد الحقيقيون من المسلمين والمواطنين الأصليين غير المسلمين. وبناء على ذلك فقد نشأ هناك وضع مؤسف فى ماليزيا حيث أصبح أبناء البلاد الذين يحملون الولاء الخالص للوطن أصبحوا مهددين من الأجناس الوافدة من الخارج. وفى مجال الاقتصاد نجد الصينيين والهنود مسيطرين دائما على التجارة والصناعة واذا سمح للأوضاع الحاضرة بأن تتطور خلال عشر سنوات من الآن فسوف ينتزع الصينيون السلطة السياسية أيضا :

ويمكن تقسيم الأخطار الداخلية التى تهدد ماليزيا إلى ثلاثة أقسام :

(ا) الأخطار الداخلية.

(ب) الأخطار الخارجية.

(ج) مشاكل الدول المجاورة.

وفيما يلى بيان موجز عن كل منها :

(ا) الأخطار الداخلية :

الشيوعية تمثل الخطر الرئيسى الذى يهدد أمن ماليزيا وحياتها وتعتمد الحركة الشيوعية الدولية على التسهيلات التى يقدمها الصينيون وولاء الصينيين المزدوج واضح للعيان، والصين فى نظرهم هى الوطن. أما ماليزيا فتعتبر محطة انتقال للمصالح الاقتصادية ويطلق عليهم اصطلاح الجالية الصينية فى الخارج وعلى كل فإن هذا الاصطلاح أخذ يندثر حيث إن الصينيين فى ماليزيا حاليا كثيرا مايتحدثون عن الجنسية الماليزية والولاء الماليزى، وهم مضطرون إلى إعلان ذلك فى الظاهر لأسباب سياسية واقتصادية وهم فى الحقيقة يتعاونون مع الشيوعيين من أجل تحقيق الأهداف وقد كانت فترة الطورىء فى ماليزيا وكذلك فترة الشغب والاضطرابات فى سراواك منذ نهاية الحرب الثانية فى الواقع نتيجة لنشاط الصينيين.

أما الإرساليات المسيحية فتشكل تحديا خطيرا للإسلام بفضل التأييد الكامل والمساعدة الضخمة لهم من المنظمات الدولية وأعمال التبشير المسيحى فى منتهى النشاط لاسيما فى سراواك وصباح فالمبشرون المسيحيون ينزلون إلى أعماق الغابات والمناطق النائية المختلفة ومعهم هذه الإمكانيات الهائلة.

(ب) الأخطار الخارجية :

هناك دلائل تكشف عن دور الصين الحقيقى فى ذلك النشاط الشيوعى، فقد كانت الشيوعية الدولية التى تعمل بهمة وجد فى تأييد الاضطرابات الداخلية التى تستهدف الاستيلاء على الحكومة الإسلامية فى ماليزيا وهذا بدوره يشكل خطرا على الأمن فى ولايات ماليزيا الإسلامية.

(جـ) أخطار الدول المجاورة :

إن انتصار الشيوعيين فى الدول الواقعة شمال ماليزيا (فيتنام ولاوس وكمبوديا) يثير قلقا عظيما ومخاوف شديدة فى ماليزيا أوينطوى على تشجيع للشيوعيين المحليين خصوصا إذا وقعت تايلند تحت سيطرة الشيوعيين ، وبالنسبة لماليزيا فإنها تستطيع أن تقف ضد الشيوعية إذا توافرت لها العقيدة الإسلامية القوية ومن ثم يصبح من واجب جميع الدول الإسلامية أن تشد من أزر ماليزيا لتقوية ودعم موقف المسلمين فى معركة الحياة أوالموت ضد الشيوعية ، وماليزيا تعتقد أنها تستطيع أن تقاوم الشيوعية عن طريق الإسلام ومهما يكن من شيء فإن ماليزيا تعتقد أنها لو وقعت تحت سيطرة الشيوعيين – لاقدر الله – فإن إندونسيا وبروناى « الدولتان المسلمتان » سوف تلقيان نفس المصير وتصبحان شيوعيتين . .

وتشير الدلائل إلى وجود أعمال تبشير نشط عبر حدود ولاية سراواك وولاية صباح ولقد تدفقت ملايين الدولارات إلى هذه المنطقة من المنظمات المسيحية من جميع أنحاء العالم وهناك تقارير تفيد وضع كثير من طائرات الهليوكبتر تحت تصرف المبشرين وفيهم عدد من القسس الأجانب ، ونظمت العملية كلها تنظيما محكما ، ومولت تمويلا سخيا ، وهناك أيضا شكوك تحوم حول دور وكالة أجنبية فى هذا المشروع وينبغى أن يهتم العالم الإسلامى اهتماما خاصا بهذا الأمر لأنه يمكن أن يؤثر على تقدم الإسلام ونموه فى هذه المنطقة .

والمعروف أن دولة اتحاد ماليزيا دولة مسلمة ينص دستورها على أن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة وللشعب الماليزى ، ومن ثم فهى تسير حسب قواعد ومبادئ الدين الإسلامى الحنيف وشعبها شعب مسلم يطبق أحكام الشريعة الإسلامية ، ولايألو جهدا فى السعى والجهاد من أجل تثبيت المبادئ والقواعد الإسلامية مستمدة أصولها من المصادر الإسلامية الأصلية لاسيما كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

ومن هنا كانت خطورة ماليزيا ودورها القيادى فى مجال الدعوة الإسلامية ومن هنا نرى أن المهمة الإسلامية شاقة وخطيرة فهى ذات ميادين متعددة فى الداخل حيث توجد جنسيات غير ماليزية الأصل معظمها غير مسلم وهى فى احتكاك مستمر مع الماليزيين المسلمين وفى الخارج حيث الشيوعية تحيط بماليزيا من جميع الجوانب وتتربص بها الدوائر .

ولذلك قامت الحكومة الماليزية يعضدها الشعب الماليزى المسلم بواجبها الدينى وأسهمت الحكومة الماليزية بقسط

وافر فى الإصلاحات الدينية وامتدت هذه الإصلاحات إلى المجالين الحكومى والشعبى .

أولا : فى المجال الحكومى وعلى المستوى الرسمى :

نظرا لأن ماليزيا هى اتحاد فيدرالى وتوجد بها حكومة فيدرالية وحكومات للولايات المختلفة التى يتكون منها الاتحاد الماليزى ، فإن النشاط الدينى الإسلامى ينقسم إلى قسمين ، نشاط الحكومة الفيدرالية ونشاط حكومات الولايات . فيما يختص بنشاط الحكومة الفيدرالية أنشأت الحكومة الفيدرالية المجلس الوطنى الأعلى للشئون الإسلامية ويتبع رئاسة الوزراء مباشرة ورئيسه رئيس مجلس الوزراء والأعضاء يتكونون من رؤساء مجالس الشئون الدينية فى الولايات بحكم وظائفهم ومن ستة أعضاء آخرين يعينون من قبل الملك . وتتفرع من المجلس الوطنى الأعلى للشئون الدينية الإسلامية الإدارات الآتية :

١ - إدارة البحوث الإسلامية :

ونشاطها يتركز فى الدراسة والبحث عن الوسائل الفعالة لمقاومة المبادئ الهدامة والمذاهب الدينية المنحرفة كالقاديانية والبهائية والشيوعية والماسونية وغيرها والكشف عن حقيقة كل منها وماتهدف إليه من تضليل وانحراف وزيف ، ثم بيان وجه الحق للمسلمين ليتبعوا الطريق الصحيح .

٢ - إدارة الدعوة الإسلامية :

ويشمل نشاطها عقد ندوات علمية إسلامية فى مقر الإدارة يحضره عدد كبير من المسلمين رجالا ونساء كما تنظم ندوات خاصة لرجال الجيش والبوليس للتثقيف الدينى الإسلامى وتبصيرهم بقواعد الدين ومبادئه ، كما ترسل هذه الإدارة بعض الدعاة الإسلاميين إلى كل مكان يطلبهم المسلمون لإلقاء المحاضرات عن الإسلام ومناقشة المسلمين فى المسائل الدينية والشرح والتوضيح لكل من يحتاج .

٣ - إدارة الترجمة والنشر :

وقامت هذه الإدارة بترجمة تفسير القرآن الكريم إلى اللغة الماليزية وتمت هذه الترجمة فعلا ، وطرحت فى الأسواق وهى الآن فى أيدى المسلمين ، وتقوم الآن بترجمة شرح بعض الأحاديث النبوية الشريفة المختارة التى تمس المسائل والموضوعات العصرية التى يحتاجها المجتمع الإسلامى الماليزى .

٤ - إدارة تحفيظ القرآن الكريم :

مقر هذه الإدارة فى مسجد « نجارا »

ويفد إليه التلاميذ من جميع أنحاء الولايات الماليزية ويقومون بحفظ القرآن الكريم وتجويده ، ومن يتخرج منهم يمكن أن يواصل دراسته فى هذا المجال فى مصر أو السعودية .

٥ – لجنة الإفتاء :

وتتكون من مفتى الولايات وستة معينين من قبل الملك ورئيس هذه اللجنة من أعضاء المجلس الوطنى للشئون الإسلامية وينتخبه الأعضاء لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد ونشاط هذه اللجنة هو البحث فى المسائل الدينية المطروحة عليها من مجلس السلاطين أوالملك التى يقتضيها الصالح العام للمسلمين فى ماليزيا .

٦ – التعليم الدينى الإسلامى :

تشرف وزارة التربية والتعليم على التعليم الدينى الإسلامى فى جميع مراحل التعليم الحكومى الخاص وتمده بالمساعدات المالية والخبرة العلمية اللازمة للتخطيط والتنظيم وهناك التعليم الإسلامى فى كليات تتبع الجامعات .

° ° °

وفى المؤتمر السنوى للحزب الإسلامى المركزى الذى يرأسه داتو حاج بن محمد عسرى قال رئيس الحزب فى هذا المؤتمر :

إن هذا هو المؤتمر الثالث للحزب الإسلامى بعد اشتراكه فى الجبهة القومية وبالنظر إلى أن العلاقة والصلة بين الطوائف المرتبطة تقوم على الاتفاقية لصالح مشترك فإنى أرى أن تقويم هذه الاتفاقية يكون ضروريا حينا بعد حين وخصوصا فى مثل هذه الظروف الحاسمة .

وعلينا أن ننتبه إلى الحركة الشيوعية المهددة لسلامة البلاد والأمة الإسلامية سواء أكانت تلك الحركة إرهابية أم كانت مسلحة وسواء أكانت تلك الحركة تتحرك فى المدن والغابات النائية والحدود أم كانت تنطلق من قاعدة خارجية .

إن المسلمين والشعب الملايوى يمثلون العمود الفقرى لبقاء دولة الاتحاد وإذا تشقق هذا العمود الفقرى وبالأحرى إذا ماتكسر ، فإنه سوف يؤدى إلى انهيار أسس هذه البلاد وإذا حدث هذا فلسوف يفقد المسلمون أوضاعهم ويفقد الملاويون مكانتهم التى لايحتمل أن يكون هناك بديل لها ، ولايعلم مصيرهم إلاالله .

ولهذا فإننى دائما أؤكد بأنه من الضرورى للحزب الإسلامى الماليزى أن يواصل عملية تنظيم وتوحيد صفوفه وينبغى علينا أن نذكر دائما بأن الإسلام هو هدف كفاحنا وأننا نسعى لإعلاء كلمة الله وخاصة فى بلادنا . فإذا أهملنا وأغفلنا هذا المبدأ

وذلك الهدف فإن الجيل القادم سوف يلومنا على ذلك وأن لعنة الله سوف تحل علينا .

إن حياتنا متوقفة على عوامل متعددة فى مقدمتها الاستقرار السياسى والاقتصادى داخل البلاد كما يتوقف على قوة الدفاع والإيمان وطهارة الذيل ، كما تتوقف كذلك على الأمن والاستقرار فى المنطقة ويقظتنا للاطلاع على النوايا وتغيرات الموقف من أية جهة كانت .

وقد حان الوقت للنهوض بالإسلام بعد أن انحدر من قمة مجده منذ خمسمائة سنة وربما يضيق بنا الوقت لذلك يجب علينا أن نستعد للدفاع بكل ماتملك عن إيماننا ومبادئنا .

إن المشكلة التى يواجهها شعب ماليزيا هى نفس المشكلة التى تواجهها الشعوب الإسلامية فى أنحاء العالم لأن ألد خصوم الإسلام هو العلمانية المسيطرة على جميع مناحى حياتنا ، ونحن اليوم نعيش فى فترة الانتقال من الحضارة المزيفة إلى الحضارة الحقيقية المتكاملة من الناحية الإنسانية ، وإذا فاتنا ركبها فإننا سنخسر خسارة كبرى .

إن جهاد الأمة على مر العصور كان من أجل إعزاز الإسلام ولم يكن دورنا إلاسلسلة من هذا الجهاد ، وعلى الرغم من استقامة جهادنا فإننا لابد من أن نعمل على تقوية الأمة بكافة الوسائل حتى يكلل جهادنا بالنجاح ، فإن الحق لايمكن أن ينتصر إلا بالتنظيم والقوة .

إن ماليزيا تمثل خط الدفاع الإسلامى الأول فى هذه المنطقة . . ولو انهار هذا الخط وزحفت على حصونه جحافل التتار الجدد . . فلسوف تنهار قلاع إسلامية كثيرة . . ويفاجأ العرب والمسلمون بمأساة « فلسطين » جديدة .

وعندما تدق ساعة الخطر . . فلن تتخلى بكين عن أبنائها وسيظهر « بوكرك » جديد يضرب بأساطيله ثغور الإسلام وموانئه فى المنطقة كلها .

لقد هتف الصينيون بعد نجاح بعض مرشحيهم فى الانتخابات العامة بماليزيا .

أيها الملاويون . . ليس مقامكم هنا . . فعودوا إلى الجبال والأحراش . .

وكانت مذبحة أوقفتها الحكمة . . والتجمل بالصبر والفطنة . . لقد زرعت بريطانيا فى قلب كل وطن مسلم مشكلة . . فى الهند ، كانت وراء المذابح والفتن وجعلت من الأخ عدوا لأخيه فى الوطن . . فى فلسطين . . لاتزال دماء الضحايا والشهداء تنزف والقتال بين المالك . والسارق قائم لم يتوقف . !

الصومال مزقت أوصاله . . والسودان فصلت بين جنوبه وشماله . . ويلك يابريطانيا . . ثم ويلك . .

وفى ماليزيا حوالى خمسمائة مؤسسة تبشيرية موزعة على النحو التالى :

الولاية	المدارس التبشيرية	المؤسسات	الكنائس المركزيـــة
برلس	١	—	١
قدح	٩	١	١٣
بينانج	٢٣	٤	٢٦
فبراق	١٦	١٦	٣١
كلانتون	٢	١	—
زيخانو	٤	١	—
بهانغ	١٥	٨	٤
سلانجور	٢٥	١٤	١٥
سمبيلان			
نجرى	١٧	٩	٦
ملقا	١٧	٤	١١
جوهور	٢٨	٨	١٨
سراواك	٤٠	٢٣	١٣
صباح	٥٠	٣٠	١٥
كوالا لمبور	١٧	١٥	٢٦

° ° °

إن المسافة من كوتابارو إلى جنوب تايلند لاتزيد عن أربعين ميلا . وفى هذا الجنوب جنوب تايلند يقع إقليم « فطانى » الذى يقاتل فيه المسلمين دفاعا عن العقيدة . والوطن والحرية .

وقد كانت « فطانى » من قبل إمارة مستقلة ترتبط مع بقية إمارات الملايو بروابط وثيقة ومن أهم هذه الروابط الدين والعقيدة .

وفى عام ١٦٠٣ هاجمها السياميون سكان تايلند لأول مرة ولكنهم باءوا بالفشل ثم تابعوا اعتداءهم عليها مرتين متواليتين وذلك فى عامى ١٦٣٢ ، ١٦٣٣ إلا أنهم لم يحصلوا إلا على ماحصلوا عليه فى المرة الأولى ، وأخيرا استطاع السياميون من احتلال المنطقة عام ١٧٨٦ وقتلوا سلطانها وحملوا معهم آلاف الأسرى إلى بانجوك وفى العام الثانى لهذا الاحتلال أجبر السياميون سكان فطانى على دفع الجزية وبعد أن استعمرت انجلترا المنطقة أبرمت مع تايلند معاهدة بانجوك عام ١٩٠٩ اعترفت فيها إنجلترا بضم إمارة فطانى إلى تايلند وذلك ضمن سياسة إنجلترا فى تقسيم المسلمين وتسلط غيرهم عليهم .

لم تهدأ الثورات فى هذه الإمارة منذ أن حكمها السياميون فقد قامت ثورة تنكو كميدين عام ١٧٨٩ ثم قامت ثورة بقيادة داتو ففكالن عام ١٨٠٨ م وقامت ثورة الأمراء عام ١٨٣٢ كما أنها لم تهدأ بعد المعاهدة الإنجليزية التايلاندية عام ١٩٠٩ والتى أصبحت فطانى إثرها جزءا من تايلند رسميا فقد تفجرت ثورة كبيرة عام ١٩٤٨

بقيادة العالم المشهور الحاج محمد سولونج الذى اغتيل فى ظروف غامضة عام ١٩٥٢م وقسمت فطانى إلى خمس مقاطعات هى :

١ - « فطانى » ومركزها مدينة فطانى المرفأ الشهير على بحر الصين الجنوبى .

٢ - « ناراثبوت » ومركزها مدينة « ناراثبوت » وهى مرفأ أيضا على بحر الصين الجنوبى .

٣ - بالا ومركزها مدينة بالا وهذه المقاطعة أكثر المقاطعات امتدادا فى أرض ماليزيا .

٤ - سونغكلا ومن مدنها الشهيرة « سادو » و « بانا » .

٥ - « ساتون » ومركزها مدينة « ساتون وهى » فى الطرف الغربى على ساحل المحيط الهندى وتتبع هذه الولاية مجموعة جزر أشهرها جزيرة « تاروتا » وجزيرة « راوى » .

ويلاقى المسلمون تعنتا كبيرا من قبل السياميين ، فبعد الانقلاب العسكرى الذى حدث فى تايلند عام ١٩٣٢ وأطاح بالملكية المطلقة ووضع السلطة بأيدى العسكريين انتشرت الدعوة القومية السيامية المتعصبة وقامت لجنة تعرف باسم « لجنة الثقافة القومية السيامية » وكان الشعب الفطامى ضحيتها الأولى فهو شعب مسلم وذو ثقافة إسلامية على حين أن السياميين بوذيون وأصحاب ثقافة بوذية وقد أغلق البوذيون المساجد والمدارس الدينية وأجبروا المسلمين على دخول المعابد البوذية .

ويذكر بعض مؤرخى الملايو :

أن كراهية أهل سيام للإسلام قد زادت عندما غلبت فى كل حروبها ضد ملقا وأخذ ملك سيام يهىء جيشا ثالثا وهو يكاد ينفجر غيظا وكانت القيادة فى يد ابنه للهجوم على ملقا أملا أن يكون على يدى ابنه هلاكهم وفناؤهم وشعر بذلك الملك المظفر فأخذ يهئ نفسه لاستقبال جيش العدو وهو قلق حزين لأنه يعلم تماما أنه لايملك من العتاد مثلما يملكون وأخذ يفكر فيما يجب عمله حتى يضمن النصر للمسلمين وفى غمرة تفكير دخل عليه شيخ تقى متصوف وقال :

المتصوف : مالى أرى سمات الأسى والحزن تعلو جبينك أيها الملك العظيم ، وقد عهدته وضاء باسما ؟

المظفر : ألم تسمع أيها الشيخ الفاضل بالهجوم الذى دبره ملك سيام ضد مملكتنا وجعل القيادة هذه المرة لابنه « تشبو باندان » وأنت تعلم أنه مقبل علينا بجيوشه وسوف تكون الطامة واللطمة للمسلمين إذا انتصر علينا هذا الملك الكافر .

المتصوف : لاتحزن ولاتبتئس إن الله معنا ولينصرن الله من ينصره أتحسب أن الله

مخز قوما يقولون « ولاتدع مع الله إلها آخر » و « كل شيء هالك إلا وجهه » كلا أيها الملك العظيم إن الله الذى أعاد إليك الملك وأهلك خالك الخائن « ريكن » ونصرك مرتين على ملك سيام سوف ينصرك بقلة عددك وعتادك « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

وأنت تعلم أيها الملك أنهم يحاربوننا ليطفئوا نار الحقد التى تتأجج بين ضلوعهم وليوسعوا من مساحات أرضهم وملكهم ، أما نحن فلانحاربهم بل ندافع عن أنفسنا وديننا وحقوقنا ولن يتخلى الله أبدا عن المؤمنين ، وسوف تذهب ريحهم وتكون كلمة الله هى العليا وكلمتهم هى السفلى فليطمئن قلبك ودعنى أيها الملك أقابل جيش العدو وحدى هذه المرة وبطريقتى الخاصة .

فعجب الملك وحار فى أمر ذلك الشيخ المتصوف ولكنه كان يعلم مبلغ ورعه وتقواه ، فقال له افعل ماتشاء وليعنا الله على هذا البلاء ، اللهم لانسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه ، إنى أترك لك أيها الشيخ حرية التصرف ، ولكن كيف ستقاتل هذا الجيش العرمرم وحدك ؟

المتصوف : سترى بنفسك أيها الملك .

وأخرج المتصوف سهما من جرابه وأطلقه فى الهواء قائلا فلتمت يا « تشبوباندان » فلتمت بإذن الله « ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى » .

ابتسم الملك عندما رأى مافعله الشيخ المتصوف وهو فى شك من أمره وسأله ترى أيموت حقا ياشيخنا الفاضل ذلك المدعو تشبوباندان عندما صوبت إليه هذا السهم فى الهواء ؟ إذا حدث هذا فأنت بحق من أصحاب الكرامات .

ولم يمض سوى أيام قلائل حتى سمع السلطان المظفر الجواب على أسئلته التى وجهها للمتصوف أن ابن ملك سيام تشبوباندان وقائده الذى كان سيرسله للهجوم على ملقا مات قبل أن يتحرك من بلاده وكان يحس بأن طعنات السهام تمزق صدره ومات على أثر ذلك فحزن أبوه على ولده أشد الحزن .

ونجا بذلك المظفر وشعبه من جبروت الملك الظالم ! !

° ° °

إن كوتابارو مدينة جديرة بالإعجاب والحب . . كل شيء فيها يذكرك بالإسلام

والعروبة . . . وقد كان منقوشا على علم جيشها القديم « لا إله إلا الله محمد رسول الله . وفى المعرض الذى افتتحه رئيس الوزراء حسين عون بمبنى مركز الدارسات رأيت ملابس جنود هذا الجيش وقد كتب عليها : نصر من الله وفتح قريب .

إن ماليزيا من أنظف بلاد العالم الإسلامى التى رأتها عيناى . . البيوت نظيفة . والشوارع ملساء ناعمة . . لا تقع عيناك فى شوارع كوالالمبور على قشة . . أو ورقة ملوثة . . . إن عقوبة هذا الخطأ كبيرة . . . وفى كوتابارو تخلع حذاءك قبل أن تدخل البيت ، والفتيات والنساء فى غاية الوقار والحشمة . وفى « المعهد المحمدى » يبهرك هذا البهاء فى وجوه طالبات المدرسة . .

لقد استقبلنا الأخ عبد القادر محمد مدير المعهد المحمدى ، والذى درس فى كلية أصول الدين القديمة . مرحبا بوفد الأزهر .

وصادف موعد زيارتنا للمعهد ، ولمدرسة النعيم للفتيات يوم الامتحان فى اللغة العربية وقد اخترت هذه النماذج من الأسئلة لأبين مدى تعلق هؤلاء الإخوة بالإسلام واللغة العربية تقول هذه الاسئلة :

• قيمة كل إنسان بأخلاقه وآدابه – لا بشكله ولونه . . .

• اكتب رسالة إلى معلمك تعتذر فيها عن عدم حضورك إلى المدرسة مبينا السبب .

• دور الزكاة فى بناء المجتمع السليم .

• • •

فى الطريق . . . تسمع آيات القرآن الكريم مرتلة بأصوات قراء مصر وتشنف أذنيك أنغام « ولد الهدى » وكأنك فى حى « الحسين » .

إنه الازهر ذو المقام الشريف فى كل قلب . هؤلاء الذين يحملون شارته فوق هذه الأرض . ويبلغون رسالته إلى هذه الآفاق . . . ويعلمون لغته وثقافته للناس . . . كانوا طلبة نشأوا فى رحابه الطاهر . . فاغترفوا من معين حكمته العذب ، وحملوا أمانته بكل صدق وظلوا – كما كانوا أوفياء لجنابه ، سائرين فى ركابه ، مقتفين أثر شيوخه وطلابه :

محمد على هرون – يحيى عثمان – محمد شيوك – عبد القادر محمد – أحمد بن الحاج داود . عبد الوهاب عبد الحميد .

إن من حقكم علينا . . بل على الأزهر الذى تحبونه . . . بل على مصر العزيزة الغالية لديكم . . من حقكم علينا جميعا هذه التحية . وتسجيل مشاعركم النبيلة الزكية . .

رجعنا إلى شاطئ الغرام استعداداً لرحلة العودة إلى القاهرة ولم نشأ أن نترك هذا المكان حتى نسأل عن السر فى هذه التسمية شاطئ الغرام)Beach of Passionate Love

قالوا عن السبب فى هذه التسمية . إن سلاحف البحر تأتى إليه من شواطئ استرالية لتضع بيضها كل عام مرة واحدة ، وهنا على الشاطئ يتم اللقاء بين الإناث والذكور فى عملية زواج كبرى . . ثم تعود هذه السلاحف بالرفاء والبنين – إلى وطنها الأصلى بعد ذلك إلى كانبيرا . !

ولكن قصة غرام حقيقية كادت تقع فى هذه المنطقة . . . ففى حوار بين الخادم وفضيلة الشيخ محمود شوكت . . فهم الخادم من طلب الشيخ بعض المساعدة أنه يريد عروسا . . وبعد ساعات قليلة من هذا الحوار كان هذا الخادم يقف بجوار فتاة ليدق باب حجرة الشيخ التقى المبجل . . وفزع الدكتور العدوى من المفاجاة وخرج هائجا يستنجد بالدكتور عبد الجليل الذى حول الأمر إلى دعابة لطيفة :

قال الدكتور عبد الجليل : من هذه ؟

الخادم : العروس التى طلبها الشيخ .

الدكتور عبد الجليل : ولكن أين أبوها ؟

الخادم : فى المدينة على بعد خمسة أميال

الدكتور : لابد من حضوره لإتمام العقد واستلام الصداق والمهر . . !

الخادم : متى يكون ذلك ؟ .

الدكتور : غدا إن شاء الله فى الخامسة ظهرا . .

وفى اليوم الموعود . . وفى تمام الساعة العاشرة صباحا . . . كانت الطائرة تحملنا من كوتابارو إلى كوالالمبور . . وبقيت قصة الزواج المعلق على شاطئ الغرام قصة تحكى فى المناسبات الجميلة . . وتطالب أى إنسان يتكلم بغير لغته أن يعرف دلالات كل كلمة وحرف فى هذه اللغة . . إنها مشكلة تصادف كل مسافر إلى الخارج . . وأحيانا ينطق الإنسان كلمة ينقصها حرف . . أو ينطقها دون معرفة بأصول النطق . . فتكون النتيجة عكس ما يريده بالضبط .

وداعاً يا فيلم بورى . .

وداعاً ياكوتا بارو . .

وداعاً يا شاطئ الغرام الذى كاد يصبح حقاً وحقيقة . . ! ! !

° ° °

من كوالالمبور (Kuala Lumpur)

ركبنا طائرة شركة الخطوط الجوية الماليزية إلى بانكوك Bangkok عاصمة تايلند Thailand) إن الخدمة على متن الشركة الماليزية لا تقل عن مثيلاتها فى أرقى الشركات العالمية . . دقة فى المواعيد غاية فى النظافة . كل من فى الطائرة يخدمونك بود ومحبة . الشاى والقهوة

يقدمان فى أى وقت ، وكما يجب أى راكب . وبدون ملل أو تباطؤ .

وفى بانكوك Bangkok انتـظرنا يومـاً لنركب الطائرة المصرية القادمة من طوكيو ويالها من طائرة – أقصد الخدمة فيها . والمضيفات العاملات بها . .

كان جلوسى على مقعد بجوار النافذة . .

وجاءت المضيفة تحدثنى بلغة إنجليزية . . فرددت عليها بلهجة مصرية صميمة . . كنت أظن أن ذلك سيسعدها . . . فنحن فى غربة ، ونحلق فوق سبع وثلاثين ألف ياردة – وفى الغربة تشف النفوس وتتصافى . . وفى مثل هذا الارتفاع تذوب أمراض النفس وتتلاشى . . !

كان الدكتور عبد الجليل قد ترك معى صندوقا صغيرا وضعته تحت المقعد . . وبعصبية بالغة ، ولهجة همجية آمرة – قالت :

– ارفع هذا من هنا . .

– ماذا تعنين ؟

– هذا الصندوق . .

– وأين أضعه ؟

– لا أعرف . .

– إلا يمكن التفاهم بغير هذا الأسلوب ؟

– من فضلك لا تتفلسف . .

– لست فيلسوفا . . وأنا أتحدث بلغة بسيطة إلى أخت مصرية . .

– لست أختا لأحد . . !

– لقد منحتنى شرفا كبيرا . . !

– ماذا تقصد ؟

– وهل هناك شيء يستحق أن يقصد ؟

– وهذا الصندوق ؟

– لست صاحبه . .

– من يكون إذن . . ؟

– اسألى فى الطائرة . .

وطار صواب المضيفة . . وذهبت إلى قائد الطائرة الذى حضر مسرعا للتحقيق فى الواقعة فقلت للكابتن حسين . وكان لطيفا ومهذبا . .

أعتقد أنكم عند تعيين هذه المضيفة لم تطلعوا على صحيفة سوابقها فى وزارة الداخلية ولو كان الأمر بيدى لذهبت بها الى سجن النساء فى القناطر الخيرية . . .

° ° °

وفى بانكوك (Bangkok) تخوض قدماك فى وحل الخطيئة من أول خطوة – كل شيء هناك فى متناول اليد ، وعلى مرأى ومسمع من الشرطة وفى ظل قانون خدرة الحشيش والجنس والرشوة . . .

أهذه هى بانكوك التى قرأت عنها فى الكتب . ؟ منذ ثلاثين عاما كنت قد قرأت تلخيصا لكتاب وضعته مدرسة إنجليزية عن حياتها فى هذه المملكة الغامضة . وقد نشر تلخيص هذا الكتاب فى مجلة « المختار » التى

كانت تصدر فى القاهرة : . . اسم هـذا الكتـاب (المـلك وأنـا The Kingand I) إن الصـورة التى رسمتهـا يراع هذه الكاتبـة جعلنى أحلم بزيارة هذه المنطقة : الحياة الفاتنة الأخاذة . . الشرق بسحره الغامض – الناس بعقائدهم العجيبة . . الطبيعة بتقلباتها المختلفة . . . كانت « سيام » أو تايلند تمثل فى خيالى حلما من أحلام الطفولة . . . البراءة النقية . . . الفردوس والجنة . . . الحور والملائكة . . . وهاأنذا فى بانكوك . . . ولكن . . أية بانكوك هذه التى أقف عند بابها مفعما بأحلامى القديمة . . ؟

لقد شعرت بالضيق من أول لحظة . فالشوارع مقبضة . . . وغير نظيفة – والهواء ثقيل يقبض أنفاسك اللاهثة . . . وآثار الفقر والخطيئة تزيد من شعورك بالانقباض والضيق فى كل لحظة ؟ ؟

فى الفندق الذى نزلنا فيه تبدد كل أمل فى الهدوء والراحة . . صخب وعبث وقمار ولهو . . ومساومات رخيصة . . . جو خانق معتم . . . حتى الطعام لم أذق منه لقمة واحدة . . . لقد اختفى الجوع فجأة . . . وحلت مكانه غصة فى الشعور والعاطفة .

وفى تلافيف هذه الظلمة يسطع شعاع من نور الأمل فى صورة شاب يتقدم منحنيا على يدى الشيخين عبد الجليل وشوكت .

إنه الطالب التايلندى عبد الله محمد . . . كان مسافرا إلى الكويت لاستئناف دراسته التى بدأت . . . ولاحظ مودعوه ذلك فهرولوا مسرعين لالتماس البركة التى حلت . . .

لقد ظهرت بانكوك فى صورة جديدة . وامحت صورة القمار والبغاء والرشوة .

إن المسلم يختلف تماما عن غيره . . . سر من أسرار الخالق يكمن فى أعماقه . .

أصله من تراب وفطرته من نور . . عبد تخلق بأخلاق الله واستغنى عن الدنيا . ألقى عليه الحب . وكسى المهابة والجلال . نزيه برىء فى السلم والحرب . إن إيمانه هو مركز الدائرة التى يدور حولها العالم وكل ما عداه وهم وطلسم ومجاز . إنه الغاية التى يصل إليها العقل . . . ولب لباب الإيمان والحب . . .

فإلى غير رجعة . . . يا مدينة الخطيئة مسكينة أنت يا تيلند . .

وليحفظ الله عبدالله محمدا . وكل مسلم يعبد الله فى هذه الأرض .

° ° °

الطائرة تتهيأ للإقلاع . . . لكن حركتها بطيئة . . . وبليدة . . . ترى هل تغيرت طبيعة الأرض . . ؟ أم فقدت جاذبيتها فوق تايلند . . ؟ أم أن الشياطين تسد فى وجهها الأفق ؟ أم اعترض « بوذا » بحجمه الهائل :

طريقها الممهد ؟

وهل هذا الذى أراه حقيقة أم وهم أم أن عقلى الباطن لايزال شاردا فى قاع مدينة الفجور واللهو . .؟

طوفان تتراكض أمواجه العالية فى داخل النفس وأشباح تطارد عقلى الذى توقف عن التمييز والفكر ! ؟

وأخيرا ترتفع الطائرة . . . وتهدر محركاتها القوية مزمجرة . . . لقد تصورتها تصرخ فى وجه عوامل السقوط المثبطة . . وتقاتل أشباح الفساد فى هذه المدينة الضائعة ! !

ومن بين ثنايا الضباب الكثيف تتسلل الطائرة إلى مدارها فى الأفق البعيد ، ومن حولها تتناثر أشلاء السحاب الأسود فى طريق الصعود . . . حتى إذا استوت فى الأفق ، وعبرت حدود بورما فى طريقها الى الهند . . . كان القمر قد ظهر متألقا من خلال أشجار النرجيل والجوز متخطيا حقول الألغام والموت قائلا لـ (آسيا) الحزينة :

يا قارة الحروب والفقر . . ! !

إنى أنا القمر قاهر الظلام . . . وفى الإسلام

يا آسيا النور والأمل والسلام .

فهرس العدد

الصفحة

الصفحة

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

عـ ٢٢٢٦ عـ

مدير التحرير والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبي

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٩١٤
٩٠٥٥٠٦

الجزء الرابع – السنة الخمسون – شعبان ١٣٩٨ هـ – يوليو ١٩٧٨ م



بسم الله الرحمن الرحيم

الأحوال الشخصية ومجلس الشعب

لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الدكتور عبد الحليم محمود

« رَبَّنا لا تُزِغ قُلوبَنا بعد إذْ هَدَيْتنا، وَهبْ لَنا مِن لدُنك رَحمةً، إنك أنت الوَهَّاب » .

من آن لآخر يثار فى المجتمع الإسلامى قانون الأحوال الشخصية . . ويختلف الكتّاب تبعاً لأهوائهم : فبعضهم يستجيب للنّصّ القرآنى لا يريد به بديلا ، وبعضهم يأخـذ فى محاولة الالتواء بالنص ليُقرِّبَهُ مما يجرى العملُ به فى الغرب ، أو ليقرِّبَهُ من أهوائه التى ينحرف بها تلبية لرغبة منحرفة أو لهوى جامح .

ولكنك إذا سألت الجميع فإنهم يقولون لك : نحن مع الوحى ومع الرأى

الإسلامى . ولا يمكنهم أن يقولوا غير ذلك ، حتى لا يثيروا الرأى العام عليهم . وأحب أن أقول :

إن النتيجة الحتمية التى ينتهى إليها كل باحث مخلص .. ينتهى إليها تاريخياً ، وينتهى إليها إسلامياً : أمران بدهيان ، وهما من البداهة بحيث لا يمارى فيهما من كان فى قلبه حبة خردل من إيمان .

أما أولهما : فإن الطلاق بيد الرجل .. يوقعه حينما يشاء لحكمة يراها لاقيد عليه فى ذلك ولا تحديد ، ذلك هو الأمر الذى سار عليه التشريع الإسلامى منذ أن نشأ التشريع الإسلامى . وهو الأمر الذى يلجأ إليه الغرب الآن .. حتى فى إيطاليا نفسها .

فإذا كان الغرب قد أخذ بمبدأ الطلاق وبالتالى فى التقرب إلى الإسلام فهل نحاول نحن الابتعاد عن الإسلام للتقرب من الغرب القديم ، فى الوقت الذى يتخلى فيه الغرب عن مبادئه القديمة ؟

إنك مهما حاولت — حتى ولو متعسفاً — فلن تجد مناصاً من القول بأن الطلاق بيد الرجل يوقعه متى شاء حسب حكمة يراها . على أنه من المباح الجائز أن تشترط المرأة عند العقد أن يكون لها حق تطليق نفسها إذا أضيرت ، فيكون الطلاق بيدها توقعه حينما ترى أن مصلحتها تقتضى ذلك .

وعن الطلاق يقول المستشرق الفرنسى « أتيين دينيه » :

« وهل أشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا لبعضهما صبراً وقد خاب ظنهما فى الزواج ، ولم يدركا السعادة التى طلباها من وراء ذلك ، . .

هل أشد من الحكم عليهما بأن يُخَلَّدَا يقضيان بقية أيامهما فى عذاب ونكد وشقاء ؟

كذلك إذا كان أحدهما عاقراً ؟

أو كان غير كفء لزميله ؟

هل يحرم الآخر من أن يبنى لنفسه بآخر ، وأن يقيم له عائلة من جديد ؟

هذا ما يقوله مستشرق غربى .

ويقول الله تعالى :

« الطلاقُ مرتان : فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان »

* * *

أما عن تعدد الزوجات فإنه من الواضح أن الإسلام يبيحه : ذلك واضح نصاً ، وذلك واضح من الوجهة التاريخية ، وإن ذلك أيضاً بدهى ومهما حاول ذوو الأهواء فإنه لا يمكن للدارس إلا أن يقول :

إن التعدد مباح فى الإسلام ، فعله الخلفاء الراشدون ، وفعله الصحابة

كبارهم وصغارهم ، وفعله التابعون ، وتابعو التابعين ، قرناً بعد قرن .

والقرآن الكريم ينص عليه ، والأحاديث الشريفة تدل عليه ، ثم إن الوضع الاجتماعى يوجبه . .

وربما يدهش بعض الناس لقولنا : إن الوضع الاجتماعى « يوجبه » ونحن فى ذلك نورد أموراً :

١ ــ فى أحد الأقطار منع زعيم القطر تعدد الزوجات : وحصلت حادثة أمام سمعه وبصره ، هذه الحادثة تتلخص فى أن شخصاً من الأشخاص متزوج ، وعنده أولاد من زوجته ، ثم أصبحت زوجته هذه فى وضع غير صالح من الناحية الجنسية ، فكان هو بين أمرين :

إما أن يزنى ، وإما أن يتزوج .. ولكن التعدد ممنوع ، فماذا يصنع ؟

إن امرأته الأولى ليست مسئولة عما حدث لها ، هذا قضاء الله بالنسبة لها ، فما ذنبها لتطلق ؟ ولم يطلقها ؟

إنها لم تسىء إليه ، لم يطلق ، وإنما ذهب وعقد عقداً شرعياً على امرأة وتزوجها بحسب الشرع ، وأسكنها فى مسكن ، وكان يذهب إليها ويبيت عندها..وبُلِّغ عنهأنه تزوج امرأة أخرى والقانون لا يتساهل ، وذهبت الشرطة وضبطوه متلبساً بالجريمة : جريمة الزواج بامرأة أخرى ، وأتى به للتحقيق وقالوا له :

هل تزوجت امرأة أخرى ؟ فقال.. كلا . .

فقيل له : ولكنك كنت عندها .

قال : نعم .

وتنفق عليها ؟ قال : نعم .

قالوا : وقد استأجرت لها هذا المسكن؟

قال : نعم .

قالوا : وتبيت عندها ؟

قال : وأبيت عندها .

قالوا : ماذا تكون إذن ؟

قال : إنها عشيقة .

فقالوا له : اذهب لا ملام عليك لا لوم عليك . !!!

حرّموها زوجة بالفعل والتحقيق ، تحقيق البوليس ، وأباحوها عشيقة وخدينة .

٢ ــ ويأتى أيضاً فيما يتعلق بالتعدد أن « أتيين دينيه » مستشرق فرنسى كان قد ذهب إلى الجزائر ، فى عهد الفرنسيين وهو فرنسى ، وأقام فى الجزائر فى بلدة اسمها « بوسعادة » استراح إلى الجو ، واستراح إلى الناس واستراح إلى الخلق ، وكلها أغرته :

الجو ، الطبيعة ، الصحراء ، الناس : كلها أغرته بأن يقيم فى الجزائر فأقام .

أقام فى عهدين : عهد كان فيه عدم التعدد ، أو الدعوة إلى عدم التعدد ، أو الإقلال من التعدد .

فلاحظ ثلاث ملاحظات ، كتبها باللغة الفرنسية فى أحد الكتب .

كتب يقول :

حينما منع التعدد والطلاق ، وجدت ظواهر لم تكن موجودة ، أيام إباحة التعدد والطلاق .

ما هى هذه الظواهر ؟ هذه الظواهر التى وجدت عندما منع التعدد ؟

أولا : كثرة العوانس ، هذا أمر .

الأمر الثانى : كثرة اللقطاء .

الأمر الثالث : كثرة الأمراض السرية .

هذه المسائل الثلاث ، حدثت بعد أن منع التعدد ، وبعد أن منع الطلاق ، وليس معنى إباحة التعدد أنه مفروض ، وليس معنى ذلك أنه لا بد من التعدد .

كلا ، وأنتم تعلمون أنه مع إباحة التعدد الآن فى القاهرة فإنه لا يزيد عن نصف فى الألف ، إن هذا النصف فى الألف من الناس فقط هو الذى يعدد الزوجات ، إنه يعدد الزوجات إلى اثنتين . .

أما الثلاث والأربع فلا وجود لها . .

وهكذا الأمر ، نعنى : يكاد يكون التعدد — مع إباحته — معدوماً .

ولكن من الوجهة النظرية وفى حالات الندرة ، وفى حالات الحاجة لو فرضنا أن شخصاً من الأشخاص ، إما أن يتزوج ، وإما أن ينحرف يباح له الزواج .

هذا رأى الكاتب الفرنسى الذى يقول ، ويشاهد ، بالتعداد وبالتجربة ما حدث ، وما كان . .

ثم ماذا : ألم يتزوج الخلفاء الأربعة كل منهم بأكثر من واحدة ؟ والحسن؟ والحسين؟ وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهم ؟ وكلهم : مثنى وثلاث ورباع ؟

• • •

وبعد فإن مما يشبه اليقين عندنا : أن لا ينساق مجلس الشعب وراء أهواء تنحرف بالإسلام : إنه لا قيود على الطلاق إلا من ضمير المسلم . .

ولا قيود على التعدد إلا من ضمير المسلم .

« وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

شيخ الأزهر

عبد الحليم محمود

التصور الإسلامى لنظام الحكم

حوار بين العلامة المودودى.. وإذاعة باكستان

مندوب إذاعة باكستان :

سماحة الأستاذ الكبير مولانا سيد أبو الأعلى المودودى قائد الحركة الإسلامية.

من اللحظات السعيدة لإذاعة باكستان أن يحضركم مندوبها ، ويوجه إليكم بعض الأسئلة ، ولا يخفى على سماحتكم أن دولة باكستان تريد الاعتصام بحبل الله بعد أن عاشت ثلاثين سنة فى ظروف الانحراف . ومن فضل الله علينا أنه لا يختلف اثنان اليوم فى جعل باكستان دولة إسلامية.

سماحة الأستاذ : هناك أكثر من واحد من الرواد والقادة ولكننا لا نزال نعانى الاضطراب والتشويش من عدم الاهتداء إلى ما هو الحق ، وصرنا فى وضع يتمثل جيداً فى قول الشاعر الأردى ما معناه بالعربية : أمشى مع كل من يسير فى الدرب خطوات قليلة . ولا أزال أجهل من هو الرائد .

نحن اليوم فى حاجة ملحة إلى التوجيهات التى جاء بها النبى صلى الله عليه وسلم حتى نسير فى الطريق المستقيم ويصلح بذلك دنيانا وديننا .

صاحب السماحة : أول ما نرجوه منكم هو أن تبينوا لنا الأسلوب الذى اختاره الرسول عليه الصلاة والسلام للحكم . وثانياً : كيف يمكن لنا اتباع هذا الأسلوب فى العصر الحاضر .

ولمعرفة محاسن دولة راقية أو عيوبها فى العصر الحاضر تؤخذ الأمور الأربعة بالاستعراض :

١ ـ من هو مصدر السلطة العليا فى الدولة .

٢ ـ ماهو مدى حرية القضاء ونزاهته فيها .

٣ ـ ما هى نوعية السلطة التشريعية وحدودها ونطاقها .

٤ ـ ما هى حدود السلطة التنفيذية واختصاصاتها وخصائصها .

ومن هذا المنطلق نتوجه إليكم

برجاء حار أن تلقوا الأضواء على عهد النبي صلى الله عليه وسلم . حيث نحن وراء البحث عن كنوز تجعلنا نعيش وفق أحكام الرسول صلى الله عليه وسلم وتعاليمه : نعيش وفقها اليوم ، وغدا ، بل أبداً دائماً .

الأستاذ المودودى : يسرنى كثيراً أنكم أتحتم لى هذه الفرصة لأبين للمسلمين فى بلدى بصفة عامة ، ولحكامه بصفة خاصة أن نظام الحكم الذى أقامه النبى صلى الله عليه وسلم ماذا كان شكله وأساسه .

إن الأمر الأساسى الذى عرضه الرسول عليه الصلاة والتسليم هو : أن السلطة العليا المطلقة ليست إلا لله سبحانه وتعالى . فالأرض أرض الله . وكل ما نعيش عليه من ماء وهواء وضوء وما إلى ذلك هو ملك لله سبحانه وتعالى . هذا الجسم الذى نعيش به ، والقوى الكامنة فيه ، وأعضاؤه ، وجوارحه هو الذى وهبنا إياها . ولايحق لنا ابتداء أن ندّعى لأنفسنا السلطة المطلقة ، أو نعترف بها لأحد يدّعيها من دون الله. سواء أكان ذلك المدّعى شخصاً أو حزباً أو فئة أو مؤسسة .

فأول شىء عمّقه النبى صلى الله عليه وسلم فى أذهان البشر ودعا الناس إلى الإيمان به هو : أن الملك لله تعالى ، والحكم له أيضاً . ولا يجوز لأحد أن يشرع للناس قانونهم .

والأمر الثانى الذى له أهمية أساسية فى الدين أيضاً هو أن النبى صلى الله عليه وسلم أوضح للناس أن الله سبحانه وتعالى لا يؤتى قانونه للناس مباشرة . وإنما يؤتيه لهم بواسطة أنبيائه ورسله . والرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن حاكماً ولا منتخباً ولم يصطنع حكمه من تلقاء نفسه ، بل الله سبحانه وتعالى أعطاه هذا المنصب ، وأمره بأن يعلم الناس ، ويزكيهم ، ويصلح أذهانهم وأفكارهم ويقوّم أخلاقهم ، ويبلغهم رسالات الله وأحكامه . ويطبقها بالذين يؤمنون بها ويطيعونها ابتغاء مرضات الله .

والأمر الثالث الذى دعا النبى صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان به هو الآخرة . فالإنسان إذا لم يؤمن بكونه مسؤولا أمام الله . وبأنه يبعث بعد موته ، ويقوم أمام الله ، ويحاسب على كل عمل من أعماله لا يمكنه أن يسير فى طريق الإسلام . كما لا يمكنه أن يصبح إنساناً حقيقياً .

إن هذه الأمور الأساسية الثلاثة ظل النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إليها ، ويعرضها على الناس فى مكة المكرمة ثلاث عشرة سنة متتالية فالذين آمنوا به ورضوا بتلك العقائد جعل منهم أمة واحدة ونظمهم فى جماعة واحدة .

وفى السنوات الثلاثة الأخيرة من عهده صلى الله عليه وسلم فى مكة المكرمة آمن به جماعة قليلة من أهل يثرب وهم دعوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يهجر إليهم ويهجر معه أصحابه . وصدقت السيدة عائشة رضى الله عنها حينما قالت : « إن المدينة فتحت بالقرآن » إذ لم يكن هناك سيف أو قوة قاهرة أرغمت أهل المدينة على الإسلام . بل لما بلغهم القرآن وعلموا بما أنزل فى مكة من سور القرآن آمنوا بها إيماناً صادقاً . ولم يكتفوا بذلك ، بل دعوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى الهجرة إلى قريتهم (يثرب) الصغيرة . ولم تكن لهم هذه الدعوة دعوة اللجوء إلى هذه القرية بل كانت لأجل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم لهم معلماً ، ومربياً ، وحاكماً ، وأن يكون المهاجرون والأنصار أمة إسلامية واحدة ، وأن يقام فى تلك القرية ذلك النظام للحياة الذى آمنت به الأمة ديناً وشريعة .. وعلى ذلك فقد قامت الحكومة الإسلامية فى المدينة المنورة فى ذلك اليوم الذى نزل فيه النبي صلى الله عليه وسلم المدينة .

وأول ما قامت به الحكومة الإسلامية هو العناية بنشر العلم والوعى بين الناس . لأن الإسلام هو العلم لا الجهل . واستنفد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه جهودهم فى أن يعرف الناس دينهم ، ويؤمنوا به على وعى وبصيرة . وبقدر ما انتشر الوعى ، وأصبح الناس يعتنقون الإسلام ازدادت قوة الإسلام وتوطدت دعائمه .

والأمر الثانى الذى حققه الرسول عليه الصلاة والسلام هو أنه زكّى نفوس الناس ، وأقام اعوجاجهم وأنشأ مجتمعاً يقوم كل شيء فيه على أساس الأخلاق المستقيمة . إذ أن أى نظام للحكم مهما كان يبلغ من السمو قمته ، ومهما كانت قوانينه تبلغ من الصلاح أوجها .. إذا كان بناؤه لا يقوم على قاعدة من الخلق النزيه ، وإذا كان القائمون به لم يكونوا من أصحاب السيرة المستقيمة والسلوك النظيف ، وإذا كان المجتمع

الذى يخاطبه لم يكن مجتمعاً يؤمن بالله ويخافه لن يدوم ذلك النظام للحكم أبداً . ولذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم مع تكريسه الجهود فى الدعوة إلى الإيمان بالله ونشر العلم ركز عنايته على تزكية النفوس وتحسين الأخلاق . وكان من مقتضى طبيعة نظام الحكم الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم أن تكون أخلاق الناس تساير طبيعته وتنسجم معه . ولذلك لم يفتقر النبى صلى الله عليه وسلم إلى استخدام القوة لتنفيذ الأحكام والقوانين فى أغلب الأحيان ، ولم يحتج إلى إرغام الناس على الطاعة قسراً . وإنما كان يكفيه أن يقول للناس : إن الله أمركم بالأمر الفلانى ونهاكم عن الأمر الفلانى وإذا بالناس يأتمرون بما أمروا وينتهون عما نهوا عنه عن طواعية أنفسهم . ولم يكن عند النبى صلى الله عليه وسلم من شرطة أو سجن أو شبكة للمخابرات ، وما كان يدور بخلد أحد أن يبلغ الناس شىء من الرسول للعمل به فيخالفوه .

خذوا مثالا على ذلك حكم تحريم الخمر : عندما أعلن فى المدينة حكم التحريم أصبح الناس يريقون الخمور ويكسرون أوانيها ويمتنعون من تناولها . وأصبح من كان يشربها وبلغه النهى يصرفها عن فمه ، ولا تجدون ولا مثالا واحداً فى جميع تاريخ البشرية لهذا النوع من الالتزام والاتباع . وما يوم أمريكا ببعيد . إنها صرفت آلاف الملايين من الأموال لإقناع الناس بأضرار الخمر ومساويه . وقد جندت كافة الوسائل الإعلامية لشرح النتائج السيئة للإدمان . وأدخل على الدستور الأمريكى بعد تأييد الرأى العام تعديل منع بموجبه الخمر فى أمريكا . ولكن اليوم التالى لصدور قانون منع الخمر بدأت ظواهر المخالفة القانونية فى طول البلد وعرضه . صار الناس يشربون الأنواع الرديئة من الخمور . وقد بلغ الأمر إلى حد أن الشارع الأمريكى اضطر لإلغاء قانون منع الخمر . ولكم الآن أن تقارنوا بين المثالين : مثال يبرهن على أنه ما إن صدر حكم تحريم الخمر إلا وأقبل الناس على تطبيقه إيماناً واحتساباً . ومثال يوضح أنه يقرر قانون منع الخمر معززاً بالتأييد الشعبى ، بعد تمهيد الجو وبذل الدعاية على أوسع النطاق . ولكن صدور القانون يقترن بمخالفة بدون ما تأخير . وهذا دليل واضح على أن نظام الحكم الصالح أساسه الإيمان والتقوى ،

وبانعدام هذين الأمرين مهما وضعنا أحسن الدساتير وأفضل القوانين لايعدو حبراً على الورق ولاينال طريقه إلى التنفيذ فى الأرض .

مندوب إذاعة باكستان: الخصائص الأربعة للنظام الديمقراطى الغربى اليوم الذى أشرت إليه فى البداية هل كان الحكم الإسلامى أيام النبى صلى الله عليه وسلم يتسم بتلك الخصائص ؟ وإذا كان فبأى شكل ؟

سماحة الأستاذ : فيما يتعلق بالسلطة العليا سبق أن قلت أن تلك السلطة ليست إلا الله سبحانه وتعالى كما علّمنا ذلك النبى صلى الله عليه وسلم . وأما تصنيف الحكومة إلى ثلاث سلطات: التنفيذية والتشريعية والقضائية فهذا التصنيف لم يكن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . فهو صلى الله عليه وسلم كان شارعاً وكان قاضياً وكان حاكماً.. فكل السلطات كانت مجتمعة فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم بحيث كونه نبيًّا مأموراً من الله .
ولكن كان من دأب الرسول عليه الصلاة والسلام أن الأمر الذى كان يأتيه من الله عز وجل كان يطالب الناس باتباعه اتباعاً كليًّا . ولم يكن هناك متسع فى مناقشته . أما الذى لم ينزل فيه أمر من السماء فكان يستشير فيه أصحابه ، وكان يعطى لهم الحق فى الاختلاف معه . وحدث أكثر من مرة أنه صلى الله عليه وسلم تخلى عن رأيه إلى رأى أصحابه والمثال على على ذلك ما حدث فى غزوة بدر حيث أنه صلى الله عليه وسلم اختار مكاناً للنزول فقام أحد أصابه الحباب بن المنذر يسأل : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزله الله ، ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتّى تأتى أدنى ماء من القوم فأنزله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس فسار حتّى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه .

يمكنكم أن تفهموا من خلال ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يروض الناس على أمرين : أحدهما : كل أمر ينزل من الله يطيعوه إطاعة مطلقة بدون تلكوء . وثانيهما : الأمـــر الذى لم ينزل

فيه حكم من الله يُستشار فيه أصحاب الرأى والبصيرة ويتاح لهم حق مناقشته، واستبانة ما فيه جوانب الحسن أو القبح، ويتاح لهم حتّى الاختلاف معه فى بعض آرائه ، وعرض رأى آخر عليه ثم الأخذ بالرأى الذى يقرَّر بعد المشاورة .

ولكم مثال آخر من هذا القبيل : عندما اكفهرت الظروف واشتدّ البلاء فى غزوة الأحزاب أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعقد الصلح مع بعض القبائل من اليهود : أعداء الإسلام على ثلث ثمار المدينة ، لأجل فصلها من تكتل المشركين . فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، فذكر ذلك لهما ، واستشارهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله : أمراً نحبه ونصنعه ؟ أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا (قال : بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأننى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، جاءوا لكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكهم إلى أمر ما ، فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى (ضيافة) أو بيعاً . أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له ، وأعزّنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأنت وذلك فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال : ليجهدوا علينا .

ويمكنكم أن تعرفوا مما ذكرت آنفا أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم للحكم حيث أن الأمور التى كان الله ينزل فيها حكمه لم يكن فيها ما نصطلح عليه اليوم بالديمقراطية . والأمور التى لم يكن فيها حكم الله كانت تتسم بروح التشاور (روح الديمقراطية بدون تشبيه) .

ونأخـــذ الآن موضوع السلطة القضائية : أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قاضياً حيث قال الله عز وجل «إنا أنزلنا إليك الكتابَ بالحقِّ لتَحْكُمَ بَيْنَ الناسِ بما أراك الله» . وعلى هذا كانت السلطة القضائية بيد النبى صلى الله عليه وسلم . وكان أسلوبه فى القضاء وتسوية النزاعات أنه صلى الله عليه

وسلم كان يحرص على أن لا يتحقق العدل الكامل فقط بل أن يلمس الناس بوضوح ذلك العدل الإسلامى . فكل القضايا كانت تطرح فى المحكمة العلنية. ولا نجد ولا مثالا واحداً للمحاكمة السرية . من المشهور أن أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى مشركى مكة قبيل الفتح أخبرهم باعتزام المسلمين بالهجوم عليهم فعثر على هذا الكتاب . وكان هذا الأمر بمثابة التجسس لحساب العدو والخيانة مع الحكومة . ولو سألنا اليوم آراء الناس لقالوا : أن هذا النوع من القضايا لا بد أن يحاكم فيها فى المحكمة السرية إلا أن الرسول عليه الصلاة والسلام أقام المحكمة فى المسجد علناً ، وسمع إلى الأدلاء وقضى ما شاء الله أن يقضى . وكانت القاعدة الثانية من قواعد القضاء النبوى أن لا يقضى فى أمر إلا بعد أن يستمع إلى ما عند الخصمين ، وأن لا يحرم أحد من حق من الحقوق الأساسية إلا بعد إتاحته الدفاع عن نفسه بكل حرية . وأن القضاة الذين عينهم النبى صلى الله عليه وسلم خارج المدينة كان ينصحهم بأن لا يقضوا فى خصومة بدون أن يسمعوا إلى ما عند أطراف الخصومة .

وقد أغلق النبى صلى الله عليه وسلم باب الشفاعة بكل شدة فيما يرجع إلى القضاء . وحدث بعد فتح مكة أن أن سرقت امرأة من قريش : تقول عائشة رضى الله عنها : أن قريش أهمهم شأن المخزومية التى سرقت . فقالوا : من يكلّم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : من يجترئ عليه إلا أسامة حبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلمه أسامة فقال : « أتشفع فى حد من حدود الله » ؟ ثم قام فخطب ، فقال : يا أيها الناس إنما هلك الذين قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه . وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . وهكذا فقد سد النبى صلى الله عليه وسلم باب الشفاعة فى الحدود .. بل لقد وضع قاعدة شاملة جعل بموجبها كل الناس سواسية فى القانون ، ومنع الناس من تضليل القاضى والحصول على الحكم لهم بهذه الطريقة . قال صلى الله عليه وسلم : إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلىّ فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع

فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها .

ونلقى الآن الأضواء على السلطة التشريعية فإن الدين الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم كان القانون فيه لله سبحانه وتعالى كمبدأ أساس . وكذلك كان حق التشريع فيه لله تعالى ولذلك لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم فيه مشرعاً مستقلا . إنما كان منفذاً لقانون الله ، وشارحاً له ومربياً للناس على تنفيذه بالعدل والقسط . فيبينُ للناس أولا ما هو قانون الله ثم شرح ذلك ؟ القانون فيما نجده فى سنته صلى الله عليه وسلم . فمثلا ورد فى القرآن حكم السرقة حيث قيل : « السارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . وهذا حكم موجز كل الإيجاز مجمل كل الإجمال ولكننا نجد فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم كيف نطبق هذا الحكم ، ومتى نطبقه ومتى لا نطبقه . وما هى السرقة ، وما هى ليست بسرقة وما هو نصابها الذى بموجبه يطبق هذا الحكم ، وما هى الأموال التى تدخل فى حكم السرقة والتى لا تدخل فى حكمها . ولولا التفصيل الذى جاء فى السنة لما استطعنا أن نطبق حكم السرقة بصورة صحيحة . ويتضح من ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن مشرعاً مستقلا ، بل الله سبحانه وتعالى هو المشرع ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم شارحاً لقانونه بتكليف منه عز وجل . فالذى نسميه القانون الإسلامى هو ما فى كتاب الله ، وأما السنة فهى ما يحتوى عليـه كتب الحديث .

والأسلوب الذى اختاره النبى صلى الله عليه وسلم لتنفيذ القانون كان يشتمل على ما يلى من المبادئ الرئيسية :

١ ــ ادرءوا الحدود بالشبهات .

٢ ــ أن الأمام أن يخطئ فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة .

٣ ــ أن يقضى الناس فى الخصومات بالتراضى بينهم ولهم أن يعفوا عن أحد إذا أرادوا أو أن يستروا أحداً . وكل ذلك قبل أن يبلغ الأمر القاضى . فإذا بلغ القاضى فلا عفو ولا ستر ، فالقاضى يقضى فيه بما يراه من الحق .

٤ ــ ونهى الرسول صلى الله عليه وسلم بكل شدة من بذل أية محاولة فى التأثير على القاضى . وأمر القاضى بأن يقضى فى ضوء كتاب الله وسنة رسوله وبما يراه من الحق .

٥ ــ وقال صلى الله عليه وسلم :

القضاة ثلاثة : واحد فى الجنة واثنان فى النار . فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ورجل عرف الحكم فجار فى الحكم فهو فى النار ، ورجل قضى للناس عن جهل فهو فى النار .

وهناك أمور أخرى يجب أن تفهموها جيداً : لا نستطيع أن تفهم جيداً ما كان عليه عهد النبى صلى الله عليه وسلم من شؤون الحكم إذا جعلنا النظريات السياسية المعاصرة مقياساً لفهمها . فالدولة فى العصر الحاضر تتكون من ثلاث شعب : التنفيذية والقضائية والتشريعية ، والقانون الأساسى للدولة تقرر ما لكل شعبة منها من الحدود والاختصاصات . هذا فى العصر الحاضر أما ما كان عليه عصر النبى صلى الله عليه وسلم وهو أن المدينة المنورة قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم كان فيها لكل دار من دور القوم حيطان منفصلة كانت تشتمل على أراضيهم وحدائقهم وبيوتهم وسقائفهم التى كانت يجتمعون تحتها عند المهام . وكان يسودهم النظام القبلى . وكل قبيلة منهم كانت تتولى شئونهم . ولما أسلم نفر من أهل المدينة فى بيعة العقبة فى مكة طلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يعين لهم النقباء فعين النبى صلى الله عليه وسلم لهم اثنى عشر نقيباً ممن كانوا أكثرهم صلاحاً ونفوذاً وثقة عند القوم . وكان من مسؤولية كل نقيب منهم أن يستعين بمن فى قبيلته من وجهاء وأشراف فيهم العلاج والنجابة يستعين بهم فى نشر الإسلام وإصلاح الأخلاق وتسوية المعاملات . والذى آمن من أشراف القبائل ورؤسائها جعله النبى صلى الله عليه وسلم أيضاً سيد قومه وشيخ قبيلته . ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أقر بنفس النظام . وكل ما كان هناك من فرق هو أن الأشراف المسلمين من المدينة حلوا مناصب الرئاسة محل الأشراف المشركين . وهذا التغير لم يحدث بالانتخاب أو التصويت .

وإنما كان ذلك من طبيعة الانقلاب الإسلامى أن يبتعد الأشراف المشركون ويتقدم الأشراف المسلمون فى كل مجال من مجالات الحياة . ولتسيير شؤون المدينة كان النبى صلى الله عليه وسلم يستشير أصحاب الرأى من المهاجرين والأنصار . وهذا الوضع لا يشبه النظام التشريعى أو البرلمانى فى العصر الحاضر ، والذين كانوا من ذوى النفوذ

والرأى والأمانة من المسلمين سواء أكانوا من المهاجرين أو الأنصار كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم كلما أهمه الأمر أو مسته الحاجة . وهؤلاء لم يكونوا منتخبين من كل العوام . ولم يكن هناك من انتخاب حسب المصطلح الحديث . إلا أنهم كانوا على قدر من المعرفة والبصيرة والنفوذ عند العوام حيث لو أجرى لهم الانتخاب على الطريقة الحديثة لكانوا هم الناجحون بكل تأكيد . ثم لم يكن من الضرورى أن يدعى كل واحد منهم عند كل ملمة أو معاملة . بل كلما كان الأمر يتطلب إلى التشاور استشير من كان حاضراً فى المدينة . وكان يكفى حتى عند أهم القضايا وأخطر المسائل أن ينادى مناد حضور الناس فى المسجد النبوى .

ولما اتسعت دائرة الدولة الإسلامية خارج المدينة عين النبى صلى الله عليه وسلم ولاة وعمالا فى مختلف المناطق . وهم الذين كانوا حكاماً يتولون الشئون الإدارية ، وكانوا قادة يتولون شئون الجند . ولم يكن فى ذلك العهد جيش نظامى كجيوشنا بل عامة المسلمين كانوا يخرجون إلى الجهاد متطوعين عندما يدعوهم الداعى فكذلك عين النبى صلى الله عليه وسلم قضاة فى مختلف الأقطار وكانوا فى حرية تامة فى شئون القضاء حيث لم يكن لعامل أو وال أن يتدخل فى شئونه . وكذلك استعمل النبى صلى الله عليه وسلم نفراً من أصحابه على تعليم الناس دينهم . ولم تكن الغاية من التعليم تعليمهم القراءة والكتابة . بل كان مراده أن يتلو المعلم للناس القرآن ، ويلقنهم معانيه ويبين لهم سنة الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان التعليم فى أغلب الأحيان شفاهياً . وكذلك المعلمون كانوا يتولون تربية الناس خلقياً وفكرياً بنفس الأسلوب الذى كانوا تعلموها من النبى صلى الله عليه وسلم . فمثلا بعد فتح مكة جعل النبى صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد والياً وجعل معاذ بن جبل معلماً فيها .

أما جباية أموال الزكاة فعين النبى صلى الله عليه وسلم محصلين فى بعض النواح . وأمر رؤساء القبائل جباية أموال الزكاة فى النواح الأخرى . والأقطار التى استسلمت للدولة الإسلامية على الخراج لم يكن فيها من يجبى أموال الخراج . ولما فتحت خيبر وتصالح

يهود خيبر مع النبى صلى الله عليه وسلم على نصف زروعها كان النبى صلى الله عليه وسلم يبعث أحداً من أصحابه أيام الحصاد وكان يجعل كل الزروع نصفين . وكان يخيِّرهم أن يأخذوا أيهما أرادوا .. وجاء فى كتب التاريخ أن المسلمين لما أخذوا منهم الخراج على هذه الطريقة قال اليهود : على هذا العدل تقوم السماوات والأرض .

هذه هى الصورة الموجزة لنظام الحكم النبوى .

فى الإخلاص والنية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يغزو جيش الكعبة . فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم . قالت (أى عائشة أم المؤمنين) قلت : يا رسول الله : كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ، ومن ليس منهم . قال : يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم » .

حيرة الشباب المسلم .. أسبابها وعلاجها

العلامة أبو الحسن الندوى

السؤال الأول : أستاذنا ، العالم الإسلامى بأسره اليوم يعيش حيرة مردية ، عقيدة وتصوراً وسلوكاً ، وأبرز ما تكون هذه الحيرة فى الشباب المسلم فى بلادنا خاصة ، فنريد أن نعرف أولا : ما هى الأسباب التى خلقت هذه الحيرة أو ساعدت على وجودها[1] ؟

إن من أعظم الأسباب فى هذه الحيرة التى يعانيها الشباب المسلم بصفة خاصة وشباب العالم بصفة عامة ، هو التناقض فى التوجيـــه والإعـــلام والتربية ، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقنونه تلقيناً وبين ما يطلبه منهم علماء الدين ، هذا التناقض العجيب الذى سلط عليهم ومنوا به هو السر فى هذه الحيرة، هذه الحيرة المردية ، هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد فى بيت إسلامى فى أسرة إسلامية ، ونشأ على كثير من العقائد وتلقاها بوعى أو بغير وعى ، ثم إنه نشأ فى بيئة دينية تؤمن بمبادئ الإسلام، وقرأ التاريخ الإسلامى — إذا أكرمه الله بذلك وتسنت له هذه الفرصة الكريمة — وكان سعيداً بوجوده فى بيئة واعيـــة دينية ، ثم سبق — ومعذرتى إلى اختيار هذه الكلمة ، لأنه لا يزال فى سن مبكرة وليس له خيار — إلى دور ثقافة يسمع فيها من أولئك الأساتذة — الذين يجلهم ، لأنهم أصحاب اختصاص وأصحاب دعامة فى كثير من العلوم — كل ما ينقض ما أبرمته البيئة

---

(١) هذا الحديث مقتبس من ندوة علمية انعقدت فى عمان فى عام ١٩٧٣ ، حضرها نخبة من الأساتذة الكبار والمثقفين وفضلاء النبلاء ، وأدارها الأستاذ محمد إبراهيم شقرة بلباقة ومقدرة ، وكان من ضمن الأسئلة هذا السؤال الخطير . وقد سجل هذا الحوار شيخنا الندوى بقلمه فى كتاب « من نهر كابل إلى نهر اليرموك » .

وكل ما غرسته فى قلبه وعقله من التربية الإسلامية ، يسمع ويرى ما ينفى كل ذلك أو ما يقلل قيمته على الأقل ، فيقع فى تناقض عجيب وصراع فكرى عنيف ، وهذا الصراع الفكرى يدوم معه إلى أن يشاء الله ، أو تحدث معجزة ، إنها معجزة حقاً فى هذه البيئة التى نعيش فيها ، صراع من أدق أنواع الصراع ومن أصعب أنواعه ، الصراع بين القوى المتعارضة. إنه قد يواجه الصراع فى ساحة القتال ، ومدة ساعة القتال قصيرة وإن طالت ، ولكن هذا الصراع يعالجه دائماً ، إنه يعالجه فى المسجد ، ويعالجه فى المدرسة ، ويعالجه فى البيت ، ويعالجه فيما بينه وبين نفسه ، هذا الصراع المرير الهائل العميق يتلقى من مؤسسة « الإعلام » ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، ومن التلفزيون الذى جاء حديثاً ، يسمعون إذاعات وأحاديث وبرامج تقضى على البقية الباقية من آثار التربية القديمة وتحدث فيهم ثورة فكرية وقلقاً نفسياً ، والصحافة التى هى «صاحبة الجلالة» فى نظر كثير من الناس تقدم إليهم فى أول النهار الغذاء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف ، قبل أن يكسر الصفرا على تعبير إخواننا السوريين ، وقبل أن يتلوا شيئاً من القرآن ، فأول ما يقع عليه نظرهم صورة عارية لفتاة ، وعناوين مثيرة للغرائز أو مقالات مثيرة للشكوك مزعزعة للإيمان والثقة ، فيتلقون هذا فى رغبة ونهامة ، وفى شوق واستجابة ، إنه يقع فى أيديهم كتب علمية لها عناوين هائلة ، وأسماء مرعبة صادرة من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم فيرون ما يشككهم فى الدين يشككهم فى التاريخ الإسلامى ، يشككهم فى مصادر الشريعة الإسلامية ، وحتى فى مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككهم فى صلاحية هذه الأمة ، وفى خلود الرسالة التى يحملونها ، يشككهم فى صلاحية اللغة العربية ، فيتلقون هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة العجيبة ، من أفكار ومبادئ وإغراءات ومن نظريات علمية ، ويقعون من كل ذلك فى حيرة لا تعدلها حيرة ، فخليق بكل هذا أن يوقع الإنسان — وإن كان ناضج الفكرة ، مختمر العقل حصيف الرأى — فى حيرة ، فكيف بالشباب الغض الناعم ، وكيف بهذه البراعم الناعمة التى لم تتفتح بعد ، كيف يرجى منهم أن يقفوا أمام التيارات المتصارعة .

إن مثل ذلك — أيها الإخوان السادة —

كمثل عجلة أو مركبة ركب فيها فرس فى الأمام وركب فيها فرس فى الوراء وكلاهما قويان ، فكما أن هذه العجلة من المعقول جداً أن يكون ركابها فى حيرة من أمرهم ، هذا يجرها إلى الأمام ، وهذا يجرها إلى الوراء ، فكذلك الشباب يتأرجحون فى أرجوحة يميناً وشمالا .

إن الأدب الذى لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم العربية الكبرى ، التى كان لها التوجيه وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، وهذه غرست فى قلوب الناشئة وفى قلوب الشباب ، بل فى قلوب كثير من الكهول بذوراً من الشك والاضطراب ، تشككوا حتى فى وجودهم ، تشككوا فى كل ما تواتر واستفاض وأصبح من قبيل البديهيات ، إن هذه الكتب التى أريد من ورائها رزق أو شهرة ، أو زعامة فكرية ، أو هتاف أو تصفيق حاد ، إن هذه كلها غرست فى قلوب شبابنا الشك والحيرة والتناقض ، فأنا لا أستغرب هذا الوضع ، وهذا هو السبب الرئيسى والسر فى حيرة الشباب .

ثم وجه الأستاذ سؤالا ثانياً : وهو « ما هو العلاج الصحيح لهذه الحيرة التى يقع فيها الشباب » ؟ وكان جوابى على ذلك : « إننى أعتقد أن أول خطوة نخطوها نحو إنقاذ الشباب من هذه الحيرة المردية هى توحيد نظام التعليم ، ولست فى حاجة إلى شرح هذه النقطة ، إن المعسكر التعليمى موزع بين قسمين ، المعسكر الدينى ، والمعسكر اللادينى أو العلمانى ، أو المعسكر القديم ، والمعسكر الجديد ، وهذه الثنوية أو الازدواجية فى التعليم هى السبب الأكبر فى خلق هذه الحيرة التى يعيشها الشباب ، فأول خطوة نخطوها نحو الغاية الصحيحة لإزالة هـذه الحيرة ، هى تنسيق غايات التعليم ومـواد التعليم ، لا أعنى بالتنسيق بين تعليم قطر وبين تعليم قطر آخر ، إنما أعنى به التنسيق فى تعليم القطر ، فهنالك كما قلت تناقض فى المواد الدراسية ، فالذى يبنيه تعليم يهدمه تعليم آخر ، والعلوم التى لم تكن لها صلة بالعقائد أصبح لها اتصال بالعقائد ، وما أصبح التعليم مجرداً ، إن الاعتقاد بأن من التعليم ما هو محايد وما هو نزيه كل النزاهة ، وما هو بعيد كل البعد عن التأثير فى العقيدة قد أصبح نظرية قديمة ولا نصيب لها من الصحة ، الخطوة الأولى : الخطوة الثورية الجذرية هى إحداث تنسيق فى نظام التعليم ، فلا قديم ولا جديد ولا دينى بالمعنى اللاهوتى ،

وبالمعنى الكهنوتي المسيحى الأوربى ، لا بالمعنى الإسلامى الصحح ، فلا تعليم لاهوتى ولا تعليم دنيوى أو زمنى أو علمانى ، بل التعليم وحدة لا تتجزأ ، إنما ينقسم بين غايات ووسائل ولابد أن تكون بين هذه الوسائل وحدة تربطها وتخضعها للغاية الأساسية .

ثم إزالة هذا التناقض الذى يعبر عنه لسان الشريعة ، ولسان القرآن بكلمة : « النفاق » إن هذا يحتاج إلى قلب نظام التعليم رأساً على عقب ، يعنى إحداث نظام تعليمى كوحدة متكاملة متناسقة ، وهذا يحتاج إلى ثورة عارمة ، إلى ثورة جريئة ودقيقة وشاملة ، ويحتاج طبعاً إلى أناس عندهم الأصالة الفكرية ، لا يعيشون متطفلين على مائدة الغرب . إنه يحتاج إلى الاجتهاد فى المواد الدراسية ، وهذا يحتاج طبعاً إلى مشاريع عملاقة ، وإلى جهود كبيرة واسعة النطاق عميقة الجذور ، ويحتاج كذلك إلى أن تتبناها الحكومات الإسلامية والمجامع الاسلامية الكبيرة ، فإذا نجحنا فى تطوير نظام التعليم تطويراً جديداً ، وإذا نجحنا فى إزالة النفاق عن هذا المجتمع الذى نعيش فيه ، إذن من المؤمل أن ننقذ الشباب من هذه الحيرة المردية .

ثم وجه الأستاذ سؤالا ثالثاً وهو :

« لعل أستاذنا أبا الحسن يبين لنا الدور الإيجابى الذى ينبغى للدولة أن تقدمه لهذه المؤسسات ، حتى يتم التناسق الصحيح بين هذه المؤسسات كلها » .

وكان جوابى على ذلك :

فى الحقيقة أن دور الدولة عظيم وحاسم فى إزالة هذه العوامل الهدامة وفى رد المجتمع إلى حياة سليمة لا صراع فيها ولا حيرة ، ولكن هذا يتوقف على أن تكون عند الدولة فكرة واضحة – لست أعنى دولة دون دولة ، ولا أعرض بدولة – إنما هى موضوع علمى ، فكرة واضحة عن الدين الذى تؤمن به وتدين ، وعن الأهداف التى تتبناها وتريد أن تعيش هذه الأهداف ، ولا تعيش فقط بل تنمو وتزدهر ، وإذا آثرنا التعبير الإسلامى الدينى ، قلنا : « الإيمان والعقيدة » إيمان راسخ ، وعقيدة جازمة بفضل الإسلام أو بفضل الأهداف التى تدعو إليها وتعيش لها ، وأن تكون متمسكة بمبدأ الهداية لا الجباية[1] .

---

(١) وتمثل هذه الفكرة خير تمثيل جملة مأثورة عن سيدنا عمر بن عبد العزيز يخاطب بها أحد عماله الذى شكا إليه انتشار الإسلام والنقص فى الجزية . « ويحك ! إن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما بعث هادياً ولم يبعث جابياً » .

ثم الإخلاص والعـــزم الصادق والتضحية التى لا غنى عنها ، هذه كلها عوامل لوجود بيئة مناسبة أو الأجواء المناسبة لنمو الشخصية الإسلامية وإكمالها ووصولها إلى الغاية المطلوبة .

ثم ختم الندوة بالسؤال الأخير وهو : « ونترك فى الختام التعليق على هذه الخطوة الأخيرة للأستاذ أبى الحسن صاحب التجارب الكثيرة التى مر بها فى دور الشباب والكهولة ، وهو الآن فى دور الشيخوخة ، ولا بد أخيراً من نصيحة فيها إلى الشباب بارك الله فيه » .

قلت : لست متشائماً ولا يائساً من دور الشباب ومن صلاحيتهم ومن حرصهم أن يعملوا شيئاً فى مجال الدعوة الإسلامية ، والفكرة الإسلامية ، وفى أن يمثلوا دورهم كشباب مسلم فى هذا المعترك الفكرى الذى لم يشاهد تاريخ الإنسانية معتركاً فكرياً مثله ، إن الشباب طبقات وأقسام كثيرة وليس هناك طراز واحد من الشباب . إننا شاهدنا عدداً كبيراً من الشباب يتلهفون شوقاً إلى أن يلعبوا دورهم ، وهم فى استعداد تام وعندهم التألم الشديد مما هو واقع حولهم ، إن هؤلاء الشباب هم أمل اليوم وجيل المستقبل ، وفى الحقيقة أن الشباب هم الذين يستطيعون أن يحولوا هذا التيار ، وعندى من المعلومات ما تؤكد لى أن فى الشباب مجالا واسعاً للعمل الإسلامى والفكر الإسلامى ، وعندهم قلق والقلق أول خطوات النمو والتقدم والتحسن ، إن الشباب قلقون اليوم ، وإن الحضارة الغربية قد عجزت عن تسليتهم وإرضائهم ، وإن هنالك فراغاً لم يملأ ولا يمكن أن يملأ كما تفضل الأستاذ كامل الشريف ، إن هنالك ديناً واحداً يستطيع أن يملأ الفراغ الهائل الذى أحدثته أوروبا بين القلب والروح والجسم والمادة ، وهذا من خصائص الحضارة الغربية التى لها تجارب خاصة ، ومراحل معينة مرت بها فى رحلتها الطويلة ، ولكن — مع الأسف الشديد ومن سوء حظ الإنسانية — لما آلت القيادة إلى أوروبا أثرت هذه التجارب فى تفكير الأمم التى كانت فى عزلة عن هذه التجارب ، تجارب مجتمع خاص ، كانت المدينه طبيعة خاصة ، وقد حدث فيه صراع بين الكنيسة والحكم ، وصراع بين تعليم الدين ، وصراع بين الكهنوت والعقل السليم والعلم الحديث ، هذا كله من تجارب الغرب ، وكان الشرق غنياً عن

هذه التجارب ، لم يكن منها فى عير ولا نفير ، ولكن فرض الغرب وفرضت الثقافة الغربية هذه التجارب وانطباعات هذه التجارب ، ومردود هذه التجارب ، وقيمة هذه التجارب ، فنظرية « الدين قضية شخصية » و « الفصل بين الدين والسياسة » ، هذه كلها تجارب الأمم الأوربية لظروف خاصة ، وأجواء خاصة وللطبيعة المسيحية التى دانت بها أوربا ، ولكنها قد أشركت فيها الشعوب الشرقية من غير سبب ومن غير مبرر ، فهذا الفراغ موجود فى الشباب ، والشباب بدأوا يشعرون بهذا الفراغ ، إن ما نشاهده من انحرافات وشذوذ ومن مبالغات ومن تطرف فى حياة الشباب ، كل ذلك شعور لهذا الفراغ ، وإننى أستطيع أن أقول فى ضوء تجاربى ومشاهداتى فى الشرق وفى آسيا ، أن الشباب فيهم قابلية واستعداد كبير ليكونوا قادة حركة جديدة ، وليخوضوا هذه المعركة .

ولكننا نعيش فى عزلة عن الشباب وعندنا كثير من سوء تفاهم ، ومن إساءة ظن ومن جهل للوضع الذى يعيش فيه الشباب ، فإذا ملئت هذه الفجوة بين الكهول والشباب ، وبين الدعاة إلى الدين وبين الشباب الجامعيين والشباب المثقفين بالثقافة الغربية ، يمكن أن نجر عدداً كبيراً ونجعلهم مقتنعين مستجيبين لهذه الدعوة متحمسين لها ، ولكن ذلك يحتاج إلى مخططات دقيقة عميقة ، مخططات علمية مدروسة ، يحتاج ذلك إلى مكتبة جديدة ، يحتاج ذلك إلى أسلوب جديد فى الحديث مع الشباب ، يحتاج ذلك إلى الحكمة التى أشار إليها القرآن بقوله : « ادع إلى سبل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » يحتاج ذلك إلى أن تكون عندنا أقلام قوية بليغة ، وأن تكون عندنا تلك المقدرة البيانية والطلاوة الأدبية ، وحلاوة التعبير التى لا يمكن لدعوة أن تشق طريقها إلى الأمام وأن تنفذ فى عقول الشباب وفى نفوسهم عن غير هذا الطريق .

إننا نرى — مع الأسف الشديد — أن كثيراً من علمائنا الأفاضل يعتبرون التضلع فى آداب اللغة ، والحصول على تلك المقدرة البيانية الأسلوب البليغ الذى يدخل إلى قرارة النفوس من فضول واجبات العلماء وعلى هامشها ، وقد يعتبرون ذلك ابتعاداً عن وظيفتهم وانحرافاً عن جادتهم ، مع أننا نرى أن القرآن نوه بهذه الحقيقة ،

وكلنا نؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الأغنياء ، ولكنه أنزل كتابه فى أساوب معجز ، وفى لسان عربى مبين ، ولم ينزل فى لسان عربى مبين فحسب بل نوه بهذه الناحية فى غير موضع من مواضع القرآن ، فقال : نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » ، « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » فمعنى ذلك أن ناحية اللفظ وناحية الأسلوب وناحية البلاغة ناحية مهمة ، وإذا رجعنا إلى تاريخ الإصلاح والتجديد رأينا أن الذين كانوا على قمة الإخلاص وعلى ذروة الإنقطاع إلى الله وإلى الربانية الصادقة ، كانوا لا يستهينون بهذه الناحية ، إنما كانوا يهتمون بها كل الاهتمام ، ولا نضرب المثل بالنبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المناسبة لأنه صلى الله عليه وسلم أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء من غير شك وهذا معروف عند الجميع ، ولكننى أضرب المثل بسيدنا على بن أبى طالب ، إنه كان فى قمة من البلاغة ونواصل سيرنا إلىآخر القرون الإسلامية ، فنرى أن من تبوأ القيادة أو الزعامة فى الدعوة الإسلامية كانوا على جانب عظيم من البلاغة ومن فهم نفسية المخاطبين ، إننى فى الحقيقة أوخذ بالحيرة إذا قرأت خطب سيدنا عبد القادر الكيلانى ، فأنا أرى أن هذا الرجل الذى اشتهر فى العالم كله ، وفى جميع العصور بزهده وبقناعته ، وبربانيته ، وبإشراقه وتبتله ، إنه يخاطب الجيل المعاصر والمجتمع الذى كان يعيش فيه فى بغداد : البلد الذى ولد فيه الحريرى ، وولد فيه ابن الجوزى : وولد فيه الصابى ، وولد فيه هؤلاء الشعراء ، وتغنى فيه البحترى ، والشريف الرضى ، والمتنبى ، وأبو تمام ، والمعرى .

كانت بغداد عاصمة عالم الإسلام ومركز الخلافة العباسية ، كانت محط كل عبقرى من جميع الأصناف ، فسيدنا عبد القادر الكيلانى نراه يخاطب الجيل المعاصر فى بغداد بلسان يحلق فى البلاغة ، ويخاطبهم بأسلوب ساحر ، بأسلوب يبلغ إلى الأعماق ، بأسلوب لا تزال له الصولة إلى الآن ، وإذا قرأنا خطبه التى دونها المدونون ، وحرصوا على نقل اللفظ الصحيح لاعتقادهم أن ما يصدر من القلب يدخل فى القلب أقررنا بهذه الحقيقة ، وهذا كان من دواعى الحرص على نقل الكلام بالحرف .

وهذا كله يعطيه الفكرة عن أهمية الأدب والأسلوب ، إننا إذا أردنا أن نوجه الشباب التوجيه الإسلامى العميق، فعلينا أن نتسلح لذلك ، وأن نعد له عدته ، وأن نستوفى تلك الشروط التى كانت لكل زمان ومكان ، وهى لا تزال لها قيمتها وأهميتها وتأثيرها ، وهو إحداث مكتبة إسلامية علمية ، تلائم عقلية الشباب وتؤثر فيها ، ويتقبلها الشباب بقبول حسن بل يتشوقون إليها ويمدون إليها أيديهم ، فإذا وفينا هذه الشروط فإنى واثق بأن الشباب مستعدون ليكونوا : لا مؤمنين بهذه الفكرة فحسب ، بل دعاة متحمسين لهذه الفكرة والدعوة متفانين فيها ، متهالكين عليها ، لا يعدلون بها شيئاً » .

فى الإخلاص والنية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . فهجرته إلى الله ورسوله : ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو أمراة ينكحها . فهجرته إلى ما هاجر إليه .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يظل دائما في حدود الحكمة والموعظة الحسنة

الأستاذ / أحمد حسين

فى هذه الأيام التى اختلط فيها الحابل بالنابل ، واشتدت عوامل السخط العام والتذمر والقلق ، ثـمـَّة شعاع من الضوء يسطع وسط هذه الظلمات الحالكة ، ألا وهو تمسك الجماهير بالإسلام ، وإيمانها بأنه حبل النجاة ، فارتفعت الأصوات من أعلى ومن الأجيال الصاعدة بوجوب أن يحكم المجتمع بالشريعة الإسلامية .

وكما هو الشأن فى فترات الانتقال وما يسودها من اضطراب وقلق وفوضى ، فقد تواجدت الحركات ، وارتفعت الصيحات المتطرفة (وليس يدخل فيها بطبيعة الحـــال الحركات الوحشية الإجرامية) وإنما أعنى بالتطرف : هذا الذى لا يزال يصدر من أشخاص لا شك فى إيمانهم وتدينهم ورغبتهم المؤكدة فى الإصلاح والخير كبعض خطباء المساجد الذين تتسارع الألوف لسماع خطبهم ، وبعض الكتاب المسلمين الذين تتأثر الناس بكتاباتهم وهؤلاء هم من أكتب لهم هذا المقال فى الدرجة الأولى ، وأوجهه بعد ذلك لملايين الشباب فى العالم الإسلامى الذين أصبحوا متعطشين لرفعة الإسلام . . فلهؤلاء وهؤلاء أقول إنّ أمر الله صريح وواضح لكل من كان يؤمن بالإسلام والقرآن .

«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» .

وهذا نص ولا يجوز لأحد أن يجتهد أمام النص . .

شروط الدعوة إلى سبيل الله :

ويتضح من هذا النص أن الدعوة إلى سبيل الله ليست مطلقة من أى قيد

أو شرط ويحسب أى إنسان يتصور نفسه أنه داع إلى سبيل الله كى يعطى نفسه الحق فى أن يقول ما يشاء ، ويجرّح من يشاء ، ويسبُّ من يشاء ، فضلا عن أن يفعل ما يشاء ، فكل هذا انحراف بل خروج صريح عن أمر الله الذى طلب أن تكون الدعوة إلى سبيله :

أولاً : بالحكمة ، ويجب أن نقف طويلا أمام « بالحكمة » فهى تعنى أول ما تعنى فهم الظروف والملابسات التى تحيق بالمجتمع ، وما ينفعه ويفيده فى ظرف معين ، أو يضره . . وفى نصوص القرآن وفى سيرة الرسول تحديد لهذه الحكمة ومفهومها وكيفية ممارستها ، كقول الله تعالى لموسى وهارون ، عندما قرر إيفادهما لفرعون لهدايته : فقولا له قولا ليناً لعله يذكر أويخشى.

فهذا هو الله سبحانه وتعالى القادر على كل شىء ، والقادر على أن يصعق فرعون (وقد أغرقه فيما بعد) ، ولكن لأن الله يريد أن يعلمنا « الحكمة » فى الدعوة إلى سبيله ، أمر سيدنا موسى بأن يكون قوله « لينا » . . فعندما يتصور كائن من كان أن الإغلاظ فى القول فضلا عن السب والشتم هو فى سبيل الدعوة إلى الله فهو إما جاهل بالإسلام والقرآن ، وإما خارج عن تعاليم الدين لغرض فى نفس يعقوب .

الحكمة كما طبقها الرسول :

معلوم أن الدعوة إلى التوحيد ، والتخلى عن الشرك بعبادة الأوثان ، كان هو جوهر الدعوة المحمدية التى قام بها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام نزولا عند أمر ربه ، ومع ذلك نراه بعد أن يجهر بالدعوة ويبلغها يلتزم الحكمة بعد ذلك فى نشر الدعوة حتى ليطلب من أصحابه أن لا يسبوا الأصنام لئلا يكون ذلك سبباً للمشركين فيسبوا الله عدواً بغير علم » .

ورضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستظل بحماية عمه أبى طالب المشرك ليؤدى رسالته مع أنه فى حماية رب العالمين وما ذلك إلا ليعلمنا كيف تكون الدعوة بالحكمة ، ومن الحكمة الانتفاع بكل الأنظمة والتقاليد التى قد تفيد فى الدعوة إلى الله .

تصور خاطىء لموضوع النسل :

بقى أن البعض يتصور أن ذلك كله كان فى صدر الدعوة وإن ذلك كله قد نسخ فيما بعد ، ولم يعد للإسلام إلا

لغة واحدة يخاطب بها المخالفين وهى لغة « السيف » وهو تخرّص قال به أعداء الإسلام . . ومن يتصوره من المسلمين يدخل على الفور فى زمرة أعداء المسلمين ، فالقرآن كتاب الله القديم نزل تبياناً لكل شيء وتنظيما لكل شيء ، ولما كانت الحرب إحدى سنن الحياة ، فقد نظمها القرآن الكريم فيما نظم وهذا لا يعنى بحال أنه ألغى نظام الدعوة ، فلم تعد « بالحكمة » فللسيف مجاله وأحكامه ، وللدعوة شرائطها وأحكامها . . وأولها الحكمة كما قدمنا .

ثانياً : والموعظة الحسنة . . ثم انظر إلى شرطه الثانى فهو لم يكتف بالحكمة والوعظ ، بل اشترط أن يكون الوعظ حسناً تتفتح له القلوب ، وهنا يقع كثير من الدعاة فى الوهم بأن بحسبهم تفتح قلوب المؤيدين ، ولكن هؤلاء « بداهة » ليسوا هم المحتاجين للموعظة ، وإنما يحتاجها المخالفون ، فعندما يشترط القرآن حسن الموعظة فهو يشترطها بالنسبة للمخالفين ، بدليل ما جاء فى الشرط الثالث .

ثالثاً : « وجادلهم بالتى هى أحسن . . والجدال لا يكون إلا بين المتخالفين فنص القرآن على وجوب الإحسان فى الجدل .

الحكمة كما طبقها الرسول :

ولقد عن لى فى شبابى ، أى منذ أربعين سنة ، وقد كان يحيط بى شباب متدين متحمس لدينه وعلى رأسهم طيب الذكر الأستاذ حسين يوسف (ألف فيما بعد شباب محمد) وكانت الخمارات ومحلات بيع الخمور منتشرة فى كل مكان (أمام المدارس وبجوار المساجد) فعن لنا أن نقاوم بعمل مادى انتشار الخمر بهذا الأسلوب وذلك نزولا على قول الحديث الشريف « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه . . . إلخ الحديث » .

فعمد بعض الشباب المحيطين بى فهاجموا متجرين أو ثلاثة لبيع الخمور وحطموا بعض زجاجات الخمر ، وأراقوا براميله . . . وهاجت الدنيا وماجت ، واعتبر ما حدث عدواناً على نظام الدولة ، وتصدت لنا حكومة ذلك الزمان بكل قوة وعنف ، ولم يدهشنى ذلك بطبيعة الحال ، فقد كان الإنجليز هم الذين يحكمون مصر

فى موضوع الأمن العام وحماية الأجانب .

ولكن الذى روّعنى حقاً وأصابنى بخيبة أمل شديدة مقال كتبه الشهيد حسن البنا، يعترض فيه على الأسلوب الذى انتهجناه، وأنا أعلم الآن أنه كان يتحدث بما يمليه الإسلام «روحاً ونصاً» كما سيظهر لى بعد الدراسة ، ولكنى فى ذلك الوقت غضبت أشد الغضب، واعتبرت الأمر مناورة حزبية .

ورحت أطالع (وأنا فى السجن) كل ما قاله فقهاء المسلمين عن حدود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومدى حق المسلم العادى فى التغيير باليد ، فإذا بى أفاجأ بإجماع الفقهاء الأربعة، على أن تغير المنكر باليد هو من حق « ولىّ الأمر » وحده ، وليس للأفراد تغيير المنكر باليد . . وذهلت لهذا الاتفاق ، وعبثاً حاولت أن أجد مخرجاً من المأزق الذى وجدت نفسى فيه . . إذ رحت أتحدث باسم الدين ، وها هو حكم الدين ، يدل عليه إجماع الأئمة الأربعة (مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل) وليس إلا عند الغزالى وجدت الرخصة فى أن للمسلم أن يريق وعاء الخمر عنوة ، ويحطم الدف والمزمار . . .

وتفضل الشيخ الورع مفتى الديار المصرية المرحوم الشيخ عبد المجيد سليم فأصدر فتوى تتضمن أقوالا لابن تيمية من نوع ما قاله الغزالى . .

ولكن حجة الأقطاب الأربعة ظلت تعلو ما قال به الغزالى وابن تيمية . خاصة وأن ما رخصوا به ، يظل فى حدود ما أجمع عليه الأئمة الأربعة .

وتتلخص هذه الحجة « الحكيمة » أننا لو أبحنا للفرد العادى أن ينكر على غيره باليد فربما تنشأ عن ذلك مضرة تفوق ما كان ينكره ، كأن يحطم عنوة زجاجة خمر فيتسبب فى مشاجرة قد تؤدى إلى القتل وهو ذروة الكبائر .. وأشهد أننى اقتنعت بذلك إلى الحد الذى جعلنى أكره العنف بقية حياتى ، وأصبح لزاماً علىّ أن أحذر الشباب مما وقعت فيه فلا يتصورون أن بحسبهم أن يقولوا هذا حرام وهذا حلال ، ليندفعوا بعد ذلك لتغيير ما يرونه حراماً باليد فالمسألة ليست بهذه البساطة .. ومن قيد الله سبحانه وتعالى أن تكون الدعوة إليه «بالحكمة» وليس من الحكمة فى قليل أو كثير « الإشارة » أن ما يحتاجه العالم الإسلامى فى الدرجة الأولى لكى ينهض من كبوته أمران فى الدرجة الأولى :

١ – إعطاؤه القدوة .

٢ – التّربية .

فعلى كل عامل فى حقل الدعوة الإسلامية إذا أراد أن يكون نافعاً حقاً، أن يقدم بسلوكه الشخصى القدوة لكل من حوله .. فالناس تنقاد لصاحب السير الحميد بأكثر من أى شىء آخر . .

وعلينا بتّربية الأجيال الصاعدة التّربية الإسلامية الحقة وهو ما أرجو أن أخصص له مقالى التالى .

أحمد حسين

فى التوبة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه . فأيس منها . فأتى شجرة . فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته . فبينما هو كذلك، إذ هو بها قائمة عنده . فأخذ بخطامها . ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح .

المكتبات الإسلامية

فضيلة الدكتور / عبد الجليل شلبى

المكتبات العامة فى أى دولة عنوان نهضتها الفكرية ، ومقياس اتجاهها العلمى ، ونشاطها العقلى . . وقد بدا هذا كله فى الأمة الإسلامية منذ وقت مبكِّر جدًّا ، حتى أننا لا نجد أمة أخرى تباريها فى هذا السَّبْق . . ومع تضافر الأدلة التاريخية عليه ، وثبوته على أقلام المستشرقين وغير المسلمين من كتاب الشرق ، طاب لفريق من أولئك وهؤلاء أن يتهموا الإسلام والمسلمين بأنهم لم يكونوا دعاة ثقافة ولا وجَّههم الإسلام توجيهاً فكريًّا . . وجاء على لسان غير واحد منهم أنهم انقضُّوا على أطراف الإمبراطورية الرومانية كالذئاب الجائعة ، وأنهم لم يكن لهم همٌّ إلا غنائم الحرب والاستكثار من التَّسرِّى .

وردُّ هذه التهم قد يطول ويتفرع الحديث فيه ، ولكنى أريد هنا فى إيجاز وسرعة أن أستعرض نشأة المكتبات الإسلامية وما بذل المسلمون فى بنائها، ثم ما نالها من غير المسلمين من إتلاف وتبديد . . ولعل فى هذا ما يكفى إنصافاً للإسلام والمسلمين ، وكشفاً لمغالطة هؤلاء الذين لم يروا فى الفتوحات الإسلامية إلا طلب الغنائم والتسرى .

ومن المعروف – وهذا مما يبرز معجزات الإسلام فى بناء الدولة الفكرى – أن الإسلام ظهر فى أمة أمِّيَّة لا تقرأ ولا تكتب ولا تعرف شيئاً عن الكتب ، بَلْهَ المكتبات ، وقد كان وقوف هؤلاء الأميين إزاء دعوة الإسلام ومعارضاتهم لنبيِّه مما عاق نشاط الإسلام الثقافى إلى حين ، وكان لابد بعد هدوء هذه المعارضة أن تستغرق هذه الدولة الناشئة فترة من الزمن تتعلم فيها أولا ، ثم تقتنى الكتب ثانياً ، ثم تنشأ المكتبات العامة فيها بعد ذلك .

ولم تنشأ هذه المكتبات العامة

إلا فى عهد الدولة العباسية، أى بعد قرن ونصف قرن من الهجرة النبوية، أو ما يقرب من هذا الزمن ..

كانت بداية ظهورها فى عهد الخليفة الرشيد، وتم نماؤها - وإن لم يقف تيار ازديادها - فى عهد المأمون.

ولكننا نرجع إلى الوراء فنجد أن نواتها بدأت قبل ذلك بأكثر من قرن كامل .. ذلك أن خالد بن يزيد كان قد شُغِلَ بالعلم، وهمّه أن يحصّل من فروعه ما لم يكن يعرفه العرب من قبل، وكان خالد بعد أن فاتته الخلافة رأى أن يفرّغ نفسه لدرس هذه العلوم المستحدثة لديهم والموروثة عن الأمم القديمة .. وقد استطاع أن يتصل بمكتبة الإسكندرية وعلمائها، وقد ترجم له شىء من تراثها العلمى وترك هو بحوثاً ومؤلفات مهما يكن من شأنها كانت بداية اتجاه ونواة نهضة علمية، وكان لديه مكتبة خاصة هى أول مكتبة عرفت فى الإسلام.

ويبدو أن هناك حركة خفية لم يأبه التاريخ بها ولم يحدثنا عنها حديثاً تفصيلياً واسعاً، هذه الحركة هى استمرار البحث العلمى واتصال تياره فيما بين خالد بن يزيد الأموى والرشيد العباسى، فنحن فجأة نجد هذا الخليفة يستكثر من الكتب الأجنبية حتى إنه فى سفرة له إلى الرقة حمل معه ثمانية عشر صندوقاً من أسفار الأمم القديمة[1]، وكاد الوزير جعفر البرمكى يبتاع كتب الفلسفة يونانية وغير يونانية ويأمر التراجمة بتعريبها ويقال أن عمل جعفر كان مما أغرى الرشيد بالاتجاه إلى الترجمة ونقل تراث السابقين[2]، على أن الخليفة المنصور كان له عمل محدود فى ذلك.

هـذا الاستكثار المفاجئ لا بد أنه كان استمراراً لحركة سابقة، وأن التيار الذى بدأه خالد لم ينقطع جريانه. ولا يتأتى لمبتدئ أن يحمل فى سفرة طارئة كل هذه الكتب أو أن يهتم بالترجمة كل هذا الاهتمام.

وقد أنشأ المأمون بيت الحكمة أو على الأصح أوسع فى بنائه وسخا عليه لأن نواته موجودة منذ عهد أبيه، وكان مجمعاً علمياً ومنتدى بحث، إذ

(١) انظر حضارة الإسلام ص ١٦٢ من الأغانى ٥/ ٦٧ (ساس).

(٢) انظر ابن خلكان ١/ ٢٣٦.

كان به مكتبة عامة ولجنة ترجمة ومجلس مناظرات ، وهو ولا ريب أهم مجمع علمى بعد مكتبة الإسكندرية ، واستتبعت هذه المكتبة عملا علمياً آخر . وهو عمل الوراقين ، فقد كان هؤلاء ينسخون الكتب المترجمة إما لأنفسهم وإما لمن يستأجرهم لنسخها، وكانت هذه مهنة مدرة على مشقتها ، وكان النساخ يستفيدون كثيراً من المعارف إلى جانب فائدتهم المادية ، ويكفى أن يكون منهم ابن النديم وابن سعد صاحب الطبقات وأبو حيان التوحيدى. وكان الرجل العالم إذا لم يجد ما يعيش منه اشتغل بالوراقة ونسخ الكتب ، وكان غير المسلمين يكتبون للمسلمين ما يروقهم وما هو على غير دين الكاتب وملته ، وقد كتب يحيى بن عدى المنطقى النصرانى نسختين من تفسير الطبرى وفيه ما يعد احتجاجاً على النصرانية ، كما كتب ما لا يحصى من كتب المتكلمين ، وربما كتب فى اليوم والليلة مائة ورقة[1] .

وكان سخاء الخلفاء ومحبى العلوم مما يشجع على نشاط هذه الحركة ، وقد اشترى الرشيد بعض المخطوطات بوزنها ذهباً ، وكان للبرامكة لبنى موسى ابن شاكر سخاء ونشاط فى جمع الكتب وترجمتها ، وكانت بغداد كلها فى هذا الوقت تعج بالعلماء وتنتشر فيها قاعات البحث والمناظرات ، وكانت تيارات الفكر وأنواع العلوم قد تعددت من أصيلة ودخيلة ، ولكل فرع علماؤه وطلابه ، وكان الأثرياء يسخون على الطلاب تشجيعاً لهم ورغبة فى نشر العلوم وتفقيه الناس .

وقد أخرج الحسن بن الفرات من خزانته عشرين ألف درهم لطلاب الحديث وقال : لعل الواحد منهم يبخل على نفسه بدانق أو ما هو دونه فيقتطعه من قوته أو ملبسه ليجعله ثمن ورق وحبر وأنا أحق بمراعاتهم ومعاونتهم على أمرهم[2].

لم يقف تأسيس المكتبات عند بيت الحكمة — وهو أمر واضح — فكانت هناك مكتبات أخرى عامة وخاصة .

كان للكبراء والأثرياء مكتباتهم الكبيرة فى بيوتهم وكانوا يفتحونها لراغبى الاطلاع ، وكانت المساجد أيضاً دور كتب ، وكان العلماء يهبون

(١) انظر الفهرست ٣٨٣ ط التجارية .

(٢) انظر ياقوت ١/ ٢٥٥ .

كتبهم للمساجد ، ووقف الخطيب البغدادي كتبه على المسلمين[١] .

وانتشرت بجانب ذلك دور بيع الكتب ، فكان في أحد شوارع بغداد ما يزيد على مائة حانوت لبيع الكتب ، وكان أصحابها غالباً من الخطاطين وكانت هذه الدور أيضاً أندية بحث ومناظرة .

وتبع هذه الحركة الثقافية حركة التأليف ، والحق أنها حركة بدأت قبل حركة الترجمة ، وكانت بدايتها الرغبة في تعليم الدين وضبط قواعد العبادات ، وقد كتب جابر بن عبدالله المتوفى سنة ٧٨ منسكاً في الحج ، ثم كان للغويين نشاط أوسع — وحركتهم بدأت بأبي الأسود ، ولكن يقال إنه لم يضع إلا باب الفاعل والمفعول ، وقيل وضع أيضاً باب التعجب ثم كان عبدالله الحضرمي فبعج النحو ، ثم كان عيسى بن عمر (١٤٩) فترك نيفاً وسبعين تصنيفاً ، وقال : كنت أكتب ليلا حتى ينقطع سوائي أي ظهري[٢] .

ولم تقف دور الكتب وحوانيت بيعها عند أسوار بغداد بل نجد العواصم الأخرى تتحلى بمكاتب كبيرة عامة ونجد أمراءها يسخون على العلماء ويجتلبون الكتب من مختلف البقاع ، فكان بالموصل مكتبة كبيرة لأحد الأثرياء ، يختلف إليها الطلبة للقراءة والبحث وتقدم لهم الأوراق بالمجان ، وكان بالبصرة مكتبة يتجه إليها كل راغب في القراءة من الطلبة وغير الطلبة ، وكان صاحبها يجيز المتفوقين في المناظرات بمكافآت علمية تغريهم بالمزيد من القراءة والتعمق في الدرس والمعرفة[٣] .

وكان لكل من الصاحب بن عباد وعضد الدولة البويهي مكتبة كبيرة خاصة حتى أن الصاحب أراد أن يسافر مرة فاحتاج إلى عدد من الإبل لحمل كتبه ، وقد ترك الصاحب معجماً لغوياً كبيراً أثبت فيه محصوله اللغوي وما استدركه على من سبقوه[٤] أما مكتبة المعتضد فكانت في شيراز وكانت الكتب فيها مرتبة ترتيباً أبجدياً وكانت ذات فهارس خاصة تساعد على

(١) نفسه ٢٨٧/٤ .

(٢) أنباه الرواه ٣٧٥/٣ — ياقوت ١٠٥/١٦ .

(٣) أنظر المقدس ٤١٣ .

(٤) توجد نسخة خطية من هذا المعجم بالمتحف البريطاني — ويقال إنها اشتريت باثني عشر ألف جنيه استرليني .

الاهتداء والبحث ، وكان هذا أمراً ضرورياً لكثرة ما بها من الكتب .

وكان بالرىّ مكتبة تحمل كتبها أربعمائة بعير ولها فهرس كبير يقع فى عشرة مجلدات .

وبعض هذه المكتبات كالتى كانت بالرى وجنديسابور كانت موجودة قبل العرب ، ولكنها كانت فى المعابد ولم يستفد المسلمون منها شيئاً كثيراً لأنها كانت تدور حول دياناتهم المجوسية وتأليه الكواكب والنجوم ، فأعرض المسلمون عنها ، لكن بعضها كان به بحوث فى الفلك والتنجيم والطب الذى يستندإليها وهذه قرأها المسلمون وأخذوا منها ما أخذوا ، واتهمهم بعض المحدثين بأنهم أحرقوها ونفى ذلك آخرون .

ومهما يكن من شىء فهناك خمسة من الحكام إليهم يرجع أكبر الفضل فى إنشاء المكتبات ودور العلم وهم المأمون ونظام الملك ونور الدين زنكى والحاكم بأمر الله الفاطمى . ثم الحكم بن هشام الأندلسى .

ونعرض للمكتبات الإسلامية فى حديث لاحق .

فى الصدق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« دع ما يريبك إلى مالا يريبك . فان الصدق طمأنينة والكذب ريبة » .

دراسات قرآنية

لا يذهب العرف بين الله والناس

فضيلة الشيخ / مصطفى الحديدى الطير

قال الله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ »
(الآية ١٩٩ من سورة الأعراف)

وقال : « وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ »
(الآية ٢٢ من سورة النور)

البيان

عنى الإسلام بالحث على بذل المعروف والإحسان لعباد الله وإن أساءوا ، حتى يزول الحقد والضغينة والخوف من مجتمعهم أو يكاد ، وحتى تسود المحبة والود بينهم ، قال الله تعالى آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم ومن ورائه أمته : « خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرفِ وأعْرِضْ عن الجاهلين » .

فالله جل جلاله يأمرنا أن نعفو عمن أساء إلينا ، ونعالج حقده ومساءته بالمعروف والإحسان إليه ، إلى جانب العفو عنه ، وأن نعرض عن جهالة الجاهلين ومساءاتهم ، فلا نقابلهم بمثلها ، ولا نحاسبهم عليها ، فإن فعلنا ذلك حولنا عداوتهم إلى صداقة ، وطهرنا قلوبهم من مرض الحقد الخطير وجعلنا منهم أعضاء صالحين فى المجتمع الإسلامى .

ولقد كان للإمام محمد عبده درس فى الأزهر ، وكان يمر بزاوية الحلوجى فى طريقه إليه ، وكانت له آراء فقهية ومذهبية متحررة خلقت له خصوماً ، وكان بعضهم عنيفاً فى خصومته إلى حد السفه ، فجلس

إليه أحدهم عند زاوية الحلوجى ، ينتظر مروره به وهو ذاهب إلى درسه فى الأزهر ، فحينما بصر به أمطره شتماً وسفهاً وصل إلى رميه بالكفر ، وكان الشيخ وقتئذ مفتيًا للديار المصرية ، وله منزلة فى الدولة يستطيع بها أن يعاقب هذا السفيه بما يجعله عبرة لأمثاله.. ولكنه آثر أن يعالجه من حقده ، وأن يصرفه عن عداوته ، وأن يفتح عقله وقلبه ، فلم يجد محققاً لهذا كله سوى المعروف والإحسان ، فقد رأى بالرجل حاجة ، وأدرك أن هذه الحاجة هى التى جعلته سيئ الفكرة سريع الإنفعال ، فلهذا بعث إليه بمعروفه وغمره بإحسانه.

ولما مر به بعد فى طريقه إلى درسه ، أقبل عليه وأحسن تحيته ، وأظهر أسفه وندمه على ما كان منه نحوه ، وهكذا حوله الإحسان من صفوف الأعداء إلى صفوف الأولياء والنصراء .

وهذا معاذ بن جبل يذكر لنا وصية النبى صلى الله عليه وسلم له حين بعثه واليًا على اليمن فيقول : « لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال : «ما زال جبريل يوصينى بالعفو ، فلولا علمى بالله ، لظننت أنه يوصينى بترك الحدود » فأنت ترى أنه صلى الله عليه وسلم يخبر معاذاً بوصية جبريل له بالعفو ، ليجعله سبيله فى معاملة الناس ، ليألفوا الإسلام ويعرفوا فيه الرفق والصفح ، ما لم يؤد ذلك إلى مفسدة مع أهل الشر ، فإن الحزم حينئذ أجدى وأحسن آثاراً ، فإن الكرم لا ينبغى أن يوضع موضع العقاب ، والشدة لا ينبغى أن توضع موضع الإحسان ، فكل فى موضعه هو الدواء، وهو العلاج ومن بعده الشفاء .

أبو بكر يحسن إلى من أساء إليه فى عرضه :

ولا يوجد أشد على النفس من أن يسىء إليك من تحسن إليه ، وأن يكون هذا المسىء من أهل قرابتك ، ومع هذا فقد أمرنا بالتجاوز عن مساءاتهم وإعادة الإحسان إليهم ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، فلا بد من أن يصحو ضميره ، ويتَلوَّم بسبب تتابع الإحسان إليه مع توالى إساءته ، روى فى الصحيح أن الله تبارك وتعالى لما أنزل : «إنَّ الذين جاءوا بالإفك عُصْبَةٌ منكم » الآيات. قال أبو بكر — وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره — والله لا أنفق عليه أبداً بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله تعالى: « ولا يأتَلِ أُولُو الفَضْلِ مِنكم والسَّعَة » ، إلى

قوله: «ألاَ تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللهُ لكم» فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فأرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً » . قال عبد الله بن المبارك : هذه أرجى آية فى كتاب الله تعالى ، وقال القرطبى : إن الآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة ، بأن لا يغتاظ ذو فضل وسعة ، فيحلف أن لا ينفق على من هذه صفته . .

وكان مسطح ابن خالة أبى بكر ، ومن المهاجرين البدريين المساكين ، فتأثر بكلام المنافقين فى حق عائشة ، فكان يستمع إليهم ولا يردهم ، فلما غضب أبو بكر وقطع عنه نفقته ، جاء واعتذر إليه بأنه كان يسمع ولا يقول ، فلم يقبل منه هذا الاعتذار ، فلما نزلت الآية الداعية إلى إعادة إحسانه إليه ، استجاب لربه وأعاد إليه إحسانه كما مر بيانه .

وعمر يدعو إلى المعروف ويبذله :

وقد كان عمر بن الخطاب على شدته حريصاً على بذل المعروف فى موضعه ، شعوراً منه بمسئوليته العظمى أمام الله تعالى — باعتباره أميراً للمؤمنين — وكان يرى ذلك أفضل العبادة ، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم : « أفضل العبادة أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، كما كان يدرك بثاقب فكره ، أن الإحسان عظيم الأثر فى جذب القلوب ، ونشر الأمن والطمأنينة ، وكان يحلو له أن يردد قول الشاعر :

مَنْ يفعل الخيرَ لا يعدَمْ جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

وكان له فى الإحسان والرحمة عُمَرِيَّاتٌ لا تجارى ، سجلها التاريخ بمداد الاعتزاز والفخار ، كما سجل نجاحه بها فى الحكم الأمثل للمسلمين فى المشارق والمغارب ، وربما خصصناه بمقال إن شاء الله تعالى .

موقف خطير فى الوفاء وبذل المعروف :

وقف مُعن بن زائدة موقفاً خطيراً فى بذل المعروف ، كاد يعرضه للإطاحة برأسه ، ولكن الله نجاه : لأنه أجار مظلوماً ، وحماه من إهدار دمه .

وتفصيل ذلك أن الخليفة المهدى بلغه عن رجل أنه يتزعم فتنة ضده فى بغداد ، فصدق الوشاة ، وأهدر دم هذا الرجل ، وجعل لمن دل عليه مكافأة عظيمة .

ولما كانت الفتنة لا عقل فيها ، حتى يستطيع المظلوم أن يجادل عن نفسه ، فلهذا اضطر البغدادى المتهم زوراً أن يختفى لينجو من الهلاك ، فلما طالت أيام اختفائه ، ظن أن العيون عنه نامت ، وشخصيته جهلت ، وقصته نسيت ، فظهر يوماً فى بغداد ، فبصر به رجل من أهل الكوفة يعرفه ، فأخذ بمجامع ثوبه قائلا : أنت مطلوب أمير المؤمنين . فاشتد به الحرج وأدرك أنه هالك ، فإذا هو يسمع من ورائه وقع الحوافر ، فالتفت فإذا معن بن زائدة ، فقال الرجل : يا أبا الوليد أجرنى أجارك الله ، فوقف وقال للرجل الذى أمسك بتلابيبه : ما شأنك ؟ قال : هذا رجل أهدر دمه أمير المؤمنين ، وجعل لمن دل عليه مالا جزيلا ، فقال معن لرجل من رجاله : انزل عن دابتك واحمل الرجل عليها ، فصاح الرجل : أتحول بينى وبين ثائر على أمير المؤمنين ، فقال له معن : اذهب وأخبر أمير المؤمنين أنه عندى ، فانطلق الرجل إلى قصر المهدى وأخبر حاجبه بما حدث ، فأبلغ الحاجب الأمر إلى مولاه ، فأمر بإحضار معن ، فأتته الرسل ، فأحضر جميع رجاله وآل بيته ، وأمرهم بالمحافظة على الرجل الذى أجاره وقال : لا يخلص إليه أحد وفيكم عينٌ تطرفُ ، ثم ركب متجهاً إلى المهدى ، فلما دخل عليه سلم فردّ سلامه وقال : يا معن أتجير علىّ ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ، قال المهدى : تقول نعم . واشتد غضبه ، فقال يا أمير المؤمنين . قتلت فى اليمن فى يوم واحد خمسة عشر ألفاً فى طاعتكم ، إلى جانب أيام كثيرة قد تقدم فيها بلائى وحُسْن عنائى ، فما رأيتمونى أهلا لأن يوهب لى رجل واحد استجار بى ، فأطرق المهدى طويلا ثم رفع رأسه وقد سرى عنه وقال : قد أجرنا من أجرت ووهبناه لك ، فقال معن إن رأى أمير المؤمنين أن يصله فيكون قد أحياه وأغناه ، قال : قد أمرنا له بخمسين ألف درهم ، قال : فيأمر أمير المؤمنين بتعجيلها ، فأمر بها فأحضرت ، فانصرف معن إلى الرجل بالمال ، وأضاف من عنده سواه وقال له : خذ هذا والحق بأهلك ، ولم ينس أن يوصيه بطاعة ولى الأمر ، ولا شك أنه بهذا الإحسان سيكون من أشد الناس ولاء لأمير المؤمنين الذى منحه العفو وشفعه بالإحسان .

أسلوب معاوية فى تأليف القلوب :

كان معاوية بن أبى سفيان حسن التصرف فى تفادى الأزمات وتأليف القلوب ، وكان من أنجح وسائله وضع الإحسان فى مواجهة الحدة أو الإساءة ، ومن ذلك ما حدث بينه وبين عبد الله بن الزبير ، فقد كان لابن الزبير أرض له فيها عبيد يعملون بها ، فدخل عبيد معاوية فى أرض عبد الله بن الزبير ، فكتب إلى معاوية يقول : أما بعد يا معاوية فإن عبيدك قد دخلوا فى أرضى فانْههم عن ذلك وإلا كان لذلك شأن — فلما قرأه معاوية دفعه إلى ولده يزيد فقرأه : فقال معاوية لولده ما ترى ؟ قال : أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده وأخره عندك يأتوك برأسه ، فقال : أو خير من هذا يا بنى ؟ ثم أخذ ورقة وكتب فيها إلى عبد الله بن الزبير فقال : وقفت على كتاب ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساءنى ما ساءه ، والدنيا بأسرها هينة فى جنب رضاه ، وقد كتبت على نفسى صكاً بالأرض والعبيد وأشهدت على نفسى بذلك ، فليستضفها إلى أرضه مع عبيدها : والسلام .

فلما قرأ عبد الله بن الزبير كتاب معاوية كتب إليه : وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، ولا أعدمه هذا الرأى الذى أحلهُ من قريش هذا المحل ، والسلام .

فلما قرأ معاوية كتاب ابن الزبير دفعه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه علتْ البشاشةُ وجههُ ، وعرف حسن معالجة أبيه لمعضلات الأمور بإسداء المعروف ، فقال معاوية : يا بنى من عفا ساد ، ومن حلم عظم ، ومن تجاوز استمال القلوب ، فإذا ابتليت بمثل ذلك فداوه بمثل هذا الدواء .

وكان معاوية على نمط ممتاز من ضبط النفس والحلم ، فكان يقول : أنى لآنفُ أن يكون فى الأرض جهل لا يسعه حلمى ، وذنب لا يسعه عفوى ، وحاجة لا يسعها جودى ، وكان يقول : لو كان بينى وبين أحد خيط من عنكبوت ما انقطع ، فإنه إذا شدَّ أرخيت ، وإذا أرخى شددت .

ومن أمثلة حلمه العجيبة أنه وزع قطعاً من القطيفة على رؤساء الأمر ، فأخذ شيخ منهم ثوباً ، فلما فحصه فى بيته لم يعجبه ، وأقسم أن يضرب به رأس معاوية ، فذهب به إليه وقال :

يا معاوية . كيف تختار لى هذا الثوب المعيب . لقد حلفت أن أضرب به رأسك ، فأجابه قائلا : برّ بقسمك وليرفق الشيخ بالشيخ .

الرشيد يعفو عن ثائر فيشتريه بعفوه عنه :

هؤلاء القادة كانت لهم قلوب أشعتها نفاذة ، فكانوا يعالجون المسيئين بالإحسان ، ويستلهمون ضمائرهم فتهديهم سواء السبيل ، انظر إلى الرشيد : حين خرج عليه بعض رعاياه فى جموع كثيرة ، فجهز له جيشاً حاربه حتى هزمه وظفر به ، فلما أدخل على الرشيد قال له : ما تريد أن أصنع بك ؟ قال له : اصنع بى ما تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه وهو أقدر عليك منك علىّ ، فأطرق الرشيد مليا ثم رفع رأسه وأمر بإطلاقه ، فلما خرج قال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين تقتل رجالك وتفنى أموالك ، وتظفر بهذا الذى خرج عليك وتطلقه بكلمة واحدة ، ألا ترى أن هذا يجرىء عليك أهل الفساد ، فأمر الرشيد برده ، فلما عاد ومثل بين يديه ، علم أنه قد سعى به وأشير على الخليفة بقتله ، فقال : يا أمير المؤمنين لا تطع فىّ مشيراً يمنعك عفواً تدّخر به عندالله يداً ، ويبعثك على الانتقام الذى ليس من مكارم الأخلاق ، واقتد بالله تعالى ، فإنه لو أطاع فيك مشيراً لما استخلفك طرفة عين ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، فأمر بإطلاقه وأن لا يعاوده فى شأنه ، فظل بعد ذلك للرشيد مخلصاً وفيًّا .

صاحب رحبة سوار والمهدى :

يقص علينا محمد بن القاسم الأنبارى قصة ممتازة فى أثر المعروف ، يحدثنا بها عن سوار صاحب الرحبة المعروفة باسمه ، وكان من جلساء المهدى وأصفيائه ، قال سوار : انصرفت يوما من دار المهدى ، فلما دخلت منزلى دعوت بالطعام ، فلما قدم بين يدى لم تقبل عليه نفسى ، فأمرت به فرفع ، ودخلت وقت القائلة لأنام ، ولكن النوم نأى عنى ولم أجد له سبيلا ، فأمرت ببغلة فأسرجت وأحضرت ، فركبتها فاستقبلنى وكيلى حين خرجت ومعه مال ، فقلت : ما هذا ؟ قال : ألف درهم جئت بها من مستغلك الجديد ، قلت أمسكها معك واتبعنى .

قال سوار يتابع حديثه — كما رواه

محمد بن القاسم الأنبارى — عبرت البغلة الجسر إلى شارع دار الرفيق ، حتى انتهت إلى الصحراء ، ثم رجعت إلى باب الأنبار ، فانتهيت إلى باب دار عليه شجرة ، وبالباب خادم ، فوقفت عنده وقد أصابنى عطش ، فقلت للخادم : أعندك ماء تسقينيه ؟ قال نعم ، فأخرج قلة طيبة الرائحة عليها منديل فشربت ، وحضر وقت العصر فدخلت مسجداً إلى جانب الباب ، فصليت فيه ، فلما قضيت صلاتى إذا أنا بأعمى يتلمس فقلت : ما تريد يا هذا ؟ قال : إياك أريد ، قلت وما حاجتك ؟ فجلس إلىّ وقال : شممت منك رائحة طيبة ، فقلت إنك من أهل النعيم ، فأردت أن أحدثك بشيء هام، فقلت له : قل ما عندك ، قال : ترى عظمة هذا القصر ؟ قلت نعم ، قال : إنه كان لأبى فباعه ، وخرج إلى خراسان وخرجت معه ، فزالت عنا النعم التى كنا فيها ، وكف بصرى ، فقدمت إلى هذه المدينة ، وأتيت صـاحب القصر لأسأله شيئاً أصل به إلى سوار ، فإنه كان صديقاً لأبى ، قلت ومن أبوك ؟ قال : فلان بن فلان ، فإذا هو من أصدق الناس لى ، فقلت له إن الله تعالى قد أتاك بسوار ومنعه النوم والطعام والقرار حتى جاء به وأجلسه بين يديك ، ثم دعوت وكيلى فأخذت منه الدراهم ودفعتها إليه وقلت له : إذا كان الغد فسر إلى منزلى ، ثم مضيت فقلت : ما أحدثُ أمير المؤمنين المهدى بشيء أفضل من هذا ، فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لى ، فحدثته فأعجبه الحديث ، فأمر بألفى دينار وقال : أدفعها إلى الأعمى ، فنهضت فقال : اجلس . أعليك دين ؟ قلت نعم ، قال : كم دينك ، قلت : خمسون ألف درهم ، فجعل يحادثنى ساعة فى غير موضوع الدين وقال : أمض إلى منزلك ، وإذا بخادم معه خمسون ألف درهم يقول لى : أمير المؤمنين بعث بها إليك لتقضى بها دينك ، فلما كان الغد أبطأ على الأعمى ، فأتانى رسول المهدى يدعونى : فجئته فقال : فكرت البارحة فى أمرك فقلت : يقضى دينه ثم يحتاج إلى القرض ، فلهذا أمرت لك بخمسين ألف درهم أخرى ، فقبضتها وانصرفت ، فجاءنى الأعمى فدفعت إليه الألفين ، وقلت له : قد رزق الله بكرمه وحسن

معاملتى إياك أضعاف ما أخذته منى ، ثم أعطيته منحة أخرى وجهزته وانصرف.

وهكذا من يزرع جميلا يحصد جميلا مثله أو خيراً منه ، فإن رب القلوب كما يحركها فى الإحسان بداية ، يحركها فى المكافأة عاقبة ، والله تعالى هو الموفق .

مصطفى محمد الحديدى

فى الصبر

قال صلى الله عليه وسلم :

الطهور شطر الإيمان . والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك . كل الناس يغدو . فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها . . . »

الفيلم السراب

نقد لفيلم « الرسالة »

لسماحة الشيخ / حسن كتبي

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا . . . » (قرآن كريم)

لقد شاهدت فيلم (الرسالة) المعروض فى إحدى دور السينما فى لندن . . ورأيت من الواجب أن أسجل انطباعاتى وملاحظاتى عليه .

أعتقد أن هذا الفيلم عالج عرض حقائق تاريخية ، ودينية ، وانتفاضة إنسانية عالية على مستوى أعلى بكثير من جميع الإمكانيات التى تتوفر للكفاءات السينمائية معالجتها على الوجه السليم . .

فالموضوع أعظم بكثير — إلى حد الإعجاز — عن القدرة على جمع أبعاده فى إطارات محدودة تعطى ولو بعض الشمول لبعض جوانبه . . ومن يستطيع أن يحصر حجم الشمس فى رابعة النهار عند اكتمال إشراقها فى إطار واحد .. أو إطارات متعددة ليسهل على العين المجردة الإحاطة بكامل حجمها .. أو بحجم يقرب من حجمها الحقيقى ..

وكذلك شأن جميع الكائنات التى أوجدها الله ليمكن للعقل الإنسانى الكامل التفتح والذكاء أن يسبح فى شواطئها القريبة الضحلة حتى يعرف من تجاربه فى هذه الممارسة آفاقها ، وعظمة الحقائق التى تُكِنُّها فى أعماقها تلك الآفاق ، والأعماق البعيدة — الممتدة إلى شواطئ الخلود .. والتى لن يصل إليها عقل فى هذا الوجود ..

« قُلْ : لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ

تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً » .

فموضوع رسالة الإسلام — تأتى مقدمته من (التحضير الإلهى لوجود هذه الرسالة) . . التحضير فى أكوانه التى تتألف من الأزمنة والأمكنة والأجيال المتعاقبة الموغلة فى القدم . .

والتحضير فى تنظيم الرسالات السماوية التى سبقت الإسلام . . وما صادفته من قبول ورفض وثواب وعقاب . . بما فى ذلك اختيار وتحديد الأمكنة والأزمنة والشعوب التى وجهت إليها الرسالات السماوية . . وما صادفته تلك الرسالات من مدّ وجزر . . ومقاومة وتأييد .

كل ذلك تمهيد ضرورى ينبغى أن يسبق (الدخول) إلى عرض رسالة الإسلام . . وهذا الأمر يبدو ذا أهمية عظمى وأبعاد شاسعة ليظهر تفاعل تلك الرسالات العميق مع رسالة الإسلام التى جاءت خاتمة لها — ويبدو هذا الجزء من أجزاء (رسالة الإسلام) أعظم من جميع الطاقات الفكرية والفنية التى يستطيع الفن السينمائى بكامل أجهزته تصوّره . . ثم نقل ذلك التصور إلى شىء مرئى ومسموع . . يخضع لإمكانيات عرضه فى لقطات سينمائية ، وإلى حركات تخضع لأقوى عدسات أجهزة التصوير لتنقلها فى شكل قريب من حقيقتها على ما كانت عليه فى كل حقبة من أحقاب التاريخ التى سبقت حلقاتها تلك الحلقة الهائلة التى جاءت فى ختام تلك المسلسلة الإلهية والتى هى (رسالة الإسلام) .

وإذا كان التحضير (لرسالة الإسلام) على نحو ما ذكرنا باختصار وإيجاز ، ينمّ على العجز عن تصوير المعنى الكامل لذلك التحضير الإلهى لتلك الرسالة العظمى . .

إذا كان هذا التحضير هو عنصر رئيسى من موضوع رسالة الإسلام التى أريد لها أن تقدّم فى هيئة فيلم سينمائى لجيل هذا العصر الذى اختلطت فى مداركه الحقائق العلمية التى هى من (كلمات الله) التى وردت الإشارة إليها فى الآية الكريمة . . اختلطت هذه الحقائق بتمرد العقل المادى على قوانين الروح التى فطرها الله على الإيمان به ، ونجم عن ذلك الخلط هذه المشاعر القلقة التى تغمر بالفزع والرعب والحرمان من نعمة الاستقرار والاطمئنان حياة إنسان هذا العصر .

إذا كان هذا التحضير الذى يعتبر من أهم وأوليات عناصر الإخراج للفيلم فى حكم الاستحالة فإن محاولة إخراج الفيلم قامت على أساس من (العدم المطلق) لتحقيق صورة من (الوجود المطلق) ذلك الوجود الذى جعله الله فى هيئة أنظمة محكمة دقيقة يعجز العقل البشرى عن أن يتابع جوانب من ظواهرها . . وكل حظه من القدرة هو أن يقف خاشعاً عند إدراك بعض أسرارها .. مغتبطاً عند حل شىء من رموزها .

وإنه ما من إنسان ملمٍّ برسالة الإسلام إلا وقد أدرك بوضوح أن عنصر (التحضير للرسالة) معدوم كُلِّياً فى الصور التى عرضها الفيلم ، وبانعدامه بدأ الفيلم أشبه مايكون « بمفاجأة حمقاء » لأنها جاءت مبتورة عن المقدمات الطبيعية لها التى توفر فى نفوس المشاهدين القابلية لتلقِّيها .

فرسالة الإسلام ليست هى الرسالة السماوية الوحيدة على الأرض وللبشر .. كما أنها ليست من نوع وطبيعة تختلف عن الرسالات السماوية التى سبقتها . وهى معروضة لمشاهدين يعتنقون شتى الرسالات السماوية ، ويؤمنون بها ، ويتعصبون لها ، ويتطلعون إلى معرفة مركز رسالة الإسلام من الرسالات التى سبقتها والتى يؤمنون بها . كما يتطلعون إلى التسلسل الطبيعى الذى أدى إلى وجود هذه الرسالة . . لأنها من عند الله . . ومن أبسط حقائق الإيمان أن رسالة سماوية لا تأتى من غير حاجة إليها . . وهى إذا جاءت ينبغى معرفة الحقائق التى تلتقى عندها الرسالات السابقة . . والحقائق التى تأخذ شكلا غير شكل سابقتها . . وما هى المصلحة العليا فى هذا التطور فى تعاليم منزهة عن الشك فى صدقها ومطابقتها . . .

وباختصار . . فإن المشاهدين الذين يعتنقون رسالة من الرسالات السماوية كانوا يتطلعون منذ بدأ الفيلم إلى رؤية عرض مرتب يصور معانى الديانات السماوية فى جمل مختارة من تعاليمها الأساسية التى لا تختلف بحال من الأحوال . كما يصور الغاية من تلك التعاليم . . والأحداث الزمنية التى سلكت بهذه الرسالات مسالك تنحدر من الضد إلى الضد فى صور من الكفر بها . . ومسالك تقودها إلى الشـــقاق بدلا من الوفاق ، وإلى عكس الغاية التى خلق الله الإنسان من أجل تحقيقها ، وجعل خلقه من

أصل واحد هو « آدم » ثم خلق جنسه (حواء) من ذاته . . وكان قادراً على أن يخلقه خلقاً مستقلا ، ولكن إرادته العليا لتوحيد خليقته سبقت بأن يخلق حواء من كيان آدم ليتحقق الكيان المتحد فى الوجود الإنسانى . . .

أما الغاية التى خلق الله الإنسان من أجلها فهى التى توضحها رسالة الإسلام — « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ».

فالتعارف إنما ينم عن حقيقة واحدة هى المساواة المطلقة فى أصل الوجود . أما التفاضل بين إنسان وآخر فإنه يأتى من العمل : عمل الخير ، وعمل الشر ، وهما خطّا السير فى الوجود على الأرض.

فأما خط الخير فينتهى بسالكيه إلى الكرامة واستحقاقها والجدارة لها . . حتى يسلمهم إلى نعيم مقيم لا يحول ولا يزول ولا تدركه العقول .

وأما الخطُّ الآخر فإنه ينحدر بسالكه إلى صور من المآسى الخاصة والعامة التى يعرفها جيل هذا العصر أكثر من أى جيل مضى قبله . . لأن جميع الفضائل اهتزّت معاييرها وكثير منها أنطفأ نورها ، وأقيمت المآتم على قبورها إمّا على شكل أسى وحزن من العارفين بحقها . . أو على أنغام الجاز وموسيقى الهيبز الداعرة من الراقصين فرحاً على زوالها والخلاص منها .

فالحقائق التى تلتقى على تأكيدها جميع الرسالات السماوية هى أهم ما كان ينبغى أن يأتى كمقدمة للدخول على الفيلم لتحضير نفوس المشاهدين لتقبّل ما يأتى بعدها . . .

ولكن الفيلم بدأ بمفاجأة حمقاء . . كما لو كان يصور (قصة) بطل ظهر فى ظروف غامضة ، وغير متوقعة . . ليحدث وجوداً تبدو المفاجآت التى لا حد لها ولا عد فى جميع ظروف قصته .. ثم يُصَعِّدُ الفيلم أحداث القصة حتى تظهر آثارها وقد طبقت المشارق والمغارب . . وبعد ذلك ينهيها باختفاء البطل صانع القصة وكلّ من صاحبه فى صنعها بعد أن توسعت آفاقها إلى ما لا نهاية . . يختفون جميعاً عندما تكون الصورة الأخيرة من الفيلم كالعاصفة القوية فى أشدها . . إذ تنطفىء الأنوار فجأة على الشاشة ، ويترك المشاهدون فى نهاية من الظلام والحيرة تشبه البداية التى بدأوا منها .

وإنى بعد ما تقدّم أجد مجال القول واسعاً جدًّا . . ويوشك أن يخرج بنا من نطاق الأفلام السينمائية المحدودة إلى آفاق الديانات التى لا حدود لها ، وإلى مثلها السامية ، وأهدافها فى تكريم المواهب الإنسانية التى أنعم الله بها على الإنسان ، وكرّمه بالعلم وسلحه بالعقل، وخلق له ما فى الأرض جميعاً ، ليستخدم عقله ومواهبه فى معرفة أسرار الخليقة والتمتع بها ، والتنعم بما أودعه فيها .

إن مجال القول على نحو ما تقدم يخرج بنا عن الموضوع : وهو الحديث عن فيلم الرسالة الذى كانت حصيلته أرباحاً هائلة لأصحابه . . وخسارة محزنة لمشاهديه . . .

وسأحصر الحديث فى انطباعاتى عن هذا الفيلم فى النقاط التالية — وهى :

١ — أن موضوع الفيلم أثبت حقيقة واحدة هى أن موضوع الأديان أسمى وأعظم من أن تطوله أعلى الكفاءات السينمائية وأجهزتها وقدراتها . . وكل ما استطاعته السينما بهذه المحاولة أنها أثبتت عجزها التام على أن توفى حتى أبسط جوانب الموضوع حقّه من العرض المناسب .

٢ — أنه يجب على كل إنسان غيور على دينه الذى يعتنقه مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً أن يمنع بكل عنف محاولة السينما وصانعيها ومحترفها من التعرض للديانات السماوية والرسل وحوارييهم وأنصارهم وحملة دينهم الذين ينقلونه من جيل إلى جيل . . ويجب أن ترتفع مشاعر الغيرة الدينية إلى أقصى الحدود التى ترهب أولئك الذين يحاولون أن ينحدروا بالقيم السامية للأديان ورسلها والمبشرين بها وبتعاليمها إلى مستوى الروايات التى تعزف الألحان فى منعطفاتها .. وتراق الخمور على ندواتها.. فالأديان السماوية : الإسلام . . والمسيحية . . واليهودية — وحتى تعاليم الأنبياء الذين لم نعرف أسماءهم وقد جاءوا مبشرين بتلك الأديان الكبرى يجب أن يدافع معتنقوها عن انتقاصها ووضعها فى المستوى الذى يجعلها مادة للمستهزئين .

٣ — أن أبطال فيلم الرسالة كانوا فى تمثيلهم على عكس صفات ومميزات الأبطال الحقيقيين الذين مثلوا أدوارهم .

فحمزة وبلال . . وعلىّ . . كانوا فى حياتهم على صورة تختلف كل الاختلاف عن الصور التى مثّلت

عنهم فى الفيلم — فقد كانوا معروفين بالأدب والتواضع وخفض الصوت فى مخاطبة الرسول عليه السلام . . . والتنزه عن التشنجات التى ظهر بها أبطال فيلم الرسالة فى أحاديثهم مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . .

ولقد عرف عنه — عليه السلام — وعنهم أنهم فى مجالسه كانوا كأنما علــى رؤوسهم الطــير من السكينة والوقار والحب والاحترام والأدب حتى لا يستطيع الواحد منهم أن يملأ عينه من النظر إلى وجه سيدهم مهابة وتوقيراً وتعظيماً . ..

وهناك مناظر عديدة ينكرها المسلمون ويحتقرونها فى هذا الفيلم ، ويعرفون أنها مناقضة لما هو ثابت فى تاريخهم ظهرت فى لقاء المسلمين مع قريش فى الحديبية وعند فتح مكة . . وفى تسلق بلال على ظهر الكعبة للآذان ، وفى الأسلوب الذى جرى عليه تبليغ تعاليم الإسلام للمسلمين بالنسبة لحقوق المرأة ، والجار ، وحقوق المسلمين بعضهم على بعض ، وآداب المحاربين وما يحظره الإسلام فى معاملة المحاربين وما يجيزه . . وغير ذلك . . فكل هذه المناظر كانت فى أسلوبها مشوهة لحقائقها التاريخية ومتعارضة مع قدسيتها . .

وأخيراً — فإن الذين حاولوا إخراج رسالة الإسلام فى هذا الفيلم مثلهم كناطح صخرة يوما ليوهنها — فلم يضرها . . وإنما تحطمت رأسه على بأسها وصلابتها وقوتها . .

وليس هذا شأن هذا الفيلم وحده . . ولكنه شأن جميع الأفلام التى تصدت للأديان السماوية الأخرى ورسلها وحواريهم والأمناء فى كل شعب من الشعوب وجيل من الأجيال على نقل رسالة الدين إلى المؤمنين .

وأذكر فى ختام ما قدمت أننى لم أكتب ما كتبت تحت تأثير عصبية دينية أو رغبة فى معارضة عمل فنى بُذِلَتْ فيه أموالٌ طائلة .. وقد تكون من بين دوافعه الخفية نوايا صالحة ، وأهداف شريفة من قبل بعض الذين شاركوا فى الاهتمام بإخراجه .

كما أؤكد أننى حين حضرت لرؤية هذا الفيلم كنت متأثراً بأحاديث كثيرة لأصدقائى الذين سبقونى لمشاهدته . . وقد ترك فى نفوسهم ارتياحاً لمناظر قسوة كفار قريش على المسلمين وتعذيبهم ، ثم انتصار الدين وشموله جميع أقطار العالم . . . وكان من الممكن أن تبقى آثار انطباعاتهم ماثلة فى ذهنى عند مشاهدة الفيلم . . . ولكنى أعتقد أن

العواطف السطحية سريعة الانفعال لا يمكن أن تؤثر فى التعبير عن أى حقيقة فى الوجود إذا لم تطابق جوهر الحقيقة وطبيعة تركيبها . . وفرق الضد للضد بين العواطف التى تقوم على الانفعال . . . وبين رسوخ الحقائق وصلابتها وعدم خضوعها للمتغيرات الطارئة التى لا تقوم على أسس سليمة .

وفى الختام – أؤكد أيضاً أن فيلم « الرسالة » حجب حقيقة الإسلام ولم يظهرها . . وإنما قدم لمن يجهلون الإسلام صورة مشوهة عن المبشرات به . . وانتشاره . . وتعاليمه – وأهمل الجوانب المهمة فيه التى تثبت أن أول من بشر بظهور الرسول عليه الصلاة والسلام هم أحبار اليهود وقسس النصارى.. وأنه جاء مؤيداً لجميع الديانات السماوية بحيث لا يسمح لمعتنقيه بالشك فى تلك الديانات ولا بإنكار رسلها .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون : كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله : لا نفرق بين أحد من رسله . . وقالوا سمعنا وأطعنا . . » .

بل إن هذا الفيلم شوه حياة قريش فى جاهليتها ومسخها وصوّرها فى المناظر التى عرضت فى الفيلم تصويراً يتفق مع الأفلام التى تشابه صور الجاهلية فى شعوب الجرمان والإغريق – أكثر مما يتفق مع الشعب القرشى . . الذى كانت تحكم حياة مجتمعاته قوانين أخلاقية وتقاليد تخالطها كثير من الآداب والمعانى الفاضلة . . .

لذلك فإن أضرار الجانب السلبى فى الفيلم تفوق أضعاف الانفعالات التى تحدّث بها من شاهدوه مشاهدة سطحية ، وهم بمعزل عن معرفة عظمة وجلال الرسالة التى حجبها هذا الفيلم عنهم – بل لقد عمل على تشويهها ، وإلحاق أضرار بليغة بحقائقها ..

وبعد :

فعنوان هذا الفيلم (الرسالة) قد أخرجه هذا العنوان من صفوف الأفلام.. ولم يدخله فى صفوف (الرسالات) . . وقد تعاملنا مع العنوان فقط . . ولذا جاء ما كتبناه بصدده على الأسلوب الذى هو عليه – والذى استحق الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم انسجاماً مع عنوان الرسالة . . وليس مع واقع الفيلم .

حسن محمد كتبى

القرآن والعمل

للعلامة الشيخ / عبد الله بن كنون

تحت هذا العنوان كتب مؤلف كتيّب : (هل يمكن الاعتقاد بالقرآن) فصلا استهله بما سماه بديهية وهو قوله : « إن كل ما يوجد على وجه الأرض يعد من صنع يد الإنسان وعقله كما هو معلوم » ونجد أنفسنا مضطرين لنقض بديهيته هذه ببديهية حقيقية لا يمارى فيها مؤمن ولا ملحد ، وهى أن من جملة الأشياء الموجودة على ظهر الأرض الإنسان نفسه ، فهل هو الذى صنع نفسه بيده وعقله ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين ؟ وكيف ؟

أسئلة نوجهها إلى الفيلسوف (رحماتوف) منتظرين جوابه الذى يحل جميع المشاكل على الطريقة الشيوعية السوفييتية .

وإذا كان أول الدّنّ درديًّا كما يقول المثل ، فلا نتوقع أن نرى فى هذا الفصل أحسن من هذه البداية السيئة ، وهكذا بعد أن يتساءل المؤلف عن موقف القرآن من العمل يقول :

« القرآن يذكر أن العمل هو العقاب » الذى جازى الله به الإنسان على خطاياه ثم يستدل بالآية ٥٦ من سورة الذاريات التى تقــول : « (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) » وهذا كلام غامض يظهر أن المؤلف سمعه من أحد المبشرين — المسيحيين أو قرأه فى كتاب من كتبهم ولم يفهمه فنقله على علاته ، وكيفما كان الأمر فقد طبق عقيدة المسيحيين فى الخطيئة الأولى أو الكبرى كما يسمونها ، على الإسلام ، وحيث إن المسيحيين يعتقدون أن صلب المسيح كان هو الكفارة عن هذه الخطيئة فقد ظن هو أن الإسلام جعل العبادة ، وهى العمل فى نظر المؤلف عقابا للإنسان على خطاياه ؟

فأى خبط مثل هذا ؟ وما هى

العلاقة بين العمل والعبادة حتى تجعل العبادة هى كل العمل ؟ ومن قال له إن العبادة فى الإسلام هى عقاب للإنسان على ما ارتكبه من الخطايا ؟

هنا يتبين أن المؤلف يهرف بما لا يعرف ، فقد حمل العقيدة المسيحية على الإسلام ، وهو براء منها ، بل هى من الأخطاء التى جاء الإسلام لتصحيحها بقول الله عز وجل فى القرآن الكريم : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فضلا عن أن هذه الخطيئة الأولى قد غفرها الله لآدم منذ أدرك خطأه ، واستغفر ربه ، كما قال تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم) . .

ثم إن العبادة ليست هى كل العمل ، بل هى جزء قليل منه ومع ذلك فهى ليست عقابا ، وإنما هى قربة وزلفى من العبد لله عز وجل وشكر له على نعمه التى لا تحصى ، واختصاص له بالعبودية التى يجب فى شرع الإسلام أن لا تكون إلا لله .

على أن العبادة فى الآية الكريمة التى استشهد بها هذا المؤلف ، إنما هى توحيده عز وجل ومعرفته بصفاته العليا فالمحققون من المفسرين يقولون : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) أى إلا ليوحدونى ويعرفونى .

فسقط كل من هول به من كلام مدخول ملفق يكاد يكون لا معنى له ، لولا أن أخرجنا خبأه وبينا زيفه .

بعد هذا يقول : « إن من يأخذ بتعاليم القرآن ، عليه أن لا يشتغل إلا بعبادة الله ، لكن كيف يمكن أن يعيش ؟ كيف يدبر المؤمن أمر معيشته ؟ الجواب حسب تعاليم الإسلام سهل جداً ، وهو : « إن الله هو الرزاق » إن الإسلام وضع المؤمن أمام أحد أمرين ، إما أن يشتغل بطلب الرزق ويكون حظه الحرمان فى الآخرة ، وأما أن يقبل الحرمان فى الدنيا ويكون جزاؤه الجنة فى مملكة الله ويستشهد على قوله هذا بالآية الكريمة : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها ، وما له فى الآخرة من نصيب)[1] . .

وبما بيناه آنفا من أن المراد بالعبادة فى قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) هو معرفة الله تعالى وتوحيده ، يبطل قوله هذا وما

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الشورى والمؤلف قال أنها من سورة مريم (١٩) .

شيده عليه من نزعات لا حقيقة لها ، فإن من يأخذ بتعاليم القرآن عليه أن يسهم بما فى استطاعته ، فى بناء مجتمع فاضل يقوم على العدالة الاجتماعية والإحسان فى العمل ويمتنع هو كما يمنع غيره من المنكر والبغى وجميع الشرور ، على حسب ما جاء فى القرآن فى آيات كثيرة من أكثرها دلالة على ذلك قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » ليس عليه ألا يشتغل إلا بالعبادة كما زعم هذا المؤلف ، كيف والقرآن يقول : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) ، فأمر المؤمنين بمجرد انصرافهم من الصلاة أن ينتشروا فى الأرض طلباً للرزق ، وذلك يكون بجميع أنواع العمل من صناعة وتجارة وفلاحة ، وبالسفر والتنقل فى البلاد جلباً وتصديراً لخيراتها ومنتجاتها على سبيل تبادل المنافع وتنمية الموارد إلى غير ذلك مما يدخل تحت هذه العبارة الفذة الجامعة : (فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) ولكن من أين للمؤلف أن يفهم سر البلاغة العربية والإعجاز فى الأسلوب البيانى للقرآن ؟

والمهم هو أن القرآن يحض على طلب الرزق ، ويأمر المؤمنين به أن ينصرفوا من الصلاة إلى السعى فى الأرض لتدبير معيشتهم ، عكس ما ادعاه المؤلف من أنه إنما يلزمهم بالعبادة ولا يدع لهم فرصة لطلب الرزق اعتماداً على أن الله عز وجل هو الرزاق ، فها هو القرآن يكذبه ويعكس ما ادّعاه ، فيجعل أفضل الوقت للعبادة وأكثره للعمل والسعى وتدبير المعيشة وذلك فى يوم الجمعة الذى هو اليوم المفضل من أيام الأسبوع ، لأن هذه الآية من سورة الجمعة وفى صلاتها المفروضة ، بل إن مما امتاز به الإسلام على غيره من الأديان ما تدل عليه هذه الآية ، أنه لم يستثن حتى هذا اليوم الفاضل — أعنى يوم الجمعة — من طلب العمل فيه والسعى لتدبير المعيشة ، كما يستثنى اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد وإنما أمر بإقامة صلاته فى الجماعة وهى لا تستغرق أكثر من نصف ساعة بما فى ذلك من سماع الخطبة أو عظة الجمعة بعبارة أخرى ، والصلاة ثم قال : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) فما أعظم الإسلام وأكثر تجاوبه مع مطالب الحياة . .

ومما يدخل فى نطاق الحض على السعى فى طلب الرزق قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — « من بات وانياً فى طلب معيشة أهله ، بات مغفوراً له » — وبما سبق للمؤلف من أن الحديث يأتى فى المرتبة الثانية بعد القرآن وأنه المبين له يعلم أن قول المؤمنين أن الله هو الرزاق اعتماداً على تعاليم الإسلام ، ليس معناه ترك طلب الرزق ، ولكن الاعتقاد بأن ما يكسبه الإنسان بعمله وكده هو من عطاء الله وفضله لأنه رب العالمين وخالق الكون وما فيه ، وواهب القدرة على العمل ، فرجع ذلك إلى عقيدة الإيمان والتوحيد التى هو جوهر الإسلام .

وقال عمر بن الخطاب وهو الذى أنشأ إمبراطورية الإسلام العظمى ، وليس هناك من يدعى اليوم أنه يفهم أمر الإسلام فى هذا الصدد أكثر منه : « لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، وهو يقول : « اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » فطلب الرزق لا ينافى قول المؤمن : « اللهم ارزقنى » ، وإنما هو جمع بين الإيمان والعمل وهذا لا يرقى إليه فهم الماديين المفتونين من أمثال المؤلف .

أما آية : (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب) . فهى لم تنه عن حرث الدنيا وإنما تلفت النظر إلى أن العمل للدنيا يجب أن يكون مقرونا بالعمل للآخرة ، فمن عمل لآخرته مع عمله لدنياه ، تطبيقاً لتعاليم القرآن التى تحض على العمل لهما معاً كما فى الآية الأخرى : (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخـــرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا) بارك الله عمله وأعطـــاه من خير الدارين ومن قصر نظره على الدنيا ولم يعمل شيئاً لآخرته ، وأول عمل الآخرة الإيمان ، آتاه الله نتيجة عمله الدنيوى ولم يكن له فى الآخرة حظ ولا نصيب ، فهى من باب الحسنى على الجمع بين الإيمان والعمل ، بالنصوص التى ذكرناها من قبل . وتعلق المؤلف بها كالتعلق بخيط العنكبوت .

ومع ذلك فهو يتورك عليها ويقول : إن مثل هذه الأحكام ليست بجديدة ، (يعنى فى الإسلام) إنها اللا أخلاقية الدينية التى يتسم بها البغاة الماكرون ، والكسالى المتبطلون ، وجميع طوائف المتفقرة الذين لا يعملون ولكن يأكلون) .

فهو يخرج من اتهام الإسلام إلى

اتهام جميع الأديان ، شنشنة أعرفها من أخزم ، أى من الشيوعيين وجميع الملاحدة ، وقوله هذا هو من باب ما جاء فى الأمثال : (رمتنى بدائها وانسلت) فاللا أخلاقية الشيوعية هى المهتمة بالأكل ، وهى التى يكاد جميع نشاطها يدور على الأكل... ولعلها لما رأت الأخلاقية الدينية التى توصى بالقناعة والتقلل من الطعام وهى إنما قامت لمناهضة الأديان — جعلت وكدها هو السعى لتوفير المواد الغذائية ومضاعفة إنتاجها ، ولكن الواقع هو أن القدرة الإلهية عكست مرادها ، فضنت عليها بما جادت به على غيرها ، فلا ترى بلدا شيوعيا إلا وهو يعانى من ضنك العيش وقلة المؤونة بقدر ما يبذل من الجهد ويتحمل من المشقة ، وقد بلغت أثمان بعض المواد الضرورية كالطماطم والبطاطا والأرز ونحوها فى عاصمة بلاد شيوعية أرقاماً خيالية ، وحدثنى بعض رجال الدبلوماسية أنهم يخرجون إلى القرى البعيدة من العاصمة بعشرات الكيلومترات فى طلب حبتين أو ثلاث من البصل ونصف رطل من الفاصوليا ، وأما الفاكهة فلا كلام عليها .

ولقد كنا فى بعض البلاد الشيوعية نازلين فى فندق من أفخم الفنادق فكان طبق الفاكهة الذى يقدم إلينا من الطماطم والخيار ، وفى بلد شيوعى آخر بأوربا احتاج أحد كبار الناس إلى لتر واحد من اللبن لغذاء مريض عزيز عليه ، فلم يجده وكان له صلة برئيس ذلك البلد فذهب إليه وشكا له الحال فأعطاه لتر اللبن المطلوب من بيته ، أفيكون هذا الحرمان هو الذى يجعل أصحابنا الشيوعيين يكثرون الكلام على الأكل ويجدون فى نفوسهم على الذين يأكلون ؟

لكن الذى لا ريب فيه هو أن هذه الحالة هى مصداق لقوله تعالى : (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ، وقوله عز من قائل (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) .

ويعود المؤلف إلى الإسلام ، يخص رجاله بعد تعميم ، فيصفهم بالخداع وتخدير عقول الناس ، واختراع الأناشيد الدينية والدعوات ، لإلهاء الشعب ، وإيهامه أنه لا فائدة من العمل ، لأن

الله هو مدبر الأمور ، وكل شىء مكتوب عنده فى اللوح المحفوظ ، قائلا : (ونحن نتساءل كيف يمكن لله أن يكتب فى اللوح مسيرة الملايين من البشر منذ بدء الخلق ؟ وما هو مقياس هذا اللوح السرى ؟) ثم يعقب على ذلك بقوله « إن جواب الوعاظ المسلمين هو أن الله وحده هو الذى يعرف سر هذه الأمور » .

ونحن لا نجيب على ما يكيله لرجال الدين الإسلامى من تهم وما يصفهم به من أوصاف نابية لا تصدر من رجل مهذب ، لا ندرى كيف انخرط فى رجال الديبلوماسية ، وهو بهذه الرعونة والسلوك المعوج ، ولكننا نرد عليه قوله بأن رجال الدين الإسلامى يوهمون الشعب بأنه لا فائدة من العمل ، فقد أثبتنا بالحجة القطعية أن ذلك خلاف الحقيقة وأن رجال هذا الدين ما زالوا يحثون أتباعه على العمل والسعى اعتباراً بما جاء فى كتاب الله العزيز وسنة النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وتقدم بعض ذلك ، ومنه أيضاً قوله تعالى : (وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقوله صلى الله عليه وسلم : «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب فيبيع فيأكل ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » وقول عمر بن الخطاب : « إنى لأرى الرجل فيعجبنى ، فأقول هل له حرفة فإذا قيل لا ، سقط من عينى » والكلام فى هذا الباب لا حصر له .

وكون الله عز وجل هو مدبر جميع الأمور ، هو مما لا نزاع فيه عند جميع المؤمنين من أتباع الأديان وغيرهم من الحكماء والعلماء والمفكرين ، إلا الملاحدة الذين لا يؤمنون بشىء وهؤلاء لا يهموننا ما دامت الأكثرية الكاثرة من سكان المعمورة على الإيمان الراسخ والاعتقاد الجازم بأن الله خالق الكون ومدبره ومصرف أموره كما يشاء ويريد ، ومنذ كانت الدنيا وهى لا تخلو من طائفة من الجاحدين والمنكرين لوجود الله وهم بمثابة الشذوذ الذى يثبت القاعدة والخارجين على النظم والآداب العامة الذين ينبذهم المجتمع ويتقيهم كما يتقى إحدى الآفات .

ولما كان المؤلف لا يؤمن بالله ولا يعرفه فمن الطبيعى أن ينكر تصريفه للأمور وإثباته للمقادير فى اللوح المحفوظ . . .

وغاية ذلك علم الله الشامل المحيط بما يقع فى الكون من أعمال الخلق وتسجيله فيما يسمى باللغة التى يمكن أن نفهمها ؟ (لوحا) تقريباً لهذا الأمر

الغيبي من الأذهان ، وإلا فجلال الله وعظمته وما يتصل بعلمه وقدرته ، مما لا تدركه العقول ولا تتصوره الأفهام . . وكيف يدرك العقل وهو محدود الإدراك ، ما لا حد له ولا نهاية ؟ وبحقٍّ أطلق عليه الفلاسفة اسم المطلق ، وقال فيه آخرون : العقل الأول :

إننا نقول للمؤلف : إن كانت العقول الألكترونية وهى من صنع البشر تعد الملايين والملايين من الأشياء وتضبطها ، فماذا يكون إحصاء مسيرة الملايين من البشر بالنسبة إلى العقل الأول أو إلى المطلق وبالعبارة التى هى أعظم من كل ذلك بالنسبة إلى الله ... أما مقياس هذا اللوح ، فانظر إلى سعة الكون من الأرض والسماء والكواكب والمجموعات الشمسية والمجرات وعظمتها التى يصفها العلماء ، واستحضر عظمة خالقها وسعة قدرته ، وعندئذ تعرف مقياس اللوح أو السجل الذى يناسب هذا الخالق .

ولقد أصاب وعاظ المسلمين الذين تندرت بهم ، فيما قلت إنهم يجيبون به ، من أن علم ذلك خاص بالله سبحانه ، وهو جواب مقتبس من الآية الكريمة (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) .

ويكرر المؤلف كلامه السابق فى بلادة لا تحتمل ، عن القدرة والرزق والقسمة غير العادلة ، ويقول : إن القرآن يأمر المستضعفين أن لا يشكوا حالهم ، ولا يحسدوا الأغنياء ، فقد جاء فى السورة ٢٠ الآية ١٣١ قوله : (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) ولو كان لهذا المؤلف ضمير حى لتقبل هذا النصح بأحسن التقبل ، فإن هذه الحالة قائمة فى كل المجتمعات ومنها الشيوعية ، وإن خير ما تواجه به هو عدم التشوف إلى الغير واطمئنان الإنسان إلى ما عنـــده ، وإلا فإن ما يسببه لنفسه من انفعالات وما ينشأ عنده من الحسد لذلك الغير ، هو من الأدواء التى يصعب علاجها ، وما زال الحكماء من قديم يوصون الإنسان بأن ينظر إلى من فوقه فى العلم والفضل وإلى من تحته فى المال والجاه ، تفاديًا لمثل هذه الحالة ، فالقرآن وهو كتاب دينى أخلاقى تربوى لا يمكن أن يشذ عن هذه القاعدة ليكسب المؤمنين به طمأنينة النفس وراحة البال .

وقلت إن هذه الحالة لا يخلو منها

حتى المجتمع الشيوعى وأنا أعنى ما أقول فهل يستطيع أن يثبت لى سعادة السفير (رحماتوف) أن لباس زوجه وحليها هو ما تلبسه أى امرأة من عامة الشعب السوفييتى وتتحلى به إن كان لها حلى ؟ ودع عنك امرأة رئيسه وزير الخارجية وغيرها من نساء (الطبقة العالية) فى الاتحاد السوفييتى .

ويجمجم المؤلف بما يوجد فى بيت المشـــايخ والبكوات من المؤن والطرف بحيث إنها على حد تعبيره لا ينقصها إلا حليب الطيور ، فى الوقت الذى يطلب من الفقراء والمستضعفين الصبر على ما هم فيه من الحاجة والضيق ، كأن بيوت قادة الحزب ومسيرى تشكيلاته تخلو مما يوجد فى بيوت من ندد بهم من المشايخ والبكوات ، أو كأن بيوت العمال والطبقة الدنيا من المجتمع الشيوعى تحتوى على ما يوجد فى بيوت من ذكرنا من رجال الحرب ، ولذلك فنحن لا ننكر التفاوت الموجود بين الفقراء والأغنياء من المسلمين ، وإنما نحدثه عن حفلة استقبال أقامها زعيم نقابى كبير فى (إحدى) فيلاته قال الذين حضروها أن (الكافيار) كان يقدم فيها بالكيلوات) فى صحون (الصينى) مع العلم بأن ذلك فى بلد لا ينتج الكافيار بل يستورده بأغلى الأثمان . وحسبنا هذا لفتح بصر المؤلف الغيور .

ويأتى المؤلف بعد ذلك بعبارة لا ندرى من أين استقاها وهى قوله : « إن القرآن يحرم على المسلم العمل ويحل له التجارة » وإذا كنا نتحداه أن يأتينا بنص قرآنى أو إسلامى على العموم يصدق قوله هذا ، فإن فى النصوص المتقدمة التى تحض على العمل وتطالب المسلم أن يسعى لكسب رزقه ، ما يكفى الرد عليه ، ثم نسأله : كيف أنشأ المسلمون حضارتهم التى استمدت منها الإنسانية جمعاء ، وأسسوا المدن ، وفتحوا أقطار العالم ، وحكموا الدنيا بالعدل والمساواة طوال عشرة قرون بل تزيد ؟ هل كان ذلك بالتجارة فقط ؟ أم بالعمل الذى تقول إن القرآن يحرمه عليهم . . .

وهو يبنى على ذلك فذلكة طويلة فى الإشادة بالشيوعية وعمل الشعب السوفييتى الذى يؤمن بأن الشيوعية هى المستقبل الزاهر للإنسانية ، ويقول : (إن واجبنا هو الكفاح ضد هذه الحركة الحاملة بجميع الوسائل ، لتسود الشيوعية فى بلادنا أولا ، وبعد ذلك فى البلاد التابعة لها ، ثم فى جميع بلدان العالم كما أوصى بذلك المؤتمر الثانى والعشرون

للحزب الشيوعى السوفييتى . . .)

وإذا كان لهذا الكلام من خلفية نستطلع منها ما يخفيه المؤلف فإنها المجابهة التى تلقاها الشيوعية من الإسلام فى بلاد الاتحاد السوفييتى أولا : — واستعصاء تطويع الشعوب الأخرى المبتلاة بسيطرة الحزب الشيوعى ثانياً وأما سيادة الشيوعية فى العالم ، فإن بوارق إخفاقها فى عقر دارها ، وخفض جناحها للإمبريالية الغربية، مما يدل على أنها حلم من الأحلام .

ويتمادى المؤلف فى غروره فيقول (النصر على جميع عناصر الطبيعة يحطم صرح الديانة ، والشعب السوفييتى الذى ليس له أمل فى الله يصنع الطبيعة بوسائله العلمية، أن الفلاحين السوفييت قد أخرجوا ٢٠ ضرباً من القمح من الأنواع الـ٥٣ المعروفة ، ومربى الماشية قد استنتجوا ٤٠٠ صنف من جنس البقر و ٢٥٠ من الغنم و ١٥٠ من الخيل . إن هذه الإنجازت تؤكد القوى الخلاقة للإنسان ، وتنقص عناصر الكتب السماوية التى تحصر قدرة تغيير أجناس الحيوان والنبات فى الله) ..

لا يخامرنا شك فى أن المؤلف إنما ولى سفارة بلاده بإيمانه الأعمى بالشيوعية، لا بمؤهلاته العلمية ، وإلا فكيف يعتقد أن تحسين نوع من أنواع النبات أو جنس من أجناس الحيوان بالتلقيح والتوليد هو تغيير للنوع والجنس ؟ وكيف يجهل أن ما فعله فلاحوا السوفييت ومربوا الماشية فى روسيا ، هو ما يفعله غيرهم فى بلاد أخرى ؟ فاستخراج أنواع جيدة من القمح هو مما يقع عندنا فى المغرب ولا نحتاج أن نذهب إلى بلد من بلاد أوربا وأمريكا . ولكن أحداً عندنا حتى من الفلاحين البسطاء لم يفهم أن ذلك تغيير لجنس القمح . وتحسين نوع الماشية هو أيضاً من هذا القبيل ، وكم يعرض منه فى معارضنا الفلاحية الموسمية . هل حول البلاشفة الخيول إلى أناس ؟ إلى رجال يفكرون ويعملون ؟ هل حولوا جنس البقر أو الغنم إلى نساء يحملن بأطفال بشرية ، ويقدمن عرضاً للحبالى فى أحدالمسارح ؟ هذا هو تغيير الجنس يا سيد (رحماتوف فأين أنت منه ؟

عندنا كلمة حكيمة تقول : (فى تلقيح الأجناس تحسين للنوع) وهى قديمة وقد جربها الفلاحون المسلمون منذ قرون وخرجوا منها بنتائج مضمنة فى كتبهم التى وضعوها فى علم الفلاحة التى نقلت إلى اللغات الأوربية واعتمدها

العلماء فى أبحاثهم وما تزال مرجع المؤلفين منهم فى هذا العلم ومنها فلاحة ابن العوام وفلاحة أبى الخير وفلاحة ابن بصال وغيرها ، ومع ما كان لأصحابها من علم ومقدرة فى ميدان التجارب الفلاحية فإن واحداً منهم لم يأخذ منه الغرور المأخذ الذى جعلك تقول ما تقدم من الكلام فى جانب الألوهية وتتباهى تباهى الأطفال بلعبهم الملونة ؟

وإليك هذه الحكاية من تاريخنا المغربى — كتب أحد علماء مدينة فاس منذ ثلاثة قرون إلى أحد علماء إقليم تافيلالت يسأله عن أنواع التمر التى تنبت فى بلده ، فأرسل إليه حمل بعير من التمر كل حبة منه من نوع لا يشبه النوع الآخر ، وكتب إليه بهذه الآية القرآنية : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . .

عبد الله بن كنون

فى التوبة

قال عليه الصلاة والسلام :

« يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه . فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » .

كتابة التاريخ بين الإنصاف والإجحاف

دكتور / محمد رجب البيومى

الأستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

وُجدت فى مصر بعد ابن خلدون عناية هائلة ضخمة بتدوين التاريخ سابقاً ومعاصراً ، فأنت تذكر المقريزى وابن حجر والبدر العينى وابن عربشاه وابن تغرى بردى والصيرفى والسخاوى وابن إياس والسيوطى وابن زنبل وابن خليل وغيرهم ممن لا تزال مؤلفاتهم مخطوطة تتطلب النشر والتحقيق ، وفيهم من عكف على التاريخ وحده ومَن كتبَ فى علوم كثيرة ، ولكنه جعلَ التاريخَ من همّه ، فجارى الفحولَ من المتخصصين ، ومن الواضح الجلىّ أنَّ أثر ابن خلدون كان ضئيلاً فى أكثر ما خطّه هؤلاء ، لأن طريقتَه التحليلية ، ومنهجَه التعليلى ، ووقوفه المطمئن أمام الظواهر المتعارضة ، لم يجد تطبيقَه العمليّ لدى هؤلاء على وجه شاف مبسوط ، بل إنَّه لم يكد يجدُ تطبيقه العملى لدى ابن خلدون نفسه ، لأنه رسَم القواعد الدقيقة فى مقدمةِ الكتاب ، ولم يتقيدْ بها فى أكثر ما تلاها من الفصول ،حتَّى ظنَّ بعضُ الدارسين أن المقدمةَ كُتبت أخيرًا ، بعد أن انتهى المؤلف من كتابه ! وهذا ظن معقول نشاهده فى ذَواتِ أنفسنا ، إذ نلجأُ إلى كتابة المقدمة للكتاب بعد أن نفرغ من تدوين فصوله ، وليس معنى ذلك أن المؤلف الذى يُرْجىُ المقدمةَ إلى النهاية يظعنُ على عمياء دون تحديد ، بل معناه أنَّه يحتفظُ بطريقةِ السيْرِ فى نفسه محاولا تطبيقها حتى إذا فرغ من مُهمّته عكف على

كتابة المقدّمة موضّحاً جهده العلمى كما كان لا كما سيكون .

ولقد كان المأمول ممّن ذكرنا من هؤلاء أن يرتفعوا إلى الإنصاف الحميد فى كلّ ما يكتبون ، وبعضُهم من كبار العلماء الذين كتبوا فى التفسير والحديث ومسائل التشريع ، ولكنّ الإنصافَ الدائم مطلب عسير لا يبلغُه غير الصفوة ممن اجتباهم الله ، وليسَ الإنسانُ مَلَكاً فى كل أحواله ، ولكنَّه بَشرٌ يحلّقُ ويسفّ وكلّ امرئ بما كسب رهين .

إن الباحثَ ليطالعُ كثيراً مما خطّ هؤلاء فلاَ يعدمُ الإنصاف السديد ، والأَمانة الحميدة فى كثيرٍ مما يقرأ ، ولكنه من ناحيةٍ أخرى يشاهدُ جموحاً لا مبرّر له ، ويرى اعتسافاً يَضِلُّ به صاحبُه سواءَ السبيل ، ولو علم الذى يركبُ متن الشطط أنه ليسَ وحدَه فى الميدان ، وأنَّ إخوانَه يكتبونَ فيما يكتب ، وستُتيح المقارنةُ الدقيقة وجهَ الحق فيما يُدونُّه المتسرعون ، وقد ينقضى عصرُه دونَ أنْ يُكشَفَ اللّثامُ عن الإسراف ، ولكنّ باحثِى العصور التالية سيقرءُون ويُوازنون ، وسيحلّلونَ البواعث ، وسيبحثون عن السرائر – وحينئذٍ تنجلى الرغوة عن الصريح – أما الزبدُ فيذهب جفاء ، وأما مَا ينفعُ الناس فيمكث فى الأَرض ، أقول : لو علم الذى يرتكبُ الاعتسافَ فى التاريخ أنَّهُ موضعُ بحثٍ دقيق ، وأنه مسئولٌ مفحُوص ، لخشىَ عاقبةَ التسرع ، ورحم اسمَه من النَّاقدين ، وأكبرُ الظَّن أنه يعلمُ ذلك ويَعِيه . ولكنْ أيْنَ الإرادةُ القويةُ التى تسيطرُ على النوازع؟ وتعصمُ الميزانَ أن يميل ؟ وإذا وُجِدتْ فى بعض الأَوقات ، فهل يُقدَّرُ لها أن تطَّرد وتستقيم ؟

وسأحاولُ أن أضربَ مثلاً لبعض الشطط الذى كُشِف أمرُه ، وانتقلَ إثْمُه من المتحدَّثِ عنهُ إلى المتحدث به ، ليعرفَ جمهرةُ الدارسين أنَّ الإجحافَ لا يستمرّ ، وأنه لا يصحُّ غير الصحيح مهما أرجفَ الباطل ، وجَلَب

على الحقّ بخيْلهِ ورجله .

نعرفُ جيّدًا كتابَ (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) منذ أخذتْ دارُ الكتب المصرية فى نشره وتحقيقه لأربعينَ سنةً خلَتْ ، ونعرفُ من قراءةِ الكتابِ الضحم دونَ تزكيةٍ خارجيةٍ أن مؤلفه أبَا المحاسن جمالَ الدين يوسفَ بن تغرى بردى كان ذا نظرٍ ثاقبٍ ، وتدقيقٍ بارع ، وسردٍ سهل على أعجميّةٍ لم تمنعْ عذوبةَ لُغتِه ، وسلاسةِ سرده ، هذا ما تنطقُ به أجزاءُ الكتاب ، وهى وثيقةٌ صادقةٌ لا تقبلُ الإرجافَ من متنقّص لجوج ، فإذا تركنا هذه الوثيقَةَ الشاهدةَ ودرسنَا حياةَ المؤلف لم نجدْ أنهُ أعجميٌّ ألكنُ اللسان يتطفّل على العلم دون دراسة وتحقيق، كما حَاوَلَ أعداؤه أن يقولُوا فى إجحافٍ مغرض ، بل نرى طالبَ علمٍ أُولِعَ بالتحقيق منذُ نشأته ،وقد سلك سبيلَ المجتهدين من ذوى النجابة. فقامَ على تربيتِه المعيشيّةِ والعلمية معاً زوجُ أختِه ، وهو قاضى القضاة ناصرُ الدين بن العديم الحنفى ، فإذا فارقَ الحياة خلفهُ على هذه التربيةِ المزدوجةِ زوجُ أختِه أيضاً قاضى القضاة جلالُ الدين البلقينى الشافعى ! فما ظنُّكَ بمن يُشرف على ثقافتِه الأولى رأسُ الحنفيّة ورأسُ الشافعية معاً ، حتى إذا غَرسَا فى نفسِه ظمأَ المعرفة ، وأوْقدَا حرارةَ التطلّع ، بادر بنفسهِ إلى مجالسِ العِلية الكبار من أساتذةِ الحلقاتِ العلمية الكبرى فى عصرِه فتتلمذَ على أستاذِه الأوّل المقريزى ، وناهيك به فى مجالِ التاريخ ، وواصلَ الأخذَ عن الشهاب ابنِ حجر والبدرِ العينى ، وهما عَلَمُ العصر تاريخاً وفقهاً وسنّة ، ولم ينسَ مَن دُونهما من النابهين كابنِ عربْشاه وابنِ ظهيرة وابنِ العليف وابنِ الشماع وبعْضهم فى غيرِ مصر من بلاد الإسلام ، فتجشّم إليهم الرحلةَ مشوقاً ! ! وانكبَّ على التأليفِ حين استوى على ساقه واستحصدَ فأخرجَ شطأَهُ الذى أعجبَ وراق ، وقرأ معاصرُوه اثنى عشرَ كتاباً مِن تأليفه ، أشهرُها كتابُ

(النجوم الزاهرة) الذى كتبهُ فى سبعِ مجلدات ضخام ، ومن ينشرونهُ الآن سيمتدُّون بالأجزاء إلى حيّزٍ مستريح ، محلاَّةً بالتحقيقِ والتوثيقِ والشرح ! هذا المؤرخُ النَّابهُ الذي يجيء ثالثاً فى حلقةٍ ممتازةٍ تبتدئ بابنِ خلدون وتُثنّى بالمقريزى وتُثلّثُ بأبى المحاسن هذا ، ثم تَمضِى فى اتّساقها المطرد حتى ننتهىَ بابن إياس ، هذا المؤرخُ النابهُ يجدُ من معاصريه وتلاميذه من يثلبُه طاعناً فى غير سداد ، ونحنُ لا نحرّمُ على أحدٍ أن ينقدَ أحداً — فلنْ تظهرَ الحقيقةُ إلاَّ بعدَ مُثافنةٍ وتمحيص ، ولكننَا نُحرّم أن يكونَ النقدُ طعناً ظالماً دون حقّ ، فقد تَرجم لهُ نور الدين بنُ الجوهرى الخطيب فى كتابهِ عن (أنباء العصر) فذكرَ المعروفَ من أساتذتِه ، وزادَ على ما ذكرناه من قبل ، فنصَّ على أنهُ حضرَ مختصَر القدُورىّ فى الفقه ، وشروحَ ألفيه ابن مالك فى النحو ، وإيساغوجى فى المنطق وشرحَ العقائد لسعدِ الدين التفتازانى ، وسَمِع المسانيدَ فى الحديث ، وأعلَى ما سَمِعه سُنَنُ أبى داود الترمذىّ ، والشمائل ، ومسند ابن عباس ، كما قرأ علمَ العروضَ على النواجِى ، وأخذَ علم النّغمات عن فتحِ الدين العجمى !! هذَا الدَّارِسُ الصبورُ الذى أخذ شتّى العلوم عن أئِمّتها ، وأظهرَ من المؤلفاتِ ما يدلّ على ضلاعتِه البارعة لم يجد الجوهرىُّ فى نفسِه حرجاً من أن يقول عنه .

(وحاصلُ الأمر فيه أنهُ عامىٌّ ، والمصداقُ لما قلتُه يشهد من خطِّهِ فى كُتبه التى سردناها ، فإنه يكتبُ كتابةً ما تصدرُ عن صغار الكتَّاب المتعلمين من تصحيفٍ وزيادةٍ فى الأَحرف ونقصٍ ولحنٍ مفرط ، وإذا نقل حكايةً فتجد غالبَها تصحيفاً ولحناً ، ولعمرى فهذه العلومُ التى سردَها ، والشيوخَ الذين حضرَ عليهم ما استفادَ منهم مسألةً ، والظن أنه كلما فرغَ من تصنيفٍ يترجمُ به إلى مَن يعرفُ العربيَّةَ ، فيصلحهُ له ،

ويصيرُ له به مزيّة ، ولكنْ إذا أراد الله أمرًا بلغه .

ولقد حاضرتهُ مرارًا ، فإنه كان يحضرُ عند مخدومِنا وصاحبنا وجارنا المقر الزينى ، فكنتُ أمشِى معه فى الحوادث فلم يمْشِ ، وأتكلمُ معه فى شىء من الفقهِ فأجدُه عارياً منه ، وكذا فى النحوِ والعروض ، ومن حِينِ عَرَفَ أنّى اشتغلتُ بفنّ التاريخ لَمْ (أعَارَنى) كتاباً من كتبه ولا أوقفنى على شىء من مصنفاته) اهـ .

هنا مربطُ الفرس حقًّا ! إذ أنَّ العلةَ فى هذه الحملةِ أنَّ الجوهرىّ قد طلبَ مؤلفاتِ صاحبهِ التاريخيّة فرفض أن يُعطِيها إياه ! فلا بدّ أن تقومَ القيامةُ على الرجل ، لا سيما وقد انتقلَ إلى رحمةِ ربّه ، وتركَ من المنافسين ما يؤلمهُم ذيوعُ تآليفه، فليحاولْ أن يسلقَه بتجريحهِ الظالم ، ولعلَّ أدهَى ما فى هذا التجريح هو التشنيعُ على فسادِ العبارة عندَ أبى المحاسن حتى اضطُر إلى اتخاذِ من يُراجع قولَه ليصحّح الخطأ ، لأن فسادَ العبارة لدى الجوهرى أشدُّ وأفدحُ . وفى كتابِه ركاكاتٌ وأخطاءٌ تمنعُه أن يتصدّر للحكم على البناءِ الأسلوبى لدى سواهُ وأهونُها أن يقولَ (ولم أعَارَنِى كتاباً) !

لقد تحدثَ الجاحظُ عن تحاسدِ العلماءِ فُخيّل إلىَّ أنه أفرطَ وبالغ ، ولكنَّ بعضَ ما نستشهدُ به الآنَ يميلُ بنا إلى تصديقهِ ، كما أنَّ الذين كتبُوا فى الجرحِ والتعديل أشارُوا إلى (المعاصرة) وعدَّها أكثرُهم مانعاً من قبولِ الشهادة ، ولستُ أرَى أن الكلامَ على إطلاقه ، فقدْ تكونُ المعاصَرةُ حائلةً دون الإنصاف لدَى قوم تهيجُ أنانيّتهُم حين يتقدمُ سواهم ويتأخرون ، ولكنَّ هناكَ من رُزقوا السلامَ النفسى فما ضرّهم فى شىء أن يُجيد المجيد ، بل أسعدَهم أن يُسارعوا إلى تقديره ، والثناءِ عليه ، ولم يعدمْ أبو المحاسن مَن عرفَ مكانَه من الكبار ، فقد نالَ تقدير ابن حَجَر وهو علاَّمةُ الإسلام فى عصره ورأسُ القضاةِ الشافعيّين ، كما عَرف

مكانتَه البدرُ العينىّ ، وهو منافسُ ابن حجر فى التَّصورِ والفتوى والترأس ، بل إنَّ العينىّ كانت تأتيه الأسئلةُ العويصةُ فى بعض الغوامض التاريخيّة فلا يستنكفُ أن يُحيل على تلميذه أبى المحاسن كى يُجيب معتذِراً بتقدمِ السّن ، وتأخّرِ الصّحة ، وقد ترجم له ابنُ تغرى بردى فأشارَ إلى شىء من ذلك حين قال (ولما انتهيْنا من الصلاةِ على قاضِى القضاة (العينى) قالَ لى بدرُ الدين محمد بن عبد المنعم (خَلاَ لكَ البرّ) فلم أردّ عليه ، وأرسلتُ إليه بعدَ عودتِى إلى منزلى ورقةً بخطّ العينىّ ، يسألنى فيها عن شىء سُئل عنه ، ويعتذرُ عن الإجابةِ بكبر سنه وتَشتُّتِ ذهنِه ، ثم بَسَط فىَّ الشكرَ والثناء ، إلى أن قال : وقدْ صارَ المعوّلُ عليكَ الآن فى هذا الشأنِ ، وأنتَ فارسُ ميدانِه وأستاذُ زمانه فاشكر اللهَ على ذلك ، وكانتْ كتابة هذه الورقةِ فى سنة ٨٤٩ هـ أى قبل وفاة العينى بسنتين) .

ماذا نأخذُ من هذا النَّص ؟ نأخذُ منه صراحةً أنَّ العينىَّ لم ير بعد انتقال المقريزىّ وابن حجرٍ مَن يعتده مَرجعاً فى قضايا التاريخ غير أبى المحاسن؟ كما نأخذُ منه صراحةً أن الفقيه الحنبلى بدر الدين بن عبد المنعم قد لَسَّنَ حين قال لأبى المحاسن فى جنازة العينى (خلا لك البر) وإذا كان الجوهرى والسخاوى والسيوطى عند وفاة العينى دون أبى المحاسن سنًّا وإنتاجاً ، وهُم الذين واصلوا مسيرة التاريخ فيما بعد ، فإن الرجل قد أخذ زعامة التاريخ عن استحقاق ، وما يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيم !

لقد قرأتُ فصولاً مما كتب الجوهرى فلم أرتحْ إلى لغتِه بالقياس إلى لغة أساتذته ، ونظرائه ، وعرفتُ أن المثل القائل (رمتْنى بدائها وانسلَّت) قد انطبق عليه ، والشاهدُ الناطقُ بيننا هو آثارُ الرجليْن ، وإذا كان السخاوى - عفا الله عنه - . قد تجرأ ظالماً على ابن خلدون والمقريزى وأبى المحاسن ،

أفيه كتُ صادقاً عن الجوهرى ؟ !

لقد عنَّ لى أن أراجع ما كتبَه عنه فوجدتُه يقول :

(وقد نسخ (البداية) لابن كثير ونحوها فى مجلَّدات يُضحك أو يبكى عليه فيها ، والعجبُ أنه قرظَها له كثيرون ثم آلَ أمرُه إلى أن نفد غالبُ ما معه واحتاج ، فناب فى القضاء . . . ونصبَ نفسه لكتابةِ التاريخ ، فكان تاريخاً لكونه لا تمييز له عن كثيرٍ من العوام إلاَّ بالهيئة ، مع سلوكِه لما يُستقبح بحيث أمسكَه جماعةُ الوالى ، وصار الفقهاء والقضاةُ به مُثلةً ، وصُرِف بأمر السلطان مرّة بعد أخرى . . . ثم لما كثُر تردده إلىَّ توقفتُ فى كونه يُحصل شيئاً ، وعملتُ له مقامةً بعد أُخرى للزيْن بن مزهر ، ومع كونِه كرَّر قراءتها علىَّ غيرَ مرةٍ لم يُحسن قراءتها عنده) .

هذا ما قاله السخاوى ، وما استشهدتُ به لأنقلَ رأيه فى الجوهرى وحدَه ، بل لأتجاوزَ ذلك إلى مؤاخذتِه المنصفةِ حين هاجمَ زملاءه وأساتذتَه ملحفاً محتدًا ، وحين تصدَّرَ معركةً طاغيةً جارحةً فلاقى من السيوطى والبقاعِى نِدّين جهيريْن ، وشغلُوا الناس بقذائفهم دونَ نكوص ، وهمْ من أكابر العلماء ورؤساء المحدثين ، وكانَ من الخيرِ للجدلِ العلمى أن يقتصرَ على الحقائقِ الفكرية دونَ أن ينقلب إلى مماراةٍ وتشهيرٍ بالمواقف الهابطة ، فينتقل من الموضوعيّة الجديرة بالاعتبارِ إلى الذّاتيةِ التى يتضخم لديها غرورُ الشخصيّة حتَّى ما يَرى صاحِبها سوى نفسه ! والقومُ بعدُ علماءُ مفسّرون ، ومن واجبهم أن يلتزموا بحقٍّ قول الله عز وجل (ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

آنَ لنا أن نصِلَ إلى موضع العبرة مما ذكرناه ، فقد اتَّضح لنا أنَّ الهجومَ على أبى المحاسن لم يجد الإقناعَ الجازم فى عصره ، ثم مضى الزمنُ فى سيره واهتمت المؤسساتُ العلمية الآن فى الجامعاتِ ودورِ البحث بمراجعاتٍ دقيقة لأعلام التراث ، ودُرِس ما عُثِر عليه

من آثار السّابقين دراسةً عادلةً ، ووُزن ما قيل من النقدِ بميزانه الدقيق مُحاطاً ببواعثِهِ ودواعيهِ ، فإذا هؤلاء المظلومونَ من أمثالِ المقريزى وابن خلدون وأبى المحاسن يأخذونَ اعتبارهم العادل فتُعرفُ لهم مزاياهم وسقطاتُهم جميعاً ، ثم تميل كفّتهم إلى الرجحان حين تَثقل جهودهم الصائبة ، وتشيل هناتُهم التى لا بدّ منها ، وإذا هؤلاء الظالمون من أمثال الجوهرىّ والسخاوى يرتدون إلى حجومهم الطبيعية دون اتساع ، ولئن حُمِدتْ لهم جراءةُ البحث وقوةُ الدفع فقد أُخِذُوا بما تورطوا فيه من افتيات وادعاء ، وأذكُر أن المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة قد كتب بحوثاً جيدة تحت عنوان (المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى : القرن التاسع الهجرى) كانتْ على وجازتها الدقيقة شافيةً صادقة، وقد حفظتْ للمقريزى وأبى المحاسن مكانَى الرياسة والتصدّر ، ولو كان ابن خلدون من رجالِ هذا القرن لخصَّهُ المؤلف ببحثٍ منصف كما خصّ زميليه !! على حين جعل السخاوىّ والجوهرىّ والسيوطى ممّن عنفوا فى المؤاخذة والتشهير بمنزلةٍ دون أولئك ! ولم يرسل القولَ إرسالا دون استدلالٍ ولكنْ شَرَحَ وعلّلَ واستنتَج حتى بلغَ الشاطئ فى اطمئنان مريح ، وقد صدق شوقى حين رثى المنفلوطى فقال :

سكن الأَحبة والعدى وفرغت من
حقد الخصوم ومن هوى الأَشياع
فإذا مضى الجيل المراض صدوره
وأتى السليم جوانب الأَضلاع
فافزع إلى الزمن الحكيم فعنــده
نقد تنزّه عن هوى ونزاع
فإذا قضى لك أُبْتَ من شُمِّ العُلى
بثنيّةٍ عزتْ على الطّــلاع

د. محمد رجب البيومى

النهاية المؤكدة

الشيخ / أسعد التميمى

اشتد الصراع بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين الكفار من قريش حيث خافت قريش على ما يوفره الكفر لها من امتيازات طبقية ودينية ، وأخذ الصراع بين الحق والباطل يتصاعد بين الدين الجديد وما يمثله من خير للإنسان وما يعطيه للبشرية من حياة كريمة يعبد فيها الإنسان ربه الذى خلقه ويسجد لبارئه الذى أوجده فلا يسجد لبشر ، ولا ينحنى أمام حجر أو شجر ولا يعبد فلكاً ولا مظهراً من مظاهر الكون ، وإنما يستمد العزة لنفسه من عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

اشتد الصراع بينه وبين الشرك وما يمثله من انحطاط فى الفكر الإنسانى والسلوك البشرى الذى يظهر فى السجود لحاكم أو رجل دين أو حجر أو شجر أو فلك . . ذلك الانحطاط الذى ينتج عنه أن الغرائز فى الإنسان تتحكم فى مسيرته لا مقياس عنده يقيس به الأمور ولا حلال ولا حرام ، وإنما كل أمر مباح : من قتل نفس أو ظلم إنسان أو أكل مال حرام ، أو استعباد نفس أو إذلال للخلق ، فلا عجب أن ظهرت الطبقية العرقية الممثلة فى السادة والعبيد ، والأشراف والسوقة ، والطبقة الاقتصادية الممثلة فى تجارة الربا وأكل أموال الناس بالباطل ، واستغلال حاجة الآخرين للإثراء غير المشروع ، والطبقية الدينية بحيث يصبح الدين وفهمه احتكاراً على طبقة معينة وناس مخصوصين يستغلون جهل الناس ويطلبون منهم أن يعبدوهم ، ويطلبون منهم تقديم النذور والقرابين لهم ولما يمثّلون .

وأخذ الكفر يقاتل عن مواقعه بشراسة حتّى اضطر المسلمون إلى الهجرة مرتين فراراً بدينهم وحرصاً على عقيدتهم ، وحتى يأذن الله بالفرج .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى

مكة يقارع قومه الحجة ، يبين باطل ما هم فيه وما عليه حياتهم ، ولكنهم أصابهم الكِبرُ ولحق بهم العناد ، وكان الله قد هيأ له زوجة صالحة تعتنى بأمره وتدعمه بمالها ، وتخفف عنه قسوة عناد قومه ، وجهل عشيرته ، وهيأ له كذلك أبا طالب يحميه ، ويمنعهم من قتله واغتياله ، وإن لم يمنع عنه ما دون القتل والاغتيال من الأذى ، وهم مع هذا يحسبون حساب عمه .

ثم إن خديجة رضى الله عنها ، وأبا طالب ماتا فى عام واحد قبل هجرته بثلاث سنين ، فعظمت المصيبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بموتهما ، وذلك أن قريشاً وصلوا من أذاه بعد موت أبى طالب إلى ما لم يكونوا يصلون إليه فى حياته منه ، حتى نثروا التراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته تغسل عنه التراب وهى تبكى ، ورسول الله يقول لها : « يا بنية لا تبكى فإن الله مانع أباك » رواه الطبرى .

ما لقيه النبى صلى الله عليه وسلم فى الطائف :

ولما استعصت قريش ، وصمت آذانها ، وأغلقت قلوبها وعقولها ، اتجه النبى صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، فلما وصلها عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم ثلاثة إخوة عبد ياليل بن عمرو بن عمير ومسعود بن عمرو بن عمير وحبيب ابن عمرو بن عمير ، فردوه رداً غير جميل فقال أحدهم هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك ، وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك كلمة أبداً لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى أن أكلمك .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف ، وقد قال لهم فيما ذكره شيخ المؤرخين المسلمين الطبرى وأنا أروى عنه : إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيذئرهم ذلك عليه فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى بستان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يناجى ربه مناجاة الصابر المحتسب يطلب منه المدد والعون حيث

قومه لا يستجيبون للنور ولا يلتقون على الخير ، والطائف كانت أسوأ من مكة ، وأقسى من قريش ، فأخذ يقول كما يروى الطبرى « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

تكريم الرسول صلى الله عليه وسلم بحادثة الإسراء :

فى هذا الجو القاتم الشرس كان الله بنبيه رؤوفاً رحيما ، وكانت حادثة الإسراء من مكة إلى القدس ، وكان المعراج من أرض المسجد الأقصى إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، وكان فى الإسراء أكثر من معنى وأثره لا يزال على مر الأيام وكر السنين يفعل .

يكرم الله نبيه على صبره ويجازيه الجزاء الأوفى على تحمله فيستدعيه إليه ويقربه منه ، ويرفعه إلى درجة لم يصلها أحد من خلقه حتى ولا الملائكة المقربون . ويقدم له أرض الشام ، أرض فلسطين ، أرض القدس ، المسجد الأقصى هدية إيمان وجائزة رضوان فيفتح النبى أرض الشام ، ومنها أرض فلسطين فتحاً مادياً بجسده الشريف ، ويعلن الله للدنيا فى ذلك الحين وللدنيا فى هذا الحين ، وللدنيا فى كل حين أن المسجد الأقصى أصبح مسجداً للمسلمين ، فيصلى فيه النبى الصلاة الإسلامية الأولى إماماً للأنبياء المرسلين حيث أحياهم الله له ويصلى الصلاة الثانية بعده عمر وأبو عبيدة ، وكبار الصحابة والجنود المؤمنون يوم أن دخل عمر القدس ، واستلمها من بطريركها صفرونيوس وأعطاه العهدة العمرية التى تنص فيما نصت عليه : أن لا يسكن إيليا (القدس) أحد من اللصوص واليهود وذلك أن كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا على علم منه لا يعلمه بقية الناس ، وهذا النص فى الوثيقة يدل على مبلغ فهم عمر لخطر اليهود على هذه الأرض .

ولا يقال بأن عمر جاء بناءاً على أمر صفرونيوس ، فما كان للخليفة المنتصر

أن يستجيب ويأتمر بأمر البطريرك المهزوم ، لولا معرفته الحقيقية بمنزلة القدس عند الله وفى الإسلام ، وهو أحد وزيرى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويسجل الله سبحانه وتعالى فى هذه المعجزة كتابه القرآن العظيم فيقول فى سورة الإسراء : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) .

قدسية المسجد الأقصى المبارك :

وسورة الإسراء تتحدث عن المسجد الأقصى وإسراء النبى إليه وتقرر أن هذا المسجد الذى بنى بعد البيت الحرام بأربعين سنة كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذر قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول مسجد وضع فى الأرض قال : المسجد الحرام ، قلت ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت كم بينهما ؟ قال أربعون سنة ثم الأرض لك مسجداً فحيثما أدركتك الصلاة فصل » فعاد للمسجد بالاسراء قدسيته وطهره حيث كان المسجد خرابا يبابا لا يصلى فيه أحد إلى أن جاء النبى صلى الله عليه وسلم فتقررت مسجديته فى القرآن واستعلمه عمر فكان ينظفه هو وأصحابه من الكناسة وطهروه ، وأصبح من يومها منارة علم ودار إيمان ومحجة زوار ومحراب صلاة .

إذن سورة الإسراء تتحدث عن علاقة المسلمين بالمسجد ، وأن المسجد للمسلمين حيث أسرى بنبيهم إليه وتقرر السورة بركة أرض الشام ومنها أرض فلسطين ، وتبدأ بعد ذلك فى الحديث عن الفساد والعلو لليهود والتدمير الذى سيلحق بهم ، وأنهم سينازعون المسلمين أرض الإسراء والمسجدالأقصى .

الإفساد الأول :

وهنا لابد أن نقرر أن علماء التفسير اختلفوا اختلافاً كبيراً فيمن دمر (العُلُوَّيْنِ) والإفسادين اللذين أشارت إليهما الآية الكريمة وهى قوله تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيراً ، فإذا جاء وعدأولاهما بعثناعليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) فقال قوم هم أهل بابل ، وكان عليهم بختنصر قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، وقال قتادة أرسل عليهم جالوت فقتلهم فهو وقومه أولو بأس شديد ، وقال

مجاهد جاءهم جند من فارس يتجسسون أخبارهم ومعهم بختنصر ، وقال محمد ابن إسحق إن المهزوم سنحاريب ملك بابل وقيل إنهم العمالقة إلى غير ذلك من الأقوال المتضاربة ، ونحن حين ننظر إلى الآيات نظرة موضوعية نجد الأشياء الآتية :

أولاً : الآيات مكية وتتحدث عن علوين وإفسادين لليهود فهل مضى هذان العلوان قبل نزول الآية أم أنهما آتيان؟!

مما لا شك فيه أن اليهود دُمِّرُوا أكثر من مرة قبل الإسلام ، وقبل نزول الآيات فقد سباهم البابليون ، ودمرهم الرومان وذلك أنه منذ أن غضب الله عليهم نتيجة سوء تصرفهم وحقدهم على الله وأنبيائه غضب الله عليهم وجعلهم يتصرفون تصرفاً يلجئ البشرية إلى إذلالهم وضربهم يقول الله تعالى فى سورة البقرة الآية ٦١ (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) ثم تقرر آية أخرى فى سورة أخرى أن العذاب سيستمر فى اليهود والتدمير لهم إلى يوم القيامة : (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) . الأعراف الآية ١٦٧ .

إذن لا غرابة أن يكون إفساد اليهود وعلوهم ثم تدميرهم أكثر من مرة قبل الإسلام ولا غرابة أن يكون كذلك علو وفساد بعد الإسلام مرة أو أكثر ثم تدميرهم .

وليس هناك ما يمنع أن يكون الفساد والعلو ثم التدمير لمرتين بعد نزول الآيات والواقع أن المتعمق فى الآيات يجد أن المرتين اللتين أشارت إليهما آية الإسراء فى علو اليهود وإفسادهم ثم تدميرهم هما بعد نزول آيات الإسراء .

وذلك أن الله يقول : (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلنّ علوا كبيراً ، فإذا جاء وعد أولاهما) و « إذا » ظرف للمستقبل من الزمان ، ولا علاقة لما بعدها بما قبلها فوجود كلمة « إذا » فى الآية تدل على أن الفساد والعلو ثم التدمير الأول آت وأنه لم يمر كما أن استعمال إذا للمرة الثانية يدل على أنها آتية لم تمر كذلك .

وقوله تعالى : (بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار) .

أى أن الذين سيتولون تدمير اليهود هم من المؤمنين إذ أن الله سبحانه وتعالى

حين يضيف كلمة العباد لذاته تكون فى موضع التشريف ، ويخص بها المؤمنين ، يقول الله تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) ويقول : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) ويقول : (سبحان الذى أسرى بعبده) ، وأعظم منزلة للنبى صلى الله عليه وسلم أنه عبدالله ورسوله . وفى التحيات (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) .

وهذا التشريف والتكريم الإيمانى لا ينطبق على البابليين ولا على الرومان لأنهم جميعاً من الوثنيين . إذن ينطبق هذا الوصف على رسول الله وأصحابه الذين جاءوا إلى المدينة ولليهود فيها نفوذ سياسى واقتصادى . وكان من أول أعماله فى المدينة إبرام المعاهدة السياسية بينه وبين اليهود وأن اليهود جماعة مستقلة وأن المسلمين جماعة مستقلة ، فلما غدر اليهود ونقضوا العهد كعادتهم ودأبهم سلط الله عليهم المسلمين فجاسوا خلال الديار اليهودية وتغلغلوا فيها وأزالوهم عن المدينة وخيبر وتيماء ، وزال سلطانهم وتم تدمير علوهم فكان ذلك من خلال معارك بنى قريظة وبنى النضير ، ومعارك خيبر الشهيرة ، وتأتى سورة الحشر لتؤكد هذا المعنى فى قوله تعالى فى وصف معارك المسلمين مع اليهود فى المدينة : (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار) الآية ٢ .

الإفساد الثانى :

إذن هو أخرجهم لأول الحشر ، فخرج قسم منهم إلى أذرعات من أرض الشام حتى تبدأ المرة الثانية من علوهم وفسادهم . ويقول الله تعالى : (وكان وعدا مفعولا) يعنى أنه تم تدمير العلو الأول فى عهد النبى والوحى ينزل ، وأتمه أصحابه من بعده . وتبدأ الآيات بعد ذلك تتحدث عن المرة الثانية فى العلو والفساد ، فتخبر الآيات أن الله سيجعل لليهود الكرة عليهم ، على من ؟ على الذين جاسوا خلال الديار أول مرة ، والكرة الدولة والسلطة . وحين أراد الله لليهود أن يكروا استعمل كلمة (ثم) وثم كما هو معروف معناها العطف مع التراخى أو المهلة فهل كر اليهود فى التاريخ على البابليين وكانت

لهم دولة وسلطة عليهم ؟ لم يحدث ذلك فى التاريخ ، ولن يحدث الآن ولا فى المستقبل ، حيث إن البابليين قد انقرضوا من الدنيا كأمة وليس لهم مكان يعرفون فيه أو دولة يعيشون فيها وحاشا لله أن لا يصدق القرآن أو يكون خبره غير محقق إذن لا بد أن تكون الكرة على أبناء من جاسوا خلال الديار وهم المسلمون أو العرب المسلمون فقد كر اليهود على بلاد الشام وفلسطين منها وهذا هو الذى قد حدث ونعيشه الآن ويعانى منه المسلمون كل المسلمين ، وانظروا معى إلى بقية الآيات تمضى فتصف الواقع الذى نعيشه وتعيشه دولة اليهود . إذ بعد أن جعل الله الكرة لليهود علينا يقول الله تعالى لليهود : (وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) وهنا نسأل مرة أخرى : هل أمد الله اليهود بأموال وبنين غير هذه المرة ؟ لم نعرف أن ذلك قد حدث واليهود منذ أن غضب الله عليهم وهم فى بلاء متصل وعذاب مستمر فقبل الإسلام كان عذاب البابليين لهم والرومان ، وبعد الإسلام أخرجهم المسلمون من الجزيرة ثم بدأت أوربا تعذبهم فى إسبانيا وفى بقية أقطارها حتى جاء المسلمون فأنقذوهم من الإسبان واستمر العذاب ولقد عاش اليهود فى ظل دولة الإسلام عبر القرون آمنين مطمئنين ، تحفظ لهم دماؤهم وأموالهم ، ولكنهم لم يحفظوا الجميل .

وحتى نرى مبلغ صدق الآية ، ونرى إعجازها بأعيننا نجد دولة اليهود تعيش على البنين الذين يأتونها من أطراف الأرض ليمدوها بالجند ، وفى هذه الفترة من روسيا بالذات ، وترى الأموال من دول الغرب تأتيها بمساعدات مذهلة حتى تستمر فى عدوانها وطغيانها وجبروتها ، ثم يقول الله سبحانه : (وجعلناكم أكثر نفيراً) ، ولذلك فإن أكبر قوة فى الأرض وأكبر دول الأرض تساند دولة اليهود فى حال تفرتها وحربها .

إذن هذه هى المرة الثانية من العلو فما بال الفساد ؟ وحتى يتحقق الفساد فنرى اليهود فى دولتهم يرتكبون أفظع الجرائم بحيث فاقوا كل أنواع العذاب التى عانوا منها فى زعمهم أو عاناه غيرهم ولذلك يحذرهم الله فيقول لهم : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) وهم قد إساءوا فقتلوا النفس الإنسانية وعذبوها ويتموا الأطفال وسجنوا النساء وهدموا البيوت واغتصبوا الأرض وأقاموا المستعمرات ، وحرقوا المسجد الأقصى فى ٢١ /٨ /١٩٦٩ . والأقصى عند

الله عظيم ، ودنسوا مسجد الخليل عليه السلام ، والخليل عند الله هو الخليل ، وارتكبوا جريمة الجرائم فى مسجد الخليل يوم أن عمدوا إلى كتاب الله فمزقوه وداسوه .

وهنـــا تأتى عقوبة الله لهم على ما اقترفوه من الإثم والجرائم بتفسير من الآيات إن دولتهم لن يطول فسادها ولا علوها فيقول الله : (فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علو تتبيرا) وهنا حين يخبر الله عن زوال دولتهم استعمل كلمة الفاء للعطف ولم يستعمل ثم والفاء للعطف مع التعقيب ، والتعقيب على كل شيء بحسبه ومايناسبه وهو يدل على السرعة فى حصول المقصود (فإذا جاء وعد الآخرة) أى لذهاب علوهم الثانى تصبح وجوه بنى إسرائيل سيئة ويبشرنا ربنا جلت قدرته أننا سندخل المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة ، وفى هذه الآية إشارة لطيفة إلى دخولنا المسجد مرتين . والمرتان حدثتا بعد نزول الآية ، المرة الأولى : الفتح العمرى للمسجد حين دخله باسم الله والإسلام ، والمرة الثانية : هذه التى نحن على أبوابها حيث سيدخل المسلمون المسجد فاتحين للمرة الثانية ، ثم يقرر الله أننا سنتبر أى ندمر ، ونهلك علو اليهود المادى والمعنوى . ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن فلسطين لم تعرف العمارات ذات الطوابق التى تزيد على أربعة أو خمسة طوابق إلا فى ظل اغتصاب اليهود لها .

ولذلك فإن هذه العمارات الشاهقة التى يقيمونها فى الأرض المباركة سيلحقها التدمير والخراب ثم تمضى الآيات فتحذر اليهود من محاولة العودة للفساد والتعالى فيقول الله لهم (وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) ، وتأتينا البشرى من الله بعد أن يفهمنا ربنا أن القرآن يهدى إلى الطريق السوى والحياة الصحيحة تأتينا البشرى بالنصر فيقول : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات إن لهم أجراً كبيراً) . وفى آخر السورة سورة الإسراء آية أخرى تتعلق بهذا الأمر ، وهى قوله تعالى فى آخر السورة : (وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) الآية ١٠٤ و « لفيفا » أى جماعات ملتفة وفى بقية الآية إنذار لليهود وبشرى لنا ، فيقول الله (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) بشرى لنا وإنذار لهم فإذا ربطنا هذه الآيات وتفسيرها بالحديث

الذى يدلنا على صدق النبوة . ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم حين أخبرنا عن قتال اليهود فيما رواه الشيخان البخارى ومسلم وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » .

أيقنا بعد ذلك لماذا لم تنجح المحاولات لتثبيت دولة اليهود وذلك أنه منذ سنة ١٩٤٨ ، وكل محاولة للصلح وتثبيت دولة اليهود يفشلها اليهود أنفسهم وذلك لأن الله يلهمهم الخطأ فيرفضون كل الحلول لأن اليهود لا يعالجون أى أمر إلا بالحقد والتآمر والخديعة ، ويقرر الله أن لا عقل عندهم فيقول (لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) الآية ١٤ ، وذلك كله يجرى حتى يأتى اليوم الموعود يوم تتخلص المعركة أو ديار المسلمين من الأيديولوجيات المنافية للإسلام وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر فى حديث قتال اليهود أن الحجر والشجر سينطق ويقول : « يا مسلم يا عبد الله خلفى يهودى فتعال فاقتله » إذن لن يكون قتال النصر فى فلسطين قتالا يمينياً ولا يسارياً ، وإنما يكون قتالا إسلامياً فى سبيل الله كما كان دائماً قتال النصر للمسلمين (ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً) .

الأرض المباركة :

وبعد فإن الآية فى سورة الإسراء نصت على بركة الأرض التى تحيط بالمسجد الأقصى وكذلك آيات أخرى نصت على هذه البركة مثل قوله تعالى فى حق الخليل إبراهيم : (ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) وقوله : (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين) سورة سبأ ، والبركة : الزيادة فى كل شىء وليست بركة هذه الأرض مادية وإنما بركتها بالإضافة إلى الأشياء المادية بركات معنوية تتمثل فى أنها عش الأنبياء ولذلك فكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دفنه فى بيت المقدس عند وفاته باعتبارها عش الأنبياء ، وكانت لم تفتح بعد ، وهى مهبط الوحى وهى مسرى النبى ومعراجه منها صلى الله عليه وسلم وهى القبلة الأولى

فقد صلى المسلمون إلى مسجدها ستة عشر شهراً ومسجدها تشد إليه الرحال كما ورد فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب عن النبى صلى الله عليه وسلم « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » .

ومن بركة هذه الأرض الاستقراء أنه حينما يبتعد المسلمون عن محور عزهم ومركز قوتهم وهو الإسلام يضعفون ويتمزقون وتكثر دولهم ودويلاتهم فيسهل على العدو أن يتسرب من خلالهم فيأخذ الأرض المباركة ويأخذ المسجد الأقصى وعندها يتحرك المسلمون حركة حياة من جديد ، وينفضون غبار الهزيمة فيعملون لاستخلاص هذه الأرض فعن طريق استخلاصها يتم توحيد المسلمين من جديد . ألا ترون أنه بسبب حريق المسجد الأقصى كان مؤتمر القمة الإسلامى الأول فى المغرب الذى انبثق عنه مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية الذين كونوا الأمانة العامة الإسلامية فى جدة ، وهذا من بركة هذه الأرض التى باركها الله . ولذلك لن يصل أحد مع اليهود وأعوانهم إلى حل حتى يأتى أمر الله ويتوحد المسلمون ، ويعود الإسلام محركاً للحياة فى ديار الإسلام وفى العالم كله .

وقد ظهرت بركتها فى الحروب الصليبية إذ بعد أن أخذها الصليبيون وظنوا أن الأمر قد استقر لهم كانت حروبهم سبباً فى توحيد المسلمين من جديد فكان نور الدين زنكى الذى وحد الأجزاء المبعثرة وأخذ الراية منه صلاح الدين ، فكانت حطين النصر المبين وكانت معركة القدس فيما بعد ودخلها رحمه الله فأعاد الأمن والأمان إليها وعاد مسجدها إلى قدسيته وطهره .

ربط أهل الشام :

وَقَدَرُ أهل الشام —وفلسطين منها— أنهم مرابطون إلى يوم القيامة حيث الكفار لا يتركون الأرض المباركة يستقر أهلها وهم يريدون مسجدها ليقيموا عليه الهيكل .

روى الطبرانى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن أهل الشام وأزواجهم وذراريهم وعبيدهم وإماءهم إلى منتهى الجزيرة مرابطون فمن نزل مدينة أو قرية من المدائن فهو فى رباط أو ثغر من الثغور فهو فى جهاد ، وقدر أهل الشام كذلك أن ينتقم الله بهم من أعدائه فعن خريم بن مالك « أن أهل الشام سوط الله فى أرضه ينتقم بهم ممن يشاء من عباده وحرام على منافقيهم أن

يظهروا على مؤمنيهم ولا يؤثون إلا همًّا وغمًّا » رواه الطبرانى مرفوعاً وأحمد موقوفاً ورجاله ثقات ، وعن أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول « الملحمة الكبرى بأرض يقال لها الغوطة فيها مدينة يقال لها دمشق خير منازل المسلمين يومئذ» رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد وقد روى أبو بكر ابن شيبة عن أبى الزاهرية قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « معقل المسلمين من الملاحم دمشق ومعقلهم من الدجال بيت المقدس ومعقلهم من يأجوج ومأجوج الطور .

وعلى هذا فالأرض المباركة بركتها بالإضافة إلى الأشياء المادية التى ذكرها المفسرون من الثمار والأشجار والأنهار والأرض المعطاء والسهل الخصيب والجبال العالية والأرض المنخفضة التى تجعلك تنتقل فى ساعة زمن أو أقل من مستوى سطح البحر إلى العلو الشاهق إلى الغور المنخفض فهناك البركة المعنوية والبركة المادية تتصاغر أمام البركة المعنوية والتى باركها الله فجعلها القبلة الأولى يصلى إليها المسلمون وأسرى بنبيه إليها وعرج به من مسجدها إلى السموات العلا ، وجعل مسجدها الأقصى تشد إليه الرحال وهى عش الأنبياء وهذا مما جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأتى بنفسه لاستلام القدس .

الوطن البديل :

ولذلك فحينما يتحدث اليهود وأعوانهم عن الوطن البديل للفلسطينيين يظنون أن أى أرض يمكن أن تستبدل بها الأرض المباركة ويظنون أن الأمر أمر إسكان لاجئين أو استقرار مشردين وما علموا وهم يتجاهلون أن هذه الأرض لا تدانيها أرض أخرى ولا يمكن أن يقوم مقامها وطن بديل فى أى بقعة من بقاع الكرة الأرضية إذ أن هذه الأرض مرتبطة بعقيدة المسلمين سجلت فى كتاب الله بوصفها القبلة الأولى وبوصفها مسرى النبى وبوصفها معراج الرسول وبوصفها الأرض المباركة ولذلك فهى لا تخص الفلسطينيين وحدهم ولا تخص العرب وحدهم بل تخص المسلمين أينما كانوا وحيثما وجدوا وما دام كتاب الله القرآن موجوداً على الأرض يتلى وفى الأرض مؤمنون فليس هناك استقرار لدولة اليهود وهى فى طريقها لأن تصبح من مخلفات التاريخ كما أصبحت دولة الصليبيين من قبلها من مخلفات التاريخ تؤلف الكتب عن أسباب زوالها ويكتب الباحثون أبحاثهم ويعطى العلماء آراءهم فى

ذلك كلهم أو جلهم وسينسى أو يتناسى الحقيقة الأزلية وهى استحالة أن يملك هذه الأرض غير المسلمين وأن تبقى فى حوزة أعدائهم لأن هذه إرادة الله بينها ليلة الإسراء . . .

والواقع أن العالم كله يفقه القضية الفلسطينية أو القضية اليهودية بالأحرى وإنما كل فئة تنظر إلى القضية من زاوية معينة تتفق مع مصلحتها وهذه النظرة بالنسبة لمصالحها صحيحة ، فالغرب ينظر للقضية على أنها امتداد للحروب الصليبية ، وأن اليهود أداة فى يديه لتمزيق الوطن الإسلامى والسيطرة على بلاد المسلمين وتهديدهم حتى لا يفيقوا مرة أخرى فيتعرضوا لقيادة الدنيا وإنقاذها مما تعانيه . والشيوعية تنظر إلى القضية على أن بقاء دولة اليهود فى بلاد المسلمين أمر ضرورى لإيجاد التناقض حسب الفكر المادى ولذلك هى مع بقاء دولة اليهود ، وتحارب الطبقة الحاكمة فى إسرائيل حرباً طبقية باعتبارها عميلة للغرب ، ويهمها أن يبقى التناقض فى المنطقة ، وعدم الاستقرار لأن ذلك حسب وجهة نظرها يغذى الحركة الشيوعية وينميها .

وأهل البلاد الذين أخرجوا من ديارهم (الفلسطينيون) ينظرون إلى القضية من زاوية أنهم شعب ظلم وشرد واضطهد فهم يريدون حياة الاستقرار فى الأرض التى ولدوا فيها أو نبت آباؤهم فيها أو دفن أجدادهم فى ترابها فهم يحنون بفطرتهم إليها ولا يرون فى الدنيا أرضاً تكون بديلا لها وهذا صحيح ولكن هذه النظرات المختلفة للقضية من زواياها المختلفة ليست هى القضية وإنما القضية تتعلق باليهود أو بغضب الله على اليهود والمستمر عبر التاريخ بالعذاب الواقع بهم نتيجة سوء تصرفهم وحقدهم على الإنسانية فحلقة من حلقات الغضب والسخط عليهم من الله . إن الله أخبر فى القرآن فى آيات الإسراء كما أسلفت فى أول البحث وفى حديث البخارى ومسلم أنه قبل قيام الساعة ستقوم لليهود دولة ثم يتولى المسلمون تصفيتها حتى يقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله خلفى يهودى فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود .

حتمية زوال دولة إسرائيل :

ولقد حاول العالم منذ ١٩٤٨ أو القوى الكبرى فى العالم أو الغرب على وجه التخصيص أن يثبت إسرائيل دولة فوضع الحلول وحاك المؤامرات ولكن المؤامرات تفشل والطبخات تحترق وذلك

بفضل الله وبمعاونة اليهود أنفسهم حيث يرفضون كل ما يعرض عليهم حتى يأتى يومهم الموعود وقدرهم المرصود فتزول دولتهم بآثامها وشرورها وإن الغرب اليوم يحاول جاهداً لإنقاذ دولة اليهود من مصيرها المحتوم وقدرها المرسوم رغم أنفها ، ولكن اليهود يتمردون على من أوجدهم، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون وصدق الله إذ يقـــول فى حقهم (لايقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) .

وإن من بركة الأرض المباركة أن المسلمين يتوحدون دائماً عن طريق استخلاصها من أيدى أعدائهم وذلك أن الأمة الإسلامية حينما تبتعد عن محور قوتها وهو الإسلام يلحقها الضعف والتشتت فتقام فيها دول ودويلات حتى تصل فى صغرها إلى مستوى الأحياء والحارات فيأتى العدو ليتسلل عبر هذا الضعف فيأخذ الأرض المباركة وتسقط القدس، ويسقط الأقصى فى يديه، عند ذلك تبدأ الأمة فى التحرك حركة الحياة من جديد حتى إذا وقفت على قدميها كرت على عدوها لتخلص الأرض المباركة منه فتتوحد من أجل ذلك أو بسبب ذلك كان ذلك فى الحروب الصليبية وكان ذلك فى حروب التتر وهو الآن . ولذلك بسبب حريق الأقصى فى ١٩٦٩/٨/٢١ انعقد مؤتمر القمة الإسلامى الأول وخرجت من ذلك المؤتمر منظمة الدول الإسلامية الممثلة فى الأمانة العامة الإسلامية فى جدة والتى يعقد مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية مؤتمرهم السنوى فى أحد العواصم الإسلامية وسيستمر اللقاء والتقارب حتى يصل إلى حد التمازج والتلاحم فيشترك المسلمون كل المسلمين فى تحرير الأرض المباركة التى تكون سبب وحدتهم .

بلاغة الأسلوب النبوى

فضيلة الشيخ
منشاوى عثمان عبود

تمهيد :

شاءت إرادة الله تعالى ، واقتضت حكمته أن يجعل من رسولنا الأعظم — صلوات الله وسلامه عليه — نموذجاً فريداً فى المكارم والمحامد . وأسوة طيبة خالدة للناس كافة ، ومثلا أعلى لمن يحاولون الوصول إلى رفيع الخصال ، وكريم الخلال ، فجمع له من صفات الكمال ما يتفوق بين صنوف البشر ، ومنحه من العطاء ما لم ترق إليه نفس ، ولم يدن من ساحته أحد ، وما كان هذا غريباً أمام قدرة الله القاهرة ، وإرادته النافذة ، وحكمته البالغة — كما قال الشاعر العربى :

وليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم فى واحد

ومن هذه الكمالات التى أتم الله تعالى النعمة فيها على رسول الله عليه الصلاة والسلام ملكة البيان . . فكان قمة فى القول السديد والكلام البليغ ، والحجة المشرقة والأداء الرائع .

وفى المقالات الماضية مثلت لأربعة نماذج من صنوف بلاغة الأسلوب النبوى . . وأحاول فى هذا المقال أن أمثل لبعض نماذج أخرى لبلاغة هذا الأسلوب فأقول : يذكر البلاغيون الاستعارة على أنها طريق آخر من طرق الأداء ، وتطلق عندهم على معنيين :

الأول : المعنى المصدرى : وهو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين ما وضع له وما استعمل فيه مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له .

الثانى : المعنى الاسمى : وهو اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له ، لعلاقة المشابهة بين ما وضع له وما استعمل فيه ، مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له

فإذا عرف أن أركان التشبيه : مشبه — مشبه به — وهما الطرفان — ووجه شبه، وأداة .. عرف أن أصل الاستعارة تشبيه حذف فيه أحد الطرفين ووجه الشبه والأداة .

فإذا قال شخص : كان الخطيب ينثر الدرر من فيه — فإنه يريد أن يقول : إن الخطيب أتى بكلام كالدرر فى الحسن .

وأصل هذا تشبيه لكلام الخطيب باللآلىء الحقيقية بجامع الحسن فى كلٍّ ، فحذف وجه الشبه ، وحذفت الأداة ، واستعملت كلمة « الدرر » فى كلام الخطيب — فكلمة « الدرر » يقال لها : استعارة بالمعنى الأسمى ، لأنها لفظ مستعمل فى غير ما وضع له وهو كلام الخطيب ، لعلاقة المشابهة بين ماوضع له (الدرر) (اللآلىء الحقيقية) وبين ما استعمل فيه (كلام الخطيب) مع قرينة مانعة من إرادة ما وضع له ، وهى كلمة ينثر من فيه .. واستعماله كلمة (الدرر) فى كلام الخطيب ؛ يقال له استعارة بالمعنى المصدرى لأنه استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة إلخ .

ويقسم علماء البلاغة الاستعارة — باعتبار ذكر المشبه به وعدمه إلى تصريحية : إذا كان لفظ المشبه به مذكوراً فى الكلام وإلى مكنية : إذا كان لفظ المشبه به محذوفاً من الكلام ورمز إليه بشىء من لوازمه . ويسمى إثبات لازم المشبه به المحذوف للمشبه المذكور استعارة تخييلية : وهى قرينة الاستعارة المكنية فهى لازمة لها لا تفارقها إذ لا استعارة بدون قرينة . وسميت الاستعارة التخييلية — استعارة لأنه استعير لها ذلك من المشبه به للمشبه وتخييلية : لأن إثبات اللازم للمشبه — خيل اتحاده مع المشبه به .. كما يقسمون الاستعارة التصريحية باعتبارها المستعار — إلى :

أصلية : وهى التى يكون المستعار فيها اسماً غير مشتق : وإلى تبعية : وهى التى يكون المستعار فيها اسماً مشتقاً ، أو فعلا ، أو حرفاً .

وكما أن التشبيه يجرى بين مفردين كذلك يجرى بين مركبين بأن تشبه هيئة منتزعة من عدة أمور بأخرى مثلها — فمثل هـذا التشبيه يسمى التشبيه المركب أو تشبيه التمثيل . فإن حذفت منه الأداة — والمشبه — ووجه الشبه — وبقى المشبه به كان ذلك استعارة تمثيلية . فالاستعارة التمثيلية : هى

اللفظ المركب المستعمل فى غير المعنى الموضوع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ، والاستعارة كما يقول البلاغيون — لابد فيها من تناسى التشبيه والمبالغة بادعاء أن المشبه (المستعار له) فرد من أفراد المشبه به (المستعار منه) وداخل فى جنسه — فإذا قال قائل : وردت بحراً — يريد جواداً كريماً — فقد استعار لفظ البحر للرجل الكريم ، فأفاد بهذا القول المبالغة فى وصف الرجل بالجود وبسط يده بالبذل والعطاء .. فكانت الاستعارة أبلغ من التشبيه فى تأدية المعنى المراد وأوقع فى النفس من الأداء عن طريقه .. لأن التشبيه مهما تناهى فى المبالغة فلا بد فيه من ذكر المشبه والمشبه به .. وهـذا اعتراف بتباينهما وتغايرهما وأن العلاقة ليست إلا التشابه والتقارب — فلا تصل إلى درجة الاتحاد إذا جعلت لكل منهما اسماً يتميز به دليل عدم اتحادهما وامتزاجهما .

بخلاف الاستعارة فيها دعوى الاتحاد والامتزاج وأن المشبه والمشبه به صارا معنى واحداً يصدق عليهما لفظ واحد .

فنى المثال السابق جعل الجواد والبحر شيئاً واحداً حتى صح أن يسمى أحدهما باسم الآخر ، ولولا ما أقام القائل من القرينة على ما أراد ما خطر ببال أحد يسمعه إلا أنه يريد البحر الذى تعورف بهذا الاسم .. وهذا اللون من البيان نجده فى الأسلوب النبوى على أرفع مثال من عذوبة اللفظ ، وإحكام السبك ، ودقة المسلك واستبانة الغرض وروعة المظهر .

فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : (من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله ، وأتته الدنيا ، وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له)[1] .

اللغة :

قوله : (همه) يقال : هم بالشىء يهم هما من باب رد إذا نواه وأراده ، ويؤيد هذا رواية أخرى للحديث فى سنن ابن ماجه بلفظ (من كانت الآخرة نيته) ومعنى كون الآخرة همه أنها مقصودة له .

(شمله) يدعى به للشخص ، فيقال : جمع الله شمله ، أى ما تفرق من

(١) رواه الترمذى عن أنس بن مالك — رضى الله عنه .

أمره ، ويدعى به عليه ، فيقال : فرق الله شمله أى ما اجتمع من أمره ، والشمل بسكون الميم ، والشمل بفتحتين لغة فى الشمل ومن ذلك قول الشاعر :

قد يجعل الله بعد العسر ميسرة

ويجمع الله بعد الفرقة الشملا

(راغمة) الرغام : التراب ، يقال : أرغم الله أنفه — أى ألصقه بالرغام — وهذا هو الأصل ثم استعمل فى الذل والانقياد على كره ، فمعنى (أتته الدنيا وهى راغمة) أتته ذليلة منقادة :

فنى قوله : (وجعل غناه فى قلبه) أريد بالغنى القناعة ففيه استعارة تصريحية أصلية حيث شبهت القناعة بالغنى بجامع راحة النفس بكل واستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية .

وقرينة الاستعارة قوله : (فى قلبه) وكانت الاستعارة هنا تصريحية للتصريح فيها بلفظ المشبه به ، وأصلية لجريانها فى اسم غير مشتق .

وفى قوله : (وهى راغمة) استعارة تصريحية تبعية بتشبيه تيسر أحوال الدنيا وقضاء الحوائج فيها بانقياد الذليل للعزيز ورغمه على طاعته ، بجامع الوصول إلى الغرض فى كل دون مشقة ، واستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ، واشتق من الرغم بمعنى التيسر راغمة بمعنى متيسرة على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، وقرينة الاستعارة إسناد الرغم للدنيا . . وكانت الاستعارة هنا تصريحية للتصريح فيها بلفظ المشبه به ، وتبعية لأنها جرت فى المشتق بعد جريانها فى المصدر .

ويصح فى هذا القول استعارة مكنية بتشبيه الدنيا فى تيسر أحوالها لمن كانت الآخرة همه بشخص مغلوب على أمره ، لا يسعه إلا أن ينقاد لغالبه ، بجامع الخضوع فى كل ، واستعير اللفظ الدال على المشبه به للمشبه ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو راغمة بمعنى ذليلة التى تعتبر من خواص الأحياء ، وإثبات هذا اللازم للمشبه (الدنيا) استعارة تخييلية وهى قرينة الاستعارة المكنية .

وفى قوله : عليه الصلاة والسلام (جعل الله فقره بين عينيه) مبالغة فى وصف ما يشعر به المنهمك فى طلب الدنيا من تصور الفقر فكأنه شاخص أمامه ، لا يغيب عنه أبداً ، كما تقول لشخص تريد أن تؤكد

له تصورك التام لمسألته وحاجته : حاجتك بين عينى أى لا تغيب بحال عن فكرى .

وهذا من قبيل التمثيل : تمثيل حال المتلهف على الدنيا ولا تزيده إلا ذلا بحال مفترضة من مثول الفقر بين العينين ، بجامع الباعث على الضرر والفزع فى كل ، واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية .

وما أروع هذا كله وأحقه بأن يصير فى النفس أزهى صور التقدير والإعجاب .

منشاوى عثمان عبود

فى الإخلاص والنية

قال صلى الله عليه وسلم

« إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

دور مصر فى انتشار الإسلام

إلى الصديقين : منظور خان فى باكستان ومحمود عباس فى إيران : استجابة لرغبتهما فى هذا المقال .

دكتور / عبد الودود شلبى

لم يكن فتح مصر فى سنة ٢١ هـ مجرد انتصار على جيوش الدولة البيزنطية الظالمة أو إضافة قطر جديد إلى دولة الخلافة الإسلامية العادلة .

بل كان هذا الفتح مقدمة لفتوحات أخرى فى القارة الأفريقية ، وقاعدة انطلاق واسع وبعيد للدعوة الإسلامية .

وقد لعب مركز مصر الجغرافى دوره الخطير فى هذه الناحية ، فقد كانت مصر بحكم هذا الموقع هى « المفتاح » الذى مهد لانتشار الإسلام فى هذه القارة ، وكان دخولها فى الإسلام « بابا » لدخوله فى أقطار أخرى مختلفة ، إنه قدر كتب على مصر منذ فجر الحضارة وأمانة تاريخية تحملها شعبها المؤمن عن ثقة وجدارة .

ولقد يبدو غريباً فى نظر بعض الإخوة أن نربط بين حديثنا عن دور مصر فى انتشار الإسلام وبين وضعها الجغرافى ، إلا أن العلاقة بينهما فى هذا الشأن وثيقة ، وتأثير كل منهما فى الآخر واقع وحقيقة .

ولنضرب لذلك مثلا بانتشار الإسلام فى أفريقيا . .

هل كان يمكن للإسلام أن ينتشر فى أقطارها هذا الانتشار الممتد شرقاً من المحيط الهندى مخترقاً وسط القارة الشمالى حتى يصل إلى غربها على المحيط الأطلسى . . هل كان يمكن ذلك لولا دخول الإسلام إلى مصر واتخاذه منها قاعدة لانطلاقه شرقاً وغرباً وشمالا وجنوباً ؟ لقد كانت مصر هى

القاعدة التى انطلقت منها جيوش الإسلام إلى أعماق هذه القارة فعلى امتداد الساحل الشمالى سارت جيوش المسلمين حتى بلغت المحيط الأطلسى ، ومن واحات مصر الغربية انطلقت قوافل العلماء والدعاة إلى غرب القارة مروراً بجنوب بلاد المغرب ، ومن بلاد المغرب « جنوب تونس » إلى بلاد « برنو » اتخذ الإسلام طريقه إلى شمال السودان ، ومن جنوب « الجزائر » إلى بلاد « الحوصا » شمال نيجيريا ومن جنوب « مراكش » إلى مصب نهر السنغال ومنحنى النيجر ، ومن القاهرة اندفع الإسلام جنوباً بمحازاة النيل أو عن طريق الصحراء الشرقية ليستقر بعد ذلك فى السودان وبلاد النوبة .

لقد كانت مصر هى « الباب » الذى دخل منه الإسلام إلى هذه القارة وكان لموقعها الجغرافى أثره فى انتشاره وتقدمه بسرعة . وإلا هل كان من الممكن أن يقوم إمام جليل وشيخ للإسلام بهذه الرحلة التى تجشم فيها أخطر المصاعب للوصول إلى بلاد « التكرور » وهى ما يسمى فى عصرنا هذا ببلاد غرب أفريقيا ، أو بلاد « القولانى » و « الحوصا » فقد ذكر الشيخ آدم بن عبد الله الالورى فى كتابه « الإسلام فى نيجيريا » أن الإمام الحافظ السيوطى رحل من مصر إلى بلاد التكرورية وأقام فيها مدة للتدريس فى « أكدز » و « كشنة » وكانت بينه وبين ملك نيجيريا مراسلات يطلبون منه فيها الوعظ والنصيحة . .

وفى هذا الكتاب نفسه يحدثنا الشيخ آدم عن علماء بلاده الذين رحلوا إلى مصر والتقوا بعلمائها الأجلاء فى الأزهر الشريف . ومن هؤلاء العلماء الذين تعلموا فى مصر وكان لهم دور كبير فى انتشار الإسلام — الشيخ أحمد بن محمد أفيت ، والشيخ عاقب بن عبدالله الاكدزى ، والقاضى محمد بن أحمد القادختى .

وقـــد ذكر معظم المكتشفين الجغرافيين الأجانب أن الذين يقومون بنشر الإسلام فى أفريقيا أكثرهم من الدعاة والمسلمين الذين درسوا فى الأزهر بصفة خاصة . هذا الجامع الذى يهرع إليه الطلاب من جميع أنحاء العالم وبخاصة من شعوب أفريقية. وقد قام هؤلاء المعلمون بإنشاء المدارس والزوايا لتعليم أصول الدين ، والتفقه فى أحكام الإسلام . وقد ذكر المقريزى فى خططه أن عدد هؤلاء

الطلاب بلغ فى عهده – فى القرن التاسع الهجرى – الخامس عشر الميلادى – ٧٥٠ طالباً وكان لكل طائفة منهم « رواق » – يعرف بهم . وكان من أهم هذه الأروقة رواق « الدكارته » و (رواق السناريه) و « رواق الجبرت » و (رواق برنو) . .

وقد انتهى عهد الأروقة فى الأزهر الآن بعد أن تكاثر عدد الوافدين إلى مصر من أنحاء العالم الإسلامى . حيث أنشئت لإقامتهم مدينة خاصة هى « مدينة البعوث الإسلامية » تضم حوالى عشرة آلاف طالب من كل الجنسيات المعروفة فى العالم .. وكان آخر ما وصل إلى هذه المدينة من الطلاب الدارسين فى الأزهر ، طلبة من اليابان ، والولايات المتحدة الأمريكية ، وجنوب أفريقيا وبريطانيا . .

وقد عمل الأزهر على تسهيل دراسة هؤلاء الطلاب الذين لا يعرفون حرفاً واحداً من اللغة العربية ، فأنشىء من أجل ذلك قسم الدراسات الخاصة لتعليم اللغة العربية ، كما أنشئ « معهد البعوث الإسلامية » الذى تسير مناهجه وفقاً لحاجات هؤلاء الطلاب اللغوية والدراسية ، وكلاهما أى قسم الدراسات الخاصة ومعهد البعوث تابع للأزهر الشريف الذى يقدم لهؤلاء الطلاب المنح الدراسية ، ويوفر لهم كل أسباب الراحة طوال سنوات التعليم والدراسة .

وقد تخرج الألوف من هؤلاء الطلاب فى الأزهر الشريف ، وتولوا فى بلادهم أرفع مناصب التعليم الدينى والتوجيه .. ولم يكن ذلك ليتم لولا تلك الرعاية التى شملتهم بها مصر طوال سنوات التعليم ، ولولا الدور الذى تقوم به مصر فى خدمة الدين . .

وقد خطت مصر فى هذا المجال خطوة أخرى تختلف عنها فى الصورة وأن اتفقت معها فى القصد والغاية .

هذه الخطوة أو « الخطة » تتمثل فى إرسال العلماء والدعاة إلى مختلف أقطار العالم الإسلامى ، وفى إنشاء المراكز الإسلامية فى العواصم الهامة ، وفى إقامة المعاهد والمدارس الخاصة .

وفى نيجيريا مثلا توجد بعض المراكز الثقافية التى تنفق عليها مصر وتشرف عليها ، وفى الصومال أنشئ العديد من المدارس على حساب مصر لتعليم أصول الدين واللغة العربية ، كما أن هناك فرعاً لجامعة القاهرة فى مدينة الخرطوم ، وفى الخرطوم نفسها قام أكبر مركز إسلامى لتخريج الدعاة

الإسلاميين بمساعدة كبرى من القاهرة وإشرافها . .

وفى خارج العالم الإسلامى ، كان أول مركز إسلامى أنشئ فى أوربا — وهو مركز لندن — من سَعْيِ مصر وعملها ، وهناك مركز آخر فى وشنطن أقامته مصر بجهودها ، وتبع ذلك إنشاء مراكز إسلامية أخرى فى كل من « مونتريال » وباريس ، ونيويورك . وتقوم هذه المراكز برعاية أحوال المسلمين فى أمريكا وأوربا . كما تقوم بتوضيح مبادئ الإسلام وشرحه للراغبين فى اعتناقه من غير المسلمين فى الولايات المتحدة ، وبريطانيا .

وللأزهر الشريف أكثر من خمسين بعثة تؤدى عملها فى مختلف أقطار الدنيا ويختلف عدد أعضاء هذه البعثات من دولة إلى أخرى . حسب الأهمية وحسب ظروف المسلمين فى كل دولة . فللأزهر الآن بعثات فى كل من :

سوريا — الكويت — لبنان — قطر — السعودية — العراق — البحرين — أفغانستان — باكستان — الهند — ماليزيا — أندونيسيا — الفلبين — السودان — الصومال — تنزانيا — كينيا — أوغندا — جزر القمر — بنجالاديش — موريشيس — مالاجاسى — ليبيا — الجزائر — المغرب — السنغال — موريتانيا — غانا — غينيا — نيجيريا — توجو — داهومى — ساحل العاج — النيجر — مالى — جابون — أفريقيا الوسطى — تشاد — وأخيراً فى الولايات المتحدة — وفرنسا — وكندا — وبريطانيا — والبرازيل — الأرجنتين — والبرتغال .

كما تقوم وزارة الأوقاف المصرية بتقديم المساعدات المالية ، وإرسال الوعاظ وإقامة المساجد فى بعض الدول الإسلامية النامية .

كما يقوم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية — التابع لهذه الوزارة — بتقديم المنح الدراسية ، وطبع الكتب الإسلامية وترجمة الكثير منها إلى اللغات الحية ، كما قام هذا المجلس بطبع المصحف الشريف وتسجيله ، وقدم الكثير من نسخه إلى المسلمين فى أقطارهم المختلفة .

لكن . . . هل هذا كل ما فعلته مصر فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية ؟

إن فى مصر إذاعة خاصة بالدعوة الإسلامية هى «إذاعة القرآن الكريم » . . هذه الاذاعة التى بدأت عملها منذ حوالى أربع عشرة سنة ، وتبث إرسالها على موجتين قصيرة ومتوسطة وتتنوع

برامجها لتشمل كل حاجات المسلمين الروحية والفكرية وتذيع يومياً لأكثر من ثمانى عشرة ساعة .

وقد وضع لهذه الاذاعة تخطيط جديد يتفق مع رسالتها السامية ، ويقوم المسئولون حالياً بالاعداد لتقوية إرسالها حتى يصل إلى كل ناحية .

كما لا يفوتنا أن نسجل ما تقوم به « البرامج الموجهة » فى نشر الوعى بالحضارة الإسلامية ، وتلبية حاجات المستمعين فى القضايا الدينية ، لقد سجلت « البرامج الموجهة » تفوقاً ملحوظاً فى هذه الناحية ، واستكتبت لبرامجها كبار العلماء والمفكرين فى الأزهر الشريف والقاهرة .

وكان لتعدد اللغات التى تذيع بها هذه البرامج أكبر الأثر فى التعريف بالإسلام وفى تبليغ كلمته ورسالته إلى أقصى مكان .

إن فى مصر كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « خير أجناد الأرض » وحين سئل عن سبب ذلك قال : لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة . .

وهذا هو « قَدَرُ » مصر .. قَدَرُها ديناً . . وقَدَرُها تاريخاً . . وقَدَرُها مكاناً وموقعاً .

د. عبد الودود شلبى

فى التوبة

قال صلى الله عليه وسلم :

« أن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل . حتى تطلع الشمس من مغربها » .

الديناميكية فى التصوف الإسلامى

للمستشرق الفرنسى/روجر ارنالديز

ترجمة : حامد طاهر

كان من الضرورى أن ينقضى وقت طويل حتى يدرك الفكر الأوربى أن المشاعر الإنسانية لا تنحصر فى أى نظام من أنظمة الفكر الواضحة ، ولا يمكن التعبير عنها بأية وسيلة من وسائل المنطق الأرسططالى .

فالمشاعر لا تخضع لمبدأ التناقض ، وهى فى ارتباطها بالضمير — الذى يعتبر أساساً حركة يختفى حين يراد تحديده ، ولا ينغلق فى مفاهيم أو موضوعات — من النادر أن تكون صافية ، لكنها قادرة عندما تعاش أن تضم فى ذاتها المتناقضات : فلا يوجد سرور دون بقايا حزن ، كما لا يوجد حب دون بغض ، أو بغض دون حب . وليس معنى ذلك أن الضمير قادر على أن يحس — فى نفس الوقت — بشعورين متوازيين ومتضادين : إن الأشياء عندما تمثل على هذا النحو ، ينتج منها واقع هزلى مضحك ، كما فعل رابليه عندما أظهر جارجانتيا ، بطل روايته ، حزيناً على وفاة زوجته ، وسعيداً بميلاد ابنه . وتدل هذه المهزلة على كاريكاتيرية الضمير ، حيث لم يتم تناول المشاعر فى ذاتها ، وإنما تبعاً لأسباب خارجية استدعتها . والواقع أنه فى الحالة الواحدة التى يمكن أن يوجد فى الضمير شعوران متناقضان لا يعدو الأمر أن أحد هذين الشعورين قد خرج من الآخر واستدعاه ، بينما يعود الآخر إلى الأول . وفى الحقيقة ، يوجد للمشاعر قطبان يتذبذب الضمير بينهما على نحو مستمر وهذا الطابع الجدلى هو الذى يولد الديناميكية .

وعلى قدر ما اهتمت الفلسفة الكلاسيكية بالضمير الأخلاقى ، وبحثت عن تحديد الفضائل والعيوب ، والمشاعر الطيبة والمشاعر الرديئة ، فقد حاولت أن تزج بالقيم السيكلوجية

فى المستويات المنطقية . ولم يحدث بالتدريج أن أدركنا استقلال عالم المشاعر وعدم اختزاله : فليس هناك مشاعر طيبة من الضرورى أن تكون مرتبطة بالأفكار الصحيحة الواضحة والمتميزة ، كما لا توجد مشاعر رديئة تنتج أفكاراً خاطئة غامضة وغير مقبولة . وليس هناك من شك فى أن متطلبات الحيــاة الدينية فى رفعها للإنسان كى يتجه إلى أحوال الضمير قد ساعدت فى اكتشاف الطبيعة الجدلية للمشاعر .

ولما كان المنطق عاجزاً عن التعبير عن هــذه الحركة الأساسية ، فقد كان ينبغى على البلاغة — بطائفة من الــكلمات والصور — أن تنهض بهــذه المهمة .. فعندما قال سينكا بصدد الإنسان المرتبط جداً بحياته ، والذى لا يكف عن الاهتمام بأدق الأمور من أجلها : « الحياة فى صيانة مريض . . » كان قد ابتكر (عبارة جيدة) اشتهر استعمالها ، ربما أكثر من رسائله المنطقية ذاتها . فليس باكتناز الحياة يعيش الإنسان ، وإنما بالمخاطرة بها والتعرض للموت . وقد بين فيلون الإسكندرى أن هناك نوعين من الموت : موت النفس أمام الله الذى وهبها الحياة ، وموتها مع الإنسان الذى يرغب فى الحياة ، وهو من أجل ذلك يقتل فى الحقيقة نفسه . وإذن فهناك كلمات كثيرة تبدو فى استعمالها المحدد غامضة ، ومع ذلك فهى وحدها التى تستطيع أن تعبر عن الواقع (السائل) للضمير الإنسانى .

تحتوى اللغة العربية على عدد كبير من المصطلحات التى تشير فى وقت واحد إلى دلالات متناقضة ، وتلك هى « الأضداد » ، وبالتالى فمن المهم فحص دورها الذى يمكن أن تقوم به فى لغة التصوف الإسلامى ، خاصة وأننا قد رأينا أن الاهتمام بالقيم الدينية التى يعيشها الضمير ، ينحصر بصفة خاصة ، فى اكتشاف الطبيعة الجدلية للمشاعر .

حدد صوفية المسلمين ثلاثة مستويات داخل الكائن الإنسانى : مستوى النفس ، الذى هو الإحساس بالذات ، ومستوى القلب ، ومستوى السر . وتمتد حياة النفس من الميلاد إلى الموت . وهى متميزة (بمقامات) تتتابع بالتوالى بعد أن يستمر كل منها وقتاً ما . ومن مشاعر الضمير يتكون لحن النفس ، غير أنه بمقدار ما يتوقف الضمير فى كل واحد من هذه المواقف ،

لا يستطيع أن يحتوى أبداً على أى مجموع ، أو على الأقل : المجموع الكامل لحياته ، وبالتالى فهو لا يعرف نفسه ، ولا يستطيع أن يحاكمها . فلكى يحاكم القاضى لا بد أن يزن ويقيس ، ولكى يفعل ذلك لا بد أن يكون خارجاً. ولذلك فإنه من منظور النفس، يتم الحكم عادة بعد الموت (إذا قضى الأمر - ١٩ / ٣٩) وقد أعلنت الشريعة قبل موعد هذا الاستحقاق ، حتى تحذر الناس ، وتقودهم إلى الطريق المستقيم . وإذن فإن ما يميز الشريعة أنها عبارة عن وعد مرتبط بتنفيذ العبادات والطاعة ، وقد حددت - على نحو موضوعى رقيق ، ما ينبغى أن يتلفظ به من قول ، أو يحدث من حركة أو إشارة ، وكذلك الأوقات التى يجرى فيها كل هذا . . لكن الشريعة لا تحدد بنفس الطريقة أعمال الباطن ، وقد لاحظ ابن حزم، بصدد حديثه عن النية -التى تعتبر ضرورية- أنها تملأ الفراغ الذى يمكن أن يصاحب أعمال العبادات . لكن النية قائمة ببساطة على أن ما يأمر به الله كاف ، وهى إذ تحول دون أى إعجاب بالنفس فإنها تتجنب وضع النموذج الذى لا يستطيع الإنسان عادة بلوغ مستواه الروحى . وهكذا تنحصر أحقية العمل الدينى فى هــذه الحدود . فهى لا تشترط مثلا للنية نية، ولا نية نية النية ذلك الذى يمــكن أن يذهب إلى ما لا نهاية دون فائدة. إن انكفاء الضمير على ذاته أمر مكروه.. والعقيدة لا تتكون من تأمل الإنسان فى ذاته ، واستمرار دورانه حول نفسه .. فالهداية تأتى بالتأكد من الخارج ، من الله القادر على كل شىء ، المنفرد فى تساميه المطلق ، وأمامه لا يملك المؤمن المخلص إلا الطاعة فى خشوع . . (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون - ١/٢٣ ، ٢) .

وإذن فإن هذه الطاعة الخاشعة عبارة عن موقف فى مواجهة (الوحى) الذى يلقيه الله فى ذاكرة الناس . « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » ٥٧ / ١٦) . وفى اللحظة التى يستهلك الموت فيها كل شىء ، يرتفع الغموض الأساسى عن مشاعر النفس . تقول الآية . « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم - ١٤ / ٢٢ .

وإذن فالشيطان ، إبليس ، هو الذى يغوى بالمتشابهات الباطلة وبالتلبيس،

وهو الذى يحصن الإنسان على أن يتعلق بهذه الخيرات والمخلوقات الحادثة التى يظهرها له مشروعه ومباحة . إن كل ما تبتلى به النفس يمكن أن يعود : إمّا إلى الله الذى يرسله ، وإمّا إلى النفس ذاتها ، التى ترغب فى الكِبْرِ والعظمة ، ليس فى الحقيقة ، وإنما أمام الناس . ولأن النفس ليست كائناً صلب التكوين ، فإنها تستسلم بسهولة للزهو بنفسها : وهذا هو ما يطلق عليه الصوفية (الرياء) الذى ينبغى عدم خلطه بالنفاق ، لأن الأول يعنى فكرة أن يعرض الإنسان نفسه أمام الآخرين ، وهذا ما يحدث تزويراً كاملا للكائن . ويمكن الإشارة هنا إلى نظريات سارتر فى سوء الظن واللهو والكوميديا التى تتكون من حياة الكائن الذى يحس بذاته وللتعبير عن عدم تلائم الاحساس بالذات مع النفس، فإن اللغة العربية تحتوى على الصيغة الفعلية (تفاعل) التى تعد ذات علاقة بصيغة (فاعل) الذى يعبر عن المنافسة مع الآخرين . فمثلا نجد (تماجد وماجد) ينطبقان على معنى واحد ، لأن المنافسة مصحوبة دائماً بتفاخر وظهور أمام الناس. و (فاخر وتفاخر) لهما أيضاً معنى المنافسة فى المجد .

لقد كانت الأخلاق البدوية ، فى الجاهلية ، قائمة على أخلاق التنافس . فالكرم معناه أن يكون الإنسان أكرم من كل الآخرين وإن يباهى كذلك بالكرم (= كارم) . وجاء الإسلام فعارض هذا المستوى من القيم . فالله وحده هو الكريم المختص بالكرم، الرحيم . . . إلخ .

ولا أحد على الإطلاق يطمع فى أن يضاهيه ، وإذن فمن الضرورى مكافحة هذا الاتجاه الذى يتمثل فى أن تقارن النفس الآخرين ، وتتصنع أمامهم وهذا هو الذى جعل من قيم البدو ، بالنسبة للمسلمين وكذلك لكثير من المسيحيين « عيوباً زاهية » فليس ما لديهم سوى أمور براقة خادعة . والمشكلة إذن هى فى الوصول إلى (الإخلاص) الحقيقى . لكن الإنسان على المستوى الصوفى لا يقدر على ذلك ، لأنه لا يتصنع فقط فى محاولته العظمة ، وإنما أيضاً فى محاولته للخشوع . أنه يتصنع الفقر (تفاقر) والجهل (تجاهل) ، وبصفة عامة ، فليست النفس إلا (تصنعاً) وهكذا فإن أى تطور صوفى ، على مستوى الإخلاص الصوفى ، يفترض صراعاً (لمخالفة النفس) .

إن الشريعة فى شكلها المادى تنذر وتحذر . وبإمكان المؤمن الذى يطيع قوانينها أن يتخلص من أنواع الغموض الشيطانية ، ومن لبس الضمير . وألا يثق فى نفسه ، وإنما يجهد لكى يحقق مشيئة الله فيه . وليس بمقدار ما يحفظ نفسه من الوقوع فى الشر ، إنه يصل على نحو إيجابى إلى الخير . لأن كل مرحلة على الطريق ، حتى لو تجنب السقوط ، تظل معرضة لغموض الضمير المؤكد . وإذن فإن النجاة عن طريق الشريعة تتكون من تمسك الضمير الإنسانى بالنص المحدد لهذه الشريعة ، ووضع نفسه فى المكان الذى يحل فيه ضمير الشريعة محل ضميره نفسه . وهذا النوع من النجاة يشترك فيه عامة المؤمنين . فما يعنى المؤمن فى اتباع الأوامر هو ما ذكره القشيرى : فكرة الحياة الأخرى ، والوعود والأخطار التى تتمثل له فيها . وهنا خطوة نحو الاخلاص (إنا اخلصناهم بخالصة ذكر الدار — ٣٨ / ٤٥) . وتبعا للمفسرين يمكن أن تقرأ هذه الآية بطريقتين : بخالصة (بالتنوين) أو (بالاضافة) وفى حالة التنوين يكون المعنى ، كما يقول فخر الدين الرازى : لقد جعلنا من ابراهيم واسحاق ويعقوب رجالا خالصين ، تبعاً للخلصة الخالصة التى لا شوب فيها ، والتى هى عبارة عن البلاغ الخاص بالجنة الخالدة .

وفى حالة الإضافة يكون المعنى : لقد اخلصناهم تبعاً لما هو خالص فى ذكرى هذا البلاغ ، لأن هذه الذكرى يمكن أن ترجع إما إلى الله — إذا لم تعتقد إلا فيه ونحن نفكر فى الإقامة بها — وإما إلى الإنسان إذا ما تذكر فى نفسه . .

وهاتان القراءتان هامتان جداً ، لأنهما تعنيان أن المفكرين المسلمين كانوا على وعى بالفكرتين وأنهم لا يستبعدون أياً منهما. إن الله تعالى هو دائماً الذى يهب الإنسان الإخلاص ، لأنه لا أحد على الإطلاق يمكنه أن يصل إلى الإخلاص الكامل الذى هو عبارة عن : بساطة دون امتزاج بأى كائن لكن هذا الاخلاص ، وهـــذا الصفاء الصوفى يمكن تصوره (كطبيعة) يتقبلها المؤمن المحافظ على الشريعة ، طبيعة أشبه ما تكون بمنحة فى ذكرى البلاغ الإلهى . وذلك هو ما نعبر عنه بقولنا :

« يحل ضمير الشريعة محل الضمير الإنسانى » . . وفى الواقع يذكر الرازى بصدد (ذكرى الدار) أن

المشار إليهم فى الآية مستغرقون بالكلية فى تذكر بلاغ الآخرة ، وإن الذكرى المستمرة التى يعيشونها توصلهم إلى حد أنهم ينسون هذه الدنيا . وتذهب القراءة الثانية (= الإضافة) إلى أبعد من ذلك إذ ليس فقط بالاستغراق فى الشريعة تتم النجاة ، ولا بنسيان الدنيا نفكر فى الآخرة ، أو بالخلاص من غوايات إبليس تحقق دعوة الخير ، وإنما بنسيان النفس من أجل الله ، وذلك باكتشافها فى ذاتها ، وما وراء ذلك من الصفاء الذى أبدعه الله ، حيث يكمن الإخلاص الحقيقى فى صفائه ونصاعته .

لقد عتقد الصوفية المسلمون أن هذين الشكلين من الاخلاص : الموضوعى والذاتى ، مرتبطان باطنياً ، وأنه يجب الانتقال من الأول ، الذى يتكون فى إطار قوانين الشريعة ، إلى الثانى الذى يتم بالاتجاه الصادق إلى الله .

لكن كيف يتم هذا الانتقال من مستوى النفس إلى مستوى القلب ، الأكثر عمقاً ؟ . . بمنحة الهبة . فبينما تعتبر النفس مجالاً للجهد الانسانى (وهنا توجد علاقة بين «قام بجهد» و «تظاهر») فإن القلب هو محل العطايا إنه يتلقى الفضل الإلهى فى (الأحوال) . وليست الأحوال غامضة مثل مقامات النفس التى لا تحقق الصفاء الصوفى الكامل للاخلاص .

وتحتوى تلك الأحوال على قطبين أساسيين متقابلين . وهى لا مدة لها ، ومع ذلك فليست خاطفة . فلأنها لا تبقى زماناً طويلا ، لا يمكن أن تمثل تارة وجهاً وتارة وجهاً آخر ، كما هى الحال فى أحداث الضمير . ولأنها ليست خاطفة لا تحقق الوحدة الكاملة المنزهة عن كل إمكانية للشرك ، أنها لخطبة وتلك هى أوقات القلب ، الشبيهة بما يسميه الفيزيقيون «لحظات الامتزاج أو التزاوج» ، وهى ديناميكية ، بمعنى أنها عبارة عن توتر بين قطبين متقابلين وتذبذب مستمر من احداهما للآخر ، وهى تبث فى القلب قوة ترج النفس وتهزها كما تفعل إيقاعات لحن موسيقى . .

وإذا كانت مشاعر النفس تقبل التعبير عنها بواسطة صيغة (تفاعل) فإن أحوال القلب ، التى وصفناها ، تقبل التعبير عنها (بالأضداد) ، تلك الكلمات التى يتذبذب معناها بين دلالتين متقابلتين . ومن المؤكد أنه كان من الملائم جداً أن نرى كل

الأسماء التى أعطاها الصوفية لأحوال القلب – من الإضداد . على الأقل سوف نرى أن المصطلحين الأولين يتبعان مستوى الأضداد ، وهى (الخوف والرجاء) تقول الآية (ويرجون رحمته ويخافون عذابه ٥٧/١٧) لكن يستشهد فى المعنى المقابل بآية (فمن كان يرجو لقاءَ ربه فليعمل عملاً صالحاً – ١١٠/١٨) . وكذلك بآية « يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر – ٣٦/٢٩) حيث يفسر فعل الأمر (ارجو) بـ (احذروا واخشوا) ويترجم بالاشير هذه الآية (الذين لا يرجُون لقاءَنا – ١٠/١٥) :

(لا يرجون = لا يخشون ، أى ليس عندهم خوف) وبهذه المناسبة ، يحدد الخليل أن فعل (رجا) مثل (أمل) لا نلتقى أبداً بمعنى فزع ، إلا إذا لحقته أداة نفى . وهذا ما حدث فى الآية السابقة ، بيد أن أبا الطيب يلاحظ أنه يمكن أن يأخذ هذا الفعل نفس المعنى حتى لو لم يكن منفياً ، كما نرى فى أمثلة أخرى مستشهد بها .

ويدل الفعل (خاف) على الفزع ، عندما يتعلق الأمر بشىء لسنا متأكدين منه . لكنه يستعمل أيضاً عندما نكون متأكدين . وهكذا فإنه (فان خفتم ألا تعدلوا – ٣/٤ . ينبغى أن تفهم على معنى « إذا علمتم جيداً وتأكدتم أنكم لن تعدلوا » ، وليس (إذا خشيتم » . لكنه بمقدار ما يفهم منه عدم التأكد ، فإنه يعنى فى نفس الوقت : خشى ورجا ، كما أشار إلى ذلك قطرب . إن الحياة الدينية كلها فى الإسلام تبدأ من (الوعد) و (الوعيد) اللذين يذكرهما الله تعالى فى القرآن معلناً التبشير بالجنة ومنذراً من عذاب النار (انظر ١٢/١٨) و (الخوف) و (الأمل) من المشاعر المشتركة فى النفس الإنسانية ، وهنا يأتى الكلام الالهى ليحرك فيها كل ما هو عادى جداً وعام من الذى لا يرى الأخطار الجسيمة التى يمكن أن تقع له ، ولا يستغرق من الناحية السيكلوجية والروحية ، فى رعب كامل ومستمر ؟ . . وفى المقابل يظل هناك أمل خادع ، لا يحده شىء ، ومنه تنتج ضروب الغفلة والذنوب . لكن النفس تميل إلى أن تطيل مقاماتها عندما تنتقل من شعور إلى شعور مضاد ، وهذا دائماً بالتعاقب : فهى ترجو بعد أن تخاف ، وتخاف بعد أن ترجو . . وتولد هذه الانفعالات المتعاقبة اضطراباً فى النفس . أما

فى القلب ، فالأمر على عكس ذلك تماماً، لأن الخوف الكامن فى الرجاء ، والرجاء الكائن فى الخوف يجعلان الإنسان فى يقظة دائمة ، دون أن يفتر أو يتجمد. إن دناميكية الأحوال الصوفية لا تدع النفس تغفل أبداً ، وفضلا عن ذلك فإن تحقق مفهوم المصطلحين الأولين يولد — بفضل الله— تحقق مفهوم المصطلحين التاليين على نحو أكثر كمالاً . ويؤثر هذا المفهوم الأخير على النفس بدوره ، بحيث يجعل الإحساس بالذات يتحرر بالتدريج من ذاته خالصاً ، بمعنى الاخلاص الداخلى (ولم يعد الأمر هنا يتعلق بمستوى الضمير الموضوعى الذى يتحقق فى قوانين الشريعة) ثم ابتداء من المصطلحين الأولين ، تتوالى باقى المصطلحات الزوجية (قبض وبسط) ، (هيبة وأنس) . . . إلخ . وإذا لم تكن هذه المصطلحات أضداداً على المستوى المادى للغة ، فإنها من حيث انبثاقها وتطورها عن المصطلحين الأولين تظل الأضداد على مستوى المعنى الروحى .

وهكذا بعد عملية التصفية ، المنشطة بحيوية الأحوال ، تبلغ النفس درجة التقوى ، فى وحدتها الأكيدة ، تختزن منها رصيداً ضخماً. وهنا يحدد الصوفية (أصل) التقوى ، كما لو كانت عبارة عن (تجنب أى شرك مع الله) والتحفظ مما سوى الله . كذلك الابتعاد عن أى لبس : عبارة عن (تجنب أى شرك مع الله) والتحفظ مما سوى الله . كذلك الابتعاد عن أى لبس : (اتقاء الشرك والشبهات) . ومن المعلوم فى الإسلام أن الشرك لا يقتصر فقط على عبادة الأصنام التى صنعها الإنسان، وإنما أيضاً على عبادة اهوائه الخاصة ، والخضوع لها كما لو كانت أرباباً من دون الله . وإذن فإن التقوى تؤدى مباشرة إلى تلاشى الشعور بالذات ، وإلى فناء النفس ، والقضاء على كل ما هو مثار شك فيها .

عندئذ يمكن للقلب أن ينخرط كلية فى طريق الله . وهو تواب (أى الذى يتجه نحو الله ، من الفعل تاب ، أى رجع إلى الله ، وهو قريب جداً من الفعل تاب بمعنى رجع أو عاد) والتوبة كما يذكر الغزالى ، عبارة عن إسقاط الحجب التى تفصل الإنسان عن الله : المخلوق الذى يحب عن الخالق المحبوب ، وإذن فكلمة تاب تعتبر من الأضداد ، بهذا المعنى الذى ينطبق على الإنسان الذى يتوب ، وعلى الله ،

تعالى ، الذى يتوب عليه . تقول الآية . . .

(إن الله يحب التوابين - ٢/ ٢٢٢) وبالنسبة لله تعالى (قابل التوب- ٣/٤٠) . لكن تبعاً للمعنى المضاد ، الله أيضاً تواب (انظر القرآن ١٦/٤ ، ١٠/٢٤ . فالآية تقول (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه - ٣٩/٥).. إن كلا من فكرة التعبير القرآنى (ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ٩ / ١١٨) والآية رقم ١١٧ من السورة السابقة تقدم معنين متطابقين لفعل تاب (لقد تابَ اللهُ على النبي والمهاجرين والأنصارَ الذيَن اتبعوه فى ساعةِ العسرةِ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم أنهُ بهم رؤوف رحيم) . وقد حاول بعض المفسرين (كالجلالين مثلا) أن يحدد من المعنى الدقيق للجذر (ت و ب) المنطبق على الله تعالى ، فقالوا : إن الله (يوفق) الناس فى توبتهم ، وأنه (يديم) توبتهم .. لكن الصوفية المسلمين لم يفتهم أن يستفيدوا من القدرة التعبيرية الموجودة فى الأضداد، لأنه فى ديناميكية فعل واحد نجد الإنسان يتجه نحو الله، والله نحو الإنسان وفى قمة التطور الروحى ، سوف نكتشف أن هذا الفعل الواحد ليس له إلا فاعل حقيقى واحد ، هو الله تعالى .

وفى الواقع عندما يجد القلب فى أحواله من شبهات النفس ويقضى على السلطان الخادع للإحساس بالذات يكتشف المؤمن أن كل ما فيه ليس إلا لله : إنه موجود بالكلية لله . وهذا هو (البقاء) ، ومع ذلك يبقى عمل أخير لابد منه، وهو أن الاخلاص الصوفى لا يدرك فى اللحظة التى يكتشف فيها فقط أن - (كل ما هو كائن ، وكل ما فى ذاته لله) وإنما أيضاً (ليس إلا فعل الله) .

بهذا ننتقل إلى مستوى (السر) ، فالمؤمن على مستوى القلب يحب الله ، فهو (مريد ، محب) والله (مراد ، محبوب) . أما فى السر فينقلب كل شيء ، ويصبح الموجب سالباً . إذ فى حب الإنسان لله ، يكتشف أنه هو المحبوب ، وإن الله تعالى هو المحب . ويبلغ النشاط الإنسانى فى بحثه عن الله ، غايته ، عندما يتحقق بصورة كاملة فى حالة مطلقة ، حيث يمتد الفعل الإلهى الذى يخلق وينجى معاً على كل شيء . وهكذا يجد الإنسان نفسه فى نقطة أبعد من

مقامات النفس وأحوال القلب ، حيث يتقبل اللمسات الإلهية التى تعتبر بصورة مطلقة ، لحظية : (الطوارق) . وهنا لم يعد الأمر يتعلق باظهار ما يعطى الله فى توكل النفس وتسليم القلب ، كما لم يعد أى اكتساب أو كسب . لامكان إلا للقدرة الكلية العميقة التى يحققها الله تعالى، الفاعل لكل شىء ، وذلك هو (التفويض) . لقد تجاوزت (العبادة) الخارجية الموجودة فى النفس (علم اليقين) وكذلك العبارة الداخلية (العبودية) الموجودة فى القلب : (عين اليقين) ، إلى مستوى السر حيث يصير المؤمن هو حقيقة العبارة ذاتها (العبورة) ، وتلك هى ما يحققها الله وحده : (حق اليقين) . وهنا تجهد النفس لكى تحصل على (التواجد) ويتمتع القلب فى شطحاته(بالوجد) ، أما السر فهو الوجود الحقيقى : (الوجود) الذى يحقق الاخلاص الصوفى الكامل .

وهكذا نجد أنه قد أشير لهذا العمق الأخير للكائن بكلمة (السر) التى تندرج صيغتها الفعلية (أسرَّ) فى قائمة الاضداد ، لأنه فى الواقع ، يدل معاً على (أظهر وأخفى) إنه يظهر فى الجوهر الخالص لفعله وحقيقة الفاعل الوحيد ، لكنه يخفى عن كل إدراك ، وذلك حين يكون موضوعاً للحمد والعبادة أو الحب ، فهو (الفاعل) المطلق فى فاعليته .

وتعتبر الأضداد ، من وجهة النظر اللغوية ، كلمات لها ، فى وقت واحد معنى إيجابى ومعنى سلبى . فمثلا (الأمين) تدل على الشخص المؤتمن (بكسر الميم الثانية) وعلى الشخص المؤتمن (بفتحها) . ومهما يكن من أمر فالفرق بين الطبيعة الموجبة والطبيعة السالبة يوجد فى تغيير الحركات لقد كان ماسينيون يذكر بأن الحروف الصامتة ، المكتوبة بالحبر الأسود ، هى الهيكل العظمى للكلمات ، بينما الحركات الأصلية أو الاعراب ، المكتوبة بالحبر الأحمر هى النفس الحى الذى يبث الحياة فى هذا الهيكل والانتقال من الموجب إلى السالب ، الذى هو انتقال من (القلب) إلى (السر) ما هو إلا (حركة) النفس ، وارتباط الحياة بالكائن .

ومع ذلك ، لا ينبغى استنتاج أن التصوف الإسلامى يعتمد فقط على هذه الخاصية الهامة للغة العربية المتمثلة « فى الأضداد » ، لكنه — عمداً أو عن غير عمد — انتزع جزءاً كبيراً

من مجال الكلمات التى تعبر عن مواقف (مفاتيح) لكى يقيم منها صرحاً متماسكاً جداً للغة التصوف . وبناء على ما علقه مفكرو العرب على اللغة العربية دائماً من أهمية ، فلن يكون من المدهش أن يؤثر طابع الأضداد ، المعروف جيداً ، فى تطور « تعدد القطب » فى الأحوال الصوفية ، وفى الديناميكية التى بفضلها تجاوز التصوف مستوى التظاهر والاحتفالات العلنية بأعمال الضمير ، وأصبح فى إمكانه بلوغ الاخلاص الصوفى ، حيث يختفى الظاهر ، ليحل محله ظاهر خالص ، وذلك عن طريق التحول (بالتوبة) حيث التواب هو — فى وقت واحد وبالتضامن — الإنسان والله .

فى الصبر

قال صلى الله عليه وسلم :

« عجباً لأمر المؤمن .. إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له . وأن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

النظام الاقتصادى فى الإسلام

الأستاذ / زاهر عزب الزغبى

لقد نظَّم الإسلام كلاً من الملكية الفردية والملكيَّة العامة، طبقاً لنظرية الاستخلاف . . وهى تقضى بأن كل شىء فى الأرض مملوك أصلا لله . . الذى استخلف الإنسان فيها وسوَّده عليها . . وطبيعة هذا الاستخلاف أن يبدأ جماعيًّا ، ثم يتطرق إلى أن يتوزع فرديًّا . . .

وهذه النظرية الإسلامية تجعل حق الجماعة فى المال أظهر من حق الفرد فيه . . ولذا منع الإسلام الفرد من أن يتملك ما كانت المنفعة فيه ضرورية للجماعة : كالماء والكلأ والنار . . وأبقى ملكيتها عامة للجماعة تنظِّم كيفية الانتفاع بها . . حتى يجد كل فرد نصيبه منها وقت حاجته إليه . . فلا يتملكه فرد أو أفراد فيحتكرون المنفعة ويمنعونها عن الباقين .

وهكذا سار الإسلام فى إقرار حق الملكية للفرد وللجماعة ، فوضع التشريعات الخاصة بالملكية على أسس قويمة تستند على الحقوق المكفولة لكل من الفرد والمجتمع فى الانتفاع بنصيب من نعم الله التى أتاحها للإنسان فى الكوكب الذى يعيش عليه . . كما تستند هذه التشريعات فى أسسها أيضاً على الحرية التى جعلها الإسلام حقاً من الحقوق الطبيعية للإنسان . .

وحينما يكون الحق والحرية هما أساس البناء الاقتصادى فى المجتمع تنتفى عنه العيوب الخطرة وتتوارى بعيداً عنه . .

والملكية فى الإسلام ليست إلا استخلافاً . . وحق الله فيها أظهر من أن يحجبه ما أعطاه للإنسان من حق عليها . . . ولذا كانت الملكية بالنسبة للإنسان حقاً فى الانتفاع أكثر منها حقاً فى التملك . . . ولكن لما كان حق الإنسان فى الانتفاع – كما قرره الإسلام – حقاً مطلقاً : به يحوز

الشيء وبه يتصرف فيه تصرف المالك.. أمكن اعتباره – تجاوزاً – حقاً فى الملكية . . وقد أخذ القرآن بهذا الاعتبار أيضاً حين نسب المال إلى البشر ولم ينسبه إلى الله حيث يقول :

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »
(البقرة ١٨٨)

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم »
(آل عمران ١٨٦)

« خذ من أموالهم صدقة »
(التوبة ١٠٣)

« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »
(الذاريات ١١)

والقرآن الكريم أيضاً ينبه الناس فى كثير من المواضع على أن ما فى أيديهم من المال ليس إلا ملكاً خالصاً لله استخلفهم فيه إذ يقول :

« وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »
(النور ٣٣)

« وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »

(الحديد ٧)

والإسلام إذ قرر للإنسان حق الانتفاع بالمال وسماه على سبيل التجوز تملكا ربط وسائل هذا التملك بالحلال والحرام، فحلل طيبها وحرم خبيثها . . وأطيب وسائل كسب المال عمل الرجل بيده . .

وقد فرض الإسلام العمل وجعله واجباً تكليفيا . . فلا يجوز للقادر عليه أن يعيش كَلاًّ على الناس ويسألهم أن يطعموه . .

والإسلام حين أوجب العمل على كل مسلم قادر عليه . . جعله حقاً له لا يجوز لأحد أن يصده عنه أو ينكره عليه . . وأوجب أن يكون أجر العامل الأجير مساوياً لجهده ، وحقاً خالصاً له لا يجوز حجزه عنه أو انتقاصه فيه . .

وللعمل أنواع كثيرة ، بعضها يدوى وبعضها ذهنى ، ولكنها كلها من قبيل السعى الواجب فى سبيل الرزق . .

وقد حض الإسلام على هذا السعى وشجع عليه ، فأطلق حدود الكم فيما يستطيع المسلم أن يحصل عليه من مال نتيجة لسعيه ، وأجاز له التمتع والانتفاع بهذا المال على أى وجه مشروع يريده ، وأجاز له التصرف فيه – وفى نطاق أحكام الشريعة وقوانينها – بالبيع أو الهبة أو الوصية . . أو بالتبرع والصدقة ، أو باستهلاكه

فى منافعه وشئونه الخاصة ، فإذا ما مات عن فضل منه انتقل هذا كله إرثاً إلى الأقربين الذين جعلت لهم الشريعة حق الميراث فيه . . .

فالسعى هو الوسيلة الأصلية للتملك ، وغيره من الوسائل المشروعة كالصدقة أو الهبة أو الوصية أو التبرع أو الإرث كلها وسائل فرعية .

وقد حرم الإسلام امتلاك المال عن طريق الظلم أو الغش وسائر أنواع الإضرار بالغير أو بالنفس ، فحرم الربا والقمار والاحتكار والنصب والسرقة والرشوة وكل ما كان من قبيل الظلم ... وحرم الختل والتغرير والنصب والاحتيال وكل ما كان من قبيل الغش والخداع . . وحرم أجر البغاء وثمن الخمر ومكسب التجارة مع العدو وكل ما كان فيه إضرار بالغير سواء أكان فرداً أو جماعة . .

وكما قدم الإسلام حق الجماعة فى ملكية المال قبل حق الفرد فيها فإنه اعتبر أيضاً مصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد فى وظيفة المال وأوجه استعماله وطرق استغلاله . . فالإسلام يجعل وظيفة المال وظيفة اجتماعية بحتة وليست فردية إلا بقدر حاجة المالك الضرورية لهذا المال ، وبالقدر الذى يَكفُ عنه وعن أسرته الحاجة ويدفعها فى حدود الاعتدال بلا إسراف ولا تقتير . . قال تعالى :

« كلوا واشربوا ولا تسرفوا »
(الأعراف ٣١)

« كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه »
(طه ٨١)

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »
(الفرقان ٦٧)

« ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط »
(الإسراء ٢٩)

ومن أجل ذلك حرّم الإسلام الترف واعتبره سبباً للفسوق والإفساد قال تعالى :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها »

وعلماء الاقتصاد المعاصرون يعتبرون الترف من أخطر الآفات الاقتصادية والاجتماعية . . لأنه إما أن يكون نتيجة للثراء ، أو أنه يجعل الثراء ضرورياً ، فهو يفسد الأغنياء والفقراء على السواء ، يفسد الأولين بمزاولتهم له ، والثانين برغبتهم فيه ، كما أن الترف يبيع

المواطن وبالتالى يبيع الوطن للنعومة والحور والحيلاء . . وينتزع من الدولة كل مواطنيها ، إذ يجعلهم عبيداً لبعضهم البعض ، وكلهم عبيداً للأهواء والمطامع . .

ومن أجل ذلك حرم الإسلام أيضاً التبذير وأوجب على الجماعة الحجر على السفيه المبذر وكف يده عما يمتلكه من مال قال تعالى :

(ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما »

(النساء ٥)

كما حرم الإسلام اكتناز المال ، وعمل على عدم تكديس الثروات ، وعلى توزيعها واستمرار تداولها حتى تخدم أكبر قدر ممكن من المجتمع .. وقرر أوجه التكافل الاجتماعى على أوسع مدى وأتم صورة وأكمل منفعة ..

ووسع مجال الإرث فأشرك عدداً كبيراً من الورثة فى المال الموروث حتى تتسع دائرة الانتفاع فتشمل أكبر عدد من الأقرباء ، وبذلك تتوزع الثروة ولا تتكدس فى يد وارث واحد كما هو الحال فى كثير من القوانين المعاصرة . . وجعل مآل التركة التى لا وارث لها إلى بيت المال وهو بمثابة الخزانة العامة التى يمتلكها المجتمع ممثلا فى الدولة وحكومتها . .

وفضلا عن ذلك فقد فرض الإسلام حق الجماعة فى الملكية الفردية ، فأوجب الزكاة وأجاز للجماعة بواسطة ممثليها أن تضيف إلى الزكاة واجبات مالية أخرى تفرضها على الأموال وتجبيها لصالح الجماعة إذا اقتضت ذلك ضرورة اجتماعية أو مصلحة عامة . .

وجاءت التشريعات الاقتصادية فى الإسلام فجعلت التملك مبنياً على الإباحة وساوت فى هذا بين الجميع .. ولكنها استثنت من هذا المبدأ أموراً منعتها لأن فيها أضراراً أدبية أو مادية تحيق بالفرد وبالمجتمع على السواء كالخمر والخنزير والأنصاب فحرمتها ، أو لأن فى تملك الأفراد لها إضرار بالمجتمع كالماء والهواء فحرمت استئثار الأفراد بها ، وتركت ملكيتها على الشيوع ، وأعطت للمجتمع حق تنظيم كيفية الانتفاع بها . . وتطبيقاً لمبدأ المساواة منعت تفاوت الفرص فى التملك فلا تفاضل بسبب من الطبقة أو الجنس .. بل لكل على قدر سعيه واجتهاده الخاص .

ثم راعت هذه التشريعات المصلحة

المطلقة والخير المطلق يستوى فى ذلك الفرد والمجموع . . فحصرت وسائل الحصول على الملكية فيما لا يعود منه ضرر على المجموع . . فحرمت الربا والمقامرة والنهب واستغلال ضعف الآخرين ، وجعلت العلاقة بين العامل وصاحب العمل تقوم على أساس من المنفعة المتبادلة وعلى قدم المساواة فى الحق والكرامة . . وحاربت الجشع الغريزى فى نفس الإنسان فحرمت عليه أن يشق على نفسه ويهلكها ببذل ما فوق طاقته من جهد فى سبيل الحصول على المزيد من الثروة ، وحددت كيفية الاستمتاع بالمال ، فحرمت اكتنازه واحتكاره واتخاذه وسيلة لإيذاء الغير أو التنكيل بهم أو التحكم فيهم ، كما منعت الاستهتار بالمال والتبذير فيه .

ثم راعت هذه التشريعات حق الجماعة فى مال الفرد ففرضت فيه نفقة الأقارب والزكاة ونفقات الدولة ، وأعطت للجماعة حق الحد من الملكية الفردية أو انتزاعها كلها ، فى إطار ما تقتضيه المصلحة العامة نظير تعويض مادى مجز لصاحبها . . ومنعت تضخم الثروات فوزعتها بالميراث ، واعتبرت الفقر رذيلة يجب درؤها بكل الوسائل . . فحثت على التخلص منه بالسعى والعمل، وجعلت العمل واجباً قبل أن يكون حقاً ، فيجوز للحاكم أن يجبر عليه من يكون ضرورياً له وهو قادر عليه ، وسنت التزامات التكافل الاجتماعى ، واستعانت بالقوة الروحية فى الدين وبكل ما فيه من مثل ومبادئ أخلاقية . . فنوهت بالبر ، وأشادت بالتعاون ، ودعت إليهما ، وضاعفت لهما الثواب والبركة ، وبذلت فى هذا الصدد كل جهد يمكن أن يبذل ، وسلكت كل سبيل يمكن أن يطرق ، حتى جعلت للقيم الروحية والمبادئ الأخلاقية الفضل والسيطرة على المادية والمتاع الدنيوى .

« قل إن متاع الدنيا قليل »

(الآية)

ومن هذا يتضح أن الإسلام قد قد عالج المشاكل الإنسانية معالجة حكيمة حصيفة.. فلم يدع للحرية الفردية أن تطغى على مصلحة المجتمع، كما لم يترك لسيطرة المجتمع أن تحد من حرية الفرد وكرامته . وهو فى نفس الوقت لم يتخل عن تحقيق العدالة والمساواة . .

والكيفية التى حقق بها الإسلام كل هذا النجاح فى حل القضايا الإنسانية يجب أن تظل على الدوام محل عناية واهتمام الباحثين يستكنهون خفاياها ،

ويستخرجون كنوزها ، ويكشفون عن كل ذلك .. فيقدمون أجل خدمة للعالم المعاصر الذى ناءت الجهود البشرية عن أن تقدم حلولا صحيحة لمشاكله المعقدة ، فوقع الناس جميعاً فيه ضحايا لمذاهب وأفكار فجة عاجزة ، وبدلا من أن يحققوا لأنفسهم قدراً — ولو ضئيلا — من السلام والاستقرار والسعادة . . وانقسم الشطر الأكبر من سكان هذا العالم إلى معسكرين اخترع كل منهما لنفسه طريقة للحكم ، ونظاماً اجتماعياً ونهجاً اقتصادياً خاصاً به ، وظن كل فريق أن ابتكاراته كفيلة أن تصل به إلى النجاح والسعادة ، وادعى كل منهما لنفسه حق القوامة على الآخر فتغاضيا عن إمكانية التعايش وراحا يتنابذان بل يتناحران باسم الديمقراطية وباسم الحرية وباسم العدالة وباسم المساواة .

وفى الحقيقة أن كلاً من هذين النظامين قد خلا من الديمقراطية الحقة ومن الحرية الحقة ومن العدالة الحقة ومن المساواة الحقة ، بل فى كليهما ضاعت كرامة الإنسان وأهدرت حريته وتعطلت حقوقه ..

وليس فى هذا الضجيج إلا الشعارات الجوفاء والألفاظ التى فقدت مدلولاتها الصحيحة . .

وفى وسط هذا كله يوشك هذا التناحر المذهبى الذى يدور على شكل حرب باردة — أن يتطور إلى حرب ساخنة فى عصر بلغ فيه العلم تقدماً كبيراً فى السيطرة على قوى الطبيعة الهائلة .. ومنح كلا من المعسكرين طاقات ضخمة جبارة ، ومضى كل معسكر يستغل هذه القوى الهائلة والطاقات الجبارة فى تهديد الآخر ، بل وكرس كل جهوده فى الاستعداد لتدمير منافسه وإفنائه . . بدلا من الاستعانة بها على توفير الرخاء والهناء للشعوب المضناة المكدودة القلقة المرتاعة . .

وهذه القوى الهائلة الجبارة وقد استغلت على هذا النحو السيء أصبحت خطراً رهيباً مفزعاً ، لأنها جديرة بإهلاك العالم وفناء الحياة من فوق سطح الكرة الأرضية كلها . .

وعلى هذا الخطر المدلهم المترقب يقف سكان العالم بأجمعه وأبصارهم زائغة وأعصابهم مشدودة . . يترقبون الهلاك ، ويتوقعون الفناء والدمار فى كل لحظة وفى كل آونة . .

ولم تصل الأمور بهذا العالم إلى هذه الخطورة المرعبة إلا لأن كلا من النظامين المتناحرين قد نشأ فاسداً ، وقام على اعتبارات ناقصة غير كاملة ،

وانتهج أساليبَ خاطئة فعجز كلٌ منهما عن أن يحقق خيراً للبشرية أو يعالج مشكلة من مشاكلها ، أو أن يكون عاصماً دون الشر والقسوة . .

ولقد بدأت الرأسمالية كفكرة مثالية أراد بها دعاة الإصلاح الاجتماعى فى أوربا أن يخلِّصوا شعوب القارة من إقطاع القرون الوسطى الذى أهدر حرية الإنسان وكرامته إهدارا كُلِّيًّا.. حيث كان الناس آنذاك عبيداً يعملون بلا أجر فى مزارع الإقطاعيين . . وكانت الكنيسة تمالئ هذا الإقطاع ضماناً لمصالحها . . وتضفى عليه تأييداً دينيًّا..

ووسط هذا الظلام الحالك الذى ران على أوربا عبر القرون الطويلة . . كانت تبدو بين الحين والحين كالبرق الواهن لمعات من الأفكار الحرة التى تتضمن مبادئ إصلاحية تحررية . . وهذه وإن كانت جهوداً فردية فجّة عديمة الجدوى لكنها لم تتوقف . . ولم تستطع المقاومة العنيفة التى كان يبديها الإقطاعيون وكرادلة الكنيسة أن تقضى عليها أو تئدها . . بل ظل المشعل ينتقل من يدٍ فدائية إلى أخرى خلال الأجيال والقرون .. حتى استطاع فى عصر النهضة أن يكون له آثاره الإصلاحية المجدية . .

ومن هؤلاء الفدائيين الذين جهروا بآرائهم الإصلاحية ، وجابهوا بها أمراء الإقطاع ذوى القوة والجبروت والطغيان ، ورجال الدين ذوى النفوذ والدهاء متجولد Mitgold وهو داعية بابوى تنكب الطريق المرسوم له من قبل الكنيسة ، وبشر بآرائه الحرة فى حوالى سنة ١٠٨٠ م . . ثم القديس توما الإكوينى (حوالى سنة ١٢٥٠) . . وقد كتب اللورد آكتون يقول : « إن القديس توما الإكوينى لديه قدر كبير جداً من التحررية السياسية » . . ثم قام هوكر Huker ليعلن أن إنسان أوربا قد آن له أن يسترد حريته..

وجاء الفيلسوف الإنجليزى لوك Locke وكان عبير الثقافة قد بدأ يُعطِّر جوَّ أوربا وخلق ظروفاً مناسبة لنجاح الحركات الإصلاحية، وانتشار مبادئها ، وذيوع أفكارها . . وقد أقبل الشعب البريطانى فى هذا الوقت المبكِّر على قراءة مقالات لوك وسماع محاضراته ، لأنها تميَّزت بالمهارة فى عرض الأفكار والمبادئ التحررية المعقدة فى أسلوب بسيط يسهل تناوله على الناس العاديين.. ووضع لوك الأسس الرئيسية للعقد الاجتماعى Sociol Contract

« تلك الأسس التى قام روسو

Rousseau وهيوم Hume فيما بعد بتفصيلها وبسطها .

ولقد غلبت نسبة هذا العقد الاجتماعى إلى روسسو لأنه أولا : كان أديباً يملك ناصية التعبير أكثر مما كان فيلسوفاً يملك زمام الفكر ، فاستطاع أن يصوغ الأفكار والمبادئ بأسلوب رشيق جذب إليها عقول الناس وحببها إلى نفوسهم ، فازدادوا اقتناعاً بها واستعداداً للتضحية فى النضال من أجلها . . ولأنه ثانياً كان يكتب باللغة الفرنسية التى كانت فى هذا الوقت أكثر اللغات الأوربية انتشاراً وأشدها تأثيراً وأدقها تعبيراً وأقواها على الإقناع . . ومن أجل ذلك عرف الناس العقد الاجتماعى من خلال روسسو الذى لم يكن مجرد مترجم لأفكار غيره وإنما كانت له فيه ابتكاراته الخاصة –بصورة أشمل وأعم– وبقدر لم يتح لشريكيه لوك وهيوم . .

ويتحدث لوك عن الملكية فى الفصل الخامس من رسالته الثانية التى ضمنها طرقاً للإصلاح الاجتماعى والحكم فيقول :

« إنه من الجلى أن الله – كما يقول داود الملك فى المزمور ١١٥ – قد أعطى الأرض لبنى آدم ومنحها للجنس البشرى مشاعاً . . وعلى الرغم من أن الأرض وجميع المخلوقات الدنيا مشاع بين الناس جميعاً ، فإن كل شخص يملك شيئاً فى شخصه كجسمه وعمل يديه ، فأى شىء أخرجه المرء عن الحالة التى وجد عليها فى الطبيعة يصبح ملكاً لهذا الإنسان ، لأنه قد خلط عمله بإنتاج الطبيعة ، وأضاف إلى إنتاج الطبيعة شيئاً جديداً من عنده هو ، فاستحق أن يتملكه بحق . .

والطبيعة قد حددت وضع الملكية تماماً بمدى ما يبذله الناس من عمل وبمطالب الحياة ، فلا يستطيع إنسان أن يخضع بعمله كل شىء ، أو يأخذ كل شىء لنفسه ، كما أن حاجته لا يمكن أن تستهلك سوى جزء بسيط ، وبهذه الطريقة كان من المستحيل على أى شخص أن يعتدى على حق لغيره» ، وهكذا كفل العمل فى بداية الأمر الحق فى الملكية حيثما شاء أى إنسان أن يستخدمه فى الأشياء التى كانت مشاعاً . .

وبهذه الصيحات التى أطلقها لوك ومن بعده هيوم وروسسو تحددت الأسس التى قام عليها النظام الرأسمالى ، وهى تتلخص فى حرية الفرد فى أن يتملك كل ما يستطيع تملكه عن طريق استغلال قدراته وجهوده ومواهبه ، وأنه لا يحق للكنيسة ولا للدولة ولا للمجتمع أن يقوم فى وجه سعى المرء للارتقاء والانتفاع . .

وأنه ينبغى لحرية الفرد أن تنطلق إلى آماد غير محدودة فى كل شعبة من شعب الحياة وفى كل طريق من طرق العمل ، وأن تطلق من كل قيد من القيود الرسمية والدينية . .

ولا شك فى أن هذا الكلام كان يبدو جميلا براقاً فى أعين هؤلاء المستعبدين الذين كانوا يباعون مع الأرض التى يفلحونها ، ويحصد خيراتها السيد الإقطاعى . . فما أسعد أن يتحرر العبد ، وأن يملك نتاج جهد وعمل يديه . . ولكن ما إن دخلت الرأسمالية فى دور التطبيـــــق حتى سرعان ما تكدست الثروات فى يد من هم أقدر من غيرهم على التحرر من سلطان الضمير والأخلاق . . . وراح هؤلاء يكوّنون إقطاعاً جديداً يتحكم فى رقاب الناس عن طريق الحاجة إلى لقمة العيش وضرورات الحياة . . حتى هذه اللقمة التى كان يضمنها إقطاعيو القرون الوسطى لعبيدهم أصبحت فى ظل النظام الرأسمالى غير مضمونة ، بل غير ميسورة . . وأصبحت الحريات فى ظل هذا النظام شيئاً لا معنى له . . أو شيئاً يسمع عنه الناس ويبحثون عنه فلا يجدونه حتى ولو استعانوا بكل ما حوته مجلدات الدساتير وكتب القانون من تشريعات . . هى فى الحقيقة لاتفيد إلا الذين يملكون المال ، ولاتساعد أبداً أى واحد من المعدمين . .

ولم يمض طويل وقت حتى اتضح فشل الرأسمالية فى حل المشكلة الإنسانية.. بل إنها زادت الطين بلة . . بأن حررت الناس من روح الدين ، وأبعدتهم عن الفضيلة ، وقتلت فى نفوسهم مثالية الأخلاق ، وقذفت بهم إلى حمأة المادية الجشعة . . . فلم يجدوا فيها أى خير بل وجدوا فيها الرذيلة والبؤس واليأس . .

وفى منتصف القرن التاسع عشر قام داعية نشيط يعلن أنه قد ابتكر علاجاً يخلص الناس من جحيم الرأسمالية ويحقق لهم الرفاهية والخير فى عدل وفى مساواة .. وكان هذا الداعية هو كارل ماركس وكان العلاج الذى ابتكره هو الشيوعية .

وقامت الشيوعية على أساس النظريات التى قامت عليها الرأسمالية وهى تساوى حقوق الناس فى موارد الطبيعة المشاعة.. ولكن الشيوعية خالفت الرأسمالية فى التطبيق ، فقد انتحت جانب ثبوت الحق دون الحرية فيه . . فأنكرت حرية التملك ، بل منعت مجرد الملكية الفردية . . وتركت كل الموارد على شيوعها ، ليستغلها المجتمع كله تحت إشراف حكومة يجب أن تقوم عليه

ثم توزع المنافع على الجميع . .

وفى ظروف الأزمة العصيبة التى خلقتها الرأسمالية فى العالم ، وجدت هذه الأفكار الجديدة من يستمع إليها ، بل من يتعصب لها ويتحمل المشاق فى سبيل نشرها والدعوة لها ، من أمثال أنجلز ولينين الذى أتاحت له الثورة الشعبية فى روسيا ضد القيصر ونظامه الفاسد سنة ١٩١٧ قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى فرصة تجربة هذا العقار الجديد فى مساحة شاسعة وشعب كبير . . هى مساحة روسيا كلها وشعب روسيا بأكمله . . ولكن لشد ما كانت تفاهة هذا العقار وفساده.. ولشد ما كانت فداحة التجربة وقسوتها..

وسرعان ما أسفرت هذه التجربة عن دكتاتورية عنيفة قتلت فى نفس كل فرد كل أمل وكل رغبة فى الطموح ، وكل قدرة على تحمل أى قدر من المسئولية ، وحرمته كل حق فى الحرية أو الاختيار ، وأفقدته كل قدرة على التمييز ، وجعلت من الناس قطعاناً تصنف وتساق وتوجه ، ولا تجد فى النهاية إلا القليل الردئ السيئ من المرعى . .

فالرأسمالية قد فشلت لأنها اعتبرت حق الناس فى الحرية ولم تهتم بتحقيق العدالة.. والشيوعية قد فشلت لأنها راعت جانب المساواة فى الحق والعدالة فيه ، وأنكرت الحرية وأهدرت الكرامة . . وكلاهما قد جانبت الصواب حين قبعت فى نطاق المادية ، وابتعدت عن الاعتبارات الروحية والمثل الأخلاقية .. وحين اقتصرت فى علاجها للأدواء الإنسانية فى الجوانب السطحية وعلى نطاق جزئى . .

أما الإسلام فإنه أخذ فى اعتباره جميع المشاكل الإنسانية برمتها ، وتعمق فيها من جميع جوانبها وأنحائها ، واعتبر فيها الإنسان من حيث ضرورته الروحية وحاجاته المادية وأحواله المتباينة... اعتبره فرداً وجماعة.. واعتبره قوياً وضعيفاً .. واعتبره حاكماً ومحكوماً . . واعتبره غنياً وفقيراً . . واعتبره جسماً وروحاً ، واعتبره عقلا وغريزة ، أخذ فيه بجميع الاعتبارات والاحتمالات ، ثم خرج بالعلاج الصحيح عاماً وشاملا ، وبالدواء الناجع كُلاًّ مُتَكَامِلاً .. وما أشد الفرق بين دواء تفضل به الله ، وبين دواء هو من إعداد نفر من البشر من أمثال لوك وروسو وهيوم وماركس وأنجلز ولينين.

زاهر عزب الزغبى

القرآن والأحرف السبعة
النهى عن المراء فى القرآن

دكتور / رءوف شلبى

نماذج النوع الرابع :

أحاديث ناهية عن المراء فى القرآن :

١ ـ فى تفسير الطبرى :

إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فلا تماروا فى القرآن فإن المراء فيه كفر[١] . . . اهـ .

٢ ـ أنزل القرآن على سبعة أحرف فالمراء فى القرآن كفر ـ ثلاث مرات ـ فما عرفتم منه فاعلموا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه[٢] . . . ا . هـ

٣ ـ اختلف رجلان فى سورة فقال هذا : أقرأنى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال هذا أقرأنى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبر بذلك قال : فتغير وجهه وعنده رجل فقال :

اقرءوا كما علمتم فإنما أهلك من كان قبلكم اختلافهم على أنبيائهم[٣] .

٤ ـ قال عبد الله بن مسعود تمارينا فى سورة من القرآن فقلنا خمس وثلاثون أو ست وثلاثون آية . قال : فانطلقنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدنا عليا يناجيه قال : فقلنا : إنا اختلفنا فى القراءة قال : فاحمر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم بينهم قال : ثم أسر إلى على شيئاً فقال لنا علىّ : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تقرءوا كما علمتم[٤] .

٥ ـ عن شقيق قال : قال عبدالله : إنى قد سمعت القراء فوجدتهم متقاربين فاقرءوا كما علمتم وإياكم والتنطع فإنما

---

(١) الطبرى جـ١ ص ١٩ .

(٢) تفسير الطبرى جـ١ ص ١ .

(٣) الطبرى جـ١ ص ١٢ .

(٤) الطبرى جـ ١ ص ١٢ .

هو كقول أحدكم هلم وتعال[1] .

هذه الأحاديث والآثار تقصى القرآن الكريم عن معركة الجدل وتيسره لكل لسان وقوم وجنس .

نماذج النوع الخامس :

أحاديث تدل على تيسير قراءة القرآن للناس كافة

١ – إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه ج ١ ص ١٣ الطبرى .

٢ – إن القرآن كله صواب ما لم تجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة ج ١ ص ١٣ الطبرى .

٣ – أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف ج ١ ص ١٣، ١٩ .

٤ – نزل القرآن على سبعة أحرف فما قرأت أصبت ج ١ ص ١٤ ، ١٥ الطبرى .

٥ – إن الله أمرنى أن أقرأ القرآن على حرف فقلت اللهم رب خفف عن أمتى قال اقرأه على حرفين . . . فأمرنى أن أقرأه على سبعة أحرف من سبعة أبواب من الجنة كلها شاف كاف ط ص ١٦ ، ٢٠ الطبرى .

(١) الطبرى ط ص ٢٢ .

٦ – إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ولا حرج ، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ولا ذكر عذاب برحمة . ج ١ ص١٩ الطبرى.

٧ – قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : ليقرأ كل إنسان كما علم ، كل حسن جميل ج ١ ص ١٣ الطبرى .

• من هذه النماذج ندرك أنه لا يمكن تحديد الحروف السبعة وليست واحدة مما ذكر من الاختلاف فى : القراءة ، واللغة ، والوجوه بالمراد من الحروف السبعة لا هى منفردة ولا هى مجتمعة .

• كذلك من النماذج السالفة ندرك أن طرح موضوع الحروف السبعة لإدراك صدقها فى مجال البحث العقلى الصرف مراء ممنوع منه الخلصاء الذين لهم إيمان صاف ، وذاتية إسلامية لا تأبه بالعلمانية الاستشراقية الغربية التى تريد أن تميع الذاتية الإسلامية فى البحث العلمى حتى يتخلص المسلمون من أخص خصائصهم . . وأنهم البانون حضارة الإنسان بمنهج الذاتية الإسلامية التى تعبد كل شىء لله رب العالمين .

• ومع هذا نجد فى النماذج السالفة كذلك حث وتيسير لمن شاء أن يقرأ

القرآن كما تعلم من شيخه دون خروج على ما تعلم .

قال ابن حجر : وحاصل ما ذهب إليه هؤلاء أن معنى قوله — عليه الصلاة والسلام — أنزل القرآن على سبعة أحرف أى نزل موسعاً على القارئ أن يقرأه بأى حرف منها وذلك لتسهيل قراءته[1] .

• وليس معنى أن يقرأ الإنسان حسب هواه بغير علم . .

قال ابن حجر : إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهى :

أى أن كل أحد يغير الكلمة بمرادفها فى لغته بل المراعى فى ذلك السماع من النبى صلى الله عليه وسلم ويشير إلى ذلك — يعنى إلى فهم ابن حجر — قول كل من عمر وهشام فى حديث الباب — يعنى المروى فى البخارى ، أقرأنى النبى صلى الله عليه وسلم[2] اهـ .

وعلى هذا فإنه لا ينبغى أن نمارى فى تحديد المراد من الحروف السبعة حتى لا ننقل العمل بالقرآن من الجو الإسلامى البنائى التطبيقى إلى مدرجات وقاعات المحاضرات والبحث دون أن ينفذ القرآن كإمام وهاد وصديق وأنيس فى جميع مجالات الحياة وذلك ما كان يحرص عليه النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة المهديين بنور إرشاده وبركاته.

ثالثاً — استعمال الحرف فى الأسلوب العربى :

وهل يمكن استعماله اللغوى من مساعدة تحديد المراد من الحروف السبعة ؟

أولا — قال فى لسان العرب :

الحرف يطلق على حرف التهجى : أ — ب — ت وعلى ما يقابل الفعل والاسم فى تقسيم الكلمة إلى :

اسم وفعل وحرف .

ويمكن إطلاق الحرف على اللغة ، وعلى الناقة الضامرة ، وكل كلمة تقرأ على وجه من الوجوه تسمى حرفاً .

وفى القاموس المحيط : الحرف من كل شىء طرفه وواحد حروف التهجى وعند النحاة ما جاء لمعنى ليس باسم ولا بفعل ، ومن الناس من يعبد الله على حرف أى وجه واحد ..

ثانياً — قال فى أساس البلاغة: ومن المجاز : هو على حرف من أمره : أى على طرف كالذى فى العسكر إن رأى غلبة استقر وإن رأى ميلة فر ،

---

(١) فتح البارى ط ص ٤٠٤ .

(٢) فتح البارى ط ص ٤٠٢ .

وناقة حرف شبيهة بحرف السيف فى هزالها .

وعلى هذا فالحرف يستعمل فى الحقيقة وفى المجاز .

• فهو حقيقة : فى حرف التهجى : أ - ب - ت .

وفى الحرف المقابل للاسم والفعل ، وفى طرف كل شىء . .

• وهو مجاز : فى الناقة الضامرة ، وموقف الرجل المتأرجح وهو الوجه الخاص فى تصرف من التصرفات .

وبعد :

أفلا يجعلنا ذلك الاشتراك أن نقول بأن المراد من الحروف السبعة هنا المفهوم الكنائى المجازى لا الحقيقى ؟

إن الإمامين حجر يقول : ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة الآحاد .

كما يطلق السبعين فى العشرات والسبعمائة فى المئين ولا يراد العدد المعين .

وإلى هذا جنح الإمام عياض صاحب كتاب الشفاء وهذا هو ما ينبغى أن يستقر عليه الأمر ودليل ذلك :

أولاً - أن تفسير الحرف بمعناه الكنائى المجازى يدفع عرض الموضوع فى مجال الجدل - والمناقشة وذلك مراء ممنوع منه الفرد المسلم : لا تماروا فى القرآن فإن المراء فيه كفر .

• اقرءوا القرآن ما أتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فيه فقوموا . .

• كلاهما حسن .

• أى ذلك قرأتم أصبتم .

وتلك كلها توجيهات نبوية تنضم إلى النص القرآنى . .

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » . .

قال ابن كثير فى تفسيرها : سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراده ج ٤ ص ٢٦٤ .

ثانياً - يُقَوِّى أن المراد بالعدد هنا المعنى المجازى ذكره فى وحدة المائة بلفظ سبعين :

« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ».

(٨٠ - التوبة)

فإن المراد من العدد هنا كثرة الاستغفار وقد اتفق فى العربية على أن العدد إذا ذكر سليماً من الكسور كان مراداً به المعنى المجازى مثل : سبعة وسبعين وسبعمائة .

أما إذا كان العدد فيه كسور مثل: الرؤيا الصادقة جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة « كان العدد » ست وأربعين هنا مقصوداً .. فقد اتفق العلماء أن مدة الرؤيا الصادقة ستة أشهر والنبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد النبوة ثلاثة وعشرين عاماً فتكون ستة أشهر جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة لأن العام فيه اثنا عشر شهراً ونصفها ستة .

وعلى هذا فالاستعمال العربي والقرآني معاً يقويان وجهة نظر أن المراد من الحروف السبعة المعنى المجازى .

ثالثاً — التعبير النبوى نفسه كاف بحل الإشكال فقد أنزل القرآن على سبعة أحرف ولم ينزل بسبعة أحرف ، ومعنى على يفيد الشرط كأنه نزل مشروطاً بالتسهيل والتيسير .

يقول فضيلة الشيخ الزرقانى : كأنه قال :

أنزل على هذا الشرط وعلى هذه التوسعة .

وإذن فالسبعة أنزل عليها ولم ينزل القرآن بها لقد نزل كما شاء الله . ميسراً سهلا ونزل على هذه السهولة واليسر .

« وأى ذلك قرأتم أصبتم »

والمهم أن يتدارس المسلمون القرآن على حرف يسر الله لهم ما دام ذلك عن شيخ مجود للقرآن مأمون الخلق والعلم والسلوك . .

رابعاً :

ارتباط الأحرف السبعة برأفة النبى صلى الله عليه وسلم وعالمية الدعوة الإسلامية :

١ — الدعوة الإسلامية دعوة عالمية للإنسان على وجه الأرض مهما اختلفت لغته وجنسيته ووطنه ، والقرآن الكريم هو النبع الصافى الذى يستقى منه البشر جميعاً مبادئ الإسلام ، ومن خصائص هذا القرآن أن الله يسره للذكر : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » . وهذا التيسير مباح لجميع البشر . . . ونموذج هذا التيسير واضح فى شعب جنوب شرقى آسيا . . ذلكم الشعب الطيب الذى يقرأ القرآن بيسر وسهولة وخشوع دون أن يعرف للعربية نحواً أو صرفاً .

٢ — وقد شاء الله تعالى أن تتحمل خصائص القرآن الكريم عالميته للناس جميعاً . . . والنبى صلى الله عليه وسلم وهو الذى لا ينطق عن الهوى أبداً . . يدرك خصائص القرآن ويسره على لسان المسلم فى كل وطن . ومن هنا

فقد شاء الله تعالى أن يمنح أمته فى كل جزء من الأرض مندوحة القراءة مع اليسر والتسهيل .

٣ — وقد روى الطبرى بسنده قال : سمعت عبدا لله بن عمر عن سيار أبى الحكم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، رفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم . . ذكر : أن رجلين اختصما ، فى آية من القرآن ، وكل يزعم أن النبى صلى الله عليه وسلم أقرأه فتقارءا إلى أبى ، فخالفهما أبى فتقارءوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبى الله اختلفنا فى آية من القرآن وكلنا يزعم أنك اقرأته ، فقال لأحدهما : اقرأ ، قال : فقرأ ، فقال : « أصبت » ، وقال للآخر : اقرأ فقرأ خلاف ما قرأ صاحبه فقال : « أصبت » ، وقال لأبى : اقرأ فقرأ ، فخالفهما ، فقال : « أصبت » قال أبى : فدخلنى من الشك فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دخل لى من أمر الجاهلية ، قال : فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى فى وجهى ، فرفع يده فضرب صدرى ، وقال : « استعذ بالله من الشيطان الرجيم » ، قال : فنضضت عرقاً ، وكأنى أنظر إلى الله فرقاً وقال :

إنه أتانى آت من ربى فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : رب خفف عن أمتى ، قال : ثم جاء فقال : إن ربك يأمرك أن تقر القرآن على حرف واحد ، فقلت : رب خفف عن أمتى قال : ثم جاء الثالثة : فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد . فقلت : رب خفف عن أمتى قال : ثم جاءنى الرابعة فقال : إن ربك يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، ولك بكل ردة مسألة : قال : قلت : رب اغفر لأمتى ، رب اغفر لأمتى ، واختبأت الثالثة شفاعة لأمتى ، حتى إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم خليل الرحمن ليرغب فيها[١] .

٤ — ومن حديث أبىّ بن كعب قال :

أتى النبى صلى الله عليه وسلم جبريل وهو لدى بنى غفار ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف واحد ، قال : فقال : اسأل الله مغفرته ومعافاته — أو قال : معافاته ومغفرته — سل الله لهم التخفيف فإنهم لا يطيقون ذلك ، فانطلق ثم رجع فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين ، قال : اسأل الله مغفرته ومعافاته — أو قال :

---

(١) الطبرى ج١ ص ١٨ .

معافاته ومغفرته — إنهم لا يطيقون ذلك فسل الله لهم التخفيف ، فانطلق ثم رجع فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف . فقال : اسأل الله مغفرته ومعافاته — أو قال: معافاته ومغفرته — سل الله لهم التخفيف فانطلق ثم رجع ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فمن قرأ منها بحرف فهو كما قرأ[1] .

وواضح من هذه النصوص أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى أن ييسر تلاوة القرآن للأمة الإسلامية فى كل صقع من أصقاع الأرض .

ولقد يسره الله على القلوب والآذان فقد قص بعض الإخوان أنهم وهم فى سفرهم إلى أمريكا على باخرة استأذنوا الربان فى إقامة صلاة الجمعة وكان مظهراً فريداً فى عالم الرحلات البحرية أن تتجمع جماعة إسلامية فوق ظهر باخرة فى وسط المحيط ثم يأخذون فى تأدية شعائر صلاة الجمعة ، والتف الناس حولهم يستمعون للخطبة . . وبعد الصلاة تقدمت سيدة غير مسلمة ولا تعرف العربية أبداً ولا زارت بلاد العرب مطلقاً وقالت للخطيب : كان يتخلل حديثك كلام تقشعر منه نفسى وتستجيب له عواطفى ، كنت أحس أن نوراً ينقذف فى قلبى ، فما هذا الذى كنت تقوله وسط كلامك ؟ . . فقال لها الأخ المسلم الكريم سيد قطب — رحمه الله — وهو الخطيب فى هذه الحادثة : إنه القرآن الكريم .

هكذا يسر الله القرآن للذكر والتذكر . . وتلك واحدة من خصائص القرآن وعالميته ، وواحدة من بركات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولهذا فإن الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن الكريم هى تلك السهولة والتيسر الذى امتاز به القرآن الكريم على اللسان والقلب والمشاعر ، يدور الزمن ويطول العمر ليلقى ظلالا على مفهوم نزل القرآن على سبعة أحرف بعيداً عن التشاكس والعراك المذهبى والكلامى . ليعلم المسلمون أن الله قد يسر لهم أمر دينهم وأفسح لهم فى رخصة واسعة تلاوة كتابه العزيز .

وفى المحيط الإسلامى : نجد إخواتنا المسلمين هنا . . وخاصة الناس فى القرى على اتصال دائم بتلاوة القرآن الكريم دون دراية لهم بالنحو والصرف . ودون تعلم اللغة العربية ، وهم يخشعون

(١) الطبرى جـ١ ص ٢٠ .

فى القراءة كأنما المعانى تتسرب إلى قلوبهم نوراً وضيئاً . . . وتلك هى واحدة من تيسر القرآن للذكر . . وهى من نفحات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأفته بأمته وعالمية دعوته .

خامساً :

حكمة نزول القرآن على سبعة أحرف

١ – روى الإمام الترمذى عن أبى ابن كعب قال : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عند أحجار المروة قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : « إنى بعثت إلى أمة أمين ، فيهم الشيخ الفانى ، والعجوز الكبير ، والغلام ، قال : فرهم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف » قال الترمذى حسن صحيح .

فالحكمة هنا كما وضحناها سالفاً هى الرأفة التى قصدها رسول الله صلى الله عليه وسلم والتوسعة التى أرادها لأمته فى قراءة القرآن .

٢ – بيان حكم من أحكام الشريعة ، ففى قوله تعالى :

• « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس » فى قراءة سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه « وله أخ أو أخت من أم » بزيادة (من أم) فتبين بهذه الزيادة أن المراد من الأخوة فى هذا الحكم الأخوة لأم دون الأشقاء ومن كانوا لأب وهو أمر مجمع عليه .

• ومثال ذلك أيضاً :

« فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » هناك قراءة (رقبة مؤمنة) بزيادة (مؤمنة) فتبين بهذا الشرط أن الرقيق الذى يكون كفارة لا بد وأن يكون مؤمناً . . . وذلك واحد من أساليب الإسلام للقضاء على الرقيق بأسلوب القرآن الخاص فى سياسته الشرعية للتغلب على المشاكل الاجتماعية دون حدوث مضاعفات فيما بعد .

• ومثال ذلك أيضاً :

« فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » هناك قراءة بتشديد الطاء (يطّهرن) فعلى الأولى يفيد انتهاء فترة انتهاء فترة الانعزال بمجرد انتهاء فترة الحيض ، وعلى الثانى يفيد أن انتهاء فترة الانعزال مشروطة

بالطهارة والاستحمام من الحيض فلا بد من الاغتسال .

٣ ـ للدلالة على حكمين شرعيين :

« فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » .

قرئ (وأرجلكم) بنصب اللام عطفاً على وجوهكم وأيديكم وهذا فى حالة الوضوء عند عدم الحاجة .

وقرئ (وأرجلكم) بكسر اللام وذلك عند الضرورة والمسح على الخفين .

فأفادت القراءتان حكمان شرعيان فى حالتين مختلفتين .

٤ ـ رفع توهم ما ليس مراداً :

« يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله » .

قرئ (فامضوا) فعلى الأول يمكن أن يفهم أن المراد الجرى والسرعة فى المشى عند سماع آذان الجمعة ، وعلى الثانى أفاد أن المراد هو حضور الجمعة مطلقاً فرفعت ما يمكن أن يتوهمه القارئ فى القراءة الأولى .

٥ ـ تفسير كلمة غريبة :

« وتكون الجبال كالعهن المنفوش » .

قرئ كالصوف المنفوش ، فوضحت القراءة الثانية معنى العهن وأنه مراد به الصوف .

وتلك واحدة من الحروف السبعة التى يسر الله بها للأمة الإسلامية قراءة وتدبير كتاب الله الكريم .

سادساً :

آراء العلماء فى الحروف السبعة :

وبعد ما قدمته من عرض قائم على أساس الذاتية الإسلامية ، فإنه دون بأس لا أجد مانعاً أن نقف على ما ارتآه علماؤنا الأجلاء من معان للحروف السبعة .

وفى مقدمة هؤلاء العلماء :

١ ـ ابن قتيبة .
٢ ـ أبو الفضل الرازى .
٣ ـ القاضى ابن الطيب .
٤ ـ ابن الجوزى .

وقبل أن أعرض آراءهم أحب أن أذكر أنهم جميعاً متفقون على أن الاختلاف المراد هنا هو اختلاف التضاد وليس اختلاف التغاير ، لأنه لا يمكن أن يكون الشىء دائراً بين شيئين متغايرين ، مع صحة كل منهما كالحل والحرمة ، فإن ذلك

لا يقع إلا فى التغاير وهو خاص بالناسخ والمنسوخ وقد مر أنه قيل :

« لا تختلف فى حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهى »[1] .

قال الإمام الطبرى :

ومعلوم أن تماريهم فيما تماروا فيه من ذلك لو كان تمارياً واختلافاً فيما دلت عليه تلاواتهم من التحليل والتحريم والوعد والوعيد وما أشبه ذلك لكان مستحيلا أن يصوب جميعهم ويأمر كل قارئ منهم أن يلزم قراءته فى ذلك على النحو الذى هو عليه[2] .

لهذا فإن الاختلاف المراد هو اختلاف التضاد :

أولاً — رأى ابن قتيبة :

١ — اختلاف فى حركة الكلمة من غير أن تتغير الصورة ولا المعنى مثل : « ولا يضار كاتب ولا شهيد » — قرئ ولا يضار بفتح الواء دون تشديد .

٢ — اختلاف فى حركة بناء الكلمة من غير أن تتغير الصورة ولكن بتغير المعنى مثل :

«ربنا باعِد بين أسفارنا» (١٩سبأ).

(١) الطبرى جـ١ ص ٢٣ .

(٢) الطبرى جـ١ ص ٢١/٢١ .

— قرئ : باعَد على صيغة الفعل الماضى .

٣ — اختلاف فى حروف الكلمة دون تغير فى الصورة والإعراب وبتغير المعنى مثل :

« وانظر إلى العظام كيف ننشزها » (٢٥٩ البقرة) قرئ ننشرها فاختلف المعنى مع حروف الكلمة دون الصورة والإعراب .

٤ — اختلاف فى صورة الكلمة دون المعنى مثل :

« إن كانت إلا صيحة واحدة » (٢٩ يس) قرئ زقية .

٥ — اختلاف فى الصورة والمعنى مثل :

قرئ (وطلع) — وطلح .

٦ — اختلاف بالتقديم والتأخير مثل :

« وجاءت سكرة الموت بالحق (١٩ ق)

قرئ : وجاءت سكرة الحق بالموت .

٧ — اختلاف بالزيادة والنقص مع اتحاد المعنى مثل :

« وما عملت أيديهم» (٣٥ يس) — قرئ : وما عملته أيديهم .

ثانياً — رأى أبى الفضل الرازى :

١ — اختلاف الأسماء : إفراداً وتثنية وجمعاً مثل :

«والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون» — قرئ : لأمانتهم — بالأفراد .

٢ — اختلاف الأفعال : ماضى — مضارع ، أمر ، مثل :

« ربنا بَاعِدْ بين أسفارنا » — قرئ : ربنا بَاعَدَ — على أنه مبتدأ .

٣ — اختلاف وجوه الإعراب — مثل :

« ولا يضارِ كاتب ولا شهيد » — قرئ : ولا يضار — بالرفع على أن لا نافية فالفعل مرفوع .

٤ — اختلاف بالنقص والزيادة مثل : مثل :

وما خلق الذكر والأنثى — قرئ : والذكر والأنثى ، بدون (ما خلق) .

٥ — اختلاف بالتقديم والتأخير مثل :

« وجاءت سكرة الموت بالحق » — قرئ : وجاءت سكرة الحق بالموت .

٦ — اختلاف بالإبدال مثل :

وطلح ممدود (بالحاء) — قرئ : وطلع ممدود (بالعين) .

٧ — اختلاف اللهجات :

وهل أتاك حديث موسى — تقرأ بالفتح وتقرأ بالإحالة وهى الكسر المرخم.

ثالثاً — رأى القاضى أبى الطيب :

١ — تغير الحركة مع بقاء المعنى والصورة :

ويضيق صدرى — بإسكان القاف — قرئ :

ويضيق صدرى — برفع القاف .

٢ — تغير المعنى مع بقاء الصورة

ربنا باعد بين أسفارنا — قرئ : باعد — الأول دعاء — والثانى إخبار.

٣ — تغير الحروف والمعنى مع بقاء الصورة :

ننشزها — ننشرها .

الأول بالزاى — ومعناها الخلق .

والثانية بالراء — ومعناها البعث .

٤ — تغير الصورة دون المعنى مثل :

« كالعهن المنفوش « قرئ » : كالصوف المنفوش .

٥ — تغيير الصورة والمعنى معاً

طلح منضود

طلع منضود

الطلح — هو الموز

والطلع هو البرعم أو الرائحة للطلح .

٦ — التقديم والتأخير مثل :

وجاءت سكرة الموت بالحق — قرئ وجاء سكرة الحق بالموت .

٧ — الزيادة والنقص :

« له تسع وتسعون نعجة — قرئ له تسع وتسعون نعجة أنثى — بزيادة لفظ (أنثى) .

رابعاً – رأى ابن الجوزى :

١ – اختلاف فى الحركات دون تغيير فى الصورة والمعنى مثل :

« إن يمسسكم قَرْحٌ (١٤٠ آل عمران) قرئ قُرْحٌ – بضم القاف .

٢ – اختلاف فى المعنى فقط دون الصورة :

واذكر بعد أمة (٤٥ يوسف قرئ بعد أمة–بالتخفيف ومعناه النسيان.

٣ – اختلاف فى الحروف والمعنى دون الصورة مثل :

« هنالك تبلو كل نفس (٣٠ يونس) قرئ

هنالك تتلو

الأول معناه : تتحمل

الثانى معناه : تقرأ

٤ – اختلاف فى الحروف والصورة دون المعنى مثل :

« وزادكم فى الخلق بسطة (٦٩ الأعراف) .

قرئ : بصطة – بالصاد والمعنى واحد .

٥ – اختلاف فى الصورة والمعنى مثل :

« فاسعوا إلى ذكر الله »

قرئ – فامضوا

٦ – اختلاف بالتقديم والتأخير مثل :

« وجاءت سكرة الموت بالحق »

قرئ : وجاءت سكرة الحق بالموت

فأذاقها الله لباس الجوع والخوف (١١٢ النحل)

قرئ – فأذاقها الله لباس الخوف والجوع .

٧ – اختلاف بالزيادة والنقص مثل :

أوصى ربك – قرئ : ووصى

إن الله هو الغنى الحميد (٢٦ لقمان) .

هذا وبالله التوفيق

دكتور رءوف شلبى

المراجع

١ ـ تفسير الطبرى ج ١

٢ ـ فتح البارى ج ١٠

٣ ـ مسلم ج ١

٤ ـ مناهل العرفان ج ١ — للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى

٥ ـ مباحث فى علوم القرآن — مناع القطان

٦ ـ التبيان فى علوم القرآن — الصابونى

٧ ـ البرهان للزركشى — بدر الدين الزركشى ٧٩٢ هـ

٨ ـ الإتقان للإمام السيوطى

٩ ـ النبأ العظيم — للدكتور محمد دراز

١٠ ـ القرآن والنبى — للدكتور عبد الحليم محمود

١١ ـ تاريخ القرآن — للأستاذ إبراهيم الابيارى

١٢ ـ مدخل لدراسة القرآن الكريم — الدكتور محمد أبو شهبه

١٣ ـ تقريب النشر فى القراءات العشر — لابن الجوزى

١٤ ـ سراج القارئ المبتدئ — أبو القاسم على بن عثمان بن محمد بن أحمد ابن الحسن القاضى العذرى البغدادى

١٥ ـ التفسير والمفسرون — الدكتور محمد حسين الذهبى

١٦ ـ المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز — لابن شامة ٩٦٥ هـ

١٧ ـ مواقع العلوم من مواقع النجوم — جلال الدين

١٨ ـ جمال القرآن — للسخاوى ٦٤١ هـ

١٩ ـ الإبانة فى القرآن — لابن حموش الأندلسى

٢٠ ـ علل القرآن — لابن على الفارسى

٢١ ـ المصاحف — للسجستانى

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

مناقشة دعوى استقلال العلم التجريبى عن الدين

دكتور / يحيى هاشم

لا بد لنا أولا من أن نقرر :

أن القول بأن المنهج التجريبى من اختراع الحضارة الأوربية الحديثة فى عهد النهضة على يد فرنسيس بيكون قول مبنى على شىء كثير من الغرور والادعاء والمغالطة . .

إن فرنسيس بيكون عندما دعا إلى المنهج التجريبى كان مستمداً من سلفه الذى ظهر قبله بقرنين (روجر بيكون) .. وكان هذا مستمداً من علماء الحضارة الإسلامية عندما اطلع على تراثهم ، وتتلمذ على أيديهم.. والحضارة الأوربية بصفة عامة متتلمذة فى هذ على الحضارة الإسلامية أثناء احتكاكها بها فى الحروب الصليبية .

كذلك فإن الحضارة الإسلامية كانت مستمدة فى هذا من روح الإسلام والقرآن والسنة وكذلك كانت مكملة لما كان عليه الإغريق واليونان .. خلافاً لما اشتهر عنهم من أنهم أهملوا البحث التجريبى .

إن البحث التجريبى له تاريخ طويل ينشط بنشاط الحضارة ويضمحل بجمودها وتأخرها .. ولم يكن توهم الغربيين أنهم كانوا البادئين بالمنهج التجريبى إلا لأنهم كانوا العاملين على أماتته وإخماده فترة مرورهم فى عصور الظلام والعصور الوسطى ، فلما تحركت فيهم عوامل النهضة تنبهوا إلى هذا المنهج وبهروا به وحسبوا أنهم أصحابه ومريدوه ، بينما هم فيه تبع لغيرهم .

ونحن لا ندعى بذلك أن هذا المنهج هو اليوم كما كان فى بداياته فى عصر اليونان ومن قبلهم فى عصر المصريين القدماء .

لا شك أنه صار اليوم أكبر وأعمق

وأشد سيطرة على العقول والقلوب والسلوك والتطور ومجرى الحياة .

كان فى بدايته أكثر التصاقاً بالتفكير العقلى والتأملى المجرد . . وما ذلك إلا لضعف وسائل المنهج التجريبى ، وآلاته حينذاك .

أما اليوم فهو يبتكر هذه الآلات ويتقدم وينمو بها فى أطوار متلاحقة يتضاعف فيها كل طور عن طور سابق ، ويبدو تراكم النمو فى الأطوار الأخيرة هائلا مدهشاً بينما معدل النمو واحد فى البدايات والنهايات ، إذا أسقطنا من الاعتبار عوامل التأخر الحضارى .

وهنا يمكننا أن نقول :

أن هذا المنهج التجريبى منذ ظهر فى الحضارة الأوربية فى عصر النهضة أعلن استقلاله عن الكنيسة ، دون أن يحسم موقفه من الدين بصفة نهائية ، حتّى ظهرت الثورة الفرنسية .

وفى أتون الثورة الفرنسية ظهرت الفلسفة الوضعية على يد الفيلسوف الفرنسى « أوجست كونت » الذى توفى (عام ١٨٧٥ م) . .

فقد رأى أوجست كونت أن الاضطراب العقلى الذى تعانيه الإنسانية مرجعه إلى أن الناس يعتمدون على ثلاث فلسفات متعارضة هى :

الفلسفة اللاهوتيـــة ، والفلسفة الميتافيزيقية ، والفلسفة العلمية أو الوضعية .

وأنه قديماً سيطرت الفلسفة اللاهوتية بمضمونها الأسطورى الخرافى ، ثم أفسحت مجالا للفلسفة الميتافيزيقية .. وهى وثيقة الصلة بالخرافة ، فى حين أن الفلسفة الوضعية لم تتخذ طريقها إلى العقول إلا بعد تقدم العلوم الطبيعية المادية ابتداء من القرن السابع عشر.. ومع ذلك فإن هذه الفلسفة الأخيرة لم تستطع القضاء نهائيًّا على الرواسب اللاهوتية والميتافيزيقية مما أدى إلى ظاهرة الفوضى العقلية ، وما يترّتب عليها من صراع وأخطاء أخلاقية واجتماعية .

واعتقد أوجست كونت أن النصر سيكون فى آخر الأمر حليف التفكير الوضعى . والفلسفة الوضعية عنده تعنى :

أن كلاًّ من اللاهوت والفلسفة الميتافيزيقية ، قد استنفدت موضوعاتها وافتقدت ما يبرر وجودها إذ كانت قائمة عندما كانت بديلا للعلم أو مرادفة له ، ولكن العلم قد انفصل عنها موضوعاً ومنهجاً وأصاب من النجاح ما لم يقدر شىء منه للميتافيزيقية أو اللاهوت .

وتكاثرت بعد ذلك المذاهب المادية

التى ترتدى مسرح العلم ، منكرة للدين مدعية أنها تستغنى عنه بالعلم . لافرق فى ذلك بين ما يسمى وضعية أو وضعية منطقية أو ماركسية أو واقعية ، أو تجريبية ، أوسارترية ، أوغيرها من الأسماء.

وهنا نتساءل :

هل حققت هذه المذاهب دعوى الاستغناء عن الدين باسم العلم ؟

أم تراها عن طريق هذا العلم نفسه .

وجدت نفسها مضطرة لاصطناع دين جديد له الخصائص العامة للدين من حيث :

١ – الإيمان الأوَّلى .

٢ – والإيمان بغيبيات لا تقع تحت الإدراك الحسى المباشر أو غير المباشر .

٣ – وترقب الحياة المؤجلة التى يستكمل فيها ما نقص من هذه الحياة الحاضرة .

٤ – والإيمان بأصل للوجود تخضع له الكائنات ؟

هذا ما نحاول الإجابة عليه فيما يأتى :

أما عن قيام العلم الحديث على الإيمان الأولى واحتياجه إليه :

فإليكم ما يقوله ألبرت أينشتاين على سبيل المثال :

إن العلم لا يخترعه إلا أولئك المتشبعون تماماً بحب الحق والإدراك السليم . .

وهذا المصدر من مصادر الشعور ينبع من ميدان الدين . ويتصل بهذا الميدان أيضاً الإيمان بأنه من الممكن أن تكون القواعد التى تنطبق على عالم الوجود معقولة . أى تمكين إدراكها بالعقل ولا أستطيع أن أتصور عالماً حقًّا بغير هذا الإيمان العميق . ويمكن التعليق على هذا الرأى بهذه الصورة : «العلم بغير دين أعرج والدين بغير علم أعمى »[(١)].

ويقول الدكتور جيمس . ب كونانت :

إن الفلسفة التجريبية للقرن السابع عشر إنما نشأت فى حجر نظام فلسفى يتصل بما وراء الطبيعة ، وأنه لولا هـــذا النظام الماوراء الطبيعة ما كان تجريب ولا كان علم . إنه ليس بين الملاحدة واللاأدريين من كان فى قلبه من الإيمان باطراد الطبيعة واتساقها وما يكفى لممارسة العلم : وتجاريب العلماء[(٢)] .

---

(١) أنظر كوخ ص ١٠٨ .

(٢) مواقف حاسمة فى تاريخ العلم للدكتور جيمس . ب كونانت ترجمة الدكتور أحمد زكى نشر دار المعارف عام ١٩٦٣ ص ٦١ والدكتور كونانت من أعلام العلم الحديث ، تولى مناصب علمية مرموقة ، منها رئاسته لجامعة هارفارد من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٥٣ .

ويقرر هربرت سبنسر فى كتابه « المبادئ الأولى » فى كلامه عن الأفكار العلمية القصوى أن العلم مضطر إلى الاستعانة بالكثير من المفاهيم العامة التى لا سبيل إلى تفسيرها : كالزمان ، والمكان ، والمادة ، والحركة والقوة وما إلى ذلك . وليس فى استطاعة العقل البشرى أن يستغنى عن أمثال هذه المفاهيم . . .

ويقول أننا لو حاولنا أن نتصور كل هذه المفاهيم العلمية فى العقل تصوراً واضحاً متمايزاً لانتهينا إلى مجموع من المتناقضات التى لا يمكن أن يقبلها العقل . ولننظر مثلا إلى مفهومى المكان والزمان : فهل نقول بأنهما مفهومان واقعيان موضوعيان أم نقول بأنهما مفهومان ذهنيان ذاتيان ؟ هذا ما يجيب عليه سبنسر بقوله : أن العقل البشرى عاجز تماماً عن تفهم حقيقة أمر كل من « المكان » ، والزمان . . .

وهكذا الحال أيضاً بالنسبة إلى المفاهيم العلمية الأخرى كمفاهيم المادة والحركة والقوة ، فإنها جميعاً تصورات غير قابلة للتعقل .

ولم يقتصر الأمر على الفيلسوف هربرت سبنسر بل نجد العلم الحديث يقدم لنا مفهوماً للزمان فى منتهى الغرابة : فقد اقترح ريتشارد فيلبس فاينمان من معهد كالفورنيا للتكنولوجيا نظرية مؤداها أن البوزيترون ليس سوى إلكترون يتحرك حيناً إلى الخلف فى الزمان وحيناً إلى الأمام وأن فى الكون مادة نقيضة لمادتنا تتحرك فى الزمان عكس حركتنا . . ويقولون أنه قد ثبت صواب مفهوم فاينمان من عكس الزمان حتى أنه استحق فى عام ١٩٥٣ ميدالية ألبرت أينشتاين ، كما نال فى عام ١٩٦٥ جائزة نوبل ، وقال عنه كبار العلماء أن نظرية فاينمان تمثل أقوى لطمة منى بها مفهوم الزمان فى علم الطبيعة . .

وقد نشأت عن نظرية فاينمان صعاب منطقية وبذلت محاولات للتغلب عليها من بينها فرض أدريان دويس الذى يقول بوجود بُعْدَين زمانيين بدلاً من واحد ، وتحدث آخرون من العلماء منهم سيرادنجتون عن الكون ذى الأبعاد الخمسة : ثلاثة أبعاد مكانية وبعدين زمانيين .

والآن ما هى المادة فى ظل العلم التجريبى الحديث ؟

إنها لم تعد كائناً مادياً . .

يقول أحد كبار العلماء المحدثين :

« لقد حررت الذرة بالتدريج من كل الخصائص الحسية ، وأصبحت

الخصائص الهندسية هى الخصائص الوحيدة . التى ظهر أنها تحتفظ بها لمدة طويلة .. فهى تشغل الفضاء ولها مكان ولها حركة ... غير أن التطور فى الفيزيقيا الذرية الحديثة قد أزال حتى هذه الخصائص .. ويقول أيضاً : « لقد وضع كل ما توصلنا إليه من تفهم للمادة فى شكال معادلات رياضية » .

ويقول أحد مساعدى أينشتين فى كتابه « الفيلسوف والعلم » :

« نحن نعتقد بوجود أجسام أصغر من الذرة ..

لا لأننا رأيناها ولو بشكل غير مباشر ولكن لأن افتراض وجودها يشكل أسهل فرضية يمكن لها تعليل الوقائع المشاهدة » .

أليس هذا هو الإيمان المحض ؟

ويقول برتراند رسل : « أن علم الطبيعة وعلم النفس بدآ يلقيان ظلا من الشك على الازدواج بين العقل والمادة ..

حيث أصبح دارسو علم الطبيعة مثاليين ، وأصبح كثير من علماء النفس على حافة المادية » ..

« إن العقل والروح — شأن المادة — ليست سوى رموز لأشياء غير معروفة » .

والماديون يعتقدون أن للطبيعة المادية قوانينها التى لا تقهر ..

وهذا محض اعتقاد لم يساندهم فيه العلم الحديث .

إن العلم الحديث ينظر اليوم إلى القوانين الطبيعية على أنها لا تتضمن عنصر الضرورة ، وإنما تقوم على الاحتمال والرجحان .

إن القول بحتمية القوانين الطبيعية أكذوبة نجد افتضاحها فى ميدان الفلسفة الحديثة وفى ميدان العلم التجريبى على السواء .

أما فى ميدان الفلسفة فنجد ذلك عند ديفيد هيوم الفيلسوف الإنجليزى ، الذى ينكر إرجاع مبدأ العلمية الى ضرورة عقلية ، ويفسره بالتداعى والترابط العادى وقد سبقه إلى مثل ذلك الإمام الغزالى .

وذهب فتجنشتين — وهو من أعلام المنطقية الوضعية — إلى أن جميع قوانين العلوم الطبيعية قوانين احتمالية فقط لا ضرورة فيها .

بما فى ذلك قانون الاستقراء وقانون السببية ...

أما فى العلم الحديث فقد تقرر أن عالم الذرة غير خاضع لضرورة أو حتمية .

إن علاقة عدم التحدد التى اكتشفها

هيزنبرج تبين أن الذرة حرة فى أن تعمل هذا أو ذاك ، وكل أحكامنا عنها تشير إلى احتمالات لا إلى يقينيات.

ومن الأمور المشهورة أن قانون الجاذبية هو مثل واضح للقوانين الطبيعية الثابتة ثبوتاً قطعياً مطلقاً .

لكن العلم الحديث اكتشف أن هناك ما يسمى بـ « التنافر الكونى » وهو يعمل بطريقة مناقضة تماماً لقانون الجاذبية .

يقول السير آرثر أدنجتون من كبار أعلام العلم الحديث :

(من الاستنتاجات التى أخذناها عن النظرية النسبية أنه يجب أن توجد قوة تعرف باسم « التنافر الكونى » تعمل على نشوء هذا النوع من التشتت الذى معه يتباعد كل جرم عن أى جرم آخر » . وهذا التشتت هو ما أثبتته الكشوف الفلكية والطبيعية الحديثة » .

وفضلا عن أنه لم يعد فى مجال العلم ما يسمى بالقانون النهائى فإننا نجد العلم مضطراً فى بعض الحالات إلى الأخذ بنظريتين متعارضتين ، يعلم العلماء ما بينهما من التعارض والتنافر ، ولكنهم يجدون أنفسهم مضطرين إلى الأخذ بهما معاً . .

وهذه الحالة نجدها فى التفسير العلمى لظواهر الضوء . .

ويقول كونانت :

« كثير من الظواهر الضوئية يكون تفسيراً لضوء فيها على أنه حركة موجبة ، وفى بعض هذه الظواهر يكون تفسيره على أنه شعاع من نور يتألف من دقائق . .

وكانت هذه النظرية — نظرية الدقائق — هى أقدم النظريتين ، وكان مكانها فى العلم راسخاً حتى إذا جاء عام ١٨٠٠ حدث فيه أو حوله أن كشفت التجارب عن ظواهر يصعب تفسيرها — إن لم يتعذر — إلا بالنظرية الموجبة ، ثم ما انتصف القرن التاسع عشر حتى اطمأن العلماء إلى هذه النظرية ، النظرية الموجبة ، كل الاطمئنان .

وفى عام ١٩١٢ صار من الواضح أنه توجد ظواهر كثيرة فى امتصاص الضوء وانبعاثه لا يمكن تفسيرها إلا بنظرية الدقائق . .

ووقع العلماء فى حيرة ، وكان لديهم الأمل فى الخروج منها والاعتقاد بضرورة ذلك . . ولقد أذكر أنى سمعت فى تلك الأيام عمدة فى عالم البصريات بجامعة هارفارد يقول فى محاضرة : « إن الضوء لا يمكن أن يكون موجات ودقائق فى آن واحد ، إنه إذاً لسخف » . وعاد يؤكد لسامعيه أنه لا بد أن تجرى

تجربة حاسمة تقضى بين النظريتين . . وها نحن بعد عام ١٩٥٠ ولم تجر تلك التجربة بعد ، وإنى لأشك فى أن أجد اليوم كثرة من العلماء تؤمن بأن هذه التجربة الحاسمة لا بد آتية ، إن الظن الغالب الأغلب أنها لن تأتى أبداً . والرأى اليوم فى تفسير الضوء أن هناك نظريتين تفسران ظواهر الضوء جميعاً ، وظلتا تفسرانها منذ عشرات السنين ، إحداهما تفرض وجود دقائق وبها تتفسر بعض هذه الظواهر ، والأخرى تفرض وجود الموج ، وبها تتفسر ظواهر أخرى »[1] .

أما من ناحية الإيمان بحياة مؤجلة فيها يكمل ما نقص من هذه الحياة الحاضرة فإننا نجد فى ذلك كله أن العلم المادى قد عجز عن تقديم تفسير للكون يريح العقل وكما عجز عن تقديم نظام للحياة يسعد الإنسانية .

هذا ما ذهبت إليه الاشتراكية العلمية من وعد بحياة مؤجلة لم يتضح الطريق إليها بعد تسعد فيها الإنسانية فى ظل سيادة الشيوعية .

وهذا ما ذهب إليه برتراند رسل عندما أعلن العلم الحديث أن حركة الذرة لا تخضع لقانون أو ضرورة .

وبدلاً من أن يفترض رسل أن الذرة تدخل تحت قوانين غير قوانين الطبيعة التى عجز العلم عن كشفها أخذ يفترض عن طريق ما نسميه الإيمان الغيبى بالمستقبل: «إن نظرية الذرة الفردية الحرة تقع تحت رحمة علم الطبيعة التجريبى الذى ربما استطاع فى أى لحظة أن يكتشف القوانين التى تنظم سلوك الذرات الفردية » .

وهكذا ينتهى بنا الإلحاد المادى إلى وعد . .

مجرد وعد بالمستقبل المشرق . .

سواء فى مجال الطبيعيات ، أو فى مجال الإنسانيات . . .

وأخيراً فإن الماديين الذين يستندون إلى العلم الحديث لهم إله يعبدونه . . يقول الأستاذ إسماعيل مظهر :

« لماذا حمل دكتور شبلى شميل على الأديان ؟

حمل عليها متابعة لرأيه المادى ، بل جرياً وراء غاية محدودة ، غاية سعى إليها كثير من ماديي القرن الثامن عشر ، وتنحصر تلك الغاية فى أن يتبادل الناس بينهم ديناً آخر » .

وما هو ذلك الدين ؟

هو عبادة المادة .

---

(١) مواقف حاسمة ص ٥٢ — ٥٣ .

أرادوا أن ينظروا إليها على أنها المصدر الأول للإنسان والعلة الأولى التى فطرته .

وأنها التى تحبوه بأسلوب الحياة التى ينعم بها فوق هذه الأرض .

ناهيك بأن إليها مرده ومعاده[1] . .

والتعبد للمادة : ليس سمة الماديين المحدثين فحسب بل هو سمة أسلافهم أيضاً :

انظر ما يقوله الإمبراطور مارك أوريل أنطونين أحد أعلام الرواقيين ، وهم ماديون :

« إننى إنما أتكوّن من صورة ومادة ، كلاهما لا يمكن أن يعدم إلى لا شيء ، أو يكون قد حدث من لا شيء .

كل ما يلائمك أيها الكون الفسيح يلائمنى .

وكل ما تنتجه أسبابك أيتها الطبيعة العظمى ثمرة شهية عندى .

منك كل شيء .

وفيك كل شيء

وإليك يعود كل شيء[2] .

فإذا اتجهنا إلى الفلسفات المادية الحديثة التى تدعى القيام على العلم التجريبى نجدها تتخذ لنفسها ديناً .

وسنأخذ المثال على ذلك من أكبر الفلسفات الإلحادية المعاصرة وأشهرها ونقصد بذلك الفلسفة الوضعية . ثم الفلسفة الماركسية . .

ففى الفلسفة الوضعية التى قامت على استبعاد الدين والميتافيزيقا انتهى زعيمها الفيلسوف أوجست كونت (١٧٩٨ — ١٨٧٥) إلى اختراع ما سماه « دين الإنسانية » وفيه تكون « الإنسانية » هى المعبود ، وأبطالها هم موضع التعظيم والتكريم ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، حيث وضع لهذا الدين الجديد معبداً حقيقياً ، تنصب فيه التماثيل ، ويصاغ فيه تمثال المعبود « الإنسانية » على هيئة أنثى ، وتقام بجواره تماثيل نصفية لأبطال التاريخ .

وفى الفلسفة الماركسية التى قامت على المادية الديالكتيكية (الجدلية) انتهى التفكير إلى إضفاء صفات الألوهية على « المادة » فهى تتصف بأنها « أصل الوجود » وأنها « باقية » لا تفنى ، وأنها « لا نهاية » ، وأن قانونها « الديالكتيك » يفرض نفسه على كل الأشياء ، ثم ذهبت هذه الماركسية أيضاً خطوة أعمق فى طريقها إلى جعل هذه الفلسفة « ديناً » ، حيث رأت ضرورة إدخالها فى عقول العمال وقلوبهم ، باعتبارها فلسفة « الشغيلة » التى يعتمد عليها

---

(١) ملتقى السبيل لاسماعيل مظهر ص ٤٣ .

(٢) ملتقى السبيل ص ١٥٥ .

وعليهم فى تغيير المجتمع وتثويره ، ومن أجل ذلك أدخل زعماؤهم فى إطار القداسة التى تضفى على الأنبياء ، وكان لهم أصنام وقرارات يحج إليها الناس من أرجاء البلاد .

وهذا يدل على أن الإيمان بالله فطرة فى النفس البشرية ، وأن هذه الفطرة إن لم تجد تعبيراً لها فى الدين الحقيقى . أدخلت فى مسخ من المذاهب الإلحادية.

ومن هنا يمكننا أن نحكم بأنه ليس بلازم أن تقوم المناقشة بين الدين الإلهى « الإسلام » وبين المذاهب الإلحادية على أساس سوق الأدلة على وجود الله ، ومناقشتها وإنما ينبغى أن تجرى على أساس المقارنة بين المعبود هنا والمعبود هناك . .

وأخيراً فقد تبين لنا أن الإلحاد المادى المعاصر يكذب كذبة بلقاء إذ يزعم أنه باستناده إلى العلم التجريبى حقق الاستغناء عن الدين . .

إنه فى حقيقة الأمر لم يتمكن إلا من الاستقلال عن الدين الصحيح ، وأنه فى سبيل ذلك وجد نفسه فى نهاية المطاف متورطاً فى مسخ من المعتقدات القائمة على الإيمان بالغيب والمستقبل والاعتقاد فى أصل للكون لا يمكن إدراكه بالحس ، وهم لم يفعلوا إلا أن استبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير . وكذلك كان شأن الفلسفات القديمة .

والآن نأتى إلى القسم الأخير من هذه المقالة الذى نرجو أن نتعرض له فى المقالة القادمة .

د. يحيى هاشم

قضايا لغوية
نظرات حول الترادف اللغوى

دكتور / توفيق محمد شاهين

(٣)

والرأى الذى نذهب إليه إذن :

إن العرب عالجوا ألفاظ لغتهم معالجة استثمار ، فأكثروا فيها المترادفات لمعنى واحد ، أومعان متشابهة ، ولا نقول : أن مترادفاتهم بلغت المئات والألوف . وليست العربية بدعاً فى ذلك بين لغات البشر ، فكثير من اللغات تعرف هذا الترادف ، وتعبر عن المعنى الواحد بأكثر من لفظة ، كما فى الانجليزية مثلا .

وإذا اعتبر صاحب القاموس ، أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، أو كماله فى أمر من الأمور . . فدلت كثرة أسماء الأسد على كمال قوته ، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدتها وصعوبتها ، وكثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته ، وكثرة أسماء القرآن دلت على كمال شرفه وفضيلته ، وعدّ منها : القرآن ، والكتاب ، والفرقان ، والصدق ، والذكر ، والوحى . . . وساق الشواهد على ذلك(٤٤) .

أقول : إن نزعة الغلو هذه دفعت بالطرف الآخر إلى المسار المعاكس حين تضخم قاموس الترادف اللغوى أضعافاً مضاعفة لحشد ألفاظ كثيرة عُدّت مترادفة على ضعف الشبه والصلة بينها ، مما دعا الطرف المنكر للترادف أن ينكره ويشكك فى وجوده .

ولا ننسى أيضاً أن من العرب القدامى من شغلتهم الموسيقا اللفظية وولعوا بها فتلمسوا المترادف ، وشغلوا به عن الفروق بين الدلالات ، وحدث أن تضخم قاموس المترادفات بحق وبغير حق ، ففرح المثبتون ، وتهكم المنكرون ، وكان العاصم هو الاعتدال والدقة .

ولا ترضينا نزعة الغلو هذه ، كما لم ترض غيرنا ، ذلك أن أصحابها . . .

« تناسوا كل الفروق بين الكلمات حتى المتميزة منها ، وقد أوسع لهم هذا المجال قدح الزناد بطلاقة لا تمت إلى الضبط العلمى بأوثق الصلة، زد على هذا الخلط بين ألفاظ جاهلية وأخرى إسلامية ، حسبوها مترادفة »[٤٥]. وسيحد من هذا الغلو — ولا شك — المعجم اللغوى التاريخى ، على أن الفرق الزمنى بين العهدين ليس بالطويل فى مرحلتى الجاهلية والإسلام بالذات .

ولأن الغلو دعا إلى وجوب « تحديد معانى الألفاظ تحديداً منطقياً ، فلا نسرف فى اصطناع المترادف الذى يجعل الألفاظ غير مفصلة على قدود المعانى[٤٦] حتى نجعل العربية مبسطة وميسرة فى مجال التطبيق التعليمى .

وقد ذهبت فئة متسرعة من العلماء قديماً وحديثاً : تثير الشكوك حول المترادف ، « وأظهروا بوضوح عدم وجوده فى العربية ، ولم يقفوا بأبحاثهم عند هذا الجانب السلبى ، بل تلمسوا الأدلة، وأبرزوا الدواعى ، واتجهت عنايتهم لبيان وتعداد الفروق ومغامز الفصل بين الدلالات المقول بترادفها .

وأبحاثهم — وإن كانت دقيقة وعميقة التحليل ، وبعد التصور ، وشمول الاستقراء — إلا أنها اصطبغت بصبغة « جدلية » ، كانت تنتهج سبيلها على إشعاع مبدأ : إخضاع اللغة للفلسفة ، خاصة وأن عقولهم فى ذلك الوقت كانت متأثرة « بالميتافيزيك » كما يرى المستشرق « (جاك بيرك) .

ومن ثم يجب ألا نترك الحبل على الغارب لهذا الغلو فيكون ذلك داعياً قوياً إلى إنكار الترادف ، والوقوف فى وجهه ، وكيل التهم للقائلين بوجوده . . وسلفاً نحن لسنا أهلا لأن نكيل التهم لأجداد أفذاذ عملوا وأخلصوا لوجه الله تعالى .

فاللغة لا تخضع للفلسفة ، وحرية العربى فيها كبيرة كما أسلفنا .

وإذن فمن المغالاة إذن ما ألمعت إليه د . بنت الشاطىء ، فى كتابها . . (كتاب العربية الأكبر) من أن رفض الترادف فى العربية يعلل بأنه تزكية وإعلاء لها — حسب آفاق مناهج علم اللغات الحديث — ذلك أنه رئى فى الترادف فقدان حسى لغوى ، وعجز عن ضبط الدلالات والمفاهيم . كما أن الفن الأدبى ينكر لغة يمكن أن يستبدل لفظ فيها بعشرات أو مئات أو ألوف الألفاظ .

واســتناداً إلى ذلك قررت – الدكتورة – أن القرآن حسم قضية الترادف ، لأن التتبع الدقيق لألفاظه يرينا أنه لا ترادف بين الألفاظ .
واستشهدت لذلك باستعمال القرآن الكريم لمادتى (حلف ، وأقسم) ، وهما بمعنى واحد فى كتب اللغة والتفسير لكن مواضع استعمالها فى القرآن كله يمنع هذا الترادف ، حيث تأتى مادة (حلف) دائماً فى مقام الحنث باليمين »[٤١]. اه

وعلى هذا المنهج يقول بويسون : « ويكفى قليل من التفكير لكى نرى أن اللغة الحية لا تحوى مترادفات كاملة » .

بل ذكر بعضهم – فى خبث – إن فى العربية ترادفاً ، ليسلط عليها حكماً بالجمود ، وهو فناء ، فـ « العربية لا تصلح أن تكون لغة علم لعجزها عن تحديد دلالات الألفاظ ، وضبط مفاهيمها ، حيث تكثر المترادفات فيها بكثرة فاحشة »[٤٩] .

هكذا قالوا ، وتلك شنشنة نعرفها من أخزم ، وتجديف غير علمى .

ومن نماذجهم فى التفرقة توصلا لجحد الترادف :

١ – الفرق بين القديم والعتيق : فالعتيق هو الذى يدرك حديث جنسه فيكون بالنسبة إليه عتيقاً ، ولهذا لا يقال : إن السماء عتيقة وإن طال مكثها ، لأن الزمان لا يؤثر فيها ، ولا يوجد من جنسها ما تكون بالنسبة إليه عتيقاً[٥٠] .

٢ – والبخل هو المنع من مال نفسه ، والشح هو بخل الرجل من مال غيره[٥١] .

ويضاف إلى ذلك ما استقاه السيوطى من الأصفهانى فى مفرداته وكذا الإمام الجوينى ، مثل : الخوف والخشية ، والسبيل والطريق والإيتاء والإعطاء والتمام والكمال » . .[٥٢]

وأقول : تلك تفرقة جائرة . .

بل صرح بعضهم بأن ما ظن من الترادف إنما هو من التباين ، إمّا لأن – أحدهما اسم للذات والآخر اسم للصفة ، أو صفة الصفة وهذا رأى قديم حديث : يقول ابن فارس : مذهبنا أن هناك فرقاً بين هذا وذاك . كما نفاه الإمام الرازى فى الأسماء الشرعية[٥٣] .

وفرّق ثعلب وابن فارس بين الإنسان من النسيان ، والبشر من أنه ظاهر البشرة أى الجلد ، وللسيف

اسم واحد وما بعده صفات .

كما قرر أبو على الفارسى فى مجلس سيف الدولة ، منكراً أن يكون للسيف أسماء كما ذكر ابن خالويه ، تصل إلى الخمسين »(٥٤) .

ويبالغ ابن الأثير فيرى أن الذى « لا يفرق بين الأسد والفدوكس والغصن والعسلوج فليس بعالم »(٥٥).

وألف الأب هـنرى كولا منسى اليسوعى : « فرائد اللغة فى الفروق » معتمداً على فقه اللغة للثعالبى ، وكليات أبى البقاء ، ومفردات الأصفهانى والألفاظ الكتابية للهمذانى ، ونفى بذلك وجود الترادف على زعمه .

ومن الطريف أن بعضهم ينكر الترادف ، لأن وجوده يحوج إلى حفظ الكل وفى هذا مشقة »(٥٦).

وسيأتى خير رد على ذلك فى بيان الحاجة إلى الترادف .

ومثله طرافة : أنه (الترادف) لو وقع لعرى عن الفائدة ، واللازم باطل فبطل اللزوم لأن قيام الواحد كاف فى الإفهام والزائد عبث لا يليق لحكيم »(٥٧)

هكذا قيل ، وهو دليل على ضعف الذاكرة ، وضعف الطبع اللغوى قبل أى شىء آخر .

وفى هذا المسار (مسار الإنكار) ما يراه المرحوم حفنى ناصف من أنه عند الإمعان لا ترادف فى الحقيقة ؛ لأن قبائل العرب ليست بحاجة إلى أزيد من لفظ لكل معنى » . . والطريف أنه يرجع ما ورد — من مثل ذلك — إلى اختلاف القبائل التسع التى أخذت عنها اللغة . . وإذا كانت القبائل عربية فعلام نحمل كلامه بالرفض ، وهو الذى يروى فى بحثه أن الإمام على بن أبى طالب — رضى الله عنه — قال يوما لكاتبه :

« الصق روانقك بالجيوب ، وخذ العزيز بشناترك ، واجعل حندورتيك إلى فيهلى ، حتى لا أنغى نغية إلا أودعتها بحماطة جلجانك » . ومرادف ذلك : ألصق مقعدتك بالأرض ، وخذ القلم بأصابعك ، واجعل عينيك إلى وجهى ، حتى لا أنبس نبسة إلا وعيتها وحفظتها فى حبة قلبك . .(٥٨)

• • •

يقول ابن خلدون : مما ينبغى إثباته : أن اللغة إثبات أن اللفظ كذا ، لمعنى كذا »(٥٩).

أى يختص كل لفظ بمعنى

معين ، وبذلك تصبح الكلمة بمثابة العلاقة للمعنى ، ومتى طرقت السمع أثارت فى الذهن دلالة معينة ، يشترك فى فهمها أفراد البيئة اللغوية « بهذا جرت الكثرة الغالبة من ألفاظ اللغات فى العالم »(٦٠) وأقول : لعل تلك نظرة تعليمية وتيسيرية ، بعدأن عمت الشكوى من استعجام الطبع والذهن .

على أن ابن خلدون يقول : إن العربية دخلها تغيير حتى فى قبائل العرب نفسها ، لأنه كثيراً ما يجاب التفاعل الإنسانى والحياة باتساع الثنايا ، وتنوع الكائنات ، وتشابه الحادثات ، وتقارب الظواهر والأشياء وتلاحمها . . ويتسم كل ذلك باختلاف النظرة للمسميات تشتت ملكة التقييم . لذلك نشأت ألفاظ التقت فى معناها أجزاء وأخرى تم فيها التطابق واستقر استعمالها عند الجميع ، بما فيها تلك المفردات التى تشترك فى معنى واحد ، والتى صدر كل منها عن لسان قوم »(٦١) .

وقد قلنا من قبل إن شبه الجزيرة العربية اعتبرت واحدة .

تلك نماذج من أحاديث واستنتاجات وعلل الرافضين للترادف قديماً وحديثاً دعت بعض المفكرين والكتاب — ممن ليسوا ضليعين فى اللغة إلى التردد والتوقف فى قبول الترادف سقناها على طولها ، إنصافاً للجانبين ، وتلمساً للحقيقة .

ونقول : إذا كانت اعتراضات المعترضين ، لتيسير العربية فى المجال التعليمى والتطبيقى لظروف تقتضى ذلك — مجال آخر .

— كما أن الفروق اللغوية كثيراً ما تمحى ، أو تنسى ، أو تموت ويصبح البديل فى قوة الأصيل ، وسبق أن ذكرنا إن النقل القار للفظ كالنسخ فى الحكم .

— وإخضاع اللغة للنزعات والسبحات الفلسفية ، والقيود المنطقية ، أمر لا يتفق وحرية العربى الواسعة فى حياته ولغته .

— وإذا مالت صاحبة (كتاب العربية الأكبر) إلى إنكار الترادف وبخاصة فى القرآن — كما أسلفنا فى لفظى (حلف وأقسم) فهذا رأى قديم حديث .

إلا أنه بالاسقراء وللمتابعة ، والرجوع لكبار المفسرين ، الضالعين فى اللغة فاننا نلتى الترادف : « بكثرة فى ألفاظ القرآن ، رغم محاولة بعض

المفسرين أن يلتمسوا فروقاً خيالية لا وجود لها إلا فى أذهانهم للتفرقة بين الالفاظ القرآنية «المترادفة» (٦٢) ويسوق الأستاذ مصطفى بوهلال مثالا يؤيد ذلك من تفسير « التحرير والتنوير » للعلامة محمد الطاهر بن عاشور ، فى تفسير قوله تعالى : « فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون » ، فقد قال (المفسر) : الافتراء : الكذب وهو مرادف الاختلاق ، . . ونظيره إطلاق اسم الاختلاق على الكذب ، فالافتراء مرادف للكذب ، وإردافه بقوله هنا « الكذب » تأكيد للافتراء ، وتكررت نظائر هذا الإرداف فى آيات كثيرة »(٦٣).

فالقول بخلو القرآن الكريم من الترادف تجديف فى قضية كبرى . لا يكفى الحكم فيها بنظرة عجلى ، ورأى قد يكون فطيراً ، لما شابه واكتنفه من العجالة فى النظرة .

ولغتنا قد وسعت حضارات ، وتسنمت ذروة العظمة ، أيام كان أبناؤها فى أوج نشاطهم ورقيهم الفكرى ، وكانت حواضرهم مركز إشعاع علمى تتيه به على حواضر الدنيا من حولهم ، فلما أمسوا من النائمين أو النامين ، فقدوا حسهم اللغوى والوجودى ، فلم تفقد اللغة حسها اللغوى ، وإنما فقده أبناؤها ، فالعيب فيهم وليس فيها .

• والترادف فى كل لغات الدنيا ، وليست لغتنا بدعاً من بين هذه اللغات .

• وعابث من يدعى العبث فى الألفاظ الزائدة ، وإلا فمن أين يتأتى حسن اختيار اللفظ المناسب ؟ ومن أين يتأتى تسنم ذروة البلاغة ، والإبداع القولى ؟ وغير خاف أن اللغة للإمتاع ، كما هى للاستعمال .

• والقول بأن فى حفظ الزائد من الألفاظ مشقة تذرع بلداء أو كسالى .

• ولا وجه للتشكيك فى صلاحية لغتنا بمرادفاتها ، لمجاراة العصر بعلومه ، إذ فيها من المرونة والسعة مالا يبارى : فقد بدت حين بدا أصحابها ، وتحضرت حين تحضروا ، ووسعت ما وفد واستجد ودعت الحاجة إليه ، وضبطت بدقة متناهية المفاهيم والآلات ، وأثبتت أنها صاحبة قدرة فائقة على ملاحقة التقدم والتحديث والتعبير العلمى فى مختلف المجالات . . فهى قديماً وحديثاً ومستقبلا — بحق — أداة حضارة وصانعة بلاغ .

وتأصيل العلوم فى أية أمة ناهضة إنما يكون بلغتها ، فعلى أبناء العربية الأخذ بيدها وإشاعة استعمالها فى كافة الميادين ، وسيرون قدرتها على الوفاء بما يطلب منها ، وأنها جديرة بأن تكون

لغة العلم الحديث : تدريساً ، وتأليفاً ، وإستعمالاً ، وإمتاعاً . . . حين تكون المعايشة الكاملة لها ومعها . . وحيًّا الله شعوباً عربية سبقت فى هذا المضمار ونجحت وبذّت فى جعلها لغة التدريس فى كل المراحل التعليمية (كما فى سوريا الشقيقة وغيرها) ، ولعل هذا النجاح يطامن من ادعاءات بعض رجالنا فى جامعاتنا من أن العربية ليست لغة علم . .

والتاريخ والواقع يكذبهم ، ومن جهل شيئاً عاداه . والمرء ابن اللغه ، وهم قد ألفوا غير العربية فشنأوا لغتهم وأبغضوها — جهلا — وأحبوا غيرها تعصباً ، والتعصب بغير حق أعمى ومعيب .

• • •

ومعلوم أن اللغة — أية لغة — متينة الارتباط بالوجود الاجتماعى وتطوره ، ومفرداتها تتطور تبعاً لذلك خشونة ونعومة ، وثقلا وخفة ويروضها الاستعمال والتداول استئناساً ووحشة ، إن قيل بالغرابة ، وعدم الألف لبعض المفردات فى الترادف اللغوى عند اللاستعمال .

فيجب إذن ألا نبالغ فى التماس فروق — قد تبدو ضعيفة واهية — للتمييز بين المترادفات تمهيداً — لإنكارها أو التشكيك فيها ، فقيود المنطق الصورى وحدوده لا تطبق على العربى ولغته .

وعلينا ألا أن نؤمن بأن الحدث اللغوى هو الذى أمدنا — على ترامى الأجيال — بكلمات مترادفة أصلا .

وعلينا ألا نستسلم للسبحات الفلسفية اللغوية ، ولا للخطرات الحوارية ، ونجعلها سبب الضيق أو السعة فى وجود المترادفات .

وعلينا بالتالى ألا نفرط فنجعل من الترادف فوضى ، فينتظم الألوف والمئات من الألفاظ ، كما صنع الفيروزبادى ، ولا نرفض ما كان من طبيعة اللغة ، وورثناه عن الموثوق بهم من علمائنا الأجلاء ولسنا أهلا لأن ننظرهم فيما أفنوا أعمارهم فيه ، ولا نتهمهم فيما وثقوه وأصلوه .

وعندئذ لن ينكر الحس اللغوى الصادق الترادف اللغوى وسنربط التعليم فى مراحله المختلفة بالمجتمع فى وطننا العربى بمودة وحب وإقبال ، ولن يكون هناك استيراد غير واع أو اقتراض بلا داع ، لنهضتنا فى التعمير والتفكير . وستزدهر ثروتنا اللغوية ، وسيبعث ما فى بطون المعاجم المليئة ، ليكون عوناً لنا حين نحتاج إليه مدداً ورديفاً طيباً . وما حفظته معاجمنا الحافلة به إلا للإرهاص بأنه رديف صالح يسد الحاجة ويفى بها ذاتياً بجدارة عند الحاجة .

• • •

وليس بصحيح – إذن – ما يقال : من أن الترادف يعاكس الروح العلمية .

وأن روح العصر لا تستسيغ التكرار فى الأدب .

١ – لأن فى الترادف ما يستعمل كوجه من أوجه السحر البيانى ، مع فصاحة فى التأنق فى الاختيار اللفظى : « بين كون هذه » اللفظة «مألوفة مستعملة ، وتلك غريبة وحشية . أو أن حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن »[٦٤]. كما مر فى حديث أم الهثيم .

أو يكون لإحدى المترادفتين : (فى تحسين المعنى وتزيينه ، وأحداث خصوصية فيه تأثير لا يكون للأخرى »[٦٥] :

كتب الأستاذ سيد قطب فى استعمال لفظة « القارعة » ما يلقى صورة الفزع واللطم . . ومن تناسق العرض أن تسمى بالقارعة ، ليتسق الظل الذى يلقيه اللفظ ، والجرس الذى تشترك فيه حروفه كلها ، مع منظر الناس كالفراش المبثوث ، والجبال كالعهن المنفوش »[٦٦] .

وفى استعمال لفظة « الواقعة » تثير فى الشعور صوراً ومشاعر أخرى :

بما فيها مد ثم سكون أشبه بسقوط الجسم الذى يرفع ثم يترك فيقع ، فينتظر له الحس فرقعة ورجة ، وهكذا يلبى لسياق ما يتوقعه الحس ، فهى (القيامة) خافضة رافعة[٦٧] .

فلا ينكر – إذن – منصف ضرورة وجود المترادف وفائدته . . إذ ليسر انتقاء اللفظ الملائم ووسع مجال التصرف ، وستر العيوب اللسانية :

(ا) وإذا كانت البلاغة هى : « أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية »[٦٨] ، ففصحاناً بحاجة إلى الترادف ، كما فى لفظتى القارعة والواقعة للتصوير الدقيق .

(ب) والترادف وسع مجال التصرف فأصبح من نتائج سعة « العربية » به اقتدر أصحابها على كتابة المعنى الواحد بعدة تراكيب بين عاطل ، ومهمل ، ومنقط ، ومشترك وبعض المفسرين كتب تفسيراً للقرآن الكريم بألفاظ ليس فيها حرف منقط[٦٩] .

وإن كان ترفاً عقلياً ، فلا شك إن به إمتاعاً .

فميزة الترادف : فى هذا الصدد : كثرة الطرق للإخبار عما فى النفس ، واختيار الأخف والأظهر بين الألفاظ ،

أو الترويح والإمتاع بالأحاجى والألغاز

وعلق فضيلة الشيخ محيى الدين عبد الحميد – فى تحقيقه على شرح القصائد العشر – على إنكار ثعلب وابن فارس للمترادف بقوله : « وهذا كلام عجيب من ثعلب : فإن فائدة تعدد الألفاظ لمعنى واحد ليست مقصورة على دلالة اللفظ على معناه : فأين التفنن فى الأسلوب ؟ وأين قوافى الشعر ؟ بل أين أوزانه ؟ ألا ترى اللفظ قد يصلح قافية فى بيت ، ولا يصلح فيه اللفظ الآخر؟ وهذا لايدع مجالا للشك فى أن العرب قد استعملوا ألفاظاً متعددة لمعنى واحد ، والنصوص تؤيد ذلك . . . فادعاء غير ذلك لا يقوم على دليل »[٧٠] .

(حـ) ويستر الترادف العيوب اللسانية ، وما حكى عن الخطيب المصقع ، واصل ابن عطاء ، مشهور غير منكور ، وقد كان لا يحسن نطق «الراء» فخلت خطبته – التى ذم فيها بشار – من الراء ، ومن ثم مدحه الشاعر بقوله :

ويجعل البر قمحاً فى تصرفه
وجانب الراء حتى احتال للشعر

ولم يطق مطرا والقول يعجله
فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر

قال الجاحظ : وسألت عثمان البرى : كيف كان واصل بن عطاء يصنع فى العدد : فى عشرة ، وعشرين ، والمحرم ، وصفر ، ورجب ، وربيع ؟ فقال : مالى فيه إلا قول صفوان :

ملقن ملهم فيما يحاوله
جم خواطره جواب آفاق[٨٠]

وقد يستعذب الأديب نطق وتكرار ما لا يحسن نطقه ، ولا يستطيعه ، طرافة وملاحة ، أو حين يعجزه الإتيان بالمرادف ليتخلص من عيبه اللسانى فيمتص تهكم الآخرين بالعيب ، كصنيع أستاذنا الشيخ إبراهيم البديوى – وقد كان أديباً فكهاً وشاعراً فذاً ، وله خلق ، وفيه مروءة وسماحة – أراد أن يهنئ الأميرة (فريال) وكان لا يحسن نطق الراء ، فقدم لقصيده بقوله :

مالى خرجت اليوم عن مكنون عاداتى
فنظمت قافيتى من « الراءات » . .

« الراء » من « فريال » قد كررتها
فنجا لسانى وانجلت عثراتى

فكانت مقدمته اعتذاراً بليغاً وملحة طريفة .

وبعد :

فإن اللغات تزداد ثروة وحيوية بقدر ما يتاح لها من شروط النماء والحياة . . . وفصحاناً أتيح لها من عوامل التنمية

الذاتية قبل غيرها ، بما لا نظير لها فى لغات العالم والكلمة الواحدة — قد تعطى من المعانى والدلالات بقدر ما يتاح لها من الاستعمالات ، « لأن كثرة الاستعمال لابد أن تخلق كلمات جديدة تلبى بها مطالب الحياة والإحياء والرقى . واحتفاظ لغتنا بالمهجور إرهاص بأنه قد يستعمل ، ويستغنى به لأنه رديف صالح » . .

بل وكان كل مِصْرٍ من العرب يفخر باستعمال لهجته وأنها أفصح من غيرها : يقول الجاحظ (البيان والتبيين ١/١٨) قال أهل مكة لمحمد بن مناذر الشاعر : ليست لكم أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكة . فقال ابن المناذر : أما ألفاظنا فأحكى لألفاظ القرآن ، وأكثرها موافقة له فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم : (أنتم تسمون « القِدْر» برمة ، وتجمعونها على برم . ونحن نقول : قدر وقدور . وقال الله سبحانه : « وقدور راسيات » .

وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت « علية » وتجمعونها على علالى ، ونحن نسميه « غرفة » ونجمعه على غرفات وغرف . قال تعالى : « غرف من فوقها غرف مبنية » . وقال تعالى : « وهم فى الغرفات آمنون » .

وأنتم تسمون الطلع (الكافور) والإغريض . ونحن نسميه (الطلع) ، وقال الله تعالى : « ونخل طلعها هضيم » .

يقول الجاحظ عن أبى سعيد عبد الكريم بن روح : فعدَّ عشر كلمات ، لم أحفظ أنا منها إلاّ هذه . اهـ.

ولعل هذا يطامن من حدة المنكرين للترادف اللغوى .

ويحكون إن إعرابيًّا وفد إلى اليمن لزيارة زيد بن عبد الله بن دارم ، على ربوته فقال له : « ثب » بمعنى اجلس فى لغة اليمن ، فقفز الإعرابى — سمعاً وطاعة — من العلو الشاهق ، فدقت عنقه ، لأنه ظن أن «ثب» بمعنى اقفز ، فقفز . وبعض اللغويين يستشهد بهذه القصة ، على أنه فى الإمكان التعبير عن شىء واحد بلفظين مختلفين ، ما دامت البيئتان اللغويتان متباينتين ، ولو صدر لفظ (وثب وقعد) بمعنى واحد عن قبيلة واحدة ، وفى بيئة لغوية واحدة . . لما كان ثمة احتمال للترادف بين اللفظين ، على أن المراد باختلاف بين لغتين الاختلاف بين لهجتين ، كلتاهما فرع للغة واحدة ، وتفرعهما عن أصل واحد ، هو الذى يسوغ ضم ، ما عند هذه إلى تلك ، فيصح لنا — على هذا الأساس — التغنى بمآثر لغتنا ، التى

تشتمل على محصول لغوى لا مثيل له بين لغات العالم[٧١] .

وحسبنا أن نصفها عندئذ بأنها غنية وغناها ذاتى حفلت به معاجمها المليئة دليلا على ذلك .

ولن نستنكف عن رد الاعتبار إلى لهجة كل قبيلة لم تطرأ العجمة على ألسنتها ، ولم تلابس اللكنة الدخيلة ملاحنها ، فمثل هذه اللهجات سنستنبط منها مزايا لغتنا ، ومعانى مفرداتها وتراكيبها ومدى سعتها وتصرف أصحابها فى طرق تنميتها .

والترادف أخيراً : — كما يقول الشيخ عبد الله العلايلى : —

« عنوان على فراغ الأمة إلا من القول من وجه ، وعلى مرونة اللغة من وجه آخر . . وبما أنه أصبح صفة ظاهرة من صفات العربية إلى حد التغرد . وليس هذا فقط ، بل أصبح الأديب العربى يضيق جداً إذا لم تكن له فسحة من الألفاظ الشتى التى تتلاقى على معنى واحد .

وجب على الواضع الحديث ألا يهمل هذه الناحية أبداً ، وفى اللغة كفاء وغناء .. ويستطرد الشيخ العلايلى فيقول : «ولكن ضعف الطبع اللغوى فى اللغويين ، جعلهم يتمنون على اللغة الأمانى : يتمنون أن لو كان لهم بهذه الكثرة من الترادف غنى يتناول ما فى العلم وما تجيش به النفس !! ولكنها أمنية — لو علموا — تنالهم أنفسهم دون اللغة »[٧٢] .

وسيبقى فى هذا الترادف الذى سخروا منه جوابها على مر الأيام والليالى ، هتافاً يثير شاكلة انتباه من سمع من يأتى من الأجيال :

أعزائى أبناء الضاد : هذا غناى إلى حد التزيد ، وهذا ضعفكم حتى عن الاستفادة بالأعلام المنثورة فى بطون معاجمى ، وفى متعرف السبل .

فلا ينبغى أن نغض الطرف ، ونقصر الجهد ، ونقر بالعجز ، ونرضى بالقليل ، ونرفض ونرد الترادف وقد ثبت وجوده ووضح كضوء الفجر الصادق ، لا ريب ولا شك فى ذلك.. » والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » . .

توفيق محمد شاهين

المراجع

٤٤ ـ دلالة الألفاظ ٢٢١ .

٤٥ ـ مشكلات العربية للأستاذ محمود تيمور ١٥ نقلا عن « الفكر » التونسية .

٤٦ ـ « الفكر » التونسية س ٥ ع ٥ ص ١٠ .

٤٧ ـ المصدر السابق س ٢١ ع ٤ للأستاذ مصطفى بوهلال .

٤٨ ـ المصدر السابق .

٤٩ ـ الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ٣٤ .

٥٠ ـ التعريفات للجرجانى ٣٤ .

٥١ ـ الإتقان للسيوطى ١/١٩٤ـ١٩٦

٥٢ ـ المزهر للسيوطى ١/٤٠٢ ، وحاشية البنان على المحلى ٢٩١ .

٥٣ ـ الصاحبى لابن فارس ٦٦ ، والمزهر ١/٤٠٣ .

٥٤ ـ المثل السائر لابن الأثير ٣٦٠ .

٥٥ ـ شرح البدخشى والإسنوى لمنهاج الوصول للبيضاوى ٢١٦ .

٥٦ ـ علم أصول الفقه للمرحوم الشيخ محمد عبد الله أبو النجا ٣٤ .

٥٧ ـ مميزات لغة العرب للأستاذ حفنى ناصف ٣٩ .

٥٨ ـ مقدمة ابن خلدون ١٠٦٤ .

٥٩ ـ دلالة الألفاظ د. أنيس ٢١٠ .

٦٠ ـ الترادف اللغوى للأستاذ مصطفى بوهلال س ٢١ ع ٤ مجلة « الفكر » التونسية .

٦١ ـ دلالة الألفاظ ٢١٥ .

٦٢ ـ الفكر التونسية س ٢١ ع ٤ ص ٥٥ .

٦٣ ـ دلائل الإعجاز للجرجانى ٣٥٢ .

٦٤ ـ المصدر السابق ٣٢٤ .

٦٥ ـ مشاهد القيامة فى القرآن ٦٦ .

٦٦ ـ المصدر السابق ١٠٨ .

٦٧ ـ دلائل الإعجاز ٨٥ .

٦٨ ـ تاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ جرجى زيدان ٥٥ .

٦٩ ـ شرح القصائد العشر ، هامش ٣٢٢ (للمحقق) .

٧٠ ـ نوادر المخطوطات ١/١٢١ ، والبيان والتبيين للجاحظ ١/٧١، وأمالى المرتضى ١/١٣٩

٧١ ـ درات فى فقه اللغة للشيخ صبحى الصالح ٣٠١ ، وراجع الصاحبى ٢٢.

٧٢ ـ المقدمة للشيخ العلايلى ٢٢٧ .

الأزهر جامعًا وجامعة
أو مصر فى ألف عام

الأستاذ / محمد كمال السيد

٢

ذكرنا فى المقال السابق أن الحاكم بأمر الله أوقف سنة ٤٠٢ هـ رواتب المقيمين بالجامع الأزهر كما أبطل ليالى الوقود .

وفُقد الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ . وتولى بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين الله فأمر بإعادة ليالى الوقود وصرف المرتبات. ويحدثنا المقريزى : أنه فى ليلة النصف من رجب سنة ٤١٥ هـ حضر الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ومعه السيدات وخدم الخاصة وغيرهم وسائر الرعايا والعامة . . فجلس الخليفة فى المنظرة . . يعنى منظرة الجامع الأزهر السابق ذكرها. وكان أيضاً فى ليلة نصف شعبان اجتماع لم يُشهد مثله من أيام العزيز بالله . وأوقدت المساجد كلها أحسن وقيد. وكان مشهداً عظيماً بَعُد عهد الناس به . . لأن الحاكم بأمر الله كان أبطل ذلك فانقطع عمله .

وبعد الظاهر تولى ابنه المستنصر بالله (٤٢٧ — ٤٨٧هـ) أى استمر عهده ستين عاماً . وفى عهده حصلت الشدة العظمى المعروفة التى استمرت سبع سنوات (٤٤٧ — ٤٥٤ هـ) لعدم فيضان النيل . فعزّت الأقوات حتى أكل الناس القطط والكلاب .

وكان فى مصر فضلا عن المجاعة الأوبئةُ. وفتنٌ فى الداخل . واعتداءاتٌ من الخارج . وعجزت الدولة عن القيام بالتزاماتها فى المرتبات والأجور . فنهب الجند قصور الخليفة . وجرّدوها من كل نفيس . وباعوا المنهوبات بأبخس الأثمان ليحصلوا على ما لهم من مستحقات. وجلس الخليفة المنتصر على حصير

لا يجد القوت إلا من تَفَضُّل إحدى المحسنات عليه . هكذا ذكر المؤرخون وقد يكون فيه بعض المبالغة . ولكن كان من الطبيعى أن يصرف النظر عن ليالى الوقود .

ويبدو أيضاً أن إبطالها استمر أيضاً فى عهد المستعلى بالله بن المستنصر بالله (٤٨٧ — ٤٩٥) حتى تولى الخلافة الآمر بأحكام الله بن المستعلى بالله (٤٩٥ — ٥٢٥ هـ) فأمر سنة ٥١٥ هـ بإعادتها . واستمرت حتى نهاية الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ .

ولم يكتف الفاطميون بالأزهر كأداة للدعاية لمذهبهم الشيعى فأنشأ الحاكم بأمر الله دار العلم .

وقد أمر بإنشائها سنة ٣٩٥ هـ وحمل إليها الكتب من خزائن القصر ، وفرشها وزخرفها وعلّق على أبوابها وممراتها الستائر ، وأجلس فيها الفقهاء والقرّاء والعلماء والأطباء . وأقام فيها من يقوم على الخدمة والملاحظة والمحافظة . وأباح الاطلاع على الكتب ونَسْخِها لمن أراد . وكان كلٌّ حين يُحْضِر جماعة منهم للمناظرة بحضرته . . وأجرى عليهم الأرزاق . . وأوقف عليها ما يكفى لنفقاتها .

وكان مكان دار العلم المذكورة حارة « برجوان » الحالية بالخرنفش . وبرجوان هذا المنسوبة إليه هذه الحارة كان خصِيًّا أبيض تام الخلقة من خدم العزيز بالله . أوصاه العزيز عند وفاته على ابنه الحاكم بأمر الله . واستولى على السلطة وأحسن التدبير . وبلغ النهاية من العز والنفوذ . فاشتغل بلذاته . وأقبل على سماع الغناء والطرب . واجتمع لديه الشعراء والموسيقيون . . وكان يقضى فى الأمور بدون استشارة . فنقم عليه الحاكم . ودبر له كميناً فى إحدى حدائق القصر الشرقى وقتله سنة ٣٩٠ . وكان عمر الحاكم عند ذاك ١٥ سنة . وذكره أبو الفدا فى المختصر باسم أرجوان .

ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى مصر فى عهد المستنصر بالله الذى استدعاه من ولايته بعسقلان لمعالجة ما أصاب الدولة من ارتباك نزل بدر بدار « برجوان » وجعلها داراً للوزارة بدلا من دار يعقوب بن كلس السابق ذكرها فى المقال السابق . ثم جعلت دار برجوان داراً للضيافة ولاستقبال الرسل الوافدين من الخارج . وكانت دار العلم بجوار دار برجوان . وفى جزء من

مكان دار برجوان كان **سكن المقريزى** المؤرخ الكبير » .

وظلت دار العلم بمكانها حتى وزارة الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى . فحدث سنة ٥١٣ أن بلغه أن بعض من فيها يفسدون العقول بفلسفتهم . وادّعى أحدهم — واسمه القصّار — الألوهية ، وتبعه كثيرون . فقبض على من وجده منهم وقتلهم . وهرب القصار . وأغلق الأفضل دار العلم .

ثم قتل الأفضل سنة ٥١٥ . وأمر الآمر بأحكام الله وزيره المأمون البطائحى بإعادة فتح الدار . ففتحت . وظهر القصار ثانية . واستفسد العقول . فقبض عليه وعلى أتباعه وقُتلوا جميعاً . وأغلقت الدار ثانية .

ولم يكن غلق الدار هذه المرة لأسباب دينية وفقهية فقط . ولكن أيضاً لأسباب سياسية . فقد كان.. يخشى من التجمعات حتى لا يقوى شأن النزارية وهم الذين كانوا يرون أن نزاراً بن المستنصر بالله. وهو عم الآمر بأحكام الله بن المستعلى بالله. أحق بالخلافة من المستعلى والآمر .

وأود أن أشير هنا إلى ما ورد فى كتاب (الأزهر وتطوره) إصدار وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر ص ٨ أن نزاراً المذكور هو والد الحافظ لدين الله الذى تولى الحكم بعد الآمر وهو سهو يلزم تصحيحه . فالحافظ هو ابن الأمير محمد أبى القاسم بن المستنصر بالله . فهو ابن أخى نزار لا ابنه (خطط المقريزى ، من المحاضرة للسيوطى جـ ٢ ص ١٦ ، صبح الأعشى للقلقشندى حـ ٢ ص ٤٣١ ، المختصر لأبى الفدا حـ ٣ ص ٢١) .

ثم فتحت دار العلم بعد ذلك فى عهد الآمر بأحكام دين الله أيضاً . ولكن فى مكان آخر جنوبى القصر الشرقى الكبير فى الجزء الجنوبى من خان الخليلى فى موقع قريب من قهوة الفيشاوى الحالية. وظلت حتى انتهت الدولة الفاطمية .

وكما كان سكن المقريزى المؤرخ الكبير فى جزء من مكان دار برجوان بجوار دار العلم القديمة . فقد كان بجوار العلم الجديدة سكن مؤرخ مصرى آخر لا يقل أهمية عن المقريزى هو محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر (٦٢٠هـ—٦٩٢) وكتابه (الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة) بكل أسف مفقود ولكن قد استعان به المقريزى فى خططه واستعاد كثيراً من فقراته . وذكر المقريزى سكنه باسم درب ابن عبدالظاهر

وقال : هذا الدرب بجوار فندق الذهب بخُطّ الزراكشة العتيق (خان الخليلي) وفي صفه ، وهو من حقوق دار العلم التي استجدت في خلافة الآمر ووزارة المأمون البطايحي . فلما زالت الدولة اختط مساكن ، وسكن هناك القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر فعرف به . اه . وظل هذا الاسم حتى عهد على باشا مبارك بجهة الحلوجي والصنادقية حتى زال الاسم والمكان بفتح شارع الشنواني امتداد شارع السكة الجديدة (شارع جوهر القائد حالياً) . ونود أن نذكر أن على مبارك في الخطط التوفيقية (ص ١٧ ص ٦٦) ذكر أن وفاة ابن عبد الظاهر كانت في سنة ٧٩٢ هـ . وصحتها سنة ٦٩٢هـ كما ذكرنا وهو سهو أو خطأ في النقل أو الطبع .

ويهمنا من موضوع دار العلم فضلا عن الناحية التاريخية أن نذكر أن إنشاءها لم يؤثر على قيمة الأزهر عند الفاطميين . فقد ذكر المقريزي أن الحاكم بأمر الله أوقف أوقافاً عديدة على الجامع الأزهر والجامع الأنور . وجامع المقس . ودار العلم . وكان نصيب الأزهر وحده من هذه الأوقاف $\frac{٧}{١٥}$ أي النصف تقريباً . وقد ذكر المقريزي في الخطط (حـ ٢ ص ٢٧٤) حجة هذه الأوقاف وتفصيل توزيع أسهمها على المصارف المختلفة في جهاتها المذكورة .

وجدّد الحاكم بأمر الله الجامع الأزهر ورفع سقفه ذراعاً عما كان . ووضع في محرابه منطقة من الفضة وزنها ٥٠٠٠ درهم . وقد نزعها صلاح الدين الأيوبي بعد القضاء على الفاطميين . وبمتحف الفن الأسلامي (تحت رقم ٥٥١) باب الجامع الذي عمله الحاكم بأمر الله . وهو باب كبير بمصراعين ٢ متر × ٣,٢٥ متراً بهما نقوش وزخارف واسم الحاكم بأمر الله . وأيضاً بالمتحف محراب خشبي صغير من الممكن نقله من مكان إلى آخر . عليه نقوش وكتابة تدل على أنه عمل في عهد الآمر بأحكام الله الفاطمي ١,٦٥ متراً × ١,١٩ متراً وهو تحت رقمي ٤٢٠ و ٤٤٢ بالمتحف .

وجُدد الجامع في عهد المستنصر بالله . كما جدد في عهد الحافظ لدين الله . وأنشأ الحافظ فيه مقصورة لطيفة تجاور الباب الغربي الذي في مقدم الجامع . وكان موقع هذا الباب في نهاية الطرقة المؤدية إلى الباب الحالي الكبير المطل على الميدان والمعروف بباب المزينين إلى صحن الجامع . وعرفت هذه المقصورة باسم مقصورة السيدة فاطمة . لأن السيدة فاطمة الزهراء رؤيت فيها بالمنام .

ولا يزال للآن من عمارة الحافظ لدين الله قبة بالمجاز حفلت جوانبها وقبتها بالزخارف والكتابات الكوفية ، وكلها آيات من القرآن الكريم فيها آية الكرسى وآيات من سورة يس ، وحفلت بزخارف جميلة ، وتعد أقدم قبة نقشت من الداخل

(الأزهر تاريخة وتطوره للمرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب) .

ورويت أسطورة أن بهذا الجامع طلسما . فلا يسكنه عصفور ولا يفرخ به . وكذلك سائر الطيور من الحمام واليمام وغيره . وهو صورة ثلاثة طيور كل صورة على رأس عمود . وحدد المقريزى فى خططه (حـ ٢ ص٢٧٣) مواقع هذه الأعمدة .

ولكن المرحوم الأستاذ حسن عبد الوهاب أثبت فى المرجع السابق ذكره بطلان هذه الأسطورة .فالطيور تغدو وتروح فى الجامع كقوله . وأن الأعمدة منقولة من آثار ومعابد قديمة. وأن نقش الطيور على أغلب هذه الأعمدة .

ونقول أنه ربما كانت الطيور لا تأوى فعلا إلى الجامع . فهى تفضل الأشجار أو الأماكن الهادئة . ولا أشجار فى الجامع . وهو فى حركة دائمة ليل نهار بين مصلين ومتعبدين ودارسين ومجاورين ممّا أدى إلى رواج هذه الأسطورة .

وأسطورة أخرى ذكرها على باشا مبارك (الخطط التوفيقية حـ٢ ص١٦) إن فى أعلى المحراب الأصلى — أى قبل الأيوان الذى أضافة عبد الرحمن كتخدا كما سنذكر بإذن الله — على يمين المصلى صندوقاً موضوعاً على رف يقال أن به قطعة من سفينة سيدنا نوح عليه السلام . وقطعة جلد من بقرة بنى إسرائيل . وأن لذلك سراً عجيباً فى عمارته .

وعلمت من قدامى الموظفين بالجامع أن هذا الصندوق نقل إلى متحف الفن الأسلامى سنة بضع وثلاثين من القرن الميلادى الحالى . وقصدت المتحف للاستدلال عليه . ولكن لم أوفق فى العثور عليه ، وذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب (ص ١٦٠ فى المرجع السابق ذكره) أن هذا الصندوق فتح بمعرفة لجنة فى ١٠ / ٤ / ١٩٣٤ . وتبين أنه يحتوى على مجموعة من رقوق المصاحف الكوفية المدشوتة. وقطعة خشب أصلها رأس عبد ملفوف عليها قماش أخضر . وبلغ عدد المصاحف المدشوتة ١٦ مصحفاً بعضها بخط كوفى وبعضها بخط مغربى .

كذلك لم يؤثر إنشاء دار العلم على الأزهر فى دوره الثقافى والدعائى فيحدثنا ابن أبى أصيبعة (عيون الأخبار فى طبقات الأطباء حـ٢ ص٩٠) كما يحدثنا القفطى (إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١١٤) أن العالم العربى الشهير **الحسن بن الهيثم** كان يقيم بالأزهر .

والحسن بن الهيثم هو أبو على الحسن ابن الحسن بن الهيثم الذى يعرفه الغربيون باسم Alhazen . وعاش من ٣٥٤ – ٤٤٢ هـ . أو بعدها (٩٦٥ – ١٠٥٠م) وكان أصلا من بغداد واستقدمه الحاكم بأمر الله لما بلغه من علمه . فقدم مصر واستوطن بها . .

وتعلمت منه أوربا الكثير عن نظريات الضوء وانكساره والعدسات وقوس قزح ، وتشريح العين وكيفية تكوّن الصور على شبكتها وأسماء أجزائها . وقد نقلت بعض هذه الأسماء العربية إلى اللغات الأوربية .

وقالت عنه دائرة المعارف الإسلامية : (وكان من أهم علماء العرب فى الرياضيات والطبيعيات . وكانت له فوق ذلك مشاركة فى الطب وعلوم الأوائل . خاصة فلسفة أرسطو . . . ثم قالت : وإن لكتاب (المناظر) أثر بالغ فى معارف الغربيين لهذا العلم فى العصور الوسطى منذ روجر بيكون Bacon (١٢١٤ – ١٢٩٤م) حتى كيپلر Kepler (١٥٧١ – ١٦٣٠م) .

وقالت عنه دائرة المعارف البريطانية أن ابن الهيثم هو أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى عالم البصريات .

وتعنى بطليموس كلوديوس الذى عرفه العرب باسم بطليموس القلوزى صاحب كتاب المجسطى الشهير فى الجغرافيا والفلك الذى ترجم للعربية عدة مرات . وهو عالم يونانى عاش بمصر وتوفى بها سنة ١٦١م . فكان بينه وبين ابن الهيثم ما يقرب من تسعة قرون .

وقال عنه مارتون أنه أكبر عالم طبيعى مسلم . ومن أكبر المشتغلين بعلم المناظر والضوء فى جميع الأزمان .

وعاش ابن الهيثم للعلم فلم يطمع فى مال أو جاه . وكان يكسب قوته من نسخ الكتب . ومع ذلك ترك ثروة علمية ضخمة تقرب من مائتى مؤلف . منها ٤٣ فى فى الفلسفية والعلوم الطبيعية ، و٣٥ فى العلوم الرياضية . وكتاب فى الطب من ثلاثين جزءاً . وغيرها . وعرفت جميعها بالعمق والدقة والأحاطة .

ورُوى عنه أنه فكر فى إمكان ضبط

مياه فيضان النيل عند أسوان . وهذا سبب استقدام الحاكم بأمر الله . وخرج الحاكم بنفسه لاستقباله عند الخندق (حى الدمرداش والمحمدى بالقرب من العباسية) وأرسله إلى أسوان ومعه جماعة ليستعين بهم فى هندسته . ولكنه لما ذهب إلى هناك شعر باستحالة ذلك ، ولم تكن الأمكانات العلمية من إقامة القناطر والسدود متقدمة كالآن . واستصغر نفسه أن يحاول ما لم يحاوله الفراعنة الأقدمون الذين تركوا هذه الآثار الضخمة على ما فيها من دقة الصنعة والهندسة واعتذر للحاكم . فولاه بعض الدواوين. فقبل الوظيفة رهبة لا رغبة ، فالحاكم كان سفاكاً للدماء . ثم أراد التخلص فادعى الجنون . فأمر الحاكم بوضعه تحت الحراسة بمنزله . واستولى على موجوداته . وظل كذلك حتى فقد الحاكم سنة ٤١١هـ فأظهر العقل وعاد إلى نشاطه العلمى .

وتوفى ابن الهيثم سنة ٤٤٢هـ أو بعدها. بالقاهرة ودفن بها .

كذلك يحفظ لنا التاريخ اسما من علماء الأزهر وأحد مدرسيه فى العهد الفاطمى هو المؤرخ القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ . وهو من أقدم من كتبوا عن تاريخ القاهرة وخططها . وكتابه (المختار فى الخطط والآثار) مفقود . ويشير إليه المقريزى والقلقشندى وغيرهما من المؤرخين فى أكثر موضع .

والقضاعى كان شافعى المذهب (حسن المحاضرة للسيوطى حـ١ ص ١٨٢) . ولم يمنع هذا من ولايته القضاء والتدريس فى الأزهر للتسامح وسعة الأفق التى اتسم بها الفاطميون . وله مؤلفات كثيرة أغلبها مفقود . منها تفسير للقرآن فى عشرين جزءاً .

وخلط على باشا مبارك بينه وبين أبيه المتوفى سنة ٣٩٩هـ . فذكر أن الأب هو المؤرخ . كما نسب للأب رؤيا لاحمد بن طولون . وهذا غير معقول لأن ابن طولون توفى سنة ٢٦٩هـ (الخطط التوفيقية حـ٥ ص ٤٨) .

وأمام الجامعة الأزهرية جامع الشيخ حسن العدوى أنشأه سنة ١٢٨٨ هـ – ١٨٧١م) وكان مكانه دار زينب بنت السلطان قلاوون . وقيل أن من ضمن المقابر التى بالجامع المذكور قبر محمد بن سلامة القضاعى صاحب الخطط وقبر أبيه . ولكن على مبارك أنكر هذا الزعم وقال أنهما مدفونان بالقرافة .

الأزهر فى عهد الأيوبيين :

وتوفى العاضد لدين الله آخر الخلفاء الفاطميين فى عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ . وكان وزيره صلاح الدين الأيوبى قد قطع اسمه من الخطبة قبل ذلك بيومين . ولم يشعر العاضد بما حدث لمرضه . ودعا صلاح الدين فى الخطبة للخليفة العباسى المستضئ بالله المستنجد بالله .

وبذلك انتهت الدولة الفاطمية . وبانتهائها انتهى أيضاً المذهب الشيعى رسمياً فى مصر .

واستقل صلاح الدين بملك مصر مع التبعية الروحية للخلافة العباسية فى بغداد . ولكن كان لمصر كامل السيادة والاستقلال . وأراد صلاح الدين القضاء على المذهب الشيعى (مذهب الفاطميين) ووجد فى الأزهر أعلى بوق للدعاية والترويج لهذا المذهب . فقرر تعطيل خطبة الجمعة منه . اكتفاءاً بالخطبة فى الجامع الأنور المعروف بجامع الحاكم . مستنداً فى هذا على فتوى القاضى الشافعى بأنه لا تجوز خطبة الجمعة فى مسجدين فى مدينة واحدة . وقال صلاح الدين أن الجامع الأنور أوسع من الجامع الأزهر — وكان كذلك وقتها . وهذا هو السبب فى أن من أسماء الجامع الأنور (جامع الخطبة) .

وقد ذكرنا فى مقال سابق نشر بمجلة الأزهر تحت عنوان (صلاح الدين الأيوبى وتعطيل الأزهر) عدد شعبان سنة ١٣٩٥ أغسطس ١٩٧٦ كيف لم يكتف صلاح الدين بذلك بل أخذ فى إنشاء المدارس العديدة فى القاهرة والفسطاط ، وبجوار مقام الأمام الشافعى للمذاهب السنية الشافعى والحنفى والمالكى ، وكيف تبع صلاح الدين فى هذا من أعقبه فى الحكم من بنى أيوب . حتى بلغ عدد المدارس التى أنشأها الأيوبيون ٢١ مدرسة فى مدة حكمهم التى لم تتجاوز ٨١ سنة . وهذه المدارس كانت عبارة عن كليات بكل معنى الكلمة .

وعانى الأزهر من هذه المحنة من انصراف الدولة عن الإنفاق عليه وإقبال الشيوخ والطلاب على المدارس الجديدة لما فيها من مزايا ومرتبات.

ولكن لم تكن المحنة كاملة فقد ظلت الدروس تلقى فى الأزهر . ويذكر لنا العالم العربى عبد اللطيف البغدادى الذى قدم مصر فى أواخر عهد صلاح الدين واستمر بها فى عهد ابنه العزيز . فقال فى كتابه المسمى (الإفادة

والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) المعروف بمختصر أخبار مصر : (وكانت مسيرتى فى هذه المدة أن أقرئ بالجامع الأزهر من أول النهار إلى الساعة الرابعة . ووسط النهار يأتى من يقرأ الطب وغيره . وآخر النهار أرجع إلى الجامع الأزهر . ويقرئ قوم آخرون . وفى الليل اشتغل مع نفسى . ولم أزل على ذلك إلى أن توفى العزيز) اه . والعزيز توفى سنة ٥٩٥ هـ . واستمر البغدادى بمصر حتى سنة ٦٠٢هـ ثم تنقل فى بعض المدن الأسلامية ثم عاد إلى بغداد فتوفى بها سنة ٦٢٩ هـ .

وفى هذا ما يدل على أن الدراسة بالأزهر ظلت مستمرة . وأن الطب كان من ضمن العلوم التى تدرس فيه .

الأزهر فى عهد السلاطين المماليك :

وقد ذكرنا أيضاً فى المقال السابق ذكره كيف أنه بعد انتهاء الدولة الأيوبية سنة ٦٤٨ هـ وانتقال الحكم إلى دولة المماليك البحرية . وفى عهد السلطان الظاهر بيبرس أعيدت خطبة الجمعة إلى الجامع الأزهر فى يوم الجمعة ١٨ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ ديسمبر سنة ١٢٦٦م) بعد تجديده وترميم الواهى من جدرانه وإصلاح سقوفه وتبليطه وتبييضه وفرشه حتى عاد حرماً . وهذا بعد أن ظلت الخطبة منقطعة منه ٩٨ عاماً .

واستند بيبرس فى هذا على فتوى من القاضى الحنفى بجواز خطبة الجمعة فى مسجدين فى نفس المدينة . بعد أن رفض القاضى الشافعى ذلك . وأن هذا كان من الأسباب التى أدت بيبرس إلى إنشاء نظام القضاة الأربعة . أى قاضى قضاة لكل من المذاهب الأربعة الشافعى والحنفى والمالكى والحنبلى . ولكن ظل قاضى قضاة الشافعية مقدماً على غيره وله امتيازات مثل نظر الأوقاف وبيت المال ومال الأيتام وغيرها .

وقد اضطررت لهذا التلخيص من المقال السابق نشره ليترابط البحث أمام القارئ بما لا يدعوه للرجوع إلى أعداد سابقة .

وسنتكلم فى المقال التالى بإذن الله عن الأزهر فى عهد السلاطين المماليك .

محمد كمال السيد

المجتمع الإسلامي إبان غزوة تبوك

الأستاذ / السيد حسن قرون

تبوك آخر غزوات الرسول محمد صلى الله عليـــه وسلم التى قام بها بنفسه وقد اجتمع له فيها جيش كبير بلغ عدده ثلاثين ألفاً على حين كان جيشه فى غزوة بدر ثلثمائة وثلاثة عشر جندياً ، ففرق ظاهر بين هذا الجيش فى السنة التاسعة من الهجرة ، وجيش بدر فى السنة الثانية من الهجرة ، وهذا يدل على أن الإسلام قد نما نمواً مطرداً ، ولا سيما بعد فتح مكة إذ دخل الناس فى دين الله أفواجاً .

وفى هذه الغزوة غيـَّر الرسول خطته فأخبر بوجهة غزوه ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، وليستقلوا سفراً بعيداً ، ولقاء عدو خطير ، فقد بلغ رسول الله أن الروم قد حشدت جموعاً كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق جنده لسنة ، وجلب معه من العرب لخم وجذام وعاملة وغسان ، إذ كانت تلك القبـــائل تحت سلطانه وتدين بعقيدته ، ذلك أن الروم منذ بلغهم كتاب رسول الله إلى قيصر يدعوه فيه إلى الإسلام بدأ أتباعهم يتحرشون بأصحاب رسول الله ، فقد قتل الغساسنة أحد الصحابة ، وكان الغساسنة من الجنوب هاجروا إلى الشمال وأسسوا إمارة عربية تدين بسلطان الروم — فأرسل الرسول إليهم حملة تأديبية قوامها ثلاثة آلاف جندى بقيادة الأمراء : زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة فكانت غزوة (مؤتة) ، ولكن هذه الحملة لم تحقق ما ذهبت إليه لأنها واجهت جيشاً كبيراً مكوناً من مائتى ألف جندى منهم مائة الف من العرب ، وفى هذا يقول عبد الله بن رواحة .

فرحنا والجياد مسومات
تنفس فى مناخرها السموم
فلا وأبى (مآب) لنأتينها
وإن كانت بها عرب وروم

فلا عجب إذا قتل الأمراء الثلاثة

فى معركة غير متكافئة ، واستطاع خالد ابن الوليد أن يداور ويناور ويرجع بالجيش إلى المدينة ، فإذن استعداد الرسول لملاقاة هؤلاء الأعداء الذين يهددون الأمة الإسلامية كان استجابة لحماية أتباعه ولحماية العقيدة حتى لا تكون فتنة ، وهذا ما دعاه إلى أن يخرج فى وقت غير صالح للحرب ، فقد كان الصيف حاراً ، والثمار قد تهيأت لجنيها والمال غير موفور . إنها ساعة عسرة تحتاج إلى إيمان قوى وعزيمة لا تعرف للجهاد زمناً ، لذا كانت امتحاناً له ولأصحابه .

وقد يدور فى الأذهان سؤال لماذا تحرش الروم ولم يتحرش الفرس بسبب كتب النبى ؟ . . والجواب لقد تحرش كسرى حين بلغته الدعوة فمزق كتاب النبى فدعا عليه بتمزيق ملكه ، بل لقد أرسل إلى عامله « باذان » باليمن أن يبعث من قبله من يثق به ليمنع هذا العربى من دعوته ، فأرسل باذان رجلين من خاصته ، فلما بلغا المدينة وقابلا النبى أمرهما أن يحضرا إليه غداً ، ونفذا أمره ، فحين حضرا أخبرهما أن كسرى قتل وقتله ابنه فى يوم كذا ، فرجعا إلى باذان فأخبراه بحال النبى ومقتل كسرى ، وانتظر باذان ثم جاءته الأخبار بصدق النبى ، فأسلم هو ومن معه .. فالخطر من الشرق بعيد الاحتمال لموت كسرى والصراع حول عرشه .

أما الشمال فحدثت فيه تلك المناوشات التى صارت حروبًا ، ومع أن قيصر أحسن استقبال رسول النبى إلا أنه كان للمسلمين بالمرصاد خوف أن ينتزع الشام من يده . . وكان النبى وصحبه يشفقون على أتباعهم منه .

تكون جيش المسلمين الذاهب إلى تبوك : المهاجرون والأنصار هم جند الإسلام ، والمهاجرون إيمانهم خالص يسكنون المدينة كما يسكنها الأوس والخزرج ، ويمتازون عن الأنصار بوحدتهم الثابتة وولائهم المحض . . ومع الأنصار الذين أخلصوا دينهم لله ووقفوا مع الرسول ضد المشركين واليهود ، كان جماعة من المنافقين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، ومعهم بقايا من اليهود الذين تظاهروا بالإسلام للكيد له ، وهذا كله له أثره على الجيش المحارب الذى يقوده صفوة الخلق لتكون كلمة الله هى العليا وليحمى الدولة الناشئة من الأخطار . فقد تقدمت الدعوة حدود الجزيرة العربية حين بلغت كتبه الملوك والأمراء .

ومن بدء الأمر بالتهيؤ للرحيل

وللغزو ظهرت تيارات منبسطة ، وكان الوقت - كما قلت - وهو الصيف القائظ وموعد جنى الثمار وقلة الأموال مما يساعد النفاق على إشاعة الروح الانهزامية.. وقد سجل القرآن تلك الغزوة تسجيلا كشف النفاق وزلزل أركانه ، ومحص قلوب المؤمنين قبل الرحيل وبعده وأثناءه فى سورة « التوبة » .

وقد تجلى إيمان المؤمنين ونفاق المنافقين فى أجلى صورة ، فأقبل المؤمنون على رسول الله بأموالهم وأنفسهم اختياراً لا اضطراراً ، فنجد عثمان بن عفان يتبرع بألف دينار غير رواحله ، وعبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وهى نصف ماله فى ذلك الحين ، ويتبرع أبو بكر بماله ، فيقول له الرسول : ما أبقيت لعيالك ؟ فيجيب : أبقيت لهم الله ورسوله ، وكذلك فعل أغنياء الأنصار وفقراؤهم . ولكن انظر معى إلى تصرف النفاق .

قال الرسول للجد بن قيس : يا جد، هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر (الروم) فكان جوابه .. يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى أن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه الرسول ، وعذره أقبح من ذنبه ، وقد سجل القرآن موقفه .. قال تعالى : -

«ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى إلا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » .

وقال بعض المنافقين : لا تنفروا فى الحر نكوصاً عن الجهاد ، وشكاً فى الحق وإرجافا بالنبى فأنزل الله فيهم ، « وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يعقلون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون». فما أسخف عقولهم : إنها مشقة قليلة منقطعة بجانب حياة ناعمة متصلة ، وقد بلغ الأمر بهم أنهم كانوا يتآمرون بمنزل (سويلم اليهودى) ومادروا أن الوحى كاشفهم ، والرسول يتعقب أخبارهم ، ومن لؤمهم أنهم يلمزون المتبرعين بالأموال. قالوا عن عبد الرحمن ابن عوف وعاصم الأنصارى ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وقالوا عن أبى عقيل وقد تبرع بصاع من تمر لا يملك غيره : الله غنى عن صاع أبى عقيل. والقرآن يقول فيهم «الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » .

وهذه الغزوة لأهميتها وما تعطيه من نتائج أمر الله بها وحث عليها أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب فقال : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

ومعنى هذا أن التخلف عن الجهاد نقيصة فى الدنيا وخزى فى الآخرة ، لذا جاء من لا يملكون المال ولا وسيلة الانتقال إلى النبى يطلبون إليه أن يحملهم وهم البكاؤون فقال لهم : لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون . أما المنافقون فجاؤوا معتذرين بأعذار واهية كانت لهم فضيحة فى ذلك المجتمع الذى يتهيأ لنشر النور فى الآفاق . وتجمع للرسول العدد والعدة فأمر بالمسير ، وكان نفر من المسلمين أبطأت بهم نيتهم حتى تخلفوا عنه دون شك وارتياب ، منهم كعب بن مالك من شعراء الرسول ، ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وأبو خيثمة ، وأبو ذر الغفارى ، فلما خرج رسول الله ضرب عسكره على ثنية الوداع واستعمل على المدينة « محمد ابن مسلمة الأنصارى » وضرب عبد الله ابن أبى بن سلول عسكره أسفل منه فى (ذباب) جبل بالمدينة وممن ضم عسكره المتخلفين وذوى الارتياب . . وكان عسكره زهاء عسكر النبى .

ورحل النبى ومن معه جلهم صادق الإيمان يرغبون فى الجهاد والاستشهاد وقليل منهم اندسوا فيهم إما حياء ورياء وإما تثبيطاً . وعلى بعد ثلاثة أميال من المدينة عند (الجرف) توقف الجيش ، على حين رجع ابن أبى وعسكره إلى المدينة كما فعل فى غزوة أحد انفصل بثلث الجيش ورجع من حيث أتى ، وقال للأئمة : لا قتال هناك .

ولم يسكت المنافقون عن الشائعات والجيش قد رحل ، فقد أشاعوا للوقيعة بين النبى وابن عمه وزوج ابنته فاطمة — على — وقد خلفه فى المدينة أن الرسول ما خلفه إلا استثقالا له وتخفيفاً منه ، وبلغ علياً مقالتهم فحمل سلاحه وخرج يجد حتى أتى الرسول وهو بالجرف فقال : يانبى الله ، زعم المنافقون أنك إنما خلفتنى لأنك استثقلتنى ، وتخففت منى . فقال : كذبوا ولكنى خلفتك لما تركت من ورائى فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك . أفلا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ؟ فرجع على وتحرك الجيش نحو مقصده . وكانت للمنافقين الذين رحلوا مع النبى مواقف نابية

عالجها النبي بحكمته العالية ، فحين نزل الجيش بقرى النبي صالح (الحجر) أمر النبي أصحابه ألا يشربوا من بئر الظالمين ، ولا يستخدموا ماءها فى الطعام فلما أصبحوا ولا ماء معهم شكوا إلى رسول الله ما يلاقونه من عطش ، فدعا فأرسل الله سحابه فأمطرت حتى ارتووا واحتملوا حاجتهم من الماء ، وإذا برجل من بنى الأشهل يعرف نفاقه . قالوا له : هل بعد هذا شيء ؟ قال : سحابة مارة.. وضلت ناقة لرسول الله فخرج أصحابه فى طلبها . فقال زيد بن اللصيت القينقاعى — وهو فى رجل عمارة بن حزم ، وعمارة عند الرسول — أليس محمد يزعم أنه نبى ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ؟ فقال رسول الله وعنده عمارة بن حزم : إن رجلا قال : كذا وكذا — كأنه سمعه — إنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، وهى فى هذا الوادى فى شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتونى بها ، فذهبوا فجاءوه بها . ويرجع عمارة إلى رجله ، فيقص ما جرى متعجباً فقال رجل كان مع المنافق زيد : زيد والله قال هذه المقالة ، فأقبل عمارة عليه يطعنه فى عنقه ، ويصيح : إلىَّ عباد الله ، إن فى رجلى لداهية ، وما أشعر . اخرج أى عدو الله من رجلى فلا تصحبنى . ويتحدث المنافقون والجيش منطلق إلى تبوك : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين فى الحبال .

يقولون ذلك إرهاباً للمؤمنين ، وإضعافاً من عزائمهم ، وأنكر عليهم قولهم رجل من أشجع ود أن يضرب كل منهم مائة جلدة ولا يتنزل القرآن فاضحاً لهم . ويطلع الله رسوله على مقالتهم ، فيرسل إليهم عمار بن ياسر قائلا له أدرك القوم فانهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا فانطلق عمار إليهم بما حمل ، فهرعوا إلى النبي يعتذرون فقال وديعة بن ثابت من بنى عمرو بن عوف : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فنزل قوله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم . . » وإذا كانت هذه الصورة قائمة فإنك ترى بجانبها صورة مشرقة مضيئة ، الإيمان يزيدها تألقاً وتنوقاً[1] ، ترى ذلك بيناً فى رجلين

---

(١) تنوق فى الأمر تأنق فيه وتجمل .

تخلفاً عن رسول الله : أحدهما أبو خيثمة مالك بن قيس الأنصارى ، والآخر أبو ذر الغفارى. أما أبو خيثمة فكان من أمره أنه تخلف أياماً عن الرحيل ، ثم رجع إلى منزله يوماً فرأى زوجتيه فى بلهنية من العيش الرخيم: بستان وطعام وماء ، فلما رآهما على تلك الحال الحسنة قال : رسول الله فى الضح والريح والحر وأبو خيثمة فى ظل بارد، وطعام مهيأ ، وكامرأة حسناء فى ماله مقيم ، ما هذا بالنصف والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خرج يغذ السير ، وفى طريقه أدرك (عمير بن وهب الجمحى) وعمير هذا قرشى كان عدو الإسلام فى غزوة بدر ، وتآمر على قتل الرسول بعدها ، ها هو قد أسلم وحسن إسلامه وخرج يجاهد فى سبيل الله بماله ونفسه وطلب إليه أبو خيثمة أن يتأنى فى سيره حتى يسبقه إلى لقاء الرسول ، فأجابه عمير إلى طلبه ، فلما دنا من الجيش قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل فقال الرسول : (كن أبا خيثمة) . فقالوا : يارسول الله إنه والله أبو خيثمة فلما أناخ راحلته أقبل فسلم على رسول الله فقال له : «أولى لك يا أبا خيثمة (يهدده بذلك)» فقص عليه أبو خيثمة قصته فقال له خيراً ودعا له بخير ، وصور ما جرى أبو خيثمة فى شعر قال :

لما رأيت الناس فى الدين نافقوا
أتيت التى كانت أعف وأكرم
وبايعت باليمنى يدى لمحمد
فلم أكتسب إثماً ولم أغش محرما
وكنت إذا شك المنافق اسمحت
إلى الدين نفسى شطره حيث يمما

وأما الآخر وهو أبو ذر ، فقد ركب بعيره قاصداً رسوله فأبطأ عليه فنزل عنه وحمل متاعه على ظهره وأسرع يدفعه شوقه ، ونزل رسول الله فى بعض منازله فنظر من المسلمين فقال : يارسول الله : إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده. فقال رسول الله : كن أبا ذر ، فلما تأمله القوم قالوا : هو والله أبو ذر فقال رسول الله : رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ، ويبعث وحده . وقد كان وبلغ النبى تبوك فأتاه يحنة بن رؤبة صاحب (أيلة) ميناء على البحر الأحمر فصالحه ودفع إليه الجزية وأمره النبى على عمله وأتاه أهل جرباء وأذرح فكتب لهم كتاب الأمان وقدموا إليه الجزية ، ثم نظم النبى جيشه وأعد نفسه لملاقاة بنى الأصفر وقيصر ، وأقام

بتبوك عشرين ليلة يصلى بها صلاة المسافر ، وينزل عليه الوحى وهرقل قيصر الروم بحمص لا يجرؤ على الإقدام عليه ، وكان رئيس حرسه (عباد بن بشر الأنصارى) ثم انتدب خالد بن الوليد فى أربعمائة وعشرين فارساً لفتح دومة الجندل — وكانت تتوسط موقعاً مهماً بين العراق والشام والحجاز ، كان أميرها (أكيدر بن مالك) رجل من كندة يدين بالنصرانية ، فقال لخالد: انك ستجده يصيد البقر . وصدق من الله رسوله ، فقبل أن يدنو خالد بجيشه قالت امرأة أكيدر له والليلة قمراء وقد نظرت من عل إلى بقرات تسرح : هل رأيت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله . قالت : فمن يترك هذه ؟ فأغراه قولها بصيدها فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته فيهم إخوان له : حسان ومضاض فخرجوا ، وطاردوا البقر ، وتصادف وصول خالد ، فاستأثر أكيدر ومضاض وأبى حسان إلا القتال فقتل ، وهرب من كان معهم فدخل الجيش الحصن وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتى به رسول الله على أن يفتح له دومة الجندل ففعل وصالحه خالد على أشياء سماها له . فقال شاعر من طيئ حضر المعركة .

تبارك سائق البقرات انى
رأيت الله يهدى كل هاد
فمن يك حائداً عن ذى تبوك
فانا قد أمرنا بالجهاد

وفى تلك المدة مات من أصحاب الرسول ذو البجاوين — سمى بذلك لأنه أسلم وأراد اللحاق بالرسول فمنعه قومه حتى أخذوا ملابسه فلم يبق له إلا كساء غليظ ، فشقه اثنين جعل منهما إزاراً ورداء فكان له هذا الاسم . تحدث عبد الله بن مسعود قال : قمت من جوف الليل وأنا مع الرسول فى غزوة تبوك ، فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر فاتبعتها أنظر إليها فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوبكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجاوين قد مات وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله فى حفرته وأبو بكر وعمر يدنيانه إليه وهو يقول : أدنيا إلى أخاكما ، فدلياه إليه، فلما هيأه لدفنه قال : اللهم إنى أمسيت راضياً عنه فارض عنه . يقول ابن مسعود : ياليتنى كنت صاحب الحفرة.

ثم أمر الرسول بالقفول إلى المدينة ، فلبى الجيش أمره ، وسار حتى بلغ المدينة ، وكان خروجه إلى تبوك فى رجب والعودة فى رمضان من نفس العام فقال : الحمد لله على ما رزقنا فى

سفرنا هذا من أجر وحسبة ثم وافاه خالد بن الوليد قادماً من دومة الجندل ومعه أكيدر وأخوه فصالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلى سبيلهما .

ويحكى أنس بن مالك — وكان فى الغزوة — يقول: رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه . (القباء من ديباج مخوص بالذهب) فقال رسول الله : — أتعجبون من هذا ؟ فو الذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا :

وكان هذا توجيهاً سديداً من الرسول لأصحابه حتى لا تغرهم الدنيا فيجعلوا همهم إليها ، وأراهم نعيم الجنة لمن سبق منهم إلى دار البقاء مشيراً إلى الشهيد سعد بن معاذ ، لتكون القدوة ماثلة والزهد حاضراً .

انتهت الغـــزوة على الصورة التى قد مناها، وبينا مالقى الرسول فيهامن الصادقين والمنافقين ، ولها نتائج يطيب لى أن أتحدث عنها من واقع الأحداث .

لم تقع مواجهة بين المسلمين والروم فى تلك الغزوة ، ولكنها أعطت انطباعاً فى قلوب قيصر ومن معه ، وجعلتهم يحجمون عن الإغارة على الجزيرة العربية ، وقد دخل أمير دومة الجندل فى حوزة الإسلام وكذلك صاحب أيلة ، وبذلك عرفت حدود الدولة حينئذ ، ومن هنا يتسنى للنبى وأصحابه أن يواجهوا الجزيرة العربية بأسسس الإسلام وقواعده من هنا تأمير أبى بكر للحج فى هذا العام ، وإعلان على بن أبى طالب القبائل فى يوم الحج الأكبر أنه لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان وأن من له عهد من الكفار فعهده إلى مدته . . . وتهيأ الزمان ليؤدى فى العام المقابل رسول الله فريضة الحج وقد زال الكفر وحل الإيمان وانتشر النور فى كل مكان ، ولتكون تلك الحجة حجة الإسلام كما سماها السلف الصالح لا حجة الوداع كما هو المشهور .

ولينتهى النفاق ويقتلع من جذوره قال الله لرسوله :

(يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) وأخذ الرسول يستقبل المعتذرين فيعذرون والله لا يعذرهم : « يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين» .

إن النفاق قاتل لحامله ولمجتمعه فصاحبه مضطر لأن يتعامل فى جانبين يلقى المسلمين بوجه ويؤدى معهم الصلاة

كسلان ، وينفق من ماله فى النزوات مكرهاً وهذا يؤلم نفسه ويؤرق ليله ، ومن جهة أخرى يستخفى عن الأبصار ليجلس مع اليهود أو الكفار أو مع امثاله ممن هم مذبذبون بين هؤلاء وهؤلاء فيقولون منكراً ويخوضون فى أحاديث تحسب عليهم لألهم ، ثم هم مع هذا لم يبلغوا مبلغ الأذكياء الذين ينظرون إلى المستقبل من ستر رقيق فلو حكموا عقولهم ، وأزالوا الغشاوة عن أبصارهم لتكشفت لهم الأمور بما يسرهم ويبلى همهم ، إن الدين قد كملت وسائله ومقاصده أو كادت ، ويوشك بعد قليل أن يكون مصدر تلق لمن حوله ، لكنهم عموا فلا بد أن يعالجهم الرسول بثاقب رأيه ، وباهر عبقريته ، وبما يتلو عليهم من الآيات البينات .

يقول النسفى إن المنافقين كانوا ثلثمائة ، والمنافقات مائة وسبعين ، ويقول كعب ابن مالك أحد المؤمنين الصادقين الذين تخلفوا عن الجهاد : إن الذين تخلفوا كانوا ثلاثة وثمانين ومعنى هذا أن المدينة وهى دار الهجرة كانت تحتاج إلى جهاد من النبى وصحبه فإذا أضفنا من حولها من الأعراب وهم أشد كفراً ونفاقاً كما جاء فى سورة التوبة عرفنا مبلغ المعاناة ، والقدرة الكبيرة التى تواجه كل هذه الأعباء .

وضرب النبى بأمر الله النفاق فى صلبه ، فأمر بهدم مسجد الضرار كما سماه القرآن ، وكان أصحابه واتوه صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يارسول الله : إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه ، فقال : إنى على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قد قدمنا — إن شاء الله — لأتيناكم فصلينا لكم فيه وأعلم الله رسوله أن هذا المسجد سيكون حرباً لله ورسوله ومعداً لاستقبال الفاسق أبى عامر الراهب : لذا وجب هدمه إبقاء على وحدة المسلمين ، ومنعاً للشغب ، وهذا العمل وضع المنافقين فى حيز الرعب والنصب ، ومات رأس النفاق عبد الله بن أبىّ ، فوقف الرسول على قبره مجاملة لابنه المؤمن (عبد الله) وتحمل الرسول عتاب ربه ، قال تعالى ، يخاطب رسوله ، « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » .

ويروى الرواة : أنه أسلم ألف من الخزرج لمجاملة النبى لابن هذا المنافق الفاسق . ومعنى هذا أن أعداداً كبيرة رجعت عن غيّها ، وآمنت بربها ودخلت فى المجتمع الإسلامى بقلوب سليمة .

من كل ذلك أرى أن الرسول عالج الأمر بالعنف تارة وباللين أخرى حتّى استقام الأمر فى المدينة فى هذا العام ولا ننسى موقفه من الثلاثة الذين خلفوا وهم قادرون على الغزو ، وقلوبهم مليئة بالإيمان ، فقد أقبلوا عليه واعترفوا بذنوبهم ، فجعل الرسول أمرهم إلى ربهم ، ونهى أصحابه عن الحديث إليهم أو التعامل معهم فكان هذا تأديباً له أثره فى النفوس وخطره على الذين يخالفون جميعاً . والثلاثة الذين خلفوا هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية وكلهم من الأنصار ، اعتزلهم المسلمون تنفيذاً لأمر النبى ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت — وضاقت عليهم أنفسهم ، ولزموا بيوتهم إلا كعب بن مالك فكان يخرج ولا يجد أحداً يكلمه ، وبعد أربعين ليلة من الاعتزال أمر النبى أن يعتزلوا نساءهم لأنهن مؤمنات حتّى يقضى الله أمراً كان مفعولا . يقول كعب بن مالك : كنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى حتّى إذ طال ذلك على من جفوة المسلمين مشيت حتّى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله فسكت وكرر منا شدته ثلاث مرات — فقال : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى ، ثم عدت إلى السوق فبينا أنا امشى بالسوق إذا نبطى يسأل عنى من نبط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه إلى أهل المدينة يقول : من يدل على كعب ابن ماك ؟ فجعل الناس يشيرون له إلى حتّى جاءنى فدفع إلى كتاباً من ملك الشام ، فإذا فيه : « أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك » قلت حين قرأتها وهذا من البلاء أيضًا قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فى رجل من أهل الشرك فعمدت بها إلى تنور فسجرته بها .

وحين تاب الله عليه فرح النبى بقبول توبته هو وزميليه ، ويشرهم المسلمون فرحين ، فقد أنزل الله على رسوله :

« لقد تاب الله على النبى والمهاجرين

والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » قال كعب : فوالله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام كانت اعظم فى نفسى من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ إلا أكون كذبته فأهلك الذين كذبوا ، فإن الله قال فيهم شر ما قاله لأحد قال تعالى . « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » ويقول — وهو فهم عظيم منه : وليس الذى ذكره الله من تخلفنا من الغزوة ولكن لتخليفه إيانا وإرجائه أمرنا عمن خلف واعتذر إليه فقبل منه. وهذا الأمر شغل أهل المدينة خمسين ليلة ، ولا ريب أنه ترك أثراً فى كل سكانها فالمؤمنون زادوا إيماناً والمنافقون حاسبوا نفوسهم ، ورجعوا عن غيهم.

وشىء آخر عالجه النبى فأفلح فيه وحسمه فى حينه ذلك أن المسلمين بعد أن رجعوا من تبوك جعلوا يبيعون أسلحتهم ويقولون : قد انقطع الجهاد ، فبلغ ذلك رسول الله فنهاهم وقال : لا تزال عصابة من أمتى يجاهدون على الحق حتى يخرج الدجال ، وفى هذا العام جاءته الوفود من أنحاء الجزيرة العربية .

وهكذا كانت تلك الغزوة معلماً من معالم الدعوة ، ومنهجاً من مناهجها استكملت بها أركانها من صلاة وصيام وحج وزكاة ، وجهاد فى سبيل الله — لا ينقطع ما دامت كلمة التوحيد تجمع المسلمين فى كل مكان : لا إله إلا الله محمد رسول الله . لذا ختمت سورة براءة بقوله تعالى :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولو فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

وقد فهم خلفاؤه من بعده هذا الكلام فبلغوا به ذروة المجد فى الدنيا ، ومناط الحمد فى الآخرة وما زلنا فى حاجة إلى الاقتداء بهم ، وبين يدينا كتاب الله وسنة رسوله ، ولن نضل ما تمسكنا بهما أبدا . .

والله الهادى إلى سواء السبيل .

السيد حسن قرون

الفراغ الدينى ورسالة التصوف

الأستاذ / عبد الحفيظ فرغلى القرنى

لا تكف الصحف والمجلات فى الآونة الأخيرة عن ترديد كلمة « الفراغ الدينى » كأنها مشكلة نشبت حديثاً ولم يكن لها وجود سابق قبل أن تنفجر الأحداث الأخيرة .

والحقيقة التى لا ينبغى أن تغيب عن الأذهان هى أن الفراغ الدينى مرض صاحب المادية فى زحفها على الشرق من الغرب ، وكان نتيجة لهذه الحمى المجنونة للقوة والسرعة وسيطرة المال وشهوة التسلط والجشع . لقد كان الفراغ الدينى ميراثاً من مخلفات الحضارة الغربية التى عنيت بالمظهر دون المخبر ، وبالعرض دون الجوهر ، وكان من جراء ذلك أن تسابق الناس فيما لا طائل تحته ، وعنوا باختراع كل ما يكفل الغلبة والقوة والسيطرة دون اعتراف أو تفكير فيما يحقق الأمن ويكفل الأمان ويرفع من شأن الإنسان .

والحق الذى لا مرية فيه أنه لم يتم التمكن للإنسان فى عصر من العصور كما أتيح له فى هذا العصر ، فهو قد قبض بيده على ناصية العلم يسخره فى تحقيق كمالياته كما يشاء . . ولقد بلغ من تمكنه أن وصل إلى أرض القمر يذرعه بقدمه جيئة وذهاباً ، ووصل به الفكر إلى قمة الخيال ، بل فاق الخيال ، وأخرجت المطابع — وما زالت تخرج فى كل يوم وساعة — آلاف الكتب والمقالات من نتاج العقول وابتكارات الخيال ، ومن بين هذا النتاج كتب دينية لا حصر لها . . كان فى الإمكان أن تنير الطريق وتوضح المسالك وتهدى المسيرة ، وكثير من هذا النتاج رائق الأسلوب مشرق العبارة ، هذا إلى جانب ما تقدمه موجات الأثير من كلمات منيرة وبرامج مثيرة . . . ومع ذلك فقد ازدادت الأرواح جدباً والقلوب فقراً والعقول فراغاً . . وما زلنا نمد أيدينا صباح مساء إلى ما يملأ

هذا الفراغ دون جدوى . لقد تقدم العلم حقاً ولكنه لم يقدم للإنسان حاجته من الحكمة الهادية والرحمة الحانية والدعوة الصافية ، إنه فصل بينه وبين الدين بسد منيع من المادية التى تلهى ، والمظهرية التى تطغى والنفعية التى تعمى ، لقد عادى العلم الدين حتى أصبح كل منهما فى واد بعيد عن الآخر ، وحتى وصلت هذه العدوى إلى علماء الدين أنفسهم ، فأصبح الدين عندهم شكلا ، وشعائره رسوماً ، وحقائقه مجرد مثل من المثل العليا التى يعبر عنها بأنها مطمح فوق إمكانية الوصول وغاية بعيدة المنال .

هذه الحيرة ما أسبابها :

لقد أفاق العلماء والمفكرون أخيراً على أحداث جسام ذكرتهم بما يجب عليهم ، وكانت فجيعتهم فى أحد العلماء الأعلام بصورة بشعة شرارة ألهبت الخواطر حول ما يجرى فى نفوس الشباب من أعاصير الحيرة والضياع .

ولقد صنع هذه الحيرة أسباب كثيرة أهمها — كما أشرت — تلك المادية الزاحفة التى أكلت كل غذاء للروح فى طريقها ، والتى وضعت على العيون والعقول غشاوة لا ترى إلا بها ، ولقد غدا كل ما يشغل البال هو جمع المال لا يبالى أن يكون جمعه من حرام أو حلال .

ومنها افتقاد القدوة الطيبة التى يقتدى بها الشباب ، فليس أمامه ذلك المثل الكامل الذى يملأ سمعه وبصره نوراً وقلبه يقيناً . ومنها هذه الأفكار الواردة والتيارات العاصفة التى تملأ طريق الشباب بالأشواك وقلبه بالشكوك ورأسه بالأوهام ، ويظاهر هذه الأفكار ويروج لها شياطين من الإنس همهم إشاعة البهتان والتعمية على الحق فى كل ميدان .

ومنها هذا المجون الظاهر والفساد الرائج واللهو السائد والأغلال المتسلطة .. حتى أصبح كل ذلك هو القاعدة والعازف عنها هو الشاذ ، وما أقل هذا الشاذ ، وما أضعف رأيه وأسفه عقله فى نظر الناس ، لقد أصبح فى هذا العصر سخرية الساخر وضحكة العابث .

ومنها وسائل الإعلام التى زينت الفساد بمختلف الألوان وقدمت للشباب مثلا لا تتفق وقواعد الدين ومبادئ الأخلاق ، ولا تخلو دار من جهاز من أجهزة الإذاعة بنوعيها ، ومن صحيفة أو مجلة ، ولا يكاد يخلو شارع أو حى من دار للخيالة أو ملهى من الملاهى .. وكل ذلك يسهم بنصيب فى نفث السموم وبث الضياع .

ومنها هذا التأرجح القائم بين شخصيتين مختلفتين . إحداهما من صنع التراث العربى المفقود الذى له عبيره الفواح ، والأخرى من صنع هذا الحاضر الذى اشتركت فى صنعه عوامل متناقضة قد تغرى ببريق متوهج ولكنه لا يضىء ، ولقد نتج عن ذلك أن أصبح المسلمون غرباء ، وغربتهم – كما يقول الدكتور عون الشريف فى مقال أخير له – مزدوجة . فشبابهم الذين تربوا بعيداً عن التراث فى مناهج التربية الحديثة مبتورون عن جذورهم غرباء عن أصول حضارتهم ، وهم فى كثير من اتجاهاتهم العقلية والسلوكية يرددون صدى المنجزات التى تتحقق فى أرض غير أرضهم ، ويتمسك أكثرهم فى ذلك بدعوى عالمية الحضارة . . وبعضهم مبتورون عن روح العصر بحكم ثقافتهم المتخصصة ، وهم فى نفس الوقت مبتورون عن روح تراثهم الذى كان يتخذ الدين قاعدة الانطلاق فى آفاق المعرفة . ومن هنا برز الانفصام فى شخصيتهم .

هذه بعض أسباب الحيرة والفراغ ، وكان لذلك أثره المروع الذى ملاء الحياة ألماً وحسرة وضياعاً . .

وما العلاج إذن ؟

لقد طرحت هذه القضية للبحث وتناولتها أقلام الكتاب والعلماء ، فمنهم من حمل المسئولية للمسجد ، ومنهم من حملها للمدرسة ، ومنهم من حملها لوسائل الإعلام ، ومنهم من حملها للبيت ، ومنهم من حملها لروح العصر وهكذا بحث من بحث عن المشجب الذى يعلق فوقه الثوب . . ولكن الأمر أكبر من ذلك ، فليست المشكلة فى البحث عمن يتحمل المسئولية ولكن فى البحث عن كيف يتحمل المسئولية .. حقاً إنها مسئولية هؤلاء جميعاً . ولكن كيف يتمكن كل من هؤلاء أن يتحمل المسئولية ؟ . . إنه لابد من إحياء الروح الدينى فى النفوس وإشاعته فى نواحى المجتمع المختلفة ، وبعث الطاقة الإيمانية الدافعة إلى العمل والمحافظة على تعاليم الدين السمحة ومبادئه الكريمة . . أما إحياء هذا الروح فذلك هو جوهر رسالة التصوف . .

ضرورة إحياء التراث الروحى :

إن المصلحين فى مختلف العصور لم يستطيعوا أن يغفلوا التنبيه لدور التراث الروحى ووجوب الانتفاع به فى خلق

مجتمع مثالى خال من العقد والفساد ، ولئن فشل بعض هؤلاء فى تحقيق ما يريدون فإنما يرجع هذا الفشل إلى أن شعارهم الذى يرفعونه لم يتحول إلى تطبيق عملى وحقيقة واقعة .

ولا شك أن التسلح بالقيم الروحية يخلق طاقة دافعة للتقدم ، وعزيمة قوية على الإصلاح . . ومن أجل ذلك كان المغرضون — ولا يزالون — يحاولون تحطيم هذا السلاح الروحى بوسائل مختلفة ، من بينها خلق التفسيرات التى تجعل الدين يتصادم مع الحياة . . ومن قبيل ذلك ما يرمون به التصوف من جمود .. وتخلف . . وأنه يقف حجر عثرة فى طريق التقدم والازدهار ، وأنه لكى نتقدم إلى الأمام لا بد أن نتخلص من ثقله .

ولقد قال ذلك من قاله لأنه يعتقد أن الحياة يمكن أن تتقدم على المادة فحسب . . ولقد جرب العالم كله ذلك فوجد الحياة لا تثمر فى ظل المادة سوى الشوك والحنظل ولم تؤد إلا إلى الحيرة والضياع .

قال ذلك لأنه يعتقد أن التصوف إنما هو « دروشة » وسلبية وخمول وكسل .. وأن المتصوفة جميعاً هم أصحاب الشعور الشعثاء المرسلة والملابس المهلهلة والعبارات الشاطحة والغيبيات الجامحة . .

وهذا فهم خاطئ للتصوف والمتصوفة فالتصوف فى حقيقته سمو ورفعة وتعطش دائم للمعرفة ، ونزوع للخشية ، وملازمة للتقوى ، ومجانبة للهوى ، ومراعاة للإخلاص . .

هو مشاهدة للحقائق ، وابتعاد عن التواكل ، ومراقبة دائمة ، ومحاسبة ملازمة ، وتحل بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات ، ونأى « عن سفساف الأمور وتفكر » فى عواقبها .

هو فكرة مشتعلة ، ويقين كامل ، وشوق متقد ، وحب لله لا تنطفىء جذوته ولا تخمد شعلته ، هو عمل متكامل لخيرى الدنيا والآخرة فى ضوء قوله تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » وهو نشاط متواصل .

المتصوفة هم الذين عرفهم السيد محمود أبو الفيض المنوفى فى كتاب المدخل إلى التصوف الإسلامى بقوله «المتصوفة هم المجتمعة على الله هممهم ، المتعلقة بعظمته وحكمته ألبابهم ، الذين لا تشهد سوى الله أسرارهم ، وليس إلا إليه غدوهم ورواحهم . . فهم أحكم الناس وأعقلهم ، وأقرب الخلق إلى الحق وأكرمهم لأنهم أتقاهم » . .

إن الذين دخلوا غمار المتصوفة وليسوا منهم أو ليسوا متخلقين بأخلاق التصوف حقيقة لا ينبغي أن يحسبوا على التصوف فى شىء ، وليس من أجلهم نرمى التصوف بكل نكير ونصم أتباعه بكل سوء ، ولكن علينا أن نكون موضوعيين فى نظرتنا إلى التصوف وأهله ولا جدال — كما تقول مقدمة كتاب اللمع للطوسى — ان التصوف ابتلى كما ابتليت المعارف الإسلامية كلها بالدخلاء والأدعياء سلوكاً وقولا ، ولهذا نجد أئمة التصوف منذ القرن الثالث الهجرى وهم يحذرون وينذرون ، والسراج يحذر منهم ويشير إليهم ثم يضع قاعدة ذهبية للتصوف والصوفية وهى : أنهم علماء قاموا بشرط العلم ثم عملوا به ثم تحققوا فيه العمل فجمعوا بذلك بين العلم والحقيقة والعمل ، ولهذا كان الصوفية عبر التاريخ نماذج للجلال الخلقى والروحى ونماذج للكمال التعبدى والإيمانى ونماذج عالية سامقة فى أفق العلم والمعرفة كما يقول ماسينيون : إن رجال المعرفة الصوفية فى الإسلام كانوا دائماً النماذج التى تقدم لنا الصورة الحية للمفكرين الكبار فى الإسلام .

وكيف إذن ندرك الغث من السمين :

والغيورون علــى التصوف الآن لا يبرئون أصحاب الطرق الصوفية من الشوائب التى تسربت إلى التصوف عبر عصور الضعف والاضمحلال الفكرى والحضارى — كما يقول الدكتور أبو الوفا التفتازانى فى مقال له بصحيفة الأهرام — حتى غلب على المتصوفة ما غلب على غيرهم من رجال الدين من العناية بالشكليات والرسوم التى لا صلة لها بجوهر التصوف ، وهذا الأمر هو الذى حدا بهؤلاء الغيورين إلى أن يعقدوا المؤتمرات لوضع حد للأخطاء التى يتردى فيها بعض المتصوفة عن قصد أو غير قصد ، حتى انتهت مؤتمراتهم إلى وضع قرارات وتوصيات وجدت طريقها إلى مجلس الشعب الذى صاغ لائحة جديدة لأبناء الطرق الصوفية وهى لائحة تبشر بالخير ان طبقت تطبيقاً صحيحاً ، ومن هنا يمكن إدراك الصوفى الحق من غيره ، فالصوفى الحق هو الذى يرمى بقصده إلى الله ، هدفه الأسمى تعمير باطنه وتنوير قلبه وتحرير نفسه من اسار شهواتها حتى تكون جديرة بمعرفة الله . أما غيره فعنى بتزيين مظهره وتكثير

أتباعه وتحسين سمعته عند الناس جلباً للثناء وطلباً للعطاء .

التصوف المستنير ورسالته :

ولا يغفل أحد دور التصوف الحق فى بث الإيمان فى نفوس الشباب وإثارة الحماس الدينى فى قلوبهم ، وتبديد اليأس من حياتهم ، وإيقاظ جذوة الشعور المبنى على أساس من الحب الملهم — الحب لله ولرسوله وللناس جميعاً ذلك لأن التصوف له روحانيته القوية ومبادئه السمحة وصفاؤه المشرق وعزماته الماضية مما يجعل له عصاً سحرية تنفذ إلى الأعماق وتمس شغاف القلوب ، فتبدد ظلمات النفس وتجعل العمل الذى يقوم به الفرد خالصاً لوجه الله لا يبغى من ورائه جزاء ولا شكوراً .

إننا لم نشعر بحاجتنا إلى التصوف أكثر من حاجتنا إليه اليوم ونحن نبحث عن أسباب الفراغ فى نفوس الشباب ، ونحن نرمى إلى إعادة بناء نهضتنا ومستقبلنا ونحن نتطلع إلى سد الثغرات والانقسامات والخلافات بين أبناء الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ونحن نقاوم حملات الإلحاد والتشكيك ونزعات الكفر والتضليل ، فللتصوف إلهاماته القوية وفيوضاته الربانية ، ولرجاله الذين نرجو أن ترسم خطاهم عزم راسخ وإرادة صلبة ومثالية نادرة وإخلاص عظيم .

إن احتياجنا إلى التصوف لا يقف عند حدودنا وما تستوجبه ظروف بلادنا من أعباء تتطلبه ، ولكن العالم كله من أقصاه إلى أقصاه يشعر بحاجته الشديدة إلى الدفعة الصوفية الملهمة لتسدد طريقه وتحرس خطاه ، لقد أفلست القوى المادية وشعرت بقصورها عن تحقيق السعادة للناس ، وآن للقوى الروحية أن تأخذ طريقها الصحيح بين الشعوب وتتبوأ مكانتها العالية بين الأمم ، والثورة الروحية التى يتوق إليها المصلحون تعنى إنطلاق القوى الصوفية السليمة فى جميع جوانب الحياة حتى تمتلئ قوة وعزة ، وعفة ونقاء وصفاء وإخلاصاً ، لقد كان الروح الصوفى هو القوة الكامنة وراء العزة الإسلامية التى لم تهزم أمام الدنيا ، ولم تزل حيال بريقها ولم تلن أمام وثبات الجاهلية الباغية وحشودها عبر السنين والقرون كما يقول صاحب كتاب اعلام التصوف .

إن الاتجاه المادى الذى يسيطر على العالم اليوم ويدفعه إلى التسابق المجنون فى شتى ميادين الصراع يحتاج دائماً

إلى قوة تكبح جماحه ، ولن تكون هذه القوة إلا في الاتجاه إلى الأفق الأعلى ، حيث يشعر الناس بالأمن والراحة والصفاء حيث ينسى الإنسان أحقاده وآلامه وشراسته ولا يذكر إلا أنه عبد ضعيف لا حول له ولا قوة . إن الإنسان الذى يملأ الدنيا ضجيجاً يصبح فى منتهى الذلة والمسكنة حينما يتعرض لأزمة أو تصيبه وعكة أو تضطرب الخطأ فى طريقه وحينئذ لا يجد مناصاً من أن يهتف من أعماقه طالباً النجاة فى حمى مولاه .

وهذا الاتجاه الإجبارى إلى الله إنما يفعله أهل التصوف طواعية بدافع الحب الذى يسيطر على قلوبهم نحو مبدع الوجود وخالقه ، لقد عرفوا الله بالحب فأبدلهم بالخوف أمناً وبالاضطراب اطمئناناً وبالقلق أنساً .

لم يعد هناك أمل فى إنقاذ الشباب إلا الروح وهذا واجب التصوف ، فبعد أن أفلت المذاهب والفلسفات فى الشرق والغرب لن تجد مفرا من أن تولى وجهها نحو جوهر الإسلام وحقيقته ، ذلك الجوهر الذى يكمن فى التصوف لأنه يعنى بذلك تمام العناية .

آثار فقدان القوة الروحية :

لو أن القوة الروحية هى التى توجه أنظار القادة والساسة فى العالم لما حدث هذا الصراع الدامى والمؤامرات المتفشية والقلاقل والاضطرابات التى تفزع الآمنين فى كل مكان ولما ذهبت بلايين (الدولارات) أدراج الرياح فى كشوف لا تسمن ولا تغنى من جوع ولوجهت إلى ما فيه خير الإنسانية جمعاء ولا استطاعت أن تحل مشكلات الجوع والفقر والتخلف التى تسود بقاعاً مختلفة وتقتل أقواماً وتضعف آخرين .

إن التسابق المحموم نحو المادة يقضى فى عرفه اللا أخلاقى أن تهدر الغلات وتقذف المنتجات الزراعية فى المحيطات ويعاد إلقاء الأسماك إلى البحار بعد اصطيادها حتى لا تكون كثرتها سبباً فى تخفيض أسعارها .

فلو أن هناك قوى روحية توجه أسلوب العمل والحياة لما تردى هؤلاء إلى هذا الدرك من النفعية المزرية والاستغلال المقيت . وهذه أمثلة طفيفة لما يسود العالم ولا علاج لذلك وغيره إلا التصوف الحق ، فهو الذى يرفع الناس فوق ضعفهم البشرى ويمكنهم

من السيطرة على شهواتهم ورغباتهم المحمومة .

إن دعوة الإصلاح لا تثمر إلا إذا كانت نابعة من صميم قوم انتصروا على شهواتهم وارتفعوا إلى مستوى الأعمال النورية الناضجة ، والتصوف هو الذى يحقق ذلك بتربيته الصحيحة وقدوته الكريمة ومثاليته الفريدة . ذلك أن التصوف هو كما يظهر أمثلة لا تحصى من الأقوال والأفعال نذكر بعضها :

قال الشبلى : التصوف هو التآلف والتعاطف والحرية هى حرية القلب .

ومن أقوال الخلدى : الفتوة الصوفية احتقار النفس وتعظيم حرمة المسلمين ، وسعى الأحرار لإخوانهم لا لأنفسهم أما الجنيد فيقول : التصوف هو العلو إلى كل خلق شريف والعدول عن كل خلق دنى .

والصوفية القدامى كانوا صورة مثالية فى الإيثار والود والتعاون والاهتمام بأمر الخلق استجابة للأثر الوارد من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

المتصوف الذى نريده :

ولكننا إذا دعونا لأن يأخذ المتصوف زمام المبادرة وأن يتسلم راية القيادة فعلينا أن ندعوه هو أولا بأن يحقق روح التصوف فى نفسه ، بمعنى أن يكون صورة صادقة للصوفى الحق الذى رأيناه فى الحسن البصرى والفضيل بن عياض والحارث المحاسبى وحجة الإسلام الغزالى وأبى الحسن الشاذلى وعبد الوهاب الشعرانى ومحمد عبده وأمثالهم ممن تركوا فى الطريق الصوفى آثاراً طيبة تشهد بحسن ريادتهم وعظمة قيادتهم .

لا نريد من المتصوف أن يكون رسماً بدون حقيقة وشكلا بدون مضمون وظلا حائلا بدون جوهر نريده أن يكون صورة للإشراق والسمو والرفعة والعمل الحق الدءوب حتى يظهر أثره السريع الواضح بين أتباعه ومريديه .

إن الصوفى الحق هو الذى ينطق الكلمة إذا بها شعلة حية مضيئة تمضى قدماً إلى قلوب السامعين وتنطبع فى أرواحهم ، ذلك لأنها خرجت من فم مؤمن بما يقول فعال لما ينطق حريص على الصدق فى القول والعمل والنية ، ولقد سئل أحد الصوفية : ما بالك تعظ فيبكى كل الحاضرين وواعظ المدينة يعظ فلا يبكى عند سماعه أحد ؟ فقال : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة .

نريد أن يكون المتصوف إماماً فى الزهد الإيجابى والمعرفة والتقوى والصلاح وأن يكون شعلة متقدة لا تخبو من الإصلاح والهداية ، وقدوة طيبة فى العمل الحى واليقظة الكاملة .

لا نريد أن يكون المتصوف عالة على غيره جاهلا فى قوله وفعله ، أداة تحطيم للنفوس الواعية والقلوب العاملة .

نريده أن يكون جامعة إسلامية عميقة يطمئن إليها المجتمع ويهتدى بهديها ويقبس من لألائها ، ولا نريده أن يكون انطوائيًّا انعزاليًّا داعيًا إلى الهزيمة والهروب أمام المسئوليات .

إننا الآن على الرغم مما يمر بنا فى مد دينى يبشر بصلاح الأمور وجدير بالتصوف أن يأخذ مكانه فى هذا المد لتكون اليقظة الدينية مبينة على أساس روحى متين . لقد آن الأوان ليدرك القائمون بأمر التصوف واجبهم الروحى الكبير فى قيادة هذا الشباب الحائر وفى شغل فراغه بما يملأ نفوسه يقيناً ويشبع أرواحه من زاد التقوى والصلاح .

إن الهدف الذى يشغل بال الصوفى هو معرفة الله والوصول إليه وإشاعة الحب بين الناس ولقد أسهر الصوفية ليلهم وأظمأوا نهارهم فى سبيل هذه الغاية السامية ، وهيهات أن يشعر عارف الله بفراغ .

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى

فى الصدق

قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا . وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا .

روح الحق فى إنجيل يوحنا
وهل هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم

بقلم :
المستشار محمد عزت الطهطاوى

سبق للدكتور محمد السنباطى المدرس بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر أن حرر مقالا نشرته جريدة الجمهورية القاهرية فى عددها الصادر يوم الجمعه ١٧ من فبراير سنة ١٩٧٨ تحت عنوان (رسول السلام لكل البشر) بمناسبة المولد النبوى أورد فى هذا المقال نصًّا من إنجيل يوحنا فى الإصحاح ١٦ عدد ١٣ ، ١٤ قوله على لسان المسيح عليه السلام (وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم) . وانتهى الدكتور محمد السنباطى فى مقاله إلى القول بأن المسيح عليه السلام فى هذا النص إنما يحدث عن النبى محمد عليه الصلاة والسلام (فمحمد هو نور الحق والحق هو السلام) .

إلا أن هذا الرأى لم يلق قبولا من جانب بعض طوائف النصرانية لذلك نشر أحد كهنتهم وهو الدكتور غرينوريوس تعليقاً فى صحيفة الجمهورية بتاريخ ٧ مارس سنة ١٩٧٨ خلص فيه إلى أن سياق الحديث فى النص الوارد بإنجيل يوحنا السابق الإشارة إليه عن روح الحق هو عن (الروح القدس وليس عن النبى محمد عليه الصلاة والسلام بناء على تحقق وعد المسيح عليه السلام لتلاميذه ورسله وحوارييه عنه فى يوم الخمسين كما أورده سفر أعمال الرسل فى إصحاحه الثانى .

وقد حرر الدكتور محمد السنباطى مقالا آخر وافيًا تحت عنوان بيان وبيان بتاريخ ١٣ / ٣ / ١٩٧٨ ورد فيه أن النص المذكور يشير فى تفسيره إلى أن روح الحق هو محمد عليه الصلاة والسلام وذلك بناء على شهادة كبار الدعاة

والباحثين المسيحيين من أمثال (الأستاذ إبراهيم خليل) الذى كان أستاذاً للعقائد بكلية اللاهوت بأسيوط وقسيساً مبشراً بالإرسالية الألمانية فى أسوان سابقاً — فى كتابه (محمد فى التوراه والإنجيل والقرآن) — كما أورد شهادة الأستاذ (بشرى زخارى ميخائيل) فى كتابه (هكذا بشرت الأناجيل) .

ولئن كان فى المقال القيم للدكتور محمد السنباطى الكفاية إلا أننى أرى من واجبى خدمة للبحث العلمى أن أضيف النقاط الآتية :

يذكر الدكتور غرينوريوس (أن سياق الحديث يشير إلى أن روح الحق هو الروح القدس بناء على تحقق وعد المسيح عليه السلام لتلاميذه ورسله وحوارييه عنه فى يوم الخمسين لقيامته من بين الأموات) طبقاً لما ورد فى سفر أعمال الرسل فى إصحاحه الثانى وبالرجوع إلى هذا الإصحاح الثانى فى سفر أعمال الرسل يتبين أنه لا يشير من قريب أو من بعيد إلى أن **روح الحق هو روح القدس** — بل إن عبارة **(روح الحق)** لم ترد إطلاقاً فى الإصحاح المذكور — لذلك كان ماذهب إليه الأنبا غريفوريوس فى تفسيره من أن **(روح الحق) هو (روح القدس)** قول لا دليل له عليه وفيه تحميل للنصوص بما لا تحتمل والروح القدس كما فسره الفيلسوف المسيحى سبينوزا فى كتابه (رسالة فى اللاهوت والسياسة) يعنى الفكر الصائب المستقيم المستوحى من الله — أما عن روح الحق فهو ليس بهذا المعنى والحقيقة أن (روح الحق) نبى إنسان كما يشير النص به — وقد وضحه القديس يوحنا نفسه صاحب الإنجيل فى رسالته الأولى بالإصحاح ٤ عدد ١ بذلك فى قوله :

أيها الأحباء لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هى من الله لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم — بهذا تعرفون روح الله) .

وقد استكمل القديس يوحنا ذلك الإيضاح بدقة فى عدد ٦ من تلك الرسلة بقوله (من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال) أى من هذا نعرف النبى الصادق من النبى الكاذب ويكون ذلك بعد اختبار هؤلاء الأشخاص وامتحانهم

وفيما ذكره السيد المسيح عليه السلام طبقا لما ورد عنه بالإصحاح ١٦ عدد ١٣ بإنجيل يوحنا فى قوله (لأنه لا يتكلم

من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية) قول لا يصدق إلا على إنسان يأتيه الوحى من السماء فهو لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع به من أمور الوحى يتكلم به فروح الحق طبقاً لهذا النص له صفة السمع والصفة لا تقوم إلا بذات .

وهذه البشارة ألا تصدق فى دلالتها على نبى الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم إذ كان إنساناً يأتيه الوحى من السماء فيبلغه للناس بعد سماعه له لذلك فهو لم يتكلم من نفسه بل كل ما سمع من الوحى تكلم به وأخبر بكثير من الأمور الغيبية طبقاً لما ذكرته واحتوته صحاح السنة المطهرة وكتب السيرة النبوية . وفى قول المسيح عليه السلام الوارد بإنجيل يوحنا بالإصحاح ١٥ عدد ٢٦ ، ٢٧ ما يؤيد القول بأن روح الحق نبى إنسان وهذا النص هو :

(ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى) فالسيد المسيح يقرر فى هذا النص أن المعزى هو روح الحق ويشهد للمسيح عليه السلام والنبى محمد صلى الله عليه وسلم قد شهد للسيد المسيح بالنبوة والرسالة وشهد بطهارة أمه السيدة مريم بعد أن أنكر اليهود الرسالة والنبوة على السيد المسيح وطعنوا فى شرف أمه .

قد يقول قائل إن النص الوارد فى الإصحاح الرابع عشر عدد ٢٦ من إنجيل يوحنا يقرر أن (المعزى هو الروح القدس) وذلك فى قوله (وأما المعزى الروح القدس) .

إلا أنه بالرجوع إلى الأصل اليونانى لذلك النص وهو أساس ترجمة إنجيل يوحنا إلى كل لغات العالم ومنها اللغة العربية نجد أن أصل تلك العبارة (Hepikhator) وقد ترجمت إلى باقى اللغات الأجنبيه بعبارة (pericletos) ورسمت باللغة العربية (البارقليط) فى طبعات الكتاب المقدس القديمة وتعنى هذه العبارة فى معناها الحرفى (أحمد) وهو من أسماء رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وأمته الحمادون الذين يحمدون الله على كل حال ومفتاح صلاتهم الحمد لله — ومن ذلك نتبين أن المعزى هو روح الحق وليس الروح القدس (وقد قام بهذا التحقيق اللفظى للعبارات السابقة الباحث المسيحى المرحوم زكى النجار فى أبحاثه التى ضمنها كتابه (المنارات الساطعة فى

ظلمات الدنيا الحالكة والمطبوع سنة ١٣٦٩هـ سنة ١٩٤٩م .

ولقد سأل المرحوم الأستاذ عبد الوهاب النجار الدكتور (كارلونيلنو) المستشرق الإيطالى عن معنى الكلمة اليونانية السابق الإشارة إليها (Hedikhator) فقال ان معناها (الذى له حمد كثير) وهذا يوافق أفعل التفضيل فى اسم أحمد ويتفق مع ما ذكره القرآن الكريم على لسان المسيح عليه السلام لقومه فى سورة الصف آية ٦ فى قوله (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوارة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) .

وهذه المناقشة مع الدكتور (كارلونيلنو) الإيطالى أوردها الأستاذ محمد رضا فى كتابه (محمد رسول الله) ولقد بلغ من وضوح هذه العبارة ودلالتها على اسم النبى محمد صلى الله عليه وسلم أن أحد الباحثين الإنجليز وهو المستر (أدوين جونس) يذكر فى كتابه (نشأة الديانة المسيحية) والمطبوع فى مطبعة كيجن بول وشركاه بلندن إن عبارة (pericletos) تعنى صراحة اسم (محمد) والمسيحيون لا يمكنهم أن ينكروا ذلك ثم نجده بعد ذلك للأسف بدلا من أن يبحث فى توافق الوحى الإلهى عند المسيح عليه السلام وعند الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فيما أوحى إليه من آيات القرآن يفترض فرضاً غير معقول فيتهم المسيحيين بأنهم أقحموا تلك العبارة جهلا منهم فى إنجيلهم بعد ظهور الإسلام وتأثرهم بالثقافة الإسلامية .

وأما عن روح القدس فإنه لا يقال له روح الحق لأن روح الحق إنسان له صفة السمع (كما ذكرنا آنفاً) (فلا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به) — لكن روح القدس هو الذى كان يحل على الأنبياء عليهم السلام بمعنى أنه العناية الربانية روح الحكمة والفهم التى كانت تحل على هؤلاء الأنبياء والرسل وفى نصوص الكتاب المقدس ما يؤيد هذا القول طبقاً للآتى :

١ — ورد فى مزمور ٥١ عدد ١٢ قوله على لسان داود عليه السلام .

(وروحك القدوس لا تنزعه منى)

٢ — ورد فى سفر اشعيا إصحاح ١١ عدد ١ وما بعده قوله (ويخرج قضيب من جذع باسمى ويحل عليه روح الرب روح الحكمة والفهم روح المشورة

والقوة روح المعرفة ومخافة الرب ـ ولذته تكون فى مخافة الرب فلا يقضى بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه بل يقضى بالعدل للمساكين إلخ . . . . . .

ومما تقدم يتضح بجلاء ان روح الحق ليس هو روح القدس وأن روح الحق تحوى بالإشارة أو بطريق الدلالة البشارة من قبل المسيح عليه السلام بنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم رسولا يأتى من بعده قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) سورة الإنعام ٢٠ .

محمد عزت الطهطاوى

فى التقوى

قال صلى الله عليه وسلم :

إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا ، وأتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء .

أخطاء شائعة

الأستاذ / عباس أبو السعود

٤٠١ ويصفون من لم يجرب أحداث الحياة بالبساطة ، فيقولون : هذا رجل بسيط ، كما أنهم إذا أرادوا أن يصفوا الشىء بالقلة قالوا : إنه بسيط ، وكل هذا خطأ ، لأن كلمة بسيط فعيل بمعنى مفعول أى مبسوط ، يقال : فراش بسيط ، وثوب بسيط أى مبسوط منشور ، ومنه البساط المعروف الذى يبسط ويفرش على الأرض . وكذا يقال : أرض بسيطة أى منبسطة متسعة ، قال تعالى « والله جعل لكم الأرض بساطاً » . وقال الشاعر :

ولو كان فى الأرض البسيطة منهمُ
لمختبط(١) عاف(٢) لما عرف الفقر

ويقال : رجل بسيط الوجه إذا كان متهللا مسروراً ، لأن الإنسان إذا سر انبسط وجهه ، ومن المجاز قولك : إنه ليبسُطنى ما بسطك ويقبضنى ماقبضك : أى يسرنى ماسرك ويسوءنى ماساءك ، وفى حديث فاطمة رضى الله عنها « يبسطنى ما يبسطها » أى يسرنى ما يسرها ويقال : فلان بسيط اليدين إذا كان كريماً مسماحاً ، والجمع بسط قال :

فى فتية بُسُطِ الأكف مسامح
عند الفصال(٣) قد يمهم لم يدثر(٤)

والبسطة السعة والفضيلة ، يقال فلان فى بسطة من العيش أو العلم قال تعالى « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم » ، ويقال بسط فلان يده إذا مدها ، ومن هذا قوله تعالى « لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك » ، كما

(١) المختبط : من يسأل بلا وسيلة ولا قرابة .

(٢) العافى : طالب المعروف ، جمعه عفاة كقضاة .

(٣) الفصال : الفطام .

(٤) لم يدثر : لم يندثر ، وبابه دخل ، يقال دثر الرسم يدثر دثوراً إذا درس وانمحى .

يقال: بسط الله الرزق إذا وسّعه وكثّره ومن هذا قوله جل شأنه « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ».

والبساطة السعة تقول: بسُط المكان بساطة كفصح فصاحة إذا اتسع.

مما أوردنا من معانى البساطة وما اشتق منها استبان أن هذه المعانى لاصلة لها بمعنى عدم الخبرة، ولا بمعنى القلة

ولإصلاح تعبيرهم الأول ليؤدى المعنى الذى يريدونه ينبغى أن يقال: هذا رجل غِرّ بكسر الغين أو غَرِّير بالفتح، أو غير مجرب، والأنثى غرة، أو غريرة، أو غر بغير هاء بينة الغرارة، والإسم الغِرَّة بالكسر،

أو يقال: هو ساذج، وهى ساذجة، والجمع سُذّج وزان ركع.

ولإصلاح التعبير الثانى يحس أن يقال: هذا شىء قليل، أو هذا شىء يسير من يسر الشىء ييسر يسراً من باب قرب فهو يسير، أو يقال: هذا شىء تافه أو ضئيل ونحو ذلك.

٤٠٢ ويقولون: لهذا الرئيس على مرءوسيه سلطة هائلة، يأمرهم فيأتمرون، وينهاهم فينتهون، يعنون قهره وشدته، وهذا التعبير يشوبه الخطأ، لأن كلمة السلطة عامية، والصواب أن يقال: له عليهم سَلاطة بفتح السين، وسُلوطة بضمها من قولهم سَلُط عليهم سلاطة كفصح فصاحة، وظرف ظرافة.

أو يقال: له عليهم سُلطان أى تسلط وتحكم، كما فى قوله تعالى « ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً » أى تسلطاً بالمؤاخذة وطلب القصاص، وقوله سبحانه. قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سُلطاناً » أى تسلطاً يكون سبباً فى انتصاركما على هؤلاء الكفرة المارقين.

وللسلطان فوق هذا المعنى معنيان آخران:

أحدهما الوالى وتذكيره أغلب عند الحذّاق، وقد يؤنث فيقال: قضت به السلطان أى السلطنة قاله ابن الأنبارى وجماعة، وقال أبو زيد. سمعت من أثق بفصاحته يقول: أتتنا سلطانٌ جائرة، جمعه سلاطين، وقد يطلق السلطان على الجمع كما فى قول الشاعر:

عرفت والعقل من العرفـان
أن الفتى قد سد بالحيـطان
إن لم يُغنّنى سيد السلطـان

أى سيد السلاطين وهو الخليفة

والمعنى الآخر الحجة والبرهان، ومنه

قوله تعالى « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسُلطان مبين » أى وحجة بالغة القوة . وقوله سبحانه على لسان سليمان عليه السلام فى الهدهد . لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ». أى ببرهان واضح على عذره، وهو بهذا المعنى لا يجمع ، لأن مجراه مجرى المصدر ويقال : رجل سليط إذا كان فصيحاً حديد اللسان بيِّن السلاطة ، وامرأة سليطة إذا كانت صخَّابة طويلة اللسان ، فهو مدح للذكر ، ذم للأنثى

٤٠٣ ويقولون : التزم فلان بدفع الغرامة المقررة علينا ، وهذا خطأ ، لأن هذا الفعل مطاوع لفعل ينصب مفعولين وهو ألزم كما فى قوله تعالى . وألزمهم كلمة التقوى » وقوله . « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » فلابد أن ينصب المطاوع مفعولا به واحداً ، وهاهم أولاء قد عدوه خطأ بالباء فقالوا بدفع الغرامة ، والصواب أن يتعدى بنفسه فيقال : التزم فلان دفع الغرامة المقررة

ومثل هذا قولك : التزم هذا النصرانى الدين الإسلامى إذا اعتنقه ، فالدين الإسلامى مُلْتَزَم بصيغة اسم المفعول، ومنه قيل لما بين الكعبة والحجر الأسود ملتزم لأن الناس يعتنقونه أى يضمونه إلى صدورهم .

أما الثلاثى فإنه يتعدى بنفسه إلى مفعول واحد ، تقول : لزمت فلانا ألزمه من باب سمع لَزْما ولُزوماً ولزاماً بالكسر أيضاً ، وقد يتعدى إلى المفعول بالباء فيقال : لزمت بغريمى ليؤدى ما عليه لى .

٤٠٤ ويقولون : حظرت الحكومة التجول فى الشوارع ليلا ، وهذا فاسد، لأن التفعُّل من الجوْل والجولان لم يرد عن العرب ، والفصيح أن يقال : حظرت الحكومة التجوال بفتح التاء قال الرضى : إذا قصدت المبالغة فى مصدر الثلاثى بنيته على التَّفْعال ، تقول : التَّجوال فى كثْرة الجولان ، والتَّسيار فى كثْرة السير ، والتَّقتال فى كثْرة القتل ، كما فى قول الخنساء :

فإن تكُ مُرَّةُ أودت بـه
فقد كان يكثر تقتالـها

والتحنان فى كثْرة الحنين كما فى قول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

فما عجولُ على بوٌّ تطيف به
لها حنينان إصغارُ وإكبارُ
لاتسمن الدهر فى أرض وإن رُبعت
وإنما هى تحنان وتَسْجَارُ

وقال أبو وجزة :

حنّ الفؤاد إلى سُعدى ولم تتب
فيم الكثيرُ من التّحنان والطّرب

والتطواف فى كثرة الطوفان ، تقول: جوّل فى البلاد بالتشديد أى طرّف ، وهو جوّالة جوابة ، وتجاولوا فى الحرب تجاولا : جال بعضهم على بعض ، قال النابغة :

والخيلُ تعلمُ أنّا فى تجاولنا
يومَ الحفاظ أولو بُؤسى وإنعام

٤٠٥ ويقولون لمن كان كثير الشرب : شَرِّيب بفتح الشين وكسر الراء مشددة ،

وعلى هذا الوزن قالوا لمن كان كثير اللعب أو ماهراً فيه لَعِّيب ، ولمن كان ماهراً فى ركوب الخيل رَكِّيب

والحق أن هذا الباب سماعى ، فقد قالت العرب لمن أكثر أو مهر فى بعض الأشياء على وزن فِعِّيل بكسر الفاء وتشديد العين مكسورة أوصافاً مسموعة لا يقاس عليها منها :

١ ــ شِرِّيب لمن يشرب كثيراً ويولع بالشراب

٢ ــ صِدِّيق لكثير الصدق أو دائم التصديق ، وقد لقب بهذا اللفظ أبو بكر رضى الله عنه فقيل أبو بكر الصِّدِّيق .

٣ ــ حِدِّيث لمن يكثر الحديث ويحسن عرضه .

٤ ــ فِكِّير : لمن يكثر التفكير .

٥ ــ خِمِّير لمن داوم على شرب الخمر

٦ ــ فِسِّيق : لمن يكثر الخروج عن طاعة الله ، وقد قالوا : كان يزيد فِسِّيقاً خِمِّيراً ولم يكن للمؤمنين أميراً .

٧ ــ شِرِّير : لمن كان كثير الشر .

٨ ــ سِكِّير : لمن كان كثير السكر

٩ ــ سِكِّيت : لمن كان طويل السكوت .

أما كثير اللعب أو الماهر فيه فيقال له لُعَبَة بالضم وزان همزة ، وتِلْعاب ، وتِلْعابة بكسر التاء فيهما ، وأما كثير الركوب أو الماهر فيه فيقال : له : رَكوب وزان غفور ، ورَكّاب وزان غفّار كما يقال لكثير الطمع طَموع وطَمّاع بفتح كل منهما .

٤٠٦ ويقولون لأصدقائهم : بين بلدنا وبلدكم خمسُ محطات ، وبين بلدنا والقاهرة محطة واحدة ، وهذا خطأ ، لأن الحط هو النزول من عُلو إلى سُفل ، تقول حطوا الأحمال عن ظهور الجمال يحُطونها حطّاً من باب رد إذا أنزلوها ، واسم المكان مَحَطّ وزان مفعل بفتح الميم والعين لأنه مصوغ من ثلاثى مضارعه مضموم العين ، ومعناه مكان النزول ، ومثله فى ذلك :

مَصَب ومحَل ، ويجمع مفعل على على مفاعل فيقال : محاطّ القطار ، ومصابّ الأنهار ومحالّ الأزهار بتشديد الطاء فى المثال الأول ، والباء فى المثال الثانى ، واللام فى المثال الثالث ، لأن هذه الحروف أدغمت فى نظائرها ، والأصل محاطط ، ومصابب ، ومحالل .

وقد تلحق مَفْعَل هاء التأنيث سماعاً كما فى مقبرة ، ومزرعة ، ومدرسة ، ومهلكة ولكن ذلك لم يسمع فى محط .

٤٠٧ وينكرون أن يقال : قد لا يعود المسافر اليوم، معتمدين على أن مجلة المجمع حرّمت أن يقال : قد لا يفيد الدواء ، أى بإدخال قد على الفعل المنفى ، ورأت أن يستبدل بهذا التركيب : ربما لا يفيد الدواء .

ومعتمدين أيضاً على أن الفيروزابادى قال فى قاموسه : وأما قد الحرفية فمختصة بالفعل المتصرف الخبرى المثبت المجرد من ناصب وجازم وحرف تنفيس ، وهى معه كالجزء ، فلا تفصل منه بشىء ، اللهم إلا بالقسم .

والحق أن التعبير الذى أنكروه عربى صحيح برغم ما أوردته مجلة المجمع ، وما أثبته القاموس إذ ورد مثله فى الآثار العربية القديمة .

قال ابن منظور صاحب لسان العرب فى مادة (ذام) يقول أنس بن نُوَاس المحاربى :

وكنتَ مسوداً فينا حميداً
وقد لا تعدم الحسناء ذاما[1]

وأصل الشطر الثانى لهذا البيت مثل قالته حُبَىّ بنت مالك بن عمرو العدوانية بعد أن تزوجها ملك غسان لجمالها ، وكانت أعجلت عن التطيب ، فلما أصبح الملك قيل له : كيف وجدت أهلك ؟ قال : ما رأيت كالليلة قط ، لولا رويحة أنكرتها ، فقالت هى من خلف الستر : لا تعدم الحسناء ذاما أى لا تعدم من يذمها ويعيبها وقال النمر بن تولب :

وأحبب حبيبك حباً رويداً[2]
فقد لا يعولك[3] أن تَصرما[4]

وقال صاحب القاموس : فى مادة (دغْدغة)[5]

والدغدغة إنفعال فى نحو الإبط

---

(١) الذام : من يعيب غيره ويذمه .
(٢) رويداً : على مهل : هو تصغير رود بالضم .
(٣) يعولك : يثقل عليك .
(٤) الصرم : يقطع كلامك .
(٥) المدغدغة : الزغزغة وهى ضعف الكلام والسخرية .

والبضع والأخمَص وقد لا يكون لبعض الناس .

٤٠٨ وهم يوهمون حين يزعمون أن هناك فرقاً عظيما فى الاستعمال بين الفعلين : قضى ، وأدّى ، فيقولون قضينا الصلاة إذا صلوها بعد فوات وقتها ، وأديناها إذا صلوها فى وقتها المحدود شرعاً ، ويصرون على أنه لا يجوز أن يقال فى الحالة الأولى أدينا الصلاة ، ولا فى الحالة الثانية قضيناها .

والحق الذى لامرية فيه أن القضاء والأداء فى الصلاة والدين ونحوهما متفقان وزنا ومعنى واستعمالا ، فى أمهات اللغة أدى فلان دينه قضاه ، وقضى حاجته وحوائجه أداها وتأديتُ له من حقه قضيتُه ، وقضيتُ الحج والعمرة أديتهما .

ومما يؤيد ذلك قوله تعالى : « فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم » . وقوله : « فإذا قضيت الصلاةُ فانتشروا فى الأرض » . وقوله : « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم . » فقضاء الصلاة فى الآيتين الأولى والثانية ، وقضاء المناسك فى الآية الثالثة كل منها معناه الأداء ، ولا يعقل أن يكون حصولها بعد الخروج من الوقت المعلوم ، وقال امرؤ القيس

خليليَّ مُرا بى إلى أم جُندبِ
نقَضِّ لبُانات الفؤاد المعذب

أى نؤدها وقد استعمل الفقهاء القضاء فى الشىء الذى يفعل خارج وقته ، والأداء فيما يُفعل فى وقته وهذا مخالف للوضع اللغوى ، بيد أنه اصطلاح للتمييز بين الوقتين .

وينفرد القضاء بمعان أخر منها :

١ — الحكم كما فى قولك : قضيتُ بين الخصمين إذا حكمت لأحدهما على الآخر ومن هذا قوله تعالى « إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » وقوله : « إن ربك يقضى بينهم بحكمه » وقوله : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » أى حكم بذلك وفرضه .

٢ — الموت : تقول : قضى فلان إذا مات ، وقضى الجندى على اللص إذا قتله ، وسُمّ قاضٍ أى مميت ومن هذا اللون قوله جل شأنه : « فوكزه موسى فقضى عليه » ، والقاضية الموت كالقَضِيّ وزان غنى ، وفى التنزيل « ياليتها كانت القاضية » .

٣ — الصُنع والتقدير ، تقول : قضاه الله وقدره إذا صنعه وقدره ، ومن هذا قوله سبحانه : « فقضاهن سبع

سموات فى يومين » .

٤ — الوصية والإنفاذ، كما فى قولك : قضى الرجل على أخيه عهداً إذا أوصاه وأنفذه .

٤٠٩ — ويقولون : لمن لا يغار على أهله : مُعرّس بضم الميم وتشديد الراء وزان معظم، أو عـَرْس وزان عدل ، وهذا خطأ ، لأن هاتين الكلمتين — على الرغم من أنهما عربيتان سليمتان — تحمل كل منهما معنى لاصلة له بالمعنى الذى أرادوه :

فالمعرس هو المكان الذى ينزل فيه المسافرون للاستّراحة ثم يرتحلون ، اسم مكان من التعريس وهو النزول على الحال التى بيناها ، ومنه قولهم : ما نزلوا غير تعريسة كحُسوة الطائر أى أن النزلة كانت قصيرة ، وقول أحدهم : مالى بأرض الهوان من مُعرَّسٍ ساعة ، أما العِرْس فهو عمود فى وسط الفُسطاط والفصيح أن يؤدى المعنى الذى يريدونه بأن يقال : هو ديّوث وزان فروج ، أو قُسموث بالضم وزان زُنبور ، أو طـَزِع وزان كتف .

٤١٠ — ويزعم كثير من رجال الأدب أن تجاهل فعل لازم ، متابعين مجلة مجمع اللغة العربية حيث قالت فى الجزء الرابع : إن هذا الفعل لازم ، لأنه بمعنى أظهر الجهل وليس بجاهل ، ومعتمدين على أن معاجم اللغة لم تذكره متعدياً والحق أنه ورد متعدياً فى كتب الأدب بمعنى جهله ، كما ورد ضده وهو تعالم متعدياً بمعنى علمه .

١ — ففى الجزء الرابع من تاريخ الطبرى ص ١٥٨ كتاب لعمرو بن العاص يرد فيه على أرطبون قائد الروم بالشام يقول فيه :

جاءنى كتابك وأنت نظيرى ومثلى فى قومك ، لو أخطأت خصلة **تجاهلت فضيلتى** وقد علمت أنى صاحب فتح هذه البلاد . . . إلخ .

٢ — وفى ترجمة مجنون بنى عامر فى الأغانى ص ٥٩ من الجزء الثانى : خبر حبيبين يتعاتبان .

فيقول لها :

غدرتِ ولم أغدر وخُنتِ ولم أخُن
وفى بعض هذا للمحب عزاءُ[1] .
جزيتُكِ ضعف الود ثم صرمتنى
فحبُّكِ من قلبى إليك أداءُ

وتقول له :

تجاهلتَ وصلى حين جدت عمايتى[2]
فهلا صرمت الحبل إذ أنا أبصر

(١) صرمتنى : قطعت كلامى .
(٢) عمايتى : لجاجتى وغوايتى .

ولى من قوى الحبل الذى قد قطعته
نصيبٌ وإذ رأيى جميعٌ موفرُ
ولكنى آذنت بالصرم بغتة
ولست على مثل الذى جئت أقدر

٣ — وفى معجم الأدباء ص١٦٢ من الجزء الثامن عشر خطاب لأبى محمد بن الحسن الحاتمى ، شافه به المتنبى ، ليدفعه عن غروره ، ويوضح عيوب شعره قال فى تهكم لاذع ، وسُخرية ساخرة :

ياهذا . إذا جاءك رجل شريف فى نسبه **تجاهلت نسبه** ، أو عظيم فى أدبه صغَّرت أدبه ، أو متقدم عند سلطان لم تعرف موضعه، فهل العز تراث لك دون غيرك ؟ كلا والله ، لكنك مددت الكبر ستراً على نقصك ، وضربته رواقاً دون جهلك . . . . إلخ

ولم يعقِّب أحد من النقاد على ما جاء فى الأغانى ، أو فى خطاب الحاتمى ويُستأنس لجواز تعدية هذا الفعل بأن العرب تحمل الشيء على ضده، وما دام قد ورد فى المعاجم أن تعالم بمعنى علم متعدية ، فلا مانع من قياس ضدها عليها ، فيكون تجاهل بمعنى جهل متعدياً .

إذاً لا عليك يا أمير الشعراء حين قلت:
فإن تجاهلته ذلك رب القلم

٤١١ ويقولون : ملأنا الغِرارة بالحنطة ، وملأنا الحُب بالماء ، وهذا خطأ مبين ، لأن الباء لا تستعمل مع هذا الفعل ، ولتأدية المعنى الذى يبتغونه ينبغى لنا أن نستعمل أحد أسلوبين :

أحدهما : أن نستبدل بالباء كلمة (من) فنقول: ملأنا الغرارة من الحنطة ، وملأنا الحب من الماء ، فالغرارة ملأى وملآنة ، والحب مملوء وملآن ، وأوعية ملاء قالت العرب : فلان مملوء من الكرم ، ولم تقل مملوء بالكرم ، تقول : نظرت إلى صديقى فملأت منه عينى ، ولا تقل ملأت به عينى ، قال النمر بن تولب :

ألم ترها تريك غداة قامت
بملء العين من كرم وحُسْنِ

وفى الحديث « املئوا أفواهكم من القرآن » .

والمِلء بالكسر ما يأخذه الإناء إذا امتلأ ، تقول: أعطه من العسل ملء القدح أو ملأيه أو ثلاثة أملائه ، وحجر ملء الكف وحجارة أملاء الأكف قالت امرأة من بنى حنيفة :

فإن تمنعوا منا السلاح فعندنا
سلاح لنا لا يُشترى بالدراهم

جلاميد[١] أملاءُ الأكف كأنها
رءوس رجال حُلقت[٢] بالمواسم

والأسلوب الآخر : استعمال التمييز وهو أجود ، تقول : ملأنا الغرارة حنطة ، وملأنا الجب ماء ، ويقال : : فلان يملأ العين حسناً .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قوله تعالى : « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً » وقوله « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً » وقوله « فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به » .

قال أبو حاتم : يقال : حب ملآن ، وقربة ملأى ، وحباب ملاء بالكسر ، قال وإن شئت خففت الهمزة فقلت فى المذكر مَلان ، وفى المؤنث مَلا ، ومنه قول الشاعر :

حبذا دلوك إذ جاءت ملاء

وللملإ معنيان : **أحدهما** أشراف القوم وعليتهم ، سموا بذلك لملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف وجودة الرأى ، ولأنهم يمالئون فى النوائب ، ومن هذا قوله تعالى : حكاية عن الملكة بلقيس : « يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » **والآخر** الخُلُق ، ومنه الحديث أنه قال لأصحابه حين ضربوا الأعرابى « أحسنوا أملاءكم » والممالأة المساعدة والمشايعة ، تقول : مالأت فلاناً ممالأة إذا ساعدته وعاونته وفى الحديث « والله ماقتلت عثمان ولا مالأت على قتله » .

والمليء هو الغنى المقتدر ، جمعه مُلآء تقول : هو أملأ القوم أى أقدرهم وأغناهم والمُلاءة بالضم الربطة ، جمعها ملاء بحذف الهاء تقول : عليها ملاءة الحسن ، قال ابن ميادة :

بذّتهم[٣] ميالة تميدُ[٤]
مُلاءة الحسن لها جديد

٤١٢ ويسمون الماء الذى يمرُق من اللحم إذا غلت به القدر (شُرْبة) بضم الشين ، وهذه تسمية خاطئة والصواب أن يسمى بأحد اسمين . **أحدهما** المرق بالتحريك والمرقة أخص منه .

تقول : أمرقتُ القدر ومرقتها بالتضعيف إذا أكثرت مرقها ، ولحم ممرق إذا كان دسماً جداً يكثر المرق ، وأطعمت ضيوفى مرقة مرقين وهى ماء القدر يعاد عليه اللحم مرات ، وأصله

---

(١) الجلاميد : الصخور .
(٢) حلقت بالمواسم : حلق شعرها بالمكواة والمواسم جمع ميسم بالكسر

(٣) بذّتهم : غلبتهم وفاقتهم .
(٤) تميد : تتحرك وتتبختر وتتمايل .

مأخوذ من المروق وهو الخروج ، ولهذا كانت العرب تسمى الخوارج بالمارقة لخروجهم عن الدين والآخر الحساء بفتح الحاء وزان سلام ، تقول : شرب الضيف الحساء ، وأحسيته المرق فحساه واحتساه ، وتقول تحساه إذا حساه فى مهلة ، قال السرقسطى : يقال : حسا الطائر الماء يحسوه حسواً من باب قال ، ولايقال شربه ، وقال الأصمعى : ويقال فى الحافر كله وفى الظلف : جَرِعَ الماء من بابى سمع ومنع إذا بلعه

أما الشُرْبة بالضم فهى حُمرة تكون فى الوجه ونحوه ، تقول : أشربُ الثوب وفيه شُربة من الحُمرة ، وأُشرب فلان حب صديقه إذا خالط قلبه ، ومن هذا قوله جل شأنه « وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم » . قال زهير :

فصحوت عنها بعد حب داخـــل
والحـــب يُشربه فؤادك داءُ

ويقال : شرب فلان ما ألقى عليه إذا فهمه ، واسمع ثم اشرب أى افهم بعد أن تسمع والشرب بالفتح مصدر شرب ، وهو أيضاً جمع شارب كصحب من صاحب ، ويجمع الشارب كذلك على شاربين كما فى قوله تعالى « وأنهار من خمر لذة للشاربين » والشاربة هم الذين مسكنهم على ضفة النهر ، والمشربة بكسر الميم إناء يشرب فيه أما المشربة بفتح الميم والراء وقد تضم الراء فهى الغُرفة والعِلِّية .

ويقال : شرب به كسمع ، وأشرب به بالبناء للمجهول إذا كذب عليه ، وأشربتنى ما لم أشرب أى ادعيت على ما لم أفعل .

٤١٣ ويقولون للراعى الحسن القيام على المال خُولى بضم الخاء ، كما أنهم يطلقون هذا اللفظ لقباً لكثير من الناس تفاؤلا فيقولون مثلا محمد أحمد الخولى ، والصواب أن يقال له خَوْلى بفتح فسكون فياء مشدَّدة نسبة إلى الخوْل وهو حسن الرعاية للمال ، إذ يقال : فلان يخول على أهله خولا من باب قال ، أى يرعى عليهم أغنامهم ويكفيهم ، وبهذا النسب سمى بعض الصحابة ، منهم خولى بن أبى خَوْلىّ الجعفى وخولى ابن أوس ، وجمع الخَوْلى خَوَل بالتحريك ، وللخول المحركة غير هذا المعنى معنيان أحدهما أصل فأس اللجام والآخر ما أعطاك الله تعالى من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الحاشية ، للواحد والجميع والذكر والأنثى ويقال للواحد خائل ، تقول : فلان خائل مال أى راعية ومصلحة ، قال (ولا تحسبن أنى

لأمك خائل) والخـوَل ، والخدم ، والحشم ، ثلاثتها متنفقة وزنا ومعنى بيد أن كلمة الحشم فى معنى الجمع ولا واحد لها من لفظها كما قال ابن السكيت ، وفسرها بعضهم بالعيال والقرابة ومن يغضب له إذا أصابه أمر والتخول التعهد وفى الحديث «كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة » .

٤١٤ — ويزعمون أن كلمة الضيف لا تقال إلا للمفرد المذكر ، والحق أنها تطلق على الواحد والواحدة والجمع ، لأنها فى الأصل مصدر قولك : ضافه يضيفه ضيفًا من باب باع : الاسم الضيافة ومما يؤيد صدق هذه الدعوى قوله تعالى « إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون » وقوله « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين» وتجوز المطابقة فيقال للأنثى ضيفة ، وللجميع أضياف ، وضيوف ، وضيفان بالكسر.

قال ثعلب: تقول : ضِفْتُ فلاناً إذا نزلت به وأنت ضيف عنده ، وأضفته بالألف وضيفته بالتضيف — إذا أنزلته عندك ضيفًا وقربته ، والضيفين بزيادة النون هو من يجئ مع الضيف متطفلا من غير دعوة .

وتقول أيضًا : أضفته إضافة إذا لجأ إليك من خوف فأجرته ، وتضيفنى فلان فضيفته إذا طلب القرى فقريته أو استجارك فمنعته ممن يطلبه ، وأضاف ماله إلى مال أخيه إضافة إذا ضمه إليه ، والمضاف فى الحرب من أحيط به .

ومن المجاز قولك أضاف إليه الأمر إذا أسنده إليه واستكفاه ، وماهو هو إلامضاف أى دعى كما قيل مسند ومُلصق ، وضافه الهم، وضاف وساده إذا انزل به .

٤١٥— كثيراً ما نسمع ممن يريد أن يعتذر لغيره عما فرط منه قوله : أنا آسف يعنى أن حزنه شديد ، وهذا خطأ صراح لأن الفاعل من الأسف لا يأتى بزنة فاعل ، وإنما هو على وزن فعل بفتح فكسر ، تقول : أسف فلان على ما فات يأسف أسفًا من باب تعب إذا اشتد حزنُه وألمُه فهو أسف ، وزان تعب ، ومنه قوله تعالى « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا » .

ولتأدية المعنى المراد يجب أن يقال : أنا أسف على ما صدر منى إليك أو متأسف أو يقال : آسفنى ما وجهته إليك من لوم أو تأنيب ، أو يقال :

إنى إليك معتذِر ، أو معذر بتشديد الذال مكسورة ، والمعذر هو المعتذر الذى له عذر ومنه قوله سبحانه « وجاء المعذّرون من الأعراب » .

٤١٦ ويقولون حين يدعون لمريضهم بالشفاء والعافية : محا الشافى العافى ما عندك من علة ، وكلمة الشافى — سليمة ، أما كلمة العافى فلها ثلاثة معان لاصلة لها بالمعنى المبتغى .

أحدها : من يصفح عن الذنب ويترك عقوبة المستحق ، تقول : عفا عنه ذنبه ، وعفا له ذنبه ، وعفا عن ذنبه ، فهو عافٍ ، ويجمع على عافين كما فى قوله تعالى « والعافين عن الناس »

والثانى : طالب المعروف ، تقول : عفاه يعفوه عفواً من باب عدا إذا أتاه يطلب معروفه فهو عافٍ ، وهم عفاة بالضم كقاض وقضاة .

والثالث : الكثير ، تقول : عفا الشىء إذا كثر ، وعفوته كثرته ، يتعدى ويلزم ومنه قوله تعالى « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا » أى حتى كثروا .

والصواب أن يقال : محا الشافى المعافى ما بك من علة ، مأخوذ من قولهم عافاه الله معافاة ويفاد بالكسر

٤١٧ ويقولون : هذا الحلاق مشهور بحسن الحِلاقة بكسر الحاء، وهذا خطأ صراح والصواب أن يقال : مشهور بحسن الحَلْق ، لأن الفعل من بابه ضرب ، تقول : حلق شعره يحلقه حلقا ، وحلاقا بكسر الحاء وحُلقاً بضمها أيضًا ، قال تعالى « ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى مَحِله » ويقال : رأس فلان جيد الحلاق بكسر الحاء ، كما يقال : لأملك الحُلق بضمها أى حلق الرأس .

ولك أن تقول حلق فلان شعره تحليقًا للمبالغة والتكثير ،فهو محلِّق وهم محلِّقون ومن هذا قوله تعالى «لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين — محلقين رءوسكم » وللمحلق[1] غير ما تقدم معنيان : **أحدهما** الطائر إذا ارتفع فى طيرانه ، **والآخر** الإناء إذا دنا من الامتلاء ، يقال : مكوّك واف ومحلق ، قال عبدة بن الطبيب :

شآمية تجزى الجنوب بقرضها
مراراً فواف كيلُها ومحلِّقُ

يعنى أن الجنوب والشمال تختلفان على الدار تتعارضان سفى التراب عليها،

---

(١) من معانى المحلق : البسر قد بلغ الإرطاب تلثيه ، الواحدة بهاء .

فإذا جاءت نوبة الشمال ملأتها تارة، ونقصت من الملء أخرى .

أما الحُلاقة بالضم فهى ما حُلق من الشعر ، تقول : رمى الحلاق بالحُلاقة

وللحَلْق غير المصدرية معنيان : أحدهما الشؤم ، والآخر الحلقوم ، ومن هذا قوله تعالى « فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم » أى الحَلْق .

ويقال : حلق الفلاح معزه ، ولا يقال جَزّه إلا فى الضأن ، وعنز محلوقة وشعر حليق ، ولحية حليق ، ولا يقال حليقة .

وللحالق معنيان : **أحدهما** من يحلق الشعر ، والآخر الجبل المنيف وهو من تحليق الطائر ، أو من البلوغ إلى حَلْق الجو ، تقول: هوى الولد من حَالق إذا هلك أما الحلق بكسر الحاء فهو خاتم الملك أو خاتم من فضة بلا فص ، تقول : أعطى فلان الحلق إذا أُمِّر قال المخبّل :

وأعطى منا الحِلَق أبيض ماجد
ردِيف ملوك ما تُغب نوافلُه

وحلاق بفتح الحاء وكسر القاف المنية تقول: سُقوا بكأس حَلاقِ إذا ماتوا، قال :

ما أرجى بالعيش بعد أناس
قد أراهم سُقوا بكأس حَلاقِ

والحالقة قطيعة الرحم ، وكذلك هى من تحلق شعرها فى المصيبة والحلقة بسكون اللام هى الدرع ، وحلقة الباب ، وحلقه القوم جمعها حَلَق بالتحريك على غير قياس ، قال الأصمعى : الجمع حِلَق كبدرة وبدر ، وقصعة وقصع وقال أبو عمرو الشيبانى : ليس فى الكلام حلقه بالتحريك إلا فى قولهم هؤلاء قوم حلقة للذين يحلقون الشعر جمع حالق ككتبة وكاتب ، وعن أبى عمرو بن العلاء حلقة محركة للواحدة، والجمع حلق وحلقات .

التفسير القرآنى للقرآن الكريم

للأستاذ عبد الكريم الخطيب

المجلد الأول والثانى

عرض ونقد

دكتور / سعد ظلام

الحلقة الثانية

فى حلقة سابقة نشرت فى مجلة الأزهر الغراء فى عدد شعبان سنة ١٣٩٧هـ (يوليو سنة ١٩٧٧م) تعرضنا بالدراسة والعرض والنقد لهذا الكتاب الذى صدر عن دار الفكر العربى مطبعة السنة المحمدية سنة ١٩٦٧ القاهرة ، وذكرنا أن الكاتب افتتح الكتاب بمقدمة تاريخية تحدث فيها عن الأمة الإسلامية ، وأنها أمة القرآن رعته فرعاها ، وتمسكت به فأرشدها الله وأعزها ، وما نأت عن الغاية إلا عندما وقعت الجفوة بينها وبين القرآن .

وقد أرجع السبب فى ذلك إلى الخلافات السياسية والمذهبية التى وقعت بين المسلمين .

وذكر أنه ما دام القرآن هو مصدر التشريع ،فلا بد من الفهم الصحيح له ذلك الفهم المبنى على طول التأمل والتدبر لكل ما يثيره من قضايا وأفكار ، ويكون بذلك اتصالنا الوثيق بكتاب الله ، وتصور المسائل الدينية تصوراً واضحاً .

وعنوان الكتاب يعطى للقارئ انطباعاً يفهم منه أن المؤلف يفسر القرآن بالقرآن ولكنه لم يلتزم بهذا المنهج . بل عارضه ، لأنه كما يقول يفسر القرآن من ناحية تسجيل

مشاعره إزاء ما يقرأ . وقد أفحم مشاعره فى كل فكرة ، واستغرق فى دوامة الرصد والتسجيل حتى نسى الغرض، وتبنى بعض الآراء ، واقتنع بها وألصقها بالقرآن إلصاقاً ، ودافع عنها .

وذكر فى مقدمته أن مباحث هذا المجلد هى الجن والشيطان وابليس ، والنسخ ولا نسخ فى القرآن ، هكذا يقول — وآدم ومادة خلقه . . والوصية للمتوفى عنها زوجها . وهو فى تفسير سورة الفاتحة قارن بينها وبين إصحاحات فى إنجيل متى . وذكر أن هناك تشابهاً بينهما ، وهو بهذا يسلم بصحة الإنجيل بل وأكد التشابه بين القرآن والإنجيل.

وانتقل إلى أفضلية آدم كخليفة لله فى الأرض . ويعلل لأفضليته على الملائكة بما فى الملائكة من بهاء وصفاء وطاعة ، والإنسان بما له من عقل وارادة هو المستأهل لهذه الخلافة . هكذا يقول .

ولآدم فى نظر المؤلف مفهوم مغاير لمفهوم المفسرين الذين يرى المؤلف أنهم اعتمدوا فى معرفتهم على الإسرائيليات وأساطير الأولين من قصة الخلق ومكان آدم فيها . وتعرض للجن وإبليس والشيطان ورأى أن إبليس على صفة خاصة غير صفة الشيطان والجن ، وإلا لما التزم القرآن ذكر إبليس فى هذه الصور المتعددة لموقف واحد . وقد رددنا عليه .

وتعرض لذكر الشيطان بلفظ المفرد والجمع — فيذكر الآيات التى تدل على ذلك ويقع فى مغالطة حين يستعرض الآيات التى أمر الله فيها إبليس بالسجود لآدم . ويستنتج منها أن إبليس كان من الملائكة .

وقد رددنا عليه .

وتعرض لقضية خلق آدم ، **فذكر أن القرآن عرضها عرضاً محكماً ، ومع أنه ليس كتاب علم. وليس من همه أن يقرر الحقائق العلمية . فإنه فى قضية خلق آدم قد أمسك بها من جميع أطرافها، وجاء بها على الوضع الذى يلتقى على الحقائق العلمية فى أصدق وجوهها وأضوائها .**

وقد رددنا عليه بأن الأليق فى العقل والمنطق أن تجىء الحقائق العلمية إذا جاءت مفسرة للقرآن ، لا أن يجىء القرآن على الوضع الذى يخضعه للحقائق العلمية .

وقد سار المؤلف مع الحقائق وأسلوبها ، وأخضع الآيات إخضاعاً كلياً لها ، فقد فسر الحمأ المسنون ، بأنه بشائر الحياة

إذ هو « البكتريا » التى تولدت منها خمائر الحياة ، وظهرت فيها جرثومتها الأولى .

ويرى أن الطين الذى خلق منه الإنسان قد تقلب فى أطوار عدة حتى ظهر منه الإنسان ، فهناك التراب وهناك الطين ، والطين اللازب ثم الصلصال ثم الحمأ المسنون .

وبلغة العلم يكون التراب فالطين فالصلصال فالحمأ المسنون ، أربعة أطوار تنتقل فيها بذرة الحياة .

ويستنتج من قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » بأن آدم لم يجىء مباشرة ، وإنما كان ذلك بعد سلسلة طويلة من التطورات ، وبعد عمليات معقدة من التصفية — والانتخاب استمرت ثلاثين سنة حتى انتهت بظهور الإنسان .

ونسى أن عمليات التصفية المعقدة والانتخاب التى استمرت ثلاثين سنة حتى انتهت بظهور آدم لا تتفق مع قدرة الله المبدع الخالق وناموسه الإلهى القادر وأمره الذى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .

وإذا كان خلق آدم استمر ثلاثين سنة فكم استمر خلق السموات والأرض وهما أكبر من خلق آدم « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (غافر — ٥٧) .

وقد ربط بين خلق آدم وبين نظرية « دارون » مع أن إخضاع القرآن لقضايا العلم وتجاربه غير معقول وغير مستساغ كما سبق أن ذكرنا ولأنه مما يزعزع الثقة بالقرآن إذا اهتزت نتائج البحوث والنظريات . أو ظهر بعد ذلك فسادهما واختلال معاييرهما .

ونحن نعتقد أن لكل علم مناهجه ، وربط قضية خلق آدم بنظرية « دارون » « نوع من الاحتيال لإثبات أن القرآن يساير مناهج العلم الحديث ، وهو ما لا نسلم به ولا يسلم به معنا الكاتب نفسه الذى يذكر أن نظرية « دارون » قد يكون فيها قليل أو كثير من الخطأ فى الاستنتاج .

ولكنه مع ذلك يلجأ اليه للإيهام بأن تفسيره عصرى .

كان هذا استعراضنا كما ذكرناه فى الحلقة السابقة ، ونبدأ فى هذه الحلقة استكمالا لهذا الموضوع فنقول :

و« دارون » فى نظر المؤلف من أشد الناس إيمانا بالله ، ونظريته إنما تقوم على علم وتجربة .

أما آراء المفسرين فمن قبيل النقول الخرافية والمقولات الأسطورية والمؤلف يرمى كل من لا يؤمن بنظرية « دارون » « بأنه » ليس بالمسلم الذى يعترف دينه بالعقل .

وقد نوافق المؤلف على حماسه العنترى لتأييد العقل ومؤازرته ، ولكنه بشرط ألا يندفع هذا الحماس إلى المغالطات والتورط فى الإيمان بأمور يقول هو عنها : « إن فيها كثيراً أو قليلا من الخطأ فى الاستنتاج » .

وقد نوافقه على احترام العقل والتقدير للجهد الذى بذله صاحبها ، ولكن بشرط ألا ننسى أنها تجربة . والتجربة فيها مخاطر الخطأ والمجازفة بالصواب ، أو نظرية وليس للنظرية كما للقانون من من الثبات والصحة .

وقد تكون معه عندما يقول : أن كل عقل مدعو إلى الوقوف عندها والنظر فيها وأخذها يطمئن إليه منها .

ولكننا لسنا معـــه عندما يقول : « أما صد العقل عنها ، وفراره من بين يديها فذلك ازدراء بالعقل وامتهان له ، وتعطيل لوظيفته التى خلق لها ، وخروج على دعوة القرآن التى دعاه إليها »[1] .

فأى خروج على دعوة القرآن فى عدم تطبيق منهج علم فى البحث على منهج علم آخر ؟ .

والمؤلف – كما يبدو – حريص على أن يكون منهجه التفسيرى أو رصد مشاعره وتسجيلها كما يجب أن **يقول عن تفسيره – يحرص المؤلف على أن يكون منهجه عصرياً .**

والعصرية عنده تكون بتبنى النظريات الحديثة التى لم تثبت صحتها ولا أمنت نتائجها والترويج لتلك النظريات – والتهويل فى قيمتها ورمى من لا يؤمن بها بأنه ليس بمسلم يعترف دينه بالعقل ، والعصرية لا تكون برمى آراء المفسرين فى سلة المهملات لأنها لا تتواءم مع عقلية المؤلف العصرية .

وقد يكون فيما جمعه المفسرون ما لا نوافقهم عليه ، ولكن ليس كله بالخرافة ، أنه خلاصة عقول ، وثراء فكرى يحسدنا عليه غيرنا من الأمم الأخرى ، عقليات لم تتأثر بالمفاهيم الخاطئة ، ولم تهتز إرادتها وفكرها ومنطقها أمام سانحة من سوانح الفكر الغربى ، بل إنها قرأته فى عصرها وصفّته من أوشابه ، وقدمته للحياة ودفعت فيه نبض الروح لأنها عندما قرأته قرأته وهى واثقة من عقليتها وتراثها الفكرى .

---

(١) القصص القرآنى ص ٤٠٨ مطبعة دار السنة المحمدية سنة ١٩٦٥م القاهرة .

ويبدو أن حماس المؤلف لتلك النظريات ، وإيمانه بها جعله يرددها فى أكثر من كتاب له .

فهو فى كتابه « القصص القرآنى فى مفهومه ومنطوقه » يقول عن نظرية « دارون » « هذه النظرية كانت ولا تزال عند كثير ممن أخذوا فهمهم للآيات القرآنية الواردة فى خلق آدم عن هذه النقول الخرافية وهذه المقولات الأسطورية التى جمعها المفسرون والقصاص من كل ساقطة ولاقطة ، كانت ولا تزال هذه النظرية عند هؤلاء من الكفريات والإلحاد التى إن جرت على لسان كان مجرد جريانها كفراً وإلحاداً ولهم عذرهم فى هذا[1] » .

وبعد أن يستعرض آراء بعض الصحابة فى كتب المفسرين ينكر أن يكون لها مستند صحيح من كتاب أو سنة ، « وإنما هى فى نظره من الإسرائيليات والأساطير والخرافات[2] ، هكذا يقول على طول الخط .

ثم ينتقل إلى الشجرة التى أكل منها آدم . فيفسر الشجرة بأنها مجرد شجرة ، ليست لها صفة خاصة تمتاز بها عن الأشجار التى معها[3] ، إلا أن التحريم وقع عليها دون غيرها ، إمتحاناً لآدم وابتلاء لعزيمته أمام الإغراء وحب الاستطلاع الذى هو غريزة قوية عاملة فيه . فهو ينفى أقوال المفسرين ويطرحها ويصفها بأنها أساطير وخرافات وإسرائيليات ليطبق بعض نظريات علم النفس فى الغرائز والمكبوتات والأخرى نظريات لم تصل بعد إلى أن تكون قانوناً ، وأحكامها غير جازمة ، وليست منضبطة ، وكان الأولى به ألا يخطِّىء أقوال المفسرين على طول الخط ، ولكن بالمناقشة الهادئة ، وما كان أجمله لو قام بها .

على أن الله سبحانه وتعالى أعلم بما فى نفس آدم « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها »[4] .

ثم يذكر بعد ذلك أنه « لو لم يقم إبليس بإغراء آدم بالأكل من للشجرة لسار وحده إليها ، ولكن لا يكون هذا إلا بعد زمن متراخ عن هذا الوقت الذى اقترب فيه بالفعل من الشجرة وأكل منها »[5] .

---

(١) القصص القرآنى ص ٤٠٧ .

(٢) التفسير القرآنى المجلد الأول ص ٧٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٧١ .

(٤) الشمس ٧ — ١٠ .

(٥) التفسير القرآنى فى المجلد الأول ص ٧١ ، ٧٢ .

ومعنى هذا أن الله قد دفع إبليس إلى الوسوسة لآدم وإغرائه حتى يقع فى الإغواء فى الوقت الذى حدده الله، وفى هذه الحالة يكون الله قد علم من آدم حالة الإغواء قبل وقوعها ، وإنها قد تقع فى وقت لا يتفق والوقت الذى حدده للإغواء ، فدبر وسوسة الشيطان له ، ليقع الإغواء فى الوقت المحدد له .

وذلك على إطلاقه غير صحيح ، إذ لا يكون على إبليس إثم فى هذا ، لأن الله هو الذى دفعه إلى ما فعل — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولا يكون على آدم ذنب ويكون هبوطه من الجنة على الصورة التى ذكرها المؤلف نوعاً من التحايل والاحتيال . ويكون الله قد دفع بآدم فى الإغواء ، أو دفعه إلى الإغواء وذلك مخالف لأقل المبادئ فى منع الوقوع فى الذنب قبل التفكير فيه ، ويكون لله سبحانه وتعالى هو الذى دبر الوسوسة أو أوقع آدم فى شرك الإغواء وهذا مستحيل بالنسبة إلى الله تعالى .

والواقع أن وسوسة الشيطان لآدم كانت فتنة وإغراء قوياً « يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »[1] .

فالفتنة على هذا النحو ، وإرادة السوء كانت تدبير إبليس ، والقصد ترشيد آدم وذريته من بعده بعدوهم الأبدى .

وينتقل المؤلف إلى الجنة التى أهبط منها آدم[2] .

وينكر المؤلف أن يكون آدم قد أهبط من جنة سماوية وإنما هى جنة أرضية أو هى تصوير لحالة بدائية . ويكون الإنسان فيها مقطوع الصلة بالبيئة التى يعيش فيها ، ومن ثم فإنه لا يحس بلذعة المطالب البشرية »[3] .

والمؤلف بذلك يحمل لفظ القرآن على غير وجهه دون دليل أو نص ، وما رأيه فى التعبير بالهبوط فى قوله تعالى : « وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين »[4] .

وفى التعبير بالاستقرار فى الأرض بعد الهبوط إليها ، وشقاء آدم من أجل مطالب الحياة « فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى »[5] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٧ .
(٢) التفسير القرآنى ص ٧٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٧٧ .
(٤) البقرة — ٣٦ .
(٥) طه — ١١٧ .

وما رأيه فى إرشاد الله لآدم بأن الشيطان عدو له ولزوجه قبل الإغواء والوسوسة فبعد أن يبين الله لآدم أن إبليس عدوّ له ولزوجه يذكر بعد ذلك ما ترتب على مخالفة آدم لذلك الإرشاد الآلهى « . فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها »[1] .

على أن التعبير بلفظ « الجنة » قد ورد فى كل السور التى وردت فيها قصة آدم ، كل ذلك يدل على أن آدم أهبط من الجنة ، وأداة التعريف تدل على ذلك وتؤيده .

وتعرض المؤلف للنسخ فى القرآن[1]

وقد رأى أنه لا نسخ فى القرآن ، وأما الخلاف الذى بين المسلمين فى أمر النسخ فقد وضع نتيجة للاختلاف فى فهم الآية الكريمة[2] .

وقد فصل القول فى هذا فعرف النسخ والمنسوخ ، وتساءل هل فى القرآن نسخ ؟ ورد على من قال بإن فى القرآن نسخاً ، وقد بان له بأنه ليس فى القرآن نسخ وما دل على ذلك حمله على نسأ وتأخير أو مجمل أخر بيانه أو خطاب حال بينه وبين أوله خطاب غيره ، أو مخصوص من عموم ، أو حكم عام على خاص . . إلخ .

وقد أول الآيات التى يفهم منها معنى النسخ .

وتعرض للطلاق وحكمته عند تفسير قوله تعالى « الطلاق مرتان »[3]

وقد رد على الذين يتهجمون على الشريعة بإحلالها الطلاق ، وعالج الموضوع معالجة حسنة وفسر الدرجة فى قوله تعالى : « وللرجال عليهن درجة » فسرها بمعنى الرتبة ، يقول : فكما كانا رجلا وامرأة فى الجنس كانا أولا — وثانياً فى الرتبة ، وليس هذا بالذى يدخل على أى منهما ما دام يحيا حياته على النحو الذى يلائم طبيعته »[4] .

وإن كان ما ذكره بعد ذلك يشير إلى أنها درجة القوامة ، ولكن ليس فى صراحة ووضوح .

وتعرض لعدة المتوفى عنها زوجها :

وقد ذكر أن العلة فى كون عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً أن الوفاء لذكرى الزوج هو الداعى إلى ذلك . وأن للزوجة إذا ماتت مثل هذا

---

(١) طه — ١٢٠ .

(٢) التفسير القرآنى ص ١٢٠ .

(٣) المصدر ص ١٢١ .

(٤) المصدر ص ٢٦٢ وما بعدها .

الحق على الزوج فى العدة وإن لم توجبه الشريعة .

وفرع على ذلك بأن بعض الزوجات المتوفى عنهن الأزواج قد يذهب بهن الطيش والنزق إلى قطع علائق الزوجية وآثارها ، وفى ذلك اعتداء على حرمة تلك الرابطة المقدسة .

وقد يكون فى كلام الكاتب شىء من الوجاهة ، ولكن ليس الوفاء وحده السبب فى جعل عدة المتوفى عنها أربعة أشهر وعشراً ، ولكن السبب أن بعض الزوجات قد يكون منهن ما يوقعهن فى معصية إدخال طفل من رجل آخر على الزوج وقد نهى الرسول عن إدخال وارث وإخراج وارث .

ويكون ما ذكره الكاتب من قبيل الحيطة والحذر والتغليق لأبواب الشر التى أغلقها أوحاول الشرع إغلاقها[1] .

ولست أدرى ما الذين يقصده الكاتب من أن للزوجة إذا ماتت مثل هذا الحق على الزوج فى العدة وإن لم توجبه الشريعة ؟ . إن كان يقصد بذلك الوفاء فذلك شىء محمود وهو نوع من البر والوفاء الذى تقضى به شعائر الإسلام ، وإن كان يقصد أن الرجل يعتد أربعة أشهر وعشراً إذا ماتت زوجة كما تعتد المرأة إذا مات زوجها فهذا ما لا يوافقه عليه شرع أو يسانده فيه نص . وإن كان يقصد أن الرجل يحتد أى يلبس الحداد على الزوجة أربعة أشهر وعشراً إذا ماتت فليس ذلك مما أمر به الشرع . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديث له ما معناه « لا تحتد امراة ولا رجل على امرأة ، ولا امرأة على رجل إلا المرأة على زوجها أربعة أشهر وعشراً » .

وفى ذلك صيانة للأنساب وحياطة لها ، واختبار للأرحام ، ووفاء من الزوجة للزوج ولهذا منع الشرع خطبة المرأة المتوفى عنها زوجها فى عدتها . وبالغ فيها أكثر من المبالغة فى عدة المطلقة ، فإذا كانت العدة فى الطلاق ثلاثة أشهر مثلا فقد زادت أربعين يوماً عليها عدة المتوفى عنها زوجها ، زيادة فى صيانة وحفظ وحياطة الأنساب ، واختبار الأرحام والوفاء الذى يحرص عليه الإسلام ، ويؤكد عليه فى الخلية الأولى للمجتمع بين الزوج وزوجه .

ومن هنا نهى الإسلام عن خطبة المتوفى عنها فى عدّتها وحرم العقد عليها فيها قال تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم على أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧٩ .

سرًّا إلا أن تقولوا قولا معروفًا ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم »[١]

وقد أجاز الأئمة التعريض للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة، أما المواعدة سرًّا من نحو التصريح بحبها أو المعاهدة على أن تتزوجه أو لا تتزوج غيره أو أخذ الميثاق به فقد نهى الله عنه ولا يصح العقد فى مدة العدة ، واختلفوا فيمن تزوج امرأة فى عدتها فدخل بها فإنه يفرق بينهما . وهل تحرم عليه أبداً على قولين ، الجمهور على أنها لا تحرم عليه أبداً ، أما الإمام مالك فقب ذهب إلى أنها تحرم عليه على التأبيد ، إعمالا لقاعدة من استعجل بشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه . وقاسها على القاتل فإنه يحرم الميراث[٢] .

هذا إذا لم تكن حاملا ، فإن كانت حاملا كانت عدتها وضع الحمل ولو زادت عن أربعة أشهر وعشراً فإذا انقضى تابع للعدة بالشهور[٣] .

كانت هذه رحلتنا مع هذا المجلد من هذا الكتاب الذى اعتبره صاحبه ونعتبره رصداً وتسجيلا لمشاعره إزاء ما يقرأ من القرآن أحسن مما يقال إنه تفسير أو تفسير قرآنى للقرآن .

ومن خلال هذا الرصد وذلك التسجيل للمشاعر كانت ملاحظاتنا ، ومن خلال محاولته أن يكون تفسيره عصريًّا كانت وقفتنا معه ، وقد حرصنا على إبداء تلك الملاحظات فى هذه الصفحات ، ونأمل أن تكون خالصة لوجه الله . والله من وراء القصد ، وهو يقول الحق وهو يهدى السبيل .

دكتور سعد ظلام

---

(١) البقرة – ٢٣٥ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٨٦/٢٨٧ الحلبى – القاهرة . .

(٣) زاد المعاد لابن قيم الجوزية جـ٤ ص ٢٢١ المطبعة المصرية رمضان ١٣٧٩هـ .

فهرس العدد

صفحة

فى التوكل على الله

قال صلى الله عليه وسلم :

من قال (يعنى إذا خرج من بيته) بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له : هديت وكفيت ، ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان وكان إذا خرج من بيته يقول أيضاً :

بسم الله . توكلت على الله . اللهم إنى أعوذ بك أن أضِل أو أضَل ، أو أزِل أو أزَل ، أو أظلِم أو أظلَم أو أجهِل أو يجهَل على » .

stand in need, benevolence unto parents and help unto the poor are all equally ordained. Briefly Islam enjoins good manners and nable conduct and so to labour in this world that you may attain happiness in the hereafter.

It is for this reason that Islam enjoins us to resist our own inclinations so that we may be of the elect abiding in the Kingdom of Heaven and that we may attain blessedness in this world and in the hereafter. It points out that our worst enemies are falsehood, misguidance, injustice, oppression and dissoluteness in any form they may assume, not only in others but even in our own selves.

Islam enjoins mercy and benevolence unto mankind and kindly treatment of them; to seek their benefit and to afford them opportunities of gain and, prosperity; and above all to ward off any evil befalling them.

In short it enjoined kindness, charity, faithfulness, kindly treatment of the neighbour, wayfarer, and guest and, lastly, kindness to animals.

Nor was the acquirement of knowledge left out of Islam. It ordained that man should acquaint himself with a measure of knowledge requisite for the amendment of beliefs, manners and conduct and the amelioration of life's conditions.

It enjoins righteousness which constitutes the refraining from any harmful act prejudicing one's chances in this world or in the hereafter, loyalty and fidelity in the cause of Allah and the faithful performance of worship for as the Tradition says :

«اُعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»

"Worship Allah as if you behold Him, for if you do not behold Him, He beholdth you."

(*Tradition.*)

It enjoins good counsel to mankind and the practice of patience and the resignation to the will of Allah.

It enjoins propriety of conduct, forbearance and satisfaction in the doing of good, as well as liberality, magnanimity, courage, zeal and manliness.

It enjoins prudence, judiciousness in judgment, thankfulness and fear of the Almighty and faith in and resignation unto Him. It further enjoins mercy to and compassion upon mankind,honesty and integrity, fulfilment of covenant and promise, perfect faith and yet to labour for one's living, toleration, hastening to the doing of good and also un wavering determination in upholding the tenets of the Religion. It enjoins love of Allah, the seeking of His favour, and reliance upon Him. Lastly it enjoins to free the human soul from the dire influence of desire and to bring it to account for the wrongs perpetarted by it, thus purging it of all the defects and imperfections which defile it.

"To be Continued"

pleasure of Allah and his approval of all that is pure and righteous of your actions, so that you may become the viceregent of your Lord and acknowledge no favours except those bestowed by Him.

It requires you to feel that you are an active and beneficent member of society who disdains to imitate or to be dependent on others or to be outrivalled by them in any virtue.

It enjoins you to seek exaltation through Allah and humility unto Him. It requires you to use your mind and powers in whatever useful avocation that has fallen to your lot, and to fear none save Allah as long as you practice what He has ordained.

Islam enjoins the belief in monotheism for which the reason can accept no other substitute and whithout which the hearts of men will find no comfort or peace.

All are humble unto Allah,- mere subordinate creatures; and the most favoured by Him are the righteous who obey His cmmandments.

The creed ordained by Islam has thus rendered man great and self-respecting and caused his heart to feel pride and exaltation. Small wonder it should be so when man realises that such attributes as greatness, majesty and grandeur could only pertain to the one, omnipotent and all-pervading Lord, and that all are mere subordinate creatures seeking His favour.

One of the great injunctions of Islam is to screen the failings of your fellow-Moslems and to keep away from places of suspicion lest others be tempted to evil thought and to slander.

Islam requires you to do favours unto your fellow-Moslems even by mere mediation or commendation.

Another commandment of Islam, is to hasten to greet and shake hands with any Moslem so that the credit of a good act will be yours.

Another commandment is to defend your friend in his absence and to protect, by word and deed, his honour and property.

Yet another commandment is to commiserate with your fellow-Moslems in their afflictions; to call on their sick, attend their funerals, visit their graves and offer prayers for the salvation of their souls.

Islam enjoins justice unto all people and to wish for them the same as you wish for your own self—exaltation, security, health, goad reputation and prosperity.

It ordanis prayers in gratitude and thankfulness to the Beneficent Bestower, fasting which leads to the elevation of minds and to the purification of souls, and almsgiving which constitutes the allotment to the poor of one fortieth (or two and half per cent) of the capital per year, in gaining Allah's favour and people's affection.

Nor are the other forms of charity left out in Islam. The giving unto the kindred of that which they

practices of the so-called Moslems of to-day.

Were it only for those radical reforms alone, which were introduced within a short period after the advent of Islam, and the reasons for which non-Moslems failed to discover for centuries after, the Moslem Religion should be accorded the highest honours by the just and discerning critic.

It should be remembered that this field of discussion is far too wide to be covered in detail with any tolerable measure of success I can only express very little of what I feel, which in turn is but a shadow of those comprehensive and all-pervading teachings of Islam.

The Qoran says :

«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» .

"Were men and Djinn assemble to produce something equal to the Qoran in eloquence, rhythm and superb meaning, they could not, under any circumstance, produce anything like it. Nay but they could nat do it even though they co-operate together for the purpose and support one another as they may."

(*Alucy's Commentary.*)

Surely the sense of justice and fair play will have moved you by now to appreciate this saying of the Prophet of Islam :

«بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»

"I am sent unto mankind to perfect noble conduct";

(*Tradition*).

as well as The Lord's saying in reference to the Qoran :

«وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» .

"It is an incomparable Book which yields to no abrogation or distortion and into which no falsehood could find a way from whatever side. It is a missive from The Wise. Lord to Whom all praise is due for the bounties He has bestowed upon mankind."

(*Baidawy's Commentary.*)



We will now proceed to consider some of the injunctions of Islam.

Islam requires you to be self-respecting enough not to degrade yourself by imitation of the beasts below you; to be great enough not to be a slave to your passion and desires; and to be dignified enough not to glorify anyone save your Lord.

Islam enjoins you to seek the

IV

Islam directed mankind to the path of goodliness and pointed out the worldly advantages accruing therefrom, as exemptified by the Tradition :

«مَنْ وَصَلَ رَحِمَهُ زِيدَ لَهُ فِى عُمْرِهِ وَوُسِّعَ عَلَيْهِ فِى رِزْقِهِ»

"Whoso giveth unto his kindred, will his life be blest and his prosperity augmented."

(*Tradition.*)

One of the most excellent tenets enjoined by Islam is to feel, in the performance of worship, entire submission to the sublime majesty of Allah and to be filled with complete awe and veneration for His grandeur and glory as such will act as a deterrent against committing sin and cause the soul to revert to its original purity. It also impresses upon you that you have a spiritual entity apart from your worldly one, and that you should not seek the world eagerly to the exclusion of all else, as by so doing you will engage in protracted contention with people and will only earn their hatred and animosity.

The material world should have as little fascination as possible for you and should exercise no more than a passing influence over your heart; for only thus will you know happiness and content and enjoy the love and good-will of people.

It would take a very long discourse indeed, should we continue to discuss all the moral and material features which Islam embraces. We may, however, later recount some of the excellent features of prayer and the other rites of Islam. Suffice it to say that ablution is now admitted by all people to be beneficial for many diseases particularly those of the nose. The thrice rinsing of the mouth and the constant use of the tooth brush requisite for the health and good care of the teeth and the sweetening of the breath were strongly insisted upon, particularly after sleep; somuch so that the Prophet well nigh made of them a religious injunction.

No less healthy and cleanly is the practice of frequently washing the feet; this, moreover, prevents any odour emanating therefrom which would be the case should they be left for a long period without being washed.

As such and other features of Islam have become known to the world, many have taken up the cudgels for Islam because of their complete satisfaction and admiration thereof, being convinced that the true Moslem Religion utterly repudiates many of the obnoxious

Also :

«وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ» .

"The recompense of evil is a like evil, but he who forgiveth the offender and reconcileth himself to his enemy and overlooketh the harm done him, will the Lord afford ample recompense."

(*Alucy's Commentary.*)

It describes the righteous thus, as :

«وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ. وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» .

"Those who suppress anger and give no vent thereto and forego the punishment of offenders."

(*Baidawy's Commentary.*)

Islam recognised the eagerness with which men seek the fleeting world and the sad regret with which they view the lost opportunities to secure material ends. They assign causes to their failure to avail themselves of those opportunities, but they progress no further in the direction of real knowledge and remain ignorant of the underlying causes which transcend allhuman knowledge or comprehension and whose minute workings are ordained from on high.

The following verse is significant in this connection :

«مَآ أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ» .

"No misfortune is there, that afflicteth the earth as dearth, sterility, blighted crops or earthquakes; or that afflicteth your persons as disease, plague wound or injury, but ere Allah caused it, was hnown to Him and recorded in the Book of Divine Decrees; for such is easy unto The Lord."

(*Alucy's Commentary.*)

Islam has strongly urged justice- in which is comprised the restraint imposed on the self to keep within certain assigned limits. It enjoined all virtues and fordabe all vices for thus it saith :

«إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْىِ» .

"Verily Allah enjoineth justice, the doing of good and the giving to the kindred that of which they stand in need; and forbiddeth the following of lustful desires, evil and oppression."

(*Baidawy's Commentary.*)

ous, yet it recognised the tendency of the soul to succumb to the forbidden and ordained the most effectual remedy to counteract this tendecy:

« اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » .

"Fear Allah wherever you may be and cause the good deed to follow the evil so that it may be expiated thereby, and treat people in a kindly way;"

(*Tradition*).

and

« لَا يَبْلُغُ الرَّجُلُ دَرَجَةَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ مَخَافَةَ مَا بِهِ بَأْسٌ » .

"Man will not attain to the exalted position of the pious until he refrain from the mere permissible lest he be tempted by it to lapse unto the forbidden."

(*Tradition.*)

It recognised that souls are susceptible to take offence at the least thing and that hatred and malice may be borne even against a well-meaning offender. It has therefore urged to peace-making and reconciliation among people and made such an act one of the best a man could do :

« لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » .

"Vain are their deeds except those who enjoin charity, do good and make peace between men. Whosoever doth that to please the Lord, will the Lord recompense beyond all measure."

(*Alucy's Commentary.*)

It recognised that human souls are prone to revenge and are not content, in the exercise of justice, with mere retribution. The offender might, out of pity, be forgiven on the grounds of ignorance or the overwhelming motive which impelled him to commit what he has committed. Forgiveness will, in such a case, be more compatible with mercy and farther removed from injustice and iniquity.

Islam has, therefore, repeatedly urged to forgiveness for thus it saith :

« خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ »

"Use indulgence with sinners and forgive their transgression, and enjoin good deeds and return not the evil of the ignorant with a like evil."

(*Alucy's Commentary.*)

"Let ye enjoin the good and forbid the evil, prevent the iniquity of the unjust and force him back to the truth, lest hatred of one another be engendered in your hearts and ye be accursed as were the sons of Israel."

(*Tradition.*)

Islam recognised the inherent love of life and the covetousness of material ends in born in men, the hatred and the envy engendered in the hearts of the poor against the rich and the love of pelf and the cupidity of the latter. It, therefore assigned a share of the wealth of the rich to the poor every year and prescribed its collection by force if need be.

Islam has, furthermore urged the rich to charity so that enmity and hatred may be exterminated from the hearts of the poor and love and good-will substituted instead; also, that the rich may thus set themselves free from the vices of avarice and cupidity :

«وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

"Expend of what the Lord hath given unto you in the manner He ordained and save yourselves from the greed of your souls that ye may prosper."

(*Baidawy's Commentary.*)

It urged to lend the needy and set a greater value thereon than on chairty. By the forbiddance of all and any interest on loans, Islam has striven to strengthen the bonds of love and implant kindness and benevolence in the hearts of men.

It is deplorable, indeed, to see how far mankind have, to their detriment, disregarded the dictates of virtue. The reforms clamoured for by extremists in many Christian countries are not, indeed, without justification. Evil institutions are undermining the very edifice of society in those countries and a complete collapse is only averted through constantly grappling with the exigencies of the moment. But did they only give the question of religion their serious consideration, they would find in Islam and its benign teachings a perfect panacea for all their social evils.

Islam recognised the worldly needs of man and his tendency to covet material ends as a means to his welfare. It pointed out that therein lies the cause of his wretchedness and soul-ruin and ordained

«مَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا حَلَالاً فِي عَفَافٍ كَانَ فِي دَرَجَةِ الشُّهَدَاءِ»

"Whoso seeketh the world within the bounds of the lawful and according to the dictates of virtue, will be reckoned in the same category as the martyrs."

(*Tradition*).

It urged to righteousness and pointed out the signs of the righte-

"It is of good Islam that one should severely let alone what doth not concern one."

(*Tradition*).

In view of the inherent propensities of men, Islam recognised the advantages accruing from the enjoinment of good and the forbiddance of evil

«لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ »

"Let ye enjoin the good and forbid the evil, or will the Lord send the wicked among you to perpetrate evil, then the righteous will pray for deliverance in vain."

(*Tradition.*)

It showed that disregard of such an injunction would inevitably result in the disruption and downfall of nations. It referred to a people who evoked, through their sins, the wrath and damnation of the Lord thus :

«كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»

"The unbelievers forbade not one another such sins as they have committed before. Detestable indeed were their wicked actions."

(*Baidawy's Commentary.*)

Another verse counsels :

«وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »

"Fear ye a sin that will affect not only those who committed it but will affect you, one and all, in your entirety."

(*Alucy's Commentary.*)

The Prophet saith in this connection :

« إِذَا عُمِلَتْ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَأَنْكَرَهَا كَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا »

"If a sin be committed on earth, he who hath witnessed it and condemned it, will he be absolved of its sin; and he who hath not witnessed it and yet approved of it, will he be made a party thereto."

(*Tradition.*)

Another Tradition orodains :

«لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ؛ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ ثُمَّ لَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْرًا ؛ وَلَتَقْسِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَسْرًا ؛ أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ ، ثُمَّ يَلْعَنُكُمْ كَمَا لَعَنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » .

own; but a mere illusion attaineth not unto any truth."

(*Alucy's Commentary.*)

Also :

«وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ»

"If thou followest the counsels of the unbelievers or of the ignorant, they will lead you astray from the path of righteousness, for they counsel nought but evil and follow a mere conjecture, and utter only untruths."

(*Baidawy's Commentary.*)

It showed that the path of righteousness could not be approached by way of conjecture or falsehoad and that it could only be found through sound and sane reflection. Hence the frequent repetition in the Qoran of such verses as :

«إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»

"There is verily a sign in such and such a thing for a people who understand ;"

and

«إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»

"There is verily a sign in such and such thing for a people who reflect."

It reproves others thus :

«أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا»

"Have they not reflected !"

and

«أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا»

"Have they not witnessed!" and other like verses.

Islam recognised the value of time and that men are prone to waste it in vain discourse or futile pursuits. It warned against such waste and strongly urged us to make good use thereof. It described the blessed thus :

«وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ»

"Those who avoid vain discourse and futile pursuits and busy themselves with useful avocations."

(*Alucy's Commentary.*)

The Prophet said in this connection :

«إِنَّ اللهَ يَكْرَهُ أَنْ يَرَى عَبْدَهُ فَارِغاً مِنْ عَمَلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»

"Verily Allah detesteth to see man unoccupied with a pursuit of this world or of the hereafter;"

(*Tradition*).

also

«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»

"The most bitter enemy is thine own soul that lieth within thy breast."

(*Tradition.*)

And

«إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ»

"Verily the soul inciteth to evil."

Islam has recognised the in fluence exercised by passion over the minds of men, and has forcibly cautioned them against it. It has exposed the role it assumes in the direction of their souls and to what extent it holds sway over their hearts.

So great indeed is the influence of passion over men, that it was refered to in the Qoran as a deity worshipped to the exclusion of Allah :

«أفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً» .

"Hast thou not seen he who hath deviated from the right path and so eagerly followed his passion as to make a deity thereof, and Allah hath forsaken him knowing of his misguidance and corruption of his soul, and hath sealed up his ears and heart so that he hearkenth not to goodly exhortations and is heedless of the signs of Allah."

(*Baidaway's Commentary.*)

It warned against following the precipitous path of passion :

«وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ»

"Follow not the passion of thy soul lest it causeth thee to miss the signs of Allah with which He hath indicated the path of rectitude."

(*Alucy's Commentary.*)

And promised the righteous :

«وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» .

"He who hath feared his trial before his Lord on the Day of Judgment, hath curbed the unlawful desires of his soul, and was heedless of wordly gratifications, verily, Paradise shall be his abode."

(*Alucy's Commeutary.*)

Islam found mankind groping in the darkness of superstitions and delusions and reached forth a helping hand unto them to save them from the dire influence of conceit as signified by the verse :

«إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وَإنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً» .

"The unbelievers follow but a mere illusion, a false conceit of their

"A true Moslem is he who spareth his fellow-Moslems the evil of his hand and tongue."

(*Tradition.*)

It urged strongly to faithfulness and benevolence and warned against the insiduousness of hypocirisy and deceit whose taints corrupt the souls and detract from virtue :

« إنَّ الشِّرْكَ (الرِّيَاءَ) أَخفَى فِيكُمْ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ »

"Verily hypocrisy is more imperceptible in you than the crawling of ants in the darkest of nights."

(*Tradition.*)

It recognised the natural tendency of mankind to injustice and warned against it in the most vehement manner, for thus it saith :

« مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إلَّا يُجَاءُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ فَلَا يَفُكُّهُ إلَّا الْعَدْلُ » .

"No prince is there who rules over but ten people, but will be brought on the Day of Judgment with his hands chained together, and none will set him free save the justice he dispensed."

(*Tradition.*)

It insisted on maintaining Divine Justice, also benevolence, charity and compassion and made this incumbent on all people so that no one escaped the responsibility; for it most wisely saith in this connection

« كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »

"Ye are all shepherds and ye are all responsible for you flocks."

(*Tradition.*)

Islam recognised the evil propensities of mankind and the ceaseless efforts on their part to satisfy their passions and desires, thus missing the good life and depriving themselves of blessedness and salvation.

It has transcended, in this respect, the knowledge of the greatest pedagogues that ever existed. It warned you against your own self as against your most inexorable enemy, for the wiles and guiles of the soul are the most pernicious and farthest removed from the sphere of consciousness. To succumb to temptation and to follow the precipitous path of passion will inevitably lead to deviation and perdition

The Tradition has said in this connection :

« أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ »

N.B. — The soul is distinguished from the spirit. It may be called the self or the animal soul.

It strongly urged doing good unto all people whether you happen to know them or not. Nay, it goes further still and ordains the clearance of all harmful things from the path of people and considers such an act a sign of true belief.

Nor was the social side neglected in Islam. Good manners were insisted upon to such an extent, that the eating of garlic and onions before going to a meeting or visiting a mosque was forbidden lest the susceptibilites of other people might not be offended. Nor is that all;a bodily cleanliness and, on the occasions of meeting people, the use of perfume is recommended.

Islam ordained cleanliness. It prescribed, over and above the daily ablution, bathing one's self as an essential obligation particularly on Friday on account of the congregation that takes place on that day for prayer.

Not only has Islam urged to cleanliness, as pointed out before, but it requested further to have oneself perfumed. In short, it requested you to afford your brethren-in-Islam all possible pleasure and happiness and promised you the highest recompense therefore.

Islam united the believers with the strongest bond of brother hood which Allah hath fostered between them and made them thereby one family despite the difference of their races and the distances that separate their countries :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »

"Verily believers are but brethren."

III

Islam, so much enjoined love of one another that true belief was made conditional thereupon; for thus saith the Tradition :

« لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا »

"Ye shall not enter Heaven until ye believe, and ye shall not believe until ye love one another."

It ordained good counsel and made it to cover the whole religion as signified by the Tradition :

« الدِّينُ النَّصِيحَةُ »

"Religion is good counsel."

It enjoined the believers to refrain from inflicting harm on others and made such desistence the very essence of Islam for thus it saith :

« الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ »

"The best of you is he who is benevolent unto his people, and the worst of you is he who is malevolent unto them;"

(*Tradition.*).

also :

« إنَّ الرَّجُلَ لَيُحْشَرُ مَعَ الْمُتَجَبِّرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ عِنْدَهُ غَيْرُ أَهْلِ بَيْتِهِ » .

"Verily, man will be huddled together with the overbearing tyrants on the Day of Resurrection and yet he has had no others to illtreat except his own folk."

(*Tradition.*)

The Holy Qoran prescribes :

« لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً » .

"Worship ye none other than Allah and be kind and benevolent unto parents, the kindred, the orphans and the poor, and treat people with kindness."

(*Baidawy's Commentary.*)

« وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً » .

"And serve Allah and do not associate anything with Him and be good to the parents and to the near of kin and orphans and the needy and the neighbour of your kin and the alien neighbour (stranger) and the companion on your journey and the wayfarer' and those whom your right hands possess. Surely Allah does not love him who is proud, boastful."

It first of all enjoined the worship of one God for He is the source of all good; then it ordained benevolence towards the parents on account of their love for and favours to you; then the kindred on account of their relationship, and according to their proper degree of kinship; then the orphans who have lost their providor and found nowhere to turn to; then the poor and needy; and lastly kindly treatment to all others.

Islam insisted on the kindly treatment of the neighbour so much so that the Prophet Muhammad saith in this connection :

« مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ »

"So often did Gabriel exhort me to kindly treatment of the neighbour, that I bethought he will give him the right even to inherit."

(*Tradition.*)

nebulae[1] or diffused gaseous matter from the verse :

«ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ»

"After the creation of the earth, The Lord applied Himself to the creation of the heavens which were in a gaseous state."

We quote the before-mentioned as we wish to point out that the Qoran does not contradict the facts established by science; nor is it unyielding to the proofs thereof to deserve to be called an enemy of science as is alleged by wily missionaries and misinformed Christians who know nothing of Islam.

Many European philosophers have, however, commended the Moslem Religion and its teachings.

Bentham[2], the great English philosopher and one of Europe's most able men of letters, has said that he who practices the tenets of virtue ordained by the Moselm Religion will never commit a sin or perpetrate a crime.

Societies in Europe and America have been established of late to promulgate a new religion which they call "the natural religion"; all the fundamental principles thereof are identical with those of the Moslem Religion.

* * *

We will now proceed to consider the teachings of Islam in some detail.

Islam ordains to seek your own welfare, that of your own people, your neighbours and all others. It forbids exposing yourself to danger as ordained in the verse :

«وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ»

"Allah ordains, not to throw yourselves with your own hands into destruction."

(Baidawy's Commentary.)

It forcibly warns against committing suicide and acts as a deterrent, through the love and veneration of Allah which it engenders in the hearts of men, to restrain people from exposing themselves to danger and rushing headlong into destruction.

Man-made laws exercise no such influence over mankind and utterly fail in restraining people from committing suicide. Hence the prevelance of this evil in Europe and America.

Islam enjoins esteem and kindly treatment of the wife-for thus the tradition ordains :

«خَيْرُكُمْ مَنْ كَانَ خَيْرُهُ لِأَهْلِهِ
وَشَرُّكُمْ مَنْ كَانَ شَرُّهُ لِأَهْلِهِ»

(1) The nebular hypothesis expounded by Laplace and Sir W. Herachel to the effect that nebulae form the earliest stage in tne formation of stars and planets.

(2) Jeremy Bentham (1784 - 1832) exponent of doctrine of utilitarianism summed up by Priestly as "the greatest happiness of hie greatest number."

and

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ»

"We will shew the unbelievers Our signs through the signal triumphs of Islam in distant climes."

(*Baidawy's Commentary.*)

Recent discoveries have disclosed many undreamt of marvels of heavens and earth to which the Qoran referred long before.

In this connection we should allude here to the possible meanings which many Qoranic verses may be taken to imply. The rotation of the earth for instance could be implied by the verse :

«وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ»

"And each one, doth journey in an assigned orbit;"

(*Alucy's Commentary*)

In fact, the Qoran does not contradict anything which science has definitely established and very often includes a reference to scientific facts or is at least in harmony therewith.

The verse :

«وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ»

"And a sign unto the ubelievers is that We have caused their offspring to embark on full-laden craft in pursuit of trade."

(*Baidawy's Commentary*).

«وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ»

"And We have created of the like of them such other things as they may embark on."

(*Baidawy's Commentary.*)

may be taken to refer to airships, etc.

Other modern vehicles could be inferred from the verse :

«وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ»

"Allah hath created among other animals, horses, mules and asses that ye may ride them and make use thereof in splendor and display : and other things which ye know not, doth He create."

(*Alucy's Commentary.*)

It is feasible to deduce that the earth was a part of the sun as is now established by astronmers, from the verse :

«أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا».

"Have the unbelievers not known that the heavens and the earth were joined together in one solid mass and that Allah hath separated them and made of them distinct-bodies."

(*Alucy's Commentary.*)

Again it could be easily inferred that the heavens were composed of

cuted by the French in Algiers and hounded down and banished by the Russians and were, therewithal, hated and despised wheresoever they set foot.

and

«وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ»

"But they shall never wish for death on account of the sins they have committed."

The Jews who worshipped the calf, claimed that Paradise is exclusively assigned to them to the exclusion of all other people. In refutation of their claims they were challenged to wish for death if they were so sure of going to heaven, but never will they wish for it on account of the sins they have committed.

(*Baidawy's Commentary.*)

Nor was that the only prophecy that came true. The Qoran prophesied many other future events as testified by the following verses :

«سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ»

"The host of unbelievers shall be utterly routed and shall take to their heels"(1)

(*Alucy's Cammentary.*)

(1) This referred to the Battle of Badr in which the Muslims complet routed their enemies.

and

«لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ»

"Ye shall enter the Sacred Mosque by Allah's decree in full security."

The Moslems were promised to enter Mecca in full security and this verse was revealed to the effect that they would enter the Sacred Mosque in Mecca; this entry was accomplished soon after;

(*Alucy's Commentary.*)

and

«غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ»

"The Greeks have been defeated by the Persian's in the nearest boundary town. But after their defeat, they shall overcome their foes."

The unbelievers of Mecca rejoiced at the victory as the Persians were unbelievers like themselves and the Greeks were followers of Scriptures like the Moslems. This verse was thus revealed foretelling a victory of the Greeks and over the Persians and was, fulfilled a few years later;(2)

(*Baidawy's Commentary.*)

(2) The victory of the Greeks referred to in the verse, took place about the third year of the Hejra.

Yet another discovery is the recognition of the advantages derived from ablution. Not only is it effectual against mouth and nose diseases, but it is also one of the most important preventive measures against consumption, the nose being the chief medium through which this virulent disease is contracted.

Small wonder therefore, that noses which are washed fifteen times a day should be completely free from the germs of this malignant malady. It is significant in this connection, that cases of consumption in Moslem countries are few and far between whereas they are decidedly more prevelant in other countries.

Again the Qoran proclaimed that men were created out of dust. a fact which was completely unrecognised at the time of its revelation-as signified by the verse :

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ»

"And of the signs of Allah, is that He hath created you out of mere sorry dust and then caused you to spread far and wide on the surface of the earth."

(*Alucy's Commentary.*)

This fact is now as well known as it is indisputable. The germ of life owes its origin to nutriments derived from animals dependent for their life on plants or from plants produced directly from earth.

Again the following verse is significant :

«بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ»

"Allah hath caused the first creation, but men are dubious of a new one."

(*Alucy's Commentary.*)

The Qoran recognised the continual metabolism in man and that the tissues of the human body are periodically destroyed and renewed. The processes of anabolism and catabolism are ever taking place.

The Qoran has further foretold the persecution of the Jews and their continued suffering under the yoke of others as testified by the verse :

«وإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ».

"And thy Lord hath declared that He would surely send against the Jews, until the end of the world, those who would inflict on them severe punishment and subject them to tyranny and humiliation."

(*Alucy's Commentary.*)

In fulfilment of the above, the Jews were scattered all over the world. They were ruthlessly perse-

ped in the days of yore to the exclusion of God."

(*Alucy's Commentary.*)

until recent discoveries disclosed that the Sun is a million and three hundred thousand times greater than the earth and that the Sirius is many times greater than the Sun and that the light of the Sun is one fiftieth of the light of the Sirius.

Through the development of natural sciences, many astronomical, medical and geographical facts referred to in the Qoran were definitely established. Nor did social, ethical and economic questions lack corroboration. Recent scientific and philosophical researches have fully borne out the concepts of Islam.

Some of these concepts pertaining to the hereafter and the planes of the spirit world, have long been made the object of derision and ridicule. The establishment by Islam of spiritual, apart from material worlds, was considered mythical and absurd. It was not until a faint ray of light from that prodigious world filtered through to us by means of spiritualism, which is already fast becoming an established fact, that the deriders of Islam realised their mistake and were convinced of what the Qoran says :

«وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ»

"And none is apprised of the varieties of Allah's creatures save the Lord Himself."

(*Alucy's Commentary*).

They knew, through the manifestations of the spirit which has broken all known material laws, the secret of the Lord's saying :

«قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً»

"Say ! the spirit which is the cause of life is a hidden secret which the minds of men fail to comprehend and whose reality is only known to Allah. The knowledge ye are given in that respect is but an iota compared with the infinite knowledge of Allah."

(*Alucy's Commentary.*)

Among other corroborative discoveries, is the prohibition of drinking water contained in a copper vessel and left exposed to the sun in hot climes on account of the chemical reaction that takes place.

Another discovery is that of eating salt which certain Islamic traditions hold to be an effectual cure of many diseases. Medical men were at first dubious regarding its efficacy and were disinclined to endow common salt with such curative properties. The discovery, however, was made and the facts thereof published in medical journals, the discoverer having shown that a hypodermic injection of saline solution is a sure remedy for many ailments(1).

(1) Dose 8 grammes of salt to every 1000 grammes of water injected under the skin.

«حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» .

"Till they came to the Valley of Ants(2); said an ant, "O ye ants, enter your dwellings, lest Solomon and his hosts crush you and they know it not".

This verse taken for a mere similie or a kind of metaphor until the entomologists unravelled many astounding mysteries in the life of ants and the real meaning of the verse was thereby disclosed.

مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ » .

"Glory be to Him who hath created all pairs of species of what the earth produceth(1), and of mankind themselves and of what they now not."

(*Baidawy's Commentary.*)

Commentators used to interpret these verses according to the scientific standards recognised at the time. It was not, however, until natural sciences discovered male and female species in plants, that we realized the full significance of those verses.

Again, such a verse as :

II

The Holy Qoran contains, moreover, the most striking references to animals which have caused the scientists of Europe no small amazement. An orientalist is said to have remarked in this connection, that there is nothing more clearly significant of the importance of animals than the Qoranic verse :

«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ »

"No kind of beast is there living on the surface of the earth in any region thereof, nor bird that flieth in any clime with its wings, but are communities like unto you."

(*Alucy's Commentary.*)

Again, we were not aware of the magnitude of the Sirius(3) to which the Qoran referred in the verse :

« وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى » .

"And that He (Allah) is the absolute Lord of the Sirius worship-

(1) Plants and trees.

(2) A valley in Syria abounding in ants.

(3) The Dogstar or Canicula, the brightest star in the heavens. situated in the constellation of Canis Major. or the Great Dog.

anity, an obligation of the rich towards the poor.

This measure of legal taxation for alms is what certain parties in European countries persistently clamour for. They insist on the assessment of a levy on capitalists who contribute nothing to the public treasury in contradistinction to property and land owners.

There are other parties which call for the adoption of certain reformative measures corresponding, in more than one way, with the teachings of Islam; for lack of space these cannot be mentioned here.

Briefly : intuitive, scientific and empirical knowledge have all combined to prove the verity and truth of the Moslem Religion even in regard to the most transcendental questions as well as to other questions which were positively denied by past generations.

People were wont to deride the idea of the extinction of the luminary planets and the destruction of the universe until recent discoveries have shown that the celestial world is composed of the same constituents as this world; they discovered that potassium, for instance, is a constituent element of the sun, that the heat of the sun is gradually diminishing and that the laws of this terrestial world obtain in the celestial worlds as well.

We have already pointed out that Islam is in complete harmony with the natural sciences. In fact, Moslems themselves were ignorant of the significance of many of the Qoranic texts until the progress of natural sciences disclosed the meaning thereof—as for instance, the pollination of trees by winds which was only recently discovered. Over thirteen centuries ago the Qoran referred to this phenomenon in the verse : —

«وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ» .

"And We sent forth the pollinating winds."

This verse was interpreted according to the standard of knowledge of the period, until its full meaning was at last disclosed and the verse stood out - a marvellous sign of the Holy Qoran.

Again the verse

«وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» .

"And We have caused to grow in it[1] all pairs of beauteous species".

and the verse

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ»

"And of everything have We created a pair"

and the verse

«سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا

(1) The earth.

their bitter censure and condemnation. Subsequent events and disasters have, however, pointed to its efficacy under certain conditions and shown the advantages accruing thereform. The consequent increase in the number of men, the following augmentation of power and the amelioration of conditions in every sphere of life are too evident to need to be enumerated. The necessity of polygamy is particularly shown after devastating wars in which thousands upon thousands of men are lost to the race and countless numbers of women are rendered widowed in consequence.

The Moslems have often been envied the great increase of their number within short periods; this is on account of the prevalence of marriage among them.

We have lately noted with interest, the vigorous campaign conducted in the Christian press to encourage marriage among Christians. It is significant in this connection that the question of illegitimate children in Christian countries is assuming great dimensions and causing serious consternation and alarm; this is because their people have turned from the lawful to the unlawful, from the limited to the unlimited and from truth and rectitude to hypocrisy and deceit.

England on her side has officially prohibited prostitution. It has recognised, as Islam did, the serious harm which affects the race when such a breach of morality is licensed by the state.

Another teaching of Islam, is that in connection with speculation. Nations have introduced a law prohibiting speculation save within certain limits very nearly identical with the teachings of Islam.

Yet another teaching of Islam is alms-giving; regarding this a French orientalist says : —

"The Moslem Religion affords the most effectual safeguard against the menace of communism which threatens to disrupt the social structure and to shake the world-peace to its very foundations. This safeguard, is alms-giving ordained by Islam and constitutes the payment of a portion of the wealth of the rich to the poor every year. It made it incumbent on the ruler to collect these alms even through he had to enforce their collection in the name of the law."

But the knowledge of this French orientalist is even deficent in respect to this matter. Islam has, over and above enjoining the payment of legal alms, urged its followers to secret and public charity and has forcibly insisted thereon. It urges them to lend the needy, and it has set more recompense for such charity than for legal alms-giving.

It ordained that loans should be given free of any interest or advantage accruing to the rich from the poor. Benevolence was thus rendered one of the rights of hum-

well-wielded the sceptre of authority over its followers and exercised the most astounding influence over their minds. It comprised the essentials of all human progress, *viz*. learning and its application. Islam has left out nothing that tends to purge the soul of itsi mpurities and thus fit it for the fulfilment of its function.

Islam thus became the crowning conclusion of all Allah's dispensations and the ultimate end of man's salvation.

It aimed at strict moderation throughout and strove for the purging of minds of the taints of delusion, directing them to the sources of truth and blessedness.

It is inconceivable, therefore, that such a religion could be liable to abrogation or be doomed to extinction.

Indeed, time and the progress of civilisation are, ever and ever, offering fresh proofs of the verity and greatness of Islam. Many of its teachings were considered in olden days as merely devotional and appeared to have no justifiable ground or known cause : such, for example, was the scouring with earth of any vessel which a dog has licked and washing it thoroughly with water, for the dog, it is now maintained, often harbours different kinds of parasitic helminths which infect the human body with devastating results.

Pork, which is now commonly known to be the cause of many diseases particulary tape worm and trichina(1) which play havoc with the human body and very often cause death, was also forbidden.

Abstinence from alcoholic drinks is another ,teaching of Islam. Science has definitely established the pernicious effects accruing from drinking. It weakens the heart, damages the causes cirrhosis(2) of the liver, clouds the intellect and enfeebles the progeny.

Europe and America (conciously and unconciously) are gradually coming nearer and nearer Islam and adopting its teachings day by day.

Non-Muslims were wont to condemn the institution of divorce in Islam. When, however, they found out that it was necessary for the progress of civilisation, and that it is unreasonable to force a man into continuation of matrimony in spite of incompatibility of temperament and inclination, they were obliged to adopt that institution. Divorce courts were therefore established and the number of divorce cases increasing year by year, proves their necessity.

Then again the institution of polygamy. This institution evoked

---

(1) A parasitic worm which infects the intestinal canal and the muscular tissue of man and certain animals especially the pig.

(2) Inflammation and proliferation tending to destroy the liver cells and impede the flow of blood through the veins of the liver.

procur their assigned share of the means of subsistence which Allah hath bestowed as commonweal upon all His creatures.

It forbade interference with their religions and did not compel their adoption of Islam; this was in order that its own merits and clear teachings might be the sole incentive to its adoption. *In no instance, indeed, did Islam have recourse o the sword* to superimpose its will under penalty of death, as other religions did. The holy wars prescribed at the beginning of Islam were not waged to force people to profess that religion, but they were waged in order to defend it against outside attacks and to pave the way for its announcement and propagation so that the world, which was in desperate need of a new religion, might hear of it.

Islam enjoins kindly treatment of the neighbour, the wife, the friend, the parents and children and all kinsmen and others whether they profess it or not. This is prescribed in the most eloquent and clear language. It warned against deviation from these rules on penalty of severe punishment in the hereafter and instituted such temporal penalties as were indispensable for the welfare of mankind.

Such then, are the main teachings which constitute the truths of Islam. They were the light that shone on a world steeped in a Stygian darkness of ignorance, penetrating its uttermost corners. It is the religion of nature for which nature willa ccept no other substitute

The fundamental precept of Islam is the acceptance of monotheism and the purging of souls of sin and wickedness. Its texts clearly point out that salvation is the outcome of mental and moral striving and that deviation and perdition is the result of mental and moral inactivity.

A philosopher has rightly remarked in this connection that the great thinkers of the world have, even from of old, been deeply interested in the search for a religion which fulfils the material needs and the spiritual aspirations of mankind. They searched for one which combined these two in a just and harmonious accordrnce, thus establishing the right proportion betwnen the respective claims of both in such a way as to keep them within bounds and to withhold the one from dominating the other. But they discovered it nowhere except in Islam, which guaranteed salvation in this world and the hereafter, and was not oblivious of either material or spiritual claims.

It is for this reason that the Islamic civilisation was assiduously persued by mankind and that it spread in a fashion unprecedented in the annals of history.

Anyone who has studied history and social science must certainly find that this civilisation was the most progressive and far-sighted of all civilisations and that it has

the defects from which other religions suffer, such as the doctrine of incarnation, trinity, anthropomorphism[1], negation of certain divine attributes and other doctrines which are definitely incompatible with the perfect divinity of Allah.

While followers of other religions are faced with the most serious complications and ambiguities which baffle the intellects, not only of the proletariat but also of the learned classes, the Moslem Religion is absolutely clear on these points and both the proletariat and the learned classes are able fully to understand them. The teachings which were handed down to the followers of other religions were not of such clarity as to be understood without painstaking assiduity; they were so vague and ambiguous on so many points that inquirers were apt to lose their way in a labyrinth of complications.

As for the regulation of temporal affairs and the amelioration of life's conditions, the Moslem Religion is decidedly a clear and limitless fount of information, and an end beyond which no one could aspire.

Islam rendered mankind a most inestimable service which previous religions had failed to offer; nor could the master minds of legislators interested in the organisation of human activities and the amelioration of social conditions, ever discover anything approaching it. It rigidly enjoined charity and benevolence towards the followers of other religions though they are the first, whose maltreatment would strike the imagination as a possible religious injunction.

« وَلَا تُجَادِلُوٓا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

"Dispute not except in the kindliest manner with the People of the Scriptures".

(*Baidawy's Commentary*).

and the Prophet Muhammad ays in this connection.

« مَنْ آذَى ذِمِّياً فَأَنَا خَصْمُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

"Whosoever inflicteth harm on a Zimmi[2], will I be his adversary on the Judgment Day."

(*Tradition.*)

Islam enjoined that Moslems and all others should be treated on a footing of equity. This is clearly shown in various parts of the Qoran and the Traditions in order to realise the fulfilment of justice and the maintenance of equity so that non-Moslems may feel secure under the rule of Islam and may not find therein an unsupportable burden and also that they may

(1) The representation of the Deity in the form of man or with bodily parts.

(2) A Zimmi is a follower of the Scriptures under Moslem protection.

rouse their conscience by contemplation of Allah's blessings and marvels.

Thus it has thrown wide the door for reflection and has delivered mankind from the bondage of imitation.

It spared them the turmoils of faction, and enjoined that the Jew rever Jesus, that the Christian respect Moses and that all should venerate any messenger or prophet who might have been sent, unknown to us, to other people as pointed out in the verse : —

«وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ»

"And the story of others We have told thee not."

Islam is, thus, a universal religion which relies on the mind as its sole arbiter and forbids the submission of man to man or the glorification of any creature.

The Islamic teachings which were revealed to the Prophet Muhammad to announce unto mankind, and the goodly exhortations which were sent through him, to purge the souls of recklessness and sin, constitute an irrefutable and unassailable argument in the face of the most virulent attacks of criticism. These teachings are established on a solid substratum of reason which no criticism could affect or prejudice.

The tenets of Islam are purely intellectual and absolutely uncontaminated with delusion, superstitious beliefs or pernicious customs. They were not ordained in accordance with the consuetudinary approbation or censure of a particular people, but were instituted in strict accordance with intellectual truths established from all times and suited to all races of mankind.

It is for this reason that the message of Islam was universal; on account of its complete adaptability to all people in just the same way and same proportion, it was no more intended for the Arabs than for others or for urban than for nomadic communities; no wonder, therefore, that Islam is called the "Natural Religion"!

The teachings of Islam are classified into three main classes : —

1. Avowal of one Creator and the admitting of the Day of Judgment.
2. Actions which pertain to the Hereafter.
3. Actions which pertain to the regulation of temporal affairs and the amelioration of life's conditions.

These are the main divisions under which there are several other subdivisisions, the considration of which we defer for the time being.

As to the avowal of one Creator and the admitting of the Day of Judgment, they are nowhere more clearly ordained than in the Moslem Religion. It is for this reason that monotheism in Islam is free from

This is a fact which all just and. unbiassed people will readily admit. Superstitions, unsupported by tradi tion and not sanctioned by mind or conscience, crept into religions prior to Islam and the most flagrant errors and misconceptions could easily be traced in those religions, in the beliefs in Allah and His holy prophets and precepts; the consideration of this we leave entirely to your own judgment.

Islam required mankind to believe in all prophets without distinction and addressed them thus : —

« قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا
وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا
أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » .

"Say ye believers: We believe in Allah and that which hath been sent down to us (The Qoran), and that which hath been sent down to Abraham and Ismail and Isaac and Jacob and his offspring; and that which was given to Moses[1] and Jesus[2] and that which was given to the Prophets from their Lord. We make no distinction between any of them and to Allah we are resigned."

It addressed the people of the Scriptures thus : —

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ
حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا
أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ » .

"O People of the Scriptures! Ye have no reliable Faith until ye observe the Torah[3] and the Evangel[4] and that which hath been sent down to you from your Lord."

(*Baidawy's Commentary.*)

And :

« وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا
وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ . وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ » .

"Ye shall not barter my signs for a paltry price and fear ye me; and confuse not the truth with falsehood and conceal not the truth when ye know it."

(*Baidawy's Commentary.*)

Islam has led mankind to the pure founts of religion and freed their minds from the confusion of misguidance and superstitions. It appealed to them to shake off the torpor from their minds and to

(1) The Mosaic Law.

(2) The Gospel.

(3) The Old Testament.

(4) The New Testament.

MESSAGE OF PEASE
A TREATISE ON ISLAM

By

The late Prof. **Sheikh Youssof El-Degwy**
of Al-Azhar University and member of the Body of Grand Ulama.

Translated From the Arabic)

By

Aly Z. Husn. M.A.

Part : 1

ISLAM
The Ideal Religion

I

Islam is a universal religion revealed to rectify the corrupted beliefs of mankind and to set the seal to previous Scriptures. It enjoins respect and veneration for all Prophets and is not a religion of egoism that preaches hatred and animosity to others; nor does it require its followers to believe only in their particular prophet imputing perfidy and falsehood to those of other religions. Nay ! the magnanimous spirit of Islam rises far above this, and enjoins the belief in all Allah's Apostles for thus Muhammad was addressed : —

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ . وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ» .

"And We have sent Apostles before thee; the story of some of whom We have told thee; and the story of others We have told thee not".

in order to warn us against disbelief in or defamation of any of His prophets and to teach us to acknowledge that they were all sent with guidance, enlightenment and truth. The patriarchs and followers of anterior religions, however, have misconstrued and altered their texts and Islam was revealed to purify them from he taints of superstition and innovation and to lead mankind to the very sources of true belief. It honoured and revered their prophets and laid the responsibility of perverting on those who misconstrued and distorted the Word of Allah.

Muslems - and even by non - muslems - from many different parts of the world who are eager to scrutinize and assimilate the ideal concepts and high principles of Islam : "ALLAH'S GIFT" to mankind, that provides and grants success and happiness to humanity in this temporal life and in the final immortal existence.

"O' Our Lord: Lay not on us such a burden as Thou didst lay on those before us ! Our Lord : Impose not on us that which we have not the strength to bear !. Pardon us, absolve us and have mercy on us Thou, our Protector, and give us Victory over the disbelieving folk".. Amen.

Zaher A. El-Zoghby

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

٩٤٧

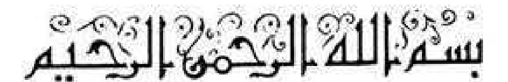
MAJALLATU'L AZHAR

(AL-AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd-ul-Wadoud I. Shalaby**
SUPERVISOR : **Zaher A. El-Zoghby**

The fiftieth year   Fourth Volume   Sha'aban 1398 H. — July 1978 A.D.



In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

FOREWORD

By

Zaher A. El-Zoghby

Starting with this Volume, a well-written acurate and convincing treatise on Islam will be published seccessively.

This treatise was originally compiled in Arabic by the late Proffessor Sheikh Youssef El-Digwy of Al-Azhar University with the object of having it translated into English for the benefit of English - speaking people.

The Translation of this study has already been published in this monthly "Al-Azhar Magazine" during the third decade of the twentith century, under the comprehensive title: "MESSAGES OF PEACE" and consisted of three main parts : "ISLAM, THE IDEAL RELIGION — THE PROPHET MOHAMMAD — THE HOLY QURAN".

Although this translation first appeared more than forty years ago, We have been requested to reprint it by countless numbers of

مدير التحرير والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبى

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
فى أول كل شهر عربى

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت ٩٠٩٩٢٢ ٩٠٥٩١٤ ٩٠٥٥٠٦

الجزء الخامس — السنة الخمسون — رمضان ١٣٩٨ هـ — أغسطس ١٩٧٨ م



الأحزاب الدينية

لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الدكتور عبد الحليم محمود

فى عصر الإسلام الأول كان كل شىء مصطبغا بالصبغة الدينية ، وينبثق عن جو مصطبغ بالصبغة العامة للدولة : صبغة الدين . ولا غرابة فى هذا ، فإن الإسلام ليس عقيدة قلبية فحسب ، ولكنه نظام يتضمن جميع قوانين المجتمع .

إنه عقيدة وأخلاق ، كما أنه تشريع ونظام للمجتمع ، ومبادئ عن الاتجاه العام للدولة ، بحيث تكون فى إطار الوحى ، أمة تسلم نفسها لله سبحانه ، محكمة كتابه ، وسنة نبيه .

من أجل ذلك قلنا : « الأحزاب

الدينية » ولم نقل « الأحزاب السياسية » .

وما كان لكلمة السياسة وجود بمعناه الحالى فى ذلك العصر . هذه الأحزاب نشأت نشأة مبسرة تشبه أن تكون طبيعية .

لقد نشأ عقب انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى سؤال عادى ينشأ فى كل مجتمع :

من الذى يتولى الأمر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟

إن الإسلام لايعترف بطبقية أساسها النسب فقط ، والشرف فى الإسلام والفضيلة : إنما يتبعان التقوى .

وفى الإسلام مبادئ — أشرف ما تكون المبادئ — بالنسبة لذلك :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[1].

« إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » رواه مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

« فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »[2].

« رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره » رواه أحمد ومسلم والحاكم وغيرهم .

وإن الجو الإسلامى كله يوحى بأن فضل الشخص لايرجع إلى مال ولا إلى جاه ولا إلى منصب ولا إلى نسب . . .

وإنما إلى صلته بالله :

ومن أجل ذلك لم تتجه الجمهرة العظمى من المسلمين إلى أسرة بذاتها لتولى الحكم .

إن الحكم فى الإسلام خلافة .

والخلافة اتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

إنها خلافة له ، ومن أجل ذلك كان الخليفة يتحرى ما كان يفعله صلى الله عليه وسلم ويسير على نسقه .

والأمر شورى :

« وشاورهم فى الأمر »[3].

« وأمرهم شورى بينهم »[4]

وقد غرس رسول الله صلى الله عليه وسلم مبادئ الشورى بسلوكه فى غزوة بدر حينما استشار المسلمين فى حرب المشركين ، وكانت نتيجة الشورى ترجيح فكرة الحرب .

وأشير على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موضع نزوله فى هذه الغزوة ، وأخذ بالمشورة واستشار المسلمين فى موضوع الأسرى .

(١) من الآية ١٣ من الحجرات ٤٩

(٢) من الآية ١٠١ من المؤمنون ٢٣

(٣) آل عمران : من آية ١٥٩ .

(٤) الشورى : من آية ٣٨ .

واستشار المسلمين فى غزوة الأحزاب وانتهت المشورة بحفر الخندق ، واستشار المسلمين فى أمور أخرى كثيرة .

ولما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى اجتمع الصحابة فى سقيفة بنى ساعدة ، وتشاوروا فى الشخصية المثلى لتولى الخلافة ، وانتهى بهم الرأى إلى أبى بكر رضى الله عنه .

ولقد كان أبو بكر رضوان الله عليه — جديراً بها .

ولقد قام رضوان الله عليه بها خير قيام .

ورأى أبو بكر — رضى الله عنه — أنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد اختارته الأمة لمصلحتها الدينية والدنيوية ، وهذا معناه التفويض فى اختيار من يخلفه ، وتلك وجهة نظر لاغبار عليها .

إن المسلمين اختاروه خليفة : أى ألقوا إليه قيادهم ، واثقين به فى أمور مصالحهم ، فاختار لهم — وقد أسلموا إليه الأمر — من يخلفه .

وتحرى هو الأمر ، واستشار واستخار ولم يأل جهداً فى النصيحة ، واختار فى نهاية حياته وهو مقبل على ربه ، اختار عمر رضى الله عنهم .

ولكن بعضا من الصحابة لم يأخذوا بوجهة النظر هذه ، وأخذ منطقهم وضعاً آخر .

إن الأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بحمل الرسالة إذا كان يصلح لها ، فإذا لم يكن فى الأقربين من يصلح فيكون الخليفة فى من يليهم ، وهكذا .

إنها القربى والصلاحية ، ولا يخرج الأمر عن ذلك إلا إذا انعدمت الصلاحية الحقة تماماً .

وكان هذا الفريق يتخذ من سيدنا على — كرم الله وجهه — مثلا كريماً لتولى الخلافة .

ولقد كان سيدنا على مثلا كريماً للخلافة ، ومن الذى يعارض فى ذلك ؟

لقد كان مثلا أعلى فى الصلاح والتقوى ، وفى الشهامة والبطولة ، وفى العلم . . ولكن الأمور سارت على غير ما يحب هؤلاء :

إنها سارت على غير ما يأملون حينما اختير سيدنا عمر ، وسارت على غير ما يحبون حينما اختير سيدنا عثمان .

وكان هذا الفريق يقوى على مر الزمن ويكثر عدده خصوصاً فى أواخر عهد عثمان رضى الله عنه .

وعثمان — رضى الله عنه — هو : « ذو

النورين »، وهو الذى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض » رواه ابن هشام .

وقال عنه صلى الله عليه وسلم عندما وضع فى حجر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مبلغا من المال هو من الكثرة بحيث أفاد المسلمون منه فائدة كبرى فى حربهم ، قال عنه :

« ما على عثمان ما فعل بعد اليوم » رواه أحمد والترمذى .

ثم هو من العشرة المبشرين بالجنة .

وانتهت حياة عثمان بهذه المأساة التى لا نحب الخوض فيها مراعاة لحرمة الصحابة ، ولكن الذى نستطيع أن نؤكده هو أن سيدنا على براء من دم عثمان ، وكذلك كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتولى سيدنا على الخلافة ، تولاها عن طريق الشورى ، وكانت خلافته صحيحة .

ولكن حدث ما حدث من المأساة الكبرى ، والحرب التى سقط فيها تسعون ألفا من فرسان الصدر الأول للإسلام .

وتولى معاوية الحكم ، وتغيرت صورة الحكم ، فبعد أن كان خلافة أصبح ملكا عضودا .

وبعد أن كان تـَرَسـُّماً دقيقاً لخطوات رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبحت شخصية الحاكم لها دخلها فى الأمر .

ومنذ أن حدثت هذه الأحداث وجد فى الأمة أحزاب :

حزب العلويين أو الشيعة .

حزب الخوارج .

حزب الأمويين .

حزب المرجئة .

وأصبح النزاع نزاعا يدور حول أشخاص ، ومن أجل أشخاص ، وأصبح فى الأمة أحزاب تدين بالولاء لأشخاص .

والإسلام لا يعترف بأشخاص ، وإنما يعترف بمبادئ وأخلاق وصفات عليا ، وشعاره :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

إن الإسلام يعترف بأنبياء ورسل ، ومن بينهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

أما غيره من المسلمين فإنه لاعصمة لهم فى نظر الإسلام .

إن الإسلام يهتم بالمبادئ والمثل العليا والقيم الكريمة ، ومكارم الأخلاق.

أما الأشخاص فلا يتأتى أن تكون سبباً فى التفرقة بين الأمة . ويجب على المسلمين جميعاً أن يعلموا — حق العلم — أن الإسلام ليس من عقائده ما يتصل بالشخصيات ، اللهم إلا الرسول صلى الله عليه وسلم .

فإذا أخرجنا الشخصيات من محيطنا الاجتماعى فإن كل الأحزاب التى تقوم على الشخصيات إيمانا بها أو معارضة لها : تسقط من نفسها .

وما من شك فى أن البطولات تفرض التقدير على المجتمع ، وهذا أمر جرى عليه العرف ، وتناسقت العواطف مع العرف ، وشعور الإنسان المتدين يسير مع العرف ومع العواطف .

إن الإنسانية تحترم البطولات التى تقدم لها أعمال الخير : سواء أكانت بطولات عملية أم بطولات أخلاقية تهدى إلى الرشد ، وتدعو إلى سبيل الله .

ولكل إنسان مطلق الحرية فى أن يقدر فلانا أو يفضله على فلان .

أما أن تدخل الأشخاص — غير الأنبياء والرسل — فى العقائد فإن ذلك أمر بعيد عن الجو الإسلامى الذى من شعاراته قوله تعالى :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم »

وأول قواعد التقريب أن نسقط من عقائدنا ما يتصل بالأشخاص ، ولنا أن نحترم منهم من نشاء ، وأن نصرف النظر عمن نشاء .

ولكن ذلك وحده غير كاف فى السير بالفرق إلى الوحدة ، وإذا كان ذلك يلغى الأحزاب الدينية فإنه لا يقضى على الفرق الدينية .

هذا وبالله التوفيق

عبد الحليم محمود
(شيخ الأزهر)

بين الصُورة والحَقيقة

العلامة أبو الحسن الندوى

إن كل شيء له صورة وحقيقة ، وبينهما فرق كبير رغم الشبه العظيم ، تميزون بينهما بسهولة فى حياتكم ، وتعاملون الحقيقة بما لا تعاملون به الصورة وأضرب لذلك مثلين : هذا مثل للثمار المصنوعة من الخزف ، تتراءى للناظر كأنها تفاح ، ورمان ، وبرتقال ، وعنب ، وموز ، فى لونها وشكلها ، ولكن أين الصورة من الحقيقة ، وأين طعم هذه الثمار ورائحتها ؟ إنها ليست إلا للزينة أو المثال .

إنكم ترون فى المتحف كل نوع من السباع والأنعام والطيور الجميلة ، والعصافير الصغيرة ، ففيها الأسد ، والذئاب والأفيال والدباب ، وفيها كل طائر جارح . وكل سبع مخيف . . ولكنها جثث هامدة لاحراك بها ، وأجساد ميتة محشوة بالليف والقطن ، ليس فيها رمق من حياة . . وقوة تهجم بها وتصول . . حتى لاتحس منها من أحد ولا تسمع لها ركزاً .

إن الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها . . ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة فى الحياة وتأتى به من عمل ونشاط . . ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها . . فإذا وقع بينهما صراع انهارت الصورة . . ولا يمكنها أن تحتمل عبء الحقيقة ، فإذا وكل أحد إلى الصورة وظيفة الحقيقة أو عول عليها فى مهمة خانته الصورة وخذلته أحوج ما يكون إليها .

والصورة ولو كانت مهيبة هائلة . . تغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة . . لأن الحقيقة الحقيرة أقدر وأقوى من الصورة العظيمة المهيبة ، وإن الولد يقدر أن يسقط الأسد الميت

المحشو بالليف والقطن . . بيده الضعيفة الناحلة ، لأن الولد يحمل حقيقة ولو حقيقة صغيرة . . والأسد ليس إلا صورة ولو كانت صورة مهيبة .

إن هذا العالم الذى نعيش فيه عالم الحقيقة والأمر الواقع . . وقد خلق الله كل شىء على حقيقته . . فللمال حقيقة . . وحبه فطرى طبعى . . ولأجل ذلك وردت عنه الأحكام ووضع الله فيه التأثير والجذب . . وللأولاد حقيقة والحنان إليهم وحبهم فطرى ، ولأجل ذلك وردت الأحكام فى الشرع عن تربيتهم وتعليمهم . . وكذلك للحاجات الطبيعية . . والميول الفطرية حقيقة لا تجحد . . ولا تغلب تلك الحقائق إلا حقيقة أقوى ، ورغبة أعظم وأشد .

إننا نحتاج إلى حقيقة الإسلام — والإيمان للظفر على الحقائق المبثوثة فى العالم ، أما صورة الإسلام فهى عاجزة عن أن تقهر هذه الحقائق وتنتصر عليها وإن كانت حقائق ممزوجة بالباطل ، لأن الصورة المجردة لا تنتصر على أى حقيقة .

ولذلك نرى اليوم بأعيننا أن صورة الإسلام أصبحت لا تغلب على الحقائق المادية الحقيرة . . لأن الصورة ولو كان ظاهرها مقدساً رائعاً ، ليس لها سلطان وتأثير . . وأن صورة إسلامنا وصورة كلمتنا وصلاتنا اليوم لاتقدر أن تتغلب على عاداتنا الحقيرة ، وتقهر شهواتنا الجنسية أو تثبتنا على جادة الحق عند البلاء والامتحان .

إن الكلمة التى كانت من قبل ذات سلطان عجيب على القلوب ، والأرواح وكانت تهون على ترك الناس المألوفات وقهر الشهوات والشهادة فى سبيل الله وبذل الأرواح والأنفس لله ، واحتمال المكاره وتجرع المرائر فى سبيل الله ، هى عاجزة عن أن تحمل الناس على ترك فرشهم بعد أن استغرقوا فى النوم طول الليل ، ويقوموا لصلاة الفجر ، نعم ، الكلمة التى كانت تغلب على شهوة الخمر فتحول بين الإنسان وبين الكأس ؛ وهى على راحته فيمتنع عن شربها ، لأن الدين يمنع من ذلك ، ولأن الكلمة تأبى عليه أن يشرب الحرام ، ها هى الآن قد أصبحت لا تملك أمرا ولا نهيا .

سرح طرفك فى تاريخ الإسلام وتجول فى فصوله وأوراقه ، يظهر لك أن كلمة الإسلام التى كان الصحابة وكان المسلمون فى القرون الأولى يتلفظون بها ، كانت ذات حقيقة ثابتة ، وكانت

كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وكلمتنا نحن ألفاظ مجردة . . ونطق فارغ . . ولأجل ذلك ترى عدم تأثيرها فى حياة الأمة . . ثم إننا مع ذلك نحاول أن نطبق حياة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على حياتنا . . ونرجو أن تؤتى هذه الكلمة أكلها كل حين .. وتحدث ماأحدثت فى الماضى .. حتى إذا لم يكن ذلك بطبيعة الحال تساءلنا وقلنا : « ألسنا مسلمين ؟ ألسنا نصلى ونصوم ؟ ألا نتلفظ بكلمة الإسلام ونرددها صباح مساء ؟ فلماذا هذا الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين ؟ ولماذا هذا البون الشاسع بين حظنا وحظهم ؟ وأين ثمرات شجرة الإيمان ؟ وأين نتائج الصلاة والصيام ؟ وأين ما وعد الله من النصر المبين .. والاستخلاف والتمكين ؟

لاتخدعنا أنفسنا . . ولنعلم أنهم كانوا أصحاب جد وحقيقة الدين . . لقد كانت كلمتهم حقيقة . . وكانت صلاتهم حقيقة . . ونحن متجردون عن هذه الحقائق . . فرجاء أن تثمر الصورة ما أثمرت الحقيقة وتغنى غناءها . . إنما هو وهم وخيال . . وضرب من المحال .

أما قرأتم فى التاريخ أن خبيبا رضى الله عنه رفعوه على الخشبة وتناولوه بالرماح والأسنة . . حتى تمزق جسمه وهو قائم لا يشكو ولا يئن . . فقال له : « أتحب أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم مكانك » ؟ فيضطرب ويقول : « والله لا أحب أن يفدينى بشوكة يشاكها فى قدمه » !

يا أبناء الإسلام!

إن الذى ثبته فى هذا المكان .. وألهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة فى حب الرسول هل هى صورة الإسلام ؟ لا بل هى الحقيقة التى مثلت بين عينيه الجنة . . والرماح تنوشه وتعبث بجسمه . . وناجته . . وقالت : صبراً ، يا خبيب ! فما هى إلا لمحات — وثوان . . وها هى الجنة تنتظرك ورحمة الله ترتقبك فإذا احتملت آلام هذا الجسد الفانى والحياة الزائلة العابرة نلت السعادة الدائمة . . والحياة الباقية .

هذه هى اللذة الروحية . . وحقيقة الحب والإيمان التى أبت على خبيب أن يطلق ويؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشوكة فى قدمه ، فهل تستطيع الصورة أن تحمل صاحبها على هذا الإخلاص والتفانى . . والثبات على العقيدة .. والصبر على الموت ؟ كلا!

إن الصورة لا تستطيع أن تقاوم الشدائد والآلام . . بل حتى الخيالات والأوهام وقد بدا لنا ذلك فى الاضطرابات الطائفية الماضية فى الهند . . فإن أناسا من المسلمين قد غيروا صورة الإسلام خوفاً مما مر بخاطرهم من الفزع . . وخشية الموت . . وما دار فى رؤوسهم من معارك خيالية حامية . . واختاروا شعار الكفر . . وذلك لأن هؤلاء الناس قد كانوا متحلين بالصورة ، فارغين عن الحقيقة .

هاجر سيدنا صهيب رضى الله عنه ، فلما كان فى الطريق اعترضته جماعة من مشركى مكة وقالوا له : أتيتنا صعلوكا حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك ، وهناك قامت المعركة بين حقيقة الإسلام وحقيقة المال ، ودارت بينهما رحى الحرب ، فانتصرت حقيقة الإسلام على ضدها ، وقال لهم صهيب : « أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم قال : فإنى قد جعلت لكم مالى »[1] وهكذا انطلق صهيب بدينه ؛ متجرداً من ماله ، فرحاً مسروراً كأنه لم يفقد شيئاً ، ولم يخسر شيئا .

وخرج سيدنا أبوسلمة بزوجه وابنه يريد المدينة ، فلما رآه رجال من بنى المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد ، ونزعوا خطام البعير من يده ، وأخذوها منه ، وأخذ بنو عبد الأسد سلمة ولده الصغير ، هناك اصطدمت حقيقة الإسلام بحب الزوج والولد ، فما لبثت أن انتصرت عليه ، وغادر أبوسلمة وزوجه وولده تحت رعاية الله، وهاجر وحيداً ، هل الصورة تستطيع ذلك ؟ ؟ وهل يقدر أصحابها على ترك الزوجات والأولاد فى سبيل العقيدة والدين ؟ كلا ! بل سمعنا أن أناسا قد ارتدوا عن دينهم للمال ، والأزواج ، والأولاد وغير ذلك من متع الدنيا وزخارفها ،

كان أبوطلحة مقبلا على صلاته فإذا طائر يدخل فى بستانه ثم لايجد الطريق للخروج ، ويميل إليه قلب أبى طلحة ، فلما انصرف من صلاته تصدق بهذا البستان ، لأنه لا يحب أن يشغله شيء عن حقيقة صلاته، وينازع قلبه !

إن للبستان حقيقة ، ولثمره وأكله حقيقة ، ولا تغلب هذه الحقائق إلا

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٢١

حقيقة الإسلام، وإن صلاتنا اليوم مجردة عن الحقيقة ، ولذلك لا تقدر أن تقاوم أدنى الحقائق المادية .

لقد كان فى حرب اليرموك بضعة آلاف من المسلمين ، وأما الروم فقد كان عددهم يبلغ مائتى ألف أو يزيدون ، فإذا النصرانى كان يقاتل تحت لواء المسلمين يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فيقول خالد رضى الله عنه : والله لوددت أن الأشقر برأ من توجعه، وأنهم أضعفوا فى العدد[1].

بم كان خالد رضى الله عنه مطمئنا، ولم لم يشغل خاطره هذا العدد الهائل ، ولم لم تكبر فى عينه جنود الروم الكثيفة ؟ ذلك لأنه كان مؤمنا بالله واثقاً بنصره، ولأنه كان يعلم أنه على الحقيقة ، وأن مقابله صورة فحسب ، وأن الروم صورة فارغة عن الحقيقة ، وكان يعتقد أن الصورة مهما كثرت لا تقدر أن تقاوم حقيقة الإسلام .

لا شك أننا نتلفظ بكلمة الشهادة والتوحيد ، ومنا من يعرف ما يقول، ولكن الصورة شىء والحقيقة شىء آخر إن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين الصادقين كانوا على حقيقة هذه الشهادة فإذا قالوا : لا إله إلا الله اعتقدوا أنه لا إله غيره ، ولا رب غيره، ولا رازق غيره ، ولا نافع ولا ضار إلا هو له الملك والحكم . . والخلق والأمر . . بيده ملكوت كل شىء . يجير ولا يجار عليه، وأخلصوا له الحب والخوف ، والسؤال ، والرجاء ، والعبادة والدعاء ، وأصبحوا عباداً حنفاء ، شجعاناً أقوياء ، لا يهابون العدو، ولا يخافون الموت ، ولا يبالون بلومة لائم .

نرجع إلى أنفسنا ، ونفكر : هل هذه هى الحقيقة متغلغلة فى أحشائنا ، ومتسربة فى عروقنا وشرايينا ، وهل غرس حياتنا يسقى بهذا الماء ؟ معذرة وعفواً ، أيها السادة ! إنا نخاف أن لا يكون الأمر كذلك ؛ وأن نصيب الصورة فى حياتنا أكثر من أن نصيب الحقيقة ، وذلك موضع الضعف فى حياتنا ، وسر شقائنا ومصائبنا ، إننا جميعا نؤمن : أن الآخرة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والبعث بعد الموت حق ، ولكن هل إننا حاملون لحقيقة الإيمان كأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان وقد سمعنا أن أحدهم سمع رسول صلى الله عليه وسلم يقول: « قوموا إلى جنة عرضها

---

(١) الأشقر : فرس خالد رضى الله عنه .

السماوات والأرض » فرمى بما معه من التمر وقال: « لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه ، إنها لحياة طويلة » وقاتلهم حتى قتل ، لأن الجنة كانت عنده حقيقة لا يشك فيها ، فمن أيقن يقول كأنس بن النضر : إنى لأجد ريح الجنة من دون أحد .

أتى رجل من المسلمين يوم اليرموك وقال للأمير : إنى قد تهيأت لأمرى ، فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ! تقرئه عنى السلام وتقول : يارسول الله إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً .

أفيقول هذا إلا من يوقن أنه مقتول فى سبيل الله ، وملاق رسول الله ومجتمع به فى نعمة الله وأنه مكلمه ومحدثه ، فإذا حصل لرجل مثل هذا اليقين فما الذى يمنعه من استقبال الموت ، وما الذى يحول بينه وبين الشهادة ؟ إن أكبر انقلاب وقع فى تاريخ هذه الأمة هو أن الصورة احتلت مكان الحقيقة ، واستولت على حياة الأمة ، وذلك من عهد بعيد فى التاريخ ، والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة ، ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها ، فكانت هذه الصورة الإسلامية كمجدار ينصبه الفلاح فى حقله كيلا يحل فيه الطير والوحش ، ولا تزال الطيور والوحوش تظن أنه إنسان ، أو حارس فلا تقربه حتى يتشجع غراب ذكى . أو حيوان جرى فيجد أنه ليس بشىء ، هنالك تدخل الطيور والوحوش فى هذا الحقل ، وتعيث فيه ، وتتلف زرعه ، وقد وقع للمسلمين نفس الحادث ، لقد حرستهم صورة الإسلام مدة طويلة جداً ، فلم تجترئ عليهم أمم العالم ، ولم يدر بخلد أحد أن يمتحن هذا الشبح المخيف ويتحققه .

ولكن حتى متى ؟ لما أغار التتار على بغداد ، افتضح المسلمون وظهر إفلاسهم فى الروح والقوة المعنوية ، من ذلك الحين ، أصبحت الصورة عاجزة عن أن تحافظ عليهم وتذود عنهم المكروه وتدفع عنهم غارات الأمم ، فإن الصورة لا تقوم إلا على الجهل والغرور فإذا انكشف الغطاء وزاح الستار ، تبين الصبح لذى عينين .

وإن ما نرى ونقرأ فى تاريخ الإسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم فى ميادين القتال ، إن كل ذلك أخبار انخذال الصورة وفضيحتها لا غير ،

وقد فضحتنا الصورة فى كل معركة وحرب ، ومقاومة واصطدام ، ولكن الذنب علينا ، حملنا الحقيقة على ظهر الصورة ، فلم تستطع حملها ولم تمسكها وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفة فخيبت رجاءنا وكذبت أمانينا وخذلتنا فى الميدان .

تكرر الصراع بين صورة الإسلام وشعوب العالم وجنودها ، وفى كل مرة تتخذل وتنهزم الصورة ، ويعتقد الناس أنه هزيمة الإسلام وخذلانه — وبذلك هان الإسلام فى عيون الناس وزالت مهابته عن القلوب ، ولايدرى الناس أن حقيقة الإسلام لم تتقدم إلى ساحة الحرب منذ زمن طويل ، ولم تنازل أمم العالم ، وأن الذى يبرز فى الميدان هو صورة الإسلام لاحقيقته وخليق بالصورة أن تنهزم ، وتضمحل أمام الواقع والأمر الجد .

هاجمت بعض الدول الأوربية فى الحرب الأولى تركيا الإسلامية ، تركيا التى أرعبت أوربا كلها ، وهزمت دولها مرة بعد مرة ، وكانت تركيا فى هذه المرة حاملة لصورة شاحبة للإسلام ، وقد فقدت شيئا من حقيقة الإيمان ، ففشلت فى المقاومة وفقدت كثيراً من ممتلكاتها .

واجتمعت سبع دول عربية لمحاربة الصهيونية فى فلسطين ، وكانت هذه الدول العربية عليلة الروح ، وقد أطفأت المادية الأوربية جمرة القلوب وشعلة الجهاد فى سبيل الله ، وحبب إليها الحياة واللذات ثم إنها تتخلف تخلفا كبيراً فى المعدات الحربية والتنظيمات العصرية ، فكانت الحرب بين العرب المسلمين واليهود الصهيونيين صراعاً بين صورة الإسلام وحقيقة القوة والتنظيم والحماسة ، فكانت نتيجة هذه الحرب نتيجة كل صراع بين الصورة والقوة .

إن الصورة لها منزلة ومكانة عند الله تعالى ؛ لأنها قد عاشت فيها الحقيقة قروناً طويلة ، ويحبها الله لأنها صورة أوليائه ومحبيه ، وكذلك نعرف لها الفضل ، لأن الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإيمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر أو صورته إلى حقيقة الإيمان والإسلام ، فلنحافظ على هذه الصورة ولنتمسك بها ، ولكن لا ينبغى أن نقنع بها ونستهين بالحقيقة والروح .

يا أبناء الإسلام ! إن وعد الله من النصرة والفتح فى الدنيا ، والنجاة والغفران فى الآخرة ، كل ذلك محصور فى

حقيقة الإسلام ، وذلك قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[١] — لا شك فإن الخطاب فى هذه الآية للمسلمين ، ومع ذلك اشترط الإيمان للعزة فى الأرض والعلو والشوكة ، وقال فى موضع آخر : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »[٢] وقال أيضاً : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »[٣] ورغم أن جميع تلك الوعود كانت على أساس الإيمان والأعمال الصالحة اشترط أن يكون فى المسلمين حقيقة الإيمان والتوحيد .

إن أكبر مهمة دينية فى هذا العصر ، وأعظم خدمة ، وأجلها للأمة الإسلامية هى دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة إلى الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإسلام ، فلمثل هذا فليعمل العاملون ويبذلوا جهودهم ومساعيهم فى بث روح الإسلام فى جسم العالم الإسلامى ، ولا يدخروا فى ذلك وسعاً ، فبذلك يتحول شأن هذه الأمة وفى نتيجته شأن العالم بأسره ، فإن شأن العالم تبع لشأن هذه الأمة ، وشأن الأمة تبع لحقيقة الإسلام ، فإذا زالت حقيقة الإسلام من الأمة المسلمة ، فمن يدعو العالم إلى حقيقة الإسلام ، ومن ينفخ فيه الروح ؟ قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه : « أنتم ملح الأرض فإذا زالت ملوحة الملح فماذا يملح الطعام ؟ »

قد أصبحت حياتنا اليوم جسداً بلا روح ، لأن السواد الأعظم للأمة مجرد عن الروح ، فارغ عن الحقيقة ، فكيف تعود الروح والحقيقة فى الحياة الإنسانية مرة أخرى ؟ !

إن فى هذا العالم أمماً لا تزال فارغة عن الحقيقة والروح منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا ، ولم يبق فيها إلا عدة معتقدات مرسومة ، وبضع صور حقيرة مجردة عن الروح ، وانتهت حياتها الدينية ، والروحية الحقيقية ، حتى إن إنشاء أمة بأسرها أيسر من إصلاح هذه الأمم وتجديد حياتها الدينية

---

(١) آل عمران ٢ : ١٣٩ .
(٢) غافر ٤٠ : ٥١ .
(٣) النور ٢٤ : ٥٥ .

والخلقية ، والذين نهضوا لإصلاحها، وبذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل قد أخفقوا ولم يفلحوا فى مهمتهم رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التى حدثت فى هذا العهد من الطبع والنشر ، والتأليف والإذاعة ، والتعليم والتربية ، وطرق الدعاية والتأثير ، وذلك لأن عروة دينها قد انفصمت انفصاماً تاماً ، وانقطعت علاقتها عن منبع الحياه الدينية ، والخلقية والروحية .

أما الأمة الإسلامية فلا تزال — على علاتها وضعفها — مستمسكة استمساكاً ما بعروة الدين وهى الإيمان بالله والرسول واليقين بالدار الآخرة ، والحساب ، لم تتركها ألبتة ، ولم تنقطع عنها انقطاع الأمم الأخرى ، بل إن إيمان كثير من عامة المسلمين و دهمائهم يزرى بإيمان كثير من خواص الأمم الأخرى ، وعليتهم ، ويفوقه متانة ورسوخاً وحماسة ، ثم إن كتابها لايزال فى يدها لم يتناوله التحريف، ولم يعبث به العابثون كما فعلوا بالصحف الأولى ؛ ولا تزال سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأسوته الحسنة بمتناول يدها ، فالدعوة إلى الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب متهيئة ، وجمرة الإيمان سريعة الاتقاد ، والشقة بين الصورة والحقيقة : قصيرة ، والقنطرة بينهما الدعوة إلى تجديد الإيمان ، والرجوع إلى الدين ، والتشبع بروحه والتحلى بحقيقته .

لست قانطا من ظهور حقيقة الإسلام فى هذا العصر ، ولا نصدق أبدا بأن الزمان قد تغير والمسلمين قد ابتعدوا جداً عن روح الإسلام فلا أمل فى حقيقة الإسلام وغلبتها من جديد، انظروا إلى ورائكم تروا جزر حقيقة الإسلام قائمة منتشرة فى فجر التاريخ، وإن الحقيقة لم تزل تطفو كلما رسبت وتظهر كلما اختفت ، وكلما ظهرت حقيقة الإسلام وتجلت فى ناحية من نواحى العالم الإسلامى أو عصر من عصور التاريخ الإسلامى ، غلبت وانتصرت . وكذبت تجارب الناس وقياسهم وتقديرهم ، وكادت الأحوال والأمور أن تعود إلى ما كانت عليه فى الماضى السعيد وهبت على قلوب الناس نفحات القرن الأول، وإن حقيقة الإسلام فى هذا العصر إذا ظهرت وتمثلت فى جماعة تستطيع أن تذلل كل عقبة وتهزم كل قوة وتأتى بعجائب وآيات من الإيمان والشجاعة ، والإيثار ، يعجز الناس عن تعليلها كما عجزوا من قبل على تعليل حوادث الفتح الإسلامى . وأخبار القرن الأول .

كل شئ عن شهر رمضان

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فقد فرض الله الصوم على عباده فى جميع الرسالات ، لما له من فوائد جليلة تعود على الروح والخلق والجسد ، وجعله فى الإسلام أحد قواعده الخمسة التى يقوم بناؤه الكلى عليها ، وأفرد له شهراً كريماً من شهور السنة القمرية ، هو شهر رمضان المبارك الذى أنزل فيه القرآن ، وجعل فيه ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، وأعقبه بعيد الفطر ليفرح فيه الصائمون بإكمالهم لفريضة الصيام ، وليغتبط فيه البؤساء بصدقة الفطر التى جعلهم يشاركون المياسير فى مباهجه ومظاهره ، وليتواصل الجميع بالود والتراحم فيما بينهم .

وقد حفل هذا الشهر الكريم بأحداث جليلة كان لها أثر فى مسيرة الإسلام وانتشار نوره فى المشارق والمغارب ، فمن حقه علينا أن نفرد له رسالة تتضمن الكثير مما يتصل به من الأحكام والأحداث لتكون مشكاة للمهتدين ، وذكرى للذاكرين ، ولتغنيهم عن البحث فى أمهات الكتب وراء المسائل التى ضمناها إياها ، والله الهادى إلى سواء السبيل .

فريضة الصوم وتطوراتها :

قال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » .

لطائف الخطاب :

يخاطب الله المسلمين بقوله : « يأيها الذين آمنوا » فى نيف وثمانين موضعا من القرآن ، بينما يخاطب اليهود فى التوراة بقوله : يأيها المساكين ، ويخاطب النصارى فى الإنجيل بقوله : يا أبناء الماء والطين .

ونداء الله للمسلمين فى القرآن بذلك يمنح الكرامة ، ويورث الاعتزاز بأن ربهم اعتبرهم مصدقين بالحق ، لا يجادلون فيه بالباطل ، وجعلهم أهلا لوعـــده الجليل « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

معنى الصيام وكتابه

الصيام فى اللغة : الامتناع عن أى شىء ، ومنه قول مريم : « إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا » وصومها امتناعها عن الكلام .

وفى الشرع : الامتناع عن الأكل والشرب والجماع فى وقت مخصوص مع النية القلبية ، وكتابه فرضه ، وقد أخبرنا الله تعالى فى الآية أنه فرض الصيام علينا كما فرض على من قبلنا ، فجميع الشرائع تضمنت : فرض الله للصيام على أممها .

والصيام فى كل أمة له نظام قد يختلف عنه فى أمة أخرى ، ولكنه بصفة عامة يمنع النفس من غشيان ملذاتها وشهواتها ، ويمنحها الصبر وقوة العزيمة ، ويحضها على بر الفقراء والمعوزين ، ويضفى على الأجساد الصحة والعافية ، وعلى الروح السمو والصفاء ولهذه المزايا وغيرها فرض فى جميع الأديان كما تقدم .

لعلكم تتقون

بين الله فى قوله « لعلكم تتقون » الغاية من فرض الصيام ، وهى حصول التقوى للصائمين والتقوى بابها واسع ، فهى من الوقاية ، والوقاية تدخل فى الطاعات والأخلاق والأجساد والأرواح .

فالمعنى يأيها الذين آمنوا فرض عليكم الصـــيام كما فرض على أهل الأديان السابقة لتقوا أنفسكم وتحفظوها من وضر الإثم ، ودرن الخلق ، وفساد الجسم ، وصدإ النفس وظلمة القلب .

ولكون الصوم يحفظ من المعاصى وصفه النبى صلى الله عليه وسلم علاجاً للشباب الذين لايجدون مؤنة الزواج من الانحراف فقال : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة : (أى مؤنة الزواج) فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » أى وقاية من الفحشاء .

والأديان غير السماوية تهتم بالصيام للتقوى وتقوية للعزائم ، كما فى البوذية والهندوسية ، وبعض أولئك يصل بتقوية

إرادية بالصيام إلى درجة تحمل الآلام والتحكم فى النفس وشراين الدم ، فتراهم ينامون على ألواح برزت منها مسامير تغوص فى أجسادهم فلا يتألمون ولا ينزف من أجسادهم دم وبعضهم يدفن ساعات تحت الرمل ، والهواء لا يصل إليه فى محبسه ، ولا يموت بذلك ، وقد حدث أن رجلا كان يسمى نفسه الدكتور سالمون دفن نفسه فى الإسكندرية فى ثلاثينيات هذا القرن لمدة ست ساعات تحت الأرض بحضور لجنة من الأطباء ، ثم رفع التراب عنه فإذا هو حى ، ولكنه كان يتصبب عرقاً وقد عاصرنا هذا الحادث ، وهذا التحمل كان منه بفضل رياضة الصيام التى يجهل فضلها الجاهلون .

« أياما معدودات » .

كان الصيام أول الإسلام أياما معدودات ، فقد كان المسلمون يصومون من كل شهر هلالى ثلاثة أيام ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، وهى أيام الليالى البيض ، قيل وحدها ، وقيل معها يوم عاشوراء ، ثم نسخ ذلك بآية « شهر رمضان » قال ابن عباس أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة والصوم ا هـ .

فأما القبلة فإنها نسخت من بيت المقدس وحولت إلى الكعبة ، وأما الصوم فقد علمت أمره .

وذكر الأجهورى فى كتابه (فضائل شهر رمضان) أن الأيام المعدودات المذكورة التى فرض الله تعالى صومها قبل شهر رمضان كان فرضها فى شهر صفر من السنة الثانية الهجرية ، أما فرض رمضان فكان فى شهر شعبان لليلتين خلتا منه فى السنة الثانية الهجرية أيضاً ، وبذلك يكون المسلمون قد صاموا على هذا النمط لمدة ستة أشهر ، فتكون جملة هذه الأيام ثمانية عشر يوماً ، وأن الصوم لم يفرض إلا فى المدينة .

ومن العلماء من قال : إن الأيام المعدودات هى شهر رمضان .

قال مقاتل : كل معدودات فى القرآن أو معدودة فهى دون الأربعين ، ولا يقال ذلك لما زاد ، اهـ .

وإذا كان المراد بالأيام المعدودات شهر رمضان فإن التعبير عنه بذلك للإيذان بأنه تعالى ترفق بنا وخفف عنا بصيام أيام قلائل ، بدلا من أن يكلفنا بعدة أشهر أو بصيام الدهر كله .

« فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » .

أفاد هذا الجزء من الآية: أنه تعالى أباح الفطر للمريض والمسافر، وأوجب على المريض أن يقضى ما أفطره بعد شفائه، وعلى المسافر أن يقضى ما أفطره بعد انقضاء سفره سواء كان المراد من الأيام المعدودات أيام الليالى البيض أم شهر رمضان كما تقدم بيانه «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين»

أى وعلى الذين يقدرون على صيامه ويريدون الفطر: فدية طعام مسكين إن أفطروا، وهذا الحكم معناه التخيير بين الصيام وبين الفطر والفدية، وقد كان هذا فى أول مشروعية الصيام، قبل أن يلزم به القادرون عليه إلزاماً لا تخيير فيه، بقوله تعالى «فمن شهد منكم الشهر فليصمه».

والحكمة فى أن الصوم لم يشرع محتوما فى أول التكليف به أنه فريضة شاقة وأن بلاد الحجاز وقت فرضه كانت شديدة الحرارة، فتكليفهم الصيام على القطع يشق عليهم، وقد جرت عادة الإسلام بالتدرج فى — التكاليف التى تشق على الناس، كما صنع فى تحريم الخمر، حيث بين لهم أولا أن إثمها أكبر من نفعها، ثم طلب منهم ثانياً أن لا يقربوا الصلاة، وهم سكارى، فبقى بعضهم يشربها فى وقت لا يقدم فيه على الصلاة وهو سكران، ثم حرمت نهائياً بآية «إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون».

وأكد التحريم — بقوله تعالى فى نهاية الآية الثانية «فهل أنتم منتهون».

ومما يدل على أن الصوم كان مخيراً فيه أول التكليف به، ما أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم عن سلمة بن الأكوع قال لما نزلت هذه الآية «وعلى الذين يطيقونه فدية» كان من شاء منا صام ومن شاء أفطر ويفتدى، فعل ذلك حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» وقد ذهب إلى ذلك أكثر العلماء ومنهم عبدالله بن عمر وسلمة بن الأكوع، قاله ابن العادل

وخلاصة ما تقدم أن الصوم أول ما فرض كان أياما معدودات، وهى إما ثلاثة أيام من كل شهر قمرى ١٣، ١٤، ١٥ على قول، وإما شهر رمضان على قول آخر، وأن المسلم كان مخيراً بين الصيام والفدية، فإن كان يرغب فى الصيام ولا يبغى به بديلا، ومنعه

عنه المرض أو السفر أفطر وقضى بعد زوال العذر بعدد ما أفطره ، وإن كان يريد الفطر سواء أكان صحيحاً أم مريضاً أفطر وأعطى فدية طعام مسكين.

ومن العلماء من قال : إن التكليف بالصيام أولا كان لشهر رمضان ، وكان حتميا لا تخيير فيه ، والأيام المعدودات عنده : هى شهر رمضان ، وفسر قوله تعالى « وعلى الذين يطيقونه فدية » بمعنى وعلى الذين يصومونه بمشقة — (من أطاق الشيء قدر عليه بمشقة) وهم الشيوخ الضعفاء عليهم إن أفطروا فدية بدل صيامهم ، ففى الآية إباحة الفطر لهم مع الفدية وهذا الرأى فضلا عن مخالفته لظاهر الآية ، فهو مخالف لحديث سلمة بن الأكوع الذى روته كتب الصحاح ، ويلزم عليه تكرار حكم المريض والمسافر مرتين فى حالة واحدة بدون داع ، والفدية المذكورة هى مد من طعام عند أهل الحجاز عن كل يوم ، والمد رطل وثلث، وعند أهل العراق نصف صاع من بر عن كل يوم أو صاع من غيره، والصاع أربعة أمداد، والمد عندهم رطلان ويمكن دفع قيمة البر المطلوب، بدلا من البر نفسه « فمن تطوع خيراً فهو خير له » .

المراد من تطوع الخير : إما الزيادة على القدر المذكور فى الفدية ، أو الزيادة على عدد من يلزم إطعامه بأن يطعم عن اليوم مسكينين مثلا ، أو الجمع بين الإطعام والصيام .

« وأن تصوموا خير لكم » من الفطر والفدية « إن كنتم تعلمون » ما فى الصوم من الفضيلة وعظيم الثواب « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

أفاد هذا الجزء من الآية : أن الله تعالى أنزل القرآن الشريف فى شهر رمضان لهداية الناس إلى الحق والخير عقيدة وخلقا وتشريعا ، منذ أنزله الله إلى أن تقوم الساعة ، ومع كون القرآن الكريم أنزل فيه لهداية الناس .

فهو آيات واضحات من جملة الكتب الإلهية الهادية إلى الحق ، والفارقة بين الحق والباطل ، باشتمالها على المعارف الإلهية والأحكام العملية .

وفى اختيار شهر رمضان لإنزال القرآن إعظام لشأن هذا الشهر الكريم فلا بدع أن يجعله الله ميقاتا للصوم الذى فرضه الله على المسلمين ، ليجتمع له بذلك شرفان : شرف نزول القرآن فيه وشرف صيامه ، « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

أى فمن علم منكم بهلال الشهر ليلة الثلاثين من شعبان فليصمه ، فشهود الهــلال ليس شرطا للصيام بمعناه الخاص وهو الرؤية له ، بل بالفرض منه وهو العلم بوجوده فى الأفق بالرؤية أو عن طريق العلم بحكم القاضى بثبوت الرؤية ، أو بتصديق من رآه أوعن طريق الحساب الوثيق كما سنبينه .

أما من شك فى رؤية ليلة الثلاثين من شعبان فإنه يحرم عليه صوم يوم الثلاثين المذكور وحده .

وبهذا الجزء من الآية الكريمة نسخ التخيير بين الصيام وبين الفطر والفدية للصحيح المقيم وتحتّم الصوم عليه .

واعلم أنه إذا شهد عدلان عند القاضى برؤيتهما هلال رمضان ليلة الثلاثين من شعبان فإنه يجب عليه الحكم بثبوت الهلال ووجوب الصيام غداً على أنه أول رمضان ، كما يجب عليه الحكم بوجوب الفطر بثبوت الهلال ليلة الثلاثين من رمضان بشهادة عدلين عنده أما إن شهد برؤية الهلال فى كل عدل واحد ، فإنه يحكم بثبوت هلال رمضان ووجوب صيام الغد دون هلال شوال احتياطا للعبادة فى بدء الصيام ونهايته ، فيقبل قوله فى رمضان ليصوموا ولا يقبل قوله فى هلال شوال ليتموا رمضان ثلاثين يوماً .

ويدل لثبوت هلال رمضان شاهد عدل واحد « أن ابن عمر رضى الله عنهما رآه ، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بذلك فصام وأمر الناس بصيامه» رواه أبو داود وابن حبان وصححه ، وأن ابن عباس قال : (جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال إنى رأيت هلال رمضان ، فقال : أتشهد أن لا إله إلا الله ، قال : نعم ، قال : أتشهد أن محمدا رسول الله ، قال : نعم ، قال : يا بلال أذن فى الناس فليصوموا غدا) صححه ابن حبان والحاكم .

ويعلم ثبوت الهلال برؤية المآذن مضاءة ، وقد كانت قبله لا تضاء ، كما يعلم ذلك بقراءة الصحف أو سماع من المذياع بأن القاضى قد حكم بثبوته ، كما يعلم بنحو ضرب الدفوف والطبول كما يحدث فى بعض البلاد ولقد جرت عادة الجهات الشرعية العليا بمصر أن تحتفل بهذه المناسبة ، وتبعث بمندوبيها إلى المآذن وقمم المرتفعات كما يقوم مرصد حلوان برصد الهلال ، فإذا أبلغ شهود الرؤية الجهات الشرعية المذكورة أنهم رأوه أعلنت ذلك فى طول البلاد وعرضها .

وأحيانا تعتمد فى ذلك على بعض البلاد العربية الدائمة الصحو القريبة من مصر مثل السعودية والسودان، فتثبت رؤية الهلال لدى أهل مصر برؤيته فى تلك البلاد ، وتوجب الصوم بذلك ، وهو مسلك شرعى سليم .

فإذا وجد المسلم ببلاد لا يرى فيها الهلال – لأنها غائمة فى معظم أيام السنة – فإنه يكمل شعبان ثلاثين يوما ، قال صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » .

ولا يثبت رمضان برؤية أحد للنبى صلى الله عليه وسلم مناما وقوله للرائى غداً من رمضان ، حكى القاضى عياض الإجماع على ذلك ، ولا من طريق الكشف بأن رأى الرسول يقظة وأخبره بذلك ، لأن التلقّى عن الرسول بأى صفة بعد الوفاة ليس من الأدلة ، قاله الشيخ الخضرى الكبير ، ولأن حكم الله لا يتلقّى إلا من لفظ أو استنباط وما ذكر أولا ليس واحداً منهما ، وعلى التنزل فهذا من قبيل تعارض الدليلين ، فيعمل بما فى اليقظة دون المنام ، لأن الأول أرجح .

وقال جماعة منهم صاحب المهذب : إن غم الهلال وعرف رجل بالحساب ومنازل القمر دخول رمضان يلزمه – الصوم ، لأنه عرف الشهر بدليله ، فكان كمن عرف بالبينة ، وعليه حمل قوله صلى الله عليه وسلم فى رواية « فإن غم عليكم فاقدروا له » وجمع بينه وبين الرواية الأخرى « فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » بأن الأول لمن يعرف منازل القمر ، والأخير لمن لا يعرفها .

وجاء فى الكفاية ما نصه : وعن الشيخ أبى حامد أنه ذكر فى التعليق وجها : أن ذلك بمنزلة الشهادة على الرؤية ، فيتعدى الوجوب ممن عرفه بالحساب إلى من لم يعرفه .

وإذا عارض الحساب أو التنجيم الرؤية فى إثبات الهلال وعدمه قدمت الرؤية ولو من عدل واحد ، كما قاله بعض العلماء ، وقال الشيخ محمد ابن عوض الدمياطى فى كتابه منحة العلى المتعال فيما يثبت به الهلال ص ٢١ (فقد استفيد من كلام الرملى أولا وأخيراً: أنه إذا عارض الحساب الشهادة يعمل بالشهادة بالنسبة لعموم الناس وأما الحاسب والمنجم فيجب عليهما حينئذ العمل بما اقتضاه الحساب – والتنجيم ، وكذا من صدقهما ، لكن

لابد أن يكونا ذوى قدم راسخة فى هذا الفن ، فعليهما حينئذ التثبت التام ، وعلى من يصدقهما كذلك ، ليكون على ثقة تامة من الركون إلى قولهما .

وقال ابن حجر فى الإتحاف كما نقله ابن عوض المذكور : (تنبيه) قال السبكى محل قبول شهادة العدل — بل العدلين — إذا دل الحساب على إمكان الرؤية ، فإن دل على عدم إمكانها وهو يدرك بمقدمات قطعية لم تقبل شهادتهما لاستحالتها اهـ ملخصا .

وقال القليوبى فى حاشيته على — الخطيب قوله (وتثبت رؤيته بعدل) ما نصه : أى إن لم يدل الحساب — القطعى على عدم رؤيته ، وإلا لم يعمل بقوله العدل وإن تعدد ، بل يحكم بكذبه كما قال العبادى ، وهو مما لا يجوز القول بخلافه ا هـ .

« ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » .

المراد بالمرض ما يشق معه الصوم ويعسر ، كما يؤذن به قوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وهو قول الأصم وجماعة ، وأكثر الفقهاء على أنه هو الذى يؤدى الصيام معه إلى ضرر فى النفس أو زيادة فى العلة .

والمراد بالسفر السفر الطويل ، فإنه هو الذى يشق معه الصوم ، وقدره الشافعية بستة عشر فرسخا ، والفرسخ ثلاثة أميال ، وهو بالكيلو متر نحو (٩٠ كم) من دمياط إلى الراهبين ودليلهم قوله صلى الله عليه وسلم : « يا أهل مكة لا تقصروا فى أدنى من أربعة برد . من مكة إلى عسفان » فدل ذلك على أنه السفر الذى تحصل به المشقة عادة ، قياساً للصيام على القصر بل هو أولى ، وبهذا أخذ أحمد ومالك وإسحق .

وهناك آراء أخرى للفقهاء فى تقدير مسافة السفر المبيح للفطر ، ومنها رأى أبى حنيفة ، إذ قدرها بأربعة وعشرين فرسخا ، فارجع إلى المطولات إن شئت المزيد من المعرفة .

والحكم المستفاد من الآية : أن من كان مريضًا أو على سفر فأفطر فعليه صيام أيام بقدر ما أفطره من شهر آخر غير رمضان ، والفطر لهما رخصة عند الأكثرين ، فإن شاءا صاما وإن شاءا أفطراً ، ما لم يتضررا بالصوم ضرراً لا يحتمل عادة ، فإن الصوم يكون حراما عليهما ، وذهب قوم من الصحابة : إلى أن الفطر واجب عليهما

مطلقاً ، وبه قال ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم ، ونقل عن ابن عمر : أن المسافر لو صام فى السفر فعليه القضاء فى الحضر ، وهذا اختيار داود بن على الأصفهانى .

ومن حججهم قوله صلى الله عليه وسلم : « ليس من البر الصيام فى السفر » قاله حين رأى رجلا جالسا تحت ظلة وهو مجهد من الصيام فى السفر .

ومن حجج الجمهور : ما رواه أبو داود أن حمزة الأسلمى سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هـــل أصوم على السفر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « صم إن شئت وأفطر إن شئت »

ويشترط الشافعية فى إجازة الفطر للمسافر أن يسبق السفر طلوع الفجر لقوله تعالى « أو على سفر » أى أنه متمكن من السفر قبل الصوم ، فإن كان سفره بعد الفجر لم يفطر يومه هذا .

وإذا أفطر كل من المريض والمسافر ففى طريقة القضاء بعد زوال العذر قولان : أحدهما أن يقضى ما أفطر فيه على التتابع وجوبا ، وبه قال على ، وابن عمر والشعبى ، وثانيهما أن التتابع فى القضاء مستحب وهو قول الأكثرين .

ولا يجب القضاء على الفور خلافاً لداود ، ومن أفطر رمضان كله وكان تسعة وعشرين يوما قضى عدته ، ولا يقضى شهراً ثلاثين يوما ، وإذا كان رمضان تاما فأفطره قضى مكانه ثلاثين يوماً ، لا شهرا تسعة وعشرين يوماً ، فإن العبرة بعدة ما أفطر فيه .

بعض أحكام الصيام :

١ – لا يشترط فى السفر المشقة ، فالسفر بالوسائل الحديثة المريحة لا يمنع من رخصة الفطر وإن كان الصيام أولى ، بل قال أنس بن مالك ، ومالك والشافعى وأبو حنيفة وغيرهم : الصيام أولى للمسافر القادر عليه وإن كان السفر شاقاً ، وكذا المريض .

وقال أحمد والأوزاعى وغيرهما الفطر أولى ،

وقال غيرهم أفضلهما أيسرهما .

٢ – ومن أحكام الصيام أنه لا يضره وصول غبار طريق أو غربلة دقيق أو غبار عرقسوس أو نحو ذلك إلى جوف الصائم لأن الاحتراز عنه شاق والله يقول « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

٣ – ولو وصل الطعام أو الشراب إلى جوفه مكرها أو حال نومه فلا

يفطر ، لأنه لا اختيار له فى ذلك وكذا لو أكل أو شرب ناسيا ، خلافا لمالك ، لحديث « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولخبر الصحيحين « من نسى وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه »

وزاد فى صحيح ابن حبان « ولاقضاء عليه ولا كفارة » .

٤ — ومن كان يتسحر فسمع الفجر فليلق ما فى فمه من طعام أو شراب ولا يبتلعه ، وليغسل فمه وليمسك ، وصيامه حينئذ صحيح ولا إعادة عليه ، وكذا من كان يأتى أهله فسمع الفجر فنزع فوراً ، بخلاف ما لو ابتلع الطعام أو الشراب الذى فى فمه فإنه يفطر مع الإثم وعليه الإمساك وقضاء هذا اليوم بعد رمضان ولا كفارة عليه عند الشافعية وعليه الكفارة فى مذهب المالكية ، ومن استمر يجامع زوجته بعد سماعه أذان الفجر فعليه مع القضاء الكفارة الكبرى[1] وعليه كالذى قبله الإمساك احتراما ليوم الصيام ، وإن كانا قد أفطرا بما فعلا .

٥ — ومن تغلبه القىء فلا يفطر ما لم يرجع منه شىء إلى جوفه ، فإنه يفطر ، وكذا من تعمد القىء وإن لم يرجع منه إلى جوفه شىء .

٦ — وابتلاع نخامة وصلت إلى ظاهر الفم يفطر عند بعض الفقهاء ولا يفطر عند آخرين .

٧ — ولا يفطر إثر طعام تذوقه لتعرف شئونه ثم مجه ، ولا يفطر — بالاكتحال ولو ظهر طعمه فى حلقه ولا برطوبة من مسام بالاستحمام ، ولا بدهن من مسام عضو طلى بالدهن ، ولا حقنة جلدية أو وريدية أو عضلية ، لأنها وصلت إلى الجسم لا عن منفذ مفتوح ، وفى الحقنة الشرجية خلاف بين الأئمة ، فنهم من يقول بالفطر بها ، ومنهم من لايقول بذلك ولايفطره ريح طيب وصل إلى أنفه .

٨ — ومن مبطلات الصوم إنزال المنى بلمس بشرة بشهوة ، كالوطء بلا إنزال ، وفى الأخيرة الكفارة الكبرى مع القضاء ، أما نزول المنى بالاحتلام فلا يبطل الصوم ، كنزوله بنظر أو فكر ، وتكره القبلة لمن يحل تقبيله كالزوجة ، إن لم تحرك شهوة ، فإن حركتها حرمت . فإن قبلها ونزل المنى

(١) وهى عتق رقبة مؤمنة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً كما سيأتى بيانه فى شرح آية « أحل لكم ليلة الصيام . . »

بسببها أفطر ، ولا يفطر بفصد ، ولا بحجامة .

٩ - ولابد من نية الصيام ليلا ، ويكفى عند مالك أن ينوى صيام الشهر أول ليلة فيه والنية محلها القلب ، وليس التلفظ شرطا ولا مسنونا ، ومن تسحر أو شرب ليلا ليتقوى على الصيام ، أو امتنع عن المفطرات خوف طلوع الفجر كان ذلك نية ، ويكفى فى صيام النفل أن ينوى قبل الزوال بشرط أن لا يسبقها مفطر نهاراً .

١٠ - ويسن تعجيل الفطر لحديث الصحيحين « لا تزال أمتى بخير ما عجلوا الفطر » زاد أحمد « وأخروا السحور » وأن يكون على رطب فتمر فماء فحلو فحلوى ، ويسن بعد الفطر أن يقول « اللهم إنى لك صمت وعلى رزقك أفطرت » إلى آخر الدعاء المأثور .

١١ - ويسن السحور لحديث الصحيحين « تسحروا فإن فى السحور بركة » ولخبر الحاكم « استعينوا بطعام السحر على صيام النهار ، وبقيلولة النهار على قيام الليل » ويحصل بقليل المأكول وكثيره لحديث فى صحيح ابن حبان « تسحروا ولو بجرعة » .

١٢ - ويدخل وقت السحور بنصف الليل ، ويسن تأخيره ما لم يقع فى شك .

١٣ - وعلى الصائم أن يصون لسانه عن الفحش من الكذب والشتم والغيبة والنميمة ونحوها ، لحديث - البخارى « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » ولخبر الحاكم « ليس الصيام من الأكل والشراب ، الصيام من اللغو والرفث » أو كما قال .

١٤ - ويكره شم الرياحين ، لأن المقصود من الصيام كسر النفس .

١٥ - ويغتسل الصائم من الجنابة قبل الفجر ، ليكون على طهر من أول الصيام فذلك أفضل ، فإن اغتسل بعده فلا شيء عليه ، ولا مانع من الاغتسال فى الصيام للنظافة أو التبرد ، ولا يفطر الصائم بوصول ماء إلى أذنه ، لأنها لا توصل شيئا إلى الداخل .

١٦ - ولو سبق ماء المضمضة أو الاستنشاق إلى جوفه كرها فلا يفطر ، ما لم يكن ذلك من مرة زائدة على الثلاثة أو نتيجة غرغرة ولو من إحدى المرات الثلاث ، فإنه يفطر لأن الزيادة على الثلاث غير مستحبة ، والمبالغة فى المضمضة والاستنشاق مكروهة حذراً مما ذكر .

١٧ — والفطر واجب على الحائض والنفساء ، وعليهما القضاء بعد زوال العذر ، فإن صامتا كانتا آثمتين ولا يصح صومهما ، وعليهما قضاء ما صامتاه حال عذرهما .

١٨ — وللحامل والمرضع أن يفطرا كما لهما أن يصوما ، فإن أفطرتا فعليهما القضاء بعد الحمل أو الرضاع ، ولا فدية عليهما إن أفطرتا خوفا على أنفسهما ، أو عليها وعلى الولد ، فإن كان الفطر خوفا على الولد فقط فعليهما مع القضاء الكفارة ، وقد مر بيان مقدار الفدية عند قوله تعالى « وعلى الذين يطيقونه فدية » ..

١٩ — وفريضة الصوم معلومة من الدين بالضرورة ، فمن جحدها فهو كافر ، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام ، أو نشأ بعيدا عن العلماء .

٢٠ — ومن أقر بفريضة الصوم ، ولكنه أفطر بغير عذر حبس ومنع عن الطعام والشراب نهارا ، عقاباً له وتعويداً على الصوم جبراً .

فضل صوم رمضان :

جاء فى فضل رمضان أحاديث عديدة نذكر منها ما يلى :

١ — جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وفى رواية « وما تأخر » أخرجه الشيخان .

٢ — وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : « كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم فإنه لى أنا أجزى به ، والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إنى صائم ، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما ، إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » .

رواه البخارى ومسلم .

٣ — وفى رواية لمسلم « كل عمل ابن آدم يضاعف . الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله تعالى إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع طعامه وشرابه من أجلى ، للصائم فرحتان ، فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

شرح بعض المفردات :

« جنة » أى واق لصاحبه من الشهوات المؤذية ومن النار « فليقل : إنى صائم » أى فليقل ذلك بلسانه ليسمع الشاتم فينزجر ، وبقلبه ليمنع نفسه من المشاتمة والمسابة « فلايرفث» أى لا يفحش فى القول « ولخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك » خلوف فمه ريحه المتغير بسبب الصيام ، والمراد من كونه أطيب عند الله من ريح المسك أنه تعالى يرضى عن الصائم لأنه صبر على عدم تناول الطعام حتى تغير فمه، ويثيبه على ذلك لأن استطابة الروائح بمعنـــاها الحقيقى من صفات الخــلق لا من صفات الخالق وهذا لا يقتضى أن يترك الصائم فمه بدون سواك ، بل من السنة أن يستاك حماية لجوفه من ريقه الذى يصل إليه متغيرا بتلك الرائحة ملوثا بصديد الإسنان الذى هو أحد سببى هذا الخلوف ، والسبب الثانى الجهاز الهضمى ،ومن قال بكراهة السواك فى الصيام فقد أخطأ فهم المراد من الحديث، ولم يفطن إلى الضرر الناشىء عن ترك مصدر الرائحة الكريهة بدون إزالة . أخرج أبو داود والترمذى عن عامر بن ربيعة قال « رأيته صلى الله عليه وسلم يستاك وهو صائم مالا أعد ولا أحصى» .

٤ — وجاء فى الحديث الصحيح « إن فى الجنة بابا يقال : له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لايدخل منه أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد » رواه البخارى ومسلم وغيرهما ، زاد الترمذى « ومن دخله لم يظمأ أبداً » .

٥ — وجاء فيه أيضاً « إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة ، وغلقت أبواب النار ، وصفدت الشياطين» رواه البخارى ومسلم ، والمراد من تصفيد الشياطين حبسها عن الإغواء ، ولعل ذلك بما حصن الله به الصائمين من قوة الإرادة وبغض المعصية ، ومن شأن ذلك فشل الشياطين فى الإغواء فكأنهم مصفدون .

٦ — وجاء فيه « اغزوا تغنموا وصوموا تصحوا » رواه الطبرانى ورواته ثقات .

٧ — وجاء فيه « الصيام جنة يستجن به العبد من النار» رواه أحمد بإسناد حسن ورواه البيهقى .

٨ — وجاء فيه « من أفطر يوما من رمضان من غير رخصة ولا مرض

لم يقضه صيام الدهر كله وإن صامه »

رواه الترمذى وأبو داود والنسائى — وغيرهم ، واللفظ للترمذى .

٩ — جاء فيه « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » .

رواه البخارى ومسلم .

١٠ — وجاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم « لكل شىء زكاة ، وزكاة الجسد الصوم ، والصيام نصف — الصبر » .

١١ — وجاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا ترد دعوتهم الصائم حين يفطر والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين » .

١٢ — وجاء فيه قوله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت أمتى خمس خصال فى شهر رمضان لم تعطهن أمة قبلهم : خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا ، وتصفد فيه الشياطين ، ويزين الله تعالى كل يوم الجنة ، ويقول : ويوشك عبادى الصالحون أن يكف عنهم السوء والأذى يغفر لهم فى آخر ليلة منه ، قيل : يارسول الله . أهى ليلة القدر؟ قال : لا ، ولكن العامل إنما يوفى أجره إذا قضى عمله » .

١٣ — وجاء فيه عنه صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس وأديت الزكاة ، وصمت رمضان وقمته فممن أنا ؟ قال من الصديقين والشهداء » .

١٤ — وجاء فيه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رمضان سيد الشهور » .

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

أى أنه تعالى شأنه أنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر ، ولهذا رخص فى الفطر لعذر السفر أو المرض .

« ولتكبروا الله على ما هداكم » .

أى وشرع لكم الأحكام الماضية من صوم شهر رمضان عند العلم بهلاله ، والترخيص بالفطر لعذر السفر أو المرض ، وقضاء ما فاتكم منه لتكملوا عدة رمضان بما تصومونه أداء أو قضاء ولتعظموا الله على ما هداكم إليه من الصوم النـــافع لأرواحكم وأبدانكم ، والفطر عند العذر ، ولعلكم

تشكرون نعمة هذا التشريع فى جميع صوره ، لما فيه أن الفوائد والمنافع صوما ، والتيسير على المعذورين فطراً .

صلاة التراويح :

يجمل بنا قبل أن نشرح باقى آيات الدعاء والصيام أن نتكلم على صلاة التراويح وعدد ركعاتها لاختلاف الناس فى أدائها حتى يكونوا على بينة مما يفعلون ، وفيما يلى البيان :

روى الإمام البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ليلة من رمضان ، فصلى فى المسجد وصلى رجال بصلاته ، فأصبح الناس فتحدثوا فاجتمع أكثر منهم صلوا معه ، فأصبح الناس فتحدثوا ، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلوا بصلاته ، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج عليه الصلاة والسلام لصلاة الصبح ، فلما قضى الفجر أقبل على الناس ثم قال « قد رأيت الذى صنعتم ، ولكنى خشيت أن تفرض عليكم » وفى الصحيحين « عن عائشة : أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى التراويح ليالى فصلوها معه ، ثم تأخر فصلاها فى بيته بقية الشهر وقال : خشيت أن تفرض عليكم — فتعجزوا عنها » .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم توفى والناس يصلونها فرادى ، وكان الأمر كذلك فى خلافة أبى بكر وصدر خلافة عمر ، ثم جمع عمر الرجال على أبىّ بن كعب ، والنساء على سليمان بن أبى خثعمة ، فخرج على بن أبى طالب —رضى الله عنه— فى أول ليلة من رمضان فسمع القراءة فى المساجد ، ورأى القناديل فيها ، فقال : نور الله قبر عمر كما نور مساجدنا بالقرآن ، وكذلك قال عثمان بن عفان فى خلافته .

وسميت بهذا الاسم لأن كل اربع منها يتروح المصلون عقبها ، أى يستريحون ، وهى تؤدى ركعتين ، ركعتين ، وكل ركعتين بنية وتكبير وبتشهد وتسليم .

والناس مختلفون فى أدائها ، فمنهم من يؤدونها عشرين ركعة بعشر تسليمات ، ويوترون بعدها بثلاث ركعات ، ومنهم من يؤدونها ثمانى ركعات بأربع تسليمات ويوترون بعدها بثلاث ركعات ، وكل منهم له سند فيما يفعل . .

فمن يؤديها بالطريقة الأولى سنده ما روى عن مالك عن يزيد بن رومان « أن الناس كانوا يقومون رمضان فى زمان عمر بثلاث وعشرين ركعة » .

ومن يؤديها بالطريقة الثانية سنده ما رواه مالك فى الموطأ عن محمد بن يوسف عن السائب بن يزيد أنه قال « أمر عمر بن الخطاب أبىّ بن كعب وتميما الدارى : أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة ، قال : وقد كان القارئ يقرأ بالمئين ، حتى كنا نعتمد على العصى من طول القيام ، وما كنا ننصرف إلا فى بزوغة الفجر » .

فمن هذين الخبرين: علم أن الناس كانوا يصلونها فى عهد عمر بالصورتين المذكورتين وعلى هذا لا ينبغى لأحد أن ينكر على الآخر إذا صلى بصورة منهما .

وبما أن التشريع أساسًا مصدره الكتاب والسنة ، فلهذا لابد أن تكون الطريقتان المذكورتان رئى الرسـول صلى الله عليه وسلم بهما فى المرات التى ظهر لهم فيها وهو يصليها، أو أنهم عرفوهما فى عهد عمر بحديث عنه صلى الله عليه وسلم سمعوه ولم يصل إلينا .

الدعاء وإجابته :

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب » .

لما أمر الله عباده المؤمنين بصوم رمضان ومراعاة عدته ، وحثهم على تكبيره وشكره ، عقب ذلك بهذه الآية الدالة على أنه سبحانه خبير بأفعالهم سميع لأقوالهم ، مجيب لدعائهم ، مجازيهم على أعمالهم تأكيداً لما مر وحثا عليه .

سبب النزول :

مما ذكره الفخر الرازى فى سبب نزولها : أن أعرابيا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ، فنزلت.

وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى غزوة فرفع أصحابه أصواتهم بالتكبير والتهليل والدعاء فقال صلى الله عليه وسلم « إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعًا قريبًا » .

وقال الحسن : سأل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: أين ربنا ، فأنزل الله هذه الآية .

معنى الآية :

وإذا سألك عبادى عنى فقل لهم :

إنى قريب ، وقربه تعالى من عباده قرب علم وحفظ وليس قرباً بالجهة والمكان ، فإن ذلك للحوادث ، والله يقول « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ٤٢ : ١١ » .

ولأن من كان فى مكان فهو مفتقر إلى ذلك المكان ، وذلك على الله محال ، ولأنه لو كان فى مكان لما كان قريباً من كل ، بل كان إذا قرب من شيء بعد عن شيء آخر ، والآية تقول « فإنى قريب» وذلك يقتضى أنه قريب من كل شيء ، فثبت أن القرب بالعلم وليس بالمكان وهذا هو معنى قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم » وهو المقصود من قوله « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ومن قوله « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » الآية .

ومعنى إجابته تعالى للداعى إذا دعاه أن يقول له : لبيك عبدى لأنه يسمعه ، أو أنه يحقق له ما دعاه ، فتكون الإجابة بهذا المعنى مشروطة بمشيئة حملا للآية على قوله تعالى « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » .

فإن قيل : إن المطلوب بالدعاء إن كان مقدراً وقوعه فى علم الله فما فائدة الدعاء بالنسبة له وهو واقع ولابد ، وإن كان غير مقدر الوقوع فإن الدعاء لا يحقق وقوعه ، لأن ما فى علم الله لا يتخلف .

والجواب : أن الدعاء ينفع فيما جعله الله أزلا مترتباً عليه ، فلابد من حصول الدعاء ليحصل ما يترتب عليه ، كما لابد من حصول العلاج بالدواء الذى توقف شفاء المريض فى علم الله عليه ، وكما أنه لا يصح أن يمتنع المريض عن تعاطى الدواء اتكالا على ما كتبه الله فى علمه من الشفاء أو عدمه أخذاً بالأسباب فكذلك لا ينبغى أن يترك العبد دعاء ربه فى أموره المختلفة اتكالا على ما قدره الله فى شأنها أزلا أخذاً بالأسباب .

ولمثل هذا الاتكال سألت الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أرأيت أعمالنا هذه ، أهى شيء قد فرغ منه ؟ أم هى أمر يستأنفه الله تعالى ، فقال صلى الله عليه وسلم « بل هى شيء قد فرغ منه » فقالوا : ففيم العمل إذن ؟ فقال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

وبعد هذا التحقيق : نعلم أن وعده الكريم بالاستجابة للداعى هنا مقيد بمشيئة الله تعالى وفقاً لقوله تعالى فى آية أخرى « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » حملا للمطلق على المقيد .

وإن من رحمته تعالى أن يجعل إجابة الدعاء مرهونة بمشيئته لا بمشيئة الداعى فإن لله مقادير فى عباده لا يتركها ولا يهملها من أجل دعاء الداعى فقد تكون استجابته تعالى لدعائه فى غير مصلحته العاجلة أو الآجلة ، أو فى غير مصلحة أسرته أو البيئة التى حوله ، فعلمه تعالى بالمصلحة أعمق وأشمل ، وحكمته فيما يقدره أرفع وأجل شأنا من رغبة الداعى فكل ما يقضى به الله من صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر ، ومن حمل أو عقم ومن سلم أو حرب ، ومن خصب أو جدب ، أو غير ذلك ، لله فيه حكم عظيمة ، والخيرة دائماً فيما يختاره الله وإن خالفت ما يشتهيه الداعى .

ولو أنه تعالى أجاب كل داع إلى ما يلتمسه منه لفسد نظام أهل الأرض ، بل لهلكوا جميعاً ، فإن كل امرئ لا يخلو من عدو ، فإن استجاب الله دعاء كل داع فى خصمه بأن يهلكه لهلك الناس جميعا ، فأى حكمة فى ذلك ، وكل إنسان يحب الغنى ويكره الفقر ، فلو استجاب الله فأغنى كل من يطلب الغنى لفسد نظام الناس ، إذ لا يستطيع أحد أن يسخر أحداً فى خدمته ، فكل غنى يترفع عن خدمة غنى مثله ، فتتعطل بذلك مصلحة الخلائق ، وتفسد أمورهم ، ولهذا قال سبحانه « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » .

ولو توالد الناس جميعاً وأنجبوا كما يريدون وكما يسألون ربهم ، ولم يمت من ذرياتهم أحد كما يطلبون من مولاهم لضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولم تكفهم أرزاقهم ، ولأكل الناس بعضهم بعضاً — لأن حاصلات الزراعة والثروتين : الحيوانية والسمكية لا تفى بضروراتهم — ولأصبح الناس لا يجدون متنفسا لأنفاسهم من عظيم تكدس بعضهم فوق بعض ، وقس على ذلك بقية المطالب التى يدعو بها العباد ربهم ، فلهذا كان من حكمته تعالى أن لا يجيب أحداً إلى ما سأل إلا وفق مشيئته وحكمته المبنية على نظام محكم لخير البشرية جميعاً ، واعلم أن دعاء الداعى لا يمكن أن يذهب سدى ، فإما أن يلقى استجابة من الله إن وافق ما يدعو به مشيئته تعالى ، وإما انشراحا فى صدره وصبرا يسهل معه احتمال البلاء إن لم يوافق مشيئته جل وعلا ، وإما عوضا فى الدنيا أو الآخرة .

وفى الحديث عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دعوة المسلم لاترد إلا لإحدى ثلاث ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، إما أن يعجل له فى الدنيا وإما أن يدخر له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء بقدر ما دعا » .

وللدعاء مزية كبيرة بين أنواع العبادة ، قال صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة » وذلك لما فيه من تفويض الأمر إلى الله تعالى ، والاعتراف بأن مرد كل شيء إليه سبحانه وحسبك فى الدلالة على أهميته أنه تعالى يغضب من عبده إذا نزلت به شدة فلا يدعوه ، قال تعالى « فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » .

والله يحب من عبده أن يسأله جازما ، قال صلى الله عليه وسلم « لا ينبغى أن يقول أحدكم اللهم اغفرلى إن شئت ، ولكن يجزم ويقول اللهم اغفر لى » .

ومعنى « فليستجيبوا لى » فليجيبونى إلى ما طلبته منهم من العبادة والطاعة فإنى قريب منهم بعلمى ، مجيب دعاءهم إذا دعونى « وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » أى يهتدون إلى مصالحهم فى دنياهم وأخراهم .

الجماع فى ليالى الصيام :

ويقول الله عقب ذلك « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » الآية ، وسبب نزولها كما روى أحمد وجماعة عن كعب بن مالك قال « كان الناس فى رمضان إذا صام الرجل فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد ، فرجع عمر بن الخطاب رضى الله عنه من عند النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وقد سمر عنده ، فوجد امرأته قد نامت فأيقظها وأرادها ، فقالت : إنى قد نمت ، فقال : ما نمت ، ثم وقع عليها ، وصنع كعب بن مالك مثل ذلك ، فغدا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فنزلت » .

وكانوا إذا صلوا العشاء الأخيرة وإن لم يناموا حرمت عليهم المفطرات ومنها الجماع فنزلت هذه الآية لإباحة ذلك من الغروب وإلى الفجر كما سنبينه .

والرفث الجماع ، ونساؤكم زوجاتكم وفى حكمهن الإماء والمملوكات بملك اليمين أى أحل الله لكم الجماع لزوجاتكم وإمائكم ليلة الصيام من غروب الشمس حتى الفجر ، وذكر الله حكمة ذلك بقوله « هن لباس

لكم وأنتم لباس لهن » وهو كناية عن أن كلا منهما يمنع الآخر ويستره من الفجور ، وفى الخبر « من تزوج فقد أحرز ثلثى دينه » وبما أن الله تعالى جعلهن وقاية للرجال من الفاحشة ، وجعل الرجال وقاية لهن منها فلهذا أفسح الله وقت الاستمتاع بهن فى الصيام منعا من الوقوع فيما لا يحل ، فأباح الاستمتاع . فى أى وقت من الليل كله بدلا من الوقت الضيق السابق الذى أوقعهم فى الحرج وجعلهم — يغشون الإثم .

« علم الله أنكم كنتم تختانون — أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم » الخيانة عدم الوفاء والاختيان الخيانة الشديدة كما قاله الزمخشرى ، — واختيانهم لأنفسهم عدم وفائهم بحفظها من المعاصى ، أى علم أنكم كنتم تُسِرُّون بالمعصية إذ تجامعون زوجاتكم سراً بعد النوم أو بعد صلاة العشاء ، وتأكلون وتشربون كذلك ، وبذلك تخونون أنفسكم لأنكم جلبتم لها العقاب ومعنى « فتاب عليكم » فقبل توبتكم من المعصية التى خنتم بها أنفسكم « وعفا عنكم » فلا يعاقبكم بسبب هذه التوبة المقبولة .

« فالآن باشروهن » أى فجامعوهن ليلة الصوم من الآن دون حرج ولو بعد النوم أو صلاة العشاء فقد حل لكم ذلك بعد ما كان محرما بعدهما « وابتغوا ما كتب الله لكم » أى اطلبوا ما كتبه الله وقدره لكم من الذرية بسبب هذا الجماع ، لا مجرد قضاء الشهوة فقط فإن ذلك هو الغرض الأسمى من النكاح ، قال صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا تكثروا » أو اجعلوا هذه المباشرة فى حدود ما شرعه الله لكم وهو أن تكون للحلائل من زوجة أو مملوكة فى الطهر .

« وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » أى فالآن باشروا حلائلكم بالوقاع ليلة الصيام وكلو واشربوا حتى الفجر ، فالفجر غاية لِحِلِّ الوقاع والأكل والشرب ، فى أى وقت من ليل الصيام ، أما بعد بداية الفجر فيحرم كل ذلك .

والمراد من الخيط الأبيض أول ما يبدو من الفجر الصادق المعترض فى الأفق قبل انتشاره والمراد من الخيط الأسود ما يمتد مع الفجر من آخر ظلمة الليل ، وقوله « من الفجر » بيان

لأول الخيطين ، ومنه يتبين أن الخيط الثانى من الليل ، وخصه بالبيان لأنه هو المقصود بالحكم، وقيل : هو بيان للخيطين الأبيض والأسود فالفجر ، مكون منهما ، قال الطائى : وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه : وهو على هذا يشبه قولك : حتى يتبين العالم من الجاهل من القوم .

فإذا فاجأك الفجر وأنت تأكل أو تشرب أو تجامع ، فألقيت ما فى فمك من طعام أو شراب ، ونزعت نفسك من مباشرة أهلك فوراً صح صومك ، وقد مر بيان ذلك :

ومن كان معه (ساعة) لضبط الوقت ، ومعه توقيت الفجر ، وكانت ساعته مضبوطة كفته (ساعته) هذه فى معرفة الفجر حسب التوقيت ويعرف الصائم أيضًا لسماع المؤذن الذى عرفه أهل الحى بالدقة فى مراعاة الوقت ، وينبغى له أن يؤذن للفجر بصفة خاصة فى ميقاته تمامًا ، فلا يضيف إليه دقائق كما يفعله بعض المؤذنين الجاهلين حتى لا يتسبب فى فساد صيام بعض الناس فيتحمل إثمهم ، فإن من الناس من يصحو قبيل الفجر فيأكل أو يشرب أو يأتى أهله اتكالا على أن الليل لا يزال باقيا فإذا أذن المؤذن للفجر بعد فوات دقائق من أول وقته، وهؤلاء لا يزالون يباشرون أكلهم ، وشربهم ووقاعهم ، فقد أوقعهم فى الفطر وهم لا يعلمون ، فيكون بذلك آثما ويصح صومهم ما داموا جاهلين، فإن علموا قضوا يومهم هذا .

ويعرف الفجر أيضًا برؤية أول بياضه فى الأفق وبقراءة القرآن وورد وبإخبار ثقة .

ومن السنة الإمساك عن المفطرات قبل الفجر بزمن يسير يسع قراءة خمسين آية احتياطا للعبادة كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم .

ومن أكل أو شرب أو جامع ناسيا أنه صائم ولم تذكره زوجته أو غيرها فصيامه صحيح لحديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم (أن رجلا قال أكلت وشربت وأنا صائم ، فقال صلى الله عليه وسلم « أطعمك الله وسقاك فأنت ضيف الله فتم صومك » ولقوله صلى الله عليه وسلم: « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

وليحذر الصائم مغالطة ربه فيزعم أنه ناس وهو كاذب ، فإنه تعالى يعلم السر وأخفى ، وليحذر الأزواج من

مداعبة زوجاتهم نهارا حتى لايقعوا فى الخطيئة الكبرى بجماعهم فى نهار رمضان ، فإنه إثم عظيم ، وكفارته هى الكفارة الكبرى مع قضاء اليوم ، والكفارة الكبرى هى عتق رقبة مؤمنة فإن لم يجد فصيام شهرين أو ستين يوما متتابعة ، بحيث لو أفطر يوما ولو لعذر استأنف ، فإن لم يستطع أطعم ستين مسكينا لكل مسكين مد ، والمد رطل وثلث من غالب قوت البلد « ثم أتموا الصيام إلى الليل » .

أفادت الآية أن الصيام يبدأ من أول الفجر الصادق عند تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، وأنه يتم عند غروب الشمس حيث يبدأ الليل؛ فيحل الفطر حينئذ بأى مفطر قل أو كثر ، ويحرم الوصال فى الصيام دون فطر ، فقد روى الشافعى عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الوصال ، قيل يارسول الله إنك تواصل فقال : « إنى لست مثلكم ، إنى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » أى أن الله تعالى يجعل النبى صلى الله عليه وسلم فى قوة من أكل وشرب ، وإن لم يطعم ولم يشرب « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد » .

لما أباح الله مباشرة النساء ليلة الصيام وضع هنا قيدا لحل هذه المباشرة، وهو أن تكون فى غير المساجد ، فلا يحل للصائمين المعتكفين فيها أن يستدعوا إليهم زوجاتهم لمباشرتهن ليلا فيها ، فكما تحرم تلك المباشرة نهاراً لحرمة الصيام تحرم ليلا بالمساجد ، لحرمة بيوت الله .

« تلك حدود الله فلا تقربوها » .

أى ما تقدم من الأحكام إباحة ومنعا أحكام الله التى حددها ، فلا تقربوها محاولين اقتحامها بتحريم ما أحل أو تحليل ما حرم .

«كذلك » البيان الواضح فيما مر « يبين الله آياته للناس » فى شرائعه المختلفة ، لتكون واضحة المعالم « لعلهم يتقون » أى يحذرون عقوبته بامتثالها .

حكم الصوم وما ينبغى فيه :

حكم الصوم كثيرة منها أن يعرف الأغنيـــاء قدر النعيم فيشكروا الله عليه ، فإن الصائم الغنى يرى نفسه محروما من الطعام والشراب والاستمتاع الحلال بزوجته نهارا ، فيتذكر أن غيره من الفقراء محروم من هذا بصفة دائمة ، أما هو فإنه يجده طول العام

فيما عدا شهر الصيام ، كما يجده ليلا فى الصيام ، فيدرك بذلك فضل الله تعالى عليه فيشكره ، إذ لا يعرف قدر النعمة كما ينبغى إلا من غابت عنه .

ومنها أن يذكروا الفقراء فإن من شبع لا يذكر من جاع ، وإنما يذكره أن لوجاع مثله ، ومنها صحة الأجساد وراحة الأجهزة الهضمية التى تعبت طول العام من ألوان الطعام الدسمة ، ووجباته العديدة ، وكمياته الكثيرة ، لأن الطبيب يعالج المريض بالحمية حتى ينفع فيه الدواء ، والصيام أفضل حمية وأجل علاج ، بشرط أن تكون وجبتا الفطور والسحور معتدلتين مقـداراً ونوعا ، حتى تحصل الفائدة المرجوة منه للجسم والجهاز الهضمى .

وينبغى للصائم أن يحرص على أكل الحلال والإكثار من الصدقة فى رمضان لحديث (أى الصدقة أفضل ؟ قال صلى الله عليه وسلم « الصدقة فى رمضان » وكان صلى الله عليه وسلم أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان ، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة ، كما ورد فى الحديث الصحيح .

والصدقة الطيبة مجزية من الله ولابد ، قال تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » الآية فسماها قرضا لتحقيق جزائها وثبوته كثبوت سداد الدين ، وهى ترضى الرب ، قال صلى الله عليه وسلم : « الصدقة تطفئ غضب الرب» ويكون صاحبها فى ظلها ، قال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن فى ظل صدقته حتى يقضى الله بين الناس » .

وينبغى للصائم أن لا يرد السائل المحتاج ولا يخيب رجاءه ما دام قادرا قال صلى الله عليه وسلم : « إذا وقف السائل بالباب وقفت الرحمة معه ، ردها من رده ، وقبلها من قبله » وكان صلى الله عليه وسلم إذا لم يجد شيئاً يعطيه للسائل يلين له الكلام ، ويعده بالعطاء فى وقت آخر ، وكانت عائشة رضى الله عنها تعطى السائل ماوجدت ولو تمرة ، والصدقة تدفع البلاء ، قال صلى الله عليه وسلم : « أكثروا من الصدقة ، فإن البلاء لا يتخطاها » ولا تنقص من المال ، قال صلى الله عليـه وسلم : « ما نقص مال من صدقة ، ومازاد الله أحداً يعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » ولها أجر عظيم عند الله ، قال صلى الله عليه وسلم

« من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه[١] حتى تكون مثل الجبل وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو فى يد الله حتى تكون مثل الجبل فتصدقوا ، ثم قرأ « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

وينبغى للصائم أن لايمن بصدقته على من أخذها فإن المن حرام ومحبط للثواب ، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . كان أبى يقول : إذا أعطيت رجلا شيئا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فكف عنه سلامك .

وينبغى له أن يمتنع عن اللغو والسباب وقول الزور والعمل به ، قال صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » وقال « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

كما ينبغى أن يواظب على الصلوات فى أوقاتها جماعة ، وأن يصل رحمه ويتزاور مع الصائمين ، وأن يكثر من قراءة القرآن ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر من قراءته فى رمضان ، وكان يدارس جبريل فيه ، وبالجملة ينبغى له أن يأتى بما يستطيع من خير ويبتعد عن كل سوء حتى يخرج من صيامه وهو من الأبرار الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ليلة القدر

جاء فى آيات الصيام السابقة أن شهر رمضان أنزل فيه القرآن والليلة التى أنزل فيها ، هى ليلة القدر من هذا الشهر المبارك ، قال تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ؟ ليلة القدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر . سلام هى حتى مطلع الفجر » .

فأنت ترى أنه تعالى اختار لإنزال القرآن الكريم ليلة القدر ، فكانت به أشرف الليالى وأعظمها قدرا ، وحسبك فى بيان قدرها أنها خير من ألف شهر ، وأن الملائكة تتنزل فيها من أجل كل أمر قدره الله ، وأنها ليلة السلام منه تعالى حتى مطلع فجرها .

وكيف لا ينزل فى أشرف ليلة وهو أجل كلام من أجل متكلم نزل على أعز رسول لأعز أمة وخيرها .

(١) الفلو : كسمو وكعدو وكحمى : المهر .

وحسبك في الدلالة على فضل القرآن قوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » وقد بقى هذا التحدى إلى يومنا هذا ، وسيبقى إلى يوم القيامة ، وقد جاء به نبى أمى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك . إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم . وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » فإذا كان الحكماء والفصحاء قد عجزوا عن الإتيان بسورة مثله فمحمد مثلهم ، لأنه فوق قوى البشر جميعاً من ناحية فصاحته وبلاغته وروحانيته الجذابة للقلوب والأرواح ، وتشريعاته الباقية على مر الدهور ، الصالحة لكل زمان ومكان ، وإذا كان فوق مستوى البشر كما أنه فوق مستوى الجن ، فلابد أن يكون من عند الله العليم بمصالح عباده ، أيد به رسوله محمدا الذى عرف طيلة حياته بالصدق والأمانة ومكارم الأخلاق « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلاتعقلون » فكان الإيمان به حقاً له على العباد ، ومسلكا من مسالك الهدى والرشاد .

أسماء ليلة القدر :

تسمى ليلة البركة لقوله تعالى فى سورة الدخان : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » وليلة السلام لقوله تعالى فى حقها : « سلام هى حتى مطلع الفجر » وليلة الرحمة لقوله تعالى فى سورة الدخان : « رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » بعد قوله « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » الآيات من ٣ — ٦ .

عظمة ليلة القدر :

عظم الله ليلة القدر بقوله « وما أدراك ما ليلة القدر » أى أنها من فخامة القدر وعظم الشأن تفوق دراية المخلوقين ، ولا يعلم قدرها سوى رب العالمين .

وعظمها بطريقة أصرح إذ قال « ليلة القدر خير من ألف شهر »وقيل فى تفسير ذلك أن العمل الصالح فيها خير منه فى ألف شهر ليست فيها ، وروى عن ابن عباس أنه ذكر للرسول صلى الله عليه وسلم أن رجلا من بنى إسرائيل حمل السلاح فى سبيل الله ألف شهر فعجب لذلك ، وقال يارب جعلت أمتى أقصر الأمم أعماراً وأقلها أعمالا ، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر خيرا من ألف شهر إلى يوم القيامة .

ولا أعتقد أن هذا الخبر صحيح النقل ، فبنو إسرائيل ليسوا أطول منا أعماراً ولا أكثر منا أعمالا ولايعرفون قداسة الجهاد ، فهم الذين قالوا لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » كما أن ألف شهر تساوى ثلاثة وثمانين عاما وثلثا ، ولا يعقل أن هذا الإسرائيلى المزعوم ، يظل طيلة هذه المدة يجاهد فى سبيل الله ، فطاقة الجسد على الجهاد لاتبقى هذه المدة الطويلة .

ومن أسباب رده أنه يصرف الناس عن الجهاد فى سبيل الله ، والاعتماد على قيام ليلة القدر التى تعدل ألف شهر جهاداً فى سبيل الله ، ولاشك أن خطر ذلك على الإسلام لاحد لفظاعته ، لهذا نرفض هذا الخبر شكلا (أى سندا) وموضوعا .

دستور الله لعباده وقانونه لخلقه

والذى أفهمه من الآية أن هذه الليلة عظم الله قدرها بنزول القرآن الشريف فيها ، فهو دستور الله لعباده ، وقانونه لخلقه ، ولا شك أن الليلة التى نزل فيها تعتبر خيراً من ألف شهر لم ينزل فيها ، لما فيه من المنافع التى تعود على العباد فى عقائدهم وأخلاقهم ومعاشهم ومعادهم ، بما اشتمل عليه من قوانين وتشريعات ، وآيات بينات وإرشادات واضحات .

فإنك إن قارنت بين هذه الليلة التى نزل فيها هذا البلسم الشافى لأمراض المجتمع الإنسانى وعلله ، وبين العصر الذى سبق نزول القرآن تجد أن ذلك الحكم حقيقى خال من المبالغات فقد كان الناس يعيشون قبله بعقول متأخرة ، وأذهان راكدة ، حتى عبدوا الحجارة والتماثيل والحيوانات التى هى عاجزة عن حماية أنفسها من الذباب « وإن يسلبهم الذباب شيئًا لايستنقذوه منه . ضعف الطالب والمطلوب » وكانت الحروب بينهم لأدنى الأسباب وأوهى العلل ، ولاتكاد حرب تنتهى حتى تتبعها أخرى ، وكانت الجهالة منتشرة ، والظلم سائداً ، والأعراض مسلوبة ، والأموال منهوبة ، والضعفاء مستذلين ، والأقوياء مستبدين ، إلى غير ذلك من المآسى فكانت هذه الليلة التى نزل فيها القرآن حداً فاصلا بين هذا كله وبين العلم والعرفان وتمجيد الواحد الديان ، والالتزام بقوانين السلوك الرشيدة ، والأخلاق الحميدة ، والاستقرار والتجمع بين الأمة العربية وسواها على أساس من

تبادل الخير والنفع والمحبة والسلام تحت دين واحد لرب واحد ، فكيف لاتفضل هذه الليلة التى نزل فيها القرآن الجامع لأشتات الخير ، المانع من اقتراف المآثم كيف لا تفضل ألف شهر ؟أليست ليلة الشفاء خيراً من عمر طويل تقضيه عليلا طريح الفراش .

وليس المقصود من ألف شهر العدد بعينه ، بل هى خير من الزمان كله ، ولا شك أن العبادة فى ليلة لها هذا القدر عظيمة المكانة عند الله تعالى ، ولهذا صح فيها عن النبى صلى الله عليه وسلم: «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه» .

ومما سبق علمت أنها إنما سميت ليلة القدر لأنها ذات قدر وشرف عظيم بسبب إنزال القرآن الشريف فيها ، من قولهم فلان له قدر بين الناس أى شرف وكرم مكانة .

وقيل سميت بذلك لأن الله ينزل فيها مقادير الأمور للعام المقبل ، ليقوم الملائكة مدبرات الأمور بتنفيذها فى حينها ، فينزل لملائكته آجال العباد وأرزاقهم ومقـــادير الرياح والسحب والأمطار والحروب ، ورحـــلات الطيور ، والمواليد والموتى ، وغير ذلك من شئون الخلائق من إنسان وحيوان ونبات وجماد .

ومدبرات الأمور هم رؤساء الملائكة الأربعة ، وحين يقومون بالتنفيـــذ يفعلون ذلك بمعونة تابعيهم من الملائكة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم » .

وقيل للحسين بن الفضيل أليس الله قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض قال بلى ، قيل فما معنى ليلة القدر ، قال سوق المقادير إلى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدر .

وقيل سميت بذلك لأن للطاعة فيها قدرا عظيما .

كيف أنزل القرآن فيها :

نصت الآية على أن القرآن أنزل فى ليلة القدر ، ولكن لا يعلم منها صراحة أنه أنزل كله دفعة واحدة فيها ، أو ابتدئ إنزاله ، وقد ذهب إلى الأول بعض العلماء ، فقد قالوا أنزل كله ليلتها إلى السماء الدنيا فى رمضان من العام الأول للنبوة ، ثم كان ينزل على الرسول منجما ومقسما حسب الوقائع مدة البعثة .

وقال الشعبى : ابتدئ إنزاله فى ليلتها ، ولم ينزل كله دفعة واحدة ، وقال عمر : معنى الآية أنزلناه فى شأن ليلة القدر وفضلها ، أى أنزلنا قرآن هذه السورة من القرآن فى شأن ليلة القدر .

موضع ليلة القدر من ليالى رمضان :

أكثر العلماء على أنها فى أوتار العشر الأخير من رمضان ، وأكثر هؤلاء على أنها ليلة السابع والعشرين منه ، ولذلك جرت عادة المسلمين أن يحتفلوا بها فيها وعمادهم فى ذلك ما رواه مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين » .

ومن طرائف الاستنباط فى تعيين ليلتها أن عدد كلمات السورة ثلاثون كلمة وأن كلمة « هى » الراجعة إلى ليلة القدر هى الكلمة السابعة والعشرون ، ونحن لا نحتاج إلى الاستنباط ، ومعنا النص فى حديث مسلم السابق .

والعلماء مختلفون فى تحديد وقتها وكل يستند إلى رواية صحيحة ولعل اختلاف الروايات يرجع إلى أنها تتنقل بين الليالى التى وردت فى الروايات المختلفة .

وإنما أخفاها الله تعالى ليتعدد طلب العبد لها بألوان العبادة والدعاء ، كما أخفى الإجابة فى الدعاء ليبالغ العبد فيه ، وكما أخفى ساعة الإجابة يوم الجمعة ليجتهد الناس فى الدعاء جميع يومها ، وكما أخفى موعد قيام الساعة ليديموا الحذر منها ومن مفاجأتها فى أى وقت وقد علمت أن الأكثرين على أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يستعد لها فيعتكف فى المسجد فى العشر الأخير من رمضان قالت عائشة « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأخير شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله » والمئزر ما يستر العورة ، وشده كناية عن تمام استعداده للعمل .

هل هى أفضل من ليلة الإسراء :

ظاهر الآية يدل على أنها أفضل من ليلة الإسراء والمعراج فى حق الأمة ، وإن كانت ليلة الإسراء فى حقه صلى الله عليه وسلم أفضل منها ، ولم يأت فى ليلة الإسراء حديث يدل على فضل العمل فيها .

من يحرز فضلها :

يحرز فضل ليلة القدر من قامها ، قال صلى الله عليه وسلم : « من قام

ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » رواه البخارى ومسلم .

ولما كانت ليلة القدر مختلفا فى وقتها ، وإن أرجى الليالى فيها هى ليالى العشر الأخير من رمضان على رأى الأكثرين ، فلهذا يحسن قيام ليالى هذا العشر بل يستحب ، قال المتولى يستحب التعبد فى كل ليالى العشر حتى يحرز الفضيلة على اليقين ، أقول ولعل النبى صلى الله عليه وسلم كان يعتكف فى العشر الأخير لذلك كما قدمنا .

وإحياؤها يكون بقيام لياليها صلاة ودعاء وقرآنا وذكرا ، وقيامها يحصل بشغل طائفة من وقتها بذلك فلاينام الليل كله .

ويرى بعض العلماء أن من صلى العشاء الأخيرة فى جماعة ، وعزم على صلاة الفجر كذلك فقد أدرك قيام ليلة القدر ويرى بعض آخر أن صلاة التراويح تكفى فى قيام ليلة القدر للمقل ولذلك تنوى بقيام رمضان كما تنوى بالتراويح ، فإذا ضم إليها صلاة العشاء فى جماعة مع العزم على صلاة الفجر كذلك كان ذلك قياما لليلة القدر لا بأس به .

وأصحاب الحظ السعيد ذوو النفوس الصافية والأعمال الطاهرة ينكشف لهم فى هذه الليلة مالايراه غيرهم ، فيرون الملائكة على صورهم مجتهدين فى عبادة الله تعالى ، ويرون منازل الأولياء والأنبيـــاء والصديقين والشهداء ، ويطلعون على بعض مظـــاهر الملك والملكوت ، فيتجلى لهم كبرياء الحى الذى لايموت وعظمته التى لا حد لها .

ومنهم من يرى الناس فى هذه الليلة على الحقيقة التى هم عليها ، وينكشف المستور من حالهم فيعلم المقيم على على الطاعة بصدق وإخلاص ، والمقيم على المعصية باطنا المرائى بالطاعة ظاهرا .

روى أن بعض الأولياء رأى فيها بعض من كان يعتقد فيه الصلاح على خلاف ظنه فيه ، فنعوذ بالله من الرياء .

ويرى الإمام النووى أنه لايحرز فضلها إلا من أطلعه الله عليها ، فمن قامها ولم يشعر بها لم ينل فضلها ، ذكر ذلك النووى فى شرحه لمسلم وخالفه الأوزاعى والمتولى حيث قالا ان فضلها يناله من قامها بإخلاص لله تعالى ، وهذا هو الصحيح بدليل الحديث الصحيح الذى ذكرناه فى هذا الفصل .

« تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » .

هذا كلام مستأنف دال على فضلها ، والملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، والروح هو جبريل رئيس الملائكة والسفير بين رب العزة وبين الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ينقل وحيه وكتبه إليهم وهو الذى كان ينزل بالقرآن على النبى صلى الله عليه وسلم آنا فآنا ، قال تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » .

والتعبير بتنزل للإشعار بأن الملائكة والروح ينزلون فى تلك الليلة على دفعات ، ولا يزالون يتنزلون إلى الفجر .

وقيل إن الروح أعلى من الملائكة ، وهم حفظة عليهم ، كما أن الملائكة حفظة علينا ، وإذن الله : أمره ، « من كل أمر » معناه من أجل كل أمر قضاه الله عز وجل لتلك السنة كقوله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » .

« سلام هى حتى مطلع الفجر » .

أى يسلم فيها الملائكة على مؤمنى أهل الأرض تحية لهم ، وقيل يسلم الله عليهم ، والسلام من الله الرحمة ، ومن الملائكة استغفار .

وأرى أن المعنى أن هذه الليلة ليلة سلام من الله وأمان ومسالمة منه تعالى لعباده ، يقبل فيها من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم إذا أقبلوا على عبادته تائبين من ذنوبهم ، وكما أن تنزل الملائكة يبقى حتى مطلع الفجر ،

بقاء ليلة القدر :

يرى بعض العلماء أن ليلة القدر لا تكرر سنويا ، وأنها كانت لليلة واحدة وانقطعت ويرى آخرون أنها تكررت فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ورفعت بعده ، والصحيح أنها باقية إلى يوم القيامة .

واستدل من قال برفعها بقوله صلى الله عليه وسلم : « إنى خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت ، وعسى أن يكون خيرا لكم » ولكن هؤلاء غفلوا عما جاء فى آخر الحديث « فالتمسوها فى التاسعة السابعة الخامسة » وعلى هذا يؤول رفعها فى صدر الحديث برفع العلم بها ، أى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم بها ، وقد خرج ليعلم الناس بوقتها ، فلما تلاحى الرجلان أنساه الله إياها لحكمة يعلمها الله ، ولهذا طلب

من الناس أن يلتمسوها فى تلك الليالى فإنها مظانها عنده صلى الله عليه وسلم .

زكاة الفطر وصلتها برمضان :

سميت زكاة الفطر لوجوبها بالفطر من رمضان عند استهلال شهر شوال ، ويقال لها زكاة الفطرة ، أى الخلقة ، لأنها وجبت تزكيـــة للنفس وتنمية لعملها ، وهى تجبر النقص الذى حدث فى الصيام كما تجبر سجدة السهو ما حدث فى الصلاة روى عن بن عباس قال : « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين » .

والأصل فيها ما رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير على العبد والحر والذكر والأنثى ، والصغير والكبير من المسلمين ، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس للصلاة » .

وما رواه البخارى أن عبد الله بن عمر قال : « أمر النبى صلى الله عليه وسلم بزكاة الفطر صاعا من تمر أو صاعا من شعير » قال عبد الله « فجعل الناس عدله مدين من حنطة » وقد جاءت أصناف أخرى غير ما ذكر كالزبيب والأقط [1] فى أحاديث أخرى .

وقد وجبت فى السنة الثانية من الهجرة مع صوم رمضان فقد فرض فى السنة الثانية من الهجرة أيضاً .

وتجب عند (الشافعية) بأول ليلة العيد عن كل من أدرك جزءاً من رمضان وجزءاً من شوال ، فمن ولد بعد الغروب آخر يوم فى رمضان فلا زكاة عنده وكذا من تزوجها بعد غروب شمس اليوم المذكور ، ومن مات قبل غروبه فلا زكاة عنه أيضاً ، وتكون أداء إذا أخرجت قبل غروب الشمس من يوم العيد ، ويحرم تأخيرها عنه ، وتعتبر حينئذ قضاء ، كمن يؤدى الصلاة بعد خروج وقتها .

ويصح تعجيلها من أول رمضان [2] وتلزم زكاة الفطر من فضلت عن قوته وقوت عياله يوم العيد وليلته ، وعن مسكن وخادم وكتب علم وثياب الأسرة ، وما اعتيد عمله فى العيد من نحو كعك ونقل ولحم أو سمك، ولا يشترط أن تفضل عن دينه على

---

(١) الأقط : لبن يابس نزع زبده .

(٢) وعند الحنفية يصح أداؤها مقدما ومؤخراً ، لأن وقت أدائها العمر كله ، كما فى سائر الواجبات الموسعة ، وسيأتى فى بيان مذهبهم ومذهب المالكية .

المعتمد عند الشافعية ، خلافا لمن اشترط ذلك .

ويخرج الشخص عن نفسه وعمن تلزمه نفقته من زوجته وولد صغير أو كبير لايقدر على الكسب لمرض أو اشتغال بطلب العلم أو نحوذلك ، وعن أبوين فقيرين وإن قدرا على الكسب ، ولا يلزمه زكاة زوجة أبيه .

ولو أيسر ببعض المال قدم نفسه فزوجته فولده الصغير فالأب فالأم فالولد الكبير والواجب عن كل نفس صاع ، وهو خمسة أرطال وثلث بغدادية ، والرطل البغدادى مائة وثمانية وعشرون درهما وأربعة أسباع الدرهم ، وهو قريب من أربع حفنات بكفى رجل معتدل الكفين ، وهو بالكيل المصرى قدحان تقريبا من الحب الخالص ويخرج القدر المذكور من غالب قوت البلد[1] ، ويجوز إخراج قيمة ذلك نقداً تيسيراً على الناس وبخاصة أهل المدن الذين يقتاتون بالخبز (الجاهز) وما تقدم هو مذهب الشافعية كما قلنا من قبل والحنفية لا يوجبونها إلا على من ملك نصابا فاضلا عن حاجاته الأصلية ، وتجب فى مال الصبى والمجنون يخرجها عنهما وليهما ، ووقت وجوبها عندهم من طلوع فجر يوم عيد الفطر ويصح أداؤها عندهم مقدما ومؤخراً لأن وقت أدائها عندهم العمر ، إلا أنها تستحب قبل الخروج إلى المصلى ، لقوله صلى الله عليه وسلم : اغنوهم السؤال فى هذا اليوم » .

ويجب أن يخرجها عن نفسه وولده الصغير الفقير وخادمه وولده الكبير إذا كان مجنونا ، فإن كان عاقلا فلا يجب على أبيه وإن كان فقيرا ، وله أن يتبرع عنه ، ولا يجب على المزكى أن يخرج زكاة زوجته ، فإن تبرع بها أجزأت ولو بغير إذنها .

وتخرج عندهم من أربعة أشياء الحنطة والشعير والتمر والزيت ، والواجب عندهم من الحنطة وهى القمح نصف صاع عن الفرد الواحد ، والصاع أربعة أمداد ، والمد رطلان عندهم ، والرطل عندهم أيضًا مائة وثلاثون درهما ، ويقدر الصاع بالكيل المصرى بقدحين وثلث ، فالواجب منه قدح وسدس[2] ويجب

---

(١) ويجب أن يعطى عندهم لثلاثة من المستحقين على الأقل ، والكيلة عندهم تكفى عن أربعة تقريباً ولا يلزمه الاقتراض .

(٢) فالكيلة من القمح عندهم تكفى سبعة أفراد إذا زيد عليها سدس قدح بشرط نظافة القمح .

من التمر والشعير والزيت صاع كامل ، فالكيلة منها تكفى عن ثلاثة ويبقى منها قدح ، ويجوز إخراج القيمة نقوداً بل هذا أفضل عندهم لأنها أنفع للفقير ويجوز دفع الزكاة عن جماعة إلى مسكين واحد كما يجوز دفع زكاة الفرد إلى عدد من المساكين .

والمالكية توجبها على كل مسلم حر قادر عليها فى وقت وجوبها ولو بالاقتراض إذا كان يرجو الوفاء ، ويشترط أن تكون زائدة عن قوته وقوت من تلزمه نفقته فى يوم العيد ، فإذا احتاج إليها فى النفقة فلا تجب عليه ، ويخرجها عمن تلزمه نفقته وهم الأولاد الذكور الذين لا مال لهم ، إلى أن يبلغوا قادرين على الكسب ، والإناث الفقراء إلى أن يدخل الزوج بهن أو يدعى للدخول والزوجة أو الزوجات ، والوالدان الفقيران .

وقدرها عندهم صاع عن كل فرد ، وهو قدح وثلث بالكيل المصرى ، فتجزئ الكيلة عن ستة أشخاص ، وتخرج عندهم من غالب قوت البلد من هذه الأصناف . القمح والشعير والسلت والذرة والدخن والأرز والتمر ، والزبيب والأقط (وهو لبن يابس نزع زبده) كما مر ، ولا تصرف عندهم إلا للفقير أو المسكين من غير بنى هاشم وبنى المطلب ، أما باقى الأصناف الثمانية فإنها لا تصرف لهم ، وخالفهم فى ذلك الشافعية والحنفية فقد أوجبوا إخراجها لهم ، وهم مجموعون فى قوله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم » الآية ويجوز عند المالكية إعطاء كل فقير أو مسكين صاعا أو أقل أو أكثر .

ويندب عندهم إخراجها بعد فجر يوم العيد وقبل الذهاب لصلاته ، ويجوز إخراجها قبل يوم العيد بيوم أو يومين ولا يجوز بأكثر من يومين على المعتمد ويحرم تأخيرها عن يوم العيد ولا تسقط بمضيه ، بل تبقى فى ذمته حتى يخرجها .

ويجوز عندهم إخراجها من الدقيق أو السويق بالكيل وهو قدح وثلث كما تقدم فى الحب فإن أخرجت من الخبز فالوزن ، وقدر برطلين بالرطل المصرى ، كذا قالوا ولكنى أراهما أقل من وزن قدح وثلث ، فالأولى الاعتماد على وزن القدح والثلث الواجبين عندهم فى الحب .

تنبيه مهم :

لا أرى داعيا لاختلاف المذاهب فى مقدار ما يخرج عن الفرد الواحد ، ويعتبر مذهب المالكية وسطا بين مذهبى الشافعية والحنفية ، وبما أن الواجب عندهم قدح وثلث وأن الكيلة المصرية تكفى عن ستة ، فلتجعل الزكاة موحدة بين المسلمين على هذا الأساس فى جميع المذاهب ولتخرج القيمة فإنها أنفع للفقير ، لا فرق بين مذهب ومذهب تمشيا مع واقع الحياة ، ولأن الفقراء يحتاجون فى العيد إلى غير الخبز ، من كساء وغيره ، وتقدر فى مصر قيمة سدس الكيلة فى وقتنا هذا بنحو خمسة عشر قرشا بالعملة المصرية يخرجها المزكى عن كل فرد ممن تجب عليه الزكاة عنه ويلاحظ أن الفقير تجب عليه الزكاة إذا فضلت عن قوت يومه وليلته يخرجها لمثله ، روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صاع من بر — أى قمح — على كل اثنين صغير أو كبير حر أو عبد ، ذكر أو أنثى غنى أو فقير ، أما غنيكم فيزكيه الله ، وأما فقيركم فيرد الله عليه أكثر مما أعطاه » أى أكثر مما أخرجه فى الزكاة لمثله ، لأنه سيأخذ من الزكاة بوصف كونه فقيراً من الغنى أو الفقير ما يعوضه .

ولا شك أن اشتراك الجميع فى مواساة بعضهم بعضًا مظهر تعاونى عام يحبه الإسلام ويحض عليه فى هذه المناسبة الكريمة .

العيد وما ينبغى فيه :

سمى العيد عيداً لعوده وتكرره كل عام ، أو لأن المسلمين عادوا فيه من طاعة الله بالصيام والقيام إلى طاعته بالمواساة والتراحم .

ويسن أن يأكل المسلم قبل توجهه إلى المسجد أو المصلى لصلاة عيد الفطر ، أما فى عيد النحر فبعد الصلاة اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم .

وليس العيد لمن أكل اللذيذ ، وليس الجديد ، ولكنه لمن أطاع ربه وواسى أهله وزار جيرانه ، وأخواته .

دخل رجل على على بن أبى طالب كرم الله وجهه يوم العيد فوجده يأكل خبزاً خشنًا ، فقال يا أمير المؤمنين ، أفى يوم العيد تأكل خبزاً خشناً ؟ فقال : اليوم عيد من قبل صومه وشكر سعيه وغفر ذنبه ، ثم قال : اليوم لنا عيد ، وكل

يوم لا نعصى الله فيه فهو لنا عيد .

ورأى عمر بن عبد العزيز ولدا له يوم العيد وعليه قميص خلق (قديم بال) فبكى عمر ، فقال الولد لأبيه ما يبكيك ؟ فقال يابنى. أخشى أن ينكسر قلبك فى يوم العيد إذا رآك الصبيان بهذا القميص الخلق ، فقال يا أمير المؤمنين : إنما ينكسر قلب من أعدمه الله رضاه ، أو عق أمه وأباه ، فضمه إليه وقبله بين عينيه ودعا له ، فكان أزهد أولاده بعده

وختاما أسـأل الله تعالى أن يوفقنا وإياكم فى هذا الشهر المبارك لعبادته ، وأن يعيننا جميعًا على قراءة كتابه ومواساة الفقراء والمعوزين ، وأن يكف ألسنتنا وجوارحنا عن المعاصى إنه نعم المولى ونعم المجيب .

مصطفى محمد الطير

لا أعود إلى مثلها

دخل زيان بن عبد العزيز على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فشكا له عمر وقال :

قلّ نومى هذه الليلة ، فاتهمت عشاء تعشيت به .

فقال : وما هو ؟

فقال : عدس وبصل ..

فقال زيان : لقد وسع الله عليك ، وتُضَيِّقُ على نفسك!

فقال عمر : أطلعتك على سرى فوجدتك غاشا غير ناصح ، أما والله لا أعود إلى مثلها أبداً .

الحوار بين المسلمين والمسيحيين بابه إلى ماشاء الله على أن لا يفسد للود قضية

الأستاذ / أحمد حسين

أرسلت منذ بضعة أسابيع دعوة لرئيس دولة عظمى ، لاعتناق الإسلام وقد تلقيت أخيراً جداً وبعد مضى فترة طويلة خطاباً من سفير هذه الدولة ، يشكرنى على ما ورد فى ختام الرسالة من تمنيات طيبة لتوفيق هذا الرئيس .

والمهم أن هذه الرسالة التى نشرت مؤخراً على صفحات مجلة الدعوة ، قد أثارت عدة تساؤلات تقتضى مباحث موضوعية .

أولها : أهذا هو الوقت الذى نبشر فيه بالإسلام خارج الحدود ؟

حيث يحتاج المسلمون فى داخل كل دولة على حدة ، ثم فى داخل العالم الإسلامى ككل إلى معالجة عشرات ، بل مئات المشاكل التى تكاد تطفئ نور الإسلام وكم من المسلمين ليس لهم من الإسلام ، سوى الاسم ، كل ذلك بالإضافة إلى الأخطار التى تهدد العالم الإسلامى من القوى الشيوعية والصهيونية ، وموجات الانحلال والتدهور أليس ذلك كله هو الأجدر بعنايتنا وتكريس جهودنا ، بدلا من التطلع خارج حدودنا ، حيث يرد علينا واقع المسلمين « المهلهل » .

هذا هو التساؤل الأول الذى أثارته دعوتى لرئيس أعظم دولة مسيحية فى العالم للإسلام .

الحوار بين المسلمين والمسيحيين يجب أن يوجه لمقاومة الإلحاد .

أما الموضوع الثانى الذى أثارته رسالتى ، فهو قول البعض ، إن القضية اليوم لم تعد قضية إسلام أو مسيحية ، وإنما أصبحت دينا أو لادينا ، اعتقادا بالله أم كفرا به ، فالخلاف الحقيقى ،

والعدو المشترك للأديان كلها ، هو هذه المادية الجارفة التى أصبحت تهدد المجتمع الإنسانى كله بالفوضى .

ولدراسة هذين المبحثين أخصص هذا المقال .

أولاً – بالنسبة للواقع الإسلامى :

يصور المسلمون الطيبون ، المتحمسون واقع العالم الإسلامى بصورة منكرة ، فيتحدثون عن انقسامه وسوء أحواله ، وتربص القوى العالمية به ، ويتحدثون عن اضطهاد المسلمين فى أريتريا ، والفلبين ، وفى غير ذلك ، حتى إذا انتقلوا للحديث عما يجرى فى داخل المجتمعات الإسلامية نفسها ، ازدادت الصورة قتاما وسوءاً، فالشريعة الإسلامية غير مطبقة ، واللهو والفجور منتشران إلى آخر الصورة .

وأبادر فأقول ، أن لا لوم ولا تثريب فالتماس الكمال محبوب ومرغوب ، بل ونحن مأمورون بالسعى لإدراكه ، وكل ما هناك أننى أريد أن أسوق ملاحظتين ، لا أقصد من ورائهما ، إلا إدخال الأمل والثقة فى بعض النفوس واننا على الدرب واصلون بإذن الله إلى ما فيه الخير للمسلمين وعزة الإسلام .

استقلال الدول الإسلامية بشئونها :

فأما الملاحظة الأولى فاستقلال الدول الإسلامية وقد شرحت على صفحات مجلة الأزهر من خلال ثلاثة أعداد متوالية ، كيف لم يكن هناك منذ نصف قرن بوصة واحدة من العالم الإسلامى ، لم تكن تحت السيطرة المباشرة للعالم المسيحى ، أو على الأقل فى دائرة نفوذه ، وكان معنى ذلك أن العالم الأوربى أراد أن يفرض على المسلمين أفكاره ، وجرائم الانحلال الذى كانت بدأت تدب إليه .

ففى مصر على سبيل المثال اعتبرت الخمور ودور اللهو الحرام من الأمور المباحة ، بل والمرغوب فيها ، بحيث أصبحت الدولة تعطى رخصا لمزاولة الزنا ، ولا مجال للحديث فى هذا المقال عن الكفاح الذى وصل إلى حد الاستشهاد لمقاومة ذلك كله ، والمهم أن ذلك كله قد توقف بسبب استقلال البلاد الإسلامية ، فلم تعد السلطة هى التى تدفع بالناس إلى هذا التدهور الشائن وبدأ المجتمع يعزز قواه الإسلامية الأصيلة ، فأصبح الغالبية العظمى من شباب الجامعات : هم الذين يطالبون بوجوب تطبيق الشريعة

الإسلامية ، وإذا كان الحاضر لا يزال يتلكأ فى فهم ذلك ، فإن المستقبل ، والمستقبل القريب ، قد بات مؤكداً ، وأن ذلك آت لا ريب فيه .

العالم الإسلامى لم يكن مثاليا :

هذه هى الملاحظة الأولى التى أسوقها لمن يريد أن يتفاءل بمستقبل العالم الإسلامى .

أما الملاحظة الثانية ، التى أريد أن أضعها تحت أنظار المتحمسين ، والذين يتطلعون دائماً إلى الكمال أن يدركوا ، أن الكمال لله وحده ، وأنه ليس من طبيعة الحياة ، فالدين عند الله الإسلام ، ومع ذلك فقد شاءت إرادته . أن لا يكون الناس جميعاً مسلمين « ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة » أى أن سنة الله فى خلقه ، أن يجعلهم متفاوتين فى كل شىء ، ولك أن تتصور أن المجتمعات الإسلامية (باستثناء مجتمع المدينة المنورة) كانت خلوا من النقائص والانحرافات ، وحسبنا أن نذكر أن شاعراً ماجنا كأبى نواس كان قريباً إلى خليفة المسلمين ، فالنفس الإنسانية الأمارة بالسوء والشيطان الرجيم لن يكفا عن العمل فى ظل أى ظرف من الظروف لأن تلك هى مشيئة الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وليس هناك ما يدل على قوة الإسلام وتمكنه من نفوس المصريين ، أكثر من هذه الجموع التى تؤم المساجد يوم الجمعة .

فقديماً فى عهد سلطان الدولة الإسلامية كانت القوانين والعرف ، يعاقبان على ترك الصلاة ، فعندما يصلى الناس ، لا نعرف إذا كان هذا خوفا من الله أم من القانون .

أما اليوم حيث لا يعاقب القانون أو العرف على ترك الصلاة ، فلا دافع لهذه الجموع الكثيفة إلى الصلاة سوى مخافة الله .

فالإسلام بخير ، وما على الوعاظ إلا أن يدعوا إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يفهموا الناس ، أن الإسلام ليس صلاة فحسب ، وإنما هو سلوك كامل فى كل شئون الحياة صغيرها مثل كبيرها . والمهم أننى ممن يعتقدون ، أن العالم الإسلامى بخير ، وأنه يدرج نحو التخلص من أوزار عهد الاستعمار لينطلق بعد ذلك بكل قوة لقيادة العالم المضطرب .

ثانياً : بالنسبة لوجوب التعاون الإسلامى والمسيحى :

أنتقل الآن – إلى القضية الثانية التى أثارتها رسالتى ، وهى التساؤل عما إذا كان الوقت الحالى مناسباً للدخول فى جدل عقائدى بين الإسلام والمسيحية حيث أصبح يهددهما خطر واحد مشترك وهو الإلحاد وما يجر إليه من انحلال وتدهور وليس أدل على ذلك من ايفاد الفاتيكان بعثة من الكرادلة ، وهم يعرضون حواراً إسلامياً مسيحياً وأبادر فأقول ، أن ليس هناك من يسعده أن يقوم حوار بهدف التقارب والتواد بين المسلمين والمسيحيين ، منى أنا بالذات :

ولكنى أقسم الموضوع إلى أقسام ثلاثة :

١ – المسيحية الحقيقية والأصيلة :

٢ – المسيحيون كأشخاص

(ا) فى العالم كله

(ب) فى مصر بخاصة

٣ – المسيحية الكنسية :

– بالنسبة لأشخاص القائمين عليها

– بالنسبة للمبادئ التى تنطوى عليها .

ولنعرض لكل قسم من هذه الموضوعات ببحث على حدة .

المبحث الأول

المسيحية الحقيقية

عندما تقول لنا المسيحية « الله محبة » وعندما تبشر بالحب بين الناس ، عندما تدعو للاستقامة والأخلاق الحميدة ، عندما تدعو للسلام والتعاون ، عندما تشجب العنف وتندد بالعدوان وتكره الظلم والبغى فلست أحسب أن هناك إنساناً واحداً فى حالته الطبيعية ، يمكن أن يختلف حول هذه المبادئ ، الإنسانية . يزيد على ذلك ، أننا نحن المسلمين » مأمورون أمراً بنص قرآننا أن نؤمن بالمسيح « عيسى بن مريم » وأن نؤمن بميلاده المعجز ، وبطهارة أمه وقداستها ، ونحن مأمورون أمراً ، أن نؤمن بأن سيدنا عيسى هو رسول رب العالمين ، وأنه أحيا الموتى بإذن الله وأنه شفى الأكمه والأبرص ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أنزل عليه الإنجيل ، كما أنزل التوراة على سيدنا موسى ، وأنزل القرآن فى خاتمة المطاف على سيدنا محمد باعتباره خاتم الرسل والأنبياء ونحن مأمورون أمراً باعتبارنا مسلمين أن نؤمن بأن جوهر الأديان كلها واحد وهو الإيمان بإله واحد ، والعمل

الصالح ، ومأمورون فوق ذلك بأن لا نفرق بين أحد من رسله :

« والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله »

فالمسيحية بهذا المعنى ، وفى هذه الحدود لايوجد بها ذرة من خلاف بينها وبين الإسلام ، والمسلم الذى لا يدرك ذلك يكون ناقص الإسلام

المبحث الثانى

بالنسبة للمسيحيين بعامة والأقباط بخاصة

فإذا كان هذا بالنسبة للمسيحية الحقيقية ، فإن العلاقة بالمسيحيين الطيبين . أبين وأظهر ، وهى علاقة المودة ، والثقة والاحترام المتبادل ، وما من مسيحى حق فى طول الدنيا وعرضها ، إلا وهو ينضح بالخير والاستقامة والمحبة . ولقد طفت العالم شرقا وغربا فأشهد أننى رأيت أحسن النماذج التى تشرف الإنسانية ، ولا داعى لذكر أمثلة مما عرضت لى فى معاملاتى ، حتى لا يضيق بنا المجال .

وإنما أسرع لأنوه بما أحسه نحو مسيحيي مصر أو بالأحرى أقباطها ، وأشهد أمام الله ، أننى لم أشعر أبداً فى كل حياتى النضالية ، من أجل الله والوطن ، وما يستتبع ذلك من قيم ، أخلاقية ، ومثاليات ومعنويات . بأدنى فارق بين مسلم أو مسيحى . ولى من الأصدقاء الأقباط ، أشخاص أضعهم فى الصف الأول ، وما أكثر المحن التى صادفتنى فى الحياة ، وأشهد أمام الله أن أفراداً من أقباط مصر كانوا هم الذين مدوا إلى طوق النجاة .

المبحث الثالث

المسيحية الكنسية

أنتقل الآن إلى بيت القصيد من هذا البحث وهو العقيدة المسيحية ، كما تصورها الكنيسة ، وهنا أيضًا يجب أن نفرق بين أمرين :

(ا) أشخاص رجال الكنيسة .

(ب) عقيدة الكنيسة .

فأما عن أشخاص رجال الكنيسة ، فلهم عند أى مسلم كل احترام وتقدير .

« ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين

ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين».

فهذا هو نص القرآن ملزم لكل مسلم أن يحترم رجال الكنيسة من قساوسة ورهبان .

أما بالنسبة لى شخصياً ففوق كونى مسلماً ، فإن تجاربى الخاصة جعلتنى ألمس ذلك لمس اليد :

فالاحترام والإكرام لرجال الكنيسة قضية مفروغ منها لا نسوقها نفاقاً ، أو بطريقة مرحلية لا تلبث أن تتغير بتغير الظروف ، فهى جزء من ديننا ، وهى نص من نصوص القرآن كما قدمنا ولكن ذلك لا يعنى بحال ، أن نسكت عن مناقشــة العقيدة المسيحية كما تصورها الكنيسة بمقولة إن ذلك قد يؤذى مشاعر رجال الكنيسة ، فذلك أمر لا حيلة لنا فيه ، وفى تصورنا أنه لم يدفع أوربا إلى الانسلاخ من الدين (على درجات متفاوتة) . والاستغراق فى المادية ، إلا هذه الآراء والمعتقدات الكنسية بالذات . ولم يكن بطريق المصادفة أن كانت روسيا « بالذات » هى قاعدة الشيوعية والإلحاد فقد كانت روســيا هى أعظم قلاع الكنيسة والتصورات الكنسية :

كما أنه ليس من قبيل المصادفة أن تكون إيطاليا اليوم (وهى مقر البابوية) أكبر دول أوربا اعتناقا للشيوعية :

فإذا كان هناك خطر يتهدد الإيمان بالله فهو فى تصورنا (إن كان خطأ أو صواباً) ينشأ من هذه الآراء والمعتقدات الكنسية ، فأصبح لزاماً علينا أن نبين للناس وللأجيال الناشئة أن الإسلام لا يعرف هذه التصورات الكنسية ، وبالتالى فهو قادر على الوقوف فى وجه المادية والإلحاد ، وهذا يجرنا إلى بحث هذه المعتقدات الكنسية .

المبحث الأخير

فى المعتقدات الكنسية

نصل الآن إلى لب موضوعنا ، والذى لا نستحق أن نوصف بأننا مسلمون ، إذا لم نبين رأينا فيه أو نصرح به فى غير مواربة أو مجاملة ، فالأمر فوق ذلك كله لأنه يتصل بجوهر العقيدة الإسلامية بحيث إن القضية يجب أن تلخص فى إسلام أو لا إسلام ، فالمسلم لا يكون مسلما إلا إذا لخص عقيدته فى :

« لا إله إلا الله محمد رسول الله »

وقد نص القرآن على اعتبار كل ما تقول به العقيدة الكنسية من أن المسيح إلّه ، وأن الله له أقانيم ثلاثة : الآب والابن وروح القدس » وأنه تجلى بصورة الابن ويتجلى بصفته روح القدس لرئيس الكنيسة فيوحى إليه ما يوحى ... إلخ ما يقال ، فنحن كمسلمين لا يمكن إلا أن نصدر حكمنا على هذا القول وأنه ليس إلا تراثا وثنيا ، ولطالما ساءلت نفسى ، وأنا حدث صغير ، ما الذى يزعج المسيحيين كل هذا الإزعاج من اعتبار سيدنا عيسى رسولا وليس إلها ، ما دام ذلك لا ينقص قيد شعرة من إجلالنا وتكريمنا إياه وتسليمنا بميلاده المعجز ، ومعجزاته التى قام بها .

ولقد كان يدهشنى بل ويحيرنى ، ضيق الكنيسة بقول القرآن الكريم : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » كنت أتصور فى شبابى أن أى مسيحى حقيقى ، يجب أن يسعد بهذا التصحيح الذى جاء به القرآن الكريم لأنه الأكثر ملاءمة لعظمة المسيح ، أقول كان يدهشنى بل يحيرنى ، ضيق المسيحيين بهذا القول » وليس إلا بعد أن درست المسيحية الكنيسة ، أن أدركت سبب هذا الضيق ، لأنه يهدم المسيحية الكنسية من أساسها ، فأبادر فألفت النظر إلى أنى لا أتعسف القول فضلا عن أن أرمى الكلام على عواهنه ، عندما أفرق بين المسيحية كما نادى بها سيدنا عيسى وبين المسيحية كما صاغتها المجامع الكنسية ، فالمسيحية كما نادى بها المسيح وكما هى مسجلة فيما يسمونها الأناجيل الأربعة « متى ولوقا ومرقص ويوحنا » هذه الأناجيل تحدثنا ، عن عيسى ابن مريم كرسول مبعوث من السماء لهداية البشر ، وفى سبيل هذه الهداية ، فهو يطوف ويبشر ، ويندد بالانحرافات والسلوكيات المعيبة . وهو يجرى المعجزات والخوارق بإذن الله ، ليظهر سلطان الرب وأنه يتكلم باسمه وفى اختصار شديد . فإن الأناجيل تطلعنا على صورة أقرب ما يكون إلى حديث القرآن عنه ، فلم يحدث أن نطق مرة بما يفيد أنه إلّه ، وكان تلامذته يخاطبونه بأنه المعلم . أما الناس الذين آمنو به فلم يصفوه إلا بأنه نبى ، ومن ناحيته هو فطالما تحدث عمن أرسله وأن من أرسله أعظم منه ، وإذا كان قد أطلق على من أرسله « أبى الذى فى السماء » فلم تكن هذه الأبوة أو البنوة شيئاً خاصا به وإنما هى عامة لبنى البشر ، ولذلك فقد كان يكثر من قول « أبى وأبوكم » ولقد علم المسيحيين أن تكون

صلاتهم «لأبيهم فى السماء» فدل ذلك على أن البنوة لمن فى السماء ليست خاصية له ولم يكن يصف نفسه إلا بأنه (ابن الإنسان) أى أننا لا نجد فى الأناجيل، إلا ما يثبت أن سيدنا عيسى هو رسول من رب العالمين، فمن أين جاءت الأفكار بألوهيته، وبالأقانيم الثلاثة وكونه ابن الله الذى أرسله، ليرفع على الصليب ويعذب ثم يموت فيكون بموته كفارة للبشر، فيتم الصلح بين الله والبشر.

اختراعات كنسية

كانت هذه الآراء والأفكار كلها من عمل الكنيسة وقولها، أى ثمرة السلطة الدنيوية أيا كان مصدرها أو اسمها، وقد تم ذلك بعد أربعة قرون مذ كان المسيح، ولكى يدرك الإنسان فى وقتنا الحاضر ما الذى تعنيه أربعة قرون؟ فما عليه إلا أن يستحضر أن ما يسمونه الولايات المتحدة الأمريكية أعظم دول العالم فى العصر الحديث، كانت لاوجود لها، ولا حتى مجرد ذكر قبل ثلاثة قرون، وقد قامت فى هذه القرون الثلاثة، إمبراطوريات وزالت إمبراطوريات، والثورة الفرنسية التى أعادت صياغة وتكوين العالم الأوروبى، والعالمى لم يمض عليها قرنان بعد، فعليك أن تتصور كيف مضت أربعة قرون دون أن يكون للتصور الكنسى للعقيدة المسيحية أى وجود، حقًا وجد من قال بألوهية المسيح، ولكن لاعجب فى ذلك، فقد كان تأليه البشر فى هذا الوقت السحيق مبدأ عاما على اختلاف فيمن يؤله، أهو فرعون أو قيصر، أو كائنا من كان. فأن يؤله المسيح فلا شذوذ فى ذلك عن التفكير السائد، ومع ذلك فقد وجد المسيحيون الحقيقيون الذين رفضوا ألوهية المسيح، وفى كل الأحوال فقد اعتبروا أنه يستحيل اعتبار المسيح مساويًا للآب أى الله.

وهنا لعبت الكنيسة المصرية، دوراً إلى الوطنية والسياسة وإثبات الشخصية المصرية أقرب، فقد كانت فى نزاع حاد مع بيزنطة (الدولة المستعمرة لمصر آنذاك) ووجدت مصر فى النزاع الدينى، وسيلتها لإثبات الاستغلال والتفوق، فكان أن انتصرت وجهة النظر المصرية، وكان المصريون قريبى عهد بثالوث:

«أوزوريس، إيزيس، حورس» فتنادوا بثالوث مقدس، ومع ذلك

فقد احتاج إلى مؤتمر جديد ، بعد مؤتمر « نيقية » لإقرار هذا الثالوث « الآب ، الابن ، روح القدس » ولكن روح المسيحية الحقيقية لم يكن من المستطاع تجاهلها ، فكان التقرير بأن « الكل » أى الثالوث « إلّه واحد » وكل العلم المسيحى « اللاهوت » تلخص فى التوفيق بين هذين النقيضين من أن الثلاثة هم الواحد ، ثم كانت هذه الأسطورة .

وأرجو أن لا يغضب إخواننا المسيحيون من وصفنا التصور الكنسى أنه أسطورة فهو لا يمكن أن يوصف بأى مقياس علمى إلا أنه أسطورة ، من نوع أساطير مصر القديمة ، والإغريق والرومان القديمين . وإلا فما ظنك بقول يقول :

إن الله قد غضب على آدم وذريته ، وظلت الأجيال تلو الأجيال ، تعيش فى ظل اللعنة الإلّهية ، إلى أن رأى الله أن يتصالح مع البشر ، فأرسل ابنه الحبيب إلى الأرض ليتعذب ويشقى ويموت على الصليب فيكون موته كفارة للبشر ، ويتم التصالح بين الله والناس . ونحن كمسلمين نؤمن بالله واليوم الآخر لا نرى فى هذا القول أكثر من أسطورة .

أما لماذا اخترنا الوقت الحاضر

لنواجه المعتقد الكنسى وجها لوجه ، فذلك لأن المعركة الضارية التى تشنها المادية على الإيمان بالله ، فهى لا تجد موطن ضعف تنفذ منه للانقضاض على إيمان المؤمنين ، سوى هذا التصور الكنسى الذى ينتمى إلى عهود وثنية مضت فضلا عن أنه لا يمت للمسيحية بأى صلة ولسنا نفكر بطبيعة الحال ، فضلا عن أن نطمع فى أن تستسيغ الكنيسة هذا القول عن قرب أو بعد فقد قام بناؤها كله على هذه العقيدة ، وجعلت الأمر كله أسراراً وحجبا .

تفوق الإسلام :

ومن هنا يأتى تفوق الإسلام ، وأنه هو وحده القادر على مواجهة المادية ، والإلحاد وقهرهما .

١ ــ فالله هو القدرة الواحدة المهيمنة على هذا الكون ، والله ليس كمثله شىء ، فهذا التوحيد الصارم لا يمكن أن يتحداه العقل البشرى فى أى عصر من العصور .

٢ ــ ولا فئة من أى نوع كان تحتكر لنفسها حق الوساطة بين الإنسان

والله ، وتزعم لنفسها أنها وحدها من تتلقى إرادة الله وفى كلمة لا كنيسة فى الإسلام .

٣ — كل ما انتهى إليه البشر بعد التجارب الطويلة من أنه يؤدى إلى حضارة البشر ، من علم وعمل وتآخ وحرية ، وتعاون وتراحم وتضامن ونظام واستقامة وسلام .

كل هذا مبادئ أساسية فى الإسلام وطبقت بالفعل ، وأوربا لم تنهض نهضتها الحديثة إلا بعد أن استعارت هذه المبادئ والقيم كلها من الإسلام ويطلق الأوربيون على العصر الذى عاشت فيه تحت حكم الكنيسة المسيحية وما تبعها من محاكم التفتيش وصكوك الغفران ، وفرض الحرمان على شعوب بأكملها من دخول ملكوت السماء ، يسمى الأوربيون ذلك كله بأنه عهد الظلام الذى لم يخرجوا منه إلا بعد أن أخذوا ببعض تعاليم الإسلام تحت ستار « الإصلاح الدينى » .

واليوم :

واليوم والبشرية مهددة باسم العقل والعلم والتقدم باكتساح الإيمان بحجة أنه خرافات وأوهام ، فإن هذا القول إذا جاز إشهاره فى وجه اليهودية والمسيحية الكنسية ، فلا يمكن بحال أن يثار فى وجه الإسلام ، لا من حيث العقيدة ، أو نبى الإسلام ، أو تعاليم الإسلام فكل ذلك أثبت بالتجربة الحية ، قدرته على البقاء ودفعه الإنسان إلى التحضر والارتقاء .

أحمد حسين

فى التقوى

اتقوا الله ، وصلُّوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدُّوا زكاة أموالكم . وأطيعوا أمراءكم ، تدخلوا جنة ربكم . .

من تراثنا الحديث

إحياء سنن الإسلام وقواعده

المرحوم العلامة
محب الدين الخطيب

سنن الإسلام وقواعده لا تنحصر فى المسجد ، ولا فى أصناف العبادة من صلاة وصوم وحج ، بل هى عامة شاملة لكل ما تعمه الحياة وتشمله الطمأنينة والسعادة ، لأنها هى رسالة الإسلام إلى الإنسانية ما بقيت الإنسانية .

وهى تبدأ من العقل البشرى ، لأنه المنظم لمدارك بنى الإنسان ، والمحرك لجوارحهم ، والمتصرف — إيجابا وسلبا — فى عواطفهم وأهوائهم التى تنطوى عليها جوانحهم ، فتحوطه بما يقيه الخطأ فيما يجب عليه من الحكم للحق على الباطل ، والخطل فيما ينبغى له من إيثار الخير على الشر .

وتصحب هذه السنن والقواعد النفس الإنسانية — فى جميع أدوار حياتها — فتملى عليها التصرف الحميد فى كل ما يصدر عنها من قول وعمل فى معترك الحياة ، وفى مذاهب العيش ، وفى تنظيم الحوائج والضرورات ، وفى تعديل الميول والأهواء .

وهذه السنن والقواعد يقوم منها حارس أمين على المنزل والأسرة إذا اتخذت معياراً للأقدار ، ومقياساً فى الحسنات والأوزار ، وإذا عنى الوالدان بأن يسيرا عليها فى أخلاقهما وتصرفاتهما ، ويكونا قدوة للبنين والبنات فى معرفتها من طريق العادة والعمل ، والتزامها فى السر والعلن .

ومن هذه السنن والقواعد مالو تعامل به الجار مع جيرانه ، والتاجر مع عملائه ، والأقارب مع أنسبائهم وأصهارهم ، وصاحب العمل وعماله والموظف مع أصحاب المصالح فى مصلحته ، ورئيس المصلحة مع موظفيه ، لكنّا جميعاً — بسبب العمل بهذه السنن والقواعد — أشبه بالأسرة الواحدة فى المحبة والمودة ، حتى لو

كان عددنا فى هذا الوطن أربعين مليوناً. بل كنا نكون — لو عمل جميع المسلمين بها — كالأسرة الواحدة فى المحبة والمودة ولو كان عدد المسلمين خمسمائة مليون .

سعادة عظيمة هى فى متناول أيدينا، ولكنا لا نعرفها ، لأن الطريق الحقيقى والعملى لمعرفتها هو طريق التعامل بها ، ومما يؤسف له أن التعامل بها بطل من ألف سنة وأكثر ، وكان معمولا بها فى البطون الثلاثة الأولى فى الإسلام ، وهى زمن الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان ، وهم الذين صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فيهم « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وكان قرنه خيراً من القرن الذى تلاه ، وكان القرن الذى تلاه خيراً من الثالث والقرون الثلاثة — بنص الخبر المحمدى الصحيح — هى خير قرون الإسلام ، لا لأنهم اكتسبوا ذلك من زمنهم ، فالزمن فى نفسه متشابه : قبل آدم وبعد آدم وقبل محمد صلى الله عليه وسلم وبعده ، وقبل القرون الثلاثة من أجيال الإسلام وبعدها . بل الخير الذى امتازت به الأجيال الثلاثة الأولى فى الإسلام جاءهم من اتباع هذه السنن والقواعد وعملهم بها ، وكان الموفق من الله من أبنائهم يتعلمها من الآباء بالقدوة والمشاهدة والعمل . وزمن الدولة الأموية — الذى رسم أكثر الناس صورة له فى أذهانهم كاذبة مشوهة — كان ثالث هذه الثلاثة ، وحتى الذين كانت فيهم رجولة وشهامة وحزم وتربية من خلفاء صدر الدولة العباسية هم الذين تربوا فى زمن دولة بنى أمية ، ثم أخذ الناس يتهاونون بهذه السنن والقواعد من طريق القدوة أيضًا — كما كانوا يعملون بها بالقدوة — حتى تناسوها وتناسوا أكثرها ، والموجود منها الآن عند أصلح الناس يكاد يكون من أشكال هذه السنن والقواعد ومن مظاهرها ، وقلما أبقى الناس على شىء من حقائقها . والذى ضاع بتاتًا ونسى بالمرة تسعمائة جزء من الألف ، والذى بقيت مظاهره وأشكاله لا يبلغ مائة من الألف . وهو فى نفسه من الشكليات التى لا أثر لها فى النفس الإنسانية إلا من طريق الْعَـرَضِ ، أما جواهرها وحقيقتها التى تسمو بالنفس الإنسانية فهى التى أهملت ونسيت .

ويقول نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى : « من أحيا سنة أميتت بعدى كان معى فى الجنة » .

وكان صلى الله عليه وسلم يعلم أن شريعته وسنته ستحتاج إلى من يحييها ويقيمها فى عصورنا ، كما احتاجت إلى من يعين على تقريرها وتعميمها والدعوة إليها ابتداء فى القرون الثلاثة الأولى ، فبشر صلى الله عليه وسلم العاملين على إحياء سنن الإسلام وقواعده فى عصورنا بأنهم كالغيث الذى يحيى الله به الأرض وأنهم يضارعون فى الخير ذلك الغيث الأول الذى أحيا الله به الإسلام فى القرون الثلاثة الأولى . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذى أيضاً : « إنما مثل أمتى كمثل الغيث لايُدرى أوله خير أم آخره » . وإذا كان لإحياء سنن الإسلام وقواعده هذه المنزلة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا شك أن العاملين على إحيائها مثوبون على عملهم كثواب العبادة ، بل إن هذا من نوع الجهاد ، والجهاد أفضل العبادات ، ويقول نبينا صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه : « إن العبادة وقت الهرج والفتن كهجرة إلىّ » .

هذه الملايين التى أسلمت فى صدر الإسلام فى مختلف الأقطار لم تُسْلِم بالجدل والمناظرة ، لأن الإسلام يكره الجدل ويكتفى من المناظرة بعرض الحق على فطرته ونقائه . ثم يرى الأغيار تطبيق ذلك فى معاملة المسلمين الأولين وأخلاقهم ، فلا يخامرهم شك فى أن هذا هو دين الفطرة ، وأنه الخير المحض المجرد تعرفه الإنسانية وتنشد من ينهض به ويجعله دستوراً لأبنائها .

والعمل بالخير المحض ، وبالحق النقى ، أمنية لجميع الأجيال ، وكان العمل بهما محتاجاً إلى سنن وقواعد تبينهما تبييناً حازماً واضحاً مركزاً وإلى أمة تجرب العمل بهما ، فيتجلى أثر ذلك من الطمأنينة والسعادة فى المجتمع ، فتقبل الأمم عليه .

وكانت مهمة الإســـلام ورسالته إعلان هذه السنن والقواعد ، وكان واجب المسلمين العمل بهما ، والتخلق بأخلاقهما . وبهذا عم الإسلام أقطار الأرض المعروفة فى زمن ظهوره . وكان الإسلام فى زمن ظهوره غريباً ، وبمعرفة سننه والعمل بها زالت غربته . وصح بعد ذلك ما أنبأ به نبينا صلى الله عليه وسلم من أن الإسلام يعود غريبا كما بدأ . ومعنى ذلك أن سننه وقواعده تعطل وتهمل ، فيأتى على الإسلام زمان يحتاج فيه إلى من يزيل غربته بإحيائها ، وقد حض النبى صلى الله

عليه وسلم على ذلك ورغب فيه بحديث الترمذى الذى أوردناه آنفاً وهو قوله صلوات الله عليه : « من أحيا سنة أميتت بعدى كان معى فى الجنة » .

وبعد : فإن لإحياء سنن الإسلام ثلاث مراحل :

الأولى : الدعوة إلى ذلك بإخلاص وحسن نية وابتغاء وجه الله الكريم ، وأرجو أن تكون هذه الكلمة من هذه المرحلة .

المرحلة الثانية : تفرغ أهل العلم من الأزهريين والجامعيين لتتبع هذه القواعد واستقصائها ، وتحرى ما قاله سلف الأمة فى أحكامها ، وفهم ذلك وهضمه ، والنظر إليه من ناحية ما نرجوه لمجتمعنا من السعادة بهذه السنن والقواعد ، وما يترتب عليها من الطمأنينة والرضا العام الشامل .

والمرحلة الثالثة : العمل بذلك ، وتربية المسلم نفسه على العمل بسنن الإسلام فى عقله ونفسه وبيته وأسرته وبيئته ومحيطه وكل ما يتصل به .

بهذا تكون مسلمين ، وبهذا يكون البعث الإسلامى ، وهذا هو الوجه المشرق الجميل للإسلام ، ويستحيل على غير المسلمين أن يروه وأن لايحبوه، فكيف بالمسلمين من خاصة وعامة وتابعين ومتبوعين .

إن المسلمين بانسلاخهم الآن عن سنن الإسلام التى فيها سر جماله قد أصبحوا حجابا بين الإسلام ومعرفة الأمم به ، فهى لا ترى من الإسلام إلا ما عليه المسلمون . والذى عليه المسلمون اليوم غير الذى كان عليه المسلمون الأولون عندما عرفوا الإسلام من الرسول الذى جاءهم به ، وعندما عرفه الذين جاءوا بعدهم من السيرة التى كان عليها تلاميذ الداعى الأول صلى الله عليه وسلم والذين بقوا منا على عهد الوفاء للإسلام اكتفوا منه بنظام عبادته ، وانحرفوا مع تيار المجتمع فى نظام المجتمع من جهة التعامل والتطبع والتخلق بما يسمو بالنفس إلى المثل العليا ، أو ينحط بها إلى المنافع الوقتية الزائلة ، فصرنا جميعاً ممن يؤثرون العاجلة وإن كانت تافهة ، على الآجلة وإن كانت أجل وأبقى وأرضى لله عز وجل .

كان الإسلام دين الإنسانية . والسنن والقواعد التى جاء بها هى سنن الإنسانية العليا والمدنية الفاضلة ، وقد استجابت لها الأمم يوم كانت لا تزال كما هى وبقدر ما هى ، وكان

من نتائج ذلك وثمراته ما نقرأه فى التاريخ عن سيادة أسلافنا وسعادتهم وازدهار العمران والعدالة والطمأنينة بهم . وأخذ الإهمال والتهاون والتناسى ينقص هذه السنن والقواعد فتذبل خُضْرَةُ أغصانها ، إلى أن تحولت بقاياها القليلة من أغصان زمردية يانعة الفاكهة والزهر إلى حطب اقتنع من يراه بأنه لا يصلح إلا للوقود . وما على الإسلام ذنب فى شىء من هذا التحول ، ولكن الذنب فيه على المسلمين ، ولا أحصره بمسلمى جيلنا ، بل هو يعم كل من ساهم فى هذا الإهمال من مسلمى الأجيال بعد البطون الثلاثة الأولى .

وأعود فأذكّر صالحى المسلمين من أزهريين وجامعيين وسائر المثقفين بقول نبى الإنسانية ورسولها الأعظم صلى الله عليه وسلم « من أحيا سنة أميتت بعدى كان معى فى الجنة » . وقد يظن من يأنس فى نفسه الميل إلى المساهمة فى هذا الخير أن إحياء سنن الإسلام وقواعده عمل علمى يتم بالبحث عنها فى كتب الحديث المحمدى والشريعة الإسلامية وسيرة السلف وتدوين ذلك ونشره فى مقالات ورسائل وكتب . ولا أنكر أن هذا من خير ما يعمله أهل العلم والشباب الإسلامى المثقف ، غير أن طريقة السلف فى هذه الناحية هى أنهم كلما عرفوا شيئاً من ذلك عملوا به فى أنفسهم ، وأرشدوا إليه إخوانهم وأحبابهم وذويهم ، فإذا انتقلوا إلى غيره من طريق العلم انتقلوا إليه وهم عاملون بما عرفوه من قبل . وقد حَدَّثَتْ بذلك فيما مضى بما رواه حماد بن زيد وغيره عن عطاء بن السائب أن أبا عبد الرحمن السلمى قال : أخذت القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الآخر حتى يعملوا بما فيهن . فكنا (نتعلم) القرآن و (العمل) به . وأنه سيرث القرآن بعدنا قوم لا يجاوز تراقيهم ، بل لايجاوز ها هنا (ووضع يده على حلقومه) .

دراسات قرآنية

ماحلّ من الأرزاق وما حرم

• رأى الدين

فى الذبائح والصيد واللحوم المحفوظة "المعلبات"

فضيلة الشيخ / مصطفى الحديدى الطير

« يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم .. »
« إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله .. »
الآيتين ١٧٢ ، ١٧٣ من سورة البقرة
« وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم .. »
من الآية ٥ من سورة المائدة

البيان

أمر الله تعالى عباده المؤمنين فى الآية الأولى ، أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم ، وطيبات الأرزاق إن أريد بها ما أحله الله منها ، فالأمر بأكلها يقتضى النهى عن سواها ، ويوجب قصر الأكل عليها وحدها ، وقد بيّن النبى صلى الله عليه وسلم حكمة ذلك فى قوله « أيها الناس : إن الله تعالى طيّب فلا يقبل إلا طيباً ، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، قال تعالى « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إنى بما تعملون عليم » وقال « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » ثم ذكر الرجلَ يُطيلُ السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام وملبسه حرام وغُذِىَ بالحرام فأنّى يُستَجابُ له » أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الزكاة عن أبى هريرة رضى الله عنه .

وفى التحذير من أكْلِ الحرام قال صلى الله عليه وسلم « كلُّ لحم نبت من حرام فالنار أولى به » .

وإن أريد بطيبات الأرزاق ما طاب

منها وكان لذيذ الطعم غزير الفائدة من اللحوم والفواكه وغيرها ، فالأمر بأكلها أمر إباحة وليس أمر إيجاب والله تعالى يقول فى الرد على من يحرم الاستمتاع بطيبات الأرزاق منكراً عليهم « قل مَنْ حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامه . . »(١)

ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يأكلها إذا تيسرت له ولا يتورع عنها ، وإنما يكون الورع فى البعد عن المحرمات والشبهات ، ذكر صاحب المواهب اللدنية أنه لم يكن من عادته صلى الله عليه وسلم أن يحبس نفسه الشريفة على نوع واحد من الأغذية ، بل كان يأكل ما جرت به عادة أهل بلده ، فكان يأكل من اللحم والفاكهة والخبز والتمر وغيرها ، ونَقَل عن البُخَارى وغيره أنه كان يأكل الحلوى والعسل ويحبهما.

وحكى ابن حجر فى فتح البارى عن الثعالبى فى فقه اللغة ، أن حلوى النبى صلى الله عليه وسلم التى كان يحبها هى (المَجِيعُ) وهى تمر يعجن باللبن.

وروى أنه صلى الله عليه وسلم أكل نوعاً من الحلوى مؤلفاً من الدقيق والعسل والسمن (ويسمى العصيدة) .

ويطلق عليه أهل فارس اسم الحبيص.

وعن ابن عباس قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يأكل العنب ، وروى مسلم وغيره أنه صلى الله عليه وسلم أكل الرطب والتمر والبسر ، وذكر الإمام الطبرى أنه صلى الله عليه وسلم أكل الخزيرة ، وهى طعام يتخذ من الدقيق على هيئة عصيدة ، لكنه أرَقّ منها ، ورُوى أنه كان يشرب العسل ممزوجاً بالماء البارد ، إلى غير ذلك مما يتيسر ، وإن كان غالب أمره على التقشف — صلوات الله وسلامه عليه .

وقد أمر الله المؤمنين أن يشكروا ربهم على ما أحلَّ لهم من الطيبات بقوله واشكرو الله إن كنتم إياه تعبدون » فلذا ينبغى ختم الطعام والشراب بحمد الله وشكره ، ليبارك نعمته عليهم ويحفظها من الزوال .

لماذا حرمت الميتة والدم

نحن خير أمة أخرجت للناس ، فلذا أحل الله لنا الطيبات ، وحرم علينا الخبائث ، ومما حرمه علينا الميتة والدم .

والميتة ما فارقته الروح من غير ذبح ، والحكمة فى تحريمها أنها من الخبائث

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأعراف .

لاشتمالها على ميكروبات الأمراض التى كانت سبباً فى موتها ، فالله تعالى حرمها على المؤمنين حماية لهم من الإصابة بمرضها ، أو بأى مرض آخر يتسبب عن أكل لحمها المريض .

ولا يخلـــو حيوان من حمل ميكروبات مرضية ، وإن لم تظهر عليه آثارها لمناعة فيه ، ولهذا أوجب الله تعالى ذبح الحيوانات التى أباح أكلها للمؤمنين ، فإن الدم المتدفق منها بعد الذبح ، يحمل معه ما عسى أن يكون بها من ميكروبات ، ويخلّص الذبيحة منها ، فضلا عن أن خروج الدم منها يجعل لحمها مستساغاً مستلذّاً ، فتصبح بذلك طيبة داخلة فى مفهوم قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم » ولهذا حرم الله كل ميتة ، سواء أكان موتها عن مرض أم عن خنق بنحو حبل ، وهى (المنخنقة) أو عن ضرب بحجر أو عصا أو نحوهما وتسمى (الموقوذة) أو عن سقوط من أعلى إلى أدنى ، وتسمى (المتردية) أو عن نطح حيوان لها ، وتسمى (النطيحة) أو عن أكل سبع أجزائها ، وهذه الأخيرة وإن سال دمها ، لكنها ماتت دون ذبح وازدادت سوءاً بأكل السبع لبعض أجزائها ، فقد يكون مصاباً ببعض الأمراض التى تضر آكلها ، وكان المشركون يحلون أكل الميتة ، ويسمونها ذبيحة الله ، ويقولون للمؤمنين توقاً لهم : ما بالكم تأكلون ماذبحتم ، وتتركون ما ذبح الله ، فأنزل الله تحريم الميتة ، وأنزل أيضًا : « وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ »[1] .

ما يحل الميتة والدم

يحل من الميتة السمك والجراد ، ومن الدم الكبد والطحال قال تعالى : « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ » ، وقال صلى الله عليه وسلم « أُحِلَّت لنا ميتتان : الحوتُ والجرادُ ، ودمان الكبد والطحال » أخرجه الدارقطنى .

والمقصود من الحوتِ السمك وجميع دواب البحر ، قال القرطبى : أكثر أهل الفقه يجيزون أكل جميع دواب البحر : حيّها وميّتها : وتوقف الإمام مالك فى خنزير البحر — أى لم يقطع بتحريمه — وقال : أنتم تقولون خنزيراً . أى تسمونه خنزيراً — ولكن ابن القاسم كان صريحاً فى بيان حكمه ، فقال :

---

(١) الآية ١٢١ من سورة الأنعام .

أنا أتّقيه ولا أراه حراماً : يعنى أنه لا يقول بحرمته لأنه من دواب البحر التى يشملها النص فى القرآن ، ويدخل فى السمك الذى جاء فى الحديث بلفظ الحوت وإن كان يمتنع عن أكله ، ولعل ذلك لشبهه شكلا بالخنزير ، فلهذا تعافه نفسه ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يأكل لحم الضّبّ مع كونه حلالا ، لأن نفسه الشريفة تعافه .

وقد جاء حِلُّ الجراد أيضًا فى حديث مسلم عن عبد الله بن أبى أوفى قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه » .

لحم الخنزير

جاء لحم الخنزير ضمن المحرمات فى الآية ، وكان الناس يعللون تحريمه بأنه يأكل القاذورات ، ثم ظهر علمياً أنه تكثر إصابته بالدودة الشريطية الخطيرة ، فتبين بذلك الكشف العلمى أن الحكيم الخبير حرمه علينا ليقينا هذه الآفة الخطيرة التى يصاب كثيرٌ من أكلة لحم الخنزير بها ، وبتحريم لحمه حرم شحمه وغضاريفه وعظمه ، فلو أحرق عظمه ودقّ ناعماً ، فلا يحل لمسلم أن يضمه إلى طعامه .

والاقتصار على ذكر اللحم فى النص القرآنى لأن الشحم ملابس له ، فيقع اسم اللحم عليه ويغنى ذكره عن ذكره ، ولأنه إذا حرم اللحم وهو الأهم ، فلأن يحرم سواه أحق وأولى .

قال القرطبى فى المسألة السابعة عشرة : لا خلاف فى أن جُمْلَةَ الخنزير محرمة ، إلا الشعر فإنه تجوز الخِرازَةُ به ، وقد روى أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخرازة بشعر الخنزير فقال : « لا بأس بذلك » ذكره ابن خويزمنداد : اهـ كلام القرطبى — والخرازة خياطة النعل .

ما أهل به لغير الله

أى ما ذكر عليه اسم غير الله ، وهو ذبيحة المجوسى والوثنى ، وفى حكمهما ذبيحة المعطل — وهو من لا دين له — فالمجوسى يذبح للنار ، والوثنى يذبح للوثن ، والمعطل لا يعتقد شيئًا فيذبح لنفسه .

قال القرطبى فى ج ٢ ص ٦٠٢ — طبعة الشعب — لا خلاف بين العلماء أن ما ذبحه المجوسى لِنَارِهِ والوثنىُّ لوثنه لا يؤكل . . ولا تؤكل ذبيحتهما عند مالك والشافعى وغيرهما وإن لم يذبحا

للنار والوثن ، وأجازهما ابن المسيب وأبو ثور إذا ذبحا لمسلم بأمره .

ثم قال القرطبي : وقال ابن عباس وغيره .. إن في تفسير قوله تعالى « وما أهل لغير الله به » : المراد ماذبح للأنصاب والأوثان لا ما ذكر عليه اسم المسيح ، ومقتضى كلامه أن ما ذكر اسم المسيح يحل أكله، وسيأتي ولذلك مزيد بيان بتوفيق الله تعالى .

والإهلال رفع الصوت ، قال القرطبي: جرت عادة العرب بالصياح باسم المقصود بالذبيحة ، وغلب ذلك في استعمالهم ، حتى عُبِّر عن النية التي هي علة التحريم ، ألا ترى أن علياً ابن أبي طالب رضي الله عنه راعى النية في الإبل التي نحرها غالب أبو الفرزدق فقال : إنها مما أهل لغير الله به فتركها الناس : انظر المسألة العشرين في شرح هذه الآية جـ ٢ من القرطبي ص١٠٢، ٦٠٣ طبعة الشعب، وقد جاء في آخرها أن امرأة سألت السيدة عائشة رضي الله عنها قائلة : يا أم المؤمنين : إن لنا أصهاراً من العجم، لا يزال يكون لهم عيد ، فيهدون لنا منه أفنأكل منه شيئاً ؟ قالت : أما ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا ولكن كلوا من أشجارهم :

فنهي السيدة عن عائشة لمن سألتها عن الأكل من ذبيحة العجم في يوم عيدهم محمول على أنهم ذبحوها على نية معبوداتهم ، فلذلك حرمت أكلها لأنها أهل بها لغير الله ، ويفهم من ذلك أنها تبيح الأكل من ذبائحهم في غير هذا اليوم إن ذبحوها لأنفسهم أو لغيرهم من المسلمين ، وهذا الرأي قريب مما ذهب إليه ابن المسيب وأبو ثور وقد مَرَّ ذكره ، ولعل هذا وذاك مقيد بما إذا لم تذكر أسماء آلهتهم عليه ، فإن ذكرت فلا أعتقد أن أحداً من العلماء يبيحه ولو ذبحوه لمسلم ، لمخالفة ذلك لقوله تعالى « وما أهل لغير الله به ».

الأكل مما ذكر اسم الله عليه

أمرنا الله تعالى أن نأكل مما ذكر اسم الله عليه بقوله في سورة الأنعام « فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين » (١) ونهانا فيهـــا عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه بقوله « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » الآية ١٢١ .

وأخرج النسائي عن ابن عباس في

(١) الآية ١١٨ سورة الأنعام .

بيان سبب نزول (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه قال (خاصمهم المشركون فقالوا : ما ذبح الله فلا تأكلونه ، وما ذبحتم أنتم أكلتموه ، فقال الله سبحانه « ولا تأكلوا » فإنكم لم تذكروا اسم الله عليها : انتهى كلام ابن عباس رضى الله عنهما : وهذا يقتضى أن الآية نزلت لتبين للمشركين أن الميتة حُرِّمت لأنها لم يذكر اسم الله عليها، ويقول الأصوليون : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالآية بعمومها ناهية عن كل ما لم يذكر اسم الله عليه ، سواء أكان ميتة أم مذبوحاً ، وناهية أيضاً عن كل ما ذكر عليه اسم غير الله ، فإنه لم يذكر اسم الله عليه ، وزاد أنه ذكر عليه اسم غير الله ، وذلك محرم نصاً بقوله تعالى فى جملة ما حرمه علينا « وما أهل لغير الله به » .

ترك التسمية من المسلم عند الذبح

يرى جماعة من الفقهاء أن المسلم لو ترك التسمية على ذبيحته سهواً أو عمداً فإن ذبيحته هذه لا تحل، أخذاً بظاهر قوله تعالى « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » فإنه عام فى الميتة والذبيحة، سواء ذبحها مشرك أو مسلم ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وممن قال بذلك ابن عمر ونافع وأبو ثور ومحمد بن سيرين .

ولكن جمهور العلماء يقولون : إنْ تركَها سهواً حل أكلها ، فإنه لايُسَمَّى فاسقاً بنسيانه لها ،أما إن تركها عمداً فتؤكل عند جماعة من الفقهاء ، ومنهم ابن عباس وأبو هريرة وعطاء وسعيد ابن المسيب والشافعى والحسن وكثير غيرهم ، وحكى الزهرى عن مالك أنه قال : تؤكل ذبيحة المسلم التى تركت التسمية عليها عمداً أو سهواً ، وقال بعضهم لو تركت عمداً يكره أكلها ولا يحرم .

فهؤلاء يرون أن التسمية من المسلم سنة ، وأن المسلم إن لم يسم بلسانه، فقلبه وعقيدته مع الله تعالى ، أما تركها تهاوناً ، كأن يقول لا أسمى ، وأى دخل للتسمية فى الحل فهو فاسق فلا تؤكل ذبيحته[1] .

ذبيحة أهل الكتاب

قال الله تعالى فى سورة المائدة « وطعام

(١) راجع القرطبى جـ٧ ص ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ طبع دار الكتب فى تفسير قوله تعالى « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه . . » الآية ١٢١ من سورة الأنعام .

الذين أوتوا الكتاب حِلٌ لكم » من الآية رقم (٥) والطعام جنس شامل لكل أنواعه ومنها الذبائح ، وذهب كثيرون من أهل العلم إلى الذبائح أن هى المرادة من الطعام هنا ، قال ابن عباس : قال الله تعالى « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » ثم استثنى فقال « وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌ لكم » يعنى ذبيحة اليهودى والنصرانى وإن كان النصرانى يقول عند الذبح باسم المسيح ، واليهودى يقول باسم عزير ، وذلك أنهم يذبحون على الملة : انتهى كلام ابن عباس .

وقال عطاء : كُلْ من ذبيحة النصرانى وإن قال باسم المسيح ، لأن الله عز وجل قد أباح ذبائحهم وقد علم ما يقولون ، وبهذا قال الزهرى ومكحول وربيعة والصحابيان عبادة ابن الصامت وأبو الدرداء :

وقالت طائفة إذا سمعت الكتابى يسمى غير اسم الله عز وجل فلا تأكل: وممن قال بذلك من الصحابة على وعائشة وابن عمر رضى الله عنهم ، وقال به طاوس والحسن متمسكين بقوله تعالى « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » وقال مالك : أكره ذلك ولم يحرمه : قال القرطبى [1]: ولا خلاف بين العلماء فى أن مالا يحتاج إلى زكاة كالطعام الذى لا محاولة فيه كالفاكهة والبُرّ جائز أكله ، إذ لا يضر فيه تملك أحد ، والطعام الذى تقعُ فيه محاولةٌ على ضربين (أحدهما) ما فيه محاولةُ صَنعةٍ لا تعلُّق للدين بها كخبزه الدقيق وعصره الزيت ونحوه ، فهذا إن تُرِك أكلُه من الذمىّ فعلى وجه التقزُّز (والضرب الثانى) هو التذكية — أى الذبح — التى ذكرنا أنها هى التى تحتاج إلى الدّين والنية ، فلما كان القياس أن لا تجوز ذبائحهم — كما نقول لا صلاة لهم ولا عبادة مقبولة . رخص الله فى ذبائحهم لهذه الأمة ، وأخرجها النص عن القياس على ما قاله ابن عباس ، والله أعلم ، انتهى ما قاله القرطبى .

اللحوم المحفوظة (المعلّبات)

ترد على البلاد الإسلامية لحوم محفوظة (معلّبة) من بلاد غير إسلامية وكثير من الناس يتحاشى تناولها خوفاً من أن تكون محرمة ، وآخرون — يتناولونها تساهلا أو بفتوى صادرة عمن ليست لهم دراية بأحكام الدين ، فلهذا رأيت أن أضمّن مقالى هذا رأى

(١) انظره فى ج ٦ ص ٧٧ طبع دار الكتب .

الدين فى هذه الظاهرة الواسعة الانتشار وإليك البيان :

قد علمت مما تقدم حِلَّ ذبائح أهل الكتاب ، بقوله تعالى « وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌ لكم » ويترتب على هذا أن اللحوم المحفوظة (المعلَّبة) التى ترد إلينا منهم يحل أكلها إذا كانت من حيوانات مباحة كالبقر والغنم ، ودون المحرمة كالخنزير .

أما التى ترد من بلاد أهلُها ليسوا من أهل الكتاب ، كالبلاد الشيوعية والبوذية ، فلا يحل تناولها ، ما لم يتأكد أنها من حيوانات ذبحها المسلمون أو الكتابيون الذين تستخدمهم الشركة التى تصنعها ، مراعاة منها لعواطف المسلمين الذين تتعامل معهم ، فإن لم نتأكد من ذلك فلا يحل أكل معلباتهم ، وعلى الحكومات الإسلامية أن لا تستورد من تلك البلاد لحوماً محفوظة ، مالم يكن لها مندوبون مسلمون ثقات ، يشرفون عندهم على ذبح الحيوانات التى تصنع لحسابها ، كما يشرفون على طهوها وتعبئتها حتى لا يغشوها بلحم الخنزير فإن لم تفعل ذلك فلا سبيل إلى التأكد بأنها ذبحت على الطريقة الإسلامية وطهيت كذلك ، فالواجب الامتناع عن استيراد اللحوم المحفوظة من تلك البلاد ، إن لم يتحقق الشرط الذى قلناه .

ذبيحة المجوسى

المجوسى ليس من أهل الكتاب على المشهود لدى العلماء ، وقد أجمعوا على أن ذبيحته لا تحل ، أما طعامهم من غير الذبائح فلا مانع من تناوله ، ومثلهم فى ذلك المشركون ومن لادين لهم :

الأكل والطبخ فى آنية الكفار

لا بأس بالأكل والطبخ فى آنية الكفار كلهم بعد أن تغسل لأنهم لا يتقون النجاسات ، ما لم تكن نجسة العين كالمصنوعة من جلد الخنزير أو كان استعمالها محرماً كآنية الذهب والفضة ، وقد جاء بيان هذا الحكم فى حديث أخرجه مسلم عن أبى ثعلبة الخُشَنِىِّ قال (أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله إنَّا بأرض قوم من أهل كِتَاب ، نأكل فى آنيتهم ، وأرض صيد بقوس وأصيد بكلبى المعلم ، وأصيد بكلبى الذى ليس بمعَلَّم ، فأخبرنى : ما الذى يحل لنا من ذلك ، قال : « أما ما ذكرت أنكم بأرض قوم من أهل كتاب تأكلون فى آنيتهم ،

فإن وجدتم غير آنيتهم فلا تأكلوا فيها، وإن لم تجدوا فاغسلوها وكلوا فيها» ثم ذكر باقى الحديث[١].

أحكام الصيد

الحيوانات الصحراوية التى يحل أكلها كالظباء يصطادها الناس بوسائل شتى، فتارة يصيدونها بالبندق وأخرى بالحجر وثالثة بالمعراض، ورابعة بوساطة الكلاب والصقور، وأحياناً بالشباك، فإذا أدركها الصائد وفيها حياة فلا تحل إلا بالذكاة، وإذا ماتت فإليك تفصيل الحكم فيها.

قال القرطبى تعليقاً على كلمة (الموقوذة) فى قوله تعالى «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة ..» الآية ٣ من سورة المائدة جـ ٦ ص ٤٨ قال ما يلى:

وفى صحيح مسلم عن عدى ابن حاتم قال: قلت يارسول الله فإنى أرمى بالمعراض[٢] الصيد فأصيب، فقال «إذا رميت بالمعراض فخزق[٣] فكُلْه، وإن أصاب بعرضه فلا تأكله» وفى رواية «فإنه وقيذ» قال أبو عمر: اختلف العلماء قديماً وحديثاً فى الصيد، بالبندق والحجر والمعراض، فمن ذهب إلى أنه وقيذ لم يجزه إلا ما أدرك ذكاته على ما روى عن ابن عمر: وهو قول مالك وأبى حنيفة وأصحابه والثورى والشافعى، وخالفهم الشاميون فى ذلك، قال الأوزاعى فى المعراض: كُلْهُ خَزَقَ أم لم يَخْزِق، فقد كان أبو الدرداء وفَضَالة ابن عبيد، وعبد الله بن عمر، ومكحولٌ لا يرون به بأساً، قال أبوعُمَر هكذا ذكر الأوزاعى عن عبد الله بن عمر والمعروف عن ابن عمر ما ذكره مالك عن نافع عنه، والأصل فى هذا الباب والذى عليه العمل وفيه الحجة لمن لجأ إليه حديث عدى بن حاتم «وما أصاب بعرضه فهو وقيذ» انتهى كلام القرطبى— وخلاصته أن ما أصاب بشىء مما ذكر حيواناً يؤكل فى الصحراء ونفذ فيه بحده فأسال الدم ومات قبل أن تدرك ذكاته فإنه يحل، فإن لم يسل دمه فهو وقيذ لا يحل أكله، وأن هذا هو الراجح، أخـذا من حديث عدى بن حاتم

(١) راجع طعام الذين أوتوا الكتاب فى القرطبى جـ٦ ص ٧٦، ٧٧، ٧٨.

(٢) المعراض بسهم بلا ريش، دقيق الطرفين غليظ الوسط، يصيب بعرضه دون حده غالباً قاموس بتصرف.

(٣) أى نفذ فى الحيوان وسال الدم.

المذكور ، ولقوله صلى الله عليه وسلم « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه» (الحديث أخرجه الشيخان وغيرهما) .

(الصيد ببندق الرصاص)

كان من وسائل الصيد فى الصدر الأول بندق الطين المجفف ، ودقاق الحجارة ، يقذفون بها الحيوان بآلات بدائية ، فيصيبونه بها لإحكامهم الرماية ، أما الصيد ببندق الرصاص فقد استحدث فى المائة الثامنة ، وقد اختلف فيه المتأخرون فيما إذا أصاب الحيوان فى مقتل فقتله فقال بعضهم بتحريم أكله لأنه مقتول بقوة الدفع مَوْقوذ فيكون حراماً كسائر الموقوذات : ومنهم من قال بالحل ، لما فيه من إنهار الدم بسرعة ، وهو ما شرعت الذكاة لأجله ، وبالأول أخذ الشافعية والحنابلة ، وبالتالى أخذ المالكية وبعض محققى الحنفية ، والأخير هو الملائم لقوله صلى الله عليه وسلم «ما انْهَرَ الدمَ وذُكر اسم الله عليه فكلوه » ويشترط المالكية ومحققو الحنفية لحله أن يكون الصائد مميزاً ، وأن يسمى عند إطلاقه الرصاص لنص الحديث (وذكر اسم الله عليه) ويشترط المالكية زيادة على ذلك أن يكون الصائد مسلماً وأن ينوى الصيد ، أما الأول فلأن الصيد رخصة والكافر ليس من أهلها ، وأما الثانى فلكونه شرطاً فى جميع أنواع الذكاة عندهم) .

واشتراط إسلام الصائد لأنه غير أهل للرخصة فيه نظر فإنه إن كان يصيد لمسلم فالرخصة فى أكله للمسلم لا له ، وإن كان يصيد لنفسه ، فكيف يقال له إن الإسلام لا يرخص لك بالحل إلا إذا أسلمت وهو يراه فى دينه حلالا فالصواب منه جنح إليه محققو الحنفية من عدم اشتراط إسلام الصائد ، فكما حلت ذبيحته رخصة لنا ، يحل صيده أيضاً رخصة لنا ، فيجوز للمسلم أن يأكل من صيده كما يأكل من ذبيحته .

متى يحل الحيوان المريض بالتزكية (أى بالذبح)

إذا مرض الحيوان أو سقط من مكان مرتفع ولم يمت حل أكله بذبحه وكذلك المنخنقة والموقوذة أى المضروبة بنحو حجر ، والنطيحة وهى الشاة ونحوها تَنْطَحُهَا أخرى ، وما أكل بعضه حيوان مفترس كالسبع والثعلب والذئب ، والحيوان المصاب بضربة شمس ، فكل هذه الحيوانات إذا أدركت وفيها حياة وذبحت حلّ أكلها .

ودليل حلها بذلك قوله تعالى فى سورة المائدة « حرمت عليكم الميتة » إلى قوله « المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم » أى حرمت هذه كلها إلا ما ذبحتموه قبل موته من هذه المذكورات ، قال أبو طلحة الأسدى : سألت ابن عباس عن ذئب عدا على شاة ، فشق بطنها ، ثم انتثر قصبها — أى أمعاؤها — فأدركت ذكاتها فذكيتها ، فقال : كل : وما انتثر من قصبها فلا تأكل ، قال : إسحق بن راهويه : السنة فى الشاة على ما وصف ابن عباس ، فإنها وإن خرجت مصارينها فإنها حية بعد ، وموضع الذكاة منها سالم ، وإنما ينظر عند الذبح أحية هى أم ميتة ، ولا ينظر إلى فعل هل يعيش مثلها معه؟ فكذلك المريضة ، قال ابن إسحق : ومن خالف هذا فقد خالف السنة من جمهور الصحابة وعامة العلماء — قال القرطبى : قلت : وإليه ذهب ابن حبيب ، وذكر عن أصحاب مالك وهو قول ابن وهب ، وهو الأشهر من مذهب الشافعى : ثم نقل القرطبى عن ابن العربى أنه قال : اختلف قول مالك فى هذه الأشياء فروى عنه أنه لا يؤكل إلا ما ذكى ذكاة صحيحة : والذى فى الموطأ أنه إن كان ذبحها ونفسها يجرى وهى تضطرب فليأكل وهو الصحيح من قوله الذى كتبه بيده وقرأه على الناس من كل بلد طول عمره ، فهو أولى من الروايات النادرة ، وقد أطلق علماؤنا على المريضة أن المذهب جواز تذكيتها ولو أشرفت على الموت إذا كانت فيها بقية حياة ، وليت شعرى أى فرق بين بقية حياة من مرض ، وبقية حياة من سبع لو اتسق النظر وسلمت من الشبهة الفكر .

وقال أبو عمر : قد أجمعوا فى المريضة التى ترجى حياتها أن ذبحها ذكاة لها إذا كانت فيها الحياة فى حين ذكاتها ، وعلم ذلك منها بما ذكروا من حركة يدها أو رجلها أو ذنبها أو نحو ذلك ، وأجمعوا أنها إذا صارت فى حال النزع ، ولم تحرك يداً ولا رجلا أنه لا ذكاة فيها — أى لا تنفع فيها الذكاة ولا تحلها . — وكذلك ينبغى أن يكون حكم المتردية وما ذكر معها فى الآية : انتهى كلام أبى عمر ، وهو فى غاية القوة والنفاسة .

وخلاصته أن الذكاة تحل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع والمريضة وما فى حكمها كالمصابة

بضربة الشمس إذا ذبحت وفيها حياةٌ مَّا بحيث تحرك يدها أو رجلها أو ذنبها، وأنها إذا صارت فى حال النزع ولا تحرك يداً ولا رجلا فلا تحل بالذبح وأن ذلك بالإجماع فى المريضة ، وأن غيرها يقاس عليها .

وتقدم عن إسحق بن راهويه أن الشاة إذا أخرج السبع أمعاءها (مصارينها) تحل بالذبح ما دام موضع الذبح باقيا وبقيةٌ من الحياة موجودة ، ولا ينظر إلى أن مثلها لا يعيش ، وعلى هذا ابن عباس وجمهور الصحابة وعامة العلماء كما قاله ابن إسحاق ، وأن من خالف ذلك فقد خالفهم ، وأن ابن العربى نقل عن مالك أنه إنْ ذَبحها ونفسها يجرى وهى تضطرب فليأكل وأن هذا هو الصحيح الذى كتبه بيده فى الموطأ وقرأه على الناس[1] .

ولا يصح أن يغيب عن الذهن أن المريضة التى تحل بالذبح إذا كان مرضها لا يغير آكلها ، فإن كان يغير حرم عليه الأكل منها اتقاء لضررها ، وإن لم يجر عليها حكم الميتة بعد أن ذبحت وفيها الحياة التى مر بيان ما يكفى منها لحلها ، لأن الإثم فى أكلها لم يأت من جهة كونها ميتة، بل من جهة أنها تضر آكلها ، والله تعالى أعلم .

متفرقات

١ — التذكية بمعنى التطييب ، ومنه رائحة ذكية أى طيبة ، فالحيوان إذا أسيل دمه: طاب لحمه (أنظر القرطبى) جـ ٦ ص ٥٢ ، ٥٣ .

٢ — لو ذُبِحَ الحيوان من قفاه واستوفى القطع وأُنْهِر الدم وقُطع الحلقوم والمرىء والودجان: لم يؤكل عند المالكية وقال الشافعية يُؤكل لأن المقصود قد حصل : انظر المسألة ١٢ جـ ٦ ص ٥٤ من القرطبى ومع أن ذلك تذكية عند الشافعية لكنه خلاف السنة .

٣ — لو رفع يده عن الذبيحة قبل تمام الذبح ، ثم عاد فوراً وفيها حياة وأكمل الذبح ، حلت الذَّبيحة على الأصح[2] .

٤ — إذا توحَّش الحيوان أو تردَّى فى البئر ، فلا يحل إلا بذبحه بين الحَلْق واللَّبة كالمعتاد كما قال مالك وأصحابه والليث ابن سعد وخالفهم فى ذلك بعض فقهاء المدينة وأبو حنيفة

---

(١) انظر القرطبى جـ٦ ص ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ .

(٢) انظر القرطبى جـ٦ المسألة ١٣ ص٥٤ .

والشافعى ، إذ قالوا بحل ذكاته فى أى موضع قدر عليه منه ، قال أبو عُمَر : قول الشافعى أظهر فى أهل العلم ، يؤكل بما يؤكل به الحيوان الوحشى : انتهى كلام أبى عُمَر .

وحجة الشافعى فى أن ذكاته حيث قدر عليه كالوحش ما رواه رافع ابن خديج : وقد جاء فيه ما يأتى : « وأصبنا نَهْبَ إبلٍ وغنمٍ[1] فَنَدَّ منها بعير » فرماه رجل بسهم فحبَسَه — أى قتله — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لهذه الإبل أوابِدَ كأوابد الوحش ، فإذا غلبكم منها شىءٌ فافعلوا فيه هكذا » وفى رواية (وكلوه) وما أخرجه أبو داود والترمذى عن أبى العشراء عن أبيه قال : (قلت يا رسول الله أمَّا تكون الذكاة إلا فى الحلق واللَّبة قال «لو طَعَنْتَ فى فخذها لأجزأتك » قال يزيد بن هرون : وهو حديث صحيح أعجب ابن حنبل ورواه عن أبى داود ، وأشار على من دخل عليه من الحُفَّاظ أن يكتبه قال أبو داود لا يصلح هـذا إلا ، فى المتردّية والمستوحش .

٥ — (ذكاة الجنين ذكاةُ أمّه) كما قال صلى الله عليـه ، أخرجـه الدارقطنى من حديث أبى سعيدوأبى هريرة وعلى وعبدالله عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا ذُبحت الأم حلَّ أكل جنينها إن خرج منها ميتا بعد الذبح وبهذا قال جماعة من الفقهاء ، وخالف فى ذلك أبو حنيفة ، وهو محجوج بهذا الحديث ، وبما يقوله هو من أنه لو أعتقت جارية حامل ، سرى عتقها إلى جنينها ، فإن خرج منها حيًّا وجبت ذكاته بالإجماع ، ولا تكون ذكاة أمه حينئذ ذكاة[2] له . والله أعلم .

مصطفى محمد الحديدى الطير

---

(١) وكان ذلك فى غارة لهم على المشركين .

(٢) راجع القرطبى جـ٦ ص ٥١ المسألة الثامنة (طبع دار الكتب) .

أهمية الصوم
وأثره في مجالات الحياة

دكتور/ رءوف شلبي

• شاء الله أن يخلف الإنسان مواكب الملائكة فى عمارة هذه الأرض . وحسب الخطوط المدونة فى علم الله لحركات الإنسان على هذه البسيطة نشأت الجماعات وكونت المجتمعات والدول ، واحتاج الناس فى اجتماعاتهم التى ينشطون فيها بالحركة وتنشأ فى ظلالها أنماط العلاقات السلوكية . احتاج الناس إلى قانون ينظم لهم هذه العلاقات لتسير عمارة الأرض على أساس العدل والإحسان والرحمة والرفق . . . ومن غير شك ليس فى الحياة أدق حكمة ولا أصوب تقديراً ومعرفة لرغبات الناس إلا الله سبحانه وتعالى ، فأرسل الله الشرائع تترى بها الرسل المصطفون لهداية الناس إلى أقوم الطرق الموصلة إلى إقامة العدل فى الحياة لتكون عمارة الأرض بحركاتهم قائمة على السبيل القويم الذى تهفو له البشرية فى عمق عواطفها .

• وقليل من عباد الله الشكور أخذ بهذه الشرائع .

• وكثير من عباد الله الذين فتح الله لهم أبواب توبته ورحمته واسعة على مصارعها ينادون إلى ساحته بالليل والنهار إن كثيراً من عباد الله المخطئين قد انحرفوا وضلوا — فوضعوا قوانين ظنوا فيها العدل لإقامة مجتمع سليم فعجت الحياة بالمظالم والنكسات والتهافت . .

• والقوانين حسب الظواهر التاريخية لا تنجح إلا إذا اكتمل فيها شروط ثلاثة :

١ — صدورها عن رغبة الجماعة فى

الأمة : والقوانين لن تصدر كذلك إلا إذا أحست الأمة بالمشكلة فتسن لها قانوناً ينظمها .

٢ — معالجتها للمشكلات عن طريق الرحمة والعدل معاً .

٣ — تلقائية القوانين باحترام الشعب لها من عمق ضميره لاخوفا من السجن . ولا رهبة من السجان . . بل حباً فى أن يأخذ الإنسان نفسه بالسلوك على منوالها فتفيض نفسه احتراماً لها .

• وفرق كبير بين القوانين الوضعية وشرائع السماء . . فإنها إن اشتركت على سبيل الفرض والمثال فى الشرطين الأولين . . فإنها لن تشترك فى الشرط الثالث . . ذلك لأن تلقائية القوانين الوضعية مرتبطة بالسلطة التنفيذية التى لا تقبل توبة ولا تحترم اعتذاراً فهى شبه تلقائية سطحية شكلية لا اتصال لها بالقلب والعقل والفكر والإيمان .

• أما الشرائع السماوية فقد قالت :

« إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » .

• بل هى تذهب إلى أبعد من ذلك فى قبول الاعتذار وحب التوبة فتختم الآية السابقة بقوله تعالى : « وكان الله غفوراً رحيماً » ويغذى هذا الاختتام قول الله تعالى هاتفاً بعباده :

« يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم . . لا تقنطوا من رحمة الله . . إن الله يغفر الذنوب جميعاً . . إنه هو الغفور الرحيم » .

• ويكفى المؤمن طمأنينة أن الله يناديه بياء النسب إليه : « يا عبادى » ففيها من الله التهدئة والطمأنينة ما يحقق إيحائياً استقرار النفس وثقة الأمل والجرى السريع نحو الله . . نحو السلام . . والأمن . . والبركة . . والرخاء . .

• هذا من جانب

ومن جانب آخر :

فإن تلقائية القوانين تحتاج إلى تدريب سلوكى يحقق هدف القانون والإسلام وحده هو الذى يمتاز بأنه زواج بين التشريع التقنينى وبين الوسائل التدريبية ليربى الأمة على تنفيذ الشريعة تنفيذاً تلقائياً . . ولذلك فإن الله سبحانه قد سلب من البشرية كلها سلطة المراقبة العليا على الأعمال والطاعات وردها إليه وحده جل جلاله . . فيجيب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على سؤال جبريل ما الإحسان ؟ فيقول :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

• فالإسلام إذن : عالج بحكمة ربانية جميع الميادين التى تنشط البشرية لعمارة هذه الأرض . . معالجة بالتشريع المصاحب (بفتح الحاء) بالتدريب فجعل الله فى العبادة تدريباً للجماعة الإسلامية تنتظم بها ميادين حياتها الذاتية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتاريخية بل والترويحية أيضاً . .

• وكان من تلك العبادة التدريبية التى يحقق بها الإسلام تطبيق القانون السماوى فى جميع الميادين التى تقوم عليها حياة شريفة « الصوم » .

• والحديث عن الصوم كتغذية — لمجالات الحياة يتخذ له الإطار التالى :

١ — الصوم فى المجالات التربوية .

(ا) الصوم فى ميادين التربية أساس متين لخلق الشخصية المستقلة :

فبينما تقوم ضجة فى أندية علماء التربية بأوربا حول تربيـــة المواطن الصالح ويشرعون من المبادئ التى يحفظها المدرسون وتلقن بالتالى إلى التلاميذ وحسب ، بينما نرى الإسلام يجعل من الصوم تدريباً على الشخصية المستقلة التى تقبل أن يتنازل عن إشباع شهواتها الجوفية والوجدانية طوال النهار طال أم قصر . وليس عليها من رقيب إلا ربابيتها لله . ولا عليها من سلطان إلا رضوان الله والإشفاق من وعيده والرجاء فى وعده . ولا يحاسب إلا جبروت الله . . ولذا يقول الله تعالى فى الحديث : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

إن الصوم الإسلامى الذى أضافه الله تعالى إلى جلاله فى الحديث هو الصوم الذى يعلم الفرد المسلم أن يكون ذا شخصية مستقلة فى التفكير صائمة عن الفساد الفكرى والاجتماعى مراقبة لله فى عملها فلا هى دنيئة محتاجة إلى رشوة ولا هى بليدة محتاجة إلى مراقب ولا هى خائنة ولا هى خبيثة محتاجة إلى تشجيع . . بل هى شخصية حبيب إليها أن ترضى الله حبيب إليها أن تعمل فى صوم طاهر لم يدنس عملها الصائم رشوة ولا طمع فى مكافأة ولا رجاء الشكر والثناء . يقول النبى الكريم : « الصيام جنة فإن كان يوم صوم أحدكم : فلا يرفث . . ولا يجهل . . وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم . . إنى صائم . .

والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم اطيب عند الله من ريح المسك ».

(ب) الحساسية الاجتماعية وبطلان نظرية الصراع :

وإذا استمعنا إلى أحاديث علماء أمريكا فى التربية قالوا إن المواطن الصالح هو الذى يتميز بالحساسية الاجتماعية . ويحدد هؤلاء العلماء تلك الحساسية بأضلاع ثلاثة :

١ ـ أن يحس بآلام المواطنين وأن يندفع بعاطفة جياشة نحو حلها .

٢ ـ أن يحاسب نفسه فى سلوكه حتى لا يسلك سلوكاً معادياً يضير الآخرين .

٣ ـ أن يضحى فى سبيل الجماعة التى يعيش معها .

تلك الأضـلاع الثلاثة لمثلث الحساسية الاجتماعية . ولكن أين هو الميدان التدريبى التربوى الذى يصنع المواطن الصالح ليدفعه سلوكياً إلى تحقيق تلك المبادئ حتى تكون الحساسية عنده عاطفة سيكولوجية ـ مكتسبة يستعملها المواطن الصالح فى غرضها النبيل تلقائياً عند اللزوم .

فشلت المنظمات الأوربية فى إيجاد ميدان تدريبى يجعل الحساسية صفة تلقائية فى سلوك المواطن الأوربى . . بينما الإسلام شرع الصوم تدريبا على خلق عاطفة الحساسية الاجتماعية ـ المشتركة بين الفقراء والأغنياء لإيجاد مجتمع تتحقق فيه الكفاية والعدل والحنان . . فالصالح الغنى عندما يكون صائماً لله إيماناً واحتساباً ويتذوق مرارة الصوم ويحس بآلامه وعنده كل ماتشتهيه النفس وتقر به العين ولا يستطيع أن يمد يده إليه طوال فترة الصوم التى حرم الله عليه فيها أن يتلذذ بشىء ما من نعمة الحلال ويقبل أن يتمنع إيماناً واحتساباً هذا المرء تتدمث نفسه الطيبة المسلمة وهى تستشعر من نفسها مواضع الحنان فتتصور بؤس الفقير ورقة حاله . فتنساب نفسه حناناً فياضاً وتمتد يده بخير الله الواسع . . فتملأ بيوت الفقراء بنصيبها من خير الله الذى وكل فيه الأغنياء فيدرب الصوم المسلم الغنى على إعمال الحساسية الاجتماعية تدريباً كله إيمان بالله واحتساب عند الله ويتضح بالصوم ميدان عملى للتشريع الاجتماعى لاغاثة الفقراء والبائسين تفتحاً انسيابياً طبيعياً تلقائياً .

وأيضاً يتذوق الفقير مرارة الصوم ويحتسب صومه عند الله ويصوم إيماناً

واحتساب لله . ثم تسعى إليه خيرات الله على يد الأغنياء الصائمين المسلمين فيستشعر بالصوم فى نفسه الأمانة على أموال الأغنياء ويحمد الله على كل خير جاءه . ويفتتح بالصوم ميدان عمل لحماية المجتمع من السرقة ، والانحرافات حفاظاً على أمن الدولة وسلاما على أموال أصحابها . فتبيت الدورة الاقتصادية فى مأمن من التعطيل والتعويق والتسيب ويحل محل الصراع الطبقى الإخاء الإسلامى والحنان الدينى .

وهكذا . . يؤاخى الإسلام بين الأغنياء والفقراء المسلمين بالصوم فى تربية الحساسية الاجتماعية فيترك فى كل نفس حساسية اجتماعية إيجابية ويتعلم كل من الأغنياء والفقراء عملا إيجابيًّا بالصوم : « إنه البذل والإنفاق عن حب وطاعة لله من جانب الموسر » .

« وإنه الحمد والثناء والرضا وحماية أموال الأغنياء امتثالا لأوامر الله من جانب الفقير » . وتحل بركة القناعة والرضا على كل طوائف المجتمع فينتشر الحب والإخاء بين المسلمين .

فأية أمة استطاعت أن تشرع قانونًا أو تربى مواطناً صالحًا كأمة الإسلام ؟ وذلك لأن دينها دين الطبيعة البشرية الحق . . وما كان كذلك إلا لأنه من عند الله وصدق الله العلى :

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » .

« استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

« ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم »

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

٢ – الصوم فى المجال الاجتماعى :

(ا) السمو الخلقى :

تتسابق الأمم فى تشريعاتها القانونية لخلق مجتمع سام فى خلقه تقوم العلاقات فيه على أساس من الحق والصدق والنبل وتسرى فيه المودة مسرى الدم الصالح فى العضل القوى . وقد تظفر أمة فى تشريعها بالسمو النظرى . . ولكن الإسلام وحده هو الذى يمتاز فى تشريعه للجماعة بأنه دربها على السمو الخلقى بالصيام .

فالصيام جنة ووقاية للفـــرد من الانحراف وحماية للمجتمع من الإسفاف لأن الفرد لبنة فى بناء المجتمع . .

« فمن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

إن الصوم الحقيقى فى الإسلام يعلم الفرد أن يتعامل بالحق مع مساكينه.. وأن يتحرك فى المجتمع على أساس من الفضيلة الواضحة ليست الملتوية أو المنطوية . . فمن لم يستجب بكل جوارحه لغايات الصوم فلا يرفث ولا يجهل حتى ولو اعتدى عليه غيره . . فعليه أن يستحثه بقوله إنى صائم . . إنى صائم . . فيبعث فيه سمو الخلق . ونبل العتاب كما أنه لا يحيد عن الحق بشهادة الزور وأحاديث الإعراض .

من لم يستجب بكل جوارحه لغايات الصوم السامية التى تخلق مجتمعاً فاضلا فى خلقه متحاباً فى أفراده متعاوناً فى معيشته فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه أو شرابه لأن الصوم فى الإسلام ليس ترك الطعام أو الشراب ولكنه شىء أسمى من كل هذا . . إنه إنشاء سمو فى خلق الأفراد وبعث حب فى قلوب الناس وتعويد على الطاعة لولى الأمر المسلم وبذل التعاون فى سبيل الخير والإحسان والمعروف ونشر للفضائل فى حياة المجتمع . . مجتمع المودة ، والبر ، والأخلاق الحميدة .

(ب) الصوم والوحدة :

وليس هذا فحسب . . بل إن الصوم ، فى مظهره إمساك من كل الناس فى وقت معين ثم إذا ما هتف الداعى من فوق المآذن الشامخة عزاً فى ملك الله : (الله أكبر . . حى على الفلاح) حوقل المسلمون فى بقاع الأرض . . . وهللوا وقالوا فى زمن واحد : اللهم لك صمت . . وبك آمنت . . وعلى رزقك أفطرت ، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر والحمد لله »

فأية أمة فى الغابرين والحاضرين لها من تماسك الوحدة التى لا انفصال فيها أبدا . . بمثل ما للأمة الإسلامية التى وحد الله بينها بالصوم ؟ .

فتذوق الغنى الطافح باليسار آلام الفقير فى غياهب الفقر . . وأحس المتعلم الممتلئ بالمعارف حاجة الجاهل الخالى من أى شىء . . أحسوا جميعاً بحالة نفسية واحدة طوال فترة الصوم . ثم اجتمعوا فى لحظة واحدة على حمد الله والإيمان به وسد رمقهم جميعاً لقمة واحدة : أية لقمة . . .

وابتلت العروق بماء أى ماء ... وكل ذلك ايماناً واحتساباً لوجه الله الكريم .

أن أمة فى الحياة لها هذا المظهر الجماعى لتتحدى القوانين والأمم أن يكون لغيرها مثل هذه الوحدة قوة وتماسكاً وتصميماً على القوة والتماسك وصدق الله العلى العظيم :

« لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » .

فهل يترك المسلمون الإحساس بهذه الوحدة التى ضمن الله بقاءها . . وسلامتها إلى أسلوب آخر من ألوان الارتباط السياسى ؟

(ح) الصوم والرعاية الاجتماعية :

ليست الرعاية الاجتماعية هى أن يؤخذ من الأغنياء ليعطى الفقراء . . . فإن مجرد الأخذ والإعطاء ليس رعاية . بل قد يولد علاقات البغض والحقد فى كلا الطرفين . . ولكن الرعاية الاجتماعية هى أن يعيش الفقراء فى ظل حنان الأغنياء عن إيمان مشترك من الطرفين . . إن للفقراء حقاً معلوماً وان الأغنياء أمناء على هذا الحق من قبل الله الكريم .

والصوم فى مجال الميدان الاجتماعى هو دربة عملية على تمرين الأغنياء على الحنان الإنسانى وتعويد للأثرياء على الإنفاق والبذل عن طيب خاطر ورضا نفس . . وهو اعتراف صريح من الأغنياء بأنهم أمناء على حق الفقراء صوم رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر .

فيعلق صوم الصائم بين السموات والأرض حتى يؤدى زكاة الفطر وهكذا يفهم المسلمون من أحاديث رسول الله ويعتقدون فيندفع الأغنياء الذين صاموا لله إيماناً واحتساباً لإخراج حق الفقراء وهـو زكاة الفطر ليفك صومهم من العقال الذى علقه بين السماء والأرض ويتقبل الصائم الغنى فى حلاوة الإيمان هذا العمل الإنسانى النبيل بمنتهى اللذة النفسية والفرح القلبى : كما يشعر الفقير صاحب هذا الحق أن الله رد عليه حاجته التى ائتمن الغنى عليها فتبدو فى المجتمع روابط الرعاية الاجتماعية « البذل عن حب فى جانب الغنى والرضا والقناعة والحمد عن حب فى ذلك من جانب الفقير » .

وينجح الإسلام فى وسائله التدريبية فى إعداد مجتمع تسوده عواطف البر والحنان من غير قهر ولا جبروت . والإسلام بذلك إنما يخاطب عواطف

البر فى طبيعة الإنسان البشرى فهو كمثل طالب اللبن من الضرع إنه يطالب الحنان من مصدره الطبيعى وغير ذلك من القوانين الغربية والشرقية جافة صلبة تطلب الماء من الصخر وهيهات أن يجود الصخر بالماء .

وبذلك يتقرر أن الإسلام قد ضمن تنفيذ قوانين التكافل الاجتماعى تلقائياً فقد أوجد بالصوم التدريبى رابطة البر الاجتماعى بين أفراد البشر فهل بعد تلك الرعاية من سبيل . .

إن الأسلام قد نظم لنا شئون حياتنا بأضعاف ما نظم لنا أخرانا لأن الله صاحب هذا الدين حملنا رسالة الهدى لهذه البشرية :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » .

فعلينا نحن جماعة المسلمين أن نعدل سلوكنا على نمط قواعد الإسلام حتى لا نكون نحن معياراً فاسداً يقيس المبغضون لنا به قواعد ديننا . . وقد بلغت . . والله يشهد .

٣ ــ فى الميدان السياسى :

(١) الحرية والمساواة :

تحتاج كل أمة فى حياتها الإنسانية إلى الشعور بالحرية وإلى الشعور بالمساواة ولكى يستمر وجود الأمة ويستمر فيها شكلها السياسى وأنماطها السياسية لا بد أن يشعر الشعب بالحرية والمساواة وقد علم الإسلام أمته ممارسة الحرية فى كثير من ميادينه التدريبية على نحو ما هو موضح فى دراسات نظام الحكم فى الإسلام . ولكن الصوم له منزلة خاصة يتضح فيها شعور الأمة بالحرية وشعورها بالمساواة فعندما يبيت الكل صائماً وقد كان فى وقت السحر . كل فرد من أبناء الأمة يجهز ما يتناوله استعداداً للصوم أيا كان لون هذا الطعام . وأيا كان هذا الفرد ، فالكل ينوى « نويت صوم غد لله العظيم » عندما يسرح خاطر أى فرد من هذه الأمة يشعر بالحرية الإنسانية ، فا لكل من رئيس دولة إلى أصغر فرد فيها قد نوى الصوم لله العظيم بإذن فالحرية الإدارية مكفولة والكل حر فى ظل احترام قوانين الجماعة ولن يعرقل إلا المارقون على قوانين الجماعة لأن القانون أنظمة أقرتها الجماعة لتنظم بهـا حياتها . فعلى كل فرد أن يحترمها لأن احترام القوانين احترام لرغبة الجماعة . وهنا تبدو جليا وظيفة الشرطة. إنها ليست تلقين المجتمع القانون .

لأن القانون هو رغبة المجتمع . بل عمل الشرطة هو رد المارقين عن القانون أو على « رغبة الجماعة » إلى حوزة الجماعة والاعتراف بحرية رغبتها . ذلك هو فقط اختصاص البوليس « الشرطة » انه خدمة الجماعة وإصلاح الخارجين على رغبتها . . والجماعة هي صاحبة الحق الأساسي في ممارسة الشرطة ذلك الاختصاص . وفي الجو الإسلامي يأتي دور الصوم ليرفع يد السلطة عن إرادة البشر المسلم .

فالصوم الإسلامي تدريب للجماعة والفرد معاً على ممارسة الحرية ممارسة تكفل حرية الفرد والجماعة في تحقيق رغبة الكل في سبيل الصالح العام إذ الصوم درس عملي يجدد معنى الحرية ومعنى المساواة . ومثل هذه الحرية التي يشعر بها المسلمون الصائمون يشعرون كذلك بالمساواة فالكل قد تساوى في امتثال الأمر الإلهي ، لأن الكل صائم لله فهم متساوون أمام– القانون الإلهي– والذين يفطرون أيا كانت رتبهم خارجون على مشاعر الجماعة ويجب معاقبتهم . والتاريخ القديم والحديث لم يعرف أمة تساوت فيها جميع الطبقات مثل الأمة الإسلامية فقد تساوى فيها الرئيس مع أقل أفراد الدولة في الحقوق والقضاء أمام القانون ويؤكد هنا المساواة قول سيدنا عمر بن الخطاب : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ويقول : أخطأ عمر وأصابت امرأة .

وإن الصوم الإسلامي أداة تدريبية لشعور الشعب بالحرية وشعوره بالمساواة وهو بذلك قد ضمن لدولة الإسلام الاستمرار والبقاء في ظل القوانين الإسلامية التي شرعها الله وآمنت بها الجماعة وائتمنت على تبليغها للناس .

(ب) الصوم والاكتفاء الذاتي :

تحتاج الأمم في بعض ظروفها السياسية إلى قطع العلاقات مع دول أخرى ، فيتسبب عن ذلك نقص في بعض الحاجات التي تستوردها الدولة وقد عاش الإسلام في فجر حياته على أرض مقفرة جدبة فكان لابد له أن يعلم أبناءه الاكتفاء الذاتي على المواد المحلية . فدربهم الإسلام بالصوم على الاكتفاء الذاتي لمنتجات الجزيرة في ظروف الحصار الاقتصادي أو الضغط السياسي لا سيما وقد مارس أعداء الدعوة لوناً من المجابهة ، الاقتصادية في شعب بني هاشم .

فبينما تقبل الأمم غير المسلمة مبدأ الاكتفاء الذاتي رغم أنفها لأنها لم .

تدرب طوال حياتها على هذا العمل . نرى المسلمين قد دربهم الصوم طوال ثلاثين يوماً كل عام على مبدأ الاكتفاء الذاتى . وذلك تأكيداً لمعنى الشخصية المستقلة التى تقرر مبدأ سياستها بناء على رأيها وظروفها هى غير متأثرة بضغط ولا بحصار . ولا بإملاء من أجنبى . . وذلك أيضًا من أساليب الحفاظ على حرية المسلمين وبقاء إرادتهم كاملة فى حرية تصريفها على أساس من التشريع الذى ارتضته من الله دينا .

٤ — فى الميدان الاقتصادى:

(ا) الكم يؤثر فى الكيف :

وبعد جهاد وصلت الأبحاث الاقتصادية إلى القانون الاقتصادى« الكم يؤثر فى الكيف» فإذا كثرت المادة فى يد فرد كانت سبيلا إلى تغيير أوضاعه السلوكية ، وكذلك إذا قلت المادة فى يده تغيرت أوضاعه السلوكية كذلك .

ولكن الإسلام من قبل قد أدرك هذه العلاقة بين المادة والسلوك فهتف:

« إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى »

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله»

فالقوى ووسائل الإنتاج هبة الله إلى الناس ، فالإنسان فقير فى حاجته إلى هذه الوسائل فعليه أن يؤدى ضريبتها لتستمر هبة الله له ، ومن هنا يظهر معنى دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم :

« اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

إنه دعاء إلى الله بسلامة أدوات الإنتاج وحتى يشعر الفرد بحاجته إلى تلك الأدوات فى الإنتاج فرض عليه الصوم لتقتل فيه قوته على استمرار الإنتاج فيدرك أن أدوات الإنتاج فيه هبة من الله وأن سلوكه الأنتاجى مرتبط بقوتها وضعفها فيعطى من إنتاجه حقوق الفقراء لتستمر هبة الله له أو تبقى أدوات الإنتاج له سليمة ، فنحن نرى أن الإسلام قد عالج قانون الكم يؤثر فى الكيف من زاوية توجيه الكم إلى الخير واعتقاد صاحب الكم ووسائله من الله هبة ، وأنها هبة نظير ضريبة . والصوم وحده هو الوسيلة التدريبية التى تدفع المسلم الصائم إلى الإيمان بهذا التوجيه وإلى الاعتقاد بهذه الهبة وبضريبتها .

وأن المسلم ليرفع رأسه عاليا بين علماء الإقتصاد لأنهم وضعوا قانونًا

فى أوراق لا تعينة عاطفة ولا تحميه عقيدة ولا توقظه موعظة ، ولكن الإسلام — وضع دينا يوقظ المسلم إلى الكمالات والخير فى جميع الميادين ، ولاريب فإن الإسلام أغلى هدية من الله إلى الناس . . وأكرم به من هدية وأعظم به من دين .

٥ — الصوم فى الميدان التوجيهى :

لم يرد الإسلام أن يقيم احتفالاته القومية على نظام راقص فوضوى ، يسبح فيه الناس أشتاتاً صائحة هائمة ، بل نظم الإسلام مواسم الاحتفالات تنظيماً يبقى للجماعة الإسلامية طهر . ذكرياتها ، ويحفظ عليها كبرياءها ، ويجدد فيها العزم ويشحذ فيها الهمم .

١ — ففى رمضان نزل القرآن الكريم وهو دستور هذه الأمة :

« إنا أنزلناه فى ليلة القدر »

وهى ليلة واحدة فضلها الله فى عبادتها على ألف شهر كانت فى الماضى لأمم قبلنا .

٢ — وفى رمضان كانت غزوة بدر الكبرى وهى أول حرب إسلامية نزل فيها مدد الله إلى جيش الإسلام وسمعت العرب لأول مرة بأن محمداً الذى هاجر إلى مكة فريداً قد صار له جيش هزم قريشا . وفى بدر وضع أول قانون دولى للمقاصة من أموال المعتدين ، فكان الإسلام أسبق من العالم الحديث فى وضع القانون الدولى الذى يحترم سيادة الدولة على أملاكها وحقوقها المشروعة .

٣ — وفى رمضان أتم الله على المسلمين فتح مكة فدخلت العاصمة التى بها كعبة الإسلام فى حوزة الدولة الإسلامية فاكتمل للإسلام مقومات الدولة الرسمية .

تلك مواسم كلها ذكريات تهيج فى قلوب المسلمين فرحة النصر وفرحة الإيمان وفرحة الهبة الكبرى « دين الإسلام » فشرع الله الصوم إحياء لتلك المواسم واحتفالا طاهراً عبقاً ذكياً بتلك الأعياد . ليعلم الإسلام الشعوب نظافة الاحتفالات بالمواسم . وفى ظلال هـذه الابتهالات المربيـة للشخصية والجامعة للوحدة المدربة على السلوك الإجتماعى والسياسى والاقتصادى تبرأ الأسقام وتصح الأبدان والأمة قوية الأبناء أعز سلطاناً من الأمة التى صغر فيها ىـ بكروش

الاستسقاء أو أصابهم شحن التخمة والإعياء .

ويلاحظ المشرعون أن الله أعفى المرضى والمسافرين من الصوم لأن الميدان التدريبي لا تكمل نتيجته إلا حيث تكون أدوات الإدراك كاملة التفرغ وقد شغلها المرض والسفر فبات المريض والمسافر فى حل من حتمية هذا التدريب ، والمشرعون إذ يلاحظون هذا إنما يقفون موقف الإعجاب والإكبار لإنسانية القرآن السامية التى تحترم ظروف البشر ، ويقدرون فى عجز منهم دقة السياسة التشريعية للاسلام وإصابته للهدف عن قرب قريب .

وبهذا العرض الموجز جدا على طوله تتفتح معانى هذه الآيات الكريمة «يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون أياماً معدودات فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خيرلكم إن كنتم تعلمون »

« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسرولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » .

وبذلك تتضح معالم الإسلام الحنيف فى حدث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض لنفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى » .

وأخيراً :

فهذا هو الصوم تهذيب وتربية للفرد فى خلقه وعزيمته وشخصيته وتربية للحساسية الاجتماعية وتمرين على عواطف البر الاجتماعى وتدريب على الاكتفاء الذاتى وتوجيه إلى تأثير الكم فى الكيف إلى نواحى الخير والإحسان واحتفال طاهر بمراسم الخير والدستور والنصر وهو أخيراًعبادة إلى الله يكافئ الصائم إيماناً واحتساباً بفيضه الربانى الواسع .

هذا هو الصوم الذى أراده الله فى شريعته وهو الصوم الذى صامه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم — نبى هذه الأمة . وصامه أصحابه أعلام

الجهاد الصادق ، صوم يخلق مواطناً ويوحد شعوباً ، ويربى قيادة ، وينظم عاطفة ، ويوجه إلى الخير ، ويدعو إلى التعاون ، ويرغب فى البذل والعطاء ، ويحث على الفضيلة والود : إنه العمود الرابع فى بناء هذه الأمة وهـو السياج الحصين لشخصية أبنائها ، وهو الإعلام الطاهر للاحتفال بأعيادها . فصوموا كما أراد الله . . يغفر الله لكم ذنوبكم .

لقد أكمل الله هـذا الدين . . فلن ينقصه أبداً . . وارتضاه للناس دينا فلن يسخطه أبداً . . وأنزل كتابه للبشر دستوراً فسوف يحفظه ابداً .

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

« ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » .

رد الله على المسلمين دينهم وأخذ بنواصيهم إلى رياض شريعته ، وأضاء لهم طريق الحياة فى زحمة الظلمات . ووفق القادة إلى دينه . . ففيه العزة . . وهو الحياة .

وأختم هذا الحديث بقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . . من أن ينزل على غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى . . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

دكتور رءوف شلبى

فى التقوى

كان صلى الله عليه وسلم يقول :

اللهم إنى أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغنى .

من بحوث المؤتمر الثانى لمجمع البحوث الإسلامية

الأقليات وتطبيق الشريعة الإسلامية

الدكتور يوسف القرضاوى

من الشبهات التى يثيرها أعداء الاتجاه الإسلامى كلما نادى مناد بحتمية الحل الإسلامى وبوجوب للعودة إلى نظام الإسلام وأحكام الإسلام : أن فى البلاد الإسلامية أقليات لا تدين بالإسلام ، ففى البلاد العربية - مثلا - توجد أقليات مسيحية أورثوذكسية أو كاثوليكية ، وربما بروتستانتية ، كما يوجد بعض اليهود فى بعض الأقطار .

فكيف يقبل هؤلاء « الحل الإسلامى» وهو مستمد أحكامه من دين لا يؤمنون به ولا يرتضونه حكما فى شئون حياتهم ؟ وكيف يرغم هؤلاء على أمر يخالف دينهم ؟ وهذا ينافى مبدأ « الحرية » الذى قرره إعلان حقوق الإنسان ، كما ينافى مبدأ « عدم الإكراه » الذى قرره الإسلام نفسه منذ أربعة عشر قرناً حين قال : « لا إكراه فى الدين » .

لهذا يكون الأولى أن يحكم ، المواطنون جميعاً حكماً قومياً علمانياً ، يستوى فيه أهل الأديان جميعاً ، ولا مجال فيه لطائفية ولا لعصبية دينية كما هو مفهوم الدولة الحديثة ، فالدين لله والوطن للجميع .

هذه هى شبهة القوم حول - الأقليات غير المسلمة فى المجتمع الإسلامى ، وهى شبهة واهية ، بل باطلة كما سنبين ذلك فيما يلى :

حق الأكثرية فى حكم أنفسهم بما يعتقدون صلاحيته لهم :

(أ) أما دعواهم : أن الاتجاه إلى الحل الإسلامى والشرع الإسلامى ينافى مبدأ الحرية لغير المسلمين وهو مبدأ مقرر دولياً وإسلامياً ، فقد نسوا أو تناسوا أمراً أهم وأخطر ، وهو أن الإعراض عن الشرع الإسلامى

والحل الإسلامى من أجل غير المسلمين وهم أقلية — ينافى مبدأ الحرية — للمسلمين فى العمل بما يوجبه عليهم دينهم وهم أكثرية .

وإذا تعارض حق الأقلية وحق الأكثرية فأيهما نقدم ؟

إن منطق الديمقراطية التى يؤمنون بها ويدعون إليها — أن يقدم حق الأكثرية على حق الأقلية .

هذا هو السائد فى كل أقطار الدنيا فليس هناك نظام يرضى عنه كل الناس فالناس خلقوا متفاوتين مختلفين وإنما بحسب نظام ما (أن ينال قبول الأكثرين ورضاهم بشرط ألا يحيف على الأقلين ويظلمهم ويعتدى على حرماتهم وليس على المسيحيين ولا غيرهم بأس ولا حرج أن يتنازلوا عن حقهم لمواطنيهم المسلمين ليحكموا أنفسهم بدينهم ، وينفذوا شريعة ربهم حتى يرضى الله عنهم ولا يكونوا من الفاسقين أو الظالمين أو الكافرين إذا لم يحكموا بما أنزل الله كما قال تعالى «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . . فأولئك هم الظالمون . . فأولئك هم الفاسقون» .

ولو لم تفعل الأقلية الدينية ذلك ، وتمسكت بآية تنبذ ما تعتقده الأكثرية دينا يعاقب الله على تركه بالنار لكان معنى هذا أن تفرض الأقلية دكتاتورية على الأكثرية وأن يتحكم مثلا ٣ ملايين أو أقل فى ٧ ملايين أو أكثر .

الحكم الإسلامى خير للمسيحى من الحكم العلمانى :

(ب) وهذا على تسليمنا بأن هناك تعارضًا بين حق الأكثرية المسلمة ، وحق الأقلية غير المسلمة .

والواقع أنه لا تعارض بينهما .

فالمسيحى الذى يقبل أن يحكم حكماً علمانياً لادينياً ، لا يضيره أن يحكم حكماً إسلامياً .

بل المسيحى الذى يفهم دينه ويحرص عليه حقيقة ، يرحب بحكم الإسلام لأنه حكم يقوم على الإيمان بالله ورسالات السماء ، والجزاء فى الآخرة ، كما يقوم على تثبيت القيم الإيمانية ، والمثل الأخلاقية ، التى دعا إليها الأنبياء جميعاً ، ثم هو يحترم المسيح وأمه والإنجيل ، وينظر إلى أهل الكتاب نظرة خاصة ، فكيف يكون هذا الحكم — بطابعه الربانى الأخلاقى الإنسانى — مصدر خوف أو إزعاج لصاحب دين يؤمن

بالله ورسله واليوم الآخر ؟ على حين لا يزعجه حكم لا دينى — علمانى — يحتقر الأديان جميعًا ، ولا يسمح بوجودها — إن سمح — إلا فى ركن ضيق من أركان الحياة .

من الخير للمسيحى المخلص أن يقبل حكم الإسلام ونظامه للحياة ، فيأخذه على أنه نظام قانون ككل القوانين والأنظمة ، ويأخذه المسلم على أن دين يرضى به ربه، ويتقرب به اليه .

ومن الخير للمسيحيين — كما قال الأستاذ حسن الهضيبى رحمه الله أن يأخذه المسلمون على أنه دين ، لأن هذه الفكرة تعصمهم من الزلل فى تنفيذه ، وعين الله الساهرة ترقبهم لارهبة الحاكم التى يمكن التخلص منها فى كثير من الأحيان[١] .

ومن هنا رحب العقلاء الواسعو الأفق من المسيحيين بالنظام الإسلامى بوصفه السد المنيع فى وجه الملحدة التى تهدد الديانات كلها ، على يد الشيوعية العالمية كما سنذكر شيئًا من ذلك من كلام العلامة فارس الخورى .

(ج) الحكم الإسلامى لايرغم المسيحيين على أمر يخالف دينهم :

والادعاء بأن سيادة النظام الإسلامى فيه إرغام لغير المسلمين على ما يخالف دينهم ، ادعاء غير صحيح .

فالإسلام ذو شعب أربع : عقيدة وعبادة ، وأخلاق ، وشريعة فأما العقيدة والعبادة فلا يفرضها الإسلام على أحد « لا إكراه فى الدين » .

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[٢] .

وقد نزلت الآية الأولى فى شأن رجال من الأنصار كان لهم أبناء على الديانة اليهودية أو النصرانية ، فأرادوا أن يجبروهم على تغيير دينهم إلى الإسلام فنزلت الآية قاطعة مانعة لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى[٣] .

وجاء عن الصحابة فى أهل الذمة : اتركوهم وما يدينون .

ومنذ عهد الخلفاء الراشدين واليهود والنصارى يؤدون عباداتهم ويقيمون شعائرهم ، فى حرية وأمان ، كما هو منصوص عليه فى العهود التى كتبت

---

(١) من رسالة دستورنا للأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين .

(٢) يونس / ٩٩ .

(٣) البقرة / ٢٥٦ .

فى عهد أبى بكر وعمر ، مثل عهد الصلح بين الفاروق وأهل إيلياء «القدس»

ومن شدة حساسية الإسلام أنه لم يفرض الزكاة ولا الجهاد على غير المسلمين ، لما لهما من صبغة دينية، باعتبارهما من عبادات الإسلام ، الكبرى — مع أن الزكاة ضريبة مالية والجهاد خدمة عسكرية — وكلفهم مقابل ذلك ضريبة أخرى على الرءوس، أعفى منها النساء والأطفال والفقراء والعاجزين وهى ما سمى « الجزية » .

ولئن كان بعض الناس يأنف من إطلاق هذا الاسم، فليسموه ما يشاءون فإن نصارى بنى تغلب من العرب طلبوا من عمر أن يدفعوا مثل المسلمين صدقة مضاعفة ولا يدفعوا هذه الجزية وقبل منهم عمر ، وعقد معهم صلحاً على ذلك ، وقال فى ذلك : هؤلاء القوم حمقى ، رضوا بالمعنى ، وأبوا الاسم[1] .

أما الأخلاق فهى — فى أصولها — لا تختلف بين الأديان السماوية بعضها وبعض ، فجميعها تدعو إلى العدل والرحمة والإحسان والمحبة والعفاف ، والشجاعة والسخاء ، والتعاون على الخير « إلا ما وضعه اليهود فى شريعة « التلمود » الخارجة على الأديان والأخلاق جميعاً) .

فالزنا — مثلا — محرم فى هذه الديانات كلها .

والمسيح يقول : « من نظر بعينه فقد زنا » والرسول يقول : « العينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش . . إلخ .

والميسر ، وأكل مال اليتيم ، والقسوة على الضعفاء ، وغير ذلك من الرذائل تحرمها كل الأديان .

بقيت الشريعة التى تنظم علائق الناس بعضهم ببغض ، علاقة الفرد بأمته وعلاقته بالمجتمع ، وعلاقته بالدولة ، وعلاقة الدولة بالرعية وبالدول الأخرى .

فأما العلاقات الأسرية فيما يتعلق بالزواج والطلاق ونحو ذلك ، فهم مخيرون بين الاحتكام إلى دينهم والاحتكام إلى شرعنا ولا يجبرون على شرع الإسلام باعتبار هذه « الأحوال الشخصية» كما تسمى مما له علاقة مباشرة بالدين ومساس به ، وقد أمرنا بتركهم وما يدينون « لا إكراه فى الدين » فمن اختار منهم نظام الإسلام فى المواريث

---

(١) انظر المغنى لابن قدامه جـ٩ ص ٣٣٥، ٣٣٦ ط مطبعة العاصمة شارع الفلكى بالقاهرة .

مثلا – كما فى بعض البلاد العربية فله ذلك ، ومن لم يرد فهو وما يختار .

وأما ما عدا ذلك من التشريعات المدنية والتجارية والإدارية ونحوها فشأنهم فى ذلك كشأنهم فى أية تشريعات أخرى تقتبس من الغرب أو الشرق ، وترتضيها الأغلبية .

وفى العقوبات قرر الفقهاء : أن الحدود لا تقام عليهم إلا فيما يعتقدون تحريمه كالسرقة والزنا[1] ، لا فيما يعتقدون حله كشرب الخمر .

ومن هنا كان لأهل الذمة محاكمهم الخاصة يحتكمون إليها إن شاءوا وإلا لجأوا إلى القضاء الإسلامى .

يقول المؤرخ الغربى (آدم متز) فى كتابه عن « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » .

« لما كان الشرع الإسلامى خاصًا بالمسلمين فقد خلّت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى وبين محاكمهم الخاصة بهم . والذى نعلمه من أمر هذه المحاكم أنها كانت محاكم كنسية وكان رؤساء المحاكم الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة أيضًا ، وقد كتبوا كثيراً من كتب القانون ، ولم تقتصر أحكامهم على مسائل الزواج بل كانت تشمل – إلى جانب ذلك – مسائل الميراث وأكثر المنازعات التى تخص المسيحيين وحدهم مما لا شأن للدولة به .

« على أنه كان يجوز للذمى أن يلجأ إلى المحاكم الإسلامية ، ولم تكن الكنائس بطبيعة الحال تنظر إلى ذلك بعين الرضا . ولذلك ألف الجاثليق تيموتيوس – حوالى عام ٢٠٠ ﻫ – ٨٠٠م – كتاباً فى الأحكام القضائية المسيحية (لكى يقطع كل عذر يتعلل به النصارى الذين يلجأون إلى المحاكم غير النصرانية بدعوى نقصان القوانين المسيحية) إلى أن يقول :

« وفى عام ١٢٠ﻫ – ٧٣٨م ولى قضاء مصر خير بن نعيم ، فكان يقضى فى المسجد بين المسلمين ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج فيقضى بين النصارى . . ثم خصص القضاة للنصارى يومًا يحضرون فيه إلى منازل القضاة ليحكموا بينهم ، حتى جاء القاضى محمد بن مسروق الذى ولى قضاء مصر عام ١٧٧ﻫ فكان أول من أدخل النصارى فى المسجد ليحكم بينهم .

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ترجمة الدكتور أبى ريده ﺟ ١ ص ٨٥ – ٨٧ .

ثم قال متز : أما فى الأندلس فعندنا أكثر من مصدر جدير بالثقة أن النصارى كانوا يفصلون فى خصوماتهم بأنفسهم ، وأنهم لم يكونوا يلجأون للقاضى إلا فى مسائل القتل[1] .

وبهذا نرى أن الإسلام لم يجبرهم على ترك أمر يرونه فى دينهم واجباً ولا على فعل أمر يرونه عندهم حراماً ، ولا على اعتناق أمر دينى لا يرون اعتقاده بمحض اختيارهم .

كل ما فى الأمر أن هناك أشياء يحرمها الإسلام مثل الخمر والخنزير وهم يرونها حلالا والأمر الحلال للإنسان سعة فى تركه ، فللمسيحى أن يدع شرب الخمر ولا حرج عليه فى دينه، بل لا أظن دينا يشجع شرب الخمور ، ويبارك حياة السكر والعربدة وكل ما فى الإنجيل : أن قليلا من الخمر يصلح المعدة ولهذا اختلف المسيحيون أنفسهم فى موقفهم من الخمر والسكر .

وكذلك بوسع المسيحى أن يعيش عمره كله ولا يأكل لحم الخنزير ، فأكله ليس شعيرة فى الدين ، ولا سنة من سنن النبيين ، بل هو محرم فى اليهودية قبل الإسلام ومع هذا نرى جمهرة من فقهاء الإسلام أباحوا لأهل الذمة من النصارى أن يأكلوا الخنزير ، ويشربوا الخمر ويتاجروا فيهما فيما بينهم وفى القرى التى تخصهم ، على ألا يظهروا ذلك فى البيئات الإسلامية ولا يتحدوا مشاعر المسلمين .

وهذه قمة فى التسامح لا مثيل لها : ألا يضيق عليهم حتى فى شىء أحل لهم وحرمه الإسلام تحريماً قطعياً ، مع أن المباحات لاحرج فى تركها دينا ولا خلقاً بل يحبذ تركها فإذا كان فيه إيذاء للآخرين فكيف إذا كان هذا المباح عندهم مثل الخمر التى أجمع على إضرارها أهل الدين والدنيا جميعاً ، وقامت جمعيات لمنع المسكرات ومقاومة الكحوليات فى العالم كله .

الحكم القوى العلمانى لا يرضى كل المواطنين :

أما القول بتفضيل الاتجاه القوى

---

(١) ويرى أبو حنيفة أن عقوبة الذمى والذمية فى الزنى هى الجلد أبدا لا الرجم لأنه يشترط الإسلام فى توفر الإحصان الموجب للتغليظ فى العقوبة على أن فى إقامة الحدود عامة على أهل الذمة كلاما وخلافاً بين الفقهاء انظر المحلى لابن حزم جـ ١١ المسألة ٢١٨٣ .

العلمانى على الاتجاه الإسلامى لأنه يجمع المواطنين جميعاً دون تفرقة ولا طائفية ولا عصبية دينية ، فهذا القول مردود .

فالاتجاه القومى دائماً تعارضه — من الناحية القومية البحتة — أقليات ترى أن لنفسها قومية غير قومية الأغلبية .

فإذا نادينا فى بلادنا العربية بالقومية العربية طابعاً للسياسة والحكم ، قام فى العراق قوم يقولون : نحن أكراد أو تركمان ، وقام فى لبنان من يقول : نحن فينقيون سوريون ، وقام فى الجزائر أو المغرب من يقول : نحن بربر لا عرب ... إلخ وبذلك لم تحل عقدة الأقليات التى هربنا منها .

فإذا نظرنا إلى القومية العلمانية من الوجهة الفكرية «الأيديولوجية» وجدنا جماهير الأمة تعارضها بحكم التزامها بالإسلام الذى لا يقبل من المسلم أن يحتكم إلى شريعة غير شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ولا من الحاكم أن يحكم بغير هذه الشريعة الخاتمة، وإلا دمغه القرآن بالكفر والظلم والفسوق «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما» .

فإذا كان المسيحى يقبل الحكم العلمانى لأنه غير ملزم بشريعة ، فالمسلم ما دام مسلما لا يقبله ، لأنه مقيد بشريعة مفصلة تحدد له منهج ـ'ته من أدب المائدة، إلى بناء الدولة وشئون الخلافة أو الإمامة العظمى .

فالحكم العلمانى بطبيعته ضد رغبات المسلمين لأنه ضد التزامهم بعقيدتهم وشريعة ربهم ، فكيف يقال إنه يجمع المواطنين جميعاً، وهو يعارض دين الأغلبية واتجاهها ؟

عقوبة المرتد :

بقيت قضية لا أحب أن أهرب من مواجهتها بصراحة وهى قضية إعدام المرتد عن الإسلام التى أثارت مواطنينا الأقباط فى مصر حتى دعوا إلى الصيام احتجاجاً على الاتجاه إلى هــذا الحكم خاصة وإلى تطبيق الشريعة بصورة عامة .

وأود أن أبين هنا أن المرتد عن الإسلام نوعان :

أما مسلم جديد ، دخل الإسلام حديثا ، ثم أراد أن يعود مرة أخرى إلى دينه القديم .

وإما مسلم قديم الإسلام، أصيل فيه :

برقت له بارقة ما ، فأراد أن يخرج منه ليدخل في دين آخر ، أو ليبقى زنديقا بغير دين .

فأى حزب النوعين هو الذى يخاف الأقباط عليه ، ويريدون أن يحموه من عقوبة المرتد وأن يبقى حبله على غاربه ، يؤمن متى شاء ، ويكفر متى شاء .

فأما الأول ولا شك فى أن الجميع يعلمون أن الإسلام لا يكره أحداً على الدخول فيه بأى حال من الأحوال ، وهو فى هذا واضح كل الوضوح ، حاسم كل الحسم والقرآن الكريم مكيه ومدنيه ينكر هذا ويمنعه . فنى المكى يقول تعالى لرسوله « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وفى المدنى يقول « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » كما جاءت آيات شتى تلغى اعتبار أى إيمان لا يصدر عن إرادة حرة واختيار كامل .

ولكن الإسلام لا يرضى من الناس أن يجعلوا الدين « ملعبة » يدخل أحدهم فيه اليوم ليخرج منه غداً على طريقة اليهود الذين قالوا فى عهد النبوة (آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) .

ولطالما شكا المسيحيون فى مصر أولئك المتلاعبين بالدين من النصارى حتى إن أحدهم ليترك دينه رغبة فى التخلص من زوجته المسيحية وآخر يدخل الإسلام ليتزوج من حبيبته المسلمة ولا مانع لدى هذا أو ذاك أن يرجع لدينه القديم متى حن إلى زوجته ، أو يفر من حبيبته والإسلام غنى عن هذا الصنف الذى لا يعتنقه إلا لغاية دنيوية زائلة ، والمسلمون لا يعتزون بهؤلاء ، ولا يرحبون بهم .

والعلاج الناجع لهؤلاء وأمثالهم أن يعلموا أن الإسلام لا يقبل الهزل والتلاعب والتنقل بين الأديان كتنقل المتفرج بين المسارح والملاهى ، وأن من دخل فى الإسلام يجب أن يدخله بعد اقتناع كامل بصحته ، ويقين تام بأحقيته وأن من دخله بإرادته الحرة لم يجز له الخروج منه ، فمن أراد الإسلام فليؤمن به على هذا الشرط . فإذا آمن بهذا الوصف أصبح واحداً من جماعة المسلمين ومن حق الجماعة أن تعاقب من يخونها ويتمرد عليها من أبنائها بعد أن التزم مختاراً بشريعتها . فهذا ما يتعلق بمن دخل جديداً فى الإسلام ثم أراد الخروج منه .

وأمـــا المسلمون القدماء فلاوجه للاعتراض على عقوبة المرتد منهم ولم تحدث فى تاريخ مصر ردة تكون إشكالا فإن ارتداد المسلم إلى النصرانية أمر فى غاية الندرة بل الشذوذ والمجتمع الإسلامى فى بلـــد كمصر لا يقبله ولا يسكت عليه لو حدث وإن لم يكن هناك تشريع بعقوبة المرتد .

وقد حدث منذ سنوات أن حاولت الكنيسة تنصير طالبين فى الإسكندرية فقامت الدنيا وقعدت وهاج الرأى العام فى مصر من أقصاها إلى أقصاها وكادت تحدث فتنة طائفية لا يعلم عواقبها إلا الله فالأولى منع هذا بالتشريع المحكم بدل أن يترك لعواطف العامة ومشاعر الجماهير التى لا أساس لها ولا قيود تضبطها ـ على أن هذه الحالات الشاذة ليست هى المقصودة بالتشريع المذكور لعقوبة المرتد أولا وبالذات إنما المقصود الأول هو من يرتد عن الإسلام إلى غير دين بل يعتنق مذاهب مادية لا تؤمن بالله ولا برسالاته ، لا بمحمد ولا بالمسيح وتريد هدم الأديان كلها كالشيوعية التى تزعم أن الدين أفيون الشعوب ، وتعمل على اقتلاع المجتمعات فيه قاطبة لحساب الإلحاد العالمى الأحمر ولا أحسب الأقباط فى مصر يشجعون هذا اللون من الردة لأنه خطر علينا وعليهم جميعاً ولهذا يتنادى المؤمنون بالدين فى العالم كله بالتعاطف والتكاتف لصده ـ والوقوف فى وجهه .

إذن لا داعى لهذه الضجة ولا مبرر لها ولا ثمرة لمثل هذا الموقف إلا الاستفزاز وإثارة الحزازات .

الحكم العلمانى والعصبية الدينية :

(هـ) وأما القول بأن الحكم العلمانى لا مجال فيه لطائفية ولا عصبية دينية مما يفهم أن الحكم الإسلامى يثير التفرقة الطائفية والتعصب الدينى ، فكلا الأمرين غير صحيح فقد يوجد الحكم العلمانى وتوجد معه التفرقة الطائفية والعصبية الدينية وهذا لبنان بلد علمانى الحكم ، ولا تزال الطائفية فيه على أشدها ، ولا يزال المسلمون يشكون من سوء نصيبهم فى مناصب الدولة ومغانم الحكم ، حتى انتهى الوضع إلى الحرب الأهلية الأخيرة .

وفى بريطانيا مظاهرات الكاثوليك واحتجاجاتهم المتكررة فى أيرلندا وقد تحولت فى السنوات الأخيرة إلى ثورة دامية .

وفى الهند تقوم المذابح الرهيبة بين

حين وآخر ، يذهب ضحيتها عشرات الألوف من المسلمين ، الذين يكونون أقلية ضخمة تزيد على ثمانين مليونا مع أن الحزب الذى يحكمها كان هو حزب المؤتمر المعروف بعلمانيته . وفى الفترة الأخيرة نال الأغلبية حزب له سمة دينية ، ومع هذا أصبح أكثر تسامحاً وتعاوناً مع المسلمين وتقديراً لعددهم ووضعهم .

وفى البـــلاد الشيوعية التى يقوم حكمها على الإلحاد وعدم الاعتراف بأى دين يعامل المسلمـــون خاصة معاملة شاذه مصدرها بقايا الحقد القديم من أيام بطرس دولة الخلافة العثمانية ، ويجمع المراقبون عـــلى أن المسلمين فى الاتحاد السوفييتى يتناقصون ولا يزيدون ، كما هو شأن المسلمين فى كل أنحاء العالم حيث تضاعفت أعدادهم فى ثلث قرن ، بل تدل الوقائع والأخبار أن هناك إبادة منظمة للسكان المسلمـــين يمارسها ضدهم الشيوعيون الملحدون[1] .

وبهذا ـــ وأمثاله كثير ـــ تسقط الدعوى القائلة بأن الحكم العلمانى لا يدع مجالا للتفرقة الطائفية ولا للعصبية الدينية.

الحكم الإسلامى والتعصب الدينى :

وبقى ما يلمح به فريق ، ويصرح به آخرون، من اتهام الحكم الإسلامى بالتعصب الدينى . والحيف عـــلى الفئات الأخرى، التى تعيش فى ظل دولته وفى كنف سلطانه .

وهو اتهام ظالم ، ليس له أساس من شريعة الإسلام ولا من تاريخه. وفى المقال التالى بيان وتفصيل لهذه الحقيقة .

---

(١) انظر فصل « أحوال المسلمين فى الاتحاد السوفييتى » من كتاب : الإسلام فى وجه الزحف الأحمر للغزالى .

فى التوكل على الله

قال صلى الله عليه وسلم :

لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا ، وتروح بطانا[2] .

---

(٢) أى ضامرة البطون من الجوع ، بطانا : أى ممتلئة البطون .

من مُثل التضحية والجهاد

مصعب الخـــير

الدكتور / عبد الجليل شلبى

مصعب الخير هو مصعب بن عمير من بنى عبد الدار ومن السابقين إلى الإسلام وممن تحملوا المشاق الشديدة ثم الاستشهاد فى سبيل الله .

تاقت نفسى أن أكتب كلمة عن هذا الصحابى الجليل للتعريف به ولأنى أستريح إلى ذكراه وآنس إليه، ويملكنى الإعجاب والإكبار لما ضحى به فى سبيل عقيدته ، فقد ضحى بالمال والوطن ثم بالنفس . وقد كتبت من قبل كلمة عن عاصم بن ثابت ، وهو شريك مصعب فى بعض مواقف البطولة الاسلامية ، وكلا الرجلين جدير بأن يعرف وأن يتخذ منه الشباب قدوة وإماماً ، وهو من الذين شملتهم الآية الكريمة : « مِنَ المؤمنين رجالٌ صدَقوا ما عاهدوا الله عليهِ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » . — فهو قد قضى نحبه ولما يجن المؤمنون ثمار جهادهم ، لكنه جنى عند الله ثماراً أطيب وأكثر .

ولكى نقدر إيمان هذا الرجل وتضحياته تذكر أن قبيلته — بنى عبد الدار — كان لهم فى الجاهليه اللواء وسدانة الكعبة والحجابة ، ويقال ان الندوة أيضاً كانت فيهم ، وبرز منهم فى الجاهلية رجال كانت لهم مكانتهم وتأثيرهم على العرب منهم الحرث بن علقمه بن كلدة ، كان زوج خالة رسول الله وكان ذا جود وبأس وهو غير الحرث بن كلدة طبيب العرب المعروف — فهذا ثقفى — أما صاحبنا فقرشى ، وهو أبو النضر بن الحرث الذى كان يشغل الناس عن الاستماع إلى رسول الله وأعد لذلك قينتين مغنيتين ، ونزل فيه قول الله تعالى : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً . »

وهو الذى يتبع رسول الله حين يعرض نفسه على القبائل ، ويحدث الناس بتواريخ الفرس وغيرهم أو يقول إن محمداً يحدثكم عن عاد وثمود وأنا أحدثكم عن رستم واسفنديار .

وقد قتل صبراً[١] عقب موقعة بدر عند الأثيل، لم تمنع قرابته إلى رسول الله (ص) من أن يأمر بقتله ، فقتله على بن أبى طالب .

وكان سبب الخصومة بين بنى عبد الدار وبنى هشام هو التنافس بين القبيلتين ، وهو السبب الذى من أجله عادتهم بطون قريش الأخرى ، وبلغ من هذا التنافس إلى جانب ما رأينامن عمل النصر أن كان بنو عبد الدار يحورون الشعر الذى يقال فى بنى هاشم بن عبد مناف فيجعلونه لهم . مر رسول الله (ص) مع أبى بكر فسمع منشداً ينشد:

يأيها الرجـــل المحـــول رحله
هلا نزلت بآل عبد الـــدار

فنظر رسول الله (ص) إلى أبى بكر وقال : أهكذا قال ؟ .

قال أبو بكر لا ولكنه قال :

يأيها الرجـــل المحـــول رحله
هلا نزلت بآل عبـــد مناف

الخالطـــون فقيرهم بغنيهم
حتى يكون فقيرهم كالكافى

فى هذه العشيرة ومن أبوين من أكرم أبنائها جاء مصعب بن عمير ، وكان فى شبابه ذا رواء وجمال ، وكاد يمتاز بشعر ذى سبائب يرجله فيبدو رائعاً فاتناً . وكانت أمه على حظ من الثراء وكانت تسخو عليه من مالها وتعجب بمنظره ، فكانت تكسوه أجمل وأثمن وأرق ما يكون من الثياب ، وكان يختار العطور الجيدة ويلبس النعال الحضرمية الرقيقة ، فكان من أجمل شباب مكة وآنق أهل مكة وأعطر أهل مكة[٢] . كل ذلك بفضل ما لأمه من ثراء ، والحق أنه كاد أثيراً لدى أبويه جميعاً ، وكلاهما شديد الحب له والإعجاب به وكاد رسول الله (ص) يقول فيه : ما رأيت بمكة أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير .

هذا الذى نشأ فى هذه النعمة وهذا الرخاء، وبين قوم يعادون الإسلام وبنى الإسلام والذى لم يكن يتوقع منه أن يسرع إلى الدخول فيه ما كاد يتفهمه حتى ضحى فى سبيله بكل هذا النعيم .

سمع مصعب بدعوة الإسلام حين

(١) القتيل صبرا هو الذى يقتل فى غير معركة .

(٢) أكثر تعطراً ، وأزكاهم رائحة .

كان النبي فى دار الأرقم بن أبى الأرقم فذهب إليه معلناً قبوله الإسلام وتصديقه برسالة النبي محمد (ص) ، ولكنه خوفاً من أبيه وأمه كتم إسلامه ، وكان يختلف إلى رسول الله (ص) ، بين حين وآخر سراً حتى أبصر به عثمان بن طلحة من أبناء عمومته — يصلى سراً ، فوشى به إلى أبويه وكانت هذه فاتحة صفحة جديدة فى حياته ، صفحة تختلف كل الاختلاف عن حياته الأولى. تبدلت رفاهيته خشونة ونعيمه شقاء وثراؤه فقرا ، ولكن كل ذلك هان عليه واحتمله فى سبيل الاسلام .

كبر على والديه وعلى ذويه ما فعل من اتباع بنى من بنى هاشم ، فحبسوه وحالوا بينه وبين الاتصال بالمسلمين خوفاً أن يفتنوه ، وظل كذلك حتى هاجر المسلمون إلى الحبشة هجرتهم الأولى .

كانت أمه — وهى التى حبته بعطفها ومالها لا تكف عن لومه وتعنيفه.

وكان يجادلها كثيراً و يعيبها حجة ولكنها كانت تخشى أن يتهمها الناس فى عقلها و ولائها لقبيلتها إذا هى أسلمت ، فلما هاجر إلى الحبشة اتقد شوقها إليه ، وتطلعت نفسها لرؤيته ، فلما عاد مع العائدين راعها أن اختلفت حاله ، رثت ملابسه وتغير منظره وذهب جماله ، فكفت عن لومه وعذله ولكن لم يعد له شيء من النعيم الذى كان له من قبل .

والحق أن هذه الهجرة كانت بداية متاعبه أو على الأصح بداية جهاده وتضحياته فى سبيل الإسلام ، وأول ما عانى هو فقدان ما كاد فيه من رفاهية ونعمة ، واستبداله بهما فاقة وخشونة وإقلالا .

قدم مرة على رسول الله (ص) وهو جالس مع أصحابه ، وكان عليه نمرة قد وصلها بقطعة أو قطع من الجلد ، فنكس الصحابة رءوسهم رثـاء له وأسفا لما صار إليه ، وقال رسول الله : الحمد لله مقلب الدنيا بأهلها لقد رأيت هذا وما بمكة فتى من قريش أنعم عند أبويه نعيما منه ، ثم أخرجه من ذلك الرغبة فى الخير فى حب الله ورسوله .

وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية أيضاً ولم ير المهاجرون أحسن منه خلقاً ولا أقل خلافاً .

وعاد من الحبشة مرة ثانية مع العائدين إلى مكة ولكن الفجوة زادت اتساعاً بينه وبين والديه — كما اشتدت الصلة بينه وبين رسول الله (ص).

بعد بيعة العقبة الأولى عاد النقباء الاثنى عشر إلى يثرب يحـدثون

بالدين الجديد ، وبدأت الدعوة تفشو ولكن القوم قليلو العلم بالدين شديدو الحاجة إلى تعلم القرآن لذا رأوا أن يبعثوا إلى رسول الله أن يمدهم بمن يسد هذا الفراغ فى حياتهم ، فاختار لهم مصعباً وابن أم مكتوم فكان هذان أول من هاجر إلى المدينة .

نزل مصعب على سعد بن معاذ ثم على سعد بن زرارة ، فأقرأ الناس القرآن وعلمهم مبادىء الإسلام ، ولم يكتف مصعب بمجىء المسلمين إليه يسألونه ويقرأون عليه ، بل كان يأتى الأنصار فى ديارهم ويغشاهم فى مجتمعاتهم فيدعوهم للإسلام ويقرأ عليهم القرآن على نحو ما كان رسول الله (ص) يفعل مع القبائل الوافدة فى موسم الحج ، فكان يسلم معه الرجل والرجلان حتى ظهر الإسلام وانتشرت دعوة الله .

وكان مصعب أول من أقام صلاة الجمعة بالمدينة . فقد كتب لرسول الله (ص) يستأذنه فى هذا فأذن له فجمع الناس فى بيت سعد بن خيثمة ، فكانوا اثنى عشر رجلا صلى بهم الجمعة وخطبهم ، فهو أول من جمع فى الاسلام جمعة .

ولما استدار العام ووافى موسم الحج ، خرج السبعون أنصاريًا من الأوس والخزرج ليبايعوا رسول الله وليدعوه إلى الهجرة إلى مدينتهم فخرج معهم مصعب كما يفعل السفراء مع كبار الرجال الذين يزورون بلادهم وعندما وصلوا مكة اتجه مصعب إلى بيت رسول الله ولم يذهب إلى أبيه وأمه ، وأبلغ رسول الله بحال الأنصار وسرعة استجابتهم للدعوة على غير ما يفعل مشركو مكة ، وتطلق وجه رسول الله (ص) وسر بما سمع .

وبقى مصعب بمكة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر — ثم ذهب إلى المدينة مستهل ربيع ليستقبل رسول الله فى الثانى عشر منه .

علمت أم مصعب بمقدمه مكة وعدم قدومه عليها فأرسلت إليه تقول : ياعاق أتقدم بلداً أنا فيه ولا تبدأ بى !

فلما فرغ من حديث رسول الله (ص) رجع إليها فقالت إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد ! ماشكرت مارثيتك مرة بأرض الحبشة وأخرى بيثرب ، تعنى أنه لم يقدر عاطفتها نحوه وتشوقها إليه ، وأنه كان ينبغى أن يظل بجانبها . فقال أفر بدينى أو تفتنونى فى . وبدلا من أن يحبها دعاها هو

إلى الإسلام ورغبها فيه ضناً بها أن تعذب ويلقى بها فى النار .

وأرادت حبسه من جديد كيلا يفر ولكنه هدد بأنه سيقتل من يتعرض له كائناً من كان .

لا ريب أن التضحية واحتمال العذاب فى سبيل العقيدة مما يقوى الإيمان ويثبت المرء عليه ، أنه عرف ما لديهم واطمأنت نفسه إلى ما عند الله ، وليت الذين ظنوا أنهم يردون الناس عن عقائدهم بالعذاب فطنوا إلى هذه الحقيقة ، وقد فطنت لها أم مصعب فوافقت أن يقيم معهم ولا يعزلونه .

وفى دار الهجرة آخى رسول الله بين مصعب وسعد بن أبى وقاص من المهاجرين ، وبينه وبين أبى أيوب الأنصارى من الأنصار .

ويوم بدر كان يحمل لواء المهاجرين . وهو اللواء الأعظم إذ ذاك بين يدى رسول الله .

ويوم أحد حمل لواء المسلمين أيضاً .

كان لواء المشركين مع طلحة بن أبى طلحة من سادة بنى عبد الدار ، وأراد أبو سفيان أن يحمسهم فصاح : بنى عبد الدار ... إنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، فإما أن تكفونا اللواء وإما أن تخلوا بيننا وبينه ! فهموا به وتوعدوه ، وقالوا أنحن نسلم لواءنا إليك ؟

وكاد ذلك ما يريده من إثارة حميتهم .

ولما التقى الجمعان خرج طلحة يطلب البراز مبدياً إعجابه بقوته فتهيبه المسلمون ولم يخرج لمبارزته أحد ، وصاح ثانياً : تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة ، فهل أحد يعجلنى بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفى إلى الجنة . . كذبتم واللات والعزى . .

وما كاد يتم تهديده حتى برز إليه على بن أبى طالب فاختلفا ضربتين ثم قتله على وتوالى آل طلحة من بنى عبد الدار يحملون اللواء ويقتلون حتى كمل عددهم إثنى عشر رجلا ، وظل مصعب يحمل اللواء .

ولما انفرط عقد المسلمين ورمى بن قمئة رسول الله بحجر فى ثنيتيه وصاح : قد قتلت محمداً ، قال مصعب وهو يهيب بالمسلمين أن يثبتوا : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم .

ولم تكن الآية قد نزلت بعد ولكن جاء بها القرآن بعد ذلك .

واعتمده ابن قمئة وهو فارس فضرب

يده اليمنى فقطعها وهو يقول : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . . وأمسك اللواء بيسراه .

ثم ضرب يده اليسرى فقطعها ، فضم مصعب إليه اللواء وأمسكه بعضديه يضمه إلى صدره وهو يكرر الآية أو ما صار آية بعد ، وما محمد إلا رسول . .

ثم حمل ابن قمئة عليه بالرمح فاندق فيه وسقط مصعب وناشته سيوف بنى أبيه من عبد الدار .

التمسه المسلمون آخر المعركة فوجدوه على هذه الحال ، ولم يجدوا ما يكفنونه به إلا نمرة كانت عليه لا تكفى لستر جسده كانوا إذا غطوا بها رأسه برزت رجلاه وإذا غطوا بها رجليه انكشف رأسه ، فأمر رسول الله (ص) أن يجعلوها مما يلى رأسه وأن يغطوا رجليه بشىء من الاذخر . . . ثم دفنوه .

ووقف رسول الله (ص) على قبره فقال : لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمة منك ، ثم أنت شعث الرأس فى بردة ، ثم قرأ الآية الكريمة : من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .

انه مثل من أمثلة المجاهدين الذين وقع أجرهم على الله .

رضى الله عنه وأرضاه .

من أقوال التلمود

١ — ترجمة النص الطليانى :

(كنائس المسيحيين كبيوت الكفار فيجب على اليهود تدميرها) .

٢ — ترجمة النص الفرنسى :

يجب على اليهود المبادرة بهدم كنائس المسيحيين فانها بيوت الكفار) .

(التلمود ، الجزء الثانى ، الفصل التاسع ، المادة الخامسة)

في مواجهة الإلحاد المعاصر

الضرورة العملية هي السبيل للخروج من الشك

دكتور / يحيى هاشم

تحدثنا فى المقالات السابقة عن استحالة استقلال العلم والعقل عن أساس إيمانى سابق يقوم عليه وبينا أن هذا الأساس يمكن التماسه فى أمرين : « إيمان الفطرة » وقد بيناه فى المقالة السابقة ، ثم فى أمر آخر هو ما نسميه « الضرورة العملية » .

والضرورة العملية هذه هى التى اعترف بها الشاكون أنفسهم من أعتى الفلاسفة الملحدين ، إذ وضعوها فى أساس إنقاذهم لهيكل المعرفة الإنسانية.

واعترف بها العلم التجريبى ووضعها أساساً لاجراءاته جميعاً ، وأخذ بها فى نتائجه المحسوسة ومسلماته على السواء .

يقول ديكارت عن هذه الضرورة العملية :

(إنا متأكدون عملياً من صدق بعض القضايا وإن كنا غير متأكدين نظرياً . .)

ويقول :

(إن الفيلسوف يسلم بالأشياء الواقعية خارج الذهن . . . استجابة لمطالب الحياة العملية لا إقتناعاً بأسلوب وحجج فلسفية) .

ويقول الفيلسوف الإنجليزى هيوم وهو على قمة اللا أدرية :

(إن الطبيعة — عن ضرورة عملية لا تقاوم هيأتنا لأن نحكم كما هيأتنا لنتنفس ونحس) .

ويقول الفيلسوف الفرنسى بسكال . .

(لا يستطيع الإنسان الاستسلام للشك لأن عليه أن يتصرف بحزم فى المسائل العملية) .

وليست دلائل الوحى هى الدلائل الوحيدة على العقائد الدينية الفائقة للطبيعة فحسب بل أن بسكال مد هذا القول إلى الحقائق العقلية الطبيعية ، وأراد أن — يكون التدليل فى العلم الطبيعى وفى مصير

الإنسان على السواء بالتجربة الظاهرة والباطنة لا بالاستدلال العقلى .

فشق بذلك طريقًا ولجه كثيرون من بعده :

أشهرهم كنط الذى يقدم العقل العملى على العقل النظرى وأصحاب البراجماتزم على إختلافهم الذين يمتحنون القضايا الميتافيزيقية بفائدتها العملية .

والسبب واحد عندهم جميعًا :

هو : الشك فى العقل ، وإرادة تجاوز الحس مع ذلك[١] .

ويقول الأستاذ اسماعيل مظهر فيما يلخصه عن الأستاذ كروزبار :

(من الظاهر الجلى أننا إذا أردنا أن نرد على العالم نظامه وعلى العقل ألفته فإن من الواجب أن لا ننظر فيما يمكن أن يثبت أو ينفى نظريًا :

بل ننظر فيما يمكن الاعتقاد به عمليًا . .

إنى مضطر مثلا لأن أعتقد فى وجود عالم خارج عن حيزى لأتخذ اعتقادى هذا دعامة حقة ، وأساسًا ركيزًا فى سبيل بحثى عن الحقيقة . .

ذلك على الرغم من أن الفلاسفة قد

(١) انظر الفلسفة الحديثة ليوسف كرم ص ٩٤ .

ينكرون أن للعالم الخارجى وجوداً حقيقيًا فى ذاته . . كذلك أعتقد أن هناك فرقًا قائمًا بين الفضيلة والرذيلة وبين سمو المدارك الروحية ، والشهوات وبين الأنانية والتضحية ، وبين الذاتية والغيرية[٢] .

ومن جهة أخرى :

فإن الضرورة العملية هى التى تجعل الإنسان يتخطى شكوك العقل فى طريق وصوله إلى معرفة الله ، دون غيرها من الضرورات .

ولنأخذ الدليل على ذلك أولا ، من فلاسفة الشك قديماً ، وحديثاً ، وثانياً من مفكرى الإسلام ، وثالثاً من منهج الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) أما عن فلاسفة الشك فيقول أحد مؤرخى الفلسفة عن مذهب الشك عند سكتوس أميريقوس آخر الشكاك اليونانيين (واقع أن موقفه لا ينفى الدين ولا ينفى الألوهية ولكنه ضرب من اللاأدرية النظرية وفى مجال العمل نراه على استعداد للتسليم بأن الشاك يستطيع إن يؤمن بوجود الله وأن يشارك فى العبادة الدينية ، دون أن ينطوى موقفه على أى تناقض . .) .

ويرى باركلى أن العلماء التجريبيين

(٢) ملتقى السبيل ص ٨٢ .

يقبلون المبادىء النظرية التى تقوم عليها علومهم وهى (الزمان – المكان – العلة – إلخ) دون أن تكون معقولة ، وذلك لضرورة التسليم بها من الناحية العملية ، ومن هنا كان عليهم أن يقبلوا العقائد الدينية . لنفس الغرض . .

ويرى هيوم أن عواطفنا ودوافعنا العملية ترغمنا على التصديق بوجود الله ، وذلك بالرغم من إنكاره ليقينية الأدلة على وجود الله . .

ويقول شلر فى رده على أعداء الدين (إن فروض الدين كفروض العلم . العالم يسلك كما لو كان فرضه صحيحاً انتظاراً لتحقيقه ، والمؤمن لم يفعل أكثر من ذلك إذ يسلم بفروضه وينتظر نتائجها العملية ، وكل الخلاف بين العالم والمؤمن هو أن تحقيق الفرض العلمى يتم فى وقت أقصر من تحقيق الفرض الدينى . .)

والضرورة العملية عند وليم جيمس تؤدى به إلى النظر فى النتائج ، حيث يرى أن الخلاف بين المادية والروحية يحسم بالنظر – لا إلى الماضى – ولكن إلى المستقبل ، حيث يصبح الأمر مهماً وخطيراً ، إذ المادية هنا لا تضمن مصالحنا العليا على حين أن الإيمان بالله يحقق أفضلية عملية كبرى ، إذ أن معناه أن العالم قد يهلك ، ولكن صلتنا بالله هى التى تنجينا . .

ويقول بسكال :

(إن خلود النفس من الأهمية بحيث لا يظل عديم المبالاة بالنسبة له إلا من فقد كل شعوره . .) .

ويقول (فلنذكر الملحد بالموت وبالأبدية : ماذا لديه من القول عنهما ؟ هل يقول : إنه لا يبالى ؟ أليس منتهى الحماقه ونحن نعنى أكبر العناية بصغائر الأمور ألا نثير المسألة الكبرى التى يتوقف عليها النعيم الأبدى أو الشقاء الأبدى ؟ لنفرض أن الغموض متساو من ناحية إثبات الدين ومن ناحية نفيه يبقى ان الاختيار بينهما واجب – أى ضرورى عملياً – ولنلاحظ أن عدم الاختيار هو فى الحقيقة اختيار للنفى من حيث أننا نحيا كما لو لم يكن الله موجوداً ، ولم تكن النفس خالدة ، وهو اختيار الجهة الأشد خطراً من حيث أنه استهداف للعذاب الأبدى) .

ويذهب بسكال إلى أن الرهان على وجود مصدر لا متناه لسعادتنا هو الرهان الرابح وذلك لأن العقل لا يستطيع أن يحكم فى هذه القضية ، وهو يدعو

الناس إلى التزام عدم التناقض فى كل ما يتعلق بحياتهم العملية وبالتالى أن يتركوا نظرية الرهان تقرر سبيلهم بالنسبة إلى الله وكذلك فى سائر الحالات الأخرى التى يكتنفها شيء من الشك والرهان على وجود الله يكون فيه الربح لا متناهيًا من السعادة ، وتكون الخسارة غير متمخضة عن فوات أى شيء على مستوى السعادة الأبدية .

أما الرهان على عدم وجود الله فإن الربح فيه لا يحصل فيه شيء من تلك السعادة الأبدية وتكون الخسارة خسارة حقيقية للسعادة الأبدية ، وحسب قواعد الرهان لابد من اختيار الرهان الأول[1] .

(٢) أما عن مفكرى الإسلام . .

فنرى الإمام الغزالى فى كتابه ميزان العمل يستند إلى الضرورة العملية حيث يقرر أن الإنسان أمام اعتقاد أن الموت عدم محض ، وأن الطاعة والمعصية لا عاقبة لهما لا يخلو أن يكون واحداً من أربعة :

إما إن يكون قاطعًا ببطلانه . .

أو ظاناً لبطلانه

أو ظاناً لصحته ظناً غالباً

أو قاطعًا بصحته

وفى جميع هذه الأحوال يرى الإمام الغزالى ان عليه أن يعتقد بصحة الآخرة وأن يعمل لها .

أما فى الحالة الأولى والثانية فالأمر بيّن .

وأما فى الحالة الثالثة حيث يغلب على ظنه أن الموت عدم محض ، ويبقى لديه احتمال بتجويز صدق الأنبياء ولو على بعد ، فعقله يلزمه سلوك طريق التصديق بالآخرة ففيه الأمن ، واجتناب التكذيب بها ، ففيه الخطر الشديد . ويضرب المثال على ذلك فيقول (إنك لو كنت فى جوار ملك وأمكنك أن تتعاطى فى واحد من محارمه عملا تظن — ظناً غالباً — أنه يقع منه موقع الرضا فيعطيك ديناراً . . ويحتمل احتمالا — على خلاف الظن الغالب — أنه يقع منه موقع السخط فينكل بك ويفضحك ، ويديم عقوبتك طول عمرك أشار عليك عقلك بأن الصواب ألا تقتحم هذا الخطر فإنك إن فعلت وأصبت فمزيته دينار لا يطول بقاؤه معك وإن أخطأت فنكاله عظيم يبقى معك طول عمرك فليس تفى ثمرة صوابه بغائلة خطره . .

ثم يتحدث عمن هو فى الحالة الرابعة التى يدعى فيها أنه على يقين من أن الآخرة لا وجود لها . . وبعد أن يلفت نظره

---

(١) انظر الله فى الفلسفة الحديثة لكولينز ٤٧٠.

إلى أنه لا برهان لديه على ما قطع بصحته يبدأ معه المناقشة من مبدأ إيمانه بالسعادة الدنيوية ، ويبين له أن الإيمان بالآخرة والعمل من أجلها يحقق هذه السعادة فى الدنيا . .

ثم يستخلص الامام الغزالى القاعدة العملية التى يحتكم إليها فى الإيمان بالآخرة . فيقول (ان العظيم الهائل إن لم يكن معلوماً — أى متيقناً — فبالاحتمال يتقدم على اليقين المستحقر) وهذا هو منطق الضرورة العملية .

ولم يكن ذلك هو موقف الإمام الغزالى فحسب ، بل نراه عند بعض المتكلمين ونراه عند القاضى عبد الجبار من المعتزلة إذ يقول (وقد تقرر فى العقول وجوب دفع الضرر عن النفس معلوماً كان أو مظنوناً متى كان المتحرز منه أعظم من المتحرز به . .) .

ويقول العلامة ابن المرتضى المعروف بابن الوزير (إن السلامة متحققة فى الإيمان والخطر مأمون فيه ، والمهالك مخوفة فى مخالفته) . .

وهذا هو معنى قول أبى العلاء المعرى :

قال المنجم والطبيب كلاهما
لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر
أو صح قولى فالخسار عليكما

وهذا هو ما قاله الإمام على رضى الله عنه لمن كان يجادله فى أمر الآخرة .

(إن كان الأمر على ما زعمت تخلصنا جميعاً .

وان كان الأمر كما قلتُ فقد هلكتَ ونجوتُ) . . .

وهذا هو ما تشير إليه الآية الكريمة :

(قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ؟ من أضل ممن هو فى شقاق بعيد) ؟

ويقول (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم) .

هذه هى المشكلة العملية ، وهذا هو التصرف العملى الذى يناسبها بحكم ما نسميه الضرورة العملية .

٣ — ولقد وضع الرسول صلى الله عليه وسلم هذه المشكلة أمام الإنسانية كلها على هذا النحو .

لقد كان أول ما بدأ به فى دعوته العامة قوله فيما رواه الشيخان بسندهما :

(مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال : يا قوم انى رأيت الجيش بعينى فأنا النذير العريان فالنجاء النجاء .

فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم

فنجوا وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم) .

وهنا تبرز مهمة الإنذار بعذاب الآخرة الذى يوجهه الرسول لكافة البشر فهذا الإنذار هو الذى يدعو إلى التعرض لتصديق الرسول فى ما يأتى به من قضايا فى العقيدة أو فى الشريعة ، لأن تكذيبه يعرض لأعظم الأخطار ، انه يعرض لخطر الخلود فى النار . وهذا أمر لا يمكن إغفاله .

وهنا يمكننا أن نقرر أن منهج الرسول عليه الصلاة والسلام — هو منهج الضرورة العملية المتمثلة فى ضرورة تحديد موقف الإنسان بالنسبة لما بعد الموت .

فقد كان أول ما نزل من القرآن الكريم فى بداية الدعوة العامة قوله تعالى . .(يا أيها المدثر قم فأنذر) . .

فالإنذار هو نقطة البداية فى الدعوة العامة إلى الإسلام . .

ولقد جاء إسناد مادة « أنذر » إلى الرسول فى القرآن الكريم — كتحديد لمهمته فى الدعوة — بصيغ مختلفة بلغت جملتها أكثر من مائة وعشرين مرة كلها تدور حول قيام الرسول بمهمة الإنذار ولا شك أن لهذا دلالته فى إيضاح جوهرية الإنذار فى الدعوة إلى الإسلام .

وهذا الإنذار بعد أن يشد بمنطقة القائم على الضرورة العملية سمع الإنسان وفؤاده يجعله يتجه إلى التعرف على شخصية الرسول لمعرفة صدقه ليواجه من غير إبطاء الموقف الخطير الذى وضعه فيه ذلك الإنذار ، ومن هنا يأتى الاحتكام إلى صدق الرسول بوسائله العديدة . . وهو ما تضمنه قوله صلى الله عليه وسلم لقومه وهو يلقى عليهم إنذاره الرهيب . . (أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد ان تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟

قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أغنى عنكم من الله شيئاً . .)

وإذا كان من الصحيح أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بشيراً أيضاً فإنه من المؤكـــد أن التركيز كان على « الإنذار » باعتباره الضرورة العملية التى ترغم على تجاوز الشك ، والتعرض للإيمان ، دون غيرها .

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر :

(الحب والعطف أقل فى الواقع من الخوف فى النفس أثراً) . .

لذلك نرى أن أقل خروج فى الطبيعة

على أوجه تجانسها الظاهر مدعاة إلى إحداث انفعالات نفسية فى الإنسان أمعن فى النيل من شعوره ، من أبعث مظاهر الطبيعة على الروعة الهادئة والإعجاب الساذج . .)[1] .

يقول الأستاذ فريد وجدى :

(ان الإنسان مرغم على ألا يعتمد إلا على الأسلوب العملى ، حتى فى الحين الذى يدعى ويحلف أنه على غير تلك الصفة . .)[2] .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نقرر أمرين (ا) أولهما أن التسليم المطلق للنص كما جاء به هذا المنهج يقوم على الضرورة العملية بما لها من منطق خاص فينأى به من الوقوع فى تهمة الدور الباطل ويجعله صالحاً لمواجهة الفكر الإنسانى بصفة عامة ولا يقتصر فى جدواه على المؤمنين بصفة خاصة .

(ب) أن تلك هى بداية الطريق فحسب . .

وهى كافية لإخراج الإنسان من حالة الضياع العقلى .

ولكنها بعد ذلك فى حاجة إلى مكملات : منها ما يرجع إلى العقل .

ومنها ما يرجع إلى الضمير أو الوجدان ومنها ما يرجع إلى الإرادة . .

وباختصار مكملات ترجع إلى طبيعة الإنسان ككل متناسق ، ولا تتعارض مع هذه الطبيعة .

فالرجوع إلى هذه القوى الثلاث لا يقوم على كونها حاكمة يحتكم إليها فى معرفة الحقيقة وإنما على كونها هى المداخل التى ينفذ منها إلى الإنسان ، ويستولى عليه من خلالها .

إن هذا المنهج يتجه بعد الإنذار لقوى الإنسان الأساسية : العقلية والوجدانية والإرادية ؛ ليتوافق معها جميعاً ، دون أن يغفل واحدة منها ، أو يتناقض معها ودون أن يفرق بين الناس تفريقاً طبقياً فى مسافة للعقيدة ، ما بين عقليين ووجدانيين أو خاصة وعامة ، أو علماء وجمهور ، فكل هذه المستويات سواء فى حاجتها إلى تلقى هذا المنهج .

ومن هنا يصبح التسليم الذى يعنيه الإسلام ليس هو التسليم لطبقة عقلية من الناس ولا لقوة عقلية فى النفس ، وإنما هو أن تسلم قوى النفس الثلاث الإراده والعقل والوجدان — للقوة الأعلى أو للمرجع الأعلى ، وهذا هو معنى قوله تعالى :

---

(١) ملتى السبيل ص ٣٨ .

(٢) الإسلام فى عصر العلم ص ١٩٩ .

(قل أى شىء أكبر شهادة . . ؟)

لم يقل شهادة أفلاطون ، وأرسطو ، ولا شهادة القلب ، أو العقل ، وإنما (قل الله شهيد بينى وبينكم) . وهذه الآية تتحدث عن الله لا باعتباره خالقاً وأصلا للوجود فحسب ، ولكنها تتحدث عنه كأصل للمعرفة الإنسانية .

فلتسلم القوى النفسية جميعاً لخالقها ولتسلم الطبقات الفكرية جميعاً لله . .

وليس أدل على ذلك من أن الإسفاف أو الانحراف جاء من العقل كما جاء من القلب وجاء من الفلاسفة كما جاء من العامة . .

ان التجسيم والتشبيه كان له مدارسه ومذاهبه واعلامه الذين يرتفعون — من حيث البحث والاستناد إلى المناهج العقلية — إلى أعلى المستويات الفلسفية .

كما أنه من ناحية التنزيه لم نجد فى الفلسفة عقلا أعلى من عقل أرسطو ولا تنزيهاً أشد تطرفاً من تنزيهه وقد كان الإله عنده لا يساوى إلا أنه (موجود يعلم نفسه) ، وكل من عداه من الموجودات فله من العلم والعمل ما ليس له .

ومن هنا يسقط المبرر الذى يجعل الفلاسفة يفرقون بين العامة والخاصة ، أو بين الجمهور والعلماء .

ويصبح المنهج الإسلامى القائم على الضرورة العملية ، هو أسلم المناهج وأبقاها وهو منهج اللطيف الخبير : الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويخاطب الإنسانية فى جميع العصور وعلى جميع المستويات .

ويحمل عنها إصر المناهج البشرية وأوزارها الثقال . . .

ومن هنا جاء خطاب القرآن الكريم للإنسان :

(ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك ، فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسراً فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب . .) (وللحديث بقية)

قراءة فى كتاب

الثقافة العربية
أسبق من ثقافة اليونان والعبريين
تأليف : عباس محمود العقاد

السيد حسن قرون

من المعروف لدينا وللعالم المتحضر أن علماء العالم الإسلامى فى العصور الوسطى نقلوا تراث الإنسانية من الدول التى فتحها العرب ومن غيرهما ولاسيما اليونان والفرس ثم درسوه وتعمقوا فيه وأخرجوه جديداً مبتكراً كان المشعل الذى أضاء سبل المعرفة والحياة لنهضة أوربة الحديثة.

ولكن عباس العقاد فى كتابه « الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين » نقلنا إلى العصور القديمة وأتانا بمفاجأة لم تكن فى الحسبان ، فقد أثبت بالحجة والبرهان سبق الأمة العربية غيرها فى مجال الثقافة والدين على خلاف ما تعود الناس أن يقولوه ويكرروه وهو سبق اليونان فى العلم والفلسفة وسبق العبريين فى الثقافة الدينية .

يقول فى المقدمة : « حقيقة مفاجئة أقدم الثقافات الثلاث » وهذه الثقافات الثلاث هى : العربية واليونانية والعبرانية ، أقدمها فى التاريخ هى الثقافة العربية قبل أن تعرف أمة من هذه الأمم باسمها المشهور فى العصور الحديثة . . . إلا أن الإشاعة الموهومة كثيراً ما تطغى على الحقيقية ولا سيما الإشاعة التى تحتمى بالصولة الحاضرة وتملأ الآفاق بالشهرة المترددة ؛ وقد أشاع الأوربيون فى عصر ثقافتهم وصولتهم أن أسلافهم اليونان سبقوا الأمم إلى العلم والحكمة ، واختلط عليهم وعلى غيرهم قدم التوراة بالنسبة إلى الإنجيل والقرآن وقدم الإسرائيليين بالنسبة إلى المسيحيين والمسلمين فتوهموا أن العبرانيين سبقوا العرب إلى الدين والثقافة

الدينية وقد حمدت للعقاد موقفه فى علاج هذه الحقيقة ، فقد أوردها بروح العالم الذى يبحث عن كشف وجه الحق دون تمكن العاطفة القومية أو الوطنية منه ، أو التعصب لرأى دون الأخذ بالأدلة ووسائل المنطق ، فهو يعتمد على المراجع الأوربية قديمة وحديثة أكثر من اعتماده على المراجع العربية ، وهو يعتمد على التوراة وواقع الطبيعة أكثر من اعتماده على ما يدور فى كتبنا التى تبحث عن العبرية والناطقين بها .

ولست بمستطيع أن أقدم الكتاب كله فى ذلك المقال ولكنى أقدم لك قراءة ميسرة عنه ، وإن كان الكتاب نفسه صغير الحجم قليل الصفحات ؛ إذ تبلغ صفحاته ١٣٩ صفحة ، ولكنه على صغره يعطيك مادة علمية تنير لك طريقك إلى معرفة شيء لا غنى عنه ، وتدعوك إلى البحث فى هذا الشأن ، وهو أمر مرغوب فيه لكثرة الدعاوى التى تجعل منا أمة متخلفة قديماً وحديثاً وأن عقلنا لا يصل إلى عقول الآريين من جهة ولا يصل إلى ما تركه العبريون من ثقافة دينية من جهة أخرى ، ومن ثم عنى العقاد بإماطة اللثام عن وجود أصحاب هذه الثقافات الثلاث وكان لزاماً عليه أن يتحدث عن العرب وعن أصلهم ومواطنهم فمن العرب ؟ ولم سموا بهذا الاسم ؟

حين كتب العقاد : من هم العرب ؟ جال فى ذهنى أن السؤال سهل والجواب أسهل منه ، فقد عرفنا فى دراستنا العرب البائدة والعرب العاربة والعرب المستعربة ، وأن هذا المنحى لم يغب عن كتب السيرة والتـاريخ والطبقات ، ولكن العقاد يهجم بك على ما يريد هكذا : وجد العرب فى ديارهم قبل أن يعرفوا باسم العرب بين جيرانهم ، وكانت لهم لغة عربية يتكلمونها ، وتمضى على سنة التطور عصراً بعد عصر إلى أن تبلغ الطور الذى عرفناه منذ الدعوة الإسلامية ، وهذه هى القاعدة العامة فى تسمية الأمم وفى تطور اللغات ، فليس العرب بدعاً فيها بين أمم المشرق والمغرب ويؤكد كلامه بضرب الأمثلة . فالهند مثلا كانت عامرة بسكانها قبل أن يسمى نهرها بنهر « الهندوس » وقبل أن يطلق اسم هذا النهر على شبه الجزيرة كلها . الحبشة كانت عامرة بقبائلها المتعددة قبل أن يسميها العرب بهذا الاسم ويقصدون بـلاد الأحباش أى السكان المختلطين ، قبل أن يسميها اليونان باسم (أثيوبية) أى بلاد الوجوه المحترقة ، قبل أن يسميها العبرانيون باسم

بلاد (الكوشيين) لأنهم ينسبون أهلها إلى (كوش بن حام بن نوح) .

ويمضى فى التمثيل والتنظير ذاكرا (السكنداف) و (الإنجليز) إلى أن يتساءل عن اسم العرب بعد أن مضى عليهم أكثر من ألفى سنة وهم معروفون بهذا الاسم إلى اليوم .

هل أطلق عليهم اسم العرب لأنهم كانوا يسكنون موقع الغرب من أمة أخرى يحل فيها حرف العين محل حرف الغين كما يحدث فى بعض اللهجات ؟ هل أطلق عليهم هذا الاسم من العرابة بمعنى الجفاف أو الصحراء فى لغة بعض الساميين بشمال الجزيرة ؟ هل أطلق عليهم نسبة إلى يعرب بن قحطان أو نسبة إلى (عربة) كما يقول (ياقوت) ؟ إن مؤرخى العرب يختلفون فى ذلك كما يختلف غيرهم يقول ياقوت : إن كل من سكن جزيرة العرب ونطق بلسان أهلها فهم العرب ، سموا عرباً باسم بلدهم (العربات) .

وما رأى الأوربيين ؟ عند قوم من أوربة أنهم سموا شرقيين ، وأن الاسم فى أصله كان يطلق على قبيلة عربية تسكن إلى الشرق من جبل (السراة) ولعلهم سموهم (سراتيين) نسبة إلى الجبل نفسه ، وتحرف الاسم بلغة الأوربيين إلى (سراسين) وانتقل من تساؤله عن الاسم إلى تساؤل عن السكان من أين جاءوا ؟ نفى أن يكونوا قد جاءوا من الحبشة أو من بلاد النهرين أو الشمال ؟ « فمن المألوف أن يحدث الجفاف والجدب فى البلاد الصحراوية ، فيرحل عنها أهلها ، ومن التاريخ الواقع أن هذا قد حدث فعلا غير مرة فى هجرة القبائل من جنوب الجزيرة وأواسطها إلى بلاد الأنهار أو بلاد الخصب الدائم ، ولكنه لم يؤلف ولم يحدث قط أن ينعكس الأمر فترحل القبائل أفواجاً أفواجاً من من أرض الماء والرعى إلى أرض تتخللها الصحراء الواسعة . . . »

وبعد أن حدثنا عن السكان واسمهم أوصلنا إلى لسانهم ، وقد كان أشهر اللغات السامية وأشيعها فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ثلاثاً بين جنوب الجزيرة العربية وشرقها وغربها إلى الشمال وهى : اليمنية ، والآرامية ، والكنعانية ، وكلها نبتت فى الجنوب ، ثم سرت شرقاً وشمالا وغـربـاً إلى فلسطين . ثم شاعت الآرامية وغلبت على سائر اللهجات ، وتفرعت منها النبطيـة التى اتفقت الروايات على

أنها أم لهجات الحجاز ، وصارت لغة عامة للكنعانيين والحمريين ولو كتبوا بالحروف النبطية أو حرف المسند ، فكان الراحلون والمقيمون يتخاطبون بها كما يتخاطب أبناء الأقاليم من القطر الواحد مع اختلاف اللهجات والألفاظ فى بعض المفردات . وقد عرف الآراميون تاريخياً بقيام دولتهم التى حكمت (بابل) ومنهم (حمورابى) صاحب التشريع المشهور (سنة ٤٦٠ ق م) حيث سادت الآرامية وادى النهرين وبادية الشام وأرض كنْعان وبلاد الأنباط ، تنسبهم التوراة إلى (آرام بن سام) وتارة إلى (ناحور) أخى (إبراهيم) وتشير إليهم رسائل (تل العمارنة) فى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد باسم (أخلام) أى أخلاف آرام المذكورين فى وثائق القرن الثانى عشر قبل الميلاد — كما يقول صاحب كتاب الأبجدية .

ويرى العقاد أن مؤرخى العرب كانوا ينسبون شعوب العرب البائدة جميعاً إلى (إرَم) ويسمونهم (الأرمان) كما جاء فى تاريخ سنى الملوك (لحمزة الأصفهانى) ويجوز أن يكون هؤلاء الأرمان هاجروا إلى وادى النهرين فى تاريخ مجهول قبل قيام دولتهم فى بابل . والمهم أن اللغة الآرامية غلبت جميع اللغات فى أزمان متطاولة حتّى بعد سقوط دولتهم وغلبت على ألسنة العبريين ، واستدل بنماذج من التوراة . وجملة القول أن الثقافة الآرامية عربية فى لغتها ونسبتها إلى عنصرها ولا يمكن أن تنسب إلى أمة غير الأمة العربية فى عهودها الأولى ، فكل ما استفاده العالم من جانبها فهو فضل هذه الأمة على الثقافة العالمية .

ويهتم العقاد بالأمم التى عاصرت العرب قبل ألفى سنة فينقل عن اليونان الأسماء التى ذكروها فى ذلك الحين مثل اسم سورية والسريان وفينيقية ، وقد أطلق اسم (فينيقية) على شاطىء فلسطين إلى الشمال والجنوب من مدينة (صور) التى اشتهر أبناؤها الملاحون عندهم باسم الفينيقيين ولكن فينيقية كما يدل عليها اسمها كانت لبلاد النخيل فى الإقليم كله من كلمة (فينقس) عندهم بمعنى النخلة . . . ويعطيك العقاد معرفة بأصل (الفينيقيين) فلبنان يرى بعضهم أنهم ليسوا عرباً فيقول : « ولا يخفى أن أرجح الأقوال عن أصل الفينيقيين الأقدمين أنهم نشئوا عند

الخليج العربى فى بلاد النخيل وتحولوا إلى فلسطين يوم كانت وطناً مشهوراً بكثرة ما فيها من النخيل ، واسم مدينتهم (قرطاجة) التى بنوها بعد ارتحالهم من فلسطين إلى شاطىء البحر الأبيض قريب جداً فى أصله — من الكلمة الآرامية (قارة حداثة) أى القرية الحديثة ، وتحريفها إلى قرتاشة أو قرطاجة على ألسنة الرومان قريب جداً بعد إسقاط الحاء التى لا ينطق بها الغربيون ».

وإثبات هذا النسب مهم جداً فيما يهدف إليه من نقل الثقافة من العرب إلى اليونان .

الكتابة :

عنى العقاد بالتأريخ للكتابة تمهيداً لأخذ اليونان عن العرب (الأبجدية) فيذكر أن الآثار المحفوظة أثبتت أن المصريين الأقدمين تطوروا بالكتابة من رسم الصور إلى رسم المقاطع إلى رسم الحروف التى تسمى اليوم بالحروف الأبجدية ، وتسمى عند الأوربيين بحروف « الألف باء تاء » وقد تبينت رسوم بعض الحروف المصرية القديمة من ألواح سيناء ، وهى حلقة الاتصال بين الحروف الأولى وبين الحروف على أشكالها المتقاربة التى تطورت بعد ذلك فى مختلف اللغات . إلا أن الكتابة اتخذت مجالا واسعاً حين انتقلت من الكتابة الدينية إلى المعاملات التجارية التى كانت تمتد من الهند إلى حدود مصر ، ولم يكن من المصادفة المجهولة أن تظهر فى لغة العرب خطوط الحرف المسمارى وخطوط الحرف المسند وخطوط الحرف النبطى بين شمال الحجاز وجنوب فلسطين فإن التجارة التى تحتاج إلى المعاملة الكتابية تجرى على خط المواصلات من خليج العرب إلى عدن إلى العقبة إلى ما جاورها من بلاد الأنباط والكنعانيين ، وهى على التوالى مواطن الخط المسمارى والخط المسند والخط النبطى وما تفرع عليه . وتجرى المواصلات على غير هذا الخط من طريق البادية بين وادى النهرين وشواطىء البحر المتوسط ، وقد استخدم العرب الجمل سفينة الصحراء كما استخدموا البحر ، ويؤيد العقاد كلامه بالنقل عن التوراة والمسعودى ، ومن الواضح أن صناعة السفن لم تكن عامة فى بلاد العرب وما جاورها عموم الملاحة على شواطئها فى البحرين المتوسط والأحمر . . . فكانت شواطىء فلسطين ولبنان أعمر الشواطىء الشرقية بأسباب الملاحة والملاحين ومراكز التجارة التى تصدر من البلاد أو ترد إليها من

خارجها ، وكانت هذه الشواطىء هى التى اشتهرت عند اليونان باسم «فينيقية» ونسبوا إليها كل ما استوردوه من بلاد العرب على طريقها ، وتواتر عندهم أنها البلاد التى تلقوا منها الحروف وعلم الكتابة .

تعلم اليونان الكتابة وأخذوا رسم الحروف من (قدموس) الفينيقى كما قالوا فى تواريخهم ورووا قبل ذلك فى أساطيرهم المتواترة مما يدل على قدم العهد باعتمادهم فى ثقـــافتهم على المصادر الفينيقية

ولا يكتفى العقاد بالنظرة التاريخية بل يناقش الأمر مناقشة علمية فيطرحه على النحو التالى وأيًّا كان قول المؤرخين والرواة فمسألة الأبجدية من المسائل التى لا تحتاج إلى التاريخ والرواية ؛ لأن أسماء الحروف وأشكالها ومعانيها شاهدة بانتقالها من المصادر العربية سواء كانت فينيقية أو آرامية أو يمنية من الجنوب فالأبجدية عند اليونان تسمى (ألفا بيتا) وتبدأ بالألف والباء والتاء ، ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظ العربى فى العصر الحاضر على وجه التقريب . وليس لأسماء الحروف معان مفهومة فى اللغة اليونانية ، ولكنها مفهومة المعنى فى لغتنا العربية العصرية ؛ فضلا على اللهجات العربية الغابرة .

وأقرب هذه الحروف إلى المعانى العربية الشائعة فى أيامنا حرف الباء من البيت ، وحرف الجيم من جمل ، وحرف العين من عين ، وحرف الفاء من فم ، وحرف الكاف من كف ، وحرف الميم من ماء وحرف الياء من يد ، وأشكالها المرسومة قريبة من أسمائها الأولى كما يرى فى شكل البيت ، وشكل رقبة الجمل ، وشكل العين ، وشكل الفم وغيرها من الأشكال ، وليس من اللازم أن يكون النقل دفعة واحدة ، ويرجح المؤرخون أن اليونان نقلوا حروفهم من البلاد العربية جميعًا ، ويرى من كتاب (خيرشوف) أن حرف الجيم واللام والسين أقرب إلى حروف المسند أى الحروف اليمنية فى الجنوب منها إلى الحروف الفينيقية أو حروف النبط فى الشمال ، وقد يعزى الاقتباس إلى رحلات الرواد من اليونان إلى اليمن السعيد ، وكيفما اختلفت الأقوال عن مصادر النقل والاقتباس فلا خلاف فى أمرين : أحدهما أن الأبجدية اليونانية منقولة عن أبجدية سبقتها ، وأن هذه الأبجدية السابقة هى الأبجدية العربية التى تدل

عليها ألفاظ حروفها وأشكالها ومعانيها ولابد من حقيقة أخرى تجىء تابعة لها وهى انتقال لوازم الحضارة مع انتقال الكتابة وما يلزمها مما يدخل فى الصناعة كما يذكر ذلك (هيرودوت) المؤرخ اليونانى والثابت بعد هذا كله من الواقع أن الحروف اليونانية القديمة كالحروف العربية ، وأنهم كانوا يكتبونها من اليمين إلى الشمال كما نكتب العربية اليوم. وأن النقوش وأسماء المواقع فى البلاد اليونانية ترجح وصول العرب بحضارتهم إلى تلك البلاد فى زمن قديم سابق على الأقل لشيوع أسماء (لاريسا) أى العريش و(عسكراً) أى العسكر ، و(فندس) أى الجبل العظيم . على أن اقتباس اليونان عن العرب يظهر لنا من الألفاظ التى تدل على أصل متشعب فى العربية أو تدل على نظام المعيشة الغالب على الأمة وطول العهد به فى موطنه ومستقره ؛ فالبرج فى اليونانية برجوس ومادة الباء والراء ومثيلتهما أصيلة فى الدلالة على الظهور والعلو كبرز وبرص وبرع وبرق ومعنى البروج والتبرج والأبراج شائع فى المادة العربية إلى كثير من أمثال هذه الكلمات التى لها مدلولات أخرى . يقول العقاد ، ونظير ما تقدم فى الدلالة على اقتباس اليونان دائماً من العرب فى أمثال هذه الألفاظ التى ترتبط بالمعاملات وشئون المعيشة أنهم حولوا أسماء أيام الأسبوع إلى الترتيب العددى أسوة بأسمائها العربيـة وغيروا منهـا اسم السبت والأحد بعد ظهور المسيحية . وهل كان اقتباسهم من المسيحية إلا إطراداً فى هـذه القاعدة وجرياً على هذا القياس ؟

ثم الفلسفة

ولم يختل القلم فى يد العقاد حين تعرض لفلسفة اليونان وصلتها بالشرق عامة وبالعرب خاصة ، فقد أرجعها إلى (طاليس) أبى الفلسفة اليونانية الذى عاش فى (ليديا) من بلاد آسيا الصغرى.

وتلقى معلوماته من قبلها فى مسائل الفلك ومسائل النظريات الكونية وأصول الخلق والحياة ، وكان تلميذاً للمصريين فى العلوم الرياضية كما يقول مؤرخوه ، ومما له معناه الظاهر فى نسبة المعارف التى استخدمها طاليس إلى مصادرها أنه كان معدوداً من « حكماء اليونان السبعة » وأن هؤلاء الحكماء كانوا أشبه بهيئة مستقلة لا تنقص عن هذا العدد ، ويضاف إليها بديل ممن يخرج منها إذا ثبت أنه أقحم نفسه على الهيئة

بسلطان الإمارة أو الرئاسة ، فإذا قيل ان الفلسفة ليست بالاستثناء فى شئون الثقافة التى نقلها اليونان عن الشرق فهو الواقع الذى تتفق عليه مصادر التاريخ ومراجع الفلسفة ، وإن كانت الفلسفة تطورت كثيراً بعد طاليس ونظرائه من الحكماء حتى أصبحت فى عصر أرسطو وتلاميذه جديرة بالانتساب إلى اليونان دون غيرهم من أمم الثقافة والحضارة فى الأزمنة البعيدة .

ولماذا نبغوا فيها حتى نسبت إليهم ؟ إنها نشأت فى بلاد لم تحكمها دولة عريقة يقوم بجانبها دولة من دول الكهانة كما حدث فى البلاد التى تجرى فيها الأنهار الكبيرة ، فقد قامت كهانات الهند وما بين النهرين ووادى النيل ، فانفرد الكهان بالمعرفة الغيبية ولم يأذنوا لغيرهم خارج المعبد فى بحث هذه المعرفة ودراسة الفلسفة التى تقوم على تحقيق الوجود لذاته وتحقيق صفات الموجودات العليا والموجودات المقدسة التى كانوا ينعتونها باسم الأرباب .

ولم تكن فى اليونان دولة متمكنة ولا كهانة ذات سيطرة على دولتها الصغيرة فانطلقوا يدرسون ويبحثون غير متحرجين لا حاسبين حساباً لأحد ، وعمدوا إلى العلوم التى استفادوها من الشرق فقالوا فيها ما يقوله كل باحث منطلق اللسان يتحدث بما يشاء كما يشاء . وحين عظم سلطان الدولة قتل سقراط وتشرد أفلاطون وقضى أرسطو بقية حياته فى عزلة وإهمال .

وينصف العقاد دول الحضارة الشرقية فيقول : ونحن لا نعلم آثار الشرقيين الأقدمين أنهم تركوا « فلسفة » تبحث فى أصول الوجود بغير صبغتها الكهنوتية ، ولكننا لا نستطيع من أجل ذلك أن نجزم بانقطاع تفكيرهم فى هذه البحوث ولا بقصورهم عن إدراك مداها ؛ لأنهم لم يتركوا لنا كذلك كتباً مفصلة عن علوم الفلك والرياضة والكيمياء التى لا شك فى اشتغالهم بها وتطبيقهم لها فى بناء الهياكل ونقش الجدران وتحنيط الموتى ورصد الكواكب وسياسة الأنهار ، وكل ما نستطيع أن نجزم به أنهم لا يعلنون ما عرفوه ولا يدل كتمانهم على جهلهم إياه : فلليونان فضل ترقية الفلسفة ، واتهام الشرق بالقصور فيها انحراف عن سنة الإنصاف وادعاء لا دليل عليه. ومع ذلك فاليونانيون تلاميذ أبديون للشرق ، وقد أفادهم موقعهم فوائد

محسوســة ولولا موقعهم القريب من شواطىء الشرق ماوصلوا إلىماوصلوا إليه من ثقافة أطلقت لسان المحدثين الأوربيين بالفخر ، فوقع بلاد اليونان ينبئنا بالعلاقة التى توجد بينه وبين الحضارات الشرقية ، فلم تنقطع علاقته بالشرق منذ خمسة آلاف سنة على الأقل ، ولم تكن علاقته فى هذه العصور بالشرق إلا علاقة التلمذة المتتابعة على الثقافات المتتابعة فيه ، ولا سيما الثقافة الروحية وثقافة النظرة الكونية العامة ، وتأتى بعــدها ثقافة المعيشة المستمدة من الصناعة وعروض التجارة . ويمضى العقاد : ونحن نسمع اليوم كثيراً عن المناظرة بين الجنس الآرى والجنس السامى وعن مزايا كل من الجنسين فى التفكير ومبادىء الأخلاق وعن اقتدار كل منهما على إنشاء الثقافة وحفظ الحضارة وتقويم القيم الاجتماعية والنفسية، ويدور هذا البحث كله أحياناً على مزايا اليونان فى طلب المعرفة لأنهم آريون وأوربيون ، مكانهم من ثقافة أوربة الحديثة مكان الرواد الأسبقين والباكورة التى تدل على الشجرة وعلى ما تحمله من ثمارها فى كل أوان ، فإذا ابتدأنا المسألة من بداءتها الأولى ، فالآرية نفسها صفة لم يكسبها اليونان

من غير الشرق ولم تظهر فيهم مزية من مزاياها بغير « العلاقة » التى اتصلت بينهم وبينه بعد انفصالهم عنه فى زمان الهجرة الآرية ، فقد يكون اليونان آريين قدموا مع السلالة الكبرى من أواسط آسيا إلى أوربة الشرقية والوسطى ، وقد يكونون سكاناً أصلاء فى أوطانهم تغلب عليهم الآريون المهاجرون وصبغوهم بصبغتهم ، فهم على الحالين منسوبون إلى الشرق فى ثقافتهم ، ونسبتهم هــذه هى سر امتيازهم على إخوانهم الآريين الذين ذهبوا فى الهجرة إلى أواسط أوربة وما وراءها ، وهؤلاء لا ثقافة تنسب إليهم ولا حضارة تعرف بهم بل كانوا همجاً لم تهذبهم ثقافة لأنهم بعدوا عن مواطن الثقافة وهو الشرق ، فليست الآرية إذن هى سر الامتياز ، وإنما الصلة بالشرق والتلمذة عليه ميزهم بها موقعهم الجغرافى فرجحهم على سكان المواقع النائية من إخــوانهم الآريين ، ففى مراحل اليونان الثلاثة كانوا تلاميــذ للشرق ، فى المرحلة الأولى قدم آباؤهم الأولون من القارة الآسيوية بعقائدهم الروحية كما أخذوها من منبعها ، ويكفى منها ذكر اسم الإله عندهم (ذيوس) وهو من الهندية القديمة ، وذكر أبى

الأرباب عندهم مركب اسمه من كلمتين بتلك اللغة هما (داوس باتر) أى أبى الأرباب (جوبيتير) . . . . . والمرحلة الثانية مرحلة الكتابة والصناعة ترجع إلى الشرق والثقافة العربية سواء جاءتهم من هجرة (قدموس) وزمرته الفينيقية ، أو من هجرة تماثلها فى مصدرها ؛ فإنها من ثمرات الموقع الجغرافى الذى قربهم من أسباب التلمذة على الشرق المجاور لهم والاستفادة من حركات شعوبه .

وتأتى المرحلة الثالثة بعد ميلاد السيد المسيح ، فليس دخـــول اليونان فى المسيحية إلا مرحلة فى السبيل المطروق من مراحل التلمذة على الثقافة الشرقية : أدبية أو صناعية أوروحية . ويشير العقاد إلى الفتوح العثمانية التى حملت معها القرآن إلى اليونان وأوربة ويقرر أنه لولا اشتداد شيوخ الإسلام فى فتاواهم الصريحة التى حرموا بها على السلاطين إكراه أهل الذمة على الدين لدخلوا فى حومة الثقافة الإسلامية واتخذوا الإسلام دينا .

وهذا هو حكم الموقع الجغرافى إلى جانب حكم التاريخ وحكم الآثار الباقية .

الثقافة العبرية

القضية هنا أيسر من سابقتها ، وقد جلا الحقيقة وهو سبق الثقافة العربية على الثقافة اليونانية ، فليقدم فى ثقة وفى يديه البرهان الناصع على سبق العرب للعبريين ؛ لأن السند القريب هنا مستمد من أسفار التوراة ، ومن أحوال المعيشة التى لا مجال للخلاف عليها ونبدأ بتحقيق أصل العبريين الذين سموا باليهود وبإسرائيل أيضاً وأطوار العلاقة بينهم وبين الأمة العربية إلى ما بعد ظهور الأنبياء والرسل فى بنى إسرائيل فمن العبريون ؟ وما أوثق الأقوال فى نشأتهم الأولى قبل أيام إبراهيم عليه السلام ؟ الجواب : إن أوثق الأقوال عن نشأة العبريين منذ أربعين قرناً أنهم « قبيلة بدوية صغيرة » عاشت زمناً فى جنوب الجزيرة العربية إلى الشرق ، وبقيت فيه على حالة بين الإقامة والترحل إلى مسافات قريبة حتى انتقلت — مع ملازمتها الشاطىء — إلى جنوب وادى النهرين ودليل العقاد على تلك النشأة « الدابة » التى كانت تعتمد عليها القبيلة فى الرحلة وحمل الأثقال وهى « الحمار » فهذا الحيوان كان يوجد فى حال الوحشية على مقربة من السهول الرملية فى جزيرة العرب ، ويصل أحياناً فى قطعانه المجفلة من السباع إلى أرض حوران ، ويظهر أن العبريين استخدموا

هذا الحيوان وهو قريب من حالته الوحشية حين كان يميل بلونه إلى الاحمرار على الاقتراب من ألوان الرمال التى يعيش فيها ومن هنا اسم « الحمار » واسم « اليحمور » الذى يطلق على الحمار الوحشى فى اللغة العربية استؤنس عندهم وطالت عشرته لهم بعد طول التدجين والعناية « المدنية » بعد انتقالهم إلى جوار المدن فابيض لونه ، وصار الأبيض مركب الرؤساء والأثرياء ، وفى ذلك يقول سفر القضاة من إصحاحه الخامس مخاطباً أولئك الرؤساء : « قلبى نحو قضاة إسرائيل المنتدبين فى الشعب باركوا الرب أيها الراكبون الأتن الصحر الجالسون على «الطنافس » أى إناث الحمير المبيضة اللون .

واستخدام الحمار يدل على أحوالهم بجوار القبائل التى تستخدم الجمال للسفر إلى المسافات البعيدة ، ونقل الأحمـــال الثقيلة ونزول المراعى المنيعة التى تحتاج إلى قوة وكثرة ، فإنما يستخدم الحمار للمسافات القصيرة والأحمال الخفيفة ، ويسير الحمار فى غير المفاوز الرملية التى تسلكها الإبل ، ولا يبتعد وقتاً طويلا عن موارد الماء الميسرة بغير عناء وحماية . فالعبريون قوم ضعاف قليلو العدد فى نشأتهم مضطرون إلى الاكتفاء بالمعيشة التى تركها سادة الصحراء زهداً فيها وعلى ذلك فوقع نشأتهم لابد أن يكون قريباً إلى الشاطىء قريباً إلى الحاضرة ، يقيم فيه أناس لم يتفرغوا للبداوة فى جوف الصحراء ولم يتفرغوا للإقامة فى الحواضر العامرة ، ولكنهم عاشوا بين البادية والحاضرة يؤدون أعمالا للطرفين وهى فى الغالب أعمال وساطة وسمسرة هادئة لا تتطلب صداماً لا مع أهل الصحراء ولا مع أهل المدينـــة ، وهم فى الوساطة يعولون على الرضا والطلب ولا يعولون على القهر والاغتصاب ، وفى هذه المعيشة « المتبدية المتحضرة » يكمن كل سر من أسرار تاريخهم من فجره إلى العصر الحاضر ، ويقرر العقاد هذه الحقيقة التى عرضتهم للمشكلات على توالى العصور ، فهم قبيلة لم تتطور وقد ظلت بين البادية والحاضرة قبيلة لم تستوف أطوار البادية ولم تتحول إلى أطوار الحضارة شعباً . مدنياً » يتمشى مع الحياة المدنية على سنة جميع الشعوب ، ولازمتها عادة المعيشة بالسمسرة والوساطة فلم تتقدم إلى آخر الشوط فى تثمير أعمال البدو ولا فى تثمير أعمـــال الحضر ، فهى فى حالة العزلة الاجتماعية وما يلازمها عند البدو من عزلة « العصبية » بالدم

والسلالة، ومشكلة العبريين قديماً وحديثاً هى هذه المشكلة . مشكلة « التحجر » على حالة القبيلة وحالة العصبية بالدم والسلالة . وعقيدتهم فى جوهرها هى عقيدة عصبية منعزلة تؤمن بإله تعبده لأنه إلهها ، وهو الإله الذى يرعاها ، لأنها شعبه الذى يحابيه بين الشعوب لغير سبب ولغير فضيلة فيه غير أنه شعبه المختار لديه »

وهذه العزلة تدفع إلى الاحتكاك ثم الاصطدام ، فلا بد من شقاق بين السمسار وصاحب المال ، ولأن المجتمعات قائمة على التعاون وموقفهم يدعو إلى الشك ثم إلى العداء .

ولم سمى العبريون بهذا الاسم ؟ وأنت بين أمرين : إما لأنهم ينسبون إلى (عابر بن سام) وإما لأنهم ، عبروا نهر الفرات بعد رحلتهم إلى وادى النهرين ، ويستدل العقاد على التعليل الأخير بما جاء فى سفر يشوع ، يقول يشوع للشعب كله : « هكذا قال الرب إله إسرائيل : آباؤكم سكنوا فى عبر النهر منذ الدهر ، تارح أبو إبراهيم وأبو ناحور ، وعبدوا آلهة أخرى ، فأخذت إبراهيم أباكم من عبر النهر ، وسرت به كل أرض كنعان » .

إلا أنهم لضعفهم كانوا يلوذون فى كل موطن سكنوه بمن هو أقوى منهم من القبائل التى تلتقى بهم فى أصولهم ويحتمون بمصاهرتها من أعدائهم ، ففى سفر التكوين أنهم انتسبوا إلى الأصل الآرامى حين أرسل إبراهيم عليه السلام رسوله لخطبة (رفقة) بنت بتوشيل الآرامى . فقال له : « إلى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى .. » وفعلوا ذلك حين نزلوا بأرض كنعان وجعلوا لغتهم لغة كنعانية ، وقال أشعيا وهو يتنبأ بغلبة قومه على أرض مصر إنه « فى ذلك اليوم يكون فى أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغة كنعان » — حماية من كنعان وخمس مستعمرات — وهكذا عاشوا فى هجرات من جنوب الجزيرة العربية إلى جنوب العراق ثم عبروا الفرات إلى أرض كنعان (فلسطين) إلى مصر وفى كل موطن لهم حماية من سكانه الأقوياء إلى أن استقروا فى أرض مصر المضيافة . يقول العقاد :

والعرف الشائع بين العبريين أنهم يتشاءمون تشاؤماً « تقليدياً » بالأيام التى قضوها فى مصر ويحسبونها بلية البلايا ومحنة المحن من عهد الخليل إلى عهد النازية الهتلرية فى القرن العشرين ، وقد مرت بهم محنة السبى إلى وادى النهرين ولكنهم لا يتشاءمون

بها كما تشاءموا بالمقام فى مصر ، ولا يجعلون الخروج من بابل عيداً باقياً متجدداً كعيد الخروج من أرض وادى النيل .

أما الواقع المعروف بنتائجه الكثيرة فهو على نقيض ما قدروه وأوجبوه على أنفسهم من تقاليد « الحداد » وتقاليد الأعياد ؛ فلم يستفيدوا قط من هجرة فى تاريخهم كله كما استفادوا من هذه الهجرة المصرية ؛ لأنهم نعموا بالعيش الرغيد فى جوار النيل ، وتعلموا من آداب الحياة وشرائط الصحة ما زاد فى عددهم وزاد فى خبرتهم بتدبير أمورهم والدفاع عن أنفسهم ، فأصبحو يعدون بمئات الألوف ، ويحسنون حمل السلاح وتنظيم الزرع والحصاد . . . »

ولولا هذه الزيادة وهذا التعليم والتدريب ما استطاعوا أن يهزموا القبائل التى كانوا يهابونها ، وأن يستقروا فى أرض كنعان ويقيموا ملكاً بجانبه الهياكل من الحجارة بدلا من العرائس والخيام . « ومهما يكن من بلاء أصابهم بمصر فهو بلاء استحقوه واستحقوا أضعافه فى بلاد العالم شرقيه وغربيه » .

وكانوا فى ملكهم قبيلة متعصبة معزولة عن الأمم ، بل سبطاً معزولا عن سبط فى داخل القبيلة ، وظلوا يحصرون العصبية فى أضيق حدودها بين الأسباط فى القبيلة الواحدة ويتشددون فى حصر كل سبط بميراثه إلى أعقاب الأعقاب . ففى الإصحاح السادس والثلاثين من سفر العدد أنه : « لا يتحول نصيب إسرائيل من سبط إلى سبط ، بل يلازم بنو إسرائيل كل سبط نصيب سبط آبائه ، وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بنى إسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها لكى يرث بنو إسرائيل كل سبط نصيب آبائه ، فلا يتحول نصيب من سبط إلى سبط آخر ، بل يلازم كل واحد نصيبه كما أمر الرب موسى » فهل يجوز لنقاد التاريخ بعد هذا أن يتحدثوا عن « رسالة عالمية » يستفيدها العالم من هذه العصبية القبلية بعد تطور الأمم والشعوب وتطور العلاقات العالمية وتطور العقائد والآداب ؟ والعقاد عنده الجواب

العبرية والعالمية

كثير جداً يقال عن ثقافة دينية محصورة متحجرة فى قالب العصبية إنها « رسالة عالمية » أو انها تهدى البشرية إلى السلوك الحميد ومكارم الأخلاق ، ومن الفضول أن تنعقد المقارنة بينها

وبين حضارات الشرق فى وادى النيل وفى وادى النهرين وفى شبه الجزيرة العربية ، فيقال : إن تلك الحضارات جميعاً لم تحفل بمبادىء الأخلاق ولم تقرر قواعد العدل والفضيلة ، وان أربابها لا تغضب للواجب والحق كما غضب لهما رب العبريين : رب الصواعق والرعود . ولم يفصل العقاد الكلام عن الحضارات التى سبقت ظهور العبريين خالية من التعصب والانطواء ، واكتفى باستقصاء المدى المعروف الذى بلغته الدعوة العبرية من أيام الخليل إلى أيام السيد المسيح تصحيحاً للدعوى التى يدعيها المبشرون بما يسمونه « الرسالة العالمية » من قبل العبريين والرسالة العالمية تقتضى الفضيلة والتميز بها ولا تكون الفضيلة فضيلة إلا إذا عمت البشرية وارتضتها نمطاً للحياة والسلوك فأين الفضيلة العامة فى رسالة محدودة ؟ إنهم اكتفوا بأنهم شعب الله المختار من غير مزية .

ويبرهن العقاد على ذلك بما جاء فى التوراة مثل قول الإله — كما جاء فى سفر التثنية : « أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة » ويقول : كما جاء فى سفر الخروج — « رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة » . ويقول أنبياؤهم : « إنه شعب ثقيل الإثم ، وتارة : إنه شعب لا يفهم » ويتكرر شبيه هذا على لسان الأنبياء من وصفه بالضلالة والنفاق والقسوة وقلة الوفاء ، ولكن هذا الشعب يعلم — مع كل ذلك أن الله يختاره ؛ لأنه شعبه وعصبته ، وأنه كما جاء فى سفر التثنية : « ليس لأجل بركة يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة » ويناديه الإله محذراً من عبادة آلهة غيره فيقول كما جاء فى سفر الخروج : لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك ، إله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى . . » نعم ، كما تسرى شريعة الثأر فى الجاهلية من الآباء إلى الأبناء ومن إخوة إلى إخوة ، ومن الجار إلى الجار ، ويجرى هذا النذير من الأسفار المنسوبة إلى موسى إلى الأسفار التى كتبها آخر أنبياء بنى إسرائيل ، وهذه العصبية جرتهم إلى الاثرة وإنكار حقوق الإنسانية فى جميع الأمم ، أو على « الجوييم » كما يسمونها بمعنى الغرباء أو الدخلاء فهم أولياء الله وأحباؤه وليس لغيرهم مكان ، بل يفعلون ذلك مع أنفسهم ، فيضيقون الدائرة

جيلا بعد جيل ، فأبناء إبراهيم دون العبريين جميعاً هم الصفوة ، ثم إسرائيل من أبناء إسحق دون الآخرين ، ثم انحصرت صفوتهم المختارة فى بنى هرون آل موسى الأقربين عليه السلام ، ثم فى أبناء داود عليه السلام بعد قيام المملكة ، وقيل من أجل ذلك إن المسيح المنتظر لا يكون من غير ذريته وورثة عرشه ، ويستمر العقاد فى سرد التعصب والبعد عن غيرهم ، وظلوا إلى عهد الرسولين : بطرس وبولس ينكرون على العبرى أن يتناول الطعام مع غير العبريين ، ويحتدمون غيظاً إذا قيل لهم : إن دعوة الهداية تتجه إلى الأمم كما تتجه إلى بنى إسرائيل ، فجاء فى الإصحاح الحادى عشر من أعمال الرسل أنهم خاصموا بطرس يوم صعد إلى أورشليم لأنه دخل بيوت غير المختونين وأكل مع أهلها ، وبعد أن أورد ما أورد من دلائل التعصب والضن بالهداية على غيرهم قال : والثقافة الدينية التى من هذا القبيل ليس من شأنها أن توحى إلى أصحابها برسالة عامة أو رسالة عالمية ، وإنما شأنها عندهم شأن الميراث يرثها الآباء عن الأبناء ، فلا ترى أحداً منهم يعنيه تبشير الناس بمذهبه، وهداية «الأجنبيين إلى ملته» . كما يعنيه أن يتألب ويتعصب مع أبناء عصبته على تباعد الديار .

يقول العقاد : وإذا تركنا جانب الثقافة الدينيـــة والتفتنا إلى جانب الثقافات الأدبية والفنية أو الثقافات الفلسفية والأخلاقية لم نجد عند القوم منذ كانوا نصيباً من الثقافات يفيدون بها العالم باختيارهم أو على الرغم منهم ، سواء فى طور البداوة أو طور المملكة أو طور الشتات فى أنحاء البلاد ، وقامت دولتهم وذهبت ولم تعقب بعدها أثراً من آثار الفكر أو الوجدان كتلك الآثار التى نعرفها للأمم القديمة ، أما فى دور الشتات فلم يكن لهم مجتمع تنسب إليه ثقافته ، فهم عالة على الثقافات فى كل موطن وكل دولة . . ويوجز العقاد كل ما قدمه فى قوله : ولنا أن نقول بالتعبير الشائع فى عصرنا : إن هؤلاء العبريين منذ بداوتهم إلى هذا القرن العشرين كانوا مستفيدين ولم يكونوا قط منتجين ، وإن محصولهم فى الثقافة العالمية محصول المستغل والوسيط ، وليس بمحصول المالك العامل الذى يعطى وينتج ما يعطيه .

وماذا عن الدين والنبوة ؟

يقول العقاد : فيما عدا احتكار النعمة الإلهية وعزلة العصبية فى أضيق حدودها لم يبدع العبريون شيئاً فى

ثقافة الدين ، وأخذوا كل ما أخذوه من حولهم مستفيدين غير متصرفين فى عقيدة من عقائده الكبرى إلا ماتصرفوا فيه بالخرافة والأحجية والطلسم والشعوذة والسحر على سذاجته الأولى بين القبائل البــادية . . . . . ويثبت أن كلمة « النبى » لم يعرفوها قبل اتصالهم بكنعان فى الزمن الذى ظهرت فيه النبوءات العربية مما ذكره القرآن ، ومما ذكروه هم عرضاً فى أسفار العهد القديم ، ولم تكن لهم لفظة تؤدى معناها قبل وفودهم على أرض كنعان ومحاورتهم للعرب المقيمين فى أرض . « مدين » فكانوا يسمون النبى بالرائى أو الناظر أو رجل الله ، ولم يطلقوا عليه اسم النبى إلا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين فى التــوراة وهم : (ملكى صادق) و (أيوب) و (بلعام) و (شعيب) الذى يسمونه (يثرون) معلم موسى الكليم . ويرجح بعضهم أنه الخضر عليه السلام للمشابهة بين لفظ يثرون وخثرون وخضر فى مخارج الحروف ، ولما ورد من أخبار الكليم مع الخضر عليهما السلام فى تفسير القرآن الكريم .

ويستشهد العقــاد بعلماء الأديان الغربيين الذين ذهبــوا إلى اقتباس العبريين كلمة النبوة من العرب منهم الأستاذ (هولشر) والأستاذ (شميدت اللذان يرجحان أن الكلمة دخلت فى اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين ، ولكن العقاد يقول لا داعى لظنون المستشرقين ، فإن وفرة الكلمات التى لا تلتبس بمعنى النبوة فى اللغة العربية كالعرافة والكهانة والعيافة والزجر والرؤية تغنيها عن اتخاذ كلمة الرائى والنبى ، وتاريخ النبوات العربية التى وردت فى التوراة سابق لاتخاذ العبريين كلمة النبى بدلا من كلمة الرائى والناظر ، وتلمذة موسى لنبى مدين مذكورة فى التوراة قبل سائر النبوات الإسرائيلية ، والمطالــع على كتبهم المــأثورة يتبين منها أنهم آمنوا بهذه النبوات جميعاً ، ومع ذلك ظلوا يخلطون بين مطالب السحر ومطالب الهداية ، ويدلل على اشتغال أنبيائهم بالتنجيم بأخبار (صموئيل) أنهم كانوا يقصدونه ليــدلهم على مكان الماشية الضائعة وينقدونه أجره على ردها . وقد نسبوا إلى يعقوب قيامه بهذه الصناعة ، فالنبوة الخاصة بالهداية لم تكن متمثلة فى أذهانهم . . . وقد عبرت هذه الأطوار فى فهم النبوة شوطاً طويلا فى حياة القبائل العبرية وتتلمذوا فى كل مرحلة منها لأستاذ من هداة العرب نساكاً ورسلا مبعوثين

بالرسالة أو أنبياء غير مبعوثين بها. كما جاء فى التوراة وفى القرآن الكريم مما لم تذكره كتب بنى إسرائيل .

وهنا يدخل العقاد مدخلا واضحاً فيقرر أن الأنبيــاء الكبار : إبراهيم وموسى وداود يتعلمون مــن أنبياء العرب كيف ذلك ؟ عندما تحول إبراهيم عليه السلام من أرض النهرين إلى أرض كنعان التقى بالرجل الصالح (ملكى صادق) كما جاء فى سفر التكوين من التوراة فى إصحاحه الرابع عشر « وكان كاهناً لله العلى وباركه وقال : مبارك إبرام من الله العلى مالك السموات والأرض ، ومبارك الله العلى الذى أسلم أعداءك فى يدك » وقد أعطاه إبراهيم العشر من كل شىء قرباً إلى الله .

ويقول الإنجيل فى رسالة العبرانيين : إن السيد المسيح صار على رتبة ملكى صادق رئيس كهنة إلى الأبد . ويقول بعد ذلك فى الإصحاح السابع عن ملكى صادق : « إنه لابداءة أيام له ولانهاية حياة بل هو مشبه بابن الله . هذا يبقى كاهناً إلى الأبد . ثم انظروا ما أعظم هذا الذى أعطاه إبراهيم رئيس الآباء » ويعلق فيقول : فالتوراة والإنجيل معاً يصفان الكاهن الكنعانى بصفة الرئاسة الدينية وصفة الخلود الذى لا يحده الزمان ، وبرفعانه إلى المنزلة التى يتلقى منها إبراهيم بركة الإله العلى إله السموات والأرض ، ولا يكون ذلك لإنسان تعلم من إبراهيم ديناً لم يكن يعرفه ، وإنما يكون أستاذاً يتعلم منه إبراهيم . وموسى عليه السلام صاحب التوراة والشريعة والقيادة الظافرة من نبى (مدين) العربى كثيراً حين رجع إلى مصر وحين قدم شعيب القرابين اجتمع بنو إسرائيل بموسى ليعظهم ويفصل بينهم فى القضايا فنصحه نبى مدين بأن هذا لا يطاق وهو مجهد لشعب إسرائيل ، وأمره بتعيين من يقوم بتنفيذ الشريعة والعظات . و « اختار موسى ذوى قدرة من جميع إسرائيل وجعلهم رؤساء على الشعب ، رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات فكانوا يقضون للشعب كل حين » .

ومعنى هذا أن شعيباً تقدم موسى إلى عقيدته الإلهية وعلمه تبليغ الشريعة وتنظيم القضاء فى قومه ، وأن العبريين كانوا متعلمين من النبى العربى ولم يكونوا معلمين . ويذكر أنهم فى أيام موسى أيضاً كانوا يحتكمون إلى نبى من العرب يقيم على نهر الفرات يسمونه (بلعام) ويظن بعضهم أنه مرادف لاسم لقمان ، ويقول سفر العدد إنه حكم للعبريين على (الموآبيين) وأيد نبوءات يعقوب .

وتحدث العقاد عن داود عليه السلام فنقل عن مؤرخى الغرب فى حديثهم عن آثار إخناتون أن المشابهة قريبة جداً بين مزاميره وصلوات ذلك الملك الذى تقدم بالدعوة إلى التوحيد فى مصر القديمة ، ومثل بنموذجين أحدهما من مزامير داود والآخر من صلوات إخناتون ، وفى ظنى أن الحديث عن المزامير يقصد به العقاد مطلق الأخذ لا أن إخناتون ليس نبيًّا من العرب أو من مصر ، وأن للجوار تأثيراً على العبريين ، ولذلك ساق العقاد أحاديث متصلة عن أنبياء العرب الذين ذكروا فى التوراة تزكية لهم ، وإن تركوا لعدم الاستقصاء وجاءوا فى القرآن كهود وصالح وذى الكفل ، ولا بد أن يكون لهم تأثير فى العبريين ، فمن قبل موسى كان النبى العربى (أيوب) فى أرض تيماء يدين بالتوحيد وينكر عبادة الكواكب والأوثان ويدعو إلى المساواة بين الحر والعبد قائلا متسائلا : أليس صانعى فى البطن صانعه وقد صورنا فى الرحم ؟ والشراح ومؤرخو العهد القديم متفقون على سبقه إلى نزاهة التوحيد ، وتفضيل كتابه فى ذلك المعنى على كتب الأنبياء أصحاب الأسفار فى العهد القديم ، ومن هؤلاء الشراح إسرائيليون كالمستشرق (مرجليوث) الذى يقول فى كتابه عن العلاقات بين العرب والإسرائيليين : « إن أسلوب المتكلمين عن التوحيد فى هذا السفر أنزه من أسلوب الأنبياء الإسرائيليين الذين كانوا يضطربون فى بيئة وثنية ، خلافاً للمتكلمين فى سفر أيوب ، فإن البديل من الوحدانية عندهم هى الإلحاد والجحود » .

ويعلل العقاد تلمذة إسرائيل للعرب بأنهم درجوا من أرض الجنوب فى الجزيرة العربية ، وظلوا بعد ذلك زهاء ألف سنة يلتفتون إلى مواطنهم الأولى ويترقبون الحكمة منها ، فإبراهيم توجه إلى (جيرار) وموسى توجه إلى مدين وكان أرميا يهتف فى مراثيه سائلا : ألا حكمة بعـد فى تيمان ؟ هل بادت المشورة من الفهماء ؟ وتيمان تقابل فى لغتنا الحديثة كلمة يمن بجميع معانيها . حتى بعد قيام المسيحية كان بولس الرسول يقول فى كتاب غلاطية : إنه ذاهب إلى بلاد العرب قبل مسيره إلى دمشق . أما تركيز القداسة فى أورشليم فهو شىء جديد طارئ بعد أيام موسى بزمن طويل ، ومما يدل على أنها لم تكن مقدسة أنه بعد ملك داود جاء ملك من ذرية إبراهيم اسمه (يهوامش) هدم

سورها وأخذ ودائع الذهب والفضة من خزائنها . وقال سفر الملوك: إنه مات فاضطجع مع آبائه ، أى مات مرضيا عنه فى اصطلاحهم المألوف .

إنما تحول القوم باتجاهم من الجنوب إلى بيت المقدس بعد ارتباط الهيكل بمصير بيت داود ، وتعليق أملهم فى الخلاص بعودة الملك إلى ذلك البيت فى آخر الزمن.

وأما قبل ذلك فقد كانوا يستقبلون الجنوب ويلوذون به ويتعلمون منه ، ولم يأخذ الجنوب منهم شيئاً من ثقافته الدينية فى أيام دولتهم ولا بعد أيامها ، ولن تكون الدعوة المحمدية التى ارتفعت من بلاد العرب فرعا من هذا الأصل الذى لم يتأصل قط فى الوحدانية ، فإن الدعوة إلى عبادة رب العالمين دين لا يلتقى بين العصبية المنعزلة فى طريق واحد ، وإن نبوة الداعى الذى لا يعرف من النبوة غير الهداية لطراز من النبوة لا يختلط بالتنجيم .

والذى لم يقله العقاد من شغف العبريين بالجنوب هو اتجاه أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وزوجته (هاجر) إلى الجنوب ، وقد اختار الله لهم مكة لحكمة ظهرت مآثرها بعد سنين وسنين.

اللغة والكتابة

يلح العقاد فى ذكر موطن العبريين الأول وهو جنوب الجزيرة العربية ورحلتهم التى كانت أشبه بنصف الدائرة ، فقدموا بالعراق جنوباً وشمالا ، وانحدروا إلى أرض كنعان بفلسطين ، ودخل إبراهيم عليه السلام مصر ثم رجع إلى أرض كنعان ثم اتجه إلى مكة ثم عاد من حيث أتى .

وكانت العبرية لهجة من اللهجات السامية ، وحين انتقلوا بها أخذت تضيق كلما بعدوا عن الموطن الأول ثم انعزلوا بها وبالديانة التى يعتنقونها ، ولم تتطور كما تطورت أخواتها ، ومع هذا التحجر استطاعت أن تعيش فى عصر المملكة برعاية الملوك والكهان وكانت ساذجة قليلة العدة ناقصة التصريف ويقول (فولتير) فى المعجم الفلسفى تحت كلمة آدم . « إنه من المحقق أن اليهود كتبوا قليلا جداً وكانوا على جهل شديد بعلوم الفلسفة والهندسة والجغرافية والطبيعيات ، فلم يعرفوا شيئاً من تواريخ الأمم ولم يأخذوا فى التعلم إلا بعد اتصالهم بالإسكندرية حين شرعوا فى اقتباس المعرفة ، وكانت لغتهم البربرية مزيجاً من الفينيقية والكلدانية المشوهة ، وبلغ من فقرها

أنها لا تحتوى كثيراً من الأزمنة فى أفعالها » ويقول العقاد : أما الكتابة ، فهى من أبرز المسائل التى تمتحن بها قدرة العبريين فى تاريخهم القديم على الإنتاج والتصرف فى شئون الفكر والثقافة ، وهى كذلك من أبرز المسائل التى تمتحن بها بواعثهم الفكرية التى تدعو الأمة المنتجة إلى اختراع الوسيلة للإفضاء بما عندها لسائر الأمم من رسالات الإنسانية وأماناتها . ويطوف بنا فى تاريخهم ، يقيمون فى مصر ويرون المصريين يكتبون ولا يكون ذلك داعياً إلى سبقهم غيرهم فى الكتابة ودائماً يستفيدون ممن سبقهم ويتحجرون عليه ، وقد حفظ المزمور التاسع عشر أسماء الحروف التى احتوتها الأبجدية العبرية على عهد المملكة فكانت على هذا الترتيب (أبجد هوز . حطى . كلمن . سعفص . قرشت) اثنان وعشرون حرفاً . ومن آثار الاقتباس من النطق العربى أن حرف الغين لم يكن موجوداً بين حروف المزمور ، فلما وجد بعد اختلاطهم بمن ينطقون العربية أضافوه وسموه (غـيَـْمـــل) على وزن جـيَـْمل ويلاحظ أن جيمل بمعنى جمل عندهم أما غيمل فلا معنى لها غير المحاكاة اللفظية ، وليس فى العبرية ثاء ولا ذال ولا ضاد ولا ظاء ، ولكنهم يقربون حروفهم منها بالتفخيم أو يكتفون بما يشابهها من حروفهم . وفى القرن العاشر الميلادى خافوا على ضياع العبرية فرجع الأحبار إلى النحو العربى يقيسون عليه ويستعيرون منه ، وكتبوا أجروميتهم الأولى باللغة العربية مقرونة فى بعض الأحيان بالترجمة العبرية ، ومن هنا تحدث العقاد عن تلمذتهم للعرب ، فذكر أنهم تلاميذ فى فلسفة اللاهوت ، فكان فلاسفتهم تلاميذ لمدرسة ابن رشد ، ومن هؤلاء الفلاسفة (ابن ميمون) الذى قال : « إن وصايا الناصرى ورجل إسماعيل يعنى محمداً عليه السلام . تهدى الإنسان إلى الكمال » وقد ثار عليه المتعصبون من قومـــه وسموا كتابه « دلالة الحائرين » « بضلالة الحائرين »

وكانوا حيثما اشتركوا مع العرب فى ناحية من نواحى المعرفة والعقيدة تابعين مسبوقين ، ولم يكونوا قط سابقين لهم أو مرشدين .

أما الشعر فاللغة العبرانية خالية من الوزن والقافية وتستعيض منهما بالأسطر المتوازية والكلمات المترددة بين السطر

الأول وما يليه ، وقوام الشعر عندهم سطر يرددونه لأغراض ستة وهى : المجاز والاستطراد والتفسير والمبالغة والمقابلة والمقارنة ومن أمثلة الترديد لمقابلة المعنى الحقيقى بالمعنى المجازى قول المزامير : « من السيف أنقذ نفسى ، ومن يد الكلب أنقذ وحيدتى » ومن أمثلة الترديد للاستطراد قول أيوب : « هناك يكف المنافقون عن الفتنة ، وهناك يكف المتعبون فيستريحون » وهكذا ولا يقاس هذا بالعروض عند العرب ، فالشعر العربى كامل فى وزنه وقافيته وموسيقاه المتميزة التى تدل على تطور كبير ، وفن مستقل قائم بذاته .

وفى نهاية المطاف بين العقاد — مقصده من هذا الكتيب وهو تصحيح الأوهام الشائعة بين الغربيين عن تخلف الأمة العربية فى ميادين الثقافة وأنها تقتدى باليونان فى ثقافة الفكر ، وبالعبريين فى ثقافة العقيدة وقد بان لنا بما قدمه أنهم هم السابقون الذين أعطوا اليونان الثقافة الفكرية وكانوا لأنبياء بنى إسرائيل قدوة فى العبادة ومناهج الوجدان .

ولا شك أن الغربيين لا تطاوعهم نفوسهم فى إنصاف العرب ، فهم يقبلون أن يعترفوا بحضارات الهند والصين والفراعين ولكنهم من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون ينتقصون من شأن العرب ، لأن العرب طردوهم قديماً من الشرق وحصروهم فى جحورهم ودخلوا عليهم من أقطارهم ، واستولوا على شبه جزيرة أيبريا وحين تقاطروا فى الحروب الصليبية دحروهم بعد طول جهاد ، وفى كل العصور كان العرب منارة السلوك ومكارم الأخلاق . وإذا اختل الميزان أعواماً فتلك الأيام يداولها الله بين الناس . والأمل وطيد فى العودة إلى النسق الفريد وهو الجمع بين الدين والدنيا وإن الله مع المتقين .

السيد حسن قرون

الأزهر جامعاً وجامعة
أو مصر في ألف عام

الأستاذ / محمد كمال السيد

٣

الأزهر فى عهد السلاطين المماليك :

ذكرنا فى المقال السابق كيف عطل صلاح الدين الأيوبى خطبة الجمعة من الجامع الأزهر بعد القضاء على الفاطميين سنة ٥٦٧هـ . وكيف أنشأ هو ومن تبعه من الأيوبيين ٢١ مدرسة بمثـابة كليات فى القاهرة والفسطاط لتدريس العلوم الدينية على المذاهب السُّنية لتقوم مقام الأزهر . وكيف أعيدت خطبة الجمعة للجامع الأزهر سنة ٦٦٥ هـ فى عهد السلطان الظاهر بيبرس .

واستعاد الأزهر مكان الصدارة على باقى المدارس . وسـاعد على ذلك ظرفان تاريخيان :

الأول : أن التتار زحفوا بجحافلهم من الشرق الأقصى متجهين إلى الغرب يسقطون الدول ويحطمون العروش . ويعيثون فى الأرض إفساداً وفى الناس قتلاً وإرهابا . حتى دمروا بغداد . وقضوا على الخلافة العباسية . وقتلوا الخليفة العباسى المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ . (١٢٥٨م) . واستولوا على أغلب الشام . ولم يهزموا فى أى معركة ولم يُعق زحفَهم أىُّ عائق. حتى قامت مصر بقيادة السلطان المظفر قطز فصدت زحفهم وهزمتهم فى عين جالوت بفلسطين سنة ٦٥٨هـ

ونقل الظاهر بيبرس الخلافة العباسية إلى مصر بأن استقدم أحد أمراء بنى العباس وبايعه بالخلافة فى مصر . وعهد الخليفة إلى الظاهر بيبرس بالسلطنة وشؤون الدولة . وتلقب الخليفة باسم الحاكم بأمر الله العباسى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) .

وظلت الخلافة العباسية فى مصر حتى قضى عليها العثمانيون باستيلائهم على مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧م) . ونادوا بأنفسهم خلفاء على المسلمين . وانتهت السلطنة من استانبول سنة ١٩٢٢م بقيام الجمهورية التركية . ثم ألغيت الخلافة سنة ١٩٢٤م .

وكانت إقامة الخلفاء العباسيين فى مصر فى الأغلب بالقرب من مقام السيدة نفيسة . وقبورهم للآن هناك خلف المشهد . ومن هنا كان اسم (حى الخليفة) للمنطقة هناك .

وكان نتيجة لهجوم التتار أن نزح كثير من علماء المسلمين فى الشرق إلى مصر التى كانت تتحمل كامل العبء فى الدفاع عن الإسلام . وعن هذه القيم الحضارية والإنسانية التى أرسى قواعدها الإسلام . ضد الغزاة التتار من ناحية . وضد من كانوا يسمون بالصليبيين من ناحية أخرى . وقامت مصر بدورها التاريخى فى هذا كاملا خير قيام . فقد صدت التتار باستمرار . وأجلت الصليبيين عن جميع ما احتلوه فى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين حسب الأسماء التى نعرفها الآن . وتم هذا فى عهد الظاهر بيبرس ثم المنصور قلاوون ثم ابنه الأشرف خليل بن قلاوون الذى فتح عكا واستولى على صيدا وصور وبيروت وأنطرسوس سنة ٦٩٠هـ وبذلك تطهر الساحل والشام منهم بعد أن لوثوها بالاحتلال منذ سنة ٤٩٠هـ .

والظرف التاريخى الثانى : أن المسلمين فى الأندلس كانوا يعانون محنة من ضغط الإفرنج عليهم ، فنزح الكثيرون من علماء الغرب العربى إلى الشرق . وكانت القاهرة هى محط الرجال .

ولم يقف إنشاء المدارس فى عهد السلاطين المماليك الذى استمر بدولتهم : البحرية والبرجية ٢٧٥ سنة حتى دخول العثمانيين . فقد ذكر المقريزى ٤٣ مدرسة أنشئت فى عهدهم بخلاف الجوامع والمساجد والخوانك والأربطة والمارستانات (أى المستشفيات) العامة فهى فضلا عن علاج المرضى وصرف ما يلزم لهم من أدوية وأغذية كانت بمثابة كليات للطب نذكر منها المارستان المنصورى الباقى للآن بشارع المعز لدين الله بجهة النحاسين كمستشفى للرمد .

وكان للأزهر مركز الصدارة على

هذه المدارس العديدة . وكان خريجوه شيوخا لها . وكانت تدرس فيه كافة العلوم المعروفة وقتذاك . ففضلا عن علوم الدين بفروعها من أصول وتفسير وحديث وفقه وغيرها . وفضلا عن علوم اللغة بفروعها من نحو وصرف وأدب وبلاغة وغير ذلك . فقد كانت تدرس فيه الرياضيات من حساب وجبر وهندسة وفلك وميقات وطبيعة وكيمياء . كذلك المنطق والتاريخ وتقويم البلدان وغيرها من العلوم .

وقد ذكرنا في المقال السابق ما رواه عبداللطيف البغدادى عن تدريس الطب فى الأزهر .

والكثيرون ممن تفخر بهم المعارف الإسلامية وتعتز بهم وبأبحاثهم كانوا من علماء الأزهر أو طلابه . ونذكر منهم : العلامة ابن خلدون .

وهو ولى الدين أبو زيد عبد الرحمن ابن محمد بن خلدون (٧٣٢–٨٠٨هـ = ١٣٣١ – ١٤٠٥م) الفيلسوف العالم المؤرخ . ولد فى تونس وتقلب فى الوظائف فى دول بنى حفص وبنى عبدالواد وبنى الأحمر وبنى مرين فى تونس وتلمسان والأندلس والمغرب الأقصى . وفى سنة ٧٨٤ هـ نزح إلى القاهرة فقربه السلطان برقوق وولاه قضاء قضاة المالكية . ودرّس بالأزهر ولما هجم تيمورلنك على الشام خرج مع الناصر : فرج بن برقوق لمحاربته . ووقع فى أسر تيمورلنك . وأعجب به . وكان واسطة الصلح بين التتار والمسلمين . وتولى قضاء المالكية عدة مرات حتّى توفى سنة ٨٠٨هـ بالقاهرة .

ولابن خلدون فى التاريخ (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) طبع فى القاهرة سنة ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) فى سبعة مجلدات . بخلاف المقدمة . وقالت دائرة المعارف الإسلامية عن مقدمته المشهورة : (التى تتناول الكلام على كل فروع المعرفة والحضارة العربية : فستظل بلا شك أعظم مؤلفات ذلك العصر وأهمها من جهة العمق فى التفكير . والوضوح فى عرض المعلومات . والإصابة فى الحكم. ويظهر أنه لم يفقها كتاب مّا لأى مؤلف إسلامى) .

وقال ابن خلدون عن القاهرة عند قدومه لها سنة ٧٨٤هـ — وكانت القاهرة وقتذاك أكبر مدن العالم كله — : (فرأيت قاهرة الدنيا . وبستان العالم . وكرسى الملك . وإيوان الإسلام . تلوح :

القصور والأواوين فى جوه ، وتزهو الخوانك والمدارس بآفاقه . وتضىء البدور والكواكب فى علياته . . . وختم حديثه عنها بقوله : ومن لم يرها لم يعرف عزة الإسلام) .

ونذكر ممن درسوا بالأزهر فى ذلك العهد: الحافظ العلامة ابن حجر العسقلانى وكان أيضاً خطيباً له .

وهو شهاب الدين أبو الفضل أحمد ابن محمد بن محمد بن على العسقلانى ولد بمصر القديمة (الفسطاط) سنة ٧٧٣ هـ . وتوفى سنة ٨٥٢ هـ . وذكره السيوطى فى (حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٧) بين من كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده . وقال عنه : (إمام الحفاظ فى زمانه . وانتهت إليه الرحلة فى الرئاسة والحديث . فلم يكن فى عصره حافظا سواه) . وقالت عنه دائرة المعارف الإسلامية (حجة مشهور ، ومؤرخ ، وفقيه شافعى) .

وفقد ابن حجر والديه وهو صغير . فنشأ فى كنف أحد التجار المسمى : زكى الدين الخروبى ، وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين وانكب على الدراسة . ودرس على مشاهير عصره . مثل الفقه والحديث على سراج الدين البلقينى ، وابن جماعة . واللغة وفقهها على ابن هشام والفيروزابادى صاحب القاموس المحيط ، وكذلك باقى العلوم على شيوخ عصره .

ونود أن نذكر كلمة مختصرة عن بعض هذه الأسماء — :

فالخروبى : لقب لأسرة من أثرياء التجار فى القرن الثامن الهجرى . من آثارها : مدرستان بالفسطاط ، ذكرهما المقريزى فى الخطط (ج ٢ ص ٣٦٨ وص ٣٦٩) أنشأ الأولى بدر الدين محمد المتوفى سنة ٧٦٢هـ . وكان من مدرسيها : سراج الدين البلقينى وسيأتى ذكره بإذن الله . وأنشأ الثانية تاج الدين محمد بن صلاح المتوفى سنة ٧٨٥هـ .

والبلقينى : اسم أسرة على المذهب الشافعى نسبة إلى بلقينة من قرى مركز سمنود . تولى كثيرون منهم قضاء القضاة بمصر أولهم : سراج الدين عمر ابن رسلان وهو أستاذ ابن حجر درس بمصر ولما تولى حموه ابن عقيل قضاء القضاة بدمشق عينه نائباً له . واشتغل بعد ذلك مفتياً بدار العدل . وقالت دائرة المعارف الإسلامية : إنه لم يرق إلى منصب قاضى ، بل شغل

منصباً أقل درجة وهو قاضى العسكر فضلا عن التدريس بعدة مدارس. على أنه تشرف بلقب **شيخ الإسلام** الذى كان فى صف قاضى القضاة أو أعلى منه وتوفى سنة ٨٠٥هـ .

ثم الثانى: ابنه بدر الدين محمد بن عمر تولى قضاء العسكر، وتوفى فى حياة والده سنة ٧٩١هـ .

ثم الثالث: جلال الدين عبد الرحمن ابن عمر تولى قضاء القضاة حتى توفى سنة ٨٢٤هـ وكان صديقاً لابن حجر.

ثم الرابع: علم الدين صالح بن عمر تولى قضاء القضاة من سنة ٨٢٥–٨٦٨هـ حيث توفى. وهو أستاذ السيوطى والسخاوى فى الفقه.

ثم الخامس: بدر الدين بن محمد بن عبد الرحمن أى حفيد الثالث تولى قضاء القضاة سنة ٨٧١ هـ وعزل بعد شهور.

وابن جماعة: اسم لأفراد أسرة أصلاً من حماة. ويذكر المؤرخون أفرادها بهذا الاسم فقط مما يدعو إلى الخلط بينهم. واشتهر منهم الأول: بدر الدين محمد بن إبراهيم (٦٣٩ – ٧٣٣هـ) تولى قضاء بيت المقدس ثم قضاء القضاة بالقاهرة من ٧٢٠–٧٢٧هـ. وهو أستاذ ابن حجر. ثم الثانى: ابنه عز الدين عبد العزيز (٦٩٤–٧٦٧هـ) تولى قضاء القضاة بمصر والشام ثم اعتزل سنة ٧٦٥هـ وانقطع للتدريس. والثالث: برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحيم ابن بدر الدين – أى حفيد الأول (٧٢٥ – ٧٩٠هـ) ولد بالقاهرة وعين خطيباً ببيت المقدس ثم فى سنة ٧٧٣ هـ عين قاضى قضاة مصر، ولكنه عاد لبيت المقدس بعد سنة. ثم عين ثانية قاضى قضاة مصر فى ٧٨١ – ٧٨٥ هـ . والرابع: محمد بن أبى بكر بن عبد العزيز – أى حفيد الثانى – ولد سنة ٧٥٩هـ وكان طبيباً ومدرساً للفلسفة فى القاهرة وتوفى بالطاعون سنة ٨١٩ هـ .

وقد ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة ج ١ ابن جماعة الأول بين فقهاء الشافعية ص ١٩٤. والثانى بين حفاظ الحديث ص ١٦٥.

نعود إلى ترجمة ابن حجر: فكان ابن حجر صديقاً لجلال الدين البلقينى الذى كان قاضى القضاة. فعينه نائباً له بعد أن رفض ابن حجر عدة مرات. ثم عُين ابن حجر مفتياً بدار العدل. وحضر سنة ٨١٥هـ تولية السلطان المؤيد شيخ: وهو الذى اختار له لقب أبى النصر.

وفى سنة ٨٢٧هـ عينه الأشرف برسباى

قاضى قضاة مصر جميعها . وعزل وأعيد لمنصبه عدة مرات آخرها بعد وفاة قاضى القضاة شمس الدين القاياتى سنة ٨٥٠هـ. ولم يمكث قليلا حتى عزل وخلفه صالح ابن عمر البلقينى . وانقطع ابن حجر للتأليف حتى مرض وتوفى إلى رحمة الله سنة ٨٥٢ هـ .

وكان ابن حجر مؤرخاً وشاعراً وبارعاً فى كثير من العلوم. ولكنه فاق فى علم الحديث، وترك ثروة طائلة من المؤلفات تزيد عن المائة وخمسين مؤلفاً بعضها ضاع وبعضها لا يزال مخطوطاً .

ونذكر من كتبه التى طبعت: (فتح البارى فى شرح البخارى - مطبعة بولاق سنة ١٣٠٠هـ فى أربعة عشر جزءاً) (الإصابة فى تمييز الصحابة - القاهرة سنة ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م وكستلانى سنة ١٨٥٦ ، ١٨٧٣م فى أربعة مجلدات) ، (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة - حيدر أباد سنة ١٣٤٨هـ) و (تهذيب التهذيب - حيدر أباد ١٣٢٥هـ) ، (بلوغ المراد من أدلة الأحكام . القاهرة سنة ١٣٣٠هـ) .

وفى تشييع جنازة ابن حجر أمطرت السماء على النعش وهو قريب من المصلى فقال شاعر العصر الشهاب المنصورى:

قد بكت السحب على
قاضى القضاة بالمطر
وانهدم الركن الذى
كان مشيداً بالحجر

وقال السيوطى - وسايره على مبارك:
إنه لم يكن ذاك وقت مطر .

وابن حجر توفى فى ذى الحجة سنة ٨٥٢هـ وهو يوافق يناير/فبراير سنة ١٤٤٩م وهما شهرا مطر (حسن المحاضرة ج ١ ص١٦٧ ، الخطط التوفيقية ج٦ص٣٧).

ونذكر أيضاً ممن درسوا بالأزهر فى ذلك العهد: الشيخ **عبد الوهاب الشعرانى** المنسوب له المسجد الحالى بميدان باب الشعرية - :

وهو العارف بالله الشيخ عبدالوهاب ابن أحمد الزغلى - أصل جدوده من سلاطين تلمسان (بجمهورية الجزائر الآن) وينتهى نسبه إلى محمد بن على ابن أبى طالب المعروف بابن الحنفية - وهو أخو الإمامين الحسن والحسين لأبيهما على بن أبى طالب ، وأمه من بنى حنيفة من سبى اليمامة بحروب الردة. وولد الشيخ بقلقشندة من قرى القليوبية . ثم انتقلت به أمه إلى قرية ساقية

أبى شعرة من قرى المنوفية ، وهى بلدة أبيه ، ومن هنا جاءت نسبة الشعرانى .

وكان مولده سنة ٨٩٨ هـ (١٤٩٢م) وانتقل إلى القاهرة وعمره اثنتا عشر سنة . بعد وفاة والده بسنوات قليلة. فدرس بالأزهر ، ثم بالجامع الغمرى بشارع مرجوش ، ثم بمدرسة أم خوند بخط كافور الأخشيدى، ثم أنشأ زاويته محل الجامع الحالى .

وذاعت شهرته ، وعلا اسمه كفقيه عالم ، وصوفى له طريقته وأتباعه ومريدوه ، ونُسبت إليه كرامات ، وعرف قدره العلماء والحكام ، وزخرت زاويته بالطلاب والمريدين ، من فقراء الطريق ، فكـان ينفق عليهم . وكان راتبه اليومى من الخبز : أردباً وثلث أردب من القمح ، ويختزن لهم كل عام عشرة قناطير من عسل النحل ، وعشرين قنطاراً مـن عسل القصب ، وأربعين أردباً من الفول ، وسبعة أرادب من الكشك ، ومثلها من الأرز ، ولا ينسى الترفيه عنهم فيختزن لهم أيضاً من أصناف النُّقْل من جوز ولوز وبندق وغيرها خمسة قناطير (الشعـرانى للدكتور توفيق الطويل ، الخطط التوفيقية لعلى مبارك ج١٤ ص ١٠٩) .

وبلغت مؤلفاته فى الفقه والتصوف أكثر من سبعين مؤلفا ، أشهرها (لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار والمعروف بالطبقات الكبرى) ، (الميزان الكبرى) ، (اليواقيت والجواهر) . وطبعت بعض مؤلفاته، ولا يزال الكثير منها مخطوطاً .

وتوفى سنة ٩٧٣ هـ . ودفن بزاويته المذكورة . وقبره بها للآن يزار .

ولا علاقة بين اسم الشعرانى وباب الشعرية. وإن تقاربت حروف اللفظين ؟ فالشعرية نسبة إلى طائفة من البربر يقال لهم : بنوالشعرية قدموا فى عهد الفاطميين ، وهم : مزاتة ، وزيارة ، وهوارة من أحلاف لواتة . **وباب الشعرية** كان فى السور الشمالى للقاهرة الذى مدّه قره قوش بأمر صلاح الدين الأيوبى لما أراد أن يدير سوراً حول القاهرة والقلعة والفسطاط . ولم يتم ذلك . ومد قره قوش السور الشمالى حتى باب البحر عند ميدان رمسيس الحالى . وقد سبق أن ذكرنا فى مقال سابق (من صفحات من تاريخ القاهرة) أنه كانت هناك الميناء النهرية للقاهرة ، وكان موقع باب الشعرية مقابل جامع العدوى الموجود للآن بأول سكة الفجالة المتفرعة من شارع بور سعيد (الخليج المصرى

سابقاً) . وهو يبعد عن ميدان باب الشعرية الحالى بحوالى ١٥٠ متراً .

ونذكر أيضاً من شيوخ الأزهر فى ذلك العهد: كمال الدين محمد بن موسى الدميرى (٧٥٠ – ٨٠٨ هـ = ١٣٤٩ – ١٤١٥م) من مواليد القاهرة على الأرجح وإن كان ينسب إلى دميرة قرية بقرب سمنود . فقد درّس بالأزهر الحديث والفقه والتفسير والفلسفة والأدب. ودرّس أيضاً بمكة داخل الكعبة الشريفة. وله مؤلفات عديدة فى هذه المواضيع . ولكنه اشتهر بكتابه العلمى (حياة الحيوان الكبرى – طبع بالمطبعة الأميرية سنة ١٢٧٥ هـ فى مجلدين) .

فقد رتب فيه الحيوان على الحروف الهجائية . ذاكراً اسم الحيوان من الناحية اللغوية ووصفه وعاداته وما يروى عنه من القصص وأحكام الشريعة فيه على مختلف المذاهب . وما ورد فيه من الأمثال . والخواص الطبيعية للحيوان . وبهذا كان كتاباً جامعاً بين العلم والأدب والدين .

وللدميرى الفضل فى وضع أساس علم التكافل أو المشاركة بين الأحياء . الذى ينسبه الغربيون إلى جيته الفيلسوف الألمانى (١٧٤٩– ١٨٣٢م) أى بعد الدميرى بعدة قرون . (مقال للدكتور حسين فرج زين الدين نشر بدائرة معارف الشعب المجلد الثانى ص ٤٦٤، الخطط التوفيقية ج ١٤ ص ١٠٩)

ونقل الغربيون على الدميرى مقدرين فضله . ونوّهت بذكره دائرة المعارف البريطانية . وذكره السيوطى بين قضاة الشافعية (حسن المحاضرة ج١ص ٢٠٢) وقال : اشتهرت عنه كرامات وإخبار بأمور مغيبات .

وفى المدارس التى أنشئت فى عهد السلاطين المماليك ثلاث مدارس نذكرها لأنها كانت ملاصقة للجامع الأزهر. ثم أدخلت فيما بعد ضمن مبانيه الحالية كما سيأتى خبره بإذن الله ؟

فأولى هذه المدارس هى **المدرسة الطيبرسية** وهى على يمين الداخل من الباب الغربى الكبير المطل على ميدان الأزهر الحالى (والمعروف بباب المزينين) واتجاه هذا الباب فى الواقع إلى الشمالى الغربى. ولكن نقول هذا للتخفيف ومسايرة للمؤرخين.

وقال المقريزى عن المدرسة الطيبرسية (الخطط ج٢ ص ٣٨٣): إن عمارتها انتهت سنة ٧٠٩ هـ وإن منشئها تأنق فى رخامها وتذهيب سقوفها حتى جاءت فى أبدع زى وأحسن قالب وأبهج ترتيب

لما فيها من إتقان العمل وجودة الصناعة بحيث إنه لم يقدر أحد على محاكاة ما فيها من صناعة الرخام . فإن جميعه على أشكال المحاريب . وقال على مبارك (الخطط التوفيقية ج ٤ ص ١٨) إنها مربعة وتبلغ مساحتها ١٦٧,٧٦ متراً مربعاً . وفيها أربعة أعمدة من الرخام . ولها قبة عظيمة من الرخام الملون بها عمودان من حجر السماق ومنقوش بأعــلاها بالخط الجميل : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة . ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) اه وبها قبر منشئها وكانت لها شبابيك تطل على الجامع الأزهر لم يفتحها إلا بعد فتوى العلماء .

ومنشؤها هوطيبرس بن عبد الله الوزيرى كان نقيباً للجيش فى عهد السلطان المنصور لاجين . وقيل : إنه رأى مناماً للاجين قبل سلطنته : أنه سيلى الحكم . فوعده إن تحقق أن يرقيه . فلما تسلطن لاجين عينه نقيباً للجيش سنة ٦٩٧ هـ . وباشر وظيفته بعفة وأمانة . وظل بها — بعد لاجين فى السلطنة الثانية للناصر محمد ابن قلاوون ثم فى سلطنة المظفر بيبرس الجاشناكير ثم فى السلطنة الثالثة للناصر محمد بن قلاوون — حتى توفى سنة ٧١٩ هـ . ودفن فى مدرسته المذكورة .

والمنصور لاجين تولى السلطنة من ٦٩٦ — ٦٩٨ هـ وبيبرس الجاشناكير تولى السلطنة تسعة شهور ٧٠٨/٧٠٩ . والجاشناكير كانت وظيفته قبل السلطنة . وهى إحدى الوظائف العالية فى الدولة . مركبة من كلمتين فارسيتين — جاشنا بمعنى الذوق وكير بمعنى المتعاطى — وهو الذى يتصدى لتذوق الطعام والشراب قبل السلطان خوفاً أن يكون مسموماً .

وقيل : إن طيبرس بعد تمام مدرسته هذه أحضرت له كشوف حساب تكاليفها فاستدعى بطست ماء . وغسل فيها أوراق الحساب جميعها دون أن يطلع منها على شىء . وقال : شىء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه !

ومن آثاره أيضاً : جامع وخانكاه أنشأهما ببستان الخشاب . وهو أول من عمر به . ولا يزال للآن هناك شارع متفرع من شارع القصر العينى شمال مستشفى الكلب اسم شارع الطيبرسى حيث كان تقريباً موقع الجامع والخانكاه المذكورين . وبستان الخشاب كان جنوبى القصر العينى القديم وبالجزء الجنوبى من حى المنيرة . وكان مما انحسر عنه النيل عندما حوّل مجراه غرباً فى القرن السادس الهجرى . وهناك الآن شارع

يتفرع شرقاً من شارع القصر العيني اسمه شارع بستان الخشاب .

وذكر المقريزي عن طيبرس في موضع آخر أنه عمل قنطرة ليدخل من تحتها الماء من الخليج المصري إلى بركة الفيل بالقرب من درب الجماميز . وأن هذه القنطرة كان اسمها المجنونة. وقال إن طيبرس هذا يعتريه الجنون . فقال أحد الشعراء :

ولقد عجبت من الطبرس وصحبه
وعقولهم بعقوده مفتونة
عقدوا عقوداً لا تصح لأنهم
عقدوا المجنون على مجنونة

ونرى أن الشعر يدل على أن اسم المجنونة أقدم من طيبرس . كما أنه لا يفهم من ترجمته هذه أنه كان مجنوناً .

والمدرسة الثانية التي ضمت فيما بعد مبانيها إلى الجامع الأزهر هي المدرسة الآقبغاوية. وهي على يسار الداخل للجامع الأزهر من الباب الغربي المذكور . أي مقابل المدرسة الطيبرسية . وهي نسبة إلى منشئها آقبغا عبد الواحد. وآقبغا معناها الفحل الأبيض ، فآق معناها أبيض ، وبغا معناها فحل بتقديم الصفة على الموصوف ، كالقاعدة عندهم . وعبد الواحد : اسم التاجر الذي باعه .

وذكر كتاب الأزهر وتطوره إصدار وزارة الأوقاف ص ٤٤ : أن بيبرس الجاشنكير وآقبغا عبد الواحد أنشآ مدرستين على مقربة من الأزهر ثم ألحقت المدرستان فيما بعد بالأزهر .

والصحيح أن المدرستين من إنشاء طيبرس وآقبغا عبد الواحد كما ذكرنا .

وكان مكان المدرسة الآقبغاوية دار عز الدين أيدمر الذي كان له الفضل في إعادة الخطبة والمكانة للجامع الأزهر في عهد الظاهر بيبرس كما سبق ذكره .

وكان آقبغا مقربا إلى الناصر محمد بن قلاوون . وقيل : إنه كان أخا زوجته . فجعله استدار . وهي إحدى الوظائف الكبرى . وهي فارسية مركبة من استذ بمعنى الأخذ، ودار بمعنى ممسك ، وهو الذي يتولى قبض مال السلطان وتمثيل أوامره فيه. وخطأ القلقشندي من يقول : إنها من أستاذ بمعنى السيد أو الكبير (صبح الأعشى ج٥ ص ٤٧٥) .

وكان آقبغا ظالما غشوماً أقرض ورثة عز الدين أيدمر ثم أعسفهم في الطلب حتى اضطروا إلى إعطائه هذه الدار فهدمها . وأخذ قطعة من سور الجامع الأصلي ليساوي الطيبرسية . وبنى المدرسة سنة ٧٤٠هـ . وسخر العمال في بنائها : بأن فرض عليهم

عمل يوم كل أسبوع بدون أجر، ونهب مواد البناء إما من مبانى أخرى وإما من اختلاسات من عمارات السلطان حيث كان مباشراً لها. فلما كملت أمّل محتسب القاهرة وقتذاك أنه سيعينه فى التدريس فيها فتقرب إليه بفرشها على حسابه. ولكنه لم يعينه!

والحسبة كانت وظيفة إسلامية يقوم متوليها بالمرور فى الأسواق لمراقبة المكاييل والموازين والأسعار وعدم الغش والآداب العامة، ويوقع العقوبات المناسبة فوراً بالضرب أو المصادرة أو التوبيخ أو غير ذلك. وهذه العقوبات تسمى بالتعزيز. ومعنى التعزير اللغوى اللوم. وهى دون الحدود المنصوص عليها، وقال القلقشندى نقلا عن الأحكام السلطانية للماوردى: إنها مشتقة من قولهم: حسبك يعنى اكفف. لأنه يكف عن الظلم. وفى القاموس المحيط: احتسب عليه أنكر، ومنها المحتسب.

وقال المقريزى عن الأقبغاوية: إن منارتها من حجارة منحوتة. وهى أول مئذنة عُملت بديار مصر بعد المنصورية (يعنى جامع ومدرسة المنصور قلاوون بشارع المعز لدين الله بجوار المارستان المنصورى) وقبل ذلك كانت المآذن تبنى بالآجر.

وقال: إنها مدرسة مظلمة ليس عليها من بهجة المدارس ولا أُنس بيوت العبادات شىء ألبتة.

وكان قصد آقبغا أن يدفن فى مدرسته هذه. ولكن عدالة القدر أبت عليه ذلك فصودرت أملاكه وأمواله. ونفى إلى الإسكندرية وقتل هناك بأمر الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٤ هـ.

وكانت الآقبغاوية عند إنشائها مدرسة وخانكاه. فقد جعل فيها درساً للشافعية. وآخر للحنفية. وجعل فيها عدة من الصوفية ولهم شيخ. وطائفة من القراء يقرأون القرآن بشبابيكها. وفتح لها شبابيك على صحن الجامع.

ورممت هذه المدرسة فى عهد الخديوى إسماعيل. وبها الآن مكتبة الأزهر. وسيأتى ذكرها وذكر رواق الآقبغاوية بإذن الله.

وكان لآقبغا عبد الواحد بستان كبير حكّره مبانى وأملاكاً ذكره المقريزى ضمن الأحكار. وكان موقعه شرقى وغربى الخليج المصرى وجنوب غربى مسجد السيدة زينب. ويوجد الآن شارع متفرع من شارع الخليج (بور سعيد) أمام مطابع الهلال كان اسمه شارع آقبغا عبد الواحد.

وتغير أخيراً إلى اسم شارع عبد الرحمن شكرى .

والمدرسة الثالثة التى أدخلت ضمن مبانى الأزهر الحالية هى الجوهرية .

والمدرسة الجوهرية فى الجهة البحرية الشرقية من الجامع الأزهر . وهى نسبة إلى منشئها جوهر القنقبائى الطواشى الحبشى وقانقبائى نسبة إلى مالكه الأصلى قانقباى أحد المماليك الجراكسة . وتولى جوهر الخازندارية فى عهد الأشرف برسباى (حكم فى ٨٢٥ – ٨٤١هـ) فباشرها مباشرة حسنة . وتزاحمت الناس على بابه وصار يقضى حاجة من ينتمى إليه . وبعد وفاة الأشرف وخلع ابنه الطفل أضيفت إليه وظيفة الزمام دار فى عهد الظاهر جقمق (٨٤٢–٨٥٧) والزمام دار أصلها الزّنان دار . وهى وظيفة من يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير . وهى مركبة من لفظين أحدهما زَنان بمعنى النساء . ودار بمعنى ممسك . فيكون معناها الموكل بحفظ الحريم . إلا أن العامة وأيضاً الكثير من الخاصة . قد قلبوها إلى (زمام‌دار) ظناً أن الدار على معناها العربى والزمام بمعنى القائد (صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٠) .

وزادت مكانة جوهر . وجمع ثروة طائلة بعضها من طرق مريبة بيّنها السخاوى فى (الضوء اللامع) ولكنه : والله أعلم بسريرته . وقال : ومع ذلك كان مواظباً على الصلاة ويتصدق على فقراء الحرمين .

وتوفى جوهر سنة ٨٤٤ هـ . ودفن بمدرسته هذه . وكان الاعتقاد أن جوهر المدفون بهذا القبر هو جوهر الصقلى منشئ القاهرة والأزهر . حتى بيّن أحمد زكى باشا شيخ العروبة خطأ هذا الزعم . وأن قبر جوهر القائد مجهول للآن .

والسخاوى هو شمس الدين محمد ابن عبد الرحمن مؤرخ وفقيه ولد ومات بالقاهرة (٨٣١ – ٩٠٢ هـ) وكان ابن حجر العسقلانى وعلم الدين البلقينى من شيوخه فى الحديث والفقه . وبلغت مؤلفاته أكثر من ١٤٠ مؤلفاً . بعضها فى عدة أجزاء . نذكر منها : **(الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع)** ، **(التبر المسبوك فى ذيل السلوك – يعنى** كتاب السلوك للمقريزى) ، **(الإعلان والتوبيخ لمن ذم التاريخ)** ، **(الذيل على قضاة مصر (لابن حجر)** ، **(التراجم والدرر فى ترجمة ابن حجر)** وغيرها .

والمدرسة الجوهرية أرضها بالرخام الملون . وبها قبر منشئها . ولها شباك فى جدار الجامع الأزهر اعترض على فتحه القاضى بدر الدين محمود العينى — جد شهاب الدين أحمد العينى منشئ القصر العينى — وحمل على جوهر فى تاريخه بسبب هذا الشباك . ولها الآن باب من داخل الجامع .

والقاضى بدر الدين محمود العينى المذكور هو قاضى قضاة الحنفية أصله من عين تاب (بالجمهورية التركية الآن . واللقب نسبة إليها ولو أنها نسبة على غير القياس) تولى الحسبة بمصر سنة ٨٠١ ﻫ بدلا من المقريزى . ثم عزل وتبادلها عدة مرات مع المقريزى . وعين قاضى قضاة الحنفية من ٨٢٩—٨٣٣ﻫ. وعزل وأعيد فى سنة ٨٣٥—٨٤٢ﻫ . وأنشأ المدرسة العينية سنة ٨١٤ﻫ ولا تزال موجودة للآن بشارع التبليطة (الشيخ محمدعبده سابقاً) خلف الجامع الأزهر . وهى من المدارس الملحقة به وتوفى العينى سنة ٨٥٥ ﻫ . ودفن بمدرسته المذكورة . وعُرفت الجهة هناك بالعينية كما فى تاريخ الجبرتى . وكانت فى عهد المقريزى اسمها حارة كتامة . ولم يذكر المقريزى المدرسة العينية ضمن المدارس مع أنها أنشئت سنة ٨١٤ ﻫ والمقريزى توفى سنة ٨٤٥ﻫ. ربما للتنافس بينهما فى وظيفة الحسبة . وهى سقطة من المقريزى .

وللعينى مؤلفات عديدة نذكر منها (عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى — طبع الآستانة فى أحد عشر جزءاً) ، (عقد الجمان فى أخبار الزمان — ثمانية أجزاء) ، (كشف اللثام فى السيرة النبوية لابن هشام) ، (شرح لجزء من سنن أبى داود — فى جزأين منه نسخة بخط المؤلف بدار الكتب المصرية) وغيرها .

وكان بجوار المدرسة الجوهرية : **زاوية العميان** . وبينهما طرقة . وقد أنشأ هذه الزاوية عثمان كتخدا — مملوك والد عبد الرحمن كتخدا صاحب العمائر الشهير ، والذى له الفضل الكبير : فى الإصلاحات الكبيرة فى مبانى وعمارة الأزهر كما سنذكر بإذن الله عن الأزهر فى عهد العثمانيين . ولعثمان كتخدا هذا أيضاً إصلاحات بالأزهر سيأتى ذكرها بإذن الله . كما أنه منشئ الجامع الكبير على ناصية شارعى الجمهورية وقصر النيل بالقرب من ميدان إبراهيم باشا والمعروف بجامع الكخيا .

وقال على مبارك عن زاوية العميان :

إنها تحتوى على أربعة أعمدة من الرخام ولها قبلة وميضأة وثلاثة عشر مرحاضاً وفوقها ثلاث أود للعميان . ولا يسكنها غيرهم . ولهم شيخ وجراية (مقرر من الخبز) تصرف عليهم .

وكان إنشاء زاوية العميان حوالى سنة١١٤٨ ﻫ (١٧٣٥م) . وقد أزيلت ومكانها الآن إدارة الجامعة الأزهرية .

الإصلاحات فى الجامع الأزهر فى عهد السلاطين المماليك

فى سنة٧٠٢ﻫ فى سلطنة الناصر محمد ابن قلاوون حصلت زلزلة سقط بسببها عدة دور ومساجد فى الفسطاط والقاهرة منها الجامع الأزهر ، فتولى عمارته وترميمه الأمير سلار نائب السلطنة . ثم جدد سنة ٧٢٥ﻫ (١٣٢٥م) فى سلطنة الناصر محمد أيضاً .

وفى سنة ٧٦١ﻫ فى عهدالناصر حسن ابن الناصر محمد بن قلاوون جدد أيضاً على يد الطواشى بشير الجمدار . والجمدار : هو الذى يباشر ملابس السلطان لفظ فارسى مركب من كلمتين : جاما بمعنى الثوب ، ودار بمعنى ممسك .

وفى هذه المرة كان التجديد شاملا . فقد كانت جدّت فى الجامع عدة مقاصير وضعت فيها صناديق وأمتعة ضيّقت الجامع فأمر بشير الجمدار بإزالة المقاصير وإخراج الأمتعة . ورمم جدرانه وسقوفه . وبيّضه وبلّطه . وجعل عند الباب القبلى سبيلا للماء العذب . وفوقه مكتبا لإقراء أيتام المسلمين . ورتب فيه درسا للفقهاء الحنفية يجلس مدرسهم لإلقائه فى الفقه الحنفى بالمحراب الكبير . ورتب مصحفاً وجعل له قارئاً . ورتب لفقراء المجاورين طعاماً يطبخ كل يوم. والمجاورون: هم فقراء الأزهر المقيمون فيه . وظل مؤذنو الجامع الأزهر يدعون للسلطان الناصر حسن عقب كل صلاة بعد حكمه بأكثر من مائة سنة .

وفى سنة ٧٨٤ ﻫ صدر مرسوم من الظاهر بوقوق . أول السلاطين البرجية : أن من مات من مجاورى الأزهر بدون وارث شرعى فتركته تؤول إلى المجاورين بالجامع . ونقش هذا على حجر كبير عند الباب الغربى الأصلى .. ولا ننسى أن كثيراً من المجاورين كانوا من بلاد نائية من شتى أنحاء العالم الإسلامى .

وفى سنة ٨٠٠ﻫ فى سلطنة الظاهر برقوق أيضاً هدمت منارة الجامع وعملت منارة أخرى أطول منها . وعلقت عليها القناديل . واجتمع القراء والوعاظ وتلوا ختمة قرآنية ودعوا للسلطان .

وفى سنة ٨١٧هـ فى سلطنة المؤيد شيخ : ظهر ميل بهذه المئذنة . فهدمت وهدم الباب الغربى الأصلى وأعيد بناؤه بالحجر . وركبت المئذنة فوق عقده . ثم فى سنة ٨٢٧هـ هدمت فى عهد الأشرف برسباى .

وبلغ عدد الفقراء الملازمين الإقامة بالأزهر فى زمن المقريزى – أى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى – ٧٥٠ رجلا ما بين عجم وزيالعة (نسبة إلى زيلع بالصومال على خليج عدن) ومغاربة وأرياف مصر وغيرهم .

وقال المقريزى (الخطط ج ٢ ص ٢٧٦) : (ولكل طائفة رواق يعرف بهم . فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه. والاشتغال بأنواع العلوم : الفقه والحديث والتفسير والنحو . ومجالس الوعظ وحلق الذكر . فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأُنس بالله والارتياح والترويح للنفس ما لا يجده فى غيره . وصار أرباب الأموال يقصدون هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى . وكل قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات . ولا سيما فى المواسم) ا هـ .

وفى جمادى الأولى سنة ٨١٨هـ فى سلطنة المؤيد شيخ : تعرض المقيمون بالأزهر لمحنة . فقد تولى نظارته الأمير سودون . فأراد أن ينظم أحواله . ولكن أخطأ التوفيق. وتعسف فى الرأى والتنفيذ. فأمر بطرد المقيمين فيه . واعتدى على أمتعتهم فبددها وبعثرها . فحل بالفقراء ضرر كبير . وكان بعض الناس قد اعتادوا المبيت بالجامع . من تاجر وفقيه وجندى ومختلف الطبقات . بعضهم على سبيل البركة وبعضهم لعدم وجود مكان مبيت له . والآخرون يقصدون الترويح عن النفس خصوصاً فى ليالى الصيف وشهر رمضان . فيمتلىء صحنه ورواقاته بالكثيرين . فَبَغَتَهُمْ سودون ذات ليلة وقبض على بعضهم وضرب الباقين وطردهم . واستولى أعوانه وغوغاء العامة على أمتعتهم وفرشهم . وسلبوهم ما كان معهم من مال . وقال المقريزى ما معناه : إن الله عاجله بالانتقام واعتقل سودون فى رمضان من نفس العام.

وفى سلطنة الأشرف قايتباى المتوفى سنة ٩٠١ هـ جدد باب الجامع الأصلى . وعملت فى صحنه فسقية كبيرة معتبرة . كما أنشأ قايتباى منارة باقية للآن على يمين الداخل من الباب الأصلى . وهى

أعلى منارات الجامع وأعظمها . وفصل صحن الجامع عن المقصورة الأصلية بدرابزين من الخشب باق للآن . وإن كان قد جدد على حالته الأصلية فى عهد عباس حلمى الثانى سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢ م) .

ويوجد بمتحف الفن الإسلامى سقف سبيل به كتابة بالثلث تدل على أنه من عهد قايتباى . وكذلك لوح من الخشب من عهد قايتباى وثريا نحاس شغل سبك مخروطة الشكل . وزلعة قيشانى لها أربعة آذان . و ٥٣ قطعة قيشانى مختلفة كلها منقولة من الجامع الأزهر . وتحت أرقام على التوالى ٤٨٢ و ٦٩٠ و ٤٩٥ و ٧٦٤ و ١١٣١ – ١١٨٤ . وغير ذلك .

ورتب الظاهر قانصوه بن قانصوه (خُلع سنة ٩٠٤هـ) طعاماً للمجاورين فى شهر رمضان .

وفى عهد الأشرف قانصوه الغورى (فُقد سنة ٩٢٢هـ فى حرب العثمانيين فى معركة مرج دابق) زيد فى هذه المرتبات كما بُنيت المئذنة العظيمة ذات الرأسين على يمين مئذنة قايتباى خلف المدرسة الطيبرسية .

ودخل العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)

يتبع — محمد كمال السيد

بين عالم . . وملك

قال عمرو : ويلك يا سليمان ، إن أمير المؤمنين يموت ، وأن كل ما تراه يفقد وإنك جيفة غداً بالفناء ، لا ينفعك إلا عمل صالح قدمته ، ولقرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قربك إذ كنت تطوى عنه النصيحة وتنهى من ينصحه ، يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك سلماً إلى شهواتهم . قال المنصور : فاصنع ماذا ؟ ادع لى أصحابك أولهم . قال : ادعهم أنت بعمل صالح تحدثه ، ومر بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس ، واستعمل فى اليوم الواحد عمالا كلما رابك منهم ريب أو أنكرت على رجل أمراً عزلته ووليت غيره ، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقربن به إليك من لا نية له فيه . .

الإسلام والسيف

(أنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية طريقة أخرى . فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار .. لندعها تكافح بأيديها وأرجلها وأظافرها) .

توماس كارليل

لقد تعرض توماس كارليل لأساليب الرسول فى نشر دعوته فقال :

كانت نية هذا النبى قبل عام سنة ٦٢٢ ميلادية أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة وقد بذل فى سبيل ذلك كل جهد جهيد ، ولكنه وجد الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته ودعوته وعدم الإصغاء إليها ، بل عمدوا إلى إسكاته بشتى الطرق من تهديد ووعيد واضطهاد حتى لا ينشر دعوته أو يصور رسالته :

وهذا ما دفعه إلى الدفاع عن نفسه والدفاع عن دعوته وكأن لسان حاله يقول : أما وقد أبت قريش إلا الحرب فلتنظروا إذن أى قوم نحن !

لقد أصاب هذا الرسول فى رأيه ، فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق والصدق وأبوا إلا التمادى فى الباطل ، فاستباحوا الحرمات ونهبوا الممتلكات ، وقتلوا الأنفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق .

واستطرد توماس كارليل يرد على القائلين بأن هذا النبى نشر دينه بحد السيف فيقول :

أرى أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال .. ألم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم

السيف أحياناً ، وحسبكم ما فعله شالمان بقبائل السكسون . . وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان ، أم بأية طريقة أخرى ، فلندع الحقائق – تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار . . لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم أبداً .. ولن يهزم منها إلا ما يستحق أن يهزم . . ولا يفنى منها إلا ما يستحق الفناء .. فالحقائق فى حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة التى لا تحترم منها إلا القوى الصحيح .

فحبوب القمح عندما نأخذها إلى باطن الأرض ، وكثيراً ما تكون مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب ، فإذا ألقيتها وهى مختلطة بكل هذه الشوائب فى جوف الأرض العادلة البارة ، فإنها لا تعطيك إلا قمحاً خالصاً نقيا . أما الشوائب والقذى فإنها تبتلعه فى سكون وتدفنه فى باطنها دون أن تذكر عنه شيئاً . . وما هى إلا فترة حتى نرى القمح ناميا يهتز كأنه سبائك الذهب .

هكذا الطبيعة فى جميع شؤونها ، فهى حق لا باطل ، ولا تشترط فى الشىء إلا أن يكون صادقاً حرًّا ... فإذا كان كذلك حمته وحرسته وصانته وقوته وإذا كان غير ذلك تنكرت له وتركته بلا حماية وبلا صيانة .

لهذا نرى لكل شىء تحميه الطبيعة روحا من الحق والصدق ، أليس شأن حبوب القمح هذه شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذا الوجود أو ستجىء إلى هذه الوجود ؟ !

فالحقائق تأتى إلى معترك الحياة ، ثم يجىء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها فتموت وتذهب . . نعم يموت جسم كل حقيقة ويذهب ، ولكن الروح تبقى أبداً ، كل ما هنالك أن الروح يتخذ ثوبا أطهر وبدنا أشرف !

ويظل روح الحقيقة وجوهرها ينتقل من الأثواب والأبدان ، أى أن جوهر الحقيقة لا يموت .

الأمر المهم فى الموضوع ليس فى نوع الثوب الذى لبسه الروح ، إنما فى الروح ذاتها . . وهل هى حق ؟ وهل هى منبعثة من أعماق الطبيعة ، دون أن تهتم ببقاء الشىء أو عدم نقائها فالطبيعة عندما تحكم لا تقول أفيك شوائب وأكدار؟ . . إنما تقول أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا . . وكأنها تريد أن تقول بعبارة أخرى أفيك قمح ؟ فهى لا تهمها القشور والشوائب

فالطبيعة — ستبتلعها ولا يبقى إلا قمحاً صافيا !

لقد جاء هذا الرسول عن طريق الرفق والأناة والمنطق فأبوا إلا استرسالاً فى الطغيان والاستكبار ، وأبوا إلا ضلالا وفساداً ، فلا غرو إذن أن يتدخل السيف ليقول كلمته . ولهذا قضى محمد بقية عمره ، وهى عشر سنين أخرى فى حرب وجهاد ونضال . .

هذه هى كلمات (توماس كارليل) التى يرى فيها أن من حق الإسلام أن ينشر دينه بشتى الوسائل ، ولكنه نسى أن يقول : إنه عندما لجأ النبى وأتباعه إلى الفتح والغزو لنشر دين الله ، لم يكن ذلك مصحوباً باضطهاد أو تعذيب ، بل ترك أمر الدخول فى الدين الجديد إلى رغبة الناس أنفسهم . .

ولكى نسجل ذلك بأقلام كتاب الغرب أنفسهم تذكر الفقرة التالية التى كتبها «**الكونت هنرى دى كاسترى** » فى كتاب له بعنوان « الإسلام » حيث قال :

« لجأت شيعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الفتح ، وهو سبب لا حرج فيه ، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشهم المظفرة التى سارت سير الصواعق إلى الشام وشمال إفريقيا وعبرت البحار إلا أنهم مع ذلك لم يتركوا أثراً للظلم والتعسف فى طريقهم ، فلم يقتلوا أُمة أبت الإسلام . . . وكانوا إذا التقوا بأُمة خيروها بين واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزارها » .

وليس هناك مثل واحد يذكر للدلالة على أن محمداً أرسل حملة واحدة يحمل فيها أُمة بالقوة على اعتناق الإسلام . .

وليست هناك حادثة واحدة سأل النبى فيها إنسانا أن يؤمن به وسامه العذاب عندما رفض ذلك .

لم يحدث شىء من هذا قط ، بل على النقيض منه ، فقد عمل الكافرون جاهدين على ارتداد المسلمين عن دينهم.

ومن جانب آخر لم تحمل حروب المسلمين طابع العنف والقسوة .

وفى هذا الصدد يعترف الكونت هنرى دى كاسترى ويقول :

« لا حرج فى أن ينشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة التى لم تترك وراءها أى أثر للعسف والظلم . لقد زحف المسلمون فى كل اتجاه ولكنهم لم يقتلوا أمة أبت الإسلام .

ولو قارنا بين إغارة المتبربرين وبين إغارة المسلمين التى تلتها لوجدنا أن

الثانية أخف ضرراً وأكثر تسامحاً . فكان كلما التقى المسلمون بأمة خيروها بين واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزارها . هكذا كانت الأوامر التى سار عليها المسلمون فى مطلع عصرهم يحسن هنا أن نقابل بين هذه الأمور وبين تعليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بحصار المدائن ومعاملة الكلدانيين حيث نجد « إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الأمان ، فإن قبلته فقد سلم كل من فيها ، وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشدد الحصار إليها ، ومتى وفقك الله للظفر بها فحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام » . .

هذه هى كلمات الكونت دى كاسترى التى تدل فى وضوح وجلاء على أن المسلمين لم يخوضوا غمار المعارك مع أمة إلا بعد أن يخيروها بين واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو الحرب .

وفى موضع آخر يتحدث الكونت عن تسامح المسلمين فيقول :

« لما استولى عمر على مدينة أورشليم لم يلحق بالمسيحيين أى ضرر ، ولكن عندما استولى المسيحيون على تلك المدينة قتلوا المسلمين من غير إشفاق وأحرقوا اليهود بلا رحمة. لقد انتشر الإسلام فى جميع القارة الآسيوية بين القرن الثانى عشر والرابع عشر ، ولم ينشأ عنه عسف ولا اضطهاد ، حتى إن حكام المسلمين احترموا مدينة (بيناريس) .. لاعتبارها عند أهل الهند مدينة مقدسة ، مع أن أهلها كانوا وقتئذ من البراهمة .

من هذا يتحقق أن الدين الإسلامى لم يُنشر بالعنف والقوة ، بل الأقرب للصواب أن يقال : إن كثرة مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا سبباً قويا فى انكماش دولتهم بعد ذلك .

ثم استطرد يقول :

« إن أكبر دليل على أن الإسلام قام على أكتاف البيان والحجة قبل أن يقوم على السيف بقاء الإسلام موطد الدعائم بالرغم من ضعف الدولة العربية الكبرى دون أن تعود أى أمة إلى ما كانت عليه) . .

الدين ينتصر ..
والإلحاد ينحسر

الأستاذ / زاهر عزب الزغبى

منذ أن أعلن داروين نظريته « النشوء والارتقاء » – أى فى مستهل النصف الثانى من القرن التاسع عشر – بدأ قطاع كبير من البشر يتشككون فى حقائق الدين وتعاليم الكنيسة ... وَوُجِدَ فى الناس عدد كبير استهواهم القول بأن الإنسان وليد المصادفة البحتة، وأنكروا وجود الروح وحريتها فى أن تختار بين الخير والشر، وكانت الحياة فى نظر هؤلاء شيئاً غامضاً يسير وفق نظام تتحكم فيه ثلاث قواعد متضاربة :

١ – التكاثر الجذرى للأحياء ..

٢ – النضال فيما بينها من أجل البقاء ..

٣ – والبقاء للأصلح منها ..

وهذه القوانين الثلاثة المتداخلة، هى التى تقول نظرية داروين : إن تطور الكائن الحى قد سار على نهجها – وبطريقة معقدة – من صورته البدائية « البرتوبلازم » أى الخلية الواحدة حتى صار إنساناً مفكرا ..

ولم تكن هذه النظرية فى الحقيقة بداية لحركة التمرد والإلحاد التى عانت منها أوربا وتأثر بها سائر أنحاء العالم ردحا طويلا من الزمن .. ولكن هذه الحركة الإلحادية قد بدأت مع النهضة الفكرية فى أوربا . وكانت فى بدايتها ثورة على الإقطاع الأوربى الممثل فى النبلاء ورجال الدين، والامتيازات التى كان يتمتع بها كل من هاتين الطبقتين ... وفى خضم النضال التحررى ضد الإقطاع الكنسى كان يصعب التفريق بين رجال الكنيسة – وهم الهدف الحقيقى – وبين التعاليم

الدينية نفسها ، لا سيما وأن رجال الدين كانوا قد أسبغوا على امتيازاتهم السياسية والمالية قداسة دينية . . . ومن أجل ذلك تأثر النفوذ الدينى فى نفوس الأوربيين بالحملات التى كان يشنها أحرار المفكرين على النظام الكنسى . . .

فلما أُعلِنَتْ نظرية داروين ، بدا للناس أنها تواجه بالنقض الصريح بعض نصوص الكتب المقدسة التى تتحدث عن قصة البشرية وكيفية خلق أول أبوين للإنسانية : آدم وحواء . . وكانت البراهين العلمية البارعة التى فُصِّلَتْ لتدعيم هذه النظرية تبدو وكأنها بضربات قاضية تصرع كثيراً من المفاهيم التى فسر بها رجال الدين نصوص الكتب السماوية . . .

ثم جاءت نظرية النسبية للعالم الطبيعى « أينشتاين » .. وتلا ذلك نضوج البحث العلمى فى المسائل الطبيعية والكونية ، وعرف أن التطور لم يكن بين الأحياء فحسب . . وإنما كان سمة واضحة فى الكون الأعظم جميعه .. فنباتات الأرض وجمادها بل الأرض برمتها ، وكذلك الشمس والقمر ، وسائر الكواكب وأقمار المجرات التى يتكون منها الكون برمته ، قد جرت وتجرى عليها سنن التغير والتبدل أيضاً وفق قوانين ونظم ثابتة لا يعتورها خمود أو خلل ...[1]

وفى مجال المادة كشفت الأبحاث العلمية عن وجود علاقة بين كتلة المادة والحركة والزمن ، وأنه بالإمكان تحويل المادة إلى طاقة ، وأن الذرة ليست أبسط صورة للمادة . وأن اختلاف العناصر إنما نشأ من اختلاف هيئة الذرة فى كل منها ، وأنه بالإمكان تعديل هيئة الذرة ، وبذلك يمكن تحويل عنصر ما إلى عنصر آخر ، وبالتالى قد يمكن بهذه الطريقة عينها استحداث عناصر جديدة غير معروفة لدينا أو لم يسبق وجودها قط » .. أو بمعنى أوضح يمكن للإنسان أن يكون إلى حد ما خالقا ..

وكان هذا النجاح العلمى الذى تلاحق بلا هوادة وما صاحبه من مخترعات وتقدم فى صناعة الآلة التى يسرت للإنسان تحقيق الكثير من مآربه فى أسرع وقت وبأقل جهد . . . قد ترتب عليها من غير شك تناقص شعوره بالاعتماد على الله . . . فإن سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة وتسخيرها لأغراضه قد اطردت فى زيادتها . . حتى لقد أصبح من السهل عنده أن

---

(١) تلخيص عن : The Sceintific Encyclopedia. New Yourk U.S.A. 1955.

يظن أنه بالضغط على الزر المناسب يدور المحرك . فينجز له كل شيء . . والمهمة التى لم تصنع بعد الآلة الكفيلة بإنجازها فإن العقل البشرى كفيل باختراعها فيما بعد . . . ومن ثم فقد ساد نفوس الناس – سواء عن عمد أو بدون وعى – إيمان بالعقل والآلة . . تماماً كما كان أسلافنا يؤمنون بالسحر ، وبذلك فقدوا اهتمامهم بالأمور الروحية ، وازدادت الصعوبة فى توجيه أفكارهم إلى المسائل الدينية ، ففقدت القيم الخلقية التى تعتمد أساساً على روحانية الدين جل ما كان لها من أهمية وسلطان . . . ونشأت بالتالى قيم جديدة . . . ولكنها قامت على أساس مادى بحت . . .

وحتى هذا التقويم المادى الجديد لنظم المجتمع الحديث لم يستطع – فيما يبدو – أن يكتسب فى الوقت المناسب اقتناع الناس به ، وتقديرهم واحترامهم له فسادت بينهم حالة من الهوس الاجتماعى وأصيبوا بما يسميه علماء النفس بانفصام الشخصية . . فالتراث القديم من المعايير الأخلاقية لم تبق له سيادته وسلطانه على البشر الذين لم يستطيعوا أن يملأوا فراغ ما هجروه من مثلهم الروحية ومعاييرها ، بما يكفل تنظيم المجتمع الإنسانى فى صورته الجديدة ، والسير به فى طريق الصلاح والسلام والاستقرار . . .

وفى مثل هذه الحالة التى يسودها القلق الاجتماعى كان لا بد وأن تطل من مكانها (بملامحها البغيضة) الأسس الرئيسية لقانون الغاب : الحياة للأقوى . .

ولهذا كان التنافس المريع بين دول أوربا على استعمار القطاع المسالم من البشر فى أفريقيا وآسيا وأمريكا . . وإلى هذا التنافس يعزى إلى حد كبير – وفى خلال أقل من نصف قرن – اندلاع حربين عالميتين ، عانى من جرائهما العالم كله كثيراً من الويلات والدمار والبؤس . . .

ومن البدهى – فى كلتا الحربين أنه كان كل من الخصمين المتحاربين – وهما يمثلان قمة التقدم الحضارى والعلمى – يبذل كل طاقته للفوز وإحراز النصر . . . وجند كل معسكر الصفوة من علمائه فى كل فرع من فروع العلم لاختراع أفتك الأسلحة وأقواها وأسهل الوسائل للقضاء على العدو . . .

وانتهت الحرب العالمية الثانية بقنبلتين ذريتين ألقيتا على مركزين من أغزر المناطق اليابانية إنتاجاً فى الصناعة ،

وأكثرها كثافة فى السكان ، هما مدينتى هيروشيما وناجازاكى . . . وكان الدمار الهائل الفظيع الذى لم تشهد له الإنسانية مثيلا من قبل ... وسقط الشعب اليابانى — وهو من أصعب شعوب البشر شكيمة وأشدها مراسا — صريع الهزيمة بضربة قاضية .

وما أن انقشع الغبار الذرى لقنبلتى هيروشيما وناجازاكى حتى فتح العالم عينه ليرى هول ما وصل إليه ، وفظاعة النهاية التى يسير فى طريقها قطيع البشرية الضال . . .

ورأى الناس أن التقدم العلمى بدلا من أن يكون فى خدمة الإنسانية أصبح فى واقع الأمر عاملا فعالا من عوامل شقائها . . . واتضح لهم بشكل ملموس قاس أن نجاحهم فى استخدام الطاقة الذرية سيقربهم — إن ظلوا على ما هم عليه — من النهاية الحتمية المشئومة ... حتى إن المنتصرين أنفسهم لم تحجب نشوة النصر عن أعينهم فظاعة الكارثة التى أصابت الإنسانية برمتها . . . وأى كارثة أفظع من أن الطاقة الذرية التى يعتبر اكتشافها بداية عهد منح الإنسان قوة هائلة جبارة غير محدودة . فاستخدمها هذا الإنسان — أول ما استخدمها — فى القتل والتدمير والشر ، وليس من أجل الحياة والتعمير والخير .

وران على العالم صمت حائر أبله ، واشرأبت الأعناق وتطلعت الأبصار بحثاً عن ملجأ للنجاة ، وشعرت النفوس الحيرى — بإحساس غريزى — أن لا ملجأ لها ولا عاصم إلا الدين .. وانقشعت عن البصائر غشاوة الفتنة وراحت الأفهام تناقش وتتدبر زيف وضلال ما كانوا فيه .. ولعلك لا تجد فى العالم كله اليوم ذا رأى يعتد به إلاّ ويرى وجوب قصر استخدام طاقات العلم ومخترعاته على توفير السلام والخير للبشرية .

وكانت استجابة النفوس لهاتفها الغريزى — بأن لا نجاة من خطر سوء استخدام العلم إلا فى الدين — فورية وحاسمة[1] . . فقد استهل البلاغ العسكرى الذى أعلن استسلام اليابان وهزيمتها بشكر الله على عونه وتوفيقه بالنصر . . بينما كان البلاغ الذى أعلن هزيمة ألمانيا قبل شهور قليلة خالياً من أية إشارة لله ، مليئاً بعبارات العجرفة والزهو الأجوفين . .

والفرق هنا ليس تفاوتا فى عقليتين

---

(١) نص البلاغين فى (What After War By K.D. Sing - New Delhi).

صاغت كل منهما أحد البلاغين ، ولكنه اختلاف خطير فى الظروف التى صيغ فيها كل منهما . . فقد استسلمت ألمانيا ولم تكن الطاقة — الذرية قد استخدمت بالفعل .

ومنذ ذلك الوقت استرد الدين كثيراً مما كان قد فقده من مواقع . . كما عادت لرجال الدين هيبتهم ،وأصبحت لكلمتهم قيمتها وقوتها . . كما يمكن أن يقال : إنه فى نفس الوقت قد فقد مسرح الإلحاد كثيراً من رواده .

ومنذ ذلك الوقت كان تزايد الشعور الدينى على هيئة مد جارف لا يمكن تجاهله ، حتى أن خصوم الدين العتاة ومن بينهم هؤلاء الذين بنوا كيانهم الاجتماعى والاقتصادى على أساس معاداته باعتبار أنه أفيون الشعوب ، قد اضطروا إلى التخلى عن تعصبهم الإلحادى ، وجعلوا إلى حد ما فى صميم نظامهم الحكومى كياناً للمناصب الدينية ، وقيادات معترفاً بها رسمياً لكل من الرعايا المسلمين والمسيحيين فى بلادهم ، واصطبغت — بشكل ملحوظ — كل من اتصالاتهم الخارجية ودعاياتهم الموجهة إلى العالم الخارجى بصيغة دينية . .

أما الأوساط العلمية وقد كانت فى البداية مركز العواصف الإلحادية التى اجتاحت العالم ، فإن قادتهم فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لا يتركون فرصة دون أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة تزعم النزعة الإلحادية ، بل إن كثيراً منهم لم يدخر وسعاً فى الدفاع بحماس عن الدين ومبادئه ، مستخدماً أساليب البرهنة العلمية على صحة هذه المبادئ الدينية .

وهنالك مجلدات ضخمة كتبها مؤلفون من كبار العلماء الطبيعيين مستخدمين العلم للبرهنة على وجود الله وصحة الحقائق الدينية والقيم الروحية .

وفى خريف عام ١٩٤٦ صدر كتاب عنوانه « مصير البشر» ألفه أحد كبار العلماء الأمريكيين هو الدكتور دى نوى — وهو أحد علماء معهد روكفلر ومعهد باستور . . وفى هذا الكتاب كشف العالم الكبير عن نظرية جديدة للتطور ، وأجاد فى استخدام الوسائل العلمية والمنطقية لإثبات المعانى السامية التى استراحت إليها نفوس البشر منذ أول عهدهم بالحياة ، كحرية الإرادة ومعنى الحياة والخلود ووجود الله سبحانه وتعالى ، ويؤكد بأن كل هذه حقائق لا مماراة فيها ولا جدال .

ويستهل دى نوى قوله معترفاً بأن العلم عرضة للخطأ ، والخطر أن نثق به وثوقــا أعمى ، وكثيراً ما كشف البحث العلمى عن حقائق علمية نقضت أحكاما كانت قد اعتبرت على أسس المعايير الصحيحة حقائق علمية صحيحة ، ونحن نعيش فى كون لا يحيط به إدراكنا ، فكل رأى نراه لا يمكن أن نسلم بأنه حقيقة .. لأنه رأى نسبى . وفى هذا الكون الجبار نجد العلم يعبث بأجزاء ضئيلة من المعرفة . . ولكن المهاوى التى تفصل بين ما نعرفه من الحقائق إنما هى مهاو شاسعة عميقة . وقد استحال علينا حتى اليوم أن نعرف معرفة دقيقة كيف رفع الستار لأول مرة عن مسرح الكرة الأرضية لتبدأ تراجيديا الحياة وروعة تطورها . .

ولا يمكن — بل من المستحيل — أن نعزو إلى المصادفة المحضة ما نفترضه عن بدء الحياة وارتقائها إلى عجائب العقل البشرى ، فعلى الرغم مما يزعمه الماديون ، من أن المصادفة وقوانين المادة تتحكم مطلقاً فى كل ما هو عرضة للفناء . . فإن الإنسان — وينطبق عليه هذا الوصف — حر فى تصرفاته ، له أن يفعل هذا الأمر أو ذاك . . فأين هو تحكم المصادفة أو قوانين المادة فى أفعاله ، ولما كان الإنسان حراً فى أن يطيع غرائزه الحيوانية التى تتيح له قدراً من المتعة الحسية ، أو ينشد غرضاً من ضرب آخر له أى قدر من سمو المقصد أو نبل الدافع . . فلكى يبلغ ذلك الغرض عليه أن يناضل غرائزه الحيوانية القوية ، وكثيراً ما يعذبه هذا النضال ، بل يبدو وكأنه يستعذب ما فى هذا النضال من ألم . . وقليل ما هم هؤلاء الذين يتجشمون فى سبيل الهدف . . ولكن هذه القلة هى التى كان لها شأن عظيم فى التطور . .

وعلى عكس الثلوج التى تذوب على قمم الجبال فتتدفق على السفح لتصبح فى السهل جداول وأنهاراً تسير بتؤدة نحو مصبها فى النهر ، فهى فى كل خطواتها تستجيب لناموس لا يرد هو قانون الجاذبية . . فإن تطور الحياة قد صعد — وفق نظام غامض — من أسفل إلى أعلى . . ولم يغفل العلم عن البينات التى يدل عليها هذا التناقض حتى نرى أشد الماديين عناداً مضطراً إلى التسليم بوجود قوة مجهولة ، ولم يكن لهؤلاء من بد سوى أن يطلقوا اسما على هذه القوة المجهولة لكى يتمكنوا من أن

يدخلوها فى نطاق تفكيرهم . . ولما كانت جوانحهم منطوية على نفور من اسم الله سبحانه وتعالى وصفوها بقولهم (عدو المصادفة) . . وما داموا يعترفون بوجودها فليسموها بما شاءوا .

ويتساءل دى نوى فى أحد فصول كتابه : « عن أنه لما كان الإنسان يتصرف فى حياته مدفوعاً بدوافع الخير أو محبذات الشر . . وإذا كان الله موجوداً . . فكيف نراه يأذن بكل هذه الشرور ؟ . . ويرد على هذا التساؤل بقوله : إن الخلق قد تم جميعه بأمر الله . . ولكنه سبحانه حينما وهب الإنسان ضميراً وإرادة حـــرة ، نفخ فيه من روحه ، وهذه الحرية التى وهبها الله لعباده حقيقة واقعة يتعالى الله سبحانه عن الحد منها . . وإذا علمنا بأن قوة الله العليا هى التى خلقت نواميس الحياة . . فينبغى أن نعلم أن هذه القوة الخالقة لن تحول دون تنفيذ هذه النواميس . . فالطبيعة على هذا ليست متهافتة بل متماسكة . . ولكن الإنسان جاهل ولا يزال الطريق أمامه ، ومن هنا نرى الرجل الذكى حائراً إذا لم يستطع أن يدرك ذات الإله التى لا تدركها الأبصار ، ولكن يفهمها العقل .. ولكن فى هذا العصر — عصر العلم — لا يستطيع أحد أن يتصور بحواسه . «الألكترون» ، وكل عالم يقول لك إن الألكترون شىء لا يمكن تصوره ولا يسعك أن ترسم شكله ، وليس ثمة رجل رآه ، ومع ذلك فالألكترون الذى لا يرى موجود وإن تعذر علينا أن نتصوره ، فما ظنك بالله الذى لا تدركه الأبصار والذى ليس كمثله شىء . . »

وفى نفس العام أى فى عام ١٩٤٦ صدر فى الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً كتيب بعنوان « الإنسان ليس وحيداً » ألفه عالم له خطره . هو الدكتور موريسون الذى كان لمدة طويلة مديراً لأكاديمية العلوم فى نيويورك وجاء على لسانه فيه : « إن البشر لايزالون فى فجر العلم ، وكلما ازداد العلم ضياء جلا لنا شيئاً فشيئاً صنعة خالق مبدع . . فى السنوات التسعين التى انقضت منذ عهد داروين تمت للعلماء مكتشفات هائلة . . والتقدم فى العلم يدنو بنا شيئاً فشيئاً إلى معرفة الله ، فطريق العلم يسير بنا إلى الإيمان به . . ولا يبتعد بنا عن ذلك أبداً . . فالمعادلات الرياضية إذا طبقناها على نظام الكون تجعل

عامل المصادفة فى ظهور الحياة احتمالا لا يبلغ واحداً من ملايين ، كما أن سعة حيلة الحياة فى تحقيق أغراضها يدل على تدبير عقل منبث فى أنحائها جميعاً . . وحكمة الحيوان تنطق بلسان — لا ترد حجته — بأن لها خالقاً كريماً بث الغريزة فيها ، فالرحلات الطويلة الوعرة التى يقوم بها كل من سمك السالمون وثعبان البحر تتم فى ظروف تجعلنا لا نستطيع أن نعلل ذلك بالتكيُّف والملاءمة ، بل لا بد وأن هذه الرحلات تتم على هدى غريزة موهوبة ممنوحة .

أما قدرة الإنسان على أن يتصور فكرة وجود الله فهى نفسها برهان فذ على ذلك ، فتصور وجود الله ينبثق من قدرة علوية فى الإنسان لا يشاركه فيها سائر الأحياء : هى قدرة التخيل ، وبها يستطيع الإنسان دون غيره من الأحياء أن يجد الدليل على أشياء لا يراها ، وإن الآفاق التى تفتحها هذه القدرة أمام عينه لهى آفاق لاحدود لها . وتخيل الإنسان إذا ما دنا من مراتب الكمال وصار حقيقة روحية استطاع أن يتبين به — من خلال دلائل النظام والقصد فى الكون — تلك الحقيقةالعظمى ، ألاوهى : إن قدرة السماء فى كل مكان وكل شىء . . وإن الله فى كل مكان وعنده كل شىء ، ولكنه أدنى ما يكون إلينا فى قلوبنا . . إن قول صاحب المزامير لهو قول صحيح من ناحية العلم ومن ناحية التخيل جميعاً «السموات تتحدث بمجد الله . والفلك بخير يعمل يديه »

وعلى هذا النمط هناك شواهد كثيرة من كتب ألفها علماء أو أبحاث نشروها أو تصريحات أدلوا بها . . وليس المجال هنا بمتسع لسردها أو ترديدها بعد أن أوردنا نماذج منها قيلت على ألسنة بعض جهابذة العلماء ممن هم علىمستوى رؤساء الأكاديميات ولكن يمكن وصفها بحق بأنها صيحات قوية تطلقها الأوساط العلمية لتهيب بالناس أن يعودوا إلى حظيرة الدين ، وأن يحتموا بقيمه الخلقية والروحية . . ولم يكن ذلك إلا لأن الطاقة الذرية وهى أعظم نتائج العلم التى كان من الممكن أن تحقق للإنسان قدراً غير محدود من الرخاء . . قد نشطت — بحوثها لضرورة حربية . . ثم استخدمت فى غرض حربى نتج عنه أفظع تدمير جلبه الإنسان على أخيه الإنسان . .

وما زال الاحتمال قائماً فى استعمالها استعمالا يحيق بالبشرية . . وهذا الاحتمال المفزع لهذا الكشف وما ترتب عنه قد جعل العلماء أنفسهم يحسون بنوع جديد من المسئولية الأخلاقية، فهم قد أدركوا أن القوى الهائلة التى أطلقوها — إذا لم تضبط — قد تدمر المدينة نفسها .

وهذا الاحتمال المخيف قد زاد فى الصدمة المروعة التى أصابت الناس جميعاً من جراء حربين عالميتين. . وجعلهم يدركون أن الذكاء الإنسانى وحده خطر يهدد البشر إذا لم يخضع لرقابة الضمير وتوجيه المبادئ الأخلاقية.. وهل هناك وسط يمكن أن يترعرع فيه الضمير الكفء . . وتستبين المبادئ الأخلاقية القويمة فيه غير الدين ماذا يمكن أن يلهم ويوجه الاستعمال الصحيح لما وضعه العلم تحت تصرفنا من أجهزة وآلات رائعة ؟ .. لا شىء إلا التسليم لإرادة الله . . فنحن إذن فى حاجة إلى الدين ليهب لنا الشجاعة والهداية اللازمتين للحيلولة دون الكارثة الكبرى التى تهدد الجنس الإنسانى .. ولضمان التقدم الصحيح . .

وإلى هذا المعنى كان يهدف ألبرت أينشتاين فى محاضرة ألقاها فى جامعة برنستون بالولايات المتحدة حين قال : « العلم يخبرنا بما هو كائن ولكن الوحى وحده هو الذى يخبرنا بما ينبغى أن يكون . . » .

زاهر عزب الزغبى

الوقت .. لا ينتظرك

خطب الحجاج يوماً فأطال ، فقال له رجل: الصلاة !... فإن الوقت لا ينتظرك ، والرب لا يعذرك !

فأمر الحجاج بحبسه . فأتاه أهل الرجل ، وزعموا أنه مجنون . وسألوه أن يخلى سبيله ...

فقال الحجاج : إن أقر بالجنون خليته ...

فقيل له ، فقال معاذ الله ! لا أزعم أن الله ابتلانى ، وقد عافانى ! فبلغ ذلك الحجاج ، فعفا عنه لصدقه .

حقيقة الصيام

فضيلة الشيخ موسى محمد على

بسم الله الرحمن الرحيم ،

يقول الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيراً فهو خيرٌ له ، وأن تصوموا خير لكم ، إن كنتم تعلمون ٢ : ١٨٣ ، ١٨٤) .

(شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ٢ : ١٨٥) .

وبعد :

فإن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة ، والفطر المستقيمة شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده ، رحمة بهم ، وإحساناً إليهم ، وحمية وجنة لهم ، فإن المقصود من الصيام : حبس النفس عن الشهوات ، وفطمها عن المألوفات ، وعدل قوتها الشهوانية ، لتسعد بطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها ، وقبول ما تزكى به مما فيه حياتها الأبدية ، ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وقسوتها ، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين ، وتضييق مجارى الشيطان من العبد بتضييق مجارى الطعام والشراب ، وحبس قوى الأعضاء من استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها فى معاشها ومعادها ، ويسكن كل عضو منها ، وكل قوة عن جماحها وتلجم بلجامه .

فالصوم لجام المتقين ، وجنة المجاهدين ، ورياضة الأبرار ، والمقربين ، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال ، فإن الصائم إنما ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده ، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها ، إيثاراً لمحبة الله ومرضاته ، وهو سر بين العبد وربه ، لا يطلع عليه سواه .

والعباد قد يطلعون منه على تلك المفطرات الظاهرة ، وما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده ، فهو أمر لا يطلع عليه بشر ، وذلك حقيقة الصوم .

وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة ، وحمايتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التى إذا استولت عليها أفسدتها ، واستفرغ المواد الردية ، المانعة له من صحتها .

فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدى الشهوات ، فهو من أكبر العون على التقوى ، كما قال تعالى فى تتمة الآية (لعلكم تتقون) وتفسير لعلكم فى حق الله تعالى — كما يقول بعض المفسرين — فيه وجوه :

أحدها : إنه سبحانه بين بهذا الكلام أن الصوم يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة وانقطاع الهوى ، فإنه يردع عن الأثرة والبطر ، والفواحش ، ويهون لذات الدنيا ورياستها وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن والفرج ، وإنما يسعى الناس لهذين فمن أكثر الصوم هان عليه أمر هذين ، وخفت عليه مؤنتهما ، فكان ذلك رادعاً له ، عن ارتكاب المحارم والفواحش ومهونًا عليه أمر الرياسة فى الدنيا ، وذلك جامع لأسباب التقوى فيكون معنى الآية :

فرضت عليكم الصيام لتكونوا به من المتقين الذين أثنيت عليهم فى كتابى ، وأعلمت أن هذا الكتاب هدى لهم .

ولما اختص الصوم بهذه الخاصة حسن منه تعالى أن يقول عند إيجابها : (لعلكم تتقون) منبهًا بذلك على وجه وجوبه ، لأن ما يمنع النفس عن المعاصى لا بد وأن يكون واجبًا .

وثانيها : إنه لينبغى لكم بالصوم أن يقوى رجاؤكم فى التقوى ، وهذا معنى (لعل) .

وثالثها : (لعلكم تتقون) الله بصومكم وترككم للشهوات ، فإن الشىء كلما كانت الرغبة فيه أكثر كان الاتقاء عنه

أشق والرغبة فى المطعوم والمنكوح أشد من الرغبة فى سائر الأشياء .

فإذا سهل عليكم اتقاء الله بترك المطعوم والمنكوح كان اتقاء الله بترك سائر الأشياء أسهل وأخف .

ورابعها: المراد كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون إهمالها وترك المحافظة عليها ، بسبب عظم درجاتها وأصالتها .

وخامسها : لعلكم تنتظمون بسبب هذه العبادة فى زمرة المتقين ، لأن الصوم أضعفهم وهو لله سبحانه وتعالى من بين سائر أعمالهم .

أخرج الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به ، والصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد ، أو قاتله فليقل : إنى صائم ، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح ، وإذا لقى ربه فرح بصومه » .

وفى رواية له :

« . . يترك طعامه وشرابه وشهواته من أجـــلى ، الصيام لى وأنا أجزى به والحسنة بعشر أمثالها » .

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من اشتدت عليه شهوة النكاح ولا قدرة له عليه بالصيام ، وجعله وجاء هذه الشهوة :

«أخرج الإمام البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ، شباباً لا نجد شيئاً ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم » :

« يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » .

وكان هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أكمل الهدى ، وأعظم تحصيلا للمقصود ، وأسهله على النفوس .

ولما كان فطم النفس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها ، تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة ، لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة ، وألفت أوامر القرآن الكريم فتفلت إليه بالدرج ، وكان فرضه فى السنة الثانية من الهجرة .

بيد أن الصوم على ضربين :

صوم ظاهر ، وهو الإمساك عن المفطرات مصحوبًا بالنية .

وصوم باطن وهو صون القلب عن الآفات، ثم صون الروح عن المساكنات، ثم صون السر عن الملاحظات .

وصوم العابدين شرطه : صوم اللسان عن الغيبة ، وصون الطرف عن النظر بالريبة .

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك ويدك » .

وأما صوم العارفين فهو حفظ السر عن شهود كل غير ، فمن أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل ، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخارى ومسلم :

« صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » .

فالهاء فى قوله عليه الصلاة والسلام « لرؤيته » عائدة عند أهل التحقيق إلى الحق سبحانه وتعالى ، والعلماء يقولون معناه عندهم : صوموا إذا رأيتم هلال رمضان ، وأفطروا لرؤية هلال شوال .

وأما الخواص : فصومهم لله ، لأن شهودهم : الله ، وفطرهم بالله، وإقبالهم على الله ، والغالب عليهم الله ، والذى هم به : الله .

فمن شهد الشهر صام لله ، ومن شهد خالق الشهر صام بالله ، فالصوم لله يوجب التوبة ، والصوم بالله يوجب القربة .

الصوم لله تحقيق العبادة .

والصوم بالله تصحيح الإرادة .

الصوم لله صفة كل عابد .

والصوم بالله نعت كل قاصد .

الصوم لله قيام بالظواهر .

والصوم بالله قيام بالضمائر .

الصوم لله إمساك من حيث عبادات الشريعة ، والصوم بالله إمساك بإشارات الحقيقة ، فمن شهد الشهر أمسك عن المفطرات ، ومن شهد الحق أمسك فى جميع أوقاته عن شهود المخلوقات ، والإشارة فى قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) : أن الصوم كما يكون للظاهر يكون للباطن، وباطن الخطاب يشير إلى أن صوم القلب ، والروح ، والسر ، للذين آمنوا : شهود أنوار الحضور مع الله تعالى .

فصوم القلب : صومه عن مشارب المعقولات، وصونه عن حب الدنيا وزخارفها .

وصوم الروح : إمساكها عن ملاحظة الروحانيات ، وزهدها فى نعيم الدنيا ولذاتها .

وصوم السر : صومه عن شهود غير الله سبحانه وتعالى .

وكما كتب الله سبحانه وتعالى الصيام على كل صفة من صفات الإنسان فى الباطن فكذلك كتب سبحانه وتعالى الصوم على كل عضو من أعضاء الإنسان فى الظاهر :

فصوم اللسان : إمساكه عن الكذب ، والفحش ، والغيبة .

وصوم السمع : صونه عن المناهى والملاهى . . وعلى هذا فقس الباقى .

وصوم العين : كفها عن النظر فى الغفلة والريبة .

وصوم النفس : زجرها عن التمنى والحرص والشهوات .

وبعد : فلما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفاً على جمعيته على الله، ولم شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى ، فإن شعث القلب لا يلمه إلا الإقبال على الله تعالى .

ولما كان فضول الطعام والشراب ، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام وفضول المنام مما يزيده شعثاً، ويشتته فى كل واد ، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يضعفه أو يعوقه ويوقفه ، اقتضت رحمة العزيز الرحيم لعباده أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى وشرعه بقدر المصلحة بحيث ينتفع به العبد فى دنياه وأخراه ، ولا يضره ولا يقطعه من مصالحه العاجلة والآجلة .

يقول القفال : انظروا إلى عجيب مانبه الله عليه من سعة فضله ورحمته فى هذا التكليف ؟

فبين أولا أن لهذه الأمة فى هذا التكليف أسوة بالأمم السالفة، فإن الأمور الشاقة إذا عمت خفت ثم بين لنا وجه الحكمة فى إيجاب الصوم وحصول التقوى .

ثم بين ثالثا أنه مختص بأيام قلائل، لا بكلها ولا بأكثرها .

ثم بين رابعاً أنه خصه من الأوقات بالشهر الذى أنزل فيه القرآن ، ليعلم شرفه فتوطن النفس له .

ثم ذكر خامساً : إزالة المشقة فى إلزامه ، فأباح تأخيره لمن شق عليه من المسافرين والمرضى إلى زمن الرفاهية والصحة ، وهى هيئة يكون بها بدن الإنسان فى مزاجه وتركيبه ، بحيث يصدر عنها الأفعال كلها سليمة .

(وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ٢ : ١٨٤) .

والله ولى التوفيق

موسى محمد على

رد على مقال

مَوقفنا مِن السَلف

كنت أود من الدكتور محمد رجب البيومى أن يلتزم ما دعا إليه من إنصاف العلماء مهما اختلف الرأى ، وتعددت وجهات النظر ، وعنوانه « اختلاف الرأى بين الشطط والاعتدال» يشير إلى ذلك ، لكنى وجدته يقف بجانب الإمام الشافعى متعصباً لرأيه ، متنقصاً لرأى غيره فى تهجم أخذه هو على أمثال ابن العربى ، والشريف الرضى .

والموضوع يدور حول فهم كلمة وردت فى قوله تعالى : (فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » ، فقد فسر « ألاّ تعولوا » الشافعى بألاّ تكثر أولادكم وذهب مخالفوه إلى أن المعنى ألا تميلوا ألا تجوروا ، واللغة تساندهم فى تفسيرهم ، وإن كان ما ذهب إليه الشافعى يجد قبولا ؛ لأن اللغة لا تأباه مع التجوز .

ونحن — المعاصرين — حين نقرأ ما تركوه لنا : علينا أن ننظر فى أقوالهم ، ونعرضها على اللغة والعقل ، فما ظهر دليله ناصعاً أخذنا به ، وما ضعف دليله تركناه دون أن ننعت صاحبه بنعوت تحط من قدره أو علمه وليس لتأخرنا عن أزمانهم ما يمنعنا أن نقول مقالنا فيما نراه موافقاً للشريعة ويدل عليه اللفظ فما دمت قرأت لغة العرب وحذقتها ، وصار لك حس لغوى تميز به المعانى والمدلولات جاز لك أن تقول وتبدى الرأى وليس لمتقدم على متأخر فضل إلا بالفضل العلمى ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ هكذا عرفنا تلك القاعدة ، وقد استشهد الدكتور بتفسير الزمخشرى أو بما كتبه فى هذا الصدد وإنى أنقل إلى القراء ما فسره الزمخشرى فى هذا اللفظ الذى دار حوله الخلاف . يقول فى الكشاف : « (ذلك) إشارة إلى اختيار

الواحدة والتسرى (أدنى ألاّ تعولوا) أقرب من أن لا تميلوا من قولهم عال الميزان عولا إذا مال ، وميزان فلان عائل ، وعال الحاكم فى حكمه إذا جار ، وروى أن أعرابيًّا حكم عليه حاكم ، فقال له : أتعول علىّ ؟ وقد روت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تعولوا « أن لا تجوروا » إلى هنا انتهى تفسيره ثم أخذ فى الدفاع عن الشافعى فقال : « والذى يحكى عن الشافعى رحمه الله أنه فسر (ألاّ تعولو) ألا تكثر عيالكم ، فوجهه أن يجعل من قولك : عال الرجل عياله يعولهم كقولهم : ما نهم يمونهم : إذا أنفق عليهم ؛ لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم ، وفى ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الورع وكسب الحلال والرزق الطيب ، وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورءوس المجتهدين : حقيق بالحمل على الصحة والسداد ، وأن لا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعولوا ، فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تظنن بكلمة خرجت من فى أخيك سوءاً وأنت تجد لها فى الخير محملا ، وكفى بكتابنا المترجم بكتاب (شافى العى من كلام الشافعى) شاهداً بأنه كان أعلى كعبًا وأطول باعا فى علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا ، ولكن للعلماء طرقاً وأساليب فسلك فى تفسير هذه الكلمة طريقة الكنايات » وهو دفاع عفيف مقبول ، ولكنه وصف الرأى بأنه سلك فى التفسير طريقة الكنايات ، وما من شك فى أن الحقيقة إذا جاء ما يؤيدها كانت أحق بالاتباع من الكناية ، ومخالفوا الشافعى نظروا إلى اللغة والنقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صاحب الشريعة والمأمور ببيانها ، وأزيد على ذلك أن السياق يتطلب أن تكون « ألا تعولوا » بمعنى ألا تجوروا ؛ لأن النص يتحدث عن العدالة بين الزوجات ، فما دام العدل لا يتحقق وخفنا الجور : فالاكتفاء بواحدة هو الأوفق والأسلم ، ثم إن تفسير الشافعى يحصرنا فى نطاق ضيق ، وهو أن تكون العلة كثرة الأولاد ، وليس الناس جميعاً فقراء ففيهم الأغنياء والقادرون الذين لا يشكون من كثرة النسل ، ولكن الأخذ بتفسير « ألا تعولوا » بأن لا تجوروا يمنع هذا التعدد ، ويدفع ما يترتب عليه من آثام . وقد يكون ميل الدكتور راجعًا إلى حديث العصر الذى نعيش فيه ويفزعنا أرباب الفكر من ضيق كوكبنا عن أن يتحمل الغذاء لكل مولود ، وقد يكون لحياة الشافعى الأولى ، وما قاساه من شظف العيش

ما جعله ينفرد بهذا الرأى ، فيأخذ به من يشاء ، ولا ضير فى ذلك ، فمن قلد عالماً لقى الله سالماً — كما يقولون !

لكن الموازنة التى عقدها كاتبنا بين الشافعى والشريف الرضى جاءت بعيدة عن مستواه العلمى والأدبى وأنا من قرائه منذ نشر فى الصحف والمجلات ، ووددت لو ترك هذه الموازنة جانباً ؛ لأنه جعل الشافعى أعرق فى الهاشمية من الشريف الرضى ، وميز الشافعى على الرضى بتقدم الأول على الثانى فى الزمن ، فالشافعى من رجال القرن الثانى الهجرى ، والشريف الرضى من رجال القرن الرابع الهجرى ، ثم حصره بالتلمذة على الشافعى » .

وفى كل هذا جانبه الصواب ، فليس الشافعى أعرق فى الهاشمية من الشريف الرضى ، لأن الشريف الرضى من بنى هاشم وليس كذلك الشافعى ، فالشافعى من بنى (المطلب بن عبد مناف) وقد قرأنا ودرسنا فى الأزهر كتاب « الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه » ومنه ترجمة الإمام الشافعى ، وينص الكتاب — وغيره — على أن (محمد بن إدريس) المنسوب لأحد أجداده (شافع) من ولد (المطلب ابن عبد مناف) فالمطلب أخو هاشم ابن عبد مناف ، ومن ثم لا يكون الشافعى من بنى هاشم ولا أعرق من الشريف الرضى فى هذا النسب ، وليس معنى هذا أن المطلب أقل من أخيه منزلة فالعرب كانت تصفه بالفياض لكثرة سخائه وعطائه . ثم هو قام بعد هاشم بالرفادة والسقاية وكان له فضل فى إحضار ابن أخيه عبد المطلب من يثرب ، وعبد المطلب نسب إليه ؛ فقد كان اسمه (شيبة) فلما رآه الناس مردفا وراء عمه قالوا (عبد) المطلب ؟ فقال : إنه ابن أخى هاشم فى حديث يطول .

وينبغى أن نعلم أن لعبد مناف الذى امتدت حكومة أبنائه فى الشرق والغرب من خلافة عثمان إلى سقوط بغداد إلى سقوط مصر فى يد سليم الأول أربعة أبناء كانت لهم السيادة : هاشم ، والمطلب وعبد شمس (والد أمية) ونوفل والأولان عاشا على الود ولم يفترقا فى جاهلية ولا إسلام . أما أمية ونوفل فكانا منافسين لهما فى الجاهلية والإسلام . ونخلص من كل هذا إلى إثبات نسب الشافعى وأنه من ولد (المطلب بن عبدمناف) وليس من بنى هاشم ، ويبقى للشريف الرضى نسبه الهاشمى ، بل هو يمتاز بأنه من نسل الحسين بن على والحسين أمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله . ويقرر الجاحظ : أن أشرف الناس

أجمعين بنو أبى طالب ، فما بالك بمن يجمع من الهاشمية ذروتها وهو أبو طالب وفاطمة بنت محمد . وهذه حقائق لا ينكرها الشافعى لو سئل عنها . إنه نسب فى العالمين عريق !

ومن أين جاء للدكتور : أن الشريف الرضى انحصرت ثقافته وعلمه فيما رواه عن الشافعى ؟ إن عصره ملىء بروافد من علوم شتى لم تتهيأ للشافعى كما تهيأت له ، ففى القرن الرابع تميزت العلوم الشرعية واللسانية ، وصار لكلٍّ إمامها وأعلامها ، ثم ليس للمتقدم على المتأخر فضل بالتقدم ، إنما الفضل يرجع إلى ما حمله العالم وما أداه لعصره وما تلاه . ونحن لا ننقص من قدر الشافعى ، ولا نستطيع أن نجعل الشريف فى منزلته الفقهية ، إنما نعطيه حقه فى الفهم وإبداء الرأى ، وهذا ما فعله ، فالموازنة باطلة من كل نواحيها من جهة النسب ومن جهة العصر ، ومن جهة انتشار الثقافة والترشف منها ، وليس على الله بمستنكر أن يجعل من اللاحق أكثر علما من السابق ، فالعلوم تتطور تبع العصور إلا إذا نكبت بمن يحول بين الناس وبين التطور ، وقد يصل المتأخر إلى رأى لم يظهر للسابق ، وهذا ما تراه اليوم من تقدم العلوم والفنون والآداب ، وما من شك فى أن الشريف الرضى قسا على الإمام الشافعى ولكن هذا لا يدفعنا إلى مجاراته فنجرده هو من نسبه وعلمه وما يعتز به ، بل يجب أن نذكر كلا الرأيين ونفاضل بينهما وقد نأخذ بأحدهما وقد يكون لنا رأى آخر ، فالعلم بحر لا ساحل له . وأما قوله للدكتور رجب البيومى لا يغض من فضله وإنما هو من قبيل : صديقى من أهدى إلىَّ عيوبى . وبالله التوفيق ،

السيد حسن قرون

بُورَمَا ..
مذبحة كُبرى للمسْلمين

يواجه المسلمون فى أنحاء شتى من العالم ظروفاً قاسية خاصة" الأقليات المسلمة المتمسكة بعقيدتها وسط عالم تنشط فيه تيارات ملحدة تسعى فى دأب لصرف المؤمنين عن طريق الحق والهداية .. والذى يدعو للألم والأسف معاً هو أن ردود الفعل تأتى سلبية من معظم البلاد الإسلامية والعربية تجاه موجات الاضطهاد والقهر التى تمارس ضد المسلمين فى تلك البقاع .

و« بورما » هى آخر مسرح نشاهد عليه مأساة إنسانية وإسلامية تدمى لها القلوب .. فى هذا البلد الذى تحكمه طغمة طاغية يشهد المسلمون ألواناً شتى من التعذيب والاضطهاد والقهر لا لشىء أو ذنب فعلوه سوى أنهم قالوا « لا إله إلا الله » . . لقد أصبح ثمن هذه الشهادة التشريد . . الاغتصاب . . الطرد من الديار . . إلخ

وتقع بورما فى جنوب شرق آسيا . . يحدها من الجنوب خليج البنغال . . ومن الشمال الصين التنين . . ومن الشرق تايلاند وفيتنام ومن الغرب بنغلاديش والهند . . ويبلغ عدد السكان ٢٥ مليون نسمة منهم أربعة ملايين مسلم . . ولقد دخل الإسلام بورما فى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى عن طريق القوافل التجـــارية ، ويتمركز معظم المسلمين البورميين فى إقليم « أركان » الواقع قرب حدود « بغلاديش » .

الأضرار التى يتعرض لها المسلمون فى بورما

إن مسلمى بورما يواجهون كل ألوان القسوة والاضطهاد من السلطة وأهم هذه المظاهر . .

١ — منع المسلمين من أداء فريضة الحج وعدم السماح لهم بأداء الصلاة .

٢ — إلغاء الدراسة الإسلامية فى المدارس والكليات .

٣ — مصـــادرة الكتب والمنشورات والجرائد والمجلات الإسلامية .

٤ — القيام بحملات إرهابية لإخراج المسلمين عن دينهم .

وقد نجحت بعض هذه الحملات فى تحويل أكثر من ١٢٥ ألف مسلم إلى البوذية عنوة وقهراً .

٥ — مصادرة البيوت والعقارات الموقوفة للمساجد والمدارس الإسلامية . . وكثير من الأعمال الوحشية التى تقوم بها السلطة الحاكمة تجاه المواطنين المسلمين .

ولما اشتد بطش السلطة واضطهادها لجماعات المسلمين بدأت قوافل النزوح إلى بنغلاديش وبأعداد هائلة تصل إلى ٥٠ ألف مســـلم شهرياً وقد بلغ عدد المهاجرين من مسلمى بورما حتى الآن أكثر من ٢٠٠ ألف مسلم ، وذكرت الأنباء أن الحكومة فى بورما تمهـــد لإبعاد ٦٠ ألف مسلم آخرين وذلك بمواصلة التنكيل بهم والزج بهم على الحدود ثم طردهم .

وتعيش هذه الأعداد الكبيرة من المسلمين البورميين المطرودين من ديارهم . . يعيشون الآن ظروفاً قاسية وأليمة حيث تنتشر المخيمات المتواضعة داخل أراضى بنغلاديش لإيواء كل هذه الأعداد وكثيراً من هؤلاء المسلمين مشردون . . بلا مأوى حيث يصعب احتواء مثل هذا العدد الكبير منهم خاصة وأن حكومة بنغلاديش تواجه مشاكل اقتصادية معروفة .

أساس المشكلة

عندما بدأ التواجد الشيوعى يظهر فى جنوب شرق آسيا كونت بعض الأحزاب الشيوعية نظاماً سياسياً وبالطبع فإن الإسلام هو الخطر الرئيسى فى وجه الشيوعية وسائر الدعوات الملحدة . . فلقد رأى القائمون على رئاسة هذه الأحزاب ثم القائمين على السلطة بعد ذلك أنه لا بد من تصفية المسلمين أو تحويلهم إلى وثنيين ، ومن هنا بدأت عمليات الاضطهاد والقهر لهم وحرمانهم من الوظائف الحكومية وتأدية الشعائر وغير ذلك من الحقوق الإنسانية وقامت حملات تعذيب يشرف عليها البوذيون والشيوعيون للمسلمين وذبح الآلاف منهم ثم تلا ذلك حملات الطرد الجماعى لهؤلاء المسلمين المتمسكين بعقيدتهم ودينهم الحنيف وتم سحب هوياتهم وإلقائهم على الحدود يواجهون ظروفاً صعبة من الضـــياع والتشرد . .

والآن وبعد هذه النبذة الموجزة عن آلام إخواننا مسلمى « بورما » يأتى السؤال : إلى متى سنظل واقفين مكتوفى الأيدى وإخوان لنا فى الدين والإنسانية يذبحون ؟ إن الإسلام يذبح فى الفلبين وفلسطين وقبرص وتشاد وكشمير وأرتيريا وغيرها من الأماكن فهم سنكتفى بالبيانات الموجزة للاستنكار.. أيها الإخوة : الإسلام يناديكم أن تنقذوه فهبوا .. على الحكومات الإسلامية والعربية أن تتدخل بإيجابية لإنقاذ المسلمين فى بورما وعليها أن تساعد حكومة بنغلاديش لتستطيع إعاشة هؤلاء الإخوان النازحين الهاربين من بطش حكومة بورما . . إنها محنة إسلامية . . وإنسانية . فهل ندرك أبعادها ؟

عمر بن الخطاب

أول من دعى بأمير المؤمنين ، وأول من كتب التاريخ وثبته بالهجرة بعد عام فتح بيت المقدس ، وأول من نظم بقاء المجاهد خارج أسرته مدة معلومة ، وأول من حمل الدرة لتأديب الناس ، وأول من وضع الخراج ومصّر الأمصار ، وأول من استقضى القضاء وثبّت قاعدة استقلال القضاء ، وأول من أحصى النـــاس ورتّب السكان ونظم معاشهم وأعطياتهم ، وأول من خطط المدن على أسس واضحة فى الإسلام ، وأول من تفقد شئون المسلمين ليلا لحفظ الدين وحقوق الناس ، وأول من سافر خارج الجزيرة لتسلم مفاتيح مدينة ، وأول من سن قاعدة .« من أين لك هذا ؟ » ، وأول من شرع للأطفال حقوقًا مادية ثابتة ، وأول من منع خروج المهاجرين والبدريين من المدينة إلى الأمصار .

باب الفتاوى

بقلم وإعداد :

الأستاذ / عبد الحميد السيد شاهين

مع قدوم شهر رمضان تتجدد الأسئلة عن أمور يتكرر حدوثها وتتكرر الإجابة عليها ونورد فيما يلي بعضا منها راجين أن يكون فيها النفع لمن يجهلها والذكرى لمن يعلمها . .

من يرخص لهم فى الفطر وتجب عليهم الفدية ؟

تحت هذا العنوان جاء فى « رسالة الصيام » لفضيلة الأستاذ الشيخ سيد سابق . من مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الدينية بوزارة الأوقاف ؟

يرخص الفطر للشيخ الكبير والمرأة العجوز والمريض الذى لا يرجى برؤه . وأصحاب الأعمال الشاقة الذين لا يجدون متسعاً من الرزق ، غير مايزاولون من أعمال .

هؤلاء جميعاً يرخص لهم فى الفطر إذا كان الصيام يجهدهم ويشق عليهم مشقة شديدة فى جميع فصول السنة .

وعليهم أن يطعموا عن كل يوم مسكينا .

وقدر ذلك بنحو صاع « قدح وثلث » أو نصف صاع أو مد على خلاف فى ذلك ، ولم يأت من السنة ما يدل على التقدير .

قال ابن عباس : « رخص للشيخ الكبير أن يفطر . ويطعم عن كل يوم مسكينا ولا قضاء عليه » رواه الدارقطنى والحاكم وصححاه .

وروى البخارى عن عطاء ، أنه سمع ابن عباس رضى الله عنهما يقرأ : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » قال ابن عباس ليست بمنسوخة هى للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً .

والمريض الذى لا يرجى برؤه ويجهده

الصوم مثل الشيخ الكبير، ولا فرق، وكذلك العمال الذين يضطلعون بشاق الأعمال .

قال الشيخ محمد عبده : فالمراد بمن « يطيقونه » فى الآية الشيوخ الضعفاء والزمنى (المرضى مرضاً مزمناً لا يبرأ) ونحوهم ، كالفعلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة ، كاستخراج الفحم الحجرى من مناجمه .

ومنهم المجرمون الذين يحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة إذا شق الصيام عليهم بالفعل ، وكانوا يملكون الفدية .

والحبلى والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو أولادهما (بالتجربة أو بإخبار الطبيب الثقة أو بغلبة الظن) أفطرتا وعليهما الفدية ولا قضاء عليهما عند ابن عمر وابن عباس .

روى أبو داود عن عكرمة أن ابن عباس قال فى قوله تعالى : (وعلى الذين يطيقونه) هى رخصة تبيح للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصيام أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكينا . والحبلى والمرضع إذا خافتا (يعنى على أولادهما) أفطرتا وأطعمتا . رواه البزار .

وزاد فى آخره : وكان ابن عباس يقول لأم ولد له حبلى : « أنت بمنزلة الذى لا يطيقه فعليك الفداء ولا قضاء عليك » وصحح الدارقطنى إسناده .

وعن نافع أن ابن عمر سئل عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها فقال تفطر وتطعم مكان كل يوم مسكينا مدًّا من حنطة (ربع قدح من قمح) . رواه مالك والبيهقى .

وفى الحديث : « إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ، وعن الحبلى والمرضع الصوم » .

وعند الأحناف وأبى عبيد وأبى ثور : أنهما يقضيان فقط ولا إطعام عليهما .

وعند أحمد والشافعى : أنهما إن خافتا على الولد فقط وأفطرتا ، فعليهما القضاء والفدية ، وإن خافتا على أنفسهما فقط ، أو على أنفسهما وعلى ولدهما فعليهما القضاء لا غير .

ما حكم تعاطى الحقنة فى نهار رمضان ؟

فى كتاب « الصيام جنة » لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف مشتهرى . من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر قال : يباح للصائم حقن الدواء وغيره فى العروق ولا يفطر به كالكحل ، وكذا الحقنــة فى إحليل الصائم لا يفطر بها عند النعمان ومالك ومحمد بن الحسن وأحمد . أما الحقنة فى الدبر وقبل المرأة فتفسد الصوم اتفاقا . . .

ثم أورد فتوى للأستاذ الجليل الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقاً رحمه الله جاء فيها :

« أما الحقنة تحت الجلد فلا تفسد الصوم باتفاق المذاهب الأربعة » سواء كانت للتداوى أو للتغذية أو للتخدير ، وفى أى موضع من البدن » ومثلها الحقنة فى العروق والحقنة فى الشرايين . . ثم قال فالحق أن الحقنة بجميع أنواعها لا تفطر »

كما أورد رأى لجنة الفتوى بالأزهر برياسة فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد سليم حيث ختمت الفتوى بقولها : « واللجنة ترى الأخذ بمذهب الصاحبين ومن وافقهما فى أن ما يصل إلى الجوف من غير المنافذ الطبيعية لا يفطر ؛ لأنه أرفق بالناس ، وعليه لا يفطر الصائم بالحقن المعروفة الآن بجميع أنواعها سواء كان الدواء أو الغذاء يصل بها إلى الجوف أم لا ، أما إذا لم يصل فالأمر ظاهر . وإن وصل فإنما يصل من منفذ عارض غير خلقى — وتعميما للفائدة نذكر ما رآه فضيلة الأستاذ الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت فى كتابه الفتاوى تحت عنوان :

الحقن كلها لا تفطر :

وإذ كان من محظور الصوم الأكل والشرب — وحقيقتهما دخول شيء من الحلق إلى المعدة ، والمعدة هى محل الطعام والشراب من الإنسان ، وقالوا : إنها كالحويصلة للطائر والكرش للحيوان كان المبطل للصوم مادخل فيها بخصوصها

سواء كان مغذيا أم غير مغذ . ولا بد أن يكون عن المنفذ المعتاد .

ومن أجل هذا فما دخل فى الجوف ولكن لم يصل إليها لا يفسد الصوم ، فالحقنة الشرجية يدخل بها الماء الجوف ولكن لا يصل إليها فلا تفطر .

والحقن الجلدية أو العرقية يسرى أثرها فى العروق ولا تدخل محل الطعام والشراب فلا تفطر . . .

نعم ، قد يحدث بعضها نشاطاً فى الجسم وقوة عامة ، ولكن لا تدفع جوعاً ولا عطشاً ومن هنا لا تأخذ حكم الأكل أو الشرب . وإن أدت شيئاً من مهمته . . وإذا كان هذا هو الأصل فى الإفطار ، وكان الحقن بجميع أنواعها لا تفطر الصائم ، فإن أقماع البواسير أومراهمها ، أو الاكتحال ، أو التقطير فى العين أو مسها كل ذلك لا تأثير له على الصوم فهو ليس بأكل فى صورته ولا فى معناه ، وهو بعد لا يصل إلى المعدة محل الطعام والشراب .

وجاء فى رسالة الصيام للشيخ سيد سابق :

فإن أكل أو شرب ناسيًا أو مخطئًا أومكرها فلا قضاء عليه ولا كفارة. فعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من نسى وهو صائم « فأكل أو شرب فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه » رواه الجماعة وقال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم .

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من أفطر فى رمضان ناسيًا فلا قضاء عليه ولا كفارة » .

قال الحافظ ابن حجر إسناده صحيح .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

رواه ابن ماجه والطبرانى والحاكم .

ثم ذكر فيها حكم من أكل أو شرب أو جامع ظانا غروب الشمس أو عدم طلوع الفجر فظهر خلاف ذلك فقال : عليه القضاء عند جمهور العلماء ومنهم الأئمة الأربعة . . .

وذهب إسحاق ، وداود ، وابن حزم ، وعطاء ، وعروة ، والحسن البصرى ، ومجاهد : إلى أن صومه صحيح ولا قضاء عليه لقوله تعالى : (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم)

ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ . . » الحديث :

وروى عبد الرازق قال : « حدثنا معمر عن الأعمش عن زيد بن وهب قال : أفطر الناس فى زمن عمر بن الخطاب فرأيت عساسًا « أى أقداحاً ضخامًا » أخرجت من بيت حفصة فشربوا ثم طلعت الشمس من سحاب ، فكأن ذلك شق على الناس فقالوا : نقضى هذا اليوم . فقال عمر : لم ؟ والله ما تجانفنا لإثم » .

وروى البخارى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : أفطرنا يومًا من رمضان ، فى غيم ، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم طلعت الشمس .

قال ابن تيميــة : يدل على أنه لا يستحب مع الغــيم التأخير إلى أن يتبين الغروب ، فإنهم لم يفعلوا ذلك ، ولم يأمرهم به النبى صلى الله عليه وسلم ، والصحابة مع نبيهم أعلم وأطوع لله ولرسوله ممن جاء بعدهم .

والثانى : يدل على أنه لا يجب القضاء ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لو أمرهم بالقضاء لشاع ذلك . كما نقل فطرهم ، فلما لم ينقل دل على أنه لم يأمرهم .

والله أعلم

كتاب الشهر

"موريس بوكاى"
(Maurice Bucaille)

القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم

دراسة الكتب المقدسة
فى ضوء المعارف الحديثة

« La Bible, le Coran et la Science »

عرض وتقديم :
د. عبد الودود شلبى

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول « رينيه جينو » العالم والفيلسوف الفرنسي الذى عمت شهرته أنحاء العالم شرقًا وغربًا عن سبب إسلامه :

« إنه أراد أن يعتصم بنص مقدس لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه ، فلم يجد – بعد دراسة عميقة – سوى القرآن – فهو الكتاب الوحيد الذى لم ينله التحريف والتزييف لأن الله تكفل بحفظه ، وحفظه حقيقة . .

ومن آيات هذا الحفظ وعلاماته البارزة فى هذا العصر . . أن ألد أعداء الإسلام فى هذا العالم يذيعونه مرتلا صباح كل يوم من إذاعاتهم . . وأعجب من ذلك . أن إسرائيل التى تعلم يقينا مدى ما فى القرآن من أدلة دامغة لكيانها المزور تحرص على إذاعة هذه التلاوة ، وتقدمها إلى المستمعين بكثير من التوقير والإجلال.. والأعجب من هذا كله أن الاتحاد السوفيتى الذى تقوم فلسفته على إنكار الخالق جل شأنه ، وتحارب أى دين من الديانات التى تذكر اسمه . . الاتحاد السوفييتى هذا يأمر بطبع المصحف الشريف فى بلاده ويقوم بتوزيعه خارج وطنه . . وإن كان الغرض من ذلك كله إيهام السذَّج بحياده تجاه الدين . . أو الدعاية لنفسه فى شعوب المسلمين .

إننى أحتفظ فى مكتبتى بنسخة من هذا المصحف الذى طبع فى طشقند سنة ١٣٧٩هـ=١٩٦٠م ، وقد تسلمتها بحيلة من الملحق الثقافى السوفييتى حين حضر إلى مكتب شيخ الأزهر المرحوم الشيخ محمود شلتوت ليقدم له طالبين أرسلهما المفتى بابا خانوف للالتحاق بالأزهر ومعهما نسختان من هذا المصحف وكأنما أحضرهما الرجل معه استعداداً للحلف بأغلظ الأيْمان إذا اقتضى الأمر ذلك فى حالة الشك والريبة . . لقد رفع الشيخ شلتوت المصحف بيده ثم قال منفعلا اكتُبْ يابُنَىَّ وأشْهِد العالم على ما تكتب أن القرآن يقدم كل يوم دليل إعجازه وصدقه – وإلا . . هل يتصور أحد أن الاتحاد السوفييتى الذى يعلن أن « الله

خرافة » وأن « الدين أفيون الشعب » هو الذى يقوم بطبع هذا المصحف . .

• • •

وفى كل يوم . . يأتى القرآن بجديد . . . وهذا الجديد ليس وحياً من السماء يضاف إلى ما استقر عليه الأمر فى حياة النبى أو بعد مماته « لقد انقطع الوحى منذ غادر الرسول (ص) دنيانا إلى الرفيق الأعلى . وإنما الجديد الذى أعنيه هو ما يتكشف للباحثين والدارسين من أولى البصائر . . إنه الكشف عن حقائق هذا الكتاب المعجز وآياته فى الحياة والناس والكون ، وكان آخر « جديد » فى هذا المجال ما كتبه العالم الفرنسى المحقق الدكتور « موريس بوكاى » — Maurice Bucaille عن القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم .

لقد بدأ المؤلف كتابه بالاعتذار عن هذا الجهل الذى غطى على عقول أوربا تجاه الإسلام .. ولكن الرجل يلتمس العذر لهؤلاء الذين حيل بينهم وبين الحقيقة « إذا تذكرنا الطريقة التى اتبعت فى تثقيف الأجيال الكثيرة فيما يتعلق بالقضايا الدينية لدى الإنسان . وكيف فرض عليهم الجهل فى كل ما يمس الإسلام . وهكذا . . فإن مثل « الدين المحمدى » « والمحمديون » ليدل على الرغبة فى أن تظل النفوس مقتنعة بهذا الرأى الخاطئ القائل : بأن تلك معتقدات انتشرت بفضل الاستعمال السائد حتى اليوم فى التسميات جهاد رجل وأنه ليس له « بالمعنى الذى يدركه المسيحيون » مكان فى تلك المعتقدات . ولنضف أن كثيراً من معاصرينا المثقفين يهتمون بالجوانب الفلسفية والاجتماعية والسياسية فى الإسلام دون أن يتساءلوا عن التنزيل الإسلامى بصورة خاصة . . كما كان يجب عليهم أن يفعلوه ، ويرون من البديهيات أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد اعتمد على ما سبقه ، وذلك بقصد استبعاد قضية الوحى منذ البدء » ص ٦[1] .

وإننا لنأسف حقاً لذلك الموقف الذى يهدف إلى تبرير الاحتفاظ فى نصوص التوراة والإنجيل ببعض المقاطع الباطلة خلافاً لكل منطق . إن ذلك يسىء كثيراً إلى الإيمـــان بالله لدى بعض العقول المثقفة . ومع ذلك فقد أثبتت التجربة أنه إذا كان بعضهم قادراً على فضح بعض مواطن الضعف من هذا النوع فإن الغالبية من المسيحيين لم تدرك

---

(١) كان يمثل هذا الاتجاه (ماسينيون) وآخرون لازال بعضهم أحياء ، ومنهم من يعيش فى مصر .

حتى الآن وجود هذا الضعف، وظلت فى جهالة تامة من أمر هذا التناقض مع المعارف الدنيوية المشهورة التى تعتبر غالباً من المعارف السياسية جداً .. ص ١٠ .

(وهناك فرق جوهرى بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة ، ونعنى بذلك فقدان نصوص الوحى الثابت لدى المسيحية ، فى حين أن الإسلام لديه القرآن الذى هو وحى منزل وثابت معاً .

فالقرآن هو الوحى الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل ، وقد كتب فور نزوله ، ويحفظه ويستظهره المؤمنون عند الصلاة وبخاصة فى شهر رمضان ، وقد رتب فى سور بأمر من محمد صلى الله عليه وسلم ، وجمعت هذه السور فور موت النبى (ص) وفى خلافة عثمان (من السنة الثانية عشرة إلى السنة الرابعة والعشرين التالية لوفاة محمد صلى الله عليه وسلم ، لتصبح ذلك النص الذى نعرفه اليوم .

أما الكتاب المسيحى المقدس فإنه يختلف بشكل بيّن عما حدث بالنسبة للإسلام . فالإنجيل يعتمد على شهادات بشرية متعـــددة وغير مباشرة ، وإننا لا نملك مثلا آية شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى — خلافاً — لما يتصوره الكثير من المسيحيين ولقد كانت مقابلة نصوص الكتب المقدسة بحقائق العلوم — موضوع تفكير الإنسان فى كل العصور — ولكن تطور العلم كشف للمفكرين عن وجود نقاط خلاف بين الاثنين ، وبهذه الطريقة خلق ذلك الوضع الخطير الذى جعل اليوم مفسرى التوارة والأناجيل يناصبون العلماء العداء . . إذ لا يمكن فى الحقيقة أن نقبل بأن رسالة إلهية تنص على واقع غير صحيح بالمرة . . وبناء على ذلك فليس هناك سوى إمكانية واحدة للتوفيق المعقول بين الأمرين . وهى عدم قبول صحة المقطع الذى يقول فى التوراة بأمر غير مقبول علمياً (ص١١) .

« . . . . وإن دراسة نص القرآن فى العصر الحديث لم تكشف عن الحاجة إلى إعادة النظر فى هذا ، وسوف نرى فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية ، وهى وقائع كثيرة جداً — . وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها ، أن القرآن لا يحتوى على آية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم » ص ١٣

لقد أجرت مجلة « المعرفة » التونسية

حواراً مع المؤلف لبيان السبب الذى من أجله ألف هذا الكتاب ، وعن الظروف التى دفعته لإخراجه وكتابته على هذا النحو . وقد رأيت فى هذا الحديث إضافة مهمة ينبغى ألا تهمل ونحن بصدد عرض هذا الكتاب لأن قيمة المكتوب والكاتب ترتفع قيمة وثقة حين تدرك نبل الغاية الدافعة إلى البحث ، وصدق النية الحافزة إلى التوضيح والشرح .

سؤال : كيف بدأت فكرة تأليف الكتاب ؟

● إن الناس لا يتصورون أن عاملا يدويا (لأنى عامل يدوى باعتبار أنى جراح) ينكب على تعلم العربية ثم على دراسة القرآن والإنجيل دون مناسبة . والحق أنى صادفت فى فرنسا بعض المسلمين المستنيرين والمثقفين ، الذين بينوا لى أن معلوماتى حول الإسلام خاطئة نظراً للتربية المسيحية التى تلقيتها فى طفولتى ، ونظراً لمطالعاتى المشتبهة لبعض الصحف والمجلات ولقد أدركت أثناء محادثاتى مع هؤلاء الأشخاص مدى الحاجز الكبير الذى يفصلنى عن المعرفة الحقيقية للإسلام . .

لذا بدأت وأنا فى الخمسين بتعلم العربية ولما أحسست بقدرتى على فهم القرآن فتحته وبدأت فى دراسته دون أى فكرة مسبقة ودون أن تخامرنى أبداً فكرة تأليف كتاب .

وصادفت أثناء قراءاتى بعض النظريات العلمية الحديثة التى تتنافى تماماً مع الأقوال التى تصرح بأن محمداً هو الذى ألف القرآن بإرشاد من بعض الأحبار أو الرهبان . ولقد دهشت لما ورد فى القرآن من نظريات فبدأت بجمعها دون أى معتقد دينى بل كان موقفى أولا علمياً بحتاً .

ولما أنهيت قراءة القرآن ، توصلت إلى نتيجة وهى : أنه من المستحيل أن يكتب إنسان فى القرن السابع ميلادياً كل هذه الحقائق المجهولة آنذاك .

هكذا بدأت فكرة الكتاب . وهو حسب رأيى أول كتاب يؤلفه غربى حول هذا الموضوع .

وبما أنى أردت أن يكون البحث عميقاً رأيت أن أقوم بدراسة مقارنة مع التوراة والإنجيل ، وهكذا ولد الكتاب .

سؤال : توصلت فى آخر كتابك إلى نتيجة وهى : ضرورة التسليم بصحة الإسلام ، فما معنى هذا ؟

● إن إعلان الإسلام يعنى التصريح بأن القرآن كتاب موحى به (ولم يؤلفه

بشر) وإن محمداً رسول الله ولا أرى هنالك موقفاً آخر . لكن موقفي كان أولا موقفاً فكرياً . ولقد كنت أتجنب فى كل اتصالاتى وتصريحاتى طرح الموضوع من وجهة النظر الدينية العقائدية . وهذا ما فعلته أمام الأكاديمية الطبية بفرنسا منذ سنة حين طرحت مشكلة المعطيات الفيزيولوجية والجنينية فى القرآن وقلت وقتها إنه لا يوجد شرح لوجود مثل هذه المعطيات الصحيحة فى القرآن إلا إذا اعتبرنا أنه كتاب منزل ، ولقد توصلت إلى هذه النتيجة كنهاية لبحثى ولم توجهنى هى فى وهذا ما أقصده عندما أقول إن موقفى كان فكرياً بالدرجة الأولى .

سؤال : هنالك صعوبة كبيرة تحول دون التفاهم مع الأوربيين حول موضوع الدين . ذلك أن الدين والألوهية والمفاهيم المتصلة بها تتسم فى عقل الغربى بسمة الغموض فهل ما زالت هذه الصعوبات قائمة ؟ وما العمل لإزالتها ؟

● أعتقد أولا : أن هنالك تغيراً جذرياً فى موقف المسيحيين وهذا التغير نتيجة مباشرة مجمع الفاتيكان الثانى (Concil II Vatican) فهذا المجمع دشن الانفتاح على الديانات الأخرى . وهنالك نشرة أصدرها الفاتيكان وأشرت إليها فى كتابى وعنوانها — توجيهات حول الحواريين المسيحيين والمسلمين ، وما مؤتمرات التقارب بين الإسلام والمسيحية إلا نتيجة لمجمع الفاتيكان الثانى . إذن وللعودة للسؤال : هنالك تحول جذرى بطىء ولكنه أكيد . ولقد جاء من القمة ولم يمس القاعدة إلا جزئيا . هذا التحول يتمثل أساساً فى الاعتراف بالإسلام كدين من طرف الفاتيكان .

ولابد من دعم هذا التحول وتشجيعه من طرف المسلمين ، الذين يتحملون مسئولية التعريف بدينهم تعريفاً صحيحاً وذلك من خلال الكتب والدراسات والمحاضرات حتى يدرك الغربيون أن ما يعرفونه عن الإسلام خطأ تماماً . هذا هو دور المسلمين فإذا وقع تزييف مقصود أو غير مقصود ، عليكم أنتم المسلمون توضيح الحقيقة .

هنالك مثلا مشكلة الله فى ترجمات القرآن بالفرنسية نجد كلمة (Allah) بينما يجب أن نجد كلمة (Dieu) أو كلمة (God) إذا كانت الترجمة إنجليزية ، فالإنسان الفرنسى العادى يتصور أن المسلمين يعبدون إلاها خاصا بهم يسمى (Allah) .

وهناك مثال آخر : لى كثير من

الأصدقاء الذين يتصورون أن الإسلام يرفض السيد المسيح ولقد أفهمتهم الحقيقة وهى أن الإسلام يعتبر عيسى نبيا مثله مثل باقى الأنبياء ولقد أطلعتهم على بعض الترجمات واقتنعوا .

بعض الحقائق البديهية بالنسبة لكم مجهولة تماماً عند بعض المثقفين . ولو اطلعتم على الشبهات التى تجول فى أذهان المثقفين لاستغربتم .

سؤال : هل يمكن اعتبار كتاب القرآن والإنجيل والعلم آخر أبحاثكم ؟

● بعد إتمام الكتاب كان من الضرورى أن يترجم إلى العربية ولقد قام بذلك أحد المصريين المقيمين بفرنسا وسيصدر قريباً عن دار المعارف[1] ولقد ترجم بعد ذلك للإنجليزية . كل هذا يمثل عملا كبيراً حال دون التفكير فى عمل جديد ، ثم أنت تعلم أن الأعمال الجدية تحتاج إلى وقت طويل .

سؤال : يرى بعض المفكرين المسلمين أن شرح القرآن على ضوء العلوم أمر خطير على العقيدة ، ذلك أن الحقائق العلمية عرضة للتحوير أو ربما للتغيير . فما رأيكم ؟

● اسمح لى بالعودة إلى عنوان الكتاب القرآن والتوراة والإنجيل والعلم وهنالك عنوان تحتى وهو : دراسة على ضوء المعلومات — أو المعارف الحديثة — ولابد أن أشير إلى أن كلمة علم (Science) تعنى الظاهرة العلمية وهى ما لا يتغير أو النظرية العلمية وهى شرح الظاهرة العلمية وهى ما يتغير .

وهاك المثال التالى : دوران الأرض حول الشمس أو دوران القمر حول الأرض — هذه ظواهر ثابتة لن تتغير (إلا إذا أراد الله ذلك) أما شرحنا لها فهو المتطور . وهذا مثال آخر : التناسل البشرى الظاهرة الموجودة علمياً ولا تتغير أمـــا معلوماتنا حـــولها فهى المتطورة وفى كتابى أشير إلى أن القرآن يؤكد الظاهرة العلمية لا النظرية . فالقرآن ليس كتاباً فى العلوم وإن كان يشير إلى ظواهر علمية ثبت وجودها فيما بعد : إذن فليس هدفى أن تثبت العلوم صحة القرآن . فالدراسة العلمية دراسة موازية للقرآن فقط . وكل من ظن أن هدفى هو إثبات صحة القرآن على ضوء الاكتشاف العلمى يكون مخطئاً ، لأن هـــذا العمل يكون عملا دينياً عقائدياً وســـبق وأن صرحت لك أن موقفى كان من منطلق فكرى علمى بحت يثبت أن العلم يوازى القرآن لا أن العلم يثبت صحة القرآن ..

---

(١) وقد صدر الكتاب فعلا عن دار المعارف.

سؤال : وقضية الأحاديث النبوية ؟

● كنت انتظر هذا السؤال . إن هذا الموضوع موضوع شائك وأود أن أؤكد قبل كل شيء أنه ليس لى تصور خاص للحديث ولا أدعى أنى سأضيف شيئاً للعلم الحديث .

ولقد حورت مع الأستاذ معروف الدواليبي (من سوريا) الفصل المخصص للأحاديث فى الترجمة العربية ، وكل ذلك لتوضيح موقفى للمسلمين وسيصدر هذا التحوير فى الطبعة الفرنسية الخامسة .

هنالك حقيقة تعرفونها وهى أن الأحاديث متفاوتة من حيث الصحة . فمنها الصحيح والضعيف والموضوع . ومن ناحية أخرى يمكننى أن أقسم الأحاديث إلى أحاديث ذات صبغة مقدسة وأحاديث تتعلق بأمور دنيوية . وفى حادثة تلقيح النخل أكد الرسول ما معناه أنه على المسلمين أخذ عقائدهم عنه ، أما فيما يتعلق بأمور دنياهم فقد يكونون هم أدرى . قلت كل هذا لأثبت أنه من الأحاديث ما ليس بصحيح (بينما لاتوجد آيات ضعيفة أو موضوعة) وأن الخلاف يدور حول الأحاديث المتعلقة بالأمور الدنيوية والتى قد لا تكون صحيحة . هذا هو رأيى ورأى الأستاذ معروف الدواليبي .

سؤال : سؤال ذو صبغة عامة : هل تتوقع أن تساعد هذه العقلية الموضوعية التى تسود كتابك على نهضة إسلامية ؟

● إنى لا أعتبر نفسى نموذجاً أو قدوة وعلى المسلمين الإجابة على هذا السؤال .

سؤال : فكيف تشرحون إذن أن كتابك لم يكتبه مسلم ؟ بل صدر عن إنسان تلقى ثقافة أوربية .

● لكى يدرس الإنسان موضوعاً مثل موضوعى الذى درسته لابد من التأكيد على نقطة الانطلاق ، فالزاوية التى ينظر من خلالها الدارس للموضوع يجب أن تكون متحررة من كل الأفكار المسبقة . أعطيك مثالا على ذلك ، فالطبيب يستفيد فى كثير من الأحيان من آراء بعض الناس الذين ينظرون للمشكل بطريقة تكون ربما أشمل من طريقة الطبيب . فالذى ينظر للمشكل من الخارج يشاهد ربما أكثر ممن يشاهده من الداخل . ونعود بعد ذلك إلى الكتاب . .

لقد بدأ المؤلف كتابه بسؤال عن العهد القديم فقال :

من هو مؤلف العهد القديم ؟ كم من قراء العهد القـــديم الذين قد يطرح عليهم السؤال ولن يجيبوا إلا بترديد ما قرءوا

فى مقدمة كتابهم العهد القديم ؟ كم من القراء سيردد أن مؤلف هذه الكتب هو الرب برغم أنها كتبت بأقلام بشر ألهمهم الروح القدس ؟ ص ١٧ .

ولكن .. إذا حدث ورجع القارئ إلى المؤلفات التى كتبها بعض رجال الدين – للخاصة – وليس لعامة الجمهور – فيكتشف أن مسألة أسفار الكتاب المقدس مسألة أكثر تعقيداً مما مما كان يظن بداءة ، وإذا استوضح « طبعة الكتاب المقدس الحديثة » التى ترجمت إلى اللغة الفرنسية – فإنه سيكتشف أن نبرة الحديث مختلفة جداً ، وسيدرك أن العهد القديم كالعهد الجـــديد – يثير مشاكل لا يخفى المفسرون عناصرها التى تسبب النزاع . ص ١٨

ويشير إدموند جاكوب (Edmond Jacob) إلى أنه فى البدء لم يكن هناك نص واحد فقط ، بل كان هناك تعدد فى النصوص ، وبعد أن يتناول المؤلف حقيقة هذه النصوص بالتحقيق والشرح والسنة والتاريخ ينتهى إلى القول بـ« ضخامة ما أضافه الإنسان إلى العهد القديم – وبهذا أيضاً يتبين للقارئ التحولات التى أصابت نص العهد القديم من نقل إلى نقل آخر ، ومن ترجمة إلى أخرى بكل ما ينجم حتما عن ذلك من تصحيحات جاءت على أكثر من ألفى عام ص ١٩ .

يقول المؤلف :

فى سفر التكوين توجد أكثر المتناقضات وضوحاً مع العلم الحديث وتمس هذه التناقضات ثلاث نقاط جوهوية :

أولاً : خلق العالم ومراحله .

ثانياً : تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض .

ثالثاً : رواية الطوفان .

وقد لاحظ الأب ديفو (R.p.Duvaux) مدير مدرسة الكتاب المقدس : ن سفر التكوين يبدأ بروايتين عن الخلق كل منهما موضوعة إلى جانب الأخرى ، وتحتل الرواية الأولى – الإصحاح الأول والآيات الأولى – من الإصحاح الثانى – أنها بناء يتكون من أخطاء من وجهة النظر العلمية ، ولا بد من القيام بنقدها فقرة فقرة . ص ٤١

ثم يتابع المؤلف شرحه للتناقض والتخبط الغريب . فى قصة الخلق – كما تنص عليه هذه الرواية ، ثم ما تشتمل عليه هذه الرواية من تناقضات مع الرواية الثانية .

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى قصة (تاريخ خلق العالم وتاريخ ظهور الإنسان على الأرض) فيفند علمياً –

كل أقوال هذه الأسـفار التى تحدد بدء تاريخ خلق العالم منذ ٥٧٣٦ سنة ولكى تكون أكثر قرباً من الحقيقة : لنقل : إن خلق العالم بحسب هذا التقدير العبرى يحدده تقريباً بسبعة وثلاثين قرناً قبل الميلاد .

ثم يتساءل المؤلف قائلا :

ماذا يعلمنا العلم الحديث ؟ . . عسيرة هنا الإجابة عما يتعلق بتكون الكون ، وكل ما يمكن ترقيمـه هو « عصر تكون النظام الشمسى » الذى يمكن تحديده زمنياً بتقريب مرض . وبقدر الزمن الذى يفصلنا عن تكون النظام الشمسى بأربع مليـارات ونصف من السنوات . . ص ٤٧

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى قصة الطوفان لكشف تناقضات هذه القصة بوجود مصدرين متميزين بشكل جلى : أى كما وقعت فى « نصوص التوراة » فالإصحاحات ٦ ، ٧ ، ٨ من سفر التكوين مكرسة لرواية الطوفان ، وبشكل أدق هناك روايتان غير موضوعتين جنبا إلى جنب . . إنما تنفصلان فى مقاطع متداخلة كل فى الآخـر ، وبمنطق ظاهر فى تعاقب مختلف الأحداث . . والحقيقة أن فى هذه الإصحاحات الثلاثة تناقضات صارخة . .

هنا أيضاً تتعلل هذه المتناقضات بوجود مصدرين متميزين بشكل جلى : أى المصدر اليهوى (نسبة إلى يهوه) والمصدر الكهنوتى . وقد رأينا أن هذين المصدرين يشكلان تجميعاً متنافراً . فقد قطع كل نص أصلى إلى فقرات أو عبارات وهذا مع تعاقب عناصر كل مصدر مع عناصر المصدر الآخر ، بحيث ننتقل من مصدر لآخر فى الرواية سبع عشرة مرة وذلك خلال مائة سطر تقريباً من النص .

ولنضف أيضاً أن للطوفان حسب هذه النصوص مدتين مختلفتين إذ تقول الرواية « اليهوية » أربعون يوما فيضانا — على حين يقول النص الكهنوتى — مائة وخمسون يوما فيضانا .

ثم ينتقل المؤلف إلى تاريخ هذا الحادث كما تقول التوراة والتى تقول إن نوحاً قد ولد بعد ١٠٥٦ عاماً من آدم ، ٢٩٢ عاماً من ميلاد إبراهيم ولما كان الطوفان قد شمل كل الأرض وكل الأحياء فمعنى هذا أن البشرية ولدت من جديد بعد هذا الحادث — بحيث إنه عندما يولد إبراهيم بعد ذلك بحوالى ثلاثة قرون فإنه يجد الإنسانية قد أعادت تكوين نفسها فى مجتمعات فكيف يمكن لإعادة البناء هذه أن تتم فى زمن قليل

إلى هذا الحد ؟ إن هذه الملاحظة البسيطة تنتزع عن النص أية معقولية .

أكثر من ذلك — فإن الوقائع التاريخية تثبت استحالة اتفاق الرواية مع المعارف الحديثة — والواقع أن عصر إبراهيم يحدد بالسنوات ١٨٠٠ — ١٨٥٠ — ق. م. تقريباً . فإذا كان الطوفان قد حدث قبل ثلاثة قرون من إبراهيم — كما يوحى بذلك سفر التكوين فإن الطوفان يقع فى القرن ٢١ أو ٢٢ ق . م . وهذا العصر كانت قد ظهرت من قبله فى نقاط مختلفة من الأرض حضارات انتقلت أطلالها للأجيال التى تلتها ، وعلى سبيل المثال فهذه الفترة بالنسبة لمصر هى التى تسبق الدولة الوسطى (٢١٠٠ ق.م) وهذا بالتقريب هو تاريخ الفترة الوسطى قبل الأسرة الحادية عشرة ، وفى (بابل) أسرة أور الثالثة ومن المعروف جيداً أنه لم يحدث انقطاع فى هذه الحضارات ، وبالتالى لم يحدث إعدام يخص البشرية برمتها كما تقول التوراة ، وبالتالى فلا يمكن اعتبار روايات التوراة روايات حقيقية كما أنه من غير الممكن تصور (إله) يعلّم الناس بأوهام متناقضة ، وطبيعى أن يثير ذلك وجود تحريف بواسطة البشر . (٥٢ — ٥٣ — ٥٤) .

ثم انتقل المؤلف بعد ذلك إلى « العهد الجديد » أو ما يعرف بالأناجيل الموجودة بين أيدى المسيحيين ، وقد استهل المؤلف كلامه فى هذا الموضوع قائلا :

« كثيرون من قراء الأناجيل يشعرون بالحرج بل بالحيرة عندما يتأملون فى معنى بعض الروايات أو عندما يقارنون روايات مختلفة لحدث واحد مروى فى كثير من الأناجيل . وتلك هى الملاحظة التى يقدمها الأب روجى (R. Roguct) فى كتابه مقدمة إلى الإنجيل » Initiation l'Evangile

« إن التجربة الثرية التى اكتسبها هذا الكاتب — حيث إنه كان لسنوات طويلة مكلّفاً بالرد فى جريدة أسبوعية كاثوليكية على قراء الأناجيل الذين تحيرهم النصوص . . هذه التجربة قد سمحت له أن يدرك مدى أهمية الاضطرابات التى يشعر بها قراء الأناجيل ، ويلاحظ أن طلبات الشرح التى يبعث بها محدثوه الذين ينتمون إلى أوساط اجتماعية وثقافية شديدة التنوع ، وتنصب على نصوص يراها القراء مبهمة غير مفهومة بل ، حتى متناقضة وعبثية أو فاضحة . . . ص ٦٥ .

لقد تعرض المؤلف لتاريخ (كتابة

الأناجيل) وتأليفها فى حوالى أربعين صفحة من كتابه هذا (٦٥ — ١٠٤)، وانتهى من هذه الدراسة التاريخية بما يشبه الرفض لأكثر ما جاء فى هذه الأناجيل بعد أن تناول بالتحليل كل إنجيل من هذه الأناجيل المعروفة على حدة : من حيث الكاتب ومن حيث الموضوع ومن حيث الشكل الذى كتب به هذا الإنجيل أو ذاك . ونتيجة لذلك — كما يقول المؤلف — فإننا لم نعد متأكدين مطلقاً من أننا نتلقى كلمة المسيح بقراءة الإنجيل (ص ٩٨) .

ثم يضرب المؤلف لذلك مثلا بنسب المسيح عليه السلام :

إن البديهية الأولى فى هذه القضية أن يكون نسب المسيح من جهة أمه — إن كان يجب أن يكون له نسب — لأنه (أى المسيح) جاء من غير أب وولدته أمه من غير زوج ، ولكن الأناجيل تتعرض لنسب المسيح من جهة الأب وتذكر لهذا النسب سلسلة تبدأ أحياناً من إبراهيم عليه السلام وأحياناً من آدم أبى البشر وهى فى هذا وذاك تذكر أسماء تختلف من هذا الإنجيل إلى هذا الإنجيل . ويزيدنا المؤلف إيضاحاً فيقول :

يحتوى كل من الأناجيل الأربعة على عدد هام من الروايات التى تسرد أحداثاً قد تكون مذكورة فى إنجيل واحد فقط ، أو تذكر فى عدة أناجيل ، أو فيها كلها . فإذا كانت مذكورة فى إنجيل واحد فقط ، فإنها تطرح مشاكل هامة . وعلى هـــذا . . فنى حالة ما يكون (الحدث) بعيد المرمى ، فإن القارئ يدهش أن مبشراً واحداً فقط قد ذكره ، وعلى سبيل المثال : « صعود المسيح إلى السماء » يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الأحداث مسرود بشكل مختلف ، وأحياناً بشكل مختلف جداً لدى اثنين أو أكثر من المبشرين ، وكثيراً ما يدهش المسيحيون عندما يكتشفون وجود هذه المتناقضات بين الأناجيل . (ص ١١٧)

ثم يتعرض المؤلف بعد ذلك لروايات الأناجيل حول قيامة المسيح من القبر ، وما صاحب ذلك من روايات غير طبيعية ، ويعطينـــا الأب « روجى » فى كتابه « مقـــدمة إلى الإنجيل » أمثلة على الاختلاط والفوضى والتناقض الذى يسود هذه الروايات فيقول :

« لا تتطابق تماماً فى الأناجيل الثلاثة المتوافقة قائمة النساء الآتين إلى القبر إلا امرأة واحدة فى إنجيل يوحنا وهى « مريم المجدلية » ولكنها تتحدث بضمير الجماعة

كما لو كانت لها رفيقات، فهى تقول « لا نعرف أين وضعوه » أما فى إنجيل «متّى» فلاك هو الذى يعلن للنساء أنهن سيرين المسيح بالجليل . ولكن المسيح بعد لحظة يقابلهن على مقربة من القبر... والواقع أن لوقا لا يشير إلا إلى ظهور المسيح ثلاث مرات بعد قيامته . . أما يوحنا فيقول . . إنه ظهر مرتين على ثمانية أيام بمجمع بيت المقدس . ثم فى المرة الثالثة يظهر بالقرب من البحيرة . وأما متّى فإنه يتحدث عن مرة واحدة لظهور المسيح بالجليل . . وكل هذه الأمور تتناقض مع إشـــارات ظهور المسيح الموجودة فى رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس . . إذ يقول : إنه ظهر لأكثر من خمسمائة شخص فى وقت واحد يضاف إلى ذلك أن هناك تناقضاً بين رواية « أعمال الرسل » وهى من تأليف لوقا المبشر . . عن ظهور المسيح لبولس، وبين ما يقوله لنا بولس عن ذلك بشكل موجز ... (ص١٢١ — ١٢٢).

ثم ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى « أحاديث المسيح الأخيرة » أو الفارقليط (paracllet) فى إنجيل يوحنا ويقول متسائلا :

« كيف يمكن أن نشرح الغياب التام فى أناجيل متى ومرقص ولوقا لرواية الوداع المؤثر الذى يحتوى على الوصية الروحية للمسيح ؟

هل كان النص موجوداً أولا عند المبشرين الثلاثة الأولين . . ؟

ألم يحذف فيما بعد ؟ ولماذا ؟ ولنقل فوراً أنه لا يمكن الإتيان بأية إجابة .

وهاهى ذى الفقرات الجوهرية فى هذه الخطبة حسب الترجمة المسكونية للعهد الجديد :

« إذا كنتم تحبوننى فستعملون على اتباع أوامرى وسأصلى للأب الذى سيعطيكم (paracllet) آخر .

ما معنى هذه الكلمة ؟ إن النص الذى نملك حاليا لإنجيل يوحنا يشرح معناها بالألفاظ التاليه : الـ (paracllet) الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى سيبلغكم كل شىء ، وسيجعلكم تتذكرون كل ما قلته لكم « هو نفسه سيشهد لى » .

« رحيلى فائدة لكم ، لأننى إذا لم أرحل (فالفارقليط) لن يأتى إليكم وعلى العكس فإذا رحلت فسأبعث به إليكم » .

وعندما يقول المســـيح حسب إنجيل يوحنا « سأصلى لله وسيرسل لكم (فارقليط) آخر » فهو يريد بالفعل

أن يقول : إنه سيرسل إلى البشر « وسيطاً آخر » كما كان هو وسيطاً لدى الله وفى صالح البشر فى أثناء حياته على الأرض .

إذن فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائنا بشريا على هذه الأرض ، ليؤدى الدور الذى عرفه يوحنا ، ولنقل باختصار : إنه دور نبى يسمع صوت الله، ويكرر على مسامع البشر رسالته .. ذلك هو التفسير المنطقى لنص يوحنا إذا أعطينا الكلمات معناها الفعلى » . (ص ١٢٧ — ١٢٩) .

فمن يكون هذا النبى أو الكائن البشرى الذى يحمل رسالة الله بعد المسيح ؟ إنه النبى العربى محمد طبعاً .

وبعد أن ينتهى المؤلف من عرضه لنصوص العهدين « القديم والجديد » على ضوء المعارف العلمية الحديثة ينتقل إلى القرآن الكريم ثم يقارن .

فيعرض فى حوالى مائة صفحة (١٣٥ — ٢٣٧) قصة خلق السموات والأرض ، والنظام الشمسى ، والمجرات والنجوم ، وعلم الفلك ، وتعاقب الليل والنهار ، وتطور العالم السماوى ، وغزو الفضاء ، وطبيعة الأرض ، والبحار ، وعالمى النبات والحيوان والتوازن الذى يتحكم فى عالم النبات ، والتناسل فى عالم الحيوان ، وتأملات خاصة بالنحل والعناكب والطيور ، وأصول مكونات لبن الحيوان والتناسل الإنسانى ، وتطور الجنين فى الرحم ، ثم ينتهى المؤلف من ذلك كله إلى تصديق كل ما جاء به القرآن تجاه هذه الظواهر العلمية ، وإلى مطابقة ذلك للحقيقة وإلى رفض كل محاولة للتشكيك فى قدسية القرآن وصدقه وقبوله .

لقد مررت سريعاً تجاه هذه الظواهر العلمية ولم أشأ التعليق عليها بإفاضة فالظواهر العلمية لم تكن — بالدرجة الأولى — هى الغاية من عرض هذا الكتاب وتقديمه وإنما الغاية الأسمى فى نظرى — كمسلم — هى تأكيد ما جاء به القرآن نصا وحقيقة ، وأنه وحى الله المنزل على صفيه وحبيبه ، لأن ما يهم المسلم بالدرجة الأولى هو إيمانه ويقينه ، ولا يطمع مسلم اليوم فى شىء أكثر من هذه الشهادة التى يقدمها إليه رجل على غير ملته ودينه ، غير أنى أستأذن القارئ فى عرض نموذج واحد لهذا التفسير العلمى الذى ذكره المؤلف فى كتابه ، وأستأذنه كذلك فى اختيار قصة تطور الجنين كمثال لكل ما اشتمل عليه الكتاب فى كل أبوابه .

يقول المؤلف :

« إن تطور الجنين فى الرحم كما يصفه القرآن يستجيب تماماً لما نعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين ، ولا يحتوى هذا الوصف على أية مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقدها، إذ يقول القرآن إن الجنين بعد مرحلة التشبث ، وهو التعبير الذى رأينا إلى أى حد هو مؤسس على الحقيقة ، يمر بمرحلة « المضغة » (أى اللحم الممضوغ — ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمى الذى يغلف باللحم) .

« ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً » (المؤمنون ١٣) .

المضغة تشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ ، أما اللحم فيعنى اللحم النضر ، ويستحق هذا التمييز الالتفات ، إذ أن الجنين فى مرحلة أولى من تطوره كتلة صغيرة تبدو فعلا للعين المجردة كلحم ممضوغ ، ويتطور الهيكل العظمى فى هذه الكتلة وبعد أن تتشكل العظام تتغطى بالعضلات ، والمعروف أن بعض الأجزاء فى أثناء مدة تطور الجنين تبدو غير متناسبة مع ما سيكون عليه الفرد فى المستقبل ، على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة ، وذلك هو معنى « مخلق » وهى تعنى « مشكل » بنسب ، وقد جاءت الآية الخامسة من سورة الحج تشير إلى هذه الظاهرة (ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة) ، ثم يذكر القرآن بعد ذلك ظهور الحواس والأحشاء (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) السجدة : ٩

وتشير أيضاً إلى تشكل الجنس . .

(وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى) النجم : ٤٥ — ٤٦

وكما قلنا فلا بد من مقارنة كل هذه المقولات القرآنية بالمعلومات التى تثبت فى العصر الحديث، ولكن من المهم أيضاً مقابلتها بالمعتقدات العامة فى هذا الموضوع والتى كانت سائدة فى عصر التنزيل ، حتى ندرك إلى أى حد كان معاصرو هذه الفترة بعيدين عن حيازة معلومات تشبه تلك التى يعرضها القرآن فى هذه المسائل ، وليس هناك أدنى شك من أن هؤلاء المعاصرين للتنزيل لم يعرفوا فى ذلك العصر تفسير هذا الوحى مثلما ندركه نحن اليوم ، والواقع أن المتخصصين لم يكتسبوا معرفة واضحة إلى حد مَّا عن هذه المسائل إلا خلال القرن التاسع عشر ، فطيلـــة كل القرون الوسطى كانت الخرافات والأفكار النظرية هى قاعدة

مختلف المعتقدات فى هذه الموضوع . . إن المرحلة الحاسمة فى تاريخ علم الأجنة بدأت بدعوى « هارفى » الذى قال سنة ١٦٥١ بأن كل شىء حى يأتى أولا من بويضة ، وأن الجنين يتخلق تدرجاً . . لقد ساعد اختراع المجهر على هذه المعرفة . . وبرغم ذلك فقد كان النقاش دائراً حول دَوْرَىْ كل من البويضة والحيوان المنوى . ولكن القرآن حسم هذا الأمر بحقائق علمية ثابتة ، وبألفاظ بسيطة . حسم هذه القضية التى أنفق الناس مئات من السنين لمعرفتها . . . (ص ٢٣٢ – ٢٣٣) .

لقد عقد المؤلف مقارنة بين رواية التوراة لقصة الطوفان وبين رواية القرآن لهذه القصة فالتوراة تقول : «إن الطوفان كان عاماً لبنى البشر جميعاً » الأمر الذى نفته الدراسات العلمية الحديثة والواقع .

بينما يقول القرآن بأن « الطوفان » كان عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح ، وهذا يشكل الفرق الأساسى الأول بين الروايتين .

أما الفرق الجوهرى الثانى فهو : أن القرآن – على عكس التوراة – لا يحدد زمن الطوفان ولا يعطى إشارة عن مدى الكارثة نفسها .

والقرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح – فقد أعطى الله أمراً لنوح بأن يضع فى السفينة كل ما سيعيش بعد الطوفان .

« . . . احمل فيها من كل زوجين إثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول . . ومن آمن وما آمن معه إلا قليل » .

ولا تشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة ، فالتوراة – فى الواقع – تقدم ثلاث رايات عن محتوى السفينة .

– على حسب الرواية الكهنوتية نوح وأسرته دون أى استثناء وزوج من كل نوع .

– على حسب الرواية اليهوية هناك تمييز من ناحية بين الحيوانات الطاهرة والطيور – وبين الحيوانات النجسة من ناحية أخرى .

– على حسب روايات « يهويه » معدلة – زوج من كل نوع طاهر أو نجس ، وتقول التوراة بأن المكان الذى جنحت إليه السفينة نحو جبل « أرارات » أما القرآن فيقول إنه « الجودى » ، وهذا الجبل هو قمة جبال أرارات بأرمنيا . . فى نهاية الأمر فالاختلافات بين رواية القرآن ورواية التوراة موجودة . . ولكن إذا كان بالإمكان التحقق من معطيات

الكتب المقدسة . . يصبح واضحاً تمام الوضوح عدم إمكانية اتفاق رواية التوراة فى تقديمها للطوفان بزمنه ومدته مع مكتسبات العلوم الحديثة ، وعلى العكس من ذلك فإن رواية القرآن تتضح خالية من أى عنصر مثير للنقد الموضوعى (ص ٢٤٨)

• • •

وفيما يختص بالمسيح عليه السلام وقصة ميلاده يقول المؤلف :

« يجب أولا أن نلاحظ أنه ليس هناك أى موضوع من موضوعات الأناجيل قد أثار انتقادات من وجهة النظر العلمية دون أن تجده فى القرآن (أى تجد الموضوع لا النقد) والمسيح فى — القرآن موضع إشارات عديدة منها على سبيل المثال — إعلان ميلاد مريم إلى أبيها ، وإعلان معجزة ميلاد المسيح لمريم — وطبيعة المسيح — فهو نبى يحتل المكانة الأولى بين الأنبياء .

إن سورة «آل عمران» وسورة « مريم » تخصصان فقرات طويلة لأسرة المسيح ، وهما ترويان مولد أمه مريم وصباها ، وإعلانها بأمومتها الخارقة ، والمسيح يسمى دائما فى القرآن بـ « ابن مريم » والقرآن يعطى نسب المسيح من جهة أمه أساساً ، وذلك أمر منطقى تماماً . « إذ ليس للمسيح أب بيولوجى وهنا . . ينفصل القرآن عن إنجيلى متى ولوقا اللذين يعطيان للمسيح كما رأينا نسبين من جهة الذكور وهى بالإضافة إلى ذلك مختلفة . . .

أما القرآن فإنه يضع المسيح من خلال نسب أمه من سلسلة نوح وإبراهيم ، ولا يجد قارئ القرآن أخطاء فى الأسماء كتلك التى يجدها فى الأناجيل ونعنى الأخطاء الخاصة بأسلاف المسيح .

ومرة أخرى تفرض الموضوعية أن نشير إلى ادعاء هؤلاء الذين يقولون — بلا أى أساس — إن محمداً (ص) مؤلف القرآن قد نقل كثيراً من التوراة . . . ولو كان ذلك حقاً لتساءلنا من الذى دفعه ، أو ما الحجة التى أقنعته بالعدول عن نقل التوراة فيما يتعلق بأسلاف المسيح ، وبإدخال تصحيح فى القرآن يضع نصه بعيداً عن أى مرمى نقدى تثيره المعارف الحديثة ؟ على حين أن نصوص الأناجيل والعهد القديم غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر هذه . (ص ٢٤٢)

• • •

وفى نهاية هذه الدراسة الممتعة الرائعة يقول المؤلف . .

« إن العهد القديم يتكون من مجموعة من

المؤلفات الأدبية أنتجت على مدى تسعة قرون تقريباً . . وهى بشكل عام مجموعة متنافرة جداً من النصوص عدّل البشر من عناصرها عبر السنين، وقد أضيفت أجزاء لأجزاء أخرى كانت موجودة من قبل . بحيث إن التعرف اليوم على مصادر هذه النصوص عسير جداً فى بعض الأحيان . . (ص ٢٨٤) .

ولقد كان هدف الأناجيل هو تعريف البشر عبر سرد أفعال وأقوال المسيح بالتعاليم التى أراد أن يتركها لهم عند اكتمال رسالته على الأرض ، والسيئ هو أن الأناجيل لم تكتب بأقلام شهود معاينين للأمور التى أخبروا بها . . أنها ببساطة تعبير المتحدثين باسم الطوائف اليهودية المسيحية المختلفة عما احتفظت به هذه الطوائف من معلومات عن حياة المسيح العامة . وذلك فى شكل أقوال متوارثة — شفهية أو مكتوبة — اختفت اليوم بعد أن احتلت دوراً وسطاً بين التراث الشفهى ، والنصوص النهائية ، ولقد كانت النتيجة الحتمية لتعدد المصادر هو التناقضات والمتعارضات التى أعطينا عليها أمثلة عديدة (ص ٢٨٤)

أما القرآن فإنه لا يخلو فقط من متناقضات الرواية — وهى السمة البارزة فى مختلف صياغات الأناجيل — بل يظهر أيضاً لكل من يشرع فى دراسته بموضوعية ، وعلى ضوء العلوم طابعه الخاص : وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة . . . بل أكثر من ذلك يكتشف القارئ فيه مقولات ذات طابع علمى من المستحيل تصور أن إنسانا فى عصر محمد (ص) قد استطاع أن يؤلفها (ص ٢٨٥) .

إن مقارنة عديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات فى القرآن تظهر الفروق الأساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التى تتوافق تماماً مع المعطيات الحديثة . . .

ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيراً من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر .. لذا فمن المشروع تماماً أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحى من الله .. وأن تعطى له مكانة خاصة جداً.. حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه ، وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة فى عصرنا تبدو وكأنها تتحدى أى تفسير وضعى .

« وإنه لكتاب عزيز » . . . .

« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . . . »

صدق الله العظيم

د . عبد الودود شلبى

فهرس العدد

صفحة

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

Hud, Saleh and Shuaib with imposture; Moses too was charged with imposture.

The Lord hath respited those unbelievers for the allotted span of their lives; then he destroyed them and lo, how severe His disapproval was, and what a change He hath wrought !

How many a city whose people were ungodly hath the Lord destroyed because of their wrong-doing and rendered desolate and in ruins; and how many a well hath been abandoned with no one to draw water therefrom after the destruction of those people; and how many a lofty castle hath the Lord deprived of its inhabitants.

Have those people not journeyed in the land to witness the destruction of the unbelievers and take warning thereby ! Nay but their hearts are blinded and their minds rendered deficient of understanding through the following of passion and indulging in vain imitation".

(*Baidwy's Commentary.*)

«To be Continued.»

حفيد خليفة ـ ينصح خليفة

كان عبد الله بن عبد العزيز العمرى (حفيد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الأموى) يسعى فى مكة بين الصفا والمروة ، وكان هارون الرشيد أمير المؤمنين ممن شهد الموسم ذلك العام ، فأقبل الرشيد بموكبه يسعى ، فلما رقى هارون درجات الصفا هتف به ابن عمه سليل بنى أمية :

ـ يا أمير المؤمنين ، انظر بطرفك إلى البيت .

ولم يكن يومئذ بين البيت وبين المسعى هذه الجدران القائمة ، فالتفت أعظم ملوك الدنيا يومئذ إلى جهة الحرم المكى وأجاب مخاطبه قائلا :

ـ قد فعلت . . .

قال العمرى : كم من الناس ترى ؟

قال الرشيد : ومن يحصيهم إلا الله . .

Abu-Sufian Ibn Harb was the one thus addressed. He was an unbeliever and a bitter enemy of Muhammad at the time. On his way out from the presence of Heraclius, he is related to have said to those in his company, "The influence of Muhammad hath become so great that the Emperor of the Romans feareth him."

When he embraced Islam later, Abu Suflan is related to have said, "I continued to entertain a strong belief that the mission of Muhammad would ultimately prevail until the fulfilling of the Lord's decree to guide me unto Islam."

The questions which Heraclius put to Abu Sufian and the investigation that followed thereafter convinced him, beyond all doubt, that Muhqmmad was the Promised Prophet.

Every sane and normal person who hears of these questions and the investigation that followed, will readily recognise the great ingenuity with which the discussion was conducted thus contributing widely to the establishment of the truth.

Another sign testifying to the truth of a prophet, is the Divine rule that the Lord giveth His support to His chosen ones and afflicteth their enemies with failure, and no matter what betide them, the final victory will be granted the righteous.

It is feasible on consideration of this aspect of the truth, to recognise the favours which the Lord hath bestowed upon the Prophets and true believers as well as the punishment which He hath inflicted on the unbelievers.

This latter aspect of the truth has become well established through the constant corroboration it had received from such events as the Deluge and the drowning of Pharaoh and his host.

It was frequently referred to in the Quran as in the following verses :

«وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ
وَقَوْمُ لُوطٍ. وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ
مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ . فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ
أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ
عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ .
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ
قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ
بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ
تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ » .

"And if your pedple charge thee (Muhammad) with imposture, thou art not the only one who hath been so charged; the people of Noah, and Ad and Themoud, the people of Abraham, and the people of Lot, and the inhabitants of Madian, have charged their Prophets Noah,

We then asked whether they had ever accused him of falsehood before he proclaimed what he preached; to this they answered in the negative whereupon Heraclius explained, "He would not have obstained from lying to men and then have lied about the Lord.' Such wduld have been a deliberate lie, positively against his principles, and could only have been told by someone who was in the habit of telling untruths. Moreover, if lying was not a characteristic of his, having always been known to tell the truth, and averse to lying to people, he would be more so it regard to Allah.

Heraclius then inquired whether the number of his followers had increased or decreased; to this they answered that they had certainly increased, whereupon he explained "Such is the course of true belief until it is rendered perfect and complete."

He then asked whether any of his followers had ronounced his faith, out of aversion to it, after embracing it; to this they answered in the negative; whereupon he explained, "Such is the case with true belief when its sheer joy penetrateth the hearts of men."

He then inquired whether his followers had remained steadfast to his faith and had continued to uphold its tenets; to this they answered in the affirmative, whereupon he explained, "This again is a sign of truth : for falsehood is bound to be exposed in the end with the result that his disciples would desert him and that others would decline to adopt his Faith.'

The early Prophets have declared that the reign of the false claimant to prophethood is shor-tlived.

Heraclius further inquired whether Muhammad had ever been known to betray a trust; to this they answered in the negative; whereupon he explained, "So it with the Prophets; they betray not their trusts"

He knew that Prophets received the support of as well as trials from the Lord. It has always been the Divine rule to exercise the faith of the Prophets and the true believers, in both prosperity and adversity, so that they may attain to resignation and gratitude.

Finally, Heraclius inquired of them regarding what Muhammad had enjoined. On learning of them that he enjoined the worship of Allah as well as prayer, truthfulness, purity and charity and that he forbade them to worship what their fathers had worshipped before, he said, "This is a sign of a true prophet; I knew that a Prophet would appear, but it never occurred to me that he would be from amongst you. If I know that I should be able to attain to him safely, and were to come into his presence, I should be glad to wash his feet."

those who were in his company to contradict him should he tell an untruth. But they, one and all, agreed to what he said despite their eagerness to refute the claims of Muhammad and to belittle his influence.

By so doing Heraclius meant to ascertain the truth of Muhammad's prophethood through the consideration of his qualities and conduct as well as the circumstances in which he was placed. A most ingenious process indeed of establishing the truth.

"Have any of his forefathers been a king ?" inquired Heraclius.

"No," said they.

"Has any one, from among the Koreish, prior to him ever made this claim ?" he continued.

"No," they replied.

"Is he of noble descent ?" asked he.

"Yes," said they.

"Did you ever accuse him of falsehood before he made that claim ?" he inquired.

"No," they made answer, ,,we have never known him to tell a lie."

"Do the mighty follow him or the humble ?" he questioned.

"The humble follow him," said they.

"Do his followers increase or decrease ?" inquired he.

"They increase," they replied.

"Have any of them, after having embraced it, renounced his faith out of aversion to it ?" he queried.

"No," they answered.

"Was he ever known to betray a trust ?" he asked.

"No," said they.

"What doth he enjoin you to do ?" asked he.

"He enjoineth us to worship Allah alone and to associate naught else with Him, ordaineth prayer, truthfulness, purity and charity," they said.

Heraclius then explained the significance of those questions thus : He asked them whether one of his forefathers was a king and they answered in the negative, whereupon he said, "had one of his forefathers been a king, I wduld have said, a man claiming the kingdom of his father."

We asked whether any one of the Koraish prior to him had made that claim and he received the same answer; whereupon he said, "Had any one prior to him made that claim, I would have said "a man following an instance set before." This, no doubt, was a thing of frequent occurrence among men, in contradistinction to proclaiming something that was never known to the people before, of to the institution of new practices diametrically opposed to their old. Such latter innovation is indeed, of rare occurrence; nevertheless it could take place.

It was becouse Khadija[1] knew Muhammad to be true and righteous that she said to him when he betrayed fear on receiving the Revelation for the first time "Nay, By Allah ! Allah shall never put thee to shame, for thou givest unto the kindred, supportest the weak, dost lavish hospitality on the guest, renderest succour to the needy and relievest the misfortunes of the afflicted."

It is the Divine rule that those endowed with noble and unimpeachable conduct enjoy the favour and support of Allah.

Should the one blessed with these attributes fulfil the other requirements of the Prophets, he would be recognised as one of them, particularly if his advent was foretold and his distinctive qualities were known to men. Such knowledge should lead to a positive conviction that he is the promised prophet. It is in reference to this, that the Lord saith :

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

"The learned people of the Scripture know Mohammad by his qualities even as they know their own children, but some pertinacious cavillers from amongst them conceal this fact though they recognise its truth."

(*Baidawy's Commentary.*)

(1) First wife of the Prdphet and his only wife for five and twenty years.

On inquiring of the Moslems regarding what Muhammad preached and on requesting them to recite the Qoran, the Negus of Ethiopia came to the conclusion that the revelation of Muhammad bore the same stamp as the revelations of other prophets. He is reported to have said "Verily the revelation of Muhammad and that of Moses issue from the one and the same source."

It is reported that Waraka Ibn Nowfal, who embraced Christianity in pre-Islamic days had said unto Muhammad regarding the revelation "Thit is the Nomos who descended on Moses, and your people shall drive thee out." The Prophet inquired whether his people would do that; whereupon Waraka said "No man hath ever preached what thou hast preached, but hath made enemies, and if I live to see your day, I shall give thee my strong support," but he did not survive and died shortly afterwards.

Heraclius[1] inquired of Abu-Sufian (who was then an unbeliever) regarding Muhammad and ordered

(1) Heraclius (575-642) East Roman Emperor proclaimed in the year 610 A.D. In 629 A.D. the Arabs made their first incursion into his domains. In 36 they won a notable victory on the Yermuk (Hieromax) and in the tollowing years conquered all Syria, Palestine and Egypt.

knowledge and duties are the most noble of all accomplishments. It is incredible, therefore that the true could be confounded with the false and that truth and imposture should remain undiscovered in face of such indications. It is particularly so when we remember that the world has never ceased to be influenced by some Prophet or other from the time of Adam up to the present day.

Nor is mankind unaware of the kind of revelation proclaimed by the Prophets and Apostles of Allah, the influence of whom still prevails on earth, for men still retain some impressions of those Prophets by which they can recognise the verity of their claims and distinguish between prophet and impostor.

Assuming therefore, that someone came unto mankind, enjoining theocrasy and idolatry and preaching wickedness, iniquity and disbelief in Allah and the Day of Judgment, would such a man be required to perform a miracle or expect to be believed ? And even granting that he happened to perform what appeared to be a miracle, it would only be a clever piece of ellusion or some sort of charlatanism. In a word, the innermost of man's thoughts whether right or wrong, good or evil are bound to show on his face, through the slips of his tongue — nay, even in the very gestures he unconsciously makes.

It it is of such people that the Lord addressed his Prophet thus :

«وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ »

,,Shduld We please We would point the hypocrites out to thee, and thou shalt surely recognise lhem by the peculiar signs whereby We have marked them and by the erroneous perversion of their words."

(*Baidawy's Commentary.*)

And if man's innermost thoughts could be detected without being voiced, they would even be more amenable to be fully understood should they be accompanied with some actual expression thereof.

Again, if the truth or imposture of a speaker could be inferred from the circumstances, nay, even from the very slips of the tongue or twitchings of the face, then how could the truth or imposture of someone who claims prophethood remain undiscovered ? And how could the true remain undistinguished from the false in the face of such evidence.

Again, people know of their elders and fellow-beings, whose truth and veracity they have long tried, that they do not deliberately tell a lie. We do not deny that man is liable to change and become the intentional liar that he never was before. But when he does so, those who know him will not fail to perceive the change that has come over him.

CHAPTER 4

To complete our subject, we summairse in the following pages a long discourse of Ibn Taimiyya's, one of the most learned doctors of Islam in the seventh century of Hejra.

No one has honestly claimed prophethood but hat displayed such signs as wisdom, truth, charity and other virtuous attributes which constitute a proof of his genuineness.

A prophet necessarily preaches and enjoint certain truths and tenets. He has moreover certain dutiet to perform. Not so an impostor, whose falsehood will be readily detected in whatever he does or says.

When two persons claim something, the one being true and the other false, the truth of the former and the lies of the latter are bound to be revealed in more than one way, for truth is requisite to righteousness and falsehood necessarily implies wickedness. The true is guided by inspirations from on High which urge him on ward and lead him unto the right path. The light and the good example which he affords to mankind could never be attained by the impostor who is influenced by Satan. Of such the Lord saith :

«هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ» .

"Shall I tell you on whom satans descend ? They descend on liars and wicked men."

(*Baidawy's Commentary.*)

It is shown that satans hold communion with the wicked. Soothsayers, who, even through they should chance to predict some unknown event which proves to be true, are essentially wicked impostors whose pretensions will be exposed. They have no real claim to prophethood and what they reveal could not be the outcome of divine inspiration.

Those, however, who know the truthfulness, integrity and consistency in word and deed of the Prophet Muhammad, will realise, out of real conviction, that he was no soothsayer or impostor.

People can easily distinguish between the true and the false by means of the many indications manifested even among those who profess knowledge of arts and handicrafts. As the truth or falsehood of such people is easily discernible from many stand points, so it is with him who proclaims, in word or deed, a faith of love, righteousness and truth; his genuineness or imposture is bound to be revealed sooner or later.

Prophethood implies certain knowledge and duties by means of which a prophet is known. Such

And :

«يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ».

"They will find his name and qualities clearly given in the Torah and Evangel."

(*Alucy's Commentary.*)

And :

«تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ».

"Let us call together our kinsfolk and your kinsfolk and make imprecations on those who lied concerning Christ."

(*Alucy's Commentary.*)

As already alluded to in the beginning of this chapter, the Christians who came to dispute with Muhammad, were dumbounded and never as much as uttered a single word when they were challenged by him to make imprecations.

To the just and fair-minded among them this was proof positive of the truth of Muhammad's prophethood and not a few of the eminent men and learned rabbis, such as Abdullah Ibn Sallam and Mocharich, believed in him.

It is incredible that such a man as Abdullah Ibn Sallam, one of the most learned rabbis who were versed in the Law would have believed in Muhammad had he been an impostor. Nor would the Christians of Najran have ignominiously withdrawn from making imprecations after accusing him of falsehood and deceit.

Moreover, it is highly imporobable that Muhammad, had he been an impostor, would address them in such a way and upbraid them with the fact that he is known to them ,,even as they know their own children."

Nor is it imaginable that he would dare, unsupported, to maintain such an assertion for it would have driven them away from him and made him an object of scorn and derision.

Had Muhammad not been a prophet as it is alleged, he was admitted by the unbelievers to have been the most prudent of men. He would have been most imprudent and ignorant had he claimed to be what he was not. His enemies would have found in him an easy prey, and the great edifice which he had succeeded in raising, would have long ago toppled to the earth in ruins.

impostors claiming prophethood for that would be incompatible with the wisdom and justice of The Lord.

"There will come after me false prophets" saith Jesus Christ and on being asked what will their sign be, he answered "Their sign will be that The Lord shall not support them."

The support extended by Allah to the Prophet Muhammad exceeds, by far, such as was rendered to any of the Prophets before him. The great change which took place after his mission is unprecedented in the annals of anterior religions. Any one, who deems it possible that The Lord should support Muhammad and cause him to prevail when he was a lying impostor, would be guilty of gross ignorance of the proper attributes due to The Lord as well as His Justice and Wisdom and of the divine laws governing His creatures.

Moreover a lying impostor could not hide his false attitude all his lifetime—particularly from his most intimate friends.

It would be impossible that such hypocrisy and deceit should remain unexposed for any length of time. Truth has a distinctive quality which vanity completely lacks, and deception is but a false mask which vanity completely lacks, and deception is but a false mask which the lapse of time is bound to tear off some day.

This is more so in the case of someone who has a host of inexorable enemies as Muhammad had.

Yet the history of his companions such as that of Abu-Bekr and Omar bear a glowing testimony to his integrity and moral perfection, for mutual harmony ,could be achieved only in proportion to the affinity that exists between kindred souls. Character is affected by character and is ultimately tinged with the peculiar traits thereof and this is particularly so in the case of master and disciples where deep and true affection exists.

Nor is that all; the material phenomena alone performed by Muhammad more than substantiate his claims. They were cited from the most reliable sources and never, in a single instance, lacked the corroboration of history or tradition. Had pertinacious cavillers been endowed with a sense of justice and were they seekers of truth alone, they would have, unhesitatingly, believed in the authenticity of the Qoran which never failed to re-iterate such verses as :

« اَلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ » .

"Those who were given the Scripture know Muhammad even as they know their own children, for his name and qualities were clearly given in their books".

(*Baidawy's Commentary.*)

tangible proofs and natural phenomena for these others fail to appreciate the fundamental truth on which rests the salvation of mankind and their elevation to the highest possible standard of moral and spiritual excellence.

They fail to comprehend the reality of things and lack those finer blessedness of the Kingdom of Heaven to which they aspire.

In no other wise could man achieve refinement in the material and spiritual spheres.

To those of deep insight and penetration, there could be no greater proof of truth than the actions of the claimant to prophethood, his spiritual and moral worth and his striving for the salvation and well-being of his people to render them foremost in Heaven as well as on earth.

Such was the state of the Moslem people at the time when they adhered strictly to their Faith and its tenets. It would, indeed, be impossible that such far-reaching and important results could be achieved without divine support. The history of the failure of philosophers and others who wielded earthly power fully bears out such a conclusion. Moreover, it should be remembered that Muhammad was brought up among the savage and ignoront tribes of the Arabs which fact constitutes a proof in itself.

It is not our intention to discuss in detail the characteristics and miracles of Muhammad. Nor is it our desire to dwell long on the fact that falsehood does not become such a perfect soul. "I have been sent to perfect the traits of noble conduct" was Muhammad's message unto mankind.

A great soul such as Muhammad's could hardly be prone to deceit, for deceit is a characteristic which has a most pernicious and detrimental effect on souls and is positively a sign of utter depravity and degradation.

It is an established fact that he who lacks something, cannot but fail to give that thing, that the true character of a person will in course of time be revealed, whether he willed it or not, and that the soul of man will be lain bare not only through his words and actions but also through his very gestures.

It is recorded of some Arabs that on beholding the divine light of truth which radiated from Muhammad's face, they exclaimed: "Verily this is not the face of an impostor" and consequently believed in him(1).

Suffice it to say in this connection that Muhammad was so noted for his noble conduct and unimpeachable character that the people of Qoreish called him "The Faithful".

Moreover, it has never been the divine rule to give support to

(1) The same statement is recorded of Abdullah Ibn Sallam a learned Jewish rabbi.

superb meaning, they could not, under any circumstance, produce anythink like it. Nay but they could not do it even though they co-operate together for the purpose and support one another all they can."

(*Alucy's Commentary.*)

Could such an extraordinary utterance be made by a wavering impostor ? Impostors are known, the world over, to be a cowardly lot who feel apprehension on the least possible provocation.

What great faith and conviction must have filled that heart from whence issued at The Lord's behest this significant verse :

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » .

"Would the unbelievers not peruse the Qoran and meditate upon its exhortations that, haply, they may avoid such sins as they have committed; Nay but their hearts are so completely sealed against meditation that no word or truth could find a way thereunto."

(*Alucy's Commentary.*)

Much more could be written on this point, but we must present the case from other angles.

On further consideration, it will be readily recognized that the elevation of the Arab people from the lowest depths of ignorance to the highest attainments of knowledge, from servile humiliation to exaltation, the inclucation in them of a most efficient culture and noble conduct in every sphere of life, had so transformed them that every single individual of their nation had become a power in himself after having been akin to the beasts of prey. They had been guilty of oppression and infanticide, an atrocity from which even animals they achieved distinction as the greatest statesmen and leaders of their time and the light that was theirs was, henceforth, shed all over the earth.

To those of sound judgment and clear insight, this proves beyond all doubt that the source of such a great Faith was the very incarnation of all good and perfection, for the virtues with which one person imbues others must, of necessity, be commensurate with his moral worth and attainments.

The object of all divine dispensations is but to deliver mankind from the pernicious evils that beset them and to implont noble conduct as well as the secret and open fear of God deep in their hearts : for this is the basis of all good and prosperity. The Prophet Muhammad is, in this respect, the greatest of all Prophets and this in itself affords ample evidence of the truth of his prophethood for those who set a value on moral proofs. As for the others, we would refer them to the more

«وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ» .

"But they shall never wish for death, on account of the sins they have committed."

The Jews claimed that Paradise is exlusively assigned to them to the exclusion of all other people. In refutation of their claims, they were challenged to wish for death if they were so sure of going to Heaven, but they dared not wish for it, even perfunctorily, despite their eagerness to refute his claims.

(*Baidawy's Commentary.*

So much for this digression; to resume the main subject, the failure of the Arabs to emulate the Qoran was proof positive, against them as well as all others, of the divine origin of the Qoran—even as the healing of the blind and the leper by Jesus was considered a proof against medical practitioners, and the turning of his staff into a serpent by Moses a proof against magicians. Yet the successive corroborationsustained by authentic Muslem traditions and versions have never fallen to the lot of Moses, Jesus or any other prophet; in fact such corroboration is completely lacking in their case and it was only through the Qoran that their miracles were confirmed.

Should we consider fairly the Book revealed to Muhammad, we would readily recognize the Divine Source whence it issued. The reader who studies the Qoran carefully would find that it enjoins no more than the worship of Allah, noble conduct and kindly treatment of men, thus leading to the path of salvation and to the urging to mercy and benevolence towards Allah's creatures. It maintains the unity and infallibility of Allah and points out the love and reverence due unto Him. It further enjoins to entertain no awe except of Him and to seek no refuge save in Him (for He considereth none of men's outward appearances but looketh deep into their hearts) in order that they may attain through faith and integrity, the highest of all virtues and the acme of perfection.

Had this Book been faked for some ulterior motive or other, we would have found it altogether different and it would have been a medley of confusion and contradictions instead of being the model of sublime wisdom and perfection that it is.

No wonder, therefore, that The Lord saith in this connection :

«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً» .

"Were men and Djinn assembled to produce something equal to the Qoran in eloquence, rhyme and

people could only proceed from a soul completely devoid of personal ends and desires. Had this not been the case, he would necessarily have lapsed into contradiction and confusion in the pursuit of different ends and according to the ever-changing phases of circumstance.

The following verse is significant in this connection :

«وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً» .

"Had the Qoran been a discourse of men as the unbelievers allege, they would not have failed to detect therein many incongruities and contradictions."

(*Baidawy's Commentary.*)

Would not his wide vision, comprehending as it did all spheres of human life, constitute another sign of the truth of his prophethood ? There was not a single concern of man to which he, through Divine Inspiration, did not prescribe the adequate means for the right conduct thereof. He pointed out the proper attitude in regard to Allah which leads to the elevation of man's mind and the salvation of his soul, acquainting him thereby, with the finer and higher attributes that dwell within him. Nor was the treatment of family or of people in general left out; relations with them were so happily ordered to ensure a peaceful and contented life.

Would not the failure of the Arabs — who were the acclaimed masters of eloquence and oratory — to emulate the Qoran constitute yet another sign of the truth of his prophethood ? They were intent on the refutation of his claims and the suppression of his influence; but he contianued to upbraid them and to challenge them to disprove his words :

«فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» .

"Produce a chapter like that of the Qoran and summon all ye command of men and deities apart from Allah to help you in the attempt; but if ye fail to do it as ye are bound to, then fear ye Hell whose fuel shall be men and the hewn idols they worshipped, and which is made to receive those who disbelieved."

(*Baidawy's Commentary.*)

It should be observed that a prophecy is included in this verse foretelling the inevitability of their failure which was duly fulfilled. We have already alluded to the many prophecies foretold in the Qoran; a similar one is the prophecy concerning the Jews which runs :

«يَـٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ» .

"O people of the Scriptures ! An Apostle had come unto you making manifest much of what you have concealed of the Torah and the Evangel."[1]

(*Alucy's Commentary.*)

Yet another sign of the truth of Muhammad's prophethood is the giving in full detail, on being questioned by the Jews, the stories of Zul-Karnein[1], Moses, Jesus, the inmates of the Cave and Lokman and his son as well as that which had been forbidden and made lawful unto the Jews.

CHAPTER 3

The attitude of Muhammad towards the Christians was just the same; yet, in no single instance, did a Christian or a Jew dare to deny his integrity and singleness of heart, despite the bitter hatred and animosity they harboured against him and their eagerness to refute his claims.

Did he not call upon the Christians at the behest of the Lord :

«تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» .

"Let us call together our kinsfolk and your kinsfolk and make imprecations on those who lied concerning Christ"[2]

(*Alucy's Commentary.*)

But they declined to do so, knowing the truth, and their chief spokesman, Al-Akeb, by name said "Ye have witnessed that the man is a Prophet and never did a people enter into imprecation against a prophet of God but they were destroyed."

The solicitude which Muhammad had shown for the guidance of his

that he is the son of God or that he is one of a trinity or that he is a mere prophet like all other prophets, etc., etc.

(1) Such as the description of Muhammad and the verse of stoning adulterers in the Law; and Christ's prdphecy of Muhammad by the name of Ahmed in the Gospel.

(1) A great prince of the pre-Christian era whose conquests extended far east and west. Commentators differ widely as to his proper identity but they all agree that he was a True Believer.

(2) The Christians of Najran sent a deputation to dispute with Muhammad concrening Christ. They agreed to abide the tria mentioned in the verse but at the last moment their courage failed them.

with his face cut and eye-tooth broken he turns unto the Lord in earnest prayer "O Lord, forgive my people, for they know not what they do."

Thus in the midst of his afflictions he would find an excuse for his pepole and pray for their forgiveness.

Such tolerance and magnanimity could only proceed from a complete disregard of the material world and an implicit faith in the Almighty and the divine reality of truth.

Would not the spiritual light from Allah which filled him and enabled him to read with the feelings and inner workings of the human soul, all point to a supernatural attainment in the sphere of the unknown ? But one wonders not at this for The Lord saith in this connection :

«أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» .

"Shall not Allah who hath created all things know what men conceal or declare for His omniscience encompasseth all hidden or open thoughts".

(*Baidawy's Commentary.*)

Yet Muhammad was illiterate and had never travelled searching for knowledge nor held converse with any of the contemporary men of learning as is testified by history, for he was brought up an orphan among an ignorant people. Nor was trade such a vocation of his that he could be assumed to have come into contact, in the course of his journeys, with the sons of advanced nations such as those of Persia and Rome; moreover all other such assumptions lack the corrboration of history and tradition, for Muhammad had neither the means nor the desire for the material world that would induce him to take any trouble on that account.

Is it not a sign of the truth of his prophethood to hav told of past peaple and remote generations, such events as were only known to the high priests of the Scriptures with whom he never came into contact - such events as were most guardedly kept from even their most intimate adherents.

Muhammad had severely taxed them with the distortion of the Scriptures and the withholding of many truth contained therein, and yet he used to make known these truths as signified by the following verses :

«إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»

"Verily this Qoran declareth unto the Jews and Christians the truths of many points concerning which they are continually at variance".(1)

(*Alucy's Commentary.*)

(1) Such points as they disagree upon are the conception of Jesus as a God or =

The faith of men in Muhammad wduld have, undoubtedly, been shaken and they would have deserted him had it transpired that his knowledge of these hidden thoughts was unfounded and that such detection was mere conjecture on his part.

It is incredible that Muhammad shduld prejudice his chances of maintaining his cause by claiming other than the truth for he would, consequently, have been exposed to utter disgrace.

Would not the fervent zeal which he displayed in calling the people unto their salvation in this world and the hereafter, be considered a sign of perfection and nearness to the Almighty ?

So great, indeed, was his anxiety guide to the people unto the path of righteousness that The Lord addressed him thus :

«فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ».

"Spend thou not thyself out of sorrow and grief over the unbelievers and their persistence in disbelief".

(*Baidawy's Commentary.*)

His sole objective was to guide them unto a higher sphere of conduct and give them that great system of laws which raised the Arab nation from the absymal depths of humiliation into which it had sunk, to the very zenith of might and glory.

He had, thereby, made them masters after being the abject creatures that they had beed and rendered them through those glorious teachings, the mightiest nation on earth after having absolutely been the most despicable of all.

Erudition and learning flourished, and many great philosophers and thinkers distinguished themselves and lead the world unto the untrodden paths of inquiry and research. So thorough, indeed, was the treatment of their subjects that many of the scientific and philosophical theories of to-day still bear the unmistakable stamp of the particular systems of thought of which they were the world's pioneers.

"Christianity", remarks Draper[1] the celebrated American scientist "continued for one thousand years without the appearance of a single scientist or philosopher of any attainment while Islam could boast of thousands, of distinguished men within a few years of its revelation."

Would such a soul which well nigh spent itself with anxiety or the salvation of others be capable of falsehood and deceit ?

Would not his mercy and tolerance which he displayed at Ohod speak for themselves when

(1) Draper, John William (1811 - 1882) American scientist, who wrote among other treatises "The History of the Conflict between Religion and Science (1875).

they will only be defeated and none would afford them victory over you."

(*Baidawy's Commentary.*)

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

"We have sent down the Qoran whose revelation the unbelievers deny; and We will preserve it from distortion and corruption."

(*Alucy's Commentary.*)

« وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ » .

"Allah hath promised you victory over the unbelievers and you aimed at the spoils and the avoidance of danger, but Allah willed to exalt His Religion qnd make manifest the truth by giving you the promised victory over the host of the unbelievers".[1]

(*Baidawy's Commentary.*)

« إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً »

"When the Lord shall cause thee to prevail over the unbelievers, and the people shall betake themselves in multitudes to the Religion of Allah."[1]

(*Baidawy's Commentary.*)

All these prophecies and many others were fulfilled, one by one, and their entire significance was fully unfolded to the world; otherwise the enemies of Islam would have gloated over its failure, and its followers would have forsaken it instead of multiplying in numbers as has been the case.

Furthermore, would not the detection of the innermost secrets and workings of souls, as testified in the following verses, bear ample evidence to the truth of Muhammad's prophethood

« وَيَقُولُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ » .

"The hypocrites who feigned belief would say amongst themselves, 'If Muhammad were a prophet would he not invoke The Lord to punish us because of our disbelief and hostility to him."[2]

(*Alucy's Commentary*).

---

(1) At the Battle of Badr the unbelievers were encamped in two parties, one a caravan under Abu Sufian and guarded by only forty horsemen and the other was the mass of their fighting force under Abu Jahl which latter was defeated by the Moslems in fulfilment of God's promise.

(1) This took place in the ninth year of the Hejra when Mecca was reduced to submission and its inhabitants submitted to Islam as well as the pedple of Al-Taif, Yemen, Hawazen and other tribes who came willingly to Muhammad to profess th Faith.

(2) The Jews and hypocritical Moslems plotted secretly against Muhammad and derided him in their private discourse, although as this proves that this secret plotting was divinely revealed to Muhammad.

prophethood ? The following verses would serve as an example :

« سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » .

"The host of unbelievers shall be utterly routed and shall take to disordered flight."(1)

(*Alucy's Commenetary.*)

« غُلِبَتِ الرومُ فِي أَدْنَى الارضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ »

"The Romans have been defeated by the Persians in a near land : and after their defeat, they shall overcome their foes."

The unbelievers of Mecca rejoiced at the victory, as the Persians were unbelievers like themselves and the Romans were followers of the Scriptures like the Moslems. The verse was thus revealed foretelling a victory of the Romans over the Persians which was fulfilled a few years later(2).

(*Baidawy's Commentary.*)

« لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ » .

"Ye shall enter the Sacred Mosque, if Allah pleases, in fully security".

The Moslems were promised to enter Mecca in full security and the verse was revealed to the effect that they would enter the Sacred Mosque in Mecca, which entry was materialised soon after.

(*Alucy's Commentary.*

« وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ » .

"Allah hath promised the True Believers to exalt Islam and cause it to triumph over disbelief, and cause them to succeed the unbelievers and make them His viceregents on earth, as he caused the Israelites before to succeed the infidels; and that He would establish Islam which He has been pleased to give unto them."(1)

(*Kashaf's Commentary.*)

« لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ » .

"The unbelievers shall inflict no grievious harm on you, nay, naught but slight injuries and threats and if they engage in battle against you,

(1) Referring to the battle of Badr.

(2) Vide footnote page 22.

(1) In fultfilment of this promise, the Moslem conquests extended from China in the east to Morocco and the Atlantic in the west, a mighty evidence of the far-flung dominion and exaltation of Islam.

us after death and unto Him shall we return."

On putting on a new garment, he would say, "Praise be to Allah who gave me the wherewithal to adorn myself in life."

When he ate, he used to say "Praise be to Allah who hath provided us with food and by Whose pleasure we are Moslems"; and when he drank, "Praise be to The Lord Whose infinite mercy maketh water to be fresh and sweet — not salt and bitter because of our sins."

When he broke his fast, he wont to say "Praise be to Allah Who hath aided me to fast and Who hath given me to eat."

On turning in bed during the night, he would say "There is no God but Allah, The One, The All-Mighty, Lord of The Heavens and the Earth and what lieth between them, the All-Mighty, the Ever-Forgiving."

Should he wake up during the night, he wduld say, "O Lord forgive us Thy mercy and guide us unto the right path."

Shduld he feel apprehension of certain people, he was wont to say, "O Lord ! Be Thou our weapon to pierce them, our shield against them, and our refuge from their evils."

When he would come out of bis house, he would say "In the Name of Allah do I depend for there is no Power nor Might save in Him; and I seek refuge in Him from misguidance, error and oppression or being lead by others thereto."

When beholding the new moon he would say, "May it be an auspicious augury of guidance and good unto my people. I extol Allah Who created you !"

Should he raise his eyes towards the heavens he wduld say, "O Thou Director of Hearts ! Make firm my heart in Thy obedience;" and if he had occasion to swear by the Lord he would say "By Him in Whose hands lieth the soul of Muhammad."

If the wind blew he would say, "O Lord, grant us the good it bringeth and preserve us from the evil thereof."

Such was Muhammad in all his actions, completely given to the thought of Allah and ever seeking His aid and support in whatever project he might set out to do. No might or power, indeed, did he ever attribute to himself or others where Allah and His couse were concerned; he reposed his faith in Allah to the exclusidn of all others and thus was wont to say "Sufficient unto me is The Creator apart from the created, The Provider apart from the provided for; sufficient unto me is He Who sufficeth me; sufficient is Allah unto me for He is The Most Excellent Sufficiency."

To resume our analysis. Wduld not the prophecies of future events which abdund in the Qoran constitute a mighty evidence of the truth and authenticity of Muhammad's

It would not be irrelevant to mention in this connection that once, when preaching to the people of Al - Taif to call them unto The Lord, Muhammad was so roughly handled and maltereated that he bled profusely, yet in the midst of his afflictions he turned to God in earnest prayer "O Lord, I appeal to Thee out of my weakness, my lack of resourcefulness and in complaint of the contempt and abuse of men. Yet if I but merit Thy favour, verily naught care I."

Can not such a magnificent display of faith and fortitude be considered ample evidence of the truth of his mission ?

An impartial broad-minded inquirer with a fair sense of justice, who analyses the character of Muhammad and puts his actions beneath of his mission and be convinced of his integrity and truthfulness.

The signs of the truth-teller as well as that of the impostor show not only in their actions and utterances, but also in their very gestures. A discerning critic or a psychologist can not mistake these signs, for indeed the states of man's mind and conscience are show nin his face, though little or nothing thereof can be detected in word or deed. Of such the Lord hath said :

«فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ» .

«Thou shalt surely recognise the hypocrites by the peculiar signs whereby the Lord hath marked them and by their erroneous perversion of words.»

(*Baidaw'y Commentary.*)

CHAPTER 2

As already pointed out, Muhammad was wholly given to the meditation of The Glorified. Allah was all in all to him and the awe and reverence due unto the Lord seemed to run through his very veins.

Like all other Prophets and Apostles, he used to attribute everything to the Lord. Should any good come his way, he was wont to say, "Praise be to Allah by whose grace our blessings are rendered complete." And should a misfortune befall him, he would say, "Praise be to Allah in prosperity and adversity."

Should he contemplate an action, he would solicit Allah's aid saying "O Lord, grant me the good and guide me unto what is right"; and should he set out on a journey he would pray unto Him, "O Lord, of Thee do I ask strength and seek support."

On going to sleep, he was wont to say "In the care of Thy Name do I lay me to rest"; and on rising, "Praise be to Allah who quickeneth

that his own people had never imputed to him a single lapse from virtue or a vile action despite the fact that he never ceased disparaging their mentalities and fearlessly reviling their so called gods; you must realise that such a man could never be an impostor.

A man like Muhammad could not possibly lie—he who proclaimed the greatness of God in such an unprecedented manner and relentlessly strove against those who imputed falsehood unto Him.

Again had he been an impostor, he could not, try as he might have helped lapsing into confusion and contradiction and would have thereby been exposed to ridicule and disgrace.

He could never have been the source of perfection or the guide unto goodness and righteousness that he was.

The position of Christians in denying the prophethood of Muhammad is identical with that of the Jews in denying the prophethood of Jesus. Why then should the Christians attack the Jews when they themselves are guilty of an identical sin.

Imagine ! Islam spread to the furthest corners of the globe in less than a single century Imagine it ! Imagine the mighty Truth that was in it that caused its revelation to spread like a flame across the world ! The eagerness with which it was welcomed, the support it received, and the faith and devotion it inspired must surely suggest, even to the most prejudiced, that here was — and is — a religion coming direct from the Lord of All : for, when in the history of the world do we find any religion that spread to the four corners of the earth in such a short period !

The zeal and self-sacrifice shown by Muhammad in the guidance of mankind constitute an irrefutable proof of his belief in the truth of that Divine Reality which filled his heart and soul; so much so that the Lord addressed him thus :

«فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ
إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً»

«Grieve thou not too much over the unbelievers who believed not in the Qoran, for haply thou mayest kill thyself out of grief over them.»

(*Alucy's Commentary.*)

So great, indeed, was his faith, that all threats and persecutions affected him not. It seems beyond human endurance to have suffered unflinchingly what Muhammad suffered in the course of announcing his divine message. Yet Muhammad, a mere man, supprised with divine fire as he was, bore all.

The most cursory persual of his early history would suffice to convince the reader of his integrity and of his belief in the truth of his mission.

deaf to hear the sound of cannon, or the blind to behold the brilliance of the radiant sun !

Small wonder, therefore, that they are bound to remain in doubt and disbelief and that the Lord saith concerning them :

«وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا» .

«Were We to send down the Angles to announce unto them the truth of the apostles, were We to quicken the dead to bear witness thereto and were We to cause all things to confront them face to face and testify to such truth, they still would not believe.»

(*Ibn Kathier's Commentary.*)

«وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً» .

«Even if they hear the revelations recited, or see the miracles performed they would not, out of obstinacy, believe therein; and if they see the path of truth and righteousness, they would not take it; and if they see the path of error and misguidance, they would choose to take it for the satisfaction of their passions.»

(*Alucy's Commentary.*)

So much then for those hopeless few; to resume our main discussion, we would like to point out that it would have been easy to prove many of Muhammad's miracles which were established beyond all doubt through authentic successive corroboration of facts pertaining thereto and to dispel all suspicions, and banish all doubts regarding the truth of his mission. But we decline to enter into such lengthy discussion and prefer to choose a short cut leading thereto; and thus in making our appeal to your mind and reason, we are only meeting the demands of the present era which is definitely one of reason and research.

A thorough analysis of the precepts of Islam and a careful consideration of that pure heart through which flowed those divine waters of wisdom and salvation, will leave no room for doubt in the minds of inquirers regarding the truth of Muhammad's prophethood. For whosoever contemplates the fortitude of Muhammad in the times of trials and tribulations and the toleration with which he suffered all kinds of insults and persecutions, will scarcely doubt his honesty and his conviction in the truth of his mission.

Should you study his life you must inevitably come to the conclusion that Muhammad was distinguished by such noble conduct and unimpeachable character that he was called "The Trustworthy" long before his prophetic mission;

faculty and the human nature of its initial clearness and purity.

A philosopher has rightly remarked in this connection that «Scepticism is responsible for the demoralisation of many a good man» - and as such he will lack that uncontaminated instinct and that clear judgment to which he may turn for judicious decisions.

Suppose, for the sake of argument, that someone declared that he gives little or no creadence to all news and he regards it as positively unreliable on the grounds that it is possible that his informant may be telling a lie, or that he may have believed something contrary to what actually had taken place, or that he may have, inadvertently, told something else or that he may have, in speaking figuratively, told something other than the truth. In view of all these contingencies which the mind admits as liable but not certain to occur, there then could be, indeed, no confidence or trust in anything whatsoever.

Should he declare that he has no faith in any of the established principles such as those of grammar, etymology declension and the like on the grounds that those who compiled them from the original authors, are only a few persons who are liable to error and forgetfulness, he will go on applying the same argument to every statement of these writers and to every opinion of the exponents thereof.

What answer can be given to such sophistry ? And what argument can be advanced ? Can one hope from guidance or expect the reform of one who argues thus ?

Would it not be very hard to convince him — though you are absolutely sure that his assumptions are utterly unfounded ?

It is significant in this connection to quote the Qoranic Verse in reference to such people :

«وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ» .

«Were We to throw open above them a gateway unto Heaven through which they mount to behold its marvels, they woued still declare out of sheer obstinacy and scepticism, that their sights were obstructed from beholding the real and that what they saw was a mere vision. Nay that they were even bewitched at the time.»

(*Baidawy's Commentary.*)

The Lord explained that they feigned to rebut that marvel which they have witnessed on the ground of the likelihood of defective sight or bewitched minds.

It would seem as if some of God's creatures lack the faculty of belief and can never be made to believe, despite all your endeavours.

Futile indeed is your endeavour, for it is as if you were expecting the

If we doubt the authenticity of Muhammad's prophethood, then how can we establish the prophethood of Moses or Jesus or the other Prophets — lacking, as they did, that consistent corroboration which was the lot of Muhammad ?

If the Christians, out of scepticism, will not accept the historical corroboration of the prophethood of Muhammad, how can they blame the Jews for being sceptic of the prophethood of Jesus — which, yet, Muslims accept.

It is always detrimental to let the forces of scepticism run riot in the mind, for this will not lead to truth.

As a result of such sceptical conjectures that the atheists deny the existence of Allah. Allah Who is the very source of existence—Whose existence is the most obvious of all facts and without whom nothing has a reasonable existence !

Others have doubt even in perceptible objects and declare that they do not denote knowledge of the object, as perception is often liable to err. They cite such errors of perception as may be witnessed in the apparent rushing past of the landscape while in a train or the apparent magnitude of a single grape seen through water.

Others albsolutely deny the existence of all objects and declare that objects are not real, but merely subjective.

Yet another school, the agnostics, were so hopelessly steeped in scepticism that they completely lost their way and had to confess their failure to comprehend the reality of things.

You will find through the study of the different doctrines and opinions expounded by the different schools of thought that the controversy raged fiercely regarding knowledge, which is known in itself and by means of which other things are known.

But as assumption and speculation found their way into knowledge, scepticism began to show itself in the doctrines of their exponents and the door was thus flung wide open for all sorts of unfounded conjecture.

Contradictory opinions were held by opposing schools. Some declare knowledge to be axiomatic and requires no definition. Others declare that it is indefinable owing to the intrinsic difficulty involved in comprehending its reality, while others declare that it is, *par se*, the known thing - for knowledge of fire is fire itself and knowledge of water is water itself. When, however, knowledge is conceived by the mind, it assumes another form and would become subject to different rules. Another raging controversy is that regarding existence and the existing object, and many other such hypotheses which are the outcome of mere conjecture nurtured by speculation and scepticism.

It is tragi-comical indeed to see such divergence of opinion. It seems to rob the mind of its inherent

The Prophet who maketh lawful into them the things which are rightly enjoyed and forbiddeth those things which are distasteful : he who mitigated the rigours of their rituals and tempered the severe stringency of their injunctions.[1]

As for those who believe in his mission and prophethood and reverred and supported him against his enemies, and followed the Qoran revealed unto him, those will merit favour and prosperity".

(*Alucy's Bommentary.*)

«رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» .

«O Lord, Thy mercy and knowledge are unbounded, they embrace everything. Forgive Thou those of whom Thou knowest true penitence and repentance and abandonment of sin : those who have followed the ordained path of righteousness; save them from the severe torment of Hell."

(*Alucy's Commentary.*)

The truth and authenticity of the prophethood of Muhammad could be easily proven by citing his many miracles which though they may be single open to criticism, could not possibly be gainsaid collectively.

To be sceptic would make it very difficult indeed to believe the records of any past king or prophet or any historical event. History then would be rendered unreliable and laws and conventions thrown into utter confusion.

The authenticity of Mohammad's prophethood is too consistently corroborated by the traditions of successive generations to admit of any falsehood or untruth. It would have been impossible for all those millions of people from East and West to concur as they did, on such a question, despite the difference of their races and the vast distances which separate their countries.

Regarding his miracles, it is unnecessary to detail them specifically, for it is unanimosly admitted that Muhammad was the medium for certain miracles to take place.

It should be borne in mind that many of these miracles were cited by trustworthy and impartial chroniclers related by others whose accuracy and integrity are beyond question.

It would be quite sufficient for such and event to be cited from any one absolutely reliable and authentic source, for it to be incumbent on us to accept it : but here we have not one but many consistent irrefutable corroborations.

(1) While this verse has a general application, it particularly referred to the Jews with their rigorous rituals and stringent injunct ions.

MESSAGE OF PEACE

A TREATISE ON ISLAM

By

Prof. SHEIKH YOUSSEF EL-DIGWY

Of Al-Azhar University and Member of The Body of Grandulama

Translated from Arabic

By

ALY Z. HUSNY M.A.

PART 2 «*Continued*»

The Prophet Muhammad

CHAPTER 1

«وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .

«His Mercy encompasseth everything — even the evildoers : for is it not of His Mercy that He chastieth them that they may be aware of their evildoing ?

Yet most is His Mercy poured down upon those who refrain from sin and disbelief, those who give the ordained alms out of their wealth, and those who implicitely believe in all His Divine communications.

Most chiefly are they so blessed who follow the Apostle sent by Allah to make known His communications, the illiterate Prophet whose names and qualities are already set down in the Scriptures, The Torah and the Evangel : the prophet who enjoineth true belief and all good, and forbiddeth all evil.

MAJALLATU'L AZHAR

(AL-AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd-ul-Wadoud I. Shalaby**

SUPERVISOR : **Zaher A. El-Zoghby**

The fiftieth Volume No 5 Ramadan 1398 H. — August 1978 A.D.



In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

قُرْآنٌ كَرِيمٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ • الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ • إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ • ٱهْدِنَا الصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ • صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّالِّينَ .

The Meaning of
THE GLORIOUS QURA'AN

In the Name of ALLAH, the Beneficent, the Merciful.

1. Praise be to Allah, Lord of the Worlds,
2. The Beneficant, the Merciful.
3. Owner of the Day of Judgment,
4. Thee (alone) we worship; Thee (alone) we ask for help.
5. Show us the straight path,
6. The path of those whom thou hast favoured;
7. Not (the path) of those who earn Thine anger nor of those who go astray.

عدد ٢٢٦ ١٢
٢٢

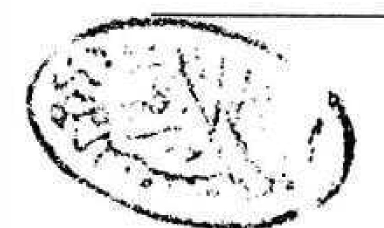
مدير التحرير والإدارة
الدكتور
عبد الودود شلبي

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
في أول كل شهر عربي

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢
٩٠٥٩١٤
٩٠٥٥٠٦

الجزء السادس — السنة الخمسون — شوال ١٣٩٨هـ : سبتمبر ١٩٧٨م



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام وفكرة التطور

لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الدكتور عبد الحليم محمود

موضوع الدين والحضارة يستدعيني أن أقول في المبدأ : أنني مهما تحدثت عن الحضارة بإجلال أو بتحقير ، ومهما تكلمت عنها بنقد أو تحليل ، فإن الدين على وجه العموم لا يعارض قط ، التقدم العلمي لإسعاد الإنسانية :

لا يعارض التقدم الصناعي لإسعاد الإنسانية — على أية صورة كانت — مادام الأمر أمر إسعاد الإنسانية ، وإذا كانت هذه قضية مفروغاً منها فإنني أتجه إذن لتصوير نشأة الحضارة .

نشأة الحضارة :

الحضارة نشأت في فترة معينة من التاريخ ، وفي زمن محدد نعلم ابتداءه .. ونعلم العوامل التي أنشأتها ، والتي كانت الأساس في هذه النشأة .

وكلنا يعلم أنه فى فترة من الفترات ، كانت الكنيسة مسيطرة على العالم الأوربى سيطرة تامة : ما كان هناك شىء يُفْعَلُ ، أو شىء ينتهى فيه الأمر ، ولا شىء يقام أو يهدم ، وما كان إنسان يقدم على أمر ، وما كان إنسان يحجم عن أمر ، إلا باستئذان الكنيسة ، وباستئذان رجال الدين . ولكن الكنيسة ورجال الدين تعسفوا فى استعمال سلطتهم ، حتى لقد أنشأوا محاكم التفتيش .

وقد كتب الأوربيون والمسيحيون عن محاكم التفتيش كثيراً ، وصوروها فى أبشع مظاهرها وفى أسوأ صورها ، كتب الكاثوليك . والبروتستانت ، وكتب الفرنسيون ، وكتب الإنجليز .. كتب كل هؤلاء — وهم رجال المسيحية — فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولقد وضحوا وبينوا أن الكبت الذى كان يغمر أوربا فى ذلك العصر ولّد الانفجار ، واتخذ الانفجار اتجاهاً معيناً . اتخذ الاتجاه الإنسانى .

وأخذ قادة الحضارة — مبتدئين من هذا الاتجاه الإنسانى — يقررون أن الإنسان له كيانه ، له شخصيته ، له ذاتيته ، له حدوده ، له تقديراته ، له مكانته التى يجب أن يحتلها . يجب أن يحتل الإنسان المكانة التى تليق به .

ومن هنا كانت كلمة الإنسانية التى تطلق — كرمز مميز — على هذه الحضارة ومن هنا كان تمجيد الإنسانية .

ولكن حينما بدأوا يتحدثون عن الإنسان فى ثورة عواطفهم القوية وفى غمرة نفورهم الشديد من رجال الدين ، كانت كلمة الإنسانية توحى — عند قادتهم — بانفصال الإنسانية عن الإلهية ، أو انفصال الإنسانية عن الكنيسة ، أو انفصال الإنسان عن الدين ، أو بالتعبير الحديث انفصال الدين عن الدولة .

يجب أن يكون للإنسان مكانته ، يجب أن يكون له موقفه أمام الدين وتجاه الألوهية ، تجاه النص المقدس ، تجاه الكنيسة . ويجب أن يخضع كل ذلك للإنسان .

فالإنسان له عقله ، له منطقه ، يجب أن يسير بهذا العقل ، وبهذا التفكير وبهذا المنطق .

وتصوروا جماعة من الجماعات كانت السيوف مصلتة عليها من جميع النواحى ثم انفجرت هذه الجماعة فقضت على السلاح الموجه إلى نحرها . .

ماذا يكون تفكيرها بالنسبة لهذا السلاح ، وبالنسبة لحامليه : بالنسبة لهذا المصدر الذى كان عاملا للكبت ؟

إن تفكيرها ــ فى أهدأ حالاته ــ يكون معارضاً منتقداً ، ومتحمساً فى معارضته ، وفى انتقاده ، ولكن يشعر أحياناً بشعور السفّاك النهم لإسالة الدماء . .

هكذا كان الأمر فى بدء الحضارة الحديثة : لقد أراد زعماؤها : أن يتخلصوا من الدين ومن رجال الدين ، لتحتل الإنسانية مكانتها دون معارضة لها أو كبت أو تنكيل .

وحينما أقول « الإنسانية » يختلط الأمر نوعاً مّا ، إذ أن معنى هذه الكلمة اكتسب من الآلام التى نزلت بالإنسانية فى كثير من فترات التاريخ نوعاً من التقديس وكثيراً من التمجيد والعطف ، ولذلك فإنى دون إخلال بالمعنى ، سأستعمل كلمة « البشرية » ، وإذا استعملت كلمة البشرية كان المعنى الذى أريده أدق فيما يتعلق بصلة الثورة الأوربية ، أو الحضارة الأوربية فى بدء نشأتها ، وفى ثورتها ضد رجال الكنيسة .

كان هناك إذن الدين من جانب ، وكانت هناك البشرية من جانب آخر ، وأرادت هذه البشرية أن تقف فى وجه الدين ، وأن تستقل بنفسها فى وضع أصولها وقواعدها ، ونظمها ، وأن تنتهى فى النهاية إلى أن تكون مستقلة كل الاستقلال عن جميع النواحى التى تتعلق بهذا الجانب الروحى .

• • •

وتلفتت الحضارة أو ممثلو الحضارة أو الذين يقومون على الحضارة . . تلفتوا يميناً وشمالا على الأصول والقواعد التى يمكنهم أن يقيموا عليها نظمهم البشرية ، وتساءلوا : ماذا يمكن أن يحل محل الدين ؟

إن الدين نظام اجتماعى ، وتشريعى ، وأخلاقى ، فما الذى يمكن أن يحل محل هذه النظم ؟ إذا أردنا أن نتخلص من هذه النظم لأنها نظم دينية يقوم عليها رجال الكنيسة ، ورجال محاكم التفتيش ، فما هى المصادر والمنابع التى نستقى منها إذا أردنا أن يسود الأطمئنان فى المجتمع .

أما المصادر فما كان يمكن ، وما كان يتأتى ، إلا أن تكون مصدرين :

١ ــ العقل : فى ناحية ما وراء الطبيعة .

٢ ــ والضمير : فى ناحية الأخلاق .

إذن لجأت الحضارة الحديثة فيما وراء الطبيعة إلى العقل ، ولجأت فى الأخلاق إلى الضمير : فالعقل : هو الذى يؤسس ما وراء الطبيعة . والضمير هو الذى نرجع إليه فى الأخلاق .

ولكن . . تَخَبَّطَ العقل : لأنه يختلف من إنسان لآخر ، ومن بيئة لأخرى ، ومن زمن لزمن ، ومن مكان لمكان ، ومن ثقافة لأخرى .

وأخذ الضمير من جانبه أيضاً يوحى بإيحاءات مختلفة : فالضمير ليس إلا أثراً للبيئة ، وللثقافة ، وللوسط الذى يعيش فيه. ليس الضمير معصوماً قط وإنها لفكرة خرافية : كون الضمير معصوماً . والضمير إذا تخلص من سيطرة الدين فإنه يوحى بالفساد ، كما يوحى بالصلاح ، لأنه ابن البيئة ، فإذا كانت البيئة إجرامية فالضمير إجرامى ، وإذا كانت البيئة صالحة فالضمير صالح ، وإذا كانت البيئة أوربية فالضمير أوربى ، وإذا كانت البيئة شرقية فالضمير شرقى .

ومن الواضح أن ضمير الأوربيين لايؤنبهم قط على السفك الذى يستبيحونه فى كل قطر يسيطرون عليه ، إنه يبيح إذن — لو اتخذناه مقياساً — السفك ، والتنكيل والاستعمار .

ليس هنالك إذن شىء ثابت مستقر معصوم اسمه الضمير .

وليس هناك قضايا يتفق عليها العقل فيما وراء الطبيعة .

وتخبط العقل ، وتخبط الضمير .

فما المخرج إذن ؟

أسطورة التطور الإنسانى :

رأى رجال الحضارة أن يلجأوا إلى شىء يبعد عنهم وصمة العجز ، فلجأوا إلى فكرة التطور : الإنسان متطور ، الأفكار متطورة . وإذن المسألة ليست مسألة خطأ صريح ، وإنما هى مسألة تطور فيما يتعلق بالأفكار ، وفيما يتعلق بالمعانى. وما دام هنالك قانون للتطور إذن لا عيب عليهم إذا أخطأوا أو تخبطوا فى كل مرحلة من مراحلهم ، وفى كل فترة من فتراتهم . . . ونادى الحضاريون البشريون بفصل الدين عن الدولة . وحينما فصل الدين عن الدولة رأت نفسها تتخبط حينما تستند إلى العقل فى فى نظمها الدينية والاجتماعية ، وحينما تستند إلى الضمير فى نظمها الأخلاقية فاخترعت أسطورة التطور الإنسانى فيما يتعلق بالفكر .

وكانت كلمة التطور هى الطلسم السحرى ، الذى يحاولون التعلل به ، لإخفاء عجز العقل والضمير الإنسانى لإخفاء هذا العجز المطلق الذى يجعل الإنسان متخبطاً بعقله فى أمور ما وراء الطبيعة ، ومتخبطاً بضميره فى أمور الأخلاق؟

لقد أخفوا كل ذلك بفكرة التطور .

ليس فى الأحكام القاطعة تطور :

ولكن إذا نظرنا إلى فكرة التطور فى الدين والأخلاق فما معناها حقيقة ؟

ما معنى فكرة التطور، إذا أدخلناها فى الفكر على وجه العموم ؟

– إن فكرة التطور ما هى إلا عودة إلى السوفسطائية القديمة ، إنها عودة إلى آراء اليونان القدماء – السوفسطائية منها – لأن معنى التطور فى الفكر أنه ليس هناك قضية ثابتة – وإنما جميع القضايا الفكرية متطورة ، وهذا التطور لا ينتهى إلى حد ، وإذن هناك النسبية باستمرار ، هناك النسبة المطلقة، هناك إذن الخطأ المستمر، وهذا الخطأ لا علاج له مادمنا نقول بالتطور ، لأنه مادمنا نقول بالنسبة وبالتطور فليس هناك الثبات ، وإذن لا يكون هناك ثبات فى الدين ولا يكون هناك ثبات فى الأخلاق .

فإذا أدخلنا فكرتهم بالتطور فى الدين فقد قضينا على الدين وإذا أدخلنا فكرة التطور فى الأخلاق فقد قضينا على الأخلاق .

هذه الفكرة التى أتحدث عنها : فكرة إدخال التطور فى الدين، فكرة سمعناها من الكثيرين ، لقد ألفنا لذلك كلمة إدخال التطور فى الدين إلى درجة أنه يخيل إلىّ وأنا أتحدث فيها : أن الأمر غريب على بعض الأذهان التى تتساءل : لم لا يكون فى الدين تطور ؟

ولكن إذا فهمت فكرة التطور على حقيقتها : وإذا فهمت فكرة الدين على حقيقتها : كان لا مناص من الإقرار بأن الدين لا يدخله قط – ولا شروى نقير ، لا ، ولا قلامة ظفر – فكرة التطور .

إن التطور الفكرى تغيير من حال إلى حال ، وهو تغيير مستمر دائم ، إنه تغيير لا ينتابه هدوء ولا سكون ، إنها إذن النسبية ، إنها إذن السوفسطائية القديمة ، إنها عود إلى هذه الفترة القديمة التى لم يكن فيها دين ثابت ، ولم يكن فيها خلق ثابت ، فالأمر فيهما حينئذ عند السوفسطائيين ليس أمراً ثابتاً مطلقاً .

وليس أمر عصمة ، وليس أمر قضايا محققة ، وإنما الأمر أمر تغيير باستمرار وأمر نسبية .

وبذلك يقضى على الدين ، ويقضى على الأخلاق .

وإنه لمن المؤسف حقيقة – أننا نجد فكرة التطور تتسرب إلى الناحية الدينية

وإلى المحيط الديني في الأقاليم الإسلامية .
وهذه الفكرة لخطورتها ، ولأني أعلق على إزالتها كثيراً من الأهمية : أريد أن أضرب بعض الأمثلة حتى نكون على بينة من الأمر :

قرأت في بعض المجلات مقالا يقول كاتبه : إن فضيلة الشيخ (. . .) رجل متطور واسع الأفق ، ومن مظاهر تطوره — في رأى الكاتب — أنه يأبى إلا أن يقيم صلاة الغائب على روح فلان .. وفلان هذا الذى ذكره الكاتب ، لا يدين بدين الإسلام ، وما من شك في أن ذلك لا يجوز « إسلامياً » وما من شك في أن فضيلة العالم الكبير ، لا يفعل ذلك ولا يبيحه ، ولكن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على جهل الكاتب بمعنى الحقائق الدينية التي لا تتغير بتغير الأهواء والعواطف ، ويدل من جانب آخر على الخطورة التي يتعرض لها الدين حينما تدخله فكرة التطور ، وحينما تتناوله أقلام الذين لا يعقلون دين الله على الوجه السليم .

ومثل آخر :

إننا جميعاً نجل الشيخ محمد عبده ، ونحترمه وندين له بكثير من تخليص الدين من الخرافات والأساطير ، ولكن حينما نقرأ له تفسير قصة آدم فنراه لا يمنع احتمال أنها تمثيل ؛ ونتساءل : لما ذكر الشيخ محمد عبده هذا الاحتمال؟ وحينما نتساءل حقيقة عن السر العميق في الشعور — أو في اللاشعور — نجد أن الشيخ محمد عبده رأى أن فكرة التطور منتشرة في جميع أرجاء أوربا ، بل والعالم ، وهي — فيما يرى بظاهرها — تتعارض مع التعاليم التي تنبيء أن آدم هو أول البشر ، وهو الذى خلقه الله وسواه ، وخاطب الملائكة في شأنه وأمرهم أن يسجدوا له :

رأى الشيخ محمد عبده أن كل ذلك لا يتلاءم كثيراً مع فكرة التطور المزعومة فماذا صنع ؟ ذكر هذا الاحتمال ، وبذلك يمكننا أن نؤولها كيفما شئنا ، وما كنا نود أن يجيز ذلك إذ أنه يفتح للناس باب التأويل في صورة من الاستفاضة الضارة .

كما رأى الشيخ محمد عبده أن يفسر اختلاف رسالات الرسل وتعاقبها . موسوية وعيسوية وإسلامية ، بتطور الإنسانية ، إن الإنسانية — حسبما يرى — حسية في زمن موسى فكانت رسالة سيدنا موسى حسية ، ثم تطورت الإنسانية من الحس إلى العاطفة ، فكانت رسالة سيدنا عيسى عاطفية . ثم تطورت الإنسانية من الحس والعاطفة إلى العقل ،

فكانت رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام : عقلية .

ورأى أن الإنسانية لم تتطور هذا التطور ، وأن الإنسانية أينما سرنا وعند أى فرد رأينا ، وفى أى مجتمع شاهدنا ، فإنما يتمثل فيها جوانب ثلاث :

الحس ، والعاطفة ، والعقل .

ولكن فكرة التطور وأن الإنسانية متطورة انتهت بأن أصبحت مسيطرة على الكثيرين فانقادوا لها ، وأدخلوها فى المحيط الدينى ، فأفسدت كثيراً من القضايا ، ونعود فنترحم على الشيخ محمد عبده ، وإذا كنا ننتقده ونحن نحاضر فى قاعته ، فذلك أننا نعلم أنه رحمه الله ، كان من سعة الصدر ، ومن سعة الأفق بحيث لا يضيق بنقد ، ونعتقد أنه لا يضيق الآن بنقدنا .

ونأتى إلى شخصية أخرى نمجدها أيضاً ونحترمها : شخصية محمد إقبال . وإن جهاده بالنسبة للإسلام ، وجهاده بالنسبة للمسلمين لا ينكر .

ولكنه لم يستطع أن يتخلص من فكرة التطور فى بعض المسائل كما رأى ! فليراجعها من شاء فى آرائه وفلسفته .

أيها السادة :

كلكم تعلمون أن الدين عقيدة وأخلاق وشريعة ، وتصوير التطور فى العقيدة ، أن نقول مثلا : اليوم ، ربنا واحد . . أما غدا فإنه — سبحانه وتعالى عن ذلك — يكون اثنين !

وتصوير التطور فى الأخلاق ، أن نقول مثلا : إن الصدق اليوم فضيلة وغداً يكون رذيلة ، أو الصدق فضيلة اليوم وهو غداً ليس بفضيلة ولا رذيلة !

فأنتم ترون أنه لا تطور فى العقيدة ، ولا فى الأخلاق .

لكن الشُّبه تخلق فى بعض الأذهان حول التطور فى التشريع ، والذى يوجد الوهم بهذه الشُّبه هو : باب الاجتهاد ، والمنطق يقول : إنه ما دام هناك اجتهاد فى — التشريع فسيكون هناك تطور فيه ، ولكن الذى يقول هذا الكلام لا يفهم معنى الاجتهاد أو هو يفهم معناه ويحاول أن يتجاهله ! معنى الاجتهاد وحقيقته ، إنما هو المحاولة الجاهدة المستمرة للوصول إلى ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، من أجل اتِّباعه ومن أجل إدخال المسائل الجديدة تحت القواعد القديمة التى استنتجت من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ومن القرآن . وليس للاجتهاد معنى آخر غير هذا .

وكل المجتهدين : الإمام الشافعى ، الإمام أحمد بن حنبل ، الإمام

أبو حنيفة، الإمام مالك.. كلهم يقولون: إذا صح الحديث فاضرب برأيي عرض الحائط: أي أنه إذا رأى رأياً من الآراء، ملتمساً فى هذا الرأى أن يكون موافقاً لكلام الرسول، ثم تبين فيما بعد أنه أخطأ، لأن الحديث يفيد غير ذلك، فإن كلامه ورأيه لا قيمة لهما، ويجب أن يُطْرَحَا ويهملا وأن يؤخذ بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

وإذن ليس فى الاجتهاد تطور..

إن العقل: كمنبع لما وراء الطبيعة، والضمير: كمنبع للأخلاق..

كل هذه هى البشرية فى مقابلة الألوهية، فى مقابلة النص، واعتمدت إذن الحضارة الحديثة على البشرية فى مبادئها وقواعدها، فكانت النظم الاجتماعية المختلفة، والنظم الأخلاقية المختلفة، وكان الهدم فى كل يوم ! !

وانتهت فى بعض الميادين الفكرية الاجتماعية إلى ما كان يمكن أو يتصور أن تنتهى إليه:

لقد انتهت بتفسير أو تصوير رائع، لآية قرآنية كريمة هى:

«واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث ٧ : ١٧٥، ١٧٦»..

وأريد أن أشرح هذه الآية فى إيجاز:

إن آيات الله محيطة بالإنسان من جميع أقطاره، فالسموات من آيات الله، والأرض من آيات الله، والأشجار من آيات الله، والأنهار والجبال، والمحيطات والنجوم والكواكب: كل ذلك من آيات الله. هذا الإبداع المحكم، الذى يحيط بالإنسان من جميع أقطاره، هذه الآيات التى تحيط بالناس أينما كانوا والتى تنادى بجلال الله وعظمته... حاول بعض الناس الانسلاخ منها — فلم يقروا بالألوهية الإقرار السليم، والتعبير بالانسلاخ من أحكم وأدق وأروع ما يكون ! !

لقد حاولوا الانسلاخ منها وهى ملتصقة بهم التصاق جلد الإنسان بالإنسان وانسلخوا منها — بعد لأى، وعلى خلاف الفطرة، وعلى وضع لا يتلاءم مع النظام الطبيعى، وانسلخوا بذلك من محيط الألوهية ! إنهم خرجوا عن سرادق الألوهية، وخرجوا عن أن يكونوا من عباد الله، فتهيأوا بصنيعهم هذا ليكونوا من أتباع الشيطان، وسهل على الشيطان غزوهم، فغزاهم بخيله ورجله فكانوا

من الغاوين ، ولو شاء الله لرفعهم بآياته ولكن العيب جاء منهم هم ، إذ أخلدوا إلى الأرض !

وما من ريب فى أن الإخلاد إلى الأرض فى أبشع صورة: هو الشيوعية !

واتبعوا أهواءهم :

وما من شك فى أن اتباع الهوى فى أسمج صورة : هو الفلسفة الوجودية !

وسواء كنا بصدد الشيوعى ، أو بصدد الوجودى: فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث !

ولكن لِمَ يلهث سواء أحملت عليه أم تركته ؟

إن الشيوعى : ليس همه إلا المادة ، والإخلاد إلى الأرض . ومهما بسط الله له فى الرزق : فهو ضيق بذلك ، وإذا ضيق الله عليه الرزق ، فهو ضيق بذلك أيضاً . إنه لا يطمئن إلى شىء روحى يقنعه ، والمادة — مهما أوتى الإنسان منها — فإنها — ما دام جشعاً — لا تنتهى إلى إرضائه .

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالوجودى .

فإنه: وقد آثر اتباع الهوى — وليست الوجودية إلا إيثار اتباع الهوى — فإنه لا يعتمد على هاد يطمئنه ، ولا على اطمئنان يسكنه ، وهو ضيق بالحياة ذرعاً ، سواء كان سعيداً أو شقياً ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث!!

انتهت الحضارة إلى أمثال هذه النظم التى لا ترى إلا المادة ، أو لا ترى إلا البشرية الهاوية أو الغاوية ، وانتهى الأمر بالشيوعى والوجودى: إلى ما كان لا مفر من أن ينتهى إليه ، وهو انفصال الشيوعى وانفصال الوجودى عن المحيط الإلهى ، عن السرادق الإلهى .

ومما لا شك فيه ، أن هذه النظم التى لا تتصل بالعصمة إنما تتخبط وتكون باستمرار متأرجحة متقلبة ، ولا تستقر استقراراً نسبياً ، إلا بالحديد والنار ، وبالسلاح ، وبسفك الدماء وبالقتل ، وأن ما وراء الستار الحديدى يمكن أن يكون صورة لكل هذا الانفصال عن الألوهية الذى لا يستقر إلا بالحديد والنار ! ؟

تلك أسس الحضارة ومنابعها ، ومصادرها : عقل ، فضمير ، فتطور ، فانتهاء إلى أمثال هذه النظم التى خرجت بالإنسان عن الجادة .

والدين — إذن — لا يعارض التقدم فى سبيل إسعاد البشرية . هذه قضية نحن مسلمون بها .

د. عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

هل الإنسان مسير أم مخير

العلامة أبو الأعلى المودودى

هذه الكلمة القصيرة أذيعت من لاهور منذ مدة طويلة . وهى تتعرض لموضوع شائك . ولكن المؤلف حفظه الله قد تناول هذا الموضوع بطريقة سهلة وموضوعية عسى أن القارىء ينتهى من قراءتها وهو مرتاح الخاطر وثيق الإيمان بالله .

خليل الحامدى

هل أنَّ قدرنا مقضى فيه من قبل ؟ وهل أن نجاحنا وفشلنا ، وسقوطنا ونهوضنا وفسادنا وصلاحنا ، ومتاعبنا وراحتنا : وبالجملة كل ما يعرض لنا فى حياتنا مما يسرنا أو يحزننا نتيجة لقرار غيرنا وقضائه من قوة ، أو قوى بحيث لا نصيب لنا فى تقريره وتحديده . ؟ والأمر إذا كان هكذا فهل نحن مجبورون بمعنى الكلمة ؟ وهل نحن فى هذه الدنيا دُمَى ميتة يلعب بها ويمسك خيطها قوة غريبة هى التى تضعها متى تشاء أو ترفعها أو تحركها كما تريد؟ وهل نحن نُستخدم كآلة من الآلات لتحقيق مشروع ما وضعه غيرنا كأننا لسنا فى مسرح الدنيا إلا ممثلين حدّد أعمالهم وأدوارهم أحدٌ غيرهم ؟

هذه أسئلة تخالج دائماً نفس كل من يفكر فى موضوع الإنسان ، والدنيا ، ومصيرها ؟ ؟

وهذا لغز قد قدح فيه زناد عقله كلُّ شخص من الفلاسفة ، وعلماء الطبيعة ، ورجال التاريخ والقانون والاجتماع والأخلاق والدين ، بل وعامة الناس ، لأنهم كلما شغلوا به ذهنهم وقفوا مبهوتين حيارى لا يتقدمون إلى الأمام ، ولا يستطيعون أن يتقدموا ما لم يعثروا على حل مرضٍ ترتاح إليه نفوسهم ،

وتطمئن به عقولهم ، بصرف النظر عما إذا كان هذا الحل فى حد ذاته حلا صحيحاً أو باطلا !

أجب عن هذه الأسئلة بـــ « نعم » أو « لا » بكل بساطة وبدون بحث أو تعمق فيها إن شئت . ومن الممكن أن تجد فى هذا الباب ما ترتاح إليه نفسك ويطمئن به عقلك ، ولكن سواء عليك أقلت « نعم » أم « لا » جواباً عن هذه الأسئلة ، فإنه لابد أن تواجهك فى كلتا الصورتين أسئلة كثيرة أخرى لا تستطيع ألبتة أن تجيب عنها بمجرد « نعم » أو « لا » وأنت مرتاح القلب مطمئن الخاطر !

إنك إذا قلت « نعم » فإن ذلك يحتّم عليك الإقرار بأن ليس ثمة فرق جوهرى بين الحجر والحديد ، والشجر والحيوان والإنسان ، وأن الإنسان : كسائر هذه الموجودات لا يفعل إلا ما قد كتب له أن يفعله ، إذ لا اختيار له ولا لها ، وأن الإنسان إن كان يصنع قضبان السكك الحديدية ، وكان النمل يخربها فلا فرق بين عمل هذا وعمل ذاك باعتبار النوع ولو كان باعتبار الدرجة ، إذ أن أحداً غيرهما هو الذى قد جعلهما يصنعان سكة الحديد والتخريب ، وكلاهما محروم من شرف الابتكار والإبداع ! ومن اللازم أن تقرّ بعد هذا بأن الإنسان لا تبعة عليه لفعل من أفعاله ، كما أنه لا تبعة على سائر الموجودات فى العالم لفعل من أفعالها ، فهو إن كان يعمل عملا صالحاً أو يصلح سيارة فما فعله فى كلتا الصورتين إلا بمنزلة سواء ، وكذلك اقتراف الإنسان جريمة من الجرائم وخياطة ماكينة الخياطة ثوباً ناقصاً كلاهما فى حد سواء وفى منزلة بعينها من ناحية الاعتبار .

والأمر إذا كان هكذا ، فكما أنك لا تنطق بكلمة « سيارة صالحة » وآلة خبيثة « وقاطرة أمينة » و« كرسى خائن » كذلك ينبغى أن لا تنطق بكلمة « رجل صالح » أو « خبيث » أو « شريف » أو « شرير » أو « أمين » أو « خائن » وما إلى ذلك من النعوت والصفات المعنوية وإن كنت تنطق بها — بل تُستنطق بها — فلزاماً عليك — على الأقل — أن تشعر بأن ليست كلّ هذه الكلمات التى وردت على لسانك إلا كلمات فارغة جوفاء لا معنى لها ولا مدلول !

لا هذا فحسب ، بل لا يبقى إذن أىّ معنى لديننا وأخلاقنا ، ولا لقانوننا ومحاكمنا ولا لشرطتنا وسجوننا ودوائرنا لتحقيق الجرائم ، ولا لمدارسنا ومعاهدنا

للتربية والإصلاح . لاشك أن كل هذه الأمور ستبقى كما هى ولا يلغى منها واحد ، لأن كل هؤلاء الممثلين — على حسب نظريتك — عليهم على كل حال أن يلعبوا أدوارهم فى مسرح الدنيا ، كل يلعب دوره الذى خلق له ولكنه من الظاهر أنه إذا لم يعد كل واحد من المحافظين على الصلوات فى مساجد الله ، وعبّاد الأوثان فى الصوامع ، وقضاة المحاكم ، ومجرموا السرقة والنهب إلا مجرد ممثّلين ، ولم يعد كل شىء من المساجد والمعابد إلى دور القمار والخمارات إلا مناظرَ مختلفة لمسرحية عظيمة — فإنما معنى كل ذلك أن ليست كل حياة الإنسان الدينية والخلقية إلا تمثيليـــة . لأنه إذا كان شخص يعبد ربه بكل تجرد فى خلوة الليل فى الحين الذى ينقّب شخص آخر فى بيت غيره بنية السرقة ، فإن كل واحد منهما فى هذه اللّعبة أو المسرحية لا يلعب إلاّ دوراً فرض عليه ، ولا فرق بينهما سوى أن المخرج خصّ أحدهما بدور العابد الزاهد ، وأسند إلى الثانى دور السارق الناهب ! ومهما يستمع القاضى فى محكمتنا إلى القضية المعروضة عليه بعناية واهتمام ، ومهما يبذل من جهد ودقة للعدل بين الخصمين بعد الاستماع إلى الشهود وإجراء التحريات ودراسة الحيثيات ، فما هو ولا الخصمان : المدّعى والمتّهم — على حسب نظريتك — إلا مجرد ممثلين يظنون أنهم جالسون فى المحكمة للفصل فى قضيتهم ، مع أنهم فى حقيقة الأمر إنما يلعبون فصلا من فصول رواية تمثيلية .

هذى : هى نتيجة « نعم » الذى كنتَ أجبتَ بها عن أسئلتى الابتدائية بدون ما فكر ولا رويّة عميقة !

ولكن . . هل بإمكانك أن تجيب عن أسئلتى هذه بـ « لا » ؟ كلا ، فإن الأمر لن ينتهى عند ذلك بأن تقول : « لا » مرة واحدة ، بل لا بد أن تضطر إلى أن تنكر مجموعة من الحقائق الصريحة الصارخة !

وبيان هذا : أنك حين تقول : إن قدر الإنسان ليس بمقدور من قبل ، وأن قدره لا يتقرر بقضاء قوة خارجية ، فالأغلب أن معنى إنكارك هذا : أن الإنسان هو الذى يصنع قدره بنفسه ، أى أن قدره انما هو نتيجة لأرادته وجهده . . إذا قلت هذا فأول سؤال لابد أن يواجهك إذن : ما هو المراد بكلمة «الإنسان» فى قولك هذا ؟ أهو كُلُّ واحد من أفراد البشرية بصفته

الشخصية ؟ أم مجموعة من أفراد البشرية تعرف بالمجتمع أو الأمة أو الشعب ؟ أم النوع البشرى فى جملته ؟ إن كان المراد من قولك : إن كل واحد من أفراد البشرية يصنع قدره بنفسه ، فقلِّب نظرك فى المواد التى يتكون بها القدر ثم قل : أى شىء منها يقدر عليه الإنسان ؟

إن أول مادة يحتاج إليها الإنسان فى صنعه قدره : هى جوارحه ، وقواه الفكرية والبدنية ، وصفاته الخلقية ، ومواهبه المعنوية .. وهى مما يؤثر صلاحه وفساده واتزانه وعدم اتزانه ، وقلته وكثرته تأثيراً حاسماً بالغاً فى قدره ، ولكنها بأجمعها مما يأتى به كل فرد من أفراد البشرية من بطن أمه ، ولم يولد حتى اليوم فرد واحد خرج إلى نور الحياة صانعاً نفسه كما شاء! ثم إن صلاح قدر الإنسان وفساده وخيره وشره ليس له فيه يد ، وأىّ يد للمؤثرات العرقية التى يرثها كل إنسان عن آبائه وأجداده ؟ ثم إن الأسرة أو المجتمع أو الطائفة أو الجامعة أو الأمة أو الدولة التى يولد فيها ، تجلب عليه مالا يُعَدُّ ولا يُحصَى من مؤثراتها الفكرية والخلقية والمدنية والاقتصادية والسياسية لأول ما يتنفس فى هذه الدنيا . . كل هذه الأشياء تساهم فى صنع قدر الإنسان بتعاونها وتفاعلها .

ولكن هل فى الدنيا من إنسان قد حدّد بمحض إرادته واختياره الجنس أو البيئة التى ولد فيها ؟ وهل قرره من تلقاء نفسه قبل أن يولد : أى شىء منها سيقبل مؤثراته ؟ وإلى أى حد ، وأى شىء منها لا يقبل مؤثراته ، وإلى أى حد ؟ وإلى هذا : فإن الدنيا تحدث فيها أحداث مفاجئة ومصادفات طارئة تؤثر تأثيراً محموداً أو غير محمود فى قدر الإنسان ! وذلك مثل الزلازل والفيضانات — والمجاعات وحوادث الصدام والأمراض والحروب وتطورات الفصول وتقلبات الوضع الاقتصادى : فإن كل هذه الأحداث كثيراً ما تغير مجرى حياة الإنسان — بمعنى الكلمة — وتحطم كل خططه وتدابيره التى يتخذها لسعادته ونجاحه بعد إعمال فكر وروية ، وبذل جهود جبارة متتابعة . وعلى العكس من ذلك : فإن هذه الأحداث نفسها قد تعرج بإنسان آخر فجأة إلى معارج الكمال والرخاء التى لا يكون لسعيه وجهده أى نصيب فى الوصول إليها فى واقع الأمر . . كل هذه الحقائق ثابتة بارزة ناصعة لا ينكرها إلامكابر ! إذن فكيف يجوز الاعتراف بأن الإنسان يصنع قدره بنفسه ويسجّل حظوظه بيده ؟ !

وأما إن قلت بإدخال بعض التعديلات على دعواك : أن الأمم تصنع قدرها . فإن قولك هذا أيضاً باطل لا أساس له من الصحة ولا يستحق أن نقبله أبداً . ذلك لأن الأسباب التي يتكون بها قدر كل أمة من الأمم فيها ضلع عظيم للخصائص النسلية والمؤثرات التاريخية ، والأحوال الجغرافية ، والأسباب الطبيعية والأوضاع الدولية ! ولا قبل لأية أمة فى الأرض بأن تتحرر من سلطان هذه الأسباب فتصنع قدرها كيفما تشاء وترضى : بالإضافة إلى ذلك فإن قانون الفطرة ، ذلك القانون الذى يسير عليه نظام السماوات والأرض ، والذى لا قبل لأية أمة بأن تدرك كنهه وتحيط بأسراره فضلا عن أن تتدخل فيه : يؤثر فى مصير الأمم تأثيراً فعالا لا تقدر أمة من أمم الأرض أن تمنعه أو تتخلص منه مهما كانت فى حد ذاتها على قسط وافر من الذكاء والقوة والمنعة ! هذا القانون لاينفك يؤدى عمله من وراء الستار . وقد يسفر مفعوله ، فجأة حيناً وتدريجاً حيناً آخر ، عن نتائج تسقط أمماً ناهضة وتنهض أمماً متداعية .

دع عنك ذكر هذه الأسباب ، فإنها مما لا يصل إليه العقل الإنسانى وفهمه ، وانظر نظرة فى أسباب أخرى : أسباب هى فيما يبدو فى متناول عقل الإنسان وفهمه ، تجد أن ليست دراستها التفصيلية كذلك مما يبعث فيك الأمل كثيراً ! ذلك بأن الذى يتوقف عليه مصير أمة من الأمم إلى حد كبير هو أن تتيسّر لتلك الأمة زعامة تلائم ظروفها وآمالها ، وأن يكون عدد كبير من أفرادها متحلين بصفات حائزين على مميزات تؤهلهم للاستفادة من هذه الزعامة ! ولكن مما يشهد به التاريخ ما تدل عليه كل مشاهداتنا فى الحياة أن الأرض ما وجدت ولا توجد فيها أمة قد مارست إرادتها واختيارها للحصول على هذين الأمرين على أكمل وجوه الحرية ! بل كل ما نشاهده : هو أن أمة من الأمم حين تدق ساعة نهوضها ، تتيسّر لها القيادة على مستوى ظروفها وآمالها ، وتنشأ فيها الصفات والخصائص اللازمة لنجاح هذه القيادة .. ثم إن نفس هذه الأمة حين تأخذ فى الانهيار تدبر عنها مؤهلات القيادة ومستلزمات التبعية فى آن واحد ، بحيث لا يستطيع أحد — مهما كان قلبه مفعماً بالإخلاص والبكاء على مصيرها — أن يسترجعها إليها . . إننا لا نعلم أبداً بموجب أى

قانون يحصل هذا المدّ والجزر ، والنهوض والسقوط ، فى تاريخ الأمم ؟!

ولكن . . هل يمكنك بعد هذا أن تقول : « لا ، بل إن النوع البشرى بمجموعه هو الذى يصنع قدره بنفسه » ؟ كلا ، وألف كلا ! فإنك إذا قلت هذا قلت قولا باطلا لا يقبله العقل بوجه من الوجوه ، وذلك أن أحداً إذا كان يفترض افتراضاً : أن النوع البشرى المتفرق إلى مالا يحصى من سلالات وشعوب ، المنتشر فيما لا يأتى عليه الحصر من بلاد وبقاع ، المصطبغ بما لا حدّ له من حضارات ومدنيات ، الناطق بما يفوق العدّ من لغات ولهجات — إذا جاء أحد يفترض أن هذا النوع متواطىء على إرادة جماعية! وكل قرار يصدر عنه بصدد قدره ومصيره ينطلق فيه من تلك الإرادة الجماعية ، فإن هذا الافتراض شىء يدعو إلى الاستغراب : هل إن هذا النوع هو الذى كان وضع ، بإرادته الجماعية ، تقويم سير رقيّه وقرّر بموجب ذلك ، التقويم أنه يستعمل الأدوات الحجرية إلى العهد الفلانى ، ثم يشرع فى استعمال الحديد والنار ، ثم فى الانتفاع بالطاقة البشرية والحيوانية إلى العهد الفلانى ، ثم فى استخدام طاقة الآلة العهد الفلانى .. وأخيراً يدخل فى عصر غزو الفضاء ؟

وأتابع السؤال ، وأقول : أو كان هو الذى قدر أنه سيسيّر الفلك فى البحر بدون المحرك (motor) إلى القرن الفلانى ، ثم يستخدم المحرك لتحديد وجهة الأسفار ؟ أو أنه هو الذى قد حدّد الأقدار المتضاربة لمختلف الأمم القاطنة فى مختلف أنحاء العالم فى إفريقية وأمريكا وأوربا وآسيا واستراليا ؟ من الظاهر بداهة أن دعوة عجيبة مثل هذه لا تصدر عن رجل أوتى نصيبٌ من الحكمة والفهم والعقل !

وبعد هذا : لا متسع لك أبداً للإصرار على رأيك القائل بأن الإنسان هو الذى يصنع قدره بنفسه ، لأنه إذا لم يكن كل فرد من أفراد البشرية ولا جماعة من الأفراد ولا النوع البشرى بمجموعه مالكاً لقدره : فأىّ « بشر » هو — ياترُى — يكون مالكاً للأقدار وصانعها ؟ !

فقد رأيت — فيما مرّ سابقاً — أن الأسئلة التى وجّهتُها إليك فى بداية هذا البحث ، لا يمكن الجواب عنها بمجرد : « نعم » ولا بمجرد : « لا » . فالحقيقة متأرجحة بين الأمرين ، وبيانها : أن هناك إرادة قوية فى الكون تُعنى

بتسيير نظامه الهائل! ولا قبل لأى شيء فى السماوات والأرض بأن يبقى حيًّا — فضلا عن أن يعمل عملا — بالتحرر عن سلطانها القاهر : قيودها : هى خطة محكمة شاملة تتحكم بكل شمول فى السماوات والأرض ! ولا قبل لأى شيء فيهما بأن يخالفها فى سيره ، أو يبدلها ، أو يؤثر فيها أيما تأثير. وكل ما وصل إلينا من العلوم والتجارب والمشاهدات تبرهن على أن لا مجال لأحد فى مملكة هذا الكون العظيم أن يجعل نفسه مختاراً مستقلا بذاته ، كائناً من كان ، وأن الإنسان مادام يعيش تحت نظام لا تسمح قيوده ولا لأكبر سيارة فى السماء بأن تحيد عن مدارها المقرّر لسيرها— ولو قيد شعرة — ويعيش تحت قوة قد أجبرت الأرض : هذه الكرة العظيمة ، على أن تدور وفقاً لضابطة مضبوطة ، ويعيش تحت حكومة لها سلطة كاملة على الهواء والماء والنور والحرارة والبرد ، ويعيش تحت قوة قد — هيأتْ له — قبل أن يوجد على وجه هذه المعمورة—أسباباً مكنته من العيش على وجهها ، ويعيش تحت قوة هى من سعة القدرة والسلطة حيث لو أدخلت أدنى تغيير على توازن أسباب الحياة للتى نوعنا حتفه فى لمحة من البصر، أو إذا كان الإنسان يعيش فى وضع كهذا لا يستطيع أن يتصور — ولو مجرّد التصور — أن له من الاستقلال والحرية ما يمكنه من أن يقدّر قدره ويصنع مصيره على ما يشاء ويرضى .

ولكن من الخطأ فى الوقت ذاته الظن بأن القوة التى قد أوجدتنا فى هذه الدنيا والتى قد أعطتنا قوى العلم والفكر والروية ، ومواهب العقل والإرادة ، والتى وهبت لنا من الكفاءة ما نميّز به بين الصالح والفاسد، وبين الحسن والقبيح من الأعمال ، ونقرر على أساسه انتهاج طريق أو الامتناع عنه فى شئون الدنيا ومعاملاتها .. إذن فمن الخطأ أن نحسب أن هذه القوة ما فعلت كل ذلك إلا لتتخذنا سخريًّا وعبثاً، والذى نشاهده فى نظام هذا الكون: هو الجدّية ، بكل ما فى الكلمة من معان ، والحكمة ، والتدبير ! ولا نشاهد فيه الهزل والعبث والسخرية فى ناحية من نواحيها . فما الحقيقة إلا ما يشعر به كل إنسان منا على الوجه الوجدانى؟ أى أننا فى هذه الحياة الدنيا قد أوتينا جانباً محدوداً من الاختيار ، وأوتينا جانباً محدوداً من الحرية للتمتع بها إلى حد مناسب : كما أن هذه الحرية ليست ما اكتسبناه اكتساباً، بل قد

أعطينا إياها عطاءاً . أما ما هي كمية تلك الحرية ما هي حدودها ؟ ما هي نوعيتها ؟ فمن المتعذر علينا بل من المستحيل بتاتاً تحديدها . ولكن الذى لا يجوز إنكاره — فى الوقت نفسه — هو وجود تلك الحرية وصلاحية ممارستها ! ومعنى هذا أن المكانة التى قد جعلت لنا فى نظام هذا الكون وتخطيطه الشامل البديع : هى أن نقوم بدورنا فيه كـمُـمَـثِّـل يكون حرًّا فى القيام بدوره على نطاق محدود وقدر مقدور ! وكل مالنا فى هذه الحياة من الحرية : هو على قدر ما يلائم ويناسب هذا التخطيط الكونى ، ولذلك نحن لسنا بمسؤولين عن أعمالنا من الوجهة الخلقية : إلا على قدر مالنا فيها من الحرية ، أما على أى قدر نحن أحرار وعلى أى قدر نحن مسؤولون عن أعمالنا ؟ فكل من هذين الأمرين خارج عن نطاق علمنا ! ولا يعلمه إلا الذى قد اختار لنا مكانتنا هذه فى إطار تخطيطه لخلق السماوات والأرض .

هذه : هى النظرية التى قد ذهب إليها الدين فى مسألة الجبر والاختيار ! فالدين يدعونا إلى الإيمان بالله العلى العظيم ، وهذا : إن دلّ على شىء فإنما يدل على أننا نحن البشر وكل ما حولنا وبين أيدينا من الموجودات فى السماوات والأرض ، نبصره أولا نبصره ، خاضعون لله تبارك وتعالى ، مذعنون لأمره ، وأنه محيط بكل شىء : حكماً وقدرة وسلطة ، هذا فى جانب ، وفى الجانب الآخر نفس الدين : يزوّدنا بتصورات للأخلاق ، ويعطينا مقاييس للخير والشرّ ، ويبين لنا أننا إذا سلكنا طريق الخير : فلنا النعمة والثواب ، وإذا سلكنا طريق الشر : فعلينا النقمة والعذاب . وهذا : لا يعد معقولا إلا فى حالة واحدة : هى أن نكون أحراراً فى اتباع أى طريق نشاء فى حياتنا بمحض إرادتنا واختيارنا ! ؟

وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين . . .

لماذا بعث النبي صلى الله عليه وسلم في جزيرة العرب ؟

العلامة أبو الحسن الندوى

اقتضت حكمة الله أن تطلع هذه الشمس التى تبدد الظلام ، وتملأ الدنيا نوراً وهداية من أفق جزيرة العرب الذى كان أشد ظلاماً ، وكان أشد حاجة إلى هذا النور الساطع .

وقد اختار الله العرب ، ليتلقّوا هذه الدعوة أولا ، ثم يبلغوها إلى أبعد أنحاء العالم ، لأنّ ألواح قلوبهم كانت صافية ، لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة ، يصعب محوها وإزالتها ، شأن الروم والفرس وأهل الهند ، الذين كانوا يتيهون ويزهون بعلومهم وآدابهم الراقية ، ومدنياتهم الزاهية وبفلسفاتهم الواسعة ، فكانت عندهم عقد نفسية وفكرية ، لم يكن من السهل حلها . أما العرب فلم تكن على ألواح قلوبهم إلا كتابات بسيطة خطّتها يد الجهل والبداوة ، ومن السهل الميسور محوها وغسلها ، ورسم نقوش جديدة مكانها ، وبالتعبير المتأخر العلمى كانوا أصحاب « الجهل البسيط » الذى تسهل مداواته ، بينما كانت الأمم المتمدنة الراقية فى هذا العصر مصابة بـ « الجهل المركب » الذى تصعب مداواته وإزالته .

وكانوا على الفطرة ، وأصحاب إرادة قوية ، إذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه ، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم ، أحبوه واحتضنوه ، واستماتوا فى سبيله .

يعبر عن هذه النفسية العربية خير تعبير ما قاله سهيل بن عمرو ، حين سمع ما جاء فى كتاب الصلح فى الحديبية : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » :

« والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك » وما قاله عكرمة بن أبى جهل حين حمى الوطيس فى معركة اليرموك ،

واشتد عليه الضغط : « قاتلت رسول الله عليه وسلم – فى كل موطن وأفر منكم اليوم ؟ » ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه من بايعه .. ثم لم يزل يقاتل حتى أثخن جراحاً وقتل شهيداً .

وكانوا واقعيين جادين ، أصحاب صراحة وصرامة ، لا يخدعون غيرهم ولا أنفسهم ، اعتادوا القول السديد ، والعزم الأكيد ، يدل على ذلك دلالة واضحة : ما روى فى قصة بيعة العقبة الثانية ، التى تلتها الهجرة إلى المدينة .

قال ابن اسحاق :

« لما اجتمعت الأوس والخزرج فى العقبة ليبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال العباس بن عبادة الخزرجي : يا معشر الخزرج .. هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم ، قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس .

فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا ، أسلمتموه ؟ فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم : خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال ، وقتل الأشراف ؟ فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : الجنة ، قالوا : أبسط يدك ؟ فبسط يده ، فبايعوه

وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه وبايعوا رسوله .

وقد قال سعد بن معاذ على لسانهم يوم بدر :

« فو الله لإن سرت تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك .

وقد تجلى هذا الصدق فى العزم والجد فى العمل ، وروح الامتثال للحق فى الجملة التى تؤثر عن عقبة .

ثم قال : « يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك » .

أما اليونان والرومان ، وأهل إيران ، فقد اعتادوا مجاراة الأوضاع ومسايرة الزمان ، لا يهيجهم ظلم ، ولا يستهولهم حق ، ولا تملكهم فكرة ودعوة ولاتستحوذ عليهم استحواذاً يتناسون فيه أنفسهم ، ويجازفون فيه بحياتهم ولذاتهم .

وكان العرب بمعزل عن أدواء المدنية والترف ، التى يصعب علاجها ، والتى تحول دون التحمس للعقيدة والتفانى فى سبيلها .

وكانوا أصحاب صدق وأمانة وشجاعة ، ليس النفاق والمؤامرة من طبيعتهم ، وكانوا مغاوير حرب ، وأحلاس خيل ، وأصحاب جلادة وتقشف فى الحياة ، وكانت الفروسية هى الخلق البارز الذى لا بد أن تتصف به أمة تضطلع بعمل جليل . . لأن العصر كان عصر الحروب والمغامرات ، والفتوة والبطولة .

وكانت قواهم العملية والفكرية ، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم ، لم تستهلك فى فلسفات خيالية ، وجدال عقيم « بيزنطى » ومذاهب كلامية دقيقة ، وحروب إقليمية سياسية فكانت أمة بكرًا ، دافقة بالحياة والنشاط والعزم والحماس .

وكانوا أمة نشأت على الهيام بالحرية والمساواة ، وحب الطبيعة ، والسذاجة لم تخضع لحكومة أجنبية ، ولم تألف الرق والعبودية ، واستعباد الإنسان للإنسان ، ولم تتمرس الغطرسة الملوكية الإيرانية أو الرومانيــة ، واحتقارها للإنسان والإنسانية ، فكان الملوك فى إيران — المملكة المجاورة للجزيرة — فوق مستوى الإنسان والإنسانية ، فكان الملك إذا احتجم ، أو فصد له ، أو تناول دواء ، كان ينادى فى الناس : ألاّ يمارس إنسان من رجال البلاط أو سكان العاصمة عملا ، ويكفوا عن كل صــناعة أو ممارسة لنشاط ؟

وإذا عطس فلا يسوغ لأحد من رعاياه أن يدعو له ، وإذا دعا أن يؤمن عليه ، لأنه فوق مستوى البشر .

وإذا زار أحد من وزرائه أو أمرائه فى بيته كان يوماً مشهوداً خالداً ، يؤرخ به فى رسائله ويصبح تقويماً جديداً ويعفى عن الضريبة إلى مدة معينة ، ويتمتع باستثناءات أو مسامحــات وتكريمات ، لأن الملك شرفه بالزيارة !

هذا فضلا عن الآداب الكثيرة التى يتقيد بها رجال البلاط ، وأركان الدولة ، وأفراد الشعب ، ويحافظون عليها محافظة دقيقة ، من الوقوف بحضرته ، والتكفير له[1] ، وقيام كقيام العباد أمام الرب فى الصلوات .

وهو تصوير حال كانت عليه إيران الساسانية فى عهد أفضل ملوكها ، وهو كسرى الأول المعــروف بأنوشيروان العادل (٥٣١ — ٥٧٩) فكيف فى عهد الملوك الذين اشتهروا فى التاريخ بالظلم والعسف والجبروت ؟

(١) أى تعظيم الملك أو الحاكم .

وقد كانت حرية إبداء الرأى — والملاحظة — فضلا عن النقد — مفقودة تقريباً فى المملكة الإيرانية الواسعة .

وقد حكى الطبرى حكاية طريفة عن عهد أفضل ملوكها وأعدلهم كسرى أنوشيروان العادل تدل كل الدلالة على مدى ما وصل إليه الحكم الإيرانى من الاستبداد والحظر على إبداء الرأى الحر والتعليق الجرىء فى البلاط الإيرانى ، يقول :

« أمر الملك قباذ بن فيروز — فى آخر ملكه — بمسح الأرض : سهلها وجبلها — ليضع الخراج عليها ، فمسحت ، غير أن قباذ هلك قبل أن يستحكم له أمر تلك المساحة .

حتى إذا ملك ابنه كسرى أمر باستتمامها وإحصاء النخل والزيتون والجماجم .

ثم أمر كتّابه فاستخرجوا جُعْل ذلك ، وإذن للناس إذنا عامًّا ، وأمر كاتب خراجه أن يقرأ عليه الجُعَل التى استخرجت من أصناف غلات الأرض وعدد النخيل والزيتون والجماجم ، فقرأ ذلك عليهم .

ثم قال لهم كسرى : إنا قد رأينا أن نضع على ما أحصى من جريان هذه المساحة من النخل والزيتون والجماجم وصنائع ، ونأمر بإنجامها فى السنة فى ثلاثة أنجم ، ونجمع فى بيوت أموالنا من الأموال مالو أتانا من ثغر من ثغورنا أو طرف من أطرافنا فتق أو شىء نكرهه واحتجنا إلى تداركه أو حسمه ، يبذلنا فيه مالا . . كانت الأموال عندنا معدة موجودة ، ولم نرد استئناف اجتبائها على تلك الحال ،، فما ترون فيما رأينا من ذلك وأجمعنا عليه ! ؟ فلم يشر عليه أحد منهم فيه بمشورة ولم ينبس بكلمة ! !

فكرر كسرى هذا القول عليهم ثلاث مرات ؟ فقام رجل من عرضهم وقال لكسرى : أتضع أيها الملك — عمرك الله — الخالد من هذا الخراج على الفانى من كَـرْم يموت ، وزرع يهيج ، ونهر يغور ، وعين أو قناة ينقطع ماؤها ؟ فقال له كسرى : ياذا الكلفة المشئوم من أى طبقات الناس أنت ؟ قال : أنا رجل من الكتاب ، فقال كسرى : اضربوه بالدوىّ حتى يموت ؟ فضربه بها الكتاب خاصة ، تبرُّءاً منهم إلى كسرى من رأيه ، وما جاء منه ، حتى قتلوه ، وقال الناس : نحن راضون !

ولم يكن الرومان يختلفون عن الإيرانيين كثيراً ، وإن لم يبلغوا شأوهم فى الوقاحة وامتهان الإنسانية وإهدار كرامتها — فقد روى المؤرخ الأوربى Victor Chopart فى كتابه « العالم الرومانى » ماترجمته :

« كانت القياصرة آلهة ، ولم يكن ذلك عن طريق الوراثة ، بل كان كل من تملك زمام البلاد كان إلها ، وإن لم تكن هناك إمارة تدل على وصوله إلى هذه الدرجة ، ولم يكن لقب « أغسطس » Augustus الملوكى المفخم ينتقل من إمبراطــور إلى إمبراطــور بموجب دستور أو قانون ، ولكن لم يكن من شغل مجلس الشيوخ الرومانى إلا أن يؤكد صحة كل حكم يصدر بحد السيف ، ولم تكن هذه الإمبراطورية إلا صورة لدكتاتورية عسكرية .

ولم يكن السجود للملوك نادراً ، فقد حكى أبوسفيان بن حرب فى القصة التى رواها عن هرقل قيصر الروم حين بلغه كتاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يدعوه فيه إلى الإسلام ، وقد جاء فى آخر هذه القصة .

« فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان ، قال : ردوهم علىّ ، وقال : إنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل .

أما الهند فقد بلغ فيها إهدار كرامة الإنسان ، وازدراء الطبقات التى اعتبرها الشعب الآرى المحتل للبلاد ، والقانون المدنى الذى وضعه مشرعوه ، مخلوقاً خسيساً لا يتميز عن الحيوان الداجن إلا بأنه يمشى على اثنين ، ويحمل صورة الآدمى وإن كانوا سكان البلاد الأصليين ، مبلغاً يصعب تصوره ، فقد نص القانون على أنه « إذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمى يداً أو عصاً ، ليبطش به ، قطعت يده ، وإذا رفسه فى غضب قطعت رجله ، وإذا ادعى أنه يعلمه سقى زيتاً فائراً ، وكفارة قتل الكلب ، والقطة ، والضفدع ، والوزغ ، والغراب ، والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء !!

إذا قورن ذلك بما اعتاده العرب من الحرية ، وعزة النفس ، والاقتصاد فى التعظيم والأدب قبل ظهور الإسلام : ظهر فرق هائل بين طبيعة الأمتين ووضع المجتمعين : العجمى والعربى ، فكانوا يخاطبون ملوكهم بقولهم :

« أبيت اللعن » و« عم صباحاً » .

وقد بلغت هذه الحرية والتماسك والاحتفاظ بالكرامة بالعرب : إلى حد كانوا يمتنعون فى بعض الأحيان عن الخضوع لمطالب بعض ملوك العرب وأمرائهم .

ومما يستطرف فى ذلك أن أحد ملوك العرب طلب من رجل من بنى تميم فى الجاهلية فرساً له ، يقال لها « سكاب » فمنعه إياها ، وقال أبياتاً أولها :

أبيت اللعن : إن سكاب علق
نفيس لا تعار ولا تباع

وآخرها :

فلا تطمع أبيت اللعن فيها
ومنعكها بشىء يستطاع

وقد سرت هذه الحرية ، والاعتداد بالنفس ، والأنفة من التذلل ، إلى جميع طبقات الشعب ، وعمت ، الذكور والإناث ، يدل على ذلك ما ذكره المؤرخون العرب عن سبب قتل عمرو بن كلثوم الفارس المشهور والشاعر الفحل ، لعمرو بن هند ملك الحيرة ، فقد ذكروا أن عمرو بن هند ملك الحيرة أرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمه فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة فى جماعة من بنى تغلب ، وأقبلت ليلى بنت مهلهل فى ظعن من بنى تغلب ، وأمر عمرو بن هند برواقه ، فضرب فيما بين الحيرة والفرات ، ودخل عليه عمرو بن كلثوم فى رواقه ودخلت ليلى وهند فى قبة من جانب الرواق ، وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالظرف ، وتستخدم ليلى ، فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالظرف فقالت هند : « ناولينى ياليلى ذلك الطبق » فقالت ليلى : « لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها » فأعادت عليها وألحت ، فصاحت ليلى : « واذلاه يالتغلب » فسمعها عمرو بن كلثوم ، فثار الدم فى وجهه ، ووثب إلى سيف لعمرو ابن هند معلق بالرواق ، فضرب به رأس عمرو بن هند ، وانتهب بنو تغلب ما فى الرواق وساروا نحو الجزيرة ، وقال فى ذلك عمرو بن كلثوم قصيدته المشهورة التى عدت من المعلقات السبع .

ولما دخل المغيرة بن شعبة رسول المسلمين على رستم ، وهو فى أبهته وسلطانه ، جلس معه — على عادة العرب — على سريره ووسادته

فوثبوا عليه وأنزلوه ومغثوه ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً ، إلا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكن دعوتمونى .

وفى جزيرة العرب ، وفى مكة كانت الكعبة ، التى بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام — ليعبد الله فيها وحده ، ولتكون مصدر الدعوة للتوحيد إلى آخر الأبد « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ٣ : ٩٦ » .

وقد بقيت كلمة « وادى بكة » فى التوراة على ما دخل فيها من التحريف والتغيير إلا أن المترجمين حولوها إلى « وادى البكاء » وجعلوها اسم نكرة بدل علم ، وقد جاء فى مزامير داود ما نصه :

« طوبى لأناس عزهم بك ، طرق بيتك فى قلوبهم ، عابرين فى وادى البكاء يصيرونه ينبوعاً » (مزامير ٨٤ — ٥ — ٦ — ٧) .

وقد انتبه علماء اليهود بعد قرون إلى أن هذه الترجمة كانت خاطئة ، فقد جاء فى دائرة المعارف اليهودية اعتراف بأنه واد مخصوص لا ماء فيه ، وأن فى ذهن من صدرت عنه هذه العبارة صورة لواد له أوضاع طبيعية عبر عنها بهذه الكلمة .

وقد كان ناقلو هذه الصحف إلى الإنجليزية أكثر أمانة ودقة فى الترجمة من الذين قاموا بالترجمة العربية ، فقد تركوا كلمة « بكة » كما كانت فى الأصل ، وكتبوها بالحرف الاستهلالى ، كما تكتب الأعلام ، ففى الترجمة الإنجليزية :

وكانت بعثته — صلى الله عليه وسلم — استجابة لدعاء إبراهيم وإسماعيل عند رفعهما لقواعد الكعبة ، وكان دعاؤهما كما نقله القرآن :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم أنك أنت العزيز الحكيم ٢ : ١٢٩ » .

وقد جرت سنة الله باستجابة أدعية المخلصين المبتهلين — فضلا عن الأنبياء والمرسلين — والصحف السماوية والأخبار الصادقة مشحونة بأمثلتها وقد جاء فى التوراة نص يدل على استجابة هذا

الدعاء الذى دعا به إبراهيم فقد جاء فى سفر التكوين ما لفظه :

« وعلى إسماعيل استجبت لك هو ذا أباركه وأكبره وأكثره جداً ، فسيلد اثنى عشر رئيساً وأجعله لشعب كبير » .

ولذلك صح عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه كان يقول عن نفسه : « أنا دعوة إبراهيم وبشرى عيسى » .

وفى التوراة — على ما أصابها من التحريف — شواهد على أن هذا الدعاء قد استجيب ، فقد جاء فى كتاب التثنية (١٨ — ١٩) على لسان نبى الله موسى ما نصه :

« يقيم لك الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك مثلى ، له تسمعون » وقد دلت كلمة « إخوتك » على أن المراد بها هو بنو إسماعيل ، الذين هم أبناء عمومة بنى إسرائيل ، وقد جاء ما يؤيد هذا ، بعد آيتين (١٧ — ١٨) من نفس الصحيفة ، وهو كما يلى :

« قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به » (سفر التثنية ١٧ — ١٨)

وكلمة « أجعل كلامى فى فمه » يعين محمداً — صلى الله عليه وسلم — فهو النبى الوحيد الذى جاء بكلام الله نصًّا وفصًّا ، وأعلن الله عن ذلك بقوله :

« وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ٥٣ : ٣ ، ٤ » .

وبقوله « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ٤١ : ٤٢ » .

أما صحف أنبياء بنى إسرائيل ، فلا تدعى أنها من كلام الله لفظاً ومعنى ، ولا يتحرج علماء هذه الطوائف من إضافة تأليفها إلى الأنبياء فقد جاء فى دائرة المعارف اليهودية ما يلى :

« إن الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (العهد القديم) كما تقول الأخبار اليهودية القديمة : من تأليف النبى موسى ، باستثناء ثمانى آيات أخيرة جاء فيها الحديث عن موت موسى وما زال الربيون يعنون بتناقضات واختلافات وردت فى هذه الصحف ، وما زالوا يصلحونها بحكمتهم ولباقتهم » .

وأما الأناجيل الأربعة التى تسمى « العهد الجديد » فهى أبعد من أن تكون كلاماً إلهيًّا لفظاً ومعنى : يقتنع ، بذلك كل من أجال النظر فيها وتصفحها ، وفى الحقيقة هى بكتب السيرة والأخبار أشبه منها بالكتب المنزلة من الله ،

المبنية على الوحى والإلهام .

ثم إن موقع الجزيرة العربية الجغرافى ، يجعلها جديرة بأن تكون مركزاً لدعوة تعم العالم ، وتخاطب الأمم ، فهى مع كونها جزءاً من قارة آسيا تقع بمقربة من قارة إفريقيا ، ثم قارة أوربا ، وكل منها مركز الحضارات ، والثقافات القوية الواسعة ، وتمر بها القوافل التجارية ، التى تصل بين بلاد مختلفة ، وقد تصل بين قارات تحمل من بلد ما يستطرف وينتج فيه إلى بلد يفتقر إليه .

وتقع هـــذه الجزيرة بين قوتين متنافستين : قوة المسيحية وقوة المجوسية وقوة الغرب وقوة الشرق ، قد ظلت رغم ذلك كله محتفظة بحريتها وشخصيتها ولم تخضع لإحدى الدولتين إلا فى بعض أطرافها ، وفى قليل من قبائلها ، وكانت فى خير موقف لتكون مركزاً لدعوة إنسانية عالمية ، تقوم على الصعيد العالمى وتتحدث من مستوى عال ، بعيدة عن كل نفوذ سياسى ، وتأثير أجنبى .

لذلك كله اختار الله الجزيرة العربية ، ومكة المكرمة ، لتكون مبعث الرسول ومهبط الوحى ، ونقطة انطلاق للإسلام فى العالم .

«الله أعلم حيث يجعل رسالته ٦ : ١٢٤» .

أبو الحسن الندوى
ندوة العلماء — لكهنو — الهند

ابن هبيرة والحسن البصرى

حضر لدى ابن هبيرة الحسن البصرى ، فاستفتاه ابن هبيرة فى كتب تأتيه من عند يزيد بن عبد الملك وفيها من الأمر ما لم يأذن به الله ، وقال : إن أنفذتها وافقت سخط الله ، وإن لم أنفذها خشيت على دمى . فقال الحسن : يا ابن هبيرة : خف الله فى يزيد ، ولا تخف يزيد فى الله . يا ابن هبيرة : إن الله مانعك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنعك من الله يا ابن هبيرة : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فاعرضه على كتاب الله تعالى ، فما وافق كتاب الله فانفذه ، وما خالف كتاب الله فلا تنفذه فإن الله أولى بك من يزيد ، وكتاب الله أولى بك من كتابه . فضرب ابن هبيرة على كتف الحسن وقال : هذا الشيخ صدقنى ورب الكعبة ! ؟

أبشروا أيها المسلمون بالمستقبل بعد أن عادت إليكم إرادة القتال

الأستاذ / أحمد حسين

طالما فكرت طويلا تفكيراً حرًّا بعيداً عن أى اعتقاد دينى : ما الذى يرفع من شأن بعض الدول فيقدرها على بسط سلطانها على دول أخرى ، ثم يطرأ عليها ، فإذا هى تذبل وبالتالى تضعف ، فتفقد سلطانها ، حتى على نفسها ، فإذا هى تحت نفوذ غيرها وفى دائرة سلطانه ! ؟

وآخر نموذج لهذه الظاهرة ، التى تكررت مرات ومرات عبر التاريخ : إمبراطورية يعرفها المسلمون جيداً وأعنى بها انجلترا ، ففى ظل تظاهرها بصداقة المسلمين ، كانت هى أعدى أعدائهم ، وتصدت فى كل مكان لهم فيه شوكة ، لتحطم هذه الشوكة .. فاحتلت مصر وسيطرت عليها ، وتحت ستار صداقة العرب حرضتهم للوقوف فى وجه تركيا ، ثم نكثت بعهودها !

وزرعت فى قلب العرب : الدولة اليهودية التى ما زالت تدمية حتى اليوم ، هذه الإمبراطورية البريطانية التى حرصت على أن لا يكون فى الدنيا شبر إسلامى واحد ليس تحت سيطرة مسيحية .. هذه الإمبراطورية التى لم تكن تغيب عنها الشمس أبداً : قد انتهت وانتهى أمرها ، وأصبحت تابعة لغيرها وإن تظاهرت بغير ذلك !

وطبيعى : أن لقيام الدول المؤثرة فى دنيا البشر عوامل كثيرة ، ولكن من الطبيعى أيضاً أن يكون ثمة عامل هو الأول بين هذه العوامل ، فما هو هذا العامل ؟

لقد صدعوا رؤوسنا (أخيراً) بالعامل الاقتصادى ، فراحوا ينسبون إلى العامل الاقتصادى كل شىء ، حتى أوشكوا أن يجعلوا العامل الاقتصادى سبباً لدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس !

حاولوا أن يوجدوا دائماً أسباباً مادية لتفسير ظهور هذه الدولة أو تلك ، وكل

هذا أثبتت الأيام زيفه وبطلانه، فالجزر البريطانية هى الجزر البريطانية لم تتحول عن موقعها الجغرافى، بل وفوق ذلك خرجت منتصرة من أعظم حرب عرفها البشر، ومع ذلك فقد انحدرت إلى دولة من الدرجة الثالثة لايدخلها أحد فى حسابه أهى خصم أو صديق ؟

وفى الناحية المقابلة تقف اليابان وحسبنا أن نشير إليها مجرد إشارة.

فهذيان ما بعده هذيان: أن يتحدث متحدث عن أسباب مادية، فضلا عن تحديدها فى الاقتصاد .. وسخافة ملكية وسائل الإنتاج، فلا شىء تبدل من ذلك أو تغير .. سواء فى انجلترا أو اليابان ؟ ومع ذلك فإحداهما تهوى إلى الحضيض والثانية ترتفع إلى عنان السماء (بمقاييس العصر) !

وثمة ملاحظة أخرى . . جديرة بالتسجيل :

وهى هزيمة أعظم دولة فى العالم بكل قدرتها «التكنولوجية» التى أوصلتها إلى القمر من دويلة صغيرة وهى فيتنام الشمالية التى كانت قد هزمت قبل ذلك فرنسا التى حكمتها بكل يسر وبساطة عشرات وعشرات من السنين . لا بد أن يكون وراء ذلك سر، وهذا هو ما حاولت التوصل لمعرفته من خلال استقراء التاريخ وقيام الدول وسقوطها ؟

ولا بد أن يكون هذا السر أولا وقبل كل شىء أبعد ما يكون عن الماديات، وأقرب ما يكون إلى الحالة النفسية التى تسود الجماعة .. وقد كان القرآن الكريم أول من حدثنا عن هذا السر فقال وقوله الحق : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» فدل ذلك : أن العنصر الحاسم لتبديل الأمور من حال إلى حال .. هو عنصر نفسى من الدرجة الأولى، هو عين ما توصلتُ إليه من خلال تفكيرى الحر المرسل فى استقراء حوادث التاريخ . . وكان الطابع المميز لكل التطورات التاريخية : أن تكون مسبوقة دائماً بمعركة حربية، بين قوة قديمة ساحقة تستعين بأقوى ما عرف حتى وقتها بالأسلحة، وبين قوة جديدة ناشئة تصغرها حجماً، وتقصر دونها فى المعدات، ومع ذلك فإن الغلبة تكون من نصيب هذا الجانب الجديد الأصغر، والأقل شأناً فى التجهيزات العسكرية ! ؟

ولقد كان ذلك أكثر ما يكون ظهوراً فى معارك الفتح الإسلامى، حيث كانت الأعداد القليلة من جيوش المسلمين، تهزم أضعاف أضعافها عدداً

وعدة ، حتى سحقت فى وقت واحد جيوش أعتى إمبراطوريتين ، وهما الإمبراطورية الفارسية ، والإمبراطورية الرومانية ، وإذا كان المسلمون قد أزالوا الإمبراطورية الفارسية تماماً ، وأبقوا على الإمبراطورية الرومانية ، فما ذلك إلا لأن الأولى وثنية ، أما الثانية فمسيحية.. وقد فسر بعض أعلام جيوش المسلمين لخصومهم سر انتصارهم المؤكد فى جميع المعارك بقوله : « نحن قوم نحرص فى القتال على الموت . . قدر حرصكم على الحياة » .

وهو يعنى بالموت بطبيعة الحال : الاستشهاد فى سبيل الله .

وفتح المسلمون العالم شرقاً وغرباً ، وانتصروا — وبدون استثناء — فى كل معركة خاضوها ما بقوا بهذه الروح ، فلما أن فقدوها وأصبحوا أشد حرصاً على الحياة ، فقد هزموا وأفسحوا الطريق ، لمن هم أقل حرصاً على الحياة !

ولست أحسب أنه يوجد عبر التاريخ كله معركة واحدة انتصر فيها قوم يحرصون على الحياة أيًّا كان عددهم وأسلحتهم ، وإنما ينتصر دائماً ، من يؤثر الموت على عار الهزيمة ، وذل الانكسار .

أسبانيا ومعركة الأرمادا :

وفى التاريخ الحديث وصلت أسبانيا والبرتغال إلى أن يكونا أعظم قوتين فى العالم . . حتى لقد اقتسما الكرة الأرضية فيما بينهما ، ونحن نعلم حظ هاتين الدولتين فى ذلك الوقت ، وباستطاعتنا أن نضع أيدينا على نقطة التحول بالنسبة لكل منهما : فقد بدأت بالنسبة لأسبانيا على سبيل المثال ، عندما تحدى أسطول إنجليزى صغير ، الأسطول الأسبانى الكبير « الأرمادا » ويحدثونك عن ضخامة قطع الأسطول الأسبانى .. وأن ذلك كان سبب هزيمتها أمام قطع الأسطول الإنجليزى الأصغر حجماً ، والأخف حركة أى إن سبب الضعف وهو « الصغر » قد تحول إلى سبب قوة ! وحقيقة الأمر : أن السر كله كان فى نفسية المتحاربين .

ومثل ذلك سيقابلنا فى كل صفحات التاريخ ، فما من شعب ، أيًّا كانت درجته من حيث الفقر أو الاستعداد ، فبمجرد أن تتوفر لأفراده إرادة القتال ، حتى تصل به هذه الإرادة إلى ما شاء الله فلا تكاد هذه الإرادة تضعف وتهن ، فضلا عن أن تتعطل تماماً حتى يتدهور المجتمع ويتراجع !

السعي والعمل فرعان من إرادة القتال :

ذلك أن إرادة القتال وهي أعلى صور غريزة البقاء : تنبع منها بقية الفضائل الأخرى التي ترفع من شأن الشعوب ، كالعمل والإنتاج والإبداع ، فلا بد للقتال من أسلحة وتدريبات ودقة في كل شيء وانضباط وانصراف عن الاستغراق في ملذات الحياة وشهواتها ، وهو ماغاب . . عن المجتمع الإسلامي في وقت من الأوقات فانتهى أمره إلى ما انتهى إليه ، وهو وقوع العالم الإسلامي كله تحت سيطرة أوروبا ونفوذها المادي والمعنوي معاً ، وما كانت أوروبا المسيحية تصل إلى هذا التفوق على المسلمين ، لولا أنها أخذت فضائل الإسلام من نظافة ونظام وعلم وعمل ، ثم توافرت إرادة القتال لدى شعوبها ، وعملت أوروبا بكل قوتها في إضعاف إرادة القتال أكثر وأكثر لدى المسلمين ! !

واليوم تغير ذلك :

فإذا كنت اليوم أتفاءل وأبشر المسلمين بأن المستقبل لهم ؟ فذلك لأنني رأيت إرادة القتال وقد بدأت تنتقل إليهم ، في الوقت الذي بدأت فيه هذه الإرادة ، تضعف في شعوب : أوروبا ، وأمريكا كما قدمت ، وهكذا بدأنا نسمع عن قتال للمسلمين في «الفلبين» ، حقاً إن الأخبار تترى عن عجزهم عن تحقيق آمالهم ، وعن الأخطار التي تهددهم ، ومع ذلك فمن كان منا يعلم بوجود مسلمين في الفلبين ؟ وقل مثل ذلك عندما تسمع بقتال المسلمين في الحبشة ، أو في « تايلند ، أو بورما » حقاً إن جناحهم لايزال مهيضاً وجانبهم هو الأضعف ، ولكن الجديد في الموضوع . . أنهم بدأوا يشعرون بكيانهم ، وباتوا يتطلعون لتحقيق إرادتهم ، وهذا لايعني بحال أن الصعوبات قد انتهت ، بل إنها قد تتفاقم ، والمهم أنها مؤشر على الطريق ، أما لماذا تتفاقم ؟ فذلك : لأن الغزو الأوروبي العسكري ، إذا كان قد زال ، فإن الغزو النفسي لا يزال قائماً ، وهو الأشد خطراً من الغزو العسكري ، لا زال المجتمع الإسلامي يؤمن بتفوق المجتمع الغربي ، فنحن في مصر — على سبيل المثال — لازلنا نردد أقاويله عن اقتناع وإيمان . . فنحن « شعب نامي » ، أي متخلف ومقياس التخلف ، هو مقياس مادي ومغلوط في نفس الوقت ، فالحضارة عندهم تقاس بما يخص الفرد من دولارات في العام ! فمتى قلت هذه الدولارات عن قدر معين فالشعب متخلف ! وهو نوع من

السخف والهذيان .. ومع ذلك فنحن نردده ، ونعمل على أساسه حيث إن أى فرد فى أوروبا وأمريكا لم يعد يقوى على الحياة (أى درجة من الحياة) إلا إذا أنفق مقادير معينة من الدولارات ، فإذا كان باستطاعة كائن من كان ، أن يحيا بعشر معشار هذا القدر من الدولارات فلا مجال للحديث عن التخلف ؟

وقل مثل ذلك عن موضوعات تحديد النسل ، والأمية ، وعن الهدف من الحياة ، فلا زالت الأفكار الأوروبية ، والأمريكية . . تغزوا عقولنا وأرواحنا ، وقد حانت الساعة لنتحرر من هذا الغزو وأن نتشبث بحضارتنا الإسلامية . . ولكى نعرف فى اختصار شديد : ما هى مقومات هذه الحضارة ؟ فهى كل ما سار عليه الأوربيون فى الثلاثة قرون الماضية ، فهم لم يزيدوا على نقل الحضارة الإسلامية وما تنطوى عليه من إرادة القتال فى سبيل ما هو حق وصالح ونافع لبنى الإنسان ! ؟ وعندى من اليقين والإيمان .. أن المسلمين مقبلون على ذلك ، والله أعلم ، وسبحان الله وبحمده ، والله أكبر .

(أعرابى يفحم الحجاج)

خرج الحجاج ذات يوم فأصحره ، وحضر غداؤه فقال : اطلبوا من يتغدى معنا ؟ فطلبوا فلم يجدوا إلا أعرابياً فى شملة فأتوه به ، قال له : هلم ؟ قال : قد دعانى من هو أكرم منك فأجبته ! قال : ومن هو ؟ قال : الله تبارك وتعالى .. دعانى إلى الصيام ، فأنا صائم ! قال : صوم فى مثل هذا اليوم على حرٍّ ؟ قال : صمت ليوم هو أحر منه .. قال : فأفطر اليوم وتصوم غداً ؟ قال : أو يضمن الأمير لى أن أعيش إلى غد ! قال : ليس ذلك إلى ؟ قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجل ليس إليه سبيل ؟ قال : إنه طعام طيب ! قال : والله .. ما طيبه خبازك ولا طباخك ، ولكن طيبته العافية ! فقال الحجاج : تالله . . ما رأيت كاليوم ، أخرجوه عنى ! ؟

الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية

الدكتور محمد مصطفى شلبي

فكرة تطوف فى رؤوس رجال القانون من زمن بعيد ، ظلت مجرد فكرة وأمنية تجول فى النفس فترة من الزمن حتى خرجت بعدها على هيئة مطلب ورجاء فى المحاضرات حيناً ، وفى المقالات حيناً آخر ، ثم فى كتب القانون أخيراً .. هى فكرة توحيد القوانين ، أو بتعبير أدق « فكرة تكميل القانون المدنى بإدماج الأحوال الشخصية بعد تقنينها فيه ، ليصبح شاملا للأحوال العينية والشخصية على السواء ؟ » .

بدأ هذا الطلب مع المطالبة بتنقيح القانون المدنى — تقريباً — حيث نادى الدكتور السنهورى بذلك فى مقالاته بمجلة القانون والاقتصاد ، وفى محاضراته مع إشارات فى كتبه .

ولقد كان واضحاً فى مطلبه عندما دل على مصدر ذلك التقنين فقال :

« ولا نقصد بهذا أن ننقل تشريع الأحوال الشخصية من التشريعات الغربية ، بل يجب أن يكون تشريعنا فى هذه المسائل منقولا من الشريعة الإسلامية ، مع جعله ملائماً لأن يطبق على غير المسلمين من المصريين ، فيكون لنا بذلك تشريع عام فى الأحوال الشخصية يخضع له جميع المصريين مع احترام العقائد الدينية ، وعدم المساس بها ، فنحن إذن لا نريد بإدماج الأحوال الشخصية فى القانون المدنى أن ننتقص من سلطان الشريعة الإسلامية ، بل على العكس من ذلك ، نحن نحب امتداد هذا السلطان إلى دائرة المعاملات نفسها » .

ثم أبان أن تقنين الشريعة أمر ممكن ، بل وجد فعلا فى تركيا ، وفى مصر فى المجلة العدلية ، وفى كتب قدرى باشا ، وما صدر من قوانين لبعض أحكام الأحوال الشخصية مدرجاً فى لائحة المحاكم الشرعية أو منفصلا عنها .

وتبعه فى ذلك كثير ممن كتب فى القانون بحثاً وشرحاً . نذكر منهم : الدكتور

حسن بغدادى الذى طالب بتقنين الأحوال الشخصية مقترحاً أن تكون الشريعة الإسلامية مصدراً لهذا التقنين ، ولكن من غير أن يتحمس لهذا الاقتراح كما فعل الدكتور السنهورى صاحب الفكرة.

ويقينى . . أن الدكتور السنهورى قال ذلك عن اقتناع — بعد دراسة طويلة — بدليل أنه يشيد بالشريعة وما فيها من كنوز فى كل مناسبة ، ويطالب فى إحدى محاضراته بوجوب الرجوع إليها وعدم إغفالها كمصدر خصب للتقنين العصرى فيقول :

« وإنى زعيم لكم بأن تجدوا فى ذخائر الشريعة الإسلامية من المبادىء والنظريات مالا يقل فى رقى الصياغة ، وفى إحكام الصنعة عن أحدث المبادىء والنظريات وأكثرها تقدماً فى الفقه الغربى » .

ثم ختمها بقوله :

« فالشريعة الإسلامية كما رأيتم مصدر خصب لتشريع يوضع لبلاد شرقية عربية ».

والدكتور محمد عرفة يقول — بعد أن تكلم على إلغاء المحاكم الشرعية — :

وعندنا أن الإصلاح لا يكون تامًّا إلا بإصدار قانون موحد يحكم المنازعات بالأحوال الشخصية للمسلمين وغير المسلمين من المصريين ، ولا بأس عندنا من أن تستقى أحكام هذا القانون من مبادىء الشريعة الإسلامية وغيرها من الشرائع الطائفية فى نطاق النظام العام ، وبذلك وحده يقضى على عيب تعدد القوانين بعد القضاء على عيب تعدد جهات القضاء .

وزميلنا الدكتور حسن كيره يطالب — فى حماس — بتحقيق هذه الفكرة فيقول فى مقدمة كتابه الحقوق العينية الأصلية .

« الأصل أن القانون المدنى يعرض لأنواع الحقوق المختلفة ، غير أن المشرع المصرى قد اضطر منذ أول تقنين مدنى أصدره فى أوائل الربع الأخير من القرن الماضى إلى الخروج على هذا المنهج السوى نظراً إلى ظروف خاصة ، وعادات وتقاليد موروثة قضت بربط مسائل الأحوال الشخصية بالدين والملة مما استتبع استبعادها من نطاق هذا التقنين أمام تعدد القواعد القانونية التى تحكمها بتعدد الأديان والملل السائدة فى مصر ، واقتصار هذا التقنين كقاعدة عامة على الحقوق التى تتعلق بروابط الأحوال العينية — أى بالمعاملات المالية وحدها — ولم يتغير الحال فى التقنين المدنى المصرى الجديد رغم طول الفترة التى مضت بين التقنينين ، وما شهدته من تطور كبير متواصل فى المجتمع المصرى ، إذ مايزال للتقاليد سلطان قوى غير منكور » .

ثم يعلق على ذلك بقوله :

« لعل فى إقدام المشرع المصرى أخيراً على توحيد الاختصاص القضائى فى مسائل الأحوال الشخصية ما يبشر بقرب استكماله للإصلاح المنشود من توحيد القانون فى هذه المسائل دون نظر إلى اختلاف العقائد الدينية ، بحيث يصبح التقنين المدنى المصرى – كسائر مثيلاته من التقنينات – شاملا لمسائل الأحوال الشخصية والعينية على السواء » .

ويقرر مثل ذلك شارحاً له فى كتابه « أصول القانون » .

وبهذه الصراحة التامة يطلب تقنين الأحوال الشخصية ليكمل القانون غير أنه لم يعرض لبيان مصدر ذلك التقنين الجديد كما عرض سابقوه ، ولعله تركه لاختيار المشرع حينما يعزم على التنفيذ بعد أن كشف عن رأيه فى الشريعة الإسلامية فى مواضع مختلفة من كتابيه « المدخل » و « أصول القانون » كشف عنه بطريق التصريح مرة ، وبطريق الإيماء مرة أخرى مما سيأتى توضيحه فى موضعه من هذا البحث .

فأنت ترى أن هذه الفكرة قامت فى أصلها على أمرين : أولهما – المطالبة بتقنين الأحوال الشخصية تقنيناً عاماً يخضع له جميع المصريين على السواء لا فرق بين مسلم وغيره . وثانيهما – الإرشاد إلى المصدر الذى يرجع إليه . وأن الاتفاق قائم على الأمر الأول ، وأن ثمة اختلافاً بينهم فى الثانى ، فقد بدأ بالمطالبة بجعل الشريعة مصدره الوحيد مطالبة صريحة مع الاعتراف بكفايتها لذلك ، ثم فتر الطلب عند البعض ، فاقتصر على رفع المانع من طريقة توقع رفع البأس ، ثم آل إغفاله مع التعريض بعدم صلاحيته الشرعية لذلك بوضعها الحالى .

ومن يدرى لعل الأيام تأتينا باقتراح أكثر صراحة يطلب صاحبه جعل مصدر التقنين التشريعات الأجنبية ، حتى يلتئم التقنين كله برجوعه إلى أصل واحد .

لهذا ولما وجدته عند قرائى فى كتب أصول القانون من تعابير عديدة تصف أحكام الشريعة الإسلامية بأنها أحكام خلقية دينية جاءت – فيما أظن – تقليداً لما شاع عند رجال القانون الغربيين . الأمر الذى يجعلها فى نظر الناس ، وبخاصة طلاب الحقوق – غير صالحة للتقنين لأنها لا تتلاءم مع واقعهم الذى يعيشون فيه .

لهذا وذاك اتجه تفكيرى إلى معاودة البحث فى واقعية فقه هذه الشريعة

وقانونها ، لأثبت للناس من جديد أنه فقه واقعى يلائم الحياة ويسير معها مهما تقلب الزمن وتجددت الأحداث لا يعادى مدنية ، ولا ينفر من الجديد لأنه جديد ، فيه من المرونة واليسر مالا يقل عن أحدث القوانين وأرقاها إن لم يفقها كلها فى ذلك !

اتجه تفكيرى إلى هذا البحث بعد أن شرعت فى بحث آخر فعدلت عنه إلى حين أن أنتهى من هذا البحث الجديد، ثم أعود إليه بمشيئة الله الذى وضع القلوب بين إصبعين من أصابعه يقلبها سبحانه كيف شاء !

عدلت عنه : لما لوضعنا الجديد من أهمية بالغة فى ظروفنا الحاضرة ، ولأنه يعتبر كالأساس لغيره من موضوعات المقارنة بين الشريعة والقانون .

ومن الصواب : أن يبدأ المرء سيره من أول الطريق حتى لا تلتوى به السبل ، ولا تضطرب خطواته أثناء مسيره .

وجعلت عنوان البحث «الفقه الإسلامى بين المثالية والواقعية» .

معنى الواقعية :

وإذا كانت الواقعية مأخوذة من الواقع ، وهو فى عرف الناس يراد به «سلوك الأفراد والجماعات» فهل معنى واقعية القانون : أنه يخضع لهذا الواقع فى كل شىء ، ويسايره فى جميع اتجاهاته ويحقق رغباته .

أم أن القانون هو الذى يخضع الواقع ويتحكم فيه ، فيبيح منه أشياء ، ويحرم أخرى ، ولكنه لا يقف جامداً على ما جاءت به نصوصه ، بل يسير فى ركب الحياة ويتطور معها ؟

معنيان للواقعية يهوى بعض الناس أولهما ، ويشتهى . . أن لو خضعت كل القوانين — سماوية كانت أم وضعية — لواقعهم ، ولو كان فاسداً وهم قوم إباحيون ، يريدون التحلل من كل قيد فيسيرون وراء أهوائهم لإشباع رغباتهم ! ؟

ويتجه آخرون إليها بالمعنى الثانى ، يثبتونها لقوانينهم الوضعية ، ويسلبون الفقه الإسلامى حظه منها ، قائلين : إنه فقه مثالى متأثر بعنصرى : الخلق والدين ، ومن ثم وصفوه تارة . . بأنه أحكام خلقية ، وأخرى . . بأنه أحكام دينية ، حتى صوروه للناس بأنه فقه جامد لا يتحرك ، وإن تحرك ففى ضيقه ، ويخلصون من ذلك أنه لا يساير الزمن ، ولا يلائم المدنيات ، فلا يصلح للتطبيق ! الآن ومن هنا قيل : إن دخول القوانين الغربية فى معظم البلاد الشرقية التى تدين بالإسلام . . يرجع إلى

جمود الشريعة الإسلامية بعد إقفال باب الاجتهاد فيها مع تيقظ الوعى فى أواخر القرن الماضى فى تلك البلاد ، وأن تمسك بعض الدول الإسلامية ، « كالحجاز واليمن » بشريعتهم دون اللجوء إلى القوانين الحديثة راجع إلى ظروف هذه البلاد الخاصة وهى أنها تعيش فى حالة بدائية لا تحتاج معها إلى تجديد ! ؟

خطة البحث :

ونحن نقف مع الفريق الأول وقفة قصيرة نبطل فيها دعواه ، ونبين لهم أن الفقه الإسلامى بعيد عن الواقعية بهذا المعنى ، بل إن القوانين الوضعية فيما استقرت عليه تنكر هذه الواقعية لأنها لا تتفق وطبيعة القانون .

ولنا مع الفريق الثانى وقفة طويلة نناقش فيها دعواهم ، ونكشف عما فى شبههم من زيف وبعد عن الحقيقة ، ثم نثبت تلك الواقعية لهذا الفقه من واقع مصادره ومبادئه وأحكامه ، شارحين ما فى تلك المصادر .. من مرونة تكفل لهذا الفقه واقعية دائمة ، ثم نعقب على ذلك ببيان الطريقة التى ينبغى سلوكها لكى ننتفع به فى تشريعنا الحاضر ، وبعد هذا كله نتصدى لدفع ما أثير من شبه حول إمكان تطبيقه والعمل به الآن ، حتى يتبين لهؤلاء المنكرين أن فكرة عدم واقعيته جاءت وليدة عدم العلم بما فيه من أسس سليمة ، ومبادىء قويمة ، تهدف فى مجموعها إلى خير الإنسانية وإرساء قواعد المجتمع على أرض صلبة لا تميد ، وبالتالى يظهر لنا وضوح أن مبدأ الواقعية والملاءمة فى هذا الفقه الخالد تستعصى على الرد والإنكار ، وأن إنكار المنكرين على اختلاف ألوانهم ، وتعدد صورهم وأشكالهم لم يفلح فى هدم ذلك البناء الشامخ ، أو زعزعة اعتقاد أصحاب العقول السليمة فى صلاحيته ، وأن هذا الفقه يتمكن من أن يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة الصحيحة ، والتوفيق بين حاجاتها .

المثالية والواقعية فى القوانين الوضعية :

وقبل أن نبين ما فى الفقه الإسلامى من واقعية ، ومع أى الطريقتين يسير . نعرض لموقف القوانين الوضعية منها ، لتتم المقارنة بينهما فى يسر وسهولة ، وهذا يضطرنا إلى عرض تاريخى موجز لمسلك رجال القانون فى تكوين قواعدهم القانونية فنقول :

لرجال القانون الوضعى فى طريقة تكوين قواعدهم ثلاث مدارس ، وبعبارة أدق مدرستان . كانتا على طرفى نقيض هما : المدرسة المثالية ، والمدرسة الواقعية سلكت كل واحدة منهما مسلكاً يضاد

مسلك الأُخرى ويناقضه ولما لم تسلم واحدة منهما من النقد والتجريح جاءت فئة أُخرى وكونت مدرسة ثالثة تجمع بين المثالية والواقعية ، وعلى طريقتها استقر الوضع الأخير لتلك القوانين .

فالمدرسة المثالية ترجع القاعدة القانونية إلى ما يختاره العقل من المثل العليا دون نظر لواقع المجتمع ، وعبرت عن هذا القانون فى مبدأ الأمر بالقانون الطبيعى ، وزعمت أنه قانون أبدى ثابت صالح لكل زمان ومكان ومع ذلك فقد دخله التعديل والتغيير ، وتشكيله بأشكال عديدة .

وفى أثناء موجات التغيير التى لحقته اصطبغ بصبغة دينية فى العصور الوسطى فى كنف الكنيسة المسيحية حتى صار القانون آنئذ هو ذلك القانون الإلهى الذى يسمو على القانون الوضعى وحينذاك فصلت السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، وراجت القولة المشهورة « اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » فبعد أن كان القانون الطبيعى فكرة فلسفة فى العصور الأولى صار فكرة دينية فى العصور الوسطى ، ولما ضعف سلطان الكنيسة وقوى سلطان الدولة أصبح القانون الطبيعى فكرة قانونية تشريعية ، وأُتيح لها حظ كبير من الذيوع والانتشار فى القرنيين السابع والثامن عشر .

وفى القرن التاسع عشر . . هوجم القانون الطبيعى كما هوجمت مدرسته المثالية ، وتركز الهجوم على صفة الخلود فى هذا القانون ، وفيما يلازمه من نزعة فردية مما أدى إلى هجره فترة من الزمان ، ثم عادت فكرة إحيائه فى أواخر القرن التاسع عشر ، فأُعيد مجرداً من صفة الخلود ، وقصر على صفة القيادة الموجهة الملهمة بقليل من مبادىء العدل المثالية ، دون أن ينزل إلى التطبيق العملى ، وهو ما عبروا عنه بالقانون الطبيعى ذى المضمون المتغير ، ومع ذلك لم يسلم من النقد والتجريح ، فطعنوه بالتناقض ، لأن المثل الأعلى الذى يقوم عليه القانون الطبيعى ثابت خالد ، فاعترافهم بتغيره يعد تناقضاً منهم !

وأخيراً انتهت فكرة القانون الطبيعى إلى أنه موجه مثالى للعدل لكل القوانين الوضعية ، فتلتزم الدولة عند وضع قانونها احترام هذا الموجه لا تحيد عنه ، وكما جعل موجهاً للمشرع عند تشريعه جعل موجهاً للقاضى عند تطبيقه إذا لم يجد حلاً للنزاع المعروض عليه فى قواعد القانون .

أما المدرسة الواقعية . . فقد جاءت فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وكانت على النقيض من المدرسة المثالية ، لأنها لا تؤمن بما يستنبطه العقل

بعيداً عن الواقع حيث أنها تراه ضرباً من الحدس والتخمين ومن ثم اتجهت إلى إخضاع القانون للواقع المحسوس ، فجعلت القاعدة القانونية تقوم على الواقع ، وهو وجود تضامن بين الأفراد فى المجتمع .

وقد خرج من هذه المدرسة مذهبان : (أولهما) المذهب التاريخى .. الذى يجعل القانون من صنع الزمن وتطور التاريخ ، فكل أمة من الأمم تخلق قانونها كما تخلق لغتها وتقاليدها .

فالقانون عنده تعبير جماعى صامت يتكون على مر الزمن ، فهو من الأعراف يولد ، وعمل المشرع فيه ليس إلا تسجيلا لهذا التعبير الصامت وتغييراته المستمرة على مر الزمن !

ولقد نقد هذا المذهب نقداً مرًّا غدا معه قليل الأنصار رغم ما أدخل عليه من تعديلات (وثانيهما) مذهب التضامن الاجتماعى .. ويقوم هذا المذهب على أن القاعدة القانونية هى التى يشعر جمهور الأفراد المكونين للجماعة : أنها ضرورة ولازمة لصيانة التضامن الاجتماعى ولا يرضى أن تكون القاعدة القانونية تطبيقاً لأصل أو مثل أعلى كما يدعى أنصار القانون الطبيعى !

ولقد نقد هذا المذهب بأنه يجعل القانون خاضعاً للواقع التجريبى فالقاعدة القانونية عنده لا تقول : افعل هذا لأنه خير أو نافع ، بل تقول له : افعل هذا لأنه كائن ، وهو إغفال لطبيعة القانون لوظيفته لأن القانون فى حقيقته لا يقر ما هو كائن ، وإنما يقوِّم ما هو كائن تقويماً يقرر به ما ينبغى أن يكون . أى ينتقل من الواقع إلى الواجب ، فيجاوز بذلك دائرة المشاهدة والتجربة إلى دائرة العقل والتفكير حيث يمكن التقدير والتقويم .

ومع ما أدخل على هذا المذهب من تعديل بإدخال العدل مؤثراً فى القاعدة القانونية لم يسلم من النقد لأنه لم يرد العدل فى ذاته كمبدأ أو كمثل أعلى بل باعتباره شعوراً للجماعة الأمر الذى يجعل العدل خاضعاً للأفراد فيتأثر بالأهواء .

هاتان المدرستان : متنازعتان قصرت كل واحدة منهما فى نظرتها ، فصرفت وجهتها إلى ناحية واحدة فالمدرسة المثالية لا تهتم إلا بالناحية الروحية فى الإنسان ، فأسرفت حين جعلت القانون مجرد عمل عقلى محض بعيداً عن الحقائق الواقعية فى حياة المجتمع !

والمدرسة الواقعية كانت على العكس من ذلك ، فقصرت نظرتها على الناحية المادية فى الإنسان ووجوده المحسوس فى المجتمع فأسرفت بدورها لما جعلت القانون مجرد

عمل علمى تجريبى فقط . . يتبع واقع الحياة بعيداً عن التفكير والعقل .

من أجل هذا الغلوّ عند كل من المدرستين نادى جماعة من الفقهاء بفكرة تعتبر وسطاً بين الفكرتين : بنى هؤلاء فكرتهم على أن الإنسان — الذى يراد القانون له — مكون من عنصرى المادة والروح فاعتبار إحداهما دون الآخر يجعل القانون غير ملائم لذلك الإنسان ، فينبغى ، بل يجب أن يكون مزيجاً من حقائق الحياة الاجتماعية التى تسجلها المشاهدة والتجربة ومن المثل العليا التى يستخلصها العقل مما وراء المحسوس .

على أن القاعدة القانونية التى تحكم سلوك الإنسان فى المجتمع — هى قبل كل شىء : قاعدة تقويمية لا يكفى فيها تقرير الواقع من الحياة عن طريق المشاهدة والتجربة ، بل يجب أن تجاوز ذلك إلى فرض واجب معين عن طريق تقويم هذا الواقع بالقياس على ما يفرضه العقل من مثل عليا ، فالواقع وحده قاصر عن تكوينها .

هذا الاتجاه المزدوج ، والجمع بين فقه المدرسة المثالية والمدرسة الواقعية سار عليه أغلبية فقهاء القانون الوضعى ، فالقانون عند هؤلاء ليس عملا علميًّا بحتاً كما تذهب المدرسة الواقعية ، ولا هو عمل عقلى تفكيرى خالص كما تذهب المدرسة المثالية ، ولكنه عمل مزدوج من عمل علمى وعمل عقلى ، لأن الواقع وحده لا يكفى . . لتسرب الأهواء إليه ، فلابد من تقويم هذا الواقع تقويماً عقليًّا بالقياس على مثل أعلى : هو العدل الذى يفرضه العقل بعيداً عن الأهواء والشهوات .

وعلى هذا : استقر الوضع الآن بين رجال القانون ، فهم لا يقبلون الواقع بين الناس إلا بعد تقويمه . . لذلك نراهم يقسمون العرف إلى صحيح وفاسد ، فيقبلون صحيحه ويردون فاسده .

هذا هو موقف القانون الوضعى وفقهائه من الواقعية بعينها ، فقد نقدوا تسلط الواقع على القانون تسلطاً مطلقاً . نقدوه وجرحوه حتى أغلقوا مدرسته ، وتفرق طلابها عنها ، ولكنهم لم يهملوا الواقع ، بل قبلوه بعد تقويمه ونقده بميزان أعلى منه بعيداً عن الأهواء والشهوات !

ذلك : عرض سريع لتاريخ الواقعية عند رجال القانون . عرضناه بخطواته وما وقع فيها من نزاع طويل ، وكيف تطورت حتى وصلت إلى وضعها الأخير لنتخلص منه النتائج الآتية :

أولاً : أن القوانين الوضعية على

اختلاف ألوانها ولدت ناقصة قلقة غير مستقرة ، لعدم وجود مصدر ثابت تستقى منه ، ولا أدل على ذلك من هذا الاختلاف البين فى مصدر تكوين القاعدة القانونية فى تلك القرون !

ثانياً : أن تلك القوانين لم تصل إلى وضعها الأخير إلا بعد كفاح شاق طويل ، فقد بدأت بفكرة المثالية المفرطة فى الخيال — ثم نازعتها فكرة الواقعية التى لا يكون للقانون معها سلطان ، ثم امتزجت الفكرتان : فكرة الواقعية على مر الزمان ، وخرجت منهما فكرة وسط استقام معها الأمر إلى حد ما .

ثالثاً : أن فكرة المثالية الممثلة فيما سمى بالقانون الطبيعى لبست ثوباً دينياً فى مرحلة من مراحل حياتها على يد الكنيسة المسيحية فى القرون الوسطى لما تبنتها ودافعت عنها لملاءمتها لتعاليمها الدينية ، ولعل هذا الأمر يخفى وراءه السر فى وصف بعض رجال القانون للفقه الإسلامى بأنه « فقه مثالى » لأنه فى نظرهم عبارة عن مجموعة من الأحكام نزلت بها نصوص الوحى فى فترة زمنية معينة ، بل فى بقعة من العالم معينة متأثرة بعنصرى الدين والأخلاق . وكثيراً ما حالت هذه النصوص بينه وبين واقع الناس وما تعارفوا عليه . ومن ثم يكون عبارة عن مثل عليا . ليس بينه وبين الواقع صلة فلا يصلح للعمل به !

رابعاً : أن الوضع الذى انتهى إليه رجال القانون بعد ذلك الجهاد الطويل من اعتبار الواقع — بعد تقويمه وتقديره بميزان العدل — ليس أمراً جديداً ، بل هو فى شريعة الله : قديم حيث قرره الإسلام من أول أمره ، وسار عليه فقهاؤه إلى الآن . فهو لم يكن مثالياً بالمعنى الذى بدأت به القوانين ، ولا واقعياً بالمعنى المقابل له عندهم فهو لم يكن خيالياً فى يوم من الأيام ، ولا واقعياً خاضعاً للأهواء والشهوات ، بل كان ولا يزال واقعياً معقولا ، يسير مع الواقع بعد تقديره بميزان العدل الإلهى البعيد عن أغراض الناس ونزواتهم وهو ما قصدنا إثباته بعد أبطال شبه الطاعنين فيه ! ؟

الأقليات وتطبيق الشريعة الإسلامية

الدكتور يوسف القرضاوى

(٢)

دليل العدل والتسامح من شريعة الإسلام :

أما شريعة الإسلام فحسبنا قول الله تعالى : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم : أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم : أن تَوَلَّوْهُمْ ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون»[1] . والخلط يقع دائماً بين الصنفين المذكورين : الذين نهى الله عن توليهم ، لأنهم عادوا المسلمين وآذوهم وأعانوا عليهم — والذين رغب الله فى برهم والإقساط — إليهم لأنه يحب المقسطين ! ؟

وإذا كانت هاتان الآيتان نزلتا فى شأن المشركين ، كما هو مبين فى أسباب نزول السورة — الممتحنه — فإن لأهل الكتاب منزلة خاصة فى اعتبار الإسلام فقد أباح القرآن مؤاكلتهم ومصاهرتهم . أى اعتبر ذبيحتهم حلالا ، كذبيحة المسلم على حين حرم ذبيحة الملحد والوثنى ، وأجاز للمسلم أن يتزوج كتابية عفيفة كما قررت ذلك « سورة المائدة » .

ومعنى هذا : أنه أباح للمسلم أن تكون ربة بيته وشريكة حياته وأم أولاده : كتابية ، وأن يكون أصهاره وأخوال أولاده وخالاتهم .. من أهل الكتاب ، وهذا ذروة التسامح .

أطلق الإسلام على اليهود والنصارى الذين يعيشون فى كنف دولته : اسمين يوحيان بمعان كريمة سامية — :

الأول : اسم « أهل الكتاب » إشارة إلى أنهم فى الأصل أصحاب كتاب سماوى .. وهذه التسمية لسائر اليهود : والنصارى ، وإن لم يعيشوا فى دار الإسلام .

والثانى : اسم «أهل الذمة» إيماء بأن لهم ذمة الله وذمة رسوله : أى عهد الله وعهد رسوله ألاّ يؤذوا ولا تهدر حقوقهم أو تخدش

(١) الآيتين ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة ٦٠ .

حرماتهم ، وهذا الاسم خاص بالذين يعيشون فى ظل سلطان الإسلام .

وفى الحديث الشريف : « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، إن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » .

والمعاهد يشمل من له عهد مؤقت بأمان ونحوه ومن له عهد مؤبد وهو الذى عهده أوثق وأوكد .

وفى حديث آخر: « ومن ظلم معاهداً» .

وقد كتبت بحثاً مستقلاً وضحت فيه حقوق غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى وضمانات الوفاء بهذه الحقوق وما عليهم من واجبات بإزاء هذه الحقوق ، فليرجع إليه .

العدل والتسامح فى تاريخ المسلمين :

أما تاريخ المسلمين فى معاملة غير المسلمين ، فلم تر البشرية مثله نصاعة وإشراقاً ، إنه صحائف رائعة من التسامح الفذ المنقطع النظـــير بين المؤمنين بالأيداوجيات : دينية أو علمانية ، مما جعل الشعوب المسيحية وغيرها ترحب بالحكم الإسلامى منقذاً لها من تعصب حكامها الذين كانوا فى بعض الأحيان على دينها، ولكن يخالفونها فى المذهب .

ولن أنقل هنـــا كلام أحد من المسلمين ، وأكتفى بما سجله المؤرخون الباحثون من غير المسلمين .

يذكر لنا المؤرخ « لودفيج » فى كتابه « النيل — حياة نهر » كيف استقبل أقباط مصر الجيش الإسلامى — بقيادة عمرو بن العاص — استقبال المنقذين لا استقبال الغزاة الفاتحين وكيف كان بالغاً حد الحماسة[1] .

ويقول : لودفيج أنه ما عدا فرض الجزية على المسيحى فإن عمراً لم يفرق فى المعاملة بين المسلمين والمسيحيين بل إنه أعلن حمايته لحرية الأديان جميعاً ، ولإقامة شعائرها ، وكفل المساواة المطلقة بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، مساواة شملت كل حق لهم وكل واجب عليهم ، بما فى ذلك وظائف الدولة ، بغض النظر عن الجنس أو الدين[2] .

يقول جيروم وجان تارو » :

« إن فضيلة التسامح التى كانت أزهى السمات الخلقية فى العرب ، والتى ندر أن تتوافر لغيرهم فى جميع الأزمان ، هذه السجية الكريمة قد أفادت العرب كثيراً ، ولم يكن ليفيدهم ذكاؤهم الفطرى وذوقهم الفنى ونزعاتهم : لو لم يتميزوا بفضيلة التسامح[3] » .

(١ ، ٢ ، ٣) الغرب والشرق من الحروب الصليبية إلى حرب السويس (المرحلة الأولى) للاستاذ محمد على الغتيت ص ٧٤ — ٧٥ .

يقول المؤرخ والفيلسوف الفرنسى جوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » متحدثًا عن عدل الفاتحين المسلمين وسماحتهم :

« كان يمكن أن تُعْمِىَ فتوح العرب الأولى أبصارهم ، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ، ويسيئوا معاملة المغلوبين ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذى كانوا يرغبون فى نشره فى العالم . . ولكن العرب اجتنبوا ذلك ، فقد أدرك الخلفاء السابقون — الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ماندر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة — أن النظم والديانات ليست مما يفرض قسراً »[1] فعاملوا — كما رأينا — أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم ، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم ، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى الغالب ، إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقًا ، فى مقابل حفظ الأمن بينهم . فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم »[2].

وينقل عن جوتييه فى كتابه «أخلاق المسلمين وعاداتهم » :

« لقد ثبت أن الفاتحين من العرب كانوا على غاية فضيلة المسامحة التى لم تكن تتوقَّع من أناس يحملون ديناً جديداً . وما فكر العربى قط فى أشد أدوار تحمسه لدينه الجديد أن يطفىء بالدماء ديناً منافسًا لدينه » .

وقد جاءنا العالم (متز) فى باب التسامح الإسلامى بتفاصيل أشد غرابة من هذه . قال :

« إن من أعظم بواعث الاستغراب كثرة عدد غير المسلمين من رجال الأسر فى الدول الإسلامية ، وقد شوهد المسلم فى بلاده يحكم عليه النصارى ، وحدث مرتين فى القرن الثالث للهجرة أن كان من النصارى وزراء حرب ، وكان على القواد — حماة الدين — أن يُقَبِّلُوا أيدى الوزير وينفذوا أمره ، هذا والدواوين غاصة بالكتاب من النصارى » .

ولم يكن التسامح مقصوراً على عهد الراشدين أو المسلمين الأولين أو جنس العرب كما يظن ذلك بعض الناس ، بل بقِى هذا التسامح صفة أصيلة ملازمة للمجتمع المسلم ، وللحكم الإسلامى فى

(١) الواقع أن هذا الإدراك من الخلفاء الأولين ليس راجعاً إلى مجرد عبقرية سياسية كما ذكر الكاتب بل إلى تعاليم الإسلام التى كانت هى الموجه الأول لهؤلاء الخلفاء والتى علمتهم أن « لا إكراه فى الدين » وغرست فيهم روح العدل والسماحة المنقطعة النظير .

(٢) حضارة العرب ص ٦٠٥ .

كل عصر وفى كل مكان ، أياً كان الحاكمون وكان المحكومون ، حتى فى أشد العصور اشتهاراً بالعصبية الدينية ، بل كانت الدولة الإسلامية هى الملاذ الذى يلجأ إليه المضطهدون من أى دين ، فيجدون فيها التسامح والأمان والاطمئنان.

يقول توماس أرنولد فى كتابه « الدعوة إلى الإسلام » :

« وحدث ان هرب اليهود الأسبانيون المضطهدون فى جموع هائلة ، فلم يلجأوا إلا إلى تركيا فى نهاية القرن الخامس عشر » .

ويقول أيضاً « حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى التركى لعلهم يحظون كما حظى رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما فى ظل أى حكومة مسيحية » .

ويقول ريتشارد ستيز من أبناء القرن السادس عشر :

« على الرغم من أن الاتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب . . فقد سمحوا للمسيحيين جميعاً : للإغريق منهم واللاتين ، أن يعيشوا محافظين على دينهم وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة فى القسطنطينية وفى أماكن أخرى كثيرة جداً ، على حين أستطيع أن أؤكد بحق – بدليل إثنى عشر عاماً قضيتها فى أسبانيا – أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب ، بل أننا فى خطر على حياتنا وأحفادنا » .

وهذا ما جعل بطريرك أنطاكية واسمه مكاريوس يقول : أدام الله دولة الترك خالدة إلى الإبد فهم يأخذون ما فرضوه من « جزية » ولا شأن لهم بالأديان سواء كان رعاياهم مسيحيين أو يهوداً أو سامره[1] .

والعجيب أن يتم هذا التسامح فى الوقت الذى كان المسلمون يغادرون فيه الأندلس بعد أن أقاموا فيها ثمانية قرون ينشرون العلم والحضارة ويهدون أوروبا إلى طريق النور فى زمن لم تكن ترى فيه الضوء إلا من مثل سم الخياط وظل هذا التسامح سارياً فى كل الديار الإسلامية ومع كل الطوائف والأقليات ما دام الشرع الإسلامى هو الذى يحكم ويسود.

حتى اليهود الذين يتصرفون كثيراً تصرفات تثير مواطنيهم عليهم وتوقد شعلة الكراهية لهم ، وخاصة حين يدبرون المكايد خفية أو ينشرون

---

(١) انظر « الدعوة إلى الإسلام » لتوماس أرنولد ترجمة د. إبراهيم حسن وزميله فهو يحوى مئات الوقائع والأمثلة على سماحة المسلمين .

الفساد جهرة . . حتى هؤلاء اليهود عاشوا فى المجتمع الإسلامى فى أمن على أنفسهم ومعابدهم وأعراضهم وأموالهم التى لم يتورعوا عن استخدامها فى الربا المحرم عند المسلمين .

وأكتفى هنا بذكر وثيقة تاريخية تبين لنا كيف يعامل الحكم الاسلامى الأقليات ولو كانت يهودية .

وهذه الوثيقة هى نص الفرمان «الظهير» الذى نشره السلطان محمد بن عبد الله سلطان المغرب فى ٥ فبراير سنة ١٨٦٤م .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

نأمر من يقف على كتابنا هذا من سائر خدامنا والقائمين بوظائف أعمالنا أن يعاملوا اليهود الذين بسائر أيالتنا بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم فى الأحكام ، حتى لايلحق أحدهم منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام ، ولاينالهم مكروه ولا اهتضام وألا يعتدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم لا فى أنفسهم ولا فى أموالهم ، وألايستعملوا أهل الحرف منهم إلا عن طيب أنفسهم وعلى شرط توفيتهم بما يستحقونه على عملهم ، لأن الظلم ظلمات يوم القيامة ، ونحن لا نوافق عليه ، لافى حقهم ولا فى حق غيرهم ، ولانرضاه لأن الناس كلهم عندنا فى الحق سواء ، ومن ظلم أحداً منهم أو تعدى عليه فإنا نعاقبه بحول الله ، وهذا الأمر الذى قررناه وأوضحناه وبيناه كان مقرراً ، ومعروفاً محرراً ، ولكن زدنا هذه السطور تقريراً وتأكيداً ووعيداً فى حق من يريد ظلمهم وتشديداً ليزيد اليهود أمنا إلى أمنهم ومن يريد التعدى عليهم خوفاً إلى خوفهم صدر به أمرنا المعتز بالله فى السادس والعشرين من شعبان المبارك عام ١٢٨٠ هـ »[1] .

وكفى بهذه الوثيقة وحدها رداً على الأفاكين الذين يثيرون العجاج ويفتعلون الضجيج ، بغير مسوغ ولا برهان .

ما سر هذه الضجة حول الأقليات ؟

(ز) وليت شعرى إذا كان هذا هو موقف الإسلام الواضح المبين فى شريعته وفى تاريخه ، وهو البر والإقساط والتسامح مع غير المسلمين فما سر هذه الضجة حول « الأقليات» ؟ وما معنى هذا التوجس والقلق الذى يبديه غير

---

(١) تاريخ المغرب فى القرن العشرين تأليف روم لاند وترجمة د . نقولا زيادة نقلا عن كتاب « خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية للأستاذ عبد الله التل ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

المسلمين كلما ذكر الحكم الإسلامى ، وكلما دعا الداعون بضرورة العودة إلى نهج الإسلام وشرع الإسلام ؟

والجواب : إن هذا التوتر لم ينبع من الداخل وإنما جاء من الخارج ، جاء من الغرب الذى شن على المنطقة حملات صليبية وحشية متكررة ولم يرفع يده عنها بعد والعجب أنه شنها باسم المسيح رسول المحبة والسلام والمسيح منها ومن أهلها براء .

ولا زال الغرب يكيد للمنطقة وأهلها متذرعًا إلى ذلك بشتى الذرائع المختلفة ومنها مسألة الأقليات .

إن السياسة التى اتبعها الغرب خلال ثمانية قرون هى استخدام مسألة الأقليات المسيحية فى الشرق لإثارة الفتن والقلاقل التى تخدم أغراضه دائماً ، وذلك بخلق جو من الريبة والعداء الدائم بين المسلمين والمسيحيين . ويصف المؤرخ « لود فيج دى كونتش » هذه السياسة فيقول : « كان الغرب يعمل جاهداً على تأصيل بذور الكراهية والحقد ضد المسلمين فى نفوس المسيحيين يتلقونها خلفاً عن سلف ، ويرضعها الطفل من شعور أمه كما يرضع اللبن من ثديها ، فتسرى فى كيانه مسرى الدم فى عروقه وينشأ على عقيدة تقضى على العلاقة بين المسيحى وبين المسلم إلى الأبد[1] وفى سبيل هذه الغاية الشريرة حاول الغربيون أن يشوهوا تاريخ التسامح الإسلامى الذى لم تعرف الإنسانية له نظيراً ، متذرعين بحوادث جزئية قام بها بعض العوام والرعاع فى بعض البلاد وبعض الأزمان ، نتيجة لظروف خاصة تحدث فى كل بلاد الدنيا إلى يومنا هذا .

من هذه الظروف أن التسامح الإسلامى هيأ للكثير من أهل الذمة مراكز قوية فى النواحى المالية والإدارية فلم يحسنوا معاملة المسلمين بل أظهروا التسلط والتعنت والجبروت .

وفى هذا يقول « متز » وكانت الحركات التى يقصد بها مقاومة النصارى موجهة أولا إلى محاربة تسلط أهل الذمة على المسلمين[2] .

ويقول أيضًا : إن أكثر الفتن التى وقعت بين النصارى والمسلمين بمصر — يعنى فى القرون الأولى — نشأت عن تجبر المتصرفين الأقباط[3] ومن هذه الظروف أن بعض النصارى كانوا يبدون ارتياحًا إذا انتصر النصارى على المسلمين فيؤدى ذلك إلى هياج العوام عليهم .

---

(١) الغرب والشرق — السابق ذكره — ص٩٧.
(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ١٠٦ .
(٣) المصدر نفسه ص ١١٢ .

ولا ننكر إن هناك حكاماً ظلموا أهل الذمة أو تشددوا عليهم ولكن مثل هذا يعتبر شذوذاً عن القاعدة العامة فى التسامح الإسلامى مع غير المسلمين .

وفى الغالب أن هذا النوع من الحكام يظلم المسلمين قبل اليهود والنصارى ، فإن الظالم لا يقف ظلمه عند حد .

بل إن كثيراً من ظُلاَّمِ الحكام كان يرفق بأهل الذمة رعاية لذمتهم على حين يقسو على أهل ملته من المسلمين ويحيف عليهم ، حتّى وجدنا الشيخ الدردير علامة المالكية وشيخ علماء عصره فى مصر يذكر عن أمراء زمانه : أنهم أعزوا أهل الذمة ورفعوهم على المسلمين . حتّى يقول : (وياليت المسلمين عندهم كمعشار أهل الذمة وترى المسلمين كثيراً ما يقولون : ليت الأمراء يضربون علينا الجزية كالنصارى واليهود ويتركونا بعد ذلك كما تركوهم » (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) [١] .

ولكن الرجاء معقود بعقلاء المسيحيين الذين يدركون كيد الغرب ونواياه الشريرة التى لم تتشرب روح المسيحية قط ، حتّى يوم غزت هذا الشرق باسم المسيح ، وتحت عنوان الصليب .

فإن كان المسيحيون وغيرهم من الأقليات يخافون سيادة الإسلام فلا محل لهذا الخوف وقد أمضوا فى ظله قروناً طوالا وإن كان بينهم من يحقدون على الإسلام ويكرهون سيادته فهذا مالا حيلة لنا فيه ونسأل الله أن يطهر قلوبهم وقلوبنا من الضغن والسخيمة .

الإسلام تراث حضارى للمسلمين وغير المسلمين فى دار الاسلام :

(ح) على أن هنا أمراً له أهميته ، ويجب التنبيه عليه . وهو أن الإسلام بالنظر للمسيحيين العرب — بالذات — يعتبر تراثًا قوميًّا وحضاريًّا لها ، فهم وإن لم يؤمنوا به ديناً ، يؤمنون به ثقافة وحضارة يعتزون بها ويفخرون بأمجادها وآثارها .

وهذا ما جعل بعض المنصفين من المسيحيين فى مصر وفى سوريا وغيرها يقول « أنا مسيحى ديناً ، مسلم وطناً وثقافة .

ولا عجب إن رأينا كثيراً من أدباء النصارى يحفظون القرآن كله أو جله باعتباره كتاب العربية الأكبر .

كما كان الوزير المصرى المسيحى الشهير — مكرم عبيد ، وكما حكى عن نفسه الكاتب الأديب الدكتور نظمى لوقا — فى مقدمة كتابه القيِّم « محمد :

---

(١) من الشرح الصغير للدردير المطبوع مع حاشية الصاوى ج ١ ص ٣٦٩ .

الرسالة والرسول » ووجدنا كثيراً من هؤلاء الأدباء يكتبون عن محمد صلى الله عليه وسلم رسول المسلمين مقالات وقصائد جيدة بوصفه عندهم أعظم شخصية عربية .

يقول الشاعر المارونى – رشيد الخورى :

شغلت قلبى بحب المصطفى وغدت
عروبتى مثلى الأعلى وإيمانى

ويقول أمين نخلة :

« الإسلام إسلامان : واحد بالديانة وواحد بالقومية واللغة ومن لا يمت إلى محمد بعصبية ، ولا إلى لغة محمد وقومية محمد فهو ضيف ثقيل علينا غريب الوجه بيننا .

ويا محمد : يميناً بدينى ودين ابن مريم . . إننا فى هذا الحى من العرب نتطلع إليك من شبابيك البيعة ، فعقولنا فى الإنجيل وعيوننا فى القرآن » .

ولا غرو إن وجدنا أيضاً بعض القانونيين المسيحيين يدرسون الفقه الإسلامى ويدافعون عنه ، ويعتبرونه تراثاً تشريعياً للأمة كلها مسلمين وغير مسلمين .

بل وجدنا من زعماء المسيحيين المعدودين من يدعو إلى تبنى النظام الإسلامى فى السياسة والحكم والاقتصاد والاجتماع .

من أقوال فارس الخورى عن الإسلام :

وأبرز مثل لذلك هو الزعيم السورى الشهير فارس بك الخورى ، الذى شغل منصب مندوب سوريا فى هيئة الأمم ، كما شغل منصب رئيس الوزراء مدة من الزمن .

فهذا الأستاذ محمد الفرحانى تلميذه وملازمه وراويته يحكى عنه فيقول :

قال لى فارس الخورى ذات يوم فى مجلسه بحضور عدد من زواره ومن بينهم القسيس البروتستانتى داود مترى :

« أنا مسيحى ولكننى أجاهر بصراحة : أن عندنا النظام الإسلامى ، وبما أن الدول العربية المتحدة « كان ذلك فى عهد الوحدة المصرية السورية واتحادهما مع اليمن » بأكثريتها الساحقة مسلمة ، فليس هناك ما يمنعها من تطبيق المبادىء الإسلامية فى السياسة والحكم والاجتماع » .

« عقيدتى ويقينى أنه لا يمكننا محاربة النظريات الهدامة التى تهدد كلا من المسيحية والإسلام إلا بالإسلام . . . وأن هذا هو الذى يحد من نشاط الشيوعية ويقضى عليها القضاء المبرم لأن حقائقه تهزم أباطيلها وتدمرها [1] .

(١) عن كتاب « فارس الخورى » وأيام لا تنسى » للأستاذ محمد الفرحانى ص ٢٦٧ .

فالإسلام هو الدرع الحصينة ضد الشيوعية ، وهذا ما صرحت به مراراً وتكراراً سواء فى المحافل الدولية أم فى مجالسى الخاصة فلا حيلة للعرب ولا قوة بغير الإسلام . . هذا أمر أنا أومن به . ولقد كنت فى هيئة الأمم المتحدة منسجما كل الانسجام مع وفد الباكستان وغيره من الوفود الإسلامية ، وكان الباكستانيون يدافعون عن قضايانا بأشد من الروح التى يدافعون بها عن قضاياهم .... إنهم يحبون العربى حباً عظيماً بل يقدسونه تقديسا[1] .

ويقول الأستاذ الفرحانى :

قال لى فارس الخورى :

هذا هو إيمانى . أنا مؤمن بالإسلام وبصلاحيته لتنظيم أحوال المجتمع العربى وقوته فى مواجهة كل المبادئ والنظريات الأجنبية مهما بلغ من اعتداد القائمين عليها ، لقد قلت ولا زلت أقول لا يمكن مكافحة الشيوعية . . . والاشتراكية مكافحة جدية إلا بالإسلام ، والإسلام وحده هو القادر على هدمها ودحرها .

ولقد نقلت هذا الكلام فى حينه إلى الأستاذ محمد المبارك عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق فقال لى :

من الغريب حقاً أن يستهان بأمر الإسلام من قبل بعض أبنائه ، ويعمل على إبعاده عن واقع الحياة ، فى حين يقف أعظم مسيحى فى الشرق يجهر بضرورة الأخذ بأحكام الإسلام والعمل بشريعته[2] .

والأعجب من ذلك أننا نراه يؤيد قيام حكومة إسلامية قوية حازمة ، بل دكتاتورية لتضرب بشدة على أيدى مروجى الإلحاد والفساد والانحلال فيقول : « نحن بحاجة إلى حكومة حازمة تؤمن بالإسلام كدين ونظام متكامل ، وتعمل لتطبيقه ، فكما أن الشيوعية تحتاج لدكتاتورية حازمة تشق لها طريق الانتشار والازدهار والثبات فالإسلام أشد حاجة لمثل ذلك .

ومن ذا الذى يرضى ضميره ويطمئن قلبه إلى سلامة أمته وكيان بلده وهو يعلم أن التحلل والفساد منتشران لدرجة يصعب معها صدهما وإيقاف تيارهما! ومن ذا الذى ينكر على المسئولين فيه مكافحة ذلك التحلل ، وذلك الفساد بشريعة هى من تلك الأمة وفيها[3] !

وفى مناسبة أخرى يبين الأستاذ

(١) نفس المصدر ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٦٩ .

الخورى فضل التشريع الجنائى الإسلامى فى تحقيق الأمن والاستقرار للمجتمع ، وللقضاء على الجريمة والمجرمين فيقول : « تذكرون ولاشك عندما تضعون الموازنة العامة للدولة المبالغ الطائلة التى تخصص للأمن العام ، والشرطة والدرك والمحاكم كرواتب ونفقات . . » .

فلو طبق الشرع الإسلامى وقطعت يد فى حلب مثلا . . وجلد آخر فى دير الزور ورجم ثالث فى دمشق ، وكذلك فى بقية المحافظات ، لانقطع دابر هذه الجرائم ولتوفر على الدولة ثلاثة أرباع هذه الموازنة .

واستدرك الأستاذ فارس الخورى يقول :

فى العهد العثمانى كان فى دمشق ثلاث محاكم شرعية وصلحية تنظر فى الدعاوى الجزائية والبدائية وكان قضاة هذه المحاكم ، يقضون أغلب أوقاتهم فى مراكز عملهم بدون عمل . . .فإذا قسنا ذلك الظرف وقارناه بظرفنا الحالى وجدنا أن السبب فى كثرة المحاكم اليوم يعود إلى تدنى الأخلاق ، وانتشار الفساد وعدم الاكتراث بما تفرضه الدولة من عقوبات غير رادعة ، ولا زاجرة لعدم تطبيق التشريع الإسلامى فى الحكم [١] .

ولقد انتبه هذا السياسى الكبير إلى علاقة العرب بالعالم الإسلامى ومالهم من رصيد كبير لدى الشعوب المسلمة ينبغى الحرص عليه والاستزادة منه فكان يقول « إننا نستطيع أن نثير بهذا الإسلام قوى خطيرة جبارة ، ليس فى العالم الإسلامى فحسب ، وإنما فى جميع أقطار الدنيا . فالمسلمون بروابطهم الدينية الوثيقة واتجاههم نحو قبلة واحدة وإيمانهم بكتاب واحد وعملهم بسنة نبى واحد إنما هم يشكلون أمة واحدة متماسكة مفروض فيها أنها تتعاون على البر والتقوى ، والعدل والإحسان ، وإن لم تكن كذلك تختفى عنها صفة الإسلام.. هذه الأمة الإسلامية إذا ما أثيرت بأفرادها العاطفة الدينية بشكل جيد ، وأحسن تسييرها فباستطاعتها أن تغير مجرى التاريخ .

ومما لفته إلى هذا الأمر مالمسه من حماس المندوبين الإسلاميين فى هيئة الأمم للقضايا العربية — كما ذكر ذلك من قبل — كما أنه شهد مرة حفلا أقيم لتكريم رئيس أندونيسيا ورفقائه فلما وصل ضيف الشرف الرئيس الأندونيسى ومن معه من وزراء وسفراء أندونيسيين فوجئ المرحوم فارس بك بأنهم يحدثونه باللغة العربية الفصحى فعجب وسألهم أين تعلموا اللغة العربية ؟ فأجابوه بأنهم

(١) نفس المصدر ص ٢٧٢ .

تعلموها فى أندونيسيا ، حيث تقوم ألوف من المدارس العربية المختصة بتعليم اللغة العربية حيث جعلت اللغة العربية لغة التدريس الأساسية لجميع العلوم .

فأعجب فارس بك جداً بما سمع وخاطب الحاضرين من المدعوين العرب قائلا : ما أعظم رصيد الأمة العربية الثقافى البلاد الإسلامية ، وما أجدرنا ، نحن العرب — المسيحيين منا والمسلمين — أن نعض بالنواجذ على صلاتنا بالأقطار الإسلامية وأن نوثق علاقاتنا بمئات الملايين من سكانها الذين يكنون لنا أصدق مشاعر الحب والولاء فإن لنا بذلك فوائد عظيمـــة ثقافية وسياسية واقتصادية وإن من واجب الأمة العربية أن تعى هذه الحقيقة وتعرف كيف تفيد من هذه الكنوز الثمينة المدخرة لنا فى أقطار العالم الإسلامى .

وبعد هذه النقول الناصعة من زعيم مسيحى منصف لم يبق هناك مجال لمتوجس أو متعنت فقد حصحص الحق ووضح الصبح لذى عينين .

والحمد لله الذى هداىا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

العلم . . والعمل . .

قال عيسى عليه السلام : مثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت فى السر فحملت ، فظهر حملها فافتضحت . فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله يوم القيامة على رءوس الأشهاد . قال مالك رضى الله عنه : إن طلب العلم لحسن ، وإن نشره لحسن ، إذا صحت فيه النية . ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فلا تؤثرن عليه شيئاً . ورد فى الآثار : قال الله لعيسى عليه السلام (يا ابن مريم عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحى منى) : قال الشعبى : يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ما أدخلكم النار ، وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم ؟ فيقولون : إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله ، وننهى عن الشر ونفعله . .

حديث ترتيب براءة مع الأنفال إيضاحه والدفاع عنه

الشيخ على حسن البولاقى

(ا) نص الحديث :

عن ابن عباس قال : « قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطراً بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ ما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يأتى عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد ، وكان إذا أنزل عليه الشىء يدعو بعض من يكتب عنده ، يقول : ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وينزل عليه الآيات فيقول ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وينزل عليه الآية فيقول ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن فكانت قصتها شبيها بقصتها فقُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها وظننت أنها منها ، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطراً بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال » .

(ب) مخرِّجو الحديث ، ودرجته من الصحة :

أخرج هذا الحديث الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى مسنده (حـ ١ ص ٣٢٩ رقم ٣٩٩) ، وأبو داود فى سننه (ج ١ ص ٢٨٧) ، والترمذى فى سننه (ج ٤ ص ١١٣) وقال : « هذا حديث حسن[1] لا نعرفه

(١) قال الشيخ أحمد شاكر « وفى نسخة الترمذى المطبوعة ببولاق ج٣ ص ١٨٢ « حسن صحيح » وزيادة التصحيح خطأ فإن النسخ الصحيحة التى فى شرحه للمباركفورى ليس فيها هذا وكذلك لم يذكر فى مخطوطتنا الصحيحة من الترمذى التى صححها الشيخ عابد السندى محدث المدينة فى القرن الماضى ، وأيضاً لم ينقل المنذرى والسيوطى عن الترمذى إلا تحسينه انظر شرح أبى داود والدر والمنثور ٣ ، ٢٠٧ » .

إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس » ، وأخرجه أيضاً ابن أبي داود في كتاب المصاحف ص ٣١ ، والحاكم في المستدرك (ج ٢ ص ٢٢١ ، ٣٣٠) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (ج ٢ ص ٤٢) ، ونسبه السيوطي في الدر المنثور لابن أبي شيبة والنسائي [1] وابن حبان وغيرهم .

وبهذا يعلم أن أقل درجات هذا الحديث : الحسن ، لأن أبا داود سكت عليه ، وما سكت عليه فهو صالح ، حسنه الترمذي وصححه الحاكم أقره الذهبي على تصحيحه وعلى الرغم من هذا أنكره الشيخ أحمد شاكر وسيأتي كلامه والرد عليه إن شاء الله .

(ح) إيضاح الحديث :

١ — (عن ابن عباس)

أي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وهو من أكثر الصحابة عناية بالقرآن الكريم وما يتعلق به وبالفقه وسائر أمور الدين ، فلما لم يسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا القليل لأنه كان صغير السن ، أكمل علمه بالأخذ عن صحابته الكرام فكان يسأل ويعي ويستنبط ويحدث فلهذا كان حبر الأمة وفقيهها وترجمان القرآن ، قال موسى ابن عبيدة : كان عمر يستشير ابن عباس ويقول : غواص ، وقال سعد : ما رأيت أحضر فهما ولا ألب لبناً ولا أكثر علما ولا أوسع حلماً من ابن عباس ولقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات .

٢ — (قال : قلت لعثمان بن عفان : ما حملكم على أن عمدتهم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما . . . .) إلخ .

لعناية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بالقرآن الكريم وما يتعلق به سأل أمير المؤمنين ذا النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه عن أمر من أخص الأمور التي يحيط عثمان بعلمها أكثر من غيره ، ألا وهو ترتيب سور القرآن الكريم في المصحف ، وكيف لا وعثمان رضي الله عنه هو الذي أمر بجمع القرآن في المصحف ، وألف اللجنة التي قامت بذلك مع إشرافه التام واهتمامه البالغ الذي يليق بشرف هذا العمل ويتناسب مع جلاله وعظم قدره .

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر « ولم أجده فيه » أي لم يجد هذا الحديث في كتاب النسائي ، ولا يلزم من عدم وجدانه فيه أنه لم يخرجه النسائي في سننه الكبرى لأن المجتبى المتداول الآن إنما هو بعض السنن لا كلها .

بيد أن ابن عباس لم يسأل عثمان عن ترتيب شيء من السور سوى براءة حيث سأل عنها لماذا قرنوها بالأنفال، والذى ينظر فى مظان هذا البحث ويرجع إلى أمهات الكتب التى يخطر بالبال أن تفيد القول فيه وتجمع الآثار والأخبار المتعلقة به ككتاب المصاحف لابن أبى داود والبرهان للزركشى والإتقان للسيوطى والجامع الكبير له وتيسير الوصول ومجمع الزوائد والدر المنثور وشروح البخارى وغيرها — أقول إن الذى يرجع إلى هذه المراجع جميعًا لا يعثر بخبر أو أثر يروى عن ابن عباس أو غيره أنه سأل عثمان أو غيره من كاتبى المصحف عن ترتيب سورة من سور القرآن فى المصحف سوى براءة التى سأل ابن عباس عثمان عن القرن بينها وبين الأنفال .

وإذا علمنا أن ترتيب المصحف العثمانى الذى بين أيدينا يخالف ترتيب مصحف ابن مسعود ومصحف أُبَىّ بن كعب ومصحف على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وعلمنا أنه ليس سائرًا حسب الطول فى عدد الحروف أو عدد الكلمات أو عدد الآيات ، وعلمنا بالاستقراء أنه لم ينقل عن عثمان ولا عن غيره من الجامعين أنهم وضعوا سورة كذا بعد سورة كذا أو بين سورة كذا وكذا لأجل كذا وكذا — إذا علمنا ذلك علمنا أن هذا الترتيب فيما عدا براءة كان بتوقيف النبى صلى الله عليه وسلم وأمره ، وإلا فما الذى جعلهم يضعون آل عمران بين البقرة والنساء مع أن النساء أطول منها ويضعون المائدة والأنعام قبل الأعراف مع أنها أطول منها ويخلطون المثانى والمئين بعضها ببعض ؟

لو كان ذلك بالاجتهاد أو بمجرد الهوى لكان موضع أسئلة واستفسارات كثيرة تتوفر الدواعى على نقلها وشيوعها .

ونعود إلى سؤال ابن عباس لعثمان فنقول : إن سأل عن السر الذى دعاه هو ولجنة الجمع إلى أن يقصدوا إلى هاتين السورتين : الأنفال وبراءة ، فيقرنوا بينهما فى المصحف دون أن يكتبوا بينهما سطر البسملة ويضعوا براءة فى السبع الطوال مع أنها من المئين ، والأنفال التى قرنوها بها من المثانى .

وهذا السؤال الذى يتضمن ثلاثة استفسارات يتضمن ثلاثة ألقاب يحسن بنا أن نبينها لتتضح الاستفسارات الثلاثة ، وذلك فيما يلى :

كان النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته رضى الله عنهم يقسمون سور القرآن ماعدا الفاتحة أربعة أقسام :

(الأول) السبع الطوال[1] وهن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، هذه ست ، وقد اختلف فى السابعة فقيل براءة ، وقيل يونس . (الثانى) المئون ، وهى السور التى تزيد كل منها على مائة آية وليست من السبع الطوال ، وهى إحدى عشرة سورة : أولها يونس أو براءة ويليها هود ويوسف والنحل والإسراء والكهف وطه والأنبياء والمؤمنون والشعراء والصافات (الثالث) المثانى ، وهى السور التى تنقص كل منها عن مائة آية ولم تكن من قصار السور المسماة بالمفصل ، وسميت المثانى لأنها تثنى وتكرر فى الصلاة وغيرها أكثر من الطوال . والمئين ، أو لأن القصص تكررت فيها وهى تسع وعشرون سورة : الأنفال والرعد وإبراهيم والحجر ومريم والحج والنور والفرقان والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويس وص والزمر وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف ومحمد والفتح . (الرابع) المفصل وهو قصار السور ، وآخره سورة الناس واختلف فى أوله ، ورجح الإمام النووى أن أوله الحجرات ، فهو فى المصحف العثمانى ست وستون سورة ، وسمى بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة أو لقلة المنسوخ منه لهذا سماه بعض الصحابة بالمحكم .

وبهذا يتضح سؤال ابن عباس رضى الله عنهما فهو يقول إن براءة من المئين لأنها تزيد على مائة آية وليست من السبع الطوال فى نظره ، وإن الأنفال من المثانى لأنها تنقص عن مائة آية وليست من المفصل ، ثم يسأل عثمان رضى الله عنه (أولا) لماذا قرنتم بينهما مع أنهما من صنفين مختلفين ولم تصنعوا كما صنع ابن مسعود حيث قرن الطوال بعضها ببعض ثم المئين ثم المثانى ثم المفصل ويسأله (ثانياً) لماذا لم تكتبوا بينهما سطر البسملة مع أن هذا السطر كتب بين كل سورتين فى القرآن سواهما ؟ ويسأله (ثالثاً) لماذا وضعتم براءة فى السبع الطوال وهى من المئين ؟

ويخطر ببال من يسمع هذه الأسئلة إشكال فإننا إذا قصدنا بالسبع الطوال أطول سور القرآن فالواجب أن تكون براءة منهن وليست من المئين فكيف يقول ابن عباس إنها من المئين ويسأل عثمان عن وضعها فى السبع الطوال .

---

(١) بكسر الطاء ، جمع « طويلة » وتسمى « الطول » بضم الطاء وفتح الواو جمع طولى مؤنث أطول .

والجواب أن من تتبع الأخبار يظهر له أن ابن عباس وعثمان كانا يريان أن سابعة السبع الطوال هي يونس لا براءة ولعل مرجع هذا إلى شهرة يونس بالطول عند تمام نزولها ولم تكن براءة ولا النحل قد أنزلتا ولم تكن هود قد تم إنزال كل آياتها فاستمر إطلاق اسم السبع الطوال على يونس مع الست الأوليات حتى تم إنزال القرآن كله فكانت هود والنحل وبراءة كلها من المثين الرغم من أن الأوليين أطول من يونس والأخيرة أطول من الجميع .

٣ — (قال عثمان : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مما يأتى عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد . .)

هذا جواب عثمان رضى الله عنه عن الأسئلة الثلاثة ، وقوله « مما يأتى ... إلخ معناه « ربما يأتى عليه الزمان الطويل . . . . » قال الحافظ بن حجر العسقلانى فى فتح البارى ج١ ص ٢٤ فى بدء الوحى « إن (من) إذا وقع بعدها (ما) كانت بمعنى (ربما) وهى تطلق على القليل والكثير ، وفى كلام سيبويه مواضع من هذا ، منها قوله : اعلم أنه مما يحذفون كذا ، ومن حديث البراء : كنا إذا صلينا خلف النبى صلى الله عليه وسلم مما نحب أن نكون عن يمينه ، ومنه حديث سمرة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الصبح مما يقول لأصحابه من رأى منكم رؤيا . . .» انتهى ما قاله الحافظ ويؤخذ منه أن المعنى هنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ربما يأتى عليه الزمان تنزل عليه أشياء أو أبعاض من السور ذوات العدد الكثير التى أنزلت صدورها قبل ذلك ، وهذه الأشياء أو الأبعاض تارة تكون بعض آية وتارة تكون آية كاملة وتارة تكون آيات ، وقد فصل ذلك فقال :

٤ — (وكان إذا أنزل عليه الشىء يدعو بعض من يكتب عنده يقول ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا وينزل عليه الآيات فيقول ضعوا هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وينزل عليه الآية فيقول ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا) .

يعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أنزل عليه بعض آية أو آية كاملة أو آيات من سور كانت أوائلها منزلة قبل ذلك — يدعو بعض من يكتبون كزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان

وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب فيقول لهم ضعوا هذا الشيء الذى هو بعض آية أو هذه الآية أو هذه الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا كأن يقول السورة التى يذكر فيها (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) أو السورة التى يذكر فيها (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران) أو السورة التى يذكر فيها (وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً) وهذه الكناية عن السورة قبل اشتهارها باسم مفرد أو مضاف ، وفى هذا الكلام إيجاز لأنه لا يكفى ذكر السورة إذ لا بد من بيان الموضع فمثلا قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) هذا بعض آية من سورة المائدة فلا يكفى أن يقول لهم ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها (أوفوا بالعقود) بل يقول ضعوه بعد قوله تعالى (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون) وبهذا يعلم أن ترتيب الآيات فى سورها توقيفى وهذه حقيقة لا شبهة فيها دل عليها الإجماع والنصوص المترادفة وممن حكى هذا الإجماع الزركشى فى البرهان وأبو جعفر ابن الزبير فى المناسبات والسيوطى فى النوع الثامن عشر من الإتقان والألوسى فى الفائدة السادسة من مقدمة تفسيره روح المعانى .

وإذا عرفنا أن المراد بالشيء بعض الآية فهو يشمل البسملة على القول بأنها مع ما بعدها آية فإن كانت آية كاملة شملها قوله « وينزل عليه الآية » فالكاتبون لا يثبتون البسملة إلا بأمر النبى صلى الله عليه وسلم لهم بكتابتها فلما لم يأمرهم بكتابتها قبل براءة لم يكتبوها وهذا من أعظم الأدلة على أنهم لا يكتبون شيئاً من تلقاء أنفسهم .

٥ — (وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن فكانت قصتها شبيهاً[1] بقصتها فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها وظننت أنها منها) .

يعنى أن الأنفال مع بسملتها كانت من أوائل السور التى نزلت بالمدينة وبراءة بدون بسملة كانت من آخر القرآن نزولاً ولم يقل النبى صلى الله عليه وسلم للكاتبين ضعوا هذه الآيات المبدوءة ببراءة فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا فلم يبين أنها من الأنفال أو من غيرها

---

(١) هكذا فى المسند بصيغة التذكير فهى مثل قوله تعالى (إن رحمت الله قريب من المحسنين) وقوله تعالى (وجبريل والملائكة بعد ذلك ظهير) .

أو أنها سورة مستقلة هذا السكوت من جانب النبى صلى الله عليه سلم يؤدى إلى الظن بل القطع بأنها مستقلة لجريان عادته صلى الله عليه وسلم فى الأبعاض التى تنزل متأخرة عن سورها أنه يأمر بكتابتها فى موضع كذا من سورة كذا، فإذا لم يأمر بذلك كانت سورة مستقلة، هذا الكلام من عثمان رضى الله عنه إقرار بما قاله ابن عباس رضى الله عنهما من أنهما سورتان إحداهما من المثانى الأخرى من المئين غير أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يبين أين موضعها فكان ذلك محلاً لا للاجتهاد فى معرفة موضعها فلما كانت قصتها شبيهاً بقصة الأنفال كانت جديرة بأن توضع عقبها .

ووجه الشبه أن الأنفال احتوت على بيان غزوة بدر ومعاملة النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين للمشركين قبل الحرب وفى أثنائها وبعدها وتقسيم الغنائم ومقاتلة من نبذوا العهود والتعريف بأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض والمشركين بعضهم أولياء بعض وفيها الإشارة إلى سبب الهجرة النبوية، وبراءة احتوت على معاملة النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين للمشركين الذين نبذوا عهودهم والذين ينبذوها والإشارة إلى غزوة حنين وإلى بيان حال المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين والمؤمنين والإشارة إلى الهجرة أيضاً وتقسيم الصدقات ، فالسورتان تتحدثان عن معاملة المشركين قبل فتح مكة وبعد فتحها فكانتا جديرتين بالاقتران وسكوت ابن عباس وغيره عن سؤال عثمان وغيره عن ترتيب سور القرآن سوى براءة دليل على أن كل سورة قد وضعت فى مكانها بتوقيف من النبى صلى الله عليه وسلم وإلا فلماذا لم يسألوا عن وضع سور من المثانى بين المئين وسور من المئين بين المثانى .

وقول عثمان رضى الله عنه : « وظننت أنها منها» معناه أنه ظن أنها قرينتها التى تجتمع معها فى مكان واحد وليس معناه أنها جزء منها لأنه يناقض تصريحه بالمغايرة بينهما حيث قال « وكانت الأنفال . . . » إلخ كما يناقض قوله « فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أنها منها » فإن عدم البيان لكونها منها يقتضى أنها ليست جزءاً منها بل مستقلة وقد يكون قول عثمان : « ولم يبين لنا أنها منها معناه ولم يبين لنا أنها قرينتها التى تتبعها ترتيباً وكلمة « من » تحتمل هذا المعنى كما فى قوله تعالى : (فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى) وقوله صلى الله عليه وسلم عن

الأشعريين الذين كانوا يجمعون طعامهم ويقتسمونه بالسوية « فهم منى وأنا منهم » فهذه الكلمة لبيان القرب والاتصال لا الجزئية .

٦ — (فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطراً بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطوال) .

أى : فمن أجل ذلك صنعت هذه الأمور الثلاثة :

الأمر الأول أنى قرنت بينهما فجعلت براءة تلى الأنفال فى الترتيب لأن قصتها تشبه قصتها وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا بياناً صريحاً أنها تليها فى الترتيب فكانت المناسبة مؤدية إلى الظن بأنها تليها فى الترتيب .

الأمر الثانى أنى لم أكتب بينهما سطراً بسم الله الرحمن الرحيم لأن براءة أنزلت هكذا ولا أثبت شيئاً من تلقاء نفسى ، فما أثبته رسول الله صلى الله عليه وسلم أثبتناه وما تركه تركناه .

الأمر الثالث أنى جعلت براءة فى السبع الطوال لأنها لما جعلت عقب الأنفال وكانت الأنفال عقب الأعراف بالتوقيف لزم أن تكون فى السبع الطوال لأنها مسبوقة بالأعراف وسابقة على يونس التى كانت معدودة من السبع الطوال قبل نزول براءة .

وهاهنا ملاحظتان مهمتان :

الملاحظة الأولى أن القرن بين السورتين مع العلم بأنهما سورتان لابد أن يصحبه تمييز بأن يكون بين آخر الأنفال وأول براءة فراغ أكبر من الفراغ المعتاد بين كل سطرين ، أو نحو ذلك مما يحس الناظر به أنهما سورتان لا سورة واحدة .

الملاحظة الثانية أن قول عثمان رضى الله عنه « وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن » يتضمن الاعتراف بأنهما سورتان مع العلم بأن أولاهما مبدوءة بالبسملة وثانيتهما غير مبدوءة بها فتكون العلة فى عدم كتابتها هى أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بها ، وهنا يخطر بالبال سؤال عن الحكمة فى عدم بدئها بالبسملة ، وقد اختلف الباحثون فى هذه الحكمة فمنهم من قال إن الحكمة هى مراعاة القول بأنهما سورة واحدة وهذه الحكمة لا تصلح بياناً لعدم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بها ومنهم من قال إن الحكمة هى أن هناك آيات سابقة على كلمة براءة فنسخت تلاوتها ونسخت معها البسملة التى قبلها وهذه الحكمة تخمين ولا يليق أن تنسخ تلاوة البسملة لنسخ

الآيات التى بينها وبين كلمة براءة ، ومنهم من قال بأن البسملة أمان وبراءة نزلت بالسيف فقد روى أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما عن على كرم الله وجهه أنه قال « إن البسملة أمان وبراءة نزلت بالسيف » .

فإن قيل إن البسملة موجودة فى أول سورة ويل للمطففين وسورة ويل لكل همزة وسورة تبت يدا أبى لهب .

قلنا إن سورة براءة لا تشبهها سورة من هذه السور فإنها ما تركت أحداً . — كما قال حذيفة — إلا نالت منه ، أما المنافقون والكافرون فظاهر ، وأما المؤمنون ففى قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان) — إلى قوله : (والله لا يهدى القوم الفاسقين) وهو من أشد ما يخاطب به المخالف فكيف بالموافق ؟

• • •

(د) طعن الشيخ أحمد شاكر على هذا الحديث :

قال القاضى الفاضل الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : فى إسناد هذا الحديث نظر كثير ، بل عندى ضعيف جداً بل هو حديث لا أصل له يدور إسناده فى كل رواياته على « يزيد الفارسى » الذى رواه عن ابن عباس ، تفرد به عنه عوف ابن أبى جميلة الأعرابى ، وهو ثقة ، . . . ويزيد الفارسى هذا اختلف فيه أهو يزيد بن هرمز أم غيره ؟ قال البخارى فى التاريخ الكبير جـ ٢/٤/٣٦٧ « قال لى على : قال عبد الرحمن : يزيد الفارسى هو ابن هرمز قال فذكرته ليحيى فلم يعرفه قال وكان يكون مع الأمراء ، وفى التهذيب جـ ١١/٩/٣٦ قال ابن أبى حاتم اختلفوا هل هو ابن هرمز — يعنى يزيد الفارسى — أو غيره فقال ابن مهدى وأحمد هو ابن هرمز وأنكر يحيى بن سعيد القطان أن يكونا واحداً وسمعت أبى يقول يزيد بن هرمز هذا ليس بيزيد الفارسى ، هو سواه » وذكره البخارى أيضاً فى كتاب الضعفاء الصغير ٣٧ وقال نحواً من قوله فى التاريخ الكبير .

فهذا يزيد الفارسى الذى انفرد برواية هذا الحديث يكاد يكون مجهولاً حتى شبه على مثل ابن مهدى وأحمد والبخارى أن يكون هو ابن هرمز أو غيره ويذكره البخارى فى الضعفاء . فلا يقبل منه مثل هذا الحديث ينفرد به ، وفيه تشكيك فى معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعى قراءة وسماعاً وكتابة فى المصاحف

وفيه تشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه وحاشاه من ذلك ، فلا علينا إذا قلنا إنه حديث لا أصل له تطبيقاً للقواعد الصحيحة التى لا خلاف فيها بين أئمة الحديث . قال السيوطى فى تدريب الراوى ٩٩ فى الكلام على أمارات الحديث الموضوع أن يكون منافياً لدلالة الكتاب القطعية أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعى . وقال الحافظ بن حجر فى شرح النخبة « ومنها ما يؤخذ من حال المروى كأن يكون مناقضاً لنص القرآن أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعى » وقال الخطيب فى كتاب الكفاية ص ٤٣٢ « ولا يقبل خبر الواحد فى منافاة حكم العقل وحكم القرآن الثابت المحكم والسنة المعلومة والفعل الجارى مجرى السنة وكل دليل مقطوع به» وكثيراً ما يضعف أئمة الحديث راويا لانفراده برواية حديث منكر يخالف المعلوم من الدين بالضرورة أو يخالف المشهور من الروايات فأولى أن نضعف يزيد الفارسى هذا بروايته هذا الحديث منفرداً به ، إلى أن البخارى ذكره فى الضعفاء وينقل عن يحيى القطان أنه كان يكون مع الأمراء ثم بعد كتابة ما تقدم وجدت الحافظ ابن كثير نقل هذا الحديث فى التفسير ج ٤–١٠٦–١٠٧ وفى كتاب فضائل القرآن المطبوع فى آخر التفسير ١٧–١٨ ووجدت أستاذنا العلامة السيد محمد رشيد رضا رحمه الله علق عليه فى الموضعين فقال فى الموضع الأول بعد الكلام على يزيد الفارسى : فلا يصح أن يكون ما انفرد به معتبراً فى ترتيب القرآن الذى يطلب فيه التواتر ، وقال فى الموضع الثانى فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التى انفرد بها مما يؤخذ به فى ترتيب القرآن المتواتر ، وهذا يكاد يوافق ما ذهبنا إليه فلا عبرة بعد هذا كله فى هـــذا الموضع بتحسين الترمذى ولا بتصحيح الحاكم ولا بموافقة الذهبى وإنما العبرة للحجة والدليل والحمد لله على التوفيق .

انتهى ما قاله الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى تعليقه على هذا الحديث .

(هـ) الرد على هذا الطعن :

أقول إن هذا الطعن تضمن أمرين : أحدهما الطعن فى يزيد الفارسى الذى انفرد برواية هذا الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وثانيهما الطعن فى نفس الحديث بادعاء أن فيه تشكيكاً فى معرفة سور القرآن والطعنان غير مقبولين وإليك البيان :

١ – لقد كفانا الشيخ أحمد شاكر رحمه الله مؤنة الرد على طعنه فى يزيد الفارسى حيث نقل ما قاله فيه الناقدون وخلاصة ذلك : أن الإمام أحمد بن حنبل والإمام عبد الرحمن بن مهدى قالا : هو يزيد بن هرمز ، ومعلوم أن يزيد بن هرمز ثقة ، فقد وثقه ابن معين وأبو زرعة وابن سعد كما فى التهذيب ، وخالفهما الإمام يحيى بن سعيد القطان والإمام أبو حاتم فقالا : إنه غير ابن هرمز وزاد يحيى أنه كان يكون مع الأمراء ومقتضى هذا أنه مجهول ، ولا شك أن الذى اختلف فيه هكذا لا يعتبر ضعيفاً بمجرد هذا الاختلاف بل تجب الموازنة بين ما قيل فيه من الجانبين وترجيح أحدهما . ولا شك أن عبد الرحمن بن مهدى أثبت من يحيى القطان كما قال أبو حاتم ، وهو أيضاً أثبت من أبى حاتم ، فقد قال على بن المدينى : إنه أعلم الناس بالحديث ، فإذا انضم إليه الإمام أحمد بن حنبل كان قولهما بأنه ابن هرمز أرجح من قول يحيى وأبى حاتم إنه ليس إياه ، فقول الشيخ أحمد شاكر « إن يزيد الفارسى هذا يكاد يكون مجهولا حتى شبه على مثل ابن مهدى وأحمد والبخارى أن يكون هو ابن هرمز أو غيره ويذكره البخارى فى الضعفاء . . . . إلخ » يجاب عنه بأنه لا يكاد يكون مجهولاً ولم يشبه على ابن مهدى وأحمد فإنهما جزما بأنه ابن هرمز ولم يشبه على البخارى أيضاً فإنه نقل قول عبد الرحمن بن مهدى وقول يحيى القطان ومعلوم أن الأول أرجح من الثانى ، ثم إن البخارى ذكره فى كتاب الضعفاء ولم يذكر أنه من الضعفاء ، بل نقل كلام ابن مهدى ويحيى القطان ولا يلزم من ذلك أن يكون ضعيفاً وقول يحيى : إنه كان يكون مع الأمراء ليس طعنا قادحاً خصوصاً إذا قوبل بكلام أحمد وابن مهدى .

هذا : إلى أن سكوت أبى داود : على الحديث وتحسين الترمذى له وتصحيح الحاكم وموافقة الذهبى ونقل الحافظ بن كثير لهذا الحديث فى تفسيره ساكتا عليه ونقل الزركشى والسيوطى وغيرهما لهذا الحديث مع القول بمقتضاه – كل هذا توثيق ليزيد الفارسى ، فمن الجرأة التى لا تحمد أن يقول الشيخ أحمد شاكر رحمه الله « فلا عبرة بتحسين الترمذى ولا بتصحيح الحاكم ولا بموافقة الذهبى وإنما العبرة للحجة والدليل » وستعلم أنه لا حجة ولا دليل فى مقابلة كلام هؤلاء الأئمة .

٢ ــ وأما طعنه فى متن الحديث فهو طعن فى غير مطعن .

فقوله « فيه تشكيك فى معرفة سور القرآن الثابتة بالتواتر القطعى قراءة وسماعاً وكتابة فى المصاحف » يجاب عنه بأنه لا تشكيك ، فابن عباس وعثمان لم يختلفا فى أن الأنفال وبراءة سورتان ، كما أوضحناه ، وعلى فرض اختلافهما فمعرفة كون السور مائة وأربع عشرة سورة وليست مائة وثلاث عشرة سورة ليس متواتراً لأن كون الأنفال وبراءة سورتين أو سورة واحدة هو محل خلاف وإن كان الصحيح أنهما سورتان.

وفى الإتقان فى النوع التاسع عشر ج ١ ص ٨١ « أما سوره فمائة وأربع عشرة سورة بإجماع من يعتد به ، وقيل وثلاث عشرة بجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة ، أخرج أبو الشيخ عن أبى روق قال : الأنفال وبراءة سورة واحدة ، وأخرج عن أبى رجاء قال : سألت الحسن عن الأنفال وبراءة سورتان أم سورة ؟ قال : سورتان ونقل مثل قول أبى روق عن مجاهد وأخرجه ابن أبى حاتم عن سفيان ، وأخرج ابن أشتة عن ابن لهيعة قال : يقولون إن (براءة) من (يسألونك)[1] وإنما لم تكتب فى (براءة) بسم الله الرحمن الرحيم ، لأنها من (يسألونك) وشبهتهم اشتباه الطرفين وعدم البسملة ، ويرده تسمية النبى صلى الله عليه وسلم كلا منهما » ا هـ .

وقوله « وفيه تشكيك فى إثبات البسملة فى أوائل السور كأن عثمان كان يثبتها برأيه وينفيها برأيه ، وحاشاه من ذلك » يجاب عنه : بأنه لا تشكيك ، فإن عثمان قد بين أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أنزل عليه الشىء ، أو الآيات ، أو الآية أمر بوضعها فى مكانها من سورة كذا ، وكلامه هذا يشمل البسملة فقوله فى آخر الحديث : فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطراً بسم الله الرحمن الرحيم ــ معناه : أنه لم يكتب بسم الله الرحمن الرحيم لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك كما أوضحناه ، ففى الحديث فائدة من أعظم الفوائد وهى التعريف بأمانة الصحابة وأنهم فى القرآن وكتابته متوقفون على ما وقفهم عليه النبى عليه الصلاة والسلام لا يحيدون عنه قيد شعرة ، وإنما اجتهد عثمان والصحابة فى شىء واحد وهو ترتيب سورة براءة فى المصحف وهى سورة واحدة من مائة وأربع عشرة سورة علموا ترتيبها

(١) أى الأنفال ، لأن أولها « يسألونك عن الأنفال » .

بالتوقيف ، وهذا أمر يسير جداً ، فإن ترتيب السور لا يطلب فيه التواتر وإنما التواتر مطلوب فى ترتيب الآيات فى سورها ، وكيف يقال إن ترتيب السور مطلوب فيه التواتر مع العلم بأن الأئمة الأجلاء قد اختلفوا فيه ، فمنهم من قال : إنه توقيفى ومنهم من قال : إنه بالاجتهاد ومنهم من قال : إنه كله توقيفى ماعدا ترتيب براءة مع الأنفال ، فهو بالاجتهاد أخذاً من هذا الحديث (انظر النوع الثامن عشر من كتاب الإتقان فى علوم القرآن ج١ ص ٧٥ — ٨٠) على أن هذا الخلاف لفظى كما قال بعض المحققين فإن النبى صلى الله عليه وسلم قد يوقفهم على الترتيب صراحة وقد يرمز إليه ليجتهدوا ، فيؤديهم اجتهادهم إلى معرفته فالقائلون بأن الترتيب توقيفى يعنون أن النبى صلى الله عليه وسلم وقفهم عليه إما بالتصريح وإما بالرمز ، والقائلون بأنه اجتهادى لا يريدون أنه كله اجتهادى بل يريدون أن بعضا منه اجتهادى وهذا لا ينافى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد وقفهم على كثير منه بالتصريح وعلى بعضه بالرمز ، والقائلون بأنه كله توقيفى ماعدا ترتيب براءة يعنون أنه لم يوقفهم على ترتيب براءة بالتصريح ، وهذا لا ينافى أنه وقفهم على ذلك بالرمز حتى إذا اجتهدوا وقفوا على الصواب بدون عناء

وفى إيضاحنا لهذا الحديث بيّنّا أن قول عثمان « وظننت أنها منها » معناه وظننت بناء على المشابهة — أنها قرينتها التى تكتب عقبها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم رمز إليهم أن يضعوا سورة براءة عقب السورة التى قصتها تشبه قصتها ، فلم يحتاجوا إلى كبير عناء فى ذلك . وبهذا سقط ما أطال به الشيخ أحمد شاكر رحمه الله ، كما سقط ما نقله عن السيد رشيد رضا رحمه الله .

(و) استشكال الألوسى وجوابه :

قال العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى رحمه الله فى مقدمة كتابه روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ج ١ ص٢٦ : « والذى ينشرح له صدر هذا الفقير ، هو ما انشرحت له صدور الجمع الغفير ، من أن ما بين اللوحين الآن موافق لما فى اللوح من القرآن وحاشا أن يهمل صلى الله عليه وسلم أمر القرآن وهو نور نبوته وبرهان شريعته فلابد إما من التصريح بمواضع الآى والسور وإما من الرمز إليهم بذلك وإجماع الصحابة فى المآل على هذا الترتيب ، وعدولهم عما كان أولا من بعضهم على غيره من الأساليب ، وهم الذين لا تلين قناتهم

لباطل ، ولا يصدهم عن اتباع الحق لوم لائم ولا قول قائل – أقوى دليل على أنهم وجدوا ما أفادهم علما ، ولم يدع عندهم خيالاً ولا وهما ، وعثمان رضى الله عنه وإن لم يقف على ما يفيده القطع فى براءة والأنفال وفعل ما فعل بناء على ظنه ، إلا أن غيره وقف وقبل ما فعله ولم يتوقف ، وكم لعمر رضى الله تعالى عنه موافقات لربه أدى إليها ظنه فليكن لعثمان هذه الموافقة التى ظفر غيره بتحقيقها من النصوص أو الرموز فسكت ، على أن ذلك كان قبل ما فعل عثمان التحقيق ولكن لما رفعت الأقلام وجفت الصحف واجتمعت الكلمة فى أيامه واقتدت المسلمون فى سائر الآفاق بإمامه ، نسب ذلك إليه ، وقصر من دونهم عليه والسؤال منه وجوابه ليسا قطعيين فى الدلالة على الاستقلال ، لجواز أن يكون السؤال للاستخبار عن سر عدم المخالفة ، والجواب لإبدائه على ما خطر فى البال ،

وبالجملة بعد إجماع الأمة على هذا المصحف لا ينبغى أن يصاخ إلى آحاد الأخبار ولا يشرأبُّ إلى تطلع غرائب الآثار ، فافهم ذاك ، والله سبحانه وتعالى يتولى هداك » اه

أقول خلاصة جوابه : أن غير عثمان وقف على ما لم يقف عليه عثمان ، وأن اجتهاده وافق ما وقفوا عليه ، وهذا بعيد جداً ، فعثمان رضى الله عنه قد ألف لكتابة المصحف لجنة من أربعة وفيهم زيد بن ثابت الذى اختاره أبوبكر رضى الله عنه لجمع القرآن فى الصحف خوف ذهابه بذهاب حملته وهو وعثمان من كتاب الوحى ، ولم يكن الجامعون مستبدين ولا مختفين ، بل كانوا ظاهرين وكان سائر الصحابة يعلمون ما يفعلون ، وقد قال على كرم الله وجهه : لا تقولوا فى عثمان إلا خيراً ، فوالله ما فعل ما فعل فى المصاحف إلا عن ملأ منا وتشاور ، فكيف يقال إنه لم يقف على ما وقف عليه غيره فاجتهد وأداه اجتهاده إلى الظن فوضع براءة عقب الأنفال ، بناء على هذا الظن ؟ فالتحقيق أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يوقف الصحابة على ترتيب براءة توقيفاً صريحاً ، ولكنه رمز إلى ذلك رمزاً يحتاج إلى الاجتهاد فاجتهد هو واللجنة التى ألفها ، فأداهم اجتهادهم إلى الظن ولم يختلفوا ولم يخالفهم أحد من الأمة فصار هذا الظن يقينا بعد ذلك وكان موافقاً للحق ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجتمع أمتى على خطأ » .

* * *

وبعد فقد تبين لك أن الحديث صالح

مقبول لا إشكال فيه ، وقد أفادنا فائدتين عظيمتين :

الأولى : أن ترتيب الآيات فى سورها توقيفى .

الثانية : أن الصحابة قد بلغوا من الأمانة والدقة فيما يتعلق بالقرآن : أنهم لم يستسيغوا أن يكتبوا قبل براءة بسم الله الرحمن الرحيم قياساً على كتابتها قبل مائة وثلاث عشرة سورة ، بل وقفوا على ما وقفهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرنوا أول براءة بآخر الأنفال ، مع علمهم بأنها سورة مستقلة ، واحترمت الأمة صنيعهم هذا ، فلم يخطر ببال فريق منها أن يجرؤ فيكتبها عملاً بالقياس ، كما لم يجرءوا أن يكتبوا المصاحف على غير الرسم العثمانى مع صياح الصائحين الذين لا يدرون العواقب ، ومناداتهم بكتابة المصاحف على الرسم الإملائى الذى يكتبون به ما سوى المصحف من كتابات دينية ودنيوية ! ؟

و « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ٧ : ٤٣ » .

على البولاقى

حكم

أول العلم الصمت ، ثم الاستماع ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم نشره . قيل : علم علمك من يجهل ، وتعلم ممن يعلم ما تجهل ، فإنك إذا فعلت علمت ما جهلت وحفظت ما علمت .

قال معاذ بن جبل : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، وهو الأنيس فى الوحدة ، والصاحب فى الخلوة ، والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والقريب عند الغرباء . وقال ابن المبارك : عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة . وقال أبو الدرداء : العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، وسائر الناس همج لا خير فيهم ! ؟

بين الموالاة والمعاداة

(٢)

من أشكال الموالاة وآثارها

الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة

تحدثنا فى مقالنا السابق[1] عن موقف الباطل وأهله من الحق وأهله ، وكيف يستتبع ذلك تلقائياً قيام قاعدة عامة فى الموالاة والمعاداة يتبين لنا منها أنهما وجهان لشىء واحد، ذلك أن موالاة الحق تستتبع عداوة الباطل ، كما أن موالاة الباطل تعنى تماماً معاداة الحق .

وقبل أن نمضى اليوم لنتبين ما ينبغى أن يتحرز منه أهل عقيدة التوحيد من أشكال الموالاة لأهل الكفر والباطل ينبغى أن نبين – منعا للبس ، ودرءاً للشبهات – أن قاعدة الموالاة والمعاداة الإسلامية لا تمنعنا من أن نعامل بالحسنى من يحسن معاملتنا منهم ، ما دامت المعاملة على مقتضى القـــواعد والنظم المعتبرة ، والمتفق عليها بيننا وبينهم ، بحيث لا يكون فيها مساس بالإسلام ، ولا بأوطان المسلمين وحقوقهم ومصالحهم ، وبحيث لا تتعارض مع القواعد والنظم التى أقرها الإسلام ، ونظم بها مختلف العلاقات بين المسلمين وغيرهم من سائر الأديان ، فعدم موالاتهم ، لا يعنى العدوان عليهم ، ولا إساءة معاملتهم ، ما داموا يرعون حقوقنا ، ولا ينتهكون حرماتنا . كما أن شعورنا بعداوتهم لنا لا يخرجنا عن حدود العدل والإحسان ما لم تخرج عداوتهم إلى حيز العدوان .

قال ابن كثير رحمه الله فى تفسيره :

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن عمه ، أخبرنى حسن بن محمد بن على ، أخبرنى عبد الله بن أبى رافع .

وقال مرة : إن عبيد الله بن أبى رافع أخبره أنه سمع عليا رضى الله عنه يقول :

---

(١) الذى نشر فى العدد الثامن [عن شهرى : شوال ، والقعدة ١٣٩٧ هـ] من مجلة الأزهر ، صفحة ١٦٦٣ – ١٦٨٣ منها .

بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا والزبير والمقداد ، فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقنا تعادى بنا خيلنا ، حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجى الكتاب ؟ قالت : ما معى كتاب !

قلنا :

لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ؟

قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها ، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله صلى الله صلى عليه وسلم ، فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا حاطب ، ما هذا ؟

قال : لا تعجل على ، إنى كنت امرءاً ملصقا فى قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قربات يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دينى ، ولا رضًا با لكفر بعد الإسلام .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه صدقكم .

فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك؛ لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

قال : وزاد البخارى فى كتاب المغازى : فأنزل الله السورة : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) اهـ.

ولولا سابقة حاطب رضى الله عنه ، وما تأوله هنا من أعذار قبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكان للرسول وللمسلمين معه موقف آخر .

من أجل هذه المواقف ، وما يجر إليها ، وما ينجم عنها ، نزلت الآيات الكثيرة التى ذكرنا بعضها فيما سبق ، تمنع منعاً تامًّا ، وتنهى نهيا شديداً عن موالاة الكافرين ، وعن كل ما يؤدى إليها على أى صورة من الصور ، مهما تبدو هذه الصورة فى أعيننا صغيرة ، ومنها :

الإعجاب بما يملكون من زينة الدنيا :

إن مد العين إلى ما آتاهم الله من زينة الدنيا ، والنظر إليهم نظرة الإعجاب بزينتهم ومتاعهم ، وما يبعثه ذلك من شعور بالرغبة فى اقتناء ما يقتنون أو مثله والمقارنة بينه وبين حال المسلمين ، وقد

تكون حال المسلمين عندئذ رقيقة ضعيفة ، والأيام دول ، وليس من الضرورى ، ولا هو من سنة الله فى خلقه أن يظل الغنى والقوة والسيطرة الدنيوية والمادية فى جانب واحد كجانب المسلمين مثلا .

وما يشعر به المسلم الذى يمد عينيه إلى زينتهم ، عندما يقارنها بضعف حال المسلمين وفقرهم ، وما يثيره ذلك فى نفسه من إكبار لهم وإزراء على أهل دينه ، هذه المشاعر وأمثالها قد تنفعل بها نفس المسلم عندما يمد عينيه إلى ما متّع الله به أعداءه ، ولا يؤمن أن تفعل هذه المشاعر فعلها فى نفسه ، فتزرع فيها بذور الطمع والحقد ، أو بذور الشك والريبة ، أو بذور اليأس والقنوط ، وما تزال به حتّى تخلعه عن دينه جملة من حيث لا يشعر .

ولقد حذر الله سبحانه المسلمين من ذلك وحسم أصل هذه المشاعر ، مبيناً أن أعراض هذه الدنيا كلها لا قيمة لها عند الله ولا مقدار ، ولا يصح أن يكون لها عند المسلم أدنى اعتبار ، حتّى وهو يسعى لتحصيلها ، لأنه إنما يسعى لتحصيلها امتثالا لأمر الله ، فى اصطناع القوة ، واتخاذها وسيلة لتحقيق أهدافه العليا من إعلاء كلمة الله ، وإرهاب أعدائه ، أما هى فى ذاتها ، فإن الله يعطيها لمن يريد (وكل شىء عنده بمقدار) (الرعد٨) (كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) (الإسراء ٢٠) وهو تعالى يقول (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) (الزخرف ٣٣ : ٣٥) .

ولقد جرت سنة الله بأن يمدهم بهذا المتاع فتنة لهم ، وإرخاء لهم فى العنان ، (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) (المؤمنون ٥٥ : ٥٦) ، فهى فى يد الكافر نقمة من حيث يحسبها نعمة ، والمسلم لا يغتّر بها ، إنه قد حظى بأصل النعم ، وهو الإسلام ، فما عداه بعد ذلك إن حصلناه فبه ونعمت والحمد لله وإن صرفه الله عنا إلى غيرنا ، لم ننظر إليه بعين الحسرة والندم (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) (طه ١٣٠) بل ينبغى أن

نشعر بالإشفاق فيما بيننا كمؤمنين ، وأن نبذل الجهد فى التعاون (ولا تمدن عينيك لى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين) (الحجر ٨٨) .

ولعل المسلمين يعانون الآن أشد المعاناة من مثل هذه الصورة ، فحالة المسلمين الآن من ضعف القوة ، وقلة ذات اليد ، وما هم فيه من حصار معنوى ومادى يشمل كافة نواحى الحياة فى مقابل ما يتمتع به أعداؤهم من قوة عسكرية رهيبة ، وغنى مادى فاحش ، وسلطان غاشم يطبق على أطراف المعمورة ، ويعيث فى داخل بلادهم عسفاً وقهراً وطغياناً ، هذه الحالة قد أغرت ضعاف الإيمان وضعاف النفوس ، فبهرتهم بما عند أعدائهم ، وأزرت فى أنفسهم بما عند قومهم ، فهم فى كل حركة وسكنة يظهرون إعجابهم بأعدائهم ، وبما فى أيديهم من زخرف هذه الحياة ، ويعزون ذلك ، جهلا وعمى ، إلى ما قد يكون عندهم من فكر وثقافة وفلسفة ، ويتشدقون بتخلف قومهم ، وهبوط مستواهم ، وضعف قوتهم ، ويعزون ذلك ضعفاً واستخذاء ، إلى تقاليدهم ، وتراثهم وأصولهم ، فالتبس عليهم الحق بالباطل ، ولم يستطيعوا التمييز بين ما هو غاية وما هو وسيلة .

فلاهم أعانوا قومهم على النهوض !
ولا هم كفوا عنهم أذاهم وتثبيطهم !
ولاهم قاوموا أعداءهم ! ولاهم حجبوا عنهم نصرهم وتأييدهم !

وقد حذرنا الله تعالى من الاغترار بذلك قائلا (لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) (آل عمران ١٩٦ ، ١٩٧) .

الركون إليهم :

يقول تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) (هود ١١٣) .

قال ابن جرير وابن عباس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ، فالركون نوع من الميل ، ولو كان يسيراً ، وقد نهى الله عن ذلك نهيا شديداً ، وتوعد عليه بمسيس النار ، مبينا أن ميلنا إلى الظلمة — ولو كانوا أولياء — لا يوفر لنا حماية من عذاب الله ، لأنه لاولى من دون الله .

وقد يبدو الميل إليهم مسألة هينة لا تستحق كل هذا التشدد ، ولكن الله يغار على أهل التوحيد أن يلتبس عليهم الباطل بالحق ، والميل إلى الظالم فيه شىء من الرضا بظلمه ، ومن إقراره عليه ،

وسواء كان هذا الظلم يسيراً كما فى الأمور المحقرة من أمور هذه الدنيا ، أو كان ظلما عظيما كما فى الكفر (إن الشرك لظلم عظيم) (لقمان ١٣) فإن الركون إلى الظالم رضا بظلمه ، وإقرار له عليه ، وقد يسهل له ذلك أن يقع هو نفسه فى الظلم ولا كذلك شأن المؤمن الذى يعرف عقيدة التوحيد ويؤمن بالحق ، فلا يميل ولا ينحرف ، حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم — على علو شأنه ورفعة قدره — يخاطب فى هذا المعنى بقوله تعالى (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً) (الإسراء ٧٤ ، ٧٥) فأخبر سبحانه أن مثل هذا الركون لو وقع لكان العذاب مضاعفاً فى الدنيا والآخرة ، ولكن ذلك لم يقع من الرسول صلى الله عليه وسلم بفضل الله وتثبيته إياه ، بل عاداهم ونفض يديه منهم ، وإذا كان الخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا المقام بمثل هذا الأسلوب الشديد فغيره أولى بتشديد الوعيد .

ولا شك أن مد العين إلى ما فى أيديهم من زهرة الحياة الدنيا يساعد فى الركون إليهم والميل لما عندهم ، وينبغى على المسلم أن يحسم صل هذه المادة من نفسه ، وأن يعتز بدينه وبالحق الذى عرفه ، فلا يميل إلى باطل مهما يكن تمويهه ، ولا يركن إلى ظالم مهما يؤت من زخرف وسلطان .

ولا نريد أن نبدو فى ثوب المبالغ لنقول : إن كثيراً من المسلمين أصبحوا لا يشعرون بالظالمين ولا بظلمهم ، وما ذلك إلا لأنهم أرخوا لهم الحبل فى بداية الأمر ، ميلا مع الظلمة والجبارين ، وركونا إليهم ، واعتماداً عليهم ، واستمرءوا ذلك حتى إذا مستهم النار فى هذه الدنيا كان إحساسهم قد توقف ، وشعورهم قد تبلد وأغفى إغفاءة طال عليها المدى ، وما يزالون فى مكان من يعانون من عسف الظالمين ، ويقاسون من جورهم . وهم لكل طاغية إلف وخلان .

المداهنة والمجاملة :

وقد يفضى الشعور بالميل إليهم إلى الإغضاء عن شىء من الحق ، أو التساهل مع شىء من الباطل ، تحت أى حجة من الحجج ، مشروعة أو غير مشروعة ، كاجتذاب أهل الباطل إلى الحق وتأليفهم ، أو العمل على نيل ما هو فى أيديهم وتحت سلطانهم ، أو لدفع شرهم واتقاء عدوانهم ، أوما شابه ذلك من هذه الحجج ، وهى كلها لا تبرر المداهنة وماذا يرجو الكافرون من المؤمن

أكثر من أن يتنازل ، ولو قليلا ، عن حقه ، أو أن يتساهل ، ولو قليلا ، مع باطلهم .

من يكون الرابح فى هذه الصفقة ؟ ومن يكون المغبون ؟ وهل يطمع الكافرون أن يتحول مسلم عن دينه الحق جملة إلى دين الباطل جملة ؟ إنها غاية تتقطع دونها كثير من الأعناق ، وهم يعلمون ذلك يقينا ، لذلك يقنعون من المسلم ببعض التنازلات ، أو ببعض التساهلات ، علما منهم بأن التورط فى الباطل مرة قد يفضى إلى الانغماس فيه إلى الأذقان ، درجة بعد درجة ، وهم لذلك يعملون ، وهم عليه دائبون .

لذلك نهينا عن أول خطوة فى هذا الطريق (ودُّوا لوتدهن فيدهنون) (القلم ٩) .

ومنذ وقع العالم الإسلامى تحت نير الاستعمار المسيحى الصليبى وهو يتعرض لكثير من التنازلات ، وأعظم هذه التنازلات خطبًا وفداحة : هو تحطيم الخلافة الإسلامية ، وتفتيت وحدة العالم الإسلامى ، ثم تنحية القرآن عن الحكم .

وأكبر هذه التساهلات ضرراً وأذى : السماح لهم بإعلان شعائرهم جهرة ، وإبراز شعاراتهم وأنصابهم ، وترك المجال مفتوحًا أمام بعثاتهم ومؤسساتهم التبشيرية والاستشراقية ، وإكراه المسلمين على معاملتهم وتوقيرهم ، وصياغة النظم والقوانين العامة والخاصة بحيث تعمل تلقائيًا لخدمة مصالحهم ، وتقوية أركانهم ، وإعلاء منزلتهم ، بل حتى للتيسير عليهم فى قضاء شهواتهم ، وإشباع نزواتهم تحت سمع المسلمين وبصرهم ، عد عن المسائل الأخرى التى لا تكاد تترك جانبًا من جوانب الحياة فى هذا العالم الإسلامى المنكوب .

ولو أن المسلمين التزموا بالتحذير فى قوله تعالى (وَدُّوا لوتدهن فيدهنون) لما وقعوا فى هذا العار الذى شوه بلادهم ودنس حياتهم ، وأفقدهم كثيراً من عزتهم وكرامتهم ! !

التشبه بهم :

إن المسلم إذا مدعينيه إلى زينة الكافر ، فمال إليه وداهنه ، سهل عليه أن يظهر بمظهره ، ولا يجد فى ذلك غضاضة على نفسه ، ولا إزراء بدينه أو شخصيته وكثيراً ما يحدث ذلك فى فترات الضعف والانحطاط ، حيث تكون للكافر الغلبة والسلطان ، وحيث تعمل القاعدة الاجتماعية فى تقليد المغلوب للغالب عملها فى ضعاف النفوس ، ممن ترعزعت

عقيدتهم ، وأقفر وجدانهم ، وخلت قلوبهم ، وأصبحت أفئدتهم هواء !

والتشبه بالكفار فى شىء من كفرهم كفر ، لكن حديثنا هنا فى تشبه المسلم الذى لا يزال على إسلامه ، بأن يفعل من الأفعال الظاهرة مثل أفعالهم التى يعرفون بها ، كالاحتفال ببعض المناسبات ، أو التزين بنوع من اللباس ، أو التلبس بهيئة من الهيئات البدنية والمادية ، وقد نهينا نهياً شديداً عن التشبه بالكفار فى شىء من أفعالهم هذه ، وليس بعجيب أن يشتد تحذير المسلم من التشبه بهم خوفاً عليه أن يصبح منهم ، لأنه كلما زادت نواحى التشابه زادت الفرصة لكى يعتنق ما يعتنقون ، ويؤمن بما يؤمنون ، وهو لا يدرى .

ورد بإسناد صحيح عن أبى أسامة قال : حدثنا عوف عن أبى المغيرة عن عبد الله بن عمرو قال : من بنى ببلاد الأعاجم فصنع نيروزهم ومهرجانهم ، وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك حشر معهم يوم القيامة .

وهذا يقتضى أن يصبح كافراً مثلهم ، لمشاركتهم فى مجموع أفعالهم ، أو يكون ذلك من الكبائر الموجبة للنار .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ ثوبين معصفرين فقال : « إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها » رواه مسلم .

وفى كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عتبة بن فرقد : وإياك وزى أهل الشرك .

وروى أحمد فى مسنده أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان بالجابية فذكر فتح بيت المقدس .

قال حماد بن سلمة : فحدثنى أبوسنان عن عبيدة بن آدم قال : إن إن أخذت عنى صليت خلف الصخرة ، وكانت القدس كلها بين يديك ، فقال عمر رضى الله عنه : ضاهيت اليهود ، لا ، ولكن أصلى حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقدم إلى القبلة فصلى .

فعاب رضى الله عنه على كعب مضاهاة اليهود ومشابهتهم فى مجرد استقبال الصخرة مع أن المسلم لا يقصدها بالصلاة .

وروى أبوداود عن أنس أنه دخل عليه غلام له قرنان أو قصتان ، فقال : احلقوا هذين أو قصوهما فإن هذا زى اليهود ، فعلل رضى الله عنه النهى عنهما بأنهما من زى اليهود ، ودل على أن زى اليهود مما يطلب اجتنابه .

كما روى أيضاً فى سننه من حديث هشيم ، أخبرنا أبو بشر عن أبى عمير ابن أنس عن عمومة له من الأنصار قال : اهتم النبى صلى الله عليه وآله وسلم (للصلاة) كيف يجمع الناس لها ، فذكروا له شبور اليهود ، فلم يعجبه ذلك وقال : هو من أمر اليهود ، قال : فذكروا له الناقوس فقال : هو من أمر النصارى . . . والشبور هو البوق .

ومع هذه الضرورة القائمة فى إيجاد وسيلة لجمع الناس للصلاة فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقبل أن يتخذ لذلك وسيلة من الوسائل التى تتبعها اليهود أو النصارى ، حتى هدى الله المسلمين إلى الأذان .

بل إن كراهية التشبه بالكافرين لتصل إلى ما هو أبعد من ذلك . . تصل حتى إلى اللغة التى يتكلمون بها ، وليس المقصود بذلك أن نمتنع عن تعلم لغتهم ، فقد يكون تعلمها مفيداً للمسلمين فى كثير من النواحى دنيوية ودينية ، ولكن المقصود بالنهى أن نتعلمها على سبيل التشبه بهم ، ، أو التودد إليهم ، أو التعالى على أبناء ديننا بلغة أعدائهم .

وروى البيهقى بإسناد صحيح عن عمرو بن دينار قال عمر بن الخطاب : لا تعلموا رطانة الأعاجم ، ولا تدخلوا على المشركين فى كنائسهم يوم عيدهم ، فإن السخط ينزل عليهم .

ومن ذلك يتبين أن مجرد مشاركتهم فى أعيادهم والرطن بلغتهم مظنة مشاركتهم فيما ينزل عليهم من السخط ، فما بالك بمن يتشبه بهم ، ويتخذ أعيادهم أعياداً له مثلهم ، أو يتباهى بلسانهم .

يقول ابن تيمية فى ترك التشبه بالكفار فى الأفعال الظاهرة :

« لأنها تورث نوع مودة ومحبة وموالاة فى الباطن ، كما أن المحبة فى الباطن تورث المشابهة فى الظاهر ، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة ، حتى إن الرجلين إذا كانا من بلد واحد ثم اجتمعا فى دار غربة كان بينهما من المودة والائتلاف أمر عظيم ، وإن كانا فى مصرهما لم يكونا متعارفين ، أو كانا متهاجرين ، وذلك لأن الاشتراك نوع وصف به اختصاص عن بلد الغربة ، بل لو اجتمع رجلان فى سفر أو بلد غريب ، فكانت بينهما مشابهة فى العمامة أو الثياب أو الشعر أو المركب ونحو ذلك ، لكان بينهما ائتلاف أكثر مما بين غيرهما ، وكذلك تجد أرباب الصناعات الدنيـوية يألف بعضهم بعضـا

ما لا يألفون غيرهم ، حتى إن ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة . . . تجد الملوك من الرؤساء وإن تباعدت ديارهم وممالكهم بينهم مناسبة تورث مشابهة وحماية من بعضهم لبعض .

وهذا كله موجب الطباع ومقتضاها إلا أن يمنع ذلك دين أو غرض حاضر .

فإذا كانت المشابهة فى أمور دنيوية تورث المحبة والموالاة لهم ، فكيف بالمشابهة فى أمور دينية ، فإن إفضاءها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد » اهـ .

وفوق ما فى التشبه بالكافرين من هذا الضرر الفردى الذى يفضى بصاحبه إلى خطر التعرض لسخط الله وأن يحشر مع الكافرين يوم القيامة ، هناك الضرر الذى يصيب مجتمع التوحيد ، فالتشبه بشىء يوحى باحترامه وتقديره ، وهجران شىء من أجله يوحى بسقوط منزلة هذا الشىء وتحقيره .

وإذا فشت مثل هذه المبتدعات فى المجتمع الإسلامى تحطمت قيمه وتقاليده ، وتزعزعت قواعده وأعرافه ، وعقيدة التوحيد تأبى ذلك ، وتحرص على تماسك أبنائها وتضع حولهم سياجاً يحميهم من التمزق ويمنعهم من التفرق ، لأجل ذلك منعت أشد المنع من التشبه بالكافرين ، ولو فى فعل من أفعالهم الظاهرة ، لما بين الظاهر والباطن من تواطؤ وتعاون ، وخوفاً أن يجر التشبه بهم فى أمر من الأمور الظاهرة إلى التشبه بهم فى أمر من الأمور الباطنة ، وحتى لا تماع شخصية المسلم وشخصية المجتمع الإسلامى وتضيع ملامحه الأصلية فى غمرة من طوفان التقليد الأعمى .

وكم يأسى الإنسان إذ يرى المجتمعات الإسلامية الآن ، فلا يكاد يميز فيها معلماً من معالم الإيمان ، أو ملمحا من ملامح الإسلام ، فقد طغى طوفان التقليد فى كل شىء ، فالرطانة بلغة الأعاجم تسمعها من كل إنسان ، وفى كل مكان ، إما تحذلقاً وتظرفاً وتكايساً ، وتظاهراً بالاطلاع على ما للأعاجم من لسان ، كأنه عرف أسراراً عجيبة تعز على أضرابه من المسلمين ، وإما تعززاً وترفعاً على اللغة التى أنزل بها القرآن ، وإما جهلا وعجزاً عن معرفة ما هو من أصل لغته ، وما هو دخيل من لغة الأعجميين .

وطوفان الأعياد التى غمرت بلادنا ، وليس لها أصل فى أعياد المسلمين ، بل بعضها أعياد وثنية كأعياد النيروز والربيع ، وأخرى ما أنزل الله بها من سلطان ، كهذا العيد الذين يريدون ابتداعه ويسمونه

بعيد الحب ، وغيرها من الأعياد التى تعمل كلها على طمس معالم الإيمان وتذويبها فى غيرها من أحابيل الشيطان .

والملابس والأزياء، وما أدراك مافوضى الملابس والأزياء ، بين الرجال والنساء على السواء ، كأن ليس لنا فيها شرع سماوى ، ولا توجيه نبوى ، فتظل عيوننا معلقة بما يقرره أصحاب بيوت الأزياء فى كل موسم من عواصم الكفر والفساد ، وهم قابعون هناك يعبثون بعقول الملايين وأخلاقهم ، ناهيك بما فى جيوبهم ، عبث الهرة بفأر سمين ، وهم لا يخجلون ، ولا يستحيون أن يجعلوا جسد الآدمى سلعة ومعرضا ، ودمية حية يتحكمون فى حركاتها وسكناتها . بخيوط خفية تسمى خيوط الأناقة ، ولو كانت بعيدة عنهم بمئات الأميال ، وهم يستحسنون كل يوم ما يستهجنونه بالأمس ، ويستهجنون اليوم ما كانوا يستحسنونه ويعجبون به ، لا يبالون بالطويل ، وإن كان يكنس الطرقات ، ولا بالقصير وإن كان يبدى العورات ، ولا بالضيق المشدود الذى يصف ، ولا بالواسع الفضفاض الذى يشف ، ولا بالسميك المانع ، ولا بالشفاف المبيح ، المتناقضات عندهم سواء ، وأفضلها ما انتهك حرمة البدن البشرى ، وأبدى عن عورة الجسد الإنسانى ، ومن تبعهم على الهوى سخروا منه ، وضحكوا عليه ، وافتنوا فى إغوائه .

والشعر وقصه وتصفيفه؛ وما يبتدعون فيه كل يوم ؛ ألهية اللاهين ، وعبث الفارغين ، وتغييراً لخلق الله ، خاصة وقد جعل المرأة تستهين بكرامتها الأنثوية لتضع رأسها بين يدى رجل أجنبى يعبث بشعرها كيف شاء !!

ولقد شاهدنا أمما ليس لها ما للمسلمين من دين إلهى ، لكنها اعتصمت بعقلها ، فحماها من هذا الخبال ، فهلا كان للمسلمين عقل يعصمهم إذ لم يطيعوا أوامر دينهم وشريعتهم ! ؟

والفن !! وأى شيء هو الفن ! ؟ باب واسع حطموا قيوده ، وطمسوا حدوده ، فتحوه على المسلمين ، وأكسبوه من المبالغات صفة الحصانة ، وأحاطوه من التهاويل بهالة القداسة ، وزخرفوه وبهرجوه بكل ما يحلو فى الهوى ، وأدخلوا من خلاله من الفجور والإثم كل ما استعصى عليهم إدخاله من باب العقل أو العلم، فكلما نعق ناعق فى هذا الباب تبعوه، وكلما نقرهم على أوتاره ناقر رقصوا له ، فهم منه فى غمرة يعمهون ، كأنما

سكّرت أبصارهم ، وسحرت ألبابهم ، فى نوبة من نوبات التنويم المغناطيسى الثقيل ، وإلا فما هذا التعظيم والتوقير لكل راقص أو راقصة ، وماجن أوماجنة وهاذ أو هاذية ، بحجة أن ذلك تشجيع لأرباب الفنون ، وارتقاء بذوق الأمة (الإسلامية) المتخلف عدة قرون ، ناهيك بالتماثيل والأنصاب ، وصور العرايا بغير حساب ، ناهيك باتخاذ الدين هزواً ولعبا ، والأخلاق ملهاة وسخرية ، ناهيك بتحدى شعور المجتمع الإسلامى ، وحصاره فى عاطفته ووجدانه ، وإحباطه فى تطلعاته وآماله ، فلا يعرضون عليه إلا ما يمجد تقاليد أعدائه ويعظم أعمالهم وأقوالهم وتراثهم ، فإذا تعرضوا لموضوعات إسلامية لم يجدوا إلا ما يستفز هذه العاطفة ، ويحتقر هذا الوجدان ، ويحطم هذه التطلعات والآمال !

والثقافة !! وقد أمكن أن تزحزح الثقافة الإسلامية فى المجتمعات الإسلامية لتوضع جانباً على أحد الرفوف ، للذكرى والتاريخ ، أو البكاء والعويل ، لتحل محلها ثقافة الكافر الدخيل ، حتى إنك لتجد المثقف المسلم يعرف عن نابليون مثلا : أكثر مما يعرف — إن كان يعرف — عن خالد بن الوليد ، وشتان بين الرجلين مؤمن عميق الإيمان ، سليم القلب والوجدان ، وكافر عريق الكفر ، طاغية سادر فى الطغيان ، ويعرف عن ديكارت — مثلا — أكثر مما يعرف عن الغزالى ، وشتان بين الرجلين ، مؤمن يؤصل للحق ، وكافر يؤصل للهوى ، ويعرض قضية المرأة — مثلا — مقلوبة رأساً على عقب ، كما يعرضها أئمة الكفر ، ولا يعرضها سوية كريمة كما يعرضها القرآن العظيم ، والهدى النبوى السليم ، إلى غير ذلك من الأمور الثقافية التى تتجلى فى نواحى العلوم والصناعة والعادات والتقاليد وأصول التفاهم وآداب التعامل وفى كل وجوه الحياة ! ؟

وبالجملة ، فقد فشا فى المسلمين التشبه بالكافرين ، حتى أصبحت معالمهم المميزة طامسة ، وملامحهم الوضيئة دامسة ، وأصبح يخشى عليهم إذا تأصل فيهم الداء أن يستأصلهم ويفضى بهم إلى الفناء ! !

وليس بعجيب إذن أن يكون حرص المسلمين الأولين على عدم التساهل قيد شعرة مع التشبه بشىء من أحوال الكفار ، امتثالا للأوامر الإلهية ، وحرصاً على عقيدتهم ، من أن تشوبها أى شائبة ، وحماية لمجتمعهم من التفسخ والذوبان !!

المودة :

وكما قال ابن تيمية : إن التشبه بالكفار فى الأفعال الظاهرة يورث نوع مودة ومحبة وموالاة فى الباطن ، فإن كل العوامل السابقة لابد أن تفضى بالمسلم إلى أن يشعر نحوهم بعاطفة الود .

ومن التناقضات الواضحة أن يحب إنسان عدوا تحقق من عدوانه ، فهو بين اثنين ، إما أن يأخذ عداوته مأخذ الجد ، فلا يشعر من جانبه بشىء من الأمن ، ولا يتصور مع فقد الأمن وقوع المودة أو المحبة ، وإما أن ينظر إلى هذه العداوة بعين الشك والريبة ، لعدم ثقته فى وجود هذه العداوة أصلا ، وما ذلك إلا لأنه لا يرى بينه وبين عدوه خلافاً جوهرياً يثير هذه العداوة .

والمؤمن صاحب عقيدة التوحيد ، لا يستطيع أن يتصور أن أهل الباطل يمكن أن يتركوه وشأنه ، لأن الباطل — كما ذكرنا من قبل — ما هو إلا انتهاك الحق والعدوان عليه ، فأهل الباطل أعداء لأهل الحق بطريقة عملية ، لا يتصور منهم غير ذلك ، لهذا لا يكون المؤمن صادق الإيمان ثم ينظر إلى عداوة الكافرين له نظرة تهاون أو تساهل ، إلى درجة يقيم فيها معهم علاقات المودة ، ولو أنه فعل لكان فى إيمانه مدخولا ، ولم يكن على بينة مما فعل .

ولذلك يقول تبارك وتعالى (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . . .) (المجادلة٢٢ آخر آية منها) ويقول : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) (أول الممتحنة) .

وقد عالج الله سبحانه وتعالى ما يكون بين المؤمن وأقربائه الكفار من مودة فطرية ، مبينا أن هذه العلاقات والصلات لا تصمد أمام العقيدة فى هذه الحياة الدنيا ، وأنها تتقطع يوم القيامة عندما يقف الإنسان أمام مسئوليته وحده دون معين ، ولا مدافع من الأهل أو الأتباع ! ؟

(فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) (المؤمنون : ١٠١) .

(يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) (عبس ٣٤ ، ٣٧)

(لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » (الممتحنة ٣) .

وما فتنة أشاعها أعداء الإسلام بين

جهلة المسلمين وعوامهم مستغلين هذه الفترة التى ضعف فيها الوازع الدينى بين المسلمين، ففقدوا فيها الخلق والنظافة والنظام ، وساعدت القوة والثروة أعداءهم على التحلى بصفات ظاهرة تتفق مع مظاهر الخلق والنظافة والنظام ، فجعل المسلم من هؤلاء الجهلة يزعم أنه يفضل أن يصحب ويصادق غير المسلمين ولو كان مجوسياً ، على أن يصحب المسلمين، ثم يندفع لينسب إلى المسلمين أسوأ الصفات . أو ليس هذا المسلم فرداً منهم !! أى عته أو جنون !! هل تستر هذه الصفات الظاهرة عند الكافرين عداوتهم ؟ وأى حسن فى الخلق يبقى مع هذه العداوة ! ؟

ولا شك أن هذا القول — إن لم يكن تشدقا باللسان وكان صادراً عن شعور صحيح — إنما يعكس ضعفاً شديداً فى الإيمان يجعل صاحبه على شفا جرف هار من الكفر !

إن أهم ما فى المسلم مما يجعلنا نحرص على مودته ومحبته هو أنه يشهد بالحق الذى ندين به ، وبأنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وما بقى بعد ذلك فعلينا تقويمه وإصلاحه ، أما أن نحطم معنوياته ونفضل عليه الكافر ، فهذا والله من عجائب المتناقضات . . وأى دعوة إلى تحطيم الإسلام أبلغ من ذلك !!

وإن أهم ما فى الكافر مما يجعلنا نحترس ونحذر منه ، هو أنه يتمسك بالباطل ، ويتخذ منا موقف العداوة جملة ، وما بقى بعد ذلك فأى فائدة فيه !! ؟

أما أن نبالغ فى تقدير مزاياه مع كفره إلى درجة نفضله فيها على المسلم ! فهذا من عجائب المتناقضات ، وأى دعوة إلى تمجيد الكفر أبلغ من ذلك ! ؟ ؟

الاستغفار لهم :

ولقد يهون على الإنسان أن يقطع مودته بمن كفر ، ولو كان من أهله وذوى قرباه ، ثم يجد من الصعب على نفسه أن يجدهم عرضة لعذاب الله ، وإن عذاب الله لهو العذاب الأليم ، لذلك ترق لهم نفسه ، وتأخذه بهم الشفقة والرأفة وعندئذ قد يتوجه إلى الله راغباً إليه فى أن يغفر لهم و يرحمهم .

ولا بأس أن يدعو الإنسان ربه فى هدايتهم وإرشادهم ما داموا أحياء ، فهذا لا شك من البر الذى يأمر به الإسلام ، فوق أنه من مهمات الداعية إلى الله أن يستعين به فى هداية من يدعوهم ، وأولاهم بذلك أهله وعشيرته .

ولكن المسألة هنا عندما يتبين أن هذا

الكافر قدمات على كفره ، فهل من المناسب أن نتشفع إلى الله فى عدو له مات على عداوته : أن يغفر له ويمحو صفحة كفره وجحوده ؟ وأن نظهر أمام الكافر بالاستغفار له وهو لا يزال على كفره ، كأن هناك أملا فى أن يظل على كفره وأن يدخل — مع ذلك — فى رحمة ربه ؟

إن رحمة ربى وسعت كل شىء ، ولعل هذا هو ما ساعد على الاستغفار لهم فى بعض الظروف ، ولكن رب الرحمة — التى وسعت كل شىء — حدد لنا بعد ذلك حدوداً لا يصح أن نتجاوزها فى طلب المغفرة ، وبين أنه لا يغفر أن يشرك به ، (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (النساء ٤٨ و١١٦) ثم نهى المسلمين عن الاستغفار للكافرين ، لما فى الاستغفار لهم من نوع إقرار لهم على كفرهم ، ولما فيه من معنى قد يضر المسلم والمجتمع الإسلامى ، من حيث إنه يضيع الحدود بين من أسلم ومن كفر ، وليسا سواء . (وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور إن أنت إلا نذير) (فاطر ١٩ — ٢٣) (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) (السجدة ١٨)

روى ابن كثير .. قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرازق معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال : أى عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل ؟ فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال : أنا على ملة عبد المطلب ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، لأستغفرن لك ما لم أنه عنك ، فنزلت (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) (التوبة ١١٣) ورويت فى أسباب نزول هذه الآية روايات أخرى ، ولكن المقصود هنا بيان أن النهى عن الاستغفار قد ورد هنا فى صيغة تدل على عدم الإقرار لمثل هذا الموقف ، وما ساعد الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك إلا وفرة رحمته (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (الأنبياء ١٠٧) ولقد فعل إبراهيم عليه السلام مثل ذلك من قبل

حين واجـه أباه بالحق فقال له : (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لأرجمنك واهجرنى مليا ؟ قال : سلام عليك سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفيا) (مريم ٤٦ ، ٤٧) لكنه نزل على مقتضى العقيدة بعد ذلك فتبرأ منه ، وجاهر بعداوته ، وقد ذكر الله تعالى ذلك فى معرض نهى المسلمين عن الاستغفار للمسلمين ، حتى لا يكون لهم فى موقفه عذر ولا حجة ، فقال : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) ، إن إبراهيم لأواه حليم » (التوبة ١١٤) ، فمناط الأمر هو موقف الكافر من ربه ، إنه موقف العداوة الثابت ، فهل نقف منه موقف التعاطف والرحمة واللين ، وهو عدو لله ، وكيف نتصور أن تتسع محبتنا لله لمحبة أعدائه إلى درجة الرحمة وطلب المغفرة لهم ؟؟ وكيف يجتمعان : محبة الله ومحبة أعدائه ؟؟ وماذا نطلب لأولياء الله أكثر من هذه المغفرة التى نطلبها لأعدائه ؟ إنه موقف غير متوافق ولا متناسق ، ولهذا نهينا عنه صراحة .

وكسائر المفاهيم الإسلامية ، بدأ هذا المفهوم يتميع ، وأصبحنا عندما يهلك من الكفار هالك نسمع كثيراً من المسلمين وهم يترحمون عليه فيصفونه (بالمرحوم) و (بالمغفور له) و (برحمة الله) و (أدخله الله فسيح جناته) ، إلى غـير ذلك من الألفاظ التى لا تقال إلا لمسلم !

لقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصلى على المنافقين الذين لا يظهرون الكفر ، لما فى الصلاة عليهم من الدعاء لهم فمابالكم بمن يعلن كفره ، ويجهر بعداوته لربه (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) (التوبة ٨٤) .

وليت هذه الألفاظ تقال فى مضمار المداراة السياسية فحسب ، إذن لكانت مصيبتها أهون ، ولعرف الناس أن هذا باب طريف مستحدث من أبواب المداراة ، ولكن الأمر بدأ فى محيط الساسة ثم تجاوزهم إلى كثير من عامة المسلمين ، فأصبحوا لا يميزون بين ما يستحقه المؤمن وما يستحقه الكافر ، وكأن الكافر عندهم على مستوى المؤمن ، وإذا وقرت الأمور فى نفوسهم على هذه الصورة لم نأمن أن نصبح يوما فإذا بهم قد استسلموا للكفر وهم مستبشرون أن الله سوف يغفر لهم ، ويدخلهم الجنة بغير حساب ، ومن أوسع الأبواب !!

اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين :

وأبشع من ذلك أن نتخذ منهم بطانة دون المؤمنين ، فنقربهم فى المجالس ، ونهش لهم عند اللقاء ، ونستشيرهم فى شئون المسلمين ، ونوليهم أمورهم ، ونعلق فى أيديهم مصالح المسلمين ، ونضفى عليهم ألفاظ التعظيم والتكريم وأهل الكفر والضلال ليسوا أهلا لشىء من ذلك خاصة فى أوطان المسلمين وديارهم .

يقول تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم) (آل عمران ١١٨) .

ومع ذلك فأينما نسرح الطرف فى أوطان المسلمين نجد أن رؤساءهم وكبراءهم قد استظهروا بهم واتخذوهم بطانة من دون المسلمين ، فوسدوا إليهم الأعمال الحيوية ، ووضعوهم فى المناصب المركزية ، ومكنوهم من مفاتيح المصالح والمرافق ، وأصبح المسلم يحتاج إليهم فى شئونه ، وهو مضطر أن يبذل لهم ما يستحقه منصبهم من التوقير والتعظيم ، وكان فى أول أمره يشعر بالغضاضة لذلك حتى تعود عليه ، وأصبح تحكم الكافر فى شئونه ، وتسلطه على تصريف حياته أمراً مألوفاً ، ووضعاً عادياً ، لا يثير الاستغراب ، ولا يولد السخط والنفور ، وكيف نأتمن عدوا ثبتت عداوته على شأن من شئون المسلمين مهما صغر وتضاءل ! ؟

عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه قيل له : إن هنا غلاماً من أهل الحيرة حافظاً كاتباً ، فلو اتخذته كاتباً ، قال : قد اتخذت إذن بطانة من دون المؤمنين ، رواه ابن أبى شيبة .

ولسنا ندرى ما الذى دها المسلمين حتى استمروا على هذا التصرف المنافى للإسلام وللمبادئ الإسلامية .

ولقد كان عذرهم فيما مضى وجود الاستعمار ونفوذ سلطانه ، فماذا يكون عذرهم الآن ، ونحن ندعى استقلال الأوطان والفكر والإرادة ، انظر إلينا عندما نفكر فى إقامة مشروع — أى مشروع — ولو كان مشروعاً لتربية الدواجن والفراريج ، من نستشير ؟ ومن نعينه للإشراف على المشروع ومن نوليه تصريف شئونه ، وتدبير أموره ! ؟

قد يقال : إن ذلك فى الأمور الصغيرة من شئون المسلمين ، وإذا كنا لا نثق بالمسلمين فى إدارة شئونهم الصغيرة فإن موقفنا فى الأمور الكبيرة ، بل الخطيرة ،

لا بد واضح معروف ، وهو بالفعل ما يحدث ، فعندما نفكر فى إنشاء نظم مدرسية أو جـــامعة تعليمية تعلم أبناء المسلمين ، نبعث فى استجلاب الخبرات من (اليونسكو) وهى مؤسسة أقل ما يقال فيها (غير إسلامية) أو من بلاد استعمارية صليبية ، أو شيوعية إلحادية ، لتضع لنا البرامج والنظم فى كيف نتعلم لغتنا وتاريخنا وديننا وعلومنا وفنوننا وتراثنا ، فماذا نتوقع من مثل هؤلاء (الأعداء الخبراء) وما أمر دنلوب وأتباعه وأشياعه وسدنه هيكله عنا ببعيد .

سرح الطرف فى أى اتجاه شئت من مختلف المشروعات والمؤسسات فلن تجد فى ذلك اختلافًا يذكر ؟

ومن الغريب أن المسلمين يمكنون لهم ما لا يمكنون لأبناء دينهم وأمتهم من الاطلاع على أسرار بلادهم ، ومعرفة خباياها وزواياها وهم يستفيدون بذلك إضعاف قوتنا المادية والمعنوية ، واستنفاد طاقتنا ، واستنزاف مواردنا دون رقيب ولا حسيب ، فقد وضعنا ثقتنا فيهم واطمأننا لهم ، وأفضينا إليهم بدخائل أنفسنا ومخططات حياتنا .

وليس من العجيب إذن أن يعرفوا عن حياة المسلمين وبلادهم من المعلومات والأسرار ما قد لا يعرفه حتى قادتها وساستها ، وأن يسربوا هذه المعلومات إلى من شاءوا عند اللزوم وفى الوقت المناسب لمخططـــاتهم و (تكتيكهم) فى تحطيم الإسلام ، وتخريب بلاد المسلمين ، والاستيلا طوعًا وكراهية على أرضهم وديارهم وأموالهم وأهليهم وأولادهم !

لو كان المسلم حملا وديعاً أعجم لما فعل ذلك مع ذئب ! !

طاعتهم واتباعهم :

وهو أبعد ما نتصوره من مسلم بالنسبة لكافر ، ومع ذلك فقد نهى الله عنه صراحة حتى لا يستهين به المسلم ، ووجه الخطاب فى معظمه للرسول صلى الله عليه وسلم اهتماماً به فقال (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا) (الكهف ٢٨) ، (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً »(الفرقان ٥٢) ، « يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما » (أول الأحزاب ١) ، (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » (الأحزاب ٤٨) ، إلى غير ذلك من الآيات .

ولقد وقع هذا الذى لم نكن نتصوره ،

نتيجة لكل ما سبق ذكره من مقدمات ، فنحن فى معظم شئوننا ، خاصة العامة منها ، نصدر عن رأيهم ، ونقوم بتنفيذ مشوراتهم ونصائحهم ، ولو كنا نعلم يقينا أنها السم النقيع ، حتى ما يتعارض مع ديننا صراحة ، ويقف منه على طرف النقيض ترددنا فيه بين يمين ويسار ، طاعة للرأسماليين الجبارين مرة ، وطاعة للشيوعيين الطـــواغيت مرة ، وباسم الديموقراطية والحرية فى كلى مرة .

أما الإسلام والإيمان والتوحيد ، فليس له — عندئذ — اسم ولا عنوان !؟

آثار موالاتهم :

فأى فائدة جنينا من ذلك سوى الخبال ، وضياع معالم الهدى والحق ، والتعرض للفتنة الصاخبة الهادرة ليل نهار ، ووقوع العداوة والبغضاء بين الأمة الواحدة والفرقة والتشتت بين أصحاب التوحيد ، وأصبحنا بذلك أضعف الأمم ، وأكثرها فقراً ومرضاً ، وانحطاطاً فى المعارف والأخلاق ، ولقد حذرنا الله تبارك وتعالى من هذه العواقب ، وبين لنا كيف نأمن من شرور موالاتهم ، بالاعتصام بولاية الله تعالى ورسوله والمؤمنين ، فلم يدع لنا عذراً ولا احتجاجاً .

قال تعالى : (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواهم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل : موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط) (آل عمران ١١٨ — ١٢٠) .

وقال تعالى : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير) (البقرة ١٢٠) .

وقال تعالى : (دت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) (آل عمران ٦٩) .

وقال تعالى : (ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) (النساء ١١٣) .

وقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا

الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) (آل عمران ١٤٩، ١٥٠) .

وما ذلك إلا لأن طاعة الكافرين فى كافة الأمور يجر إلى طاعتهم فى كفرهم، وقد ينزلق المسلم إلى أمور تخالف دينه وعقيدته وهو لا يدرى ، فإذا هو قد أصبح كافراً من حيث لا يشعر .

يقول جل شأنه : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيراً) (النساء ٤٤ ، ٤٥) .

ويقول تعالى : (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين) (الجاثية ١٨ ، ١٩) .

ويقول تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) (المائدة ٤٨) فطاعتهم تفتن الإنسان وتصرفه عن شىء من طاعة دينه ، وكيف يتبع المسلم أهواءهم وهى أهواء ضالة لا يجمعها هدى ، تاركا ما فيه شرعته وهداه من دين الله ! !

يقول جل شأنه : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء) (الأنعام ١٥٩) .

ويقول تعالى : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) (التوبة ٤٧) .

فالفرقة والتمزق ووقوع العداوة والبغضاء بين الأمم الإسلامية نتيجة عملية لموالاتهم ! ؟

ولو تتبعنا هذه الآيات التى أشرنا إليها وكثيراً غيرها ، لتبين لنا مدى اهتمام القرآن العظيم بهذه القضية الحيوية المهمة فى حياة المسلمين ، كما نتبين فى الآيات التى ذكرناها آنفا أنه يعقب فيها دائماً بالعلاج الصحيح ، وهو ترك موالاة الكفار إلى الاعتصام بحبل الله ، والتمسك بولايته وولاية رسوله ، وولاية المؤمنين .

وولاية الله هنا ولاية خاصة بالمؤمنين لا تنال الكافرين (وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيراً ٤ : ٤٥)، (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) (محمد ١١) .

والله أعلم . [وللبحث بقية]

د. عبد الفتاح عبد الله بركة
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد
بجامعة الأزهر

موقف الزيات من الأدب المكشوف

الدكتور محمد رجب البيومي
الأستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

راج لدى نفر من القارئين ما يسمى بالأدب المكشوف ، وهذا النفر لا حيلة لنا فيهم لأن انفعالاتهم الجائشة فى دور من أدوار الحياة تدفعهم إلى التطلع إلى اكتشاف الغوامض فيما يحسون من غرائزهم المتوثبة ، وعواطفهم المتعطشة وكان علينا — لو خلصت النيات — أن نقدم لهم ما يهديهم إلى السلوك الحميد ، وأن نساعدهم على الطمأنينة النفسية بما نرسم من وسائل الاستعلاء والتسامى ، أجل : كان على أصحاب الأقلام أن ينهجوا هذا النهج الصائب فيما يكتبون ولا أنكر أن فريقاً منهم قد التزم بميثاق الفضيلة فحارب إسفاف الهابط ، وتبذل الخليع ، ولكنه لم يستطع أن يوصد باب الشر من أقلام ناوأت الكرامة ، وسعت إلى الكسب الخبيث مما تدون من فضائح الجنس وتصف من أساليب الخلاعة ، وقد وجدت السوق رائجة نافقة ، نفوس المراهقين والمراهقات فى تطلع وجماح ، والزاد مغر خادع ، والأفئدة جائعة ظمأى .

وأعجب ما يروعنا فى سلوك هؤلاء الإباحيين ، أنهم يحاولون أن يكونوا من ذوى الرسالات الأدبية ، إذ يتحدثون بأنهم أطباء يشرحون العلل ويشخصون الأمراض ، وأنهم حين يبسطون فضائح الجنس . يحذرون القارئ والقارئة من كوارثها ، ويزيدون فيزعمون أن أدب النهضة فى أوربا وأدب العرب فى أرقى عصوره أيام بنى العباس قد بسط الحديث الفنى عن هذه النوازع الهابطة ، فما ارتقى الأدب الأوربى إذن — فى زعمهم — إلا بهذه الإباحية المندفعة ، وماسار لشعراء العصر العباس من الذيوع

والنباهة على الألسنة وفى مجلدات العصور المتتالية إلا لإخلاصهم الفنى فى صراحة ما يبدعون ! وهذا باطل يتزيى أمامنا بالحق ، لأنه يوهم السطحيين أن الأدب الانحلالى : مصدر قوة ، وطريق إبداع ، وذلك عين الباطل حقاً أما تزييه الكاذب بالحق ، فلادعاء أصحاب هذا المنطق أنهم قد درسوا تاريخ الأدب فى عصر النهضة الأوربية وتاريخ الشعر فى العصر العباسى فوقفوا على أسباب تقدمه ، حين حصروها فى هذه الإباحية الساقطة ، وهم واهمون فيما يدعون ، لأن الأدب الأوربى فى عصر النهضة لم يكن كله ولا نصفه ولا ثلثه ولا ربعه أدب جنس ، ولكنه كان فى أكثره أدب عقل باحث ، وعاطفة نزاعة للسموّ ، وداعية إلى الاستعلاء والطموح والذين ارتكسوا فى مهاوى الجنس الفاضح وجدوا من زعماء الأدب ، ونقدته من يشنون عليهم حروب النقد ، ومن يحذرون منهم جمهرة القراء والقارئات ولو اقتصر أدب النهضة على هذا اللون المنحل ما كانت نهضة ، وما تحقق تقدم فكرى فى إنتاج أدبى ، ولا زلنا نذكر صرخات تولستوى العالية فى وجوه المنحلين من الكتاب ، إذ يرى الفيلسوف الكبير أن غاية الفن هى الرقى بأحوال الجماعات والأفراد ، وابتكار أشرف الأحاسيس ، والسمو بمنحدرات العواطف إلى حيث ترتفع وتحلق وتنجو من مهاوى الإسفاف ، وإذا وجد فى إنتاج شكسبير ودانتى و بوكاشيو بعض مالا يسير فى هذا الاتجاه فهو شذوذ ينحرف عن القاعدة المستقيمة ، والألزم الحتمى أن نوجه جهودنا الأدبية إلى إحياء المروءات والفضائل والربط القوى بين أوامر الله وسلوك الناس !

أما الأدب العباسى فنحن أدرى به وأوعى وأفهم فإنه إذا وجدت قلة من الشعراء تسفلُ فى مباذلها الهابطة كمطيع ابن إياس ، وأبى نواس ، ووالبة بن الحباب وسلم الخاسر ، والحسين بن الضحاك ، فإن هناك مئات من شعراء الرجولة والكرامة والخلق ، ومن ذكرناهم من شعراء المجون باستثناء أبى نواس شعراء صغار ضعاف : لا يرتقون إلى الأوج الفنى فيما ينظمون ، ولولا تبذلهم السفيه حين أغرى بعض المرضى بتدوين ما يقولون ، لولا هذا التبذّل ما ذكرهم ذاكر ، إذ ليسوا قمما ترتفع ، وإنما هم سفوح تنخفض ! ولو اكتفى أبو نواس بما اكتفوا به لصار نظيرهم فى مكانتهم الأدبية ولكنه لزم الجد فى كثير مما

قال ، فكان عربياً قوى الديباجة سامى الهدف فى كثير من أوصافه وأماديحه ومراثيه وزهدياته ، وبذلك عُدّ من الشعراء الفحول ، على أنه مع ذلك لم يبلغ مبلغ أبى تمام أو ابن الرومى والبحترى ممن دارت حولهم مناقشات أدبية فى كتب نقدية تتحدث عن البديع وعن عمود الشعر! فأين هو طابع المجون الذى ارتقى بالأدب العباسى ؟ على أن الشعر وحده لم يكن كل حصيلة الأدباء ! فقد كان لدينا الناثرون والقصاصون ، وذوو البيان من كبار العلماء وبهم ازدهر الأدب العباسى أينع الازدهار ! وجلهم غير خليع .

تلك مقدمة ضرورية للحديث عن موقف الزيات من الأدب المكشوف فى هذا العصر ، لأن ذرية هؤلاء المنحدرين قد انبعثت تقفوا آثار أجدادها فيما تتبذل فيه من انحدار ، فراجت القصص الخليعة وانتشر الشعر الماجن؟ ومن فضل الله: أن ذلك لم يكن على أيدى زعماء الأدب من الأصلاء، ولكنه كان جرائر المتخلفين من صغار الكتاب ومَن فوق الصغار بقليل ، وقد وجدوا الرواج حقاً كما وجده السالفون لأسباب ترجع إلى توقد الغرائز وانحدار العواطف ، وخداع الأهواء ، وقد بحث الزيات عن مصدر هذا الوباء فعرف أن أوربا قد خرجت من الحرب العالمية الثانية منهوكة الأعصاب ، فاقدة الإيمان ، فلجأ نفر من متبذليها إلى هذا العبث الساقط حين انقلبت الأوضاع ، وتغيرت الطباع ، واختلفت المقاييس وبرد الدم الحار ، فشاع الإغضاء ، وساغ البذاء ، وقلت المبالاة ، وسكنت الحمية ، حتى صار الفجور دينا له زعماؤه ومبشروه، فنهم: فرويد وسارتر وجيد ولورنس وفيكتور مرجيت ، أما أتباع هؤلاء فهم مسوخ الحرب ومشوهوها ممن لا يعتصمون بخلق ولا يرجعون إلى دين !

ويتعمق الأستاذ أحمد حسن الزيات موضوعه فيقول بتصرف يسير (١) :

« ولكن دواعى أدب المجون التنفيس عن رغبة مكظومة ، أو التعبير عن عاطفة جائشة ، والتحرر من التزامات مقيدة ، وهى خواص فى طبع الإنسان تلزم لزوم البكاء والضحك له، وتدوم دوام الجد والهزل فيه ، وأقل دواهيه أن تزول الحدود بين المعروف والمنكر، فلا يكون فارق بين الحلال والحرام ،

(١) وحى الرسالة ج٣ ص ٢٠٠ .

ولا بين نظام وفوضى ، ولا بين إنسان وحيوان ، والذين كانوا فى القديم يقولون كانوا ينشئونه لأنفسهم لا للناس ، ويتناقلونه فى السر لا فى العلن ، ويتفكهون به فى المجالس الخاصة لا فى المجامع العامة ،

ولو كان لهم مالنا اليوم من طباعة تنشر وصحافة تذيع ، وجمهور يقرأ ، لتحرجوا من أكثر ما قالوه، فإن الناس مذبثّ الله فى أبويهم آدم وحواء فضيلة الحياء فخصفا على جسديهما العاريين من ورق الجنة ، شعروا أن للجنس عورات لا يجوز أن تظهر ، ولما هذبهم الدين ، وثقفهم العلم ، وصقلهم التحضر ، شعروا كذلك أن للفكر عــورات .. لا يجــوز أن تنشر، فهم بحكم الحرية والاستقلال والانطلاق يقولون ويفعلون فى خلواتهم ومباذلهم ما شاءوا، ولكنهم بحكم الدين والقانون والعرف يسترون سوءاتهم ونزواتهم ما استطاعوا ، فلا يقولون كل حق ولا يصورون كل حالة ولا يظهرون كل مضمر .. مراعاة لشعور الجملة ومحافظة على كرامة الإنسان » .

إلى هنا ونحن مع الأستاذ أحمد حسن الزيات فى كل كلمة ، ولكننا قد نختلف معه حين يستطرد فيقول :

« أدب المجون إذن يجوز أن يقال ، ولكن لا يجوز أبداً أن يعلن ، والرقيب على هذا الأدب ضمير المنشئ وكرامة القارئ ، فما دام للمنشىء ضمير يحبيه الدين القويم ، والخلق الكريم فإنه يتكرم عن الهبوط إلى حضيض القوادين الذين يزينون الفحش ، والمطاردين الذين يروجون الحشيش» .

أجل : إننا نختلف هنا مع الأستاذ الزيات — رحمه الله — فى هذا الرأى، لأن تجويز قول المجون فى المجالس ، دون نشره فى الأوراق فتح لباب يجب أن يسد ، فأكثر من مجنوا من شعراء العصر العباسى لم يكونوا يظنون أن أبياتهم الخاصة فى زوايا اللهو رموا خير الفساد ، ستصبح ذات يوم على كل لسان ، لأن فى بعض النفوس ولعاً بترديد المجون العابث استجابة لرغبات هابطة لم يتح لها طريق التسامى والإعلاء ، والقول متى قيل، فلا بد أن يذاع بعضه إذا امتنع جميعه على الإذاعة ، وهذا ما كان فيما سلف أفيجوز أن نغضى عنه الآن فيما سيقال؟

لقد تساهل أمثــال الجاحظ وأبى الفرج الأصبهانى وأبى منصور الثعالبى فى رواية هذه المنكرات فى كتب

الحيوان والأغانى ويتيمة الدهر، فكان من جراء ذلك أن خلف بعدهم خلف لزموا طريقة الاسترواح بالتساهل والإغضاء فَتَحْكِي ذلك عن أمثال : ابن حزم والراغب الأصفهانى والقاضى التنوخى، وهم — على أدبهم الجم — من كبار الفقهاء وشيوخ الدين والتشريع ، وقد اغتفر لهم ذلك الأستاذ محمد كرد على . . حين ألم بحديثهم فى الجزء الثانى من أمراء البيان[1]. وذلك انحدار كان الأولى توقيه ، بل إن الأستاذ كرد على فى تبرير هذا التساهل المبتذل زاد فردد قول ابن قتيبة فى مقدمة الجزء الأول من عيون الأخبار :

(وإذا مرّ بك حديث فيه إيضاح بذكر عورة ، أو وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعر خدك وتعرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المأثم فى شتم الأعراض ، وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب) .

ثم قال صاحب عيون الأخبار، وهو العالم الوقور المحدث ، وكأنه يتراجع :

(ولم أترخّصْ فى إرسال اللسان بالرفث ، على أن تجعله هجِّيراك ، على كل حال ، وديدنك فى كل مقال ، بل الترخص منّى فى حكاية تحكيها ، أو رواية ترويها ، تنقصها الكناية ، ويذهب بحلاوتها التعريض ، وأحببت أن تجرى فى هذا على عادة السلف فى إرسال النفس على السجية والرغبة عن الرياء والتصنع) .

وهذا تراجع جزئى لا يفيد ، إذ أن ابن قتيبة يبيح أن نذكر الساقط من القول، والمبتذل من المجون ، متى ما لم يكن مذهباً متعيناً لا محيد عنه ، فهو إذن ينكر أن يكون الساقط ممنوعاً فى بعض المجالات ، بل فى أكثر المجالات إذا لم يكن ديدنا عاماً !!

ونحن نعرف أن الساقطين لا يجعلون الإسفاف ديدنا عاما !! فَيَسْمُجُون ويُسأمون، فهم ينتقلون لا محالة من الجد إلى الهزل ومن الهزل إلى الجدّ ، بعد أن يكشفوا فى هزلهم كل مستور ، وبعد أن يعصفوا فى لهوهم بكل حرمة !

أفيوافقهم صاحب عيون الأخبار على هذا التسفل المنحدر، لأنه لم يصر ديدنا عاماً لا فكاك منه ، لقد كان الأجدر بمن له مكانته العلمية بين أعلام أهل السنة من رجال الإسلام — أن يقف موقف المتشدد ، وأن ينادى بسد الذرائع

---

(١) أمراء البيان ج٢ ص ٥٣٣ ط ١ — للأستاذ محمد كرد على .

ودفع الشبهات! ولا ملامة — إذن — على أديب كالجاحظ أن يلهو ، ما دام ابن قتيبة الزميت الوقور يستبيح اللهو متى ما لم يكن فى جميع الأحيان ، بل كان حيناً بعد حين ! والأستاذ أحمد حسن الزيات — فى رأينا — أقرب إلى الحسنى من ابن قتيبة ، لأن صاحب الرسالة أجاد اللهو قولا دون تسجيل ، وصاحب عيون الأخبار أجاز اللهو تسجيلا ما لم يكن طابعاً عاماً !

ثم روى فى (عيون الأخبار) من أخبار الماجنين ونوادر الخلفاء ما كان عليه أن يتحاشاه ! وتلك عثرة لا تقال ! ؟

وقد عظم الخطب وفدح اليوم فى المسرح ، لأن شاشة التليفزيون قد أعدّت رواياتها للمشاهدين فى شتى الأماكن كل يوم ، وللتمثيل المسرحى تأثير يفوق تأثير القصة أو المقالة أو القصيدة فى الصحيفة أو الكتاب ، لأن الورقة المطبوعة لا يقرؤها إلا من تعلم أما التمثيل فيشاهده الأمى ويتابعه ويفهم منه ما يناسب تفكيره ، وما ينقدح مدلوله فى نفسه ، لذلك نجد ، أنصار الفضيلة يتشددون فى نقاء المسرحية أو القصة مما يسف ويشين وينحدر ، ولهم خصوم يدعون إلى التبذل بحجج ملفقة تكشف عما يتوقون إليه من هبوط ، وللأستاذ الزيات فى ذلك رأى ذائع هتف به حين قال[1] :

والملهاة العامية غرضها الإضحاك والإلهاء بتصوير العيوب المضحكة . تصويراً يتعدى حدود الأدب والحشمة والذوق والإمكانية ، فهى تقوم على الإحالة والبُذاء كما تقوم الملهاة (الفضيحة) على السخر والأضاحيك والرأى بين الناس تختلف فى بقاء هذا النوع فى أمة راقية وحكومة منظمة ومسرح مهذب ، فالذين يدافعون عن الملهاة يقولون : إن الناس يرفهون عن صدورهم بشهودها ، وأن الأذواق ليست واحدة فى تقدير اللهو الرفيع وأن العكوف على الجد الخالص ، واللهو المحتشم يتعب الذهن ، ويكد القريحة ، ونحن لا ننكر على العامية مطلقاً أنها تلهى الجمهور وتسر الناس ولا ننكر كذلك أن القليل فى الناس هم الذين يدركون معنى الحق والجمال والخير فيلذهم إدراكه ويمتعهم فهمه وأن دهماء الناس وسوادهم لا يلهيهم إلا المحال الفاحش ، والبذئُ المقذع ، وأن من الأذهان ما يعتريه الكلال

(١) فى أصول الأدب للزيات ص ٣٣٢ط٣ .

من الجد ، فلا يشحذُ إلا بالمزاح الخالى من الذوق والفكر ، ولكن سلطان هذا النوع على الشعب هو مصدر الخطر فيه ، ومنشأ الضرر منه ، فإن من يحبه ويميل إليه يكره غيره ويصد عنه وانصراف الشعب عما يغذى عقله بالحكمة ، وذوقه بالجمال ، ووجدانه بالفضيلة ، إلى مايملأ عينيه بالفحش ، وقلبه بالرجس ولسانه بالبُذاء ، مؤد إلى الوهن والانحلال والعدم ، ذلك : إلى أن اللهو الفارغ تستسهله النفس وتفضله ، وإذا استرسل المرء فيه خمدت نفسه بترك الفكر ، كما يخمُد جسمُه بترك العمل .

أما قولهم : إن الملهاة العامية لا تضر ، ما دامت تسر . . فذلك مثل قولهم : إن نوع الغذاء لا يهمك ما دام يلذك) ! ؟

ونحن نعلم : أن الزيات قد رأس تحرير (مجلة الرسالة) على مدى يزيد على عشرين عاماً ، فى كل أسبوع تصدر المجلة حافلة بشتى فنون الأدب من مقالة وقصيدة وقصة ونقد وتاريخ ولم نر فيما نشره الزيات على هذا المدى الأطول ما يخل بمذهبه الخلقى فى التقيد بالمثل الرفيع ، بل إن معارك قلمية ساخنة دارت رحاها على صفحات الرسالة مهاجمة دعاة التبذل والإسفاف

ولا زال زئير الرافعى وعبـــد الوهاب عزام وعبد المنعم خلاف والزيات ومحمد أحمد الغمراوى وسيد قطب وعلى الطنطاوى وغيرهم من رجال الفضيلة يجلجل فى الأسماع ، وقد أغضب الزيات نفرا من الكتاب حين أصر على حذف ما يشين من مقالاتهم أو قصصهم مراعاة للسمو الإنسانى تعبيراً وتصويراً واتجاهاً ، وأذكر أن الأستاذ دريني خشبه قد أرسل للرسالة قصة تحت عنوان (حب اللحم) تحدث فيها عن إحدى الخيانات الزوجية المزدوجة وعرض من الوقائع ما يسىء ، دون أن يُخْجل بلفظ فاحش أو معنى فاضح ، وكان الحل الذى انتهى إليه مما ينكره الخلق إذ دبر أحدُ الأبطال فى القصة مؤامرة لسحق منافسه وإغراقه فى النيل ، وكان فى نية الأستاذ الزيات أن يهمل نشرها ولكنه أرتأى بعد التأمل أن ينشرها وأن يعقب عليها بما يدل عـلى مكمن الضعف لينبه الأستاذ دريني ومن يحذو حذوه إلى مجانبة السقوط الخلقى فيما يكتبون ، فنشرت الرسالة القصة بالعدد (١٦٦) من السنة الرابعة ، وفى نهايتها تعقيب موجز يدل على أن الحل لا يرتضيه الخلق الجميل ، وقد ارتاع

الأستاذ دريني لهذا النقد الناسف على إيجازه فكتب يدافع عن نفسه فى العدد التالى (١٦٧) ويقول إن البطلة لم تكن موفقة على مكيدة صاحبها فهى إذن من أنصار الخلق الفاضل الذى تشير إليه القصة عن طريق الإيماء، ولكن الزيات قد وضع الحق فى نصابه حين علق على كلام الأستاذ دريني بقوله :

(نوافق الأستاذ على أنه ينشد بقصصه الخلق الجميل، وهو لا شك يوافقنا على أن الدين والقانون هما جوهر الخلق الكريم بالضرورة، والدين يأذن للزوجة المضرورة أن تطلب الطلاق، وتثبت الضرار، فيحكم القاضى بالتفريق، والقانون لا يجيز لحبيب الزوجة ولا لغيره أن يقتل الزوج وعشيقته على هذه الصورة) إننا نرجو أن يكون فى كل دار للنشر، وفى كل صحيفة تطالع القراء بأقصيص العاطفة : أستاذ كبير يؤمن بالرسالة المثالية للأدب، فيمنع الأدب الساقط، ويجيز الأدب الهادف، لينشأ جيل مؤمن يعتز بأخلاق القرآن، ويتعشق البيان العربى فى إبداعه الخالب، وتصويره الموجه، وترفعه النبيل !؟

د. محمد رجب البيومى

(الأستاذ بكلية اللغة العربية)

في التقوى

قال صلى الله عليه وسلم :

« إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء . . »

وقال أيضاً :

«اتقوا الله، وصلوا رحمكم، وصدقوا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا أمراءكم، تدخلوا جنة ربكم » .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

« اللهم إنى أسألك الهدى، والتقى، والعفاف والغنى . . »

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

الشك .. هو النهاية المحتومة للعقل المستقل

دكتور / يحيى هاشم

بينا فى المقالات السابقة * أن كلا من الفلسفة اليقينية ، والعلم التجريبى يقوم على مسلمات ، تشمل الإيمان بما لم يقم عليه برهان ، أو تحققه تجربة ، ومن ثم تسقط دعوى كل منهما فى الاستقلال عن الدين .

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الفلاسفة الذين وقفوا فى بحثهم لأصل المعرفة الإنسانية عند العقل الإنسانى يرفضون أن يمتدوا به إلى مصدر أسمى يتلقى منه المعارف . . . فإننا نجد هؤلاء قد آل أمرهم إلى الشك واللاأدريه .

إن ابن رشد هو الذى فتح الطريق للفلسفة الغربية الحديثة حين جعل العقل الفعال غير خارج عن النفس الإنسانية .

* انظر مجلة الأزهر الجزء ٣ السنة ٥٠ [عن شهر رجب ١٣٩٨ هـ صفحة ٥٨٩ — ٥٩٥ منه] والجزء ٤ السنة ٥٠ [عن شهر شعبان ١٣٩٨ هـ صفحة ٨٤٠—٨٤٨ منه] والجزء ٥ السنة ٥٠ [عن شهر رمضان ١٣٩٨هـ صفحة ١٠٥٥—١٠٦٢ منه].

وجعل إدراك العقل الهيولانى له : لا يعنى صعوداً من ذات إلى ذات أخرى ، أو من كائن إلى كائن خالد ، وإنما جعله نوعاً من الاتصال داخل النفس الإنسانية ، منكراً بذلك نظرية الفيض[1] .

وهنا نجد : أن جميع الفلسفات التى سارت فى هذا الطريق اصطدمت بالسؤال الذى قدمناه :

من أين لنا الثقة فى هذا العقل ، وبخاصة أن العقل هو الذى ينقد نفسه ؟ إننا مالم نصل إلى إجابة شافية عن مصدر البدهيات أو المسلمات بصفة عامة تتوفر له الثقة التامة فسيظل حلم الغزالى وشيطان ديكارت احتمالا قائماً .

وحلم الغزالى خلاصته أن العقل لا يمكنه أن يرفع احتمال وجود حالة فوق اليقظة

(١) انظر فى النفس والعقل عند فلاسفة الإغريق والإسلام للدكتور محمود قاسم ص ٢٤٠ ، ص ٣٠٠ إلى ٣٠٣ .

تكون نسبة اليقظة إليها كنسبة حالة النوم إلى حالة اليقظة !

يقول الدكتور سليمان دنيا :

(إن ملاحظة إمكان هذه الحالة من شأنها أن تجعل العقل يكف عن ادعاء : أن أحكامه صحيحة فى الواقع ونفس الأمر . .) .

ولقد وقع ديكارت فريسة لمثل هذا الاحتمال ، وحاول الخروج من الشك الذى وقع فيه ببدهية « أنا أفكر فأنا موجود » لكنه فى تقدير الكثيرين لم يكد يصل إلى هذه البدهية حتى غرق فى بئر الذاتية مرة أخرى ، إذ أن ما أثبته هو وجود الأنا المفكر دون أى شىء آخر . وكل ما بناه بعد ذلك من قضايا — قضية وجود الله ، وأنه لايضل أحداً ، وأنه هو الضامن لصحة الأحكام العقلية — لا يخرج به من دائرة الذاتية البحتة .

إن شك ديكارت تطرق حتى إلى الحقائق الرياضية . . .

ذلك : لأن الذى أدى به إلى ذلك هو احتمال وجود (. . . شيطان يضل صاحب الفلسفة ، أنه يرى أن اثنين وثلاثة تساوى خمسة ، لكن ضرورة حاصل هذا الجمع قد تكون — وفقاً لما يقول — ضرورة داخلية ذاتية بمعنى أنها من ضرورات عالم الأذهان وليس بلازم فيما هو خارج الذهن أن يكون كذلك) . . .

إنه إذا كان حلم الغزالى أو شيطان ديكارت يقف حائلا بين العقل وبين الاطمئنان إلى أن ما يصل إليه يمثل الحقيقة الخارجية . . .

فإننا نجد أن المقياس الذى وضعه البعض للتفرقة بين الحلم واليقظة عن طريق صلاحية اليقظة للاحتكام إلى تجارب مماثلة ، دون الحلم . . .

هذا المقياس نفسه مشكوك فيه ، ويمكن إدخاله برمته فى حكم ما يراه النائم .

يقول آير الفيلسوف المعاصر الذى اقترح هذا المقياس ثم تراجع عنه (من الممكن أن أكون فى هذا مخطئاً) [1] .

ويقول أزفلد كوليه فى كتابه المدخل إلى الفلسفة (يدعى العقليون أن البدهيات التى يحكم بها العقل قضايا كلية صادقة صدقاً ضرورياً لا يتطرق إليه شك .

ويستندون فى ذلك إلى أن هذه الأحكام فطرية أو ذاتية للعقل .

والحقيقة أن كونها ذاتية ليس دليلا على ضرورة صدقها) [2] .

إن هذا — على أقل تقدير — يضع أمامنا احتمالا : هو أن تكون البداهة شعوراً ذاتياً داخلياً لا سبيل إلى أن تعرف شيئاً

---

(١) أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل .
(٢) المدخل إلى الفلسفة ص ٢٤٧ .

عن مطابقته للخارج !

إن العلم اليقيني بالوجود الخارجى عند من يقولون بذلك .. يعنى أن يكون هناك مطابقة بين فكرتنا الذهنية وبين الحقيقة الخارجية ، وهذه المطابقة يستحيل إجراؤها فى رأى كانط . الفيلسوف الألمانى المتوفى عام ١٨٠٤ م .

وذلك لاستحالة إجراء المطابقة بين الفكرة والواقع — إذ كل إجراء من هذا القبيل إنما يؤدى إلى مطابقة بين الفكرة والفكرة .

أى بين فكرتنا عن الواقع ، وبين الواقع كما هو فى فكرتنا ، أما الواقع فى نفس الأمر فلا سبيل لنا إلى إجراء هذه المطابقة عليه !

يقول كانط : (وحل هذه المشكلة ممتنع لجميع العالم امتناعاً مطلقاً)[١] .

ومن هنا ذهب كانط إلى أن البدهيات أمور تابعة لطبيعة العقل نفسه ، فهى خاصة به ، وليست خاصة بالوجود الخارجى .

ووصفها أتباعه بأنها أمور افتراضية نتخذ منها أساساً لبحثنا فى العلوم يقول الفيلسوف الإنجليزى المعاصر السير وليم هاملتون . .

(إن العقل لا يمكنه أن يحصل معرفة يقينية بالأشياء كما هى فى نفسها . . إنه بحسب الواقع ونفس الأمر يحتاج منا ذلك إلى أن نضع العقل نفسه تحت البحث لاختبار مدى قدرته ، وهذا يقتضى منا أن نتخلى عنه وأن نحصل على أداة أخرى نتناوله بالفحص ، والأداة الأخرى لا يمكن الثقة فيها إلا إذا فعلنا بها كما فعلنا فى الأداة الأولى وهكذا دواليك)[٢] .

وهذا هو نفس ما قاله الإمام الغزالى من قبل . .

ولم يقطع الإمام الغزالى هذه السلسلة — الرهيبة — إلا بالإيمان بالله .

الإيمان الذى يوضع فى أول الطريق ، والذى بدونه يصبح العقل وما يبنيه فى مهب الريح .

إذن فالسقوط فى هاوية اللاأدرية هى النتيجة الحتمية لقطع العقل عن أصل خارج عنه يستمد منه ضمان أصالته واستقامته .

أما الذين لم يقطعوا العقل عن أصل خارج عنه ، فقد لزمهم أن يكون إيمانهم بهذه المبادىء العليا سابقاً على إيمانهم بالعقل .

(١) انظر موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين لشيخ الإسلام الشيخ مصطفى صبرى ج ١ ص ٢٣٣ .

(٢) مقال فى المعرفة للدكتور سليمان دنيا ص ٢٩ — ٣٠ .

فكيف تستقيم بعد ذلك دعوى استقلال الفلسفة أو العلم عن الدين مركوزاً فى أساس كل منهما ؟

وبعد : فإذا كان الإيمان الدينى ضرورة أولى فى حركة الإنسان نحو المعرفة العقلية أو العلمية فعلى أى أساس يمكن أن يقوم هذا الإيمان ؟

إن الجواب على هذا السؤال يتمثل فى إجابتين ، أولاهما : الفطرة ، ثانيتهما : الضرورة العملية . .

وبيان أولاهما : أن الإيمان بالله يأتى أولا ، باعتباره فطرة إنسانية لا تحتاج إلى تسويغ من عقل أو علم ، فهو أمر نابع من تكوين الإنسان الطبيعى يفرض نفسه برغم كل أنواع المعوقات والجحود والنكران . . .

يقول الإمام ابن تيمية :

إن فطرة الخلق مجبولة على أنهم متى شاهدوا شيئاً من الحوادث المستجدة كالبرق والرعد والزلازل ذكروا الله وسبحوه ، لأنهم يعلمون أن ذلك المتجدد لم يتجدد بنفسه ، بل له محدث أحدثه .

وهم يعلمون هذا فى سائر المحدثات ، وإن كان ما اعتادوا حدوثه صار مألوفاً لهم ، بخلاف المتجدد الغريب .

وخلق الإنسان من أعظم الآيات ، فكل أحد يعلم أنه هو لم يحدث نفسه ولا أبواه أحدثاه ، ولا أحد من البشر أحدثه ، ويعلم : أنه لا بد له من محدث ، فكل أحد يعلم أن له خالقاً خلقه ، ويعلم أنه موجود حى عليم قدير سميع بصير . ومن جعل غيره حياً كان أولى أن يكون حياً ، ومن جعل غيره عليما كان أولى أن يكون عليما ، ومن جعل غيره قادراً كان أولى أن يكون قادراً . . . كما قال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون ٥١ : ٢١) . .

ثم يقول : « فما عدت هذه المسألة من النظريات التى يقام عليها برهان . فإن الفطرة الإنسانية تشهد بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها بصانع قادر عليم حكيم وهذا قوله تعالى :

(أفى الله شك ١٤ : ١٠) .. وقوله تعالى .. (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) الزخرف ٩ .

وإن هم غفلوا عن هذه الفطرة فى السراء فلا شك أنهم يلوذون إليها فى حال الضراء يقول تعالى : (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) ٣٢ لقمان ويقول تعالى : (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) ٦٧ الإسراء . .

ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفى الشرك .

ويقول ابن القيم فى كتابه مدارج السالكين (إن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر السليمة من وجود النهار ، ومن لم ير ذلك فى عقله وفطرته فليتهمهما.

ويقول الأستاذ محمد فريد وجدى فى كتابه الإسلام فى عصر العلم فى تعليقه على أدلة أفلاطون وأرسطو .

أما أفلاطون فبرهانه يحتاج إلى شىء من العلم والحكمة فهو بعيد عن البرهان الفطرى على قدر بعده عن متناول العقل العادى ، وهذا كما لا يخفى عيب فى الدليل لا يغيب على بصير . . إذ لا يخفى أن الخالق جل وعز أكبر من كل كبير وأظهر من كل ظاهر فكيف يليق أن يكون البرهان على وجوده من الخطأ بحيث يدق على كثير من الأفهام .

وليس أدل على سلامة وجهة نظر ابن تيمية تلك من أن إنكار وجود الله لم يكن مذهباً لأى مجتمع إنسانى فى أى عصر من العصور ، وإنما كان فى بعض الأحيان مذهباً لأفراد اضطروا بعد إنكارهم إلى اتخاذ آلهة أخرى من صنع أيديهم ، فأنشأوا لها نظاماً من الأفكار يدعون الناس إلى التسليم بها كدين من الأديان ، وضربنا المثل على ذلك فى المقالات السابقة ، من أكبر الفلسفات الإلحادية المعاصرة : الفلسفة الوضعية ، والماركسية ، وأوضحنا أنه لم يعد من اللازم فى مواجهة هاتين الفلسفتين ، أن تقوم المناقشة على أساس سوق الأدلة على وجود الله ، وإنما على أساس المقارنة بين المعبود فى الدين الحق والمعبود فى تلك النظريات .

هذا وسوف نواصل الحديث — بإذن الله — فى المقالة التالية ، لنبين الإجابة الثانية التى أشرنا إليها « الضرورة العملية ».

الاجتهاد والإفتاء

مفهومه وضرورته

دكتور / رءوف شلبي

من خصائص الشريعة الإسلامية أنها عامة شاملة سرمدية لأنها أحكام الله التى تحقق للإنسان سعادته فى الدنيا والآخرة .

وسرمدية الشريعة وصلاحيتها للزمان والمكان مرتبط بإلحاق جزئيات الأحكام المستحدثة بكلياتها العامة المتعلقة بأصول التعاشر الإنسانى : العقل ، والنفس ، والمال ، والنسل ، والعرض . ومركز ذلك هو : الاجتهاد .

والاجتهاد : هو تفويض فى السلطة التشريعية من صاحب الحق المطلق فيها وهو الله ورسوله :

(يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم)[1] .

وقد نفى الإسلام أن تكون هناك أدنى سلطة بعد ذلك فيما يتعلق بتشريع الأحكام .

قال ابن عباس : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها فأنزل الله (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا ، قل آلله أذن لكم ، أم على الله تفترون ٥٩ يونس)[2] .

وفى تفسير ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد والضحاك . . نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل[3] .

فالقرآن الكريم ينكر على المشركين أن يتدخلوا بعقولهم فى عملية التشريع لأن العباد جزء من ملكوت الله وكل ما فى الملكوت يجرى على سنن أودعها الله وقوانين بثها فى الكون ، والإنسان كواحد من هذا الملكوت ليس له الحق فى أن يخرج على قانون الله : (لا الشمس

---

(١) الحجرات .

(٢) تفسير الطبرى جـ ١١ ص ١٢٧ .

(٣) الطبرى جـ ٢ ص ٤٢١ .

ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) . (يس ٤٠) .

فكذلك الإنسان ينبغى أن يسير على قانونه الذى شرعه الله له .

ومصدر سلطة الحكم الشرعى هو الله ورسوله يقول الله تعالى :

(فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) . (٥٩ النساء) .

(وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما) . (٦٤ النساء) .

ذلك هو الأصل فى السلطة التشريعة : الله ورسوله .

ولما كانت الأمة الإسلامية قد ورثت شرف تبليغ الدعوة الإسلامية وحماية الدولة الإسلامية حسبما أمرت فى كتاب الله تعالى :

(فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين) . (الأنعام) .

(ثم أورثنا الكتاب الذين أصطفينا من عبادنا » . (فاطر) .

فقد أذن الله لجماعة الحل والعقد وهم العلماء والمتفقهون فى دين الله أن يبحثوا بجهد جهيد مع الإخلاص والحرص والورع على أن يكون ربط الجزء الحادث لحكم ما بكليته العامة على نحو مما يرضى عنه الله ورسوله .

وإذا استعرضنا تاريخ الاجتهاد وقفنا على خاصية فريدة للأمة الإسلامية وهى :

أن الاجتهاد ليس تصيداً للحكم لإرضاء شهوة وليس تسلطاً على الناس لضياع حق ، ولكنه تهيئة فرصة ليعبد الناس ربهم بحكم صحيح وإقامة العدل الذى يرضى الله عنه .

وفى سبيل ذلك كان الاجتهاد له صبغة العمل العلمى التعاونى .

فقد روى أن رجلا قتلته امرأة أبيه وخليل لها فرفع الأمر إلى عمر بن الخطاب وهو عند ئذ رئيس الدولة فتردد هل يقتل الكثير بالواحد . . . ؟ .

تلك حادثة جديدة قاعدتها الكلية : « ولكم فى القصاص حياة » .

فعرض سيدنا عمر رضى الله عنه القضية على فقيه الدولة ومفتيها سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله تعالى عنه فقال له :

« أرأيت لو كان نفراً اشتركوا فى سرقة جزور فأخذ هذا عضواً وهذا عضواً أكنت قاطعهم ؟

قال عمر : نعم

قال على : فكذلك .

فعمل عمر بفتوى على فاقتص للواحد من الكثير .

ومثلها المسألة المشتركة وهى التى مات فيها امرأة وتركت زوجاً : وأما : وإخوة لأم : وإخوة أشقاء : فقسم عمر الميراث حسب الفروض المحكمة :

للزوج : النصف .

وللأم : السدس .

وللإخوة من الأم : الثلث .

فلم يبق بعد ذلك للإخوة الأشقاء شىء فقالوا : يا عمر : هب أن أبانا كان حجراً فى اليم ألسنا أبناء أم واحدة فعدل عمر عن فتواه وأشركهم فى الميراث [1] .

ومن هنا يظهر أن الاجتهاد هو بذل أقصى الجهد لاستنباط حكم شرعى أو تطبيقه لهدف هو أن يرتبط سلوك المسلمين دائماً بأصول الشرع الإسلامى الحنيف فليس الاجتهاد للخروج من حكم فيه مشقة حسب ظروف عصر ما أو مكان ما إلى حكم يتخيل أنه جائز الاجتهاد لأنه أخف الضررين .

والاجتهاد قسمان :

١ ـ اجتهاد فى استنباط الأحكام من مصادرها الأولى : القرآن والسنة والإجماع .

٢ ـ اجتهاد فى تطبيق الأحكام الشرعية والمحافظة على سلامة المجتمع من قانون دخيل يغير سلوك المسلمين إلى نظام آخر .

والمجتهد هو العالم المسلم الورع المستجمع صفات الاجتهاد وهى :

١ ـ العلم بالعربية لأنها لغة القرآن .

وقد قال الإمام الغزالى فى تحديد القدر الكافى للاجتهاد إنه القدر الذى يفهم به خطاب العرب وعاداتهم فى الاستعمال حتى يميز بين صريح الكلام وظاهره ومجمله ومجازه .

٢ ـ العلم بالقرآن وأسباب نزوله وآيات الأحكام والنسخ والمنسوخ ، وقد اشترط الشافعى رحمه الله تعالى ورضى الله عنه حفظ القرآن كله واستيعاب معانيه .

٣ ـ العلم بالسنة الإسلامية : القولية والنقلية والتقريرية .

٤ ـ معرفة المسائل التى حظيت بالإجماع من العلماء السابقين .

٥ ـ معرفة القياس وأوجه طرائقه لأنه

---

(١) راجع حاشية البنانى جـ ٢ ص ٣٨٣ .

وسيلة الاجتهاد فى استنباط الحكم أو فى تطبيقه .

٦ ـــ معرفة المناهج التى سلكها السلف الصالح .

٧ ـــ معرفة مقاصد الشريعة الإسلامية وإدراك الفرق بين موضع يكون أخف الضررين هو الأليق بالفتوى وبين موضع يكون فيه صيانة الحكم هى الأوفق .

٨ ـــ صحة الفهم وحسن التقدير .

٩ ـــ سلامة النية وسلامة الاعتقاد .

١٠ ـــ أن يكون للمسألة نصيب من عرضها للاجتهاد فيها .

١١ ـــ لا يكون الاجتهاد لإرضاء حاكم فى مسألة يراد زجها فى العادات والتقاليد الإسلامية .

متى يكون الاجتهاد :

١ ـــ يكون الاجتهاد واجباً على العلماء الذين تتوفر فيهم شروط الاجتهاد إذا وقعت حادثة ناشئة عن علاقات المسلمين فى مجتمعهم ولم يكن لها حكم معروف وهى مسألة يخاف فواتها .

٢ ـــ ويكون كفائياً إذا كانت الحادثة لا يخاف فواتها .

٣ ـــ الندب لمن شاء أن يستخرج الأحكام من قواعدها رغبة فى خدمة الدين والأمة الإسلامية .

محل الاجتهاد :

والاجتهاد بشروطه ومواصفاته له محل خاص بعيداً عن :

كل نص قطعى من القرآن أو من السنة .

وكل حكم فيه إجماع منقول عن السلف الصالح .

ومعنى ذلك أن محل الاجتهاد هو استنباط حكم المسألة المستحدثة من السلوك الإسلامى فى المجتمع الإسلامى وليس لها حكم معروف .

« قال أبو إسحق الشيرازى » :

مالا يسوغ فيه الاجتهاد على ضربين :

أحدهما ما علم من دين الرسول صلى الله عليه وسلم ضرورة بأن تشترك فى معرفته الخواص والعوام من غير قبول فى التشكيك كالصلاوات والزكاوات .

والثانى : كالأحكام التى تثبت بإجماع الصحابة وفقهاء الأمصار [1] .

إذن فالاجتهاد هو وسيلة استمرار الشريعة فى إصلاحها الزمان والمكان .

وهو واجب العلماء لحماية المجتمع الإسلامى عند تطبيق للاالشريعة ، وحماية

---

(١) نزهة المشتاق شرح اللمع للشيرازى ص ٨٠٣/٨٠٤ .

الشريعة من الاعتداء عليها وهو خاصية هذه الأمة قال الله تعالى :

(وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطون منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا . (٨٣ النساء) .

ولهذا وجبت الحيطة والحذر فى استخراج الحكم ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم :

« أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار » . رواه الدارمى مرسلا .

قال العلقمى : لأن المفتى موقع عن الله حكمه من حلال وحرام وصحة وفساد فإن لم يكن عالماً بما أفتى به أو تهاون فى استنباطه من الأدلة إن كان مجتهداً كان إقدامه على ذلك سبباً لدخوله النار»[1]

الإفتاء والاجتهاد :

الإفتاء نوع من الاجتهاد ولكنه أدق لأنه تحمل مسئولية تحديد الحكم لمسألة معينة بذاتها ، ولهذا شدد العلماء فى شروط المفتى وقد ذكرها الإمام أحمد بن حنبل فى خمس خصال :

(١) السراج المنير شرح الجامع الصغير جـ١ ص ٥٠ .

- أن يكون له نية ليكون عليه نور والمراد الإخلاص لوجه الله .
- أن يكون عليه وقار وله سكينة .
- أن يكون قوياً قادراً على ما هو فيه وعلى معرفته .
- الكفاية والفقه .
- معرفة أحوال الناس .

وقد ذكر العلماء أن عمل المفتى دائر بين ثلاث مسائل :

(ا) ألا يختار قولا متهافتا فى دليله .

(ب) أن يكون حسن القصد فى كل ما يختاره .

(حـ) أن يكون فى فتواه مصلحاً لحال المسلمين وشئون دينهم .

ولهذا ألزموه :

(ا) بأن يردف القول بدليله .

(ب) وألا يتخير المذهب الأضعف .

(حـ) وألا يخرج عن المجمع عليه

(د) وألا يتبع هوى الناس .

(هـ) وأن يأخذ هو بما يفتى به فلا يبيح أشياء لنفسه دون الناس فإن فعل سقطت عدالته[2] .

(٢) راجع أصول لفقه فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة ص ٤٠١ .

اختيار المفتى :

يقول الله تعالى : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) .

والرجل العامى مكلف بأحكام الشريعة وهذا التكليف يلزمه بالتعرف على أحكامها ولهذا فقد أجمع الصحابة على إفتاء العوام وعدم تكليفهم بالاجتهاد .

غير أن العامى لا ينبغى أن يسأل من العلماء إلا من عرف بالتقوى والورع والصلاح ثم بالفقه والذكاء والعدالة وقد اختار الغزالى إلزام العامى باتباع أفضل العلماء ديناً وفهماً .

وللمفتى أن يفتى العامى بغير مذهبه إذا كان ملماً بمآخذ أحكام المذهب الآخر . لأن العامى غير ملتزم باتباع مذهب معين . إنما مذهب العامى هو مذهب مفتيه[1] .

ذلك هو مفهوم الاجتهاد : « بذل أقصى ما فى وسع العالم الورع لاستخراج الأحكام الشرعية من مصادرها الأولى القرآن والسنة أو المحافظة على تطبيق الشريعة صيانة لدين الله والمجتمع الإسلامى .

وضرورة الاجتهاد لاستمرار الشريعة الإسلامية فى أداء رسالتها تصون الناس من عبث البشر وتعطيهم فرصة العبادة الصحيحة لله ولربط سلوك المسلمين فى المستقبل بطريق السلف الصالح الذى تحمل شرف اللقاء بهذا الوحى الصادق الأمين . وإن تبعتنا اليوم لهى أخطر من كل خطر فى الوجود الإنسانى لأن حياة المسلمين إما أن تتبع الجو الربانى الذى يرضاه الله ورسوله وإما أن تتخاذل وتندهش بما للشيطان من أفانين وزينات فتنحرف عن سواء السبيل .

وإن الأمل كبير أن يكون العلماء دائماً على استعداد لإعطاء الدليل على عن أنهم علمـــاء أفضل أمة هى أمة القرآن الكريم .

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . (آل عمران ١١٠) .

والله يوفق ويهدى إلى سواء السبيل والسلام .

دكتور رءوف شلبى

---

(١) أصول الفقه الخضرى بك ص ٣٨٣ / ٣٨٤ .

الدين ينتصر ..
والإلحاد ينحسر

الأستاذ / زاهر عزب الزغبى

فى المقال السابق قلنا بأن بداية النهضة العلمية فى أوربا قد صاحبتها موجة عارمة من الإلحاد .. ولكن اطراد التقدم العلمى قد أدى إلى ظهور طائفة من العلماء قادتهم اكتشافاتهم العلمية إلى أن يتوطد فى نفوسهم الإيمان بوحدانية الخالق . . فتحمسوا فى مناهضة الإلحاد ، وأهابو بالناس أن يعودوا إلى حظيرة الدين ليفوزوا بالسعادة .

وليس ثمة شك فى أن الدين قد كسب جولته مع العلم . . تماماً كما تغلب من قبل على الفلسفة ، ونتائج المباراتين هنا متشابهة إلى حد كبير ، فكما انتصر الدين على الفلسفة وأخضع أساليبها الجدلية البارعة واستغلها فى البرهنة على حقيقته . . كذلك تغلب الدين على العلم واستغل حقائقه الثابتة فى البرهنة على صحته .

ولم يكن ذلك إلا لأن كلا من الدين والفلسفة والعلم ليس إلا طريقاً للوصول إلى معرفة الحقيقة . . وإذا كان الدين يصل إليها بالوحى فإن الفلسفة تستعين بالعقل . . أما العلم فإنه يستعين بالعقل والتجربة معاً . .

ولما كان من الجائز على العقل أن يضل أو يعجز ، وعلى التجربة أن تخطئ أو تفسد ، فإن كلاً من الفلسفة والعلم طريق غير مأمون لمعرفة الحقيقة ، بخلاف الدين فإن الوحى ينبع من لدن بارئ الكون رب السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، العالم المحيط بكل شىء . المدرك لكل شىء ، لا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . فوحيه حق لا يضل ولا يغوى .

وإذا تتبعنا الوسائل الاستقرائية التى ينتهجها — فى الوصول إلى النتيجة المقصودة كل من الفلسفة والعلم نجدها جد متشابهة ، فالعنصر العقلى فيها واضح السمات وله تأثيره وفعاليته . . غير أن الفلسفة قد

تقتصر على المسلك الحدسى وحده دون التجربة الحسية ، ولكنها وهى بصدد تمحيص هذا الحدس العقلى تلجأ فى كثير من الأحيان — بل فى معظمها — إلى التجربة المحسوسة لتنفى أو لتثبت الافتراض الذهنى . . . أما العلم فإنه بالعكس يعتمد اعتماداً كلياً على التجربة المادية الملموسة ليتوصل إلى نتيجة من ذات النوع ، ولكنه فى الوقت نفسه ينحو فى كثير من الأحيان طريق الحدس العقلى الذى يغنيه عن إجراء كثير من التجارب التى يتعذر إجراؤها أو يستحيل بسبب قصور الامكانيات البشرية . . وقد بنيت نظرية النسبية على اثنى عشر فرضاً عقلياً لم تجر لإثباتها تجربة مادية واحدة . . . فجاءت نتائجها كالنتائج الفلسفية بالطريق العقلى المحض . .

ومع ذلك ؛ فإنه لما توفرت للإنسان الإمكانيات المادية ؛ أمكن تطبيق هذه النظرية تطبيقاً عملياً ، وبذلك أسلمت له الطاقة الذرية زمامها » . . . ومن هذا التشابه العريض بين العلم والفلسفة يمكن أن نعتبرهما طرفاً واحداً فى مجال المقارنة بالدين . . .

وفى الأيام الأخيرة ظهرت أبحاث كثيرة تعالج العلاقة بين الدين والعلم ، ولكنها فى جملتها قد ركزت اهتمامها على لوم كل من رجل الدين والعالم لاتخاذ كل منهما موقفاً معادياً من الجهة الأخرى .

ولما كان من غير الجائز أن نحل المشكلة باختيار أيهما وأن نتغاضى عن الثانى وننصرف عنه ، تعين علينا أن نجمع بين الاثنين وأن نوفق بينهما . . . وأتباع الأديان السماوية الثلاث السائدة الآن : من مسلمين ومسيحيين ويهود يقفون على قدم المساواة نفس الموقف إزاء هذه المشكلة . . . وهم فى معالجتهم لها يجب أن يضعوا فى اعتبارهم أن الطرق العلمية والدينية للوصول إلى الحقيقة ليست أصالة متعارضة . . فكل من الدين والعلم يعالجان حقيقة واحدة ، غير أنهما يمثلان نواحى مختلفة . . لأنهما يواجهانها من طرق مختلفة . . وفى مجالات مختلفة . . . والمعالجة الدينية للحقيقة تهدف على الدوام إلى سعادة البشر . . أما العلم فإنه لا يبغى سوى محض المعرفة .

والإيمان الدينى يقوم فى بعض نواحيه على مدركات مخالفة لتلك التى تؤلف مادة العلم الطبيعى . . فالتجارب الداخلية الروحية التى تجىء من طريقها البصيرة الدينية ، وكذلك الانفعالات الداخلية التى تؤجج الشعور الدينى . . لا يمكن

قياسها أو إخضاعها لضوابط رياضية ، أو وضعها موضع الاختبار فى معمل . . وإنما أقصى ما يستطيعه العلم هنا باستقرائه وضوابطه أن يصف الشعور الدينى والانفعال الدينى ، وأن يحدد أشكال التجربة الدينية . . لا يزيد بإمكانياته المادية المحدودة عن ذلك شيئاً .

فالعلم إذن يستطيع أن يصف أشكال التجربة الدينية ، ولكنه لا يستطيع أن يحكم على قيمة مادتها . . فالعلم يصف الخطوات السيكلوجية أما الإيمان فيفسرها بالعلاقة بين الإنسان وخالقه . . وذلك التفسير لا يمكن أن يحكم بصحته أو بطلانه عن طريق الاختبار فى المعمل . . وإلى هنا تعجز الإمكانيات العلمية عن الخوض فى حقيقة الاعتقاد الدينى والإيمان بوجود الله . . . ومن قبل قد ضلت الفلسفة وتاهت فى هذه المسالك الوعرة . .

والذى يجعل النفس المخلصة ترتضى الحقيقة الدينية وترتاح إلى الإيمان بوجود الله إنما هو الطريق الذى رسمه الدين .. فالدين هو الذى يدعونا إلى أن نرى آثار الله بالتأمل فى الطبيعة وفى الحياة الإنسانية . . أن نرى ذات الصانع من خلال صنعته ، وأن نعنو له الوجوه ، ونسلس له القياد .

والقــرآن دائم التقريع للناس لأنهم لا يرون آثار الله فى التجــارب اليومية العامة . . كتعاقب الليل والنهار والشمس والقمر والحياة والموت والنبات والمطر . . وأى تجربة سواء منها الروحية المحضة أو المادية المحضة تصبح تجــربة دينية حينما يرى الاعتقاد فيها معنى دينياً . .

والاعتقاد الدينى يفسر التجارب كلها فى لغة المغزى والعلة الغائية .. وهما خارجان عن ميدان العلم الطبيعى . . وتفسير الدين للتجارب على هذا النحو لا يجعله ملزماً إذا تعرض للمسائل المادية أو الظواهر الكونية — لكى يستخلص منها مغزى أخلاقياً أو معنى له صلة بالألوهية — أن يتعمق فى وصف الماديات أو الكونيات إلا بالقدْر الذى تستسيغه عقول الناس فى وقت توجيه الخطاب . . وقد قال رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » .

فإذا كان الإصحاح الأول من سفر التكوين فى التوراة قد تحدث عن خلق الله للكون فى ستة أيام فإن هذا لا يعد مطلقاً مناقضاً لما استقر عليه العلم من أن الكون قد مرت عليه فترة طويلة من الزمان — لا تقدر بأقل من آلاف الملايين من السنين — حتى

ثم استواء خلقه . . وصحيح أنه قد جاء فى القرآن الكريم : « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » ، (كما جاء أيضاً : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . . ولكن فترة تكامل الكون لا يمكن أن تضغط فى ستة آلاف سنة أو ستة ملايين من السنين .

والخطاب الإلهى لا يعنى فى وقت توجيهه إلا بالمغزى وبالقدر الذى تطيقه عقول الناس . . فالمغزى الدينى لهذا ليس فى أن الله خلق العالم فى ستة أيام وإنما ينحصر فى أن الله خلق العالم . . فالعالم ليس نتيجة مصادفة محضة أو قوى مختلطة عمياء — وهى التى يسمونها بالقوانين الكونية — بل إنه من صنع الله . . والمغزى الدينى فى أن يوم الله كألف سنة من سنواتنا ليس فى أن الأمر كذلك . . بل فى مطلق الاختلاف بين التقديرين : الإلهى والبشرى للكم الزمنى . .

وهذا النص القرآنى على بساطته قد أفحم الكثير من الملحدين الذين حاولوا أن يستغلوا نظرية العلم عن طريقة نشأة الكون ومدة تكامله فى تكذيب الكتب السماوية والارتكاز على هذا التكذيب كمقدمة منطقية فى البرهان على بطلان الدين ، كما أن العلم نفسه أثبت أن القدر الزمنى لليوم يختلف من كوكب إلى آخر فى المجموعة الشمسية الواحدة . .

وقد وردت قصة خلق الكـــون فى الإطار الذى كانت تفهمه وتستسيغه عقـــول البشر إبان الوحى بها . . ولو أوردتهما الكتب السماوية آنذاك على النحو الذى يحاول العلم أن يفصله لضاع المغزى المقصود وسط تفاصيل كان ولا بد أن يعد بسطها فى ذلك الوقت من قبيل العبث أو المهزلة .

ومن هنا يتعين على رجل العلم أن ينظر إلى النصوص السماوية بعين الإنصاف لا التطاول . . فالصورة التى يتشكل بها المضمون الدينى فى آيات الوحى يتحكم فيها الإدراك البشرى والآراء العامة السائدة عن الدنيا فى الوقت والمكان اللذين ينزل الوحى فيهما . وهذه لا يمكن أبداً أن تكون دقيقة أو كافية ، ولهذا يجب دائماً أن ينظر فى الوحى إلى المضمون دون الصورة التى يجب دائماً أن تعتبر رمزاً أو مجازاً . . ولا حاجة أبداً أن تصحح فيما بعد . . لأنها بهذا الاعتبار فى — وقت الوحى بها — قد أدت مهمتها فى التعبير عن حقيقة دينية هامة . . وبهذا الاعتبار أيضاً تظل صالحة لأداء هذه

المهمة فى كل الأوقات والظروف . .

ولو أن الصورة التى عبرت بها التوراة عن خلق الكون جاءت فى قالب من تصورات العلم الحديث عن الكون ما كان لها معنى عند القوم الذين نزلت عليهم بل لم يكن من الممكن إطلاقاً أن يعبر عنها بلغتهم آنذاك . . . فضلا عن أنها كانت ستحتاج بالضرورة فيما بعد إلى تعديل بعد تعديل لأن مبلغ علمنا عن الكون لم يأتنا دفعة واحدة ولم يتكامل بعد . . وربما ظلت المعرفة الإنسانية إزاء هذا الموضوع على الدوام غير كاملة ولانهائية . . .

والخلاصة أنه يتعين على أهل العلم أن لا يتعدوا مجال اختصاصهم فى البحث التجريبى بين ربوع المادة الكائنة ، وبالوسائل الحسية والإمكانيات الإنسانية . . . تلك الوسائل والإمكانيات التى هم أول المعترفين بأنها محدودة وقاصرة . . . فإذا ما حاولوا أن ينظروا إلى ما هو أبعد فليكن بهدى البصيرة والعقل . .

وقد رسم الدين لذلك طريقاً مأموناً لا ضلال فيه ولا انحراف ولا زيغ . .

الكون قائم بأجرامه وفراغه يجرى على امتداد الزمن وفق نظام وقواعد ثابتة . . . كينونته كانت بعد أن لم تكن . . . وقد بدأت على أية كيفية ، وليكن بدء الوجود بذرة « الأيدروجين » كما يقول العلم . . تلك الذرة التى تكونت منها السدم ثم الكواكب ثم الأقمار ، وانتظم فيها الكون جميعه . . فمن هو الموجد لنقطة البداية ؟؟ ذرة الأيدروجين تلك . . . ؟ من الذى طوّرها حتى أصبحت كوناً ضخماً جباراً بما فيه من عوالم تحتوى على مجرات وكواكب وأقمار تشمل مواد مشتعلة وخامدة وجمادات ونباتات وأحياء ؟ ؟

إن التجربة العلمية هنا تقف عاجزة عن أن تساهم فى الرد على هذا السؤال سوى أن تقرر أن كل موجود لا بد له من موجد ، وكل كائن لا بد له من صانع . . . أما حقيقة هذا الصانع الموجود فإن الوحى وحده هو الكفيل بإيضاحها على النحـــو الذى تطيقه عقولنا ، وحسبنا أنه كلما اتسعت معارفنا عن الكون وعمقت بدا لنا عمل الله فى الخلق أبدع وأروع صنعاً .

وخلف هذه الحقيقة العظمى تقبع مجالات أخرى تصاب الأداة العلمية بالفشل أن هى جرؤت على الخوض فيها . .

ومن هذه المجالات الــروح : ماهيتها ودوامها أو فناؤها « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . »

ومنها الغيبيــات كالبعث والحشر والحساب والجنة والنار والجن والملائكة ، فهذه القضايا تخرج عن نطاق العلم الطبيعى الذى يقصر نفسه على بحث الظواهر الكونية الملحوظة أو القابلة للملاحظة .

ولقد حاول العلماء فى الآونة الأخيرة البحث فى موضوع البعث والحياة الأخرى ففشلوا . . لأن نتائج أبحاثهم لم تتعد القول بالإمكان وعدمه ، وكل ما توصلوا اليه أنهم قالوا . بأنه لم يكتشف فى الوجود أى شىء يؤيد الاعتقاد فى حياة شخصية أخرى بعد موت الجسم . وانحلاله . . .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه فى الكثير مما اكتشف عن طبيعة الشخصية وعن العلاقة بين العقل والجسم وعدم فناء مادة الجسم فناء مطلقاً ما يثير احتمالات تتعلق بإمكان الحياة المستقبلة . .

وهذه صورة من صور فشل العلم إذا تعدى مجالاته وتطاول على ما تقصر دونه إمكانياته . . فتبقى المسألة على حالها مسألة اعتقاد وإيمان ، للدين وحده فيها كلمة الفصل والقرار الوحيد .

وموضوع البعث والحياة الأخرى وما فيها من حساب وجزاء يشير إلى نواح مهمة من موضوع العلاقة بين الدين والعلم قد يتيح بحثها طرقاً مجدية فى مسألة التوفيق بينهما . . وإذا رجعنا إلى ما قلنا من أن كلا من الدين والعلم طريق للبحث عن الحقيقــة فيمكننا هنا أن نقول بأن الدين لا يعنى فقط بالبحث عن الحقيقة بل يعنى بالعمل أيضاً ، وبأهدافه النهائية . . وما استشهدنا به فى مقالنا السابق من قول الــبرت أينشتاين عن « أن العلم يخبرنا بما هو كائن أما الوحى وحده فهو الذى يهدينا إلى ما يجب أن يكون » يوضح هذا المفهوم لمهمة كل منهما .

وقد يستطيع العلم أن يخبرنا عن ماهية الإنسان . . وكيف نشأ ؟ . وكيف تطور . . وكيف أصبح على ما هو عليه ؟؟ ولكن الدين وحده هو الذى يخبرنا لم يعيش الإنسان . وعلى أى نمط يجب أن تكون معيشته ؟ وإلى أية غاية يجب أن تكون حياته ؟ . وليس هذا إلا جوهر الدين فى الإسلام ويتحقق بعض هذا الجوهر فى المسيحية

واليهودية على حد سواء . .

إذن الدين ليس مجرد إيمان واعتقاد، ولكنه أيضاً تسليم واعتراف بسلطان الله علينا ، وخضوعنا لإرادته ومشيئته، وطاعتنا لحكمته . . أى أنه اعتقاد وعمل حسب إرادة الله .

غير أن العلم أيضاً قد يوضح أمامنا طريق العمل فهو حين يخبرنا عن ما هية الطبيعة ونظمها وقوانينها يرينا كيف نخضعها لتصريفنا ونستخدمها فى أغراضنا . . ويوضح لنا طريق استغلالها لتحقيق مآربنا ، وكيفية الانتفاع بها على أى وجه نريده .

وهنا يمكن أن نستخدم العلم — كما هو حاصل فعلا — لأغراض بعضها حسن وبعضها قبيح . . للخير أو للشر . « وأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » (سورة الحديد ٢٥) . . .

وهنا تبدو إمكانية اتفاق العلم والدين فى شركة قد تؤدى إلى خـير كثير يخدم الغاية المشتركة بينهما فى إسعاد البشر حين تستخدم القوة الهائلة التى يعطينا إياها العلم فى الأغراض التى يحددها الدين . . . وهنا يكون العلم والدين قد عملا معاً لسعادة الإنسان وفى خدمة الله . . .

ومن الواضح أنه ليس هناك شىء لا دينى فى تزايد سيطرة الإنسان على قوى الطبيعة . والقرآن ملىء بالآيات التى تحض على استخدام كل ما فى ملكوت الله فى كل ما ينفع الناس فى غير معصية أو نكران لنعم الله . « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » (سورة يونس ٥) . . . « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون. لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» (سورة الزخف ١٢ ، ١٣) .

والمغزى الدينى لهذه الآيات وأمثالها يشمل ما توصلنا إليه بالعلم من مخترعات حديثة كقطارات الإكسبريس والبواخر والطائرات . . بل وحتى الصواريخ إذا أمكن الانتفاع بها كوسيلة للسفر والانتقال . .

هذه بعض من طرق التوفيق بين الدين والعلم، وستستقيم الأمور إذا عرف العلماء مدى المجالات التى يمكن أن يزاولوا فيها نشاطهم ، وأن يسلموا بحقائق الدين التى لا تخضع لهم أو تقصر دونها مقاييسهم ،

ما دامت قد جاءت عن طريق وحى الله مؤيدة بدليل صحتها إلى رسول أو نبى ثبت صدقه بالمعجزة . . .

والمعجزة تثير مصـــدراً آخر من مصادر الاحتكاك بين الدين والعلم ، وشبيه بذلك استجابة الله لدعاء العبد الصالح وتحقيق ما يسمى بالكرامة . . وكل من المعجزة والكرامة حصول أمر خارق للعادة يحققه الله حسب رغبة النبي أو الولى ، فكيف يتفق هذا مع النظم والقواعد الثابتة لدوران الكون والعلماء لا يعترفون بتوقف هذه النظم أو تبدلها . . ولكنهم أيضاً يعترفون بالمصادفة . . . وتضيق شقه الخلاف حين يجزم الدين بأن استجابة الله لنبيه أو وليه بتحقيق المعجزة أو الكرامة إنما ينحصر فى دائرة الممكن حصوله أو عدمه ، ولا تتحقق المعجزة أو الكرامة بإيجاد مستحيل الوجود أو إفناء واجب الوجود . . .

وقد فصل علماء الكلام من المسلمين القول فى هذه المسألة وأفاضوا فى البحث عن السببية والمسببية وذهبوا فى ذلك طرائق قددا ، وقد أنكر الأشاعرة القول باطراد القوانين الطبيعية والأسباب الثانوية إذ أن كل ذلك يقع فى دائرة « الجائز » ولا يتعداه . . . وكثير من علماء الطبيعة يؤكد أنه لايوجد فى الكون وراء الاحتمال الإحصائى اطراد يمكن التنبؤ به .

وبدون أن نخوض فى تفصيلات هذا الموضوع وما انتحاه أهل السنة من المتكلمين فى تقسيم كل من « الواجب » و « المستحيل » إلى قسمين عقلا وعادة ، فالواجب والمستحيل عادة هما فى الــواقع من نصيب « الجائز » ولكنهما أخذا صفة الوجوب أو الاستحالة من الاطراد الدائم . وهو القواعد الثابتة التى يسيّر بها الله الكون . . فإشعاع الشمس للضوء والحرارة من قبيل « الجائز » حصولاً أو عدماً ولكنه عند أهل السنة أيضاً واجب عادة لأن الله أراد هذا لطبيعة الشمس : فكان الأشعاع قانوناً ثابتاً لها . . . ومن ثم أخذ صفة الوجوب لاطراده فى العادة . .

وكذلك انطفاؤها من قبيل « الجائز » ولكنه عند أهل السنة أيضاً مستحيل عادة لانه يخالف طبيعة الشمس ونظامها . . . والمعجزة والكرامة عندهم جائزة الحصول فى الممكن العقلى ومن ضمنه الواجب والمستحيل عادة » أى

أن الأمر الخارق للعادة يمكن أن يقع لأنه فى الأصل من قبيل «الجائز» حصولا أو عدماً .

وعلى أية حال فاننا بدون أن نتقيد بفكرة رفض الأسباب الثانوية أو الاعتراف بها نستطيع أن نرى الحقيقة الجوهرية فيما نلاحظه من التوافق الدائم فى عمليات الطبيعة . . ذلك التوافق الذى يعكس عادة الله وطرقه المطردة ضمن تأثير قدرته العليا . . وفى نفس الوقت لا بد وأن نسلم بأنه من المستحيل أن يخضع الله لقوانين وراء قوته وإرادته . .

وإذا كنا حتى الآن قد ألمعنا إلى اختصاص العلم بمجالات محددة — لا يتعداها . . وليس من بينها البحث فى عقائد الدين أو حقائقه . . فإن من اختصاصات العلم أيضاً أنه يستطيع أن يخضع الدين لتجاربه وطرقه الاستقرائية لا من الناحية . العقائدية بل من خلال الإنسان نفسه . فالظاهرة الدينية فى الإنسان — أو العنصر الإنسانى فى الدين — يمكن للعلم بحثها من عدة جوانب إن لم يكن من جميع وجوهها . . . وأخص ناحية فى الظاهرة الدينية لدى الأنسان هى الانفعالات الدينية . ودوافعها فى داخل الإنسان ذاته ، وهذه أمكن بحثها واخضاعها للتجارب السيكلوجية . . أما أشكال الظواهر الدينية ، واتفاق مظاهرها واختلافها ، وتداخلها وأصول انبعاثها ، فقد تكفل بإيضاحها علم مقابلة الأديان وتطور . . هذه الإشكال وتباينهما على مر الأزمان ، واختلاف الأمكنة وتأثر الحوادث بها فتبيان ذلك يمكن أن يتدخل فيه التاريخ . . فإذا أردنا فهم صلاحية الدين للتأثير فى البنيان الاجتماعى قوة وضعفاً كان مجال ذلك علم الاجتماع . . وبهذا الاعتبار يميل كثير من مؤلفى هذا العصر إلى النظر فى الدين من وجهتين : أطلقوا على الأولى الناحية الاعتقادية وهذه لا دخل للعلم فيها بل أمرها متروك للبصيرة الفردية Intuition والإلهام الشخصى Inspiration المؤديان للإيمان الجازم . . . وأطلقوا على الثانية الناحية العلمية : وتلك هى التى أمكن بحثها باعتباراتها المختلفة فى كل من علوم النفس ومقابلة الأديان والتاريخ والاجتماع . . .

زاهر عزب الزغبى

أول قراض فى الإسلام

روى مالك فى الموطأ أن عبد الله وعبيد الله ابنى عمر أمير المؤمنين خرجا فى جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبى موسى الأشعرى وهو أمير البصرة ، فرحب بهما وسهل ثم قال :

لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به .

ثم قال : بلى ، ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمـــير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح .

فقالا : وددنا ذلك .

ففعل : وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا ، فلما دفعا ذلك إلى عمر قال : أكل الجيش أسلفه ؟

قالا : ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا . لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه .

فقال عمر : أديا .

فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله .

فقال أحد جلساء عمر : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضا

فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وجعلهما فى بيت المال وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح المال . قالوا : وهو أول قراض فى الإسلام .

محور المرأة

كانت المرأة عندهم كمتاع يقتنى، وسلعة يستكثر منها، ولا يهم الرجل بعد ذلك ما يصيب الأسرة من تفكك وانهيار، ولا ما يترتب على تعدد الزوجات من عداوة وبغضاء بين النساء وبين الأبناء، حتى تصبح الأسر حرباً على نفسها، ومصدر نزاع وعداوة بين أفرادها . . .

وكان الزوج لا يعنيه الأمر سواء عدل بين أزواجه أو جار، سوى بينهن فى الحقوق أو مال، فكانت حقوق الزوجات مهضومة، ونفوسهن ثائرة، وقلوبهم . متنافرة .

وناهيك بالآثار السيئة التى تصيب الأسرة فتقوض أركانها وتشيع بينهما العداوة والبغضاء والتنابذ والشحناء من جراء هذه الفوضى العائلية .

وليت الأمر كان قاصراً على تعدد الزوجات إلى غير حد فى أبشع الصور وأوخم العواقب بل كان الرجل منهم إذا قابل آخر معه ظعينته . « أى امرأة فى الهودج » هجم عليه فتقاتلا بسيوفهما فإن غلبه أخذ منه ظعينته واستحلها لنفسه ظلماً وعدواناً .

ويكفى لكى ندلل على بؤس المرأة العربية وسوء حالها قبل الدعوة المحمدية أن نسجل أمرين : أولهما : وأد البنات خشية الفقر أو العار... وثانيهما : حرمان المرأة من أن ترث الرجل بعد وفاته ...

وجاءت الدعوة المحمدية فحررت المرأة من فوضى الجاهلية وأخرجتها من الظلمات إلى — النور . ومنحتها كافة حقوقها، وأعادت إليها حرياتها كاملة غير منقوصة .

وقد اعترف المستشرق الفرنسى . « أندريه سرفيه » بفضل هذا الرسول فى كتابه « الإسلام ونفسية المسلمين » فقال :

« لا يتحدث هذا النبى عن المرأة إلا فى لطف وأدب . . كان يجتهد دائماً فى تحسين حالها ورفع مستوى حياتها، وكأنهم مال أو رقيق . وعندما جاء الرسول قلب هذه الأوضاع فحرر

المرأة وأعطاها حق الأرث .

ثم ختم كلمته قائلا :

« لقد حرر محمد المرأة العربية ومن أراد التحقيق بعناية هذا النبى بها فليقرأ خطبته فى مكة التى أوصى فيها بالنساء خيراً وليقرأ أحاديثه المتباينة »

وما أصدق هذا القول :

وما أكثر دفاع النبى عن المرأة وحقوقها !

ألم يقل فى خطبته التى قالها فى حجة الوداع :

« إن لنسائكم عليكم حقاً وإن لكم عليهن حقاً : لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحد تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن — انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن ، وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً . أليس هو القائل :

« أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً وخياركم خياركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى . . وما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم » .

أليس هو القائل أيضاً :

« يا بنى إذا دخلت على أهلك فسلم ، وليكن سلامك بركة عليك وعلى أهلك .. وعن ابن عباس : إنى لأتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى » .

ولها رأيها فى تزويجها وليس لوليها أن يعدو إذنها ويقصرها على من لا تريد إن كانت رشيدة . وعن عائشة رضى الله عنها : أن فتاة قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : إن أبى زوجنى من ابن أخيه يرفع فى خسيسته وأنا كارهة . فأرسل النبى إلى أبيها فجاء فجعل الأمر إليها . فقالت : يارسول الله إنى قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء » ..

ومن أعجب المصادفات أن يجتمع « ماكون » فى زمن النبى أى فى سنة ٥٨٦ ميلادية لبحث : هل المرأة إنسان ؟ وبعد بحث ومناقشة وجدل قرر : أنها إنسان ولكن خلقت لخدمة الرجل وحده . . . ولم يكد يصدر هذا القرار الجائر فى أوربا حتى نقضه محمد صلى الله عليه وسلم فى بلاد العرب إذ رفع صوته قائلا :

(إنما النساء شقائق الرجال)

بل قال للرجال :

ألستم حريصين على دخول الجنة ؟ هذه الجنة التى تحرصون عليها هى تحت أقدام الأمهات وكل امرأة أم . .

وبذلك علم العالم أجمع أن المرأة إنسان مهذب ، له من الحقوق ما للرجال ، من حقرق فى وقت كانت فيه أوروبا تنظر إلى المرأة نظرة سخرية واحتقار .

وفى القرن السابع الميلادى عقد مؤتمر عام فى روما ليبحث فيه المجتمعون شئون المرأة فقرروا أنها كائن لا نفس له . . وعلى هذا فليس لها الحق فى أن ترث الحياة الآخرة . .

ووصفها هذا المؤتمر أيضاً : بأنها رجس كبير وحرّم عليها ألا تأكل اللحم وألا تضحك وألا تتكلم . . ونادى بعضهم بوضع أقفال على فمها .

وفى هذا الوقت كانت المرأة العربية تأخذ طريقها نحو النور وتحتل مكانتها الرفيعة فى المجتمع العربى وتقف — بجانب الرجال فى معترك القتال . .

لقد قالت الربيع بنت معوّذ :

« كنا نغزو مع رسول الله ونسقى القوم ونخدمهم ، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة . .

وعن أم عطية الأنصارية قالت :

« غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات أخلفهم فى رحالهن وأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى . .

وعن أنس قال :

(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بأم سليم ونسوة معها يسقين الماء ويداوين الجرحى .

فمَن بعد هذا كله يكابر ولا يعترف لهذا النبى العظيم بأنه أول من نادى بتحرير المرأة ؟!

ومن هنا — بعد هذا كله — لا يعد هذا النبى الكريم منقذ المرأة من الذل والطغيان والعبودية .

ألا يحق بعد هذا كله أن يصف (أندريه) نبينا الكريم بأنه محرر المرأة ومنقذها ؟!

ألا يحق بعد هذا كله أن يصفه بأنه نصير المرأة ؟!

ألا يحق بعد هذا كله لمسيو (ريفيل) أن يقول بدوره :

(إننا لو رجعنا إلى زمن هذا النبى لما وجدنا عملا أفاد النساء أكثر مما فعله هذا الرسول ، فالنساء مدينات لنبيهن بأمور كثيرة رفعت مكانتهن بين الناس . .)

وهذا أيضاً هو ما دفع العالم الألمانى (دريسمان) أن يسجل قوله :

(لقد كانت دعوة محمد إلى تحرير المرأة السبب فى نهوض العرب وقيام مدنيتهم . . وعندما عاد أتباعه وسلبوا المرأة حقوقها وحريتها كان ذلك من عوامل ضعفهم واضمحلال قوتهم .

وقد كتبت جريدة المونيتور الفرنسية تصور احترام الإسلام ونبيه للمرأة فتقول :

« لقد أجرى الإسلام ونبيه تغييراً شاملا فى حياة المرأة فى المجتمع الإسلامى . . فمنحها حقوقاً واسعة تفوق فى جوهرها الحقوق التى منحناها للمرأة الفرنسية . . . أما تعدد الزوجات فقد أصبح اليوم أخف وطأة مما كان عليه . . ويخف انتشار هذه الظاهرة يوماً بعد يوم . . . ويجب علينا أن نلفت الأنظار إلى شرط موجود عند المسلمين ، وهو أن من حق المرأة أن تشترط على زوجها فى عقد زواجها عدم الزواج بأخرى ، فإذا لم يحترم هذا الشرط كانت امرأته فى حل من أمرها . . .

أما الكونت (هنرى دى كاسترى) فقد تناول عقد الزواج عند المسلمين فقال :

« إن عقد الزواج عند المسلمين عقد يخول للمرأة حقوقاً أدبية وحقوقاً مادية من شأنها إعلاء منزلة المرأة فى الهيئة الاجتماعية ، فلها أن تشترط على زوجها عدم التزوج بغيرها أو غير ذلك من الشروط ، فإن لم يف بهذه الشروط جاز للمرأة أن تطلب الطلاق .

ألا يحق لنا بعد هذا كله أن نصف هذا النبى الكريم بأنه محرر المرأة ومنقذها ؟ !

فى الصدق

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » . وقال : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة » .

زعيم الأنصار بين الاختيار والاختبار

الأستاذ / السيد حسن قرون

لا مناص من الحديث عن نسب الأنصار لنمهد به للحديث عن زعيم الأنصار سعد بن عبادة فالنسب له أثر كبير فى حياته ، وهو عند العرب له وزنه وشأنه ، وفى القرآن الكريم (اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) إذ ترى العرب تقول : اتق الله والرّحم الذى بينى وبينك ، أو أسألك بالله وبالرحم ، ونحن اليوم نعنى بالنسب حين نتعرض لحياة علم من الأعلام ، سواء أكان ذلك فى عالم السياسة والحرب أم فى عالم العلم والأدب؟ فللنسب والبيئة آثارهما الكبيرة فى حياة الإنسان أنّى كان وجوده فى أى زمان بهما يرتفع إلى القمة أو ينحدر إلى الحضيض وسعد بن عبادة رجل من الخزرج وإذا ذكر الخزرج ذكر الأوس ، فهما أخوان صارا قبيلتين يسكنان يثرب ، تصفو الحياة لهم حينا وتتكدر فى كثير من الأحايين ويسكن مع القبيلتين جماعة من اليهود ولا تحلو الحياة لهم إلا بالحروب التى تشن بينهما .

وما رأيت مؤرخاً أو دارساً أو كاتباً للسيرة النبوية أغضى عن نسب الأوس والخزرج ، وهو نسب عريق يعتز به صاحبه ، ويعتّرف به معاديه ، وقد أراد الله الخير للدعوة الإسلامية بانتقالها من مكة إلى يثرب لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى عز ومنعة بين قومه ولا يصلح لدعوته إلا عز ومنعة فى قوم ورثوا حلقة الحرب كابراً عن كابر وهم الأنصار ، ومن ثم نجد محمد بن سعد كاتب الواقدى حين أرخ للبدريين من الأنصار كانت ديباجته لتاريخهم : وشهد بدراً من الأنصار ، وهم ولد الأوس والخزرج ابنا حارثة وهو — (العنقاء) بن عمرو (مزيقياء) بن عامر وهو (ماء السماء) بن حارثه وهو (الغطريف) بن امرئ القيس بن ثعلبة ابن مازن بن الأزد . . . ينتهى النسب إلى كهلان بن سبأ ، وسبأ من قحطان ، وإلى قحطان جماع اليمن . وأمُّ الأوس الخزرج (قَيْلَةَ) بنت كاهل بن عذرة وينتهى النسب إلى

قضاعة وقضاعة من حمير ، وحمير من قحطان ، تقول العرب : الأوس والخزرج أبناء قيلة والنسب إليها شرف الشريف وفخر الفاخر ، لأن نساء (أسلم بن الحاف بن قضاعة) كن ذائعات الصيت فى إنجاب النجباء ولهن السيادة فى بيوتهن ، والقوامة البارعة فى تنشئة الأبناء ، ترى هذا فى الأوس والخزرج كما تراه فى بنى إلياس بن مضر حيث عرفوا بأنهم (خِنْدف) وهى من ولد أسلم بن الحاف بن قضاعة ، ومن أبنائها (مدركة) وهو فى عمود نسب النبى صلى الله عليه وسلم .

وعمرو بن عامر جد الأوس والخزرج هو الذى قاد أبناءه وأحفاده إلى الشمال إبان هدم (سدّ مأرب) فنزل الأوس والخزرج يثرب ، ونزل آل جفنة ابن عمرو بن عامر الشام ، فالأوس والخزرج يجمعهم فى النسب عمرو بن عامر فهم أبناء (ابن ماء السماء) ومن هنا فخر حسان بن ثابت بالنسب والمكان ، فقال :

إما سألتِ فإنا معشر نجب
الأسدُ نسبتنا والماء غسانُ

فى هذا النسب العتيق العريق وفى يثرب ولد سعد بن عبادة ابن دُلَيْم من بنى ساعدة ، فنشأ نشأة كريمة فيها ثراء ونجابة ، وسخاء ونجدة ، وقد سقت إليك هذا النسب بإيجاز غير مخل لأنتقل بك إلى أن هذا النسب الكريم تركه سعد وتركه قومه من الخزرج وإخوتهم من الأوس ، واستعاضوا عنه نسباً أوجده الإسلام وسجله القرآن ، فصار النسب (الأنصار) أنصار محمد صلى الله عليه وسلم وأنصار الإسلام فمنذ التقوا بالرسول وبايعوه بيعة العقبة الأخيرة ، وطلبوا إليه أن يهاجر إليهم وهذا النسب لاصق بهم دال عليهم ، وأنا لا أقول هذا استنتاجاً ولكن أقول واقعاً والحادثة الآتية دليل الواقع وترجمانه[1] حضرت وفود الأنصار باب معاوية بن أبى سفيان ، فخرج إليهم حاجبه (سعد بن أبى بردة) فقالوا له : استأذن للأنصار ، فدخل — وعند معاوية عمرو ابن العاص — فاستأذن لهم ؟ فقال عمرو لمعاوية : ما هذا اللقب يا أمير المؤمنين الذى جعلوه نسباً ؟ اردد القوم إلى أنسابهم ! فقال له معاوية : إنى أخاف من ذلك الشناعة ! فقال عمرو : هى كلمة تقولها إن مضت غضتهم ونقصتهم وإلا فهذا الاسم راجع إليهم ! فقال معاوية لحاجبه : اخرج إليهم فقل : مَنْ كان هنا من ولد عمرو بن عامر

(١) الأغانى — أخبار النعمان بن بشير .

فليدخل ؟ فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم إلا الأنصار . فنظر معاوية إلى عمرو نظر منكر ! فقال عمرو : باعدت جدا — يريد أنه ذهب بالنسب إلى الجد البعيد — فقال معاوية : اخرج فقل : من كان هنا من الأوس والخزرج فليدخل ؟ فخرج فقالها ، فلم يدخل أحد . فقال معاوية : اخرج فقل : من كان هنا من الأنصار فليدخل ، فخرج فقالها ، فدخلوا يقدمهم النعمان ابن بشير الأنصارى ، وهو يقول :

يا سعد لا تُعِد[1] الدعاء فمالنا
نسبٌ نجيب به سوى الأنصار
نسب تخيره الإله لقومنــا
أثقِل به نسبا على الكفــار
إن الذين ثووا ببدر منكم
يوم (القُليب) هم وقود النار

فقال معاوية : قد كنا أغنياء عن هذا!

ونعود إلى سعد بن عبادة لنعيش معه حياته ، ونبحث عن مولده فلا نجد فى الكتب شيئاً يعين سنة ميلاده ، دع عنك اليوم والشهر ، فقد كان التاريخ غائباً عن الحجاز حين ولد ، ولم يشر إليه إلا حين دب الإسلام فى ربوع يثرب وسماها المدينة المنورة ، هنا عرف سعد بإسلامه ، وسعيه فى لقاء نبىّ الرحمة مع إخوانه من المؤمنين الذين صدقوا الله ورسوله ، فخرج مع الوفد الذى حددت أفراده فى أظهر الروايات باثنين وسبعين رجلا وامرأتين آمّين البيت الحرام مع قومهم ، وكانوا زهاء خمسمائة نسمة ، اندسوا بينهم ولم يظهروا نيتهم ، وفى مِنًى ترقب التاريخ حركة هؤلاء المؤمنين ، فوجدهم يتسللون ليلا إلى العقبة ، ثم لما تم جمعهم وافاهم رجلان أحدهما ربعة فى الرجال والآخر طويل القامة ، والأول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والآخر عمه العباس ، وسجل التاريخ معاهدة بين الرسول وهؤلاء المؤمنين الذين سموا الأنصار ، واختار الرسول من بينهم اثنى عشر نقيباً ، تسعة منهم من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ، وكان سعد ممن وقع عليه الاختيار .

ويروى محمد بن سعد (صاحب الطبقات الكبرى) فى هذا الصدد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيباً ، فلا يجدن منكم أحد فى نفسه أن يؤخذ غيره ، فإنما يختار لى جبريل . فلما تخيرهم قال للنقباء : أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومى ؟ قالوا : نعم ... ومعنى هذا : أن سعد بن

(١) لا تعد : لا تكرر النداء .

عبادة اختير نقيباً بوحي السماء .

وتعرض سعد بن عبادة لأذى قريش فى اليوم الثانى للبيعة ، فقد أحس الكفار بهؤلاء الذين بايعوا وعاهدوا ، وأحس الذين بايعوا وعاهدوا بتنبه الكفار لهم ، فعجلوا الرحيل ، ولكن الكفار خرجوا فى طلبهم ، فأدركوا سعدا بأذاخر ، والمنذر بن عمرو ، وكلاهما من بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج ، وكلاهما كان نقيباً ؛ فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد فقبضوا عليه وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله — وهو الشراك الذى يشد به الرحل — ثم أقبلوا به حتّى أدخلوه مكة ، يضربونه ، ويجذبونه بجمته وكان ذا شعر كثير .. يقول سعد : فوالله إنى لفى أيديهم إذ طلع علىّ نفر من قريش فيهم رجل وضيء أبيض شعشاع [1] حلو من الرجال ، فقلت فى نفسى : إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا ! فلما دنا منى رفع يده فلكمنى لكمة شديدة ! فقلت فى نفسى : لا والله ما عندهم بعد هذا من خير ، فوالله إنى لفى أيديهم يسحبوننى إذ أوى لى رجل ممن كان معهم ، فقال : ويحك ! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت : بلى والله لقد كنت أُجير لجبير بن مطعم بن عدى ابن نوفل بن عبد مناف تجارة وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادى ، وللحارث ابن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، قال : ويحك فاهتف باسم الرجلين واذكر ما بينك وبينهما ؟ قال سعد : ففعلت ، وخرج ذلك الرجل إليهما ، فوجدهما فى المسجد عند الكعبة .. وبقية الخبر : أن الرجلين أسرعا إليه فخلصاه من أيديهم فانطلق ، والذى لكمه (سهيل بن عمرو العامرى) والذى أوى إليه وأرشده (أبو البخترى بن هشام) من بنى عبد العزى بن قصى فسعد بن عبادة كتب عليه الجهاد بمجرد أن تابع وبايع . ولم يفت شاعر قريش (ضرار بن الخطاب الفهرى) أن يسجل ما وقع لسعد ، فقال :

تداركت سعدا عنوة فأخذته
وكان شفاء لو تداركت منذراً
ولو نلته طُلّتْ هناك جراحه
وكان حرياً أن يهان ويُهْدَرا

وائتمرت الأنصار حين تفقدوا سعد ابن عبادة أن يكروا إليه ، فإذا سعد قد طلع عليهم ، وما درت قريش أن سعدا سيكون لها بالمرصاد !؟

من هذا الخبر ، نعلم أن سعدا ذو جمة

(١) شعشاع طويل .

وشعر كثير ، ولكنا بعد ذلك لا نعرف شيئاً عن صفاته الجسمية ، وقد يكون ضعيف الجسم لما سنذكره بعدُ ، لكن الكتب التي بين أيدينا تذكر سجاياه وما تحلى به من خلال جميلة ؛ فقد كان يكتب في الجاهلية ، وتلك ميزة فذة في أمة أمية ، وكان يحسن العوم والرمى ، وكان من يحسن ذلك يسمى (الكامل) ، فهو إذن رجل كامل ، وكان سخياً مثل أجداده والسخيّ بالمال سخى بالروح فهو إذن شجاع ، ويذكرون عن كرمه وكرم أجداده : أنه كان ينادى على أطمهم — أى منزلهم — : من أحب الشحم واللحم فليأت أطم (دليم بن حارثة) وكان سعد يفعل ذلك مثل جده في الجاهلية والإسلام ، وكان يبعث إلى رسول الله عند قدومه إلى يثرب كل يوم جفنة فيها ثريد بلحم أو ثريد بلبن ، وأكثر ذلك اللحم ، فكانت جفنة سعد تدور مع رسول الله في بيوت أزواجه . ومن دعائه : اللهم هب لى حمدا ، وهب لى مجدا ، لا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، اللهم لا يصلحنى القليل . ولا أصلح له ، فهو رجل يحب أن يحمد بما يفعل ، ويمجد بما يصنع ، يجير على بنى مناف والشريف يجير الشريف ، وكل قرين بالمقارن ينسب ، وقد وجد في صحبة رسول الله مبتغاه ، فصار رفيع المنزلة مثل سميه (سعد بن معاذ الأوسى) فكان السعدان يستشيرهما الرسول كما يستشير أبا بكر وعمر ، وإن كانت كتب السيرة لم تذكر له بطولة حربية مثل (أبى دُجانة) من الأنصار ، وعلى ابن أبى طالب من المهاجرين ، فقد كان سيدا من سادة المسلمين يسمع رأيه وتقبل مشورته ، وليس معنى هذا أنه نأى بجانبه عن الحرب ضد أعداء الإسلام ، فقد حضر أُحداً والخندق والمشاهد كلها ، وفى بدر كان في المدينة يحرض على القتال ويدعو إلى مناصرة رسول الله ضد قريش ولولا مرضه المفاجئ لأبلى بلاء حسناً . ولذا قال رسول الله : لئن كان سعد لم يشهدها لقد كان عليها حريصاً ، وكفى بذلك تنويهاً وتنبيهاً ! أما في فتح مكة فكان الفارس العنيف المخيف ، ويذكر الرواة أن نبى الله بلغ (ذا طُوى) ففرق جيشه : أمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كُدَى من ناحية عرفة ، وكان الزبير على المجنبة اليسرى وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كَدَاء بأعلى مكة ، واتجه سعد بجيشه متوعدا قائلا : « اليوم

يوم الملحمة ، اليوم تستحل المحرمة » فسمعها عمر بن الخطاب فهرع إلى الرسول يقول له : اسمع ما قال سعد بن عبادة ، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذى تدخل بها.

وفى رواية أخرى: أن المأمور بأخذها قيس بن سعد، وأنا أميل للرواية الأخيرة ، لأن النبي يحرص على ألا يؤلم أصحابه ، واختيار ابن سعد لأخذ الراية من أبيه إصلاح الأمر من طرفيه ، فمن جهة يحول بين سعد وما نوى ، ومن جهة تبقى الراية فى الأنصار وفى يد ابن صاحب الراية .

لماذا وقف عمر منه ذلك الموقف ؟

لقد كانت مكة مدينة مفتوحة ، كما نقول اليوم ، وليس لازماً أن يعنف على أهلها ، ومن الجائز — وهو استنتاج أعتذر إلى سعد منه — أن يكون عمر رأى فيه عصبية لمسها منه حين خطب رسول الله فى حادث الإفك فقال : أيها الناس ما بال قوم يؤذوننى فى أهلى (عائشة) ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت منهم إلا خيراً ، ويقولون ذلك لرجل (صفوان بن المعطل) والله ما علمت منه إلا خيراً ، وما يدخل بيتاً من بيوتى إلا وهو معى . فقال أسيد ابن حضير الأوسى : يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفهم ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم (الذين جاءوا بالإفك) لأهل أن تضرب أعناقهم! هنا قام سعد بن عبادة — وكان يرى قبل ذلك رجلا صالحاً — هكذا جاء فى الرواية فقال : كذبت لا تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا ! فقال أسيد : كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ! وتساور الناس حتى كاد يكون بين الأوس والخزرج شر ، ولكن الله سلم ، نزل رسول الله ودخل بيته ، هكذا حدثت السيدة عائشة رضى الله عنها . وسعد لم ينافق ولم يرتب منذ دخل فى الإسلام وجاهد فى سبيله ولكنه يحمل بقايا عصبية لم يتخلص منها ، ألا تراه يغلظ على أسيد بن حضير لأنه يقف ضد أهل الإفك وكان رأس الفتنة عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى؟ فما بالك إذا كان الأمر خاصاً بقريش الذين حاربوا الدعوة ؟

ويحكى أسامة بن زيد أن سعدا مرض فذهب رسول الله لعيادته فأردفنى وراءه ، فمر بعبد الله بن أبى وهو فى ظل بيته وحوله رجال من قومه فلما رآه رسول الله

رأى أن يجامله فنزل فسلم ثم جلس قليلا، فتلا القرآن ودعا إلى الله عزّ وجلّ، وذكر بالله وحذر، وبشر وأنذر، وابن أبيّ زام لا يتكلم، حتى إذا فرغ رسول الله من مقالته قال — وقد ظهر نفاقه — يا هذا إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقاً فاجلس فى بيتك فمن جاءك له فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تَبْغَتْهُ ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه، فقال عبد الله بن رواحة (خزرجى من النقباء) بلى، فاغشنا به، وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا فهو والله مما نحب وبما أكرمنا الله به وهدانا له! فقال ابن أبىّ حين رأى من خلاف قومه:

متى ما يكن مولاك[1] خصمك لا تزل
تذل ويصرعك الذين تصارع
وهل ينهض البازى بغير جناحه
وإن جُذّ يوماً ريشه فهو واقع؟

وقام رسول الله وتركه فدخل على سعد بن عبادة وفى وجهه ما قال عدو الله (عبد الله بن أبىّ) فقال: والله يا رسول الله إنى لأرى فى وجهك شيئاً تكرهه. قال: أجل، ثم أخبره بما قال ابن أبىّ. فقال سعد: يا رسول الله أرفق به، والله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم له الخرز لِنُتَوِّجَهُ، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكاً — وهذا الكلام يدل على رفقه بابن أبى ولا يخلو هذا من عصبية، وقد يكون أراد أن يجنب النبى والمسلمين الفتنة من جهة أخرى، والأقرب إلى قلب المؤمن أن يكون أراد الأخيرة.

وأغلب ظنى أن سعدا كان عاطفياً له حنان الأمومة على أسرته وقومه، وإلا فبم نفسر ما كان منه نحو أمه بعد وفاتها؟ كانت أمه (عمرة بنت مسعود) من المبايعات وقد توفيت بالمدينة وسعد غائب عنها: لأنه كان فى غزوة تحت راية رسول الله سنة خمس من الهجرة فلما عادوا من الغزوة قال سعد لرسول الله: إن أم سعد ماتت وإنى أحب أن تصلى عليها وقد أتى على وفاتها شهر، وعن ابن عباس قال: استفتى سعد بن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نذر كان على أمه فتوفيت قبل أن تقضيه فقال رسول الله اقضه عنها، ويروى الرواة أن سعداً أتى رسول الله فقال له: إنّ أمى توفيت وأنا غائب عنها أفينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم، قال: فإنى أشهدك أن حائطى (بستانى) المخراف (المثمر) صدقة عنها.. ولم يسكت.. بل قال:

(١) مولاك: ذو قرابتك.

أى الصدقة أفضل؟ قال: اسق الماء، فأقام سقاية في المسجد شرب منها أبوبكر وعمر مع أنها صدقة، ويدور فى خلدى أن سنة (السبل) التى انتشرت فى ديار الإسلام ترجع إلى الاقتداء بسقاية سعد وما زلنا إلى اليوم نرى الناس يتبرعون بمثل هذا تقرباً إلى الله وزلفى. ولم نجد أحداً ممن له سيرة فعل ما فعل سعد، وهذا يدل على عاطفة جياشة، وحنان لا نعرفه إلا من الأمهات نحو الأبناء، وسعد يعلم أن أمه من المبايعات والرسول راض عنها وسعد يومئذ له بنون بلغوا مبلغ الرجال وله من الزوجة الثانية قيس وأمامة وسدوس، فرجل فى مثل سنه وبين ولده يغشى قلبه القلق والارتياع والأسى على أمه إلى درجة تكرار سؤال الرسول عما ينفعها سواء أكان نذراً أم صدقة؟ بل يسأله عن أفضل الصدقات لها؟ إنه رجل فى عروقه عاطفة ملتهبة نحو أسرته ولا غرو إذا رأينا تلك العاطفة تتجلى فى الحرب على قومه من الخزرج، ويقف فى جانبهم ولو كان الحق ليس معهم، يضاف إلى ذلك: أنه كثير التوعك، فقد زاره النبي حين حل بالمدينة فى حكاية أسامة بن زيد، ولم يشهد بدراً لمرضه، وها هو ذا مزمل تحت سقيفة بنى ساعدة وهو مرشح لخلافة الإسلام بعد أن انتقل نبى الإسلام إلى الرفيق الأعلى، من كل ماقدمنا نصفه برهافة الحس ورقة القلب وكلفه بالأسرة والقبيلة، ولا يغض هذا من مكانته، فهو سيد الخزرج بعد استشهاد المنذر بن عمرو فى بئر معونة، وموت رأس النفاق عبد الله بن أبىّ، وله زعامة ترضاها الخزرج ولا تأباها الأوس، وتوفى رسول الله وهو عنه راض لما قدم فى سبيل الله من جهاد ونفقات.

ويسوقنا هذا إلى حديث سقيفة بنى ساعدة وما جرى فيها لنرى ألسعد قضية أم لا قضية له؟ أله حق فى ميراث محمد صلى الله عليه وسلم أم أن غيره أولى منه؟

أعلن أبو بكر رضى الله عنه: أن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت تأكد الأنصار أن الرسول قد مات فاجتمعوا للتشاور فى سقيفة بنى ساعدة ورشحوا للخلافة سعد بن عبادة ولم ينتظروا رأى المهاجرين، لأنه قرّ فى أذهانهم: أنهم آووا ونصروا، وأن المهاجرين وافدون إليهم فى مدينتهم فيجب أن تكون خلافة محمد فيهم، والأوس والخزرج يقبلون سعدا خليفة رسول الله.

وبلغ الخبر أبا بكر وعمر ، فأسرعا إلى القوم ، وفى طريقهما التقيا بأبى عبيدة بن الجراح ، وساروا ولم يسمعوا لنصح عويم بن ساعدة ومعن بن عدى اللذين أشارا بأن يقضى المهاجرون بينهم أمرهم ، وأبوا إلا الاجتماع بالأنصار وهناك وجدوا رجلا مزملا فسألوا عنه ؟ فقالوا : إنه سعد بن عبادة وهو وَجع ، وبدأ الحوار ، فقام خطيب الأنصار فبين حق الأنصار فى الخلافة ، وأراد عمر أن يتكلم فأسكته أبو بكر ، فأدلى بحجج ملكت ناصية الأمر ، أثنى على الأنصار بما لهم له أهل وبيّن حق المهاجرين وحسم الأمر بقوله « لن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش » وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين : وأخذ بيد عمر ويد أبى عبيدة . فقال قائل من الأنصار : منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش! فكثر اللغط ، وارتفعت الأصوات حتّى خيف الاختلاف ، فقال عمر لأبى بكر : ابسط يدك ؟ فبسط يده ، فبايعه عمر فبايع المهاجرون ، ثم بايع الأنصار وتزاحموا حتّى كادوا يطئون سعدا ! قال قائل : قتلتم سعدا ! قال عمر : قتل الله سعدا ؟ وماتت الفتنة فى مهدها : لأنها ولدت بعلة الموت ! وما من شك فى أن أبا بكر هو الشخصية المفروضة على الاختيار — وإن لم يعين بالاسم — فعلى طول الأيام منذ بدأ فجر الإسلام : وهو المنظور إليه ، المقدم على غيره ، وقد أحسنوا القياس حين قالوا ارتضاه رسول الله لديننا أفلا نرضاه لدنيانا ، إشارة إلى تعيينه لإمامة الصلاة بأمر رسول الله.

وإذا نظرت إلى ما جرى فى ذلك اليوم عرفت أن الرئيس هو أبو بكر ، كان عمر يخطب نافياً أن يكون رسول الله قد مات ، فلما قدم أبو بكر . قال لعمر ، على رسلك ، فلما لم يسكت عمر أخذ أبو بكر يخطب ، وهنا انحاز إليه الناس وتركوا عمر .

وفى سقيفة بنى ساعدة أراد عمر أن يتكلم — وقد زوّر فى نفسه كلاماً — فلما دعاه أبو بكر إلى السكوت سكت ، وهم يعرفون فضله وسابقته ، وأنه رفيق رسول الله فى الهجرة ، وأنه أول من أسلم من الرجال ، ولا تثبت الموازنة بينه وبين سعد بن عبادة : فسعد مريض لا يقوم بحجته وينقلها عنه غيره ، وأبو بكر يتحدث فيقنع ويمتع ، وله ذخيرة من الأعمال السابقة ، والإقبال عليه جيد ، والإقبال على سعد مجاملة ، يعرف الأنصار والمهاجرون هذا منه كما يعرفه هو عن نفسه ، يقول — وقد

استاء بعد مبايعة السقيفة أن ينقبض أناس عن بيعته: « أيها الناس، ألست أحق الناس بها ! ألست أول من أسلم؟»

لقد تم الأمر.. فماذا كان من سعد بن عبادة ؟ يقول الدكتور طه حسين فى كتابه « الشيخان » الرواة هنا يضطربون اضطراباً شديداً . . فبعضهم يرى أنه بايع أبا بكر ، وبعضهم يرى أنه امتنع عن المبايعة ، ويرى أنه بايع أخذا بالرواية الأولى — وهو رأى مقبول ومعقول — فقد يكون سعد تأخر عن البيعة لمرضه — وقد رأيناه مريضاً حين الحوار — وقد يكون داخله شيء من الأنصار، لأنهم خذلوه فتريث ثم أقبل على أبى بكر مبايعاً ، وهذا هو المعهود فيه وفى سائر الأنصار ، فقد أدوا ما أدوا رغبة فى رضا الله ورسوله !؟

أغفل ابن هشام فى السيرة النبوية: الحديث عن موقف سعد بعد مبايعة أبى بكر بالخلافة ، لكن صاحب الطبقات الكبرى ذكر: أن سعدا امتنع عن المبايعة وقال لأبى بكر: لا أبايعكم حتى أراميكم بما فى كنانتى ، وأقاتلكم!؟ فلما جاء الخبر إلى أبى بكر قال بشير ابن سعد : يا خليفة رسول الله إنه قد لج وأبى وليس بمبايعكم حتى يقتل ولن يقتل حتى يُقتل معه ولده وعشيرته وكذلك الخزرج والأوس ، فلا تحركوه وقد استقام لكم الأمر ، فإنه ليس بضاركم إنما هو رجل وحده ما ترك !؟ فقبل أبو بكر نصيحة بشير !

وهذا الكلام روّجه أناس أرادوا أن يقطعوا الصلة بين المهاجرين والأنصار ، وأن يضربوا الوحدة فى سوائها ، فالأمة الإسلامية أمة محسودة لها خصوم يتربصون بها الدوائر ! وأنكى دائرة هى دائرة الاختلاف .. مكث سعد مدة خلافة أبى بكر لم يبرح المدينة !؟

وفى عهد عمر جعل الشام موطناً له ، وفى حوران نفسها ، فجعلوا من هذا قصصاً بينه وبين عمر ، ثم قصصاً لموته!؟

يذكر ابن سعد: أن سعد بن عبادة لقى عمر بعد أن ولى الخلافة فى طريق المدينة فقال عمر : إيه يا سعد ، فقال سعد : إيه يا عمر — أهذا يكون منهما ؟ — فقال عمر : أنت صاحب ما أنت صاحبه؟ فقال سعد : نعم .. أنا ذاك وقد أفضى إليك الأمر ، كان والله صاحبك أحب إلينا منك ، وقد أصبحت كارها لجوارك! فقال عمر : إنه من كره جوار جاره تحول عنه ؟ قال سعد : أنا متحول إلى جوار من

هو خير منك — مَن الراوى الذى روى عنه ابن سعد ؟ وكيف رآهما وحفظ ما دار بينهما وأداه إلينا كما هو ؟

رحل سعد إلى حوران من أعمال الشام ثم وافاه أجله لسنتين ونصف من خلافة عمر.. سنة خمس عشرة من الهجرة، فراحوا ينسجون حول وفاته الأقاصيص إلى أن جعلوه قتيل الجن! مرة يقولون: جلس لقضاء الحاجة فى نفق له فاقتتل! ومرة يقولون: كان واقفاً لقضاء الحاجة فأحس دبيباً .. وهذا كله لضرب وحدة المهاجرين والأنصار ، انظر إلى الرواية؟ إنها تقول عن موته : ما علم موته بالمدينة حتى سمع غلمان فى بئر منبه أو سكن وهم يقتحمون نصف النهار فى حر شديد . . قائلا يقول من البئر :

قتلنا سيد الخز رج سعدبن عباده
رميناه بسهمين فلم نخط فؤاده

فذعر الغلمان ، فحفظوا ذلك اليوم فوجدوه اليوم الذى مات فيه سعد !

مَن الذى قام بهذا التحقيق؟ إن هذا إشارة من بعيد لاتهام المهاجرين بقتل سعد ، فاخترعوا تلك الحكاية . . ولا نشك فى أن سعدا عاش وحده وهو كثير التوعك — كما قدمت — فرض ، فمات ولم يكن هناك قتل لا من الجن ولا من الناس ! ؟

لقد نال سعد الرحمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جمع إليه الأنصار بعد غزوة حنين فقال لهم : اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ! ؟

السيد حسن قرون

في الصبر

قال صلى الله عليه سلم : الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك . كل الناس يغدو . فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها .. » ، وقال : عجبًا لأمر المؤمن . . إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن إصابته سراء شكر فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له .

قضايا لغوية ..

أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

دكتور / توفيق محمد شاهين

اللغة ظاهرة اجتماعية غير مادية . .
وتحتاج لذلك عند تحديد عناصرها ، ومعرفة ماهيتها إلى عمليات متعددة غاية فى التعقيد والتداخل ، لتشعب عناصرها بين الإرسال والاستقبال والتداعى والترجمة ، ويسبق كل ذلك تفكير وتقدير وتدبير : (فتبارك الله أحسن الخالقين ٢٣ : ١٤) .

فهى أكثر من أصوات ، وأكثر من أن تكون أداة للفكر وأكثر من أن تكون تعبيراً عن الأغراض لجماعة ما . ولذا صدق أن يقال : إن الإنسان صار باللغة إنساناً ، وبلغ بها العقل منتهاه ، وأخذت بها الحضارة أوجها ذروة واتساعاً .

وحين ترقى اللغة يرقى أهلها ، تأخذ حيزاً من القداسة ، يرفع شأنها ، ويدفع استمرار وجودها ، ويتيه بها أهلها .

وليس بغريب - إذن - أن يكلف بأبحاثها الملوك والرؤساء والمفكرون والفلاسفة فضلا عن سدنتها وعلمائها ، فأبحاث تأصيلها وإدراك كنهها لم تنقطع منذ فجر التفكير حتى الآن ، لما لها من أهمية وغرابة . . إذ أنها فى الواقع جزء من كيانها النفسى والروحى .

ودارت الأبحاث اللغوية - وتدور - حول التطور الخارجى للغة ، وحول التطوير - الداخلى لها : أى فى مجال البنية والطبيعة الصوتية من جهة ، وفى مجال الوظيفة الاجتماعية استعمالا واستمتاعاً من جهة أخرى .

وعلى كثرة الأبحاث المتتابعة والمستمرة فى ماهية اللغة ، فإن نتائج الأبحاث لم تأخذ - غالباً - صفة التعقيد الجامع المانع ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن بعض الأبحاث ذات الصلة الوثيقة باللغة ما زالت تحبو فى دنيا الكشف والمعرفة كتشريح المخ البشرى ، وتصنيف وظائفه وكشف مخبوئه ، وديناميكية عمله المبهر المثير .

ورحم الله علماءنا القدامى ، فقد

أسهموا بجدية وأصالة فى هذه الأبحاث اللغوية بما أسعفتهم الوسائل وتيسرت لهم السبل . فاكتشفوا طرقاً ، وأرسوا قواعد ، وأضافوا ورجحوا . . فهم لم يكونوا عالة ، كما لم يكونوا حملة بريد ، ولا ناقلى رسائل . كما يرميهم خصومهم وشانئوهم .

ومنذ القرن الثانى الهجرى كان كتاب سيبويه أشهر كتاب يصف ميادين الأصوات والصيغ والتراكيب وتتابعت الكتب القيمة بعده .

وخير من يكفينا مؤنة النزال عند التحدى بتفصيل أدق وأشمل وأعمق ، وأخص علامتنا : أبو الفتح عثمان بن جنى (٣٩٢ هـ) طيب الله ثراه بما قدم من بحوث مبتكرة فى فكر ثاقب فرض نفسه على الزمن بالدقة والأصالة والخلود ولعله خير من عرف اللغة الإنسانية الأولى بأنها : « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » فأشار إلى الطبيعة الرمزية الصوتية للغة من جهة وإلى وظيفتها الاجتماعية بين ناطقيها من جانب آخر ، وإن كان التعريف غير مانع ولا جامع كما يقول علماء المنطق ، وشرط التعريف .

• • •

ولغتنا العربية أصيلة ، تنتمى إلى عائلة لغوية كبيرة عريقة عراقة التاريخ ، تعرف : « باللغات السامية » كما أطلق عليها (شلوتزر) العالم الألمانى وزميله (ايكهورن) .

وقد لعبت الشعوب التى تكلمت مجموعة هذه اللغات على مسرح الحضارة العالمية دوراً حضارياً رئيسياً خلد على الزمن.

والعربية غنية ثرة ، حملت فى ثناياها عوامل تزكيتها ونمائها ، ومن ثم سايرت التطور الحضارى والفكرى ، وعبرت فى يسر عن الفكر الأصيل بكل أبعاده حين أضحت لسان القرآن الكريم ووعاءه ، ووسعت الفكر الدخيل حين مست الحاجة إلى التطلع إليه والاستعانة به .

• • •

وقد قطعت الأبحاث اللغوية — اليوم — شأواً بعيداً فى العديد من مجالاته ، بفضل ما تهيأ للباحثين من وسائل التقنية والتكنولوجيا الحديثة ، فكان الجديد والمفيد والمثير ، ثمرة لعاملين متكاملين ، هما علم (الفونتيك Phonetique وعلم (الفونولوجيا Phonologie) بما أسدى للدراسات اللغوية خدمات جُلَّى وكشف إبهام كثير من أمور اللغة ومشاكلها التى كانت تدور فى تجويفات غير علمية وفى توهمات وتهويمات

لا يتقبلها العقل الحصيف ولاتثبت أمام النقد على أسسه وتحت مقاييسه .

ولم يعد بعض العلماء اليوم أسرى تعلم لغة واحدة — كالسمك — يحيا بالماء وتقتله البرمائية — فعرف كثير منهم أكثر من لغة ، لتتضح أمامه الرؤية ، وتزول عنه حواجز القصور ، والحيز الضيق ، والأفق المحدود .

ولغتنا العربية — كغيرها من اللغات — قضايا ومشاكل ، منها ما هو خاص بها ، ومنها ما هو مشترك بينها وبين أخواتها الساميات ، مع ما يلحق بكل منها من لهجات ، مما أوجب اعتبار المجموع كلغة واحدة تفرقت خواصها وأسرارها فى مختلف اللغات الأخوات ، ويقتضينا ذلك البحث والاستعانة بميزات لغة لفائدة شقيقتها ، فى إنارة غامض ، وتوضيح مشكل ، فى لغة بما هو واضح وصريح فى لغة أخرى . وبذلك يتم إيضاح التناسق المعنوى والمنطقى ، وإزالة ما قد يبدو متضارباً ومتناقضاً بين أخوات السامية ، كما يزيل أخطاء ما وقع فيه الأقدمون من خلط وقصور نتيجة الجهل بلغة أخرى ، أو القصور فى معرفة مميزات وتشابهات المجموعات اللغوية كل على حدة .

* * *

وللغتنا العربية قضية خلافية ، طال عليها الأبد ، ولم يتضح وجه الحق فيها حتى الآن ألا وهى قضية الأصل الثلاثى أو الثنائى لها .

وذلك لأن الساميات عموماً تنفرد بميزة ظاهرة ألا وهى الاعتماد على الجزر والاشتقاق ، مما يوجب دراسة النشوء والارتقاء للأصول عسى أن تحل مشاكل الاضطراب فى القواعد أو الضوابط اللغوية بمعنى أصح وتزول نقاط الخلاف فى الشذوذ والاضطراب ، وتخف مشاكل القاموس من النزعات والمتناقضات .

وفى هذه العجالة — سنحاول — بفضل الله — رسم القسمات والسمات البارزة فى هذا البحث الشائك والزاخر ، والصعاب المنهجية لهذه القضية العلمية ، عبر القرون . عله يسد ثغرة شاغرة ويجبر جانب قصور فى قلة الأبحاث العلمية للثنائية والثلاثية .

ومبدئياً — يلاحظ أن بعض الباحثين اللغويين يعد مرحلة « الاشتراك فى الحرفين — أو فى غير الثلاثية — مرحلة تاريخية لم يعد البحث فيها مجدياً إلا ضمن البحث التاريخى ، لأنها بدء مرحلة غير ثابتة ، أى غير مبنى على

بحث واستقراء واسعين للغة العرب التى تبلغ موادها : زهاء ثمانين ألف مادة ، كما ذكر فى لسان العرب[١] وأكثر كما فى غيره .

ولكننا ندعو إلى مزيد من البحث فهذه القضية ، للبت فيها ، إذ هى وسيلة للتأصيل ، وبخاصة لجلاء الطور الذى سبق التصريف ، وبيان أواصر العربية بأخواتها الساميات ، واستخراج النتائج التى من شأنها بيان التلاحق والتناسق المنطقى والمعقول ، فى سير توقع الألفاظ وتطور مداليلها[٢] .

* * *

وكثرة من علماء اللغة أن الرس والأصل للغتنا العربية هو الثلاثى : إذ لا بد من حرف يبدأ به ، وحرف يوقف عليه ، وثالث هو الواسطة بينهما وتلك نظرة الصرفيين أيضاً . . وإذا ثبت أن البحوث النحوية والصرفية فى اللغة العربية قد تأثرت إلى حد كبير بالفكر اليونانى الإغريقى : فلا غرابة فى أن يركن فريق من الباحثين فى هذه القضية إلى القول بالرس الثلاثى ، ومن هنا يريحون ويستريحون على قياس من المنطق الصورى .

على أن من علمائنا القدامى والمحدثين من بحث أمر الثنائية أصالة أو عرضاً أو افترضوا . . وجودها فى مصنفاتهم .

ويصف الأب مرمرجى الدومنكى — سادن الثنائية — العلماء الذين طرقوا باب الثنائية عرضاً أو افترضوا وجودها فى مصنفاتهم بأنهم : « معتقلون فى سجن النظرية التصريفية العتيقة ، القائلة : بأن أصول الكلام أسماء وأفعالا مركبة من ثلاثة أحرف لا أقل » .

وعد الأب مرمرجى — تحت عنوان — ثنائيون أجانب ومصنفاتهم[٣] من العلماء الأجانب الذين بحثوا أمر الثنائية فى لغتنا العربية وأيدوها زهاء الخمسين عالماً ، ابتداء من أوائل القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن العشرين الميلادى . . بعضهم بحث أمر الثنائية فى إيجاز على صورة أبحاث ومقالات ، وبعضهم توسع فى بحثها فأخرج مؤلفات ومصنفات خاصة[٤] فأمرها لم يقتصر على العلماء العرب وإنما أسهم العلماء الأجانب بسهم وافر فى بحث الثنائية فى أسس لغتنا العربية !؟

(١) فقه اللغة العربية — د. إبراهيم نجا ص ٨٩ .

(٢) معجميات عربية سامية : للأب مرمرجى الدومنكى ١١٢ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ٥ — ١١ .

ومن أشهر علمائنا العرب الذين بحثوا أمر الثنائية عرضاً، أو افترضوا وجودها :

ــ ابن جنى (٣٢٠ ــ ٣٩٢هـ) فى « الخصائص » .

ــ وابن فارس فى « مقاييس اللغة » .

ــ والراغب الصفهانى فى « غريب القرآن » .

ــ والبيضاوى فى « أنوار التنزيل » .

ــ وابن منظور الإفريقى المصرى (٦٣٠ ــ ٧١١هـ) فى « لسان العرب » .

ــ ومحب الدين الزبيدى (١١٤٥ــ ١٢٠٥هـ فى « تاج العروس » .

وأشهر من بحث أمر الثنائية من علمائنا العرب صراحة :

ــ أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ــ ١٨٨٧ م) فى « سِرّ الليال فى القلب والإبدال » .

ــ وجورجى زيدان فى « الفلسفة اللغوية » .

ــ وإبراهيم اليازجى فى « مجلة الطبيب » اللبنانية .

ــ والأب أنستاس الكرملى فى « نشوء اللغة العربية » .

ــ وعبد الله العلايلى ، فى « مقدمة لدرس اللغة العرب » .

ــ وعبد الله أمين ، فى كتابه « الاشتقاق » .

ــ وبطرس البستانى (١٨١٩ ــ ١٨٨٣م) فى مقدمة معجمه « البستان » .

ــ والشيخ طاهر الجزائرى ، فى كتابه (الكافى فى اللغة) .

ــ ومنصور بوصالح فى مجلة (الميناء) اللبنانية .

ــ والأب. أ. س. مرمرجى الدومنكى ــ مزاول الثنائية فى كتبه العديدة .

ومن هؤلاء العصريين من ينقل عن المستشرقين ، أو يستلهمهم رأساً كما فعل جورجى زيدان .

أو لاحقاً بواسطة سابق .

ومن الطريف : أن من العلماء من يقول بأن أصل العربية ــ أحادية . . قبل أن يكون ثنائية ــ

وتفصيل ذلك فى المقال القادم بإذن الله .

[الحديث موصول] .

دكتور توفيق محمد شاهين

مواكبة الشعر الجاهلى لأحداث الأيام

الدكتور عفيف عبد الرحمن

جامعة اليرموك — الأردن

لعلنا لا نبالغ إذا زعمنا أن أخبار الأيام لم تصل إلينا إلا عن طريق الشعر ، سواء أكان شعر هذه الأيام الذى رواه الرواة كجزء من شعر الشعراء الذين رووا شعرهم ، أم الشعر الذى نظمه شعراء العصر الأموى ذلك العصر الذى احتدمت فيه العصبيات القبلية وبعثت من مرقدها بعد أن كاد الإسلام يطمسها ويستبدل بها العصبية للدين الجديد . وعلى وجه التحديد ذلك الثالوث الشعرى الممثل فى جرير والفرزدق والأخطل ، فقد أثاروا من خلال تراشقهم بالهجاء والتفاخر أحاديث عن أيام قبائلهم وحروبها ، وكان لتيم نصيب الأسد من تلك الأيام ، وحينما شرح أبو عبيدة نقائض جرير والفرزدق أسهب فى الحديث عن تلك الأيام التى وردت فى شعرهما .

أما رواة الشعر الذين رووا دواوين الشعراء فقد حملوا بالإضافة إلى الشعر مناسبة هذا الشعر وإطاره التاريخى ، ودعاهم ذلك إلى التحدث عن اليوم الذى قيل فيه هذا الشعر بإيجاز .

وعندما عرض المؤرخون لتلك الأيام استعانوا ببعض هذا الشعر الذى وجدوه فى متناول أيديهم ليدللوا على صحة ما يقولون ، فعلوا ذلك لما للشعر من منزلة فى نفوس الناس ، ولما له من أثر فى تزيين الخبر ، ودعاهم هذا الأثر إلى إيراد الشعر دونما تحقيق فيه ، أو فى مصادره أو رواته .

ونود أن نورد عقبات تعترض الطريق قبل المضى قدماً ، منها أن القسم الأكبر من شعر الأيام ليس بين أيدينا ، وهو موزع بين مفقود لم يصل إلينا ولن يصل ، وبين دفين فى بطون المخطوطات من تراثنا ولم تر النور بعد ، كما أن مؤلفات بأكملها قد ضاعت خصصها مؤلفوها للحديث عن الأيام ، ككتابى : أبى عبيدة ، وأبى الفرج . ومن المشكلات أيضاً : أن شعر الأيام ممثلا فى قصائده لم

لم يكن هدفاً فى حد ذاته ، بل كان وسيلة يقتطف منه المؤرخ أو الأديب ما يناسبه ليستشهد به . وقد نتج عن هذه العملية تقطيع أوصال الشعر وتناثره . ومما يؤكد زعمنا هذا أن تميما هى أكثر القبائل حظاً فى بقاء قسم كبير من أيامها ومن شعر تلك الأيام ، كما أن تلك الأبيات المفردة التى تطالعنا فى شعر الأيام الذى بين أيدينا أكبر دليل على ما نذهب إليه ، فقد حُفظت تلك الأبيات المفردة لأن مؤلفاً نحوياً أو عالماً من علماء العربية قد احتاج إليها فدونها ، وذكر مناسبتها وأسقط باقى القصيدة لأنها لا تعنيه . فنى يوم غول الثانى : عيَّر سُحيم بن وثيل الرياحى طارقاً اليربوعى بقتل جاريه ، ولا نجد فى العقد الفريد إلا بيتا من الشعر ذكره صاحب العقد :

لقد كنت جار ابنىْ هجيعة قبلها
فلم تغنِ شيئاً غير قتل المجاور[(١)] .

فهل نتصور أن يكون ذلك الموقف ممثلاً فى بيت واحد من الشعر نظمه على بحر من بحور الشعر التى عرف أنها تستخدم فى الموضوعات التى تستغرق أبياتاً عدة ؟

(١) ابن عبد ربه — العقد الفريد ٥/٢٣٩ .

ومما يدعم وجهة نظرنا هذه أن القصائد التى وردت فى مجموعة المفضليات ، وفى دواوين الشعراء الذين قدر لدواوينهم أن تصل إلينا كانت طويلة مكتملة البناء ، فى حين نجد نسبة المقطوعات كبيرة فى الشعر الذى ورد فى غير الدواوين والمفضليات ، ويزداد الأمر وضوحاً بشكل عملى إذا قارنا بين نص لشاعر ورد فى ديوانه وبين ذلك النص الذى أورده كتاب فى التاريخ أو فى الأدب . ففى يوم الفجار الأول للأنصار ، وهو يوم من حروب الأوس والخزرج ، يقول عبد الله بن رواحة حينما جرح قيس بن الخطيم :

رميناك أيام الفجـــار فلم تزل
حمياً فمن يشرب فلست بشارب[(٢)]

ونجد النص يربو على خمسة عشر بيتاً حينما نطالعه فى الديوان[(٣)] .

ومن العقبات أيضاً ذلك العبث الكثير والتحريف عن قصد أو جهل من النساخ والرواة ، وأحياناً من المشتغلين بتحقيق التراث ونشره . فإن نظرة فاحصة فى نص فى مصادر مختلفة عرضت أجزاء منه تكفينا لملاحظة التحريف الذى قد

(٢) ابن الأثير — الكامل فى التاريخ ١/٦٧٦ .
(٣) ديوان قيس بن الخطيم ١٣٥ .

يصل إلى درجة تغيير المعنى أو نتيجة المعركة التى يتحدث عنها ذلك النص . ومن المضاعفات التى يحدثها ذلك التحريف تغيير بعض الأعلام فيه ، والتى لها أهمية بالغة فى رصد أحداث تلك الأيام .

ولقد ضاعت مقدمات الكثير من قصائد شعر الأيام ، وعلى الرغم من الاعتقاد السائد لدى كثير من الباحثين بأن المقدمة قد تبدو غير ذات أهمية ، إلا أنها قد تكشف لنا أموراً تتصل باليوم أو بطبيعة الغرض ، أو تكشف لنا عن نفسية صاحب النص . ولقد رأينا بعض شعراء الأيام من فرسان تلك الحروب يتحدث فى مقدمة قصائده عن فرسه أو مما يتصل بالحرب مستعيضاً بذلك عن تلك المقدمة الطللية أو الغزلية التى ألفها الشعر الجاهلى كما فعل عنترة وغيره .

هذا عامر بن الطفيل العامرى يفتخر بيوم عكاظ من أيام الفِجار الآخر ، ويبدأ قصيدته بمقدمة يضمنها حديثاً عاماً عن الحرب والفرسان ويفخر بفرسان قومه وبحمايتهم للذمار ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى موضوع الشعر الرئيسى :

ألسنا نقود الخيل قبًّا عوابساً
ونخضب يوم الروع أسيافنا دما
ونحمى الذمار حين يشتجر القنا
ونثنى عن السرب الرعيل والمسوما
ونستلب الحوَّ العوابس كالقنـــا
سواهم يحملن الوشيح المقوما[1]

وأخيراً : فإن من المشكلات المهمة اختلاف المؤرخين والرواة فى إسناد الشعر إلى خبره ، وهم يفعلون ذلك حينما لا يرد ذكر اليوم فى الشعر الذى يوردونه ، فيجتهد كل منهم أو يفتعل قصة لهذا الشعر . . يحدث هذا إذا لم يجدوا مناسبة الشعر من راوية الشعر ، لأننا لو سلمنا بأن كل شعر خلا من ذكر اليوم : مختلق موضوع : لألغينا شعراً كثيراً ، ولأضفنا خللا جديداً يقوّض بنياناً تعاورته عوامل هدم كثيرة من داخله وخارجه .

ويتصل بالإسناد أيضاً : اختلافهم فى إسناد الشعر إلى صاحبه ، لأن ذلك يضيف اضطراباً جديداً إلى الصورة العامة لأحداث تلك الأيام ، وبخاصة أن معظم الشعراء اشتركوا فى الحديث عن تلك الأيام ، وبعضهم أسهم فيها مقاتلا . وفرق بين أن يسند هذا الشعر إلى الحوْفزان ابن شريك أو أن يسند إلى غيره ، لأن معناه أن الحوفزان عاش حتى شهد يوم

(١) ديوانه ١٢٨ .

ذى قار ، وتتغير الصورة إذا أثبتنا أنه مات قبل حدوث ذلك اليوم :

ولما رأيت الخيل شك نحورها
حراب ونشاب صبرتُ جناحا
على الموت حتى أنزل الله نصره
وود جناح لو قضى فاستراحا(١)

* * *

نحن لا نملك تغيير حقائق وصلت إلينا ، ولا نملك أن نضيف إليها عوضاً عن ذلك الذى ضاع ، كما أننا لا نملك أن نصحح ما نستطيع تصحيحه بالنقد والتمحيص والمقارنة ومن ثم ترجيح الروايات الموثقة ، فبين أيدينا مجموعة ضخمة من شعر الأيام بلغت نيفاً وستمائة قصيدة ومقطوعة ، ومطلوب منا أن نقرر مدى قدرة هذا الشعر على رصد أحداث تلك الأيام وتغطيتها .

وقبل أن نجيب على هذا التساؤل نود أن نوضح المقصود بأحداث تلك الأيام وحيثياتها ، فالحرب تنشب بين قبيلتين أو أكثر ، ولابد من سبب لنشوب تلك الحرب ، وقد تطول تلك الحرب فتستمر أكثر من لقاء كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، وحروب الفجار ، وحروب الأوس والخزرج ، وللحرب قادة يقودون فرسان قبيلتهم ومقاتليها ويوجهونهم . وفى الحرب يلتقى الطرفان فيقتتلان ، ويسقط قتلى وجرحى من الطرفين ، ويقع أسرى ، وتسبى سبايا ، وتساق أنعام كغنائم . وفى الحرب تحاك الدسائس وتُدبر الحيل كوسائل للتغلب على الأعداء . وترتفع أصوات خافتة تدعو للسلام ووقف الاقتتال بين المتحاربين أو تدعو إلى الصلح وسط ذلك الصخب وقعقعة السيوف .

تلك هى أبرز الأحداث والتفاصيل المتصلة بالحرب ، ولنحاول أن نتصل بالشعر المتاح لنا لنرى مدى تغطيته لتلك الأحداث . ولنأخذ مثالا لما سنثبته يوماً مهما من أيام العرب ، وننظر فى شعره الذى وصل إلينا لنرى مدى مواكبة هذا الشعر لأحداث ذلك اليوم ، وهو يوم ذى قار .

بين أيدينا من الشعر الذى قيل فيه قرابة أربعين قصيدة ومقطوعة ، وحتى تكون الصورة واضحة فإننا ننبه إلى أنه لابد من أن نستعين بالنثر لتكوين صورة واضحة المعالم

وأسباب هذا اليوم كثيرة ولكننا نرى الشعراء يعرضون لنا سببين : الأول أدرع النعمان التى أودعها عندما أحس باحتمال

(١) النقائض ٢/٦٤٦ وجناح : اسم فرسه .

بطش الفرس به . يقول بعض شعراء بنى ربيعة مفتخراً بأنهم منعوا أدرع النعمان :

ألا من لليل لا تغور كواكبه
وهمّ سرى بين الجوانح جانبهْ
ألا هل أتاها أن جيشاً عرمرماً
بأسفل ذى قار أُبيدتْ كتائبهْ
فما حلقة النعمان يوم طلبتها
بأقرب من نجم السماء تراقبه[1]

وذكر قيس بن مسعود السبب الآخر ، وهو اعتداء قومه بكر على سواد العراق الذى يحميه كسرى ، فقد تعهد قيس بن مسعود أمام كسرى بمنع قومه من الاعتداء عليه مقابل منحة سنوية ، ولكنه لم يستطع فحبسه كسرى ، بسبب تغريره به فقال وهو رهين الحبس :

ألا أبلغ بنى ذهل رسولا
فمن هذا يكون لكم مكانى
أيأكلها ابن وعلة فى ظليف
ويأمن هيثم وابنا سنان ؟
ويأمن فيكم الذهلى بعدى
وقد وسموكم سمة البيان
ألا من مبلغ قومى ومنْ ذا
يبلغ عن أسير فى الأوانى[2]

ويقول الأعشى أيضاً مصراً على عدم التفريط بأدرع النعمان :

حلفتُ بالملح والرماد وبالعزّ
ى وباللات تُسْلَمُ الحلقهْ
حتى يظلّ الهامُ مُنْجدِلاً
ويقرع النبلُ طُرة الدرَقة[3]

أما القبائل المشتركة فى ذلك اليوم فقد تضاربت الأقوال حولها ، فشعراء شيبان يدعون أن شيبان وحدها هى التى حاربت الفرس ، بينما ادعى آخرون أن آخرين اشتركوا معها . ولكن عمرو بن الأسود حدد لنا المشتركين فى ذلك اليوم فقال من أصمعيته :

لما سمعتُ نداءَ مُرّةَ قد علا
وابنىْ ربيعةَ فى الغبار الأقتم
ومُحلّماً يمشون تحت لوائهم
والموتُ تحت لواءِ آل مُحلّمِ
وسمعت يشكر تدعى بِحُبَيِّبٍ
تحت العجاجة وهى تقطر بالدم
وحُبَيِّبٌ يُزْجون كلّ طمرّة
ومن اللهازم شَخْتٌ غيرِ مُصرّمِ
والجمعُ من ذُهْل كأنّ زهاءَهم
جُرْبُ الجمال يقودها ابنا شعثم
قذفوا الرماحَ وباشروا بنحورهم
عند الضرابِ بكل ليث ضيغمِ

(١) الأغانى (طبعة دار الثقافة — بيروت) ٢٣٩/٢٣ .

(٢) الأغانى (دار الثقافة) ٢٢٢/٢٣ .

(٣) نفس المصدر ٢٣٩/٢٣ .

وكان واضحاً فى هذا اليوم أن العرب يقاتلون عدوا من خارج الجزيرة، ولم يكن قتالا بين قبائل عربية ، ويبدو أن ذلك كان واضحاً لدى بعضهم ، فهذا حنظلة بن ثعلبة يقول محرضاً ومبينا شرف القتال فى ذلك اليوم :

يا قومِ طيبوا بالقتال نفســاً
أجْدَرُ يومٍ أن تفلُّوا الفرسا[1]

وترتجز امرأة من عجل، وقومها يقاتلون الفرس، فتقول محذرة من مغبة الهزيمة :

إن يظفروا يحزِّزوا فينا الغُرُل
إيه فدىً أبى لكم بنى عِجِل[2]

وهى بذلك تؤكد اشتراك بنى عجل فى هذا اليوم .

ويقف أبو كلبة ، أحد بنى قيس ابن ثعلبة، مؤنباً الأعشى والأصم لمدحهما شيبان خاصة فيقول مشيراً إلى اشتراك اللهازم وبنى عجل ، ومعترفاً باشتراك شيبان :

لولا فوارسُ لا ميل ولا عُزُلٌ
من اللهازم ما قاظوا بذى قار
إن الفوارسَ من عجلٍ هُمُ أنفوا
من أن يُخَلُّوا لكسرى عرْصَةَ الدار

قد أحسنتْ ذهلُ شيبان وما عدلتْ
فى يوم ذى قار فرسان ابنِ سيَّارِ
هم الذين أتوهم عن شمائلهم
كما تلبَّسَ وُرَّادٌ بِصُدَّارِ[3]

وقد أغضب شيبان تقاعس بعض القبائل العربية عن نصرتها خوفاً من بطش كسرى ، وظهر هذا الغضب والعتاب لقبائل معد على لسان الأعشى إذ قال :

لو أنَّ كلَّ مَعَدّ كان شاركنا
فى يوم ذى قار ما أخطاهمُ الشرَفُ[4]

أما اسم اليوم ومكان اللقاء فقد حدده الأعشى حين قال :

هم ضربوا بالحنو حنو قُراقر
مُقَدَّمَة الهامُرز حتى تولّتِ
فصحهُمْ بالحنو حنو قُراقر
وذى قارها منها الجنود فَفُلَّتِ[5]

وذكر أعشى ربيعة اليوم فيقول :

ونحن غداةَ ذى قار أقمنا
وقد شهد القبائل مُحْلِبينا[6]

ويقول العُديْل العجلى مبيناً أهمية ذلك اليوم :

(١) الأصمعية رقم ٢١ .
(٢) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٠٩ النقائض ٢/٦٤٢ .
(٣) النقائض ٢/٢٤٢ .
(٤) الأغانى (دار الثقافة) ٢٣ / ٢٣٧ تاريخ الطبرى ٢/٢١١ .
(٥) ديوان الأعشى ٣٠٩ ، الأغانى (دار الثقافة) ٢٣/٢٤٠ .
(٦) ديوان الأعشى ٢٥٩ .

وما يُعدُّون من يوم سمعتُ به
للناس أفضلَ من يوم بذى قار(١)

ويسمى ابن قرد الخنزير التيمى هذا اليوم بيوم كسرى ، فيقول متحدثاً عن بنى لجيم :

همُ ضربوا الكتائب يوم كسرى
أمام الناس إذ كرهوا الجلادا(٢)

ويسمى عمرو بن الأسود هذا اليوم بأحد أسمائه وهو ذات العُجْرُم :

ولقد أمرتُ أخاكَ عمراً أمرَه
فعَصَى وضيَّعه بذات العُجْرُمِ(٣)

ولقد حدد أحد شعراء هذا اليوم عدد الجيوش المتحاربة ، هذا أصم بنى الحارث بن عباد يقول :

زحفوا بجمع لا تُرَى أقطارُه
لقحتْ به حرب لغيرِ تمامِ
عربًا ثلاثة آلُف وكتيبة
ألفين أعجمَ من بنى الفدَامِ(٤)

ويبدو أن البعض قد علم باستعدادات الفرس ، وأنهم على وشك الزحف للقضاء على بكر ، فلم يضن هؤلاء على بكر بالتحذير لكى تستعد ، ومن هؤلاء مرداس أو عباس بن مرداس السلمى الذى كان مجاورا فيهم ، ورأى الجيوش مقبلة نحوهم فقال :

أبلغ سراة بنى بكر مغلغلة
إنى أخاف عليكم سربة الدار
إنى أرى الملك الهامرز منصلتا
يزجى جياداً وركبًا غير أبرار(٥)

وكان قيس بن مسعود سجينا عند كسرى ومع ذلك بعث يحذرهم ، ويحدد لهم الأماكن التى عليهم تجنبها :

وصاة امرئ لو كان فيكم أعانكم
على الدهر والأيام فيها الغوائلُ
فإياكم والطف لا تقْرَبُنَّه
ولا البحر إن الماء للهجر واصلُ(٦)

أما لقيط الإيادى — وكانت إياد قد حاربت إلى جانب الفرس — فقد كتب إليهم يحذرهم ويحثهم على تسليم القيادة إلى قائد كفء ليحقق لهزيمة الفرس فقال :

قوموا قيامًا على أمشاط أرجلكم
ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا

(١) تاريخ الطبرى ٢/٢١٢ .
(٢) النقائض ٢/٦٤٦ العقد الفريد ٥/٢٦٦ .
(٣) الأغانى (دار الثقافة) ٢٣/٢٣٩ .
(٤) الأصمعية رقم ٢١ .
(٥) الأغانى (دار الثقافة) ٢٣/٢٣٨ تاريخ الطبرى ٢/٢١١ النقائض ٢/٦٤٤ .
(٦) الأغانى (دار الثقافة) ٢٣/٢٢٨ .

وقلّدوا أمــركم لله دركم
رحبَ الذراع بأمر الحرب مضطلعا (١)

ولقد أحس بعض المقاتلين والقادة برهبة من لقاء تلك الجيوش التى لا قبل لهم بها ، وأدرك الشعراء القادة ذلك فهبوا يهونون من أمرهم ، هذا عمرو بن جبلة اليشكرى يقول مرتجزاً :

يا قوم لا تغرركم هذى الخــرق
ولا وميض البيض فى الشمس برقْ
من لم يقاتل منكم هذى العنق
فجنبوه الراح واسقوه المرقْ (٢)

ويحدثنا المؤرخون أن فكرة اللجوء إلى الصحراء وعدم ملاقاة جيش الفرس قد راودت بعض القادة ، وأن الفريق المعارض لجأ إلى قطع وضن النساء ليدافع كل عن حريمه ، ووقف يزيد المكسر ابن حنظلة مرتجزاً :

من فر منـكم عن حريمــه
وجاره وفــرَّ عنْ نديمــه (٣)

أما الأبطال والفرسان الذين أبلوا فى ذلك اليوم فقد أغفل الشعراء بعضهم ، وذكروا بعضهم ، يقول سويد بن أبى كاهل اليشكرى مفتخراً بيزيد بن حارثة اليشكرى الذى حمل على المرزبان فقتله :

منا يزيد إذ تحــدى جموعكم
فلم تقربوه المرزبان المُسودا (٤)

وتحدث أبو كلبة عن ابن ســيار وبطولته وبطولة فرسانه فقال :

قد أحسنتْ ذهل شيبان وما عدلتْ
فى يوم ذى قار فرسانُ ابن سيار
هم الذين أتوهم عن شمائلهــم
كما تلبس وراد بصــدار (٥)

وذكر بُكيْر ، أصمّ بن الحارث بن عباد ، بطولة أبى قيس فقال :

شدَّ ابنُ قيس شدة ذهبتْ لها
ذكرى له فى مُعْرِق وشآمِ (٦)

ويشير حنظلة بن ثعلبة إلى أحد الفرسان فى ذلك اليوم وهو عمير فيقول :

هذا عمير تحتــه أكــدُ
يقدمه ليس لــه مــردُ (٧)

وكان نصيب قادة كل من الطرفين من الاهتمام قليلا ، فلم يذكروا من جانب الفرس إلا الهامرز والمرزبان ، ومن

(١) الأغانى (دار الثقافة ٢٣/٢٢٤ .
(٢) العقد الفريد ٥/٢٦٨ ، الحماسة البصرية ١/٨٩ .
(٣) الأغانى (دار الثقافة) ٢٣ / ٢٣٢ .
(٤) النقائض ٢/٦٤٣ .
(٥) النقائض ٢/٦٤٣ .
(٦) النقائض ٢ /٦٤٥ ، تاريخ الطبرى ٢/٢١١ .
(٧) نفس المصدرين السابقين .

الجانب العربي النعمان بن زرعة الذي حارب إلى جانب الفرس ، وابن سيار الذي حارب الفرس ، يقول أعشى ربيعة :

فولونا الدوابر واتقونا
بنعمان زرعة اكتعينا(١)

ويقول عباس بن مرداس السلمي :

إني أرى الملك الهامرز منصلتا
يزجي جياداً وركبا غير أبرار(٢)

أما جيوش الفريقين فقد أسهبوا في وصفها وبخاصة جيش الفرس، ولعلهم فعلوا ذلك للمبالغة في تصوير انتصارهم على جيش دولة لم يفكروا أنهم سيهزمونها ويعتبر وصف الأعشى للجيش وللقاء الفريقين من أدق الوصف وأجمله حيث يقول مصوراً جيش الأعداء :

لما أتونا كأن الليل يقدمهم
مطبق الأرض تغشاهم بهم سدف
بطارق وبنو ملك مرازبة
من الأعاجم في آذانها النطف
من كل مرجانة في البحر أحرزها
تيارها ووقاها طينها الصدف
كأنما الآل في حافات جمعهم
والبيض برق بدا في عارض يكف

ويتحدث عن جيش قومه فيقول :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم
منا غطاريف ترجى الموت فانصرفوا
لقوا ململمة شهباء يقدمها
للموت لا عاجز فيها ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصة
موفق حازم في أمره أنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم
مثل الأسنة لا ميل ولا كشف
بيض الوجوه غداة الروع تحسبهم
جنان عبس عليها البيض والزغف

ويصور لنا الأعشى نتيجة المعركة في أبيات قليلة فيقول :

لما التقينا كشفنا عن جماجمنا
ليعلموا أننا بكر فينصرفوا
لما أمالوا إلى النشاب أيديهم
ملنا ببيض فظل الهام يقتطف
وخيل بكر فما تنفك تحصدهم
حتى تولوا وكاد اليوم ينتصف
قالوا البقية والهندي يحصدهم
ولا بقية إلا السيف فانكشفوا(٣)

وتحدث شعراء آخرون عن نتيجة المعركة ، فهذا ضرار العجلي يخبرنا بفرار ضبة الجعراء بعد أسر تسعين كهلا منهم كما أنهم قتلوا سيدهم لأضجم الضبي :

(١) تاريخ الطبري ٢٠٩/٢ .
(٢) تاريخ الطبري ٢١٢/٢ النقائض ٦٤٦/٢ .
(٣) الأغاني (دار الثقافة) ٢٢٨/٢٣ .

كسونا الأضجم الضبي لما
أتانا حد مصقول رقيق
وفرت ضبة الجعراء لما
أجد بهن إتعاب الوسيق
أسرنا منهم تسعين كهلا
نقودهم إلى وضح الطريق[1]

ويخبرنا العديل بن الفرخ العجلي بما استلبوه من القوم المنهزمين فيقول :

جئنا بأسلابهم والخيل عابسة
يوم استلبنا لكسرى كل إسوار[2]

وأفلت في هذا اليوم النعمان بن زرعة التغلبي ، وأخبرنا بذلك مرثد بن الحارث الشيباني حيث يقول :

وأفلتني النعمان قاب رماحنا
وفوق قطاة المهر أزرق لهذم[3]

وقتل الهامرز في هذا اليوم ، يقول الأعشى :

فجاء القيل هامرز
عليهم يقسم القسما
يذوق مشعشعا حتى
وذهلا دون ما زعما[4]

وبالغ الشعراء في تصوير كثرة عدد القتلى من الفرس زهواً بذلك النصر الذي حققوه على الفرس ، فقال الأعشى :

لما أمالوا إلى النشاب أيديهم
ملنا ببيض فظل الهام يقتطف[5]

ويقول في قصيدة أخرى مصوراً ما كانت عليه حالهم وما آلت إليه :

أذاقوهمو كأسا من الموت مُرة
وقد بذخت فرسانهم وأدلتِ[6]

وحدثنا الأعشى عن هزيمة الفرس ومصير نسائهم فقال :

فما برحوا حتى استحثت نساؤهم
وأجروا عليها بالسهام فذلتِ[7]

ويبدو أن قيس بن مسعود وفد على كسرى بعد يوم ذي قار ، فهب الأعشى يلومه ويذكره بيوم ذي قار وبحاجة بكر إليه وبمنزلته :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد
وأنت امرؤ ترجو شبابك وائلُ
أطورين في عام: غزاة ورحلة
ألا ليت قيساً غرَّقتْه القوابلُ[8]

---

(١) ديوان الأعشى ٣٠٩ ، العقد الفريد ٢٦٦/٥ .
(٢) النقائض ٦٤٨/٢ .
(٣) العقد الفريد ٢٦٦/٥ النقائض ٦٤٨/٢ .
(٤) الأغاني (دار الثقافة) ٢٣٣/٢٣ .
(٥) ديوان الأعشى ٢٩٩ ، تاريخ الطبري ٢١٢/٢ .
(٦) ديوانه ٢٠٩ .
(٧، ٨) ديوانه ٢٥٩ .

ثم يذكره بذلك اليوم وبالقتلى فيقول :

كأنك لم تشهد قرابين جمة
تعيث ضباع فيهم وعواسلُ
تركتهم صرعى لدى كل منهل
وأقبلت تبغي الصلح أمك هابلُ[1]

بعد هذا العرض المفصل لشعر يوم ذى قار، فإننا، بمقارنة ما أورده هذا الشعر بما ذكره المؤرخون من أحداث ذلك اليوم ، نرى أن هذا الشعر قد غطى معظم أحداث اليوم ، ولئن قصر فى تغطية بقية الأحداث فإن له فضلا كبيراً وهو أنه رصد لنا بعض الأحداث التى أغفلتها المصادر الأخرى غير الشعر . أما تعليل ذلك التقصير الذى بدا فإما أن يكون متصلا بالرواة وإهمالهم أو نسيانهم بعض الشعر ، وإما أن تكون تلك الأحداث لم تثر اهتمامهم .

وهكذا فى زعمنا نستطيع تطبيق هذا المنهج الذى استخدمناه فى يوم ذى قار على الأيام التى وصلنا قدر كاف من شعرها . أما الأيام غير المحظوظة التى فقد الكثير من شعرها فإننا نقف عاجزين ونستطيع تطبيق ذلك على مجموعات الأيام التى تربط بينها رابطة مّا ، كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، وحروب الفجار وحروب الأوس والخزرج .

• • •

ونختتم مقالتنا هذه بالإشارة إلى نقطتين هامتين : الأولى : أن الرواة والمؤرخين اتُهموا ، أواتهم بعضهم بمحاولة المطابقة بين الحادثة والشعر ، ولكن ذلك لا يؤثر على مضمون الشعر إلا إذا كان منحولا ، فنحن درسنا الشعر ولم ندرس إشارات الرواة وربطهم الشعر بحادثة مّا إلا نادراً .

والنقطة الثانية : أن الشعر قصر عن تحديد الأحداث بصورة ثابتة تاريخياً ، وهذا ليس من وظيفة الشعر ، بل يكفى أنه نقل إلينا صورة حية واضحة محددة عن أحداث اليوم . أما التحديد التاريخى وباقى التفاصيل المتصلة بذلك فقد عجزت كتب التاريخ عن ذلك فكيف بالشعر ! ؟

---

(١) ديوانه ١٨٣ .

هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق فماذا بعد إظهار الحق .

أضيفت إلى المكتبة الإسلامية طبعة جديدة من كتاب إظهار الحق للشيخ رحمت الله العثمانى الكيرانوى الهندى بعد التعريف بها تعريفاً جديداً وتحقيقها تدقيقاً وقدم لها فضيلة الأمام الأكبر شيخ الأزهر . وألحق بالكتاب بجزأيه ستة ملاحق هى :

١ ـ مناظرة الشيخ القسيس بفندر .

٢ ـ مناظرة الشيخ القسيس كثى .

٣ ـ رسالة « التنبيهات فى إثبات الاحتياج إلى البعثة والحشر » .

٤ ـ رسالة « خلاصة الترجيح للدين الصحيح » .

٥ ـ مختصر الأجوبة الجلية فى دحض الدعوات النصرانية .

٦ ـ رسالة الفاتيكان (٢) فى شأن الديانات غير المسيحية .

وانتخب المحقق بعضا من المخطوط الأصلى للمؤلف « إظهار الحق » أضاف صورها بالطبعة .

ومن تقديم فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر .

« أرأيت إلى هذا التكريم الذى أحاط الإسلام به مريم عليها السلام ، وعيسى عليه السلام ؟ .

إنهما فى التكريم السامى الذى أنزل الله فيه المصطفين من عباده المقربين . وبينما يفترى اليهود على مريم افتراء نزهها الله عنه ، وبينما يرميها قتلة الأنبياء بالفاحشة ويتهمونها بالزنى ، إذا بالقرآن ، وبالجو الإسلامى كله قديمه وحديثه ، يعتبرها قديسة صديقة .

وبينما ينكر اليهود على عيسى عليه السلام ، نبوته ، ويرمونه بالكذب ، إذا بالإسلام يعترف بنبوته ، وبأنه عبد الله ورسوله ، وبأنه وجيه فى الدنيا والآخرة .

وبينما ينكر بعض مؤرخى الأديان ، مجرد وجود المسيح عليه السلام إذ لم تثبت لديهم الأدلة التاريخية على وجوده ، وعللوا المسيح والمسيحية بأنهما من اختراع

القديس بولس ، وأن المسيح ليس إلا أسطورة لم يقع لها وجود إلا فى خيال القديس بولس ، إذ بالإسلام يوجب على أتباعه وجوباً حتمياً : الإيمان بعيسى عليه السلام ، نبياً ، ورسولا ، ومباركا ، ووجيها : فى الدنيا والآخرة .

عيسى ؟

إنه جزء من إيماننا نحن المسلمين : نبى ، معصوم ، مبرأ من المعصية وأمه صديقة ، اصطفاها الله ، وطهرها على نساء بنى إسرائيل .

من هذا الأساس ينطلق الكتاب المسلمون : القدماء منهم والمحدثون حينما يكتبون عن المسيحية ، ومن الكتاب العلماء المفكرين « رحمت الله الهندى » ، إنه عالم ثبت واسع الثقافة دقيق التعبير ، متروى .

وقد كتب هذا الكتاب الذى نقدم له ، وهو « إظهار الحق » بعد أن جال جولات واسعة متعمقة فى مختلف الكتب التى تحدثت عن الأديان بصفة عامة ، أو تحدثت عن دين معين بصفة خاصة .

ولقد وفقه الله سبحانه وتعالى توفيقاً كبيراً فى « إظهار الحق » وكان كتابه صورة دقيقة للعنوان الذى وضعه للكتاب .

ولقد طبع الكتاب من قبل ، ثم أحب السيد المستشار محمد كمال فراج أن يعرف به تعريفاً جديداً وأن يحققه تحقيقاً دقيقاً فرجع إلى أقدم المخطوطات وراجعها وقارنها ببعضها فجزاه الله خير الجزاء وأحسن إليه إحساناً جميلا .

ونرجو الله أن يهدى للكتاب وأن يهدى به ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

ويعرف المحقق بالكتاب فيقول :

قرأت « ميزان الحق » للقسيس بفندر وقرأت « ميزان الحق » للمبشر سنكلر تسدل منقحاً طبعة فندر فلم أجد مناصاً من دراسة كتاب « إظهار الحق » للشيخ رحمت الله الهندى فبدت الحاجة إلى إعادة طبعه فاعتمدت على النسخة المطبوعة بالمطبعة العلمية بمصر ، وزكى الحاجة إلى غايتى أننى عندما توليت إعادة كتابته قبل طبعه شدتنى الحاجة إلى مطالعة الكثير من آثار شيخنا المطبوعة والمخطوطة وأقربها إلى موضوع الكتاب ذلك المخطوط المسمى « إظهار الحق وإخفاء الباطل » وقدمه بعبارة ومقابلة فى رد الإسلام والمجلد مخطوط فى أول شهر محرم سنة ١٢٨٤ هـ لمؤلفه الشيخ الحاج رحمت الله الهندى وقد اخترنا من أبواب الكتاب الفصل السادس فى الكلام على محمد

ونبوته والأجزاء الخاصة فى حدوث القرآن وفى الناسخ والمنسوخ – ومن الباب الرابع فيما يجب على المسلمين دينا أن يفعلوه بمن يخالف مقالته .

وكلما توغلت فى فكره وذلك أجدى سبل التحقيق : تأكد لى تماسكه وتناغمه وتوافقه وانسجامه وأفصحت عن رغبتى لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر لما استقرأت حاجة المسلمين إلى هذا المؤلف فزكاها فلما نقلتها إلى المعنيين أعربوا عن حماس أشد : أضاف إليه لدىَّ تربص الاستعمار الإلحادى والتفافه بل توغله فى بلاد المسلمين ولا جدوى من التصدى له طالما اكتنف الغموض عقيدة المؤمنين ، والتاريخ يؤكد أن تنكر الناس للدين جاء أثراً لتورط رجال الدين فى أمور أساءت إلى الدين لأنهم جعلوا من أنفسهم مصدراً للدين مما أشعل الصراعات بين فرقهم فساقوا الناس إلى نبذ الدين . . (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ١٠ : ٧،٨) والتناقض هو الذى يستقطب اتجاهات الاستعمار الإلحادى ولا سبيل إلى إزالة التناقض بغير إظهار الحق وبيان الحقيقة .

والشيخ رحمت الله ولد فى قرية كيرانة بالهند عام ١٢٣٣ هجريه وتوافق مارس عام ١٨١٨ ميلادية فى مجتمع حرص فيه السلاطين على تكريم العلم والعلماء فى التعليم والطب والقضاء وقد أتاح المجتمع للشيخ رحمت الله أن يدرس شتى المعارف فى الدين والطب والهندسة والرياضيات حتى عين سكرتيراً أولا فى الحكومة ثم تركها وانصرف إلى التدريس ، وفى تلك الحقبة كانت بعثة المبشرين تؤدى مهامها تحت رئاسة القسيس بفندر فتنبه الشيخ إلى الخطر الداهم ، فعكف على دراسة النصرانية لمحاجاة المبشرين ، وبعدها تلقى دعوة من ذلك القسيس للمناظرة العلنية إحقاقا للحق وإزهاقاً للباطل التى انعقدت فى ١ /٤/ ١٨٥٤ م فى خان عبد المسيح فى حى أكبر أباد فى مدينة أغرة ، وشارك فى الحضور جمهور غفير من الحكوميين والدبلوماسيين ، وعلماء الدين والصحفيين واستقر الحوار حول مسائل النسخ والتحريف وألوهية المسيح ، والتثليث ، ووحى القرآن وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام وفى موضوع التحريف : سلم القسيس بوقوعه فى بعض مواضع فكان ذلك حجة عليه لم يقبل الحاضرون دفاعه عنها مما أثار الغضب والحدة واحتدام المناقشة والاستفزاز .

وروى إتمام الحوار بمساجلات كتابية زاد من أهميتها التزام الشيخ بقبول النصرانية إن هو أخفق فى الرد على أجزائها

وبعد ما علم الإنجليز بنتيجة المناظرة أمرت باستدعاء القسيس بفندر ثم كلف مبشراً بالقسطنطينية فاتصل بالسلطان عبد العزيز خان بالقسطنطينية وقص عليه كذباً وقائع المناظرة فأرسل السلطان يستدعى الشيخ الذى ما إن علم بوصوله حتى مضى القسيس زائغا فلما اطمأن السلطان إلى كلام الشيخ كلفه بطبع المناظرة وشرحها فبدأ تحت اسم « إظهار الحق » عام ١٢٨٠ هـ وبعدها ترجم إلى لغات شتى وطبع فى مصر مرات عديدة بعضها باسم « إبرار الحق » وبعضها باسم « تأييد الحق برحمت الله » .

واستقر مقام الشيخ فى مكة ليدرس فى المسجد الحرام علوم الفلسفة والرياضة والدين واللغة حتى قدمت السيدة صولت النساء بيغم فعاونته على إنشاء المدرسة الصولتية كمدرسة نظامية لخدمة الوافدين وتعليمهم وإعانتهم على كسب عيشهم .

وتبعاً لنشاطه كثرت رحلاته نشراً لمعلوماته ولعلومه ومعارفه فى درء الفتن والمحن حتى أفل راجعاً إلى مكة فغلبه المرض حتى قبضه الرفيق الأعلى فى رمضان عام ١٣٠٨ هجرية رحمه الله ونفعنا بعامه .

موضوعات الكتاب إجمالا :

أظهر المؤلف فى الباب الأول والثانى أن اليهود حرفوا التوراة عمداً وذكر أمثلة من أسفار موسى الخمسة وأسفار الأنبياء على التحريف اللفظى والمعنوى بالتبديل والزيادة والنقصان . وأظهر أن النصارى قد ضاع إنجيلهم النازل من السماء والموجود الآن بأيديهم أناجيل منسوبة إلى متى ومرقص ولوقا ويوحنا وفى الأناجيل أخبار متناقضة وأقوال غير متطابقة !؟

وأظهر فى الباب الثالث : أن الله ينسخ الشرائع لمصالح المكلفين ، فقد كانت أحكام فى شريعة نوح نسخت فى شريعة موسى ، والقديس بولس ادعى فى رسائله : أن الإنجيل ناسخ للتوراة فى حين أن المسيح صرح بأنه غير ناسخ للتوراة . وذلك فى قوله « لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس » (متى ٥ : ١٧ إلخ) .

والإسلام قد نسخ الشريعة السابقة عليه لمصالح المكلفين ، حيث نزل خاتم الرسالات ومهيمنا عليها .

وأظهر فى الباب الرابع : أن « الله واحد» ونقد التثليث بأدلة عقلية ونقلية من التوراة والإنجيل وذكر اعتراضات النصارى

على المسلمين فى مثل ما جاء فى القرآن أن المسيح « روح الله » ورد على كل اعتراض بأدلة مقنعة . وناقش النصارى فى قولهم إن المسيح « ابن الله » وبين أن هذا اللفظ على المجاز تنقصه القرائن وأنه يطلق فى عرف اليهود والنصارى على كل عبد من عباد الله .

وفى الباب الخامس : أثبت إعجاز القرآن وصحة الأحاديث النبوية الواردة فى كتب أهل السنة والجماعة .

وفى الباب السادس : أثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بآيات من التوراة كتبها موسى عن محمد إذا كان هو الكاتب . وبآيات من الإنجيل كتبها المسيح عن محمد إذا كان هو الكاتب . ثم ذكر مطاعن المبشرين والقساوسة على نبي الإسلام والقرآن ، ورد على هذه المطاعن .

بين عالم . . وملك

دخل عمرو بن عبيد على أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وكان أعظم ملوك الدنيا فى عصره فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله عز وجل يقفك ، ويسائلك عن مثقال ذرة من الخير والشر ، وأن الأمة خصماؤك يوم القيامة ، وأن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك ؟ ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليك ، وأن الله جل وعز لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية .

يا أمير المؤمنين : إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور ، والله ما يحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فبكى المنصور ؟ فقال سليمان بن مجالد وهو واقف على رأس المنصور :

— ياعمرو ، قد شققت على أمير المؤمنين .

فقال عمرو : يا أمير المؤمنين من هذا ؟

قال : أخوك سليمان بن مجالد !؟

باب الفتاوى[1]

الأستاذ عبد الحميد شاهين

س ١ – الرجل الذى يختزن المخدرات للغير مقابل عمولة معينة يأخذها ، فهل ما يأخذ يكون حراماً أم حلالاً ؟ .

(ج) إننا نحب أن نوجه إلى معنى كل من الحلال والحرام ، لتكون الأمور واضحة الحدود بينة المعالم ، فنقول: إن الحلال هو ذلكم الأمر المباح الذى انحلت فيه عقدة المنع والحظر ، وأذن لنا الشارع فى فعله ، لأنه لا يؤذى فرداً ولا جماعة ، ولأنه بعد مما يحقق بناء مجتمع نظيف على أساس من الخير للجميع .

وأما الحرام: فهو ما ينهى عنه الشارع نهياً جازماً بحيث يكون لفاعله عقوبة فى الآخرة وقد يتعرض فاعله ومرتكبه لعقوبة شرعية فى الدنيا . والله سبحانه وتعالى جعل التحريم والتحليل لعلل معقولة ترجع لمصلحة البشر أنفسهم ، وللمجتمع الذى يعيشون فيه ، حتى يتم الترابط على أساس صحيح من الخير والمنفعة ، والمخدرات جميعها حرام لا يجوز تعاطيها ، لأنها أمام هذه الكلمة الجامعة التى قالها عمر رضى الله عنه مبيناً للناس مفهوم الخمر التى جاء تحريمها بنص القرآن الكريم فى قوله تعالى (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) فقال الخمر كل ما خامر العقل ، وهذه الأنواع كلها تخرج العقل عن طبيعته فى الحكم على الأشياء إلى غير ما أثبته الطب

---

(١) الإجابة للمرحوم الإمام الشيخ محمود شلتوت .

الحديث من فساد فى الصحة وانحراف فى الفكر ، وما عرفه متناولوها وعرفه المتصلون بهم من خنوع وتبلد فى الرأى وتبلد فى الطبع ، وتميع فى الخلق ، وتحلل فى الخلق ، وعدم القدرة على الإحساس أو الشعور بالواجب إلى غير ذلك ، وحينما ثبتت حرمتها بالنسبة للتعاطى فإن الشريعة تحرم كل ما يؤدى إلى التمكين منها بالاتجار أو بالاختزان أوغير ذلك ، وتحرم كذلك كل ما يأتى عن طريقها من مال ، فإن الله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وقد جاء فى الحديث الشريف «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه ومن أكل ثمنها» . ولاشك أن التحريم يتبع الخبث والضرر فكلما وجد ذلك وجد بجواره التحريم الذى يحفظ الفرد والجماعة — وبذا تكون العمولة على هذا النحو حراماً ، ولا يحل ما يأتى من هذا الباب مطلقاً .

س٢ — البقال الذى يزور بطاقات تموينية بأسماء وهمية بقصد الاستيلاء على مواد التموين عن هذا الطريق ، فما حكم المال الذى يدخل يده عن هذا الطريق ؟ .

(ج) إن حرمة مثل هذا العمل ظاهرة واضحة فكم مخالفة ارتكبت فى هذه العملية ، إنه فوق ما ارتكب من غش وتحايل احتجز هذا المال لنفسه واحتكره ليعلى به الأسعار ويحرم منه من هو فى أمس الحاجة إليه (والمحتكر ملعون) كما جاء فى الحديث ، وللحاكم أن يتخذ من الأحكام ما يضمن به للمجتمع سعادة ويسار وهناءة فى العيش .

س ٣ — الحارس على أموال القصر إذا اضطر إلى ترميم البناء أو إصلاحه وتقدم له من سيعمل وقد قدر سعراً رضى به ثم وصل باجتهاده إلى سعر أقل فما حكم هذا الفرق ، هل هو حرام أم حلال ؟ .

(ج) إن هذا العمل يعتبر عدوانا على كيان الأمة لأن هؤلاء اليتامى القصر هم اللبنات الرطبة التى يشاد على كاهلها فى المستقبل بناء المجتمع والتلاعب فى

أموالهم : دروس تسيء إلى نفوسهم وتقف بأموالهم عن الإنماء والتقدم ، والحارس مطالب بكل ما ينمي مال القاصر ، ومطالب باستثماره استثماراً طيباً ، والحارس كالولى لا يجوز له أن يأخذ من مال اليتيم أو يتلاعب فيه ، وإنما أذن له إن كان فقيراً أن يأخذ منه ما يكفيه بالمعروف ، يقول الله تعالى : (وابتلوا اليتامى حتّى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم) . ويقول تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا) .

ويقول تعالى : (ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنيًّا فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) .

ولنتذكر جميعاً قول الرسول صلى الله عليه وسلم « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه » .

س ٤ — موظف يأخذ بدل الانتقال فى داخل المدينة ، ثم لا يستخدم هذه المواصلات ، ويمشى على قدميه ويأخذ النقود لنفسه : حرام هذا أم حلال ؟ .

(ج) الدولة أعطته هذه النقود لاعتبارات . أولاً : للإسراع فى إنجاز العمل ، وعدم إستعماله المواصلات إرهاق لجسده وبدنه ، وتأخير للعمل عن وقته ، وهو بعد تكريم للموظف ، وجدير بمن يهدد كرامته مقابل دراهم معدودة جدير به ألا تسند إليه أعمال الدولة ، ثم لو علم رئيسه بهذا فهل كان يقبل منه هذا العمل ؟ لا شك أنه لا يقبل ، فكل هذه الاعتبارات تجعلنا : لا نستحسن مثل هذا العمل ولا نقره ، وأخيراً : فإن البر ما اطمأن إليه القلب والإثم ما حاك فى الصدر وخفت أن يطلع عليه الناس ، وإن الضمير الدينى الذى يستمد رقابته من خشية الله ومراقبته وعلمه بالسر والنجوى ليأبى مثل هذا العمل ويرفضه حتّى لا يجر صاحبه إلى ما هو شر من ذلك ، فيكون قضاء مبرماً وشرًّا مستطيراً ، وفى الحديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

تواضع عمر

خرج عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – ويده على المعلى بن الجارود العبدى ، فلقيته امرأة من قريش فقالت له : يا عمر ، فوقف لها ، فقالت : كنا نعرفك مدة : عميرا ، ثم صرت من بعد عمر ، ثم صرت من بعد عمر : أمير المؤمنين ، فاتق الله يا ابن الخطاب وانظر فى أمور الناس ، فإنه من خاف الوعيد : قرب عليه البعيد ، ومن خاف الموت : خشى الفوت ؟

فقال المعلى : إيهاً يا أمة الله فقد أبكيت أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر : اسكت . . أتدرى من هذه ويحك ؟ هذه خولة بنت حكيم التى سمع الله قولها من سمائه ! ؟ فعمر أحرى بأن يسمع قولها ويقتدى به !

وخولة . . هى التى نزلت فيها (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ٥٨ : ١ – ٢٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنقاذ الإسلامى اليمنى

يناشد الرأى العام اليمنى والعربى والإسلامى والعالمى
أن يهب لإنقاذ اليمن من الكارثة والحروب الأهلية

الأستاذ محمد عبد الهادى العجيلى

ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين. هذا بيان إلى الشعب اليمنى وإلى الرأى العام العربى والإسلامى والعالمى : أن يهبوا جميعاً وبوازع من الإسلام والإنسانية لإنقاذ اليمن الطبيعية من الكارثة الهوجاء والفتنة العمياء قبل وقوعها وانفجار أخطارها واندلاع لهيبها وأضرارها وأوضارها .

إن الإنقاذ الإسلامى اليمنى يلفت أنظار المجتمع العربى والإسلامى والإنسانى إلى ما ينتظر اليمن من شرور وكوارث وإلى ما هى مقدمة عليه من حروب أهلية وحوادث لا يعلم مدى ما تنتهى إليه إلا الله سبحانه وتعالى !

أيها العرب أيها المسلم أيها الإنسان فى كل مكان إننا نستثير فيكم الغيرة والنجدة والشهامة والكرامة : لكى تعملوا وبأسرع ما يمكن لإنقاذ اليمن من المحن والإحن والفتن التى تحدق بها من كل جانب وتبرز أنيابها لتفترس اليمن بشطريها وبأقوى الشراسة والمخالب .

إنكم أيها الإخوة قد سمعتم وعلمتم ماحاق باليمن من دسائس وبلاء وما هو آت أخطر ، وأشد وأكبر . وإن الإنقاذ

الإسلامى اليمنى الذى حمل على عاتقه لواء إنقاذ اليمن الطبيعية منذ ثلاثين عاماً ليصرخ وبكل صوته وإيمانه وكفاحه وجراحه مذكراً الأمة الإسلامية إلى واجبها نحو اليمن. اليمن هذا البلد الإسلامى العربى الذى أسهم وقدم للعالم كله أعظم حضارة ومدنية منذ فجر التاريخ — إنه اليوم يواجه امتحاناً خطيراً وشراً مستطيراً فوق أرضه الطاهرة الطيبة — إن هناك عوامل خارجية وأصابع أجنبية وقوى عالمية تحرك خيوط تلك المآسى وتوجهها وتدير معاركها وتفتك بشعبها المسلم المسالم، وهذه القوى أصبحت اليوم معروفة ومكشوفة وقد أرادت أن تجعل من اليمن بشطريها مسرحاً للمجازر وسفك الدماء وميداناً للصراع العالمى الرهيب وإننى هنا باسم (الإنقاذ الإسلامى اليمنى) أوجه هذه الصرخة المدوية إلى العالم بأسره معلنا للدنيا كلها: أن الشعب اليمنى بجنوبه وشماله شعب واحد، ويمنه واحد، وهدفه هدف واحد — وأنه لا حدود ولا قيود بين أبناء هذا الشعب منذ أن خلق الله هذا الكون وفطره — وقد ظل شعب اليمن يجاهد ويكافح كل الدخلاء الذين إرادوا تفريقه وتمزيقه ! وإذا كنا قد كافحنا الاستعمار البريطانى وقدمنا التضحيات الغالية من رجالنا وأموالنا وأعمارنا وانتصرنا عليه وطهرنا اليمن منه ومن احتلاله ، أقول : إذا كان الأمر كذلك، فإننا اليوم لن نرضى أن نستبدل استعماراً باستعمار ، واحتلالاً باحتلال لبلادنا ووطننا ، ولن نقبل بأى تدخل أجنبى فى اليمن مهما كانت هويته ومهما كانت أغراضه وأحابيله ، وإننا إذ نشجب تلك الحدود التى يرددها الببغاوات والإمعات بين أبناء اليمن الطبيعية : إلا أنه لا حدود ولا قيود: إلا فى منطق العملاء والقرود ! وإلا أين تلك الحدود التى لم يعرفها الآباء والجدود ، منذ فجر الوجود ، — إلا أننا نسمع اليوم ونضحك ، بل ونبكى لما يراد باليمن الطبيعية — أجل أيها العالم شاركنا فى الضحك أو فى البكاء — وشر البلاء ما يضحك عن (سياسة الأطفال ولعب العيال) فى يمننا المفدى إن كل فريق فى الشمال اليمنى وجنوبه يصرح أنه حشد الحشود

وجند الجنود على حدود بلاده — أى والله — على حدود بلاده — وأى بلاد هذه — إنها اليمن — وأبناؤها أبناء اليمن لا فرق بين شمال وجنوب ، وبرهاننا على ذلك ، والله شاهد على من يصطنع للشعب المهالك : أن ابن الشمال يحكم الجنوب وابن الجنوب يحكم الشمال — أى أن عبد الفتاح إسماعيل : يحكم عدن ، وعبد الله الأصنج : يحكم صنعاء — يا للمهازل يا للمعاضل التى نكبت بها اليمن من أبناء اليمن — :

أمور يضحك العقــلاء منها
ويخشى من عواقبها اللبيب

وأخيراً وليس آخراً طلعت علينا السياسة العربية بوضع آخر وسام فى دولة الانفصالية والردة الذى صنعه الاستعمار وأراد تنفيذه العملاء البلهاء لتقسيم اليمن إلى يمنين ، والقطر إلى قطرين ، والشعب اليمنى — الواحد المتحد — إلى شعبين بواسطة الجامعة العربية التى كان من واجبها وهى تحمل شعار وحدة الأمة العربية أن تنصح أبناء اليمن بعد خروج الاستعمار البريطانى من بلادهم منذ عشر سنوات ، وتقول للعملاء والأذناب والأوشاب الذين يريدون تمزيق وحدة اليمن وتفريقها (عيب عليكم يا أطفال وعار عليكم ياعيال) وحدوا جهودكم ولملموا صفوفكم ، وحافظوا على وحدة ترابكم وبلادكم ، وشكلوا نظاماً واحداً وحكومة متحدة لليمن بشطريها ، فقد زالت العوائق ، ويجب أن تعودوا إلى الحقائق ، والوثائق ، وتنضوا على كل انفصالى خائن ومتاجر ومارق — :

إلى الماء يسعى من يغص بريقه !
فقل : أين يسعى من بغص بماء؟

حقـًا : أيها العرب والمسلمون وعشاق الحرية فى كل مكان : إن اليمن اليوم فى مهب الريح وإنها على مفترق الطرق وعلى شفا جرف من الجحيم ، والعذاب الأليم ، والمستقبل الوخيم : إذا لم يتداركها المصلحون ويسعى لإنقاذها المجاهدون المؤمنون .

أيها الشعب اليمنى المكافح : لقد ضحيت ، وجاهدت ، وبذلت فى

سبيل وطنك وشعبك ، ووحدة تراب يمنك : يجب عليك اليوم أن تواصل الجهاد والجلاد ، لتطهر اليمن من الاحتلال والفساد والإلحاد ، والخونة الأوغاد ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . يا شعب اليمن العريق الموحد : إن عليك اليوم مسئولية عظمى لإنقاذ اليمن الطبيعية ، من النزعات الانفصالية ، والنعرات الجاهلية ، والأفكار الصبيانية والمسالك الحيوانية : إن اليمن الذى حكمه الرشاش والحشاش والأوباش سيبقى موحداً بترابه وأحسابه وأنسابه ووشائجه وأرحامه : رغم القوى الأجنبية التى تعربد وتصول ، وتجول فى الساحة اليمنية والجزيرة العربية ، لتحولها إلى فيتنام أخرى ، ومجزرة جديدة فى الشرق الأوسط عن طريق كراكيسها ونسانيسها فى المنطقة : إننا يا شعب اليمن الطبيعية قد عاهدنا الله وعاهدناك ، وعاهدنا الوطن المفدى : أن نبقى فى صف الجهاد والاستشهاد حتى نوحد البلاد ، ونعيد الأمجاد للآباء والأجداد أو نلقى رب العباد بغير نكوص أو تبديل أو ارتداد ! وأن الإنقاذ الإسلامى ليهيب بأبنائه وطلابه أينما كانوا ، وحيثما وجدوا فى الوطن ، أو فى المهجر : أن يلبوا نداء الإنقاذ ! يا شعب اليمن الطبيعية إنك تعلم أن اليمن اليوم تعانى من أمراضها وجروحها وحروبها وليس أمامك إلا أن تتقدم وتقدم الرجال العلماء والقادة الزعماء الذين يعرفون الله تبارك وتعالى ويخافونه ويخشون عقابه فى حمل الأمانة .

إن الأمانة اليوم محتاجة إلى العقول لا إلى العجول ، أما إذا فقدت الأمة الزعامة الرشيدة والقيادة السديدة : فإنها تكون قد فقدت كل مقوماتها ، بل وخسرت فى حاضرها ومستقبلها ، والحكيم الإسلامى يقول : (إذا هزلت الشياه حكمتها العنز الجرباء) والشاعر العربى يقول :

ولكن البلاد إذا اقشعرت
وصوح نبتها رعى الهشيم

فإلى الجهاد وإلى الجلاد وإلى الوحدة والاتحاد يا شعب اليمن الطبيعية !!

وللأوطـــان فى دم كل حر
يد سلفت ودين مستحـــق
وللحـــرية الحمـــراء بـــاب
بكل يـــد مضرجة يدق

فانصروا الله ينصركم أيها الإخوة المجاهدون، وارفعوا راية الإسلام فى يمنكم كما رفعها آباؤكم، وأجدادكم، وانتظروا بعد ذلك فوزكم ونجاحكم وانتصاركم . .

قال الله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا: إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ٤٧ : ٨) . صدق الله العظيم

(محمد عبد الهادى العجيل)
رئيس الإنقاذ الإسلامى لليمن الطبيعية

فى التوبة

قال عليه الصلاة والسلام :

« يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه ، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة .

وقال : لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة . فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه . فأيس منها . فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده . فأخذ بخطامها . ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح » .

وقال : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل . حتى تطلع الشمس من مغربها !؟ »

فى مراقبة الله

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال : يامحمد أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » قال : صدقت . فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال : فأخبرنى عن الإيمان ؟ قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » قال : صدقت ، قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال : فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » قال : فأخبرنى عن أماراتها ؟ قال : « أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاة يتطاولون فى البنيان » ثم انطلق فلبثت ملياً ، ثم قال : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » . رواه مسلم .

ومعنى « تلد الأمة ربتها » : أى سيدتها . ومعناه : أن تكثر السرارى حتى تلد الأمة السرية بنتا لسيدها وبنت السيد فى معنى السيد . وقيل غير ذلك و « العالة » : الفقراء . وقوله « ملياً » أى زماناً طويلا ، وكان ذلك ثلاثاً . .

كتاب الشهر

سرى لانكا

SRI LANKA — CEYLON

الحديقة العائمة فوق مياه المحيط الهندى

بمناسبة انعقاد الندوة الإسلامية الدولية فى كولومبو العاصمة

International Muslim Seminar

٢٣ – ٢٦ رجب ١٣٩٨ هـ = ٣٠ يونيو – ٣ يوليو ١٩٧٨ م

الدكتور عبد الودود شلبى

ألا فامطرى جبال « سرنديب »
وأبـــار تكرور تــبرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا
أنا إن مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى
نفس حرٍّ ترى المذلة كفرا

• • •

أبيات قديمة للشاعر محمود سامى باشا البارودى أذكر يوم قرأتها . . والمكتبة التى اشتريت ديوانه منها . .

كنت متجهاً إلى حارة « عبد الباقى » فى حى درب الجماميز عقب صلاة الجمعة فى مسجد فاضل باشا أو جامع الشيخ رفعت كما يسميه الناس فى هذا الوقت . وقد تأبطت ذراع أخى المرحوم عبد العزيز شريت تلبية لدعوة كريمة منه بتناول الغذاء فى بيت أسرته الشهير بهذه الحارة العتيقة .

لقد توقفنا أمام مكتبة من تلك المكتبات المنتشرة فى هذا الشارع العريق الذى لم أعرف سر تسميته بهذا الاسم حتى هذا اليوم ، ثم تناولنا مجموعة من الكتب وبخاصة ما يتصل منها بالأدب والشعر . لقد كنت فى هذه المرحلة المتقدمة من سنى الدراسة مغرماً بالأدب والفكر . ولم يكن يفوتنى كتاب من هذه الكتب التى تنسب قارئها إلى زمرة الأدباء فى هذا العصر . ومن غير قصد بدأت أقلب صفحات هذا الديوان الملتهب بأهازيج البطولة والإباء والفخر .

لكن . . ما « سرنديب » هذه التى يتحدى الشاعر جبالها أن تمطر تبراً ؟ لابد أن تكون قريبة من « المقطم » أو واقعة فى سفح من سفوح جبال مصر على الأكثر . . لم تكن ثقافتى الجغرافية تسمح بأكثر من هذا الخيال والتصور . كنت طالباً فى الثانية الابتدائية بالأزهـــر ، ولم يكن لـ « سرنديب » هذه فى دراستنا أثر يذكر .

• • •

وبمحض الصدفة وقعت عيناى على كتاب مع أحد الوراقين الذين عرف بهم حى الأزهر . . لم يكن لهذا الكتاب « عنوان » يعرف به . كان غلافه ممزقاً وأكثر أجزائه ضائعاً . ولفت نظرى من بين فصوله « فصل خاص » عن الثورة العرابية . زعيمها . . ورجالها . . والمصير الذى انتهى إليه أبطالها .

وتوقفت ثالية أمام صفحة يتحدث

فيها البارودى عن رحلته من أرض الوطن إلى المنفى .

إنى لما أفضت بى غوائل الزمن [١] إلى مفارقة الأهل والوطن . . سارت بأشباحنا الفلك ، بتقدير من مالك الملك ، فلما توسطنا لجة اليم ، وتغشتنا ضبابة الهم أخذ البحر يهدر ويموج ، والريح تعصف وتروج [٢] والدجن يبرق ويرعد [٣] ، والموت يقرب ويبعد ، والفلك بين صعود وهبوط والناس بين رجاء وقنوط ، فشخصت الأبصار [٤] ، وغابت الأنصار ، وأقبل الفزع ، واستولى الجزع فلم يزل يتخبطنا اليم ويأخذ بأكظامنا الغم [٥] حتى كادت الأنفس تزهق ، وأظفار المنية ترهق وكيف لنا بالخلاص ، ولات حين مناص ، فبعد لأى [٦] ما سكنت فورة الريح ، وهدأت ثورة ابن بريح [٧] وتجلت بنورها السماء ، واصطلح الماء والهواء ، فقرت الأنفس فى الصدور ، وتنفس كل مصدور ، ولم يبق إلا سوق الحديث من قديم وحديث ، والفلك يمخر البحر بجؤجؤه [٨] ونحن من الشهر فى دؤدؤه [٩] حتى انتهى بنا الدبيب ، ولاحت عين « سرنديب » .

منازل لم تألف بها النفس مألفاً
على أن فيها كل ما تشتهى النفس
ولا عيب فيها غير أن ليس لى بها
أنيس وفقد الخل فى غربة حبس

إذن . . فإن « سرنديب » هذه بلاد يركب إليها البحر ، وتستغرق الرحلة إليها أكثر من شهر . .

ولكن أين تكون ؟ وفى أى قارة من العالم تقع ؟ إننى لا أزال أكتب بروح طالب الابتدائى الصغير فى معهد القاهرة ، ولم تزل ثقافتى عن الدنيا محدودة ، وأحلامى المرهفة ، لم تكن تتجاوز حدود الوطن أو القاهرة .

• • •

ولفت نظرى ذات يوم طالب غريب السحنة كان اسمه « الزبير » أو . . « الزبير باشا » كما قدم إلى نفسه .. قال: أنا من سيلان . . ومن خريجى كلية

(١) أفضت : أوصلتنى إلى دواهى الزمن .
(٢) راجت الريح : اختلطت فلا يدرى من أين تجىء .
(٣) الدجن : الغمام المتكاثف .
(٤) شخصت الأبصار : أدامت النظر .
(٥) أكظام : جمع كظم . وهو مخرج النفس .
(٦) فبعد لأى : بعد بطء وشدة . .
(٧) ابن بريح : هو الغراب .
(٨) جؤجؤ السفينة : مقدمها .
(٩) دؤدؤ الشهر : آخره . .

الزاهرة التى أنشأها عرابى باشا فى بلدنا أيام المنفى . . ولم أدع هذه الفرصة تفلت . . لقد دعوته إلى جلسة هادئة فى « صحن الأزهر » وجلست أمامه كمحقق يسأل ويستفسر .

س : لقد نفى عرابى إلى « سرنديب » لا إلى « سيلان » فكيف توفق بين ما تقول وما تعرف ؟

ج : سرنديب هى سيلان وقد عرفت بهذا الاسم قديماً عند العرب .

س : عرابى باشا إذن من الشخصيات المعروفة فى تاريخ بلادكم ؟

ج : أقول لك شيئاً سمعته من أجدادنا وهم يتحدثون عن قصة وصول عرابى باشا وزملائه إلى كولمبو Colombo

– لقد خرج الناس جميعاً مسلمون وغير مسلمين يستقبلون هذا البطل ورفاقه قبل نزولهم من المركب إلى البر .. مئات الزوارق والسفن الصغيرة خرجت إلى عرض البحر تهتف بمن فيها لأبطال مصر .

لقد اشترك المسلمون فى هذه المظاهرة بعاطفة دينية وعاطفة وطنية وشارك غير المسلمين فى استقبال هؤلاء الأبطال تقديراً لدفاعهم عن الحرية .

ولقد حمل الناس العربة التى استقلها عرابى على أكتافهم تحدياً لقوى البغى التى نفتهم إلى هذه الجزيرة . وكان يوم وصولهم إلى « كولمبو » من أيام – التاريخ الخالدة فى تاريخ أمتنا ومنذ ذلك اليوم والمسلمون يرتدون « الطربوش » تقليداً لهؤلاء الزعماء الذين شرفت بهم بلادنا ..

لقد عرفت « سرى لانكا » بأسماء مختلفة عبر التاريخ . فاليونانيون أطلقوا عليها اسم « تابروبين » (Taproban) وسماها البحارة العرب « سرنديب » (Serendib) وقد أطلق عليها الإسبان والبرتغاليون اسم سيلان (Ceylan) بينما أطلق عليها البريطانيون اسم (Ceylon) وقد عرفت بهذا الاسم طوال حكم الإنجليز حتى حصلت على الاستقلال والحرية ١٩٤٨م فاشتهرت باسمها القديم سرى لانكا .

يبلغ عدد السكان ١٣ مليوناً ١٠٪ فقط منهم مسلمون، أما الأغلبية الساحقة من السكان فهم بوذيون ، وهناك أقليات أخرى من الهنادك والمسيحيين .

ويقول تقرير رسمى – :

١ – إن التجار العرب عرفوا سرى لانكا من قبل ظهور الإسلام وقد استقر بعضهم فى سرى لانكا بعد أن حضروا إليها للتجارة ، إذ أن سرى لانكا كانت فى طريقهم إلى جنوب شرق

آسيا والصين . ويطلق على المسلمين من أصل عربى اسم (المور) نسبة إلى مسلمى المغرب .

٢ – وينقسم المسلمون حسب أصولهم إلى ثلاثة أقسام .

– المنحدرون من أصل عربى .
– المسلمون من أصل ملاوى .
– المسلمون من أصل سيلانى واعتنقوا الإسلام .

وبالرغم من انتشار التعليم الحديث بين المسلمين إلا أنه لا يزال نظام « الكتاب » مطبقاً حتى الآن فى بعض المناطق . ويلاحظ أن المسلمين قد أحجموا فى الماضى عن التعليم اهتماماً بالتجارة ، وقد أدركوا الآن أهمية التعليم وأقبلوا عليه بشدة خاصة تعليم اللغة العربية !؟

الوضع السياسى للمسلمين :

يتمتع المسلمون بمركز اجتماعى وسياسى مرموق ويوزعون أنفسهم بين الأحزاب السياسية الرئيسية ويلاحظ أن غالبية المسلمين أعضاء فى الحزب الحاكم الحالى « الحزب الوطنى المتحد » .

– ومن أهم الشخصيات الإسلامية فى سرى لانكا :

– السيد / محمد حنيفة محمد
وزير المواصلات
– السيد / حميد
وزير الخارجية
– السيد / ناينا ماريكار
نائب وزير المالية
– السيد / عبد المجيد
نائب وزير الزراعة
– السيد / باكير ماركار
نائب رئيس البرلمان

هذا : بالإضافة إلى اثنى عشر عضواً فى البرلمان من بين ١٦٨ عضوا وهم بالإضافة إلى الوزراء ونواب الوزراء ونائب رئيس البرلمان .

– أبوسالى عن دائرة بالنجودا
– أحمد فارس عن دائرة باتيكولا
– جابر قادر عن دائرة وسط كولومبو
– إسحق حاليم عن دائرة وسط كولومبو
– الدكتور ، جلال الدين عن دائرة بوتوفيل
– ماروف عن دائرة موتور
– منصور عن دائرة كالمونانى

ومن أهم قادة المسلمين فى هذه الجزيرة :

– السير . / رازق فريد :

ويمثل المسلمين العرب (المور)

ويبلغ من العمر حوالى ٩٠ عاماً وقد أنفق جميع أمواله على المسلمين وإنشاء الكثير من المدارس والملاجئ حتى أنه وهب منزلا للسكرتارية الإسلامية كما وهب منزلا آخر إلى مدرسة البنات المسلمات .

— الدكتور /خليل

— من زعماء المسلمين وينتمى إلى الحزب الحاكم وكان وزيراً للعمل والشئون الداخلية ، وقد أنشأ منظمة تسمى الرابطة الإسلامية .

— السيد / بديع الدين محمود

رئيس الحزب الاشتراكى الإسلامى وهو فى الوقت نفسه نائب رئيس حزب الحرية السرىلانكى التى ترأسه السيدة بندرانيكه وكان وزيراً للتعليم .

— السيد / محمد حنيفة محمد

من زعماء المسلمين المستقلين وينتمى للحزب الحاكم وله شعبية بين المسلمين .

أهم المؤسسات الإسلامية :

— المؤسسات المورية بما فى ذلك المؤسسة الثقافية للمورية ومن أقطابها السير رازق فريد .

— السكرتارية الإسلامية ومؤسسها السير رازق فريد وأمينها العام السيد/ أمين ، ومهمتها نشر الدعوة الإسلامية .

— الرابطة الإسلامية ويرأسها الدكتور خليل .

ويتبع كلا من هذه المؤسسات الكثير من المدارس والملاجئ ، كما تقوم بالأعمال الخيرية وبناء المساجد وإصلاحها ونشر الدعوة الإسلامية وطبع وتوزيع المصاحف والاحتفال بالمناسبات الدينية.

ولقد زار ابن بطوطة هذه البلاد سنة ١٣٤٥م وقابل ملكها « ابرى شكروتى » ولن نجد وصفاً أجمل مما كتبه هذا الرحالة المغربى فى وصفه للناس والحياة والجزيرة التى يقال : إنها أول بقعة هبط عليها أبونا آدم من السماء إلى الأرض :

يقول ابن بطوطة — :

وقد قابلت سلطانها ، وهو سلطان قوى فى البحر ، رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار وصلت هنالك ، وكانت بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر إلى اليمن .

فأمر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية أجفانه فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا : إنما جئتنا فى حماية مراكب لنا تسير أيضاً إلى اليمن

ولما دخلت على هذا السلطان الكافر قام إلى وأجلسنى إلى جانبه وكلمنى

بأحسن كلام وقال : ينزل أصحابك على الأمان ويكونون فى ضيافتى إلى أن يسافروا ، فإن سلطان المعبر بينى وبينه الصحبة ثم أمر بإنزالى فأقمت عنده ثلاثة أيام فى إكرام عظيم متزايد فى كل يوم وكان يفهم اللسان الفارسى ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد ودخلت عليه يوماً وعنده جواهر كثيرة أتى بها من مغاص الجوهر الذى ببلاده وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره فقال لى : هل رأيت مغاص الجوهر فى البلاد التى كنت فيها ؟ فقلت له : نعم رأيته بجزيرة قيس وجزيرة كش التى لابن السواملى فقال: سمعت بها ثم أخذ حبات منه فقال: أيكون فى تلك الجزيرة مثال هذه ؟ فقلت له: ليس مرادى منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة، قدم آدم — عليه السلام — وهم يسمونه (بابا) ويسمون حواء (ماما) فقال : هذا هين نبعث معك من يوصلك ثم قلت له : وهذا المركب الذى جئت به يسافر آمنا إلى المعبر ، وإذا عدت أنا بعثتنى فى مراكبك ؟ فقال : نعم، فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب — قال لى : لا أسافر حتى تعود ولو أقمت سنة بسببك ، فأخبرت السلطان بذلك فقال — يقيم فى ضيافتى حتى تعود فأعطانى دولة

يحملها عبيده على أعناقهم وبعث معى أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام إلى زيارة القدم ، وثلاثة من البراهمة ، وعشرة من سائر أصحابه وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد ، وأما الماء فهو فى تلك الطريق كثير ، ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه فى معدية مصنوعة من قضب الخيرزان ثم رحلنا من هنالك إلى منار مندلى . مدينة حسنة هى آخر عمالة السلطان ، أضافنا أهلها ضيافة حسنة — وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هناك ويأتون بها أحياء ويأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج واللبن ولم نر بهذه المدينة مسلماً غير رجل خراسانى انقطع بسبب مرضه فسافر معنا ورحلنا إلى بندر سلاوات . وهى بلدة صغيرة وسافرنا منها فى أوعار كثيرة المياه ، وبها الفيلة الكثيرة، إلا أنها لا تؤذى الزوار والغرباء ، وذلك ببركة الشيخ أبى عبد الله بن خفيف رحمه الله وهو أول من فتح هذا الطريق إلى زيارة القدم . وهى حاضرة السلطان الكبير بتلك البلاد وقد بنيت فى خندق بين جبلين على خور كبير مسمى خور الياقوت ، لأن الياقوت يوجد به، وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازى المعروف بشاوش وسلطان هذه المدينة

وأهلها يزورونه ويعظمونه وهو كان الدليل إلى القدم، فلماقطعت يده ورجله سار الأدلاء أولاده وغلمانه، وسبب قطعه أنه ذبح بقرة! وحكم كفار الهنود: أنه من ذبح بقرة ذبح مثلها، أو جعل فى جلدها وحرق! ؟

(ذكر جبل سرنديب)

وهو من أعلى جبال الدنيا رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع، ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا قد حال بيننا وبين رؤية أسفله، وفيه كثير من الأشجار التى لا يسقط لها ورق، والأزاهير الملونة، والورد الأحمر على قدر الكف، ويزعمون: أن فى ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله — عليه الصلاة والسلام — وبالجبل طريقان إلى القدم: أحدهما يعرف بطريق (بابا) والآخر (ماما) يعنون آدم وحواء عليهما السلام، فأما طريق ماما فسهل، وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى وفى أسفل الجبل حيث دروازته مغارة تنسب أيضاً للإسكندر وعين ماء ونحت الأولون فى الجبل شبه درج يصعد عليها وغرزوا فيها أوتاد الحديد وعلقوا فيها السلاسل ليتمسك بها من يصعده وهى عشر سلاسل ثنتان فى أسفل الجبل، حيث الدروازة وسبع متوالية بعدها والعاشرة هى سلسلة الشهادة لأن الإنسان إذا وصل إليها ونظر إلى أسفل الجبل أدركه الوهم فيتشهد خوف السقوط ثم إذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقاً مهملا ومن السلسلة العاشرة إلى مغارة القبر سبعة أميال وهى فى موضع فسيح عندها عين ماء تنسب إليه أيضاً ملىء بالحوت ولا يصطاده أحد وبالقرب منها حوضان منحوتان فى الحجارة على جنبتى الطريق وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم ويصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل حيث القدم.

(ذكر القدم)

وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم فى صخرة سوداء مرتفعة فى موضع فسيح وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضاً وطولها أحد عشر شبراً وأتى إليها أهل الصين قديماً فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه وجعلوه كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من أقصى البلاد وفى الصخر حيث القدم — تسع حفر منحوتة يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون

منها لأخذ ما بالحفر ولم نجد نحن بها إلا بعض حجيرات ذهب أعطيناها الدليل والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها إلى القدم غدوة وعشيا وكذلك فعلنا، ولما تمت الأيام الثلاثة عدنا على طريق ماما، ثم إلى قرين جبر كاوان . وهنالك كان يشتى الشيخ أبوعبد الله بن خفيف، وكل هذه القرى والمنازل هى بالجبل، وفى هذا الطريق درخت روان وهى شجرة عادية لا يسقط لها ورق ولم أر من رأى ورقها ويعرفونها أيضاً بالماشية لأن الناظر إليها من أسفل الجبل يراهابعكس ذلك ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهى بحيث لا يمكن التوصل إليها ألبتة ولهم كلام طيب فى شأنها من جملتها أن من أكل من أوراقها عاد له الشباب إن كان شيخاً وذلك باطل وتحت هذا الجبل الحور العظيم الذى يخرج منه الياقوت وماؤه يظهر فى رأى العين شديد الزرقة ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دينور « مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار وبها الصنم المعروف بدينور فى كنيسة عظيمة فيها نحو الألف من البراهمية والجوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن والمدينه كلها وقف على الصنم وكل من بالكنيسة ومن يرد إليها يأكلون من ذلك والصنم على قدر الآدمى فى موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان أخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلين ثم رحلنا إلى مدينة قالى وهى صغيرة على ستة فراسخ من دينور وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخوذة إبراهيم أضافنا بموضعه ورحلنا إلى مدينة كلنبو (Colombo) وهى من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها وبها يسكن الوزير حاكم البحر ومعه نحو خمسمائة من الحبشة .

• • •

لندع ابن بطوطة وذكرياته ومذكراته.
فقد سافر وفد مصر لحضور الندوة العالمية الإسلامية تلبية لدعوة مسلمى سرى لانكا برئاسة الوزير العالم فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى وزير الأوقاف ووزير الدولة لشئون الأزهر وعضوية كل من :

الدكتور الحسينى هاشم
أمين عام مجمع البحوث الإسلامية

الدكتور توفيق شاهين
الأستاذ بجامعة الأزهر

الدكتور عبد الودود شلبى
مدير مجلة الأزهر

وها نحن فى طريقنا إلى «سرنديب» أو «سيلان» أو «سرى لانكا» ولم يبق غير قليل حتى تهبط بنا الطائرة فى «كولومبو».

أى خيال يعيش فيه الإنسان وهو يحلق فى أجواء هذه البلاد النائية لقد أقلعت بنا الطائرة من مطار «كراتشى» قبل الفجر . . وها هى تشق طريقها عبر الوديان والجبال والصحارى الممتدة من الغرب إلى الشرق . . ثم تنحرف قليلا إلى اليمين لتعبر المضيق الفاصل بين سرى لانكا والهند . .

هنا يولد النهار ويجاهد الليل ممسكاً بتلافيف الظلام لقد ظهرت الجزيرة . . سرى لانكا تحتنا الآن .. ولكنك لا ترى أرضاً . . اختفى الطين والتراب فى أعماق البحر . . وبقيت الخضرة اليانعة وحدها فوق السطح . إن الطائرة تعلو . . ثم تهبط . . متحسسة طريقها وسط طبقات السحاب ، وخلجان الضباب . فى ثانية ترتفع فترى الشمس من بعيد متوهجة فى كبد السماء . . ثم تهبط ثانية وتختفى فى سجف العتمة والظلام . . إنها تشبه النفس فى صراعها بين الخير والشر وتبدو فى عين البصير معركة بين الباطل والحق . .

وفى لحظة ترقب وقلق تلمس عجلاتها المدرج الناعم الأملس على الأرض . . نحن الآن فى «كولمبو Colombo . . أو البوابة الجوية لسرى لانكا . . مطار متواضع» ولكنه نظيف وجميل . . وقد احتشد فى ساحة المطار أعضاء سفارتنا يتقدمهم السفير وبجوار السفير يقف الوزير محمد حنيفة محمد الزعيم الإسلامى الكبير . .

هنا الإسلام يتحرك ويتكلم . . لم يعد لفوارق اللون أو الجنس أو الطبقة أى مظهر . . اختفت الأسماء والألقاب وبقيت العقيدة . . كل من هنا يصافحك بشوق وحرارة وحب . . حتى أعضاء السفارة المصرية وجدناهم نوعاً آخر من الرجال الذين لا يوجدون فى أية سفارة أخرى . . أهو الطبع ؟ أم التطبع ؟ أم الطبيعة ؟ إنها الحميقة التى لا تكتسب بأى عامل آخر من خارج النفس . .

الساعة السادسة صباحاً بتوقيت كولومبو . . وقد بدأ المطر ينهمر بغزارة فى هذه المنطقة البعيدة عن العاصمة . . فلننتظر قليلا ربما يهدأ الجو ، وتشرق الشمس ويعود الضياء والنور إلى الطريق الممتد بين أشجار النارجيل والموز . .

ولفت نظرى جندى فارع الطول ضخم الجثة . . من أين أتى هذا العملاق

وما المناسبة ؟ ومال على أذنى الدكتور توفيق ليقول معلقاً على هذه الظاهرة . أغلب الظن أن هذا الجندى من أحفاد الذين سجنوا (عرابى) باشا وتولوا حراسته. ولولا الحياء لذهبت إلى هذا الحارس أسأله عن قصة حياته ونشأته . . !
إن المسافة بين المطار والعاصمة تستغرق نصف ساعة . . ولكن الوقت والزمان لا وجود لهما فى هذه الرحلة . . إلا عند بعض الناس — على الأقل . . ففى مثل هذه الأماكن يسيطر على الإنسان شعور غريب يفقد معه الإحساس بالزمن والوقت . هنا الشرق كما يقول الشاعر الألمانى الفيلسوف جوته . .

تطيب لى الرجعى إلى نشأة الإنسانية الأولى . . إلى الأزمان التى تلقى فيها بنو الإنسان كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الأرض .

أريد التملى من عصور الفطرة بأفقها المحدود الممدود . أريد معاشرة الرعاة فى المنتجعات ، والاسترواح فى ظلال الواحات ، والارتحال مع القوافل متجرا فى الشيلان . والبن والمسك . . طارقاً كل درب من البوادى والحضر . الشمال والغرب والجنوب . .

أقطارها تتناثر بددا . . وعروشها وممالكها تنهار . . . فهاجر .

وأمضى إلى الشرق الطهور تستروح الطيب من الآباء الأوائل الطيبين وبالحب والنشوة والغناء يرد عليك « الخضر » القائم على — عين الحياة — ريعان صباك . .

أدينا صلاة الجمعة فى أحد مساجد « كولومبو » وألقى فضيلة الشيخ الوزير كلمة لخص فيها مبادئ الإسلام وكان ظهورنا فى هذا المسجد ، ومعنا بقية الوفود المدعوة إلى هذا المؤتمر مهرجاناً دينياً أشعر المسلمين بأهميتهم فى هذه الجزيرة ، وربط بينهم وبين إخوانهم فى العقيدة ، وأثار فى الأنفس لواعج الشوق والإيمان والأخوة ، وفى اعتقادى وتصورى أن الفائدة الأولى من عقد مثل هذه المؤتمرات لا تتجاوز هذه الدائرة . . فالمسلمون فى مثل هذه الأقطار فى شبه عزلة ، وفى وحدة قاسية مرة . . ويزيد من قسوة هذه الوحدة ومرارتها عند الناس ما يرونه من تعاون الآخرين وتعاطفهم . . إن الأغلبية هنا بوذية فى الكثرة ، وفى النشاط والحركة ، وفى الاجتماعات الدائمة لكل أمر ومناسبة ومن وراء هذا كله تخطيط عالمى يدرس ومنظمات دولية ترسم وتستعد . .

فى دكان صغير بجوار الفندق الذى

كنا ننزل فيه التقيت برجل عجوز اسمه محيي الدين . . لقد دخلت دكانه عرضاً . كان معه صبيان يساعدانه فى العمل . . ومن كلمة إلى أخرى عرف أننى مصرى . . ومن الأزهر . . لقد أصابت الرجل ووالديه نوبة عاطفية . . واستمر فى حاله هذا أكثر من خمس دقائق يرفع يديه بالتحية . . اللهم صلى على محمد . الله أكبر . الله أكبر . .

• • •

لقد كنت حريصاً فى زيارتى هذه على لقاء الناس فى أماكنهم أن أتعرف على المسلمين فى منازلهم وحوانيتهم وقراهم .. إن مثل هذه الزيارة لا يتكرر كثيراً .. وخسارة كبرى أن نسافر آلاف الأميال لنقول كلمتين أو كلمات ثم نعود بعد ذلك إلى القاهرة ..

إن العبرة فى مثل هذه المؤتمرات ليست فى اتخاذ قرارات جميلة تنسى بعد انفضاض المؤتمر . . فقد عقدت مؤتمرات كثيرة تجاوزت الحصر ، وصدرت عنها قرارات أكثر لم تر النور ، ومأساة العالم الإسلامى أنه يقول . ولا يفعل . . إن اليهود حين عقدوا مؤتمرهم الأول ١٨٩٨م ، قرروا قيام دولتهم اللقيطة بعد خمسين سنة ، وقرروا دخول بيت المقدس بعد سبعين سنة . وفى سنة ١٩٤٨ م قامت الدولة المغتصبة ، وفى سنة ١٩٦٧ م سقطت القدس الحبيبة . .

قلت للدكتور الحسينى هاشم فى مناقشة حول القرارات المزمع إعلانها بعد انتهاء المؤتمر : لقد نسيت أن أحمل معى من القاهرة مجموعة من القرارات التى صدرت فى المؤتمرات السابقة فى مصر والسعودية ، والكويت . والجزائر ، وليبيا فأى مؤتمر كبير أو صغير ، وفى أى مكان يعقد لن تخرج قراراته عن قرارات أى مؤتمر من هذه المؤتمرات السابقة . . ؟ !

ولقد قلت للسفير أكثر من مرة . .

أريد أن أرى الناس . فى الشوارع والأسواق . فى المساجد والمعابد فى الحوانيت والدكاكين . .

دعنى أحقق رسالتى الحقيقية بحضورى إلى هنا . .

ولم تتح لى فرصة لتحقيق هذا الهدف إلا فى زيارتين خاطفتين لكلية الزاهرة . . والجامعة النظيمية .

• • •

ذهبنا إلى قاعدة بندرنيكه

Bandaranaike Memorial international Conference Hall.

لحضور جلسة افتتاح المؤتمر فى الساعة الرابعة والنصف بعد ظهر يوم الجمعة ٢٣ رجب ١٣٩٨ هـ الموافق ٣٠ يونيو ١٩٧٨م . كان وفد مصر هو أكبر الوفود وأهمها تمثيلا وحركة . . وقد دعى ممثلو الأديان جميعاً لحضور حفل الافتتاح الذى شهده ممثلو عشرين دولة فى آسيا وإفريقيا وأوربا .

إن الصورة التى لم تغب عنى حتى هذه اللحظة هى موقف الرهبان البوذيين من رئيس الجمهورية . فى صدر القاعة ومن فوق المنصة الرئيسية جلس ممثلو الديانتين الإسلام والمسيحية على يمين الداخل إلى القاعة ، وعلى اليسار جلس ممثلو الديانة البوذية بثيابهم الصفراء البسيطة ورءوسهم الحليقة اللامعة . . وعندما حضر رئيس الجمهورية وقف الجميع تحية لرئيس الدولة . . أما الرهبان البوذيون فقد بقوا فى أماكنهم بدون أية حركة ، وعندما صعد رئيس الجمهورية الدرج إلى المنصة توقف أمام هؤلاء الرهبان الجالسين وركع أمامهم فى خشوع وتقوى . . ! !

• • •

وقد بدأ رئيس الجمهورية حديثه عن المساواة والتسامح الدينى فى سرى لانكا وأثنى على المسلمين ودورهم البارز فى الحركة الوطنية وأشاد بروح الأخوة والعدالة التى تشمل الجميع دون تفرقة ، وتمنى للمسلمين كل نجاح وتوفيق فى هذه الندوة ، وقد اتفقت كلمة الوفود بعد ذلك على اختيار فضيلة الشيخ الشعراوى لإلقاء كلمتنا فى هذا المؤتمر .

وقد استهل فضيلة الوزير كلمته بشكر رئيس الجمهورية والإشادة بروح التسامح والإخاء بين مختلف الطوائف الدينية ثم عقب بعد ذلك على الموضوع الرئيسى لهذا المؤتمر وهو حقوق الإنسان ومسئولياته فى الإسلام ، وكيف أن الإسلام أعطى الإنسان حقه فى الحرية والمساواة والعدالة ، وحقه فى التملك ، وحقه فى أن يعيش كريماً ، وحقه فى أن يتدين ، وحقه فى أن يعبر عن فكره ، وأن هذه الحقوق تقابلها مسئوليات يفرضها الخالق عز وجل شأنه ، وهو الذى خلق الإنسان ويعلم أين يوجد الخير له ، وهو أعلم بما يصلح له .

ثم أضاف فضيلته قائلا :

إن خصوم الإسلام وخصوم الأديان يدعون أنها سبب التخلف ولكن ذلك خطأ فالإسلام مثلا نزل منذ أربعة عشر قرناً ، وساس الدنيا وسادها ألف عام

وظلت دولته فى العالم هى الدولة الأولى . ومع ذلك ما اشتكى إنسان فى عصر تخلف بل أخذ التقدم بجميع ألوانه وصوره ، وربما كانت الحياة التى نعيشها اليوم مأخوذة من الإسلام . .

• • •

فى إحدى الجلسات . تعرض الدكتور الحسينى هاشم للرد على سؤال عن « السنة النبوية » وحجيتها . فقد أثير هذا الموضوع إثر نقاش عن الحملات المسعورة التى يقودها أناس باعوا ضمائرهم لحساب المنظمات التبشيرية والاستشراقية ومما يزيد النفس أسى ومرارة أن رئيس دولة عربية — نصب نفسه أخيراً إماماً شرعياً يرجع إليه أمر الدين والدنيا — قد تعرض لهذا الموضوع مردداً كلام من سبقه من الأدعياء والمشبوهين حول الأحاديث النبوية والالتزام بها فى تقرير الأحكام الشرعية ولا يستحى هذا الزعيم الذى يخرج على شعبه كل يوم ببائقه وحالقه تذهب بما بقى عنده من دين وعقيدة ، وكأنما أراد أن يتوج فشله السياسى بفشل آخر لا تنفع فيه حجة ولا شفاعة إلا شفاعة هذا « النبى » الذى يتطاول على مقامه وقوله بأقوال قوم غرباء عن الأمة ، وأعداء للحق والشريعة.

وفى جلسة أخرى تكلم الدكتور توفيق شاهين عن الأخطار التى تهدد العالم الإسلامى بأسره . من الشيوعية الملحدة ، إلى العلمانية الجاحدة وغيرهما من المذاهب والنحل الفاسدة وقد تساءل الدكتور توفيق قائلا . .

هنا ممثلون عن عشرين دولة إسلامية ولكن أين مكان أفغانستان واليمن الجنوبية ؟ إننى أخشى أن نلتقى فى هذا المكان مرة ثانية ولا نرى وفود بعض الدول الحاضرة فى هذه القاعة ؟ . .

لقد ثار جدال ونقاش حول إمكانية قيام « هيئة أمم إسلامية » وعن الترابط والتكامل بين هذه الدول فى مجالات الفكر والاقتصاد والتربية وارتفعت حرارة النقاش والجدل حين تعرض أحد المتحدثين لدولة إسلامية تحول البلايين من رصيدها لسد عجز المدفوعات فى دولة أوربية بينما شقيقاتها المسلمات يتضورن جوعاً فى متاهات آسيا وإفريقيا .

إن العالم الإسلامى غنى بموارده المختلفة . ولا ينقص شعوبه إلا « رأس المال » المدخر فى بنوك أوربا لحساب دول إسلامية أخرى .

إن السودان يمكن أن يغطى احتياجات العالم الإسلامى من الحبوب والقمح .

ولكن المال اللازم لتحقيق ذلك مدفون فى سراديب الأنانية والجهالة حرصاً على تنميته بالفوائد المحرمة لا بالوسائل المشروعه . .

كم كنت أود . . أن نستغنى عن القرارات التى أصدرها المؤتمر بقرار واحد يصدر من دولة واحدة . فالمسلمون فى سرى لانكا فى حاجة إلى المدارس وفى حاجة إلى المستشفيات ، وفى حاجة إلى التنمية الاقتصادية التى بدونها يتحولون إلى خدم وأشباح تائهة فى دروب الحياة القاسية . إن مأساة . . « أفغانستان » نذير وعبرة ، ومالم يترابط المسلمون ترابطاً حقيقياً ، ويتكاملون تكاملا اقتصادياً ، ويتعاونون بمبادئ الإسلام روحاً ونصاً فلسوف تختفى من « الخريطة الإسلامية » أسماء دول تنتسب إليه اسما . . ويعبث إبليس وجنوده فى أرضهم فساداً وتخريباً .

• • •

والمأساة الدامية حقاً . . إن من حضروا باسم مسلمى الفلبيين تكلموا أكثر من مرة ، وكانت كلماتهم غصة فى الحلق مرة .

إن « ماركوس » السفاح — كما تحدث المأجورون — هو رمز النهضة ومصدر البركة . وإن جهاد الشهداء فى الجنوب يمثل حركة عصيان وثورة .

لقد أصيب الحاضرون بوجوم مذهل . وضربت العاطفة الإسلامية فى مقتل . . ولم يكد ينتهى العميل المأجور من كلامه حتى ضجت القاعة بالسخط والاستنكار لموقفه المخجل .

وفى غمرة الذهول والدهشة سألنى أحد الحاضرين عن السبب فى هذا الموقف قلت باسما للأخ المستنكر . . انظر إلى بزته الناصعة . ونظارته اللامعة ، وخاتمه الماسى الذى يتألق بين أصابعه ! !

إنها دمى تتحرك بخيوط غير منظورة ، وآلات تتحرك وتتكلم وهى فى شبه غيبوبة . .

• • •

فى فترة الاستراحة بين جلستى الصباح التقيت بالأخ الأستاذ إبراهيم شهاب وزير الزراعة فى جمهورية مالديف . . لقد فاجأنى الوزير أنه من خريجى الأزهر . واستمرت المفاجأة فى حديثه حين أخبرنى بوجود ثلاثة وزراء أيضاً من خريجى الأزهر . . وبلغت المفاجأة ذروتها وهو يقول : إن المرشح الجديد لرئاسة الجمهورية أيضاً من خريجى الأزهر . .

لقد أنسيت آلامى كلها فى هذه اللحظة . . دولة كاملة يحكمها علماء

الأزهر ما أروع هذه المفاجأة . . وما أسعدنى بتلك الأنباء السارة . . لقد رجعت بى الذكرى إلى عام ١٩٥٩ م على ما أذكر . . فنى هذا العام تم افتتاح مدينة البعوث الإسلامية كنت قد اشتركت فى كتابة تقرير عن نظام العمل فى هذه المدينة . والطريقة التى يعامل بها الطلبة ، والنظام الذى تسير عليه الأجهزة . .

وأذكر مما قلته بهذه المناسبة :

إنه يجب التدقيق فى اختيار كل موظف ، حتى العمال يجب أن تتوفر فيهم صفات خاصة . إن مستقبل العالم الإسلامى يصنع هنا فى هذه المدينة ، وبقدر ما نحسن التربية والرعاية والمعاملة فإن آثار ذلك كله ستكون بعيدة وخطرة . . ونتائج ذلك لمصر والأزهر محققة وأكيدة . .

لقد ضاع كل ذلك فيما مضى . . والأمل فى القائمين بالأمر فى المدينة تدارك ما بقى . .

• • •

المؤتمر يوشك على الانتهاء . . وقد اتخذت الوفود أماكنها فى انتظار إعلان القرارات والتوصيات .

• • •

« بناء على الدعوة التى وجهتها اللجنة التنظيمية لمسلمى سرى لانكا برئاسة معالى السيد ، محمد حنيف محمد — وزير النقل فى حكومة سرى لانكا إلى عدد من المفكرين والمنظمات والجمعيات فى البلاد الإسلامية وغيرها من البلدان التى يشكل فيها المسلمون أقلية وذلك للاشتراك فى الندوة التى تقرر انعقادها فى كولومبو خلال الفترة من ٢٦ رجب إلى ٢٩ رجب سنة ١٣٩٨ هـ ، الموافق ٣٠ / ٦ / ١٩٧٨ إلى ٣ / ٧ / ١٩٧٨ م والتى تضمنت الموضوعات الآتية :

١ — بعض الجوانب القانونية فى النظام الإسلامى .

٢ — بعض الجوانب الاجتماعية فى النظام الإسلامى .

٣ — التعليم فى الإسلام .

٤ — الإسلام كنظام متكامل .

حضر الندوة المذكورة الوفود التالية :

١ — جمهورية مصر العربية .

٢ — أستراليا .

٣ — بنجلادش .

٤ — الهند .

٥ — إندونيسيا .

٦ — اليابان .

٧ — ليبيا .

٨ — ماليزيا .

٩ — جزر المالديف .

١٠ — مؤتمر العالم الإسلامى .

١١ — باكستان .

١٢ — الفلبين .

١٣ — السعودية .

١٤ — السنغال .

١٥ — السودان .

١٦ — سوريا .

١٧ — الاتحاد السوفييتى .

وقد افتتح الندوة فى الموعد المحدد لها فخامة السيد / ج . ر . جيا واردنا رئيس جمهورية سرى لانكا بكلمة أوضح فيها ما تتمتع به هذه البلاد من عدالة اجتماعية وتسامح دينى وتعايش سلمى أخوى بين الفئات والطوائف المختلفة لسكان الجزيرة وقد قوبلت كلمة فخامة رئيس الجمهورية بترحاب وتقدير كبيرين من المشتركين فى الندوة وعبر عن ذلك نيابة عنهم معالى وزير الأوقاف وشئون الأزهر بجمهورية مصر العربية فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى بخطاب شامل أعرب فيه لفخامة الرئيس عن تقدير المؤتمر لبعد نظر فخامته وحكمته فى معالجة مشاكل سكان الجزيرة مما أوجد فيها نظاماً اجتماعياً يسوده التسامح الدينى والتعايش السلمى والتعاون الأخوى ، كما عبر فضيلة الوزير نيابة عن أعضاء الندوة عن شكر وتقدير الجميع لحكومة وشعب جمهورية سرى لانكا على الترحيب والحفاوة التى قوبلوا بها وعلى التسهيلات والمساعدات التى قدمت لهم وعلى الأخص تلك الخدمات المقدمة إلى اللجنة التحضيرية للمؤتمر .

وبعد أن استمع المشتركون فى الندوة إلى الكلمات والبحوث المقدمة وما دار حولها من مناقشات ، تم التوصل إلى التوصيات التالية .

أولاً : تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية لأنها شريعة إنسانية خالدة تتفق أحكامها وحكم العلم والعقل وثبت من الممارسة العملية لها فى الدول المطبقة لهذه المبادئ أنها أفضل وأشمل وأضمن لرفاهية وأمن الشعوب من أية أنظمة أخرى .

ثانياً : التركيز بقدر الإمكان على التعليم الدينى جنباً إلى جنب مع برامج التعليم المختلفة للدول وبحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ، إذ أن — التعليم المبنى على النواحى المادية وحدها لا ينشئ إنساناً متكاملا من الناحية العقائدية والدنيوية .

ثالثاً : تطبيق النظم الاجتماعية الإسلامية المبنية على مبادئ التكافل والتراحم والإيثار بين أبناء المجتمع مما يؤدى إلى مجتمع متوازن مادياً وأدبياً .

رابعاً : العمل على تطبيق مبدأ التضامن والتعاون بين الدول والمنظمات الإسلامية والأفراد بها وبين مجتمعات الأقليات الإسلامية وذلك بتقديم المساعدات — العادية والأدبية والعلمية الممكنة فى مختلف المجالات .

خامساً : يرى المؤتمر على ضوء ما رآه من حضانة وتمكين دولة سرى لانكا للأقلية الإسلامية ورعاية شئونها والعمل على إسهام جميع الطوائف فى المشاركة فى هذه المناسبة الإسلامية . . على ضوء هذا يهيب المؤتمر بجميع الحكومات التى توجد بها أقليات إسلامية أن تحذو حذو هذه الدولة لترعى شئون الأقليات الإسلامية رعاية تعطيها حقوقا كاملة فى مزاولة ما تتطلبه عقائدها وأحكام شريعتها

سادساً : ويرى أن فى قيام الحكومات التى تحت رعايتها أقليات إسلامية لهذا العمل الإنسانى ما يثبت للدنيا عدالة الحاكمين فى رعاية كل مواطنيهم رعاية لا تتميز طائفة مهما كثرت ولا تحرم منها طائفة مهما قلت .

سابعاً : ويرى المؤتمر أن تعاون الأديان فى هذا اللقاء مما يطمئن على أن تقف الأديان كلها موقفاً موحـــداً يحول دون سيطرة الإلحاد والمادية وكل ما يخضع لأهواء البشر .

والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل . .

وفى صوت واحد وقفت الوفود المشتركة فى هذا المؤتمر تردد مع المنشدين هذا الدعاء الذى تعود المسلمون فى هذه الجزيرة إنهاء اجتماعاتهم به فى كل مناسبة . .

صلى الله على محمد
صلى الله عليه وسلم
يارب صل على محمد
صلى الله عليه وسلم

• • •

فى كلية الزاهرة أو Zahira College كما يسمونها هنا فى كولومبو أقيم حفل تكريمى لأعضاء الوفود المدعوة إلى المؤتمر . . لقد ذهبت إلى هناك ونفسى مفعمة بذكريات الماضى الحزينة لقد تخيلت عرابى باشا واقفاً ينتظر قدومنا إلى هذه الساحة . . ! لقد مضى حوالى مائة عام على هذه الواقعة . . غير أن التاريخ لا يضيع بمضى المدة . . . بل تبقى ذكراه وتتجدد أمام كل حادثة ،

ويخرج أبطاله إلى الحياة بأعمالهم الطيبة، ويغلب عليك الإحساس بالحب فتتخيل شخوصهم حية وباقية . . !

من القاهرة إلى كولومبو جىء بعرابى ورفاقه إلى هذه الجزيرة كانت الخيانة قد فجرت ، والمحاكمة قد انتهت. . أترى اين كان يجلس عرابى وأين مكان البارودى وعبد العال حلمى ؟

لقد غبت تماماً فى أعماق ذكرياتى الدفينة «كنت مهتماً بالبحث عن عرابى باشا . . أردت أن أساله هنا وقد عز اللقاء بيننا وبينه بحكم الزمن والتاريخ

يا ابن الأزهر العظيم . . .

إننا فى هذا المكان من أجلك . . فلولاك ما بنيت هذه الكلية وما اجتمع الناس فى هذه القاعة . .

وبدأت الكلمـــات . . ووزعت الحلوى . . ولكن أية كلمات هذه التى تستطيع إيقاظى من ذكريات الحزن . لقد وقف «البارودى باشا» يخاطبنى بحديث «الغربة» المر .

كفى بمقامى فى «سرنديب» غربة
نزعت بها عنى ثياب العلائق
ومن رام نيل العز فليصطبر على
لقاء المنايا واقتحام المضايق
يقول أناس إننى ثرت خالعاً
وتلك هنات لم تكن من خلائقى
ولكننى ناديت بالعدل طالباً
رضا الله واستنهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف وأنكرت منكراً
وذلك حكم فى رقاب الخلائق
فإن كان عصيانا قيامى فإننى
أردت بعصيانى إطاعة خالقى
وكيف يكون المرء حراً مهذباً
ويرضى بما يرضى به كل فاسق
فإن نافق الأقوام فى الدين غدرة
فإنى بحمد الله غير منافق

• • •

لقد انتهى الحفل وانتهت الكلمات وبقيت نفسى غائبة فى أعماق هذه الذكريات ، وبحركة لا شعورية وجدتنى أنشد مع المنشدين .

صلى الله على محمد
صلى الله عليه وسلم

• • •

ركبنا السيارة لزيارة الجامعة التنظيمية فى مدينة «بيرويلا» على بعد سبعة وثلاثين ميلا من العاصمة كولومبو .

ما أجملك أيها الشرق . . . لقد كان «جوته» على حق فى عشقه لهذه الحياة الغنية بالجمال والفتنة .

هذه الطيور المغردة فوق أشجار — النارجيل . . وخرير المياه المتدفقة من المحيط إلى الأرخبيل . . والناس الودعاء الطيبون يقفون بأسمالهم البالية يحيون قافلة المسافرين . .

ما هذا الذى يتراءى هناك مبرقشا منمنما وكأنه يصل الربى بالسماء . . وما تلك الأهازيج القادمة من بعيد تخفق بها الأجواء ألا أيتها الرياح السوافى أغيثينى بغيثك . .

ولا بأس بالرعود كلها ترعد ، وبالسماء تتجاوب أقطارها بالبرق . فسرعان ما تنبعث الحياة . . وتشع روح خفية السر مباركة الأثر فإذا كل شىء ، فى كل ناحية ينتعش ويترعرع ، وإذا كل شىء يخضر وينضر . إن الحياة هنا تولد فى كل لحظة والجمال والفتنة يفيضان فى كل صورة . .

• • •

وصلنا إلى « بيرويلا » لنجد فى انتظارنا حشداً من المسلمين سكان المدينة وفى الطريق إلى الجامعة وقف الطلاب صفوفاً متراصة بملابس بيضاء ناصعة وبإشارة خاطفة استدار هؤلاء الطلاب فى حركة سريعة وبدءوا — يمشون بخطوات منتظمة وانطلقوا جميعاً يرددون هذه الأنشودة . .

الله أكبر . . . الله أكبر
نحن طالبو سيلان
نحن مسلمو سيلان
كتابنا القرآن . . . وديننا الإسلام
حمداً لربنا . . . شكراً لربنا
الله ربنا

واغرورقت عيون أكثرنا بالدموع فى هذا البلد الأعجمى ووسط هذه الغابات العذرية الكثيفة . . وعلى بعد آلاف الأميال من مكة أو القاهرة ينشد هؤلاء الطلاب بلغة عربية فصيحة ، وعاطفة دينية عميقة وبروح صافية شفافة . . .

ما أجحدنا نحن العرب . . .

ولكن مصر المعطاء لم تبخل على هؤلاء الإخوة . فقد اتخذ فضيلة الوزير قراره واتفق مع الدكتور الحسينى هاشم على ما يجب عمله .

• • •

رجعنا إلى كولومبو استعداداً لرحلة العودة . . . ولكن عودتنا إليها تختلف عن قدومنا إليها أول مرة .

إحساس لا يمكن تفسيره باللفظ والكلمة . . . شىء غامض يجذبنا إلى تلك الأماكن التى شهدناها فى

هذه الرحلة . . . إلى الناس الذين عرفناهم فى هذه المدينة . . . إلى الذكريات التاريخية التى تجسدت أمامنا فى كل حركة وصورة . . .

طوفان من المشاعر يتأجج به القلب ونداء بعيد يتسلل إلى الآذان من وراء الغيب . .

لقد آن الأوان يا جزيرة الشاى والنرجيل .. أن نبحر من شواطئك إلى أرض الوطن .. ونغادر آفاقك المعطرة إلى مصر . . فاحفظى عهدك الجميل مع كل مسلم تظله سماؤك الصافية . . .

وكونى كما تركناك واحة للإخاء والمساواة والحرية . . .

واذكرى ياسرى لانكا . . .

إن أحفاد « عرابى » لا ينسون الجميل وإن قدم العهد . . .

وأن ذكرى زيارتنا لك ستبقى ما بقيت الحياة والوفاء والحب . . .

• • •

فى التوكل على الله

قال صلى الله عليه وسلم :

لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً ، وتروح بطانا[1] » .

وقال صلى الله عليه وسلم :

من قال « يعنى إذا خرج من بيته بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان وكان إذا خرج من بيته يقول أيضاً : بسم الله توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أُضل ، أو أزل أو أُزل ، أو أظلم أو أُظلم ، أو أجهل أو يجهل على » .

(١) أى ضامرة البطون من الجوع ، بطانا : أى ممتلئة البطن .

فهرس العدد

صفحة

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

In the choice between paganism and the worship of one Almighty God. he never hesitated for a single moment to choose the latter. His conviction never faltered throughout, and his zeal never shcwed signs cf abatement from beginning to end.

He was averse to the amassing of wealth and whenever he had a little thereof, he straightway spent it in charity.

On one occasion, he gave his wife Aysha a small sum of money to keep. When he was taken ill, he directed that it should be given to the poor and when this was done, he exclaimed, "Now I am at peace for verily it behoves me not to meet my Lord with this money still in my possession."

In his last address to the people, he said :

"O ye who hearken unto me, if I have smitten any of you, there is my back for him to smite; if I have besmirched any one's reputation let him wreak hss vengeance on mine; if I have robbed anyone's property let him exact it out of mine; for verily this day he is secure and my heart beareth no malice."

When he finished his address and made to depart, a man siezed him by his clothes and demanded the settlement of three Dirhams which Muhammad owed him. The debt was discharged on the spot the Prophet saying : "Better the shame of this world than that of the hereafter".

(*To be Continued*)

unfounded for Muhammad embarked on his mission after the fortieth year and never before in his life did he show signs of ill-health to justify this assumption. Very few people indeed could be so well-known throughout the span of their lives as Muhammad was and so thoroughly indeed was his life treated, that even such details as the number of grey hairs in his beard ded not escape the traditionists' attention.

Had Muhammad been suffering from ill-health or fits as it is nowadays often alleged, it would have been impossible to hide the fact and one or two of his biographers would have at least referred to it. Muhammqd's states of unconsciousness were not due to fits or any other natural paroxysms. They were essentially the manifestations of an awe-inspiring experience under which he laboured when the Word of God was revealed to him.

Muhammad was not an innovator nor did he profess to be a writer. Indeed, we find some similarity between the Qoran and the Law (Old Testament) in a few places but the reason for this is not hard to find. The Qoran was revealed to set the seal to previous Scriptures just as Muhammad was sent as the last of the prophets. His mind and soul came under the same influence which affected the minds and souls of other Prophets; he worshipped the same God as they worshipped. Little wonder therefore that words should be similar or even identical in some cases despite the fact that the Lord's dispensations had been given unto mankind through the media of different Prophets. For did they not proceed from one and the same source ?

(9) Muhammad was definitely averse to all pomp and luxury. He was not haughty nor was he covetous of wealth or wordly power. He used to milk his own ewes, sit on the ground, mend his own clothes and cobble his own shoes. Contentment pervaded his whole character for never did he complain of his lot. He left this world, never once in his life having had his fill of barley-bread.

He never maintained a court or permitted a retinue to attend him. His, was a spiritual authority which aspired to no wordly pomp; neither did he seek the aid of a vizier to administer it.

He despised money and hated to have any of it left on his hands. During his life he attained to the highest pinnacle of authority and virtually exercised absolute power, yet never did he abuse it or go beyond the limits of equity. Of this power he had only one symbol—a staff; where no king was more-entitled to a sceptre than he.

(10) Muhammad resolutely set himself to exterminate paganism.

and eloquence that he straightway embraced Islam.

Not less impressed was the Negus of Ethiopia whose eyes overflowed with tears when the Chapter of Zachariah and the verses regarding John were recited to him by Jafar Ibn Abi Taleb. In this connection it is recorded that on the following day, the Negus requested Jafar to recite the story of Jesus from the Qoran, which he did. The Negus was surprised to hear that Jesus was the servant and Apostle of The Lord and that he proceeded from the spirit of God. He took up a thin rod that was lyin in front of him and said to Jafar :

"The difference between what I have just heard from you and that which our religion saith is no more than the thickness of this rod."

This rod has however become stronger in that it stood between Ethiopia and Islam and rendered it a Christian country up to the present day.

(5) It is hard to believe that human eloquence could produce such effect, but the eloquence of the Qoran is so positively flawless and inimitable that no man on earth or angel in heaven could produce anything like it and its origin is therefore unquestionably Divine.

(6) The Qoran constitutes in itself a proof of Muhammad's prophethood. Up to the present day it still remains one of the mysteries which no one could solve or fathom save those who implicitly believe in the authenticity of its revelation and are convinced of its Divine origin. But even then it is questionable whether they fully understand its intricacies.

(7) No one can deny that Muhammad displayed all the signs of true prophethood in so far as he delivered a message at the behest of his Lord — a message which he wholly believed to be true.

Muhammad believed that his mind was so completely influenced by a Divine spirit that he no longer exercised any control over it. He was merely the instrument of God and the medium through which the word of Gdd was conveyed to mankind.

His ego completely disappeard and was sunk deep in the idea of the all-pervading Providence in which he implicitly believed.

Whether the revelation came to him in his dreams or at times of unconsciousness, it is difficult to say, but in either case, the genuininess of these revelations can not be gainsaid.

(8) Emotions used to show clearly on his face; some thought that he was subject to fits, a conjecture which proved totally

CONCLUSION

In concluding this series of articles on the Prophet Muhammad, we summarise in the following pages the views expressed by Count Henry, the great French orientalist, when dealing with the same subject.

He classified his views into ten arguments :

(1) In establishing the truth of Muhammad's prophethood we need only point out his own conviction that his mission was a true and a real one and that his ultimate object was to extirpate idol worship and substitute God's worship in lieu thereof.

(2) Muhammad's faith was inborn in him. It grew within his conscience into an all-prevading belief which no other soul prior to him had ever conceived.

This unwavering faith revolutionised the thoughts of men and was directly responsible for the change that took place in the destinies of mankind over a large area of the globe. Muhammad could neither read nor write. He was, as he repeatedly described himself, an illiterate Prophet. It is significant that no one of his contemporaries ever denied this assertion.

He never read a book nor did he seek guidance from any of his predecessors in the matter of religion.

(3) We all know of the great hardships which Muhammad endured and the mental agonies which he suffered in silence. The secret of his fortitude lay in the fact that The Lord caused his soul to be open only for the reception of the true faith. It is for this reason that he frequently sought solitude to escape the scenes of idolatry and polytheism which acted as thorns in his side whenever he came across them.

The oneness and unity of God had so pervaded his soul that he used to seek the solitude of Mount Hera to hold communion with and give prayers to The Lord.

(4) It is indeed baffiling to the human mind how such verses (of the Qoran) came to be uttered by an illiterate person like Muhammad, verses whose equivalent the master minds of mankind utterly fail to produce in both words and meaning. The failure of the Arabs themselves who were the acclaimed masters of eloquence and oratory and who were intent on the refutation of Muhammad's claims, points conclusively to its Divine origin.

It is related that when the Qoran was recited to Ukba Ibn Rabieh, he was so impressed by its beauty

of the purity of this great soul and the support given thereto by The Lord ?

An illiterate person, yet despite his illiteracy calls the master writers of the day to the intelligent understanding of their own texts! He, who had never been tutored, yet calls upon the learne people to rectify their pnowledge ! He who was born and bred far away from learning and erudition yet had come to guide the master minds of his time ! He who was reared among a back ward people, yet had come to correct the corrupted beliefs of philosophers ! He who was an orphan among a primitive race to whom nature and the universe were beyond comprehension, vet had prescribed for the benefit of the world at large the principles of an efficient law whereby the salvation of mankind is assured. Those who aspired to blessedness, had only tc follow his example to attain to eternal salvation.

Indeed Muhammad's character combined such noble traits as to offer to all man of all kinds a perfect pattern for imitation. This itself constitutes a miracle which no man of sound reason can deny. Muhammad's character did not only offer one phase to be judged by, but combined very, very many phases at one and the same time. As a teacher, guide, preacher, warrior, leader, legislator, judge, philosopher, chieftain, politician, ruler, party to a treaty, combatant, worshipper and a prophet, he was a model of perfection. And just as history and tradition record him thus, they are both agreed that such combination could not possibly be displayed by one single ordinary individual. But Muhammad was indeed no ordinary person. If we will but contemplate his life-story, his traditions and the tenets of his religion, we will be convinced beyond doubt that his life offers a guiding light to mankind and endows men with a spirit of power and vigour to aid them in the exercise of their vocations; and above all a law which warrants the realisation of men's aspirations.

Nay, history as well as reason points out that such great achievements could never have been realised without Divine favour and support.

CHAPTER 8

That Muhammad met with stubborn opposition on the part of his people is a fact well established by both history and tradition. They left no stone unturned in their desire to refute his claims and did all that lay in their power to prejudice his cause. Proud kings and princes, great poets and orators have all taken their stand against Muhammad and united in a joint effort to rebut his pretensions rather than follow him or submit to his claims. Their vanity and their zeal for their beliefs and time-worn dogmas of their forefathers stood an unsurmountable barrier between them and the admission of Muhammad's teachings. Yet, in face of retentless persecution, he never ceased to call them unto the very reverse of their beliefs and to point out fearlessly the fully of deifying their wooden idols.

Alone and unaided, he delivered his message and was heedless of the spirit of antagonism which he evoked in an altogether conservative people; small wonder that this should have been the case for men are apt to cherish what they are used to, harmful though it may be, and are averse to anything new, no matter how advantageous it may prove.

Notwithstanding his weak position and the apparently hopeless end he had set himself to achieve, he patienly reasoned with them and advanced proofs of his claims. Through repeated exhortations and admonitions, a feeling of anxiety was engendered in their hearts; yet withal, he proffered them goodly counsel even as a king whose word is law unto his people and whose commandments are just and equitable, or even as a wise father who is solicitous for his children's welfare and whose severity is tempered with mercy and kindness.

But what astounded them most of all was the fact that Muhammad who was humble and illiterate and far below them in station and knowledge yet dared to condemn and to criticise their actions. Yet his cause prevailed in the end and in wonderment they stood at such might coupled with humility, such power where disability was thought to dwell such knowledge despite illiteracy and such wisdom in an age of ignorance and idolatry !

Could there be a greater evidence

With all these successes, Muhammad never lost an iota of the initial purity of his soul and remained throughout his life, unaffected by successes which would have rendered others the most conceited and vain - glorious of men.

He continued to be the same kindly, modest and contented person that he always had been. In all his actions he offered a living example of equity and perfection.

He was kindliness incarnate; the little urchins of Medina would confidently take him by the hand and lead him round the town on an errand. So great was his kindness and love for children that he disdained not to converse with and accompany them; nay he evinced great pleasure to do so.

Would not the total disregard of material success which Muhammad had shown throughout be considered a mighty proof of his greatness and rectitude ?

Kings, legislators, philosophers, leaders have all succumbed to the temptation of but a raction o this success.

But the power which Muhammad enjoyed was a spiritual one and proceeded from on high. He was not therefore amenable to the baneful influence of temptation and his thoughts were far removed from the material successes the world offered.

It is noteworthy that all chroniclers agree that the great soul of Muhammad is unique and singular. Environment and consuetudinary usages exercised no influence over it — which fact reveals a surprising phenomenon in human nature for how indeed could Muhammad, who was born and bred among a heathen and ignorant people be immune from the effects of customs, morals and beliefs which had prevailed for generation in that part of the world ? How is it that herrdity so failed to function in his case that his character showed no trace of the peculiar traits of his people ?

How could he overcome single-handed those unsurmountable difficulties and emerge from the mighty struggle in which he was engaged, unscathed and unaffected?

How could he achieve success in face of overwhelming odds and embark as he did on what was seemingly a hopeless quest ?

How could he win those millions of people to his cause and bend their wills to his own?

Would not such a soul be justly termed the greatest in the world ? and would not its will be regarded as the most indomitable ever known ?

Could its opposers account for such unprecedented influence which was the lot of Islam to exercise over the world ?

lined; I may go hungry one day and eat my fill another, on the former, I would humbly pray to The Lord and on the latter I would glorify and praise Him'."

In concluding this article, we give in the following pages the views of some modern writers on Muhammad. A modern writer says: "Virtue, as all moralists agree, and as reason points out, could not be associated with vice, for should that ever take place, one of them will inevitably dominate the other and once it had become dominant, it will exercise its peculiar influence over men. Vice and virtue are dimetrically opposed and their respective influence, as established by intuitive and empirical knowledge, is well-defined in each case and admits of no confusion.

Should I claim, therefore, that the spirit of Muhammad was the greatest spirit that has ever been known since the creation of the world, no one would hesitate to admit the truth of this statement: should he do so, I would simply ask him to point out, if he can, a single individual who achieved success in one of the following three objects:

Firstly, the unification of a people who were divided into hostile tribes and among whom blood-feuds had never ceased from time immemorial; and the stamping out entailed by such unification, of the prevailing vices of those dark ages and the institution of virtue and goodliness in lieu thereof.

Secondly, the prescription of a law that gave them power and made possible their ascendancy and expansion after having practically been unheard-of.

Thirdly, the extirpation of false beliefs and the institution of a religion inculcating such high ideals as to admit of its growth and development in a most surprising manner up to the present day. Many people embrace this religion of their own accord and through no missionary propaganda. Little wonder therefore that this religion is confidently expected to supersede all other religions on some future day."

Thus with no human aid or counsel to direct it, had this great soul accomplished those three gigantic tasks. So complete indeed was the success it achieved that leading men of learning in the West unanimously recognise itsc sucess as a signal event in the history of the world.

With its mission accomplished, this great spirt rose in satisfaction to where it belonged. The name of Muhammad has been deeply engraved on the pages of history leaving an indelible mark on the minds of men and endowing its followers with its invigorating and uplifting influence.

mad. He ordered them to be laid on a mat in front of him and started on the spot to distribute this huge sum, and never did he refuse a petitioner until the whole ninety thousands were exhausted.

His Modesty and Urbanity

"The Prophet" says Aysha, "was, by nature, the least disposed to vile words or deeds nor did he ever wilfully have recourse thereto." ,,He never returned evil for evil but he was always prone to pass over the offence and forgive the offender."

In referring to anything distasreful, he was wont to express it euphemistically to spare his hearers' susceptibilities.

His, was a company of modesty, goodlineess and righteousness.

So highly indeed did his people hold him in esteem that they conferred upon him the epithet of "the Faithful the Trustworthy' long before his prophetic mission.

In this connection, Al-Nadr Ibn Al-Harith who was a swarn enemy of Muhammad, thus addressed Qoreish:

"When a youth, Muhammad was in character the best among you, the most honest and true yet when grey hairs glistened on his temples and he announced unto you his mission, you said, 'a sorcerer for sooth !' Nay by Allah, he is no sorcerer."

His Humility and Self - Abnegation

We have already alluded in these articles to the Prophet's complete indifference to the world, Suffice it to point out in this connection how little indeed he cared for it and how unheedful he was of the joys and luxury it offered; yet the world lay at his feet and the dominion of Islam extended far and wide beyond the Peninsula. Yet Muhammad died in poor circumstances and his shield was already in pledge to provide the wherewithal for his family.

A month or even two might elapse and no fire would be kindled on Muhammad's hearth. To quote Aysha, "Never did the family of Muhammad eat their fill of barley bread for three full days in succession." "The Apostle of Allah left not a single Dinar[1] or Dirham nor a sheep or a camel." "On his death there was nothing eatable in my house save half a loaf of barley bread left over on a shelf."

"Once" Aysha goes on to say, "the Prophet told me : 'the world had been offered me but I dec-

(1) A Dinar is an ancient Arab gold coin of 65 grains weight.

hammad's prophethood except as regards to two which I have yet to know : "whether his temper is not outstripped by his forbearance and whether his tolerance is not increased by insolence."

He put him to the test and found him not wanting in this respect.

The books of Traditions abound in such instances which we could scarcely deal with in this short treatise. It is sufficient to point out, in testimony of Muhammad's forbearance and forgivenness, the tolerant attitude which he always maintained in the face of the ever-increasing persecution by the Qoreish. When, however, he triumphed over them and entered Mecca, the scene of his sorest sufferings and persecutions, he nobly forgave them and granted them full amnesty.

"How do ye think I shall treat you ?" inquired Muhammad of the Qoreish on the surrender of Mecca.

"We hope for good" said they, "a noble brother and the son of a noble brother". Where upon he said, ,,I say even as my brother Joseph said : 'There shall be no reproach against you this day; may Allah forgive you for He is the Most Merciful'; go, ye are free".

His Liberality and Magnamity

In the exercise of charity Muhammad was unique and incomparable. No one ever petitioned Muhammad in vain. Always ready to help and give his all to the first petitioner who came to his door, he retained naught of the affluence that came to him and lived, throughout his life, even as the humblest live.

It is related on the authority of Anas, one of his Companions, that a man once petitioned Muhammad for a living and received all the sheep that were grazing between two mountains near by.

On returning to his people, the man called them to Islam and announced unto them that "Muhammad giveth even as him who hath no fear of the onset of poverty."

More than one person received the bounty of one hundred camels. One, Safwan, had on one occasion received three hundred, a hundred, then another hundred then yet another hundred.

Al-Abbas was once given such a quantity of gold that he could not carry it all and had to abandon the attempt.

On one occasion, ninety thousand Dirhams[1] were sent to Muham-

(1) A Dirham is a silver coin equivalent to nearly sixpence.

so infuriated at the Arab's insolence that they wanted to kill him were it not for the Prophet forbiddin them and had done so.

On another occasion when Ibn-Al-Harith resolved to slay Muhammad, he came upon him, in one of the expeditions, while he was having his midday sleep in the shade of a lone tree at a good distance from his Componions.

Muhammad had just awakened from his sleep to find Al-Harith standing at his head with a drawn sword in his hand. "What protects you from me ?" said Al-Harith. "Allah protecteth me from you" said Muhammad. The sword fell from the hand of Al-Harith whereupon the Prophet picked it up and said to him, "What protecteth you from me now." "Be thou the best of forgivers" said Al-Harith, which plea the Prophet granted on the spot and set him free. On returning to his tribe, Al-Harith is related to have said, "I have come from the presence of the best and most noble of men."

Nor was this the only instance in which he forgave the assailant who attempted his life. He forgave the jewess who administered poison to him in a lamb of which he had partaken. She confessed her evil deed and was forgiven and set free.

"Never was the Prophet" says Aysha, "inclined to retribution for any harm done him unless the Lord's Law be violated; neither did he smite anything save in the cause of Allah nor strike a woman or a servant all his life."

A man was once brought before him for intending to kill him; "Fear thou not ! Fear thou not!" said the Prophet, "for even hadst thou intended it, thou wouldst not have been able to do it."

Before his adoption of Islam, Zeid the jew, once came to demand of the Prophet the settlement of a debt. He grabbed him by his clothes and harshly spoke thus to him, "Verily, ye sons of Abdul-Muttalib are a recalcitrant lot." Omar who was present at the time, severely chided the jew for his insolence but the Prophet who stood smiling said "Verily, he and I are more in need of a different treatment from thee O Omar; thou shouldst have bidden me be prompt in settlement of the debt and him to be more courteous in demand thereof. Three days yet remain ere the debt falleth due." He then bade Omar discharge the debt and to give his creditor twenty handfuls more for the treatment he had received at Omar's hands.

Muhammad's behaviour on this occasion, so favourably impressed Zeid that he adopted Islam soon after.

"I have" says Zeid "satisfied myself as to all the signs of Mu-

Muhammad's humility and unworldliness, that when he died his shield was already in pledge to provide the wherewithal for his family.

During his lifetime he contented himself with the minimum of necessities as regards food, clothing and habitation and renounced all else though he could have lived in state and luxury had he but desired to do so.

Such was Muhammad the Prophet of Islam, humble in life and humble in death, but withal blessed and exalted by The Lord on High.

CHAPTER 7

His Tolerance and Forgiveness

The most tolerant and indulgent of men are sometimes apt to lose their patience and be roused to anger when their patience is sorely tried.

Not so Muhammad, for his was the patience that grew with persecution and increased in the face of insolence and revilement.

"Never did the Prophet have recourse to retribution save when the Lord's Law was violated," says Aysha.

It is related that when the Prophet's eye-tooth was broken and his face lacerated at Uhod, his Companions were so deeply chagrined that they asked, "Wouldst thou not invoke the Lord's wrath against the unbelievers?" to which he replied, "I have not been sent to invoke evil upon men but to pray for the Lord's favour and mercy unto them." "Forgive O Lord my people for they know not what they do."

Such unparalleled display of tolerance and magnanimity, gives an insight into the Prophet's character and the momentous natur of his mission; for not only did he refrain from retaliation for the physical injury and humiliation afflicted upon him, but he also forgave his assailants, nay even took pity on them so that he prayed for them and interceded with The Lord on their behalf; their ignorance was to him a sufficient excuse, and hence he prayed The Lord for them for, "they know not what they do."

On one occasion when the process of the distribution of spoils was in progress, the Prophet was harshly interrupted by an Arab who said "Observe thou justice in dealing out the spoils for this is no fair division." Muhammad no more than calmly explained the reason why such division was made. But his Companions were

inquire after him; shoued he happen to be absent he would pray for his safe return; if at home, he wduld visit him or ill, he would inquire after his health.

On bidding anyone farewell, he was wont to grasp him by the hand and never did he withdraw his own hand until the other withdrew his.

He never turned down the plea of whosoever solicited his help; should he be in a position to give it at the time, he never hesitated in doing so straightway but if he lacked the substance whereby to alleviate the straitened circumstances of his petitioner, he promised to come to his aid as soon as such was available.

Unstinted were his bounties; in giving he never had a thought for himself and saved nought for the morrow.

On rising, after seated, he was wont to say : "Praise be to the Lord, all thanks are due unto Thee, there is no God worthy of worship but Thee; I pray for Thy forgiveness and am penitent unto Thee."

He hardly ever said "No" in response to his petitioner. If he was asked to do something to which he took no exception, prompt came his reply "Yea," but if he cared not to do it, he relapsed into silence.

His whole existence was so bound up with thoughts of The Lord that he gave mention to His Hallowed Name on all occasions.

He made place for the weary wayfarer to mount behind him on his steed. He ate from off the ground; nay, he never declined the invitation of the slave.

He used to incline the pitcher for the thirsty cat to drink therefrom; and he so admired the man who would wait upon his friends that he praised and prayed for him.

He milked his own ewe and attended to his own personal needs. He used to wake up during the night and stand for hours in worship of the Lord, so much so that his feet became swollen on more than one occasion.

The best meal for him was that in which many participated. He never reserved aught to himself of the affluence that came his way and used to say in this connection : "It pleaseth me not have I a mountain (like Ohod) of gold to retain a single Dinar there of unless it be devoted to the cause of my Faith."

On one occasion he received several Dinars which he distributed among those present. Six Dinars were left over and he gave them to one of his womenfolk. That night he lay sleepless in his bed and was restless until he had dicided those, as well, among his household "Now my mind is at rest !" he said.

Suffice it to say in testimony of

He never returned evil for evil but was always prone to pass over the offence and forgive the offender. Love and compassion were characteristic of Muhammad; no one was more concerned than he to seek the interest and welfare of the people.

Voices, were not raised in his presence, he inspired awe and revernce in the hearts of those with whom he came into contact. He was open-banded and his forbearance knew no bounds even on occasions when it was most severely taxed.

His manner and tone were sincere and reassuring; he inspired leverence in whosoever chanced to see him and deep affection in whosoever knew him.

He was wont to say unto his disciples : "Let no one frem among you bear ill tidings regarding others unto me for I desire to come unto you clear without prejudice."

He used to inquire of people after those they knew and never failed to praise the good and to condemn the evil.

He was pleasant to his companions and kindly disposed towards them. He was never known to be rude or impertinent, nor did he ever speak disparagingly of any one or seek the faults and failings of others.

When he spoke, his companions used to be hushed and hang breathlessly on his words and it was only when he relapsed into silence that did speak, so weighty indeed was his counsel and so grave were his words.

"Announce ye glad tidings and alienate not the people but make easy the way unto them and constrain them not unto narrow straits," he used to counsel his messengers.

He ate but little and is related to have said in this connection :

"A few morsels may well suffice man to sustain his body." On coming home he used to inquire : "Have you aught of food ?" and should there be none which was not an infrequent occurrence, he was wont to say: "I fast this day."

"Help ye fulfil the object of him who cannot attain it," says Muhammad "for whose fulfileth his object will The Lord vouchsafe him security on the Day of Great Terror (Judgment Day).

On setting out to defend the Faith he prayed to The Lord "O Lord, of thee do I seek aid, and in Thy Hallowed Name do I go forth and fight in Thy cause."

On occasions when he was roused to anger while standing, he used to sit down and if he was sitting, he used to assume a reclining position to restrain his feeling thereby.

If he missed one of his companions three days, he was wont to

used often to reiterate. "Nay! By Him who wields the hearts of men."

He was taciturn and laughed on rare occasions. His liberality and kindliness won the hearts of all those around him. He used to inquire of the servant if he was in need of anything and never did he, by word or deed, cause distress to his pepole. Unto no one would he break bad news. He gave freely unto the poor, visited them, came to their sick-beds and gave them of his unbounded sympathy and attended their funerals when death claimed a dear one from their midst.

Pleasant of face and amiable was he to the sinner of the deepest dye that mayhap he win him over thereby.

Oftimes The Lord engaged his thoughts. In vain discourse never did he indulge and long indeed did he pray to The Lord.

The widow, the poor and even the slave never sought his help in vain for never did he refuse to give it or disdain to accompany any of them and help accomplish his object.

He was the most indulgent, equitable and virtuous of all men. His hand never touched a woman's unless she was his wife or a near kinswoman.

He was most modest and unassuming; he was serene without being haughty, eloquent without being loquacious and above all most pleasant of mien and completely indifferent to all worldly affairs.

He sat in the company of the poor and shared his food with the needy and wayfarer. The goodly he honoured, and the noble he sought to attach to him in friendship.

He gave unto his kindred but never did he give them priority over the more deserving ones among others.

He was equanimous of temper; anger never ruffled his serenity. The plea of the penitent he was never loth to accept.

He jested, yet never did he utter but a truth. Neither did he roar with laughter nor look disapprovingly upon innocent play.

Nothing ever engaged his attention so much as the worship of God or an indispensable occupation whereby to sustain himself and his own.

He never looked down on the poor for their penury or feared a king for his might and dominion.

He forbore from retribution for anything done save the breaking of the Lord's law; and never did he have the choice of two ways but he chose the easier of the two unless he feared to commit a sin or to alienate his kindred thereby.

and he shall give you another Paraclete that he may abide with you for ever."

"And now I have told you before it came to pass, that, when it comes to pass, ye might believe."

The other "Paraclete" in whom Christ bade them believe and who was to abide with them for ever is no other than Muhammad for no other prophet came after Jesus, and it is not conceivable that he has not come until now as Christ very often told his advent was near at hand.

It is easy to draw inferences from such saying as : "Abide with you for ever" and "It is expedient for you that I go away : for if I go not away, the Paraclete will not come unto you."

In pages 63 and 64 of his book "Saiful-Muslimeen," Hyder Ali Al-Korashy mentions that the Armenian priests have translated the book of Isaiah from the original into the armenian language in 1666 A.D. and the translation was published in 1733 A.D. by Anthony Bortelly. In Chapter XLII of this translation a verse is given wherein the qualities of the prophet who will preach a new law and assume great power and authority under the name of Ahmed,(1) were detailed.

(1) One of the names of the Prophet Mohammad is Ahmed.

This translation is still retained by the Armenians and it could easily be verified by seekers of truth.

So much then for tangible proofs quoted from the Scriptures. Muhammad did not lack such qualities as could only pertain to true prophets. In this connection, it would be fitting to record in the following pages some of his personal traits and actions which will shed light on a phase of his life hitherto neglected by most biographers. The importance of such an account cannot be overestimated, for indeed man's personal character provides a clear indication of his true nature and the state of his mind and soul.

It was not by accident that Muhammad was acclaimed the best of men, the most generous and brave. He was most tolerant and suffered patiently the persecution of his enemies.

Lying was most abominable to him; he used to avoid and completely ignore anyone of his own folk who told a lie and it was not until the delinquent showed true penitence that he spoke to him again.

When he gazed up into heaven, he was wont to say : "O Wielder of hearts ! confirm thou my heart in thy obedience." But knowing as he did of the oscillation and inconsistency of men's hearts, he

the assignation of the Law to Moses, the rising up frcm Seir implies the assignation of the Gospel to Jesus and the shining forth from Mount Paran implies the revelation of the Qoran to Muhammad as Paran is a mountain of Mecca.

The following quotation from the Book of Genesis, Chapter XXI. 21, in connection with the story of Ishmael fully substantiates this view :

"And he dwelt in the wilderness of Paran : and his mother took him a wife out of the land of Egypt."

According to an Arabic translation published in 1844 A.D. Book of Genesis Chapter XVII. 20, a covenant was made with Abraham regarding his son Ishmael that one of his progeny will be followed by a great people. None of Ishmael's descendants became the chieftan of a great people except our Prophet Muhammad.

Again in the Book of Genesis, Chapter XLIX, 10, of the Arabic translation of the Biole published in 1722, 1831 and 1844 A.D., the following verses are significant :

"The sceptre shall not depart from Judah until he cometh who claimeth all and is waited for by the people."

And in the Book of Psalms, Chapter XLV, 2, 3, 5 and 9 addressing a future prophet :

"Grace is poured into thy lips : therefore God hath blessed thee for ever."

"Gird thy sword upon thy thigh, O most mighty."

"Thine arrows are sharp in the heart of the King's enemies; whereby the people fall under thee."

"King's daughters were among thy honourable women."

This address could only be meant for Muhammad as Jesus was not the prophet who resorted to arms in defence of religion, nor indeed did any people fall under him. He sought refuge in vain to escape the persecution of the Jews and was made the object of insult and derision and was even put to a violent death as the Christians allege.

No less significant are the following verses Chapter XVI. 7 of the Gospel of St. John :

"Nevertheless I tell you the truth; It is expedient for you that I go away : for if I go not away, the Paraclete[1] will not come unto you."

And Chapter XIV. 15, 16 and 29 of St. John :

"If you love me, keep my commandments."

"And I will pray the Father,

(1) In the new version of the Gospel "Comforter" is substituted for "Paraclete."

It would be fitting in concluding this article, to give in the folowing pages some instances of the announcement by prophets of the advent of Muhammad and reference thereto in the Scriptures.

Much could be written should we wish to give all the announcements made by prophets, priests and monks regarding the advent of Muhammad. It would indeed be an endless task to undertake, before such evidence of Sateih, Wahb Ibn Monabbeh, Kaabul-Ahbar, Al-Mukaukis, Heraclius, the Negus of Ethiopia, Tobbah, Ommiah Ibn Abil-Sult and others could be exhausted.

Such announcements were so widely spread and repeated over and over again by the Prdphets, that no Scripture of Jews or Christians lacked reference thereto, despite the fact that many verses have been misconstrued and corrupted by them. Nevertheless such corruption did not prejudice the true meaning of the verses as is conveyed for instance by the substitution of "Comforter" for "Paraclete" in chapters XVI and XVII of the Gospel of St. John. It was due to Divine providence that such verses retained their original meaning. For indeed, had Muhammad not been the promised prophet whose advent Christ had announced and said was near at hand, we would wonder who could that prophet be and why was his advent so long delayed.

We will give in the following pages a short account of such Scriptural references to Muhammad as will leave no room for doubt to rankle in the minds of seekers of truth and will, at the same time render clear the Lord's saying in the Qoran that the people of the Scriptures will find his name and qualities clearly given in their books, the Law and the Gospel, and that they know him even as they know their own children.

The name of Muhammad was clearly given in several chapters of the Gospel of Barnabas as well as in the Books of Isaiah, Daniel, Ezekiel and others. It is evident that such lofty sayings, great knowledge and spiritual attainments given in the Gospel of Barnabas could only refer to a great and a holy prophet. The contents of this Gospel present a striking comparison to the modern ideals of present day thinkers and philosophers.

Among other scriptural quotations alluding to the advent of Muhammed the following from the book of Deuteronomy XXXIII, 2 is significant :

"And he said: "The Lord came from Sinai, and rose up from Seir unto them, and shined forth from Mount Paran, and he came with thousands of saints."

The coming from Sinai implies

إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ » .

"This (the story of Joseph) is one of the unknown histories which We reveal unto thee. Thou wert not present with Joseph's brethren when they resolved to cast him down to the bottom of the well and plotted his destruction."

(*Alucy's Commentary.*)

It was because of this knowledge that the well-versed among the people of the Scriptures did not doubt the prophethood of Muhammad as signified by the following verses :

«إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً » .

"When the Qoran is recited to the learned people who have read the books of old prior to the revelation of the Qoran, and recognised its genuineness, they fall down upon their faces, prostrate in glorification of The Lord and say "Our Lord is far above breaking His promise for whatever He promiseth is surely accomplished." And they fall down upon their faces weeping, deeply touched by the exhortations of the Qoran which intensify their humility."

(*Alucy's Commentary.*)

And :

«وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » .

"The learned ones among the people of the Scriptures unto whom knowledge was given, and who believed in the Qoran, know that it is the true Word of The Lord and that it leadeth unto the way of Allah, The Mighty, The Praise worthy."

(*Alucy's Commentary.*)

And :

«وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » .

"When those who declare they are Christians hear the Qoran recited, thou shalt see their eyes overflow with tears, on knowing the truth. They would say 'O Lord ! We believe in what was revealed, pray count us among those who bear witness to the truth'."

(*Alucy's Commentary.*)

Muhammad was brought up, were not only unacquainted with the history of the prophets and their mission, but they were hopelessly steeped in ignorance and polytheistic beliefs and believed not in the life to come. Monotheism was completely unknown to them and the idea of the unity of the Godhead never presented itself to their minds. They believed in a plurality of gods and the association of others with the Almighty Lord.

An examination of the Qoran and the Law (Old Testament) will reveal their total agreement in regard to the fundamental precepts such as that of the unity of God, the prophetic attributes and the injunctions ordained by the Lord. Once this conclusion is reached, it would be easy to recognise the truth of the comment made by the Negus of Ethiopia who, on hearing the Qoran recited exclaimed, "Verily this and that which was revealed unto Moses issue from the one and the same source"; as also of the remark volunteered by Waraka Ibn Nowfal who said regarding the revelation of the Qoran to Muhammad "This is the Nomos that was wont to descend upon Moses."

« قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » .

"Say, Muhammad ! Suffice Allah unto me who hath made manifest the truth of my mission and is the best of witnesses. Also those who are given the knowledge of the Scriptures can testify thereto."

(*Alucy's Commentary.*)

This is one of the greatest proofs of the prophethood of Muhammad. He announced unto his people such precepts and injunctions as were enjoined by other prophets; yet this knowledge was conveyed to him by no living creature. It had long been forgotten and was within the region of the unknown to which no one could penetrate except through Divine Revelation as saith the Lord in the following verses :

« تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ » .

"This (the story of Noah) is one of the unknown histories which We reveal unto thee. Neither thou nor thy people were given knowledge there of before its revelation. Therefore suffer thou patiently the afflictions and persecutions which befall thee; for verily a happy ending shall attend the pious."

(*Alucy's Commentary.*)

And :

« ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ

afterwards, Arabia is a Grenada on this hand, at Delhi on that; — glancing in valour and splendour and the light of genuine, Arabia shines through long ages over a great section of the world. Belife is great, life-giving. Is it not as if a spark had fallen, one spark, on a world of what seemed black unnoticeable sand. I said, the Great Man was always as lightning out of Heaven; the rest of men waited for him like fuel, and then they too would flame."

CHAPTER 6

Among other proofs testifying to the genuineness of a claimant to prophethood, is the announcement by former Prophets of his advent. Such, indeed, was the case with Muhammad whose advent was announced by Christ and the Prophets prior to him.

The genuineness of the climant to prophethood could be further attested to by his inculcating some certain precepts such as were ordained by other Prophets. For as the ignorant and iniquitous judge is liable, in his judgment, to go contrary to the established rules followed by learned and righteous judges, and as the ignorant jurisconsults or quacks are liable, in their practices, to go off the beaten track of their respective professions, so is it with the lying impostor who claims prophethood; he is bound to deviate from the fundamental principles on which all true prophets concur as regards, for instance, the unity of God, the prophetic attributes and the life to come.

The ignorance and imposture of all such claimants are bound to be exposed on account of their contradiction to the established rule of learning and truth.

It is an established fact that Muhammad was illiterate and that he was brought up among an altogether illiterate people. Indeed, he had never read a book nor had he penned a single letter with his own hand and in this connection the Lord saith :

وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ
وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ »

"Thou couldst not recite any book before the revelation of the Qoran unto thee, neither couldst thou transcribe one with thine own right hand, for hadst thou been able to read and write, the unbelievers would have doubted the divine origin thereof".

(*Alucy's Commentary.*)

The people among whom

Universe an awful Fact and Reality."

"Sincerity, in all senses, seems to me the merit of the Qoran; what had rendered it precious to the wild Arab men. It is, after all, the first and last merit in a book; gives rise to merits of all kinds,—nay, at bottom, it alone can give rise to merit of any kind."

Speaking of Muhammad's character Carlyle remarks :

"Traits of that kind show us the genuine man, the brother of us all, brought visible through twelve centuries, — the veritable Son of our common Mother.

Withal I like Mohamet for his total freedom from cant. He is a rough self-helping son of the wilderness; does not pretend to be what he is not. There is no ostentatious pride in him; but neithr does he go much upon humility : he is there as he can be, in cloak and shoes of his own clouting; speaks plainly to all manner of Persian Kings, Greek Emperors, what it is they are bound to do; knows well enough, about himself, 'the respect due unto thee.' In a life-and-death war with the Bedouins, cruel things could not fail; but neither are acts of mercy, of noble natural pity and generosity wanting. Mohamet makes no apology for the one, no boast of other".

"No *Dilettantism* in this Mahomet; it is a business of Reprobation and Salvation with him, of Time and Eternity : he is in deadly earnest about it ! Dilettantism, hypothesis, speculation, a kind of amateurscarch for Truth, toying and coquetting with Truth : this is the sorest sin. It consists in the heart and soul of the man never having been *open* to Truth ; — 'living in a vain show'."

"On the other hand, Islam, like any great Faith, and insight into the essence of man, is a perfect equaliser of men : the soul of one believer outweighs all earthly kingships; all men, according to Islam too, are equal."

Finally Carlyle observes :

"These Arabs believe their religion, and try to live by it ! No Christians, since the early ages, or only perhaps the English Puritans in modern times, have ever stood by their Faith as the Moslems do by theirs, — believing it wholly, fronting Time with it, and Eternity with it "

"To the Arab Nation it was as a birth from darkness into light; Arabia first became alive by means of it. A poor shepherd people, roaming unnoticed in its deserts since the creation of the world : a Hero-Prophet was sent down to them with a word they could believe : see, the unnoticed becomes world notable, the small has grown world-great; within one century

hitherto. Not till he was already getting old, the pururient heat of his life all burnt out, and *peace* growing to be the chief thing this world could give him, did he start on the 'career of ambition'; and, belying all his past character and existence, set up as a wretched empty charlatan to acquire what he could no longer enjoy ! For my share, I have no faith whatever in that.

Ah no : this deep-hearted Son on the Wilderness, with his beaming black eyes and open social deep soul, had other thoughts in him than ambition. A silent great soul; he was one of those who cannot *but* be in earnest; whom Nature herself has appointed to be sincere. While others walk in formulas and hearsays, contented enough to dwell there, this man could not screen himself in formulas; he was alone with his own soul and the reality of things. The great Mystery of Existence, as I said, glared-in upon him, with its terrors, with its splendours; no hearsays could hide that unspeakable fact, 'Here am I !' Such *sincerity* as we named it, has in very truth something of divine. The word of such a man is a Voice direct from Nature's own Heart. Men do and must listen to that as to nothing else;—all else is wind in comparison."

"We will leave it altogether, this impostor hypothesis, as not credible; not very tolerable even, worthy chiefly of dismissal by us."

"Such light had come, as it could, to illuminate the darkness of this wild Arab soul. A confused dazzling splendour as of life and Heaven, in the great darkness which threatened to be death."

Carlyle then goes on to say :

"And now if the wild idolatrous men did believe this, and with their fiery hearts lay hold of it to do it, in what form soever it came to them, I say it was well worthy of being believed. In one form or the other, I say it is still the one thing worthy of being believed by all men. Man does hereby become the high-priest of this Temple of a World. He is in harmony with the Decrees of the Author of this World; cooperating with them, not vainly with standing them."

"Islam devoured all these vain jangling Sects; and I think had right to do so. It was a Reality, direct from the great Heart of Nature once more. Arab idolatries, Syrian formulas, what soever was not equally real, had to go up in flame,—mere dead *fuel*, in various senses, for this which was *fire*."

"Forger and juggler ! No, no! This great fiery heart, seething, simmering like a great furnace of thoughts, was not a juggler's. His life was a Fact to him; this God's

do prosper by their quackery, for a day."

"But of a Great Man especially, of him I will venture to assert that it is incredible he should have been other than true. It seems to me the primary foundation of him, and of all that can lie in him, this. No man adequate to do anything, but is first of all in right earnest about it; what I call a sincere man."

"This Mohamet, then, we will in no wise consider as an Inanity and Theatricality, a poor conscious ambitious schemer; we cannot conceive him so. The rude message he delivered was a real one withal; an earnest confused voice from the unknown Deep. The man's words were not false, nor his workings here below; no Inanity and Simulacrum; a fiery mass of Life cast-up from the great bosom of Nature herself. To *kindle* the world; the world's Maker had ordered it so."

"One other circumstance we must not forget : that he had no school-learning; of the thing we call school-learning none at all. The art of writing was but just introduced into Arabia; it seems to be the opinion that Mohamet never could write."

"Curious, if we will reflect on it, this of having no books. The wisdom that had been before him or at a distance from him in the world, was in a manner as good as not there for him. Of the great souls, flamebeacons through so many lands and times, no one directly communicates with this great soul. He is alone there, deep down in the bosom of wilderness; has to grow up so, — alone with Nature and his own Thoughts.

But, from an early age, he had been remarked as a thoughtful man. His Companions named him "Al-Amin" The Faithful. A man of truth and fidelity; true in what he did, in what he spoke and thought. They noted that *he* always meant something. A man rather taciturn in speech; silent when there was nothing to be said; but pertinent, wise, sincere, when he did speak; always throwing light on the matter. This is the only sort of speech *worth* speaking ! Through life we find him to have been regarded as an altogether solid, brotherly, genuine man. A serious, sincere character; yet amiable, cordial, companionnable, jocose even; — a good laugh in him withal : there are men whose laugh is as untrue as anything about them; who cannot laugh. A spontaneous, passionate, yet just, true-meaning man !"

"All his 'ambition,' seemingly, had been, hitherto, to live an honest life; his 'fame,' the mere good opinion of neighbours that knew him, had been sufficient

It was in this same vein of argument that Carlyle the great English writer and philosopher addressed his fellow-Christians in his lectures on heroes when speaking of Muhammad.

The following are a few quotations of his discoures :

"Our current hypothesis about Mahomet, that he was a scheming Impostor, a falsehood incarnate, that his religion is a mere mass of quackery and fatuity, begins really to be now untenable to any one. The lies, which well-meaning zeal has heaped round this man, are disgraceful to ourselves only."

"The word this man spoke has been the life-guidance now of a hundred-and-eighty millions[1] of men these twelve-hundred years. These hundred-and-eighty millidns were made by God as well as we. A greater number of God's creaturs believe in Mahomet's word at this hour than in any other word whatever. Are we to suppose that it was a miserable piece of spiritual legerdemain, this which so many creatures of the Almighty have lived by and died by ? I, for my part, cannot form any such supposition. I will believe most things sooner than that. One would be entirely at a loss what to think of this world at all, if quackery so grew and were sanctioned here.

Alas, such theories are very lamentable. If we would attain to knowledge of anything in God's true Creation, let us disbelieve them wholly ! They are the product of an Age of Scepticism; they indicate the saddest spiritual paralysis, and mere deathlife of the souls of men; more godless theory, I think, was neverpromulgated in this earth. A false man found a religion ? Why, a false man cannot build a brick house ! If he do not know and follow *truly* the properties of mortar, burnt clay and what else he works in, it is no house that he makes, but a rubbishheap. It will not stand for twelve centuries, to lodge a hundred-and-eighty millions; it will fall straightway. A man must conform himself to Nature's laws, *be* verily in communion with Nature and the truth of things, or nature will answer him, No, not at all ! Speciosities are specious—ah me!—a Cagliostro[1], many Cagliostros, prominent world-leaders

(1) This was written in 1840, *i.e.* more than a century ago. The number of Moslems throughout the world is at present seven hundred millions at a very odest estimation.

(1) Cagliostro (1743-1795 A.D.), Italian alchemist, and impostor. was born at Palermo. His real name was Giuseppe Balamo. He perpetrated a series of ingenious crimes and fled from Sicily to escape punishment. He visited Greece, Egypt, Arabia, Persia, Rhodes (where he studied Alchemy) and practised his quackeries in many Furopean countries.

"There is surely a sign in what had befallen those people who have gainsaid their Prophet for most of them believed not; verily thy Lord is mighty in dealing with those who disobeyed His injunctions, and merciful to those who obeyed."

(*Baidawy Commentary.*)

The Lord hath shown that knowledge of such endings is reached through the medium of seeing and hearing or both together. The former applies to those who have witnessed the destruction of the unbelievers or the traces thereof, as the annihilation of the Army of the Elephant lead by Abraha or the relics which tell of the peoples of Syria, Yemen and Hedjaz. As to the atter, knowledge thereof is derived from authentic history which is very often established by constant corroboration, as the story of Moses and Pharaoh, the drowning of Pharaoh and his host in the Red Sea, the story of Abraham and Nimrod, Noah and the Deluge and many other such stories acknowledged by all religions.

The narration of these stories is indeed more reliable than any other story, be it of kings or of great men — as for instance, the stories of Persian kings, Arabs in the pre-Islamic era or Greece with its learned men of medicine, astronomy and philosophy among whom Hippocrates[1], Galen[2], Ptolemy[3], Socrates[4], Plato[5] and Aristotle[6] figure prominently.

It is evident that the stories of Prophets, their people and enemies are, by far, of greater import than the stories of all those others mentioned before.

---

(1) Hippocrates (460 B.C.), Greek physician, was born on the Island of Cos off-the Coast of Asia Minor. He is regarded as the "Father of Medicine" and is famous for his great Collection on Medicine.

(2) Galen (130-200 A.D.), Greek physician, was born in Pergamum' the capital of Mysia in Asia Minor· He was the auther of some 500 treatises on medicine and philosophy.

(3) Ptolemy, celebrated Greek mathema tician, astronomer and geographer, was brn born at Ptolemais Hermii a Grecian city of the Thebaid in the 2nd century of the Chritian era. He devoted his life to the study of astronomy and kindred subjects and is the author of the Ptolemaic System pertaining to the structure of the heavens and the motions of heavenly bodies.

(4) Socrates celebrated Greek philosophe r(469-399 B.C.), was born in Athens. He wrote nothing himself but his doctrine were expounded chiefly in the Dialogue of Plato and the Memorabilia of Xenophon.

(5) Plato, Greek philosopher (428-348 B. C.), author of the "Republic" "Gorgias", "Phaedo" etc.

(6) Aristotle, Greek philosopher 384-322 B.C.), was born at Stagira. a Greek colonial town on the north-western shores of the Aegaean. He was the founder of literary criticism.

لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ
تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا
فَأَخَذَهُمُ اللهُ إِنَّهُ قَوِىٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

"Have the unbelievers not journeyed in the earth and witnessed the sad ending of those who charged their Prophets with imposture before them and taken warning thereby ! Those past people were far mightier than the Meccans, and their castles and strongholds more enduring than theirs; yet the Lord hath destroyed them because of their sins and there was no one to prevent this fate befalling them. This, because they disbelieved the miracles of the Prophets who were sent unto them; and the Lord hath therefore destroyed them for He is Mighty and Severe of punishment."

(Baidawy's Commentary.)

And :

« إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » .

"Verily we shall render support to our Apostles and to those who believed, in this world and in the hereafter when Prophets, angels and true believers shall be called to bear witness on the Judgment Day."

(Baidawy's Commentary.)

And :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ
مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ
نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ
يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ
قُضِىَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ » .

"And We have sent Apostles before thee; the story of some of whom We have told thee; and the story of others We have told thee not.

No apostle hath the power to work a miracle unless the Lord so wills it; but when the Lord ordaineth punishment in this world or the hereafter, everyone will be accorded his just deserts, and then those who challenged the Prophets to work further miracles, will perish for their disbelief."

(Baidawy's Commentary.)

Warning against the sad ending and the punishment inflicted upon those who evoked God's wrath, is reiterated in the Chapter of the Poets after the stories of Moses, Abraham, Noah and other Prophets and is given thus :

« إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » .

MESSAGE OF PEACE
A TREATISE ON ISLAM

By

The late Prof. **Sheikh Youssof El - Degwy**

of Al-Azhar University and member of the Body of Grand Ulama·

(**Translated From the Arabic**)

By

Aly Z. Husny M.A.

Part : 2

The Prophet Muhammad

« *Continued* »

CHAPTER 5

We have already referred to the punishment which the Lord inflicted upon those who denied the truth of the Prophets sent to them. Such punishment is referred to in the Qoran as in the following verses :

« كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ
مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ
لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ
الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ »

"The unbelievers of Mecca were not the only people who charged their Prophet with imposture; the people of Noah and the people of Ad and Themoud and other people who confederated against their Prophets have also done so before the Meccans. Each of those people schemed against their particular prophet and strove to inflict harm and torture upon him; they disputed with vain words to refute the truth he was sent with whereupon the Lord hath destroyed them; and lo, how severe His punishment was!"

(*Baidawy's Commentary.*)

And :

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ
قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا
فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ

mad Shaheen of Al-Azhar University.

Thence, it could be said that this magazine was represented by its Editor-in-chief Dr. A. I. Shalaby who particularized the details of the conference in a report published in Arabic in this Volume.

The Seminar was conducted in three Languages : Arabic, English and Tamil with which the delegates deliverd their speeches and researches and proceeded their discussions through the four sub-Commitees that sprang up from the conference to discuss the main aspects of the subject.

These aspects are :

1 — Islam and features of its legal system.

2 — Islam and Education.

3 — Islam and features of Sociology.

4 — Islam as a total system.

The result of this Seminar was of prudent and vigilant decisions that are amongst Dr. A. Shalaby's Arabic report published in this volume.

«Yet, if ye obey ALLAH and»
«His messenger, He will not withhold»
«from you aught of (the reward of) Your»
«deeds. Lo ! ALLAH is Forgiving, Merciful.»
«The (true) believers are those only»
«Who believe in Allah and His Messenger»
«and afterward doubt not, but strive»
«with their wealth and their lives for»
«the couse of ALLAH. Such are the sincere».

(*Surah* 49 : 14/15)

Zaher A. El-Zoghby

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd - ul - Wadoud I. Shalaby**

SUPERVISOR : **Zaher A. El - Zoghby**

The fiftieth Volame No. 6 Shawwal 1398 H. — September 1978 A.D



In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

INTERNATIONAL MUSLEM SEMINAR IN SRI LANKA

By

Zaher A. EL - Zoghby

«Those are they whom Allah guideth»,
«So follow their guidance»

The splendowrous city of Colombo; the capital of the noble, invetrate and beautiful island : «Srilanka» had witnessed a momentous and important incident during four days — from Friday, the 24th until Monday, The 27th of Jumadah Al-Akhirah 1398 H. (the 30th of June/the 3rd of July 1978) — when The International Muslem Seminar was held there.

Delegations representing all muslems of the world were invited by The Muslem Scholars of Ceylon and Al-Azhar was represented with a delegation of four members hedead by His Eminence Shaikh Mohammad Motawally Sha'arawy, The Minister of wakfs and The affairs of Al-Azhar, the other three were : His Eminence Dr. Al-Hussainy Hashim — The Secretary General of The Islamic Researches Academy — His Eminence Dr. Abd-ul-Wadoud I. Shalaby — The General Director and Editor - in-chief of Al-Azhar Magezine — and His Eminence Dr. Tawfik Moham-

ج ٢
عمر ٦٢٢٢

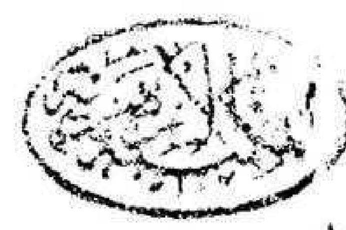
مدير المجلة
ورئيس التحرير
الدكتور
عبد الودود شلبي

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
في أول كل شهر عربي

العنوان
إدارة الأزهر
بالقاهرة
ت { ٩٠٩٩٢٢ / ٩٠٥٩١٤ / ٩٠٥٥٠٦ }

الجزء السابع والثامن — السنة الخمسون — ذى القعدة / ذى الحجة ١٣٩٨هـ أكتوبر / نوفمبر ١٩٧٨م



بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام هو التوحيد

لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
الدكتور عبد الحليم محمود

والإسلام — كما كانت الأديان فى نقائها ، وصفائها من قبل — إنما هو التوحيد ، وهو دعوة إلى التوحيد .

فالتوحيد — أى إسلام الوجه لله — جوهره ، وأساسه . وكل تعاليمه ، ومبادئه : إنما هو توحيد .

وهى وسائل ومناهج للوصول بالإنسان إلى التوحيد .

و « أشهد أن لا إله إلا الله » ، إنها رسالة السماء الخالدة . . « وأشهد أن محمداً رسول الله » . . . الذى بلّغ الرسالة ، فأدّى — بهذا التبليغ الصادق — الأمانة ، التى وكلت إليه ، وهى التوحيد .

التوحيد : هو مبدأ الإسلام وجوهره ، ولكن التوحيد ، ليس مجرد قول ، وليس مجرد كلمة لا أساس لها فى القلب والشعور .

وإذا لم يؤمن الإنسان بالتوحيد إيماناً يملك عليه جميع أقطاره ، فيتغلغل فى جميع أنحاء شعوره ووجدانه ، ويغمر قلبه ونفسه ، ويكيّف جسمه، ويوجهه الوجهة السليمة . . . فإنه لا يكون كامل الإيمان .

ومن أجل إيجاد الإنسان الموحد فى صورة واقعية ... كانت تعاليم الإسلام .

فالصلاة : إنما هى انفصال عن كل ما سوى الله ، من أجل الاتصال بالله ، فهى توحيد .

ومن هنا كان بدؤها « الله أكبر » لتشعر الإنسان من المبدأ أن جميع ما فى العالم من سادة ، وجميع ما فى العالم من بشر — تتعلق بهم الآمال ، أو يناط بهم الرجاء — فإن الله أكبر منهم ، وأجل وأعظم ، فيجب أن تتعلق الآمال به وحده ، وأن يقتصر الرجاء عليه سبحانه .

ثم تتوالى جميع الأوضاع فى الصلاة ؛ من قراءة ، وركوع ، وسجود ، وتشهُّد ، لتعلن — بكل حركة ، وبكل وضع — الانفصال عما سوى الله ، من أجل الاتجاه إلى الله وحده : ومن أجل إسلام الوجه إليه سبحانه .

والصوم : إنما هو تنزه عن المادة ، وعن السوء فى القول ، والعمل فترة من الزمن ، من أجل مرضاة الله ، إنه تنزه عن نقص البشرية ، الذى يتمثل فى شهوات المعدة ، لتخلص الروح فترة إلى التأمل فى كمال الله . إنه محاولة للتخلق بأخلاق الله ، لأنه — سبحانه — الكمال المطلق ، الذى لا يحتاج إلى شىء ، والذى لا بد لمن يأمل فى شىء من الكمال ، من أن يتحلى بما أراده — سبحانه — منه ، إنه تنزه عن النقص فى سبيل التوحيد .

والزكاة : إنما هى بذل المادة فى سبيل الله ، إنها بذل المادة ، التى يجرى وراءها البشر ، ويكادون يعبدونها ، بذلها بعد امتلاكها ، بذلها وقد كان فيها — لو أراد — الوسيلة للملاذ ، والشهوات ، إنها تجرد عن المادة ، توحيدا لله سبحانه .

وأما الحج — والله نسأل أن يكتبه لنا كل عام — فإنه تجريد كله ، إنه تجرد عن الماضى ، فهو فى بدايته التوبة عن الذنوب ، والآثام — أى عن الفترات التى غفل الإنسان فيها عن ذكر الله — فأشرك معه غيره ، واتخذ إلهه هواه ، فنسى الله ، فوقع فى المعصية ، والإثم .

هو تجرد ، حتى عن ملابس الماضى ،

وهو تلبية من أول لحظاته ، تلبية هى استجابة لله — وحده — أو هى توحيد خالص ، إنها استجابة كاملة للأمر بنفى الشريك .

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك ، لا شريك لك » .

إن هذا النداء الذى يتعالى — وله عبير طيب ، وله سناء متألق . فيصعد إلى السماء ، فتفتح له أبوابها ، إن هذا النداء إنما هو الانطواء الكامل تحت راية التوحيد .

وتتوالى أعمال الحج كلها ، واضحة سافرة ، أو رمزية مستعلية ، معلنة التوحيد ، منادية به ، طائفة وراءه ، ساعية من أجله ، واقفة تستشرفه ، راجية من الله — سبحانه وتعالى — أن يقبل أصحابها فى زمرة الموحدين . يقول الله تعالى :

(وما أرسلنا من قبلك من رسول ، إلا نوحى إليه ، أنه لا إلٓه إلا أنا فاعبدون)[1] .

هذه بعض معالم التوحيد فى العقيدة .

ومعالم التوحيد فى الأخلاق ألا يصدر عن الإنسان ، ولا يرد فى سلوكه الشخصى ، أو فى سلوكه الاجتماعى أمر إلا عن توجيه إلٓهى .

ومعالم التوحيد فى « النية » أن يكون الإنسان — فى كل ما يأتى ، وما يدع — قاصداً وجه الله تعالى ، هو أن تكون حياته كلها لله ، وليست الحياة وحدها ، وإنما الممات أيضا .

والتوحيد — على العموم — هو أن يهب الإنسان نفسه لله ، فى قيامه ، وجلوسه ، فى نومه ، ويقظته ، فى حديثه وصمته ، فى غضبه ، ورضاه ، فى صداقته ، وعداوته ، فى بيعه وشرائه ، فى عمله وراحته ، فى أفكاره وآرائه ، فى توجيهه وإشاراته ، فى نصائحه ، وتحذيراته ، فى كل نفس يتنفسه ، أو طرفة عين يطرفها .

ونعود فنذكر — كقانون جامع — أن توحيد الإنسان : هو أن تكون صلاته ، ونسكه ، ومحياه ، ومماته لله رب العالمين ، لا شريك له .

ويقترب الإنسان من المثل الأعلى الإسلامى بمقدار قربه من هذه المعانى :

عقيدة ، وأخلاقاً ، ونية .

وقوله تعالى :

(ألا لله الدين الخالص)[2] .

إنما يشير بها إلى خلوصه من كل شائبة شرك . سواء أكان الشرك فى العقيدة ، أم كان فى الأخلاق والنية .

---

(١) سورة الأنبياء (٢٥) .

(٢) سورة الزمر (٣) .

والله — سبحانه — أغنى الشركاء ، فمن عمل عملا لله ولغيره ، فإن الله — سبحانه — برىء من عمله ، وكذلك من اعتقد شريكًا لله ، فالله برىء منه .

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » . وذلك كله يسلمنا إلى أن المعنى الحقيقى للإسلام هو كما ذكرنا :

إسلام الوجه لله .

ويعبر عن هذا فى وضوح جميل الحديث الشريف الذى رواه الصحابى الجليل عمرو بن عبسة قال :

قال رجل : يا رسول الله . ما الإسلام ؟

قال صلوات الله وسلامه عليه : « أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » وما من شك فى أن سلامة المسلمين من لسان الإنسان ويده إنما ترجع إلى إسلام قلبه لله ، وإنها على حد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لو خشع قلبه لخشعت جوارحه » .

وعلى حد قوله صلى الله عليه وسلم :

« ألا إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت ، صلح الجسد كله ، وإذا فسدت ، فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

إسلام الوجه لله

وقد يتساءل إنسان : وما كيفية إسلام الوجه لله ؟

— ما هى الوسائل لذلك ؟

— ما الطريق ؟

أما الوسائل : فإنها المبادئ الإلهية ، التى قررها الله — سبحانه — على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم : قرآنًا كانت ، أو سنة : قولية أو عملية ولا مناص لكل من يريد أن يسلم وجهه لله — سبحانه — من أن يرجع فى ذلك إلى القرآن ، ومن أن يرجع فى ذلك إلى السنة . أى أنه لا مناص لكل من يريد الهداية ، أو التدين ، أو الحق ، من أن يلجأ إلى القرآن ، والسنة . وذلك أن القرآن الكريم ، إنما هو النص الوحيد فى العالم الآن الذى احتفظ — بحفظ الله له — بالتعبير الإلهى ، الذى يشرح الدين ، ويوضحه ، دون تحريف ، بزيادة أو نقص ، والقرآن لم يحتفظ — بما أوحاه الله — بالمعنى فحسب ، وإنما احتفظ بالتعبير نفسه ، وهذه منزلة ، لا تدانيها منزلة ، ودرجة فى

الدقة والصدق لا يضارعها غيرها حتى ولا من قرب . وإنها لمفخرة — للمسلمين كبرى ، أن يكون الدين الذى يدينون به ، إنما يرجعون فيه إلى النص الإلهى نفسه ، فى دقته ، وفى نضارته ، وفى بركته ، وفى سنائه ، ولألائه .

وإنها لمفخرة للغة العربية ، أن تحتفظ بالنص الإلهى الوحيد فى العالم ، أن تحتفظ بالكتاب الذى أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

أما النتيجة الأولى التى نريد أن نصل إليها ، فهى أن الدين ، وإسلام الوجه لله ، والتوحيد ، والإسلام كلها بمعنى واحد ، يفسر بعضها بعضا . ويشرح بعضها بعضا ، وكلها مطلقة عامة ، لا يحدها زمان ولا مكان . وكلمة « الإسلام » خير ما يعبر عنها فى جرسها ، وفى كمالها :

(اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا)(١) .

والنتيجة الثانية : هى أن جوهر الشخصية الإسلامية ، أو شخصية المسلم ، إنما هى إسلام الوجه لله ، أو التوحيد ، أو التدين الصادق ، أو الإسلام .

وبمقدار قرب المسلم من الإسلام يكون كمال شخصيته .

(١) سورة المائدة (٣) .

د . عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

فى الإخلاص والنيـــة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله . فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها . فهجرته إلى ما هاجر إليه » . وقال : « إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

دراسات إسلامية

لا تحل مسلمة لمن يكفر بالإسلام

فضيلة الشيخ
مصطفى محمد الحديدي الطير

قال الله تعالى فى سورة الممتحنة :

(يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولاهم يحلون لهن)(١) .

لم يكن زواج المسلمة بالكافر أول الإسلام محرماً ، بل كان جائزاً ، ولهذا زوج النبي صلى الله عليه وسلم كبرى بناته (زينب) بابن خالتها (أبى العاص بن الربيع) وهو مشرك، كما زوج ابنتيه رقية وأم كلثوم لولدى عمه أبى لهب وهما مشركان ، ولما شرفه الله بالنبوة لم يفرق بين بناته وبين أزواجهن المشركين ، ولما اشتدت العداوة بين أبى لهب وبين النبى صلى الله عليه وسلم ، بسبب تعصبه لأصنامه وتقليده للآباء ، وعماه عن الحق المبين ، أمر ولديه أن يطلقا رقية وأم كلثوم ، فأطاعاه ، فتزوج إحداهما عثمان بن عفان ، وبعد وفاتها تزوج الأخرى ، وكان لهذا يلقب بذى النورين .

ولقد سعى المشركون لدى أبى العاص ابن الربيع لكى يطلق زينب لأنه على دينهم وليس على دين أبيها فرفض ما عرضوه ، وأصر على مصاهرة النبى صلى الله عليه وسلم . وإن كان على غير دينه ، ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم ، ترك زينب مع أبى العاص بمكة مع أنه لا يزال مشركاً .

ولما خرجت قريش فى غزوة بدر

(١) من الآية رقم ١٠ .

لقتال النبي صلى الله عليه وسلم ، خرج أبو العاص معهم ليسترد ماله الذى كان مع أبى سفيان وتعرض له المسلمون فى جملة ما تعرضوا له فى عير قريش ، إنتقاماً منهم لأنهم أخرجوهم من ديارهم واستولوا على أموالهم ، ثم انتصر المسلمون عليهم ، وقتلوا منهم سبعين وأسروا مثلهم ، وكان فيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب ابنة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما قَبِل النبي مفاداة الأسارى أرسلت زينب قلادتها لتفتدى بها زوجها أبا العاص ، وكانت هذه القلادة لأمها السيدة خديجة ، وقد أهدتها إياها فى زفافها ، فأبى المسلمون أن يأخذوها إكراماً للنبي وآل بيته ، وأطلقوا لزينب أسيرها .

ولما أنزل الله تعالى من الآيات ما يحرم على المسلمين موالاة الكافرين ، كقوله فى أول سورة الممتحنة: (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة)[١] الآيات : اقتضى ذلك وجوب مهاجرة المسلمين من بلاد الشرك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، حتى لا يتحقق فيهم قوله تعالى: (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً)[٢] فلهذا شرط الرسول على أبى العاص زوج ابنته زينب حين أطلق سراحه ، أن يرد إليه زينب إذا جاءه رسوله زيد بن حارثة ، فوفى أبو العاص بشرطه ، وأعاد زينب مع زيد بن حارثة ، وكان لإعادتها قصة طويلة ليس هذا المقال موضعاً لها ، ولما أسلم أبو العاص ردها النبي إليه بعقد جديد ، وكان صلح الحديبية يقتضى أن من جاء من الكافرين مسلماً يلزم المسلمون برده إلى المشركين ، فجاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط مهاجرة مسلمة ، ومعها أخواها عمارة والوليد ، وكانت زوجة لعمرو بن العاص ، فجاء أهلها يسألون ردها وفقاً لصلح الحديبية ، حيث جاء فيه أن من جاء من المشركين إلى المسلمين مهاجراً مسلماً يلزمون برده إليهم ، فقال صلى الله عليه وسلم لأهلها: (كان الشرط فى الرجال دون النساء) ولهذا رد أخويها ولم يردها وأنزل الله تعالى هذه الآية : (يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) . الآية تأييداً لما فعله الرسول وبياناً لما يتبع فى شأن هؤلاء المهاجرات .

---

(١) سورة الممتحنة (١) .

(٢) سورة النساء (٩٧) .

وظاهر اشتراط أن يرد المسلمون إلى قريش من أتاهم مسلماً منهم أن يردوا من جاءهم مسلماً من الرجال أو من النساء ، ولكن الرسول كان يقصد الرجال فقط ، وهو الذى كان يدور بأذهان قريش غالباً ، فإنهم كانوا لا يتصورون أن تهجر المرأة زوجها أو أهلها ، وتقطع المسافة الطويلة من مكة إلى المدينة لتعلن إسلامها ، فلهذا لم يحتاطوا بالنص على رد النساء صراحة ، وبذلك أمكن التخلص من هذا الشرط ، ولم يعتبر عدم تطبيقه فى النساء خُلْفاً يقتضى اعتباره نقضا لوثيقة الصلح وعهده .

والحكمة فى عدم رد المرأة التى أسلمت ، أنها لو رُدَّت لأرجعها أهلها إلى زوجها المشرك — إن كانت متزوجة — وهى لا تحل له ، فإن لم تكن متزوجة أمكن التأثير عليها بالوعيد والإيذاء حتى تعود إلى شركها ، كما أن المرأة رقيقة القلب بالنسبة لأهلها فيمكن تأثيرهم عليها ، وإعادتها إلى ما كانت عليه من الشرك .

امتحان المرأة المهاجرة :

العلاقات الزوجية عرضة للاختلاف والمنازعة ، وبخاصة بين أهل الجاهلية ، فلما هاجر النبى وأصحابه وعزَّ الإسلام بالمدينة ، كانت المرأة بمكة تهدد زوجها بأنها ستهاجر إلى محمد ، فأمر الله نبيه أن يمتحن المهاجرة ليعلم صدقها فى إسلامها ، حتى لا تكون خطراً على المسلمين فى دينهم أو أخلاقهم أو أمْنهم وسلامتهم بهجرتها إليهم .

وطريقة امتحانها كما روى عن ابن عباس أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتستحلف بالله أنها ما خرجت بُغضاً لزوجها ، ولا رغبة فى أرض بدل أرض ، ولا التماس دنيا ، ولا عشقاً لرجل من المسلمين ، بل حباً لله ولرسوله ، فإذا حلفت كذلك أعطى النبىُّ صلى الله عليه وسلم زوجها المشرك مهرها وما أنفقه عليها ولم يردها إليه .

ومن المعلوم أن المشركين يؤمنون بالله ، ولكنهم يلوثون هذا الإيمان بزعمهم أن أصنامهم وسطاء بينهم وبينه ، ووسيلة للتقرب إليه ، كما أن العرب يغلب عليهم خلق الصدق حتى فى جاهليتهم ، وذلك حينما يحلفون بالله تعالى ، ويعتبرون الخُلْف فيما حلفوا عليه قبحاً وشيناً ، فلهذا كان تحليف المهاجرات بالله تعالى حين اختبار إيمانهن على الوجه السابق يستتبع الطمأنينة إلى صدقهن وقد عبر الله عن هذه الطمأنينة

بالعلم فى قوله : (فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار) فالمراد بالعلم هنا الطمأنينة وغلبة الظن ، أما العلم اليقيني فهو مختص بالله تعالى ، ولهذا قال سبحانه : (الله أعلم بإيمانهن) أى أنه تعالى يختص بعلم حال إيمانهن من الصدق أو الرياء ، سواء حلفن أو لم يحلفن ، أما نحن فلا سبيل لنا إلى التحقق منه لأنه سر تنطوى عليه الأضالع ، وتطبق عليه الصدور ، ولكنه أوجب علينا هذا الامتحان ، لأنه هو وسيلتنا إلى التعرف عليه على وجه الظن لا القطع .

حرمة المسلمة على الكافر مطلقاً :

يقول الله تعالى : (فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار) ، أى فإن ظهر لكم بهذا الامتحان أنهن مؤمنات ، فلا ترجعوهن إلى أزواجهن الكفار — إن كن متزوجات ، ويعلل هذا بقوله سبحانه : (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) ، فأنت ترى أن السبب فى النهى عن إرجاعهن إلى الكفار ، أنه تعالى حرم المسلمة على الكافرين مطلقاً وسيأتيك بيان حكمته .

قد يقول قائل : إن أهل مكة كانوا مشركين ، فالمقصود بالكفار هم هؤلاء دون أهل الكتاب ، فالجواب أنه لو كان المقصود بهم خصوص المشركين ، لعبر عنهم بوصف الإشراك منعاً للالتباس فى فهم الحكم ، على أن أهل الكتاب مشركون قطعاً ، فالمسيحيون يؤلهون ثلاثة (الأب والابن والروح القدس) ويزعمون أنهم إله واحد ، ويقولون : إن فهم الوحدة لهذا العدد فوق مستوى العقول ، ولله فى خلقه شئون ، كيف عقل هؤلاء أن ثلاثة آلهة لكل واحد منهم قدرات الآخر وصفاته يعتبرون إلهاً واحداً ، هل يعقل أحد ، أن ثلاثة رجال يلبسون ثوباً واحداً يعمهم ، يُحوِّلُهُمْ هذا الثوب الواحد إلى رجل واحد ، أسأل الله لهم الهداية والخروج من هذا الشرك الواضح ، والمأزق الأسيف : واليهود يزعمون أن عزيراً ابن الله — وهذا إشراك ، فإن الابن شريك أبيه .

أفكار خاطئة :

نشر بعض المثقفين فى إحدى المجلات — منذ حين — مقالا أباح فيه زواج المسلمة من الكتابى ، واستدل على ذلك — كما توهم — بدليلين ، أحدهما من الكتاب الكريم ، وثانيهما استتباع الأصل فأما دليله من القرآن فهو قوله تعالى : (اليوم أحل لكم

الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن) [١]

وطريقته فى الاستدلال بها على ما زعم أن الآية تخاطب الرجال ، ولكنها تقصد بالحكم الشرعى الرجال والنساء على السواء ، فالطيبات [٢] فى الآية حلال للرجل والمرأة ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حلال للرجل والمرأة ، المؤمنين ، وطعامكم أيها المؤمنون حل لهم — أى حلال لأهل الكتاب ، وزواج المحصنات [٣] من المؤمنات ومن الكتابيات حلال لكم أيها الرجال المؤمنون إذا أتيتموهن مهورهن — ثم قال هذا الزاعم : فلو أمضينا القياس على هذا النمط ، لتبين لنا أن زواج المسلمة حلال للرجل الكتابى ، فكأنه قال على سبيل التقابل والمحصنات من المؤمنات والكتابيات حِلٌ لهم — وهكذا دلل هذا المدعى على فراغه العلمى وقيام دعواه على غير أساس وسنبين ذلك فيما يلى :

عقم الدليل :

من شأن الدليل الصحيح أنه ينتج صحة الدعوى ، فإن لم يكن صحيحاً سقطت الدعوى لعقم الدليل ، وهذا الذى استدل به المثقف استنباطاً من النص القرآنى دليل عقيم لا يحقق مدعاه ، فهذه الآية والتى قبلها نزلتا فى مسلمين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أحل لهم ، ولم تنزل فيهم وفى أهل الكتاب لا نصاً ولا استنباطاً ، حتى يقال إن الكتابى تحل له المسلمة .

فالمعنى : يسألك المسلمون ماذا أحل الله لهم ، قل لهم أيها الرسول فى إجابتك على هذا السؤال : أحلّ الله لكم أيها المسلمون الطيبات من المطاعم والأرزاق ، والحيوانات الصحراوية التى اصطدتموها مستعينين على صيدها بما علّمتموه من الكلاب وجوارح الطير المدربة ثم قال فى الآية التالية ما معناه : اليوم أحل لكم الطيبات أيها السائلون المسلمون وطعام الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى حلال لكم ، وطعامكم حلال لهم ، والعفيفات من النساء المؤمنات والعفيفات من النساء الكتابيات حلال لكم أيضاً إذا أتيتموهن مهورهن ... إلخ

فأنت ترى أن الكتابى لادخل له فى هذا الحكم ، لأنه وارد فى جواب سؤال خاص بالمؤمنين ، ومن القواعد المقررة

---

(١) سورة المائدة (٥) .

(٢) المراد بها ما لذ وطاب عند النفوس المستقيمة والطبائع السليمة .

(٣) أى الحرائر العفيفات .

فى علم الأصول ، أن الاقتصار فى مقام البيان يفيد الحصر ، ولو كان الكتابى يصح له الزواج من المسلمة ، لنص عليه فى الآية لخطورته ، فإنه قد نص فى الكتابى على ما هــو أدنى من ذلك وأقل شأناً ، حيث قال الله تعالى فيهم : (وطعامكم حل لهم) بعد قوله : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حِلٌ لكم) فلو كان زواجهم من المؤمنات يصح شرعاً ، لقال على نمط ذلك ونكاح نساء الذين أوتوا الكتاب ونسائكم حِلٌ لكم ، ونكاح نسائكم ونسائهم حلٌ لهم ، لشدة الحاجة إلى بيان هذا الحكم ، ليعلم المسلم ما يحل له فى حق نفسه وحق بنات جنسه من جهة أهل الكتاب وبما تقدم علم أن قياس الكتابى على المسلم فى حل زواج المسلمة مفقود التكافؤ فلا يصح .

ولو سلمنا القاعدة التى قالها هذا المدعى ، وهى أن الأحكام التى يخاطب بها الرجال المسلمون تكون دائماً لنسائهم ، لصح أن يفهم من قوله تعالى : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) أن الحكم فى النساء كذلك ، بأن تنكح المرأة ما طاب لها من الرجال مثنى وثلاث ورباع ، ولا يسمح بذلك مَنْ به ومضة من عقل ، أو ذرة من خلق كريم ، فتبين أن الأحكام التى يخاطب بها الرجال ليست دائماً مشتركة بينهم وبين النساء ، فقد يمنع من اشتراكهما ما يقتضى المنع أمَّا (الدليل الثانى) الذى أبداه هذا المثقف (وهو أن الأصل فى الأشياء الحل ، فلا تحرم إلا بدليل ، ولما كان نكاح المسلمة للكتابى لم يرد فيه دليل ، فيكون حلالا على الأصل) أمَّا هذا الدليل الثانى — فلنا عليه ردَّان ، أحدهما : أن فيه اعترافاً منه بأنه لم يرد فى نكاح المسلمة للكتابى دليل ، ويتبع هذا الاعتراف اعترافٌ ضمنى بفساد استدلاله السابق بالقياس على صحة نكاح المسلم للكتابية ، حيث سلب عنه الدلالة الشرعية على الحل ، ومن المعلوم أن القياس من الأدلة الشرعية ، بشرط أن يكون قياس أولى على مادونه أو قياس مُساوٍ على ما يساويه ، وكلا الأمرين غير موجود فى هذه القضية . لأن فيها قياس أدنى على أعلى وهو واضح الفساد .

وثانيهما : أن القاعدة الشرعية القائلة بأن الأصل فى الأشياء الحل ليست على إطلاقها ، بل هى فى نحو ما تملكه أنت ، أو أنواع الطعام والشراب وما إلى ذلك ، أما ما يملكه غيرك فالأصل فيه

شرعًا التحريم – كما جاء فى خطبة الوداع « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم » . . الحديث فلا يحل لك شىء مما يملكه غيرك إلا بضوابط شرعية وردت فى كتاب الله وسنة رسوله ، فمثلا إذا كان غيرك يملك سلعة فلك الحق فيها بنحو شراء أو هبة أو غيرهما من أسباب الحل المنصوصة فى كتاب الله أو سنة رسوله .

ومن البدهيات أن أبْضَاعَ النساء مِلْك لهن فلا تحل للرجال إلا بدليل ، وقد جاء الدليل بأنها تباح للمسلمين بعقود عليهن ومهور لهن وشهود على تلك العقود ، سواء أكانت المرأة مسلمة أم كتابية ، ولم يأت الدليل بإباحة أبضاع المسلمات لأهل الكتاب بذلك فتبقى حرامًا على أهل الكتاب .

وليعلم أى مكابر فى حرمة زواج المسلمة من الكافر ، أنه قد مرّ على الإسلام بعد الهجرة ونزول تحريم المسلمة على الكافر ، أربعة عشر قرنًا تقريبًا ، لم يثبت أن كتابيًا تزوج مسلمة زواجًا مفتى به ، وأنه لم يقل أحد من علماء المسلمين بجوازه ، لعدم صلاحيته للحل لا نصًا ولا استنباطًا ، ولم نقرأ عن الأولين إلا غُلُوًّا من بعض الطوائف فى تفسير قوله تعالى : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب) فالإمامية يمنعون نكاح الكتابيات على الدوام ، لقوله تعالى : (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) وقوله : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) وأولوا الآية بأن المراد من المحصنات الكتابيات من أسلم منهن ، لأن قومًا كانوا يتحرجون من العقد على من أسلمت عن كفر ، فبيَّن الله الجواز ، وإلى مثل ذلك الرأى ذهب عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

ومنهم من ذهب إلى أن نكاح الكتابيات منسوخ بمنع نكاح الكوافر فى الآيتين السابقتين فإنهن كوافر ، لقوله تعالى : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) وهن مشركات أيضًا لقوله سبحانه : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم) .

وسئل جابر بن عبد الله عن نكاح الكتابيات فقال : « تزوجناهن زمن الفتح ونحن لانكاد نجد المسلمات كثيرًا ، فلما رجعنا طلقناهن » والراجح عند الجمهور جواز نكاح المسلم للكتابية

لظاهر الآية ، أما نكاح الكتابي للمسلمة فلم يقل بجوازه أحد من المسلمين كما تقدم بيانه .

وكما لا تحل المسلمة لواحد من أهل الكتاب ، فإنها لا تحل لمن أنكر وجود الله سبحانه وتعالى كالشيوعيين أو اعتقد وجوده وأشرك معه غيره كعباد الكواكب والأصنام والبوذيين والبراهمة .

زواج المسلمة بالكافر سفاح :

وحيث عرفت أن المسلمة لا تحل لكافر مطلقًا ، فعليك أن تعرف أن أية امرأة مسلمة تتزوج كافراً زواجًا مدنيًا في مكاتب التوثيق المدني الموجودة في غير بلاد الإسلام ، أو تتزوجه بعقد عرفي أو بغير وثيقة ، فزواجها به باطل ، ولقاؤها به جنسيًا لا يحل ، وهو سفاح تستحق عليه أن يقام عليها حد الزنا ، وهو الرجم إن سبق لها الزواج من مسلم ، والجلد مائة جلدة إن لم يسبق لها الزواج من مسلم وفرق بينهما ، فإن اعتقدت أن زواجها بالكافر حلال اعتبرت مرتدة عن الإسلام ، لأنها أنكرت حكم التحريم المعلوم من الدين بالضرورة ، وحكمتْ بسواه ، فصدق فيها قوله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هُمُ الكافرون) ، وحُكْمُ المرتدة أن يطلب منها التوبة ، فإن تابت قبلت توبتها ، وأقيم عليها حد الزنا الذى سبق بيانه ، وإن لم تتب قتلت كفراً كما يقتل المرتدون عن الإسلام .

وبعد فلعلي بذلك أكون قد أزلت الغشاء عن القلوب التي ران عليها الهوى ، فعاد إليها نور الهُدَى ، ونبذت بهذا الحق الواضح أوهامها ، وكبحتْ به ميلها إلى تيسير النزوات ، واختلاق الشبهات : (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) .

الحكمة في تحريم المسلمة على الكتابي :

والحكمة في حل الكتابية للمسلم وحرمة المسلمة على الكافر ، أن المسلم يعترف بنبوة موسى ، وبأن التوراة الأصلية أنزلها الله عليه ، ويعترف بنبوة عيسى وبأن الإنجيل الأصلي أنزله الله عليه ، ومع أن التوراة والإنجيل الأصليين فقدا ، وأن الإسلام جاء ناسخًا لما في أيدى اليهود والنصارى منهما ، ومبينًا للعقائد الحقة ، فإنه يدعو المسلم إلى أن لا يكره غيره على الإسلام بقوله تعالى: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) فإن تزوج كتابية ، فسوف تكون حرة الرأى معه ، فإن شاءت بقيت على دينها ، وإن شاءت أسلمت .

أما الكتابى فإنه لا يعترف بالإسلام ورسوله وكتابه ، ولهذا فإن زواجه بالمسلمة نزوة وشهوة ، وسوف يحملها على ترك دينها الذى يكرهه ولا يعترف به ، أو يطلقها إن لم توافقه ، وسوف تستجيب له لضعف دينها ، واستجابة لشهوتها ونزوتها ، فكان من الحكمة أن يحمى الإسلام المرأة المسلمة من هذا المصير أو ذاك ، وأن يطلب لها العزة (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

مصطفى محمد الحديدى الطير

عزة إمام

يروى أن المهدى قدم إلى المدينة فجاءه الناس مسلمين عليه ، فلما أخذوا مجالسهم استأذن الإمام مالك فقال الناس : اليوم يجلس مالك آخر الناس . فلما دنا ونظر إلى ازدحام الناس ، قال : يا أمير المؤمنين أين يجلس شيخك مالك ..؟ فقال: عندى يا أبا عبد الله فتخطى الناس حتى وصل إليه ، فرفع المهدى ركبته اليمنى وأجلسه بجواره .

ويروى أن الوالى كان مرة عند مالك فأثنى عليه بعض الحاضرين فغضب مالك وقال : إياك أن يضرك هؤلاء بثنائهم عليك ، فإن من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك أوشك أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك . فاتق الله فى التزكية منك لنفسك ، أو ترضى بها من أحد بقولة يقولها لك فى وجهك . فإنك أنت أعرف بنفسك منهم ، فإنه بلغنى أن رجلا مدح عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : قطعتم ظهره أو عنقه لو سمعها ما أفلح . وقال صلى الله عليه وسلم :

(احثوا التراب فى وجوه المداحين . .)

واقعية الفقه الإسلامى

فضيلة الأستاذ
الدكتور محمد مصطفى شلبى

(٢)

إن الفقه الإسلامى بعيد كل البعد عن الواقعية بالمعنى الأول ، وهو الخضوع للواقع فى كل شىء ، وتجرده عن المثل العليا ، ولم يقل أحد عنه إنه واقعى بهذا المعنى ، لا من أنصاره ، لأنها تباين حقيقته ، مع أنها لا تشرفه حتى يدعيها أنصاره ترويجاً له ، ولا من أعدائه ، لأنهم متفقون على وصفه بالمثالية المضادة لتلك الواقعية ، والقرآن الكريم نفى هذا النوع من الواقعية نفياً صريحاً فى كثير من آياته التى تحارب الأهواء واتباعها ، وتجعل السلطان لما أنزله الله ، وتتوعد المتبع لهواه ، أو لهوى الناس بالعقاب الشديد .

فالله سبحانه يأمر رسوله بأن يحكم بين الناس بما أنزله إليه ولا يتبع أهواءهم فيقول :

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)[1] .

ويحذره فى غير آية من عاقبة اتباع أهوائهم فيقول :

(ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير)[2] .

وفى أخرى يقول :

---

(١) المائدة : ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) البقرة : ٢٠ .

(ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين)[١] .

وفى ثالثة يقول :

(ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق)[٢]

وصرح بأن اتباع الأهواء يؤدى إلى فساد العالم (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)[٣]

وينعى على الذين يشرعون بأهوائهم ، فيحلون ويحرمون ، ويتوعدهم بالعقاب . (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا ، قل : آلله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون)[٤] .

ثم بين أن هذه سنته فى شرائعه السابقة مخاطباً نبيه داود عليه السلام (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب)[٥] .

تلك آيات من كتاب الله — وغيرها كثير — بينت فى وضوح أن التشريع الإسلامى لا يخضع للأهواء والرغبات ، وما واقع الناس فى أغلب صوره إلا مزيج من الأهواء والشهوات تثيرها وتبرزها إلى عالم الوجود ما خفى من الرغبات ، فالقول بأنه يتبع الواقع ويسير وراءه فى كل شىء مخالف للواقع . ويدل لذلك من جهة المعقول[٦] أمران :

أولهما : أن هذه الشريعة جاءت لإخراج المكلفين عن دواعى أهوائهم (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)[٧] .

فكيف يتبع واقعهم المملوء بالأهواء ، وهل هذا إلا تهافت ؟

---

(١) البقرة : ١٤٥ .

(٢) الرعد : ٣٧ .

(٣) المؤمنون : ٧١ قيل إن المراد بالحق هو الله عز وجل ، والمعنى لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن لأن شهوات الناس تختلف وتتضاد . وقيل المراد به القرآن والمعنى لو نزل القرآن بما يحبون ويشتهون لفسدت السموات والأرض ، راجع تفسير القرطبى جـ١٢ ص ١٤٠ وتفسير ابن كثير جـ٣ ص ٢٥٠ والبحر المحيط جـ ٦ ص ٤١٤ .

(٤) يونس : ٥٩ ، ٦٠ .

(٥) ص — ٢٦ .

(٦) راجع الموافقات للشاطبى جـ ٢ ص ٣٧ وما بعدها ، جـ٤ ص ١٣١ .

(٧) إبراهيم الآية ١ .

وثانيهما : أن منافع الناس ومضارهم فى غالب أمرها إضافية لا حقيقية لأن الشيء قد يكون نافعاً فى وقت دون آخر ، وفى حال دون حال ، وبالنسبة إلى شخص دون سواه ، فالمنفعة بالنسبة لجماعة قد تكون ضرراً عند آخرين .

ويتبع ذلك أن الأغراض فى الأمر الواحد تختلف بحيث إذا نفذ غرض بعض تضرر آخر لمخالفة غرضه ، فحصول الاختلاف فى أكثر الأحوال يمنع أن تكون الشريعة فى ملاحظتها المصالح تلاحظ الغرض أو الهوى ، لأنه لا تستقر أحكامها ، ولا تضبط قواعدها إلا بملاحظة المصالح مطلقة عن ملاحظة الأغراض والأهواء .

ومن هنا كان لابد فيها من تقدير واقع الناس وتقويمه بميزان العدل بعيداً عن أغراضهم . وهذا ما سلكه التشريع فى واقع الناس عند مجيئه ، فقد أقر منه الصالح وألغى الفاسد[1] وتوعد بالعقاب على فعله ، ولو كان يخضع للواقع لما كان له وجـه فى التفرقة ، بل لما كان هناك داع لمجيئه أصلا ، ومن يتتبع نصوص الشريعة يجد فيها مجموعة نصوص ناهية تنهى عن كثير مما كان يفعله الناس حين نزولها ، والقرآن وضع الأساس للمأمورات والمنهيات فى قوله تعالى : (إن الله يأمر بالعـدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء

(١) ولقد خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية فى مسائل كثيرة ابتدعوها من غير أن يكون لها أصل فى دين من الأديان السماوية ، وإنما مبعثها هوى النفوس وشهواتها . أشار إلى ذلك ولى الله الدهلوى فى كتابه حجـة الله البالغة جـ ١ ص ١٢٤ وما بعدها فقد كتب فصلا بعنوان : بيان ما كان = عليه حال أهل الجاهلية فأصلحه النبى صلى الله عليه وسلم تكلم فيه عما كان لدى العرب عند بعثة الرسول من أحكام باقية من الشرائع السابقة كشريعة إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام وعد منها أشياء كثيرة وبين متى دخل الفساد عليهم وأن أول من أدخـله عليهم بعقله الكاسد عمرو بن لحى ، فهو الذى أدخل عليهم عبادة الأوثان وسيب السوائب وبحر البحائر ، قبل مبعث الرسول بما يقرب من ثلثمائة سنة ، وأن الرسول بعد بعثته نظر فيها عندهم ، فما كان من بقايا الملة الصحيحة أبقاه وأمر بالأخذ به ، وما كان من تحريفاتهم نفاه وأكد نفيه ، ثم ضبط لهم العبادات ورسم لهم الطرق الصحيحة لمعاملتهم وغيرها ، هذا وقد عد الإمام محمد بن عبد الوهاب من هذه المسائل مائة مسألة فى كتيب بعنوان « مسائل الجاهلية التى خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية » وقام بشرح هذه المسائل علامة العراق السيد محمود شكرى الألوسى . والمسائل بشرحها مطبوعة فى كتاب زاد على المائة والخمسين صفحة من نشر المطبعة السلفية ومكتبتها بالقاهرة .

والمنكر والبغى)[١] .

وقوله (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث)[٢] .

وفى شأن تبادل الأموال يقول (وأحل الله البيع وحرم الربا) رداً عليهم فى قولهم : (إنما البيع مثل الربا)[٣] ، ثم يرسم لهم طريقه مهدراً الكثير مما كانوا يفعلونه بقوله : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم)[٤] ويجىء رسول الله فيبين هذا الإجمال الرابض وراء كلمة الباطل ، فينهى عن أنواع من البيوع كثيرة ملأت واقع الناس حين بعثته وقبلها عد منها ابن العربى فى تفسيره[٥] خمسة وخمسين وجهاً . فنهى عن بيع الملامسة والمنابذة وإلقاء الحصاة ، كما نهى عن بيع المعدوم ، والغرر ، وبيع ما لم يقبض ، وبيع المضطر ، والمضامين والملاقيح ، وقال لا يبعْ أحدكم على بيع أخيه ، ولا يبع حاضر لباد وغير ذلك . وفعل مثل هذا فى بقية المعاملات والنكاح مما كان موضع اختلاف بين الفقهاء فى مدى تأثير النهى فيه فيما بعد.

هذا هو موقف الفقه الإسلامى من الواقعية بالمعنى الأول لا يقرها بل يعاديها ويرفضها فى صراحة .

أما واقعيته بالمعنى الثانى فالناس إزاءها صنفان :

صنف يجرده منها ويلحقه بالمثالية المجردة التى تنفر من الواقع وتعاديه وصنف آخر يعترف له بتلك الواقعية ، ولا يعيب عليه إلا دعوى قفل باب الاجتهاد فيه التى سببت له التوقف عن التقدم فى بعض موضوعاته حتى زاحمته القوانين الوضعية فى كثير من بلدان الإسلام .

ولعل نفاة الواقعية عن هذا الفقه نظروا إلى ما لعنصرى الأخلاق والدين فيه من أثر ، فحسبوه أحكاماً أخلاقية دينية جاءت لتهذيب النفوس والسمو بها فى مدارج الكمال ، لا صلة لها بالمجتمع ونظامه ، لأن الأخلاق فى نظرهم صفات كمالية ترتفع بالنفس إلى عالم المثال والروحانية البعيدة عن الواقع وعالم المادة .

والدين الذى عرفوه هو فى أصله عبارة عن وصايا خلقية . جاءت لمجرد تهذيب النفوس – لا لتنظيم المجتمع – اختلط بها على مر السنين بعض تعاليم شاقة فيها

---

(١) النحل : الآية ٩٠ .
(٢) الأعراف : الآية ١٥٧ .
(٣) البقرة : ٢٧٥ .
(٤) النساء : ٢٩ .
(٥) أحكام القرآن جـ ١ ص ١٠٢ .

غموض من وضع رجال الكنيسة تمنع الناس من التمتع بما فى الحياة من متاع ، وتأمرهم بالانقطاع عن الدنيا والزهد فيها [١] فأنى لفقه تأثر بهذا وذلك أن يساير الحياة ويلائمها ؟

ثم تأكد ذلك لديهم لما وجدوه يحارب الواقع فى نطاق رفضه الكثير مما تعارفه الناس وعملوا به .

ومن هنا نستطيع أن نحصر شُبهَهم التى منها خرجت دعواهم فى أمور ثلاثة :

١ – تأثره بالعنصر الأخلاقى .

٢ – تأثره بالعنصر الدينى .

٣ – موقفه من العرف .

وسنعرض هذه الشبه على بساط البحث ليتبين للناس ما فيها من زيف وبعد عن الحقيقة ، وأنها نشأت من عدم العلم بما فى هذا الفقه من مبادىء وأسس تلتئم مع الواقع وتسايره .

أثر العنصر الأخلاقى فى فقه الإسلام :

أما أثر العنصر الأخلاقى : فمن الناس من يجعل للأخلاق أثراً بينا فى أحكام هذا الفقه يسمو به عن واقع الناس حيث يغلب عليه عنصر التهذيب بل أبعد بعضهم وجعله والأخلاق شيئاً واحداً يقابل القانون ، لا أثر له فى التنظيم . ولنترك الكلام لزميلنا الدكتور حسن كيره ليحدثنا عن موقف بعض رجال القانون من هذه المسألة .

وها هو ذا يتكلم فى مدخله [٢] تحت عنوان « القانون والأخـــلاق » فيقول ما ملخصه :

أما التفرقة بين القانون والأخلاق فهى تفرقة عريقة فى القدم وإن اختلفت إليها السبل ، وتباينت بشأنها المعايير ، ويجدر قبل بيان أوجه هذه التفرقة وأساسها التنبيه إلى أن القانون يلتقى مع الأخلاق فى كثير من قواعدها كتلك التى تحرم الاعتداء على النفس أو المال أو العرض ، والتى تدعو إلى الوفاء بالعهود دون أن يجر ذلك الالتقاء إلى الاختلاط بين الأخلاق والقانون ، بل يظل لكل منهما نطاقه ، وغايته .

وبعد أن بين أن القانون قد ينزل عن بعض المثل الأخلاقية فى سبيل تحقيق الاستقرار والأمن تساءل : عن مناط التفرقة بينهما ، ثم أجاب : بأن بعض الفقهاء يرون أن الأخلاق تقتصر على حكم الحياة الباطنة فى الضمير التى

---

(١) سنوضح ذلك عند الكلام على أثر الدين فيه.

(٢) وكذلك فى كتابه أصول القانون ص ٣٨ وما بعدها مع زيادة تفصيل .

ما زالت فى النفس مجرد مقاصد ونوايا لم تخرج إلى الوجود بعد فى صورة أفعال ، والقانون يقتصر على الأفعال المحسوسة دون ما وراءها من دوافع خفية .

ثم رد ذلك . بأن الأخلاق وإن كانت تعنى بمحض المقاصد والنوايا الباطنة فهى لا تقتصر على ذلك ، بل تمتد إلى كثير من الأفعال الخارجية لأنها لا تقتصر على بيان واجبات الفرد قبل ربه ، وواجباته قبل نفسه فحسب ، ولكنها تجاوز ذلك إلى بيان واجباته قبل غيره من الأفراد ، وهو ما يتناول عالم النية وعالم المحسوس من الأفعال على حد سواء ، وكذلك القانون لا يقتصر على الأفعال المحسوسة بل يتعدى ذلك إلى ما وراء الأفعال من دوافع ، ففى نظرية التعسف فى استعمال الحق وغيرها خير دليل على ذلك .

ثم قال : ويرجع فقهاء آخرون مناط التفرقة إلى الجزاء ، فجزاء مخالفة القانون مادى توقعه السلطة الحارسة للقانون ، وجزاء مخالفة الأخلاق معنوى ، وهو تأنيب الضمير أو استنكار الناس .

ومع أن هذا الفرق صحيح فى نظره إلا أنه لم يعترف بكفايته فيلجأ إلى التفرقة بينهما من جهة أخرى وهى الغاية والهدف ، فغاية الأخلاق غاية مثالية ، هى السمو بالإنسان نحو الكمال ، وغاية القانون واقعية نفعية هى إقامة نظام المجتمع ليحقق الأمن والاستقرار فيه ، فقواعد الأخلاق منبعثة من الضمير ومتوجهة إلى الفرد بقصد تطهير نفسه وروحه ، وقواعد القانون متجهة إليه بقصد تحقيق صالح الجماعة ، فالأخلاق تحدد سلوك الفرد بالنظر لذاته فتخضعه لضميره ، والقانون يحدد سلوكه بالنظر للمجتمع .

ومن هنا قالوا : إن القانون نظام المجتمع والأخلاق نظام الفرد ، فهما نظامان مختلفان فى الغاية والهدف حتى فى بعض الأحكام التى يختلطان فيها فى الظاهر . فمثلا القانون والأخلاق يتفقان على تحريم القتل إلا أن القانون يحرمه لما يترتب عليه من آثار تضر بالمجتمع ، والأخلاق تحرمه لما له من آثار سيئة فى نفس القاتل من انغماسها فى الرذيلة وانطباعها على الشر .

فحكمة الأخلاق هى الضمير حيث تدور معركة الخير والشر فى ذاته ومحكمة القانون هى محكمة المجتمع حيث يصطرع النفع والضر الاجتماعى .

وإذا اختلفا فى الغاية اختلفا فى نطاق العمل بكل منهما ، فيحلل القانون بعض ما تحرم الأخلاق كالربا[١] وتبع ذلك الاختلاف فى الجزاء .

وفوق ذلك فإن الأخلاق تقتصر على بيان الواجبات دون تقرير الحقوق فهى حين توجب على القادرين مساعدة المحتاجين لا تنشىء بذلك حقاً للمحتاجين على القادرين[٢] .

(١) وهنا نتساءل عن أباحة الربا فى القانون ، هل أدت هذه الإباحة إلى الاستقرار والأمن فى المجتمع الذى ينشده القانون ، أم الأمر بالعكس ؟

إن أضرار الربا لا تحتاج إلى بيان ، فقد اعترف بها العقلاء فى كل عصر ، بل إن رجال الاقتصاد فى الأمم الغربية التى لا تدين بالإسلام اعترفوا بما فيه من أضرار ومساوئ خطيرة . كما يقول الدكتور عبد الله العربى فى مقال له عن فكرة الدولة فى الإسلام المنشور فى مجلة القانون والاقتصاد بالعددين الثالث والرابع من السنة السادسة والعشرين .

(٢) إذا كان يقصد بالأخلاق ما يرادف الفقه الإسلامى فهذه الدعوى غير صحيحة ، لأن الفقه لم يقتصر على بيان الواجبات بل بين معها الحقوق أجلى بيان ، وهذا المثال الذى مثلوا به وهو مساعدة المحتاج لا يثبت تلك الدعوى . حيث إنه مجرد تبرع وإحسان لا يترتب عليه حق لأحد ، والقرآن يقول (ما على المحسنين من سبيل) .

وكيف نوفق بين هذا وبين ما فى نظرية التعسف فى استعمال الحق ، ونظرية الظروف الطارئة من حقوق وواجبات وهى عندهم من القضايا الأخلاقية ؟ .

تلك هى الفروق التى اختارها وأصر عليها . بدليل أنه عندما وجد بعض الفقهاء الغربيين كالفقيه الفرنسى « ريبير » يعترف بأن القانون آخذ فى الاصطباغ بصبغة أخلاقية حتى ليكاد القانون عنده يختلط ويتحد بالأخلاق مستنداً إلى أن القانون أخذ بنظرية التعسف فى استعمال الحق ، ونظرية الظروف الطارئة ، لما وجد هذا الاعتراف يقرب الاتحاد أبى إلا التفرقة وتثبيت البعد بينهما[٣] — موجهاً ذلك بأن القانون حينما يأخذ بنظرية أخلاقية لم يأخذها لأنها مثل أخلاقى سام ، بل أخذها لما فيها من نفع للمجتمع .

فهذا كلام صريح فى أنهم لم يقصدوا بالأخلاق مدلولها الاصطلاحى[٤]

(٣) ويود أن يرجع ذلك الفقيه عن رأيه ؛ بل يميل إلى تسجيل رجوعه عنه فى كتاب آخر فيقول فى هامش ص ٤٠ من كتابه «أصول القانون» : يبدو أن ريبير قد غير هذه النظرية ، فهو فى كتابه الأخير عن « القوى الخلاقة للقانون » يسجل ما شهدته السنوات الأخيرة من كثرة انحراف القانون عن قواعد الأخلاق ، ويحذر من هذه الظاهرة الخطيرة ، ويؤكد استمساكه بالأخلاق كأساس للقانون وكعاصم مما يتهدد المدنية من خطر انتشار هذه الظاهرة .

(٤) هذا وإن كان بعض شراح القانون كالدكتور محمد عرفة فى « مبادئ العلوم القانونية » ص ٣٨ من الطبعة الثالثة ، والدكتور جمال —

وهى الصفات التى يجب أن يتحلى بها الإنسان إذا كانت حميدة ، كالصدق والأمانة والوفاء بالوعد وما شابهها ، والتى يجب عليه أن يتخلى عنها إذا كانت غير ذلك ، كالكذب والخيانة وخلف الوعد وغيرها . . بل أرادوا بها ما يرادف الفقه الإسلامى ، بدليل تمثيلهم بأحكامه من تحريم القتل والربا ، وعدم ثبوت الملك بالحيازة وعدم سقوط الدَّين بالتقادم ونظرية التعسف فى استعمال الحق ، والظروف الطارئة وغيرها ، وقولهم إن الأخلاق لا تقتصر على واجبات الإنسان نحو ربه ونفسه ، بل تتجاوزها إلى واجبات الشخص نحو غيره .

وهى محاولة لنفى فائدته فى تنظيم المجتمع وقصرها على تهذيب النفس ، الأمر الذى يجعل من الفقه الإسلامى فقهاً غير صالح للعمل ولا للتقنين(١) .

ولا أدل على ذلك من قولهم « فغاية الأخلاق غاية مثالية هى السمو بالإنسان نحو الكمال ، وغاية القانون غاية واقعية نفعية هى إقامة نظام المجتمع وتحقيق الأمن والاستقرار فيه » .

وهذا التصوير جانبه الصواب من وجهين :

أولهما : جعلهم أحكام الفقه كلها أحكاماً خلقية ليسهل عليهم إبعادها عن دائرة التشريع والتقنين لما هو

=الدين زكى فى كتاب «نظرية القاعدة القانونية» عرفا الأخلاق بما يقرب من معناها الاصطلاحى إلا أنهما عند التمثيل لها مثلا بأحكام فقهية كتحريم الربا ولعب الميسر .

(١) ألا ترى أنه يقلل من أهمية جعل الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر القانون بعد العرف والتشريع فيقول فى « أصول القانون » ص ٣٦٦ وما بعدها . وإذا كان المشرع المصرى فى التقنين المدنى الجديد قد جعل من مبادئ الشريعة الإسلامية مصدراً رسمياً احتياطياً يجب على القاضى=

=الرجوع إليه بعد العرف وقبل الالتجاء إلى مبادئ القانون الطبيعى وقواعد العدالة ، وكان ذلك حقيقاً بإيجاد مجال لتطبيق الشريعة الإسلامية مما قد يكون له أثره فى إنهاض الفقه الاسلامى وإحيائه بعد أن طال سباته منذ إقفال باب الاجتهاد فينبغى أن يراعى — برغم ذلك — أن الالتجاء إلى الشريعة لن يتأتى فى العمل إلا نادراً نظراً لأن التشريع — وهو المصدر الرسمى الأول للقانون المصرى — قد غدا فى العصر الحديث غزير الإنتاج وسريعه على السواء مما لا يدع مجالا كبيراً للالتجاء إلى العرف ، وهو المصدر الذى يليه فى الترتيب مع أنه مصدر حى معاصر للجماعة ومتجاوب مع تطورها وبالتالى ومن باب أولى لا يكاد يترك فرصة للمصدر الذى يلى العرف فى المرتبة وهو مبادئ الشريعة الإسلامية ، وخاصة فى وضعها الراهن الذى ثبتت عليه دون تطور منذ قرون عديدة نتيجة إقفال باب الاجتهاد فيها فضلا عما يكون هناك من تعارض بين مبادئ هذه الشريعة وبين المبادئ العامة الأساسية للقانون الوضعى المصرى الحالى .

مركوز فى أذهان الناس أن القانون شىء والأخلاق شىء آخر .

وثانيهما : نفى تأثير الأخلاق فى المجتمع وقصر تأثيرها على نفوس الأفراد .

وأكبر الظن عندى أنهم قالوا ذلك تقليداً لرجال القانون الغربيين فى هذا الموضع بدليل أن كلامهم فى موضع آخر جاء متفقاً مع الحقيقة أو هو عينها[١] .

والكتاب الأجانب حينما يكتبون عن الإسلام تتحكم فيهم روح التعصب فتحيد بهم أقلامهم عن الصواب كما يقرر ذلك الدكتور محمد حسين هيكل .

فى مقدمة كتابه «حياة محمد»[٢] والدكتور حسن سعفان فى كتابه «الدين والمجتمع»[٣] وغيرهما . ونحن نتكلم معهم فى الأمرين .

أما الأول :

فمن المعلوم لدى كل من عرف مبادئ الإسلام الأولية أن له ثلاث شعب : شعبة العقيدة ، وشعبة الأخلاق ، وشعبة الأحكام العملية .

أما العقيدة فتقوم على الإيمان بالله وتوحيده بالعبادة والتقديس والخضوع له والرجوع إليه فى كل ما يعن للإنسان ، لأنه واهب الوجود ومصدر كل خير ونعمة ، والإيمان برسله وكتبه التى أنزلها عليهم وملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، والإيمان بالغيب وما فيه من أسرار لا يعلمها إلا الله ، ومنه الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء .

فإذا آمن المرء بذلك كله وُجد عنده رقيب فى نفسه يراقبه فى سره وعلانيته ، ذلك الرقيب هو الضمير الحى الذى يولد مع الإيمان بما سبق .

وأما شعبة الأخلاق فتقوم على تحلية النفس بجميل الصفات بعد تجريدها من قبيحها ، فبين الإسلام الصفات المرذولة ، وحتم على العبد التخلى عنها وتطهير نفسه منها ، والصفات

(١) فى الكلام على مصادر القانون عرفوا الدين أنه : القواعد والأحكام التى ينزلها الله بوحى من عنده على الناس وهى تنظم وتحكم عادة — العبادات أى علاقة المرء بربه والأخلاقيات . أى علاقة المرء بنفسه . وقواعد المعاملات بالمعنى الواسع . أى القواعد التى تحكم علاقة المرء بغيره « أصول القانون » ص ٢٥٦ وفى ص ٢٦٠ أما الدين الإسلامى فقد نزل به الوحى ديناً وقانوناً فى آن واحد إلخ .

(٢) ص ٢٨ الطبعة الثانية .

(٣) يقول فى أول صفحة من هذا الكتاب : إن الكتب الأجنبية التى تتعرض للكتابة عن مبادئ الإسلام كثيراً ما نجد روح التعصب الوبيل بادية فى أسلوب مؤلفيها وطريقة عرضهم للمبادئ الإسلامية .

الفاضلة ، وطلب منه أن يتخلق بها ، وأن يجعل لنفسه حلية منها .

فالكذب وخلف الوعد والغيبة والنميمة والحقد والحسد والغش والخداع والجبن والخور والخيانة وما شاكلها صفات مرذولة أفسدت على الناس حياتهم وأثارت العداوة والبغضاء بينهم ، فوق أن العقول السليمة تمجها وتنفر منها ، لذا أوجب الشارع على المرء أن يتخلى عنها حتى لا تكون معولا يهدم صرح العلاقة بينه وبين أخيه الإنسان .

والصدق والوفاء بالعهد والإخلاص فى العمل والرحمة والتعاون والصبر والعزيمة والشجاعة والإقدام والكرم والإحسان وحب الخير للناس والعفو والصفح عن مسيئهم والحياء صفات فاضلة تكمل النفوس وتسمو بها فى مدارج الإنسانية المهذبة وتعين على إحكام الروابط بينهم (ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور)[1] (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)[2] ، (فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)[3] ، (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)[4]

وهاتان الشعبتان تتعاونان على إصلاح الباطن ليكون أساساً سليماً يرتكز عليه الظاهر ، فإن كل محاولة لإصلاح الظاهر قبل إصلاح الباطن تذهب سدى ، وتجعل من القوانين العملية أداة للتخويف والإرهاب لا يمتثلها شخص إلا تحت سوط التهديد .

وهذا هو السر فى عناية القرآن بإصلاح العقيدة وتهذيب النفوس وصرفه أكثر آياته إلى الأمرين قبل أن يبدأ فى تشريع الأحكام العملية التى تنظم الظاهر ، وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديثه المشهور :

« ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب » .

أما الشعبة الثالثة فهى شعبة التنظيمات العملية ، وقوامها تنظيم الحياة العملية والروابط بين الناس أفراداً وجماعات ، وهى التى تسمى فى الاصطلاح الشرعى بالفقه الإسلامى ، وتقابل القوانين وتقوم بمهمتها ، غير أن تنظيمها أدق وأحكم ، لأنها نظمت الظاهر بعد

(١) الشورى : ٤٣ .
(٢) فصلت : ٣٤ .
(٣) آل عمران : ١٥٩ .
(٤) الفرقان : ٦٣ .

تنظيم الباطن ، فهى تتساند مع الشعبتين السابقتين فى التنظيم الحقيقى ، فيلتقى تنظيم الباطن مع تنظيم الظاهر وحينئذ يصدر الإنسان فى امتثالها غالبًا عن رغبة فى النظام وانقياد للأحكام الشرعية بقوة الإيمان وغلبة حب الخير لا عن خوف من سلطان القانون وبطشه .

ولعل فيما أخرجه أبو داود والترمذى فى صحيحيهما عن أبى برزة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد المنبر يومًا فنادى بصوت رفيع : « يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته » لعل فى ذلك ما يرشد إلى أثر الإيمان فى امتثال التكاليف .

ولكن القوانين الوضعية التى تنظم الظاهر دون أن تعرض للباطن فلن تستطيع حمل الناس على امتثالها إلا تحت تأثير التخويف والإرهاب مما تفرضه من جزاء على المخالفة ، فإذا أمنوا العقاب لم يكن فى نفوسهم أثر لهيبة ولا احترام ، فهى إذاً ليست مانعة من المخالفة ، وإنما تمنع من الظهور بها فقط .

فكم من المخالفات ترتكب على حين غفلة من القانون ؟

وما تعرض له فى بعض الأحيان مما يدخل فيه العنصر الأخلاقى لا تعرض له من ناحية أنه مهذب للنفوس بل من ناحية ما فيه من نفع المجتمع . كما سبق تصريحهم بذلك ، أو يقولون : إنه من قبيل الآداب العامة والسلوك العام الذى لا يستغنى عنه المجتمع .

وإذا ظهر لنا أن الأخلاق شىء ، والفقه الإسلامى شىء آخر كان إطلاق كلمة الأخلاق على أحكام الفقه إطلاقًا غير حقيقى ، وإن صح هذا الإطلاق يكون لما بينهما من التعاون والتساند على تحقيق هدف المشرع من تشريعه ، وهو تنظيم المجتمع تنظيمًا حقيقيًا .

د. محمد مصطفى شلبى

دعوة للبحث والدراسة

القرآن والسُنة

الفَارق بينهما هو فى مَدى الثبوت

بقلم :
الأستاذ أحمد حسين

كان الأزهر وسيبقى ، أحد دعائم الإسلام الكبرى ، وقد جاء وقت دوى الإسلام فى كل مكان ، ولكنه ظل يأوى فى الأزهر إلى ركن ركين .

واليوم والعالم الإسلامى فى نهضة كبرى ، تحدثت عنها كثيراً ، فالأزهر بشيوخه وعلمائه وأساتذته وطلابه مدعوون لإثراء هذه النهضة بالأبحاث والدراسات والاجتهادات التى ارتفع بها الإسلام مكاناً علياً ، وجعل للباحث والدارس أجرين إذا اجتهد ، أجراً على عنائه فى البحث والدرس ، أياً كانت النتيجة التى انتهى إليها ، ما دام لم يقصد من وراء الوصول إليها ، إلا وجه الله ، ثم جعل له أجراً ثانياً ، إن هو أصاب فى اجتهاده .

دعوة للبحث والدرس :

وهذا المقال هو دعوة للبحث والدرس ، أى أننى لا أقرر فيه أمراً ، ولا أدعو لتغليب نظرية فقهية على أخرى ، والسبب فى ذلك هو حالتى الصحية التى لا تمكننى من مراجعة كتب العلم ، ونقل النصوص منها ، وهو ما لابد منه فى أى بحث علمى ، فدورى فى هذه المقالة لا يعدو دور المفكر الإسلامى الذى يطرح أفكاراً وقضايا للبحث ، ويدع للباحثين والمتخصصين استكمال البحث وإصدار القرارات .

وأنا أعتبر قضية القرآن والسنة ومدى ارتباطهما ، والعلاقة بينهما ، هى أخطر ما نحتاج الوصول فيه إلى رأى واضح محقق ، فدنيا المسلمين يراد

إقامتها من جديد على أسس من الشريعة الغراء ، وأنا من القائلين إن ذلك آت لا ريب فيه ، بعد أن زالت الغواشي التي كانت تحجب عنهم نور الشريعة ، وأعني بالغواشي فقدانهم استقلالهم السياسي ، واليوم وقد أصبحوا أحراراً ، فسوف تفرض الشريعة الإسلامية نفسها فرضاً ، نتيجة تفوقها الساحق على كل ما عرفت البشرية ، أو يمكن أن تعرف من أفكار ومذاهب من ناحية ، ولأنها من الناحية الأخرى تقدم للإنسانية ، ما أصبحت تفتقر إليه من التوازن بين الروح والمادة ، ومن هنا قلنا بوجوب مضاعفة البحث والدرس ، وأن يقود الأزهر ، بكلياته ، ومعاهده ، وأعمدته المسيرة .

وفي مقدمة ذلك ، العلاقة بين القرآن والسنة ، وإلى أي مدى يمكن الاستناد إلى أي منهما .

المسلم يصل إلى الله من خلال سيدنا محمد :

وأول فكرة نعرضها ، والكثيرون قد لا يقفون أمامها ، إن الإنسانية بعامة ، قد عرفت الله ، مذ كان الإنسان إنساناً ، ولكن الله كما يؤمن به المسلم من أنه واحد أحد ، لا إله غيره ، ليس كمثله شيء ، إلى آخر العقيدة الإسلامية ، أقول إننا كمسلمين ، لم نعرف ذلك إلا من خلال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كان أول أركان الإسلام وأخطرها على الإطلاق ، لأنها الأساس الذي يقوم عليها البناء كله ، هو الشهادتان ، وفي رأيي ، أن الشهادة بوحدانية الألوهية ، قد تقدمت في اللفظ ، إظهاراً لأنها هي غاية الغايات ، التي ينتهي عندها الإسلام وينفرد بها ، ولكننا ما كنا نعرف ذلك إلا بواسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإيماننا به ، وتصديقنا له ، هو سبيلنا إلى الإيمان بوحدانية الله ، فليس مسلماً من لم يشهد بأن سيدنا محمدا هو رسول الله ، وإن آمن بالله ، وإن صلى وصام ، وزكى وحج ، وإن كان هذا الفرض مستحيلا ، لأن سيدنا محمدا هو الذي جاء بهذه الأركان ، فيستحيل أن يقوم بها ، من لا يؤمن به أولا وقبل كل شيء .

والخلاصة ، أن إيماننا بالله ، وأن القرآن كتابه المنزل عن طريق الوحي ينبني على إيماننا بشخص سيدنا محمد ، وهو الذي قال لنا : إن هذا قرآن ، وهذا غير قرآن ، أي أن أمر الإسلام

كله يقوم على قوله والالتزام بهذا القول ، سواء كان قرآنًا أو سنة .

فإذا قلنا ، إن القرآن أولى بالاتباع ، فما ذلك إلا لأن سيدنا محمدا قال ذلك ، والذين قالوا ، إن السنة لا تنسخ القرآن ، استندوا على قول الرسول ، والذين قالوا بعكس ذلك من أن السنة قد تنسخ القرآن ، ما كانوا ليقولوا ذلك ، لولا استنادهم لقول الرسول أو فعله فى بعض المسائل ، فالمرجع فى كل ما يتصل بالإسلام ، هو قول الرسول أو فعله ، أو سكوته عن أمر كان يقع أمام نظره ، أو يصل إلى علمـــه ، فيسكت ، أى لا ينهى ولا يأمر فشخص سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو الكل فى الكل فى الإسلام ومن هنا كانت آية صدقه ، ودليل رسالته القاطع ، هو نجاحه الذى لم يسبقه إليه سابق ، فى منع المسلمين من عبادته ، وتعميق هذا المعنى فى نفس أتباعه إلى درجة مذهلة ، ولاعجب فى ذلك ، فقد كان يصر على أنه عبد الله ، وفى القرآن : (قل إنما أنا بشر مثلكم) ولخص الفارق فى أنه (يوحى إلىّ) فهذا الوحى هو الذى عرفنا طريق الله فى المفهوم الإسلامى ، وقد قرر لنا هذا الوحى أن سيدنا محمدا (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) فكل نطق يخرج من فم سيدنا محمد هو وحى ، إلا أن يقول سيدنا محمد نفسه غير ذلك ، هذه مسألة محل اتفاق وإجماع ، ولا يمكن أن يوصف إنسان بأنه مسلم إذا كانت هذه الحقيقة محل شك عنده .

سيدنا محمد هو الذى فرق بين القرآن والسنة :

فنحن مأمورون أمراً بأن نصدع بأى قول ينطق به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كان هو الذى حدد لنا حدوداً يبين لنا ما هو قرآن ، وما هو سنة ، وحدثنا دائمًا عن القرآن والسنة ، وكان يعلّم كل من حوله عما هو قرآن وعما هو غير قرآن ، فلقن أتباعه ودعاهم إلى حفظ وكتابة ما هو قرآن ، ونهاهم عن خلطه بأى قول آخر ، حتى قيل إن شيئًا غير القرآن لم يكتب طول عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن كان عبد الله ابن عمرو بن العاص ، يحدثنا أنه كتب بعض الأحاديث ، والاستثناء دائمًا يؤكد القاعدة ، وقد كانت القاعدة ألا يكتب شىء فى عهد النبى سوى القرآن ، وما ذلك إلا لشدة حرص سيدنا محمد ، ألا يختلط بالقرآن

شىء آخر ، حتى ولو كان من قوله هو ، فدل ذلك على أنه بتوجيه من الله ، شاء أن يخص القرآن بأنه هو مرجع المراجع الباقية للمسلمين إلى الأبد وأصبح عمل الرسول وقوله هو تبيان لكتاب الله وهو « القرآن » .

جمع القرآن وحفظه :

والقرآن يحدثنا عن شدة لهفة سيدنا محمد ، على حفظ ما يوحى إليه من نصوص القرآن ، فطمأنه القرآن إلى أن تلك مهمة سيحققها الله ، فلا يشغلن بها نفسه :

(لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه . . .) الآية .

(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه . . .) الآية .

ثم كان الوعد الإلهى القاطع :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وهكذا وعدالله سبحانه وتعالى: بأنه سيجمع القرآن وسوف يحفظه ، ومات رسول الله قبل أن يأمر بجمع القرآن ، أو حتى يوصى بذلك ، إلى الحد الذى جعل أبا بكر وهو من هو يتردد فى أمر جمع القرآن ، وكانت حجته « أأفعل أمراً لم يفعله رسول الله » ؟

فإذا رأينا القرآن اليوم بعد ألف وأربعمائة سنة ، مجموعاً ، محفوظاً بنصه كما أوحى به إلى سيدنا رسول الله ، وقد اختلف المسلمون حول كل شىء ، حتى تقاتلوا فيما بينهم ، ولكن الشىء الوحيد الذى أجمعوا عليه هو نص القرآن ، ولقد انقسم المسلمون إلى شيعة وسنة ، ومع ذلك فالقرآن واحد ، ولقد ذبح الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان الذى أمر بنسخ المصحف وإرساله إلى الأمصار ، وقد قال خصوم سيدنا عثمان فيه ما قالوا حتى بالغ بعضهم وانحرف فرموه بالكفر ، ومع ذلك فلم يرتفع صوت واحد عبر التاريخ كله يتهمه بأنه أضاف أو أنقص ، فضلا عن أن يكون قد عدل وغير ، فى بعض آياته ، والحق أننا فى غنى عن كل هذه الأبحاث ، فنحن إزاء وعد قاطع من الله سبحانه وتعالى ، أنه سيحافظ على كتابه إلى أبد الآبدين .

فالقرآن الموجود بين أيدينا ، هو عين النص الذى نزل من السماء على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فهو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن تشكك فى ذلك ، مرق من دين الإسلام .

وليس الأمر كذلك بالنسبة للسنة غير المتواترة :

ولا يمكن أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لما يروى عن رسول الله ، لا من ناحية مكانته ، فالمكانة واحدة لا تتجزأ ، ولكن من ناحية نسبة صدوره من رسول الله .

ولقد أسرف بعض المسلمين على أنفسهم ، فقالوا : إن كل ما ورد فى كتب الصحاح فهو ثابت مائة فى المائة ، وهذا قول فيه تجوز ، فليس هناك سوى كتاب واحد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن الكريم فأصبح من قبيل الإسراف والتجوز خلع هذه الصفة على كتاب آخر فضلا عن كتب يقولون إن هذه الكتب تتضمن أحاديث رسول الله وهو لا ينطق عن الهوى ، وليست هذه هى القضية ، إنما القضية هى صحة نسبة هذا القول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صحيح أن الذين قاموا بجمع الصحاح ، كانوا رجالا عظاماً ، بل ومعنين فى العظمة العلمية والورع والتقوى ، وكانت لديهم قدرات فائقة فى الحفظ والاستيعاب والقدرة على النقد والتمحيص ، وهو ما يتجلى فى العدد الضئيل نسبياً الذى أثبتوه فى كتبهم ، بالنسبة لما أهملوه ، فقرر بعضهم أنه اختار البضعة الألوف من الأحاديث التى أثبتها فى صحيحه ، من ثلثمائة ألف حديث ، أو من أكثر من ذلك بكثير ، ولقد وضع كل جامع للأحاديث الصحيحة لنفسه مقياساً ، يستدل به على صدق الحديث ، كاشتراط المعاصرة لرواة الأحاديث ، وزاد البعض فاشترط ثبوت المقابلة الشخصية بين رواة الأحاديث ، وبهذه الضوابط لم يخلص للبعض إلا هذا العدد القليل نسبياً من هذه الأحاديث ، وأقصى ما يقال فى وصف هذه الجهود إنها اجتهادات جديرة بكل إجلال وإكرام ، ورضى الله عمن قاموا بها .

ولكن ذلك لا يخرجها بحال من الأحوال عن كونها اجتهادات ، وهو ما فهمه منها معاصروهم ، أو من جاءوا بعدهم ، فراحوا يضيفون وينقصون ويجمعون ، ولا يجب أن ننسى أن عملية جمع الأحاديث تلت عملية الفقه التى كانت فى القرنين الثانى والثالث للإسلام .

وقد كان من أطرف ما سمعنا من أحد علماء الحديث ، أنه لا يؤخذ بفقه الأئمة الأربعة ، لأن الأحاديث

جمعت بعدهم ، وإذا كان هذا الشيء أو ذاك مما أفتى به إمام كالشافعي مثلا ، يخالف حديثاً مما ورد في بعض الصحاح ، فهم يردون قول الشافعي استناداً لهذا الحديث ، بمقولة أن الشافعي كان يجهله ، ثم يعززون ذلك بقول الإمام الشافعي نفسه من أن الحديث الشريف مذهبه ، فيجب إهدار قوله أمام نص الحديث .

وما كان للشافعي ، أو لأي مسلم آخر أن يقول غير ذلك فقول الرسول عندما يثبت صدوره منه هو القول الفصل ، والقضية تتلخص في هذا الثبوت ، ومجرد روايتها في هذا الكتاب أو ذاك لا يقطع بثبوتها ، بدليل أنها قد تذكر في كتاب ثم لا تذكر في كتاب آخر .

وقد اعتمد الأئمة الأربعة ، وهم في الصدر الأول للإسلام ، وقد عاصروا التابعين ، الذين تلقوا مباشرة عن صحابة رسول الله وتابعيهم ولكن مصدرهم الأساسي ، كان هو عمل الصحابة الذي تواتر ، أي تناقله الخلف عن السلف بكل تفاصيله كهيئة الصلاة ، ومناسك الحج وأنصبة الزكاة ، فقد كانت هذه العبادات كلها تمارس بدون انقطاع منذ أيام الرسول صلوات الله عليه ، حتى وصلت إلى الفقهاء الأئمة الأربعة ، فراحوا يقننونها ويؤصلونها ، استناداً على القرآن والسنة المؤكدة ، والتي كان يؤكدها جريان العمل عليها ، ومن هنا فنحن لا نعتد بقول من قال : إن كتب الأحاديث التي جمعت في عصر لاحق ، تعلو أقوال الأئمة الأربعة ، إذا خالفت ما جاءوا به ، بمقولة أنهم كانوا يجهلون هذا الحديث أو ذاك ولو عرفوه لغيروا حكمهم .

وعندنا أن مجرد إغفال أي إمام من الأئمة الأربعة ، لأي حديث من أحاديث رسول الله ، كاف لكي نتحفظ كثيراً بصدد هذا الحديث ، فما كان هؤلاء الأعلام الورعين ، ليصلوا إلى ما وصلوا إليه ، لولا أن معاصريهم والأجيال المتعاقبة رأوا فيهم ذروة العلم الإسلامي المستند إلى القرآن والسنة .

ومجمل ما يقال عن كتب الأحاديث التي دونت في عصور متأخرة ، إن ورود الحديث في أكثر من واحد منها ، هو قرينة على صحتها ، ولكن هذه القرينة لا يمكن أن تكون قاطعة ، إلا بعد استخدام المقياس الذي زودنا به رسول الله نفسه .

اعرضوه على كتاب الله :

فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه القضية ، قضية الأحاديث التى تروى عنه ، فأجاب بالرد المنطقى الوحيد الذى لارد غيره ، وهو أن يعرض الحديث على كتاب الله ، فما وافقه فهذا هو قرينة الصحة ، التى تكملها الأدلة الأخرى على ثبوت صدور القول من رسول الله .

ولقد كانت السيدة عائشة رضى الله عنها وهى من هى من حيث قربها ومكانتها من رسول الله ، تأخذ بهذا المقياس ، فكانت ترد أى حديث يتعارض مع نص القرآن ، وما كانت لتفعل ذلك بطبيعة الحال لولا أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قد غرس ذلك فى نفسها غرساً .

هذه هى قضية القرآن والسنة فى إطارها الصحيح ، فالقرآن ثابت ومحقق بعهد إلاهى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ، وليس كذلك الشأن بالنسبة لما روى عن سيدنا محمد ، وقد أثبت العمل والواقع والتاريخ هذه الحقيقة ، فحيث لا يوجد سوى نص قرآنى واحد ، فقد وجد الكذابون الذين كذبوا على رسول الله فنسبوا إليه أقوالا لم يقلها ، وفى فترة امتلأت بالخلافات والصراعات والفتن ، حاول كل فريق أن يؤيد دعواه بحديث ينسبه إلى رسول الله ، فكان هذا السيل الجارف من الأحاديث الموضوعة ، ولا ننسى دور اليهود ومحاولتهم تخريب الإسلام من الداخل فكانت هذه « الإسرائيليات » .

ابحثوا وادرسوا :

وأعود بتكرار ما بدأت به ، من أننى لا أقرر ، ولا أغلب فكرة على فكرة وإنما هى أفكار أعرضها ، وأدع للمختصين نفيها أو إثباتها ، أو تعديلها ، فالعالم الإسلامى فى أمس الحاجة إلى تحقيقها فى يقظته ونهضته الحالية .

وفقنا الله وإياكم إلى ما فيه الخير والرشاد .

أحمد حسين

فى مواجهة الإلحاد المعاصر

العقليون يقودون الفكر الأوربى إلى مأزق الإلحاد

للدكتور يحيى هاشم

تمهيد* :

يعتقد كثير ممن لهم اطلاع على أحوال الديانات أن المأزق الإلحادى الذى وقع فيه الفكر الأوربى الحديث يرجع إلى احتواء الديانة المسيحية على أمور تتعارض مع العقل .

ومع تسليمنا بصحة هذه القضية جزئياً ، إلا أننا نرى أن الذين يعرضونها على هذا النحو المطلق ينحرفون بها إلى تقرير موقف آخر يدعون فيه أن العقل « المستقل » هو ما يجب أن يكون أساساً للدين ، وهو الذى يحفظه من الإلحاد .

والحقيقة أن العقل « المستقل » ليس أقل اندفاعاً إلى الإلحاد وارتكاساً فيه ، من احتواء الدين على بعض الأمور التى يعجز العقل عن قبولها .

وإليك ذلك من تجربة الفكر الإنسانى فى أوربا الحديثة :

* * *

كان من نتيجة العلم النيوتونى فى القرن السابع عشر الميلادى : أن أصبح الناس يرون الكون آلة عقلية ، متسقة كل الاتساق ، وأن الطبيعة من صنع كائن كامل . وأن القوانين الطبيعية أوامر يصدرها الله فتطاع دون تمرد .

هذا ما أثبته نيوتن . .

ولقد وصل تقدير المفكرين لنيوتن إلى الحد الذى جعل شاعراً من شعراء ذلك العصر يقول :

« الطبيعة وقوانين الطبيعة كانت مختبئة فى الظلام .

قال الله : ليكن نيوتن : [فكان نيوتن] ، فأصبح كل شيء نوراً » .

---

* انظر عدد شوال السابق ص ١٢٧٤ – ١٢٧٨ منه .

والخلاصة : أن العلم النيوتونى أجبر الناس على الاعتقاد بخالق ، باعتبار ذلك ضرورة علمية وأخذ الناس يطابقون بين ما هو طبيعى وما هو عقلى ، وأصبح ما يبدو معقولا يعتبر طبيعيـًا ، والعكس أيضـًا صحيح .

أما فى مجال الدين فقد تعرض الفكر المسيحى التقليدى للنقد على ضوء هذا المثل الأعلى ، وأصبحت فكرة « الديانة العقلية » أو « الديانة الطبيعية » هى الفكرة السائدة ، التى تقاس إليها العقائد الدينية ، وما إن أشرف القرن السابع عشر الميلادى على نهايته حتى ساد المفكرين والقادة الدينيين اعتقاد بأن جوهر الدين إنما هو مجموعة من العقائد يمكن إثباتها بالعقل المستقل . وقبل المحافظون والمجددون على السواء ديانة الطبيعة أو العقل كحقيقة أساسية .

١ — لكن المحافظين شددوا على أهمية الوحى بالإضافة إلى ما تقدم فكانوا بذلك عقليين — سماويين — ميزوا بين ما يمكن إثباته عقليا ومالا يمكن إثباته وقبلوا هذين العنصرين من العناصر المكونة للدين .

٢ — أما المجددون الجذريون — الراديكاليون — فقد اختلفوا عن الفريق الأول فى أنهم — مع أقرارهم بوجود الله — أنكروا الوحى ، وشددوا على كفاية الدين الطبيعى والعقلى . .

واستمر الجدل جيلا بكامله حول ضرورة الوحى بالإضافة إلى هذا الدين العقلى :

٣ — ثم ظهر نقاد أكثر تشككا فتساءلوا عن صحة المقدمات التى تقوم عليها الديانة الطبيعية ولم يكد ينتصف القرن الثامن عشر الميلادى حتى ظهر مذهب ريبى كامل ما لبث أن انتشر فى فرنسا وانتهى إلى إلحاد شامل .

وإليك شىء من التفصيل لهذا الإجمال

• • •

أولاً — المحافظون فى نطاق ديانة العقل :

كان الزعماء البارزون بين العقليين الإلهيين المحافظين هم :

١ — جون لوك ، الفليسوف الإنجليزى المعروف .

٢ — جون تللوتسون رئيس أساقفة كنتربورى .

٣ — صامويل كلارك ، أبرز اللاهوتيين ، وأشهر فيلسوف فى انجلترا بعد لوك .

وكان هؤلاء مقتنعين بالعلم النيوتونى ، وبالمناهج العقلية العلمية « وبالعالم الآلة » الذى كان نتيجة لهذه المناهج .

واتفقوا جميعًا على :

أن الدين ليس حاجة غريزيّة فى النفس البشرية ، وإنما هو علم كعلم الفيزياء . أى إنه نظام من القضايا العقلية يستدل عليه كما يستدل على أية قضايا أخرى ببراهين العقل الإنسانى !

وأن القضايا التى يضمها الدين العقلى أو الطبيعى يقبلها عقل كل إنسان وهى :

١ – الإيمان بإله تام القدرة .

٢ – وأن الله يطلب من الإنسان حياة فاضلة بأن يطيع إرادته الإلهية .

٣ – وأن هناك حياة أخرى يكافئ الله فيها الأبرار ويعاقب الأشرار .

أدلة الديانة الطبيعية على وجود الله :

يمكن إرجاع هذه الأدلة إلى نوعين :

الأول : دليل العلة الأولى .

والثانى : دليل هندسة العالم .

وقد بسط نيوتن – نفسه – هذين الدليلين ضمن توضيحه للفيزياء الرياضية .

وشرح فولتير هذين الدليلين على وجود الله شرحا وافيًا . وكان معروفًا بتمسكه الشديد بالديانة الطبيعية حتى آخر حياته عام ١٧٧٨م .

يقول فولتير فى دليل العلة الأولى :

« إن كل ما يوجد لابد أن يكون وجوده :

إما بذاته ، أو بغيره . . .

وإذا كان وجوده بذاته ، فهو موجود منذ القدم ، وهو الله . .

أما إذا كان وجوده من غيره ، وكان ذلك الغير من ثالث ، فإن ذلك الذى يتلقى منه الأخير وجوده : هو الله . . »

ويستدل فولتير على أن الموجود القديم ليس هو المادة بقوله :

« الذكاء ليس ضروريًّا للمادة ، لأن الصخرة أو الحبة لا يفكران . . فمن أين تلقت الإحساس والتفكير ؟

إذن : أجزاء المادة التى تفكر وتحس لا يمكن أن تتلقى ذلك من ذواتها ، إذ أنها تفكر بالرغم من ذاتها .

ولا يمكن أن تتلقاه من المادة بصورة عامة . . .

ومن هنا : كان لابد من أن تتلقى ذلك من كائن أسمى ، ذكى ، لامتناه هو العلة الأولى لجميع الأشياء . . »

ويقرّ فولتير : بوجود "صعوبات فى مثل

هذا التفكير لكنه يقرر : « أن الرأى المعاكس ينطوى على أمور مستحيلة..»

ويشدد فولتير على دليل هندسة العالم فيقول :

« حين أرى ساعة يدل عقرباها على الزمن أستنتج أن كائنا قد رتب أجزاءها المحركة بحيث تدل عقاربها على الزمن..

وكذلك عندما أرى أعضاء الجسم البشرى أستنتج : أن كائنا ذكياً قد رتب هذه الأعضاء بحيث تنشأ فى الرحم وتتغذى فيه تسعة أشهر ، وأن العيون رتبت لترى والآذان لتسمع . »

وكانت العين بما تقوم به من تكيف دقيق تعتبر من الأدلة القوية على وجود الله .

هذا ما استقر عليه الأمر فى الديانة الطبيعية ، أو العقلية ! ؟

وأضاف العقليون الإلهيون إلى هذه الأمور الثلاثة : الوحى ، واعتبروه متمما لها ، وهاديا إليها بصورة أوضح .

وحدد لوك المبادئ التى يجب أن يقبل الوحى على أساسها . . ! ؟

فالحقائق الدينية عنده تنقسم إلى أصناف ثلاثة .:

قال : « نستطيع . . . التمييز بين ما يوافق العقل ، وما يعلو عليه ، وما يناقضه . .

فما يوافق العقل هو القضايا التى نستطيع كشف حقائقها بالفحص والاستقصاء والتأمل والاستنتاج . . كالقول بوجود الله . .

وما يعلو على العقل : هو القضايا التى لا نستطيع استنتاج صحتها أو رجحانها من تلك المبادئ كالقول بالبعث .

أما القضايا التى تناقض العقل فهى التى تناقض أفكارنا البينة الواضحة أو لا تتفق معها كالقول بإله آخر .

والمجموعة الأولى : تكون الدين الطبيعى أو العقلى . .

والثانية : تكون الوحى . .

والثالثة : تكون الأوهام . .

ويقول جون لوك :

« . . . ليس بوسعنا إطلاقا أن نتقبل أى شيء يضاد معرفتنا الواضحة بشكل مباشر . .

ولا يمكن إقامة دليل على أن أية ديانة تقليدية هى من أصل إلهى أوضح وأصدق من الدليل المرتكز إلى مبادئ العقل .

وما من معجزة تقيم الدليل على وحى إلهى سوى المعجزة التى تشهد بأن الرسالة ذات مصدر إلهى » :

ويذهب لوك إلى أن الوحى المسيحى فى شكله الإنكليكانى « الأسقفى » يمكن إثباته على أساس هذه المقاييس! ؟

* * *

ويذهب جون تللتسون إلى أن الديانة الطبيعية – العقلية – ليست كافية وأنه لابد لها من الوحى والوحى لايعدل الديانة الطبيعية ، بل يجعلها . . أكثر وضوحاً وأشد تأثيراً فحسب ! ؟

فالديانة الطبيعية هى الأساس لكل ديانة سماوية والوحى السماوى لم يقصد منه سوى توطيد واجباتها . والوحى لا يأتى بأية ملكة جديدة لإدراك الحقيقة ولا بأى مقياس جديد ، بل يقدم حافزاً إضافياً يدفعنا إلى أن نعمل ما نعتقده صحيحاً . ونحن لو تساءلنا لماذا نقبل ما جاء به الوحى ؟ لقيل :

أولا : لأنه يتفق اتفاقاً تاماً مع الديانة الطبيعية والطبيعة ، الإنسانية .

ثانيا : لأن العهد القديم تنبأ به وأيده العهد الجديد بالمعجزات ...

يقول تللتسون :

« هناك أمران يجب أن يتفقا ليقتنع عقل الإنسان اقتناعاً كليا بأن ديناً ما من عند الله ، وهما :

أولا: أن يستطيع الشخص الذى يدعو إلى هذا الدين أن يقيم البرهان على أنه يرتكز إلى سلطة إلهية أى إن الله هو الذى أرسله وأمره بأن يدعو لهذا الدين .

وثانياً : ألا يكون فى الدين الذى يدعو إليه شيء ينافى طبيعة الله بشكل صريح . . . »

* * *

ويقول صمويل كلارك :

«لقد كان ينقص الناس وحى إلهى لينقذ البشرية من فسادها . . .

وكان يستحيل ذلك بدون هذا الوحى . .

لأنه إذا كانت الجهالة العمياء ، أو الأفكار الموروثة والآراء الباطلة التى توجه باستمرار أفعال عامة الجنس البشرى ، تخلق صعوبة بالغة امام جميع الناس فى أن يكشف كل لنفسه – بمجرد الاعتماد على العقل – جميع جزئيات الواجبات الإنسانية ، فمن الواضح أنه كانت هنالك ضرورة لنوع خاص من الوحى»! ؟

* * *

هكذا بدأ العقليون منتصرين للدين ، معترفين بالوحى ، حاكمين عليه بالعقل المستقل ، يستبعدون منه ما يناقض العقل ، ويقبلون ما يعلو عليه ؟

وإلى هذا الحد فقد كان هذا الاتجاه جديراً بتنقية المسيحية مما يتعارض مع العقل ، وكان جديراً بأن يقوم

بعملية غربلة للأخبار الواردة فيها — مما لا يتفق مع العقل — فيؤوّل بعضها تأويلا عقليًّا ، ويذهب إلى تبرئة الوحى من بعضها الآخر»[1] .

وأن يقف بذلك سدًّا منيعًا ضد الإلحاد ، لو أن منبع الإلحاد كان هو هذا التعارض . إلا أن بذرة الإلحاد كانت فى واقع الأمر كامنة فى هذا المقياس العقلى «المستقل» لا فى الأخبار المخالفة له كما يظن الكثيرون ! ؟

إذ ما دام المرجع إلى العقل المستقل الحاكم فلا يأتى من يزعم أن العقل فيه الكفاية ، وأن الوحى لا ضرورة له ؟

هذا ما ظهر بعد ذلك . .

ثانياً — الراديكاليون (الجذريون) فى نطاق ديانة العقل :

بعد أن ساق القائلون بالوحى — فى نطاق ديانة العقل — أدلتهم فى تأييده على النحو السالف ، ظهر المفكرون الذين لم يجدوا ضرورة للاحتفاظ به .

وكان موقفهم يتلخص فى أن الله لم يضف شيئاً إلى قائمة الواجبات التى تستلزمها الديانة الطبيعية أو العقلية .

(١) بل كان جديراً بأن يتقبل كل دين سماوى يعرض نفسه فى إطار لا يتعارض مع العقل : «الإسلام» .

وأن الله الذى خلق آلة العالم النيوتونية والذى يتصرف دائما وفقاً ، لقوانين كلية لا يفعل أمراً كهذا : (أى الوحى) .

وذهب هربرت أوف شربورى إلى :

أن كمال الله يقضى بوجود طريق للخلاص متيسر لجميع الناس ، أما رسالات الوحى ، أو الديانات الخاصة — فهى بالضرورة — جزئية وتفضيلية ، والله الكلى لا يفعل ذلك . . .

وأن ما هو ضرورى يجب أن يكون الله قد غرسه فى عقل الإنسان الطبيعى وجعله متيسراً فى جميع العصور ، وفى جميع الأمكنة .

وقـــدم «ماثيو تندال» فى كتابه «المسيحية قديمة كالخليقة» شرحاً وافياً لفكرته القائلة : بأن الديانة الطبيعية وجدت كاملة منذ القدم ولا يستطيع الوحى أن يضيف شيئاً إليها . ويقول : «إن الواجبات لاتحتاج إلى دليل أقوى مما سبق أن تلقته من بينة العقل السليم» وينتهى إلى أن العجائب والنبوات وجميع الطقوس الدينية الجزئية — والاعتقادات : إنما هى خرافات .

وأعلن شوب أن المسيح كان مؤمناً بالله منكراً للوحى . . وعارض بين «ديانة يسوع» و «المسيحية» .

وتحت تأثير المنهج العقلي أعلن ديدرو :

« . . أن مذهب لوثر أفضل من الكاثوليكية ومذهب كالفان أفضل من مذهب لوثر — والفرقة السوشيانية[1] أفضل من البرتستانية ، وعبادة الله فقط أفضل من السوشيانية » .

ثم يقول : (إن المسيحية باطلة في عقائدها وهي أكثر الديانات غموضا وتخيلا وتقيداً وأكثرها تعرضًا للانقسام والفرق والأحزاب والشيع ، وأكثرها خطراً على الأمن العام . . وهي كئيبة في طقوسها ، غير اجتماعية في أخلاقها — من حيث أخلاقها الخاصة لا ما تشترك به مع الأخلاق الكلية . . » .

وذهب فولتير إلى « أن يسوع الناصري كان ذا أخلاق بالغة النبل فلا يصح تسميته (بالمسيحي) قال :

« كل رجل عاقل صالح يجب أن يتجنب الفرقة المسيحية ! ؟

إن اسم المؤمن بالله المنكر للوحي — وهو اسم كبير لا نحيطه بمقدار كاف من الاحترام — هو الاسم الوحيد الذي يجب أن نتخذه تسمية لنا . .

والإنجيل الوحيد الذي يجب أن نقرأه هو كتاب الطبيعة الكبير الذي كتبته يد الله ، وختمته بخاتمها .

والديانة الوحيدة التي يجب التبشير بها هي عبادة الله والسعي إلى الخير .

وإنه ليستحيل أن تنتج هذه الديانة الصافية الخالدة شرًّا قدر ما يستحيل على التعصب المسيحي ألاّ ينتجه » .

وبدأت السهام توجه إلى المعجزات كدليل على الوحي . .

فادعى وولستون أن المعجزات التي ورد ذكرها في العهد الجديد كانت في معظم الأحيان تافهة متناقضة باطلة غير معقولة وغير جديرة بمعلم يحمل رسالة إلهية ..

وكتب هيوم في كتابه « بحث في المعجزات » الذي نشره عام ١٧٤٨م : أن المعجزة بمعنى كونها حادثًا خارقًا للطبيعة من الأمور التي لا يمكن إثباتها قطعًا ، وأنه يستحيل على من يقبل الفيزياء النيوتوني أن يثبت وقوع أي حادث معين بشكل خارق للطبيعة مالم يفترض أن له معرفة كاملة بأعمال الطبيعة بحيث يتمكن من أن ينفي عن المعجزة كل علة طبيعية وهو أمر بين الاستحالة ! ؟

---

(١) فرقة مسيحية موحدة — منكرة — للتثليث ، والألوهية عيسى ، ظهرت في القرن السادس عشر الميلادي في إيطاليا وبولونيا ، واستئصلت في عام ١٦٦١م .

ومهما تكن علة المعجزة ، فإنه من الأسهل بكثير أن نعتقد فى وقوعها كنتيجة لبعض العوامل الطبيعية . . »

ويقول : « إن حماقة الناس وخداعهم هما من الظواهر العامة ، حتّى إننى أفضل الاعتقاد بإمكان اتفاقهم — مخدوعين — على أن أكثر الحوادث شذوذاً قد وقعت من أن أسلم بخرق واحد واضح لقوانين الطبيعة . .

ولو نسبت هذه المعجزة لأى نظام دينى جديد لرأيت الناس — وهم الذين فرضت عليهم فى جميع العصور أشياء مضحكة من هذا القبيل — يجدون فى هذا الزعم بالمعجزة برهاناً كاملا على الكذب وكافياً لأن يحدو بجميع ذوى العقول لا لأن — يرفضوا هذه المعجزة فحسب ، بل أن يرفضوها دون المزيد من التمحيص . . . » .

هكذا آل الأمر فى مسيرة العقل « إلى إنكار الوحى » : لفضوليته من جانب ، وعدم إمكان إثباته من ناحية أخرى — ذلك فى نظر العقليين . .

وإلى هذا الحد كان ما يزال فى هذه المسيرة احتفاظ بالإيمان بالله — إلا أن الأمر كان لابد أن يؤول إلى خطوة أبعد . .

• • •

ثالثاً : إنه بتأثير نيوتن كان العصر يرى العالم كآلة لا يسبب الزمن أى تغير فى تركيبها ، وفى مثل هذا التصور النيوتونى كانت أدلة دعاة الديانة الطبيعية معقولة ، بل فرضيات علمية أصيلة . .

وقد بسط نيوتن نفسه أدلته فى مفهومه الذى قدمه للعالم كآلة . .

إذ أن هذا المفهوم يتضمن فكرة وجود صانع يبنى الآلة ويخطط اتساقها ونظامها الدقيق فالساعات والآلات لا توجد صدفة وإنما هى مصنوعة بذكاء لتحقق غاية معينة فلقد كان الله فى هذا التصور كصانع ساعة ، مستقلا تمام الاستقلال عن عالمه المخلوق .

إلا أنه فى تصور نيوتن كان ما يزال لله نوع « من التدخل . . » إذ كان نيوتن يظن أن بعض المفارقات فى حركة الكواكب والمذنبات تستوجب من الخالق تصحيحات دورية !

أى إن ساعة الكون لا بد من إرسالها بين حين وآخر لصانع الساعة من أجل إصلاحها .

إلا أن أتباع الديانة الطبيعية — ومنهم كبار العلمـــاء كلابلاس — رفضوا القول بتدخل إلهى فى نظام الطبيعة طالما قد ثبتت صحته وكماله ! ؟

وقــدم لابلاس فرضه بأن تلك المفارقات التى تحدث فى الطبيعة تحدث بصفة دورية وتصحح الواحدة منها الأخرى .

وأصبحت وظيفة الله بالنسبة لهؤلاء أنه أدار تلك الآلة فى البدء ومنذ ذلك الحين لم تعد ثمة حاجة لله لأن يشغل نفسه بأعمال خليقته التى حباها بالكمال .

وهكذا نشتم أول خطوة فى عملية التراجع عن الإيمان بالله . .

• • •

ثم وجد التصور النيوتونى ، وأتباع الديانة الطبيعية صعوبة فى إثبات الحياة الأخرى والنظام الأخلاقى فى العالم .

ذلك أن العالم وفقاً لهذا التصور يكون على درجة من الكمال لا تدعو إلى افتراض حياة أخرى . .

وهذا فى حد ذاته له تأثيره الواضح فى النظام الأخلاقى .

وهذا ما جعل الفيلسوف ليبنتز — مثلا — يكتب الكثير « ليثبت أن هذا العالم هو أفضل العوالم الممكنة » .

وكان من المحتم بعد أن ازداد توحيد المفكرين بين الله ونظام الطبيعة الرياضى الكامل أن استبعدت المقاييس الأخلاقية بالنسبة لله أو للنظام الكونى . .

وهذه النتائج كانت قد اتضحت لسبينوزا قبل ذلك بقرن من الزمان ، فنفى وجود أية صلة بين الطبيعة والمقاييس الإنسانية فى الخطأ والصواب .

يقول فولتير : « يمكن القول بأن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بخلود الكائن الذى يفكر قدر مالدينا للاعتقاد بعكس ذلك . . » .

وهذا يمثل تراجعاً آخر ، أدت إليه النتائج المنطقية للديانة العقلية .

• • •

وإذا أخذت مسيرة العقل هذه تتخلص من حقائق الدين واحدة بعد أخرى : الوحى ، العناية الإلهية ، الآخرة . . إلخ .

فإن رجال الدين أنفسهم ، أو كبار المدافعين عن المسيحية . . ساعدوا هذه المسيرة فى إكمال شوطها ، ودفعوها دفعاً حثيثاً — من حيث لا يريدون — إلى الوصول إلى نهايتها المنطقية .

وذلك إذ عرضوا القضية على أنها اختيار حاسم نهائى بين الدين والعقل . .

فأعلن ويليام لو — وكان متصوفاً شهيراً — أن الدين ليس بحاجة لأن يخضع ذاته لأى مقياس عقلى . وكان دليله الوحيد قائماً على المعجزة . يقول

« إن المعجزات تقرر ذاتها بذاتها ولا يمكن أن يحكمها ما هو بعيد عنها » .

وقد عرض العالم بيير بايل هذا الخيار بين الدين والعقل – على الفرنسيين فقال للعلماء والفلاسفة :

« لا تحاولوا أن تفهموا الأسرار ، لأنكم لو استطعتم فهمها لخرجت عن كونها أسراراً » .

ولا تحاولوا أن تخففوا من ظاهر استحالتها فعقلكم هنا فاقد القوة تماما ..

اعتقدوا كمسيحين ، ولكن امتنعوا عن الاعتقاد كفلاسفة » .

وقال للاهوتيين المعتمدين على العقل :

« ستضطرون للرجوع إلى السبب الأول الذى تعتمدون عليه : التقليد والسلطة وأفضل استعمال للعقل فى هذه الحالة هو ألا يستعمل العقل . . . » .

أما الدفاع الآخر الكبير عن الدين – الذى أدى عملياً بعقليّى القرن الثامن عشر إلى الريبة والإلحاد – فقد كان هو الكتاب الكبير الذى نشره الأسقف بتلر وعنوانه « قياس الديانة الطبيعية والسماوية » ..

وقد ذهب فيه إلى أن الديانة الطبيعية مساوية للوحى المسيحى ذاته فى لاعقليتها ومعتمدة على الإيمـــان بمقدار اعتماده عليه .

ويبدو أنه لم يخطر للأسقف أن القول بأن الديانة الطبيعية لا ترتكز فى عرف العقل إلى أسس أقوى وأثبت من الأسس التى يرتكز إليها الوحى السماوى ، قد يؤدى إلى ظهور من ينادى برفضهما معا .

• • •

إنه قبل أن يفرغ أتباع الدين العقلى من حملتهم على الوحى ظهر التيار العقـــلى المتجهم الذى أخذ يوجه سهامه ضد الديانة العقلية (الطبيعية) ذاتها . ولم يعد الجدل الدينى العقلى فى القرن الثامن عشر فى مرحلته هذه يدور حول ما إذا كان ينبغى على الرجل العاقل أن يؤمن بالوحى بالإضافة إلى الديانة الطبيعية بل أصبحت المسألة هى ما إذا كان يجب على رجل كهذا أن يعتقد بالديانة العقلية أو الطبيعية ذاتها ، أولا يعتقد بها . .

إنه إذا كان « لُو » الصوفى الشهير والأساقفة يختارون طريق إهمال العقل فإن عقليّى القرن الثامن عشر كان من الطبيعى أن يختاروا طريق إهمال الدين .

وظهرت الكتب الكبيرة القاطعة فيما يمكن أن يقال ضد الديانة الطبيعية لكل من :

هيوم الإنجليزى .

وهولباخ الفرنسى .

وكانط الألمانى .

وهى كتب يقول عنها هرمان راندال :

« أصبح يستحيل بعدها على أى عقل نافذ محاولة الدفاع لا عن المسيحية فقط بل عن الديانة العقلية أيضاً — بالاعتماد على الأدلة المألوفة فى ذلك العصر » .

ضمن هيوم حملته على الديانة الطبيعية كتابيه (بحث فى العناية الإلهية والحياة المقبلة) المنشور عام ١٧٤٨م .

و (محاورات حول الديانة الطبيعية) الذى ألفه عام ١٧٥١م والذى لم ينشر إلا بعد موته عام ١٧٧٩م ، وقد ترجم الأخير إلى اللغة العربية .

وكان فى هذه الحملة مثالا للريبة : إذ رفض أن يستنتج أية مواقف نهائية من نقده الهدام .

وانتهى كانط فى نقد العقل النظرى إلى التأكيد بأن جميع المحاولات لاستعمال العقل استعمالا فكرياً فى حقل اللاهوت لا فائدة منها مطلقاً .

وهى بطبيعتها الذاتية باطلة وفارغة ..

وهذا موقف ريبى أيضاً إلا أنه كان يرى أنه :

خارج هذا الحقل — حقل العقل النظرى — يحصل الإيمان عن طريق « العقل العملى » الذى كان يراه كانط قادراً على أن يثبت قواعد الديانة الطبيعية وهى : الله ، الحرية ، الخلود .

وبدت أدلة كانط فاصلة فى تاريخ الفكر . .

أما هولباخ : فقد حمل على الديانة الطبيعية — العقلية — فى كتابيه : « نظام الطبيعة » الذى صدر عام ١٧٧٠م و « الحس العام للطبيعة » الذى صدر عام ١٧٧٢ م .

وقد أنكر هولباخ فى كتابيه هذين بصورة دوجماطيقية — قطعية — :

الله .

والحرية .

والخلود .

ووصل إلى إلحاد مادى كامل . .

يقول هرمان راندال :

«إن عصر العقل الذى كانت نقطة ابتدائه الافتراضات الدينية الطبيعية فى العلم النيوتونى . . لم يكن له مفر عن الانتهاء إلى مثل هذا الإنكار الكامل لكل قاعدة من قواعد المسيحية التقليدية . بل للديانة العقلية نفسها » .

ووصل انهيار الديانة المسيحية والطبيعية — العقلية ، إلى حد يصوره ما حدث

فى يوم من أيام عام ١٧٩٨م ، حيث كان أحد أتباع الديانة الطبيعية يحاضر فى المعهد الفرنسى حول اعتقاداته الدينية. فأخذت صيحات الغضب تتعالى من الحضور ونادى أحدهم :

« أقسم أن الله غير موجود ، وأطلب ألا يلفظ اسمه فى هذا المكان » .

ولم يسع المحاضر المسكين إلا أن ينسحب حين أخذ الحضور يتناقشون فيما إذا كان يجب أن يلفظ اسمه بين جدران المعهد النير ؟ ! !

(تعالى الله علواً كبيراً) . .

تعقيب هام :

هؤلاء هم العقليون فى أوربا :

بدأوا مدافعين عن الوحى المسيحى

وتوسطوا منكرين له مكتفين بالديانة العقلية ــ الطبيعية .

وانتهوا إلى اللاأدرية .

أو إلى الإلحاد المادى .

وقد أردنا بهذا المقال أن نؤكد أن العقل المستقل يلهث وراء سراب ، وأنه يفتقد القدرة على الوصول إلى حقيقة ما : مالم يرتكز منذ خطوته الأولى على إيمان تسليمى سابق .

ــ وقد بينا فى مقال سابق[1] كيف يقوم هذا « الإيمان التسليمى » السابق على ما سميناه « الضرورة العملية » .

وأن هذه الضرورة المؤسسة للإيمان « تبرز لنا شامخة فى منهج الرسول صلى الله عليه وسلم وفى الفكر الإسلامى على السواء .

وبينا أيضاً أن اللاأدريين ــ كهيوم وكانط ــ لم يفقدوا إيمانهم بالله تأسيساً على هذه الضرورة نفسها .

والأمر الذى نراه جديراً بالذكر هو أن إلحاد هؤلاء ــ اللاأدريين يجرى فى نطاق نظرية المعرفة ، فهو إن أردنا الدقة إلحاد « بالعقل » وإنكار لقدرته ، وإن كان له أثر « نظرى » على « نظرية الوجود » وعلى الإيمان بالله ، لولا أن أصحابه كما قلنا خضعوا للإيمان من باب آخر هو الضرورة العملية التى أشرنا إليها .

أما مادية هولباخ الدجماطقية « القطعية » فسوف نناقشها فى بحوثنا عن الإلحاد المادى وعلاقته بالعلم التجريبى .

إلا أننا هنا نسارع إلى القول بأن هذه المادية تؤول حتما إلى الدخول فى

---

(١) انظر هامش صفحة ١٤٢٩ الماضية .

حظيرة اللاأدرية وينطبق عليها ما ينطبق على تلك .

وذلك لأن القول بالمادية ينطبق على (الوعى) والإدراك ، فيصبح من ثم اسما لحالة توافقية من حالات تشكل المادة ، وتصبح المعرفة الناتجة عن هذه الحالة التوافقية حالة عرضية مفتقرة إلى أى مبرر يدعونا إلى اتخاذها حكماً على حقيقة الوجود ، ومن ثم تصبح المادية بالرغم من أصحابها نوعاً من اللاأدرية فلا تجد ملجأ إلا فى الاستناد إلى الضرورة العملية ، وهذه الضرورة كما قلنا سند للإيمان بالله والدين .

وبالله التوفيق . .

دكتور يحيى هاشم حسن فرغل

مما قيل فى حفظ اللسان

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى
وحظك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرىء
فكلك عورات وللناس ألسن

فعاشر بمعروف وسامح من اعتدى
وفارق ولكن بالتى هى أحسن

لماذا يُقتَل المسلمون

دكتور عبد الودود شلبي

أحياناً يتبلد عقل الإنسان ويتوقف عن العمل ، أبحث عن سبب كامن يعلل هذه الظاهرة فلا أجد شيئاً أستند إليه فى تعليل هذا الموقف .. فالإنسان هو الإنسان . يسمو أحياناً إلى درجة من الصفاء والشفافية حتى ليرى كل ما حوله من الدنيا هباء لايوزن بكلمة ، وأحياناً يهبط إلى درك من الضياع والخمول حتى ليكاد يفقد الإحساس بذاته ونفسه وكثيراً ما أمر بهذه الظاهرة من غير سبب واضح لحدوث هذه الظاهرة ! أو ربما لأحداث مسبقة استنفذت منى كل جهد وطاقة ثم أطلقتنى إلى الحياة أتيه فى دروبها الموحلة بحثاً عن الحقيقة الضائعة ، وكم عانيت كثيراً قبل أن أكتب هذا المقال الذى يجيء عرضاً بغير قصد ولا إرادة ، وأذكر فى صباح هذا اليوم أننى سألت صديقاً أن يعيرنى عقله — لفترة قصيرة — أستأنف فيها رحلة البحث عن السر فى هذا التبلد الكثيف فى العقل والعاطفة —!

كانت دعابة — أردت بها تصوير واقعى فى قصة طريفة غير أن هذا الصديق لم يأخذ حديثى مأخذ الجد الذى يفرض عليه مناقشة هذه القصة . . وحملنى هو الآخر هموم نفسه التى لا تقل عن همومى كثافة وغلظة . . ! .

إنها مأساة يمر بها الفكر فى عالمنا العربى الملىء بالغرابة ، وهى مأساة تفرض نفسها على كل ذى إحساس من الناس يعيش هذه الفترة من تاريخ الإسلام والعروبة .

غير أنى تعودت فى ساعات الضيق والشدة أن أعيش مع الكتب بعد اللجوء إلى الله بالضراعة والتوبة . . فكثيراً ما سمعت عن أتقياء شيوخنا أن المعصية تذهب بعقل الحكيم حتى لا يكاد يفرق بين النار والجنة ! ! !

ومن هنا يسوء خلق الإنسان وتغلب

عليه الأنانية والشراهة . . ويتحول إلى كائن غريب عن الإنسان والإنسانية . .

حتى الكتب . . تحولت فى عينى إلى كتل من الورق جامدة . . ما هذا الذى يجوس فى حناياى هذه اللحظة ؟ . . أمسك بالكتاب فلا يكاد يستقر بين يدى إلا ويعود ثانية إلى مكانه فى المكتبة . . وأقلب بصرى هنا وهناك فلا يستقر هذا البصر على أمر يوحى بالأمن والطمأنينة ومن جديد . . أعود إلى أوراقى القديمة فتصادفنى قصاصة من تلك القصاصات التى أحتفظ بها دائمًا لوقت الحاجة

لقد لفت نظرى عنوانها المثير وموضوعها الأكثر فزعًا وإثارة .

كانت هذه القصاصة صورة لمقال نشرته مجلة « درشبيجل » الألمانية عن الحرب الأهلية اللبنانية وما يتعرض له المسلمون فى هذا البلد من قتل وإبادة وكما يقول محرر مجلة « درشبيجل » :

لو استطلعنا الواقع اللبنانى واقتربنا من دور المسيحيين اللبنانيين ودوافعهم فى الحرب الأهلية التى تدور رحاها الآن على أرض لبنان . وعدنا إلى الوراء قليلا لوجدناهم حاربوا إلى جانب الجنود الصليبيين ضد جيرانهم المسلمين .

ولكن أثناء الاستعمار الفرنسى بعد الحرب العالمية الأولى ، تصاعد نجمهم حتى صاروا من الطبقة الحاكمة فى البلاد . والآن يريدون أن يدافعوا عن سلطانهم بكل الوسائل الممكنة . . إن أطفالهم يرددون وهم يشيرون إلى مئذنة مسجد قرية « لاسا » : « (انهم هناك لديهم مدافع . ولكننا لن نرحمهم إذا فكروا فى إطلاق النار علينا . . فالسلطة والقوة هنا . .) . . وهنا . . تعنى عندهم قرية قرطبا التى تقع على ارتفاع ١٢٠٠ م فوق جبال لبنان ، وتبعد عن بيروت حوالى ساعتين بالسيارة : وعدد سكانها فى الأوقات العادية حوالى ألف نسمة . . ويزيد عددهم إلى أكثر من ألفين فى العطلات الصيفية حيث يهاجر بعضهم إلى المدن الدافئة شتاءاً ويعودون إليها صيفًا مع أطفالهم ولكن الآن من خلال ظروف هذه الحرب الأهلية الطاحنة وصل عدد سكانها إلى ما بين أربعة آلاف أو خمسة آلاف نسمة ، لأن عدداً كثيراً منهم قد هاجر من بيروت وطرابلس ولجأ إلى القرية . فجميع سكان قرطبا حيث ترتفع تسع كنائس للمارونيين أكبر الفئات المسيحية اللبنانية نفوذاً . . وهؤلاء اللاجئون ليسوا من الفقراء . إذ أنهم منذ أن أقفرت شوارع الحمراء من روادها

اكتظت شوارع قرطبا بسياراتهم الفخمة يجوبون الشوارع سيارة تلو الأخرى وبجوارهم الفتيات الجميلات المتحليات بأغلى الجواهر والرافلات بأحدث الموديلات .

والشباب قليل فى هذه القرية . . فمعظمهم الآن يحارب مع الميليشيا المسيحية فى بيروت ، والبعض الآخر يتلقى التدريبات فى الجبال استعداداً للانضمام لصفوف ميلشيا الكتائب ، ذلك الحزب الذى تأسس سنة ١٩٣٦ على النمط الإسبانى .

ومما يلفت النظر . . منظر فتاتين بملابسهما الخضراء الداكنة « اللون المميز للكتائب » تجوبان شوارع القرية فى سيارتى (جيب) جديدتين لا تحملان أرقاماً وتتنقلان من بيت إلى بيت تجمعان التبرعات لمحاربى الكتائب .

والجميع يعطى بسخاء . . فواكه . . بيضاً . . بصلاً . . لحوماً . . وأيضاً الكثير من النقود . وعلى الرغم من كل ذلك تصرخ الفتاتان فيهم : إنكم بخلاء . .

اللعب بالرشاشات :

ومن عادات سكان الجبال عندما يبلغ أطفالهم تلك السن التى تخول لهم تناول العشاء (سن العاشرة) تهدى إليهم المدافع الرشاشة بدلا من لعب الأطفال — والزهور . . وهؤلاء الأطفال بدورهم يطالبون بإلحاح بالاشتراك فى الحرب الأهلية ولكن بيير الجميل يعدهم قائلا : « انتظروا فسوف نستدعيكم عندما نحتاج إليكم » .

وهذا قد يحدث قريباً لأن تلك الحرب الأهلية التى اندلعت نيرانها يتضاعف عدد ضحاياها بسرعة مذهلة . ففى خلال ستة شهور سقط حوالى ستة آلاف قتيل وثمانية عشر ألف جريح . . ولو دققنا النظر فى هذا العدد الهائل من القتلى والجرحى بالنسبة لعدد سكان لبنان البالغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة لكانت نسبة عدد القتلى والجرحى فى هذه الشهور الستة تفوق أضعاف ما فقدته أمريكا بالنسبة لعدد سكانها طوال سنوات الحرب فى فيتنام . . إن حياة الكلب فى لبنان أكثر قيمة من حياة الإنسان لأن الكلب يستطيع أن يجوب شوارع بيروت دون أن يصاب بالرصاص . أما الإنسان فلا يستطيع ذلك . .

شعب ينتحر :

وفى غمرة الحرب الطاحنة يحطم اللبنانيون مقومات حياتهم . . المحلات التجارية . . الأسواق . . البنوك . . المصانع . . الفنادق . . وسائل النقل

وقد بلغت الخسائر حتى الآن ستة مليارات ليرة . إن هذا الشعب ينتحر ! . . وكل ما تستطيع الحكومة عمله هو حصر الجثث والضحايا . . ومعظم الضحايا من المسلمين ! . . الطبقة المغلوبة على أمرها فى لبنان إذ أن الميليشيا المسيحية أحسن تنظيماً وتدريباً وقوة . ولكن المستقبـــل للمسلمين لأنهم مرتبطون بلا شك بالعالم العربى حولهم ، وهذا ما يعلمه المسيحيون ، ولذا فهم يتذكرون دائماً البيض فى جنوب أفريقيا فبرغم أقليتهم ، فهم الطبقة الحاكمة والمسيطرة فى البلاد ، وكما حدث فى أفريقيا فيبدو أن التطور التاريخى سوف ينتصر فى النهاية . .

وقد اتهم المطران « غريغوار حداد » مطران بيروت الطائفة الكاثوليكية إخوانه فى الدين المارونيين بأن لديهم عقدة القتل بالجملة . . وعقدة القتل بالجملة هذه لها أسبابها . . فقد جمع مسيحيو لبنان أنفسهم ما بين القرن الخامس والسابع الميلادى فى المكان المعروف الآن بلبنان . وأثناء التوسع الإسلامى انسحبوا إلى جبال لبنان وحافظوا على شخصيتهم وأطلقوا على أنفسهم لقب المارونيين نسبة إلى القديس « مارون » ولكن الجبل أصبح سجناً كبيراً لهم . وفى أثناء الحروب الصليبية انضموا إلى صفوف الجيوش الصليبية وحاربوا معهم ضد جيرانهم المسلمين وقدموا للغزاة شتى أنواع المعونة ، ومكافأة على خدماتهم أعلن القديس « لودفيج » الفرنسى حمايته لهم ١٢٥٠ وأعطاهم نفس حقوق أتباعه .

وقد تغير حال المسيحيين بعد الحرب العالمية الأولى عندما هزم الفرنسيون الأتراك وحلوا محلهم فى إدارة لبنان . إذ أنهم رأوا فى المسيحيين إخواناً لهم فى الدين وعوناً لهم فى الحرب ضد القومية العربية . وأصبح المسلمون هم الذين يتضورون جوعاً فى شوارع طرابلس . وصارت تفرض ضرائب باهظة على المدن الإسلامية . . فى حين شيدت مدارس الإرساليات فى « زغرتا » وأصبح معظم أفراد الجيش اللبنانى من المسيحيين ، وقد استغل المسيحيون هذه الظروف وصاروا يرسلون أولادهم إلى المدارس العليا فى أوروبا والغرب وأصبح لهم اتصالات بالدول الصناعية الغربية المتقدمة وصار لهم متاجر ومحلات عديدة وسبقوا مواطنيهم المسلمين فى التعليم وطريقة الإنتاج . وارتفع مستوى حياتهم كثيراً . والآن وبعد بضع عشرات من السنين

صارت المعادلة السارية المفعول هى :

مسيحى + تعليم = رخاء . .

مسلم + جهل = فقر . .

لقد أظهر الميثاق الوطنى سنة ١٩٤٣ والذى تم بين المجموعات المختلفة ما لتلك المجموعات من سلطان وقوة . . فالمسيحيون الذين كانوا يتمتعون بأغلبية طفيفة فى ذلك الوقت أسند إليهم منصب رئيس الدولة وقائد الجيش وصار لهم ٥٤ مقعداً فى البرلمان من أصل ٩٩ مقعداً وأصبح لبنان هو البلد العربى الوحيد الذى ليس الإسلام فيه دين الدولة الرسمى .

ولقد عبر الشاعر المسيحى « سعيد عقل » عن هذا بقوله : « إن لبنان هو قلعة أوربا فى آسيا . . والواحة الغربية وسط الصحراء الشرقية والأفريقية » . .

وبينما كانت أنظار مسيحيي لبنان موجهة ناحية الغرب ، وكانوا يحلمون بحرب صليبية أخرى .

كانت أنظار المسلمين متجهة نحو الشرق وكان مثلهم الأعلى هم أبطال العرب المسلمين .

إن لبنان يجرى تقسيمه اليوم إلى أقسام للمسلمين وأخرى للمسيحيين . . والبعض يحلم بنظام المقاطعات كما فى سويسرا . . أما أعداء فكرة التقسيم فإنهم يهددون كل من يحاول تقسيم البلاد بالموت « الموت لكل من يريد تجزئة بلادنا » . . ولقد أخذت الطبقة المسيطرة المسيحية مواقع دفاعية . . وفى نهاية سبتمبر عندما تشكلت لجنة مصالحة من جميع الأحزاب واجتمعت هذه اللجنة صمتت الأسلحة فى بيروت وفى أحياء المسلمين ترك المسلحون أماكنهم خلف الحواجز وتدفق الناس من مساكنهم وفجأة أقيم السوق واكتظ بالناس . . أما فى الأشرفية فلم يترك المسيحيون أماكنهم خلف التحصينات وأخذ ينظر الكتائبيون إلى كل حركة تحدث فى قطاع المسلمين بنظرة من الشك والريبة متخيلين أنها فخ نصب لهم . . وعندما اتجهت لجنة المصالحة إلى أحد الأحياء انهمر الرصاص على أفرادها من كل صوب وسقط أحد أعضائها قتيلا . . وفى إحدى القرى المارونية فى الجبال سأل أحد الفلاحين زواره من الأوربيين « إذا أطبق المسلمون على رقابنا فهل ستمدون إلينا يد العون والمساعدة كما قدمناها لكم أيام الحروب الصليبية ؟ ! »

لقد كتب جوردن جاسكيل — فى مجلة « ريدرز دايجست » : تحت عنوان « لبنان واحة الشرق الأوسط » — يقول :

• يقول المثل : ألق حجراً على أى حشد لبنانى وستكون واثقاً من أنك ستصيب أسقفاً واحداً على الأقل ..!

إن بيروت تزخر بالأساقفة ، وبها اثنان من الكرادلة الكاثوليك ، وهى المدينة الوحيدة التى تجمع مثل هذا العدد فيما عدا روما ، وذلك فضلا عن جيش ضخم من البطاركة والكهنة والأرشمندريت . .

ولم كل هذه المحاولة . . ؟ من أجل تنصير لبنان وإنشاء وطن قومى مسيحى يكمل الوطن القومى اليهودى فى فلسطين .

فإذا لم ينجح هذا الأسلوب فليس هناك إلا الذبح والاستئصال للتغلب على المسلمين[1] » . .

لقد اتضح من وثيقة عثر عليها بأحد الأديرة منــذ خمسين عاماً أن الذى يحدث للمسلمين اليوم جزء من خطة إجرامية تستهدف تصفية الإسلام والمسلمين فى لبنان الشقيقة ! ! !

وتنفيذ هذه الخطة يعتمد أولا وبالدرجة الأولى على القوى الخارجية التى تساند القتلة والخونة فى أرجاء العالم الإسلامى والعربى مستغلة ظروف القهر والتخلف التى فرضت على المسلمين نتيجة تخليهم عن مصدر القوة والعزة فى دينهم . وهذه الوثيقة السوداء يتكرر صدورها وظهورها فى أنحاء مختلفة من الوطن العربى بصيغ جديدة — وأسلوب أكثر وضوحاً ووقاحة . . ! ! !

ومهما كانت هذه القوى التى يعتمد عليها الموتورون والخونة فإن مصيرها إلى زوال قريب جدا . . وكما انتهى « المعلم يعقوب » الذى شكل من أبناء « جلدته » كتيبة لضرب الشعب المصرى أثناء ثورته ضد الفرنسيين . . فلسوف تنتهى هذه القوى الشريرة نهاية « المعلم » الذى هلك على ظهر بارجة حربية فرنسية ، ثم ألقى به إلى البحر فى برميل خمر فارغ حتى لاينجس أرض فرنسا بأدران الخيانة وميكروب العار والكراهية . .

ولقد أثبت التاريخ أن المسلمين بالرغم مما أصابهم ، وبالرغم من الجحود والعقوق الذى يكافأون به من مواطنيهم كانوا أكثر الناس سماحة ، وأرحمهم قلباً فى مواقف القصاص والعقوبة ، وكما يقول (جوستاف لوبون) لم يعرف التـــاريخ فاتحين كانوا مثل العرب وما أصيب العرب والمسلمون إلا من هذه

(١) انظر كفاح دين : ص ٤٣ — الطبعة الأولى الشيخ محمد الغزالى .

السماحة التى جرأت شراذم « الشعوب التى عاشت تحت حكم الرومان عدة قرون أهدرت فيها قيمة الإنسان ، وقيمة الحياة ، وقيمة الشرف والعرض وحين دخلوا تحت حكم الإسلام ردوا من جديد إلى الحياة ، ودبت فيهم الروح فلم يحفظوا جميله ولم يرعوا عهده ، وكانوا حرباً عليه وعلى أهله . .

يقول التاريخ :

لقد ثار بعض سكان لبنان على عاملها « على بن عبد الله بن عباس » فحاربهم وانتصر عليهم ، ثم رأى من الحكمة أن يفرقهم ويقضى فريقاً منهم — إلى أماكن أخرى وهذا ما يفعله اليوم أى حاكم فى أرقى الأمم — فما كان من الإمام الأوزاعى . إمام أهل الشام إلا أن كتب إلى والى لبنان ينكر عليه ما فعل من إجلاء بعض الناس عن قراهم ومعاقبة من لم يشترك فى الثورة كمن اشترك فيها وكان مما كتب إليه فى ذلك قوله :

« كيف تؤخذ عامة الناس بذنوب بعض الناس ... وحكم الله (ألا تزر وازرة وزر أخرى) .. وهو — أى حكم الله — أحق ما وقف عنده واقتدى به .. وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

« من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فإنى خصمه يوم القيامة » .

فما كان من والى لبنان إلا أن ردهم إلى قراهم معززين مكرمين .

فهل يعى هذا « بيير » و « شمعون » وأشباههما فى الوطن العربى من الأبالسة والشياطين ! ! .

د . عبد الودود شلبى

قال تعالى :

لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم
من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين .

الحج
بين الفورية والتراخي

الدكتور محمد محمد الشرقاوي

فرضيته ووجوبه :

جاء الأمر بالحج إلى البيت الحرام على المستطيع القادر المستجمع لشرائطه المقررة ، وذلك فى الآية الكريمة (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) فصار بها الحج فرضا مقدساً ، وواجباً محتوماً ، وركنا أساسياً من أركان الإسلام الخمسة المحكمة التى لم ولن يلحقها نسخ أو تعديل أو تأويل : وهى الشهادتان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج ، ومعنى الآية : إن الحج حق واجب لله تعالى فى رقاب الناس لا ينفكون عنه إلا بالأداء ، والآية الكريمة تشعر المتمعن فى أعماقها بمؤكدات ثلاثة :

١ – إبدال كلمة (من استطاع) من كلمة (الناس) مما يفيد ذكر الشيء مرتين : مرة بطريق العموم وأخرى بطريق الخصوص وهو ضرب من التوكيد .

٢ – ما اشتملت عليه من إبهام يعقبه إيضاح حيث قد ذكرت الحج فى صورتين مختلفتين صورة مبهمة فى الناس كل الناس ، وصورة موضحة فى المستطيع منهم دون غيره وهو لون من ألوان التفخيم المفيد للأهمية والتأكد

٣ – وضع كلمة (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) موضع (ومن لم يحج فإن الله غنى عنه) للإغلاظ على تارك الحج بغير عذر .

ويرى الجمهور من الفقهاء أن الحج فرض فى السنة السادسة من الهجرة . . وقد تأخر حج النبى صلى الله عليه وسلم إلى السنة العاشرة لحكم ملحوظة : منها أن الطريق إلى الحج لم يكن ميسوراً ممهداً لإعاقة المشركين له . . ومنها

أن يوم عرفة لم يكن قد استقر فى وضعه الطبيعى الذى فطره الله عليه يوم خلق السماوات والأرض . . إذ كان توقيته مضطرباً بسبب النسىء الجاهلى للأشهر الحرم . . ومنها علمه بأنه سيبقى حتى يحج بالناس فى الوقت المناسب إتماماً للبلاغ ، وتعليماً للمناسك . . فلم يكن التأخير فيه تعريض لفوات الحج ، وقيل شرع سنة خمس من الهجرة . . روى الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال (بعثت بنو سعد ضمام بن ثعلبة — وافداً فى شهر رجب سنة خمس — وقيل ست — فذكر له صلى الله عليه وسلم فرائض الإسلام : الصلاة ، والصوم والحج) ويرى ابن القيم فى — الهدى أنه فرض سنة تسع أو عشر على الخلاف فى ذلك .

وقد فرض الحج مرة واحدة فى العمر . . وما زاد فهو نفل وتطوع . . لأن النص القرآنى السابق لا يفيد تكراراً . . إذ مطلق الأمر لا يدل على حتمية التكرار لعدم الدليل على ذلك ، وعدم الدليل يفيد عدم الحكم بوجوب التكرار ، ويجعل الحج فى عدد مراته على الإباحة الأصلية ، وإن كان مأموراً به فى الجملة . . وكان من الممكن أن يفهم هذا من إطلاق النص القرآنى ومن قول الرسول صلى الله عليه وسلم حين نزلت تلك الآية : (يأيها الناس حجوا البيت) . إلا أن صحابياً سأله صلى الله عليه وسلم قائلا : (الحج فى كل عام أم مرة واحدة ؟ . . فقال صلى الله عليه وسلم : لا . . بل مرة واحدة . . فما زاد فهو تطوع) فأفاد ذلك الحوار التنصيص على عدم وجوب التكرار . . فكان السؤال حسناً ، والجواب أحسن لأن إثبات النَّفْى بعبارة النص . . أقوى من إفادته بمضمون العبارة . . لأنه يبدد كل احتمال فى وجوب التكرار . . روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يأيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل — هو الأقرع بن حابس كما فى مسند أحمد وسنن الدارقطنى والمستدرك للحاكم — أكل عام يا رسول الله فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم . . ثم قال : ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . . فما أمرتكم بشىء

فاتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) .

وهذه الحجة الواحدة المفروضة فى العمر كله يجب الوفاء بها على الفور وبدون إبطاء أو تأجيل ، ولا مماطلة أو تسويف . . فمتى توفرت شروط وجوبها وصحتها أصبح وجوبها وجوباً مضيقاً احتياطاً ، وتأخيرها عن أول سنوات إمكانها وتيسرها يوجب إثم التأخير وهذا الإثم يستتبع الفسق ورد الشهادة عند أبى يوسف لأنه يعرض الفريضة فى حال التسويف والتريث إلى الفوات والضياع إذ لا يدرى . . أيعيش إلى حين إدراكها مرة ثانية فى وقتها المحدد . . أم يسرع إليه الموت قبل أن يقضى أربه . . ؟ فشهور الحج الذى لا يصح إلا فيها محدودة بشوال وذى القعدة وعشر من ذى الحجة وهذه فترة مقيدة بنص الشارع الحكيم (الحج أشهر معلومات) واحتمالات الموت متساوية مع احتمالات الحياة فيما وراء هذه الأشهر من سائر السنة ذات الفصول الأربعة . والأمزجة المتخالفة ، والتقلبات الخطرة ، فاحتمال الموت فى أثنائها وارد لانادر ، ويجب الاحتياط له ، والحذر منه ، وذلك بتقديم الطاعة والمبادرة بالعمل . . والمسارعة إلى الحج قبل أن تخلفه المقادير فيذهب إلى غير رجعة . .

وشرائط الحج فى جملتها : (الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والوقت المخصوص والقدرة على الزاد والمواصلة لغير أهل مكة زائدة عن نفقة عياله إلى أن يعود وأمن الطريق ووجود الزوج أو المحرم أو الرفقة المأمونة بالنسبة للمرأة إذا بلغ سفرها ٩٠ كيلومتراً تقريباً) ، والأمر بالحج فى حد ذاته لا يفيد إشعاراً بالفورية ولا بالتراخى كما يقول علماء أصول الفقه — لأن مطلق الأمر لا دليل فيه على شيء من ذلك ، وإنما تستفاد الفورية أو التراخى من دليل أو قرينة مصاحبة ، وهذه القرينة هى الاحتياط فى أداء الواجبات وهى أمر ظنى مجتهد فيه يكفى فى إثبات الوجوب لا الفرضية . . فيكون الحج فريضة ، والتعجيل به واجباً ، وخلو العمر منه يوجب إثماً . . وهذا الإثم يظهر عقيب السنة الأولى من الاستطاعة على الرأى الصحيح المروى عن أبى يوسف رحمه الله تعالى وهو المذهب الراجح عند المالكية والحنابلة ونقل عن أبى حنيفة ما يفيد ذلك . . فقد ذكر ابن شجاع عنه : أنه سئل عمن له مال أيحج به أم يتزوج ؟ فقال : بل يحج . . وذلك

دليل على أن الوجوب عنده على الفورية ووجه دلالته : أن التزوج تحصين للنفس عن الحرام الذى قد يتعرض له غير المتزوج أحياناً ، فإذا اشتغل بالحج عن الزواج فقد فوّت هذا التحصين الواجب ، ولا يفوت الواجب إلا بواجب أقوى منه فلو لم يكن الحج فورياً لما أمر به مع إمكان أدائه فى وقت آخر لأن المال غاد ورائح ، فإطلاق الجواب عن أبى حنيفة بتقديم الحج على الزواج الذى قد يجب فى بعض الأحيان دليل على أن الحج لا يجوز تأخيره عند اكتمال شروطه . . ويزيد صاحب التجنيس الأمر وضوحاً فيقول : (إذ كان له مال يكفى للحج وأراد صرفه فى شراء ما يحتاج إليه من مسكن أو خادم أو خاف العزوبة فأراد أن يتزوج به . . إن كان قبل خروج أهل بلده إلى الحج يجوز لأنه لم يجب الأداء بعد ، وإن كان وقت الخروج فليس له ذلك لأنه قد وجب عليه) .

ويرى الشافعى ومحمد من الحنفية : أن الحج فرض على التراخى وأن من حق كل مكلف به أن يؤجله إلى أىّ سنة شاء بحيث لا يخلو منه العمر فى النهاية ، وليس فى التأخير إثم والشافعى يشترط لجواز التأجيل للحج شرطين :

١ ــ ألا تخاف فوت الحج لكبر السن .

٢ ــ ألا يخاف فوته لضياع المال ، أما محمد فيرى أن له أن يؤخره إلى ما قبل موته فإن أدركه الموت قبل الحج ظهر أنه كان آثماً منذ تأخيره عن السنة الأولى من الاستطاعة ــ على الرأى الراجح .

ويحتج أبو يوسف ومن ذهب مذهبه على فورية الحج ووجوب التعجيل به ووقوع الإثم بالتأخير . . فإن حج بعد ذلك ارتفع الإثم السابق بما يلى :

١ ــ بحديث رواه الخمسة وحسنه الترمذى : عن عكرمة عن الحجاج ابن عمرو الأنصارى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كُسِر أو عرج فقد حلّ وعليه الحج من قابل ، قال عكرمة فسألت ابن عباس وأبا هريرة رضى الله عنهما عن ذلك فقالا : صدق) والمتعارف أن لفظ قابل يفيد السنة التالية وهو يدل على فوريّة الأداء .

٢ ــ وجوب الاحتيــاط فى أداء التكاليف الشرعية على وجه لا يفوت معه أداؤها ما دام عرضة للفوت .

ويحتج الشافعى ومن لف لفّه : بأن العمر كله وقت لأداء الحج فلا يختص بسنة دون أخرى ، وأن مثل الحج فى

وقته كمثل الصلاة فى وقتها . . فكما أن للمصلى إيقاع صلاته فى أول الوقت وفى آخره بدون إثم يلحقه فى التأخير . . فكذلك الحج .

وبعد ، فقد ظهر من العرض السابق أن الحج فريضة بلا خلاف ، وأن الخلاف وقع فى فورية الحج ، وأن أبا يوسف وراجح المذهب عند المالكية والحنابلة وما أفاده قول أبى حنيفة يجنحون إلى وجوب أداء الحج فوراً ، وأن التراخى فى أدائه يوجب إثماً يرتفع إذا أداه فيما بعد ، وأن أبا يوسف يجعل هذا الإثم موجباً للفسق ولرد الشهادة . . حتى يحج ، وأنه لو مات بدون حج كان آثماً ، وأن إثمه يبدأ بعد أول سنة أمكنه فيها الحج ولجأ فيها إلى التسويف ، وأن الشافعى ومحمداً يريان أن الحج واجب على التراخى ، وإن كان التعجيل أفضل .

وإذا أنعمنا النظر فى أدلة الطرفين وجدنا أن رأى أبى يوسف ومن معه أرجح دليلا ، وأكثر احتياطاً ، وأقرب إلى الفقه . . فالحج ركن أساسى فى الإسلام ، وله وقته المحدد فيجب الاحتياط فى أدائه فى أول فرصة تسنح للمكلف لأن التأجيل غير مأمون العواقب ، والسنة طويلة المدى ، بعيدة الأطراف وليست كوقت الصلاة القصير الذى لا ينتابه الموت إلا نادراً . . أما السنة المتعددة الفصول ، المتناقضة الأحوال . . فهى أكثر تعرضاً لمصيبة الموت من وقت الصلاة فقياس أحدهما على لآخر قياس مع الفارق ، والقرآن الكريم يحذرنا من عاقبة التسويف فى أعمال الطاعة ولا سيما المفروضة منها فى آيات كثيرة (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) ومنها (سـابقوا إلى مغفرة من ربكم) (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت) ومنها (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون) .

والشاعر الحكيم يقول :

كل امرئ مصبح فى أهله
والموت أدنى من شراك نعله

ويقول آخر :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فلو فاجأ الموت المسوفين فى الحج فما عذرهم عند ربهم ؟ وهل تنفعهم

النية على الحج بدون عمله ؟ أم هل تنفعهم الوصية بالحج عنهم حين موتهم ؟ مع أن الحج عن الغير مشروط بالعجز الدائم أو المرض المزمن أو الشيخوخة الفانية التى لا تمكن صاحبها من الحج فى وقت الحج . . والحج هنا يخالف كلا من الزكاة وقضاء الصوم الواجب حيث يجوز التعجيل بهما كما يجوز التراخى فيهما لأن كلا منهما غير مؤقت بميقات زمنى ثابت فالعمر كله وقت لأدائهما وإن كان الأفضل الإسراع بهما خوف الفوت . . أما الحج فله وقت معين لا يجوز أداؤه قبله ولا بعده فى غير أشهره . . فكيف يأمن من يؤخره الفوات، أو يُمنّى النفس بالعيش دون ممات .

إحرامه وفلسفته :

يعتبر الإحرام فاتحة أعمال كل من الحج أو العمرة .. أو هما معًا .. بحيث لا يصح شرعًا الشروع فى النسك المذكور إلا بعد أن يحرم المحرم . . فهو بالنسبة للنسك كتكبيرة الإحرام مع النية للصلاة . . فكما أن الصلاة لايصح انعقادها شرعًا إلا بمجموع النية القلبية ، والتحريمة الظاهرية . . فكذلك الإحرام فى الحج والعمرة لا يتم فيه العمل . . ولا ينعقد به النسك إلا بمجموع أمرين : النية بالقلب . . والتلبية باللسان التى تقوم مقام التحريمة فى الصلاة . . وقد يقوم مقام التلبية أى ذكر آخر للتعظيم عند الحنفية وإن كانت التلبية أفضل (ولفظها الأصح : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) . . ولا مانع من الزيادة عليها ببعض المأثورات خلافًا للشافعى فى رواية الربيع عنه حيث اعتبره شبيهًا بالأذان والتشهد . . إلا أنه ثبتت الزيادة على هذه الصيغة . . فابن مسعود رضى الله عنه زاد : لبيك عدد التراب لبيك ، وزاد أبو هريرة وغيره فى رواية النسائى عنه : لبيك إلاه الخلق لبيك ، والرغباء إليك لبيك ، لبيك من عبد آبق لبيك ، وفى رواية أثبتت زيادة : لبيك حقًا حقاً تعبداً ورقًا : إلا أن الصيغة الأولى أولى لأنها محل إجماع الرواة ولذا لاينبغى النقصان منها وزاد ابن عمر : لبيك وسعديك والخير بيديك . . وذكر التلبية إجابة لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقد روى أنه لما فرغ من بناء البيت أمر بأن يدعو الناس إلى الحج فصعد أبا قبيس وقال : ألا إن الله تعالى قد أمر ببناء بيت له

وقد بنى . . ألا فحجوه . . فبلّغ الله صوته الناس فى أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم فنهم من أجاب مرة ومرتين وأكثر من ذلك على حسب جوابهم يحجون . . ويؤيد هذا قوله تعالى : وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا . . وقد يقوم مقام الذكر ما يفيد حصول المقصود ، وهو إظهار الإجابة للدعوة وذلك مثل تقليد الهدى ، وكان الشافعى فى رأيه الأول يرى أن النية وحدها كافية فى انعقاد الاحرام قياساً على الصوم ، لأن كلا منهما يقصد به الكف عن ارتكاب المحظورات ، وقد ردّ عليه بأن إحرام الحج والعمرة يخالف الصوم . . فالصوم ركنه الأساسى الكف عن المباحات الخاصة ، فكان الكف فيه ركناً أساسيًا مقصوداً بالذات . . أما فى الحج والعمرة فالإحرام التزام بأعمال معينة كالطواف والسعى والوقوف والرمى وفى ضمنها الكف عن ارتكاب المحظورات فلم يكن الكف مطلبًا أساسيًا مقصوداً . . وفى رأى الشافعى الأخير أنه لابد مع النية من حصول التلبية ولا يجزىء عنها أى ذكر آخر لقول عائشة رضى الله عنها : (لا إحرام إلا لمن أهل ولبّى) — والحنفية يرون أن كل ثناء وتسبيح يقوم مقام التلبية فى ظاهر المذهب وإن كان يحسن التلبية ولو بغير العربية لحصول المقصود وهو إجابة الدعوة ، وباب الحج أوسع من باب الصلاة حتى قام غير الذكر فى الحج مقام الذكر كتقليد الهدى . . فكذا يقوم غير التلبية مقامها ، ويقوم غير العربية مقامها ، وحديث عائشة موقوف عليها .

مفهوم الإحرام :

هو الدخول فى شىء محرم بعد الإحرام كان حلالا قبله ، وهذا الشىء المحرم على من شرع فى أداء أحد النسكين أو كليهما محصور فيما يأتى :

١ — الجماع ودواعيه للرجال والنساء .

٢ — إزالة الشعر بأى صورة كانت وفى أى موضع كان للرجال والنساء .

٣ — لبس المخيط على وجه لبسه المعتاد ويشمل الخفين ومثله العمامة والعصابة للرجال فقط أما النساء فيجوز لهن لبس ذلك من سائر الثياب التى لا تنفض طيباً ولا عطراً .

ولا بد فى الخفين بالنسبة للرجال أن يستّرا ما دون الكعب ، والكعب هنا هو المفصل الذى فى ظاهر أعلى القدم ويسمى بالشراك . . وهو غير الكعب

فى باب الوضوء لأنه العظم الناتئ على جانب القدم ويعفى عن أحزمة حفظ النقود وما لا بد من حفظه كما يجوز التمنطق بالسيف ونحوه ويكره شد الإزار والرداء بحبل ونحوه .

٤ — التطيب للرجال والنساء .

٥ — تقليم الأظفار للرجال والنساء .

٦ — الاصطياد فى البر لما يؤكل لحمه وما لا يؤكل للرجال والنساء وكذا الإشارة إلى الصيد أو الدلالة عليه .

٧ — الادهان للرجال والنساء .

٨ — المرأة لا تضع ساتراً على وجهها والرجل لا يضع ساتراً على رأسه ولا وجهه وفى الوجه خلاف الشافعى لما روى عن ابن عمر موقوفاً — كما عند البيهقى والدارقطنى — : (إحرام الرجل فى رأسه وإحرام المرأة فى وجهها) وقول الصحابى حجة فيما لم يخالف فيه وخصوصاً فيما لم يدرك بالرأى ، وللمرأة أن تلبس حليها وسائر أنواع الملابس والخفاف وألوانها .. وهناك مطلب عام : وهو التقوى ومجانبة الرفث والفسوق والجدال فى الحج .

والعبادات منها ما له تحليل وتحريم كالصلاة والحج ، وما ليس كذلك كالزكاة والصوم ، فتحريم الصلاة بالنية مع التكبيرة وتحليلها بالسلام ، وتحريم الحج والعمرة بالنية مع التلبية أو ما يقوم مقامها ، وتحليلهما بواحد من ثلاث :

١ — الفراغ من أعمال النسك الذى أحرم به .

٢ — أعمال العمرة لمن فاته الحج بعد الإحرام به .

٣ — ذبح الهدى فى حال الإحصار .. وفى الأحوال الثلاث لا بد من القضاء .

وظاهر كلام جمهور الفقهاء أنه يشترط التلفظ بنية النسك ، وإن كان لم يسمع ولم يرو أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر بلسانه حجاً أو عمرة حين أهلّ .. مما دعا صاحب المحيط من الحنفية إلى القول بأن التلفظ باللسان حين الإحرام بالحج أو العمرة مستحب ، ونص محمد على أنه شرط وهو الراجح بخلاف الصلاة فإن وقتها يحددها فى الإرادة .. أما وقت الحج فهو وعاء له أو للعمرة أو لهما فلا بد من التحديد باللفظ الذى تنعقد به العقود .

من حكمة الإحرام :

قال فى النهاية : (اعلم أن البيت لما كان معظماً جعل له حصن هو مكة ، وجعل للحصن حمى هو الحرم ،

وجعل للحرم حرماً هى المواقيت . . حتى لا يجوز لمن دونه أن يتجاوزه إلا بالإحرام تعظيماً للبيت الحرام) . . وفى فتح القدير جـ ٢ : ١٣١ : (وذلك كما تراه فى المشاهد من ترجل الراكب القاصد إلى عظيم من الخلق ، إذا قرب من ساحته خضوعاً له . . فكذا لزم القاصد إلى بيت الله تعالى أن يحرم قبل الحلول بحضرته إجلالا ، فإن فى الإحرام تشبهاً بالأموات ، وفى ضمن جعل نفسه كالميت سلب اختياره ، وإلقاء قياده متخلياً عن نفسه ، فارغاً عن اعتبارها شيئاً من الأشياء فسبحان العزيز الحكيم) .

فالمقصد الظاهر لنا هو تعظيم تلك البقعة الشريفة ، ومن وراء ذلك حكم وأهداف عليا قد لا تصل إليها مداركنا المحدودة .. ولذا كان من الواجب الحتمى على من دخل مكة حاجاً أو معتمراً أو لغير حج أو عمرة كما يرى الحنفية تعظيم هذه البقعة على التفصيل الآتى :

١ — من جاء من خارج المواقيت المكانية المحددة — وهى لأهل المدينة ومن سلك مسلكهم ذو الحليفة ولأهل الشام الجحفة ، ولأهل نجد قرن المنازل ، ولأهل اليمن يلملم ، ولأهل العراق ذات عرق وكذا لكل من مرَّ بها من سائر الخلق — لا يجوز له مجاوزتها إذا انتهى إليها إلا محرماً ، وله أن يقدم الإحرام عليها من أماكن نائية وفى ذلك زيادة أجر ومثوبة ، فقد ثبت أن ابن عمر رضى الله عنهما أحرم من بيت المقدس ، وعمران بن حصين رضى الله عنه أهلَّ من البصرة ، وابن عباس من الشام ، وابن مسعود من القادسية . . وكل من تنكب مساراتها فعليه أن يحرم إذا حاذاها أى كان على مستوى خط عرضها . . وهذا يعرف بالاجتهاد ، فإن لم يعرف فعلى مرحلتين من مكة أى حوالى ستين كيلومتراً .

٢ — من سكن هذه المواقيت أو سكن فى الأراضى الواقعة بعدها إلى حدود الحرم يجوز دخولهم مكة بدون إحرام إذا لم يقصدوا نسكاً — لكثرة ترددهم وحاجتهم إلى ذلك ودفعاً للحرج عنهم — أما إذا قصدوا نسكاً فلا بد أن يحرموا به من حيث أقاموا فى دويرة أهلهم .

٣ — من سكن داخل الحرم بما فى ذلك مكة جاز دخولهم مكة بدون إحرام أيضاً إذا لم يقصدوا نسكاً فإن قصدوا الحج أحرموا من دويرة أهلهم أى من مواضع سكنهم ، وإن

قصدوا عمرة خرجوا إلى الحل كالتنعيم مثلا وأحرموا بها منه ، وساكن مكة إذا خرج فى حاجة إلى ميقات من المواقيت ودخله ولم يجاوزه جاز رجوعه إلى مكة بدون إحرام دفعاً للحرج . . فإن جاوز الميقات لم يكن له أن يدخل مكة إلا بإحرام .

ويرى الشافعى أن الإحرام لا يجب إلا على من دخل مكة ماراً بالميقات وهو يقصد نسكاً .. أما إذا قصد قتالا فليس عليه إحرام، وإن قصد عملا آخر فعنه روايتان مستدلا بما رواه مسلم والنسائى (أنه صلى الله عليه وسلم دخل يوم الفتح مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام)، وقد رد عليه بأن هذه خصوصية بدليل ما رواه الشافعى نفسه فى ذلك اليوم من خطبته يوم فتح مكة : (مكة حرام لم تحل لأحد قبلى ولا لأحد بعدى وإنما حلت لى ساعة من نهار ثم عادت حراماً إلى يوم القيامة) .

وإذا وجد ميقات متقدم وآخر متأخر فالعبرة بما قرب من مكة ، ومن ركب الطائرة التى تمر على المواقيت أو بإزائها . . فإن أمكنه خلع ملابسه وإتمام إحرامه قبل مجاوزته آخر الميقات فعل ذلك فى الطائرة ، وإن لم يتسع له الوقت لعامل السرعة أو لأى عامل آخر وجب عليه أن يبدأ الإحرام قبل إقلاع الطائرة أو فيها ما دامت فى أوائل الرحلة . . .

د . محمد محمد الشرقاوى

قال تعالى :

وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير .

صدق الله العظيم

التربية السلوكية
فى المدرسة العسكرية الإسلامية

للواء محمد جمال الدين محفوظ

لكل جيش من جيوش العالم نظمه الخاصة به فى التربية السلوكية لرجاله ، والتى تستهدف تحويل المواطن الذى ينخرط فى سلك القوات المسلحة من شخص «مدنى» إلى شخص «عسكرى» .. فالمجتمع العسكرى له طابعه الخاص ويتميز بتقاليد خاصة يلتزم بها كل أفراده فى سلوكهم سواء داخل ثكناتهم أو خارجها ، وسواء فى السلم أم فى الحرب . وأهم ما تستهدفه التربية السلوكية عند طبع المواطن المدنى بالطابع العسكرى هو أن يصبح المواطن منضبطاً فى سلوكه ، منظماً فى عمله ، مطيعاً لأوامر قادته ، نظيفاً وحسن المظهر ، وأخيراً أن يصبح مقاتلا شجاعاً ذا إرادة قتالية صلبة .

والجيوش عندما تضع نظمها ودساتيرها فى التربية السلوكية لرجالها نراها تعتمد إما على دوافع سياسية أو أيديولوجية أو مادية أو على قوة القانون .

لكن أغلب هذه النظم التى صب فيها الخبراء والمربون والقادة كل علمهم وخبراتهم ما زالت قاصرة عن تحقيق أهدافها على الوجه الأكمل ، فما زالت الدول تواجه كثيراً من مشكلة الجندية مثل التهرب من الجندية لأداء الواجب الوطنى ، ومشكلات الغياب عن الثكنات بغير إذن ، والتمارض بعد التهرب من التدريب أو أداء الواجبات ، والهرب من الجيش أثناء الحرب إلى غير ذلك من المشكلات .

ونسمع كثيراً عن لجان عليا من أكبر الخبراء فى العلوم السلوكية والقيادة العسكرية تشكل لبحث هذه المشكلات ومحاولة علاجها والقضاء عليها ، لكن ، مهما أجهد الخبراء والعلماء أنفسهم

وفكرهم فى وضع نظم التربية السلوكية أصلا أو فى البحث عن حلول لمشكلات الجندية . فإن الطريق الذى يؤخذ من توجيهات الإسلام هو أمثل الطرق ، وأضمنها وأحكمها على الإطلاق .

والسر فى تفوق المنهج الإسلامى للتربية السلوكية العسكرية هو أنه لا يعتمد على دوافع سياسة أو مذهبية أو مادية أو على قوة القانون كما هو الحال فى المناهج الأخرى ، بل يعتمد على دوافع أكثر عمقاً وأقوى أثراً من تلك الدوافع ، لأن جذورها تنبت فى التكوين النفسى والاجتماعى للمسلم ، وترسخ فى وجدانه عن اقتناع وإيمان لأنها وسيلة إلى مرضاة الله .

فهناك — على سبيل المثال — كثير من الدول تعتمد فى دعوة أبنائها إلى الانخراط فى سلك الجندية على « الدافع الوطنى » ونراها تعمل بكل اهتمام على تنمية حب الوطن وغرس الروح الوطنية فى نفوس أبنائها منذ نعومة أظفارهم .

لكن : ما « الوطنية » وما « الدافع الوطنى » إلى جانب « إعلاء كلمة الله » أو « الجهاد فى سبيل الله » وهو الدافع الإسلامى؟؟

لا شك فى أن « الدافع الإسلامى » أكثر عمقاً وأقوى أثراً . . لأنه إذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوة بمقدار ما فى الوطن كله من قوة ، فما أكثر ما يزيدها الإيمان بالوجود كله ، وبخالق الوجود كله من قوة .

ولعل أكبر دليل على قوة الدافع الإسلامى وتميزه وتفوقه ، شدة إقبال المسلمين الأوائل على الانخراط فى الجندية ملبين لداعى الجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فكانوا فى المعركة مقاتلين لا يقهرون ، ولا يهابون الموت ، بل لقد كانت الشهادة عندهم أملا يسعون إلى الظفر به ، وشرفاً يتوقون إلى نيله .

أخرج ابن سعد عن سعد رضى الله عنه قال : رأيت أخى عمير بن أبى وقاص رضى الله عنه قبل أن يعرضنا (يستعرضنا) رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، يتوارى ، فقلت ما لك يا أخى ؟ قال : إنى أخاف أن يرانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستصغرنى فيردنى (أى يعيدنى إلى المدينة) وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقنى الشهادة ، قال : فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرده ، فبكى ، فأجازه . . فكان سعد رضى الله عنه يقول : فكنت أعقد حمائل سيفه من

صغره (أى أعقد حمالات سيفه ، لتقصيرها حتّى تناسب سنه الصغير) . فقتل وهو ابن ست عشرة سنة ؟؟

وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : عرضت على رسول الله يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة فردنى ، ثم عرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى !

ورد الرسول يوم أحد ، زيد بن ثابت والبراء بن عازب وعمرو بن حزم وأسيد بن ظهير ، ثم أجازهم يوم الخندق وهم فى الخامسة عشرة . . !

ومنع الرسول صلى الله عليه وسلم شابين وهما ابنا خمسة عشر عاماً من الخروج للقتال وهما سمرة بن جندب الفزارى ، ورافع بن خديج أخا بنى حارثه ، فقيل للرسول إن رافعاً رام (أى يجيد الرمى) فسمح له[1] ، ثم قيل له إن سمرة يصرع رافعاً فسمح له كذلك .

فماذا دعا أولئك الشبان وهم فى تلك السن (الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة) إلى الانخراط فى سلك الجندية والقوات المحاربة إلا حبهم للجندية ، وفهم أهدافها النبيلة ؟

ويقول عبد الرحمن بن عوف : « إنى لنى الصف يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، إذ قال له أحدهما سراً عن صاحبه : ياعم ، أرنى أبا جهل . فقلت : يا ابن أخى ، ما تصنع به ؟ فقال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه . . . . . وقال لى الآخر سراً من صاحبه مثله ، فأشرت لهما إليه ، فشدا عليه مثل الصقرين ، فضرباه حتّى قتلاه » . . وقد استشهد هذان البطلان فى بدر وهما عوف ومعوذ ابنا الحارث الخزرجى الأنصارى .

وهذا هو حنظلة بن أبى عامر ، الذى زفت إليه عروسه ، ثم سمع المنادى يقول : يا خيل الله اركبى (يعنى يأيها المجاهدون اركبوا خيولكم للخروج للقتال) فانتزع نفسه من الفراش وقام معجلا ليأخذ مكانه فى صفوف المجاهدين ، وقضى الله أن يستشهد، فلما انتهت المعركة ، طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه وقال لها :

(١) وقد ورد أن رافعاً أخذ يتطاول على أطراف أصابع قدميه ليوهم الرسول أنه بلغ مبلغ الرجال فيسمح له بالقتال بعد أن قيل له إنه رام .

حدثيني عن آخر عهدك بحنظلة ، فأجابت المرأة : كان بيني وبين حنظلة ما يكون بين الرجل وزوجه ، ولكنه سمع الهيعة (أي النداء للحرب) فنهض مسرعاً قبل أن يغتسل . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيت الملائكة تغسله بالأمس في صحاف من فضة بماء المزن بين السماء والأرض » .

هكذا تكون التضحية والإرادة القتالية ، وهكذا تكون التربية التي تصنع الشباب المؤمن القوي القادر على مواجهة التحديات الجسام ، فلا غرابة في أن نرى الصبيان يسارعون في الجهاد حماية للدين وحمية للوطن وافتداء بآبائهم وذويهم .

والتاريخ الإسلامي يشهد بأن جيش الإسلام لم يصادف ما صادفته جيوش العالم قديماً وحديثاً من مشكلات تتعلق بالجندية كالتهرب منها أو التمارض أو الفرار من المعركة ، ولم يرد في تاريخ هذا الجيش العظيم أن جندياً من جنوده قد أفشى سراً حربياً أو لجأ إلى العدو أو والاه سراً أو جهراً .

كل ذلك يشهد على أن منهج الإسلام في التربية السلوكية لرجال الجيش لا يتسامى إليه أي منهج موضوع مما أنتجته وتنتجه عقول الخبراء والعلماء ، ولعل أهم ما يميز منهج الإسلام الخصائص التالية :

١ — ارتباطه بالدين وبمبادئه وذلك يوفر للمنهج ثباتاً واستقراراً لأن الدين دائماً أثبت وأدوم من السياسة أو المذهب.

٢ — النبـــل والشرف والعدل في الغايات والوسائل لأن المنهج الذي يرتبط بغير الدين معرض دائماً للخضوع للمصالح والأهواء والأطماع .

٣ — احترام حرية الفرد وكرامته ، فهو منهج يقوم على الإقناع والاقتناع ولا يقوم على القهر والإرغام ، وذلك لأنه مستمد من مبادئ الدين نفسه (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)[1] — (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)[2] — (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)[3].

وإن من أهم المعايير التي يقاس بها

---

(١) البقرة ٢٥٦ .
(٢) النحل ١٢٥ .
(٣) الأسراء ٧٠ .

مدى نجاح الأنظمة والدساتير ، نظرة كل منها إلى « الحرية » باعتبارها من أهم القضايا التى تمس الفرد والمجتمع إن لم تكن أهمها على الإطلاق . . إن الذين يساقون لا يمكنهم يوماً من الأيام أن يكونوا قادة فكر ، ولا أبطال جهاد ، كيف لفاقد الشيء أن يعطيه؟

لقد كتب الجنرال چان بيريه[1] يقول : « إن العنصر الأول للتربية العسكرية هو تطبيق انضباط حازم وعادل ودائم ، إذ يتطور هذا التطبيق بعد مدة ليصبح فى أول الأمر عادة ، ثم يتحول إلى تذوق . . ولكن هذا الانضباط يفقد قيمته ويغدو معيقاً مثلا إذا كانت نتيجته تحطيم إرادة المرءوسين وإذابة شخصيتهم ، لأننا لا نحارب مع نفوس ضعيفة ، أو مع عبيد أو آلات ، ولكننا نقاتل مع رجال بكل فى هذه الكلمة من معان نبيلة ، وكلما صعدنا على سلم التسلسل تزايد ضرر وخطر الانضباط الذى يؤدى إلى قتل كل فكرة مستقلة ، ودفن كل مبادأة » .

٤ — ومما يتميز به أيضاً منهج الإسلام فى التربية السلوكية تنزيه المسلم عن دوافع المفاخرة أو حسب الظهور أو الرغبة فى الثناء ، فهو لا يستحق الجنة ولا يجد ريحها إلا إذا كان جهاده خالصاً من أجل إعلاء كلمة الله . فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل يقاتل للشجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ ، فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

٥ — وكذلك يتميز المنهج الإسلامى بأنه ينمى فى الفرد ضميره الدينى ، فيولد لديه بذلك « الدوافع الذاتية » للطاعة والسلوك السليم ولأداء الواجب على أكمل وجه دون انتظار لرقيب يراقب عمله ويدفعه إليه لأن الله هو الرقيب المطلع ، ونراه لا يبتغى غير مرضاة الله .

٦ — واخيراً وليست آخراً فإن منهج الإسلام فى التربية السلوكية لا ينحصر فى الإطار العسكرى فحسب ، بل يمتد ليشمل الأمة بأسرها ، وذلك بمقتضى عقيدة «الجهاد » التى هى تكليف للامة بأسرها .

لواء . محمد جمال الدين محفوظ

(١) فى كتابه بعنوان « الذكاء والقيم المعنوية فى الحرب » .

من المثل التي درست ..

الفتوة الصوفية

الأستاذ / عبد الحفيظ فرغلي القرني

حين تصطرع المطامع تصطبغ الحياة بلون أرجواني قاتم ، وتسود الأنانية فى الناس فتملى عليهم إرادتها ؛ فلا يتحدثون إلا بلغة « الأنا » ولا ينظرون إلا بمنظار النفعية ، ولا يتصرفون إلا بمنطق الانتهازية والوصولية . عند ذلك نترحّم على أيامنا الخوالى حيث كانت المثل العليا طبيعة النفوس وغاية الحياة ومسلك الغالبية العظمى من الناس ، كانت الأخلاق الإسلامية التى اعتنى بها الصوفية هى القاعدة والتخلى عنها هو الاستثناء .

الفتوة الصوفية :

ولقد ضرب الصوفية المثل الأعلى فى التفانى والإخلاص ونكران الذات حتى تفردوا بخلق من أخلاق الأنبياء : هو الفتوة .

والفتوة : لفظ يهدى إلى معناه ، فهو يعنى القوة الحقيقية التى تضمحل أمامها أهواء النفس ونزعات الشيطان وصغائر الأمور ، وتمكن الإنسان من أن يقف مع الحق مهما تكبد فى سبيل ذلك من مشاق أو صادف من عقبات ، ولذلك وصف الله بها سيدنا إبراهيم — عليه السلام — حين كسر الأصنام فى قوله تعالى : « قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له : إبراهيم » فقد تحدى جموع الكفر ولم يثنه عن عزمه ضلالهم وبهتانهم . وقد فهم الصوفية من ذلك إشارة لطيفة فقالوا — كما ورد فى الرسالة القشيرية —: الفتى من كسر الصنم ، وصنم كل إنسان نفسه اقتداء بسيدنا إبراهيم الذى جعل الأصنام جذاذاً ، فمن خالف هواه فهو فتى حقيقة .

ووصف الله « أهل الكهف » بهذه الصفة : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » لأنهم هجروا الكفر إلى الإيمان ، واختاروا الخمول على السلطان ،

ونأوا بجانبهم عن الدنيا الفانية رغبة فى الأخرى الباقية .

ووصف النبى — صلى الله عليه وسلم — بها أخاه ووصيه الإمام عليا — كرم الله وجهه — فقال: لا فتى إلا علىّ . لأنه افتداه بنفسه ووضع فى سبيل الحق روحه على كفه ، بل لأنه استطاع أن ينتصر على نفسه حين كان يمكنه القضاء على عدوه بأدنى خطة ، ولكنه كان يعذره دائماً ويهيئ له سبل الدفاع عن نفسه حتى لا يغلبه عن عجز ، وكان فى الإمكان أن يعامله بمثل معاملته ، ولكنه أبت نفسه الفتية إلا أن تعلو وترتفع حتى لا يساميها فى ذلك عــدو أو قريب ، ومن أمثلة ذلك ما يقصه العقاد فى عبقرية الإمام: من أن معاوية غلب على الماء فحال بين أصحاب علىّ وبينه. فغالبهم علىّ حتى غلب ، فلم يكن كمعاوية بل كان كأنما هو سفير معاوية وجنده يتشفع لهم ، وصاح بأصحابه : « خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم » فكم من الناس تسنح له فرصة الانتقام من عــدوه ولا يهتبلها ؟ ولكنها الفتوة الحقيقية والفروسية الكاملة التى كانت مفتاح شخصية الإمام رضى الله عنه .

الفتوة صفة جامعة :

والفتوة صفة جامعة لكل فضيلة ، فأساسها معرفة الله — عز وجل — وإيثار رضوانه على كل ما عــداه ، وهى إلى جانب ذلك تعنى العزم والإقدام وإفناء الذات فى سبيل المجموع ، وتتطلب الإيثار والبذل والمحبة والتغاضى عن السيئات والهفوات ورد العدوان والمظالم والتحلى بالكرامة والعزة والبعد عن مواطن الشبهات والرذائل .

ومن أقوالهم الرائدة فى ذلك ما أثر عن الفضيل بن عياض : « لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك بسخاء النفس وسلامة الصدر والنصح للأمة » .

والسرى السقطى رضى الله عنه يقول: « أربع من أخلاق الأبدال : استقصاء الورع وتصحيح الإرادة وسلامة الصدر للخلق والنصيحة لهم » ويقول : « حسن الخلق: كف الأذى عن الناس واحتمال الأذى منهم بلا حقد ولا مكافأة».

والحارث المحاسبى يقول فى المعنى نفسه: « حسن الخلق احتمال الأذى وقلة الغضب وبسط الوجه وطيب الكلام » .

ومن أقوال الكرخى : « السخاء إيثار ما يحتاج إليه عند الإعسار » .

وسئل أبو حفص النيسابورى : هل للفتى علامة ؟ فقال : نعم ، من يرى الفتيان ولا يستحى منهم فى شمائله وأعماله فهو فتى . ومعنى لا يستحى منهم: أى لا يكون فى أخلاقه أو سلوكه ما يوجب الاستحياء ، بل دأبه الكمال وتقصى جميع أسباب الفضائل .

والفتوة كما يقول شاه الكرمانى: هى من طباع الأحرار ، ويقابلها — فى رأيه — اللؤم الذى يعده من شيم الأنذال .

ومن تمام الفتوة : صيانة السر وخاصة مع الله سبحانه وتعالى — سئل البلخى عن الفتوة؟ فقال : حفظ السر مع الله على الموافقة وحفظ الظاهر مع الخلق بحسن العشرة واستعمال الخلُق .

ويقول علىّ بن أبى بكر الأهوازى : إن أصل الفتوة ألاّ ترى لنفسك فضلاً واحداً .

ومما يرويه القشيرى فى رسالته : أن شفيقاً البلخى سأل جعفر بن محمد عن الفتوة فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شفيق : إن أُعطينا شكرنا وإن مُنعنا صبرنا ، فقال جعفر : الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل : فقال شفيق : يا بن بنت رسول الله: ما الفتوة عندكم ؟ فقال جعفر : إن أُعطينا آثرنا وإن منعنا شكرنا .

الفتوة والمروءة :

وتقترن الفتوة بالمروءة ، والمروءة تقضى كما يقول الجنيد :أن لا تُنافر فقيراً ولا تعارض غنياً، بل المروءة شعبة من الفتوة كما يقول النصرأباذى .

ولكن البيرونى يرى : أن الفتوة أعم من المروءة ، فالمروءة تقتصر على الرجل فى نفسه وذويه وماله ، أما الفتوة فأعم من ذلك .

والفتوة تعنى فى نظر سهل بن عبد الله اتباع السنة ، وهى الوفاء والحفاظ ، وهى كما يقول غيره : صفة تأتيها ولا ترى نفسك فيها . وهذا المعنى قمة إنكار الذات .

من أقاصيص الفتوة :

ومن أقاصيص الصوفية التى تضرب المثل الكامل فى الفتوة ما يرويه القشيرى فى رسالته عن الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه . قال : قيل : إن رجلا نام بالمدينة من الحاج فتوهم أن هميانه سُرق ، فخرج فرأى جعفراً الصادق فتعلق به وقال : أخذت هميانى؟ فقال

له جعفر : ماذا كان فيه ؟ فقال : ألف دينار ، فأدخله داره ووزن له ألف دينار ، فخرج الرجل إلى منزله ودخل بيته فرأى هميانه فيه . فعاد إلى جعفر معتذراً ورد الدنانير . فأبى جعفر أن يقبلها وقال له : ليس من الفتوة أن أسترد شيئاً أخرجته من يدى .

ومما يرويه الغزالى فى « إحيائه » أن بعضهم تزوج امرأة ذات جمال ، فلما قرب زفافها أصابها الجدرى ، فاشتد حزن أهلها لذلك خوفاً من أن يستقبحها .

فأراهم الرجل أنه قد أصابه رمد ، ثم أراهم أن بصره قد ذهب ، حتى زفت إليه فزال عنهم الحزن فبقيت عنده عشرين سنة ، ثم توفيت .

وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الطبع فكان يصبر عليها . فقيل له : لم لا تطلقها ؟ فقال : أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها .

فهذه أمثلة نادرة من الفتوة تحكى كيف توصل أصحابها إلى سياسة نفوسهم وحملها على ما تكره فى الدنيا لتصفو لهم آخرتهم من كل كدر .

وليست هذه مغالاة ولكنها عادة تعودوها بالممارسة حتى أصبحت طبيعة وسجية وهم فى ذلك سائرون على قدم النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم .

سبَّ رجل ابن عباس — رضى الله عنهما — فلما فرغ قال : يا عكرمة ، هل للرجل حاجة فنقضيها ؟

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : أشهد أنك من الفاسقين ، فرد عليه بكل هدوء : ليس نقبل شهادتك ، ولو أن شخصاً غير عمر سمع ذلك كيف كان يرد ؟

وسبَّ رجل علىَّ بن الحسين بن علىّ الملقب بزين العابدين ، فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم . فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمودة : الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل مما يبعد عن الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى المدح بعد الذم . اشترى جميع ذلك بشىء يسير .

فانظر كيف فعلت الفتوة بأصحابها ، بل انظر إلى هذه القصة التى رواها صاحب اللمع : مر على بعض المشايخ أيام ولم يأكل شيئاً ، وكان فى بلد غريب

حتى كاد يتلف ولم يسأل ، فقيل له فى ذلك ؟ فقال : منعنى من السؤال قول النبى صلى الله عليه وسلم : لو صدق السائل ما أفلح مَنْ رده ، وكرهت أن يردنى مسلم فلا يفلح لقول النبى صلى الله عليه وسلم !

فقد منعته الفتوة عن معالجة نفسه بطلب لقمة خوفاً من أن يترتب على ذلك بوار مَنْ يرده ، وهذه ملاحظة دقيقة لا يفطن إليها إلا من أدب نفسه بأدب الرسول صلى الله عليه وسلم وأشرب قلبه حب حديثه والتمسك بسنته وإحياء آدابه .

وهذه القصة توضح لنا صفة الفتوة فى حال الفقد ، فكيف يكون حالها فى الوجد ؟ ؟

حكى أبو عبد الله الحصرى رحمه الله تعالى قال : مكث أبو حفص الحداد رحمه الله بالرملة وعليه خرقتان وفى وسطه ألف دينار وهو يمكث اليومين والثلاثة والأربعة ، وأبى أن يأكل منها وهو يواسى الفقراء منها إلى أن فنيت عن آخرها !

وحكى جعفر الخلدى رحمه الله تعالى قال : كان ابن زيرى من أصحاب الجنيد رحمهما الله تعالى ، وكان قد فتح عليه شىء من الدنيا فانقطع من الفقراء ، فاستقبلنا يوماً فى كمه منديل فيه دراهم كثيرة ، فلما رآنا من بعيد قال : يا أصحابنا إذا كنتم أنتم ، متعززين بالفقر ونحن متعززون بالغنى فمتى نلتقى ؟ قال : ثم رمى إلينا بجميع ما كان فى كمه !

وقال الحصرى : خرجت مع الشبلى فى أيام القحط نطلب شيئاً لصبيانه ، فدخل على إنسان فأعطاه دراهم كثيرة ، قال : فخرجنا من عنده وكمى ملأى من الدراهم ، فكلما لقينا إنساناً من الفقراء أعطاه منه ، حتى لم يبق إلا القليل فقلت له : يا سيدى ، الصبيان فى البيت جياع فقال لى : ماذا أصنع ؟ فبعد الجهد اشتريت شيئاً من الخبز والجزر بما بقى من الدراهم وحملته إلى صبيانه .

إن هذا ليذكرنا بأم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها حين حمل إليها مال ، وكانت صائمة فجعلت تتصدق به حتى أفنته ! فقالت لها خادمتها : لم يبق شىء نشترى به ما نفطر عليه ، فقالت السيدة عائشة : لو ذكرتنى لفعلت .

من آداب الفتوة :

ومن تمام الفتوة : مراعاة الصداقة والإخلاص للرفقاء والأصحاب ، حكى

عن الجنيد أنه كان يقول لأصحابه : لو علمت أن صلاة ركعتين أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم .

وإذا كان أحد الصاحبين تاجراً فليس من الفتوة أن يأخذ كسباً لما يشتريه صديقه منه — : ورد فى الرسالة القشيرية : كان فتى يسمى أحمد بن سهل التاجر وقد اشتريت منه خرقة فأخذ رأس المال، فقلت له: ألا تأخذ ربحا ؟ فقال : ليس من الفتوة أن تربح على صديقك .

ومما يقصه ذو النون فى أخلاق المتصوفة : لما حُملت إلى الخليفة فيما نسب إلىّ من الزندقة رأيت سقاء عليه عمامة وهو متّرد بمنديل مصرى وبيده كيزان خزف رقاق ، فقلت : هذا ساقى السلطان ؟ فقالوا: لا ، هذا ساقى العامة ، فأخذت الكوز وشربت ، وقلت لمن معى : أعطه دينارا ؟ فلم يأخذه وقال : أنت أسير ، وليس من الفتوة أن نأخذ منك شيئاً !

ويدور الزمن دورته ، وتبتلى الأمة الإسلامية بمناوئيها : فتجد من أصحاب النجدة والفتوة الصوفية من يلبى نداءها فى محنتها — ومما يرويه صاحب كتاب أعلام التصوف فى ذلك : أن القاضى الفاضل صفى صلاح الدين الأيوبى ومؤرخه يقول : إن صلاح الدين كان إذا مالت به موازين النصر فى ساحات القتال أمر بالأبواق أن تضرب وأمر المنادين أن يصيحوا أهل الفتوة ؟

ويذكر ابن بطوطة فى رحلته بالأناضول: أنه قابل جماعة من أهل الفتوة كانوا يقيمون فيما يشبه التكايا ، وشعارهم الكرم والحدب على الغريب ونصرة الضعيف والأخذ على يد الظالم !

الفتوة واجب دينى :

وتمسك الصوفية بالفتوة تنفيذ عملى لما يمليه عليهم واجبهم الدينى الذى استقوه من صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، فهو إمامهم الذى على نهجه يسيرون وبهديه يقتدون . فمن الإسلام كما يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم « أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك، وأن تفرج ضائقته وأن تواسيه فى شدته وأن تؤثره على نفسك » وقد ضرب بالأنصار المثل الكامل ، فى الإيثار ، وكرّمهم القرآن الكريم بقوله: « يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ٥٩ : ٩ » .

ولأن الفتوة من أخص صفات

الإسلام التى تحلى بها الصوفية لم يستطع أحد من خصومهم أن ينكرها عليهم ، بل امتدحها فيهم دون أن يسميهم ، ومن ذلك قول ابن تيمية فيما ذكره المرحوم طه عبد الباقى سرور فى كتابه أعلام التصوف جا : « صار كثير من الشيوخ يعبرون بلفظ الفتوة عن مكارم الأخلاق كقول بعضهم : الفتوة أن تقرب من يعصيك وتكرم من يؤذيك وتحسن إلى من يسىء إليك سماحة لا كظماً ومودة لا مسايرة ، وقول بعضهم : الفتوة ترك ما تهوى لما تخشى وإظهار النعمة وإسرار المحنة ، وأمثال ذلك، فهذه أمور حسنة مطلوبة سميت فتوة أم لم تسم » .

حاجتنا إلى الفتوة :

لقد استهوت الفتوة الصوفية بمبادئها الكريمة السمحة طوائف مختلفة من الأمة فتجاذبت هذه المبادئ ، ولكنها بكل أسف أصبحت الآن مجرد — شعارات جوفاء لا تطبيقاً عملياً كما كان الصوفية يفعلون ، ويا حبذا لو نفذت هذه المبادئ إلى شغاف القلوب وأصبحت حقيقة واقعة فى حياة الناس بمختلف مهنهم وطوائفهم ومراتبهم ، إذن لتغير وجه الأرض ولأصبح الحال غير الحال .

نحن فى حاجة إلى التاجر الفتى الذى لا يكون الربح من حله وحرامه هو هدفه الأسمى ولا الاستغلال الجشع رائده الأعلى .

ونحن فى حاجة إلى الموظف الفتى الذى لا يحاول المراوغة فى عمله أو التهرب من مسئوليته .

ونحن فى حاجة إلى العالم الفتى الذى تكون الحقيقة الخالصة نصب عينيه ، يطلب العلم لوجه العلم ولا يخشى فى سبيل ذلك عنتاً ولا بطشاً ولا يكون مقصده من ورائه جاهاً أو غنى أو منصباً ورحم الله الجرجانى الذى يقول :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى النفوس لعُظّما
ولكن أذلوه جهاراً وسودوا
محياه بالأطماع حتى تجهما

والحديث عن فتوة الصوفية يطول ، هؤلاء الذين ثبتوا أقدامهم فى طريقها وصححوا قصدهم عليها والتزموا بآدابها فكشفت لهم عن مكنون سرها وأوصلتهم إلى غاية الغايات وهى معرفة الله تعالى . فقد هانت عن طريقها متاعبهم وصغرت فى أعينهم تضحياتهم ، وعظم قدر الناس جميعاً فى أنظارهم لأنهم مظهر قدرة الواحد . فعظموهم إعظاماً لله وخدموهم

إكراماً له واعتدوا هذه الأعمال منة من الله عليهم ، يقول أبو عبد الله محمد ابن أحمد المقرى : الفتوة حسن الخلق مع من تبغضه وبذل المال لمن تكرهه وحسن الصحبة مع من ينفر قلبك منه . وهل هناك أشق من هذا ؟

أما حسن الخلق مع من نحب وبذل المال لمن نصافى وحسن الصحبة مع من نقبل عليه فليس بمستغرب بل هو الحاصل والمفروض ، ولكن الغريب العجيب الذى يحتاج إلى قوة الإرادة وكمال العزيمة فهو الإحسان إلى المسيء وإكرام العدو ومباركة الذى لا تحبه عن سماحة وقدرة ، تلك دعوة نجد صداها فى القرآن الكريم حين يدعونا إلى حسن الخلق « ادفع بالتى هى أحسن السيئة ٢٣ : ٩٦ » .

وهذا من تمام الفتوة ..

وأبو القاسم المقرئ يقول : الفتوة رؤية فضل الناس ونقصانك . وذلك تصور شريف لا يقل روعة عن كلام شقيقه السابق[١] فهو يستل داء الأنانية من النفوس ويقضى على شهوة التسلط والأثرة والرغبة فى الشهرة الزائفة وبعد الصيت الزائل .

أثر الفتوة :

والفتوة لها أثر كبير فى الطريق الصوفى فهى تعمل على إحياء المراقبة وتحرى الصدق ومحاسبة النفس أولا بأول . سئل أبو الحسن البوشنجى عن الفتوة ، فقال : حسن المراعاة ودوام المراقبة وألا ترى من نفسك ظاهراً يخالف باطنك . وهى من أجل ذلك كان لها أثر فى ارتياد المقامات الصوفية والتحقق بها ، فقد ورد عن أبى الحسن النيسابورى : أصل الفتوة خمس خصال : أولها الحفاظ ، الثانى الوفاء ، الثالث الشكر والرابع الصبر ، والخامس الرضا .

* * *

ما أجدر مجتمعنا اليوم بأن يتلفت إلى هذه الفضيلة ليقتبس من نورها عله يجد فى ذلك راحة له من عناء وهداية له من ضلال وسكينة له من اضطراب ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل . . .

عبد الحفيظ فرغلى القرنى

(١) انظر صفحة ١٤٦٦ الماضية .

ابن الحنفية والأحزاب المتصارعة

الأستاذ / السيد حسن قرون

كان يتوضأ حين بلغه مقتل أخيه الحسين بن على رضى الله عنهما ، فبكى بكاء مراً ، فتساقطت دموعه فى الماء حتى كان لها صوت يسمع ، ولم يدر فى خلده أنه من اليوم مسئول عن الشيعة وبنى هاشم معاً . إنه محمد بن على بن أبى طالب المشهور بابن الحنفية . نسبة إلى أمه فهى من بنى حنيفة ، وقد تفتحت عينا محمد منذ عقل على مجد أثيل ، ومحتد أصيل ، وأب له فى الجهاد عن الإسلام بذل كبير ، فشب بين أخويه الحسن والحسين ، ولقى من العناية ما لقيا ، فكان قوى الجسم ذكى الفؤاد أهلا لقيادة الجيوش وتحمل التبعات ، وإنْ فضل أبوه عليه أخويه لأنهما لفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان يأمرهما برعاية حقه ، وعرفان فضله .

شارك محمد أباه فى جميع شئونه وحروبه — وأبوه خليفة المسلمين يومئذ فكان على رايته فى موقعة الجمل ، وكان معه فى صفين ، وكان قريباً منه حين قتل ، واشترك مع الحسن والحسين — وعبد الله بن جعفر فى محاكمة (ابن ملجم) قاتل أبيه ، وها هو ذا يمتحن بزعامة الشيعة ورياسة بنى هاشم ، وكان يود من صميم قلبه لو سبق الحسين ولم يعش بعده ، فلا تزال الأرض فى زلزال عنيف منذ معركة كربلاء : المدينة ثائرة وجيوش يزيد تدمرها ، ومكة غاضبة والجيوش تحاصرها ، والفتنة نار لا يخمد أوارها ، والصيحات فى جميع الأنحاء تصك أذنه وتملأ الجو حوله ، يريدون منه أن يقول كلمته فيها ، فمثله يجب ألاّ تُقضى الأمور دونه ، كأنه غائب وهو حاضر ، ويُسأل : ماذا تكون العواقب ؟ فيقول كلاماً لا يقرّب ولا يبعّد ، ويتكلم عن الخلافة بكلام ينفرد به ، ويختص بكلماته ، يقول للشيعة « زعمت العرب أن لها فضلا على العجم ؟ فقالت العجم : ولم ذاك ؟ قالوا :

كان محمد عربياً ؟ قالوا : صدقتم . قالوا : وزعمت قريش: أن لها فضلا على العرب ؟ فقالت العرب : وبم ذا ؟ قالوا : قد كان محمد قرشياً .. فإن كان القوم قد صدقوا فلنا الفضل على الناس» . ومعنى هذا: أنه يؤمن بأن الخلافة من حق الهاشميين من دون قريش والناس جميعاً وكان هذا يقتضى: أن يعلن الثورة على منافسيهم ، ويقود الشيعة لحرب ضروس، ويستغل مقتل أخيه (الحسين) كما استغل معاوية مقتل عثمان ، ويملأ الدنيا بكاء ونداء .. ويسيل الوادى بجنوده وبنوده ، ولكنه استدعى لدمشق؟ فأجاب ،ورجع منها يذكر يزيد بن معاوية بالعبادة والتقوى ، ويخيل إلىّ أن يزيد أظهر نسكاً ولزوماً للمسجد مدة ضيافته ، وصدّق ابن الحنيفة ما رأى ، فأنكر عليه عبد الله ابن عباس..أن يصف يزيد بما ليس فيه، وبإيمان عميق يتحدث عن الخلافة كثيراً، فتارة يقول لبعض أتباعه : إلزم هذا المكان ، وكن حمامة من حمام الحرم حتى يأتى أمرنا ، فإنّ أمرنا إذا جاء فليس به خفاء ، كما ليس بالشمس إذا طلعت خفاء، وما يدريك إن قال لك الناس: تأتى من المشرق ويأتى بها الله من المغرب؟ وما يدريك إن قال لك الناس: تأتى من المغرب ويأتى الله بها من المشرق ؟ وما يدريك لعلنا سنؤتى بها كما يؤتى بالعروس ؟ من أحبنا نفعه الله وإن كان فى الديلم ! وتارة يقول : رحم الله امرأ أغنى نفسه، وكف يده ، وأمسك لسانه ، وجلس فى بيته : له ما احتسب، وهو مع من أحب ؟ ألا إن أعمال بنى أمية أسرع فيهم من سيوف المسلمين ؟ ألا إن لأهل الحق دولة يأتى بها الله إذا شاء، فمن أدرك ذلك منكم ومنّا كان عندنا فى السنام الأعلى ، ومن يمت فما عند الله خير وأبقى .

ولو كنت ممن يفسرون الإشارات ، ويؤمنون بالمهمات لقلت : إنه يشير إلى المستقبل حيث تقوم شيعة العباسيين من خراسان وتقوض ملك بنى مروان ، وحيث تقوم دولة الأدارسة والفاطميين فى المغرب . أكان ذلك منه ضرباً من الأمانى الحسان ؟ وكيف تأتى ؟ هل سأل هذا السؤال وفكر فى جوابه ؟ لو فكر لعلم أن أخاه الحسين كان على حق فى ثورته وخروجه فلا يمكن أن تجىء إليه الخلافة منقادة بالأحاديث المهومة والأمانى الحالمة !؟

أنسى ما جرى فى سقيفة بنى ساعدة فلو خرج إلى الأنصار: (على) ما جرؤ أحد على تخطيه ! ولكنه لم يخرج ؟ ولو

صنع عبد الله بن الزبير صنيعه لما اهتز الكرسى تحت يزيد ومن بعده مروان وعبد الملك، ولما تعرض للمحن التى تؤرقه وتعذب أصحابه . ويمتحن بعبد الله بن الزبير ، فابن الزبير يريد بيعته ليقوى مركزه على بنى أمية ، ويكثر عدد جنوده بانضمام الشيعة إليه، لكن ابن الحنيفة لا يستجيب ولا يبايع ، ويصر ابن الزبير على مبايعته ويصر هو على الامتناع ، فيقسو ابن الزبير فيتخذ إجراءات مشددة ضده .

وكانت سنة ٦٤ هـ سنة ميمونة على ابن الزبير ، مات يزيد ومات معاوية بن يزيد وأصبحت الدولة الإسلامية فى قبضة يده ما عدا الأردن ففيها بنو أمية وأتباعهم ولو استجاب لقائد جيش الشام فخرج معه إلى دمشق لقضى على بنى أمية واستوى عبد الله بن الزبير على دست الخلافة ، وكان دعاته يعلنون أنه اختيار عثمان رضى الله عنه يوم الدار . والنجاح يجلب الأنصار ، صار ابن الزبير مقصد الناس لماله وجاهه ، وممن جاءه ليكون له عضدا (المختار بن أبى عبيد الثقفى) وكان فتى طموحاً، يختلف إلى ابن الحنفية تارة وإلى ابن الزبير تارة أخرى . أما ابن الحنفية فيراه امرأ سوء ، وأما ابن الزبير فقد عرف فيه جهده معه فى الدفاع عن مكة حين حصارها من جيش الشام – جاء المختار إلى ابن الزبير يستأذنه فى الخروج إلى العراق ، وبيّن له أنه أنفع له هناك ، وأن مكة الآن فى يده وفعل ذلك مع ابن الحنفية فاستأذنه فى الخروج إلى العراق ، وبيّن له أنه أنفع له هناك، وأن مكة الآن فى يده، وفعل ذلك مع ابن الحنفية ، فاستأذنه فى الخروج إلى العراق ؟ ووافقه ابن الحنفية وأرسل معه رجلا من ثقاته هو (عبد الله بن كامل الهمدانى) وأسر إليه أن يتحرز من المختار ، فخرج المختار والهمدانى يؤمان العراق، ولقيهما رجل فى الطريق فقال المختار له : أخبرنا عن الناس. قال الرجل : تركت الناس كالسفينة تجول لا ملاح لها . فقال المختار : فأنا ملاحها الذى يقيمها .

لعب المختار لعبته الناجحة فاحتال على الأمر بشتى الطرق، وباسم محمد بن الحنفية استولى على الكوفة وضم إليه الفارس الذائع الصيت (إبراهيم بن الأشتر) وكان إبراهيم من أكثر الناس حباً لعلى وبنيه ورث الحب عن أبيه وحافظ عليه، من هذه الناحية جاءه المختار ، فأحضر له رسالة قال إنها من عند المهدى، والمهدى لقب ابن الحنفية ، وأتى بشهود شهدوا بذلك كذباً، وصدق إبراهيم .

تم للمختار أمره ، فنشط نشاطاً لا نظير له فى تتبع قتلة الحسين رضى الله

عنه ، وسمى نفسه ومن معه بالتوابين فانطلقت فى أنحاء الكوفة صرخات ضارية « ياثارات الحسين » فسالت الدماء وأزهقت الأرواح وامتلأت الطرقات بجثث القتلى ، ولما علم أن (عبيد الله بن زياد) قادم من الشام واليًا على الكوفة من قبل عبد الملك بن مروان أرسل إليه جيشاً قوامه عشرون ألفاً بقيادة البطل إبراهيم ابن الاشتر فالتقى إبراهيم بعبيد الله ودارت المعركة ودارت الدائرة على ابن زياد فقتله وأرسل برأسه إلى المختار بن أبى عبيد ، فعمد إليه المختار فوضعه فى جونة ، ثم بعث به إلى ابن الحنفية ، فوصل إليه وحوله جلة بنى هاشم ، منهم على بن الحسين وعبد الله بن عباس ، فلما رأى على رأس ابن زياد ترحم على أبيه الحسين ، وقال ، أتى عبيد الله ابن زياد برأس الحسين وهو يتغدى ، وأتينا برأس عبيد الله ونحن نتغدى ! وأثنى بنو هاشم على المختار ثناء طيباً ودعوا له بالتوفيق . وقال ابن عباس : « أصاب بثأرنا وآثرنا ووصلنا » وسكت ابن الحنفية وكان يعتقد فيه أنه يصنع لنفسه ، وقرأ كتاب المختار إليه فإذا فيه : « من المختار ابن عبيد الطالب بثأر آل محمد أما بعد: فإن الله تبارك وتعالى لم ينتقم من قوم حتى يعذر إليهم ، وإن الله قد أهلك الفسقة وأشياع الفسقة ، وقد بقيت بقايا أرجو أن يلحق الله أولهم بآخرهم . وكان تعليق ابن الحنفية على ذلك : « يجلس المختار مع عمر بن سعد ويتحدث عن الفسقة ؟ » [عمر بن سعد بن أبى وقاص كان قائد جيش عبيد الله بن زياد الذى قتل الحسين] فبلغ هذا القول المختار فما كان منه إلا أنه استدعى عمر بن سعد وابنه وقتلهما أخذاً بثأر الحسين . وجاءت الأنباء تترى إلى ابن الزبير تتحدث عن المختار وسوء نيته وأنه يعمل لغيره وخاف الهاشميين على منصبه ولا سيما وعبد الملك بن مروان قام بالأمر فى الشام ودخلت مصر فى ملكه فعمد إلى بنى هاشم يطلب إليهم أن يبايعوه ، فأبى ابن الحنفية وأبوا جميعاً ، إن ابن الزبير فى نظرهم قد خالف ما دعا إليه وهو أن يكون الأمر شورى بين المسلمين فلما مات يزيد وابنه دعا لنفسه وسمى نفسه أمير المؤمنين تماماً كما فعل معاوية مع على دعا إلى تسليم قتلة عثمان وأن يترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين فلما جاء التحكيم فى صالحه بايعه أهل الشام بالخلافة ونظرة ابن الحنفية إلى المختار نظرته إلى ابن الزبير فهو يعرف رأى الرجال وما يتطلعون إليه من تحقيق الآمال فلما اشتد عليه ابن الزبير وأنذره

بإحراقه وإحراق بنى هاشم معه رام الخروج إلى الكوفة حيث شيعته والمختار يتولى أمرها أعلن المختار كلاماً من جنس كلامه الذى تعود أن يخدع به الجماهير، وليحول بين ابن الحنفية والقدوم على الكوفة، فقال: إن فى المهدى علامة يقدم بلدكم هذا، فيضربه رجل فى السوق بالسيف لا تضره ولا تحيك فيه؟ فعدل ابن الحنفية عن الخروج والذهاب إلى الكوفة، وابن الزبير جاد فى تهديده يريد إرغامه على أن يبايعه بالخلافة واستشار ابن عباس؟ فقال له: استمر على رأيك، وأقدم ابن الزبير على ما عزم عليه: جمع بنى هاشم وعددهم خمسة عشر رجلا، ووضعهم فى «سجن عارم» ووضع الحطب حولهم حتى بلغ رءوس الجدران — لو أن ناراً تقع فيه ما رؤى أحد منهم حتى تقوم الساعة — وتسامعت الشيعة بالعراق بما يجرى بنى هاشم على يد عبد الله ابن الزبير فزحف إلى مكة أربعة آلاف جندى على رأسهم (أبو عبد الله الجدلى) وشيعهم المختار بقوله على طريقته فى الكلام: ياشرطة الله، لقد أكرمكم الله بهذا المسير، ولكم بهذا الوجه عشر حج، وعشر عُمر وانطلق القوم حتى أشرفوا على مكة، فجاء المستغيث: أسرعوا، فما أراكم تدركونهم فانتدب القائد ثمانمائة من أهل القوة والنجدة انطلقوا حتى دخلوا مكة، فكبروا تكبيرة سمعها ابن الزبير، فهرب مسرعاً حتى تعلق بأستار الكعبة وقال: أنا عائذ الله؟ فقال كثير عزة:

تخبّر من لاقيت أنك عائذ!
بل العائذ المحبوس فى سجن عارم
وصىّ النبى المصطفى، وابن عمه
وفكّاك أعناق وقاضى مغارم

ووصل الجيش إلى سجن عارم فأزال الحطب، فخرج المسجونون، وعجل على بن عبد الله بن عباس — وهو يومئذ رجل — فأسرع فى الحطب يريد الخروج فأدمى ساقيه، وقدم القائد أبو عبد الله الجدلى فقال لابن الحنفية ولابن عباس: ذرونا نريح الناس من ابن الزبير فقال هذا بلد حرمه الله، ما أحله لأحد إلا للنبى — عليه السلام — ساعة ما أحله لأحد قبله ولا يحله لأحد بعده، فامنعونا، وأجيرونا فتحملوا وإن منادياً لينادى فى الجبل: ما غنمت سرية بعد نبيها ما غنمت هذه السرية: إن السرايا تغنم الذهب والفضة، وإنّ ما غنمتم: دماءنا، وخرجوا إلى منّى فأقاموا بها ثم توجهوا إلى الطائف والجيش معهم يحرسهم وفى الطائف توفى عبد الله بن عباس سنة ٦٨ هـ وصلى عليه محمد بن الحنفية. ثم جاء موسم

الحج، فخرج محمد بن الحنفية وآله وجيشه ووجهتهم بيت الله الحرام، وإذا الحج — فى هذا العام — يختلف عما سبقه اجتمعت الأحزاب كلها من : أربعة ألوية : لواء ابن الحنفية، ولواء ابن الزبير، ولواء بنى أمية، ولواء الخوارج، لقد صار المسلمون أحزاباً وشيعة ما أمرّ هذا على اللسان وما أقسى وقعه على الجنان، لقد خالفوا أمر رسول الله فقد قال فى حجة الوداع : «لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» لكنهم فعلوا ما فعلوا وكثيراً ما قال ابن الحنفية : ما أشهد على أحد بالنجاة، ولا أنه من أهل الجنة : بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا على أبى الذى ولدنى — والناس حوله يقولون : من كان فى الناس مثل علىّ : سبق له كذا — لقد كانت الفرقة تؤرقه وتحمقه وتدفعه إلى مثل هذا الكلام، ونحن اليوم لا نقول قوله، ونقول : إنهم اختلفوا واجتهدوا، والمصيب له أجران، والمخطىء له أجر واحد !؟

كانت الجيوش فى مكة تحدث الاضطراب فى الحجاج، فهم يخافون الاشتباك وانتهاك حرمة مكة وإفساد الحج على الناس، وجاء رجل من بنى نوفل ابن عبد مناف يسعى، وجعل من نفسه حمامة سلام يسعى بين أصحاب هذه الألوية داعياً : إلى السلام، ورعاية مكة وبيت الله الحرام، إنه : محمد بن جبير، بدأ بمحمد بن الحنفية وهو فى سبعة آلاف من جنوده فقال له : يا أبا القاسم اتق الله إننا فى مشعر حرام، وبلد حرام، والناس وفد الله إلى هذا البيت، فلا تفسد عليهم حجهم؟ فقال : ما أريد ذلك، وما أحول بين أحد وبين هذا البيت، ولا يؤتى أحد من قبلى، ولكنى رجل أدفع عن نفسى من ابن الزبير وما يريد منى ما أطلب هذا الأمر إلا أن لا يختلف علىّ فيه اثنان، ولكن ائت ابن الزبير، فكلمه؟ وعليك بنجدة ابن عامر الخارجى فكلمه.

وسعى ابن جبير إلى ابن الزبير فحدثه حديث ابن الحنفية، وطلب إليه : أن يرعى حرمة مكة؟ فقال ابن الزبير : أنا رجل قد اجتمع علىّ وبايعنى الناس وهؤلاء أهل خلاف؟ فقال ابن جبير : إن خيراً لك الكف؟ فقال : أفعل، وجاء نجدة ابن عامر رأس الخوارج فكلمه بما كلم به الرجلين؟ فقال نجدة : أما أن ابتدأ أحداً بقتال فلا؟ ولكن من بدأنا بقتال قاتلناه، ثم جاء شيعة بنى أمية فأفضى إليهم بما جرى بينه وبين أصحاب الألوية، فقالوا : نحن على لوائنا، لا نقاتل أحداً إلا أن يقاتلنا؟ وهكذا نجح ابن جبير فى مسعاه

واندفعت الجيوش والحجاج يؤدون فريضة الله ويلبون معاً ويدعون دعاء واحداً ولو فكروا قليلا لاهتدوا ولما استطاع ملك الروم أن يهدد عبد الملك وينذره بالحرب .

انتهت أعمال الحج بسلام وأراد ابن الحنفية العودة إلى داره بمكة فوقف بين أصحابه وخطب فيهم وأمرهم بالرحيل ونصحهم قائلا : عليكم بخاصة أنفسكم ودَعُوا أمر العامة ، واستقروا عن أمرنا كما استقرت السماء والأرض فإن أمرنا إذا جاء كان كالشمس الضاحية ثم وزع عليهم شيئاً من ماله . سار إلى مكة وسار بعضهم إلى العراق ووافاه عروة بن الزبير ينهى إليه قرار عبد الله أخيه وهو الحرب حتى يبايع له فقال له ابن الحنفية : ما أسرع أخاك إلى قطع الرحم والاستخفاف بالحق ليس عندى خلاف إن أخاك له قرين كلاهما يقاتلان على الدنيا وإنى لأحسب أن جوار عبد الملك خير لى من جوار أخيك . وقد كتب إلى فقال بعض أصحابه والله لو أطعتنا لضربنا عنقه فلم يقبل وسمى هذا غدراً وخلا عروة بأخيه ونصحه بأن يتركه يذهب لعبد الملك وقد يكون حتفه على يديه فتكون قد برئت من دمه فاستراح لذلك عبد الله بن الزبير وجاء كتاب عبد الملك لابن الحنفية وفيه : هذا الشام فانزل منه حيث شئت فنحن مكرموك وواصلوا رحمك وعارفوا حقك فقال ابن الحنفية لأصحابه هذا وجه نخرج إليه فنهض ونهض جنوده معه وكثير عزة ينشده شعراً :

أنت إمام الحــق لسنا نمترى
أنت الذى نرضى به ونرتجى
أنت ابن خير الناس من بعد النبى
يا بن على سر ومن مثل على ؟
حتى تحل أرض كلب وبلى

وساروا حتى نزلوا (أيلة) فلقوا ترحيباً ، وجواراً حسناً وأحبوه حبًّا شديداً وعظموه هو وأصحابه وقام بشعائر الدين ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وبلغ عبد الملك ذلك فشقّ عليه ، وخاف عاقبة أمره ، فاستشار وزيريه : قبيصة ابن ذؤيب ، وروح بن زنباع ، فأشارا عليه قائلين : ما ترى أن تدعه يقيم قريباً منك ، وسيرته سيرته حتى يبايع لك أو تصرفه إلى الحجاز . فكتب إليه عبد الملك : « إنك قدمت بلادى فنزلت فى طرف منها وهذه الحرب بينى بين ابن الزبير كما تعلم ، وأنت لك ذكر ومكان وقد رأيت ألا تقيم فى سلطانى إلا أن

تبايع لى ، فإن بايعتنى فخذ السفن التى قدمت علينا من القلزم (البحر الأحمر) وهى مائة مركب فهى لك وما فيها ، ولك ألفا ألف درهم أعجل لك منها خمسمائة ألف وألف ألف وخمسمائة آتيتك مع ما أردت من فريضة لك ولولدك ولقرابتك ومواليك ومن معك ، فإن أبيت فتحول عن بلدى إلى موضع لا يكون لى فيه سلطان . فكتب إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن على إلى عبد الملك بن مروان سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد : فقد عرفت رأيى فى هذا الأمر قديماً ، وإنى لست أسفهه على أحد والله لو اجتمعت هذه الأمة على إلا أهل الزرقاء ما قاتلتهم أبداً ولا اعتزلتهم حتى يجتمعوا ، نزلت مكة فراراً مما كان بالمدينة (واقعة الحرة) فجاورت ابن الزبير فأساء جوارى وأراد منى أن أبايعه فأبيت ذلك حتى يجتمع الناس عليك أو عليه ، ثم أدخل فيما دخل فيه الناس فأكون كرجل منهم ثم كتبت إلى تدعونى إلى ما قبلك ، فأقبلت سائراً فنزلت فى طرف من أطرافك ، والله ما عندى خلاف ومعى أصحابى ، فقلنا : بلاد رخيصة الأسعار ، وندنو من جوارك ، ونتعرض صلتك ، فكتبت ما كتبت به ونحن منصرفون عنك إن شاء الله . كان ذلك سنة ٦٩ هـ.

وأنت ترى حيرة الرجل بين عبد الملك وابن الزبير ، رجل من قرابة رسول الله، لا يجد له مقاماً آمنا فى أرض الشام وما وراءه لعبد الملك والحجاز والعراق لابن الزبير ، فكيف يعيش هو إذن ؟ إن معه جنوده ، وهم أشداء على القتال صبر عند اللقاء ولكن كره الدماء من يوم صاح المسلمون فى صفين ؛ يا معشر المسلمين : الله الله ، من للنساء والولدان ؟ من للروم؟ ومن للترك؟ من للديلم ؟ الله الله والبقيا . وأبوه على يقول له : يا بنى الزم رايتك فإنى متقدم فى القوم ، ويضرب بسيفه حتى يفرج له ، والقتلى على جانبيه ، والدماء تجرى على أرض المعركة فماذا فعل والموقف عصيب والمأزق رهيب خطب أصحابه ، وبين لهم أننا تعجلنا الأمر ، فمن أحب منكم أن يأتى مأمنه فليفعل ، فبقى معه تسعمائة رجل ، ودخل مكة فتلقاه ابن الزبير يمنعه فجعل وجهه شطر المدينة وقلبه متعلق بمكة وقد تعود أن يحج كل عام ، ستنجلى الغمة ولو بعد حين والله مع الصابرين .

وترجح كفة عبد الملك بسوء تصرف ابن الزبير الذى أساء استقبال وفد العراق

حين قدم عليه فسبّ أهل العراق ومدح أهل الشام: ففسدت القلوب ، وحدث اتصال بين أهل العراق وعبد الملك سرًّا وانتهى الأمر بقتل مصعب بن الزبير بمسكن بأرض العراق !

وحنّ قلبه إلى مكة فأعدّ رواحله واتجه إلى الطائف وما لبث أن تحول إلى مكة، ودخل شعب بنى هاشم سنة اثنين وسبعين من الهجرة والحجاج يحاصر مكة ويضربها بالمنجنيق، وابن الزبير لم يُقتل بعد فأرسل إليه الحجاج: أن يبايع لعبد الملك ؟ فقال ابن الحنفية .. الكلام الذى ردده كثيراً: أنا رجل ليس عندى خلاف لما رأيت الناس اختلوا اعتزلتهم حتى يجتمعوا، فإن يُقتل ابن الزبير ويجتمع الناس على عبد الملك أبايعه فأبى الحجاج أن يوافقه على رأيه وطالت المفاوضات بينهما، فلم يزل محمد يدافع حتى قتل ابن الزبير فلما اجتمع الناس على عبد الملك قال عبدالله ابن عمر بن الخطاب له: ما بقى شىء فبايع ؟

ولم يكن محمد ليبايع لعبد الملك ما لم يأخذ عليه المواثيق، فراسله فى هذا الشأن وحذره من الغدر ! واستشار عبد الملك وزيريه فقالا ما لك عليه سبيل ولو أراد فتقاً لقدر عليه ، لقد سلم وبايع فنرى أن تكتب إليه بالعهد والميثاق بالأمان له والتعهد لأصحابه ففعل وكتب إليه اذهب حيث شئت فلست أدع صلتك وعونك ما حييت كما كتب إلى الحجاج يأمره بحسن جواره وإكرامه فرجع ابن الحنفية إلى المدينة، وهناك بنى داره وصارت الشيعة تختلف إليه فيعطيها علمه وورعه وبشائره بدولة بنى هاشم — وفى سنة ٧٨ﻫ قدم على عبد الملك بدمشق فاستقبل استقبالا رائعًا وأنزله عبد الملك بمنزل قريب منه ، وأجرى عليه من الأموال واللطائف والخدمات ما يكفيه ويكفى من معه . ومضى شهر على ذلك والتقى بعبد الملك فجرى بينهما حديث كان على أثره أن قضى عبد الملك دينه ، وفرض له أموالا طائلة له ولأولاده وخاصته ومواليه فلم يبق له مطلب إلا قضاه واستأذنه فى الانصراف ؟ فأذن له، ثم رحل إلى مدينة الرسول فلما حط رحاله أقبل عليه أصحابه من كل صوب متحلقين حوله يأخذون منه علمه وتجاربه — وفى المحرم سنة ٨١ﻫ — أسلم الروح لبارئها .. وكان مولده فى أوائل عهد عمر بن الخطاب بعد أن أدى واجبه نحو الشيعة وآل البيت ، وصلى عليه والى المدينة: أبان بن عثمان بن عفان ودفن بالبقيع — ومن سيرة محمد بن على يتبين لنا : أنه كان رجلا صالحًا قوى الجسم والعقل يحب وحدة المسلمين

ويبذل فى سبيلها رغباته الشخصية وإن كان يرى أن بنى هاشم هم أصحاب الحق بالخلافة وأن الخلافة لهم وستأتيهم كالشمس الضاحية ومن ذلك كان موقفه مع الشيعة فهو يحوطهم بعنايته ويرعاهم بعطفه وجاهه وماله ويتعرف مواطنهم ويضع أمامهم الخطط التى تنفعهم فى مستقبل أيامهم وكانت عقيدته أن لا تفرقه بين علوى وعباسى وقد حافظ على (على بن عبد الله بن عباس) فكان له والداً بعد فقد والده ونبراساً ينير له سبيل الحياة .

أعجبت الشيعة بمحمد إعجاباً شديداً يخالط الإيمان فى القلوب والدم فى الشرايين وبلغ حبهم له أنهم جعلوه يعيش فى السحاب وأنه ينزل إلى الأرض فيملأها عدلا بعد أن ملئت جوراً فهو المهدى المنتظر عندهم يحمل اسم النبى وكنيته أليس اسمه وكنيته (أبو القاسم محمد بن على المهدى) .

قال شاعر الشيعة كثير عزة :

ألا إن الأئمة من قريش
ولاة العدل أربعة سواء
علىٌّ والثلاثة من بنيه
هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر
وسبط غيّبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى
يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيّب لا يرى عنهم زماناً
برضوى عنده عسل وماء

فالسبط ذو الإيمان والبر الحسن ابن على ، والسبط الذى غيبته كربلاء الشهيد الحسين بن على ، والبيتان الأخيران يتحدثان عن محمد بن الحنفية الذى يعود ويقود الخيل بعد غَيْبَة فيها حياة «عنده عسل وماء» وهو كلام شاعر يؤمن بمبادىء الشيعة التى لا أصل لها عند جمهور المسلمين .

لقد أنجب محمد بن على أبناء أشهرهم أبو هاشم عبد الله والحسن ابن محمد ، وبأبى هاشم رجع الأمر إلى العباسيين حيث تسلموا الشيعة بخراسان ، فكانت لهم الدولة والسلطان .

رحم الله ابن الحنفية وألهمنا الله نهجه ، فكنّا من دعاة الوحدة والتوحيد .

سيد حسن قرون

تدريس الأديان فى الجامعة

بقلم :
دكتور محمد شامة

يدور نقاش حاد فى جامعاتنا الإسلامية حول مادة الأديان ، إذ يرى فريق أن الجامعة بمفهومها الأصطلاحى ، ينبغى أن تهيىء الفرصة لأبناء المجتمع لدراسة جميع فروع المعرفة ، سواء كان أساس هذه المعرفة وحيًّا سماويًّا ، أو من إنتاج العقل البشرى ، ثم تستخلص منها ما يعود على المجتمع بالخير ، داخل إطار العقيدة والتقاليد الدينية ، وتركز عليه لتبنى الفرد الصالح للنهوض بالإمامة ، وإن لم تقم الجامعة بهذا الواجب ، أصبحت اسمًا على غير مسمى ، وصار الادعاء بأنها جامعة ، لا يخرج عن كونه « يافطة » ، لا فائدة منها ، إلا التأثير النفسى على المنتسبين إليها ، إذ يعتقدون أنهم متساوون مع المنتسبين للجامعات الأخرى ، فى المنهج ، وفى أسلوب التفكير الأكاديمى ، وأيضاً فى المعاملات المالية من رواتب ، ومكافآت ، واستحقاقات .

ويرى فريق آخر ، أن الجامعة الإسلامية — على الرغم من أنها تحمل الاسم الحديث — ينبغى أن تعنى بتدريس المواد الدينية فقط ، أو ما يتعلق بها من قريب أو بعيد ، كعلوم التربية والاجتماع ، وما عدا ذلك ، فلا يجوز أن تتضمنه خطة الدراسة ، وخاصة إذا كانت له صلة بعقائد الشعوب الأخرى ، لأن تدريسها خطر على عقيدة الطالب .

فهل يكون تدريس الأديان خطراً يجب اتقاؤه ؟ وما مدى هذه الخطورة ؟ ومن أى نوع هى ؟

لن أجيب على هذه الأسئلة بادئ ذى بدء بالإيجاب أو بالنفى ، وإنما سأعرض على القارئ بعض الجوانب التى ستوحى له بالإجابة .

١ — العقل :

إن قضية العقل هى قضية الإنسان ،

فأينما وجد الإنسان ، وحيثما وجد ، ظهر أثر العقل واضحاً ، ولذا عرّف علماء المنطق الإنسان ، بأنه حيوان ناطق . وليس مرادهم بالناطق ، أنه يصدر أصواتاً خالية من المضمون الفكرى ، الدالة على وجود عقل — أيناً كان درجة تطوره ، وإلا دخل فى الحد حيوانات أخرى ، تصدر أصواتاً ، ذات دلالة حسية مفهومة بين بنى جنسها ، فمقصود علماء المنطق بهذا التعبير ، أن هذا الكائن الحى — وهو الإنسان — تفوق على الكائنات الحية الأخرى ، بعقله الكامل ، الذى مكنه من التلفظ بألفاظ ، ذات دلالة على أنه ذو قوة مفكرة ، أى أن الإنسان : حيوان مفكر ، وما الكلام إلا تعبير عما لديه من أفكار ، كما قال الشاعر :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما
جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالتفكير هو إحدى النواحى ، التى ميزت الإنسان عن الحيوان ، إذ منحه الله له تكريماً وتفضيلا على سائر الكائنات الحية ، ولا يعادله تكريم على الإطلاق ، فليس هناك من الخصائص الإنسانية ، ما يعادل نعمة العقل ، الذى هو أداة التفكير ، فهى مدار التكريم فى قوله تعالى :

(ولقد كرّمنا بنى آدم ... وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) « الإسراء ٧٠ » .

ولذا كانت أول آية نزلت من القرآن الكريم ، موجهة إلى العقل ، تخاطبه ، وتحثه على التفكير فى نفسه ، وفى كيفية خلقه ، وفى وظيفة العقل فى تحصيل المعلومات : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » (العلق ١) .

ولا يمكن أن يدرك ذلك ، إلا كائن حى ، له عقل يفكر به .

« اقرأ وربك الأكرم ، الذى علّم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » (العلق ٣ — ٥) فالعقل الذى لا يستخدم فى التعليم ، وتحصيل المعرفة ، والتفكير فى البحث عما ينفع ، هو أداة معطلة ، مثل الآلة ، التى لا تستعمل فى الأغراض التى صنعت من أجلها ، فالسيارة التى تقف عن السير لا قيمة لها ، فكذلك العقل ، الذى لا يفكر ، ولا يستخدم فى تحصيل المعرفة ، لا وجود له ، وقد حث القرآن الكريم فى كثير من آياته على استخدام العقل ، لأن استخدامه ، يقود صاحبه إلى الهداية ، وإلى معرفة الواحد القهار ، يقول الله تعالى :

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » (البقرة ٢١٩) .

« قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » (الأنعام ٥٠) .

« أو لم يتفكَّروا فى أنفسهم .... » (الروم ٨)

« فاقْصُص القَصَصَ لعلهم يتفكرون » (الأعراف ١٧٦) .

« كذلك نُفَصِّلُ الآيات لقوم يتفكرون .. » (يونس ٢٤) .

وقد تكررت فى القرآن الكريم ، كلمات مرادفة للفكر ، مثل :

يفقهون :

قال تعالى :

« قد فصَّلنا الآيات لقوم يَفقهون » (الأنعام ٩٨) .

بل ذم القرآن من لم يفقه ، وتوعده بسوء المصير ، قال تعالى :

«فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا . . » (النساء ٧٨) .

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها . . أولئك كالأنعام ، بل هم أضل . . » (الأعراف ١٧٦) .

« قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون » (التوبة ٨٧) .

« هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون » . (المنافقون ٧) .

ومثل : يعقلون :

قال تعالى :

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعلقون » (البقرة ٢٤٢) .

« . . . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أفٌ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعلقون » (الأنبياء ٦٦ — ٦٧) .

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » (العنكبوت ٤٣) .

ولو أحصينا الآيات ، التى ورد فيها ذكر الفكر ومرادفاته . لضاقت بها المساحة المخصصة لهذا المقال ، وفى هذا دليل ، على أن الفكر — المتطور — خاصية من خواص الجنس البشرى ، بل هو أهم ما يميزه عن غيره من الكائنات الحية ، فلا يمكن أن يوجد إنسان سوىّ سليم بدون فكر ، فالفكر عصب حياة الإنسان ، وأثره واضح ، فى جميع

مجالات الحياة الإنسانية ، غير أنه يختلف من مجتمع لآخر ، فى المضمون، والقيمة ، وفى قوة التأثير فى حياة الفرد ، وقدرته على التغيير فى النظم الاجتماعية ، فتفكير الإنسان فى المجتمعات البدائية كان بسيطاً ، يكاد ينحصر — علاوة على المعتقدات الدينية — فى الصيد ، أو الرعى أو الزراعة ، لتحصيل ما يقتات به ، وكلما اتسعت دائرة نشاط الفكر ، كلما ازدادت معلومات الإنسان ، فازدادت ثقافته ، التى يستخدمها فى تحسين وسائل الحياة ، فيتقدم المجتمع .

وحرية الفكر شرط أساسى لتقدم المجتمع ، لأنها البوتقة ، التى تنصهر فيها الآراء المختلفة ، فتعزل الأفكار الهزيلة ، والمبادئ الهدامة ، وتخرج الآراء الصحيحة صافية نقية ، تنير الطريق أمام مسيرة التقدم . ولا ينبغى تقييد هذه الحرية ، بحجة المحافظة على وحدة الأمة ، أو الحيلولة دون وقوعها فى حلبة صراع فكرى ، لأن اختلاف الآراء دليل على حيوية المجتمع ، ومقدمة حتمية لتطوره ، إذا أراد كل طرف الوصول إلى الحق ، حيثما كان .

أما التقليد ، وكذلك حمل الناس على أن يعتقدوا بقدسية رأى بشرى عن طريق كبت المعارضة ، تارة بقوة الحديد والنار ، وأخرى بالإرهاب الفكرى ، فهو نذير بانهيار المجتمع ، لأنه يقضى على البراعم الفكرية فيه ، ويوقف قلبه النابض .

وقد ذم الإسلام التقليد ، الذى يصرف الإنسان عن التفكير ، فيما يعرض عليه من أفكار ، قال تعالى :

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل ، التى أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » . (الأنبياء ٥١ — ٥٤) .

« قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل » . (المائدة ٧٧) .

ويحكى القرآن مشهد عتاب بين المقلدين والمقلدين فيقول :

« وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ، ولا بالذى بين يديه ، ولو تَرَى إذِ الظالمون مَوْقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استُضعفوا للذين استكبروا ، لوْلا أنتم

لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا ، للذين استضعفوا ، أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين ». (سبأ ٣١ — ٣٢) .

وإذا كان الإسلام قد ذم التقليد ، فيما يتعلق بالجانب الروحى فى الإنسان ، ومجال التفكير فيه محدود ؛ إذ لا ينبغى أن يخرج عن الإطار ، الذى حددته العقيدة ، فمن الأولى أن يذم التقليد ، أو التحجر على القديم ، فيما يتعلق بشئون الحياة الدنيوية ، السريعة التغير والتطور ، فهو يدفع المسلم دفعًا ، إلى البحث فى الظواهر الكونية المحيطة به ، سعيًا وراء تحسين مستوى الحياة فى المجتمع الإسلامى :

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » (الجمعة ١٠) .

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » . (الملك ١٥) .

« قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض » . (يونس ١٠١) .

ولا يقتصر النظر على التأمل فقط ، بل يشمل البحث أيضاً ، بدليل قوله تعالى :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » (العنكبوت ٢٠) .

ولا يعرف الإنسان كيفية بدء الخلق ، إلا بعد أن يعرف طبيعة المخلوقات ، من أنها لا يمكن أن تكون قد خلقت عن طريق الصدفة ، بل لها خالق عليم حكيم ، ولا يتأتى هذا إلا بعد البحث والتفكير والتجربة .

فهم المسلمون الأوائل هذه الروح الإسلامية ، فقادوا حركة عقلية فى صدر الإسلام ، استهدفت شرح قضايا الإسلام من مصادره الأصلية : القرآن الكريم والسنة الصحيحة وكان استخدامهم للفكر :

— إما تفقهاً واستنباطاً للأحكام الدينية ، التى تنظم سلوك المسلم نحو خالقه فى العبادات ، ونحو أخيه المسلم فى المعاملات ، أو معالجة أحداث جدت فى المجتمع الإسلامى ، وبالتالى لم تعرف أحكامها من قبل .

— وإما توفيقًا بين مبادئ الدين وتعاليمه من جانب ، وفكر أجنبية دخلت الجماعة الإسلامية من جانب آخر .

— أو دفاعا عن العقائد ، التى وردت فيه ، أو رداً لعقائد أخرى مناوئة لها ، حاولت أن تحتل منزلة فى الحياة الإسلامية العامة لسبب أو لآخر .

لم تكن هذه المحاولات موجودة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الوحى لم يكن قد انقطع بعد ، فلا مجال لرأى بشرى ما دام الوحى يجيب على كل سؤال ، ولا فى عهد الخلفاء الراشدين ؛ فقد كان المسلمون مشغولين آنذاك بنشر الدعوة ، وتمكين الجماعة ، والاستقرار ، وإرساء الحياة الإسلامية فيها على مبادئ القرآن والسنة الصحيحة بالتطبيق العلمى لوصايا الإسلام ، وعدم الانفكاك عن الأسلوب ، الذى ألزم به الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه فى تصرفاته. ولكنها — أى هذه المحاولة — وضحت كظاهرة عامة ، يوم أن خف الإيمان . يوم أن دخلت أساليب للحياة ، لم تكن معروفة من قبل فى المجتمع الإسلامى ، إذ عندما اتسعت الفتوحات الإسلامية ، ورفرفت راية الإسلام على مملكتى كسرى وقيصر ، دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، يحملون معهم أفكارهم ، وعقائدهم السابقة ، لأنهم لم يعيشوا قبل الإسلام فى فراغ عقلى ، فقد كان لهم تراث دينى — أيًّا كانت قيمته فى نظر الإسلام — وأفكار فلسفية حول طبيعة الوجود ، لا تتفق مع تعاليم الإسلام .

لم تختف هذه الأفكار الدينية والفلسفية عقب الفتح مباشرة ، ولو حدث لكان ذلك نقضًا لسنة التطور ، والتحول الفكرى فى المجتمعات الإنسانية بل كانت وقوداً للمعارك الفكرية التى اشتعلت فى المجتمع الإسلامى ، وظلت متأججة شرقًا وغرباً عدة قرون ، مما دفع كثيراً من العلماء آنذاك ، إلى دراسة الفكر الأجنبى واستيعابه ، ليكونوا أكثر قدرة على الدفاع عن الإسلام ، ضد الفكر الدخيل . إذ كلما ازدادت معرفة العالم بما عند الخصم من أفكار وحجج وبراهين ، كان دفاعه مقبولا عقليًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا ، فالغزالى — على سبيل المثال — لم يكن ليستطيع أن يكتب تهافت الفلاسفة — وهو كتاب له وزنه فى الأوساط الفكرية — لو لم يدرس الفلسفة دراسة فهم واستيعاب وإحاطة .

فالصراع الفكرى هو إحدى ظواهر المجتمع الإنسانى ، وعامل من عوامل تقدمه ورقيه ، لو اتجه وجهة بناءة ، ولم ينحرف إلى حافة التدمير والتخريب .

ولا يخلو منه مجتمع بشرى ، لأنه عصب وجوده ، والقلب الذى يدفع بلم الحياة فى شرايينه ، ولذا ينبغى ألا يقابل بالاستنكار ، والوعيد بكبته ، والقضاء على من يحمل رايته ، بل بمحاولة فهم

آراء المخالفين ، والرد عليها بهدوء ، وتبصير من خُدع بالشعارات البراقة ، والعبارات الرنانة والأخذ بيدهم إلى الصراط المستقيم .

عندما واجه المسلمون التيارات الفكرية الأجنبية ، (وثَنية ودينية : البوذى والبرهمى والزرادشتى والمانوى والمسيحى واليهودى والفلسفى الإغريقى) ، هبوا للدفاع عن العقيدة ، وعندما جدت فى المجتمع الإسلامى أحداث ، لم تكن فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، اجتهد المسلمون فى البحث عن أحكام لها ، داخل إطار التشريع الإسلامى ، كذلك عندما اختلف المسلمون (خوارج وشيعة ، ومرجئة ، ومعتزلة وصفاتية) ، حاول كل فريق الاستدلال على صحة رأيه من الكتاب والسنة ، وفى كل هذا استخدم العقل ، فأنتج فكراً ، وكان من نتيجة هذا ، ظهور المدارس المختلفة ، فى المجتمع الإسلامى ، فتكونت : المدارس الكلامية ، ومذاهب الفقه ، ومدارس الصوفية ، ومدارس الفلسفة ، ومدارس تفسير القرآن الكريم ، ومدارس الحديث وعلومه . .

حقاً : لقد كانت نهضة علمية ، لم تقتصر على العلوم الإنسانية ، بل تجاوزتها إلى كل المجالات الثقافية ، التى يمكن للعقل أن يدلى بدلوه فيها ، ولو لم يقم علماؤنا — طيب الله ثراهم — بهذا المجهود الضخم ، لكنا اليوم أمة ، لا ماضى لها فى مجال الإبداع البشرى ، ولست مبخساً أحداً حقه ، إذا قلت : إننا لا نملك الحاضر ، بل هو فى يد من أطلق عنان الفكر ، فسيطر على تسيير دفة السياسة الدولية ، وتحكم فى مجالات كثيرة ، فى مصائر الشعوب الإسلامية . . ولن يكون لنا مستقبل ، إلا إذا اقتفينا أثر علمائنا الأمجاد .

٢ — الثقافة :

إن من أكثر الكلمات شيوعاً فى هذا العصر هى :.

ثقافة — حضارة — مدنية

إذ ليس من النادر ، أن تسمع كل يوم فى الأحاديث ، التى تدور بين الناس ، فى المكتب والشارع ، وفى البيت ، هذه الجمل : (هو إنسان مثقف ، يعامل الناس بأسلوب حضارى ، هو على درجة كبيرة من التمدن فى الملبس والمسكن) .

أتدل هذه الكلمات على معنى واحد ، فتكون مترادفة ، أم أن لكل منها معنى

مستقلاً عن الأخرى ، أم أن معانيها متداخلة ؟

تطلق كلمة (الثقافة) ، ويراد بها التراث الحضارى الفكرى فى جميع جوانبه النظرية والعلمية ، الذى أنتجته الأمة ، وتميزت به عن غيرها فهو ينتسب إليها ، وهى تعرف به، وتُقيَّمُ بين الأمم على أساسه ، ولذا ينبغى على أبنائها ، أن يتفهموا هذا التراث ، وأن يبذلوا قصارى جهدهم ، لتنميته كى يصلوا به إلى المستوى الأسمى ، وأن يستمروا فى العطاء للمحافظة على المستوى ، الذى يليق بواقع الأمة بين شعوب العالم فى مجالات التطور الحضارى ، والنمو الفكرى .

غير أن بعض الباحثين ، يطلق كلمة (الثقافة) على الجانب الروحى والمعنوى ، وكلمة الحضارة على الجانب المادى . لكن هذا التفريق فى الاستعمال ، يخالف الواقع الملموس ، لأن الحضارة المادية ، لا تنفصل عن الجانب المعنوى ، الذى يمثل التراث العلمى بقسميه : **النظرى والعلمى** :

وبعضهم يطلق كلمة (المدنية) على الجانب المادى المظهرى ، من حيث أنماط المعيشة ، التى تتصل بحياة المجتمعات ، والثقافة على الجانب المعنوى ، الذى يقابل الجانب المادى ، ويتدرج تحته، كل ما له صلة بالروح، والفكر ، والعقل من حيث أسلوب الجماعة فى حياتها الروحية، والفكرية ، والأدبية ، ويجعلون كلمة (الحضارة)، شاملة لكل من المعنيين :

المادى والمعنوى :

أى شاملة لكل من (المدنية) (والثقافة) .

وبناء على هذا التفسير ، تكون معانى الكلمات الثلاث (الثقافة والحضارة والمدنية) ، متداخلة أو باصطلاح علم المنطق ، بينهما عموم وخصوص وجهى ، تجتمع كلها عند إطلاق كلمة (الحضارة) ، وتنفرد (المدنية) بالجانب المادى المظهرى و (الثقافة) بالجانب المعنوى ، الذى يشمل كل ما له صلة بالروح ، والفكر ، والعقل :

كذلك نلاحظ أن معانيها تكاد تكون واحدة فى لغة التخاطب فى المجتمع ، إذ كثيراً ما يوصف الشخص ، الذى يعتنى بمظهره ، بأنه متمدن ، أو متحضر ، كما أن الرأى السائد أن (المثقف) ، يعتنى بحسن مظهره لأن

كثرة اضطلاعه على ثقافة وعادات الشعوب الأخرى ، يرهف حسه ، ويوقظ فيه غالباً غريزة حب الجمال ، سواء كان سلوكاً أو مظهراً .

فإذا تجاوزنا عن الجانب المظهرى المادى ، وجدنا أن كلمتى (الحضارة والثقافة) تدلان على مجموع ما خلفته الأمة من آثار حضارية ، وفكرية ، وفنية ، وأدبية فى جميع المجالات المادية والمعنوية .

فكيف تستطيع أمة ما أن تكون هذا التراث ؟ وما هى العوامل الأساسية ، التى تتيح لها التفوق على غيرها فى هذا المجال ؟

إن أسباب قيام حضارات الأمم كثيرة ومعقدة ، إذ يؤثر فيها — بجانب عوامل أخرى ، اختلاف الزمان ، وتفاوت المكان ، وخصائص الطقس السائد فى المنطقة ، وطبيعة اتصال الأمة بالحضارات الأخرى ، ونوع علاقتها بمن جاورها من الأمم والشعوب ، ولكن هناك أسساً عامة ، قامت عليها جميع الحضارات الإنسانية ، وسوف تحتاج إليها أية أمة ، تريد أن تبنى حضارة ، ومن أهم هذه الأسس :

(ا) الأخلاق :

ينطوى ميدان الأخلاق على تعقيدات ملحوظة ، فهى لا تقتصر على وجود وجهات نظر متعارضة عديدة ، بل إننا نجد أيضاً فئات كثيرة مختلفة ، وخطوط تقسيم متقاطعة ، ونقاط ارتكاز تبدو منعدمة الصلة بعضها ببعض ، فالمذهبان الرئيسيان فى علم الأخلاق — وهما المذهب الطبيعى والمذهب المثالى مختلفان فى تحديد معنى الخير والشر ، ولا يلتقيان فى تحديد مصدر الإلزام ، ولا فى طبيعته ، وليس بينهما تطابق فى أسلوب تقييم السلوك البشرى . ورغم هذا كله ، فقد استطاعت الشعوب ، حتى قبل أن تظهر المذاهب الأخلاقية فى المجال العلمى — أن تلتزم بمبادئ أخلاقية ، مكنتها بالإضافة إلى الأسس الأخرى من صنع حضارة رفعت مكانتها بين الأمم ، فكثيراً ماحدثنا التاريخ ، أن نظماً أخلاقية متعددة المناحى والاتجاهات ، بعضها مصدره الوحى السماوى وبعضها الآخر تستقى تشريعاتها للفضائل من قوانين العقل ، أو وحى الضمير ، أو سلطان المجتمع ، أو حساب المصالح والمنافع أو غير ذلك — لعبت دوراً كبيراً فى بناء الحضارات ،

غير أن من المسلم به ، أنه كلما كان للمصدر الرئيسى للنزعة الأخلاقية سلطاناً على النفوس ، اكتسبت الفضائل الأخلاقية عمقاً فى ضمير الفرد ، واتسعت رقعتها فى المجتمع ، ورسخت فى النفوس رسوخاً ، لا تهزه أزمات طارئة ، ولا تزعزعه كوارث عارضة ، مهما كان نوعها ومصدرها .

ولو تصفحنا المعايير الأخلاقية ، المطروحة على بساط البحث أمام علماء الأخلاق ، لوجدنا أن أشدها سلطاناً على النفوس ، هى تلك التى تقوم على عقيدة دينية ؛ لأن المؤمن يرى أن التزامه بهذه المبادئ واجب ، لأنها أوامر الله* ، وأداء المرء لواجبه ، يعنى الامتثال للإرادة الإلهية ، ونحن — المؤمنين — ملزمون بأداء الواجب على هذا النحو ، بحكم نفس طبيعة علاقتنا بالله ، إذ أننا مخلوقاته وعبيده ، ومن البدهى أن تطيع المخلوقات خالقها ، وأن يطيع العبد ربه .

وطبقاً لهذا المفهوم ، فقد غير الدين المفهوم الأساسى للأخلاق السائدة فى مجتمعات لا دينية ، ذلك أن الفكرة الأساسية للأخلاق تعتمد فى هذه المجتمعات ، على المذهب القائل ، بأن قوام الحياة الأخلاقية ، هو طاعة القانون . غيَّر الدين هذا المفهوم ، فألبس الأخلاق ثوباً جديداً ، ألا وهو أن القانون الأخلاقى ، ليس قانوناً يكتشفه العقل البشرى ، وإنما هو قانون صادر من الوحى الالهى ، الذى لا يكون أمامنا إلا أن نطيعه ، سواء أكان يبدو لنا — فى الظاهر — معقولاً أم غير معقول ، منطقياً أم تعسفياً ، عادلاً أم ظالماً ، فمن الواجب إطاعته لمجرد كونه ، تعبيراً عن الإرادة الإلهية ، لا لأننا نرى فيه وسيلة لتحقيق سعادتنا البشرية ، وبطبيعة الحال فنحن نفترض ، أنه لما كانت القوة ، التى تسهر على تنفيذ هذا القانون الآلهى ، هى ألوهية خيرة ، فسوف يكون ذلك قانوناً خيراً ، يعبر عن حكمة عليا ، كذلك لما كانت مصلحتنا — فى الدنيا والآخرة — تتوقف مباشرة ، على إطاعتنا لهذا القانون ، فمن الواضح أن المطلوب منا ، هو أداء أية واجبات ، يحددها ، بغض النظر عن رأينا البشرى فى هذه الأوامر .

---

* تنحصر أوامر الله ، الواجب اتباعها دون شرط فى القرآن والسنة ، أما فهم العالم، لهذين المصدرين ، فهو من قبيل الاجتهاد، وهو لا يلزم مجتهداً آخر به ، أما غير المجتهد فهو مخير ، بين آراء العلماء المختلفة ؛ إلا أن من المستحسن أن يلتزم برأى الجمهور .

فالمؤمن — الصادق فى إيمانه — لا يؤدى واجبه الأخلاقى ، سعياً إلى إرضاء المجتمع ، أو ابتغاء الحصول على مركز أدبى ، أو منفعة مالية ، بل ابتغاء وجه الله « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا » (الإنسان ٩) ، فهو يلتزم بالمبادئ الأخلاقية لمجرد كونها متعلقة بالتزام دينى ، بغض النظر عن أية منافع ، أو أضرار شخصية ، قد تنجم عن هذا الالتزام .

سادت المبادئ الأخلاقية الإلهية مجتمعات لم تؤمن بالتوحيد ، وسيطرت على عقول لم تؤمن بوجود الله ، ويرجع ذلك إلى أمرين :

أولهما : أن الله خلق الإنسان ، وأودع فيه حب الخير والفضيلة ، فإذا انحرف — فكرياً أو سلوكياً — فمن الممكن أن يهتدى إلى طريق الخير ، إذا وجد المناخ الذى يوقظ فيه غريزة حب الخير .

ثانيهما : إذا قامت علاقة ما — ثقافية أو اجتماعية — بين المؤمنين وغير المؤمنين ، فستتاح الفرصة لكلا الفريقين ، للعمل على سيادة المبادئ الأخلاقية فى المجتمع ، إذ يتعرف المؤمن على ما لدى الآخر ، فيحاول بالحسنى — امتثالا لقوله تعالى « ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (سورة النحل ١٢٥) — بيان جوانبها السلبية ، فيجد غير المؤمن نفسه مضطراً ، إلى الاضطلاع على ما عند المؤمن ، وقد ينتج من هذا التبادل ، إيقاظ حب الفضيلة فى المجتمع ، وذلك ما تنشده الأديان .

خطت أمم كثيرة خطوات واسعة نحونا ، على الرغم من جمودنا ، وخشونتنا فى مجال الدعوة الإسلامية ، فاقتبسوا كثيراً من مبادئنا ، وألبسوها ثيابهم ، فخرجت إلهية الجوهر ، إنسانية المظهر ، ويكفى للتدليل على هذا ، أن تقرأ معى هذا النص ، الذى كتبه (برتراندرسل) : « الأخلاق كالعلم ، ينبغى أن تكون عامة ومترفعة جهد طاقة الإنسان عن تسلط الأنا والآن . وهناك قاعدة جديدة تصلح محكاً للمبادئ الأخلاقية هى : (يجب ألا يحتوى أى مبدأ على اسم علم ، واسم العلم فيما أعنيه ، هو كل تحديد لشىء جزئى تحديداً زمانياً مكانياً ، فهو يشمل أسماء الأفراد من البشر ، ويشمل أيضاً أسماء الأقاليم ، والبلاد وفترات التاريخ ، وحينما أقول ، إن المبادئ الأخلاقية ، يجب أن تكون على هذه الصفة ، فإنى

أعنى شيئاً ، يزيد على مجرد الموافقة العقلية الباردة ، لأن المبدأ الأخلاقى ، إذا لم يزد عليها فلا أثر له على السلوك إلا قليلا . إنما الذى أعنيه شىء أكثر فاعلية، شىء من طبيعة الرغبة الفعالة ، أو الحافز الفعال ، شىء تضرب جذوره فى الخيال الودود ، فما كان للمجتمع من تقدم ، إلا من مثل هذه المشاعر العامة ، فلو اقتصرت آمالك ورغباتك على نفسك، أو أسرتك، أو أمتك، أو طبقتك أو أبناء ملتك ، فستجد أن كل موادتك ومشاعرك الطيبة ، تقابلها كراهات ، ومشاعر عدائية ، وهذه هى الثنائية فى مشاعر الناس ، التى تتجسم فيها الشرور الكبرى فى حياة البشر ، شرور القسوة والظلم والاضطهاد والحروب ، فإذا كان للعالم أن يسلم من الكوارث ، التى تهدده ، فليتعلم الناس عدم الانحصار فى عواطفهم » .

فهو يدعو إلى عدم الأنانية ، أى إلى حب الغير ، والتمنى للغير ، بمثل ما يتمناه المرء لنفسه ، وهو ما جاء فى الحديث الشريف :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

وتلمح أيضاً دعوته إلى عدم الشعور بالعداء نحو الأجناس الأخرى ، حتى لا تتجسم الشرور لتندلع الحروب ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا أصدق تعبير فى قوله :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (الممتحنة ٨) .

فالمبادئ الأخلاقية ، التى تسود المجتمعات البشرية ، تخضع لآراء واتجاهات شتى ، بعضها يتفق مع ما جاء به الإسلام ، والبعض الآخر يخالفه ، وواجبنا نحن المسلمين دراستها ، حتى نرفض ما نرفض ، ونقبل ما نقبل عن بينة ، لا عن جهل ، وإلا كانت خسارتنا فادحة فى هذا المجال !!!

(ب) العلم :

من القضايا المسلم بها أن الطفل يولد صفحة بيضاء ، لا يملك سوى الغرائز الطبيعية التى تساعده على البقاء ، والتكيف مع الظروف المحيطة به ، ثم يتدرج فى معرفة ما حوله عن طريق التقليد ، والمحاكاة فى محيط الأسرة والمجتمع ، فإذا استوى

على عوده ، تعددت مصادر معرفته ، وتختلف درجة الخضوع لواحد منها ، أو أكثر ، إلى الظروف الاجتماعية التى يعيش فيها الفرد ، وهى كما ذكرها (هنترميد) فى كتابه (الفلسفة أنواعها ومشكلاتها) أربعة :

السلطة :

يذهب بعض العلمــاء إلى أن — المصدر النهائى للمعرفة ، هو سلطة من نوع ما ، كالدولة ، أو التراث أو الخبير ، (هناك سلطة دينية ، لا تخضع للبحث ، لأن الخضوع لنصوص الوحى ، خضوع مطلق ، لا مجال للعقل فيه) ، وذلك لاعتبارات منها القدم ، إذ يقال ، إن أقدم مصادر المعرفة ، هو أكثرها يقيناً ، فإن أقدم نظم الحكم ، وأقدم العادات هى على الأرجح تلك التى تمثل الحقيقة والصواب ، وقد شاع بين الناس أن « أقدم الطرق أفضلها » و « الذى تعرفه خير من الذى لا تعرفه » .

بنى هذا الرأى على مسلمتين ، إحداهما صحيحة ، والأخرى واضحة البطلان ، فالمسلمة المقبولة ، هى أن المذهب أو النظام ، كلما كان أقدم ، كان قد اجتاز اختيار الزمن أكثر من غيره ، وكان عمره ذاته دليلا على أنه قد اجتاز هذا الاختبار بنجاح ، فلما كانت أجيال متعاقبة من الناس ، قد وجدته صحيحاً ، فإن احتمال أن يكون صحيحاً بالفعل ، أقوى من احتمال صحة ما لم يمر إلا بفترة اختبار قصيرة ، ومن الممكن أن تعد هذه القاعدة فرعاً من قاعدة بقاء الأصلح . . . أما المسلمة الأخرى ، التى ترتكز عليها حجة القدم ، فسرعان ما يتضح لنا بطــلانها ، بمجرد أن نركز انتباهنا عليها ، فكثيراً ما يقول أنصار مذهب السلطة ، إنه لما كانت السن الكبيرة أحكم من الشباب ، فمن الواجب أن نبجل آراء أجدادنا ، وكما قال « و . ب مونتاجيو » ، فإن هذه مغالطة ، تتعرض لها الأذهان المحافظة بوجه خاص ، ولنقتبس هنا جزءاً من تحليله لهذا الخطأ :

« لو كان أجدادنا أحياء الآن ، لكانوا مسنين جداً ، ولكانت آراؤهم بوصفها نتيجة أجيال من الخبرة ، جديرة بالتبجيل حقاً . ولكن فى الوقت الذى صرح فيه أجدادنا بالآراء ، التى أصبحت الآن موغلة فى القدم ، والتى يطلب إلينا تبجيلها ، كانوا

صغاراً فى السن مثلنا ، وكان العالم الذى يعيشون فيه أصغر بكثير من حيث خبرة النوع ، فمهما يكن قدم آرائهم ، فإنها تعبر عن طفولة الجنس البشرى ، لا عن نضجه. ومن هنا فإن قدم الرأى هو فى واقع الأمر قرينة تنقص من حقيقته ، ولا تزيدها .

ومنها العدد :

فالمعيار الثانى الخارج عن نطاق السلطة للمفاضلة بين الادعاءات المتعارضة ، هو معيار العدد ، فالرأى الذى يقبله أكبر عدد من الأشخاص هو الصحيح ، وذلك باطل من الوجهة الدينية لقوله تعالى :

« وإن تُطِعْ أكثرَ مَنْ فى الأرض يُضِلوك عن سبيل الله » (الأنعام ١١٦) .

وهذا أيضاً ما علمنا إياه التاريخ ، الذى يحفل بآراء للأغلبية ، ثبت بطلانها ، وأوضح مثل على ذلك هو حقيقة أن الأرض مسطحة ، وهى حقيقة كانت فى وقت من الأوقات اعتقاداً ، يقول به الجميع ولا يتشكك فيه أحد .

ومنها النفوذ .

هذا المعيار ينطوى على مشكلة ضمنية ، هى رأى الخبراء ، ما دام الخبير فى أى ميدان ، هو ذلك الذى اكتسب بوسيلة ما ، من النفوذ ما يكفى للنظر إليه ، على أنه سلطة ، أو حجة . ولعل هذا المعيار ، هو أقوى المعايير كلها تأثيراً ، لأن كل ذهن ، يتأثر بالنفوذ ، أو الهيبة ، مهما يكن محصناً ضد معيارى القدم والعدد . والمشكلة العملية التى تواجهنا ، ليست هى كيفية إزالة تأثير النفوذ من تفكيرنا ، ما دام ذلك يكون مستحيلا ، وإنما هى كيفية استخدامنا له بطريقة ذكية مشروعة .

إن الخطر الأكبر فى هذا الصدد ، هو الميل الطبيعى إلى تحويل النفوذ من ميدان إلى آخر ، وعلى حين أنه لا يوجد ميدان من ميادين الشئون البشرية ، يظل بمنأى عن هذه الإغارة الفاسدة ، فإن أوضح الحالات فى أيامنا هذه ، تظهر عادة بالنسبة إلى العلوم . فسلطة الخبير العلمى ، بين زملائه من العلماء ، وبين عامة الجمهور ، تبلغ من الضخامة حداً ، يجعلنا كلنا نتأثر على الأرجح ، بأى رأى يبديه فى أى موضوع .

ليس هناك شخص محصن ضد تأثير النفوذ ، فكلنا تقريباً لنا مفكر معين ، يؤثر فى تفكيرنا وحياتنا ، ونميل إلى الاقتداء به ، حتى فى الأمور التافهة

أو فى القرارات ، التى لا يكون للمفكر فيها مؤهلات خاصة ، قد تقدم توجيهاً نافعاً ، وقد يتركز هذا النفوذ حول مذهب ، أو اتجاه ، بحيث يصبح متحكماً فى تحديد التفاصيل الصغيرة للحياة اليومية .

والمشكلة هنا ، ليست فى كيفية التخلص من كل سلطة ، فذلك محال ، ولكن فى طريقة اختيار الأصلح دينياً واجتماعياً . وطريق ذلك مزيد من القراءة ، والاضطلاع غير المحدود بجنس أو وطن أو مذهب ، حتى يزداد المرء علماً ، فيكون قادراً على الحكم ، وبالتالى على اختيار الأصلح .

التصوف :

يرى البعض أن أفضل مصدر للمعرفة ، هو ملكة فوق الحس ، وفوق العقل ، تُحدَّد أحياناً بأنها (الحدس) .

فما هى هذه الملكة ؟

يقولون : إنها تجربة باطنية ، يحياها المتصوف ، فيكتسب منها أهم معرفة له ، وعلى الرغم من أن كثيراً من الصوفية ، قد حاولوا وصف هذه التجربة ، فمن سوء الحظ أنهم يؤكدون أنها فى أساسها تجل عن الوصف ، ويبدو أن إخفاق الجهود ، التى يبذلونها فى هذا الوصف ، هو دليل على رأيهم هذا .

ومن أسباب ذلك ، أن التجربة مختلفة عن كل التجارب الأخرى ، إلى حد بعيد ، كما أن من أسبابه أنها تستحوذ تماماً على المرء ، عندما تحدث . وبناء عليه فعلى الرغم من كثرة الكتابات الصوفية ، فإنا لا نعرف بالفعل إلا القليل جداً ، عن التجربة الرئيسية ، التى كانت مصدراً لهذه الكتابات . ويمكن القول بأن معظم الناس ، قد مروا بتجربة شبيهة ، بتلك التجربة ، التى يتحدث عنها الصوفيون ، وذلك فى اللحظات ، التى يتأملون فيها الطبيعة ، أو عندما يكونون إزاء أعمال فنية عظيمة ، أو عندما يستمعون إلى موسيقى معينة ، وقد تحدث أيضاً لغير الصوفيين ، على أثر تجربة انفعالية معينة ، تتعلق بأشخاص آخرين كرؤية طفل ، أو محبوب نائم .

ومهما قيل فى التجربة الصوفية ، فواقعها لا يفهم إلا بطريق فردى مباشر ، وهو فى أساسه تجربة خاصة ، لا توصف ، ولا تقبل المشاركة ، فلا تعد أساساً لنقل المعرفة ، إلى الغير ، حتى على فرض التسليم ، بأنها مصدر من مصادر المعرفة لمن يمر بها .

العقل :

سبق الكلام على أن العقل وسيلة الفكر ، التى ميز الله به الإنسان عن سائر الكائنات الحية الأخرى ، فهو مصدر من مصادر المعرفة ، لأن الإنسان يعرف بواسطته الحقائق الأولية ، فقد أثبتت التجارب أن الذهن البشرى ، يستطيع بشىء من التدريب أن يصل إلى مستوى رفيع من الدقة فى استخدام الاستدلال للوصول إلى حقائق الأشياء . وهناك نماذج كثيرة ، استخدم فيها العقل للوصول إلى المعرفة اليقينية ، منها الدليل المشهور على وجود الله (تصور الله ، هو تصور كائن كامل – بل أكمل كائن نستطيع تصوره . مثل هذا الكائن ، إذا كان كاملا إلى هذا الحد ، لا ينبغى أن يكون مفتقراً إلى صفة من صفات الكمال ، فهو إذا كان مثلا يفتقر إلى الوجود ، فإن الكائنات الأخرى ، التى تتصف بالوجود ، تكون أكمل منه . ومن هنا فلما كانت قوانين الفكر ، تقضى بألا يكون هناك سوى كائن واحد ، هو (الأكمل) فلا بد أن يكون الله موجوداً) .

ومنها ما قاله (باسكال) حول ضرورة الاعتقاد فى وجود الله :

« نستطيع أن نقول : « إما أن يكون الله موجوداً وإما ألا يكون » ، ولكن إلى أى جانب ننحاز ! فلننظر فى الأمر : إنك لما كنت مضطراً إلى الاختيار ، فإن عقلك لن يشعر بإهانة ، إذا اختار أحد الأمرين ، أو الآخر ، فتلك نقطة واضحة . ولكن ماذا نقول عن سعادتك ؟ لنقارن الكسب والخسارة فى حالة المراهنة على أن الله موجود بالفعل . إنك إذا راهنت على أنه موجود وكان موجوداً ، فأنت الرابح . ولو راهنت على أنه موجود ، ولم يكن موجوداً ، فلن تخسر شيئًا ، فإذا كسبت ، ربحت كل شىء وإذا خسرت ، لم تخسر شيئًا .

فلتراهن إذن بلا تردد ، على أنه موجود بالفعل » .

كانت الوسيلة ، التى استعملت فى إنتاج الدليل الأول ، وفيما قاله (باسكال) ، هو العقل . فهو أساس المعرفة ، وإن ساعده الوحى فيما يتعلق بما وراء الطبيعة . ولا يستطيع العقل القيام بهذه المهمة الفكرية ، إلا إذا تدرب ، ولن يتحقق تدريبه – فى عصرنا الحاضر – إلا بمطالعة ما أنتجه الفكر البشرى .

قد يقال : إننا او تركنا مجال

(الميتافيزيقيا) – لأن الوحى قد قال فيه الكلمة الفاصلة – فإننا نجد أن العقول لم تتفق إلا على المبادئ الأولية الشاملة ، مثل « قانون عدم التناقض » وما عداها ، فلا نجد سوى آراء متعددة ، ومذاهب متطاحنة ، فكيف نعتمد على العقل كمصدر للمعرفة ؟ والحقيقة أن الخلاف ، هو جوهر المعرفة ، وقد عبر عن ذلك أحد أنصار المذهب العقلى ، حين وصفه بأنه : (النظرية القائلة ، إن المعرفة تكتسب بمقارنة الأفكار بأفكار أخرى) .

فالمعرفة الحقة ، تأتى من قدح فكرتين ، أو أكثر سويًّا ، وإلا جمد الفكر ، وتخلف المجتمع عن السير فى ركب الحضارة .

التجربة :

يقول (جورج ب – كونجر) : « إن الخصم المألوف للمذهب العقلى فى المعركة الدائرة بين النظريات المختلفة للمعرفة ، هو المذهب التجريبى ، القائل بأن المصدر النهائى لكل معرفة ، هو التجربة أو الإحساس ، ولا يلغى المذهب أهمية العقل ، والإحساس فى الوصول إلى المعرفة ، عن طريق التجربة ، فالعلم يبدأ من المعطيات الحسية ويصوغ (العقل) فرضاً تفسيريًّا ، وبعد ذلك يستنبط بالعقل أيضًا ، تلك النتائج ، التى يمكن توقعها ، عندما يجرى تجربة فاصلة (يستخدم فى وضعها العقل والإدراك الحسى معًا) ، وهذه التجربة ، هى التى تؤدى إلى تأييد فرضه ، أو تنفيذه على نحو قاطع ، وبعد ذلك يقوم بإجراء التجربة . وهذا معناه ، القيام بتحديد تجريبى لنتائج العمليات العقلية ، التى توسطت بين الملاحظة الأصلية ، وبين التجربة . وهكذا يكون لدينا فى العلم مزيج رائع من المنهجين ، العقلى والتجريبى . فكل منهما يقوم بما هو أهل للقيام به ، ويترك المنهج الآخر ما يكون هذا الأخير أقدر عليه » .

تشترك الشعوب كلها – رغم اختلاف عقائدها وظروفها البيئية – فى الحصول على ثقافتها ، عن طريق هذه المصادر الأربعة للمعرفة ، غير أنها تتفاوت فى نسبة اعتمادها على واحد أكثر من الآخر ، وتختلف تبعًا لذلك معالم الثقافة ، ودرجة الحضارة ، ونوعيتها وغير أن الاتصال بين الحضارات المتنوعة ، يؤدى إلى تبادل الأفكار ، والخبرات ، ويدفع عجلة التطور إلى الأمام . ولولا ذلك لكان على كل أمة أن تقطع

الطريق وحدها ، من أوله إلى آخره ، وفى ذلك إرهاق وعنت وإعاقة للتقدم الحضارى .

إذاً فالاتصال أمر حتمته ظروف الحياة ، وطبيعة التطور ، ولا يستطيع مجتمع ما ، أن يقصره على جانب ، دون آخر ، لأن للإنسان مشاعر وعقائد ، كما أن له إنجازات حضارية ، ولا يمكن أن يحدث الاتصال ، لتبادل الإنجازات المادية للحضارة ، دون أن يصحب ذلك تعبير عن المشاعر ، والعقائد ، بطريقة أو بأخرى . ولذا ينبغى أن ندرس أفكاره وعقائده ، حتى نكون على بينة من طبيعته ، إذا اضطرتنا ظروفنا الحضارية أن نقيم معه علاقة .

عرفت شعوب كثيرة هذه الحقيقة ، فعقدت لأبنائها — قبل أن ترسلهم إلى الخارج — دورات دراسية للتعرف على عقيدة وعادات الشعب الذى سيرسلون إليه ، حتى يمكنهم التعامل معه بأسلوب يحقق أهدافهم .

ما أحوجنا نحن المسلمين ، إلى أن ندرس لدعاتنا ، أديان وعقائد الآخرين ، حتى يؤدوا مهمتهم — فى حالة إرسالهم إلى تلك البلاد — على أكمل وجه ! ! !

(ح) الثروة :

لا أريد الدخول هنا فى متاهات الحديث عن مصادر الثروة ، ولا أرغب فى الكلام عن النظريات الاقتصادية ، فى توزيع الثروة ، بل أحب أن أشير إلى شىء معروف للجميع ، وهو ما تعبر عنه العبارة الشائعة : « المال عصب الحياة » ، وما عبر عنه الشاعر بقوله :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم
لم يبن ملك على جهل وإقلال

فالمال عنصر أساسى لا غنى عنه فى بناء الحضارات ، وقد قامت على أساسه منذ فجر التاريخ أنظمة كثيرة ، تمحضت فى العصر الحديث عن :

الرأسمالية — الاشتراكية — الشيوعية

ولكى نقيم النظام الإسلامى فى عصرنا الحاضر ، ينبغى أن ندرس هذه الأنظمة الأخرى ، كى نبين ، للعالم ، ولشبابنا أيضاً — لأنه واقع (أردنا أم لم نرد) تحت تأثير أجهزة دعاية هذه الأنظمة — جوانبها السلبية فى بناء علاقات إنسانية ، كتلك التى يتمتع بها النظام الإسلامى ، وتحتم علينا دراستنا لهذه الأنظمة ، بيان الجوانب العقدية ، التى بنيت عليها ، وهذا يقودنا إلى ضرورة دراسة الأديان والعقائد الأخرى .

٣ – الماضى :

إن دراسة التاريخ باستثناء دراسة تتابع الأسر الحاكمة – هى لون حديث من ألوان الفكر البشرى ، دُفع إليها الإنسان ، عندما تبين له أن معرفة الحوادث الماضية قوة دافعة تدفعه إلى الأمام ، فهو يهدى بالماضى ، ليعيش الحاضر ويبنى المستقبل .

فإذا بحثنا مشكلتنا داخل هذا الإطار فهل نجد بين طيات تاريخنا ، أن المسلمين درسوا الأديان الأخرى ؟

ينبئنا التاريخ أن المسلمين بدءوا فى دراسة الملل والنحل المختلفة ، فى وقت مبكر جداً ، إذ ظهرت أول دراسة لهذه الملل فى المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى الأول ، فقد ترجم أحمد بن عبدالله ابن سلام التوراة والإنجيل للخليفة هارون الرشيد ، كما ذكر اليعقوبى المتوفى بعد سنة ٢٩٢ هـ فى تاريخه ، بيانات عن الأناجيل الأربعة ، واستشهادات دقيقة منها ، تدل على اضطلاعه عليها. وأورد المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ فى « مروج الذهب » لمعًا عن أخبار الملوك المتنصرة ، ذكر فيها المجامع الدينية . وفى موضع آخر من الكتاب (جـ ١ ص ١٧٠) ، فى سياق حديثه ، عن النحل المختلفة ، أحال المسعودى القارىء ، على كتابه « أصول الديانات » ، وذكر ابن النديم فى « الفهرست » مقالات عن المذاهب والاعتقادات ، فيما يزيد على ستين صفحة .

ومن الكتب التى ألفها علماء مسلمون فى الأديان الأخرى :

– « الرد على النصارى » للجاحظ المتوفى ٢٥٥ هـ .

– « مقالات غير الإسلاميين » لأبى الحسن الأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ هـ (ومن كتبه المفقودة كتاب الفصول الذى وصفه ابن عساكر ، بأنه يشتمل على اثنى عشر كتاباً ، رد فيه الأشعرى على البراهمة ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس ، كما ألف كتاباً آخر فيه بيان مذهب النصارى وكتاباً ثالثاً ، يحتج فيه عليهم من سائر الكتب) .

– « أصول الديانات » للمسعودى المتوفى ٣٤٦ هـ .

– « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » للبيرونى المتوفى سنة ٤٤٨ هـ .

– « الفصل فى الملل والنحل » لابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ .

— « الرد الجميل لإلٰهية عيسى بصريح الإنجيل » للإمام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥هـ .

— « الملل والنحل » للشهرستانى — المتوفى سنة ٥٤٨ هـ .

— « مقامع هامات الصلبان ومراتع روضات الإيمان » لأبى عبيدة الخزرجى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ حققنا هذا الكتاب ونشرناه تحت عنوان : (بين الإسلام والمسيحية) .

— « اعتقادات المسلمين والمشركين » للفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا ، أن المسلمين كانوا أول من وضع بعض القواعد المنهجية ، فى دراسة الملل والنحل ، وذلك قبل أن يظهر عند الغربيين فى العصر الحديث ما يعرف باسم الأديان المقارن .

٤ — الحاضر :

يقف العالم الإسلامى اليوم على مفترق الطرق ، تتنازعه تيارات واتجاهات متعددة ، أصابت شبابه بحيرة فكرية فهو يسائل نفسه :

أيلبى نداء الماركسية ، الداعية إلى الحرية ، ومحاربة الاستعمار ، وبالمساواة بين الطبقات والمبشرة بغد أفضل ؟ ...

لا . . . لا . . . ، فواقعها يكذب ما تقوله ، إذ لا توجد حرية فى المناطق ، التى تسيطر عليها ولم تتخل عن ممارسة أساليب الاستعمار مع الشعوب ، التى تقع فى دائرة نفوذها ، وفضلا عن ذلك، فقد تمركزت مميزات الطبقات كلها فى طبقة واحدة ، ألا وهى طبقة زعماء الحزب الحاكم ، فهم يعيشون عيشة قياصرة القرون الوسطى ، بينما الشعب يقاسى من ألم الحرمان والجوع ، وفوق هذا كله فهى قائمة على الإلحاد وتلك هى الطامة الكبرى ! ! ! أم يسير فى فلك الرأسمالية ، ليتمتع بما تملك من انجازات حضارية ، فهى تقدم له وسائل الراحة ، فى جميع نشاطات الحياة وفضلا عن ذلك ، فهى تدعو إلى الديمقراطية ، وتحترم ، بل تقدس حياة الفرد ؟ . . .

لا . . . لا . . . فماضيها المؤلم مع الشعوب الإسلامية ولا زال ماثلا فى الأذهان ، وهى لم تتخل عن محاولة السيطرة على الشعوب — وإن تغير الأسلوب القديم — التى تسير فى فلكها ، ولن تسمح يومًا ما — إن استطاعت — بأن يسود الإسلام ويقوى فى أى بقعة من بقاع العالم ! ! !

أم يطبق النظام الإسلامى ، فهو

الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد أثبتت التجارب صلاحيته، فحين طبق فى الماضى ، كانت الحرية حقاً لكل الناس ، والحياة الكريمة مكفولة للجميع ، والناس فى المجتمع سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ؟ . .

ولكن صورة الماضى القريب ، وما يسمعه من بعض المتحدثين باسم الدين ، يثبط همته ، ويوهن عزيمته ، فيَفتُر حماسه ، وتهدأ ثورته ، ويبدو وكأنه قد صب عليه ماء بارد ، ذلك أنه قرأ فى تاريخ العالم الإسلامى فى القرون المتأخرة ، أن أصواتاً نادت آنذاك ، ومعظمها من المتحدثين باسم الإسلام ، بعدم الإتصال بأوربا ، التى كانت تبنى نهضتها فى ذلك الوقت ، . . . فانقطعت الاتصالات ، وانعدم الاهتمام بسبل الحياة فى العالم الخارجى ، وصار تتبع الأحداث العالمية ، لا وجود له ، فلا يعرف شىء عن مدى التقدم ، الذى تحرزه المجموعات البشرية الأخرى ، فى عالم الحضارة ، ولا تسمع أخبار الاكتشافات العلمية . . . إلى أن جاء الوقت ، الذى اضطر فيه العالم الإسلامى ، إلى فتح أبوابه على العالم الخارجى ، فوجد نفسه متخلفاً قروناً طويلة ، ولم يستطع الوقوف أمام تيارات التقدم الهائل ، فقد أظهرت حملة نابليون « أن الصراع بين الشرق والغرب ، يدار بأسلحة غير متساوية ، فالمعركة بين طرفين غير متكافئين ، لأن تقدم البلاد الغربية منحها تفوقاً حضارياً ، ومكنها من أن تكون سيدة المعركة ، ولم يستطع العالم الإسلامى الصمود أمام هذا التفوق الحضارى ، لأنه عاش منطوياً على نفسه حقبة طويلة ، أضعفته وأنهكته ، بحيث سقط أمام الزحف الغربى سياسياً واقتصادياً .

ويبدو أن الزمن قد وقف بالشرق قرونا طويلة ، فظل ثابتاً مجمداً ، لم يطرأ عليه جديد ، وبدا وكأنه لم ير هذه القرون ولم يعشها ، ولم يكن لما طرأ عليه من تغيير داخلى — فى نوع الحكم وتعدد الأحكام — أى تأثير إطلاقاً ، وبالتالى لم يكن له أى نوع من التطور السياسى والاقتصادى .

فإذا تلاشت هذه الصورة التاريخية من ذهن الشباب ، وأقبل على الإسلام محاولاً تطبيق تعاليمه فى مجالات الحياة المتعددة ، اعترضته عقبات ، إذ لم يقم المختصون بصياغة تعاليمه بأسلوب عصرى ، وبعضهم لم يفهم متطلبات العصر ، فأفتى بتحريم أشياء لا صلة

لها بالدين ، بل هى تدخل فى إطار ما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم (أنتم أعلم بشئون دنياكم) . وتصدى لتيارات فكرية حديثة ، دون أن يعرف عنها ، إلا النذر اليسير — وأحياناً لا يعرف عنها إلا الاسم فقط ، فجاء حديثه عنها مثاراً للسخرية والاستهزاء .

ماذا تقدم الجامعة لهذا الشباب الحائر ؟ أتفرض عليه النظام الإسلامى ، دون أن تبين مزاياه ، وتوضح الجوانب السلبية ، فى النظم الفكرية الأخرى ؟

قد يقبله بدافع العقيدة ، ولكنه سيظل معرضاً للإصابة بأى تيار فكرى آخر — لأن الجامعة لم تسهم فى بناء فكر على أساس سليم ، ويومها لن يستطيع الخلاص إلا إذا سمع الداعية القادر على إقناعه بأن المذاهب الفكرية الحديثة ، لا تخلو من جوانب سلبية ، قد تكون خطراً على المجتمع ، ولا يمكن أن يقوم أى داعية بهذه المهمة ، إلا إذا درس تلك المذاهب دراسة وافية ، فعرف جذورها العقدية ، واتجاهاتها المادية والروحية .

٥ — المستقبل :

سوف يتحدد مستقبل الدعوة الإسلامية على ضوء مقدار فهم الدعاة لمتطلبات العصر ، فإدراكهم لعقلية الشباب عامل مهم جداً ، فى تأدية واجب الدعوة ، ودراستهم للتيارات الفكرية المعاصرة عنصراً أساسى فى نجاح مهمتهم ، ومعرفتهم للأديان الأخرى أمر حتمى ، فهم فى حاجة إلى ذلك ، سواء قاموا بالدعوة داخل المجتمعات الإسلامية ، أو فى خارجها لأن انتشار الأفكار ، لا تحده اليوم حدود جغرافية ، فالإذاعات تقتحم كل بيت ، كما أن للشباب — وخاصة المثقفين منهم — وسائل أخرى متعددة ، فى الاضطلاع على ثقافة ، ومعتقدات الآخرين . فإذا لم يكن الداعية على علم بها ، لا يستطيع التفاهم معهم . كذلك لا يمكنه القيام بمهمته خارج المجتمع الإسلامى ، على أكمل وجه ، إذا لم يعرف عقيدة من يخاطبهم .

دكتور / محمد شامة

ﷻﷻﷻﷻﷻ

نبيًا من وسط إخوتهم مثلك

كتاب التوراة يبشر برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم

بقلم المستشار

محمد عزت الطهطاوي

فى مقال نشرته جريدة الأهرام القاهرية فى أحد أعدادها الماضية للدكتور طه عبد السلام خضير أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين التابعة لجامعة الأزهر أورد فيه بشارة من أحد كتب توراة موسى عليه السلام وهو سفر التثنية إصحاح ١٨ عدد ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ تشير فى معناها إلى مقدم الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ونصها كالآتى :

« قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا سوف أقيم لهم نبيًّا مثلك من بين إخوتهم واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك – أما النبي الذى يجترىء بالكبرياء ويتكلم باسمى ما لم آمره به أن يقول أو بإسم آلهة غيرى فليقتل) .

لكن الأنبا غريقوريوس أسقف الثقافة القبطية والبحث العلمى حرر مقالا بعد ذلك فى جريدة الأهرام يرد فيه على مقال الدكتور طه عبد السلام خضير أورد به النقاط الآتية :

أولا : إن النص كما جاء فى التوراة هو كما يلى : والمتكلم هو النبي موسى إلى بنى إسرائيل (يقيم لك الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون حسب كل ما طلبت من الرب إلهك فى حوريب فى يوم الاجتماع قائلا لا أعـــود أسمع صوت الرب إلهى ولا أرى هذه النار العظيمة أيضًا لئلا أموت – فقال لى الرب قد أحسنوا فيما قالوا – أقيم لهم نبيًّا من بين إخوتهم مثلك – وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بجميع ما آمره به ويكون أن الإنسان الذى لم يطع كلامى الذى يتكلم به باسمى

فإنى أطالبه وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاماً لم آمره أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى — وإن قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب — فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصرفوا الكلام — الذى لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه) سفر التثنيه ١٨ عدد ١٥ — ٢٢ .

ثانياً : بالتأمل ملياً فى هذا النص القدسى يتضح : أن موسى النبى هنا بناء على مكاشفة الرب الإله له يعد بنى اسرائيل بأن الرب سوف لا يهملهم بل سيتعهدهم بالرعاية والاهتمام وما داموا قد ارتعدوا ارتعاداً شديداً من مظاهر التجلى الإلهى على جبل حوريب فى سيناء بالرعود والبروق والسحاب الثقيل على الجبل فإن الرب سوف لا يكلمهم من خلال تلك المناظر الرهيبة التى لم يتحملوها — وإنما سيكتفى مستقبلا بأن يكلمهم فى هدوء من خلال الأنبياء الذين سيرسلهم نبياً فى أثر نبى على غرار نبيه موسى الكليم — فالنبى يتلقى الرسالة من الرب الإله ثم يبلغها إلى شعب بنى إسرائيل كما تلقاها من الله تعالى وبكل أمانة — وانتهى الأنبا غريقوريوس بعد تلك المقدمة الطويلة إلى الهدف الذى يرمى إليه ألا وهو أن النبى المقصود فى النص المشار إليه هو كل نبى يرسله الله إلى شعبه بنى إسرائيل مما يعنى أن — النص لا يشير إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم وإن لم يصرح بذلك علناً فى مقاله

ثالثاً : وأما قوله (نبياً من وسطك من إخـــوتك مثلى) فالمقصود به كما هو واضح من النص أن يكون من بين بنى إسرائيل وليس من شعوب أخرى هو من أمثال النبى موسى — فصموئيل النبى وداود وسليمان وأشعيا وأرميا وحزقيـــال ودانيال وميخا ويونان وزكريا وغيرهم من الأنبياء الكثيرين الذين جاءوا بعد موسى كلهم كانوا من بين بنى اسرائيل ومن وسطهم — وإذن فالنبى المشار إليه فى نص سفر التثنية هو كل نبى أرسله الله من بعد موسى إلى بنى اسرائيل ، والكلام ينطبق لاعلى نبى بالذات بل الكلام كلام عام يشمل جميع الأنبياء الذين ظهروا من بين بنى إسرائيل — ويهدف الأنبا غريقوريوس من ذلك إلى إبعاد البشارة المذكورة عن شعب العرب أبناء اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

رابعاً : كذلك قول الله تعالى (واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بجميع ما آمره به ويكون أن الإنسان الذى لم يطع كلامى

الذى يتكلم به باسمى فإنى أطالبه) — كلام عام لا يخص نبياً بعينه بل يشمل كل نبى لله — فإن ما يقوله النبى ليس منه بل من الله يتكلم به على فمه — ولذلك يوصف الروح القدس بأنه (الناطق فى الأنبياء) وقال الكتاب المقدس (عالمين هذا أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون محمولين بالروح القدس) ٢ بطرس ص ١ عدد ٢٠ — ٢١ .

هذا ما ذكره الأنبا غريقوريوس فى رده على الدكتور طه عبد السلام خضير أستاذ العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين .

وفى ردنا على ما أثاره الأنبا غريقوريوس نشير إلى ما يلى :

أولاً : أن النص الذى أورده الأنبا غريقوريوس يختلف عن النص الوارد فى الكتاب المقدس والذى تنشره دار الكتاب المقدس حالياً والمطبوع بدار حلمى للطباعة وهو على سبيل المثال قد ابتدأ به من عدد ١٥ بدلا من عدد ١٧ الذى ابتدأ به الدكتور طه عبد السلام خضير (يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلى له تسمعون حسب كل ما طلبته من الرب إلهك فى حوريب — يوم الاجتماع قائلا : لا أعود أسمع صوت الرب إلهى ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لئلا أموت قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا — أقيم لهم نبياً من بين إخوتهم مثلك — وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بجميع ما آمره به . . إلخ . . ما جاء بالنص) فقد زاد الأنبا غريقوريوس كلمة (فى) قبل يوم الاجتماع — وزاد فى النص أيضاً حرف (الفاء) على جملة قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا واستبدل كلمة (قالوا) بدلا من كلمة تكلموا السابقة .

ومعلوم أن سبب تلك الاختلافات بالزيادة أو بالنقص فى الحروف والكلمات وفى تقديم بعضها وتأخير البعض الآخر وكذا استبدال بعض الكلمات راجع إلى أن المتداول بالأيدى هو ترجمات الكتاب المقدس وليست هى ذات الأصل — والترجمة الحرفية التى يتفق — فيها نص أى كتاب مقدس فى لغته التى أنزل بها مع الترجمة يستحيل تحقيقها فى الواقع مهما كانت قوة المترجم أو الهيئة التى قامت بتلك الترجمة — ولعل هذا هو السر فى أن علماء الإسلام قد حسموا ذلك الأمر بالنسبة للقرآن الكريم فقرروا بمنتهى الحزم عدم إمكان ترجمته بأى حال من الأحوال

وكل ما يباح هو ترجمة معانيه إلى اللغة المطلوب إجراء تلك الترجمة إليها — وفى بداية النص فإن المتكلم حقيقة هو النبي موسى وذلك فى عدد ١٥ ، ١٦ لكن باقى النص وهو ابتداء من عدد ١٧ هو من كلام الله حتى عدد ٢٢ .

ثانياً : إن ما ذهب إليه الأنبا غريقوريوس من أن المقصود بالنص المشار إليه هم الأنبياء الذين سيرسلهم الله نبياً فى إثر نبي على غرار نبيه موسى قول يجانبه الصواب لأنه :

١ — ينقضه صريح قول بطرس فى سفر أعمال الرسل فى الإصحاح الثالث عدد ١٩ إلى عدد ٢٤ — وهو (فتوبوا وارجعوا لتمحى خطاياكم لكى تأتى أوقات الفرج من وجه الرب ويرسل يسوع المسيح المبشر به لكم قبل — الذى ينبغى أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شىء التى تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر — فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم له تسمعون فى كل ما يكلمكم به — ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب) .

٢ — وشبيه بقول بطرس قول استفانوس الذى اختاره تلاميذ المسيح لما كان مشهوداً له بالإيمان وذلك فى الإصحاح السابع من سفر أعمال الرسل عدد ٢٧ ، ٢٨ وهو (هذا هو موسى الذى قال لبنى إسرائيل نبياً مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم له تسمعون هذا هو الذى كان فى الكنيسة فى البرية مع الملاك الذى كان يكلمه فى جبل سيناء ومع آبائنا الذى قبل أقوالا حية ليعطينا إياها) . . ففى هذين النصين لم يذكر بطرس و استفانوس أن هذا الذى بشر به موسى النبي هم الأنبياء الذين سيرسلهم الله نبياً فى إثر نبى كما يذهب إلى ذلك الأنبا غريقوريوس — لذلك كان تفسيره المشار إليه للنص محل البحث تفسيراً لا أساس له بل ويناقضه صريح نصوص الكتاب المقدس والتى تجمع على أن النبي الذى بشر به موسى نبى معين بذاته وأن صرفوا النص إلى المسيح عليه السلام تعصباً .

ثالثاً : إن المتدبر لهذه البشارة يتبين له أن هذا النبي المعين الذى بشر به النبي موسى لا يخرج من بين بنى إسرائيل مطلقاً وذلك للأسباب الآتية :

١ — أن النص يشير إلى أن الرب يقيم لشعب بنى إسرائيل هذا النبي (من إخوتهم) وهؤلاء الإخوة لشعب بنى اسرائيل هم العرب أبناء اسماعيل

ابن إبراهيم عليهما السلام ويشير الكتاب المقدس إلى استعمال لفظ الأخوة بين أبناء العم طبقاً لما جاء فى سفر التكوين عن أبناء اسماعيل فى قوله (هؤلاء هم بنو إسماعيل وهـذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم إثنا عشر رئيساً حسب قبائلهم — وهذه سنو حياة إسماعيل مائة وسبع وثلاثون سنة وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه وسكنوا من حويلة إلى شور التى أمام مصر حينما تجىء نحو أشور أمام جميع إخوته نزل) — سفر التكوين الإصحاح ٢٥ عدد ١٦—١٨ .

وشبيه بذلك ما ورد بسفر العدد فى قوله (وأرسل موسى رسلا من قادش إلى ملك أدوم هكذا يقول أخوك اسرائيل قد عرفت كل المشقة التى أصابتنا) انظر الإصحاح العشرين عدد ١٤ من سفر العدد .

ومثله أيضاً قوله الوارد فى سفر التثنية (وأوصى الشعب قائـلا أنتم مارون بتخم إخوتكم بنى عيسو الساكنين فى سعير فيخافون منكم فاحترزوا جداً لا تهجموا عليهم) انظر سفر التثنية اصحاح ٢ عدد ٤ ، ٥ .

فبنو إسماعيل وملك أدوم وبنو عيسو كانوا أبناء عمومة لبنى إسرائيل ولم يكونوا إخوتهم ومع ذلك ورد بالنص أنهم إخوتهم .

٢ — إن موسى عليه السلام لما أعاد هذا الوعد من كلام الله فى عدد ١٧ ، ١٨ من سفر التثنية لم يورد لفظ (من وسطك) المذكورة فى بداية النص بل جاء بالنص (قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا — أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك) ولا يجوز أن يكون ما قاله موسى مخالفاً لما قاله الله .

٣ — إن القديس بطرس فى الاصحاح الثالث عدد ١٩ — ٢٤ من سفر أعمال الرسل لم يورد لفظ (من وسطك) فيما ذكره عن هذه البشارة — وكذلك الحال بالنسبة للقديس استفانوس فلم يذكر لفظ (من وسطك) فى الإصحاح السابع عدد ٢٧ ، ٢٨ من سفر أعمال الرسل .

٤ — وحتى مع التسليم بوجود لفظ (من وسطك) فى بداية النص وتعارضه مع باقى النص فإنه يمكن التوفيق بينهما إذ النبى محمد صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة المنورة وبها تكامل أمره كان يحيط بالمدينة كثير من قرى بنى إسرائيل وقبائلهم كخيبر وبنى قينقاع والنضير وغيرهم لذلك يمكن القول بأنه قام بدعوته (وسطهم) رغم أنه من العرب أبناء إسماعيل بن إبراهيم وهم إخوتهم كما وضحنا سابقاً .

٥ — إن صرف هذه البشارة إلى

المسيح عليه السلام أو إلى أحد أنبياء بنى إسرائيل قول لا يحتمله النص من علة وجوه :

(ا) إن المسيح ينتسب إلى بنى إسرائيل وصراحة النص محل البحث كما أشرنا تشير إلى أن هذا النبى الذى بشر بمجيئه موسى النبى لا يكون من بنى إسرائيل بل يكون من بين بنى إخوتهم أى من بنى عمومتهم .

(ب) إن هذا النبى المبشر به ويكون مثل موسى — لا يجوز بأى حال أن يكون من بين بنى إسرائيل طبقاً لما ورد فى الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنيه عدد ١٠ قوله (ولم يقم بعد نبى فى اسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه) فان قام أحد مثل موسى بعده من بنى اسرائيل يلزم تكذيب هذا النص .

(ح) لا توجد مماثلة تامة بين النبى موسى والمسيح لأن المسيح صار فى عقيدة النصارى إلهاً أما موسى فلم يكن إلهاً بل كان عبداً لله .

(د) فى اعتقاد النصارى أن المسيح مات مصلوباً وصار لعنة (انظر رسالة بولس فى الإصحاح الثالث من رسالته إلى أهل غلاطية عدد ١ ، عدد ١٣ — أما النبى موسى فلم يمت مصلوباً لم يصر لعنة .

(هـ) إن المسيح فى عقيدة النصارى دخل الجحيم (انظر رسالة بطرس الأولى ص ٣ عدد ١٩) لكن موسى لم يدخل الجحيم .

(و) إن النبى موسى كان رجل حروب لكن المسيح لم يكن كذلك .

(ز) إن شريعة موسى تشتمل على الحدود والتعزيرات وأحكام الغسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات بخلاف شريعة المسيح فهى خالية منها طبقاً لما تشهد به الأناجيل المتداولة والرسائل الملحقة بها لأنه لم يأت بشريعة مستقلة بل كانت مكملة لشريعة التوراة . .

(ح) وكيف نصدق المماثلة بين النبى موسى والمسيح وهم ينسبون إلى المسيح قولا فى الإصحاح العاشر عدد ٨ من إنجيل يوحنا عن الأنبياء الذين أتوا قبله ومنهم موسى النبى (جميع الذين أتوا قبلى هم سراق ولصوص) .

رابعاً : إن المتأمل فى جملة (واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بجميع ما آمره به) يجدها تختلف فى مبناها ومعناها عن الجملة التى تصف الروح القدس بأنه (الناطق فى الأنبياء) — كما تختلف الجملة الأولى المشار إليها عن تلك التى

وردت برسالة بطرس الثانية إصحاح ١ عدد ٢٠ ، ٢١ فى قوله (عالمين هذا أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون محمولين بالروح القدس) . فإن جملة (واجعل كلامى فى فمه إلخ) تعنى أن ذلك النبى المبشر به يكون أميًّا لا يقرأ ولا يكتب لكن يوحى إليه بكلام الله فينساب بنصه ولفظه على فمه ويكون أمينًا على كتاب الله بحفظه فلم ينخرم فيه لفظ ولا اختل فيه معنى ولا تغير له ترتيب ودون أن يزيد عليه أو ينقص منه حرفًا واحداً فإذا سئل من قومه عن مسألة ما فإنه لا يجيب عليها من عند نفسه بل ينتظر ما ينزل عليه فيها — من الآيات ولو تضمنت الآية لفظ (قل) ذكره أيضًا بنصه مثل قوله تعالى (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى) سورة البقرة ٢٢٢ — وكقوله (ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن) سورة النساء ١٢٧ .

فالكلام والكتاب على هذا النبى من الله وليس من الروح القدس — الذى هو ملك الوحى — ودور ملك الوحى لا يخرج عن كونه سفيراً بين السماء وبين هذا النبى لنقل كلام الله بنصه فى ألفاظه وحروفه ثم النزول به على قلب ذلك النبى وبناء على ما سبق إيضاحه فإن النص المشار إليه لا يشير إلى كلام عام ولا يشمل كل نبى لله — بل يشمل ويخص نبيًّا بعينه — له صفة الأمية — لا يقرأ ولا يكتب بل يبلغ كلام الله الذى أنزل عليه ومنها أمور غيبية وقعت كما أخبر عنها طبقًا لما احتوته صحاح السنة المطهرة . .

أما ما أورده الأنبا غريقريوس من أقوال عن روح القدس فهى لا تخرج عن كونها أوصافًا خلعها النصارى على روح القدس فيقولون عنه (الناطق فى الأنبياء) فتعينهم فى أمر التفسير للنصوص مثلا مثل قول القديس بطرس (عالمين هذا أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص — لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان بل تكلم أناس الله القديسون محمولين بالروح القدس) .

ويبدو أن سبب الخلط عند النصارى فيما هو منسوب إلى الله وبين ما هو منسوب إلى روح القدس هو أنهم يعتقدون أن الروح القدس هو الله نفسه لكنه اتصف باقنوم الروح القدس مثلما اتصف باقنوم الإبن أو الكلمة وهذه هى الأقانيم الثلاثة أو التثليث كعقيدة عند النصارى الأرثوذكس (الأقباط) .

مع أن روح القدس هو كما وضحه النبي إشعيا فى سفره الملحق بكتاب التوراة فى الإصحاح ١١ عدد ١ وما بعده هو أنه (روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح المعرفة ومخافة الرب ولذته تكون فى مخافة الرب فلا يقضى بحسب نظر عينيه ولا يحكم بحسب سمع أذنيه بل يقضى بالعدل للمساكين . . . إلخ .

ويوضح ذلك العالم المسيحى سبينوزا فى كتابه رسالة اللاهوت والسياسة فى الفصل الأول وذلك بقوله أن روح القدس لا يعنى سوى أنه كانت للأنبياء فضيلة خاصة فوق المعتاد وأنهم كانوا يثابرون على التقوى دوماً وكانوا بالإضافة إلى ذلك قادرين على إدراك فكر الله أو حكمه .

إذاً على من تصدق بشارة النبى موسى المشار اليها فى صدر هذا المقال ؟

لا شك أن هذه البشارة لا تصدق إلا على النبى محمد صلى الله عليه وسلم لأنه خرج من العرب أحفاد اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فهم إخوة لبنى إسرائيل لأن اسحق الذى ينتسب إليه الإسرائيليون هو أخ لإسماعيل وإبراهيم الخليل هو والدهما . وقد ذكرت التوراة طرفاً من شرف إسماعيل عليه السلام : وقد باركه الله سبحانه وتعالى كما بارك على اسحق جد بنى إسرائيل .

١ — فقد ورد بالاصحاح السادس عشر من سفر التكوين عدد ١٠ ، ١١ ، ١٢ قول ملاك الله لهاجر أم اسماعيل (وقال لها ملاك الرب تكثيراً أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة — وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين إبنا وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك وأنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن) .

٢ — وكقوله فى الإصحاح السابع عشر من السفر المذكور عدد ٢٠ (وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً إثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة) وهذه أمة الإسلام فى الوقت الحاضر أبناء وأحفاد اسماعيل أمة كبيرة . وهناك وجه تماثل بين النبى محمد صلى الله عليه وسلم وبين موسى عليه السلام فى أمور كثيرة منها على سبيل المثال :

(ا) دعوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد الخالص مثل موسى فى دعوته إلى التوحيد .

(ب) انكاره من يدعو إلى غير الله

وكذلك كان موسى النبي .

(جـ) كونه عبداً لله — ورسول من عند الله وكذلك موسى عليه السلام .

(د) إن له والدين كما لموسى عليه السلام .

(هـ) أمره لامته أن تدعوه عبد الله ورسوله .

(و) كونه قد تزوج النساء وأنجب الأولاد .

(ز) كان كل منهما رجل حروب إذ جاهدا وحاربا أعداء الله .

(ح) لم يقتل أى منهما بل مات على فراشه وكونه صلى الله عليه وسلم مدفونا فى الأرض مثل موسى .

(ط) إن الكتاب الذى أنزل عليه اشتمل هو والسنة النبوية المطهرة على العقيدة والشريعة بأقسامها المختلفة وأحكام تلائم الناس الذين بعث إليهم فى المسائل المدنية والجنائية وأحكام الزواج والطلاق والمواريث وذلك مثلما أنزل كتاب موسى فى زمانه ملائماً لحال من أنزل إليهم .

(ى) اشتمال القرآن الكريم مثلما اشتمل كتاب موسى على أحكام الطهارات والاغتسال والوضوء وفرائض الصلاة والزكاة وباقى العبادات .

ما هو رأى الأسرائيليين أنفسهم فى هذه البشارة الواردة فى أحد أسفار التوراة ؟

لا شك أن الاسرائيليين هم أقدر الناس على فهم كتابهم وبيان المقصود من بشارة أنبيائهم — وقد تأكد من أقوال من برأه الله من التعصب الذميم منهم أن هذه البشارة لا تتعلق إلا بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم — فهذا هو شموائيل بن يهوذا بن أيوب كان من الإسرائيليين فى مدينة فاس بأقصى المغرب اشتغل بالكتابة بالقلم العبرى ثم بعلوم التوراة وتفاسيرها ثم اطلع على سائر العلوم المختلفة وقد توفى سنة ٥٧٠ هـ يقول فى رسالته (بذل المجهود فى إفحام اليهود) عن هذه البشارة إنها دالة على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولا يستطيع كائن من كان أن يجحد تعلقها بنبى الإسلام .

مما تقدم تبين بوضوح أن كتاب التوراة وهو كتاب موسى عليه السلام بشر ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم — وصدق الله إذ يقول فى محكم آياته (إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) سورة المزمل ١٥ .

المستشار محمد عزت الطهطاوى

قضايا لغوية ..

أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية

للدكتور توفيق محمد شاهين

٢

فى عصر التقدم العلمى استفادت العلوم كثيراً ، واستفاد بالتالى (علم اللغة) فدخل مجال التصوير والتسجيل والتحليل ، وعند رصد النتائج كان التقدم ملموساً ومرضياً * .

وعلوم اللغة متشابكة مع غيرها متداخلة فى ارتباط وتأثير وتأثر ، فلم يبق المجال للغويين وحدهم ، بل حتم عليهم العلم الحديث أن يفسحوا مجالاً لغيرهم من علماء : الأصوات ، والتشريح ، ووظائف الأعضاء ، ومبادىء علم الاجتماع . . . ليقولوا كلمتهم ، فيتكامل بحث المقدمات على أسس منهجية ، ومن ثم تكون النتائج مرضية .:. هذه ملاحظة .

وعمل اللغويين — عموماً — فى الحقيقة — كما يرى أصحاب المنهج الوصفى هو تقرير واقع ، لا تعليل لنشأة هذا الواقع ، وتفسير الأسباب التى أدت إليه لأن اللغة قديمة جداً ، ولم يأتنا خبر نشأتها الأولى ، ونشأت مع الانفعالات والعواطف فى جوانبها المتعددة وسايرت الفكر فى أدواره وتطوره .

ومن ثم تحدرت جميع اللغات إلى شعوبها ممزوجة بانعدام المنطق ، فهى ليست منطقية ولا قياسية تخضع لقوانين صارمة كما يقول أرسطو ، وكما يبالغ أصحاب المنهج الفلسفى . . وحسبنا اذن أن نقترب من الحقائق فى احتفاء ويقظة ، ونفترض ونقيس فى إطار الاشباه والنظائر ، وما تسفر عنه

* والأزهر حامى تراث العربية والإسلام رأى فى عام ١٩٦١ ألا يتخلف عن الركب الحضارى فى مضماره وحتى يكون عطاؤه أوفى وأكثر حداثة ، وحتى لا يفوته القطار ، فخطط لمنح وابتعاث إلى دول لها شأو فى مضمار التقدم . . إلا أن هذه الخطط تعثرت حينا ، ثم بذلت إلى دول تلهث لتلحق بعصر التكنولوجيا لأسباب ليس هنا مجال سردها . . فكان الأمل سراباً واهياً لا يبشر بنهضة ، ولا يعد لثمرة ، والأمل كبير اليوم فى بحث ونهضة تعيد للأمر سواءه واستواءه ، فتكون الإفادة والاستفادة . .

الحفريات ، وما تسديه المقارنات .

وموقف أصحاب المنهج الوصفى — إذن — كموقف [1] ، « أصحاب الفقه عندما يقولون : « ما جاء على أصله لا يسأل عن علته » . وابن جنى يقول :

« العلل فى جوهرها تعود إلى المتكلم العربى ، لا إلى عوامل لفظية » ويقول ابن مضاء القرطبى : (لو أن العرب قالوا : إنّ زيد، بتشديد النون وجرزيد، أو أن زيد ، برفع زيد ، لقبلنا قولهم على أنه الفصيح .

ولكننا نعلم أولادنا ألا يقولوا : أن زيد ، أو أن زيدٌ ، بالجر أو بالرفع » .

ومعنى ذلك أن علوم اللغة لا تخدم بالمنهج الفلسفى الصارم ، لانبهام تاريخها القديم ، وندرة شواهدها . وإنما نستفيد ويفيدها المنهج الوصفى ، الذى يصف الواقع ، ويسأل الشقائق ، ويفرض المقبول ، ويقيس الغائب على الشاهد . . وتلك ملاحظة أخرى .

وحين نفكر فى حال اللغة العربية قبل ظهور المسيحية (أى قبل ظهور الإسلام بسبعة قرون » نجد أنفسنا فى ظلام دامس . . فليس بين أيدينا نصوص عربية ترجع إلى تلك العهود : فاقدم ما عثر عليه لا يكاد يجاوز القرن الثالث الميلادى وليس معنى هذا أن اللغة العربية لم تكن موجودة قبل المسيحية ، أو أنها أحدث من شقيقاتها السامية ، كالعبرية مثلا . بل يؤكد لنا المستشرقون أن اللغة العربية المألوفة لنا ، قد احتفظت بعناصر قديمة ترجع إلى السامية الأم ، أكثر مما احتفظت به الساميات الأخرى »[2] .

ومعنى هذا أننا فقدنا نقطة البدء التى ننطلق منها لدراسة لغتنا . . ولكن أبحاث النحو المقارن للغات السامية كشف كثيراً من سمات وعلاقات الملامح والوشائج اللغوية لهذه المجموعة . . ومن هنا تحتم أن تتم دراسة العربية وتطورها وتاريخها فى ضوء الساميات ، وقد توافرت وتضافرت نواح عديدة لتلك الدراسات فى الحقبة الأخيرة من العصر الحديث .

وإذا نادى البعض بدراسة المجموعة السامية فى ضوء المجموعة الحامية ، لتجاور المجال الجغرافى للمجموعتين ، فهو جد مصيب ، لمظنة التأثير والتأثر كدأب اللغات حين تتجاور وتحتك .

وتتسع الدائرة الدراسية عند الأب

(١) نظريات فى اللغة ، للأستاذ أنيس فريحة ٨٤ .

(٢) اللهجات العربية ا.د. إبراهيم أنيس ٣٣.

أنستاس الكرملى ، حين يقرر بأن العربية قد أثرت حتى فى مجموعة اللغات الهندية والأوربية يقول: «كل كلمة ذات هجاء — مقطع — أو هجاءين ، فى الرومية أو اليونانية ،ولم تكن من أصل منحوت ، بل من وضع أصيل ، أو توقيفى ، فلا بد من أن يكون لها مقابل فى لغتنا المضرية » [1].

ويستشهد لرأيه بأمثلة كثيرة .

ومعنى ذلك أن عبئاً جديداً سيضاف على عاتقى باحثى اللغات بعامة ، ولغتنا العربية بخاصة » غير أن المشتقات تهون . بجانب إزاحة السجف ، وتبديد الأوهام عن حقبة موغلة فى القدم من تاريخ لغتنا العزيزة ، بقيت حينا من الدهر فى حجاب مستور .

وبعد هذه الملاحظة الثالثة ، نسلم فكرنا للمنهج الوصفى فيقودنا عبر رحلة مضنية ومثيرة فى تتبع جانب لغوى للغتنا العربية ، يتطلب مزيداً من البحث لمزيد من النور ،

ونقف الآن وقفة بين يدى « الأحاوية فى اللغات بعامة، وفى العربية بخاصة ».

يرى بعض العلماء أن كل لغات العالم القديم تعاقبت عليها أطوار وأدوار ، وأن طورها الأول ، جعل من كل كلمة من كلماتها (هجاء واحداً ، فتوضع الكلمة إحداها بعد الأخرى ، بحسب نظامها النطقى لتأدية المعنى المقصود ، ولغة الصين إلى الآن على هذا الوضع) .

ويؤيد ذلك الشيخ [2] العلايلى للغات كلها [3] — وأن دورها الأول : (ذو المقطع البسيط ، أى أدنى المقاطع ، مثل (aa) وهذا هو الدور الذى ولد المقاطع الأحادية ، والتى هى الجدول الهجائى الفينيقى المتخيل ، وسنذكره فيما بعد ، ويرى أن هذا الجدول يحدد المعانى الكلية التى صاحبت نشأة الحرف فى ألسنة الناطقين الأوائل باللغة .

وهذه المرحلة قديمة قدم التاريخ ، تربط بين اللغة والانسان الفطرى الذى (لا يكاد يرتفع عن مستوى النوع ، الذى هو فصيلة من فصائله المشاكلة) .

---

(١) نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها ، للاب انستاس مارى الكرملى ١٥٨ .

(٢) الشيخ العلايلى دائب النظر فى اللغة العربية ، بفكر ثاقب ، وذهن رائق ، ويجيد عدة لغات ، وشرع فى محاولة جريئة لوضع (المعجم العربى) وحده لوثوقه من نفسه فجاءت محاولة فذة ، حبذا لو تبنتها المعاجم اللغوية ، لتتم ما بدأ . . وما رأيته فى (بيروت) — أمد الله فى عمره — الا عاكفاً على قاموس قديم يراجعه ، أو فكرة لغوية يحللها ، أو شاردة وواردة يقيدها .

(٣) مقدمة لدراسة لغة العرب. للشيخ عبد الله العلايلى ٢٣ .

ويرى الشيخ أن هذه الأصوات لم تنطبع بطابع خاص يميزها ، بل كانت جارية مجرى الأصوات الاضطرارية ، التي تولدت عن الانفعالات ، ولم تتشكل فيها الأصوات ولم تتميز فيها المقاطع : (كالانين ، والعنين ، والأحيح والهمهمة ، والزحير ، والنحيم ... وضرب لذلك مثلا بالمقطع (عو) بضم العين ، الذى يدل على الحيوانات الزئبرية و (وا) الذى يدل على الصوت المتكرر بحركة الفكين ، وعنه نشأ الفعل (وو) بمعنى وصل فى العبرية .

ثم تطورت هذه الأصوات حتى أصبحت ذات أغراض ثابتة ، بعد تولد المقاطع الأحادية ، ومنها تكون الجدول الهجائى ، والذى أخذت منه كل لغة ما يناسبها من أصوات ، وكل حرف صامت ، أو مصوت (حركة) فى هذا الجدول له دلالة مستقلة و « من الممكن جداً تعيين دلالات هذه الحروف بأصواتها حين كانت لغة . . على شىء من الافتراض المقلوب ، وسبيل هذا التعيين المعلات (أى الأفعال المعتلة) مطلقاً وبالأخص اللفيف مطلقاً فى العربية وليس اعتمادها بأخذ معانيها المعجمية على وجه التحديد وإنما تنتقل فيها بالمقارنة إلى ما هو الأدخل فى تفكير الساذجين واعتباراتهم » .

وأحال الشيخ العلايلى على لغات سامية ، للحصول على نماذج تقرب الدلالة الأصلية للحرف أو الصوت :

فاللغة (الفينيقية) استخدمت فى رسم مقطع الألف شكل رأس الثور ، ومعنى هذا المقطع أيضاً هو رأس الثور .

ومثل هذه الحروف كانت تدل على أجناس معانيها الفينيقية فى العهود الأولى .

فبداية استعمال الإنسان اللغة كانت أحادية ، فى صورة أصوات وحروف منفصلة ذات دلالات قديمة ، ثم تطورت هذه المقاطع الأحادية إلى ثنائية وثلاثية . . كما صورها الشيخ العلايلى فى افتراضاته وتصوراته المبنية على الشواهد وسنة الرقى ، وإرتقاء الأدوار . .

ونثبت هنا نص الجدول الهجائى [1] ، الذى رآه الشيخ العلايلى نواة للغة فى دورها القديم :

١ ــ الهمزة : تدل على الجوفية ، وما هو وعاء للمعنى ، وتدل على الصفة غالباً .

٢ ــ الباء : تدل على بلوغ المعنى فى الشىء بلوغاً تاماً ، وعلى القوام الصلب بالتفعل .

٣ ــ التاء : تدل على الاضطراب فى الطبيعة ، أو الملابس للطبيعة فى غير ما يكون شديداً .

---

(١) السابق ٣١٠ .

٤ ــ الثاء : تدل على التعلق بالشيء تعلقاً له علامته الظاهرة ، سواء فى الحس أو فى المعنى .

٥ ــ الجيم : تدل على العظم مطلقاً .

٦ ــ الحاء : تدل على التماسك البالغ ، وبالأخص فى الخفيات ، وتدل على المائية .

٧ ــ الخاء : تدل على المطاوعة والانتشار ، وعلى التلاشى مطلقاً .

٨ ــ الدال : تدل على التصلب ، وعلى التغير المتوزع .

٩ ــ الذال : تدل على التفرد .

١٠ ــ الراء : تدل على الملكة ، وعلى شيوع الوصف .

١١ ــ الزاى : تدل على التقلع القوى .

١٢ ــ السين : تدل على السعة والبسطة من غير تخصيص .

١٣ ــ الشين : تدل على التفشى بغير نظام .

١٤ ــ الصاد : تدل على المعالجة الشديدة .

١٥ ــ الضاد : تدل على الغلبة تحت الثقل .

١٦ ــ الطاء : تدل على الملكة فى الصفة ، وعلى الانطواء والانكسار .

١٧ ــ الظاء : تدل على التمكن فى الغؤور .

١٨ ــ العين : تدل على الخلو الباطن أو الخلو مطلقاً .

١٩ ــ الغين : تدل على كمال المعنى فى الشيء .

٢٠ ــ الفاء : تدل على لازم المعنى (أى الوضع فى المعنى الكنائى) .

٢١ ــ القاف : تدل على المفاجأة التى تحدث صوتاً .

٢٢ ــ الكاف : تدل على الشيء نتج عن الشيء فى احتكاك .

٢٣ ــ اللام : تدل على الانطباع بالشيء بعد تكلفه .

٢٤ ــ الميم : تدل على الانجماع .

٢٥ ــ النون : تدل على البطون فى الشيء أو على تمكن المعنى تمكناً تظهر أعراضه .

٢٦ ــ الهاء : تدل على التلاشى .

٢٧ ــ الواو : تدل على الانفعال المؤثر فى الظواهر .

٢٨ ــ الياء : تدل على الانفعال المؤثر فى البواطن .

وفى نظرة سريعة للمعانى التى أثبتها الشيخ للجدول الهجائى ، نجد تمكنه

وإحاطته اللغوية ، لطول معاناته وكلفه بها ، كما نجد أن المعانى تحيط بحاجيات الإنسان الأول ، بل وتفوقها ، ففيها :

الشيء وصفته ، واللين والصلابة ، والاستقرار والقلق ، والتماسك والتلاشي ، والتفرد والانجماع ، والغلبة والانكسار ، والتوقع والمفاجأة ، والطبع والتطبع . .

ولذا يدعونا الشيخ العلايلى واضع اللغة الجديدة إلى الاقدام على الوضع ، لتفى لغتنا بما نطلبه منها ، بدون تردد أو خوف ، لأنه : « بتقرير هذه القواعد للاشتقاق أصبح الوضع معبداً جداً : فهو من موقع المادة فى التفريع ، ومن هيئة – اجتماع الحروف يعين الخصوصية فى غير تكلف .

« . . فروح الشيخ الثائرة تدعونا للوضع الجديد ، وهى دعوة حرية بالنظر والتفهم والتنفيذ ، حتى لا تتهم لغتنا بالعقم أو القصور والجمود .

والشيخ فى تصوره السالف يصور مرحلة هو رائداها وحاديها ومنشدها ، ولا دليل فيها ينير الطريق ، وجاءت – مع ذلك – افتراضاته مرضية ومقبولة ، ونرجو أن تتقبل .

ومن ثم فلا نرى الاعتراض عليه بأنه يضرب فى (ميتافيزيقا التاريخ)[١] ، أو أنه يخلط بين مراحل النشاط اللغوى ونشأة اللغة ذاتها[٢] ، وأن التمثيل من لغات أخرى هروباً من انعدام امكانية التطبيق على لغتنا فهن شقيقات يسرن الطريق فى الدراسة جنباً إلى جنب ، أو أن الدعوة للوضع الجديد ربما تنقلب إلى عملية اختراع عربية أخرى ، أو إقحام اشتقاقات أخرى مخترعة تبعدنا عن مألوف لغتنا ، [٣] أو أن الدعوة ربما تتطور من تطوير بناء نافع إلى عملية تدمير وإعصار لتدمير لغوى خطير[٤] ، فالأمن متوفر ، والحماية مضمونة لأننا نسير على أسس ، ولا نبنى من فراغ ولا فى هواء . . والشيخ العلايلى مجتهد .

ورائد يؤسس لمرحلة يقوم فيها الافتراض والتصور ، ومراعاة سنة التطور بدور كبير . . وهى على كل مرحلة تصورية إن كان فيها وهم قليل ، ففيها خيال خصيب ، وارهاص بأن فى لغتنا غناء ، وأنها لا تمد يدها كثيراً للاقتراض .

فالاحادية كانت مرحلة تخطتها

---

(١) فى التطور اللغوى ا . د . عبد الصبور شاهين ١١٣ .
(٢) السابق ٩٥ .
(٣) السابق ٩٧ .
(٤) السابق ١١٤ .

البشرية عندما سنحت لها فرصة تطور ، وظرف رقى وترق .

• • •

وما فتئت لغات فى مجموعة الهند وأوربة (كالهندية الصينية) تضع عدداً كبيراً من مفردات معجمها من حرف صامت واحد ، تؤثر فيه النبرات الصوتية (Tons) ينتقل بفضلها إلى مفاهيم كثيرة ومختلفة ، كما فى (Fan)[1] ،

فالكلمة الصينية تتكون من مقطع واحد مفتوح أو مغلق يدل على معنى عام يحدده السياق .

ويذكر الدكتور محمد مصطفى رضوان ، فى مقاله القيم ، وذلك مثل : (ت Ta) فهو يفيد معنى عظيم ، أو كثير ، أو يعظم ، أو عظم . والطريقة التى تتبع فى ترتيب الألفاظ تحدد المعنى المراد ، فإذا قيل : (ت كوك Ta Kuok) كان المعنى : الدولة العظيمة ، وإن عكسنا الترتيب ، وقلنا : (كوك ت Kuok Ta) كان المعنى : الدولة عظيمة ولعل اللغات السامية — ومنها العربية — انتهجت هذا المنهج فى بداية أمرها .

أو قريباً من هذا المنهج ، بالرغم من أنه ليس لدينا من الوثائق التاريخية ما يفيد الجزم واليقين .

لكن غالب الظن أنها سارت ذات المسرب ، ثم انتقلت فى مرحلة ثانية إلى الثنائية والثلاثية عبر آلاف السنين[2] .

وقد آمن بالتطور كثير من الباحثين فى تاريخ اللغات الآرية ، ومن أشهرهم : (بب Bopp) من القدماء ، و (ود Wod) و (وتنى whitney) وجيرسبيرسين Jerspersen) من المتأخرين .

• • •

وقد أشار علماؤنا العرب إلى أن للحرف فى اللغة العربية قيمة تعبيرية . وقد أفاض فى ذلك العالم اللغوى مجد الدين فيروز ابادى ، فى مفتتح كل فصل وباب من كتابه[3] .

وذكر بعض المحدثين أن حرف الحاء فى العربية يدل على : الانبساط والسعة والراحة أما حرف الغين ، فيدل على الظلمة والانطباق والخفاء ، والحزن ، ومثل لذلك بالكلمات : (غيم ، غم ، غبن ، غبطة . .) وقد تساءل بعضهم بقوله : وكيف نفسر : (غنى ، وغنج ، وغـــلام)[4] ؟ وأقول : بقليل من التأمل ترد إلى الخفاء والغبطة .

واحتفى الأستاذ محمد المبارك بظاهرة

---

(١) الأصوات ا . د . إبراهيم نجا ٦٠ ، والالسينة العربية للاستاذ ريمون طحان ٧٧ .

(٢) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ – ١٣٩٢ هـ

(٣) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب للعزيز للعلامة الفيروز آبادى .

(٤) نظريات فى اللغة ١٩ .

اشتراك ألفاظ من مواد مختلفة فى حرف واحد وفى جزء من معناها : فالألفاظ التالية ، وفيها كلها حرف الغين تدل على الغموض والاستتار ، وهى (غاب ، غار ، غاص ، غاض ، غام ، غرب ، غمض ، غم ، غش ، غز ، غص ، غط ، غبر ، غبش ، غبن ، غبق ، غفا ، غطى ، غفر ، غمر ، غرق ...)

والنون فى الألفاظ التالية ، وفيها معنى الخروج أو الظهور : « نبع ، نبر ، نبت ، نبز ، نبه ، نبأ ، نجم ، نطق ، نفث . . . » .

ولذلك يدعو الأستاذ المبارك إلى البحث فى الصلات بين الحروف والمجموعات اللغوية مشيراً إلى أن ذلك سيكون كاشفاً عن أصول العربية وتاريخها الطويل ، وميزتها على أخواتها الساميات وإلى قياسياتها المطردة ، يقول :

« واعتقد أن البحث فى الصلة بين المجموعات الثلاثية وفيما يمكن أن أسميه (التركيب الذرى) للكلمة ، هو بحث تاريخى يرجع بنا إلى عهود قديمة للغة العربية ، استقر فى نهايتها على شكل هذه المجموعات الثلاثية الرائعة ، التى كانت نتيجة تطور لمراحل تكوينية سبقتها ، تحتاج معرفتها إلى بحوث تاريخية واسعة تتناول اللغات السامية جميعاً ، وتنتهى إلى تعليل بقاء العربية وحدها دون غيرها من الساميات . وتوحى هذه الأمثلة إلى أن تركيب الكلمة العربية يشبه كثيراً تركيب المواد الطبيعية المؤلفة من ذرات متفاوتة التركيب »[1] .

ويعطينا الشيخ العلايلى تصوراً مقبولا للقيمة التعبيرية للحرف المفرد ، لدور سابق ومرحلة موغلة فى قدم التاريخ البشرى : فيرى مثلا ، أن حروف (ج ب ل) تعطى تصوراً صحيحاً عن الجبل فى ارتفاعه وشموخه ، واتصاله وتمكنه ، يقول : (الجيم) معناه الارتفاع ، وحرف (الباء) معناه البيت وحرف (اللام) يرمز إلى الملاصقة . والمعنى المؤلف من الحروف مجتمعة : (بيت مرتفع ملاصق للسحاب أو للأرض) ، وهو تصور صحيح ومقبول عن (جبل) .

ويحل كلمة (سمك) إلى (كف الماء القوى) ، هكذا : (السين) معناه الدعامة وهو يرمز إلى مطلق القوى . و (الميم) ترمز إلى المياه . (الكاف) بمعنى الكف وهو يرمز إلى مطلق التبسيط فى صغر . وهذا أيضاً تصور مقبول وصحيح عن (سمك) .

---

(١) عبقرية اللغة العربية ، للأستاذ محمد المبارك ٢٢ ، ٢٣ .

ومن الباحثين المعاصرين من ينكر ذلك على الشيخ العلايلي [١] ، ويرى أن الحرف وإن أوحى بجزء من المعنى ، إلا أنه لا يملك التعبير عنه بانفراده ، ومعنى ذلك أن الحرف بمفرده تنعدم قيمته التعبيرية ، وأن أوحى جرسة بشيء قريب من المعنى .

ومن علماء اللغة من أنكر القيمة التعبيرية للحرف الواحد ، صراحة ، ويرى : « أن الطبيعة عينها ميالة إلى الثنائية » ، لا إلى الأحادية » كما يتوهم بعضهم أن الإنسان الأول بدأ يتكلم بحروف منفصلة ، لأن الحروف المنفصلة لا وجود لها إلا فى جدول الأبجدية ، أى فى الكتابة لا فى اللفظ ، والسبب : أن أعضاء النطق عينها لا تخرج للتكلم (حروفاً صامتة متفرقة) بل مقاطع مركبة من الصامتات ، تحركها الصائتات » [٢] .

وهذا الرفض المطلق لا نوافق عليه ، إذ أن لغتنا قد عرفت فعلا قيمة تعبيرية للحرف الواحد ، كما أوحت بفروق دقيقة بين حرف وآخر ، قرب مخرجهما أو اتحد . . كالفرق بين حروف (الحلق) الستة — الهمز والهاء ، والعين والحاء ، والغين والخاء — وتفاوت المعنى بين التعبير بالحاء أو الخاء ، كما فى قوله تعالى : (فيهما عينان نضاختان) وفى الأثر « كل إناء بما فيه ينضح » ففى الخاء شدة وقوة ، وفى الحاء ضعف ورخاوة ، مع أنهما (الخاء والحاء) حلقيان إلا أن الآية عبرت عن شدة النضخ وأفاد الأثر رخاوته . . فضلا عن أن هناك من الحروف . ما زال أمره محيراً : افرغ من محتواه أم وضعته العرب كذلك كحروف العطف (الواو والفاء) وحرف الجر (الباء) . . فنحن نؤيد أن الحرف استعمل واستقل بقيمة تعبيرية فى مرحلة معينة ، حتى واكبته أسباب حياتية ومعيشية أخرى ، فنقلته مع صاحبه والمعنى إلى دور أرقى من أدوار الحياة على سنة التدرج الطبيعى ، وأحياناً إلى العكس .

وأحدث الآراء اليوم هو القائل : بأن اللغة نشأت كغيرها من الظواهر الاجتماعية نشأة ساذجة .

ثم تطورت بمرور الزمن وتتابع التجارب ، وقد أدى تباين المشاهدات والتجارب وتنوعاتها ، واختلاف البيئات والأوساط والطبائع إلى اختلاف اللغات .

[الحديث موصول]

دكتور توفيق محمد شاهين

---

(١) فى التطور اللغوى ٩٨ .

(٢) معجميات عربية سامية ، للأب مرمرجى الدومنكى ٩٨ .

حول مفهوم الذكر والحركة السلوكية فى الحياة

الأستاذ / إبراهيم أبو محمد

إن معرفة الله كامنة فى وجدان المؤمنين وحناياهم . وهذه المعرفة تدفعهم حينا إلى ساحات المعابد وتحجبهم حينا عن محارم الله فى دروب الحياة . .

وهذه المعرفة مع الجهد المبذول فى ميدان الحياة حول حاجات النفس ومطالب العيش وأسباب البقاء قلما تبقى وضاءة الأثر . . .

والمرء بطبعه مجبول على حب المنفعة لذاته . والبحث عنها ومحاولة الوصول إليها من أهم سماته كبشر خلق من الأرض وعليها يعيش .

وحين يقف بالإنسان تصوره عند مطالب الحس وحده ويتحدد هدفه من الحياة فى عملية الإشباع المادى وترتكز آماله على الوجود الأرضى وحده وإغفال ما عدا ذلك من مطالب الروح يتحول المرء إلى مصارع يتصارع مع غيره حول الكلأ والمرعى حين يجتمع البشر على المبادئ والقيم .

وهنا تكمن الخطورة ويخبو الضوء المشرق داخل النفس وهو الذى يحدد مسيرة الإنسان ومسراه . . . وقد استجابت وانسجمت تعاليم الإسلام مع فطرة الإنسان واحتياجاته من ناحيتى المادة والروح معاً . .

والمتأمل فى تعاليم الإسلام يجدها لا تصادر فى الإنسان غرائزه وإنما تضبطها وتنظمها فى إطار مشروع من حيث المنبع والمصب حتى لا يطغى المرء على غيره أو يأخذ ما ليس له . . . ولكن فى غمرة البحث عن ضرورات الحياة قد يخبو فى النفس ضوء الإيمان أو تعتريها غيبوبة المادة فتجرها حينا إلى الغفلة أو تخلد بها حينا إلى الأرض . .

ومن هنا حث الله عباده أن يقاوموا هذه الغفلة وأن يتخلصوا مما قد يعلق بالنفس من منسيات وأن يستجيبوا لله ورسوله الكريم حين يدعوهم لما يحييهم (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) (الأنفال ٢٤) .

وطبيعى ليست هذه دعوة للبحث عن الضرورات أو المرفهات فى حركة الحياة . . فالناس ليسوا بحاجة إلى ما يذكرهم بهذا بل هم فى حاجة إلى من يوقظهم من غفلتهم ويحررهم من أسار المادة وضغطها . .

إنها بالطبع دعوة لبعث جديد فى حياة جديدة ملؤها العقل الذى عرف الحقيقة والضمير الذى تعشقها وهفا إليها . . . ولما كانت النفس البشرية تخضع لمجموعة من المؤثرات فى سلوكها فإن المؤمن وفق منهج مولاه جل جلاله يرتبط بربه فى كل حين ويصبغ حياته بصبغة الإيمان فى كل عمل .

وهنا تأتى أهمية الذكر كعامل مؤثر فى سلوك المؤمن ينتظم مع الحياة ويرتقى بالمسلم إلى أعلى أفق فى العقيدة والأخلاق .

وقد يسأل سائل . وما هو مفهوم الذكر ؟ وهل هو تلك الحركات التى يأتيها البعض يميناً أو يساراً ؟

ونبادر فنقول : إن الذكر بمفهوم القرآن الكريم أوسع دائرة وأشمل معنى ومكان الذكر ليست صومعة ينحسر فيها المؤمن ويترك الحياة ! إنما صومعة المؤمن هذه الأرض بطولها وعرضها يوظف كل شىء فيها لغاية نبيلة ويسخر طاقاتها لخدمة الإنسان وترقية الحياة .

ومن هنا تعددت معانى الذكر فى القرآن الكريم لتصبغ جوانب الحياة بصبغة الإيمان وتطبع الأرض بطابع الوحى الأعلى وتجعل المسلم مرتبطاً بربه فى كل حركة وسكنة بل تجعله معلق القلب والوجدان بربه فى كل حال .

فهو مع الله حين ينطق وهو مع الله حين يصمت وهو مع الله فى الرخاء والضيق واليسر والعسر ، إنه يرتبط بربه فى النوايا حين يضمرها وفى الكلمة حين ينطقها وفى الحركة حين يأتيها . . والمذكور جل جلاله لا يغيب عنا . إنه معنا فى كل وقت ومعنا فى كل حين . (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) (المجادلة ٧) . . (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) (الأعراف ٢٧) .. (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين) (المؤمنون ١٧) . (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من

ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) (يونس ٦١) .

ومن كان هذا شأنه فمن الحق أن يحس وجوده وأن يتصرف الناس على أساس أنهم فى قبضته جل جلاله . . ومن هنا كان ارتباط منطوق اللفظ « لفظ الجلالة» بحركة سلوكية تحول بين الإنسان وبين ما يغضب الله رب العالمين . . . من أجل ذلك كثرت الآيات تحض المؤمن على ذكر الله تعالى فى كل وقت وتجنبه الغفلة التى يسترسل فيها مع النفس وهواجسها(واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) (الأعراف ٢٠٥) .

من معانى الذكر فى القرن الكريم :

١ ــ فعندما يوقن الإنسان بأن ما عند الله خير وأبقى ويترفع عن الإغراء المادى الرخيص ويرفض قبول الرشوة المقنعة التى تأتيه فى صورة الهدية يكون ذاكرا لله وأى ذكر . ولقد ضرب القرآن الكريم مثلا بنبى الله سليمان حين أرسلت إليه ملكة سبأ بهدية وانتظرت ماذا عساه ، أن يقول . . فردها نبى الله سليمان . يقول القرآن الكريم (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم) (النمل ٣٦ ، ٣٧) . . .

٢ ــ وعندما يترفع الإنسان عن الإغراء الجنسى الرخيص ويستعلى بدينه على رغبات النفس ونزواتها يكون ذاكراً لله وأى ذكر . ولقد ضرب القرآن الكريم مثلا بنبى الله يوسف :

(وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون) (يوسف ٢٣) وفى الآيتين السابقتين نجد أن لفظ الجلالة لم يكن مجرد كلمة تقال إنما هو منطوق ارتبط بحركة سلوكية أحالت بين الإنسان وبين ما يغضب الله تعالى .

٣ ــ وعندما يحاول الإنسان أن ينتصر على ضعفه ويعتصم بربه ويتخلص من خواطر الشيطان وهواجس النفس يكون ذاكرا لله وأى ذكر . قال تعالى : (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) الأعراف ٢٠١ .

٤ ــ وقد يكون الذكر إعترافاً بتقصير وإعتذاراً عن ذنب حين يقف الإنسان فى ساحة الرحمن معتذراً ومنكسراً ومنتظراً رضاه . قال تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا

الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) آل عمران ١٣٥ .

٥ — وقد يكون الذكر زيادة فى التأسي بالقدوة الحسنة والأسوة الطيبة من خلال شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) الأحزاب ٢١ .

٦ — وقد يكون الذكر تعبيراً عن صدق الإيمان داخل النفس البشرية . . قال تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون) الأنفال ٢ .

٧ — وقد يكون الذكر سياجاً يحمى ما فى المؤمن من فضائل وتسام يرد عوادى الدهر ويحطم غرور الشيطان ويقرب الهدف المنشود دون مبالاة بالعوائق التى يبعثرها من يملكون المال والجاه ولا يملكون الضمير والخلق . قال تعالى : (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ، واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا) المزمل ٨ ، ٩ .

(فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلا) .

٨ — وتطواف العقول الذكية بين فجاج الأرض وأقطار السماء ذكر لله وأى ذكر قال تعالى :

(إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار) آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

٩ — ودعوة الناس إلى التحرر من وساوس الأرض وأحوالها والانقياد لأوامر الله والخشوع له وترقيق المشاعر وإرهاف الأحاسيس ذكر لله وأى ذكر قال تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) الحديد ١٦ . .

وهكذا تتعدد مفاهيم الذكر لتشمل آفاق الحياة كلها . وهكذا أيضاً يرتبط الذكر بحركة سلوكية تنبع من قلب يدين بالعبودية لله وحده .

وهى حركة تحركها يد ماهرة تقيم أحكام الله فى الأرض وتعمرها بالحب والإخاء وترتفع بصاحبها فوق متع الحياة وفوق دوافع النصر أو الهزيمة .

إن الذكر بهذا المفهوم إضفاء لصبغة السماء على أهل الأرض وهو ترقية لكل عمل بذكر اسم الله قبله وبذكر اسم الله بعده وبذكر اسم الله عليه وبذكر اسم الله فيه .

وبهذا يكون الذكر معايشة تامة لمبادئ الدعوة وإمتثالا لصدق التعاليم واقتداء بعظمة المعلم وإنتفاعاً بنور الرسالة ورحمة الرسول . وصدق الصديق أبو بكر حين قال : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده وما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه وما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه من غير حل ولامزج ولا انفصال ولا اتصال .

وإلى اللقاء فى مقال تال إن شاء الله

إبراهيم أبو محمد

قال تعالى :

ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق . ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

صدق الله العظيم

إلى الشباب المسلم

دكتور / رءوف شلبي

• إن للإسلام تصوره المستقل للوجود والحياة ، ومن ثم فإنه ينبثق منه منهج ذاتي مستقل للحياة كلها بكل مقوماتها وإرتباطاتها .

ووظيفة التربية الإسلامية هي أن تنشئ حياة إنسانية للأمة الإسلامية توافق هذا التصور وتتمثله في صورة واقعية يشهد فيها الناس معالم الإسلام شامخة . .

والإسلام بهذا المعنى قد قامت عليه دولته الأولى ، فلقد أقامها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على مبادئه ومحجته البيضاء النقية ، ثم حافظ على قيم هذه الدولة من بعده الخليفة الرزين الصديق القوى أبو بكر رضى الله تعالى عنه .

ثم وسع رقعتها وبسط لدين الله في أرضه الخليفتان من بعده عمر وعثمان . . .
ثم كانت النكبة والنكسة التي ما زال المسلمون حتى اليوم يعانون من جرائها : فرقة وتحزباً ، وإنحرافاً في الفهم ، وعندية في الأدلة ، وعنادية في السلوك . .

ونحن هنا في قلب العالم الإسلامي ماذا نريد لأنفسنا وماذا يراد منا ؟

إن القيادة الشرقية بمفاهيمها ، والقيادة الغربية بتكأكئها لم تقدم للإنسان في العصر الحديث إلا الموت والدمار والهدم والتخريب .

والأمة الإسلامية رغم كثرة عددها ، وكثرة ممتلكاتها ، وثروتها الطبيعية والاستراتيجية : ممزقة ، تعاني من الاستعمار ، والفتن الداخلية والخارجية ما لا تقدر على التخلص منه ، وصدق الرسول الأمين فيما يروى عنه : ما معناه : (يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا : أمن قلة نحن يارسول الله ؟ قال : بلى ، ولكنكم كثير ! قالوا : أمن وهن يا رسول الله ؟

قال : نعم . أحببتم الدنيا وكرهتم الموت . . .) .

إذن لا بد من قيادة إسلامية جديدة تملك زمام الحياة حتى تعيد للدنيا السلام . . والأمن . . والطمانينة والرخاء . وليس غير القرآن وحده مصدر يملك هذه القدرة ، فتلك رسالته .

(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً) الإسراء ٩ .

(ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً .. ونحشره يوم القيامة أعمى) . . . . طه ١٢٤ .

والإسلام لا يملك إعادة دولته إلا بمنهجه هو الذى بنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم المجتمع الإسلامى الأول .

نعم . . إن المسافة بعيدة . . بين بعث هذا المجتمع من جديد . . . وبين تملكه زمام قيادة الحياة . . ولكن مع هذا لابد من البدء ؟ ؟

فكم كانت المسافة بعيدة يوم أن جاء الوحى فى غار حراء بقوله تعالى : (اقرأ) بمكة المكرمة . . ويوم أن قالها أخيرة : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) . . المائدة ٣ .

لابد من البعث لجيل قرآنى جديد .. كالجيل الذى رباه محمد صلى الله عليه وسلم .

والظاهرة التاريخية الوحيدة فى طول عمر الحياة أن الدولة الوحيدة التى قامت على منهج هى الدولة الإسلامية . . وأن هذا المنهج بدا بإعداد جيل استطاع أن ينهى دولتى الفرس والروم . . وكان هذا الجيل خليطاً من العبيد والأحرار والأغنياء والفقراء ، والرجال والنساء والمثقفين وغير المثقفين . . . والعرب والحبش والروم والفرس . . ومع هذا فقد تكوّن من هذا كله جيل استطاع أن يبنى دولة الإسلام الأولى .. أول دولة قامت على منهج الفطرة الإنسانية الذى يحقق للإنسان كمال كرامته وإتزان وظيفته ، إن قرآن هذه الدعوة وحديث نبيها الأمين وهديه وتعاليمه ، وسيرته الكريمة ، بين أيدينا كما كانت بين أيديهم .

وما غاب عنا رسول الله إلا بمثل ما كان يغيب عن القبيلة البعيدة التى أسلمت ولكنها كانت تعيش مع سنته وهديه .

إذن لماذا استطاع الجيل الأول أن يبنى دولة الإسلام وعجز الجيل المعاصر عن الحفاظ عليها أو إعادتها ؟

المنبع الأول :

لا بد وأن هناك عاملا أساسياً كان هو حجر الزاوية فى بناء هذا الرعيل الفذ طوال عمر الدنيا وذلك العامل هو مستوى تلقى القرآن الكريم .

كان النبع الأول الذى استقى منه ذلك الجيل هو القرآن وحده .. وكانت أحاديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هى إشعاعات من النبع ، فقد كان خلقه القرآن . . لقد كان فى كل شيء يأتيه أو يدعه قرآنياً ... كما تصورلنا ذلك السيدة عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم فقالت : (كان خلقه القرآن) .

كان القرآن وحده إذن هو النبع الذى تخرج عليه هذا الرعيل الأول بدءاً من النبي الكريم .. حتى آخر واحد فى القوم .

ولم يكن ذلك لفقر فى الثقافة العالمية آنذاك . . فلقد كانت هناك حضارة فارس .. والروم .. والهند .. والصين . .

وكان بين العرب والهند لقاءات فى التجارة . . وكان للعرب أنفسهم أسواق للشعر والقضاء .

لكن ذلك كله (حصاد) من صنع البشر ، لا يصلح لإعداد جيل لبناء دولة الإسلام . . الدولة ذات المنهج العالمى ، فكان القرآن وحده إذن : هو النبع الذى يجب إن يتخرج عليه هذا الرعيل ، لأنه وحده الحبل المتين الذى يصل البشر بالله سبحانه وتعالى . . البشر كله .. لأن منهج الدولة ليس بفكر واحد من الناس . . ولكنه من الوحى الإلهى لكل الناس .

ولذا : فقد كان هناك قصد من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتخرج هذا الجيل على ثقافة القرآن فقط ، ولهذا نهى صلى الله عليه وسلم عن كتابة شيء سوى القرآن . . حتى يتفرغ العصر كله . . وتتجرد العقول والقلوب والمشاعر من كل لون ثقافى إلا من القرآن الكريم . . ففى الحديث الشريف : (لا تكتبوا عنى . . ومن كتب عنى شيئاً غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) .

ويؤكد هذا القصد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — رأى فى يد عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — صحيفة من التوراة فغضب وقال : إنه والله : لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا إن يتبعنى .

وإذن : فقد كان هناك قصد أكيد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقصر

النبع الذى يستقى منه ذلك الرعيل الأول على القرآن الكريم وحده .. لأنه النبع الذى تصح به جميع الأجناس والطوائف البشرية ...

وكان هناك قصد أكيد من هذا الجيل الأول أن يستعذب القرآن وحده كمنبع رائق حبيب .. ليكون وحده مصدر التخرج والتربية :

— فعن ابن مسعود — رضى الله تعالى عنه — قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

— وقال عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى صلى الله عليه وسلم وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً .

لقد اتحد حصر القصد فى النبع الذى يستقى منه الرعيل الأول من القرآن الكريم : من القائد والجماعة التى تربى لتأدية دور يتيم فى عمر الحياة وهو بناء دولة الإسلام على المنهج العلمى السديد القائم على الفطرة واحترام كرامة الإنسان .

التطبيق والأخلاص :

• وثمة : أساس آخر انضم مع النبع الصافى الرائق — القرآن الكريم — الذى أخرجه ذلكم الرعيل الأول .. ذلك الأساس هو التطبيق والإخلاص لمبادئ القرآن الكريم .

إن الرعيل الأول .. لم يكن يقرأ بقصد التفكه والثقافة ، ولا بقصد إدعاء العلم والمعرفة .

لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستزيد من الثقافة لمجرد الثقافية ليكون (دكتوراً) أو (بروفيسوراً) أو (إماماً) أو (حجة) كما نجد كثيراً فى عصرنا الحاضر من هذه الأمثال .. إنما كان يتلقى القرآن ليتصل بالله ويربط شئون حياته وشئون أسرته وشئون الجماعة التى يعيش فيها بما يتلقاه عن ربه من أوامر وتعاليم ... إنه يتلقى القرآن ليعمل به فور سماعه ، كما يتلقى العسكرى المخلص الأمر اليومى من قائده فى لحظة القتال .. إنه يندفع منفذاً للأمر دون تفلسف بِلِمَ ؟ . أو بلماذا ؟

وقد سبق قريباً فى هذا الحديث أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يحفظوها ... ويعملوا بما فيها ... فتعلموا القرآن والعمل والتطبيق معاً .. ومن هنا : كانت الصلة المباركة التى ارتبط بها الرعيل الأول بالملأ الأعلى .

لقد كانوا وهم مصممون على أن يكون

القرآن دستورهم ويخلصون فى تطبيقه عملياً يصلون أرواحهم بخالقهم ، فكانت تحفهم الملائكة وتتنزل عليهم السكينة وتغشاهم الرحمة ، ويأتيهم نعم الله ومدده (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) آل عمران ٣ : ١٢٥ .

ولأن هذا كان هو القصد .. ولأن التربية والإعداد تحتاج إلى زمن ولأن منهج القرآن منها تربوى عملى فإنه يحنو تارة ويقسو أخرى ويردع الفؤاد مرة ، ويهدهد عليه ثانية . . . فقد شاء الله أن ينزل القرآن منجماً ،يقول الله تعالى : (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) الإسراء ١٠٦ .

لقد نزل القرآن تدريجياً كما تتلقون مناهجكم الدراسى لكل عام تدريجياً . .

ولعله من أكبر الأخطاء علمياً أن يقدم عميد الكلية المنهج والكتب إلى الطلاب دفعة واحدة ليقرؤها فى ساعة أو فى يوم أو فى سبوع أو فى شهر . .

ولعله من الخطأ الأكبر طبياً أن ينصح الطبيب مريضه أن يتجرع كمية الدواء التى يعالج بهامرة واحدة . . إنه إذا أخذها بالتدرج كل ثلاث مرات لمدة أسبوع كان من الممكن تقريب الشفاء . .

. . . أما إذا تناول الكمية كلها فسوف يكون ذلك خطراً يقرب المريض من الموت حسب التقدير العرفى . . . . . والآجال بيد الله تعالى . . إن التدرج فى التربية . . . وفى المعالجة هو طبيعة الأشياء . . . وقد سبق الإسلام إلى ذلك . . . وقرره منهجاً . . وربّى به ذلك الرعيل الأول الذى حقق أول دولة بنيت على تقوى من الله ورضوانه. (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم) النساء آية ٢٦ .

ولقد كان الرعيل الأول مخلصاً لدينه وإسلامه . .

لقد كان معنى دخول الواحد منهم فى الإسلام أن يخلع ملابس الشرك .

كان يفهم أن شهادة «أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله» :

نُقلة من الكفر إلى الإيمان .

نُقلة من الأرض إلى رضوان الله . .

نُقلة من الظلمات إلى النور . .

فكان ينخلع من كل ثياب لبسها قبل الإسلام .

وكان ينخلع من ثياب القوميةوالمسيحية واليهودية ..

وكان ينخلع من ثياب القومية والوطنية والإقليمية . .

وكان ينخلع من ثياب التقاليد والعادات والتبعية . .

فماذا كان يريد بلال عندما دخل الإسلام ؟

وماذا كان يرغب النجاشى عندما دخل الإسلام ؟ .

وماذا كان يهوى عمر بن الخطاب عندما دخل الإسلام ؟ .

وماذا كان يريد سلمان الفارسى بدخوله فى الإسلام ؟ .

وماذا كان يريده صهيب الرومى لما دخل فى الإسلام ؟ .

إنهم لا يريدون إلا أن يتقبل الله أعمالهم فى الصالحين . .

لقد أدركوا أن معنى « لا إله إلا الله محمد رسول الله » حياة جديدة حياة سعادة والنور والأُنس والرجاء فى رحمة الله .

• **إسلامية منذ فجرها :**

لقد بُعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبلاد العرب : مكة والحجاز فى أمسّ العوز لعون اقتصادى وكانت أخصب بلاد العرب : المناذرة والغساسنة فى يد حكم فارسى وروماني .

كانت بلاد اليمن كلها فى الجنوب خاضعة للفرس يحكمها أُمراء من العرب لكسرى الفارسى .

وكانت بلاد الشام كلها فى الشمال خاضعة لقيصر الروم ، وكلاهما بيت القصيد فى رحلتى الشتاء والصيف للتجارة العربية أيام الجاهلية الأولى ، كما تحدثنا عن ذلك سورة قريش .

فلم يكن لدى العرب إلا مكة والحجاز ونجد وتهامة ، وهى فقر مجدب فيا ربما لو أن محمداً يومها أعلن — وهو الصادق الأمين — دعوة قومية تحرر البلاد العربية فى الشمال وفى الجنوب ، لتقوم راية القومية العربية ، وتتحد بلاد العرب تحت ملك واحد ، وتتبدل الأحوال الاقتصادية ، يا ربما وجدت استجابة قاطبة من العرب كلها غنيها وفقيرها . . . فقد كانت العرب كلها تدين لقريش وكان محمد صلى الله عليه وسلم فى الذؤابة من بنى هاشم أعلى قريش نسباً وأسماها حسباً ، بل إن القوم قد عرضوا عليه ذلك بالفعل ، يقول ابن كثير راوياً عن عتبة :

« يا معشر قريش » : ألا أقوم إلى

محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا ؟ فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه وكلمه ؟

فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخي : إنك منا حيث قد علمت من السلطة : فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى حتى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ؟

قال : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا الوليد .. أسمع ؟ » قال : با ابن أخي : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا" جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه أو كما قال له ؟

حتى إذا فرغ عتبة قال له النبى صلى الله عليه وسلم :

« افرغت يا أبا الوليد » ؟

قال : نعم .

قال : « اسمع منى » .

قال : أفعل ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون» فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها فلما سمع عتبة انصت لها ، وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمداً عليها ليسمع منه ، حتى انتهى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى السجدة فسجدها ثم قال : أسمعت يا أبا الوليد » ؟

قال : سمعت .. قال : فأنت وذاك » .

إذن العرض من أوله ظاهر فى التجرد لله . . ظاهر فى أن المراد أن يحقق كل فرد فى كل جزء على وجه هذه الأرض المنهج الإسلامى .

«قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين. الأنعام ١٦٢ .

ويا ربما لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلن أنها دعوة للإصلاح

الاجتماعى والسمو الأخلاقى وتطهير المجتمع من الفسق والظلم ، يا ربما وجد وقتها جماعة كبيرة من محبى الأخلاق والفضائل ووجهاء القوم يتبعونه ، فقد كان فى العرب حُمس وحنفاء وحكماء .

ولكن الله لم يشأ أن تكون الدعوة التى يدعو إليها محمد صلى الله عليه وسلم إلا — (الإسلامية) . وهى إسلام وجهه إلى الله فى كل صغيرة وكبيرة .

(ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور) . لقمان ٢٢

وكان أساس هذا كله هو شهادة التوحيد . « لا إله إلا الله محمد رسول الله » لقد حققها الرعيل الأول . . ودارت معارك العقيدة بين المسلمين والمشركين فبدأ بذلك الجهاد فى سبيل الله بالاستعلاء فوق آلام التعذيب (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) . آل عمران ٢٠٠ .

فنى هذا الجو الإيمانى تتطهر النفوس من العبودية للبشر ، وتخلص لعبودية الله ، وتزكو الأرواح ، وتتصفى المشاعر من كل غلس شيطان ، وتقبل على الله مشرقة نورانية .

(يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم) الأنفال ٢٩

فأساس المعاملات كلها وأساس الحياة كلها فى نظر الإسلام هو (لا إله إلا الله) .

وكما أن الشجرة الضخمة الباسقة الوارفة الظلال لا بد لها أن تضرب جذورها فى التربة على أعماق بعيدة ، وفى مساحة واسعة تتناسب مع ضخامتها وارتفاعها فى الهواء فكذلك الدّين . إن نظامه يتناول الحياة كلها ويتولى شئونه البشرية جميعاً كبيرها وصغيرها أسودها وأبيضها أحمرها وأصغرها ، فلا بد إذن له من أساس متين يسع العالم كله ، وكان ذلك الأساس هو (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وقامت الجماعة الأولى على هذه القاعدة واستمرت تربيتها ثلاثة عشر عاماً صفى القرآن الكريم تصورها من كل ثقافة أرضية ، وارتفع بها فوق محيط السلوك البشرى كله ، وعاصر جيل الشباب الذى نشأ بين أحضان الشيوخ توجيه المنهج فزاده ذلك بالله إيماناً وبالإسلام ديناً .

لقد تربّت هذه الجماعة بعد الإيمان العميق بالله على :

• أن الرزق لكل من يدب على هذه الأرض قد تكفل الله به .

• (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كلٌ فى كتاب مبين) هود ٦ .

• وأن العمر مقدر لا يؤخر ولا يقدم ، فقد تقررت لحظة الموت وأنه لا مهرب منه أبداً .

• (قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم) الجمعة ٨ .

(فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) الأعراف ٣٤ .

• وأن الذرية هدية من الله :

(يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً) الشورى ٤٢ : ٥٠

ـــ وربط لهم الآخرة بالدنيا :

(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) النحل ٩٧

(كل نفس بما كسبت رهينة) المدثر ٣٨

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) الزلزلة ٧ ، ٨ .

ـــ وذلل لهم الأرض ليكونوا خلفاء لله فيها :

(هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) الملك ١٥ .

ـــ فاتسعت عقولهم وأرواحهم لهذه التربية واتصلوا بالله . . فكانوا وحدهم على مدى عمر الحياة هم الرعيل الذى شاهد اتصال الأرض بالسماء زهاء ثلاثة وعشرين عاماً . ففتحوا بلاد الله لدينه لا لشهرة الملك ولا لانتعاش اقتصادى ولا لتمدد سياسى ، بل حتى تكون كلمة الله هى العليا .

•• واليوم : ما هو واجبنا وطريقنا !؟

أيها الشباب المسلم :

نحن مطالبون بإعادة هذا الدستور حتى يؤدى القرآن دوره من جديد فى علان كرامة البشر جميعاً تحت لواء (لا إله إلا الله محمد رسول الله) . . فكيف تسير . . إلى الطريق . .

لا بد من التجرد فى التربية ، ولا يتحقق هذا إلا بالعودة إلى النبع الأول ، الخالص الذى استمد منه الرعيل الأول ونشأ عليه وتخرج على أسسه ومبادئه .

• لا بد من العودة إلى هذا النبع

فى صورة مماثلة لصورة بلال وأبو بكر وسعد بن أبى وقاص ، وسمية ، وعمار ابن ياسر ، لابد من عودة مع تطبيق تسلم فيه الوجه لله تعالى ، وهذه العودة لا بد أن تكون صريحة فى الإجابة على هذا السؤال . .

هل نحن مسلمون حقاً ؟

إذا أجبنا بنعم . . فلا بد أن نقبل نظام الإسلام كما جاء به القرآن . . ولا بد أن نبدأ من جديد . . من بناء العقيدة أولا . . كما يقول أصحاب التجربة الرائدة :

« ينبغى أن يكون مفهوماً لأصحاب الدعوة الإسلامية .. أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين . . يجب عليهم أن يدعوهم أولا : إلى اعتناق العقيدة — حتى لو كانوا مسلمين —

يجب أن يعلموهم أن الإسلام هو : إقرار « لا إله إلا الله » بمدلولها الحقيقى وهو رد الحاكمية إلى الله فى أمرهم كله .

إقرارهم فى ضمائرهم وشعائرهم وإقرارهم فى أوضاعهم وواقعهم .

ولتكن هذه القضية هى أساس دعوة الناس إلى الإسلام كما كانت هى أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة .

— وبناء هذه الجماعة لا يمكن أن يكون داخل حزب سياسى ، أو جمعية ثقافية أو نادى رياضى ، ولكنها — يجب أن تكون داخل الإسلام نفسه — وهنا تأتى الشعرة الدقيقة التى لا يدركها كثير من الناس حتى المثقفين والسياسيين كيف تعيش الجماعة الإسلامية فى وسط ضجيج الحياة :

هل تنعزل ؟

هل تندمج ؟

لا تنعزل !

ولا تندمج !

ولكنها تعيش كما عاشت فى بدئها . تعيش كما عاشت فى مكة لها أخلاقها وارتباطاتها ، وعلاقتها الطيبة بالتى هى أحسن حتى إذا تكونت هذه الجماعة وصفت نفسها من حب الدنيا وأقبلت على الله كان عليها أن تمشى الهوينى فى عملية بناء المجتمع الإسلامى وسط هذه الجاهلية الشيوعية والمادية والفردية . وسط ضجيج الشرق .

وضجيج الغرب . .

- وعليها أن تبنى المجتمع الإسلامى لا بالكلام والتأليف بل بالعمل والسلوك وهى إذ تريد أن تتحرك لا بد أن تتبع خطوات الرسول — صلى الله عليه وسلم —

وقد رحمنا الله تعالى فسجل القرآن الكريم جميع تحركات الدعوة فيما يتعلق بالعلاقة مع الكافرين .

على الجماعة الإسلامية التى تتصدى للدعوة الإسلامية :

أن توائم فى تربية الدعاة الذين نيط بهم إعادة بناء المجتمع الإسلامى وعلى الجمعيات — ولا أقول الأحزاب السياسية — التى تعمل لنشر الإسلام وإقامة المجتمع الإسلامى عليها أن توائم بين سياسة اللين والمهادنة التى انتهجتها الدعوة الإسلامية فى السنين الأولى من العهد المدنى .

• ثم سياسة المنهج العسكرى بعد أن تمت للإسلام دولته فى السنة الأخيرة بعد أن هذبت دولة الروم وصالح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صاحب « أيلة » وضمن حدود الشمال والشرق من الإغارة على دولة الإسلام .

• لا بد من إدراك الظروف والملابسات بين قوله تعالى :

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) الممتحنة ٨ .

وبين قوله تعالى :

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) التوبة ٢٩ .

• ولابد من الموازنة بين :

(لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) آل عمران ٢٨

وبين قوله تعالى :

(لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) المجادلة ٢٢

إن الواجب المقدس الذى نحمله اليوم هو :

أن نعيد بناء القرآن فى قلوبنا أولاً .

ثم ندعو الناس بالحسنى .

ثم نبنى المجتمع الإسلامى بالهوينى دون التعصب أو التحمس السياسى الذى يقلب العمل للإسلام ارتزاقاً يشوه الإسلام ويضيّع الثواب ويقرب الناس من الشيطان ويحدث من الفتن ما جرها حزب الشيعة والخوارج وعلماء الكلام من التفرقة والخصومة التى ضيعت ميزة الأخوة الإسلامية ووحدتها وتضامنها أو يقع العمل الإسلامى فى مخلب القط المتنمر .

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) التوبة ٧١ .

(إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) الحجرات ١٠ .

وبعد : أيها الشباب المسلم :

فإن الجماعة التى تريد أن تعيد بناء المجتمع الإسلامى من جديد عليها :

• أن تلتزم بالمنهج الإسلامى . . فقد جرب هذا المنهج ونجح فى تكوين أول دولة فى التاريخ على أساس منهج القرآن الكريم .

• ونجح هذا المنهج فى خلق الجماعة الإسلامية من وسط ركام الجاهلية الفارسية والرومانية قديماً . . وقدم للتاريخ دولة قائمة على أساس واحد هو العقيدة التى كانت وطناً وقومية وأباً وأخاً . . كانت هى الأسرة والقرابة بين المسلمين أجمعين .

وفى الحديث الشريف :

« ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه البخارى .

• نريد من الشباب الذى ينتسب إلى هذه الدعوة . . ويتشرف بالعمل فيها أن يكون على مستوى الوضوح والأدب والجرأة .. مثل سيدنا رِبْعِى ابن عامر وحذيفة بن مُحيصن ، والمغيرة بن شعبة ، يوم أن سألهم رستم أكبر قائد عسكرى قهر جيوش الرومان فى العصر الأول أيام الدعوة لما سألهم : ما الذى جاء بكم ؟ .

فقالوا له : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه فمن قبله

منا قبلنا منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه ومن أبى قاتلناه حتى نفضى إلى الجنة أو الظفر . .

نريدهم على هذا المستوى من العمل والخلق ، نريدهم يعلمون فى البحبوحة الهنيئة بعيداً عن مخالف النمر الكاسر الذى لا يعرف إلا الغدر .

أيها الشباب المسلم :

ذلكم هو حظكم أن أردتم . .
وهذا هو واجبكم وإن لم تريدوا . .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » .

« والله غالب على أمره » .

« وإلى الله عاقبة الأمور » .

دكتور رءوف شلبى

قال تعالى :

نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذا سططا .

صدق الله العظيم

الشريعة الإسلامية و القانون الإنجليزي

المستشار حسن حسب الله

(١٣)

الزنى والقذف

انتهينا فى عدد سابق من الكلام عن حد السرقة ونتكلم فى هذا العدد عن حدى الزنى والقذف .

لا يعرف الإسلام الرهبانية ولا الزهد ولا يفصل بين الروح والجسد ، ولذلك رسم التشريع الإسلامى طريق إشباع الحاجات الإنسانية – بما فيها حاجة الإنسان إلى الجنس – حيث قال تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » – المؤمنون ٥ و٦ و٧ .

فهناك طريقان لا ثالث لهما لإشباع الشهوة الجنسية هما الزواج وملك – اليمين ، وحتى لا يكون هناك أى عذر لأى فرد أباح الإسلام تعدد الزوجات كما أباح الطلاق ، وأجاز للمرأة أن تطلب الطلاق لعيب فى زوجها يمنعه من الاتصال الجنسى بها ، ولا حياء فى الدين .

وعقوبة جريمة الزنى فى التشريع الإسلامى حددت بالقرآن الكريم فى قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين» – النور ٢ ، وقوله صلى الله عليه وسلم « البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب رجم بالحجارة » .

ومن ذلك يتبين أن حد الزنى بالنسبة

لمن لم يسبق له الزواج إطلاقاً هو الجلد مائة جلدة وهذا الحد ثابت بالقرآن الكريم.

أما بالنسبة لمن سبق له الزواج زواجاً صحيحاً تم الدخول فيه دخولا فعلياً وحقيقياً — ولو لم يستمر هذا الزواج ولم يكن قائماً وقت ارتكاب الجريمة — وهو ما يعبر عنه فى — الاصطلاح الشرعى « بالإحصان » — فإن العقوبة هى الرجم بالحجارة حتى الموت ، وهذا الحد ثابت للمحصن بالسنة النبوية قولا بالحديث المذكور وفعلا بما تم من تنفيذ هذه العقوبة فى الزناة المحصنين من الرجال والنساء بأمره صلى الله عليه وسلم .

والزنى هو المباشرة التامة من رجل لامرأة لا تحل له شرعاً أى ليست زوجة له ولا جارية مملوكة له وهو ما يعبر عنه فى الاصطلاح الشرعى بملك اليمين .

وتتم هذه المباشرة الموجبة لإقامة الحد بمجرد إيلاج عضو التذكير من الرجل أو جزء منه فى المكان المعد له من الأنثى بطبيعته ولو لم يصاحب هذا الإيلاج إنزال لماء الرجل ، وبذلك لا تعتبر المباشرة الفاحشة بين رجل وامرأة فى غير هذا المكان زنى موجباً لإقامة الحد ، كما لا تعتبر المباشرة الفاحشة بين رجل ورجل أو بين امرأة وامرأة أو إتيان الرجل للبهيمة أو تمكين المرأة للحيوان من نفسها ، فكل هذه الصور من المباشرة الفاحشة لا تعتبر زنى موجباً لإقامة الحد وإن كان لا يفلت مرتكبوها من العقاب الشديد كما سيجىء فى الكلام عن جرائم التعزير .

ويختلف التشريع الإسلامى عن الشرائع الوضعية جميعها فى عدة نواح : فالشرائع الوضعية تفرق بين الزنى الذى يتم برضا الطرفين والزنى الذى لا يتم برضائهما ، وتحدد سناً معينة لوقوع هذا الرضا صحيحاً من صاحبه ، فلا تعاقب إلا على جريمة الزنى التى تقع بالإكراه أو بالرضاء الصادر ممن لم يبلغ السن المحددة لأهلية الرضا ، كما أنها تفرق بين مرتكبى الزنى من حيث الزواج وعدمه ، فإن كان الرجل متزوجاً فلا يعاقب على جريمة الزنى إلا إذا ارتكب الجريمة فى منزل الزوجية ، أما إذا ارتكبها فى مكان آخر فلا عقاب عليه ، وإذا كان مرتكب الجريمة امرأة متزوجة فهى تعاقب على جريمة الزنى إذا ارتكبتها فى أى مكان ، كذلك تفرق هذه

الشرائع بين عقوبة الزوج الزانى — والزوجة الزانية ، فتجعل عقوبة الرجل أقل من عقوبة المرأة ، كما تقضى بألا ترفع دعوى الزنى إلا بناء على طلب الزوج الذى زنت زوجته أو الزوجة التى زنى زوجها ، وإذا سبق لأحدهما ارتكاب هذه الجريمة فإنه يمتنع عليه رفع دعوى الزنى على الآخر متى ارتكبها ، فالزوج الذى سبق ارتكابه لهذه — الجريمة تستطيع زوجته أن ترتكبها بعد ذلك دون أى عقاب عليها ، كما تجيز هذه الشرائع إيقاف نظر دعوى الزنى بناء على طلب الزوج أو الزوجة فلا يحكم بالعقوبة ، وكذلك يجوز وقف تنفيذ العقوبة بعد الحكم بها بناء على طلب الزوج أو الزوجة ، ويستفيد من كل ذلك فى جميع الحالات الزوج الزانى وشريكته فى الزنى والزوجة الزانية وشريكها ، وتأخذ الشرائع الوضعية بجواز إثبات جريمة الزنى بكافة طرق الإثبات كما إذا ما قورنت بعقوبات الجرائم الأخرى المنصوص عليها فى قوانين العقوبات فى مختلف الشرائع الوضعية .

وللأسف الشديد فقد أخذت تشريعات معظم الدول الإسلامية ومنها مصر بالمعايير السالفة الذكر . فهذه الشرائع الوضعية تفرق بين زنى معاقب عليه وزنى مباح لا عقاب عليه على الإطلاق كما تفتح الباب على مصراعيه دائماً لإفلات الزناة من العقاب .

أما التشريع الإسلامى فلا يقيم مثل هذه التفرقة فكل زنى معاقب عليه ، والتفرقة لا تكون فى أصل العقاب ، وإنما تكون فى مقدار العقوبة متى ثبتت الجريمة وتوافرت كل أركانها المادية والمعنوية ، وهى : بالنسبة للمحصن الرجم بالحجارة حتى الموت ، ولغير المحصن الجلد مائة جلدة .

ويجب لإقامة حدى الجلد أو — الرجم أن تتوافر الشروط الآتية فى الزانى أو الزانية :

١ — أن يتم ارتكاب الفعل المادى المكون لجريمة الزنى بالكيفية التى شرحناها سابقاً .

٢ — أن يكون مرتكب الفعل عاقلا وليس مجنوناً : وبالغاً وليس صبياً .

٣ — أن يكون مختاراً لأنه لاحد على صغير ولا مجنون ولا مكره . وعلى ذلك فإذا أكره رجل امرأة على الزنى معه فلا حد عليها ويقام الحد عليه وحده وإذا ارتكب رجل أو امرأة الفعل المادى للزنى مع شخص نائم

فلا حد على هذا النائم وذلك لما روته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبى حتى يحتلم وعن المجنون حتى يعقل » .

وقد أضاف بعض الفقهاء شرطاً رابعاً نراه مهما فى هذا العصر وهو العلم بالتحريم أى ارتكاب الزانى للفعل المادى وهو عالم بأن ما يفعله يكون جريمة الزنى المعاقب عليها بالجلد أو الرجم ونرى أن هذا الشرط يجب أن يؤخذ به وأن يكون محلا للاعتبار خاصة فى مثل هذه الأزمان التى اعتبرت فيها الشرائع الوضعية مباشرة الجنس أمراً عادياً شأنه شأن الطعام والشراب ولم تعتبره جريمة إلا فى حالتى الزواج وانعدام الرضا ، ذلك لأن الشريعة الإسلامية لا يقتصر تطبيقها على المسلمين فقط بل يمتد تطبيقها إلى المسلم وغير المسلم من الكفار وأهل الكتاب وبالتالى فإن الحاكم المسلم ملزم بالحكم بحد الزنى وتنفيذه فى الزناة من غير المسلمين أيضاً متى وقعت الجريمة فى البلاد الخاضعة لحكم المسلمين ، ويقتضى العدل أن يكونوا عالمين بذلك ، فلو قدم بعض الأجانب من غير المسلمين إلى أحد الأقطار الإسلامية وارتكبوا هذه الجريمة فيما بينهم ولم يكونوا عالمين بحكم الاسلام فيها فلا يقام عليهم حد الزنى ، ومسألة العلم من عدمه مسألة وقائع تدخل فى التقدير المطلق للقاضى ، والأصل فيها — العلم خاصة بالنسبة للمسلمين ، وعلى من يدعى عكس ذلك عبء إثبات عدم علمه بحكم الإسلام فى هذه الجريمة .

ونظراً للعقوبة القاسية لجريمة الزنى والتى تصل إلى الحد الأقصى بالنسبة لعقوبة الجلد بوصول العدد إلى مائة وطريقة تنفيذ عقوبة الموت حيث يتم رجماً بالحجارة والنهى عن أخذ الزناة بالرأفة أو الرحمة فإن التشريع الأسلامى أفرد هذه الجريمة بطرق إثبات خاصة بها لا تشاركها فيها أية جريمة أخرى فلا تثبت جريمة الزنى إلا بأحد طريقين لا ثالث لهما الشهادة والإقرار .

وانفردت الشهادة فى هذه الجريمة ، بأحكام خاصة تختلف عن أحكام الشهادة فى باقى الجرائم فبينما يكتفى فى الشهادة بشاهدين اثنين فقط فإن الشهود فى هذه الجريمة يجب الا يقل عددهم عن اربعة وبينما يمكن أن يكون الشهود فى الجرائم الأخرى من

النساء فإنه فى هذه الجريمة لا تقبل شهادة النساء ويتعين أن يكون جميع الشهود من الذكور ويشترط فى الشاهد أن يكون بالغاً وعاقلا وعدلا ومسلما حتى لو كان يشهد على غير مسلم .

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعـــة منكم » النساء ١٥ .

وبينما لا يتعين عقاب الشاهد فى الجرائم الأخرى إذا تضاربت شهادته مع باقى الشهود أو لم يؤخذ بشهادته فإنه فى هذه الجريمة يعاقب الشهود إذا تضاربت أقوالهم أو لم يؤخذ بشهادتهم ويحدون حد القذف وهو حد يقترب فى عقوبته من عقوبة جريمة الزنى ذاتها حيث يصل إلى ثمانين جلدة .

ويراعى عند سماع القاضى للشهود أن يسمع كل شاهد على انفراد وأن يسأله عن ماهية الزنى الذى شهده وكيفيته ومكانه وزمانه وهل تم عن طواعية واختيار أو باكراه ولا تثبت الجريمة إلا إذا اتفقت أقوال جميع الشهود الأربعة بأنهم شهدوا فرج الزانى فى فرج الزانية أو المزنى بها كالمرود فى المكحلة ولا عقاب عليهم ولا حرج فى هذه الرؤية لأنها لازمة لإثبات حد من حدود الله كما يشترط اتفاق أقوالهم فى كل ما يتعلق بالجريمة من أشخاص وزمان ومكان وكيفية وقوعها فإذا اختلفوا فى شىء من ذلك بطلت شهادتهم واعتبروا مرتكبين لجريمة القذف وحكم عليهم بعقوبتها كما سيجىء .

أما الإقرار بالزنى فهو الاعتراف به ولا يؤخذ بالإقرار إلا إذا كان صادراً من شخص بالغ عاقل ولا يسرى الإقرار بالزنى إلا على المقر وحده فلو أقر رجل بأنه زنى بامرأة معينة ولم تقر هى بذلك ولم يتوافر الشهود بالشروط التى سبق أن ذكرناها أقيم حد الزنى عليه وحده دونها وأقيم عليه إلى جانب ذلك حد القذف أيضاً .

وقد اختلف الفقهاء فيما إذا كان يكفى الإقرار مرة واحدة أم أنه يجب أن يكون أربع مرات قياساً على عدد الشهود فذهب بعضهم ومنهم الحنفية والامام أحمد إلى ضرورة الإقرار أربع مرات بل ذهب الحنفية إلى أن يكون الإقرار أربع مرات فى أربعة مجالس متفرقة وذهب البعض الآخر إلى أنه يكفى أن يكون الأقرار مرة واحدة ومن هذا الرأى مالك والشافعى وغيرهم وهذا هو الرأى الأرجح .

وقد ذهب الامام مالك والإمام أحمد والشافعية والحنفية إلى جواز الرجوع عن الإقرار بالزنى وسقوط الحد تبعاً لذلك ولا ينفذ.

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى جواز ثبوت الحد بظهور الحمل على امرأة غير متزوجة وإن ذلك يعتبر دليلا على زناها ولكن جمهور الفقهاء ذهب إلى أن مجرد الحمل لا يثبت به الحد وأنه لا بد من الإقرار أو الشهادة وهذا الرأى يؤيده العلم الحديث ذلك أنه قد ثبت إمكان حمل المرأة ولو لم تصل المباشرة الفاحشة بها إلى مرتبة الفعل المادى المكون لجريمة الزنى.

وعلى ذلك فإن جريمة الزنى لا تثبت إطلاقاً ولا يطبق عليها حد الزنى من جلد أو رجم إلا بطريقين اثنين فقط وهما : الشهادة والإقرار.

إذا كان الأمر كذلك فما هو الحكم لو شاهد رجل زوجته مع رجل آخر يرتكبان جريمة الزنى ولم يكن معه شهود آخرون. هل يتركهما فى هذا الوضع ويذهب للنداء على أناس يروا هذا الفعل ويشهدوا معه وهل سيظل الجانيان على وضع الزنى حتى يحضر الشهود.

عالج التشريع الإسلامى هذا الفرض بما يعبر عنه فى الاصطلاح الشرعى « باللعان » وذلك بقوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين » — النور ٦ و٧ و٨ و٩ .

ومقتضى هذه الآيات أن الرجل إذا رأى زوجته فى وضع الزنى وطلب إقامة الحد عليها ولم يكن هناك شهود غيره ولم تعترف زوجته بالزنى فإنه يشهد أربع مرات أنه صادق فى ادعائه وفى الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان كاذباً فى ادعائه ثم تسمع شهادة الزوجة بعد سماع شهادته فإن امتنعت أقيم عليها الحد أما إن شهدت أربع شهادات بأنه كاذب فى ادعائه وفى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان صادقاً فى هذا الادعاء فإنه يترتب على ذلك نفى الاتهام عنها وبالتالى عدم إيقاع الحد عليها. ويجرى اللعان أمام القاضى ويترتب عليه إن أنكرت الزوجة صحة اتهام الزوج

الحكم بالتفريق بينهما نهائياً ولا يجوز لهما العودة إلى الحياة الزوجية بعد ذلك مرة أخرى حيث تصبح هذه الزوجة محرمة عليه حرمة مؤبدة .

ويشترط لصحة اللعان أن يكون — كلا من الزوجين بالغاً وعاقلا لأن الصبى والمجنون ليسا بأهل للشهادة أو اليمين كذلك يشترط أن يتم اللعان بين زوجين مسلمين فلا تسرى أحكام اللعان ولا يستفيد بها غير المسلمين .

كذلك لا تسرى أحكام اللعان إلا فى حالة اتهام الرجل لزوجته بالزنى ولا تسرى فى الفرض العكسى وهو اتهام المرأة لزوجها بالزنى فلا تثبت عليه جريمة الزنى فى هذه الحالة إلا باعترافه بارتكابها أو بشهادة أربع شهود له بالشروط السابق ذكرها .

ومن كل ما تقدم يتضح الفارق الكبير بين حكم التشريع الاسلامى وحكم الشرائع الوضعية فى جريمة الزنا فالتشريع الإسلامى بقدر ما أغلظ فى العقاب على هذه الجريمة ولم يسمح بالعفو فيها تشدد فى طرق إثباتها حتى يكاد يفلت الزناة من العقاب إذا ارتكبوا هذه الجريمة فى ستر عن الناس ولم يقروا بارتكابهم لها ذلك الإقرار الذى لا يصدر إلا عن نفس قاربت الكمال فى درجة الإيمان ففضلت عذاب الدنيا على عذاب الآخرة فقدمت نفسها عن طواعية واختيار لتنفيذ حكم الله فى مرتكب هذه الجريمة لتضمن إسقاطها من كشف حسابها فى اليوم الآخر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

فالتشريع الاسلامى فى هذه الجريمة لا يبغى مجرد العقاب وانما يبغى حماية المجتمع من الفساد وأن تسود الفضيلة وتختفى الرذيلة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فاستتر فهو فى ستر الله ومن أبدى صفحته أقمنا عليه الحد » — ولذلك إذا بلغت الجرأة والاستهتار بالزانى أن يفعل هذه الجريمة بحيث يشاهده أربع رجال متلبساً بفعله الشائن فإنه لا بد وأن يلقى الجزاء الرادع له ولمن تسول له نفسه أن يفعل مثل فعلته حتى لا تشيع الفاحشة فى المجتمع ويستمر ظاهره نظيفاً وإذا ما وقعت هذه الجريمة فى الظلام ولم تبلغ حد الذيوع والمجاهرة أمكن للمجرم التوبة والرجوع إلى الله وساعد ذلك على تنقية الجو الخلقى العام بإختفاء مثل هذه الجريمة

فى الظلام فلا يظهر للناس الا البراءة والفضيلة وقد ترك الله باب التوبة مفتوحاً فللمجرم فرصة التوبة والتكفير عن خطيئته .

هذا هو نظر التشريع الإسلامى لجريمة الزنى وحكمته من التشديد فى طريق الإثبات والتغليظ فى العقاب بينما جعلت الشرائع الوضعية الزنى فى حكم المباح أصلا إلا إذا وقع من زوج أو زوجة أو وقع بالإكراه أو برضا من لم تبلغ السن القانونية وهذه السن فى بعض الشرائع ثمانية عشر عاماً وبعضها ستة عشر عاماً فقط وجعلت هذه الشرائع إثبات الزنى جائزاً بكافة طرق الإثبات وخففت العقاب فجعلته مجرد جنحة بسيطة عقوبتها الحبس مدة لا تزيد على السنتين بالنسبة للزوجة الزانية ولا تزيد على الستة الشهور بالنسبة للزوج الزانى بلى وأباحت للزوج الزنى فى أى مكان غير بيت الزوجية وفتحت الباب على مصراعيه لإيقاف تنفيذ العقوبة بعد صدور الحكم بها وبذلك ساعدت هذه الشرائع على انتشار هذه الجريمة واعتبارها شيئاً مألوفاً لاغضاضة فيه ولا استنكار له ولا احتقار لمرتكبه وأصبح بعض الزناة نجوماً فى المجتمعات يحظون بكل تكريم وتشريف وأصبح من يسرق رغيف العيش ينظر إليه ويعامل على أنه مجرم خطر على المجتمع يجب ألا يؤخذ بأية رحمة بينما الزانى المجاهر والمفاخر بفسقه لايؤاخذ بحجة أن ذلك « مسألة شخصية » ولا يحول زناه بينه وبين المناصب — الكبرى ولا بينه وبين احترام الناس وامتدت إباحة الزنى فى هذه الشرائع إلى إباحة الشذوذ الجنسى بين الرجال ولم تقف موجة الانحلال إلى هذا الحد بل أصبح الجنس تجارة وفنا ومهنة لا عيب إطلاقاً على من يمارسها حتى ارتفعت الأصوات فى الولايات المتحدة الأمريكية غير مكتفية بإباحة الشذوذ الجنسى بين الرجال بل تطالب بتنظيم عقود زواج بينهم تحدد علاقتهم ببعضهم على نسق ما هو محدد فى علاقة الرجل بزوجته فى النفقة والميراث فانظر أى مستوى منحط وصلت اليه الرجولة والإنسانية بفضل هذه — الشرائح الوضعية التى اقتبس منها المسلمون أحكامهم والتى جعلت جرائم الزنى مثل مخالفات المرور التى تحرر ضد سائقى السيارات .

وتتصل بجريمة الزنى اتصالا وثيقاً جريمة

القذف ذلك أن القذف الموجب لايقاع الحد البالغ ثمانين جلدة يقتصر فى التشريع الإسلامى على الرمى بالزنى لقوله تعالى :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون » — النور ٤ . فهذا الحد ثابت بنص قرآنى فرمى النساء المحصنات بالزنى أى اتهامهن بارتكاب الزنى جريمة عقوبتها الجلد ثمانون جلدة ولا يعفى القاذف من هذه العقوبة إلا أن يثبت صحة ما يدعيه ولا يتأتى ذلك إلا إذا أقر بالزنى الشخص المقذوف أو انضم للقاذف ثلاثة شهود آخرون ليكمل نصاب الشهود إلى أربعة يشهدون — بارتكاب المقذوف للزنى بالكيفية التى سبق لنا الكلام عنها فى إثبات جريمة الزنى بشهادة الشهود فإن قل عدد الشهود عن أربعة واختلفت شهادة أحدهم عن شهادة الباقين اعتبروا جميعاً مرتكبين لجريمة القذف وحوكموا عليها ونفذت فى كل منهم عقوبتها .

وظاهر الآية قد يفهم منه أن حد القذف لا يقام الا فى حالة قذف الرجال للنساء المتزوجات ولكن المتفق عليه بين الفقهاء هو إقامة الحد فى جميع حالات القذف سواء كان القاذف رجلا أو امرأة وسواء كان المقذوف من الرجال المحصنين أو النساء المحصنات فالحكم القرآنى فى هذه الآية لا يخص أحد الجنسين دون الآخر وذلك بمقتضى قانون — التساوى فى الأحكام إلا إذا ثبت ، تخصيص النص بأحد الجنسين دون الآخر ولا يوجد فى هذا النص ما يوجب التخصيص كذلك فإن الحكمة من حد القذف وهو الرمى بالزنى هو منع إشاعة الفاحشة فى المجتمع — الإسلامى بكثرة الاتهام بها واستسهال قولها فى حالة عدم العقاب عليها بمثل هذه العقوبة الرادعة وذلك لقوله تعالى :

(إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) النور ١٩ وذلك حتى يبقى للمجتمع الإسلامى مظهره النظيف وهى الحكمة التى من أجلها شرع حد الزنى وشدد فى طريقة إثباته .

والإحصان فى جريمة القذف يختلف فى معناه عن الإحصان فى جريمة الزنى فبينما يكتفى لتحقق الإحصان الموجب

للرجم فى حد الزنى أن يكون الزانى حراً بالغاً عاقلا قد تزوج زواجاً صحيحاً ودخل بزوجته دخولا حقيقياً فإن هذه الشروط لا تكفى لتحقق الإحصان فى جريمة القذف حيث يشترط وقوعها فى الشخص المقذوف رجلا أو امرأة أن يكون مسلماً وأن يكون عفيفاً .

والعفة تتحقق بعدم سبق ارتكاب المقذوف لجريمة الزنى فمن زنى فى أول بلوغه ثم تاب وحسنت حالته وامتد عمره فقذفه قاذف فإنه لا يقام الحد على هذا القاذف وإنما يعاقب تعزيراً كما سيجىء عند الكلام عن جرائم التعزير .

كذلك لا يقام حد القذف إذا كان المقذوف غير مسلم أو كان المقذوف غير محصن بشروط الإحصان السالفة الذكر .

أما شخص القاذف سواء كان رجلا أو امرأة فلا يشترط فيه سوى أن يكون عاقلا بالغاً مختاراً وهى شروط التكليف فقط فلا يشترط فيه أن يكون حراً أو مسلماً أو محصناً أو عفيفاً .

ويجب أن يكون القذف الموجب للحد بصريح الزنى لا بأى شىء آخر سواء تم ذلك قولا أو كتابة .

ومتى توفرت الشروط المتقدمة فى شخص القاذف وشخص المقذوف وموضوع القذف وهو الرمى بالزنى عوقب القاذف بعقوبتين : الأولى مادية وهى إقامة حد القذف بجلده ثمانين جلدة والثانية أدبية بمنع قبول شهادته والحكم بفسقه لقوله تعالى :

(ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون) وإذا صدر القذف من زوج لزوجته وتوافرت شروط إقامة الحد عليه فإنه لا يدرأ الحد عنه إلا إقرارها بالزنى أو إجراء اللعان بينهما كما سبق أن ذكرنا ، أما إذا قذفت المرأة زوجها فإنه يقام عليها الحد ولا يتم إجراء اللعان فى هذه الحالة ولا يدرأ عنها الحد إلا إقراره بالزنى .

وتثبت جريمة القذف إما بإقرار القاذف نفسه بالقذف أو بشهادة رجلين عدلين فلا تقبل فى إثباته شهادة النساء كذلك تثبت جريمة القذف ويقام الحد إذا صدر فى مجلس القضاء أمام القاضى فللقاضى فى هذه الحالة أن يقيم الحد على القاذف وإن لم يشهد بالقذف أحد غيره متى طلب المقذوف ذلك .

ولا يسقط الحد عن القاذف إلا إذا جاء بأربعة شهود لأنه بشهادة الأربعة بالزنى تثبت جريمة الزنا على المقذوف

ويقام عليه حد الزنى وتنتفى صفة القذف عن القاذف ونفس الحال إذا أقر المقذوف بالزنى واعترف بما رماه به القاذف ولا يسقط الحد برجوع القاذف عن قذفه أو اعتذاره أو تكذيبه نفسه أو تقديم مبلغ من المال كتعويض للمقذوف .

وقد اختلف الفقهاء فيما إذا كانت دعوى القذف لا تقام إلا بناء على طلب المقذوف أو ورثته ، أم لا تتوقف على طلب أحد منهم وكذلك اختلفوا فى أثر عفو المقذوف عن القاذف بعد صدور الحكم بإقامة حد القذف عليه وهل هذا العفو يوقف تنفيذ الحد أم لا أثر له فى ذلك .

ومنشأ هذا الخلاف هو اختلافهم فيما إذا كان حد القذف حق خالص لله أم أنه حق خالص للعباد أم أنه حق خالص لله وللعباد معاً .

فمن قال بأنه حق خالص لله ذهب إلى مساواته بحد الزنى من حيث إقامة الحد ولو لم يطلبه المقذوف ولا أثر للعفو فى إقامة الحد . ومن قال بأنه حق خالص للعباد ذهب إلى أن حد القذف لا يقام إلا بناء على طلب المقذوف لأن الاعتداء إنما تم على عرضه وشرفه هو وأن له حق العفو سواء عند الترافع قبل صدور الحكم أو بعد صدور الحكم فيمنع بذلك إقامة الحد على القاذف ومن هذا الرأى الإمام الشافعى . ومن قال بأنه حق لله وحق للعباد ذهب إلى أن الحد لا يقام إلا بناء على طلب المقذوف ولا أثر لعفو المقذوف عن القاذف سواء صدر هذا العفو عند الترافع أم بعد صدور الحكم ومن هذا الرأى الإمام أبو حنيفة وهو ما نرى الأخذ به حيث يتمشى مع الهدف من حد القذف وهو عدم إشاعة الفاحشة فى المجتمع الإسلامى وعدم التعرض لأعراض الناس وشرفهم والتدخل بالوساطة والشفاعة والرشوة فى إيقاف الحدود خاصة فى هذه الأزمان التى ساد فيها الفساد .

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام عن حدى الزنى والقذف وسنتكلم فى عدد قادم إن شاء الله عن باقى جرائم الحدود.

حسن حسب الله

٭٭٭٭٭

مصر فى غربة البارودى ..

للدكتور سعد ظلام

للبارودى فى مصر شعر كثير ، وهو متنوع بتنوع حياته وذكرياته ، فمن ذلك الشعر الذى قاله فى وصف طبيعتها الساحرة الخلابة ونيلها الخالد ، وحدائقها الغن ، ونخيلها السامق ، وما وصف به جزيرة الروضة والمقياس ، تلك الجزيرة التى حفظت ذكرياته ومرابع صباه ، وأيام لهوه ومرحه ، وغزله وتشبيبه ، وحبه وحبيبه ، وكل عمره المنضر على صفحتها والمضوّأ بالشوق والوفاء ، والنابض بالحب والحنين .

ولكن الذى يعنينا هنا ونود الحديث عنه هو شعره الذى قاله فى مصر وهو مغترب عنها ، يصور فيه حنينه الدائب وشوقه المتصل .

وإذا كنا قد سمعناه يقول فى روضة المقياس قبل غربته :

هل فى الخلاعة والصِّبا من باس
بين الخليج وروضة المقياس

أرض كساها النيل من إبداعه
ولباسه الموشىّ أىّ لباس

فكأنما هوَتِ المجرة بينها
فتشكلت فى جُملة الأغراس

يتلهب النُّوارُ فى أطرافها
فتخالُه قبَساً من الأقباس[1]

إلى أن يقول :

ملهى أخى طرب وملعب صبوة
وثرى بلهنية ودار أناس

إذا كنا قد سمعناه يقول ذلك مصوراً روضة المقياس وغيرها على هذا النحو الجميل من التصوير الشائق الحى النابض بالحرارة فإن هذا السحر ما يزال يداعب أحضانه ويملك عليه أقطار نفسه وهو ناءٍ بعيد الدار .

والقارئ شعر البارودى يمكن أن يقسم الغربة إلى غربتين : غربة إرادية وغربة غير إرادية .

---

(١) الديوان جـ ٢ ص ١٣٠ وما بعدها .

والغربة الإرادية تضم شعره الذى قاله وهو بعيد عن مصر قبل نفيه عنها ، والغربة الثانية تضم شعره الذى قاله فى شوقه اللهيف إليها وهو فى منفاه ، وللبارودى فى الغربتين شعر فى غاية الروعة والإبداع . ولنبدأ بغربته الإرادية وهو بحكم طبيعة عمله كضابط بالجيش كان كثير الارتحال عن مصر للاشتراك فى الحروب وإخماد الثورات خارج البلاد ، وكان يتشوق إليها ويراسل أحبابه وأهله ، سائلا عنهم وعن مصر ، شارحاً شوقه الدافق وشعوره الوامق واصفاً ما يحس به[1] ، ونفسه الموارة بالشوق تحلق عليها ، وتصافح كل بسمة على شفاه ذويها وكل خفقة من نسيمها الوادع المواج بالألق والعبير ، وأمواج نيلها المتألقة المترقرقة ، يقول وهو فى جزيرة « كريت » التى كانت تابعة آنذاك للدولة العثمانية ، وأعلنت الثورة والعصيان سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٥م) تقريباً فأرسل إليها الخديوى نجدة عسكرية كان البارودى أحد ضباطها يقول البارودى متشوقا إلى مصر وأهلها :

سرى البرق مصريًّا فأرّقنى وحدى
وأذكرنى ما لست أنساه من عهد
فيابرق حدّثنى وأنتَ مصدّقٌ
عن الآل والأصحاب ما فعلوا بعدى
وعن روضة المقياس تجرى خلالها
جداول يسديها الغمام بما يسدى
إذا صافحتها الريح رهواً تجعّدت
حبائلهُا مثل المقدَّرة السرد
وإن ضاحكتْها الشمس رفّت كأنها
مناصل سلّت للضِّراب من الغمْد
نعمت بها دهْراً وما كلُّ نعمة
حبتْكَ بها الأيام إلاّ إلى الرد

ونلاحظ أنه فى هذه الأبيات تقتبس تشبيهاته من أدوات الحرب التى يخوضها أو يضفى على ألفاظه أردية حربية كما نلاحظ نفسيته الفرحة وتفاؤله وشموخه العظيم .

ويقول أيضًا من قصيدة أخرى قالها وهو فى حرب الروس مع الدولة العثمانية من قصيدة أرسلها إلى أستاذه الشيخ حسين المرصفى مصوراً ما يحس به من الشوق والنزوع الوجدانى :

هو النار فى الأحشاء لكن لوقْعها
على كبــدى مما ألذ به برد
لَعَمْرُ المغانى وهى عندى عزيزَةٌ
بساكنها ما شاقنى بَعْدَها عهد[2]

فهو يعتبر الشوق ناراً ، ولكنها نار

(١) جـ ١ ص ٢٠٤ وما بعدها .

(٢) جـ ١ ص ٢١٠ .

لذيذة تقع على فؤاده برداً وسلاماً ثم نراه يعتب على إخوانه الذين لم يراسلوه لأنهم بتجاهلهم له ، وعدم مراسلتهم إياه يشعرونه بغربته أشد ما تكون وطأة وألما.

والبارودى قصيدة من الحنان الدائم والشوق الموصول بمصر ، يقول فى قصيدته التى قالها فى يوم عيد الفطر وهو فى تلك الحرب :

أراكَ الحِمَى شوقى إليك شديدُ
وصبرى ونومى فى هواك شريد
مضى زمن لم يأتنى عنك قادم
ببُشرَى ولم يعطف على بريد
وحيد من الخلان فى أرض غربة
ألا كلُّ منَ يبغى الوفاءَ وحيد
فهل لغريب طَوَّحَتْهُ يد النَّوى
رجوعٌ وهل للحائمات ورود
وهل زمن ولَّى وعيش تقيَّضَتْ
غَضَارَتُهُ بعدَ الذهاب يعود
أعلل نفسى بالقديم وإنما
يلذُّ اقتبال الشىء وهو جديد
وما ذكرَىَ الأيام إلاَّ لأنَّها
ذمام لعرفان الصِّبا وعهود
فليس بمفقود فتى ضمَّه الثرى
ولكن من غالَ البُعاد فقيد[1]

وتراه فى هذه القصيدة يتألم للفراق ونفسه المائرة بالحب والحنين مطحونة بين الغربة والفراق متألمة معذبة .

وهو لا يحس بالعيد ولا يستقبله ببهجة ، لأن البهجة إنما تكون باجتماع الأحباب وهو بعيد عنهم ، حتى إن إحساسه بالغربة يسلب عنه طعم الحياة ذاتها .

ونكتفى بما ذكرنا للغربة الإرادية ونلاحظ على شعره فيها ملامح الصدق فى الإحساس والصدق فى التعبير كما نلاحظ جلال العبارات وشموخها ، وسمات الشجاعة وقد كسا الألفاظ بأدوات الحرب ولم ينحن لفراق مصر وغربته عنها ، ولم يزلزل كيانه عظمة حضورها فى ذهنه فهو يحس بأنه مصرى حالت ظروف عمله وطبيعته دون رؤيته لها ، وأنه عائد إليها متى انتهت الحرب وخمدَ أوارها .

وشعره فى الغربة غير الإرادية يصور نزوعه وشوقه إلى مصر ، وهو منفى عنها ، بعد أن فعلت به الأحداث فعلتها ، يقول وهو فى سرنديب :

ترحَّلَ من وادى الأراكة بالوجد
فبات سقيما لا يعيد ولا يُبْدى
سقيما تظلُّ العائدات حوانياً
عليه بإشفاق وإن كان لا يُجْدى

(١) جـ ٢ ص ٢٦٠ وما بعدها .

يخلْن به مسًّا أصاب فـؤادَه
وليس به مسٌّ سوى حرقة الوجد
به علَّة إن لم تُصبْها سلامةٌ
من الله كادَت نفس حاملها تَردى
ومن عجب الأيام أنىَ مُولع
بمن ليس يعنيه بكائى ولا سهدى
أبيت عليلا فى « سرنديب » ساهراً
أعالج ما ألقاه من لوْعتى وحدى
أدور بعيْنى لا أرى وَجْه صاحب
يريعُ لصَوْتى أو يرقٌ لما أبْدى

ثم يذكر المقياس فى نزوع شديد وعبير عاطفى خالد :

خليلىَّ هذا الشوقُ لا شك قاتلى
فميلا إلى المقياس إنخفتُما فقْدى
ففى ذلك الوادى الذى أنْبت الهوى
شفائى من سقمى و بُرئى من وَجدى
ملاعبُ لهو طالما سرْت بينْها
على أثر اللذات فى عيشه رَغْد
إذا ذكرتها النفس سالتْ من الأسى
مع الدمع حتى لا تُنَهْنَهَهُ بالرد
فيا منزلا رقرقت ماءَ شبيبتى
بأفنائه بين الأرَاكة والرنـد
سرَت سحراً فاستقبلتْك يد الصبا
بأنفاسها وانشق فجرُكَ بالحمْدِ
وزرَّ عليك الأفقُ طوْق غمامة
خضيبة كف البرقِ حنَّانة الرعد
فلست بناسى ليلة سلفت لنا
بواديه والدنيا تغُرُّ بما تُسْدى
إذ العيشُ ريَّانُ الأماليدِ والهوَى
جديدٌ . وإذ لمياءُ صافيةُ الوُد[1]

ونلاحظ أن شموخ الشاعر بدأ يضمحل ، وإباءه بدأ يتهاوى ونفسيته الحزينة الداكنة تكسو الألفاظ وهنًا وضعفًا وسقمًا وعلة .

وتطالعنا هذه النبرة الحزينة فى كل قصائد الغربة التى قالها وهو فى منفاه فهو يحس بوطأة الزمن وتثاقله ، ويرى الليل وكأنه قد تقيدت كواكبه — وكأن المستقبل والأمل والغد ضلت الطريق إليه يقول :

خليلىَّ هل طال الدجى أم تقيَّدَتْ
كواكبه — أم ضلَّ عن نهجه الغدُ
أبيت حزيناً فى « سرنديب » ساهراً
طوَالَ الليالى والخليُّونَ هُجَّد
أحاول ما لا أستطيعُ طلابه
كذا النفس تهوى غيرَ ما تملك اليدُ
إذا خطرت من نحو « حُلوانَ » نسمةٌ
نزَتْ بينَ قلبى شُعْلَةٌ تتوقَّد[2]

أرأيت ثقل الحياة على فؤاده ، وكيف تقيدت الكواكب وضل الغد الطريق

(١) جـ ١ ص ٢٥٢ وما بعدها .
(٢) جـ ١ ص ٢٦٣ وما بعدها .

إليه ، وما الذى لا يستطيع طلابه ؟ إنه مصر بكل ما يعج بها من مباهج الحياة وأفراحها ، ويظل فى هذه المعايشة الواعية لمصر وكأنه فى حلم شاعرى حتى يذكر أنه إذا هبت نسمة من حلوان أذكت قلبه شعلة تؤجج خاطره وتدميه .

وإذا كنا قد وجدناه فى القصيدة السابقة يذكر الروضة والمقياس فهو هنا يذكر « حلوان » وهو يتمثل النيل يتدفق جمالا وخيراً :

طال شوقى إلى الديار ولكن
أين من مصر من أقام « بكنْدى »
حبذا النيل حين يجرى فيُبْدى
رَونقَ السيفِ واهتزازَ الفرنْدِ
تتثنى الغصون فى حافتيْه
كالعذارى يسحبن ذيل الفرند
هُوَ مَرْقَى نَبْلى ومَلْعب خيلى
وحِمىَ أسْرَتى ومركز بَنْدِى[1]

أرأيت الفارس ينقل حبه من المعارك إلى النيل فيصفه بأنه مرمى نبله وملعب خيله ، وحمى أسرته ومركز لوائه ، ونلاحظ هنا أنه ذكر الفرند ولكنه ذكره مهتزاً باهتزاز نفسه الباكية الحزينة .

وإذا كان قد ذكر الروضة والمقياس والمنيل وحلوان فلنستمع إليه فى خشوع وجلال وهو يذكر الفسطاط يقول البارودى :

يا نديمى فى « سرنديب » كُفَّا
عن ملامى ، فليس يُغْنى الملام
أنا فى هذه الديار غريب
وغريبُ الديار ليس يُلاَمُ
واذكُرَا لى « فسطاط » مصر فإنى
بهواها متيَّم مستهام[2]

إنه محب لمصر ، مقيم بكل شيء فيها وإذا تذكرها دمعت عيناه :

أصبو إليها على بعد ويعجبنى
أنى أعيش بها فى ثوْبِ إمْلاقِ
وكيف أنسى دياراً قد تركت بها
أهلاً كراماً لهم ودى وإشفاقى
إذا تذكرت أياماً بهم سلفت
تحدرت بغروب الدمع آماقى[3]

فهو مشتاق يتمنى لو يعيش فى مصر فقيراً ، وهو لا ينساها ، ولا ينسى أهلها الذين محضهم ودّه وحبَّه ، ولا ينسى أيامه وذكرياته التى إذا تذكرها فاضت دموع عينيه منه صبابة وشوقاً .

وهو لم يتخذ بعدها داراً يقول :

لم أتخذ بعدها داراً أقيم بها
إلا تذكرتُ أيامى بذِى سلم

(١) جـ ٢ ص ٢٦١ وما بعدها .

(٢) ص ٢٦٣ وما بعدها .

(٣) جـ ٢ ص ٢٨٣ .

وكيف أنسى دياراً قد نشأت بها
في مَنْبِتِ العز بين الأهلِ والحَشَمِ
يا منزلا لم يَدَعْ وَشْكُ الفراق به
إلا رُسُوماً كوَحْيِ الخَطِّ بالقَلَمِ
أين الذين بهم كانت نواظرُنا
ترعى المحاسن من فَرْعٍ إلى قَدَمِ
ودعتُ شطْرَ حياتى حين فُرْقتهم
وصافحتنى يدُ الأحزان والهرَمِ (١)

لقد ودع شطر حياته بوداع مصر وأهلها واستسلم لحريف الأحزان القاتل أرأيت هذه الصوفية فى الحب .

لقد كان البارودى قلباً مُحبا لمصر ، وقيثارة عزف عليها أنبل اللحون وأرق العواطف وارفا المشاعر — حبّاً لمصر ونزوعاً وجدانيا إليها ، وذلك الحب الذى لم يدع خواطره ولم يفارق وجدانه بل ظل مزلزلا لصميمه يعيشه فى كل هتفة خاطر وكل همسة فكر شرود .

د. سعد ظلام

(١) جـ ٣ ص ٥٧٨ وما بعدها .

مما قيل فى حب الوطن :

ولى وطن آليت ألا أبيعه
وألا أرى غيرى له الدهر مالكا

وطنى لو شغلت بالخلد عنه
نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

اليهودية :
عقيدة ابتدعوها .. وتوراة حرّفوها

الأستاذ / زاهر عزب الزغبى

لقد لمعت شعلة اليهودية أول ما لمعت على يد موسى . . ذات يوم فى أواخر القرن الرابع عشر قبل الميلاد . . حينما وقف أمام فرعون مصر ليعلن أنه مبعوث من قبل الإله . . وليعلن أن أغلال العبودية الآ تطوق أعناق بنى إسرائيل فى مصر قد آن الأوان لتحطيمها . . ويسرد الإصحاح الخامس من سفر الخروج — ثانى أسفار التوراة — وقائع هذه اللحظة الحاسمة فيقول : « . . . وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب — إله إسرائيل — : أطلق شعبى ليعبدوا لى فى البرية . . فقال فرعون : من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق بنى إسرائيل . . لا أعرف الرب — وإسرائيل لا أطلقه . . فقالا : إله العبرانيين قد التقانا ، فنذهب لنسفر ثلاثة أيام فى البرية ونذبح للرب إلهنا لئلا يصيبنا بالوباء أو بالسيف » .

ولقد ظلت اليهودية على الدوام مبعث اهتمام الباحثين والعلماء بصفتها أقدم تجربة دينية إنسانية استطاعت أن تصمد مدة طويلة أمام تيارات من المبادئ الدينية أعلى منها ارتقاء فى سلم التطور وأكثر ملاءمة مع الأفكار التقدمية المنبثقة عن الانتفاضات الحضارية التى جرت خلال تلك المدة ، وأوسع شمولا لكل ما يلبى احتياجات الإنسان ويحقق ضروراته الروحية والدنيوية . . . وكانت التوراة — فى كل مرة تعرضت فيها اليهودية للبحث والدراسة — هى المصدر الأهم — وربما الوحيد — للتعرف على أصول وتفاصيل هذه الديانة بجميع وجوهها ، سواء فى ذلك عقيدتها وشريعتها وطقوسها ونظام المجتمع الذى شكلته وصاغته مبادؤها وأفكارها .

ومع ما للتوراة من أهميتها الكبرى فى هذا المجال — فإنها نفسها لا تحظى

باهتمام معظم الباحثين والنقاد إلا بعد أن يستنفدوا جميع أوجه الديانة اليهودية بالبحث والتمحيص . . ولا جدال فى أن النهج العلمى الصحيح يقتضى أن نتلمس سلامة مصدر الخبر قبل أن نحكم على مادته .

وجمهور العلماء الذين تعرضوا للديانة اليهودية بالبحث قد أجمعوا على أنها ديانة قومية موقوتة وأنها بطبيعتها لا تعدو أن تكون طوراً راقياً من الأشكال الدينية القديمة ، ضم أخلاطاً من المعالم البارزة لأنماط شتى من الوثنية التقليدية ، وأن اليهودية من الأديان التى ولدت لكى تموت حينما انقضت وتفككت ظروف وأسباب قيامها . . ولكنهم قد اختلفت آراؤهم فى أسباب بقائها وصمودها .

وصحيح كل الصحة ما ذهب إليه الأكثرون من أن صفات التعصب والصلف والغرور والعناد التى اشتهر بها الاسرائيليون كانت من الأسباب القوية التى حفظت للشخصية الاسرائيلية كيانها وسماتها وعقيدتها وحالت دون تلاشيها وذوبانها فى المجموعات والأجناس البشرية الأخرى التى عاش بينها اليهود خلال الأزمات والمحن التى مرت بهم والتى حكمت عليهم بالتشتت والتشرد فى جميع مسالك الأرض وبقاعها عبر الدهور والأزمان . . ولكنه صحيح أيضاً أن تلك الظروف العصيبة التى رزح تحت أثقالها اليهود قروناً كثيرة كانت أقوى من إرادة الإنسان وأكبر بكثير من طاقة احتماله . . وظروفٌ أقل من هذه قوة وشدة قد قضت على كيان شعوب عرفت بشدة المراس وقوة الشكيمة أو أذابتها فى شعوب أخرى .

فالهجرات الواسعة النطاق التى قامت بها القبائل الآرية من أواسط آسيا وجنوبها إلى سهول أوربا قد أسفرت بعد أجيال قليلة عن انفصال هؤلاء المهاجرين عن أصولهم الآسيويين ، انفصالا جعلهم على مر العصور يكونون مجتمعات لا تمت بصلة إلى أبناء عمومتهم فى الموطن الأصلى ، ويختلفون عنهم اختلافاً كلياً سواء فى ذلك اللغة أو اللون وأساليب المعيشة ومناحى التفكير . . وكذلك القبائل التركية التى وفدت إلى آسيا الصغرى من مشارف الصين ، فحالها الآن لا ينبئ أصلا عن القرابة التى تربطها ببقايا جنسهم الأصيل . . والأمثلة على ذلك كثيرة فى علوم التاريخ وأصول الإنسان . . بحيث أصبحت تأثيرات البيئة وعوامل التأقلم سنة مطردة

فى تغيير أى إنسان من حال إلى حال .. ولكن اليهود وبقاءهم دهوراً طويلة على ولاء لجنسهم الإسرائيلى ودينهم وتقاليدهم يمثلون شذوذاً خرق تلك السنن الوطيدة من سنن الوجود، مع أنهم – كما سنرى – شعب لم تكن من صفاته أبداً الصلابة أو الشجاعة أو قوة الاحتمال أو الصبر على النضال ولكن السر يكمن فى التوراة التى ظل كتبتها طوال أربعة عشر قرناً من الزمان يعملون بكل نشاط ، ويبذلون أقصى مالديهم من جهد وطاقة فى سبيل أن يجمعوا فيها أعز وأثمن مالدى أبناء إسرائيل – شعب يهوه المختار – من معتقدات ومعارف وأفكار ومبادئ وتقاليد وقواعد أخلاقية .. فجاءت فى النهاية موسوعة إنسانية ، فيها على الأقل غناء وتحقيق لجل ضرورات الإنسان الروحية والفكرية .. ولأنها فى المقال الأول كتاب دينى ظلت على الدوام فى نظر اليهودى مقدسة وأثيرة لديه من كل كتاب أو مصدر آخر من مصادر الفكر والمعرفة . . فكانت دائماً العامل الأهم فى تكوين شخصيته وعقليته والإلهام الذى يقودخطواته ويوجهه فى تصريف شئون حياته ، والقوة التى تلهب خياله وتؤجج مشاعره وعواطفه ووجدانه .. ولا زال اليهودى ، بسبب ذلك – فى كل وقت وفى أى مكان وتحت أى ظروف عاش فيها – يختار مثلاً، من بين أبطال قصته : يشوع بن نون ، أو كالب اليهودى أو عبدون ابن هليل ، أو شاول بن قيس ، أو سرايا بن نيوبا، كما كان يتصور بخياله مسارح روايته بين ربوع مملكتى يهوذا وأورشليم حيث كانت أيام المجد والسؤدد والسعادة ، فلم ينس أبداً أنه واحد من الرعايا الذين اختارهم ومجدهم « يهوه الإله » ، وأنه أحد أبناء إسرائيل الذين هم خلاصة البشرية – كما تصورهم التوراة – والذين يجب أن تعنو لهم جباه كافة أجناس البشر فى جميع الأزمان والأحوال .

وبهذه الأفكار وتلك الروح حل اليهودى فى أى مكان وضرب فى أى مسلك . . وسواء أكان تاجراً فى باريس أم سمساراً فى لندن ، أم مزارعاً فى اليمن فإن بصره وفكره لا يلمحان من دنياه أية بارقة من العواطف الإنسانية ولا يستجيب لأية لمحة عاطفية . . بل يظل فى فقر مجدب، ليس فيه إلا بؤس وكآبة الانفراد والعزلة ، وخيالات من سراب وهمى تخدر آلام نفسه الكئيبة باعتقاد خاطئ عن انتمائه إلى العنصر الأسمى الذى يقف على قمة

التفوق وعلى أعلى مستوى من أى جنس إنسانى آخر . . وهذا الاعتقاد الخاطئ قد أفاد الشخصية اليهودية حتى فى أحط مستوى إنسانى عاشت فيه . . فكان اليهودى يرسف فى أغلال العبودية ويزاول بارتياح أو على الرغم منه (ولكن على خير وجه) مهنة الرقيق ، ولكنه فى قرارة نفسه يؤمن بأن سيده أحط منه عنصراً .. وهذا الاعتقاد لا بد وأن يظهر على صورة التذمر أو عدم الرضا ، وأحياناً التمرد . . والعلاج الوحيد لمثل هذا العبد هو القسوة واستعمال السوط حتى يعود إلى صوابه . ولكنه يظل يتوقع لحظة الخلاص التى هى بلا ريب آتية ويحلم بما سيتحقق له بعدها من سعادة وسيادة . ويظل يرتب — فى ذهنه السقيم — خططاً لانتهال موارد السعادة فى ذلك المستقبل البهيج . . وبالنسبة للعبد فإن مثل هذه الأحلام لا تكمل بهجتها إلا إذا أمسكت يده بنفس السوط الذى ألهب ظهره ليجلد به سيده .

وعلى هذا فحياة اليهود يسيطر عليها ويسيرها الإيمان بالتفوق العنصرى والشعور بالازدراء والكراهية لكل سائر أجناس البشر ، وحب الانتقام من كل إنسان .

وهذه العناصر الثلاثة التى كانت على الدوام أساس مقومات الشخصية اليهودية هى التى جعلت اليهودى لا يستطيع أن يقف على قدميه إذا ملك زمام نفسة وتمتع — ولو على نطاق ضيق — بحقوق الإنسان الحر ، وتحجب عن بصره المسلك الصحيح نحو الكرامة الإنسانية فلا يستشعرها فى نفسه ولا يقدرها فى غيره . . ويتخبط فى كل تصرفاته فيسيء إلى نفسه وإلى مجتمعه . . والخلاصة أن العوامل التى أبقت للشخصية اليهودية كيانها هى نفس الأسباب التى جعلت منهم عنصراً شاذاً لا يتفاعل ولا يتلاءم مع أى مجتمع إنسانى . . وعنصر كهذا إن لم يُكبح جماحه ظل دائماً مصدراً لا ينضب لإثارة القلق والفوضى والشغب فى المجتمع الذى يحل فيه . . ولهذا ظل اليهود طوال التاريخ مشكلة مستعصية .

ولقد بدئ فى كتابة هذه الموسوعة اليهودية — التوراة — فى أيام موسى ، فقد كان موسى نفسه كاتباً : « وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات لأننى بحسب هذه الكلمات قطعت عهداً معك ومع إسرائيل . . فكتبت على اللوحتين كلمات العهد .. الكلمات العشر » . (خروج ٣٤ : ٣٨) . . وهـــذه هى الوصايا العشر التى كتبها موسى وأودعها

تابوت العهد وجعل للتابوت مكاناً خاصاً فى الهيكل .

وعندما أحس موسى بدنو أجله جمع كل وصايا الإله . ودونها فى كتاب . . فكان هذا هو التوراة . . بل إن التسمية نفسها ومعناها « الهدى أو الإرشاد » من وضع موسى نفسه . . الذى قام بتسليمها إلى الكهنة وأمرهم بالمحافظة عليها وحفظها فى الهيكل بجانب تابوت عهد الرب الذى يضم كلمات الوصايا العشر التى تؤلف الأصول الأساسية للعقيدة والشريعة الموسوية . ولم يشأ موسى أن يسلم للكهنة توراته إلا فى ملأ من زعماء ورؤساء الأسباط ليكونوا شهوداً على الكهنة بتسلمهم كتاب الوصايا . وقد قرأ موسى نصوص التوراة على الملأ كى يعوا ما فيها ويعملوا بمقتضاها ، وحتى يقطع الطريق على الكهنة إذا ما أرادوا أن يستأثروا بهذا التراث لأنفسهم ويحجبوه عن الشعب ، أو إذا ما أرادوا أن يضللوا الناس ويحرفوا تعاليم الله .

« فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة فى كتاب إلى تمامها أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب (الكهنة) قائلا : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون شاهداً عليكم . لأنى أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة . . هوذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى ؟ . . اجمعوا إلى كل شيوخ أسباطكم وعرفائكم ، لأنطق فى مسامعهم بهذه الكلمات ، وأشهد عليهم السماء والأرض ، لأنى عارف أنكم بعد موتى تفسدون وتزيغون عن الطريق الذى أوصيتكم به ، ويصيبكم الشر فى آخر الأيام ، لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم » (تثنية ٣١ / ٢٤ / ٢٩) .

وقد تحقق ظن موسى بهؤلاء الكهنة . . فإنه بدون أن يمنحهم تفويضاً من نوع ما بأن يتصرفوا فى توراته بالحذف أو الإضافة فإنهم قد منحوا أنفسهم حق الاستمرار فى كتابة القصة الإسرائيلية وإضافتها إلى التوراة كأجزاء أصيلة فيها . ومنذ أن استودع موسى كهنة الهيكل توراته لم يتوقف هؤلاء عن تحرير الأسفار والأمثال والأناشيد والمزامير وإضافتها إلى هذه التوراة . . بل خصصوا وظائف رسمية فى الهيكل لجماعة من الكتبة مهمتهم تدوين ما يمليه الكهنة ويلقنونه للناس ضمن ما يذيعون عليهم من نصوص تعاليم الرب ووصاياه .

كانت هذه العملية يقوم بها تحت إشراف الكهنة وتحت سلطانهم وفى كنفهم موظفون يعرفون بالكتبة يتقاضون أجورهم من أموال الهيكل التى تجمع باسمه كضريبة من الشعب — وكان لابد وأن تتخذ هذه العملية طابعاً يحقق أطماع الكهنة ومآربهم ، ويوثق ارتباط الشعب بالهيكل على نحو يكفل لسدنته الجاه والثروة . .

ومن البدهى أن أسفاراً برمتها عددها ٣٤ ابتداء من سفر يشوع حتى نهاية التوراة من وضع وصنع الكهنة وحدهم لأنها تؤرخ لفترة ما بعد موسى . . وهذا الجزء وحده يؤلف أكثر من تسعة أعشار التوراة . . أما سفر التكوين —أول أسفارها— فليس هناك ما يقطع بأنه من عمل الكهنة ، ولكن بالتالى قد وصفت توراة موسى بأنها مجموع الوصايا والأحاديث الآتى تلقاها عن ربه . . وهذه تنبئ عنها طبيعة مادتها فى فقرات وإصحاحات متناثرة فى كل من أسفار الخروج واللاويين والعدد والتثنية . وبذلك لا تكون مأثورات موسى سوى جزء ضئيل جداً غارق فى محيط خضم من أعمال الكهنة وتحريراتهم . . حتى هذا المأثور الموسوى على ضآلته قد استحل الكهنة لأنفسهم أن يعملوا فيه أقلام كتابهم بالحذف والتعديل حتى شوهوا معالمه أو طمسوها ، ففقد الشعب مصادر الاهتداء بوحى ربه وشرع يرتد عن عبادة يهوه إلى عبادة الآلهة الأجنبية . . ولما كانت هيبة الكهنة تتأثر لا محالة بانصراف الناس عن عبادة يهوه — وبالتالى يقل نفوذهم وتتضاءل ثرواتهم — فإن هذا وحده كان سبباً كافياً لكى يسارعوا إلى البحث عن إيجاد حل لهذا الموقف الصعب الذى وصلوا إليه برعونة وعدم تبصر متأثرين بدوافع الجشع والأطماع الشخصية .

وإذا أضفنا إلى ذلك الحملات التى كان يشنها — على فساد الكهنوت — الأنبياء (وكانوا يمثلون قوة الضمير ومثاليته فى الشعب الإسرائيلى) من أمثال صموئيل واشعياء وارميا بسبب التدهور الدينى والأخلاقى الذى وصل إليه الشعب ، وإلقاء اللوم فى ذلك كله على الكهنة وحدهم ، لأنهم باندفاعهم المتهور نحو السلطان والأبهة والرفاهية ، قد أضلوا الشعب وأضاعوه . وإذا نحن أخذنا فى اعتبارنا هذه الحملات أيضاً تصورنا موقف الكهنة العصيب . وأنهم قد وقعوا فى أزمة حقيقية تجعلهم على شفا

هاوية الضياع النهائى . . وبذلك كان لابد لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القومية وبالتالى يمنعون هبوب العاصفة التى توشك أن تثور لتدميرهم .. ورأوا أن أحسن وسيلة لإنقاذ الموقف هى إبلاغ الناس رسالة من الله نفسه (ممثلة فى وصاياه التى تتضمن سنته الإلهية) لتبعث النشاط والقوة فى حياة الأمة الخلقية . . وبهذا أيضاً يضمنون معونة الأنبياء بدلا من موقف العداء الذى يقضون به مضاجعهم .. وقد كان ذلك إبان حكم الملك يوشيا الذى اعتلى عرش أورشليم طفلا فى الثامنة من عمره فسرعان ما سيطروا عليه وضمنوه إلى جانبهم .

ولم يمض وقت طويل حتى كان هذا الملك قد صار حليفاً للكهنة وواحداً من رواد الهيكل الأتقياء . . ولكن هذا الهيكل كان قد أصبح فى عهده مباءة للرجس ومسرحاً للشرك بسبب ما صار إليه الإسرائيليون من فساد فى العقيدة وانحلال فى الخلق .

ويصف سفر الملوك الثانى (فى إصحاحه الثانى والعشرين ، والثالث والعشرين) مدى ما وصلت إليه حالة الديانة اليهودية والمجتمع اليهودى من سوء وفساد وضلال وانحراف ، فيبين أن هيكل الإله يهوه قد صار متحفاً تتنافس فيه أصنام الآلهة وتماثيلهم ، وأن بنى إسرائيل قد آل أمرهم إلى أن أصبحوا جماعة من المشركين الذين نسوا إلههم يهوه ، وصاروا يعبدون عدداً من الأوثان ويقدمون القربان لكثير من الآلهة بأسماء مختلفة — كالبعل والسارية وعشتروت وبعض الكواكب كالشمس والقمر وفينوس — وكذلك النار . . كما صارت ساحة هذا الهيكل ماخوراً للدعارة بنيت على جوانبها أكنان يقصدها كل ذى غلمة ليقضى شهوة الجنس مع بائعات الجسد من النساء الزوانى ، أو مع الشواذ من الرجال المأبونين » .

وفى السنة الثامنة عشرة من حكم هذا الملك أجرى عمارة فى الهيكل وأرسل من قبله رسولا إلى حلقيا الكاهن الأعظم يكلفه بأن ينفق على أعمال الترميم من حصيلة الفضة التى يدفعها الشعب ضريبة للهيكل . . فلما وصل رسول الملك أخبره الكاهن أنه عثر بين الأنقاض على كنز خطير . . ولم يكن هذا الكنز سوى « سفر الشريعة » . حسبما أسمته نصوص التوراة .

ولسنا نعلم علم اليقين ماذا يكون

سفر الشريعة هذا ؟ ؟ . ولكن روى أنه عندما أحس يشوع بن نون – خليفة موسى – يدنو أجله جمع شيوخ شعب إسرائيل ورؤساءه وقضاته وعرفاءه وأوصاهم بقوله : « تشددوا جداً لتحفظوا وتعلموا كل المكتوب فى سفر شريعة موسى ، حتى لا تحيدوا عنها يميناً أو شمالا » . (سفر يشوع ٢٣ / ٥) .

وهذه الإشارة العابرة إلى سفر الشريعة فى خطبة يشوع – ولم يكن قد مضى طويل وقت بعد وفاة موسى – تجعل الفرض الوحيد المعقول أنه هو نفس وصايا الله التى جمعها موسى ودونها فى كتاب سماه التوراة وسلمه إلى الكهنة بعد أن قرأه عليهم وأمرهم بأن يحفظوه ويعلموه للناس . . ويؤكد هذا الافتراض أنه لم يودع بالهيكل سوى الوصايا العشر فى تابوت العهد وتوراة موسى بجوار هذا التابوت . . والوصايا العشر لا تؤلف سفراً ولا تشمل كل الوصايا التى تؤلف الشريعة الموسوية ، وبالتالى لا تشمل التعليمات الإلهية التى نفذها الملك يوشيا بعد أن قرأ سفر الشريعة وأمر الشعب بتنفيذها ومن بينها إقامة أعياد الفصح وغير ذلك من الأوامر والنواهى الإلهية . . ومهما كان نوع هذا السفر فإن الملك يوشيا حينما قرئ أمامه ظهر عليه تأثره وتقواه فمزق ثيابه من شدة الوجد والإعجاب : « وأرسل الملك فجمعوا إليه كل شيوخ يهوذا وأورشليم . وصعد الملك بيت الرب (الهيكل) وجميع رجال يهوذا ، وكل سكان أورشليم معه ، وكل الشعب من الصغير إلى الكبير ، وقرأ فى آذانهم كل كلام سفر الشريعة الذى وجد فى بيت الرب . ووقف الملك على المنبر وقطع عهداً أمام الرب للذهاب وراء الرب ، ولحفظ وصاياه وشهاداته وفرائضه بكل القلب وكل النفس ، لإقامة كلام هذا العهد المكتوب فى هذا السفر . . ووقف جميع الشعب عند العهد. وأمر الملك حلقيا الكاهن العظيم وكهنة الفرقة الثانية وحراس الباب أن يُخْرِجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل وللسارية (إلهين) ولكل أجناد السماء وأحرقها خارج أورشليم فى حقول قدرون وحمل رمادها إلى بيت ايل . . ولاشى (عزل) كهنة الأصنام الذين جعلهم ملوك يهوذا ليوقدوا على المرتفعات فى مدن يهوذا وما يحيط بأورشليم ، والذين يوقدون للبعل وللشمس والقمر والمنازل ولكل أجناد السماء ، وأخرج السارية من بيت الرب خارج أورشليم إلى وادى قدرون ، وأحرقها فى وادى

قدرون ودقها إلى أن صارت غباراً وذرى الغبار على قبور عامة الشعب . وهدم بيوت المأبونين التى عند بيت الرب — حيث كانت النساء ينسجن بيوتاً للسارية (الملوك الثانى ٢٣ : ١ / ٧) .

وإذا كان من المسلم به أن كتاب التوراة قد ظلوا يدونون ما يمليه عليهم الكهنة طوال الوقت منذ أن سلمهم موسى توراته وأمرهم بالمحافظة عليها ومداومة تعليمها للناس . . فإنه لم يحن عهد الملك يوشيا فى القرن السابع قبل الميلاد — أى بعد وفاة موسى بأقل من خمسة قرون — حتى كانت التعاليم والنصوص الدينية التى يتلقاها الشعب من الكهنة خالية تماماً من وصايا الله وشريعته التى أوحاها إلى نبيه موسى عليه السلام ، بحيث كانت شيئاً جديداً — عندما عثر عليها — على الملك التقى يوشيا ، وعلى شعب إسرائيل الذين تأثروا بها أشد التأثر ، وبحيث كان الهيكل نفسه قد أصبح مستودعاً لأوثان الشرك ، وساحته مباءة للرذيلة والفساد .

ومن البدهى أن الزعامة الدينية ممثلة فى الكهانة (التى كانت وقفاً على أبناء هرون يتوارثونها أبا عن جد) قد لعبت فى التوراة الموسوية وحرفتها بحيث شوهت السمات الأصلية للديانة اليهودية سواء فى العقيدة عن الإله وصفاته أم فى طقوس العبادة أم فى الشريعة والقوانين .

ولقد أهمل كل العلماء والباحثين التعرض للصورة التى آلت إليها التوراة قبل أن يعثر حلقيا على سفر الشريعة ، ولكنهم استشفوا من واقع الحادثة تلك الصورة المهينة التى آلت إليها الديانة والمجتمع اليهودى . . ويعتبرون أن ظهور هذا السفر هو البداية الحقيقية لتدوين التوراة ، وإن لحظة العثور . عليه هى لحظة مولدها ، ولكن أى توراة ! ؟ . . هى ليست إلا التوراة التى بأيدينا على كل حال . . وهم أيضاً على حق حين ينكرون أو يتشككون فى نسبة هذا السفر إلى موسى كما ادعى حلقيا كبير الكهان . . بل إنه — فى رأيهم — حيلة لجأ إليها هذا الكاهن لكى يبعث الحياة فى ديانة ماتت على يد كهنتها ودفنت منذ زمان طويل ، وانصرف عنها الناس انصرافاً كلياً وكفروا بإلهها واستبدلوه أصناماً وأوثاناً اخترعوها ، واضطر الهيكل لأن يستضيف هذه الأوثان حتى يضمن كهنته دخلا من النذور والقربان ، فلما تأصلت الوثنية فى نفوس الناس ، وتضاءل

ماللهيكل وكهنته من جلال رمزى ، وازدادت ضراوة وعنفاً حملات الأنبياء والمصلحين على انحراف الكهنة — وفساد الشعب . . كان ظهور هذا السفر المزعوم على يد حلقيا عظيم الكهان وشيخ الأحبار . . وإذا ضربنا صفحا عن كل ما قيل بصدد القيمة الحقيقية لهذا السفر فإن العقل المنصف لا يمكن أن ينظر إليه إلا على أنه قد ظهر فى نفس الوكر الذى منه تسالل الانحراف والفساد إلى بنى إسرائيل . . ذلك الفساد الذى جعل من هؤلاء القوم مصدراً دائماً من مصادر القلق والاضطراب لكل منطقة الشرق الأدنى فى ذلك الوقت من الزمان . . فبعد أن عجزوا تماماً عن أن ينتزعوا فلسطين من يد الكنعانيين (أهلها الأصلاء) ، وبعد أن وجدوا أنه من المستحيل عليهم أن يحتفظوا برقعة الأرض الضيقة التى فنى فى سبيل استخلاصها — لتكون مستقراً لهم وملاذاً من ظلم وعنت سادتهم القدامى : المصريين — موسى ويشوع ويهوذا وشاؤل وغيرهم من القادة الذين تصورهم التوراة على هيئة الأبطال المغاوير . . وبعد أن عجزوا عن تحمل الحملات القاسية التى كان يشنها عليهم الكنعانيون من وقت لآخر لاسترداد الأرض وطردهم منها راح هؤلاء الاسرائيليون يستعدون الأجنبى ويطلبون العون من الجيران الأقوياء . ولم يكن المصريون أو الفينيقيون — على ما يبدو — فى أى وقت على استعداد لمساعدة اليهود المعتدين الذين وجدوا هذا النصير فى قبائل الهمج الذين كانوا يقطنون آسيا الصغرى فأغروهم بالمغامرة وقادوهم كأدلاء وجواسيس عبر الطريق حتى وصل هؤلاء الغزاة إلى دلتا النيل . . ولكن رعمسيس الثالث ردهم إلى خارج الحدود مدحورين . . ثم تعقبهم بعد فترة وجيزة فأجلاهم عن فلسطين . . ومنذ هذه الفترة الدامية فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد لم تنعم فلسطين كلها — إلا فى فترات قصيرة — لا يحسب لها حساب — بالأمان أو الاستقلال ، فهى فى معظم الأوقات ، إما تحت حكم المصريين أو الفينيقيين أو الأشوريين أو البابليين أو الفرس أو الإغريق أو الرومان . . ولكن مع هذا فقد كان ذلك خيراً وبركة على اليهود الذين أمنوا شر الحملات التى كان يشنها عليهم — لطردهم — الكنعانيون الذين تفرغوا لمقاومة المحتل الجديد بينما كان اليهود يتعاونون معه ويقومون — على أحسن وجه — بدور العملاء والجواسيس . .

وهكذا فعلوا مع كل محتل جديد لكى يضمنوا البقاء فى الرقعة التى اغتصبوها ولكى يستطيعوا بمساعدة المحتلين أن يتوسعوا فى أملاك الكنعانيين ، وقد احترفوا وأجادوا مهنة التجسس لجميع القوى المتنافسة فى تلك المنطقة فى كل الأوقات وفى جميع الأحوال . . وكانوا يبيعون خدماتهم هذه لمن يدفع أكبر الثمن أو لمن يتعهد سلفاً بتحقيق قدر من الحرية أو بعض الميزات لشعب إسرائيل . وبلغ خطرهم فى هذا المجال أقصى مداه، حينما سقطت نينوى وأصبح التنافس الاستعمارى فى المنطقة محصوراً على أشده بين نخاو ملك مصر ونبوخذ نصر ملك بابل فى حوالى القرن السابع قبل الميلاد . . إبان حكم الملك يوشيا الذى ظهر فى عهده سفر الشريعة المزعوم . . فقد حاول نخاو أن يمر بفلسطين فى زحفه متوغلا إلى الشمال ووقف يوشيا فى وجهه عند مجدو حيث كانت الواقعة القديمة المشهورة التى فيها لقى يوشيا حتفه ، وبعد بضع سنين من ذلك الوقت انتصر نبوخذ نصر على نخاو فى قرقميش واستولى على يهوذا وجعلها ولاية تابعة لبابل ، وحاول خلفاء يوشيا — بالوسائل السرية التى أجادوها — أن يلقوا عن كاهلهم نير بابل وأرادوا أن يستعينوا فى سعيهم هذا بمصر . ولكن نبوخذ نصر علم بالأمر فزحف بجيوشه على فلسطين واستولى على أورشليم وأسر الملك يهوياقيم ، وأقام صدقيا على عرش يهوذا ، ثم عاد إلى بلاده ومعه عشرة آلاف أسير من اليهود . ولكن صدقيا كان أيضاً إسرائيلياً فى روحه وفى أساليبه ، فتآمر ضد بابل مما جعل نبوخذ نصر يعقد العزم على أن يحل المشكلة اليهودية حلا نهائياً ، فقدم مرة أخرى إلى أورشليم وحرقها عن آخرها وهدم هيكل سليمان ، وقتل أبناء صدقيا أمام عينيه ، ثم سمل عينيه هو نفسه وأسر جميع السكان اليهود ، وساقهم أمامه إلى بابل أسرى ، حيث عاشوا فى ظروف مماثلة تماماً لما كانوا عليه فى مصر قبل ظهور موسى . وحيث ظلوا طوال ما يزيد على ثلاثة قرون بضاعة رائجة فى أسواق النخاسة بالمدن البابلية .

وفى خلال مدة الأسر هذه التى استمرت زهاء قرنين من الزمان أضيفت إلى التوراة ثلاثة من أروع أسفارها وأبدعها فى صدق التعبير ورصانته وقوته . . فقد ظل أرميا أفصح الأنبياء طوال هذه الأزمة يدافع عن بابل ويعلن فى الملأ أنها سوط عذاب فى يد الله ،

ويتهم حكام يهوذا بأنهم بلهاء معاندون، وينصحهم بأن يسلموا أمرهم كله إلى نبوخذ نصر حتى إن بعض المؤرخين قد اتهم أرميا هذا بأنه أحد صنائع بابل المأجورين . ويبدو أن هذا الاتهام غير جائز إذا نظرنا إلى قول أرميا على لسان ربه : « إنى أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذى على وجه الأرض بقوتى العظيمة وبذراعى الممدودة وأعطيتها لمن حسن فى عينى ، والآن وقد وقعت كل هذه الأرض لنبوخذ نصر ملك بابل عبدى فتخدمه كل الشعوب . . ويكون أن الأمة أو المملكة التى لا تخدم نبوخذ نصر ملك بابل ، والتى لا تجعل عنقها تحت نير ملك بابل انى أعاقب تلك الأمة بالسيف والجوع والوباء — يقول الرب — حتى أفنيها بيده » . (أرميا ٢٧ : ٥ / ٨) .

ويقول ديورانت :

وسواء أكان هذا الرجل خائناً أم غير خائن فإن السفر الذى سجله عنه كتبة التوراة ونسبوه إليه يعد من أبلغ كتب الأدب ومن أعظمها قوة ، حيث هو مليء بالصور الحية الواضحة والتأنيب الشديد الذى لا رحمة فيه ولا هوادة، وفيه فوق ذلك إخلاص صادق يبدأ بسؤال الرجل نفسه ثم يختتم بارتياب فى خطته وفى حياته كلها . « ويل لى يا أمى لأنك ولدتنى إنسان خصام وإنسان نزاع لكل الأرض لم أقرض ولم يقرضونى ، وكل واحد يلعننى . . ملعون اليوم الذى ولدت فيه (أرميا ١٥ : ١٠ ، ٢٠ : ١٤) .

وحملاته على فساد اليهود من أقوى الحملات وأعتاها « طوفوا فى شوارع أورشليم وانظروا ، واعرفوا ، وفتشوا فى ساحاتها — هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل طالبٌ بالحق فأصفح عنها . . لقد ساد الظلم فى كل مكان وعم الفسق والفجور » ، « ولما أشبعتهم زنوا . . فى بيت زانية تزاحموا ، صاروا حصناً ملعونة سائبة صهلوا كل واحد على امرأة صاحبه » (أرميا ٥ : ١/ ٨) .

ومن أجل هذا الفساد فإن « يهوه » الرب سيمحق بغضبه شعب إسرائيل ، وسيريهم ألواناً من الذل وصنوفاً من الأهوال والشدائد جزاء لما اقترفوه .

وفى هذه الفترة أيضاً كان خطيب آخر فى بابل يشن حملات شعواء — مماثلة لتلك التى يشنها أرميا — على فساد الشعب الإسرائيلى . . لما شاع فيهم من وثنية فى الدين وانحلال فى الأخلاق .

ولم يكن هذا الخطيب سوى حزقيال

الذى كان أحد رجال الكهنوت وسبق سبيًا إلى بابل .

وبدأ حزقيال خطبه كما بدأها أشعيا الأول وأرميا منددا أشد التنديد بما شاع فى أورشليم من فجور ، وشبه تلك المدينة بالزانية لأنها باعت عبادتها للآلهة الغرباء ، ووضع ثبتًا طويلاً بذنوب أورشليم ثم تنبأ لها بالتخريب والدمار .

ورغم أن حزقيال لم يكن أقل من أرميا عنفًا وضراوة فى تنديده القاسى بإسرائيل . . ذلك الشعب الفاجر الفاسد .. ورغم أن عباراته لم تكن أقل صرامة من تلك التى وصف بها البلاط الفرنسى أيام الملكة مارى أنتوانيت رغم هذا فإن حزقيال كان على عكس أرميا . . لم يكن يائسًا مثله بل كان متفائلا — فقد تنبأ بأن الله سينجى بعثه من اليهود ، وتنبأ بأن المدينة ستبعث حية . وأخذ يصف ما يراه بعين الخيال من بناء المعبد الجديد فيها ، وتصور قيام مدينة فاضلة للكهنة فيها الكلمة العليا والمقام الأعظم يقيم فيها « يهوه » مع شعبه أبد الدهر .

ولم يكن قد انقضى أكثر من عمر جيلين منذ بدأ الأسر الإسرائيلى فى بابل حتى كانت ذكرى إسرائيل — الأرض الموعودة — قد انمحت من أذهان اليهود أو كادت . . ولكن مؤلفًا مجهولاً أخذ على عاتقه أن يكمل سفر أشعيا فأضاف إلى إصحاحاته الثانى والأربعين ثمانية عشر إصحاحًا أخرى ليكتمل بست وستين منها » وقد أخذ هذا المؤلف المجهول على عاتقه أن يعيد ذلك القطيع المرتد إلى دين إسرائيل . . وكان ما يمتاز به هذا المؤلف أنه وهو يعمل على إعادتهم إلى دينهم القديم عمل أيضًا على أن يرقى بهذا الدين إلى مستوى رفيع فلم تقتصر مهمته على إحياء التراث الدينى القديم فحسب ولكنه أحدث تطوراً فى الدين اليهودى نفسه وسنوضح طبيعة هذا التطور وكيفيته حين نتكلم عن العقيدة اليهودية نفسها .

وجل المؤرخين والباحثين قد اعتبروا هذه التكملة التى أضيفت على سفر أشعيا بمثابة سفر كامل متميز هو الثالث فى عداد الأسفار التى أنشئت فى عهد الأسر الإسرائيلى لدى البابليين .

ولعل أروع الساعات فى تاريخ اليهود تلك التى دخلت فيها قوات قورش الفارسية أرض بابل وقضت على مملكة بابل قضاء نهائيًا .

ولقد عرف قورش لليهود صنيعهم فى المساعدات التى قدموها له فى حملته الحربية هذه والمعلومات التى زودوه بها والتى ساعدته على فتح تلك البلاد الحصينة بلامشقة تذكر ، فكافأهم بأن حررهم من الرق الذى كانوا يرسفون فيه، وأباح لهم أن يعودوا إلى أورشليم بكامل حريتهم . . ولكن شباب اليهود لم يتحمسوا لهذا التحرير لأن الكثيرين منهم كانوا قد تأقلموا فى الأرض البابلية واعتادوا نهج الحياة فيها ففضلوا القناعة بالواقع على المخاطرة فى المجهول الذى ينتظرهم فى الأرض المقدسة . وقد مرت سنتان بعد مجىء قورش قبل أن يبدأ الفوج الأول من اليهود المتحمسين رحلته الطويلة التى دامت ثلاثة أشهر إلى الأرض الموعودة . التى خرج منها آباؤهم قبل ذلك بنحو من مائتى عام .

وعندما عاد هؤلاء وجدوا أن الأرض قد عاد إليها ملاكها الأصلاء . . والكنعانيون . . وانه يستحيل على أقدامهم أن تطأ ثراها إلا إذا سالت الدماء . . وقد كان العائدون فى هذه المرة أضعف من أسلافهم وليسوا أكفاء لأن يشنوا حربا أو يدخلوا معركة . . إذن كيف السبيل وما هو المصير ! ! ؟

ولقد تكفل الفرس بحل هذه المشكلة . فقد مكنوا اليهود العائدين من أن يتوطنوا فى الأرض من جديد ، كما أذن دارا الأول ملك الفرس للأمير زربابل أن يعيد بناء الهيكل — وعادت أورشليم كما كانت شيئاً فشيئاً مدينة يهودية ، وترددت فى الهيكل أصداء الأناشيد التى كانت تتغنى بها بقيَّة منهم آلت على نفسها أن تعيد اليهودية إلى سابق عهدها وازدهارها .

ومنذ عودة اليهود إلى أورشليم شرع الكهنة فى وضع قواعد حكم دينى يقوم — كما كان الحال فى عهد يوشيا — على المأثور من أقوال الكهنة وتقاليدهم وعلى أوامر الله . . وفى عام ٤٤٤ ق . م دعا عزرا — وهو كاهن عالم — اليهود إلى اجتماع عام خطير ، وشرع يقرأ عليهم « سفر شريعة موسى » وظل هو وزملاؤه اللاويون سبعة أيام كاملة يقرأون ما تحتويه ملفات هذا السفر . . ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم وقانوناً يتصرفون بمقتضاه ويسيرون على هداه .

ولا يمكن أن يكون سفر الشريعة هذا الذى قرأه عزرا هو نفس سفر الشريعة الذى عثر عليه الكاهن حلقيا فى

الهيكل فى عهد الملك يوشيا . لأن الأول قد قرئ مرتين فى يوم واحد بينما هذا الأخير ظل الكهنة يتناوبون قراءته سبعة أيام كاملة حتى انتهوا منه . . ولا يهمنا معرفة ماهية الكتابين ولا أن نحقق مضمونيهما . . ولكن الذى يعنينا أولا وقبل كل شيء هو أن شريعة موسى كانت قد نسيت أو اندثرت تماماً مرتين فى تاريخ اليهود . . وكانت فى كل مرة — بعد ضياع كامل — تبعث على يد الكهنة وهم نفس الطائفة التى تلاعبت فيها وأخلت بأمانتها تجاه وديعة موسى بكل ما فيها من وصايا وتعاليم إلهية . . ولا ريب فى أن كل باحث محقق لا يمكن أن ينصف عقله إذا سلم تسليماً مطلقاً بصحة نسبة سفر الشريعة إلى موسى . . وبالتالى إلى الوحى الإلهى على الصورة التى ظهر بها فى كل مرة على يد هؤلاء الكهنة . . فإن العوامل التى حجبت هذا السفر الإلهى عن اليهود مدة طويلة ترجع فى معظمها إلى المصالح الخاصة للكهنوت . . وهذا وحده كاف لأن يجعل كل عقل مفكر يميل إلى أن هذه العوامل نفسها قد لعبت دورها فى الصورة التى بعثت فيها من جديد قواعد الشريعة وقوانينها .

وأقصى ما يمكن هنا هو أن نعتبر التوراة التى بأيدينا نتاجاً خالصاً للكهنوت اليهودى ، وأنها من عمل أيدى الكهنة وحدهم . وأن الوحى الإلهى (على فرض وجوده فيها بلا تحريف أو تبديل أو نقص) لا يمكن الاستدلال عليه أو تمييزه وسط خضم من أسفار وإصحاحات دونها كتبة التوراة بإملاء الكهنة داخل الهيكل . . فإن سفر الشريعة الذى ذكر فى مناسبتين حاسمتين فى تاريخ اليهودية ليس له فى التوراة اليهودية كيان مستقل . . وليس بين أسفارها التسع والثلاثين ما يسمى بسفر الشريعة . . فأين يا ترى يكون هذا السفر من بين كل أسفار العهد القديم ؟ ؟ . . وأغلب الظن أن كتبة التوراة قد فرقوا إصحاحاته وآياته ونثروها فى كلٍّ من أسفار الخروج واللاويين والعدد والتثنية . . ففى ثنايا هذه الأسفار كثير من الوصايا والإرشادات والأحاديث التى يمكن نسبتها مباشرة إلى الله . .

« يتبع »

زاهر عزب الزغبي

الأزهر جامعًا وجامعة
أو مصر فى ألف عام

الأستاذ / محمد كمال السيد

٤

الأزهر فى عهد العثمانيين :

لمحة تاريخية :

فى سنة ٩٢٣هـ دخل مصرَ سليمُ الأول سلطان بنى عثمان بعد أن هزم السلطان الأشرف قانصوه الغورى فى معركة مرج دابق بالقرب من حلب سنة ٩٢٢هـ . وقابلته فى مصر مقاومة يائسة — وإن كانت باسلة — من الأشرف طومان باى خليفة الغورى بما يشبه حرب العصابات . وانتهت بأسر طومان باى وشنقه على باب زويلة (بوابة المتولى) فى ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ = ١٢ أبريل سنة ١٥١٧م .

وسقطت الإمبراطورية المصرية التى كانت فى عهد السلاطين المماليك . وأصبحت مصر ولاية تابعة . بعد أن كانت دولة تسود وتحكم كثيراً من الأقطار الإسلامية .

وانتقلت الخلافة الإسلامية . من عباسية عربية فى القاهرة . إلى تركية عثمانية فى إستانبول . واستلم العثمانيون الأمانة التى حملتها مصر ستة قرون فى الذود عن الإسلام والحضارة الإسلامية .

ومكَّن نقل الخلافة إلى إستانبول العثمانيين أن يقيموا إمبراطورية واسعة مترامية الأطراف من شتى الأجناس . وأهمها الأمة العربية . فلم تكن شعوب الأمة العربية لتخضع لهم القرون العديدة لولا وجود الخلافة فيهم . فالولاء لخليفة المسلمين طبيعى ومن الدين . مما جعلهم لا ينظرون إليه نظرة المستعمر . ولم يكن الشعور بالقومية الخاصة قد وُجد بمفهومه الحالى . فكانت الرابطة بين المسلمين هى الإسلام .

ولم يكن الأتراك أصحاب حضارة علمية كالعرب . فلم يضيفوا شيئاً يذكر على علوم العرب . ولكن كانت لهم ملكة عسكرية مكنتهم من الدفاع عن البلاد الإسلامية ضد المطامع الصليبية . بل ومكّنتهم من التوغل فى

قلب أوربا حتى حاصروا فيينا . واستولوا على اليونان وكثير من دول البلقان .

وما بدأ القرن الحادى عشر الهجرى (١٧م) حتى كان ملك آل عثمان يمتد من اليمن جنوباً إلى النمسا شمالا . ومن البحر الأسود شرقاً إلى المغرب غرباً . طولا وعرضاً . وكان للأسطول العثمانى السيادة فى البحرين الأبيض والأحمر . وأصبح الساحل الأفريقى والأسيوى من البحر الأبيض أرضاً عثمانية . كما أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية .

ولم تكن أوربا لترضى عن هذا التوسع الإسلامى . كما أنها لم تنس هزائمها على يد صلاح الدين وبيبرس وقلاوون والأشرف خليل بن قلاوون . فتضافرت جهودها ضد هذه الدولة الإسلامية . وساعدها ما شاب الحكم التركى من فساد . وكالقاعدة أنه (ما طار طير وارتفع — إلا وهبط كما ارتفع) فقد دب الوهن والشيخوخة فى الدولة التركية . وتوالت هزائمها أمام روسيا . وترددت السياسة التركية حائرة بين فرنسا وإنجلترا . أيهما الصديق الناصح . وأيهما العدو الماكر . وكلتاهما تتربصان لترث كل منهما أكبر قدر من تركة الرجل المريض كما كانت تسمى تركيا . وكانت النهاية فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . فقد هُزمت تركيا أمام الحلفاء . وبهزيمتها انتهت الإمبراطورية العثمانية . بل وحاولت اليونان احتلال الأناضول بآسيا الصغرى. فقام مصطفى كمال أتاتورك (أى أبو الأتراك) وأمكنه إجلاء اليونانيين عن الأناضول . ونقل العاصمة من إستانبول إلى أنقرة بآسيا الصغرى . وأصبحت تركيا الأوربية لا تعدو ولاية إستانبول التى لا تتجاوز مساحتها ٧ ٪ سبعة فى المائة من مساحة تركيا الحالية . ولا يزيد سكانها عن ٤ ٪ أربعة فى المائة من سكان تركيا . (سكان تركيا ٤٠ مليون نسمة ومساحتها ٧٨٠٠٠٠ كيلومتر مربع تقريباً) . وأعلن مصطفى كمال قيام الجمهورية التركية سنة ١٩٢٢م . ثم ألغى الخلافة الإسلامية من تركيا سنة ١٩٢٤م .

ولسنا بصدد تاريخ الدولة العثمانية . ولكن قصدنا أن نبين فضل العثمانيين ضد المطامع الأوربية . وإن كانوا قد عجزوا أخيراً . وهذا قبل أن نذكر ما جنوه على الوطن العربى — ومصر خاصة — من ضياع وفساد . وعزلة عن مسايرة ركب التقدم الذى قد بدأ فى أوربا .

ودخلت مصر أثناء حكم العثمانيين الذى قارب ثلاثة قرون حتى دخول الفرنسيين سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨م) فى سبات عميق لا تفيق منه إلا على كابوس من الأحداث من فتن ومجاعات وأوبئة .

وكان سوء الظن من عناصر الطبيعة التركية . حتى إنه كان تقليداً أن السلطان يوم توليته يأمر بإعدام عدد من إخوته . فمثلا السلطان محمد الثالث ابن مراد الثالث (١٠٠٣ — ١٠١٢هـ) اتباعاً لهذه العادة أمر بقتل ١٩ من إخوته بعد حضورهم فى تشييع جنازة والدهم بأربع وعشرين ساعة . وناط بذلك الجلادين الخرس حتى لا يعرف أحد ما قالوه عند إعدامهم (تقويم النيل جـ ٢ ص ٢٩) . وفضلا عن سوء الظن فقد كانت القسوة والتكبُّر من طبيعتهم . فكثيراً ما أعدم الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) لأتفه الأسباب وكثيراً ما تفنَّنُوا بطرق وحشية فى وسائل الإعدام .

فوضع السلطان سليم الأول نظاماً لحكم مصر يضمن بمقتضاه استمرار التبعية . وصد كل من تحدثه نفسه من الولاة من محاولة الاستقلال بها . فجعل السلطات الرئيسية] فى البلاد كما يلى :

أولاً : الوالى ويلقب بالباشا . وهو عثمانى دائماً . ويعين من إستانبول . ويتجدد تعيينه غالباً فى ذى الحجة من كل سنة .

ثانياً : المماليك . وكان السلطان سليم قد وعدهم بالإبقاء على امتيازاتهم . فأنشأ لهم ٢٤ إمرة أو صنجقية كما كانت تسمى . وهذا أيضاً كان عدد أمراء المائة مقدمى الألوف غالباً فى أواخر عهد السلاطين المماليك . والصنجق يحمل لقب بك أى أمير . وكان القرار بتعيين الصناجق أول الأمر يصدر من إستانبول . ثم لما قوى شأن المماليك كانوا هم الذين يقررون الأسماء التى تحل محل من يتوفى أو يفصل من الصناجق فى حدود العدد المذكور .

وكان رئيس الأمراء المماليك يلقب بشيخ البلد . وكانت هناك وظائف كبرى يتنازعون عليها . مثل الدفتر دار . وهى أقرب لوظيفة وزير الداخلية . وإمارة الحج . ففريضة الحج من أركان

الإسلام . والحج كان محفوفاً بالمخاطر من الأعراب الذين يتربصون للحجاج طول الطريق فى الذهاب والعودة . وبرغم ما كان يُبذل للأعراب من الأموال نظير تأمين الطريق وخفارة الحجاج . فكثيراً ما نكث الأعراب بالعهود . وقلما كان يسلم الحجاج من النهب والسلب . بل والقتل أحياناً . وخطف النساء وردهن لأهليهن بمقابل من المال . أو بيعهن فيما بينهم بيع الرقيق .

وكانت هناك وظيفة الكاشف لكل إقليم كالمحافظ الآن . والكاشف أقل من الصنجق .

كذلك وظيفة الكتخدا . وقد حرفها العامة إلى كخيا . فللوالى الباشا كتخدا . ولكل صنجق كتخدا . ولكل أوجاق أى فرقة من الحامية العثمانية كتخدا . ومعناها الوكيل . . وهكذا .

كذلك وظيفة والى مصر — أى المدينة وهو غير الوالى العثمانى فكان لقبه الباشا كما ذكرنا .

كذلك وظيفة المحتسب . وقد سبق ذكرها فى مقال سابق . وغير ذلك من الوظائف المختلفة .

ثالثاً : الجيش . وقد كون سليم جيش الحامية من ستة أوجاقات أى فرق . ومن رؤساء هذه الفرق يتكون مجلس الباشا الوالى . ومن حق هذا المجلس رفض أى قرار يصدره الباشا مخالفاً للمصلحة العامة .

رابعاً : الديوان الصغير ويتكون من رؤساء الفرق والصناجق . ويجتمع يومياً .

خامساً: الديوان الكبير ويتكون ممن ذكروا مضافاً إليهم العلماء . ورأيهم استشارى .

وهكذا نرى أنه ولو لم يجعل العلماء إحدى السلطات . ولكنه اعترف بهم كأحد المصادر الفكرية فى البلاد .

وأدى تكوين الحكومة بهذا الشكل إلى تنازع السلطات . وبالتالى إلى ضياع المصلحة العامة . وإهمال مرافقها من رى وتعليم وصحة وغيرها . فتكررت المجاعات . وتعقبها أو تسبقها الأوبئة . وأهمها الطاعون . فكان يفد دورياً . ولا تمر عشرون سنة إلا وينتشر الوباء ويحصد مئات الألوف .

ولم يقتصر الفتح العثمانى على إنزال مصر من سلطنة قوية ذات سيادة إلى

ولاية تابعة . فعند عودة سليم الأول إلى إستانبول – بعد أن مكث فى مصر ثمانية شهور – أخذ معه الخليفة العباسى وكثيرين من أعيان مصر كرهائن وأسرى . وحمل معه كميات هائلة من التحف والذخائر من الذهب والفضة والمصوغات والسلاح والصينى والنحاس المكفت والبلور . وعشرات الألوف من الكتب والمخطوطات . وكل ما هو نفيس فى قيمته المادية أو الفنية . حتى إنه جرد الكثير من القصور والمساجد من فاخر الرخام وأنواع النجارة دقيقة الصنعة محملة على ألف جمل . فضلا عن الخيول والبغال . وعلاوة على ما نهبه قواد جيشه وجنوده من كل الأنواع حتى أثرى الكثيرون منهم ثراء فاحشاً . كما حمل معه عدداً وافراً من مهرة الصناع فى كافة الصناعات . حتى بطلت بمصر أكثر من خمسين حرفة . مما كان له أكبر الأثر فى تدهور مصر اقتصادياً .

ولم يتحقق لمصر أى استقرار سياسى أثناء حكم العثمانيين . فقد كان المماليك – وقد أبقى لهم السلطان سليم امتيازاتهم – يملكون $\frac{١٠}{٢٤}$ من مساحة الأرض المنزرعة فأصبحوا أصحاب مال وثراء . ومن يطمع منهم فى التقدم يكثر من اقتناء المماليك والخيول والسلاح . ليكونوا عدة له يتفوق بها على أقرانه . وكانوا هم فى الواقع أصحاب النفوذ الفعلى فى البلاد .

ولعدم استقرار شؤون الدولة فى إستانبول . وتفشى الفساد . وتدخل النساء فى الحكم . كثر تغيير الولاة حتى كانت لا تزيد ولاية بعضهم على بضعة شهور . وكان الكثيرون منهم من الخصيان وخدم السراى . فكان هم الوالى أن ينهب فى مدة خدمته القصيرة أكثر ما يستطيع نهبه .

فمن سنة ٩٢٣هـ إلى سنة ١٢١٣هـ تاريخ دخول الفرنسيين . أى ٢٩٠ سنة . تولى ١٢٤ والياً منهم تسعة تولوا مرتين . فكأنهم ١٣٣ . وهذا بخلاف ستة ولاة من خروج الفرنسيين سنة ١٢١٦هـ لغاية سنة ١٢٢٠هـ (١٨٠٥م) بدء ولاية محمد على .

وكان الوالى عند قدومه لا يجد مندوحة من الانطواء مع المماليك . فكثيراً ما قرر أمراؤهم عزل الوالى وتعيين (قائمقام) له منهم . ويطلبون من إستانبول استبدال الوالى معتمدين على فتوى أو موافقة من العلماء . ودائماً كانت ترضخ إستانبول لقرارهم وتعين بدله .

وكان المماليك دائماً فى انقسام . وكان هذا الانقسام محوراً هاماً فى سياسة مصر الداخلية تدور حوله

الأحداث . فظلوا دائماً قسمين يتنازعان ويغتال بعضهم بعضاً . ثم ينتقم البعض لمن اغتيل ، ويتنافسون على المراكز الرئيسية فى الحكم . ويصل إليها فريق منهم . فيهرب الفريق الآخر إلى الأرياف . وإلى الصعيد خاصة . فيعيثون فساداً . ويمنعون الحبوب والمؤن عن العاصمة . وتُجرَّد ضدهم التجاريد (الحملات العسكرية) . فيغلب من يغلب . ويدفع الأهلون من زراعاتهم وأقواتهم للغالب والمغلوب . فعلى كل قرية أن تقوم بلوازم من يمر بها من المتحاربين . بل المتحاربون لا يكتفون بما يقدم لهم بل يأخذون ما يريدون نهباً واغتصاباً .

وقد انقسم المماليك بادئ الأمر فى أول الحكم العثمانى إلى فقارية وقاسمية . ومبدأ هذا الانقسام غير معروف على وجه التحديد والتحقيق . فالبعض يرجعه إلى السلطان سليم العثمانى . الذى نافس بين أخوين هما ذو الفقار بك وقاسم بك ابنا الأمير سودون أحد الأمراء المصريين الذين كانوا بعيدين عن الاشتغال بالسياسة عند دخول العثمانيين . وكانت المنافسة مباراة سباق ومبارزة . وانحاز العثمانيون للأول . والمصريون للثانى . واستمر التحيز بعد هذه المباراة مع تغير الميول والأوضاع . فقد انقسم المصريون أيضاً إلى فقارية وقاسمية . وقيل إن هذا الانقسام حصل بين المماليك بعد الفتح العثمانى .

وكان شعار الفقارية اللون الأبيض وشعار القاسمية اللون الأحمر . من الثياب والخيول والسلاح وفرش المنازل وآنية الطعام . بل وألوان الطعام نفسه — وكان يرمز للفقارية بنصف سعد وللقاسمية بنصف حرام . وهما رمزان غير واضح مدلولهما . ولم أعثر على تعليل محقق لهما . غير أنه كان من قبائل العرب بمديرية الشرقية قبيلتان، هما بنو سعد وبنو حرام . فلعل الأولى كانت تناصر الفقارية . وكانت الثانية تناصر القاسمية .

واستمر التنافس بين الفريقين أكثر من قرنين حتى قضى الفقارية على القاسمية سنة ١١٤٢ هـ . ثم تفرع من الفقارية القازدوغلية . ثم تفرع من القازدوغلية القطامشة والدمايطة والجلفية . وهكذا . وقال الجبرتى إن غالب أمراء مصر فى عهده (يعنى إلى أن قضى عليهم محمد على فى مذبحة القلعة فى صفر سنة ١٢٢٦ هـ — فبراير ١٨١١ م) يرجعون إلى مصطفى كتخدا القازدوغلى أو على رضوان بك المنسوبة له قصبة رضوان خارج باب زويلة عند الخيامية والمتوفى سنة ١٠٦٥ هـ . وليس معنى هذا

أنهم من نسلهما . فالمملوك ينتسب إلى مالكه الأصلى . ويُعبر عنه بأستاذه .

وكما كان الانقسام بين المماليك . فكان الانقسام أيضاً بين فرق الجيش فكل أوجاق أى فرقة . يضم طائفة معينة تترابط مع بعضها . وكثيراً ما تتصادم الفرق لأسباب خاصة بينها . أو لمناصرة بعض المماليك ضد البعض الآخر . وكانت أحياء القاهرة وشوارعها مسرحاً لهذا الصراع فتغلق الحوانيت . وتعطل الأسواق خوفاً من النهب والسلب . ويلزم الأهلون دورهم ومساكنهم حتى تهدأ الفتنة .

وعامل آخر من عوامل الفتنة والفساد . هو الأعراب . فقد فرضوا لأنفسهم السيطرة على طرق الريف . يُغيرون على القرى ينهبون ويسلبون ويخطفون . وكان لبعضهم السيطرة الكاملة على بعض النواحى . مثل همام بن يوسف زعيم قبائل هـوَّارة بالصعيد . وسويلم بن حبيب زعيم العرب بالقليوبية الذى سيطر على الوجه البحرى تقريباً يتحكم فى القادمين براً من الشرق . أو بحراً فى المراكب الواردة من دمياط فى النيل . وقد قضى عليهما على بك الكبير سنة ١١٨٣هـ .

فى هذا الجو القاتم الملىء بالفتن والاضطراب كانت تعيش مصر .

وكانت القاهرة — والعاصمة هى القلب النابض للدولة — تئن ألماً من هذه الأحداث . فإنها تعيشها وتكتوى بنيرانها .

ولكن كان هناك العامل المهدِّئ . أو صمام الأمان إلى حدٍّ ما . هم العلماء .

ونعنى بهم شيوخ الأزهر وأساتذته ونقيب الأشراف ورئيس السجادة البكرية ومشايخ الطرق الصوفية وغيرهم .

فكان للأزهر مكانته وأثره فى الرأى العام — وكان أغلب أمراء المماليك يهابون علماءه ويقدرونهم ويعملون حسابهم . إذ كانوا يعبرون عن رأى الشعب ويحاولون بتدخلهم أن يمنعوا عنه العدوان . أو يخففوا من ثقل الضرائب . وكان سلاحهم الفتاوى الشرعية . وقفل الجامع الأزهر . والامتناع عن التدريس . وتحريض الأهالى على قفل الحوانيت والمتاجر وتعطيل الأسواق .

وكان المماليك يسارعون إلى استرضائهم والوعد بالعدول عن مظالمهم . ثم سرعان ما ينكثون العهود . ويعودون إلى ما كانوا فيه .

ولم يقتصر احترام علماء الأزهر على المماليك . بل كانوا أيضاً محل تقدير من سلاطين آل عثمان . وكان بعض العلماء لا تنقصه الشجاعة الأدبية فقد

ذكر أمين باشا سامى نقلا عن صاحب الذخيرة (تقويم النيل ج ٢ ص ١٩) فى حوادث سنة ٩٤٥ هـ أن الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق شيخ الجامع قال للوالى داود باشا — وكان خصياً — : أنت لا تصلح للحكم وأنت تحت الرق . وما دمتَ غير معتوق فالأحكام باطلة . فهمَّ الباشا بإعدامه . فمنعه الجند . فلما تعصب الجند للشيخ أبلغ الأمر للسلطنة . فأرسلت له ورقة بعتقه . مع الشكر لشيخ الإسلام الذى لم تكن له مرتبات فى دفاتر الحكومة والذى لم يقبل أى هبة أو هدية من الوالى . مع التشديد على الوالى بحسن السير مع الرعية والاستعانة بالعلماء فى الحكم حسب الشريعة الإسلامية ا هـ .

ومن هذا الخبر يتبين أن منصب شيخ الجامع الأزهر أقدم مما ذكره الجبرتى فى تاريخه الذى بدأ سلسلة شيوخ الأزهر بالشيخ محمد عبد الله القرشى المتوفى سنة ١١٠١ هـ . وقد ذكرنا فى مقال سابق من (صفحات من تاريخ القاهرة) أن داود باشا هذا تولى ولاية مصر من ٩٥٤ — ٩٥٦ هـ وإليه ينسب حى الداودية بجوار حى القربية غربى امتداد الشارع الأعظم خارج باب زويلة .

وكانت قد تعطلت تدريجياً أغلب المدارس التى أنشئت فى عهد الأيوبيين والسلاطين المماليك لعدم مباشرتها ونهب أوقافها بفساد ناظريها . وتحولت إلى مجرد دور للعبادة والصلاة . وكذلك كان الحال فى باقى البلاد العربية التى حكمها العثمانيون .

ولكن ظل الأزهر طوداً شامخاً . وبعد أن تعطلت هذه المدارس انفرد هو بأداء رسالة العلم والدين واللغة . وقصده الدارسون والباحثون من شتى الأقطار الإسلامية . وأصبح الجامعة الكبرى للجميع .

وكان للعلماء حرمة ومكانة عظمى بين الناس وعند الحاكمين . وكان أمل كل أسرة — وقد احتكر العسكريون والمماليك وظائف الحكومة الهامة — أن يصل أحد أبنائها إلى هذا المركز المرموق . فيرسلون أبناءهم للمجاورة بالأزهر . ويزودونه بالمؤونة التى تكفيه طول العام الدراسى من خبز مجفف وسمن وكشك ودقيق وملوخية ناشفة وعدس وفول وبصل وثوم والتقلية اللازمة لطهى الطعام وحتى الحطب وغير ذلك . مما يجعل الطالب فى غير حاجة لإنفاق غير اليسير جداً من المال .

الإصلاحات بالأزهر فى عهد العثمانيين ومن بعدهم :

ولم يخل الأمر أثناء حكم العثمانيين من وال مصلح يلتفت إلى الأزهر .

فجدده الوالى الشريف محمد باشا سنة ١٠٠٤هـ (١٥٩٥م) . ورتب فيه مقداراً من العدس يطبخ كل يوم للفقراء .

وعمر الوالى حسن باشا الدفتر دار سنة ١٠١٤هـ . مقام السادة الحنفية وبلّطه بلاطًا جديداً .

كذلك لم يخلُ الأمر من التفات بعض البكوات المماليك إليه بعين الرعاية . فقد جدّد سقفه إسماعيل بك إيواظ .

وإيواظ أصلها عوض (بكسر العين) . حرفها الترك إلى إيواظ لعدم نطقهم بالضاد . وفى القاموس المحيط أن عِوض أصلها عِواض بكسر العين . وينطقها العامة بفتح العين . وإسماعيل بك إيواظ ابن إيواظ بك الذى كان رئيساً للمماليك القاسمية وقتله الفقارية سنة ١١٢٣ هـ (١٧١١ م) . وتولى بعده إسماعيل بك المذكور وقتله الفقارية أيضًا سنة ١١٣٤ هـ وله من العمر ٢٨ سنة . وهما صاحبا الدار الكبيرة بدرب الجماميز بجوار جامع بشتاك المعروف الآن بجامع مصطفى فاضل (وهو أخو الخديو إسماعيل) . وتنقلت الدار المذكورة بين المالكين حتى آلت إلى مصطفى فاضل الذى جددها وأنشأها إنشاء آخر . ثم آلت إلى الخديو إسماعيل بتخارج من مصطفى فاضل لإسماعيل عن جميع أملاكه بمصر مقابل ٢,٨٠٠,٠٠٠ مليونين وثمانمائة ألف من الجنيهات فى آخر رجب ١٢٨٣هـ (٧ / ١٢ / ١٨٦٦م) . ثم تنازل إسماعيل عنها للحكومة فأنشأ على باشا مبارك بها ديوان الأوقاف ودار الكتب العمومية . وظلا بها حتى انتقلا إلى مكانيهما الحاليين بباب اللوق وباب الخلق . ثم كانت بها المدرسة الخديوية الثانوية ومدرسة المعلمين العليا . ولا تزال للآن فى ملكية وزارة التربية والتعليم وقد اخترقها امتداد شارع مجلس الشعب حتى ميدان مصطفى فاضل بالحلمية الجديدة . ودخلها كثير من التعمير والتجديد . وأنشئ فى فراغاتها عدداً من المبانى للمدارس المختلفة . والمدرسة الخديوية كانت جنوبى جامع مصطفى فاضل وجنوبى امتداد شارع مجلس الشعب . أما الآن فهى شمال جامع مصطفى فاضل محل المدرسة المحمدية الابتدائية .

وقد ذكرنا فى المقال السابق أن عثمان كتخدا القازدوغلى قد أنشأ زاوية العميان سنة ١١٤٨ وأن مكانها الآن إدارة الجامعة الأزهرية . ونضيف أنه أنشأ بجوار زاوية العميان رواق الحنابلة كما جدد رواق الأتراك ورحبته ورواق السليمانية . وسنذكر أروقة الأزهر فى المقال التالى بإذن الله .

ثم جاءت العمارة الكبرى على يد عبدالرحمن كتخدا القازدوغلى سنة ١١٦٧هـ (١٧٥٤م) فقد أنشأه إنشاء آخر .

وقبل أن نتكلم عن هذه العمارة الكبرى فى الجامع الأزهر نذكر ترجمة للمذكور وكلمة مختصرة عن عصره : عبد الرحمن كتخدا القازدوغلى .

ذكرنا أن المماليك الفقارية قضت على القاسمية ١١٤٢ هـ . (١٧٢٩ م) وأنه تفرع من الفقارية القازد وغلية كما تفرعت عصابات أخرى من المماليك مثل القطامشة والدمايطة والجلفية .

والقطامشة نسبة إلى محمد بك قيطاس المعروف بقطامش . وقيطاس اسم مالكه الأصلى أو أستاذه كما جرى التعبير . وآلت له الرئاسة بعد القضاء على القاسمية وقتل سنة ١١٤٨ هـ . وبعد منازعات ومشاحنات قضى على القطامشة والدمايطة سنة ١١٦٠ هـ بمؤامرة دبرها محمد باشا راغب الوالى على مصر فى ١١٥٧ – ١١٦١ هـ .

وراغب باشا المذكور تقلب بعد ولايته مصر عدة مناصب فى الدولة حتى وصل إلى وظيفة الصدر الأعظم – أى رئيس الوزارة – من سنة ١١٧٠ – سنة ١١٧٦ . وتوفى سنة ١١٨٠ . وكان من الوزراء المعدودين نشطت فى عهده الزراعة والتجارة والعلوم . كما كان عالماً محققاً له كتاب (سفينة الراغب ودفينة الطالب) فيما يقرب من السمائة صحيفة من القطع الكبير كاملة السطور به كثير من الحقائق والمباحث التاريخية والأدبية والعلمية والدينية . فهو أشبه بالكشكول ويدل على سعة الاطلاع (مطبعة بولاق سنة ١٢٥٥ هـ وسنة ١٢٨٢هـ) كما له ديوان شعر اسمه (سفينة العلماء) .

والجلفية نسبة إلى حسن كتخدا غربان الجلفى (توفى سنة ١١٢٤ هـ) . وسبب التسمية أن أستاذه زوجه بالست خديجة المعروفة بالجلفية نسبة إلى قرية اسمها سان الجلف . وغربان نسبة إلى باب الغرب أحد أبواب القلعة وأهمها . وبعد وفاته تولى تابعه على كتخدا غربان الذى قتل سنة ١١٥٣ هـ بمؤامرة دبرها الوالى سليمان باشا العظم المعروف بالشامى .

وفى هذه الفترة كانت الرئاسة – أو مشيخة البلد كما كانت تسمى – لعثمان بك ذى الفقار . فالتزم هذا بأخذ ثأر على كتخدا الجلفى . وقلد مملوكه رضوان كتخدا الجلفى باب الغرب محل أستاذه .

وتزايد شأن عثمان بك حتى أصبح كل شىء . وشمخ على أمراء مصر – نعنى الصناجق . ونفذ أحكامه عليهم قهراً . وعمل فى بيته دواوين لحكومات العامة ولإنصاف المظلوم من الظالم . وجعل لحكومات النساء ديواناً خاصاً . وكان لا يجرى أحكامه إلا على مقتضى الشريعة ولا يقبل الرشوة . وكان صالحاً مصلحاً . فضلا عن منافسات الرئاسة بينه وبين إبراهيم كتخدا القازدوغلى أمكن هذا الأخير أن يؤلب عليه الأمراء . واضطر عثمان بك للهرب سنة ١١٥٧ هـ إلى إستانبول حيث أقام بها ٣٣ سنة تقريباً حتى توفى سنة ١١٩٠هـ . وحزن الناس عليه وكانوا يؤرخون حوادثهم بتاريخ خروجه من مصر .

واستقر الأمر لإبراهيم كتخدا القازدوغلى . ويقاسمه فى السلطة رضوان كتخدا الجلفى السابق ذكره .

وإبراهيم المذكور كان مملوكاً لسليمان كتخدا القازدوغلى . الذى كان مملوكاً لمصطفى كتخدا القازدوغلى . وقد ذكرنا من قبل أن هذا الأخير كان أصل القازدوغلية . وإبراهيم كتخدا هذا خشداش حسن جاوش أستاذ عثمان كتخدا منشىء زاوية العميان السابق ذكره . وحسن جاويش هو والد عبد الرحمن كتخدا المترجم له .

وخشداش المملوك هو مملوك آخر تربى ونشأ معه فى تبعية أستاذ واحد وكان المماليك يقدرون هذه الصلة كأنها إخاء .

فما ذكر إبراهيم كتخدا خصوصاً بعد القضاء على القطامشة والدمايطة سنة ١١٦٠هـ كما ذكرنا . وكانت داره بجوار جامع قوصون بشارع القلعة عند مدخل الحلمية الجديدة . وكانت لقسيمه رضوان الجلفى دار بجواره .

وكان رضوان الجلفى مترفاً منهمكاً فى لهوه وملذاته تاركاً تدبير الأمور لإبراهيم القازدوغلى . وأنشأ رضوان الجلفى عدة قصور وأماكن بالغ فى زخرفتها وزينتها . منها دار الحافة الشرقية لبركة الأزبكية كانت قبله لعائلة من الأثرياء اسمها الشرايبى . وكانت الدار معروفة بين أولاد البلد باسم الثلاث ولية وباسم العتبة الزرقاء :

ثم آلت هذه الدار إلى طاهر باشا ناظر الجمارك فى عهد محمد على ثم إلى عباس حلمى الأول حفيد محمد على فهدمها وأعاد بناءها وأسماها العتبة الخضراء ثم اتخذت مقراً للمحكمة المختلطة . ثم هدمت لتوسعة الميدان المعروف حالياً بهـــذا الاسم .

كذلك أنشأ رضوان الجلفى داراً أخرى على الحافة الشمالية الغربية لبركة الأزبكية بالجهة المعروفة الآن بقنطرة الدكة . واتخذ له فيها مجالس لهو يجتمع فيها بالخلان والندماء . وقصده الشعراء ومدحوه وأجازهم . وكان سادراً فى ملذاته يتجاهر بالمعاصى ولا يبالى بشىء تاركاً تدبير الأمور لقسيمه إبراهيم كتخذا .

واستمر حكمها سبع سنوات قال عنها الجبرتى فى تاريخه : والبلاد هادئة من الفتن والشرور والإقليم البحرى والقبلى فى أمن وأمان . والأسعار رخية والأحوال مرضية .

وأود أن أنقل هنا صورة ذكرها الجبرتى عن المجتمع المصرى فى ذلك العصر فقال :

(وكان لأهل مصر سنن وطرائق فى مكارم الأخلاق لا توجد فى غيرها . منها . أن فى كل بيت من بيوت الأعيان مطبخين أحدهما أسفل رجالى والثانى فى الحريم . فيوضع فى بيوت الأعيان السماط فى وقتى الغذاء والعشاء . مستطيلا فى المكان الخارج . مبذولا للناس . ويجلس بصدره أمير المجلس وحوله الضيفان . ومن دونهم من مماليكه وأتباعه . ويقف الفراشون فى الوسط يفرقون على الجالسين ويقربون إليهم ما بعد عنهم من القلايا والمحمرات . ولا يمنعون وقت الطعام من يريد الدخول أصلا . . إلخ .

وقال : ولهم صدقات وعادات فى أيام المواسم مثل أول رجب والمعراج ونصف شعبان وليالى رمضان والأعياد وعاشوراء والمولد الشريف يطبخون فيها الأرز باللبن والزردة ! ! . ويملأون من ذلك قصاعاً كبيرة ويفرقونها على من يعرفون من المحتاجين .

وقال : ويجتمع فى كل بيت الكثير من الفقراء فيفرقون عليهم الخبز ويأكلون حتى يشبعوا . ولهم غير ذلك صدقات من الكعك المحشو بالسكر والعجمية والشريك على الترب فى جميع المواسم . وكذلك أهل القرى والأرياف . . إلخ .

وقال فى مكان آخر فى بعض أمراء

القازدوغلية إنه رأى فى بيته مائة قارئ من الحفظة يقرأون القرآن كل يوم فى الأوقات الخمسة . فى كل وقت عشرون قارئاً . . إلخ) ا هـ .

وتوفى إبراهيم كتخدا على فراشه سنة ١١٦٨ هـ . وقبل وفاته كان عبد الرحمن كتخدا القازدوغلى صاحب الترجمة يحرض مماليكه على الجلفية الذين يتقاسمون الحكم برئاسة رضوان الجلفى . فلما مات إبراهيم أخذ أتباعه يدبرون قتل رضوان . وكان هذا سليم الطوية مسالماً . فلم يصمد أمامهم وهرب إلى الصعيد حيث توفى بعد قسيمه ببضعة شهور .

وتولى الرئاسة بعدهما حسين بك الصابونجى المعروف بالمقتول . وأراد الاستبداد. فتآمر عليه خشداشوه يحركهم حسين بك كشكش وقتلوه سنة ١١٧١هـ وتولى مكانه على بك الغزاوى أحد مماليك إبراهيم كتخدا . وأراد على بك الغزاوى التخلص من عبد الرحمن كتخدا الذى كان فى مركز مرموق من جميع القازدوغلية . فانتهز عبد الرحمن فرصة خروج على بك الغزاوى للحج سنة ١١٧٢ . وجمع الأمراء وقرروا نفيه . فعاد إلى غزة . ثم إلى مصر بتدخل إستانبول . ولم يطل به المقام فمات سنة ١١٧٣ . وقيل مسموماً .

وفى سنة ١١٧٤ بدأ شأن على بك بلوط قبان — الذى عرف فيما بعد بعلى بك الكبير — فى الظهور . وهو أصلا من مماليك إبراهيم كتخدا بالاحتفال الكبير الذى أقامه لزفاف هانم بنت سيدهم أى بنت إبراهيم كتخدا . فقد كان أستاذاً لأغلب الصناجق . وكان الاحتفال فوق مياه بركة الفيل بألواح من الخشب ربطت ببعضها ويمشى عليها الناس . وقد بالغ الجبرتى فى وصف هذا الحفل فى حوادث سنة ١١٧٤ . نقتطف منه قوله : (واستمر الفرح والمهم مدة شهر كامل . والبلد مفتحة والناس تغدو وتروح ليلا ونهاراً للحظ والفرجة من كل النواحى ووردت على على بك الهدايا والصلات من إخوانه الأمراء والأعيان والاختيارية والوجاقلية والتجار والمباشرين والأقباط والإفرنج والأروام واليهود . والمدينة عامرة بالخير ، والناس مطمئنة . والمكاسب كثيرة . والأسعار رخية . والقرى عامرة . وحضرت مشايخ البلدان وأكابر العربان ومقادم الأقاليم والبنادر بالهدايا والأغنام والجواميس والسمن والعسل . وكل من

الأمراء الإبراهيمية (نسبة إلى إبراهيم كتخدا) كأنه صاحب الفرح . والمشار إليه منهم صاحب الفرح على بك) اه.

واتحد على بك مع عبد الرحمن كتخدا حتى تم له التسلط على باقى الأمراء . فلما استتب له الأمر نفى عبد الرحمن كتخدا إلى الحجاز سنة ١١٧٨ حيث ظل هناك منفياً حتى عاد إلى مصر مريضاً محطماً سنة ١١٩٠ وتوفى فى نفس السنة .

وقد عين على بك خمسة من مماليكه صناجق منهم محمد بك أبو الذهب منشئ المدرسة المقابلة للجامع الأزهر . ولقب بالكبير لأنه استقل بشؤون مصر وطمع فى الاستيلاء على الشام لولا غدر مملوكه محمد أبى الذهب . ويريد البعض أن يجعل من على بك بطلا مصرياً أراد الاستقلال من التبعية العثمانية ولكننا لا نستطيع إلا أن نضعه بين طائفة المماليك بما جبلوا عليه من غدر وخيانة . وإن امتاز عنهم بالطموح وسعة الأفق مع الحزم وشدة المراس . ولو عرضنا لتاريخ حياته لوجدنا الكثير من نواحى الغدر والخيانة . ولكن ليس هنا موضوعه وقد نعرض له ثانية عند الكلام عن الشيخ الحفنى أحد شيوخ الجامع الأزهر بإذن الله . وقد استرسلنا فى تاريخ هذه الحقبة من تاريخ مصر لنبين وضع عبد الرحمن كتخدا فيها .

وكان عبد الرحمن كتخدا محباً للعمائر وفعل الخيرات . ولم يقتصر تاريخه على العمارة الكبرى فى الجامع الأزهر . ولكن له الكثير من الآثار والمنشآت . وبلغ عدد المساجد والمشاهد التى أنشأها أو جددها ١٨ مسجداً ومشهداً . منها مشهد السيدة زينب ، ومشهد السيدة عائشة بالقرب من باب القرافة أو باب قايتباى ، ومشهد السيدة سكينة بقسم الخليفة ، ومشهد السيدة فاطمة بالدرب الأحمر ، ومشهد السيدة رُقية بقسم الخليفة بين مشهدى السيدة سكينة والسيدة نفيسة .

والمشهور أن السيدة زينب والسيدة رقية بنتا الإمام على بن أبى طالب . وأن السيدة سكينة والسيدة فاطمة بنتا الإمام الحسين بن على بن أبى طالب . مع خلاف . أما السيدة عائشة فهى بنت الإمام جعفر الصادق سادس الأئمة عند الشيعة . والسيدة نفيسة فهى بنت حسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن

ابن على بن أبى طالب . وقد تزوجت من إسحق المؤتمن بن جعفر الصادق . ولا خلاف فى أن السيدة نفيسة هى المدفونة فعلا بمقامها المعروف بقسم الخليفة .

وعمّر عبد الرحمن كتخدا مشهد أبى السعود الجارحى عند مصر القديمة . وجدد المارستان المنصورى . وعمّر المدرسة السيوفية التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى للفقه الحنفى عند مدخل الصاغة . وأنشأ عبد الرحمن كتخدا بها قبراً لوالدته . ومكان المدرسة السيوفية الآن الزاوية المعروفة بالشيخ مطهر . بالقرب من مدخل الصاغة وكان مكانها أصلا دار المأمون البطائحى وزير الآمر بأحكام الله الفاطمى . وسميت بالسيوفية لأن سوق السيوفيين كان هناك عند إنشائها . وبالمدرسة السيوفية تلقى دروسه العارف بالله عمر بن الفارض (٥٧٦ — ٦٣٢ هـ) الذى اشتهر بين الصوفية بديوانه المعروف برقيق معانيه ودقيق مراميه فى التغزل ومحبة الذات الإلهية . وقبره للآن بالقرافة الصغرى يزار . والقرافة هناك معروفة باسمه . وكان عمر بن الفارض يقيم فى الأزهر .

وعمر المسجد بجوار ضريح الإمام الشافعى . ومسجد شرف الدين الكردى بالحسينية . كما عمر جامع الأمير مغلطاى الفخرى بجهة الغُرَيِّب الذى قتل مع أخيه ألماس الحاجب صاحب المسجد بشارع الحلمية سنة ٧٣٤هـ فى عهد الناصر محمد بن قلاوون . وكان هذا المسجد بالقرب من باب البرقية . ثم عرف باسم مسجد الغريب لضريح به صاحبه بهذا الاسم وكان من الأولياء المعتقدين عند العامة . ثم لما جدده عبد الرحمن كتخدا نُسب إليه . وموقعه بجوار كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية .

وأنشأ للشيخ الحفنى شيخ الجامع الأزهر داراً على الخليج المصرى وقنطرة أمام الدار للوصول إليها . وكان موقعهما جنوبى تقاطع شارعى الأزهر والخليج (بور سعيد حالياً) وقد أزيلا عند ردم الخليج ليسير الترام فى مجراه السابق وعند توسيع شارع الخليج .

وأنشأ لنفسه قصراً برحبة عابدين قال عنه الجبرتى : (إنها كانت من الدور العظيمة المحكمة الوضع والإتقان لا تماثلها دار فى مصر فى حسنها وزخرفة مجالسها وما بها من النقوش والرخام والقيشانى والذهب المموه واللازورد وأنواع الأصباغ

وبديع الصنعة والتأنق والبهجة وغرس فيها بستاناً بديعاً . . . إلخ) ا هـ . وقد أدخلت هذه الدار ضمن ما أدخله الخديوى إسماعيل فى قصر عابدين . كما كان لعبد الرحمن كتخدا أيضاً قصر آخر بجهة قصر النيل هُدم سنة ١٢٥٠ هـ فى عهد محمد على . وكان موقعه بجهة ميدان التحرير .

وأنشأ أيضاً برحبة عابدين جامعاً ورباطاً . كما أنشأ على الخليج هناك قنطرة ليتوصل منها إلى جامعه وقصره . أما الجامع والرباط فقد تضاءلا إلى مسجد صغير بشارع سكة رحبة عابدين معروف باسم مسجد الشيخ رمضان لأن به ضريحاً بهذا الاسم . أما القنطرة فأعتقد أنها هى القنطرة التى عُرفت باسم قنطرة الذى كفر وكان موقعها تجاه الشارع المعروف الآن بشارع مصطفى باشا عبد الرازق (سكة رحبة عابدين سابقاً) . ولم يذكرها المقريزى لأنها أنشئت بعد عصره . وقال على مبارك إنه لم يعرف لها تاريخ إنشاء . ولم توجد على الخليج قنطرة توافق الموقع الذى ذكره الجبرتى إلا هذه القنطرة . وأقول إن هذه التسمية جرت على ألسنة العامة . بعد نفى عبد الرحمن كتخدا إلى الحجاز إما سخرية بقرار النفى وتهكما عليه وإما لأن المسؤولين أشاعوا وقتها بعض الإشاعات لتبرير هذا النفى .

وغير هذا كثير من الزوايا والأسبلة . (وللتفصيل راجع تاريخ الجبرتى ج ٢ ص ٦) .

ولم يقتصر نشاطه على العمارات بل كان ذا بر وصدقات . فقد رتب للفقراء العميان الأكسية الصوف المسماة بالزعابيط وكذلك كساوى للمؤذنين يرتدونها وقت التسابيح فى ليالى الشتاء . ويفرق الملابس على النساء الفقيرات . ويخرج من بيته وقت الإفطار فى رمضان القصاع الكبيرة مملوءة بالثريد المسقى بمرق اللحم والسمن للفقراء . وبعد إفطارهم يعطى كلا منهم رغيفين ونصفى فضة لذمة السحور .

ولذلك لقب عبد الرحمن كتخدا عن جدارة بصاحب الخيرات والعمائر . غفر الله له .

وستكلم فى المقال التالى بإذن الله عن عمارته الكبرى للجامع الأزهر .

« يتبع »

محمد كمال السيد محمد

أخطاء شائعة

الأستاذ / عباس أبو السعود

٤١٨ — ويقولون : رأى الولد الأسد فاندهشُ خوفاً وذهب عقله ، فهو مندهش ، ورأى أستاذه فاندهش حياء فهو مندهش، وهذا خطأ، لأن المطاوع بزنة انفعل لابد أن يكون فيه علاج ككسرت الكوب فانكسر ، وجذبت الشيء فانجذب .

والفصيح أن يقال : دَهِشَ الولد دَهَشاً من باب فرح إذا تحير وذهب عقله خوفاً أو حياء فهو دَهِش ، ويتعدى بالهمزة فيقال : أدهشه الخوف أو الخجل فهو مُدهَش بصيغة اسم المفعول ، وهذه هي اللغة الفصحى ، وفي لغة يتعدى بالحركة فيقال : دهشه خطب من باب نفع دَهْشاً فهو مدهوش ، ودُهِش الولدُ ببناء الفعل للمجهول فهو مدهوش أيضاً .

٤١٩ — كثيراً ما نقرأ في صحيفة الأهرام قولها : كلما اشتريت من شهادات الاستثمار أكثر تكسب أكثر وأكثر .

وفي هذا التعبير غلطتان : إحداهما كلمة الاستثمار العامية ، إذ لم يرد عن العرب دخول الألف والسين على الفعل ثمر ، وإنما يستعمل الثلاثي فيقال : ثَمُرَ مال فلان يثمرُ إذا كثر ، وفلان محدود ما يثمرُ له مال ، وثَمَّر الرجلُ إذا تمول ، وثمَّر للغنم إذا جمع لها الشجن ، ومال ثَمِر وزان كتف ومثمور أي كثير ، والصواب — لتأدية المعنى الذي يبتغونه — أن يستبدل بالاستثمار كلمة التثمير ، وهي مصدر الفعل المزيد بالتضعيف فيقال : ثمَّر فلان ماله تثميراً إذا نمَّاه وكثره ، وعلى هذا تسمى الشهادات بشهادات التثمير .

والأخرى : كلمة تكسب الواقعة في زعمهم جواباً لكلّما ، والحق أن كلما من أدوات الشرط غير الجازمة وأنها ظرف يفيد التكرار ، ولا يليها إلا الفعل الماضي سواء كان شرطاً أو جواباً ، تقول : كلما زارني

صديقٌ أكرمته ومن هذا قوله جل شأنه (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً) ، وقوله (كلما أضاء لهم مشوا فيه) ومثلها فى هذا الحكم (لما) وهى ظرف بمعنى حين ، تقول : لما نزل المطر ربا الزرع ، ومنها قوله تعالى : (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) ، وقوله : (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه) .

٤٢٠ — وكثيراً ما نسمع أحد المذيعين أيام الصيف يقول : (الطقس) اليوم حار ، وأيام الشتاء يقول : (الطقس) اليوم بارد ، وهذا خطأ بيّن لأن كلمة (الطقس) عامية ، والفصيح أن يؤدى هذا المعنى بقولنا : الجو اليوم حار أو بارد ، جمعه جِواء بالكسر كسهم وسهام . ، أو بقولنا : الهواء اليوم حار أو بارد، جمعه أهوية ككساء وأكسية ، والهواء أيضاً الشيء الخالى ، تقول : هذا منزل هواء أى خال من السكان ومن المجاز قولهم للجبان : إنه لهواء أى خالى القلب عن الجرأة ، ومنه قوله تعالى : (وأفئدتهم هواء) أى خالية عن الفهم لفرط الحيرة والدهشة وقيل خالية عن الخير خاوية عن الحق .

٤٢١ — ويقولون لثمر شجرة هندية. الأصل : قُرُنُفل بثلاث ضمات قبل الأخيرة سكون والصواب أن يقال له قَرَنْفُل وقَرَنْفول بفتحتين بعدهما سكون فى كل منهما ، وهذا الثمر أفضل الأفاويه الحارة وأذكاها ، كما أنه مُصَفٍ للقلب والدماغ ، مُقَوٍّلهما ، هاضم للطعام تقول : طعام مُقَرفل ومقرنَف إذا كان مطيباً به ، وطيب مُقرفل إذا جعل فيه القَرنفُل .

٤٢٢— ويدعون لمن يستحم فيقولون : طاب حمّامك، وهذا فاسد لأن الحمام لا يطيب ، والفصيح أن يقال : طابت حِمتك بكسر الحاء ، أو طاب حَميمك بفتحها . وكلاهما معناه الماء الحار أى طاب عَرَقُك ، لأن العرق يطيب على المعافى ، ويخبُثُ على المبتلى ، والمعنى أصح الله جسمك، وهذا من باب الكناية .

والحمام مذكر فى رأى سيبويه ، قال : وإنما جمعوه بالألف والتاء وإن كان مذكراً فقالوا : حمامات لأنه لم يكسَّر ، فجعلوا ذلك عوضاً عن التكسير .

وقال صاحب المصباح : يذكر ويؤنث ، والتأنيث أغلب فيقال : هى الحمام وجمعها حمامات على القياس ، ويذكر فيقال : هو الحمام .

وللحميم معنيان : أحدهما الماء الحار

كما قلنا آنفا ، والآخر القريب الذى تهتم بأمره ، تقول : هو حميمى ، وهى حميمتى أى وديدى ووديدتى ، والجمع أحِمَّاء كخليل وأخلاء ، وجليل وأجلاء .

وتقول المرأة : هم أحْمائى وليسو بأحِمَّائى ، أى هم أقارب زوجى وليسوا بأحبائى ، وقد يستعمل الحميم للجمع وللمؤنث ، فيقال : هم حميمى ، وهى حميمى .

٤٢٣ — وينادون الله سبحانه داعين حين يشتد خوفهم فيقولون : ياساتر استر ، وهذا خطأ ، لأن كلمة ساتر لا تقال لله ، وإنما تقال للبشر ، تقول ستر فلان الشىء يستره سَتْرا من باب نصر إذا غطاه وحجبه فهو ساتر ، والشىء مستور ، ولذا لا يجوز أن يسمى إنسان بعبد الساتر ، والصواب أن يقال فى النداء المبتغى : يا ستَّار استر بصيغة المبالغة ، كما يقال : يا تواب ، ولهذا يسمى الإنسان بعبد الستار وعبد التواب .

والسِّتْر بكسر السين ما يُستَر به ، جمعه سُتور وأستار ، ومثله فى المعنى السِّتارة بالكسر وجمعها ستائر ، وكذا السِّتار بحذف الهاء ، جمعه سُتُر ككتب .

ومن المجاز قولك : جارية مستَّرة بتشديد التاء ، وجوار مستَّرات أى مخدرات ، وهتك الله سِتْر فلان أى أطلع الناس على عيوبه ومساويه ، وفلان لا يستتر من الله بشىء أى أنه لا يتقيه .

ويقال : رجل مستور وقوم مساتير إذا سترهم الله بأنعمه ، كما يقال : رجل مستور وستِّير إذا كان عفيفاً ، والأنثى بهاء .

٤٢٤ — ويقولون : طبطبت المرأة على صبيها طبطبة ، يعنون أنها ضربت بيدها على جنبه قليلا قليلا لينام ، وهذا خطأ ، لأن الطبطبة — وإن كانت عربية سليمة — لها معنى آخر لا صلة له بالمعنى الذى أرادوه لها ، فهى صوت الماء ، وصوت تلاطم السيل تقول : طبطب الماء إذا صوَّت بسبب تلاطم موجه ، والطبطابة بالفتح خشبة عريضة يُلعب بها بالكرة ، والطبطاب بالفتح طائر له أذنان كبيرتان .

ولتأدية المعنى الذى يبتغونه ينبغى أن يقال : رَبَتت المرأة بيدها رَبْتاً وزان كسبت كسباً ، وربَّتت بتثقيل الباء تربيتاً وزان كلمت تكليماً ، قال :

ألا ليتَ شعرى هل أبيتن ليلةً
بحرة[1] ليلى حيث ربَّتنى أهلى

ومن معانى الربْت والتربيت التربية ، تقول : ربتَ الرجل أولاده ربْتاً حسنًا ، وربَّتهم تربيتًا قويمًا إذا رباهم على هذه الحال .

٤٢٥ — ويسمون ما يفرش على الأرض كالبساط ونحوه : حصيرة ، كما يجمعون الحصيرة على حُصْر بضم فسكون ، فيقولون : المسجد مفروش بالحُصْر ، وكل هذا بعيد عن الصواب . والحق أن ما يُفْرش على الأرض للصلاة وغيرها يسمى حصيراً بدون هاء ، وسمى بذلك لأنه يحصر ما تحته من التراب ، وهذه الكلمة مفردة جمعها أحصرة كأرغفة وحُصُر ككتب ، ويسمى كذلك باريَّة بتشديد الياء ، وهى سفيفة تنسج بالأصابع من أسل أو قصب .

أما الحُصر وزان الحُمر فجمع لحصراء وهى المرأة الرَّتقاء التى لا يستطاع جماعها ، أو لا خرق لها إلا المبال ، وقد يكون الحُصر مفرداً ومعناه حينئذ اعتقال البطن الذى يسميه العامة (بالإمساك) تقول : حُصر الرجل وأحصر بالبناء للمجهول فيهما إذا اعتُقل بطنه ، وأعوذ بالله من الحُصر والأُسْر ومعنى الأخير احتباس البول ، وللحصير عدة معانٍ زيادة على المعنى السابق .

١ — فهو المحبِس ، ومنه قوله عز شأنه (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا)

٢ — وهو الملِك ، تقول : غضب الحصير على فلان أى الملك وسمى بذلك لاحتجابه ، وخلَّده الحصير فى الحصير ، أى أبقاه الملك فى المحبس .

٣ — وحصير الأرض وجهها .

٤ — وكذلك هو الجَنْب ، تقول : دابة عريضة الحصيرين أى الجنبين ، وأوجع الله حصيرى فلان أى جنبيه .

٥ — وهو الضيِّق الصدر كالحصور

ومن معانى الحصور من لا يرغب فى النساء وهو قادر على ذلك ، ومنه قوله تعالى فى يحيى عليه السلام (وسيداً وحَصوراً ونبيًّا من الصالحين) .

٤٢٦ — ويقولون : نشط العامل فى عمله ينشَط فهو نشِط بكسر الشين وزان فرح ، وهذا خطأ ، لأن هذا الفعل لو كان من باب فرح لكان مصدره نَشَطا بفتحتين كفرح فرحا ،

---

(١) الحرة بالفتح : أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار ، جمعها حرار بالكسر ككلبة وكلاب .

وهذا لم يرد عن العرب ، والصواب أن نشط أكثر ما يكون من باب سمع ، تقول : نشِط العامل فى عمله ينشط نشاطًا إذا اطمأنت نفسه للعمل فخف إليه وأسرع فهو ناشط ونشيط كسامع وسميع .

وقد يأتى من باب ضرب فى معنى آخر ، تقول : نشَط الرجل الحبل ينشِطه نَشْطاً إذا عقده بأنشوطة ، ونشَط فلان من الدار ينشِط نَشْطا إذا خرج منها ، ومن هذا قوله تعالى (والناشطات نشطاً) أى النجوم تنشط وتنتقل من بُرج إلى آخر .

وقد يأتى من بابى ضرب ونصر كما فى قولك : الحية تنشِط وتنشُط إذا عَضَّت بنابها كأنشطت .

٤٢٧ — ويقولون : لا يصلح لرياسة قومه إلا من توفَّرت فيه شروط خمسة هى كذا وكذا وهذا خطأ بيّن ، والصواب أن يقال : إلا من توافرت فيه شروط خمسة ، أو إلا من اكتملت ، أو إلا من اجتمعت فيه شروط خمسة ، وبيان ذلك أن التوافر معناه الاكمال والكثرة تقول هم متوافرون أى هم كثير مكتملون ، وفى الحديث « وكان ذلك وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم متوافرون » أما التوفُّر فله معنيان لا صلة لكل منهما بالكثرة .

أحدهما : رعاية الحُرُمات ، تقول : توفَّر فلان على صديقه إذا رعى حرماته .

والآخر : العناية بالشىء وصَرفُ الهمة إليه ، تقول : توفر أخى على قرض الشعر توفراً إذا صرف همته إليه .

والوفْر وزان العدل هو الغنَى والمال الكثير ، وكذلك هو الحمد والثناء ، تقول وفَرْتُ فلاناً عرضَه إذا أثنيت عليه ولم تعبه ، ويقال : فِرْ صاحبك عِرضَه ، وفى المثل « تُوفر وتُحمد » أى يصان عرضك ويثنى عليك .

٤٢٨ — ويقولون : ينبغى لحكومتنا الرشيدة أن تُقوى جيشنا وتدعِّمه تدعيماً عظيمًا بكثير من الأسلحة الفتاكة وهذا فاسد ، لأن التدعيم لم يرد عن العرب ، وكذا ما اشتق منه .

والصواب — لتأدية المعنى الذى يبتغونه — أن يستعمل الفعل الثلاثى ومصدره ، فيقال : ينبغى لحكومتنا أن تدعَمَ جيشَنا دعْماً من باب نفع .

ويقال : مال حائط فلان فدعمه بدِعامة ودِعام ، أو بدِعمة ودِعَم فهو حائط مدعوم ، ومن الدعم قيل على سبيل المجاز : فلان دِعامة قومه أى سيدهم وسندهم .

قال الأعشى :

كلا أبوينا كان فرعاً[1] دعامة
ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا

وهم دعائم قومهم ، وأقام فلان دعائم الإسلام ، وتقول : دعمت فلاناً إذا أعنته وقويته . ولا دعم بى أى لا قوة ولا تماسك بى .

قال :

لادعمَ بى لكن بليلى دعمُ
جاريةٌ فى وركيها شحمُ

ويقال : ادّعم الحائط على الدعامة إذا اتكأ عليها .

٤٢٩– ويقولون : جاءنا من الأمير مرسال معه رسالة يأمرنا فيها بكذا وكذا ، وهذا خطأ مبين ، لأن كلمة مرسال بكسر الميم – على الرغم من أنها عربية سليمة – لا صلة لها بالأمير ولا بالرسالة ، وإنما لها معنيان : **أحدهما** الناقة سهلة السير ، تقول : ناقة مرسال ونوق مراسيل أى رسلات القوائم **والآخر** السهم الصغير .

والصواب أن يؤدى المعنى الذى يريدونه بأن يقال : جاءنا من الأمير رسول وجمعه رُسُل بضم السين وقد تسكن ، قال تعالى (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) أو يقال جاءنا من الأمير مُرسَل بصيغة اسم المفعول ، وجمعه مرسلون كما فى قوله سبحانه : (يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون) .

والرسول هو المرسل فعول بمعنى مفعول ، ويجوز استعماله بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع ، تقول : هو رسول ، وهى رسول لا رسولة ، وهما رسول ، وهم وهن رسول ، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى فى سورة الشعراء مخاطباً موسى عليه السلام وأخيه هارون :

(فأتيا فرعون فقولا إنا رسولُ رب العالمين) ، ويجوز التثنية كما فى قوله جل شأنه فى سورة طه (فأتياه فقولا إنا رسولا ربك) .

وعلل بعضهم الإفراد فى آية الشعراء بقوله : لأن فعولا وفعيلا يستوى فيهما المذكر والمؤنث والواحد والمجموع ، فكلمة عدو مثلا استعملت للجمع فى قوله تعالى :

(إن الكافرين كانوا لكم عدوًّا مبيناً) وقوله (فإنهم عدوٌّ لى إلا رب العالمين) وكلمة صديق تستعمل للمفرد وغيره مذكراً ومؤنثاً ، تقول : هو صديق ، وهى صديق وهما صديق ، وهم وهن صديق ، قال نصيّب :

دعون الهوى ثم ارتمين قلوبنا
بأعين أعداء وهن صديقُ

(١) الفرع من القوم : هو الشريف .

وقال الزمخشرى فى آيتى الشعراء وطه السابق ذكرهما : إن الرسول يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة ، فجعل فى آية طه بمعنى المرسَل ، فلم يكن بد من تثنيته ، وجعل فى آية الشعراء بمعنى الرسالة ، فجازت التسوية فيه إذا وصف به بين الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالوصف بالمصادر نحو صَوْم، وزَوْر ، ومما جاء بمعنى الرسالة قول الشاعر :

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم
بسر ولا أرسلتهم برسول

٤٣٠— ويقولون: لعل التلاميذ فهموا ما قاله أستاذهم ، ولعلهم كتبوا ما أملاه عليهم ، وهم بهذا يلفظون بما يشتمل على المناقضة ، وينبئ بالمعارضة ، ووجه الكلام أن يقال : لعل التلاميذ يفهمون ما يقوله أستاذهم ، ولعلهم يكتبون ما يُمْلِيهِ عليهم ، وبيان ذلك أن لعل معناها الترقب والتوقع لمرجو أو مخوف ، والتوقع إنما يكون لما يتجدّد ويتولد لا لما تقضّى وتصرّم ، ولا يكون ذلك إلا بالفعل الذى يشير إلى الاستقبال وهو المضارع .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قوله تعالى (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) وقوله حكاية عن سيدنا موسى عليه السلام : (قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) .

٤٣١—ويقولون لمن جاوزت حد الصغر ناشئة ، قياساً على قولهم للمذكر ناشئ كما يقال عاقل وعاقلة ، وصائم وصائمة .

والصواب أن الوصف بالنشوء يستوى فيه المذكر والمؤنث فيقال : غلام ناشئ وجارية ناشئ ، كما يقال : رجل ناشز وامرأة ناشز ، ومما يؤيد ذلك قول عبد الواسع ابن أسامة الحزامى :

منازلُ من عوجاءَ إذ هى ناشئ
مؤزرة تصطادُ من لا يصيدها

وقول أبى قدامة الطائى :

قد أجلس المجلس لم يحرَّج
من ناشئ ذات شوًى خدَلَّج(١)

وتجمع كلمة الناشئ على نشء كصاحب وصحب ، كما فى قول بشر ابن أبى حازم :

سبته(٢) ولم تَخْشَ الذى فعلت به
منعمة من نشء أسلم مُعصر(٣)

وتجمع أيضاً على نشأ بالتحريك كما فى قول نصيب .

---

(١) خدلج : ممتلىء .
(٢) سبته : أسرته .
(٣) المعصر : من بلغت شبابها وأدركت .

لولا أن يقال صبا[١] نصيبٌ
لقلت بنفسيَ النَّشَأُ الصغارُ

والنشء كما يكون جمعاً لناشئ يكون مصدراً كما فى قولك: نشأت فى بنى فلان نَشْئاً حسناً إذا شببت فيهم .

أما الناشئة فهى إما جمع ناشئ وهو كل ما حدث ليلا من الطاعات ، ومنها قوله عزشأنه(إن ناشئة الليل هى أشدوطْئاً وأقوم قيلا) أى أن الطاعات التى تنشأ ليلا هى أثبت عبادة وأسد مقالا لحضور القلب وهدوء الأصوات ، وإما مصدر جاء على فاعلة كباقية بمعنى بقاء فى قوله تعالى (فهل ترى لهم من باقية) .

٤٣٢ — ويقولون : بعنا ما كان عندنا من تمر ولم يبق منه إلا شُويّة بضم الشين وتشديد الياء يعنون مقداراً يسيراً ، والصواب شواية بتثليث الشين أو شَوِية وزان غنية وهى بقية مال هلك ، تقول : أكلنا الشاة وما بقى منها إلا شُواية ، جمعها شَوايا ، ويقال : أشوى فلان من غدائه إذا أبقى منه بقية قليلة ، وتعشى أخى فأشوى من عشائه أى أبقى شَوًى منه أى شيئاً حقيراً ، لأن الشوى هو رذال المال ، تقول : أعطانى فلان من الشوى قال الشاعر :

أكلنا الشَّوى حتى إذا لم ندع شوًى
أشرنا إلى خيراتها بالأصابع

ويقال : كل ذلك شوًى ما سلم دينى (أى هو حقير) ، قال :

وكنت إذا الأيام أحدثن هالكا
أقول شوًى ما لم يُصبنَ صميمى[٢]

وللشوى معنى آخر هو أنه جمع شواة ومعناها جلدة الرأس ، تقول : سمعت خبراً مؤلما فاقشعرت منه شَواتى ، ومن هذا قول الشاعر :

قالت قتيلةُ ماله
قد جُلِّلَت[٣] شيباً شَواتُه

٤٣٣ — ويقولون لما يحلق به الشعر مُوس بالضم ، ويجمعونه على أمواس ، وهذا ضلال بعيد ، والفصيح أن يقال له المِحلق بكسر الميم اسم آلة ، أو المُوسى ، تقول : ماس رأسه مَوْساً من باب قال إذا حلقه .

وقيل الميم زائدة ووزنه مُفْعَل من أوسى رأسه بالألف ، وعلى هذا هو مصروف ينون عند التنكير ، وقيل الميم أصلية ووزنه فُعلى كحبلى ، وعلى هذا لاينصرف لألف التأنيث المقصورة .

ويجمع على قول الصرف المَواسى

(١) صبا : مال إلى الجهل والفتوة .

(٢) صميم القلب : وسطه .

(٣) جللت شيباً : علاها الشيب .

بفتح الميم ، وعلى قول المنع الموسيات كَحُبْلَيَاتٌ ،لكن قال ابن السكيت : الوجه الأجود وهو مفعل من أوسيت رأسه إذا حلقته ، وموسى بن عمران عليه السلام مشتق من الماء والشجر ، (فو) معناه الماء ، (وسا) معناه الشجر ، وهو فى تقدير فُعلى ، ولهذا يمال لأجل الألف ، ويؤيده قول الكسائى : ينسب إلى موسى وعيسى وشبههما مما فيه الياء زائدة فيقال : موسىّ ، وعيسىّ على لفظه فرقاً بينه وبين ما فيه الياء أصلية فى نحو مُعلى ، فإن الياء لأصالتها تقلب واواً فيقال مُعلوىّ .

٤٣٤ — ويقولون : اشترينا لقُمصنا زراير، كما يزعمون أن الواحد زُرار بالضم ، وكل من المفرد والجمع خطأ ، والصواب أن المفرد زِر بالكسر وزان سر ، والجمع أزرار وزرور بالضم ، والزِّر أيضاً عُظَيم تحت القلب وهو قوامه ، وكذا حد السيف ، وزِر الدين قوامه ، والزرير وزان أمير هو الذكى الخفيف كالزُّرازر بالضم والزّرازر بالفتح ، والزُرزور بالضم والزُرْزُر وزان هدهد ، تقول : زَرْزَرَ الزُرزُر إذا صوت .

وتقول : حل أخى زِره وأزراره ، وهو لى ألزم من زرى لعروته ، وزر أقمصته شد أزرارها ، وأزر قميصه جعله ذا أزرار فتزرر ، وزرّ الرجل قمصانه زَرّاً من باب شد أدخل الأزْرَارَ فى العُرا ، وزرّرها بالتضعيف مبالغة .

ومن المجاز قولك : زرّ الرجل الشىء إذا جمعه جمعاً شديداً ، وزر الولد أخاه إذا عضّه ، والزِرة بالكسر أثر العضة ، وحمار مزرّ بالكسر إذا كان كثير العض وفلان زُرزور مال بالضم وزِره بالكسر إذا كان عالماً بمصلحته.

ويقال : أعطانى أبى الشىء بزره كما يقال برُمته ، وأتانى القوم بزِرهم أى بجمعهم ، وإن فلانا لزر من أزرار الإبل إذا كان حسن الرعية لها .

٤٣٥ — ويقولون : غلط الخطيب فى منطقه فهو غلطان ، ويرى بعضهم أن يقال فهو غالط ، وكلا الرأيين فاسد ، والصواب فهو غَلِط لأنه من باب طرب ، والعرب تقول : غَلِط فى منطقه وغَلِت فى حسابه فهو غَلِت ويقال غالطه مغالطة وغلّطه تغليطا إذا قال له غَلِطت ، والأُغلوطة بالضم والمَغْلَطة بالفتح الكلام يغلط فيه ويغالط به ، والمِغلاط كثير الغلط ، وتقول لمن يغالطك : إياك والمكابرة والمغالطة ، وأنهاك عن الأغاليط ، وأربأ بك عن التخاليط .

٤٣٦– وينكرون أن يقال: جاء راكباً رجلٌ على أن راكباً حال من رجل المنكر، محتجين بأن صاحب الحال لابد أن يكون معرفة، لأنه مخبر عنه بالحال فى المعنى، ويصرون على أنه يجب أن يقال: جاء الرجل راكباً.

والحق أن التعبير الأول سليم لاغبار عليه، لأن صاحب الحال يجوز أن يكون نكرة فى الحالات الآتية.

(ا) إذا تقدمت عليه الحال كما فى المثال الذى أنكروه، وكما فى قولك: شوهد لامعاً نجم وقول الشاعر:

وبالجسم منى بينا لو علمته
شحوب[1] وإن تستشهدى العين تشهد

فبيناً حال صاحبها شحوب المنكر، والأصل شحوب بين، ومن ذلك قول كثير عزة.

لعزة موحشا طللُ
يلوح كأنه خِلَلُ[2]

فموحشاً حال تقدمت على صاحبها المنكر الذى هو مبتدأ مؤخر عند سيبويه وفاعل للاستقرار المحذوف عند الأخفش والكوفيين.

وقال ابن الحاجب: يجوز أن يكون (موحشا) حالا من الضمير المستقر فى (لعزة) لأن جعل الحال من المعرفة أولى من جعلها من النكرة المتقدمة عليها، ولأن هذا هو الكثير الشائع وهى على هذا الرأى متأخرة عن صاحبها.

وقال ابن جنى فى شرح الحماسة ص ٢١٣ جزء ١ عند قوله:

وهلا أعدونى لمثلى تفاقدوا
وفى الأرض مبثوثا شجاع[3] وعقربُ

من نصب مبثوثا فلأنه وصف نكرة قدم عليها، فنصب على الحال منها.

وقال صاحب الكشاف: إن وصف النكرة إذا قدم عليها صار حالا، واستشهد بقوله تعالى: (وجعلنا فيها فجاجاً سبلا)، أى أن (فجاجا) كان وصفاً (لسبلا) فلما تقدم صار حالا.

(ب) تخصصه بوصف أو بإضافة فمن الأول قوله تعالى (فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا».

وقوله (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه) ومن الثانى قوله (فى أربعة أيام سواءً للسائلين) فسواء

(١) الشحوب: التغير من الهزال.

(٢) الخلل: جمع خلة وهى بطانة تغشى بها أجفان السيوف.

(٣) الشجاع: الحية الخبيثة، وفى هذا البيت كنى الشاعر بالشجاع والعقرب عن الأعداء فهو يقول لقد امتلأت الأرض بالأعداء فهلا أعدونى لهم؟

حال من أربعة لاختصاصها بالإضافة .

(ج) إذا جاء بعد نفى كما فى قوله سبحانه : (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) وقولهم « لا يبغ امرؤ على امرئ مستسهلا » فمستسهلا حال من (امرؤ) لسبقه بنفى .

(د) إذا جاء بعد استفهام كما فى قولك : هل أجاب عن الأسئلة مجتهد إلا مسروراً ؟

ومن هذا قول قطرى بن الفجاءة :

يا صاح هل حُمَّ[1] عيش باقيا فترى
لنفسك العذر فى إبعادك الأملا ؟

(ه) إذا جاء بعد نهى كما فى قولك : لا يجب أحد عن الأسئلة إلا واثقاً من صحة الإجابة ، وقول . الشاعر .

لا يركنن أحد إلى الإحجام[2]
يوم الوغى[3] متحرفاً لحمام

٤٣٧ — قرأت فى صحيفة الأهرام عنوانًا هو .

(مؤتمر صحفى لخالد محيي الدين يدعو إليه المراسلين الأجانب ويهاجم فيه الحكومة والصحافة المصرية) وهذا العنوان يشوبه الخطأ ، لأن الفعل هاجم لم يرد عن العرب وكذا مضارعه ومصدره ولا يستعمل إلا الثلاثى لازماً ومتعديًا ، نقول من اللازم : هجم جيشنا على الأعداء هجومًا إذا أتاهم بغتة ، ومن المتعدى تقول هجم القائد جنوده على الأعداء وهجم عليهم الخيل ، ومن المجاز قولك : هجم عليهم البيتُ إذا سقط ، وهُجم البيتُ بالبناء للمجهول فهو مهجوم إذا حُلت أطنابُه وانضمت أعمدته ، والريح تهجُم التراب على الدار إذا ألقته عليها ، ونحن فى هَجْمة الشتاء أو الصيف ، أى فى شدة برده أو حره .

والهَجوم بفتح الهاء هى الريح الشديدة تقلع البيوت .

ويقال : هجمت العينُ هجومًا إذا غارت ، وهجمتُ الرجلَ هَجْمًا إذا طردتَه ، وهجمَ الرجلُ إذا سكت وأطرق فهو هاجم .

٤٣٨ — وشاع على ألسنتهم وأسلات أقلامهم قولهم : هذا الشاعر رقيق الوِجدان بكسر الواو ، وينسبون إليه فيقولون : هو شاعر وِجدانى ، وكان شعره الوِجدانى أرق شعره وأنداه وكل هذا خطأ ، لأن كلمة وِجْدان مصدر يحمل معنيين مختلفين ، **أحدهما :** إدراك الشىء والحصول عليه كما فى قولك :

(١) حُمَّ : قدر .
(٢) الإحجام : الكف والامتناع .
(٣) الوغى : المراد الحرب .

وجدت ضالتى وِجدانا وجدة بكسر كل منهما إذا أدركتَها .

والآخر : الغضب كما فى قولك : وجدت عليه وِجدانا بالكسر ومَوجدة بالفتح ، أما فى الحب فيقال : وَجد أخى بفلانة ، وعليها وَجْداً ، وهو واجد بفلانة وعلى فلانة ، ومتوجِّد ، ووجَد بها وتوجّد ، وله بها وَجْدٌ ، وتواجد فلان : أرى من نفسه الوجد وهو المحبة وفى الحزن يقال وَجِدَ به وَجْدا بكسر الجيم فى الماضى وفتح الواو فى المصدر .

ويقال : أوجده الله إذا أفناه ، ووجدتُ زيداً ذا الحفاظ أى علمته ، ومنه قول الشاعر :

إن الكريمَ وأبيك يعتمل[١]

إن لم يجد يوما على من يتكل

أى إن لم يعلم على من يتكل ، وقوله تعالى (ووجدك عائلا فأغنى) أى علمك فقيراً فأغناك .

ولتصوير براعة الشاعر التى عبروا عنها خطأ برقة الوجدان ينبغى أن يقال :

هذا الشاعر جَزْل[٢] اللفظ ، ساحرُ العبارة ، متين النسج ، نيِّر الديباجة ، سريع الخاطر[٣] حاضر البديهة ، يملك عليك لبك[٤] ومشاعرك بسحر بيانه وقوة عارضته[٥] ، وبما يتحفله به من نفحات العبقرية[٦] فى شعره الذى أحكم فواصله ، وأصاب كلاه ومفاصله .

٤٣٩ – وهم يخطئون حين يزعمون أن الفعل كان لابد أن يكون ناقصاً محتاجاً إلى خبر ، كما يصرون على أنه من الأفعال الواوية ، إذ يقال : كان القمر طالعاً يكون كوناً وكينونة ، والكينونة مصدر أصله من ذوات الواو ، فكان حقه كونونة ، إلا أن فوعولة لما قلت فى مصادر الواوى ألحقوها بالذى هو أكثر فى مصادر اليائى وهو فيعولة بقلب الواو ياء ، ومثلها سيدودة من ساد يسود ، وديمومة من دام يدوم .

والحق أن كان قد تكون واوية ، وقد تكون يائية ، فالواوية قد تكون ناقصة تحتاج إلى خبر كما فى قوله تعالى (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض) .

---

(١) يعتمل : يعمل لنفسه ويُعمل رأيه .

(٢) جزل اللفظ : ضد ركيكه .

(٣) الخاطر : ما يتحرك فى القلب من رأى أو معنى .

(٤) اللب : العقل .

(٥) العارضة : البديهة وقيل الصرامة .

(٦) عبقر : موضع تنسب إليه طائفة من الجن ثم نسب إليه كل شىء تعجبوا من جودة صنعته

وقد تكون زائدة للتوكيد كما فى قولك : ما كان أحسن الصدق ، وقول بعضهم : لم يوجد كان مثلهم ، وقد تكون تامة ترفع الفاعل ولا تحتاج إلى خبر ، ولهذه ألوان كثيرة .

١ ــ أن تكون بمعنى حدث كما فى قولك : إنى أعرف هذا الرجل مذ كان أى مذ خلق ، وقولك : إذا كان الشتاء فأدفئونى ، أى إذا حدث أو جاء .

٢ ــ أن تكون بمعنى ثبت كما فى قولك : كان الله ولا شىء معه .

٣ ــ أن تكون بمعنى حضر كما فى قولك : إن كان الضيف فأكرمه ، ومن هذا قوله جل شأنه (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) .

٤ ــ أن تكون بمعنى وقع كما فى قول المؤمنين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، أما اليائية فتامة دائمًا ، ومعناها خضع كما فى قولك : كان الخادم لسيده يكين كَيْنَة بفتح الكاف إذا ذل وخضع ، ومنه استكان استكانة كما فى قوله عز شأنه (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) أى ما خضعوا لخالقهم وما تضرعوا له .

ويقال : أكان الأمير أعداءه يُكينهم إكانة إذا أخضعهم وأدخل عليهم من ألوان الذل ما أكانهم ، قال الشاعر :

لعمرك[1] ما تَشفى جراح تُكينه[2]
ولكن شفانى أن تَئيم[3] حلائله

ويقال : أكتان فلان إذا أسر الحزن فى جوفه ، وهذا مشتق من الكَيْن ، وهو لحم باطن الفرج ، وقيل البظر لأنه فى أسفل موضع وأذله ، والكِينة بكسر الكاف الشدة المُذلة .

٤٤٠ ــ وهم يخطئون حين يقولون : تَعيَّن فلان وزيراً للتربية والتعليم ، والحق أن للتعيين معانى لا تمت بأى صلة إلى المعنى الذى يريدونه ، إذ يقال : تعيَّنَا عيْنا يتعيَّن لنا ، أى يتبصر لنا ، ويتجسس ، وتعيَّن السقاء إذا بَلِيَ ، ورقت منه مواضع ، قال القطامى .

ولكن الأديم[4] إذا تفرَّى[5]
بِلًى وتعينا غلب الصناعا[6]

(١) لعمرك : يدعو الشاعر لمن يخاطبه بالبقاء وطول العمر .

(٢) تكينه : تخضعه وتذله .

(٣) تيم حلائله : يقول : إنه لا يشفينى ولا يسرنى جراح تجعله خاضعاً ذليلاً ولكن الذى يسرنى ويرضينى أن يهلك هذا العدو لتصير أزواجه أيامى .

(٤) الأديم : الجلد المدبوغ .

(٥) تفرى : تشقق :

(٦) الصناع : المرأة الحاذقة الماهرة بعمل اليدين :

ويقال : تعين فلان الإبلَ ، واعتانها إذا استشرفها ليَعينها أى ليصيبها بعينه وسقاء عيّن وزان كيِّس ومتعين إذا سال ماؤه ، وتعين الرجل واعتان عينةً إذا استسلف سلفاً ، والعِينة بكسر العين السلف .

ولتأدية المعنى الذى يبتغونه ينبغى أن يقال : تقلد فلان وزارة التّربية والتعليم أو تولى هذه الوزارة ، أو وليها ولاية بكسر الواو وفتحها ، أو نصبته الحكومة لوزارة التّربية فانتصب لها ، أو أقيم وزيراً لهذه الوزارة ، أو أعطته الحكومة قِلْد أمور هذه الوزارة ، أى فوضته إليه من قلد الماء قال :

وأعطته بالأقلاد[1] كلُّ قبيلة
ومدت إليه بالركاب[2] الجحاجحُ[3]

ويقال أيضاً : ألقيت إليه مقاليد الأمور فى وزارة التّربية .

٤٤١ – قرأت فى صحيفة الأهرام عنواناً هو : (وزير البتّرول إيطاليا تهديه قلادتها) .

وفى هذا العنوان غلطتان : إحداهما كلمة (البتّرول) الأعجمية ، والصواب أن يقال له : النفط بكسر النون وفتحها ، والكسر أفصح ، وهو الذى يستعمل فى طهو الطعام وفيه كثير من المنافع ، والنفاط بتشديد الفاء رامى النفط لأنه حرفة كالخباز والنجار والحداد ، والجمع نفّاطه كما قيل فى جمع سائر سيارة والنفاطة أيضاً منبت النفط ومعدنه كما قيل لمنبت الملح ملاّحة ، جمعها نفاطات ، **والأخرى** : كلمة تُهديه قلادتها ، لأن هذا الفعل لا يتعدى بنفسه إلى مفعولين ، وإنما يتعدى إلى مفعول واحد بنفسه ، ويتعدى إلى الآخر باللام أو بإلى ، تقول : أهدى له وأهدى إليه هديَّة ، لأنها تقدم فى مهدًى أى فى إناء ، وأهدى الحاج إلى الحرم هَدْيا كما فى قوله تعالى (يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة) ويقال له أيضاً هَدِىٌّ بزنة غنى ، وقول العرب : فلان يُهدًى للناس وزان يُربًى معناه أنه كثير الهدايا ، قال أبو خراش :

لقد علمت أم الأديبر أننى
أقول لها هَدًّى ولا تذخرى لحمى

ومن الثلاثى يقال : هَديتُ العروس إلى بعلها هداء بالكسر والمد فهى

---

(١) الأقلاد : جمع قِلد وهو الشرب والحظ من الماء .

(٢) الركاب : الإبل التى يسار عليها واحدتها راحلة .

(٣) الجحاجح : السادة .

هدىً وهدية بتشديد الياء فيهما، ويقال من الرباعى فى لغة قيس عَيْلان : أهديتها إلى بعلها فهى مُهداة .

والهدية وزان غنية ما أتحف به جمعها هدايا ، وهداوَى بفتح الدال وكسرها ، وهداو .

والمهداء بالكسر والمد من كان كثير الإهداء رجلا كان أوامرأة .

٤٤٢ — ويقولون فى رسائلهم لإخوانهم : لكم منا سلام عاطر ، وتحية عاطرة ، وهذا خطأ ، لأن العاطر من يحب العطر ، وكذا العاطرة ، والعطر هو الطيب ، جمعه عطور كما فى قول أبى النجم :

نومَ العروس البكر فى عُطورها
من مِسك دارين[1] ومن عبيرها[2]

والفصيح أن يقال : سلام عَطِر وتحية عَطِرة ، ورجل عَطِر وامرأة عَطِرة ، كل أولئك بفتح فكسر وزان طَرِب وطَرِبة ، لأن العرب قالت : عَطِرت المرأة من باب طرب فهى عَطِرة ومِعطارة ، ومُعطِرةَ ، ومتعطرة أى متطيبة .

ويقال لكل من الرجل والمرأة معطير ومعطار بكسر الميم فيهما إذا كان كثير التعطر ، ونسوة عطرات ، قال :

تضوَّع[3] مسكا بطن نُعمان[4] أن مشت
به زينبٌ فى نسوة عطــرات

ويقال : ناقة مِعطار بالكسر ومُعطر بالضم إذا كانت شديدة حسنة ، ونوق عَطِرات ومعاطير إذا كن حساناً كراما ، وناقة عطَّارة وعَطِرة إذا كانت نافقةً[5] فى السوق .

ويقال : تعطرت المرأة إذا أقامت عند أبويها ولم تتزوج ، وكان صلى الله عليه وسلم يكره تعطُّر النساء وتشبهَهُن بالرجال أى تعطلهن من الحَلْى .

والعطَّار بائع العطر ، والعِطارة بالكسر حرفته .

٤٤٣ — ويقولون لمن يهنئونه بالنجاح ونيل الشهادة مثلا : نجاحٌ مبروك وشهادة مبروكة ، حتى لقد سموا بعض أبنائهم بلفظ مبروك ، وبعض بناتهم بلفظ مبروكة وكل هذا خطأ صُراح ، لأن الفعل برك ليس متعدياً حتى نصوغ منه اسم المفعول ، وإنما هو لازم ،

---

(١) دارين : موضع بالبحرين منه المسك الدارى .

(٢) العبير : أخلاط تجمع من الطيب .

(٣) تضوع : انتشرت رائحته .

(٤) بطن نعمان : واد وراء عرفة ويسمى نعمان الأراك .

(٥) سوق نافقة : رائجة .

كما أنه لا يستعمل إلا فى معنى آخر لا صلة له بالمعنى الذى أرادوه .

تقول : برك البعير من باب دخل بركا إذا استناخ ، وأبركه صاحبه فبرك ، وهذا قليل ، والكثير أن يقال فى هذا المعنى : أناخه فاستناخ .

ولتأدية المعنى الذى يبتغونه ينبغى أن يقال : نجاح مبارك كما فى قوله تعالى : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) وشهادة مباركة كما فى قوله : (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) وذلك مأخوذ من قول العرب : بارك الله لك ، وبارك فيك كما فى قوله سبحانه (تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) وبارك عليك كما فى قوله (وباركنا عليه وعلى إسحاق) ، ويقال أيضاً : باركك الله فأنت مبارك والتبريك هو الدعاء بالبركة وهى النماء ، تقول : برّك فلان على الطعام إذا دعا له بالبركة ، وطعام بريك أى مبارك .

والتبرُّك التيمن ، تقول : تبركتُ بالكعبة الشريفة إذا تيمنتَ بها ، وما أبركَها وأيمنَها ، والعرب أطلقت كلمة المبارك على نهرين أحدهما بالبصرة والآخر بواسط .

٤٤٤ — ويقولون هؤلاء الأبناء تعودوا منذ نعومة أظفارهم على طاعة أبويهم ، وهذا التعبير يشوبه الفساد ، لأن الفعل تعود لا تستعمل معه على ، وإنما يتعدى بنفسه إلى المفعول به ، والسبب فى ذلك أنه مطاوع لفعل يتعدى إلى مفعولين ، ومن المعروف أن كل فعل يتعدى إلى مفعولين[1] ، يتعدى مطاوعه إلى مفعول واحد .

تقول : عودتُ كلبى الصيدَ فتعوده ، ولذا ينبغى — لإصلاح عبارتهم — أن يقال : الأبناء تعودوا طاعة والديهم .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قوله صلى الله عليه وسلم فى حديثه « تعودوا الخيرَ فإن الخيرَ عادةُ والشر لجاجة » أى أن الخير دُربة ، وهو أن يعوده نفسه حتى يصير سجية له ، أما الشر فالنفس تلج فى ارتكابه وتتردد .

٤٤٥ — نشر فى صحيفة الأهرام بخط عريض عنوان هو : ماذا قدم زايد خلال فترة رئاسته الأولى ، وكلمة الرئاسة لا تؤدى المعنى الذى أرادوه منها ، إذ معناها قائم السيف ومقبضه كالرئاس بدون هاء ، تقول : خذ برئاس سيفك ورئاسته .

---

(١) من هذا قول الشاعر :

أعودها الفتيان بمدى ليفعلوا كفعل
إذا ما جار فى الحكم تابع

والفصيح أن يقال : خلال فترة رياسته بالياء بدلا من الهمزة لكسر ما قبلها، أو يقال : خلال فترة رَآسته بفتح الراء .

تقول : رأسَ فلان قومه يرأسهم رآسة إذا شرف قدره فيهم ، فهو رئيس ، وجمعه رؤساء كشريف وشرفاء، ورُئِس الرجل بالبناء للمفعول فهو مرءوس ورئيس قال النمر بن تولب :

ويومَ الكُلاب[1] رأسنا الجموعَ
ضِراراً وجمـعَ بنى مِنقَرِ[2]

ويقال : ترأّس فلان على قومه ، ورأسوه على أنفسهم ترئيساً كتأمّر وأمروه إذا جعلوه أميراً .

والرأس سيد القوم كالريّس والرئيس ، وهو أيضا الجيش كما فى قول عمرو بن كلثوم :

برأس من بنى جُشَم بنِ بكر
ندقُّ به السهولةَ والحزونا

ورأسُ المال أصله ، جمعه فى القلة أرؤس ، وفى الكثرة رءوس ، ومن هذا قوله تعالى (وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم) ورأس الدين خشية الله سبحانه .

ويقال : شاة رئيس إذا أصيب رأسها من غنم رَآسَى ، ورجل رِئّيس بكسر الراء وتشديد الهمزة مكسورة إذا كان كثير الترَّؤُس على الناس .

٤٤٦ــ ويقولون : أعاد الأستاذ لطلابه شرح البيت مرات ، والفصيح أن يقال : كرر الأستاذ شرح البيت قال أبو هلال العسكرى فى فروقه : إن التكرار يقع على إعادة الشىء مرة وعلى إعادته مرات ، أما الإعادة فلا تكون إلا للمرة الواحدة ، فإذا قلت : كررت كذا يحتمل مرة أو أكثر بخلاف أعدت ، فلا يقال : أعاده مرات إلا من العامة .

٤٤٧ــ ويقولون : تحدث إلينا فلان ، وكان حديثه شيقاً يأخذ بمجامع القلوب ، والحق أن هذا التعبير يشو به الخطأ ، لأن كلمة شيق وزان كيّس معناها المشتاق ، تقول : اشتقت إلى رؤية الكعبة المشرفة فأنا مشتاق وشيق إليها

ولإصلاح عبارتهم لتؤدى المعنى الذى يبتغونه ــ يجب أن يقال : وكان حديثه شائقاً، إذ ورد عن العرب قولها : شاقه الحديث إذا أعجبه وهيّجه فهو حديث شائق .

٤٤٨ــ ويقولون : الجنود فى ثكناتهم بثلاث فتحات ، وعلى هذا الرأى

---

(١) الكلاب بالضم : ماء له يوم فى الحرب .
(٢) منقر وزان منبر : أبو بطن من تميم .

الخاطئ يكون المفرد ثكنة وزان سجدة ، والصواب أن المفرد ثُكنة بضم الثاء وزان غرفة والجمع ثكن كغرف ولذا يجب أن يقال : الجنود في ثُكُنَنهم ، أو في ثُكُنَاتهم بضمتين كغرفات في قوله جل شأنه (وهم في الغرفات آمنون) أو في ثُكناتهم بضم فسكون على الأصل.

وللثكنة معان عدة : فهي مركز الأجناد ومجتمعهم على لواء صاحبهم ، كما سبق بيان ذلك ، وكذلك هي القلادة ، والراية ، والقبر ، والسرْب من الحمام .

٤٤٩ ــ يكتب كثير من المدرسين على السبورة مثلا ١٥ ربيع الثاني ، وفي هذه الكتابة ثلاثة أخطاء.

الأول : أنهم لم يذكروا كلمة (من) قبل اسم الشهر ، والواجب أن يكتب ١٥ من المحرم أو من صفر ، وكلمة ربيع ليست تمييزاً للعدد ١٥ ، وإنما المقصود منها اليوم الخامس عشر من الشهر .

والثاني : أنهم جعلوا ربيعًا ثانيًا ، والحق أنه ليس بثان ، وإنما هو الآخر بكسر الخاء ، ومثل ذلك يقال : جمادى الآخرة ، كما قيل جمادى الأولى .

والثالث : عدم ذكر كلمة شهر قبل كلمة ربيع ، إذ لا بد أن يقال شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر ، وذلك لأن الربيع ربيعان : أحدهما ربيع الشهور والآخر ربيع الأزمنة (الفصول) فلكيلا يلتبس أحد الربيعين بالآخر يجب أن تذكر كلمة شهر قبل ربيع الشهور .

وبعضهم زاد على شهرى ربيع شهر رمضان مستدلا بحديث « لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان » .

وقال البيهقي : لم ينقل عن أحد من العلماء أن رمضان من أسماء الله تعالى ، والظاهر جوازه من غير كراهة ، وقد ثبت في الأحاديث ما يدل على الجواز كقوله عليه السلام « إذا جاء رمضانُ فتحت أبواب الجنة ، وغُلّقت أبواب النار ، وصُفدت[1] الشياطين » وقال القاضي عياض : وفي قوله إذا جاء رمضان دليل على جواز استعماله من غير لفظ شهر خلافًا لمن كرهه من العلماء .

٤٥٠ ــ وفشا بين كثير من المثقفين

---

(١) صفدت الشياطين : شدت وأوثقت بالأصفاد وهي القيود ، واحدها صفد بفتحتين .

قولهُم : فتاة غيورة وصَبورة وشَكورة وخَجولة ، وهذا خطأ ، والصواب أن يقال هى غيور ، وصبور ، وشكور ، وخجول ، بدون هاء التأنيث ، لأن فعولا الذى هو بمعنى فاعل يستوى فيه المذكر والمؤنث كالأمثلة المتقدمة وماشابهها فإن كان بمعنى مفعول وجبت الهاء نحو جمل ركوب وناقة ركوبة وأما قولهم عدوة فشاذ سوغه الحمل على صديقة ، وأما قولهم : امرأة ملولة فالهاء هنا للمبالغة لا للتأنيث إذ يقال أيضًا : رجل ملولة ، ومما يؤيد ما ذهبنا إليه قول ابن مالك :

ولا تلى فارقةٌ فعولا
أصلا ولا المِفعال والمفعيلا

كما ذاع بينهم قولهم : هؤلاء غيورون على دينهم ، صبورون على نكبات الدهر ، والفصيح أن يجمع غيورٌ وما ماثله جمع تكسير على فعُل بضمتين فيقال : هم غُيُر على على الدين ، وصُبُر على النكبات ، وشُكُر للمعروف ، وغُفُر للهفوات ، وخُجُل من الأخطاء ، قال طرفة :

ثم زادوا أنهم فى قومهم
غُفُر ذنبهم غَيرُ فخُر

٤٥١ — ويخطئ كثير منهم حين يصفون طلاب الجامعات فيقولون : هم شباب مثقف ناهض ، لأن الشباب هنا جمع شاب كشبَّان ، والشباب ليس جمعًا حقيقيًّا لشاب وإنما هو اسم للجمع ، قال ابن ميَّادة .

وكيفَ نرجِّيها وقد حال دونها
بنو أسد كُهلانُها وشَبابُها

والصواب أن يوصف الشباب بالجمع فيقال : هم شباب ناهضون ومثقفون ، وعلى أكتاف هؤلاء الشباب تقوم نهضةُ البلاد ، قال شاعر قديم :

ولقد غدوت بسابح[1] مرح
ومعى شبابٌ كلهمُ أخيلُ[2]

وقال شوقى :

شباب قُنَّع لا خير فيهم
وبورك فى الشباب الطامحينا

ولا يكون الشباب مفرداً إلا فى الحالات الآتية :

١ — إذا كان مصدراً بمعنى الفتاء والحداثة ، كما فى قولك لشخص حديث السن: إن فيك لشبابًا ناضراً ، ووصفك لآخر : فلان يتمتع بشباب قوى أى بفتاء وحداثة .

---

(١) السابح : الحصان يسبح بيدين فى سيره ، جمعه سوابح .

(٢) الأخيل : طائر ضعيف الحركة يريد أن كلهم مثل الأخيل .

٢ – إذا كان بمعنى أول الشيء كما فى قولك : لقيت فلاناً فى شباب النهار ، وقد حضر الحاج فى شباب الشهر أى فى أوله ، قال مُليحٌ الهُذلى يصف ظعائن :

مكثن على حاجاتهن وقد مضى
شباب الضحا والعيسُ[1] ما تتبرحُ

٣ – إذا كان بمعنى التشبيب وهو التعريض بالحب وقول الغزل ، تقول : هذه قصيدة حسنة الشباب ، وكان جرير أرق الشعراء شباباً أى تشبيبا بالنساء ، وهو من تشبيب النار ، قال كثير :

إذا شببّت فى غير ابن ليلى
عَروض[2] قصيدة بَغُض الشبابُ

ويقال : شَبّت النارُ ، وشُبت بالبناء للمجهول شبا وشُبوبا لازم متعد ، ولا يقال شابة بل مشبوبة .

عباس أبو السعود

(١) العيس . الإبل البيض يخالط بياضها شقرة مفردها عيساء .

(٢) العروض : ميزان الشعر .

آداب الإحرام للحج

غسل الجسد ، ونظافة الإزارين ، وطيب الرائحة ، وتعاهد الجياع ، والتلبية بالهيبة ، ورفع الصوت بحلاوة الإجابة ، والطواف بتعظيم الحرمة ، والسعى بطلب الرضا .

باب الفتاوى

الأستاذ /
عبد الحميد السيد شاهين

س : هل يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره ؟

ج : ذهب ابن عباس وابن عمر وجابر والشافعي : إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا فى أشهره ، وقالوا فيمن أحرم قبلها : أحل بعمرة ولا يجزئه عن إحرام الحج.

قال البخارى : وقال ابن عمر رضى الله عنهما : أشهر الحج شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : من السنة أن لا يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج .

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال : لا يصح أن يحرم أحد بالحج إلا فى أشهر الحج.

ويرى الأحناف ومالك وأحمد: أن الإحرام بالحج قبل أشهره يصح مع الكراهة . . ورجح الشوكانى الرأى الأول فقال : إلا أنه يقوى المنع من الإحرام قبل أشهر الحج أن الله سبحانه ضرب لأعمال الحج أشهر معلومة والإحرام عمل من أعمال الحج فمن ادعى أنه يصح قبلها فعليه الدليل . . .

س : هل يجوز الإحرام قبل الميقات المكانى ؟

ج : قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أن من أحرم قبل الميقات أنه محرم . .

وهل يكره ؟ قيل : نعم لأن قول الصحابة : وقت رسول الله لأهل المدينة ذا الحليفة . . . إلخ يقضى بالإحلال من هذه المواقيت، ويقضى بنفى النقص أو الزيادة

فإن لم تكن الزيادة محرمة فلا أقل من أن يكون تركها أفضل.

س : ما الحكم إذا نوى الحج ولكن القرعة لم تصبه ؟

ج : للنية الصادقة فى أداء العبادات ثوابها، لكن لا يكتب له الحج ولا يسقط عنه الفرض لأنه لم يؤد أركانه . ولم يقم بفروضه ، لكن عدم إصابة القرعة له يعتبر عذراً مسقطاً للحج عنه فى عامه ، لأن الاستطاعة لم تتحقق ، فإن الحج لا بدمن أدائه فى يسر ورخاء وتمكن ، وحين لم تصبه القرعة لم يتحقق السبيل الذى أشارت إليه الآية الكريمة (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) . . .

حتى إن العلماء قالوا : إن ما يفرض فى الطريق من المكوس وأجور الخدمات الباهظة يعتبر عذراً مسقطاً للحج ، بل ذهب الشافعية إلى اعتبار هذه الأجور التى تؤخذ من الحاج فوق أجر الطريق وسبيل الوصول اعتبروها عذراً وإن قل المأخوذ . جاء فى كتاب فقه السنة :

« اختلف العلماء فيما يؤخذ فى الطريق من المكس والكوشان هل يعد عذراً مسقطاً للحج أم لا ؟

ذهب الشافعى وغيره إلى اعتباره عذراً مسقطاً للحج وإن قل المأخوذ.

وعند المالكية لا يعد عذراً إلا إذا أجحف بصاحبه أو تكرر أخذه » .

فكيف بمن لم تصبه القرعة وهى أمر مشروع :

س : هل يجب الحج على المرأة إذا لم يتيسر لها اصطحاب زوج أو محرم ؟

ج : يجب على المرأة الحج كما يجب على الرجل سواء بسواء إذا استوفت شرائط الوجوب ويزاد عليها بالنسبة للمرأة أن يصحبها زوج أو محرم ...[1] ، وإلى اشتراط هذا الشرط وجعله من جملة الاستطاعة ذهب أبو حنيفة وأصحابه ، والنخعى والحسن والثورى وأحمد وإسحاق .

---

(١) إذا كان سفرا أى بينها وبين مكة ثلاثة أيام فأكثر عندهم .

وعن يحيى بن عباد قال : كتبت امرأة من أهل الرى إلى إبراهيم النخعى إنى لم أحج حجة الإسلام وأنا موسرة ليس لى ذو محرم فكتب إليها : إنك ممن لم يجعل الله له سبيلا .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم . فقام رجل فقال يا رسول الله : إن امرأتى خرجت حاجة ، وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا فقال : انطلق فحج مع امرأتك» رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم . . .

وقال المالكية : لا يجب عليها إلا إذا كان معها زوج أو محرم أو رفقة مأمونة . فإذا فقد جميع ذلك لا يجب علبها الحج . . .

قال الحافظ : والمشهور عند الشافعية اشتراط الزوج أو المحرم أو النسوة الثقات . . ، وفى قول : تكفى امرأة واحدة ثقة . . ، وفى قول — نقله الكرابيسى وصححه فى المهذب تسافر وحدها إذا كان الطريق آمنا . .

وهذا كله فى الواجب من حج أو عمرة .

وفى سبل السلام : وقال جماعة من الأئمة : يجوز للعجوز السفر من غير محرم .

وقد استدل المجيزون لسفر المرأة من غير محرم ولا زوج ، إذا وجدت رفقة مأمونة أو كان الطريق آمنا بما رواه البخارى عن عدى بن حاتم : « بينا أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد أنبئت عنها قال : فإن طالت بك الحياة لترين الظعينة[1] ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله » .

---

(١) الظعينة : أى الهودج فيه امرأة أم لا .

واستدلوا بأن نساء النبي صلى الله عليه وسلم حججن بعد أن أذن لهن عمر فى آخر حجة حجها : وبعث معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف . . وكان عثمان ينادى : ألا لايدنو أحد منهن ، ولا ينظر إليهن وهن فى الهوادج على الإبل . .

وإذا خالفت المرأة وحجت دون أن يكون معها زوج أو محرم صح حجها ، وفى سبل السلام « قال ابن تيمية : إنه يصح الحج من المرأة لغير محرم ومن غير المستطيع ، وحاصله: أن من لم يجب عليه الحج لعدم الاستطاعة مثل المريض والفقير والمعضوب والمقطوع طريقه ، والمرأة بغير محرم وغير ذلك ، إذا تكلفوا شهود المشاهد أجزأهم الحج . .

ثم منهم من هو محسن فى ذلك ، كالذى يحج ماشياً ، ومنهم من هو مسىء ، كالذى يحج بالمسألة ، والمرأة تحج بغير محرم . .

وإنما أجزأهم لأن الأهلية تامة ، والمعصية إن وقعت فهى فى الطريق لا فى نفس المقصود».

س : يحرص كثير من المسلمين على أداء العمرة فما حكمها ؟

ج : أجمع العلماء على أنها مشروعة لقول الله تعالى : (وأتموا الحج والعمرة لله)، وعن ابن عباس رضى الله عنهما «أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «عمرة فى رمضان تعدل حجة» أى تعدل ثواب حجة غير مفروضة وأداؤها لا يسقط الحج المفروض . .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» . .

وذهب الأحناف ومالك إلى أن العمرة سنة . لحديث جابر رضى الله عنه . أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن العمرة أواجبة هى ؟ قال : لا وأن تعتمروا هو أفضل» رواه أحمد والترمذى وقال حديث حسن صحيح . .

وعند الشافعية وأحمد : أنها فرض ، لقول الله تعالى : (وأتموا الحج والعمرة لله) . وقد عطفت على الأول وهو فرض فهى فرض كذلك . . والأول أرجح . .

س : ينوى الحج وعنده أقارب محتاجون للقوت الضرورى فما الحكم ؟

ج : إذا كانت نفقة هؤلاء الأقارب واجبة على من يريد الحج كزوجته وأولاده الصغار أو الكبار العاجزين عن الكسب ، أو الأبوين الفقيرين . وليس عنده ما ينفقه عليهم إلا ما يريد الحج به . لا يكون الحج واجباً عليه ، لأنه غير مستطيع حينئذ ، فإذا حج والحالة هذه كان آثماً فى حقهم ، وحجه صحيح ويجزئ عنه الفرض .

س : أيهما يفضل عن الآخر ويقدمه الدين : الزواج أم الحج ؟

ج : الزواج يعصم المرء عن عمل المعصية . فإذا خشى على نفسه منها فعليه أن يتزوج أولا ، وإلا قدم الحج لأنه ركن من أركان الإسلام . .[1] .

والله أعلم

عبد الحميد السيد شاهين

---

(١) المادة العلمية مأخوذة من كتب : « المذاهب » وكتاب « فقه السنة » للشيخ سيد سابق ، وكتاب « فى الحج والعمرة » لمحمد نعيم .

الله أعلم

سأل عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — رجلاً عن شىء ، فأجابه : الله أعلم .

فقال عمر : لقد شقينا إن كنا لا نعلم أن الله أعلم . .

ثم التفت إلى الناس وقال : إذا سئل أحدكم عن شىء لا يعلمه فليقل : لا أعلم !

الأزهر الكعبة العلمية للمسلمين

« وافق السيد صاحب الفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر ، على سفر وفد من الأزهر إلى : تركيا ، يوغوسلافيا ، اليونان . وذلك لدراسة أوضاع المتخرجين فى الأزهر من هذه المناطق ومدى نشاطهم فى نشر الدعوة الإسلامية حتى يتمكن الأزهر من معاونتهم فى نشر الدعوة الإسلامية .

كما يزور الوفد المدارس والمعاهد الدينية .

وهذا الوفد مكون من :

١ ـ السيد أحمد عصمت محمود إبراهيم	وكيل أول الوزارة والمشرف العام على مدينة البعوث الإسلامية .
٢ ـ الشيخ عبد السلام الشبراوى	الأمين العام المساعد لمجمع البحوث الإسلامية .
٣ ـ السيد محمد ثروت محمد حلمى	مدير إدارة المنح الدراسية مدينة ناصر للبعوث الإسلامية .

• • •

هذا وقد وجهت مراقبة البعوث الإسلامية بالأزهر الخطاب التالى :

إلى السيد الأستاذ السفير وكيل وزارة الخارجية

العلاقات الثقافية ـ اللجنة الفرعية

سلام الله عليكم ورحمته ، وبعد :

فرافق لهذا ميزانية الطلاب الوافدين بالأزهر ، ومشروع المنح الدراسية لعام ١٩٧٩ .

رجاء التفضل بعرضه على اللجنة الفرعية :

مع رجاء التفضل بالتنبيه فى حالة الموافقة إلى إخطار السفارات العربية بالمنح الجديدة المخصصة لكل دولة . .

مع ملاحظة ما يأتى :

١ – ينبه على السفارات المصرية بموافاتنا بأسماء المرشحين على هذه المنح وفقاً للشروط المدونة أمام كل منحة – فى موعد غايته أول أكتوبر – ولن يلتفت إلى الترشيحات التى ترد بعد هذا التاريخ .

٢ – المنح التى لن يتم الترشيح عليها حتى أول أكتوبر – تشغل عن طريق لجنة شئون الطلاب الوافدين المقيدين فعلا بالأزهر .

٣ – موافاتنا بالمناهج التفصيلية للشهادات الدراسية التى يمكن معادلتها بالشهادات الأزهرية من الآن .

٤ – لا يعتمد بشهادات النقل ويعرض الحاصل عليها على لجنة الامتحان لتحديد المرحلة المناسبة لمعلوماته .

٥ – ألا يقل سن الطالب فى غير الدراسات الجامعية عن ١٢ سنة ولا يزيد عن ٢٠ سنة بالنسبة للسنة الأولى من القسم الإعدادى بمعهد البعوث الإسلامية والمعاهد الأزهرية .

٦ – يلحق بجامعة الأزهر الطلاب الحاصلون على الشهادة الثانوية الأزهرية أو ما يعادلها أما الحاصلون على شهادة الثانوية العامة أو ما يعادلها فتطبق عليهم الشروط التى يقرها مكتب تنسيق الجامعات بوزارة التعليم العالى ويتم التحاقهم بجامعة الأزهر عن طريق إدارة الوافدين بوزارة التعليم العالى .

٧ – مقدار المنحة الشاملة التى تصرف للطالب المقيد على منح الأزهر فى كل شهر هى :

٢٥ ج للطلاب المقيدين بالدراسات الخاصة أو معهد البعوث أو المعاهد الأزهرية وتصرف من تاريخ الوصول .

٢٠ ج للطلاب المقيدين بجامعة الأزهر ، وتصرف من تاريخ الوصول .

٢٥ ج للطلاب المقيدين بالدراسات العليا (بجامعة الأزهر) وتصرف من تاريخ الوصول .

٨ — يخصم من المنحة المقررة شهرياً الرسوم المقررة للإقامة والتغذية من الطالب المقيم فى مدينة البعوث الإسلامية ، بناء على رغبته ، والإقامة مقصورة على الذكور فقط ، ولا توجد مساكن للفتيات .

٩ — نفقات السفر إلى جمهورية مصر العربية على حساب الطالب ، عدا طلاب أفريقيا فقط ، أما نفقات العودة فعلى حساب الأزهر .

١٠ — تصرف منحة شهر لكل طالب أنهى دراسته عند سفره مع تذكرة العودة .

١١ — تصرف للطالب الذى يفد من بلده على منح الأزهر عشرة جنيهات مصرية وقت وصوله إلى جمهورية مصر العربية لأول مرة كبدل استعداد .

١٢ — يصرف بدل كتب للمنح الجامعية (فقط) مقداره خمسة عشر جنيهاً مصرياً وقت وصول الطالب لأول مرة فقط .

عبد السلام الشبراوى
الأمين المساعد
لمجمع البحوث الإسلامية

• • •

وفيما يلى إجمالى المنح الدراسية المقترحة لعام ١٩٧٩ .

المنطقة	معاهد	جامعة	دراسات عليا	المجموع
الوطن العربى	٢٠	٣٣	١٢	٦٥
أفريقيا	١٣١	—	—	١٣١
آسيا	٦٤	٢٤	٣٥	١٢٣
أوروبا	١٠	٥	٥	٢٠
أمريكا	٥	—	—	٥
المجموع	٢٦٤	٦٢	٥٢	٣٧٨

« الوطن العربى »

البلد	معاهد	جامعة	دراسات عليا	الشروط
السودان	١٠	٠٠	٠٠	لأبناء جنوب السودان .
(٣٠) يتم الترشيح على هذه المنح عن طريق أمانة	٠٠	١٠	٠٠	للحاصلين على مؤهل يعادل الثانوية الأزهرية ويفضل أبناء منطقة دارفور .
مصر بالسودان	٠٠	٠٠	١٠	للحاصلين على مؤهل يعادل الشهادة العالية الأزهرية .
اليمن الشمالية (١٠)	٠٠	١٠	٠٠	للحاصلين على مؤهل يعادل الثانوية الأزهرية .
سوريا (٥)	٠٠	٥	٠٠	للحاصلين على مؤهل يعادل الثانوية الأزهرية .
لبنان (٥)	٠٠	٥	٠٠	للحاصلين على مؤهل يعادل الثانوية الأزهرية .
الصومال (١٠)	١٠	٠٠	٠٠	
المغرب (٣)	٠٠	٣	٠٠	البرنامج الثقافى
تونس (٢)	٠٠	٠٠	٢	« «
جيبوتى (٥)	٠٥			عن طريق السفارة
المجموع (٧٠)	٢٥	٣٣	١٢	

« أفريقيا »

البلد	معاهد	الشروط
تنزانيا	١٠	عن طريق المركز الإسلامى بدار السلام .
(١٠)		
أوغنـــدا	١٠	عن طريق السفارة العربية .
(١٠)		
فولتا العليا	٣	عن طريق السفارة العربية .
(٣)		
نيجيريـــا	٣	للرابطة الأهلية لمؤسسة المدارس العربية النيجيرية تخصص أحداها لمحمد المدنر محمد الكبير .
(٢٥)		
	٢	لجمعية سعود الإسلام ـ أبادين .
	٢	لخريجى مركز التعليم العربى ـ أجبجى .
	٢	دار التعليم العربى فى لاجوس .
	٢	لخريجى قسم الدراسات العربية والإسلامية فى أبادين .
	٢	لخريجى مدرسة العلوم العربية أجبيو أودى .
	٢	لخريجى المدرسة العربية للرابطة الأهلية .
	٢	للمعهد العربى النيجيرى ـ أبادين .
	٢	لجماعة أنصار الإسلام .
	٢	معهد ألون الدينى .
	٢	معهد مركز التعليم الإسلامى .
	٢	تخصص لروضة الدراسات الإسلامية والعربية .
المجموع (٤٨)	٤٨	

« تابع أفريقيا »

البلـــد	معاهد	الشروط
ما قبلـــه	٤٨	
النيجر (١٠)	١٠	عن طريق السفارة العربية .
غانـــا (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية وتخصص للمدرسة النورية لتعليم اللغة العربية شمال غانا .
غينيـــا (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية .
سيراليون (١٠)	١٠	عن طريق السفارة العربية ويخصص منها ٤ منح تشغل بمعرفة الحاج محمود فوفانا إمام القوات المسلحة ومنحتان لتدريب اثنين من أئمة المساجد .
السنغال (١٠)	١٠	عن طريق السفارة العربية .
ساحل العاج (٥)	٥	تشغل عن طريق اتحاد طلبة ساحل العاج . وبمعرفة الشئون الأفريقية .
الكنغو برازافيل (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية .
الكنغو كينشاسا (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية .
الكاميرون (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية .
المجموع (٩٣)	٩٣	

« تابع أفريقيا »

البلد	معاهد	الشروط
ما قبلـــه	٩٣	
بورنـــدى (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية .
سلطنة الأوما (٥)	٥	عن طريق الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية
أثيوبيـــا (٥)	٥	عن طريق الشئون الأفريقية بوزارة الخارجية
ناميبيا (٢)	٢	عن طريق السفارة العربية .
أريتريا (٥)	٥	عن طريق الشئون الأفريقية .
تشاد (٥)	٥	عن طريق السفارة العربية
داهومى (بنين) (٢)	٢	وتخصص للمدرسة السعيدية الإسلامية فى بيرنتونو (عن طريق السفارة العربية) .
مدغشقر (٢)	٢	للجمعية الإسلامية الملجاسية .
كينيا (٢)	٢	عن طريق المجلس الأعلى لمسلمى كينيا .
بـــيرو (٣)	٣	طبقًا للاتفاقية وتشغل عن طريق السفارة العربية . أمريكا اللاتينية ــ احتياطى .
المجموع (١٢٦)	١٢٦	

« تابع أفريقيا »

البلد	معاهد	الشروط
ما قبـــله	١٢٦	
أفريقيا الوسطى	٣	عن طريق السفارة العربية
غينيا بيساو	٢	عن طريق السفارة العربية
غينيا الاستوائية	٢	عن طريق السفارة العربية
ليبريـــا	٣	عن طريق السفارة العربية
موريشيوس	٣	عن طريق السفارة العربية
جنوب أفريقيا	٢	عن طريق العلاقات الأفريقية بوزارة الخارجية
موزمبيق	٢	عن طريق السفارة العربية
زامبيا	٢	عن طريق السفارة العربية
بوتسوانا	٢	عن طريق العلاقات الأفريقية بوزارة الخارجية
رواندا	٢	عن طريق السفارة العربية
التوجو	٢	عن طريق السفارة العربية
الجابون	٢	عن طريق السفارة العربية
الرأس الأخضر	٢	عن طريق العلاقات الأفريقية بوزارة الخارجية
ناميبيا	٢	عن طريق العلاقات الأفريقية بوزارة الخارجية
مـــالى	٣	عن طريق السفارة العربية
المجموع	١٦٠	
(١٦٠)		

« آسيا »

البلد	معاهد	جامعة	دراسات عليا	الشروط
الفلبين (١٠)	١٠	—	—	تشغل عن طريق سفاراتنا العربية ويخصص منها منحتان لمعهد زمبونجا الإسلامى ومنحتان لمدرسة التبليغ الإسلامى ومنحتان لمعهد العلوم الدينى العربى بمدينة ماراوى .
الهند (٢٠)	—	—	١٠	عن طريق سفارتنا العربية
	٥	—	—	للكلية الإسلامية كوتبادى — كيرالا — الهند .
		٥		عن طريق السفارة .
باكستان (٥)	—	—	٥	عن طريق سفارتنا العربية
أفغانستان (٥)	—	—	٥	عن طريق سفارتنا العربية
ماالديف (٢)	٢	—	—	عن طريق سفارتنا العربية
سنغافورة (٣)	٣	—	—	عن طريق جمعية الدعوة الإسلامية بسنغافورة
بنجلاديش (٥)	٥	—	—	عن طريق السفارة العربية
كمبوديا (١٠)	١٠	—	—	عن طريقاللجنة (الأزهر)
المجموع (٦٠)	٣٥	٥	٢٠	

« تابع آسيا »

البلد	معاهد	جامعة	دراسات عليا	الشروط
ما قبلـــه (٦٠)	٣٥	٥	٢٠	
إيـــران (٥)	—	—	٥	عن طريق السفارة .
سيرلانكا (٢)	٢	—	—	عن طريق السفارة .
الصين (٥)	٥	—	—	لأبناء المسلمين الصينيين فى منطقة جنوب شرق آسيا . (الأزهر)
أندونيسيا (٢٥)	—	—	٥	لخريجى الكلية الإسلامية فى جاكرتا .
	—	٥	—	تشغل عن طريق وزارة الشئون الدينية للسادة المدرسين لدراسة اللغة العربية .
	٢	—	—	تخصص للمدرسة الشافعية بجاكرتا .
	٣	—	—	تخصص للمدرسة الطاهرية بجاكرتا .
	٢	—	—	للمدرسة الشطورية .
	—	٨	—	للحاصلين على مؤهل يعادل الثانوية الأزهرية من طريق وزارة الشئون الدينية .
المجموع (٩٧)	٤٩	١٨	٣٠	

« تابع آسيا »

البلد	معاهد	جامعة	دراسات عليا	الشروط
ما قبله (٩٧)	٤٩	١٨	٣٠	
ماليزيا (٢١)	—	٣	—	للحاصلين على مؤهل يعادل الثانويةالأزهرية من خريجى المعهد المحمود بقدح .
	—	٢	—	للحاصلين على مؤهل يعادل الثانوية الأزهرية من خريجى الجمعية الخيرية الحليمية .
	—	٥	—	لخريجى الكلية الإسلامية .
	—	—	١٠	للحاصلين على مؤهل يعادل العالية الأزهرية .
	—	١	—	للطالب مروان عبد الجليل بالسنةالثالثةبكليةأصول الدين
تايلاند (١٥)	٥	—	—	للمعهد العلمى الدينى نونج شوك .
	١٠	—	—	توزع على المعاهد الآتية : معهد رضوان الإسلام ، مدرسة مفتاح العلوم الدينية محافظة نارانبواس ، محافظة ستوك ، محافظة سونكلا ، محافظة فنانى ، ومحافظة جالا
المجموع (١٣٣)	٦٤	٢٩	٤٠	

« أوروبا وأمريكا »

البلـــد	معاهد	جامعة	دراسات عليا	الشروط
تركيا (٥)	—	—	٥	عن طريق سفارتنا .
روسيا (٢)	٢	—	—	عن طريق سفارتنا .
إستراليا (٢)	٢	—	—	عن طريق سفارتنا .
أمريكا (٥)	٥	—	—	لأبناء المسلمين يخصص منها ثلاث منح لجمعية بافالو والباقى عن طريق جمعية إحـــياء التراث الإسلامى بالقاهرة .
إنجلترا (٥)	٥	—	—	لأبناء المسلمين عن طريق جمعية إحـــياء التراث الإسلامى بالقاهرة .
يوغوسلافيا (٥)	—	٥	—	لأبناء المسلمين عن طريق جمعية إحـــياء التراث الإسلامى بالقاهرة .
ألمانيا الغربية (١)	١	—	—	وتخصص للطالب ، محمد عاطف فيشى .
المجموع (٢٥)	١٥	٥	٥	

كتاب الشهر

مِن مشاغبات المبشرين

النشرة رقم "٢" بالسنغال

دكتور / عبد الفتاح بركة

« ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ، يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ، يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » .

آل عمران : ٦٩ — ٧١

« قل : يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ، قل : يا أهل الكتاب لِمَ تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداءُ وما الله بغافل عما تعملون » .

آل عمران : ٩٨ — ٩٩

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون » .

الأنبياء : ١٨

تلقينا صورة من تلك النشرة التي يقوم بتوزيعها — باللغة الفرنسية على بيوت المسلمين ونسائهم في السنغال — نساءٌ تابعات لإحدى الجمعيات التبشيرية ، وهن يحاولن بذلك إقناع السيدات المسلمات بالارتداد عن دينهن إلى دين آخر ، هو تلك المسيحية التي يدينون بها .

وليس يسوؤنا أن يدعو أهل حق إلى حقهم ، إذا كانوا يلتزمون آداب الدعوة الصحيحة ، ولكننا يسوؤنا الخلط المتعمد ، وإلباس الحق بالباطل ، والتلاعب بالألفاظ ، وتحريفها عن مواضعها ، والتطاول بغير حق على مقامات الأنبياء والرسل ، واستغلال براءة الوادعات الآمنات المطمئنات في بيوتهن لبث مشاعر الحيرة والقلق بينهن ، وزعزعة عوامل اليقين والطمأنينة في قلوبهن .

ولقد كنا نظن بعد أن قطعنا معظم القرن العشرين ، وكدنا نوفى على نهايته ، أن المبشرين المسيحيين قد يئسوا من استعمال تلك الأساليب البالية العتيقة التي طالما استعملوها من وسائل التضليل والمغالطة التي تصل في كثير من الأحيان إلى حد الكذب الصريح .

وكنا نظن أن جهودهم التي يبذلونها لهدم الإسلام — وهو مصدق لدين عيسى عليه السلام — سوف يحتاجونها لمقاومة الإلحاد العالمي الذي يقرع عليهم أبوابهم صباح مساء ، حتى في عقر ديارهم ، ومعاقل كنائسهم ، ليهدم مع ما يهدم مسيحيتهم ودينهم وكنيستهم .

وكنا نظن أنهم — كما يدعون — يطلبون وُدّ المسلمين ليتعاونوا معًا في مقاومة هذا التيار الإلحادي الجارف .

لكن هذه الظنون الطيبة جميعها قد خابت تحت ضربات مثل هذه النشرة التبشيرية . فهذه النشرة – التى بين أيدينا – تدل على أن أسلوبهم فى تزييف الحقائق ، وتزيين الباطل ، وتحريف كلام الله ، والافتيات على أنبيائه ورسله ، وبث الشبهات والترهات بين الغافلين والغافلات ، ما يزال هذا الأسلوب هو أسلوبهم المفضل ، حتى ونحن فى نهاية القرن العشرين .

كما تدل هذه النشرة – التى بين أيدينا – على أنهم ما زالوا يرون فى عيون الآخرين ما يرونه قذى كقذى القشة ، ولا يدركون النخلة التى تترعرع فى عيونهم ، ويعتبرون الإسلام – وهو مصدق لدين عيسى عليه السلام – هو عدوهم الأول ، فيها جمونه فى بيته ، بينما لا يكادون يعيرون التفاتاً للإلحاد العالمى وهو ينخر داخل بيوتهم ، حتى كاد أن يأتى عليها من القواعد .

وكما تدل هذه النشرة – التى بين أيدينا – على أنهم ما يزالون يتبعون أسلوب المراوغة والنفاق والكذب حين تدوى طبول دعايتهم فى كل مكان تخطب وُدّ المسلمين لكى يقفوا جنباً إلى جنب فى مقاومة الإلحاد العالمى ، ويعقدون لذلك المؤتمرات والندوات ، ويوجهون الدعوات والرحلات ، ثم يلتفون على المسلمين والمسلمات بمثل هذه النشرات ، وبغيرها من الوسائل الملتوية الآثمة .

ونحن بحكم ديننا لا نجاريهم فى مثل هذا العبث وهذا السفه ، ولذلك فسوف نناقش هذه النشرة بأُسلوب هادئ ، رغم ما فيها من وقاحة وحماقة ، وجهالة لا تليق بمن يدعو إلى دين ، مهما يكن هذا الدين .

وننقل إلى قرائنا هنا نص هذه النشرة لسببين (١) :

الأول : أن يكون القارئ على بينة مما نتناقش فيه ، وأن يعلم أننا لا نفتات عليهم فى شىء ولا نسلك مسلكهم فى الالتواء والتلبيس وأننا نواجه الحقيقة مباشرة بغير لف ولا دوران .

الثانى : أن كثيراً من الكتاب الذين يكتبون هذه الأيام مطالبين صراحة أو إشارة بتطبيق الشريعة الإسلامية رجاء أن يصلح الله أحوالنا يصبحون وقد وصلتهم رسالة موقعة بتوقيع مجهول ، فيها كثير من الأفكار التى وردت فى هذه النشرة .

---

(١) وقد تحدثت عن هذه النشرة مجلة الدعوة المصرية فى عدد رمضان ١٣٩٨ هـ تحت عنوان « التبشير يتطاول على الإسلام والمسلمين » .

ترى هل هذه الرسائل المجهولة التوقيع من بعض رفاقنا فى الوطن من المسيحيين ! ؟ أم هى من دخلاء يريدون أن يفسدوا بالدس الرخيص بين أبناء الوطن الواحد ! ؟

على كلٍّ ، فإن نشر هذه النشرة والرد عليها يفيدهم ويرشدهم إلى الحقيقة إن كانوا بها جاهلين ، ويفحمهم وينبههم إن كانوا من العابثين والمفسدين.

تقول النشرة :

أىّ الاثنين أقدر ! عيسى أم محمد[1] ؟

يتفق كل من المسلم والمسيحى فى عدة نقاط مذهبية ، فيعترف الاثنان أن هناك إله واحد خالق للبشرية : خلق آدم ومن بعده حواء ، اللذان أخطآ بفعل الشيطان ، وأن الله أرسل عدة أنبياء ورسل إلى البشرية لتعليم الإنسان الفرق بين الخير والشر ، ومن بين المرسلين : نوح وإبراهيم ويوسف وموسى وداود . . إلخ ، وأن الله منح البشرية من خلالهم التوراة والأسفار ، ثم أرسل عيسى الذى حمل للبشرية الإنجيل ، ويتفق المسلم والمسيحى فى كل ذلك .

ولكن إخواننا المسلمين يذهبون إلى أكثر من ذلك ، فهم يضيفون : أن بعد عيسى جاء محمد ، وأنه خاتم الأنبياء ، وأعظمهم ، وأن دينه هو دين الحق ، وأن من يتبعه سوف ينجو من يوم الحساب ، ويجيب المسيحيون ويقولون : لا ، لأن عيسى هو خاتم الأنبياء ، وأنه أعظمهم وأفضلهم ، وبفضله فقط تنجو البشرية .

لهذا يكون الفرق بين وجهتى النظر هو أن المسيحى يؤكد أن عيسى هو خاتم الأنبياء ، فى حين أن المسلم يصر على العكس : أنه محمد . . فلماذا لا نقارن بين وجهتى النظر ، ونتقبل أعظمهما شأناً ؟

١ ــ بالنظر إلى مرحلة الولادة . . نجد أن محمداً ولد عن أب اسمه : عبد الله ، وسيدة اسمها : آمنة ، ولم يكن هناك شىء عظيم يبشر بولادته ، وظل بعد ولادته عدة سنوات ، لم تحدث خلالها معجزة ، حتى بلغ من العمر الأربعين عاماً ، حيث ادعى نزول الملاك جبريل عليه ، وتحدثه معه ، ولكن حتى هذه اللحظة لم يكن هناك ما يبشر بأن محمداً سيكون نبياً من العظماء ، وصحيح أن بعض الجهلة من المسلمين يروون القصص الخرافية حول

---

(١) ليست الترجمة إلى العربية لكاتب هذا المقال .

ولادة النبى محمد ، ولكن المسلم الذكى لا يجهل أنه لا يوجد فى القرآن مثل هذه الخرافات، وأن هذه الأساطير ألفت فيما بعد . . أما عن عيسى فتأتى ولادته معجزة ، كما يعترف بذلك القرآن فى سورة مريم الآية ١٨ (عن ترجمة بمبرسكى إلى الفرنسية) فإننا نقرأ: أن جبريل ظهر لمريم التى قالت فى حالة من الرعب تبحث مأمن بجانب الرحمن فرد عليها قائلا « إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً ذكياً» فقالت له : كيف ذلك وإننى لم أعاشر رجلا وما زلت عذراء؟ فرد عليها قائلا: هذه إرادة الله ليكون دليلا أمام الإنسان .

إن القرآن يشير صراحة إلى أن جبريل الذى أرسله الله لمريم لينبىء بمجىء المسيح ، وأنها ولدته دونما علاقة بأى رجل ، وفى سورة الأنبياء كذلك إشارة إلى مريم ومعجزة ولادة المسيح .

فيا أيها المسلمون : إنكم تدعون أن القرآن كلام الله ؟ لذلك فعليكم: أن تعترفوا بأن ولادة المسيح كانت تمثل حادثاً عظيماً .. إن المسيحيين لا يقبلون القرآن ، ولكنهم يتقبلون الإنجيل الذى تنبأ بهذا الحدث ، وقد قال أحد أبناء النبى يعقوب قبل ولادة المسيح بـ ٧٠٠ سنة « سوف تنجب العذراء ابنا ستسميه عمانوئيل » وقصة هذه المعجزة مذكورة أيضاً فى إنجيل لوقا (٢٨٠١ - ٣٦) « لقد دخل الملاك فى المكان الذى تتواجد فيه مريم وقال لها : السلام عليك أنت يامن اختارك الله ، واضطربت مريم لهذا الكلام ، وتساءلت عما يعنيه، فقال لها الملاك : لا تخافى يا مريم ، لأن الله اختارك فسوف تصبحين حاملا وتلدين طفلا وتسمينه عيسى ، وسوف يعرف بابن الأعلى ، والسيد الإله سوف يعطيه عرش والده داود ، سوف يحكم بيت يعقوب أبديا ، ولن يصل حكمه إلى نهايته أبدا ، فقالت مريم : كيف ذلك وأنا لم يقربنى رجل أبدا ، فرد الملاك قائلا : إن الروح القدس سوف تأتيك ، وسوف يحميك الإله الأعلى برداء ظله ! ولذلك سيطلق على من تلدينه إنه ابن الإله » .

ويتفق كل من القرآن والإنجيل على معجزة ولادة عيسى ، فالفرق بين محمد وعيسى إذن : هو أن الأول ولد كسائر البشر فى حين أن الثانى كانت ولادته معجزة إلهية .

٢ - وبالنظر إلى الناحية الفكرية التى ستظهر لنا الفرق بين الرسولين

نجد أنه بفعل ولادته كسائر البشر ورث محمد من البشر طبيعتهم الآثمة ، ويوضح لنا القرآن بما لا يدعو إلى الشك ما نقوله . خاصة فى سورة الضحى الآية السابعة « ووجدك ضالا فهدى » ، وفى سورة غافر يقول القرآن فى الآية ٥٤ « واستغفر لذنبك » . وفى سورة النصر يقول القرآن فى الآية ٣ « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا » وفى سورة الفتح الآية ٢ يقول القرآن « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

وتشير هذه الاستشهادات بنصوص القرآن إلى أن محمداً كان آثما ، مثله فى ذلك مثل بقية البشر .

أما عيسى فكون ولادته معجزة فلا بد أنه ورث طبيعة طاهرة لا غبار عليها ، ومن القرآن ذاته نستطيع أن نجد الدلائل على ذلك ، ففى القرآن يطلب الأنبياء جميعهم من الله الغفران ، أى أنهم يعترفون بإله واحد ، وبأنهم أخطئوا ، وبأنهم يطلبون المغفرة من الإله الواحد .

أما عن عيسى فجدير بالذكر أن القرآن لم يذكر أبداً أن عيسى قد أخطأ ، بل على العكس كما جاء فى سورة النساء ، آية ١٧١ يقول « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » وفى سورة آل عمران الآية ٤٥ يقول « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين » إن عيسى كلمة الرب وروحه ويجب أن يكون كاملا وهو طاهر ، ويؤكد الإنجيل هذا الكلام ، فقد نزل جبريل على مريم قبل ولادته يبشر بالروح المقدسة (لوقا ١ : ٣٥) وقد قال عيسى بنفسه : « أنا مطيع لمن أرسلنى » (يوحنا ٨ : ٢٩) وعن أعدائه كان يقول : من منكم يقنعنى بالذنب (يوحنا ٨ : ٤٦) كما قال أيضًا « إن الشيطان آت وهو أمير هذا العالم ولكنه لن يجد فى وسيلة » (يوحنا ١٤ : ٣) وفى رسالة القديس بطرس الأولى قيل إنه كان لايذنب ولا يخطئ وهكذا يتأكد لنا الفرق بين محمد وعيسى فى هذه النقطة الثانية ، وهى أن محمداً كان كسائر البشر مذنبًا فى حين أن عيسى كان طاهراً .

٣ — أما النقطة الثالثة : التى توضح الفرق بين الرسولين فهى أن عيسى قام بعدة معجزات ، فى حين أن محمداً عجز عن ذلك ، وصحيح أن المسلمين يقولون

إنه قسم القمر نصفين وعدة معجزات أخرى ، ولكننا بالتعمق والدراسة نكتشف أن قصص هذه المعجزات كتبت بعد مضى قرون من وفاة الرسول محمد ، ولذلك لا نستطيع تصديق هذه القصص ، فمثلا إذا قيل لنا : إن فلانا أعاد البصر لأعمى منذ ٢٥ عاماً ، فن الممكن التحرى لدى أشخاص عاصروا الواقعة ، أما إذا كان الحدث يرجع إلى أكثر من ١٥٠ عاماً ، فكيف يكون من الممكن التحرى عن صحة الرواية وبدون الرجوع لأشخاص قد عاصروا الحدث أو وجود أدلة تثبته يصعب على المرء أن يتقبله ، وبذلك ليس هناك ما يثبت صحة قيام محمد بمعجزات ، وبما أن محمداً قال بنفسه إنه لم يقم بمعجزات ، فعلينا أن ننظر إلى هذه القصص كروايات لها طابع أسطورى ، وذكر فى القرآن أن الكفار طلبوا من محمد دليلا فرد عليهم بأن الله لا يحتاج إلى دليل . ولن نذكر فى هذا الصدد سوى آيتين ففى سورة العنكبوت الآية ٥٠ « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين » وكذلك فى سورة الإسراء الآية ٥٩ قوله « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » هنا أيضاً يؤكد القرآن أن محمداً لم يقم بمعجزة بين من عاصروه ، بل على العكس كانت حياة عيسى مليئة بالمعجزات ، فقد كان يعيد البصر إلى الأعمى والسمع للأصم ، ويعيد الأعرج إلى طبيعته ، ويطهر من أصابه الجذام ، وشفى كثيراً من المرضى ، كما أحيا الأموات ، ومن بينهم من ظل فى تابوته أربعة أيام كان المسيح عيسى يقوم بجميع هذه المعجزات باسمه وبقدرته وفقاً للرب . فمن أثبت قدرته ورحمته التى لا نهاية لها بتلك الأعمال فهو ولا شك المنقذ الوحيد.

٤ — أما عن النقطة الرابعة : فهى عن الموت ، فقد مات محمد كمثل بقية البشر ، فلقد ولد مثل البشر ومات مثل البشر ، ولد فى مكة ومات فى المدينة ، وبعد موته دفن وفنى جسده ، مثل أجساد بقية البشر ، أما المسيح عيسى فكانت نهايته غير ذلك ، فيذكر القرآن فى سورة آل عمران آية ٥٥ « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى » وفى سورة مريم الآية ٣٣ « والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » وفى سورة المائدة آية ١١٧ « وكنت عليهم رقيباً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم »

وفي سورة النساء الآية ١٥٧ « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » « بل رفعه الله إليه » وإذا كانت هذه الرواية صحيحة فعلى المسلمين الاعتراف بأن عيسى رفع إلى الله حياً ، في حين أن محمداً قد مات ، وعاد جسده إلى التراب ، فمن من الرسولين يكون هو المنقذ الذى مات ، أم الذى ما زال حياً ؟ ؟

ولكن في الإنجيل مكتوب أن عيسى مات ، وأن الرومان قد صلبوه ، ومات بعد ست ساعات ، ووضع جسده في المقبرة . ويقول البعض : ربما ، وما دام الاثنان قد ماتا فما الفرق بينهما ؟ إن الفرق هو أن محمداً قد مات ودفن في حين أن عيسى قد رفع إلى ربه ، فقد خرج من قبره في اليوم الثالث حياً ، وقد كتب الإنجيليون الأربعة متى ولوقا ومرقص ويوحنا قصة المسيح واتفق الأربعة على أنه خرج من قبره ، وظهر لعدة أشخاص ، وفي فجر يوم الأحد عندما ذهب النساء لتكفين الجسد وجدن القبر فارغاً ومفتوحاً ، فظهر لهن ملاكان يقولان لهن : « لا تخفن فأنا أعلم أنكن تبحثن عن المسيح الذى صلب ، إنه ليس هنا ، فإنه أعيد إلى الحياة كما كان قد قال ، تعالوا وانظروا إلى المكان الذى رقد فيه ، واذهبوا لتبشروا أنصاره بعودته إلى الحياة » (متى ٢٧ و ٦ و ٧) ثم ظهر عيسى بعد ذلك أمام النساء ، ثم بطرس ، ثم إلى بقية القديسين ، وظهر أيضاً لعدد كبير من أتباعه ، كما ظهر أمام ٥٠٠ شخص مجتمعين في مكان واحد ، وبعد بعثه ظل أربعين يوماً على الأرض كان جسده غير عادى ، فكان يستطيع الذهاب إلى أى مكان دخولا وخروجاً دون أن يراه أحد . وأخيراً قاد أتباعه إلى جبل بالقرب من القدس ، حيث باركهم ، وبعد ذلك صعد إلى السماء أمامهم ، وقد يتساءل بعضكم لماذا مات عيسى في حين أن ولادته كانت معجزة وأنه كان طاهراً ويقوم بالمعجزات ؟ وإذا كان فعلا أعظم الرسل فلماذا لم ينقذه الرب من أيدى اليهود ؟ إن عيسى كان طاهراً ولكن بما أن الموت هو جزاء كل خطيئة ، فقد أخذ عيسى المسيح خطايا البشرية كلها ، ودفع جزاء هذه الخطايا ولهذا مات عيسى ، وقد قال عنه أحد أبناء إسحق « أنه كان جريحاً بخطايانا ومحطم بآثامنا » كما قال عيسى بنفسه « لقد جئت لأضحى بحياتى لعديد

منكم » فى الإنجيل مكتوب « أنه حمل خطايانا فى جسده على ألواح الصليب » لقد تحمل المسيح الخطايا وهو الطاهر .

لعلكم أيها المسلمون تستطيعون أن تحكموا الآن مَنْ مِنَ الاثنين يستطيع أن ينقذنا ؟ محمد أم عيسى ؟ محمد ولد مثل بقية البشر من أب اسمه : عبد الله ، وأم اسمها : آمنة ، ولم يبشر أى ملاك بمجيئه لأبيه أو لأمه ، ولكن جبريل تحدث عن المسيح عيسى حتى قبل أن يولد ، لقد خلق من الروح القدس ، فى جسد مريم ، وسمى « بروح الله » و « كلمة الله » لقد اعترف محمد بأنه كان آثما ، وكان كبقية الخلق فى ولادته ، وتزوج عدة مرات وكان له زوجات عدة فى وقت واحد ، ومن بينهن السيدة زينب التى طلقها زيد ابنه بالتبنى ، كما تسبب محمد فى قتل عدة أشخاص ، أما عيسى فقد جاء على الأرض لينقذ البشرية ، فلم يتزوج أبدا ، ولم يقتل أحداً ، فهو لم يأت ليقتل ، بل لينقذ ، ولم يأت آثاما لا بالقتل ولا بالفكر .

ياأيها الإخوة المسلمون . . فيمن تريدون أن تضعوا أقداركم ، فى محمد المذنب ؟ أم عيسى الطاهر ؟ مَنْ مِنَ الاثنين سينقذكم ؟ كيف يستطيع المذنب أن ينقذكم من ذنوبكم ؟ هل من الممكن للأعمى أن يقود الأعمى ؟ إن الذى لم يخطىء هو الذى يستطيع أن أن ينقذكم من جراء ذنوبكم .

إن محمداً لم يأت أبدا بمعجزات ، ولكن عيسى قام بالأعمال العظيمة ، إن الذى أبصر الأعمى وأحيا الموتى يستطيع أن يخلصكم من ذنوبكم . وأخيراً مات محمد وعاد جسده إلى التراب ، أما عيسى برغم موته جزاء لخطايانا فهو ما زال حيًّا ، حتى هذه اللحظة ، فقد بعث من قبره حياً لينقذ شعبه ، ويتوسط للمذنب ، فهل محمد يستطيع أن يتوسط لكم ؟ وكيف يقبل القاضى وساطة متهم لمتهم آخر ؟ من الضرورى أن يكون الوسيط مقلعاً وعادلا ، وهذا الوسيط هو المسيح عيسى فلقد قال يوحنا فى إنجيله : « إن أذنب شخص فله محام أمام الله هو عيسى المسيح العادل ، فهو بنفسه ضحية ذنوبنا ، وليس ذنوبنا فقط بل ذنوب البشرية جمعاء » (يوحنا ٢ — ١٢) وقال قديس آخر « إن عيسى يستطيع أن ينقذ كل من يتقرب إلى الله من خلاله » ياأيها الإخوة احتموا بالمسيح عيسى وضعوا فيه ثقتكم واقبلوه كمنقذكم

الأوحد ، وسوف تحصلون على الغفران ، وتنقذون إلى الأبد » .

اسمعوا المسيح نفسه وهو يقول لكم « تعالوا إلىَّ أنتم يا من اعتلاكم المرض ووطأة الزمن ، وسوف أمنحكم الراحة ، تحملونى واتبعوا بيناتى لأننى ذو قلب رحيم تجدون راحة أرواحكم » (متّى ١١ و٢٨ و٣٠) فهوته يمنحنا الغفران لذنوبنا و بمعونته يمنحنا القوة لمحاربة الشيطان أنه سيبعد عنكم الأذى ، ويتوسط لكم أمام الرب ، وفى يوم الحساب سيستقبلكم كشعبه ، ويدخلكم السماء فى السعادة الأبدية حيث قال : « أنا الصراط والحقيقة والحياة ولن يصل أحد إلى الأب (الله) إلا عن طريقى» (يوحنا ٦ و ١٤) إنه هو الطريق الوحيد الذى يؤدى إلى السماء ، وإذا تقبلتموه كمنقذكم وسيدكم فسوف تنقذون من الهلاك ، وسيصحبكم إلى الأبد فى الجنة » . انتهت النشرة .

• • •

ولقد بدأت النشرة بذكر نقاط تدعى أن كلا من المسلم والمسيحى يتفق عليها فتقول : إن كلا منهما « يعترف أن هناك إلهًا واحداً خالقًا للبشرية ، خلق آدم، ومن بعده حواء ، الذين أخطآ بفعل الشيطان ، وأن الله أرسل عدة أنبياء ورسل إلى البشرية لتعليم الإنسان الفرق بين الخير والشر ، ومن بين المرسلين : نوح وإبراهيم ويوسف وموسى وداود . . إلخ . وأن الله منح البشرية من خلالهم التوراة والأسفار ، ثم أرسل عيسى الذى حمل للبشرية الإنجيل ، ويتفق المسلم والمسيحى فى كل ذلك » .

وبعد أن تُوهم النشرةُ المسلمين باتفاق المسيحيين معهم فى هذه النقاط يكون من المنطقى أن تنتقل إلى نقاط الخلاف لمناقشتها وتصفيتها .

فياترى : ما هى نقاط الخلاف التى تراها النشرة . . إنها نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؟؟

ونحن نقول لهم بادئ ذى بدء : إننا لا نخسر بهذا الخلاف شيئاً ، لأننا نؤمن بعيسى ، وهم يعترفون لنا بذلك ، أما هم فلا يؤمنون بمحمد ، فخلافنا هنا لا يضرنا نحن ، بل يضرهم هم .

ثم نقول لهم : هل ناقشت النشرة هذه النقطة وبحثت إذا كان محمد نبيًّا حقًّا ! ؟ أم دخلت فى أساليب أخرى بعيدة عن لب الموضوع وجوهره ! ؟

لقد لجأت النشرة إلى الطريقة الثانية ، ودخلت فى أساليب تشبه أساليب الأطفال عندما يتحدى بعضهم بعضاً ،

فوضعت كلا من عيسى ومحمد عليهما السلام موضع الخصمين المتنافسين ، وطلبت من المسلمين أن يقفوا موقف الحكم الذى يقارن بينهما ليحكم أيهما أولى بالنبوة والاتباع ؟

فهل — ياترى — يعتقد هؤلاء المبشرون أن المسلمين ينكرون نبوة عيسى عليه السلام فى سبيل إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ! ؟

وهل — يا ترى — هبط مقام الأنبياء والمرسلين عندهم إلى هذا الحد لكى يضعوهما موضع المقارنة والتفضيل ! ؟

وهل — ياترى — أمرهم دينهم أن يتطاولوا على مقام الأنبياء مثل هذا التطاول ! ؟ اللهم : إننا نبرأ إليك من ذلك ! !

وهل — ياترى — يكون أسلوب المقارنة هو الذى يحكم على نبوة محمد بالصدق ! ؟ أم أن هذا أسلوب فى التأثير النفسى بعيداً عن الحق والمنطق الصحيح ! ؟

ومع ذلك ، فتعالوا — معشر المبشرين — نجاريكم فى الحديث ، ونناقش كل ما قدمتموه ، ونضعه على محك العقل الصحيح ؟

فعن ما ادعيتموه من نقاط الاتفاق بينكم وبين المسلمين :

هل صحيح أنكم تتفقون مع المسلمين فى الإله الواحد الذى خلق البشرية ! ؟

· إن الإله عند المسلمين واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فليس أبا لأحد ، وليس ابناً لأحد ، ولا يشاركه فى ألوهيته أحد لا من المادة ولا من الروح ولا من غيرهما .

فهل إلهكم الذى تدينون له بالألوهية كذلك ؟ !

مدى علمنا : أنه ليس كذلك ، وأنه عندكم يمكن أن يكون أباً ، ويمكن أن يكون ابنا ، ويمكن أن يتجسد فى جسم ، ويمكن أن يكون روحاً قدساً ؟ ويمكن أن يكون واحداً ؟ ويمكن أن يكون له ثان وثالث ، وكل ذلك عندكم شىء واحد ! ؟

فكيف تدعون : أن المسلم والمسيحى يتفقان على ذلك ! ؟ وهل هذه الدعوى من الصدق الذى يجب عليكم التزامه ! ؟

ثم : هل صحيح أنكم تتفقون مع المسلمين فى أن الله أرسل إلى البشرية رسلا منهم : نوح وإبراهيم ويوسف وموسى وداود — عليهم السلام — وأن الله أرسل عيسى للبشرية بالإنجيل ! ؟

— إن عيسى عليه السلام — عند المسلمين — رسول من رسل الله ، مثله كمثلهم فى

البشرية ، ومثله كمثلهم فى أنه عبد مخلوق لله ، شرفه الله — كما شرفهم — بالرسالة ، وآتاه من المعجزات كما آتاهم ، وأوحى إليه كما أوحى إليهم فليس إلهاً ، ولا ابن إله ، ولا جسما حل فيه إله ، ولا تجسم من إله .

فهل عيسى — عليه السلام — كذلك عندكم ! ؟

— مدى علمنا : أنه ليس كذلك ، وأنه عندكم يمكن أن يكون إلهاً ، ويمكن أن يكون ابن إله ، ويمكن أن يكون محلا أو تجسما لإله ، وكل ذلك فى ذات عيسى الذى ليس شيئاً سوى الإله نفسه — كما تدعون .

فكيف — بعد ذلك — تدعون أنكم تتفقون مع المسلمين فى عقيدتهم فى المسيح عليه السلام ؟ وهل ذلك من الصدق الذى يجب عليكم التمسك به ! ؟

ماذا بقى مما ذكرتموه من نقاط الاتفاق ! ؟

— أن الله خلق آدم وحواء ، وأنهما عصيا الله فأخرجهما من الجنة .

نعم ! لكنكم تزيدون على ذلك أسطورة توريث الخطيئة ، وأن بنى آدم قد ورثوا جميعاً خطيئة آدم ، وأنهم مسئولون عنها أمام الله ، وأنهم جميعاً يستحقون عليها العقاب .

فمن أين أتيتم بهذه الأسطورة ! ؟ ولم يرد لها ذكر عند الرسل الذين ذكرتموهم ؟ نوح وإبراهيم وموسى ويوسف وداود ؟ بل وعيسى نفسه عليه السلام ؟

وماذا كانت رسالة هؤلاء الرسل العظام إذا لم تكن إنقاذ البشرية من الضلال ، ومن الهلاك فى العذاب ! ! وما فائدة إرسالهم إذا لم يكن فى قدرتهم أن يفعلوا ذلك ! ! وما قيمة جهادهم إذا لم يكن من يتبعهم واثقاً من البراءة والنجاة ! ! ألم تقولوا معشر المبشرين : إن الله أرسلهم لتعليم الإنسان الفرق بين الخير والشر ؟ وما فائدة ذلك إذا كان الإثم ملازماً له لا ينجيه منه ، ولا يطهره منه معرفته للفرق بين الخير والشر وسعيه للخير واجتنابه للشر ؟؟

— أظن أنه لم يعد هناك وجه واحد مما ذكرتموه — وادعيتم أننا نتفق عليه — يمكن أن يكون محلا للاتفاق ! ؟

وهذا — منذ البداية — يبين أسلوب التلبيس الذى تستعملونه فى إيهام المسلمين بأشياء تخالف الحقيقة ! ؟

وينبغى إذا أردتم الوصول إلى الحق أن تواجهوه مباشرة ، لا أن تدوروا حوله بأساليب التلبيس والمغالطة والإبهام ! ؟

ومن ذلك ما نريد أن ننتقل إليه من مقارنتكم بين عيسى ومحمد – عليهما السلام – وهى مقصدكم ومطلبكم من هذه النشرة ؟

– إننا لا نوافقكم على طريقة المقارنة بين الأنبياء بهذا الأسلوب الرخيص من المزايدة ، لأن ديننا ينهانا عن ذلك ، ولأن ديننا يأمرنا بالتأدب مع الأنبياء جميعاً ، ولا يصح إسلام المسلم حتى يؤمن بالأنبياء جميعاً دون تفريق بينهم « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » البقرة ٢٨٥ ، « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » البقرة : ١٣٦ وقد علمنا رسولنا صلى الله عليه وسلم ذلك فقال « لا تفضلوا بعض الأنبياء على بعض » رواه أحمد فى مسنده – وذلك لا يمنع أن الله هو الذى فضل بعض الأنبياء ببعض أفضاله ، واختص بعضهم ببعض خصوصياته ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فنحن هنا لا نجاريكم فى المقارنة ، ولكننا نتتبع كلامكم لنعقب عليه بالرد والإيضاح ، وتقويم المعوج ، وتجريد الحق من الباطل !؟

إنكم تعلمون يقيناً أن كتابنا الكريم يصف محمداً عليه الصلاة والسلام بأنه رسول الله وخاتم النبيين ، وأن الله أرسل رسله جميعاً بدينه الحق وأن الرسالة التى جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم هى خاتمة الرسالات ، وأنها مصدقة لكافة الرسالات السابقة التى حملها رسل الله ، وأن من آمن به واتبعه فلا بد أن يؤمن بكل الأنبياء السابقين لأنهم جميعاً يصدق بعضهم بعضا ، فماذا تنكرون من ذلك ! ؟ هل تنكرون أنه خاتم الأنبياء ؟ أم تنكرون نبوته أصلا ! ؟ إن كنتم تنكرون أنه خاتم الأنبياء ، فهل تعترفون بنبى أتى بعده ! ؟ كلا ! إذن: فأنتم تنكرون نبوته أصلا ! فلماذا لجأتم إلى المناقشة فى كونه خاتم الأنبياء ! ؟

وإذا كنتم تستدلون على دعواكم فى إنكار نبوته بأن عيسى هو خاتم الأنبياء ، فنحن لا نوافقكم ، ولا دليل لكم عليه ، فمن أين جئتم به ؟ هل قاله الله لكم ! ؟ أم ذكره عيسى عليه السلام ؟ أم هل

ذكرته أناجيلكم الأربعة ؟ لا دليل عندكم على أن عيسى عليه السلام هو خاتم الأنبياء ، لا من كلام الله ، ولا من كلام عيسى ، ولا من كتابكم المقدس الذى تؤمنون به ! ؟

أما دليلنا : فكلام الله فى القرآن الذى نؤمن به حيث يقول : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الأحزاب : ٤٠ .

ولعل شعوركم بأنه لا دليل لكم هو الذى ألجأكم إلى هذا الأسلوب من المقارنة لعلكم تجدون فيها ملجأ يقوى وجهة نظركم ! فماذا وجدتم ! ؟

١ — وجدتم أن ولادة عيسى عليه السلام كانت معجزة ، وأنه لهذا نبى أما محمد عليه الصلاة والسلام فلم تكن فى ولادته معجزات ، ولذلك لا يصح التصديق بكونه نبياً .

— آمنا وصدقنا بأن عيسى عليه السلام نبى، وأن ولادته كانت شيئاً اختصه الله به ، وأن ولادة محمد عليه الصلاة والسلام لم تكن كولادة عيسى عليه السلام ، فهل يعنى ذلك أن يكون عيسى نبياً ، وأن يكون محمد غير نبى ! ؟ وأن كل من لم يولد مثل ولادة عيسى عليه السلام لا يعترف له بالنبوة ؟ فعيسى إذن نبى ورسول ، أما إبراهيم وموسى ويوسف وداود وبقية الأنبياء المذكورين فى كتابكم المقدس لا يصح أن تعترفوا لهم بنبوة ولا برسالة ، مثل محمد سواء بسواء ! ! فهل ترون كتابكم المقدس كذب عليهم ؟ أم أن مقياسكم لا يستقيم مع الحق ! ؟ ولا مع المنطق ! ؟

على أنكم تنكرون وقوع المعجزات التى يحكيها المسلمون عن ميلاد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وتسمونها خرافات ، وتحاولون إيهام المسلمين بأنكم سوف تكافئون من يجاريكم ويصدقكم فى اعتبارها خرافات ، فتصفونه عندئذ بأنه من أذكياء المسلمين .

فلو أننا تجردنا من شعورنا الدينى ، أنكرنا كتابكم كما تنكرون كتابنا ، وقلنا لكم : إن القصة التى تحكونها عن ميلاد المسيح عليه السلام خرافة ، لا يقبلها العقل ، ولا يقبلها العلم ، وأن المسيحى الذكى لا يجهل أن هذه القصة تنافى كل القواعد والقوانين الطبيعية ، فماذا تقولون ! ؟

ألم يقل اليهود مثل ذلك من قبل ؟ وقد كانوا — بناء على كتابكم — يعيشون معهم ويعلمون أحوالهم ، وهم أدرى بهم ؛

بل ماذا تقولون لو أننا تجردنا من

شعورنا الدينى ، وقلنا لكم : إن كتابكم الذى بأيديكم نفسه خرافة لا أصل له ، وكل ما ورد فيه فهو خيالات ، وأقاصيص لا سند لها ولا دليل ! ؟

بل ماذا تقولون لو قلنا لكم — بناء على ذلك : إن شخصية المسيح نفسها أسطورةُ تحتمل كثيراً من الشك ؟

وكل ما يمكنكم ذكره وإيراده لإثبات ذلك لا يثبت تحت النقد العلمى والتاريخى ، بل يعـتريه الغموض والإبهام ، وقد كتب فى ذلك كثير من العلماء والمحققين المسيحيين .

فهل لديكم ما تعتمدون عليه فى الإجابة إلا من القرآن الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام من عند الله ! ؟

لذلك لجأتم فى إثبات هذه المعجزة إلى القرآن الكريم استغلالا لعاطفة المسلمين الذين يؤمنون بالقرآن ، ولولا القرآن ما أمكنكم أن تصلوا إلى ما تريدون !!

لكنكم — كما تقولون — لا تقبلون القرآن ، ومقتضى ذلك أنكم لا ترون فيه حجة لكم فلماذا تحتجون به علينا ؟ ؟

لا بد من أساس صحيح لمثل هذا النقاش .

فإما أن تؤمنوا معنا بالقرآن كما نؤمن بكتابكم ، وعندئذ يشرح القرآن لكم ما غمض عليكم من كتابكم ، ولا مناص لكم حينئذ من الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه خاتم الأنبياء .

وإما أن نرفض كتـابكم كما ترفضون القرآن ، خاصة وأنكم تعلمون أن القرآن يطلب منا أن لا ننخدع بكتابكم لأنه محرف لا يوثق به ولا بأخباره وعندئذ لا تكون لكم حجة فى إثبات ما تريدون إثبـاته من معجزة ميلاد عيسى عليه السلام ، ولا فى إثبات أصل لكتابكم ، بل ولا فى إثبات وجود شخصية المسيح عليه السلام .

ومع ذلك فلو جاريناكم فى أن القرآن الكريم غير مقبول ، ولا مصدق ، وأنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، لا من عند الله ، فما الذى أعجز محمداً صلى الله عليه وسلم دون أن ينسب لنفسه من المعجزات أكثر وأعظم مما نسب إلى عيسى وإلى غيره من الأنبياء عليهم السلام ، خاصة وأن جهلة المسلمين — فيما تزعمون — يروون حوله ما تسمونه القصص الخرافية ويحبونها ، اللهم إنه لم يكن يمنعه من ذلك مانع إلا أن يكون هذا الكتاب ملتزماً بالصدق الذى جاء به من عند الله ، وأنه

لا يستطيع أن يفترى على الله الكذب .

ولو جاريناكم مرة أخـــرى فى أن القرآن الكريم غير مقبول ولا مصدق ، وأنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، فأين إنجيلكم الذى أنزله الله على عيسى عليه السلام ؟ ؟ إن أحضرتموه فنحن أول من يؤمن به ، ونحن مؤمنون به وإن لم نره ، فما بالكم لو رأيناه !؟ أما ما تسمونه بالإنجيل ، فليس إنجيل عيسى عليه السلام ، ولكنه — كما تقولون — إنجيل متّى ويوحنا وغيرهم ممن تدعون أنهم من الحواريين . وقد تم نقل هذه الأناجيل بطرق غير معروفة ، وما عرف منها فهو غير موثوق به ، وما تثقون به منها فقد تعرض خلالها للتحريف وسوء النقل ، ثم تعرض بعد ذلك لسوء الفهم خلال الترجمات المختلفة إلى اللغات المختلفة ، ومقارنة يسيرة بين طبعات كتابكم المقدس المعاصرة تظهر هذا الاختلاف ، فما بالكم لوقارنا هذه الطبعات والترجمات الحديثة ، بالترجمات السابقة عليها منذ عهد قريب ، ومنذ عهد بعيد !!

ولو جاريناكم مرة ثالثة فى أن كلا من القرآن والإنجيل قد اتفقا على معجزة ولادة عيسى عليه السلام ، فما الفرق الذى تدعونه بين عيسى ومحمد عليهما السلام! ؟

نعم ولد محمد صلى الله عليه وسلم كسائر البشر من أب وأم ، واختص عيسى عليه السلام بمعجزة ولادته من غـــير أب لكنه ولد — كذلك — كسائر البشر . نعم كسائر البشر يا معشر المبشرين .

ألم يكن جنينا فى رحم أنثى من بنات حواء ؟ والرحم هو الوعاء العادى الذى يحمل فيه الجنين عادة ! ؟ ألم يتزل عند ولادته من الطريق الطبيعى الذى يتزل منه سائر الأطفال ؟ ؟ ألم يكن حينئذ لحماً ودماً وعظماً كسائر البشر ؟ ؟ ألم يكن محتاجاً إلى عناية أمه وعطفها وحنانها ؟ بل وإلى التقام ثديها فى فمه عليه السلام ؟؟ ألم يدرج فى المهد بين سواعد الحاضنات حتى استطاع أن يحبو، ثم حتى استقام عوده فنهض ، ثم حتى اشتد عوده فمشى على الأرض كما يمشى سائر الناس ؟ ؟

أما كونه ولد بدون أب فليس إلا معجزة من المعجزات التى يحدث مثلها لسائر الأنبياء ، وليس من اللازم أن تكون معجزة نبى بعينها معجزة لغيره من الأنبياء ، وإلا فهل كانت له عصا موسى ! ؟ وأين هو من سليمان وقد سخرت له

الريح تجرى بأمره ، وحشر له جنوده من الجن والإنس والطير ؟ وعلمه الله منطق الطير وآتاه من كل شيء -؟

فهل يصح لذلك أن ننكر نبوة عيسى لأنه لم تحصل له هذه المعجزات ؟ أو هل يصح أن ننكر نبوة موسى أو سليمان عليهما السلام لأنه لم يولد واحد منهما كما ولد عيسى بدون أب ؟ ؟

اللهم إن هذا كلام لا يقبله أذكياء المسيحيين ، بل ولا جهلتهم ! !

وإذا كانت ولادته وخلقه بدون أب مدعاة عندكم — لأفضليته — فآدم أولى منه بذلك ، لأنه لم يولد من بشر أصلا ، بل خلق خلقاً مباشراً بدون أب ولا أم . بل إن حواء أولى منه بذلك لأنها لم تخلق فى رحم أنثى ، بل خلقت من ضلع أدم كما تعلمون .

على أن المفاضلة بين المعجزات لا تستتبع المفاضلة بين الأنبياء ، لأن معجزة كل نبى إنما تأتى غالباً بحسب ما يحذقه قومه من العلم ومن شئون الحياة ، ولا تأتى بحسب قدر الأنبياء ومكانتهم عند الله إلا فى شيء يسير منها كتكليم الله لموسى عليه السلام ، وكالإسراء والمعراج لرسولنا محمد عليه الصلاة والسلام .

على أن المفاضلة بين المعجزات — مرة أخرى — لا تصح ، لأن معنى المعجزة أنها أمر يعجز عنه البشر ولا يفعله إلا الله تعالى وحده ، وتستوى فى هذا كل المعجزات — ما ظهر منها — فى أعينكم — كبيراً ، وما ظهر منها — فى أعينكم — صغيراً .

أما ما يحيط بها من أسباب التكريم والتعظيم فهو معنى آخر يضاف إلى معنى المعجزات .

وعلى ذلك فالمعجزات التى ذكرت لمولد محمد صلى الله عليه وسلم كهزيمة جيش أبرهة وإبادته أمام مكة بسبب غير معروف ، وكسقوط إيوان (طاق) كسرى دون سبب ظاهر ، إن اعتبرتموها خرافة لا يصدقها إلا جهلة المسلمين ، فإن علماء اليهود وأحبارهم وأذكياءهم ، وهم أعرف بعيسى وقومهم منكم ، ينكرون المعجزة التى تذكرونها عن ميلاد عيسى عليه السلام ، ويقولون فيه وفى أمه عليهما السلام ما لا نستحل ذكره ، ولا يثبت لنا هذه المعجزة إلا القرآن الذى نؤمن به وحده والذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله ولولا القرآن ما صدقناكم فى شيء مما تقولون ، فإذا أنكرناه — كما تريدون — أنكرنا قصة عيسى من أصلها ، أو

— على أقل تقدير — فعلنا معها ما فعلت اليهود ، فهل ذلك هو ما تريدون ؟ وماذا يبقى لكم بعد ذلك أيها المبشرون .

٢ — فإذا تركنا هذا الحديث ، وانتقلنا معكم إلى الناحية الفكرية — كما تقولون — وجدناكم تبنونها على خرافة لا أصل لها فى عقل ولا دين ، حيث تبنونها على تلك الأسطورة التى سيطرت عليكم ، فأفسدت كل ما بنيتموه عليها من مذاهب فى دينكم ، وجعلتكم بالتالى لا توقرون نبيًّا ، ولا تحترمون رسولا ، ولو كان ذلك النبى هو خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام .

لذلك تقولون إن محمداً قد ورث من البشر طبيعتهم الآثمة بسبب ولادته كسائر البشر ، أما عيسى فقد ورث طبيعة طاهرة لا غبار عليها ، لأنه ولد بطريقة تخالف سائر البشر .

وبادئ ذى بدء نقرر — مرة أخرى — أن ولادة عيسى من غير أب لا تنفى أنه ولد كسائر البشر من بطن أنثى ، وجرت عليه القوانين الطبيعية التى تجرى على سائر البشر .

وإذا كانت طبيعة البشر آثمة ، وكان هذا الإثم متوارثًا بين البشر ، لا يفلت منه إنسان — كما تقولون — فمن أين ورث عيسى عليه السلام طبيعته الطاهرة التى لا غبار عليها ؟؟

هل ورثها من أمه مريم ! ؟

لقد كانت بنتًا من بنات حواء وآدم ، وأيًّا كان مذهبكم فى شأنها ، فمن الثابت أنها ولدت ولادة طبيعية من أم وأب كسائر البشر ، وأنها لذلك لا بد أن تشملها نظريتكم فى وراثة الخطيئة ، وأنها لا بد أن تشملها هذه النظرية كذلك فى توريث الخطيئة لولدها وابن بطنها عيسى .

فكيف استثنيتم عيسى عليه السلام من ذلك ! ؟

إن قلتم إنه ورث الطهارة من الخالق ، فكيف ورث آدم الإثم ! ؟ ولم يكن قبله بشر يورثه الخطيئة ! ؟ بل كان صنعة الخالق وحده مباشرة .

هل ورث آدم الإثم من خالقه ! ؟ تعالى الله .

أم ورث منه الطهارة ! ؟

فكيف أورث الخطيئة لأبنائه ! ؟

إن فكرة الخطيئة المتوارثة لا أصل لها ، وكل ما بنيتم عليها من أفكار لا أساس له .

وعلى ذلك فعيسى ومحمد كلاهما

نبيان رسولان مكرمان من الله أعظم تكريم ، كسائر أنبياء الله السابقين .

ولا يصح بحال أن ننسب إلى واحد منهما إثمًا ، ولا إلى نبي قبلهما ، وقد قال لكم عيسى عليه السلام في شأن الزانية : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر يو ٨ : ٧ ، فكيف بكم ترمون الحجارة على الأنبياء البررة ، وتنسبون إليهم الإثم والخطيئة ! ؟؟

أما دعواكم أن القرآن يثبت طهارة عيسى دون غيره من الأنبياء عليهم السلام ، فأنتم تعلمون ماذا تفترى اليهود على عيسى وأمه عليهما السلام ، وأن مواجهة اليهود وما يفترونه عليهما لا تكون إلا بنفي افتراءاتهم ، وتبرئة عيسى وأمه من اتهاماتهم ، وإثبات طهارته ، وتأكيد هذه الطهارة ، لذلك أثبت الله له ولأمه الطهارة والنقاء والعفة ، واختصه أكثر من سائر الأنبياء هو وأمه بالنص على طهارته ، نفياً للتهمة عنه .

« إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين » آل عمران : ٤٥ .

ونحن نعلم أن ما يثبت لنبي من خصائص النبوة وصفاتها يثبت مثله لإخوته من الأنبياء ، فلم يكن عيسى وحده وجيها عند الله ، ولا وحده مقرباً من الله ، بل واحداً من المقربين بنص الآية التي تحتجون بها .

وليس من اللازم أن يذكر كل نبي بهذه الصفة ، بل يكفي أن يوصف بها نبي لنعرف أنها صفة الأنبياء جميعاً . لأنها من لوازم النبوة ، وكيف يكون نبيًّا إذا لم يكن وجيها عند الله ومن المقربين ؟ وهذا موسى عليه السلام يصفه الله بمثل ذلك من البراءة والطهر والوجاهة فيقول « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » الأحزاب : ٦٩ .

ونحن نستشهد لكم بالقرآن لأنكم تجادلوننا به ، كأننا ننكر براءة عيسى وطهارته ، ونحن أغير عليه وعلى مقامه الرفيع بحكم ما يأمرنا به القرآن ، لكننا كذلك نغار على بقية الأنبياء ، ولا ننسب إليهم ما ينسبه كلامكم من الإثم والخطيئة ، وذلك بحكم ما يأمرنا به كتابنا .

فإن كان كتابكم الذى تجدونه بين أيديكم لا يأمركم بذلك ، فعسى أن يكون هذا الأمر قد حرف بين

ما حرف ، أوضاع بين ما ضاع من وصايا النبي عيسى عليه السلام .

أما ما تستشهدون به بعد ذلك على كون محمد صلى الله عليه وسلم كان آثما ، مثله فى ذلك مثل بقية البشر – بناء على نظريتكم الأسطورية – من قوله تعالى فى سورة الضحى الآية السابعة « ووجدك ضالا فهدى » وفى سورة غافر الآية ٥٥ « واستغفر لذنبك » وفى سورة النصر الآية الثالثة « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابـًا » وفى سورة الفتح الآية الثانية « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » . . فأنتم فى هذا الاستشهاد بين أمرين ، إما أنكم لا تتقنون فهم اللغة العربية ، ففهمتم منها ما فهمتم من المعانى الفاسدة بحسن نية ، أو قرأتم عنها فى ترجمة رديئة غير صحيحة ، فلم تدركوا الحقيقة .

وإما أنكم تتقنون اللغة العربية ، وتعرفون حقيقة المعنى المراد ، ولكنكم تتلاعبون بالألفاظ ، وتستغلون عدم معرفة بعض المسلمين باللغة العربية لتضليلهم وخداعهم ، وإيهامهم أن هذه معانى قرآنهم .

ونحن نحب أن نحسن الظن بكم ، فنشرح لكم ما يبدو أنكم لم تفهموه من هذه الآيات البينات ، أو نصحح لكم ما ترجم منها ترجمة رديئة فاسدة .

أما ضالا فى قوله تعالى « ووجدك ضالا فهدى » فأصل الضلال فى استعمال اللغة العربية من فقدان الطريق والحيرة فى معرفته ، وهذا المعنى هو المناسب تمامـًا للكلمة المقابلة فى الآية نفسها ، وهى قوله تعالى « فهدى » ، فأى إثم يمكن أن ينسب لإنسان لم يكن يعرف طريق الحق ، أو كان فى حيرة من أمره فهداه الله ! ؟

أما أنه لم يكن يعرف طريق الله ، أو أنه كان فى حيرة من أمره فلأنه ولد بين قوم مشركين ، يعبدون الأصنام ، وكان العالم كله يدين بأديان مختلفة ، ابعضها أصل صحيح ، لكنه خلط بغيره من الباطل كاليهودية والنصرانية ، وليس لبعضها أصل كالوثنية والمجوسية وغيرها ، فطريق الحق لم يكن واضحاً إذن ، وكان الناس جميعاً يعيشون فى هذا الضلال ، لكنهم لا يشعرون . أما هو صلى الله عليه وسلم فكان يتوق إلى معرفة الله ، ولهذا كان يتحنث فى غار حراء حتى فجأه الوحى وهداه الله .

فليس فى هذه الآية ما يدل من قريب أو بعيد على ارتكاب خطيئة أو الوقوع فى إثم .

بقى الاستغفار فى بقية الآيات ، وهو الذى تظنون أنه لا يكون إلا من إثم ، وليس كذلك .

فالاستغفار فى الإسلام قد يكون من إثم ، وقد يكون محض تعبد لله ، كما نطلب من الله أن يهدينا الصراط المستقيم — فى سورة الفاتحة — ونحن نعتقد أننا على الصراط المستقيم ، وهو صراط الإسلام ، فذلك من باب التعبد وطلب دوام الهداية .

والاستغفار — على ذلك — من باب التعبد واستدامة الطهارة .

على أن قوله تعالى « واستغفر لذنبك » لا يستلزم أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم مذنباً ، لأن المصدر فى اللغة العربية يضاف إلى المفعول كما يضاف إلى الفاعل ، فتقول : عجبت من ضربك زيدا ، فالضرب مصدر مضاف إلى الكاف ، وهى ضمير الفاعل ، فتكون أنت الضارب ، وزيد المضروب وتقول : عجبت من ضربك من زيد ، فالضرب مصدر مضاف إلى الكاف ، وهى ضمير المفعول ، فتكون أنت المضروب وزيد الضارب ، فذنبك هنا فى هذه الآية من إضافة المصدر إلى مفعوله ، لا إلى فاعله .

ولهذا شاهد فى حديثنا العادى حيث تقول لمن ظلمك فانتقم الله منه : هذا ذنبى ، أى هذا الذى أصابك قد أصابك بسبب الذنب الذى ارتكبته فى حقى .

فيكون قوم النبى محمد صلى الله عليه وسلم قد ارتكبوا ذنباً فى حقه ، فأمره الله بالصفح عنهم ، والاستغفار لهم ، وسياق الآية يساعد على ذلك حيث تقول « فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك » فقد أمره الله بالصبر على أذاهم ، ثم أمره بالاستغفار لهم ، وذلك بطلب هدايتهم ، وطلب المغفرة لمن أسلم منهم ، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى فى آية أخرى « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » التوبة : ١٠٣ والصلاة عليهم معناها : الدعاء لهم ، وقوله « فاعف عنهم واستغفر لهم » آل عمران : ١٥٩ والأمر كذلك فى قوله تعالى فى سورة النصر « فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » وذلك عند فتح مكة التى آذاه أهلها وأخرجوه من بلده ، وفى قوله فى سورة الفتح « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ، حيث وردت فى مناسبة الفتح كذلك .

فالمراد فى هذه الآيات أمته صلى الله عليه وسلم ، وهى مخاطبة فى شخصه ،

كما جرت العادة فى كثير من ألوان الخطاب أن يوجه إلى رئيس القوم أو الأمة أو الدولة ، أو غير ذلك .

بالإضافة إلى معان دقيقة أخرى نشير إلى بعضها ، ولا يضيرنا إذا لم تستطيعوا إدراكها، لأن ما سبق إيضاحه يكفيكم.

منها : أن الإنسان مهما بلغ الغاية من العمل والتقرب إلى الله فإنه لا يستطيع أن يقطع الفرق الهائل بين الجهد البشرى المحدود وجلال الله تعالى وعظمته، فرسول الله — ونحن معه — نستغفر الله لذلك .

ومنها : أن الرسول وهو المثل والقدوة والأسوة إذا كان مأموراً بالاستغفار مع عصمته ونزاهته ، وطهارته وبراءته ، فأمته أولى بأن تسارع إلى الاستغفار ، لعلمنا بمدى تقصيرنا وضعفنا وقلة اجتهادنا بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها : ما تشعره هذه الآيات من تكريم الله للرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ ليس معناه أنه قد ارتكب الذنب فعلا ، وإنما معناه أنه حتى لو ارتكب الذنب — وهو فرض غير واقعى — فإن الله يغفره له ، لما له عند الله من المنزلة والمكانة . وذلك على غرار قوله صلى الله عليه وسلم : لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فإنى قد غفرت لكم ، فليس معناه أن الله أباح لهم ارتكاب الذنوب وانتهاك المحرمات ، حاشا وكلا ، ولكنه تكريم لهم أى تكريم ، يدل على أن منزلتهم عند الله لا يهدمها أمر مهما يكن ، حتى لو كان يتطلب المغفرة ، فإن الله يغفره لهم بسابق محبته وفضله .

إلى غير ذلك من المعانى الدقيقة التى لا تتم إلا بمثل هذه الأساليب ، والتى لا نريد أن نطيل عليكم بها .

٣ — أما النقطة الثالثة وهى موضوع المعجزات :

فأنتم تدعون أنكم بالتعمق والدراسة تكتشفون أن شق القمر وعدة معجزات أخرى (؟) — لم تذكروها — كتبت بعد قرون (؟) من وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك لا تستطيعون تصديقها ، لأن القصة تصدق إذا كانت قريبة العهد ، وكان رواتها أشخاصاً معاصرين لها .

ونحن نوافقكم على هذا الشرط ، فهو يفيدنا ، ولا نريد أن نقول : إنه فى غير صالحكم لأن لذلك قصة أخرى ، نعم ، نوافقكم على هذا الشرط ، ودعواكم أن معجزة شق القمر قد كتبت قصتها

بعد قرون دعوى غير صحيحة ، لأن شق القمر مذكور فى القرآن فى سورة تسمى باسمه ، وهى سورة القمر ، وفى أول آية منها ، حيث تقول « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

فهل دلتكم دراستكم المتعمقة أن القرآن قد ابتدعت روايته بعد ١٥٠ سنة؟ أو بعد ٢٥ سنة ؟

إذن: فماذا كان محمد يتلو على الناس وماذا كانت رسالته غير القرآن ؟

لقد كانت هذه السورة تتلى بين الناس منذ عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا تزال ، ولم يستطع أحد لا من المسلمين ولا من غيرهم أن ينكروا صدقها ، فماذا تريدون إثباتاً ومعاصرة أكثر من ذلك ! ؟

أما المعجزات الأخرى التى تشيرون إليها ، فإنكم لم تذكروها لنتبين إن كانت قد رويت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى لسان من عاصرها أو ابتدعت من بعده ! لهذا لا نستطيع الكلام عن أمر تخفونه ولا تريدون الحديث فيه صراحة .

ترى هل تفعلون ذلك قصداً وتلبيساً على المسلمين ، كأنكم تعلمون من دينهم أكثر مما يعلمون ! ؟

أما دعواكم أن محمداً قال بنفسه إنه لم يقم بمعجزات ، وأن القرآن قد أجاب الكفار حين طلبوا الدليل بأن الله لا يحتاج إلى دليل ، وذكرتم فى ذلك آيتين هما قوله تعالى « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين » العنكبوت ٥٠ ، وقوله تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » الإسراء : ٥٩ .

فمن أين أتيتم بأن محمداً قال بنفسه إنه لم يقم بمعجزات !!؟ وهذا لم يرد عنه قط ؟ إن كنتم فهمتم هذا المعنى من هاتين الآيتين فقد بينتم مرة أخرى أنكم لا تفهمون اللغة العربية ، أو أن الآيتين ترجمتا لكم ترجمة رديئة فاسدة ، وذلك مع إحسان الظن بكم مرة أخرى .

ذلك لأن هاتين الآيتين تدلان على عدم الاستجابة لطلب الكفار — فى مناسبتهما — ولا تدلان على عدم وقوع المعجزات مطلقاً .

أما عدم الاستجابة لطلباتهم ، فذلك لتعنتهم ، وعدم رغبتهم فى الوصول إلى الحق ، بل وقع الطلب منهم موقع اللجاجة والعناد ، ويمكن أن نسرد عليكم مصداق ذلك من سورة

الإسراء التى استشهد بها لتتبينوا أن المعجزة كانت قائمة ماثلة أمامهم فعلا ، ولكنهم كانوا يتعنتون ويجادلون بالباطل يقول الله تعالى « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » الإسراء : ٨٨ — ٩٣ .

فهل يطلبون بنزول السماء عليهم كسفا معجزة ؟ أم يطلبون الهلاك ! ؟ وهل يطلبون بقولهم « أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه » معجزة ؟ ؟ أم يطلبون مجالا للمناقشة والجدل العقيم دون إيمان ولا تصديق ! ؟

ولقد وصل بهم العتو والطغيان واللجاجة إلى هذا الحد الذى يرويه القرآن عنهم فيقول « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » الأنفال : ٣٢ ، فهل تحبون — أيها المبشرون — أن يحقق الله لهم هذه المعجزات ؟ ؟ أم أن ما فعله الله من ردهم وعدم الاستجابة لهم كان رحمة منه وحلماً .

بقى أن نقول لكم إن المعجزات التى ذكرتموها للمسيح عليه السلام معجزات مادية فحسب ، وليست بأعجب من أمثالها من معجزات الأنبياء السابقين ، التى انتهت بانتهائهم ، وأنتم تعرفون منها ما تعرفون ، ولا بأعجب من أمثالها من معجزات رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كحنين الجذع ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الماء ، وتكثير الطعام ، وإبراء المرضى ، والإنباء بالغيب ، كل ذلك فى أحوال كثيرة ليس هنا مجال سردها ، وكلها ثابتة بالسنة وبالطرق الصحيحة ، وبالشرط الذى اشترطتموه لتصديق المعجزة من كون رواتها من المعاصرين لها .

أما المعجزة التى لا تدانيها معجزة ، والتى تتقاصر دونها سائر المعجزات السابقة فإنها معجزة القرآن ، لأنه معجزة

ماثلة تشهد لصاحبها أبد الدهر ، ولقد انتهت كل المعجزات المادية بانتهاء أصحابها ، أما معجزة القرآن فباقية دائمة لم تنقطع ، وستظل محفوظة بحفظ الله إلى أن يشاء الله ، مصداقاً لقوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) الحجر: ٩ . وإذا كان عيسى قد رفع إلى الله فقد رفع كتابه أيضاً ، أما كتاب محمد صلى الله عليه وسلم فلم يمت من بعده .

ولا توجد معجزة لنبي من الأنبياء — بما فيهم عيسى عليه السلام — هى فى الوقت عينه رسالته التى أمر بتبليغها سوى القرآن ، المعجزة الكبرى لنبينا عليه الصلاة والسلام ، فرسالته صلى الله عليه وسلم تحمل فى ذاتها معجزتها وبرهانها .

كما بقى أن نقول لكم إنكم تدعون أن المعجزات التى قام بها عيسى عليه السلام ، قد قام بها باسمه وبقدرته وفقاً للرب ، وذلك بناء على ما تدعونه من كونه شريكاً لأبيه فى الألوهية ، أما نحن المسلمين فنقول ، ونؤمن بهذا الذى نقول إنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن عيسى ومحمداً من عباده المكرمين ، ورسله المقربين ، وأن كلا منهما قام بما قام به من معجزات باسم الله تعالى وبقدرته وحده ، وهذا معنى قوله (قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين) العنكبوت : ٥٠ وقوله (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) الإسراء : ٩٣ .

٤ — أما عن النقطة الرابعة فهى عن الموت ، فقد مات محمد كسائر البشر ، ولد كسائر البشر ، ومات كسائر البشر ، ولد بمكة ، ومات بالمدينة ، ودفن بعد موته ، ونحن نؤمن بذلك .

فماذا تعتقدون أنتم بالنسبة لعيسى ؟

تعتقدون أنه مات ، وأن الرومان صلبوه حياً حتى مات بعد ست ساعات ، ثم وضع جسده فى المقبرة .

نعم مات محمد صلى الله عليه وسلم كسائر البشر .

فهل مات عيسى فى اعتقادكم مثل سائر البشر ، أو أن ميتته التى تعتقدونها كانت من أبشع ميتات البشر ؟

وهل تتناسب هذه الميتة البشعة القاسية الوحشية — التى تعتقدون أنه قاساها — مع ميلاده وما كان فيه من تكريم ! ؟

وكيف تتصورون أن يكرمه الله بالمعجزات البينات الخالدات عند ميلاده ثم يسلمه للموت على هذه الصورة المزرية المهينة الحقيرة .

ألا نعم ما تروون عن ميلاده ، وبئس ما تنسبونه إليه عند وفاته .

وما أكرم ما وصف الله به ساعات وجوده الأخيرة على الأرض وذلك فى القرآن الكريم الذى لا تقبلونه مع تكريمه للمسيح عيسى عليه السلام ، يقول الله تعالى (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً) النساء : ١٥٧ — ١٥٨ ، ويقول (إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) آل عمران : ٥٥ فهذه المنزلة الكريمة التى نالها من الله فى أخريات أيامه على هذه الأرض هى التى تتناسب مع المنزلة الكريمة التى أعدها الله له فى معجزة ميلاده .

أما دعواكم بقتله مصلوبًا مهجوراً لا عون له ولا سند ولا مدافع ، وقد تنكر له حتى حواريوه وتلاميذه فأمر لا يثبت على النقد ، وليس عليه أى دليل ، فما بالكم بدعاواكم الأخرى ذات الطابع الأسطورى الغريب عن خروج المسيح من قبره ، وظهوره لعدة أشخاص ! !

ويكفى أن تقرءوا القصة عند كل من الإنجيليين الأربعة لتروا مدى التضارب والتعارض فى رواية هذه القصة الأسطورية ، وكيف أنكره حواريوه الذين كانوا يعرفونه معرفة تامة ، فلم يعرفوه حينئذ ، علمًا بأنه لم يره أحد يخرج من قبره ، ولم يره أحد يرفع إلى السماء ، ولم يره أحد يجلس عن يمين الله ، كما تروى هذه الأناجيل ، فكيف يمكن لعقل أن يصدق هذه الأقاصيص ! ؟

اللهم إن لدينا خبراً صادقًا — لأنه من عند الله — هو الذى أخبرنا بالحق ، وأن ما قالوه عن قتله وصلبه لا أصل له ، وإنما هى ظنون وشبه وأوهام ، (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً) النساء ١٥٧ — ١٥٨ .

فكلُّ مالديكم من هذه الروايات المتعارضة ليست إلا اتباعًا للظن ،

أما القول الحق ، الذى يقبله العقل ولا يختلف فيه ، فهو ما جاء به القرآن الكريم فى هذه الآية الفاصلة .

ولقد كانت هذه القصة الأسطورية الخيالية أساساً لكم بنيتم عليها عقيدة الفداء ، وهى عقيدة لا أصل لها عند الأنبياء السابقين ، ولا تستقيم مع نفسها فى التفكير المنطقى السليم .

ولقد شعرتم أنتم بضعف هذه القصة ، فأردتم أن تقطعوا الطريق على من يشك فيها قائلين : وقد يتساءل البعض لماذا مات عيسى فى حين أن ولادته كانت معجزة ، وأنه كان طاهراً ، وأنه كان يقوم بالمعجزات ؟؟

ونحن نتمم لكم السؤال فنقول :

لماذا مات عيسى هذه الميتة — فى زعمكم — وهى بشعة مهينة ؟ فى حين كانت ولادته محفوفة بمظاهر العناية والتكريم ؟

ولماذا مات عيسى هذه الميتة القاسية ، مع قدرته — فى زعمكم — على القيام بنفسه بالمعجزات ؟؟

ولماذا لم يغادر الصليب علانية أمام الجمهور — ولو بعد صلبه المحتوم فى زعمكم — لتكون معجزة بارزة ظاهرة للناس ! ؟

ولماذا لم يغادر قبره علانية أمام الناس ، وترك ملكين — فى زعمكم — أمام القبر ليخبرا المرأتين بخروجه دون أن يرياه ؟ !

وكيف ظهر حينئذ للمرأتين فلم تعرفاه ، مع أنه كان صاحب فضل عليهما وأنه أجرى عليهما معجزاته ؟؟!

وكيف ظهر — فى زعمكم — أمام ٥٠٠ شخص مجتمعين ، مع أن حوارييه الأحد عشر أنكروه وشكوا فيه ، ولم يعرفوه بشخصه حتى أراهم يديه وجنبه يو ٢٠ : ٢٠ متى ٢٨ : ١٧ ، بل خافوا منه وفزعوا لو ٢٤ : ٢٧ ، ولم يستجيبوا له حتى وبخهم ، وفى كل مرة من المرات الثلاث التى ظهر فيها — فى زعمكم — لم يكن أحد من أتباعه وتلاميذه وحوارييه يعرفه إلا بعد أن يعرف لهم نفسه ، أو يخيل لهم فى أنفسهم أنه هو الرب كما تقولون ؟؟!

ثم إنكم أجبتم عن سؤالكم — الذى أردتم به صرف الأنظار عن حقيقة القصة الأسطورية — بأن عيسى كان طاهراً — ونحن نؤمن بذلك — ولكنكم تقولون : بما أن الموت هو جزاء كل خطيئة ، فقد أخذ عيسى المسيح خطايا البشرية كلها ، ودفع جزاء هذه الخطايا ، ولهذا مات عيسى .

فها أنتم تقولون : إن عيسى عليه السلام قد مات ، فلماذا تنكرون على محمد صلى الله عليه وسلم أن يموت ! ؟

ومن قال لكم إن الموت هو جزاء كل خطيئة ؟ وإذا كان عيسى قد مات ليحمل خطايا البشرية وينقذ المؤمنين به ، فلماذا يموتون هم أيضاً ؟؟ وقد مات عيسى من أجلهم ومن أجل إنقاذهم ؟؟

ومن قال لكم إن الله لا يغفر الخطايا ؟ ولو كان جزاؤها الموت ! ؟

وكيف أخذ عيسى خطايا البشرية كلها ؟ بل كيف أخذ عيسى خطيئة واحدة من فرد واحد من أفراد البشر ! ؟

هل أخذها فأصبحت خطيئته هو حتى تدنس بها واستحق عليها العقوبة! ؟

وهل أصبح مرتكبها الأصلى طاهراً بريئاً منها ؟؟

وكيف يصح فى منطقكم أن يكون مرتكب الخطيئة الأصلى طاهراً ، وأن يتلوث بهذه الخطيئة من لم يرتكبها ؟

أم يظل عيسى عليه السلام مع تحمله لهذه الخطيئة بريئاً ! ؟ فأين يقع إثم هذه الخطيئة على عيسى وهو طاهر برىء ، أم على مرتكبها وقد خلصتموه منها ! ؟ أم أنها لا تقع على واحد منهما مع أنها وقعت فعلا ؟؟

إن المشكلات من وراء هذه الأسطورة كثيرة ولا حل لها .

والوضع المنطقى الصحيح هو ما يذكره القرآن وأنه لا يحمل الخطيئة إلا صاحبها ولا يغفرها إلا الله وحده إن شاء ، (ولا تزر وازرة وزر أخرى) الأنعام : ١٦٤ ، الإسراء : ١٥ ، فاطر : ١٨ ، الزمر : ٧ ، (ومن يغفر الذنوب إلا الله) آل عمران : ١٣٥ ، (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) النساء : ٤٨ ، ١١٦ .

وإذا كانت المسألة تدور عندكم بين العدل فى أخذ الخاطئ بخطيئته ، والرحمة فى التخفيف عن الخاطئ ، فهل تنحل المشكلة بأن يتحمل عيسى خطايا البشرية ، أم تزداد تعقيداً ؟؟ هل يتحقق العدل وتتحقق الرحمة بذلك ؟ ؟

هل يتحقق العدل بترك المذنبين دون عقاب ؟ وهل يتحقق العدل بأن يتحمل الطاهر البرىء ما يستحقه المذنبون من عقاب ؟

وهل تتحقق الرحمة مع ذلك ؟ هل تتحقق الرحمة بترك الطاهر البرىء يقاسى الذل والهوان ، والعذاب والآلام على الصليب ! ؟ بينما يتمتع المذنبون الحقيقيون ويتنعمون ! ؟

بعد ذلك تصبح تعقيباتكم غير ذات موضوع فقد اتضح لكم بطلان كل ماقدمتم من أسباب للخلاف والتفضيل .

فتعقيبكم بأن محمداً قد اعترف بأنه آثم قد ظهر لكم أنه لم يكن كذلك، وأنه كان طاهراً مطهراً كأخيه عيسى ، وأنه كان مع ذلك متواضعاً لعظمة الله حين كان يستغفره تعبداً ورحمة بأمته ، وإلا فأين هو اعترافه الذى تزعمون ، وأى إثم ارتكبه فيما تظنون ! ؟

وتعقيبكم بأنه تزوج عدة مرات ، وكانت له عدة زوجات فى وقت واحد ، فما هو الإثم فى ذلك ؟

هل خالف فى ذلك ربه ؟ أم خالف كنيستكم ؟

أما مخالفة كنيستكم ، فإننا لسنا تابعين لها كما تعلمون ، وأما مخالفة الله سبحانه وتعالى فلم تقع منه مرة واحدة ، بل كان زواجه ممن تزوج بهن بأمر الله وإذنه ، حتى صدر إليه الأمر الإلهى بقوله تعالى (لا يحل لك النساء من بعد) الأحزاب : ٥٢ .

والإثم عندنا هو مخالفة الله وحده ، ولم تقع منه صلى الله عليه وسلم هذه المخالفة قط ، أما مخالفة البشر ، أما مخالفة الكنيسة وكهنتها فيما لم يأذن به الله فليس إثما عندنا يا معشر المبشرين .

وتعقيبكم بأنه تزوج السيدة زينب التى طلقها زيد وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتبناه ، فقد كان ذلك بأمر الله ، إبطالا لعادة التبنى التى كانت شائعة فى الجاهلية ، وذلك على عادة الإسلام فى إحقاق الحق ، ووضع كل شىء موضعه الصحيح ، إذ كيف يقوم التبنى — وهو ادعاء — مقام البنوة الصحيحة ! ؟ وقصة ذلك مكررة ومعادة ، كثيراً ما تحدث عنها إخوانكم من المبشرين من باب التشويش والغمز واللمز ، وها أنتم تعيدون القصة مع وضوح الحق فيها ، ومعرفتكم به .

وتعقيبكم بأن محمداً قد تسبب فى قتل عدة أشخاص !!

وسبحان الله !! إن قلب الحقائق أمر لا يليق ، ذلك لأن الذين قتلوا بسبب الدعوة الإسلامية أحد صنفين : صنف حاربها وحارب الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأصبح لزاماً على المسلمين أن يحاربوه دفاعاً عن الرسول وعن دعوته، فإذا دخل أحدهم المعركة محارباً لله ورسوله فقتل هل يكون محمد هو السبب فى ذلك ، أو يكون هو الذى تسبب فى ذلك بعناده وعدوانه ! ؟

أم كنتم – معشر المبشرين – تريدون أن يوقف محمد دعوته ويعصى ربه حتى لا يقتل مثل هذا الكافر الأثيم ؟؟ والصنف الثانى هم شهداء المسلمين الذين قتلوا فى المعركة مع أعداء الله ورسوله ، وكان قتلهم شرفاً وكرامة لهم ، لأنهم ثبتوا بالصدق ، ودافعوا عن الحق ، ولم يهجروا رسولهم عند الشدائد ، ولم يسلموه لأعدائه كما فعل غيرهم من بعض أتباع الأنبياء كما تقولون .

وإذا كان محمد قد تسبب – فى زعمكم – فى قتل عدة أشخاص بسبب عدوانهم ، فماذا تقولون فى عيسى ، وقد ترك قومه – فى زعمكم – بين صنفين : صنف يقتلونه ويصلبونه ، وصنف يهملونه ويهجرونه ويسلمونه ؟؟ ولا شرف لواحد من الصنفين فيما فعلوه ، ألم يكن قادراً على إنقاذ نفسه من أيديهم ، حتى لا يقعوا جميعاً فى هذه الجرائم النكراء ؟ ألم يكن سبباً – بتركه لهم يفعلون ما فعلوا – فى استحقاقهم العذاب الأبدى ! ؟ أم أنكم ترون فى فعلتهم هذه شرفاً ومجداً وفخاراً ؟؟ ومن الذى سيقدم نفسه فداء لهم ولذريتهم من بعدهم ؟ وقد قتلوا ربهم وصلبوه ؟؟ وهجره الباقون وأسلموه ؟؟ كما تزعمون ، وهى جرائم وخطايا لا تقارن بها خطيئة آدم فى جنة عدن !!!

فهل جاءكم عيسى لينقذكم كما تقولون وكما نقول ! أم جاءكم عيسى لتقتلوه وتصلبوه وتسلموه كما تقولون .

وتعقيبكم بقولكم : كيف يستطيع المذنب أن ينقذكم من ذنوبكم ؟ هل من الممكن للأعمى أن يقود الأعمى ؟ إن الذى لم يخطئ هو الذى يستطيع أن ينقذكم من جزاء ذنوبكم .

وهذا مبنى على فهم خاطئ لمعنى الإنقاذ من الذنوب ، وقعتم فيه بسبب عقيدتكم فى أسطورة الفداء .

وقد صور لكم هذا الفهم أن الإنسان مذنب ولو لم يرتكب الذنب بنفسه ، لأنه ورثه من آبائه وأجداده ، وهو لهذا يحتاج إلى من يخلصه من هذه الخطيئة التى لم يرتكبها ، ويمنع عنه عقابها ، وهذا المخلص لا بد أن يكون طاهراً فى نفسه وإلا لاحتاج هو نفسه إلى مخلص ، ولا يمكن أن يكون ذلك من بنى البشر ، لأنهم ورثوا الخطيئة ، لابد إذن أن يكون ابن إله ! ! !

ومعنى ذلك الاعتراف ببقاء الذنب أبداً ، وأن الإنسان لا يطهر بنفسه وسعيه أبداً ، فأى حق وأى منطق فى

هذا ؟ وهل إذا خلصه المخلص لا يتلطخ بذنب يرتكبه أبدا ؟

إن الإنقاذ من الذنوب كما نفهمه نحن المسلمين يكون بأحد أمرين : ببيانه حتى لا نرتكبه ولا نقع فيه ، وهذا ببساطة — هو ما يفعله كل الرسل الكرام من آدم إلى محمد عليهم السلام ، وكذلك ما يفعله صالحو المسلمين — ولو كانوا قد أذنبوا — بالإرشاد والنصيحة ، لأن فعلهم الذنب لا يمنعهم من الاعتراف بأنه ذنب وبأنه ينبغى لنا أن نبتعد عنه ، فالمذنب عندكم لا ينقذ مذنباً لأن الإنقاذ عندكم يكون بحمل الخطايا ، لابيانها ، لكن المذنب عندنا يمكن أن ينقذ الآخرين بإرشادهم ونصحهم ، فما بالكم بالطاهر المطهر النقى التقى خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام !!

الأمر الثانى فى الإنقاذ من الذنوب يكون بالتوبة المقبولة ، والاستغفار المستجاب ، فإذا تاب المذنب واستغفر من ذنبه فقد يقبله الله ويغفر له إن شاء .

وعلى ذلك فقصتكم عن وساطة عيسى للمذنب ، وسؤالكم هل يستطيع محمد أن يتوسط لكم ؟ وكيف يقبل القاضى وساطة متهم لمتهم آخر ؟؟ هذه القصة ، وهذا السؤال مبنى على نفس الأسطورة من تحمل الخطيئة عن المذنبين ، وقد بينا فسادها عقلا ومنطقاً .

إن الله عندنا لا يحتاج بينه وبين خلقه إلى وسيط ، فكل إنسان يستطيع بالإسلام أن يتجه مباشرة إلى الله ، ويسأله أن يغفر له ذنبه ، ولا يفيده وسيط كائناً من كان ، ولو كان من رسل الله الأكرمين ، ولو كان عيسى عليه السلام .

هذا إذا كانت الوساطة بالمعنى الذى تقصدونه وهو تحمل الخطايا عن الآخرين فإن كنتم تقصدون بالوساطة الدعاء إلى الله واستغفاره للمذنبين فهذا يفعله جميع الأنبياء بما فيهم عيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، بل يفعله سائر المسلمين بعضهم مع بعض ، ولكن دعاء الأنبياء أقرب إلى القبول من الله تعالى .

بقى تعبيركم الذى لم نكن نتوقعه فى حق محمد خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام بوصفه بالمذنب والأعمى والمتهم ، وهو أمر قد تجدونه متفقاً مع أدبكم الجم ، وتعاليمكم الرفيعة ، لكننا نرفضه ، ولا نقبله فى حق عيسى عليه السلام ، ونقول عنه إنه طاهر مبرأ وإنه على بصر من أمره كأخيه محمد عليه الصلاة والسلام .

فهل عساكم معشر المبشرين إن كان كلامكم هذا ناشئاً عن جهل وعدم معرفة أن تعلموا الحق ، وأن تتبعوه ، حتى تفوزوا وتسعدوا ، وتحققوا مشيئة الرسول عيسى ابن مريم عليه السلام !! وإن كان كلامكم هذا ناشئاً عن أغراض أخرى ، وأهداف غير نزيهة تجعلكم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون، أن تخشوا الله ربكم ، وأن تتوبوا إليه من خطاياكم وذنوبكم ، قبل أن يأتى يوم يظهر لكم فيه عبث أفعالكم ، ولا تجدون فيه من دون الله مخلصاً ولا فادياً ، ولا وسيطاً ولا شفيعاً بل تجدون عيسى عليه السلام قد أعرض عنكم ، وتبرأ إلى الله تعالى منكم قائلا له : (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) المائدة : ١١٧ .

وأما رفاقنا فى الوطن من المسيحيين ، فإننا نرجو مخلصين أن لا يقعوا فى أحابيل هؤلاء الدساسين والمخاتلين ، الذين يريدون أن يوقعوا بيننا الكراهية والبغضاء ، وأن يفتتوا هذه الوحدة الوطنية الشامخة التى تحدت الزمن ، وجابهت المحن ، وتغلبت على كل المؤامرات ، ونحن واثقون أنها — بالحرص والوعى والإدراك السليم — قادرة على أن تتحدى أمثالها فى كل الأوقات ، وفى سائر الظروف .

والله أعلم .

د. عبد الفتاح عبد الله بركة

آداب العالم

« لزوم العلم ، والعمل به . ودوام الوقار

ومنع التكبر ، وترك الدعاء به . والرفق بالمتعلم » .

هدية ملكة الروم إلى زوجة عمر

لما ترك ملك الروم الغزو ، وكاتب أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه وقاربه وسير إليه عمر الرسل مع البريد ، بعثت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها .

وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت :

هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم .

وكاتبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر . فلما انتهى به البريد إلى عمر أمر بإمساكه ودعا :

الصلاة جامعة .

فاجتمعوا ، فصلى بهم ركعتين وقال :

— إنه لا خير فى أمر أبرم عن غير شورى من أمورى . قولوا فى هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم .

فقال قائلون : هو لها بالذى لها وليست امرأة الملك بذمه فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك .

وقال آخرون : قد كنا نهدى الثياب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئاً .

فقال : ولكن الرسـول رسـول المسلمين والبريـد بريدهم .

ثم أمر بردها إلى بيت المال ، ورد عليها بقدر نفقتها

وقال الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار :

ولو أن عمر أرخى العنان لنفسه ولأهل بيته لرتعوا ولرتع من بعدهم وكان مال الله تعالى حبساً على أولياء الأمور. ومن القواعد الطبيعية المؤيدة بالمشاهدة أن الحاكم إذا امتدت يده إلى مال الدولة اتسع الفتق على الراتق واختل بيت المال أو مالية الحكومة ، وسرى ، الخلل فى جميع فروع المصالح وجهر المستتر بالخيانة وانحل النظام .

ومن المعلوم أن الإنسان إذا كان ذا قناعة وعفة عن مال الناس زاهد فى حقوقهم دعاهم ذلك إلى محبته والرغبة فيه . وإذا كان حاكما حدبوا عليه وأخلصوا فى طاعته نياتهم وكان أكرم عليهم من أنفسهم .

وقد كان عمر إذا نهى الناس عن أمر من الأمور جمع أهله فقال :

– إنى نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة .

فهرس العدد

إلى السادة القراء

بصدور هذا العدد تختتم المجلة عامها الهجرى
سنة ١٣٩٨ هـ الموافق لسنة ١٩٧٨ م

وبمناسبة انعقاد المؤتمر التاسع لعلماء المسلمين الذى
سينعقد فى مدينة القاهرة ابتداء من أول محرم سنة ١٣٩٩هـ

تصدر المجلة عددًا تذكاريًا خاصًا بهذه المناسبة يشترك
فيه كبار العلماء والمفكرين فى مصر والعالم الإسلامى .

وكل عام وأنتم بخير

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

الى السادة الراغبين فى الاشتراك

بالمجلة الاتصـــال بتـــوزيع

الأخبـــار فى بـــلادهم

إدارة المجلة

that glorious Religion, and should it lead to the guidance of only a few, trouble have taken in vain and our efforts would be more than amply repaif.

May the Almighty Allah shower his mercies upon mankind and guide them to that wherein lies their salvation in this world and in the Hereafter. Amen.

The End

ALLAH was when was nothing.

from that nothing

ALLAH created every thing.

"No animal is there on earth but Allah provideth it with nourishment and life out of mercy and kindness; and He knoweth its haunts in life, and its resting-place after death; for every animal and the condition thereof is given in the Book of Divine Decrees."

(*Baidawy's Commentary.*)

«وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ» .

"In the hands of Allah are all the means of livelihood and the destinies of men, but the hypocrites do not understand for they know not Allah."

(*Baidawy's Commentary.*)

Counsels and Exhortations

The Holy Qoran teems with goodly counsels and exhortations; and the following are a few quotations :

«خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ
عَنِ الْجَاهِلِينَ» .

"Use indulgence with sinners and forgive their agression, and enjoin good deeds, and return not the evil of the ignorant with a like evil."

(*Alucy's Commentary.*)

«وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ
عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ» .

"The recompense of evil is a like evil, but he who forgiveth the offender and reconcileth himself to his enemy and overlooketh the harm done him, will The Lord afford ample recompense."

(*Alucy's Commentary.*)

«أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ» .

"Call unto Islam with wise discourse and good counsel and argue with the disputants in the kindliest way."

(*Baidawy's Commentary.*)

«وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى
الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .

"And let there be from among you, a people who call unto righteousness, enjoin the good and forbid the evil for those will be afforded complete success."

(*Baidawy's Commentary.*)

It would be impossible to quote here all the great sayings of the Qoran, but we trust that that we have quoted of its salient features will suffice to give an insight into

Thine hands lieth all good and verily Thou hast power over all things. Thou causest the night to pass into the day, and Thou causest the day to pass into the night through the succession thereof; and Thou bringest forth the living from the dead and the dead from the living by the generation of animals from matter and matter from animals; and Thou givest sustenance to whomsoever Thou pleasest beyond all measure."

(*Baidawy's Commentary.*)

We should like to point out here that present-day physicists know more of the theory of the generation of life from matter than the commentators of the Qoran knew.

Warning against God's Wrath

To the ungrateful people who invoke the Lord in distress and forget Him in prosperity, the Qoran saith :

« وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ
ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ
إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
كَفُورًا . أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ
جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً
ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً . أَمْ أَمِنْتُمْ أَن
يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ
بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا
بِهِ تَبِيعاً » .

"And when distress afflicteth you out at sea and ye fear drowning, ye remember none of those whom you invoke except Allah to whom ye turn for deliverance; yet when He saveth you from drowning and bringeth you safely to the land, ye turn aside in thanklessness, for man is ever ungrateful.

What ! do you then feel secure that Allah will not turn the land upside down with you on it or that He will not send upon you a whirlwind that smiteth you with gravel ? Then shall ye find no protector to protect you therefrom.

Or do you feel secure that Allah will not cause you to put back to sea another time for some pressing need, and then send upon you a fierce gale and thus drown you on account of your thanklessness ? Then shall ye find no helper against Us."

(*Baidawy's Commentary.*)

Sustenance of all Creation and Cognisance of its Conditions

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى
اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا
كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » .

فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

"And if Allah should afflict you with misfortune as sickness or poverty, then there is none to lift it but He; and if He willeth you any good as health or prosperty, there is none to stop His favour; He will bestow His grace on whomsoever He pleaseth among His servants, and He is the Forgiving, the Merciful, whose mercy is extended to those who obey His commands, and His forgiveness to those who never despair of His pardon."

(*Baidawy's Commentary.*)

« مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ
فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ
لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

"Whatsoever mercy Allah sendeth unto men as prosperity, peace, haelth and knowledge, there is none to withhold it; and whatsoever He withholdeth, there is none to send forth after His keeping it back, He is the Mighty, The Wise who doth nothing except with perfect knowledge.

(*Baidawy's Commentary.*)

« نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ
بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » .

"It is We who distribute among men their livelihood in this world's life wherefore they are unable to secure it for themselves though it is their personal concern; and We have exalted some of them by grades above others, and distinguished between them in livelihood."

(*Baidawy's Commentary.*)

Control of Creation

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي
الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ
تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ
بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .
تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ
فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ
وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ
مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

"Say : O Allah, Possessor of all power, Thou givest of this power what Thou wilt to whomsoever Thou pleasest and takest away power from whomsoever Thou pleasest; and Thou exaltest in this world and the next, whomsoever Thou pleasest extending thereunto Thy favour and support; and Thou abasest in this life and the hereafter, whomsoever Thou pleasest imposing thereon failure and ignominy; in

« وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » .

"And Allah is Almighty and Supreme over His servants; and He is wise in His ways and ministrations, and is cognisant of the secret state of his servants."

(*Baidawy's Commentary.*)

His Omniscience

« وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إلا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » .

"And you shall not be engaged in any affair, nor do you recite concerning it any text of the Qoran, nor do you pursue any work, great or small, but We are witnesses over you and cognisant thereof when you are engrossed in it; and not the weight of an atom in the whole existence lieth concealed from thy Lord, nor is there aught smaller or greater than that, but it is recorded in the Preserved Tablet (Book of Decrees)."

(*Baidawy's Commentary.*)

« وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » .

"And with Him are the repositories of unknown things, none knoweth them but He, He knoweth their set times and the wisdom of expediting or delaying their occurrence : He knoweth whatsoever is in the land or sea; and so great and comprehensive is His knowledge, that there falleth not a leaf but He knows it, neither a grain in the darknesses of earth, nor a green nor a sere thing but it is all in the Book of Divine Decrees."

(*Baidawy's Commentary.*)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » .

"And certainly We have created man, and We know what passeth in his mind, and are more informed of his state than any one for we are closer to him than his life-vein."

(*Baidawy's Commentary.*)

Finality of His Will.

« وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ

there findeth Allah to reckon with and is fully paid by Him in recompense of his deeds, for swift is the reckoning of Allah.

Or (their deeds) like utter darkness in a deep sea covered by billows riding upon billows, above which are clouds that hide the stars and their light : layers of utter darkness one upon another, that when he reacheth forth his hand he could scarce see it ! And whomsoever Allah depriveth of guidance, will he have no light to guide him."

(Baidawy's Commentary.)

Vicissitudes of Time

Yet another striking parable showing the way of the world and the changes to which men are subject, is the following verse :

«إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ
أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ
حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا
وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ
عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا
فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ» .

"Verily the strange way of th world's life, in its rapid flight, its short-lived prosperity and its deluding of men, is like unto the water which We send down from heaven, and which causeth the herbage of earth, such as vegetables and grass, of which men and cattle eat, to grow luxuriantly and entwine together, till the earth puteth forth its beauteous raiment and is decked out in all the glory of plants and flowers of different hues, and its people think they are able to reap its harvest, Our behest to destroy it, cometh to it by night or by day and We render it mown down as though it had never teemed with fertility but yesterday. Thus do We make clear Our signs to a people who reflect for they benefit thereby."

(Baidawy's Commentary.)

God's Omnipotence

«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ
يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَانَ الَّذِى
بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» .

"Verily the way of Allah when He willeth aught, is but to say to it, Be, and It Is. So glory be to Him, He holdeth away over all things and to Him shall all men, believers and unbelievers,be brought back."

(Baidawy's Commentary.)

His whatsoever is in heavens and whatsoever is on earth. Who is, there in the heavens or on the earth, that can intercede with Him without His permission, for none is equal or like unto Him. He knoweth men's future and past, yet nought of His knowledge can they grasp save what He willeth them to know. His knowledge extendeth over the heavens and the earth, and the preservation and contro of both burdeneth Him not, He is the Most High, the Great, none to compare with Him."

(Baidawy's Commentary.)

Worship of Gods other than Allah

To those who worship gods other than Allah the Qoran saith :

«يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا
لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ
وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ
مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ» .

"O men ! a parable revealing a strange case is set forth unto you, wherefore hearken attentively unto it. Surely the gods whom you invoke to the exclusion of Allah, cannot create a fly, small as it is, even though they should all assemble for its creation ! And should a fly carry off aught from them, they cannot resist and are unable to recover what is taken from it. Weak indeed are they (worshipper and worshipped or idol and fly).

(Baidawy's Commentary.)

State of Unbelievers

Of those who disbelieved, the Qoran saith :

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ
بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا
جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ
عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .
أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ
مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ
ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ
لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ» .

"And as for those who disbelieved, they find that their deeds which they have deemed acceptable unto Allah, are void and disappointing in their results, like the mirage in a barren plain (desert) which the thirsty, in his great need, deems to be water; when he cometh to what he thought to be the place thereof, he findeth naught of what he imagined, and

above what they say. Nay the angels are but his honoured servants created by Him and are not His issue. They speak not except what He ordaineth and never do they act against His bidding. Nothing there is that He knoweth not of their future and past, and they intercede (plead) not save for whom He pleaseth and for fear of Him they tremble.

And whoever among the angels or creatures, should say; "Surely I am a god besides Allah," such will We recompense with hell for thus do We recompense him who attributeth partners to Allah and claimeth godship for himself."

(*Baidawy's Commentary.*)

« وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ »

"The God who meriteth worship is only one having no partner to be worshipped with Him; there is no Deity worthy of worship but He, He is the Most Merciful, the Beneficient."

(*Baidawy's Commentary.*)

In these verses, the Qoran has established once, for all, that there is no Deity but Allah and that prophets are definitely excluded from godship. Nay they have no right to intercede or plead for anyone unless it pleases the Lord that they should do so' Could there be then a more conclusive evidence of their exclusion from godship than the very words of the Qoran ?

Yet, it pleases the missionaries of Europe and America to convey to simpleminded people there that Muhammad called men to worship him and that the Moslems worship Muhammad to the exclusion of God. This is a lie ! The reason for this unfounded libel is not hard to find. They wish to portray Islam, before thel eyes of the world, as a pagan religion and a savage creed; but truth shall prevail some day and the world shall know of True Islam no matter how dark missionaries choose to paint it.

All-Pervading Providence

« اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » .

"Allah, besides Whom there is no God worthy of worship the Eternal, the Self-subsistent by whom all creation subsisteth; slumber overtaketh Him not nor doth sleep:

which yields to no abrogation or distortion, and unto which no falsehood could find a way from whateever side. It is a missive from The Wise Lord to whom praise is due for the bounties He bestowed upon mankind."

(*Baidawy's Commentary.*)

CHAPTER : 2

In the preceding chapter, we have discussed the miraculous nature of the Qoran and advanced many proofs in testimony of its Divine origin. The discussion would not however be complete without a short survey of the subject matter of the Book itself; we, therefore, give in the following pages a few quotations from this Holy Book treating of diverse subjects and leave it to the reader to judge for himself the truth underlying them.

Unity of God

To begin with we quote what the Qoran says concerning the unity of God :

«لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ» .

"Had there been in heavens and earth other gods besides Allah, they would both have surely fallen into disorder on account of the difference and contrariety between them; so glory be to Allah the Lord of Might and Power, who holdeth away over all things and is above what the unbelievers attribute unto Him.

"He shall not be questioned concerning what He doth but they shall be called to account for what they do."

(*Baidawy's Commentary.*)

«وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» .

"The unbelievers say that the Beneficient Allah hath begotten issue(1); glory be to Him for He is

(1) Khuzaha, an unbelieving tribe, alleged that angels are the daughters of God.

had been brought up under the least favourable circumstances in a backward state of civilisation and among a people who were steeped in a Stygian darkness of ignorance and superstitions. The effect of environmentc could not be over-estimated. In the ordinary way, no mortal could have escaped the dire influence of such environment; but Muhammad's soul remained uncontaminated.

To the sound reason, this could only have been due to a benign influence from on high; and the Qoran which Muhammad brought to the world could be no other than the word of Allah revealed to him for the salvation of mankind.

This fact has been admitted by many European writers some of whom we quote below in recognition of their sense of fairness and equity.

Doctor Maurice, the French Oriantalist, writes in a laudatory article on the Qoran published in "La Presse Française Romane":

"We venture to say that the Qoran is the greatest book which eternal Providence has revealed to a prophet of mankind. It contained songs for their happiness far sweeter than those of the philosophers of Greece, and included praise to the Creator of the heavens and earth, and glorification of a beneficient God."

"The Qoran may well be regarded as an academy of science for scientists, a lexicon for etymologists, a grammar book for grammarians, a book of prosody for poets and an encyclopaedia of laws and legislation. Indeed no other book anterior to the Qoran could be held equal to a single chapter thereof."

In his book "Islam and Muhammad," De la Vinisette writes: "The Qoran is the basis on which devolve the affairs of this world and the hereafter. Jurisprudence, unity of God, principles of rights and retribution, social systems and codes of justice are all detailed in the Qoran. In other words, the Holy Qoran is the charter and constitution of the Moslem Faith which affords the most adequate means for securing the welfare of men in this world and ensuring their salvation in the next."

Many are the testimonies volunteered by European writers in favour of the Qoran and it would indeed be a lengthy process should we wish to quote such testimonies in detail.

In fine, there could be no more fitting description of this Holy Book than the Lord's saying concerning it:

«وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

"It is an incomparable Book

It is natural that every one can discuss a given subject only to the extent to which his knowledge permits, or to which contemporary sciences has reached.

This may perhaps be the significance of the Prophet's saying (Peace be on him) that "the Qoran has an exoteric as well as an esoteric meaning." It should be remembered, however, that both exoteric and esoteric interpretations point to the Lord's greatness, His oneness and the marvels of His creation, whatever the interpretation may be.

It is for this reason that people of all times have benefited in varying degrees by the Qoran. Indeed it is impossible for any one, no matter how learned or skilled he may be, to interpret completely the whole text of the Qoran. At most he could give the right interpretation in so far as the subject in which he excels, is concerned, but he would fail to do so as regards other subjects in which he dose not reach the same standard of excellence. The spiritualist will deal fully with it from the spiritualisticst and-point while the writer will appreciate and explain its fine points of style and eloquence and the physician will deal with its medical verses and disclose the secret of what was made lawful and unlawful in foods and drinks.

The jurist will interpret the laws and principles given therein while the moralist will deal successfully with the verses of conduct and soon. To every scientist or man of learning his allotted sphere.

The just critic will therefore reject the idea that this incomparable book is the effort of a genius or the work of a talented writer, for man can only excel in but one single art or subject particularly if the subject happens to be one of those which the Qoran has treated at length and with which the backward Arab people were unacquainted.

It is not conceivable that the Arabs should have inquired, at the time, into such subjects, much less that they should have excelled in them.

The uncivilised and backward state of the Arabs at that time is too well-known to dwell upon. The sphere of description in the Arab environment was necessarily a very limited one. Indeed the wild imagination of the Arab could only find expression in such themes as a large beautiful eye, a fierce raid, a deep thrust or a piled-up trencher, etc.

These themes are very far removed from the subjects discussed in the Qoran which include such themes as the oneness of the Creator, investing Him with attributes of greatness and perfection, preaching indifference to the world and urging to kind treatment and the purging of souls of the taints of wickedness, etc., etc.

The communicator of this Book

"Were men and djinn assemble to produce anything equal to the Qoran in eloquence, rhyme and superb meaning, they could not, under any circumstance, produce anything like it. Nay, they could not do it even though they co-operate together for the purpose and support one another all they can".

(*Alucy's Commentary.*)

The Qoran has inculcated all manners of social behaviour and encompassed every human concern. It has set before us the last word conforming with sound reason, in matters of beliefs, in dealing with men, in conduct and in matters of private and public life. Indeed it left no single concern of man without dealing with it in full detail and prescribing the right means for the conduct thereof.

The culture of the Qoran is by far the best culture the world has ever known since the beginning of creation. Every good feature of the present-day civilisation had long been inculcated by Islam. Those features of the present day civilisation which were not taken from Islam are of indifferent value and Islam could offer higher and better codes in comparision thereto.

One may easily put this theory to the test and he is sure to find that it holds good in every instance he may choose to take.

It will be sufficient for the critic to read the history of Islam in its earlier days to be convinced of the truth of this assertion. The behaviour of the Moslems and their fair dealing at the time, leave no room for improvement; so much so that they were thus addressed in the Qoran :

«كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ»

Ye are the greatest people that were ever raised for the benefit of mankind."

(*Alucy's Commentary.*)

I would like to say here that the translations of the Qoran into foreign languages should not be considered dependable nor be regarded in any way as a true representation of the Qoran. They fall ignominously short of the original, and at best, they are no more than a mere approximation thereto. The eloquence and style of the Qoran are inimitable and no translation could ever make the same impression on the reader's mind as the Qoran does. Even Arabic commentators on the Qoran have failed, in many instances, to give all probable meanings of verses. This may be due to the fact that the verses dealing for instance with medicine, astronomy and other subjects could only be rightly interpreted by those who are well-versed in these matters provided they are not swayed by commentators' opinions or by what they have heard from the learned people regarding the verses in question.

would be strongly impelled by both reason and conscience, not to regard the foretelling by the Prophet of future events as the only miracle testifying to the truth of his prophethood. One would be compelled to admit that the principles of civilisation expounded by him are no less than a social miracle, that the noble conduct which he preached is equally an ethical miracle and that the establishment of scientific facts, such as the fertilisation of plants by wind, or the classification of plants into male and female species, when these facts were only lately discovered, is no less than a scientific miracle.

The astronomic facts which were established by the Qoran and were taken by some to point to the rotation of the earth and other planets, are no less than an astronomic miracle.

The true history which he revealed, despite the fact that he was illiterate and never read a book or had a tutor is no less than a historical miracle.

Still more astounding is the following quotation from the Qoran about Zulqarnain[1] and the description of the regions which he invaded, a description which tallies with the geographical features of those regions :

« حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ »

"Until when Zulqarnain reached a westward point of the earth he found the sun goes down into black muddy waters."

(*Alucy's Commentary.*)

Geography gives the meaning of "Tundra" as muddy tracts of water which, in summer, covers the lower parts of the basins of the rivesr Ob, Yenisei and Lena in Siberia and are transformed in winter into a great ice plain. No other region in the world is known to answer this description except that one, norto be this magnitude which reaches such an extent that the sun appears to the onlooker to sink there, save that part of the world.

The eloquence and flawless style in which the Qoran was couched captivated the senses of the Arabs who were the acclaimed masters of eloquence and resulted in the conversion of many of them — a fact which is no less than a miracle itself.

The Qoran says in this connection :

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

(1) Zulqarnain a great prince of the pre-Christian era whose conquests extended far east and west. Commentators differ widely as to his proper identity but they all agree that he was a true believer.

We were not aware of the magnitude of the Sirius to which the Qoran refers in this verse until the natural sciences disclosed that the sun is a million and three hundred thousand times greater than the earth and that the Sirius is many times greater than the sun and that the light of the sun is but one fiftieth of the light of the Sirius. Owing, however, to the great distance which separates it from the earth, we cannot see it except with powerful telescopes.

Thus is it that the progress of science has provided an interpretation of the Qoran and incidentally a fresh proof of its Divine origin.

The miracles of medicine of the Qoran concerning the lawful and the forbidden, and the teachings concerning certain devotional rites followed by our forefathers, have been provided, thanks to the progress of medicine, with a clear and reasonable explanation.

No less amazing are the astronomic facts contained in the Qoran, facts which only expert astronomers could hope to know, but were necessarily beyond the ken of commentators.

Again, the establishment by the Qoran of a spirit world which was once regarded by the enemies of Islam as mythical and absurd, has now become, through the development of science, an established fact.

Nor do ethical, social, philosophic questions lack corroboration. Recent researches have fully borne out the concepts o' the Qoran.

From the ethical point of view the Qoran inculacates the noblest traits of conduct which are held to be the acme o human perfection.

As far as the :ocial side is concerned, the Qoran offers its followers the most efficient of social systems. These systems are only now being expounded by the philosophers of Europe, who strongly urge their people to adopt them — thus unconsciously coming nearer and nearer the True Faith.

It is a wonderful feature of Islam that there is not a single controversial question arising between sociologists as for instance the question of marriage and divorce, or between moralists as the question of independence and freedom of woman, or between economists as the question of usury, or between jurists or historians, but Islam has given the last word on the subject and the learned people, after long controversy and research, have in the end to revert to the ruling of Islam.

Should one take into consideration the era of the Prophet, the condition of his country and the people among whom he was sent, and compare this with the great mass of knowledge and information contained in the Qoran, one

« حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » .

"Until when the hosts of Solomon came to the Valley of Naml[1], an ant felt them coming and hissed something which Solomon understood to be a warning to other ants to enter their dwellings lest he and his hosts unknowingly crush them."

(*Alucy's Commentary.*)

We are told, by entomologists, of the ingeneous and ordered ways of ants and of astounding feats which they perform, facts which interest every Moslem to thus find them established in his Holy Book long before science had revealed them to the world.

Another verse is :

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ »

"No kind of beast is there living on the surface of the earth in any region thereof, nor bird that flieth with its wings in any clime, but are communities like unto you."

(*Alucy's Commentary.*)

(1) The Valley of Naml is a valley abounding in ants and is situated between Jibrin and Asqalan in Syria.

Every community has necessarily a language which is used as a medium through which thoughts could be expressed; and so too have birds as Solomon says in the following verse :

« يَٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ »

"O men ! we have been given the knowledge of the significance of birds' voices as a miracle to urge you to believe."

(*Baidawy's Commentary.*)

Commentators despite their great precision and meritorious. efforts, could only establish such natural phenomena referred to in the Qoran as were commensurate with the knowledge and scientific standards of their times. They could only reveal very little of the mysteries contained in the Qoran. Their efforts were mainly directed to showing the flawless style and eloquence of the Book thinking that this constitutes its inimitability and provides the proof of its authenticity; yet the concelled secrets of the Qoran are even far greater and more stupendous than its beauty of diction. The following verse is an example :

« وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ »

"And that He (Allah) is the absolute Lord of the Sirius[1] worshipped in the days of yore to the exclusion of Allah."

(*Alucy's Commentary.*)

(1) *Vide* footnote No. 3 page 11.

MESSAGE OF PEACE
A TREATISE ON ISLAM

By

The late Prof. **Sheikh Youssof El - Degwy**

of Al-Azhar University and member ofthe Body of Grand Ulama

(Translated From the Arabic)

By

Aly Z. Husny M.A.

PART THREE

The Holy Qoran

« Continued »

CHAPTER 1

The Holy Qoran is the Word of Allah revealed to His Prophet Muhammad to proclaim unto the world to lead mankind to salvation. It is a standing miracle which will never cease to provide wonders to amaze the keenest intellects nor shall its wonders fade away as time goes by. Some books may become obsolete and cease to fit in with the modern ideals of civilisation or to touch, even incidentally, on new developments and discoveries — avoiding the treatment of social sciences and throwing no light upon modern philosophy.

Not so the Qoran ! Clearer and clearer it becomes with the development and progress of science, while new discoveries pile proof on proof in testimony of its Divine origin and truth, for thus saith The Lord :

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»

"We will shew the unbelievers Our signs in distant climes through the signal victories achieved by Islam and through the wonders wrought in the creation of man till it becomes manifest unto them that the Qoran is the truth."

(Baidawy's Commentary.)

Some commentators interpret certain verses of the Qoran as merely metaphorical. The following verse was so treated :

5. These depend on guidance from their Lord. These are the successful.

6. As for the disbelievers, whether thou warn them or thou warn them not it is all one for them; they believe not.

7. ALLAH hath sealed their hearing and their hearts, and on their eyes there is a covering. Theirs will be an awful doom.

8. And of mankind are some who say : We believe in Allah and the last Day, when they believe not.

9. They think to beguile ALLAH and those who believe and they beguile none save themselves, but they perceive not.

10. In their hearts is a disease, and Allah increaseth their disease. A painful doom is theirs becouse they lie.

11. And when it is said unto them: Make not mischief in the earth, they say we are peacemakers only.

12. Are not they indeed the mischief makers? But they perceive not.

13. And when it is said unto them: Believe as the people believe, they say : Shall we believe as the foolish believe ? Are not they indeed the foolish ? But they not.

14. And when they fall in with those who believe, they say : We believe; but when they go apart to their devils they declare : Lo ! We are with you; verily we did but mork.

The beginning of The Cow:"The second Surah uf The Glorious Qura'an"

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ
أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ
غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ
مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ
وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا
نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ ٱلنَّاسُ
قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ ٱلسُّفَهَاءُ أَلَا
إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣)
وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا
خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ
إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ (١٤)

صدق الله العظيم

أول سورة البقرة « مدنية »

MAJALLATU'L AZHAR

(AL - AZHAR MAGAZINE)

English Section

EDITOR - IN - CHIEF : Dr. **Abd - ul - Wadoud I. Shalaby**

SUPERVISOR : **Zaher A. El - Zoghby**

The fiftieth Volume No. 7 Thul-Quidah / Thul-Hijjah 1398 A.H. — October / November 1978 A.D

بسم الله الرحمن الرحيم

In The Name of ALLAH, The Beneficent, The Merciful.

The Meaning of The Glorious Qura'an

In the name of allah, the Bene-ficent, the merciful.

1. Alif. Lâm. Mîm.

2. This is the scripture where of there is no doubt, a guidance unto those who ward off (evil).

3. Who believe in the unseen, and establish worship, and spend of that we have bestowed upon them;

4. And who believe in that which is revealed unto thee (Muhammad) and that which was revealed before thee, and are certain of the Hereafter.

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ
هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ
هُدًى مِن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)